(فهرست الجزء السادس من تفسير الفخر الرازى)

صحيفه

٣ *(سورة طه عليه السلام وفيها المسائل الآتية)*

٥ المسئلة الثانية فى ابطال قول المشبهة ان الاله جالس على العرش

١٥ المسئلة السادسة فى بيان الخلاف فى ان موسى كيف عرف ان المنادى هو الله تعالى

١٧ المسئلة التاسعة فى بيان استدلال المعتزلة على ان كلام الله تعالى ليس بقديم والجواب عنه

٢٩ الكلام فى قوله تعالى رب اشرح لى صدرى

٣٢ الفصل الثانى فى قوله رب اشرح لى صدرى

٣٦ الفصل الثالث فى قوله رب اشرح لى صدرى

٣٧ الفصل الرابع فى قوله رب اشرح لى صدرى

٤١ الفصل الخامس فى بيان حقيقة شرح الصدر

٤٢ الفصل السادس فى معنى الصدر

٤٣ الفصل السابع فى بقية الابحاث عن هذه الآية

٤٣ المسئلة الاولى فى بيان ان النطق فضيلة عظيمة

٦٠ المسئلة السابعة فى بيان استدلال موسى على اثبات الصانع باحوال المخلوقات

٧٦ المسئلة الثانية فى بيان عدد سحرة فرعون

١٢٤ المسئلة الثالثة فى بيان احتجاج اهل السنة على ان الوجوب لا يتحقق الا بالشرع

١٢٤ *(سورة الانبياء عليهم الصلاة والسلام وفيها المسائل الآتية)*

١٢٥ المسئلة الثالثة فى بيان احتجاج المعتزلة على قولهم بحدوث القرآن والجواب عنه

١٣٣ المسئلة الثانية فى بيان ان القول بوجود الهين يفضى الى المحال

١٣٨ المسئلة الثانية فى بيان الدلالة على انه سبحانه وتعالى لا يسئل عما يفعل

١٤٧ المسئلة الاولى فى بيان نبذة من علم الهيئة

١٤٩ المسئلة الثالثة فى بيان معنى الفلك فى كلام العرب

١٤٩ المسئلة الرابعة فى بيان اختلاف الناس فى حركات الكواكب

١٥٠ المسئلة السادسة فى بيان احتجاج ابى على بن سينا على ان الكواكب احياء ناطقة

١٦٥ المسئلة الثانية فى بيان كيفية قصة ابراهيم عليه السلام مع النمرود

١٦٦ المسئلة الثانية فى بيان ان النار كيف بردت على ابراهيم عليه السلام

١٧١ المسئلة الرابعة فى بيان قصة داود وسليمان عليهما السلام

١٧٩ المسئلة الاولى فى بيان قصة ايوب عليه السلام

١٨١ المسئلة الثانية فى بيان قصة يونس عليه السلام

صحيفة

١٨٨ المسئلة الثالثة فى بيان احتجاج من يجوز الذنب على الانبياء والجواب عنه
٢٠١ المسئلة الثالثة فى بيان الاختلاف فى كيفية الاعادة
٢٠٦ (سورة الحج وفيها المسائل الآتية)
٢٠٧ المسئلة الخامسة فى بيان احتجاج المعتزلة على قولهم بأن المعدوم شئ والجواب عنه
٢٤٥ المسئلة الثانية فى كونه عليه السلام هل تكلم فى اثناء قراءته بقوله تلك الغرانيق العلى أم لا
٢٦٧ (سورة المؤمنون وفيها المسائل الآتية)
٢٧٤ الكلام فى ادوار خلقة الانسان ومراتبها
٣٠٩ (سورة النور وفيها المسائل الآتية)
٣١١ المسئلة الاولى فى بيان الاختلاف فى ان اللواطة هل يطلق عليها اسم الزنا ام لا
٣٣١ المسئلة الثانية فى بيان حكم تعدد القذف
٣٣٢ المسئلة الثالثة فى بيان ما يبيح القذف
٣٥١ المسئلة الرابعة فى بيان قصة اصحاب الافك
٣٦٦ المسئلة التاسعة فى بيان الخصال التى فضلت بها عائشة على سائر ازواج النبى عليه السلام
٣٧٥ المسئلة الثانية فى بيان اقسام العورات وفى بيان حكم النظر الى كل واحدة منها
٣٩٣ الكلام على قوله تعالى الله نور السموات والارض وفيه فصول
٣٩٣ الفصل الاول فى اطلاق اسم النور على الله تعالى
٤٠١ الفصل الثانى فى تفسير قوله عليه السلام ان لله سبعين حجابا الحديث
٤٠٢ الفصل الثالث فى شرح كيفية التمثيل
٤١٦ الكلام فى بيان ادراكات الحيوانات
٤٤٣ (سورة الفرقان وفيها المسائل الآتية)
٤٤٧ الكلام على تزييف مذهب عبدة الاوثان
٤٤٧ الكلام فى احتجاج اهل السنة والمعتزلة فى مسئلة خلق الافعال
٤٤٨ الكلام فى بيان شبه منكرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والجواب عنها
٤٥٢ المسئلة الثالثة فى بيان احتجاج اهل السنة على ان الجنة مخلوقة الآن
٤٥٣ المسئلة الثانية فى بيان استدلال اهل السنة على ان البنية ليست شرطا للحياة
٤٥٤ المسئلة الثانية فى بيان احتجاج اهل السنة على ان الثواب غير واجب على الله
٤٦٣ المسئلة الثانية فى بيان الرد على القائلين بالتجسيم

صحيفه
٤٦٤ المسئلة الثانية فى بيان استدلال المعتزلة على عدم جواز رؤية الله تعالى والجواب عنه
٤٧١ المسئلة الاولى فى بيان احتجاج اهل السنة على ان الله تعالى فاعل للخير والشر
٤٧٢ الكلام فى بيان الحكمة فى نزول القرآن مفرقا منجما
٤٧٥ المسئلة الرابعة فى حكاية اقوال المفسرين فى اصحاب الرس
٤٨٠ المسئلة الرابعة فى بيان وجه الاستدلال بالظل على وجود الصانع
٤٨٣ المسئلة الثالثة فى بيان تقسيم المياه وحكم كل قسم
٥٠٤ (سورة الشعراء)
٥٤١ الكلام على ان المخاطب فى الحقيقة هو القلب وان سائر الاعضاء مسخرة له
٥٥٠ (سورة النمل وفيها المسائل الآتية)
٥٦٠ الكلام على قصة بلقيس مع سليمان عليه السلام
٥٧٣ الكلام فى ذكر منافع الارض
٥٧٦ الكلام فى الاستدلال على صحة المعاد
٥٨٠ الكلام فى بيان اعجاز القرآن وفى الاستدلال به على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم
٥٨١ الكلام فى بيان صفة الدابة وفى شرح احوال القيامة
٥٨٥ (سورة القصص وفيها المسائل الآتية)
٥٨٨ الكلام على كيفية ولادة موسى والقائه فى اليم واخذ فرعون له
٥٩٥ المسئلة الخامسة فى بيان استدلال المعتزلة على ان المعاصى لاتنسب الى الله والجواب عنه
٦٠٢ المسئلة الاولى فى بيان احتجاج المعتزلة على قولهم بحدوث القرآن والجواب عنه
٦٠٣ المسئلة الرابعة فى بيان حكاية اقوال الناس فى عصا موسى عليه السلام
٦٠٩ الكلام فى بيان ان صرح فرعون هل حصل بناؤه أم لا وفى كيفيته
٦٢٦ الكلام فى قصة قارون مع موسى عليه السلام
٦٣٤ المسئلة الاولى فى بيان اختلافهم فى قوله تعالى كل شئ هالك الا وجهه
٦٣٦ المسئلة الثالثة فى تزييف القول بالتجسيم
٦٣٧ (سورة العنكبوت وفيها المسائل الآتية)
٦٣٧ المسئلة الثانية فى بيان حكمة افتتاح بعض السور بحروف من التهجى
٦٣٩ المسئلة السادسة فى بيان الفوائد المعنوية التى فى قوله تعالى الم احسب الناس الآية
٦٧٦ المسئلة الثالثة فى بيان ان الصلاة كيف تنهى عن الفحشاء والمنكر

صحيفة

١٨٨ المسئلة الثالثة في بيان احتجاج من يجوز الذنب على الانبياء والجواب عنه
٢٠١ المسئلة الثالثة في بيان الاختلاف في كيفية الاعادة
٢٠٦ (سورة الحج وفيها المسائل الآتية)
٢٠٧ المسئلة الخامسة في بيان احتجاج المعتزلة على قولهم بأن المعدوم شيء والجواب عنه
٢٤٥ المسئلة الثانية في كونه عليه السلام هل تكلم في اثناء قراءته بقوله تلك الغرانيق العلى أم لا
٢٦٧ (سورة المؤمنون وفيها المسائل الآتية)
٢٧٤ الكلام في ادوار خلقة الانسان ومراتبها
٣٠٩ (سورة النور وفيها المسائل الآتية)
٣١١ المسئلة الاولى في بيان الاختلاف في ان اللواطة هل يطلق عليها اسم الزنا ام لا
٣٣١ المسئلة الثانية في بيان حكم تعدد القذف
٣٣٢ المسئلة الثالثة في بيان ما يبيح القذف
٣٥١ المسئلة الرابعة في بيان قصة اصحاب الافك
٣٦٦ المسئلة التاسعة في بيان الخصال التي فضلت بها عائشة على سائر ازواج النبي عليه السلام
٣٧٥ المسئلة الثانية في بيان اقسام العورات وفي بيان حكم النظر الى كل واحدة منها
٣٩٣ الكلام على قوله تعالى الله نور السموات والارض وفيه فصول
٣٩٣ الفصل الاول في اطلاق اسم النور على الله تعالى
٤٠١ الفصل الثاني في تفسير قوله عليه السلام ان لله سبعين حجابا الحديث
٤٠٢ الفصل الثالث في شرح كيفية التمثيل
٤١٦ الكلام في بيان ادراكات الحيوانات
٤٤٣ (سورة الفرقان وفيها المسائل الآتية)
٤٤٧ الكلام على تزييف مذهب عبدة الاوثان
٤٤٧ الكلام في احتجاج اهل السنة والمعتزلة في مسئلة خلق الافعال
٤٤٨ الكلام في بيان شبه منكري نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والجواب عنها
٤٥٢ المسئلة الثانية في بيان احتجاج اهل السنة على ان الجنة مخلوقة الآن
٤٥٣ المسئلة الثانية في بيان استدلال اهل السنة على ان البنية ليست شرطا للحياة
٤٥٤ المسئلة الثانية في بيان احتجاج اهل السنة على ان الثواب غير واجب على الله
٤٦٣ المسئلة الثانية في بيان الرد على القائلين بالتجسيم

صحيفة

٤٦٤ المسئلة الثانية في بيان استدلال المعتزلة على عدم جواز رؤية الله تعالى والجواب عنه
٤٧١ المسئلة الاولى في بيان احتجاج اهل السنة على ان الله تعالى فاعل الخير والشر
٤٧٣ الكلام في بيان الحكمة في نزول القرآن مفرقا منجما
٤٧٥ المسئلة الرابعة في حكاية اقوال المفسرين في اصحاب الرس
٤٨٠ المسئلة الرابعة في بيان وجه الاستدلال بالظل على وجود الصانع
٤٨٣ المسئلة الثالثة في بيان تقسيم المياه وحكم كل قسم
٥٠٤ (سورة الشعراء)
٥٤١ الكلام على ان المخاطب في الحقيقة هو القلب وان سائر الاعضاء مسخرة له
٥٥٠ (سورة النمل وفيها المسائل الآتية)
٥٦٠ الكلام على قصة بلقيس مع سليمان عليه السلام
٥٧٢ الكلام في ذكر منافع الارض
٥٧٦ الكلام في الاستدلال على صحة المعاد
٥٨٠ الكلام في بيان اعجاز القرآن وفي الاستدلال به على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم
٥٨١ الكلام في بيان صفة الدابة وفي شرح احوال القيامة
٥٨٥ (سورة القصص وفيها المسائل الآتية)
٥٨٨ الكلام على كيفية ولادة موسى والقائه في اليم واخذ فرعون له
٥٩٥ المسئلة الخامسة في بيان استدلال المعتزلة على ان المعاصي لا تنسب الى الله والجواب عنه
٦٠٢ المسئلة الاولى في بيان احتجاج المعتزلة على قولهم بحدوث القرآن والجواب عنه
٦٠٣ المسئلة الرابعة في بيان حكاية اقوال الناس في عصا موسى عليه السلام
٦٠٩ الكلام في بيان ان صرح فرعون هل حصل بناؤه أم لا وفي كيفيته
٦٢٦ الكلام في قصة قارون مع موسى عليه السلام
٦٣٤ المسئلة الاولى في بيان اختلافهم في قوله تعالى كل شيء هالك الا وجهه
٦٣٦ المسئلة الثالثة في تزييف القول بالتجسيم
٦٣٧ (سورة العنكبوت وفيها المسائل الآتية)
٦٣٧ المسئلة الثانية في بيان حكمة افتتاح بعض السور بحروف من التهجي
٦٣٩ المسئلة السادسة في بيان الفوائد المعنوية التي في قوله تعالى الم احسب الناس الآية
٦٧٦ المسئلة الثالثة في بيان ان الصلاة كيف تنهى عن الفحشاء والمنكر

صحيفه

٦٩٤ (سورة الروم وفيها المسائل الآتية)
٦٩٦ الكلام فى حسن خلقة الانسان التى يجب التفكر فيها
٧٠١ المسئلة الاولى فى بيان معنى سبحان الله ولفظه
٧٠٢ المسئلة الثانية فى بيان حكمة تخصيص بعض الاوقات بالامر بالتسبيح فيه
٧٠٣ المسئلة الثالثة فى بيان فضيلة السبحلة والحمدلة فى المساء والصباح
٧٠٥ الكلام فى الاستدلال بخلق الاشياء من التراب على قدرة الصانع
٧٢٩ (سورة لقمان عليه السلام)
٧٥٠ (سورة السجدة وفيها المسائل الآتية)
٧٥٢ الكلام فى تأويل الاستواء فى قوله تعالى ثم استوى على العرش
٧٦٧ الكلام فى بيان حكمة افعاله سبحانه وتعالى على سبيل الاجمال
٧٦٨ (سورة الاحزاب وفيها المسائل الآتية)
٧٨٠ الكلام على مسائل فقهية تتعلق بتخيير النساء
٨٠٢ الكلام على ذكر لطائف قوله تعالى انا عرضنا الامانة الآية

(تمت)

الجزء السادس من مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير
الكبير للامام فخر الدين محمد الرازى
ابن العلامة ضياء الدين عمر
المشتهر بخطيب الرى
نفع الله به المسلمين
آمين

م

«(وبهامشه تفسير العلامة أبى السعود)»

دار الطباعة العامره

بسم الله الرحمن الرحيم

(سورة طه مائة وثلاثون وخمس آيات)

بسم الله الرحمن الرحيم

(طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى الا تذكرة لمن يخشى تنزيلا ممن خلق الارض والسموات العلى الرحمن على العرش استوى له ما في السموات وما في الارض وما بينهما وما تحت الثرى وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى) اعلم ان قوله طه فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ أبو عمرو بفتح الطاء وكسر الهاء وقرأ أهل المدينة بين الفتح والكسر وقرأ ابن كثير وابن عامر بفتح الطاء والهاء وقرأ حمزة والكسائي بكسر الطاء والهاء قال الزجاج وقرئ طه بفتح الطاء وسكون الهاء وكلها لغات قال الزجاج من فتح الطاء والهاء فلان ما قبل الالف مفتوح ومن كسر الطاء والهاء فأمال الكسرة لان الحرف مقصور والمقصور يغلب عليه الامالة الى الكسرة (المسئلة الثانية) للمفسرين فيه قولان (أحدهما) انه من حروف التهجي والآخر انه كلمة مفيدة أما على القول الاول فقد تقدم الكلام فيه في أول سورة البقرة والذي زادوه ههنا أمور (أحدها) قال الثعلبي الطاء شجرة طوبى والهاء الهاوية فكأنه أقسم بالجنة والنار (وثانيها) يحكى عن جعفر الصادق عليه السلام الطاء طهارة أهل البيت والهاء هدايتهم (وثالثها) يا مطمع الشفاعة للامة ويا هادي الخلق الى الملة (ورابعها) قال سعيد بن جبير هو افتتاح اسمه الطيب الطاهر الهادي (وخامسها) الطاء من الطهارة والهاء من الهداية كأنه قيل يا طاهرا من الذنوب ويا هاديا الى علام الغيوب (وسادسها) الطاء طول القراء والهاء هيبتهم

• (سورة طه مكية وهي مائة وخمس وثلاثون آية) •

• (بسم الله الرحمن الرحيم) •

(طه) فخمهما قالون وابن كثير وابن عامر وحفص ويعقوب على الاصل ولطا وحده ابو عمرو وورش لاستعلائه وامالهما الباقون وهو من الفواتح التي يصدر بها السور الكريمة وعليه جمهور المتقنين وقيل معناه يا رجل وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنه والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة والكلبي الا انه عند سعيد على اللغة النبطية وعند قتادة على السريانية وعند عكرمة على الحبشية وعند الكلبي على لغة عك وقيل عكل وهي لغة يمانية قالوا ان صح فلعل اصله يا هذا فتصرفوا فيه بقلب اليا طاء وحذف ذا من هذا وما استشهد من قول الشاعر

ان السفاهة طه في خلائقكم
لا قدس الله اخلاق الملاعين

ليس بنص في ذلك لجواز كونه قسما كما في حم لا ينصرون وقد جوز ان يكون الاصل طأها بصيغة الامر من الوطء قلبت الهمزة في يطأ الفا لانفتاح ما قبلها كما في قول من قال لا هناك المرتع وها ضمير الارض على انه خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بان يطأ الارض بقدميه لما كان يقوم في تهجده على احدى

فى قلوب الكفار قال الله تعالى سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب (وسابعها) الطاء تسعة فى الحساب والهاء خمسة تكون أربعة عشر ومعناه يا أيها البدر وقد عرفت فيما تقدم أن أمثال هذه الاقوال لا يجب أن يعتمد عليها (القول الثانى) قول من قال انها كلمة مفيدة وعلى هذا القول ذكروا وجهين (أحدهما) معناه يا رجل وهو مروى عن ابن عباس والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة والكلبى رضى الله عنهم ثم قال سعيد بن جبير بلسان النبطية وقال قتادة بلسان السريانية وقال عكرمة بلسان الحبشة وقال الكلبى بلغة عك وأنشد الكلبى لشاعرهم

ان السفاهة طه فى خلائقكم • لا قدس الله أرواح الملاعين

وقد تكلم الناس على هذا القول من وجهين (الاول) انه بمعنى يا رجل فى لغة حمل عليه لكنه لا يجوز ان يثبت على هذا المعنى الا فى لغة العرب اذ القرآن بهذه اللغة نزل فيحتمل أن يكون لغة العرب فى هذه اللفظة موافقة لسائر اللغات التى حكينا هاقاما على غير هذا الوجه فلا يحتمل ولا يصح (الثانى) قال صاحب الكشاف ان كان طه فى لغة عك بمعنى يا رجل فلعلهم تصرفوا فى يا هذا فقلبوا الياء طاء فقالوا طا واختصروا فى هذا واقتصروا على ها فقوله طه بمعنى يا هذا واعترض بعضهم عليه وقال لو كان كذلك لوجب أن يكتب أربعة أحرف طاها (وثانيهما) انه عليه السلام كان يقوم فى تهجده على احدى رجليه فأمر أن يطأ الارض بقدميه معا وكان الاصل طأ فقلبت همزته هاء كما قالوا اهياك فى اياك وهرقت فى أرقت ويجوز أن يكون الاصل من وطئ على ترك الهمزة فيكون أصله طا يا رجل ثم أثبت الهاء فيها للوقف والوجهان ذكرهما الزجاج • أما قوله تعالى ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف ان جعلت طه تعديدا لاسماء الحروف فهذا ابتداء كلام وان جعلتها اسما للسورة احتمل أن يكون قوله ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى خبرا عنها وهى فى موضع المبتدأ والقرآن ظاهر اوقع موقع المضمر لانها قرآن وأن يكون جوابا لها وهى قسم (المسئلة الثانية) قرئ ما نزل عليك القرآن لتشقى (المسئلة الثالثة) ذكروا فى سبب نزول الآية وجوها (احدها) قال مقاتل ان أبا جهل والوليد بن المغيرة ومطعم بن عدى والنضر بن الحارث قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم انك لتشقى حيث تركت دين آبائك فقال عليه السلام بل بعثت رحمة للعالمين قالوا بل أنت تشقى فأنزل الله تعالى هذه الآية ردا عليهم وتعريفا لمحمد صلى الله عليه وسلم بأن دين الاسلام هو السلام وهذا القرآن هو السلام الى نيل كل فوز والسبب فى ادراك كل سعادة وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها (وثانيها) انه عليه السلام صلى بالليل حتى تورمت قدماه فقال له جبريل عليه السلام ابق على نفسك فان لها عليك حقا أى ما أنزلناه لتهلك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقة العظيمة وما بعثت الا بالحنيفية السمحة وروى أيضا انه عليه السلام كان اذا قام من الليل ربط صدره بحبل حتى لا ينام وقال بعضهم كان يقوم

رجليه مبالغة فى المجاهدة لكنه يأباه كتابتهما على صورة الحرف كما تأباه التفسير بيا رجل فان الكتابة على صورة الحرف مع كون التلفظ بخلافه من خصائص حروف المعجم وقرئ طه اما على أن اصله طأ فقلبت همزته هاء كما فى امثال هرقت أو قلبت الهمزة فى يطأ ألفا كما فى ... ثم بنى منه الامر وألحق به هاء السكت وأما على أنه اكتفى فى التلفظ بشطرى الاسمين واقيما مقامهما فى الدلالة على المسميين فكأنهما اسماهما الدالان عليهما وعلى هذا ينبغى أن يحمل قول من قال أو اكتفى بشطرى الكلمتين وعبر عنهما باسمهما والا فالشطران لم يذكرا من حيث انهما مسميان لاسميهما ليقعا معبرا عنهما بل من حيث انهما جزآن لهما قد اكتفى بذكرهما عن ذكرهما ولذلك وقع التلفظ بأنفسهما لا باسميهما بأن يراد بضمير التثنية فى الموضعين الشطران من حيث هما مسميان لا من حيث هما جزآن للاسمين ويراد باسميهما الشطران من حيث هما قائمان مقام الاسمين فالمعنى اكتفى فى التلفظ بشطر الكلمتين أى الاسمين فعبر عنهما أى عن الشطرين من حيث هما مسميان لهما من حيث هما قائمان مقام الاسمين وأما حمله على معنى انه اكتفى فى الكتابة بشطرى الكلمتين يعنى طا على تقدير كونه أمرا او كونه حرف نداء وها على تقدير كونها كناية عن

على رجل واحدة وقال بعضهم كان يسهر طول الليل فأراد بقوله لتشقى ذلك قال القاضي هذا بعيد لانه عليه السلام ان فعل شيئا من ذلك فلابد وأن يكون قد فعله بأمر الله تعالى واذا فعله بأمره فهو من باب السعادة فلا يجوز أن يقال له ما أمرناك بذلك (وثالثها) قال بعضهم يحتمل أن يكون المراد لاتشق على نفسك ولا تعذبها بالاسف على كفر هؤلاء فانا انما أنزلنا عليك القرآن لتذكر به فمن آمن وأصلح فلنفسه ومن كفر فلا يحزنك كفره فما عليك الا البلاغ وهو كقوله تعالى لعلك باخع نفسك الآية ولا يحزنك قولهم (ورابعها) انك لاتلام على كفر قومك كقوله تعالى لست عليهم بمسيطر وما أنت عليهم بوكيل أى ليس عليك كفرهم اذا بلغت ولا تؤاخذ بذنبهم (وخامسها) ان هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة وفي ذلك الوقت كان عليه السلام مقهورا تحت ذل أعدائه فكأنه سبحانه قال له لاتظن انك تبقى على هذه الحالة أبدا بل يعلو أمرك ويظهر قدرك فانا ما أنزلنا عليك مثل هذا القرآن لتبقى شقيا فيما بينهم بل تصير معظما مكرما * وأما قوله تعالى الا تذكرة لمن يخشى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) في كلمة الا ههنا قولان (أحدهما) انه استثناء منقطع بمعنى لكن (والثاني) التقدير ما أنزلنا عليك القرآن لتحمل متاعب التبليغ الا ليكون تذكرة كما يقال ماشافهناك بهذا الكلام لتتأذى الا ليعتبر بك غيرك (المسئلة الثانية) انما خص من يخشى بالتذكرة لانهم المنتفعون بها وان كان ذلك عاما في الجميع وهو كقوله هدى للمتقين وقال سبحانه وتعالى تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا وقال لتنذر قوما ما انذر آباؤهم فهم غافلون وقال وتنذر به قوما لدا وقال وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين (المسئلة الثالثة) وجه كون القرآن تذكرة انه عليه السلام كان يعظهم به وببيانه فيدخل تحت قوله لمن يخشى الرسول صلى الله عليه وسلم لانه في الخشية والتذكرة بالقرآن كان فوق الكل * واما قوله تعالى تنزيلا ممن خلق الارض والسموات العلى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكروا في نصب تنزيلا وجوها (احدها) تقديره نزل تنزيلا ممن خلق الارض فنصب تنزيلا بمضمر (وثانيها) ان ينصب بأنزلنا لان معنى ما أنزلناه الا تذكرة أنزلناه تذكرة (وثالثها) ان ينصب على المدح والاختصاص (ورابعها) ان ينصب بيخشى مفعولا به اى انزله الله تعالى تذكرة لمن يخشى تنزيل الله وهو معنى حسن واعراب بين وقرئ تنزيل بالرفع على انه خبر مبتدأ محذوف (المسئلة الثانية) فائدة الانتقال من لفظ التكلم الى لفظ الغيبة امور (احدها) ان هذه الصفات لا يمكن ذكرها الا مع الغيبة (وثانيها) انه قال اولا انزلنا ففخم بالاسناد الى ضمير الواحد المطاع ثم ثنى بالنسبة الى المختص بصفات العظمة والتمجيد فتضاعفت الفخامة من طريقين (وثالثها) يجوز ان يكون انزلنا حكاية لكلام جبريل عليه السلام والملائكة النازلين معه (المسئلة الثالثة) انه تعالى عظم حال القرآن بأن نسبه الى انه تنزيل ممن خلق الارض والسموات على علوها وانما قال ذلك لان تعظيم الله تعالى يظهر بتعظيم خلقه ونعمه وانما عظم القرآن ترغيبا في تدبره والتأمل في

(معانيه)

الارض وكونها حرف تنبيه وعدل عن ذينك الشطرين في التلفظ باسمها فبين البطلان كيف وطاوها على ماذكر من التقادير ليسا باسمين للحرفين المذكورين بل الاول أمر أو حرف نداء والثاني خبر الارض أو حرف تنبيه على أن كتابة صورة الحرف والتلفظ بغيره من خواص حروف المعجم كما مر فالحق ماسلف من أنها من الفواتح اما مسرودة على نمط التعديد بأحد الوجهين المذكورين في مطلع سورة البقرة فلا محل لها من الاعراب وكذا مابعدها من قوله تعالى (ما انزلنا عليك القرآن لتشقى) فانه استئناف مسوق لتسليته عليه الصلاة والسلام عما كان يعتريه من جهة المشركين من التعب فان الشقاء شائع في ذلك المعنى ومنه أشقى من رائض مهر أي ما انزلناه عليك لتتعب بالمبالغة في مكابدة الشدائد في مقاولة العتاة ومحاورة الطغاة وفرط التأسف على كفرهم به والتحسر على أن يؤمنوا كقوله عز وجل فلعلك باخع نفسك على آثارهم الآية بل للتبليغ والتذكير وقد فعلت فلا عليك أن لم يؤمنوا به بعد ذلك أو لصرفه عليه الصلاة والسلام عما كان عليه من المبالغة في المجاهدة في العبادة كما روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم بالليل حتى ترم قدماه فقال له جبريل عليه السلام أبق على نفسك فان لها عليك حقا

معانيه وحقائقه وذلك معتاد فى الشاهد فانه تعظم الرسالة بتعظيم حال المرسل ليكون المرسل اليه أقرب الى الامتثال (المسئلة الرابعة) يقال سماء عليا وسموات علا وفائدة وصف السموات بالعلا الدلالة على عظم قدرة من يخلق مثلها فى علوها وبعد مرتقاها أما قوله تعالى الرحمن على العرش استوى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ الرحمن مجرورا صفة لمن خلق والرفع أحسن لانه اما أن يكون رفعا على المدح والتقدير هو الرحمن واما أن يكون مبتدأ مشارا بلامه الى من خلق فان قيل الجملة التى هى على العرش استوى ما محلها اذا جررت الرحمن أو رفعته على المدح قلنا اذا جررت فهو خبر مبتدأ محذوف لا غير وان رفعت جاز أن يكون كذلك وأن يكون مع الرحمن خبرين للمبتدأ (المسئلة الثانية) المشبهة تعلقت بهذه الآية فى ان معبودهم جالس على العرش وهذا باطل بالعقل والنقل من وجوه (أحدها) انه سبحانه وتعالى كان ولا عرش ولا مكان ولما خلق الخلق لم يحتج الى مكان بل كان غنيا عنه فهو بالصفة التى لم يزل عليها الا أن يزعم زاعم انه لم يزل مع الله عرش (وثانيها) ان الجالس على العرش لابد وأن يكون الجزء الحاصل منه فى يمين العرش غير الحاصل فى يسار العرش فيكون فى نفسه مؤلفا مركبا وكل ما كان كذلك احتاج الى المؤلف والمركب وذلك محال (وثالثها) ان الجالس على العرش اما أن يكون متمكنا من الانتقال والحركة أو لا يمكنه ذلك فان كان الاول فقد صار محل الحركة والسكون فيكون محدثا لا محالة وان كان الثانى كان كالمربوط بل كان كالزمن بل أسوأ حالا منه فان الزمن اذا شاء الحركة فى رأسه وحدقته أمكنه ذلك وهو غير ممكن على معبودهم (ورابعها) هو ان معبودهم اما أن يحصل فى كل مكان أو فى مكان دون مكان فان حصل فى كل مكان لزمهم أن يحصل فى مكان النجاسات والقاذورات وذلك لا يقوله عاقل وان حصل فى مكان دون مكان افتقر الى مخصص يخصصه بذلك المكان فيكون محتاجا وهو على الله محال (وخامسها) ان قوله ليس كمثله شئ يتناول نفى المساواة من جميع الوجوه بدليل صحة الاستثناء فانه يحسن أن يقال ليس كمثله شئ الا فى الجلوس والا فى المقدار والا فى اللون وصحة الاستثناء تقتضى دخول جميع هذه الامور تحته فلو كان جالسا لحصل من يماثله فى الجلوس فحينئذ يبطل معنى الآية (وسادسها) قوله تعالى ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية فاذا كانوا حاملين للعرش والعرش مكان معبودهم فيلزم أن تكون الملائكة حاملين لخالقهم ومعبودهم وذلك غير معقول لان الخالق هو الذى يحفظ المخلوق أما المخلوق فلا يحفظ الخالق ولا يحمله (وسابعها) انه لو جاز أن يكون المستقر فى المكان الها فكيف يعلم ان الشمس والقمر ليس باله لان طريقنا الى نفى الهية الشمس والقمر انهما موصوفان بالحركة والسكون وما كان كذلك كان محدثا ولم يكن الها فاذا أبطلتم هذا الطريق انسد عليكم باب القدح فى الهية الشمس والقمر (وثامنها) ان العالم كرة فالجهة التى هى فوق بالنسبة الينا هى تحت بالنسبة الى ساكنى ذلك الجانب الآخر من الارض وبالعكس

اى ما انزلناه عليك لتتعب بتنهك نفسك وحملها على الرياضات الشاقة والشدائد الفادحة وما بعثت الا بالحنيفية السمحة وقيل ان أبا جهل والنضر بن الحرث قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم انك تشقى حيث تركت دين آبائك وان القرآن نزل عليك لتشقى به فرد ذلك بأنا ما انزلناه عليك لما قالوا والاول هو الانسب كما يشهد به الاستثناء الآتى هذا وما اسم للقرآن محله الرفع على انه مبتدأ وما بعده خبره والقرآن ظاهر اوقع موقع العائد الى المبتدأ كأنه قيل القرآن ما انزلناه عليك لتشقى او النصب على اضمار فعل القسم او الجر بتقدير حرفه وما بعده جوابه وعلى هذين الوجهين يجوز ان يكون اسما للسورة ايضا بخلاف الوجه الاول فانه لا يتمشى على ذلك التقدير لكن لا لان المبتدأ يبقى حينئذ بلا عائد ولا لانه قائم مقامه فان القرآن صادق على السورة لا محالة اما بطريق الاتحاد بأن يراد به القدر المشترك بين الكل والبعض او باعتبار الاندراج ان اريد به الكل بل لان نفى كون الانزال للشقاء يستدعى سبق وقوع الشقاء مترتبا على انزاله قطعا اما بحسب الحقيقة كما لو اريد به معنى التعب او بحسب زعم الكفرة كما لو اريد به ضد السعادة ولا ريب فى ان ذلك انما يتصور فى انزال ما انزل من قبل واما انزال السورة الكريمة فليس مما يمكن ترتب الشقاء السابق عليه حتى يتصدى لنفيه عنه اما

فلوكان المعبود مختصا بجهة فتلك الجهة وان كانت فوقا لبعض الناس لكنها تحت لبعض آخرين وباتفاق العقلاء لا يجوز أن يقال المعبود تحت جميع الاشياء (وتاسعها) أجمعت الامة على ان قوله قل هو الله أحد من المحكمات لا من المتشابهات فلو كان مختصا بالمكان لكان الجانب الذي منه يلي ما على يمينه غير الجانب الذي منه يلي ما على يساره فيكون مركبا منقسما فلا يكون أحدا في الحقيقة فيبطل قوله قل هو الله أحد (وعاشرها) ان الخليل عليه السلام قال لا أحب الآفلين ولو كان المعبود جسما لكان آفلا أبدا غائبا أبدا فكان يندرج تحت قوله لا أحب الآفلين فثبت بهذه الدلائل ان الاستقرار على الله تعالى محال وعند هذا الناس فيه قولان (الاول) انا لا نشتغل بالتأويل بل نقطع بأن الله تعالى منزه عن المكان والجهة ونترك تأويل الآية وروى الشيخ الغزالي عن بعض أصحاب الامام أحمد بن حنبل انه اول ثلاثة من الاخبار قوله عليه السلام الحجر الاسود يمين الله في الارض وقوله عليه السلام قلب المؤمن بين اصبعين من اصابع الرحمن وقوله عليه السلام اني لاجد نفس الرحمن من قبل اليمن واعلم ان هذا القول ضعيف لوجهين (الاول) انه ان قطع بأن الله تعالى منزه عن المكان والجهة فقد قطع بأنه ليس مراد الله تعالى من الاستواء الجلوس وهذا هو التأويل وان لم يقطع بتنزيه الله تعالى عن المكان والجهة بل بقي شاكا فيه فهو جاهل بالله تعالى اللهم الا ان يقول انا قاطع بأنه ليس مراد الله تعالى ما يشعر به ظاهره بل مراده به شئ آخر ولكني لا اعين ذلك المراد خوفا من الخطأ فهذا يكون قريبا وهو ايضا ضعيف لانه تعالى لما خاطبنا بلسان العرب وجب ان لا يريد باللفظ الا موضوعه في لسان العرب واذا كان لا معنى للاستواء في اللغة الا الاستقرار او الاستيلاء وقد تعذر حمله على الاستقرار فوجب حمله على الاستيلاء والا لزم تعطيل اللفظ وانه غير جائز (والثاني) وهو دلالة قاطعة على انه لا بد من المصير الى التأويل وهو ان الدلالة العقلية لما قامت على امتناع الاستقرار ودل ظاهر لفظ الاستواء على معنى الاستقرار فاما ان نعمل بكل واحد من الدليلين واما ان نتركهما معا واما ان نرجح النقل على العقل واما ان نرجح العقل ونؤول النقل والاول باطل والا لزم ان يكون الشئ الواحد منزها عن المكان وحاصلا في المكان وهو محال (والثاني) ايضا محال لانه يلزم رفع النقيضين معا وهو باطل (والثالث) باطل لان العقل اصل النقل فانه ما لم يثبت بالدلائل العقلية وجود الصانع وعلمه وقدرته وبعثته للرسل لم يثبت النقل فالقدح في العقل يقتضي القدح في العقل والنقل معا فلم يبق الا ان نقطع بصحة العقل ونشتغل بتأويل النقل وهذا برهان قاطع في المقصود اذا ثبت هذا فنقول قال بعض العلماء المراد من الاستواء الاستيلاء قال الشاعر

قد استوى بشر على العراق • من غير سيف ودم مهراق

فان قيل هذا التأويل غير جائز لوجوه (احدها) ان الاستيلاء معناه حصول الغلبة بعد العجز وذلك في حق الله تعالى محال (وثانيها) انه انما يقال فلان استولى على كذا اذا كان

باعتبار الاتحاد فظاهر واما باعتبار الاندراج فلانما له ان يقال هذه السورة ما انزلنا القرآن المشتمل عليها لتشقى ولا يخفى ان جعلها مخبرا عنها مع انه لا دخل لانزالها في الشقاء السابق اصلا مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل وقوله تعالى (الا تذكرة) نصب على انه مفعول له لانزلنا لكن لا من حيث انه معلل بالشقاء على معنى ما انزلنا عليك القرآن لتتعب بتبليغه الا تذكرة الآية كقولك ما ضربتك للتأديب الا اشفاقا فانه يجب في امثاله ان يكون بين العلتين ملابسة بالسببية والمسببية حتما كما في المثال المذكور وفي قولك ما شافهتك بالسوء لتتأذى الا زجرا لغيرك فان التأديب في الاول مسبب عن الاشفاق والتأذي في الثاني سبب لزجر الغير وقد عرفت ما بين الشقاء والتذكرة من التنافي ولا يجدي ان يراد به التعب في الجملة الجامع للتذكرة لظهور ان لا ملابسة بينهما بما ذكر من السببية والمسببية وانما يتصور ذلك ان لو قيل مكان الا تذكرة الا تكثيرا لثوابك فان الاجر بقدر التعب ولا من حيث انه بدل من محل لتشقى كما في قوله تعالى ما فعلوه الا قليل لوجوب المجانسة بين البدلين وقد عرفت حالهما بل من حيث انه معطوف عليه بحسب المعنى بعد نفيه بطريق الاستدراك المستفاد من الاستثناء المنقطع كأنه قيل ما انزلنا عليك القرآن لتتعب في تبليغه ولكن

له منازع ينازعه وكان المستولى عليه موجودا قبل ذلك وهذا فى حق الله تعالى محال لان العرش انما حدث بتخليقه وتكوينه (وثالثها) الاستيلاء حاصل بالنسبة الى كل المخلوقات فلا يبقى لتخصيص العرش بالذكر فائدة والجواب انا اذا فسرنا الاستيلاء بالاقتدار زالت هذه المطاعن بالكلية قال صاحب الكشاف لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك لا يحصل الا مع الملك جعلوه كناية عن الملك فقالوا استوى فلان على البلد يريدون ملك وان لم يقعد على السرير البتة وانما عبروا عن حصول الملك بذلك لانه أصرح وأقوى فى الدلالة من أن يقال فلان ملك ونحوه قولك يد فلان مبسوطة ويد فلان مغلولة بمعنى انه جواد وبخيل لا فرق بين العبارتين الا فيما قلت حتى ان من لم تبسط يده قط بالنوال أو لم يكن له يد رأسا قيل فيه يده مبسوطة لانه لا فرق عندهم بينه وبين قوله جواد ومنه قوله تعالى وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت ايديهم أى هو بخيل بل يداه مبسوطتان أى هو جواد من غير تصور يد ولا غل ولا بسط والتفسير بالنعمة والتمحل للتثنية من ضيق العطن وأقول انا لو فتحنا هذا الباب لانفتحت تأويلات الباطنية فانهم أيضا يقولون المراد من قوله فاخلع نعليك الاستغراق فى خدمة الله تعالى من غير تصور فعل وقوله يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم المراد منه تخليص ابراهيم عليه السلام من يد ذلك الظالم من غير أن يكون هناك نار وخطاب البتة وكذا القول فى كل ما ورد فى كتاب الله تعالى بل القانون انه يجب حمل كل لفظ ورد فى القرآن على حقيقته الا اذا قامت دلالة عقلية قطعية توجب الانصراف عنه وليت من لم يعرف شيأ لم يخض فيه فهذا تمام الكلام فى هذه الآية ومن أراد الاستقصاء فى الآيات والاخبار المتشابهات فعليه بكتاب (تأسيس التقديس) وبالله التوفيق • أما قوله تعالى له ما فى السموات وما فى الارض وما بينهما وما تحت الثرى فاعلم انه سبحانه لما شرح ملكه بقوله الرحمن على العرش استوى والملك لا ينتظم الا بالقدرة والعلم لا جرم عقبه بالقدرة ثم بالعلم أما القدرة فهى هذه الآية والمراد انه سبحانه مالك لهذه الاقسام الاربعة فهو مالك لما فى السموات من ملك ونجم وغيرهما ومالك لما فى الارض من المعادن والفلوات ومالك لما بينهما من الهواء ومالك لما تحت الثرى فان قيل الثرى هو السطح الاخير من العالم فلا يكون تحته شئ فكيف يكون الله مالكا له قلنا الثرى فى اللغة التراب الندى فيحتمل أن يكون تحته شئ وهو اما الثور أو الحوت أو الصخرة أو البحر أو الهواء على اختلاف الروايات اما العلم فقوله تعالى وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى وفيه قولان (أحدهما) ان قوله وأخفى بناء المبالغة وعلى هذا القول نقول انه تعالى قسم الاشياء الى ثلاثة أقسام الجهر والسر والاخفى فيحتمل ان يكون المراد من الجهر القول الذى يجهر به وقد يسر فى النفس وان ظهر البعض وقد يسر ولا يظهر على ما قال بعضهم ويحتمل ان يكون المراد بالسر وبالاخفى ما ليس بقول وهذا اظهر فكأنه تعالى بين انه يعلم السر الذى لا يسمع وما هو اخفى منه فكيف لا يعلم الجهر والمقصود منه زجر المكلف عن القبائح

تذكرة (لمن يخشى) وقد جرد التذكرة عن اللام لكونها فعلا لفاعل الفعل المعلل أى لمن من شأنه أن يخشى الله عز وعلا ويتأثر بالانذار لرقة قلبه ولين عريكته أو لمن علم الله تعالى انه يخشى بالتخويف وتخصيصها بهم مع عموم التذكرة والتبليغ لانهم المنتفعون بها وقوله تعالى (تنزيلا) مصدر مؤكد لمضمر مستأنف مقرر لما قبله أى نزل تنزيلا أو لما تفيده الجملة الاستئنافية فانها متضمنة لان يقال أنزلناه للتذكرة والاول هو الانسب بما بعده من الالتفات أو منصوب على المدح والاختصاص وقيل هو منصوب بيخشى على المفعولية أى يخشى تنزيلا من الله تعالى وأنت خبير بأن تعليق الخشية والخوف ونظائرهما بمطلق التنزيل غير معهود نعم قد يعلق ذلك ببعض أجزائه المشتمل على الوعيد ونظائره كما فى قوله تعالى يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم وقيل هو بدل من تذكرة لكن لا على انه مفعول له لانزلنا اذ لا يعلل الشئ بنفسه ولا بنوعه بل على انه مصدر بمعنى الفاعل واقع موقع الحال من الكاف فى عليك أو من القرآن ولا مساغ له الا بأن يكون قيدا لانزلنا بعد تقيده بالقيد الاول وقد عرفت حاله فيما سلف وقرئ تنزيل على انه خبر لمبتدأ محذوف ومن فى قوله تعالى (ممن خلق الارض والسموات العلى) متعلقة بتنزيلا أو بمضمر هو صفة له

ظاهرة كانت اوباطنة والترغيب فى الطاعات ظاهرة كانت اوباطنة فعلى هذا الوجه ينبغى ان يحمل السر والاخفى على مافيه ثواب أو عقاب والسر هو الذى يسره المرء فى نفسه من الامور التى عزم عليها والاخفى هو الذى لم يبلغ حد العزيمة ويحتمل ان يفسر الاخفى بما عزم عليه وما وقع فى وهمه الذى لم يعزم عليه ويحتمل مالم يقع فى سره بعد فيكون اخفى من السر ويحتمل ايضا ماسيكون من قبل الله تعالى من الامور التى لم تظهر وان كان الاقرب ماقدمناه مما يدخل تحت الزجر والترغيب (القول الثانى) ان اخفى فعل يعنى انه يعلم اسرار العباد واخفى عنهم مايعلمه وهو كقوله يعلم مابين ايديهم وماخلفهم ولايحيطون بشئ من علمه فان قيل كيف يطابق الجزاء الشرط قلنا معناه ان تجهر بذكر الله تعالى من دعاء اوغيره فاعلم انه غنى عن جهرك واما ان يكون نهيا عن الجهر كقوله واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول واما تعليما للعباد ان الجهر ليس لاستماع الله تعالى وانما هو لغرض آخر واعلم ان الله تعالى لذاته عالم وانه عالم بكل المعلومات فى كل الاوقات بعلم واحد وذلك العلم غير متغير وذلك العلم من لوازم ذاته من غير ان يكون موصوفا بالحدوث او الامكان والعبد لايشارك الرب الافى السدس الاول وهو اصل العلم ثم هذا السدس بينه وبين عباده ايضا نصفان فخمسة دوانيق ونصف جزء من العلم مسلم له والنصف الواحد لجملة عباده ثم هذا الجزء الواحد مشترك بين الخلائق كلهم من الملائكة الكروبية والملائكة الروحانية وحملة العرش وسكان السموات وملائكة الرحمة وملائكة العذاب وكذا جميع الانبياء الذين اولهم آدم وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم اجمعين وكذا جميع الخلائق كلهم فى علومهم الضرورية والكسبية والحرف والصناعات وجميع الحيوانات فى ادراكاتها وشعوراتها والاهتداء الى مصالحها فى اغذيتها ومضارها ومنافعها والحاصل لك من ذلك الجزء اقل من الذرة المؤلفة ثم انك بتلك الذرة عرفت اسرار الهيئة وصفاته الواجبة والجائزة والمستحيلة فاذا كنت بهذه الذرة عرفت هذه الاسرار فكيف يكون علمه بخمس دوانيق ونصف افلا يعلم بذلك العلم أسرار عبوديتك فهذا تحقيق قوله وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى بل الحق ان الدينار بتمامه له لان الذى عنده فانما عنده بتعليمه على ماقال أنزله بعلمه وقال ألايعلم من خلق ولهذا مثال وهو الشمس فان ضوءها يجعل العالم مضيئا ولاينتقص البتة من ضوئها شئ فكذا ههنا فكيف لايكون عالما بالسر والاخفى فان من تدبيراته فى خلق الاشجار وأنواع النبات انها ليس لها فم ولاسائر آلات الغذاء فلاجرم أصولها مركوزة فى الارض تمتص بها الغذاء فيتأدى ذلك الغذاء الى الاغصان ومنها الى العروق ومنها الى الاوراق ثم انه تعالى جعل عروقها كالاطناب التى بها يمكن ضرب الخيام وكما انه لابد من مد الطنب من كل جانب لتبقى الخيمة واقفة كذلك العروق تذهب من كل جانب لتبقى الشجرة واقفة ثم لو نظرت الى كل ورقة ومافيها من العروق الدقيقة المبثوثة فيها ليصل الغذاء منها الى كل

(جانب)

مؤكدة لما فى تنكيره من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية ونسبة التنزيل الى الموصول بطريق الالتفات الى الغيبة بعد نسبته الى نون العظمة لبيان فخامته تعالى بحسب الافعال والصفات اثر بيانها بحسب الذات بطريق الابهام ثم التفسير لزيادة تحقيق وتقرير وتخصيص خلقهما بالذكر مع ان المراد خلقهما بجميع مايتعلق بهما كما يفصح عنه قوله تعالى له مافى السموات ومافى الارض الآية لاصالتهما واستتباعهما لماعداهما وتقديم الارض لكونه اقرب الى الحس واظهر عنده ووصف السموات بالعلا وهو جمع العليا تأنيث الاعلى لتأكيد الفخامة مع مافيه من مراعاة الفواصل وكل ذلك الى قوله تعالى له الاسماء الحسنى مسوق لتعظيم شان المنزل عز وجل المستتبع لتعظيم شان المنزل الداعى الى تربية المهابة وادخال الروعة المؤدية الى استنزال المتمردين عن رتبة العتو والطغيان واستمالتهم نحو الخشية المفضية الى التذكر والايمان (الرحمن) رفع على المدح اى هو الرحمن وقد عرفت فى صدر سورة البقرة ان المرفوع مدحا فى حكم الصفة الجارية على ماقبله وان لم يكن تابعا له فى الاعراب ولذلك التزموا حذف المبتدأ ليكون فى صورة متعلق من متعلقاته وقد قرئ بالجر على انه صفة صريحة للموصول وما قيل من ان الاسماء الناقصة لايوصف منها الا الذى وحده مذهب الكوفيين

جانب من الورقة ليكون ذلك تقوية لجرم الورقة فلا يتمزق سريعا وهي شبه العروق المخلوقة في بدن الحيوان لتكون مسالك للدم والروح فتكون مقوية للبدن ثم انظر الى الاشجار فان أحسنها في المنظر الدلب والخلاف ولا حاصل لهما وأقبحها شجرة التين والعنب وانظر الى منفعتهما فهذه الاشياء واشباهها تظهر انه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض • اما قوله تعالى الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى فالكلام فيه على قسمين (الاول) في التوحيد اعلم ان دلائل التوحيد ستأتي ان شاء الله في تفسير قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وانما ذكره ههنا ليبين ان الموصوف بالقدرة وبالعلم على الوجه الذي تقدم واحد لا شريك له وهو الذي يستحق العبادة دون غيره ولنذكر ههنا نكتا متعلقة بهذا الباب وهي ابحاث (البحث الاول) اعلم ان مراتب التوحيد اربع (احدها) الاقرار باللسان (والثاني) الاعتقاد بالقلب (والثالث) تأكيد ذلك الاعتقاد بالحجة (والرابع) ان يصير العبد مغمورا في بحر التوحيد بحيث لا يدور في خاطره شيء غير عرفان الاحد الصمد (اما الاقرار باللسان) فان وجد خاليا عن الاعتقاد بالقلب فذلك هو المنافق (واما الاعتقاد) بالقلب اذا وجد خاليا عن الاقرار باللسان ففيه صور (الصورة الاولى) ان من نظر وعرف الله تعالى وكما عرف مات قبل ان يمضي عليه من الوقت ما يمكنه التلفظ بكلمة الشهادة فقال قوم انه لا يتم ايمانه والحق انه يتم لانه ادى ما كلف به وعجز عن التلفظ به فلا يبقى مخاطبا ورأيت في الكتب ان ملك الموت مكتوب على جبهته لا اله الا الله لكي اذا رآه المؤمن تذكر كلمة الشهادة فيكفيه ذلك التذكر عن الذكر (الصورة الثانية) ان من عرف الله ومضى عليه من الوقت ما يمكنه التلفظ بالكلمة ولكنه قصر فيه قال الشيخ الغزالي يحتمل ان يقال اللسان ترجمان القلب فاذا حصل المقصود في القلب كان امتناعه من التلفظ جاريا مجرى امتناعه من الصلاة والزكاة وكيف يكون من اهل النار وقد قال عليه السلام يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الايمان وقلب هذا الرجل مملوء من الايمان وقال آخرون الايمان والكفر امور شرعية نحن نعلم ان الممتنع من هذه الكلمة كافر (الصورة الثالثة) من اقر باللسان واعتقد بالقلب من غير دليل فهو مقلد والاختلاف في صحة ايمانه مشهور (اما المقام الثالث) وهو اثبات التوحيد بالدليل والبرهان فقد بيناه في تفسير قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا انه يمكن اثبات هذا المطلوب بالدلائل العقلية والسمعية واستقصينا القول فيها هناك (اما المقام الرابع) وهو الفناء في بحر التوحيد فقال المحققون العرفان مبتدأ من تفريق ونقض وترك ورفض ممكن في جميع صفات هي من صفات الحق للذات المريدة بالصدق منه الى الواحد القهار ثم وقوف هذه الكلمات محيطة باقصى نهايات درجات السائرين الى الله تعالى (البحث الثاني) في الاخبار الواردة في التهليل (اولها) عن النبي صلى الله عليه وسلم قال افضل الذكر لا اله الا الله وافضل

وايا ما كان فوصفه بالرحمانية اثر وصفه بخالقية السموات والارض للاشعار بأن خلقهما من آثار رحمته تعالى كما ان قوله تعالى رب السموات والارض وما بينهما الرحمن للايذان بأن ربوبيته تعالى بطريق الرحمة وفيه اشارة الى ان تنزيل القرآن ايضا من احكام رحمته تعالى كما ينبئ عنه قوله تعالى الرحمن علم القرآن اورفع على الابتداء واللام للعهد والاشارة الى الموصول والخبر قوله تعالى (على العرش استوى) وجعل الرحمة عنوان الموضوع الذي شأنه ان يكون معلوم الثبوت للموضوع عند المخاطب للايذان بأن ذلك امر بين لا سترة به غني عن الاخبار به صريحا وعلى متعلقة باستوى قدمت عليه لمراعاة الفواصل والجار والمجرور على الاول خبر مبتدأ محذوف كما في قراءة الجر وقد جوز ان يكون خبرا

الدعاء استغفر الله ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم انه لا اله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات (وثانيها) قال عليه السلام ان الله تعالى خلق ملكا من الملائكة قبل ان خلق السموات والارض وهو يقول اشهد ان لا اله الا الله مادا بها صوته لا يقطعها ولا يتنفس فيها ولا يتمها فاذا اتمها امر اسرافيل بالنفخ فى الصور وقامت القيامة تعظيما لله عز وجل (وثالثها) عن انس بن مالك رضى الله عنه قال قال عليه السلام مازلت اشفع الى ربى ويشفعنى واشفع اليه ويشفعنى حتى قلت يارب شفعنى فيمن قال لا اله الا الله قال يا محمد هذه ليست لك ولا لاحد وعزتى وجلالى لا ادع احدا فى النار قال لا اله الا الله (ورابعها) قال سفيان الثورى سألت جعفر بن محمد عن حم عسق قال الحاء حكمه والميم ملكه والعين عظمته والسين سناؤه والقاف قدرته يقول الله جل ذكره بحكمى وملكى وعظمتى وسنائى وقدرتى لا اعذب بالنار من قال لا اله الا الله محمد رسول الله (وخامسها) ان عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قام فى السوق فقال لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شئ قدير كتب له الله الف الف حسنة ومحا عنه الف الف سيئة وبنى له بيتا فى الجنة (البحث الثالث) فى النكت (احدها) ينبغى لاهل لا اله الا الله ان يحصلوا اربعة اشياء حتى يكونوا من اهل لا اله الا الله التصديق والتعظيم والحلاوة والحرية فمن ليس له التصديق فهو منافق ومن ليس له التعظيم فهو مبتدع ومن ليس له الحلاوة فهو مراء ومن ليس له الحرية فهو فاجر (وثانيها) قال بعضهم قوله الم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة انه لا اله الا الله اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه لا اله الا الله وتواصوا بالحق لا اله الا الله قل انما اعظكم بواحدة لا اله الا الله وقفوهم انهم مسئولون عن قول لا اله الا الله بل جاء بالحق وصدق المرسلين هو لا اله الا الله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة هو لا اله الا الله ويضل الله الظالمين عن قول لا اله الا الله (وثالثها) ان موسى بن عمران عليه السلام قال يارب علمنى شيأ اذكرك به قال قل لا اله الا الله قال كل عبادك يقولون لا اله الا الله فقال قل لا اله الا الله قال انما اردت شيأ تخصنى به قال ياموسى لو ان السموات السبع ومن فيهن فى كفة ولا اله الا الله فى كفة لمالت بهن لا اله الا الله (البحث الرابع) فى اعرابه قالوا كلمة لا ههنا دخلت على الماهية فانتفت الماهية واذا انتفت الماهية انتفت كل افراد الماهية واما الله فانه اسم علم للذات المعينة اذ لو كان اسم معنى لكان كليا محتملا للكثرة فلم تكن هذه الكلمة مفيدة للتوحيد فقالوا الا استحقت عمل ان لمشابهتها لها من وجهين (احدهما) ملازمة الاسماء والآخر تا قضهما فان احدهما لتأكيد الثبوت والآخر لتأكيد النفى ومن عادتهم تشبيه احد الضدين بالآخر فى الحكم اذا ثبت هذا فنقول لما قالوا ان زيدا ذاهب كان يجب ان يقولوا الا رجلا ذاهب الا انهم بنوا الاسم مادخل عليه

بعد خبر والاستواء على العرش مجاز عن الملك والسلطان متفرع على الكناية فيمن يجوز عليه القعود على السرير يقال استوى فلان على سرير الملك يراد به ملك وان لم يقعد على السرير اصلا والمراد بيان تعلق ارادته الشريفة بايجاد الكائنات وتدبير امرها وقوله تعالى (له ما فى السموات وما فى الارض) سواء كان ذلك بالجزئية منهما او بالحلول فيهما (وما بينهما) من الموجودات الكائنة فى الجو دائما كالهواء والسحاب او اكثريا كالطير اى له وحده دون غيره لاشركة ولا استقلالا كل ما ذكر ملكا وتصرفا واحياء واماتة وايجادا واعداما (وما تحت الثرى) اى ما وراء التراب وذكره مع دخوله تحت ما فى الارض لزيادة التقرير وروى عن محمد بن كعب انه ما تحت الارضين السبع وعن السدى ان الثرى هو الصخرة التى عليها

(من)

من الاسم المفرد على الفتح اما البناء فلشدة اتصال حرف النفي بما دخل عليه كأنهما صارا اسما واحدا واما الفتح فلانهم قصدوا البناء على الحركة المستحقة توفيقا بين الدليل الموجب للاعراب والدليل الموجب للبناء (الثاني) خبره محذوف والاصل لا اله في الوجود ولا حول ولا قوة لنا وهذا يدل على ان الوجود زائد على الماهية (البحث الخامس) قال بعضهم تصور الثبوت مقدم على تصور السلب فان السلب مالم يضف الى الثبوت لا يمكن تصوره فكيف قدم ههنا السلب على الثبوت وجوابه انه لما كان هذا السلب من مؤكدات الثبوت لاجرم قدم عليه (القسم الثاني) من الكلام في الآية البحث عن اسماء الله تعالى وفيه ابحاث (البحث الاول) قال عليه السلام اذا كان يوم القيامة نادى مناد ايها الناس انا جعلت لكم نسبا وانتم جعلتم لانفسكم نسبا انا جعلت اكرمكم عندي اتقاكم وانتم جعلتم اكرمكم اغناكم فالآن ارفع نسبي واضع نسبكم اين المتقون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون واعلم ان الاشياء في قسمة العقول على ثلاثة اقسام كامل لا يحتمل النقصان وناقص لا يحتمل الكمال وثالث يقبل الامرين اما الكامل الذي لا يحتمل النقصان فهو الله تعالى وذلك في حقه بالوجوب الذاتي وبعده الملائكة فان من كمالهم انهم لا يعصون الله ما امرهم ومن صفاتهم انهم عباد مكرمون ومن صفاتهم انهم يستغفرون للذين آمنوا واما الناقص الذي لا يحتمل الكمال فهو الجمادات والنبات والبهائم واما الذي يقبل الامرين جميعا فهو الانسان تارة يكون في الترقي بحيث يخبر عنه بأنه في مقعد صدق عند مليك مقتدر وتارة في التسفل بحيث يقال ثم رددناه اسفل سافلين واذا كان كذلك استحال ان يكون الانسان كاملا لذاته ومالا يكون كاملا لذاته استحال ان يصير موصوفا بالكمال الى ان يصير منتسبا الى الكامل لذاته لكن الانتساب قسمان قسم يعرض للزوال وقسم لا يكون يعرض للزوال اما الذي يكون يعرض للزوال فلا فائدة فيه ومثاله الصحة والمال والجمال واما الذي لا يكون يعرض للزوال فعبوديتك لله تعالى فانه كما يمتنع زوال صفة الالهية عنه يمتنع زوال صفة العبودية عنك فهذه النسبة لا تقبل الزوال والمنتسب اليه وهو الحق سبحانه لا يقبل الخروج عن صفة الكمال ثم اذا كنت من بلد او منتسبا الى قبيلة فانك لا تزال تبالغ في مدح تلك البلدة والقبيلة بسبب ذلك الانتساب العرضي فلأن تشتغل بذكر الله تعالى ونعوت كبريائه بسبب الانتساب الذاتي كان اولى فلهذا قال ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وقال الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى (البحث الثاني) في تقسيم اسماء الله تعالى اعلم ان اسم كل شيء اما ان يكون واقعا عليه بحسب ذاته او بحسب اجزاء ذاته او بحسب الامور الخارجة عن ذاته (اما القسم الاول) فقد اختلفوا في انه هل لله تعالى اسم على هذا الوجه وهذه المسئلة مبنية على ان حقيقة الله تعالى هل هي معلومة للبشر ام لا فمن قال انها غير معلومة للبشر قال ليس لذاته المخصوصة اسم لان المقصود من الاسم ان يشار به الى المسمى واذا كانت الذات المخصوصة غير معلومة امتنعت

الارض السابعة (وان تجهر بالقول) بيان لاحاطة علمه تعالى بجميع الاشياء او بيان سعة سلطنته وشمول قدرته لجميع الكائنات أي وان تجهر بذكره تعالى ودعائه فاعلم انه تعالى غني عن جهرك (فانه يعلم السر وأخفى) أي ما أسررته الى غيرك وشيأ اخفى من ذلك وهو ما اخطرته ببالك من غير أن تتفوه به أصلا أو ما أسررته لنفسك وأخفى منه وهو ما ستسره فيما سيأتي وتنكيره للمبالغة في الخفاء وهذا اما نهي عن الجهر كقوله تعالى واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول واما ارشاد للعباد الى أن الجهر ليس لاسماعه سبحانه بل لغرض آخر من تصوير النفس بالذكر وتثبيته فيها ومنعها من الاشتغال بغيره وقطع الوسوسة عنها وهضمها بالتضرع والجؤار وقوله تعالى (الله) خبر مبتدأ محذوف والجملة استئناف مسوق

الاشارة العقلية اليها فامتنع وضع الاسم لها وقد تكلمنا فى تحقيق ذلك فى تفسير اسم الله واما الاسم الواقع عليه بحسب اجزاء ذاته فذلك محال لانه ليس لذاته شئ من الاجزاء لان كل مركب ممكن وواجب الوجود لايكون ممكنا فلا يكون مركبا واما الاسم الواقع بحسب الصفات الخارجة عن ذاته فالصفات اما ان تكون ثبوتية حقيقية او ثبوتية اضافية اوسلبية اوثبوتية مع اضافية اوثبوتية مع سلبية اواضافية مع سلبية اوثبوتية واضافية وسلبية ولما كانت الاضافات الممكنة غير متناهية وكذا السلوب غير متناهية امكن ان يكون للبارى تعالى اسماء متباينة لامترادفة غير متناهية فهذا هو التنبيه على المأخذ (البحث الثالث) يقال ان الله تعالى اربعة آلاف اسم الف لايعلمها الا الله تعالى والف لايعلمها الا الله والملائكة والف لايعلمها الا الله والملائكة والانبياء واما الالف الرابع فان المؤمنين يعلمونه فثلثمائة منها فى التوراة وثلثمائة فى الانجيل وثلثمائة فى الزبور ومائة فى الفرقان تسع وتسعون منها ظاهرة وواحد مكتوم فمن احصاها دخل الجنة (البحث الرابع) الاسماء الواردة فى القرآن منها ماليس بانفراده ثناء ومدحا كقوله جاعل وخالق وصانع فاذا قيل فالق الاصباح وجاعل الليل سكنا صار مدحا واما الاسم الذى يكون مدحا فنه ما اذا قرن بغيره صارا بلغ نحو قولنا حى فاذا قيل الحى القيوم اوالحى الذى لايموت كان ابلغ وايضا قولنا بديع فانك اذا قلت بديع السموات والارض ازداد المدح ومن هذا الباب ماكان اسم مدح ولكن لايجوز افراده كقولك دليل وكاشف فاذا قيل يادليل المتحيرين ويا كاشف الضر والبلوى جاز ومنه مايكون اسم مدح مفردا او مقرونا كقولنا الرحمن الرحيم (البحث الخامس) من الاسماء مايكون مقارنتها احسن كقولك الاول الآخر المبدئ المعيد الظاهر الباطن ومثاله قوله تعالى فى حكاية قول المسيح ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم وبقية الابحاث قد تقدمت فى تفسير بسم الله الرحمن الرحيم (البحث السادس) فى النكت رأى بشر الحافى كاغدا مكتوبا فيه بسم الله الرحمن الرحيم فرفعه وطيبه بالمسك وبلعه فرأى فى النوم قائلا يقول يابشر طيبت اسمنا فنحن نطيب اسمك فى الدنيا والآخرة (وثانيها) قوله تعالى ولله الاسماء الحسنى وليس حسن الاسماء لذواتها لانها الفاظ واصوات بل حسنها لحسن معانيها ثم ليس حسن اسماء الله حسنا يتعلق بالصورة والخلقة فان ذلك محال على من ليس بجسم بل حسن يرجع الى معنى الاحسان مثلا اسم الستار والغفار والرحيم انما كانت حسناء لانها دالة على معنى الاحسان وروى ان حكيما ذهب اليه قبيح وحسن والتمسا الوصية فقال للحسن انت حسن والحسن لايليق به الفعل القبيح وقال للآخر انت قبيح والقبيح اذا فعل الفعل القبيح عظم قبحه فنقول الهنا اسماؤك حسنة وصفاتك حسنة فلا تظهر لنا من تلك الاسماء الحسنة والصفات الحسنة الا الاحسان الهنا يكفينا قبح افعالنا وسيرتنا فلا تضم اليه قبح العقاب ووحشة العذاب (وثالثها) قوله عليه السلام اطلبوا الحوائج عند حسان

لبيان انما ذكر من صفات الكمال موصوفها ذلك المعبود بالحق اى ذلك المنعوت بما ذكر من النعوت الجليلة الله عزوجل وقوله تعالى (لا اله الا هو) تحقيق للحق وتصريح بما تضمنه ماقبله من اختصاص الالوهية به سبحانه فان ماأسند اليه تعالى من خلق جميع الموجودات والرحمانية والمالكية للكل والعلم الشامل مما يقتضيه اقتضاء بينا وقوله تعالى (له الاسماء الحسنى) بيان لكون ماذكر من الخالقية والرحمانية والمالكية والعالمية اسماءه وصفاته من غير تعدد فى ذاته تعالى فانه روى ان المشركين حين سمعوا النبى عليه الصلاة والسلام يقول ياالله يارحمن قالوا ينهانا ان نعبد الهين وهو يدعو الها آخر والحسنى تأنيث الاحسن يوصف به الواحدة المؤنثة والجمع من المذكر والمؤنث كما رب اخرى وآياتنا الكبرى

الوجوه الهنا حسن الوجه عرضي اما حسن الصفات والاسماء فذاتي فلا تردنا عن احسانك
خائبين خاسرين (ورابعها) ذكران صيادا كان يصيد السمك فصاد سمكة وكان له ابنة
فأخذتها ابنته فطرحتها في الماء وقالت انها ما وقعت في الشبكة الا لغفلتها الهنا تلك
الصبية رحمت غفلة هاتيك السمكة وكانت تلقيها مرة اخرى في البحر ونحن قد اصطادتنا
وسوسة ابليس واخرجتنا من بحر رحمتك فارحمنا بفضلك وخلصنا منها والقنا في بحار
رحمتك مرة اخرى (وخامسها) ذكرت من الاسماء خمسة في الفاتحة وهي الله والرب
والرحمن والرحيم والملك فذكرت الالهية وهي اشارة الى القهارية والعظمة فعلم ان
الارواح لاتطيق ذلك القهر والعلو فذكرت بعدها اربعة اسماء تدل على اللطف الرب وهو
يدل على التربية والمعتاد ان من ربى احدا فانه لايهمل امره ثم ذكر الرحمن الرحيم
وذلك هو النهاية في اللطف والرأفة ثم ختم الامر بالملك والملك العظيم لاينتقم من
الضعيف العاجز ولان عائشة قالت لعلي عليه السلام ملكت فاسجح فأنت اولى بأن تعفو
عن هؤلاء الضعفاء (وسادسها) عن محمد بن كعب القرظي قال موسى عليه السلام
الهي اي خلقك اكرم عليك قال الذي لايزال لسانه رطبا من ذكري قال فأي خلقك اعلم
قال الذي يلتمس الى علمه علم غيره قال فأي خلقك اعدل قال الذي يقضي على نفسه كما
يقضي على الناس قال فأي خلقك اعظم جرما قال الذي يتهمني وهو الذي يسألني ثم
لايرضى بما قضيته له الهنا انا لانتهمك فانا نعلم ان كل ما احسنت به فهو فضل وكل ما تفعله
فهو عدل فلا تؤاخذنا بسوء اعمالنا (وسابعها) قال الحسن اذا كان يوم القيامة نادى
مناد سيعلم الجمع من اولى بالكرم اين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع
فيقومون فيتخطون رقاب الناس ثم يقال اين الذين كانوا لاتلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر
الله ثم ينادي مناد اين الحامدون الله على كل حال ثم تكون التبعة والحساب على من بقي
الهنا فنحن حمدناك واثنينا عليك بمقدار قدرتنا ومنتهى طاقتنا فاعف عنا بفضلك
ورحمتك ومن اراد الاستقصاء في الاسماء والصفات فعليه بكتاب لوامع البينات في
الاسماء والصفات والله التوفيق * قوله تعالى (وهل أتاك حديث موسى اذ رأى نارا

فقال لاهله امكثوا اني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس او اجد على النار هدى فلما
أتاها نودي ياموسى اني انا ربك فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى) اعلم انه تعالى لما
عظم حال القرآن وحال الرسول فيما كلفه اتبع ذلك بما يقوي قلب رسول الله صلى الله
عليه وسلم من ذكر احوال الانبياء عليهم السلام تقوية لقلبه في الابلاغ كقوله وكلا نقص
عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك وبدأ بموسى عليه السلام لان المحنة والفتنة
الحاصلة له كانت اعظم ليسلي قلب الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك ويصبره على تحمل
المكاره فقال وهل أتاك حديث موسى وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قوله وهل أتاك
يحتمل ان يكون هذا اول ما اخبر به من امر موسى عليه السلام فقال وهل أتاك اى لم

(وهل أتاك حديث موسى)
استئناف مسوق لتقرير أمر
التوحيد الذي اليه انتهى مساق
الحديث وبيان انه أمر مستمر فيما
بين الانبياء كابرا عن كابر وقد
خوطب به موسى عليه الصلاة
والسلام حيث قيل له انني انا الله
لا اله الا انا وبه ختم عليه الصلاة
والسلام مقاله حيث قال انما
الهكم الله الذي لا اله الا هو وأما
ما قيل من أن ذلك لترغيب النبي
عليه الصلاة والسلام في الائتساء
بموسى عليه الصلاة والسلام في
تحمل أعباء النبوة والصبر على
مقاساة الخطوب في تبليغ أحكام
الرسالة فيأباه أن مساق النظم
الكريم لصرفه عليه الصلاة
والسلام عن اقتحام المشاق وقوله
تعالى (اذ رأى نارا) ظرف
للحديث وقيل لمضمر مؤخر أي
حين رأى نارا كان كيت وكيت
وقيل مفعول لمضمر مقدم أي
اذكر وقت رؤيته نارا روي انه
عليه الصلاة والسلام استأذن
شعيبا عليهما الصلاة والسلام في
الخروج الى امه وأخيه فخرج
بأهله وأخذ على غير الطريق
مخافة من ملوك الشأم فلما وافى
وادي طوى وهو بالجانب الغربي
من الطور ولد له ولد في ليلة مظلمة
شاتية مثلجة وكانت ليلة الجمعة وقد
ضل الطريق وتفرقت ماشيته
ولا ماء عنده وقدح فصلد زنده

يأتك الى الآن وقد أتاك الآن فتنبه له وهذا قول الكلبي ويحتمل ان يكون قد أتاه ذلك في الزمان المتقدم فكأنه قال أليس قد أتاك وهذا قول مقاتل والضحاك عن ابن عباس (المسئلة الثانية) قوله وهل أتاك وان كان على لفظ الاستفهام الذى لا يجوز على الله تعالى لكن المقصود منه تقرير الجواب في قلبه وهذه الصيغة ابلغ في ذلك كما يقول المرء لصاحبه هل بلغك خبر كذا فيتطلع السامع الى معرفة ما يومى اليه ولو كان المقصود هو الاستفهام لكان الجواب يصدر من قبل النبي عليه السلام لا من قبل الله تعالى (المسئلة الثالثة) قوله تعالى اذ رأى نارا اى هل أتاك حديثه حين رأى نارا قال المفسرون استأذن موسى عليه السلام شعيبا في الرجوع الى والدته فأذن له فخرج فولد له ابن في الطريق في ليلة شاتية مثلجة وكانت ليلة الجمعة وقد حاد عن الطريق فقدح موسى عليه السلام النار فلم تور المقدحة شيئا فبيناهو في مزاولة ذلك اذ نظر نارا من بعيد عن يسار الطريق قال السدي ظن انها نار من نيران الرعاة وقال آخرون انه عليه السلام رآها في شجرة وليس في لفظ القرآن ما يدل على ذلك واختلفوا فقال بعضهم الذى رآه لم يكن نارا بل تخيله نارا والصحيح انه رأى نارا ليكون صادقا في خبره اذ الكذب لا يجوز على الانبياء قيل النار اربعة اقسام نار تأكل ولا تشرب وهي نار الدنيا ونار تشرب ولا تأكل وهي نار الشجر لقوله تعالى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا ونار تأكل وتشرب وهي نار المعدة ونار لا تأكل ولا تشرب وهي نار موسى عليه السلام وقيل ايضا النار على اربعة اقسام (احدها) نار لها نور بلا حرقة وهي نار موسى عليه السلام (وثانيها) حرقة بلا نور وهي نار جهنم (وثالثها) الحرقة والنور وهي نار الدنيا (ورابعها) لا حرقة ولا نور وهي نار الاشجار فلما ابصر النار توجه نحوها فقال لاهله امكثوا فيجوزان يكون الخطاب للمرأة وولدها والخادم الذى معها ويجوزان يكون للمرأة وحدها ولكن خرج على ظاهر لفظ الاهل فان الاهل يقع على الجمع وايضا فقد يخاطب الواحد بلفظ الجماعة تفخيما اى اقيموا في مكانكم انى آنست نارا اى ابصرت والايناس الابصار البين الذى لا شبهة فيه ومنه انسان العين فانه يبين به الشيء والانس لظهورهم كما قيل الجن لاستتارهم وقيل هو ايضا ما يؤنس به ولما وجد منه الايناس وكان منتفيا حقيقة لهم اتى بكلمة انى لتوطين انفسهم ولما كان الايناس بالقبس ووجود الهدى مترقبين متوقعين بنى الامر فيهما على الرجاء والطمع فقال لعلى آتيكم ولم يقطع فيقول انى آتيكم لئلا يعد ما لم يتيقن الوفاء به والنكتة فيه ان قوما قالوا كذب ابراهيم للمصلحة وهو محال لان موسى عليه السلام قبل نبوته احترز عن الكذب فلم يقل آتيكم ولكن قال لعلى آتيكم ولم يقطع فيقول انى آتيكم لئلا يعد ما لم يتيقن الوفاء به والقبس النار المقتبسة في رأس عود او فتيلة او غيرهما او اجد على النار هدى والهدى ما يهتدى به وهو اسم مصدر فكأنه قال اجد على النار ما اهتدى به من دليل او علامة ومعنى الاستعلاء على النار ان اهل

فبينما هو في ذلك اذ رأى نارا على يسار الطريق من جانب الطور (فقال لاهله امكثوا) اى اقيموا مكانكم امرهم عليه الصلاة والسلام بذلك لئلا يتبعوه فيما عزم عليه عليه الصلاة والسلام من الذهاب الى النار كما هو المعتاد لا لئلا ينتقلوا الى موضع آخر فانه مما لا يخطر بالبال والخطاب للمرأة والولد والخادم وقيل لها وحدها والجمع اما لظاهر لفظ الاهل او للتفخيم كما في قول من قال «وان شئت حرمت النساء سواكم» (انى آنست نارا) اى ابصرتها ابصارا بينا لا شبهة فيه وقيل الايناس خاص بابصار ما يؤنس به والجملة تعليل للامر والمأمور به (لعلى آتيكم منها) اى اجيئكم من النار (بقبس) اى بشعلة مقتبسة من معظم النار وهى المرادة بالجذوة في سورة القصص وبالشهاب القبس (او اجد على النار هدى) هاديا يدلني على الطريق على انه مصدر سمى به الفاعل مبالغة او حذف منه المضاف اى ذا هداية او على انه اذا وجد الهادى فقد وجد الهدى وقيل هاد يهديني الى ابواب الدين فان افكار الابرار مغمورة بالهمة الدينية في عامة احوالهم لا يشغلهم عنها شاغل والاول هو الاظهر لان مساق النظم الكريم لتسلية اهله وقد نص عليه في سورة القصص

النار يستعلون المكان القريب منها ولان المصطلين بها اذا احاطوا بها كانوا مشرفين عليها فلما أتاها اى اتى النار قال ابن عباس رأى شجرة خضراء من اسفلها الى اعلاها كأنها نار بيضاء فوقف متعجبا من شدة ضوء تلك النار وشدة خضرة تلك الشجرة فلا النار تغير خضرتها ولا كثرة ماء الشجرة تغير ضوء النار فسمع تسبيح الملائكة ورأى نورا عظيما قال وهب فظن موسى عليه السلام انها نار أوقدت فأخذ من دقاق الحطب ليقتبس من لهبها فمالت اليه كأنها تريده فتأخر عنها وهابها ثم لم تزل تطمعه ويطمع فيها ثم لم يكن اسرع من خمودها فكأنها لم تكن ثم رمى موسى بنظره الى فرعها فاذا خضرته ساطعة فى السماء واذا نور بين السماء والارض له شعاع تكل عنه الابصار فلما رأى موسى ذلك وضع يده على عينيه فنودى ياموسى قال القاضى الذى يروى من ان الزند ما كان يورى فهذا جائز واما الذى يروى من ان النار كانت تتأخر عنه فان كانت النبوة قد تقدمت له جاز ذلك والا فهو ممتنع الا ان يكون معجزة لغيره من الانبياء عليهم السلام وفى قوله وانا اخترتك فاستمع لما يوحى دلالة على ان فى هذه الحالة اوحى الله اليه وجعله نبيا وعلى هذا الوجه يبعد ما ذكروه من تأخر النار عنه ويبين فساد ذلك قوله تعالى فلما أتاها نودى ياموسى وان كانت تتأخر عنه حالا بعد حال لما صح ذلك ولما بقى لفاء التعقيب فائدة قلنا القاضى انما بنى هذا الاعتراض على مذهبه فى ان الارهاص غير جائز وذلك عندنا باطل فبطل قوله واما التمسك بفاء التعقيب فقريب لان تخلل الزمان القليل فيما بين المجئ والنداء لايقدح فى فاء التعقيب (المسئلة الرابعة) قرأ ابو عمرو وابن كثير انى بالفتح اى نودى بانى انا ربك والباقون بالكسر اى نودى فقيل ياموسى اولان النداء ضرب من القول فعومل معاملته (المسئلة الخامسة) قال الاشعرى ان الله تعالى اسمعه الكلام القديم الذى ليس بحرف ولا صوت واما المعتزلة فانهم انكروا وجود ذلك الكلام فقالوا انه سبحانه خلق ذلك النداء فى جسم من الاجسام كالشجرة اوغيرها لان النداء كلام الله تعالى والله قادر عليه ومتى شاء فعله واما اهل السنة من اهل ماوراء النهر فقد اثبتوا الكلام القديم الا انهم زعموا ان الذى سمعه موسى عليه السلام صوت خلقه الله تعالى فى الشجرة واحتجوا بالآية على ان المسموع هو الصوت المحدث قالوا انه تعالى رتب النداء على انه أتى النار والمرتب على المحدث محدث فالنداء محدث (المسئلة السادسة) اختلفوا فى ان موسى عليه السلام كيف عرف ان المنادى هو الله تعالى فقال اصحابنا يجوز ان يخلق الله تعالى له علما ضروريا بذلك ويجوز ان يعرفه بالمعجزة قالت المعتزلة اما العلم الضرورى فغير جائز لانه لو حصل العلم الضرورى بكون هذا النداء كلام الله تعالى لحصل العلم الضرورى بوجود الصانع العالم القادر لاستحالة أن تكون الصفة معلومة بالضرورة والذات تكون معلومة بالاستدلال ولو كان وجود الصانع تعالى معلوما له بالضرورة لخرج موسى عن كونه مكلفا لان حصول العلم الضرورى ينافى التكليف

حيث قيل لعلى آتيكم منها بخبر او جذوة الآية وكلمة او فى الموضعين لمنع الخلو دون منع الجمع ومعنى الاستعلاء فى قوله تعالى على النار ان أهل النار يستعلون المكان القريب منها اولانها عند الاصطلاء يكتنفونها قياما وقعودا فيشرفون عليها ولما كان الاتيان بهما مترقبا غير محقق الوقوع صدر الجملة بكلمة الترجى وهى اما علة لفعل قد حذف ثقة بما يدل عليه من الامر بالمكث والاخبار بايناس النار وتفاديا عن التصريح بما يوحشهم واما حال من فاعله اى فاذهب اليها لآتيكم اوكى آتيكم اوراجيا ان آتيكم منها بقبس الآية وقد مر تحقيق ذلك مفصلا فى تفسير قوله تعالى يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون (فلما اتاها) اى النار التى آنسها قال ابن عباس رضى الله عنهما راى شجرة خضراء اطافت بها من اسفلها الى اعلاها نار بيضاء تتقد كاضوء مايكون فوقف متعجبا من شدة ضوئها وشدة خضرة الشجرة فلا النار تغير خضرتها ولا كثرة ماء الشجرة تغير ضوءها قالوا النار اربعة اصناف صنف يأكل ولايشرب وهى نار الدنيا وصنف يشرب ولا يأكل وهى نار الشجر الاخضر وصنف يأكل ويشرب

وبالاتفاق لم يخرج موسى عن التكليف فعلمنا ان الله تعالى عرفه ذلك بالمعجز ثم اختلفوا في ذلك المعجز على وجوه (اولها) منهم من قال نعلم قطعا ان الله تعالى عرفه ذلك بواسطة المعجز ولا حاجة بنا الى ان نعرف ذلك المعجز ما هو (وثانيها) يروى ان موسى عليه السلام لما شاهد النور الساطع من الشجرة الى السماء وسمع تسبيح الملائكة وضع يديه على عينيه فنودي ياموسى فقال لبيك انى اسمع صوتك ولا اراك فأين انت قال انا معك وامامك وخلفك ومحيط بك واقرب اليك منك ثم ان ابليس اخطر بباله هذا الشك وقال ما يدريك انك تسمع كلام الله فقال لانى اسمعه من فوقى ومن تحتى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى كما اسمعه من قدامى فعلمت انه ليس بكلام المخلوقين ومعنى اطلاقه هذه الجهات انى اسمعه بجميع اجزائى وابعاضى حتى كان كل جارحة منى صارت اذنا (وثالثها) لعله سمع النداء من جماد كالحصى وغيرها فيكون ذلك معجزا (ورابعها) انه رأى النار فى الشجرة الخضراء بحيث ان تلك الخضرة ما كانت تطفئ تلك النار وتلك النار ما كانت تضر تلك الخضرة وهذا لا يقدر عليه احد الا الله سبحانه (المسئلة السابعة) قالوا ان تكرير الضمير فى انى انا ربك كان لتوكيد الدلالة وازالة الشبهة (المسئلة الثامنة) ذكروا فى قوله فاخلع نعليك وجوها (احدها) كانتا من جلد حمار ميت فلذلك امر بخلعهما صيانة للوادى المقدس ولذلك قال عقيبه انك بالوادى المقدس طوى وهذا قول على عليه السلام وقول مقاتل والكلبى والضحاك وقتادة والسدى (والثانى) انما امر بخلعهما لينال قدميه بركة الوادى وهذا قول الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد (وثالثها) أن يحمل ذلك على تعظيم البقعة من ان يطأها الا حافيا ليكون معظما لها وخاضعا عند سماع كلام ربه والدليل عليه انه تعالى قال عقيبه انك بالوادى المقدس وهذا يفيد التعليل فكأنه قال تعالى اخلع نعليك لانك بالوادى المقدس طوى واما اهل الاشارة فقد ذكروا فيها وجوها (احدها) ان النعل فى النوم يفسر بالزوجة والولد فقوله اخلع نعليك اشارة الى ان لا يلتفت خاطره الى الزوجة والولد وان لا يبقى مشغول القلب بأمرهما (وثانيها) المراد بخلع النعلين ترك الالتفات الى الدنيا والآخرة كأنه امره بان يصير مستغرق القلب بالكلية فى معرفة الله تعالى ولا يلتفت بخاطره الى ما سوى الله تعالى والمراد من الوادى المقدس قدس جلال الله تعالى وطهارة عزته يعنى انك لما وصلت الى بحر المعرفة فلا تلتفت الى المخلوقات (وثالثها) ان الانسان حال الاستدلال على الصانع لا يمكنه ان يتوصل اليه الا بمقدمتين مثل ان يقول العالم المحسوس محدث او ممكن وكل ما كان كذلك فله مدبر ومؤثر وصانع وهاتان المقدمتان يشبهان النعلين لان بهما يتوصل العقل الى المقصود وينتقل من النظر فى الخلق الى معرفة الخالق ثم بعد الوصول الى معرفة الخالق وجب ان لا يبقى ملتفتا الى تينك المقدمتين لان بقدر الاشتغال بالغير يبقى محروما عن الاستغراق فيه فكأنه قيل له لا تكن مشتغل القلب والخاطر بتينك المقدمتين فانك وصلت الى الوادى المقدس

وهى نار جهنم وصنف لا يأكل ولا يشرب وهى نار موسى عليه الصلاة والسلام وقالوا ايضا هى اربعة انواع نوع له نور واحراق وهى نار الدنيا ونوع لا نور له ولا احراق وهى نار الاشجار ونوع له نور بلا احراق وهى نار موسى عليه الصلاة والسلام ونوع له احراق بلا نور وهى نار جهنم روى ان الشجرة كانت عوسجة وقيل كانت سمرة (نودى ياموسى) اى نودى فقيل ياموسى (انى انا ربك) اوعومل النداء معاملة القول لكونه ضربا منه وقرئ بالفتح اى بانى وتكرير الضمير لتاكيد الدلالة وتحقيق المعرفة واماطة الشبهة روى انه لما نودى ياموسى قال عليه الصلاة والسلام من المتكلم فقال الله عز وجل انا ربك فوسوس اليه ابليس لعلك تسمع كلام شيطان فقال انا عرفت انه كلام الله تعالى بانى اسمعه من جميع الجهات بجميع الاعضاء قلت وذلك لان سماع ما ليس من شأنه ذلك من الاعضاء ليس الا من آثار قدرة الخلاق العليم تعالى وتقدس وقيل تلقى عليه الصلاة والسلام كلام رب العزة تلقيا روحانيا ثم تمثل ذلك الكلام لبدنه وانتقل الى الحس المشترك فانتقش به من غير اختصاص بعضو وجهة (فاخلع نعليك) امر عليه الصلاة والسلام

الذى هو بحر معرفة الله تعالى ولجة ألوهيته (المسئلة التاسعة) استدلت المعتزلة بقوله اخلع نعليك على ان كلام الله تعالى ليس بقديم اذ لو كان قديما لكان الله قائلا قبل وجود موسى اخلع نعليك يا موسى ومعلوم ان ذلك سفه فان الرجل فى الدار الخالية اذا قال يازيد افعل ويا عمرو لا تفعل مع ان زيدا وعمرا لا يكونان حاضرين يعد ذلك جنونا وسفها فكيف يليق ذلك بالاله سبحانه وتعالى وأجاب أصحابنا عنه من وجهين (الاول) ان كلامه تعالى وان كان قديما الا أنه فى الازل لم يكن أمرا ولانهيا (والثانى) انه كان أمرا بمعنى انه وجد فى الازل شئ لما استمر الى ما لا يزال صار الشخص به مأمورا من غير وقوع التغير فى ذلك الشئ كما ان القدرة تقتضى صحة الفعل ثم انها كانت موجودة فى الازل من غير هذه الصحة فلما استمرت الى ما لا يزال حصلت الصحة كذا ههنا وهذا الكلام فيه غموض وبحث دقيق (المسئلة العاشرة) ليس فى الآية دلالة على كراهة الصلاة والطواف فى النعل والصحيح عدم الكراهة وذلك لانا ان علنا الامر بخلع النعلين بتعظيم الوادى وتعظيم كلام الله كان الامر مقصورا على تلك الصورة وان علناه بأن النعلين كانا من جلد حمار ميت فجائز ان يكون قد كان محظورا لبس جلد الحمار الميت وان كان مدبوغا فان كان كذلك فهو منسوخ بقوله عليه السلام أيما اهاب دبغ فقد طهر وقد صلى النبى صلى الله عليه وسلم فى نعليه ثم خلعهما فى الصلاة فخلع الناس نعالهم فلما سلم قال ما لكم خلعتم نعالكم قالوا خلعت فخلعنا قال فان جبريل أخبرنى ان فيهما قذرا فلم يكره النبى صلى الله عليه وسلم الصلاة فى النعل وانكر على الخالعين خلعها وأخبرهم بأنه انما خلعهما لما فيهما من القذر (المسئلة الحادية عشر) قرئ طوى بالضم والكسر منصرفا وغير منصرف فمن نونه فهو اسم الوادى ومن لم ينونه ترك صرفه لانه معدول عن طاوى فهو مثل عمر المعدول عن عامر ويجوز أن يكون اسما للبقعة (المسئلة الثانية عشرة) فى طوى وجوه (الاول) انه اسم الوادى وهو قول عكرمة وابن زيد (والثانى) معناه مرتين نحو مثنى أى قدس الوادى مرتين او نودى موسى عليه السلام نداءين يقال ناديته طوى اى مثنى (والثالث) طوى اى طيا قال ابن عباس رضى الله عنهما انه مر بذلك الوادى ليلا فطواه فكان المعنى بالوادى المقدس الذى طويته طيا اى قطعته حتى ارتفعت الى اعلاه ومن ذهب الى هذا قال طوى مصدر خرج عن لفظه كأنه قال طويته طوى كما يقال هدى يهدى هدى والله اعلم ○ قوله تعالى (وانا اخترتك فاستمع لما يوحى انى انا الله لا اله الا انا فاعبدنى واقم الصلاة لذكرى) قرأ حمزة وانا اخترناك وقرأ ابى بن كعب وانى اخترتك وههنا مسائل (المسئلة الاولى) معناه اخترتك للرسالة وللكلام الذى خصصتك به وهذه الآية تدل على ان النبوة لا تحصل بالاستحقاق لان قوله وانا اخترتك يدل على ان ذلك المنصب العلى انما حصل لان الله تعالى اختاره له ابتداء لا انه استحقه على الله تعالى (المسئلة الثانية) قوله فاستمع لما يوحى فيه نهاية الهيبة والجلالة فكأنه قال لقد جاءك امر عظيم هائل فتأهب له واجعل كل

بذلك لان الحفوة دخل فى التواضع وحسن الادب ولذلك كان السلف الصالحون يطوفون بالكعبة حافين وقيل ليباشر الوادى بقدميه تبركا به وقيل لما أن نعليه كانا من جلد حمار غير مدبوغ وقيل معناه فرغ قلبك من الاهل والمال والفاء لترتيب الامر على ماقبلها فان ربوبيته تعالى له عليه الصلاة والسلام من موجبات الامر ودواعيه وقوله تعالى (انك بالواد المقدس) تعليل لوجوب الخلع المأمور به وبيان لسبب ورود الامر بذلك من شرف البقعة وقدسها روى انه عليه الصلاة والسلام خلعهما وألقاهما وراء الوادى (طوى) بضم الطاء غير منون وقرئ منونا وقرئ بالكسر منونا وغير منون فمن نونه اوله بالمكان دون البقعة وقيل هو كثنى من الطى مصدر لنودى أو المقدس أى نودى نداءين أو قدس مرة بعد أخرى (وأنا اخترتك) أى اصطفيتك للنبوة والرسالة وقرئ وانا اخترناك بالفتح والكسر والفاء فى قوله (فاستمع) لترتيب الامر أو المأمور به على ماقبلها فان اختياره عليه السلام لما ذكر من موجبات الاستماع والامر به واللام فى قوله تعالى (لما يوحى) متعلقة باستمع وما موصولة أو مصدرية أى

عقلك وخاطرك مصروفاً اليه فقوله وانا اخترتك يفيد نهاية اللطف والرحمة وقوله فاستمع يفيد نهاية الهيبة فيحصل له من الاول نهاية الرجاء ومن الثانى نهاية الخوف (المسئلة الثالثة) قوله اننى انا الله لا اله الا انا فاعبدنى يدل على ان علم الاصول مقدم على علم الفروع لان التوحيد من علم الاصول والعبادة من علم الفروع وايضا الفاء فى قوله فاعبدنى تدل على ان عبادته انما لزمت لالهيته وهذا هو تحقيق العلماء ان الله هو المستحق للعبادة (المسئلة الرابعة) انه سبحانه بعد ان امره بالتوحيد اولا ثم بالعبادة ثانيا امره بالصلاة ثالثا احتج اصحابنا بهذه الآية على ان تأخير البيان عن وقت الحاجة جائز من وجهين (الاول) انه امره بالعبادة ولم يذكر كيفية تلك العبادة فثبت انه يجوز ورود المجمل منفكا عن البيان (الثانى) انه قال واقم الصلاة لذكرى ولم يبين كيفية الصلاة قال القاضى لا يمتنع ان موسى عليه السلام قد عرف الصلاة التى تعبد الله تعالى بها شعيبا عليه السلام وغيره من الانبياء فصار الخطاب متوجها الى ذلك ويحتمل انه تعالى بينه فى الحال وان كان المنقول فى القرآن لم يذكر فيه الا هذا القدر والجواب اما العذر الاول فانه لا يتوجه فى قوله تعالى فاعبدنى وايضا فحمل مثل هذا الخطاب العظيم على فائدة جديدة اولى من حمله على امر معلوم لان موسى عليه السلام ما كان يشك فى وجوب الصلاة التى جاء بها شعيب عليه السلام فلو حملنا قوله واقم الصلاة على ذلك لم يحصل من هذا الخطاب العظيم فائدة زائدة اما لو حملناه على صلاة اخرى لحصلت الفائدة الزائدة قوله لعل الله تعالى بينه فى ذلك الموضع وان لم يحكه فى القرآن قلنا لا شك ان البيان اكثر فائدة من المجمل فلو كان مذكورا لكان اولى بالحكاية (المسئلة الخامسة) فى قوله لذكرى وجوه (احدها) لذكرى يعنى لتذكرنى فان ذكرى ان اعبد ويصلى لى (وثانيها) لتذكرنى فيها لاشتمال الصلاة على الاذكار عن مجاهد (وثالثها) لانى ذكرتها فى الكتب وأمرت بها (ورابعها) لان اذكرك بالمدح والثناء واجعل لك لسان صدق (وخامسها) لذكرى خاصة لا تشوبه بذكر غيرى (وسادسها) لاخلاص ذكرى وطلب وجهى لا ترائى بها ولا تقصد بها غرضا آخر (وسابعها) لتكون لى ذاكرا غير ناس فعل المخلصين فى جعلهم ذكر ربهم على بال منهم كما قال تعالى لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله (وثامنها) لاوقات ذكرى وهى مواقيت الصلاة لقوله تعالى ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا (وتاسعها) اقم الصلاة حين تذكرها اى انك اذا نسيت صلاة فاقضها اذا ذكرتها روى قتادة عن انس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من نسى صلاة فليصلها اذا ذكرها لا كفارة لها الا ذلك ثم قرأ واقم الصلاة لذكرى قال الخطابى يحتمل هذا الحديث وجهين (احدهما) انه لا يكفرها غير قضائها والآخر انه لا يلزم فى نسيانها غرامة ولا كفارة كما تلزم الكفارة فى ترك صوم رمضان من غير عذر وكما يلزم المحرم اذا ترك شيئا من نسكه فدية من اطعام او دم وانما يصلى ما ترك فقط فان قيل حق العبارة ان يقول اقم الصلاة لذكرها كما قال عليه السلام فليصلها اذا ذكرها قلنا قوله

(لذكرى)

فاستمع لما يوحى اليك أو للوحى لا باخترتك كما قيل لكن لا لما قيل من انه من باب التنازع واعمال الاول فلابد حينئذ من اعادة الضمير مع الثانى بل لان قوله تعالى (اننى أنا الله لا اله الا انا) بدل من ما يوحى ولا ريب فى أن اختياره عليه الصلاة والسلام ليس لهذا الوحى فقط والفاء فى قوله تعالى (فاعبدنى) لترتيب المأمور به على ما قبلها فان اختصاص الالوهية به سبحانه وتعالى من موجبات تخصيص العبادة به عز وجل (وأقم الصلاة) خصت الصلاة بالذكر وأفردت بالامر مع اندراجها فى الامر بالعبادة لفضلها وانافتها على سائر العبادات بما نيطت به من ذكر المعبود وشغل القلب واللسان بذكره وذلك قوله تعالى (لذكرى)

لذكرى معناه لذكر الحاصل بخلق او بتقدير حذف المضاف اى لذكر صلاتى (المسئلة السادسة) لو فاتته صلوات يستحب ان يقضيها على ترتيب الاداء فلو ترك الترتيب فى قضائها جاز عند الشافعى رحمه الله ولو دخل عليه وقت فريضة وتذكر فائتة نظران كان فى الوقت سعة استحب ان يبدأ بالفائتة ولو بدأ بصلاة الوقت جاز وان ضاق الوقت بحيث لو بدأ بالفائتة فات الوقت يجب ان يبدأ بصلاة الوقت حتى لا تفوت ولو تذكر الفائتة بعد ما شرع فى صلاة الوقت اتمها ثم قضى الفائتة ويستحب ان يعيد صلاة الوقت بعدها ولا يجب وقال ابو حنيفة رحمه الله يجب الترتيب فى قضاء الفوائت ما لم تزد على صلاة يوم وليلة حتى قال لو تذكر فى خلال صلاة الوقت فائتة تركها اليوم يبطل فرض الوقت فيقضى الفائتة ثم يعيد صلاة الوقت الا ان يكون الوقت ضيقا فلا يبطل حجة ابى حنيفة رحمه الله الآية والخبر والاثر والقياس اما الآية فقوله تعالى أقم الصلاة لذكرى اى لتذكرها واللام بمعنى عند كقوله اقم الصلاة لدلوك الشمس اى عند دلوكها فمعنى الآية اقم الصلاة المتذكرة عند تذكرها وذلك يقتضى رعاية الترتيب واما الخبر فقوله عليه السلام من نسى صلاة فليصلها اذا ذكرها والفاء للتعقيب وايضا روى جابر بن عبد الله قال جاء عمر بن الخطاب رضى الله عنهما الى النبى صلى الله عليه وسلم يوم الخندق فجعل يسب كفار قريش ويقول يا رسول الله ما صليت صلاة العصر حتى كادت تغيب الشمس قال النبى صلى الله عليه وسلم وانا والله ما صليتها بعد قال فنزل الى البطحاء وصلى العصر بعد ما غابت الشمس ثم صلى المغرب بعدها وهذا الحديث مذكور فى الصحيحين قالت الحنفية والاستدلال به من وجهين (احدهما) انه عليه الصلاة والسلام قال صلوا كما رأيتمونى اصلى فلما صلى الفوائت على الولاء وجب علينا ذلك (والثانى) ان فعل النبى صلى الله عليه وسلم اذا خرج مخرج البيان للمجمل كان حجة وهذا الفعل خرج بيانا لمجمل قوله تعالى أقيموا الصلاة ولهذا قلنا ان الفوائت اذا كانت فى حد القلة يجب مراعاة الترتيب فيها واذا دخلت فى حد الكثرة يسقط الترتيب واما الاثر فاروى عن ابن عمر رضى الله عنهما انه قال من فاتته صلاة فلم يذكرها الا فى صلاة الامام فليمض فى صلاته فاذا قضى صلاته مع الامام يصلى ما فاته ثم ليعد التى صلاها مع الامام وقد يروى هذا مرفوعا الى النبى صلى الله عليه وسلم واما القياس فهو انهما صلاتان فريضتان جمعهما وقت واحد فى اليوم والليلة فاشبهتا صلاتى عرفة والمزدلفة فلما لم يجز اسقاط الترتيب فيهما وجب ان يكون حكم الفوائت فيما دون اليوم والليلة كذلك حجة الشافعى رحمه الله انه روى فى حديث ابى قتادة انهم لما ناموا عن صلاة الفجر ثم انتبهوا بعد طلوع الشمس امرهم النبى صلى الله عليه وسلم ان يقودوا رواحلهم ثم صلاها ولو كان وقت التذكر معينا للصلاة لما جاز ذلك فعلمنا ان ذلك الوقت وقت لتقرر الوجوب عليه لكن لا على سبيل التضييق بل على سبيل التوسع اذا ثبت هذا فنقول ايجاب قضاء الفوائت وايجاب اداء فرض الوقت الحاضر يجرى مجرى التخيير بين الواجبين

أى لتذكرنى فان ذكرى كما ينبغى لا يتحقق الا فى ضمن العبادة والصلاة أو لتذكرنى فيها لاشتمالها على الاذكار أو لذكرى خاصة لا تشوبه بذكر غيرى أو لاخلاص ذكرى وابتغاء وجهى لا ترائى بها ولا تقصد بها غرضا آخر أو لتكون ذاكرا لى غير ناس وقيل لذكرى اياها وأمرى بها فى الكتب أو لان أذكرك بالمدح والثناء وقيل لاوقات ذكرى وهى مواقيت الصلاة أو لذكر صلاتى لما روى انه عليه الصلاة والسلام قال من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها اذا ذكرها لان الله تعالى يقول وأقم الصلاة لذكرى وقرئ لذكرى بألف التأنيث وللذكرى معرفا وللذكر بالتعريف والتنكير وقوله تعالى

فوجب ان يكون المكلف مخيرا فى تقديم ايهماشاء ولانه لو كان الترتيب فى الفوائت شرطا لما سقط بالنسيان ألا ترى انه اذا صلى الظهر والعصر بعرفة فى يوم غيم ثم تبين انه صلى الظهر قبل الزوال والعصر بعد الزوال فانه يعيدهما جميعا ولم يسقط الترتيب بالنسيان لما كان شرطا فيهما فههنا ايضا لو كان شرطا فيهما لما كان يسقط بالنسيان * قوله تعالى

(ان الساعة آتية اكاد اخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى) اعلم انه تعالى لما خاطب موسى عليه السلام بقوله فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى اتبعه بقوله ان الساعة آتية اكاد اخفيها وما اليق هذا بتأويل من تأول قوله لذكرى اى لاذكرك بالامانة والكرامة فقال عقيب ذلك ان الساعة آتية لانها وقت الاثابة ووقت المجازاة ثم قال اكاد أخفيها وفيه سؤالان (السؤال الاول) هو ان كاد نفيه اثبات واثباته نفى بدليل قوله وما كادوا يفعلون اى فعلوا ذلك فقوله اكاد اخفيها يقتضى انه ما اخفاها وذلك باطل لوجهين (احدهما) قوله ان الله عنده علم الساعة (والثانى) ان قوله لتجزى كل نفس بما تسعى انما يليق بالاخفاء لا بالاظهار والجواب من وجوه (احدها) ان كاد موضوع للمقاربة فقط من غير بيان النفى والاثبات فقوله اكاد اخفيها معناه قرب الامر فيه من الاخفاء واما انه هل حصل ذلك الاخفاء او ما حصل فذلك غير مستفاد من اللفظ بل من قرينة قوله لتجزى كل نفس بما تسعى فان ذلك انما يليق بالاخفاء لا بالاظهار (وثانيها) ان كاد من الله واجب فمعنى قوله اكاد اخفيها اى انا اخفيها عن الخلق كقوله عسى ان يكون قريبا اى هو قريب قاله الحسن (وثالثها) قال ابو مسلم اكاد بمعنى اريد وهو كقوله كذلك كدنا ليوسف ومن امثالهم المتداولة لا افعل ذلك ولا اكاد اى ولا اريد ان افعله (ورابعها) معناه اكاد اخفيها من نفسى وقيل انها كذلك فى مصحف ابى وفى حرف ابن مسعود اكاد اخفيها من نفسى فكيف اعلنها لكم قال القاضى هذا بعيد لان الاخفاء انما يصح فيمن يصلح له الاظهار وذلك مستحيل على الله تعالى لان كل معلوم معلوم له فالاظهار والاسرار منه مستحيل ويمكن ان يجاب عنه بأن ذلك واقع على التقدير يعنى لو صح منى اخفاؤه على نفسى لاخفيته عنى والاخفاء وان كان محالا فى نفسه الا انه لا يمتنع ان يذكر ذلك على هذا التقدير مبالغة فى عدم اطلاع الغير عليه قال قطرب هذا على عادة العرب فى مخاطبة بعضهم بعضا يقولون اذا بالغوا فى كتمان الشئ كتمته حتى من نفسى فالله تعالى بالغ فى اخفاء الساعة فذكره بأبلغ ما تعرفه العرب فى مثله (وخامسها) أكاد صلة فى الكلام والمعنى ان الساعة آتية أخفيها قال زيد الخيل

سريع الى الهيجاء شاك سلاحه * فما ان يكاد قرنه يتنفس

والمعنى فما ان يتنفس قرنه (وسادسها) قال ابو الفتح الموصلى اكاد اخفيها تأويله اكاد اظهرها وتلخيص هذه اللفظة اكاد ازيل عنها اخفاءها لان افعل قد يأتى بمعنى السلب والنفى كقولك اعجمت الكتاب واشكلته اى أزلت عجمته واشكاله واشكيته اى ازلت

(شكواه)

(ان الساعة آتية) تعليل لوجوب العبادة واقامة الصلاة أى كائنة لامحالة وانما عبر عن ذلك بالاتيان تحقيقا لحصولها بإبرازها فى معرض امر محقق متوجه نحو المخاطبين (اكاد أخفيها) أى لا اظهرها بأن أقول انها آتية ولولا أن ما فى الاخبار بذلك من اللطف وقطع الاعذار لما فعلت أو اكاد أظهرها بإيقاعها من أخفاه اذا أظهره بسلب خفائه ويؤيده القراءة بفتح الهمزة من خفاه بمعنى أظهره وقيل أخفاه من الاضداد ديجئ بمعنى الاظهار والستر وقوله تعالى (لتجزى كل نفس بما تسعى) متعلق بآتية وما بينهما اعتراض او بأخفيها على المعنى الاخير وما مصدرية أى لتجزى كل نفس بسعيها فى تحصيل ما ذكر من الامور المأمور بها وتخصيصه فى معرض الغاية لاتيانها مع أنه لجزاء كل نفس بما صدر عنها سواء كان سعيا فيما ذكر أو تقاعدا عنه بالمرة او سعيا فى تحصيل ما يضاده للايذان بأن المراد بالذات من اتيانها هو الاثابة بالعبادة واما العقاب بتركها فمن مقتضيات سوء اختيار العصاة وبأن المأمور به فى قوة الوجوب والساعة فى شدة الهول والفظاعة بحيث يوجبان على كل نفس أن تسعى فى الامتثال بالامر وتجد فى تحصيل ما ينجيها من الطاعات وحينئذ تحترز عن اقتراف ما يرديها من المعاصى وعليه مدار الامر

شكواه (وسابعها) قرئ اخفيها بفتح الالف اى اكاد أظهرها من خفاه اذا اظهره اى
قرب اظهارها كقوله اقتربت الساعة قال امرؤ القيس

فان تدفنوا الداء لانخفه * وان تمنعوا الحرب لانقعد

اى لانظهره قال الزجاج وهذه القراءة ابين لان معنى اكاد أظهرها يفيدانه قد اخفاها
(وثامنها) اراد ان الساعة آتية اكاد وانقطع الكلام ثم قال اخفيها ثم رجع الكلام
الاول الى ان الاولى الاخفاء لتجزى كل نفس بما تسعى وهذا الوجه بعيد والله اعلم
(السؤال الثانى) ما الحكمة فى اخفاء الساعة واخفاء وقت الموت الجواب لان الله تعالى
وعد قبول التوبة فلو عرف وقت الموت لاشتغل بالمعصية الى قريب من ذلك الوقت ثم يتوب
فيتخلص من عقاب المعصية فتعريف وقت الموت كالاغراء بفعل المعصية وانه لايجوز اما
قوله لتجزى كل نفس بما تسعى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) انه تعالى لما حكم بمجئ يوم
القيامة ذكر الدليل عليه وهو انه لولا القيامة لما تميز المطيع عن العاصى والمحسن عن
المسئ وذلك غير جائز وهو الذى عناه الله تعالى بقوله ام نجعل الذين آمنوا وعملوا
الصالحات كالمفسدين فى الارض ام نجعل المتقين كالفجار (المسئلة الثانية) احتجت
المعتزلة بهذه الآية على ان الثواب مستحق على العمل لان الباء للالصاق فقوله بما تسعى يدل
على ان المؤثر فى ذلك الجزاء هو ذلك السعى (المسئلة الثالثة) احتجوا بها على ان فعل العبد
غير مخلوق لله تعالى وذلك لان الآية صريحة فى اثبات سعى العبد ولو كان الكل مخلوقا لله
تعالى لم يكن للعبد سعى البتة اما قوله فلا يصدنك عنها من لايؤمن بها فالصد المنع وههنا
مسائل (المسئلة الاولى) فى هذين الضميرين وجهان (احدهما) قال ابو مسلم لايصدنك
عنها اى عن الصلاة التى امرتك بها من لايؤمن بها اى بالساعة فالضمير الاول عائد الى
الصلاة والثانى الى الساعة ومثل هذا جائز فى اللغة فالعرب تلف الخبرين ثم ترمى بجوابهما
جملة ليرد السامع الى كل خبر حقه (وثانيهما) قال ابن عباس فلايصدنك عن الساعة اى
عن الايمان بمجيئها من لايؤمن بها فالضميران عائدان الى يوم القيامة قال القاضى وهذا اولى
لان الضمير يجب عوده الى اقرب المذكورين وههنا الاقرب هو الساعة وماقاله ابو مسلم
فانما يصار اليه عند الضرورة ولاضرورة ههنا (المسئلة الثانية) الخطاب فى قوله فلايصدنك
يحتمل ان يكون مع موسى عليه السلام وان يكون مع محمد صلى الله عليه وسلم والاقرب
انه مع موسى لان الكلام اجمع خطاب له وعلى كلا الوجهين فلامعنى لقول الزجاج انه ليس
بمراد وانما اريد به غيره وذلك لانه ظن ان النبى صلى الله عليه وسلم لما لم يجز عليه مع النبوة
ان يصده احد عن الايمان بالساعة لم يجز ان يكون مخاطبا بذلك وليس الامر كما ظن لانه
اذا كان مكلفا بأن لايقبل الكفر بالساعة من احد وكان قادرا على ذلك جاز أن يخاطب
به ويكون المراد هو وغيره ويحتمل ايضا ان يكون المراد بقوله فلا يصدنك عنها النهى له عن
الميل اليهم ومقاربتهم (المسئلة الثالثة) المقصود نهى موسى عليه السلام عن التكذيب

فى قوله تعالى وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة ايام وكان عرشه على الماء ليبلوكم ايكم أحسن عملا فان الابتلاء مع شموله لكافة المكلفين باعتبار اعمالهم المنقسمة الى الحسن والقبيح ايضا لا الى الحسن والاحسن فقط قد علق بالاخيرين لما ذكر من ان المقصود الاصلى من ابداع تلك البدائع على ذلك النمط الرائع انما هو ظهور كمال احسان المحسنين وان ذلك لكونه على اتم الوجوه الرائقة واكمل الانحاء اللائقة يوجب العمل بموجبه بحيث لايحيد احد عن سننه المستبين بل يهتدى كل فرد الى مايرشد اليه من مطلق الايمان والطاعة وانما التفاوت بينهم فى مراتبهما بحسب القوة والضعف واما الاعراض عن ذلك والوقوع فى مهاوى الضلال فبمعزل من الوقوع فضلا ان ينتظم فى سلك الغاية لذلك الصنع البديع وانما هو عمل يصدر عن عامله بسوء اختياره من غير مصحح له اومسوغ هذا ويجوز ان يراد بالسعى مطلق العمل (فلا يصدنك عنها) اى عن ذكر الساعة ومراقبتها وقيل عن تصديقها والاول هو الاليق بشأن موسى عليه الصلاة والسلام وان كان النهى بطريق التهييج والالهاب وتقديم الجار والمجرور على قوله تعالى (من لايؤمن بها) لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر فان ماحقه التقديم اذا أخر تبقى النفس

بالبعث ولكن ظاهر اللفظ يقتضي نهى من لم يؤمن عن صد موسى عليه السلام وفيه وجهان (احدهما) ان صد الكافر عن التصديق بها سبب للتكذيب فذكر السبب ليدل على المسبب (والثانى) ان صد الكافر مسبب عن رخاوة الرجل فى الدين فذكر المسبب ليدل حمله على السبب كقوله لاارينك ههنا المراد نهيه عن مشاهدته والكون بحضرته فكذا ههنا كأنه قيل لاتكن رخوا بل كن فى الدين شديدا صلبا (المسئلة الرابعة) الآية تدل على ان تعلم علم الاصول واجب لان قوله فلايصدنك يرجع معناه الى صلابته فى الدين وتلك الصلابة ان كان المراد بها التقليد لم يتميز المبطل فيه من المحق فلابد وان يكون المراد بهذه الصلابة كونه قويا فى تقرير الدلائل وازالة الشبهات حتى لايتمكن الخصم من ازالته عن الدين بل هو يكون متمكنا من ازالة المبطل عن بطلانه (المسئلة الخامسة) قال القاضى قوله فلايصدنك يدل على ان العباد هم الذين يصدون ولو كان تعالى هو الخالق لافعالهم لكان هو الصاد دونهم فدل ذلك على بطلان القول بالجبر والجواب المعارضة بمسئلة العلم والداعى والله اعلم اما قوله تعالى واتبع هواه فالمعنى ان منكر البعث انما انكره اتباعا للهوى لاللدليل وهذا من اعظم الدلائل على فساد التقليد لان المقلد متبع للهوى لاالحجة اما قوله فتردى فهو بمعنى ولايصدنك فتردى وان صدوك وقبلت فليس الا الهلاك بالنار واعلم ان المتوغلين فى اسرار المعرفة قالوا المقام مقامان (احدهما) مقام المحو والفناء عما سوى الله تعالى (والثانى) مقام البقاء بالله والاول مقدم على الثانى لان من اراد ان يكتب شيئا فى لوح مشغول بكتابة اخرى فلاسبيل له اليه الابازالة الكتابة الاولى ثم بعد ذلك يمكن اثبات الكتابة الثانية والحق سبحانه راعى هذا الترتيب الحسن فى هذا الباب لانه قال لموسى عليه السلام اولا فاخلع نعليك وهو اشارة الى تطهير السر عما سوى الله تعالى ثم بعد ذلك امره بتحصيل مايجب تحصيله واصول هذا الباب ترجع الى ثلاثة علم المبدأ وعلم الوسط وعلم المعاد فعلم المبدأ هو معرفة الحق سبحانه وتعالى وهو المراد بقوله اننى انا الله لااله الاانا واما علم الوسط فهو علم العبودية ومعناها الامر الذى يجب ان يشتغل الانسان به فى هذه الحياة الجسمانية وهو المراد بقوله فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى ثم فى هذا ايضا لطيفة لان قوله فاعبدنى اشارة الى الاعمال الجسمانية وقوله لذكرى اشارة الى الاعمال الروحانية والعبودية اولها الاعمال الجسمانية وآخرها الاعمال الروحانية واما علم المعاد فهو قوله ان الساعة آتية اكاد أخفيها ثم انه تعالى افتتح هذه التكاليف بمحض اللطف وهو قوله انا ربك واختتمها بمحض القهر وهو قوله فلايصدنك عنها من لايؤمن بها واتبع هواه فتردى تنبيها على ان رحمته سبقت غضبه واشارة الى ان العبد لابدله فى العبودية من الرغبة والرهبة والرجاء والخوف وعند الوقوف على هذه الجملة تعرف ان هذا الترتيب هو النهاية فى الحسن والجودة وان ذلك لايتأتى الامن العالم بكل المعلومات ۞ قوله تعالى (وماتلك بيمينك ياموسى قال هى عصاى أتوكأ عليها واهش

مستشرفة له فيتمكن عند وروده لها فضل تمكن ولان فى المؤخر نوع طول ربما يخل تقديمه بجزالة النظم الكريم وهذا وان كان بحسب الظاهر نهيا للكافر عن صد موسى عليه الصلاة والسلام عن الساعة لكنه فى الحقيقة نهى له عليه الصلاة والسلام عن الانصداد عنها على ابلغ وجه وآكده فان النهى عن أسباب الشئ ومباديه المؤدية اليه نهى عنه بالطريق البرهانى وابطال للسببية من أصلها كما فى قوله تعالى ولايجرمنكم الخ فان صد الكافر حيث كان سببا لانصداده عليه الصلاة والسلام كان النهى عنه نهيا باصله وموجبه وابطالا له بالكلية ويجوز أن يكون من باب النهى عن المسبب وارادة النهى عن السبب على ان يراد نهيه عليه الصلاة والسلام عن اظهار لين الجانب للكفرة فان ذلك سبب لصدهم اياه عليه الصلاة والسلام كما فى قوله لاأرينك ههنا فان المراد نهى المخاطب عن الحضور لديه الموجب لرؤيته (واتبع هواه) أى ماتهواه نفسه من اللذات الحسية الفانية (فتردى) أى فتهلك فان الاغفال عنها وعن تحصيل ماينجى عن اهوالها مستتبع للهلاك لامحالة وهو فى محل النصب على جواب النهى أوفى محل الرفع على انه خبر مبتدأ محذوف أى فأنت تردى (وماتلك بيمينك ياموسى) شروع

بها على غنمى ولى فيها مآرب اخرى قال القها ياموسى فألقاها فاذاهى حية تسعى قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الاولى) اعلم ان قوله وماتلك بيمينك لفظتان فقوله وماتلك اشارة الى العصا وقوله بيمينك اشارة الى اليد وفى هذا نكت (احداها) انه سبحانه لما اشار اليهما جعل كل واحدة منهما معجزا قاهرا وبرهانا باهرا ونقله من حد الجمادية الى مقام الكرامة فاذا صار الجماد بالنظر الواحد حيوانا وصار الجسم الكثيف نورانيا لطيفا ثم انه تعالى ينظر كل يوم ثلثمائة وستين نظرة الى قلب العبد فاى عجب لو انقلب قلبه من موت العصيان الى سعادة الطاعة ونور المعرفة (وثانيتها) ان بالنظر الواحد صار الجماد ثعبانا يبتلع سحر السحرة فاى عجب لو صار القلب بمدد النظر الالهى بحيث يبتلع سحر النفس الامارة بالسوء (وثالثتها) كانت العصا فى يمين موسى عليه السلام فبسبب بركة يمينه انقلبت ثعبانا وبرهانا وقلب المؤمن بين اصبعين من اصابع الرحمن فاذا حصلت ليمين موسى عليه السلام هذه الكرامة والبركة فأى عجب لو انقلب قلب المؤمن بسبب اصبعى الرحمن من ظلمة المعصية الى نور العبودية ثم ههنا سؤالات (الاول) قوله وماتلك بيمينك ياموسى سؤال والسؤال انما يكون لطلب العلم وهو على الله تعالى محال فما الفائدة فيه والجواب فيه فوائد (احداها) ان من اراد ان يظهر من الشئ الحقير شيئا شريفا فانه يأخذه ويعرضه على الحاضرين ويقول لهم هذا ماهو فيقولون هذا هو الشئ الفلانى ثم انه بعد اظهار صفته الفائقة فيه يقول لهم خذوا منه كذا وكذا فالله تعالى لما أراد ان يظهر من العصا تلك الآيات الشريفة كانقلابها حية وكضربه الحجر حتى انفلق وفى الحجر حتى انفجر منه الماء عرضه اولا على موسى فكأنه قال له ياموسى هل تعرف حقيقة هذا الذى بيدك وانه خشبة لاتضر ولاتنفع ثم انه قلبه ثعبانا عظيما فيكون بهذا الطريق قد نبه العقول على كمال قدرته ونهاية عظمته من حيث انه اظهر هذه الآيات العظيمة من اهون الاشياء عنده فهذا هو الفائدة من قوله وماتلك بيمينك ياموسى (وثانيتها) انه سبحانه لما اطلعه على تلك الانوار المتصاعدة من الشجرة الى السماء واسمعه تسبيح الملائكة ثم اسمعه كلام نفسه ثم انه مزج اللطف بالقهر فلاطفه اولا بقوله وانا اخترتك ثم قهره بايراد التكاليف الشاقة عليه والزامه علم المبدأ والوسط والمعاد ثم ختم كل ذلك بالتهديد العظيم تحير موسى ودهش وكاد لايعرف اليمين من الشمال فقيل له وماتلك بيمينك ياموسى ليعرف موسى عليه السلام ان يمينه هى التى فيها العصا او لانه لما تكلم معه اولا بكلام الالهية وتحير موسى من الدهشة تكلم معه بكلام البشر ازالة لتلك الدهشة والحيرة والنكتة فيه انه لما غلبت الدهشة على موسى فى الحضرة اراد رب العزة ازالتها فسأله عن العصا وهو امر لايقع الغلط فيه كذلك المؤمن اذا مات ووصل الى حضرة ذى الجلال فالدهشة تغلبه والحياء يمنعه عن الكلام فيسألونه عن الامر الذى لم يغلط فيه فى الدنيا وهو التوحيد فاذا ذكره زالت الدهشة والوحشة عنه (وثالثتها) انه تعالى لما عرف موسى كمال الالهية اراد ان يعرفه نقصان البشرية فسأله عن منافع العصا

فى حكاية ما كلف به عليه الصلاة والسلام من الامور المتعلقة بالخلق اثر حكاية ما أمر به من الشؤون الخاصة بنفسه فما استفهامية فى حيز الرفع بالابتداء وتلك خبره او بالعكس وهو ادخل بحسب المعنى واوفق بالجواب وبيمينك متعلق بمضمر وقع حالا اى وماتلك قارة اومأخوذة بيمينك والعامل معنى الاشارة كما فى قوله عز وعلا وهذا بعلى شيخا وقيل تلك موصولة اى ماالتى هى بيمينك وايا ماكان فالاستفهام ايقاظ وتنبيه له عليه الصلاة والسلام على مايبدو له من التعاجيب وتكرير النداء لزيادة التأنيس والتنبيه (قال هى عصاى) نسبها الى نفسه تحقيقا لوجه كونها بيمينه وتمهيدا لما يعقبه من الافاعيل المنسوبة اليه عليه الصلاة والسلام وقرئ عصى على لغة هذيل (اتوكأ عليه) اى اعتمد عليها عند الاعياء او الوقوف على رأس القطيع (واهش بها) اى اخبط بها الورق واسقطه (على غنمى) وقرئ اهش بكسر الهاء وكلاهما من هش الخبز يهش اذا انكسر لهشاشته وقرئ بالسين غير المعجمة وهو زجر الغنم وتعديته بعلى لتضمين معنى الانحاء والاقبال اى ازجرها منحيا ومقبلا عليها (ولى فيها مآرب اخرى) اى حاجات أخر من هذا الباب مثل ماروى انه عليه الصلاة والسلام

فذكر بعضها فعرفه الله تعالى ان فيها منافع اعظم مما ذكر تنبيها على ان العقول قاصرة عن معرفة صفات الشيء الحاضر فلولا التوفيق والعصمة كيف يمكنهم الوصول الى معرفة اجل الاشياء واعظمها (ورابعتها) فائدة هذا السؤال ان يقرر عنده انه خشبة حتى اذا قلبها ثعبانا لا يخافها (السؤال الثانى) قوله وما تلك بيمينك ياموسى خطاب من الله تعالى مع موسى عليه السلام بلا واسطة ولم يحصل ذلك لمحمد صلى الله عليه وسلم فيلزم ان يكون موسى افضل من محمد والجواب من جهتين (الاول) انه تعالى كما خاطب موسى فقد خاطب محمدا عليه السلام فى قوله فأوحى الى عبده ما اوحى الا ان الفرق بينهما ان الذى ذكره مع موسى عليه السلام افشاه الى الخلق والذى ذكره مع محمد صلى الله عليه وسلم كان سرا لم يستأهل له احد من الخلق (والثانى) ان كان موسى تكلم معه وهو مع موسى فأمة محمد صلى الله عليه وسلم يخاطبون الله فى كل يوم مرات على ما قال صلى الله عليه وسلم المصلى يناجى ربه والرب يتكلم مع آحاد امة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة بالتسليم والتكريم والتكليم فى قوله سلام قولا من رب رحيم (السؤال الثالث) ما اعراب قوله وما تلك بيمينك ياموسى الجواب قال صاحب الكشاف تلك بيمينك كقوله وهذا بعلى شيخا فى نصاب الحال بمعنى الاشارة ويجوز ان يكون تلك اسما موصولا وصلته بيمينك قال الزجاج معناه وما التى بيمينك قال الفراء معناه ماهذه التى فى يمينك واعلم انه سبحانه لما سأل موسى عليه السلام عن ذلك اجاب موسى عليه السلام بأربعة اشياء ثلاثة على التفصيل وواحد على الاجمال (الاول) قوله هى عصاى قرأ ابن ابى اسحق هى عصى ومثلها يابشرى وقرأ الحسن هى عصاى بسكون الياء والنكت ههنا ثلاثة (احدها) انه قال هى عصاى فذكر العصا ومن كان قلبه مشغولا بالعصا ومنافعها كيف يكون مستغرقا فى بحر معرفة الحق ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم عرض عليه الجنة والنار فلم يلتفت الى شىء ما زاغ البصر وما طغى ولما قيل له امدحنا قال لا احصى ثناء عليك ثم نسى نفسه ونسى ثناءه فقال انت كما اثنيت على نفسك (وثانيها) لما قال عصاى قال الله سبحانه وتعالى القها فلما القاها فاذا هى حية تسعى ليعرف ان كل ما سوى الله فالالتفات اليه شاغل وهو كالحية المهلكة لك ولهذا قال الخليل عليه السلام فانهم عدو لى الا رب العالمين وفى الحديث يجاء يوم القيامة بصاحب المال الذى لم يؤد زكاته ويؤتى بذلك المال على صورة شجاع اقرع الحديث بتمامه (وثالثها) انه قال هى عصاى فقد تم الجواب الا انه عليه السلام ذكر الوجوه الاخر لانه كان يحب المكالمة مع ربه فجعله ذلك كالوسيلة الى تحصيل هذا الغرض (الثانى) قوله أتوكأ عليها والتوكى والاتكاء واحد كالتوقى والاتقاء معناه اعتمد عليها اذا عييت او وقفت على رأس القطيع او عند الطفرة فجعل موسى عليه السلام نفسه متوكئا على العصا وقال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم اتكئ على رحمتى بقوله تعالى يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين وقال والله يعصمك من الناس فان قيل أليس قوله ومن اتبعك من المؤمنين يقتضى

كان اذا سار القاها على عاتقه فعلق بها أدواته من القوس والكنانة والحلاب ونحوها واذا كان فى البرية ركزها وعرض الزندين على شعبتيها والقى عليها الكساء واستظل به واذا قصر الرشاء وصله بها واذا تعرضت لغنمه السباع قاتل بها قيل ومن جملة المآرب انها كانت ذات شعبتين ومحجن فاذا طال الغصن حناه بالمحجن واذا اراد كسره لواه بالشعبتين وكأنه عليه الصلاة والسلام فهم ان المقصود من السؤال بيان حقيقتها وتفصيل منافعها بطريق الاستقصاء حتى اذا ظهرت على خلاف تلك الحقيقة وبدت منها خواص بديعة علم انها آيات باهرة ومعجزات قاهرة احدثها الله تعالى وليست من الخواص المترتبة عليها فذكر حقيقتها ومنافعها على التفصيل والاجمال على معنى انها من جنس العصى مستتبعة لمنافع بنات جنسها ليطابق جوابه الغرض الذى فهمه من سؤال العليم الخبير (قال) استئناف مبنى على سؤال ينساق اليه الذهن كأنه قيل فماذا قال عز وجل فقيل قال (القها ياموسى) لترى من شأنها ما لم يخطر ببالك من الامور وتكرير النداء لتأكيد التنبيه (فألقاها) على الارض (فاذا هى حية تسعى) روى انه عليه الصلاة والسلام حين القاها انقلبت حية صفراء فى غلظ العصا ثم انتفخت وعظمت فلذلك

كون محمد نبيًّا كأعلى المؤمنين قلنا قوله ومن اتبعك من المؤمنين معطوف على الكاف في قوله حسبك الله والمعنى الله حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين (الثالث) قوله واهش بها على غنمي اى اخبط بها فاضرب اغصان الشجر ليسقط ورقها على غنمي فتأكله وقال اهل اللغة هش على غنمه يهش بضم الهاء في المستقبل وهششت الرجل اهش بفتح الهاء في المستقبل وهش الرغيف يهش بكسر الهاء قاله ثعلب وقرأ عكرمة واهس بالسين غير المنقوطة والهس زجر الغنم واعلم ان غنمه رعيته فبدأ بمصالح نفسه في قوله اتوكأ عليها ثم بمصالح رعيته في قوله واهش بها على غنمي فكذلك في القيامة يبدأ بنفسه فيقول نفسي نفسي ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يشتغل في الدنيا الا باصلاح امر الامة وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون فلا جرم يوم القيامة يبدأ ايضا بأمته فيقول امتي امتي (والرابع) قوله ولي فيها مآرب اخرى حوائج ومنافع واحدتها مأربة بفتح الراء وضمها وحكى ابن الاعرابي وقطرب بكسر الراء ايضا والارب بفتح الراء والاربة بكسر الالف وسكون الراء الحاجة وانما قال اخرى لان المآرب في معنى جماعة فكأنه قال جماعة من الحاجات اخرى ولو جاءت اخر لكان صوابا كما قال فعدة من ايام اخر ثم ههنا نكت (احداها) انه لما سمع قول الله تعالى وما تلك بيمينك عرف ان لله فيها اسرارا عظيمة فذكر ما عرف وعبر عن البواقي التي ما عرفها اجمالا لا تفصيلا بقوله ولي فيها مآرب اخرى (وثانيها) ان موسى عليه السلام احس بانه تعالى انما سأله عن امر العصا لمنافع عظيمة فقال موسى الهي ما هذه العصا الا كغيرها لكنك لما سألت عنها عرفت ان لي فيها مآرب اخرى ومن جملتها انك كلمتني بسببها فوجدت هذا الامر العظيم الشريف بسببها (وثالثها) ان موسى عليه السلام اجمل رجاء ان يسأله ربه عن تلك المآرب فيسمع كلام الله مرة اخرى ويطول امر المكالمة بسبب ذلك (ورابعها) انه بسبب اللطف انطلق لسانه ثم غلبته الدهشة فانقطع لسانه وتشوش فكره فأجمل مرة اخرى ثم قال وهب كانت ذات شعبتين كالمحجن فاذا طال الغصن حناه بالمحجن واذا حاول كسره لواه بالشعبتين اذا سار وضعها على عاتقه يعلق فيها ادواته من القوس والكنانة والثياب واذا كان في البرية ركزها والقى كساءه عليها فكانت ظلا وقيل كان فيها من المعجزات انه كان يستقي بها فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلوا ويصيران شمعتين في الليالي واذا ظهر عدو حاربت عنه واذا اشتهى ثمرة ركزها فاورقت واثمرت وكان يحمل عليها زاده وماءه وكانت تماشيه ويركزها فينبع الماء فاذا رفعها نضب وكانت تقيه الهوام واعلم ان موسى عليه السلام لما ذكر هذه الجوابات امره الله تعالى بالقاء العصا فقال القها يا موسى وفيه نكت (احداها) انه عليه السلام لما قال ولي فيها مآرب اخرى اراد الله ان يعرفه ان فيها مأربة اخرى لا يفطن لها ولا يعرفها وانها اعظم من سائر مآربه فقال القها يا موسى فألقاها فاذا هي حية تسعى (وثانيها) كان في رجله شئ وهو النعل وفي يده شئ وهو العصا والرجل آلة الهرب واليد

شبهت بالجان تارة وسميت ثعبانا اخرى وعبر عنها ههنا بالاسم العام للحالين وقيل قد انقلبت من اول الامر ثعبانا وهو الاليق بالمقام كما يفصح عنه قوله عز وجل فاذا هي ثعبان مبين وانما شبهت بالجان في الجلادة وسرعة الحركة لا في صغر الجثة وقوله تعالى تسعى اما صفة لحية أو خبر ثان عند من يجوز كونه جملة (قال) استئناف كما سبق (خذها ولا تخف) عن ابن عباس رضي الله عنهما انقلبت ثعبانا ذكرا يبتلع كل شئ من الصخر والشجر فلما رآه كذلك خاف ونفر وما ملكه ما يملك البشر عند مشاهدة الاهوال والمخاوف من الفزع والنفار وفي عطف النهي على الامر اشعار بأن عدم المنهي عنه مقصود لذاته لا لتحقيق المأمور به فقط وقوله تعالى (سنعيدها سيرتها الاولى) مع كونه استئنافا مسوقا لتعليل الامتثال بالامر

آلة الطلب فقال اولا اخلع نعليك اشارة الى ترك الهرب ثم قال القها ياموسى وهو اشارة الى ترك الطلب كأنه سبحانه قال انك مادمت فى مقام الهرب والطلب كنت مشتغلا بنفسك وطالبا لحظك فلاتكون خالصا لمعرفتى فكن تاركا للهرب والطلب لتكون خالصا لى (وثالثها) ان موسى عليه السلام مع علو درجته وكمال منقبته لما وصل الى الحضرة ولم يكن معه الا النعلان والعصا امره بالقائهما حتى امكنه الوصول الى الحضرة فأنت مع الف وقر من المعاصى كيف يمكنك الوصول الى جنابه (ورابعها) ان محمدا صلى الله عليه وسلم كان مجردا عن الكل مازاغ البصر فلاجرم وجد الكل لعمرك اما موسى لما بقى معه تلك العصا لاجرم امره بالقاء العصا واعلم ان الكعبى تمسك به فى ان الاستطاعة قبل الفعل فقال القدرة على القاء العصا اما ان توجد والعصا فى يده او خارجة من يده فان اتته القدرة وهى فى يده فذاك قولنا وان الله ليس بظلام للعبيد واذا اتته وليست فى يده وانما استطاع ان يلقى من يده ماليس فى يده فذلك محال اما قوله فالقاها فاذا هى حية تسعى ففيه اسئلة (السؤال الاول) ما الحكمة فى قلب العصا حية فى ذلك الوقت الجواب فيه وجوه (احدها) انه تعالى قلبها حية لتكون معجزة لموسى عليه السلام يعرف بها نبوة نفسه وذلك لانه عليه السلام الى هذا الوقت ما سمع الا النداء والنداء وان كان مخالفا للعادات الا انه لم يكن معجزا لاحتمال ان يكون ذلك من عادات الملائكة او الجن فلاجرم قلب الله العصا حية ليصير ذلك دليلا قاهرا والعجب ان موسى عليه السلام قال اتوكأ عليها فصدقه الله تعالى فيه وجعلها متكأ له بأن جعلها معجزة له (وثانيها) ان النداء كان اكراما له فقلب العصا حية مزيدا فى الكرامة ليكون توالى الخلع والكرامات سببا لزوال الوحشة عن قلبه (وثالثها) انه عرض عليه ليشاهده اولا فاذا شاهده عند فرعون لايخافه (ورابعها) انه كان راعيا فقيرا ثم انه نصب للمنصب العظيم فلعله بقى فى قلبه تعجب من ذلك فقلب العصا حية تنبيها على انى لما قدرت على ذلك فكيف يستبعد منى نصرة مثلك فى اظهار الدين (وخامسها) انه لما قال هى عصاى اتوكأ عليها الى قوله ولى فيها مآرب اخرى فقيل له القها فلما القاها وصارت حية فر موسى عليه السلام منها فكأنه قيل له ادعيت انها عصاك وان لك فيها مآرب اخرى فلم تفر منها تنبيها على سر قوله ففروا الى الله وقوله قل الله ثم ذرهم (السؤال الثانى) قال ههنا حية وفى موضع آخر ثعبان وجان اما الحية فاسم جنس يقع على الذكر والانثى والصغير والكبير واما الثعبان والجان فبينهما تناف لان الثعبان العظيم من الحيات والجان الدقيق وفيه وجهان (احدهما) انها كانت وقت انقلابها حية صغيرة دقيقة ثم تورمت وتزايد جرمها حتى صارت ثعبانا فاريد بالجان اول حالها وبالثعبان مآلها (والثانى) انها كانت فى شخص الثعبان وسرعة حركة الجان والدليل عليه قوله تعالى فلما رآها تهتز كأنها جان (السؤال الثالث) كيف كانت صفة الحية الجواب كان لها عرف كعرف الفرس وكان بين لحييها اربعون ذراعا وابتلعت

والتى فان اعادتها الى ماكانت عليه من موجبات أخذها وعدم الخوف منها عدة كريمة باظهار معجزة اخرى على يده عليه الصلاة والسلام وايذان بكونها مسخرة له عليه الصلاة والسلام ليكون على طمأنينة من أمره ولايعتريه شائبة تزلزل عند محاجة فرعون أى سنعيدها بعد الاخذ الى حالتها الاولى التى هى الهيئة العصوية قيل بلغ عليه الصلاة والسلام عند ذلك من الثقة وعدم الخوف الى حيث كان يدخل يده فى فمها ويأخذ بلحييها والسيرة فعلة من السير تجوز بها للطريقة والهيئة وانتصابها على نزع الجار أى الى سيرتها او على ان اعاد منقول من عاده بمعنى عاد اليه او على الظرفية أى سنعيدها فى طريقتها او على تقدير فعلها وايقاعها حالا من المفعول أى سنعيدها عصا كما كانت من قبل تسير سيرتها الاولى أى سائرة سيرتها الاولى فتنتفع بها كما كانت تنتفع من قبل

كل مامرت به من الصخور والاشجار حتى سمع موسى صرير الحجر فى فمها وجوفها اما قوله تعالى قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الاولى ففيه سؤالات (السؤال الاول) لما نودى موسى وخص بتلك الكرامات العظيمة وعلم انه مبعوث من عند الله تعالى الى الخلق فلم خاف والجواب من وجوه (احدها) ان ذلك الخوف كان من نفرة الطبع لانه عليه السلام ماشاهد مثل ذلك قط وايضا فهذه الاشياء معلومة بدلائل العقول وعند الفزع الشديد قد يذهل الانسان عنه قال الشيخ ابو القاسم الانصارى رحمه الله تعالى وذلك الخوف من اقوى الدلائل على صدقه فى النبوة لان الساحر يعلم ان الذى اتى به تمويه فلا يخافه البتة (وثانيها) قال بعضهم خافها لانه عليه السلام عرف مالقى آدم منها (وثالثها) ان مجرد قوله لاتخف لايدل على حصول الخوف كقوله تعالى ولا تطع الكافرين لايدل على وجود تلك الطاعة لكن قوله فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا يدل عليه ولكن ذلك الخوف انما ظهر ليظهر الفرق بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم فانه عليه السلام اظهر تعلق القلب بالعصا والنفرة عن الثعبان واما محمد عليه السلام فاظهر الرغبة فى الجنة ولا النفرة عن النار (السؤال الثانى) متى اخذها بعد انقلابها عصا او قبل ذلك (والجواب) روى انه ادخل يده بين اسنانها فانقلبت خشبة والقرآن يدل عليه ايضا بقوله سنعيدها سيرتها الاولى وذلك يقع فى الاستقبال وايضا فهذا اقرب للكرامة لانه كما ان انقلاب العصا حية معجزة فكذلك ادخال يده فى فمها من غير ضرر معجزة وانقلابها خشبا معجز آخر فيكون فيه توالى المعجزات فيكون اقوى فى الدلالة (السؤال الثالث) كيف اخذه أمع الخوف اوبدونه (والجواب) روى مع الخوف ولكنه بعيد لان بعد توالى الدلائل يبعد ذلك واذا علم موسى عليه السلام انه تعالى عند الاخذ سيعيدها سيرتها الاولى فكيف يستمر خوفه وقد علم صدق هذا القول وقال بعضهم لما قال له ربه لاتخف بلغ من ذهاب خوفه وطمأنينة نفسه الى ان ادخل يده فى فمها واخذ بلحييها (السؤال الرابع) مامعنى سيرتها الاولى (والجواب) قال صاحب الكشاف السيرة من السير كالركبة من الركوب يقال سار فلان سيرة حسنة ثم اتسع فيها فنقلت الى معنى المذهب والطريقة (السؤال الخامس) علام انتصب سيرتها الجواب فيه وجهان (احدهما) بنزع الخافض يعنى الى سيرتها (وثانيهما) ان يكون سنعيدها مستقلا بنفسه غير متعلق بسيرتها بمعنى انها كانت اولا عصا فصارت حية فسنجعلها عصا كما كانت فنصب سيرتها بفعل مضمر اى تسير سيرتها الاولى يعنى سنعيدها سائرة بسيرتها الاولى حيث كنت تتوكأ عليها ولك فيها المآرب التى عرفتها * قوله تعالى (واضمم يدك الى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية اخرى لنريك من آياتنا الكبرى اذهب الى فرعون انه طغى) اعلم ان هذا هو المعجزة الثانية وفيه مسائل (المسألة الاولى) يقال لكل ناحيتين جناحان كجناحى العسكر لطرفيه وجناحا الانسان جنباه والاصل المستعار منه جناحا الطائر لانه يخفضهما عند الطيران

(واضمم يدك الى جناحك) امر عليه الصلاة والسلام بذلك بعد ما اخذ الحية وانقلبت عصا كما كانت اى ادخلها تحت عضدك فان جناحى الانسان جنباه كما ان جناحى العسكر ناحيتاه مستعار من جناحى الطائر وقد سميا جناحين لانه يخفضهما اى يميلهما عند الطيران وقوله تعالى (تخرج) جواب الامر وقوله تعالى (بيضاء) حال من الضمير فيه وقوله تعالى (من غير سوء) متعلق بمحذوف هو حال من الضمير فى بيضاء اى كائنة من غير عيب وقبح كنى به عن البرص كما كنى بالسوأة عن العورة لما ان الطباع تعافه وتنفر عنه روى انه عليه الصلاة والسلام كان آدم فأخرج يده من مدرعته بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس تغشى البصر (آية اخرى) اى معجزة اخرى غير العصا وانتصابها على الحالية اما من الضمير فى تخرج على انها بدل من الحال الاولى واما من الضمير فى بيضاء وقيل من الضمير فى الجار والمجرور وقيل هى منصوبة بفعل مضمر نحو خذ اودونك

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما الى جناحك الى صدرك والاول اولى لان يدى الانسان يشبهان جناحى الطائر لانه قال تخرج بيضاء ولو كان المراد بالجناح الصدر لم يكن لقوله تخرج معنى واعلم ان معنى ضم اليد الى الجناح ما قال فى آية اخرى وادخل يدك فى جيبك لانه اذا ادخل يده فى جيبه كان قد ضم يده الى جناحه والله اعلم (المسئلة الثانية) السوء الرداءة والقبح فى كل شئ فكنى به عن البرص كما كنى عن العورة بالسوأة والبرص ابغض شئ الى العرب فكان جديرا بأن يكنى عنه يروى انه عليه السلام كان شديد الادمة فكان اذا ادخل يده اليمنى فى جيبه وادخلها تحت ابطه الايسر واخرجها كانت تبرق مثل البرق وقيل مثل الشمس من غير برص ثم اذا ردها عادت الى لونها الاول بلا نور (المسئلة الثالثة) بيضاء وآية حالان معا ومن غير سوء من صلة البيضاء كما تقول ابيضت من غير سوء وفى نصب آية وجه آخر وهو ان يكون باضمار نحو خذ ودونك وما شبه ذلك حذف لدلالة الكلام وقد تعلق بهذا المحذوف لنريك اى خذ هذه الآية ايضا بعد قلب العصا لنريك بهاتين الآيتين بعض آياتنا الكبرى او لنريك بهما الكبرى من آياتنا او لنريك من آياتنا الكبرى فعلنا ذلك فان قيل الكبرى من نعت الآيات فلم لم يقل الكبر قلنا بل هى نعت الآية والمعنى لنريك الآية الكبرى ولئن سلمنا ذلك فهو كما قدمنا فى قوله مآرب اخرى والاسماء الحسنى (المسئلة الرابعة) قال الحسن اليد اعظم فى الاعجاز من العصا لانه تعالى ذكر لنريك من آياتنا الكبرى عقيب ذكر اليد وهذا ضعيف لانه ليس فى اليد الا تغير اللون واما العصا ففيه تغير اللون وخلق الزيادة فى الجسم وخلق الحياة والقدرة والاعضاء المختلفة وابتلاع الحجر والشجر ثم عاد عصا بعد ذلك فقد وقع التغير مرة اخرى فى كل هذه الامور فكانت العصا اعظم واما قوله لنريك من آياتنا الكبرى فقد بينا انه عائد الى الكل وانه غير مختص باليد (المسئلة الخامسة) انه سبحانه وتعالى لما اظهر له هذه الآية عقبها بأن امره بالذهاب الى فرعون وبين العلة فى ذلك وهى انه طغى وانما خص فرعون بالذكر مع ان موسى عليه السلام كان مبعوثا الى الكل لانه ادعى الالهية وتكبر وكان متبوعا فكان ذكره اولى قال وهب قال الله تعالى لموسى عليه السلام اسمع كلامى واحفظ وصيتى وانطلق برسالتى فانك بعينى وسمعى وان معك يدى وبصرى وانى البستك جنة من سلطانى لتستكمل بها القوة فى امرى ابعثك الى خلق ضعيف من خلقى بطر نعمتى وامن مكرى وغرته الدنيا حتى جحد حقى وانكر ربوبيتى وانى اقسم بعزتى لولا الحجة والعذر الذى وضعت بينى وبين خلقى لبطشت به بطشة جبار ولكن هان على وسقط من عينى فبلغه عنى رسالتى وادعه الى عبادتى وحذره نقمتى وقل له قولا لينا لا يغترن بلباس الدنيا فان ناصيته بيدى لا يطرف ولا يتنفس الا بعلمى فى كلام طويل قال فسكت موسى سبعة ايام لا يتكلم ثم جاءه ملك فقال اجب ربك فيما امرك بعبده

وقوله تعالى (لنريك من آياتنا الكبرى) متعلق بمضمر ينساق اليه النظم الكريم كأنه قيل فعلنا مافعلنا من الامر والاظهار لنريك بذلك بعض آياتنا الكبرى على ان الكبرى صفة لآياتنا أو نريك بذلك من آياتنا ماهى كبرى على ان الكبرى مفعول ثان لنريك ومن آياتنا متعلق بمحذوف هو حال من ذلك المفعول وأياما كان فالآية الكبرى عبارة عن العصا واليد جميعا وأما تعلقه بمادل عليه آية أى دللنا بها لنريك الخ أو بقوله تعالى واضمم اوبقوله تخرج أوبما قدر من نحو خذ ودونك كما قال بكل من ذلك قائل فيؤدى الى عراء آية العصا عن وصف الكبر فتدبر (اذهب الى فرعون) تخلص الى ماهو المقصود من تمهيد المقدمات السالفة فصل عما قبله من الاوامر ايذانا باصالته أى اذهب اليه بما رأيته من الايات الكبرى وادعه الى عبادتى وحذره نقمتى وقوله تعالى (انه طغى) تعليل للامر أو لوجوب المأموربه أى جاوز الحد فى التكبر والعتو والتجبر حتى تجاسر على العظيمة التى هى دعوى الربوبية

(قوله)

(قال) استئناف مبنى على سؤال ينساق اليه الذهن كأنه قيل فاذا قال عليه الصلاة والسلام حين امر بهذا الامر الخطير والخطب العسير فقيل قال مستعينا بربه عز وجل (رب اشرح لى صدرى ويسر لى امرى) لما امر بما امر به من الخطب الجليل تضرع الى ربه عز وجل واظهر عجزه بقوله

﴿ قوله تعالى (قال رب اشرح لى صدرى ويسر لى امرى واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى واجعل لى وزيرا من اهلى هرون اخى اشدد به ازرى واشركه فى امرى كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا انك كنت بنا بصيرا) اعلم ان الله تعالى لما امر موسى عليه السلام بالذهاب الى فرعون وكان ذلك تكليفا شاقا فلا جرم سأل ربه امورا ثمانية ثم ختمها بما يجرى مجرى العلة لسؤال تلك الاشياء (المطلوب الاول) قوله رب اشرح لى صدرى واعلم انه يقال شرحت الكلام اى بينته وشرحت صدره اى وسعته والاول يقرب منه لان شرح الكلام لا يحصل الا ببسطه والسبب فى هذا السؤال ما حكى الله تعالى عنه فى موضع اخر وهو قوله ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فسأل الله تعالى ان يبدل ذلك الضيق بالسعة وقال رب اشرح لى صدرى فافهم عنك ما انزلت على من الوحى وقيل شجعنى لاجترئ به على مخاطبة فرعون ثم الكلام فيه يتعلق بامور (احدها) فائدة الدعاء وشرائطه (وثانيها) ما السبب فى ان الانسان لا يذكر وقت الدعاء من اسماء الله تعالى الا الرب (وثالثها) ما معنى شرح الصدر (ورابعها) بماذا يكون شرح الصدر (وخامسها) كيف كان شرح الصدر فى حق موسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم (وسادسها) صفة صدر موسى عليه السلام هل كان منشرحا اولم يكن منشرحا فان كان منشرحا كان طلب شرح الصدر تحصيلا للحاصل وهو محال وان لم يكن منشرحا فهو باطل من وجهين (الاول) انه سبحانه بين له فيما تقدم كل ما يتعلق بالاديان من معرفة الربوبية والعبودية واحوال المعاد وكل ما يتعلق بشرح الصدر فى باب الدين فقد حصل ثم انه سبحانه تلطف له بقوله وانا اخترتك فاستمع لما يوحى ثم كلمه على سبيل الملاطفة بقوله وما تلك بيمينك ياموسى ثم اظهر له المعجزات العظيمة والكرامات الجسيمة ثم اعطاه منصب الرسالة بعد ان كان فقيرا وكل ما يتعلق به الاعزاز والاكرام فقد حصل ولو ان ذرة من هذه المناصب حصلت لادون الناس لصار منشرح الصدر فبعد حصولها لكليم الله تعالى يستحيل ان لا يصير منشرح الصدر (والثانى) انه لما لم يصر منشرح الصدر بعد هذه الاشياء لم يجز من الله تعالى تفويض النبوة اليه فان من كان ضيق القلب مشوش الخاطر لا يصلح للقضاء على ما قال عليه السلام لا يقضى القاضى وهو غضبان فكيف يصلح للنبوة التى اقل مراتبها القضاء فهذا مجموع الامور التى لابد من البحث عنها فى هذه الاية (اما البحث الاول) وهو فائدة الدعاء وشرائطه فقد تقدم فى تفسير قوله ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا او اخطأنا الاية نذكر منها ههنا بعض الفوائد المتعلقة بهذا الموضع فنقول اعلم ان للكمال مراتب ودرجات واعلاها ان يكون كاملا فى ذاته مكملا لغيره اما كونه كاملا فى ذاته فكل ما كان كذلك كان كماله من لوازم ذاته وكل ما كان كذلك كان كاملا فى الازل ولكنه يستحيل ان يكون مكملا فى الازل لان التكميل عبارة عن جعل الشئ كاملا وذلك لا يتحقق الا عند عدم الكمال فانه لو كان حاصلا فى الازل لاستحال التأثير فيه

فان تحصيل الحاصل محال وتكوين الكائن ممتنع فلا جرم انه سبحانه وان كان كاملا في الازل الا انه يصير مكملا فيما لا يزال فان قيل اذا كان التكميل من صفات الكمال فحيث لم يكن مكملا في الازل فقد كان عاريا عن صفات الكمال فيكون ناقصا وهو محال قلنا النقصان انما يلزم لو كان ذلك ممكنا في الازل لكنا بينا ان الفعل الازلي محال فالتكميل الازلي محال فعدمه لا يكون نقصانا كما أن قولنا انه لا يقدر على تكوين مثل نفسه لا يكون نقصانا لانه غير ممكن الوجود في نفسه وكقولنا انه لا يعلم عددا مفصلا لحركات أهل الجنة لان كل ماله عدد مفصل فهو متناه وحركات اهل الجنة غير متناهية فلا يكون له عدد مفصل فامتنع ذلك لا لقصور في العلم بل لكونه في نفسه ممتنع الحصول اذا ثبت هذا فنقول انه سبحانه وتعالى لما قصد الى التكوين وكان الغرض منه تكميل الناقصين لان الممكنات قابلة للوجود وصفة الوجود صفة كمال فاقتضت قدرة الله تعالى على التكميل وضع مائدة الكمال للممكنات فاجلس على هذه المائدة بعض المعدومات دون البعض لاسباب (أحدها) ان المعدومات غير متناهية فلو اجلس الكل على مائدة الوجود لدخل ما لا نهاية له في الوجود (وثانيها) انه لو أوجد الكل لما بقي بعد ذلك قادرا على الايجاد لان ايجاد الموجود محال فكان ذلك وان كان كمالا للناقص لكنه يقتضي نقصان الكامل فانه ينقلب القادر من القدرة الى العجز (وثالثها) انه لو دخل الكل في الوجود لما بقي فيه تمييز فلا يتميز القادر عن الموجب والقدرة كمال والايجاب بالطبع نقصان فلهذه الاسباب أخرج بعض الممكنات الى الوجود فان قيل عليه سؤالان (احدهما) ان الموجودات متناهية والمعدومات غير متناهية ولا نسبة للمتناهي الى غير المتناهي فتكون ايضا الضيافة ضيافة للاقل وأما الحرمان فانه عدم لما لا نهاية له وهذا لا يكون وجودا (الثاني) ان البعض الذي خصه بهذه الضيافة ان كان لاستحقاق حصل فيه دون غيره فذلك الاستحقاق ممن حصل وان كان لا لهذا الاستحقاق كان ذلك عبثا وهو محال كما قيل • يعطي ويمنع لا بخلا ولا كرما • وانه لا يليق بأكرم الاكرمين والجواب عن الكل ان هذه الشبهات انما تدور في العقول والخيالات لان الانسان يحاول قياس فعله على فعلنا وذلك باطل لانه لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون اذا عرفت هذا فهذا الوجود الفائض من نور رحمته على جميع الممكنات هو الضيافة العامة والمائدة الشاملة وهو المراد من قوله ورحمتي وسعت كل شئ ثم ان الموجودات انقسمت الى الجمادات والى الحيوانات ولاشك ان الجماد بالنسبة الى الحيوان كالعدم بالنسبة الى الوجود لان الجماد لا خبر عنده من وجوده فوجوده بالنسبة اليه كالعدم وعدمه كالوجود وأما الحيوان فهو الذي يميز بين الموجود والمعدوم ويتفاوتان بالنسبة اليه ولان الجماد بالنسبة الى الحيوان آلة لان الحيوانات تستعمل الجمادات في اغراض أنفسها ومصالحها وهي كالعبد المطيع المسخر والحيوان كالمالك المستولي فكانت الحيوانية أفضل من الجمادية فكما أن احسان

ويضيق صدري ولا ينطلق لساني وسأله تعالى ان يوسع صدره ويفسح قلبه ويجعله عليما بشؤن الحق واحوال الخلق حليما حمولا يستقبل ماعسى يرد عليه من الشدائد والمكاره بجميل الصبر وحسن الثبات ويتلقاها بصدر فسيح وجاش رابط

الله ورحمته اقتضيا وضع مائدة الوجود لبعض المعدومات دون البعض كذلك اقتضيا وضع مائدة الحياة لبعض الموجودات دون البعض فلاجرم جعل بعض الموجودات احياء دون البعض والحياة بالنسبة الى الجمادية كالنور بالنسبة الى الظلمة والبصر بالنسبة الى العمى والوجود بالنسبة الى العدم فعندذلك صار بعض الموجودات حيا مدركا للمنافى والملائم واللذة والالم والخير والشر فن ثم قالت الاحياء عندذلك يارب الارباب انا وان وجدنا خلعة الوجود وخلعة الحياة وشرفنا بهما لكن ازدادت الحاجة لانا حال العدم وحال الجمادية ما كنا نحتاج الى الملائم والموافق وما كنا نخاف المنافى والمؤذى ولما حصل الوجود والحياة احتجنا الى طلب الملائم ودفع المنافى فان لم تكن لنا قدرة على الهرب والطلب والدفع والجذب لبقينا كالزمن المقعد على الطريق عرضة للآفات وهدفا لسهام البليات فأعطنا من خزائن رحمتك القدرة والقوة التى بها نتمكن من الطلب تارة والهرب اخرى فاقتضت الرحمة التامة تخصيص بعض الاحياء بالقدرة كما اقتضت تخصيص بعض الموجودات بالحياة وتخصيص بعض المعدومات بالوجود فقال القادرون عندذلك الهنا الجواد الكريم ان الحياة والقدرة بلاعقل لاتكون الا لاحد القسمين اما المجانين المقيدين بالسلاسل والاغلال واما البهائم المستعملة فى حمل الاثقال وكل ذلك من صفات النقصان وانت قد رقيتنا من حضيض النقصان الى اوج الكمال فأفض علينا من العقل الذى هو اشرف مخلوقاتك واعز مبدعاتك الذى شرفته بقولك بك اهين وبك اثيب وبك اعاقب حتى نفوز من خزائن رحمتك بالخلع الكاملة والفضيلة التامة فاعطاهم العقل وبعث فى ارواحهم نور البصيرة وجوهر الهداية فعند هذه الدرجة فازوا بالخلع الاربعة الوجود والحياة والقدرة والعقل فالعقل خاتم الكل والخاتم يجب ان يكون افضل الاترى ان رسولنا صلى الله عليه وسلم لما كان خاتم النبيين كان افضل الانبياء عليهم الصلاة والسلام والانسان لما كان خاتم المخلوقات الجسمانية كان افضلها فكذلك العقل لما كان خاتم الخلع الفائضة من حضرة ذى الجلال كان افضل الخلع واكملها ثم نظر العقل فى نفسه فرأى نفسه كالجفنة المملوأة من الجواهر النفيسة بل كأنها سماء مملوأة من الكواكب الزاهرة وهى العلوم الضرورية البديهية المركوزة فى بداية العقول وصرائح الاذهان وكما ان الكواكب المركوزة فى السموات علامات يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر فكذلك الجواهر المركوزة فى سماء العقل كواكب زاهرة يهتدى بها السائرون فى ظلمات عالم الاجسام الى انوار العالم الروحانية وفسحة السموات واضوائها فلما نظر العقل الى تلك الكواكب الزاهرة والجواهر الباهرة رأى رقم الحدوث على تلك الجواهر وعلى جميع تلك الخلع فاستدل بتلك الارقام على راقم وبتلك النقوش على ناقش وعندذلك عرف ان النقاش بخلاف النقش والبانى بخلاف البناء فانفتح له من اعلى سماء عالم المحدثات روازن الى اضواء لوائح عالم القدر وطالع عالم القدم الازلية

وان يسهل عليه مع ذلك امره الذى هو اجل الامور واعظمها واصعب الخطوب واهولها بتوفيق الاسباب ورفع الموانع وفى زيادة كلمة لى مع انتظام الكلام بدونها تأكيد لطلب الشرح والتيسير بابهام المشروح والميسر اولا وتفسيرهما ثانيا وفى تقديمها وتكريرها اظهار مزيد اعتناء

والجلال وكأن العقل انما نظر الى اضواء عالم الازلية من ظلمات عالم الحدوث والامكان فغلبته دهشة انوار الازلية فعميت عيناه فبقي متحيرا فالتجأ بطبعه الى مفيض الانوار فقال رب اشرح لي صدري فان البحار عميقة والظلمات متكاثفة وفي الطريق قطاع من الاعداء الداخلة والخارجة وشياطين الانس والجن كثيرة فان لم تشرح لي صدري ولم تكن لي عونا في كل الامور انقطعت وصارت هذه الخلع سبب التيل الآفات لا للفوز بالدرجات فهذا هو المراد من قوله رب اشرح لي صدري ثم قال ويسر لي امري وذلك لان كل ما يصدر من العبد من الافعال والاقوال والحركات والسكنات فالم يصر العبد مريدا له استحال ان يصير فاعلا له فهذا ما لارادة صفة محدثة ولا بد لها من فاعل وفاعلها ان كان هو العبد افتقر في تحصيل تلك الارادة الى ارادة اخرى ولزم التسلسل بل لا بد من الانتهاء الى ارادة يخلقها مدبر العالم فيكون في الحقيقة هو الميسر للامور وهو المتمم لجميع الاشياء وتمام التحقيق ان حدوث الصفة لا بد له من قابل وفاعل فعبر عن استعداد القابل بقوله رب اشرح لي صدري وعبر عن حصول الفاعل بقوله ويسر لي امري وفيه تنبيه على انه سبحانه وتعالى هو الذي يعطي القابل قابليته والفاعل فاعليته ولهذا كان السلف رضي الله عنهم يقولون يا مبتدئا بالنعم قبل استحقاقها ومجموع هذين الكلامين كالبرهان القاطع على ان جميع الحوادث في هذا العالم واقعة بقضائه وقدره وحكمته وقدرته ويمكن ان يقال ايضا كأن موسى عليه السلام قال الهي لا اكتفي بشرح الصدر ولكن أطلب منك تنفيذ الامر وتحصيل الغرض فلهذا قال ويسر لي أمري أو يقال انه سبحانه وتعالى لما أعطاه الخلع الاربع وهي الوجود والحياة والقدرة والعقل فكأنه قال له يا موسى أعطيتك هذه الخلع الاربع فلا بد في مقابلتها من خدمات أربع لتقابل كل نعمة بخدمة فقال موسى عليه السلام ما تلك الخدمات فقال وأقم الصلاة لذكري فان فيها انوارا أربعة من الخدمة القيام والقراءة والركوع والسجود فاذا أتيت بالصلاة فقد قابلت كل نعمة بخدمة ثم انه تعالى لما أعطاه الخلعة الخامسة وهي خلعة الرسالة قال رب اشرح لي صدري حتى اعرف انى بأي خدمة اقابل هذه النعمة فقيل له بأن تجتهد في اداء هذه الرسالة على الوجه المطلوب فقال موسى يا رب ان هذا لا يتأتى مني مع عجزي وضعفي وقلة آلاتي وقوة خصمي فاشرح لي صدري ويسر لي امري (الفصل الثاني) في قوله رب اشرح لي صدري اعلم ان الدعاء سبب القرب من الله تعالى وانما اشتغل موسى بهذا الدعاء طلبا للقرب فنفتقر الى بيان امرين الى بيان ان الدعاء سبب القرب ثم الى بيان ان موسى عليه السلام طلب القرب بهذا الدعاء اما بيان ان الدعاء سبب القرب فيدل عليه وجوه (الاول) ان الله تعالى ذكر السؤال والجواب في كتابه في عدة مواضع منها اصولية ومنها فروعية اما الاصولية فاولها في البقرة يسئلونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج (وثانيها) في بني اسرائيل ويسئلونك عن الروح

بشأن كل من المطلوبين وفضل اهتمام باستدعاء حصولهما واختصاصهما به (واحلل عقدة من لساني) روي انه كان في لسانه عليه الصلاة والسلام رتة من جمرة ادخلها فاه في صغره وذلك ان فرعون حمله ذات يوم فاخذ لحيته ونتفها لما كان فيها من الجواهر

قل الروح من امر ربى (وثالثها) ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا (ورابعها) يسئلونك عن الساعة أيان مرساها واما الفروعية فستة منها فى البقرة على التوالى (احدها) يسئلونك ماذا ينفقون قل ما انفقتم من خير فللوالدين والاقربين (وثانيها) يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير (وثالثها) يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير (ورابعها) ويسئلونك ماذا ينفقون قل العفو (وخامسها) ويسئلونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير (وسادسها) ويسئلونك عن المحيض قل هو أذى (وسابعها) يسئلونك عن الانفال قل الانفال لله والرسول (وثامنها) ويسئلونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا (وتاسعها) ويستنبؤنك أحق هو قل اى وربى انه لحق (وعاشرها) يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة (والحادية عشر) واذا سألك عبادى عنى فانى قريب اذا عرفت هذا فنقول جاءت هذه الاسئلة والاجوبة على صور مختلفة فالاغلب فيها انه سبحانه وتعالى لما ذكر السؤال قال لمحمد صلى الله عليه وسلم قل وفى صورة أخرى جاء الجواب بصيغة فقل مع فاء التعقيب وفى صورة ثالثة ذكر السؤال ولم يذكر الجواب وهو قوله تعالى يسئلونك عن الساعة أيان مرساها وفى صورة رابعة ذكر الجواب ولم يذكر فيه لفظ قل ولا لفظ فقل وهو قوله تعالى واذا سألك عبادى عنى فانى قريب ولابد لهذه الاشياء من الفائدة فنقول أما الاجوبة الواردة بلفظ قل فلا اشكال فيها لان قوله تعالى قل كالتوقيع المحدد فى ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وكالتشريف المحدد فى كونه مخاطبا من الله تعالى بأداء الوحى والتبليغ وأما الصورة الثانية وهى قوله فقل ينسفها ربى نسفا فالسبب ان قولهم ويسئلونك عن الجبال سؤال اما عن قدمها أو عن وجوب بقائها وهذه المسئلة من أمهات مسائل أصول الدين فلاجرم أمر الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم ان يجيب بلفظ الفاء المفيد للتعقيب كأنه سبحانه قال يا محمد أجب عن هذا السؤال فى الحال ولا تقتصر فان الشك فيه كفر ولا تمهل هذا الامر لئلا يقعوا فى الشك والشبهة ثم كيفية الجواب انه قال فقل ينسفها ربى نسفا ولاشك ان النسف ممكن لانه ممكن فى حق كل جزء من اجزاء الجبل والحس يدل عليه فوجب أن يكون ممكنا فى حق كل الجبل وذلك يدل على انه ليس بقديم ولا واجب الوجود لان القديم لايجوز عليه التغير والنسف فان قيل انهم قالوا اخبرنا عن الهك أهو ذهب او فضة او حديد فقال قل هو الله أحد ولم يقل فقل هو الله أحد مع ان هذه المسئلة من المهمات قلنا انه تعالى لم يحك فى هذا الموضع سؤالهم وحرف الفاء من الحروف العاطفة فيستدعى سبق كلام فلما لم يوجد ترك الفاء بخلاف ههنا فانه تعالى حكى سؤالهم فحسن عطف الجواب عليه بحرف الفاء (واما الصورة الثالثة) فانه تعالى لم يذكر الجواب فى قوله يسئلونك عن الساعة أيان مرساها فالحكمة فيه ان معرفة وقت الساعة على التعيين مشتملة على المفاسد التى شرحناها فيما سبق فلهذا لم يذكر الله تعالى ذلك الجواب وذلك يدل على ان من الاسئلة ما لايجاب عنها

فغضب وامر بقتله فقالت آسية انه صبى لايفرق بين الجمر والياقوت فأحضرا بين يديه فأخذ الجمرة فوضعها فى فيه فقيل واحترقت يده فاجتهد فرعون فى علاجها فلم تبرأ ثم لما دعاه قال الى اى رب تدعونى قال الى الذى أبرأ يدى وقد عجزت عنه واختلف فى زوال العقدة بكمالها لمن قال بعمومه بقوله تعالى قد

(وأما الصورة الرابعة) وهى قوله فانى قريب ولم يذكر فى جوابه قل ففيه وجوه (احدها) ان ذلك يدل على تعظيم حال الدعاء وانه من اعظم العبادات فكأنه سبحانه قال ياعبدى انت انما تحتاج الى الواسطة فى غير الدعاء اما فى مقام الدعاء فلا واسطة بينى وبينك يدل عليه ان كل قصة وقعت لم تكن معرفتها من المهمات قال لرسوله صلى الله عليه وسلم اذكر لهم تلك القصة كقوله تعالى واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها واذكر فى الكتاب موسى واذكر فى الكتاب اسمعيل واذكر فى الكتاب ادريس ونبئهم عن ضيف ابراهيم ثم قال فى قصة يوسف نحن نقص عليك أحسن القصص وفى اصحاب الكهف نحن نقص عليك نبأهم بالحق وماذاك الا لما فى هاتين القصتين من العجائب والغرائب والحاصل كأنه سبحانه وتعالى قال يا محمد اذا سئلت عن غيرى فكن أنت المجيب واذا سئلت عنى فاسكت أنت حتى أكون انا القائل (وثانيها) ان قوله واذا سألك عبادى عنى يدل على ان العبد له وقوله فانى قريب يدل على ان الرب قريب من العبد (وثالثها) لم يقل فالعبد منى قريب بل قال انا منه قريب وهذا فيه سر نفيس فان العبد ممكن الوجود فهو من حيث هو هو فى مركز العدم وحضيض الفناء فكيف يكون قريبا بل القريب هو الحق سبحانه وتعالى فانه بفضله واحسانه جعله موجودا وقربه من نفسه فالقرب منه لا من العبد فلهذا قال فانى قريب (ورابعها) ان الداعى مادام يبقى خاطره مشغولا بغير الله تعالى فانه لا يكون داعيا لله تعالى فاذا فنى عن الكل وصار مستغرقا بمعرفة الله الاحد الحق امتنع ان يبقى فى مقام الفناء عن غير الله مع الالتفات الى غير الله تعالى فلا جرم رفعت الواسطة من البين فما قال فقل انى قريب بل قال فانى قريب فثبت بما تقرر فضل الدعاء وانه من اعظم القربات ثم من شأن العبد اذا اراد أن يتحف مولاه ان لا يتحفه الا بأحسن التحف والهدايا فلا جرم اول ما اراد موسى ان تحف الحضرة الالهية بتحف الطاعات والعبادات اتحفها بالدعاء فلا جرم قال رب اشرح لى صدرى (والوجه الثانى) فى بيان فضل الدعاء قوله عليه السلام الدعاء مخ العبادة ثم ان اول شئ أمر الله تعالى به موسى عليه السلام العبادة لان قوله اننى انا الله اخبار وليس بأمر انما الامر قوله فاعبدنى فلما كان اول ما اورد على موسى من الاوامر هو الامر بالعبادة لا جرم اول ما اتحف به موسى عليه السلام حضرة الربوبية من تحف العبادة هو تحفة الدعاء فقال رب اشرح لى صدرى (والوجه الثالث) وهو ان الدعاء نوع من انواع العبادة فكما انه سبحانه وتعالى أمر بالصلاة والصوم فكذلك امر بالدعاء ويدل عليه قوله تعالى واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب وقال ربكم ادعونى استجب لكم وادعوه خوفا وطمعا ادعوا ربكم تضرعا وخفية هو الحى لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة وقال صلى الله عليه وسلم ادعوا ياذا الجلال والاكرام فبهذه الآيات عرفنا ان الدعاء عبادة قال بعض الجهال الدعاء على خلاف العقل من وجوه

(احدها)

او ثبت سؤلك ومن لم يقل به احتج بقوله تعالى هو افصح منى وقوله تعالى ولا يكاد يبين واجاب عن الاول بأنه لم يسأل حل عقدة لسانه بالكلية بل حل عقدة تمنع الافهام ولذلك نكرها ووصفها بقوله من لسانى اى عقدة كائنة من عقد لسانى وجعل قوله تعالى (يفقهو اقولى) جواب الامر وغرضنا من الدعاء فحلها فى الجملة يتحقق ايتاء سؤله عليه الصلاة والسلام

(احدها) انه علام الغيوب يعلم مافى الانفس وماتخفى الصدور فأى حاجة بنا الى الدعاء (وثانيها) ان المطلوب ان كان معلوم الوقوع فلاحاجة الى الدعاء وان كان معلوم اللاوقوع فلا فائدة فيه (وثالثها) الدعاء يشبه الامر والنهى وذلك من العبد فى حق المولى سوء ادب (ورابعها) المطلوب بالدعاء ان كان من المصالح فالحكيم لايهمله وان لم يكن من المصالح لم يجز طلبه (وخامسها) فقد جاء ان اعظم مقامات الصديقين الرضا بقضاء الله تعالى وقد ندب اليه والدعاء ينافى ذلك لانه اشتغال بالالتماس والطلب (وسادسها) قال عليه السلام رواية عن الله تعالى من شغله ذكرى عن مسئلتى اعطيته افضل مااعطى السائلين فدل على ان الاولى ترك الدعاء والآيات التى ذكرتموها تقتضى وجوب الدعاء (وسابعها) ان ابراهيم عليه السلام لما ترك الدعاء واكتفى بقوله حسبى من سؤالى علمه تعالى استحق المدح العظيم فدل على ان الاولى ترك الدعاء والجواب عن الاول انه ليس الغرض من الدعاء الاعلام بل هو نوع تضرع كسائر التضرعات وعن الثانى انه يجرى مجرى ان نقول للجائع والعطشان ان كان الشبع معلوم الوقوع فلاحاجة الى الاكل والشرب وان كان معلوم اللاوقوع فلافائدة فيه (وعن الثالث) ان الصيغة وان كانت صيغة الامر الا ان صورة التضرع والخشوع تصرفه عن ذلك (وعن الرابع) يجوز ان يصير مصلحة بشرط سبق الدعاء (وعن الخامس) انه اذا دعا اظهار التضرع ثم رضى بما قدره الله تعالى فذاك اعظم المقامات وهو الجواب عن البقية اذا ثبت انه من العبادات ثم انه تعالى امر بالعبادة وبالصلاة امرا ورد مجملا لاجرم شرع فى اجل العبادات وهو الدعاء (الوجه الرابع) فى فضل الدعاء انه سبحانه لم يقتصر فى بيان فضل الدعاء على الامر به بل بين فى آية اخرى انه يغضب اذا لم يسئل فقال فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون وقال عليه السلام لايقولن احدكم اللهم اغفرلى ان شئت ولكن يجزم فيقول اللهم اغفرلى فلهذا السر جزم موسى عليه السلام بالدعاء وقال رب اشرح لى صدرى (الوجه الخامس) فى فضل الدعاء قوله تعالى وقال ربكم ادعونى استجب لكم وفيه كرامة عظيمة لامتنا لان بنى اسرائيل فضلهم الله تفضيلا عظيما فقال فى حقهم وانى فضلتكم على العالمين وقال ايضا وآتاكم مالم يؤت احدا من العالمين ثم مع هذه الدرجة العظيمة قالوا لموسى عليه السلام ادع لنا ربك يبين لنا ماهى وان الحواريين مع جلالتهم فى قولهم نحن انصار الله سألوا عيسى عليه السلام ان يسأل لهم مائدة تنزل من السماء ثم انه سبحانه وتعالى رفع هذه الواسطة فى امتنا فقال مخاطبا لهم من غير واسطة ادعونى استجب لكم وقال واسألوا الله من فضله فلهذا السبب لما حصلت هذه الفضيلة لهذه الامة وكان موسى عليه السلام قد عرفها لاجرم قال اللهم اجعلنى من امة محمد صلى الله عليه وسلم فلاجرم رفع يديه ابتداء فقال رب اشرح لى صدرى واعلم انه تعالى قال واذا سألك عبادى عنى فانى قريب ثم انه تعالى جعل العباد على سبعة اقسام (احدها) عبد العصمة ان عبادى

والحق أن ماذكر لايدل على بقائها فى الجملة أما قوله تعالى هو أفصح منى فلانه عليه الصلاة والسلام قاله قبل استدعاء الحل كما ستعرفه على ان افصحيته منه عليهما الصلاة والسلام لاتستدعى بقاءها أصلا بل تستدعى عدم البقاء لان الافصحية توجب ثبوت أصل الفصاحة فى المفضول أيضا وذلك مناف للعقدة رأسا وأما قوله تعالى

ليس لك عليهم سلطان وموسى عليه السلام كان مخصوصا بمزيد العصمة واصطنعتك لنفسى فلاجرم طلب زوائد العصمة فقال رب اشرح لى صدرى (وثانيها) عبد الصفوة وسلام على عباده الذين اصطفى وموسى عليه السلام كان مخصوصا بمزيد الصفوة ياموسى انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فلاجرم اراد مزيد الصفوة فقال رب اشرح لى صدرى (وثالثها) عبد البشارة فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه وكان موسى عليه السلام مخصوصا بذلك وانا اخترتك فاستمع لما يوحى فاراد مزيد البشارة فقال رب اشرح لى صدرى (ورابعها) عبد الكرامة ياعبادى لاخوف عليكم وموسى عليه السلام كان مخصوصا بذلك لاتخافا اننى معكما فأراد الزيادة عليها فقال رب اشرح لى صدرى (وخامسها) عبد المغفرة نبئ عبادى انى انا الغفور الرحيم وكان موسى عليه السلام مخصوصا بذلك رب اغفر لى فغفر له فأراد الزيادة فقال رب اشرح لى صدرى (وسادسها) عبد الخدمة اعبدوا ربكم وموسى عليه السلام كان مخصوصا بذلك واصطنعتك لنفسى فطلب الزيادة فيها فقال رب اشرح لى صدرى (وسابعها) عبد القربة واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعانى وموسى عليه السلام كان مخصوصا بالقرب وناديناه من جانب الطور الايمن وقربناه نجيا فأراد كمال القرب فقال رب اشرح لى صدرى (الفصل الثالث) فى قوله رب اشرح لى صدرى وفيه وجوه (احدها) انه تعالى لما خاطبه بالاشياء الستة (احدها) معرفة التوحيد اننى انا الله لا اله الا انا (وثانيها) امره بالعبادة والصلاة فاعبدنى واقم الصلاة لذكرى (وثالثها) معرفة الآخرة ان الساعة آتية (ورابعها) حكمة أفعاله فى الدنيا وماتلك بيمينك ياموسى (وخامسها) عرض المعجزات الباهرة عليه لنريك من آياتنا الكبرى (وسادسها) ارساله الى اعظم الناس كفرا وعتوا فكانت هذه التكاليف الشاقة سببا للقهر فأراد موسى عليه السلام جبر هذا القهر بالمجز فعرف ان كل من سأله قرب منه فقال رب اشرح لى صدرى فأراد جبر القهر الحاصل من هذه التكاليف بالقرب منه فقال رب اشرح لى صدرى او يقال خاف شياطين الانس والجن فدعا ليصل بسبب الدعاء الى مقام القرب فيصير مأمونا من غوائل شياطين الجن والانس (وثانيها) ان المراد انه اراد الذهاب الى فرعون وقومه فأراد ان يقطع طمع الخلق عن نفسه بالكلية فعرف ان من دعا ربه قربه له وقربه لديه فحينئذ تنقطع الاطماع بالكلية فقال رب اشرح لى صدرى (وثالثها) الوجود كالنور والعدم كالظلمة وكل ماسوى الله تعالى فهو عدم محض فكل شئ هالك الاوجهه فالكل كأنهم فى ظلمات العدم واظلال عالم الاجسام والامكان فقال رب اشرح لى صدرى حتى يجلس قلبى فى بهى ضوء المعرفة ووسادة شرح الصدر والجالس فى الضوء لايرى من كان جالسا فى الظلمة فحين جلس فى ضوء شرح الصدر لايرى احدا فى الوجود فلهذا عقبه بقوله ويسر لى امرى فان العبد فى مقام الاستغراق لايتفرغ لشئ من

ولايكاد يبين فن باب غلو العين فى العتو والطغيان والالدل على عدم زوالها أصلا وتنكيرها انما يفيد قلتها فى نفسها لاقلتها باعتبار كونها بعضا من الكثير وتعلق كلمة من فى قوله تعالى من لسانى بمحذوف هو صفة لها ليس بمقطوع به بل الظاهر تعلقها بنفس الفعل فان المحلول اذا كان متعلقا بشئ ومتصلا به

المهمات (ورابعها) رب اشرح لى صدرى فان عين العقل ضعيفة فأطلع يا الهى شمس التوفيق حتى ارى كل شئ كما هو وهذا فى معنى قول محمد صلى الله عليه وسلم أرنا الاشياء كما هى واعلم ان شرح الصدر مقدمة لسطوع الانوار الالهية فى القلب والاستماع مقدمة الفهم الحاصل من سماع الكلام فالله تعالى اعطى موسى عليه السلام المقدمة الثانية وهى قوله فاستمع لما يوحى فلاجرم تبجح موسى على ذلك المنوال فطلب المقدمة الاخرى فقال رب اشرح لى صدرى ولما آل الامر الى محمد صلى الله عليه وسلم قيل له وقل رب زدنى علما والعلم هو المقصود فلما كان موسى عليه السلام كالمقدمة لمقدم محمد صلى الله عليه وسلم لاجرم اعطى المقدمة ولما كان محمد كالمقصود لاجرم اعطى المقصود فسبحانه ما ادق حكمته فى كل شئ (وسادسها) الداعى له صفتان (احداهما) ان يكون عبد الرب واذا سألك عبادى عنى فانى قريب (وثانيتهما) ان يكون الرب له وقال ربكم ادعونى استجب لكم اضاف نفسه الينا وما اضافنا الى نفسه والمشتغل بالدعاء قد صار كاملا من هذين الوجهين فأراد موسى عليه السلام ان يرتع فى هذا البستان فقال رب اشرح لى صدرى (وسابعها) ان موسى عليه السلام شرفه الله تعالى بقوله وقربناه نجيا فكان موسى عليه السلام قال الهى لما قلت وقربناه نجيا صرت قريبا منك ولكن اريد قربك منى فقال ياموسى أما سمعت قولى واذا سألك عبادى عنى فانى قريب فاشتغل بالدعاء حتى اصير قريبا منك فعند ذلك قال رب اشرح لى صدرى (وثامنها) قال موسى عليه السلام رب اشرح لى صدرى وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم الم نشرح لك صدرك ثم انه تعالى ماتركه على هذه الحالة بل قال وسراجا منيرا فانظر الى التفاوت فان شرح الصدر هو ان يصير الصدر قابلا للنور والسراج المنير هو أن يعطى النور فالتفاوت بين موسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم كالتفاوت بين الآخذ والمعطى ثم نقول الهنا ان ديننا وهو كلمة لا اله الا الله نور والوضوء نور والصلاة نور والقبر نور والجنة نور فبحق انوارك التى اعطيتنا فى الدنيا لاتحرمنا انوار فضلك واحسانك يوم القيامة (الفصل الرابع) فى قوله رب اشرح لى صدرى سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شرح الصدر فقال نور يقذف فى القلب فقيل وما امارته فقال التجافى عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاستعداد للموت قبل النزول ويدل على ان شرح الصدر عبارة عن النور قوله تعالى افمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه واعلم ان الله تعالى ذكر عشرة اشياء ووصفها بالنور (احدها) وصف ذاته بالنور الله نور السموات والارض (وثانيها) الرسول قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين (وثالثها) القرآن واتبعوا النور الذى انزل معه (ورابعها) الايمان يريدون ان يطفؤا نور الله بأفواههم (وخامسها) عدل الله واشرقت الارض بنور ربها (وسادسها) ضياء القمر وجعل القمر فيهن نورا (وسابعها) النهار وجعل الظلمات والنور (وثامنها) البينات انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور (وتاسعها) الانبياء نور على نور (وعاشرها)

فكما يتعلق الحل به يتعلق بذلك الشئ أيضا باعتبار ازالته عنه أو ابتداء حصوله منه (واجعل لى وزيرا من أهلى هرون اخى) أى موازرا يعاوننى فى تحمل أعباء ما كلفته على ان اشتقاقه من الوزر الذى هو الثقل او ملجأ اعتصم برأيه على انه من الوزر وهو الملجأ وقيل أصله أزير من الازر بمعنى القوة فعيل بمعنى مفاعل كالعشير والجليس

المعرفة مثل نوره كمشكاة فيها مصباح اذا ثبت هذا فنقول كأن موسى عليه السلام قال رب اشرح لى صدرى بمعرفة أنوار جلالك وكبريائك (وثانيها) رب اشرح لى صدرى بالتخلق بأخلاق رسلك وانبيائك (وثالثها) رب اشرح لى صدرى باتباع وحيك وامتثال أمرك ونهيك (ورابعها) رب اشرح لى صدرى بنور الايمان والايقان بالهيتك (وخامسها) رب اشرح لى صدرى بالاطلاع على اسرار عدلك فى قضائك وحكمك (وسادسها) رب اشرح لى صدرى بالانتقال من نور شمسك وقمرك الى انوار جلال عزتك كما فعله ابراهيم عليه السلام حيث انتقل من الكوكب والقمر والشمس الى حضرة العزة (وسابعها) رب اشرح لى صدرى من مطالعة نهارك وليلك الى مطالعة نهار فضلك وليل عدلك (وثامنها) رب اشرح لى صدرى بالاطلاع على مجامع آياتك ومعاقد بيناتك فى ارضك وسمواتك (وتاسعها) رب اشرح لى صدرى فى ان أكون خلف صور الانبياء المتقدمين ومتشبها بهم فى الانقياد لحكم رب العالمين (وعاشرها) رب اشرح لى صدرى بان تجعل سراج الايمان فى قلبى كالمشكاة التى فيها المصباح واعلم ان شرح الصدر عبارة عن ايقاد النور فى القلب حتى يصير القلب كالسراج وذلك النور كالنار ومعلوم ان من أراد ان يستوقد سراجا احتاج الى سبعة اشياء زند وحجر وحراق وكبريت ومسرجة وفتيلة ودهن فالعبد اذا طلب النور الذى هو شرح الصدر افتقر الى هذه السبعة (فأولها) لابد من زند المجاهدة والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا (وثانيها) حجر التضرع ادعوا ربكم تضرعا وخفية (وثالثها) حراق منع الهوى ونهى النفس عن الهوى (ورابعها) كبريت الانابة وانيبوا الى ربكم ملطخا رؤس تلك الخشبات بكبريت توبوا الى الله (وخامسها) مسرجة الصبر واستعينوا بالصبر والصلاة (وسادسها) فتيلة الشكر لئن شكرتم لأزيدنكم (وسابعها) دهن الرضا واصبر لحكم ربك اى ارض بقضاء ربك فاذا صلحت هذه الادوات فلا تعول عليها بل ينبغى ان لاتطلب المقصود الا من حضرته ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ثم اطلبها بالخشوع والخضوع وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع الاهمسا فعند ذلك ترفع يد التضرع وتقول رب اشرح لى صدرى فهنالك تسمع قد اوتيت سؤلك ياموسى ثم نقول هذا النور الروحانى المسمى بشرح الصدر افضل من الشمس الجسمانية لوجوه (أحدها) الشمس تحجبها غمامة وشمس المعرفة لاتحجبها السموات السبع اليه يصعد الكلم الطيب (وثانيها) الشمس تغيب ليلا وتعود نهارا قال ابراهيم عليه السلام لا احب الآفلين اما شمس المعرفة فلا تغيب ليلا ان ناشئة الليل هى اشد وطأ والمستغفرين بالاسحار بل أكمل الخلع الروحانية تحصل فى الليل سبحان الذى اسرى بعبده ليلا (وثالثها) الشمس تفنى اذا الشمس كورت وشمس المعرفة لاتفنى سلام قولا من رب رحيم (ورابعها) الشمس اذا قابلها القمر انكسفت اما ههنا فشمس المعرفة وهى معرفة اشهد ان لا اله الا الله مالم يقابلها قمر اشهد ان محمدا رسول الله لم يصل نورها الى

قلبت همزته واوا كالبها فى موازر ونصبه على انه مفعول ثان لاجعل قدم على الاول الذى هو قوله تعالى هرون اعتناء بشأن الوزارة ولى صلة لاجعل أو متعلق بمحذوف هو حال من وزيرا اذ هو صفة له فى الاصل ومن أهلى اما صفة لوزيرا أو صلة لاجعل وقيل مفعولاه لى وزيرا وهرون عطف بيان للوزير ومن اهلى كما مر من الوجهين

عالم الجوارح (وخامسها) الشمس تسود الوجوه والمعرفة تبيضها يوم تبيض وجوه وتسود وجوه (وسادسها) الشمس تحرق والمعرفة تنجي من الحرق جز يامؤمن فان نورك قد اطفأ لهبي (وسابعها) الشمس تصدع والمعرفة تصعد اليه يصعد الكلم الطيب (وثامنها) الشمس منفعتها في الدنيا والمعرفة منفعتها في العقبى والباقيات الصالحات خير (وتاسعها) الشمس في السماء زينة لاهل الارض والمعرفة في الارض زينة لاهل السماء (وعاشرها) الشمس فوقانى الصورة تحتانى المعنى وذلك يدل على الحسد مع التكبر والمعارف الالهية تحتانية الصورة فوقانية المعنى وذلك يدل على التواضع مع الشرف (وحادى عشرها) الشمس تعرف احوال الخلق وبالمعرفة يصل القلب الى الخالق (وثانى عشرها) الشمس تقع على الولى والعدو والمعرفة لاتحصل الا للولى فلما كانت المعرفة موصوفة بهذه الصفات النفيسة لاجرم قال موسى رب اشرح لى صدرى واما النكت (فاحداها) الشمس سراج استوقدها الله تعالى للفناء كل من عليها فان والمعرفة استوقدها للبقاء فالذى خلقها للفناء لو قرب الشيطان منها لاحترق شهابا رصدا والمعرفة التى خلقها للبقاء كيف يقرب منها الشيطان رب اشرح لى صدرى (وثانيتها) استوقد الله الشمس في السماء وانها تزيل الظلمة عن بيتك مع بعدها عن بيتك واوقد شمس المعرفة في قلبك أفلا تزيل ظلمة المعصية والكفر عن قلبك مع قربها منك (وثالثتها) من استوقد سراجا فانه لايزال يتعهده ويمده والله تعالى هو الموقد لسراج المعرفة ولكن الله حبب اليكم الايمان أفلا يمده وهو معنى قوله ربى اشرح لى صدرى (ورابعتها) اللص اذا رأى السراج يوقد في البيت لايقرب منه والله قد اوقد سراج المعرفة في قلبك فكيف يقرب الشيطان منه فلهذا قال رب اشرح لى صدرى (وخامستها) المجوس اوقدوا نارا افلا يريدون اطفاءها والملك القدوس اوقد سراج الايمان في قلبك فكيف يرضى باطفائه واعلم انه سبحانه وتعالى اعطى قلب المؤمن تسع كرامات (احدها) الحياة أو من كان ميتا فاحييناه فلما رغب موسى عليه السلام في الحياة الروحانية قال رب اشرح لى صدرى ثم النكتة انه عليه السلام قال من احيى ارضا ميتة فهى له فالعبد لما احيى ارضا فهى له فالرب لما خلق القلب واحياه بنور الايمان فكيف يجوز ان يكون لغيره فيه نصيب قل الله ثم ذرهم وكما ان الايمان حياة القلب فالكفر موته اموات غير احياء وما يشعرون (وثانيها) الشفاء ويشف صدور قوم مؤمنين فلما رغب موسى في الشفاء رفع الايدى قال رب اشرح لى صدرى والنكتة انه تعالى لما جعل الشفاء في العسل بقى شفاء ابدا فههنا لما وضع الشفاء في الصدر فكيف لايبقى شفاء ابدا (وثالثها) الطهارة اولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى فلما رغب موسى عليه السلام في تحصيل طهارة التقوى قال رب اشرح لى صدرى والنكتة ان الصائغ اذا امتحن الذهب مرة فبعد ذلك لايدخله في النار فههنا لما امتحن الله قلب المؤمن فكيف يدخله النار ثانيا ولكن الله يدخل في النار قلب الكافر ليميز الله الخبيث من الطيب

واخى في الوجهين بدل من هرون او عطف بيان آخر وقيل هما وزيرا من اهلى ولى تبيين كما في قوله تعالى ولم يكن له كفوا احد ورد بأن شرط المفعولين في باب النواسخ صحة انعقاد الجملة الاسمية ولا مساغ لجعل وزيرا مبتدأ ومخبرا عنه بما بعده (اشدد به ازرى واشركه في امرى) كلاهما على صيغة الدعاء

(ورابعها) الهداية ومن يؤمن بالله يهد قلبه فرغب موسى عليه السلام فى طلب زوائد الهداية فقال رب اشرح لى صدرى والنكتة ان الرسول يهدى نفسك والقرآن يهدى روحك والمولى يهدى قلبك فلما كانت الهداية من الكفر من محمد صلى الله عليه وسلم لاجرم تارة تحصل واخرى لاتحصل انك لاتهدى من احببت ولكن الله يهدى من يشاء وهداية الروح لما كانت من القرآن فتارة تحصل واخرى لاتحصل يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا اما هداية القلب فلما كانت من الله تعالى فانها لاتزول لان الهادى لايزول ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم (وخامسها) الكتابة اولئك كتب فى قلوبهم الايمان فلما رغب موسى عليه السلام فى تلك الكتابة قال رب اشرح لى صدرى وفيه نكت (الاولى) ان الكاغدة ليس لها خطر عظيم واذا كتب فيها القرآن لم يجز احراقها فقلب المؤمن كتب فيه جميع احكام ذات الله تعالى وصفاته فكيف يليق بالكريم احراقه (الثانية) بشر الحافى اكرم كاغدا فيه اسم الله تعالى فنال سعادة الدارين فاكرام قلب فيه معرفة الله تعالى أولى بذلك (والثالثة) كاغد ليس فيه خط اذا كتب فيه اسم الله الاعظم عظم قدره حتى انه لايجوز للجنب والحائض ان يمسه بل قال الشافعى رحمه الله تعالى ليس له ان يمس جلد المصحف وقال الله تعالى لايمسه الا المطهرون فالقلب الذى فيه اكرم المخلوقات ولقد كرمنا بنى آدم كيف يجوز للشيطان الخبيث ان يمسه والله اعلم (وسادسها) السكينة هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين فلما رغب موسى عليه السلام فى طلب السكينة قال رب اشرح لى صدرى والنكتة ان ابابكر رضى الله عنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان خائفا فلما نزلت السكينة عليه قال لاتحزن فلما نزلت سكينة الايمان فرحوا ان سمعوا خطاب ان لاتخافوا ولاتحزنوا وايضا لما نزلت السكينة صار من الخلفاء وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض اى ان يصيروا خلفاء الله فى ارضه (وسابعها) المحبة والزينة ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم والنكتة ان من القى حبة فى ارض فانه لايفسدها ولايحرقها فهو سبحانه وتعالى القى حبة المحبة فى ارض القلب فكيف يحرقها (وثامنها) والف بين قلوبكم والنكتة ان محمدا صلى الله عليه وسلم الف بين قلوب اصحابه ثم انه ماتركهم غيبة ولاحضور السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فالرحيم كيف يتركهم (وتاسعها) الطمأنينة ألا بذكر الله تطمئن القلوب وموسى طلب الطمأنينة فقال رب اشرح لى صدرى والنكتة ان حاجة العبد لا نهاية لها فلهذا لو أعطى كل مافى العالم من الاجسام فانه لايكفيه لان حاجته غير متناهية والاجسام متناهية والمتناهى لايصير مقابلا لغير المتناهى بل الذى يكفى فى الحاجة الغير المتناهية الكمال الذى لا نهاية له وماذاك الا للحق سبحانه وتعالى فلهذا قال ألا بذكر الله تطمئن القلوب ولما عرفت حقيقة شرح الصدر للمؤمنين فاعرف صفات قلوب الكافرين لوجوه (احدها) فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم (وثانيها) ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم

اى احكم به قوتى واجعله شريكى فى امر الرسالة حتى نتعاون على اداتها كما ينبغى وفصل الاول عن الدعاء السابق لكمال الاتصال بينهما ان شد الازر عبارة عن جعله وزيرا واما الاشراك فى الامر فحيث كان من احكام الوزارة توسط بينهما العاطف

(وثالثها)

وثالثها فى قلوبهم مرض (ورابعها) جعلنا قلوبهم قاسية (وخامسها) انا جعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه (وسادسها) ختم الله على قلوبهم (وسابعها) أم على قلوب أقفالها (وثامنها) كلا بل ران على قلوبهم (وتاسعها) أولئك الذين طبع الله على قلوبهم الهنا وسيدنا بفضلك واحسانك اغلق هذه الابواب التسعة من خذلانك عنا واجرنا باحسانك ولنا افتح تلك الابواب التسعة من احسانك بفضلك ورحمتك انك على ماتشاء قدير (الفصل الخامس) فى حقيقة شرح الصدر ذكر العلماء فيه وجهين (الاول) أن لا يبق للقلب التفات الى الدنيا لابارغبة ولا بارهبة أما الرغبة فهى أن يكون متعلق القلب بالاهل والولد وبتحصيل مصالحهم ودفع المضار عنهم وأما الرهبة فهى أن يكون خائفا من الاعداء والمنازعين فاذا شرح الله صدره صغر كل مايتعلق بالدنيا فى عين همته فيصير كالذباب والبق والبعوض لاتدعوه رغبة اليها ولاتمنعه رهبة عنها فيصير الكل عنده كالعدم وحينئذ يقبل القلب بالكلية نحو طلب مرضاة الله تعالى فان القلب فى المثال كينبوع من الماء والقوة البشرية لضعفها كالينبوع الصغير فاذا فرقت ماء العين الواحدة على الجداول الكثيرة ضعفت الكل فاما اذا انصب الكل فى موضع واحد قوى فسأل موسى عليه السلام ربه أن يشرح له صدره بأن يوقفه على معايب الدنيا وقبح صفاتها حتى يصير قلبه نفورا عنها فاذا حصلت النفرة توجه الى عالم القدس ومنازل الروحانيات بالكلية (الثانى) ان موسى عليه السلام لما نصب لذلك المنصب العظيم احتاج الى تكاليف شاقة منها ضبط الوحى والمواظبة على خدمة الخالق سبحانه وتعالى ومنها اصلاح العالم الجسدانى فكأنه صار مكلفا بتدبير العالمين والالتفات الى احدهما يمنع من الاشتغال بالآخر ألاترى ان المشتغل بالابصار يصير ممنوعا عن السماع والمشتغل بالسماع يصير ممنوعا عن الابصار والخيال فهذه القوى متجاذبة متنازعة وان موسى عليه السلام كان محتاجا الى الكل ومن استأنس بجمال الحق استوحش من جمال الخلق فسأل موسى ربه أن يشرح صدره بأن يفيض عليه كمالا من القوة لتكون قوته وافية بضبط العالمين فهذا هو المراد من شرح الصدر وذكر العلماء لهذا المعنى امثلة (المثال الاول) اعلم ان البدن بالكلية كالمملكة والصدر كالقلعة والفؤاد كالقصر والقلب كالتخت والروح كالملك والعقل كالوزير والشهوة كالعامل الكبير الذى يجلب النعم الى البلدة والغضب كالاسفهسلار الذى يشتغل بالضرب والتأديب أبدا والحواس كالجواسيس وسائر القوى كالخدم والعملة والصناع ثم ان الشيطان خصم لهذه البلدة ولهذه القلعة ولهذا الملك فالشيطان هو الملك والهوى والحرص وسائر الاخلاق الذميمة جنوده فأول ماأخرج الروح وزيره وهو العقل فكذا الشيطان أخرج فى مقابلته الهوى فجعل العقل يدعو الى الله تعالى والهوى يدعو الى الشيطان ثم ان الروح اخرج الفطنة اعانة للعقل فأخرج الشيطان فى مقابلة الفطنة الشهوة فالفطنة توقفك على

اى احكم به قوتى واجعله شريكى فى امر الرسالة حتى نتعاون على أدائها كما ينبغى أوفصل الاول عن الدعاء السابق لكمال الاتصال بينهما فان شد الازر عبارة عن جعله وزيرا وأما الاشراك فى الامر فحيث كان من احكام الوزارة توسط بينهما العاطف (كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا) غاية للادعية الثلاثة الاخيرة فان فعل كل واحد منهما من التسبيح والذكر مع كونه مكثرا لفعل الآخر ومضاعفا له بسبب انضمامه اليه مكثر له فى نفسه أيضا

معايب الدنيا والشهوة تحرك الى لذات الدنيا ثم ان الروح أمد الفطنة بالفكرة لتقوى
الفطنة بالفكرة فتقف على الحاضر والغائب من المعايب على ماقال عليه السلام تفكر
ساعة خير من عبادة سنة فأخرج الشيطان فى مقابلة الفكرة الغفلة ثم أخرج الروح الحلم
والثبات فان العجلة ترى الحسن قبيحا والقبيح حسنا والحلم يوقف العقل على قبح الدنيا
فأخرج الشيطان فى مقابلته العجلة والسرعة فلهذا قال عليه السلام مادخل الرفق فى
شئ الازانه ولا الخرق فى شئ الاشانه ولهذا خلق السموات والارض فى ستة أيام ليتعلم منه
الرفق والثبات فهذه هى الخصومة الواقعة بين الصنفين وقلبك وصدرك هو القلعة ثم ان
لهذا الصدر الذى هو القلعة خندقا وهو الزهد فى الدنيا وعدم الرغبة فيها وله سور وهو
الرغبة فى الآخرة ومحبة الله تعالى فان كان الخندق عظيما والسور قويا عجز عسكر
الشيطان عن تخريبه فرجعوا وراءهم وتركوا القلعة كما كانت وان كان خندق الزهد
غير عميق وسور حب الآخرة غير قوى قدر الخصم على استفتاح قلعة الصدر فيدخلها
ويبث فيها جنوده من الهوى والعجب والكبر والبخل وسوء الظن بالله تعالى والنميمة
والغيبة فيحصر الملك فى القصر ويضيق الامر عليه فاذا جاء مدد التوفيق وأخرج هذا
العسكر من القلعة انفسح الامر وانشرح الصدر وخرجت ظلمات الشيطان ودخلت
أنوار هداية رب العالمين وذلك هو المراد بقوله رب اشرح لى صدرى (المثال الثانى) اعلم
ان معدن النور هو القلب واشتغال الانسان بالزوجة والولد والرغبة فى مصاحبة الناس
والخوف من الاعداء هو الحجاب المانع من وصول نور شمس القلب الى فضاء الصدر فاذا
قوى الله بصيرة العبد حتى طالع عجز الخلق وقلة فائدتهم فى الدارين صغروا فى عينه ولا
شك فى أنهم من حيث هم عدم محض على ماقال تعالى كل شئ هالك الا وجهه فلا يزال العبد
يتأمل فيما سوى الله تعالى الى أن يشاهد انهم عدم محض فعند ذلك يزول الحجاب بين قلبه
وبين أنوار جلال الله تعالى واذا زال الحجاب امتلأ القلب من النور فذلك هو انشراح
الصدر (الفصل السادس) فى الصدر اعلم انه يجئ والمراد منه القلب أفمن شرح الله
صدره للاسلام رب اشرح لى صدرى وحصل مافى الصدور يعلم خائنة الاعين وما تخفى
الصدور وقد يجئ والمراد الفضاء الذى فيه الصدر فانها لاتعمى الابصار ولكن تعمى
القلوب التى فى الصدور واختلف الناس فى ان محل العقل هل هو القلب أو الدماغ
وجمهور المتكلمين على انه القلب وقد شرحنا هذه المسئلة فى سورة الشعراء فى تفسير قوله
نزل به الروح الامين على قلبك وقال بعضهم المواد اربعة الصدر والقلب والفؤاد واللب
فالصدر مقر الاسلام أفمن شرح الله صدره للاسلام والقلب مقر الايمان ولكن الله
حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم والفؤاد مقر المعرفة ما كذب الفؤاد ما رأى ان
السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا واللب مقر التوحيد انما يتذكر أولو
الالباب واعلم ان القلب اول مابعث الى هذا العالم بعث خاليا عن النقوش كاللوح

بسبب تقويته وتأييده اذليس المراد بالتسبيح والذكر مايكون منهما بالقلب أوفى الخلوات حتى لايتفاوت حاله عند التعدد والانفراد بل مايكون منهما فى تضاعيف أداء الرسالة ودعوة

الساذج وهو في عالم البدن كاللوح المحفوظ ثم انه تعالى يكتب فيه بقلم الرحمة و العظمة كل ما يتعلق بعالم العقل من نقوش الموجودات وصور الماهيات وذلك يكون كالسطر الواحد الى آخر قيام القيامة لهذا العالم الاصغر وذلك هو الصورة المجردة والحالة المطهرة ثم ان العقل يركب سفينة التوفيق ويلقيها في بحار امواج المعقولات وعوالم الروحانيات فيحصل من مهاب رياح العظمة والكبرياء رخاء السعادة تارة ودبور الادبار أخرى فربما وصلت سفينة النظر الى جانب مشرق الجلال فسطع عليه انوار الالهية وتخلص العقل عن ظلمات الضلالات وربما توغلت السفينة في جنوب الجهالات فتنكسر وتغرق فحيثما تكون السفينة في ملتطم امواج العزة يحتاج حافظ السفينة الى التماس الانوار والهدايات فيقول هناك رب اشرح لي صدري واعلم ان العقل اذا اخذ في الترقي من سفل الامكان الى علو الوجوب كثر اشتغاله بمطالعة الماهيات ومفارقة المجردات والمفارقات ومعلوم ان كل ماهية فهي اما هي معدا وهي له فان كانت هي معدا امتلأت البصيرة من انوار جلال العزة الالهية فلا يبقى هناك مستطلعا لمطالعة سائر الانوار فيضمحل كل ما سواه من بصر وبصيرة وان وقعت المطالعة لما هو له حصلت هناك حالة عجيبة وهي انه لو وضعت كرة صافية من البلور فوقع عليها شعاع الشمس فينعكس ذلك الشعاع الى موضع معين فذلك الموضع الذي اليه تعكس الشعاعات يحترق فجميع الماهيات الممكنة كالبلور الصافي الموضوع في مقابلة شمس القدس ونور العظمة ومشرق الجلال فاذا وقع للقلب التفات اليها حصلت للقلب نسبة اليها بأسرها فينعكس شعاع كبرياء الالهية عن كل واحد منها الى القلب فيحترق القلب ومعلوم انه كلما كان المحرق اكثر كان الاحتراق أتم فقال رب اشرح لي صدري حتى اقوى على ادراك درجات الممكنات فاصل الى مقام الاحتراق بأنوار الجلال وهذا هو المراد بقوله عليه السلام أرنا الاشياء كما هي فلما شاهد احتراقها بأنوار الجلال قال لا احصي ثناء عليك (الفصل السابع) في بقية الابحاث انما قال رب اشرح لي صدري ولم يقل رب اشرح صدري ليظهر ان منفعة ذلك الشرح عائدة الى موسى عليه السلام لا الى الله واما كيفية شرح صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم والمفاضلة بينه وبين شرح صدر موسى عليه السلام فنذكره ان شاء الله في تفسير قوله ألم نشرح لك صدرك والله اعلم بالصواب (المطلوب الثاني) قوله ويسر لي امري والمراد منه عند اهل السنة خلقها وعند المعتزلة تحريك الدواعي والبواعث بفعل الالطاف المسهلة فان قيل كل ما أمكن من اللطف فقد فعله الله تعالى فأي فائدة في هذا السؤال قلنا يحتمل ان يكون هناك من الالطاف ما لا يحسن فعلها الا بعد هذا السؤال ففائدة السؤال حسن فعل تلك الالطاف (المطلوب الثالث) قوله واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان النطق فضيلة عظيمة ويدل عليه وجوه (احدها) قوله تعالى خلق الانسان علمه البيان ولم يقل وعلمه البيان لانه

المردة العتاة الى الحق وذلك مما لاريب في اختلاف حاله في حالتي التعدد والانفراد فان كلا منهما يصدر عنه بتأييد الآخر من اظهار الحق ما لا يكاد يصدر عنه مثله في حال الانفراد وكثيرا في الموضعين

لوعطفه عليه لكان مغايرا له اما اذا ترك الحرف العاطف صار قوله علمه البيان كالتفسير لقوله خلق الانسان كأنه انما يكون خالقا للانسان اذا علمه البيان وذلك يرجع الى الكلام المشهور من ان ماهية الانسان هى الحيوان الناطق (وثانيها) اتفاق العقلاء على تعظيم أمر اللسان قال زهير

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * فلم يبق الاصورة اللحم والدم

وقال على ما الانسان لولا اللسان الابهيمة مهملة او صورة ممثلة والمعنى انالو أزلنا الادراك الذهنى والنطق اللسانى لم يبق من الانسان الا القدر الحاصل فى البهائم وقالوا المرء باصغريه قلبه ولسانه وقال صلى الله عليه وسلم المرء مخبوء تحت لسانه (وثالثها) ان فى مناظرة آدم مع الملائكة ماظهرت الفضيلة الا بالنطق حيث قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم اقل لكم انى أعلم غيب السموات والارض (ورابعها) ان الانسان جوهر مركب من الروح والقالب وروحه من عالم الملائكة فهو يستفيد ابدا صور المغيبات من عالم الملائكة ثم بعد تلك الاستفادة يفيضها على عالم الاجسام وواسطته فى تلك الاستفادة هى الفكر الذهنى وواسطته فى هذه الافادة هى النطق اللسانى فكما ان تلك الواسطة أعظم العبادات حتى قيل تفكر ساعة خير من عبادة سنة فكذلك الواسطة فى الافادة يجب ان تكون اشرف الاعضاء فقوله رب اشرح لى صدرى اشارة الى طلب النور الواقع فى الروح وقوله ويسر لى أمرى اشارة الى تحصيل ذلك وتسهيل ذلك التحصيل وعند ذلك يحصل الكمال فى تلك الاستفادة الروحانية فلا يبقى بعد هذا الا المقام الباقى وهو افاضة ذلك الكمال على الغير وذلك لا يكون الا باللسان فلهذا قال واحلل عقدة من لسانى (وخامسها) وهو ان العلم أفضل المخلوقات على ماثبت والجود والاعطاء افضل الطاعات وليس فى الاعضاء افضل من اليد فاليد لما كانت آلة فى العطية الجسمانية قيل اليد العليا خير من اليد السفلى فالعلم الذى هو خير من المال لما كانت آلة اعطائه اللسان وجب ان يكون اشرف الاعضاء ولاشك ان اللسان هو الآلة فى اعطاء المعارف فوجب ان يكون اشرف الاعضاء ومن الناس من مدح الصمت لوجوه (احدها) قوله عليه السلام الصمت حكمة وقليل فاعله وروى ان الانسان تفكر اعضاؤه اللسان ويقلن اتق الله فينا فانك ان استقمت استقمنا وان اعوججت اعوججنا (وثانيها) ان الكلام على اربعة اقسام منه ماضرره خالص اوراجح ومنه مايستوى الضرر والنفع فيه ومنه مانفعه راجح ومنه ماهو خالص النفع اما الذى ضرره خالص اوراجح فواجب الترك والذى يستوى الامر ان فيه فهو عبث فيبقى القسمان الاخيران وتخليصهما عن زيادة الضرر عسر فالاولى ترك الكلام (وثالثها) ان مامن موجود ومعدوم خالق أو مخلوق معلوم او موهوم الاو اللسان يتناوله ويتعرض له باثبات او نفى فان كل مايتناوله الضمير يعبر عنه اللسان بحق اوباطل وهذه خاصية لاتوجد فى سائر الاعضاء فان العين لاتصل الى غير

(الالوان)

نعت لمصدر محذوف أوزمان محذوف أى ننزهك عما لايليق بك من الصفات والافعال التى من جملتها مايدعيه فرعون الطاغية ويقبله منه فئته الباغية من ادعاء الشركة فى الالوهية ونصفك بما

الالوان والصور والآذان لاتصل الاالى الاصوات والحروف واليد لاتصل الى غير الاجسام وكذا سائر الاعضاء بخلاف اللسان فانه رحب الميدان ليس له نهاية ولا حدله فى الخير مجال رحب وله فى الشر بحر سحب وانه خفيف المؤنة سهل التحصيل بخلاف سائر المعاصى فانه يحتاج فيها الى مؤن كثيرة لا يتيسر تحصيلها فى الاكثر فلذلك كان الاولى ترك الكلام (ورابعها) قالوا ترك الكلام له أربعة أسماء الصمت والسكوت والانصات والاصاخة فأما الصمت فهو أعمها لانه يستعمل فيما يقوى على النطق وفيما لايقوى عليه ولهذا يقال مال ناطق وصامت وأما السكوت فهو ترك الكلام ممن يقدر على الكلام والانصات سكوت مع استماع ومتى انفك أحدهما عن الآخر لا يقال له انصات قال تعالى فاستمعوا له وأنصتوا والاصاخة استماع الى مايصعب ادراكه كالسر والصوت من المكان البعيد واعلم ان الصمت عدم ولا فضيلة فيه بل النطق فى نفسه فضيلة والرذيلة فى محاورته ولولاه لما سأل كليم الله ذلك فى قوله تعالى واحلل عقدة من لسانى (المسئلة الثانية) اختلفوا فى تلك العقدة التى كانت فى لسان موسى عليه السلام على قولين (الاول) كان ذلك التعقد خلقة الله تعالى فسأل الله تعالى ازالته (الثانى) السبب فيه انه عليه السلام حال صباه أخذ لحية فرعون ونتفها فهم فرعون بقتله وقال هذا هو الذى يزول ملكى على يده فقالت آسية انه صبى لا يعقل وعلامته ان تقرب منه التمرة والجمرة فقربا اليه فأخذ الجمرة فجعلها فى فيه وهؤلاء اختلفوا فمنهم من قال لم تحترق اليد ولا اللسان لان اليد آلة أخذ العصا وهى الحجة واللسان آلة الذكر فكيف يحترق ولان ابراهيم عليه السلام لم يحترق بنار نمروذ وموسى عليه السلام لم يحترق حين ألقى فى التنور فكيف يحترق ههنا ومنهم من قال احترقت اليد دون اللسان لئلا يحصل حق المواكلة والمماحلة (الثالث) احترق اللسان دون اليد لان الصولة ظهرت باليد أما اللسان فقد خاطبه بقوله يا أبت (والرابع) احترقا معا لئلا تحصل المواكلة والمخاطبة (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى انه عليه السلام لم طلب حل تلك العقدة على وجوه (أحدها) لئلا يقع فى اداء الرسالة خلل البتة (وثانيها) لازالة التنفير لان العقدة فى اللسان قد تفضى الى استخفاف بقائلها وعدم الالتفات اليه (وثالثها) اظهار المعجزة فكما ان حبس لسان زكريا عليه السلام عن الكلام كان معجزا فى حقه فكذا اطلاق لسان موسى عليه السلام معجز فى حقه (ورابعها) طلب السهولة لان ايراد مثل هذا الكلام على مثل فرعون فى جبروته وكبره عسر جدا فاذا انضم اليه تعقد اللسان بلغ العسر الى النهاية فسأل ربه ازالة تلك العقدة تخفيفا وتسهيلا (المسئلة الرابعة) قال الحسن رحمه الله ان تلك العقدة زالت بالكلية بدليل قوله تعالى قد أوتيت سؤلك يا موسى وهو ضعيف لانه عليه السلام لم يقل واحلل العقدة من لسانى بل قال واحلل عقدة من لسانى فاذا حل عقدة واحدة فقد آتاه الله سؤله والحق انه انحل أكثر العقد وبقى منها شئ قليل لقوله حكاية عن فرعون أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين أى يقارب

يليق بك من صفات الكمال ونعوت الجمال والجلال تنزيها كثيرا اوزمانا كثيرا من جملته زمان دعوة فرعون واوان المحاجة معه واما ماقيل من ان المعنى كى نصلى لك كثيرا ونحمدك ونثنى عليك فلا يساعده المقام (انك كنت بنا

أن لا يبين وفى ذلك دلالة على أنه كان يبين مع بقاء قدر من الانعقاد فى لسانه واجيب عنه من وجهين (أحدهما) المراد بقوله ولا يكاد يبين أى لا يأتى ببيان ولا حجة (والثانى) ان كاد بمعنى قرب ولو كان المراد هو البيان اللسانى لكان معناه أنه لا يقارب البيان فكان فيه نفى البيان بالكلية وذلك باطل لانه خاطب فرعون والجمع وكانوا يفقهون كلامه فكيف يمكن نفى البيان اصلا بل انما قال ذلك تمويها ليصرف الوجوه عنه قال أهل الاشارة انما قال واحلل عقدة من لسانى لان حل العقد كلها نصيب محمد صلى الله عليه وسلم وقال تعالى ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن فلما كان ذلك حق اليتيم أبى طالب لا جرم ما دار حوله والله أعلم (المطلوب الرابع) قوله واجعل لى وزيرا من أهلى واعلم أن طلب الوزير اما أن يكون لانه خاف على نفسه العجز عن القيام بذلك الامر فطلب المعين أو لانه رأى أن للتعاون على الدين والتظاهر عليه مع مخالصة الود وزوال التهمة مزية عظيمة فى امر الدعاء الى الله ولذلك قال عيسى بن مريم من أنصارى الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين وقال عليه السلام ان لى فى السماء وزيرين وفى الارض وزيرين فاللذان فى السماء جبريل وميكائيل واللذان فى الارض أبو بكر وعمر وههنا مسائل (المسئلة الاولى) الوزير من الوزر لانه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنه أو من الوزر وهو الجبل الذى يتحصن به لان الملك يعتصم برأيه فى رعيته ويفوض اليه أموره أو من الموازرة وهى المعاونة والموازرة مأخوذة من ازار الرجل وهو الموضع الذى يشده الرجل اذا استعد لعمل أمر صعب قاله الاصمعى وكان القياس أزيرا فقلبت الهمزة الى الواو (المسئلة الثانية) قال عليه السلام اذا أراد الله بملك خيرا قيض له وزيرا صالحا ان نسى ذكره وان نوى خيرا أعانه وان أراد شرا كفه وكان أنوشروان يقول لا يستغنى أجود السيوف عن الصقل ولا أكرم الدواب عن السوط ولا أعلم الملوك عن الوزير (المسئلة الثالثة) ان قيل الاستعانة بالوزير انما يحتاج اليها الملوك أما الرسول المكلف بتبليغ الرسالة والوحى من الله تعالى الى قوم على التعيين فمن أين ينفعه الوزير وأيضا فانه عليه السلام سأل ربه أن يجعله شريكا له فى النبوة فقال وأشركه فى أمرى فكيف يكون وزيرا والجواب عن الاول ان التعاون على الامر والتظاهر عليه مع مخالصة الود وزوال التهمة له مزية عظيمة فى تأثير الدعاء الى الله تعالى فكان موسى عليه السلام واثقا بأخيه هرون فسأل ربه ان يشد به أزره حتى يتحمل عنه ما يمكن من الثقل فى الابلاغ (المطلوب الخامس) أن يكون ذلك الوزير من أهله أى من أقاربه (المطلوب السادس) أن يكون الوزير الذى من أهله هو أخوه هرون وانما سأل ذلك لوجهين (احدهما) ان التعاون على الدين منقبة عظيمة فأراد أن لا تحصل هذه الدرجة الا لاهله أو لان كل واحد منهما كان فى غاية المحبة لصاحبه والموافقة له وقوله هرون فى انتصابه وجهان (أحدهما) انه مفعول الجعل على تقدير اجعل هرون أخى

بصيرا) اى عالما باحوالنا وبان ما دعوناك به من اصلحنا وبقيدنا فى تحقيق ما كلفته من اقامة مراسم الرسالة وبان هرون نعم الردء فى اداء ما امرت به والباء متعلقة ببصيرا قدمت عليه لمراعاة الفواصل

وزيرالى (والثانى) على البدل من وزيرا وأخى نعت لهرون او بدل واعلم ان هرون عليه السلام كان مخصوصا بأمور منها الفصاحة لقوله تعالى عن موسى واخى هرون هو افصح منى لسانا ومنها انه كان فيه رفق قال يا ابن ام لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ومنها انه كان اكبر سنا منه (المطلوب السابع) قوله اشدد به ازرى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) القراءة العامة اشدد به واشركه على الدعاء وقرأ ابن عامر وحده اشدد واشركه على الجزاء والجواب حكاية عن موسى عليه السلام اى انا افعل ذلك ويجوز لمن قرأ على لفظ الامر ان يجعل اخى مرفوعا على الابتداء واشدد به خبره ويوقف على هرون (المسئلة الثانية) الازر القوة وآزره قواه قال تعالى فآزره اى اعانه قال ابو عبيدة ازرى اى ظهرى وفى كتاب الخليل الازر الظهر (المسئلة الثالثة) انه عليه السلام لما طلب من الله تعالى ان يجعل هرون وزيراله طلب منه ان يشد به ازره ويجعله ناصرا له لانه لا اعتماد على القرابة (المطلوب الثامن) قوله واشركه فى امرى والامر ههنا النبوة وانما قال ذلك لانه عليه السلام علم انه يشد به عضده وهو اكبر منه سنا وافصح منه لسانا ثم انه سبحانه وتعالى حكى عنه ما لاجله دعا بهذا الدعاء فقال كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا والتسبيح يحتمل ان يكون باللسان وان يكون بالاعتقاد وعلى كلا التقديرين فالتسبيح تنزيه الله تعالى فى ذاته وصفاته وافعاله عما لا يليق به واما الذكر فهو عبارة عن وصف الله تعالى بصفات الجلال والكبرياء ولا شك ان النفى مقدم على الاثبات اما قوله تعالى انك كنت بنا بصيرا ففيه وجوه (احدها) انك عالم بانا لا نريد بهذه الطاعات الا وجهك ورضاك ولا نريد بها احدا سواك (وثانيها) كنت بنا بصيرا لان هذه الاستعانة بهذه الاشياء لاجل حاجتى فى النبوة اليها (وثالثها) انك بصير بوجوه مصالحنا فاعطنا ما هو أصلح لنا وانما قيد الدعاء بهذا اجلالا لربه عن ان يتحكم عليه وتفويضا للامر بالكلية اليه * قوله تعالى (قال قد أوتيت سؤلك يا موسى ولقد مننا عليك مرة أخرى اذ أوحينا الى أمك ما يوحى ان اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدولى وعدوله والقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى اذ تمشى اختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك الى امك كى تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا فلبثت سنين فى اهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى واصطنعتك لنفسى اذهب انت واخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى اذهبا الى فرعون انه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر او يخشى) اعلم ان السؤال هو الطلب فعل بمعنى مفعول كقولك خبز بمعنى مخبوز واكل بمعنى مأكول واعلم ان موسى عليه السلام لما سأل ربه تلك الامور الثمانية وكان من المعلوم ان قيامه بما كلف به تكليف لا يتكامل الا باجابته اليها لاجرم أجابه الله تعالى اليها ليكون اقدر على الابلاغ على الحد الذى كلف فقال قد اوتيت سؤلك يا موسى وعد ذلك من النعم العظام عليه لما فيه من وجوه المصالح ثم قال ولقد مننا عليك مرة اخرى فنبه بذلك على أمور (احدها) كأنه تعالى قال انى راعيت

(قال قد اوتيت سؤلك) أى أعطيت سؤلك فعل بمعنى مفعول كالخبز والاكل بمعنى المخبوز والمأكول والايتاء عبارة عن تعلق ارادته تعالى بوقوع تلك المطالب وحصولها له عليه السلام البتة وتقديره اياها حتما فكلها حاصلة له عليه السلام وان كان وقوع بعضها بالفعل مترقبا بعد كتشييد الامر وشد الازر وباعتباره قيل سنشد عضدك بأخيك وقوله تعالى (ياموسى) تشريف له عليه السلام بشرف الخطاب اثر تشريفه بشرف قبول الدعاء وقوله تعالى (ولقد مننا عليك) كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله وزيادة توطين نفس موسى عليه السلام بالقبول ببيان انه تعالى حيث أنعم عليه بتلك النعم التامة من غير سابقة دعاء منه وطلب فلأن ينعم عليه بمثلها وهو طالب له وداع أولى وأحرى وتصديره بالقسم لكمال الاعتناء بذلك أى وبالله لقد انعمنا (مرة أخرى) أى فى وقت غير هذا الوقت لأن ذلك مؤخر عن هذا فان أخرى تأنيث آخر بمعنى غير والمرة فى الاصل اسم للمرور الواحد ثم أطلق على كل فعلة واحدة من الفعلات متعدية كانت أو لازمة ثم شاع فى كل فرد واحد من افراد ماله افراد متجددة متعددة فصار علما فى ذلك حتى جعل معيارا

مصلحتك قبل سؤالك فكيف لا أعطيك مرادك بعد السؤال (وثانيها) انى كنت قد ربيتك فلو منعتك الآن مطلوبك لكان ذلك ردا بعد القبول واساءة بعد الاحسان فكيف يليق بكرمى (وثالثها) انا لما أعطيناك فى الازمنة السالفة كل ما احتجت اليه ورقيناك من حالة نازلة الى درجة عالية دل هذا على انا نصبناك لمنصب عال ومهم عظيم فكيف يليق بمثل هذه المرتبة المنع من المطلوب وههنا سؤالان (السؤال الاول) لم ذكر تلك النعم بلفظ المنة مع ان هذه اللفظة لفظة مؤذية والمقام مقام التلطف (والجواب) انما ذكر ذلك ليعرف موسى عليه السلام ان هذه النعم التى وصلت اليه ما كان مستحقا لشئ منها بل انما خصه الله تعالى بها بمحض التفضل والاحسان (السؤال الثانى) لم قال مرة اخرى مع انه تعالى ذكر منناً كثيرة والجواب لم يعن بمرة اخرى مرة واحدة من المنن لان ذلك قد يقال فى القليل والكثير واعلم ان المنن المذكورة ههنا ثمانية (المنة الاولى) قوله اذ اوحينا الى امك ما يوحى ان اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له اما قوله اذ اوحينا فقد اتفق الاكثرون على ان ام موسى عليه السلام ما كانت من الانبياء والرسل فلا يجوز ان يكون المراد من هذا الوحى هو الوحى الواصل الى الانبياء وكيف لا نقول ذلك والمرأة لا تصلح للقضاء والامامة بل عند الشافعى رحمه الله لا تمكن من تزويجها نفسها فكيف تصلح للنبوة ويدل عليه قوله تعالى وما ارسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم وهذا صريح فى الباب وايضا فالوحى قد جاء فى القرآن لا بمعنى النبوة قال تعالى واوحى ربك الى النحل وقال واذ أوحيت الى الحواريين ثم اختلفوا فى المراد بهذا الوحى على وجوه (أحدها) المراد رؤيا رأتها ام موسى عليه السلام وكان تأويلها وضع موسى عليه السلام فى التابوت وقذفه فى البحر وان الله تعالى يرده اليها (وثانيها) ان المراد عزيمة جازمة وقعت فى قلبها دفعة واحدة فكل من تفكر فيما وقع اليه ظهر له الرأى الذى هو اقرب الى الخلاص ويقال لذلك الخاطر انه وحى (وثالثها) المراد منه الالهام لكنا متى بحثنا عن الالهام كان معناه خطور رأى بالبال وغلبة على القلب فيصير هذا هو الوجه الثانى وهذه الوجوه الثلثة يعترض عليها بأن الالقاء فى البحر قريب من الاهلاك وهو مساو للخوف الحاصل من القتل المعتاد من فرعون فكيف يجوز الاقدام على احدهما لاجل الصيانة عن الثانى والجواب لعلها عرفت بالاستقراء صدق رؤياها فكان افضاء الالقاء فى البحر الى السلامة اغلب على ظنها من وقوع الولد فى يد فرعون (ورابعها) لعله اوحى الى بعض الانبياء فى ذلك الزمان كشعيب عليه السلام او غيره ثم ان ذلك النبى عرفها اما مشافهة او مراسلة واعترض عليه بأن الامر لو كان كذلك لما لحقها من انواع الخوف ما لحقها والجواب ان ذلك الخوف كان من لوازم البشرية كما ان موسى عليه السلام كان يخاف فرعون مع ان الله تعالى كان يأمره بالذهاب اليه مرارا (وخامسها) لعل الانبياء المتقدمين كابراهيم واسحق ويعقوب عليهم السلام اخبروا

(بذلك)

لما فى معناه من سائر الاشياء فقيل هذا بناء المرة ويقرب منها الكرة والتارة والدفعة والمراد بها ههنا الوقت الممتد الذى وقع فيه ما سيأتى ذكره من المنن العظيمة الكثيرة وقوله تعالى (اذ أوحينا الى امك ما يوحى) ظرف لمنا والمراد بالايحاء اما الايحاء على لسان نبى فى وقتها كقوله تعالى واذ أوحيت الى الحواريين الآية واما الايحاء بواسطة الملك لا على وجه النبوة كما أوحى الى مريم واما الالهام كما فى قوله تعالى وأوحى ربك الى النحل واما الاراءة فى المنام والمراد بما يوحى ما سيأتى من الامر بقذفه فى التابوت وقذفه فى البحر أبهم أولا تهويلا له وتفخيما لشانه ثم فسر ليكون أثر عند النفس وقيل معناه ما ينبغى أن يوحى ولا يخل بامر عظيم شأنه وفرط الاهتمام به وقيل ما لا يعلم الا بالوحى وفيه انه لا يلائم المعنيين الاخيرين للوحى اذ لا تفخيم لشأنه فى أن يكون مما لا يعلم الا بالالهام أو بالاراءة فى المنام وأن فى قوله تعالى (أن اقذفيه فى التابوت) مفسرة لان الوحى من باب القول أو مصدرية حذف منها الباء أى بان اقذفيه ومعنى القذف ههنا الوضع وأما فى قوله تعالى (فاقذفيه فى اليم) فالالقاء وهذا التفصيل هو المراد بقوله تعالى فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم لا القذف بلا تابوت (فليلقه اليم بالساحل) لما كان القاء البحر اياه بالساحل امرا واجب الوقوع لتعلق الارادة الربانية به جعل البحر

بذلك وانتهى ذلك الخبر الى تلك المرأة (وسادسها) لعل الله تعالى بعث اليها ملكا لاعلى وجه النبوة كما بعث الى مريم فى قوله فتمثل لها بشرا سويا واما قوله ما يوحى فمعناه واوحينا الى امك ما يجب ان يوحى وانما وجب ذلك الوحى لان الواقعة واقعة عظيمة ولا سبيل الى معرفة المصلحة فيها الا بالوحى فكان الوحى واجبا اما قوله تعالى ان اقذفيه ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ان هى المفسرة لان الوحى بمعنى القول (المسئلة الثانية) القذف مستعمل فى معنى الالقاء والوضع ومنه قوله تعالى وقذف فى قلوبهم الرعب (المسئلة الثالثة) روى انها اتخذت تابوتا وجعلت فيه قطنا محلوجا ووضعت فيه موسى عليه السلام وقيرت رأسه وشقوقه بالقار ثم القته فى النيل وكان يشرع منه نهر كبير فى دار فرعون فبينا هو جالس على رأس البركة مع امرأته آسية اذ بتابوت يجئ به الماء فلما رآه فرعون امر الغلمان والجوارى باخراجه فاخرجوه وفتحوا رأسه فاذا صبى من اصبح الناس وجها فلما رآه فرعون احبه وسيأتى تمام القصة فى سورة القصص قال مقاتل ان الذى صنع التابوت حزقيل مؤمن آل فرعون (المسئلة الرابعة) اليم هو البحر والمراد به ههنا نيل مصر فى قول الجميع واليم اسم يقع على البحر وعلى النهر العظيم (المسئلة الخامسة) قال الكسائى الساحل فاعل بمعنى مفعول سمى بذلك لان الماء يسحله اى يقذفه الى اعلاه (المسئلة السادسة) قال صاحب الكشاف الضمائر كلها راجعة الى موسى عليه السلام ورجوع بعضها اليه وبعضها الى التابوت يؤدى الى تنافر النظم فان قيل المقذوف فى البحر هو التابوت وكذلك الملقى الى الساحل قلنا لا بأس بأن يقال المقذوف والملقى هو موسى عليه السلام فى جوف التابوت حتى لا تتفرق الضمائر ولا يحصل التنافر (المسئلة السابعة) لما كان تقدير الله تعالى ان يجرى ماء اليم ويلقى بذلك التابوت الى الساحل سلك فى ذلك سبيل المجاز وجعل اليم كأنه ذو تمييز امر بذلك ليطيع الامر ويمتثل رسمه فقيل فليلقه اليم بالساحل اما قوله يأخذه عدو لى وعدو له ففيه ابحاث (البحث الاول) قوله يأخذه جواب الامر اى اقذفيه يأخذه (البحث الثانى) فى كيفية الاخذ قولان (احدهما) ان امرأة فرعون كانت بحيث تستسق الجوارى فبصرت بالتابوت فأمرت به فأخذت التابوت فيكون المراد من اخذ فرعون التابوت قبوله له واستحبابه اياه (الثانى) ان البحر القى التابوت بموضع من الساحل فيه فوهة نهر فرعون ثم اداه النهر الى بركة فرعون فلما رآه اخذه (البحث الثالث) قوله يأخذه عدو لى وعدو له فيه اشكال وهو ان موسى عليه السلام لم يكن ذلك الوقت بحيث يعادى وجوابه اما كونه عدو الله من جهة كفره وعتوه فظاهر واما كونه عدوا لموسى عليه السلام فيحتمل من حيث انه لو ظهر له حاله لقتله ويحتمل انه من حيث يؤل امره الى ما آل اليه من العداوة (المسئلة الثانية) قوله والقيت عليك محبة منى وفيه قولان (الاول) والقيت عليك محبة هى منى قال الزمخشرى منى لا يخلو اما ان يتعلق بألقيت فيكون المعنى على انى احببتك ومن احبه الله احبته

كأنه ذو تمييز مطيع أمر بذلك واخرج الجواب مخرج الامر والضمائر كلها لموسى عليه السلام والمقذوف فى البحر والملقى بالساحل وان كان هو التابوت اصالة لكن لما كان المقصود بالذات ما فيه جعل التابوت تبعا له فى ذلك (يأخذه عدو لى وعدو له) جواب للامر بالالقاء وتكرير العدو للمبالغة والتصريح بالامر والاشعار بأن عداوته له مع تحققها لا تؤثر فيه ولا تضره بل تؤدى الى المحبة فان الامر بما هو سبب الهلاك صورة من قذفه فى البحر ووقوعه فى يد عدو الله تعالى وعدوه مشعر بأن هناك لطفا خفيا مندرجا تحت قهر صورى وقيل الاول باعتبار الواقع والثانى باعتبار المتوقع وليس المراد بالساحل نفس الشاطئ بل ما يقابل الوسط وهو ما يلى الساحل من البحر بحيث يجرى ماؤه الى نهر فرعون لما روى انها جعلت فى التابوت قطنا ووضعته فيه ثم قيرته والقته فى اليم وكان يشرع منه الى بستان فرعون نهر صغير فدفعه الماء اليه فأتى به الى بركة فى البستان وكان فرعون جالسا ثمة مع آسية بنت مزاحم فأمر به فأخرج ففتح فاذا هو صبى اصبح الناس وجها فأحبه عدو الله حبا شديدا لا يكاد يتمالك الصبر عنه وذلك قوله تعالى (والقيت عليك محبة منى) كلمة من متعلقة بمحذوف هو صفة لمحبة مؤكدة لما فى تنكيرها من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية اى محبة عظيمة كائنة منى قد زرعتها فى القلوب بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك ولذلك احبك عدو الله وآله وقيل هى

القلوب واما ان يتعلق بمحذوف وهذا هو القول الثانى ويكون ذلك المحذوف صفة لمحبة اى والقيت عليك محبة حاصلة منى واقعة بخلق فلذلك احبتك امرأة فرعون حتى قالت قرة عين لى ولك لا تقتلوه يروى انه كانت على وجهه مسحة جمال وفى عينيه ملاحة لا يكاد يصبر عنه من رآه وهو كقوله تعالى سيجعل لهم الرحمن ودا قال القاضى هذا الوجه اقرب لانه فى حال صغره لا يكاد يوصف بمحبة الله تعالى التى ظاهرها من جهة الدين لان ذلك انما يستعمل فى المكلف من حيث استحقاق الثواب والمراد ان ماذكرنا من كيفيته فى الخلقة يستحلى ويغتبطه فكذلك كانت حاله مع فرعون وامرأته وسهل الله تعالى له منهما فى التربية مالامزيد عليه ويمكن ان يقال بل الاحتمال الاول ارجح لان الاحتمال الثانى يحوج الى الاضمار وهو ان يقال والقيت عليك محبة حاصلة منى وواقعة بتخليق وعلى التقدير الاول لاحاجة الى هذا الاضمار بق قوله انه حال صباه لا يحصل له محبة الله تعالى قلنا لا نسلم فان محبة الله تعالى يرجع معناها الى ايصال النفع الى عباده وهذا المعنى كان حاصلا فى حقه فى حال صباه وعلم الله تعالى ان ذلك يستمر الى آخر عمره فلاجرم اطلق عليه لفظ المحبة (المنة الثالثة) قوله ولتصنع على عينى قال القفال لتربى على عينى اى على وفق ارادتى ومجازه ان من صنع لانسان شيئا وهو حاضر ينظر اليه صنعه له كما يحب ولا يمكنه ان يفعل ما يخالف غرضه فكذا ههنا وفى كيفية المجاز قولان (الاول) المراد من العين العلم اى ترى على علم منى ولما كان العالم بالشئ يحرسه عن الآفات كان الناظر اليه يحرسه عن الآفات اطلق لفظ العين على العلم لاشتباههما من هذا الوجه (الثانى) المراد من العين الحراسة وذلك لان الناظر الى الشئ يحرسه عما يؤذيه فالعين كأنها سبب الحراسة فاطلق اسم السبب على المسبب مجازا وهو كقوله تعالى اننى معكما اسمع وأرى ويقال عين الله عليك اذا دعالك بالحفظ والحياطة قال القاضى ظاهر القرآن يدل على ان المراد من قوله ولتصنع على عينى الحفظ والحياطة كقوله تعالى اذ تمشى اختك فتقول هل ادلكم على من يكفله فرجعناك الى امك كى تقر عينها ولا تحزن فصار ذلك كالتفسير لحياطة الله تعالى له (بق ههنا بحثان الاول) الواو فى قوله ولتصنع على عينى فيه ثلاثة اوجه (احدها) كأنه قيل ولتصنع على عينى القيت عليك محبة منى ثم يكون قوله اذ تمشى اختك متعلقا بأول الكلام وهو قوله ولقد مننا عليك مرة اخرى اذ اوحينا الى امك ما يوحى واذ تمشى اختك (وثانيها) يجوز ان يكون قوله ولتصنع على عينى متعلقا بما بعده وهو قوله اذ تمشى وذكرنا مثل هذين الوجهين فى قوله وليكون من الموقنين (وثالثها) يجوز ان تكون الواو مقحمة اى والقيت عليك محبة منى لتصنع وهذا ضعيف (الثانى) قرئ ولتصنع بكسر اللام وسكونها والجزم على انه امر وقرئ ولتصنع بفتح التاء والنصب اى وليكون عملك وتصرفك على علم منى (المنة الرابعة) قوله اذ تمشى اختك واعلم ان العامل فى اذ تمشى القيت او تصنع يروى انه لما فشا الخبر بمصر ان آل فرعون اخذوا غلاما فى النيل وكان لا يرتضع

متعلقة بألقيت اى احببتك ومن احبه الله تعالى احبته القلوب لامحالة وقوله تعالى (ولتصنع على عينى) متعلق بالقيت معطوف على علة له مضمرة اى ليتعطف عليك ولتربى بالحنو والشفقة بمراقبتى وحفظى او بمضمر مؤخر هو عبارة عما قبله من القاء المحبة والجملة مبتدأة اى ولتصنع على عينى فعلت ذلك وقرئ ولتصنع على صيغة الامر بسكون اللام وكسرها وقرئ بفتح التاء والنصب اى وليكون عملك على عين منى لئلا يخالف به عن امرى (اذ تمشى اختك) ظرف لتصنع على ان المراد به وقت وقع فيه مشيها الى بيت فرعون وما ترتب عليه من القول والرجع الى امها وتربيتها له بالبر والحنو وهو المصداق لقوله تعالى ولتصنع على عينى اذ لا شفقة اعظم من شفقة الام وصنعها على موجب مراعاته تعالى وقيل هو بدل من اذ اوحينا على ان المراد به زمان متسع متباعد الاطراف وهو الانسب بما سيأتى من قوله تعالى فنجيناك من الغم الخ فان جميع ذلك من المنن الالهية ولا تعلق لشئ منها بالصنع المذكور واما كونه ظرفا لالقيت كما جوز فربما يوهم ان القاء المحبة لم يحصل قبل ذلك ولا ريب فى ان معظم آثار القائها ظهر عند فتح التابوت (فتقول) اى لفرعون وآسية حين رأتهما يطلبان له عليه السلام مرضعة يقبل ثديها وكان لا يقبل ثديا وصيغة المضارع فى الفعلين لحكاية الحال الماضية (هل ادلكم على من يكفله) اى يضمه الى نفسه ويربيه وذلك انما

من ثدى كل امرأة يؤتى بها لان الله تعالى قد حرم عليه المراضع غير أمه فاضطروا الى تتبع النساء فلما رأت ذلك اخت موسى جاءت اليهم متنكرة فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ثم جاءت بالام فقبل ثديها فرجع الى أمه بما لطف الله تعالى له من هذا التدبير أما قوله تعالى فرجعناك الى أمك أى رددناك وقال فى موضع آخر فرددناه الى أمه وهو كقوله قال رب ارجعون أى ردونى الى الدنيا أما قوله كى تقر عينها ولا تحزن فالمراد ان المقصود من ردك اليها حصول السرور لها وزوال الحزن عنها فان قيل لو قال كى لا تحزن وتقر عينها كان الكلام مفيدا لانه لا يلزم من نفى الحزن حصول السرور لها وأما لما قال أولا كى تقر عينها كان قوله بعد ذلك ولا تحزن فضلا لانه متى حصل السرور وجب زوال الغم لا محالة قلنا المراد انه تقر عينها بسبب وصولك اليها فيزول عنها الحزن بسبب عدم وصول لبن غيرها الى باطنك (المنة الخامسة) قوله وقتلت نفسا فنجيناك من الغم فالمراد به وقتلت بعد كبرك نفسا وهو الرجل الذى قتله خطأ بأن وكزه حيث استغاثه الاسرائيلى عليه وكان قبطيا فحصل له الغم من وجهين (احدهما) من عقاب الدنيا وهو اقتصاص فرعون منه على ما حكى الله تعالى عنه فأصبح فى المدينة خائفا يترقب والآخر من عقاب الله تعالى حيث قتله لا بأمر الله فنجاه الله تعالى من الغمين اما من فرعون فحين وفق له المهاجرة الى مدين وأما من عقاب الآخرة فلأنه سبحانه وتعالى غفر له ذلك (المنة السادسة) قوله وفتناك فتونا وفيه ابحاث (البحث الاول) فى قوله فتونا وجهان (أحدهما) انه مصدر كالعكوف والجلوس والمعنى وفتناك حقا وذلك على مذهبهم فى تأكيد الاخبار بالمصادر كقوله تعالى وكلم الله موسى تكليما (والثانى) انه جمع فتن أو فتنة على ترك الاعتداد بتاء التأنيث كحجوز وبدور فى حجزة وبدرة أى فتناك ضروبا من الفتن وههنا سؤالان (السؤال الاول) ان الله تعالى عدد انواع منته على موسى عليه السلام فى هذا المقام فكيف يليق بهذا الموضع قوله وفتناك فتونا الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان الفتنة تشديد المحنة يقال فتن فلان عن دينه اذا اشتدت عليه المحنة حتى رجع عن دينه قال تعالى فاذا اوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله وقال تعالى الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين وقال أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله فالزلزلة المذكورة فى الآية ومس البأساء والضراء هى الفتنة والفتون ولما كان التشديد فى المحنة مما يوجب كثرة الثواب لا جرم عده الله تعالى من جملة النعم (وثانيها) فتناك فتونا أى خلصناك تخليصا من قولهم فتنت الذهب من الفضة اذا أردت تخليصه وسأل سعيد بن جبير ابن عباس عن الفتون فقال نستأنف له نهارا يا ابن جبير ثم لما أصبح أخذ ابن عباس يقرأ عليه الآيات الواردة فى شأن موسى عليه السلام من ابتداء أمره

يكون بقبوله ثديها يروى انه فشا الخبر بعمران آل فرعون اخذوا غلاما فى النيل لا يرتضع ثدى امرأة واضطروا الى تتبع النساء فخرجت اخته مريم لتعرف خبره فجاءتهم متنكرة فقالت ما قالت وقالوا ما قالوا فجاءت بامه فقبل ثديها فالفاء فى قوله تعالى (فرجعناك الى أمك) فصيحة معربة عن محذوف قبلها يعطف عليه ما بعدها أى فقالوا دلينا عليها فجاءت بامك فرجعناك اليها (كى تقر عينها) بلقائك (ولا تحزن) أى لا يطرأ عليها الحزن بفراقك بعد ذلك والا فزوال الحزن مقدم على السرور المعبر عنه بقرة العين فان التخلية متقدمة على التحلية وقيل ولا تحزن أنت بفقد اشفاقها (وقتلت نفسا) هى نفس القبطى الذى استغاثه الاسرائيلى عليه (فنجيناك من الغم) أى غم قتله خوفا من عقاب الله تعالى بالمغفرة ومن اقتصاص فرعون بالانجاء منه بالمهاجرة الى مدين (وفتناك فتونا) أى ابتليناك ابتلاء أو فتونا من الابتلاء على انه جمع فتن او فتنة على ترك الاعتداد بالتاء كحجوز فى حجزة وبدور فى بدرة اى خلصناك مرة بعد اخرى وهو اجمال ما ناله فى سفره من الهجرة عن الوطن ومفارقة الالاف والمشى راجلا وفقد الزاد وقد روى ان سعيد بن جبير سأل عنه ابن عباس رضى الله عنهما فقال خلصناك من محنة بعد محنة ولد فى عام كان يقتل فيه الولدان فهذه فتنة يا ابن جبير وألقته أمه فى البحر وهم فرعون بقتله وقتل قبطيا وآجر نفسه عشر سنين وضل الطريق

فذكر قصة فرعون وقتله أولادبني اسرائيل ثم قصة القاء موسى عليه السلام في اليم والتقاط آل فرعون اياه وامتناعه من الارتضاع من الاجانب ثم قصة ان موسى عليه السلام أخذ لحية فرعون ووضعه الجمرة في فيه ثم قصة قتل القبطي ثم هربه الى مدين وصيرورته أجير الشعيب عليه السلام ثم عوده الى مصر وأنه اخطأ الطريق في الليلة المظلمة واستئناسه بالنار من الشجرة وكان عند تمام كل واحدة منها يقول هذا من الفتون يا ابن جبير (السؤال الثاني) هل يصح اطلاق اسم الفتان عليه سبحانه اشتقاقا من قوله وفتناك فتونا والجواب لا لانه صفة ذم في العرب وأسماء الله تعالى توقيفية لاسيما فيما يوهم مالا ينبغي (المنة السابعة) قوله تعالى فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر ياموسى واعلم ان التقدير وفتناك فتونا فخرجت خائفا الى أهل مدين فلبثت سنين فيهم أما مدة اللبث فقال ابومسلم انها مشروحة في قوله تعالى ولما توجه تلقاء مدين الى قوله فلما قضى موسى الاجل وهي اما عشرة واما ثمان لقوله تعالى على ان تأجرني ثماني حجج فان أتممت عشرا فمن عندك وقال وهب لبث موسى عليه السلام عند شعيب عليه السلام ثمانيا وعشرين سنة منها عشر سنين مهر امرأته والآية تدل على انه عليه السلام لبث عنده عشر سنين وليس فيها ماينفي الزيادة على العشر واعلم ان قوله فلبثت سنين في اهل مدين بعد قوله وفتناك فتونا كالدلالة على ان لبثه في مدين من الفتون وكذلك كان فانه عليه السلام تحمل بسبب الفقر والغربة محنا كثيرة واحتاج الى ان آجر نفسه اما قوله تعالى ثم جئت على قدر ياموسى فلابد من حذف في الكلام لانه قدر على أمر من الامور وذكروا في ذلك المحذوف وجوها (أحدها) انه سبق في قضائي وقدري ان اجعلك رسولا لي في وقت معين عينته لذلك فما جئت الا على ذلك القدر لاقبله ولابعده ومنه قوله انا كل شيء خلقناه بقدر (وثانيها) على مقدار من الزمان يوحي فيه الى الانبياء وهو رأس أربعين سنة (وثالثها) ان القدر هو الموعد فان ثبت انه تقدم هذا الموعد صح حمله عليه ولا يمتنع ذلك لاحتمال ان شعيبا عليه السلام اوغيره من الانبياء كانوا قد عينوا ذلك الموعد فان قيل كيف ذكر الله تعالى مجيء موسى عليه السلام في ذلك الوقت من جملة منته عليه قلنا لانه لولا توفيقه له لما تهيأ له شيء من ذلك (المنة الثامنة) قوله تعالى واصطنعتك لنفسي والاصطناع اتخاذ الصنعة وهي افتعال من الصنع يقال اصطنع فلان فلانا أي اتخذه صنيعة فان قيل انه تعالى غني عن الكل فما معنى قوله لنفسي والجواب عنه من وجوه (الاول) ان هذا تمثيل لانه تعالى لما أعطاه من منزلة التقريب والتكريم والتكليم مثل حاله بحال من يراه بعض الملوك لجوامع خصال فيه اهلا لان يكون اقرب الناس منزلة اليه وأشدهم قربا منه (وثانيها) قالت المعتزلة انه سبحانه وتعالى اذا كلف عباده وجب عليه ان يلطف بهم ومن جملة الالطاف مالا يعلم الاسمعا فلو لم يصطنعه بارسالة لبقي في عهدة الواجب فصار موسى عليه السلام كالنائب عن ربه في اداء ماوجب على الله تعالى فصح ان يقول

(واصطنعتك)

وتفرقت غنمه في ليلة مظلمة وكان يقول عند كل واحدة فهذه فتنة يا ابن جبير ولكن الذي يقتضيه النظم الكريم أن لاتعد اجارة نفسه ومابعدها من تلك الفتون ضرورة ان المراد بها ماوقع قبل وصوله عليه السلام الى مدين بقضية الفاء في قوله تعالى (فلبثت سنين في اهل مدين) اذ لاريب في ان الاجارة المذكورة ومابعدها مما وقع بعد الوصول اليهم وقد اشير بذكر لبثه عليه السلام فيهم دون وصوله اليهم الى جميع ماقاساه عليه السلام في تضاعيف تلك السنين العشر من فنون الشدائد والمكاره التي كل واحد منها فتنة واي فتنة ومدين بلدة شعيب عليه الصلاة والسلام على ثماني مراحل من مصر (ثم جئت) الى المكان الذي اونس فيه النار ووقع فيه النداء والجؤار وفي كلمة التراخي ايذان بأن مجيئه عليه السلام كان بعد اللتيا والتي من ضلال الطريق وتفرق الغنم في الليلة المظلمة الشاتية وغير ذلك (على قدر) اي تقدير قدرته لان اكلك واستنبئك في وقت قد عينته لذلك فما جئت الا على ذلك القدر غير مستقدم ولامستأخر وقيل على مقدار من الزمان يوحي فيه الى الانبياء عليهم السلام وهو رأس اربعين سنة وقوله تعالى (ياموسى) تشريف له عليه الصلاة والسلام وتنبيه على انتهاء الحكاية التي هي تفصيل المرة الاخرى التي وقعت قبل المرة المحكية اولا وقوله تعالى (واصطنعتك لنفسي) تذكير لقوله تعالى وأنا اخترتك وتمهيد لارساله عليه السلام الى فرعون

واصطنعتك لنفسى قال القفال واصطنعتك اصله من قولهم اصطنع فلان فلانا اذا احسن اليه حتى يضاف اليه فيقال هذا صنيع فلان وجريح فلان وقوله لنفسى اى لاصرفك فى أوامرى لئلا تشتغل بغير ما أمرتك به وهو اقامة حجتى وتبليغ رسالتى وان تكون فى حركاتك وسكناتك لى لا لنفسك ولا لغيرك واعلم انه سبحانه وتعالى لما عدد عليه المنن الثمانية فى مقابلة تلك الالتماسات الثمانية رتب على ذكر ذلك امرا ونهيا اما الامر فهو انه سبحانه وتعالى اعاد الامر بالاول فقال اذهب انت واخوك باياتى واعلم انه سبحانه وتعالى لما قال واصطنعتك لنفسى عقبه بذكر ماله اصطنعه وهو الابلاغ والاداء ثم ههنا مسائل (المسئلة الاولى) الباء ههنا بمعنى مع وذلك لانهما لو ذهبا اليه بدون آية معهما لم يلزمه الايمان وذلك من اقوى الدلائل على فساد التقليد (المسئلة الثانية) اختلفوا فى الآيات المذكورة ههنا على ثلاثة اقوال (احدها) انها اليد والعصا لانهما اللذان جرى ذكرهما فى هذا الموضع وفى سائر المواضع التى اقتص الله تعالى فيها حديث موسى عليه السلام فانه تعالى لم يذكر فى شئ منها انه عليه السلام قد اوتى قبل مجيئه الى فرعون ولا بعد مجيئه حتى لقى فرعون فالتمس منه آية غير هاتين الآيتين قال تعالى عنه قال فأت بآية ان كنت من الصادقين فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين وقال فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملئه فاذا قيل لهؤلاء كيف يطلق لفظ الجمع على الاثنين اجابوا بوجوه (الاول) ان العصا ما كانت آية واحدة بل كانت آيات فان انقلاب العصا حيوانا آية ثم انها فى اول الامر كانت صغيرة لقوله تعالى تهتز كأنها جان ثم كانت تعظم وهذه آية اخرى ثم كانت تصير ثعبانا وهذه آية اخرى ثم ان موسى عليه السلام كان يدخل يده فى فيها فما كانت تضر موسى عليه السلام فهذه آية اخرى ثم كانت تنقلب خشبة فهذه آية اخرى وكذلك اليد فان بياضها آية وشعاعها آية اخرى ثم زوالهما بعد حصولهما آية اخرى فصح انهما كانتا آيات كثيرة لا آيتان (الثانى) هب ان العصا امر واحد لكن فيها آيات كثيرة لان انقلابها حية يدل على وجود اله قادر على الكل عالم بالكل حكيم ويدل على نبوة موسى عليه السلام ويدل على جواز الحشر حيث انقلب الجماد حيوانا فهذه آيات كثيرة ولذلك قال ان اول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا الى قوله فيه آيات بينات مقام ابراهيم فاذا وصف الشئ الواحد بان فيه آيات فالشيئان اولى بذلك (الثالث) من الناس من قال اقل الجمع اثنان على ما عرفت فى اصول الفقه (القول الثانى) ان قوله اذهبا بآياتى معناه انى امدكما بآياتى واظهر على ايديكما من الآيات ما تزاح به العلل من فرعون وقومه فاذهبا فان آياتى معكما كما يقال اذهب فان جندى معك اى انى امدك بهم متى احتجت (القول الثالث) ان الله تعالى آتاه العصا واليد وحل عقدة لسانه وذلك ايضا معجز فكانت الآيات ثلاثة هذا هو شرح الامر اما النهى فهو قوله تعالى ولا تنيا فى ذكرى الونى الفتور والتقصير وقرئ ولا تنيا بكسر حرف المضارع للاتباع

مؤيدا بأخيه حسبما استدعاه بعد تذكير المنن السابقة السابقة تأكيدا لوثوقه عليه السلام بحصول نظائرها اللاحقة وهذا تمثيل لما خوله عز وعلا من الكرامة العظمى بتقريب الملك بعض خواصه واصطناعه لنفسه وترشيحه لبعض اموره الجليلة والعدول عن نون العظمة الواقعة فى قوله تعالى وفتناك ولنظيريه السابقين تمهيد لافراد لفظ النفس اللائق بالمقام فانه ادخل فى تحقيق معنى الاصطناع والاستخلاص اى اصطفيتك برسالاتى وبكلامى وقوله تعالى (اذهب انت واخوك) اى وليذهب اخوك حسبما استدعيت استئناف مسوق لبيان ماهو المقصود بالاصطناع (بآياتى) اى بمعجزاتى التى اريتكها من اليد والعصا فانهما وان كانتا اثنتين لكن فى كل منهما آيات شتى كما فى قوله تعالى فيه آيات بينات مقام ابراهيم فان انقلاب العصا حيوانا آية وكونها ثعبانا عظيما لا يقادر قدره آية اخرى وسرعة حركته مع عظم جرمه آية اخرى وكونه مع ذلك مسخرا له عليه السلام بحيث كان يدخل يده فى فمه فلا يضره آية اخرى ثم انقلابها عصا آية اخرى وكذلك اليد فان بياضها فى نفسه آية وشعاعها آية ثم رجوعها الى حالها الاولى آية اخرى والباء للمصاحبة لا للتعدية اذ المراد ذهابهما الى فرعون ملتبسين بالآيات متمكنين بها فى اجراء احكام الرسالة واكمال امر الدعوة لا مجرد اذهابها وايصالها اليه (ولا تنيا) لا تفترا ولا تقصرا وقرئ لا تنيا بكسر التاء للاتباع (فى ذكرى) اى بما يليق بى

ثم قيل فيه أقوال (احدها) المعنى لاتنيا بل اتخذا ذكرى آلة لتحصيل المقاصد واعتقدا ان أمرا من الامور لايتمشى لاحد الا بذكرى والحكمة فيه ان من ذكر جلال الله استحقر غيره فلا يخاف أحدا ولان من ذكر جلال الله تقوى روحه بذلك الذكر فلا يضعف فى المقصود ولان ذاكر الله تعالى لابد وان يكون ذاكر الاحسانه وذاكر احسانه لايفتر فى اداء أوامره (وثانيها) المراد بالذكر تبليغ الرسالة فان الذكر يقع على كل العبادات وتبليغ الرسالة من اعظمها فكان جديرا بان يطلق عليه اسم الذكر (وثالثها) قوله ولاتنيا فى ذكرى عند فرعون وكيفية الذكر هوأن يذكرا لفرعون وقومه ان الله تعالى لايرضى منهم بالكفر ويذكرا لهم أمر الثواب والعقاب والترغيب والترهيب (ورابعها) ان يذكرا لفرعون آلاء الله ونعماءه وانواع احسانه اليه ثم قال بعد ذلك اذهبا الى فرعون انه طغى وفيه سؤالان (الاول) ما الفائدة فى ذلك بعد قوله اذهب أنت وأخوك بآياتى قال القفال فيه وجهان (احدهما) ان قوله اذهب أنت واخوك بآياتى يحتمل ان يكون كل واحد منهما مأمورا بالذهاب على الانفراد فقيل مرة أخرى اذهبا ليعرفا ان المراد منه ان يشتغلا بذلك جميعا لأن ينفرد به هرون دون موسى (والثانى) ان قوله اذهب أنت وأخوك بآياتى أمر بالذهاب الى كل الناس من بنى اسرائيل وقوم فرعون ثم ان قوله اذهبا الى فرعون أمر بالذهاب الى فرعون وحده (السؤال الثانى) قوله اذهبا الى فرعون خطاب مع موسى وهرون عليهما السلام وهذا مشكل لان هرون عليه السلام لم يكن حاضرا هناك وكذا فى قوله تعالى قالا ربنا اننا نخاف ان يفرط علينا أو ان يطغى أجاب القفال عنه من وجوه (أحدها) ان الكلام كان مع موسى عليه السلام وحده الا أنه كان متبوع هرون فجعل الخطاب معه خطابا مع هرون وكلام هرون على سبيل التقدير فالخطاب فى تلك الحالة وان كان مع موسى عليه السلام وحده الا أنه تعالى أضافه اليهما كما فى قوله واذ قتلتم نفسا وقوله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل وحكى ان القائل هو عبدالله بن أبى وحده (وثانيها) يحتمل ان الله تعالى لما قال قد أوتيت سؤلك ياموسى سكت حتى لقى اخاه ثم ان الله تعالى خاطبهما بقوله اذهبا الى فرعون (وثالثها) انه حكى انه فى مصحف ابن مسعود وحفصة قال ربنا اننا نخاف أى قال موسى أنا وأخى نخاف فرعون أما قوله تعالى فقولا له قولا لينا ففيه سؤالان (الاول) لم أمر الله تعالى موسى عليه السلام باللين مع الكافر الجاحد الجواب لوجهين (الاول) انه عليه السلام كان قد رباه فرعون فأمره أن يخاطبه بالرفق رعاية لتلك الحقوق وهذا تنبيه على نهاية تعظيم حق الابوين (الثانى) ان من عادة الجبابرة اذا غلظ لهم فى الوعظ ان يزدادوا عتوا وتكبرا والمقصود من البعثة حصول النفع لاحصول زيادة الضرر فلهذا أمر الله تعالى بالرفق (السؤال الثانى) كيف كان ذلك الكلام اللين الجواب ذكروا فيه وجوها (احدها) ماحكى الله تعالى بعضه فقال هل لك الى أن تزكى وأهديك الى ربك فتخشى وذكر

من الصفات الجليلة والافعال الجميلة عند تبليغ رسالتى والدعاء الى وقيل المعنى لاتنيا فى تبليغ رسالتى فان الذكر يقع على جميع العبادات وهو أجلها واعظمها وقيل لاتنسيانى حيثما تقلبتما واستمدا بذكرى العون والتأييد واعلما أن امرا من الامور لايتأتى ولايتمشى الا بذكرى (اذهبا الى فرعون) جمعهما فى صيغة أمر الحاضر مع غيبة هرون اذ ذاك للتغليب وكذا الحال فى صيغة النهى روى انه أوحى الى هرون وهو بمصر أن يتلقى موسى عليهما السلام وقيل سمع باقباله فتلقاه (انه طغى) تعليل لموجب الامر والفاء فى قوله تعالى (فقولا له قولا لينا) للترتيب مابعدها على طغيانه فان تليين القول مما يكسر سورة عناد العتاة ويلين عريكة الطغاة قال ابن عباس رضى الله عنهما لاتعنفا فى قولكما وقيل القول اللين مثل هل لك الى أن تزكى وأهديك الى ربك فانها دعوة فى صورة عرض ومشورة وقيل هو ماحكى من قوله تعالى فقولا انا رسولا ربك الآيتين وقيل كنياه وكان له ثلاث كنى ابو العباس وأبو الوليد وابو مرة وقيل عداه شبابا لايهرم وبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح وملكا لايزول الا بالموت وقرئ لينا (لعله يتذكر) بما بلغتماه من ذكرى ويرغب فيما رغبتماه فيه (او يخشى) عقابى ومحل الجملة النصب على الحال من ضمير التثنية أى فقولا له قولا لينا راجين أن يتذكر او يخشى وكلمة او لمنع الخلو اى باشرا الامر مباشرة من يرجو ويطمع فى ان يثمر عمله ولايخيب سعيه وهو

ايضا فى هذه السورة بعض ذلك فقال فأتياه فقولا انا رسولا ربك الى قوله والسلام على من اتبع الهدى (وثانيها) ان تعداه شبابا لايهرم بعده وملكا لاينزع منه الا بالموت وان يبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح الى حين موته (وثالثها) كنياه وهو من ذوى الكنى الثلاث ابو العباس وابو الوليد وابو مرة (ورابعها) حكى عن عمرو بن دينار قال بلغنى ان فرعون عمر اربعمائة سنة وتسع سنين فقال له موسى عليه السلام ان أطعتنى عمرت مثل ما عمرت فاذا مت فلك الجنة واعترضوا على هذه الوجوه الثلاثة الاخيرة (اما الاول) فقيل لو حصلت له هذه الامور الثلاثة فى هذه المدة الطويلة لصار ذلك كالالجاء الى معرفة الله تعالى وذلك لايصح مع التكليف (واما الثانى) فلأن خطابه بالكنية امر سهل فلا يجوز ان يجعل ذلك هو المقصود من قوله فقولا له قولا لينا بل يجوز ان يكون ذلك من جملة المراد (واما الثالث) فالاعتراض عليه كما فى الاول اما قوله تعالى لعله يتذكر او يخشى فاعلم انه ليس المراد انه تعالى كان شاكا فى ذلك لان ذلك محال عليه تعالى وانما المراد فقولا له قولا لينا على ان تكونا راجيين لان يتذكر هو او يخشى واعلم ان احوال القلب ثلاثة (احدها) الاصرار على الحق (وثانيها) الاصرار على الباطل (وثالثها) التوقف فى الامرين وان فرعون كان مصرا على الباطل وهذا القسم ارداُ الاقسام فقال تعالى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر او يخشى فيرجع من انكاره الى الاقرار بالحق وان لم ينتقل من الانكار الى الاقرار لكنه يحصل فى قلبه الخوف فيترك الانكار وان كان لاينتقل الى الاقرار فان هذا خير من الاصرار على الانكار واعلم ان هذا التكليف لايعلم سره الا الله تعالى لانه تعالى لما علم انه لايؤمن قط كان ايمانه ضدا لذلك العلم الذى يمتنع زواله فيكون سبحانه عالما بامتناع ذلك الايمان واذا كان عالما بذلك فكيف امر موسى عليه السلام بذلك الرفق وكيف بالغ فى ذلك الامر بتلطيف دعوته الى الله تعالى مع علمه استحالة حصول ذلك منه ثم هب ان المعتزلة ينازعون فى هذا الامتناع من غير ان يذكروا شبهة قادحة فى هذا السؤال ولكنهم سلموا انه كان عالما بانه لا يحصل ذلك الايمان وسلموا ان فرعون لايستفيد ببعثة موسى عليه السلام الا استحقاق العقاب والرحيم الكريم كيف يليق به ان يدفع سكينا الى من علم قطعا انه يمزق بها بطن نفسه ثم يقول انى ما أردت بدفع السكين اليه الا الاحسان اليه ياأخى العقول قاصرة عن معرفة هذه الاسرار ولا سبيل فيها الا التسليم وترك الاعتراض والسكوت بالقلب واللسان وروى عن كعب انه قال والذى يحلف به كعب انه لمكتوب فى التوراة فقولا له قولا لينا وسأقسى قلبه فلايؤمن ❁ قوله تعالى (قالا ربنا اننا نخاف ان يفرط علينا او ان يطغى قال لاتخافا اننى معكما اسمع وارى فأتياه فقولا انا رسولا ربك فارسل معنا بنى اسرائيل ولاتعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى انا قد اوحى الينا ان العذاب على من كذب وتولى) اعلم ان قوله قالا ربنا اننا نخاف فيه أسئلة (السؤال الاول) قوله قالا ربنا يدل على ان المتكلم بذلك موسى

يجهد بطوقه ويحتشد باقصى وسعه وجدوى ارسالهما اليه مع العلم بحاله الزام الحجة وقطع المعذرة (قالا ربنا) اسند القول اليهما مع ان القائل حقيقة هو موسى عليه الصلاة والسلام بطريق التغليب ايذانا باصالته فى كل قول وفعل وتبعية هرون عليه السلام له فى كل ما يأتى ويذر ويجوز ان يكون هرون قد قال ذلك بعد تلاقيهما فحكى ذلك مع قول موسى عليه السلام عند نزول الآية كما فى قوله تعالى يا أيها الرسل كلوا من الطيبات فان هذا الخطاب قد حكى لنا بصيغة الجمع مع ان كلا من المخاطبين لم يخاطب الا بطريق الانفراد ضرورة استحالة اجتماعهم فى الوجود فكيف باجتماعهم فى الخطاب (اننا نخاف ان يفرط علينا) اى يعجل علينا بالعقوبة ولايصبر الى اتمام الدعوة واظهار المعجزة من فرط اذا تقدم ومنه الفارط وفرس فارط يسبق الخيل وقرئ يفرط من افرطه اذا حمله على العجلة اى نخاف ان يحمله حامل من الاستكبار او الخوف على الملك او غيرهما على المعاجلة بالعقاب (او ان يطغى) اى يزداد طغيانا الى ان يقول فى شأنك ما لاينبغى لكمال جراءته وقساوته واطلاقه من حسن الادب واظهار كلمة ان مع سداد المعنى بدونه لاظهار كمال الاعتناء بالامر والاشعار بتحقق الخوف من كل منهما (قال) استئناف مبنى على السؤال الناشئ من النظم الكريم ولعل اسناد الفعل الى ضمير الغيبة للاشعار بانتقال الكلام من مساق الى مساق آخر فان ماقبله من الافعال

وهرون عليهما السلام وهرون لم يكن حاضرا في هذا المقال فكيف ذلك وجوابه قد تقدم (السؤال الثاني) ان موسى عليه السلام قال رب اشرح لي صدري فأجابه الله تعالى بقوله قد أوتيت سؤلك ياموسى وهذا يدل على انه قد انشرح صدره وتيسر أمره فكيف قال بعده انا نخاف فان حصول الخوف يمنع من حصول شرح الصدر والجواب ان شرح الصدر عبارة عن تقويته على ضبط تلك الاوامر والنواهي وحفظ تلك الشرائع على وجه لايتطرق اليه السهو والتحريف وذلك شيء آخر غير زوال الخوف (السؤال الثالث) اماعلم موسى وهرون وقد حملهما الله تعالى الرسالة انه تعالى يؤمنهما من القتل الذي هو مقطعة عن الاداء (الجواب) قد أمنا ذلك وان جوزا ان ينالهما السوء من قبل تمام الاداء اوبعده وايضا فانهما استظهرا بان سألا ربهما مايزيد في ثبات قلبهما على دعائه وذلك بان ينضاف الدليل النقلي الى العقلي زيادة في الطمأنينة كما قال ولكن ليطمئن قلبي (السؤال الرابع) لما تكرر الامر من الله تعالى بالذهاب فعدم الذهاب والتعلل بالخوف هل يدل على المعصية (الجواب) لو اقتضى الامر الفور لكان ذلك من اقوى الدلائل على المعصية لاسيما وقد أكثر الله تعالى من انواع التشريف وتقوية القلب وازالة الغم ولكن ليس الامر على الفور فزال السؤال وهذا من اقوى الدلائل على ان الامر لايقتضي الفور اذا ضممت اليه مايدل على ان المعصية غير جائزة على الرسل أما قوله تعالى ان يفرط علينا اوان يطغى فاعلم ان في ان يفرط وجوها (احدها) فرط سبق وتقدم ومنه الفارط الذي يتقدم الواردة وفرس فرط يسبق الخيل والمعنى نخاف ان يعجل علينا بالعقوبة (وثانيها) انه مأخوذ من افرط غيره اذا حمله على العجلة فكان موسى وهرون عليهما السلام خافا من ان يحمله حامل على المعاجلة بالعقوبة وذلك الحامل هو اما الشيطان او دعاؤه للربوبية اوحبه للرياسة اوقومه وهم القبط المتمردون الذين حكى الله تعالى عنهم قال الملأ من قومه (وثالثها) يفرط من الافراط في الاذية أما قوله اوان يطغى فالمعنى يطغى بالتخطي الى ان يقول فيك مالا ينبغي لجراءته عليك واعلم ان من أمر بشيء فحاول دفعه باعذار يذكرها فلابد وان يختم كلامه بما هو الاقوى وهذا كما ان الهدهد ختم عذره بقوله وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله فكذا ههنا بدأ موسى بقوله ان يفرط علينا وختم بقوله اوان يطغى لما ان طغيانه في حق الله تعالى اعظم من افراطه في حق موسى وهرون عليهما السلام اما قوله قال لاتخافا انني معكما اسمع وارى فالمراد لاتخافا مما عرض في قلبكما من الافراط والطغيان لان ذلك هو المفهوم من الكلام بين ذلك انه تعالى لم يؤمنهما من الرد ولا من التكذيب بالآيات ومعارضة السحرة أما قوله انني معكما فهو عبارة عن الحراسة والحفظ وعلى هذا الوجه يقال الله معك على وجه الدعاء وأكد ذلك بقوله اسمع وأرى فان من يكون مع الغير وناصراله وحافظا يجوز ان لايعلم كل ماينا له واعا يحرسه فيما يعلم فبين سبحانه وتعالى انه معهما بالحفظ والعلم في جميع ماينالهما وذلك

(هو)

الواردة على صيغة التكلم حكاية لموسى عليه السلام تخالف ماسيأتي من قوله تعالى قلنا لاتخف انك انت الاعلى فان ماقبله ايضا وارد بطريق الحكاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قيل فاذا قال لهما ربهما عند تضرعهما اليه فقيل قال (لاتخافا) ماتوهمتما من الامرين وقوله تعالى (انني معكما) تعليل لموجب النهي ومزيد تسلية لهما والمراد بالمعية كمال الحفظ والنصرة كما ينبئ عنه قوله تعالى (اسمع وأرى) اي مايجري بينكما وبينه من قول وفعل فافعل في كل حال مايليق بها من دفع ضرر وشر وجلب نفع وخير ويجوز ان لايقدر شيء على معنى انني حافظكما سميعا بصيرا والحافظ الناصر اذا كان كذلك فقد تم وبلغت النصرة غايتها (فأتياه) امر باتيانه الذي هو عبارة عن الوصول اليه بعدما امرا بالذهاب اليه فلاتكرار وهو عطف على لاتخافا باعتبار تعليله بما بعده (فقولا انا رسولا ربك) امرا بذلك تحقيقا للحق من اول الامر ليعرف الطاغية شأنهما ويبني جوابه عليه وكذا التعرض لربوبيته تعالى له وكذا في قوله تعالى (فارسل معنا بني اسرائيل) والترتيب مابعدها على ماقبلها فان كونهما رسولي ربه مما يوجب ارسالهم معهما والمراد بالارسال اطلاقهم من الاسر والقسر واخراجهم من تحت يده العادية لاتكليفهم ان يذهبوا معهما الى الشام كما ينبئ عنه قوله تعالى (ولاتعذبهم) اي بابقائهم على ما كانوا عليه من العذاب فانهم كانوا تحت ملكة القبط يستخدمونهم في الاعمال

هو النهاية فى ازالة الخوف قال القفال قوله اسمع وأرى يحتمل ان يكون مقابلا لقوله ان يفرط علينا او ان يطغى والمعنى يفرط علينا بأن لا يسمع منا او ان يطغى بان يقتلنا فقال الله تعالى اننى معكما أسمع كلامه معكما فأسخره للاستماع منكما وأرى افعاله فلا اتركه حتى يفعل بكما ماتكرهانه واعلم ان هذه الآية تدل على ان كونه تعالى سميعا وبصيرا صفتان زائدتان على العلم لان قوله اننى معكما دل على العلم فقوله اسمع وارى لو دل على العلم لكان ذلك تكريرا وهو خلاف الاصل ثم انه سبحانه أعاد ذلك التكليف فقال فأتياه لانه سبحانه وتعالى قال فى المرة الاولى لنريك من آياتنا الكبرى اذهب الى فرعون وفى الثانية اذهب انت واخوك وفى الثالثة قال اذهبا الى فرعون وفى الرابعة قال ههنا فأتياه فان قيل انه تعالى امرهما فى المرة الثانية بأن يقولا له قولا لينا وفى هذه المرة الرابعة امرهما ان يقولا انا رسولا ربك فأرسل معنا بنى اسرائيل وفيه تغليظ من وجوه (أحدها) ان قوله انا رسولا ربك فيه ابحاث (البحث الاول) انقياده اليهما والتزامه لطاعتهما وذلك يعظم على الملك المتبوع (البحث الثانى) قوله فأرسل معنا بنى اسرائيل فيه ادخال النقص على ملكه لانه كان محتاجا اليهم فيما يريده من الاعمال من بناء او غيره (البحث الثالث) قوله ولا تعذبهم (البحث الرابع) قوله قد جئناك بآية من ربك فما الفائدة فى التليين اولا والتغليظ ثانيا قلنا لان الانسان اذا ظهر لجاجه فلابد له من التغليظ فان قيل أليس كان من الواجب ان يقولا انا رسولا ربك قد جئناك بآية فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم لان ذكر المعجز مقرونا بادعاء الرسالة اولى من تأخيره عنه قلنا بل هذا اولى من تأخيره عنه لانهم ذكروا مجموع الدعاوى ثم استدلوا على ذلك المجموع بالمعجزة اما قوله قد جئناك بآية من ربك ففيه سؤال وهو انه تعالى اعطاه آيتين وهما العصا واليد ثم قال اذهب انت واخوك بآياتى وذلك يدل على ثلاث آيات وقال ههنا قد جئناك بآية وهذا يدل على انها كانت واحدة فكيف الجمع اجاب القفال بأن معنى الآية الاشارة الى جنس الآيات كأنه قال قد جئناك ببيان من عند الله ثم يجوز ان يكون ذلك حجة واحدة او حججا كثيرة واما قوله والسلام على من اتبع الهدى فقال بعضهم هو من قول الله تعالى لهما كأنه قال فقولا انا رسولا ربك وقولا له والسلام على من اتبع الهدى وقال آخرون بل كلام الله تعالى قد تم عند قوله قد جئناك بآية من ربك فقوله بعد ذلك والسلام على من اتبع الهدى وعد من قبلهما لمن آمن وصدق بالسلامة له من عقوبات الدنيا والآخرة والسلام بمعنى السلامة كما يقال رضاع ورضاعة واللام وعلى ههنا بمعنى واحد كما قال لهم اللعنة ولهم سوء الدار على معنى عليهم وقال تعالى من عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها وفى موضع آخر ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها اما قوله انا قد اوحى الينا ان العذاب على من كذب وتولى فاعلم ان هذه الآية من اقوى الدلائل على ان عقاب المؤمن لا يدوم وذلك لان الالف واللام فى قوله العذاب تفيد الاستغراق او تفيد الماهية وعلى

الصعبة الفادحة من الحفر ونقل الاحجار وغيرهما من الامور الشاقة ويقتلون ذكورا اولادهم عاما دون عام ويستخدمون نساءهم وتوسيط حكم الارسال بين بيان رسالتهما وبين ذكر المجىء بآية دالة على صحتها لاظهار الاعتناء به مع ما فيه من تهوين الامر على فرعون فان ارسالهم معهما من غير تعرض لنفسه وقومه بفنون التكاليف الشاقة كما هو حكم الرسالة عادة ليس مما يشق عليه كل المشقة ولان فى بيان مجىء الآية نوع طول كما ترى فتأخير ذلك عنه مخل بتجاوب اطراف النظم الكريم واما ما قيل من ان ذلك دليل على ان تخليص المؤمنين من الكفرة اهم من دعوتهم الى الايمان فكلا (قد جئناك بآية من ربك) تقرير لما تضمنه الكلام السابق من دعوى الرسالة وتعليل لوجوب الارسال فان مجيئهما بالآية من جهته تعالى مما يحقق رسالتهما ويقررها ويوجب الامتثال بامرهما واظهار اسم الرب فى موضع الاضمار مع الاضافة الى ضمير المخاطب لتأكيد ما ذكر من التقرير والتعليل وتوحيد الآية مع تعددها لان المراد اثبات الدعوى ببرهانها لا بيان تعدد الحجة وكذلك قوله تعالى قد جئتكم ببينة وقوله تعالى اولو جئتك بشىء مبين واما قوله تعالى فأت بآية ان كنت من الصادقين فالظاهر أن المراد بها آية من الآيات (والسلام) المستتبع لسلامة الدارين من الله تعالى والملائكة وغيرهم من المسلمين (على من اتبع الهدى) بتصديق آيات الله تعالى الهادية الى الحق

التقديرين يقتضي انحصار هذا الجنس فيمن كذب وتولى فوجب في غير المكذب المتولي ان لا يحصل هذا الجنس اصلا وظاهر هذه الآية يقتضي القطع بأنه لا يعاقب أحدا من المؤمنين بترك العمل به في بعض الاوقات فوجب ان يبقى على اصله في نفي الدوام لان العقاب المتناهي اذا حصل بعده السلامة مدة غير متناهية صار ذلك العقاب كأنه لا عقاب فلذلك يحسن مع حصول ذلك القدر ان يقال انه لا عقاب وايضا فقوله والسلام على من اتبع الهدى وقد فسرنا السلام بالسلامة فظاهره يقتضي حصول السلامة لكل من اتبع الهدى والعارف بالله قد اتبع الهدى فوجب ان يكون صاحب السلامة

* قوله تعالى (قال فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى قال فما بال القرون الاولى قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى الذي جعل لكم الارض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وانزل من السماء ماء فأخرجنا به ازواجا من نبات شتى كلوا وارعوا انعامكم ان في ذلك لآيات لأولي النهى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) اعلم انهما عليهما السلام لما قالا انا رسولا ربك قال لهما فمن ربكما يا موسى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ان فرعون كان شديد القوة عظيم الغلبة كثير العسكر ثم ان موسى عليه السلام لما دعاه الى الله تعالى لم يشتغل معه بالبطش والايذاء بل خرج معه في المناظرة لما انه لو شرع اولا في الايذاء لنسب الى الجهل والسفاهة فاستنكف من ذلك وشرع اولا في المناظرة وذلك يدل على ان السفاهة من غير الحجة شيء ما كان يرتضيه فرعون مع كمال جهله وكفره فكيف يليق ذلك بمن يدعي الاسلام والعلم ثم ان فرعون لما سأل موسى عليه السلام عن ذلك قبل موسى ذلك السؤال واشتغل باقامة الدلالة على وجود الصانع وذلك يدل على فساد التقليد ويدل ايضا على فساد قول التعليمية الذين يقولون نستفيد معرفة الاله من قول الرسول لان موسى عليه السلام اعترف ههنا بان معرفة الله تعالى يجب ان تكون مقدمة على معرفة الرسول وتدل على فساد قول الحشوية الذين يقولون نستفيد معرفة الله والدين من الكتاب والسنة (المسئلة الثانية) تدل الآية على انه يجوز حكاية كلام المبطل لانه تعالى حكى كلام فرعون في انكاره الاله وحكى شبهات منكري النبوة وشبهات منكري الحشر الا انه يجب انك متى اوردت السؤال فاقرنه بالجواب لئلا يبقى الشك كما فعل الله تعالى في هذه المواضع (المسئلة الثالثة) دلت الآية على ان المحق يجب عليه استماع كلام المبطل والجواب عنه من غير ايذاء ولا ايحاش كما فعل موسى عليه السلام بفرعون ههنا وكما امر الله تعالى رسوله في قوله ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وقال وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله (المسئلة الرابعة) اختلف الناس في ان فرعون هل كان عارفا بالله تعالى فقيل انه كان عارفا الا انه كان يظهر الانكار تكبرا وتجبرا وزورا وبهتانا واحتجوا عليه بستة اوجه (أحدها) قوله لقد علمت ما انزل هؤلاء الا رب السموات والارض فتى نصبت التاء في علمت

وفيه من ترغيبه في اتباعهما على الطف وجه ما لا يخفى (انا قد اوحي الينا) من جهة ربنا (ان العذاب) الدنيوي والاخروي (على من كذب) اي بآياته تعالى (وتولى) اي اعرض عن قبولها وفيه من التلطيف في الوعيد حيث لم يصرح بحلول العذاب به ما لا مزيد عليه (قال) اي فرعون بعدما اتياه وبلغاه ما امرا به وانما طوى ذكره للايجاز والاشعار بانهما كما امرا بذلك سارعا الى الامتثال من غير تلعثم وبان ذلك من الظهور بحيث لا حاجة الى التصريح به (فمن ربكما يا موسى) لم يضف الرب الى نفسه ولو بطريق حكاية ما في قوله تعالى انا رسولا ربك وقوله تعالى قد جئناك بآية من ربك لغاية عتوه ونهاية طغيانه بل اضافه اليهما لما ان المرسل لابد ان يكون ربا للرسول او لانهما قد صرحا بربوبيته تعالى للكل بأن قالا انا رسول رب العالمين كما وقع في سورة الشعراء والاقتصار ههنا على ذكر ربوبيته تعالى لفرعون لكفايته فيما هو المقصود والفاء لترتيب السؤال على ما سبق من كونهما رسولي ربهما اي اذا كنتما رسولي ربكما فأخبرا من ربكما الذي ارسلكما وتخصيص النداء بموسى عليه السلام مع توجيه الخطاب اليهما لما انه الاصل في الرسالة وهرون وزيره اما ما قيل من ان ذلك لانه قد عرف ان له عليه الصلاة والسلام رتة فاراد ان يفحمه فيرده ما شاهده منه عليه الصلاة والسلام من حسن البيان القاطع لذلك الطمع الفارغ واما قوله ولا يكاد يبين فمن غلوه في الخبث والدعارة كما

كان ذلك خطابا من موسى عليه السلام مع فرعون فدل ذلك على ان فرعون كان عالما بذلك وكذا قوله تعالى وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا (وثانيها) انه كان عاقلا والا لم يجز تكليفه وكل من كان عاقلا فقد علم بالضرورة انه وجد بعد العدم وكل من كان كذلك افتقر الى مدبر وهذان العلمان الضروريان يستلزمان العلم بوجود المدبر (وثالثها) قول موسى عليه السلام ههنا ربنا الذى اعطى كل شئ خلقه ثم هدى وكلمة الذى تقتضى وصف المعرفة بجملة معلومة فلابد وان تكون هذه الجملة قد كانت معلومة له (ورابعها) قوله فى سورة القصص فى صفة فرعون وقومه وظنوا انهم الينا لا يرجعون فذلك يدل على انهم كانوا عالمين بالمبدأ الا انهم كانوا منكرين للمعاد (وخامسها) ان ملك فرعون لم يتجاوز القبط ولم يبلغ الشام ولما هرب موسى عليه السلام الى مدين قال له شعيب لا تخف نجوت من القوم الظالمين فمع هذا كيف يعتقد انه اله العالم (وسادسها) انه لما قال وما رب العالمين قال موسى عليه السلام رب السموات والارض وما بينهما قال ان رسولكم الذى ارسل اليكم لمجنون يعنى انا اطلب منه الماهية وهو يشرح الوصف فهو لم ينازع موسى فى الوجود بل طلب منه الماهية فدل هذا على اعترافه باصل الوجود ومن الناس من قال انه كان جاهلا بربه واتفقوا على ان العاقل لا يجوز ان يعتقد فى نفسه انه خالق هذه السموات والارضين والشمس والقمر وانه خالق نفسه لانه يعلم بالضرورة عجزه عنها ويعلم بالضرورة انها كانت موجودة قبله فيحصل العلم الضرورى بانه ليس موجدا لها ولا خالقا لها واختلفوا فى كيفية جهله بالله تعالى فيحتمل انه كان دهريا نافيا للمؤثر اصلا ويحتمل انه كان فلسفيا قائلا بالعلة الموجبة ويحتمل انه كان من عبدة الكواكب ويحتمل انه كان من الحلولية المجسمة واما ادعاؤه الربوبية لنفسه فبمعنى انه يجب عليهم طاعته والانقياد له وعدم الاشتغال بطاعة غيره (المسئلة الخامسة) انه سبحانه حكى عنه فى هذه السورة انه قال فمن ربكما يا موسى وقال فى سورة الشعراء وما رب العالمين فالسؤال ههنا عن وهو عن الكيفية وفى سورة الشعراء بما وهو عن الماهية وهما سؤالان مختلفان والواقعة واحدة والاقرب ان يقال سؤال من كان مقدما على سؤال ما لانه كان يقول انى انا الله والرب فقال فمن ربكما فلما اقام موسى الدلالة على الوجود وعرف انه لا يمكنه ان يقاومه فى هذا المقام لظهوره وجلائه عدل الى المقام الثانى وهو طلب الماهية وهذا ايضا مما ينبه على انه كان عالما بالله لانه ترك المنازعة فى هذا المقام لعلمه بغاية ظهوره وشرع فى المقام الصعب لان العلم بماهية الله تعالى غير حاصل للبشر (المسئلة السادسة) انما قال فمن ربكما ولم يقل فمن الهكما لانه اثبت نفسه ربا فى قوله الم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين فذكر ذلك على سبيل التعجب كانه قال له انا ربك فلم تدعى ربا آخر هذا الكلام شبيه بكلام نمرود لان ابراهيم عليه السلام لما قال ربى الذى يحيى ويميت قال نمرود له انا احيى واميت ولم يكن الاحياء والاماتة التى ذكرهما ابراهيم عليه السلام هما الذى عارضه بهما نمرود

(قال) اى موسى عليه الصلاة والسلام مجيبا له (ربنا) اما مبتدأ وقوله تعالى (الذى اعطى كل شئ خلقه) خبره او هو خبر لمبتدأ محذوف والموصول صفته وايا ما كان فلم يريد بالضمير المتكلم انفسهما فقط حسبما اراد اللعين بل جميع المخلوقات تحقيقا للحق وردا عليه كما يفصح عنه ما فى حيز الصلة اى هو ربنا الذى اعطى كل شئ من الاشياء خلقه اى صورته وشكله اللائق بما نيط به من الخواص والمنافع او اعطى مخلوقاته كل شئ تحتاج هى اليه وترتفق به وتقديم المفعول الثانى للاهتمام به او اعطى كل حيوان نظيره فى الخلق والصورة حيث زوج الحصان بالحجر والبعير بالناقة والرجل بالمرأة ولم يزوج شيأ من ذلك بخلاف جنسه وقرئ خلقه على صيغة الماضى على ان الجملة صفة للمضاف او المضاف اليه وحذف المفعول الثانى اما للاقتصار على الاول اى كل شئ خلقه الله تعالى لم يحرمه من عطائه وانعامه او للاختصار من كونه منويا مدلولا عليه بقرينة الحال اى اعطى كل شئ خلقه الله تعالى ما يحتاج اليه (ثم هدى) اى الى طريق الانتفاع والارتفاق بما اعطاه وعرفه كيف يتوصل الى بقائه وكماله اما اختيارا كما فى الحيوانات او طبعا كما فى الجمادات والقوى الطبيعية النباتية والحيوانية ولما كان الخلق الذى هو عبارة عن تركيب الاجزاء وتسوية الاجسام متقدما على الهداية التى هى عبارة عن ايداع القوى المحركة والمدركة فى تلك الاجسام وسط

الا فى اللفظ فكذا ههنا لما ادعى موسى ربوبية الله تعالى ذكر فرعون هذا الكلام ومراده انى انا الرب لا فى ربيتك ومعلوم ان الربوبية التى ادعاها موسى لله سبحانه وتعالى غير هذه الربوبية فى المعنى وانه لا مشاركة بينهما الا فى اللفظ (المسئلة السابعة) اعلم ان موسى عليه السلام استدل على اثبات الصانع بأحوال المخلوقات وهو قوله ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى وهذه الدلالة هى التى ذكرها الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم فى قوله سبح اسم ربك الاعلى الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى وقال ابراهيم عليه السلام فانهم عدو لى الا رب العالمين الذى خلقنى فهو يهدين وان موسى عليه السلام فى أكثر الامور يعول على دلائل ابراهيم عليه السلام وسيأتى تقرير ذلك فى سورة الشعراء ان شاء الله تعالى واعلم انه يشبه ان يكون الخلق عبارة عن تركيب القوالب والابدان والهداية عبارة عن ابداع القوى المدركة والمحركة فى تلك الاجسام وعلى هذا التقدير يكون الخلق مقدما على الهداية ولذلك قال فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فالتسوية راجعة الى القالب ونفخ الروح اشارة الى ابداع القوى وقال ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين الى ان قال ثم انشأناه خلقا آخر فظهر ان الخلق مقدم على الهداية والشروع فى بيان عجائب حكمة الله تعالى فى الخلق والهداية شروع فى بحر لا ساحل له ولنذكر منه امثلة قريبة الى الافهام (احدها) ان الطبيعى يقول الثقيل هابط والخفيف صاعد وأشد الاشياء ثقلا الارض ثم الماء واشدها خفة النار ثم الهواء فلذلك وجب ان تكون النار اعلى العنصريات والارض اسفلها ثم انه سبحانه قلب هذا الترتيب فى خلقة الانسان فجعل اعلى الاشياء منه العظم والشعر وهما أيبس ما فى البدن وهما بمنزلة الارض ثم جعل تحته الدماغ الذى هو بمنزلة الماء وجعل تحته النفس الذى هو بمنزلة الهواء وجعل تحته الحرارة الغريزية التى فى القلب التى هى بمنزلة النار فجعل مكان الارض من البدن الاعلى وجعل مكان النار من البدن الاسفل ليعرف ان ذلك بتدبير القادر الحكيم الرحيم لا باقتضاء العلة والطبيعة (وثانيها) انك اذا نظرت الى عجائب النحل فى تركيب البيوت المسدسة وعجائب احوال البق والبعوض فى اهتدائها الى مصالح أنفسها لعرفت ان ذلك لا يمكن الا بالهام مدبر عالم بجميع المعلومات (وثالثها) انه تعالى هو الذى أنعم على الخلائق بما به قوامهم من المطعوم والمشروب والملبوس والمنكوح ثم هداهم الى كيفية الانتفاع بها ويستخرجون الحديد من الجبال واللآلى من البحار ويركبون الادوية والدرياقات النافعة ويجمعون بين الاشياء المختلفة فيستخرجون لذات الاطعمة فثبت انه سبحانه هو الذى خلق كل الاشياء ثم اعطاهم العقول التى بها يتوصلون الى كيفية الانتفاع بها وهذا غير مختص بالانسان بل عام فى جميع الحيوانات فأعطى الانسان انسانة والحمار حمارة والبعير ناقة ثم هداه لها ليدوم التناسل وهدى الاولاد لثدى الامهات بل هذا غير مختص بالحيوانات بل هو حاصل فى اعضائها فانه خلق اليد على تركيب خاص واودع فيها قوة الاخذ وخلق الرجل على

بينهما كلمة التراخى ولقد ساق عليه الصلاة والسلام جوابه على نمط رائق واسلوب لائق حيث بين انه تعالى عالم قادر بالذات خالق لجميع الاشياء منعم عليهم بجميع ما يليق بها بطريق التفضل وضمنه ان ارساله تعالى اياه الى الطاغية من جملة هدايته تعالى اياه بعد ان هداه الى الحق بالهدايات التكوينية حيث ركب فيه العقل وسائر المشاعر والآيات الظاهرة والباطنة (وقال فما بال القرون الاولى) لما شاهد اللعين ما نظمه عليه الصلاة والسلام فى سلك الاستدلال من البرهان النير على الطراز الرائع خاف ان يظهر للناس حقية مقالاته عليه الصلاة والسلام وبطلان خرافات نفسه ظهورا بينا فأراد ان يصرفه عليه الصلاة والسلام عن سننه الى ما لا يعنيه من الامور التى لا تعلق لها بالرسالة من الحكايات ويشغله عما هو بصدده عسى يظهر فيه نوع غفلة فيتسلق بذلك الى ان يدعى بين يدى قومه نوع معرفة فقال ما حال القرون الماضية والامم الخالية وماذا جرى عليهم من الحوادث المفصلة فأجاب عليه الصلاة والسلام بأن العلم بأحوالهم مفصلة مما لا ملابسة له بمنصب الرسالة وانما علمها عند الله عز وجل واما ما قيل من انه سأله عن حال من خلا من القرون وعن شقاء من شقى منهم وسعادة من سعد فيأباه قوله تعالى (قال علمها عند ربى) فان معناه انه من الغيوب التى لا يعلمها الا الله تعالى وانما انا عبد لا اعلم منها الا ما علمنيه من الامور المتعلقة

تركيب خاص واودع فيها قوة المشي وكذا العين والاذن وجميع الاعضاء ثم ربط البعض بالبعض على وجوه يحصل من ارتباطها مجموع واحد وهو الانسان وانما دلت هذه الاشياء على وجود الصانع سبحانه لان اتصاف كل جسم من هذه الاجسام بتلك الصفة اعنى التركيب والقوة والهداية اما ان يكون واجبا او جائزا والاول باطل لانا نشاهد تلك الاجسام بعد الموت منفكة عن تلك التراكيب والقوى فدل على ان ذلك جائز والجائز لابدله من مرجح وليس ذلك المرجح هو الانسان ولا ابواه لان فعل ذلك يستدعى قدرة عليه وعلما بما فيه من المصالح والمقاصد والامران نائيان عن الانسان لانه بعد كمال عقله يعجز عن تغير شعرة واحدة وبعد البحث الشديد عن كتب التشريح لا يعرف من منافع الاعضاء ومصالحها الا القدر القليل فلابد ان يكون المتولى لتدبيرها وترتيبها موجودا آخر وذلك الموجود لا يجوز ان يكون جسما لان الاجسام متساوية فى الجسمية فاختصاص ذلك الجسم بتلك المؤثرية لابد وان يكون جائزا وان كان جائزا افتقر الى سبب آخر والدور والتسلسل محالان فلابد من الانتهاء فى سلسلة الحاجة الى موجود مؤثر ومدبر ليس بجسم ولا جسمانى ثم تأثير ذلك المؤثر اما ان يكون بالذات أو بالاختيار والاول محال لان الموجب لا يميز مثلا عن مثل وهذه الاجسام متساوية فى الجسمية فلم اختص بعضها بالصورة الفلكية وبعضها بالصورة العنصرية وبعضها بالنباتية وبعضها بالحيوانية فثبت ان المؤثر والمدبر قادر والقادر لا يمكنه مثل هذه الافعال العجيبة الا اذا كان عالما ثم ان هذا المدبر الذى ليس بجسم ولا جسمانى لابد وان يكون واجب الوجود فى ذاته وفى صفاته والا افتقر الى مدبر آخر ويلزم التسلسل وهو محال واذا كان واجب الوجود فى قادريته وعالميته والواجب لذاته لا يتخصص ببعض الممكنات دون البعض وجب ان يكون عالما بكل ماصح ان يكون معلوما وقادرا على كل ماصح ان يكون مقدورا فظهر بهذه الدلالة التى تمسك بها موسى عليه السلام ونبه على تقريرها استناد العالم الى مدبر ليس بجسم ولا جسمانى وهو واجب الوجود فى ذاته وفى صفاته عالم بكل المعلومات قادر على كل المقدورات وذلك هو الله سبحانه وتعالى (المسئلة الثامنة) ان فرعون خاطب الاثنين بقوله فمن ربكما ثم وجه النداء الى أحدهما وهو موسى عليه السلام لانه الاصل فى النبوة وهرون وزيره وتابعه واما لان فرعون كان لخبثه يعلم الرتة التى فى لسان موسى عليه السلام فأراد استنطاقه دون أخيه لما عرف من فصاحته والرتة التى فى لسان موسى عليه السلام يدل عليه قوله أم انا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين (المسئلة التاسعة) فى قوله الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى وجهان (أحدهما) التقديم والتأخير اى اعطى خلقه كل شئ يحتاجون اليه ويرتفقون به (وثانيها) ان يكون المراد من الخلق الشكل والصورة المطابقة للمنفعة فكأنه سبحانه قال اعطى كل شئ الشكل الذى يطابق منفعته ومصلحته وقرئ خلقه صفة للمضاف او المضاف اليه والمعنى ان كل شئ خلقه الله

بما ارسلت ولو كان المسؤل عنه ما ذكر من الشقاوة والسعادة لاجيب ببيان ان من اتبع الهدى منهم فقد سلم ومن تولى فقد عذب حسبما نطق به قوله تعالى والسلام الآيتين (فى كتاب) اى مثبت فى اللوح المحفوظ بتفاصيله ويجوز ان يكون ذلك تمثيلا لتمكنه وتقرره فى علم الله عز وجل بما استحفظه العالم وقيده بالكتبة كما يلوح به قوله تعالى (لا يضل ربى ولا ينسى) اى لا يخطئ ابتداء ولا يذهب عنه بقاء بل هو ثابت ابدا فانهما محالان عليه سبحانه وهو على الاول لبيان ان اثباته فى اللوح ليس لحاجته تعالى اليه فى العلم به ابتداء او بقاء واظهار ربى فى موقع الاضمار للتلذذ بذكره ولزيادة التقرير والاشعار بعلة الحكم فان الربوبية مما يقتضى عدم الضلال والنسيان حتما ولقد اجاب عليه الصلاة والسلام عن السؤال بجواب عبقرى بديع حيث كشف عن حقيقة الحق حجابها مع انه لم يخرج عما كان بصدده من بيان شؤنه تعالى ثم تخلص اليه حيث قال بطريق الحكاية عن الله عز وجل لما سيأتى من الالتفات (الذى جعل لكم الارض مهدا) على ان الموصول اما مرفوع على المدح او منصوب عليه او خبر مبتدأ محذوف اى جعلها لكم كالمهد تتمهدونها او ذات مهد وهو مصدر سمى به المفعول وقرئ مهادا وهو اسم لما يمهد كالفراش او جمع مهد اى جعل كل موضع منها مهدا لكل واحد منكم (وسلك لكم فيها سبلا) اى حصل لكم طرقا ووسطها

لم يخله من اعطائه وانعامه . واما قوله تعالى قال فما بال القرون الاولى فاعلم ان فى ارتباط هذا الكلام بما قبله وجوها (أحدها) ان موسى عليه السلام لما قرر على فرعون أمر المبدأ والمعاد قال فرعون ان كان اثبات المبدأ فى هذا الحد من الظهور فما بال القرون الاولى ما اثبتوه وتركوه فكأن موسى عليه السلام لما استدل بالدلالة القاطعة على اثبات الصانع قدح فرعون فى تلك الدلالة بقوله ان كان الامر فى قوة هذه الدلالة على ما ذكرت وجب على أهل القرون الماضية ان لا يكونوا غافلين عنها فعارض الحجة بالتقليد (وثانيها) ان موسى عليه السلام هدد بالعذاب اولا فى قوله انا قد اوحى الينا ان العذاب على من كذب وتولى فقال فرعون فما بال القرون الاولى فانها كذبت ثم انهم ما عذبوا (وثالثها) وهو الاظهر ان فرعون لما قال فمن ربكما يا موسى فذكر موسى عليه السلام دليلا ظاهرا وبرهانا باهرا على هذا المطلوب فقال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى فخاف فرعون ان يزيد فى تقرير تلك الحجة فيظهر للناس صدقه وفساد طريق فرعون فأراد ان يصرفه عن ذلك الكلام وان يشغله بالحكايات فقال فما بال القرون الاولى فلم يلتفت موسى عليه السلام الى ذلك الحديث بل قال علمها عند ربى فى كتاب ولا يتعلق غرضى بأحوالهم فلا اشتغل بها ثم عاد الى تتميم كلامه الاول وايراد الدلائل الباهرة على الوحدانية فقال الذى جعل لكم الارض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وهذا الوجه هو المعتمد فى صحة هذا النظم ثم ههنا مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى قوله علمها عند ربى فى كتاب فان العلم الذى يكون عند الرب كيف يكون فى الكتاب وتحقيقه هو ان علم الله تعالى صفته وصفة الشئ قائمة به فأما ان تكون صفة الشئ حاصلة فى كتاب فذلك غير معقول فذكروا فيه وجهين (الاول) معناه انه سبحانه اثبت تلك الاحكام فى كتاب عنده لكون ما كتبه فيه يظهر للملائكة فيكون ذلك زيادة لهم فى الاستدلال على انه تعالى عالم بكل المعلومات منزه عن السهو والغفلة ولقائل ان يقول قوله فى كتاب يوهم احتياجه سبحانه وتعالى فى ذلك العلم الى ذلك الكتاب وهذا وان كان غير واجب لا محالة ولكنه لا اقل من انه يوهمه فى اول الامر لا سيما للكافر فكيف يحسن ذكره مع معاند مثل فرعون فى وقت الدعوة (الوجه الثانى) ان تفسير ذلك بأن بقاء تلك المعلومات فى علمه سبحانه كبقاء المكتوب فى الكتاب فيكون الغرض من هذا الكلام تأكيد القول بأن اسرارها معلومة لله تعالى بحيث لا يزول شئ منها عن علمه وهذا التفسير مؤكد بقوله بعد ذلك لا يضل ربى ولا ينسى (المسئلة الثانية) اختلفوا فى قوله لا يضل ربى ولا ينسى فقال بعضهم معنى اللفظين واحد اى لا يذهب عليه شئ ولا يخفى عليه وهذا قول مجاهد والاكثرون على الفرق بينهما ثم ذكروا وجوها (أحدها) وهو الاحسن ما قاله القفال لا يضل عن الاشياء ومعرفتها وما علم من ذلك لم ينسه فاللفظ الاول اشارة الى كونه عالما بكل المعلومات واللفظ الثانى وهو قوله ولا ينسى دليل على بقاء ذلك العلم ابد الآباد وهو اشارة الى نفى التغير (وثانيها) قال مقاتل لا يخطئ ذلك

بين الجبال والاودية والبرارى تسلكونها من قطر الى قطر لتقضوا منها مآربكم وتنتفعوا بمنافعها ومرافقها (وانزل من السماء ماء) هو المطر (فاخرجنا به) اى بذلك الماء وهو عطف على انزل داخل تحت الحكاية وانما التفت الى التكلم للتنبيه على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة والايذان بانه لا يتأتى الا من قادر مطاع عظيم الشأن تنقاد لامره وتذعن لمشيئته الاشياء المختلفة كما فى قوله تعالى الم تر ان الله انزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها وقوله تعالى أم من خلق السموات والارض وانزل لكم من السماء ماء فانبتنا به حدائق ذات بهجة خلا ان ما قبل الالتفات هناك صريح كلامه تعالى واما ههنا فحكاية عنه تعالى وجعل قوله تعالى فأخرجنا به هو المحكى مع كون ما قبله كلام موسى عليه الصلاة والسلام خلاف الظاهر مع انه يفوت حينئذ الالتفات لعدم اتحاد المتكلم (ازواجا) أصنافا سميت بذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض (من نبات) بيان أو صفة لازواجا أى كائنة من نبات وكذا قوله تعالى (شتى) أى متفرقة جمع شتيت ويجوز أن يكون صفة لنبات لما انه فى الاصل

الكتاب ربى ولاينسى مافيه (وثالثها) قال الحسن لايخطئ وقت البعث ولاينساه (ورابعها) قال ابو عمرو أصل الضلال الغيبوبة والمعنى لايغيب عن شئ ولايغيب عنه شئ (وخامسها) قال ابن جرير لايخطئ فى التدبير فيعتقد فى غير الصواب كونه صوابا واذا عرفه لاينساه وهذه الوجوه متقاربة والتحقيق هو الاول (المسئلة الثالثة) انه لما سأله عن الاله وقال فمن ربكما ياموسى وكان ذلك مما سبيله الاستدلال اجاب بما هو الصواب بأوجز عبارة واحسن معنى ولما سأله عن شأن القرون الاولى وكان ذلك مما سبيله الاخبار ولم يأته فى ذلك خبر وكله الى عالم الغيوب واعلم ان موسى عليه السلام لما ذكر الدلالة الاولى وهى دلالة عامة تتناول جميع المخلوقات من الانسان وسائر الحيوانات وانواع النبات والجمادات ذكر بعد ذلك دلائل خاصة وهى ثلاثة (اولها) قوله تعالى الذى جعل لكم الارض مهدا وفيه ابحاث (البحث الاول) قرأ اهل الكوفة ههنا وفى الزخرف مهدا والباقون قرؤا مهادا فيهما قال ابو عبيدة الذى اختاره مهادا وهو اسم والمهد اسم الفعل وقال غيره المهد الاسم والمهاد الجمع كالفرش والفراش اجاب ابو عبيدة بأن الفراش اسم والفرش فعل وقال المفضل هما مصدران لمهد اذا وطأه فراشا يقال مهد مهدا ومهادا وفرش فرشا وفراشا (البحث الثانى) قال صاحب الكشاف الذى جعل مرفوع لانه خبر مبتدأ محذوف او لانه صفة لربى او منصوب على المدح وهذا من مظانه ومجازه واعلم انه يجب الجزم بكونه خبرا لمبتدأ محذوف اذ لو حملناه على الوجهين الباقيين لزم كونه من كلام موسى عليه السلام ولو كان كذلك لفسد النظم بسبب قوله فاخرجنا به ازواجا من نبات شتى على ما سيأتى بيانه ان شاء الله تعالى (البحث الثالث) المراد من كون الارض مهدا انه تعالى جعلها بحيث يتصرف العباد وغيرهم عليها بالقعود والقيام والنوم والزراعة وجميع وجوه المنافع وقد ذكرناه مستقصى فى سورة البقرة فى تفسير قوله تعالى الذى جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء (وثانيها) قوله تعالى وسلك لكم فيها سبلا قال صاحب الكشاف سلك من قوله ما سلككم فى سقر كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين اى جعل لكم فيها سبلا ووسطها بين الجبال والاودية والبرارى (وثالثها) قوله وانزل من السماء ماء والكلام فيه قد مر فى سورة البقرة اما قوله فاخرجنا به ازواجا من نبات شتى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله فأخرجنا فيه وجوه (احدها) ان يكون هذا من تمام كلام موسى عليه السلام كأنه يقول ربى الذى جعل لكم كذا وكذا فاخرجنا نحن معاشر عباده بذلك الماء بالحراثة ازواجا من نبات شتى (وثانيها) ان عند قوله وانزل من السماء ماء تم كلام موسى عليه السلام ثم بعد ذلك اخبر الله تعالى عن صفة نفسه متصلا بالكلام الاول بقوله فاخرجنا به ثم يدل على هذا الاحتمال قوله كلوا وارعوا انعامكم (وثالثها) قال صاحب الكشاف انتقل فيه من لفظ الغيبة الى لفظ المتكلم المطاع للايذان بأنه سبحانه وتعالى مطاع تنقاد الاشياء المختلفة لامره ومثله قوله تعالى وهو الذى انزل من

مصدر يستوى فيه الواحد والجمع يعنى انها شتى مختلفة فى الطعم والرائحة والشكل والنفع بعضها صالح للناس على اختلاف وجوه الصلاح بعضها للبهائم فان من تمام نعمته تعالى أن أرزاق عباده لما كان تحصيلها بعمل الانعام جعل علفها مما يفضل عن حاجاتهم ولايليق بكونه طعاما لهم وقوله تعالى (كلوا وارعوا أنعامكم) حال من ضمير فأخرجنا على ارادة القول أى أخرجنا منها اصناف النبات قائلين كلوا وارعوا أنعامكم أى معديها لانتفاعكم بالذات وبالواسطة آذنين فى ذلك (ان فى ذلك) اشارة الى ماذكر من شؤنه تعالى وافعاله وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبته وبعد منزلته فى الكمال والتنكير فى قوله تعالى (لآيات) للتفخيم كما وكيفا أى لآيات كثيرة جليلة واضحة الدلالة على شؤن الله تعالى فى ذاته وصفاته وأفعاله وعلى صحة نبوة موسى وهرون عليهما الصلاة والسلام (لاولى النهى) جمع نهية سمى بها العقل لنهيه عن اتباع الباطل وارتكاب القبائح كما سمى بالعقل والحجر لعقله وحجره عن ذلك أى لذوى العقول الناهية عن الاباطيل التى من جملتها مايدعيه الطاغية ويقبله منه فئته الباغية وتخصيص كونها ايات

السماء ماء فاخرجنابه نبات كل شئ ألم تران الله انزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلفا الوانها امن خلق السموات والارض وانزل لكم من السماء ماء فانبتنا به حدائق ذات بهجة واعلم ان قوله فاخرجنا اما ان يكون من كلام موسى عليه السلام او من كلام الله تعالى والاول باطل لان قوله بعد ذلك كلوا وارعوا انعامكم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى منها خلقناكم وفيها نعيدكم لا يليق بموسى عليه السلام وايضا فقوله فاخرجنا به ازواجا من نبات شتى لا يليق بموسى لان أكثر ما فى قدرة موسى عليه السلام صرف المياه الى سقى الاراضى وأما اخراج النبات على اختلاف ألوانها وطبائعها فليس من موسى عليه السلام فثبت ان هذا كلام الله تعالى ولا يجوز ان يقال كلام الله ابتداؤه من قوله فاخرجنا به ازواجا من نبات شتى لان الفاء يتعلق بما قبله فلا يجوز جعل هذا كلام الله تعالى وجعل ما قبله كلام موسى عليه السلام فلم يبق الا ان يقال ان كلام موسى عليه السلام تم عند قوله لا يضل ربى ولا ينسى ثم ابتدئ كلام الله تعالى من قوله الذى جعل لكم الارض مهدا ويكون التقدير هو الذى جعل لكم الارض مهدا فيكون الذى خبر مبتدأ محذوف ويكون الانتقال من الغيبة الى الخطاب التفاتا (المسئلة الثانية) ظاهر الآية يدل على انه سبحانه انما يخرج النبات من الارض بواسطة انزال الماء فيكون للماء فيه اثر وهذا بتقدير ثبوته لا يقدح فى شئ من اصول الاسلام لانه سبحانه وتعالى هو الذى اعطاها هذه الخواص والطبائع لكن المتقدمين من المتكلمين ينكرونه ويقولون لا تأثير له فيه البتة (المسئلة الثالثة) قوله تعالى ازواجا اى اصنافا سميت بذلك لانها مزدوجة مقرونة بعضها مع بعض شتى صفة للازواج جمع شتيت كمريض ومرضى ويجوز ان يكون صفة للنبات والنبات مصدر سمى به النابت كما سمى بالنبت فاستوى فيه الواحد والجمع يعنى انها شتى مختلفة النفع والطعم والطبع بعضها يصلح للناس وبعضها يصلح للبهائم اما قوله كلوا وارعوا انعامكم فهو حال من الضمير فى اخرجنا والمعنى اخرجنا اصناف النبات آذنين فى الانتفاع بها مبيحين ان تأكلوا بعضها وتعلفوا بعضها وقد تضمن قوله كلوا سائر وجوه المنافع فهو كقوله ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وقوله ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما وقوله كلوا أمر اباحة ان فى ذلك اى فيما ذكرت من هذه النعم لآيات اى لدلالات لذوى النهى اى العقول والنهية العقل قال ابو على الفارسى النهى يجوز ان يكون مصدرا كالهدى ويجوز ان يكون جمعا اما قوله منها خلقناكم فاعلم انه سبحانه لما ذكر منافع الارض والسماء بين انها غير مطلوبة لذاتها بل هى مطلوبة لكونها وسائل الى منافع الآخرة فقال منها خلقناكم وفيه سؤالان (السؤال الاول) ما معنى قوله منها خلقناكم مع انه سبحانه وتعالى خلقنا من نطفة على ما بين ذلك فى سائر الآيات والجواب من وجهين (الاول) انه لما خلق اصلنا وهو آدم عليه السلام من التراب على ما قال كمثل آدم خلقه من تراب لاجرم اطلق ذلك علينا (الثانى) ان تولد الانسان انما هو من النطفة ودم

لهم مع انها ايات للعالمين باعتبار أنهم المنتفعون بها (منها خلقناكم) أى فى ضمن خلق ابيكم آدم عليه الصلاة والسلام منها فان كل فرد من افراد البشر له حظ من خلقه عليه الصلاة والسلام اذ لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه عليه الصلاة والسلام بل كانت انموذجا منطويا على فطرة سائر افراد الجنس انطواء اجماليا مستتبعا لجريان آثارها على الكل فكان خلقه عليه الصلاة والسلام منها خلقا للكل منها وقيل المعنى خلقنا أبدانكم من النطفة المتولدة من الاغذية المتولدة من الارض بوسايط وقيل ان الملك الموكل بالرحم يأخذ من تربة المكان الذى يدفن فيه المولود فيبددها على النطفة فيخلق من التراب والنطفة (وفيها نعيدكم) بالاماتة وتفريق الاجزاء وايثار كلمة فى على كلمة الى للدلالة على الاستقرار المديد فيها (ومنها نخرجكم تارة اخرى) بتأليف أجزائكم المتفتتة المختلطة بالتراب على الهيئة السابقة ورد الارواح اليها وكون هذا الاخراج تارة اخرى باعتبار أن خلقهم من الارض اخراج لهم منها وان لم يكن على نهج التارة الثانية والتارة فى الاصل اسم للتور الواحد وهو الجريان ثم اطلق على كل فعلة واحدة من الفعلات المتجددة كما مر فى المرة

الطمث وهما يتولدان من الاغذية والغذاء اماحيوانى اونباتى والحيوانى ينتهى الى النبات والنبات انما يحدث من امتزاج الماء والتراب فصح انه تعالى خلقنامنها وذلك لاينافى كوننامخلوقين من النطفة (والثالث) ذكرنافى قوله تعالى هو الذى يصوركم فى الارحام خبر ابن مسعود ان الله يأمر ملك الارحام ان يكتب الاجل والرزق والارض التى يدفن فيها وانه يأخذ من تراب تلك البقعة ويذره على النطفة ثم يدخلها فى الرحم (السؤال الثانى) ظاهر الآية يدل على ان الشئ قد يكون مخلوقا من الشئ وظاهر قول المتكلمين يأباه والجواب ان كان المراد من خلق الشئ من الشئ ازالة صفة الشئ الاول عن الذات واحداث صفة الشئ الثانى فيه فذلك جائز لانه لامنافاة فيه اماقوله تعالى وفيهانعيدكم فلاشبهة فى ان المراد الاعادة الى القبور حتى تكون الارض مكانا وظرفا لكل من مات الامن رفعه الله الى السماء ومن هذا حاله يحتمل ان يعاد اليها ايضا بعدذلك اماقوله تعالى ومنهانخرجكم تارة اخرى ففيه وجوه (احدها) وهوالاقرب ومنهانخرجكم يوم الحشروالبعث (وثانيها) ومنها نخرجكم ترابا وطينا ثم نحييكم بعدالاخراج وهذا مذكور فى بعض الاخبار (وثالثها) المرادعذاب القبرعن البراءقال خرجنامع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة رجل من الانصار فذكرعذاب القبروما يخاطب به المؤمن والكافر وانه تردروحه فى جسده ويرد الى الارض وانه تعالى يقول عندامادتهم الى الارض انى وعدتهم انى منهاخلقتهم وفيها اعيدهم ومنهااخرجهم تارةاخرى واعلم ان الله تعالى عدفى هذه الآيات منافع للارض وهى انه تعالى جعلهالهم فراشاومهاداينقلبون عليهاوسوى لهم فيهامسالك يترددون فيها كيف ارادوا وانبت فيها اصناف النبات التى منها اقواتهم وعلف دوابهم وهى اصلهم الذى منه يتفرعون ثم هى كفاتهم اذاماتوا ومن ثم قال عليه السلام بروابالارض فانهابكم برة ❁ قوله تعالى (ولقدارينا ه آياتنا كلها فكذب وابى قال اجئتنا لتخرجنامن ارضنا بسحرك ياموسى فلنأتينك بسحرمثله فاجعل بيننا وبينك موعدالانخلفه نحن ولاانت مكانا سوى) اعلم انه تعالى بين انه ارى فرعون الآيات كلها ثم انه لم يقبلها واختلفوا فى المراد بالآيات فقال بعضهم ارادكل الادلة مايتصل بالتوحيد ومايتصل بالنبوة اما التوحيد فاذكر فى هذه السورة من قوله ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى وقوله الذى جعل لكم الارض مهدا الآية وماذكر فى سورة الشعراقال فرعون ومارب العالمين قال رب السموات والارض الآيات واماالنبوة فهى الآيات التسع التى خص الله بها موسى عليه السلام وهى العصا واليد وفلق البحروالحجروالجرادوالقمل والضفادع والدم ونتق الجبل وعلى هذا التقرير معنى اريناه عرفناه صحتها اوصحتها ووجه الدلالة فيها ومنهم من حمل ذلك على مايتصل بالنبوة وهى هذه المعجزات وانما اضاف الآيات الى نفسه سبحانه وتعالى مع ان المظهر لها موسى عليه السلام لانه أجراها على يديه كما اضاف نفخ الروح الى نفسه فقال فنفخنا فيها من روحنا مع ان النفخ كان من جبريل عليه السلام فان قيل

(ولقد اريناه) حكاية اجمالية لماجرى بين موسى عليه الصلاة والسلام وبين فرعون اثرحكاية ماذكره عليه الصلاة والسلام بجلائل نعمائه الداعية له الى قبول الحق والانقياد له وتصديرها بالقسم لابراز كمال العناية بمضمونها واسناد الاراءة الى نون العظمة نظرا الى الحقيقة لاالى موسى نظرا الى الظاهر لتهويل امر الآيات وتفخيم شأنها واظهار كمال شناعة اللعين وتماديه فى المكابرة والعناد اى وبالله لقد بصرنا فرعون اوعرفناه (آياتنا) حين قال لموسى عليه الصلاة والسلام ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين فالقى عصاه فاذاهى ثعبان مبين ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين وصيغة الجمع مع كونهما اثنتين باعتبار مافى تضاعيفهما من بدائع الامور التى كل منها آية بينة لقوم يعقلون حسبما بين فى تفسير قوله تعالى اذهب انت واخوك بآياتى وقد ظهر عند فرعون امور اخر كل واحد منها داهية دهياء فانه روى انه عليه الصلاة والسلام لما القاها انقلبت ثعبانا اشعر فاغرا فاه بين لحييه ثمانون ذراعا وضع لحيه الاسفل على الارض والاعلى على سور القصر وتوجه نحو فرعون فهرب واحدث وانهزم الناس مزدحمين فمات منهم خمسة وعشرون الفا من قومه فصاح فرعون ياموسى انشدك بالذى ارسلك الااخذته

قوله كلها يفيد العموم والله تعالى ما اراه جميع الآيات لان من جملة الآيات ما اظهرها على الانبياء عليهم السلام الذين كانوا قبل موسى عليه السلام والذين كانوا بعده قلنا لفظ الكل وان كان للعموم لكن قد يستعمل فى الخصوص عند القرينة كما يقال دخلت السوق فاشتريت كل شئ او يقال ان موسى عليه السلام اراه آياته وعدد عليه آيات غيره من الانبياء عليهم السلام فكذب فرعون بالكل او يقال تكذيب بعض المعجزات يقتضى تكذيب الكل فحكى الله تعالى ذلك على الوجه الذى يلزم ثم انه سبحانه وتعالى حكى عنه انه كذب وابى قال القاضى الاباء الامتناع وانه لا يوصف به الا من يتمكن من الفعل والترك ولان الله تعالى ذمه بانه كذب وبانه ابى ولو لم يقدر على ما هو فيه لم يصح واعلم ان هذا السؤال مر فى سورة البقرة فى قوله الا ابليس ابى واستكبر والجواب مذكور هنالك ثم حكى الله تعالى شبهة فرعون وهى قوله أجئتنا لتخرجنا من ارضنا بسحرك ياموسى وتركيب هذه الشبهة عجيب وذلك لانه القى فى مسامعهم ما يصيرون به مبغضين له جدا وهو قوله أجئتنا لتخرجنا من ارضنا وذلك لان هذا مما يشق على الانسان فى النهاية ولذلك جعله الله تعالى مساويا للقتل فى قوله ان اقتلوا انفسكم او اخرجوا من دياركم ثم لما صار وافى نهاية البغض له اورد الشبهة الطاعنة فى نبوته عليه السلام وهى ان ما جئتنا به سحر لا معجز ولما علم ان المعجز انما يتميز عن السحر لكون المعجز مما يتعذر معارضته والسحر مما يمكن معارضته قال فلنأتينك بسحر مثله اما قوله تعالى فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا انت فاعلم ان الموعد يجوز ان يكون مصدرا ويجوز ان يكون اسما لمكان الوعد كقوله وان جهنم لموعدهم اجمعين وان يكون اسما لزمان الوعد كقوله ان موعدهم الصبح والذى فى هذه الآية بمعنى المصدر اى اجعل بيننا وبينك وعدا لا نخلفه لان الوعد هو الذى يصح وصفه بالخلف اما الزمان والمكان فلا يصح وصفهما بذلك ومما يؤكد ذلك ان الحسن قرأ يوم الزينة بالنصب وذلك لا يطابق المكان والزمان وانما نصب مكانا لانه هو المفعول الثانى للجعل والتقدير اجعل مكان موعد لا نخلفه مكانا سوى اما قوله سوى فاعلم انه قرأ عاصم وحمزة وابن عامر سوى بضم السين والباقون بكسرها وهما لغتان مثل طوى وطوى وقرئ ايضا منونا وغير منون وذكروا فى معناه وجوها (احدها) قال ابو على مكانا تستوى مسافته على الفريقين وهو المراد من قول مجاهد قال قتادة منصفا بيننا (وثانيها) قال ابن زيد سوى اى مستويا لا يحجب العين ما فيه من الارتفاع والانخفاض فسوى على التقدير الاول صفة المسافة وعلى هذا التقدير صفة المكان والمقصود انهم طلبوا موضعا مستويا لا يكون فيه ارتفاع ولا انخفاض حتى يشاهد كل الحاضرين كل ما يجرى (وثالثها) مكانا يستوى حالنا فى الرضا به (ورابعها) قال الكلبى مكانا سوى هذا المكان الذى نحن فيه الآن * قوله تعالى (قال موعدكم يوم الزينة وان يحشر الناس ضحى فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى قال

فاخذه فعاد عصا وروى انها انقلبت حية ارتفعت فى السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة نحو فرعون وجعلت تقول ياموسى مرنى بما شئت ويقول فرعون انشدك الخ ونزع يده من جيبه فاذا هى بيضاء بياضا نورانيا خارجا عن حدود العادات قد غلب شعاعه شعاع الشمس يجتمع عليه النظارة تعجبا من امره ففى تضاعيف كل من الآيتين آيات جمة لكنها لما كانت غير مذكورة صراحة اكدت بقوله تعالى (كلها) كأنه قيل اريناه آيتينا بجميع مستتبعاتهما وتفاصيلهما قصدا الى بيان انه لم يبق له فى ذلك عذر ما ولا مساغ لعد بقية الآيات التسع منها لانها انما ظهرت على يده عليه الصلاة والسلام بعد ما غلب السحرة على مهل فى نحو من عشرين سنة كما مر فى تفسير سورة الاعراف ولا ريب فى ان امر السحرة مترقب بعد وابعد من ذلك ان يعد منها ما جعل لاهلاكهم لا لارشادهم الى الايمان من فلق البحر وما ظهر بعد مهلكهم من الآيات الظاهرة لبنى اسرائيل من نتق الجبل والحجر سواء اريد به الحجر الذى فر بثوبه او الذى انفجرت منه العيون وكذا ان يعد منها الآيات الظاهرة على يد الانبياء عليهم الصلاة والسلام بناء على ان حكايته عليه الصلاة والسلام اياها لفرعون فى حكم اظهارها بين يديه واراءته اياها

لهم موسى ويلكم لاتفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى فتنازعوا امرهم بينهم واسروا النجوى) اعلم ان فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) يحتمل ان قوله تعالى قال موعدكم ان يكون من قول فرعون فبين الوقت ويحتمل ان يكون من قول موسى عليه السلام قال القاضى والاول اظهر لانه المطالب بالاجتماع دون موسى عليه السلام وعندى الاظهر انه من كلام موسى عليه السلام لوجوه (احدها) انه جواب لقول فرعون فاجعل بيننا وبينك موعدا (وثانيها) وهو ان تعيين يوم الزينة يقتضى اطلاع الكل على ما سيقع فتعيينه انما يليق بالمحق الذى يعرف ان اليد له لا بالمبطل الذى يعرف انه ليس معه الا التلبيس (وثالثها) ان قوله موعدكم خطاب الجمع فلو جعلناه من فرعون الى موسى وهرون لزم اما حمله على التعظيم وذلك لا يليق بحال فرعون معهما او على ان اقل الجمع اثنان وهو غير جائز اما لو جعلناه من موسى عليه السلام الى فرعون وقومه استقام الكلام (المسئلة الثانية) يوم الزينة قرأ بعضهم بضم الميم وقرأ الحسن بالنصب قال الزجاج اذا رفع فعلى خبر المبتدأ والمعنى وقت موعدكم يوم الزينة ومن نصب فعلى الظرف معناه موعدكم يقع يوم الزينة وقوله وان يحشر الناس ضحى معناه موعدكم حشر الناس ضحى فموضع ان يكون رفعا ويجوز فيه الخفض عطفا على الزينة كأنه قال موعدكم يوم الزينة ويوم يحشر الناس ضحى فان قيل أليس قلتم فى تفسير قوله اجعل بيننا وبينك موعدا ان التقدير اجعل مكان موعد لا نخلفه مكانا سوى فهذا كيف يطابقه الجواب بذكر الزمان قلنا هو مطابق معنى وان لم يطابق لفظا لانهم لا بد لهم من ان يجتمعوا يوم الزينة فى مكان معين مشهور باجتماع الناس فى ذلك اليوم فبذكر الزمان علم المكان (المسئلة الثالثة) ذكر المفسرون فى يوم الزينة وجوها (أحدها) انه يوم عيد لهم يتزينون فيه (وثانيها) قال مقاتل يوم النيروز (وثالثها) قال سعيد بن جبير يوم سوق لهم (ورابعها) قال ابن عباس يوم عاشوراء وانما قال يحشر فانهم يجتمعون ذلك اليوم بأنفسهم من غير حاشر لهم وقرئ وان يحشر الناس بالياء والتاء يريدوان تحشر الناس يا فرعون وان يحشر اليوم ويجوز ان يكون فيه ضمير فرعون ذكره بلفظ الغيبة اما على العادة التى تخاطب بها الملوك او خاطب القوم بقوله موعدكم وجعل ضمير يحشر لفرعون وانما اوعدهم ذلك اليوم ليكون علو كلمة الله تعالى وظهور دينه وكبت الكافر وزهوق الباطل على رؤس الاشهاد فى المجمع العام ليكثر المحدث بذلك الامر العجيب فى كل بدو وحضر ويشيع فى جميع اهل الوبر والمدر قال القاضى انه عين اليوم بقوله يوم الزينة ثم عين من اليوم وقتا معينا بقوله وان يحشر الناس ضحى اما قوله فتولى فرعون فجمع كيده ثم اتى فاعلم ان التولى قد يكون اعراضا وقد يكون انصرافا والظاهر ههنا انه بمعنى الانصراف وهو مفارقة موسى عليه السلام على الموعد الذى تواعدوا للاجتماع قال مقاتل فتولى اى اعرض وثبت على اعراضه عن الحق ودخل

لاستحالة الكذب عليه عليه الصلاة والسلام فان حكايته عليه الصلاة والسلام اياها لفرعون مما لم يجر ذكره ههنا على أن ما سيأتى من حمل ما اظهره عليه الصلاة والسلام على السحر والتصدى للمعارضة بالمثل يأباه اباء بينا وينطق بأن المراد بها ماذكرناه قطعا ولولا ذلك لجاز جعل ما فصله عليه الصلاة والسلام من افعاله تعالى الدالة على اختصاصه بالربوبية وأحكامها من جملة الآيات (فكذب) موسى عليه الصلاة والسلام من غير تردد وتأخر مع ما شاهد فى يده من الشواهد الناطقة بصدقه جحودا وعنادا (وأبى) الايمان والطاعة لعتوه واستكباره وقيل كذب بالآيات جميعاً وأبى أن يقبل شيئا منها أو أبى قبول الحق وقوله تعالى (قال أجئتنا لتخرجنا من ارضنا بسحرك يا موسى) استئناف مبين لكيفية تكذيبه وابائه والهمزة لانكار الواقع واستقباحه وادعاء أنه امر محال والمجئ اما على حقيقته او بمعنى الاقبال على الامر والتصدى له أى أجئتنا من مكانك الذى كنت فيه بعد ما غبت عنا أو اقبلت علينا لتخرجنا من مصرنا بما اظهرته من السحر فان ذلك مما لا يصدر عن العاقل لكونه من باب محاولة المحال وانما قاله لحمل قومه على غاية المقت لموسى عليه الصلاة والسلام

تحت قوله فجمع كيده السحرة وسائر من يجتمع لذلك ويدخل فيه الآلات وسائر ماأوردته السحرة ثم أتى دخل تحته أتى الموضع بالسحرة وبالقوم وبالآلات قال ابن عباس كانوا اثنين وسبعين ساحرا مع كل واحد منهم حبل وعصا وقيل كانوا اربعمائة وقيل اكثر من ذلك ثم ضربت لفرعون قبة فجلس فيها ينظر اليهم وكان طول القبة سبعين ذراعا ثم بين تعالى ان موسى عليه السلام قدم قبل كل شيء الوعيد والتحذير عما قالوه واقدموا عليه فقال ويلكم لاتفتروا على الله كذبا بأن تزعموا بأن الذي جئت به ليس بحق وانه سحر فيسحتكم معارضتي قال الزجاج يجوز في انتصاب ويلكم ان يكون المعنى ألزمهم الله ويلا ان افتروا على الله كذبا ويجوز على النداء كقوله ياويلتا أألد وانا عجوز ياويلنا من بعثنا من مرقدنا وقوله فيسحتكم بعذاب اى يعذبكم عذابا مهلكا مستأصلا وقرأ حمزة وعاصم والكسائي برفع الياء من الاسحات والباقون بفتحهما من السحت والاسحات لغة اهل نجد وبني تميم والسحت لغة اهل الحجاز فكانه تعالى قال من افترى على الله كذبا حصل له امران (أحدهما) عذاب الاستئصال في الدنيا او العذاب الشديد في الآخرة وهو المراد من قوله فيسحتكم بعذاب (والثاني) الخيبة والحرمان عن المقصود وهو المراد بقوله وقد خاب من افترى ثم بين سبحانه وتعالى انه لما قال موسى عليه السلام ذلك اعرضوا عن قوله وتنازعوا امرهم بينهم وفي تنازعوا قولان (أحدهما) تفاوضوا وتشاوروا ولم يستقروا على شيء واحد (والثاني) قال مقاتل اختلفوا فيما بينهم ثم قال بعضهم دخل في التنازع فرعون وقومه ومنهم من يقول بل هم السحرة وحدهم والكلام محتمل وليس في الظاهر مايدل على الترجيح وذكروا في قوله واسروا النجوى وجوها (أحدها) انهم اسروها من فرعون وعلى هذا التقدير فيه وجوه (الاول) قال ابن عباس رضي الله عنهما ان نجواهم قالوا ان غلبنا موسى اتبعناه (الثاني) قال قتادة ان كان ساحرا فسنغلبه وان كان من السماء فله امر (الثالث) قال وهب لما قال ويلكم الآية قالوا ماهذا بقول ساحر (القول الثاني) انهم اسروا النجوى من موسى وفرعون ونجواهم هو قولهم ان هذان لساحران يريدان ان يخرجاكم من ارضكم وهو قول السدي (الوجه الثالث) انهم اسروا النجوى من موسى وهرون ومن فرعون وقومه ايضا وكان نجواهم انهم كيف يجب تدبير امر الحبال والعصي وعلى اى وجه يجب اظهارها فيكون اوقع في القلوب واظهر للعيوب وهو قول الضحاك ❁ قوله تعالى (قالوا ان هذان لساحران يريدان ان يخرجاكم من ارضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد افلح اليوم من استعلى) وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) القراءة المشهورة هذان لساحران ومنهم من ترك هذه القراءة وذكروا وجوها اخر (أحدها) قرأ ابو عمرو وعيسى بن عمران هذين لساحران وقالوا هي قراءة عثمان وعائشة وابن الزبير وسعيد بن جبير والحسن رضي الله عنهم واحتج ابو عمرو وعيسى على ذلك بما روى هشام بن عروة عن ابيه عن عائشة رضي الله

بإزاء ان مراده عليه الصلاة والسلام ليس مجرد انجاء بني اسرائيل من ايديهم بل اخراج القبط من وطنهم وحيازة اموالهم وأملاكهم بالكلية حتى لايتوجه الى اتباعه أحد ويبالغوا في المدافعة والمخاصمة وسمى ماأظهره عليه الصلاة والسلام من المعجزة الباهرة سحرا لتجسيرهم على المقابلة ثم ادعى انه يعارضه بمثل ما اتى به عليه الصلاة والسلام فقال (فلنأتينك بسحر مثله) مثله الفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها واللام جواب قسم محذوف كأنه قيل اذا كان كذلك فوالله لنأتينك بسحر مثل سحرك (فاجعل بيننا وبينك موعدا) اى وعدا كما ينبئ عنه وصفه بقوله تعالى (لانخلفه) فانه المناسب لا المكان والزمان اى لانخلف ذلك الوعد (نحن ولاانت) وانما فوض اللعين امر الوعد الى موسى عليه الصلاة والسلام للاحتراز عن نسبته الى ضعف القلب وضيق الحال واظهار الجلادة واراءة انه متمكن من تهيئة اسباب المعارضة وترتيب آلات المغالبة طال الامد ام قصر كما ان تقديم ضميره على ضمير موسى عليه الصلاة والسلام وتوسيط كلمة النفي بينهما للايذان بمسارعته الى عدم الاخلاف وان عدم اخلافه لايوجب عدم اخلافه عليه الصلاة والسلام ولذلك اكد النفي بتكرير حرفه واستصحاب

عنها انها سئلت عن قوله ان هذان لساحران وعن قوله ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى فى المائدة وعن قوله لكن الراسخون فى العلم منهم الى قوله والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة فقالت يا ابن اخى هذا خطأ من الكاتب وروى عن عثمان انه نظر فى المصحف فقال ارى فيه لحنا وستقيمه العرب بألسنتها وعن ابى عمرو انه قال انى لاستحى ان اقرأ ان هذان لساحران (وثانيها) قرأ ابن كثير ان هذان بتخفيف ان وتشديد نون هذان (وثالثها) قرأ حفص عن عاصم ان هذان بتخفيف النونين (ورابعها) قرأ عبد الله بن مسعود واسروا النجوى ان هذان ساحران بفتح الالف وجزم نونه ساحران بغير لام (وخامسها) عن الاخفش ان هذان لساحران خفيفة فى معنى ثقيلة وهى لغة قوم يرفعون بها ويدخلون اللام ليفرقوا بينها وبين التى تكون فى معنى ما (وسادسها) روى عن ابى بن كعب ما هذان الا ساحران وروى عنه ايضا ان هذان الا ساحران وعن الخليل مثل ذلك وعن ابى ايضا ان ذان الا ساحران فهذه هى القرآت الشاذة المذكورة فى هذه الآية واعلم ان المحققين قالوا هذه القرآت لا يجوز تصحيحها لانها منقولة بطريق الآحاد والقرآن يجب ان يكون منقولا بالتواتر اذ لو جوزنا اثبات زيادة فى القرآن بطريق الآحاد لما امكننا القطع بأن هذا الذى هو عندنا كل القرآن لانه لما جاز فى هذه القرآت انها مع كونها من القرآن ما نقلت بالتواتر جاز فى غيرها ذلك فثبت ان تجويز كون هذه القرآت من القرآن يطرق جواز الزيادة والنقصان والتغيير الى القرآن وذلك يخرج القرآن عن كونه حجة ولما كان ذلك باطلا فكذلك ما أدى اليه واما الطعن فى القراءة المشهورة فهو اسوأ مما تقدم من وجوه (أحدها) انه لما كان نقل هذه القراءة فى الشهرة كنقل جميع القرآن فلو حكمنا ببطلانها جاز مثله فى جميع القرآن وذلك يفضى الى القدح فى التواتر والى القدح فى كل القرآن وانه باطل واذا ثبت ذلك امتنع صيرورته معارضا بخبر الواحد المنقول عن بعض الصحابة (وثانيها) ان المسلمين اجمعوا على ان ما بين الدفتين كلام الله تعالى وكلام الله تعالى لا يجوز ان يكون لحنا وغلطا فثبت فساد ما نقل عن عثمان وعائشة رضى الله عنهما ان فيه لحنا وغلطا (وثالثها) قال ابن الانبارى ان الصحابة هم الائمة والقدوة فلو وجدوا فى المصحف لحنا لما فوضوا اصلاحه الى غيرهم من بعدهم مع تحذيرهم من الابتداع وترغيبهم فى الاتباع حتى قال بعضهم اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم فثبت انه لا بد من تصحيح القراءة المشهورة واختلف النحويون فيه وذكروا وجوها (الوجه الاول) وهو الاقوى ان هذه لغة لبعض العرب وقال بعضهم هى لغة بلحارث بن كعب والزجاج نسبها الى كنانة وقطرب نسبها الى بلحارث ابن كعب ومراد وخثعم وبعض بنى عذرة ونسبها ابن جنى الى بعض بنى ربيعة ايضا وانشد الفراء على هذه اللغة

فاطرق اطراق الشجاع ولو يرى ❊ مساغا لناباه الشجاع لصمما

(مكانا سوى) بفعل يدل عليه المصدر لا به فانه موصوف او بانه بدل من موعدا على تقدير مكان مضاف اليه فحينئذ تكون مطابقة الجواب فى قوله تعالى (قال موعدكم يوم الزينة) من حيث المعنى فان يوم الزينة يدل على مكان مشتهر باجتماع الناس فيه يومئذ او باضمار مثل مكان موعدكم مكان يوم الزينة كما هو على الاول او وعدكم وعد يوم الزينة وقرئ يوم بالنصب وهو ظاهر فى ان المراد به المصدر ومعنى سوى منتصفا تستوى مسافته الينا واليك وهو فى النعت كقولهم قوم عدى فى الشذوذ وقرئ بكسر السين قيل يوم الزينة يوم عاشوراء او يوم النيروز او يوم عيد كان لهم فى كل عام وانما خصه عليه الصلاة والسلام بالتعيين لاظهار كمال قوته وكونه على ثقة من امره وعدم مبالاته بهم لما ان ذلك اليوم وقت ظهور غاية شوكتهم وليكون ظهور الحق وزهوق الباطل فى يوم مشهود على رؤس الاشهاد ويشيع ذلك فيما بين كل حاضر وباد (وان يحشر الناس ضحى) عطف على يوم او الزينة وقرئ على البناء للفاعل بالتاء على خطاب فرعون وبالياء على ان الضمير له على سنن الملوك او لليوم (فتولى فرعون) اى انصرف عن المجلس (فجمع كيده) اى ما يكاد به من السحرة وادواتهم (ثم اتى) اى الموعد ومعه

وانشدغيره تزودمنابين اذناه ضربة * دعته الى هابى التراب عقيم

قال الفراء وحكى بعض بنى اسد انه قال هذاخط يدا أخى اعرفه وقال قطرب هؤلاء يقولون رأيت رجلان واشتريت ثوبان قال الرجل من بنى ضبة جاهلى

اعرف منه الجيد والعينانا * ومنخرين اشبها ظبيانا

وقوله ومنخرين على اللغة الفاشية وماوراء ذلك على لغة هؤلاء وقال آخر

طاروا علاهن فطرعلاها * واشدد بمثنى حقب حقواها

وقال آخر كان صريف نا باه اذاما * امرهما صرير الاخطبان

قال بعضهم الاخطبان ذكر الصردان فصيرهما واحدافيق الاستدلال بقوله صريف ناباه قال وانشدنى يونس لبعض بنى الحرث

كأن بعينا مخبل ومصيفه * مراق دم لن يبرح الدهر ثاويا

وانشدوا أيضا ان اباها وابا اباها * قدبلغا فى المجد غايتاها

وقال ابن جنى روينا عن قطرب

هناك ان تبكى بشعشعان * رحب الفؤاد طائل اليدان

ثم قال الفراء وذلك وان كان قليلا اقيس لان ماقبل حرف التثنية مفتوح فينبغى ان يكون مابعده الفاولوكان مابعده يا ينبغى ان تنقلب الفا لانفتاح ماقبلها وقطرب ذكر انهم يفعلون ذلك فرارا الى الالف التى هى اخف حروف المدهذا اقوى الوجوه فى هذه الآية ويمكن ان يقال ايضا الالف فى هذا من جوهر الكلمة والحرف الذى يكون من جوهر الكلمة لايجوز تغييره بسبب التثنية والجمع لان مابالذات لايزول بالعرض فهذا الدليل يقتضى ان لايجوزان يقال ان هذين فلما جوزناه فلااقل من ان يجوز معه ان يقال ان هذان (الوجه الثانى) فى الجواب ان يقال ان ههنا بمعنى نعم قال الشاعر

ويقلن شيب قدعلا * ك وقدكبرت فقلت انه

اى فقلت نعم والهاء فى انه هاء السكت كما فى قوله تعالى هلك عنى سلطانيه وقال ابو ذؤيب

شاب المفارق ان ان من البلى * شيب القذال مع العذار الواصل

اى نعم ان من البلى فصار كأنه قال نعم هذان لساحران واعترضوا عليه فقالوا اللام لاتدخل فى الخبر على الاستحسان الا اذا كانت ان داخلة فى المبتدأ فاما اذا لم تدخل ان على المبتدأ فمحل اللام المبتدأ اذ يقال لزيد أعلم من عمرو ولا يقال زيد لأعلم من عمرو واجابوا عن هذا الاعتراض من وجهين (الاول) لانسلم ان اللام لايحسن دخولها على الخبر والدليل عليه قوله

ام الحليس لعجوز شهر به * ترضى من اللحم بعظم الرقبه

وقال آخر خالى لانت ومن جرير خاله * ينل العلاء ويكرم الاخوالا

وانشد قطرب المتكن حلفت بالله العلى * ان مطاياك لمن خير المطى

(وان)

ماجمعه من كيده وفى كلمة التراخى ايماء الى انه لم يسارع اليه بل اتاه بعد لأى وتلعثم وقوله تعالى (قال لهم موسى) الخ بطريق الاستئناف المبنى على السؤال يقتضى بأن المترقب من احواله عليه الصلاة والسلام حينئذ والمحتاج الى السؤال والبيان ليس الاماصدر عنه عليه الصلاة والسلام من الكلام واما اتيانه اولا فأمر محقق غنى عن التصريح به كأنه قيل فماذا صنع موسى عليه الصلاة والسلام عند اتيان فرعون بمن جمعه من السحرة فقيل قال لهم بطريق النصيحة (ويلكم لاتفتروا على الله كذبا) بأن تدعوا آياته التى ستظهر على يدى سحرا كما فعل فرعون (فيسحتكم) اى يستأصلكم بسببه (بعذاب) هائل لايقادر قدره وقرئ يسحتكم من الثلاثى على لغة اهل الحجاز والاسحات لغة بنى تميم ونجد (وقد خاب من افترى) اى على الله كائنا من كان بأى وجه كان فيدخل فيه الافتراء المنهى عنه دخولا اوليا او وقد خاب فرعون المفترى فلا تكونوا مثله فى الخيبة والجملة اعتراض مقرر لمضمون ماقبلها (فتنازعوا) اى السحرة حين سمعوا كلامه عليه الصلاة والسلام كأن ذلك غاظهم فتنازعوا (امرهم) الذى اريد منهم من مغالبته عليه الصلاة والسلام وتشاوروا وتناظروا (بينهم) فى كيفية المعارضة

وان رويت ان بالكسر لم يبق الاستدلال الا ان قطربا قال سمعناه مفتوح الهمزة وايضا فقد ادخلت اللام فى خبر امسى قال ابن جنى أنشدنا أبو على

مروا عجالى فقالوا كيف صاحبكم • فقال من سئلوا أمسى لمجهودا

وقال قطرب وسمعنا بعض العرب يقول اراك السالمى وانى رأيته لشيخا وزيدوالله لواثق بك وقال كثير

ومازلت من ليلى لدن ان عرفتها • لكالهائم المقصى بكل بلاد

وقال آخر • ولكننى من حبها لعميد • وقال المعترض هذه الاشعار من الشواذ وانما جاءت كذا لضرورة الشعر وجل كلام الله تعالى من الضرورة وانما تقرر هذا الكلام اذا بينا ان المبتدأ اذا لم يدخل عليه ان وجب ادخال اللام عليه لا على الخبر وتحقيقه ان اللام تفيد تأكيد موصوفية المبتدأ بالخبر واللام تدل على حالة من حالات المبتدأ وصفة من صفاته فوجب دخولها على المبتدأ لان العلة الموجبة لحكم فى محل لابد وان تكون مختصة بذلك المحل لا يقال هذا مشكل بما اذا دخلت ان على المبتدأ فان ههنا يجب ادخال اللام على الخبر مع ان ما ذكرتموه حاصل فيه لانا نقول ذلك لاجل الضرورة وذلك لان كلمة ان للتأكيد واللام للتأكيد فلو قلنا ان لزيدا قائم لكنا قد ادخلنا حرف التأكيد على حرف التأكيد وذلك ممتنع فلما تعذر ادخالها على المبتدأ لاجرم ادخلناها على الخبر لهذه الضرورة واما اذا لم يدخل حرف ان على المبتدأ كانت هذه الضرورة زائلة فوجب ادخال اللام على المبتدأ لا يقال اذا جاز ادخال حرف النفى على حرف النفى فى قوله

ما ان رأيت ولا سمعت به • كاليوم طالبنى ابنق اجرب

والغرض به تأكيد النفى فلم لا يجوز ادخال حرف التأكيد على حرف التأكيد والغرض به تأكيد الاثبات لانا نقول الفرق بين البابين ان قولك زيد قائم يدل على الحكم بموصوفية زيد بالقيام فاذا قلت ان زيدا قائم فكلمة ان تفيد تأكيد ذلك الحكم فلو ذكرت مؤكدا آخر مع كلمة ان صار عبثا اما لو قلت رأيت فلا نافهذا للثبوت فاذا أدخلت عليه حرف النفى افاد حرف النفى معنى النفى ولا يفيد التأكيد لانه مستقل بافادة الاصل فكيف يفيد الزيادة فاذا ضممت اليه حرف نفى آخر صار الحرف الثانى مؤكدا للاول فلا يكون عبثا فهذا هو الفرق بين البابين فهذا منتهى تقرير هذا الاعتراض وهو عندى ضعيف لان الكل اتفقوا على انه اذا اجتمع النقل والقياس فالنقل اولى ولان هذه العلل فى نهاية الضعف فكيف يدفع بها النقل الظاهر (الوجه الثانى) فى الجواب عن قولهم اللام لا يحسن دخولها على الخبر الا اذا دخلت كلمة ان على المبتدأ كما ذكره الزجاج فقال ان وقعت موقع نعم واللام فى موقعها والتقدير نعم هذان لهما ساحران فكانت اللام داخلة على المبتدأ لا على الخبر قال وعرضت هذا القول على محمد بن يزيد وعلى اسمعيل ابن اسحق فارتضياه وذكرا انه اجود ما سمعناه فى هذا قال ابن جنى هذا القول غير صحيح

وتجاذبوا اهداب القول فى ذلك (واسروا النجوى) اى من موسى عليه الصلاة والسلام لئلا يقف عليه فيدافعه وكان نجواهم ما نطق به قوله تعالى (قالوا) اى بطريق التناجى والاسرار (ان هذان لساحران) الخ فانه تفسير له نتيجة لتنازعهم وخلاصة ما استقرت عليه آراؤهم بعد التناظر والتشاور وان مخففة من ان قد اهملت عن العمل واللام فارقة وقرئ بتشديد نون هذان وقيل هى نافية واللام بمعنى الا اى ما هذان الا ساحران وقرئ ان بالتشديد وهذان اسمها على لغة بلحارث ابن كعب فانهم يعربون التثنية تقديرا وقيل اسمها ضمير الشان المحذوف وهذان لساحران خبرها وقيل ان بمعنى نعم وما بعدها جملة من مبتدأ وخبر وفيهما ان اللام لا تدخل خبر المبتدأ وقيل اصله انه هذان لهما ساحران فحذف الضمير وفيه ان المؤكد باللام لا يليق به الحذف وقرئ ان هذين لساحران وهى قراءة واضحة (يريدان ان يخرجاكم من ارضكم) اى ارض مصر بالاستيلاء عليها (بسحرهما) الذى اظهراه من قبل (ويذهبا بطريقتكم المثلى) اى بمذهبكم الذى هو افضل المذاهب وامثلها باظهار مذهبهما واعلاء دينهما يريدون به ما كان عليه قوم فرعون لا طريقة السحر فانهم ما كانوا يعتقدونه دينا وقيل

لوجوه (الوجه الاول) ان الاصل ان المبتدأ انما يجوز حذفه لو كان امرا معلوما جليا ولولا ذلك لكان فى حذفه مع الجهل به ضرب من تكليف علم الغيب للمخاطب واذا كان معروفا فقد استغنى بمعرفته عن تأكيده باللام لان التأكيد انما يحتاج اليه حيث لم يكن العلم به حاصلا (الوجه الثانى) ان الحذف من باب الاختصار والتأكيد من باب الاطناب فالجمع بينهما غير جائز ولان ذكر المؤكد وحذف التأكيد احسن فى العقول من العكس (الوجه الثالث) امتناع اصحابنا البصريين من تأكيد الضمير المحذوف العائد على المبتدأ فى نحو قولك زيد ضربت فلا يجيزون زيد ضربت نفسه على ان يجعل النفس توكيدا للهاء المؤكدة المقدرة فى ضربت اى ضربته لان الحذف لايكون الا بعد التحقيق والعلم به واذا كان كذلك فقد استغنى عن تأكيده فكذا ههنا (الوجه الرابع) ان جميع النحويين حملوا قول الشاعر ام الحليس لعجوز شهربه على ان الشاعر ادخل اللام على الخبر ضرورة ولو كان ماذهب اليه الزجاج جائز الماعدل عنه النحويون ولما حملوا الكلام عليه على الاضطرار اذا وجدوا له وجها ظاهرا ويمكن الجواب عن اعتراض ابن جنى بانه انما حسن حذف المبتدأ لان فى اللفظ مايدل عليه وهو قوله هذان واما لو حذف التأكيد فليس فى اللفظ مايدل عليه فلاجرم كان حذف المبتدأ اولى من حذف التأكيد واما امتناعهم من تأكيد الضمير فى قولهم زيد ضربت نفسه فذاك انما كان لان اسناد الفعل الى المظهر أولى من اسناده الى المضمر فاذا قال زيد ضربت نفسه كان قوله نفسه مفعولا فلايمكن جعله تأكيد الضمير فتأكيد المحذوف انما امتنع ههنا لهذه العلة لا لان تأكيد المحذوف مطلقا ممتنع واما قوله النحويون حملوا قول الشاعر ام الحليس لعجوز شهربه على ان الشاعر ادخل اللام على الخبر ضرورة فلو جاز ماقاله الزجاج لماعدل عنه النحويون فهذا اعتراض فى نهاية السقوط لان ذهول المتقدمين عن هذا الوجه لايقتضى كونه باطلا فكثير ماذهل المتقدم عنه وادركه المتأخر فهذا تمام الكلام فى شرح هذا (الوجه الثالث) فى الجواب ان كلمة ان ضعيفة فى العمل لانها تعمل بسبب مشابهة الفعل فوجب كونها ضعيفة فى العمل واذا ضعفت جاز بقاء المبتدأ على اعرابه الاصلى وهو الرفع (المقدمة الاول) انها تشبه الفعل وهذه المشابهة حاصلة فى اللفظ والمعنى اما اللفظ فلانها تركبت من ثلاثة أحرف وانفتح آخرها ولزمت الاسماء كالافعال واما المعنى فلانها تفيد حصول معنى فى الاسم وهو تأكيد موصوفيته بالخبر كما انك اذا قلت قام زيد فقولك قام افاد حصول معنى فى الاسم (المقدمة الثانية) انها لما اشبهت الافعال وجب ان تشبهها فى العمل فذلك ظاهر بناء على الدوران (المقدمة الثالثة) انها لم تنصب الاسم وترفع الخبر فتقريره ان يقال انها لما صارت عاملة فاما ان ترفع المبتدأ والخبر معا او تنصبهما معا او ترفع المبتدأ وتنصب الخبر او بالعكس والاول باطل لان المبتدأ والخبر كانا قبل دخول ان عليهما مرفوعين فلو بقيا كذلك بعد دخولها عليهما

ارادوا اهل طريقتكم وهم بنو اسرائيل لقول موسى عليه الصلاة والسلام ارسل معنا بنى اسرائيل وكانوا ارباب علم فيما بينهم وبأباه ان اخراجهم من ارضهم انما يكون بالاستيلاء عليها تمكنا وتصرفا فكيف يتصور حينئذ نقل بنى اسرائيل الى الشام وحمل الاخراج على اخراج بنى اسرائيل منها مع بقاء قوم فرعون على حالهم مما يجب تنزيه التنزيل عن امثاله على ان هذه المقالة منهم للاغراء بالمبالغة فى المغالبة والاهتمام بالمناصبة فلابد ان يكون الانذار والتحذير باشد المكاره واشقها عليهم ولاريب فى ان اخراج بنى اسرائيل من بينهم والذهاب بهم الى الشام وهم آمنون فى ديارهم ليس فيه كثير محذور وقيل الطريقة اسم لوجوه القوم واشرافهم لانهم قدوة لغيرهم ولايخفى ان تخصيص الاذهاب بهم مما لامزية فيه وقوله تعالى (فاجمعوا كيدكم) تصريح بالمطلوب اثر تمهيد المقدمات والفاء فصيحة اى اذا كان الامر كما ذكر من كونهما ساحرين يريدان بكم ماذكر من الاخراج والاذهاب فازمعوا كيدكم واجعلوه مجمعا عليه بحيث لايتخلف عنه واحد منكم وارموا عن قوس واحدة وقرئ فاجمعوا من الجمع ويعضده قوله تعالى فجمع كيده اى فاجمعوا ادوات سحركم ورتبوها كما ينبغى (ثم ائتوا صفا)

لما ظهرله أثرالبتة ولانها أعطيت عمل الفعل والفعل لايرفع الاسمين فلامعنى للاشتراك (والقسم الثانى) ايضاباطل لان هذا ايضامخالف لعمل الفعل لان الفعل لاينصب شيئامع خلوه عمايرفعه (والقسم الثالث) ايضاباطل لانه يؤدى الى التسوية بين الاصل والفرع فان الفعل يكون عمله فى الفاعل اولابالرفع وفى المفعول بالنصب فلوجعل النصب ههنا كذلك لحصلت التسوية بين الاصل والفرع ولمابطلت الاقسام الثلاثة تعين القسم الرابع وهوانها تنصب الاسم وترفع الخبر وهذا ممانبه على ان هذه الحروف دخيلة فى العمل لااصلية لان تقديم المنصوب على المرفوع فى باب العمل عدول عن الاصل فذلك يدل على ان العمل بهذه الحروف ليس ثابت بطريق الاصالة بل بطريق عارض (المقدمة الرابعة) لماثبت ان تاثيرها فى نصب الاسم بسبب هذه المشابهة وجب جواز الرفع ايضاوذلك لان كون الاسم مبتدأ يقتضى الرفع ودخول ان على المبتدأ لايزيل عنه وصف كونه مبتدأ لانه يفيد تأكيد ما كان لازوال ما كان اذا ثبت هذا فنقول وصف كونه مبتدأ يقتضى الرفع وحرف ان يقتضى النصب ولكن المقتضى الاول اولى بالاقتضاء من وجهين (احدهما) ان وصف كونه مبتدأ صفة اصلية للمبتدأ ودخول ان عليه صفة عرضية والاصل راجح على العارض (والثانى) ان اقتضاء وصف المبتدأ للرفع اصلى واقتضاء حرف ان للنصب صفة عارضة بسبب مشابهتها بالفعل فيكون الاول اولى فثبت بمجموع ماقررنا ان الرفع اولى من النصب فان لم تحصل الاولوية فلااقل من اصل الجواز ولهذا السبب اذا جئت بخبر ان ثم عطفت على الاسم اسما آخر جاز فيه الرفع والنصب معا (الوجه الرابع) فى الجواب قال الفراء هذا اصله ذا زيدت الهاء لان ذا كلمة منقوصة فكملت بالهاء عند التنبيه وزيدت الفا للتثنية فصارت هذا ان فاجتمع ساكنان من جنس واحد فاحتيج الى حذف واحد ولايمكن حذف ألف الاصل لان اصل الكلمة منقوصة فلاتجعل أنقص لحذف ألف التثنية لان النون يدل عليه فلاجرم لم تعمل ان لان عملها فى ألف التثنية وقال آخرون الالف الباقى اماألف الاصل اوألف التثنية فان كان الباقى ألف الاصل لم يجز حذفها لان العامل الخارجى لايتصرف فى ذات الكلمة وان كان الباقى ألف التثنية فلاشك انهم أنابوها مناب ألف الاصل وعوض الاصل اصل لامحالة فهذا الالف اصل فلايجوز حذفه ويرجع حاصل هذا الى الجواب الاول (الوجه الخامس) فى الجواب حكى الزجاج عن قدماء النحويين ان الهاء ههنا مضمرة والتقدير انه هذان لساحران وهذه الهاء كناية عن الامر والشان فهذا ماقيل فى هذا الموضع فأما من خفف فقرأ ان هذان لساحران فهوحسن فان ما بعد الخفيفة رفع واللام بعدها فى الخبر لازمة واجبة وان كانت فى ان الثقيلة جائزة ليظهر الفرق بين ان المؤكدة وان النافية قال الشاعر

وان مالك لمرتجى ان تضعضعت • رحا الحرب او دارت على خطوب

اى مصطفين امروا بذلك لانه اهيب فى صدور الرائين وادخل فى استجلاب الرهبة من المشاهدين قيل كانوا سبعين الفا مع كل منهم حبل وعصا واقبلوا عليه اقبالة واحدة وقيل كانوا اثنين وسبعين ساحرا اثنان من القبط والباقى من بنى اسرائيل وقيل تسعمائة ثلثمائة من الفرس وثلثمائة من الروم وثلثمائة من الاسكندرية وقيل خمسة عشر الفا وقيل بضعة وثلاثين الفا والله اعلم ولعل الموعد كان مكانا متسعا خاطبهم موسى عليه الصلاة والسلام بعاذ كر فى قطر من اقطار وتنازعوا امرهم فى قطر آخر منه ثم امروا بأن يأتوا وسطه على الوجه المذكور وقد فسر الصف بالمصلى لاجتماع الناس فيه فى الاعياد والصلوات ووجه صحته ان يكون علما لموضع معين من المكان الموعود واما ارادة مصلى من المصليات بعد تعين المكان الموعود فلا مساغ لها قطعا وقوله تعالى (وقد افلح اليوم من استعلى) اعتراض تذييلى من قبلهم مؤكد لماقبله من الامرين اى قد فاز بالمطلوب من غلب يريدون بالمطلوب ماوعدهم فرعون من الاجر والتقريب حسبما نطق به قوله تعالى قال نعم وانكم لمن المقربين وعنوا بمن غلب انفسهم جميعا على طريقة قولهم بعزة فرعون انا لنحن الغالبون او من غلب منهم حالهم على بدل

وقال آخر

ان القوم والحى الذى أنا منهم • لاهل مقامات وشاء وجامل

الجامل جمع جمل ثم من العرب من يعمل ان ناقصة كما يعملها تامة اعتبارا بكان فانها تعمل وان نقصت فى قولك لم يكن لبقاء معنى التأكيد وان زال الشبه اللفظى بالفعل لان العبرة للمعنى وهذه اللغة تدل على ان العبرة فى باب الاعمال الشبه المعنوى بالفعل وهو اثبات التوكيد دون الشبه اللفظى كما ان التعويل فى باب كان على المعنى دون اللفظ لكونه فعلا محضا واما اللغة الظاهرة وهى ترك اعمال ان الخفيفة دالة على ان الشبه اللفظى فى ان الثقيلة احد جزئى العلة فى حق عملها وعند الخفة زال الشبه فلم تعمل بخلاف الكون فانه عامل بمعناه لكونه فعلا محضا ولا عبرة للفظه (المسئلة الثانية) انه سبحانه وتعالى لما ذكر ما أسروه من النجوى حكى عنهم ما اظهروه ومجموعه يدل على التنفير عن موسى عليه السلام ومتابعة دينه (فأحدها) قولهم هذان لساحران وهذا طعن منهم فى معجزات موسى عليه السلام ثم مبالغة فى التنفير عنه لما ان كل طبع سليم يقتضى النفرة عن السحر وكراهة رؤية الساحر ومن حيث ان الانسان يعلم ان السحر لابقاء له فاذا اعتقدوا فيه السحر قالوا كيف نتبعه فانه لابقاء له ولا لدينه ولا لمذهبه (وثانيها) قوله يريدان أن يخرجاكم من ارضكم وهذا فى نهاية التنفير لان المفارقة عن المنشأ والمولد شديدة على القلوب وهذا هو الذى حكاه الله تعالى عن فرعون فى قوله أجئتنا لتخرجنا من ارضنا بسحرك ياموسى وكان السحرة تلقفوا هذه الشبهة من فرعون ثم اعادوها (وثالثها) قوله ويذهبا بطريقتكم المثلى وهذا ايضا له تأثير شديد فى القلب فان العدو اذا جاء واستولى على جميع المناصب والاشياء التى يرغب فيها فذلك يكون فى نهاية المشقة على النفس فهم ذكروا هذه الوجوه للمبالغة فى التنفير عن موسى والترغيب فى دفعه وابطال امره وههنا بحثان (البحث الاول) قال الفرأ الطريقة الرجال الاشراف الذين هم قدوة لغيرهم يقال هم طريقة قومهم ويقال للواحد ايضا هو طريقة قومه وجعل الزجاج الآية من باب حذف المضاف اى ويذهبا بأهل طريقتكم المثلى وعلى التقديرين فالمراد انهم كانوا يحرضون القوم بأن موسى وهرون عليهما السلام يريدان ان يذهبا بأشراف قومكم واكابركم وهم بنو اسرائيل لقول موسى عليه السلام أرسل معنا بنى اسرائيل وانما سموا بنى اسرائيل بذلك لانهم كانوا اكثر القوم يومئذ عددا وأموالا ومن المفسرين من فسر الطريقة المثلى بالذين سموا دينهم بالطريقة المثلى وكل حزب بما لديهم فرحون ومنهم من فسرها بالجاه والمنصب والرياسة (البحث الثانى) المثلى مؤنثة لتأنيث الطريقة واختلفوا فى انه لم سمى الافضل بالامثل فقال بعضهم الامثل الاشبه بالحق وقيل الامثل الاوضح والاظهر ثم انه تعالى لما حكى عنهم مبالغتهم فى التنفير عن موسى عليه السلام والترغيب فى ابطال أمره حكى عنهم انهم قالوا فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا قرأ ابو عمرو بوصل الالف

(وفتح)

المجهود فى المغالبة هذا هو اللائق بتجاوب اطراف النظم الكريم وقد قيل كان نجواهم ان قالوا حين سمعوا مقالة موسى عليه الصلاة والسلام ما هذا بقول ساحر وقيل كان ذلك ان قالوا ان غلبنا موسى اتبعناه وقيل كان ذلك قولهم ان كان ساحرا فسنغلبه وان كان من السماء فله امر فيكون اسرارهم حينئذ من فرعون وملئه ويحمل قولهم ان هذان لساحران الخ على انهم اختلفوا فيما بينهم على الاقاويل المذكورة ثم رجعوا عن ذلك بعد التنازع والتناظر واستقرت آراؤهم على ذلك وأبوا الا المناصبة للمعارضة واما جعل ضمير قالوا لفرعون وملئه على انهم قالوا ذلك للسحرة ردا لهم عن الاختلاف وامروهم بالاجماع والازماع واظهار الجلادة والاتيان على وجه الاصطفاف فمخل بجزالة النظم الكريم كما يشهد به الذوق السليم (قالوا) استئناف مبنى على سؤال ناشئ من حكاية ماجرى بين السحرة من المقاولة كأنه قيل فاذا فعلوا بعدما قالوا فيما بينهم ما قالوا فقيل قالوا (ياموسى) وانما لم يتعرض لاجماعهم واتيانهم بطريق الاصطفاف اشعارا بظهور امرهما وغناهما عن البيان (اما ان تلقى) اى ما تلقيه اولا على ان المفعول محذوف لظهوره او تفعل الالقاء او لا على ان الفعل منزل منزلة اللازم (واما ان نكون

وفتح الميم من أجمعوا يعنى لاتدعوا شيئا من كيدكم الاجئتم به دليله قوله فجمع كيده وقرأ الباقون بقطع الالف وكسر الميم وله وجهان (احدهما) قال الفراء الاجماع الاحكام والعزيمة على الشئ يقال اجمعت على الخروج مثل ازمعت (والثانى) بمعنى الجمع وقد مضى الكلام فى هذا عند قوله فأجمعوا أمركم وشركاءكم قال الزجاج ليكن عزمكم كلكم كاليد مجمعا عليه لاتختلفوا ثم ائتوا صفا ذكر ابو عبيدة والزجاج وجهين (احدهما) ان الصف موضع الجمع والمعنى ائتوا الموضع الذى تجتمعون فيه لعيدكم وصلاتكم والمعنى ائتوا مصلى من المصليات أوكان الصف علما للمصلى بعينه فأمروا بان يأتوه (والثانى) ان يكون الصف مصدرا والمعنى ثم ائتوا مصطفين مجتمعين لكى يكون انظم لامركم وأشد لهيبتكم وهذا قول عامة المفسرين وقوله وقد افلح اليوم من استعلى اعتراض يعنى وقد فاز من غلب فكانوا يقرون بذلك انفسهم فيما اجتمعوا عليه من اظهار مايظهرونه من السحر ❊ قوله تعالى (قالوا ياموسى اماان تلقى واما ان نكون اول من القى قال بل القوا فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم انها تسعى فأوجس فى نفسه خيفة موسى قلنا لاتخف انك انت الاعلى والق مافى يمينك تلقف ماصنعوا انما صنعوا كيد ساحر ولايفلح الساحر حيث اتى) اعلم انه لما تقدم ذكر الموعد وهو يوم الزينة وتقدم ايضا قوله ثم ائتوا صفا صار ذلك مغنيا عن قوله فحضروا هذا الموضع وقالوا اماان تلقى لدلالة ماتقدم عليه وقوله اما ان تلقى واما ان نكون اول من القى معناه اماان تلقى مامعك قبلنا واما ان نلقى مامعنا قبلك وهذا التخيير مع تقديمه فى الذكر حسن ادب منهم وتواضع له فلا جرم رزقهم الله تعالى الايمان ببركته ثم ان موسى عليه السلام قابل ادبهم بأدب فقال بل القوا اماقوله بل ألقوا ففيه سؤالان (السؤال الاول) كيف يجوز ان يقول موسى عليه السلام بل القوا فيأمرهم بما هو سحر وكفر لانهم اذاقصدوا بذلك تكذيب موسى عليه السلام كان كفرا والجواب من وجوه (احدها) لانسلم ان نفس الالقاء كفر ومعصية لانهم اذا القوا وكان غرضهم ان يظهر الفرق بين ذلك الالقاء وبين معجزة الرسول عليه السلام وهو موسى كان ذلك الالقاء ايمانا والكفر هو القصد الى تكذيب موسى وهو عليه السلام انما امر بالالقاء لا بالقصد الى التكذيب فزال السؤال (وثانيها) ذلك الامر كان مشروطا والتقدير القوا ماانتم ملقون ان كنتم محقين كما فى قوله تعالى فأتوا بسورة من مثله ان كنتم صادقين اى ان كنتم قادرين (وثالثها) انه لما تعين ذلك طريقا الى كشف الشبهة صار ذلك جائزا وهذا كالمحق اذا علم ان فى قلب واحد شبهة وانه لو لم يطالبه بذكرها وتقريرها باقصى مايقدر عليه لبقيت تلك الشبهة فى قلبه ويخرج بسببها عن الدين فان للمحق ان يطالبه بتقريرها على اقصى الوجوه ويكون غرضه من ذلك ان يجيب عنها ويزيل اثرها عن قلبه فطالبته بذكر الشبهة لهذا الغرض تكون جائزة فكذا ههنا (ورابعها) ان لايكون ذلك امرا بل يكون معناه انكم ان اردتم

اول من القى) مايلقيه اواول من يفعل الالقاء خيروه عليه الصلاة والسلام بما ذكر مراعاة للادب لما رأوا منه عليه الصلاة والسلام مارأوا من مخايل الخير ورزانة الرأى واظهار الجلادة بارائته لايختلف حالهم بالتقديم والتأخير وان مع مافى حيزها منصوب بفعل مضمر اومرفوع بخبرية مبتدأ محذوف اى اختر القاءك اولا او القاءنا او الامر اما القاؤك او القاؤنا (قال) استئناف كماسلف ناشئ من حكاية تخيير السحرة اياه عليه الصلاة والسلام كانه قيل فماذا قال عليه الصلاة والسلام فقيل قال (بل القوا) أنتم اولا مقابلة للادب بأحسن من ادبهم حيث بت القول بالقائهم اولا واظهارا لعدم المبالاة بسحرهم ومساعدة لما اوهموه من الميل الى البدء وليبرزوا مامعهم ويستفرغوا اقصى جهدهم ويستنفدوا قصارى وسعهم ثم يظهر الله عز وجل سلطانه فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه لما علم ان ماسيظهر بيده سيلقف مايصنعون من مكايد السحر (فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم انها تسعى) الفاء فصيحة معربة عن مسارعتهم الى الالقاء كما فى قوله تعالى فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق اى فألقوا فاذا حبالهم وهى للمفاجأة والتحقيق انها ايضا ظرفية تستدعى

فعله فلا مانع منه حسا لكي ينكشف الحق (وخامسها) ان موسى عليه السلام لاشك انه كان كارها لذلك ولاشك انه نهاهم عن ذلك بقوله ويلكم لاتفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب واذا كان الامر كذلك استحال ان يكون قوله امرا لهم بذلك لان الجمع بين كونه ناهيا وآمرا بالفعل الواحد محال فعلمنا ان قوله غير محمول على ظاهره وحينئذ يزول الاشكال (السؤال الثانى) لم قدمهم فى الالقاء على نفسه مع ان تقديم استماع الشبهة على استماع الحجة غير جائز فكذا تقديم ايراد الشبهة على ايراد الحجة وجب ان لايجوز لاحتمال انه ربما ادرك الشبهة ثم لايتفرغ لادراك الحجة بعده فيبقى حينئذ فى الكفر والضلال وليس لاحد ان يقول ان ذلك كان بسبب انهم لما قدموه على انفسهم فهو عليه السلام قابل ذلك بان قدمهم على نفسه لان امثال ذلك انما يحسن فيما يرجع الى حظ النفس فأما ما يرجع الى الدليل والشبهة فغير جائز والجواب انه عليه السلام كان قد اظهر المعجزة مرة واحدة فما كان به حاجة الى اظهارها مرة اخرى والقوم انما جاؤا لمعارضته فقال عليه السلام لو انى بدأت باظهار المعجزة اولا لكنت كالسبب فى اقدامهم على اظهار السحر وقصد ابطال المعجزة وذلك غير جائز ولكنى افوض الامر اليهم حتى انهم باختيارهم يظهرون ذلك السحر ثم انا اظهر المعجز الذى يبطل سحرهم فيكون على هذا التقدير سببا لازالة الشبهة واما على التقدير الاول فانه يكون سببا لوقوع الشبهة فكان ذلك اولى اما قوله فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم انها تسعى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ابن عباس رضى الله عنهما القوا حبالهم وعصيهم ميلا من هذا الجانب وميلا من هذا الجانب فخيل الى موسى عليه السلام ان الارض كلها حيات وانها تسعى فخاف فلما قيل له الق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا القى موسى عصاه فاذا هى اعظم من حياتهم ثم اخذت تزداد عظما حتى ملأت الوادى ثم صعدت وعلت حتى علقت ذنبها بطرف القبة ثم هبطت فأكلت كل ما عملوا فى الميلين والناس ينظرون اليها لايحسبون الا انه سحر ثم اقبلت نحو فرعون لتبتلعه فاتحة فاها ثمانين ذراعا فصاح بموسى عليه السلام فأخذها فاذا هى عصى كما كانت ونظرت السحرة فاذا هى لم تدع من حبالهم وعصيهم شيئا الا اكلته فعرفت السحرة انه ليس بسحر وقالوا اين حبالنا وعصينا لو لم تكن سحرا لبقيت فخروا سجدا وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون (المسئلة الثانية) اختلفوا فى عدد السحرة قال القاسم بن سلام كانوا سبعين الفا مع كل واحد عصا وحبل وقال السدى كانوا بضعة وثلاثين الفا مع كل واحد عصا وحبل وقال وهب كانوا خمسة عشر الفا وقال ابن جريج وعكرمة كانوا تسعمائة ثلثمائة من الفرس وثلثمائة من الروم وثلثمائة من الاسكندرية وقال الكلبى كانوا اثنين وسبعين ساحرا اثنان منهم من القبط وسبعون من بنى اسرائيل اكرههم فرعون على ذلك واعلم ان الاختلاف والتفاوت واقع فى عدد كثير وظاهر القرآن لايدل على شئ منه والاقوال اذا تعارضت

(تساقطت)

متعلقا بحسبها وجملة تضاف اليها لكنها اختصت بكون متعلقها فعل المفاجأة والجملة ابتدائية والمعنى فالقوا ففاجأ موسى عليه الصلاة والسلام وقت ان يخيل اليه سعى حبالهم وعصيهم من سحرهم وذلك انهم كانوا لطخوها بالزئبق فلما ضربت عليها الشمس اضطربت واهتزت فخيل اليه انها تتحرك وقرئ تخيل بالتاء على اسناده الى ضمير الحبال والعصى وابدال انها تسعى منه بدل اشتمال وقرئ نخيل باسناده اليه تعالى وقرئ تخيل بحذف احدى التاءين من تتخيل (فأوجس فى نفسه خيفة موسى) اى اضمر فيها بعض خوف من مفاجأته بمقتضى البشرية المجبولة على النفرة من الحيات والاحتراز من ضررها المعتاد من اللسع ونحوه وقيل من ان يخالج الناس شك فلا يتبعوه وليس بذاك كما تعرفه وتأخير الفاعل لمراعاة الفواصل (قلنا لاتخف) اى ما توهمت (انك انت الاعلى) تعليل لما يوجبه النهى من الانتهاء عن الخوف وتقرير لغلبته على ابلغ وجه وآكده كما يعرب عنه الاستئناف وحرف التحقيق وتكرير الضمير وتعريف الخبر ولفظ العلو المنبئ عن الغلبة الظاهرة وصيغة التفضيل (والق ما فى يمينك) اى عصاك كما وقع فى سورة الاعراف وابهامها تهويلا لامرها وتفخيما لشأنها وايذانا بانها

تساقطت (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف يقال فى اذا هذه اذا المفاجأة والتحقيق فيها انها اذا الكائنة بمعنى الوقت الطالبة ناصبا لها وجملة تضاف اليها خصت فى بعض المواضع بان تكون ناصبا فعلا مخصوصا وهو فعل المفاجأة والجملة ابتدائية لاغير فتقدير قوله تعالى فاذا حبالهم وعصيهم ففاجأ موسى وقت تخيل سعى حبالهم وعصيهم وهذا تمثيل والمعنى على مفاجأته حبالهم وعصيهم مخيلة اليه السعى اه (المسئلة الرابعة) قرئ عصيهم بالضم وهو الاصل والكسر اتباع نحو دلى ودلى وقسى وقسى وقرئ تخيل بالتاء المنقوطة من فوق باسناد الفعل الى الحبال والعصى وقرئ بالضم بالياء المنقطة من تحت باسناد الفعل الى الكيد والسحر وقال الفراء اى يخيل اليه سعيها (المسئلة الخامسة) الهاء فى قوله يخيل اليه كناية عن موسى عليه السلام والمراد انهم بلغوا فى سحرهم المبلغ الذى صار يخيل الى موسى عليه السلام انها تسعى كسعى مايكون حيا من الحيات لا انها كانت حية فى الحقيقة ويقال انهم حشوها بما اذا وقعت الشمس عليه يضطرب ويتحرك ولما كثرت واتصل بعضها ببعض فمن رآها كان يظن انها تسعى فاما ماروى عن وهب انهم سحروا اعين الناس وعين موسى عليه السلام حتى تخيل ذلك مستدلا بقوله تعالى فلما القوا سحروا أعين الناس وبقوله تعالى يخيل اليه من سحرهم انها تسعى فهذا غير جائز لان ذلك الوقت وقت اظهار المعجزة والادلة وازالة الشبهة فلو صار بحيث لايميز الموجود عن الخيال الفاسد لم يتمكن من اظهار المعجزة فحينئذ يفسد المقصود فاذن المراد انه شاهد شيئا لولا علمه بأنه لاحقيقة لذلك الشئ لظن فيها انها تسعى اما قوله تعالى فأوجس فى نفسه خيفة موسى فالايجاس استشعار الخوف اى وجد فى نفسه خوفا فان قيل انه لامزيد فى ازالة الخوف على مافعله الله تعالى فى حق موسى عليه السلام فانه كلمه اولا وعرض عليه المعجزات الباهرة كالعصا واليد ثم انه تعالى صيرها كما كانت بعد ان كانت كاعظم ثعبان ثم انه أعطاه الاقتراحات الثمانية وذكر ما أعطاه قبل ذلك من المنن الثمانية ثم قال له بعد ذلك كله اننى معكما اسمع وارى فمع هذه المقدمات الكثيرة كيف وقع الخوف فى قلبه والجواب عنه من وجوه (احدها) ان ذلك الخوف انما كان لما طبع الآدمى عليه من ضعف القلب وان كان قد علم موسى عليه السلام انهم لايصلون اليه وان الله ناصره وهذا قول الحسن (وثانيها) انه خاف ان تدخل على الناس شبهة فيما يرونه فيظنوا انهم قد ساووا موسى عليه السلام ويشتبه ذلك عليهم وهذا التأويل متأكد بقوله لاتخف انك انت الاعلى وهذا قول مقاتل (وثالثها) انه خاف حيث بدؤا وتأخر القاؤه ان ينصرف بعض القوم قبل مشاهدة مايلقيه فيدوموا على اعتقاد الباطل (ورابعها) لعله عليه السلام كان مأمورا بان لايفعل شيئا الا بالوحى فلما تأخر نزول الوحى عليه فى ذلك الوقت خاف ان لاينزل عليه الوحى فى ذلك الوقت فيبقى فى الخجالة (وخامسها) لعله عليه السلام خاف من انه لو ابطل سحر اولئك الحاضرين فلعل فرعون قد اعد اقواما

ليست من جنس العصى المعهودة المستتبعة للآثار المعتادة بل خارجة عن حدود سائر افراد الجنس مبهمة الكنه مستتبعة لآثار غريبة وعدم مراعاة هذه النكتة عند حكاية الامر فى موضع آخر لايستدعى عدم مراعاتها عنه وقوع الحكى هذا وحمل الابهام على التحقير بان يراد لاتبال بكثرة حبالهم وعصيهم والق العويد الذى فى يدك فانه بقدرة الله تعالى يلقفها مع وحدته وكثرتها وصغره وعظمها يأباه ظهور حالها فيما مر مرتين على ان ذلك المعنى انما يليق بما لو فعلت العصا مافعلت وهى على هيئتها الاصلية وقد كان منها ماكان وقوله تعالى (تلقف ماصنعوا) بالجزم جوابا للامر من لقفه اذا ابتلعه والتقمه بسرعة والتأنيث لكون ما عبارة عن العصا اى تبتلع ماصنعوه من الحبال والعصى التى خيل اليك سعيها وخفتها والتعبير عنها بما صنعوا للتحقير والايذان بالتمويه والتزوير وقرئ تلقف بتشديد القاف واسقاط احدى التاءين من تتلقف وقرئ بالرفع على الحال او الاستئناف والجملة الامرية معطوفة على النهى متممة بما فى حيزها لتعليل موجبه ببيان كيفية غلبته عليه الصلاة والسلام وعلوه فان ابتلاع عصاه لا باطيلهم التى منها اوجس فى نفسه ما اوجس مما يقلع مادته بالكلية وهذا كما ترى صريح فى ان خوفه عليه الصلاة والسلام لم يكن مما ذكر من مخالجة الشك للناس وعدم اتباعهم له عليه الصلاة والسلام والاغلال بما يزيله من الوعد

آخرين فيأتيه بهم فيحتاج مرة اخرى الى ابطال سحرهم وهكذا من غير ان يظهر له مقطع وحينئذ لايتم الامر ولايحصل المقصود ثم انه تعالى ازال ذلك الخوف بالاجمال اولا وبالتفصيل ثانيا اما الاجمال فقوله تعالى قلنا لاتخف انك انت الاعلى ودلالته على ان خوفه كان لامر يرجع الى ان امره لايظهر للقوم فآمنه الله تعالى بقوله انك انت الاعلى وفيه أنواع من المبالغة (أحدها) ذكر كلمة التأكيد وهى ان (وثانيها) تكرير الضمير (وثالثها) لام التعريف (ورابعها) لفظ العلو وهو الغلبة الظاهرة واما التفصيل فقوله والق مافى يمينك وفيه سؤال وهو انه لم يقل والق عصاك والجواب جاز ان يكون تصغيرا لها اى لاتبال بكثرة حبالهم وعصيهم والق العويد الفرد الصغير الجرم الذى بيمينك فانه بقدرة الله تعالى يتلقفها على وحدته وكثرتها وصغره وعظمها وجائز ان يكون تعظيما لها اى لاتحتفل بهذه الاجرام الكثيرة فان فى يمينك شيئا اعظم منها كلها وهذه على كثرتها أقل شئ عندها فألقه يتلقفها باذن الله تعالى ويمحقها اما قوله تلقف اى فانك اذا القيتها فانها تلقف ماصنعوا قراءة العامة تلقف بالجزم والتشديد اى فألقها تتلقفها وقرأ ابن عامر تلقف بالتشديد وضم الفاء على معنى الحال اى القها متلقفة او بالرفع على الاستئناف وروى حفص عن عاصم بسكون اللام مع التخفيف اى تأخذ بفيها ابتلاعا بسرعة واللقف والتلقف جميعا يرجعان الى هذا المعنى وصنعوا ههنا بمعنى اختلقوا وزوروا والعرب تقول فى الكذب هو كلام مصنوع وموضوع وصحة قوله تلقف انه اذا القى ذلك وصارت حية تلقفت ماصنعوا وفى قوله فالقى السحرة سجدا دلالة على انه القى العصا وصارت حية وتلقفت ماصنعوه وفى التلقف دلالة على ان جميع ما القوه تلقفته وذلك لايكون الا مع عظم جسدها وشدة قوتها وقد حكى عن السحرة انهم عند التلقف أيقنوا بان ماجاء به موسى عليه السلام ليس بمقدور البشر من وجوه (احدها) ظهور حركة العصا على وجه لايكون مثله بالحيلة (وثانيها) زيادة عظمة على وجه لايتم ذلك بالحيلة (وثالثها) ظهور الاعضاء عليه من العين والمنخرين والفم وغيرها ولايتم ذلك بالحيلة (ورابعها) تلقف جميع ما القوه على كثرته وذلك لايتم بالحيلة (وخامسها) عوده خشبة صغيرة كما كانت وشئ من ذلك لايتم بالحيلة ثم بين سبحانه وتعالى ان ماصنعوا كيد ساحر والمعنى ان الذى معك ياموسى معجزة الهية والذى معهم تمويهات باطلة فكيف يحصل التعارض وقرئ كيد ساحر بالرفع والنصب فمن رفع فعلى ان ما موصولة ومن نصب فعلى انها كافة وقرئ كيد سحر بمعنى ذى سحر او ذوى سحر أوهم لتوغلهم فى سحرهم كأنهم السحر بعينه وبذاته او بين الكيد لانه يكون سحرا وغير سحر كما بين المائة بدرهم ونحوه علم فقه وعلم نحو بقى سؤالات (السؤال الاول) لم وحد الساحر ولم يجمع الجواب لان القصد فى هذا الكلام الى معنى الجنسية لا الى معنى العدد فلو جمع تخيل ان المقصود هو العدد الاترى الى قوله ولايفلح الساحر حيث اتى اى هذا الجنس (السؤال الثانى) لم نكر أولا ثم عرف ثانيا

(الجواب)

بما يوجب ايمانهم واتباعهم له عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى (ان ماصنعوا) الخ تعليل لقوله تعالى تلقف ماصنعوا وما اما موصولة او موصوفة اى ان الذى صنعوه او ان شيئا صنعوه (كيد ساحر) بالرفع على انه خبر لان اى كيد جنس الساحر وتنكيره للتوسل به الى تنكير ما اضيف اليه للتحقير وقرئ بالنصب على انه مفعول صنعوا وما كافة وقرئ كيد سحر على ان الاضافة للبيان كما فى علم فقه او على معنى ذى سحر او على تسمية الساحر سحرا مبالغة وقوله تعالى (ولايفلح الساحر) اى هذا الجنس (حيث اتى) اى حيث كان واين اقبل من تمام التعليل وعدم التعرض لشأن العصا وكونها معجزة الهية مع مافى ذلك من تقوية التعليل للايذان بظهور امرها والفاء فى قوله تعالى (فألقى السحرة سجدا) كما سلف فصيحة معربة عن محذوفين ينساق اليهما النظم الكريم غنيين عن التصريح بهما لعدم احتمال تردد موسى عليه السلام فى الامتثال بالامر واستحالة عدم وقوع اللقف الموعود اى فألقاه عليه السلام فوقع ماوقع من اللقف فالقى السحرة سجدا لما تيقنوا ان ذلك ليس من باب السحر وانما هى آية من آيات الله عز وجل روى ان رئيسهم قال كنا نغلب الناس وكانت الآلات تبقى علينا فلو كان هذا سحرا فأين ما القيناه من الآلات فاستدل بتغير احوال الاجسام على الصانع القادر العالم وبظهور ذلك على يد موسى عليه

الجواب كأنه قال هذا الذى اتوا به قسم واحد من اقسام السحر وجميع اقسام السحر لافائدة فيه ولاشك ان هذا الكلام على هذا الوجه ابلغ (السؤال الثالث) قوله ولا يفلح الساحر حيث اتى يدل على ان الساحر لايحصل له مقصوده بالسحر خيرا كان او شرا وذلك يقتضى نفى السحر بالكلية الجواب الكلام فى السحر وحقيقته قد تقدم فى سورة البقرة فلا وجه للاعادة والله اعلم * قوله تعالى (فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هرون وموسى قال آمنتم له قبل ان آذن لكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن ايديكم وارجلكم من خلاف ولاصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن اينا اشد عذابا وابقى) اعلم ان فى قوله فألقى السحرة سجدا دلالة على انه ألقى مافى يمينه وصارحية وتلقف ماصنعوا وظهر الامر فخروا عند ذلك سجدا وذلك لانهم كانوا فى الطبقة العليا من علم السحر فلما رأوا مافعله موسى عليه السلام خارجا عن صناعتهم عرفوا انه ليس من السحر البتة ويقال قال رئيسهم كنا نغالب الناس بالسحر وكانت الآلات تبقى علينا لو غلبنا فلو كان هذا سحرا فأين ماالقيناه فاستدلوا بتغير احوال الاجسام على الصانع العالم القادر وبظهورها على يد موسى عليه السلام على كونه رسولا صادقا من عند الله تعالى فلاجرم تابوا وآمنوا واتوا بما هو النهاية فى الخضوع وهو السجود اما قوله تعالى فألقى السحرة سجدا فليس المراد منه انهم اجبروا على السجود والالما كانوا محمودين بل التأويل فيه ماقال الاخفش وهو انهم من سرعة ماسجدوا كأنهم القوا وقال صاحب الكشاف ما اعجب امرهم قد القوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ثم القوا رؤسهم بعد ساعة للشكر والسجود فما اعظم الفرق بين الالقاءين وروى انهم لم يرفعوا رؤسهم حتى رأوا الجنة والنار ورأوا ثواب اهلها وعن عكرمة لما خروا سجدا أراهم فى سجودهم منازلهم التى يصيرون اليها فى الجنة قال القاضى هذا بعيد لانه تعالى لو اراهم عيانا لصاروا ملجئين وذلك لايليق بقولهم انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وجوابه لما جاز لابراهيم عليه السلام مع قطعه بكونه مغفورا له ان يقول والذى اطمع ان يغفر لى خطيئتى فلم لا يجوز مثله فى حق السحرة واعلم ان هذه القصة تنبيه على اسرار عجيبة من امور الربوبية ونفاذ القضاء الالهى وقدره فى جلة المحدثات وذلك لان ظهور تلك الادلة كانت بمرأى من الكل ومسمع فكان وجه الاستدلال فيها جليا ظاهرا وهو انه حدثت امور فلابد لها من مؤثر والعلم بذلك ضرورى وذلك المؤثر اما الخلق واما غيرهم والاول بديهى البطلان لان كل عاقل يعلم بالضرورة من نفسه انه لايقدر على ايجاد الحيوانات وتعظيم جثتها دفعة واحدة ثم يصغرها مرة اخرى كما كانت وهذه العلوم الجلية متى حصلت فى العقل افادت القطع بانه لابد من مدبر لهذا العالم فاذا تقول الاترى ان اولئك المنكرين جهلوا صحة هذه المقدمات وهذا فى نهاية البعد لانا بينا ان كل واحد منها بحيث لا يمكن ارتياب العاقل فيه واذا عرفوا صحتها لكنهم أصروا على الجهل وكرهوا تحصيل العلم والسعادة لانفسهم واحبوا تحصيل الجهل

الصلاة والسلام على صحة رسالته لاجرم القاهم ماشاهدوه على وجوههم وتابوا وآمنوا وأتوا بما هو غاية الخضوع قبل لم يرفعوا رؤسهم حتى رأوا الجنة والنار والثواب والعقاب وعن عكرمة لما خروا سجدا اراهم الله تعالى فى سجودهم منازلهم فى الجنة ولا ينافيه قولهم انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا الخ لان كون تلك المنازل منازلهم باعتبار صدور هذا القول عنهم (قالوا) استئناف كما مر غير مرة (آمنا برب هرون وموسى) تأخير موسى عند حكاية كلامهم لرعاية الفواصل وقد يجوز ان يكون ترتيب كلامهم ايضا هكذا اما لكبر سن هرون عليه الصلاة والسلام واما المبالغة فى الاحتراز عن التوهم الباطل من جهة فرعون وقومه حيث كان فرعون ربى موسى عليه الصلاة والسلام فى صغره فلو قدموا موسى عليه الصلاة والسلام لربما توهم اللعين وقومه من اول الامر ان مرادهم فرعون (قال) اى فرعون للسحرة (آمنتم له) اى لموسى عليه الصلاة والسلام واللام لتضمين الفعل معنى الاتباع وقرئ على الاستفهام التوبيخى (قبل ان آذن لكم) اى من غير ان آذن لكم فى الايمان له كما فى قوله تعالى لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربى لان اذنه لهم فى ذلك واقع بعده او متوقع (انه) يعنى موسى عليه الصلاة والسلام (لكبيركم) اى فى فنكم واعلمكم به واستاذكم (الذى علمكم السحر) فتواطأتم على ما فعلتم او فعلكم شيئا دون شئ فلذلك غلبكم وهذه شبهة زورها اللعين والقاها على قومه واراهم ان امر الايمان منوط باذنه فلما كان ايمانهم بغير اذنه لم يكن معتدا به

والشقاوة لانفسهم مارى ان عاقلا يرضى بذلك لنفسه قط فلم يبق الا ان يقال العقل والدليل لا يكفى بل لا بد من مدبر يخلق هذه المقدمات فى القلوب ويخلق الشعور بكيفية ترتيبها وبكيفية استنتاجها للنتيجة حتى انه متى فعل ذلك حصلت النتائج فى القلوب وذلك يدل على ان الكل بقضائه وقدره فانه لا اعتماد على العقول والقلوب فى مجاريها وتصرفاتها ومن طرح التعصب عن قلبه ونظر الى احوال نفسه فى مجارى افكاره وانظاره ازداد وثوقا بما ذكرناه اما قوله قالوا آمنا برب هرون وموسى فاعلم ان التعليمية احتجوا بهذه الآية وقالوا انهم آمنوا بالله الذى عرفوه من قبل هرون وموسى فدل ذلك على ان معرفة الله لا تستفاد الا من الامام وهذا القول ضعيف بل فى قولهم آمنا برب هرون وموسى فائدتان سوى ماذكروه (الفائدة الاولى) وهى ان فرعون ادعى الربوبية فى قوله انا ربكم الاعلى والالهية فى قوله ما علمت لكم من اله غيرى فلو انهم قالوا آمنا برب العالمين لكان فرعون يقول انهم آمنوا بى لا بغيرى فلقطع هذه التهمة اختاروا هذه العبارة والدليل عليه انهم قدموا ذكر هرون على موسى لان فرعون كان يدعى ربوبيته لموسى بناء على انه رباه فى قوله ألم نربك فينا وليدا فالقوم لما احترزوا عن ايهامات فرعون لاجرم قدموا ذكر هرون على موسى قطعا لهذا الخيال (الفائدة الثانية) وهى انهم لما شاهدوا ان الله تعالى خصهما بتلك المعجزات العظيمة والدرجات الشريفة لاجرم قالوا رب هرون وموسى لاجل ذلك ثم ان فرعون لما شاهد منهم السجود والاقرار خاف ان يصير ذلك سببا لاقتداء سائر الناس بهم فى الايمان بالله تعالى وبرسوله ففى الحال القى شبهة اخرى فى البين فقال آمنتم له قبل ان آذن لكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر وهذا الكلام مشتمل على شبهتين (احداهما) قوله آمنتم له قبل ان آذن لكم وتقريره ان الاعتماد على الخاطر الاول غير جائز بل لا بد فيه من البحث والمناظرة والاستعانة بالخواطر فلما لم تفعلوا شيئا من ذلك بل فى الحال آمنتم له دل ذلك على ان ايمانكم ليس عن البصيرة بل عن سبب آخر (وثانيهما) قوله انه لكبيركم الذى علمكم السحر يعنى انكم تلامذته فى السحر فاصطلحتم على ان تظهروا العجز من انفسكم ترويجا لامره وتفخيما لشأنه ثم بعد ايراد الشبهة اشتغل بالتهديد تنفيرا لهم عن الايمان وتنفيرا لغيرهم عن الاقتداء بهم فى ذلك فقال لاقطعن ايديكم وارجلكم من خلاف قرئ لاقطعن ولاصلبن بالتخفيف والقطع من خلاف ان تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى لان كل واحد من العضوين خلاف الآخر فان هذا يد وذلك رجل وهذا يمين وذاك شمال وقوله من خلاف فى محل النصب على الحال اى لاقطعنها مختلفات لانها اذا خالف بعضها بعضا فقد اتصفت بالاختلاف ثم قال ولاصلبنكم فى جذوع النخل فشبه تمكن المصلوب فى الجذع بتمكن الشئ الموعى فى وعائه فلذلك قال فى جذوع النخل والذى يقال فى المشهور ان فى بمعنى على فضعيف ثم قال ولتعلمن اينا اشد عذابا وابقى اراد بقوله اينا نفسه لعنه الله لان قوله اينا يشعر بأنه اراد نفسه

(وموسى)

وانهم من تلامذته عليه الصلاة والسلام فلا عبرة بما اظهروه كالا عبرة بما اظهروه وذلك لما اعتراه من الخوف من اقتداء الناس بالسحرة فى الايمان بالله تعالى ثم اقبل عليهم بالوعيد المؤكد حيث قال (فلا قطعن) اى فوالله لاقطعن (ايديكم وارجلكم من خلاف) اى اليد اليمنى والرجل اليسرى ومن ابتدائية كأن القطع ابتدأ من مخالفة العضو العضو فان المبتدى من العروض مبتدى من العارض ايضا وهى مع مجرورها فى حيز النصب على الحالية اى لاقطعنها مختلفات وتعيين تلك الحال للايذان بتحقيق الامر وايقاعه لامحالة بتعيين كيفيته المعهودة فى باب السياسة لا لانها اقطع من غيرها (ولاصلبنكم فى جذوع النخل) اى عليها وايثار كلمة فى للدلالة على ابقائهم عليها زمانا مديدا تشبيها لاستقرارهم عليها باستقرار المظروف فى الظرف المشتمل عليه قالوا وهو اول من صلب وصيغة التفعيل فى الفعلين للتكثير وقد قرئا بالتخفيف (ولتعلمن اينا) يريد به نفسه وموسى عليه الصلاة والسلام لقوله آمنتم له قبل ان آذن لكم واللام مع الايمان فى كتاب الله تعالى لغيره تعالى وهذا اما لقصد توضيع موسى عليه الصلاة والسلام والهزء به لانه لم يكن من التعذيب فى شئ واما لاراءة ان ايمانهم لم يكن عن مشاهدة المعجزة ومعاينة البرهان بل كان عن خوف من قبل موسى عليه الصلاة والسلام حيث رأوا ابتلاع عصاه لحبالهم وعصيهم فخافوا على انفسهم ايضا وقيل يريد

وموسى عليه السلام بدليل قوله آمنتم له وفيه تصلف باقتداره وقهره وما ألفه من تعذيب الناس بأنواع العذاب واستضعاف موسى عليه السلام مع الهزء به لان موسى عليه السلام قط لم يكن من التعذيب فى شئ * فان قيل ان فرعون مع قرب عهده بمشاهدة انقلاب العصا حية تلك العظيمة التى شرحتموها وذكرتم انها قصدت ابتلاع قصر فرعون وآل الامر الى ان استغاث بموسى عليه السلام من شر ذلك الثعبان فمع قرب عهده بذلك وعجزه عن دفعه كيف يعقل ان يهدد السحرة ويبالغ فى وعيدهم الى هذا الحد ويستهزئ بموسى عليه السلام فى قوله أينا اشد عذابا وأبقى قلنا لم لا يجوز ان يقال انه كان فى أشد الخوف فى قلبه الا انه كان يظهر تلك الجلادة والوقاحة تمشية لناموسه وترويجا لامره ومن استقرأ أحوال اهل العالم علم ان العاجز قد يفعل امثال هذه الاشياء ومما يدل على صحة ذلك ان كل عاقل يعلم بالضرورة ان عذاب الله أشد من عذاب البشر ثم انه أنكر ذلك وايضا فقد كان عالما بكذبه فى قوله انه لكبيركم الذى علمكم السحر لانه علم ان موسى عليه السلام ما خالطهم البتة وما لقيهم وكان يعرف من سحرته ان استاذ كل واحد من هو وكيف حصل ذلك العلم ثم انه مع ذلك كان يقول هذه الاشياء فثبت ان سبيله فى كل ذلك ما ذكرناه وقال ابن عباس رضى الله عنهما كانوا فى اول النهار سحرة وفى آخره شهداء * قوله تعالى (قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما انت قاض انما تقضى هذه الحياة الدنيا انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما اكرهتنا عليه من السحر والله خير وابقى انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى جنات عدن تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى) اعلم انه تعالى لما حكى تهديد فرعون لأولئك المؤمنين حكى جوابهم عن ذلك بما يدل على حصول اليقين التام والبصيرة الكاملة لهم فى اصول الدين فقالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات وذلك يدل على ان فرعون طلب منهم الرجوع عن الايمان والا فعل بهم ما اوعدهم فقالوا لن نؤثرك جوابا لما قاله وبينوا العلة وهى ان الذى جاءهم بينات وادلة والذى يذكره فرعون محض الدنيا ومنافع الدنيا ومضارها لا تعارض منافع الآخرة ومضارها اما قوله والذى فطرنا ففيه وجهان (الاول) ان التقدير لن نؤثرك يا فرعون على ما جاءنا من البينات وعلى الذى فطرنا اى وعلى طاعة الذى فطرنا وعلى عبادته (الوجه الثانى) يجوز ان يكون خفضا على القسم واعلم انهم لما علموا انهم متى اصروا على الايمان فعل فرعون ما اوعدهم به فقالوا اقض ما انت قاض لا على معنى انهم امروه بذلك لكن اظهروا ان ذلك الوعيد لا يزيلهم البتة عن ايمانهم وعما عرفوه من الحق علما وعملا ثم بينوا ما لاجله يسهل عليهم احتمال ذلك فقالوا انما تقضى هذه الحياة الدنيا وقرئ تقضى هذه حياة الدنيا ووجهها ان الحياة فى القراءة المشهورة منتصبة على الظرف فاتسع فى الظرف باجرائه مجرى المفعول به كقولك فى صمت يوم الجمعة صيم يوم الجمعة والمعنى ان

بهرب موسى الذى آمنوا به بقولهم آمنا برب هرون وموسى (أشد عذابا وابقى) اى ادوم (قالوا) غير مكترثين بوعيده (لن نؤثرك) لن نختارك بالايمان والاتباع (على ما جاءنا) من الله على يد موسى عليه الصلاة والسلام (من البينات) من المعجزات الظاهرة فان ما ظهر بيده عليه الصلاة والسلام من العصا كان مشتملا على معجزات جمة كما مر تحقيقه فيما سلف فانهم كانوا عارفين بجلائلها ودقائقها (والذى فطرنا) اى خلقنا وسائر المخلوقات وهو عطف على ما جاءنا وتأخيره لان ما فى ضمنه آية عقلية نظرية وما شاهدوه آية حسية ظاهرة وايراده تعالى بعنوان فاطريته تعالى لهم للاشعار بعلة الحكم فان خالقيته تعالى لهم وكون فرعون من جملة مخلوقاته مما يوجب عدم ايثارهم له عليه سبحانه وتعالى وهذا جواب منهم لتوبيخ فرعون بقوله آمنتم له قبل ان آذن لكم وقيل هو قسم محذوف الجواب لدلالة المذكور عليه اى وحق الذى فطرنا لا نؤثرك الخ ولا مساغ لكون المذكور جوابا له عند من يجوز تقديم الجواب ايضا لما ان القسم لا يجاب بلن الا على شذوذ وقوله تعالى (فاقض ما انت قاض) جواب عن تهديده بقوله لاقطعن الخ اى فاصنع ما انت صانعه او فاحكم ما انت حاكم به وقوله تعالى (انما تقضى هذه الحياة الدنيا) مع ما بعده تعليل لعدم المبالاة المستفاد مما سبق من الامر بالقضاء اى انما تصنع ما تهواه او تحكم بما تراه فى هذه الحياة الدنيا فحسب وما لنا

قضاءك وحكمك انما يكون فى هذه الحياة الدنيا وهى كيف كانت فانية وانما مطلبنا سعادة الآخرة وهى باقية والعقل يقتضى تحمل الضرر الفانى المتوصل به الى السعادة الباقية ثم قالوا انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ولما كان اقرب خطاياهم عهدا ما اظهروه من السحر قالوا وما اكرهتنا عليه من السحر وذكروا فى ذلك الاكراه وجوها (احدها) ان الملوك فى ذلك الزمان كانوا يأخذون البعض من رعيتهم ويكلفونهم تعلم السحر فاذا شاخ بعثوا اليه احداثا ليعلمهم ليكون فى كل وقت من يحسنه فقالوا هذا القول لاجل ذلك اى كنا فى التعلم اولا والتعليم ثانيا مكرهين قاله ابن عباس (وثانيها) ان رؤساء السحرة كانوا اثنين وسبعين اثنان من القبط والباقى من بنى اسرائيل فقالوا لفرعون أرنا موسى نائما فرأوه فوجدوه تحرسه عصاه فقالوا ما هذا بساحر فان الساحر اذا نام بطل سحره فأبى الا ان يعارضوه (وثالثها) قال الحسن ان السحرة حشروا من المدائن ليعارضوا موسى عليه السلام فأحضروا بالحشر وكانوا مكرهين فى الحضور وربما كانوا مكرهين ايضا فى اظهار السحر (ورابعها) قال عمر بن عبيد دعوة السلطان اكراه وهذا ضعيف لان دعوة السلطان اذا لم يكن معها خوف لم تكن اكراها ثم قالوا والله خير ثوابا لمن اطاعه وابقى عقابا لمن عصاه وهذا جواب لقوله ولتعلمن اينا اشد عذابا وابقى قال الحسن سبحان الله القوم كفار وهم اشد الكافرين كفرا ثبت فى قلوبهم الايمان فى طرفة عين فلم يتعاظم عندهم ان قالوا اقض ما انت قاض فى ذات الله تعالى والله ان احدكم اليوم ليصحب القرآن ستين عاما ثم انه يبيع دينه بثمن حقير ثم ختموا هذا الكلام بشرح احوال المؤمنين واحوال المجرمين فى عرصة القيامة فقالوا فى المجرمين انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الهاء فى قوله انه ضمير الشأن يعنى ان الامر والشأن كذا وكذا (المسئلة الثانية) استدلت المعتزلة بهذه الآية فى القطع على وعيد اصحاب الكبائر قالوا صاحب الكبيرة مجرم وكل مجرم فان له جهنم لقوله انه من يأت ربه مجرما وكلمة من فى معرض الشرط تفيد العموم بدليل انه يجوز استثناء كل واحد منها والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل واعترض بعض المتكلمين من اصحابنا على هذا الكلام فقال لا نسلم ان صاحب الكبيرة مجرم والدليل عليه انه تعالى جعل المجرم فى مقابلة المؤمن فانه قال فى هذه الآية ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات وقال ان الذين اجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وايضا فانه قال فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى والمؤمن صاحب الكبيرة وان عذب بالنار لا يكون بهذا الوصف وفى الخبر الصحيح يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الايمان واعلم ان هذه الاعتراضات ضعيفة اما قوله ان الله تعالى جعل المجرم فى مقابلة المؤمن فهذا مسلم لكن هذا انما ينفع لو ثبت ان صاحب الكبيرة مؤمن ومذهب المعتزلة انه ليس بمؤمن فهذا المعترض كأنه بنى هذا الاعتراض على مذهب نفسه وذلك ساقط قوله ثانيا انه لا يليق بصاحب الكبيرة ان يقال فى حقه ان له جهنم

(لا يموت)

من رغبة فى عذبها ولا رهبة من عذابها (انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا) التى اقترفناها من الكفر والمعاصى ولا يؤاخذنا بها فى الدار الآخرة لا ليمتعنا بتلك الحياة الفانية حتى نتأثر بما اوعدتنا به من القطع والصلب وقوله تعالى (وما اكرهتنا عليه من السحر) عطف على خطايانا اى ويغفر لنا السحر الذى عملناه فى معارضة موسى عليه الصلاة والسلام باكراهك وحشرك ايانا من المدائن القاصية خصوه بالذكر مع اندراجه فى خطاياهم اظهارا لغاية نفرتهم عنه ورغبتهم فى مغفرته وذكر الاكراه للايذان بأنه مما يجب ان يفرد بالاستغفار منه مع صدوره عنهم بالاكراه وفيه نوع اعتذار لاستجلاب المغفرة وقيل ارادوا الاكراه على تعلم السحر حيث روى ان رؤساءهم كانوا اثنين وسبعين اثنان منهم من القبط والباقى من بنى اسرائيل وكان فرعون اكرههم على تعلم السحر وقيل انه اكرههم على المعارضة حيث روى انهم قالوا لفرعون ارنا موسى نائما ففعل فوجدوه تحرسه عصاه فقالوا ما هذا بسحر فان الساحر اذا نام بطل سحره فأبى الا ان يعارضوه ويأباه تصديهم للمعارضة على الرغبة والنشاط كما يعرب عنه قولهم ائن لنا لاجرا ان كنا نحن الغالبين وقولهم بعزة فرعون انا لنحن الغالبون (والله خير) اى فى حد ذاته وهو ناظر الى قولهم والذى فطرنا (وابقى) اى جزاء ثوابا كان او عذابا او خير ثوابا وابقى عذابا وقوله تعالى (انه)

لايموت فيها ولايحيى قلنا لانسلم فان عذاب جهنم فى غاية الشدة قال تعالى ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته واما الحديث فيقال القرآن متواتر فلا يعارضه خبر الواحد ويمكن أن يقال ثبت فى اصول الفقه انه يجوز تخصيص القرآن بخبر الواحد والمخصم أن يجيب فيقول ذلك يفيد الظن فيجوز الرجوع اليه فى العمليات وهذه المسئلة ليست من العمليات بل من الاعتقادات فلا يجوز المصير اليها ههنا فان اعترض انسان آخر وقال اجمعنا على ان هذه الآية مشروطة بنفى التوبة وبأن لايكون عقابه محبطا بثواب طاعته والقدر المشترك بين الصورتين هو ان لايوجد مايحبط ذلك العقاب ولكن عندنا العفو محبط العقاب وعندنا ان المجرم الذى لايوجد فى حقه العفو لابد وان يدخل جهنم واعلم ان هذا الاعتراض ايضا ضعيف اما شرط نفى التوبة فلا حاجة اليه لانه قال من يأت ربه مجرما اى حال كونه مجرما والتائب لايصدق عليه انه أتى ربه حال كونه مجرما واما صاحب الصغيرة فلانه لايسمى مجرما لان المجرم اسم للذم فلا يجوز اطلاقه على صاحب الصغيرة بل الاعتراض الصحيح ان نقول عموم هذا الوعيد معارض بما جاء بعده من عموم الوعد وهو قوله تعالى ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى وكلامنا فيمن أتى بالايمان والاعمال الصالحة ثم أتى بعد ذلك ببعض الكبائر فان قيل عقاب المعصية يحبط ثواب الطاعة قلنا لم لايجوز ان يقال ثواب الايمان يدفع عقاب المعصية فان قالوا لو كان كذلك لوجب ان لايجوز لعنه واقامة الحد عليه قلنا اما اللعن فغير جائز عندنا واما اقامة الحد عليه فقد تكون على سبيل المحنة كما فى حق التائب وقد تكون على سبيل التنكيل قالت المعتزلة قوله تعالى والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله فالله تعالى نص على انه يجب عليه اقامة الحد على سبيل التنكيل وكل من كان كذلك استحال ان يكون مستحقا للمدح والتعظيم واذا لم يبق ذلك لم يبق الثواب كما قلنا فدلنا ذلك على ان عقاب الكبيرة اولى بازالة ثواب الطاعة المتقدمة من الطاعات بدفع عقاب الكبيرة الطارئة هذا منتهى كلامهم فى مسئلة الوعيد قلنا حاصل الكلام يرجع الى ان النص الدال على اقامة الحد عليه على سبيل التنكيل صار معارضا للنصوص الدالة على كونه مستحقا للثواب فلم كان ترجيح احدهما على الآخر اولى من العكس وذلك لان المؤمن كان ينقسم الى السارق وغير السارق فالسارق ينقسم الى المؤمن والى غير المؤمن فلم يكن لاحدهما مزية على الآخر فى العموم والخصوص فاذا تعارضا تساقطا ثم نقول لانسلم ان كلمة من فى افادة العموم قطعية بل ظنية ومسئلتنا قطعية فلا يجوز التعويل على ماذكرتم وتمام الكلام فيه مذكور فى كتاب المحصول فى الاصول (المسئلة الثالثة) تمسكت المجسمة بقوله انه من يأت ربه مجرما فقالوا الجسم انما يأتى ربه لو كان الرب فى المكان وجوابه ان الله تعالى جعل اتيانهم موضع الوعد اتيانا الى الله مجازا كقول ابراهيم عليه السلام انى ذاهب الى ربى سيهدين (المسئلة الرابعة) الجسم الحى لابد وان يبقى اما حيا

الى آخر الشرطيتين تعليل من جهتهم لكونه تعالى خيرا وابقى جزاء وتحقيق له وابطال لما ادعاه فرعون وتصديرهما بضمير الشان للتنبيه على فخامة مضمونهما لان مناط وضع الضمير موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره مع مافيه من زيادة التقرير فان الضمير لايفهم منه من اول الامر الاشأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن كأنه قيل ان الشأن الخطير هذا اى قوله تعالى (من يأت ربه مجرما) بأن مات على الكفر والمعاصى (فان له جهنم لايموت فيها) فينتهى عذابه وهذا تحقيق لكون عذابه ابقى (ولايحيى) حياة ينتفع بها (ومن يأته مؤمنا) به تعالى وبما جاء من عنده من المعجزات التى من جملتها ما شاهدناه (قد عمل الصالحات) الصالحة كالحسنة جارية مجرى الاسم ولذلك لاتذكر غالبا مع الموصوف وهى كل ما استقام من الاعمال بدليل العقل والنقل (فأولئك) اشارة الى من والجمع باعتبار معناها كما ان الافراد فى الفعلين السابقين باعتبار لفظها ومافيه من معنى البعد للاشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم اى فأولئك المؤمنون العاملون الصالحات (لهم) بسبب ايمانهم واعمالهم الصالحة (الدرجات العلى) اى المنازل الرفيعة وليس فيه مايدل على عدم اعتبار الايمان المجرد عن العمل الصالح فى استتباع الثواب لان ما نيط بالايمان المقرون بالاعمال الصالحة هو الفوز بالدرجات العلى لا بالثواب مطلقا وهل التشاجر الافيه

او بصير ميتاً فخلوه عن الوصفين محال فمعناه فى الآية انه يكون فى جهنم بأسوأ حال لا يموت موتة مريحة ولا يحيى حياة ممتعة ثم ذكر حال المؤمنين فقال ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى واعلم ان قوله قد عمل الصالحات يقتضى أن يكون آتيا بكل الصالحات وذلك بالاتفاق غير معتبر ولا ممكن فينبغى أن يحمل ذلك على اداء الواجبات ثم ذكر ان من أتى بالايمان والاعمال الصالحات كانت له الدرجات العلى ثم فسرها فقال جنات عدن تجرى من تحتها الانهار وفى الآية تنبيه على حصول العفو لاصحاب الكبائر لانه تعالى جعل الدرجات العلى من الجنة لمن أتى ربه بالايمان والاعمال الصالحة فسائر الدرجات التى هى غير عالية لابد وأن تكون لغيرهم وما هم الا العصاة من اهل الايمان اما قوله وذلك جزاء من تزكى فقال ابن عباس يريد من قال لا اله الا الله وأقول لما دلت هذه الآية على أن الدرجات العالية هى جزاء من تزكى اى تطهر عن الذنوب وجب بحكم ذلك الخطاب ان الدرجات التى لا تكون عالية أن لا تكون جزاء من تزكى فهى لغيرهم ممن يكون قد أتى بالمعاصى وعفا الله بفضله ورحمته عنهم واعلم انه ليس فى القرآن ان فرعون فعل بأولئك القوم المؤمنين ما اوعدهم به ولكن ثبت ذلك فى الاخبار * قوله تعالى

(ولقد اوحينا الى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم واضل فرعون قومه وما هدى)

اعلم ان فى قوله ولقد اوحينا الى موسى أن أسر بعبادى دلالة على ان موسى عليه السلام فى تلك الحالة كثر مستجيبوه فأراد الله تعالى تميزهم من طائفة فرعون وخلاصهم فأوحى اليه ان يسرى بهم ليلا والسرى اسم لسير الليل والاسراء مثله فان قيل ما الحكمة فى ان يسرى بهم ليلا قلنا لوجوه (احدها) ان يكون اجتماعهم لا بمشهد من العدو فلا يمنعهم عن استكمال مرادهم فى ذلك (وثانيها) ليكون عائقا عن طلب فرعون ومتبعيه (وثالثها) ليكون اذا تقارب العسكران لا يرى عسكر موسى عسكر فرعون فلا يهابوهم اما قوله فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا ففيه وجهان (الاول) اى فاجعل لهم من قولهم ضرب له فى ماله سهما وضرب اللبن عمله (والثانى) بين لهم طريقا فى البحر بالضرب بالعصا وهو ان يضرب البحر بالعصا حتى ينفلق فعدى الضرب الى الطريق والحاصل انه اريد بضرب الطريق جعل الطريق بالضرب يبسا ثم بين تعالى ان جميع اسباب الامن كان حاصلا فى ذلك الطريق (احدها) انه كان يبسا قرئ يابسا ويبسا بفتح الياء وتسكين الباء فمن قال يابسا جعله بمعنى الطريق ومن قال يبسا بتحريك الباء فاليبس واليابس شئ واحد والمعنى طريقا ذا يبس ومن قال يبسا بتسكين الباء فهو مخفف من اليبس والمراد انه ما كان فيه وحل ولا نداوة فضلا عن الماء (وثانيها) قوله لا تخاف دركا ولا تخشى اى لا تخاف ان يدركك فرعون فانى احول بينك وبينه بالتأخير قال سيبويه قوله لا تخاف رفعه على وجهين (احدهما) على الحال كقولك غير خائف ولا خاش (والثانى) على الابتداء اى انت لا تخاف

(وهذا)

(جنات عدن) بدل من الدرجات العلى او بيان وقد مر أن عدنا علم لمعنى الاقامة اولارض الجنة فقوله تعالى (تجرى من تحتها الانهار) حال من الجنات وقوله تعالى (خالدين فيها) حال من الضمير فى لهم والعامل معنى الاستقرار او الاشارة (وذلك) اشارة الى ما اتيح لهم من الفوز بما ذكر من الدرجات العلى ومعنى البعد لما مر من التفخيم (جزاء من تزكى) اى تطهر من دنس الكفر والمعاصى بما ذكر من الايمان والاعمال الصالحة وهذا تحقيق لكون ثوابه تعالى ابقى وتقديم ذكر حال المجرم للمسارعة الى بيان اشدية عذابه ودوامه ردا على ما ادعاه فرعون بقوله اينا اشد عذابا وابقى هذا وقد قيل هذه الآيات الثلاث ابتداء كلام من الله عز وجل قالوا ليس فى القرآن ان فرعون فعل بأولئك المؤمنين ما اوعدهم به ولم يثبت فى الاخبار (ولقد اوحينا الى موسى) حكاية اجمالية لما انتهى اليه امر فرعون وقومه وقد طوى فى البين ذكر ما جرى عليهم من الآيات المفصلات الظاهرة على يد موسى عليه الصلاة والسلام بعد ما غلب السحرة فى نحو من عشرين سنة حسبما فصل فى سورة الاعراف تصديرها بالقسم لابراز كمال العناية بمضمونها وان فى قوله تعالى (ان اسرى بعبادى) اما مفسرة لان الوحى فيه معنى القول او مصدرية حذف عنها الجار والتعبير عنهم بعنوان كونهم عبادا له تعالى لاظهار المرحمة والاعتناء بأمرهم والتنبيه على غاية قبح صنيع فرعون بهم حيث استعبدهم وهم عباده عز وجل

وهذا قول الفراء قال الاخفش والزجاج المعنى لاتخاف فيه كقوله واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس اى لاتجزى فيه نفس وقرأ حمزة لاتخف وفيه وجهان (احدهما) انه نهى (والثانى) قال ابو على جعله جواب الشرط على معنى ان تضرب لاتخف وعلى هذه القراءة ذكروا فى قوله ولاتخشى ثلاثة اوجه (احدها) ان يستأنف كأنه قيل وانت لاتخشى اى ومن شأنك انك آمن لاتخشى (وثانيها) ان لاتكون الالف هى الالف المنقلبة عن الياء التى هى لام الفعل ولكن زائدة للاطلاق من اجل الفاصلة كقوله تعالى واضلونا السبيلا وتظنون بالله الظنونا (وثالثها) ان يكون مثل قوله * كأن لم ترى قبلى اسيرا يمانيا * (وثالثها) قوله ولاتخشى والمعنى انك لاتخاف ادراك فرعون ولاتخشى الغرق بالماء اما قوله فأتبعهم فرعون بجنوده قال ابو مسلم زعم رواة اللغة ان اتبعهم وتبعهم واحد وذلك جائز ويحتمل ان تكون الباء زائدة والمعنى اتبعهم فرعون جنوده كقوله تعالى لاتأخذ بلحيتى ولا برأسى اسرى بعبده وقال الزجاج قرئ فاتبعهم فرعون وجنوده اى ومعه جنوده وقرئ بجنوده ومعناه الحق جنوده بهم ويجوز ان يكون بمعنى معهم اما قوله فغشيهم فالمعنى علاهم وسترهم وما غشيهم تعظيم للامر اى غشيهم مالا يعلم كنهه الا الله تعالى وقرئ فغشاهم من اليم ماغشيهم وفاعل غشاهم اما الله سبحانه وتعالى او ماغشيهم او فرعون لانه الذى ورط جنوده وتسبب فى هلاكهم اما قوله واضل فرعون قومه وما هدى فاحتج القاضى به وقال لو كان الضلال من خلق الله تعالى لما جاز ان يقال واضل فرعون قومه بل وجب ان يقال الله تعالى اضلهم ولان الله تعالى ذمه بذلك فكيف يجوز ان يكون خالقا للكفر لان من ذم غيره بشئ لابد وان يكون هو غير فاعل لذلك الفعل والا لاستحق ذلك الذم وقوله وما هدى تهكم به كما فى قوله وما أهديكم الاسبيل الرشاد * ولنذكر القصة وما فيها من المباحث قال ابن عباس رضى الله عنهما لما امر الله تعالى موسى ان يقطع بقومه البحر وكان موسى عليه السلام وبنو اسرائيل استعاروا من قوم فرعون الحلى والدواب لعيد يخرجون اليه فخرج بهم ليلا وهم ستمائة الف وثلاثة آلاف ونيف ليس فيهم ابن ستين ولا عشرين وقد كان يوسف عليه السلام عهد اليهم عند موته ان يخرجوا بعظامه معهم من مصر فلم يخرجوا بها فتحير القوم حتى دلتهم عجوز على موضع العظام فأخذوها فقال موسى عليه السلام للعجوز احتكمى فقالت اكون معك فى الجنة وذكر ابن عباس ان محمدا صلى الله عليه وسلم وابابكر هجموا على رجل من العرب وامرأة ليس لهم الا عنز قد يحلبوها لهما فقال عليه السلام اذا سمعت برجل قد ظهر بيثرب فأته فلعل الله يرزقك منه خيرا فلما سمع بظهور الرسول صلى الله عليه وسلم اتاه مع امرأته فقال أتعرفنى قال نعم عرفتك فقال له احتكم فقال ثمانون ضائنة فأعطاه اياها وقال له أما ان عجوز بنى اسرائيل خير منك وخرج فرعون فى طلب موسى عليه السلام وعلى مقدمته الف الف وخمسمائة الف سوى الجنبين والقلب فلما انتهى موسى الى البحر قال ههنا أمرت ثم قال موسى عليه السلام للبحر انفرق

وفعل بهم من فنون الظلم ما فعل اى اى وبالله لقد اوحينا اليه عليه الصلاة والسلام ان اسر بعبادى الذين أرسلتك لانقاذهم من ملكة فرعون اى سربهم من مصر ليلا (فاضرب لهم) اى فاجعل او فاتخذ لهم (طريقا فى البحر يبسا) اى يابسا على انه مصدر وصف به الفاعل مبالغة وقرئ يبسا وهو اما مخفف منه او وصف كصعب او جمع يابس كصحب وصف به الواحد للمبالغة او لتعدده حسب تعدد الاسباط (لاتخاف دركا) حال من المأمور أى آمنا من ان يدركم العدو اوصفة اخرى لطريقا والعائد محذوف وقرئ لاتخف جوابا للامر (ولاتخشى) عطف على لاتخاف داخل فى حكمه اى ولا تخشى الغرق وعلى قراءة الجزم استئناف اى وانت لاتخشى او عطف عليه والالف للاطلاق كما فى قوله تعالى وتظنون بالله الظنونا وتقديم نفى الخوف المذكور للمسارعة الى ازاحة ما كانوا عليه من الخوف العظيم حيث قالوا انا لمدركون (فأتبعهم فرعون بجنوده) اى تبعهم ومعه جنوده حتى لحقوهم يقال اتبعتهم اى تبعتهم وذلك اذا كانوا سبقوك فلحقتهم ويؤيده انه قرئ فاتبعهم من الافتعال وقيل المعنى اتبعهم فرعون نفسه فحذف المفعول الثانى وقيل الباء زائدة والمعنى فأتبعهم فرعون جنوده اى ساقهم خلفهم وايا ما كان فالفاء فصيحة معربة عن مضمر قد طوى ذكره ثقة بدلالة ظهوره وايذانا بكمال مسارعة موسى عليه الصلاة والسلام الى الامتثال بالامر اى ففعل ما أمر به من الاسراء بهم وضرب الطريق وسلوكه فأتبعهم

فأبى فأوحى الله اليه ان اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فقال لهم موسى عليه السلام ادخلوا فيه فقالوا كيف وارضه رطبة فدعا الله فهبت عليه الصبا فجفت فقالوا نخاف الغرق فى بعضنا فجعل بينهم كوى حتى يرى بعضهم بعضا ثم دخلوا حتى جاوزوا البحر فاقبل فرعون الى تلك الطرق فقال قومه له ان موسى قد سحر البحر فصار كما ترى وكان على فرس حصان واقبل جبريل عليه السلام على فرس انثى فى ثلاثة وثلاثين من الملائكة فصار جبريل عليه السلام بين يدى فرعون وابصر الحصان الفرس الحجر فاقتحم بفرعون على أثرها وصاحت الملائكة فى الناس الحقوا الملك حتى اذا دخل آخرهم وكاد اولهم ان يخرج التقى البحر عليهم فغرقوا فسمع بنو اسرائيل خفقة البحر عليهم فقالوا ما هذا يا موسى قال قد اغرق الله فرعون وقومه فرجعوا لينظروا اليهم فقالوا يا موسى ادع الله ان يخرجهم لنا حتى ننظر اليهم فدعا فلفظهم البحر الى الساحل واصابوا من سلاحهم وذكر ابن عباس ان جبريل عليه السلام قال يا محمد لو رأيتنى وانا ادس فرعون فى الماء والطين مخافة ان يتوب فهذا معنى قوله فغشيهم من اليم ما غشيهم وفى القصة ابحاث (البحث الاول) روى فى الاخبار ان موسى عليه السلام لما ضرب بعصاه البحر حصل اثنا عشر طريقا يابسا بينها طرق وبقى الماء قائما بين الطريق والطريق كالطود العظيم وهو الجبل فأخذ كل سبط من بنى اسرائيل فى طريق من هذه الطرق ومنهم من قال بل حصل طريق واحد وجة القول الاول الاخبار ومن القرآن قوله تعالى فكان كل فرق كالطود العظيم وذلك لا يحصل الا اذا حصل هناك طرق حتى يكون الماء القائم بين الطريقين كالطود العظيم وجة القول الثانى ظاهر قوله فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا وذلك يتناول الطريق الواحد وان امكن حمله على الطرق نظرا الى الجنس (البحث الثانى) روى ان بنى اسرائيل بعد ان اظهر موسى عليه السلام لهم الطريق وبينها لهم تعنتوا وقالوا نريد ان نرى بعضنا بعضا وهذا كالبعيد وذلك ان القوم لما ابصروا مجئ فرعون صاروا فى نهاية الخوف والخائف اذا وجد طريق الفرار والخلاص كيف يتفرغ لمتعنت البارد (البحث الثانى) ان فرعون كان عاقلا بل كان فى نهاية الدهاء فكيف اختار القاء نفسه الى التهلكة فانه كان يعلم من نفسه ان انفلاق البحر ليس بأمره فعند هذا ذكروا وجهين (احدهما) ان جبريل عليه السلام كان على الرمكة فتبعه فرس فرعون ولقائل ان يقول هذا بعيد لانه يبعد ان يكون خوض الملك فى امثال هذه المواضع مقدما على خوض جميع العسكر وماذكروه انما يتم اذا كان الامر كذلك وايضا فلو كان الامر على ما قالوه لكان فرعون فى ذلك الدخول كالمجبور وذلك مما يزيده خوفا ويحمله على الامساك فى ان لا يدخل وايضا فأى حاجة لجبريل عليه السلام الى هذه الحيلة وقد كان يمكنه ان يأخذه مع قومه ويرميه فى الماء ابتداء بل الاولى ان يقال انه امر مقدمة عسكره بالدخول فدخلوا وما غرقوا فغلب على ظنه السلامة فلما دخل الكل اغرقهم الله تعالى (البحث الرابع) ان الذى نقل عن جبريل

(عليه)

فرعون بجنوده برا وبحرا روى ان موسى عليه الصلاة والسلام خرج بهم اول الليل وكانوا ستمائة وسبعين الفا فأخبر فرعون بذلك فاتبعهم بعساكره وكانت مقدمته سبعمائة الف فقص اثرهم فلحقهم بحيث تراءى الجمعان فعند ذلك ضرب عليه الصلاة والسلام بعصاه البحر فانفلق على اثنى عشر فرقا كل فرق كالطود العظيم فعبر موسى عليه الصلاة والسلام بمن معه من الاسباط سالمين وتبعهم فرعون بجنوده (فغشيهم من اليم ما غشيهم) اى علاهم منه وغمرهم ماغمرهم من الامر الهائل الذى لا يقادر قدره ولا يبلغ كنهه وقيل غشيهم ما سمعت قصته وليس بذاك فان مدار التهويل والتفخيم خروجه عن حدود الفهم والوصف لا سماع قصته وقرئ فغشاهم من اليم ما غشاهم اى غطاهم ماغطاهم والفاعل هو الله عز وعلا او ما غشاهم وقيل فرعون لانه الذى ورطهم للهلكة ويأباه الاظهار فى قوله تعالى (واضل فرعون قومه) اى سلك بهم مسلكا اداهم الى الخيبة والخسران فى الدين والدنيا معا حيث ماتوا على الكفر بالعذاب الهائل الدنيوى المتصل بالعذاب الخالد الاخروى وقوله تعالى (وما هدى) اى ما ارشدهم قط الى طريق موصل الى مطلب من المطالب الدينية والدنيوية تقرير لاضلاله وتأكيد له اذرب مضل قد يرشد من يضله الى بعض مطالبه وفيه نوع تهكم به كما فى قوله وما اهديكم الا سبيل الرشاد فان نفى الهداية عن شخص مشعر بكونه ممن يتصور منه الهداية فى الجملة وذلك انما يتصور فى حقه

وتمام القول فى هذه القصة تقدم فى سورة البقرة (المسئلة السادسة) فى قوله تعالى ولا تطغوا فيه وجوه (احدها) قال ابن عباس رضى الله عنهما لا تطغوا اى لا يظلم بعضكم بعضا فيأخذه من صاحبه (وثانيها) قال مقاتل والضحاك لا تظلموا فيه انفسكم بأن تجاوزوا حد الاباحة (وثالثها) قال الكلبى لا تكفروا النعمة اى لا تستعينوا بنعمتى على مخالفتى ولا تعرضوا عن الشكر ولا تعدلوا عن الحلال الى الحرام (المسئلة السابعة) قرأ الاعمش والكسائى فيحل ومن يحلل كلاهما بالضم وروى الاعمش عن اصحاب عبد الله فيحل بالكسر ومن يحلل بالرفع وقراءة العامة بالكسر فى الكلمتين اما من كسر فمعناه الوجوب من حل الدين يحل اذا وجب اداؤه ومنه قوله تعالى حتى يبلغ الهدى محله والمضموم فى معنى النزول وقوله وقد هوى اى شقى وقيل فقد وقع فى الهاوية يقال هوى يهوى هويا اذا سقط من علو الى سفل (المسئلة الثامنة) اعلم ان الله تعالى وصف نفسه بكونه غافرا وغفورا وغفارا وبأن له غفرانا ومغفرة وعبر عنه بلفظ الماضى والمستقبل والامر اما انه وصف نفسه بكونه غافرا فقوله غافر الذنب واما كونه غفورا فقوله وربك الغفور ذو الرحمة واما كونه غفارا فقوله وانى لغفار لمن تاب واما الغفران فقوله غفرانك ربنا واما المغفرة فقوله وان ربك لذو مغفرة للناس واما صيغة الماضى فقوله فى حق داود عليه السلام فغفرنا له ذلك واما صيغة المستقبل فقوله ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقوله ان الله يغفر الذنوب جميعا وقوله فى حق محمد صلى الله عليه وسلم ليغفر لك الله واما لفظ الاستغفار فقوله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات وفى حق نوح عليه السلام فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا وفى الملائكة ويستغفرون لمن فى الارض • واعلم ان الانبياء عليهم السلام كلهم طلبوا المغفرة اما آدم عليه السلام فقال وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين واما نوح عليه السلام فقال والا تغفر لى وترحمنى واما ابراهيم عليه السلام فقال والذى اطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين وطلبها لابيه سأستغفر لك ربى واما يوسف عليه السلام فقال فى اخوته لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم واما موسى عليه السلام ففى قصة القبطى رب اغفر لى ولاخى واما داود عليه السلام فاستغفر ربه واما سليمان عليه السلام رب اغفر لى وهب لى ملكا واما عيسى عليه السلام وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم واما محمد صلى الله عليه وسلم فقوله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات واما الامة فقوله والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا واعلم ان بسط الكلام ههنا أن نبين اولا حقيقة المغفرة ثم نتكلم فى كونه تعالى غافرا وغفورا وغفارا ثم نتكلم فى أن مغفرته عامة ثم نبين ان مغفرته فى حق الانبياء عليهم السلام كيف تعقل مع انه لا ذنب لهم ونتفرع على هذه الجملة استدلال اصحابنا فى اثبات العفو وتقريره ان الذنب اما ان يكون صغيرا او كبيرا بعد التوبة او قبل التوبة والقسمان الاولان يقبح من الله عذابهما ويجب عليه التجاوز عنهما وترك القبيح لا يسمى غفرانا

(فتعين)

والتصور الى المخاطبين مع ان المخلوق المصور بالذات هو آدم عليه الصلاة والسلام وقرئ واعدتكم ووعدناكم (ونزلنا عليكم المن والسلوى) اى الترنجبين والسمانى حيث كان ينزل عليهم المن وهم فى التيه مثل الثلج من الفجر الى الطلوع لكل انسان صاع ويبعث الجنوب عليهم السمانى فيذبح الرجل منه ما يكفيه (كلوا) جملة مستأنفة مسوقة لبيان اباحة ما ذكر لهم واتماما للنعمة عليهم (من طيبات ما رزقناكم) اى من لذائذه او حلالاته وقرئ رزقتكم وفى البدء بنعمة الانجاء ثم بالنعمة الدينية ثم بالنعمة الدنيوية من حسن النظم ولطف الترتيب ما لا يخفى (ولا تطغوا فيه) اى فيما رزقناكم بالاخلال بشكره والتعدى لما حد لكم فيه كالسرف والبطر والمنع من المستحق (فيحل عليكم غضبى) جواب النهى اى فتلزمكم عقوبتى وتجب لكم من حل الدين اذا وجب اداؤه (ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى) اى تردى وهلك وقيل وقع فى الهاوية وقرئ فيحل بضم الحاء من حل يحل اذا نزل (وانى لغفار لمن تاب) من الشرك والمعاصى التى من جملتها الطغيان فيما ذكر (وآمن) بما يجب الايمان به (وعمل صالحا) اى عملا صالحا مستقيما عند الشرع والعقل وفيه ترغيب لمن وقع منه الطغيان فيما ذكر وحث على التوبة والايمان وقوله تعالى (ثم اهتدى) اى استقام على الهدى اشارة الى ان من لم يستمر عليه بمعزل من الغفران وثم للتراخى الرتبى

فتعين أن لا يتحقق الغفران الا فى القسم الثالث وهو المطلوب فان قيل هذا يناقض صريح الآية لانه أثبت الغفران فى حق من استجمع أمورا أربعة التوبة والايمان والعمل الصالح والاهتداء قلنا ان من تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ثم أذنب بعد ذلك كان تائبا ومؤمنا وآتيا بالعمل الصالح ومهتديا ومع ذلك يكون مذنبا فحينئذ يستقيم كلامنا وههنا نكتة وهى ان العبد له أسماء ثلاثة الظالم والظلوم والظلام فالظالم فهم ظالم لنفسه والظلوم انه كان ظلوما جهولا والظلام اذا كثر ذلك منه ولله فى مقابلة كل واحد من هذه الاسماء اسم فكأنه تعالى يقول ان كنت ظالما فانا غافر وان كنت ظلوما فانا غفور وان كنت ظلاما فانا غفار وانى لغفار لمن تاب وآمن (المسئلة التاسعة) كثر اختلاف المفسرين فى قوله تعالى ثم اهتدى وسبب ذلك ان من تاب وآمن وعمل صالحا فلا بد وأن يكون مهتديا فامعنى قوله ثم اهتدى بعد ذكر هذه الاشياء والوجوه الملخصة فيه ثلاثة (أحدها) المراد منه الاستمرار على تلك الطريقة اذ المهتدى فى الحال لا يكفيه ذلك فى الفوز بالنجاة حتى يستمر عليه فى المستقبل ويموت عليه ويؤكده قوله تعالى ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا وكلمة ثم للتراخى فى هذه الآية وليست لتباين المرتبتين بل لتباين الوقتين فكأنه تعالى قال الاتيان بالتوبة والايمان والعمل الصالح مما قد يتفق لكل أحد ولا صعوبة فى ذلك انما الصعوبة فى المداومة على ذلك والاستمرار عليه (وثانيها) المراد من قوله ثم اهتدى أى علم ان ذلك بهداية الله وتوفيقه وبقى مستعينا بالله فى ادامة ذلك من غير تقصير عن ابن عباس (وثالثها) المراد من الايمان الاعتقاد المبنى على الدليل والعمل الصالح اشارة الى أعمال الجوارح بقى بعد ذلك ما يتعلق بتطهير القلب من الاخلاق الذميمة وهو المسمى بالطريقة فى لسان الصوفية ثم انكشاف حقائق الاشياء له وهو المسمى بالحقيقة فى لسان الصوفية فهاتان المرتبتان هما المرادتان بقوله ثم اهتدى (المسئلة العاشرة) منهم من قال تجب التوبة عن الكفر اولا ثم الاتيان بالايمان ثانيا واحتج عليه بهذه الآية فانه تعالى قدم التوبة على الايمان واحتج اصحابنا بهذه الآية على ان العمل الصالح غير داخل فى الايمان لانه تعالى عطف العمل الصالح على الايمان والمعطوف مغاير للمعطوف عليه ❊ قوله تعالى (وما أعجلك عن قومك ياموسى قال هم أولاء على أثرى وعجلت اليك رب لترضى) اعلم ان فى قوله وما أعجلك عن قومك ياموسى دلالة على انه قد تقدم قومه فى المسير الى المكان ويجب ان يكون المراد ما نبه عليه فى قوله تعالى وواعدناكم جانب الطور الايمن فى هذه السورة وفى سائر السور كقوله وواعدنا موسى ثلاثين ليلة يريد الميقات عند الطور وعلى الآية سؤالات (السؤال الاول) قوله وما أعجلك استفهام وهو على الله محال (والجواب) انه انكار فى صيغة الاستفهام ولا امتناع فيه (السؤال الثانى) ان موسى عليه السلام لا يخلو اما ان يقال انه كان ممنوعا عن ذلك التقدم او لم يكن ممنوعا عنه فان كان ممنوعا كان ذلك التقدم معصية فيلزم وقوع المعصية

(وما أعجلك عن قومك ياموسى) حكاية لما جرى بينه تعالى وبين موسى عليه الصلاة والسلام من الكلام عند ابتداء موافاته الميقات بموجب المواعدة المذكورة اى وقلنا له اى شئ اعجلك منفردا عن قومك وهذا كما ترى سؤال عن سبب تقدمه على النقباء مسوق لانكار انفراده عنهم لما فى ذلك بحسب الظاهر من مخايل اغفالهم وعدم الاعتداد بهم مع كونه مأمورا باستصحابهم واحضارهم معه لا لانكار نفس العجلة الصادرة عنه عليه الصلاة والسلام لكونها نقيصة منافية للحزم اللائق بأولى العزم ولذلك اجاب عليه الصلاة والسلام بنفى الانفراد المنافى للاستصحاب والمعية حيث (قال هم اولاء على اثرى) يعنى انهم معى وانما سبقتهم بخطا يسيرة ظننت انها لا تخل بالمعية ولا تقدح فى الاستصحاب فان ذلك مما لا يعتد به فيما بين الرفقة اصلا وبعد ما ذكر عليه الصلاة والسلام ان تقدمه ذلك ليس لامر منكر ذكر انه لامر مرضى حيث قال (وعجلت اليك رب لترضى) اى بمسارعتى الى الامتثال بأمرك واعتنائى بالوفاء بعهدك وزيادة رب لمزيد الضراعة والابتهال رغبة فى قبول العذر (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية اعتذاره عليه الصلاة والسلام وهو السر فى وروده على صيغة الغائب لا انه التفات من التكلم الى الغيبة لما ان المقدر فيما سبق من الموضعين على صيغة التكلم

من الانبياء وان قلنا انه ما كان ممنوعا كان ذلك الانكار غير جائز من الله تعالى (والجواب) لعله عليه السلام ما وجد نصا فى ذلك الا انه باجتهاده تقدم فأخطأ فى ذلك الاجتهاد فاستوجب العتاب (السؤال الثالث) قال وعجلت والعجلة مذمومة (والجواب) انها ممدوحة فى الدين قال تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة (السؤال الرابع) قوله لترضى يدل على انه عليه السلام انما فعل ذلك لتحصيل الرضا لله تعالى وذلك باطل من وجهين (احدهما) انه يلزم تجدد صفة لله تعالى والآخر انه تعالى قبل حصول ذلك الرضا وجب ان يقال انه تعالى ما كان راضيا عن موسى لان تحصيل الحاصل محال ولما لم يكن راضيا عنه وجب ان يكون ساخطا عليه وذلك لا يليق بحال الانبياء عليهم السلام (والجواب) المراد تحصيل دوام الرضا كما ان قوله ثم اهتدى المراد دوام الاهتداء (السؤال الخامس) قوله وعجلت اليك يدل على انه ذهب الى الميعاد قبل الوقت الذى عينه الله تعالى له والا لم يكن ذلك تعجيلا ثم ظن ان مخالفة امر الله تعالى سبب تحصيل رضاه وذلك لا يليق بأجهل الناس فضلا عن كليم الله تعالى (والجواب) ما ذكرناه ان ذلك كان بالاجتهاد واخطأ فيه (السؤال السادس) قوله اليك يقتضى كون الله فى الجهة لان الى لانتهاء الغاية (والجواب) توافقنا على ان الله تعالى لم يكن فى الجبل فالمراد الى مكان وعدك (السؤال السابع) ما اعجلك سؤال عن سبب العجلة فكان جوابه اللائق به ان يقول طلبت زيادة رضاك والشوق الى كلامك واما قولهم اولاء على اثرى فغير منطبق عليه كما ترى والجواب من وجهين (الاول) ان سؤال الله تعالى يتضمن شيئين (احدهما) انكار نفس العجلة (والثانى) السؤال عن سبب التقدم فكان اهم الامرين عند موسى عليه السلام بالجواب هذا الثانى فقال لم يوجد منى الا تقدم يسير لا يحتفل به فى العادة وليس بينى وبين من سبقته الا تقدم يسير يتقدم بمثله الوفد عن قومهم ثم عقبه بجواب السؤال عن العجلة فقال وعجلت اليك رب لترضى (الثانى) انه عليه السلام لما ورد عليه من هيبة عتاب الله تعالى ما ورد ذهل عن الجواب المنطبق المرتب على حدود الكلام واعلم ان فى قوله وما اعجلك عن قومك ياموسى دلالة على انه تعالى امره بحضور الميقات مع قوم مخصوصين واختلفوا فى المراد بالقوم فقال بعضهم هم النقباء السبعون الذين قد اختارهم الله تعالى ليخرجوا معه الى الطور فتقدمهم موسى عليه السلام شوقا الى ربه وقال آخرون القوم جملة بنى اسرائيل وهم الذين خلفهم موسى مع هرون وامره ان يقيم فيهم خليفة له الى ان يرجع هو مع السبعين فقال لهم اولاء على اثرى يعنى بالقرب منى ينتظروننى وعن ابى عمرو ويعقوب اثرى بالكسر وعن عيسى بن عمر اثرى بالضم وعنه ايضا اولى بالقصر والاثر افصح من الاثر واما الاثر فمسموع فى فرند السيف وهو بمعنى الاثر غريب ❁ قوله تعالى (قال فانا قد فتنا قومك من بعدك واضلهم السامرى فرجع موسى الى قومه غضبان اسفا قال ياقوم الم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد

كأنه قيل من جهة السامعين فما ذا قال له ربه حينئذ فقيل قال (فانا قد فتنا قومك من بعدك) اى ابتليناهم بعبادة العجل من بعد ذهابك من بينهم وهم الذين خلفهم مع هرون عليه الصلاة والسلام وكانوا ستمائة الف ما نجا منهم من عبادة العجل الا اثنا عشر الفا والفاء لترتيب الاخبار بما ذكر من الابتلاء على اخبار موسى عليه الصلاة والسلام بعجلته لكن لا لان الاخبار بها سبب موجب للاخبار به بل لما بينهما من المناسبة المصححة للانتقال من احدهما الى الآخر من حيث ان مدار الابتداء المذكور عجلة القوم فانهم روى انهم اقاموا على ما وصى به موسى عليه الصلاة والسلام عشرين ليلة بعد ذهابه فحسبوها مع ايامها اربعين وقالوا قد اكملنا العدة وليس من موسى عليه الصلاة والسلام عين ولا اثر (واضلهم السامرى) حيث كان هو المدبر فى الفتنة فقال لهم انما اخلف موسى عليه الصلاة والسلام ميعادكم لما معكم من حلى القوم وهو حرام عليكم فكان من امر العجل ما كان فاخباره تعالى بوقوع هذه الفتنة عند قدومه عليه الصلاة والسلام اما باعتبار تحققها فى علمه تعالى ومشيئته واما بطريق التعبير عن المتوقع بالواقع كما فى قوله تعالى ونادى اصحاب الجنة ونظائره او لان السامرى كان قد عزم على ايقاع الفتنة عند ذهاب موسى عليه الصلاة والسلام وتصدى لترتيب مباديها

(ام أردتم)

ام أردتم ان يحل عليكم غضب من ربكم فاخلفتم موعدى قالوا ما اخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا اوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك القى السامرى فاخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا الهكم واله موسى فنسى افلا يرون ان لا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا) اعلم انه تعالى لما قال لموسى وما اعجلك عن قومك وقال موسى فى جوابه وعجلت اليك رب لترضى عرفه الله تعالى ماحدث من القوم بعدان فارقهم مما كان يبعد ان يحدث لوكان معهم فقال فانا قد فتنا قومك من بعدك واضلهم السامرى وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قالت المعتزلة لا يجوز ان يكون المراد ان الله تعالى خلق فيهم الكفر لوجهين (الوجه الاول) الدلائل العقلية الدالة على انه لا يجوز من الله ان يفعل ذلك (الثانى) انه قال واضلهم السامرى ولوكان الله خلق الضلال فيهم لم يكن لفعل السامرى فيه اثر وكان يبطل قوله واضلهم السامرى وايضا فلأن موسى عليه السلام لما طالبهم بذكر سبب تلك الفتنة قال أفطال عليكم العهد ام اردتم ان يحل عليكم غضب من ربكم فلو حصل ذلك بخلق الله تعالى لكان لهم ان يقولوا السبب فيه ان الله خلقه فينا لا ماذكرت فكان يبطل تقسيم موسى عليه السلام وايضا فقال ام اردتم ان يحل عليكم غضب من ربكم ولوكان ذلك بخلقه لاستحال ان يغضب عليهم فيما هو الخالق له ولما بطل ذلك وجب ان يكون لقوله فتنا معنى آخر وذلك لان الفتنة قد تكون بمعنى الامتحان يقال فتنت الذهب بالنار اذا امتحنته بالنار لكى يميز الجيد من الردىء فههنا شدد الله التكليف عليهم وذلك لان السامرى لما اخرج لهم ذلك العجل صاروا مكلفين بان يستدلوا بحدوث جملة العالم والاجسام على ان لها الها ليس بجسم وحينئذ يعرفون ان العجل لا يصلح للالهية فكان هذا التعبد تشديدا فى التكليف فكان فتنة والتشديد فى التكليف موجود قال تعالى أحسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون هذا تمام كلام المعتزلة قال الاصحاب ليس فى ظهور صوت عن عجل متخذ من الذهب شبهة اعظم مما فى الشمس والقمر والدليل الذى ينفى كون الشمس والقمر الهيا اولى بأن ينفى كون ذلك العجل الها فحينئذ لا يكون حدوث ذلك العجل تشديدا فى التكليف فلا يصح حمل الآية عليه فوجب حمله على خلق الضلال فيهم قولهم اضاف الاضلال الى السامرى قلنا أليس ان جميع المسببات العادية تضاف الى اسبابها فى الظاهر وان كان الموجد لها هو الله تعالى فكذا ههنا وايضا قرىء واضلهم السامرى اى واشدهم ضلالا السامرى وعلى هذا لا يبقى للمعتزلة الاستدلال ثم الذى يحسم مادة الشغب التمسك بفصل الداعى على ما سبق تقريره فى هذا الكتاب مرارا كثيرة (المسئلة الثانية) المراد بالقوم ههنا هم الذين خلفهم مع هرون عليه السلام على ساحل البحر وكانوا ستمائة الف افتتنوا بالعجل غير اثنى عشر الفا (المسئلة الثالثة) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية سعيد بن جبير كان السامرى علجا من اهل كرمان وقع الى مصر وكان من

وتمهيد مبا ديها فكانت الفتنة واقعة عند الاخبار بها وقرىء واضلهم السامرى على صيغة التفضيل اى اشدهم ضلالا لانه ضال ومضل والسامرى منسوب الى قبيلة من بنى اسرائيل يقال لها السامرة وقيل كان علجا من كرمان وقيل من اهل باجرما واسمه موسى بن ظفر وكان منافقا قد اظهر الاسلام وكان من قوم يعبدون البقر (فرجع موسى الى قومه) عند رجوعه المعهود اى بعد مااستوفى الاربعين واخذ التوراة لاعقيب الاخبار بالفتنة فسببية ما قبل الفاء لما بعدها انما هى باعتبار قيد الرجوع المستفاد من قوله تعالى (غضبان اسفا) لاباعتبار نفسه وان كانت داخلة عليه حقيقة فان كون الرجوع بعد تمام الاربعين امر مقرر مشهور لايذهب الوهم الى كونه عند الاخبار بالفتنة كما اذاقلت شايعت الحجاج ودعوت لهم بالسلامة فرجعوا سالمين فان احدا لا يرتاب فى ان المراد رجوعهم المعتاد لارجوعهم اثر الدعاء وان سببية الدعاء باعتبار وصف السلامة لاباعتبار نفس الرجوع والاسف الشديد الغضب وقيل الحزين (قال) استئناف مبنى على سؤال ناشىء من حكاية رجوعه كذلك كأنه قيل فاذا فعل بهم فقيل قال (ياقوم الم يعدكم ربكم وعدا حسنا) بان يعطيكم التوراة فيها مافيها من النور والهدى والهمزة لانكار عدم الوعد ونفيه وتقرير وجوده على ابلغ وجه وآكده اى وعدكم بحيث لاسبيل لكم الى

قوم يعبدون البقر والذي عليه الاكثرون انه كان من عظماء بني اسرائيل من قبيلة يقال لها السامرة قال الزجاج وقال عطاء عن ابن عباس بل كان رجلا من القبط جارا لموسى عليه السلام وقد آمن به (المسئلة الرابعة) روى في القصة انهم اقاموا بعد مفارقته عشرين ليلة وحسبوها اربعين مع ايامها وقالوا قد اكملنا العدة ثم كان امر العجل بعد ذلك والتوفيق بين هذا وبين قوله لموسى عند مقدمه فانا قد فتنا قومك من بعدك من وجهين (الاول) انه تعالى اخبر عن الفتنة المترقبة بلفظ الموجودة الكائنة على عادته (الثاني) ان السامري شرع في تدبير الامر لما غاب موسى عليه السلام وعزم على اضلالهم حال مفارقة موسى عليه السلام وكأنه قدر الفتنة موجودة (المسئلة الخامسة) انما رجع موسى عليه السلام بعد ما استوفى الاربعين ذا القعدة وعشر ذي الحجة (المسئلة السادسة) ذكروا في الاسف وجوها (احدها) انه شدة الغضب وعلى هذا التقدير لا يلزم التكرار لان قوله غضبان يفيد اصل الغضب وقوله اسفا يفيد كماله (وثانيها) قال الاكثرون حزنا وجزعا يقال اسف يأسف اسفا اذا حزن فهو آسف (وثالثها) قال قوم الآسف المغتاظ وفرقوا بين الاغتياظ والغضب بأن الله تعالى لا يوصف بالغيظ ويوصف بالغضب من حيث كان الغضب ارادة الاضرار بالمغضوب عليه والغيظ تغير يلحق المغتاظ وذلك لا يصح الا على الاجسام كالضحك والبكاء ثم ان الله تعالى حكى عن موسى عليه السلام انه عاتبهم بعد رجوعه اليهم قالت المعتزلة وهذا يدل على انه ليس المراد من قوله فانا قد فتنا قومك من بعدك انه تعالى خلق الكفر فيهم والا لما عاتبهم بل يجب ان يعاتب الله تعالى قال الاصحاب وقد فعل ذلك بقوله ان هي الا فتنتك ومجموع تلك المعاتبات امور (احدها) قوله يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا وفيه سؤالان (السؤال الاول) قوله ألم يعدكم ربكم هذا الكلام انما يتوجه عليهم لو كانوا معترفين باله آخر سوى العجل اما لما اعتقدوا انه لا اله سواه على ما اخبر الله تعالى عنهم انهم قالوا هذا الهكم واله موسى كيف يتوجه عليهم هذا الكلام (الجواب) انهم كانوا معترفين بالاله لكنهم عبدوا العجل على التأويل الذي يذكره عبدة الاصنام (السؤال الثاني) ما المراد بذلك الوعد الحسن (الجواب) ذكروا وجوها (احدها) ان المراد ما وعدهم من انزال التوراة عليهم ليقفوا على الشرايع والاحكام ويحصل لهم بسبب ذلك مزية فيما بين الناس وهو الذي ذكره الله تعالى فيما تقدم من قوله وواعدناكم جانب الطور الايمن (وثانيها) ان الوعد الحسن هو الوعد الصدق بالثواب على الطاعات (وثالثها) الوعد هو العهد وهو قول مجاهد وذلك العهد هو قوله تعالى ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي الى قوله ثم اهتدى والدليل عليه قوله بعد ذلك أفطال عليكم العهد ام اردتم ان يحل عليكم غضب من ربكم فكأنه قال أنسيتم ذلك الذي قال الله لكم ولا تطغوا فيه (ورابعها) الوعد الحسن ههنا يحتمل ان يكون وعدا حسنا في منافع الدين وان يكون

انكاره والفاء في قوله تعالى (أفطال عليكم العهد) اى الزمان للعطف على مقدر والهمزة لانكار المعطوف ونفيه فقط اى أوعدكم ذلك فطال زمان الانجاز فأخطأتم بسببه (ام اردتم ان يحل) اى يجب (عليكم غضب) شديد لا يقادر قدره كائن (من ربكم) اى من مالك امركم على الاطلاق (فأخلفتم موعدي) اى وعدكم اياى بالثبات على ما امرتكم به الى ان ارجع من الميقات على اضافة المصدر الى مفعوله للقصد الى زيادة تقبيح حالهم فان اخلافهم الوعد الجاري فيما بينهم وبينه عليه السلام من حيث اضافته اليه عليه السلام اشنع منه من حيث اضافته اليهم والفاء لترتيب ما بعدها على كل واحد من شقي الترديد على سبيل البدل كأنه قيل انسيتم الوعد بطول العهد فأخلفتموه خطأ ام اردتم حلول الغضب عليكم فأخلفتموه عمدا واما جعل الموعد مضافا الى فاعله وحمل اخلافه على معنى وجدان الخلف فيه اى فوجدتم الخلف في موعدي لكم بالعود بعد الاربعين فما لا يساعده السباق ولا السياق اصلا (قالوا ما اخلفنا موعدك) اى وعدنا اياك الثبات على ما امرتنا به وايثاره على ان يقال موعدنا على اضافة المصدر الى فاعله لما مر آنفا (بملكنا) اى بأن ملكنا امورنا يعنون انا لو خلينا وامورنا ولم يسول لنا السامري ما سوله مع مساعدة بعض الاحوال لما اخلفنا وقرئ بملكنا بكسر الميم وضمها والكل لغات في مصدر ملكت الشيء

فى منافع الدنيا اما منافع الدين فهو الوعد بانزال الكتاب الشريف الهادى الى الشرائع والاحكام والوعد بحصول الثواب العظيم فى الآخرة واما منافع الدنيا فهو انه تعالى قبل اهلاك فرعون كان قد وعدهم ارضهم وديارهم وقد فعل ذلك ثم قال أفطال عليكم العهد ام اردتم ان يحل عليكم غضب من ربكم فالمراد أفنسيتم ذلك العهد ام تعمدتم المعصية واعلم ان طول العهد يحتمل امورا (احدها) أفطال عليكم العهد بنعم الله تعالى من انجائه اياكم من فرعون وغير ذلك من النعم المعدودة المذكورة فى اوائل سورة البقرة وهذا كقوله فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم (وثانيها) يروى انهم عرفوا ان الاجل اربعون ليلة فجعلوا كل يوم بازاء ليلة وردوه الى عشرين قال القاضى هذا ركيك لان ذلك لا يكاد يشتبه على احد (وثالثها) ان موسى عليه السلام وعدهم ثلاثين ليلة فلما زاد الله تعالى فيها عشرة اخرى كان ذلك طول العهد واما قوله ام اردتم ان يحل عليكم غضب من ربكم فهذا لا يمكن اجراؤه على الظاهر لان احدا لا يريد ذلك ولكن المعصية لما كانت توجب ذلك ومريد السبب مريد للمسبب بالعرض صح هذا الكلام واحتج العلماء بذلك على ان الغضب من صفات الافعال لا من صفات الذات لان صفة ذات الله تعالى لا تنزل فى شئ من الاجسام اما قوله فأخلفتم موعدى فهذا يدل على موعد كان منه عليه السلام مع القوم وفيه وجهان (احدهما) ان المراد ما وعدوه من اللحاق به والمجئ على اثره (والثانى) ما وعدوه من الاقامة على دينه الى ان يرجع اليهم من الطور فعند هذا قالوا ما اخلفنا موعدك بملكنا وفى ان قائل هذا الجواب من هو وجهان (الاول) انهم الذين لم يعبدوا العجل فكأنهم قالوا انا ما اخلفنا موعدك بملكنا اى بامر كنا نملكه وقد يضيف الرجل فعل قريبه الى نفسه كقوله تعالى واذ فرقنا بكم البحر واذ قتلتم نفسا وان كان الفاعل لذلك آباءهم لاهم فكأنهم قالوا الشبهة قويت على عبدة العجل فلم نقدر على منعهم عنه ولم نقدر ايضا على مفارقتهم لانا خفنا ان يصير ذلك سببا لوقوع التفرقة وزيادة الفتنة (الوجه الثانى) ان هذا قول عبدة العجل والمراد ان غيرنا اوقع الشبهة فى قلوبنا وفاعل السبب فاعل المسبب ومخلف الوعد هو الذى اوقع الشبهة فانه كان كالمالك لنا فان قيل كيف يعقل رجوع قريب من ستمائة الف انسان من العقلاء المكلفين عن الدين الحق دفعة واحدة الى عبادة العجل الذى يعرف فسادها بالضرورة ثم ان مثل هذا الجمع لما فارقوا الدين واظهروا الكفر فكيف يعقل رجوعهم دفعة واحدة عن ذلك الدين بسبب رجوع موسى عليه السلام وحده اليهم قلنا هذا غير ممتنع فى حق البله من الناس واعلم ان فى بملكنا ثلاث قراآت قرأ حمزة والكسائى بضم الميم ونافع وعاصم بفتح الميم وابو عمرو وابن عامر وابن كثير بالكسر اما الكسر والفتح فهما واحد وهما لغتان مثل رطل ورطل واما الضم فهو السلطان ثم ان القوم فسروا ذلك العذر المجمل فقالوا ولكنا حملنا اوزارا من زينة القوم قرأ حمزة والكسائى وابو عمرو وعاصم فى رواية ابى بكر حملنا مخففة من الحمل وقرأ ابن كثير ونافع وحفص وابن

ولكنا حملنا اوزارا من زينة القوم) استدراك عما سبق واعتذار عما فعلوا ببيان منشأ الخطأ وقرئ حملنا بالتخفيف اى حملنا احمالا من حلى القبط التى استعرناها منهم حين هممنا بالخروج من مصر باسم العرس وقيل كانوا استعاروها لعيد كان لهم ثم لم يردوها اليهم عند الخروج مخافة ان يقفوا على امرهم وقيل هى ما القاه البحر على الساحل بعد اغراقهم فأخذوها ولعل تسميتهم لها اوزارا لانها تبعات وآثام حيث لم تكن الغنائم تحل حينئذ (فقذفناها) اى فى النار رجاء الخلاص عن ذنبها (فكذلك) اى فمثل ذلك القذف (القى السامرى) اى ما كان معه منها وقد كان اراهم انه ايضا يلقى ما كان معه من الحلى فقالوا ما قالوا على زعمهم وانما كان الذى القاه التربة التى اخذها من اثر الرسول كما سيأتى روى انه قال لهم انما تأخر موسى عنكم لما معكم من الاوزار فالرأى ان نحفر حفيرة ونسجر فيها نارا ونقذف فيها كل ما معنا ففعلوا (فأخرج) اى السامرى (لهم) للقائلين (عجلا) من تلك الحلى المذابة وتأخيره مع كونه مفعولا صريحا عن الجار والمجرور لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر مع ما فيه من نوع طول يخل تقديمه بتجاوب اطراف النظم الكريم فان قوله تعالى (جسدا) اى جثة ذا دم ولحم او جسدا من ذهب لا روح له بدل منه وقوله تعالى (له خوار) اى صوت عجل نعت له (فقالوا) اى السامرى ومن

عامر حملنا مشددة فمن قرأ بالتخفيف فمعناه حملنا مع انفسنا ما كنا استعرناه من القوم ومن قرأ بالتشديد ففيه وجوه (احدها) ان موسى عليه السلام حملهم على ذلك اى امرهم باستعارة الحلى والخروج بها فكأنه الزمهم ذلك (وثانيها) جعلنا كالضامن لها الى ان نؤديها الى حيث يأمرنا الله (وثالثها) ان الله تعالى حملهم ذلك على معنى انه الزمهم فيه حكم المغنم اما الاوزار فهى الاثقال ومن ذلك سمى الذنب وزرا لانه ثقل ثم فيه احتمالات (احدها) انه لكثرتها كانت اثقالا (وثانيها) ان المغانم كانت محرمة عليهم فكان يجب عليهم حفظها من غير فائدة فكانت اثقالا (وثالثها) المراد بالاوزار لا ثام والمعنى حملنا آثاما روى فى الخبر ان هرون عليه السلام قال انها نجسة فتطهروا منها وقال السامرى ان موسى عليه السلام انما احتبس عقوبة بالحلى فيجوز ان يكونوا ارادوا هذا القول وقد يقول الانسان للشئ الذى يلزمه رده هذا كله اثم وذنب (ورابعها) ان ذلك الحلى كان القبط يتزينون به فى مجامع لهم يجرى فيها الكفر لا جرم انها وصفت بكونها اوزارا كما يقال مثله فى آلات المعاصى اما قوله فقذفناها فذكروا فيه وجوها فانهم اين قذفوها (الوجه الاول) قذفوها فى حفرة كان هرون عليه السلام امرهم بجمع الحلى فيها انتظارا لعود موسى عليه السلام (والوجه الثانى) قذفوها فى موضع امرهم السامرى بذلك (والوجه الثالث) فى موضع جمع فيه النار ثم قالوا فكذلك القى السامرى اى فعل السامرى مثل ما فعلنا اما قوله فاخرج لهم عجلا جسدا له خوار فاختلفوا فى انه هل كان ذلك الجسد حيا ام لا فالقول الاول لا لانه لا يجوز اظهار خرق العادة على يد الضال بل السامرى صور صورة على شكل العجل وجعل فيها منافذ ومخارق بحيث تدخل فيها الرياح فيخرج صوت يشبه صوت العجل (والقول الثانى) انه صار حيا وخار كما يخور العجل واحتجوا عليه بوجوه (احدها) قوله فقبضت قبضة من اثر الرسول ولو لم يصر حيا لما بقى لهذا الكلام فائدة (وثانيها) انه تعالى سماه عجلا والعجل حقيقة فى الحيوان وسماه جسدا وهو انما يتناول الحى (وثالثها) انه اثبت له الخوار واجابوا عن حجة الاولين بأن ظهور خوارق العادة على يد مدعى الالهية جائز لانه لا يحصل الالتباس وههنا كذلك فوجب ان لا يمتنع وروى عكرمة عن ابن عباس ان هرون عليه السلام مر بالسامرى وهو يصنع العجل فقال ما تصنع فقال اصنع ما ينفع ولا يضر فادع لى فقال اللهم اعطه ما سأل فلما مضى هرون قال السامرى اللهم انى اسألك ان يخور فخار وعلى هذا التقدير يكون ذلك معجز النبى اما قوله فقالوا هذا الهكم واله موسى ففيه اشكال وهو ان القوم ان كانوا فى الجهالة بحيث اعتقدوا ان ذلك العجل المعمول فى تلك الساعة هو الخالق للسموات والارض فهم مجانين وليسوا بمكلفين ولان مثل هذا الجنون على مثل ذلك الجمع العظيم محال وان لم يعتقدوا ذلك فكيف قالوا هذا الهكم واله موسى وجوابه لعلهم كانوا من الحلولية فجوزوا حلول الاله او حلول صفة من صفاته فى ذلك الجسم وان كان ذلك ايضا فى غاية البعد لان ظهور

(الخوار)

افتتن به اول مارآه (هذا الهكم واله موسى فنسى) اى غفل عنه وذهب يطلبه فى الطور وهذا حكاية لنتيجة فتنة السامرى فعلا وقولا من جهته تعالى قصدا الى زيادة تقريرها ثم ترتيب الانكار عليها لا من جهة القائلين والا لقيل فاخرج لنا والحمل على ان عدولهم الى ضمير الغيبة لبيان ان الاخراج والقول المذكورين للكل لا للعبدة فقط خلاف الظاهر مع انه مخل باعتذارهم فان مخالفة بعضهم للسامرى وعدم افتتانهم بتسويله مع كون الاخراج والخطاب لهم مما يهون مخالفته للمعتذرين فافتتانهم بعد ذلك اعظم جناية واكثر شناعة واما ما قيل من ان المعتذرين هم الذين لم يعبدوا العجل وان نسبة الاخلاف الى انفسهم وهم برآء منه من قبيل قولهم بنو فلان قتلوا فلانا مع ان القاتل واحد منهم كأنهم قالوا ما وجد الاخلاف فيما بيننا بأمر كنا نملكه بل تمكنت الشبهة فى قلوب العبدة حيث فعل السامرى ما فعل فأخرج لهم ما اخرج وقال ما قال فلم نقدر على صرفهم عن ذلك ولم نفارقهم مخافة ازدياد الفتنة فيقضى بفساده سياق النظم الكريم وسياقه وقوله تعالى (أفلا يرون) الخ انكار وتقبيح من جهته تعالى لحال الضالين والمضلين جميعا وتسفيه لهم فيما اقدموا عليه من المنكر الذى لا يشتبه بطلانه واستحالته على احد وهو اتخاذه الها والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام

الخوار لايناسب الالهية ولكن لعل القوم كانوا فى نهاية البلادة والجلافة واما قوله فنسى ففيه وجوه (الاول) انه كلام الله تعالى كانه اخبر عن السامرى انه نسى الاستدلال على حدوث الاجسام وان الاله لايحل فى شئ ولايحل فيه شئ ثم انه سبحانه بين المعنى الذى يجب الاستدلال به وهو قوله أفلايرون ان لايرجع اليهم قولا ولايملك لهم ضرا ولا نفعا اى لم يخطر ببالهم ان من لايتكلم ولايضر ولاينفع لايكون الها ولايكون للاله تعلق به فى الحالية والمحلية (الوجه الثانى) ان هذا قول السامرى وصف به موسى عليه السلام والمعنى ان هذا الهكم واله موسى فنسى موسى ان هذا هو الاله فذهب يطلبه فى موضع آخر وهو قول الاكثرين (الوجه الثالث) فنسى وقت الموعد فى الرجوع اما قوله ان لايرجع اليهم قولا ولايملك لهم ضرا ولانفعا فهذا استدلال على عدم الهيتها بانها لاتتكلم ولاتنفع ولاتضر وهذا يدل على ان الاله لابد وان يكون موصوفا بهذه الصفات وهو كقوله تعالى فى قصة ابراهيم عليه السلام لم تعبد مالايسمع ولايبصر ولايغنى عنك شيئا وان موسى عليه السلام فى اكثر الامر لايعول الا على دلائل ابراهيم عليه السلام بق ههنا بحثان (البحث الاول) قال الزجاج الاختيار ان لايرجع بالرفع بمعنى انه لايرجع وهذا كقوله وحسبوا ان لاتكون فتنة فعموا وصموا بمعنى انه لاتكون وقرئ بالنصب ايضا على ان ان هذه هى الناصبة للافعال (البحث الثانى) هذه الآية تدل على وجوب النظر فى معرفة الله تعالى وقال فى آية اخرى الم يروا انه لايكلمهم ولايهديهم سبيلا وهو قريب فى المعنى من قوله فى ذم عبدة الاصنام ألهم ارجل يمشون بها وليس المقصود من هذا ان العجل لو كان يكلمهم لكان الها لان الشئ يجوز ان يكون مشروطا بشروط كثيرة ففوات واحد منها يقتضى فوات المشروط ولكن حصول الواحد فيها لايقتضى حصول المشروط (الثالث) قال بعض اليهود لعلى عليه السلام مادفنتم نبيكم حتى اختلفتم فقال انما اختلفنا عنه وما اختلفنا فيه وانتم ماجفت اقدامكم من ماء البحر حتى قلتم لنبيكم اجعل لنا الها كما لهم آلهة ❁ قوله تعالى (ولقد قال لهم هرون من قبل ياقوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعونى واطيعوا امرى قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى) اعلم ان هرون عليه السلام انما قال ذلك شفقة منه على نفسه وعلى الخلق اما شفقته على نفسه فلانه كان مأمورا من عند الله بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر وكان مأمورا من عند اخيه موسى عليه السلام بقوله اخلفنى فى قومى واصلح ولاتتبع سبيل المفسدين فلو لم يشتغل بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر لكان مخالفا لامر الله تعالى ولامر موسى عليه السلام وذلك لايجوز اوحى الله تعالى الى يوشع بن نون انى مهلك من قومك اربعين الفا من خيارهم وستين الفا من شرارهم فقال يارب هؤلاء الاشرار فما بال الاخيار فقال انهم لم يغضبوا لغضبى وقال ثابت البنانى قال انس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من اصبح وهمه غير الله تعالى فليس من الله فى شئ ومن اصبح لايهتم بالمسلمين فليس منهم وعن الشعبى

اى ألا يتفكرون فلا يعلمون (ان لايرجع اليهم قولا) اى انه لايرجع اليهم كلاما ولايرد عليهم جوابا فكيف يتوهمون انه اله وقرئ يرجع بالنصب فالرؤية حينئذ بصرية فان ان الناصبة لاتقع بعد افعال اليقين اى ألا ينظرون فلا يبصرون عدم رجعه اليهم قولا من الاقوال وتعليق الابصار بما ذكر مع كونه امرا عدميا للتنبيه على كمال ظهوره المستدعى لمزيد تشنيعهم وتركيك عقولهم وقوله تعالى (ولايملك لهم ضرا ولانفعا) عطف على لايرجع داخل معه فى حيز الرؤية اى أفلايرون انه لايقدر على ان يدفع عنهم ضرا او يجلب لهم نفعا ولا يقدر على اى يضرهم ان لم يعبدوه او ينفعهم ان عبدوه (ولقد قال لهم هرون من قبل) جملة قسمية مؤكدة لما قبلها من الانكار والتشنيع ببيان عتوهم واستعصائهم على الرسول اثر بيان مكابرتهم لقضية العقول اى وبالله لقد نصح لهم هرون ونبههم على كنه الامر من قبل رجوع موسى عليه السلام اليهم وخطابه اياهم بما ذكر من المقالات وقيل من قبل قول السامرى كأنه عليه السلام اول ما ابصره حين طلع من الحفيرة توهم منهم الافتتان به فسارع الى تحذيرهم وقال لهم (ياقوم انما فتنتم به) اى اوقعتم فى الفتنة بالعجل او اضللتم به على توجيه القصر المستفاد من كلمة انما الى نفس الفعل بالقياس الى مقابله الذى يدعيه القوم لا الى قيده المذكور

عن النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد اذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى وقال ابو علي الحسن النوري كنت في بعض المواضع فرأيت زورقا فيها دنان مكتوب عليها لطيف فقلت للملاح ايش هذا فقال انت صوفي فضولي وهذه خمور المعتضد فقلت له اعطني ذلك المدرى فقال لغلامه اعطه حتى ننظر ايش يعمل فأخذت المدرى وصعدت الزورق فكنت اكسر دنا دنا والملاح يصيح حتى بقي واحد فامسكت فجاء صاحب السفينة فأخذني وحملني الى المعتضد وكان سيفه قبل كلامه فلما وقع بصره علي قال من انت قلت المحتسب قال من ولاك الحسبة قلت الذي ولاك الخلافة قال لم كسرت هذه الدنان قلت شفقة عليك اذا لم تصل يدي الى دفع مكروه عنك قال فلم ابقيت هذا الواحد قلت اني لما كسرت هذه الدنان فاني انما كسرتها حمية في دين الله فلما وصلت الى هذا اعجبت فأمسكت ولو بقيت كما كنت لكسرته فقال اخرج يا شيخ فقد وليتك الحسبة فقلت كنت افعله لله تعالى فلا احب ان اكون شرطيا واما الشفقة على المسلمين فلان الانسان يجب ان يكون رقيق القلب مشفقا على ابناء جنسه واي شفقة اعظم من ان يرى جما يتهافتون على النار فيمنعهم منها وعن ابي سعيد الخدري عنه عليه السلام يقول الله تعالى اطلبوا الفضل عند الرحماء من عبادي تعيشوا في اكنافهم فاني جعلت فيهم رحمتي ولا تطلبوها في القاسية قلوبهم فان فيهم غضبي وعن عبد الله بن ابي اوفى قال خرجت أريد النبي صلى الله عليه وسلم فاذا ابو بكر وعمر معه فجاء صغير فبكى فقال لعمر ضم الصبي اليك فانه ضال فأخذه عمر فاذا امرأة تولول كاشفة عن رأسها جزعا على ابنها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ادرك المرأة فناداها فجاءت فأخذت ولدها وجعلت تبكي والصبي في حجرها فالتفتت فرأت النبي صلى الله عليه وسلم فاستحيت فقال عليه السلام عند ذلك اترون هذه رحيمة بولدها قالوا يا رسول الله كفى بهذه رحمة فقال والذي نفسي بيده ان الله ارحم بالمؤمنين من هذه بولدها وروي انه بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ومعه اصحابه اذ نظر الى شاب على باب المسجد فقال من اراد ان ينظر الى رجل من اهل النار فلينظر الى هذا فسمع الشاب ذلك فولى فقال الهي وسيدي هذا رسولك يشهد علي باني من اهل النار وانا اعلم انه صادق فاذا كان الامر كذلك فأسألك ان تجعلني فداء امة محمد صلى الله عليه وسلم وتشعل النار بي حتى تبر يمينه ولا تشعل النار باحد آخر فهبط جبريل عليه السلام وقال يا محمد بشر الشاب باني قد انقذته من النار بتصديقه لك وفدائه امتك بنفسه وشفقته على الخلق اذا ثبت ذلك فاعلم ان الامر بالمعروف والشفقة على المسلمين واجب ثم ان هرون عليه السلام رأى القوم متهافتين على النار ولم يبال بكثرتهم ولا بقوتهم بل صرح بالحق فقال يا قوم انما فتنتم به الآية وههنا دقيقة وهي ان الرافضة تمسكوا بقوله عليه السلام لعلي انت مني بمنزلة هرون من موسى ثم ان هرون ما منعته التقية في مثل هذا الجمع بل صعد المنبر وصرح

بالقياس الى قيد آخر على معنى انما فعل بكم الفتنة لا الارشاد الى الحق لا على معنى انما فتنتم بالعجل لا بغيره وقوله تعالى (وان ربكم الرحمن) بكسر ان عطفا على انما ارشاد لهم الى الحق اثر زجرهم عن الباطل والتعرض لعنوان الربوبية والرحمة للاعتناء باستمالتهم الى الحق كما ان التعرض لوصف العجل للاهتمام بالزجر عن الباطل اي ان ربكم المستحق للعبادة هو الرحمن لا غير والفاء في قوله تعالى (فاتبعوني) لترتيب ما بعدها على ما قبلها من مضمون الجملتين اي اذا كان الامر كذلك فاتبعوني في الثبات على الدين (واطيعوا امري) هذا واتركوا عبادة ما عرفتم شأنه (قالوا) في جواب هرون عليه السلام (لن نبرح عليه) على العجل وعبادته (عاكفين) مقيمين (حتى يرجع الينا موسى) جعلوا رجوعه عليه السلام اليهم غاية لعكوفهم على عبادة العجل لكن لا على طريق الوعد بتركها عند رجوعه عليه السلام بل بطريق التعلل والتسويف وقد دسوا تحت ذلك انه عليه السلام لا يرجع بشيء مبين تعويلا على مقالة السامري روي انهم لما قالوا اعتزلهم هرون عليه السلام في اثني عشر الفا وهم الذين لم يعبدوا العجل فلما رجع موسى عليه السلام وسمع الصياح وكانوا يرقصون حول العجل قال للسبعين الذين كانوا معه هذا صوت الفتنة فقال لهم ما قال وسمع منهم ما قالوا وقوله تعالى

بالحق ودعا الناس الى متابعة نفسه والمنع من متابعة غيره فلو كانت امة محمد صلى الله عليه وسلم على الخطأ لكان يجب على على عليه السلام ان يفعل مافعله هرون عليه السلام وان يصعد على المنبر من غير تقية وخوف وان يقول فاتبعونى واطيعوا امرى فلما لم يفعل ذلك علمنا ان الامة كانوا على الصواب واعلم ان هرون عليه السلام سلك فى هذا الوعظ احسن الوجوه لانه زجرهم عن الباطل اولا بقوله انما فتنتم به ثم دعاهم الى معرفة الله تعالى ثانيا بقوله وان ربكم الرحمن ثم دعاهم ثالثا الى معرفة النبوة بقوله فاتبعونى ثم دعاهم الى الشرائع رابعا بقوله واطيعوا امرى وهذا هو الترتيب الجيد لانه لابد قبل كل شئ من اماطة الاذى عن الطريق وهو ازالة الشبهات ثم معرفة الله تعالى فانها هى الاصل ثم النبوة ثم الشريعة فثبت ان هذا الترتيب على احسن الوجوه وانما قال وان ربكم الرحمن فخص هذا الموضع باسم الرحمن لانه كان ينبههم بأنهم متى تابوا قبل الله توبتهم لانه هو الرحمن الرحيم ومن رحمته ان خلصهم من آفات فرعون ثم انهم لجهلهم قابلوا هذا الترتيب الحسن فى الاستدلال بالتقليد والجحود فقالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى كأنهم قالوا لانقبل حجتك ولكن نقبل قول موسى وعادة المقلد ليس الا ذلك * قوله تعالى (قال يا هرون مامنعك اذ رأيتهم ضلوا ان لاتتبعن افعصيت امرى قال يا ابن ام لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى انى خشيت ان تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى) اعلم ان الطاعنين فى عصمة الانبياء عليهم السلام يتمسكون بهذه الآية من وجوه (احدها) ان موسى عليه السلام اما ان يكون قدامر هرون باتباعه اولم يأمره فان أمره به فاما ان يكون هرون قد اتبعه اولم يتبعه فان اتبعه كانت ملامة موسى لهرون معصية وذنبا لان ملامة غير المجرم معصية وان لم يتبعه كان هرون تاركا للواجب فكان فاعلا للمعصية واما ان قلنا ان موسى عليه السلام ما أمره باتباعه كانت ملامته اياه بترك الاتباع معصية فثبت ان على جميع التقديرات يلزم اسناد المعصية اما الى موسى اوالى هرون (وثانيها) قول موسى عليه السلام افعصيت امرى استفهام على سبيل الانكار فوجب ان يكون هرون قد عصاه وان يكون ذلك العصيان منكرا والا لكان موسى عليه السلام كاذبا وهو معصية فاذا فعل هرون ذلك فقد فعل المعصية (وثالثها) قوله يا ابن ام لاتأخذ بلحيتى ولا برأسى وهذا معصية لان هرون عليه السلام قد فعل ماقدر عليه من النصيحة والوعظ والزجر فان كان موسى عليه السلام قد بحث عن الواقعة وبعد ان علم ان هرون قد فعل ماقدر عليه كان الاخذ برأسه ولحيته معصية وان فعل ذلك قبل تعرف الحال كان ذلك ايضا معصية (ورابعها) ان هرون عليه السلام قال لاتأخذ بلحيتى ولا برأسى فان كان الاخذ بلحيته وبرأسه جائزا كان قول هرون لاتأخذ منعا له عما كان له ان يفعله فيكون ذلك معصية وان لم يكن ذلك الاخذ جائزا كان موسى عليه السلام فاعلا للمعصية فهذه اسئلة لطيفة فى هذا الباب والجواب عن الكل انا بينا فى سورة البقرة فى تفسير قوله تعالى فأزلهما

(قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية جوابهم (٩٧) لهرون عليه السلام كأنه قيل فماذا قال موسى لهرون عليهما السلام حين سمع جوابهم له وهل رضى بسكوته بعد ماشاهد منهم ماشاهد فقيل قال له وهو مغتاظ قد اخذ بلحيته ورأسه (يا هرون مامنعك اذ رأيتهم ضلوا) بعبادة العجل وبلغوا من المكابرة الى ان شافهوك بتلك المقالة الشنعاء (ان لا تتبعن) اى ان تتبعنى على ان لا مزيدة وهو مفعول ثان لمنع وهو عامل فى اذ اى اى شئ منعك حين رؤيتك لضلالهم من ان تتبعنى فى الغضب لله تعالى والمقاتلة مع من كفر به وقيل المعنى ماحملك على ان لاتتبعنى فان المنع عن الشئ مستلزم للحمل على مقابله وقيل مامنعك ان تلحقنى وتخبرنى بضلالهم فتكون مفارقتك مزجرة لهم وفيه ان نصائح هرون عليه السلام حيث لم تزجرهم عما كانوا عليه فلأن لاتزجرهم مفارقته اياهم عنه اولى والاعتذار بأنهم اذا علموا انه يلحقه ويخبره بالقصة يخافون رجوع موسى عليه السلام فينزجروا عن ذلك بمعزل من حيز القبول كيف لا وهم قد صرحوا بأنهم عاكفون عليه الى حين رجوعه عليه السلام (افعصيت امرى) اى بالصلابة فى الدين والمحاماة عليه فان قوله له عليهما السلام اخلفنى متضمن للامر بهما حتما فان الخلافة لاتتحقق الا بمباشرة الخليفة ما كان يباشره المستخلف لو كان حاضرا والهمزة للانكار التوبيخى والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام اى الم تتبعنى او اخالفتنى فعصيت امرى (قال يا ابن ام) خص الام بالاضافة استعطافا لحقها وترقيقا لقلبه لا لما قيل من انه كان اخاه لام فان الجمهور على انهما كانا شقيقين (١٣) (را) (س) (لاتأخذ بلحيتى ولا برأسى) اى ولا بشعر رأسى روى انه عليه

الشيطان عنها انواعا من الدلائل الجلية فى انه لا يجوز صدور المعصية من الانبياء وحاصل هذه الوجوه تمسك بظواهر قابلة للتأويل ومعارضة ما يبعد عن التأويل بما يتسارع اليه التأويل غير جائز اذا ثبتت هذه المقدمة فاعلم ان لنا فى الجواب عن هذه الاشكالات وجوها (احدها) انا وان اختلفنا فى جواز المعصية على الانبياء لكن اتفقنا على جواز ترك الاولى عليهم واذا كان كذلك فالفعل الذى يفعله احدهما و يمنعه الآخر واعنى بهما موسى وهرون عليهما السلام لعله كان احدهما اولى والآخر كان ترك الاولى فلذلك فعله أحدهما وتركه الآخر فان قيل هذا التأويل غير جائز لان كل واحد منهما كان جازما فيما يأتى به فعلا كان او تركا وفعل المندوب وتركه لا يجزم به قلنا تقييد المطلق بالدليل غير ممتنع فنحن نحمل ذلك الجزم فى الفعل والترك على ان المراد افعل ذلك او اتركه ان كنت تريد الاصلح وقد يترك ذلك الشرط اذا كان تواطؤهما على رعايته معلوما متقررا (وثانيها) ان موسى عليه السلام اقبل وهو غضبان على قومه فأخذ برأس اخيه وجره اليه كما يفعل الانسان بنفسه مثل ذلك عند الغضب فان الغضبان المتفكر قد يعض على شفتيه و يفتل اصابعه ويقبض على لحيته فاجرى موسى عليه السلام اخاه هرون مجرى نفسه لانه كان اخاه وشريكه فصنع به ما يصنع الرجل بنفسه فى حال الفكر والغضب فاما قوله لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى فلا يمتنع ان يكون هرون عليه السلام خاف من ان يتوهم بنو اسرائيل من سوء ظنهم انه منكر عليه غير معاون له ثم اخذ فى شرح القصة فقال انى خشيت ان تقول فرقت بين بنى اسرائيل (وثالثها) ان بنى اسرائيل كانوا على نهاية سوء الظن بموسى عليه السلام حتى ان هرون غاب عنهم غيبة فقالوا لموسى عليه السلام انت قتلته فلما وعد الله تعالى موسى عليه السلام ثلاثين ليلة واتمها بعشر وكتب له فى الالواح من كل شئ ثم رجع فرأى فى قومه ما رأى فأخذ برأس اخيه ليدنيه فيتفحص عن كيفية الواقعة فخاف هرون عليه السلام ان يسبق الى قلوبهم ما لا اصل له فقال اشفاقا على موسى لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى لئلا يظن القوم ما لا يليق بك (ورابعها) قال صاحب الكشاف كان موسى عليه السلام رجلا حديدا مجبولا على الحدة والخشونة والتصلب فى كل شئ شديد الغضب لله تعالى ولدينه فلم يتمالك حين رأى قومه يعبدون عجلا من دون الله تعالى من بعد ما رأوا من الآيات العظام ان القى الواح التوراة لما غلب على ذهنه من الدهشة العظيمة غضبا لله تعالى وحمية وعنف بأخيه وخليفته على قومه فاقبل عليه اقبال العدو المكاشر واعلم ان هذا الجواب ساقط لانه يقال هب انه كان شديد الغضب ولكن مع ذلك الغضب الشديد هل كان يبقى عاقلا مكلفا ام لا فان بقى عاقلا مكلفا فالاسئلة باقية بتمامها اكثر ما فى الباب انك ذكرت انه اتى بغضب شديد وذلك من جملة المعاصى فقد زدت اشكالا آخر فان قلتم بأنه فى ذلك الغضب لم يبق عاقلا ولا مكلفا فهذا مما لا يرتضيه مسلم البتة فهذه أجوبة من لم يجوز الصغائر واما من جوزها فلا شك فى سقوط السؤال والله اعلم اما قوله ما منعك

السلام اخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله من شدة غيظه وفرط غضبه لله وكان (٩٨) عليه السلام حديدا متصلبا فى كل شئ فلم يتمالك حين

رآهم يعبدون العجل ففعل ما فعل وقوله تعالى (انى خشيت) الخ استئناف سيق لتعليل موجب النهى ببيان الداعى الى ترك القتال وتحقيق انه غير عاص لامر ، بل ممتثل به اى انى خشيت لو قاتلت بعضهم ببعض وتفانوا وتفرقوا (ان تقول فرقت بين بنى اسرائيل) برأيك مع كونهم ابناء واحد كما ينبئ عنه ذكرهم بذلك العنوان دون القوم ونحوه وأراد عليه السلام بالتفريق ما يستتبعه القتال من التفريق الذى لا يرجى بعده الاجتماع (ولم ترقب قولى) يريد به قوله عليه السلام اخلفنى فى قومى واصلح الخ يعنى انى رأيت ان الاصلاح فى حفظ الدهماء والمداراة معهم الى ان ترجع اليهم فلذلك استأنيتك لتكون انت المتدارك للامر حسبما رأيت لاسيما وقد كانوا فى غاية القوة ونحن على القلة والضعف كما يعرب عنه قوله تعالى ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى (قال) استئناف وقع جوابا عما نشأ من حكاية ما سلف من اعتذار القوم باسناد الفساد الى السامرى واعتذار هرون عليه السلام كأنه قيل فماذا صنع موسى عليه السلام بعد سماع ما حكى من الاعتذارين واستقرار اصل الفتنة على السامرى فقيل قال موبخا له هذا شأنهم (فما خطبك يا سامرى) اى ما شأنك وما مطلوبك مما فعلت خاطبه عليه السلام بذلك ليظهر للناس بطلان كيده باعترافه ويفعل به وبما صنعه من العقاب ما يكون نكالا للمفتونين به ولمن خلفهم من الامم (قال) اى السامرى مجيبا له

عليه السلام (بصرت بما لم يبصروا به) بضم الصاد فيهما وقرئ بكسرها فى الاول وفتحها فى الثانى وقرئ بالتاء على الوجهين على خطاب (اذ)

اذرأيتهم ضلوا ان لاتتبعني فقيه وجهان (الاول) ان لاصلة والمراد مامنعك ان تتبعني
(والثانى) ان يكون المراد مادعاك الى ان لاتتبعنى فأقام منعك مقام دعاك وفى الاتباع
قولان (احدهما) مامنعك من اتباعى بمن اطاعك واللحوق بى وترك المقام بين اظهرهم
وهذا قول ابن عباس فى رواية عطاء (والثانى) ان تتبعنى فى وصيتى اذقلت لك اخلفنى فى
قومى واصلح ولاتتبع سبيل المفسدين فلم تركت قتالهم وتأديبهم وهذا قول مقاتل ثم قال
افعصيت امرى ومعناه ظاهر وهذا يدل على ان تارك المأمور به عاص والعاصى مستحق
للعقاب لقوله ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها ولقوله ومن يعص الله
ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها فمجموع الآيتين يدل على ان الامر للوجوب
فأجاب هرون عليه السلام وقال يا ابن ام قيل انما خاطبه بذلك ليدفعه عنه فيتركه وقيل
كان اخاه لامه ثم قال لاتأخذ بلحيتى ولا برأسى واعلم انه ليس فى القرآن دلالة على انه فعل ذلك
فان النهى عن الشئ لايدل على كون المنهى فاعلا للمنهى عنه كقوله ولاتطع الكافرين
والمنافقين وقوله لئن اشركت ليحبطن عملك والذى فيه انه اخذ برأس اخيه يجره اليه
وهذا القدر لايدل على الاستخفاف به بل قد يفعل ذلك لسائر الاغراض على مابيناه ومن
الناس من يقول انه اخذ ذؤابتيه بيمينه ولحيته بيساره ثم قال انى خشيت ان تقول فرقت
بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى ولقائل ان يقول ان قول موسى عليه السلام مامنعك ان
لاتتبعنى افعصيت امرى يدل على انه امره بشئ فكيف يحسن فى جوابه ان يقال انما لم
امتثل قولك خوفا من ان تقول ولم ترقب قولى فهل يجوز مثل هذا الكلام على العاقل
(والجواب) لعل موسى عليه السلام انما امره بالذهاب اليه بشرط ان لايؤدى ذلك
الى فساد فى القوم فلما قال موسى مامنعك ان لاتتبعنى قال لانك انما امرتنى باتباعك اذا
لم يحصل الفساد فلو جئتك مع حصول الفساد ما كنت مراقبا لقولك * قال الامام ابو
القاسم الانصارى الهداية انفع من الدلالة فان السحرة كانوا اجانب عن الايمان وما رأوا
الآية واحدة فآمنوا وتحملوا العذاب الشديد فى الدنيا ولم يرجعوا عن الايمان واما
قومه فانهم رأوا انقلاب العصا ثعبانا والتقم كل ماجمعه السحرة ثم عاد عصا ورأوا اعتراف
السحرة بأن ذلك ليس بسحر وانه امر الهى ورأوا الآيات التسع مدة مديدة ثم رأوا
انفراق البحر اثنى عشر طريقا وان الله تعالى انجاهم من الغرق واهلك اعداءهم مع كثرة
عددهم ثم ان هؤلاء مع ماشاهدوا من هذه الآيات كما خرجوا من البحر ورأوا قوما يعبدون
البقر قالوا اجعل لنا الها كما لهم آلهة ولما سمعوا صوتا من عجل عكفوا على عبادته وذلك
يدل على انه لايحصل الغرض بالدلائل بل بالهداية قرأ حمزة والكسائى يا ابن امِ بكسر الميم
والاضافة ودلت كسرة الميم على الياء والباقون بالفتح وتقديره يا ابن اماه والله اعلم

* قوله تعالى (قال فما خطبك يا سامرى قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من اثر
الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى قال فاذهب فان لك فى الحياة ان تقول لامساس

موسى عليه السلام وقومه اي علمت مالم يعلمه القوم (٩٩) وفطنت لما لم يفطنوا له اورأيت مالم يروه وهو الانسب بما سيأتى من قوله
وكذلك سولت لى نفسى لاسيما
على القراءة بالخطاب فان ادعاء
علم مالم يعلمه موسى عليه السلام
جراءة عظيمة لاتليق بشأنه ولا بمقامه
بخلاف ادعاء رؤية مالم يره عليه
السلام فانها يقع بحسب مايتفق وقد
كان رأى ان جبريل عليه السلام
جاء راكب فرس وكان كلما رفع
الفرس يديه او رجليه على الطريق
اليبس يخرج من تحته النبات فى
الحال فعرف ان له شأنا فأخذ من
موطئه حفنة وذلك قوله تعالى
(فقبضت قبضة من اثر الرسول)
وقرئ من اثر فرس الرسول اى
من تربة موطئ فرس الملك الذى
ارسل اليك ليذهب بك الى الطور
ولعل ذكره بعنوان الرسالة
للاشعار بوقوفه على مالم يقف عليه
القوم من الاسرار الالهية تأكيدا
لما صدر به مقالته والتنبيه على
وقت اخذ ما اخذه والقبضة المرة
من القبض اطلقت على المقبوض
مرة وقرئ بضم القاف وهو اسم
المقبوض كالغرفة والمضغة وقرئ
فقبصت قبصة بالصاد المهملة
والاول للاخذ بجميع الكف
والثانى بأطراف الاصابع
ونحوهما الخضم والقضم (فنبذتها)
اى فى الحلى المذابة فكان ما كان
(وكذلك سولت لى نفسى) اى
مافعلته من القبض والنبذ فقوله
تعالى ذلك اشارة الى مصدر الفعل
المذكور بعده ومحل كذلك
فى الاصل النصب على المصدر
تشبيهى اى نعت لمصدر محذوف
والتقدير سولت لى نفسى تسويلا
كائنا مثل ذلك التسويل فقدم
على الفعل لافادة القصر واعتبرت
الكاف مقحمة لافادة تأكيد ما
افاده اسم الاشارة من الفخامة
فصار نفس المصدر المؤكد لانعتاله اى ذلك التزيين البديع زينت لى نفسى مافعلته لاتزيينا ادنى منه ولذلك

وان لك موعدا لن تخلفه وانظر الى الهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا انما الهكم الله الذى لا اله الا هو وسع كل شئ علما) اعلم ان موسى عليه السلام لما فرغ من مخاطبة هرون عليه السلام وعرف العذر له فى التأخير اقبل على السامرى ويجوز ان يكون قد كان حاضرا مع هرون عليه السلام فلما قطع موسى الكلام مع هرون اخذ فى التكلم مع السامرى ويجوز ان يكون بعيدا ثم حضر السامرى من بعد او ذهب اليه موسى ليخاطبه فقال موسى عليه السلام ما خطبك يا سامرى والخطب مصدر خطب الامر اذا طلبه فاذا قيل لمن يفعل شيئا ما خطبك معناه ما طلبك له والغرض منه الانكار عليه وتعظيم صنعه ثم ذكر السامرى عذره فى ذلك فقال بصرت بما لم يبصروا به وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرئ بصرت بما لم يبصروا به بالكسر وقرأ حمزة والكسائى بما لم تبصروا بالتاء المعجمة من فوق والباقون بالياء اى بما لم يبصر به بنو اسرائيل (المسئلة الثانية) فى الابصار قولان قال ابو عبيدة علمت بما لم يعلموا به ومنه قولهم رجل بصير اى عالم وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما وقال الزجاج فى تقريره ابصرته بمعنى رأيته وبصرت به بمعنى صرت به بصيرا عالما وقال آخرون رأيت ما لم يروه فقوله بصرت به بمعنى ابصرته وأراد انه رأى دابة جبريل عليه السلام فأخذ من موضع حافر دابته قبضة من تراب ثم قال فقبضت قبضة من اثر الرسول فنبذتها وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ الحسن قبضة بضم القاف وهى اسم المقبوض كالغرفة والمضغة واما القبضة فالمرة من القبض واطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر كضرب الامير وقرئ ايضا فقبصت قبصة بالضاد والصاد فالضاد بجميع الكف والصاد باطراف الاصابع ونظيرهما الخضم والقضم الخاء بجميع الفم والقاف بمقدمه قرأ ابن مسعود من اثر فرس الرسول (المسئلة الثانية) عامة المفسرين قالوا المراد بالرسول جبريل عليه السلام وأراد بأثره التراب الذى اخذه من موضع حافر دابته ثم اختلفوا انه متى رآه فقال الاكثرون انما رآه يوم فلق البحر وعن على عليه السلام ان جبريل عليه السلام لما نزل ليذهب بموسى عليه السلام الى الطور ابصره السامرى من بين الناس واختلفوا فى ان السامرى كيف اختص برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته من بين سائر الناس فقال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية الكلبى انما عرفه لانه رآه فى صغره وحفظه من القتل حين امر فرعون بذبح اولاد بنى اسرائيل فكانت المرأة تلد وتطرح ولدها حيث لا يشعر به آل فرعون فتأخذ الملائكة الولدان فيربونهم حتى يترعرعوا ويختلطوا بالناس فكان السامرى ممن اخذه جبريل عليه السلام وجعل كف نفسه فى فيه وارتضع منه العسل واللبن فلم يزل يختلف اليه حتى عرفه فلما رآه عرفه قال ابن جريج فعلى هذا قوله بصرت بما لم يبصروا به بمعنى رأيت ما لم يروه ومن فسر الكلمة بالعلم فهو صحيح ويكون المعنى علمت ان تراب فرس جبريل عليه السلام له خاصية الاحياء قال ابو مسلم الاصفهانى ليس فى القرآن تصريح بهذا الذى

فعله وحاصل جوابه ان ما فعله العاصد وغيره بمحض اتباع هوى النفس الامارة بالسوء واغوائها لا بشئ آخر من البرهان العقلى او الالهام الالهى فعند ذلك (قال) عليه السلام (فاذهب) اى من بين الناس وقوله تعالى (فان لك فى الحياة) الخ تعليل لموجب الامر وفى متعلقة بالاستقرار فى لك اى ثابت لك فى الحياة او بمحذوف وقع حالا من الكاف والعامل معنى الاستقرار فى الظرف المذكور لاعتماده على ما هو مبتدأ معنى لا بقوله تعالى (ان تقول لامساس) لمكان ان اى ثابت لك كائنا فى الحياة اى مدة حياتك ان تفارقهم مفارقة كلية لكن لا بحسب الاختيار بموجب التكليف بل بحسب الاضطرار الملجئ اليها وذلك انه تعالى رماه بداء عقام لا يكاد يمس احدا او يمسه احد كائنا من كان الا حم من ساعته حمى شديدة فتحامى الناس وتحاموه وكان يصيح باقصى طوقه لامساس وحرم عليهم ملاقاته ومواجهته ومكالمته ومبايعته وغيرها مما يعتاد جريانه فيما بين الناس من المعاملات وصار بين الناس اوحش من القاتل اللاجئ الى الحرم ومن الوحش النافر فى البرية ويقال ان قومه باق فيهم تلك الحالة الى اليوم وقرئ لامساس كفجار وهو علم للمسة ولعل السر فى مقابلة جنايته بتلك العقوبة خاصة ما بينهما من مناسبة التضاد فانه لما انشأ الفتنة بما كانت ملابسته سببا لحياة الموات عوقب بما يضاده حيث جعلت ملابسته سببا للحمى التى هى من اسباب موت الاحياء (وان لك موعدا) اى فى الآخرة (لن تخلفه) اى لن يخلفك الله ذلك الوعد بل ينجزه لك البتة بعد ما عاقبك فى الدنيا وقرئ بكسر اللام والاظهر ان المعنى اختلفت الموعد اى وجدته خلفا وقرئ بالنون على حكاية قوله (ذكر)

ذكره المفسرون فههنا وجه آخر وهو ان يكون المراد بالرسول موسى عليه السلام وباثره سنته ورسمه الذى امر به فقد يقول الرجل فلان يقفو أثر فلان ويقبض أثره اذا كان يمتثل رسمه والتقدير ان موسى عليه السلام لما اقبل على السامرى باللوم والمسئلة عن الامر الذى دعاه الى اضلال القوم فى باب العجل فقال بصرت بما لم يبصروا به اى عرفت ان الذى انتم عليه ليس بحق وقد كنت قبضت قبضة من اثرك ايها الرسول اى شيئا من سنتك ودينك فقذفته اى طرحته فعند ذلك اعلمه موسى عليه السلام بما له من العذاب فى الدنيا والآخرة وانما اورد بلفظ الاخبار عن غائب كما يقول الرجل لرئيسه وهو مواجه له ما يقول الامير فى كذا وبماذا يأمر الامير واما دعاؤه موسى عليه السلام رسولا مع جحده وكفره فعلى مثل مذهب من حكى الله تعالى عنه قوله يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون وان لم يؤمنوا بالانزال واعلم ان هذا القول الذى ذكره ابو مسلم ليس فيه الا مخالفة المفسرين ولكنه اقرب الى التحقيق لوجوه (احدها) ان جبريل عليه السلام ليس بمشهور باسم الرسول ولم يجر له فيما تقدم ذكر حتى تجعل لام التعريف اشارة اليه فاطلاق لفظ الرسول لارادة جبريل عليه السلام كأنه تكليف بعلم الغيب (وثانيها) انه لابد فيه من الاضمار وهو قبضة من اثر حافر فرس الرسول والاضمار خلاف الاصل (وثالثها) انه لابد من التعسف فى بيان ان السامرى كيف اختص من بين جميع الناس برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته ثم كيف عرف ان لتراب حافر فرسه هذا الاثر والذى ذكروه من ان جبريل عليه السلام هو الذى رباه فبعيد لان السامرى ان عرف جبريل حال كمال عقله عرف قطعا ان موسى عليه السلام نبى صادق فكيف يحاول الاضلال وان كان ما عرفه حال البلوغ فاى منفعة لكون جبريل عليه السلام مربياله حال الطفولية فى حصول تلك المعرفة (ورابعها) انه لو جاز اطلاع بعض الكفرة على تراب هذا شأنه لكان لقائل ان يقول فلعل موسى عليه السلام اطلع على شئ آخر يشبه ذلك فلاجله اتى بالمعجزات ويرجع حاصله الى سؤال من يطعن فى المعجزات ويقول لم لا يجوز ان يقال انهم لاختصاصهم بمعرفة بعض الادوية التى لها خاصية ان تفيد حصول تلك المعجزة أتوا بتلك المعجزة وحينئذ ينسد باب المعجزات بالكلية اما قوله وكذلك سولت لى نفسى فالمعنى فعلت ما دعتنى اليه نفسى وسولت مأخوذ من السؤال فالمعنى لم يدعنى الى ما فعلته احد غيرى بل اتبعت هواى فيه ثم ان موسى عليه السلام لما سمع ذلك من السامرى اجابه بأن بين حاله فى الدنيا والآخرة وبين حال الهه اما حاله فى الدنيا فقوله فاذهب فان لك فى الحياة ان تقول لا مساس وفيه وجوه (احدها) ان المراد انى لا امس ولا أمس قالوا واذا مسه احدهم الماس والممسوس فكان اذا أراد احد ان يمسه صاح خوفا من الحمى وقال لا مساس (وثانيها) ان المراد بقوله لا مساس المنع من ان يخالط احدا او يخالطه احد وقال مقاتل ان موسى عليه السلام اخرجه من محلة بنى اسرائيل وقال له اخرج انت واهلك فخرج طريدا الى البرارى

عز وجل (وانظر الى الهك الذى ظلت عليه عاكفا) اى ظلت مقيما على عبادته فحذفت اللام الاولى تخفيفا وقرئ بكسر الظاء بنقل حركة اللام اليها (لنحرقنه) جواب قسم محذوف اى بالنار ويؤيده قراءة لنحرقنه من الاحراق وقيل بالمبرد على انه مبالغة فى حرق اذا برد بالمبرد ويعضده قراءة لنحرقنه (ثم لننسفنه) اى لنذرينه وقرئ بضم السين (فى اليم) رمادا او مبرودا كأنه هباء (نسفا) بحيث لا يبقى منه عين ولا اثر ولقد فعل عليه السلام ذلك كله حينئذ كما يشهد به الامر بالنظر وانما لم يصرح به تنبيها على كمال ظهوره واستحالة الخلف فى وعده المؤكد باليمين (انما الهكم الله) استئناف مسوق لتحقيق الحق اثر ابطال الباطل بتلوين الخطاب وتوجيهه الى الكل اى انما معبودكم المستحق للعبادة الله (الذى لا اله) فى الوجود لشئ من الاشياء (الا هو) وحده من غير ان يشاركه شئ من الاشياء بوجه من الوجوه التى من جملتها احكام الالوهية وقرئ الله لا اله الا هو الرحمن رب العرش وقوله تعالى (وسع كل شئ علما) اى وسع علمه كل ما من شأنه ان يعلم بدل من الصلة كأنه قيل انما الهكم الله الذى وسع كل شئ علما لا غيره كائنا ما كان فيدخل فيه العجل دخولا اوليا وقرئ وسع بالتشديد فيكون انتصاب علما على المفعولية لانه على القراءة الاولى فاعل حقيقة وبنقل الفعل الى التعدية الى المفعولين صار الفاعل مفعولا اول كأنه قيل وسع علمه كل شئ وبه تم حديث موسى عليه السلام المذكور لتقرير

• اعترض الواحدى عليه فقال الرجل اذا صار مهجورا فلا يقول هو لامساس وانما يقال له ذلك وهذا الاعتراض ضعيف لان الرجل اذا بقى طريدا فريدا فاذا قيل له كيف حالك فله ان يقول لامساس اى لا يماسنى احد ولا اماس احدا والمعنى انى اجعلك ياسامرى فى المطرودية بحيث لو أردت ان تخبر غيرك عن حالك لم تقل الا انه لامساس وهذا الوجه احسن واقرب الى نظم الكلام من الاول (وثالثها) ماذكره ابومسلم وهو انه يجوز فى حمله ما اريد مسى النساء فيكون من تعذيب الله اياه انقطاع نسله فلا يكون له ولد يؤنسه فيخليه الله تعالى من زينتى الدنيا اللتين ذكرهما بقوله المال والبنون زينة الحياة الدنيا وقرئ لامساس بوزن فجار وهو اسم علم للمرة الواحدة من المس واما شرح حاله فى الآخرة فهو قوله وان لك موعدا لن تخلفه والموعد بمعنى الوعد اى هذه عقوبتك فى الدنيا ثم لك الوعد بالمصير الى عذاب الآخرة فأنت ممن خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين قرأ اهل المدينة والكوفة لن تخلفه بفتح اللام اى لن تخلف ذلك الوعد اى سيأتيك به الله ولن يتأخر عنك وقرأ ابن كثير وابو عمرو والحسن بكسر اللام اى تجئ اليه ولن تغيب عنه ولن تخلف عنه وفتح اللام اختيار ابى عبيد كأنه قال موعدا حقا لاخلف فيه وعن ابن مسعود لن نخلفه بالنون فكأنه عليه السلام حكى قول الله تعالى بلفظه كما مر بيانه فى قوله لأهب لك واما شرح حال الهه فهو قوله وانظر الى الهك الذى ظلت عليه عاكفا قال المفضل فى ظلت انه يقرأ بفتح الظاء وكسرها وكذلك فظلتم تفكهون واصله ظللت فحذفت اللام الاولى وذلك انما يكون اذا كانت اللام الثانية ساكنة تستحب العرب طرح الاولى ومن كسر الظاء نقل كسرة اللام الساقطة اليها ومن فتحها ترك الظاء على حالها وكذلك يفعلون فى المضاعف يقولون مسته ومسته ثم قال لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا وفى قوله لنحرقنه وجهان (احدهما) المراد احراقه بالنار وهذا احد ما يدل على انه صار لحما ودما لأن الذهب لا يمكن احراقه بالنار وقال السدى امر موسى عليه السلام بذبح العجل فذبح فسال منه الدم ثم احرق ثم نسف رماده وفى حرف ابن مسعود لنذبحنه ولنحرقنه (وثانيهما) لنحرقنه اى لنبردنه بالمبرد يقال حرقه يحرقه اذا برده وهذه القراءة تدل على انه لم ينقلب لحما ولا دما فان ذلك لا يصح ان يبرد بالمبرد ويمكن ان يقال انه صار لحما فذبح ثم بردت عظامه بالمبرد حتى صارت بحيث يمكن نسفها قراءة العامة بضم النون وتشديد الراء ومعناه لنحرقنه بالنار وقرأ ابوجعفر وابن محيصن لنحرقنه بفتح النون وضم الراء خفيفة يعنى لنبردنه واعلم ان موسى عليه السلام لما فرغ من ابطال ماذهب اليه السامرى عاد الى بيان الدين الحق فقال انما الهكم اى المستحق للعبادة والتعظيم الله الذى لا اله الا هو وسع كل شئ علما قال مقاتل يعلم من يعبده ومن لا يعبده ۞ قوله تعالى (كذلك نقص عليك من انباء ماقد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا من اعرض عنه فانه يحمل يوم القيامة وزرا خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا يوم ينفخ فى الصور ونحشر

(المجرمين)

امر التوحيد حسبما نطقت به خاتمته وقوله تعالى (كذلك نقص عليك) كلام مستأنف خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام بطريق الوعد الجميل بتنزيل امثال مامر من انباء الامم السالفة وذلك اشارة الى اقتصاص حديث موسى عليه السلام وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبته وبعد منزلته فى الفضل ومحل الكاف النصب على انه نعت لمصدر مقدر اى نقص عليك (من انباء ما قد سبق) من الحوادث الماضية الجارية على الامم الخالية قصا مثل ذلك القص المار والتقديم للقصر المفيد لزيادة التعيين ومن فى قوله تعالى من انباء فى حيز النصب اما على انه مفعول نقص باعتبار مضمونه واما على انه متعلق بمحذوف هو صفة المفعول كما فى قوله تعالى ومنا دون ذلك اى جمع دون ذلك والمعنى نقص عليك بعض انباء ما قد سبق او بعضا كائنا من انباء ما قد سبق وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى ومن الناس من يقول الخ وتأخيره عن عليك لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر اى مثل ذلك القص البديع الذى سمعته نقص عليك ماذكر من الانباء لا قصا ناقصا عنه تبصرة لك وتوفيرا لعلمك وتكثيرا لمعجزاتك وتذكيرا للمستبصرين من امتك (وقد آتيناك من لدنا ذكرا) اى كتابا منطويا على هذه الاقاصيص والاخبار حقيقا بالتفكر والاعتبار وكلمة من متعلقة بآتيناك وتنكير ذكرا للتفخيم وتأخيره عن الجار والمجرور لما ان مرجع

المجرمين يومئذ زرقا يتخافتون بينهم ان لبثتم الا عشرا نحن اعلم بما يقولون اذ يقول امثلهم طريقة ان لبثتم الا يوما) اعلم انه سبحانه وتعالى لما شرح قصة موسى عليه السلام مع فرعون اولا ثم مع السامرى ثانيا اتبعه بقوله كذلك نقص عليك من انباء ما قد سبق اى من سائر اخبار الامم واحوالهم تكثيرا لشأنك وزيادة فى معجزاتك وليكثر الاعتبار والاستبصار للمكلفين بها فى الدين وقد آتيناك من لدنا ذكرا يعنى القرآن كما قال تعالى وهذا ذكر مبارك انزلناه وانه لذكر لك والقرآن ذى الذكر ما يأتيهم من ذكر يا ايها الذى نزل عليه الذكر ثم فى تسمية القرآن بالذكر وجوه (احدها) انه كتاب فيه ذكر ما يحتاج اليه الناس من امر دينهم ودنياهم (وثانيها) انه يذكر انواع آلاء الله تعالى ونعمائه ففيه التذكير والمواعظ (وثالثها) فيه الذكر والشرف لك ولقومك على ما قال وانه لذكر لك ولقومك واعلم ان الله تعالى سمى كل كتبه ذكرا فقال فاسئلوا اهل الذكر وكما بين نعمته بذلك بين شدة الوعيد لمن اعرض عنه ولم يؤمن به من وجوه (اولها) قوله من اعرض عنه فانه يحمل يوم القيامة وزرا والوزر هو العقوبة الثقيلة سماها وزرا تشبيها فى ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها الذى يثقل على الحامل وينقض ظهره او لانها جزاء الوزر وهو الاثم وقرئ يحمل ثم بين تعالى صفة ذلك الوزر من وجهين (احدهما) انه يكون مخلدا مؤبدا (والثانى) قوله وساء لهم يوم القيامة حملا اى وما اسوأ هذا الوزر حملا اى محمولا وحملا منصوب على التمييز (وثانيها) يوم ينفخ فى الصور فالمراد بيان ان يوم القيامة هو يوم ينفخ فى الصور وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابو عمرو ننفخ بفتح النون كقوله ونحشر وقرأ الباقون ينفخ على ما لم يسم فاعله ونحشر بالنون لان النافخ ملك التقم الصور والحاشر هو الله تعالى وقرئ يوم ينفخ بالياء المفتوحة على الغيبة والضمير لله تعالى او لاسرافيل عليه السلام واما يحشر المجرمين فلم يقرأ به الا الحسن وقرئ فى الصور بفتح الواو جمع صورة (المسئلة الثانية) فى الصور قولان (احدهما) انه قرن ينفخ فيه يدعى به الناس الى الحشر (والثانى) انه جمع صورة والنفخ نفخ الروح فيه ويدل عليه قراءة من قرأ الصور بفتح الواو والاول اولى لقوله تعالى فاذا نقر فى الناقور والله تعالى يعرف الناس امور الآخرة بأمثال ما شوهد فى الدنيا ومن عادة الناس النفخ فى البوق عند الاسفار وفى العساكر (المسئلة الثالثة) المراد من هذا النفخ هو النفخة الثانية لان قوله بعد ذلك ونحشر المجرمين يومئذ زرقا كالدلالة على ان النفخ فى الصور كالسبب لحشرهم فهو نظير قوله يوم ينفخ فى الصور فتأتون افواجا اما قوله ونحشر المجرمين يومئذ زرقا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قالت المعتزلة قوله المجرمين يتناول الكفار والعصاة فيدل على عدم العفو عن العصاة وقال ابن عباس رضى الله عنهما يريد بالمجرمين الذين اتخذوا مع الله الها آخر وقد تقدم هذا الكلام (المسئلة الثانية) اختلفوا فى المراد بالزرقة على وجوه (احدها) قال الضحاك ومقاتل يعنى زرق العيون سود الوجوه وهى زرقة تتشوه بها خلقتهم والعرب تتشاءم بذلك فان قيل اليس ان الله تعالى اخبر انهم

الافادة فى الجملة بكون المؤتى من لدنه تعالى ذكرا عظيما وقرآنا كريما جامعا لكل كمال لا بكون ذلك الذكر مؤتى من لدنه عز وجل مع ما فيه من نوع طول بما بعده من الصفة فتقديمه يذهب برونق النظم الكريم (من اعرض عنه) عن ذلك الذكر العظيم الشأن المستتبع لسعادة الدارين وقيل عن الله عز وجل ومن اما شرطية او موصولة واياما كانت فالجملة صفة لذكرا (فانه) اى المعرض عنه (يحمل يوم القيامة وزرا) اى عقوبة ثقيلة فادحة على كفره وسائر ذنوبه وتسميتها وزرا اما لتشبيهها فى ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها بالحمل الذى يفدح الحامل وينقض ظهره او لانها جزاء الوزر وهو الاثم والاول هو الانسب بما سيأتى من تسميتها حملا وقوله تعالى (خالدين فيه) اى فى الوزر او فى احتماله المستمر حال من المستكن فى يحمل والجمع بالنظر الى معنى من لما ان الخلود فى النار مما يتحقق حال اجتماع اهلها كما ان الافراد فيما سبق من الضمائر الثلاثة بالنظر الى لفظها (وساء لهم يوم القيامة حملا) اى بئس لهم ففيه ضمير مبهم يفسره حملا والمخصوص بالذم محذوف اى ساء حملا وزرهم واللام للبيان كما فى هيت لك كأنه لما قيل ساء قيل لمن يقال هذا فأجيب لهم واعادة يوم القيامة لزيادة التقرير وتهويل الامر (يوم ينفخ فى الصور) بدل من يوم القيامة او منصوب باضمار اذكر او ظرف لمضمر قد حذف للايذان بضيق العبارة عن حصره وبيانه حسبما مر فى تفسير قوله تعالى يوم

يحشرون عميا فكيف يكون اعمى وازرق قلنا لعله يكون اعمى فى حال وازرق فى حال (وثانيها) المراد من الزرقة العمى قال الكلبي زرقا اى عميا قال الزجاج يخرجون بصراء فى اول مرة ويعمون فى المحشر وسواد العين اذا ذهب تزرق فان قيل كيف يكون اعمى وقد قال تعالى انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار وشخوص البصر من الاعمى محال وقد قال فى حقهم اقرأ كتابك والاعمى كيف يقرأ فالجواب ان احوالهم قد تختلف (وثالثها) قال ابو مسلم المراد بهذه الزرقة شخوص ابصارهم والازرق شاخص لانه لضعف بصره يكون محدقا نحو الشيء يريد ان يتبينه وهذه حال الخائف المتوقع لما يكره وهو كقوله انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار (ورابعها) زرقا عطاشا هكذا رواه ثعلب عن ابن الاعرابي قال لانهم من شدة العطش يتغير سواد عيونهم حتى تزرق ويدل على هذا التفسير قوله تعالى ونسوق المجرمين الى جهنم وردا (وخامسها) حكى ثعلب عن ابن الاعرابي قال طامعين فيما لا ينالونه (الصفة الثالثة) من صفات الكفار يوم القيامة قوله تعالى يتخافتون بينهم ان لبثتم الا عشرا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) يتخافتون اى يتسارون يقال خفت يخفت وخافت مخافتة والتخافت السرار وهو نظير قوله تعالى فلا تسمع الا همسا وانما يتخافتون لانه امتلأت صدورهم من الرعب والهول اولانهم صاروا بسبب الخوف فى نهاية الضعف فلا يطيقون الجهر (المسئلة الثانية) اختلفوا فى ان المراد بقوله ان لبثتم اللبث فى الدنيا او فى القبر فقال قوم ارادوا به اللبث فى الدنيا وهذا قول الحسن وقتادة والضحاك واحتجوا عليه بقوله تعالى قال كم لبثتم فى الارض عدد سنين قالوا لبثنا يوما او بعض يوم فاسأل العادين فان قيل اما ان يقال انهم نسوا قدر لبثهم فى الدنيا او ما نسوا ذلك والاول غير جائز اذ لو جاز ذلك لجاز ان يبقى الانسان خمسين سنة فى بلد ثم ينساه والثانى غير جائز لانه كذب واهل الآخرة لا يكذبون لاسيما وهذا الكذب لا فائدة فيه قلنا فيه وجوه (احدها) لعلهم اذا حشروا فى اول الامر وعاينوا تلك الاهوال فلشدة وقعها عليهم ذهلوا عن مقدار عمرهم فى الدنيا وما ذكروا الا القليل فقالوا ليتنا ما عشنا الا تلك الايام القليلة فى الدنيا حتى لا نقع فى هذه الاهوال والانسان عند الهول الشديد قد يذهل عن اظهر الاشياء وتمام تقريره مذكور فى سورة الانعام فى قوله ثم لم تكن فتنتهم الا ان قالوا والله ربنا ما كنا (وثانيها) انهم عالمون بمقدار عمرهم فى الدنيا الا انهم لما قابلوا اعمارهم فى الدنيا باعمار الآخرة وجدوها فى نهاية القلة فقال بعضهم ما لبثنا فى الدنيا الا عشرة ايام وقال اعقلهم بل ما لبثنا الا يوما واحدا اى قدر لبثنا فى الدنيا بالقياس الى قدر لبثنا فى الآخرة كعشرة ايام بل كاليوم الواحد بل كالعدم وانما خص العشرة والواحد بالذكر لان القليل فى امثال هذه المواضع لا يعبر عنه الا بالعشرة والواحد (وثالثها) انهم لما عاينوا الشدائد تذكروا ايام النعمة والسرور وتأسفوا عليها فوصفوها بالقصر لان ايام السرور قصار (ورابعها) ان ايام الدنيا قد انقضت وايام الآخرة مستقبلة والذاهب

(وان)

يجمع الله الرسل وقوله تعالى يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا وقرئ ينفخ (١٠٤) بالنون على اسناد النفخ الى الآمر به تعظيما له وبالياء المفتوحة على ان ضميره لله عز وجل او لاسرافيل عليه السلام وان لم يجر ذكره لشهرته (ونحشر المجرمين يومئذ) اى يوم اذ ينفخ فى الصور وذكره صريحا مع تعين ان الحشر لا يكون الا يومئذ للتهويل وقرئ ويحشر المجرمون (زرقا) اى حال كونهم زرق العيون وانما جعلوا كذلك لان الزرقة اسوأ الوان العين وابغضها الى العرب فان الروم الذين كانوا اعدى عدوهم زرق ولذلك قالوا فى صفة العدو اسود الكبد واصهب السبال وازرق العين او عميا لان حدقة الاعمى تزرق وقوله تعالى (يتخافتون بينهم) اى يخفضون اصواتهم ويخفونها لما ملأ صدورهم من الرعب والهول استئناف لبيان ما يأتون وما يذرون حينئذ او حال اخرى من المجرمين اى يقول بعضهم لبعض بطريق المخافتة (ان لبثتم) اى ما لبثتم فى الدنيا (الا عشرا) اى عشر ليال استقصارا لمدة لبثهم فيها لزوالها او لاستطالتهم مدة الآخرة او لتأسفهم عليها لما عاينوا الشدائد وايقنوا انهم استحقوها على اضاعتها فى قضاء الاوطار واتباع الشهوات او فى القبر وهو الانسب بحالهم فانهم حين يشاهدون البعث الذى كانوا ينكرونه فى الدنيا ويعدونه من قبيل المحالات لا يملكون من ان يقولوا ذلك اعترافا به وتحقيقا لسرعة وقوعه كأنهم قالوا قد بعثتم وما لبثتم فى القبر الا مدة يسيرة والا فحالهم اقطع من ان تمكنهم من الاشتغال بتذكر ايام النعمة والسرور واستقصارها والتأسف عليها (نحن اعلم بما يقولون) وهو مدة لبثهم (اذ يقول امثلهم طريقة) اى اعدلهم رأيا او عملا (ان لبثتم الا يوما) ونسبة هذا القول الى امثلهم استرجاح منه تعالى له لكن

وان طالت مدته قليل بالقياس الى الآتى وان قصرت مدته فكيف والامر بالعكس ولهذه الوجوه رجح الله تعالى قول من بالغ فى التقليل فقال اذ يقول امثلهم طريقة ان لبثتم الا يوما (القول الثانى) ان المراد منه اللبث فى القبر ويعضده قوله تعالى ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون وقال الذين اوتوا العلم والايمان لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث فأما من جوز الكذب على اهل القيامة فلا اشكال له فى الآية اما من لم يجوز قال ان الله تعالى لما احياهم فى القبر وعذبهم ثم اماتهم ثم بعثهم يوم القيامة لم يعرفوا ان قدر لبثهم فى القبر كم كان فخطر ببال بعضهم انه فى تقدير عشرة ايام وقال آخرون انه يوم واحد فلما وقعوا فى العذاب مرة اخرى تمنوا زمان الموت الذى هو زمان الخلاص لما نالهم من هول العذاب (المسئلة الثالثة) الاكثرون على ان قوله ان لبثتم الا عشرا اى عشرة ايام فيكون قول من قال ان لبثتم الا يوما اقل وقال مقاتل ان لبثتم الا عشرا اى عشر ساعات كقوله كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية او ضحاها وعلى هذا التقدير يكون اليوم اكثر والله اعلم واعلم انه سبحانه وتعالى بين بهذا القول عظم ما نالهم من الحيرة التى دفعوا عندها الى هذا الجنس من التخافت * قوله تعالى (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا لاترى فيها عوجا ولا امتا يومئذ يتبعون الداعى لاعوج له وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من اذن له الرحمن ورضى له قولا يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما) اعلم انه تعالى لما وصف امر يوم القيامة حكى سؤال من لم يؤمن بالحشر فقال ويسألونك عن الجبال وفى تقرير هذا السؤال وجوه (احدها) ان قوله يتخافتون وصف من الله تعالى لكل المجرمين بذلك فكأنهم قالوا كيف يصح ذلك والجبال حائلة ومانعة من هذا التخافت (وثانيها) قال الضحاك نزلت فى مشركى مكة قالوا يا محمد كيف تكون الجبال يوم القيامة وكان سؤالهم على سبيل الاستهزاء (وثالثها) لعل قومه قالوا يا محمد انك تدعى ان الدنيا ستنقضى فلو صح ما قلته لوجب ان تبتدئ اولا بالنقصان ثم تنتهى الى البطلان لكن احوال العالم باقية كما كانت فى اول الامر فكيف يصح ما قلته من خراب الدنيا وهذه شبهة تمسك بها جالينوس فى ان السموات لاتفنى قال لانها لو فنيت لابتدأت فى النقصان اولا حتى ينتهى نقصانها الى البطلان فلما لم يظهر فيها النقصان علمنا ان القول بالبطلان باطل ثم امر الله تعالى رسوله بالجواب عن هذا السؤال وضم الى الجواب امورا اخر فى شرح احوال القيامة واهوالها (الصفة الاولى) قوله فقل ينسفها ربى نسفا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) انما قال فقل مع فاء التعقيب لان مقصودهم من هذا السؤال الطعن فى الحشر والنشر فلا جرم امره بالجواب مقرونا بفاء التعقيب لان تأخير البيان فى مثل هذه المسئلة

لا لكونه اقرب الى الصدق بل لكونه ادل على شدة الهول (١٠٥) (ويسألونك عن الجبال) اى عن مآل امرها وقد سأل عنه رجل من ثقيف وقيل مشركو مكة على طريق الاستهزاء (فقل ينسفها ربى نسفا) اى يجعلها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها والفاء للمسارعة الى الزام السائلين (فيذرها) الضمير اما للجبال باعتبار اجزائها السافلة الباقية بعد النسف وهى مقارها ومراكزها اى فيذر ما انبسط منها وساوى سطحه سطوح سائر اجزاء الارض بعد نسف ما نتأ منها ونشز واما للارض المدلول عليها بقرينة الحال لانها الباقية بعد نسف الجبال وعلى التقديرين يذر الكل (قاعا صفصفا) لان الجبال اذا سويت وجعل سطحها مساويا لسطوح سائر اجزاء الارض فقد جعل الكل سطحا واحدا والقاع قيل السهل وقيل المنكشف من الارض وقيل المستوى الصلب منها وقيل ما لانبات فيه ولا بناء والصفصف الارض المستوية الملساء كأن اجزاءه صف واحد من كل جهة وانتصاب قاعا على الحالية من الضمير المنصوب او هو مفعول ثان ليذر على تضمين معنى التصيير وصفصفا اما حال ثانية او بدل من المفعول الثانى وقوله تعالى (لاترى فيها) اى فى مقار الجبال او فى الارض على ما مر من التفصيل (عوجا) بكسر العين اى اعوجاجا ما كأنه لغاية خفائه من قبيل ما فى المعانى اى لا تدركه ان تأملت بالمقاييس الهندسية (ولا امتا) اى نتوأ يسيرا استئناف مبين لكيفية ما سبق من القاع الصفصف او حال اخرى او صفة لقاعا والخطاب لكل احد ممن يتأتى منه الرؤية وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر مع ما فيه من طول

الاصولية غير جائز اما فى المسائل الفروعية فجائز فلذلك ذكر هناك قل من غير حرف التعقيب (المسئلة الثانية) الضمير فى قوله ينسفها عائد الى الجبال والنسف التذرية اى تصير الجبال كالهباء المنثور تذرى تذرية فاذا ازالت الجبال زالت الحوائل فيعلم صدق قوله يتخافتون قال الخليل ينسفها اى يذهبها ويطيرها اما الضمير فى قوله فيذرها فهو عائد الى الارض فاستغنى عن تقديم ذكرها كما فى عادة الناس من الاخبار عنها بالاضمار كقولهم ماعليها اكرم من فلان وقال تعالى ماترك على ظهرها من دابة وانما قال فيذرها قاعا صفصفا ليبين ان ذلك النسف لايزيل الاستواء لئلا يقدر انها لما زالت من موضع الى موضع آخر صارت هناك حائلة هذا كله اذا كان المقصود من سؤالهم الاعتراض على كفية المخافتة اما لوكان الغرض من السؤال ماذكرنا من انه لانقصان فيها فى الحال فوجب ان لاينتهى امرها الى البطلان كان تقرير الجواب ان بطلان الشئ قد يكون بطلانا يقع توليديا فحينئذ يجب تقديم النقصان على البطلان وقد يكون بطلانا يقع دفعة واحدة وههنا لايجب تقديم النقصان على البطلان فبين الله تعالى انه يفرق تركيبات هذا العالم الجسمانى دفعة بقدرته ومشيئته فلاحاجة ههنا الى تقديم النقصان على البطلان (المسئلة الثالثة) انه تعالى وصف الارض ذلك الوقت بصفات (احداها) كونها قاعا وهو المكان المطمئن وقيل مستنقع الماء (وثانيها) الصفصف وهو الذى لانبات عليه وقال ابومسلم القاع الارض الملساء المستوية وكذلك الصفصف (وثالثها) قوله لاترى فيها عوجا ولاامتا وقال صاحب الكشاف قد فرقوا بين العوج والعوج فقالوا العوج بالكسر فى المعانى والعوج بالفتح فى الاعيان فان قيل الارض عين فكيف صح فيها المكسور العين قلنا اختيار هذا اللفظ له موقع بديع فى وصف الارض بالاستواء ونفى الاعوجاج وذلك لانك لو عمدت الى قطعة ارض فسويتها وبالغت فى التسوية فاذا قابلتها المقاييس الهندسية وجدت فيها انواعا من العوج خارجة عن الحس البصرى قال فذاك بالقدر من الاعوجاج لما لطف جدا الحق بالمعانى فقيل فيه عوج بالكسر واعلم ان هذه الآية تدل على ان الارض تكون ذلك اليوم كرة حقيقية لان المضلع لابد وان يتصل بعض سطوحه بالبعض لاعلى الاستقامة بل على الاعوجاج وذلك يبطله ظاهر الآية (ورابعها) الامت النتوء اليسير يقال مدحبله حتى مافيه امت وتحصل من هذه الصفات الاربع ان الارض تكون ذلك اليوم ملساء خالية عن الارتفاع والانخفاض وانواع الانحراف والاعوجاج (الصفة الثانية) ليوم القيامة قوله يومئذ يتبعون الداعى لاعوج له وفى الداعى قولان (الاول) ان ذلك الداعى هو النفخ فى الصور وقوله لاعوج له اى لايعدل عن احد بدعائه بل يحشر الكل (الثانى) انه ملك قائم على صخرة بيت المقدس ينادى ويقول ايتها العظام النخرة والاوصال المتفرقة واللحوم المتمزقة قومى الى ربك للحساب والجزاء فيسمعون صوت الداعى فيتبعونه ويقال انه اسرافيل عليه السلام يضع قدمه على

ربما يخل تقديمه بتجاوب اطراف النظم الكريم (يومئذ) اى يوم (١٠٦) اذ نسفت الجبال على اضافة اليوم الى وقت النسف وهو ظرف لقوله تعالى (يتبعون الداعى) وقيل بدل من يوم القيامة وليس بذاك اى يتبع الناس داعى الله عز وجل الى المحشر وهو اسرافيل عليه السلام يدعو الناس عند النفخة الثانية قائما على صخرة بيت المقدس ويقول ايتها العظام النخرة والاوصال المتفرقة واللحوم المتمزقة قومى الى عرض الرحمن فيقبلون من كل اوب الى صوبه (لاعوج له) لايعوج له مدعو ولايعدل عنه (وخشعت الاصوات للرحمن) اى خضعت لهيبته (فلا تسمع الاهمسا) اى صوتا خفيا ومنه الهميس لصوت اخفاف الابل وقد فسر الهمس بخفق اقدامهم ونقلها الى المحشر (يومئذ) اى يوم اذ يقع ماذكر من الامور الهائلة (لاتنفع الشفاعة) من الشفعاء احدا (الامن اذن له الرحمن) ان يشفع له (ورضى له قولا) اى ورضى لاجله قول الشافع فى شأنه اورضى قوله لاجله وفى شأنه واما من عداه فلاتكاد تنفعه وان فرض صدورها عن الشفعاء المتصدين للشفاعة للناس كقوله تعالى فماتنفعهم شفاعة الشافعين فالاستثناء كماترى من اعم المفاعيل واما كونه استثناء من الشفاعة على معنى لاتنفع الشفاعة الا شفاعة من اذن له الرحمن ان يشفع لغيره كما جوزوه فلاسبيل اليه لما ان حكم الشفاعة ممن لم يؤذن له ان لايملكها ولاتصدر هى عنه اصلا كما فى قوله تعالى لايملكون الشفاعة الامن اتخذ عند الرحمن عهدا وقوله تعالى ولايشفعون الالمن ارتضى فالاخبار عنها بمجرد عدم نفعها للمشفوع له ربما يوهم امكان صدورها عمن لم يؤذن له مع اخلاله بمقتضى مقام تهويل اليوم واما قوله تعالى ولايقبل

(الصخرة)

الصخرة فان قيل هذا الدعاء يكون قبل الاحياء اوبعده قلنا ان كان المقصود بالدعاء اعلامهم وجب ان يكون ذلك بعد الاحياء لان دعاء الميت عبث وان لم يكن المقصود اعلامهم بل المقصود مقصود آخر مثل ان يكون لطفا للملائكة و مصلحة لهم فذلك جائز قبل الاحياء (الصفة الثالثة) قوله وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا وفيه وجوه (احدها) خشعت الاصوات من شدة الفزع و خضعت وخفيت فلا تسمع الا همسا وهو الذكر الخفى قال ابومسلم وقد علم الانس والجن بان لامالك لهم سواه فلا يسمع لهم صوت يزيد على الهمس وهو اخفى الصوت ويكاد يكون كلاما يفهم بتحريك الشفتين لضعفه وحق لمن كان الله محاسبه ان يخشع طرفه ويضعف صوته و يختلط قوله ويطول غمه (وثانيها) قال ابن عباس رضى الله عنهما والحسن وعكرمة وابن زيد الهمس وطء الاقدام فالمعنى انه لا تسمع الاخفق الاقدام ونقلها الى المحشر (الصفة الرابعة) قوله يومئذ لا تنفع الشفاعة الامن اذن له الرحمن ورضى له قولا قال صاحب الكشاف من يصلح ان يكون مرفوعا ومنصوبا فالرفع على البدل من الشفاعة بتقدير حذف المضاف اليه اى لا تنفع الشفاعة الاشفاعة من اذن له الرحمن والنصب على المفعولية واقول الاحتمال الثانى اولى لوجوه (الاول) ان الاول يحتاج فيه الى الاضمار وتغيير الاعراب والثانى لا يحتاج فيه الى ذلك (والثانى) ان قوله تعالى لا تنفع الشفاعة يراد به من يشفع بها والاستثناء يرجع اليهم فكأنه قال لا تنفع الشفاعة احدا من الخلق الاشخصا مرضيا (والثالث) وهو ان من المعلوم بالضرورة ان درجة الشافع درجة عظيمة فهى لا تحصل الالمن اذن الله له فيها وكان عندالله مرضيا فلو حملنا الآية على ذلك صارت جارية مجرى ايضاح الواضحات اما لو حملنا الآية على المشفوع له لم يكن ذلك ايضاح الواضحات فكان ذلك اولى اذا ثبت هذا فنقول المعتزلة قالوا الفاسق غير مرضى عند الله تعالى فوجب ان لا يشفع الرسول فى حقه لان هذه الآية دلت على ان المشفوع له لابد وان يكون مرضيا عندالله واعلم ان هذه الآية من اقوى الدلائل على ثبوت الشفاعة فى حق الفساق لان قوله ورضى له قولا يكفى فى صدقه ان يكون الله تعالى قد رضى له قولا واحدا من اقواله والفاسق قد ارتضى الله تعالى قولا واحدا من اقواله وهو شهادة ان لا اله الا الله فوجب ان تكون الشفاعة نافعة له لان الاستثناء من النفى اثبات فان قيل انه تعالى يستثنى عن ذلك النفى بشرطين (احدهما) حصول الاذن (والثانى) ان يكون قد رضى له قولا فهب ان الفاسق قد حصل فيه احد الشرطين وهو انه تعالى قد رضى له قولا لكن لم قلتم انه اذن فيه وهذا اول المسئلة قلنا هذا القيد وهو انه رضى له قولا كاف فى حصول الاستثناء بدليل قوله تعالى ولا يشفعون الالمن ارتضى فاكتفى هناك بهذا القيد ودلت هذه الآية على انه لابد من الاذن فظهر من مجموعهما انه اذا رضى له قولا يحصل الاذن فى الشفاعة واذا حصل القيدان حصل الاستثناء وتم المقصود (الصفة الخامسة) قوله يعلم

منها شفاعة بمعناه عدم الاذن فى الشفاعة لا عدم قبولها بعد(١٠٧)وقوعها (يعلم مابين ايديهم)اى ماتقدمهم من الاحوال وقيل من امر الدنيا(وماخلفهم)ومابعدهم مما يستقبلونه وقيل من امر الآخرة(ولا يحيطون به علما)اى لا تحيط علومهم بمعلوماته تعالى وقيل بذاته اى من حيث اتصافه بصفات الكمال التى من جملتها العلم الشامل وقيل الضمير لاحد الموصولين اولمجموعهما فانهم لا يعلمون جميع ذلك ولا تفصيل ما علموا منه(وعنت الوجوه للحى القيوم) اى ذلت وخضعت خضوع العناة اى الاسارى فى يد الملك القهار ولعلها وجوه المجرمين كقوله تعالى سيئت وجوه الذين كفروا ويؤيده قوله تعالى (وقد خاب من حمل ظلما) قال ابن عباس رضى الله عنهما خسر من اشرك بالله ولم يتب وهو استئناف لبيان ما لاجله عنت وجوههم او اعتراض كأنه قيل خابوا وخسروا وقيل حال من الوجوه ومن عبارة عنها مغنية عن ضميرها وقيل الوجوه على العموم فالمعنى حينئذ وقد خاب من حمل منهم ظلما فقوله تعالى (ومن يعمل من الصالحات) الخ قسيم لقوله تعالى وقد خاب من حمل ظلما لا لقوله تعالى وعنت الوجوه الخ كما انه كذلك على الوجه الاول اى ومن يعمل بعض الصالحات او بعضا من الصالحات على احد الوجهين المذكورين فى تفسير قوله تعالى من انبا ماقد سبق (وهو مؤمن) فان الايمان شرط فى صحة الطاعات وقبول الحسنات (فلا يخاف ظلما) اى منع ثواب مستحق بموجب الوعد(ولا هضما)ولا كسرا منه بنقص اولا يخاف جزاء ظلم وهضم اذلم يصدر عنه ظلم ولا هضم حتى يخافهما وقرئ فلا يخف على النهى (وكذلك) عطف على كذلك نقص وذلك اشارة الى انزال ماسبق من

مابين ايديهم وماخلفهم ولايحيطون به علما وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الضمير فى قوله
بين ايديهم عائد الى الذين يتبعون الداعى ومن قال ان قوله لمن اذن له الرحمن المراد به
الشافع قال ذلك الضمير عائد اليه والمعنى لاتنفع شفاعة الملائكة والانبياء الالمن اذن له
الرحمن فى ان تشفع له الملائكة والانبياء ثم قال يعلم مابين ايديهم يعنى مابين ايدى الملائكة
كما قال فى آية الكرسى وهذا قول الكلبى ومقاتل وفيه تقريع لمن يعبد الملائكة ليشفعوا
له قال مقاتل يعلم ما كان قبل ان يخلق الملائكة وما كان منهم بعد خلقهم (المسئلة الثانية)
ذكروا فى قوله تعالى يعلم مابين ايديهم وماخلفهم وجوها (احدها) قال الكلبى مابين ايديهم
من امر الآخرة وماخلفهم من امر الدنيا (وثانيها) قال مجاهد مابين ايديهم من امر الدنيا
والاعمال وماخلفهم من امر الآخرة والثواب والعقاب (وثالثها) قال الضحاك يعلم
مامضى ومابقى ومتى تكون القيامة (المسئلة الثالثة) ذكروا فى قوله ولايحيطون به علما
وجهين (الاول) انه تعالى بين انه يعلم مابين ايدى العباد وماخلفهم ثم قال ولايحيطون به
علما اى العباد لايحيطون بمابين ايديهم وماخلفهم علما (الثانى) المراد ولايحيطون بالله علما
والاول اولى لوجهين (احدهما) ان الضمير يجب عوده الى اقرب المذكورات والاقرب
ههنا قوله مابين ايديهم وماخلفهم (وثانيهما) انه تعالى اورد ذلك مورد الزجر ليعلم ان سائر
مايقدمون عليه ومايستحقون به المجازاة معلوم لله تعالى (الصفة السادسة) قوله وعنت
الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما ومعناه ان ذلك اليوم تعنو الوجوه اى تذل
ويصير الملك والقهر لله تعالى دون غيره ومن لفظ العنو اخذوا العانى وهو الاسير يقال عنا
يعنو عناء اذا صار اسيرا وذكر الله تعالى الوجوه واراد به المكلفين انفسهم لان قوله وعنت
من صفات المكلفين لامن صفات الوجوه وهو كقوله وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية
وانما خص الوجوه بالذكر لان الخضوع بها يبين وفيها يظهر وتفسير الحى القيوم قد تقدم
وروى ابوامامة الباهلى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اطلبوا اسم الله الاعظم
فى هذه السور الثلاث البقرة وآل عمران وطه قال الراوى فوجدنا المشترك فى السور
الثلاث الله لا اله الا هو الحى القيوم فبين تعالى على وجه التحذير ان ذلك اليوم لايصح
الامتناع عماينزل بالمرء من المجازاة وان حاله مخالفة لحال الدنيا التى يختار فيها المعاصى
ويمتنع من الطاعات اماقوله تعالى وقد خاب من حمل ظلما فالمراد بالخيبة الحرمان اى حرم
الثواب من حمل ظلما والمراد به من وافى بالظلم ولم يتب عنه واستدلت المعتزلة بهذه الآية
فى المنع من العفو فقالوا قوله وقد خاب من حمل ظلما يعم كل ظالم وقد حكم الله تعالى فيه
بالخيبة والعفو ينافيه والكلام على عمومات الوعيد قد تقدم مرارا واعلم انه تعالى لما
شرح احوال يوم القيامة ختم الكلام فيها بشرح احوال المؤمنين فقال ومن يعمل من
الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولاهضما يعنى ومن يعمل شيئا من الصالحات والمراد
به الفرائض فكان عمله مقرونا بالايمان وهو كقوله ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات

الآيات المتضمنة للوعيد المنبئة عما سيقع من احوال القيامة واهوالها اى مثل (١٠٨) ذلك الانزال (انزلناه) اى القرآن كله واضماره
من غير سبق ذكره للايذان
بنباهة شانه وكونه مركوزا
فى العقول حاضرا فى الاذهان
(قرآنا عربيا) ليفهمه العرب
ويقفوا على مافيه من النظم المعجز
الدال على كونه خارجا عن طوق
البشر نازلا من عند خلاق
القوى والقدر (وصرفنا فيه من
الوعيد) اى كررنا فيه بعض
الوعيد اوبعضا من الوعيد
حسبما اشير اليه آنفا (لعلهم
يتقون) اى كى يتقوا الكفر
والمعاصى بالفعل (اويحدث لهم
ذكرا) اتعاظا واعتبارا مؤديا
بالآخرة الى الاتقاء (فتعالى الله)
استعظام له تعالى ولشؤونه التى
يصرف عليها عباده من الاوامر
والنواهى والوعد والوعيد وغير
ذلك اى ارتفع بذاته وتنزه عن
مماثلة المخلوقين فى ذاته وصفاته
وافعاله واحواله (الملك) النافذ
امره ونهيه الحقيق بان يرجى
وعده ويخشى وعيده (الحق) فى
ملكوته والوهيته لذاته او الثابت
فى ذاته وصفاته (ولا تعجل
بالقرآن من قبل ان يقضى اليك
اى يتم (وحيه) كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم اذا القى اليه
جبريل عليهما السلام الوحى يتبعه
عند تلفظ كل حرف وكل كلمة
لكمال اعتنائه بالتلقى والحفظ
فنهى عن ذلك اثر ذكر الانزال
بطريق الاستطراد لان استقرار
الالفاظ فى الاذهان تابع لاستقرار
معانيها فيها وربما يشغل التلفظ
بكلمة عن سماع ما بعدها وامر
باستفاضة العلم واستزادته منه
تعالى فقيل (وقل) اى فى نفسك
(رب زدنى علما) اى سل الله عز
وجل زيادة العلم فانه الموصل
الى طلبتك دون الاستعجال وقيل انه نهى عن تبليغ ما كان مجملا قبل ان ياتى بيانه وليس بذاك فان تبليغ

(فقوله)

فقوله فلا يخاف فى موضع جزم لكونه فى موضع جواب الشرط والتقدير فهو لا يخاف ونظيره ومن عاد فينتقم الله منه فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا وقرأ ابن كثير فلا يخف على النهى وهو حسن لان المعنى فليأمن والنهى عن الخوف أمر بالامن والظلم هو ان يعاقب لا على جريمة او يمنع من الثواب على الطاعة والهضم ان ينقص من ثوابه والهضيمة النقيصة ومنه هضيم الكشح اى ضامر البطن ومنه طلعها هضيم اى لازق بعضه ببعض ومنه انهضم طعامى وقال ابو مسلم الظلم ان ينقص من الثواب والهضم ان لا يوفى حقه من الاعظام لان الثواب مع كونه من اللذات لا يكون ثوابا الا اذا قارنه التعظيم وقد يدخل النقص فى بعض الثواب ويدخل فيما يقارنه من التعظيم فنفى الله تعالى عن المؤمنين كلا الامرين * قوله تعالى (وكذلك انزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون او يحدث لهم ذكرا فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه وقل رب زدنى علما) اعلم ان قوله وكذلك عطف على قوله كذلك نقص اى ومثل ذلك الانزال وعلى نهجه انزلنا القرآن كله ثم وصف القرآن بأمرين (احدهما) كونه عربيا لتفهمه العرب فيقفوا على اعجازه ونظمه وخروجه عن جنس كلام البشر (والثانى) قوله وصرفنا فيه من الوعيد اى كررناه وفصلناه ويدخل تحت الوعيد بيان الفرائض والمحارم لان الوعيد بهما يتعلق فتكريره يقتضى بيان الاحكام فلذلك قال لعلهم يتقون والمراد اتقاء المحرمات وترك الواجبات ولفظ لعل قد تقدم تفسيره فى سورة البقرة فى قوله والذين من قبلكم لعلكم تتقون اما قوله او يحدث لهم ذكرا ففيه وجهان (الاول) ان يكون المعنى انا انما انزلنا القرآن لاجل ان يصيروا متقين اى محترزين عما لا ينبغى او يحدث القرآن لهم ذكرا يدعوهم الى الطاعات وفعل ما ينبغى وعليه سؤالات (السؤال الاول) القرآن كيف يكون محدثا للذكر (الجواب) لما حصل الذكر عند قراءته اضيف الذكر اليه (السؤال الثانى) لم اضيف الذكر الى القرآن وما اضيفت التقوى اليه (الجواب) ان التقوى عبارة عن ان لا يفعل القبيح وذلك استمرار على العدم الاصلى فلم يجز اسناده الى القرآن اما حدوث الذكر فأمر حدث بعد ان لم يكن فجازت اضافته الى القرآن (السؤال الثالث) كلمة او للمنافاة ولا منافاة بين التقوى وحدوث الذكر بل لا يصح الاتقاء الا مع الذكر فما معنى كلمة او (الجواب) هذا كقولهم جالس الحسن او ابن سيرين اى لا تكن خاليا منهما فكذا ههنا (الوجه الثانى) ان يقال انا انزلنا القرآن ليتقوا فان لم يحصل ذلك فلا اقل من ان يحدث القرآن لهم ذكرا او شرفا وصيتا حسنا فعلى هذين التقديرين يكون انزاله تقوى ثم انه تعالى لما عظم امر القرآن اردفه بأن عظم نفسه فقال فتعالى الله الملك الحق تنبيها على ما يلزم خلقه من تعظيمه وانما وصفه بالحق لان ملكه لا يزول ولا يتغير وليس بمستفاد من قبل الغير ولا غيره اولى به فلهذا وصف بذلك وتعالى تفاعل من العلو وقد ثبت ان علوه وعظمته وربوبيته بمعنى واحد وهو اتصافه بنعوت

المجمل وتلاوته قبل البيان مما لاريب فى صحته (١٠٩) ومشروعيته (ولقد عهدنا الى آدم) كلام مستأنف مسوق لتقرير ما سبق من تصريف الوعيد فى القرآن وبيان ان أساس بنى آدم على العصيان وعرقه راسخ فى النسيان مع ما فيه من انجاز الموعود فى قوله تعالى كذلك نقص عليك من انباء ما قد سبق يقال عهد اليه الملك وعزم عليه واوعز اليه وتقدم اليه اذا امره ووصاه والمعهود محذوف يدل عليه ما بعده واللام جواب قسم محذوف اى واقسم او وبالله او وتالله لقد امرناه ووصيناه (من قبل) اى من قبل هذا الزمان (فنسى) اى العهد ولم يعتن به حتى غفل عنه او تركه ترك المنسى عنه وقرئ فنسى اى نساه الشيطان (ولم نجد له عزما) تصميم رأى وثبات قدم فى الامور اذ لو كان كذلك لما ازله الشيطان ولما استطاع ان يغره وقد كان ذلك منه عليه السلام فى بدء امره من قبل ان يجرب الامور ويتولى حارها وقارها ويذوق شريها وأريها * عن النبى عليه الصلاة والسلام لو وزنت احلام بنى آدم بحلم آدم لرجح حلمه وقد قال الله تعالى ولم نجد له عزما وقيل عزما على الذنب فانه أخطأ ولم يتعمد وقوله تعالى ولم نجد ان كان من الوجود العلمى فله عزما مفعولاه قدم الثانى على الاول لكونه ظرفا وان كان من الوجود المقابل للعدم وهو الانسب لان مصب الفائدة هو المفعول وليس فى الاخبار بكون العزم المعدوم له مزيد مزية فله متعلق به قدم على مفعوله لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر او بمحذوف هو حال من مفعوله المنكر كأنه قيل ولم نصادف له عزما وقوله تعالى (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) شروع فى بيان المعهود وكيفية ظهور نسيانه وفقد ان عزمه واذ منصوب

على المفعولية بمضمر خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام اي واذكر (١١٠) وقت قولنا لهم وتعليق الذكر بالوقت مع ان المقصود تذكير

الجلال وانه لا تكيفه الاوهام ولا تقدره العقول وهو منزه عن المنافع والمضار فهو تعالى انما انزل القرآن ليحترزوا عما لا ينبغي وليقدموا على ما ينبغي وانه تعالى منزه عن التكمل بطاعاتهم والتضرر بمعاصيهم فالطاعات انما تقع بتوفيقه وتيسيره والمعاصي انما تقع عدلا منه وكل ميسر لما خلق له اما قوله ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه ففيه مسائل (المسئلة الاولى) في تعلقه بما قبله وجهان (الوجه الاول) قال ابو مسلم من ان قوله ويسألونك عن الجبال الى ههنا يتم الكلام وينقطع ثم قوله ولا تعجل بالقرآن خطاب مستأنف فكأنه قال ويسألونك ولا تعجل بالقرآن (الوجه الثاني) روى انه عليه السلام كان يخاف من ان يفوته منه شئ فيقرأ مع الملك فأمره بان يسكت حال قراءة الملك ثم يأخذ بعد فراغه في القراءة فكأنه تعالى شرح كيفية نفع القرآن للمكلفين وبين انه سبحانه متعال عن كل ما لا ينبغي وانه موصوف بالاحسان والرحمة ومن كان كذلك وجب ان يصون رسوله عن السهو والنسيان في امر الوحي واذا حصل الامان عن السهو والنسيان قال ولا تعجل بالقرآن (المسئلة الثانية) قوله ولا تعجل بالقرآن يحتمل ان يكون المراد لا تعجل بقراءته في نفسك ويحتمل ان لا تعجل في تأديته الى غيرك ويحتمل في اعتقاد ظاهره ويحتمل في تعريف الغير ما يقتضيه ظاهره واما قوله من قبل ان يقضى اليك وحيه فيحتمل ان يكون المراد من قبل ان يقضى اليك تمامه ويحتمل ان يكون المراد من قبل ان يقضى اليك بيانه لان هذين الامرين لا يمكن تحصيلهما الا بالوحي ومعلوم انه عليه السلام لا ينهى عن قراءته لكي يحفظه ويؤديه فالمراد اذن ان لا يبعث نفسه ولا يبعث غيره عليه حتى يتبين بالوحي تمامه او بيانه او هما جميعا لانه يجب التوقف في معنى الكلام ما لم يأت عليه الفراغ لما يجوز ان يحصل عقيبه من استثناء او شرط او غيرهما من المخصصات فهذا هو التحقيق في تفسير الآية ولنذكر اقوال المفسرين (احدها) ان هذا كقوله تعالى لا تحرك به لسانك لتعجل به وكان عليه السلام يحرص على اخذ القرآن من جبريل عليه السلام فيعجل بقراءته قبل استتمام جبريل مخافة النسيان فقيل له لا تعجل به الى ان يستتم وحيه فيكون اخذك اياه عن تثبت وسكون والله تعالى يزيدك فهما وعلما وهذا قول مقاتل والسدي ورواه عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما (وثانيها) ولا تعجل بالقرآن فتقرأه على اصحابك قبل ان يوحى اليك بيان معانيه وهذا قول مجاهد وقتادة (وثالثها) قال الضحاك ان اهل مكة واسقف نجران قالوا يا محمد اخبرنا عن كذا وكذا وقد ضربنا لك اجلا ثلاثة ايام فأبطأ الوحي عليه وفشت المقالة بأن اليهود قد غلبوا محمدا فأنزل الله تعالى هذه الآية ولا تعجل بالقرآن اي بنزوله من قبل ان يقضى اليك وحيه من اللوح المحفوظ الى اسرافيل ومنه الى جبريل ومنه اليك وقل رب زدني علما (ورابعها) روى الحسن ان امرأة اتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت زوجي لطم وجهي فقال بينكما القصاص فنزل قوله ولا تعجل بالقرآن فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القصاص

ماوقع فيه من الحوادث لما مر مرارا من المبالغة في ايجاب ذكرها فان الوقت مشتمل على تفاصيل الامور الواقعة فيه فالامر بذكره امر بذكر تفاصيل ماوقع فيه بالطريق البرهاني ولان الوقت مشتمل على اعيان الحوادث فاذا ذكر صارت الحوادث كأنها موجودة في ذهن المخاطب بوجوداتها العينية اي اذكر ما وقع في ذلك الوقت منا ومنه حتى يتبين لك نسيانه وفقدان عزمه (فسجدوا الا ابليس) قد سبق الكلام فيه مرارا (ابى) جملة مستأنفة وقعت جوابا عن سؤال نشأ عن الاخبار بعدم سجوده كأنه قيل ما باله لم يسجد فقيل ابى واستكبر ومفعول ابى اما محذوف اي ابى السجود كما في قوله تعالى ابى ان يكون مع الساجدين او غير منوي رأسا بتنزيله منزلة اللازم اي فعل الاباء واظهره (فقلنا) عقيب ذلك اعتناء بنصحه (يا آدم ان هذا) الذي رأيت ما فعل (عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما) اي لا يكونن سببا لاخراجكما (من الجنة) والمراد نهيهما عن ان يكونا بحيث يتسبب الشيطان الى اخراجهما منها بالطريق البرهاني كما في قولك لا ارينك ههنا والفاء لترتيب موجب النهي على عداوته لهما او على الاخبار بها (فتشقى) جواب للنهي واسناد الشقاء اليه خاصة بعد تعليق الاخراج الموجب له بهما معا لاصالته في الامور واستلزام شقائه لشقائها مع ما فيه من مراعاة الفواصل وقيل المراد بالشقاء التعب في تحصيل مبادي المعاش وذلك من وظائف الرجال (ان لك ان لا تجوع فيها ولا تعرى وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى) تعليل لما يوجبه النهي

حتى نزل قوله تعالى الرجال قوامون على النساء وهذا بعيد والاعتماد على التفصيل الاول اما قوله تعالى وقل رب زدني علما فالمعنى انه سبحانه وتعالى امره بالفزع الى الله سبحانه في زيادة العلم التي تظهر بتمام القرآن او بيان ما نزل عليه (المسئلة الثالثة) الاستعجال الذي نهى عنه ان كان فعله بالوحي فكيف نهى عنه (الجواب) لعله فعله بالاجتهاد وكان الاولى تركه فلهذا نهى عنه * قوله تعالى (ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ابى فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ان لك ان لا تجوع فيها ولا تعرى وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى) اعلم ان هذا هو المرة السادسة من قصة آدم عليه السلام في القرآن اولها في سورة البقرة ثم في الاعراف ثم في الحجر ثم في الاسراء ثم في الكهف ثم ههنا واعلم ان في تعلق هذه الآية بما قبلها وجوها (احدها) انه تعالى لما قال كذلك نقص عليك من انباء ما قد سبق ثم انه عظم امر القرآن وبالغ فيه ذكر هذه القصة انجازا للوعد في قوله كذلك نقص عليك من انباء ما قد سبق (وثانيها) انه لما قال وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون او يحدث لهم ذكرا اردفه بقصة آدم عليه السلام كأنه قال ان طاعة بني آدم للشيطان وتركهم التحفظ من وساوسه امر قديم فانا عهدنا الى آدم من قبل اي من قبل هؤلاء الذين صرفنا لهم الوعيد وبالغنا في تنبيهه حيث قلنا له ان هذا عدو لك ولزوجك ثم انه مع ذلك نسي وترك ذلك العهد فأمر البشر في ترك التحفظ من الشيطان امر قديم (وثالثها) انه لما قال لمحمد صلى الله عليه وسلم وقل رب زدني علما ذكر بعده قصة آدم عليه السلام فانه بعد ما عهد الله اليه وبالغ في تجديد العهد وتحذيره من العدو نسي فقد دل ذلك على ضعف القوة البشرية عن التحفظ فيحتاج حينئذ الى الاستعانة بربه في ان يوفقه لتحصيل العلم ويجنبه عن السهو والنسيان (ورابعها) ان محمدا صلى الله عليه وسلم لما قيل له ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه دل على انه كان في الجد في امر الدين بحيث زاد على قدر الواجب فلما وصفه بالافراط وصف آدم بالتفريط في ذلك فانه تساهل في ذلك ولم يتحفظ حتى نسي فوصف الاول بالتفريط والآخر بالافراط ليعلم ان البشر لا ينفك عن نوع زلة (وخامسها) ان محمدا صلى الله عليه وسلم لما قيل له ولا تعجل ضاق قلبه وقال في نفسه لولا اني اقدمت على ما لا ينبغي والا لما نهيت عنه فقيل له ان كنت فعلت ما نهيت عنه فانما فعلته حرصا منك على العبادة وحفظا لاداء الوحي وان اباك اقدم على ما لا ينبغي لتساهل وترك التحفظ فكان امرك احسن من امره اما قوله تعالى ولقد عهدنا الى آدم من قبل فلا شك ان المراد بالعهد امر من الله تعالى او نهي منه كما يقال في اوامر الملوك ووصاياهم اشار الملك اليه وعهد اليه قال المفسرون عهدنا اليه ان لا يأكل من الشجرة ولا يقربها وفي قوله تعالى من قبل وجوه (احدها) من قبل هؤلاء الذين صرفنا لهم الوعيد في القرآن (وثانيها) قال ابن عباس من قبل ان يأكل من الشجرة عهدنا اليه ان لا يأكل منها

فان اجتماع اسباب الراحة فيها مما يوجب المبالغة (١١١) في الاهتمام بتحصيل مبادىء البقاء فيها والجد في الانتهاء عما يؤدي الى الخروج منها والعدول عن التصريح بأنه عليه السلام فيها متمتع بفنون النعم من المآكل والمشارب وتمتعه باصناف الملابس البهية والمساكن المرضية مع ان فيه من الترغيب في البقاء فيها ما لا يخفى الى ما ذكر من نفي نقائضها التي هي الجوع والعطش والعري والضحو لتذكير تلك الامور المنكرة والتنبيه على ما فيها من انواع الشقوة التي حذره عنها ليبالغ في التحامي عن السبب المؤدي اليها على ان الترغيب قد حصل بما سوغ له من التمتع بجميع ما فيها سوى ما استثنى من الشجرة حسبما نطق به قوله تعالى ويا آدم اسكن انت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما وقد طوى ذكره ههنا اكتفاء بما ذكر في موضع آخر واقتصر على ما ذكر من الترغيب المتضمن للترهيب ومعنى ان لا تجوع فيها الخ ان لا يصيبه شئ من الامور الاربعة اصلا فان الشبع والري والكسوة والكن قد تحصل بعد عروض اضدادها باعواز الطعام والشراب واللباس والمسكن وليس الامر فيها كذلك بل كل ما وقع فيها شهوة وميل الى شئ من الامور المذكورة تمتع به من غير ان يصل الى حد الضرورة ووجه افراده عليه السلام بما ذكر ما مر آنفا وفصل الظمأ عن الجوع في الذكر مع تجانسهما وتقارنهما في الذكر عادة وكذا حال العري والضحو المتجانسين لتوفية مقام الامتنان حقه بالاشارة الى ان نفي كل واحد من هذه الامور نعمة على حيالها ولو جمع بين الجوع والظمأ لربما توهم ان نفيهما نعمة واحدة وكذا الحال في الجمع بين العري والضحو على منهاج قصة البقرة ولزيادة التقرير بالتنبيه على

(وثالثها) اى من قبل محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وهو قول الحسن اما قوله فنسى فقد تكلمنا فيه على سبيل الاستقصاء فى سورة البقرة ونعيد ههنا منه شيأ قليلا وفى النسيان قولان (احدهما) المراد ماهو نقيض الذكر وانما عوتب على ترك التحفظ والمبالغة فى الضبط حتى تولد منه النسيان وكان الحسن رحمه الله يقول والله ماعصى قط الا بنسيان (والثانى) ان المراد بالنسيان الترك وانه ترك ماعهد اليه من الاحتراز عن الشجرة واكل ثمرتها وقرئ فنسى اى فنساه الشيطان وعلى هذا التقدير يحتمل ان يقال اقدم على المعصية من غير تأويل وان يقال اقدم عليها مع التأويل والكلام فيه قد تقدم فى سورة البقرة واما قوله ولم نجد له عزما ففيه ابحاث (الاول) الوجود يجوز ان يكون بمعنى العلم ومنه ولم نجد له عزما وان يكون نقيض العدم كأنه قال وعدمنا له عزما (البحث الثانى) العزم هو التصميم والتصلب ثم قوله ولم نجد له عزما يحتمل ولم نجد له عزما على القيام على المعصية فيكون الى المدح اقرب ويحتمل ان يكون المراد ولم نجد له عزما على ترك المعصية اولم نجد له عزما على التحفظ والاحتراز عن الغفلة اولم نجد له عزما على الاحتياط فى كيفية الاجتهاد اذا قلنا انه عليه السلام انما اخطأ بالاجتهاد واما قوله واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ابى فهذا يشتمل على مسائل (احداها) ان المأمورين كل الملائكة او بعضهم (وثانيتها) انه مامعنى السجود (وثالثتها) ان ابليس هل كان من الملائكة ام لا وان لم يكن فكيف صح الاستثناء وباى شئ صار مأمورا بالسجود (ورابعتها) ان هذا هل يدل على ان آدم افضل من محمد صلى الله عليه وسلم ام لا (وخامستها) ان قوله فى صفة ابليس انه ابى كيف لزم الكفر من ذلك الاباء وانه هل كان كافرا ابتداء او كفر بسبب ذلك واعلم ان هذه المسائل مرت على سبيل الاستقصاء فى سورة البقرة اما قوله فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ففيه سؤالات (الاول) ماسبب تلك العداوة الجواب من وجوه (احدها) ان ابليس كان حسودا فلما رأى آثار نعم الله تعالى فى حق آدم عليه السلام حسده فصار عدوا له (وثانيها) ان آدم كان شابا عالما لقوله وعلم آدم الاسماء كلها وابليس كان شيخا جاهلا لانه اثبت فضله بفضيلة اصله وذلك جهل والشيخ الجاهل ابدا يكون عدو الشاب العالم (وثالثها) ان ابليس مخلوق من النار وآدم مخلوق من الماء والتراب فبين اصليهما عداوة فبقيت تلك العداوة (السؤال الثانى) لم قال فلا يخرجنكما من الجنة مع ان المخرج لهما من الجنة هو الله تعالى (الجواب) لما كان بوسوسته هو الذى فعل ماترتب عليه الخروج صح ذلك (السؤال الثالث) لم اسند الى آدم وحده فعل الشقاء دون حواء مع اشتراكهما فى الفعل الجواب من وجهين (احدهما) ان فى ضمن شقاء الرجل وهو قيم اهله واميرهم شقاءهم كما ان فى ضمن سعادته سعادتهم فاختص الكلام باسناده اليه دونها مع المحافظة على رعاية الفاصلة (الثانى) اريد بالشقاء التعب فى طلب القوت وذلك على الرجل دون المرأة وروى انه اهبط

ان فى كل واحد من الامور المذكورة مقصود بالذات مذكور بالاصالة لان فى بعضها مذكور بطريق الاستطراد والتبعية لنفى بعض آخر كما عسى يتوهم لو جمع بين كل من المتناسبين وقرئ انك بالكسر والجمهور على الفتح بالعطف على ان لاتجوع وصحة وقوع الجملة المصدرة بان المفتوحة اسما للمكسورة المشاركة لها فى افادة التحقيق مع امتناع وقوعها خبرا لها لان المحذور اجتماع حرفى التحقيق فى مادة واحدة ولا اجتماع فيما نحن فيه لاختلاف مناط التحقيق فيما فى حيزهما بخلاف مالو وقعت خبرا لها فان اتحاد المناط حينئذ مما لاريب فيه بيانه ان كل واحدة من المكسورة والمفتوحة موضوعة لتحقيق مضمون الجملة الخبرية المنعقدة من اسمها وخبرها ولايخفى ان مرجع خبريتها مافيها من الحكم الايجابى او السلبى وان مناط ذلك الحكم خبرها لا اسمها فمدلول كل منهما تحقيق ثبوت خبرها لاسمها لا ثبوت اسمها فى نفسه فاللازم من وقوع الجملة المصدرة بالمفتوحة اسما للمكسورة تحقيق ثبوت خبرها لتلك الجملة المؤولة بالمصدر واما تحقيق ثبوتها فى نفسها فهو مدلول المفتوحة حتما فلا يلزم اجتماع حرفى التحقيق فى مادة واحدة قطعا وانما لم يجوزوا ان يقال ان ان زيدا قائم حق مع اختلاف المناط بل شرطوا الفصل بالخبر كقولنا ان عندى ان زيدا قائم للتجافى عن صورة الاجتماع والواو العاطفة وان كانت نائبة عن المكسورة التى يمتنع دخولها على المفتوحة بلا فصل وقائمة مقامها فى افناء معناها واجراء احكامها على مدخولها لكنها حيث لم تكن حرفا موضوعا للتحقيق لم يلزم من دخولها

الى آدم نور احمر وكان يحرث عليه و يمسح العرق عن جبينه اما قوله ان لك ان لاتجوع فيها ولا تعرى وأنك لاتظمأ فيها ولا تضحى ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرئ وانك بالفتح والكسر ووجه الفتح العطف على ان لاتجوع فيها فان قيل ان لاتدخل على ان فلا يقال ان ان زيدا منطلق والواو نائبة عن ان وقائمة مقامها فلم ادخلت عليها قلنا الواو لم توضع لتكون ابدا نائبة عن ان انما هي نائبة عن كل عامل فلما لم تكن حرفا موضوعا للتحقيق خاصة كان لم يمتنع اجتماعهما كما امتنع اجتماع ان وان (المسئلة الثانية) الشبع والرى والكسوة والاكتنان في الظل هي الاقطاب التي يدور عليها امر الانسان فذكر الله تعالى حصول هذه الاشياء له في الجنة من غير حاجة الى الكسب والطلب وذكرها بلفظ النفى لاضدادها التي هي الجوع والعرى والظمأ والضحى ليطرق سمعه شيئا من اصناف الشقوة التي حذره منها حتى يبالغ الاحتراز عن السبب الذى يوقعه فيها وهذه الاشياء كلها كانها تفسير الشقاء المذكور في قوله فتشقى * قوله تعالى (فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) واعلم انه سبحانه بين انه عظم آدم عليه السلام بأن جعله مسجود الملائكة وبين انه عرفه شدة عداوة ابليس له ولزوجه وانه لعداوته يدعوهم الى المعصية التي اذا وقعت زالت تلك النعم بأسرها ثم انه مع ذلك اتفق منه ومن حواء الاقدام على الزلة ما اتفق والعجب ماروى عن ابى امامة الباهلى قال لو ان احلام بنى آدم الى قيام الساعة وضعت في كفة ميزان ووضع حلم آدم في الاخرى لرجح حلمه باحلامهم ولكن المكادحة مع قضاء الله تعالى ممتنعة واعلم ان واقعة آدم عجيبة وذلك لان الله تعالى رغبه في دوام الراحة وانتظام المعيشة بقوله فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ان لك ان لاتجوع فيها ولا تعرى وانك لاتظمأ فيها ولا تضحى ورغبه ابليس في دوام الراحة بقوله هل ادلك على شجرة الخلد وفي انتظام المعيشة بقوله وملك لا يبلى فكان الشئ الذى رغب الله آدم فيه هو الذى رغبه ابليس فيه الا ان الله تعالى وقف ذلك على الاحتراس عن تلك الشجرة وابليس وقفه على الاقدام عليها ثم ان آدم عليه السلام مع كمال عقله وعلمه بأن الله تعالى مولاه وناصره ومربيه واعلمه بأن ابليس عدوه حيث امتنع من السجود له وعرض نفسه للعنة بسبب عداوته كيف قبل في الواقعة الواحدة والمقصود الواحد قول ابليس مع علمه بكمال عداوته له واعرض عن قول الله تعالى مع علمه بأنه هو الناصر والمربى ومن تأمل في هذا الباب طال تعجبه وعرف آخر الامر ان هذه القصة كالتنبيه على انه لادافع لقضاء الله ولا مانع منه وان الدليل وان كان في غاية الظهور ونهاية القوة فانه لايحصل النفع به الا اذا قضى الله تعالى ذلك وقدره واما قوله فوسوس اليه الشيطان فقد تقدم في سورة البقرة انه كيف وسوس وبماذا وسوس فان قيل كيف عدى وسوس تارة باللام في قوله فوسوس لهما الشيطان وأخرى بالى قلنا قوله فوسوس له

على المفتوحة اجتماع حرفى التحقيق اصلا فالمعنى ان لك عدم الجوع وعدم العرى وعدم الظمأ خلا انه لم يقتصر على بيان ان الثابت له عليه السلام عدم الظمأ والضحو مطلقا كما فعل مثله في المعطوف عليه بل قصد بيان ان الثابت له عليه السلام تحقيق عدمهما فوضع موضع الحرف المصدرى المحض ان المفيدة له كأنه قيل ان لك فيها عدم ظمئك على التحقيق (فوسوس اليه الشيطان) اى انهى اليه وسوسته او اسرها اليه (قال) اما بدل من وسوس او استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ منه كأنه قيل فماذا قال في وسوسته فقيل قال (يا آدم هل ادلك على شجرة الخلد) اى شجرة من اكل منها خلد ولم يمت اصلا سواء كان على حاله او بأن يكون ملكا لقوله تعالى الا ان تكونا ملكين او تكونا من الخالدين (وملك لا يبلى) اى لايزول ولا يختل بوجه من الوجوه (فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما) قال ابن عباس رضى الله عنهما عريا عن النور الذى كان الله تعالى البسهما حتى بدت فروجهما (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) قدمر تفسيره في سورة الاعراف (وعصى آدم ربه) بما ذكر من اكل الشجرة (فغوى) ضل عن مطلوبه الذى هو الخلود او عن المأمور به او عن الرشد حيث اغتر بقول العدو وقرئ فغوى من غوى

معناه لاجله وقوله وسوس اليه معناه انهى اليه الوسوسة كقوله حدث له واسر اليه ثم بين ان تلك الوسوسة كانت بتطميعه فى امرين (احدهما) قوله هل ادلك على شجرة الخلد اضاف الشجرة الى الخلد وهو الخلود لان من أكل منها صار مخلدا بزعمه (الثانى) قوله وملك لايبلى اى من أكل من هذه الشجرة دام ملكه قال القاضى ليس فى الظاهر ان آدم قبل ذلك منه بل لو وجدت هذه الوسوسة حال كون آدم عليه السلام نبيا لاستحال ان يكون آدم عليه السلام قبل ذلك منه لانه لابد وان تحصل بين حال التكليف وحال المجازاة فترة بالموت وبالمعنى فآدم لما كان نبيا امتنع ان لايعلم ذلك قلنا لانسلم بأنه لابد من حصول هذه الفترة بين حال التكليف وحال المجازاة ولم لايجوز ان يقال لاحاجة الى الفترة اصلا وان كان ولابد فيكفى حصول الفترة بغشى او نوم خفيف ثم ان كان ولابد من حصول الفترة بالموت فلم قلت النبى لابد وان يعلم ذلك أليس قوم منكم يقولون ان موسى عليه السلام انما سأل الرؤية لانه ما كان يعرف امتناعها على الله تعالى فاذا جاز ذلك الجهل فلم لايجوز هذا الجهل ثم ما الدليل على ان آدم كان نبيا فى ذلك الوقت فان مذهبنا ان واقعة الزلة انما حصلت قبل رسالته لابعدها ثم ان الذى يدل على ان آدم عليه السلام قبل ذلك قوله تعالى عقيب ذكر الوسوسة فأكلا منها وهذا الترتيب مشعر بالعلية كقولهم زنى ماعز فرجم وسها رسول الله فسجد فان هذه الفاء تدل على ان الرجم كالمسبب للزنا والسجود كالمسبب للسهو فكذلك ههنا يجب ان يكون الاكل كالمعلل باستماع قوله هل ادلك على شجرة الخلد وملك لايبلى وانما يحصل هذا التعليل لو قبل آدم ذلك منه فانه لو رد قوله لما أقدم على الاكل بناء على قوله فثبت ان آدم عليه السلام قبل ذلك من ابليس ثم انه سبحانه بين انهما لما أكلا بدت لهما سوآتهما قال ابن عباس عريا من النور الذى كان الله ألبسهما حتى بدت فروجهما وانما جمع فقيل سوآتهما كما قال صغت قلوبكما فان قيل هل كان ظهور سوآتهما كالجزاء على معصيتهما قلنا لاشك ان ذلك كالمعلق على ذلك الاكل لكن يحتمل ان لايكون عقابا عليه بل انما ترتب عليه لمصلحة أخرى اما قوله وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ففيه ابحاث (الاول) قال صاحب الكشاف طفق يفعل كذا مثل جعل يفعل واخذ وانشأ وحكمها حكم كاد فى وقوع الخبر فعلا مضارعا وبينها وبينه مسافة قصيرة وهى للشروع فى اول الامر وكاد لمقاربته والدنو منه (البحث الثانى) قرئ يخصفان للتكثير والتكرير من خصف النعل وهو ان يخرز عليه الخصاف اى يلزقان الورقة على سوآتهما للستر وهو ورق التين اما قوله وعصى آدم ربه فغوى فمن الناس من تمسك بهذا فى صدور الكبيرة عنه من وجهين (الاول) ان العاصى اسم للذم فلا ينطلق الا على صاحب الكبيرة لقوله تعالى ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها ولامعنى لصاحب الكبيرة الا من فعل فعلا يعاقب عليه (والوجه الثانى) ان الغواية والضلالة اسمان مترادفان والغى ضد الرشد ومثل هذا الاسم لايتناول الا الفاسق المنهمك

الفصيل اذا اتخم من اللبن وفى وصفه عليه السلام بالعصيان والغواية مع صغر زلته تعظيم لها وزجر بليغ لاولاده عن امثالها (ثم اجتباه ربه) اى اصطفاه وقربه اليه بالحمل على التوبة والتوفيق لها من اجتبى الشئ بمعنى جباه لنفسه اى جمعه كقولك اجتمعته او من جبى الى كذا فاجتبيته مثل جليت على العروس فاجتليتها واصل الكلمة الجمع وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام مزيد تشريف له عليه السلام (فتاب عليه) اى قبل توبته حين تاب هو وزوجته قائلين ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين وافراده عليه السلام بالاجتباء وقبول التوبة قد مر وجهه (وهدى) اى الى الثبات على التوبة والتمسك باسباب العصمة (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من الاخبار بأنه تعالى قبل توبته وهداه كأنه قيل فماذا امره تعالى بعد ذلك فقيل قال له ولزوجته (اهبطا منها جميعا) اى انزلا من الجنة الى الارض وقوله تعالى (بعضكم لبعض عدو) حال من ضمير المخاطب فى اهبطا والجمع لما انهما اصل الذرية ومنشأ الاولاد اى متعادين فى امر المعاش كما عليه الناس من التجاذب والتحارب (فاما يأتينكم منى هدى) من كتاب ورسول (فمن اتبع هداى) وضع الظاهر موضع

فى فسقه اجاب قوم عن الكلام الاول فقالوا المعصية مخالفة الامر والامر قد يكون بالواجب والندب فانهم يقولون اشرت عليه فى امر ولده فى كذا فعصانى وأمرته بشرب الدواء فعصانى واذا كان الامر كذلك لم يمتنع اطلاق اسم العصيان على آدم لا لكونه تاركا للواجب بل لكونه تاركا للمندوب فاجاب المستدل عن هذا الاعتراض بانا بينا ان ظاهر القرآن يدل على ان العاصى مستحق للعقاب والعرف يدل على انه اسم ذم فوجب تخصيص اسم العاصى بتارك الواجب ولانه لو كان تارك المندوب عاصيا لوجب وصف الانبياء بأسرهم بأنهم عصاة فى كل حال لانهم لا ينفكون من ترك المندوب فان قيل وصف تارك المندوب بأنه عاص مجاز والمجاز لا يطرد قلنا لما سلمت كونه مجازا فالاصل عدمه اما قوله اشرت عليه فى امر ولده فى كذا فعصانى وامرته بشرب الدواء فعصانى قلنا لا نسلم ان هذا الاستعمال مروى عن العرب ولئن سلمنا ذلك ولكنهم انما يطلقون ذلك اذا جزموا على المستشير بأنه لا بد وان يفعل ذلك الفعل وانه لا يجوز الاخلال بذلك الفعل وحينئذ يكون معنى الايجاب حاصلا وان لم يكن الوجوب حاصلا وذلك يدل على ان لفظ العصيان لا يجوز اطلاقه الا عند تحقق الايجاب لكنا اجمعنا على ان الايجاب من الله تعالى يقتضى الوجوب فيلزم ان يكون اطلاق لفظ العصيان على آدم عليه السلام انما كان لكونه تاركا للواجب ومن الناس من سلم ان الآية تدل على صدور المعصية منه لكنه زعم ان المعصية كانت من الصغائر لا من الكبائر وهذا قول عامة المعتزلة وهو ايضا ضعيف لانا بينا ان اسم العاصى اسم للذم ولان ظاهر القرآن يدل على انه يستحق العقاب وذلك لا يليق بالصغيرة واجاب ابو مسلم الاصفهانى بأنه عصى فى مصالح الدنيا لا فيما يتصل بالتكاليف وكذلك القول فى غوى وهذا ايضا بعيد لان مصالح الدنيا تكون مباحة ومن يفعلها لا يوصف بالعصيان الذى هو اسم للذم ولا يقال فدلاهما بغرور واما التمسك بقوله تعالى فغوى فاجابوا عنه من وجوه (احدها) انه خاب من نعيم الجنة وذلك لانه لما اكل من تلك الشجرة ليصير ملكه دائما لما اكل زال فلما خاب سعيه وما نجح قيل انه غوى وتحقيقه ان الغى ضد الرشد والرشد هو ان يتوصل بشئ الى شئ يوصل الى المقصود فمن توصل بشئ الى شئ فحصل له ضد مقصوده كان ذلك غيا (وثانيها) قال بعضهم غوى اى بشم من كثرة الاكل قال صاحب الكشاف هذا وان صح على لغة من يقلب الياء المكسور ما قبلها الفا فيقول فى فنى وبقى فنا وبقا وهم بنو طى فهو تفسير خبيث واعلم ان الاولى عندى فى هذا الباب والاحسم للشغب ان يقال هذه الواقعة كانت قبل النبوة وقد شرحنا ذلك فى سورة البقرة وههنا بحث لا بد منه وهو ان ظاهر القرآن وان دل على ان آدم عصى وغوى لكن ليس لاحد ان يقول ان آدم كان عاصيا غاويا ويدل على صحة قولنا امور (احدها) قال العتبى يقال لرجل قطع ثوبا وخاطه قد قطعه وخاطه ولا يقال خائط ولا خياط حتى يكون معاودا لذلك الفعل معروفا به ومعلوم ان هذه الزلة لم تصدر عن آدم عليه السلام الا مرة واحدة

المنتشر مع الاضافة الى ضميره تعالى لتشريفه والمبالغة فى ايجاب اتباعه (فلا يضل) فى الدنيا (ولا يشقى) فى الآخرة (ومن اعرض عن ذكرى) اى عن الهدى الذاكر لى والداعى الى (فان له) فى الدنيا (معيشة ضنكا) ضيقا مصدر وصف به ولذلك يستوى فيه المذكر والمؤنث وقرئ ضنكى كسكرى وذلك لان مجامع همته ومطامح نظره مقصورة على اعراض الدنيا وهو متهالك على ازديادها وخائف من انتقاصها بخلاف المؤمن الطالب للآخرة مع انه قد يضيق الله تعالى بشؤم الكفر ويوسع ببركة الايمان كما قال تعالى وضربت عليهم الذلة والمسكنة وقال تعالى ولو ان اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السما والارض وقال تعالى ولو ان اهل الكتاب آمنوا الى قوله تعالى لاكلوا من فوقهم ومن تحت ارجلهم وقيل هو الضريع والزقوم فى النار وقيل عذاب القبر (ونحشره) وقرئ بسكون الهاء على لفظ الوقف وبالجزم عطفا على محل فان له معيشة ضنكا لانه جواب الشرط (يوم القيامة اعمى) فاقد البصر كما فى قوله تعالى ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما لا اعمى عن الحجة كما قيل (قال) استئناف كما مر (رب لم حشرتنى اعمى وقد كنت بصيرا) اى فى الدنيا وقرئ اعمى بالامالة فى الموضعين وفى

فوجب ان لايجوز اطلاق هذا الاسم عليه (وثانيها) ان على تقدير ان تكون هذه الواقعة انما وقعت قبل النبوة لم يجز بعد ان قبل الله توبته وشرفه بالرسالة والنبوة اطلاق هذا الاسم عليه كما لايقال لمن اسلم بعد الكفر انه كافر بمعنى انه كان كافرا بل وبتقدير ان يقال هذه الواقعة وقعت بعد النبوة لم يجز ايضا ان يقال ذلك لانه عليه السلام تاب عنها وكان الرجل المسلم اذا شرب الخمر أو زنى ثم تاب وحسنت توبته لايقال له بعد ذلك انه شارب خمر أو زان فكذا ههنا (وثالثها) ان قولنا عاص وغاو يوهم كونه عاصيا فى اكثر الاشياء وغاويا عن معرفة الله تعالى ولم ترد هاتان اللفظتان فى القرآن مطلقتين بل مقرونتين بالقصة التى عصى فيها فكأنه قال عصى فى كيت وكيت وذلك لايوهم التوهم الباطل الذى ذكرناه (ورابعها) انه يجوز من الله تعالى مالايجوز من غيره كما يجوز للسيد فى عبده وولده عند معصيته من اطلاق القول مالايجوز لغير السيد فى عبده وولده اما قوله ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى فالمعنى ثم اصطفاه فتاب عليه اى عاد عليه بالعفو والمغفرة وهداه رشده حتى رجع الى الندم والاستغفار وقبل الله منه ذلك روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لو جمع بكاء اهل الدنيا الى بكاء داود كان بكاؤه اكثر ولو جمع كل ذلك الى بكاء نوح لكان بكاء نوح اكثر وانما سمى نوحا لنوحه على نفسه ولو جمع كل ذلك الى بكاء آدم لكان بكاء آدم على خطيئته اكثر وقال وهب انه لما كثر بكاؤه اوحى الله تعالى اليه وامر بأن يقول لا اله الا انت سبحانك وبحمدك عملت سوأ وظلمت نفسى فاغفر لى انك انت خير الغافرين فقالها آدم عليه السلام ثم قال قل لا اله الا انت سبحانك وبحمدك عملت سوأ وظلمت نفسى فارحمنى انك انت ارحم الراحمين ثم قال قل لا اله الا انت سبحانك وبحمدك عملت سوأ وظلمت نفسى فتب على انك انت التواب الرحيم قال ابن عباس رضى الله عنهما هذه الكلمات هى التى تلقاها آدم عليه السلام من ربه ❊ قوله تعالى (قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن اعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة اعمى قال رب لم حشرتنى اعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك اتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزى من اسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة اشد وابقى) اعلم ان على اول هذه الآية سؤالا وهو ان قوله اهبطا اما ان يكون خطابا مع شخصين او اكثر فان كان خطابا لشخصين فكيف قال بعده فاما يأتينكم منى هدى وهو خطاب الجمع وان كان خطابا لاكثر من شخصين فكيف قال اهبطا وذكروا فى جوابه وجوها (احدها) قال ابو مسلم الخطاب لآدم ومعه ذريته ولابليس ومعه ذريته فلكونهما جنسين صح قوله اهبطا ولاجل اشتمال كل واحد من الجنسين على الكثرة صح قوله فاما يأتينكم (ثانيها) قال صاحب الكشاف لما كان آدم وحواء عليهما السلام اصلا للبشر والسبب الذين منهما تفرعوا جعلا كأنهما البشر انفسهم فخوطبا مخاطبتهم فقال فاما يأتينكم على لفظ الجماعة اما قوله بعضكم لبعض عدو

الاول فقط لكونه جديرا بالتغيير لكونه رأس الآية ومحل الوقف (قال كذلك) اى مثل ذلك فعلت انت ثم فسره بقوله تعالى (اتتك آياتنا) واضحة نيرة بحيث لاتخفى على احد (فنسيتها) اى عميت عنها وتركتها ترك المنسى الذى لايذكر اصلا (وكذلك) ومثل ذلك النسيان الذى كنت فعلته فى الدنيا (اليوم تنسى) تترك فى العمى والعذاب جزاء وفاقا لكن لا ابدا كما قيل بل الى ماشاء الله ثم يزيله عنه فيرى اهوال القيامة ويشاهد مقعده من النار ويكون ذلك له عذابا فوق العذاب وكذا البكم والصمم يزيلهما الله تعالى عنهم اسمع بهم وابصر يوم يأتوننا (وكذلك) اى مثل ذلك الجزاء الموافق للجناية (نجزى من اسرف) بالانهماك فى الشهوات (ولم يؤمن بآيات ربه) بل كذبها واعرض عنها (ولعذاب الآخرة) على الاطلاق او عذاب النار (اشد وابقى) اى من ضنك العيش او منه ومن الحشر على العمى (افلم يهد لهم كم اهلكنا قبلهم من القرون) كلام مستأنف مسوق لتقرير ماقبله من قوله تعالى وكذلك نجزى الآية والهمزة للانكار التوبيخى والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام واستعمال الهداية باللام اما لتنزيلها منزلة اللازم فلا حاجة الى المفعول او لانها بمعنى التبيين والمفعول محذوف واياما كان

فقال القاضي يكفي في توفية هذا الظاهر حقه ان يكون ابليس والشياطين اعداء للناس والناس اعداء لهم فاذا انضاف الى ذلك عداوة بعض الفريقين لبعض لم يمتنع دخوله في الكلام وقوله فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فيه دلالة على ان المراد الذرية وقد اختلفوا في المراد بالهدى فقال بعضهم الرسل وبعضهم قال الآيات والادلة وبعضهم قال القرآن والتحقيق ان الهدى عبارة عن الدلالة فيدخل فيه كل ذلك وفي قوله فلا يضل ولا يشقى دلالة على ان المراد بالهدى الذي ضمن الله على اتباعه ذلك اتباع الادلة واتباعها لا يتكامل الا بأن يستدل بها وبأن يعمل بها ومن هذا حاله فقد ضمن الله تعالى له ان لا يضل ولا يشقى وفيه ثلاثة اوجه (احدها) لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة (وثانيها) لا يضل ولا يشقى في الآخرة لانه تعالى يهديه الى الجنة ويمكنه فيها (وثالثها) لا يضل ولا يشقى في الدنيا فان قيل المتبع لهدى الله قد يلحقه الشقاء في الدنيا قلنا المراد لا يضل في الدين ولا يشقى بسبب الدين فان حصل الشقاء بسبب آخر فلا بأس ولما وعد تعالى من يتبع الهدى اتبعه بالوعيد فيمن اعرض فقال ومن اعرض عن ذكري والذكر يقع على القرآن وعلى سائر كتب الله تعالى على ما تقدم بيانه ويحتمل ان يراد به الادلة وقوله فان له معيشة ضنكا فالضنك اصله الضيق والشدة وهو مصدر ثم يوصف به فيقال منزل ضنك وعيش ضنك فكأنه قال معيشة ذات ضنك واعلم ان هذا الضيق المتوعد به اما ان يكون في الدنيا او في القبر او في الآخرة او في الدين او في كل ذلك او اكثره (اما الاول) فقال به جمع من المفسرين وذلك لان المسلم لتوكله على الله يعيش في الدنيا عيشا طيبا كما قال فلنحيينه حياة طيبة والكافر بالله يكون حريصا على الدنيا طالبا للزيادة ابدا فعيشته ضنك وحالته مظلمة وايضا فمن الكفرة من ضرب الله عليه الذلة والمسكنة لكفره قال تعالى وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله وقال ولو انهم اقاموا التوراة والانجيل وما انزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت ارجلهم وقال تعالى ولو ان اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض وقال استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين وقال وان لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا (واما الثاني) وهو عذاب القبر فهذا قول عبد الله بن مسعود وابي سعيد الخدري وعبد الله بن عباس ورفعه ابو هريرة الى النبي صلى الله عليه وسلم قال ان عذاب القبر للكافر قال والذي نفسي بيده انه ليسلط عليه في قبره تسعة وتسعون تنينا قال ابن عباس رضي الله عنهما نزلت الآية في الاسود بن عبد العزى المخزومي والمراد ضغطة القبر تختلف فيها اضلاعه (واما الثالث) وهو الضيق في الآخرة في جهنم فان طعامهم فيها الضريع والزقوم وشرابهم الحميم والغسلين فلا يموتون فيها ولا يحيون وهذا قول الحسن وقتادة والكلبي (واما الرابع) وهو الضيق في اموال الدين فقال ابن عباس رضي الله عنهما المعيشة الضنك هي ان

فالفاعل هو الجملة بمضمونها ومعناها وضميرلهم للمشركين المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى اغفلوا فلم يفعل الهداية لهم او فلم يبين لهم مآل امرهم كثرة اهلاكنا للقرون الاولى وقد مر في قوله عز وجل اولم يهد للذين يرثون الارض من بعد اهلها الآية وقيل الفاعل الضمير العائد الى الله عز وجل ويؤيده القراءة بنون العظمة وقوله تعالى كم اهلكنا الخ اما معلق للفعل ساد مسد مفعوله او مفسر لمفعوله المحذوف هكذا قيل والاوجه ان لا يلاحظ له مفعول كأنه قيل افلم يفعل الله تعالى لهم الهداية ثم قيل بطريق الالتفات كم اهلكنا الخ بيانا لتلك الهداية ومن القرون في محل النصب على انه وصف لمميز كم اي كم قرنا كائنا من القرون وقوله تعالى (يمشون في مساكنهم) حال من القرون او من مفعول اهلكنا اي اهلكناهم وهم في حال امن وتقلب في ديارهم او من الضمير في لهم مؤكد للانكار والعامل يهد والمعنى افلم يهد لهم اهلاكنا القرون السالفة من اصحاب الحجر وثمود وقريات قوم لوط حال كونهم ماشين في مساكنهم اذا سافروا الى الشام مشاهدين لآثار هلاكهم مع ان ذلك مما يوجب ان يهتدوا الى الحق

تضيق عليه ابواب الخير فلا يهتدى لشئ منها سئل الشبلى عن قوله عليه السلام اذا رأيتم اهل البلاء فاسألوا الله العافية فقال اهل البلاء هم اهل الغفلات عن الله تعالى فعقوبتهم ان يردهم الله تعالى الى انفسهم واى معيشة اضيق واشد من ان يرد الانسان الى نفسه وعن عطاء قال المعيشة الضنك هى معيشة الكافر لانه غير موقن بالثواب والعقاب (واما الخامس) وهو ان يكون المراد الضيق فى كل ذلك او اكثره فروى عن على عليه السلام عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال عقوبة المعصية ثلاثة ضيق المعيشة والعسر فى الشدة وان لا يتوصل الى قوته الا بمعصية الله تعالى اما قوله تعالى ونحشره يوم القيامة اعمى ففيه وجوه (احدها) هذا مثل قوله ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما وكما فسرت الزرقة بالعمى ثم قيل انه يحشر بصيرا فاذا سيق الى المحشر عمى والكلام فيه وعليه قد تقدم فى قوله زرقا (وثانيها) قال مجاهد والضحاك ومقاتل يعنى اعمى عن الحجة وهى رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال القاضى هذا القول ضعيف لان فى القيامة لابدان يعلمهم الله تعالى بطلان ما كانوا عليه حتى يتميز لهم الحق من الباطل ومن هذا حاله لا يوصف بذلك الا مجازا او المراد به انه كان من قبل ذلك كذلك ولا يليق بهذا قوله وقد كنت بصيرا ولم يكن كذلك فى حال الدنيا اقول ومما يؤكد هذا الاعتراض انه تعالى علل ذلك العمى بما ان المكلف نسى الدلائل فى الدنيا فلو كان العمى الحاصل فى الآخرة عين ذلك النسيان لم يكن للمكلف بسبب ذلك ضرر كما انه ما كان له فى الدنيا بسبب ذلك ضرر واعلم ان تحقيق الجواب عن هذا الاعتراض مأخوذ من امر آخر وهو ان الارواح الجاهلة فى الدنيا المفارقة عن ابدانها على جهالتها تبقى على تلك الجهالة فى الآخرة وان تلك الجهالة تصير هناك سببا لاعظم الآلام الروحانية وبين هذه الطريقة وبين طريقة القاضى المبنية على اصول الاعتزال بون شديد (وثالثها) قال الجبائى المراد من حشره اعمى انه لا يهتدى يوم القيامة الى طريق ينال منه خيرا بل يبقى واقفا متحيرا كالاعمى الذى لا يهتدى الى شئ اما قوله قال رب لم حشرتنى اعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك اتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ففى تقرير هذا الجواب وجهان (احدهما) انه تعالى انما انزل به هذا العمى جزاء على تركه اتباع الهدى والاعراض عنه (والثانى) هو ان الارواح البشرية اذا فارقت ابدانها جاهلة ضالة عن الاتصال بالروحانيات بقيت على تلك الحالة بعد المفارقة وعظمت الآلام الروحانية فلهذا علل الله تعالى حصول العمى فى الآخرة بالاعراض عن الدلائل فى الدنيا ومن فسر المعيشة الضنك بالضيق فى الدنيا قال انه تعالى بين ان من اعرض عن ذكره فى الدنيا فله المعيشة الضنك فى الدنيا والعمى فى الآخرة اما قوله وكذلك نجزى من اسرف ولم يؤمن بآيات ربه فقد اختلفوا فيه فبعضهم قال اشرك وكفر وبعضهم قال اسرف فى ان عصى الله وقد بين تعالى المراد بذلك بقوله ولم يؤمن بآيات ربه لان ذلك كالتفسير لقوله اسرف وبين انه يجزى من هذا

فيعتبروا والاستفهام للانكار والفاعل الضمير فى يهد والعائد الى الله تعالى او الى الرسول وما دل عليه كم اهلكنا ...

حاله بما تقدم ذكره من المعيشة الضنك والعمى وبين بعد ذلك ان عذاب الآخرة اشد وأبقى اما الاشد فلعظمه واما الابقى فلانه غير منقطع ۞ قوله تعالى (افلم يهد لهم كم اهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ان فى ذلك لآيات لاولى النهى ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما واجل مسمى فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح واطراف النهار لعلك ترضى) اعلم انه تعالى لما بين ان من اعرض عن ذكره كيف يحشر يوم القيامة اتبعه بما لا يعتبر المكلف من احوال الواقعة فى الدنيا بمن كذب الرسل فقال افلم يهد لهم والقراءة العامة افلم يهد بالياء المعجمة من تحت وفاعله هو قوله كم اهلكنا قال القفال جعل كثرة ما اهلك من القرون مبينا لهم كما جعل مثل ذلك واعظا لهم وزاجرا وقرأ ابو عبد الرحمن السلمى افلم نهد لهم بالنون قال الزجاج يعنى افلم نبين لهم بيانا يهتدون به لو تدبروا وتفكروا واما قوله كم اهلكنا فالمراد به المبالغة فى كثرة من اهلكه الله تعالى من القرون الماضية وأراد بقوله يمشون فى مساكنهم ان قريشا يشاهدون تلك الآيات العظيمة الدالة على ما كانوا عليه من النعم وما حل بهم من ضروب الهلاك وللمشاهدة فى ذلك من الاعتبار ما ليس لغيره وبين ان فى تلك الآيات آيات لاولى النهى اى لاهل العقول والاقرب ان للنهية مزية على العقل والنهى لا يقال الا فيمن له عقل ينتهى به عن القبائح كما ان لقولنا اولو العزم مزية على اولو الحزم فلذلك قال بعضهم اهل الورع واهل التقوى ثم بين تعالى الوجه الذى لاجله لا ينزل العذاب معجلا على من كذب وكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم فقال ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما واجل مسمى وفيه تقديم وتأخير والتقدير ولولا كلمة سبقت من ربك واجل مسمى لكان لزاما ولا شبهة فى ان الكلمة هى اخبار الله تعالى ملائكته وكتبه فى اللوح المحفوظ ان امته عليه السلام وان كذبوا فسيؤخرون ولا يفعل بهم ما يفعل بغيرهم من الاستئصال واختلفوا فيما لاجله لم يفعل ذلك بأمة محمد صلى الله عليه وسلم قال بعضهم لانه علم ان فيهم من يؤمن وقال آخرون علم ان فى نسلهم من يؤمن ولو انزل بهم العذاب لعمهم الهلاك وقال آخرون المصلحة فيه خفية لا يعلمها الا هو وقال اهل السنة له بحكم المالكية ان يخص من شاء بفضله ومن شاء بعذابه من غير علة اذ لو كان فعله لعلة لكانت تلك العلة ان كانت قديمة لزم قدم الفعل وان كانت حادثة لافتقرت الى علة اخرى ولزم التسلسل فلهذا قال اهل التحقيق كل شئ صنعه لا لعلة واما الاجل المسمى ففيه قولان (احدهما) ولولا اجل مسمى فى الدنيا لذلك العذاب وهو يوم بدر (والثانى) ولولا اجل مسمى فى الآخرة لذلك العذاب وهذا اقرب ويكون المراد ولولا كلمة سبقت تتضمن تأخير العذاب الى الآخرة كقوله بل الساعة موعدهم لكان العقاب لازما لهم فيما يقدمون عليه من تكذيب الرسول وأذيتهم له ثم انه تعالى لما اخبر نبيه بأنه لا يهلك احدا قبل استيفاء اجله امره بالصبر على ما يقولون ولا شبهة فى ان المراد ان يصبر على ما يكرهه من اقوالهم فيحتمل

ربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام تلويح بان ذلك التأخير لتشريفه عليه السلام كما ينبئ عنه قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم واللزام اما مصدر لازم وصف به مبالغة واما فعال بمعنى مفعل جعل آلة اللزوم لفرط لزومه كما يقال لزاز خصم (واجل مسمى) عطف على كلمة اى ولولا اجل مسمى لاعمارهم او لعذابهم وهو يوم القيامة ويوم بدر لما تأخر عذابهم اصلا وفصله عما عطف عليه للمسارعة الى بيان جواب لولا وللاشعار باستقلال كل منهما بنفى لزوم العذاب ومراعاة فواصل الآى الكريمة وقد جوز عطفه على المستكن فى كان العائد الى الاخذ العاجل المفهوم من السياق تنزيلا للفصل بالخبر منزلة التأكيد اى لكان الاخذ العاجل واجل مسمى لازمين لهم كدأب عاد وثمود واضرابهم ولم ينفرد الاجل المسمى دون الاخذ العاجل (فاصبر على ما يقولون) اى اذا كان الامر على ما ذكر من ان تأخير عذابهم ليس باهمال بل امهال وانه لازم لهم البتة فاصبر على ما يقولون من كلمات الكفر فان علمه عليه السلام بأنهم معذبون لا محالة مما يسليه ويحمله على الصبر (وسبح) ملتبسا (بحمد ربك) اى صل وانت حامد لربك الذى يبلغك الى كمالك على هدايته وتوفيقه او نزهه تعالى عما ينسبونه

ان يكون ذلك قول بعضهم انه ساحر او مجنون او شاعر الى غير ذلك ويحتمل ان يكون المراد تكذيبهم له فيما يدعيه من النبوة ويحتمل ايضا تركهم القبول منه لان كل ذلك مما يغمه ويؤذيه فرغبه تعالى فى الصبر وبعثه على الادامة على الدعاء الى الله تعالى وابلاغ ما حمل من الرسالة وان لا يكون ما يقدمون عليه صارفا له عن ذلك ثم قال الكلبى ومقاتل هذه الآية منسوخة بآية القتال ثم قال فسبح بحمد ربك وهو نظير قوله واستعينوا بالصبر والصلاة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) بحمد ربك فى موضع الحال اى وانت حامد لربك على ان وفقك للتسبيح واعانك عليه (المسئلة الثانية) انما امر عقيب الصبر بالتسبيح لان ذكر الله تعالى يفيد السلوة والراحة اذ لا راحة للمؤمنين دون لقاء الله تعالى (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى التسبيح على وجهين فالاكثرون على ان المراد منه الصلاة وهؤلاء اختلفوا على ثلاثة اوجه (احدها) ان الآية تدل على ان الصلوات الخمس لا ازيد ولا انقص فقال ابن عباس رضى الله عنهما دخلت الصلوات الخمس فيه فقبل طلوع الشمس هو صلاة الفجر وقبل غروبها هو الظهر والعصر لانهما جميعا قبل الغروب ومن آناء الليل فسبح المغرب والعشاء الاخيرة ويكون قوله واطراف النهار كالتوكيد للصلاتين الواقعتين فى طرفى النهار وهما صلاة الفجر وصلاة المغرب كما اختصت فى قوله والصلاة الوسطى بالتوكيد (القول الثانى) ان الآية تدل على الصلوات الخمس وزيادة اما دلالتها على الصلوات الخمس فلان الزمان اما ان يكون قبل طلوع الشمس او قبل غروبها فالليل والنهار داخلان فى هاتين العبارتين فأوقات الصلوات الواجبة دخلت فيهما بقى قوله ومن آناء الليل فسبح واطراف النهار لعلك ترضى واطراف النهار للنوافل (القول الثالث) انها تدل على اقل من الخمس فقوله قبل طلوع الشمس للفجر وقبل غروبها للعصر ومن آناء الليل للمغرب والعتمة فبقى الظهر خارجا والقول الاول اقوى وبالاعتبار اولى هذا كله اذا حملنا التسبيح على الصلاة قال ابو مسلم لا يبعد حمله على التنزيه والاجلال والمعنى اشتغل بتنزيه الله تعالى فى هذه الاوقات وهذا القول اقرب الى الظاهر والى ما تقدم ذكره وذلك لانه تعالى صبره اولا على ما يقولون من تكذيبه ومن اظهار الشرك والكفر والذى يليق بذلك ان يأمر بتنزيهه تعالى عن قولهم حتى يكون دائما مظهرا لذلك وداعيا اليه فلذلك قال ما يجمع كل الاوقات (المسئلة الرابعة) افضل الذكر ما كان بالليل لان الجمعية فيه اكثر وذلك لسكون الناس وهدء حركاتهم وتعطيل الحواس عن الحركات وعن الاعمال ولذلك قال سبحانه وتعالى ان ناشئة الليل هى اشد وطأ واقوم قيلا وقال ام من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ولان الليل وقت السكون والراحة فاذا صرف الى العبادة كانت على النفس اشق وللبدن اتعب فكانت ادخل فى استحقاق الاجر والفضل (المسئلة الخامسة) لقائل ان يقول النهار له طرفان فكيف قال واطراف النهار بل الاولى ان يقول كما قال واقم الصلاة طرفى النهار وجوابه من الناس من قال اقل الجمع

(اثنان)

اليه مما لا يليق بشأنه الرفيع حامدا له على ما ميزك بالهدى معترفا بانه مولى النعم كلها والاول هو الاظهر المناسب لقوله تعالى (قبل طلوع الشمس) الخ فان توقيت التنزيه غير معهود فالمراد صلاة الفجر (وقبل غروبها) يعنى صلاتى الظهر والعصر لانهما قبل غروبها بعد زوالها وجمعها لمناسبة قوله تعالى قبل طلوع الشمس وقبل صلاة العصر (ومن آناء الليل) اى من ساعاته جمع انى بالكسر والقصر وآناء بالفتح والمد (فسبح) اى فصل والمراد به المغرب والعشاء وتقديم الوقت فيهما لاختصاصهما بمزيد الفضل فان القلب فيهما اجمع والنفس الى الاستراحة اميل فتكون العبادة فيهما اشق ولذلك قال تعالى ان ناشئة الليل هى اشد وطأ واقوم قيلا (واطراف النهار) تكرير لصلاة الفجر والمغرب ايذانا باختصاصهما بمزيد مزية ومجيئه بلفظ الجمع لامن الالباس كقول من قال

ظهراهما مثل ظهور الترسين

او امر بصلاة الظهر فانه نهاية النصف الاول من النهار وبداية النصف الاخير وجمعه باعتبار النصفين اولان النهار جنس او امر بالتطوع فى اجزاء النهار (لعلك ترضى) متعلق بسبح اى سبح فى هذه الاوقات رجاء ان تنال عنده تعالى ما ترضى به نفسك وقرئ ترضى على صيغة البناء للمفعول من ارضى اى يرضيك ربك

اثنان فسقط السؤال ومنهم من قال انما جمع لانه يتكرر فى كل نهار ويعود اماقوله تعالى لعلك ترضى ففيه وجوه (احدها) ان هذا كما يقول الملك الكبير يافلان اشتغل بالخدمة فلعلك تنتفع به ويكون المراد انى اوصلك الى درجة عالية فى النعمة وهو اشارة الى قوله ولسوف يعطيك ربك فترضى وقوله عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا (وثانيها) لعلك ترضى ماتنال من الثواب (وثالثها) لعلك ترضى ماتنال من الشفاعة وقرأ الكسائى وعاصم لعلك ترضى بضم التاء والمعنى لايختلف لان الله تعالى اذا ارضاه فقد رضيه واذا رضيه فقد ارضاه ❁ قوله تعالى (ولاتمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم زهرة الحيوة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وابقى وأمر اهلك بالصلاة واصطبر عليها لانسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى وقالوا لولا يأتينا باية من ربه اولم تأتهم بينة مافى الصحف الاولى ولو انا اهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا ارسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل ان نذل ونخزى قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من اصحاب الصراط السوى ومن اهتدى) اعلم انه تعالى لما صبر رسوله عليه السلام على مايقولون وأمره بان يعدل الى التسبيح اتبع ذلك بنهيه عن مد عينيه الى مامتع به القوم فقال تعالى ولاتمدن عينيك وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى قوله ولاتمدن عينيك وجهان (احدهما) المراد منه نظر العين وهؤلاء قالوا مد النظر تطويله وان لا يكاد يرده استحسانا للمنظور اليه واعجابا به كما فعل نظارة قارون حيث قالوا ياليت لنا مثل مااوتى قارون انه لذو حظ عظيم حتى واجههم اولوا العلم والايمان بقولهم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا وفيه ان النظر غير الممدود معفو عنه وذلك كما اذا نظر الانسان الى شئ مرة ثم غض ولما كان النظر الى الزخارف كالمركوز فى الطباع قيل ولاتمدن عينيك اى لاتفعل ماانت معتاد له ولقد شدد المتقون فى وجوب غض البصر عن ابنية الظلمة وعدد الفسقة فى اللباس والمركوب وغير ذلك لانهم اتخذوا هذه الاشياء لعيون النظارة فالناظر اليها محصل لغرضهم وكالمقوى لهم على اتخاذها (القول الثانى) قال ابومسلم الذى نهى عنه بقوله ولاتمدن عينيك ليس هو النظر بل هو الاسف اى لاتأسف على ما فاتك مما نالوه من حظ الدنيا (المسئلة الثانية) قال ابورافع نزل ضيف بالنبى صلى الله عليه وسلم فبعثنى الى يهودى لبيع اوسلف فقال والله لاافعل ذلك الا برهن فاخبرته بقوله فامرنى ان اذهب بدرعه اليه فنزل قوله تعالى ولاتمدن عينيك وقال عليه السلام ان الله لاينظر الى صوركم ولاالى اموالكم ولكن ينظر الى قلوبكم والى اعمالكم وقال ابوالدرداء الدنيا دار من لادار له ومال من لامال له ولها يجمع من لاعقل له وعن الحسن لولاحمق الناس لخربت الدنيا وعن عيسى ابن مريم عليه السلام قال لاتتخذوا الدنيا ربا فتتخذكم لها عبيدا وعن عروة بن الزبير انه كان اذا رأى ماعند السلاطين يتلو هذه الآية وقال الصلاة يرحمكم الله اماقوله عزوجل الى مامتعنا به اى الذذنا به والامتاع

(ولاتمدن عينيك) اى لاتطل نظرهما بطريق الرغبة والميل (الى مامتعنا به) من زخارف الدنيا وقوله تعالى (ازواجا منهم) اى اصنافا من الكفرة مفعول متعنا قدم عليه الجار والمجرور للاعتناء به او هو حال من الضمير والمفعول منهم اى الى الذى متعنا به وهو اصناف وانواع بعضهم على انه معنى من التبعيضية اوبعضا منهم على حذف الموصوف كما مر مرارا (زهرة الحيوة الدنيا) منصوب بمحذوف يدل عليه متعنا اى اعطينا او به على تضمين معناه اوبالبدلية من محل به او من ازواجا بتقدير مضاف اوبدونه اوبالذم وهى الزينة والبهجة وقرئ زهرة بفتح الهاء وهى لغة كالجهرة فى الجهرة اوجمع زاهر وصف لهم بانهم زاهر والدنيا لتنعمهم وبهاء زيهم بخلاف ماعليه المؤمنون الزهاد (لنفتنهم فيه) متعلق بمتعنا جئ به للتنفير عنه ببيان سوء عاقبته مآلا اثر اظهار بهجته حالا اى لنعاملهم معاملة من يبتليهم ويختبرهم فيه اولنعذبهم فى الآخرة بسببه (ورزق ربك) اى ماادخر لك فى الآخرة اوما رزقك فى الدنيا من النبوة والهدى (خير) مما متعهم فى الدنيا لانه مع كونه فى نفسه اجل ماينافس فيه المتنافسون مأمون الغائلة بخلاف ماخولوه (وابقى) فانه لايكاد ينقطع نفسه او اثره ابدا كما عليه زهرة الدنيا (وأمر اهلك بالصلوة) امر عليه السلام بان يأمر اهل بيته او التابعين له من امته بالصلاة بعدما امر هو بها ليتعاونوا على الاستعانة على خصاصتهم ولا يهتموا بأمر

الالذاذ بما يدرك من المناظر الحسنة ويسمع من الاصوات المطربة ويشم من الروائح الطيبة وغير ذلك من الملابس والمناكح يقال امتعه امتاعا ومتعه تمتيعا والتفعيل يقتضي التكثير اما قوله ازواجا منهم اى اشكالا واشباها من الكفار وهي من المزاوجة بين الاشياء وهي المشاكلة وذلك لانهم اشكال في الذهاب عن الصواب وقال ابن عباس رضي الله عنهما اصنافا منهم وقال الكلبي والزجاج رجالا منهم • اما قوله زهرة الحياة الدنيا ففي انتصابه اربعة اوجه (احدها) على الذم وهو النصب على الاختصاص او على تضمين متعنا معنى اعطينا وكونه مفعولا ثانيا له او على ابداله من محل الجار والمجرور او على ابداله من ازواجا على تقدير ذوى فان قيل ما معنى الزهرة فيمن حرك قلنا معنى الزهرة بعينه هو الزينة والبهجة كما جاء في الجهرة قرئ ارنا الله جهرة وان يكون جمع زاهر وصفا لهم بانهم زهرة هذه الدنيا لصفاء الوانهم وتهلل وجوههم بخلاف ما عليه الصلحاء من شحوب الالوان والتقشف في الثياب اما قوله لنفتنهم فيه فذكروا فيه وجوها (احدها) لنعذبهم به كقوله فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا (وثانيها) قال ابن عباس رضي الله عنهما اضلالا مني لهم (وثالثها) قال الكلبي ومقاتل تشديدا في التكليف عليهم لان الاعراض عن الدنيا عند حضورها والاقبال الى الله اشد من ذلك عند عدم حضورها ولذلك كان رجوع الفقراء الى خدمة الله تعالى والتضرع اليه اكثر من تضرع الاغنياء ولان على من اوتي الدنيا ضروبا من التكاليف لولاها لما لزمتهم تلك التكاليف ولان القادر على المعاصي يكون الاجتناب عن المعاصي اشق عليه من العاجز الفقير فمن هذه الجهات تكون الزيادة في الدنيا تشديدا في التكليف ثم قال لرسوله ورزق ربك خير وابقى والاظهر ان المراد ان مطلوبك الذي تجده من الثواب خير من مطلوبهم وابقى لانه يدوم ولا ينقطع وليس كذلك حال ما اوتوه من الدنيا ويحتمل ان يكون المراد ما اوتيته من يسير الدنيا اذا قرنته بالطاعة خير لك من حيث العاقبة وابقى فذكر الرزق في الدنيا ووصفه بحسن عاقبته اذا رضي به وصبر عليه ويحتمل ان يكون المراد ما اعطى من النبوة والدرجات الرفيعة واما قوله وأمر اهلك بالصلاة فنهم من حمله على اقاربه ومنهم من حمله على كل اهل دينه وهذا اقرب وهو كقوله وكان يأمر اهله بالصلاة والزكاة وان احتمل ان يكون المراد من يضمه المسكن اذ التنبيه على الصلاة والامر بها في اوقاتها ممكن فيهم دون سائر الامة يعني كما امرناك بالصلاة فأمر انت قومك بها اما قوله واصطبر عليها فالمراد كما تأمرهم فحافظ عليها فعلا فان الوعظ بلسان الفعل اتم منه بلسان القول وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية يذهب الى فاطمة وعلي عليهما السلام كل صباح ويقول الصلاة وكان يفعل ذلك اشهرا ثم بين تعالى انه انما يأمرهم بذلك لمنافعهم وانه متعال عن المنافع بقوله لا نسئلك رزقا نحن نرزقك وفيه وجوه (احدها) قال ابو مسلم المعنى انه تعالى انما يريد منه ومنهم العبادة ولا يريد

(منه)

المعيشة ولا يلتفتوا لفت ارباب الثروة (واصطبر عليها) وثابر عليها غير مشتغل بامر المعاش (لا نسألك رزقا) اى لا نكلفك ان ترزق نفسك ولا اهلك (نحن نرزقك) واياهم ففرغ بالك بأمر الآخرة (والعاقبة) الحميدة (للتقوى) اى لاهل التقوى على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه تنبيها على ان ملاك الامر التقوى روى انه عليه السلام كان اذا اصاب اهله ضر امرهم بالصلاة وتلا هذه الآية (وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه) حكاية لبعض اقاويلهم الباطلة التي امر عليه السلام بالصبر عليها اى هلا يأتينا بآية تدل على صدقه في دعوى النبوة او بآية مما اقترحوها بلغوا من المكابرة والعناد الى حيث لم يعدوا ما شاهدوا من المعجزات التي تخر لها صم الجبال من قبيل الآيات حتى اجترؤا على التفوه بهذه العظيمة الشنعاء وقوله تعالى (اولم تأتهم بينة ما في الصحف الاولى) اى التوراة والانجيل وسائر الكتب السماوية رد من جهته عز وعلا لمقالتهم القبيحة وتكذيب لهم فيما دسوا تحتها من انكار اتيان الآية باتيان القرآن الكريم الذي هو ام الآيات وراس المعجزات واعظمها وابقاها لان حقيقة المعجزة اختصاص مدعي النبوة بنوع من الامور الخارقة للعادات اى امر كان ولا ريب في ان العلم اجل الامور واعلاها اذ هو اصل الاعمال ومبدأ الافعال ولقد ظهر مع حيازته لجميع علوم الاولين والآخرين على يدأمي لم يمارس شيئا من العلوم ولم يدارس

منه ان يرزقه كما يريد السادة من العبيد الخراج وهو كقوله تعالى وماخلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد ان يطعمون (وثانيها) لا نسألك رزقا لنفسك ولا لاهلك بل نحن نرزقك ونرزق اهلك ففرغ بالك لامر الآخرة وفي معناه قول الناس من كان في عمل الله كان الله في عمله (وثالثها) المعنى انا لما أمرناك بالصلاة فليس ذلك لانا ننتفع بصلاتك فعبر عن هذا المعنى بقوله لا نسألك رزقا بل نحن نرزقك في الدنيا بوجوه النعم وفي الآخرة بالثواب قال عبدالله بن سلام كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا نزل بأهله ضيق او شدة امرهم بالصلاة وتلا هذه الآية واعلم انه ليس في الآية رخصة في ترك التكسب لانه تعالى قال في وصف المتقين رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله اما قوله والعاقبة للتقوى فالمراد والعاقبة الجميلة لاهل التقوى يعني تقوى الله تعالى ثم انه سبحانه بعد هذه الوصية حكى عنهم شبهتهم فكأنه من تمام قوله فاصبر على مايقولون وهي قولهم لولا يأتينا بآية من ربه اوهموا بهذا الكلام انه يكلفهم الايمان من غير آية وقالوا في موضع آخر فليأتنا بآية كما ارسل الاولون وأجاب الله تعالى عنه بقوله اولم تأتهم بينة مافي الصحف الاولى وفيه وجوه (احدها) ان مافي القرآن اذا وافق مافي كتبهم مع ان الرسول صلى الله عليه وسلم لم يشتغل بالدارسة والتعلم ومارأى استاذا البتة كان ذلك اخبارا عن الغيب فيكون معجزا (وثانيها) ان بينة مافي الصحف الاولى مافيها من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم وبنبوته وبعثته (وثالثها) ذكر ابن جرير والقفال والمعنى اولم تأتهم بينة مافي الصحف الاولى من انباء الامم التي اهلكناهم لما سألوا الآيات وكفروا بها كيف عاجلناهم بالعقوبة فماذا يؤمنهم ان يكون حالهم في سؤال الآيات كحال اولئك وانما أتاهم هذا البيان في القرآن فلهذا وصف القرآن بكونه بينة مافي الصحف الاولى واعلم انه انما ذكر الضمير الراجع الى البينة لانها في معنى البرهان والدليل ثم بين انه تعالى ازاح لهم كل عذر وعلة في التكليف فقال ولو انا اهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا ارسلت الينا رسولا والمراد كان لهم ان يقولوا ذلك فيكون عذرا لهم فأما الآن وقد ارسلناك وبينا على لسانك ما عليهم ومالهم فلا حجة لهم البتة بل الحجة عليهم ومعنى من قبله يحتمل من قبل ارساله ويحتمل من قبل ما اظهره من البينات فان قيل فما معنى قوله ولو انا اهلكناهم لقالوا والهالك لا يصح ان يقول قلنا المعنى لكان لهم ان يقولوا ذلك يوم القيامة ولذلك قال من قبل ان نذل ونخزى وذلك لا يليق الا بعذاب الآخرة روى ان اباسعيد الخدري رضي الله عنه قال قال عليه السلام يحتج على الله تعالى يوم القيامة ثلاثة الهالك في الفترة يقول لم يأتني رسول والا كنت اطوع خلقك لك وتلا قوله لولا ارسلت الينا رسولا والمغلوب على عقله يقول لم تجعل لي عقلا انتفع به ويقول الصبي كنت صغيرا لا اعقل فترفع لهم نار ويقال لهم ادخلوها فيدخلها من كان في علم الله تعالى انه شقي ويبقى من في علمه انه سعيد فيقول الله تعالى لهم عصيتم اليوم فكيف برسلي لو أتوكم والقاضي طعن

احدا من اهلها اصلا فاي معجزة تراد بعده وروده واي آية ترام مع وجوده وفي ايراده بعنوان كونه بينة لما في الصحف الاولى من التوراة والانجيل وسائر الكتب السماوية اي شاهدا بحقية مافيها من العقائد الحقة واصول الاحكام التي اجمعت عليها كافة الرسل وبصحة ماتنطق به من انباء الامم من حيث انه غني باعجازه عما يشهد بحقيته حقيق باثبات حقية غيره مالا يخفى من تنويه شأنه وانارة برهانه ومزيد تقرير وتحقيق لاتيانه واسناد الاتيان اليه مع جعلهم اياهما ايابه للتنبيه على اصالته فيه مع ما فيه من المناسبة للبينة والهمزة لانكار الوقوع والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام كانه قيل الم يأتهم سائر الآيات ولم تأتهم خاصة بينة ما في الصحف الاولى تقريرا لاتيانه وايذانا بأنه من الوضوح بحيث لا يتأتى منهم انكاره اصلا وان اجترؤا على انكار سائر الآيات مكابرة وعنادا وقرئ اولم يأتهم بالياء التحتانية وقرئ الصحف بالسكون تخفيفا وقوله تعالى (ولو انا اهلكناهم بعذاب) الى آخر الآية جملة مستأنفة سيقت لتقرير ماقبلها من كون القرآن آية بينة لا يمكن انكارها ببيان انهم يعترفون بها يوم القيامة والمعنى لو انا اهلكناهم في الدنيا بعذاب مستأصل (من قبله) متعلق باهلكنا او بمحذوف هو صفة لعذاب اي بعذاب كائن من قبل اتيان البينة او من قبل محمد عليه الصلاة والسلام (لقالوا) اي يوم القيامة (ربنا لولا ارسلت الينا) في الدنيا (رسولا) امع كتاب

في الخبر وقال لايحسن العقاب على من لايعقل واعلم ان في هذه الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال الجبائي هذه الآية تدل على وجوب فعل اللطف اذ المراد انه يجب ان يفعل بالمكلفين ما يؤمنون عنده ولو لم يفعل لكان لهم ان يقولوا هلا فعلت ذلك بنا لنؤمن وهلا ارسلت الينا رسولا فنتبع آياتك وان كان في المعلوم انهم لايؤمنون ولو بعث اليهم الرسول لم يكن في ذلك حجة فصح انه انما يكون حجة لهم اذا كان في المعلوم انهم يؤمنون عنده اذا اطاعوه (المسئلة الثانية) قال الكعبي قوله لولا ارسلت الينا رسولا اوضح دليل على انه تعالى يقبل الاحتجاج من عباده وانه ليس قوله لايسأل عما يفعل كما ظنه اهل الجبر من ان ما هو جور منا يكون عدلا منه بل تأويله انه لايقع منه الا العدل فاذا ثبت انه تعالى يقبل الحجة فلو لم يكونوا قادرين على ما امروا به لكان لهم فيه اعظم حجة (المسئلة الثالثة) قال اصحابنا الآية تدل على ان الوجوب لايتحقق الا بالشرع اذ لو تحقق العقاب قبل مجئ الشرع لكان العقاب حاصلا قبل مجئ الشرع والآية تنفي تحقق العقاب قبل مجئ الشرع ثم انه سبحانه ختم السورة بضرب من الوعيد فقال قل كل متربص اي كل منا ومنكم منتظر عاقبة امره وهذا الانتظار يحتمل ان يكون قبل الموت اما بسبب الامر بالجهاد او بسبب ظهور الدولة والقوة ويحتمل ان يكون بالموت فان كل واحد من الخصمين ينتظر موت صاحبه ويحتمل ان يكون بعد الموت وهو ظهور امر الثواب والعقاب فانه يتميز في الآخرة المحق من المبطل بما يظهر على المحق من انواع كرامة الله تعالى وعلى المبطل من انواع اهانته فستعلمون عند ذلك من اصحاب الصراط السوي ومن اهتدى اليه وليس هو بمعنى الشك والترديد بل هو على سبيل التهديد والزجر للكفار والله اعلم

(سورة الانبياء عليهم السلام مائة واثنتا عشرة آية مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم واسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا الا بشر مثلكم أفتأتون السحر وانتم تبصرون) اعلم ان قوله تعالى اقترب للناس حسابهم فيه مسائل (المسئلة الاولى) القرب لايعقل الا في المكان والزمان والقرب المكاني ههنا ممتنع فتعين القرب الزماني والمعنى اقترب للناس وقت حسابهم (المسئلة الثانية) لقائل ان يقول كيف وصف بالاقتراب وقد عبر بعد هذا القول قريب من ستمائة عام الجواب من ثلاثة اوجه (احدها) انه مقترب عند الله تعالى والدليل عليه قوله تعالى ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون (وثانيها) ان كل آت قريب وان طالت اوقات ترقبه وانما البعيد هو الذي انقرض قال الشاعر

فلا زال ما تهواه اقرب من غد ٭ ولا زال ما تخشاه ابعد من امس

(وثالثها)

(فنتبع آياتك) التي جاءنا بها (من قبل ان نذل) بالعذاب في الدنيا (ونخزى) بدخول النار اليوم ولكنا لم نهلكهم قبل اتيانها فانقطعت معذرتهم فعند ذلك قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شئ (قل) لاولئك الكفرة المتمردين (كل) اي كل واحد منا ومنكم (متربص) منتظر لما يؤول اليه امرنا وامركم (فتربصوا) وقرئ فتمتعوا (فستعلمون) عن قريب (من اصحاب الصراط السوي) اي المستقيم وقرئ السواء اي الوسط الجيد وقرئ السوء والسوى والسوي تصغير السوء (ومن اهتدى) من الضلالة ومن في الموضعين استفهامية محلها الرفع بالابتداء خبرها ما بعدها والجملة سادة مسد مفعولي العلم او مفعوله ويجوز كون الثانية موصولة بخلاف الاولى لعدم العائد فتكون معطوفة على محل الجملة الاستفهامية المعلق عنها الفعل على ان العلم بمعنى المعرفة او على اصحاب او على الصراط وقيل العائد في الاولى محذوف والتقدير من هم اصحاب الصراط ٭عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة طه اعطى يوم القيامة ثواب المهاجرين والانصار وقال لايقرأ اهل الجنة من القرآن الا سورة طه ويس

٭سورة الانبياء مكية وهي مائة واثنتا عشرة آية)٭

٭(بسم الله الرحمن الرحيم)٭

(اقترب للناس حسابهم) مناسبة هذه الفاتحة الكريمة لما قبلها من الخاتمة الشريفة غنية عن البيان قال ابن عباس رضي الله عنهما المراد

(وثالثها) ان المعاملة اذا كانت مؤجلة الى سنة ثم انقضى منها شهر فانه لايقال اقترب الاجل اما اذا كان الماضى اكثر من الباقى فانه يقال اقترب الاجل فعلى هذا الوجه قال العلماء ان فيه دلالة على قرب القيامة ولهذا الوجه قال عليه السلام بعثت انا والساعة كهاتين ولهذا الوجه قيل انه عليه السلام ختم به النبوة كل ذلك لاجل ان الباقى من مدة التكليف اقل من الماضى (المسئلة الثالثة) انما ذكر تعالى هذا الاقتراب لما فيه من المصلحة للمكلفين فيكون اقرب الى تلافى الذنوب والتحرز عنها خوفا من ذلك والله اعلم (المسئلة الرابعة) انما لم يعين الوقت لاجل ان كتمانه اصلح كما ان كتمان وقت الموت اصلح (المسئلة الخامسة) الفائدة فى تسمية يوم القيامة يوم الحساب ان الحساب هو الكاشف عن حال المرء فالخوف من ذكره اعظم (المسئلة السادسة) يجب ان يكون المراد بالناس من له مدخل فى الحساب وهم المكلفون دون من لا مدخل له ثم قال ابن عباس المراد بالناس المشركون وهذا من اطلاق اسم الجنس على بعضه للدليل القائم وهو مايتلوه من صفات المشركين اما قوله تعالى وهم فى غفلة معرضون فاعلم انه تعالى وصفهم بأمرين الغفلة والاعراض اما الغفلة فالمعنى انهم غافلون عن حسابهم ساهون لايتفكرون فى عاقبتهم مع اقتضاء عقولهم انه لابد من جزاء المحسن والمسيء ثم اذا انتبهوا من سنة الغفلة ورقدة الجهالة مماتيلى عليهم من الآيات والنذر اعرضوا وسدوا اسماعهم اما قوله مايأتيهم من ذكر من ربهم محدث ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن ابى عبلة محدث بالرفع صفة للمحل (المسئلة الثانية) انما ذكر الله تعالى ذلك بيانا لكونهم معرضين وذلك لان الله تعالى يجدد لهم الذكر وقتا فوقتا ويظهر لهم الآية بعد الآية والسورة بعد السورة ليكرر على اسماعهم التنبيه والموعظة لعلهم يتعظون فمايزيدهم ذلك الا لعبا واستسخارا (المسئلة الثالثة) المعتزلة احتجوا على حدوث القرآن بهذه الآية فقالوا القرآن ذكر والذكر محدث فالقرآن محدث بيان ان القرآن ذكر قوله تعالى فى صفة القرآن ان هو الا ذكر للعالمين وقوله وانه لذكر لك ولقومك وقوله ص والقرآن ذى الذكر وقوله انا نحن نزلنا الذكر وقوله ان هو الا ذكر وقرآن مبين وقوله وهذا ذكر مبارك انزلناه وبيان ان الذكر محدث قوله فى هذا الموضع مايأتيهم من ذكر من ربهم محدث وقوله فى سورة الشعراء مايأتيهم من ذكر من الرحمن محدث ثم قالوا فصار مجموع هاتين المقدمتين المنصوصتين كالنص فى ان القرآن محدث والجواب من وجهين (الاول) ان قوله ان هو الا ذكر للعالمين وقوله وهذا ذكر مبارك اشارة الى المركب من الحروف والاصوات فاذا ضممنا اليه قوله مايأتيهم من ذكر من ربهم محدث لزم حدوث المركب من الحروف والاصوات وذلك مما لانزاع فيه بل حدوثه معلوم بالضرورة وانما النزاع فى قدم كلام الله تعالى بمعنى آخر (الثانى) ان قوله مايأتيهم من ذكر من ربهم محدث لايدل على حدوث كل ما كان ذكرا بل على ذكرما محدث كما ان قول القائل لايدخل هذه البلدة رجل فاضل الا

بالناس المشركون وهو الذى فصح عنه مابعده والمراد باقتراب حسابهم اقترابه فى ضمن اقتراب الساعة واسناد الاقتراب اليه لاالى الساعة مع استتباعها له ولسائر مافيها من الاحوال والاهوال الفظيعة لانسياق الكلام الى بيان غفلتهم عنه واعراضهم عمايذكرهم ذلك واللام متعلقة بالفعل وتقديمها على الفاعل للمسارعة الى ادخال الروعة فان نسبة الاقتراب اليهم من اول الامر ممايسوءهم ويورثهم رهبة وانزعاجا من المقترب كما ان تقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح فى قوله تعالى هو الذى خلق لكم مافى الارض لتعجيل المسرة لما ان بيان كون الخلق لاجل المخاطبين ممايسرهم ويزيدهم رغبة فيما خلق لهم وشوقا اليه وجعلها تأكيدا للاضافة على ان الاصل المتعارف فيما بين الاوساط اقترب حساب الناس ثم اقترب للناس الحساب ثم اقترب للناس حسابهم مع ما فيه تعسف تام بمعزل عما يقتضيه المقام وانما الذى يستدعيه حسن النظام ماقدمناه والمعنى دنا منهم حساب اعمالهم السيئة الموجبة للعقاب وفى اسناد الاقتراب المنبئ عن التوجه نحوهم الى الحساب مع امكان العكس بأن يعتبر التوجه والاقبال من جهتهم نحوه من تفخيم شأنه وتهويل امره مالايخفى لمافيه من تصويره بصورة شئ مقبل عليهم لايزال يطلبهم ويصيبهم لا محالة ومعنى اقترابه لهم تقاربه ودنوه منهم بعد بعده عنهم فانه فى كل ساعة من ساعات الزمان اقرب اليهم منه فى الساعة السابقة هذا

يبغضونه فانه لايدل على ان كل رجل يجب ان يكون فاضلا بل على ان فى الرجال من هو فاضل واذا كان كذلك فالآية لاتدل الاعلى ان بعض الذكر محدث فيصير نظم الكلام هكذا القرآن ذكر وبعض الذكر محدث وهذا لاينتج شيئا كما ان قول القائل الانسان حيوان وبعض الحيوان فرس لاينتج شيئا فظهران الذى ظنوه قاطعا لايفيد ظنا ضعيفا فضلا عن القطع اما قوله الا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ان ذلك ذم للكفار وزجر لغيرهم عن مثله لان الانتفاع بما يسمع لايكون الابما يرجع الى القلب من تدبر وتفكر واذا كانوا عند استماعه لاعبين حصلوا على مجرد الاستماع الذى قد تشارك البهيمة فيه الانسان ثم اكد تعالى ذمهم بقوله لاهية قلوبهم واللاهية من لهى عنه اذا ذهل وغفل وانما ذكر اللعب مقدما على اللهو كما فى قوله تعالى انما الحياة الدنيا لعب ولهو تنبيها على ان اشتغالهم باللعب الذى معناه السخرية والاستهزاء معلل باللهو الذى معناه الذهول والغفلة فانهم اقدموا على اللعب للهوهم وذهولهم عن الحق والله اعلم بالصواب (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف وهم يلعبون لاهية قلوبهم حالان مترادفان او متداخلان ومن قرألاهية بالرفع فالحال واحدة لان لاهية قلوبهم خبر بعد خبر لقوله وهم اما قوله واسروا النجوى الذين ظلموا ففيه سؤالان (الاول) النجوى وهى اسم من التناجى لاتكون الاخفية فما معنى قوله واسروا النجوى (الجواب) معناه بالغوا فى اخفائها وجعلوها بحيث لايفطن احد لتناجيهم (السؤال الثانى) لم قال واسروا النجوى الذين ظلموا (الجواب) ابدل الذين ظلموا من اسروا اشعارا بانهم هم الموسومون بالظلم الفاحش فيما اسروا به او جاء على لغة من قال أكلونى البراغيث او هو منصوب المحل على الذم او هو مبتدأ خبره أسروا النجوى قدم عليه والمعنى وهؤلاء اسروا النجوى فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلا على فعلهم بانه ظلم اما قوله هل هذا الابشر مثلكم افتأتون السحر وانتم تبصرون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف هذا الكلام كله فى محل النصب بدلا من النجوى اى واسروا هذا الحديث ويحتمل ان يكون التقدير واسروا النجوى وقالوا هذا الكلام (المسئلة الثانية) انما اسروا هذا الحديث لوجهين (احدهما) انه كان ذلك شبه التشاور فيما بينهم والتحاور فى طلب الطريق الى هدم امره وعادة المتشاورين ان يجتهدوا فى كتمان سرهم عن اعدائهم (الثانى) يجوز ان يسروا نجواهم بذلك ثم يقولوا لرسول الله والمؤمنين ان كان ماتدعونه حقا فاخبرونا بما أسررناه (المسئلة الثالثة) انهم طعنوا فى نبوته بأمرين (احدهما) انه بشر مثلهم (والثانى) ان الذى أتى به سحر وكلا الطعنين فاسد (اما الاول) فلان النبوة تتقف صحتها على المعجزات والدلائل لا على الصور اذ لو بعث الملك اليهم لما علم كونه نبيا لصورته وانما كان يعلم بالعلم فاذا ظهر ذلك على من هو بشر فيجب ان يكون نبيا بل الاولى ان يكون المبعوث الى البشر بشرا لان المرء الى القبول من اشكاله اقرب وهو به آنس (واما الثانى) وهو ان ما اتى به الرسول

وامالاعتذار بان قربه بالاضافة الى مامضى من الزمان او بالنسبة الى الله عز وجل او باعتبار ان كل آت قريب فلا تعلق له بما نحن فيه من الاقتراب المستفاد من صيغة الماضى ولاحاجة اليه فى تحقيق اصل معناه ثم قد يفهم منه عرفا كونه قريبا فى نفسه ايضا فيصار حينئذ الى التوجيه بالوجه الاول دون الاخيرين اما الثانى فلا سبيل الى اعتباره ههنا لان قربه بالنسبة اليه تعالى مما لايتصور فيه التجدد والتفاوت حتما وانما اعتباره فى قوله تعالى لعل الساعة قريب ونظائره مما لادلالة فيه على الحدوث واما الثالث فلادلالة فيه على القرب حقيقة ولو بالنسبة الى شئ آخر (وهم فى غفلة) اى فى غفلة تامة منه ساهون عنه بالمرة لا انهم غير مبالين به مع اعترافهم باتيانه بل منكرون له كافرون به مع اقتضاء عقولهم ان الاعمال لابد لها من الجزاء (معرضون) اى عن الآيات والنذر المنبهة لهم عن سنة الغفلة وهما خبران للضمير وحيث كانت الغفلة امرا جبليا لهم جعل الخبر الاول ظرفا منبئا عن الاستقرار بخلاف الاعراض والجملة حال من الناس وقد جوز كون الظرف حالا من المستكن فى معرضون (ما يأتيهم من ذكر) من طائفة نازلة من القرآن تذكرهم ذلك اكمل تذكير وتنبيههم عن الغفلة اتم تنبيه كانها نفس الذكر ومن فى قوله تعالى (من ربهم) لابتداء الغاية مجازا متعلقة بيأتيهم او بمحذوف هو صفة لذكر وايا ما كان ففيه دلالة على فضله وشرفه وكمال شناعة مافعلوا به

عليه السلام سحر وانهم يرون كونه سحرا لجهل ايضا لان كل ما اتى به الرسول من القرآن وغيره ظاهر الحال لا تمويه فيه ولا تلبيس فيه فقد كان عليه السلام يتحداهم بالقرآن حالا بعد حال مدة من الزمان وهم ارباب الفصاحة والبلاغة وكانوا فى نهاية الحرص على ابطال امره واقوى الامور فى ابطال امره معارضة القرآن فلو قدروا على المعارضة لامتنع ان لا يأتوا بها لان الفعل عند توفر الدواعى وارتفاع الصارف واجب الوقوع فلما لم يأتوا بها دلنا ذلك على انه فى نفسه معجزة وانهم عرفوا حاله فكيف يجوز ان يقال انه سحر والحال على ماذكرناه وكل ذلك يدل على انهم كانوا عالمين بصدقه الا انهم كانوا يموهون على ضعفائهم بمثل هذا القول وان كانوا فيه مكابرين ❁ قوله تعالى (قال ربى يعلم القول فى السماء والارض وهو السميع العليم بل قالوا اضغاث احلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما ارسل الاولون ما آمنت قبلهم من قرية اهلكناها أفهم يؤمنون) اما قوله قال ربى يعلم القول فى السماء والارض وهو السميع العليم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ قال ربى حكاية لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى قراءة حمزة والكسائى وحفص عن عاصم وقرأ الباقون قل بضم القاف وحذف الالف وسكون اللام (المسئلة الثانية) انه تعالى لما اورد هذا الكلام عقيب ما حكى عنهم وجب ان يكون كالجواب لما قالوه فكأنه قال انكم وان اخفيتم قولكم وطعنكم فان ربى عالم بذلك وانه من وراء عقوبته فتوعدوا بذلك لكى لا يعودوا الى مثله (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف فان قلت فهلا قيل يعلم السر لقوله وأسروا النجوى قلت القول عام يشمل السر والجهر فكان فى العلم به العلم بالسر وزيادة فكان آكد فى بيان الاطلاع على نجواهم من ان يقول يعلم السر كما ان قوله تعالى يعلم السر آكد من ان يقول يعلم سرهم فان قلت فلم ترك الآكد فى سورة الفرقان فى قوله قل انزله الذى يعلم السر فى السموات والارض قلت ليس بواجب ان يجئ بالآكد فى قوله فى كل موضع ولكن يجئ بالتوكيد مرة وبالآكد مرة أخرى ثم الفرق انه قدم ههنا انهم اسروا النجوى فكأنه أراد ان يقول ان ربى يعلم ما اسروه فوضع القول موضع ذلك للمبالغة وثمة قصد وصف ذاته بان قال انزله الذى يعلم السر فى السموات والارض فهو كقوله علام الغيوب عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة (المسئلة الرابعة) انما قدم السميع على العليم لانه لا بد من سماع الكلام اولا ثم من حصول العلم بمعناه اما قوله بل قالوا اضغاث احلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما ارسل الاولون فاعلم انه تعالى عاد الى حكاية قولهم المتصل بقوله هل هذا الا بشر مثلكم أفتأتون السحر ثم قال بل قالوا اضغاث احلام بل افتراه بل شاعر فحكى عنهم ثم هذه الاقوال الخمسة فترتيب كلامهم كأنهم قالوا ندعى ان كونه بشرا مانع من كونه رسولا لله تعالى سلمنا انه غير مانع ولكن لا نسلم ان هذا القرآن معجز ثم اما ان يساعد على ان فصاحة القرآن خارجة عن مقدور البشر قلنا لم لا يجوز ان يكون ذلك سحرا وان لم يساعد عليه فان ادعينا كونه فى نهاية الركاكة قلنا انه

والتعرض لعنوان الربوبية لتشديد التشنيع (محدث) بالجر صفة لذكر وقرئ بالرفع حملا على محله اى محدث تنزيله بحسب اقتضاء الحكمة وقوله تعالى (الا استمعوه) استثناء مفرغ محله النصب على انه حال من مفعول يأتيهم باضمار قد او بدونه على الخلاف المشهور وقوله تعالى (وهم يلعبون) حال من فاعل استمعوه وقوله تعالى (لاهية قلوبهم) اما حال اخرى منه او من واو يلعبون والمعنى ما يأتيهم ذكر من ربهم محدث فى حال من الاحوال الا حال استماعهم اياه لاعبين مستهزئين به لاهين عنه او لاعبين به حال كون قلوبهم لاهية عنه لتناهى غفلتهم وفرط اعراضهم عن النظر فى الامور والتفكر فى العواقب وقرئ لاهية بالرفع على انه خبر بعد خبر (واسروا النجوى) كلام مستأنف مسوق لبيان جناية خاصة اثر حكاية جناياتهم المعتادة والنجوى اسم من التناجى ومعنى اسرارها مع انها لا تكون الا سرا انهم بالغوا فى اخفائها او اسروا نفس التناجى بحيث لم يشعر احد بانهم متناجون وقوله تعالى (الذين ظلموا) بدل من واو اسروا منبئ عن كونهم موصوفين بالظلم الفاحش فيما اسروا به او هو مبتدأ خبره اسروا النجوى قدم عليه اهتماما به والمعنى هم اسروا النجوى فوضع الموصول موضع الضمير تسجيلا على فعلهم بكونه ظلما او منصوب على الذم وقوله تعالى (هل هذا الا بشر مثلكم) الخ فى حيز النصب على انه مفعول لقول مضمر هو جواب عن سؤال نشأ عما قبله

اضغاث احلام وان ادعينا انه متوسط بين الركاكة والفصاحة قلنا انه افتراه وان ادعينا انه كلام فصيح قلنا انه من جنس فصاحة سائر الشعراء وعلى جميع هذه التقديرات فانه لايثبت كونه معجزا ولما فرغوا من تعديد هذه الاحتمالات قالوا فليأتنا بآية كما ارسل الاولون فالمراد انهم طلبوا آية جلية لايتطرق اليها شئ من هذه الاحتمالات كالآيات المنقولة عن موسى وعيسى عليهما السلام ثم ان الله تعالى بدأ بالجواب عن هذا السؤال الاخير بقوله ما آمنت قبلهم من قرية اهلكناها أفهم يؤمنون والمعنى انهم في العتو أشد من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات وعهدوا انهم يؤمنون عندها فلما جاءتهم نكثوا وخالفوا فاهلكهم الله فلو أعطيناهم مايقترحون لكانوا اشد نكثا قال الحسن رحمه الله تعالى انهم لم يجابوا لان حكم الله تعالى ان من كذب بعد الاجابة الى مااقترحه من الآيات فلابد من ان ينزل به عذاب الاستئصال وقد مضى حكمه في امة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة بخلافه فلذلك لم يجبهم

❁ قوله تعالى (وما ارسلنا قبلك الا رجالا نوحي اليهم فاسئلوا اهل الذكر ان كنتم لاتعلمون وماجعلناهم جسدا لايأكلون الطعام وما كانوا خالدين ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء واهلكنا المسرفين لقد انزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم افلا تعقلون) اعلم انه تعالى اجاب عن سؤالهم الاول وهو قولهم ماهذا الا بشر مثلكم بقوله وما ارسلنا قبلك الا رجالا نوحي اليهم فبين ان هذه عادة الله تعالى في الرسل من قبل محمد صلى الله عليه وسلم ولم يمنع ذلك من كونهم رسلا للآيات التي ظهرت عليهم فاذا صح ذلك فيهم فقد ظهر على محمد مثل آياتهم فلامقال عليه في كونه بشرا فاما قوله تعالى فاسئلوا اهل الذكر فالمعنى انه تعالى امرهم ان يسئلوا اهل الذكر وهم اهل الكتاب حتى يعلموهم ان رسل الله الموحى اليهم كانوا بشرا ولم يكونوا ملائكة وانما احالهم على هؤلاء لانهم كانوا يتابعون المشركين في معاداة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعالى ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين اشركوا اذى كثيرا فان قيل اذا لم يوثق باليهود والنصارى فكيف يجوز ان يأمرهم بان يسألوهم عن الرسل قلنا اذا تواتر خبرهم وبلغ حد الضرورة جاز ذلك كما قد يعمل بخبر الكفار اذا تواتر مثل مايعمل بخبر المؤمنين ومن الناس من قال المراد بأهل الذكر اهل القرآن وهو بعيد لانهم كانوا طاعنين في القرآن وفي الرسول صلى الله عليه وسلم فاما تعلق كثير من الفقهاء بهذه الآية في ان للعامي ان يرجع الى فتيا العلماء وفي ان للمجتهد ان يأخذ بقول مجتهد آخر فبعيد لان هذه الآية خطاب مشافهة وهي واردة في هذه الواقعة المخصوصة ومتعلقة باليهود والنصارى على التعيين ثم بين تعالى انه لم يجعل الرسل قبله جسدا لايأكلون الطعام وفيه ابحاث (الاول) قوله لايأكلون الطعام صفة جسد والمعنى وماجعلنا الانبياء ذوي جسد غير طاعمين (الثاني) وحد الجسد لارادة الجنس كأنه قال ذوي ضرب من الاجساد (الثالث) انهم كانوا يقولون مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق لولا انزل اليه ملك فيكون معه نذيرا فأجاب الله بقوله وماجعلناهم جسدا لايأكلون الطعام فبين تعالى ان هذه

كأنه قيل ماذا قالوا في نجواهم فقيل قالوا هل هذا الخ او بدل من اسروا او معطوف عليه او على البدل من النجوى اي اسروا هذا الحديث وهل بمعنى النفي والهمزة في قوله تعالى (افتأتون السحر) للانكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام وقوله تعالى (وانتم تبصرون) حال من فاعل تأتون مقررة للانكار ومؤكدة للاستبعاد والمعنى ماهذا الا بشر مثلكم اي من جنسكم وما اتى به سحر اتعلمون ذلك فتأتونه وتحضرونه على وجه الاذعان والقبول وانتم تعاينون انه سحر قالوه بناء على ما ارتكز في اعتقادهم الزائغ ان الرسول لايكون الا ملكا وان كل مايظهر على يد البشر من الخوارق من قبيل السحر وزل عنهم ان ارسال البشر الى عامة البشر هو الذي تقتضيه الحكمة التشريعية قاتلهم الله انى يؤفكون وانما اسروا ذلك لانه كان على طريق توثيق العهد وترتيب مبادي الشر والفساد وتمهيد مقدمات المكر والكيد في هدم امر النبوة واطفاء نور الدين والله متم نوره ولو كره الكافرون (قال ربي يعلم القول في السماء والارض) حكاية من جهته تعالى لما قاله عليه السلام بعد ما اوحى اليه احوالهم واقوالهم بيانا لظهور امرهم وانكشاف سرهم وايثار القول المنتظم للسر والجهر على السر لاثبات علمه تعالى بالسر على النهج البرهاني مع مافيه من الايذان بأن علمه تعالى بالسر والجهر على وتيرة واحدة لاتفاوت بينهما بالجلاء والخفاء قطعا كما في علوم الخلق

عادة الله تعالى فى الرسل من قبل وانه لم يجعلهم جسدا لا يأكلون بل جسدا يأكلون الطعام
ولا يخلدون فى الدنيا بل يموتون كغيرهم ونبه بذلك على ان الذى صاروا به رسلا غير
ذلك وهو ظهور المعجزات على ايديهم وبراءتهم من الصفات القادحة فى التبليغ اما قوله
تعالى ثم صدقناهم الوعد فقال صاحب الكشاف هو مثل قوله واختار موسى قومه
سبعين رجلا والاصل فى الوعد ومن قومه ومنه صدقوهم القتال ومن نشاءهم المؤمنون
قال المفسرون المراد منه انه تقدم وعده جل جلاله بأنه انما يهلك بعذاب الاستئصال من
كذب الرسل دون نفس الرسل ودون من صدق بهم وجعل الوفاء بما وعد صدقا من حيث
يكشف عن الصدق ومعنى واهلكنا المسرفين اى بعذاب الاستئصال وليس المراد عذاب
الآخرة لانه اخبار عما مضى وتقدم ثم بين تعالى بقوله لقد انزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم
عظيم نعمته عليهم بالقرآن فى الدين والدنيا فلذلك قال فيه ذكركم وفيه ثلثة اوجه
(احدها) ذكركم شرفكم وصيتكم كما قال وانه لذكر لك ولقومك (وثانيها) المراد فيه تذكرة
لكم لتحذروا ما لا يحل وترغبوا فيما يجب ويكون المراد بالذكر الوعد والوعيد كما قال وذكر
فان الذكرى تنفع المؤمنين (وثالثها) المراد ذكر دينكم ما يلزم وما لا يلزم لتفوزوا بالجنة
اذا تمسكتم به وكل ذلك محتمل وقوله افلا تعقلون كالبعث على التدبر فى القرآن لانهم كانوا
عقلاء لان الخوض من لوازم الغفلة والتدبر دافع لذلك الخوض ودفع الضرر عن النفس
من لوازم العقل فمن لم يتدبر فكأنه خرج عن العقل ٭ قوله تعالى (وكم قصمنا من قرية
كانت ظالمة وانشأنا بعدها قوما آخرين فلما احسوا بأسنا اذا هم منها يركضون لا تركضوا
وارجعوا الى ما اترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسئلون قالوا ياويلنا انا كنا ظالمين
فزالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين) اعلم انه تعالى لما حكى عنهم تلك
الاعتراضات وكانت تلك الاعتراضات ظاهرة السقوط لان شرائط الاعجاز لما تمت فى
القرآن ظهر حينئذ لكل عاقل كونه معجزا وعند ذلك ظهر ان اشتغالهم بايراد تلك
الاعتراضات كان لاجل حب الدنيا او حب الرياسة فيها فبالغ سبحانه فى زجرهم عن ذلك
فقال وكم قصمنا من قرية قال صاحب الكشاف القصم افظع الكسر وهو الكسر الذى
بين تلاؤم الاجزاء بخلاف الفصم وذكر القرية وانها ظالمة واراد اهلها توسعا لدلالة
العقل على انها لا تكون ظالمة ولا مكلفة ولدلالة قوله تعالى وانشأنا بعدها قوما آخرين
فالمعنى اهلكنا قوما وانشأنا قوما آخرين وقال فلما احسوا بأسنا الى قوله قالوا ياويلنا انا
كنا ظالمين وكل ذلك لا يليق الا بأهلها الذين كلفوا بتصديق الرسل فكذبوهم ولولا هذه
الدلائل لما جاز منه سبحانه ذكر المجاز لانه يكون ذلك موهما للكذب واختلفوا فى هذا
الاهلاك فقال ابن عباس المراد منه القتل بالسيوف والمراد بالقرية حضور وهى وسحول
قريتان باليمن ينسب اليهما الثياب وفى الحديث كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثوبين
سحوليين وروى حضور بين بعث الله اليهم نبيا فقتلوه فسلط الله عليهم بختنصر كما سلطه

وقرئ قل ربى الخ وقوله تعالى
فى السماء والارض متعلق بمحذوف
وقع حالا من القول اى كائنا فى
السماء والارض وقوله تعالى
(وهو السميع العليم) اى المبالغ
فى العلم بالمسموعات والمعلومات
التى من جملتها ما اسروه من
النجوى فيجازيهم بأقوالهم
وافعالهم اعتراض تذييلى مقرر
لمضمون ما قبله متضمن للوعيد
(بل قالوا اضغاث احلام)
اضراب من جهته تعالى وانتقال
من حكاية قولهم السابق الى
حكاية قول آخر مضطرب فى
مسالك البطلان اى لم يقتصروا
على ان يقولوا فى حقه عليه السلام
هل هذا الا بشر وفى حق ما ظهر
على يده من القرآن الكريم انه
سحر بل قالوا تخاليط الاحلام
ثم اضربوا عنه فقالوا (بل افتراه)
من تلقاء نفسه من غير ان يكون
له اصل او شبهة اصل ثم قالوا
(بل هو شاعر) وما اتى به شعر
يخيل الى السامع معانى لا حقيقة لها
وهكذا شأن المبطل المحجوج
متحير لا يزال يتردد بين باطل
وابطل ويتذبذب بين فاسد وافسد
فالاضراب الاول كما ترى من
جهته تعالى والثانى والثالث من
قبلهم وقد قيل الكل من قبلهم
حيث اضربوا عن قولهم هو
سحر الى انه تخاليط احلام ثم الى
انه كلام مفترى ثم الى انه قول
شاعر ولا ريب فى انه كان ينبغى
حينئذ ان يقال قالوا بل اضغاث
احلام والاعتذار بأن بل قالوا
مقول لقالوا المضمر قبل قوله
تعالى هل هذا الا بشر الخ كأنه
قيل واسروا النجوى قالوا هل هذا
الى قوله بل اضغاث احلام وانما
صرح بقالوا

على اهل بيت المقدس فاستأصلهم وروى انه لما أخذتهم السيوف نادى مناد من السماء يالثارات الانبياء فندموا واعترفوا بالخطأ وقال الحسن المراد عذاب الاستئصال واعلم ان هذا اقرب لان اضافة ذلك الى الله تعالى اقرب من اضافته الى القاتل ثم بتقدير ان يحمل ذلك على عذاب القتل فما الدليل على قول ابن عباس ولعل ابن عباس ذكر حضور بانها احدى القرى التى ارادها الله تعالى بهذه الآية واما قوله تعالى فلما احسوا بأسنا اذاهم منها يركضون فالمعنى لما علموا اشدة عذابنا وبطشنا علم حس ومشاهدة ركضوا فى ديارهم والركض ضرب الدابة بالرجل ومنه قوله تعالى اركض برجلك فيجوز ان يكونوا ركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين من قريتهم لما ادركتهم مقدمة العذاب ويجوز ان يشبهوا فى سرعة عدوهم على ارجلهم بالراكبين الراكضين اما قوله لا تركضوا قال صاحب الكشاف القول محذوف فان قلت من القائل قلنا يحتمل ان يكون بعض الملائكة ومن ثم من المؤمنين او يكونوا اخلقاء بأن يقال لهم ذلك وان لم يقل او يقوله رب العزة ويسمعه ملائكته لينفعهم فى دينهم او يلهمهم ذلك فيحدثون به نفوسهم أما قوله وارجعوا الى ما أترفتم فيه ومساكنكم اى من العيش والرفاهية والحال الناعمة والاتراف ابطار النعمة وهى الترفه اما قوله تعالى لعلكم تسئلون فهو تهكم بهم وتوبيخ ثم فيه وجوه (احدها) اى ارجعوا الى نعمكم ومساكنكم لعلكم تسألون غدا عما جرى عليكم ونزل باموالكم ومساكنكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة (وثانيها) ارجعوا كما كنتم فى مجالسكم حتى تسألكم عبيدكم ومن ينفذ فيه أمركم ونهيكم ويقول لكم بم تأمرون وماذا ترسمون كعادة المخدومين (وثالثها) تسألكم الناس فى انديتكم لتعاونوهم فى نوازل الخطوب ويستشيرونكم فى المهمات ويستعينون بآرائكم (ورابعها) يسألكم الوافدون عليكم والطامعون فيكم اما لانهم كانوا اسخياء ينفقون اموالهم رئاء الناس وطلب الثناء او كانوا بخلاء فقيل لهم ذلك تهكما الى تهكم وتوبيخا الى توبيخ اما قوله تعالى فما زالت تلك دعواهم فقال صاحب الكشاف تلك اشارة الى ياويلنا لانها دعوى كأنه قيل فما زالت تلك الدعوى دعواهم والدعوى بمعنى الدعوة قال تعالى وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين فان قلت لم سميت دعوى قلت لانهم كانوا دعوا بالويل فقالوا ياويلنا اى ياويل احضر فهذا وقتك وتلك مرفوع او منصوب اسما وخبرا وكذلك دعواهم قال المفسرون لم يزالوا يكررون هذه الكلمة فلم ينفعهم ذلك كقوله تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا اما قوله حتى جعلناهم حصيدا خامدين فالحصيد الزرع المحصود اى جعلناهم مثل الحصيد شبههم به فى استئصالهم كما تقول جعلناهم رمادا اى مثل الرماد فان قيل كيف نصب جعل ثلاثة مفاعيل قلت حكم الاثنين الاخيرين حكم الواحد والمعنى جعلناهم جامعين لهذين الوصفين والمراد انهم اهلكوا بذلك العذاب حتى لم يبق لهم حس ولا حركة وجفوا كما يجف الحصيد وخمدوا كما تخمد النار * قوله تعالى (وما خلقنا

بعد بل لبعد العهد مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن امثاله (فليأتنا بآية) جواب شرط محذوف يفصح عنه السياق كأنه قيل وان لم يكن كما قلنا بل كان رسولا من الله تعالى فليأتنا بآية (كما ارسل الاولون) اى مثل الآية التى ارسل بها الاولون كاليد والعصا ونظائرهما حتى نؤمن به فما موصولة ومحل الكاف الجر على انها صفة لآية ويجوز ان تكون مصدرية فالكاف منصوبة على انها مصدر تشبيهى اى نعت لمصدر محذوف اى فليأتنا بآية اتيانا كائنا مثل ارسال الاولين بها وصحة التشبيه من حيث ان الاتيان بالآية من فروع الارسال بها اى مثل اتيان مترتب على الارسال ويجوز ان يحمل النظم الكريم على انه اريد كل واحد من الاتيان والارسال فى كل واحد من طرفى التشبيه لكنه ترك فى جانب المشبه ذكر الارسال وفى جانب المشبه به ذكر الاتيان اكتفاء بما ذكر فى كل موطن عما ترك فى الموطن الآخر حسبما مر فى آخر سورة يونس عليه السلام (ما آمنت قبلهم من قرية) كلام مستأنف مسوق لتكذيبهم فيما ينبئ عنه خاتمة مقالهم من الوعد الضمنى بالايمان كما اشير اليه وبيان انهم فى اقتراح تلك الآيات كالباحث عن حتفه بظلفه وان فى ترك الاجابة اليه ابقاء عليهم كيف لا ولو اعطوا ما اقترحوا مع عدم ايمانهم قطعا لوجب استئصالهم لجريان سنة الله عز وجل فى الامم السالفة على ان المقترحين اذا اعطوا ما اقترحوه

السماء والارض ومابينهما لاعبين لو اردنا ان نتخذلهوا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذاهو زاهق ولكم الويل مما تصفون) اعلم ان فيه مسائل (المسئلة الاولى) فى تعلق هذه الآية بماقبلها وجهان (الاول) انه تعالى لمابين اهلاك اهل القرية لاجل تكذيبهم اتبعه بمايدل على انه فعل ذلك عدلا منه ومجازاة على مافعلوا فقال وماخلقنا السماء والارض ومابينهما لاعبين اى وماسوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع ومابينهما من العجائب والغرائب كماتسوى الجبابرة سقوفهم وفروشهم للهو واللعب وانماسويناها لفوائد دينية ودنيوية اما الدينية فليتفكر المتفكرون فيها على ماقال تعالى ويتفكرون فى خلق السموات والارض واما الدنيوية فلما يتعلق بها من المنافع التى لاتعد ولاتحصى وهذا كقوله وماخلقنا السماء والارض ومابينهما باطلا وقوله ماخلقناهما الابالحق (والثانى) ان الغرض منه تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والرد على منكريه لانه اظهر المعجزة عليه فان كان محمد كاذبا كان اظهار المعجزة عليه من باب اللعب وذلك منفى عنه وان كان صادقا فهو المطلوب وحينئذ يفسد كل ماذكروه من المطاعن (المسئلة الثانية) قال القاضى عبدالجبار دلت الآية على ان اللعب ليس من قبله تعالى اذلو كان كذلك لكان لاعبا فان اللاعب فى اللغة اسم لفاعل اللعب فنفى الاسم الموضوع للفعل يقتضى نفى الفعل (والجواب) يبطل ذلك بمسئلة الداعى على مامر غيرمرة اماقوله لو أردنا ان نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين فاعلم ان قوله لاتخذناه من لدنا معناه من جهة قدرتنا وقيل اللهو الولد بلغة اليمن وقيل المرأة وقيل من لدنا اى من الملائكة لامن الانس رد الله على من قال بولادة المسيح وعزير فاماقوله تعالى بل نقذف بالحق على الباطل فاعلم ان قوله بل اضراب عن اتخاذ اللهو واللعب وتنزيه منه لذاته كأنه قال سبحاننا ان نتخذ اللهو واللعب بل من عادتنا وموجب حكمتنا ان نغلب اللعب بالجد وندحض الباطل بالحق واستعار لذلك القذف والدمغ تصويرا لابطاله فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلا قذف به على جرم رخو فدمغه فاما قوله تعالى ولكم الويل مماتصفون يعنى من تمسك بتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم ونسب القرآن الى انه سحر واضغاث احلام الى غير ذلك من الاباطيل وهو الذى عناه بقوله مماتصفون ❁ قوله تعالى (وله من فى السموات والارض ومن عنده لايستكبرون عن عبادته ولايستحسرون يسبحون الليل والنهار لايفترون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى تعلق هذه الآية بماقبلها وجهان (الاول) انه تعالى لمانفى اللعب عن نفسه ونفى اللعب لايصح الابنفى الحاجة ونفى الحاجة لايصح الابالقدرة التامة لاجرم عقب تلك الآية بقوله وله من فى السموات والارض لدلالة ذلك على كمال الملك والقدرة (والثانى) وهو الاقرب انه تعالى لماحكى كلام الطاعنين فى النبوات واجاب عنها وبين ان غرضهم من تلك المطاعن التمرد وعدم الانقياد بين فى هذه الآية انه تعالى منزه عن طاعتهم لانه هو

ثم لم يؤمنوا نزل بهم عذاب الاستئصال لامحالة وقد سبقت كلمة الحق منه تعالى ان هذه الامة لايعذبون بعذاب الاستئصال فقوله من قرية اى من اهل قرية فى محل الرفع على الفاعلية ومن مزيدة لتأكيد العموم وقوله تعالى (اهلكناها) اى باهلاك اهلها لعدم ايمانهم بعد مجئ ما اقترحوه من الآيات صفة لقرية والهمزة فى قوله تعالى (افهم يؤمنون) لانكار الوقوع والفاء للعطف اما على مقدر دخلته الهمزة فأفادت انكار وقوع ايمانهم ونفيه عقيب عدم ايمان الاولين فالمعنى انه لم تؤمن امة من الامم المهلكة عند اعطاء مااقترحوه من الآيات اهم لم يؤمنوا فهؤلاء يؤمنون لو اجيبوا الى ماسألوا واعطوا مااقترحوا مع كونهم اعتى منهم واطغى واما على ماآمنت على ان الفاء متقدمة على الهمزة فى الاعتبار مفيدة لترتيب انكار وقوع ايمانهم على عدم ايمان الاولين وانماقدمت عليها الهمزة لاقتضائها الصدارة كماهو رأى الجمهور وقوله عزوجل (وما ارسلنا قبلك الارجالا) جواب لقولهم هل هذا الابشر الخ متضمن لرد ما دسوا تحت قولهم كما ارسل الاولون من التعريض بعدم كونه عليه السلام مثل اولئك الرسل صلوات الله تعالى عليهم اجمعين ولذلك قدم عليه جواب قولهم فليأتنا بآية ولانهم قالوا ذلك بطريق التعجيز فلابد من المسارعة الى رده وابطاله كمامر فى تفسير قوله تعالى قال انما يأتيكم به الله ان شاء وما انتم بمعجزين وقوله تعالى ماتنزل الملائكة

المالك لجميع المحدثات والمخلوقات ولاجل ان الملائكة مع جلالتهم مطيعون له خائفون منه فالبشر مع نهاية الضعف اولى ان يطيعوه (المسئلة الثانية) قوله وله من فى السموات والارض معناه ان كل المكلفين فى السماء والارض فهم عبيده وهو الخالق لهم والمنعم عليهم بأصناف النعم فيجب على الكل طاعته والانقياد لحكمه (المسئلة الثالثة) دلالة قوله ومن عنده لايستكبرون عن عبادته على ان الملك افضل من البشر من ثلاثة اوجه قد تقدم بيانها فى سورة البقرة (المسئلة الرابعة) قوله ومن عنده المراد بهم الملائكة باجماع الامة ولانه تعالى وصفهم بانهم يسبحون الليل والنهار لايفترون وهذا لايليق بالبشر وهذه العندية عندية الشرف والرتبة لاعندية المكان والجهة فكأنه تعالى قال الملائكة مع كمال شرفهم ونهاية جلالتهم لايستكبرون عن طاعته فكيف يليق بالبشر الضعيف التمرد عن طاعته (المسئلة الخامسة) قال الزجاج ولايستحسرون ولايتعبون ولايعيون قال صاحب الكشاف فان قلت الاستحسار مبالغة فى الحسور فكان الابلغ فى وصفهم ان ينفى عنهم ادنى الحسور قلت فى الاستحسار بيان ان ماهم فيه يوجب غاية الحسور واقصاه وانهم احقاء لتلك العبادات الشاقة بان يستحسروا فيما يفعلون اما قوله تعالى يسبحون الليل والنهار لايفترون فالمعنى ان تسبيحهم متصل دائم فى جميع اوقاتهم لايتخلله فترة بفراغ او بشغل آخر روى عن عبدالله بن الحرث بن نوفل قال قلت لكعب أرأيت قول الله تعالى يسبحون الليل والنهار لايفترون ثم قال تعالى جاعل الملائكة رسلا أفلاتكون تلك الرسالة مانعة لهم عن هذا التسبيح وايضا قال اولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس اجمعين فكيف يشتغلون باللعن حال اشتغالهم بالتسبيح اجاب كعب الاحبار فقال التسبيح لهم كالتنفس لنا فكما ان اشتغالنا بالتنفس لايمنعنا من الكلام فكذا اشتغالهم بالتسبيح لايمنعهم من سائر الاعمال فان قيل هذا القياس غير صحيح لان الاشتغال بالتنفس انما لم يمنع من الكلام لان آلة التنفس غير آلة الكلام اما التسبيح واللعن فهما من جنس الكلام فاجتماعهما محال (والجواب) اى استبعاد فى ان يخلق الله تعالى لهم السنة كثيرة بعضها يسبحون الله وبعضها يلعنون اعداء الله او يقال معنى قوله لايفترون انهم لايفترون عن العزم على ادائه فى اوقاته اللائقة به كما يقال ان فلانا يواظب على الجماعات لايفتر عنها لايراد به انه ابدا مشتغل بها بل يراد به انه مواظب على العزم على ادائها فى اوقاتها ۞ قوله تعالى (ام اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون لايسأل عما يفعل وهم يسألون أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معى وذكر من قبلى بل اكثرهم لايعلمون الحق فهم معرضون وما ارسلنا من قبلك من رسول الانوحى اليه انه لااله الا انا فاعبدون) اعلم ان الكلام من اول السورة الى ههنا كان فى النبوات ومايتصل بها من الكلام سؤالا وجوابا واما هذه الآيات فانها فى بيان التوحيد ونفى الاضداد والانداد اما قوله

الا بالحق وما كانوا اذا منظرين ولان فى هذا الجواب نوع بسط يخل تقديمه بتجاوب اطراف النظم الكريم والحق ان ما اتخذوه سببا للتكذيب موجب للتصديق فى الحقيقة لان مقتضى الحكمة ان يرسل الى البشر البشر والى الملك الملك حسبما ينطق به قوله تعالى قل لو كان فى الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا فان عامة البشر بمعزل من استحقاق المفاوضة الملكية لتوقفها على التناسب بين المفيض والمستفيض فبعث الملك اليهم مزاحم للحكمة التى عليها يدور فلك التكوين والتشريع وانما الذى تقتضيه الحكمة ان يبعث الملك منهم الى الخواص المختصين بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة القدسية المتعلقين بكلا العالمين الروحانى والجسمانى ليتلقوا من جانب ويلقوا الى جانب آخر وقوله تعالى (نوحى اليهم) استئناف مبين لكيفية الارسال وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية المستمرة وحذف المفعول لعدم القصد الى خصوصه والمعنى وما ارسلنا الى الامم قبل ارسالك الى امتك الا رجالا مخصوصين من افراد الجنس مستأهلين للاصطفاء والارسال نوحى اليهم بواسطة الملك ما نوحى من الشرائع والاحكام وغيرهما من القصص والاخبار كما نوحى اليك من غير فرق بينهما فى حقيقة الوحى وحقية مدلوله حسبما يحكيه قوله تعالى انا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح والنبيين الى قوله وكلم الله موسى تكليما كما لافرق بينك وبينهم

تعالى ام اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف ام ههنا هى المنقطعة الكائنة بمعنى بل والهمزة قد اذنت بالاضراب عما قبلها والانكار لما بعدها والمنكر هو اتخاذهم آلهة من الارض ينشرون الموتى ولعمرى ان من اعظم المنكرات ان ينشر الموتى بعض الموات فان قلت كيف انكر عليهم اتخاذ آلهة ينشرون وما كانوا يدعون ذلك لآلهتهم بل كانوا فى نهاية البعد عن هذه الدعوى فانهم كانوا مع اقرارهم بالله وبانه خالق السموات والارض منكرين للبعث ويقولون من يحيى العظام وهى رميم فكيف يدعون للجماد الذى لا يوصف بالقدرة البتة قلت لانهم لما اشتغلوا بعبادتها ولابد للعبادة من فائدة هى الثواب فاقدامهم على عبادتها يوجب عليهم الاقرار بكونهم قادرين على الحشر والنشر والثواب والعقاب فذكر ذلك على سبيل التهكم بهم والتجهيل يعنى اذا كانوا غير قادرين على ان يحيوا ويميتوا ويضروا وينفعوا فاى عقل يجوز اتخاذهم آلهة (المسئلة الثانية) قوله من الارض كقولك فلان من مكة او من المدينة تريد مكى او مدنى اذ معنى نسبتها الى الارض الايذان بانها الاصنام التى تعبد فى الارض لان الآلهة على ضربين ارضية وسماوية ويجوز ان يراد آلهة من جنس الارض لانها اما ان تكون منحوتة من بعض الحجارة او معمولة من بعض جواهر الارض (المسئلة الثالثة) النكتة فى هم ينشرون معنى الخصوصية كأنه قيل ام اتخذوا آلهة من الارض لا يقدر على الانشار الا هم وحدهم (المسئلة الرابعة) قرأ الحسن ينشرون وهما لغتان انشر الله الموتى ونشرها اما قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال اهل النحو الا ههنا بمعنى غير اى لو كان يتولاهما ويدبر امورهما شئ غير الواحد الذى هو فاطرهما لفسدتا ولا يجوز ان يكون بمعنى الاستثناء لانا لو حملناه على الاستثناء لكان المعنى لو كان فيهما آلهة ليس معهم الله لفسدتا وهذا يوجب بطريق المفهوم انه لو كان فيهما آلهة معهم الله ان لا يحصل الفساد وذلك باطل لانه لو كان فيهما آلهة فسواء لم يكن الله معهم او كان فالفساد لازم ولما بطل حمله على الاستثناء ثبت ان المراد ما ذكرناه (المسئلة الثانية) قال المتكلمون القول بوجود الهين يفضى الى المحال فوجب ان يكون القول بوجود الهين محالا انما قلنا انه يفضى الى المحال لانا لو فرضنا وجود الهين فلابد وان يكون كل واحد منهما قادرا على كل المقدورات ولو كان كذلك لكان كل واحد منهما قادرا على تحريك زيد وتسكينه فلو فرضنا احدهما اراد تحريكه والآخر تسكينه فاما ان يقع المرادان وهو محال لاستحالة الجمع بين الضدين او لا يقع واحد منهما وهو محال لان المانع من وجود مراد كل واحد منهما مراد الآخر فلا يمتنع مراد هذا الا عند وجود مراد ذلك وبالعكس فلو امتنعا معا لوجدا معا وذلك محال او يقع مراد احدهما دون الثانى وذلك محال ايضا لوجهين (احدهما) انه لو كان كل واحد منهما قادرا على ما لا نهاية له امتنع كون احدهما اقدر من الآخر بل لابد وان

فى البشرية فالهم لا يفهمون انك لست بدعا من الرسل ان ما اوحى اليك ليس مخالفا لما اوحى اليهم ليقولون ما يقولون وقرئ يوحى اليهم بالياء على صيغة المبنى للمفعول جريا على سنن الكبرياء وايذانا بتعين الفاعل وقوله تعالى (فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون) تلوين للخطاب وتوجيه له الى الكفرة لتبكيتهم واستنزالهم عن رتبة الاستبعاد والنكير اثر تحقيق الحق على طريقة الخطاب لرسول صلى الله عليه وسلم لانه الحقيق بالخطاب فى امثال تلك الحقائق الانيقة واما الوقوف عليها باستخبار من الغير فهو من وظائف العوام والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه اى ان كنتم لا تعلمون ما ذكر فاسألوا ايها الجهلة اهل الكتاب الواقفين على احوال الرسل السالفة عليهم الصلوات لتزول شبهتكم امروا بذلك لان اخبار الجم الغفير يوجب العلم لاسيما وهم كانوا يشايعون المشركين فى عداوته عليه السلام ويشاورونهم فى امره عليه السلام ففيه من الدلالة على كمال وضوح الامر وقوة شأن النبى عليه السلام ما لا يخفى (وما جعلناهم جسدا) بيان لكون الرسل عليهم السلام اسوة لسائر افراد الجنس فى احكام الطبيعة البشرية اثر بيان كونهم اسوة لهم فى نفس البشرية والجسد جسم الانسان والجن والملائكة ونصبه اما على انه مفعول ثان للجعل لكن لا بمعنى جعله جسدا بعد ان لم يكن كذلك

يستويا فى القدرة واذا استويا فى القدرة استحال ان يصير مراد احدهما اولى بالوقوع من مراد الثانى والا لزم ترجيح الممكن من غير مرجح (وثانيهما) انه اذا وقع مراد احدهما دون الآخر فالذى وقع مراده يكون قادرا والذى لم يقع مراده يكون عاجزا والعجز نقص وهو على الله محال فان قيل الفساد انما يلزم عند اختلافهما فى الارادة وانتم لاتدعون وجوب اختلافهما فى الارادة بل اقصى ماتدعونه ان اختلافهما فى الارادة ممكن فاذا كان الفساد مبنيا على الاختلاف فى الارادة وهذا الاختلاف ممكن والمبنى على الممكن ممكن فكان الفساد ممكنا لا واقعا فكيف جزم الله تعالى بوقوع الفساد قلنا الجواب من وجهين (احدهما) لعله سبحانه اجرى الممكن مجرى الواقع بناء على الظاهر من حيث ان الرعية تفسد بتدبير الملكين لما يحدث بينهما من التغالب (والثانى) وهو الاقوى ان نبين لزوم الفساد لا من الوجه الذى ذكرناه بل من وجه آخر فنقول لو فرضنا الهين لكان كل واحد منهما قادرا على جميع المقدورات فيفضى الى وقوع مقدور من قادرين مستقلين من وجه واحد وهو محال لان استناد الفعل الى الفاعل لامكانه فاذا كان كل واحد منهما مستقلا بالايجاد فالفعل لكونه مع هذا يكون واجب الوقوع فيستحيل اسناده الى هذا لكونه حاصلا منهما جميعا فيلزم استغناؤه عنهما معا واحتياجه اليهما معا وذلك محال وهذه حجة تامة فى مسئلة التوحيد فنقول القول بوجود الالهين يفضى الى امتناع وقوع المقدور لواحد منهما واذا كان كذلك وجب ان لا يقع البتة وحينئذ يلزم وقوع الفساد قطعا او نقول لو قدرنا الهين فاما ان يتفقا او يختلفا فان اتفقا على الشئ الواحد فذلك الواحد مقدور لهما ومراد لهما فيلزم وقوعه بهما وهو محال وان اختلفا فاما ان يقع المرادان او لا يقع واحد منهما او يقع احدهما دون الآخر والكل محال فثبت ان الفساد لازم على كل التقديرات فان قلت لم لا يجوز ان يتفقا على الشئ الواحد ولا يلزم الفساد لان الفساد انما يلزم لو اراد كل واحد منهما ان يوجده هو وهذا اختلاف اما اذا اراد كل واحد منهما ان يكون الموجد له احدهما بعينه فهناك لا يلزم وقوع مخلوق بين خالقين قلت كونه موجدا له اما ان يكون نفس القدرة والارادة او نفس ذلك الاثر او امرا ثالثا فان كان الاول لزم الاشتراك فى القدرة والارادة والاشتراك فى الموجد وان كان الثانى فليس وقوع ذلك الاثر بقدرة احدهما وارادته اولى من وقوعه بقدرة الثانى لان لكل واحد منهما ارادة مستقلة بالتأثير وان كان الثالث وهو ان يكون الموجد له امرا ثالثا فذلك الثالث ان كان قديما استحال كونه متعلق الارادة وان كان حادثا فهو نفس الاثر ويصير هذا القسم هو القسم الثانى الذى ذكرناه واعلم انك لما وقفت على حقيقة هذه الدلالة عرفت ان جميع ما فى هذا العالم العلوى والسفلى من المحدثات والمخلوقات فهو دليل على وحدانية الله تعالى بل وجود كل واحد من الجواهر والاعراض دليل تام على التوحيد من الوجه الذى بيناه

(وهذه)

كما هو المشهور من معنى التصيير بل بمعنى جعله كذلك ابتداء على طريقة قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل كما فى قوله تعالى وجعلنا آية النهار مبصرة واما حال من الضمير والجمل ابداهى وافراده لارادة الجنس المتظم للكثير ايضا وقيل بتقدير المضاف اى ذوى جسد وقوله تعالى (لا يأكلون الطعام) صفة له اى وما جعلناهم جسدا مستغنيا من الاكل والشرب بل محتاجا الى ذلك لتحصيل بدل ما يتحلل منه (وما كانوا خالدين) لان مآل التحلل هو الفناء لا محالة وفى ايثار ما كانوا على ما جعلناهم تنبيه على ان عدم الخلود مقتضى جبلتهم التى اشير اليها بقوله تعالى وما جعلناهم الخ لا بالجعل المستأنف والمراد بالخلود اما المكث المديد كما هو شأن الملائكة او الابدية وهم معتقدون انهم لا يموتون والمعنى جعلناهم اجسادا متغذية صائرة الى الموت بالآخرة على حسب آجالهم لا ملائكة ولا اجسادا مستغنية عن الاغذية مصونة عن التحلل كالملائكة فلم يكن لها خلود كخلودهم فالجملة مقررة لما قبلها من كون الرسل السالفة عليهم السلام بشرا لا ملائكة مع ما فى ذلك من الرد على قولهم ما لهذا الرسول يأكل الطعام وقوله تعالى (ثم صدقناهم الوعد) عطف على ما يفهم من حكاية وحيه تعالى اليهم على الاستمرار التجددى كأنه قيل اوحينا اليهم ما اوحينا ثم صدقناهم فى الوعد الذى وعدناهم فى تضاعيف الوحى باهلاك اعدائهم (فأنجيناهم ومن نشاء) من المؤمنين

وهذه الدلالة قد ذكرها الله تعالى فى مواضع من كتابه واعلم ان ههنا ادلة أخرى على وحدانية الله تعالى (احدها) وهو الاقوى ان يقال لو فرضنا موجودين واجبى الوجود لذاتيهما فلابد وان يشتركا فى الوجود ولابد وان يمتاز كل واحد منهما عن الآخر بنفسه وما به المشاركة غير ما به الممايزة فيكون كل واحد منهما مركبا مما به يشارك الآخر ومما به امتاز عنه وكل مركب فهو مفتقر الى جزئه وجزؤه غيره فكل مركب فهو مفتقر الى غيره وكل مفتقر الى غيره ممكن لذاته فواجب الوجود لذاته ممكن الوجود لذاته هذا خلف فاذن واجب الوجود ليس الا الواحد وكل ما عداه فهو ممكن مفتقر اليه وكل مفتقر فى وجوده الى الغير فهو محدث فكل ما سوى الله تعالى محدث ويمكن جعل هذه الدلالة تفسيرا لهذه الآية لانا انما دللنا على انه يلزم من فرض موجودين واجبين ان لا يكون شئ منهما واجبا واذا لم يوجد الواجب لم يوجد شئ من هذه الممكنات وحينئذ يلزم الفساد فثبت انه يلزم من وجود الهين وقوع الفساد فى كل العالم (وثانيها) انا لو قدرنا الهين لوجب ان يكون كل واحد منهما مشاركا للآخر فى الالهية ولابد وأن يتميز كل واحد منهما عن الآخر بأمر ما والا لما حصل التعدد فما به الممايزة اما ان يكون صفة كمال اولا يكون فان كان صفة كمال فالخالى عنه يكون خاليا عن الكمال فيكون ناقصا والناقص لا يكون الها وان لم يكن صفة كمال فالموصوف به يكون موصوفا بما لا يكون صفة كمال فيكون ناقصا ويمكن ان يقال ما به الممايزة ان كان معتبرا فى تحقق الالهية فالخالى عنه لا يكون الها وان لم يكن معتبرا فى الالهية لم يكن الاتصاف به واجبا فيفتقر الى المخصص فالموصوف به مفتقر ومحتاج (وثالثها) ان يقال لو فرضنا الهين لكان لابد وأن يكونا بحيث يمكن الغير من التمييز بينهما لكن الامتياز فى عقولنا لا يحصل الا بالتباين فى المكان او فى الزمان او فى الوجوب والامكان وكل ذلك على الاله محال فيمتنع حصول الامتياز (ورابعها) ان احد الالهين اما ان يكون كافيا فى تدبير العالم او لا يكون فان كان كافيا كان الثانى ضائعا غير محتاج اليه وذلك نقص والناقص لا يكون الها (وخامسها) ان العقل يقتضى احتياج المحدث الى الفاعل ولا امتناع فى كون الفاعل الواحد مدبرا لكل العالم فأما ما وراء ذلك فليس عدد اولى من عدد فيفضى ذلك الى وجود اعداد لا نهاية لها وذلك محال فالقول بوجود الآلهة محال (وسادسها) ان احد الالهين اما ان يقدر على ان يخص نفسه بدليل يدل عليه ولا يدل على غيره او لا يقدر عليه والاول محال لان دليل الصانع ليس الا المحدثات وليس فى حدوث المحدثات ما يدل على تعيين احدهما دون الثانى والثانى محال لانه يفضى الى كونه عاجزا عن تعريف نفسه على التعيين والعاجز لا يكون الها (وسابعها) ان احد الالهين اما ان يقدر على ان يستر شيئا من افعاله عن الآخر او لا يقدر فان قدر لزم ان يكون المستور عنه جاهلا وان لم يقدر لزم كونه عاجزا (وثامنها) لو قدرنا الهين لكان مجموع قدرتيهما بينهما اقوى من قدرة كل واحد منهما وحده فيكون كل واحد من

وغيرهم ممن تستدعى الحكمة ابقاءه كمن سبق من هو وبعض فروعه بالآخرة وهو السر فى حماية العرب من عذاب الاستئصال (واهلكنا المسرفين) اى المجاوزين للحدود فى الكفر والمعاصى (لقد انزلنا اليكم) كلام مستأنف مسوق لتحقيق حقية القرآن العظيم الذى ذكر فى صدر السورة الكريمة اعراض الناس عما يأتيهم من آياته واستهزاؤهم به وتسميتهم تارة سحرا وتارة اضغاث احلام واخرى مفترى وشعرا وبيان علو رتبته اثر تحقيق رسالته صلى الله عليه وسلم ببيان انه كسائر الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام تصدير بالتوكيد القسمى اظهارا لمزيد الاعتناء بمضمونه وايذانا بكون المخاطبين فى اقصى مراتب النكير اى والله لقد انزلنا اليكم يامعشر قريش (كتابا) عظيم الشان نير البرهان وقوله تعالى (فيه ذكركم) صفة لكتابا مؤكدة لما افاده التنكير التفخيمى من كونه جليل القدر بأنه جليل الآثار مستجلب لهم منافع جليلة اى فيه شرفكم وصيتكم كقوله تعالى وانه لذكر لك ولقومك وقيل ما تحتاجون اليه فى اموردينكم ودنياكم وقيل فيه ما تطلبون به حسن الذكر من مكارم الاخلاق وقيل فيه موعظتكم وهو الانسب بسياق النظم الكريم وسياقه فان قوله تعالى (افلا تعقلون) انكار توبيخى فيه بعث لهم على التدبر فى امر الكتاب والتأمل فيما فى تضاعيفه من فنون المواعظ والزواجر التى من جملتها القوارع السابقة واللاحقة والفاء للعطف على مقدر يستدعيه

القدرتين متناهيا والمجموع ضعف المتناهي فيكون الكل متناهيا (وتاسعها) العدد ناقص لاحتياجه الى الواحد والواحد الذي يوجد من جنسه عدد ناقص ناقص لان العدد ازيد منه والناقص لايكون الها فالاله واحد لامحالة (وعاشرها) انا لو فرضنا معدوما ممكن الوجود ثم قدرنا الهين فان لم يقدر واحد منهما على ايجاده كان كل واحد منهما عاجزا والعاجز لايكون الها وان قدر احدهما دون الآخر فهذا الآخر يكون الها وان قدرا جميعا فاما ان يوجداه بالتعاون فيكون كل واحد منهما محتاجا الى اعانة الآخر وان قدر كل واحد على ايجاده بالاستقلال فاذا اوجده احدهما فاما ان يبقى الثاني قادرا عليه وهو محال لان ايجاد الموجود محال وان لم يبق فحينئذ يكون الاول قد ازال قدرة الثاني وعجزه فيكون مقهورا تحت تصرفه فلايكون الها فان قيل الواحد اذا اوجد مقدوره فقد زالت قدرته عنه فيلزمكم العجز قلنا الواحد اذا اوجده فقد نفذت قدرته فنفاذ القدرة لايكون عجزا أما الشريك فانه لما نفذت قدرته لم يبق لشريكه قدرة البتة بل زالت قدرته بسبب قدرة الاول فيكون تعجيزا (الحادي عشر ان نقرر هذه الدلالة على وجه آخر وهو ان نعين جسما ونقول هل يقدر كل واحد منهما على خلق الحركة فيه بدلا عن السكون وبالعكس فان لم يقدر كان عاجزا وان قدر فنسوق الدلالة الى ان نقول اذا خلق احدهما فيه حركة امتنع على الثاني خلق السكون فالاول ازال قدرة الثاني وعجزه فلايكون الها وهذان الوجهان يفيد ان العجز نظرا الى قدرتيهما والدلالة الاولى انما تفيد العجز بالنظر الى ارادتيهما (وثاني عشرها) انهما لما كانا عالمين بجميع المعلومات كان علم كل واحد منهما متعلقا بعين معلوم الآخر فوجب تماثل علميهما والذات القابلة لاحد المثلين قابلة للمثل الآخر فاختصاص كل واحد منهما بتلك الصفة مع جواز اتصافه بصفة الآخر على البدل يستدعي مخصصا يخصص كل واحد منهما بعلمه وقدرته فيكون كل واحد منهما عبدا فقيرا ناقصا (وثالث عشرها) ان الشركة عيب ونقص في الشاهد والفردانية والتوحد صفة كمال وترى الملوك يكرهون الشركة في الملك الحقير المختصر اشد الكراهية وترى انه كلما كان الملك أعظم كانت النفرة عن الشركة اشد فاظنك بملك الله عز وجل وملكوته فلو أراد احدهما استخلاص الملك لنفسه فان قدر عليه كان المغلوب فقيرا عاجزا فلايكون الها وان لم يقدر عليه كان في اشد الغم والكراهية فلايكون الها (ورابع عشرها) انا لو قدرنا الهين لكان اما ان يحتاج كل واحد منهما الى الآخر او يستغني كل واحد منهما عن الآخر او يحتاج احدهما الى الآخر والآخر يستغني عنه فان كان الاول كان كل واحد منهما ناقصا لان المحتاج ناقص وان كان الثاني كان كل واحد منهما مستغنيا عنه والمستغنى عنه ناقص الاترى ان البلد اذا كان له رئيس والناس يحصلون مصالح البلد من غير رجوع منهم اليه ومن غير التفات منهم اليه عد ذلك الرئيس ناقصا فالاله هو الذي يستغنى به ولايستغنى عنه وان احتاج احدهما الى الآخر من غير عكس كان

(المحتاج)

عليه الكلام اي الا تتفكرون فلا تعقلون ان الامر كذلك او لا تعقلون شيئا من الاشياء التي من جملتها ما ذكر وقوله تعالى (وكم قصمنا من قرية) نوع تفصيل لاجمال قوله تعالى واهلكنا المسرفين وبيان لكيفية اهلاكهم وسببه وتنبيه على كثرتهم وكم خبرية مفيدة للتكثير محلها النصب على انها مفعول لقصمنا ومن قرية تمييز وفي لفظ القصم الذي هو عبارة عن الكسر بابانة اجزاء المكسور وازالة تأليفها بالكلية من الدلالة على قوة الغضب وشدة السخط ما لايخفى وقوله تعالى (كانت ظالمة) في محل الجر على انها صفة القرية بتقدير مضاف ينبئ عنه الضمير الآتي اي وكثيرا قصمنا من اهل قرية كانوا ظالمين بآيات الله تعالى كافرين بها كما انكم (وانشأنا بعدها) اي بعد اهلاكها (قوما آخرين) اي ليسوا منهم نسبا ولا دينا ففيه تنبيه على استئصال الاولين وقطع دابرهم بالكلية وهو السر في تقديم حكاية انشاء هؤلاء على حكاية مبادي اهلاك اولئك بقوله تعالى (فلما احسوا بأسنا) اي ادركوا عذابنا الشديد ادراكا تاما كأنه ادراك المشاهد المحسوس (اذاهم منها يركضون) يهربون مسرعين راكضين دوابهم او مشبهين بهم في فرط الاسراع (لاتركضوا) اي قيل لهم بلسان الحال او بلسان المقال من الملك او ممن ثمة من المؤمنين بطريق الاستهزاء والتوبيخ لاتركضوا (وارجعوا الى ما اترفتم فيه) من التنعم والتلذذ والاتراف ابطال النعمة

المحتاج ناقصا والمحتاج اليه هو الاله واعلم ان هذه الوجوه ظنية اقناعية والاعتماد على الوجوه المتقدمة اما الدلائل السمعية فمن وجوه (احدها) قوله تعالى هو الاول والآخر والظاهر والباطن فالاول هو الفرد السابق ولذلك لو قال اول عبد اشتريته فهو حر فلو اشترى اولا عبدين لم يحنث لان شرط الاول ان يكون فردا وهذا ليس بفرد فلو اشترى بعد ذلك واحدا لم يحنث ايضا لان شرط الفرد ان يكون سابقا وهذا ليس بسابق فلما وصف الله تعالى نفسه بكونه اولا وجب ان يكون فردا سابقا فوجب ان لا يكون له شريك (وثانيها) قوله تعالى وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو فهذا النص يقتضي ان لا يكون احد سواه عالما بالغيب ولو كان له شريك لكان عالما بالغيب وهو خلاف النص (وثالثها) ان الله تعالى صرح بكلمة لا اله الا هو في سبعة وثلاثين موضعا من كتابه وصرح بالوحدانية في مواضع نحو قوله والهكم اله واحد وقوله قل هو الله احد وكل ذلك صريح في الباب (ورابعها) قوله تعالى كل شئ هالك الا وجهه حكم بهلاك كل ما سواه ومن عدم بعد وجوده لا يكون قديما ومن لا يكون قديما لا يكون الها (وخامسها) قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وهو كقوله ولعلا بعضهم على بعض وقوله اذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا (وسادسها) قوله وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يمسسك بخير فهو على كل شئ قدير ولو كان له شريك لكان ذلك الشريك جالبا للنفع ودافعا للضر فيبطل الحصر المذكور في الآية وقال في آية اخرى وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله وقال في آية اخرى قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله ان ارادني الله بضر هل هن كاشفات ضره او ارادني برحمة هل هن ممسكات رحمته (وسابعها) قوله تعالى قل ارأيتم ان اخذ الله سمعكم وابصاركم وختم على قلوبكم من اله غير الله يأتيكم به وهذا الحصر يدل على نفي الشريك (وثامنها) قوله تعالى خالق كل شئ فلو وجد الشريك لم يكن خالقا فلم يكن فيه فائدة واعلم ان كل مسئلة لا تتوقف معرفة صدق الرسل عليها فانه يمكن اثباتها بالسمع والوحدانية لا تتوقف معرفة صدق الرسل عليها فلا جرم يمكن اثباتها بالدلائل السمعية واعلم ان من طعن في دلالة التمانع فسر الآية بان المراد لو كان في السماء والارض آلهة تقول بالهيتها عبدة الاوثان لزم فساد العالم لانها جمادات لا تقدر على تدبير العالم فيلزم فساد العالم قالوا وهذا اولى لانه تعالى حكى عنهم قوله ام اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون ثم ذكر الدلالة على فساد هذا فوجب ان يختص الدليل به وبالله التوفيق اما قوله تعالى فسبحان الله رب العرش عما يصفون ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) انه سبحانه لما اقام الدلالة القاطعة على التوحيد قال بعده فسبحان الله رب العرش عما يصفون اى هو منزه لاجل هذه الادلة عن وصفهم بأن معه الها وهذا تنبيه على ان الاشتغال بالتسبيح انما ينفع بعد اقامة الدلالة على كونه تعالى منزها وعلى ان طريقة التقليد طريقة مهجورة (المسئلة الثانية) لقائل ان يقول

(ومساكنكم) التي كنتم تفخرون بها (لعلكم تسئلون) تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير في المهمات والنوازل او تسئلون اذا رأيت مساكنكم خالية وتسألون اين اصحابها او يسألكم الوافدون نوالكم على انهم كانوا اسخياء ينفقون اموالهم رياء او بخلاء فقيل لهم ذلك تهكما الى تهكم (قالوا) لما يئسوا من الخلاص بالهرب وايقنوا بنزول العذاب (ياويلنا) اى هلاكنا (انا كنا ظالمين) اى مستوجبين للعذاب وهذا اعتراف منهم بالظلم وباستتباعه للعذاب وندم عليه حين لم ينفعهم ذلك (فما زالت تلك دعواهم) اى فما زالوا يرددون تلك الكلمة وتسميتها دعوى اى دعوة لان المولول كأنه يدعو الويل قائلا ياويل تعال فهذا اوانك (حتى جعلناهم حصيدا) اى مثل الحصيد وهو المحصود من الزرع والنبت ولذلك لم يجمع (خامدين) اى ميتين من خمدت النار اذا طفئت وهو مع حصيدا في حيز المفعول الثاني للجعل كقولك جعلته حلوا حامضا والمعنى جعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخمود او حال من الضمير المنصوب في جعلناهم او من المستكن في حصيدا او صفة لحصيدا لتعدده معنى لانه في حكم جعلناهم امثال حصيد (وما خلقنا السماء والارض) اشارة اجمالية الى ان تكوين العالم وابداع بني آدم مؤسس على قواعد الحكم البالغة المستتبعة للغايات الجليلة وتنبيه على ان ما حكي من العذاب الهائل والعقاب النازل باهل القرى مقتضيات تلك الحكم ومتفرعا حسب اقتضاء

اى فائدة لقوله فسبحان الله رب العرش عما يصفون ولم لم يكتف بقوله فسبحان الله عما يصفون وجوابه ان هذه المناظرة انما وقعت مع عبدة الاصنام الا ان الدليل الذى ذكره الله تعالى يعم جميع المخالفين ثم انه تعالى بعد ذكر الدليل العام نبه على نكتة خاصة بعبدة الاصنام وهى انه كيف يجوز للعاقل ان يجعل الجماد الذى لا يعقل ولا يحس شريكا فى الالهية لخالق العرش العظيم وموجد السموات والارضين ومدبر الخلائق من النور والظلمة واللوح والقلم والذات والصفات والجماد والنبات وانواع الحيوانات اجمعين اما قوله تعالى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون فاعلم انه مشتمل على بحثين (احدهما) ان الله تعالى لا يسأل عن شئ من افعاله ولا يقال له لم فعلت (والثانى) ان الخلائق مسؤلون عن افعالهم اما البحث الاول ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) وجه تعلق هذا الآية بما قبلها ان عمدة من اثبت لله شريكا ليست الا طلب اللمية فى افعال الله تعالى وذلك لان الثنوية والمجوس وهم الذين اثبتوا الشريك لله تعالى قالوا رأينا فى العالم خيرا وشرا ولذة والما وحياة وموتا وصحة وسقما وغنى وفقرا وفاعل الخيرات خير وفاعل الشر شرير ويستحيل ان يكون الفاعل الواحد خيرا وشريرا معا فلابد من فاعلين ليكون احدهما فاعلا للخير والآخر فاعلا للشر ويرجع حاصل هذه الشبهة الى ان مدبر العالم لو كان واحدا لما خص هذا بالحياة والصحة والغنى وخص ذلك بالموت والألم والفقر فيرجع حاصله الى طلب اللمية فى افعال الله تعالى فلما كان مدار امر القائلين بالشريك على طلب اللمية لا جرم انه سبحانه وتعالى بعد ان ذكر الدليل على التوحيد ذكر ما هو النكتة الاصلية فى الجواب عن شبهة القائلين بالشريك لان الترتيب الجيد فى المناظرة ان يقع الابتداء بذكر الدليل المثبت للمطلوب ثم يذكر بعده ما هو الجواب عن شبهة الخصم (المسئلة الثانية) فى الدلالة على انه سبحانه لا يسأل عما يفعل اما اهل السنة فانهم استدلوا عليه بوجوه (احدها) انه لو كان كل شئ معللا بعلة لكانت علية تلك العلة معللة بعلة اخرى ويلزم التسلسل فلابد فى قطع التسلسل من الانتهاء الى ما يكون غنيا عن العلة واولى الاشياء بذلك ذات الله تعالى وصفاته وكما ان ذاته منزهة عن الافتقار الى المؤثر والعلة وصفاته مبرأة عن الافتقار الى المبدع والمخصص فكذا فاعليته يجب ان تكون مقدسة عن الاستناد الى الموجب والمؤثر (وثانيها) ان فاعليته لو كانت معللة بعلة لكانت تلك العلة اما ان تكون واجبة او ممكنة فان كانت واجبة لزم من وجوبها وجوب كونه فاعلا وحينئذ يكون موجبا بالذات لا فاعلا بالاختيار وان كانت ممكنة كانت تلك العلة فعل الله تعالى ايضا فتفتقر فاعليته لتلك العلة الى علة اخرى ولزم التسلسل وهو محال (وثالثها) ان علة فاعلية الله تعالى للعالم ان كانت قديمة لزم ان تكون فاعليته للعالم قديمة فيلزم قدم العالم وان كانت محدثة افتقرت الى علة اخرى ولزم التسلسل (ورابعها) ان من فعل فعلا لغرض فاما ان يكون متمكنا من تحصيل ذلك الغرض بدون تلك الواسطة او لا يكون متمكنا منه فان

(كان)

اعمالهم اياه وان المخاطبين المقتدين بآثارهم ذنوبا مثل ذنوبهم اى ما خلقناهما (وما بينهما) من المخلوقات التى لا تحصى اجناسها وافرادها ولا تحصر انواعها وآحادها على هذا النمط البديع والاسلوب المنيع خالية عن الحكم والمصالح وانما عبر عن ذلك باللعب واللهو حيث قيل (لاعبين) لبيان كمال تنزهه تعالى عن الخلق الخالى عن الحكمة بتصويره بصورة ما لا يرتاب احد فى استحالة صدوره عنه سبحانه بل انما خلقناهما وما بينهما لتكون مبدأ لوجود الانسان وسببا لمعاشه ودليلا يقوده الى تحصيل معرفتنا التى هى الغاية القصوى بواسطة طاعتنا وعبادتنا كما ينطق به قوله تعالى وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة ايام وكان عرشه على الماء ليبلوكم ايكم احسن عملا وقوله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون وقوله تعالى (لو اردنا ان نتخذ لهوا) استئناف مقرر لما قبله من انتفاء اللعب واللهو اى لو اردنا ان نتخذ ما يتلهى به ويلعب (لاتخذناه من لدنا) اى من جهة قدرتنا او من عندنا مما يليق بشأننا من المجردات لا من الاجسام المرفوعة والاجرام الموضوعة كديدن الجبابرة فى رفع العروش وتحسينها وتسوية الفروش وتزيينها لكن يستحيل ارادتنا له لمنافاته الحكمة فيستحيل اتخاذنا له قطعا وقوله تعالى (ان كنا فاعلين) جوابه محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه اى ان كنا فاعلين لاتخذناه وقيل ان نافية اى ما كنا فاعلين اى لاتخاذ اللهو لعدم ارادتنا اياه فيكون بيانا لانتفاء التالى لانتفاء المقدم او لارادة اتخاذه

كان متمكنا منه كان توسط تلك الواسطة عبثا وان لم يكن متمكنا منه كان عاجزا والعجز على الله تعالى محال اما العجز علينا فغير ممتنع فلذلك كانت افعالنا معللة بالاغراض وكل ذلك فى حق الله تعالى محال (وخامسها) انه لو كان فعله معللا بغرض لكان ذلك الغرض اما ان يكون عائدا الى الله تعالى او الى العباد والاول محال لانه منزه عن النفع والضر واذا بطل ذلك تعين ان الغرض لابد وان يكون عائدا الى العباد ولا غرض للعباد الا حصول اللذات وعدم حصول الآلام والله تعالى قادر على تحصيلها ابتداء من غير شئ من الوسايط واذا كان كذلك استحال ان يفعل شيئا لاجل شئ (وسادسها) هو انه لو فعل فعلا لغرض لكان وجود ذلك الغرض وعدمه بالنسبة اليه اما ان يكون على السواء اولا يكون فان كان على السواء استحال ان يكون غرضا وان لم يكن على السواء لزم كونه تعالى ناقصا بذاته كاملا بغيره وذلك محال فان قالت وجود ذلك الغرض وعدمه وان كان بالنسبة اليه على السواء اما بالنسبة الى العباد فالوجود اولى من العدم قلنا تحصيل تلك الاولوية للعبد وعدم تحصيلها له اما ان يكون بالنسبة اليه على السوية اولا على السوية ويعود التقسيم الاول (وسابعها) وهو ان الموجد اما هو سبحانه او ملكه وملكه ومن تصرف فى ملك نفسه لا يقال له لم فعلت ذلك (وثامنها) وهو ان من قال لغيره لم فعلت ذلك فهذا السؤال انما يحسن حيث يحتمل ان يقدر السائل على منع المسؤل منه عن فعله وذلك من العبد فى حق الله تعالى محال فانه لو فعل اى فعل شاء فالعبد كيف يمنعه عن ذلك اما بان يهدده بالعقاب والايلام وذلك على الله تعالى محال او بأن يهدده باستحقاق الذم والخروج عن الحكمة والاتصاف بالسفاهة على ما يقوله المعتزلة وذلك ايضا محال لان استحقاقه للمدح واتصافه بصفات الحكمة والجلال امور ذاتية له وما بالذات لشئ لذاته يستحيل أن يتبدل لاجل تبدل الصفات العرضية الخارجية فثبت بهذه الوجوه انه لا يجوز ان يقال لله فى افعاله لم فعلت هذا الفعل فان كل شئ صنعه ولا علة لصنعه واما المعتزلة فانهم سلموا انه لا يجوز ان يقال لله لم فعلت هذا الفعل ولكنهم بنوا ذلك على اصل آخر وهو انه تعالى عالم بقبح القبائح وعالم بكونه غنيا عنها ومن كان كذلك فانه يستحيل ان يفعل القبيح واذا عرفنا ذلك عرفنا اجمالا ان كل ما يفعله الله تعالى فهو حكمة وصواب واذا كان كذلك لم يجز للعبد أن يقول لله لم فعلت هذا (اما البحث الثانى) وهو قوله تعالى وهم يسألون فهذا يدل على كون المكلفين مسؤلين عن افعالهم وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) ان الكلام فى هذا السؤال اما فى الامكان العقلى او فى الوقوع السمعى اما الامكان العقلى فالخلاف فيه مع منكرى التكاليف واحتجوا على قولهم بوجوه (احدها) قالوا التكليف اما أن يتوجه على العبد حال استواء داعيته الى الفعل والترك او حال رجحان احدهما على الآخر والاول محال لان حال الاستواء يمتنع الترجيح وحال امتناع الترجيح يكون التكليف بالترجيح تكليفا بالمحال والثانى محال لان حال الرجحان يكون الراجح واجب الوقوع والمرجوح ممتنع الوقوع

فيكون بيانا لانتفاء المقدم المستلزم لانتفاء التالى وقيل اللهو الولد بلغة اليمن وقيل الزوجة والمراد الرد على النصارى ولا يخفى بعده (بل نقذف بالحق على الباطل) اضراب عن اتخاذ اللهو بل عن ارادته كأنه قيل لكنا لا نريده بل شأننا ان نغلب الحق الذى من جملته الجد على الباطل الذى من قبيله اللهو وتخصيص شأنه هذا من بين سائر شؤنه تعالى بالذكر للتخلص الى ما سيأتى من الوعيد (فيدمغه) اى يمحقه بالكلية كما فعلنا باهل القرى المحكية وقد استعير لايراد الحق على الباطل القذف الذى هو الرمى الشديد بالجرم الصلب كالصخرة ولمحقه للباطل الدمغ الذى هو كسر الشئ الرخو الاجوف وهو الدماغ بحيث يشق غشاءه المؤدى الى زهوق الروح تصويرا لهذلك وقرئ فيدمغه بالنصب وهو ضعيف وقرئ فيدمغه بضم الميم (فاذا هو زاهق) اى ذاهب بالكلية وفى اذا الفجائية والجملة الاسمية من الدلالة على كمال المسارعة فى الذهاب والبطلان ما لا يخفى فكأنه زاهق من الاصل (ولكم الويل مما تصفون) وعيد لقريش بأن لهم ايضا مثل ما لاولئك من العذاب والعقاب ومن تعليلية متعلقة بالاستقرار الذى تعلق به الخبر او بمحذوف هو حال من الويل او من ضميره فى الخبر وما اما مصدرية او موصولة او موصوفة اى واستقر لكم الويل والهلاك من اجل وصفكم له سبحانه بما لا يليق بشأنه الجليل او بالذى تصفونه او بشئ تصفونه به من الولد او كائنا مما تصفونه تعالى به (وله من فى السموات والارض) استئناف مقرر لما قبله من خلقه تعالى لجميع مخلوقاته على حكمة

بالغة ونظام كامل وانه تعالى يحق الحق ويزهق الباطل اى له تعالى خاصة جميع المخلوقات خلقا وملكا وتدبيرا وتصرفا واحياء

والتكليف بايقاع مايكون واجب الوقوع عبث وبايقاع ماهو ممتنع الوقوع تكليف بما لايطاق (وثانيها) قالوا كل ماعلم الله وقوعه فهو واجب الوقوع فيكون التكليف به عبثا وكل ماعلم الله تعالى عدمه كان ممتنع الوقوع فيكون التكليف به تكليفا بما لايطاق (وثالثها) قالوا سؤال العبد اما ان يكون لفائدة اولا لفائدة فان كان لفائدة فتلك الفائدة ان عادت الى الله تعالى كان محتاجا وهو محال وان عادت الى العبد فهو محال لان سؤاله لما كان سببا لتوجيه العقاب عليه لم يكن هذا نفعا عائدا الى العبد بل ضررا عائدا اليه وان لم يكن فى السؤال فائدة كان عبثا وهو غير جائز على الحكيم بل كان اضرارا وهو غير جائز على الرحيم والجواب عنها من وجهين (الاول) ان غرضكم من ايراد هذه الشبهة النافية للتكليف ان تلزمونا نفى التكليف فكأنكم تكلفونا بنفى التكليف وهو متناقض (والثانى) وهو ان مدار كلامكم فى هذه الشبهات على حرف واحد وهو ان التكاليف كلها تكاليف بما لايطاق فلا يجوز من الحكيم ان يوجبها على العباد فيرجع حاصل هذه الشبهات الى انه يقال له تعالى لم كلفت عبادك الا انا قدبينا انه سبحانه لايسأل عما يفعل وهم يسألون فظهر بهذا ان قوله لايسأل عما يفعل كالاصل والقاعدة لقوله وهم يسألون فتأمل فى هذه الدقائق العجيبة لتقف على طرف من اسرار علم القرآن واما الوقوع السمعى فلقائل ان يقول ان قوله وهم يسألون وان كان متأكدا بقوله فوربك لنسألنهم اجمعين وبقوله وقفوهم انهم مسؤلون الا انه يناقضه قوله فيومئذ لايسأل عن ذنبه انس ولا جان والجواب ان يوم القيامة يوم طويل وفيه مقامات فيصرف كل واحد من السلب والايجاب الى مقام آخر دفعا للتناقض (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة فيه وجوه (احدها) انه تعالى لوكان هو الخالق للحسن والقبيح لوجب أن يسأل عما يفعل بل كان يذم بما حقه الذم كما يحمد بما حقه المدح (وثانيها) انه كان يجب أن لايسأل عن الامور اذا كان لافاعل سواه (وثالثها) انه كان لايجوز أن يسألوا عن عملهم اذلاعمل لهم (ورابعها) ان اعمالهم لايمكنهم أن يعدلوا عنها من حيث خلقها واوجدها فيهم (وخامسها) انه تعالى صرح فى كثير من المواضع بأنه يقبل حجة العباد عليه كقوله رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وهذا يقتضى ان لهم عليه الحجة قبل بعثة الرسل وقال ولو أنا اهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا ارسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ونظائر هذه الآيات كثيرة وكلها تدل على ان حجة العبد متوجهة على الله تعالى (وسادسها) قال ثمامة اذا وقف العبد يوم القيامة فيقول الله تعالى ماحملك على معصيتى فيقول على مذهب الجبر يارب انك خلقتنى كافرا وأمرتنى بما لا اقدر عليه وحلت بينى وبينه ولاشك انه على مذهب الجبر يكون صادقا وقال الله تعالى هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم فوجب أن ينفعه هذا الكلام فقيل له ومن يدعه يقول هذا الكلام او يحتج فقال ثمامة أليس اذا منعه الله الكلام والحجة فقد علم انه منعه مما لو لم يمنعه منه

(لانقطع)

وامانة وتعذيبا واثابة من غير ان يكون لاحد فى ذلك دخل مااستقلالا او استتباعا (ومن عنده) وهم الملائكة عليهم السلام عبر عنهم بذلك اثر ماعبر عنهم بمن فى السموات تنزيلا لهم لكرامتهم عليه عز وعلا وزلفاهم عنده منزلة المقربين عند الملوك بطريق التمثيل وهو مبتدأ خبره (لايستكبرون عن عبادته) اى لايتعظمون عنها ولايعدون انفسهم كبيرا (ولا يستحسرون) ولا يكلون ولا يعيون وصيغة الاستفعال المنبئة عن المبالغة فى الحسور للتنبيه على ان عباداتهم بثقلها ودوامها حقيقة بأن يستحسر منها ومع ذلك لايستحسرون لا لافادة نفى المبالغة فى الحسور مع ثبوت اصله فى الجملة كما ان نفى الظلامية فى قوله تعالى وماانا بظلام للعبيد لافادة كثرة الظلم المفروض تعلقه بالعبيد لا لافادة نفى المبالغة فى الظلم مع ثبوت اصل الظلم فى الجملة وقيل من عنده معطوف على من الاولى وافرادهم بالذكر مع دخولهم فى من فى السموات والارض للتعظيم كما فى قوله تعالى وجبريل وميكال فقوله تعالى لايستكبرون حينئذ حال من من الثانية (يسبحون الليل والنهار) اى ينزهونه فى جميع الاوقات ويعظمونه ويمجدونه دائما وهو استئناف وقع جوابا عما نشأ عما قبله كأنه قيل ماذا يصنعون فى عباداتهم اوكيف يعبدون فقيل يسبحون الخ اوحال من فاعل يستحسرون وكذا قوله تعالى (لايفترون) اى لايتخلل تسبيحهم فترة اصلا

لانقطع في يده وهذا نهاية الانقطاع (والجواب) عن هذه الوجوه انها معارضة بمسئلة الداعي ومسئلة العلم ثم بالوجوه الثمانية التي بينافيها انه يستحيل طلب لمية افعال الله تعالى واحكامه واما قوله تعالى ام اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم فاعلم انه سبحانه كرر قوله ام اتخذوا من دونه آلهة استعظاما لكفرهم اى وصفتم الله بأن له شريكا فهاتوا برهانكم على ذلك امامن جهة العقل اومن جهة النقل فانه سبحانه لماذكر دليل التوحيد اولا وقرر الاصل الذى عليه تخرج شبهات القائلين بالتثنية ثانيا اخذ يطالبهم بذكر شبهتهم ثالثا اما قوله تعالى هذا ذكر من معى وذكر من قبلى ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) في تفسيره وفيه اقوال (احدها) هذا ذكر من معى اى هذا هو الكتاب المنزل على من معى وهذا ذكر من قبلى اى الكتاب المنزل على من تقدمنى من الانبياء وهو التوراة والانجيل والزبور والصحف وليس في شئ منها انى اذنت بأن تتخذوا الها من دونى بل ليس فيها الا انى أنا الله لا اله الا انا كما قال بعد هذا وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه انه لا اله الا انا فاعبدون وهذا قول ابن عباس واختيار القفال والزجاج (الثانى) وهو قول سعيد ابن جبير وقتادة ومقاتل والسدى ان قوله وذكر من قبلى صفة للقرآن فانه كما يشتمل على احوال هذه الامة فكذا يشتمل على احوال الامم الماضية (الثالث) ماذكره القفال وهو ان المعنى قل لهم هذا الكتاب الذى جئتكم به قد اشتمل على بيان احوال من معى من المخالفين والموافقين وعلى بيان احوال من قبلى من المخالفين والموافقين فاختاروا لانفسكم كأن الغرض منه التهديد (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف قرئ هذا ذكر من معى وذكر من قبلى بالتنوين ومن مفعول منصوب بالذكر كقوله او اطعام في يوم ذى مسغبة يتيما وهو الاصل والاضافة من اضافة المصدر الى المفعول كقوله غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون وقرئ من معى ومن قبلى بكسر ميم من على ترك الاضافة في هذه القراءة وادخال الجار على مع غريب والعذر فيه انه اسم هو ظرف نحو قبل وبعد فدخل من عليه كما يدخل على اخواته وقرئ ذكر معى وذكر قبلى واما قوله بل اكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) انه سبحانه لما ذكر دليل التوحيد وطالبهم بالدلالة على ما ادعوه وبين انه لا دليل لهم البتة عليه لا من جهة العقل ولا من جهة السمع ذكر بعده ان وقوعهم في هذا المذهب الباطل ليس لاجل دليل ساقهم اليه بل ذلك لان عندهم ما هو اصل الشر والفساد كله وهو عدم العلم ثم ترتب على عدم العلم الاعراض عن استماع الحق وطلبه (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف قرئ الحق بالرفع على توسط التوكيد بين السبب والمسبب والمعنى ان اعراضهم بسبب الجهل هو الحق لا الباطل اما قوله تعالى وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون فاعلم ان يوحى ونوحى قراءتان مشهورتان وهذه الآية مقررة لما سبقها من آيات التوحيد ۞ قوله تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم

بفراغ او بشغل آخر (ام اتخذوا آلهة) حكاية لجناية أخرى من جناياتهم بطريق الاضراب والانتقال من فن الى فن آخر من التوبيخ اثر تحقيق الحق ببيان انه تعالى خلق جميع المخلوقات على منهاج الحكمة وانها قائمة تحت ملكوته وقهره وان عباده مذعنون لطاعته ومثابرون على عبادته منزهون له عن كل ما لا يليق بشأنه من الامور التى من جملتها الانداد ومعنى الهمزة في ام المنقطعة انكار الوقوع لا انكار الواقع وقوله تعالى (من الارض) متعلق باتخذوا او بمحذوف هو صفة لآلهة وايا ما كان فالمراد هو التحقير لا التخصيص وقوله تعالى (هم ينشرون) اى يبعثون الموتى صفة لآلهة وهو الذى يدور عليه الانكار والتجهيل والتشنيع لا نفس الاتخاذ فانه واقع لا محالة اى بل اتخذوا آلهة من الارض هم خاصة مع حقارتهم وجماديتهم ينشرون الموتى كلا فان ما اتخذوها آلهة بمعزل من ذلك وهم وان لم يقولوا بذلك صريحا لكنهم حيث ادعوا لها الالهية فكانهم ادعوا لها الانشار ضرورة انه من الخصائص الالهية حتما ومعنى التخصيص في تقديم الضمير ما اشير اليه من التنبيه على كمال مباينة حالهم للانشار الموجبة لمزيد الانكار كما في قوله تعالى افى الله شك وقوله تعالى ابالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن فان تقديم الجار والمجرور للتنبيه على كمال مباينة امره تعالى لان يشك فيه ويستهزأ به ويجوز ان يجعل ذلك من مستتبعات ادعائهم الباطل لان الالوهية مقتضية للاستقلال بالابداء والاعادة فحيث ادعوا للاصنام الالهية

بامره يعملون يعلم مابين ايديهم وماخلفهم ولايشفعون الالمن ارتضى من خشيته مشفقون ومن يقل منهم انى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين) اعلم انه سبحانه وتعالى لمابين بالدلائل الباهرة كونه منزها عن الشريك والضد والند اردف ذلك ببراءته عن اتخاذ الولد فقال وقالوا اتخذ الرحمن ولدا نزلت فى خزاعة حيث قالوا الملائكة بنات الله واضافوا الى ذلك انه تعالى صاهر الجن على ماحكى الله تعالى عنهم فقال وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ثم انه سبحانه وتعالى نزه نفسه عن ذلك بقوله سبحانه لان الولد لابد وان يكون شبيها بالوالد فلو كان لله ولد لاشبهه من بعض الوجوه ثم لابد وان يخالفه من وجه آخر ومابه المشاركة غيرمابه الممايزة فيقع التركيب فى ذات الله سبحانه وتعالى وكل مركب ممكن فاتخاذه للولد يدل على كونه ممكنا غير واجب وذلك يخرجه عن حد الالهية ويدخله فى حد العبودية ولذلك نزه نفسه عنه اما قوله بل عباد مكرمون فاعلم انه سبحانه لما نزه نفسه عن الولد اخبر عنهم بأنهم عباد والعبودية تنافى الولادة الا انهم مكرمون مفضلون على سائر العباد وقرئ مكرمون لايسبقونه من سابقته فسبقته اسبقه والمعنى انهم يتبعونه فى قوله ولايقولون شيئا حتى يقوله فلايسبق قولهم قوله وكما ان قولهم تابع لقوله فعملهم ايضا كذلك مبنى على امره لايعملون عملا مالم يؤمروا به ثم انه سبحانه ذكر مايجرى مجرى السبب لهذه الطاعة فقال يعلم مابين ايديهم وماخلفهم والمعنى انهم لما علموا كونه سبحانه عالما بجميع المعلومات علموا كونه عالما بظواهرهم وبواطنهم فكان ذلك داعيا لهم الى نهاية الخضوع وكمال العبودية وذكر المفسرون فيه وجوها (احدها) قال ابن عباس يعلم ماقدموا وماأخروا من اعمالهم (وثانيها) مابين ايديهم الآخرة وماخلفهم الدنيا وقيل على عكس ذلك (وثالثها) قال مقاتل يعلم ماكان قبل ان يخلقهم وما يكون بعد خلقهم وحقيقة المعنى انهم يتقلبون تحت قدرته فى ملكوته وهو محيط بهم واذا كان هذه حالهم فكيف يستحقون العبادة وكيف يتقدمون بين يدى الله تعالى فيشفعون لمن لم يأذن الله تعالى له ثم كشف من هذا المعنى فقال ولايشفعون الا لمن ارتضى اى لمن هو عند الله مرضى وهم من خشيته مشفقون اى من خشيتهم منه فاضيف المصدر الى المفعول ومشفقون خائفون ولايأمنون مكره وعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم انه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج ساقطا كالحلس من خشية الله تعالى ونظيره قوله تعالى لايتكلمون الا من أذن له الرحمن اما قوله تعالى ومن يقل منهم انى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم فالمعنى ان كل من يقول من الملائكة ذلك القول فانا نجازى ذلك القائل بهذا الجزاء وهذا لايدل على انهم قالوا ذلك او ماقالوه وهو قريب من قوله تعالى لئن اشركت ليحبطن عملك وههنا مسائل (المسئلة الاولى) هذه الصفات تدل على العبودية وتنافى الولادة لوجوه (احدها) انهم لما بالغوا فى الطاعة الى حيث لايقولون قولا ولايعملون عملا الا بامره فهذه صفات العبيد لاصفات الاولاد (وثانيها) انه سبحانه لما كان عالما باسرار الملائكة وهم لايعلمون اسرار

فكأنهم ادعوا لها الاستقلال بالانشار كما انهم جعلوا بذلك مدعين لاصل الانشار (لو كان فيهما آلهة الا الله) ابطال لتعدد الاله باقامة البرهان على انتفائه بل على استحالته وايراد الجمع لوروده اثر انكار اتخاذ الآلهة لالان للجمعية مدخلا فى الاستدلال وكذا فرض كونها فيهما والا بمعنى غير على انها صفة لآلهة ولامساغ للاستثناء لاستحالة شمول ماقبلها لمابعدها وافضائه الى فساد المعنى لدلالته حينئذ على ان الفساد لكونها فيهما بدونه تعالى ولاللرفع على البدل لانه متفرع على الاستثناء ومشروط بان يكون فى كلام غير موجب اى لوكان فى السموات والارض آلهة غيرالله كما هو اعتقادهم الباطل (لفسدتا) اى لبطلتا بمافيهما جميعا وحيث انتفى التالى علم انتفاء المقدم قطعا بيان الملازمة ان الالهية مستلزمة للقدرة على الاستبداد بالتصرف فيهما على الاطلاق تغييرا وتبديلا وايجادا واعداما واحياء واماتة فبقاؤهما على ماهما عليه اما بتأثير كل منها وهو محال لاستحالة وقوع المعلول المعين بعلل متعددة واما بتأثير واحد منها فالبواقى بمعزل من الالهية قطعا واعلم ان جعل التالى فسادهما بعد وجودهما لماانه اعتبر فى المقدم تعدد الالهية فيهما والا فالبرهان يقتضى باستحالة التعدد على الاطلاق فانه لوتعدد الاله فان توافق الكل فى المراد تطاردت عليه القدر وان تخالفت تعاوقت فلايوجد موجود اصلا وحيث انتفى التالى تعين انتفاء المقدم والفاء فى قوله تعالى (فسبحان الله) لترتيب مابعدها على ماقبلها

الله تعالى وجب ان يكون الاله المستحق للعبادة هو لا هؤلاء الملائكة وهذه الدلالة هى نفس ماذكره عيسى عليه السلام فى قوله تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك (وثالثها) انهم لايشفعون الالمن ارتضى ومن يكن الها اوولدا للاله لايكون كذلك (ورابعها) انهم على نهاية الاشفاق و الوجل وذلك ليس الامن صفات العبيد (وخامسها) نبه تعالى بقوله ومن يقل منهم انى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم على ان حالهم حال سائر العبيد المكلفين فى الوعد و الوعيد فكيف يصح كونهم آلهة (المسئلة الثانية) احتجت المعتزلة بقوله تعالى ولا يشفعون الالمن ارتضى على ان الشفاعة فى الآخرة لاتكون لاهل الكبائر لانه لايقال فى اهل الكبائر ان الله يرتضيهم (والجواب) قال ابن عباس رضى الله عنهما و الضحاك الالمن ارتضى اى لمن قال لا اله الا الله واعلم ان هذه الآية من اقوى الدلائل لنا فى اثبات الشفاعة لاهل الكبائر وتقريره هوان من قال لا اله الا الله فقد ارتضاه تعالى فى ذلك ومتى صدق عليه انه ارتضاه الله تعالى فى ذلك فقد صدق عليه انه ارتضاه الله لان المركب متى صدق فقد صدق لامحالة كل واحد من اجزائه واذا ثبت ان الله قد ارتضاه وجب اندراجه تحت هذه الآية فثبت بالتقرير الذى ذكرناه ان هذه الآية من اقوى الدلائل لنا على ماقرره ابن عباس رضى الله عنهما (المسئلة الثالثة) هذه الآية تدل على أمور ثلاثة (أحدها) تدل على كون الملائكة مكلفين من حيث قال لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون وهم من خشيته مشفقون ومن حيث الوعيد (وثانيها) تدل ايضا على ان الملائكة معصومون لانه قال وهم بأمره يعملون (وثالثها) قال القاضى عبد الجبار قوله كذلك نجزى الظالمين يدل على ان كل ظالم يجزيه الله جهنم كما توعد الملائكة به وذلك يوجب القطع على انه تعالى لايغفر لاهل الكبائر فى الآخرة (والجواب) اقصى مافى الباب ان هذا العموم مشعر بالوعيد وهو معارض بعمومات الوعد * قوله تعالى (أولم ير الذين كفروا ان السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شئ حى افلا يؤمنون وجعلنا فى الارض رواسى ان تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون) اعلم انه سبحانه وتعالى شرع الآن فى الدلائل الدالة على وجود الصانع وهذه الدلائل ايضا دالة على كونه منزها عن الشريك لانها دالة على حصول الترتيب العجيب فى العالم ووجود الالهين يقتضى وقوع الفساد فهذه الدلائل تدل من هذه الجهة على التوحيد فتكون كالتوكيد لما تقدم وفيها ايضا رد على عبدة الاوثان من حيث ان الاله القادر على مثل هذه المخلوقات الشريفة كيف يجوز فى العقل ان يعدل عن عبادته الى عبادة حجر لايضر ولا ينفع فهذا وجه تعلق هذه الآية بما قبلها واعلم انه سبحانه وتعالى ذكر ههنا ستة انواع من الدلائل (النوع الاول) قوله اولم ير الذين

من ثبوت الوحدانية بالبرهان اى فسبحوه سبحانه اللائق به ونزهوه عما لايليق به من الامور التى من جملتها ان يكون له شريك فى الالوهية وايراد الجلالة فى موقع الاضمار للاشعار بعلة الحكم فان الالوهية مناط لجميع صفات كماله التى من جملتها تنزهه تعالى عما لايليق به ولتربية المهابة وادخال الروعة وقوله تعالى (رب العرش) صفة للاسم الجليل مؤكدة لتنزهه عز وجل (عما يصفون) متعلق بالتسبيح اى فسبحوه عما يصفونه من ان يكون من دونه آلهة (لايسئل عما يفعل) استئناف ببيان انه تعالى لقوة عظمته وعزة سلطانه القاهر بحيث ليس لاحد من مخلوقاته ان يناقشه ويسأله عما يفعل من اعماله اثر بيان ان ليس له شريك فى الالهية (وهم) اى العباد (يسئلون) عما يفعلون نقيرا وقطميرا لانهم مملوكون له تعالى مستعبدون ففيه وعيد للكفرة (ام اتخذوا من دونه آلهة) اضراب وانتقال من اظهار بطلان كون ما اتخذوه الهة آلهة حقيقة باظهار خلوها عن خصائص الالهية التى من جملتها الانشار واقامة البرهان القاطع على استحالة تعدد الاله على الاطلاق وتفرده سبحانه بالالوهية الى اظهار بطلان اتخاذهم تلك الآلهة مع عرائها عن تلك الخصائص بالمرة شركاء لله عز سلطانه وتبكيتهم بالجائهم الى اقامة البرهان على دعواهم الباطلة وتحقيق ان جميع الكتب السماوية ناطقة بحقية التوحيد وبطلان الاشراك والهمزة لانكار الاتخاذ المذكور واستقباحه واستعظامه ومن متعلقة باتخذوا والمعنى بل اتخذوا متجاوزين اياه تعالى مع ظهور شؤنه الجليلة الموجبة لتفرده بالالوهية آلهة مع ظهور خلوهم عن خواص الالوهية بالكلية

كفروا ان السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن كثير الم ير بغير الواو والباقون بالواو وادخال الواو يدل على العطف لهذا القول على امر تقدمه قال صاحب الكشاف قرئ رتقا بفتح التاء وكلاهما فى معنى المفعول كالخلق والنفض اى كانتا مرتوقتين فان قلت الرتق صالح ان يقع موقع مرتوقتين لانه مصدر فما بال الرتق قلت هو على تقدير موصوف اى كانتا شيئا رتقا (المسئلة الثانية) لقائل ان يقول المراد من الرؤية فى قوله تعالى أولم ير الذين كفروا اما الرؤية واما العلم والاول مشكل اما اولا فلان القوم ماراؤهما كذلك البتة واما ثانيا فلقوله سبحانه وتعالى ما أشهدتهم خلق السموات والارض واما العلم فمشكل لان الاجسام قابلة للفتق والرتق فى انفسها فالحكم عليها بالرتق اولا وبالفتق ثانيا لاسبيل اليه الا السمع والمناظرة مع الكفار الذين ينكرون الرسالة فكيف يجوز التمسك بمثل هذا الاستدلال (والجواب) المراد من الرؤية هو العلم وما ذكروه من السؤال فدفعه من وجوه (أحدها) انا نثبت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بسائر المعجزات ثم نستدل بقوله ثم نجعله دليلا على حصول النظام فى العالم وانتفاء الفساد عنه وذلك يؤكد الدلالة المذكورة فى التوحيد (وثانيها) ان يحمل الرتق والفتق على امكان الرتق والفتق والعقل يدل عليه لان الاجسام يصح عليها الاجتماع والافتراق فاختصاصها بالاجتماع دون الافتراق او بالعكس يستدعى مخصصا (وثالثها) ان اليهود والنصارى كانوا عالمين بذلك فانه جاء فى التوراة ان الله تعالى خلق جوهرة ثم نظر اليها بعين الهيبة فصارت ماء ثم خلق السموات والارض منها وفتق بينهما وكان بين عبدة الاوثان وبين اليهود نوع صداقة بسبب الاشتراك فى عداوة محمد صلى الله عليه وسلم فاحتج الله تعالى عليهم بهذه الحجة بناء على انهم يقبلون قول اليهود فى ذلك (المسئلة الثالثة) انما قال كانتا رتقا ولم يقل كن رتقا لان السموات لفظ الجمع والمراد به الواحد الدال على الجنس قال الاخفش السموات نوع والارض نوع ومثله ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا ومن ذلك قولهم اصلحنا بين القومين ومرت بنا غنمان اسودان لان هذا القطيع غنم وذلك غنم (المسئلة الرابعة) الرتق فى اللغة السد يقال رتقت الشئ فارتتق والفتق الفصل بين الشيئين الملتصقين قال الزجاج الرتق مصدر والمعنى كانتا ذواتى رتق قال المفضل انما لم يقل كانتا رتقين كقوله وماجعلناهم جسدا لايأكلون الطعام لان كل واحد جسد كذلك فيما نحن فيه كل واحد رتق (المسئلة الخامسة) اختلف المفسرون فى المراد من الرتق والفتق على اقوال (احدها) وهو قول الحسن وقتادة وسعيد بن جبير ورواية عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهم ان المعنى كانتا شيئا واحدا ملتزقتين ففصل الله بينهما ورفع السماء الى حيث هى وأقر الارض وهذا القول يوجب ان خلق الارض مقدم على السماء لانه تعالى لما فصل بينهما ترك الارض حيث هى واصعد الاجزاء السماوية قال كعب خلق السموات والارض ملتصقتين ثم خلق ريحا توسطتهما ففتقهما بها (وثانيها) وهو قول ابى صالح

(قل) لهم بطريق التبكيت والقام الحجر (هاتوا برهانكم) على (١٤٤) ماتدعونه من جهة العقل والنقل فانه لاصحة لقول لادليل عليه فى الامور الدينية لاسيما فى مثل هذا الشأن الخطير وما فى اضافة البرهان الى ضميرهم من الاشعار بان لهم برهانا ضرب من التهكم بهم وقوله تعالى (هذا ذكر من معى وذكر من قبلى) انارة لبرهانه واشارة الى انه مما نطقت به الكتب الالهية قاطبة وشهدت به السنة الرسل المتقدمة كافة وزيادة تهييج لهم على اقامة البرهان لاظهار كمال عجزهم اى هذا الوحى الوارد فى شأن التوحيد المتضمن للبرهان القاطع العقلى ذكر امتى اى عظتهم وذكر الامم السالفة قد القته فاتوا أنتم ببرهانكم وقيل المعنى هذا كتاب انزل على امتى وهذا كتاب انزل على امم الانبياء عليهم السلام من الكتب الثلاثة والصحف فراجعوها وانظروا هل فى واحد منها غير الامر بالتوحيد والنهى عن الاشراك ففيه تبكيت لهم متضمن لاثبات نقيض مدعاهم وقرئ بالتنوين والاعمال كقوله تعالى او اطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما وبه وبمن الجارة على ان مع اسم هو ظرف كقبل وبعد وقوله تعالى (بل اكثرهم لايعلمون الحق) اضراب من جهته تعالى غير داخل فى الكلام الملقن وانتقال من الامر بتبكيتهم بمطالبة البرهان الى بيان انه لاينجع فيهم المحاجة باظهار حقية الحق وبطلان الباطل فان اكثرهم لايفهمون الحق ولا يميزون بينه وبين الباطل (فهم) لاجل ذلك (معرضون) اى مستمرون على الاعراض عن التوحيد واتباع الرسول لايرعوون عما هم عليه من الغى والضلال وان كررت عليهم البينات والحجج او معرضون عما القى عليهم من البراهين العقلية والنقلية (ومجاهد)

ومجاهد ان المعنى كانت السموات مرتقة فجعلت سبع سموات وكذلك الارضون (وثالثها) وهو قول ابن عباس والحسن واكثر المفسرين ان السموات والارض كانتا رتقا بالاستواء والصلابة ففتق الله السماء بالمطر والارض بالنبات والشجر ونظيره قوله تعالى والسماء ذات الرجع والارض ذات الصدع ورجحوا هذا الوجه على سائر الوجوه بقوله بعد ذلك وجعلنا من الماء كل شيء حي وذلك لا يليق الا وللماء تعلق بما تقدم ولا يكون كذلك الا اذا كان المراد ما ذكرنا فان قيل هذا الوجه مرجوح لان المطر لا ينزل من السموات بل من سماء واحدة وهي سماء الدنيا قلنا انما اطلق عليه لفظ الجمع لان كل قطعة منها سماء كما يقال ثوب اخلاق وبرمة اعشار واعلم ان على هذا التأويل يجوز حمل الرؤية على الابصار (ورابعها) قول أبي مسلم الاصفهاني يجوز ان يراد بالفتق الايجاد والاظهار كقوله فاطر السموات والارض وكقوله قال بل ربكم رب السموات والارض الذي فطرهن فأخبر عن الايجاد بلفظ الفتق وعن الحال قبل الايجاد بلفظ الرتق اقول وتحقيقه ان العدم نفي محض فليس فيه ذوات مميزة واعيان متباينة بل كأنه امر واحد متصل متشابه فاذا وجدت الحقائق فعند الوجود وتكون تميز بعضها من بعض وينفصل بعضها عن بعض فبهذا الطريق حسن جعل الرتق مجازا عن العدم والفتق عن الوجود (وخامسها) ان الليل سابق على النهار لقوله وآية لهم الليل نسلخ منه النهار وكانت السموات والارض مظلمة اولا ففتقهما الله تعالى باظهار النهار المبصر فان قيل فأي الأقاويل اليق بالظاهر قلنا الظاهر يقتضي ان السماء على ما هي عليه والارض على ما هي عليه كانتا رتقا ولا يجوز كونهما كذلك الا وهما موجودان والرتق ضد الفتق فاذا كان الفتق هو المفارقة فالرتق يجب ان يكون هو الملازمة وبهذا الطريق صار الوجه الرابع والخامس مرجوحا ويصير الوجه الاول اولى الوجوه ويتلوه الوجه الثاني وهو ان كل واحد منهما كان رتقا ففتقهما بان جعل كل واحد منهما سبعا ويتلوه الثالث وهو انهما كانا صلبين من غير فطور وفرج ففتقهما لينزل المطر من السماء ويظهر النبات على الارض (المسئلة السادسة) دلالة هذه الوجوه على اثبات الصانع وعلى وحدانيته ظاهرة لان احدا لا يقدر على مثل ذلك والاقرب انه سبحانه خلقهما رتقا لما فيه من المصلحة للملائكة ثم لما اسكن الله الارض اهلها جعلهما فتقا لما فيه من منافع العباد (النوع الثاني من الدلائل) قوله تعالى وجعلنا من الماء كل شيء حي افلا يؤمنون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف قوله وجعلنا لا يخلو اما ان تعدى الى واحد او اثنين فان تعدى الى واحد فالمعنى خلقنا من الماء كل حيوان كقوله والله خلق كل دابة من ماء او كأنما خلقناه من الماء لفرط احتياجه اليه وحبه له وقلة صبره عنه كقوله خلق الانسان من عجل وان تعدى الى اثنين فالمعنى صيرنا كل شيء حي بسبب من الماء لا بد له منه ومن هذا نحو من في قوله عليه السلام ما انا من دد ولا الدد مني وقرئ حيا وهو المفعول الثاني

وقرئ الحق بالرفع على انه خبر مبتدأ محذوف وسط بين السبب والمسبب تأكيدا للسببية وقوله تعالى (وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا انا فاعبدون) استئناف مقرر لما اجمل فيما قبله من كون التوحيد مما نطقت به الكتب الالهية واجمعت عليه الرسل عليهم السلام وقرئ يوحى على صيغة الغائب مبنيا للمفعول وايا ما كان فصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضارا لصورة الوحي (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) حكاية لجناية فريق من المشركين جيء بها لاظهار بطلانها وبيان تنزهه تعالى عن ذلك اثر بيان تنزهه سبحانه عن الشركاء على الاطلاق وهم حي من خزاعة يقولون الملائكة بنات الله تعالى ونقل الواحدي ان قريشا وبعض اجناس العرب جهينة وبني سلمة وخزاعة وبني مليح يقولون ذلك والتعرض لعنوان الرحمانية المنبئة عن كون جميع ما سواه تعالى مربوبا له تعالى نعمة او منعما عليه لابراز كمال شناعة مقالتهم الباطلة (سبحانه) اي تنزه بالذات تنزهه اللائق به على ان السبحان مصدر من سبح اي بعد او اسبحه تسبيحة على انه علم للتسبيح وهو مقول على السنة العباد او سبحوه تسبيحة وقوله تعالى (بل عباد) اضراب وابطال لما قالوه كأنه قيل ليست الملائكة كما قالوا بل هم عباد له تعالى (مكرمون) مقربون عنده وقرئ مكرمون بالتشديد وفيه تنبيه على منشأ غلط القوم

(المسئلة الثانية) لقائل ان يقول كيف قال وخلقنا من الماء كل حيوان وقد قال والجان خلقناه من قبل من نار السموم وجاء فى الاخبار ان الله تعالى خلق الملائكة من النور وقال تعالى فى حق عيسى عليه السلام واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا باذنى وقال فى حق آدم خلقه من تراب (والجواب) اللفظ وان كان عاما الا ان القرينة المخصصة قائمة فان الدليل لابد وان يكون مشاهدا محسوسا ليكون اقرب الى المقصود وبهذا الطريق تخرج عنه الملائكة والجن وآدم وقصة عيسى عليهم السلام لان الكفار لم يروا شيئا من ذلك (المسئلة الثالثة) اختلف المفسرون فقال بعضهم المراد من قوله كل شئ حى الحيوان فقط وقال آخرون بل يدخل فيه النبات والشجر لانه من الماء صار ناميا وصار فيه الرطوبة والخضرة والنور والثمر وهذا القول اليق بالمعنى المقصود كانه تعالى قال ففتقنا السماء لانزال المطر وجعلنا منه كل شئ فى الارض من النبات وغيره حيا حجة القول الاول ان النبات لايسمى حيا قلنا لانسلم والدليل عليه قوله تعالى كيف يحيى الارض بعد موتها اما قوله تعالى افلا يؤمنون فالمراد افلا يؤمنون بأن يتدبروا هذه الادلة فيعلموا بها الخالق الذى لايشبه غيره ويتركوا طريقة الشرك (النوع الثالث) قوله تعالى وجعلنا فى الارض رواسى ان تميد بهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ان تميد بهم كراهة ان تميد بهم أو لئلا تميد بهم فحذف لا واللام الاولى وانما جاز حذف لا لعدم الالتباس كما ترى ذلك فى قوله لئلا يعلم اهل الكتاب (المسئلة الثانية) الرواسى الجبال والراسى هو الداخل فى الارض (المسئلة الثالثة) قال ابن عباس رضى الله عنهما ان الارض بسطت على الماء فكانت تتكفأ بأهلها كما تتكفأ السفينة لانها بسطت على الماء فأرساها الله تعالى بالجبال الثقال (النوع الرابع) قوله تعالى وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف الفج الطريق الواسع فان قلت فى الفجاج معنى الوصف فمالها قدمت على السبل ولم تؤخر كما فى قوله تعالى لتسلكوا منها سبلا فجاجا قلت لم تقدم وهى صفة ولكنها جعلت حالا كقوله * لعزة موحشا طلل * قديم * والفرق من جهة المعنى ان قوله سبلا فجاجا اعلام بأنه سبحانه جعل فيها طرقا واسعة واما قوله فجاجا سبلا فهو اعلام بأنه سبحانه حين خلقها جعلها على تلك الصفة فهذه الآية بيان لما ابهم فى الآية الاولى (المسئلة الثانية) فى قوله فيها قولان (احدهما) انها عائدة الى الجبال اى وجعلنا فى الجبال التى هى رواسى فجاجا سبلا اى طرقا واسعة وهو قول مقاتل والضحاك ورواية عطاء عن ابن عباس وعن ابن عمر قال كانت الجبال منضمة فلما اغرق الله قوم نوح فرقها فجاجا وجعل فيها طرقا (الثانى) انها عائدة الى الارض اى وجعلنا فى الارض فجاجا وهى المسالك والطرق وهو قول الكلبى (المسئلة الثالثة) قوله لعلهم يهتدون معناه لكى يهتدوا اذ الشك لايجوز على الله تعالى (المسئلة الرابعة) فى يهتدون قولان (الاول) ليهتدوا الى البلاد (والثانى) ليهتدوا الى وحدانية الله تعالى بالاستدلال قالت المعتزلة وهذا التأويل

وقوله تعالى (لايسبقونه بالقول) صفة اخرى لعباد منبئة عن كمال طاعتهم وانقيادهم لامره تعالى اى لايقولون شيئا حتى يقوله تعالى او يأمرهم به واصله لايسبق قولهم قوله تعالى فاسند السبق اليهم منسوبا اليه تعالى تنزيلا لسبق قولهم قوله تعالى منزلة سبقهم اياه تعالى لمزيد تنزيههم عن ذلك وللتنبيه على غاية استهجان السبق المعرض به للذين يقولون مالايقوله الله تعالى وجعل القول محلا للسبق وادائه ثم انيب اللام عن الاضافة للاختصار والتجافى عن التكرار وقرئ لايسبقونه بضم الباء من سابقته فسبقته اسبقه وفيه مزيد استهجان للسبق واشعار بأن من سبق قوله قوله تعالى فقد تصدى لمغالبته تعالى فى السبق فسبقه فغلبه والعياذ بالله تعالى وزيادة تنزيه لهم عما نفى عنهم ببيان ان ذلك عندهم بمنزلة الغلبة بعد المغالبة فأنى يتوهم صدوره عنهم (وهم بأمره يعملون) بيان لتبعيتهم له تعالى فى الاعمال اثر بيان تبعيتهم له تعالى فى الاقوال فان نفى سبقهم له تعالى بالقول عبارة عن تبعيتهم له تعالى فيه كأنه قيل هم بأمره يقولون وبأمره يعملون لابغير امره اصلا فالقصر المستفاد من تقديم الجار معتبر بالنسبة الى غير امره لاالى امر غيره (يعلم مابين ايديهم وما خلفهم) استئناف وقع تعليلا لما قبله وتمهيدا لما بعده فانهم لعلمهم باحاطته تعالى بما قدموا واخروا من الاقوال والاعمال لايزالون يراقبون احوالهم فلايقدمون

(يدل)

يدل على انه تعالى اراد من جميع المكلفين الاهتداء والكلام عليه قد تقدم وفيه قول ثالث وهو ان الاهتداء الى البلاد والاهتداء الى وحدانية الله تعالى يشتركان فى مفهوم واحد وهو اصل الاهتداء فيحمل اللفظ على ذلك المشترك وحينئذ تكون الآية متناولة للامرين ولا يلزم منه كون اللفظ المشترك مستعملا فى مفهوميه معا (النوع الخامس) قوله تعالى وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) سمى السماء سقفا لانها للارض كالسقف للبيت (المسئلة الثانية) فى المحفوظ قولان (احدهما) انه محفوظ من الوقوع والسقوط اللذين يجرى مثلهما على سائر السقوف كقوله ويمسك السماء ان تقع على الارض الا باذنه وقال ومن آياته ان تقوم السماء والارض بأمره وقال تعالى ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا وقال ولا يؤده حفظهما (الثانى) محفوظا من الشياطين قال تعالى وحفظناها من كل شيطان رجيم ثم ههنا قولان (احدهما) انه محفوظ بالملائكة من الشياطين (والثانى) انه محفوظ بالنجوم من الشياطين والقول الاول اقوى لان حمل الآيات عليه مما يزيد هذه النعمة عظما لانه سبحانه كالمتكفل بحفظه وسقوطه على المكلفين بخلاف القول الثانى لانه لا يخاف على السماء من استراق سمع الجن (المسئلة الثالثة) قوله تعالى وهم عن آياتها معرضون معناه عما وضع الله تعالى فيها من الادلة والعبر فى حركاتها وكيفية حركاتها وجهات حركاتها ومطالعها ومغاربها واتصالات بعضها ببعض وانفصالاتها على الحساب القويم والترتيب العجيب الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة (المسئلة الرابعة) قرئ عن آيتها على التوحيد والمراد الجنس اى هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية كالاستضاءة بقمرها والاهتداء بكواكبها وحياة الارض بأمطارها وهم عن كونها آية بينة على وجود الخالق ووحدانيته معرضون (النوع السادس) قوله تعالى وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه سبحانه لما قال وهم عن آياتها معرضون فصل تلك الآيات ههنا لانه تعالى لو خلق السماء والارض ولم يخلق الشمس والقمر ليظهر بهما الليل والنهار ويظهر بهما من المنافع بتعاقب الحر والبرد لم تتكامل نعم الله تعالى على عباده بل انما يكون ذلك بسبب حركاتها فى افلاكها فلهذا قال كل فى فلك يسبحون وتقريره ان نقول قد ثبت بالارصاد ان للكواكب حركات مختلفة (فمنها حركة) تشملها بأسرها آخذة من المشرق الى المغرب وهى حركة الشمس اليومية ثم قال جمهور الفلاسفة واصحاب الهيئة وههنا حركة أخرى من المغرب الى المشرق قالوا وهى ظاهرة فى السبعة السيارة خفية فى الثابتة واستدلوا عليه بانا وجدنا الكواكب السيارة كلما كان منها اسرع حركة اذا قارن ما هو ابطأ حركة فانه بعد ذلك يتقدم نحو المشرق وهذا فى القمر ظاهر جدا فانه يظهر بعد الاجتماع بيوم او يومين من ناحية المغرب على بعد من الشمس ثم يزداد كل ليلة بعدا منها الى ان يقابلها على

على قول او عمل بغير امره تعالى (ولا يشفعون الا لمن ارتضى) ان يشفع له مهابة منه تعالى (وهم) مع ذلك (من خشيته) عز وجل (مشفقون) مرتعدون واصل الخشية الخوف مع التعظيم ولذلك خص بها العلماء والاشفاق الخوف مع الاعتناء فعند تعديته بمن يكون معنى الخوف فيه اظهر وعند تعديته بعلى ينعكس الامر (ومن يقل منهم) اى من الملائكة اذ الكلام فيهم وفى كونهم بمعزل مما قالوا فى حقهم (انى اله من دونه) متجاوزا اياه تعالى (فذلك) الذى فرض قوله فرض محال (نجزيه جهنم) كسائر المجرمين ولا يغنى عنهم ما ذكر من صفاتهم السنية وافعالهم المرضية وفيه من الدلالة على قوة ملكوته تعالى وعزة جبروته واستحالة كون الملائكة بحيث يتوهم فى حقهم ما توهمه اولئك الكفرة ما لا يخفى (كذلك نجزى الظالمين) مصدر تشبيهى مؤكد لمضمون ما قبله اى مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزى الذين يضعون الاشياء فى غير مواضعها ويتعدون اطوارهم والقصر المستفاد من التقديم معتبر بالنسبة الى النقصان دون الزيادة اى لا نجزاء انقص منه (اولم ير الذين كفروا) تجهيل لهم بتقصيرهم فى التدبر فى الآيات التكوينية الدالة على استقلاله تعالى بالالوهية وكون جميع ما سواه مقهورا تحت ملكوته والهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر وقرئ بغير واو والرؤية قلبية اى الم يتفكروا ولم يعلموا (ان السموات والارض كانتا) اى جماعتا السموات والارضين كما فى قوله

قريب من نصف الشهر وكل كوكب كان شرقيا منه على طريقته فى ممر البروج يزداد كل ليلة قربا منه ثم اذا ادركه ستره بطرفه الشرقى وتنكسف تلك الكواكب عنه بطرفه الغربى فعرفنا ان لهذه الكواكب السيارة حركة من المغرب الى المشرق وكذلك وجدنا للكواكب الثابتة حركة بطيئة على توالى البروج فعرفنا ان لها حركة من المغرب الى المشرق هذا ماقالوه ونحن خالفناهم فيه وقلنا ان ذلك محال لان الشمس مثلا لوكانت متحركة بذاتها من المغرب الى المشرق حركة بطيئة ولاشك انها متحركة بسبب الحركة اليومية من المغرب الى المشرق لزم كون الجرم الواحد متحركا حركتين الى جهتين مختلفتين دفعة واحدة وذلك محال لان الحركة الى الجهة تقتضى حصول المتحرك فى الجهة المنتقل اليها فلو تحرك الجسم الواحد دفعة واحدة الى جهتين لزم حصوله دفعة واحدة فى مكانين وهو محال (فان قيل) لم لايجوز ان يقال الشمس حال حركتها الى الجانب الشرقى تقطع حركتها الى الجانب الغربى وبالعكس وايضا فما ذكرتموه ينتقض بحركة الرحى الى جانب والنملة التى تكون عليها تتحرك الى خلاف ذلك الجانب (قلنا) اما الاول فلا يستقيم على اصولكم لان حركات الافلاك مصونة عن الانقطاع عندكم واما الثانى فهو مثال محتمل وماذكرناه برهان قاطع فلا يتعارضان واما الذى احتجوا به على ان للكواكب حركة من المغرب الى المشرق فهو ضعيف فانه يقال لم لايجوز ان يقال ان جميع الكواكب متحركة من المشرق الى المغرب الا ان بعضها ابطأ من البعض فيتخلف بعضها عن بعض بسبب ذلك التخفيف فيظن انه تحرك الى خلاف تلك الجهة مثلا الفلك الاعظم استدارته من اول اليوم الاول الى اليوم الثانى دورة تامة وفلك الثوابت استدارته من اول اليوم الاول الى اول اليوم الثانى دورتامة الامقدار ثانية فيظن ان فلك الثوابت تحرك من الجهة الاخرى مقدار ثانية ولايكون كذلك بل ذلك لانه تخلف بمقدار ثانية وعلى هذا التقدير فجميع الجهات شرقية واسرعها الحركة اليومية ثم يليها فى السرعة فلك الثوابت ثم يليها زحل وهكذا الى ان ينتهى الى فلك القمر فهو ابطأ الافلاك حركة وهذا الذى قلناه مع مايشهد له البرهان المذكور فهو أقرب الى ترتيب الوجود فان على هذا التقدير تكون نهاية الحركة لفلك المحيط وهو الفلك الاعظم ونهاية السكون الجرم الذى هو غاية البعد وهو الارض ثم ان كل ما كان أقرب الى الفلك المحيط كان اسرع حركة وما كان منه ابعد كان ابطأ فهذا مانقوله فى حركات الافلاك فى اطوالها (واما حركاتها فى عروضها) فظاهرة وذلك بسبب اختلاف ميولها الى الشمال والجنوب اذا ثبت هذا فنقول لولم يكن للكواكب حركة فى الميل لكان التأثير مخصوصا ببقعة واحدة فكان سائر الجوانب تخلو عن المنافع الحاصلة منه وكان الذى يقرب منه متشابه الاحوال وكانت القوة هناك لكيفية واحدة فان كانت حارة افنت الرطوبات فاحالتها كلها الى النارية وبالجملة فيكون الموضع المحاذى لممر الكواكب على كيفية وخط مالايحاذيه على كيفية أخرى وخط

تعالى ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا (رتقا) الرتق الضم والالتحام والمعنى اماعلى حذف المضاف او هو بمعنى المفعول اى كانتا ذواتى رتق او مرتوقتين وقرئ رتقا اى شيأ رتقا اى مرتوقا (ففتقناهما) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عكرمة والحسن البصرى وقتادة وسعيد بن جبير كانتا شيئا واحدا ملتزمتين ففصل الله تعالى بينهما ورفع السماء الى حيث هى واقر الارض وقال كعب خلق الله تعالى السموات والارض ملتصقتين ثم خلق ريحا فتوسطتها ففتقتها وعن الحسن خلق الله تعالى الارض فى موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليها دخان ملتزق بها ثم اصعد الدخان وخلق منه السموات وامسك الفهر فى موضعها وبسط منها الارض وذلك قوله تعالى كانتا رتقا ففتقناهما وقال مجاهد والسدى كانت السموات مرتتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع سموات وكذلك الارض كانت مرتتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع ارضين وقال ابن عباس فى رواية عطاء وعليه اكثر المفسرين ان السموات كانت رتقا مستوية صلبة لا تمطر والارض رتقا لا تنبت ففتق السماء بالمطر والارض بالنبات فيكون المراد بالسموات السماء الدنيا والجمع باعتبار الآفاق والسموات جميعا على ان لها مدخلا فى الامطار وعلم الكفرة الرتق والفتق بهذا المعنى مما لاسترة به واما بالمعانى الاول فهم وان لم يعلموهما لكنهم متمكنون من علمهما اما بطريق النظر والتفكر

المتوسط بينهما على كيفية اخرى فيكون فى موضع شتاء دائم ويكون فيه الهواء البحاجة وفى موضع آخر صيف دائم يوجب الاحتراق وفى موضع آخر ربيع او خريف لايتم فيه النضج ولو لم تكن عودات متتالية وكان الكوكب يتحرك بطيأ لكان الميل قليل المنفعة والتأثير شديد الافراط وكان يعرض قريبا مما لو لم يكن ميل ولو كانت الكواكب اسرع حركة من هذه لما كملت المنافع وما تمت واما اذا كان هناك ميل يحفظ الحركة فى جهة مدة ثم ينتقل الى جهة اخرى بمقدار الحاجة ويبقى فى كل جهة برهة تم بذلك تأثيره بحيث يبقى مصونا عن طرفى الافراط والتفريط وبالجملة فالعقول لاتقف الا على القليل من اسرار المخلوقات فسبحان الخالق المدبر بالحكمة البالغة والقدرة الغير المتناهية (المسئلة الثانية) انه لايجوز ان يقول وكل فى فلك يسبحون الا ويدخل فى الكلام مع الشمس والقمر النجوم ليثبت معنى الجمع ومعنى الكل فصارت النجوم وان لم تكن مذكورة اولا كأنها مذكورة لعود هذا الضمير اليها والله اعلم (المسئلة الثالثة) الفلك فى كلام العرب كل شئ دائر وجمعه افلاك واختلف العقلاء فيه فقال بعضهم الفلك ليس بجسم وانما هو مدار هذه النجوم وهو قول الضحاك وقال الاكثرون بل هى اجسام تدور النجوم عليها وهذا اقرب الى ظاهر القرآن ثم اختلفوا فى كيفيته فقال بعضهم الفلك موج مكفوف تجرى الشمس والقمر والنجوم فيه وقال الكلبى ماء مجموع تجرى فيه الكواكب واحتج بأن السباحة لاتكون الا فى الماء قلنا لانسلم فانه يقال فى الفرس الذى يمد يديه فى الجرى سابح وقال جمهور الفلاسفة واصحاب الهيئة انها اجرام صلبة لاثقيلة ولا خفيفة غير قابلة للخرق والالتئام والنمو والذبول فاما الكلام على الفلاسفة فهو مذكور فى الكتب اللائقة به والحق انه لاسبيل الى معرفة صفات السموات الا بالخبر (المسئلة الرابعة) اختلف الناس فى حركات الكواكب والوجوه الممكنة فيها ثلاثة فانه اما ان يكون الفلك ساكنا والكواكب تتحرك فيه كحركة السمك فى الماء الراكد واما ان يكون الفلك متحركا والكواكب تتحرك فيه ايضا اما مخالفا لجهة حركته او موافقا لجهته اما بحركة مساوية لحركة الفلك فى السرعة والبطء او مخالفة واما ان يكون الفلك متحركا والكوكب ساكنا (اما الرأى الاول) فقالت الفلاسفة انه باطل لانه يوجب خرق الافلاك وهو محال (واما الرأى الثانى) فحركة الكواكب ان فرضت مخالفة لحركة الفلك فذلك ايضا يوجب الخرق وان كانت حركتها الى جهة الفلك فان كانت مخالفة لها فى السرعة والبطء لزم الانخراق وان استويا فى الجهة والسرعة والبطء فالخرق ايضا لازم لان الكواكب تتحرك بالعرض بسبب حركة الفلك فتبقى حركته الذاتية زائدة فيلزم الخرق فلم يبق الا القسم الثالث وهو ان يكون الكواكب مغروزا فى الفلك واقفا فيه والفلك يتحرك فيتحرك الكوكب بسبب حركة الفلك • واعلم ان مدار هذا الكلام على امتناع الخرق على الافلاك وهو باطل بل الحق ان الاقسام الثلاثة ممكنة والله تعالى قادر على كل الممكنات والذى يدل عليه لفظ

فان التنقى عارض مفتقر الى مؤثر قديم واما بالاستفسار من العلماء ومطالعة الكتب (وجعلنا من الماء كل شئ حى) اى خلقنا من الماء كل حيوان كقوله تعالى والله خلق كل دابة من ماء وذلك لانه من اعظم مواده او لفرط احتياجه اليه وانتفاعه به او صيرنا كل شئ حى من الماء اى بسبب منه لابدله من ذلك وتقديم المفعول الثانى للاهتمام به لا لمجرد ان المفعولين فى الاصل مبتدأ وخبر وحق الخبر عند كونه ظرفا ان يتقدم على المبتدأ فان ذلك مصحح محض لامرجح وقرئ حيا على انه صفة كل او مفعول ثان والظرف كما فى الوجه الاول قدم على المفعول للاهتمام به والتشويق الى المؤخر (افلا يؤمنون) انكار لعدم ايمانهم بالله وحده مع ظهور ما يوجبه حتما من الآيات الآفاقية والانفسية الدالة على تفرده عز وجل بالالوهية وعلى كون ما سواه من مخلوقاته مقهورة تحت ملكوته وقدرته والفاء للعطف على مقدر يستدعيه الانكار السابق اى ايعلمون ذلك فلا يؤمنون (وجعلنا فى الارض رواسى) اى جبالا ثوابت جمع راسية من رسا الشئ اذا ثبت ورسخ ووصف جمع المذكر بجمع المؤنث فى غير العقلاء مما لاريب فى صحته كقوله تعالى اشهر معلومات واياما معدودات (ان تميد بهم) اى كراهة ان تتحرك وتضطرب بهم او لئلا تميد بهم بحذف اللام ولا لعدم الالباس (وجعلنا فيها) اى فى الارض وتكرير الفعل لاختلاف

القرآن ان تكون الافلاك واقفة والكواكب تكون جارية فيها كما تسبح السمكة فى الماء (المسئلة الخامسة) قال صاحب الكشاف كل التنوين فيه عوض عن المضاف اليه اى كلهم فى فلك يسبحون والله اعلم (المسئلة السادسة) احتج ابو على بن سينا على كون الكواكب احياء ناطقة بقوله يسبحون قال والجمع بالواو والنون لايكون الاللعقلاء وبقوله تعالى والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين والجواب انما جعل واو الضمير للعقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة قال صاحب الكشاف فان قلت الجملة مامحلها قلت النصب على الحال من الشمس والقمر اولامحل لها لاستئنافها فان قلت لكل واحد من القمرين فلك على حدة فكيف قيل جميعهم يسبحون فى فلك قلت هذا كقوله كساهم الامير حلة وقلدهم سيفا اى كل واحد منهم ❊ قوله تعالى (وماجعلنا لبشر من قبلك الخلد أفان مت فهم الخالدون كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون واذا رآك الذين كفروا ان يتخذونك الا هزوا أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون) اعلم انه سبحانه وتعالى لما استدل بالاشياء الستة التى شرحناها فى الفصل المتقدم وكانت تلك الاشياء من اصول النعم الدنيوية اتبعه بماينبه به على ان هذه الدنيا جعلها كذلك لاتبقى وتدوم اويبقى فيها من خلقت الدنياله بل خلقها سبحانه وتعالى للابتلاء والامتحان ولكى يتوصل بها الى الآخرة التى هى دار الخلود فاماقوله تعالى وماجعلنا لبشر من قبلك الخلد ففيه ثلاثة اوجه (احدها) قال مقاتل ان ناسا كانوا يقولون ان محمدا صلى الله عليه وسلم لايموت فنزلت هذه الآية (وثانيها) كانوا يقدرون انه سيموت فيشمتون بموته فنفى الله تعالى عنه الشماتة بهذا اى قضى الله تعالى ان لايخلد فى الدنيا بشرا فلا انت ولاهم الاعرضة للموت أفان مت انت أيبقى هؤلاء . وفى معناه قول القائل

فقل للشامتين بنا أفيقوا ❊ سيلقى الشامتون كمالقينا

(وثالثها) يحتمل انه لماظهر انه عليه السلام خاتم الانبياء جاز ان يقدر مقدرانه لايموت اذ لومات لتغير شرعه فنبه الله تعالى على ان حاله كحال غيره من الانبياء عليهم السلام فى الموت اما قوله تعالى كل نفس ذائقة الموت ففيه ابحاث (الاول) ان هذا العموم مخصوص فانه تعالى نفس لقوله تعلم مافى نفسى ولااعلم مافى نفسك مع ان الموت لايجوز عليه وكذا الجمادات لهانفوس وهى لاتموت والعام المخصوص حجة فيبقى معمولا به فيما عداهذه الاشياء وذلك يبطل قول الفلاسفة فى ان الارواح البشرية والعقول المفارقة والنفوس الفلكية لاتموت (والثانى) الذوق ههنا لايمكن اجراؤه على ظاهره لان الموت ليس من جنس المطعوم حتى يذاق بل الذوق ادراك خاص فيجوز جعله مجازا عن اصل الادراك واماالموت فالمراد منه ههنا مقدماته من الآلام العظيمة لان الموت قبل دخوله فى الوجود يمتنع ادراكه وحال وجوده يصير الشخص ميتا والميت لايدرك شيئا (والثالث) الاضافة فى ذائقة الموت فى تقدير الانفصال لانه لما يستقبل كقوله غير محلى الصيد وهديا

الحمولين ولتوفية مقام الامتنان حقه اوفى الرواسى لانها المحتاجة الى الطرق (فجاجا) مسالك واسعة واعاقدم على قوله تعالى (سبلا) وهو وصف ليصير حالا فيفيد انه تعالى حين خلقها خلقها كذلك اوليبدل منها سبلا فيدل ضمنا على انه تعالى خلقها ووسعها للسابلة مع مافيه من التوكيد (لعلهم يهتدون) اى الى مصالحهم ومهماتهم (وجعلنا السماء سقفا محفوظا) من الوقوع بقدرتنا القاهرة اومن الفساد والانحلال الى الوقت المعلوم بمشيئتنا اومن استراق السمع بالشهب (وهم عن آياتها) الدالة على وحدانيته تعالى وعلمه وحكمته وقدرته وارادته التى بعضها محسوس وبعضها معلوم بالبحث عنه فى الطبيعة والهيئة (معرضون) لايتدبرون فيها فيبقون على ماهم عليه من الكفر والضلال وقوله تعالى (وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر) الذين هما آيتاهما بيان لبعض تلك الآيات التى هم عنها معرضون بطريق الالتفات الموجب لتأكيد الاعتناء بفحوى الكلام اى هو الذى خلقهن وحده (كل) اى كل واحد منهما على ان التنوين عوض عن المضاف اليه (فى فلك يسبحون) اى يجرون فى سطح الفلك كالسبح فى الماء والمراد بالفلك الجنس كقولك كساهم الخليفة حلة والجملة حال من الشمس والقمر جاز انفرادهما بها لعدم اللبس والضمير لهما والجمع باعتبار المطالع وجعل الضمير واو العقلاء لان السباحة حالهم (وماجعلنا لبشر من

بالغ الكعبة اما قوله تعالى ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) الابتلاء لا يتحقق الامع التكليف فالآية دالة على حصول التكليف وتدل على انه سبحانه وتعالى لم يقتصر بالمكلف على ما امر ونهى وان كان فيه صعوبة بل ابتلاه بأمرين (احدهما) ما سماه خيرا وهو نعم الدنيا من الصحة واللذة والسرور والتمكين من المرادات (والثانى) ما سماه شرا وهو المضار الدنيوية من الفقر والآلام وسائر الشدائد النازلة بالمكلفين فبين تعالى ان العبد مع التكليف يتردد بين هاتين الحالتين لكى يشكر على المنح ويصبر فى المحن فيعظم ثوابه اذا قام بما يلزم (المسئلة الثانية) انما سمى ذلك ابتلاء وهو عالم بما سيكون من اعمال العاملين قبل وجودهم لانه فى صورة الاختبار (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف فتنة مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه (المسئلة الرابعة) احتجت التناسخية بقوله والينا ترجعون فان الرجوع الى موضع مسبوق بالكون فيه (والجواب) انه مذكور مجازا (المسئلة الخامسة) المراد من قوله والينا ترجعون انهم يرجعون الى حكمه ومحاسبته ومجازاته تبين بذلك بطلان قولهم فى نفى البعث والمعاد واستدلت التناسخية بهذه الآية وقالوا ان الرجوع الى موضع مسبوق بالكون فيه وقد كنا موجودين قبل دخولنا فى هذا العالم واستدلت المجسمة بأنا اجسام فرجوعنا الى الله تعالى يقتضى كون الله تعالى جسما والجواب عنه قد تقدم فى مواضع كثيرة اما قوله تعالى واذا رآك الذين كفروا ان يتخذونك الا هزوا قال السدى ومقاتل نزلت هذه الآية فى ابى جهل مر به النبى صلى الله عليه وسلم وكان ابو سفيان مع ابى جهل فقال ابو جهل لابى سفيان هذا نبى بنى عبد مناف فقال ابو سفيان وما تنكر ان يكون نبيا فى بنى عبد مناف فسمع النبى صلى الله عليه وسلم قولهما فقال لابى جهل ما أراك تنتهى حتى ينزل بك ما نزل بعمك الوليد بن المغيرة وأما انت يا أبا سفيان فانما قلت ما قلت حمية فنزلت هذه الآية ثم فسر الله تعالى ذلك بقوله أهذا الذى يذكر آلهتكم والذكر يكون بخير وبخلافه فاذا دلت الحال على احدهما اطلق ولم يقيد كقولك للرجل سمعت فلانا يذكرك فان كان الذاكر صديقا فهو ثناء وان كان عدوا فهو ذم ومنه قوله تعالى سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم والمعنى انه يبطل كونها معبودة ويقبح عبادتها واما قوله تعالى وهم بذكر الرحمن هم كافرون فالمعنى انهم يعيبون عليه ذكر آلهتهم التى لا تضر ولا تنفع بالسوء مع انهم بذكر الرحمن الذى هو المنعم الخالق المحيى المميت كافرون ولا فعل اقبح من ذلك فيكون الهزؤ واللعب والذم عليهم يعود من حيث لا يشعرون ويحتمل ان يراد بذكر الرحمن القرآن والكتب والمعنى فى اعادة هم ان الاولى اشارة الى القوم الذين كانوا يفعلون ذلك الفعل والثانية ابانة لاختصاصهم به وايضا فان فى اعادتها تأكيدا وتعظيما لفعلهم ۞ قوله تعالى

(خلق الانسان من عجل سأريكم آياتى فلا تستعجلون ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم

قبلك الخلد) اى فى الدنيا لكونه مخالفا للحكمة التكوينية والتشريعية (أفان مت) بمقتضى حكمتنا (فهم الخالدون) نزلت حين قالوا نتربص به ريب المنون والفاء لتعليق الشرطية بما قبلها والهمزة لانكار مضمونها بعد تقرر القاعدة الكلية النافية لذلك بالمرة والمراد بانكار خلودهم ونفيه انكار ما هو مداره وجودا وعدما من شماتتهم بموته عليه السلام فان الشماتة بما يعتريه ايضا مما لا ينبغى ان يصدر عن العاقل كأنه قيل أفان مت فهم الخالدون حتى يشمتوا بموتك وقوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت) اى ذائقة مرارة مفارقتها جسدها برهان على ما انكر من خلودهم (ونبلوكم) الخطاب اما للناس كافة بطريق التلوين او للكفرة بطريق الالتفات اى نعاملكم معاملة من يبلوكم (بالشر والخير) بالبلايا والنعم هل تصبرون وتشكرون اولا (فتنة) مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه (والينا ترجعون) لا الى غيرنا لا استقلالا ولا اشتراكا فنجازيكم حسبما يظهر منكم من الاعمال فهو على الاول وعد ووعيد وعلى الثانى وعيد محض وفيه ايماء الى ان المقصود من هذه الحياة الابتلاء والتعريض للثواب والعقاب وقرئ يرجعون بالياء على الالتفات (واذا رآك الذين كفروا) اى المشركون (ان يتخذونك الا هزوا) اى ما يتخذونك الا مهزوا به على معنى قصر معاملتهم معه عليه السلام على اتخاذهم اياه هزوا لا على معنى قصر اتخاذهم على كونه هزوا كما هو المتبادر كأنه قيل ما يفعلون

ينصرون بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن) اما قوله تعالى خلق الانسان من عجل ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فى المراد من الانسان قولان (احدهما) انه النوع (والثانى) انه شخص معين (اما القول الاول) فتقريره انهم كانوا يستعجلون عذاب الله تعالى وآياته الملجئة الى العلم والاقرار ويقولون متى هذا الوعد فأراد زجرهم عن ذلك فقدم اولا ذم الانسان على افراط العجلة ثم نهاهم وزجرهم كأنه قال لا يبعد منكم ان تستعجلوا فانكم مجبولون على ذلك وهو طبعكم وسجيتكم فان قيل مقدمة الكلام لابد وان تكون مناسبة للكلام وكون الانسان مخلوقا من العجل يناسب كونه معذورا فيه فلم رتب على هذه المقدمة قوله فلا تستعجلون قلنا لان العائق كلما كان اشد كانت القدرة على مخالفته اكمل فكأنه سبحانه نبه بهذا على ان ترك الاستعجال حالة شريفة عالية مرغوب فيها (اما القول الثانى) وهو ان المراد شخص معين فهذا فيه وجهان (احدهما) ان المراد آدم عليه السلام وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدى والكلبى ومقاتل والضحاك وروى ابن جريج وليث بن ابى سليم عن مجاهد قال خلق الله آدم عليه السلام بعد كل شئ من آخر نهار الجمعة فلما دخل الروح رأسه ولم يبلغ اسفله قال يارب استعجل خلقى قبل غروب الشمس قال ليث فذلك قوله تعالى خلق الانسان من عجل وعن السدى لما نفخ فيه الروح فدخل فى رأسه عطس فقالت له الملائكة قل الحمد لله فقال ذلك فقال الله له يرحمك ربك فلما دخل الروح فى عينيه نظر الى ثمار الجنة ولما دخل الروح فى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل ان تبلغ الروح رجليه الى ثمار الجنة وهذا هو الذى اورث اولاده العجلة (وثانيهما) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عطاء نزلت هذه الآية فى النضر بن الحرث والمراد بالانسان هو واعلم ان القول الاول اولى لان الغرض ذم القوم وذلك لا يحصل الا اذا حملنا لفظ الانسان على النوع (المسئلة الثانية) من المفسرين من اجرى هذه الآية على ظاهرها ومنهم من قلبها اما الاولون فلهم فيها اقوال (احدها) قول المحققين وهو ان قوله خلق الانسان من عجل اى خلق عجولا وذلك على المبالغة كما قيل للرجل الذكى هو نار تشتعل والعرب قد تسمى المرء بما يكثر منه فتقول ما انت الا اكل ونوم وما هو الا اقبال وادبار قال الشاعر

أما اذا ذكرت حتى اذا غفلت * فانما هى اقبال وادبار

وهذا الوجه متأكد بقوله تعالى وكان الانسان عجولا قال المبرد خلق الانسان من عجل اى من شأنه العجلة كقوله خلقكم من ضعف اى ضعفاء (وثانيها) قال ابو عبيدة العجل الطين بلغة حمير وانشدوا * والنخل ينبت بين الماء والعجل * (وثالثها) قال الاخفش من عجل اى من تعجيل من الامر وهو قوله كن (ورابعها) من عجل اى من ضعف عن الحسن اما الذين قلبوها فقالوا المعنى خلق العجل من الانسان كقوله ويوم يعرض الذين كفروا

بك الا اتخاذك هزوا وقدمر تحقيقه فى قوله تعالى ان اتبع الا مايوحى الى فى سورة الانعام (اهذا الذى يذكر آلهتكم) على ارادة القول اى ويقولون او قائلين ذلك اى يذكرهم بسوء كما فى قوله تعالى سمعنا فتى يذكرهم الخ وقوله تعالى (وهم بذكر الرحمن هم كافرون) فى حيز النصب على الحالية من ضمير القول المقدر والمعنى انهم يعيبون عليه عليه الصلاة والسلام ان يذكر آلهتكم التى لا تضر ولا تنفع بالسوء والحال انهم بذكر الرحمن المنعم عليهم بما يليق به من التوحيد او بارشاد الخلق بارسال الرسل وانزال الكتب او بالقرآن كافرون فهم احقاء بالعيب والانكار والضمير الاول مبتدا خبره كافرون وبذكر متعلق بالخبر والتقدير وهم كافرون بذكر الرحمن والضمير الثانى تأكيد لفظى للاول فوقع الفصل بين العامل ومعموله بالمؤكد وبين المؤكد والمؤكد بالمعمول (خلق الانسان من عجل) جعل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق منه تنزيلا لما طبع عليه من الاخلاق منزلة ما طبع منه من الاركان ايذانا بغاية لزومه له وعدم انفكاكه عنه ومن عجلته مبادرته الى الكفر واستعجاله بالوعيد روى انها نزلت فى النضر ابن الحرث حين استعجل العذاب بقوله اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر الآية وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان المراد بالانسان آدم عليه السلام وانه حين بلغ الروح صدره ولم يتبالغ فيه اراد ان يقوم وروى انه لما دخل

على النار اى تعرض النار عليهم والقول الاول اقرب الى الصواب وابعد الاقوال هذا القلب لانه اذا امكن حمل الكلام على معنى صحيح وهو على ترتيبه فهو اولى من ان يحمل على انه مقلوب وايضا فان قوله خلقت العجلة من الانسان فيه وجوه من المجاز فما الفائدة فى تغيير النظم الى ما يجرى مجراه فى المجاز (المسئلة الثالثة) لقائل ان يقول القوم استعجلوا الوعد على وجه التكذيب ومن هذا حاله لا يكون مستعجلا على الحقيقة قلنا استعجالهم على هذا الوجه ادخل فى الذم لانه اذا ذم المرء على استعجال الامر المعلوم فبأن يذم على استعجال ما لا يكون معلوما له كان اولى وايضا فان استعجالهم بما توعدهم من عقاب الآخرة او هلاك الدنيا يتضمن استعجال الموت وهم عالمون بذلك فكانوا مستعجلين فى الحقيقة اما قوله تعالى سأريكم آياتى فلا تستعجلون فقد اختلفوا فى المراد بالآيات على اقوال (احدها) انها هى الهلاك المعجل فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ولذلك قال فلا تستعجلون اى انها ستأتى لا محالة فى وقتها (وثانيها) انها ادلة التوحيد وصدق الرسول (وثالثها) انها آثار القرون الماضية بالشام واليمن والاول اقرب الى النظم اما قوله تعالى ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين فاعلم ان هذا هو الاستعجال المذموم المذكور على سبيل الاستهزاء وهو كقوله ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب فبين تعالى انهم يقولون ذلك لجهلهم وغفلتهم ثم انه سبحانه ذكر فى رفع هذا الحزن عن قلب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وجهين (الاول) بأن بين ما لصاحب هذا الاستهزاء من العقاب الشديد فقال لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون قال صاحب الكشاف جواب لو محذوف وحين مفعول به ليعلم اى لو يعلمون الوقت الذى يسألون عنه بقولهم متى هذا الوعد وهو وقت صعب شديد تحيط بهم فيه النار من قدام ومن خلف فلا يقدرون على دفعها عن انفسهم ولا يجدون ايضا ناصرا ينصرهم لقوله تعالى فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ولكن جهلهم به هو الذى هونه عليهم وانما حسن حذف الجواب لان ما تقدم يدل عليه وهذا أبلغ ومثله ولو يرى الذين ظلموا ولو ترى اذ وقفوا الذين كفروا ولو ان قرآنا سيرت به الجبال وانما خص الوجوه والظهور لان مس العذاب لهما اعظم موقعا ولكثرة ما يستعمل ذكرهما فى دفع المضرة عن النفس ثم انه تعالى لما بين شدة هذا العذاب بين ان وقت مجيئه غير معلوم لهم بل تأتيهم الساعة بغتة وهم لها غير محتسبين ولا لامرها مستعدين فتبهتهم اى تدهشهم حائرين واقفين لا يستطيعون حيلة فى ردها ولا هما يأتيهم منها مصرفا ولا هم ينظرون اى لا يمهلون لتوبة ولا معذرة واعلم ان الله تعالى انما لم يعلم المكلفين وقت الموت والقيامة لما فيه من المصلحة لان المرء مع كتمان ذلك اشد حذرا واقرب الى التلافى ثم انه سبحانه ذكر الوجه الثانى فى دفع الحزن عن قلب رسوله فقال ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم

الروح فى عينيه الى ثمار الجنة ولما دخل جوفه اشتهى الطعام وقيل خلقه الله تعالى فى آخر النهار يوم الجمعة قبل غروب الشمس فأسرع فى خلقه قبل غيبتها فالمعنى خلق الانسان خلقا ناشئا من عجل فذكره لبيان انه من دواعى عجلته فى الامور والاظهر ان المراد به الجنس وان كان خلقه عليه السلام ساريا الى اولاده وقيل العجل الطين بلغة حمير ولا تقريب له ههنا وقوله تعالى (سأريكم آياتى) تلوين للخطاب وصرف له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المستعجلين بطريق التهديد والوعيد اى سأريكم نقماتى فى الآخرة كعذاب النار وغيره (فلا تستعجلون) بالاتيان بها والنهى عما جبلت عليه نفوسهم ليقعدوها عن مرادها (ويقولون متى هذا الوعد) اى وقت مجئ الساعة التى كانوا يوعدون وانما كانوا يقولونه استعجالا لمجيئه بطريق الاستهزاء والانكار كما يرشد اليه الجواب لا طلبا لتعيين وقته بطريق الالزام كما فى سورة الملك (ان كنتم صادقين) اى فى وعدكم بأنه يأتينا والخطاب للنبى عليه الصلاة والسلام والمؤمنين الذين يتلون الآيات الكريمة المنبئة عن مجئ الساعة وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه حسبما حذف فى مثل قوله تعالى فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين فان قولهم متى هذا الوعد استبطاء منهم للموعود وطلب لاتيانه بطريق العجلة فان ذلك فى قوة الامر بالاتيان عجلة كأنه قيل فليأتنا بسرعة ان كنتم صادقين

ما كانوا به يستهزؤن والمعنى ولقد استهزئ برسل من قبلك يا محمد كما استهزأ بك قومك فحاق اى نزل واحاط بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن اى عقوبة استهزائهم وحاق وحق بمعنى كزال وزل وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم والمعنى فكذلك يحيق بهؤلاء وبال استهزائهم ❊ قوله تعالى (قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون ام لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون انا نأتى الارض ننقصها من اطرافها أفهم الغالبون) اعلم انه تعالى لما بين ان الكفار فى الآخرة لا يكفون عن وجوههم النار بسائر ما وصفهم به اتبعه بأنهم فى الدنيا ايضا لولا ان الله تعالى يحرسهم ويحفظهم لما بقوا فى السلامة فقال لرسوله قل لهؤلاء الكفار الذين يستهزؤن ويغترون بما هم عليه من يكلؤكم بالليل والنهار وهذا كقول الرجل لمن حصل فى قبضته ولا مخلص له منه الى اين مفرك منى هل لك محيص عنى والكالئ الحافظ واما قوله من الرحمن ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فى معناه وجوه (احدها) من يكلؤكم من الرحمن اى مما يقدر على انزاله بكم من عذاب تستحقونه (وثانيها) من بأس الله فى الآخرة (وثالثها) من القتل والسبى وسائر ما أباحه الله لكفرهم فبين سبحانه انه لا حافظ لهم ولا دافع عن هذه الامور لو انزلها بهم ولولا تفضله بحفظهم لما عاشوا ولما تمتعوا بالدنيا (المسئلة الثانية) انما خص ههنا اسم الرحمن بالذكر تلقينا للجواب حتى يقول العاقل انت الكالئ يا الهنا لكل الخلائق برحمتك كما فى قوله ما غرك بربك الكريم انما خص اسم الكريم بالذكر تلقينا للجواب (المسئلة الثالثة) انما ذكر الليل والنهار لان لكل واحد من الوقتين آفات تختص به والمعنى من يحفظكم بالليل اذا نمتم وبالنهار اذا تصرفتم فى معايشكم اما قوله بل هم عن ذكر ربهم معرضون فالمعنى انه تعالى مع انعامه عليهم ليلا ونهارا بالحفظ والحراسة فهم عن ذكر ربهم الذى هو الدلائل العقلية والنقلية ولطائف القرآن معرضون فلا يتأملون فى شئ منها ليعرفوا انه لا كالئ لهم سواه ويتركوا عبادة الاصنام التى لا حظ لها فى حفظهم ولا فى الانعام عليهم اما قوله تعالى ام لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون فاعلم ان الميم صلة يعنى ألهم آلهة تكلؤهم من دوننا والتقدير ألهم آلهة من دوننا تمنعهم وتم الكلام ثم وصف آلهتهم بالضعف فقال لا يستطيعون نصر انفسهم وهذا خبر مبتدأ محذوف اى فهذه الآلهة لا تستطيع حماية انفسها عن الآفات وحماية النفس اولى من حماية الغير فاذا لم تقدر على حماية نفسها فكيف تقدر على حماية غيرها وفى قوله ولا هم منا يصحبون قولان (الاول) قال المازنى اصحبت الرجل اذا منعته فقوله ولا هم منا يصحبون من ذلك لا من الصحبة (والثانى) ان الصحبة ههنا بمعنى النصرة والمعونة وكلاهما سواء فى المعنى يقال صحبك الله ونصرك الله ويقال للمسافر فى صحبة الله وفى حفظ الله فالمعنى ولا هم منا فى نصرة ولا اعانة والحاصل ان من لا يكون

(قادرا)

(لو يعلم الذين كفروا) استئناف مسوق لبيان شدة هول ما يستعجلونه وفظاعة ما فيه من العذاب وانهم انما يستعجلونه لجهلهم بشأنه وايثار صيغة المضارع فى الشرط وان كان المعنى على المضى لافادة استمرار عدم العلم فان المضارع المنفى الواقع موقع الماضى ليس بنص فى افادة انتفاء استمرار الفعل بل يفيد استمرار انتفائه ايضا بحسب المقام كما فى قولك لو تحسن الى لشكرتك فان المعنى ان انتفاء الشكر لاستمرار انتفاء الاحسان لا لانتفاء استمرار الاحسان ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما فى حيز الصلة على علة استعجالهم وقوله تعالى (حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم) مفعول يعلم وهو عبارة عن الوقت الموعود الذى كانوا يستعجلونه واضافته الى الجملة الجارية مجرى الصفة التى حقها ان تكون معلومة الانتساب الى الموصوف عند المخاطب ايضا مع انكار الكفرة لذلك للايذان بانه من الظهور بحيث لا حاجة له الى الاخبار به وانما حقه الانتظام فى سلك المسلمات المفروغ عنها وجواب لو محذوف اى لو لم يستمر عدم علمهم بالوقت الذى يستعجلونه بقولهم متى هذا الوعد من الحين الذى تحيط بهم النار فيه من كل جانب وتخصيص الوجوه والظهور بالذكر بمعنى القدام والخلف لكونهما اشهر الجوانب واستلزام الاحاطة بهما الاحاطة بالكل بحيث لا يقدرون على دفعها

قادرا على دفع الآفات ولا يكون مصحوبا من الله بالاعانة كيف يقدر على شئ ثم بين سبحانه تفضله عليهم مع كل ذلك بقوله متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر يعني ماحملهم على الاعراض الا الاغترار بطول المهلة يعني طالت اعمارهم في الغفلة فنسوا عهدنا وجهلوا موقع نعمتنا واغتروا بذلك اما قوله تعالى افلا يرون انا نأتي الارض ننقصها فالمعنى افلا يرى هؤلاء المشركون بالله المستعجلون بالعذاب آثار قدرتنا في اتيان الارض من جوانبها نأخذ الواحد بعد الواحد ونفتح البلاد والقرى مما حول مكة ونزيدها في ملك محمد صلى الله عليه وسلم ونميت رؤساء المشركين الممتعين بالدنيا وننقص من الشرك باهلاك اهله أما كان لهم في ذلك عبرة فيؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ويعلموا انهم لايقدرون على الامتناع من امر الله وارادته فيهم ولا يقدرون على مغالبته ثم قال أفهم الغالبون اى فهؤلاء هم الغالبون ام نحن وهو استفهام بمعنى التقرير والتقريع والمعنى بل نحن الغالبون وهم المغلوبون وقد مضى الكلام في هذه الآية في سورة الرعد وفي تفسير النقصان وجوه (احدها) قال ابن عباس ومقاتل والكلبي رضي الله عنهم ننقصها بفتح البلدان (وثانيها) قال ابن عباس في رواية اخرى يريد نقصان اهلها وبركتها (وثالثها) قال عكرمة تخريب القرى عند موت اهلها (ورابعها) بموت العلماء وهذه الرواية ان صحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يعدل عنها والا فالاظهر من الاقاويل ما يتعلق بالغلبة فلذلك قال أفهم الغالبون والذي يليق بذلك انه ينقصها عنهم ويزيدها في بلاد الاسلام قال القفال نزلت هذه الآية في كفار مكة فكيف يدخل فيها العلماء والفقهاء فبين تعالى ان كل ذلك من العبر التي لو استعملوا عقلهم فيها لاعرضوا عن جهلهم * قوله تعالى (قل انما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء اذا ما ينذرون ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن ياويلنا انا كنا ظالمين ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) اعلم انه سبحانه لما كرر في القرآن الادلة وبالغ في التنبيه عليها على ما تقدم أتبعه بقوله قل انما أنذركم بالوحي اى بالقرآن الذي هو كلام ربكم فلا تظنوا أن ذلك من قبلي بل الله آتيكم به وأمرني بانذاركم فاذا تمت عما الزمني ربي فلم يقع منكم القبول والاجابة فالوبال عليكم يعود ومثلهم من حيث لم ينتفعوا بما سمعوا من انذاره مع كثرته وتواليه بالصم الذين لا يسمعون اصلا اذ الغرض بالانذار ليس السماع بل التمسك به في اقدام على واجب وتحرز عن محرم ومعرفة بالحق فاذا لم يحصل هذا الغرض صار كأنه لم يسمع قال صاحب الكشاف قرئ ولا تسمع الصم الدعاء بالتاء والياء اى لا تسمع أنت او لا يسمع رسول الله او لا يسمع الصم من أسمع فان قلت الصم لا تسمع دعاء البشر كما لا يسمعون دعاء المنذر فكيف قال اذا ما ينذرون قلت اللام في الصم اشارة الى هؤلاء المنذرين كائنة للعهد لا للجنس والاصل ولا يسمعون الدعاء اذا ما ينذرون فوضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامهم وسدهم

بانفسهم من جانب من جوانبهم (ولاهم ينصرون) من جهة الغير في دفعها الخ لما فعلوا ما فعلوا من الاستعجال ويجوز ان يكون يعلم متروك المفعول منزلا منزلة اللازم اى لو كان لهم علم لما فعلوه وقوله تعالى حين الخ استئناف مقرر لجهلهم ومبين لاستمراره الى ذلك الوقت كأنه قيل حين يرون مايرون يعلمون حقيقة الحال (بل تأتيهم) عطف على لا يكفون اى لا يكفونها بل تأتيهم اى العدة او النار او الساعة (بغتة فتبهتهم) اى تغلبهم او تحيرهم وقرئ الفعلان بالتذكير على ان الضمير للوعد او الحين وكذا الهاء في قوله تعالى (فلا يستطيعون ردها) بتأويل الوعد بالنار او العدة والحين بالساعة ويجوز عوده الى النار وقيل الى البغتة اى لا يستطيعون ردها عنهم بالكلية (ولاهم ينظرون) اى يمهلون ليستريحوا طرفة عين وفيه تذكير لامهالهم في الدنيا (ولقد استهزئ برسل من قبلك) تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن استهزائهم به عليه السلام في ضمن الاستعجال وعدة ضمنية بانه يصيبهم مثل ما اصاب المستهزئين بالرسل السالفة عليهم الصلاة والسلام وتصديرها بالقسم لزيادة تحقيق مضمونها وتنوين الرسل للتفخيم والتكثير ومن متعلقة بمحذوف هو صفة له اى وبالله لقد استهزئ برسل اولى شأن خطير وذوى عدد كثير كائنين من زمان قبل زمانك على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه (فحاق) اى احاط عقيب ذلك او نزل او حل او نحو ذلك

اسماعهم اذا انذروا اى هم على هذه الصفة من الجراءة والجسارة على التصام عن آيات
الانذار ثم بين تعالى ان حالهم سيتغير الى ان يصيروا بحيث اذا شاهدوا اليسير مما انذروا به
فعنده يسمعون ويعتذرون ويعترفون حين لا ينتفعون وهذا هو المراد بقوله ولئن مستهم
نفحة من عذاب ربك ليقولن ياويلنا انا كنا ظالمين واصل النفح من الريح اللينة والمعنى
ولئن مسهم قليل من عذاب الله كالنفحة من الشئ دون جمعه لتنادوا بالويل واعترفوا
على انفسهم بالظلم قال صاحب الكشاف فى المس والنفحة ثلاث مبالغات لفظ المس
وما فى النفح من معنى القلة والنزارة يقال نفحته الدابة وهو ريح يسير ونفحه بعطية
رضخه ولفظ المرة ثم بين سبحانه وتعالى ان جميع ماينزل بهم فى الآخرة لا يكون الا عدلا
فهم وان ظلموا انفسهم فى الدنيا فلن يظلموا فى الآخرة وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى
ونضع الموازين القسط وصفها الله تعالى بذلك لان الميزان قد يكون مستقيما وقد يكون
بخلافه فبين ان تلك الموازين تجرى على حد العدل والقسط واكد ذلك بقوله فلا تظلم
نفس شيئا ههنا مسائل (المسئلة الاولى) معنى وضعها احضارها قال الفراء القسط صفة
الموازين وان كان موحدا وهو كقولك للقوم انتم عدل وقال الزجاج ونضع الموازين
ذوات القسط وقوله ليوم القيامة قال الفراء فى يوم القيامة وقيل لاهل يوم القيامة
(المسئلة الثانية) فى وضع الموازين قولان (احدهما) قال مجاهد هذا مثل والمراد
بالموازين العدل ويروى مثله عن قتادة والضحاك والمعنى بالوزن القسط بينهم فى الاعمال
فن احاطت حسناته بسيئاته ثقلت موازينه يعنى ان حسناته تذهب بسيئاته ومن احاطت
سيئاته بحسناته فقد خفت موازينه اى ان سيئاته تذهب بحسناته حكاه ابن جرير هكذا
عن ابن عباس رضى الله عنهما (الثانى) وهو قول أئمة السلف انه سبحانه يضع
الموازين الحقيقية فتوزن بها الاعمال وعن الحسن هو ميزان له كفتان ولسان وهو بيد
جبريل عليه السلام ويروى ان داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان فلما رآه غشى
عليه فلما أفاق قال يا الهى من الذى يقدر أن يملأ كفته حسنات فقال ياداود انى اذا
رضيت عن عبدى ملأتها بتمرة ثم على هذا القول فى كيفية وزن الاعمال طريقان
(احدهما) أن توزن صحائف الاعمال (والثانى) يجعل فى كفة الحسنات جواهر بيض
مشرقة وفى كفة السيئات جواهر سود مظلمة فان قيل اهل القيامة اما ان يكونوا عالمين
بكونه سبحانه وتعالى عادلا غير ظالم او لا يعلمون ذلك فان علموا ذلك كان مجرد حكمه كافيا
فى معرفة ان الغالب هو الحسنات او السيئات فلا يكون فى وضع الميزان فائدة البتة وان
لم يعلموا لم تحصل الفائدة فى وزن الصحائف لاحتمال انه سبحانه جعل احدى الصحيفتين اثقل
او أخف ظلما فثبت ان وضع الميزان على كلا التقديرين خال عن الفائدة وجوابه على
قولنا قوله تعالى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون وايضا ففيه ظهور حال الولى من العدو
فى مجمع الخلائق فيكون لاحد القبيلين فى ذلك أعظم السرور وللآخر أعظم الغم

(ويكون)

فان معناه يدور على الشمول
واللزوم ولا يكاد يستعمل الا فى
الشر والحيق ما يشتمل على الانسان
من مكروه فعله وقوله تعالى
(بالذين سخروا منهم) اى من
اولئك الرسل عليهم السلام
متعلق بحاق وتقديمه على فاعله
الذى هو قوله تعالى (ما كانوا به
يستهزؤن) للمسارعة الى بيان
لحوق الشر بهم وما اما موصولة
مفيدة للتهويل والضمير المجرور
عائد اليها والجار متعلق بالفعل
وتقديمه عليه لرعاية الفواصل
اى فاحاط بهم الذى كانوا
يستهزؤن به حيث اهلكوا لاجله
واما مصدرية فالضمير المجرور
راجع حينئذ الى جنس الرسول
المدلول عليه بالجمع كما قالوا ولعل
ايثاره على الجمع للتنبيه على انه
يحيق بهم جزاء استهزائهم بكل
واحد واحد منهم عليهم السلام
لا جزاء استهزائهم بكلهم من
حيث هو كل فقط اى فنزل بهم
جزاء استهزائهم على وضع السبب
موضع المسبب ايذانا بكمال
الملابسة بينهما او عين استهزائهم
ان اريد بذلك العذاب الاخروى
بناء على تجسم الاعمال فان الاعمال
الظاهرة فى هذه النشأة بصور
عرضية تبرز فى النشأة الآخرة
بصور جوهرية مناسبة لها فى
الحسن والقبح وعلى ذلك بنى الوزن
وقد مر تفصيله فى سورة
الاعراف وفى قوله تعالى انما بغيكم
على انفسكم الآية الى آخرها
قل خطاب لرسول الله صلى الله
عليه وسلم اثر تسليته بما ذكر من
مصير امرهم الى الهلاك وامر له
عليه السلام بأن يقول لاولئك

ويكون ذلك بمنزلة نشر الصحف وغيره اذا ثبت هذا فنقول الدليل على وجود الموازين الحقيقية ان حمل هذا اللفظ على مجرد العدل مجاز وصرف اللفظ عن الحقيقة الى المجاز من غير ضرورة غير جائز لاسيما وقد جاءت الاحاديث الكثيرة بالاسانيد الصحيحة فى هذا الباب (المسئلة الثالثة) قال قوم ان هذه الآية يناقضها قوله تعالى فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا والجواب انه لايكرمهم ولايعظمهم (المسئلة الرابعة) انما جمع الموازين لكثرة من توزن اعمالهم وهو جمع تفخيم ويجوز ان يرجع الى الموزونات اما قوله تعالى وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها فالمعنى انه لاينقص من احسان محسن ولا يزاد فى اساءة مسئ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ مثقال حبة على كان التامة كقوله تعالى وان كان ذو عسرة وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما آتينا بها وهى مفاعلة من الاتيان بمعنى المجازاة والمكافأة لانهم اتوه بالاعمال واتاهم بالجزاء وقرأ حميد أثبنا بها من الثواب وفى حرف ابى جئنا بها (المسئلة الثانية) لم انث ضمير المثقال قلنا لاضافته الى الحبة كقولهم ذهبت بعض اصابعه (المسئلة الثالثة) زعم الجبائى ان من استحق مائة جزء من العقاب فأتى بطاعة يستحق بها خمسين جزأ من الثواب فهذا الاقل ينحبط بالاكثر ويبقى الاكثر كما كان واعلم ان هذه الآية تبطل قوله لان الله تعالى تمدح بان اليسير من الطاعة لايسقط ولو كان الامر كما قال الجبائى لسقطت الطاعة من غير فائدة (المسئلة الرابعة) قالت المعتزلة قوله فلا تظلم نفس شيئا فيه دلالة على ان مثل ذلك لو ابتدأ الله تعالى لكان قد ظلم فدل هذا الوجه على انه تعالى لايعذب من لايستحق ولا يفعل المضار فى الدنيا الا لمنافع والمصالح (والجواب) الظلم هو التصرف فى ملك الغير وذلك فى حق الله تعالى محال لانه المالك المطلق ثم الذى يدل على استحالة الظلم عليه عقلا ان الظلم عند الخصم مستلزم للجهل او الحاجة المحالين على الله تعالى ومستلزم المحال محال فالظلم على الله تعالى محال وايضا فان الظالم سفيه خارج عن الالهية فلو صح منه الظلم لصح خروجه عن الالهية فحينئذ يكون كونه الها من الجائزات لامن الواجبات وذلك يقدح فى الهيته (المسئلة الخامسة) ان قيل الحبة اعظم من الخردلة فكيف قال حبة من خردل قلنا الوجه فيه ان تفرض الخردلة كالدينار ثم تعتبر الحبة من ذلك الدينار والغرض المبالغة فى ان شيئا من الاعمال صغيرا كان او كبيرا غير ضائع عند الله تعالى اما قوله تعالى وكفى بنا حاسبين فالغرض منه التحذير فان المحاسب اذا كان فى العلم بحيث لايمكن ان يشتبه عليه شئ وفى القدرة بحيث لايعجز عن شئ حقيق بالعاقل ان يكون فى اشد الخوف منه ويروى عن الشبلى رحمه الله تعالى انه رؤى فى المنام فقيل له مافعل الله بك فقال

حاسبونا فدققوا * ثم منوا فأعتقوا

قوله تعالى (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرى للمتقين الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون وهذا ذكر مبارك انزلناه افأنتم له منكرون) اعلم انه سبحانه لما تكلم فى دلائل التوحيد

المستهزئين بطريق التقريع والتبكيت (من يكلؤكم) اى يحفظكم (بالليل والنهار من الرحمن) اى من بأسه الذى تستحقون نزوله ليلا ونهارا وتقديم الليل لما ان الدواهى أكثر فيه وقوعا واشد وقعا وفى التعرض لعنوان الرحمانية ايذان بان كالئهم ليس الارحمته العامة وبعد ما امر عليه السلام بما ذكر من السؤال على الوجه المذكور حسبما تقتضيه حالهم لانهم بحيث لولا ان الله تعالى يحفظهم فى الملوين لحل بهم فنون الآفات فهم احقاء بان يكلفوا الاعتراف بذلك فيرجعوا عما هم عليه من الاشراك اضرب عن ذلك بقوله تعالى (بل هم عن ذكر ربهم معرضون) ببيان ان لهم حالا اخرى مقتضية لصرف الخطاب عنهم هى انهم لايخطرون ذكره تعالى ببالهم فضلا ان يخافوا بأسه ويعدوا ما كانوا عليه من الامن والدعة حفظا وكلاءة حتى يسألوا عن الكالئ على طريقة قول من قال

عوجوا لعيو النعمى دمنة الدار
ماذا تحيون من نؤى واحجار

وفى تعليق الاعراض بذكره تعالى وايراد اسم الرب المضاف الى ضميرهم للتنبيه على كونهم تحت ملكوته وتدبيره وتربيته تعالى من الدلالة على كونهم فى الغاية القاصية من الضلالة والغى مالايخفى وكلمة ام فى قوله تعالى (ام لهم آلهة تمنعهم من دوننا) منقطعة وما فيها من معنى بل للاضراب والانتقال عما قبلها من بيان ان جهلهم بحفظه تعالى اياهم لعدم خوفهم الناشئ عن اعراضهم عن ذكر ربهم بالكلية

والنبوة والمعادشرع فى قصص الانبياء عليهم السلام تسلية للرسول عليه السلام فيما ناله من قومه وتقوية لقلبه على اداء الرسالة والصبر على كل عارض دونها وذكرههنا منها قصصا (القصة الاولى) قصة موسى عليه السلام ووجه الاتصال انه تعالى لما امر رسوله صلى الله عليه وسلم ان يقول انما انذركم بالوحى اتبعه بان هذه عادة الله تعالى فى الانبياء قبله فقال ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرى للمتقين واختلفوا فى المراد بالفرقان على اقوال (احدها) انه هو التوراة فكان فرقانا اذ كان يفرق به بين الحق والباطل وكان ضياء اذ كان لغاية وضوحه يتوصل به الى طرق الهدى وسبل النجاة فى معرفة الله تعالى ومعرفة الشرائع وكان ذكرى اى موعظة اوذكر مايحتاجون اليه فى دينهم ومصالحهم اوالشرف امالوا وفى قوله وضياء فروى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قرأ ضياء بغيرواو وهو حال من الفرقان واما القراءة المشهورة فالمعنى آتيناهم الفرقان وهو التوراة وآتينا به ضياء وذكرى للمتقين والمعنى انه فى نفسه ضياء وذكرى اوآتيناهما بمافيه من الشرائع والمواعظ ضياء وذكرى (القول الثانى) ان المراد من الفرقان ليس التوراة ثم فيه وجوه (احدها) عن ابن عباس رضى الله عنهما الفرقان هو النصر الذى اوتى موسى عليه السلام كقوله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يعنى يوم بدر حين فرق بين الحق وغيره من الاديان الباطلة (وثانيها) هو البرهان الذى فرق به دين الحق عن الاديان الباطلة عن ابن زيد (وثالثها) فلق البحر عن الضحاك (ورابعها) الخروج عن الشبهات قال محمد بن كعب واعلم انه تعالى انما خصص الذكرى بالمتقين لما فى قوله هدى للمتقين اما قوله تعالى الذين يخشون ربهم بالغيب فقال صاحب الكشاف محل الذين جر على الوصفية اونصب على المدح اورفع عليه وفى معنى الغيب وجوه (احدها) يخشون عذاب ربهم فيأتمرون بأوامره وينتهون عن نواهيه وايمانهم بالله غيبى استدلالى فالعباد يعملون لله فى الغيب والله لايغيب عنه شئ عن ابن عباس رضى الله عنهما (وثانيها) يخشون ربهم وهم غائبون عن الآخرة واحكامها (وثالثها) يخشون ربهم فى الخلوات اذا غابوا عن الناس وهذا هو الاقرب والمعنى ان خشيتهم من عقاب الله لازم لقلوبهم الا ان ذلك ممايظهرونه فى الملأ دون الخلاء وهم من عذاب الساعة وسائر مايجرى فيها من الحساب والسؤال مشفقون فيعدلون بسبب ذلك الاشفاق عن معصية الله تعالى ثم قال وكما انزلت عليهم الفرقان فكذلك هذا القرآن المنزل عليك وهو معنى قوله وهذا ذكر مبارك بركته كثرة منافعه وغزارة علومه وقوله أفانتم له منكرون فالمعنى انه لا انكار فى انزاله وفى عجائب مافيه فقد آتينا موسى وهرون التوراة ثم هذا القرآن معجز لاشتماله على النظم العجيب والبلاغة البديعة واشتماله على الادلة العقلية وبيان الشرائع فمثل هذا الكتاب مع كثرة منافعه كيف يمكنكم انكاره

* القصة الثانية لابراهيم عليه السلام * قوله تعالى (ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل

(وكنا)

الى توبيخهم باعتمادهم على آلهتهم واسنادهم الحفظ اليها والهمزة لانكار ان يكون لهم آلهة تقدر على ذلك والمعنى بل ألهم آلهة من العذاب تتجاوز منعنا وحفظنا اومن عذاب كائن من عندنا فهم معولون عليها واثقون بحفظها وفى توجيه الانكار والنفى الى وجود الآلهة الموصوفة بما ذكر من المنع لا الى نفس الصفة بأن يقال ام تمنعهم آلهتهم الخ من الدلالة على سقوطها عن مرتبة الوجود فضلا عن رتبة المنع مالايخفى وقوله عزوعلا (لا يستطيعون نصر انفسهم ولاهم منا يصحبون) استئناف مقرر لما قبله من الانكار وموضح لبطلان اعتقادهم اى هم لايستطيعون ان ينصروا أنفسهم ولايصحبون بالنصر من جهتنا فكيف يتوهم ان ينصروا غيرهم وقوله تعالى (بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر) اضراب عما توهموا ببيان ان الداعى الى حفظهم تمتيعنا اياهم بما قدر لهم من الاعمار اوعن الدلالة على بطلانه ببيان ما أوهمهم ذلك وهو انه تعالى متعهم بالحياة الدنيا وامهلهم حتى طالت اعمارهم فحسبوا ان لايزالوا كذلك وانه بسبب ماهم عليه ولذلك عقب بما يدل على انه طمع فارغ وامل كاذب حيث قيل (فلايرون) اى الاينظرون فلايرون (انا نأتى الارض) اى ارض الكفرة (ننقصها من اطرافها) فكيف يتوهمون انهم ناجون من بأسنا وهو تمثيل وتصوير لما يخربه الله عزوجل من ديارهم على ايدى المسلمين

وكنا به عالمين اذ قال لأبيه وقومه ماهذه التماثيل التي انتم لها عاكفون قالوا وجدنا اباءنا لها عابدين قال لقد كنتم انتم وآباؤكم في ضلال مبين قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين)

اعلم ان قوله تعالى ولقد آتينا ابراهيم رشده فيه مسائل (المسئلة الاولى) في الرشد قولان (الاول) انه النبوة واحتجوا عليه بقوله وكنا به عالمين قالوا لانه تعالى انما يخص بالنبوة من يعلم من حاله انه في المستقبل يقوم بحقها ويجتنب مالايليق بها ويحترز عما ينفر قومه من القبول (والثاني) انه الاهتداء لوجوه الصلاح في الدين والدنيا قال تعالى فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم اموالهم وفيه قول ثالث وهو ان تدخل النبوة والاهتداء تحت الرشد اذ لايجوز ان يبعث نبي الا وقد دله الله تعالى على ذاته وصفاته ودله ايضا على مصالح نفسه ومصالح قومه وكل ذلك من الرشد (المسئلة الثانية) احتج اصحابنا في ان الايمان مخلوق لله تعالى بهذه الآية فانه لو كان الرشد هو التوفيق والبيان فقد فعل الله تعالى ذلك بالكفار فيجب ان يكون قد آتاهم رشدهم أجاب الكعبي بأن هذا يقال فيمن قبل لافيمن رد وذلك كمن اعطى المال لولدين فقبله احدهما وثمره ورد الآخر او أخذه ثم ضيعه فيقال اغنى فلان ابنه فيمن أثمر المال ولايقال مثله فيمن ضيع (والجواب عنه) هذا الجواب لايتم الا اذا جعلنا قبوله جزأ من مسمى الرشد وذلك باطل لان المسمى اذا كان مركبا من جزأين ولايكون احدهما مقدور الفاعل لم يجز اضافة ذلك المسمى الى ذلك الفاعل فكان يلزم ان لايجوز اضافة الرشد الى الله تعالى بالمفعولية لكن النص وهو قوله ولقد آتينا ابراهيم رشده صريح في ان ذلك الرشد انما حصل من الله تعالى فبطل ماقالوه (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف قرئ رشده كالعدم والعدم ومعنى اضافته اليه انه رشد مثله وانه رشد له شأن اما قوله تعالى من قبل ففيه وجوه (احدها) آتينا ابراهيم نبوته واهتداءه من قبل موسى عليه السلام عن ابن عباس وابن جرير (وثانيها) في صغره قبل بلوغه حين كان في السرب وظهرت له الكواكب فاستدل بها وهذا على قول من حمل الرشد على الاهتداء والا لزمه ان يحكم بنبوته عليه السلام قبل البلوغ عن مقاتل (وثالثها) يعني حين كان في صلب آدم عليه السلام حين أخذ الله ميثاق النبيين عن ابن عباس رضي الله عنهما في رواية الضحاك اما قوله تعالى وكنا به عالمين فالمراد انه سبحانه علم منه احوالا بديعة واسرارا عجيبة وصفات قد رضيها حتى اهله لان يكون خليلا له وهذا كقولك في رجل كبير أنا عالم بفلان فان هذا الكلام في الدلالة على تعظيمه ادل مما اذا شرحت جلال كماله اما قوله تعالى اذ قال لأبيه وقومه فقال صاحب الكشاف اذ اما ان تتعلق بآتينا أو برشده او بمحذوف اى اذكر من اوقات رشده هذا الوقت اما قوله ماهذه التماثيل التي انتم لها عاكفون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) التمثال اسم للشئ المصنوع مشبها بخلق من خلق الله تعالى واصله من مثلت الشئ بالشئ اذا شبهته به واسم ذلك الممثل تمثال (المسئلة الثانية) ان القوم كانوا عباد أصنام على صور

ويضيفها الى دار الاسلام (انهم الغالبون) على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين والفاء لانكار ترتيب الغالبية على ماذكر من نقص ارض الكفرة بتسليط المسلمين عليها كأنه قيل ابعد ظهور ما ذكر ورؤيتهم له يتوهم غلبتهم كما مر في قوله تعالى أفمن كان على بينة من ربه وقوله تعالى قل أفاتخذتم من دونه أولياء وفي التعريف تعريض بأن المسلمين هم المتعينون للغلبة المعروفون بها (قل انما أنذركم) بعد مابين من جهته تعالى غاية هول ماستعجله المستعجلون ونهاية سوء حالهم عند اتيانه ونعى عليهم جهلهم بذلك واعراضهم عن ذكر ربهم الذى يكلؤهم من طوارق الليل والنهار وغير ذلك من مساوى احوالهم امر عليه السلام بأن يقول لهم انما انذركم ماتستعجلونه من الساعة (بالوحي) الصادق الناطق باتيانها وفظاعة مافيها من الاحوال اى انما شأني ان انذركم بالاخبار بذلك لا بالاتيان بها فانه مزاحم للحكمة التكوينية والتشريعية اذ الايمان برهاني لاعياني وقوله تعالى (ولا يسمع الصم الدعاء) اما من تتمة الكلام الملقن تذييل له بطريق الاعتراض قدامر عليه السلام بأن يقوله لهم توبيخا وتقريعا وتسجيلا عليهم بكمال الجهل والعناد واللام للجنس المنتظم للمخاطبين انتظاما اوليا او للعهد فوضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالتصام وتقييد نفي السماع بقوله تعالى (اذا ما ينذرون) مع ان الصم لايسمعون الكلام انذارا كان او تبشيرا لبيان كمال

مخصوصة بصورة الانسان اوغيره فجعل عليه السلام هذا القول منه ابتداء لكلامه لينظر فيماعساهم يوردونه من شبهة فيبطلها عليهم (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف لم ينو لها كفين مفعولا واجراه مجرى مالايتعدى كقولك فاعلون للعكوف اوواقفون لها قال فان قلت هلاقيل عليها عاكفون كقوله يعكفون على اصنام لهم قلت لوقصد التعدية لعداه بصلته التى هى على اماقوله قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين فاعلم ان القوم لم يجدوا فى جوابه الاطريقة التقليد الذى يوجب مزيد النكير لانهم اذا كانوا على خطأ من امرهم لم يعصمهم من هذا الخطأ ان آباءهم ايضا سلكوا هذا الطريق فلا جرم اجابهم ابراهيم عليه السلام بقوله لقد كنتم انتم وآباؤكم فى ضلال مبين فبين ان الباطل لايصير حقا بسبب كثرة المتمسكين به فلما حقق عليه السلام ذلك عليهم ولم يجدوا من كلامه مخلصا ورأوه ثابتا على الانكار قوى القلب فيه وكانوا يستبعدون ان يجرى مثل هذا الانكار عليهم مع كثرتهم وطول العهد بمذهبهم فعند ذلك قالوا له اجئتنا بالحق ام انت من اللاعبين موهمين بهذا الكلام انه يبعد ان يقدم على الانكار عليهم جادا فى ذلك فعنده عدل صلى الله عليه وسلم الى بيان التوحيد * قوله تعالى (قال بل ربكم رب السموات والارض الذى فطرهن وانا على ذلكم من الشاهدين وتالله لاكيدن اصنامكم بعد ان تولوا مدبرين فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم) اعلم ان القوم لما اوهموا انه انما يمازح بما خاطبهم به فى اصنامهم اظهر عليه السلام مايعلمون به انه مجد فى اظهار الحق الذى هو التوحيد وذلك بالقول اولا ثم بالفعل ثانيا اما الطريقة القولية فهى قوله بل ربكم رب السموات والارض الذى فطرهن وهذه الدلالة تدل على ان الخالق الذى خلقها لمنافع العباد هو الذى يحسن ان يعبد لان من يقدر على ذلك يقدر على ان يضر وينفع فى الدار الآخرة بالعقاب والثواب فيرجع حاصل هذه الطريقة الى الطريقة التى ذكرها لابيه فى قوله ياابت لم تعبد مالايسمع ولايبصر ولايغنى عنك شيئا قال صاحب الكشاف الضمير فى فطرهن للسموات والارض او للتماثيل وكونه للتماثيل ادخل فى الاحتجاج عليهم اما قوله وانا على ذلكم من الشاهدين ففيه وجهان (الاول) ان المقصود منه المبالغة فى التأكيد والتحقيق كقول الرجل اذا بالغ فى مدح احد او ذمه اشهد انه كريم او ذميم (والثانى) انه عليه السلام عنى بقوله وانا على ذلكم من الشاهدين ادعاء انه قادر على اثبات ماذكره بالحجة وانى لست مثلكم فأقول مالا اقدر على اثباته بالحجة كما لم تقدروا على الاحتجاج لمذهبكم ولم تزيدوا على انكم وجدتم عليه آباءكم واما الطريقة الفعلية فهى قوله وتالله لاكيدن اصنامكم بعد ان تولوا مدبرين فان القوم لما لم ينتفعوا بالدلالة العقلية عدل الى ان أراهم عدم الفائدة فى عبادتها وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف قرأ معاذ بن جبل رضى الله عنه وبالله وقرئ تولوا بمعنى تتولوا

(ويقويها)

شدة الصمم كان ايثار الدعاء الذى هو عبارة عن الصوت والنداء على الكلام لذلك فان الانذار عادة يكون بأصوات عالية مكررة مقارنة لهيآت دالة عليه فاذا لم يسمعوها يكون صممهم فى غاية لاغاية وراءها واما من جهته تعالى على طريقة قوله تعالى بل هم عن ذكر ربهم معرضون ويؤيده القراءة على خطاب النبى عليه الصلاة والسلام من الاسماع بنصب الصم والدعاء كأنه قيل قل لهم ذلك وانت بمعزل من اسماعهم وقرئ بالياء ايضا على ان الفاعل هو عليه السلام وقرئ على البناء للمفعول اى لايقدر احد على اسماع الصم وقوله تعالى (ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك) بيان لسرعة تأثرهم من مجئ نفس العذاب اثر بيان عدم تأثرهم من مجئ خبره على نهج التوكيد القسمى اى وبالله لئن اصابهم ادنى اصابة ادنى شئ من عذابه تعالى كما ينبئ عنه المس والنفحة بجوهرها وبنائها فان اصل النفح هبوب رائحة الشئ (ليقولن ياويلنا انا كنا ظالمين) ليدعن على انفسهم بالويل والهلاك ويعترفن عليها بالظلم وقوله تعالى (ونضع الموازين القسط) بيان لما سيقع عند اتيان ماانذروه اى نقيم الموازين العادلة التى توزن بها صحائف الاعمال وقيل وضع الموازين تمثيل لارصاد الحساب السوى والجزاء على حسب الاعمال وقد مر تفصيل مافيه من الكلام فى سورة الاعراف

ويقويها قوله فتولوا عنه مدبرين فان قلت ما الفرق بين الباء والتاء قلت ان الباء هي الاصل والتاء بدل من الواو المبدل منها والتاء فيها زيادة معنى وهو التعجب كأنه تعجب من تسهيل الكيد على يده لان ذلك كان امرا مقنوطا منه لصعوبته (المسئلة الثانية) ان قيل لماذا قال لأكيدن اصنامكم والكيد هو الاحتيال على الغير في ضرر لايشعر به وذلك لايتأتى في الاصنام (وجوابه) قال ذلك توسعا لما كان عندهم ان الضرر يجوز عليها وقيل المراد لأكيدنكم في اصنامكم لانه بذلك الفعل قد انزل بهم الغم (المسئلة الثالثة) في كيفية اول القصة وجهان (احدهما) قال السدى كانوا اذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الاصنام فسجدوا لها ثم عادوا الى منازلهم فلما كان هذا الوقت قال آزر لابراهيم عليه السلام لو خرجت معنا فخرج معهم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال انى سقيم اشتكى رجلى فلما مضوا وبقى ضعفاء الناس نادى وقال تالله لأكيدن اصنامكم واحتج هذا القائل بقوله تعالى قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم (وثانيها) قال الكلبي كان ابراهيم عليه السلام من اهل بيت ينظرون في النجوم وكانوا اذا خرجوا الى عيدهم لم يتركوا الامريضا فلما هم ابراهيم بالذى هم به من كسر الاصنام نظر قبل يوم العيد الى السماء فقال لاصحابه ارانى اشتكى غدا فذلك قوله فنظر نظرة في النجوم فقال انى سقيم واصبح من الغد معصوبا رأسه فخرج القوم لعيدهم ولم يتخلف احد غيره فقال أما والله لأكيدن اصنامكم وسمع رجل منهم هذا القول فحفظه عليه ثم ان ذلك الرجل اخبر غيره وانتشر ذلك في جماعة فلذلك قال تعالى قالوا سمعنا فتى يذكرهم واعلم ان كلا الوجهين ممكن ثم تمام القصة ان ابراهيم عليه السلام لما دخل بيت الاصنام وجد سبعين صنما مصطفة وثم صنم عظيم مستقبل الباب وكان من ذهب وكان في عينيه جوهرتان تضيئان بالليل فكسرها كلها بفاس في يده حتى لم يبق الا الكبير ثم علق الفاس في عنقه اما قوله تعالى فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ان قيل لم قال فجعلهم جذاذا وهذا جمع لايليق الا بالناس (جوابه) من حيث اعتقدوا فيها انها كالناس في انها تعظم ويتقرب اليها ولعل كان فيهم من يظن انها تضر وتنفع (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف جذاذا قطعا من الجذ وهو القطع وقرئ بالكسر والفتح وقرئ جذذا جمع جذيذ وجذذا جمع جذة (المسئلة الثالثة) ان قيل ما معنى الا كبيرا لهم قلنا يحتمل الكبير في الخلقة ويحتمل في التعظيم ويحتمل في الامرين واما قوله لعلهم اليه يرجعون فيحتمل رجوعهم الى ابراهيم عليه السلام ويحتمل رجوعهم الى الكبير (اما الاول) فتقريره من وجهين (الاول) ان المعنى انهم لعلهم يرجعون الى مقالة ابراهيم ويعدلون عن الباطل (والثانى) انه غلب على ظنه انهم لايرجعون الا اليه لما تسامعوه من انكاره لدينهم وسبه لآلهتم فيبكتهم بما أجاب به من قوله بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم اما اذا قلنا الضمير راجع الى الكبير ففيه وجهان (الاول) ان المعنى لعلهم

وافراد القسط لانه مصدر وصف به مبالغة (ليوم القيامة) التى كانوا يستعجلونها اى لجزائه او لاجل اهله اوفيه كما في قولك جئت لخمس خلون من الشهر (فلا تظلم نفس) من النفوس (شيئا) حقا من حقوقها اوشيئا ما من الظلم بل يوفى كل ذى حق حقه ان خيرا فخير وان شرا فشر والفاء لترتيب انتفاء الظلم على وضع الموازين (وان كان) اى العمل المدلول عليه بوضع الموازين (مثقال حبة من خردل) اى مقدار حبة كائنة من خردل اى وان كان في غاية القلة والحقارة فان حبة الخردل مثل في الصغر وقرئ مثقال حبة بالرفع على ان كان تامة (اتينا بها) اى احضرنا ذلك العمل المعبر عنه بمثقال حبة الخردل للوزن والتأنيث لاضافته الى الحبة وقرئ آتينا بها اى جازينا بها من الايتاء بمعنى المجازاة والمكافأة او المؤاتاة لانهم أتوه بالاعمال واتاهم بالجزاء وقرئ أثبنا من الثواب وقرئ جئنا بها (وكفى بنا حاسبين) اذ لامزيد على علمنا وعدلنا (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين) نوع تفصيل لما اجمل في قوله تعالى وما ارسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم الى قوله تعالى واهلكنا المسرفين واشارة الى كيفية انجائهم واهلاك اعدائهم وتصديره بالتوكيد القسمي

يرجعون اليه كما يرجع الى العالم فى حل المشكلات فيقولون مالهؤلاء مكسورة ومالك صحيحا والفاس على عاتقك وهذا قول الكلبي وانما قال ذلك بناء على كثرة جهالاتهم فلعلهم كانوا يعتقدون فيها انها تجيب وتتكلم (والثانى) انه عليه السلام قال ذلك مع علمه انهم لا يرجعون اليه استهزاء بهم وان قياس حال من يسجد له ويؤهل للعبادة ان يرجع اليه فى حل المشكلات (المسئلة الرابعة) ان قيل أولئك الاقوام اما ان يقال انهم كانوا عقلاء اوما كانوا عقلاء فان كانوا عقلاء وجب ان يكونوا عالمين بالضرورة ان تلك الاصنام لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر فأى حاجة فى اثبات ذلك الى كسرها اقصى مافى الباب ان يقال القوم كانوا يعظمونها كما يعظم الواحد منا المصحف والمسجد والمحراب وكسرها لا يقدح فى كونها معظمة من هذا الوجه وان قلنا انهم ما كانوا عقلاء وجب ان لا تحسن المناظرة معهم ولا بعثة الرسل اليهم (والجواب) انهم كانوا عقلاء وكانوا عالمين بالضرورة انها جمادات ولكن لعلهم كانوا يعتقدون فيها انها تماثيل الكواكب وانها طلسمات موضوعة بحيث ان كل من عبدها انتفع بها وكل من استخف بها ناله منها ضرر شديد ثم ان ابراهيم عليه السلام كسرها مع انه ما ناله منها البتة ضرر فكان فعله دالا على فساد مذهبهم من هذا الوجه اما قوله تعالى قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين اى من فعل هذا الكسر والحطم لشديد الظلم معدود فى الظلمة اما لجراءته على الآلهة الحقيقة بالتوقير والاعظام واما لانهم رأوا افراطا فى كسرها وتماديا فى الاستهانة بها اما قوله تعالى قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال الزجاج ارتفع ابراهيم على وجهين (احدهما) على معنى يقال هو ابراهيم (والثانى) على النداء على معنى يقال له يا ابراهيم قال صاحب الكشاف والصحيح انه فاعل يقال لان المراد الاسم دون المسمى (المسئلة الثانية) ظاهر الآية يدل على ان القائلين جماعة لا واحد فكأنهم كانوا من قبل قد عرفوا منه وسمعوا ما يقوله فى آلهتهم فغلب على قلوبهم انه الفاعل ولو لم يكن الا قوله ما هذه التماثيل الى غير ذلك لكفى * قوله تعالى (قالوا فأتوا به على اعين الناس لعلهم يشهدون قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسئلوهم ان كانوا ينطقون فرجعوا الى انفسهم فقالوا انكم انتم الظالمون ثم نكسوا على رؤسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال افتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله افلا تعقلون) اعلم ان القوم لما شاهدوا كسر الاصنام وقيل ان فاعله ابراهيم عليه السلام قالوا فيما بينهم فأتوا به على اعين الناس قال صاحب الكشاف على اعين الناس فى محل الحال اى فأتوا به مشاهدا اى بمرأى منهم ومنظر فان قلت ما معنى الاستعلاء فى على قلت هو وارد على طريق المثل اى يثبت اتيانه فى الاعين ثبات الراكب على المركوب اما قوله تعالى لعلهم يشهدون ففيه وجهان (احدهما) انهم كرهوا ان يأخذوه بغير بينة فأرادوا ان يجيئوا به على اعين الناس لعلهم

(يشهدون)

لاظهار كمال الاعتناء بمضمونه والمراد بالفرقان هو التوراة وكذا بالضياء والذكر اى وبالله لقد آتيناهما وحيا ساطعا وكتابا جامعا بين كونه فارقا بين الحق والباطل وضياء يستضاء به فى ظلمات الجهل والغواية وذكرا يتعظ به الناس وتخصيص المتقين بالذكر لانهم المستضيئون بأنواره المغتنمون لمغانم آثاره او ذكر ما يحتاجون اليه من الشرائع والاحكام وقيل الفرقان النصر وقيل فلق البحر والاول هو اللائق بمساق النظم الكريم فانه لتحقيق امر القرآن المشارك لسائر الكتب الالهية لاسيما التوراة فيما ذكر من الصفات ولان فلق البحر هو الذى اقترح الكفرة بمثله بقولهم فليأتنا بآية كما ارسل الاولون وقرئ ضياء بغير واو على انه حال من الفرقان وقوله تعالى (الذين يخشون ربهم) اى عذابه مجرور المحل على انه صفة مادحة للمتقين او بدل او بيان او منصوب او مرفوع على المدح (بالغيب) حال من المفعول اى يخشون عذابه تعالى وهو غائب عنهم غير مشاهد لهم ففيه تعريض بالكفرة حيث لا يتأثرون بالانذار ما لم يشاهدوا ما انذروه وقيل من الفاعل (وهم من الساعة مشفقون) اى خائفون منها بطريق الاعتناء وتقديم الجار لمراعاة الفواصل وتخصيص اشفاقهم

يشهدون عليه بما قاله فيكون حجة عليه بما فعل وهذا قول الحسن وقتادة والسدى وعطاء وابن عباس رضى الله عنهم (وثانيهما) وهو قول محمد بن اسحق اى يحضرون فيبصرون مايصنع به فيكون ذلك زاجرا لهم عن الاقدام على مثل فعله وفيه قول ثالث وهو قول مقاتل والكلبى ان المراد مجموع الوجهين فيشهدون عليه بفعله ويشهدون عقابه اما قوله تعالى قالوا أأنت فعلت هذا فاعلم ان فى الكلام حذفا وهو فأتوا به وقالوا أأنت فعلت طلبوا منه الاعتراف بذلك ليقدموا على ايذائه فظهر منه ما انقلب الامر عليهم حتى تمنوا الخلاص منه فقال بل فعله كبيرهم هذا وقد علق الفاس على رقبته لكى يورد هذا القول فيظهر جهلهم فى عبادة الاوثان فان قيل قوله بل فعله كبيرهم كذب (والجواب) للناس فيه قولان (احدهما) وهو قول كافة المحققين انه ليس بكذب وذكروا فى الاعتذار عنه وجوها (احدها) ان قصد ابراهيم عليه السلام لم يكن الى ان ينسب الفعل الصادر عنه الى الصنم وانما قصد تقريره لنفسه واثباته لها على اسلوب تعريضى يبلغ فيه غرضه من الزامهم الحجة وتبكيتهم وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتابا بخط رشيق وانت شهير بحسن الخط أأنت كتبت هذا وصاحبك امى لايحسن الخط ولايقدر الا على خرمشة فاسدة فقلت له بل كتبته انت كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به لانفيه عنك واثباته للامى او الخرمش لان اثباته والامر دائر بينهما للعاجز منهما استهزاء به واثبات للقادر (وثانيها) ان ابراهيم عليه السلام غاظته تلك الاصنام حين ابصرها مصطفة مزينة وكان غيظه من كبيرها اشد لما رأى من زيادة تعظيمهم له فاسند الفعل اليه لانه هو السبب فى استهانته بها وحطمه لها والفعل كما يسند الى مباشره يسند الى الحامل عليه (وثالثها) ان يكون حكاية لما يلزم على مذهبهم كأنه قال لهم ما تنكرون ان يفعله كبيرهم فان من حق من يعبد ويدعى الها ان يقدر على هذا واشد منه وهذه الوجوه الثلاثة ذكرها صاحب الكشاف (ورابعها) انه كناية عن غير مذكور اى فعله من فعله وكبيرهم هذا ابتداء الكلام وروى عن الكسائى انه كان يقف عند قوله بل فعله ثم يبتدئ كبيرهم هذا (وخامسها) انه يجوز ان يكون فيه وقف عند قوله كبيرهم ثم يبتدئ فيقول هذا فاسئلوهم والمعنى بل فعله كبيرهم وعنى نفسه لان الانسان اكبر من كل صنم (وسادسها) ان يكون فى الكلام تقديم وتأخير كأنه قال بل فعله كبيرهم هذا ان كانوا ينطقون فاسئلوهم فتكون اضافة الفعل الى كبيرهم مشروطا بكونهم ناطقين فلما لم يكونوا ناطقين امتنع ان يكونوا فاعلين (وسابعها) قرأ محمد بن السميفع فعله كبيرهم اى فلعل الفاعل كبيرهم (القول الثانى) وهو قول طائفة من اهل الحكايات ان ذلك كذب واحتجوا بما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لم يكذب ابراهيم الا ثلاث كذبات كلها فى ذات الله تعالى قوله انى سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا وقوله لسارة هى اختى وفى خبر آخر ان اهل الموقف اذا سألوا ابراهيم الشفاعة قال انى كذبت ثلاث كذبات ثم قرروا قولهم من جهة العقل وقالوا الكذب

منها بالذكر بعد وصفهم بالخشية على الاطلاق للايذان بكونها معظم المخوفات والتنصيص على اتصافهم بضد ما اتصف به المستعجلون وايثار الجملة الاسمية للدلالة على ثبات الاشفاق ودوامه (وهذا) اى القرآن الكريم اشير اليه ايذانا بغاية وضوح امره (ذكر) يتذكر به من يتذكر وصف بالوصف الاخير للتوراة لمناسبة المقام وموافقته لما فى صدر السورة الكريمة (مبارك) كثير الخير غزير النفع يتبرك به (انزلناه) امامصفة ثانية لذكر او خبر آخر (أفأنتم له منكرون) انكار لانكارهم بعد ظهور كون انزاله كايتاء التوراة كأنه قيل ابعد ان علمتم ان شأنه كشأن التوراة فى الايتاء والايحاء انتم منكرون لكونه منزلا من عندنا فان ذلك بعد ملاحظة حال التوراة لامساغ له اصلا (ولقد آتينا ابراهيم رشده) اى الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكبار وهو الاهتداء الكامل المستند الى الهداية الخاصة الحاصلة بالوحى والاقتدار على اصلاح الامة باستعمال النواميس الالهية وقرئ رشده وهما لغتان كالحزن والحزن (من قبل) اى من قبل ايتاء موسى وهرون التوراة وتقديم ذكر ايتائها لما بينه وبين انزال القرآن من الشبه التام وقيل من

ليس قبيحا لذاته فان النبى عليه السلام اذاهرب من ظالم واختفى فى دار انسان وجاء الظالم وسأل عن حاله فانه يجب الكذب فيه واذا كان كذلك فأى بعد فى ان يأذن الله تعالى فى ذلك لمصلحة لايعرفها الاهو واعلم ان هذا القول مرغوب عنه اما الخبر الاول وهو الذى رووه فلان يضاف الكذب الى رواته اولى من ان يضاف الى الانبياء عليهم الصلاة والسلام والدليل القاطع عليه انه لوجاز ان يكذبوا لمصلحة ويأذن الله تعالى فيه فليجوز هذا الاحتمال فى كل ما اخبروا عنه وفى كل ما اخبر الله تعالى عنه وذلك يبطل الوثوق بالشرائع وتطرق التهمة الى كلها ثم ان ذلك الخبر لو صح فهو محمول على المعاريض على ماقال عليه السلام ان فى المعاريض لمندوحة عن الكذب فأما قوله تعالى انى سقيم فلعله كان به سقم قليل واستقصاء الكلام فيه يجئ فى موضعه واما قوله بل فعله كبيرهم فقد ظهر الجواب عنه اما قوله لسارة انها اختى فالمراد انها اخته فى الدين واذا امكن حمل الكلام على ظاهره من غير نسبة الكذب الى الانبياء عليهم السلام فحينئذ لايحكم بنسبة الكذب اليهم الا زنديق اما قوله تعالى فرجعوا الى انفسهم فقالوا انكم انتم الظالمون ففيه وجوه (الاول) ان ابراهيم عليه السلام لما نبههم بما اورده عليهم على قبح طريقتهم تنبهوا فعلموا ان عبادة الاصنام باطلة وانهم على غرور وجهل فى ذلك (والثانى) قال مقاتل فرجعوا الى انفسهم فلاموها وقالوا انكم انتم الظالمون لابراهيم حيث تزعمون انه كسرها مع ان الفاس بين يدى الصنم الكبير (وثالثها) المعنى انكم انتم الظالمون لانفسكم حيث سألتم منه عن ذلك حتى اخذ يستهزئ بكم فى الجواب والاقرب هو الاول اما قوله تعالى ثم نكسوا على رؤسهم لقد علمت ماهؤلاء ينطقون فقال صاحب الكشاف نكسه قلبه فجعل اسفله اعلاه وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فى المعنى وجوه (احدها) ان المراد استقاموا حين رجعوا الى انفسهم وأتوا بالفكرة الصالحة ثم انتكسوا فقلبوا عن تلك الحالة فأخذوا المجادلة بالباطل وان هؤلاء مع تقاصر حالها عن حال الحيوان الناطق آلهة معبودة (وثانيها) قلبوا على رؤسهم حقيقة لفرط اطراقهم خجلا وانكسارا وانخذالا مما بهتهم به ابراهيم فما احاروا جوابا الا ماهو حجة عليهم (وثالثها) قال ابن جرير ثم نكسوا على رؤسهم فى الحجة عليهم لابراهيم حين جادلهم اى قلبوا فى الحجة واحتجوا على ابراهيم بما هو الحجة لابراهيم عليهم فقالوا لقد علمت ماهؤلاء ينطقون فاقروا بهذه للحيرة التى لحقتهم قال والمعنى نكست حجتهم فاقيم الخبر عنهم مقام الخبر عن حجتهم (المسئلة الثانية) قرئ نكسوا بالتشديد ونكسوا على لفظ مالم يسم فاعله اى نكسوا انفسهم على رؤسهم وهى قراءة رضوان بن عبد المعبود اما قوله تعالى قال أفتعبدون من دون الله مالاينفعكم شيئا ولايضركم اف لكم ولما تعبدون من دون الله افلاتعقلون فالمعنى ظاهر قال صاحب الكشاف أف صوت اذا صوت به علم ان صاحبه متضجر وان ابراهيم عليه السلام اضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل

قبل استنبائه اوقبل بلوغه بأبه المقام (وكنابه عالمين) اى بأنه اهل لما آتيناه وفيه من الدليل على انه تعالى عالم بالجزئيات مختار فى افعاله مالا يخفى (اذ قال لابيه وقومه) ظرف لآتينا على انه وقت متسع وقع فيه الايتاء وماترتب عليه من افعاله واقواله وقيل مفعول لمضمر مستأنف وقع تعليلا لما قبله اى اذكر وقت قوله لهم (ماهذه التماثيل التى انتم لها عاكفون) لتقف على كمال رشده وغاية فضله والتمثال اسم لشئ مصنوع مشبه بمخلوق من خلائق الله تعالى وهذا تجاهل منه عليه السلام حيث سألهم عن اصنامهم بما التى يطلب بها بيان الحقيقة اوشرح الاسم كأنه لايعرف انها ماذا مع احاطته بأن حقيقتها حجر اوشجر اتخذوها معبودا وعبر عن عبادتهم لها بعطلق العكوف الذى هو عبارة عن اللزوم والاستمرار على الشئ لغرض من الاغراض قصدا الى تحقيرها واذلالها وتوبيخا لهم على اجلالها واللام فى لها للاختصاص دون التعدية والالجئ بكلمة على والمعنى انتم فاعلون العكوف لها وقد يجوز تضمين العكوف معنى العبادة كما ينبئ عنه قوله تعالى (قالوا وجدنا اباءنا لها عابدين) أجابوا بذلك لما ان مآل سؤاله عليه السلام الاستفسار عن سبب عبادتهم لها ينبئ عنه وصفه

فتأفف بهم ثم يحتمل انه قال لهم ذلك وقد عرفوا صحة قوله ويحتمل انه قال لهم ذلك وقد ظهرت الحجة وان لم يعقلوا وهذا هو الاقرب لقوله افتعبدون ولقوله افلا تعقلون * قوله تعالى (قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين قلنا يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم وأرادوا به كيدا فجعلناهم الاخسرين ونجيناه ولوطا الى الارض التى باركنا فيها للعالمين) اعلم انه تعالى لما بين ما اظهره ابراهيم عليه السلام من دلائل التوحيد وابطال ما كانوا عليه من عبادة التماثيل اتبعه بما يدل على جهلهم وانهم قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم وههنا مسائل (المسئلة الاولى) ليس فى القرآن من القائل لذلك والمشهور انه نمروذ بن كنعان بن سنجاريب بن نمروذ بن كوش بن حام بن نوح وقال مجاهد سمعت ابن عمر يقول انما اشار بتحريق ابراهيم عليه السلام رجل من الكرد من اعراب فارس وروى ابن جريج عن وهب عن شعيب الجبائى قال ان الذى قال حرقوه رجل اسمه هيزن فخسف الله تعالى به الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة (المسئلة الثانية) اما كيفية القصة فقال مقاتل لما اجتمع نمروذ وقومه لاحراق ابراهيم حبسوه فى بيت وبنوا بنيانا كالحظيرة وذلك قوله قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم ثم جمعوا له الحطب الكثير حتى ان المرأة لو مرضت قالت ان عافانى الله لاجمعن حطبا لابراهيم ونقلوا له الحطب على الدواب اربعين يوما فلما اشتعلت النار اشتدت وصار الهواء بحيث لو مر الطير فى اقصى الهواء لاحترق ثم اخذوا ابراهيم عليه السلام ورفعوه على رأس البنيان وقيدوه ثم اتخذوا منجنيقا ووضعوه فيه مقيدا مغلولا فصاحت السماء والارض ومن فيها من الملائكة الا الثقلين صيحة واحدة اى ربنا ليس فى ارضك احد يعبدك غير ابراهيم وانه يحرق فيك فأذن لنا فى نصرته فقال سبحانه ان استغاث بأحد منكم فأغيثوه وان لم يدع غيرى فانا اعلم به وانا وليه فخلوا بينى وبينه فلما ارادوا القاءه فى النار اتاه خازن الرياح فقال ان شئت طيرت النار فى الهواء فقال ابراهيم عليه السلام لا حاجة بى اليكم ثم رفع رأسه الى السماء وقال اللهم انت الواحد فى السماء وانا الواحد فى الارض ليس فى الارض احد يعبدك غيرى حسبنا الله ونعم الوكيل وقيل انه حين القى فى النار قال لا اله الا انت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك ثم وضعوه فى المنجنيق ورموا به النار فأتاه جبريل عليه السلام وقال يا ابراهيم هل لك حاجة قال أما اليك فلا قال فاسأل ربك قال حسبى من سؤالى علمه بحالى فقال الله تعالى يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم وقال السدى انما قال ذلك جبريل عليه السلام قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية مجاهد ولو لم يتبع بردا سلاما لمات ابراهيم من بردها قال ولم يبق يومئذ فى الدنيا نار الا طفئت ثم قال السدى فأخذت الملائكة بضبعى ابراهيم واقعدوه فى ارض فاذا عين ماء عذب وورد احمر ونرجس ولم تحرق النار منه الا وثاقه وقال المنهال بن عمر واخبرت ان ابراهيم عليه السلام لما القى فى النار كان فيها اما اربعين يوما او خمسين يوما وقال ما كنت اياما اطيب عيشا منى

عليه السلام اياهم بالعكوف لها كأنه قال ماهى هل تستحقها تستحقون من العكوف عليها فلما لم يكن لهم ملجأ يعتدبه التجؤا الى التقليد فابطله عليه السلام على طريقة التوكيد القسمى حيث (قال لقد كنتم انتم وآباؤكم) الذين سنوا لكم هذه السنة الباطلة (فى ضلال) عجيب لا يقادر قدره (مبين) اى ظاهر بين بحيث لا يخفى على احد من العقلاء كونه كذلك ومعنى كنتم مطلق استقرارهم على الضلال لا استقرارهم الماضى الحاصل قبل زمان الخطاب المتناول لهم ولآبائهم اى والله لقد كنتم مستقرين على ضلال عظيم ظاهر لعدم استناده الى دليل ما والتقليد انما يجوز فيما يحتمل الحقية فى الجملة (قالوا) لما سمعوا مقالته عليه السلام استبعادا لكون ماهم عليه ضلالا وتعجبا من تضليله عليه السلام اياهم بطريق التوكيد القسمى وترددا فى كون ذلك منه عليه السلام على وجه الجد (أجئتنا بالحق) اى بالجد (ام انت من اللاعبين) فتقول ما تقول على وجه المداعبة والمزاح وفى ايراد الشق الاخير بالجملة الاسمية الدالة على الثبات ايذان برجحانه عندهم (قال) عليه السلام اضرابا عما بنوا عليه مقالتهم من اعتقاد كونها اربابا لهم كما يفصح عنه قولهم نعبد اصناما فنظل لها

اذ كنت فيها وقال ابن اسحق بعث الله ملك الظل فى صورة ابراهيم فقعد الى جنب ابراهيم يؤنسه واتاه جبريل بقميص من حرير الجنة وقال يا ابراهيم ان ربك يقول أما علمت ان النار لاتضر احبابى ثم نظر نمروذ من صرح له واشرف على ابراهيم فرآه جالسا فى روضة ورأى الملك قاعدا الى جنبه وما حوله نار تحرق الحطب فناداه نمروذ يا ابراهيم هل تستطيع ان تخرج منها قال نعم قال قم فاخرج فقام يمشى حتى خرج منها فلما خرج قال له نمروذ من الرجل الذى رأيته معك فى صورتك قال ذاك ملك الظل ارسله ربى ليؤنسنى فيها فقال نمروذ انى مقرب الى ربك قربانا لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك فانى ذابح له اربعة آلاف بقرة فقال ابراهيم عليه السلام لايقبل الله منك مادمت على دينك فقال نمروذ لااستطيع ترك ملكى ولكن سوف اذبحها له ثم ذبحها له وكف عن ابراهيم عليه السلام وروبت هذه القصة على وجه آخر وهى انهم بنوا لابراهيم بنيانا والقوه فيه ثم اوقدوا عليه النار سبعة ايام ثم اطبقوا عليه ثم فتحوا عليه من الغد فاذا هو غير محترق يعرق عرقا فقال لهم هاران ابو لوط ان النار لاتحرقه لانه سحر النار ولكن اجعلوه على شئ واوقدوا تحته فان الدخان يقتله فجعلوه فوق بئر واوقدوا تحته فطارت شرارة فوقعت فى لحية ابى لوط فأحرقته (المسئلة الثالثة) انما اختاروا المعاقبة بالنار لانها اشد العقوبات ولهذا قيل ان كنتم فاعلين اى ان كنتم تنصرون آلهتكم نصرا شديدا فاختاروا اشد العقوبات وهى الاحراق اما قوله تعالى قلنا يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ابو مسلم الاصفهانى فى تفسير قوله تعالى قلنا يا نار كونى بردا المعنى انه سبحانه جعل النار بردا وسلاما لا ان هناك كلاما كقوله ان يقول له كن فيكون اى يكونه وقد احتج عليه بأن النار جماد فلا يجوز خطابه والاكثرون على انه وجد ذلك القول ثم هؤلاء لهم قولان (احدهما) وهو قول السدى ان القائل هو جبريل عليه السلام (والثانى) وهو قول الاكثرين ان القائل هو الله تعالى وهذا هو الاليق الاقرب بالظاهر وقوله النار جماد فلا يكون فى خطابها فائدة قلنا لم لايجوز ان يكون المقصود من ذلك الامر مصلحة عائدة الى الملائكة (المسئلة الثانية) اختلفوا فى ان النار كيف بردت على ثلاثة اقوال (احدها) ان الله تعالى ازال عنها ما فيها من الحر والاحراق وابقى ما فيها من الاضاءة والاشراق والله على كل شئ قدير (وثانيها) ان الله تعالى خلق فى جسم ابراهيم كيفية مانعة من وصول اذى النار اليه كما يفعل بخزنة جهنم فى الآخرة وكما انه ركب بنية النعامة بحيث لايضرها ابتلاع الحديدة المحماة وبدن السمندل بحيث لايضره المكث فى النار (وثالثها) انه سبحانه خلق بينه وبين النار حائلا يمنع من وصول اثر النار اليه قال المحققون والاول اولى لان ظاهر قوله يا نار كونى بردا ان نفس النار صارت باردة حتى سلم ابراهيم من تأثيرها لا ان النار بقيت كما كانت فان قيل النار جسم موصوف بالحرارة واللطافة فاذا كانت الحرارة جزأ من مسمى النار امتنع كون النار باردة فاذا

عاكفين كأنه قيل ليس الامر كذلك (بل ربكم رب السموات والارض الذى فطرهن) وقيل هو اضراب عن كونه لاعبا باقامة البرهان على ما ادعاه وضمير هن للسموات والارض ووصفه تعالى بايجاده هن اثر وصفه تعالى بربوبيته تعالى لهن تحقيقا للحق وتنبيها على ان ما لا يكون كذلك بمعزل من الربوبية اى انشأهن بما فيهن من المخلوقات التى من جملتها انتم وآباؤكم وما تعبدونه من غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه ورجع الضمير الى التماثيل ادخل فى تضليلهم واظهر فى الزام الحجة عليهم لما فيه من التصريح المغنى عن التأمل فى كون ما يعبدونه من جملة المخلوقات (وانا على ذلكم) الذى ذكرته من كون ربكم رب السموات والارض فقط دون ما عداه كائنا ما كان (من الشاهدين) اى العالمين به على سبيل الحقيقة المبرهنين عليه فان الشاهد على الشئ من تحققه وحققه وشهادته على ذلك ادلاؤه بالحجة عليه واثباته بها كأنه قال وانا ابين ذلك وأبرهن عليه (وتالله) وقرئ بالباء وهو الاصل والتاء بدل من الواو التى هى بدل من الاصل وفيها تعجب (لأكيدن اصنامكم) اى لاجتهدن فى كسرها وفيه ايذان بصعوبة الانتهاز وتوقفه على استعمال الحيل وانما قاله عليه السلام

وجب ان يقال المراد من النار الجسم الذى هو احد اجزاء مسمى النار وذلك مجاز فلم كان مجازكم اولى من المجازين الآخرين قلنا المجاز الذى ذكرناه يبقى معه حصول البرد فى المجازين الذين ذكرتموهما لا يبقى ذلك فكان مجازنا اولى اما قوله تعالى كونى بردا وسلاما على ابراهيم فالمعنى ان البرد اذا افرط اهلك كالحر بل لا بد من الاعتدال ثم فى حصول الاعتدال ثلاثة اوجه (احدها) انه يقدر الله تعالى بردها بالمقدار الذى لا يؤثر (وثانيها) ان بعض النار صار بردا وبقى بعضها على حرارته فتعادل الحر والبرد (وثالثها) انه تعالى جعل فى جسمه مزيد حر فسلم من ذلك البرد بل قد انتفع به والتذ ثم ههنا سؤالات (السؤال الاول) أو كل النار زالت وصارت بردا (الجواب) ان النار هو اسم الماهية فلا بد وان يحصل هذا البرد فى الماهية ويلزم منه عمومه فى كل افراد الماهية وقيل بل اختص بتلك النار لان الغرض انما تعلق ببرد تلك النار وفى النار منافع للخلق فلا يجوز تعطيلها والمراد خلاص ابراهيم عليه السلام لا ايصال الضرر الى سائر الخلق (السؤال الثانى) هل يجوز ماروى عن الحسن من انه سلام من الله تعالى على ابراهيم عليه السلام (الجواب) الظاهر كانه جعل النار بردا جعلها سلاما عليه حتى يخلص فالذى قاله يبعد وفيه تشتيت الكلام المرتب (السؤال الثالث) أفيجوز ماروى من انه لو لم يقل وسلاما لأتى البرد عليه (والجواب) ذلك بعيد لان برد النار لم يحصل منها وانما حصل من جهة الله تعالى فهو القادر على الحر والبرد فلا يجوز ان يقال كان البرد يعظم لولا قوله سلاما (السؤال الرابع) أفيجوز ماقيل من انه كان فى النار انعم عيشا منه فى سائر احواله (والجواب) لا يمتنع ذلك لما فيه من مزيد النعمة عليه وكمالها ويجوز ان يكون انما صار انعم عيشا هناك لعظم مانا له من السرور بخلاصه من ذلك الامر العظيم ولعظم سروره بظفره باعدائه وبما اظهره من دين الله تعالى اما قوله تعالى وأرادوا به كيدا فجعلناهم الاخسرين اى أرادوا ان يكيدوه فما كانوا الا مغلوبين غالبوه بالجدال فلقنه الله تعالى الحجة المبكتة ثم عدلوا الى القوة والجبروت فنصره وقواه عليهم ثم انه سبحانه اتم النعمة عليه بان نجاه ونجى لوطا معه وهو ابن اخيه وهو لوط بن هاران الى الارض التى باركنا فيها للعالمين وفى الاخبار ان هذه الواقعة كانت فى حدود بابل فنجاه الله تعالى من تلك البقعة الى الارض المباركة ثم قيل انها مكة وقيل ارض الشام لقوله تعالى الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله والسبب فى بركتها اما فى الدين فلان اكثر الانبياء عليهم السلام بعثوا منها وانتشرت شرائعهم وآثارهم الدينية فيها واما فى الدنيا فلان الله تعالى بارك فيها بكثرة الماء والشجر والثمر والخصب وطيب العيش وقيل ما من ماء عذب الا وينبع اصله من تحت الصخرة التى ببيت المقدس * قوله تعالى (ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين وجعلناهم ائمة يهدون بامرنا واوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين) اعلم انه تعالى بعد ذكره لانعامه على ابراهيم وعلى لوط بان

مرا وقيل سمعه رجل واحد (بعد ان تولوا مدبرين) من عبادتها الى عيدكم وقرئ تولوا من التولى بحذف احدى التاءين ويعضدها قوله تعالى فتولوا عنه مدبرين والفاء فى قوله تعالى (فجعلهم) فصيحة اى فولوا فجعلهم (جذاذا) اى قطاعا فعال بمعنى مفعول من الجذ الذى هو القطع كالحطام من الحطم الذى هو الكسر وقرئ بالكسر وهى لغة او جمع جذيذ كخفاف وخفيف وقرئ بالضم وجذذا جمع جذيذ وجذذا جمع جذة روى ان آزر خرج به فى يوم عيدلهم فبدؤا ببيت الاصنام فدخلوه فسجدوا لها ووضعوا بينها طعاما خرجوا به معهم وقالوا الى ان نرجع بركت الآلهة على طعامنا فذهبوا وبقى ابراهيم عليه السلام فنظر الى الاصنام وكانت سبعين صنما مصطفا وثمة صنم عظيم مستقبل الباب وكان من ذهب وفى عينيه جوهرتان تضيئان بالليل فكسر الكل بفأس كانت فى يده ولم يبق الا الكبير وعلق الفأس فى عنقه وذلك قوله تعالى (الا كبيرا لهم) اى للاصنام (لعلهم اليه) اى الى ابراهيم عليه السلام (يرجعون) فيحاجهم بما سيأتى فيحجهم ويبكتهم وقيل يرجعون الى الكبير فيسألونه عن الكاسر لان من شأن المعبود ان يرجع اليه فى الملمات وقيل يرجعون الى الله تعالى وتوحيده عند تحققهم عجز آلهتهم عن دفع مايصيبهم وعن الاضرار بمن كسرهم (قالوا) اى حين رجعوا من عيدهم ورأوا ما رأوا (من فعل هذا بآلهتنا)

نجاهما الى الارض المباركة انعم بذكر غيره من النعم وانما جمع بينهما لان في كون لوط معه مع ما كان بينهما من القرابة والشركة في النبوة مزيد انعام ثم انه سبحانه ذكر النعم التى افاضها على ابراهيم عليه السلام ثم النعم التى افاضها على لوط اما الاول فمن وجوه (احدها) ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة واعلم ان النافلة العطية خاصة وكذلك النفل ويسمى الرجل الكثير العطايا نوفلا ثم للمفسرين ههنا قولان (الاول) انه ههنا مصدر من وهبنا له مصدر من غير لفظه ولا فرق بين ذلك وبين قوله ووهبنا له هبة اى وهبناهما له عطية وفضلا من غير ان يكون جزاء مستحقا وهذا قول مجاهد وعطاء (والثانى) وهو قول ابى ابن كعب وابن عباس وقتادة والفراء والزجاج ان ابراهيم عليه السلام لما سأل الله ولدا قال رب هب لى من الصالحين فأجاب الله دعاءه ووهب له اسحق واعطاه يعقوب من غير دعاء فكان ذلك نافلة كالشئ المتطوع به من الآدميين فكأنه قال ووهبنا له اسحق اجابة لدعائه ووهبنا له يعقوب نافلة على ما سأل كالصلاة النافلة التى هى زيادة على الفرض وعلى هذا النافلة يعقوب خاصة (والوجه الاول) اقرب لانه تعالى جمع بينهما ثم ذكر قوله نافلة فاذا صلح ان يكون وصفا لهما فهو اولى (النعمة الثانية) قوله تعالى وكلا جعلنا صالحين اى وكلا من ابراهيم واسحق ويعقوب انبياء مرسلين هذا قول الضحاك وقال آخرون عاملين بطاعة الله عز وجل مجتنبين محارمه (والوجه الثانى) اقرب لان لفظ الصلاح يتناول الكل لانه سبحانه قال بعد هذه الآية واوحينا اليهم فعل الخيرات فلو حملنا الصلاح على النبوة لزم التكرار واحتج اصحابنا بهذه الآية على ان افعال العباد مخلوقة لله تعالى لان قوله وكلا جعلنا صالحين يدل على ان ذلك الصلاح من قبله اجاب الجبائى بانه لو كان كذلك لما وصفهم بكونهم صالحين وبكونهم أئمة وبكونهم عابدين ولما مدحهم بذلك ولما اثنى عليهم واذا ثبت ذلك فلابد من التأويل وهو من وجهين (الاول) ان يكون المراد انه سبحانه آتاهم من لطفه وتوفيقه ما صلحوا به (والثانى) ان يكون المراد انه سماهم بذلك كما يقال زيد فسق فلانا وضلله وكفره اذا وصفه بذلك وكان مصدقا عند الناس وكما يقال فى الحاكم زكى فلانا وعدله وجرحه اذا حكم بذلك واعلم ان هذه الوجوه مختلة اما اعتمادهم على المدح والذم (فالجواب) المعهودان نعارضه بمسئلتى الداعى والعلم واما الحمل على اللطف فباطل لان فعل الالطاف عام فى المكلفين فلابد فى هذا التخصيص من مزيد فائدة وايضا فلأن قوله جعلته صالحا كقوله جعلته متحركا فحمله على تحصيل شئ سوى الصلاح ترك للظاهر واما الحمل على التسمية فهو ايضا مجاز اقصى ما فى الباب انه قد يصار اليه عند الضرورة فى بعض المواضع وههنا لاضرورة الان رجعوا مرة اخرى الى فصل المدح والذم فحينئذ نرجع ايضا الى مسئلتى الداعى والعلم (النعمة الثالثة) قوله تعالى وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وفيه قولان (احدهما) اى جعلناهم أئمة يدعون الناس الى دين الله تعالى والخيرات بأمرنا واذننا (والثانى) قول

على طريقة الانكار والتوبيخ والتشنيع والتاخير وعنهما اذكر ولم يشيروا اليها هؤلاء وهى بين ايديهم مبالغة فى التشنيع وقوله تعالى (انه لمن الظالمين) استئناف مقرر لما قبله وقيل من موصولة وهذه الجملة فى حيز الرفع على انها خبرلها والمعنى الذى فعل هذا الكسر والحطم بآلهتنا انه معدود من جملة الظلمة اما لجرأته على اهانتها وهى حقيقة بالاعظام اولافراطه فى الكسر والحطم وتماديه فى الاستهانة بها او بتعريض نفسه للهلكة (قالوا) اى بعض منهم مجيبين للسائلين (سمعنا فتى يذكرهم) اى يعيبهم فلعله فعل ذلك بها فقوله تعالى يذكرهم اما مفعول ثان لسمع لتعلقه بالعين وصفة لفتى مصححة لتعلقه به هذا اذا كان القائلون سمعوه عليه السلام بالذات يذكرهم وان كانوا قد سمعوا من الناس انه عليه السلام يذكرهم بسوء فلا حاجة الى المصحح (يقال له ابراهيم) صفة اخرى لفتى اى يطلق عليه هذا الاسم (قالوا) اى السائلون (فأتوا به على اعين الناس) اى مرأى منهم بحيث يكون نصب اعينهم فى مكان مرتفع لايكاد يخفى على احد (لعلهم يشهدون) اى يحضرون عقوبتنا له وقيل لعلهم يشهدون بفعله او بقوله ذلك فالضمير حينئذ ليس للناس بل للبعض منهم معهم او معهود (قالوا) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية قولهم كأنه قيل فاذا فعلوا به عليه السلام بعد ذلك هل أتوا به اولا فقيل أتوا به ثم قالوا

ابي مسلم ان هذه الامامة هي النبوة والاول اولى لئلا يلزم التكرار واحتج اصحابنا بهذه الآية على امرين (احدهما) على خلق الافعال بقوله وجعلناهم أئمة وتقريره ما مضى (والثاني) على ان الدعوة الى الحق والمنع عن الباطل لا يجوز الا بأمر الله تعالى لان الامر لو لم يكن معتبرا لما كان في قوله بأمرنا فائدة (النعمة الرابعة) قوله تعالى واوحينا اليهم فعل الخيرات وهذا يدل على انه سبحانه خصهم بشرف النبوة وذلك من اعظم النعم على الاب قال الزجاج حذف الهاء من اقامة الصلاة لان الاضافة عوض عنه وقال غيره الاقام والاقامة مصدر قال ابو القاسم الانصاري الصلاة اشرف العبادات البدنية وشرعت لذكر الله تعالى والزكاة اشرف العبادات المالية ومجموعهما التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله واعلم انه سبحانه وصفهم اولا بالصلاح لانه اول مراتب السائرين الى الله تعالى ثم ترقى فوصفهم بالامامة ثم ترقى فوصفهم في النبوة والوحي واذا كان الصلاح الذي هو العصمة اول مراتب النبوة دل ذلك على ان الانبياء معصومون فان المحروم من اول المراتب اولى بأن يكون محروما عن النهاية ثم انه سبحانه كما بين اصناف نعمه عليهم بين بعد ذلك اشتغالهم بعبوديته فقال وكانوا لنا عابدين كأنه سبحانه وتعالى لما وفى بعهد الربوبية في الاحسان والانعام فهم ايضا وفوا بعهد العبودية وهو الاشتغال بالطاعة والعبادة (القصة الثالثة) قصة لوط عليه السلام * قوله تعالى (ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث انهم كانوا قوم سوء فاسقين وادخلناه في رحمتنا انه من الصالحين) اعلم انه سبحانه بعد بيان ما انعم به على ابراهيم عليه السلام اتبعه بذكر نعمه على لوط عليه السلام لما جمع بينهما من قبل وههنا مسئلتان (المسئلة الاولى) في الواو في قوله ولوطا قولان (احدهما) وهو قول الزجاج انه عطف على قوله واوحينا اليهم (والثاني) قول ابي مسلم انه عطف على قوله آتينا ابراهيم رشده ولا بد من ضمير في قوله ولوطا فكأنه قال وآتينا لوطا فأضمر ذكره (المسئلة الثانية) في اصناف النعم وهي اربعة وجوه (احدها) الحكم اي الحكمة وهي التي يجب فعلها او الفصل بين الخصوم وقيل هي النبوة (وثانيها) العلم واعلم ان ادخال التنوين عليهما يدل على علو شان ذلك العلم وذلك الحكم (وثالثها) قوله ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث والمراد اهل القرية لانهم هم الذين يعملون الخبائث دون نفس القرية ولان الهلاك بهم نزل فنجاه الله تعالى من ذلك ثم بين سبحانه وتعالى بقوله انهم كانوا قوم سوء فاسقين ما أراده بالخبائث وامرهم فيما كانوا يقدمون عليه ظاهر (ورابعها) قوله وادخلناه في رحمتنا انه من الصالحين وفي تفسير الرحمة قولان (الاول) انه النبوة اي انه لما كان صالحا للنبوة ادخله الله في رحمته لكي يقوم بحقها عن مقاتل (الثاني) انه الثواب عن ابن عباس والضحاك ويحتمل ان يقال انه عليه السلام لما آتاه الله الحكم والعلم وتخلص عن جلباب السوء فتحت عليه ابواب المكاشفات وتجلت له انوار الالهية وهي

(أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم) اقتصارا على حكاية مخاطبتهم اياه عليه السلام للتنبيه على ان اتيانهم به ومسارعتهم الى ذلك امر محقق غني عن البيان (قال بل فعله كبيرهم هذا) مشيرا الى الذي لم يكسره سلك عليه السلام مسلكا تعريضيا يؤديه الى مقصده الذي هو الزامهم الحجة على الطف وجه واحسنه بحملهم على التأمل في شأن آلهتهم مع ما فيه من التوقي من الكذب حيث ابرز الكبير قولا في معرض المباشر للفعل باسناده اليه كما ابرزه في ذلك المعرض فعلا بجعل الفأس في عنقه وقد قصد اسناده اليه بطريق التسبيب حيث كانت تلك الاصنام غاظته عليه السلام حين ابصرها مصطفة مرتبة للعبادة من دون الله سبحانه وكان غيظ كبيرها اكبر واشد حسب زيادة تعظيمهم له فاسند الفعل اليه باعتبار انه الحامل عليه وقيل هو حكاية لما يقود الى تجويزه مذهبهم كأنه قال لهم ما تنكرون ان يفعله كبيرهم فان من حق من يعبد ويدعى الها ان يقدر على ما هو اشد من ذلك ويحكى انه عليه السلام قال فعله كبيرهم هذا غضب ان تعبد معه هذه الصغار وهو اكبر منها فيكون تمثيلا اراد به عليه السلام تنبيههم على غضب الله تعالى عليهم لاشراكهم بعبادته الاصنام واما ما قيل من انه عليه

بحر لا ساحل له وهي الرحمة في الحقيقة (القصة الرابعة) قصة نوح عليه السلام ﴿ قوله تعالى (ونوحا اذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه واهله من الكرب العظيم ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم اجمعين) اما قوله تعالى اذ نادى من قبل ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) لاشبهة في ان المراد من هذا النداء دعاؤه على قومه بالعذاب ويؤكده حكاية الله تعالى عنه ذلك تارة على الاجمال وهو قوله فدعا ربه انى مغلوب فانتصر وتارة على التفصيل وهو قوله وقال نوح رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا ويدل عليه ايضا ان الله تعالى أجابه بقوله فاستجبنا له فنجيناه واهله من الكرب العظيم وهذا الجواب يدل على ان الانجاء المذكور فيه كان هو المطلوب في السؤال فدل هذا على ان نداءه ودعاءه كان بأن ينجيه مما يلحقه من جهتهم من ضروب الاذى بالتكذيب والرد عليه وبأن ينصره عليهم وان يهلكهم فلذلك قال بعده ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا (المسئلة الثانية) اجمع المحققون على ان ذلك النداء كان بأمر الله تعالى لانه لو لم يكن بأمره لم يؤمن ان يكون الصلاح ان لايجاب اليه فيصير ذلك سببا لنقصان حال الانبياء ولان الاقدام على امثال هذه المطالب لو لم يكن بالامر لكان ذلك مبالغة في الاضرار وقال آخرون انه عليه السلام لم يكن مأذونا له في ذلك وقال ابو امامة لم يتحسر احد من خلق الله تعالى كحسرة آدم ونوح فحسرة آدم على قبول وسوسة ابليس وحسرة نوح على دعائه على قومه فأوحى الله تعالى اليه ان لاتتحسر فان دعوتك وافقت قدري اما قوله تعالى فنجيناه واهله من الكرب العظيم فالمراد بالاهل ههنا اهل دينه وفي تفسير الكرب وجوه (احدها) انه العذاب النازل بالكفار وهو الغرق وهو قول اكثر المفسرين (وثانيها) انه تكذيب قومه اياه وما لقي منهم من الاذى (وثالثها) انه مجموع الامرين وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما وهو الاقرب لانه عليه السلام كان قد دعاهم الى الله تعالى مدة طويلة وكان قد ينال منهم كل مكروه وكان الغم يتزايد بسبب ذلك وعند اعلام الله تعالى اياه انه يغرقهم وامره باتخاذه الفلك كان ايضا على غم وخوف من حيث لم يعلم من الذي يتخلص من الغرق ومن الذي يغرق فأزال الله تعالى عنه الكرب العظيم بأن خلصه من جميع ذلك وخلص جميع من آمن به معه اما قوله تعالى ونصرناه من من القوم فقرأ ابي بن كعب ونصرناه على القوم ثم قال المبرد تقديره ونصرناه من مكروه القوم وقال تعالى فمن ينصرنا من بأس الله اى يعصمنا من عذابه قال ابو عبيدة من بمعنى على وقال صاحب الكشاف انه نصر الذي مطاوعه انتصر وسمعت هذليا يدعو على سارق اللهم انصرهم منه اى اجعلهم منتصرين منه اما قوله تعالى انهم كانوا قوم سوء فالمعنى انهم كانوا قوم سوء لاجل ردهم عليه وتكذيبهم له فأغرقناهم اجمعين فبين ذلك الوجه الذي به خلصه منهم (القصة الخامسة) قصة داود وسليمان عليهما السلام ﴿ قوله تعالى (وداود وسليمان اذ يحكمان في الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها

السلام لم يقصد نسبة الفعل الصادر عنه الى الصنم بل انما قصد تقريره لنفسه واثباته لها على اسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من الزامهم الحجة وتبكيتهم ومثل لذلك بما لو قال لك من قيا كتبته بخط رشيق وانت شهير بحسن الخط أأنت كتبت هذا فقلت له بل انت كتبته كان قصدك تقرير الكتابة لنفسك مع الاستهزاء بالسائل لانفيها عنك واثباتها له فبمعزل من التحقيق لان خلاصة المعنى في المثال المذكور مجرد تقرير الكتابة لنفسك وادعاء ظهور الامر مع الاستهزاء بالسائل وتجهيله في السؤال لابتنائه على ان صدورها عن غيرك محتمل عنده مع استحالته عندك ولا ريب في ان مراده عليه السلام من اسناد الكسر الى الصنم ليس مجرد تقريره لنفسه ولا تجهيلهم في سؤالهم لابتنائه على احتمال صدوره عن الغير عندهم بل انما مراده عليه السلام توجيههم نحو التأمل في احوال اصنامهم كما ينبئ عنه قوله (فاسألوهم ان كانوا ينطقون) اى ان كانوا ممن يمكن ان ينطقوا وانما لم يقل عليه السلام ان كانوا يسمعون او يعقلون مع ان السؤال موقوف على السمع والعقل ايضا لما ان نتيجة السؤال هو الجواب وان عدم نطقهم اظهر وتبكيتهم بذلك ادخل وقد حصل ذلك اولا حسبما نطق به قوله تعالى (فرجعوا الى انفسهم) اى

سليمان وكلا آتينا حكما وعلما وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل انتم شاكرون ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره الى الارض التى باركنا فيها وكنا بكل شئ عالمين ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين) اعلم ان قوله تعالى وداود وسليمان وايوب وزكريا وذا النون كله نسق على ماتقدم من قوله ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل ومن قوله ولوطا آتيناه حكما وعلما واعلم ان المقصود ذكر نعم الله تعالى على داود وسليمان فذكر اولا النعمة المشتركة بينهما ثم ذكر مايختص به كل واحد منهما من النعم اما النعمة المشتركة فهى القصة المذكورة وهى قصة الحكومة ووجه النعمة فيها ان الله تعالى زينهما بالعلم والفهم فى قوله وكلا آتينا حكما وعلما ثم فى هذا تنبيه على ان العلم افضل الكمالات واعظمها وذلك لان الله تعالى قدم ذكره ههنا على سائر النعم الجليلة مثل تسخير الجبال والطير والريح والجن واذا كان العلم مقدما على امثال هذه الاشياء فاظنك بغيرها وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ابن السكيت النفش ان تنتشر الغنم بالليل ترعى بلاراع وهذا قول جمهور المفسرين وعن الحسن انه يجوز ذلك ليلا ونهارا (المسئلة الثانية) اكثر المفسرين على ان الحرث هو الزرع وقال بعضهم هو الكرم والاول اشبه بالعرف (المسئلة الثالثة) احتج من قال اقل الجمع اثنان بقوله تعالى وكنا لحكمهم شاهدين مع ان المراد داود وسليمان (جوابه) ان الحكم كما يضاف الى الحاكم فقد يضاف الى المحكوم له فاذا اضيف الحكم الى المتحاكمين كان المجموع اكثر من الاثنين وقرئ وكنا لحكمهما شاهدين (المسئلة الرابعة) فى كيفية القصة وجهان (الاول) قال اكثر المفسرين دخل رجلان على داود عليه السلام احدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم فقال صاحب الحرث ان غنم هذا دخلت حرثى وماابقت منه شيئا فقال داود عليه السلام اذهب فان الغنم لك فخرجا فمرا على سليمان فقال كيف قضى بينكما فاخبراه فقال لو كنت انا القاضى لقضيت بغير هذا فاخبر بذلك داود عليه السلام فدعاه وقال كيف كنت تقضى بينهما فقال ادفع الغنم الى صاحب الحرث فيكون له منافعها من الدر والنسل والوبر حتى اذا كان الحرث من العام المستقبل كهيئته يوم اكل دفعت الغنم الى اهلها وقبض صاحب الحرث حرثه (الثانى) قال ابن مسعود وشريح ومقاتل رحمهم الله ان راعيا نزل ذات ليلة بجنب كرم فدخلت الاغنام الكرم وهو لايشعر فأكلت القضبان وافسدت الكرم فذهب صاحب الكرم من الغد الى داود عليه السلام فقضى له بالغنم لانه لم يكن بين ثمن الكرم وثمن الغنم تفاوت فخرجوا ومروا بسليمان فقال لهم كيف قضى بينكما فاخبراه به فقال غير هذا ارفق بالفريقين فاخبر داود عليه السلام بذلك فدعا سليمان وقال له بحق الابوة والبنوة ألا اخبرتنى بالذى هو ارفق بالفريقين فقال تسلم الغنم الى صاحب الكرم حتى يرتفق بمنافعها ويعمل الراعى فى اصلاح الكرم حتى يصير كما كان ثم ترد الغنم الى صاحبها فقال

راجعوا عقولهم وتذكروا ان مالا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ولا على الاضرار بمن كسره بوجه من الوجوه يستحيل ان يقدر على دفع مضرة عن غيره او جلب منفعة له فكيف يستحق ان يكون معبودا (فقالوا) اى قال بعضهم لبعض فيما بينهم (انكم انتم الظالمون) اى بهذا السؤال لانه كان على طريقة التوبيخ المستتبع للمؤاخذة او بعبادة الاصنام لا من ظلمتموه بقولكم انه لمن الظالمين او انتم الظالمون بعبادتها لا من كسرها (ثم نكسوا على رؤسهم) اى انقلبوا الى المجادلة بعد ما استقاموا بالمراجعة شبه عودهم الى الباطل بصيرورة اسفل الشئ اعلاه وقرئ نكسوا بالتشديد ونكسوا على البناء للفاعل اى نكسوا انفسهم (لقد علمت ماهؤلاء ينطقون) على ارادة القول اى قائلين والله لقد علمت ان ليس من شأنهم النطق فكيف تأمرنا بسؤالهم على ان المراد استمرار نفى النطق لانفى استمراره كما توهمه صيغة المضارع (قال) مبكتا لهم (افتعبدون) اى أتعلمون ذلك فتعبدون (من دون الله) اى متجاوزين عبادته تعالى (مالاينفعكم شيئا) من النفع (ولا يضركم) فان العلم بحاله المنافية للالوهية مما يوجب الاجتناب عن عبادته قطعا (اف لكم ولما تعبدون من دون الله) تضجر منه عليه السلام من اصرارهم على الباطل البين واظهار الاسم

داود عليه السلام انما القضاء ماقضيت وحكم بذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما حكم سليمان بذلك وهو ابن احدى عشرة سنة وههنا امور لابد من البحث عنها (السؤال الاول) هل فى الآية دلالة على انهما عليهما السلام اختلفا فى الحكم ام لا فان ابا بكر الاصم قال انهما لم يختلفا البتة وانه تعالى بين لهما الحكم لكنه بينه على لسان سليمان عليه السلام (الجواب) الصواب انهما اختلفا والدليل اجماع الصحابة والتابعين رضى الله عنهم على ماروينا وايضا فقد قال الله تعالى وكنا لحكمهم شاهدين ثم قال ففهمناها سليمان والفاء للتعقيب فوجب ان يكون ذلك الحكم سابقا على هذا التفهيم وذلك الحكم السابق اما ان يقال اتفقا فيه او اختلفا فيه فان اتفقا فيه لم يبق لقوله ففهمناها سليمان فائدة وان اختلفا فيه فذلك هو المطلوب (السؤال الثانى) سلمنا انهما اختلفا فى الحكم ولكن هل كان الحكمان صادرين عن النص او عن الاجتهاد (الجواب) الامران جائزان عندنا وزعم الجبائى انهما كانا صادرين عن النص ثم انه تارة يبنى ذلك على ان الاجتهاد غير جائز من الانبياء واخرى على ان الاجتهاد وان كان جائزا منهم فى الجملة ولكنه غير جائز فى هذه المسئلة (اما المأخذ الاول) فقد تكلمنا فيه فى الجملة فى كتابنا المسمى بالمحصول فى الاصول ولنذكر ههنا اصول الكلام من الطرفين احتج الجبائى على ان الاجتهاد غير جائز من الانبياء عليهم السلام بأمور (احدها) قوله تعالى قل مايكون لى ان ابدله من تلقاء نفسى ان اتبع الا مايوحى الى وقوله تعالى وما ينطق عن الهوى (وثانيها) ان الاجتهاد طريقه الظن وهو قادر على ادراكه يقينا فلا يجوز مصيره الى الظن كالمعاين للقبلة لايجوز له ان يجتهد (وثالثها) ان مخالفة الرسول توجب الكفر لقوله تعالى فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ومخالفة المظنون والمجتهدات لاتوجب الكفر (ورابعها) لو جاز ان يجتهد فى الاحكام لكان لايقف فى شئ منها ولما وقف فى مسئلة الظهار واللعان الى ورود الوحى دل على ان الاجتهاد غير جائز عليه (وخامسها) ان الاجتهاد انما يجوز المصير اليه عند فقد النص لكن فقدان النص فى حق الرسول كالممتنع فوجب ان لايجوز الاجتهاد منه (وسادسها) لو جاز الاجتهاد من الرسول لجاز ايضا من جبريل عليه السلام وحينئذ لايحصل الامان بان هذه الشرائع التى جاء بها أهى من نصوص الله تعالى او من اجتهاد جبريل (والجواب عن الاول) ان قوله تعالى قل مايكون لى ان ابدله من تلقاء نفسى ان اتبع الا مايوحى الى لا يدل على قولكم لانه وارد فى ابدال آية بآية لانه عقيب قوله قال الذين لايرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا او بدله ولا مدخل للاجتهاد فى ذلك واما قوله تعالى وما ينطق عن الهوى فبعيد لان من يجوز له الاجتهاد يقول ان الذى اجتهد فيه هو عن وحى على الجملة وان لم يكن كذلك على التفصيل وان الآية واردة فى الاداء عن الله تعالى لا فى حكمه الذى يكون بالعقل (والجواب عن الثانى) ان الله تعالى اذا قال له اذا غلب على ظنك كون الحكم معللا فى الاصل بكذا ثم غلب على ظنك

الجليل فى موضع الاخبار لمزيد استقباح مافعلوا واف صوت المتضجر ومعناه قبحا ونتنا واللام لبيان المتأفف له (افلا تعقلون) اى الا تتفكرون فلا تعقلون قبح صنيعكم (قالوا) اى قال بعضهم لبعض لما عجزوا عن المحاجة وضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وهكذا ديدن المبطل المحجوج اذا قرعت شبهته بالحجة القاطعة وافتضح لايبقى له مفزع الا المناصبة (حرقوه) فانه اشد العقوبات (وانصروا آلهتكم) بالانتقام لها (ان كنتم فاعلين) اى للنصر او لشئ يعتد به قيل القائل نمروذ بن كنعان بن السنجاريب ابن نمروذ بن كوش بن حام بن نوح وقيل رجل من اكراد فارس اسمه هيون وقيل هدير خسفت به الارض روى انهم لما اجمعوا على احراقه عليه السلام بنوا له حظيرة بكوثى قرية من قرى الانباط وذلك قوله تعالى قالوا ابنوا له بنيانا فالقوه فى الجحيم فجمعوا له صلاب الحطب من اصناف الخشب مدة اربعين يوما فاوقدوا نارا عظيمة لايكاد يحوم حولها احد حتى ان كانت الطير لتمر بها وهى فى اقصى الجو فتحترق من شدة وهجها ولم يكد احد يحوم حولها فلم يعلموا كيف يلقونه عليه السلام فيها فاتى ابليس وعلمهم عمل المنجنيق فعملوه وقيل صنعه لهم رجل من الاكراد فخسف الله تعالى به الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة ثم عمدوا الى

قيام ذلك المعنى فى صورة اخرى فاحكم بذلك فههنا الحكم مقطوع به والظن غير واقع فيه بل فى طريقه (والجواب عن الثالث) انا لانسلم ان مخالفة المجتهدات جائزة مطلقا بل جواز مخالفتها مشروط بصدورها من غير المعصوم والدليل عليه انه يجوز على الامة ان يجمعوا اجتهادا ثم يمتنع مخالفتهم وحال الرسول او كد (والجواب عن الرابع) لعله عليه السلام كان ممنوعا من الاجتهاد فى بعض الانواع او كان مأذونا مطلقا لكنه لم يظهر له فى تلك الصورة وجه الاجتهاد فلا جرم انه توقف (والجواب عن الخامس) لم لا يجوز ان يحبس النص عنه فى بعض الصور فحينئذ يحصل شرط جواز الاجتهاد (والجواب عن السادس) ان هذا الاحتمال مدفوع باجماع الامة على خلافه فهذا هو (الجواب) عن شبه المنكرين والذى يدل على جواز الاجتهاد عليهم وجوه (احدها) انه عليه السلام اذا غلب على ظنه ان الحكم فى الاصل معلل بمعنى ثم علم او ظن قيام ذلك المعنى فى صورة اخرى فلا بد وان يغلب على ظنه ان حكم الله تعالى فى هذه الصورة مثل ما فى الاصل وعنده مقدمة يقينية وهى ان مخالفة حكم الله تعالى سبب لاستحقاق العقاب فيتولد من هاتين المقدمتين ظن استحقاق العقاب لمخالفة هذا الحكم المظنون وعند هذا اما ان يقدم على الفعل والترك معا وهو محال لاستحالة الجمع بين النقيضين او يتركهما وهو محال لاستحالة الخلو عن النقيضين او يرجح المرجوح على الراجح وهو باطل ببديهة العقل او يرجح الراجح على المرجوح وذلك هو العمل بالقياس وهذه النكتة هى التى عليها التعويل فى العمل بالقياس وهى قائمة ايضا فى حق الانبياء عليهم السلام وهذا يتوجه على جواز الاجتهاد من جبريل عليه السلام (وثانيها) قوله تعالى فاعتبروا امر للكل بالاعتبار فوجب اندراج الرسول عليه السلام فيه لانه امام المعتبرين وافضلهم (وثالثها) ان الاستنباط ارفع درجات العلماء فوجب ان يكون للرسول فيه مدخل والا لكان كل واحد من آحاد المجتهدين افضل منه فى هذا الباب فان قيل هذا انما يلزم لو لم تكن درجة اعلى من الاعتبار وليس الامر كذلك لانه كان يستدرك الاحكام وحيا على سبيل اليقين فكان ارفع درجة من الاجتهاد الذى ليس قصاراه الا الظن قلنا لا يمتنع ان لا يجد النص فى بعض المواضع فلو لم يتمكن من الاجتهاد لكان اقل درجة من المجتهد الذى يمكنه ان يعرف ذلك الحكم من الاجتهاد وايضا فقد بينا ان الله تعالى لما امره بالاجتهاد كان ذلك مفيدا للقطع بالحكم (ورابعها) قال عليه السلام العلماء ورثة الانبياء فوجب ان يثبت للانبياء درجة الاجتهاد ليرث العلماء عنهم ذلك هذا تمام القول فى هذه المسئلة (وخامسها) انه تعالى قال عفا الله عنك لم اذنت لهم فذلك الاذن ان كان باذن الله تعالى استحال ان يقول لم اذنت لهم وان كان بهوى النفس فهو غير جائز وان كان بالاجتهاد فهو المطلوب (المأخذ الثانى) قال الجبائى لو جوزنا الاجتهاد من الانبياء عليهم السلام فى هذه المسئلة يجب ان لا يجوز لوجوه (احدها) ان الذى وصل الى صاحب الزرع من در الماشية ومن منافعها مجهول المقدار فكيف يجوز فى الاجتهاد

ابراهيم عليه السلام فوضعوه فيه مغلولا فرموا به فيها فقال له جبريل عليهما السلام هل لك حاجة قال اما اليك فلا قال فاسأل ربك قال حسبى من سؤالى علمه بحالى فجعل الله تعالى ببركة قوله الحظيرة روضة وذلك قوله تعالى (قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم) اى كونى ذات برد وسلام اى ابردى بردا غير ضار وفيه مبالغات جعل النار المسخرة لقدرته تعالى مأمورة مطاوعة واقامة كونى ذات برد مقام ابردى ثم حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه وقيل نصب سلاما بفعله اى وسلمنا سلاما عليه روى ان الملائكة اخذوا بضبعى ابراهيم واقعدوه على الارض فاذا عين ماء عذب وورد احمر ونرجس ولم تحرق النار منه الا وثاقه وروى انه عليه السلام مكث فيها اربعين يوما او خمسين وقال ما كنت اطيب عيشا منى اذ كنت فيها قال ابن يسار وبعث الله تعالى ملك الظل فقعد الى جنبه يؤنسه فنظر نمروذ من صرحه فأشرف عليه فرآه جالسا فى روضة مؤنقة ومعه جليس على احسن ما يكون من الهيئة والنار محيطة به فناداه يا ابراهيم هل تستطيع ان تخرج منها قال نعم قال قم فاخرج فقام يمشى فخرج منها فاستقبله نمروذ وعظمه وقال من الرجل الذى رأيته معك قال ذلك ملك الظل

جعل احدهما عوضا عن الآخر (وثانيها) ان اجتهاد داود عليه السلام ان كان صوابا لزم ان لا ينقض لان الاجتهاد لا ينتقض بالاجتهاد وان كان خطأ وجب ان يبين الله تعالى توبته كسائر ماحكاه عن الانبياء عليهم السلام فلما مدحهما بقوله وكلا آتينا حكما وعلما دل على انه لم يقع الخطأ من داود (وثالثها) لو حكم بالاجتهاد لكان الحاصل هنالك ظنا لا علما لان الله تعالى قال وكلا آتينا حكما وعلما (ورابعها) كيف يجوز ان يكون عن اجتهاد مع قوله ففهمناها سليمان (والجواب) عن الاول ان الجهالة فى القدر لا تمنع من الاجتهاد كالجعالات وحكم المصراة (وعن الثانى) لعله كان خطأ من باب الصغائر (وعن الثالث) بينا ان من تمسك بالقياس فالظن واقع فى طريق اثبات الحكم فاما الحكم فمقطوع به (وعن الرابع) انه اذا تأمل واجتهد فأداه اجتهاده الى ماذكرنا كان الله تعالى فهمه من حيث بين له طريق ذلك فهذا جملة الكلام فى بيان انه لا يمتنع ان يكون اختلاف داود وسليمان عليهما السلام فى ذلك الحكم انما كان بسبب الاجتهاد واما بيان انه لا يمتنع ايضا ان يكون اختلافهما فيه بسبب النص فطريقه ان يقال ان داود عليه السلام كان مأمورا من قبل الله تعالى فى هذه المسئلة بالحكم الذى حكم به ثم انه سبحانه نسخ ذلك بالوحى الى سليمان عليه السلام خاصة وامره ان يعرف داود ذلك فصار ذلك الحكم حكمهما جميعا فقوله ففهمناها سليمان اى اوحينا اليه فان قيل هذا باطل لوجهين (الاول) لما انزل الله تعالى الحكم الاول على داود وجب ان ينزل نسخه ايضا على داود لا على سليمان (الثانى) ان الله تعالى مدح كلا منهما على الفهم ولو كان ذلك على سبيل النص لم يكن فى فهمه كثير مدح انما المدح الكثير على قوة الخاطر والحذاقة فى الاستنباط (السؤال الثالث) اذا أثبتم انه يجوز ان يكون اختلافهما لاجل النص وان يكون لاجل الاجتهاد فاى القولين اولى (والجواب) الاجتهاد ارجح لوجوه (احدها) انه روى فى الاخبار الكثيرة ان داود عليه السلام لم يكن قد بت الحكم فى ذلك حتى سمع من سليمان ان غير ذلك اولى وفى بعضها ان داود عليه السلام ناشده لكى يورد ماعنده وكل ذلك لا يليق بالنص لانه لو كان نصا لكان يظهره ولا يكتمه (السؤال الرابع) بينوا انه كيف كان طريق الاجتهاد (الجواب) ان وجه الاجتهاد فيه ماذكره ابن عباس رضى الله عنهما من ان داود عليه السلام قوم قدر الضرر بالكرم فكان مساويا لقيمة الغنم فكان عنده ان الواجب فى ذلك الضرر ان يزال بمثله من النفع فلا جرم سلم الغنم الى المجنى عليه كما قال ابو حنيفة رحمه الله فى العبد اذا جنى على النفس يدفعه المولى بذلك او يفديه واما سليمان عليه السلام فان اجتهاده ادى الى انه يجب مقابلة الاصول بالاصول والزوائد بالزوائد فاما مقابلة الاصول بالزوائد فغير جائز لانه يقتضى الحيف والجور ولعل منافع الغنم فى تلك السنة كانت موازية لمنافع الكرم فحكم به كما قال الشافعى رضى الله عنه فيمن غصب عبدا فأبق من يده انه يضمن القيمة لينتفع بها المغصوب منه بازاء مافوته الغاصب من

(منافع)

ارسله ربى ليؤلسنى فقال انى مقرب الى الهك قربانا لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك فقال عليه السلام لا يقبل الله منك ما دمت على دينك هذا قال لا استطيع ترك ملكى ولكن سوف اذبح له اربعة آلاف بقرة فذبحها وكف عن ابراهيم عليه السلام وكان اذ ذاك ابن ست عشرة سنة وهذا كما ترى من ابدع المعجزات فان انقلاب النار هواء طيبا وان لم يكن بدعا من قدرة الله عز وجل لكن وقوع ذلك على هذه الهيئة مما يخرق العادات وقيل كانت النار على حالها لكنه تعالى دفع عنه عليه السلام أذاها كما تراه فى السمندل كما يشعر به ظاهر قوله تعالى على ابراهيم (وارادوا به كيدا) مكرا عظيما فى الاضرار به (فجعلناهم الاخسرين) اى اخسر من كل خاسر حيث عاد سعيهم فى اطفاء نور الحق برهانا قاطعا على انه عليه السلام على الحق وهم على الباطل وموجبا لارتفاع درجته واستحقاقهم لأشد العذاب (ونجيناه ولوطا الى الارض التى باركنا فيها للعالمين) اى من العراق الى الشام وبركاته العامة ان اكثر الانبياء بعثوا فيه فانتشرت فى العالمين شرائعهم التى هى مبادى الكمالات والخيرات الدينية والدنيوية وقيل كثرة النعم والخصب الغالب روى انه عليه السلام نزل بفلسطين ولوط عليه السلام بالمؤتفكة وبينهما مسيرة

منافع العبد فاذا ظهر ترادا (السؤال الخامس) على تقدير ان ثبت قطعا ان تلك المخالفة كانت مبنية على الاجتهاد فهل تدل هذه القصة على ان المصيب واحد او الكل مصيبون (الجواب) اما القائلون بان المصيب واحد فمنهم من استدل بقوله تعالى ففهمناها سليمان قال ولو كان الكل مصيبا لم يكن لتخصيص سليمان عليه السلام بهذا التفهيم فائدة واما القائلون بان الكل مصيبون فمنهم من استدل بقوله وكلا آتينا حكما وعلما ولو كان المصيب واحدا ومخالفه مخطئا لما صح ان يقال وكلا آتينا حكما وعلما واعلم ان الاستدلالين ضعيفان (اما الاول) فلان الله تعالى لم يقل انه فهمه الصواب فيحتمل انه فهمه الناسخ ولم يفهم ذلك داود عليه السلام لانه لم يبلغه وكل واحد منهما مصيب فيما حكم به على ان اكثر ما فى الآية انها دالة على ان داود وسليمان عليهما السلام ما كانا مصيبين وذلك لا يوجب ان يكون الامر كذلك فى شرعنا (واما الثانى) فلانه تعالى لم يقل ان كلا آتينا حكما وعلما بما حكم به بل يجوز ان يكون آتيناه حكما وعلما بوجوه الاجتهاد وطرق الاحكام على انه لا يلزم من كون كل مجتهد مصيبا فى شرعهم ان يكون الامر كذلك فى شرعنا (السؤال السادس) لو وقعت هذه الواقعة فى شرعنا ما حكمها (الجواب) قال الحسن البصرى هذه الآية محكمة والقضاة بذلك يقضون الى يوم القيامة واعلم ان كثيرا من العلماء يزعمون انه منسوخ بالاجماع ثم اختلفوا فى حكمه فقال الشافعى رحمه الله ان كان ذلك بالنهار لا ضمان لان لصاحب الماشية تسييب ماشيته بالنهار وحفظ الزرع بالنهار على صاحبه وان كان ليلا يلزمه الضمان لان حفظها بالليل عليه وقال ابو حنيفة رحمه الله لا ضمان عليه ليلا كان او نهارا اذا لم يكن متعديا بالارسال لقوله صلى الله عليه وسلم جرح العجماء جبار واحتج الشافعى رحمه الله بما روى عن البراء بن عازب انه قال كانت ناقة ضارية فدخلت حائطا فافسدته فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقضى ان حفظ الحوائط بالنهار على اهلها وان حفظ الماشية بالليل على اهلها وان على اهل الماشية ما اصابت ماشيتهم بالليل وهذا تمام القول فى هذه الآية ثم ان الله تعالى ذكر بعد ذلك من النعم التى خص بها داود عليه السلام امرين (الاول) قوله تعالى وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى تفسير هذا التسبيح وجهان (احدهما) ان الجبال كانت تسبح ثم ذكروا وجوها (احدها) قال مقاتل اذا ذكر داود عليه السلام ربه ذكرت الجبال والطير ربها معه (وثانيها) قال الكلبى اذا سبح داود اجابته الجبال (وثالثها) قال سليمان بن حيان كان داود عليه السلام اذا وجد فترة امر الله تعالى الجبال فسبحت فيزداد نشاطا واشتياقا (القول الثانى) وهو اختيار بعض اصحاب المعانى انه يحتمل ان يكون تسبيح الجبال والطير بمثابة قوله تعالى وان من شىء الا يسبح بحمده وتخصيص داود عليه السلام بذلك انما كان بسبب انه عليه السلام كان يعرف ذلك ضرورة فيزداد يقينا وتعظيما

يوم وليلة (ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة) اى عطية فهى حال منهما او ولد ولد او زيادة على ما سأل وهو اسحق فتختص بيعقوب ولا لبس فيه للقرينة الظاهرة (وكلا) اى كل واحد من هؤلاء الاربعة لا بعضهم دون بعض (جعلنا صالحين) بأن وفقناهم للصلاح فى الدين والدنيا فصاروا كاملين (وجعلناهم ائمة) يقتدى بهم فى امور الدين اجابة لدعائه عليه السلام بقوله ومن ذريتى (يهدون) اى الامة الى الحق (بأمرنا) لهم بذلك وارسالنا اياهم حتى صاروا مكملين (واوحينا اليهم فعل الخيرات) ليحثوهم عليه فيتم كمالهم بانضمام العمل الى العلم واصله ان تفعل الخيرات ثم فعلا الخيرات وكذا قوله تعالى (واقام الصلاة وايتاء الزكاة) وهو من عطف الخاص على العام دلالة على فضله واناقته وحذفت تاء الاقامة المعوضة من احدى الالفين لقيام المضاف اليه مقامه (وكانوا لنا) خاصة دون غيرنا (عابدين) لا يخطر ببالهم غير عبادتنا (ولوطا) قيل هو منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى (آتيناه) اى وآتينا لوطا وقيل باذكر (حكما) اى حكمة او نبوة او فصلا بين الخصوم بالحق (وعلما) بما ينبغى علمه للانبياء عليهم السلام (ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث) اى اللواطة وصفت بصفة اهلها

والقول الاول أقرب لانه لاضرورة فى صرف اللفظ عن ظاهره واما المعتزلة فقالوا لو حصل الكلام من الجبل لحصل اما بفعله او بفعل الله تعالى فيه (والاول) محال لان بنية الجبل لاتحتمل الحياة والعلم والقدرة وما لايكون حيا عالما قادرا يستحيل منه الفعل (والثانى) ايضا محال لان المتكلم عندهم من كان فاعلا للكلام لا من كان محلا للكلام فلو كان فاعل ذلك الكلام هو الله تعالى لكان المتكلم هو الله تعالى لا الجبل فثبت انه لا يمكن اجراؤه على ظاهره فعند هذا قالوا فى وسخرنا مع داود الجبال يسبحن ومثله قوله تعالى ياجبال أوبى معه معناه تصرفى معه وسيرى بأمره ويسبحن من السبح الذى هو السباحة خرج اللفظ فيه على التكثير ولو لم يقصد التكثير لقيل يسبحن فلما كثر قيل يسبحن معه اى سيرى وهو كقوله ان لك فى النهار سبحا طويلا اى تصرفا ومذهبا اذا ثبت هذا فنقول ان سيرها هو التسبيح لدلالته على قدرة الله تعالى وعلى سائر ماتنزه عنه واعلم ان مدار هذا القول على ان بنية الجبل لاتقبل الحياة وهذا ممنوع وعلى ان التكلم من فعل الله وهو ايضا ممنوع (المسئلة الثانية) اما الطير فلا امتناع فى ان يصدر عنها الكلام ولكن اجمعت الامة على ان المكلفين اما الجن او الانس او الملائكة فيمتنع فيها ان تبلغ فى العقل الى درجة التكليف بل تكون على حالة كحال الطفل فى ان يؤمر وينهى وان لم يكن مكلفا فصار ذلك معجزة من حيث جعلها فى الفهم بمنزلة المراهق وايضا فيه دلالة على قدرة الله تعالى وعلى تنزهه عما لايجوز فيكون القول فيه كالقول فى الجبال (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف يسبحن حال بمعنى مسبحات او استئناف كأن قائلا قال كيف سخرهن فقال يسبحن والطير اما معطوف على الجبال واما مفعول معه فان قلت لم قدمت الجبال على الطير قلت لان تسخيرها وتسبيحها اعجب وأدل على القدرة وادخل فى الاعجاز لانها جماد والطير حيوان ناطق اما قوله وكنا فاعلين فالمعنى انا قادرون على ان نفعل هذا وان كان عجبا عندكم وقيل نفعل ذلك بالانبياء عليهم السلام (الانعام الثالث) قوله تعالى وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل انتم شاكرون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اللبوس اللباس قال البس لكل حالة لبوسها (المسئلة الثانية) لتحصنكم قرئ بالنون والياء والتاء وتخفيف الصاد وتشديدها فالنون لله عز وجل والتاء للصنعة او للبوس على تأويل الدرع والياء لله تعالى اولداود او للبوس (المسئلة الثالثة) قال قتادة اول من صنع الدرع داود عليه السلام وانما كانت صفائح قبله فهو اول من سردها واتخذها حلقا ذكر الحسن ان لقمان الحكيم عليه السلام حضره وهو يعمل الدرع فأراد ان يسأل عما يفعل ثم سكت حتى فرغ منها ولبسها على نفسه فقال الصمت حكمة وقليل فاعله قالوا ان الله تعالى ألان الحديد له يعمل منه بغير نار كأنه طين (المسئلة الرابعة) البأس ههنا الحرب وان وقع على السوء كله والمعنى ليمنعكم ويحرسكم من بأسكم اى من الجرح والقتل والسيف والسهم والرمح (المسئلة الخامسة) فيه دلالة على ان اول من عمل الدرع داود ثم تعلم الناس منه

واستندت اليها على حذف المشاق واقامتها مقامه كما يؤذن به قوله تعالى (انهم كانوا قوم سوء فاسقين) فانه كالتعليل له (وادخلناه فى رحمتنا) اى فى اهل رحمتنا او فى جنتنا (انه من الصالحين) الذين سبقت لهم منا الحسنى (ونوحا) اى اذكر نوحا اى خبره وقوله تعالى (اذ نادى) اى دعا الله تعالى على قومه بالهلاك ظرف للمضاف المقدر اى اذكر نبأه الواقع وقت دعائه (من قبل) اى من قبل هؤلاء المذكورين (فاستجبنا له) اى دعاءه الذى من جملته قوله انى مغلوب فانتصر (فنجيناه واهله من الكرب العظيم) وهو الطوفان وقيل اذية قومه واصل الكرب الغم الشديد (ونصرناه) نصرا مستتبعا للانتقام والانتصار ولذلك قيل (من القوم الذين كذبوا بآياتنا) وحمله على فانتصر بأباه ماذكر من دعائه عليه السلام فان ظاهره يوجب اسناد الانتصار اليه تعالى مع ما فيه من تهويل الامر قوله تعالى (انهم كانوا قوم سوء) تعليل لما قبله وتمهيد لما بعده من قوله تعالى (فاغرقناهم اجمعين) فان الاصرار على تكذيب الحق والانهماك فى الشر والفساد مما يوجب الاهلاك قطعا (وداود وسليمان) اما عطف على نوحا معمول لعامله واما مفعول معطوف على ذلك العامل بتقدير المضاف وقوله تعالى (اذ يحكمان) ظرف للمضاف المقدر وصيغة المضارع حكاية للحال الماضية لاستحضار صورتها اى اذكر خبرهما وقت حكمهما

فتوارث الناس عند ذلك فعمت النعمة بها كل المحاربين من الخلق الى آخر الدهر فلزمهم شكر الله تعالى على النعمة فقال فهل انتم شاكرون اى اشكروا الله على ما يسر عليكم من هذه الصنعة واعزائه سبحانه لما ذكر النعم التى خص داود بها ذكر بعده النعم التى خص بها سليمان عليه السلام وقال قتادة ورث الله تعالى سليمان من داود ملكه ونبوته وزاده عليه امرين سخر له الريح والشياطين (الانعام الاول) قوله تعالى ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره اى جعلناها طائعة منقادة له بمعنى انه ان ارادها عاصفة كانت عاصفة وان ارادها لينة كانت لينة والله تعالى سخرها فى الحالتين فان قيل العاصف الشديدة الهبوب وقد وصفها الله تعالى بالرخاوة فى قوله رخاء حيث اصاب فكيف يكون الجمع بينهما (والجواب) من وجهين (الاول) انها كانت فى نفسها رخية طيبة كالنسيم فاذا مرت بكرسيه ابعدت به فى مدة يسيرة على ما قال غدوها شهر ورواحها شهر وكانت جامعة بين الامرين رخاء فى نفسها وعاصفة فى عملها مع طاعتها لسليمان عليه السلام وهبوبها على حسب ما يريد ويحكم آية الى آية ومعجزة الى معجزة (الثانى) انها كانت فى وقت رخاء وفى وقت عاصفا لاجل هبوبها على حكم ارادته (المسئلة السادسة) قرئ الريح والرياح بالرفع والنصب فيهما فالرفع على الابتداء والنصب للعطف على الجبال فان قيل قال فى داود وسخرنا مع داود الجبال وقال فى حق سليمان ولسليمان الريح فذكره فى حق داود عليه السلام بكلمة مع وفى حق سليمان عليه السلام باللام وراعى هذا الترتيب ايضا فى قوله ياجبال اوبى معه والطير وقال فسخرنا له الريح تجرى بأمره فالفائدة فى تخصيص داود عليه السلام بلفظ مع وسليمان باللام قلنا يحتمل ان الجبل لما اشتغل بالتسبيح حصل له نوع شرف فما اضيف اليه بلام التمليك اما الريح فلم يصدر عنه الا ما يجرى مجرى الخدمة فلا جرم اضيف الى سليمان بلام التمليك وهذا اقناعى اما قوله الى الارض التى باركنا فيها للعالمين اى الى المضى الى بيت المقدس قال الكلبي كانت تسير من اصطخر الى الشام يركب عليها سليمان واصحابه اما قوله وكنا بكل شئ عالمين اى لعلمنا بالاشياء صح منا ان ندبر هذا التدبير فى رسلنا وفى خلقنا وان نفعل هذه المعجزات القاهرة (الانعام الثانى) قوله تعالى ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المراد انهم يغوصون له فى البحار فيستخرجون الجواهر ويتجاوزون ذلك الى الاعمال والمهن وبناء المدن والقصور واختراع الصنائع العجيبة كما قال يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان واما الصناعات فكاتخاذ الحمام والنورة والطواحين والقوارير والصابون (المسئلة الثانية) قوله ومن الشياطين من يغوصون له يعنى وسخرنا لسليمان من الشياطين من يغوصون له فيكون فى موضع النصب نسقا على الريح قال الزجاج ويجوز ان يكون فى موضع رفع من وجهين (احدهما) النسق على الريح وان يكون المعنى ولسليمان الريح وله من يغوصون له من الشياطين ويجوز ان يكون رفعا على

(فى الحرث) اى فى حق الزرع او الكرم المتدلى عناقيده كما قيل اوبدل اشتمال منهما وقوله تعالى (اذ نفشت) اى تفرقت وانتشرت (فيه غنم القوم) ليلا بلا راع فرعته وافسدته ظرف للحكم (وكنا لحكمهم) اى لحكم الحاكمين والمتحاكمين اليهما فان الاضافة لمجرد الاختصاص المنتظم لاختصاص القيام واختصاص الوقوع وقرئ لحكمهما (شاهدين) حاضرين علما والجملة اعتراض مقرر للحكم ومفيد لمزيد الاعتناء بشأنه (ففهمناها سليمان) عطف على يحكمان فانه فى حكم الماضى وقرئ فافهمناها والضمير للحكومة او الفتيا روى انه دخل على داود عليه السلام رجلان فقال احدهما ان غنم هذا دخلت فى حرثى ليلا فافسدته فقضى له بالغنم فخرجا فمرا على سليمان عليه السلام فاخبراه بذلك فقال غير هذا ارفق بالفريقين فسمعه داود فدعاه فقال له بحق النبوة والابوة الا اخبرتنى بالذى ارفق بالفريقين فقال ارى ان تدفع الغنم الى صاحب الارض لينتفع بدرها ونسلها وصوفها والحرث الى ارباب الغنم ليقوموا عليه حتى يعود الى ما كان ثم يترادا فقال القضاء ما قضيت وامضى الحكم بذلك والذى عندى ان حكمهما عليهما السلام كان بالاجتهاد فان قول سليمان عليه

الابتداء ويكون له هو الخبر (المسئلة الثالثة) يحتمل ان يكون من يغوص منهم هو الذى يعمل سائر الاعمال ويحتمل انهم فرقة أخرى ويكون الكل داخلين فى لفظة من وان كان الاول هو الاقرب (المسئلة الرابعة) ليس فى الظاهر الا انه سخرهم لكنه قد روى انه تعالى سخر كفارهم دون المؤمنين وهو الاقرب من وجهين (احدهما) اطلاق لفظ الشياطين (والثانى) قوله وكنا لهم حافظين فان المؤمن اذا سخر فى امر لا يجب ان يحفظ لئلا يفسد وانما يجب ذلك فى الكافر (المسئلة الخامسة) فى تفسير قوله وكنا لهم حافظين وجوه (احدها) انه تعالى وكل بهم جمعا من الملائكة او جمعا من مؤمنى الجن (وثانيها) سخرهم الله تعالى بان حبب اليهم طاعته وخوفهم من مخالفته (وثالثها) قال ابن عباس رضى الله عنهما يريد وسلطانه مقيم عليهم يفعل بهم ما يشاء فان قيل وعن اى شئ كانوا محفوظين قلنا فيه ثلاثة اوجه (احدها) انه تعالى كان يحفظهم عليه لئلا يذهبوا ويتركوه (وثانيها) قال الكلبى كان يحفظهم من ان يهيجوا احدا فى زمانه (وثالثها) كان يحفظهم من ان يفسدوا ما عملوا فكان دأبهم انهم يعملون بالنهار ثم يفسدونه فى الليل (المسئلة السادسة) سأل الجبائى نفسه وقال كيف يتهيأ لهم هذه الاعمال واجسامهم رقيقة لا يقدرون على العمل الثقيل وانما يمكنهم الوسوسة واجاب بانه سبحانه كثف اجسامهم خاصة وقواهم وزاد فى عظمهم ليكون ذلك معجزا لسليمان عليه السلام فلما مات سليمان ردهم الله الى الخلقة الاولى لانه لو ابقاهم على الخلقة الثانية لصار شبهة على الناس ولو ادعى متنبى النبوة وجعله دلالة لكان كمعجزات الرسل فلذا ردهم الى خلقتهم الاولى واعلم ان هذا الكلام ساقط من وجوه (احدها) لم قلت ان الجن من الاجسام ولم لا يجوز وجود محدث ليس بمتحيز ولا قائم بالمتحيز ويكون الجن منهم فان قلت لو كان الامر كذلك لكان مثلا للبارى تعالى قلت هذا ضعيف لان الاشتراك فى اللوازم الثبوتية لا يدل على الاشتراك فى الملزومات فكيف اللوازم السلبية سلمنا انه جسم لكن لم لا يجوز حصول القدرة على هذه الاعمال الشاقة فى الجسم اللطيف وكلامه بناء على ان البنية شرط وليس فى يده الا الاستقراء الضعيف سلمنا انه لابد من تكثيف اجسامهم لكن لم قلت بأنه لابد من ردها الى الخلقة الاولى بعد موت سليمان عليه السلام فان قال لئلا يفضى الى التلبيس قلنا التلبيس غير لازم لان المتنبى اذا جعل ذلك معجزة لنفسه فللمدعو ان يقول لم لا يجوز أن يقال ان قوة اجسادهم كانت معجزة لنبى آخر قبلك ومع قيام هذا الاحتمال لا يتمكن المتنبى من الاستدلال به واعلم ان اجسام هذا العالم اما كثيفة او لطيفة اما الكثيف فأ كثف الاجسام الحجارة والحديد وقد جعلهما الله تعالى معجزة لداود عليه السلام فأنطق الحجر ولين الحديد وكل واحد منهما كما يدل على التوحيد والنبوة يدل على صحة الحشر لانه لما قدر على احياء الحجارة فأى بعد فى احياء العظام الرميمة واذا قدر على أن يجعل فى اصبع داود عليه السلام قوة النار مع كون الاصبع فى نهاية اللطافة فأى بعد فى ان يجعل التراب اليابس جسما حيوانيا والطف

السلام غير هذا ارفق بالفريقين ثم قوله ارى ان تدفع الحرث الخ صريح فى انه ليس بطريق الوحى والا لبت القول بذلك ولما ناشد داود عليهما السلام لاظهار ما عنده بل وجب عليه ان يظهره بدأ وحرم عليه كتمه ومن ضرورته ان يكون القضاء السابق ايضا كذلك ضرورة استحالة نقض حكم النص بالاجتهاد بل القول والله تعالى اعلم ان رأى سليمان عليه السلام استحسان كما ينبئ عنه قوله ارفق بالفريقين ورأى داود عليه السلام قياس كما ان العبد اذا جنى على النفس يدفعه المولى عند ابى حنيفة الى المجنى عليه او يفديه ويبيعه فى ذلك او يفديه عند الشافعى وقد روى انه لم يكن بين قيمة الحرث وقيمة الغنم تفاوت واما سليمان عليه السلام فقد استحسن حيث جعل الانتفاع بالغنم بازاء ما فات من الانتفاع بالحرث من غير ان يزول ملك المالك عن الغنم واوجب على صاحب الغنم ان يعمل فى الحرث الى ان يزول الضرر الذى اتاه من قبله كما قال اصحاب الشافعى فيمن غصب عبدا فأبق منه انه يضمن القيمة فينتفع بها المغصوب منه بازاء ما فوته الغاصب من المنافع فاذا ظهر الآبق ترادا وفى قوله تعالى ففهمناها سليمان دليل على رجحان قوله ورجوع داود عليه السلام اليه مع ان الحكم المبنى

الاشياء فى هذا العالم الهواء والنار وقد جعلهما الله معجزة لسليمان عليه السلام أما الهواء فقوله تعالى فسخرنا له الريح واما النار فلأن الشياطين مخلوقون منها وقد سخرهم الله تعالى فكان يأمرهم بالغوص فى المياه والنار تطفأ بالماء وهم ماكان يضرهم ذلك وذلك يدل على قدرته على اظهار الضد من الضد • (القصة السادسة) قصة ايوب عليه السلام

❊ قوله تعالى (وايوب اذنادى ربه انى مسنى الضر وانت ارحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا مابه من ضر وآتيناه اهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) اعلم ان فى امر ايوب عليه السلام ماذكره الله تعالى من شأنه ههنا وفى غيره من القرآن من العبر والدلائل ماليس فى غيره لانه تعالى مع عظيم فضله انزل به من المرض العظيم ماانزله مما كان عبرة له ولغيره ولسائر من سمع بذلك وتعريفا لهم ان الدنيا مزرعة الآخرة وان الواجب على المرء أن يصبر على ماينا له من البلاء فيها ويجتهد فى القيام بحق الله تعالى ويصبر على حالتى الضراء والسراء وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال وهب بن منبه كان ايوب عليه السلام رجلا من الروم وهو ايوب بن انوص وكان من ولد عيص بن اسحق وكانت امه من ولد لوط وكان الله تعالى قد اصطفاه وجعله نبيا وكان مع ذلك قد اعطاه من الدنيا حظا وافرا من النعم والدواب والبساتين واعطاه اهلا وولدا من رجال ونساء وكان رحيما بالمساكين وكان يكفل الايتام والارامل ويكرم الضيف وكان معه ثلاثة نفر قد آمنوا به وعرفوا فضله قال وهب وان لجبريل عليه السلام بين يدى الله تعالى مقاما ليس لاحد من الملائكة مثله فى القربة والفضيلة وهو الذى يتلقى الكلام فاذا ذكر الله عبدا بخير تلقاه جبريل عليه السلام ثم تلقاه ميكائيل عليه السلام ثم من حوله من الملائكة المقربين فاذا شاع ذلك فيهم يصلون عليه ثم صلت ملائكة السموات ثم ملائكة الارض وكان ابليس لم يحجب عن شئ من السموات وكان يقف فيهن حيثما اراد ومن هناك وصل الى آدم عليه السلام حتى اخرجه من الجنة ولم يزل على ذلك حتى رفع عيسى عليه السلام فحجب عن اربع فكان يصعد بعد ذلك الى ثلاث الى زمان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فحجب عند ذلك من جميع السموات الامن استرق السمع قال فسمع ابليس تجاوب الملائكة بالصلاة على ايوب فأدركه الحسد فصعد سريعا حتى وقف من السماء موقفا كان يقفه فقال يارب انك انعمت على عبدك ايوب فشكرك وعافيته فحمدك ثم لم تجربه بشدة ولابلاء وانالك زعيم لئن ضربته بالبلاء ليكفرن بك فقال الله تعالى انطلق فقد سلطتك على ماله فانقض الملعون حتى وقع الى الارض وجمع عفاريت الشياطين وقال لهم ماذا عندكم من القوة فانى سلطت على مال ايوب قال عفريت اعطيت من القوة مااذا شئت تحولت اعصارا من نار فأحرقت كل شئ اتى عليه فقال ابليس فأت الابل ورعاءها فذهب ولم يشعر الناس حتى ثار من تحت الارض اعصار من نار لايدنو منها شئ الااحترق فلم يزل يحرقها ورعاءها حتى اتى على آخرها فذهب ابليس على شكل بعض اولئك الرعاة الى ايوب فوجده قائما يصلى فلما

على الاجتهاد لاينقض باجتهاد آخروان كان اقوى منه لان ذلك من خصائص شريعتنا على انه ورد فى الاخبار ان داود عليه السلام لم يكن بت الحكم فى ذلك حتى سمع من سليمان ماسمع واما حكم المسئلة فى شريعتنا فعند ابى حنيفة رحمه الله لاضمان ان لم يكن معها سائق او قائد وعند الشافعى يجب الضمان ليلا لانهارا وقوله تعالى (وكلا آتينا حكما وعلما) لدفع ماعسى يوهمه تخصيص سليمان عليه السلام بالتفهيم من عدم حكم داود عليه السلام حكما شرعيا اى وكل واحد منهما آتينا حكما وعلما كثيرا لاسليمان وحده وهذا انما يدل على ان خطأ المجتهد لايقدح فى كونه مجتهدا وقيل بل على ان كل مجتهد مصيب وهو مخالف لقوله تعالى ففهمناها سليمان ولولا النقل لاحتمل توافقهما على ان قوله تعالى ففهمناها سليمان لاظهار مافضل عليه فى صغره فانه عليه السلام كان حينئذ ابن احدى عشرة سنة (وسخرنا مع داود الجبال) شروع فى بيان مايختص بكل منهما من كراماته تعالى اثر بيان كرامته العامة لهما (يسبحن) اى يقدسن الله عز وجل معه بصوت يتمثل له او بخلق الله تعالى فيها الكلام وقيل يسرن معه من السباحة وهو حال من الجبال او استئناف مبين لكيفية التسخير ومع متعلقة بالتسخير

فرغ من الصلاة قال يا ايوب هل تدرى ماصنع ربك الذى اخترته بابلك ورعاتها فقال ايوب انها ماله اعارنيه وهو اولى به اذا شاء نزعه قال ابليس فان ربك ارسل عليها نارا من السماء فاحترقت ورعاؤها كلها وتركت الناس مبهوتين متعجبين منها فمن قائل يقول ما كان ايوب يعبد شيئا وما كان الا فى غرور ومن قائل يقول لو كان اله ايوب يقدر على شئ لمنع من وليه ومن قائل آخر يقول بل هو الذى فعل مافعل ليشمت عدوه به ويفجع به صديقه فقال ايوب عليه السلام الحمد لله حين اعطانى وحين نزع منى عريانا خرجت من بطن امى وعريانا أعود فى التراب وعريانا أحشر الى الله تعالى ولو علم الله فيك ايها العبد خيرا لنقل روحك مع تلك الارواح وصرت شهيدا وآجرنى فيك ولكن الله علم منك شرا فاخرك فرجع ابليس الى اصحابه خاسئا فقال عفريت آخر عندى من القوة ما اذا شئت صحت صوتا لا يسمعه ذو روح الا خرجت روحه فقال ابليس فأت الغنم ورعاتها فانطلق فصاح بها فماتت ومات رعاؤها فخرج ابليس متمثلا بقهرمان الرعاة الى ايوب فقال له القول الاول ورد عليه ايوب الرد الاول فرجع ابليس صاغرا فقال عفريت آخر عندى من القوة ما اذا شئت تحولت ريحا عاصفة أقلع كل شئ أتيت عليه قال فاذهب الى الحرث والثيران فاتاهم فأهلكهم ثم رجع ابليس متمثلا حتى جاء ايوب وهو يصلى فقال مثل قوله الاول فرد عليه ايوب الرد الاول فجعل ابليس يصيب امواله شيئا فشيئا حتى اتى على جميعها فلما رأى ابليس صبره على ذلك وقف الموقف الذى كان يقفه عند الله تعالى وقال يا الهى هل انت مسلطى على ولده فانها الفتنة المضلة فقال الله تعالى انطلق فقد سلطتك على ولده فأتى اولاد ايوب فى قصرهم فلم يزل يزلزله بهم من قواعده حتى قلب القصر عليهم ثم جاء الى ايوب متمثلا بالمعلم وهو جريح مشدوخ الرأس يسيل دمه ودماغه فقال لو رأيت بنيك كيف انقلبوا منكوسين على رؤسهم تسيل ادمغتهم من انوفهم لتقطع قلبك فلم يزل يقول هذا ويرققه حتى رق ايوب عليه السلام وبكى وقبض قبضة من التراب ووضعها على رأسه فاغتنم ذلك ابليس ثم لم يلبث ايوب عليه السلام حتى استغفروا سترجع فصعد ابليس ووقف موقفه وقال يا الهى انما يهون على ايوب خطر المال والولد لعلمه انك تعيد له المال والولد فهل انت مسلطى على جسده وانى لك زعيم لو ابتليته فى جسده ليكفرن بك فقال تعالى انطلق فقد سلطتك على جسده وليس لك سلطان على عقله وقلبه ولسانه فانقض عدو الله سريعا فوجد ايوب عليه السلام ساجدا لله تعالى فاتاه من قبل الارض فنفخ فى منخره نفخة اشتعل منها جسده وخرج به من فرقه الى قدمه ثا آليل وقد وقعت فيه حكة لا يملكها وكان يحك باظفاره حتى سقطت اظفاره ثم حكها بالمسوح الخشنة ثم حكها بالفخار والحجارة ولم يزل يحكها حتى تقطع لحمه وتغير ونتن فأخرجه اهل القرية وجعلوه على كناسة وجعلوا له عريشا ورفضه الناس كلهم غير امرأته رحمة بنت افرايم بن يوسف عليه السلام فكانت تصلح اموره • ثم ان وهبا طول فى الحكاية الى ان قال ان ايوب عليه السلام اقبل على الله تعالى

وقيل بالتسبيح وهو امبد (والطير) عطف على الجبال او مفعول معه وقرئ بالرفع على الابتداء والخبر محذوف اى والطير مسخرات وقيل على العطف على الضمير فى يسبحن وفيه ضعف لعدم التأكيد والفصل (وكنا فاعلين) اى من شأننا ان نفعل امثاله فليس ذلك ببدع منا وان كان بديعا عندكم (وعلمناه صنعة لبوس) اى عمل الدرع وهو فى الاصل اللباس قال قائلهم

البس لكل حالة لبوسها
اما نعيمها واما بوسها

وقيل كانت صفائح فحلقها وسردها (لكم) متعلق بعلمنا او بمحذوف هو صفة لبوس (لتحصنكم) اى اللبوس بتأويل الدرع وقرئ بالتذكير على ان الضمير لداود عليه السلام او لبوس وقرئ بنون العظمة وهو بدل اشتمال من لكم باعادة الجار مبين لكيفية الاختصاص والمنفعة المستفادة من لام لكم (من بأسكم) قيل من حرب عدوكم وقيل من وقع السلاح فيكم (فهل انتم شاكرون) امر وارد على صورة الاستفهام للمبالغة او التقريع (ولسليمان الريح) اى وسخرنا له الريح وايراد اللام ههنا دون الاول للدلالة على مابين التسخيرين من التفاوت فان تسخير ماسخر له عليه السلام من الريح وغيرها كان بطريق الانقياد الكلى له والامتثال بامره ونهيه والمقهورية

مستغيثا متضرعا اليه فقال يارب لاى شئ خلقتنى ياليتنى كنت حيضة القتنى أمى وياليتنى كنت عرفت الذنب الذى اذنبته والعمل الذى عملت حتى صرفت وجهك الكريم عنى الم اكن للغريب دارا وللمسكين قرارا ولليتيم وليا وللارملة قيما الهى انا عبد ذليل ان احسنت فالمن لك وان اسأت فبيدك عقوبتى جعلتنى للبلاء غرضا وللفتنة نصبا وسلطت على مالو سلطته على جبل لضعف من حمله الهى تقطعت اصابعى وتساقطت لهواتى وتناثر شعرى وذهب المال وصرت اسأل اللقمة فيطعمنى من يمن بها على ويعيرنى بفقرى وهلاك اولادى * قال الامام ابو القاسم الانصارى رحمه الله وفى جملة هذا الكلام ليتك لو كرهتنى لم تخلقنى ثم قال ولو كان ذلك صحيحا لاغتنمه ابليس فان قصده ان يحمله على الشكوى وان يخرجه عن حلية الصابرين والله تعالى لم يخبر عنه الا قوله انى مسنى الضر وانت ارحم الراحمين ثم قال انا وجدناه صابرا نعم العبد انه اواب واختلف العلماء فى السبب الذى قال لاجله انى مسنى الضر وانت ارحم الراحمين وفى مدة بلائه (فالرواية الاولى) روى ابن شهاب عن انس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ايوب عليه السلام بقى فى البلاء ثمانى عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد الا رجلين من اخوانه كانا يغدوان ويروحان اليه فقال احدهما للآخر ذات يوم والله لقد اذنب ايوب ذنبا ما أذنبه احد من العالمين فقال له صاحبه وماذاك فقال منذ ثمانى عشر سنة لم يرحمه الله تعالى ولم يكشف ما به فما راحا الى ايوب لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك لايوب عليه السلام فقال ايوب ما ادرى ما تقولان غير ان الله تعالى يعلم انى كنت امر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله عزوجل فارجع الى بيتى فاكفر عنهما كراهية ان يذكرا الله الا فى حق * وفى رواية اخرى ان الرجلين لما دخلا عليه وجدا ريحا فقالا لو كان لايوب عند الله خير ما بلغ الى هذه الحالة قال فما شق على ايوب شئ مما ابتلى به اشد مما سمع منهما فقال اللهم ان كنت تعلم انى لم ابت شبعانا وانا اعلم بمكان جائع فصدقنى فصدقه وهما يسمعان ثم خر ايوب عليه السلام ساجدا ثم قال اللهم انى لا ارفع رأسى حتى تكشف ما بى قال فكشف الله ما به (الرواية الثانية) قال الحسن رحمه الله مكث ايوب عليه السلام بعد ما القى على الكناسة سبع سنين واشهرا ولم يبق له مال ولا ولد ولا صديق غير امرأته رحمة صبرت معه وكانت تأتيه بالطعام وتحمد الله تعالى مع ايوب وكان ايوب مواظبا على حمد الله تعالى والثناء عليه والصبر على ما ابتلاه فصرخ ابليس صرخة جزعا من صبر ايوب فاجتمع جنوده من اقطار الارض وقالوا له ما خبرك قال اعيانى هذا العبد الذى سألت الله ان يسلطنى عليه وعلى ماله وولده فلم ادع له مالا ولا ولدا ولم يزدد بذلك الا صبرا وحمدا لله تعالى ثم سلطت على جسده فتركته ملقى فى كناسة وما يقربه الا امرأته وهو مع ذلك لا يفتر عن الذكر والحمد لله فاستعنت بكم لتعينونى عليه فقالوا له اين مكرك اين عملك الذى اهلكت به من مضى قال بطل ذلك كله فى ايوب فأشيروا على قالوا ادليت آدم حين اخرجته من الجنة من اين اتيته

تحت ملكوته واما تسخير الجبال والطير لداود عليه السلام فلم يكن بهذه المثابة بل بطريق التبعية له عليه السلام والاقتداء به فى عبادة الله عز وعلا (عاصفة) حال من الريح والعامل فيها الفعل المقدر اى وسخرناله الريح حال كونها شديدة الهبوب من حيث انها كانت تبعد بكرسيه فى مدة يسيرة من الزمان كما قال تعالى غدوها شهر ورواحها شهر وكانت رخاء فى نفسها طيبة وقيل كانت رخاء تارة وعاصفة اخرى حسب ارادته عليه السلام وقرئ الريح بالرفع على الابتداء والخبر هو الظرف المقدم وعاصفة حينئذ حال من ضمير المبتدأ فى الخبر والعامل ما فيه من معنى الاستقرار وقرئ الرياح نصبا ورفعا (تجرى بامره) بمشيئته حال ثانية او بدل من الاولى او حال من ضميرها (الى الارض التى باركنا فيها) وهى الشام رواحا بعد ما سارت به منه بكرة قال الكلبى كان سليمان عليه السلام وقومه يركبون عليها من اصطخر الى الشام والى حيث شاء ثم يعود الى منزله (وكنا بكل شئ عالمين) فنجريه حسبما تقتضيه الحكمة (ومن الشياطين) اى وسخرناله من الشياطين (من يغوصون له) فى البحار ويستخرجون له من نفائسها وقيل من رفع على الابتداء وخبره ما قبله والاول هو الاظهر (ويعملون عملا دون ذلك) اى غير ماذكر من بناء المدن والقصور

قال من قبل امرأته قالوا فشأنك بأيوب من قبل امرأته فانه لايستطيع ان يعصيها لانه لايقربه احد غيرها قال اصبتم فانطلق حتى اتى امرأته فتمثل لها فى صورة رجل فقال اين بعلك ياامة الله قالت هو هذا يحك قروحه وتتردد الدواب فى جسده فلما سمعها طمع ان يكون ذلك كلمة جزع فوسوس اليها وذكرها ما كان لها من النعم والمال وذكرها جمال ايوب وشبابه قال الحسن رحمه الله فصرخت فلما صرخت علم انها قد جزعت فاتاها بسخلة وقال ليذبح هذه لى ايوب ويبرأ قال فجاءت تصرخ الى ايوب يا ايوب حتى متى يعذبك ربك الا يرحمك اين المال اين الماشية اين الولد اين الصديق اين اللون الحسن اين جسمك الذى قد بلى وصار مثل الرماد وتتردد فيه الدواب اذبح هذه السخلة واسترح فقال ايوب عليه السلام اتاك عدو الله ونفخ فيك فاجبته ويلك أترين ما تبكين عليه مما تذكرين مما كنا فيه من المال والولد والصحة من اعطانا ذلك قالت الله قال فكم متعنا به قالت ثمانين سنة قال فمذ كم ابتلانا الله بهذا البلاء قالت منذ سبع سنين واشهر قال ويلك والله ما انصفت ربك ألا صبرت فى البلاء ثمانين سنة كما كنا فى الرخاء ثمانين سنة والله لئن شفانى الله لاجلدنك مائة جلدة امرتنى ان اذبح لغير الله وحرام على ان اذوق بعد هذا شيئا من طعامك وشرابك الذى تأتينى به فطردها فذهبت فلما نظر ايوب فى شأنه وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق وقد ذهبت امرأته خر ساجدا وقال رب انى مسنى الضر وانت أرحم الراحمين فقال ارفع رأسك فقد استجبت لك اركض برجلك فركض برجله فنبعت عين ماء فاغتسل منها فلم يبق فى ظاهر بدنه دابة الا سقطت منه ثم ضرب برجله مرة اخرى فنبعت عين اخرى فشرب منها فلم يبق فى جوفه داء الا خرج وقام صحيحا وعاد اليه شبابه وجماله حتى صار احسن ما كان ثم كسى حلة فلما قام جعل يلتفت فلا يرى شيأ مما كان له من الاهل والولد والمال الا وقد ضعفه الله تعالى حتى صار احسن مما كان حتى ذكر ان الماء الذى اغتسل منه تطاير على صدره جرادا من ذهب قال فجعل يضمه بيده فأوحى الله اليه يا ايوب الم اغنك قال بلى ولكنها بركتك فمن يشبع منها قال فخرج حتى جلس على مكان مشرف ثم ان امرأته قالت هب انه طردنى أفأتركه حتى يموت جوعا وتأكله السباع لارجعن اليه فلما رجعت ما رأت تلك الكناسة ولا تلك الحال واذا الامور قد تغيرت فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكى وذلك بعين ايوب عليه السلام وهابت صاحب الحلة ان تأتيه وتسأله عنه فأرسل اليها ايوب عليه السلام ودعاها وقال ما تريدين ياامة الله فبكت وقالت اردت ذلك المبتلى الذى كان ملقى على الكناسة فقال لها ايوب عليه السلام ما كان منك فبكت وقالت بعلى فقال اتعرفينه اذا رأيتيه قالت وهل يخفى على احد يراه فتبسم وقال انا هو فعرفته بضحكه فاعتنقته ثم قال انك امرتينى ان اذبح سخلة لابليس وانى اطعت الله وعصيت الشيطان ودعوت الله تعالى فرد على ما ترين (الرواية الثالثة) قال الضحاك ومقاتل بقى فى البلاء سبع سنين وسبعة اشهر وسبعة ايام وسبع ساعات وقال وهب رحمه

واختراع الصنائع الغريبة لقوله تعالى يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل الآية وهؤلاء اما الفرقة الاولى اوغيرها لعموم كلمة من كأنه قيل ومن يعملون وجمع الضمير الراجع اليها باعتبار معناها بعد ما رجح جانبه بقوله تعالى ومن الشياطين روى ان المسخر له عليه السلام كفارهم لامؤمنوهم لقوله تعالى ومن الشياطين وقوله تعالى (وكنا لهم حافظين) اى من ان يزيغوا عن امره او يفسدوا على ما هو جبلتهم قيل وكل بهم جمعا من الملائكة وجمعا من مؤمنى الجن وقال الزجاج كان يحفظهم من ان يفسدوا ما عملوا وكان دأبهم ان يفسدوا بالليل ما عملوه بالنهار (وايوب) الكلام فيه كما مر فى قوله تعالى وداود وسليمان اى واذكر خبر ايوب (اذ نادى ربه انى) اى بأنى (مسنى الضر) وقرئ بالكسر على اضمار القول او تضمين النداء معناه والضر شائع فى كل ضرر والضر خاص بما فى النفس من مرض وهزال ونحوهما (وانت ارحم الراحمين) وصفه تعالى بغاية الرحمة بعد ما ذكر نفسه بما يوجبها واكتفى به عن عرض المطلب لطفا فى السؤال وكان عليه السلام روميا من ولد عيص بن اسحق استنبأه الله تعالى وكثر اهله وماله فابتلاه الله تعالى بهلاك اولاده بهدم بيت عليهم وذهاب امواله والمرض فى بدنه ثمانى عشرة سنة او ثلاث عشرة

الله بقى فى البلاء ثلاث سنين فلما غلب ايوب ابليس لعنه الله ذهب ابليس الى امرأته على هيئة ليست كهيئة بنى آدم فى العظم والجسم والجمال على مركب ليس كراكب الناس وقال لها انت صاحبة ايوب قالت نعم قال فهل تعرفيني قالت لا قال انا اله الارض انا صنعت بأيوب ما صنعت وذلك انه عبد اله السماء وتركني فاغضبني ولو سجد لي سجدة واحدة رددت عليك وعليه جميع ما لكما من مال وولد فان ذلك عندى * قال وهب وسمعت انه قال لو ان صاحبك أكل طعاما ولم يسم الله تعالى لعوفى مما هو فيه من البلاء * وفى رواية اخرى بل قال لها لو شئت فاسجدى لى سجدة واحدة حتى ارد عليك المال والولد واعافى زوجك فرجعت الى ايوب فأخبرته بما قال لها فقال لها ايوب اتاك عدو الله ليفتنك عن دينك ثم اقسم لئن عافانى الله لاجلدنك مائة جلدة وقال عند ذلك مسنى الضر يعنى من طمع ابليس فى سجودى له وسجود زوجتى ودعائه اياها واياى الى الكفر (الرواية الرابعة) قال وهب كانت امرأة ايوب عليه السلام تعمل للناس وتأتيه بقوته فلما طال عليه البلاء سئمها الناس فلم يستعملوها فالتمست ذات يوم شيئا من الطعام فلم تجد شيئا فجزت قرنا من رأسها فباعته برغيف فأتته به فقال لها اين قرنك فأخبرته بذلك فحينئذ قال مسنى الضر (الرواية الخامسة) قال اسمعيل السدى لم يقل ايوب مسنى الضر الا لاشياء ثلاث (احدها) قول الرجلين له لو كان عملك الذى كنا نرى لله تعالى لما اصابك الذى اصابك (وثانيها) كان لامرأته ثلاث ذوائب فعمدت الى احداها وقطعتها وباعتها فاعطوها بذلك خبزا ولحما فجاءت الى ايوب عليه السلام فقال من اين هذا فقالت كل فانه حلال فلما كان من الغد لم تجد شيئا فباعت الثانية وكذلك فعلت فى اليوم الثالث وقالت كل فانه حلال فقال لا آكل ما لم تخبريني فاخبرته فبلغ ذلك من ايوب ما الله به عليم * وقيل انما باعت ذوائبها لان ابليس تمثل لقوم فى صورة بشر وقال لئن تركتم ايوب فى قريتكم فانى اخاف ان يعدى اليكم ما به من العلة فأخرجوه الى باب البلد ثم قال لهم ان امرأته تدخل فى بيوتكم وتعمل وتمس زوجها اما تخافون ان تعدى اليكم علته فحينئذ لم يستعملها احد فباعت ضفيرتها (وثالثها) حين قالت امرأته ما قالت فحينئذ دعا (الرواية السادسة) قيل سقطت دودة من فخذه فرفعها وردها الى موضعها وقال قد جعلنى الله تعالى طعمة لك فعضته عضة شديدة فقال مسنى الضر فأوحى الله تعالى اليه لولا انى جعلت تحت كل شعرة منك صبرا لما صبرت (المسئلة الثانية) اعلم ان المعتزلة قد طعنوا فى هذه القصة من وجوه (احدها) قال الجبائى ذهب بعض الجهال الى ان ما كان به من المرض كان فعلا للشيطان سلطه الله عليه لقوله تعالى حكاية عنه مسنى الشيطان بنصب وعذاب وهذا جهل (اما اولا) فلانه لو قدر على احداث الامراض والاسقام وضدهما من العافية لتهيأ له فعل الاجسام ومن هذا حاله يكون الها (واما ثانيا) فلان الله تعالى اخبر عنه وعن جنوده بانه قال وما كان لى عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لى والواجب تصديق خبر الله تعالى دون الرجوع الى

سنة او سبعا وسبعة اشهر وسبعة ايام وسبع ساعات روى ان امرأته ملخير بنت ميشا بن يوسف عليه السلام او رحمة بنت افرايم بن يوسف قالت له يوما لو دعوت الله تعالى فقال كم كانت مدة الرخاء فقالت ثمانين سنة فقال استحى من الله تعالى ان ادعوه وما بلغت مدة بلائى مدة رخائى وروى ان ابليس اتاها على هيئة عظيمة فقال انا اله الارض فعلت بزوجك ما فعلت لانه تركنى وعبد اله السماء فلو سجد لى سجدة لرددت عليه وعليك جميع ما اخذت منكما وفى رواية لو سجدت لى سجدة لرجعت المال والولد وعافيت زوجك فرجعت الى ايوب وكان ملقى فى الكناسة لا يقرب منه احد فأخبرته بالقصة فقال عليه السلام كأنك افتتنت بقول اللعين لئن عافانى الله عز وجل لاضربنك مائة سوط وحرام على ان اذوق بعد هذا شيئا من طعامك وشرابك فطردها فبقى طريحا فى الكناسة لا يحوم حوله احد من الناس فعند ذلك خر ساجدا فقال رب انى مسنى الضر وانت ارحم الراحمين فقيل له ارفع رأسك فقد استجيبت لك اركض برجلك فركض فنبعت من تحته عين ماء فاغتسل منها فلم يبق فى ظاهر بدنه دابة الا سقطت ولا جراحة الا برئت ثم ركض مرة اخرى فنبعت عين اخرى فشرب منها فلم يبق فى جوفه داء الا خرج وعاد صحيحا ورجع اليه شبابه وجماله

ماروى عن وهب بن منبه رضى الله عنه * واعلم ان هذا الاعتراض ضعيف لان المذكور فى الحكاية ان الشيطان نفخ فى منخره فوقعت الحكة فيه فلم قلتم ان القادر على النفخة التى تولد مثل هذه الحكة لابد وان يكون قادرا على خلق الاجسام وهل هذا الامحض التحكم واما التمسك بالنص فضعيف لانه انما يقدم على هذا الفعل متى علم انه لو اقدم عليه لما منعه الله تعالى عنه وهذه الحالة لم تحصل الا فى حق ايوب عليه السلام على مادلت الحكاية عليه من انه استأذن الله تعالى فاذن له فيه ومتى كان كذلك لم يبق بين ذلك النص وبين هذا الحكاية مناقضة (وثانيها) قالوا ماروى انه عليه السلام لم يسأل الاعند امور مخصوصة فبعيد لان الثابت فى العقل انه يحسن من المرء ان يسأل فى ذلك ربه ويفزع اليه كما يحسن منه المداواة واذا جاز ان يسأل ربه عند الغم بما يراه من اخوانه واهله جاز أيضا ان يسأل ربه من قبل نفسه فان قيل افلا يجوز انه تعالى تعبده بان لا يسأل الكشف الا فى آخر أمره قلنا يجوز ذلك بان يعلمه بان ازال ذلك به مدة مخصوصة من مصالحه ومصالح غيره لامحالة فعلم عليه السلام انه لاوجه لمسئلة فى هذا الامر الخاص فاذا قرب الوقت جاز أن يسأل ذلك من حيث يجوز أن يدوم ويجوز أن ينقطع (وثالثها) قالوا انتهاء ذلك المرض الى حد التنفير عنه غير جائز لان الامراض المنفرة من القبول غير جائزة على الانبياء عليهم السلام فهذا جملة ماقيل فى هذه الحكاية (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف قوله تعالى انى مسنى الضر اى ناداه بانى مسنى الضر وقرئ انى بالكسر على اضمار القول او لتضمين النداء معناه والضر بالفتح الضرر فى كل شئ وبالضم الضرر فى النفس من مرض وهزال (المسئلة الرابعة) انه عليه السلام الطف فى السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بالمطلوب (فان قيل) اليس ان الشكوى تقدح فى كونه صابرا (الجواب) قال سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى من شكا الى الله تعالى فانه لايعد ذلك جزعا اذا كان فى شكواه راضيا بقضاء الله تعالى اذ ليس من شرط الصبر استحلاء البلاء الم تسمع قول يعقوب عليه السلام انما اشكو بثى وحزنى الى الله اما قوله وانت ارحم الراحمين فالدليل على انه سبحانه ارحم الراحمين امور (احدها) ان كل من رحم غيره فاما ان يرحمه طلبا للثناء فى الدنيا او الثواب فى الآخرة اودفعا للرقة الجنسية عن الطبع وحينئذ يكون مطلوب ذلك الراحم منفعة نفسه اما الحق سبحانه فانه يرحم عباده من غير وجه من هذه الوجوه ومن غير ان يعود اليه من تلك الرحمة زيادة ولا نقصان من الثناء ومن صفات الكمال فكان سبحانه ارحم الراحمين (وثانيها) ان كل من يرحم غيره فلا يكون ذلك الا بمعونة رحمة الله تعالى لان من اعطى غيره طعاما او ثوبا او دفع عنه بلاء فلولا انه سبحانه خلق المطعوم والملبوس والادوية والاغذية والا لماقدر احد على اعطاء ذلك الشئ ثم بعد وصول تلك العطية اليه فلولا انه سبحانه جعله سببا للراحة لما حصل النفع بذلك فاذا رحمة العباد مسبوقة برحمة الله تعالى وملحوقة برحمته بل رحمتهم فيما بين الطرفين كالقطرة

ثم كبى حية وذلك قوله تعالى (فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر) فلما قام جعل يلتفت فلا يرى شيئا مما كان له من الاهل والمال الا وقد ضاعفه الله تعالى وذلك قوله تعالى (وآتيناه اهله ومثلهم معهم) وقيل كان ذلك بأن ولد له ضعف ما كان ثم ان امرأته قالت فى نفسها هب انه طردنى افأتركه حتى يموت جوعا ويأكله السباع لأرجعن اليه فلما رجعت مارأت تلك الكناسة ولا تلك الحال وقد تغيرت الامور فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكى وهابت صاحب الحلة ان تأتيه وتسأل عنه فارسل اليها ايوب ودعاها فقال ماتريدين ياامة الله فبكت وقالت اريد ذلك المبتلى الذى كان ملقى على الكناسة قال لها ما كان منك فبكت وقالت بعلى قال اتعرفينه اذا رأيته قالت وهل يخفى على فتبسم فقال انا ذلك فعرفته بضحكه فاعتنقته (رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) اى آتيناه ما ذكر لرحمتنا ايوب وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر فيثابوا كما أثيب اولرحمتنا العابدين الذين من جملتهم ايوب وذكرنا اياهم بالاحسان وعدم نسياننا لهم (واسمعيل وادريس وذا الكفل) اى واذكرهم وذو الكفل الياس وقيل يوشع بن نون وقيل زكريا سمى به لانه كان ذا حظ من الله تعالى اوتكفل منه او ضعف عمل انبياء زمانه وثوابهم فان الكفل يجئ بمعنى النصيب والكفالة والضعف

فى البحر فوجب ان يكون تعالى هو ارحم الراحمين (وثالثها) ان الله تعالى لو لم يخلق فى قلب العبد تلك الدواعى والارادات لاستحال صدور ذلك الفعل عنه فكان الراحم هو الحق سبحانه من حيث انه هو الذى انشأ تلك الداعية فثبت انه ارحم الراحمين فان قيل كيف يكون ارحم الراحمين مع انه سبحانه ملأ الدنيا من الآفات والاسقام والامراض والآلام وسلط البعض على البعض بالذبح والكسر والايذاء وكان قادرا على ان يغنى كل واحد عن ايلام الآخر وايذائه (والجواب) ان كونه سبحانه ضارا لا ينافى كونه نافعا بل هو الضار النافع فاضراره ليس لدفع مشقة وانفاعه ليس لجلب منفعة بل لا يسأل عما يفعل اما قوله تعالى فاستجبنا له فانه يدل على انه دعا ربه لكن هذا الدعاء قد يجوز ان يكون واقعا منه على سبيل التعريض كما يقال ان رأيت او أردت او احببت فافعل كذا ويجوز ان يكون على سبيل التصريح وان كان الاليق بالادب وبدلالة الآية هو الاول ثم انه سبحانه بين انه كشف ما به من ضر وذلك يقتضى اعادته الى ما كان فى بدنه واحواله وبين الله تعالى انه آتاه اهله ويدخل فيه من ينسب اليه من زوجة وولد وغيرهما ثم فيه قولان (احدهما) وهو قول ابن مسعود وابن عباس وقتادة ومقاتل والكلبى وكعب رضى الله عنهم ان الله تعالى احيا له اهله يعنى اولاده باعيانهم (والثانى) روى الليث رضى الله عنه قال ارسل مجاهد الى عكرمة وسأله عن الآية فقال قيل له ان اهلك لك فى الآخرة فان شئت عجلناهم لك فى الدنيا وان شئت كانوا لك فى الآخرة وآتيناك مثلهم فى الدنيا فقال يكونون لى فى الآخرة واوتى مثلهم فى الدنيا والقول الاول اولى لان قوله وآتيناه اهله يدل بظاهره على انه تعالى اعادهم فى الدنيا واعطاه معهم مثلهم ايضا واما قوله وذكرى للعابدين ففيه دلالة على انه تعالى فعل ذلك لكى يتفكر فيه فيكون داعية للعابدين فى الصبر والاحتساب وانما خص العابدين بالذكر لانهم يختصون بالانتفاع بذلك (القصة السابعة) ❁ قوله تعالى (واسمعيل وادريس وذا الكفل كل من الصابرين وادخلناهم فى رحمتنا انهم من الصالحين) اعلم انه تعالى لما ذكر صبر ايوب عليه السلام وانقطاعه اليه اتبعه بذكر هؤلاء فانهم كانوا ايضا من الصابرين على الشدائد والمحن والعبادة اما اسمعيل عليه السلام فلانه صبر على الانقياد للذبح وصبر على المقام ببلد لا زرع فيه ولا ضرع ولا بناء وصبر فى بناء البيت فلا جرم اكرمه الله تعالى واخرج من صلبه خاتم النبيين واما ادريس عليه السلام فقد تقدمت قصته فى سورة مريم عليها السلام قال ابن عمر رضى الله عنهما بعث الى قومه داعيا لهم الى الله تعالى فأبوا فأهلكهم الله تعالى ورفع ادريس الى السماء الرابعة واما ذو الكفل ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فيها بحثان (الاول) قال الزجاج الكفل فى اللغة الكساء الذى يجعل على عجز البعير والكفل ايضا النصيب واختلفوا فى انه لم سمى بهذا الاسم على وجوه (احدها) وهو قول المحققين انه كان له ضعف عمل الانبياء عليهم السلام فى زمانه وضعف ثوابهم (وثانيها) قال ابن عباس

(كل) اى كل واحد من هؤلاء (من الصابرين) اى على مشاق التكاليف وشدائد النوب والجملة استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من الامر بذكرهم (وادخلناهم فى رحمتنا) اى فى النبوة او فى نعمة الآخرة (انهم من الصالحين) اى الكاملين فى الصلاح الكامل الذى لا يحوم حوله شائبة الفساد وهم الانبياء فان صلاحهم معصوم من كدر الفساد (وذا النون) اى واذكر صاحب الحوت وهو يونس عليه السلام (اذ ذهب مغاضبا) اى مراغما لقومه لما برم من طول دعوته اياهم وشدة شكيمتهم وتمادى اصرارهم مهاجرا عنهم قبل ان يؤمر وقيل وعدهم بالعذاب فلم يأتهم لميعادهم بتوبتهم ولم يعرف الحال فظن انه كذبهم وغضب من ذلك وهو من بناء المبالغة للمبالغة او لانه اغضبهم بالمهاجرة لخوفهم لحوق العذاب عندها وقرئ مغضبا (فظن ان لن نقدر عليه) اى لن نضيق عليه او لن نقضى عليه بالعقوبة من القدر ويؤيده انه قرئ مشددا او لن نعمل فيه قدرتنا وقيل هو تمثيل لحاله بحال من يظن ان لن نقدر عليه اى نعامله معاملة من يظن ان لن نقدر عليه فى مراغمته قومه من غير انتظار لامرنا كما فى قوله تعالى يحسب ان ماله اخلده اى نعامله معاملة من يحسب ذلك وقيل خطرة شيطانية سبقت الى وهمه فسميت ظنا للمبالغة وقرئ بالياء مخففا ومثقلا مبنيا للفاعل ومبنيا للمفعول (فنادى) الفاء فصيحة اى فكان ما كان

رضى الله عنهما فى رواية ان نبيا من انبياء بنى اسرائيل آتاه الله الملك والنبوة ثم اوحى الله اليه انى اريد قبض روحك فاعرض ملكك على بنى اسرائيل فمن تكفل لك انه يصلى بالليل حتى يصبح ويصوم بالنهار فلا يفطر ويقضى بين الناس فلا يغضب فادفع ملكك اليه فقام ذلك النبى فى بنى اسرائيل واخبرهم بذلك فقام شاب وقال انا اتكفل لك بهذا فقال فى القوم من هو اكبر منك فاقعد ثم صاح الثانية والثالثة فقام الرجل وقال اتكفل لك بهذه الثلاث فدفع اليه ملكه ووفى بما ضمن فحسده ابليس فأتاه وقت ما يريد ان يقيل فقال ان لى غريما قد مطلنى حقى وقد دعوته اليك فأبى فأرسل معى من يأتيك به فأرسل معه وقعد حتى فاتته القيلولة وعاد الى صلاته وصلى ليله الى الصباح ثم أتاه من الغد عند القيلولة فقال ان الرجل الذى استأذنتك له هو فى موضع كذا فلا تبرح حتى آتيك به فذهب وبقى هو منتظرا حتى فاتته القيلولة ثم أتاه فقال له هرب منى فمضى ذو الكفل الى صلاته فصلى ليلته حتى اصبح فأتاه ابليس وعرفه نفسه وقال له حسدتك على عصمة الله اياك فأردت ان اخرجك حتى لا تفى بما تكفلت به فشكره الله تعالى على ذلك ونبأه فسمى ذا الكفل وعلى هذا فالمراد بالكفل هنا الكفالة (وثالثها) قال مجاهد لما كبر اليسع عليه السلام قال لو انى استخلفت رجلا على الناس فى حياتى حتى انظر كيف يعمل فجمع الناس وقال من يتقبل منى حتى استخلفه ثلاثا يصلى بالليل ويصوم بالنهار ويقضى فلا يغضب وذكر على كرم الله وجهه نحو ما ذكره ابن عباس رضى الله عنه من فعل ابليس وتفويته عليه القيلولة ثلاثة ايام وزاد ان ذا الكفل قال للبواب فى اليوم الثالث قد غلب على النعاس فلا تدعن احدا يقرب هذا الباب حتى أنام فانى قد شق على النعاس فجاء ابليس فلم يأذن له البواب فدخل من كوة فى البيت وتسور فيها فاذا هو يدق الباب من داخل فاستيقظ الرجل وعاتب البواب فقال أما من قبلى فلم تؤت فقام الى الباب فاذا هو مغلق وابليس على صورة شيخ معه فى البيت فقال له أتنام والخصوم على الباب فعرفه فقال انت ابليس قال نعم اعييتنى فى كل شئ ففعلت هذه الافعال لاغضبك فعصمك الله منى فسمى ذا الكفل لانه قد وفى بما تكفل به (المسئلة الثانية) قال ابو موسى الاشعرى رضى الله عنه ومجاهد ذو الكفل لم يكن نبيا ولكن كان عبدا صالحا وقال الحسن والاكثرون انه من الانبياء عليهم السلام وهذا اولى لوجوه (احدها) ان ذا الكفل يحتمل ان يكون لقبا وان يكون اسما والاقرب ان يكون مفيدا لان الاسم اذا امكن حمله على ما يفيد فهو اولى من اللقب اذا ثبت هذا فنقول الكفل هو النصيب والظاهر ان الله تعالى انما سماه بذلك على سبيل التعظيم فوجب ان يكون ذلك الكفل هو كفل الثواب فهو انما سمى بذلك لان عمله وثواب عمله كان ضعف عمل غيره وضعف ثواب غيره ولقد كان فى زمنه انبياء على ما روى ومن ليس بنبى لا يكون افضل من الانبياء (وثانيها) انه تعالى قرن ذكره بذكر اسمعيل وادريس والغرض ذكر الفضلاء من عباده ليتأسى بهم وذلك يدل على نبوته (وثالثها) ان

من المساهمة والتقام الحوت فنادى (فى الظلمات) اى فى الظلمة الشديدة المتكاثفة اوفى ظلمات بطن الحوت والبحر والليل وقيل ابتلع حوته حوت اكبر منه فحصل فى ظلمتى بطنى الحوتين وظلمتى البحر والليل (ان لا اله الا انت) اى بأنه لا اله الا انت على ان ان مخففة من ان وضمير الشأن محذوف اوأى لا اله الا انت على انها مفسرة (سبحانك) انزهك تنزيها لائقا بك من ان يعجزك شئ اوان يكون ابتلائى بهذا بغير سبب من جهتى (انى كنت من الظالمين) لانفسهم بتعريضها للهلكة حيث بادرت الى المهاجرة (فاستجبنا له) اى دعاه الذى دعاه فى ضمن الاعتراف بالذنب على الطف وجه واحسنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء الا استجيب له (ونجيناه من الغم) بان قذفه الحوت الى الساحل بعد اربع ساعات كان فيها فى بطنه وقيل بعد ثلاثة ايام وقيل الغم غم الالتقام وقيل الخطيئة (وكذلك) اى مثل ذلك الانجاء الكامل (ننجى المؤمنين) من غموم دعوا الله تعالى فيها بالاخلاص لا انجاء ادنى منه وفى الامام نجى فلذلك اخفى الجماعة النون الثانية فانها تخفى مع حروف الفم وقرئ بتشديد الجيم على ان اصله ننجى فحذفت الثانية كما حذفت التاء فى تظاهرون وهى وان كانت فاء فحذفها اوقع من حذف حرف المضارعة التى لمعنى ولا يقدح فيه اختلاف حركتى النونين فان الداعى الى الحذف اجتماع المثلين

السورة ملقبة بسورة الانبياء فكل من ذكره الله تعالى فيها فهو نبي (المسئلة الثالثة) قيل ان ذا الكفل زكريا وقيل يوشع وقيل الياس ثم قالوا خمسة من الانبياء سماهم الله تعالى باسمين اسرائيل ويعقوب الياس وذو الكفل عيسى والمسيح يونس وذو النون محمد واحمد واما قوله تعالى كل من الصابرين اى على القيام بأمر الله تعالى واحتمال الاذى فى نصرة دينه وقوله وادخلناهم فى رحمتنا قال مقاتل الرحمة النبوة وقال آخرون بل يتناول جميع اعمال البر والخير (القصة الثامنة) قصة يونس عليه السلام ۞ قوله تعالى (وذا النون

اذ ذهب مغاضبا فظن ان لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات ان لا اله الا انت سبحانك انى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين)

اعلم ان ههنا مسائل (المسئلة الاولى) انه لا خلاف فى ان ذا النون هو يونس عليه السلام لان النون هو السمكة وقد ذكرنا ان الاسم اذا دار بين ان يكون لقبا محضا وبين ان يكون مفيدا فحمله على المفيد اولى خصوصا اذا علمت الفائدة التى يصلح لها ذلك الوصف (المسئلة الثانية) اختلفوا فى ان وقوعه عليه السلام فى بطن السمكة كان قبل اشتغاله بأداء رسالة الله تعالى او بعده (اما القول الاول) فقال ابن عباس رضى الله عنه كان يونس عليه السلام وقومه يسكنون فلسطين فغزاهم ملك وسبى منهم تسعة اسباط ونصفا وبقى سبطان ونصف فأوحى الله تعالى الى شعيب النبى عليه السلام ان اذهب الى حزقيل الملك وقل له حتى يوجه نبيا قويا امينا فانى القى فى قلوب اولئك ان يرسلوا معه بنى اسرائيل فقال له الملك فمن ترى وكان فى مملكته خمسة من الانبياء فقال يونس بن متى فانه قوى امين فدعا الملك يونس وامره ان يخرج فقال يونس هل امرك الله باخراجى قال لا قال فهل سمانى لك قال لا قال فههنا انبياء غيرى فألحوا عليه فخرج مغاضبا للملك ولقومه فأتى بحر الروم فوجد قوما هيؤا سفينة فركب معهم فلما تلججت السفينة تكفأت بهم وكادوا ان يغرقوا فقال الملاحون ههنا رجل عاص او عبد آبق لان السفينة لا تفعل هذا من غير ريح الا وفيها رجل عاص ومن رسمنا انا اذا ابتلينا بمثل هذا البلاء ان نقترع فمن وقعت عليه القرعة القيناه فى البحر ولان يغرق احد خير من ان تغرق السفينة فاقترعوا ثلاث مرات فوقعت القرعة فيها كلها على يونس عليه السلام فقال انا الرجل العاصى والعبد الآبق والقى نفسه فى البحر فجاء حوت فابتلعه فأوحى الله تعالى الى الحوت لا تؤذ منه شعرة فانى جعلت بطنك سجنا له ولم اجعله طعاما لك ثم لما نجاه الله تعالى من بطن الحوت نبذه بالعراء كالفرخ المنتوف ليس عليه شعر ولا جلد فانبت الله تعالى عليه شجرة من يقطين يستظل بها ويأكل من ثمرها حتى اشتد فلما يبست الشجرة حزن عليها يونس عليه السلام فقيل له أتحزن على شجرة ولم تحزن على مائة الف او يزيدون حيث لم تذهب اليهم ولم تطلب راحتهم ثم اوحى الله اليه وامره ان يذهب اليهم فتوجه يونس عليه السلام نحوهم حتى دخل ارضهم وهم منه غير بعيد فأتاهم يونس عليه السلام وقال لملكهم ان الله تعالى ارسلنى

مع تعذر الادغام وامتناع الحذف فى تجافى لخوف اللبس وقيل هو ماض مجهول اسند الى ضمير المصدر وسكن آخره تخفيفا ورد بأنه لا يسند الى المصدر والمفعول مذكور والماضى لا يسكن آخره (وزكريا) اى واذكر خبره (اذ نادى ربه) وقال (رب لا تذرنى فردا) اى وحيدا بلا ولد يرثنى (وانت خير الوارثين) فحسبى انت ان لم ترزقنى وارثا (فاستجبنا له) اى دعاءه (ووهبنا له يحيى) وقد مر بيان كيفية الاستجابة والهبة فى سورة مريم (واصلحنا له زوجه) اى اصلحناها للولادة بعد عقرها واصلحناها للمعاشرة بتحسين خلقها وكانت حردة وقوله تعالى (انهم كانوا يسارعون فى الخيرات) تعليل لما فصل من فنون احسانه تعالى المتعلقة بالانبياء المذكورين اى كانوا يبادرون فى وجوه الخيرات مع ثباتهم واستقرارهم فى اصل الخير وهو السر فى ايثار كلمة فى على كلمة الى المشعرة بخلاف المقصود من كونهم خارجين عن اصل الخيرات متوجهين اليها كما فى قوله تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة (ويدعوننا رغبا ورهبا) ذوى رغب ورهب او راغبين فى الثواب راجين للاجابة او فى الطاعة وخائفين العقاب او المعصية او للرغب والرهب (وكانوا لنا خاشعين) اى مخبتين متضرعين او دائمى الوجل والمعنى انهم نالوا من الله تعالى ما نالوا بسبب اتصافهم بهذه الخصال الحميدة (والتى احصنت فرجها) اى اذكر خبر التى احصنته على الاطلاق من الحلال

اليك لترسل معى بنى اسرائيل فقالوا مانعرف ماتقول ولو علمنا انك صادق لفعلنا ولقد أتينا كم فى دياركم وسبينا كم فلو كان كما تقول لمنعنا الله عنكم فطاف ثلاثة ايام يدعوهم الى ذلك فأبوا عليه فأوحى الله تعالى اليه قل لهم ان لم تؤمنوا جاءكم العذاب فأبلغهم فأبوا فخرج من عندهم فلما فقدوه ندموا على فعلهم فانطلقوا يطلبونه فلم يقدروا عليه ثم ذكروا امرهم وامر يونس للعلماء الذين كانوا فى دينهم فقالوا انظروا واطلبوه فى المدينة فان كان فيها فليس مما ذكر من نزول العذاب شئ وان كان قد خرج فهو كما قال فطلبوه فقيل لهم انه خرج العشى فلما ايسوا اغلقوا باب مدينتهم فلم يدخلها بقرهم ولا غنمهم وعزلوا الوالدة عن ولدها وكذا الصبيان والامهات ثم قاموا ينتظرون الصبح فلما انشق الصبح رأوا العذاب ينزل من السماء فشقوا جيوبهم ووضعت الحوامل ما فى بطونها وصاح الصبيان وثغت الاغنام والبقر فرفع الله تعالى عنهم العذاب فبعثوا الى يونس عليه السلام فآمنوا به وبعثوا معه بنى اسرائيل فعلى هذا القول كانت رسالة يونس عليه السلام بعد مانبذه الحوت ودليل هذا القول قوله تعالى فى سورة الصافات فنبذناه بالعراء وهو سقيم وأنبتنا عليه شجرة من يقطين وارسلناه الى مائة الف او يزيدون وفى هذا القول رواية اخرى وهى ان جبريل عليه السلام قال ليونس عليه السلام انطلق الى اهل نينوى وانذرهم ان العذاب قد حضرهم فقال يونس عليه السلام التمس دابة فقال الامر اعجل من ذلك فغضب وانطلق الى السفينة وباقى الحكاية كما مرت الى ان التقمه الحوت فانطلق الى ان وصل الى نينوى فألقاه هناك (اما القول الثانى) وهو ان قصة الحوت كانت بعد دعائه اهل نينوى وتبليغه رسالة الله اليهم قالوا انهم لما لم يؤمنوا اوعدهم بالعذاب فلما كشف العذاب عنهم بعدما توعدهم به خرج منهم مغاضبا ثم ذكروا فى سبب الخروج والغضب امورا (احدها) انه استحيى ان يكون بين قوم قد جربوا عليه الكذب (وثانيها) انه كان من عادتهم قتل الكاذب (وثالثها) انه دخلته الانفة (ورابعها) لما لم ينزل العذاب بأولئك واكثر العلماء على القول بأن قصة الحوت وذهاب يونس عليه السلام مغاضبا بعد ان ارسله الله تعالى اليهم وبعد رفع العذاب عنهم (المسئلة الثالثة) احتج القائلون بجواز الذنب على الانبياء عليهم السلام بهذه الآية من وجوه (احدها) ان اكثر المفسرين على انه ذهب يونس مغاضبا لربه ويقال هذا قول ابن مسعود وابن عباس والحسن والشعبى وسعيد بن جبير ووهب واختيار ابن قتيبة ومحمد بن جرير فاذا كان كذلك فيلزم ان مغاضبته لله تعالى من اعظم الذنوب ثم على تقدير ان هذه المغاضبة لم تكن مع الله تعالى بل كانت مع ذلك الملك او مع القوم فهو ايضا كان محظورا لان الله تعالى قال فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت وذلك يقتضى ان ذلك الفعل من يونس كان محظورا (وثانيها) قوله تعالى فظن ان لن نقدر عليه وذلك يقتضى كونه شاكا فى قدرة الله تعالى (وثالثها) قوله انى كنت من الظالمين والظالم من اسماء الذم لقوله تعالى ألا لعنة الله على

(الظالمين)

والحرام والتعبير عنها بالموصول لتفخيم شانها وتنزيهها عما زعموه فى حقها آثر ذى اثير (فنفخنا فيها) اى احيينا عيسى فى جوفها (من روحنا) من الروح الذى هو من امرنا وقيل فعلنا النفخ فيها من جهة روحنا جبريل عليه السلام (وجعلناها وابنها) اى قصتهما او حالهما (آية للعالمين) فان من تأمل حالهما تحقق كمال قدرته عز وجل فالمراد بالآية ماحصل بهما من الآية التامة مع تكاثر آيات كل واحد منهما وقيل اريد بالآية الجنس الشامل لما لكل واحد منهما من الآيات المستقلة وقيل المعنى وجعلناها آية وابنها آية فحذفت الاولى لدلالة الثانية عليها (ان هذه) اى ملة التوحيد والاسلام اشير اليها بهذه تنبيها على كمال ظهور امرها فى الصحة والسداد (امتكم) اى ملتكم التى يجب ان تحافظوا على حدودها وتراعوا حقوقها ولا تخلوا بشئ منها والخطاب للناس قاطبة (امة واحدة) نصب على الحالية من امتكم اى غير مختلفة فيما بين الانبياء عليهم السلام اذ لا مشاركة لغيرها فى صحة الاتباع ولا احتمال لتبدلها وتغيرها كفروع الشرائع المتبدلة حسب تبدل الامم والاعصار وقرئ امتكم بالنصب على البدلية من اسم ان وامة

الظالمين (ورابعها) انه لولم يصدر منه الذنب لما عاقبه الله بأن القاه فى بطن الحوت (وخامسها) قوله تعالى فى آية اخرى فالتقمه الحوت وهو مليم والمليم هو ذو الملامة ومن كان كذلك فهو مذنب (وسادسها) قوله ولا تكن كصاحب الحوت فان لم يكن صاحب الحوت مذنبا لم يجز النهى عن التشبيه وان كان مذنبا فقد حصل الغرض (وسابعها) انه قال ولا تكن كصاحب الحوت وقال فاصبر كما صبر اولو العزم من الرسل فلزم ان لا يكون يونس من اولى العزم وكان موسى من اولى العزم ثم قال فى حقه لو كان ابن عمران حيا ما وسعه الا اتباعى وقال فى يونس لا تفضلونى على يونس بن متى وهذا خارج عن تفسير الآية (والجواب) عن الاول انه ليس فى الآية من غاضبه لكنا نقطع على انه لا يجوز على نبى الله ان يغاضب ربه لان ذلك صفة من يجهل كون الله مالكا للامر والنهى والجاهل بالله لا يكون مؤمنا فضلا عن ان يكون نبيا واما ماروى انه خرج مغاضبا لامر يرجع الى الاستعداد وتناول النفل فمما يرتفع حال الانبياء عليهم السلام عنه لان الله تعالى اذا امرهم بشئ فلا يجوز ان يخالفوه لقوله تعالى وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امرا ان تكون لهم الخيرة من امرهم وقوله فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم الى قوله ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت فاذا كان فى الاستعداد مخالفة لم يجز ان يقع ذلك منهم واذا ثبت انه لا يجوز صرف هذه المغاضبة الى الله تعالى وجب ان يكون المراد انه خرج مغاضبا لغير الله والغالب انه انما يغاضب من يعصيه فيما يأمر به فيحتمل قومه او الملك او هما جميعا ومعنى مغاضبته لقومه انه اغضبهم بمفارقته لخوفهم حلول العذاب عليهم عندها وقرأ ابو شرف مغضبا اما قوله مغاضبة القوم ايضا كانت محظورة لقوله تعالى ولا تكن كصاحب الحوت قلنا لا نسلم انها كانت محظورة فان الله تعالى أمره بتبليغ تلك الرسالة اليهم وما أمره بأن يبقى معهم ابدا فظاهر الامر لا يقتضى التكرار فلم يكن خروجه من بينهم معصية واما الغضب فلا نسلم انه معصية وذلك لانه لما لم يكن منهيا عنه قبل ذلك فظن ان ذلك جائز من حيث انه لم يفعله الا غضبا لله تعالى وانفة لدينه وبغضا للكفر واهله بل كان الاولى له ان يصابر وينتظر الاذن من الله تعالى فى المهاجرة عنهم ولهذا قال تعالى ولا تكن كصاحب الحوت كأن الله تعالى أراد لمحمد صلى الله عليه وسلم افضل المنازل واعلاها (والجواب) عن الشبهة الثانية وهى التمسك بقوله تعالى فظن ان لن نقدر عليه ان نقول من ظن عجز الله تعالى فهو كافر ولا خلاف انه لا يجوز نسبة ذلك الى آحاد المؤمنين فكيف الى الانبياء عليهم السلام فاذن لا بد فيه من التأويل وفيه وجوه (احدها) فظن ان لن نقدر عليه اى لن نضيق عليه وهو كقوله تعالى الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر اى يضيق ومن قدر عليه رزقه اى ضيق واما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه اى ضيق معناه ان لن نضيق عليه واعلم ان على هذا التأويل تصير الآية حجة لنا وذلك لان يونس عليه السلام ظن انه

واحدة بالرفع على الخبرية وقرئتا بالرفع على انهما خبران (وانا ربكم) لا اله لكم غيرى (فاعبدون) خاصة لا غير وقوله تعالى (وتقطعوا امرهم بينهم) التفات الى الغيبة لينعى عليهم ما افسدوه من التفرق فى الدين وجعل امره قطعا موزعة وينهى قبائح افعالهم الى الآخرين كأنه قيل الا ترون الى عظيم ما ارتكب هؤلاء فى دين الله الذى اجمعت عليه كافة الانبياء عليهم السلام (كل) اى كل واحدة من الفرق المتقطعة وكل واحد من آحاد كل واحدة من تلك الفرق (الينا راجعون) بالبعث لا الى غيرنا فنجازيهم حينئذ بحسب اعمالهم وايراد اسم الفاعل للدلالة على الثبات والتحقق وقوله تعالى (فمن يعمل من الصالحات) الخ تفصيل الجزاء اى فمن يعمل بعض الصالحات او بعضا من الصالحات (وهو مؤمن) بالله ورسله (فلا كفران لسعيه) اى لا حرمان لثواب عمله ذلك عبر عن ذلك بالكفران الذى هو ستر النعمة وجحودها لبيان كمال نزاهته تعالى عنه بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح وابراز الاثابة فى معرض الامور الواجبة عليه تعالى ونفى نفى الجنس للمبالغة فى التنزيه وعبر عن العمل بالسعى لاظهار الاعتداد به (وانا له) اى

مخير ان شاء اقام وان شاء خرج وانه تعالى لايضيق عليه فى اختياره وكان فى المعلوم ان الصلاح فى تأخر خروجه وهذا من الله تعالى بيان لما يجرى مجرى العذر له من حيث خرج لا على تعمد المعصية لكن لظنه ان الامر فى خروجه موسع يجوز ان يقدم ويؤخر وكان الصلاح خلاف ذلك (وثانيها) ان يكون هذا من باب التمثيل بمعنى فكانت حالته ممثلة بحالة من ظن ان لن نقدر عليه فى خروجه من قومه من غير انتظار لامر الله تعالى (وثالثها) ان تفسر القدرة بالقضاء فالمعنى فظن ان لن نقضى عليه بشدة وهو قول مجاهد وقتادة والضحاك والكلبى ورواية العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهم واختيار الفراء والزجاج قال الزجاج نقدر بمعنى نقدر يقال قدر الله الشئ قدرا وقدره تقديرا فالقدر بمعنى التقدير وقرأ عمر بن عبد العزيز والزهرى فظن ان لن نقدر عليه بضم النون والتشديد من التقدير وقرأ عبيد بن عمر بالتشديد على المجهول وقرأ يعقوب يقدر عليه بالتخفيف على المجهول وروى انه دخل ابن عباس رضى الله عنهما على معاوية رضى الله عنه فقال معاوية لقد ضربتنى امواج القرآن البارحة فغرقت فيها فلم أجد لنفسى خلاصا الا بك فقال وما هى قال يظن نبى الله ان لن يقدر الله عليه فقال ابن عباس رضى الله عنهما هذا من القدر لا من القدرة (ورابعها) فظن ان لن نقدر اى فظن ان لن نفعل لان بين القدرة والفعل مناسبة فلا يبعد جعل احدهما مجازا عن الآخر (وخامسها) انه استفهام بمعنى التوبيخ معناه أفظن ان لن نقدر عليه عن ابن زيد (وسادسها) ان على قول من يقول هذه الواقعة كانت قبل رسالة يونس عليه السلام كان هذا الظن حاصلا قبل الرسالة ولا يبعد فى حق غير الانبياء والرسل ان يسبق ذلك الى وهمه بوسوسة الشيطان ثم انه يرده بالحجة والبرهان (والجواب) عن الثالث وهو التمسك بقوله انى كنت من الظالمين فهو ان نقول انا لو حملناه على ماقبل النبوة فلا كلام ولو حملناه على مابعدها فهى واجبة التأويل لانا لو اجريناها على ظاهرها لوجب القول بكون النبى مستحقا للعن وهذا لايقوله مسلم واذا وجب التأويل فنقول لاشك انه كان تاركا للافضل مع القدرة على تحصيل الافضل فكان ذلك ظلما (والجواب) عن الرابع انا لانسلم ان ذلك كان عقوبة اذ الانبياء لايجوز ان يعاقبوا بل المراد به المحنة لكن كثير من المفسرين يذكرون فى كل مضرة تفعل لاجل ذنب انها عقوبة (والجواب) عن الخامس ان الملامة كانت بسبب ترك الافضل (المسئلة الرابعة) قال صاحب الكشاف فى الظلمات اى فى الظلمة الشديدة المتكاثفة فى بطن الحوت كقوله تعالى ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات وقوله يخرجونهم من النور الى الظلمات ومنهم من اعتبر انواعا مختلفة من الظلمات فان كان النداء فى الليل فهناك ظلمة الليل والبحر وبطن الحوت وان كان فى النهار اضيف اليه ظلمة امعاء الحوت او ان حوتا ابتلع الحوت الذى هو فى بطنه او لان الحوت اذا عظم غوصه فى قعر البحر كان مافوقه من البحر ظلمة فى ظلمة اما قول من قال ان الحوت الذى ابتلعه غاص فى الارض السابعة فان

لسعيه (كاتبون) اى مثبتون فى صحائف اعمالهم لانغادر من ذلك شيئا (وحرام على قرية) اى ممتنع على اهلها غير متصور منهم وقرئ حرم وهى لغة كالحل والحلال (اهلكناها) قدرنا هلاكها اوحكمنا به لغاية طغيانهم وعتوهم وقوله تعالى (انهم لايرجعون) فى حيز الرفع على انه مبتدأ خبره حرام او فاعل له ساد مسد خبره والجملة لتقرير مضمون ماقبلها من قوله تعالى كل الينا راجعون وما فى ان من معنى التحقيق معتبر فى النفى المستفاد من حرام لا فى المنفى اى ممتنع البتة عدم رجوعهم الينا للجزاء لان عدم رجوعهم المتحقق ممتنع وتخصيص امتناع عدم رجوعهم بالذكر مع شمول الامتناع لعدم رجوع الكل حسبما نطق به قوله تعالى كل الينا راجعون لانهم المنكرون للبعث والرجوع دون غيرهم وقيل ممتنع رجوعهم الى التوبة على ان لا صلة وقرئ انهم لايرجعون بالكسر على انه استئناف تعليلى لما قبله فحرام خبر مبتدأ محذوف اى حرام عليها ذلك وهو ما ذكر فى الآية السابقة من العمل الصالح المشفوع بالايمان والسعى المشكور ثم علل بقوله تعالى انهم لايرجعون عما هم عليه من الكفر فكيف لايمتنع ذلك ويجوز حمل المفتوحة

ثبت ذلك بخبر فلا كلام وان قيل بذلك لكي يقع نداؤه في الظلمات لما قدمناه يغني عن ذلك اماقوله ان لااله الاانت فالمعنى بانه لااله الاانت او بمعنى اى • عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال مامن مكروب يدعو بهذا الدعاء الااستجيب له وعن الحسن مانجاه الله تعالى الاباقراره على نفسه بالظلم اماقوله سبحانك فهو تنزيه عن كل النقائص ومنها العجز وهذا يدل على انه ماكان مراده من قوله فظن ان لن نقدر عليه انه ظن العجز وانما قال سبحانك لان تقديره سبحانك ان تفعل ذلك جورا اوشهوة للانتقام اوعجزا عن تخليصي عن هذا الحبس بل فعلته بحق الالهية وبمقتضى الحكمة اماقوله انى كنت من الظالمين فالمعنى ظلمت نفسي بفراري من قومي بغير اذنك كأنه قال كنت من الظالمين وانا الآن من التائبين النادمين فاكشف عني المحنة يدل عليه قوله فاستجبنا له وفيه وجه آخر وهو انه عليه السلام وصفه بقوله لااله الاانت بكمال الربوبية ووصف نفسه بقوله انى كنت من الظالمين بضعف البشرية والقصور في اداء حق الربوبية وهذا القدر يكفي في السؤال على ماقال المتنبي

وفي النفس حاجات وفيك فطانة • سكوتي كلام عندها وخطاب

وروى عبدالله بن رافع مولى ام سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لما اراد الله حبس يونس عليه السلام أوحى الى الحوت ان خذه ولاتخدش له لحما ولاتكسر له عظما فاخذه وهوى به الى اسفل البحر فسمع يونس عليه السلام حسا فقال في نفسه ماهذا فأوحى الله اليه هذا تسبيح دواب البحر قال فسبح فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا مثله واماقوله فنجيناه من الغم اى من غمه بسبب كونه في بطن الحوت وبسبب خطيئته وكما انجينا يونس عليه السلام من كرب الحبس اذ دعانا كذلك ننجي المؤمنين من كربهم اذا استغاثوا بنا روى سعد بن ابي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال دعوة ذي النون في بطن الحوت لااله الاانت سبحانك انى كنت من الظالمين مادعا بها عبد مسلم قط وهو مكروب الااستجاب الله دعاءه • قال صاحب الكشاف قرئ ننجي ونجّي ونجي والنون لاتدغم في الجيم ومن تمحل لصحته فجعله فعل وقال نجي النجاء المؤمنين فارسل الياء واسنده الى مصدره ونصب المؤمنين بالنجاء فمتعسف بارد التعسف • (القصة التاسعة) قصة زكريا عليه السلام

﴿ قوله تعالى (وزكريا اذنادى ربه رب لاتذرني فردا وانت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيي واصلحنا له زوجه انهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين) ﴾

اعلم انه تعالى بين انقطاع زكريا عليه السلام الى ربه تعالى لما مسه الضر بتفرده وأحب من يؤنسه ويقويه على امر دينه ودنياه ويكون قائما مقامه بعد موته فدعا الله تعالى دعاء مخلص عارف بانه قادر على ذلك وان انتهت الحال به وبزوجته من كبر وغيره الى اليأس من ذلك بحكم العادة وقال ابن عباس رضي الله عنهما كان سنه مائة وسن زوجته تسعا وتسعين اماقوله وانت خير الوارثين ففيه وجهان (احدهما) انه عليه السلام انما

ايضا على هذا المعنى بحذف اللام عنها اى لانهم لايرجعون وحتى في قوله تعالى (حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج) الخ هي التي يحكى بعدها الكلام وهي على الاول غاية لمايدل عليه ماقبلها كأنه قيل يستمرون على ماهم عليه من الهلاك حتى اذا قامت القيامة يرجعون الينا ويقولون ياويلنا الخ وعلى الثاني غاية للحرمة اى يستمر امتناع رجوعهم الى التوبة حتى اذا قامت القيامة يرجعون اليها حين لاتنفعهم التوبة وعلى الثالث غاية لعدم الرجوع عن الكفر اى لايرجعون عنه حتى اذا قامت القيامة يرجعون عنه حين لاينفعهم الرجوع ويأجوج ومأجوج قبيلتان من الانس قالوا الناس عشرة اجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج والمراد بفتحها فتح سدها على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه وقرئ فتّحت بالتشديد (وهم) اى يأجوج ومأجوج وقيل الناس (من كل حدب) اى نشز من الارض وقرئ جدث وهو القبر (ينسلون) اى يسرعون واصله مقاربة الخطو مع الاسراع وقرئ بضم السين (واقترب الوعد الحق) عطف على فتحت والمراد به مابعد النفخة الثانية من البعث والحساب والجزاء لاالنفخة

ذكره في جملة دعائه على وجه الثناء على ربه ليكشف عن علمه بان مآل الامور الى الله تعالى (والثاني) كأنه عليه السلام قال ان لم ترزقني من يرثني فلا أبالي فانك خير وارث واما قوله تعالى فاستجبنا له اي فعلنا ما أراده لاجل سؤاله وفي ذلك اعظام له فلذلك تقول العلماء بان الاستجابة ثواب لما فيه من الاعظام واما قوله تعالى ووهبنا له يحيى فهو كالتفسير للاستجابة وفي تفسير قوله واصلحنا له زوجه ثلاثة اقوال (احدها) اصلحها للولادة بان ازال عنها المانع بالعادة وهذا أليق بالقصة (والثاني) انه اصلحها في اخلاقها وقد كانت على طريقة من سوء الخلق وسلاطة اللسان تؤذيه وجعل ذلك من نعمه عليه (والثالث) انه سبحانه جعلها مصلحة في الدين فان صلاحها في الدين من اكبر اعوانه في كونه داعيا الى الله تعالى فكأنه عليه السلام سأل ربه المعونة على الدين والدنيا بالولد والاهل جميعا وهذا كأنه اقرب الى الظاهر لانه اذا قيل اصلح الله فلانا فالاظهر فيه ما يتصل بالدين واعلم ان قوله ووهبنا له يحيى واصلحنا له زوجه يدل على ان الواو لا تفيد الترتيب لان اصلاح الزوج مقدم على هبة الولد مع انه تعالى أخره في اللفظ وبين تعالى مصداق ما ذكرناه فقال انهم كانوا يسارعون في الخيرات وأراد بذلك زكريا وولده واهله فبين أنه آتاهم ما طلبوه وعضد بعضهم ببعض من حيث كانت طريقتهم انهم يسارعون في الخيرات والمسارعة في طاعة الله تعالى من اكبر ما يمدح المرء به لانه يدل على حرص عظيم على الطاعة اما قوله تعالى ويدعوننا رغبا ورهبا فقرئ رغبا ورهبا وهو كقوله يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه والمعنى انهم ضموا الى فعل الطاعات والمسارعة فيها امرين (احدهما) الفزع الى الله تعالى لمكان الرغبة في ثوابه والرهبة من عقابه (والثاني) الخشوع وهو المخافة الثابتة في القلب فيكون الخاشع هو الحذر الذي لا ينبسط في الامور خوفا من الاثم * (القصة العاشرة) قصة مريم عليها السلام ❁ قوله تعالى (والتي احصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين) اعلم ان التقدير واذكر التي احصنت فرجها ثم فيه قولان (احدهما) انها احصنت فرجها احصانا كليا من الحلال والحرام جميعا كما قالت ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا (والثاني) من نفخة جبريل عليه السلام حيث منعته من جيب درعها قبل ان تعرفه والاول أولى لانه الظاهر من اللفظ واما قوله فنفخنا فيها من روحنا فلقائل ان يقول نفخ الروح في الجسد عبارة عن احيائه قال تعالى فاذا سويته ونفخت فيه من روحي اي احييته واذا ثبت ذلك كان قوله فنفخنا فيها من روحنا ظاهر الاشكال لانه يدل على احياء مريم عليها السلام (والجواب) من وجوه (احدها) معناه فنفخنا الروح في عيسى فيها اي احييناه في جوفها كما يقول الزمار نفخت في بيت فلان اي في المزمار في بيته (وثانيها) فعلنا النفخ في مريم عليها السلام من جهة روحنا وهو جبريل عليه السلام لانه نفخ في جيب درعها فوصل النفخ الى جوفها ثم بين تعالى باخصر الكلام ما خص به مريم وعيسى عليهما السلام من الآيات فقال وجعلناها وابنها آية للعالمين

(اما)

الاولى (فاذا هي شاخصة ابصار الذين كفروا) جواب الشرط واذا للمفاجأة تسد مسد الفاء الجزائية كما في قوله تعالى اذا هم يقنطون فاذا دخلتها الفاء تظاهرت على وصل الجزاء بالشرط والضمير للقصة او مبهم يفسره ما بعده (ياويلنا) على تقدير قول وقع حالا من الموصول اي يقولون ياويلنا تعال فهذا أوان حضورك وقيل هو الجواب للشرط (قد كنا في غفلة) تامة (من هذا) الذي دهمنا من البعث والرجوع اليه تعالى للجزاء ولم نعلم انه حق (بل كنا ظالمين) اضراب عما قبله من وصف انفسهم بالغفلة اي لم نكن غافلين عنه حيث نبهنا عليه بالآيات والنذر بل كنا ظالمين بتلك الآيات والنذر مكذبين بها او ظالمين لانفسنا بتعريضها للعذاب الخالد بالتكذيب وقوله تعالى (انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) خطاب لكفار مكة وتصريح بمآل امرهم مع كونه معلوما مما سبق على وجه الاجمال مبالغة في الانذار وازاحة الاعتذار وما تعبدون عبارة عن اصنامهم لانها التي يعبدونها كما يفصح عنه كلمة ما وقد روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا الآية وقال له ابن الزبعرى خصمتك ورب

أما مريم فآياتها كثيرة (احدها) ظهور الحبل فيها لامن ذكر فصار ذلك آية ومعجزة خارجة
عن العادة (وثانيها) ان رزقها كان يأتيها به الملائكة من الجنة وهو قوله تعالى أنى لك
هذا قالت هو من عند الله (وثالثها ورابعها) قال الحسن انها لم تلتقم ثديا يوما قط وتكلمت
هي ايضا في صباها كما تكلم عيسى عليه السلام وأما آيات عيسى عليه السلام فقد تقدم
بيانها فبين سبحانه انه جعلهما آية للناس يتدبرون فيما خصا به من الآيات ويستدلون به
على قدرته وحكمته سبحانه وتعالى فان قيل هلا قيل آيتين كما قال وجعلنا الليل والنهار
آيتين قلنا لان حالهما بمجموعهما آية واحدة وهي ولادتها اياه من غير فحل وههنا آخر
القصص ۞ قوله تعالى (ان هذه امتكم امة واحدة وأنا ربكم فاعبدون وتقطعوا أمرهم
بينهم كل الينا راجعون) قال صاحب الكشاف الامة الملة وهو اشارة الى ملة الاسلام
اي ان ملة الاسلام هي ملتكم التي يجب ان تكونوا عليها يشار اليها بملة واحدة غير
مختلفة وانا الهكم اله واحد فاعبدون ونصب الحسن امتكم على البدل من هذه ورفع
امة خبرا وعند رفعهما جميعا خبرين أو نوى للثاني المبتدأ أما قوله تعالى وتقطعوا أمرهم
بينهم والاصل وتقطعتم الا ان الكلام صرف الى الغيبة على طريق الالتفات كأنه ينقل
عنهم ما افسدوه الى آخرين ويقبح عندهم فعلهم ويقول لهم ألا ترون الى عظيم ما ارتكب
هؤلاء والمعنى جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا كما تتوزع الجماعة الشيء ويقسمونه فيصير
لهذا نصيب ولذلك نصيب تمثيلا لاختلافهم فيه وصيرورتهم فرقا وأحزابا شتى أما قوله
تعالى كل الينا راجعون فقد توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة اليه يرجعون فهو
محاسبهم ومجازيهم وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال تفرقت بنو اسرائيل
على احدى وسبعين فرقة فهلكت سبعون وخلصت فرقة وان امتي ستفترق على اثنين
وسبعين فرقة فتهلك احدى وسبعون فرقة وتخلص فرقة واحدة قالوا يا رسول الله من تلك
الفرقة الناجية قال (الجماعة الجماعة الجماعة) فتبين بهذا الخبر ان المراد بقوله تعالى وان هذه
امتكم الجماعة المتمسكة بما بينه الله تعالى في هذه السورة من التوحيد والنبوات وان
في قول الرسول صلى الله عليه وسلم في الناجية انها الجماعة اشارة الى ان هذه أشار بها الى
أمة الايمان والا كان قوله في تعريف الفرقة الناجية انها الجماعة لغوا اذ لا فرقة تمسكت
بباطل او بحق الا وهي جماعة من حيث العدد وطعن بعضهم في صحة هذا الخبر فقال ان
اراد بالثنتين والسبعين فرقة اصول الاديان فلم يبلغ هذا القدر وان أراد الفروع فانها
تتجاوز هذا القدر الى أضعاف ذلك وقيل أيضا قد روى ضد ذلك وهو انها كلها ناجية
الا فرقة واحدة (والجواب) المراد ستفترق أمتي في حال ما وليس فيه دلالة على افتراقها
في سائر الاحوال لا يجوز ان يزيد وينقص ۞ قوله تعالى (فمن يعمل من الصالحات وهو
مؤمن فلا كفران لسعيه وانا له كاتبون وحرام على قرية اهلكناها انهم لا يرجعون حتى
اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق فاذا هي

الكعبة اليست اليهود عبدوا
عزيزا والنصارى المسيح وبنو
مليح الملائكة رد عليه بقوله عليه
السلام ما اجهلك بلغة قومك أما
فهمت ان ما لما لا يعقل ولا يعارضه
ماروى انه عليه السلام رده
بقوله بل هم عبدوا الشياطين التي
امرتهم بذلك ولا ماروى ان ابن
الزبعرى قال هذا شيء لآلهتنا
خاصة او لكل من عبد من دون
الله فقال عليه السلام بل لكل
من عبد من دون الله تعالى اذ
ليس شيء منهما انصافي عموم كلمة ما
كما ان الاول نص في خصوصها
وشمول حكم النص لا يقتضي
شموله بطريق العبارة بل يكفي في
ذلك شموله لهم بطريق دلالة
النص بجامع الشركة في المعبودية
من دون الله تعالى فلعله عليه
السلام بعد ما بين مدلول النظم
الكريم بما ذكر وعدم دخول
المذكورين في حكمه بطريق
العبارة بين عدم دخولهم فيه
بطريق الدلالة ايضا تأكيدا
للرد والالزام وتكريرا للتبكيت
والافحام لكن لا باعتبار كونهم
معبودين لهم كما هو زعمهم فان
اخراج بعض المعبودين عن حكم
مبني عن الغضب على العبدة
والمعبودين عما يوهم الرخصة
في عبادتها في الجملة بل تحقيق الحق
وبيان انهم ليسوا من المعبودية
في شيء حتى يتوهم دخولهم
في الحكم المذكور دلالة

شاخصة أبصار الذين كفروا ياويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين) اعلم انه سبحانه لما ذكر امر الامة من قبل وذكر تفرقهم وانهم اجمع راجعون الى حيث لا امر الا له اتبع ذلك بقوله فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه بين ان من جمع بين ان يكون مؤمنا وبين ان يعمل الصالحات فيدخل في الاول العلم والتصديق بالله ورسوله وفي الثاني فعل الواجبات وترك المحظورات فلا كفران لسعيه اى لابطلان لثواب عمله وهو كقوله تعالى ومن اراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا فالكفران مثل في حرمان الثواب والشكر مثل في اعطائه وقوله فلا كفران المراد نفي الجنس ليكون في نهاية المبالغة لان نفي الماهية يستلزم نفي جميع افرادها واما قوله تعالى وانا له كاتبون فالمراد وانا لسعيه كاتبون وقيل المراد حافظون لنجازي عليه وقيل كاتبون اما في ام الكتاب او في الصحف التي تعرض يوم القيامة والمراد بذلك ترغيب العباد في التمسك بطاعة الله تعالى اما قوله وحرام على قرية اهلكناها انهم لا يرجعون فاعلم ان قوله وحرام خبر فلابد له من مبتدأ وهو اما قوله انهم لا يرجعون او شيء آخر اما الاول فالتقدير ان عدم رجوعهم حرام اى ممتنع واذا كان عدم رجوعهم ممتنعا كان رجوعهم واجبا فهذا الرجوع اما ان يكون المراد منه الرجوع الى الآخرة او الى الدنيا (أما الاول) فيكون المعنى ان رجوعهم الى الحياة في الدار الآخرة واجبا ويكون الغرض منه ابطال قول من ينكر البعث وتحقيق ماتقدم انه لا كفران لسعي احد فانه سبحانه سيعطيه الجزاء على ذلك يوم القيامة وهو تأويل ابي مسلم بن بحر (واما الثاني) فيكون المعنى ان رجوعهم الى الدنيا واجب لكن المعلوم انهم لم يرجعوا الى الدنيا فعند هذا ذكر المفسرون وجهين (الاول) ان الحرام قد يجيء بمعنى الواجب والدليل عليه الآية والاستعمال والشعر (اما الآية) فقوله تعالى قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ان لاتشركوا به شيئا وترك الشرك واجب وليس بمحرم (واما الشعر) فقول الخنساء

وان حراما لاأرى الدهر باكيا ✽ على شجوه الابكيت على عمرو

يعني وان واجبا (واما الاستعمال) فلان تسمية احد الضدين باسم الآخر مجاز مشهور كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها اذا ثبت هذا فالمعنى انه واجب على اهل كل قرية اهلكناها انهم لا يرجعون ثم ذكروا في تفسير الرجوع أمرين (احدهما) انهم لا يرجعون عن الشرك ولا يتولون عنه وهو قول مجاهد والحسن (وثانيهما) لا يرجعون الى الدنيا وهو قول قتادة ومقاتل (الوجه الثاني) ان يترك قوله وحرام على ظاهره ويجعل لا في قوله لا يرجعون صلة زائدة كما انه صلة في قوله مامنعك ان لاتسجد والمعنى وحرام على قرية اهلكناها رجوعهم الى الدنيا وهو كقوله فلا يستطيعون توصية ولا الى اهلهم يرجعون او يكون المعنى وحرام عليهم رجوعهم عن الشرك وترك الايمان وهذا قول طائفة من المفسرين هذا كله اذا جعلنا قوله وحرام خبرا لقوله انهم لا يرجعون اما اذا جعلناه خبرا

قوله لاشتراكهم الخ كذا في النسخ ولعله سقطت منه كلمة مع والاصل لاشتراكهم مع الاصنام اه

بموجب شركتهم للاصنام في المعبودية من دون الله تعالى وانما معبودهم الشياطين التى امرتهم بعبادتهم كما نطق به قوله تعالى سبحانك انت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن الآية فهم الداخلون في الحكم المذكور لاشتراكهم الاصنام في المعبودية من دونه تعالى دون المذكورين عليهم السلام وهذا هو الوجه في التوفيق بين الاخبار المذكورة واما تعميم كلمة ما للعقلاء ايضا وجعل ماسيأتي من قوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى الخ بيانا للتجوز او التخصيص فمما لايساعده السباق والسياق كما يشهد به الذوق السليم والحصب مايرمى به وتهيج به النار من حصبه اذا رماه بالحصباء وقرئ بسكون الصاد وصفا له بالمصدر للمبالغة (أنتم لها واردون) استئناف او بدل من حصب جهنم واللام معوضة من على للدلالة على الاختصاص وان ورودهم لاجلها والخطاب لهم ولما يعبدون تغليبا (لو كان هؤلاء) اى اصنامهم (آلهة) كما يزعمون (ماوردوها) وحيث تبين ورودهم اياها تعين امتناع كونها آلهة بالضرورة وهذا كما ترى صريح في ان المراد بما يعبدون هي الاصنام لان المراد اثبات نقيض مايدعونه وهم انما يدعون الهية الاصنام لا الهية الشياطين حتى

(لشيء)

لشئ آخره التقدير وحرام على قرية اهلكناها ذلك وهو المذكور فى الآية المتقدمة من العمل الصالح والسعى المشكور غير المكفور ثم علل فقال انهم لا يرجعون عن الكفر فكيف لا يمتنع ذلك هذا على قراءة انهم بالكسر والقراءة بالفتح يصح حملها ايضا على هذا اى انهم لا يرجعون اما قوله تعالى حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق فاذا هى شاخصة ابصار الذين كفروا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ان حتى متعلقة بحرام فاما على تأويل أبى مسلم فالمعنى ان رجوعهم الى الآخرة واجب حتى ان وجوبه يبلغ الى حيث انه اذا فتحت يأجوج ومأجوج واقترب الوعد الحق فاذا هى شاخصة ابصار الذين كفروا والمعنى انهم يكونون اول الناس حضورا فى محفل القيامة فحتى متعلقة بحرام وهى غاية له ولكنه غاية من جنس الشئ كقولك دخل الحاج حتى المشاة وحتى ههنا هى التى يحكى بعدها الكلام والكلام المحكى هو هذه الجملة من الشرط والجزاء أعنى قوله اذا فتحت يأجوج ومأجوج واقترب الوعد الحق فهنالك يتحقق شخوص ابصار الذين كفروا فان قيل الشرط هو مجموع فتح يأجوج ومأجوج واقتراب الوعد الحق والجزاء هو شخوص ابصار الذين كفروا وذلك غير جائز لان الشرط انما يحصل فى آخر ايام الدنيا والجزاء انما يحصل فى يوم القيامة والشرط والجزاء لابد وان يكونا متقاربين قلنا التفاوت القليل يجرى مجرى المعدوم واما على التأويلات الباقية فالمعنى ان امتناع رجوعهم لا يزول حتى تقوم القيامة (المسئلة الثانية) قوله حتى اذا فتحت المعنى فتح سد يأجوج ومأجوج فحذف المضاف وادخلت علامة التأنيث فى فتحت لما حذف المضاف لان يأجوج ومأجوج مؤنثان بمنزلة القبيلتين وقيل حتى اذا فتحت جهة يأجوج (المسئلة الثالثة) هما قبيلتان من جنس الانس يقال الناس عشرة اجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج يخرجون حين يفتح السد (المسئلة الرابعة) قيل السد يفتحه الله تعالى ابتداء وقيل بل اذا جعل الله تعالى الارض دكا زالت الصلابة عن اجزاء الارض فحينئذ ينفتح السد اما قوله تعالى وهم من كل حدب ينسلون فحشو فى اثناء الكلام والمعنى اذا فتحت يأجوج واقترب الوعد الحق شخصت ابصار الذين كفروا والحدب النشز من الارض ومنه حدبة الارض ومنه حدبة الظهر وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما من كل جدث ينسلون اعتبارا بقوله فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون وقرئ بضم السين ونسل وعسل اسرع ثم فيه قولان قال أكثر المفسرين انه كناية عن يأجوج ومأجوج وقال مجاهد هو كناية عن جميع المكلفين اى يخرجون من قبورهم من كل موضع فيحشرون الى موقف الحساب والاول هو الوجه والا لتفكك النظم وان يأجوج ومأجوج اذا كثروا على ما روى فى الخبر فلابد من ان ينشروا فيظهر اقبالهم على الناس من كل موضع مرتفع اما قوله تعالى واقترب الوعد الحق فلا شبهة ان الوعد المذكور هو يوم القيامة اما قوله فاذا هى فاعلم ان اذا ههنا للمفاجأة

يحتج بورودها النار على عدم الهيبا واما ما وقع فى الحديث الشريف فقد وقع بطريق التكملة بانجرار الكلام اليه عند بيان ما سبق له النظم الكريم بطريق العبارة حيث سأل ابن الزبعرى عن حال سائر المعبودين وكان الاقتصار على الجواب الاول مما يوهم الرخصة فى عبادتهم فى الجملة لانهم المعبودون عندهم اجيب ببيان ان المعبودين هم الشياطين وانهم داخلون فى حكم النص لكن بطريق الدلالة لا بطريق العبارة لئلا يلزم التدافع بين الخبرين (وكل) اى من العبدة والمعبودين (فيها خالدون) لا خلاص لهم عنها (لهم فيها زفير) اى أنين وتنفس شديد وهو مع كونه من افعال العبدة اضيف الى الكل للتغليب ويجوز ان يكون الضمير للعبدة لعدم الالباس وكذا فى قوله تعالى (وهم فيها لا يسمعون) اى لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدة الهول وفظاعة العذاب وقيل لا يسمعون ما يسرهم من الكلام (ان الذين سبقت لهم منا الحسنى) شروع فى بيان حال المؤمنين اثر شرح حال الكفرة حسبما جرت به سنة التنزيل من شفع الوعد بالوعيد وايراد الترغيب مع الترهيب اى سبقت لهم منا فى التقدير الخصلة الحسنى التى هى احسن الخصال وهى السعادة وقيل التوفيق

فسمى الموعد وعدا تجوزا وهى تقع فى المجازاة سادة مسد الفاء كقوله اذاهم يقنطون فاذا جاءت الفاء معها تعاونتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد ولو قيل اذا هى شاخصة او فهى شاخصة كان سديدا اما لفظة هى فقد ذكر النحويون فيها ثلاثة اوجه (احدها) ان تكون كناية عن الابصار والمعنى فاذا ابصار الذين كفروا شاخصة ابصارهم كنى عن الابصار ثم أظهر (والثانى) ان تكون عمادا ويصلح فى موضعها هو فيكون كقوله انه أنا الله ومثله فانها لاتعمى الابصار وجاز التأنيث لان الابصار مؤنثة وجاز التذكير للعماد وهو قول الفراء وقال سيبويه الضمير للقصة بمعنى فاذا القصة شاخصة يعنى ان القصة ان ابصار الذين كفروا تشخص عند ذلك ومعنى الكلام ان القيامة اذا قامت شخصت ابصار هؤلاء من شدة الاهوال فلا تكاد تطرف من شدة ذلك اليوم ومن توقع ما يخافونه ويقولون ياويلنا قد كنا فى غفلة من هذا يعنى فى الدنيا حيث كذبناه وقلنا انه غير كائن بل كنا ظالمين انفسنا بتلك الغفلة وبتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وعبادة الاوثان واعلم انه لابد قبل قوله ياويلنا من حذف والتقدير يقولون ياويلنا * قوله تعالى (انكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها وكل فيها خالدون لهم فيها زفير وهم فيها لايسمعون) اعلم ان قوله انكم خطاب لمشركى مكة وعبدة الاوثان اما قوله تعالى وماتعبدون من دون الله روى انه عليه السلام دخل المسجد وصناديد قريش فى الحطيم وحول الكعبة ثلثمائة وستون صنما فجلس اليهم فعرض له النضر بن الحرث فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأفحمه ثم تلا عليهم انكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم الآية فأقبل عبدالله بن الزبعرى فرآهم يتهامسون فقال فيم خوضكم فاخبره الوليد بن المغيرة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عبدالله اما والله لو وجدته لخصمته فدعوه فقال ابن الزبعرى أأنت قلت ذلك قال نعم قال قد خصمتك ورب الكعبة اليس اليهود عبدوا عزيرا والنصارى عبدوا المسيح وبنو مليح عبدوا الملائكة ثم روى فى ذلك روايتان (احداهما) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سكت ولم يجب فضحك القوم فنزل قوله تعالى ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه يصدون وقالوا أ آلهتنا خير ام هو ماضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون ونزل فى عيسى والملائكة ان الذين سبقت لهم منا الحسنى الآية هذا قول ابن عباس (الرواية الثانية) انه عليه السلام اجاب وقال بل هم عبدوا الشياطين التى امرتهم بذلك فانزل الله سبحانه ان الذين سبقت لهم منا الحسنى الآية يعنى عزيرا والمسيح والملائكة واعلم ان سؤال ابن الزبعرى ساقط من وجوه (احدها) ان قوله انكم خطاب مشافهة وكان ذلك مع مشركى مكة وهم كانوا يعبدون الاصنام فقط (وثانيها) انه لم يقل ومن تعبدون بل قال وما تعبدون وكلمة ما لاتتناول العقلاء اما قوله تعالى والسماء ومابناها وقوله لا اعبد ماتعبدون فهو محمول على الشىء ونظيره ههنا ان يقال انكم والشىء الذى تعبدون من دون الله لكن

للطاعة او سبقت لهم كلمتنا بالبشرى بالثواب على الطاعة وهو الادخل الاظهر فى الحمل عليها لما ان الاولين مع خفائهما ليسا من مقدورات المكلفين فالجملة مع مابعدها تفصيل لما اجمل فى قوله تعالى فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وانا له كاتبون كما ان ماقبلها من قوله تعالى انكم وماتعبدون الخ تفصيل لما اجمل فى قوله تعالى وحرام الخ (اولئك) اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو درجتهم وبعد منزلتهم فى الشرف والفضل اى أولئك المنعوتون بما ذكر من النعت الجميل (عنها) اى عن جهنم (مبعدون) لانهم فى الجنة وشتان بينها وبين النار ومارو ى ان عليا رضى الله تعالى عنه خطب يوما فقرأ هذه الآية ثم قال أنا منهم وابوبكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبدالرحمن بن عوف وابوعبيدة بن الجراح رضوان الله تعالى عنهم اجمعين ثم اقيمت الصلاة فقام يجر رداءه ويقول (لايسمعون حسيسها) ليس بنص فى كون الموصول عبارة عن طائفة مخصوصة والحسيس صوت يحس به اى لايسمعون صوتها سماعا ضعيفا كما هو المعهود عند كون الصوت

(انظ)

لفظ الشئ لايفيد العموم فلايتوجه سؤال ابن الزبعرى (وثالثها) ان من عبد الملائكة لايدعى انهم آلهة وقال سبحانه لوكان هؤلاء آلهة ماوردوها (ورابعها) هب انه ثبت العموم لكنه مخصوص بالدلائل العقلية والسمعية فى حق الملائكة والمسيح وعزير لبراءتهم من الذنوب والمعاصى ووعد الله اياهم بكل مكرمة وهذا هو المراد من قوله سبحانه ان الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون (وخامسها) الجواب الذى ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو انهم كانوا يعبدون الشيطان فان قيل الشياطين عقلاء ولفظ ما لايتناولهم فكيف قال الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك قلنا كأنه عليه السلام قال لو ثبت لكم انه يتناول العقلاء فسؤالكم ايضا غير لازم من هذا الوجه واما ماقيل انه عليه السلام سكت عند ايراد ابن الزبعرى هذا السؤال فهو خطأ لانه لااقل من انه عليه السلام كان ينبه لهذه الاجوبة التى ذكرها المفسرون لانه عليه السلام كان اعلم منهم باللغة وبتفسير القرآن فكيف يجوز ان تظهر هذه الاجوبة لغيره ولا يظهر شئ منها له عليه السلام فان قيل جوزوا ان يسكت عليه السلام انتظارا للبيان قلنا لما كان البيان حاضرا معه لم يجز عليه السكوت لكى لايتوهم فيه الانقطاع عن سؤالهم ومن الناس من اجاب عن سؤال ابن الزبعرى فقال ان الله تعالى يصور لهم فى النار ملكا على صورة من عبدوه وحينئذ تبقى الآية على ظاهرها واعلم ان هذا ضعيف من وجهين (الاول) ان القوم لم يعبدوا تلك الصورة وانما عبدوا اشيئا آخر لم يحصل معهم فى النار (الثانى) وهو ان الملك لا يصير حصب جهنم فى الحقيقة وان صح ان يدخلها فان خزنة النار يدخلونها مع انهم ليسوا حصب جهنم (المسئلة الثانية) الحكمة فى انهم قرنوا بآلهتهم امور (احدها) انهم لايزالون لقارنتهم فى زيادة غم وحسرة لانهم ماوقعوا فى ذلك العذاب الا بسببهم والنظر الى وجه العدو باب من العذاب (وثانيها) ان القوم قدروا انهم يشفعون لهم فى الآخرة فى دفع العذاب فاذا وجدوا الامر على عكس ماقدروا لم يكن شئ ابغض اليهم منهم (وثالثها) ان القاءها فى النار يجرى مجرى الاستهزاء بعبادها (ورابعها) قيل ماكان منها حجرا او حديدا يحمى ويلزق بعبادها وماكان خشبا يجعل جمرة يعذب بها صاحبها اما قوله تعالى حصب جهنم فالمراد يقذفون فى نار جهنم فشبههم بالحصباء التى يرمى بها الشئ فلا يرمى بهم كرمى الحصباء جعلهم حصب جهنم تشبيها قال صاحب الكشاف الحصب الرمى وقرئ بسكون الصاد وصفا بالمصدر وقرئ حطب وحضب بالضاد المنقوطة متحركا وساكنا اما قوله تعالى انتم لها واردون فانما جاز مجئ اللام فى لها لتقدمها على الفعل تقول انت لزيد ضارب كقوله تعالى والذين هم لاماناتهم وعهدهم والذين هم لفروجهم اى انتم فيها داخلون والمعنى انه لابد وان تردوها ولا معدل لكم عن دخولها اما قوله تعالى لوكان هؤلاء آلهة ماوردوها فاعلم ان قوله انكم وما تعبدون من دون الله بالاصنام اليق لدخول لفظة ما وهذا الكلام بالشياطين اليق لقوله هؤلاء ويحتمل ان يريد الشياطين والاصنام فيغلب

بعيدا وان كان صوته فى غاية الشدة لانهم لايسمعون صوتها الخفى فى نفسه فقط والجملة بدل من مبعدون او حال من ضميره مسوقة للمبالغة فى انقاذهم منها وقوله تعالى (وهم فيما اشتهت انفسهم خالدون) بيان لفوزهم بالمطالب اثر بيان خلاصهم من المهالك والمعاطب اى دائمون فى غاية التنعم وتقديم الظرف للقصر والاهتمام به وقوله تعالى (لا يحزنهم الفزع الاكبر) بيان لنجاتهم من الافزاع بالكلية بعد بيان نجاتهم من النار لانهم اذا لم يحزنهم اكبر الافزاع لايحزنهم ماعداه بالضرورة عن الحسن رضى الله عنه انه الانصراف الى النار وعن الضحاك حين يطبق على النار وقيل حين يذبح الموت فى صورة كبش املح وقيل النفخة الاخيرة لقوله تعالى ففزع من فى السموات ومن فى الارض وليس بذاك فان الآمن من ذلك الفزع من استثناه الله تعالى بقوله الا من شاء الله لا جميع المؤمنين الموصوفين بالاعمال الصالحة على ان الاكثرين على ان ذلك فى النفخة الاولى دون الاخيرة كما سيأتى فى سورة النمل (وتتلقاهم الملائكة) اى تستقبلهم مهنئين لهم (هذا يومكم) على ارادة القول اى قائلين هذا اليوم يومكم (الذى كنتم توعدون) فى الدنيا وتبشرون

بأن يذكروا بعبارة العقلاء، ونبه الله تعالى على ان من يرمى الى النار لايمكن ان يكون الها (وههنا سؤال) وهو ان قوله لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها الكنهم وردوها فهم ليسوا آلهة حجة وهذه الحجة اما ان يكون ذكرها لنفسه او لغيره فان ذكرها لنفسه فلافائدة فيه لانه كان عالما بأنها ليست آلهة وان ذكرها لغيره فاما ان يذكرها لمن يصدق بنبوته اولمن يكذب بنبوته فان ذكرها لمن صدق بنبوته فلاحاجة الى هذه الحجة لان كل من صدق بنبوته لم يقل بالهية هذه الاصنام وان ذكرها لمن كذب بنبوته فذلك المكذب لايسلم ان تلك الآلهة يردون النار ويكذبونه فى ذلك فكان ذكر هذه الحجة ضائعا كيف كان وايضا فالقائلون بالهيتها لم يعتقدوا فيها كونها مدبرة للعالم والالكانوا مجانين بل اعتقدوا فيها كونها تماثيل الكواكب اوصور الشفعاء وذلك لايمنع من دخولها فى النار (واجيب عن ذلك) بأن المفسرين قالوا المعنى لو كان هؤلاء يعنى الاصنام آلهة على الحقيقة ماوردوها اى مادخل عابدوها النار ثم انه سبحانه وصف ذلك العذاب بأمور ثلاثة (احدها) الخلود فقال وكل فيها خالدون يعنى العابدين والمعبودين وهو تفسير لقوله انكم وماتعبدون من دون الله (وثانيها) قوله لهم فيها زفير قال الحسن الزفير هو اللهيب اى يرتفعون بسبب لهب النار حتى اذا ارتفعوا ورجوا الخروج ضربوا بمقامع الحديد فهووا الى اسفلها سبعين خريفا قال الخليل الزفير ان يملأ الرجل صدره غما ثم يتنفس قال ابو مسلم قوله لهم عام لكل معذب فنقول لهم زفير من شدة ماينالهم والضمير فى قوله وهم فيها لايسمعون يرجع الى المعبودين اى لايسمعون صراخهم وشكواهم ومعناه انهم لايغيثونهم وشبهه سمع الله لمن حمده اى اجاب الله دعاءه (وثالثها) قوله وهم فيها لايسمعون وفيه وجهان (احدهما) انه محمول على الاصنام خاصة على ماحكيناه عن ابى مسلم (والثانى) انها محمولة على الكفار ثم هذا يحتمل ثلاثة اوجه (احدها) ان الكفار يحشرون صما كما يحشرون عميا زيادة فى عذابهم (وثانيها) انهم لايسمعون ماينفعهم لانهم انما يسمعون اصوات المعذبين او كلام من يتولى تعذيبهم من الملائكة (وثالثها) قال ابن مسعود ان الكفار يجعلون فى توابيت من نار والتوابيت فى توابيت اخر فلذلك لايسمعون شيئا والاول ضعيف لان اهل النار يسمعون كلام اهل الجنة فلذلك يستغيثون بهم على ماذكره الله تعالى فى سورة الاعراف ﴿ قوله تعالى (ان الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون لايسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت انفسهم خالدون لايحزنهم الفزع الاكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون) اعلم ان من الناس من زعم ان ابن الزبعرى لما اورد ذلك السؤال على الرسول صلى الله عليه وسلم بقى ساكتا حتى انزل الله تعالى هذه الآية جوابا عن سؤاله لان هذه الآية كالاستثناء من تلك الآية واما نحن فقد بينا فساد هذا القول وذكرنا ان سؤاله لم يكن واردا وانه لاحاجة فى دفع سؤاله الى نزول هذه الآية واذا ثبت هذا لم يبق ههنا الا احد الامرين

بما فيه من فنون المثوبات على الايمان والطاعات وهذا كما ترى صريح فى ان المراد بالذين سبقت لهم الحسنى كافة المؤمنين الموصوفين بالايمان والاعمال الصالحة لامن ذكر من المسيح وعزير والملائكة عليهم السلام خاصة كما قيل (يوم نطوى السماء) بنون العظمة منصوب باذكر وقيل ظرف لقوله تعالى لايحزنهم الفزع وقيل بتتلقاهم وقيل حال مقدرة من الضمير المحذوف فى توعدون والطى ضد النشر وقيل المحو وقرئ يطوى بالياء والتاء والبناء للمفعول (كطى السجل) وهى الصحيفة اى طيا كطى الطومار وقرئ السجل كقفل السدلو وبالكسر والسجل على وزن العتل وهما لغتان واللام فى قوله تعالى (للكتب) متعلقة بمحذوف هو حال من السجل اوصفة له على رأى من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته اى كطى السجل كائنا للكتب او الكائن للكتب فان الكتب عبارة عن الصحائف وماكتب فيها فسجلها بعض اجزائها وبه يتعلق الطى حقيقة وقرئ للكتاب وهو اما مصدر واللام للتعليل اى كما يطوى الطومار للكتابة او اسم كالامام فاللام كما ذكر اولا وقيل السجل اسم ملك يطوى كتب اعمال بنى آدم اذا رفعت اليه وقيل هو

(الاول) ان يقال ان عادة الله تعالى انه متى شرح عقاب الكفار اردفه بشرح ثواب الابرار فلهذا السبب ذكر هذه الآية عقيب تلك الآية فهي عامة في حق كل المؤمنين (الثانى) ان هذه الآية نزلت فى تلك الواقعة لتكون كالتأكيد فى دفع سؤال ابن الزبعرى ثم من قال العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وهو الحق اجراها على عمومها فتكون الملائكة والمسيح وعزير عليهم السلام داخلين فيها لأن الآية مختصة بهم ومن قال العبرة بخصوص السبب خصص قوله ان الذين بهؤلاء فقط اما قوله تعالى سبقت لهم منا الحسنى فقال صاحب الكشاف الحسنى الخصلة المفضلة والحسنى تأنيث الاحسن وهى اما السعادة واما البشرى بالثواب واما التوفيق للطاعة والحاصل ان مثبتى العفو حملوا الحسنى على وعد العفو ومنكرى العفو حملوه على وعد الثواب ثم انه سبحانه وتعالى شرح من احوال ثوابهم امورا خمسة (احدها) قوله أولئك عنها مبعدون فقال اهل العفو معناه أولئك عنها مخرجون واحتجوا عليه بوجهين (الاول) قوله وان منكم الا واردها اثبت الورود وهو الدخول فدل على ان هذا الابعاد هو الاخراج (الثانى) ان ابعاد الشىء عن الشىء لا يصح الا اذا كانا متقاربين لانهما لو كانا متباعدين استحال ابعاد احدهما عن الآخر لان تحصيل الحاصل محال واحتج القاضى عبد الجبار على فساد هذا القول الاول بامور (احدها) ان قوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى يقتضى ان الوعد بثوابهم قد تقدم فى الدنيا وليس هذا حال من يخرج من النار لو صح ذلك (وثانيها) انه تعالى قال اولئك عنها مبعدون وكيف يدخل فى ذلك من وقع فيها (وثالثها) قوله تعالى لا يسمعون حسيسها وقوله لا يحزنهم الفزع الاكبر يمنع من ذلك (والجواب عن الاول) لا نسلم ان المراد من قوله ان الذين سبقت لهم منا الحسنى هو ان الوعد بثوابهم قد تقدم ولم لا يجوز ان يكون المراد من الحسنى تقدم الوعد بالعفو سلمنا ان المراد من الحسنى تقدم الوعد بالثواب لكن لم قلتم الوعد بالثواب لا يليق بحال من يخرج من النار فان عندنا المحابطة باطلة ويجوز الجمع بين استحقاق الثواب والعقاب (وعن الثانى) انا بينا ان قوله اولئك عنها مبعدون لا يمكن اجراؤه على ظاهره الا فى حق من كان فى النار (وعن الثالث) ان قوله لا يسمعون حسيسها مخصوص بما بعد الخروج اما قوله لا يحزنهم الفزع الاكبر فالفزع الاكبر هو عذاب الكفار وهذا بطريق المفهوم يقتضى انهم يحزنهم الفزع الاصغر فان لم يدل عليه فلا اقل من ان لا يدل على ثبوته ولا على عدمه (الوجه الثانى) فى تفسير قوله اولئك عنها مبعدون ان المراد الذين سبقت لهم منا الحسنى لا يدخلون النار ولا يقربونها البتة وعلى هذا القول بطل قول من يقول ان جميع الناس يردون النار ثم يخرجون الى الجنة لان هذه الآية مانعة منه وحينئذ يجب التوفيق بينه وبين قوله وان منكم الا واردها وقد تقدم (الصفة الثانية) قوله تعالى لا يسمعون حسيسها والحسيس الصوت الذى يحس وفيه سؤالان (الاول) اى وجد فى ان

كاتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم (كما بدأنا اول خلق نعيده) اى نعيد ما خلقناه مبتدأ اعادة مثل بدئنا اياه فى كونها ايجادا بعد العدم او جمعا من الاجزاء المتبددة والمقصود بيان صحة الاعادة بالقياس على المبدأ لشمول الامكان الذاتى المصحح للمقدورية وتناول القدرة لهما على السواء وما كافة او مصدرية واول مفعول لبدأنا او لفعل يفسره نعيده او موصولة والكاف متعلقة بمحذوف يفسره نعيده اى نعيد مثل الذى بدأناه واول خلق ظرف لبدأنا او حال من ضمير الموصول المحذوف (وعدا) مصدر مؤكد لفعله ومقرر لنعيده او منتصب به لانه عدة بالاعادة (علينا) اى علينا انجازه (انا كنا فاعلين) لما ذكر لا محالة (ولقد كتبنا فى الزبور) هو كتاب داود عليه السلام وقيل هو اسم لجنس ما انزل على الانبياء عليهم السلام (من بعد الذكر) اى التوراة وقيل اللوح المحفوظ اى وبالله لقد كتبنا فى كتاب داود بعد ما كتبنا فى التوراة او كتبنا فى جميع الكتب المنزلة بعدما كتبنا واثبتنا فى اللوح المحفوظ (ان الارض يرثها عبادى الصالحون) اى عامة المؤمنين بعد اجلاء الكفار وهذا وعد منه تعالى باظهار الدين واعزاز اهله وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان

لايسمعوا حسيسها من البشارة ولو سمعه لم يتغير حالهم قلنا المراد تأكيد بعدهم عنها لان من لم يدخلها وقرب منها قد يسمع حسيسها (السؤال الثانى) أليس ان اهل الجنة يرون اهل النار فكيف لايسمعون حسيس النار (الجواب) اذا حملناه على التأكيد زال هذا السؤال (الصفة الثالثة) قوله وهم فيما اشتهت انفسهم خالدون والشهوة طلب النفس اللذة يعنى نعيمها مؤبد قال العارفون للنفوس شهوة وللقلوب شهوة وللارواح شهوة وقال الجنيد سبقت العناية فى البداية فظهرت الولاية فى النهاية (الصفة الرابعة) قوله لايحزنهم الفزع الاكبر وفيه وجوه (احدها) انها النفخة الاخيرة لقوله تعالى ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الارض (وثانيها) انه الموت قالوا اذا استقر أهل الجنة فى الجنة واهل النار فى النار بعث الله تعالى جبريل عليه السلام ومعه الموت فى صورة كبش املح فيقول لاهل الدارين أتعرفون هذا فيقولون لا فيقول هذا الموت ثم يذبحه ثم ينادى يا اهل الجنة خلود ولاموت ابدا وكذلك لاهل النار واحتج هذا القائل بان قوله لايحزنهم الفزع الاكبر انما ذكر بعد قوله وهم فيها خالدون فلابد وان يكون لاحدهما تعلق بالآخر والفزع الاكبر الذى هو ينافى الخلود هو الموت (وثالثها) قال سعيد بن جبير هو اطباق النار على اهلها فيفزعون لذلك فزعة عظيمة قال القاضى عبد الجبار الاولى فى ذلك انه الفزع من النار عند مشاهدتها لانه لافزع اكبر من ذلك فاذا بين تعالى ان ذلك لايحزنهم فقد صح ان المؤمن آمن من اهوال يوم القيامة وهذا ضعيف لان عذاب النار على مراتب فعذاب الكفار اشد من عذاب الفساق واذا كانت مراتب التعذيب بالنار متفاوتة كانت مراتب الفزع منها متفاوتة فلا يلزم من نفى الفزع الاكبر نفى الفزع من النار (الصفة الخامسة) قوله وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون قال الضحاك هم الحفظة الذين كتبوا اعمالهم واقوالهم ويقولون لهم مبشرين هذا يومكم الذى كنتم توعدون * قوله تعالى (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب كما بدأنا

اول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ان الارض

يرثها عبادى الصالحون ان فى هذا لبلاغا لقوم عابدين وما ارسلناك الا رحمة للعالمين) اعلم ان التقدير لايحزنهم الفزع الاكبر يوم نطوى السماء او وتتلقاهم الملائكة يوم نطوى السماء وقرئ يوم تطوى السماء على البناء للمفعول والسجل بوزن العتل والسجل بوزن الدلو وروى فيه الكسر وفى السجل قولان (احدهما) انه اسم للطومار الذى يكتب فيه والكتاب اصله المصدر كالبناء ثم يوقع على المكتوب ومن جمع فمعناه للمكتوبات اى لما يكتب فيه من المعانى الكثيرة فيكون معنى طى السجل للكتاب كون السجل ساترا لتلك الكتابة ومخفيا لها لان الطى ضد النشر الذى يكشف والمعنى نطوى السماء كما يطوى الطومار الذى يكتب فيه (القول الثانى) انه ليس اسما للطومار ثم قال ابن عباس رضى الله عنهما السجل اسم ملك يطوى كتب بنى آدم اذا رفعت اليه وهو مروى عن على عليه

المراد ارض الجنة كما ينبئ عنه قوله تعالى وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده واورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء وقيل الارض المقدسة يرثها امة محمد صلى الله عليه وسلم (ان فى هذا) اى فيما ذكر فى السورة الكريمة من الاخبار والمواعظ البالغة والوعد والوعيد والبراهين القاطعة الدالة على التوحيد وصحة النبوة (لبلاغا) اى لكفاية اوسبب بلوغ الى البغية (لقوم عابدين) اى لقوم همهم العبادة دون العادة (وما ارسلناك) بما ذكر وبامثاله من الشرائع والاحكام وغير ذلك من الامور التى هى مناط لسعادة الدارين (الارحمة للعالمين) هو فى حيز النصب على انه استثناء من اعم العلل اومن اعم الاحوال اى ما ارسلناك بما ذكر لعلة من العلل الا لرحمتنا الواسعة للعالمين قاطبة اوما ارسلناك فى حال من الاحوال الا حال كونك رحمة لهم فان مابعثت به سبب لسعادة الدارين ومنشأ لانتظام مصالحهم فى النشأتين ومن لم يغتنم مغانم آثاره فانما فرط فى نفسه وحرمه حقه لا انه تعالى حرمه مما يسعده وقيل كونه رحمة فى حق الكفار امنهم من الخسف والمسخ والاستئصال حسبما نطق به قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم

السلام وروى ابو الجوزاء عن ابن عباس رضى الله عنهما انه اسم كاتب كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا بعيد لان كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا معروفين وليس فيهم من سمى بهذا وقال الزجاج وهو الرجل بلغة الحبشة وعلى هذه الوجوه فهو على نحو ما يقال كطى زيد الكتاب واللام فى للكتاب زائدة كما فى قوله ردف لكم واذا قلنا المراد بالسجل الطومار فالمصدر وهو الطى مضاف الى المفعول والفاعل محذوف والتقدير كطى الطاوى السجل وهذا الاخير هو قول الاكثرين اما قوله تعالى كما بدأنا اول خلق نعيده ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الفراء انقطع الكلام عند قوله الكتاب ثم ابتدأ فقال كما بدأنا ومنهم من قال انه تعالى لما قال وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون عقبه بقوله يوم نطوى السماء كطى السجل للكتاب فوصف اليوم بذلك ثم وصفه بوصف آخر فقال كما بدأنا اول خلق نعيده (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف رحمه الله اول خلق مفعول نعيد الذى يفسره نعيده والكاف مكفوفة بما والمعنى نعيد اول الخلق كما بدأناه تشبيها للاعادة بالابتداء فان قلت ما بال خلق منكرا قلت هو كقولك اول رجل جاءنى زيد تريد اول الرجال ولكنك وحدته ونكرته ارادة تفصيلهم رجلا رجلا فكذلك معنى اول خلق اول الخلق بمعنى اول الخلائق لان الخلق مصدر لا يجمع (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى كيفية الاعادة فمنهم من قال ان الله تعالى يفرق اجزاء الاجسام ولا يعدمها ثم انه يعيد تركيبها فذلك هو الاعادة ومنهم من قال انه تعالى يعدمها بالكلية ثم انه يوجدها بعينها مرة اخرى وهذه الآية دالة على هذا الوجه لانه سبحانه شبه الاعادة بالابتداء ولما كان الابتداء ليس عبارة عن تركيب الاجزاء المتفرقة بل عن الوجود بعد العدم وجب ان يكون الحال فى الاعادة كذلك واحتج القائلون بالمذهب الاول بقوله تعالى والسموات مطويات بيمينه فدل هذا على ان السموات حال كونها مطوية تكون موجودة وبقوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض وهذا يدل على ان اجزاء الارض باقية لكنها جعلت غير الارض اما قوله تعالى وعدا علينا ففيه قولان (احدهما) ان وعدا مصدر مؤكد لان قوله نعيده عدة للاعادة (الثانى) ان يكون المراد حقا علينا بسبب الاخبار عن ذلك بقوله انا كنا فاعلين اى مع ان وقوع ما علم الله وقوعه واجب ثم انه تعالى حقق ذلك بقوله انا كنا فاعلين اى سنفعل ذلك لا محالة وهو تأكيد لما ذكره من الوعد اما قوله تعالى ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة بضم الزاى والباقون بفتحها بمعنى المزبور كالحلوب والركوب يقال زبرت الكتاب اى كتبته والزبور بضم الزاى جمع زبر كقشر وقشور ومعنى القراءتين واحد لان الزبر هو الكتاب (المسئلة الثانية) فى الزبور والذكر وجوه (احدها) وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد والكلبى ومقاتل وابن زيد الزبور هو الكتب المنزلة والذكر الكتاب الذى هو ام الكتاب فى السماء لان فيها كتابة كل ما سيكون

(قل انما يوحى الى انما الهكم اله واحد) اى ما يوحى الى الا انه لا اله لكم الا اله واحد لانه المقصود الاصلى من البعثة واما ما عداه فمن الاحكام المتفرعة عليه فانما الاولى لقصر الحكم على الشئ كقولك انما يقوم زيد اى ما يقوم الا زيد والثانية لقصر الشئ على الحكم كقولك انما زيد قائم اى ليس له الا صفة القيام (فهل انتم مسلمون) اى مخلصون العبادة لله تعالى مخصصون لها به تعالى والفاء للدلالة على ان ما قبلها موجب لما بعدها قالوا فيه دلالة على ان صفة الوحدانية تصح ان يكون طريقها السمع

اعتبارا للملائكة وكتب الانبياء عليهم السلام من ذلك الكتاب تنسخ (وثانيها) الزبور هو القرآن والذكر هو التوراة وهو قول قتادة والشعبي (وثالثها) الزبور زبور داود عليه السلام والذكر هو الذي يروى عنه عليه السلام قال كان الله تعالى ولم يكن معه شئ ثم خلق الذكر (وعندي فيه وجه رابع) وهو ان المراد بالذكر العلم اى كتبنا ذلك في الزبور بعد ان كنا عالمين علما لا يجوز السهو والنسيان علينا فان من كتب شيئا والتزمه ولكنه يجوز السهو عليه فانه لا يعتمد عليه اما من لم يجز عليه السهو والخلف فاذا التزم شيئا كان ذلك الشئ واجب الوقوع اما قوله تعالى ان الارض يرثها عبادي الصالحون ففيه وجوه (احدها) الارض ارض الجنة والعباد الصالحون هم المؤمنون العاملون بطاعة الله تعالى فالمعنى ان الله تعالى كتب في كتب الانبياء عليهم السلام وفي اللوح المحفوظ انه سيورث الجنة من كان صالحا من عباده وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي وابي العالية وهؤلاء اكدوا هذا القول بأمور (اما اولا) فقوله تعالى واورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم اجر العاملين (وثانيا) فلانها الارض التي يختص بها الصالحون لانها لهم خلقت وغيرهم اذا حصل معهم في الجنة فعلى وجه التبع فاما ارض الدنيا فلانها للصالح وغير الصالح (واما ثالثا) فلان هذه الارض مذكور عقيب الاعادة وبعد الاعادة الارض التي هذا وصفها لا تكون الا الجنة (واما رابعا) فقد روى في الخبر انها ارض الجنة فانها بيضاء نقية (وثانيها) ان المراد من الارض ارض الدنيا فانه سبحانه وتعالى سيورثها المؤمنين في الدنيا وهو قول الكلبي وابن عباس في بعض الروايات ودليل هذا القول قوله سبحانه وعد الله الذين آمنوا الى قوله ليستخلفنهم في الارض وقوله تعالى قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده (وثالثها) هي الارض المقدسة يرثها الصالحون ودليله قوله تعالى واورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التي باركنا فيها ثم بالآخرة يورثها امة محمد صلى الله عليه وسلم عند نزول عيسى بن مريم عليه السلام اما قوله تعالى ان في هذا لبلاغا لقوم عابدين فقوله هذا اشارة الى المذكور في هذه السورة من الاخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة والبلاغ الكفاية وما تبلغ به البغية وقيل في العابدين انهم العالمون وقيل بل العاملون والاولى انهم الجامعون بين الامرين لان العلم كالشجر والعمل كالثمر والشجر بدون الثمر غير مفيد والثمر بدون الشجر غير كائن اما قوله تعالى وما ارسلناك الا رحمة للعالمين ففيه مسائل (المسئلة الاولى) انه عليه السلام كان رحمة في الدين وفي الدنيا اما في الدين فلانه عليه السلام بعث والناس في جاهلية وضلالة واهل الكتابين كانوا في حيرة من امر دينهم لطول مكثهم وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف في كتبهم فبعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم حين لم يكن لطالب الحق سبيل الى الفوز والثواب فدعاهم الى الحق وبين لهم سبيل الثواب وشرع لهم الاحكام وميز الحلال من

(فان تولوا) عن الاسلام ولم يلتفتوا الى ما يوجبه من الوحي (فقل) لهم (آذنتكم) اى اعلمتكم ما امرت به او حربي لكم (على سواء) كائنين على سواء في الاعلام به لم أطوه عن احد منكم او مستوين به انا وانتم في العلم بما اعلمتكم به او في المعاداة او ايذانا على سواء وقيل اعلمتكم انى على سواء اى عدل واستقامة رأى بالبرهان النير (وان ادرى) اى ما ادرى (اقريب ام بعيد ما توعدون) من غلبة المسلمين وظهور الدين او الحشر مع كونه آتيا لا محالة

الحرام ثم انما ينتفع بهذه الرحمة من كانت همته طلب الحق فلا يركن الى التقليد ولا الى العناد والاستكبار وكان التوفيق قرينانه قال الله تعالى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء الى قوله وهو عليهم عمى واما فى الدنيا فلانهم تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب ونصروا ببركة دينه (فان قيل) كيف كان رحمة وقد جاء بالسيف واستباحة الاموال قلنا (الجواب) من وجوه (احدها) انما جاء بالسيف لمن استكبر وعاند ولم يتفكر ولم يتدبر ومن اوصاف الله الرحمن الرحيم ثم هو منتقم من العصاة وقال وانزلنا من السماء ماء مباركا ثم قد يكون سببا للفساد (وثانيها) ان كل نبى قبل نبينا كان اذا كذبه قومه اهلك الله المكذبين بالخسف والمسخ والغرق وانه تعالى اخر عذاب من كذب رسولنا الى الموت او الى القيامة قال تعالى وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم لا يقال اليس انه تعالى قال قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم وقال تعالى ليعذب الله المنافقين والمنافقات لانا نقول تخصيص العام لا يقدح فيه (وثالثها) انه عليه السلام كان فى نهاية حسن الخلق قال تعالى وانك لعلى خلق عظيم وقال ابو هريرة رضى الله عنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ادع على المشركين قال انما بعثت رحمة ولم ابعث عذابا وقال فى رواية حذيفة انما انا بشر اغضب كما يغضب البشر فايما رجل سببته او لعنته فاجعلها اللهم عليه صلاة يوم القيامة (ورابعها) قال عبد الرحمن بن زيد الا رحمة للعالمين يعنى المؤمنين خاصة قال الامام ابو القاسم الانصارى والقولان يرجعان الى معنى واحد لما بينا انه كان رحمة للكل لو تدبروا فى آيات الله وآيات رسوله فاما من اعرض واستكبر فانما وقع فى المحنة من قبل نفسه كما قال وهو عليهم عمى (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة لو كان الله تعالى اراد من الكافرين الكفر ولم يرد منهم القبول من الرسول بل ما اراد منهم الا الرد عليه وخلق ذلك فيهم ولم يخلقهم الا كذلك كما يقوله اهل السنة لوجب ان يكون ارساله نقمة وعذابا عليهم لا رحمة وذلك على خلاف هذا النص لا يقال ان رسالته عليه السلام رحمة للكفار من حيث لم يعجل عذابهم فى الدنيا كما عجل عذاب سائر الامم لانا نقول ان كونه رحمة للجميع على حد واحد وما ذكرتموه للكفار فهو حاصل للمؤمنين ايضا فاذا يجب ان يكون رحمة للكافرين من الوجه الذى صار رحمة للمؤمنين وايضا فان الذى ذكروه من نعم الدنيا كانت حاصلة للكفار قبل بعثته صلى الله عليه وسلم كحصولها بعده بل كانت نعمهم فى الدنيا قبل بعثته اعظم لان بعد بعثته نزل بهم الغم والخوف منه ثم امر بالجهاد الذى فنى اكثرهم فيه فلا يجوز ان يكون هذا هو المراد (والجواب) ان نقول لما علم الله سبحانه وتعالى ان ابا لهب لا يؤمن البتة واخبر عنه انه لا يؤمن كان امره اياه بالايمان امرا بقلب علمه جهلا وخبره الصدق كذبا وذلك محال فكان قد امره بالمحال وان كانت البعثة مع هذا القول رحمة فلم لا يجوز ان يقال البعثة رحمة مع انه خلق الكفر فى الكافر ولان قدرة الكافر ان لم تصلح الا للكفر فقط فالسؤال عليهم لازم وان كانت صالحة للضدين توقف الترجيح على مرجح من قبل الله تعالى

(انه يعلم الجهر من القول) اى ما تجاهرون به من الطعن فى الاسلام وتكذيب الآيات التى من جملتها ما نطق بمجئ الموعود (ويعلم ما تكتمون) من الاحن والاحقاد للمسلمين فيجازيكم عليه نقيرا وقطميرا (وان ادرى لعله فتنة لكم) اى ما ادرى لعل تأخير جزائكم استدراج لكم وزيادة فى افتتانكم او امتحان لكم لينظر كيف تعملون (ومتاع الى حين) اى وتمتع لكم الى اجل مقدر تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة ليكون ذلك حجة عليكم

قطعا للتسلسل وحينئذ يعود الالزام ثم نقول لم لا يجوز ان يكون رحمة للكافر بمعنى تأخير عذاب الاستئصال عنه قوله اولا لما كان رحمة للجميع على حد واحد وجب ان يكون رحمة للكفار من الوجه الذى كان رحمة للمؤمنين قلنا ليس فى الآية انه عليه السلام رحمة للكل باعتبار واحد او باعتبارين مختلفين فدعواك بكون الوجه واحدا تحكم قوله نعم الدنيا كانت حاصلة للكفار من قبل قلنا نعم ولكنه عليه السلام لكونه رحمة للمؤمنين لما بعث حصل الخوف للكفار من نزول العذاب فلما اندفع ذلك عنهم بسبب حضوره كان ذلك رحمة فى حق الكفار (المسئلة الثالثة) تمسكوا بهذه الآية فى انه افضل من الملائكة قالوا لان الملائكة من العالمين فوجب بحكم هذه الآية ان يكون عليه السلام رحمة للملائكة فوجب ان يكون افضل منهم (والجواب) انه معارض بقوله تعالى فى حق الملائكة ويستغفرون للذين آمنوا وذلك رحمة منهم فى حق المؤمنين والرسول عليه السلام داخل فى المؤمنين وكذا قوله تعالى ان الله وملائكته يصلون على النبى * قوله تعالى (قل انما يوحى الى انما الهكم اله واحد فهل انتم مسلمون فان تولوا فقل آذنتكم على سواء وان ادرى اقريب ام بعيد ما توعدون انه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون وان ادرى لعله فتنة لكم ومتاع الى حين قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون) اعلم انه تعالى لما اورد على الكفار الحجج فى ان لا اله سواه من الوجوه التى تقدم ذكرها وبين انه ارسل رسوله رحمة للعالمين اتبع ذلك بما يكون اعذارا وانذارا فى مجاهدتهم والاقدام عليهم فقال قل انما يوحى الى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف انما يقصر الحكم على شئ او يقصر الشئ على حكم كقولك انما زيد قائم او انما يقوم زيد وقد اجتمع المثالان فى هذه الآية لان انما يوحى الى مع فاعله بمنزلة انما يقوم زيد وانما الهكم اله واحد بمنزلة انما زيد قائم وفائدة اجتماعهما الدلالة على ان الوحى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقصور على اثبات وحدانية الله تعالى وفى قوله فهل انتم مسلمون ان الوحى الوارد على هذا السنن يوجب ان تخلصوا التوحيد له وان تتخلصوا من نسبة الانداد وفيه انه يجوز اثبات التوحيد بالسمع فان قيل لو دلت انما على الحصر لزم ان يقال انه لم يوح الى الرسول شئ الا التوحيد ومعلوم ان ذلك فاسد قلنا المقصود منه المبالغة اما قوله فان تولوا فقل آذنتكم على سواء فقال صاحب الكشاف آذن منقول من اذن اذا علم ولكنه كثر استعماله فى الجرى مجرى الانذار ومنه قوله فأذنوا بحرب من الله ورسوله اذا عرفت هذا فنقول المفسرون ذكروا فيه وجوها (احدها) قال ابو مسلم الايذان على السواء الدعاء الى الحرب مجاهرة لقوله تعالى فانبذ اليهم على سواء وفائدة ذلك انه كان يجوز ان يقدر على من اشرك من قريش ان حالهم مخالف لسائر الكفار فى المجاهدة فعرفهم بذلك انهم كالكفار فى ذلك (وثانيها) ان المراد فقد اعلمتكم ما هو الواجب عليكم من التوحيد وغيره على سواء فلم افرق فى الابلاغ والبيان بينكم لانى بعثت معلما والغرض منه ازاحة

(قال رب احكم بالحق) حكاية لدعائه عليه الصلاة والسلام وقرئ قل رب على صيغة الامر اى اقض بيننا وبين اهل مكة بالعدل المقتضى لتعجيل العذاب والتشديد عليهم وقد استجيب دعاؤه عليه السلام حيث عذبوا ببدر اى تعذيب وقرئ رب احكم بضم الباء وربى احكم على صيغة التفضيل وربى احكم من الاحكام (وربنا الرحمن) مبتدأ وخبر اى كثير الرحمة على عباده وقوله تعالى (المستعان) اى المطلوب منه المعونة خبر آخر للمبتدأ واضافة الرب فيما سبق الى ضميره عليه السلام خاصة لما ان الدعاء من الوظائف الخاصة به عليه السلام كما ان اضافته ههنا الى ضمير الجمع المنتظم للمؤمنين ايضا لما ان الاستعانة من الوظائف العامة لهم

العذر لئلا يقولوا ربنا لولا ارسلت الينا رسولا (وثالثها) على سواء على اظهار واعلان (ورابعها) على مهل والمراد انى لا اعاجل بالحرب الذى آذنتكم به بل امهل واؤخر رجاء الاسلام منكم اما قوله وان ادرى أقريب ام بعيد ما توعدون ففيه وجهان (احدهما) أقريب ام بعيد ما توعدون من يوم القيامة ومن عذاب الدنيا ثم قبل نسخه قوله واقترب الوعد الحق يعنى منهما فان مثل هذا الخبر لا يجوز نسخه (وثانيها) المراد ان الذى آذنتهم فيه من الحرب لا يدرى هو قريب ام بعيد لئلا يقدر انه يتأخر كأنه تعالى امره بان ينذرهم بالجهاد الذى يوحى اليه ان يأتيه من بعد ولم يعرفه الوقت فلذلك امره ان يقول انه لا يعلم قربه ام بعده تبين بذلك ان السورة مكية وكان الامر بالجهاد بعد الهجرة (وثالثها) ان ما توعدون به من غلبة المسلمين عليهم كائن لا محالة ولا بد ان يلحقهم بذلك الذل والصغار وان كنت لا ادرى متى يكون وذلك لان الله تعالى لم يطلعنى عليه اما قوله تعالى انه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون فالمقصود منه الامر بالاخلاص وترك النفاق لانه تعالى اذا كان عالما بالضمائر وجب على العاقل ان يبالغ فى الاخلاص اما قوله تعالى وان ادرى لعله فتنة لكم ومتاع الى حين ففيه وجوه (احدها) لعل تأخير العذاب عنكم (وثانيها) لعل ابهام الوقت الذى ينزل بكم العذاب فيه فتنة لكم اى بلية واختبار لكم ليرى صنعكم وهل تحدثون توبة ورجوعا عن كفركم ام لا (وثالثها) قال الحسن لعل ما انتم فيه من الدنيا بلية لكم والفتنة البلوى والاختبار (ورابعها) لعل تأخير الجهاد فتنة لكم اذا انتم دمتم على كفركم لان ما يؤدى الى الضرر العظيم يكون فتنة وانما قال لا ادرى لتجويز ان يؤمنوا فلا يكون تبقيتهم فتنة بل ينكشف عن نعمة ورحمة (وخامسها) ان يكون المراد وان ادرى لعل ما بينت واعلمت واوعدت فتنة لكم لانه زيادة فى عذابكم ان لم تؤمنوا لان المعرض عن الايمان مع البيان حالا بعد حال يكون عذابه اشد واذا متعه الله تعالى بالدنيا يكون ذلك كالحجة عليه اما قوله تعالى قال رب احكم بالحق ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ قل رب احكم بالحق على الاكتفاء بالكسرة ورب احكم على الضم وربى احكم على افعل التفضيل وربى احكم من الاحكام (المسئلة الثانية) رب احكم بالحق فيه وجوه (احدها) اى ربى اقض بينى وبين قومى بالحق اى بالعذاب كأنه قال اقض بينى وبين من كذبنى بالعذاب وقال قتادة امره الله تعالى ان يقتدى بالانبياء فى هذه الدعوة وكانوا يقولون ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق فلا جرم حكم الله تعالى عليهم بالقتل يوم بدر (وثانيها) افصل بينى وبينهم بما يظهر الحق للجميع وهو ان تنصرنى عليهم اما قوله تعالى وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ففيه وجهان (احدهما) اى من الشرك والكفر وما تعارضون به دعوتى من الاباطيل والتكذيب كأنه سبحانه قال قل داعيا لى رب احكم بالحق وقل متوعدا للكفار وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون قرأ ابن عامر بالياء المنقوطة من تحت اى قل لاصحابك المؤمنين وربنا الرحمن المستعان على ما يصف

(على ما تصفون) من الحال فانهم كانوا يقولون ان الشوكة تكون لهم وان راية الاسلام تخفق ثم تركد وان المتوعد به لو كان حقا لنزل بهم الى غير ذلك مما لا خير فيه فاستجاب الله عز وجل دعوة رسوله عليه السلام فخيب آمالهم وغير احوالهم ونصر اولياءه عليهم فاصابهم يوم بدر ما اصابهم والجملة اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله وقرئ يصفون بالياء التحتانية * وعن النبى عليه السلام من قرأ اقترب حاسبه الله تعالى حسابا يسيرا وصافحه وسلم عليه كل نبى ذكر اسمه فى القرآن

الكفار من الاباطيل اى من العون على دفع اباطيلهم (وثانيها) كانوا يطمعون ان تكون لهم الشوكة والغلبة فكذب الله ظنونهم وخيب آمالهم ونصر رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وخذلهم قال القاضى انما ختم الله هذه السورة بقوله قل رب احكم بالحق لانه عليه السلام كان قد بلغ فى البيان الغاية لهم وبلغوا النهاية فى اذيته وتكذيبه فكان قصارى امره تعالى بذلك تسلية له وتعريفا ان المقصود مصلحتهم فاذا أبوا الا التمادى فى كفرهم فعليك بالانقطاع الى ربك ليحكم بينك وبينهم بالحق اما بتعجيل العقاب بالجهاد او بغيره واما بتأخير ذلك فان امرهم وان تأخر فما هو كائن قريب وما روى انه عليه السلام كان يقول ذلك فى حروبه كالدلالة على انه تعالى امره ان يقول هذا القول كالاستعجال للامر بمجاهدتهم وبالله التوفيق وصلاته على خير خلقه محمد النبى وآله وصحبه وسلم تسليما آمين

(سورة الحج سبعون وست آيات وهى مكية الاست آيات)
(هذان خصمان الى قوله صراط الحميد)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يا ايها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شئ عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) اعلم انه تعالى امر الناس بالتقوى فدخل فيه ان يتقى كل محرم ويتقى ترك كل واجب وانما دخل فيه الامران لان المتقى انما يتقى ما يخافه من عذاب الله تعالى فيدع لاجله المحرم ويفعل لاجله الواجب ولا يكاد يدخل فيه النوافل لان المكلف لا يخاف بتركها العذاب وانما يرجو بفعلها الثواب فاذا قال اتقوا ربكم فالمراد اتقوا عذاب ربكم اما قوله ان زلزلة الساعة شئ عظيم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) الزلزلة شدة حركة الشئ قال صاحب الكشاف ولا تخلو الساعة من ان تكون على تقدير الفاعلة لها كانها هى التى تزلزل الاشياء على المجاز الحكمى فتكون الزلزلة مصدرا مضافا الى فاعله او على تقدير المفعول فيها على طريقة الاتساع فى الظرف واجرائه مجرى المفعول به كقوله تعالى بل مكر الليل والنهار وهى الزلزلة المذكورة فى قوله اذا زلزلت الارض زلزالها (المسئلة الثانية) اختلفوا فى وقتها فعن علقمة والشعبى ان هذه الزلزلة تكون فى الدنيا وهى التى يكون معها طلوع الشمس من مغربها وقيل هى التى تكون معها الساعة وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث الصور انه قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات نفخة الفزع ونفخة الصعقة ونفخة القيام لرب العالمين وان عند نفخة الفزع يسير الله الجبال وترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة وتكون الارض كالسفينة تضربها الامواج او كالقنديل المعلق ترجرجه الرياح وقال مقاتل وابن زيد هذا فى اول يوم من ايام الآخرة واعلم انه ليس فى اللفظ دلالة على شئ من هذه الاقسام لان هذه

(سورة الحج مكية الاست آيات (من هذان خصمان الى صراط) (الحميد وهى ثمان وسبعون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يا أيها الناس اتقوا ربكم) خطاب يعم حكمه المكلفين عند النزول ومن سينتظم فى سلكهم بعد من الموجودين القاصرين عن رتبة التكليف والحادثين بعد ذلك الى يوم القيامة وان كان خطاب المشافهة مختصا بالفريق الاول على الوجه الذى مر تقريره فى مطلع سورة النساء ولفظ الناس ينتظم الذكور والاناث حقيقة واما صيغة جمع المذكر فواردة على نهج التغليب لعدم تناولها الاناث حقيقة الا عند الحنابلة والمأمور به مطلق التقوى الذى هو التجنب عن كل ما يؤثم من فعل وترك ويندرج فيه الايمان بالله واليوم الآخر حسبما ورد به الشرع اندراجا اوليا والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية والتربية مع الاضافة الى ضمير المخاطبين لتأييد الامر وتأكيد ايجاب الامتثال به ترهيبا وترغيبا اى احذروا عقوبة مالك اموركم ومربيكم وقوله تعالى (ان زلزلة الساعة شئ عظيم) تعليل لموجب الامر بذكر بعض عقوباته الهائلة فان ملاحظة عظمها وهولها وفظاعة ما هى من مباديه ومقدماته من الاحوال والاهوال التى لا ملجأ منها سوى التدرع

الاضافة تصح وان كانت الزلزلة قبلها وتكون من اماراتها واشراطها وتصح اذا كانت فيها ومعها كقولنا آيات الساعة وامارات الساعة (المسئلة الثالثة) روى ان هاتين الآيتين نزلتا بالليل والناس يسيرون فنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمع الناس حوله فقرأهما عليهم فلم يرباكيا اكثر من تلك الليلة فلما اصبحوا لم يحطوا السرج ولم يضربوا الخيام ولم يطبخوا القدور والناس بين باك وجالس حزين متفكر فقال عليه السلام أتدرون اى ذلك اليوم هو قالوا الله ورسوله اعلم قال ذلك يوم يقول الله لآدم عليه السلام قم فابعث بعث النار من ولدك فيقول آدم وما بعث النار يعنى من كم كم فيقول الله عز وجل من كل الف تسعمائة وتسعة وتسعون الى النار وواحد الى الجنة فعند ذلك يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى فكبر ذلك على المؤمنين وبكوا وقالوا فمن ينجو يارسول الله فقال عليه الصلاة والسلام ابشروا وسددوا وقاربوا فان معكم خليقتين ما كانتا فى قوم الا كثرتاه يأجوج ومأجوج ثم قال انى لارجو ان تكونوا ربع اهل الجنة فكبروا ثم قال انى لارجو ان تكونوا نصف اهل الجنة فكبروا وحمدوا الله ثم قال انى لارجو ان تكونوا ثلثى اهل الجنة ان اهل الجنة مائة وعشرون صفا ثمانون منها امتى وما المسلمون فى الكفار الا كالشامة فى جنب البعير او كالشعرة البيضاء فى الثور الاسود ثم قال ويدخل من امتى سبعون الفا الى الجنة بغير حساب فقال عمر سبعون الفا قال نعم ومع كل واحد سبعون الفا فقام عكاشة بن محصن فقال يارسول الله ادع الله ان يجعلنى منهم فقال انت منهم فقام رجل من الانصار فقال مثل قوله فقال سبقك بها عكاشة فخاض الناس فى السبعين الفا فقال بعضهم هم الذين ولدوا على الاسلام وقال بعضهم هم الذين آمنوا وجاهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قالوا فقال هم الذين لا يكتوون ولا يكوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون (المسئلة الرابعة) انه سبحانه امر الناس بالتقوى ثم علل وجوبها عليهم بذكر الساعة ووصفها باهول صفة والمعنى ان التقوى تقتضى دفع مثل هذا الضرر العظيم عن النفس ودفع الضرر عن النفس معلوم الوجوب فيلزم ان تكون التقوى واجبة (المسئلة الخامسة) احتجت المعتزلة بقوله تعالى ان زلزلة الساعة شئ عظيم وصفها بانها شئ مع انها معدومة واحتجوا ايضا بقوله تعالى ان الله على كل شئ قدير فالشئ الذى قدر الله عليه اما ان يكون موجودا او معدوما والاول محال والا لزم كون القادر قادرا على ايجاد الموجود واذا بطل هذا ثبت ان الشئ الذى قدر الله عليه معدوم فالمعدوم شئ واحتجوا ايضا بقوله تعالى ولا تقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا اطلق اسم الشئ فى الحال على ما يصير مفعولا غدا والذى يصير مفعولا غدا يكون معدوما فى الحال فالمعدوم شئ والله اعلم (والجواب عن الاول) ان الزلزلة عبارة عن الاجسام المتحركة وهى جواهر قامت بها اعراض وتحقق ذلك فى المعدوم محال فالزلزلة يستحيل ان تكون شيئا حال عدمها فلابد

بلباس التقوى مما يوجب مزيد الاعتناء بملابسته وملازمته لاعجالة والزلزلة التحريك الشديد والازعاج العنيف بطريق التكرير بحيث يزيل الاشياء من مقارها ويخرجها عن مراكزها واضافتها الى الساعة اما اضافة المصدر الى فاعله على المجاز الحكمى كأنها هى التى تزلزل الاشياء او اضافته الى الظرف اما باجرائه مجرى المفعول به تساعا او بتقدير فى كما فى قوله تعالى بل مكر الليل والنهار وهى الزلزلة المذكورة فى قوله تعالى اذا زلزلت الارض زلزالها عن الحسن انها تكون يوم القيامة وعن ابن عباس رضى الله عنهما زلزلة الساعة قيامها وعن علقمة والشعبى انها قبل طلوع الشمس من مغربها فاضافتها الى الساعة حينئذ لكونها من اشراطها وفى التعبير عنها بالشئ ايذان بان العقول قاصرة عن ادراك كنهها والعبارة ضيقة لا تحيط بها الا على وجه الابهام وقوله تعالى (يوم ترونها) منتصب بما بعده قدم عليه اهتماما به والضمير للزلزلة اى وقت رؤيتكم اياها ومشاهدتكم لهول مطلعها (تذهل كل مرضعة) اى مباشرة للارضاع (عما ارضعت) اى تغفل وتذهل مع دهشة عما هى بصدد ارضاعه من طفلها الذى القمته ثديها والتعبير عنه بما دون من لتأكيد

من التأويل بالاتفاق ويكون المعنى انها اذا وجدت صارت شيئا وهذا هو الجواب عن البواقي (المسئلة السادسة) وصف الله تعالى الزلزلة بالعظيم ولا عظيم اعظم مما عظمه الله تعالى اما قوله تعالى يوم ترونها فهو منصوب بتذهل اى تذهل فى ذلك اليوم والضمير فى ترونها يحتمل ان يرجع الى الزلزلة وان يرجع الى الساعة لتقدم ذكرهما والاقرب رجوعه الى الزلزلة لان مشاهدتها هى التى توجب الخوف الشديد واعلم انه سبحانه وتعالى ذكر من اهوال ذلك اليوم امورا ثلاثة (احدها) قوله تذهل كل مرضعة عما ارضعت اى تذهلها الزلزلة والذهول الذهاب عن الامر مع دهشة فان قيل لم قال مرضعة دون مرضع قلت المرضعة هى التى فى حال الارضاع وهى ملقمة ثديها الصبى والمرضع شأنها ان ترضع وان لم تباشر الارضاع فى حال وصفها به فقيل مرضعة ليدل على ان ذلك الهول اذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته من فيه لما يلحقها من الدهشة وقوله عما ارضعت اى عن ارضاعها او عن الذى ارضعته وهو الطفل فتكون ما بمعنى من على هذا التأويل (وثانيها) قوله وتضع كل ذات حمل حملها والمعنى انها تسقط ولدها لتمام اولغير تمام من هول ذلك اليوم وهذا يدل على ان هذه الزلزلة انما تكون قبل البعث قال الحسن تذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام وألقت الحوامل ما فى بطونها لغير تمام وقال القفال يحتمل ان يقال من ماتت حاملا او مرضعة تبعث حاملا او مرضعة تضع حملها من الفزع ويحتمل ان يكون المراد من ذهول المرضعة ووضع الحمل على جهة المثل كما قد تأول قوله يوما يجعل الولدان شيبا (وثالثها) قوله وترى الناس سكارى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ وترى بالضم تقول أريتك قائما او رأيتك قائما والناس بالنصب والرفع اما النصب فظاهر واما الرفع فلأنه جعل الناس اسم ما لم يسم فاعله وانثه على تأويل الجماعة وقرئ سكرى وسكارى وهو نظير جوعى وعطشى فى جوعان وعطشان سكارى وسكارى نحو كسالى وعجالى وعن الاعمش سكرى وسكرى بالضم وهو غريب (المسئلة الثانية) المعنى وتراهم سكارى على التشبيه وما هم بسكارى على التحقيق ولكن ما رهقهم من هول عذاب الله تعالى هو الذى اذهب عقولهم وطير تمييزهم وقال ابن عباس والحسن وتراهم سكارى من الخوف وما هم بسكارى من الشراب فان قلت لم قيل أولا ترون ثم قيل ترى على الافراد قلنا لان الرؤية اولا علقت بالزلزلة فجعل الناس جميعا رائين لها وهى معلقة آخرا بكون الناس على حال السكر فلابد وان يجعل كل واحد منهم رائيا لسائرهم (المسئلة الثالثة) ان قيل أتقولون ان شدة ذلك اليوم تحصل لكل احد او لاهل النار خاصة قلنا قال قوم ان الفزع الاكبر وغيره يختص باهل النار وان اهل الجنة يحشرون وهم آمنون وقيل بل يحصل للكل لانه سبحانه لا اعتراض لأحد عليه فى شئ من افعاله وليس لأحد عليه حق ۞ قوله تعالى (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد كتب عليه انه من تولاه فانه يضله ويهديه الى عذاب السعير) وفيه مسائل (المسئلة

(الاولى)

الذهول وكونه بحيث لا يخطر ببالها انه ماذا الا انها تعرف شيئية لكن لا تدرى من هو بخصوصه وقيل ما مصدرية اى تذهل عن ارضاعها والاول ادل على شدة الهول وكمال الانزعاج وقرئ تذهل من الاذهال مبنيا للمفعول او مبنيا للفاعل مع نصب كل اى تذهلها الزلزلة (وتضع كل ذات حمل حملها) اى تلقى جنينها لغير تمام كما ان المرضعة تذهل عن ولدها لغير فطام وهذا ظاهر على قول علقمة والشعبى واما على ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما فقيل انه تمثيل لتهويل الامر وفيه ان الامر حينئذ اشد من ذلك واعظم واهول مما وصف واطم وقيل ان ذلك يكون عند النفخة الثانية فانهم يقومون على ما صعقوا فى النفخة الاولى فتقوم المرضعة على رضاعها والحامل على حملها ولا ريب فى ان قيام الناس من قبورهم بعد النفخة الثانية لا قبلها حتى يتصور ما ذكر (وترى الناس) بفتح التاء والراء على خطاب كل احد من المخاطبين برؤية الزلزلة والاختلاف بالجمعية والافراد لان المرئى فى الاول هى الزلزلة التى يشاهدها الجميع وفى الثانى حال من عدا المخاطب منهم فلابد من افراد المخاطب على وجه يعم كل واحد منهم لكن من غير اعتبار اتصافه بتلك الحالة فان المراد بيان تأثير الزلزلة فى المرئى

الاولى) فى كيفية النظم وجهان (الاول) اخبر تعالى فيما تقدم عن اهوال يوم القيامة وشدتها ودعا الناس الى تقوى الله ثم بين فى هذه الآية قوما من الناس الذين ذكروا فى الاول واخبر عن مجادلتهم (الثانى) انه تعالى بين انه مع هذا التحذير الشديد بذكر زلزلة الساعة وشدائدها فان من الناس من يجادل فى الله بغير علم ثم فى قوله ومن الناس وجهان (الاول) انهم الذين ينكرون البعث ويدل عليه قوله أولم ير الانسان انا خلقناه من نطفة الى آخر الآية وايضا فان ماقبل هذه الآية فى وصف البعث ومابعدها فى الدلالة على البعث فوجب ان يكون المراد من هذه المجادلة هو المجادلة فى البعث (والثانى) انها نزلت فى النضر بن الحرث كان يكذب بالقرآن ويزعم انه أساطير الاولين ويقول ماياتيكم به محمد كما كنت احدثكم به عن القرون الماضية وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما (المسئلة الثانية) هذه الآية بمفهومها تدل على جواز المجادلة الحقة لان تخصيص المجادلة مع عدم العلم بالدلائل يدل على ان المجادلة مع العلم جائزة فالمجادلة الباطلة هى المراد من قوله ماضربوه لك الا جدلا والمجادلة الحقة هى المراد من قوله وجادلهم بالتى هى احسن (المسئلة الثالثة) فى قوله ويتبع كل شيطان مريد قولان (احدهما) يجوز ان يريد شياطين الانس وهم رؤساء الكفار الذين يدعون من دونهم الى الكفر (والثانى) ان يكون المراد بذلك ابليس وجنوده قال الزجاج المريد والمارد المرتفع الاملس يقال صخرة مرداء اى ملساء ويجوز ان يستعمل فى غير الشيطان اذا جاوز حدمثله اما قوله كتب عليه ففيه وجهان (احدهما) ان الكتبة عليه مثل اى كأنما كتب اضلال من يتولاه عليه ورقم به لظهور ذلك فى حاله (والثانى) كتب عليه فى ام الكتاب واعلم ان هذه الهاء بعد ذكر من يجادل وبعد ذكر الشيطان يحتمل ان يكون راجعا الى كل واحد منهما فان رجع الى من يجادل فانه يرجع الى لفظه الذى هو موحد فكأنه قال كتب على من يتبع الشيطان انه من تولى الشيطان اضله عن الجنة وهداه الى النار وذلك زجر منه تعالى فكأنه تعالى قال كتب على من هذا حاله انه يصير اهلا لهذا الوعيد فان رجع الى الشيطان كان المعنى ويتبع كل شيطان مريد قد كتب عليه انه من يقبل منه فهو فى ضلال وعلى هذا الوجه ايضا يكون زجرا عن اتباعه وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال القاضى عبد الجبار اذا قيل المراد بقوله كتب عليه قضى عليه فلا جائز ان يرد الا الى من يتبع الشيطان لانه تعالى لايجوز ان يقضى على الشيطان انه يضل ويجوز ان يقضى على من يقبله بقوله قد اضله عن الجنة وهداه الى النار قال اصحابنا رحمهم الله لما كتب ذلك عليه فلو لم يقع لانقلب خبر الله الصدق كذبا وذلك محال ومستلزم المحال محال فكان لاوقوعه محالا (المسئلة الثانية) دلت الآية على ان المجادل فى الله ان كان لايعرف الحق فهو مذموم معاقب فيدل على ان المعارف ليست ضرورية (المسئلة الثالثة) قال القاضى فيه دلالة على ان المجادلة فى الله ليست من خلق الله تعالى

لانى الرائى باختلاف مشاعره لان مداره حيثية رؤيته الزلزلة لاامرها كأنه قيل ويصير الناس سكارى الخ وانما اوثر عليه مافى التنزيل للايذان بكمال ظهور تلك الحالة فيهم وبلوغها من الجلاء الى حد لايكاد يخفى على احد اى يراهم كل احد (سكارى) اى كأنهم سكارى (وماهم بسكارى) حقيقة (ولكن عذاب الله شديد) يرهقهم هوله ويطير عقولهم ويسلب تمييزهم فهو الذى جعلهم كما وصفوا وقرئ ترى بضم التاء وفتح الراء مسندا الى المخاطب من أريتك قائما اورؤيتك قائما والناس منصوب اى تظنهم سكارى وقرئ برفع الناس على اسناد الفعل المجهول اليه والتأنيث على تاويل الجماعة وقرئ ترى بضم التاء وكسر الراء اى ترى الزلزلة الخلق جميع الناس سكارى وقرئ سكرى وسكرى وعطشى وجوعى اجراء للسكر مجرى العلل (ومن الناس) كلام مبتدأ جئ به اثر بيان عظم شأن الساعة المنبئة عن البعث لبيان الحال بعض المنكرين لها ومحل الجار الرفع على الابتداء اما بحمله على المعنى اوبتقدير ما يتعلق به كأمر مرارا اى وبعض الناس اووبعض كائن من الناس (من يجادل فى الله) اى فى شأنه تعالى ويقول فيه مالاخير فيه من الاباطيل وقوله تعالى (بغير علم) حال من ضمير يجادل موضحة

وبارادته والالما كانت مضافة الى اتباع الشيطان وكان لايصح القول بأن الشيطان يضله بل كان الله تعالى قد اضله (والجواب) المعارضة بمسئلة العلم وبمسئلة الداعى (المسئلة الرابعة) قرئ انه بالفتح والكسر فمن فتح فلأن الاول فاعل كتب والثانى عطف عليه ومن كسر فعلى حكاية المكتوب كما هو كأنما كتب عليه هذا الكلام كما يقول كتبت ان الله هو الغنى الحميد او على تقدير قيل او على ان كتب فيه معنى القول * قوله تعالى (يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الارحام مانشاء الى اجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا اشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى ارذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الارض هامدة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وانه يحيى الموتى وانه على كل شئ قدير وان الساعة آتية لاريب فيها وان الله يبعث من فى القبور) القراءة * قرأ الحسن من البعث بالتحريك ونظيره الحلب والطرد فى الحلب وفى الطرد ومخلقة وغير مخلقة بجر التاء والراء وقرأ ابن ابى عبلة بنصبهما القراءة المعروفة بالنون فى قوله لنبين وفى قوله ونقر وفى قوله ثم نخرجكم طفلا ابن ابى عبلة بالياء فى هذه الثلاثة اما القراءة بالنون ففيها وجوه (احدها) القراءة المشهورة (وثانيها) روى السيرافى عن داود عن يعقوب ونقر بفتح النون وضم القاف والراء وهو من قر الماء اذا صبه وفى رواية أخرى عنه كذلك الا انه بنصب الراء (وثالثها) ونقر ونخرجكم بنصب الراء والجيم اما القراءة بالياء ففيها وجوه (احدها) يقر ويخرجكم بفتح القاف والراء والجيم (وثانيها) يقر ويخرجكم بضم القاف والراء والجيم (وثالثها) بفتح الياء وكسر القاف وضم الراء ابو حاتم ومنكم من يتوفى بفتح الياء اى يتوفاه الله تعالى ابن عمرة والاعمش العمر باسكان الميم القراءة المعروفة ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى ارذل العمر وفى حرف عبد الله ومنكم من يتوفى ومنكم من يكون شيوخا بغير القراءة المعروفة وربت ابو جعفر وربأت اى ارتفعت وروى العمرى عنه بتليين الهمزة وقرئ وانه باعث * المعانى * اعلم انه سبحانه لما حكى عنهم الجدال بغير العلم فى اثبات الحشر والنشر وذمهم عليه فهو سبحانه اورد الدلالة على صحة ذلك من وجهين (احدهما) الاستدلال بخلقة الحيوان اولا وهو موافق لما اجمله فى قوله قل يحييها الذى انشأها اول مرة وقوله فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم اول مرة فكأنه سبحانه وتعالى قال ان كنتم فى ريب مما وعدناكم من البعث فتذكروا فى خلقتكم الاولى لتعلموا ان القادر على خلقكم اولا قادر على خلقكم ثانيا ثم انه سبحانه ذكر من مراتب الخلقة الاولى امورا سبعة (المرتبة الاولى) قوله فانا خلقناكم من تراب وفيه وجهان (احدهما) انا خلقنا اصلكم وهو آدم عليه السلام من تراب لقوله كمثل آدم خلقه من تراب وقوله منها خلقناكم (والثانى) ان خلقة الانسان من المنى ودم

لايشعر بها المجادلة من الجهل اى ملابسا بغير علم روى انها نزلت فى النضر بن الحرث وكان جدلا يقول الملائكة بنات الله والقرآن اساطير الاولين ولابعث بعد الموت وهى عامة له ولاضرابه من العتاة المتمردين (ويتبع) اى فيما يتعاطاه من المجادلة او فى كل ما يأتى ومايذر من الامور الباطلة التى من جملتها ذلك (كل شيطان مريد) عات متمرد متجرد للفساد واصله العرى المنبئ عن التجوهر له كالشجر ولعله مأخوذ من تجرد المصارعين عند المصارعة قال الزجاج المريد والمارد المرتفع الاملس والمراد المارد وساء الكفرة الذين يدعون من دونهم الى الكفر واما ابليس وجنوده وقوله تعالى (كتب عليه) اى على الشيطان صفة اخرى له وقوله تعالى (انه) فاعل كتب والضمير للشان اى رقم به لظهور ذلك من حاله ان الشأن (من تولاه) اى اتخذه وليا وتبعه (فانه يضله) بالفتح على انه خبر مبتدأ محذوف ومبتدأ خبره محذوف والجملة جواب الشرط ان جعلت من شرطية وخبرها ان جعلت موصولة متضمنة لمعنى الشرط اى من تولاه فشأنه انه يضله عن طريق الجنة او طريق الحق او فحق انه يضله قطعا وقيل فانه معطوف على انه وفيه من التعسف مالايخفى وقيل وقيل مما لايخلو عن التمحل والتأويل

للطمث وهما انما يتولدان من الاغذية والاغذية اما حيوان او نبات وغذاء الحيوان ينتهى قطعا للتسلسل الى النبات والنبات انما يتولد من الارض والماء فصح قوله انا خلقناكم من تراب (المرتبة الثانية) قوله ثم من نطفة والنطفة اسم للماء القليل اى ماء كان وهو ههنا ماء الفحل فكأنه سبحانه يقول أنا الذى قلبت ذلك التراب اليابس ماء لطيفا مع انه لامناسبة بينهما البتة (المرتبة الثالثة) قوله ثم من علقة والعلقة قطعة الدم الجامدة ولاشك ان بين الماء وبين الدم الجامدة مباينة شديدة (المرتبة الرابعة) قوله ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الارحام مانشاء فالمضغة اللحمة الصغيرة قدر ما يمضغ والمخلقة المسواة الملساء السالمة من النقصان والعيب يقال خلق السواك والعود اذا سواه وملسه من قولهم صخرة خلقاء اذا كانت ملساء ثم للمفسرين فيه اقوال (احدها) ان يكون المراد من تمت فيه احوال الخلق ومن لم تتم كأنه سبحانه قسم المضغة الى قسمين (احدهما) تامة الصور والحواس والتخاطيط (وثانيهما) الناقصة فى هذه الامور فبين ان بعد ان صيره مضغة منها ماخلقه انسانا تاما بلانقص ومنها ماليس كذلك وهذا قول قتادة والضحاك فكان الله تعالى يخلق المضغ متفاوتة منها ماهو كامل الخلقة املس من العيوب ومنها ماهو على عكس ذلك فتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس فى خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم (وثانيها) المخلقة الولد الذى يخرج حيا وغير المخلقة السقط وهو قول مجاهد (وثالثها) المخلقة المصورة وغير المخلقة اى غير المصورة وهو الذى يبقى لحما من غير تخطيط وتشكيل واحتجوا بما روى علقمة عن عبد الله قال اذا وقعت النطفة فى الرحم بعث الله ملكا وقال يارب مخلقة او غير مخلقة فان قال غير مخلقة مجتها الارحام دما وان قال مخلقة قال يارب فاصفتها أذكر ام انثى مارزقها ماأجلها أشقى ام سعيد فيقول الله سبحانه انطلق الى ام الكتاب فاستنسخ منه صفة هذه النطفة فينطلق الملك فينسخها فلايزال معه حتى يأتى على آخر صفتها (ورابعها) قال القفال التخليق مأخوذ من الخلق فماتتابع عليه الاطوار وتوارد عليه الخلق بعد الخلق فذلك هو المخلق لتتابع الخلق عليه قالوا فماتم فهو المخلق ومالم يتم فهو غير المخلق لانه لم يتوارد عليه التخليقات والقول الاول اقرب لانه تعالى قال فى اول الآية فانا خلقناكم واشار الى الناس فيجب ان تحمل مخلقة وغير مخلقة على من سيصير انسانا وذلك يبعد فى السقط لانه قد يكون سقطا ولم يتكامل فيه الخلقة فان قيل هلا حملتم ذلك على السقط لاجل قوله ونقر فى الارحام مانشاء وذلك كالدلالة على ان فيه مالايقره فى الرحم وهو السقط قلنا ان ذلك لايمنع من صحة ماذكرنا فى كون المضغة مخلقة وغير مخلقة لانه بعد ان تم خلقة البعض ونقص خلقة البعض لايجب ان تتكامل ذلك بل فيه مايقره الله فى الرحم وفيه مالايقره وان كان قد اظهر فيه خلقة الانسان فيكون من هذا الوجه قد دخل فيه السقط اما قوله تعالى لنبين لكم ففيه وجهان (احدهما) لنبين لكم ان تغيير

وقرئ فانه بالكسر على انه خبر لمن او جواب لها وقرئ بالكسر فيهما على حكاية المكتوب كما هو مثل مافى قولك كتبت ان الله يأمر بالعدل والاحسان او على اضمار القول او تضمين الكتب معناه على رأى من يراه (ويهديه الى عذاب السعير) بحمله على مباشرة مايؤدى اليه من السيآت (ياأيها الناس) اثر ماحكى احوال المجادلين بغير علم واشير الى مايؤول اليه امرهم اقيمت الحجة الدالة على تحقق ماجادلوا فيه من البعث (ان كنتم فى ريب من البعث) من امكانه وكونه مقدورا له تعالى او من وقوعه وقرئ من البعث بالتحريك كالجلب فى الجلب والتعبير عن اعتقادهم فى حقه بالريب مع التنكير المنبئ عن القلة مع انهم جازمون باستحالته وايراد كلمة الشك مع تقرر حالهم فى ذلك وايثار ماعليه النظم الكريم على ان يقال ان ارتبتم فى البعث فقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا (فانا خلقناكم) اى فانظروا الى مبدأ خلقكم ليزول ريبكم فانا خلقناكم اى خلقنا كل فرد منكم (من تراب) فى ضمن خلق آدم منه خلقا اجماليا فان خلق كل فرد من افراد البشر له حظ من خلقه عليه السلام اذلم تكن فطرته الشريفة مقصورة على نفسه بل كانت انموذجا منطويا

المضغة الى المخلقة هو باختيار الفاعل المختار ولولاه لما صار بعضه مخلقا وبعضه غير مخلق (وثانيها) التقدير ان كنتم فى ريب من البعث فانا اخبرناكم انا خلقناكم من كذا وكذا لنبين لكم مايزيل عنكم ذلك الريب فى امر بعثكم فان القادر على هذه الاشياء كيف يكون عاجزا عن الاعادة اما قوله تعالى ونقر فى الارحام مانشاء الى اجل مسمى فالمراد منه من يبلغه الله تعالى حد الولادة والاجل المسمى هو الوقت المضروب للولادة وهو آخر ستة اشهر او تسعة او اربع سنين او كماشاء وقدر الله تعالى فان كتب ذلك صار اجلا مسمى (المرتبة الخامسة) قوله ثم نخرجكم طفلا وانما وحد الطفل لان الغرض الدلالة على الجنس ويحتمل ان يخرج كل واحد منكم طفلا كقوله والملائكة بعد ذلك ظهير (المرتبة السادسة) قوله ثم لتبلغوا اشدكم والاشد كمال القوة والعقل والتمييز وهو من الفاظ الجموع التى لم يستعمل لها واحد وكأنها شدة فى غير شئ واحد فبنيت لذلك على لفظ الجمع والمراد والله اعلم ثم سهل فى تربيتكم واغذيتكم امورا لتبلغوا اشدكم فنبه بذلك على الاحوال التى بين خروج الطفل من بطن امه وبين بلوغ الاشد ويكون بين الحالتين وسايط وذكر بعضهم انه ليس بين حال الطفولية وبين ابتداء حال بلوغ الاشد واسطة حتى جوز ان يبلغ فى السن ويكون طفلا كما يكون غلاما ثم يدخل فى الاشد (المرتبة السابعة) قوله ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى ارذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا والمعنى ان منكم من يتوفى على قوته وكماله ومنكم من يرد الى ارذل العمر وهو الهرم والخرف فيصير كما كان فى اول طفوليته ضعيف البنية سخيف العقل قليل الفهم (فان قيل) كيف قال لكيلا يعلم من بعد علم شيئا مع انه يعلم بعض الاشياء كالطفل (قلنا) المراد انه يزول عقله فيصير كأنه لايعلم شيئا لان مثل ذلك قد يذكر فى النفى لاجل المبالغة ومن الناس من قال هذه الحالة لاتحصل للمؤمنين لقوله تعالى ثم رددناه اسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهو ضعيف لان معنى قوله ثم رددناه اسفل سافلين هو دلالة على الذم فالمراد به مايجرى مجرى العقوبة ولذلك قال الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم اجر غير ممنون فهذا تمام الاستدلال بحال خلقة الحيوان على صحة البعث (الوجه الثانى) الاستدلال بحال خلقة النبات على ذلك وهو قوله سبحانه وتعالى وترى الارض هامدة وهمودها يبسها وخلوها عن النبات والخضرة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت والاهتزاز الحركة على سرور فلا يكاد يقال اهتز فلان لكيت وكيت الا اذا كان الامر من المحاسن والمنافع فقوله اهتزت وربت اى تحركت بالنبات وانتفخت اما قوله وانبتت من كل زوج بهيج فهو مجاز لان الارض ينبت منها والله تعالى هو المنبت لذلك لكنه يضاف اليها توسعا ومعنى من كل زوج بهيج من كل نوع من انواع النبات من زرع وغرس والبهجة حسن الشئ ونضارته والبهيج بمعنى المبهج قال المبرد وهو الشئ المشرق الجميل ثم انه سبحانه لما قرر هذين الدليلين رتب عليهما ماهو المطلوب والنتيجة وذكر امورا خمسة (احدها) قوله ذلك بأن الله هو الحق والحق هو

على فطرة سائر افراد الجنس المطواة اجماليا مستتبعا لجريان آثارها على الكل فكان خلقه عليه السلام من التراب خلقا للكل منه كما مر تحقيقه مرارا (ثم من نطفة) اى ثم خلقناكم خلقا تفصيليا من نطفة اى من منى من النطف الذى هو الصب (ثم من علقة) اى قطعة من الدم جامدة متكونة من المنى (ثم من مضغة) اى قطعة من اللحم متكونة من العلقة وهى فى الاصل مقدار مايمضغ (مخلقة) بالجر صفة مضغة اى مستبينة الخلق مصورة (وغير مخلقة) اى لم يستبن خلقها وصورتها بعد والمراد تفصيل حال المضغة وكونها اولا قطعة لم يظهر فيها شئ من الاعضاء ثم ظهرت بعد ذلك شيئا فشيئا وكان مقتضى الترتيب السابق المبنى على التدرج من المبادى البعيدة الى القريبة ان يقدم غير المخلقة على المخلقة وانما اخرت عنها لانها عدم الملكة هذا وقد فسرتا بالمسواة وغير المسواة وبالتامة والساقطة وليس بذاك وفى جعل كل واحدة من هذه المراتب مبدأ لخلقهم لا لخلق مابعدها من المراتب كما فى قوله تعالى ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة الآية مزيد دلالة على عظيم قدرته تعالى وكسر لسورة استبعادهم (لنبين لكم) متعلق بخلقنا وترك المفعول

(الموجود)

الموجود الثابت فكأنه سبحانه بين ان هذه الوجوه دالة على وجود الصانع وحاصلها راجع الى ان حدوث هذه الاعراض المتنافية وتواردها على الاجسام يدل على وجود الصانع (وثانيها) قوله تعالى وانه يحيي الموتى فهذا تنبيه على انه لما لم يستبعد من الاله ايجاد هذه الاشياء فكيف يستبعد منه اعادة الاموات (وثالثها) قوله وانه على كل شيء قدير يعني ان الذي يصح منه ايجاد هذه الاشياء لابد وان يكون واجب الاتصاف لذاته بالقدرة ومن كان كذلك كان قادرا على جميع الممكنات ومن كان كذلك فانه لابد وان يكون قادرا على الاعادة (ورابعها) قوله وان الساعة آتية لاريب فيها وان الله يبعث من في القبور والمعنى انه لما أقام الدلائل على ان الاعادة في نفسها ممكنة وانه سبحانه وتعالى قادر على كل الممكنات وجب القطع بكونه قادرا على الاعادة في نفسها واذا ثبت الامكان والصادق اخبر عن وقوعه فلابد من القطع بوقوعه واعلم ان تحرير هذه الدلالة على الوجه النظري ان يقال الاعادة في نفسها ممكنة والصادق اخبر عن وقوعها فلابد من القطع بوقوعها اما بيان الامكان فالدليل عليه ان هذه الاجسام بعد تفرقها قابلة لتلك الصفات التي كانت قائمة بها حال كونها حية عاقلة والباري سبحانه عالم بكل المعلومات قادر على كل المقدورات الممكنة وذلك يقتضي القطع بامكان الاعادة لما قلنا ان تلك الاجسام بعد تفرقها قابلة لتلك الصفات لانها لو لم تكن قابلة لها في وقت لما كانت قابلة لها في شيء من الاوقات لان الامور الذاتية لا تزول ولو لم تكن قابلة لها في شيء من الاوقات لما كانت حية عاقلة في شيء من الاوقات لكنها كانت حية عاقلة فوجب ان تكون قابلة ابدا لهذه الصفات واما ان الباري سبحانه يمكنه تحصيل ذلك الممكن فلانه سبحانه عالم بكل المعلومات فيكون عالما بأجزاء كل واحد من المكلفين على التعيين وقادرا على كل الممكنات فيكون قادرا على ايجاد تلك الصفات في تلك الذوات فثبت ان الاعادة في نفسها ممكنة وانه سبحانه يمكنه تحصيل ذلك الممكن فثبت ان الاعادة ممكنة في نفسها فاذا اخبر الصادق عن وقوعها فلابد من القطع بوقوعها فهذا هو الكلام في تقرير هذا الاصل فان قيل فأي منفعة لذكر مراتب خلقة الحيوانات وخلقة النبات في هذه الدلالة قلنا انها تدل على انه سبحانه قادر على كل الممكنات وعالم بكل المعلومات ومتى صح ذلك فقد صح كون الاعادة ممكنة فان الخصم لا ينكر المعاد الا بناء على انكار احد هذين الاصلين ولذلك فان الله تعالى حيث أقام الدلالة على البعث في كتابه ذكر معه كونه قادرا عالما كقوله قل يحييها الذي انشأها اول مرة وهو بكل خلق عليم فقوله قل يحييها الذي انشأها بيان للقدرة وقوله وهو بكل خلق عليم بيان للعلم والله اعلم ❊ قوله تعالى (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ذلك بما قدمت يداك وان الله ليس بظلام للعبيد) ❊ القراءة ثاني عطفه بكسر العين الحسن وحده بفتح العين ليضل قرئ بضم الياء وفتحها القراءة المعروفة ونذيقه بالنون وقرأ زيد بن

لتعجيبه كما وكيفا اي خلقناكم على هذا النمط البديع لنبين لكم بذلك ما لا تحصره العبارة من الحقائق والدقائق التي من جملتها سر البعث فان من تأمل فيما ذكر من الخلق التدريجي تأملا حقيقيا جزم جزما ضروريا بان من قدر على خلق البشر اولا من تراب لم يشم رائحة الحياة قط وانشائه على وجه مصحح لتوليد مثله مرة بعد اخرى بتصريفه في اطوار الخلقة وتحويله من حال الى حال مع ما بين تلك الاطوار والاحوال من المخالفة والتباين فهو قادر على اعادته بل هو أهون في القياس نظرا الى الفاعل والقابل وقرئ ليبين بطريق الالتفات وقوله تعالى (ونقر في الارحام ما نشاء) استئناف مسوق لبيان حالهم بعد تمام خلقهم وعدم نظم هذا وما عطف عليه في سلك الخلق المعلل بالتبيين مع كونهما من متمماته ومن مبادي التبيين ايضا لما ان دلالة الاول على كمال قدرته تعالى على جميع المقدورات التي من جملتها البعث المبحوث عنه اجلى واظهر اي ونحن نقر في الارحام بعد ذلك ما نشاء ان نقره فيها (الى أجل مسمى) هو وقت الوضع وادناه ستة اشهر واقصاه سنتان وقيل اربع سنين وفيه اشارة الى ان بعض ما في الارحام لا يشاء الله تعالى اقراره فيها بعد تكامل خلقه فتسقطه وامعرض الازلاق

على واذيقه المعانى فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى ان المراد بقوله ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد من هم على وجوه (احدها) قال ابو مسلم الآية الاولى وهى قوله ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد واردة فى الاتباع المقلدين وهذه الآية واردة فى المتبوعين المقلدين فان كلا المجادلين جادل بغير علم وان كان احدهما تبعا والآخر متبوعا وبين ذلك قوله ولا هدى ولا كتاب منير فان مثل ذلك لايقال فى المقلد وانما يقال فيمن يخاصم بناء على شبهة فان قيل كيف يصح ماقلتم والمقلد لايكون مجادلا قلنا قد يجادل تصويبا لتقليده وقد يورد الشبهة الظاهرة اذا تمكن منها وان كان معتمده الاصلى هو التقليد (وثانيها) ان الآية الاولى نزلت فى النضر بن الحرث وهذه الآية فى ابى جهل (وثالثها) ان هذه الآية نزلت ايضا فى النضر وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما وفائدة التكرير المبالغة فى الذم وايضا ذكر فى الآية الاولى اتباعه للشيطان تقليدا بغير حجة وفى الثانية مجادلته فى الدين واضلاله غيره بغير حجة والوجه الاول أقرب لماتقدم (المسئلة الثانية) الآية دالة على ان الجدال مع العلم والهدى والكتاب المنير حق حسن على مامر تقريره (المسئلة الثالثة) المراد بالعلم العلم الضرورى وبالهدى الاستدلال والنظر لانه يهدى الى المعرفة وبالكتاب المنير الوحى والمعنى انه يجادل من غير مقدمة ضرورية ولا نظرية ولا سمعية وهو كقوله ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطانا وماليس لهم به علم وقوله ائتونى بكتاب من قبل هذا اما قوله ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله فاعلم ان ثنى العطف عبارة عن الكبر والخيلاء كتصعير الخد ولى الجيد وقوله ليضل عن سبيل الله فاما القراءة بضم الياء فدلالة على ان هذا المجادل فعل الجدال واظهر التكبر لكى يتبعه غيره فيضله عن طريق الحق فجمع بين الضلال والكفر واضلال الغير واما القراءة بفتح الياء فالمعنى انه لما ادى جداله الى الضلال جعل كأنه غرضه ثم انه سبحانه وتعالى شرح حاله فى الدنيا والآخرة اما فى الدنيا فيوم بدر وروينا عن ابن عباس رضى الله عنهما انها نزلت فى النضر بن الحرث وانه قتل يوم بدر واما الذين لم يخصصوا هذه الآية بواحد معين قالوا المراد بالخزى فى الدنيا مايأمر المؤمنون بذمه ولعنه ومجاهدته واما فى الآخرة فقوله ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ثم بين تعالى ان هذا الخزى المعجل وذلك العقاب المؤجل لاجل ماقدمت يداه قالت المعتزلة هذه الآية تدل على مطالب (الاول) دلت الآية على انه انما وقع فى ذلك العقاب بسبب عمله وفعله فلو كان فعله خلقا لله تعالى لكان حين ماخلقه الله سبحانه وتعالى استحال منه ان ينفك عنه وحين مالا يخلقه الله تعالى استحال منه ان يتصف به فلا يكون ذلك العقاب بسبب فعله فاذا عاقبه عليه كان ذلك محض الظلم وذلك على خلاف النص (الثانى) ان قوله بعد ذلك وان الله ليس بظلام للعبيد دليل على انه سبحانه انما لم يكن ظالما بفعل ذلك العذاب لاجل ان المكلف فعل فعلا استحق به ذلك العقاب وذلك يدل على انه لو عاقبه لا بسبب فعل يصدر من جهته

لايناسب المقام لان الكلام فيما جرى عليه اطوار الخلق وهذا صريح فى ان المراد بغير المخلقة ليس من ولد ناقصا اومعيبا او ان ماقصل الى هنا هى الاطوار المتواردة على المولود قبل الولادة وقرئ بقر بالياء ونقر وبقر بضم الثانى من قررت الماء اذا صببته (ثم نخرجكم) اى من بطون امهاتكم بعد قراركم فيها عند تمام الاجل المسمى (طفلا) اى حال كونكم اطفالا والافراد باعتبار كل واحد منهم او بارادة الجنس المنتظم للواحد والمتعدد وقرئ يخرجكم بالياء وقوله تعالى (ثم لتبلغوا اشدكم) علة لنخرجكم معطوفة على علة اخرى له مناسبة لها كأنه قيل ثم نخرجكم لتكبروا شيئا فشيئا ثم لتبلغوا كمالكم فى القوة والعقل والتمييز وقيل التقدير ثم نمهلكم لتبلغوا الخ وماقيل انه معطوف على نبين مخل بجزالة النظم الكريم هذا وقد قرئ ماقبله من الفعلين بالنصب حكاية وغيبة فهو حينئذ عطف على نبين مثلهما والمعنى خلقناكم على التدريج المذكور لغايتين مرتبتين عليه احداهما ان نبين شؤننا والثانية ان نقركم فى الارحام ثم نخرجكم صغارا ثم لتبلغوا اشدكم وتقديم التبيين على مابعده مع ان حصوله بالفعل بعد الكل للايذان بأنه غاية الغايات ومقصود بالذات

لكان ظالما وهذا يدل على انه لايجوز تعذيب الاطفال بكفر آبائهم (الثالث) انه سبحانه تمدح بأنه لايفعل الظلم فوجب ان يكون قادرا عليه خلاف مايقوله النظام وان يصح ذلك منه خلاف مايقوله اهل السنة (الرابع) وهو ان لايجوز الاستدلال بهذه الآية على انه تعالى لايظلم لان عندهم صحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم موقوفة على نفي الظلم فلو اثبتنا ذلك بالدليل السمعي لزم الدور (والجواب عن الكل) المعارضة بالعلم والداعي * قوله تعالى (ومن الناس من يعبد الله على حرف فان اصابه خير اطمأن به وان اصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين يدعو من دون الله مالايضره وما لاينفعه ذلك هو الضلال البعيد يدعو لمن ضره اقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير) * القراءة قرئ خاسر الدنيا والآخرة بالنصب والرفع فالنصب على الحال والرفع على انه خبر مبتدأ محذوف وفي حرف عبد الله من ضره بغير لام واعلم انه تعالى لما بين حال المظهرين للشرك المجادلين فيه على ماذكرنا عقبه بذكر المنافقين فقال ومن الناس من يعبد الله على حرف وفي تفسير الحرف وجهان (الاول) ماقاله الحسن وهو ان المرء في باب الدين معتمده القلب واللسان فهما حرفا الدين فاذا وافق احدهما الآخر فقد تكامل في الدين واذا اظهر بلسانه الدين لبعض الاغراض وفي قلبه النفاق جاز ان يقال فيه على وجه الذم يعبد الله على حرف (الثاني) قوله على حرف اي على طرف من الدين لافي وسطه وقلبه وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم لاعلى سكون وطمأنينة كالذي يكون على طرف من العسكر فان احس بغنيمة قر واطمأن والافر وطار على وجهه وهذا هو المراد فان اصابه خير اطمأن به وان اصابته فتنة انقلب على وجهه لان الثبات في الدين انما يكون لو كان الغرض منه اصابة الحق وطاعة الله والخوف من عقابه فاما اذا كان غرضه الخير المعجل فانه يظهر الدين عند السراء ويرجع عنه عند الضراء فلايكون الامنافقا مذموما وهو مثل قوله تعالى مذبذبين بين ذلك وكقوله فان كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم (المسئلة الثانية) قال الكلبي نزلت هذه الآية في اعراب كانوا يقدمون على النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة مهاجرين من باديتهم فكان احدهم اذا صح بها جسمه ونتجت فرسه مهرا حسنا وولدت امرأته غلاما وكثر ماله وماشيته رضي به واطمأن اليه وان اصابه وجع وولدت امرأته جارية او اجهضت رماكه وذهب ماله وتأخرت عنه الصدقة أتاه الشيطان وقال له ماجاءتك هذه الشرور الا بسبب هذا الدين فينقلب عن دينه وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد وقتادة (وثانيها) وهو قول الضحاك نزلت في المؤلفة قلوبهم منهم عيينة بن بدر والاقرع بن حابس والعباس بن مرداس قال بعضهم لبعض ندخل في دين محمد فان اصبنا خيرا عرفنا انه حق وان اصبنا غير ذلك عرفنا انه باطل (وثالثها) قال ابو سعيد الخدري اسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده فقال يارسول الله أقلني فاني لم أصب من ديني هذا خيرا ذهب بصري وولدي

واعادة اللام ههنا مع تجريد الاولين عنها للاشعار باصالته في الفرضية بالنسبة اليهما اذ عليه يدور التكليف المؤدي الى السعادة والشقاوة وايثار البلوغ مسندا الى المخاطبين على التبليغ مسندا اليه تعالى كالافعال السابقة لانه المناسب لبيان حال اتصافهم بالكمال واستقلالهم بمبدئية الآثار والافعال والاشد من الفاظ الجموع التي لم يستعمل لها واحد كالاسدة والقتود وكأنها حين كانت شدة في غيرشئ بنيت على لفظ الجمع (ومنكم من يتوفى) اي بعد بلوغ الاشد او قبله وقرئ يتوفى مبنيا للفاعل اي يتوفاه الله تعالى (ومنكم من يرد الى ارذل العمر) وهو الهرم والخرف وقرئ بسكون الميم وايراد الرد والتوفي على صيغة المبني للمفعول للجري على سنن الكبرياء لتعين الفاعل (لكيلا يعلم من بعد علم) اي علم كثير (شيئا) اي شيئا من الاشياء او شيئا من العلم مبالغة في انتقاص علمه وانتكاس حاله اي ليعود الى ما كان عليه في أوان الطفولية من ضعف البنية وسخافة العقل وقلة الفهم فينسى ماعلمه وينكر ماعرفه ويعجز عما قدر عليه وفيه من التنبيه على صحة البعث مالا يخفى (وترى الارض هامدة) حجة اخرى على صحة البعث والخطاب لكل احد ممن يتأتى منه الرؤية وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار وهي بصرية وهامدة حال من الارض اي ميتة يابسة من همدت النار اذا صارت رمادا (فاذا انزلنا عليها الماء) اي المطر (اهتزت) تحركت

ومالى فقال صلى الله عليه وسلم ان الاسلام لايقال ان الاسلام ليسبك كما تسبك النار خبث الحديد والذهب والفضة فنزلت هذه الآية واما قوله وان اصابته فتنة انقلب على وجهه ففيه سؤالات (الاول) كيف قال وان اصابته فتنة انقلب على وجهه والخير ايضا فتنة لانه امتحان وقال تعالى ونبلوكم بالشر والخير فتنة (والجواب) مثل هذا كثير فى اللغة لان النعمة بلاء وابتلاء لقوله فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه ولكن انما يطلق اسم البلاء على ما يثقل على الطبع والمنافق ليس عنده الخير الا الخير الدنيوى وليس عنده الشر الا الشر الدنيوى لانه لادين له فلذلك وردت الآية على ما يعتقدونه وان كان الخير كله فتنة لكن اكثر ما يستعمل فيما يشتد ويثقل (السؤال الثانى) اذا كانت الآية فى المنافق فما معنى قوله انقلب على وجهه وهو فى الحقيقة لم يسلم حتى ينقلب ويرتد (والجواب) المراد انه اظهر بلسانه خلاف ما كان اظهره فصار يذم الدين عند الشدة وكان من قبل يمدحه وذلك انقلاب فى الحقيقة (السؤال الثالث) قال مقاتل الخير هو ضد الشر فلما قال فان اصابه خير اطمأن به كان يجب ان يقول وان أصابه شر انقلب على وجهه (الجواب) لما كانت الشدة ليست بقبيحة لم يقل تعالى وان أصابه شر بل وصفه بما لا يفيد فيه القبح اما قوله تعالى خسر الدنيا والآخرة فذلك لانه يخسر فى الدنيا العز والكرامة واصابة الغنيمة واهلية الشهادة والامامة والقضاء ولا يبقى ماله ودمه مصونا واما فى الآخرة فيفوته الثواب الدائم ويحصل له العقاب الدائم وذلك هو الخسران المبين اما قوله تعالى يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه فالاقرب انه المشرك الذى يعبد الاوثان وهذا كالدلالة على ان الآية لم ترد فى اليهودى لانه ليس ممن يدعو من دون الله الاصنام والاقرب انها واردة فى المشركين الذين انقطعوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجه النفاق وبين تعالى ان ذلك هو الضلال البعيد وأراد به عظم ضلالهم وكفرهم ويحتمل ان يعنى به ذلك بعد ضلالهم عن الصواب لان جميعه وان كان يشترك فى انه خطأ فبعضه ابعد من الحق من البعض واستعير الضلال البعيد من ضلال من ابعد فى التيه ضالا وطالت وبعدت مسافة ضلاله اما قوله تعالى يدعو لمن ضره اقرب من نفعه ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اختلفوا فى تفسيره على وجهين (احدهما) ان المراد رؤساؤهم الذين كانوا يفزعون اليهم لانه يصح منهم ان يضروا وجه هذا القول ان الله تعالى بين فى الآية الاولى ان الاوثان لاتضرهم ولاتنفعهم وهذه الآية تقتضى كون المذكور فيها ضارا نافعا فلو كان المذكور فى هذه الآية هو الاوثان لزم التناقض (القول الثانى) ان المراد الوثن وأجابوا عن التناقض بأمور (احدها) انها لاتضر ولاتنفع بأنفسها ولكن عبادتها سبب الضرر وذلك يكفى فى اضافة الضرر اليها كقوله تعالى رب انهن اضللن كثيرا من الناس فاضاف الاضلال اليهم من حيث كانوا سببا للضلال فكذا ههنا نفى الضرر عنهم فى الآية الاولى بمعنى كونها فاعلة واضاف الضرر اليهم فى هذه الآية بمعنى ان عبادتها سبب الضرر (وثانيها)

بالنبات (وربت) انتفخت وازدادت وقرئ ربأت اى ارتفعت (وانبتت من كل زوج) اى صنف (بهيج) حسن رائق يسر الناظر (ذلك بان الله هو الحق) كلام مستأنف جئ به اثر تحقيق حقية البعث واقامة البرهان عليه من العالمين الانسانى والنباتى لبيان ان ذلك من آثار الوهيته تعالى واحكام شؤنه الذاتية والوصفية والفعلية وان ما ينكرون وجوده بل امكانه من اتيان الساعة والبعث من اسباب تلك الآثار العجيبة التى يشاهدونها فى الانفس والآفاق ومبادى صدورها عنه تعالى وفيه من الايذان بقوة الدليل واصالة المدلول فى التحقق واظهار بطلان انكاره ما لا يخفى فان انكار تحقق السبب مع الجزم بتحقق المسبب مما يقضى ببطلانه بديهة العقول والمراد بالحق هو الثابت الذى يحق ثبوته لامحالة لكونه لذاته لا الثابت مطلقا وذلك اشارة الى ما ذكر من خلق الانسان على اطوار مختلفة وتصريفه فى احوال متباينة واحياء الارض بعد موتها وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلته فى الكمال وهو مبتدأ خبره الجار والمجرور اى ذلك الصنع البديع حاصل بسبب انه تعالى هو الحق وحده فى ذاته وصفاته وافعاله المحقق لما سواه من الاشياء (وانه يحيى الموتى) اى شأنه وعادته احياؤها

كأنه سبحانه وتعالى بين فى الآية الاولى انها فى الحقيقة لاتضر ولاتنفع ثم قال فى الآية الثانية لو سلمنا كونها ضارة نافعة لكن ضررها اكثر من نفعها (وثالثها) كان الكفار اذا انصفوا علموا انه لايحصل منها نفع ولا ضرر فى الدنيا ثم انهم فى الآخرة يشاهدون العذاب العظيم بسبب عبادتها فكأنهم يقولون لها فى الآخرة ان ضرركم اعظم من نفعكم (المسئلة الثانية) اختلف النحويون فى اعراب قوله لمن ضره أقرب أما قوله لبئس المولى ولبئس العشير فالمولى هو الولى والناصر والعشير الصاحب والمعاشر واعلم ان هذا الوصف بالرؤساء اليق لان ذلك لايكاد يستعمل فى الاوثان فبين تعالى انهم يعدلون عن عبادة الله تعالى الذى يجمع خير الدنيا والآخرة على عبادة الاصنام والى طاعة الرؤساء ثم ذم الرؤساء بقوله لبئس المولى والمراد ذم من انتصر بهم والتجأ اليهم ۞ قوله تعالى (ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار ان الله يفعل ما يريد من كان يظن ان لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده مايغيظ وكذلك انزلناه آيات بينات وان الله يهدى من يريد) اعلم انه سبحانه لما بين فى الآية السابقة حال عبادة المنافقين وحال معبودهم بين فى هذه الآية صفة عبادة المؤمنين وصفة معبودهم أما عبادتهم فقد كانت على الطريق الذى لايمكن صوابه واما معبودهم فلا يضر ولا ينفع واما المؤمنون فعبادتهم حقيقية ومعبودهم يعطيهم اعظم المنافع وهو الجنة ثم بين كمال الجنة التى تجمع بين الزرع والشجر وان تجرى من تحتها الانهار وبين تعالى انه يفعل مايريد بهم من انواع الفضل والاحسان زيادة على أجورهم كما قال تعالى فيوفيهم اجورهم ويزيدهم من فضله واحتج اصحابنا فى خلق الافعال بقوله سبحانه ان الله يفعل مايريد قالوا اجمعنا على انه سبحانه يريد الايمان ولفظة ما للعموم فوجب ان يكون فاعلا للايمان لقوله ان الله يفعل مايريد اجاب الكعبى عنه بان الله تعالى يفعل مايريد ان يفعله لامايريد ان يفعله غيره (والجواب) ان قوله مايريد اعم من قولنا مايريد ان يفعله ومن قولنا مايريد ان يفعله غيره فالتقييد خلاف النص اما قوله من كان يظن ان لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فالهاء الى ماذا يرجع فيه وجهان (الاول) وهو قول ابن عباس والكلبى ومقاتل والضحاك وقتادة وابن زيد والسدى واختيار الفراء والزجاج انه يرجع الى محمد صلى الله عليه وسلم يريد ان من ظن ان لن ينصر الله محمدا صلى الله عليه وسلم فى الدنيا باعلاء كلمته واظهار دينه وفى الآخرة باعلاء درجته والانتقام ممن كذبه والرسول صلى الله عليه وسلم وان لم يجر له ذكر فى الآية ففيها مايدل عليه وهو ذكر الايمان فى قوله ان الله يدخل الذين آمنوا والايمان لايتم الا بالله ورسوله فيجب البحث ههنا عن امرين (احدهما) انه من الذى كان يظن ان الله تعالى لاينصر محمدا صلى الله عليه وسلم (والثانى) انه مامعنى قوله فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع اما الاول فذكروا فيه وجوها (احدها) كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم وحنقهم على المشركين يستبطؤن ماوعد

وحاصله انه تعالى قادر على احيائها بدأ واعادة والالما احيا النطفة والارض الميتة مرارا بعد مرار وما تفيده صيغة المضارع من التجدد انما هو باعتبار تعلق القدرة ومتعلقها لاباعتبار نفسها (وانه على كل شئ قدير) اى مبالغ فى القدرة والالما اوجد هذه الموجودات الفائتة للحصر التى من جملتها ماذكر واما الاستدلال على ذلك بان قدرته تعالى لذاته الذى نسبته الى الكل سواء فلما دلت المشاهدة على قدرته على احياء بعض الاموات لزم اقتداره على احياء كلها فلمنشؤه الذهول عما سيق له النظم الكريم من بيان كون الآثار الخاصة المذكورة من فروع القدرة العامة التامة ومسبباتها وتخصيص احياء الموتى بالذكر مع كونه من جملة الاشياء المقدور عليها للتصريح بما فيه النزاع والدفع فى نحور المنكرين وتقديمه لابراز الاعتناء به (وان الساعة آتية) اى فيما سيأتى وايثار صيغة الفاعل على الفعل للدلالة على تحقق اتيانها وتقرره البتة لاقتضاء الحكمة اياه لامحالة وتعليله بان التغير من مقدمات الانصرام وطلائعه مبنى على ماذكر من الذهول وقوله تعالى (لاريب فيها) اما خبر ثان لان او حال من ضمير الساعة فى الخبر ومعنى نفى الريب عنها انها فى ظهور امرها ووضوح دلائلها التكوينية والتنزيلية بحيث ليس فيها مظنة ان يرتاب فى اتيانها حسبما مر فى مطلع سورة البقرة والجملة عطف على المجرور بالباء كما قبلها

الله رسوله من النصر فنزلت هذه الآية (وثانيها) قال مقاتل نزلت فى نفر من اسد وغطفان قالوا نخاف ان الله لاينصر محمدا فينقطع الذى بيننا وبين حلفائنا من اليهود فلا يميروننا (وثالثها) ان حساده واعداءه كانوا يتوقعون ان لاينصره الله وان لايعليه على اعدائه فتى شاهدوا ان الله نصره غاظهم ذلك (واما البحث الثانى) فاعلم ان فى لفظ السبب قولين (احدهما) أنه الحبل وهؤلاء اختلفوا فى السماء فمنهم من قال هو سماء البيت ومنهم من قال هو السماء فى الحقيقة فقالوا المعنى من كان يظن ان لن ينصره الله ثم يغيظه أنه لايظفر بمطلوبه فليستقص وسعه فى ازالة مايغيظه بان يفعل مايفعل من بلغ منه الغيظ كل مبلغ حتى مد حبلا الى سماء بيته فاختنق فلينظر انه ان فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذى يغيظه وعلى هذا القول اختلفوا فى القطع فقال بعضهم سمى الاختناق قطعا لان المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه وسمى فعله كيدا لانه وضعه موضع الكيد حيث لم يقدر على غيره او على سبيل الاستهزاء لانه لم يكد به محسوده وانما كاد به نفسه والمراد ليس فى يده الا ماليس بمذهب مايغيظ وهذا قول الكلبى ومقاتل وقال ابن عباس رضى الله عنه يشد الحبل فى عنقه وفى سقف البيت ثم ليقطع الحبل حتى يختنق ويهلك هذا كله اذا حملنا السماء على سقف البيت وهو قول كثير من المفسرين وقال آخرون المراد منه نفس السماء فانه يمكن حمل الكلام على نفس السماء فهو اولى من حمله على سماء البيت لان ذلك لايفهم منه الا مقيدا ولان الغرض ليس الامر بان يفعل ذلك بل الغرض ان يكون ذلك صارفا له عن الغيظ الى طاعة الله تعالى واذا كان كذلك فكلما كان المذكور ابعد من الامكان كان اولى بان يكون هو المراد ومعلوم ان مد الحبل الى سماء الدنيا والاختناق به ابعد فى الامكان من مده الى سقف البيت لان ذلك ممكن اما الذين قالوا السبب ليس هو الحبل فقد ذكروا وجهين (الاول) كأنه قال فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع بذلك السبب المسافة ثم لينظر فانه يعلم انه مع تحمل المشقة فيه خاسر الصفقة كأن لم يفعل شيئا وهو قول أبى مسلم (والثانى) كأنه قال فليطلب سببا يصل به الى السماء فليقطع نصر الله لنبيه ولينظر هل يتهيأ له الوصول الى السماء بحيلة وهل يتهيأ له أن يقطع بذلك نصر الله عن رسوله فاذا كان ذلك ممتنعا كان غيظه عديم الفائدة واعلم ان المقصد على كل هذه الوجوه معلوم فانه زجر للكفار عن الغيظ فيما لافائدة فيه وهو فى معنى قوله فان استطعت أن تبتغى نفقا فى الارض اوسلما فى السماء مبينا بذلك انه لاحيلة له فى الآيات التى اقترحوها (القول الثانى) ان الهاء فى قوله لن ينصره الله راجع الى من فى اول الآية لانه المذكور ومن حق الكناية ان ترجع الى مذكور اذا امكن ذلك ومن قال بذلك حمل النصرة على الرزق وقال ابو عبيدة وقف علينا سائل من بنى بكر فقال من ينصرنى نصره الله اى من يعطينى اعطاه الله فكأنه قال من كان يظن ان لن يرزقه الله فى الدنيا والآخرة فلهذا الظن يعدل عن التمسك بدين محمد صلى الله عليه وسلم كما وصفه تعالى

(فى)

من الجملتين داخلة مثلهما فى حيز السببية وكذا قوله عز وجل (وان الله يبعث من فى القبور) لكن لامن حيث ان اتيان الساعة وبعث الموتى مؤثر ان فيما ذكر من افاعيله تعالى تأثير القدرة فيها بل من حيث ان كلا منهما سبب داع له عز وجل بموجب رأفته بالعباد المبنية على الحكم البالغة الى ما ذكر من خلقهم ومن احياء الارض الميتة على نمط بديع صالح للاستشهاد به على مكانهما ليتأملوا فى ذلك ويستدلوا به على وقوعهما لامحالة ويصدقوا بماينطق بهما من الوحى المبين وينالوا به السعادة الابدية ولولا ذلك لما فعل تعالى مافعل بل لما خلق العالم رأسا وهذا كما ترى من أحكام حكمته تعالى فى افعاله وابتنائها على الحكم الباهرة كما ان ماقبله من احكام حكمته تعالى فى صفاته وكونها فى غاية الكمال وقد جعل اتيان الساعة وبعث من فى القبور لكونهما من روادف الحكمة كناية عن كونه تعالى حكيما كأنه قيل ذلك بسبب انه تعالى قادر على احياء الموتى وعلى كل مقدور وانه حكيم لايخلف ميعاده وقد وعد بالساعة والبعث فلابد ان يفى بما وعد وانت خبير بان ما آله الاستدلال بحكمته تعالى على اتيان الساعة والبعث وليس الكلام فى ذلك بل انما هو فى سببيتهما لما مر من خلق الانسان واحياء الارض فتأمل وكن على الحق المبين وقيل قوله تعالى وان الساعة آتية ليس معطوفا على المجرور بالباء ولا داخلا فى حيز السببية بل هو خبر والمبتدأ محذوف لفهم المعنى والتقدير

فى قوله وان اصابته فتنة انقلب على وجهه فليبلغ غاية الجزع وهو الاختنـاق فان ذلك لا يغلب القسمة و يجعله مرزوقا اما قوله وكذلك أنزلناه آيات بينات فمعناه ومثل ذلك الانزال انزلنا القرآن كله آيات بينات اما قوله وان الله يهدى من يريد فقد احتج اصحابنا به فقالوا المراد من الهداية اما وضع الادلة او خلق المعرفة والاول غير جائز لانه تعالى فعل ذلك فى حق كل المكلفين ولان قوله يهدى من يريد دليل على ان الهداية غير واجبة عليه بل هى معلقة بمشيئته سبحانه ووضع الادلة عند الخصم واجب فبقى ان المراد منه خلق المعرفة قال القاضى عبد الجبار فى الاعتذار هذا يحتمل وجوها (احدها) يكلف من يريد لان من كلف احدا شيئا فقد وصفه له وبينه له (وثانيها) ان يكون المراد يهدى الى الجنة والاثابة من يريد ممن آمن وعمل صالحا (وثالثها) ان يكون المراد ان الله تعالى يلطف بمن يريد ممن علم انه اذا زاده هدى ثبت على ايمانه كقوله تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى وهذا الوجه هو الذى اشار الحسن اليه بقوله ان الله يهدى من قبل لا من لم يقبل والوجهان الاولان ذكرهما ابو على (والجواب) عن الاول ان الله تعالى ذكر ذلك بعد بيان الادلة والجواب عن الشبهات فلا يجوز حمله على محض التكليف واما الوجهان الاخيران فمدفوعان لانهما عندك واجبان على الله تعالى وقوله يهدى من يريد يقتضى عدم الوجوب ❁ قوله تعالى (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين اشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل شئ شهيد الم تر ان الله يسجد له من فى السموات ومن فى الارض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم ان الله يفعل ما يشاء) القراءة قرئ حق بالضم وقرئ حقا أى حق عليه العذاب حقا وقرئ مكرم بفتح الراء بمعنى الاكرام واعلم انه تعالى لما قال وان الله يهدى من يريد اتبعه فى هذه الآية ببيان من يهديه ومن لا يهديه واعلم ان المسلم لا يخالفه فى المسائل الاصولية الا طبقات ثلاثة (احدها) الطبقة المشاركة له فى نبوة نبيه كالخلاف بين الجبرية والقدرية فى خلق الافعال البشرية والخلاف بين مثبتى الصفات والرؤية ونفاتها (وثانيها) الذين يخالفونه فى النبوة ولكن يشاركونه فى الاعتراف بالفاعل المختار كالخلاف بين المسلمين واليهود والنصارى فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعيسى وموسى عليهما السلام (وثالثها) الذين يخالفونه فى الاله وهؤلاء هم السوفسطائية المتوقفون فى الحقائق والدهرية الذين لا يعترفون بوجود مؤثر فى العالم والفلاسفة الذين يثبتون مؤثرا موجبا لا مختارا فاذا كانت الاختلافات الواقعة فى اصول الاديان محصورة فى هذه الاقسام الثلاثة ثم لا يشك ان اعظم جهات الخلاف هو من جهة القسم الاخير منها وهذا القسم الاخير باقسامه الثلاثة لا يوجدون فى العالم المتظاهرين بعقائدهم ومذاهبهم بل يكونون مستترين اما القسم الثانى وهو الاختلاف الحاصل بسبب الانبياء عليهم السلام فتقسيمه ان يقال القائلون بالفاعل المختار اما ان يكونوا معترفين بوجود

والامر ان الساعة آتية وان الثانية معطوفة على الاولى وقيل المعنى ذلك لتعلموا بان الله هو الحق الآتيين (ومن الناس من يجادل فى الله) هو ابو جهل بن هشام حسبما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وقيل هو من يتصدى لاضلال الناس واغوائهم كائنا من كان كما ان الاول من يقلدهم على ان الشيطان عبارة عن المضل المغوى على الاطلاق (بغير علم) متعلق بمحذوف وقع حالا من ضمير يجادل اى كائنا بغير علم والمراد بالعلم العلم الضرورى كما ان المراد بالهدى فى قوله تعالى (ولا هدى) هو الاستدلال والنظر الصحيح الهادى الى المعرفة (ولا كتاب منير) وحى مظهر للحق اى يجادل فى شأنه تعالى من غير تمسك بمقدمة ضرورية ولا بحجة نظرية ولا ببرهان سمعى كما فى قوله تعالى ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم واما ماقيل من ان المراد به المجادل الاول والتكرير للتأكيد والتمهيد لما بعده من بيان انه لا سند له من استدلال او وحى فلا يساعده النظم الكريم كيف وان وصفه باتباع كل شيطان موصوف بما ذكر يغنى عن وصفه بالعراء عن الدليل العقلى والسمعى (ثانى عطفه) حال اخرى من فاعل يجادل اى عاطفا لجانبه وطاويا كشحه معرضا متكبرا فان ثنى العطف كناية عن التكبر وقرئ بفتح العين اى مانعا لتعطفه (ليضل عن سبيل الله) متعلق بيجادل فان غرضه الاضلال عنه وان لم يعترف بانه اضلال والمراد به اما الاخراج

الانبياء اولا يكونوا معترفين بذلك اما المعترفون بذلك فاما ان يكونوا اتباعا لمن كان نبيا في الحقيقة او لمن كان متنبئا اما اتباع الانبياء عليهم السلام فهم المسلمون واليهود والنصارى وفرقة اخرى بين اليهود والنصارى وهم الصابئون واما اتباع المتنبي فهم المجوس واما المنكرون للانبياء على الاطلاق فهم عبدة الاصنام والاوثان وهم المسمون بالمشركين ويدخل فيهم البراهمة على اختلاف طبقاتهم فثبت ان الاديان الحاصلة بسبب الاختلافات في الانبياء عليهم السلام هي هذه الستة التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية قال قتادة ومقاتل الاديان ستة واحد لله تعالى وهو الاسلام وخمسة للشيطان وتمام الكلام في هذه الآية قد تقدم في سورة البقرة ماقوله ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال الزجاج هذا خبر لقول الله تعالى ان الذين آمنوا كما تقول ان اخاك ان الدين عليه لكثير قال جرير

ان الخليفة ان الله سربله * سربال ملك به ترجى الخواتيم

(المسئلة الثانية) الفصل مطلق فيحتمل الفصل بينهم في الاحوال والاماكن جميعا فلا يجازيهم جزاء واحدا بغير تفاوت ولا يجمعهم في موطن واحد وقيل يفصل بينهم يقضي بينهم اما قوله تعالى ان الله على كل شيء شهيد فالمراد انه يفصل بينهم وهو عالم بما يستحقه كل منهم فلا يجري في ذلك الفصل ظلم ولا حيف اما قوله سبحانه وتعالى الم تر ان الله يسجد له ففيه أسئلة (السؤال الاول) ما الرؤية ههنا (الجواب) انها العلم أي الم تعلم ان الله يسجد له من في السموات ومن في الارض وانما عرف ذلك بخبر الله لا انه رآه (السؤال الثاني) ما السجود ههنا قلنا فيه وجوه (احدها) قال الزجاج اجود الوجوه في سجود هذه الامور انها تسجد مطيعة لله تعالى وهو كقوله ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا او كرها قالتا اتينا طائعين ان نقول له كن فيكون وان منها لما يهبط من خشية الله وان من شيء الا يسبح بحمده وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والمعنى ان هذه الاجسام لما كانت قابلة لجميع الاعراض التي يحدثها الله تعالى فيها من غير امتناع البتة اشبهت الطاعة والانقياد وهو السجود فان قيل هذا التأويل يبطله قوله وكثير من الناس فان السجود بالمعنى الذي ذكرته عام في كل الناس فاسناده الى كثير منهم يكون تخصيصا من غير فائدة والجواب من وجوه (احدها) ان السجود بالمعنى الذي ذكرناه وان كان عاما في حق الكل الا ان بعضهم تمرد وتكبر وترك السجود في الظاهر فهذا الشخص وان كان ساجدا بذاته لكنه متمرد بظاهره اما المؤمن فانه ساجد بذاته وبظاهره فلاجل هذا الفرق حصل التخصيص بالذكر (وثانيها) ان نقطع قوله وكثير من الناس عما قبله ثم فيه ثلاثة اوجه (الاول) ان نقول تقدير الآية ولله يسجد من في السموات ومن في الارض ويسجد له كثير من الناس فيكون السجود الاول بمعنى الانقياد والثاني بمعنى الطاعة والعبادة وانما فعلنا ذلك لانه قامت الدلالة على انه لا يجوز استعمال اللفظ المشترك في معنييه

(جميعا)

من الهدى الى الضلال فالمفعول من يجادله من المؤمنين او الناس جميعا بتغليب المؤمنين على غيرهم ولما التثبيت على الضلال او الزيادة عليه مجازا فالمفعول هم الكفرة خاصة وقرئ بفتح الياء وجعل ضلاله غاية لجداله من حيث ان المراد به الضلال المبين الذي لا هداية له بعده مع تمكنه منها قبل ذلك (له في الدنيا خزي) جملة مستأنفة مسوقة لبيان نتيجة ماسلكه من الطريقة اي يثبت له في الدنيا بسبب ما فعله خزي وهو ما اصابه يوم بدر من القتل والصغار (ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق) اي النار المحرقة (ذلك) اي ما ذكر من العذاب الدنيوي والاخروي ومافيه من معنى البعد للايذان بكونه في الغاية القاصية من الهول والفظاعة وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (بما قدمت يداك) اي بسبب ما اقترفته من الكفر والمعاصي واسناده الى يديه لما ان الاكتساب عادة يكون بالايدي والالتفات لتأكيد الوعيد وتشديد التهديد ومحل ان في قوله عز وعلا (وان الله ليس بظلام للعبيد) الرفع على انه خبر مبتدأ محذوف اي والامر انه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب من قبلهم والتعبير عن ذلك بنفي الظلم مع ان تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم قطعا على ما تقرر من قاعدة اهل السنة فضلا عن كونه ظلما بالغا قد مر تحقيقه في سورة آل عمران والجملة اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ماقبلها واما ماقيل من ان محل ان هو الجر بالعطف

جميعا (الثانى) ان يكون قوله وكثير من الناس مبتدأ وخبره محذوف وهو مثاب لان خبر مقابله يدل عليه وهو قوله حق عليه العذاب (والثالث) ان يبالغ فى تكثير المحقوقين بالعذاب فيعطف كثير على كثير ثم يخبر عنهم بحق عليهم العذاب كأنه قيل وكثير من الناس وكثير حق عليهم العذاب (وثالثها) ان من يجوز استعمال اللفظ المشترك فى مفهوميه جميعا يقول المراد بالسجود فى حق الاحياء العقلاء العبادة وفى حق الجمادات الانقياد ومن ينكر ذلك يقول ان الله تعالى تكلم بهذه اللفظة مرتين فعنى بها فى حق العقلاء الطاعة وفى حق الجمادات الانقياد (السؤال الثالث) قوله ولله يسجد من فى السموات ومن فى الارض لفظه لفظ العموم فيدخل فيه الناس فلم قال مرة اخرى وكثير من الناس (الجواب) لو اقتصر على ما تقدم لأوهم ان كل الناس يسجدون كما ان كل الملائكة يسجدون فبين ان كثيرا منهم يسجدون طوعا دون كثير منهم فانه يمتنع عن ذلك وهم الذين حق عليهم العذاب (القول الثانى) فى تفسير السجود ان كل ما سوى الله تعالى فهو ممكن لذاته والممكن لذاته لا يترجح وجوده على عدمه الا عند الانتهاء الى الواجب لذاته كما قال وان الى ربك المنتهى وكما ان الامكان لازم للممكن حال حدوثه وبقائه فافتقاره الى الواجب حاصل حال حدوثه وحال بقائه وهذا الافتقار الذاتى اللازم للماهية ادل على الخضوع والتواضع من وضع الجبهة على الارض فان ذلك علامة وضعية للافتقار الذاتى وقد يتطرق اليها الصدق والكذب اما نفس الافتقار الذاتى فانه يمتنع التغير والتبدل فجميع الممكنات ساجدة بهذا المعنى لله تعالى اى خاضعة متذللة معترفة بالفاقة اليه والحاجة الى تخليقه وتكوينه وعلى هذا تأولوا قوله وان من شئ الا يسبح بحمده وهذا قول القفال رحمه الله (القول الثالث) ان سجود هذه الاشياء سجود ظلها كقوله تعالى يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون وهو قول مجاهد واما قوله تعالى كثير من الناس وكثير حق عليه العذاب فقال ابن عباس فى رواية عطاء وكثير من الناس يوحده وكثير حق عليه العذاب ممن لا يوحده وروى عنه ايضا انه قال وكثير من الناس فى الجنة وهذه الرواية تؤكد ما ذكرنا ان قوله وكثير من الناس مبتدأ وخبره محذوف وقال آخرون الوقف على قوله وكثير من الناس ثم استأنف فقال وكثير حق عليه العذاب اى وجب باباءه وامتناعه من السجود واما قوله تعالى ومن يهن الله فماله من مكرم فالمعنى ان الذين حق عليهم العذاب ليس لهم احد يقدر على ازالة ذلك الهوان عنهم فيكون مكرما لهم ثم بين بقوله ان الله يفعل ما يشاء انه الذى يصح منه الاكرام والهوان يوم القيامة بالثواب والعقاب والله اعلم ❁ قوله تعالى (هذان خصمان اختصموا فى ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤسهم الحميم يصهر به ما فى بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلما ارادوا ان يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار

على ما قدمت فقد عرفت حاله فى سورة الانفال (ومن الناس من يعبد الله على حرف) شروع فى بيان حال المذبذبين اثر بيان حال المجاهرين اى ومنهم من يعبده تعالى على طرف من الدين لا ثبات له فيه كالذى يتحرف الى طرف الجيش فان احس بظفر قر والا فر (فان اصابه خير) اى دنيوى من الصحة والسعة (اطمأن به) اى ثبت على ما كان عليه ظاهرا لا انه اطمأن به اطمئنان المؤمنين الذين لا يلويهم عنه صارف ولا يثنيهم عاطف (وان اصابته فتنة) اى شئ يفتتن به من مكروه يعتريه فى نفسه او اهله او ماله (انقلب على وجهه) روى انها نزلت فى اعاريب قدموا المدينة وكان احدهم اذا صح بدنه ونتجت فرسه مهرا سريا وولدت امرأته ولدا سويا وكثر ماله وماشيته قال ما اصبت منذ دخلت فى دينى هذا الا خيرا واطمأن وان كان الامر بخلافه قال ما أصبت الا شرا وانقلب وعن ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه ان يهوديا اسلم فاصابته مصائب فتشاءم بالاسلام فأتى النبى عليه الصلاة والسلام فقال اقلنى فقال عليه السلام ان الاسلام لا يقال فنزلت وقيل نزلت فى المؤلفة قلوبهم (خسر الدنيا والآخرة) بفقدهما

يحلون فيها من اساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير وهدوا الى الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد) القراءة * روى عن الكسائى خصمان بكسر الخاء وقرئ قطعت بالتخفيف كان الله يقدر لهم نيرانا على مقادير جثثهم تشتمل عليهم كما تقطع الثياب الملبوسة قرأ الاعمش كلما أرادوا ان يخرجوا منها من غم ردوا فيها الحسن يصهر بتشديد الهاء للمبالغة وقرئ ولؤلؤا بالنصب على تقدير ويؤتون لؤلؤا كقوله وحورا عينا ولؤلوا بقلب الهمزة الثانية واوا واعلم انه سبحانه لما بين ان الناس قسمان منهم من يعبد الله ومنهم من حق عليه العذاب ذكرههنا كيفية اختصامهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج من قال اقل الجمع اثنان بقوله هذان خصمان اختصموا (والجواب) الخصم صفة وصف بها الفوج او الفريق فكأنه قيل هذان فوجان او فريقان يختصمان فقوله هذان للفظ واختصموا للمعنى كقوله ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا (المسئلة الثانية) ذكروا فى تفسير الخصمين وجوها (احدها) المراد طائفة المؤمنين وجماعتهم وطائفة الكفار وجماعتهم وان كل الكفار يدخلون فى ذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما يرجع الى اهل الاديان الستة فى ربهم اى فى ذاته وصفاته (وثانيها) روى ان اهل الكتاب قالوا نحن احق بالله واقدم منكم كتابا ونبينا قبل نبيكم وقال المؤمنون نحن احق بالله آمنا بمحمد وآمنا بنبيكم وبما انزل الله من كتاب وانتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم تركتموه وكفرتم به حسدا فهذه خصومتهم فى ربهم (وثالثها) روى قيس بن عبادة عن ابى ذر الغفارى رحمه الله انه كان يحلف بالله ان هذه الآية نزلت فى ستة نفر من قريش تبارزوا يوم بدر حمزة وعلى وعبيدة بن الحرث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة وقال على عليه السلام أنا اول من يجثو للخصومة بين يدى الله تعالى يوم القيامة (ورابعها) قال عكرمة هما الجنة والنار قالت النار خلقنى الله لعقوبته وقالت الجنة خلقنى الله لرحمته فقص الله من خبرهما على محمد صلى الله عليه وسلم ذلك والاقرب هو الاول لان السبب وان كان خاصا فالواجب حمل الكلام على ظاهره وقوله هذان كالاشارة الى من تقدم ذكره وهم اهل الاديان الستة وايضا ذكر صنفين اهل طاعته واهل معصيته ممن حق عليه العذاب فوجب أن يكون رجوع ذلك اليهما فمن خص به مشركى العرب او اليهود من حيث قالوا فى كتابهم ونبيهم ما حكيناه فقد اخطأ وهذا هو الذى يدل على أن قوله ان الله يفصل بينهم اراد به الحكم لان ذكر التخاصم يقتضى ان الواقع بعده يكون حكما فبين الله تعالى حكمه فى الكفار وذكر من احوالهم امورا ثلاثة (احدها) قوله قطعت لهم ثياب من نار والمراد بالثياب احاطة النار بهم كقوله لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش عن أنس وقال سعيد بن جبير من نحاس أذيب بالنار أخذا من قوله تعالى سرابيلهم من قطران واخرج الكلام بلفظ الماضى كقوله تعالى ونفخ فى الصور وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد لان ما كان من أمر الآخرة فهو كالواقع (وثانيها) قوله يصب من فوق

(رؤسهم)

وشيعهما باذهاب عصمته وحبوط عمله بالارتداد وقرئ خاسر بالنصب على الحال والرفع على الفاعلية ووضع الظاهر موضع الضمير تنصيصا على خسرانه او على انه خبر مبتدأ محذوف (ذلك) اى ما ذكر من الخسران ومافيه من معنى البعد للايذان بكونه فى غاية مايكون (هو الخسران المبين) الواضح كونه خسرانا اذ لاخسران مثله (يدعو من دون الله) استئناف مبين لعظم الخسران اى يعبد متجاوزا عبادة الله تعالى (مالا يضره) اذا لم يعبده (ومالا ينفعه) ان عبده اى جمادا ليس من شأنه الضر والنفع كما يلوح به تكرير كلمة ما (ذلك) الدعاء (هو الضلال البعيد) عن الحق والهدى مستعار من ضلال من ابعد فى التيه ضالا عن الطريق (يدعو لمن ضره اقرب من نفعه) استئناف مسوق لبيان مآل دعائه المذكور وتقرير كونه ضلالا بعيدا مع ازاحة ماعسى يتوهم من نفى الضرر عن معبوده بطريق المباشرة تنبيه عنه بطريق التسبب ايضا فالدعاء بمعنى القول واللام داخلة على الجملة الواقعة مقولا له ومن مبتدأ وضره مبتدأ ثان خبره اقرب والجملة صلة للمبتدأ الاول وقوله تعالى (لبئس المولى ولبئس

رؤسهم الحميم يصهر به ما فى بطونهم والجلود الحميم الماء الحار قال ابن عباس رضى الله عنهما لو سقطت منه قطرة على جبال الدنيا لأذابتها يصهر اى يذاب اى اذا صب الحميم على رؤسهم كان تأثيره فى الباطن نحو تأثيره فى الظاهر فيذيب امعاءهم واحشاءهم كما يذيب جلودهم وهو ابلغ من قوله وسقوا ماء حميما فقطع امعاءهم (وثالثها) قوله ولهم مقامع من حديد المقامع السياط وفى الحديث لو وضعت مقمعة منها فى الارض فاجتمع عليها الثقلان ما اقلوها واما قوله كلما ارادوا ان يخرجوا منها من غم اعيدوا فيها فاعلم ان الاعادة لا تكون الا بعد الخروج والمعنى كلما ارادوا ان يخرجوا منها من غم فخرجوا اعيدوا فيها ومعنى الخروج ما يروى عن الحسن ان النار تضربهم بلهبها فترفعهم حتى اذا كانوا فى اعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفا وقيل لهم ذوقوا عذاب الحريق والحريق الغليظ من النار العظيم الاهلاك ثم انه سبحانه ذكر حكمه فى المؤمنين من اربعة اوجه (احدها) المسكن وهو قوله ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار (وثانيها) الحلية وهو قوله يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير فبين تعالى انه موصلهم فى الآخرة الى ما حرمه عليهم فى الدنيا من هذه الامور وان كان من احله لهم ايضا شاركهم فيه لان الحلل للنساء فى الدنيا يسير بالاضافة الى ما يحصل لهم فى الآخرة (وثالثها) الملبوس وهو قوله ولباسهم فيها حرير (ورابعها) قوله وهدوا الى الطيب من القول وفيه وجوه (احدها) ان شهادة ان لا اله الا الله هو الطيب من القول لقوله ومثل كلمة طيبة وقوله اليه يصعد الكلم الطيب وهو صراط الحميد لقوله وانك لتهدى الى صراط مستقيم (وثانيها) قال السدى وهدوا الى الطيب من القول هو القرآن (وثالثها) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عطاء هو قولهم الحمد لله الذى صدقنا وعده (ورابعها) انهم اذا ساروا الى الدار الآخرة هدوا الى البشارات التى تأتيهم من قبل الله تعالى بدوام النعيم والسرور والسلام وهو معنى قوله والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار وعندى فيه وجه خامس وهو ان العلاقة البدنية جارية مجرى الحجاب للارواح البشرية فى الاتصال بعالم القدس فاذا فارقت ابدانها انكشف الغطاء ولاحت الانوار الالهية وظهور تلك الانوار هو المراد من قوله وهدوا الى الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد والتعبير عنها هو المراد من قوله وهدوا الى الطيب من القول * قوله سبحانه وتعالى (ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب اليم) اعلم انه تعالى بعد ان فصل بين الكفار والمؤمنين ذكر عظم حرمة البيت وعظم كفر هؤلاء فقال ان الذين كفروا اى جاءبه محمد صلى الله عليه وسلم ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام وذلك بالمنع من الهجرة والجهاد لانهم كانوا يأتون ذلك وفيه اشكال وهو انه كيف عطف المستقبل وهو قوله ويصدون عن سبيل الله على الماضى وهو

المشير) جواب لقسم مقدر وهو وجوابه خبر المبتدأ الاول وايثار من على ما مع كون معبوده جمادا وايراد صيغة التفضيل مع خلوه عن النفع بالمرة للمبالغة فى تقبيح حاله والامعان فى ذمه اى يقول ذلك الكافر يوم القيامة بدعاء وصراخ حين يرى تضرره بمعبوده ودخوله النار بسببه ولا يرى منه اثر النفع اصلا لمن ضره اقرب من نفعه والله لبئس الناصر هو ولبئس الصاحب هو فكيف بما هو ضرر محض عار عن النفع بالكلية ويجوز ان يكون يدعو الثانى اعادة للاول لا تأكيدا له فقط بل وتمهيدا لما بعده من بيان سوء حال معبوده اثر بيان سوء حال عبادته بقوله تعالى ذلك هو الضلال البعيد كأنه قيل من جهته تعالى بعد ذكر عبادته لما لا يضره ولا ينفعه يدعو ذلك ثم قيل لمن ضره اقرب من نفعه والله لبئس المولى ولبئس العشير فكلمة من وصيغة التفضيل للتهكم به وقيل اللام زائدة ومن مفعول يدعو ويؤيده القراءة بغير لام اى يعبد من ضره اقرب من نفعه وايراد كلمة من وصيغة التفضيل تهكم به ايضا والجملة القسمية مستأنفة (ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات) استئناف جئ به لبيان كمال حسن حال المؤمنين العابدين له تعالى وان الله عز وجل يتفضل عليهم بما لا غاية وراءه من اجل

قوله كفروا (والجواب) عنه من وجهين (الاول) انه يقال فلان يحسن الى الفقراء ويعين الضعفاء لا يراد به حال ولا استقبال وانما يراد استمرار وجود الاحسان منه في جميع ازمنته واوقاته فكأنه قيل ان الذين كفروا من شأنهم الصد عن سبيل الله ونظيره قوله الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله (وثانيهما) قال ابو علي الفارسي التقدير ان الذين كفروا فيما مضى وهم الآن يصدون ويدخل فيه انهم يفعلون ذلك في الحال والمستقبل اما قوله والمسجد الحرام يعني ويصدونهم ايضا عن المسجد الحرام قال ابن عباس رضي الله عنهما نزلت الآية في ابي سفيان بن حرب واصحابه حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية عن المسجد الحرام عن ان يحجوا ويعتمروا وينحروا الهدى فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قتالهم وكان محرما بعمرة ثم صالحوه على ان يعود في العام القابل اما قوله الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ابو علي الفارسي اي جعلناه للناس منسكا ومتعبدا وقوله سواء العاكف فيه والباد رفع على انه خبر مبتدأ مقدم اي العاكف والبادي فيه سواء وتقدير الآية المسجد الحرام الذي جعلناه للناس منسكا فالعاكف والبادي فيه سواء وقرأ عاصم ويعقوب سواء بالنصب بايقاع الجعل عليه لان الجعل يتعدى الى مفعولين والله اعلم (المسئلة الثانية) العاكف المقيم به الحاضر والبادي الطارئ من البدو وهو النازع اليه من غربته وقال بعضهم يدخل في العاكف القريب اذا جاور ولزمه للتعبد وان لم يكن من اهله (المسئلة الثالثة) اختلفوا في انهما في اي شيء يستويان قال ابن عباس رضي الله عنهما في بعض الروايات انهما يستويان في سكنى مكة والنزول بها فليس احدهما احق بالمنزل الذي يكون فيه من الآخر الا ان يكون واحد سبق الى المنزل وهو قول قتادة وسعيد بن جبير ومن مذهب هؤلاء ان كراء دور مكة وبيعها حرام واحتجوا عليه بالآية والخبر اما الآية فهي هذه قالوا ان ارض مكة لا تملك فانها لو ملكت لم يستو العاكف فيها والبادي فلما استويا ثبت ان سبيله سبيل المساجد واما الخبر فقوله عليه السلام مكة مباح لمن سبق اليها وهذا مذهب ابن عمر وعمر بن عبد العزيز ومذهب ابي حنيفة واسحق الحنظلي رضي الله عنهم وعلى هذا المراد بالمسجد الحرام الحرم كله لان اطلاق لفظ المسجد الحرام والمراد منه البلد جائز بدليل قوله تعالى سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام وههنا قد دل الدليل وهو قوله العاكف لان المراد منه المقيم اقامة واقامته لا تكون في المسجد بل في المنازل فيجب ان يقال ذكر المسجد وأراد مكة (القول الثاني) المراد جعل الله الناس في العبادة في المسجد سواء ليس للمقيم ان يمنع البادي وبالعكس قال عليه السلام يا بني عبد مناف من ولي منكم من امور الناس شيئا فلا يمنعن احدا طاف بهذا البيت او صلى اية ساعة من ليل او نهار وهذا قول الحسن ومجاهد وقول من اجاز بيع دور مكة وقد جرت مناظرة بين الشافعي واسحق الحنظلي بمكة وكان اسحق لا يرخص في كراء بيوت مكة واحتج

المنافع واعظم الخيرات اي يبان غاية سوء حال الكفرة وما لهم من فريق المجاهرين والمذبذبين وان معبودهم لا يجديهم شيئا من النفع بل يضرهم مضرة عظيمة وانهم يعترفون بسوء ولايته وعشرته ويذمونه مذمة تامة وقوله تعالى (يجري من تحتها الانهار) صفة لجنات فان اريد بها الاشجار المتكاثفة الساترة لما تحتها فجريان الانهار من تحتها ظاهر وان اريد بها الارض فلابد من تقدير مضاف اي من تحت اشجارها وان جعلت عبارة عن مجموع الارض والاشجار فاعتبار التحتية بالنظر الى الجزء الظاهر المصحح لاطلاق اسم الجنة على الكل كما مر تفصيله في اوائل سورة البقرة وقوله تعالى (ان الله يفعل ما يريد) تعليل لما قبله وتقرير له بطريق التحقيق اي يفعل البتة كل ما يريده من الافعال المتقنة اللائقة المبنية على الحكم الرائقة التي من جملتها اثابة من آمن به وصدق رسوله صلى الله عليه وسلم وعقاب من اشرك به وكذب برسوله عليه السلام ولما كان هذا من آثار نصرته تعالى له عليه السلام عقب بقوله عز وجل وعلا (من كان يظن ان لن ينصره الله في الدنيا والآخرة) تحقيقا لها وتقريرا لثبوتها على ابلغ وجه وآكده وفيه ايجاز بارع واختصار رائع والمعنى انه تعالى ناصر لرسوله في الدنيا والآخرة لا محالة

(الشافعى)

الشافعي رحمه الله بقوله تعالى الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق فاضيفت الدار الى مالكها والى غير مالكها وقال عليه السلام يوم فتح مكة من اغلق بابه فهو آمن وقال صلى الله عليه وسلم هل ترك لنا عقيل من ربع وقد اشترى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما دار السجن أترى انه اشتراها من مالكها او من غير مالكها قال اسحق فلما علمت ان الحجة قد لزمتني تركت قولي أما الذي قالوه من حمل لفظ المسجد على مكة بقرينة قوله العاكف فضعيف لان العاكف قد يراد به الملازم للمسجد المعتكف فيه على الدوام او في الاكثر فلا يلزم ماذكروه ويحتمل ان يراد بالعاكف المجاور للمسجد المتمكن في كل وقت من التعبد فيه فلا وجه لصرف الكلام عن ظاهره مع هذه الاحتمالات أما قوله ومن يرد فيه بالحاد بظلم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ يرد بفتح الياء من الورود ومعناه من اتى فيه بالحاد وعن الحسن ومن يرد الحاده بظلم والمعنى ومن يرد ايقاع الحاد فيه فالاضافة صحيحة على الاتساع في الظرف كمكر الليل والنهار ومعناه ومن يرد أن يلحد فيه ظالما (المسئلة الثانية) الالحاد العدول عن القصد واصله الحاد الحافر وذكر المفسرون في تفسير الالحاد وجوها (احدها) انه الشرك يعني من لجأ الى حرم الله ليشرك به عذبه الله تعالى وهو احدى الروايات عن ابن عباس وقول عطاء بن ابي رباح وسعيد بن جبير وقتادة ومقاتل (وثانيها) قال ابن عباس رضي الله عنهما نزلت في عبد الله بن سعد حيث استسلمه النبي صلى الله عليه وسلم فارتد مشركا وفي قيس بن ضبابة وقال مقاتل نزلت في عبد الله بن خطل حين قتل الانصاري وهرب الى مكة كافرا فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله يوم الفتح كافرا (وثالثها) قتل مانهى الله تعالى عنه من الصيد (ورابعها) دخول مكة بغير احرام وارتكاب مالا يحل للمحرم (وخامسها) انه الاحتكار عن مجاهد وسعيد بن جبير (وسادسها) المنع من عمارته (وسابعها) عن عطاء قول الرجل في المبايعة لا والله وبلى والله وعن عبد الله بن عمر انه كان له فسطاطان احدهما في الحل والآخر في الحرم فاذا أراد ان يعاتب اهله عاتبهم في الحل فقيل له فقال كنا نحدث ان من الالحاد فيه ان يقول الرجل لا والله وبلى والله (وثامنها) وهو قول المحققين ان الالحاد بظلم عام في كل المعاصي لان كل ذلك صغر ام كبر يكون هناك اعظم منه في سائر البقاع حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه لو ان رجلا بعدن هم بأن يعمل سيئة عند البيت اذاقه الله عذابا اليما وقال مجاهد تضاعف السيئات فيه كما تضاعف الحسنات فان قيل كيف يقال ذلك مع ان قوله نذقه من عذاب اليم غير لائق بكل المعاصي قلنا لانسلم فان كل عذاب يكون اليما الا انه تختلف مراتبه على حسب اختلاف المعصية (المسئلة الثالثة) الباء في قوله بالحاد فيه قولان (احدهما) وهو الاولى وهو اختيار صاحب الكشاف ان قوله بالحاد بظلم حالان مترادفان ومفعول يرد متروك ليتناول كل متناول كأنه قال ومن يرد فيه مرادا ما عادلا عن القصد ظالما نذقه من عذاب اليم يعني ان الواجب على من كان فيه ان يضبط نفسه ويسلك طريق

من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه فمن كان يغيظه ذلك من اعاديه وحساده ويظن ان لن ينصره الله تعالى بسبب مدافعته ببعض الامور ومباشرة ما يرده من المكايد فليبالغ في استفراغ المجهود وليجاوز في الجد كل حد معهود فقصارى امره وعاقبة مكره ان يختنق حنقا مما يرى من ضلال مساعيه وعدم انتاج مقدماته ومباديه (فليمدد بسبب الى السماء) فليمدد حبلا الى سقف بيته (ثم ليقطع) اى ليختنق من قطع اذا اختنق لانه يقطع نفسه بحبس مجاريه وقيل ليقطع الحبل بعد الاختناق على ان المراد به فرض القطع وتقديره كما ان المراد بالنظر في قوله تعالى (فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ) تقدير النظر وتصويره اى فليصور في نفسه النظر هل يذهبن كيده ذلك الذي هو اقصى ما انتهت اليه قدرته في باب المضادة والمضارة ما يغيظه من النصرة كلا ويجوز ان يراد فلينظر الآن انه ان فعل ذلك هل يذهب ما يغيظه وقيل المعنى فليمدد حبلا الى السماء المظلة وليصعد عليه ثم ليقطع الوحي وقيل ليقطع المسافة حتى يبلغ عنانها فيجتهد في دفع نصره ويأباه ان مساق النظم الكريم بيان ان الامور المفروضة على تقدير وقوعها وتحققها بمعزل من اذهاب ما يغيظ ومن البين ان لا معنى لفرض وقوع الامور الممتنعة وترتيب الامر بالنظر عليه لاسيما قطع الوحي فان فرض وقوعه

السداد والعدل فى جميع ماليم به و بقصده (الثانى) قال ابو عبيدة مجازه ومن يرد فيه الحاداو الباء من حروف الزوائد (المسئلة الرابعة) لماكان الالحاد بمعنى الميل من امرالى أمر بين الله تعالى ان المراد بهذا الالحاد مايكون ميلا الى الظلم فلهذا قرن الظلم بالالحاد لانه لامعصية كبرت ام صغرت الا وهو ظلم ولذلك قال تعالى ان الشرك لظلم عظيم اما قوله تعالى نذقه من عذاب اليم فهو بيان الوعيد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) من قال الآية نزلت فى ابن خطل قال المراد بالعذاب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قتله يوم الفتح ولاوجه للتخصيص اذا امكن التعميم بل يجب ان يكون المراد العذاب فى الآخرة لانه من اعظم ماتوعد به (المسئلة الثانية) ان هذه الآية تدل على ان المرء يستحق العذاب بارادته للظلم كما يستحقه على عمل جوارحه (المسئلة الثالثة) ذكروا قولين فى خبر ان المذكور فى اول الآية (الاول) التقدير ان الذين كفروا ويصدون ومن يرد فيه بالحاد نذقه من عذاب فهو عائد الى كلتا الجملتين (الثانى) انه محذوف لدلالة جواب الشرط عليه تقديره ان الذين كفروا ويصدون عن المسجد الحرام نذيقهم من عذاب اليم وكل من ارتكب فيه ذنبا فهو كذلك ❁ قوله تعالى (واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ان لاتشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود واذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى ايام معلومات على مارزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها واطعموا البائس الفقير ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق) اعلم ان قوله واذ بوأنا اى واذكر حين جعلنا لابراهيم مكان البيت مباءة اى مرجعا يرجع اليه للعمارة والعبادة وكان قد رفع البيت الى السماء ايام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء فأعلم الله تعالى ابراهيم عليه السلام مكانه بريح ارسلها فكشفت ماحوله فبناه على وضعه الاول وقيل أمر ابراهيم بان يأتى موضع البيت فيبنى فانطلق فخفى عليه مكانه فبعث الله تعالى على قدر البيت الحرام فى العرض والطول غمامة وفيها رأس يتكلم وله لسان وعينان فقال ياابراهيم ابن على قدرى وحيالى فأخذ فى البناء وذهبت السحابة وههنا سؤالات (السؤال الاول) لاشك ان ان هى المفسرة فكيف يكون النهى عن الشرك والامر بتطهير البيت تفسيرا للتبوئة (الجواب) انه سبحانه لما قال جعلنا البيت مرجعا لابراهيم فكأنه قيل مامعنى كون البيت مرجعا له فأجيب عنه بأن معناه ان يكون بقلبه موحدا لرب البيت عن الشريك والنظير وبقالبه مشتغلا بتنظيف البيت عن الاوثان والاصنام (السؤال الثانى) ان ابراهيم لم يشرك بالله فكيف قال ان لاتشرك بى (الجواب) المعنى لاتجعل فى العبادة لى شريكا ولا تشرك بى غرضا آخر فى بناء البيت (السؤال الثالث) البيت ما كان معمورا قبل ذلك فكيف قال وطهر بيتى (الجواب) لعل ذلك المكان كان صحراء وكانوا يرمون اليها الاقذار فأمر ابراهيم ببناء البيت فى ذلك المكان وتطهيره من الاقذار او كانت معمورة

مخل بالمرام قطعا وقيل كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم وحنقهم على المشركين يستبطئون ماوعد الله رسوله عليه الصلاة والسلام من النصر وآخرون من المشركين يريدون اتباعه عليه السلام ويخشون ان لايثبت امره فنزلت وقد فسر النصر بالرزق فالمعنى ان الارزاق بيد الله تعالى لاتنال الا بمشيئته تعالى فلابد للعبد من الرضا بقسمته فمن ظن ان الله تعالى غير رازقه ولم يصبر ولم يستسلم فليبلغ غاية الجزع وهو الاختناق فان ذلك لايقلب القسمة ولا يرده مرزوقا (وكذلك) اى مثل ذلك الانزال البديع المنطوى على الحكم البالغة (انزلناه) اى القرآن الكريم كله وقوله تعالى (آيات بينات) اى واضحات الدلالة على معانيها الرائقة حال من الضمير المنصوب مبينة لما اشير اليه بذلك (وان الله يهدى) به ابتداء او يثبت على الهدى او يزيد فيه (من يريد) هدايته او تثبيته او زيادته فيها ومحل الجملة اما الجر على حذف الجار المتعلق بمحذوف مؤخر اى ولان الله يهدى من يريد انزله كذلك او الرفع على انه خبر لمبتدأ محذوف اى الامر ان الله يهدى من يريد هدايته (ان الذين آمنوا) اى بما ذكر من الآيات البينات بهداية الله تعالى او بكل مايجب ان يؤمن به فيدخل فيه ماذكر دخولا اوليا (والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس) قيل هم قوم

فكانوا قدوضعوافيها أصناما فأمرهالله تعالى بتخريب ذلك البناء ووضع بناءجديدوذلك هو التطهير عن الاوثان اويقال المراد انك بعد ان تبنيه فطهره عما لاينبغى من الشرك وقول الزور واما قوله للطائفين والقائمين فقال ابن عباس رضى الله عنهما للطائفين بالبيت من غير اهل مكة والقائمين اى المقيمين بها والركع السجود اى من المصلين من الكل وقال آخرون القائمون هم المصلون لان المصلى لابد وان يكون فى صلاته جامعا بين القيام والركوع والسجود والله اعلم اما قوله تعالى وأذن فى الناس بالحج ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن محيصن وآذن بمعنى اعلم (المسئلة الثانية) فى المأمور قولان (احدهما) وعليه اكثر المفسرين انه هو ابراهيم عليه السلام قالوا لما فرغ ابراهيم عليه السلام من بناء البيت قال سبحانه واذن فى الناس بالحج قال يارب ومايبلغ صوتى قال عليك الاذان وعلى البلاغ فصعد ابراهيم عليه السلام الصفا وفى رواية اخرى اباقبيس وفى رواية اخرى على المقام قال ابراهيم كيف اقول قال جبريل عليه السلام قل لبيك اللهم لبيك فهو اول من لبى وفى رواية اخرى انه صعد الصفا فقال ياايها الناس ان الله كتب عليكم حج البيت العتيق فسمعه مابين السماء والارض فمابقى شئ سمع صوته الااقبل يلبى يقول لبيك اللهم لبيك وفى رواية اخرى ان الله يدعوكم الى حج البيت الحرام ليثيبكم به الجنة ويخرجكم من النار فاجابه يومئذ من كان فى اصلاب الرجال وارحام النساء وكل من وصل اليه صوته من حجر او شجر ومدر او أكمة او تراب قال مجاهد فماحج انسان ولايحج احد حتى تقوم الساعة الاوقد اسمعه ذلك النداء فمن اجاب مرة حج مرة ومن اجاب مرتين او اكثر حج مرتين او اكثر على ذلك المقدار وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال لما امر ابراهيم عليه السلام بالاذان تواضعت له الجبال وخفضت وارتفعت له القرى قال القاضى عبدالجبار يبعد قولهم انه اجابه الصخر والمدر لان الاعلام لايكون الالمن يؤمر بالحج دون الجماد فاما من يسمع من اهل المشرق والمغرب نداءه فلايمتنع اذاقواه الله تعالى ورفع الموانع ومثل ذلك قد يجوز فى زمان الانبياء عليهم السلام (القول الثانى) ان المأمور بقوله واذن هو محمد صلى الله عليه وسلم وهو قول الحسن واختيار اكثر المعتزلة واحتجوا عليه بأن ماجاء فى القرآن وامكن حمله على ان محمدا صلى الله عليه وسلم هو المخاطب به فهو اولى وتقدم قوله واذبوأنا لابراهيم مكان البيت لايوجب ان يكون قوله واذن يرجع اليه اذقدبينا ان معنى قوله واذبوأنا اى واذكر يامحمد اذبوأنا فهو فى حكم المذكور فاذا قال تعالى واذن فاليه يرجع الخطاب وعلى هذا القول ذكروا فى تفسير قوله تعالى واذن وجوها (احدها) ان الله تعالى امر محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يعلم الناس بالحج (وثانيها) قال الجبائى امره الله تعالى ان يعلن التلبية فيعلم الناس انه حاج فيحجوا معه قال وفى قوله يأتوك دلالة على ان المراد ان يحج فيقتدى به (وثالثها) انه ابتداء فرض الحج من الله تعالى للرسول صلى الله عليه وسلم اما قوله يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ففيه

يعبدون النار وقيل الشمس والقمر وقيل هم قوم من النصارى اعتزلوا عنهم ولبسوا المسوح وقيل اخذوا من دين النصارى شيئا ومن دين اليهود شيئا وهم القائلون بان العالم اصلين نورا وظلمة (والذين اشركوا) هم عبدة الاصنام وقوله تعالى (ان الله يفصل بينهم يوم القيامة) فى حيز الرفع على انه خبر لان السابقة وتصدير طرفى الجملتين بحرفى التحقيق لزيادة التقرير والتأكيد اى يقضى بين المؤمنين وبين الفرق الخمس المتفقة على ملة الكفر باظهار المحق من المبطل وتوفية كل منهما حقه من الجزاء باثابة الاول وعقاب الثانى بحسب استحقاق افراد كل منهما وقوله تعالى (ان الله على كل شئ شهيد) تعليل لما قبله من الفصل اى عالم بكل شئ من الاشياء ومراقب لاحواله ومن قضيته الاحاطة بتفاصيل ماصدر عن كل فرد من افراد الفرق المذكورة واجراء جزائه اللائق به عليه وقوله تعالى (ألم تران الله يسجد له من فى السموات ومن فى الارض) الخ بيان لما يوجب الفصل المذكور من اعمال الفرق المذكورة مع الاشارة الى كيفيته وكونه بطريق التعذيب والاثابة والاكرام والاهانة اوبيان مايوجبه من كونه تعالى شهيدا على جميع الاشياء التى من جملتها احوالهم وافعالهم والمراد بالرؤية العلم عبر عنه بها اشعارا بظهور المعلوم والخطاب لكل احد ممن يتأتى منه

مسائل (المسئلة الاولى) الرجال المشاة واحدهم راجل كنيام ونائم وقرئ رجال بضم الراء مخفف الجيم ومثقله ورجال كعجال عن ابن عباس رضى الله عنهما وقوله وعلى كل ضامر اى ركبانا والضمور الهزال ضمر يضمر ضمورا والمعنى ان الناقة صارت ضامرة لطول سفرها وانما قال يأتين اى جماعة الابل وهى الضوامر لان قوله وعلى كل ضامر معناه على ابل ضامرة فجمل الفعل بمعنى كل ولو قال يأتى على اللفظ صح وقرئ يأتون صفة للرجال والركبان والفج الطريق بين الجبلين ثم يستعمل فى سائر الطرق اتساعا والعميق البعيد قرأ ابن مسعود معيق يقال بئر بعيدة العمق والمعق (المسئلة الثانية) المعنى واذن ليأتوك رجالا وعلى كل ضامر اى واذن ليأتوك على هاتين الصفتين او يكون المراد واذن فانهم يأتوك على هاتين الصفتين (المسئلة الثالثة) بدأ الله بذكر المشاة تشريفا لهم وروى سعيد ابن جبير باسناده عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان الحاج الراكب له بكل خطوة تخطوها راحلته سبعون حسنة وللماشى سبعمائة حسنة من حسنات الحرم قيل يارسول الله وما حسنات الحرم قال الحسنة بمائة الف حسنة (المسئلة الرابعة) انما قال يأتوك رجالا لانه هو المنادى فمن أتى بمكة حاجا فكأنه أتى ابراهيم عليه السلام لانه يجيب نداءه اما قوله ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى ايام معلومات ففيه مسائل (المسئلة الاولى) انه تعالى لما أمر بالحج فى قوله واذن فى الناس بالحج ذكر حكمة ذلك الامر فى قوله ليشهدوا منافع لهم واختلفوا فيها فبعضهم حملها على منافع الدنيا وهى ان يتجروا فى ايام الحج وبعضهم حملها على منافع الآخرة وهى العفو والمغفرة عن محمد الباقر عليه السلام وبعضهم حملها على الامرين جميعا وهو الاولى (المسئلة الثانية) انما نكر المنافع لانه اراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد فى غيرها من العبادات (المسئلة الثالثة) كنى عن الذبح والنحر بذكر اسم الله تعالى لان اهل الاسلام لا ينفكون عن ذكر اسمه اذا نحروا وذبحوا وفيه تنبيه على ان الغرض الاصلى فيما يتقرب به الى الله تعالى ان يذكر اسم الله تعالى وان يخالف المشركين فى ذلك فانهم كانوا يذبحونها للنصب والاوثان قال مقاتل اذا ذبحت فقل بسم الله والله اكبر اللهم منك واليك وتستقبل القبلة وزاد الكلبى فقال ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين قال القفال وكأن المتقرب بها وباراقة دمائها متصور بصورة من يفدى نفسه بما يعادلها فكأنه يبذل تلك الشاة بدل مهجته طلبا لمرضاة الله تعالى واعترافا بأن تقصيره كاد يستحق مهجته (المسئلة الرابعة) اكثر العلماء صاروا الى ان الايام المعلومات عشر ذى الحجة والمعدودات ايام التشريق وهذا قول مجاهد وعطاء وقتادة والحسن ورواية سعيد بن جبير عن ابن عباس واختيار الشافعى وابى حنيفة رحمهم الله واحتجوا بانها معلومة عند الناس لحرصهم على علمها من اجل ان وقت الحج فى آخرها ثم للمنافع اوقات من العشر معروفة كيوم عرفة والمشعر الحرام وكذلك الذبائح لها وقت منها وهو يوم النحر وقال ابن عباس فى رواية عطاء انها يوم النحر

الرؤية بناء على انه من الجلاء بحيث لا يخفى على احد والمراد بالسجود هو الانقياد التام لتدبيره تعالى بطريق الاستعارة المبنية على تشبيهه بأكمل افعال المكلف فى باب الطاعة ايذانا بكونه فى اقصى مراتب التسخر والتذلل لا سجود الطاعة الخاصة بالعقلاء سواء جعلت كلمة من عامة لغيرهم ايضا وهو الانسب بالمقام لافادته شمول الحكم لكل ما فيهما بطريق القرار فيهما او بطريق الجزئية منهما فيكون قوله تعالى (والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب) افرادا لها بالذكر لشهرتها واستبعاد ذلك منها عادة او جعلت خاصة بالعقلاء لعدم شمول سجود الطاعة لكلهم حسبما ينبئ عنه قوله تعالى (وكثير من الناس) فانه مرتفع بفعل مضمر يدل عليه المذكور اى ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة ومن قضيته انتفاء ذلك عن بعضهم وقيل هو مرفوع على الابتداء حذف خبره ثقة بدلالة خبر قسيمه عليه نحو حق له الثواب والاول هو الاولى لما فيه من الترغيب فى السجود والطاعة وقد يجوز ان يكون من الناس خبرا له اى من الناس الذين هم الناس على الحقيقة وهم الصالحون والمتقون وان يكون قوله تعالى (وكثير) معطوفا على كثير الاول للايذان بغاية الكثرة ثم يخبر عنهم باستحقاق العذاب كأنه قيل

وثلاثة ايام بعده وهو اختيار أبي مسلم قال لانها كانت معروفة عند العرب بعدها وهي ايام النحر وهو قول أبي يوسف ومحمد رحمهما الله اما قوله بهيمة الانعام فقال صاحب الكشاف البهيمة مبهمة في كل ذات اربع في البر والبحر فبينت بالانعام وهي الابل والبقر والضأن والمعز اما قوله تعالى فكلوا منها فمن الناس من قال انه أمر وجوب لان اهل الجاهلية كانوا لا يأكلون منها ترفعا على الفقراء فأمر المسلمون بذلك لما فيه من مخالفة الكفار ومساواة الفقراء واستعمال التواضع وقال الاكثرون انه ليس على الوجوب ثم قال العلماء من اهدى او ضحى فحسن أن يأكل النصف ويتصدق بالنصف لقوله تعالى فكلوا منها واطعموا البائس الفقير ومنهم من قال يأكل الثلث ويدخر الثلث ويتصدق الثلث ومذهب الشافعي رحمه الله ان الاكل مستحب والاطعام واجب فان أطعم جميعها أجزأه وان أكل جميعها لم يجزه هذا فيما كان تطوعا فأما الواجبات كالنذور والكفارات والجبرانات لنقصان مثل دم القران ودم التمتع ودم الاساءة ودماء القلم والحلق فلا يأكل منها اما قوله واطعموا البائس الفقير فلا شبهة في انه أمر ايجاب والبائس الذي اصابه بؤس اى شدة والفقير الذي اضعفه الاعسار وهو مأخوذ من فقار الظهر قال ابن عباس البائس الذي ظهر بؤسه في ثيابه وفي وجهه والفقير الذي لا يكون كذلك فتكون ثيابه نقية ووجهه وجه غني اما قوله ثم ليقضوا تفثهم قال الزجاج ان اهل اللغة لا يعرفون التفث الا من التفسير وقال المبرد اصل التفث في كلام العرب كل قاذورة تلحق الانسان فيجب عليه نقضها والمراد ههنا قص الشارب والاظفار ونتف الابط وحلق العانة والمراد من القضاء ازالة التفث وقال القفال قال نفطويه سألت اعرابيا فصيحا ما معنى قوله ثم ليقضوا تفثهم فقال ما أفسر القرآن ولكنا نقول للرجل ما أتفثك وما أدرنك ثم قال القفال وهذا اولى من قول الزجاج لان القول قول المثبت لا قول النافي اما قوله وليوفوا نذورهم فقرئ بتشديد الفاء ثم يحتمل ذلك ما اوجبه الدخول في الحج من انواع المناسك ويحتمل أن يكون المراد ما اوجبوه بالنذر الذي هو القول وهذا القول هو الاقرب فان الرجل اذا حج او اعتمر فقد يوجب على نفسه من الهدي وغيره مالولا ايجابه لم يكن الحج يقتضيه فأمر الله تعالى بالوفاء بذلك اما قوله وليطوفوا بالبيت العتيق فالمراد الطواف الواجب وهو طواف الافاضة والزيارة اما كون هذا الطواف بعد الوقوف ورمي الجمار والحلق ثم هو في يوم النحر او بعده ففيه تفصيل وسمي البيت بالعتيق لوجوه (احدها) العتيق القديم لانه اول بيت وضع للناس عن الحسن (وثانيها) لانه أعتق من الجبابرة فكم من جبار سار اليه ليهدمه فمنعه الله تعالى وهو قول ابن عباس وقول ابن الزبير ورووه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما قصده ابرهة فعل به ما فعل فان قيل تسلط الحجاج عليه (فالجواب) قلنا ما قصد التسلط على البيت وانما تحصن به عبد الله بن الزبير فاحتال لاخراجه ثم بناه (وثالثها) لم يملك قط عن ابن عيينة (ورابعها) أعتق من الغرق عن مجاهد (وخامسها) بيت

وكثير وكثير من الناس (حق عليه العذاب) اى بكفره واستعصائه وقرئ حق بالضم وحقا اى حق عليه العذاب حقا (ومن يهن الله) بان كتب عليه الشقاوة حسبما علمه من صرف اختياره الى الشر (فما له من مكرم) يكرمه بالسعادة وقرئ بفتح الراء على انه مصدر ميمي (ان الله يفعل ما يشاء) من الاشياء التي من جملتها الاكرام والاهانة (هذان) تعيين لطرفي الخصام وازاحة لما عسى يتبادر الى الوهم من كونه بين كل واحدة من الفرق الست وبين البواقي وتحرير لمحله اى فريق المؤمنين وفريق الكفرة المنقسم الى الفرق الخمس (خصمان) اى فريقان مختصمان وانما قيل (اختصموا في ربهم) حملا على المعنى اى اختصموا في شأنه عز وجل وقيل في دينه وقيل في ذاته وصفاته والكل من شؤنه تعالى فان اعتقاد كل من الفريقين بحقية ما هو عليه وبطلان ما عليه صاحبه وبناء اقواله وافعاله عليه خصومة للفريق الآخر وان لم يجر بينهما التحاور والخصام وقيل تخاصمت اليهود والمؤمنون فقالت اليهود نحن احق بالله واقدم منكم كتابا ونبينا قبل نبيكم وقال المؤمنون نحن احق بالله منكم آمنا بمحمد وبنبيكم وبما انزل الله من كتاب وانتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم كفرتم به حسدا فنزلت (فالذين كفروا) تفصيل لما اجمل في قوله تعالى يفصل بينهم يوم القيامة (قطعت لهم) اى

كريم من قولهم عتاق الطير والخيل واعلم ان اللام فى ليقضوا وليوفوا وليطوفوا لام الامر وفى قراءة ابن كثير ونافع والاكثرين بتخفيف هذه اللامات وفى قراءة أبى عمرو بتحريكها بالكسر ❁ قوله تعالى (ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه واحلت لكم الانعام الا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير او تهوى به الريح فى مكان سحيق ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب) قال صاحب الكشاف ذلك خبر مبتدأ محذوف اى الامر والشان ذلك كما يقدم الكاتب جملة من كلامه فى بعض المعانى فاذا أراد الخوض فى معنى آخر قال هذا وقد كان كذا والحرمة ما لا يحل هتكه وجميع ما كلفه الله تعالى بهذه الصفة من مناسك الحج وغيرها يحتمل أن يكون عاما فى جميع تكاليفه ويحتمل أن يكون خاصا فيما يتعلق بالحج وعن زيد بن أسلم الحرمات خمس الكعبة الحرام والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام والمشعر الحرام وقال المتكلمون ولا تدخل النوافل فى حرمات الله تعالى فهو خير له عند ربه اى فالتعظيم خير له للعلم بانه يجب القيام بمراعاتها وحفظها وقوله عند ربه يدل على الثواب المدخر لانه لا يقال عند ربه فيما قد حصل من الخيرات وقال الاصم فهو خير له من التهاون بذلك ثم انه تعالى عاد الى بيان حكم الحج فقال وأحلت لكم الانعام فقد كان يجوز أن يظن ان الاحرام اذا حرم الصيد وغيره فالانعام ايضا تحرم فبين الله تعالى ان الاحرام لا يؤثر فيها فهى محللة واستثنى منه ما يتلى فى كتاب الله من المحرمات من النعم وهو المذكور فى سورة المائدة وهو قوله تعالى غير محلى الصيد وأنتم حرم وقوله حرمت عليكم وقوله ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ثم انه سبحانه لما حث على تعظيم حرماته وحمد من يعظمها اتبعه بالامر باجتناب الاوثان وقول الزور لان توحيد الله تعالى وصدق القول أعظم الخيرات وانما جمع الشرك وقول الزور فى سلك واحد لان الشرك من باب الزور لان المشرك زاعم أن الوثن تحق له العبادة فكأنه قال فاجتنبوا عبادة الاوثان التى هى رأس الزور واجتنبوا قول الزور كله ولا تقربوا منه شيئا لتماديه فى القبح والسماجة وما ظنك بشئ من قبيله عبادة الاوثان وسمى الاوثان رجسا لا للنجاسة لكن لان وجوب تجنبها اوكد من وجوب تجنب الرجس ولان عبادتها أعظم من التلوث بالنجاسات ثم قال الاصم انما وصفها بذلك لان عادتهم فى المتقربات أن يتعمدوا سقوط الدماء عليها وهذا بعيد وقيل انه انما وصفها بذلك استحقارا واستخفافا وهذا أقرب وقوله من الاوثان بيان للرجس وتمييز له كقوله عندى عشرون من الدراهم لان الرجس لما فيه من الابهام يتناول كل شئ فكأنه قال فاجتنبوا الرجس الذى هو الاوثان وليس المراد أن بعضها ليس كذلك والزور من الزور والازورار وهو الانحراف كما أن الافك من أفكه اذا صرفه والمفسرون ذكروا فى قول الزور وجوها (احدها) انه قولهم هذا حلال وهذا حرام وما اشبه ذلك من افترائهم (وثانيها) شهادة الزور عن النبى صلى الله عليه وسلم

قدرت على مقادير جثثهم وقرئ بالتخفيف (ثياب من نار) اى نيران هائلة تحيط بهم احاطة الثياب بلابسها (يصب من فوق رؤسهم الحميم) اى الماء الحار الذى انتهت حرارته قال ابن عباس رضى الله عنهما لو قطرت قطرة منها على جبال الدنيا لاذابتها والجملة مستأنفة او خبر ثان للموصول او حال من ضمير لهم (يصهر به) اى يذاب (ما فى بطونهم) من الامعاء والاحشاء وقرئ يصهر بالتشديد (والجلود) عطف على ما وتأخيره عنه اما لمراعاة الفواصل او للاشعار بغاية شدة الحرارة بايهام ان تأثيرها فى الباطن اقدم من تأثيرها فى الظاهر مع ان ملابستها على العكس والجملة حال من الحميم (ولهم) للكفرة اى لتعذيبهم واجلهم (مقامع) من حديد جمع مقمعة وهى آلة القمع (كلما ارادوا ان يخرجوا منها) اى اشرفوا على الخروج من النار ودنوا منه حسبما يروى انها تضربهم بلهيبها فترفعهم حتى اذا كانوا فى اعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفا (من غم) اى من غم شديد من غمومها وهو بدل اشتمال من الهاء باعادة الجار والرابط محذوف كما اشير اليه او مفعول له للخروج (اعيدوا فيها) اى فى قعرها بان ردوا من اعاليها الى اسافلها من غير ان يخرجوا منها (وذوقوا) على تقدير قول معطوف على اعيدوا اى وقيل لهم ذوقوا (عذاب الحريق) اى الغليظ من النار

انه صلى الصبح فلما سلم قام قائما واستقبل الناس بوجهه وقال عدلت شهادة الزور والاشراك
بالله وتلا هذه الآية (وثالثها) الكذب والبهتان (ورابعها) قول اهل الجاهلية فى تلبيتهم
لبيك لاشريك لك الاشريك هولك تملكه وماملك اما قوله تعالى حنفاء لله فقد تقدم ذكر
تفسير ذلك وانه الاستقامة على قول بعضهم والميل الى الحق على قول البعض والمراد فى
هذا الموضع ماقيل من انه الاخلاص فكأنه قال تمسكوا بهذه الامور التى امرت
ونهيت على وجه العبادة لله وحده لاعلى وجه اشراك غير الله به ولذلك قال غير مشركين
به وهذا يدل على ان الواجب على المكلف ان ينوى بما يأتيه من العبادة الاخلاص فبين
تعالى مثلين للكفر لامزيد عليهما فى بيان ان الكافر ضار بنفسه غير منتفع بها وهو قوله
ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق قال
صاحب الكشاف ان كان هذا تشبيها مركبا فكأنه قيل من اشرك بالله فقد اهلك نفسه
اهلاكا ليس وراءه هلاك بان صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير
فتفرقت اجزاؤه فى حواصلها او عصفت به الريح حتى هوت به فى بعض المهالك البعيدة
وان كان تشبيها مفرقا فقد شبه الايمان فى علوه بالسماء والذى ترك الايمان واشرك بالله
كالساقط من السماء والاهواء التى توزع افكاره بالطير المختطفة والشيطان الذى
يطرحه فى وادى الضلالة بالريح التى تهوى بما عصفت به فى بعض المهاوى المتلفة وقرئ
بكسر الخاء والطاء وبكسر الفاء مع كسرهما وهى قراءة الحسن واصلها تختطفه وقرئ
الرياح ثم انه سبحانه اكد ماتقدم فقال ذلك ومن يعظم شعائر الله واختلفوا فقال بعضهم
يدخل فيه كل عبادة وقال بعضهم بل المناسك فى الحج وقال بعضهم بل المراد الهدى خاصة
والاصل فى الشعائر الاعلام التى بها يعرف الشئ فاذا فسرنا الشعائر بالهدايا فتعظيمها
على وجهين (احدهما) ان يختارها عظام الاجسام حسانا جساما سمانا غالية الاثمان
ويترك المكاس فى شرائها فقد كانوا يتغالون فى ثلاثة ويكرهون المكاس فيهن الهدى
والاضحية والرقبة روى عن ابن عمر رضى الله عنهما عن ابيه انه اهدى نجيبة طلبت منه
بثلثمائة دينار فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يبيعها ويشترى بثمنها بدنا فنهاه عن
ذلك وقال بل اهدها واهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة بدنة فيها جمل لابى جهل فى
انفه برة من ذهب (والوجه الثانى) فى تعظيم شعائر الله تعالى ان يعتقد ان طاعة الله تعالى
فى التقرب بها واهدائها الى بيته المعظم امر عظيم لابد وان يحتفل به ويتسارع فيه فانها
من تقوى القلوب اى فان تعظيمها من افعال ذى تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات
ولا يستقيم المعنى الا بتقديرها لانه لابد من راجع من الجزاء الى من ارتبط به وانما ذكرت
القلوب لان المنافق قد يظهر التقوى من نفسه ولكن لما كان قلبه خاليا عنها لاجرم
لايكون مجدا فى اداء الطاعات اما المخلص الذى تكون التقوى متمكنة فى قلبه فانه يبالغ فى
اداء الطاعات على سبيل الاخلاص فان قال قائل ما الحكمة فى ان الله تعالى بالغ فى تعظيم

المنتشر العظيم الاهلاك (ان الله
يدخل الذين آمنوا وعملوا
الصالحات جنات تجرى من
تحتها الانهار) بيان لحسن حال
المؤمنين اثر بيان سوء حال الكفرة
وقد غير الاسلوب فيه باسناد
الادخال الى الله عز وجل وتصدير
الجملة بحرف التحقيق ايذانا بكمال
مباينة حالهم لحال الكفرة
واظهارا لمزيد العناية بامر
المؤمنين ودلالة على تحقق مضمون
الكلام (يحلون فيها) على
البناء للمفعول بالتشديد من التحلية
وقرئ بالتخفيف من الاحلاء
بمعنى الالباس اى تحليهم الملائكة
بأمره تعالى وقرئ يحلون من
حليت المرأة اذا لبست حليها ومن
فى قوله تعالى (من اساور) اما
للتبعيض اى بعض اساور وهى
جمع أسورة جمع سوار او للبيان
لما ان ذكر التحلية مما ينبئ عن
الحلى المبهم وقيل زائدة وقيل نعت
لمفعول محذوف ليحلون فانه بمعنى
يلبسون (من ذهب) بيان للاساور
(ولؤلؤا) عطف على محل من
اساور او على المفعول المحذوف
او منصوب بفعل مضمر يدل
عليه يحلون اى يؤتون وقرئ
بالجر عطفا على اساور وقرئ
لؤلوا بقلب الهمزة الثانية واوا
ولوليا بقلبها ياء بعد قلبهما
واوا وليليا بقلبهما ياء (ولباسهم فيها
حرير) غير الاسلوب حيث لم يقل
ويلبسون فيها حريرا لكن
للدلالة على ان الحرير ثيابهم
المعتادة او لمجرد المحافظة على
هيئة الفواصل

ذبح الحيوانات هذه المبالغة فالجواب * قوله تعالى (لكم فيها منافع الى اجل مسمى ثم محلها الى البيت العتيق ولكل امة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الانعام فالهكم اله واحد فله اسلموا وبشر المخبتين الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما اصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) اعلم ان قوله تعالى لكم فيها منافع الى اجل مسمى لايليق الا بأن تحمل الشعائر على الهدى الذي فيه منافع الى وقت النحر ومن يحمل ذلك على سائر الواجبات يقول لكم فيها اى فى التمسك بها منافع الى اجل ينقطع التكليف عنده والاول هو قول جمهور المفسرين ولاشك انه اقرب وعلى هذا القول فالمنافع مفسرة بالدر والنسل والاوبار وركوب ظهورها فاما قوله الى اجل مسمى ففيه قولان (احدهما) ان لكم ان تنتفعوا بهذه البهائم الى ان تسموها ضحية وهديا فاذا فعلتم ذلك فليس لكم ان تنتفعوا بها وهذا قول ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة والضحاك وقال آخرون لكم فيها اى فى البدن منافع مع تسميتها هديا بان تركبوها ان احتجتم اليها وان تشربوا البانها اذا اضطررتم اليها الى اجل مسمى يعنى الى ان تنحروها هذه هى الرواية الثانية عن ابن عباس رضى الله عنهما وهو اختيار الشافعى وهذا القول اولى لانه تعالى قال لكم فيها منافع اى فى الشعائر ولاتسمى شعائر قبل ان تسمى هديا وروى ابو هريرة انه عليه السلام مر برجل يسوق بدنة وهو فى جهد فقال عليه السلام اركبها فقال يارسول الله انها هدى فقال اركبها ويلك وروى جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال اركبوا الهدى بالمعروف حتى تجدوا ظهرا واحتج ابو حنيفة رحمه الله على انه لايملك منافعها بأن لايجوز له ان يؤجرها للركوب فلو كان مالكا لمنافعها لملك عقد الاجارة عليها كمنافع سائر المملوكات وهذا ضعيف لان ام الولد لايمكنه بيعها ويمكنه الانتفاع بها فكذا ههنا اما قوله تعالى ثم محلها الى البيت العتيق فالمعنى ان لكم فى الهدايا منافع كثيرة فى دنياكم ودينكم واعظم هذه المنافع محلها الى البيت العتيق اى وجوب نحرها او وقت وجوب نحرها منتهية الى البيت كقوله هديا بالغ الكعبة وبالجملة فقوله محلها يعنى حيث يحل نحرها واما البيت العتيق فالمراد به الحرم كله ودليله قوله تعالى فلايقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا اى الحرم كله فالمنحر على هذا القول كل مكة ولكنها تنزهت عن الدماء الى منى ومنى من مكة قال عليه السلام كل فجاج مكة منحر وكل فجاج منى منحر قال القفال هذا انما يختص بالهدايا التى بلغت منى فاما الهدى المتطوع به اذا عطب قبل بلوغ مكة فان محله موضعه اما قوله تعالى ولكل امة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله فالمعنى شرعنا لكل امة من الامم السالفة من عهد ابراهيم عليه السلام الى من بعده ضربا من القربان وجعل العلة فى ذلك ان يذكروا اسم الله تقدست اسماؤه على المناسك وما كانت العرب تذبحه للصنم يسمى العتر والعتيرة كالذبح والذبيحة وقرأ اهل الكوفة الا عاصما منسكا بكسر السين وقرأ الباقون بالفتح وهو مصدر بمعنى النسك والمكسور بمعنى الموضع

(اما)

بل للايذان بان ثبوت اللباس لهم امر محقق غنى عن البيان اذلا يمكن عراؤهم عنه وانما المحتاج الى البيان ان لباسهم ماذا بخلاف الاساور واللؤلؤ فانها ليست من اللوازم الضرورية فجعل بيان تحليتهم بها مقصودا بالذات ولعل هذا هو الباعث الى تقديم بيان الحلية على بيان حال اللباس (وهدوا الى الطيب من القول) وهو قولهم الحمد لله الذى صدقنا وعده واورثنا الارض نتبوأ من الجنة الآية (وهدوا الى صراط الحميد) اى المحمود نفسه او عاقبته وهو الجنة ووجه تأخير هذه الهداية عن ذكر الهداية الى القول المذكور المتأخر عن دخول الجنة المتأخر عن الهداية الى طريقها لرعاية الفواصل وقيل المراد بالحميد الحق المستحق لذاته لغاية الحمد وهو الله عز وجل وصراطه الاسلام ووجه التأخير حينئذ ان ذكر الحمد يستدعى ذكر المحمود (ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله) ليس المراد به حالا ولا استقبالا وانما هو استمرار الصد ولذلك حسن عطفه على الماضى كما فى قوله تعالى الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله وقيل هو حال من فاعل كفروا اى وهم يصدون وخبر ان محذوف لدلالة آخر الآية الكريمة عليه فان من ألحد فى الحرم حيث عوقب بالعذاب الاليم فلأن يعاقب من جمع اليه الكفر والصد عن سبيل الله بأشد من ذلك احق واولى (والمسجد الحرام)

اما قوله تعالى فالهكم اله واحد ففى كيفية النظم وجهان (احدهما) ان الاله واحد وانما اختلفت التكاليف باختلاف الازمنة والاشخاص لاختلاف المصالح (الثانى) فالهكم اله واحد فلا تذكروا على ذبائحكم غير اسم الله فله اسلموا اى اخلصوا له الذكر خاصة بحيث لا يشوبه اشراك البتة والمراد الانقياد لله تعالى فى جميع تكاليفه ومن انقاد له كان مخبتا فلذلك قال بعده وبشر المخبتين والمخبت المتواضع الخاشع قال ابو مسلم حقيقة المخبت من صار فى خبت من الارض يقال اخبت الرجل اذا صار فى الخبت كما يقال انجد واشأم واتهم والخبت هو المطمئن من الارض وللمفسرين فيه عبارات (احدها) المخبتين المتواضعين عن ابن عباس وقتادة (وثانيها) المجتهدين فى العبادة عن الكلبى (وثالثها) المخلصين عن مقاتل (ورابعها) المطمئنين الى ذكر الله تعالى والصالحين عن مجاهد (وخامسها) هم الذين لا يظلمون واذا ظلموا لم ينتصروا عن عمرو بن اوس ثم وصفهم الله تعالى بقوله الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم فيظهر عليهم الخوف من عقاب الله تعالى والخشوع والتواضع لله ثم لذلك الوجل اثران (احدهما) الصبر على المكاره وذلك هو المراد بقوله والصابرين على ما اصابهم وعلى ما يكون من قبل الله تعالى لانه الذى يجب الصبر عليه كالامراض والمحن والمصائب فاما ما يصيبهم من قبل الظلمة فالصبر عليه غير واجب بل ان امكنه دفع ذلك لزمه الدفع ولو بالمقاتلة (والثانى) الاشتغال بالخدمة واعز الاشياء عند الانسان نفسه وماله اما الخدمة بالنفس فهى الصلاة وهو المراد بقوله والمقيمى الصلاة واما الخدمة بالمال فهو المراد من قوله ومما رزقناهم ينفقون قرأ الحسن والمقيمى الصلاة بالنصب على تقدير النون وقرأ ابن مسعود والمقيمين الصلاة على الاصل * قوله تعالى (والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها واطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين) اعلم ان قوله تعالى والبدن فيه مسائل (المسئلة الاولى) البدن جمع بدنة كخشب وخشبة سميت بذلك اذا اهديت للحرم لعظم بدنها وهى الابل خاصة ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم الحق البقر بالابل حين قال البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة ولانه قال فاذا وجبت جنوبها وهذا يختص بالابل فانها تنحر قائمة دون البقر وقال قوم البدن الابل والبقر التى يتقرب بها الى الله تعالى فى الحج والعمرة لانه انما سمى بذلك لعظم البدن فالاولى دخولها فيه اما الشاة فلا تدخل وان كانت تجوز فى النسك لانها صغيرة الجسم فلا تسمى بدنة (المسئلة الثانية) قرأ الحسن والبدن بضمتين كثمر فى جمع ثمرة وابن ابى اسحق بالضمتين وتشديد النون على لفظ الوقف وقرئ بالنصب والرفع كقوله والقمر قدرناه منازل والله اعلم (المسئلة الثالثة) اذا قال لله على بدنة هل يجوز له نحرها فى غير مكة قال ابو حنيفة

عطف على سبيل الله قيل المراد به مكة بدليل وصفه بقوله تعالى (الذى جعلناه للناس) اى كائنا من كان من غير فرق بين مكى وآفاق (سواء العاكف فيه والباد) اى المقيم والطارئ وسواء اى مستويا مفعول ثان لجعلناه والعاكف مرتفع به واللام متعلق به ظرف له وفائدة وصف المسجد الحرام بذلك زيادة تشنيع الصادين عنه وقرئ سواء بالرفع على انه خبر مقدم والعاكف مبتدأ والجملة مفعول ثان للجعل وقرئ العاكف بالجر على انه بدل من الناس (ومن يرد فيه) مما ترك مفعوله ليتناول كل متناول كانه قيل ومن يرد فيه مرادا ما (بالحاد) بعدول عن القصد (بظلم) بغير حق وهما حالان مترادفان او الثانى بدل من الاول باعادة الجار او صلة له اى ملحدا بسبب الظلم كالاشراك واقتراف الآثام (نذقه من عذاب اليم) جواب لمن (واذ بوأنا) يقال بوأه منزلا اى انزله فيه ولما لزمه جعل الثانى مباءة للاول قيل (لابراهيم مكان البيت) وعليه مبنى قول ابن عباس رضى الله عنهما جعلناه اى اذكر وقت جعلنا مكان البيت مباءة له عليه السلام اى مرجعا يرجع اليه للعمارة والعبادة وتوجيه الامر بالذكر الى الوقت مع ان المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مر بيانه غير مرة وقيل اللام زائدة

ومحمد رحمهما الله يجوز وقال ابو يوسف رحمه الله لايجوز الا بمكة واتفقوا فيمن نذر هديا ان عليه ذبحه بمكة ولو قال لله على جزور انه يذبحه حيث شاء وقال ابو حنيفة رحمه الله البدنة بمنزلة الجزور فوجب ان يجوز له نحرها حيث يشاء بخلاف الهدى فانه تعالى قال هديا بالغ الكعبة فجعل بلوغ الكعبة من صفة الهدى واحتج ابو يوسف رحمه الله بقوله تعالى والبدن جعلناها لكم من شعائر الله فكان اسم البدنة يفيد كونها قربة فكان كاسم الهدى اجاب ابو حنيفة رحمه الله بانه ليس كل ما كان ذبحه قربة اختص بالحرم فان الاضحية قربة وهى جائزة فى سائر الاماكن اما قوله تعالى جعلناها لكم فاعلم انه سبحانه لما خلق البدن واوجب ان تهدى فى الحج جاز ان يقول جعلناها لكم من شعائر الله اما قوله لكم فيها خير فالكلام فيه ماتقدم فى قوله لكم فيها منافع واذا كان قوله لكم فيها خير كالترغيب فالاولى ان يراد به الثواب فى الآخرة وما خلق العاقل بالحرص على شئ شهد الله تعالى بأن فيه خيرا وبأن فيه منافع اما قوله فاذكروا اسم الله عليها ففيه حذف اى اذكروا اسم الله على نحرها قال المفسرون هو ان يقال عند النحر او الذبح بسم الله والله اكبر اللهم منك واليك اما قوله صواف فالمعنى قائمات قد صففن ايديهن وارجلهن وقرئ صوافن من صفون الفرس وهو ان تقوم على ثلاث وتنصب الرابعة على طرف سنبكه لان البدنة تعقل احدى يديها فتقوم على ثلاث وقرئ صوافى اى خوالص لوجه الله تعالى لاتشركوا بالله فى التسمية على نحرها احدا كما كان يفعله المشركون وعن عمرو بن عبيد صوافيا بالتنوين عوضا عن حرف الاطلاق عند الوقف وعن بعضهم صوافى نحو قول العرب اعط القوس باريها ولا يبعد ان تكون الحكمة فى اصطفافها ظهور كثرتها للناظرين فتقوى نفوس المحتاجين ويكون التقرب بنحرها عند ذلك اعظم اجرا واقرب الى ظهور التكبير واعلاء اسم الله وشعائر دينه واما قوله فاذا وجبت جنوبها فاعلم ان وجوب الجنوب وقوعها على الارض من وجب الحائط وجبة اذا سقط ووجبت الشمس وجبة اذا غربت والمعنى اذا سقطت على الارض وذلك عند خروج الروح منها فكلوا منها وقد ذكرنا اختلاف العلماء فيما يجوز اكله منها واطعموا القانع والمعتر القانع السائل يقال قنع يقنع قنوعا اذا سأل قال ابو عبيد هو الرجل يكون مع القوم يطلب فضلهم ويسأل معروفهم ونحوه قال الفراء والمعنى الثانى القانع هو الذى لايسأل من القناعة يقال قنع يقنع قناعة اذا رضى بما قسم له وترك السؤال اما المعتر فقيل انه المعترض بغير سؤال وقيل انه المتعرض بالسؤال قال الازهرى قال ابن الاعرابى يقال عروت فلانا واعررته وعروته واعتريته اذا اتيته تطلب معروفه ونحوه قال ابو عبيد والاقرب ان القانع هو الراضى بما يدفع اليه من غير سؤال والحاح والمعتر هو الذى يتعرض ويطلب ويعتريهم حالا بعد حال فيفعل مايدل على انه لايقنع بما يدفع اليه ابدا وقرأ الحسن والمعترى وقرأ ابو رجاء القنع وهو الراضى لاغير يقال قنع فهو قنع وقانع اما قوله

ومكان ظرف كما فى اصل الاستعمال اى انزلناه فيه قيل رفع البيت الى السماء ايام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء فاعلم الله تعالى ابراهيم عليه السلام مكانه بريح ارسلها يقال لها الخجوج كنست ما حوله فبناه على أسه القديم روى ان الكعبة الكريمة بنيت خمس مرات احداها بناء الملائكة وكانت من ياقوتة حمراء ثم رفعت ايام الطوفان والثانية بناء ابراهيم عليه السلام والثالثة بناء قريش فى الجاهلية وقد حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا البناء والرابعة بناء ابن الزبير والخامسة بناء الحجاج وقد اوردنا مافى هذا الشأن من الاقاويل فى تفسير قوله تعالى واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت وان فى قوله تعالى (ان لا تشرك بى شيئا) مفسرة لبوأنا من حيث انه متضمن لمعنى تعبدنا لان التبوئة للعبادة او مصدرية موصولة بالنهى وقد مر تحقيقه فى اوائل سورة هود اى فعلنا ذلك لئلا تشرك بى فى العبادة شيئا (وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود) اى وطهر بيتى من الاوثان والاقذار لمن يطوف به ويصلى فيه ولعل التعبير عن الصلاة بأركانها للدلالة على ان كل واحد منها مستقل باقتضاء ذلك فكيف وقد اجتمعت وقرئ يشرك بالياء (واذن فى الناس) اى ناد فيهم وقرئ آذن (بالحج)

كذلك سخرناها لكم فالمعنى انها اجسم واعظم واقوى من السباع وغيرها مما يمتنع علينا التمكن منه فالله تعالى جعل الابل والبقر بالصفة التى يمكننا تصريفها على ما نريد وذلك نعمة عظيمة من الله تعالى فى الدين والدنيا ثم لما بين تعالى هذه النعمة قال بعده لعلكم تشكرون والمراد لكى تشكروا قالت المعتزلة هذا يدل على انه سبحانه أراد من جميعهم ان يشكروا فدل هذا على انه يريد كل ما امر به ممن اطاع وعصا لا كما يقوله اهل السنة من أنه تعالى لم يرد ذلك الا من المعلوم انه يطيع والكلام عليه قد تقدم غير مرة اما قوله تعالى لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ففيه مسائل (المسئلة الاولى) لما كانت عادة الجاهلية على ما روى فى القربان انهم يلوثون بدمائها ولحومها الوثن وحيطان الكعبة بين تعالى ما هو القصد من النحر فقال لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم فبين أن الذى يصل اليه تعالى ويرتفع اليه من صنع المهدى من قوله ونحره وما شاكله من فرائضه هو تقوى الله دون نفس اللحم والدم ومعلوم ان شيئا من الاشياء لا يوصف بأنه يناله سبحانه فالمراد وصول ذلك الى حيث يكتب يدل عليه قوله اليه يصعد الكلم الطيب (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة دلت هذه الآية على امور (احدها) ان الذى ينتفع به المرء فعله دون الجسم الذى ينتفع بنحره (وثانيها) انه سبحانه غنى عن كل ذلك وانما المراد أن يجتهد العبد فى امتثال أوامره (وثالثها) انه لما لم ينتفع بالاجسام التى هى اللحوم والدماء وانتفع بتقواه وجب أن تكون تقواه فعلا له والا لكانت تقواه بمنزلة اللحوم (ورابعها) انه لما شرط القبول بالتقوى وصاحب الكبيرة غير متق فوجب ان لا يكون عمله مقبولا وانه لا ثواب له (والجواب) اما الاولان فحقان واما الثالث فمعارض بالداعى والعلم واما الرابع فصاحب الكبيرة وان لم يكن متقيا مطلقا ولكنه متق فيما اتى به من الطاعة على سبيل الاخلاص فوجب ان تكون طاعته مقبولة وعند هذا تنقلب الآية حجة عليهم (المسئلة الثالثة) كلهم قرؤا ينال الله ويناله بالياء الا يعقوب فانه قرأ بالتاء فى الحرفين فمن انث فقد رده الى اللفظ ومن ذكر فللحائل بين الاسم والفعل ثم قال كذلك سخرها لكم والمراد انه انما سخرها كذلك لتكبروا الله وهو التعظيم بما نفعله عند النحر وقبله وبعده على ما هدانا ودلنا عليه وبينه لنا ثم قال بعده على وجه الوعد لمن امتثل أمره وبشر المحسنين كما قال من قبل وبشر المخبتين والمحسن هو الذى يفعل الحسن من الاعمال ويتمسك به فيصير محسنا الى نفسه بتوفير الثواب عليه * قوله تعالى (ان الله يدافع عن الذين آمنوا ان الله لا يحب كل خوان كفور أذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز الذين ان مكناهم فى الارض اقاموا الصلوة وآتوا الزكوة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور) اعلم انه تعالى لما بين

بدعوة الحج والامر به روى انه عليه السلام صعد ابا قبيس فقال يا ايها الناس حجوا بيت ربكم فاسمعه الله تعالى من فى اصلاب الرجال وارحام النساء فيما بين المشرق والمغرب ممن سبق فى علمه تعالى ان يحج وقيل الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم امر بذلك فى حجة الوداع ويأباه كون السورة مكية (يأتوك) جواب للامر (رجالا) اى مشاة جمع راجل كقيام جمع قائم وقرئ بضم الراء وتخفيف الجيم وتشديده ورجال كعجال (وعلى كل ضامر) عطف على رجالا اى وركبانا على كل بعير مهزول اتعبه بعد الشقة فهزله اوزاد هزاله (يأتين) صفة لضامر محمولة على المعنى وقرئ يأتون على الصفة للرجال والركبان او استئناف فيكون الضمير للناس (من كل فج) طريق واسع (عميق) بعيد وقرئ معيق يقال بئر بعيدة العمق وبعيدة المعق بمعنى كالجذب والجبذ (ليشهدوا) متعلق بيأتوك لا بأذن اى ليحضروا (منافع) عظيمة الخطر كثيرة العدد او نوعا من المنافع الدينية والدنيوية المختصة بهذه العبادة واللام فى قوله تعالى (لهم) متعلق بمحذوف هو صفة لمنافع اى منافع كائنة لهم (ويذكروا اسم الله) عند اعداد الهدايا والضحايا وذبحها وفى جعله غاية للاتيان ايذان بانه الغاية القصوى دون غيره وقيل

مايلزم في الحج ومناسكه ومافيه من منافع الدنيا والآخرة وقد ذكرنا من قبل ان الكفار صدوهم أتبع ذلك ببيان مايزيل الصد ويؤمن معه التمكن من الحج فقال ان الله يدافع عن الذين آمنوا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابو جعفر وشيبة ونافع بالالف ومثله ولولا دفع الله وقرأ ابن كثير وابو عمرو بغير ألف فيهما وقرأ حمزة والكسائي وعاصم ان الله يدافع بالالف ولولا دفع بغير ألف فمن قرأ يدافع فمعناه يبالغ في الدفع عنهم وقال الخليل يقال دفع الله المكروه عنك دفعا ودافع عنك دفاعا والدفاع أحسنهما (المسئلة الثانية) ذكر ان الله يدافع عن الذين آمنوا ولم يذكر مايدفعه حتى يكون أفخم وأعظم واعم وان كان في الحقيقة انه يدافع بأس المشركين فلذلك قال بعده ان الله لايحب كل خوان كفور فنبه بذلك على انه يدفع عن المؤمنين كيد من هذا صفته (المسئلة الثالثة) قال مقاتل ان الله يدافع كفار مكة عن الذين آمنوا بمكة هذا حين أمر المؤمنين بالكف عن كفار مكة قبل الهجرة حين آذوهم فاستأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في قتلهم سرا فنهاهم (المسئلة الرابعة) هذه الآية بشارة للمؤمنين باعلائهم على الكفار وكف بوائقهم عنهم وهي كقوله لن يضروكم الا أذى وقوله انا لننصر رسلنا والذين آمنوا وقال انهم لهم المنصورون واخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب اما قوله تعالى ان الله لايحب كل خوان كفور فالمعنى انه سبحانه جعل العلة في انه يدافع عن الذين آمنوا ان الله لايحب ضدهم وهو الخوان الكفور اى خوان في امانة الله كفور لنعمته ونظيره قوله لاتخونوا الله والرسول وتخونوا اماناتكم قال مقاتل أقروا بالصانع وعبدوا غيره فأي خيانة اعظم من هذا * اما قوله تعالى اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ اهل المدينة والبصرة وعاصم في رواية حفص اذن بضم الالف والباقون بفتحها اى اذن الله لهم في القتال وقرأ اهل المدينة وعاصم يقاتلون بنصب التاء وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي اذن بنصب الالف ويقاتلون بكسر التاء قال الفراء والزجاج يعني اذن الله للذين يحرصون على قتال المشركين في المستقبل ومن قرأ بفتح التاء فالتقدير اذن للذين يقاتلون في القتال (المسئلة الثانية) في الآية محذوف والتقدير اذن للذين يقاتلون في القتال فحذف المأذون فيه لدلالة يقاتلون عليه اما قوله بانهم ظلموا فالمراد انهم اذنوا في القتال بسبب كونهم مظلومين وهم اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مشركو مكة يؤذونهم اذى شديدا وكانوا يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين مضروب ومشجوج يتظلمون اليه فيقول لهم اصبروا فاني لم اومر بقتال حتى هاجر فأنزل الله تعالى هذه الآية وهي اول آية اذن فيها بالقتال بعدمانهى عنه في نيف وسبعين آية وقيل نزلت في قوم خرجوا مهاجرين فاعترضهم مشركو مكة فأذن في مقاتلتهم اما قوله وان الله على نصرهم لقدير فذلك وعد منه تعالى بنصرهم كما يقول المرء لغيره ان اطعتني فانا قادر على مجازاتك لايعني بذلك القدرة بل يريد انه سيفعل ذلك اما قوله تعالى الذين اخرجوا من

هو كناية عن الذبح لانه لاينفك عنه (في ايام معلومات) هي ايام النحر كاينبئ عنه قوله تعالى (على مارزقهم من بهيمة الانعام) فان المراد بالذكر ماوقع عند الذبح وقيل هي عشر ذي الحجة وقد علق الفعل بالمرزوق وبين بالبهيمة تحريضا على التقرب وتنبيها على الذكر (فكلوا منها) التفات الى الخطاب والفاء فصيحة عاطفة لمدخولها على مقدر قد حذف للاشعار بأنه امر محقق غير محتاج الى التصريح به كما في قوله تعالى فانفجرت اى فاذكروا اسم الله على ضحاياكم فكلوا من لحومها والامر للاباحة وازاحة ما كانت عليه اهل الجاهلية من التحرج فيه او للندب الى مواساة الفقراء ومساواتهم (واطعموا البائس) اى الذي اصابه بؤس وشدة (الفقير) المحتاج وهذا الامر للوجوب وقد قيل به في الاول ايضا (ثم ليقضوا تفثهم) اى ليؤدوا ازالة وسخهم او ليحكموها بقص الشارب والاظفار ونتف الابط والاستحداد عند الاحلال (وليوفوا نذورهم) ماينذرون من البر في حجهم وقيل مواجب الحج وقرئ بفتح الواو وتشديد الفاء (وليطوفوا) طواف الركن الذي به يتم التحلل فانه قرينة قضاء التفث وقيل طواف الوداع (بالبيت العتيق) اى القديم فانه اول بيت وضع للناس او المعتق من تسلط الجبابرة فكائن من

دیارهم بغیر حق فاعلم انه تعالى لما بین انهم انما أذنوا فی القتال لاجل انهم ظلموا فبین ذلك الظلم بقوله الذین اخرجوا من دیارهم بغیر حق الا ان یقولوا ربنا الله فبین تعالى ظلمهم لهم بهذین الوجهین (احدهما) انهم اخرجوهم من دیارهم (والثانی) انهم أخرجوهم بسبب انهم قالوا ربنا الله وكل واحد من الوجهین عظیم فی الظلم فان قیل كیف استثنى من غیر حق قولهم ربنا الله وهو من الحق قلنا تقدیر الكلام انهم أخرجوا بغیر موجب سوى التوحید الذی ینبغی أن یكون موجب الاقرار والتمكین لا موجب الاخراج والتسییر ومثله هل تنقمون منا الا أن آمنا بالله ثم بین سبحانه بقوله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت ان عادته جل جلاله أن یحفظ دینه بهذا الامر قرأ نافع لهدمت بالتخفیف وقرأ الباقون بالتشدید وههنا سؤالات (السؤال الاول) ما المراد بهذا الدفاع الذی اضافه الى نفسه (الجواب) هو اذنه لاهل دینه بمجاهدة الكفار فكأنه قال تعالى ولولا دفاع الله اهل الشرك بالمؤمنین من حیث یأذن لهم فی جهادهم وینصرهم على أعدائهم لاستولى اهل الشرك على اهل الادیان وعطلوا ما یبنونه من مواضع العبادة ولكنه دفع عن هؤلاء بان أمر بقتال أعداء الدین لیتفرغ اهل الدین للعبادة وبناء البیوت لها ولهذا المعنى ذكر الصوامع والبیع والصلوات وان كانت لغیر اهل الاسلام وذكر المفسرون وجوها أخر (احدها) قال الكلبی یدفع الله بالنبیین عن المؤمنین وبالمجاهدین عن القاعدین عن الجهاد (وثانیها) روى ابو الجوزاء عن ابن عباس رضی الله عنهما قال یدفع الله بالمحسن عن المسیء وبالذی یصلی عن الذی لا یصلی وبالذی یتصدق عن الذی لا یتصدق وبالذی یحج عن الذی لا یحج وعن ابن عمر عن النبی صلى الله علیه وسلم ان الله یدفع بالمسلم الصالح عن مائة من اهل بیته ومن جیرانه ثم تلا هذه الآیة (وثالثها) قال الضحاك عن ابن عباس رضی الله عنهما یدفع بدین الاسلام وباهله عن اهل الذمة (ورابعها) قال مجاهد یدفع عن الحقوق بالشهود وعن النفوس بالقصاص (السؤال الثانی) لما ذا جمع الله بین مواضع عبادات الیهود والنصارى وبین مواضع عبادة المسلمین (الجواب) لاجل ما سألت عنه اختلفوا على وجوه (احدها) قال الحسن المراد بهذه المواضع اجمع مواضع المؤمنین وان اختلفت العبارات عنها (وثانیها) قول الزجاج ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدم فی شرع كل نبی المكان الذی یصلی فیه فلولا ذلك الدفع لهدم فی زمن موسى الكنائس التی كانوا یصلون فیها فی شرعه وفی زمن عیسى الصوامع وفی زمن نبینا محمد صلى الله علیه وسلم المساجد فعلى هذا انما دفع عنهم حین كانوا على الحق قبل التحریف وقبل النسخ (وثالثها) بل المراد لهدمت هذه الصوامع فی ایام الرسول صلى الله علیه وسلم لانها على كل حال یجری فیها ذكر الله تعالى فلیست بمنزلة عبادة الاوثان (السؤال الثالث) ما الصوامع والبیع والصلوات والمساجد (الجواب) ذكروا فیها وجوها (احدها) الصوامع للنصارى والبیع للیهود والصلوات للصابئین والمساجد

جبار سار الیه لیهدمه فقصمه الله عز وجل واما الحجاج الثقفی فانما قصد اخراج ابن الزبیر رضی الله عنهما منه لا التسلط علیه (ذلك) ای الامر ذلك وهذا وامثاله یطلق للفصل بین الكلامین او بین وجهی كلام واحد (ومن یعظم حرمات الله) ای احكامه وسائر ما لا یحل هتكه بالعلم بوجوب مراعاتها والعمل بموجبه وقیل الحرم وما یتعلق بالحج من التكالیف وقیل الكعبة والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام (فهو خیر له) ای فالتعظیم خیر له ثوابا (عند ربه) ای فی الآخرة والتعرض لعنوان الربوبیة مع الاضافة الى ضمیر من لتشریفه وللاشعار بعلة الحكم (واحلت لكم الانعام) وهی الازواج الثمانیة على الاطلاق فقوله تعالى (الا ما یتلى علیكم) ای الا ما یتلى علیكم آیة تحریمه استثناء متصل منها على ان ما عبارة عما حرم منها لعارض كالمیتة وما اهل به لغیر الله تعالى والجملة اعتراض جیء به تقریرا لما قبله من الامر بالاكل والاطعام ودفعا لما عسى یتوهم ان الاحرام یحرمه كما یحرم الصید وعدم الاكتفاء ببیان عدم كونها من ذلك القبیل بحمل الانعام على ما ذكر من الضحایا والهدایا المعهودة خاصة لئلا یحتاج الى الاستثناء المذكور اذ لیس فیها ما حرم لعارض قطعا لمراعاة حسن التخلص الى ما بعده

للمسلمين عن أبي العالية رضي الله عنه (وثانيها) الصوامع للنصارى وهى التى بنوها فى الصحارى والبيع لهم ايضا وهى التى يبنونها فى البلد والصلوات لليهود قال الزجاج وهى بالعبرانية صلوتا (وثالثها) الصوامع للصابئين والبيع للنصارى والصلوات لليهود عن قتادة (ورابعها) انها بأسرها اسماء المساجد عن الحسن اما الصوامع فلأن المسلمين قد يتخذون الصوامع واما البيع فاطلق هذا الاسم على المساجد على سبيل التشبيه واما الصلوات فالمعنى انه لولا ذلك الدفع لانقطعت الصلوات ولخربت المساجد (السؤال الرابع) الصلوات كيف تهدم خصوصا على تأويل من تأوله على صلاة المسلمين (الجواب) من وجوه (احدها) المراد بهدم الصلاة ابطالها واهلاك من يفعلها كقولهم هدم فلان احسان فلان اذا قابله بالكفر دون الشكر (وثانيها) بل المراد مكان الصلوات لانه الذى يصح هدمه كقوله واسئل القرية اى اهلها (وثالثها) لما كان الاغلب فيما ذكر مما يصح ان يهدم جاز ضم ما لا يصح أن يهدم اليه كقولهم متقلدا سيفا ورمحا وان كان الرمح لا يتقلد (السؤال الخامس) قوله يذكر فيها اسم الله كثيرا مختص بالمساجد او عائد الى الكل (الجواب) قال الكلبى ومقاتل عائد الى الكل لان الله تعالى يذكر فى هذه المواضع كثيرا والاقرب انه مختص بالمساجد تشريفا لها بان ذكر الله يحصل فيها كثيرا (السؤال السادس) لم قدم الصوامع والبيع فى الذكر على المساجد (الجواب) لانها اقدم فى الوجود وقيل اخرها فى الذكر كما فى قوله ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ولان اول الفكر آخر العمل فلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الرسل وامته خير الامم لا جرم كانوا آخرهم ولذلك قال عليه السلام نحن الآخرون السابقون اما قوله تعالى ولينصرن الله من ينصره فقال بعضهم من ينصره يتلقى الجهاد بالقبول نصرة لدين الله تعالى وقال آخرون بل المراد من يقوم بسائر دينه وانما قالوا ذلك لان نصرة الله على الحقيقة لا تصح وانما المراد من نصرة الله نصرة دينه كما يقال فى ولاية الله وعداوته مثل ذلك وفى قوله ولينصرن الله من ينصره وعد بالنصر لمن هذه حاله ونصر الله تعالى للعبد أن يقويه على أعدائه حتى يكون هو الظافر ويكون قائما بايضاح الادلة والبينات ويكون بالاعانة على المعارف والطاعات وفيه ترغيب فى الجهاد من حيث وعدهم النصر ثم بين تعالى انه قوى على هذه النصرة التى وعدها المؤمنين وانه لا يجوز عليه المنع وهو معنى قوله عزيز لان العزيز هو الذى لا يضام ولا يمنع مما يريده ثم انه سبحانه وتعالى وصف الذين أذن لهم فى القتال فى الآية الاولى فقال الذين ان مكناهم فى الارض والمراد من هذا التمكن السلطنة ونفاذ القول على الخلق لان المتبادر الى الفهم من قوله مكناهم فى الارض ليس الا هذا ولانا لو حملناه على اصل القدرة لكان كل العباد كذلك وحينئذ يبطل ترتب الامور الاربعة المذكورة عليه فى معرض الجزاء لانه كل من كان قادرا على الفعل أتى بهذه الاشياء اذا ثبت هذا فنقول المراد بذلك هم المهاجرون لان قوله الذين ان مكناهم صفة لمن تقدم وهو

من قوله تعالى (فاجتنبوا الرجس من الاوثان) فانه مترتب على ما يفيده قوله تعالى ومن يعظم حرمات الله من وجوب مراعاتها والاجتناب عن هتكها ولما كان بيان حل الانعام من دواعى التعاطى لا من مبادى الاجتناب عقب بما يوجب الاجتناب عنه من الحرمات ثم امر بالاجتناب عما هو اقصى الحرمات كانه قيل ومن يعظم حرمات الله فهو خير له والانعام ليست من الحرمات فانها محللة لكم الا ما يتلى عليكم آية تحريمه فانه مما يجب الاجتناب عنه فاجتنبوا ما هو معظم الامور التى يجب الاجتناب عنها وقوله تعالى (واجتنبوا قول الزور) تعميم بعد تخصيص فان عبادة الاوثان رأس الزور وكأنه لما حث على تعظيم الحرمات اتبع ذلك ردا لما كانت الكفرة عليه من تحريم البحائر والسوائب ونحوهما والافتراء على الله تعالى بانه حكم بذلك وقيل شهادة الزور لما روى انه عليه السلام قال عدلت شهادة الزور الاشراك بالله تعالى ثلاثا وتلا هذه الآية والزور من الزور وهو الانحراف كالافك المأخوذ من الافك الذى هو القلب والصرف فان الكذب منحرف مصروف عن الواقع وقيل هو قول اهل الجاهلية فى تلبيتهم لبيك لا شريك لك الا شريك هو لك تملكه وما ملك (حنفاء لله) مائلين عن كل دين

قوله الذين أخرجوا من ديارهم والانصار ما أخرجوا من ديارهم فيصير معنى الآية ان الله تعالى وصف المهاجرين بانه ان مكنهم من الارض واعطاهم السلطنة فانهم أتوا بالامور الاربعة وهى اقامة الصلاة وايتاء الزكاة والامر بالمعروف والنهى عن المنكر لكن قد ثبت ان الله تعالى مكن الائمة الاربعة من الارض واعطاهم السلطنة عليها فوجب كونهم آتين بهذه الامور الاربعة واذا كانوا آمرين بكل معروف وناهين عن كل منكر وجب ان يكونوا على الحق فمن هذا الوجه دلت هذه الآية على امامة الاربعة ولا يجوز حمل الآية على على عليه السلام وحده لان الآية دالة على الجمع وفى قوله ولله عاقبة الامور دلالة على ان الذى تقدم ذكره من سلطنتهم وملكهم كائن لامحالة ثم ان الامور ترجع الى الله تعالى بالعاقبة فانه سبحانه هو الذى لا يزول ملكه ابدا وهو ايضا يؤكد ماقلناه ❁ قوله تعالى (وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط واصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم اخذتهم فكيف كان نكير فكأين من قرية اهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد افلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها او آذان يسمعون بها فانها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) اعلم انه تعالى لما بين فيما تقدم اخراج الكفار المؤمنين من ديارهم بغير حق وأذن فى مقاتلتهم وضمن للرسول والمؤمنين النصرة وبين ان لله عاقبة الامور اردفه بما يجرى مجرى التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم فى الصبر على ماهم عليه من أذيته وأذية المؤمنين بالتكذيب وغيره فقال وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم سائر الامم انبياءهم وذكر الله سبعة منهم فان قيل ولم قال وكذب موسى ولم يقل قوم موسى (فالجواب) من وجهين (الاول) ان موسى عليه السلام ما كذبه قومه بنواسرائيل وانما كذبه غير قومه وهم القبط (الثانى) كأنه قيل بعدماذكر تكذيب كل قوم رسولهم وكذب موسى ايضا مع وضوح آياته وعظم معجزاته فاظنك بغيره اماقوله تعالى فأمليت للكافرين يعنى امهلتهم الى الوقت المعلوم عندى ثم اخذتهم بالعقوبة فكيف كان نكير استفهام تقرير اى فكيف كان انكارى عليهم بالعذاب اليس كان واقعا قطعا الم ابدلهم بالنعمة نقمة وبالكثرة قلة وبالحياة موتا وبالعمارة خرابا ألست اعطيت الانبياء جميع ماوعدتهم من النصرة على اعدائهم والتمكين لهم فى الارض فينبغى ان تكون عادتك يا محمد الصبر عليهم فانه تعالى انما يمهل لمصلحة فلابد من الرضا والتسليم وان شق ذلك على القلب واعلم ان بدون ذلك تحصل التسلية لمن حاله دون حال الرسول عليه السلام فكيف بذلك مع منزلته لكنه فى كل وقت يصل اليه من جهتهم مايزيده غما فأجرى الله عادته بان يصبره حالا بعد حال وقد تقدم ذكر هؤلاء المكذبين وبأى جنس من عذاب الاستئصال هلكوا وههنا بحث وهو ان هذه الآية تدل على انه سبحانه يفعل به وبقومه كل مافعل بهم وبقومهم الاعذاب الاستئصال فانه لايفعله بقوم

زائغ الى الدين الحق مخلصين لله تعالى (غير مشركين به) اى شيئا من الاشياء فيدخل فى ذلك الاوثان دخولا اوليا وهما حالان من واو فاجتنبوا (ومن يشرك بالله) جملة مبتدأة مؤكدة لما قبلها من الاجتناب عن الاشراك واظهار الاسم الجليل لاظهار كمال قبح الاشراك (فكأنما خر من السماء) لانه سقط من اوج الايمان الى حضيض الكفر (فتخطفه الطير) فان الاهواء المردية توزع افكاره وقرئ فتخطفه بفتح الخاء وتشديد الطاء وبكسر الخاء والطاء وبكسر التاء مع كسرهما واصلهما تختطفه (او تهوى به الريح) اى تسقطه وتقذفه (فى مكان سحيق) بعيد فان الشيطان قد طوح به فى الضلالة واو للتخيير كما فى او كصيب او للتنويع ويجوز ان يكون من باب التشبيه المركب فيكون المعنى ومن يشرك بالله فقد هلكت نفسه هلاكا شبيها بهلاك احد الهالكين (ذلك) اى الامر ذلك اوامتثلوا ذلك (ومن يعظم شعائر الله) اى الهدايا فانها من معالم الحج وشعائره تعالى كما ينبئ عنه والبدن جعلناها لكم من شعائر الله وهو الاوفق لما بعده وتعظيمها اعتقاد ان التقرب بها من اجل القربات وان يختارها حسانا سمانا غالية الاثمان روى انه عليه الصلاة والسلام اهدى مائة بدنة فيها جمل لابى جهل فى

محمد صلى الله عليه وسلم وان كان قد مكنهم من قتل اعدائهم وتبديدهم قال الحسن السبب فى تأخر عذاب الاستئصال عن هذه الامة ان ذلك العذاب مشروط بامرين (احدهما) ان عند الله حدا من الكفر من بلغه عذبه ومن لم يبلغه لم يعذبه (والثانى) ان الله لا يعذب قوما حتى يعلم ان احدا منهم لا يؤمن فاما اذا حصل الشرطان وهو ان يبلغوا ذلك الحد من الكفر وعلم الله ان احدا منهم لا يؤمن فحينئذ يأمر الانبياء فيدعون على اممهم فيستجيب الله دعاءهم فيعذبهم بعذاب الاستئصال وهو المراد من قوله حتى اذا استيأس الرسل اى من اجابة القوم وقوله لنوح انه لن يؤمن من قومك الامن قد آمن واذا عذبهم الله تعالى فانه ينجى المؤمنين لقوله فلما جاء امرنا اى العذاب نجينا هودا * واعلم ان الكلام فى هذه المسئلة قد تقدم فلا فائدة فى الاعادة فان قيل كيف يوصف ماينزله بالكفار من الهلاك بالعذاب المعجل بانه نكير قلنا اذا كان رادعا لغيره وصادعا له عن مثل ما اوجب ذلك صار نكيرا اما قوله فكأين من قرية اهلكناها ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال بعضهم المراد من قوله فكأين فكم على وجه التكثير وقيل ايضا معناه ورب قرية والاول اولى لانه اوكد فى الزجر فكأنه تعالى لما بين حال قوم من المكذبين وانه عجل اهلاكهم اتبعه بما دل على ان لذلك امثالا وان لم يذكر مفصلا (المسئلة الثانية) قرأ ابن كثير واهل الكوفة والمدينة اهلكناها بالنون وقرأ ابو عمرو ويعقوب اهلكتها وهو اختيار ابى عبيد لقوله فى الآية الاولى فأمليت للكافرين ثم اخذتهم (المسئلة الثالثة) قوله اهلكناها اى اهلها ودل بقوله وهى ظالمة على ماذكرنا ويحتمل ان يكون المراد اهلاك نفس القرية فيدخل تحت اهلاكها اهلاك من فيها لان العذاب النازل اذا بلغ ان يهلك القرية فتصير منهدمة حصل بهلاكها هلاك من فيها وان كان الاول اقرب اما قوله وهى خاوية على عروشها ففيه سؤالان (السؤال الاول) مامعنى هذه اللفظة فقال صاحب الكشاف كل مرتفع اظلك من سقف بيت او خيمة او ظلة فهو عرش والخاوى الساقط من خوى النجم اذا سقط او الخالى من خوى المنزل اذا خلا من اهله فان فسرنا الخاوى بالساقط كان المعنى انها ساقطة على سقوفها اى خرت سقوفها على الارض ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف وان فسرناه بالخالى كان المعنى انها خالية عن الناس مع بقاء عروشها وسلامتها قال ويمكن ان يكون خبرا بعد خبر كأنه قيل هى خاوية وهى على عروشها بمعنى ان السقوف سقطت على الارض فصارت فى قرار الحيطان وبقيت الحيطان قائمة فهى مشرفة على السقوف الساقطة وبالجملة فالآية دالة على انها بقيت محلا للاعتبار (السؤال الثانى) مامحل هاتين الجملتين من الاعراب اعنى وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها الجواب (الاولى) فى محل النصب على الحال (والثانية) لا محل لها لانها معطوفة على اهلكناها وهذا الفعل ليس له محل قال ابو مسلم المعنى فكأين من قرية اهلكناها وهى كانت ظالمة وهى الآن خاوية اما قوله وبئر معطلة وقصر

(مشيد)

انفه برة من ذهب وان عمر رضى الله عنه اهدى نجيبة طلبت منه بثلثمائة دينار (فانها) اى فان تعظيمها (من تقوى القلوب) اى من افعال ذوى تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات والعائد الى من او فان تعظيمها ناشئ من تقوى القلوب وتخصيصها بالاضافة لانها مراكز التقوى التى اذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر اثرها فى سائر الاعضاء (لكم فيها) اى فى الهدايا (منافع) هى درها ونسلها وصوفها وظهرها (الى اجل مسمى) هو وقت نحرها والتصدق بلحمها والاكل منه (ثم محلها) اى وجوب نحرها او وقت نحرها منتهية (الى البيت العتيق) اى الى مايليه من الحرم وثم للتراخى الزمانى او الرتبى اى لكم فيها منافع دنيوية الى وقت نحرها ثم منافع دينية اعظم منها فى النحر محلها اى وجوب نحرها او وقت وجوب نحرها الى البيت العتيق اى منتهية اليه هذا وقد قيل المراد بالشعائر مناسك الحج ومعالمه والمعنى لكم فيها منافع بالاجر والثواب فى قضاء المناسك واقامة شعائر الحج الى اجل مسمى هو انقضاء ايام الحج ثم محلها اى محل الناس من احرامهم الى البيت العتيق اى منته اليه بان يطوفوا به طواف الزيارة يوم النحر بعد قضاء المناسك واضافة المحل اليها لادنى ملابسة (ولكل امة) اى لكل اهل دين (جعلنا منسكا) اى متعبدا او قربانا يتقربون به الى الله عز وجل وقرئ بكسر السين اى موضع نسك وتقديم الجار والمجرور على الفعل للتخصيص اى لكل امة من الامم جعلنا منسكا لا لبعض منهم دون بعض

مشيد فقيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ الحسن معطلة من اعطله بمعنى معطلة ومعنى المعطلة انها عامرة فيها الماء ويمكن الاستقاء منها الا انها عطلت اى تركت لايستقى منها لهلاك اهلها وفى المشيد قولان (احدهما) انه المجصص لان الجص بالمدينة يسمى الشيد (والثانى) انه المرفوع المطول والمعنى انه تعالى بين ان القرية مع تكلف بنائهم لها واغتباطهم بها جعلت لاجل كفرهم بهذا الوصف وكذلك البئر التى كلفوها وصارت شربهم صارت معطلة بلاشارب ولاوارد والقصر الذى احكموه بالجص وطولوه صار ظاهرا خاليا بلاساكن وجعل ذلك تعالى عبرة لمن اعتبر وتدبر وفيه دلالة على ان تفسير على بمع اولى لان التقدير وهى خاوية مع عروشها ومعلوم انها اذا كانت كذلك كانت ادخل فى الاعتبار وهو كقوله تعالى وانكم لتمرون عليهم مصبحين والله اعلم بالصواب (المسئلة الثانية) روى ابو هريرة رضى الله عنه ان هذه البئر نزل عليها صالح مع اربعة آلاف نفر ممن آمن به ونجاهم الله تعالى من العذاب وهم بحضرموت وانما سميت بذلك لان صالحا حين حضرها مات ثم وثم بلدة عند البئر اسمها حاضوراء بناها قوم صالح وأمروا عليها جاسر بن جلاس وجعلوا وزيره سنجاريب وأقاموا بها زمانا ثم كفروا وعبدوا صنما وارسل الله تعالى اليهم حنظلة بن صفوان فقتلوه فى السوق فأهلكهم الله تعالى وعطل بئرهم وخرب قصورهم قال الامام ابو القاسم الانصارى وهذا عجيب لانى زرت قبر صالح بالشام ببلدة يقال لها عكة فكيف يقال انه بحضرموت اما قوله تعالى أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها او آذان يسمعون بها فالمقصود منه ذكر ما يتكامل به ذلك الاعتبار لان الرؤية لها حظ عظيم فى الاعتبار وكذلك استماع الاخبار فيه مدخل ولكن لايكمل هذان الامران الا بتدبر القلب لان من عاين وسمع ثم لم يتدبر ولم يعتبر لم ينتفع البتة ولو تفكر فيما سمع لانتفع فلهذا قال فانها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور كأنه قال لاعمى فى ابصارهم فانهم يرون بها لكن العمى فى قلوبهم حيث لم ينتفعوا بما ابصروه وههنا سؤالات (السؤال الاول) قوله أفلم يسيروا فى الارض هل يدل على الامر بالسفر (الجواب) يحتمل انهم ما سافروا فحثهم على السفر ليروا مصارع من اهلكهم الله بكفرهم ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا او يحتمل ان يكونوا قد سافروا ورأوا ذلك ولكن لم يعتبروا فجعلوا كأن لم يسافروا ولم يروا (السؤال الثانى) ما معنى الضمير فى قوله فانها لاتعمى الابصار (والجواب) هذا الضمير ضمير القصة والشأن يجيء مؤنثا ومذكرا وفى قراءة ابن مسعود فانه ويجوز ان يكون ضميرا مبهما يفسره الابصار (السؤال الثالث) اى فائدة فى ذكر الصدور مع ان كل احد يعلم ان القلب لايكون الا فى الصدر (الجواب) ان المتعارف ان العمى مكانه الحدقة فلما اريد اثباته للقلب على خلاف المتعارف احتيج الى زيادة بيان كما تقول ليس المضاء للسيف ولكنه للسانك الذى بين فكيك فقولك الذى بين فكيك تقرير

(ليذكروا اسم الله) خاصة دون غيره ويجعلوا نسيكتهم لوجهه الكريم علل الجعل به تنبيها على ان المقصود الاصلى من المناسك تذكر المعبود (على ما رزقهم من بهيمة الانعام) عند ذبحها وفيه تنبيه على ان القربان يجب ان يكون من الانعام والخطاب فى قوله تعالى (فالهكم اله واحد) للكل تغليبا والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فان جعله تعالى لكل امة من الامم منسكا مما يدل على وحدانيته تعالى وانما قيل اله واحد ولم يقل واحد لان المراد بيان انه تعالى واحد فى ذاته كما انه واحد فى الهيته للكل والفاء فى قوله تعالى (فله اسلموا) لترتيب ما بعدها من الامر بالاسلام على وحدانيته تعالى وتقديم الجار والمجرور على الامر للقصر اى فاذا كان الهكم الها واحدا فأخلصوا له التقرب او الذكر واجعلوه لوجهه خاصة ولاتشوبوه بالشرك (وبشر المخبتين) تجريد الخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم اى المتواضعين او الخاضعين فان الاخبات من الوظائف الخاصة بهم (الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) منه تعالى لاشراق اشعة جلاله عليها (والصابرين على ما اصابهم) من مشاق التكاليف ومؤنات النوائب (والمقيمى الصلوة) فى اوقاتها وقرئ بنصب الصلاة على تقدير

لما ادعيته للسان وتثبيت لان محل المضاء هو هو لا غير وكانك قلت ماقضيت المضاء من السيف وانبته للسانك سهوا ولكنى تعمدته على اليقين وعندى فيه وجه آخر وهو ان القلب قد يجعل كناية عن الخاطر والتدبر كقوله تعالى ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب وعند قوم ان محل التفكر هو الدماغ فالله تعالى بين ان محل ذلك هو الصدر (السؤال الرابع) هل تدل الآية على ان العقل هو العلم وعلى ان محل العلم هو القلب (الجواب نعم) لان المقصود من قوله قلوب يعقلون بها العلم وقوله يعقلون بها كالدلالة على ان القلب آلة لهذا التعقل فوجب جعل القلب محلا للتعقل ويسمى الجهل بالعمى لان الجاهل لكونه متحيرا يشبه الاعمى ❁ قوله تعالى (ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون وكاين من قرية امليت لها وهى ظالمة ثم اخذتها والى المصير قل يا أيها الناس انما انا لكم نذير مبين) اعلم انه تعالى لما حكى من عظم ماهم عليه من التكذيب انهم يستهزؤن باستعجال العذاب فقال ويستعجلونك بالعذاب وفى ذلك دلالة على انه عليه السلام كان يخوفهم بالعذاب ان استمروا على كفرهم ولان قولهم لو ما تأتينا بالملائكة يدل على ذلك فقال تعالى ولن يخلف الله وعده لان الوعد بالعذاب اذا كان فى الآخرة دون الدنيا فاستعجاله يكون كالخلف ثم بين ان العاقل لا ينبغى ان يستعجل عذاب الآخرة فقال وان يوما عند ربك يعنى فيما ينالهم من العذاب وشدته كالف سنة لو بقى وعذب فى كثرة الآلام وشدتها فبين سبحانه انهم لو عرفوا حال عذاب الآخرة وانه بهذا الوصف لما استعجلوه وهذا قول ابى مسلم وهو اولى الوجوه (الوجه الثانى) ان المراد طول ايام الآخرة فى المحاسبة ويرجع معناه الى قريب مما تقدم وذلك ان الايام القصيرة اذا مرت فى الشدة كانت مستطيلة فكيف تكون الايام المستطيلة اذا مرت فى الشدة ثم ان العذاب الذى يكون طول ايامها الى هذا الحد لا ينبغى للعاقل ان يستعجله (الوجه الثالث) ان اليوم الواحد والف سنة بالنسبة اليه على السواء لانه القادر الذى لا يعجزه شئ فاذا لم يستبعدوا امهال يوم فلا يستبعدوا ايضا امهال الف سنة اما قوله وكاين من قرية امليت لها وهى ظالمة فالمراد وكم من قرية اخرت اهلاكهم مع استمرارهم على ظلمهم فاغتروا بذلك التأخير ثم اخذتهم بأن انزلت العذاب بهم ومع ذلك فعذابهم مدخر اذا صاروا الى وهو تفسير قوله والى المصير فان قيل لم قال فيما قبل فكاين من قرية اهلكناها وهى ظالمة وقال ههنا وكاين من قرية امليت لها الاولى بالفاء وهذه بالواو قلنا الاولى وقعت بدلا عن قوله فكيف كان نكير واما هذه فحكمها حكم ما تقدمها من الجملتين المعطوفتين بالواو اعنى قوله ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون اما قوله قل يا أيها الناس انما انا لكم نذير مبين فالمعنى انه تعالى امر رسوله بأن يديم لهم التخويف والانذار وان لا يصده ما يكون منهم من الاستعجال للعذاب على سبيل الهزؤ عن ادامة التخويف والانذار وان يقول لهم انما بعثت للانذار فاستهزاؤكم بذلك

النون وقرئ والمقيمى الصلاة على الاصل (ومما رزقناهم ينفقون) فى وجوه الخيرات (والبدن) بضم الباء وسكون الدال وقرئ بضمهما وهما جمع بدنة وقيل الاصل ضم الدال كخشب وخشبة والتسكين تخفيف منه وقرئ بتشديد النون على لفظ الوقف وانما سميت بها الابل لعظم بدنها مأخوذة من بدن بدانة وحيث شاركها البقرة فى الاجزاء عن سبعة بقوله صلى الله عليه وسلم البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة جعلا فى الشريعة جنسا واحدا وانتصابه بمضمر يفسره (جعلناها لكم) وقرئ بالرفع على انه مبتدأ والجملة خبره وقوله تعالى (من شعائر الله) اى من اعلام دينه التى شرعها الله تعالى مفعول ثان للجعل ولكم ظرف لغو متعلق به وقوله تعالى (لكم فيها خير) اى منافع دينية ودنيوية جملة مستأنفة مقررة لما قبلها (فاذكروا اسم الله عليها) بأن تقولوا عند ذبحها الله اكبر لا اله الا الله والله اكبر اللهم منك واليك (صواف) اى قائمات قد صففن ايديهن وارجلهن وقرئ صوافن من صفن الفرس اذا قام على ثلاث وعلى طرف سنبك الرابعة لان البدنة تعقل احدى يديها فتقوم على ثلاث وقرئ صوافنا بابدال التنوين من حرف الاطلاق عند الوقف وقرئ صوافى اى خوالص لوجه الله عز وجل وصواف على لغة من

لا يمنعني منه ۞ قوله تعالى (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم والذين سعوا فى آياتنا معاجزين اولئك اصحاب الجحيم) اعلم انه تعالى لما بين للرسول صلى الله عليه وسلم انه يجب ان يقول لهم انا نذير مبين اردف ذلك بأن امره بوعدهم ووعيدهم لان الرجل انما يكون منذرا بذكر الوعد للمطيعين والوعيد للعاصين فقال والذين آمنوا وعملوا الصالحات فجمع بين الوصفين وهذا دليل على ان العمل الصالح خارج عن مسمى الايمان وبه يبطل قول المعتزلة ويدخل فى الايمان كل ما يجب من الاعتقاد بالقلب والاقرار باللسان ويدخل فى العمل الصالح اداء كل واجب وترك كل محظور ثم بين سبحانه ان من جمع بينهما فالله تعالى يجمع له بين المغفرة والرزق الكريم اما المغفرة فاما ان تكون عبارة عن غفران الصغائر او عن غفران الكبائر بعد التوبة او عن غفرانهما قبل التوبة والاولان واجبان عند الخصم واداء الواجب لا يسمى غفرانا فبقى الثالث وهو دلالته على العفو عن اصحاب الكبائر من اهل القبلة واما الرزق الكريم فهو اشارة الى الثواب وكرمه يحتمل ان يكون للصفات السلبية وهو ان الانسان هناك يستغنى عن المكاسب وتحمل المشاق والذل فيها وارتكاب المآثم والدناءة بسببها وان يكون للصفات الثبوتية وهو ان يكون رزقا كثيرا دائما خالصا عن شوائب الضرر مقرونا بالتعظيم والتبجيل والاولى جعل الكريم دالا على كل هذه الصفات فهذا شرح حال المؤمنين واما حال الكفار فقال والذين سعوا فى آياتنا معاجزين والمراد اجتهدوا فى ردها والتكذيب بها حيث سموها سحرا وشعرا واساطير الاولين ويقال لمن بذل جهده فى امر انه سعى فيه توسعا من حيث بلغ فى بذل الجهد النهاية كما اذا بلغ الماشى نهاية طاقته فيقال له سعى وذكر الآيات وأراد التكذيب بها مجازا قال صاحب الكشاف يقال سعى فى امر فلان اذا اصلحه او افسده بسعيه اما المعاجز فيقال عاجزته اى طمعت فى اعجازه واختلفوا فى المراد هل معاجزين لله او للرسول وللمؤمنين والاقرب هو الثانى لانهم ان انكروا الله استحال منهم ان يطمعوا فى اعجازه وان اثبتوه فيبعد ان يعتقدوا انهم يعجزونه ويغلبونه ويصح منهم ان يظنوا ذلك فى الرسول بالحيل والمكايد اما الذين قالوا المراد معاجزين لله فقد ذكروا وجوها (احدها) المراد بمعاجزين مغالبين مفوتين لربهم من عذابهم وحسابهم حيث جحدوا البعث (وثانيها) انهم يثبطون غيرهم عن التصديق بالله ويثبطونهم بسبب الترغيب والترهيب (وثالثها) يعجزون الله بادخال الشبه فى قلوب الناس (والجواب) عن الاول ان من جحد اصل الشئ لا يوصف بأنه مغالب لمن يفعل ذلك الشئ ومن تأول الآية على ذلك فيجب ان يكون مراده انهم ظنوا مغالبة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما كان يقوله من امر الحشر والنشر (والجواب) عن الثانى والثالث ان المغالبة فى الحقيقة ترجع الى الرسول والامة لا الى الله تعالى اما قوله تعالى اولئك اصحاب الجحيم فالمراد انهم يدومون فيها وشبههم من حيث الدوام بالصاحب فان قيل انه عليه السلام فى هذه الآية بشر

يسكن الياء على الاطلاق كما فى قوله * املى ارى باق على الحدثان * (فاذا وجبت جنوبها) سقطت على الارض وهو كناية عن الموت (فكلوا منها واطعموا القانع) اى الراضى بما عنده وبما يعطى من غير مسئلة ويؤيده انه قرئ القنع والسائل من قنع اليه قنوعا اذا خضع له فى السؤال (والمعتر) اى المتعرض للسؤال وقرئ المعترى يقال عره وعراه واعتره واعتراه (كذلك) مثل ذلك التسخير البديع المفهوم من قوله تعالى صواف (سخرناها لكم) مع كمال عظمها ونهاية قوتها فلا تستعصى عليكم حتى تأخذونها منقادة فتعقلونها وتحبسونها صافة قوائمها ثم تطعنون فى لباتها (لعلكم تشكرون) لتشكروا انعامنا عليكم بالتقرب والاخلاص (لن ينال الله) اى لن يبلغ مرضاته ولن يقع منه موقع القبول (لحومها) المتصدق بها (ولا دماؤها) المهراقة بالنحر من حيث انها لحوم ودماء (ولكن يناله التقوى منكم) ولكن يصيبه تقوى قلوبكم التى تدعوكم الى الامتثال بأمره تعالى وتعظيمه والتقرب اليه والاخلاص له وقيل كان اهل الجاهلية يلطخون الكعبة بدماء قرابينهم فهم به المسلمون فنزلت (كذلك سخرها لكم) تكرير للتذكير والتعليل بقوله تعالى (لتكبروا الله) اى لتعرفوا

المؤمنين اولا وانذر الكافرين ثانيا فكان القياس ان يقال قل يا ايها الناس انما انا لكم بشير ونذير قلنا الكلام مسوق الى المشركين ويا ايها الناس نداء لهم وهم الذين قيل فيهم أفلم يسيروا فى الارض ووصفوا بالاستعجال وانما اقحم ذكر المؤمنين وثوابهم فى البين زيادة لغيظهم وايذائهم * قوله تعالى (وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى امنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وان الظالمين لفى شقاق بعيد وليعلم الذين اوتوا العلم انه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وان الله لهادى الذين آمنوا الى صراط مستقيم ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة او يأتيهم عذاب يوم عقيم الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين) اما قوله تعالى وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى امنيته ففيه مسائل (المسئلة الاولى) من الناس من قال الرسول هو الذى حدث وارسل والنبى هو الذى لم يرسل ولكنه ألهم او رأى فى النوم ومن الناس من قال ان كل رسول نبى وليس كل نبى يكون رسولا وهو قول الكلبى والفراء وقالت المعتزلة كل رسول نبى وكل نبى رسول ولا فرق بينهما واحتجوا على فساد القول الاول بوجوه (احدها) هذه الآية فانها دالة على ان النبى قد يكون مرسلا وكذا قوله تعالى وما ارسلنا فى قرية من نبى (وثانيها) ان الله تعالى خاطب محمدا مرة بالنبى ومرة بالرسول فدل على انه لا منافاة بين الامرين وعلى القول الاول المنافاة حاصلة (وثالثها) انه تعالى نص على انه خاتم النبيين (ورابعها) ان اشتقاق لفظ النبى اما من النبأ وهو الخبر او من قولهم نبأ اذا ارتفع والمعنيان لا يحصلان الا بقبول الرسالة (اما القول الثانى) فاعلم ان شيئا من تلك الوجوه لا يبطله بل هذه الآية دالة عليه لانه عطف النبى على الرسول وذلك يوجب المغايرة وهو من باب عطف العام على الخاص وقال فى موضع آخر وكم ارسلنا من نبى فى الاولين وذلك يدل على انه كان نبيا فجعله الله مرسلا وهو يدل على قولنا وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم كم المرسلون فقال ثلثمائة وثلاثة عشر فقيل وكم الانبياء فقال مائة الف واربعة وعشرون الفا الجم الغفير اذا ثبت هذا فنقول ذكروا فى الفرق بين الرسول والنبى امورا (احدها) ان الرسول من الانبياء من جمع الى المعجزة الكتاب المنزل عليه والنبى غير الرسول من لم ينزل عليه كتاب وانما امر ان يدعو الى كتاب من قبله (والثانى) ان من كان صاحب المعجزة وصاحب الكتاب ونسخ شرع من قبله فهو الرسول ومن لم يكن مستجمعا لهذه الخصال فهو النبى غير الرسول وهؤلاء يلزمهم ان لا يجعلوا اسحق ويعقوب وايوب ويونس وهرون وداود وسليمان رسلا لانهم ما جاؤا بكتاب ناسخ و(الثالث) ان من جاءه الملك ظاهرا وامره بدعوة الخلق فهو الرسول ومن لم يكن كذلك بل رأى فى النوم كونه رسولا او اخبره احد من الرسل بانه

(رسول)

عظمته باقتداره على ما لا يقدر عليه غيره فتوحدوه بالكبريا وقيل هو التكبير عند الاحلال او الذبح (على ما هداكم) اى ارشدكم الى طريق تسخيرها وكيفية التقرب بها وما مصدرية او موصولة اى على هدايته اياكم او على ما هداكم اليه وعلى متعلقة بتكبروا لتضمنه معنى الشكر (وبشر المحسنين) اى المخلصين فى كل ما يأتون وما يذرون فى امور دينهم (ان الله يدافع عن الذين آمنوا) كلام مستأنف مسوق لتوطين قلوب المؤمنين ببيان ان الله تعالى ناصرهم على اعدائهم بحيث لا يقدرون على صدهم عن الحج ليتفرغوا الى اداء مناسكه وتصديره بكلمة التحقيق لابراز الاعتناء التام بمضمونه وصيغة المفاعلة اما للمبالغة او للدلالة على تكرر الدفع فانها قد تجرد عن وقوع الفعل المتكرر من الجانبين فيبقى تكرره كما فى الممارسة اى يبالغ فى دفع غائلة المشركين وضررهم الذى من جملته الصد عن سبيل الله مبالغة من يغالب فيه او يدفعها عنهم مرة بعد اخرى حسبما تجدد منهم القصد الى الاضرار بالمسلمين كما فى قوله تعالى كلما اوقدوا نارا للحرب اطفأها الله وقرئ يدفع والمفعول محذوف وقوله تعالى (ان الله لا يحب كل خوان كفور) تعليل لما فى ضمن الوعد الكريم من

رسول الله فهو النبي الذي لا يكون رسولا وهذا هو الاولى (المسئلة الثانية) ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية ان الرسول صلى الله عليه وسلم لما رأى اعراض قومه عنه وشق عليه ما رأى من مباعدتهم عما جاءهم به تمنى في نفسه ان يأتيهم من الله ما يقارب بينه وبين قومه وذلك لحرصه على ايمانهم فجلس ذات يوم في ناد من اندية قريش كثير اهله واحب يومئذ ان لا يأتيه من الله شيء ينفروا عنه وتمنى ذلك فانزل الله تعالى سورة والنجم اذا هوى فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ قوله افرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى فلما سمعت قريش ذلك فرحوا ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في قراءته فقرأ السورة كلها فسجد وسجد المسلمون لسجوده وسجد جميع من في المسجد من المشركين فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر الا سجد سوى الوليد بن المغيرة وابي احيحة سعيد بن العاصي فانهما اخذا حفنة من التراب من البطحاء ورفعاها الى جبهتيهما وسجدا عليها لانهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود وتفرقت قريش وقد سرهم ما سمعوا وقالوا قد ذكر محمد آلهتنا باحسن الذكر فلما امسى رسول الله صلى الله عليه وسلم اتاه جبريل عليه السلام فقال ماذا صنعت تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله وقلت ما لم اقل لك فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم حزنا شديدا وخاف من الله خوفا عظيما حتى نزل قوله تعالى وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في امنيته الآية هذا رواية عامة المفسرين الظاهريين اما اهل التحقيق فقد قالوا هذه الرواية باطلة موضوعة واحتجوا عليه بالقرآن والسنة والمعقول اما القرآن فوجوه (احدها) قوله تعالى ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين (وثانيها) قوله قل ما يكون لي ان ابدله من تلقاء نفسي ان اتبع الا ما يوحى الي (وثالثها) قوله وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى فلو انه قرأ عقيب هذه الآية تلك الغرانيق العلى لكان قد ظهر كذب الله تعالى في الحال وذلك لا يقوله مسلم (ورابعها) قوله تعالى وان كادوا ليفتنونك عن الذي اوحينا اليك لتفتري علينا غيره واذا لاتخذوك خليلا وكلمة كاد عند بعضهم معناه قرب ان يكون الامر كذلك مع انه لم يحصل (وخامسها) قوله ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا وكلمة لولا تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره فدل على ان ذلك الركون القليل لم يحصل (وسادسها) قوله كذلك لنثبت به فؤادك (وسابعها) قوله سنقرئك فلا تنسى * واما السنة فهي ما روى عن محمد بن اسحق بن خزيمة انه سئل عن هذه القصة فقال هذا وضع من الزنادقة وصنف فيه كتابا وقال الامام ابو بكر احمد بن الحسين البيهقي هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ثم اخذ يتكلم في ان رواة هذه القصة مطعون فيهم وايضا فقد روى البخاري في صحيحه ان النبي عليه السلام قرأ سورة والنجم وسجد فيها المسلمون والمشركون والانس والجن وليس فيه حديث الغرانيق وروى هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها البتة

الوعيد للمشركين وايذان بان دفعهم بطريق القهر والخزي ونفي المحبة كناية عن البغض اي ان الله يبغض كل خوان في اماناته تعالى وهي اوامره ونواهيه او في جميع الامانات التي هي معظمها كفور لنعمته وصيغة المبالغة فيهما لبيان انهم كذلك لا لتقييد البغض بغاية الخيانة والكفر او للمبالغة في نفي المحبة على اعتبار النفي اولا وايراد معنى المبالغة ثانيا (أذن) اي رخص وقرئ على البناء للفاعل اي أذن الله تعالى (للذين يقاتلون) اي يقاتلهم المشركون والمأذون فيه محذوف لدلالة المذكور عليه فان مقاتلة المشركين اياهم دالة على مقاتلتهم اياهم دلالة نيرة وقرئ على صيغة المبني للفاعل اي يريدون ان يقاتلوا المشركين فيما سيأتي ويحرصون عليه فدلالته على المحذوف اظهر (بأنهم ظلموا) اي بسبب انهم ظلموا وهم اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم كان المشركون يؤذونهم وكانوا يأتونه عليه السلام بين مضروب ومشجوج ويتظلمون اليه فيقول عليه السلام لهم اصبروا فاني لم اومر بالقتال حتى هاجروا فانزلت وهي اول آية نزلت في القتال بعد ما نهي عنه في نيف وسبعين آية (وان الله على نصرهم لقدير) وعد لهم بالنصر وتأكيد لما مر من العدة الكريمة بالدفع وتصريح

حديث الغرانيق واما المعقول فمن وجوه (احدها) ان من جوز على الرسول صلى الله عليه وسلم تعظيم الاوثان فقد كفر لان من المعلوم بالضرورة ان اعظم سعيه كان في نفي الاوثان (وثانيها) انه عليه السلام ما كان يمكنه في اول الامر ان يصلي ويقرأ القرآن عند الكعبة آمنا اذى المشركين له حتى كانوا ربما مدوا ايديهم اليه وانما كان يصلي اذا لم يحضروها ليلا أو في اوقات خلوة وذلك يبطل قولهم (وثالثها) ان معاداتهم للرسول كانت اعظم من ان يقروا بهذا القدر من القراءة دون ان يقفوا على حقيقة الامر فكيف اجمعوا على انه عظم آلهتهم حتى خروا سجدا مع انه لم يظهر عندهم موافقته لهم (ورابعها) قوله فينسخ الله مايلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته وذلك لان احكام الآيات بازالة مايلقيه الشيطان عن الرسول اقوى من نسخه بهذه الآيات التي تبقى الشبهة معها فاذا اراد الله احكام الآيات لئلا يلتبس ماليس بقرآن قرآنا فبأن يمنع الشيطان من ذلك اصلا أولى (وخامسها) وهو اقوى الوجوه انا لو جوزنا ذلك ارتفع الامان عن شرعه وجوزنا في كل واحد من الاحكام والشرائع ان يكون كذلك ويبطل قوله تعالى يا أيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس فانه لا فرق في العقل بين النقصان عن الوحي وبين الزيادة فيه فبهذه الوجوه عرفنا على سبيل الاجمال ان هذه القصة موضوعة اكثر ما في الباب ان جمعا من المفسرين ذكروها لكنهم مابلغوا حد التواتر وخبر الواحد لايعارض الدلائل النقلية والعقلية المتواترة ولنشرع الآن في التفصيل فنقول التمني جاء في اللغة لامرين (احدهما) تمني القلب (والثاني) القراءة قال الله تعالى ومنهم اميون لايعلمون الكتاب الا أماني اى الا قراءة لان الامي لايعلم القرآن من المصحف وانما يعلمه قراءة وقال حسان .

تمنى كتاب الله اول ليلة * وآخرها لاقى حمام المقادر

قيل انما سميت القراءة امنية لان القارئ اذا انتهى الى آية رحمة تمنى حصولها واذا انتهى الى آية عذاب تمنى ان لايبتلى بها وقال ابو مسلم التمني هو التقدير وتمنى هو تفعل من منيت والمنية وفاة الانسان في الوقت الذي قدره الله تعالى ومن الله لك اى قدر لك وقال رواة اللغة الامنية القراءة واحتجوا ببيت حسان وذلك راجع الى الاصل الذي ذكرناه فان التالي مقدر للحروف يذكرها شيئا فشيئا فالحاصل من هذا البحث ان الامنية اما القراءة واما الخاطر اما اذا فسرناها بالقراءة ففيه قولان (الاول) انه تعالى اراد بذلك مايجوز ان يسهو الرسول صلى الله عليه وسلم فيه ويشتبه على القارئ دون مارووه من قوله تلك الغرانيق العلى (الثاني) المراد منه وقوع هذه الكلمة في قراءته ثم اختلف القائلون بهذا على وجوه (الاول) ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يتكلم بقوله تلك الغرانيق العلى ولا الشيطان تكلم به ولا احد تكلم به لكنه عليه السلام لما قرأ سورة والنجم اشتبه

بان المراد به ليس بمجرد تخليصهم من ايدي المشركين بل تغليبهم واظهارهم عليهم والاخبار بقدرته تعالى على نصرهم وارد على سنن الكبرياء وتأكيده بكلمة التحقيق واللام لمزيد تحقيق مضمونه وزيادة توطين نفوس المؤمنين وقوله تعالى (الذين اخرجوا من ديارهم) في حيز الجر على انه صفة للموصول الاول او بيان له او بدل منه او في محل النصب على المدح او في محل الرفع باضمار مبتدأ والجملة مرفوعة على المدح والمراد بديارهم مكة المعظمة (بغير حق) متعلق بأخرجوا اى اخرجوا بغير مايوجب اخراجهم وقوله تعالى (الا ان يقولوا ربنا الله) بدل من حق اى بغير موجب سوى التوحيد الذي ينبغي ان يكون موجبا للاقرار والتمكين دون الاخراج والتسيير لكن لا على الظاهر بل على طريقة قول النابغة

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم * بهن فلول من قراع الكتائب

وقيل الاستثناء منقطع (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض) بتسليط المؤمنين على الكافرين في كل عصر وزمان وقرئ دفاع (لهدمت) لخربت باستيلاء المشركين على اهل الملل وقرئ هدمت بالتخفيف (صوامع) للرهابنة (وبيع) للنصارى (وصلوات) اى وكنائس لليهود

الامر على الكفار فحسبوا بعض الفاظه ماروده من قولهم تلك الغرانيق العلى وذلك على حسب ماجرت العادة به من توهم بعض الكلمات على غير مايقال وهذا الوجه ذهب اليه جماعة وهو ضعيف لوجوه (احدها) ان التوهم فى مثل ذلك انما يصح فيما قدجرت العادة بسماعه فأما غير المسموع فلا يقع ذلك فيه (وثانيها) انه لوكان كذلك لوقع هذا التوهم لبعض السامعين دون البعض فان العادة مانعة من اتفاق الجم العظيم فى الساعة الواحدة على خيال واحد فاسد فى المحسوسات (وثالثها) لوكان كذلك لم يكن مضافا الى الشيطان (الوجه الثانى) قالوا ان ذلك الكلام كلام شيطان الجن وذلك بأن تلفظ بكلام من تلقاء نفسه اوقعه فى درج تلك التلاوة فى بعض وقفاته ليظن انه من جنس الكلام المسموع من الرسول صلى الله عليه وسلم قالوا والذى يؤكده انه لاخلاف فى ان الجن والشياطين متكلمون فلا يمتنع ان يأتى الشيطان بصوت مثل صوت الرسول عليه السلام فيتكلم بهذه الكلمات فى اثناء كلام الرسول عليه السلام وعند سكوته فاذا سمع الحاضرون تلك الكلمة بصوت مثل صوت الرسول وما رأوا شخصا آخر ظن الحاضرون انه كلام الرسول ثم هذا لايكون قادحا فى النبوة لما لم يكن فعلا له وهذا ايضا ضعيف فانك اذا جوزت ان يتكلم الشيطان فى اثناء كلام الرسول صلى الله عليه وسلم بما يشتبه على كل السامعين كونه كلاما للرسول بقى هذا الاحتمال فى كل مايتكلم به الرسول فيفضى الى ارتفاع الوثوق عن كل الشرع فان قيل هذا الاحتمال قائم فى الكل ولكنه لووقع لوجب فى حكمة الله تعالى ان يشرح الحال فيه كما فى هذه الواقعة ازالة للتلبيس قلنا لايجب على الله ازالة الاحتمالات كما فى المتشابهات واذا لم يجب على الله ذلك تمكن الاحتمال من الكل (الوجه الثالث) ان يقال المتكلم بذلك بعض شياطين الانس وهم الكفرة فانه عليه السلام لما انتهى فى قراءة هذه السورة الى هذا الموضع وذكر اسماء آلهتهم وقد علموا من عادته انه يعيبها فقال بعض من حضر تلك الغرانيق العلى فاشتبه الامر على القوم لكثرة لغط القوم وكثرة صياحهم وطلبهم تغليطه واخفاء قراءته ولعل ذلك كان فى صلاته لانهم كانوا يقربون منه فى حال صلاته ويسمعون قراءته ويلغون فيها وقيل انه عليه السلام كان اذا تلا القرآن على قريش توقف فى فصول الآيات فالقى بعض الحاضرين ذلك الكلام فى تلك الوقفات فتوهم القوم انه من قراءة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم اضاف الله تعالى ذلك الى الشيطان لانه بوسوسته يحصل اولا ولانه سبحانه جعل ذلك المتكلم فى نفسه شيطانا وهذا ايضا ضعيف لوجهين (احدهما) انه لوكان كذلك لكان يجب على الرسول صلى الله عليه وسلم ازالة الشبهة وتصريح الحق وتبكيت ذلك القائل واظهار ان هذه الكلمة منه صدرت (وثانيهما) لوفعل ذلك لكان ذلك اولى بالنقل فان قيل انما لم يفعل الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك لانه كان قد ادى السورة بكمالها الى الامة من دون هذه الزيادة فلم يكن ذلك مؤديا الى التلبيس كما لم يؤد سهوه فى الصلاة بعد

حيث بالانها يصلى فيها وقيل اصلها صلوتا بالعبرية فعربت (ومساجد) المسلمين (يذكر فيها اسم الله كثيرا) اى ذكرا كثيرا اووقتا كثيرا صفة مادحة للمساجد خصت بها دلالة على فضلها وفضل اهلها وقيل صفة للاربع وليس كذلك فان بيان ذكر الله عز وجل فى الصوامع والبيع والكنائس بعد انتساخ شرعيتها مما لايقتضيه المقام ولا يرتضيه الافهام (ولينصرن الله من ينصره) اى وبالله لينصرن الله من ينصر اولياءه اومن ينصر دينه ولقد انجز الله عز سلطانه وعده حيث سلط المهاجرين والانصار على صناديد العرب واكاسرة العجم وقياصرة الروم واورثهم ارضهم وديارهم (ان الله لقوى) على كل مايريده من مراداته التى من جملتها نصرهم (عزيز) لايغالبه شئ ولا يدافعه (الذين ان مكناهم فى الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) وصف من الله عز وجل للذين اخرجوا من ديارهم بما سيكون منهم من حسن السيرة عند تمكينه تعالى اياهم فى الارض واعطائه اياهم زمام الاحكام منبئ عن عدة كريمة على ابلغ وجه والطفه وعن عثمان رضى الله عنه هذا والله ثناء قبل بلاء يريد انه تعالى اثنى عليهم قبل ان يحدثوا من الخير ما احدثوا قالوا وفيه

ان وصفها الى اللبس قلنا ان القرآن لم يكن مستقرا على حالة واحدة فى زمان حياته لانه كان تأتيه الآيات فيلحقها بالسور فلم يكن تأدية تلك السورة بدون هذه الزيادة سببا لزوال اللبس وايضا فلو كان كذلك لما استحق العتاب من الله تعالى على مارواه القوم (الوجه الرابع) هو ان المتكلم بهذا هو الرسول صلى الله عليه وسلم ثم هذا يحتمل ثلاثة اوجه فانه اما ان يكون قال هذه الكلمة سهوا او قسرا او اختيارا (اما الوجه الاول) وهو انه عليه السلام قال هذه الكلمة سهوا فكما روى عن قتادة ومقاتل انهما قالا انه عليه السلام كان يصلى عند المقام فنعس وجرى على لسانه هاتان الكلمتان فلما فرغ من السورة سجد وسجد كل من فى المسجد وفرح المشركون بما سمعوه واتاه جبريل عليه السلام فاستقرأه فلما انتهى الى الغرانيق قال لم آتك بهذا فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ان نزلت هذه الآية وهذا ضعيف ايضا لوجوه (احدها) انه لو جاز هذا السهو لجاز فى سائر المواضع وحينئذ تزول الثقة عن الشرع (وثانيها) ان الساهى لا يجوز ان يقع منه مثل هذه الالفاظ المطابقة لوزن السورة وطريقتها ومعناها فانا نعلم بالضرورة ان واحدا لو انشد قصيدة لما جاز ان يسهو حتى يتفق منه بيت شعر فى وزنها ومعناها وطريقتها (وثالثها) هب انه تكلم بذلك سهوا فكيف لم يتنبه لذلك حين قرأها على جبريل عليه السلام وذلك ظاهر (اما الوجه الثانى) وهو انه عليه السلام تكلم بذلك قسرا وهو الذى قال قوم ان الشيطان اجبر النبى صلى الله عليه وسلم على ان تكلم بهذا فهذا ايضا فاسد لوجوه (احدها) ان الشيطان لو قدر على ذلك فى حق النبى عليه السلام لكان اقتداره علينا اكثر فوجب ان يزيل الشيطان الناس عن الدين ولجاز فى اكثر ما يتكلم به الواحد منا ان يكون ذلك باجبار الشياطين (وثانيها) ان الشيطان لو قدر على هذا الاجبار لارتفع الامان عن الوحى لقيام هذا الاحتمال (وثالثها) انه باطل بدلالة قوله تعالى حاكيا عن الشيطان وما كان لى عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا انفسكم وقال تعالى انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون انما سلطانه على الذين يتولونه وقال الا عبادك منهم المخلصين ولا شك انه عليه السلام كان سيد المخلصين (اما الوجه الثالث) وهو انه عليه السلام تكلم بذلك اختيارا فههنا وجهان (احدهما) ان نقول ان هذه الكلمة باطلة (والثانى) ان نقول انها ليست كلمة باطلة اما على الوجه الاول فذكروا فيه طريقين (الاول) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عطاء ان شيطانا يقال له الابيض اتاه على صورة جبريل عليه السلام والقى عليه هذه الكلمة فقرأها فلما سمع المشركون ذلك اعجبهم فجاء جبريل عليه السلام فاستعرضه فقرأها فلما بلغ الى تلك الكلمة قال جبريل عليه السلام انا ما جئتك بهذه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انه اتانى آت على صورتك فالقاها على لسانى (الطريق الثانى) قال بعض الجهال انه عليه السلام لشدة حرصه على

دليل على صحة امر الخلفاء الراشدين لانه تعالى لم يعط التمكين ونفاذ الامر مع السيرة العادلة غيرهم من المهاجرين لاحظ فى ذلك للانصار والطلقاء وعن الحسن رحمه الله هم امة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل الذين بدل من قوله من ينصره (ولله) خاصة (عاقبة الامور) فان مرجعها الى حكمه وتقديره فقط وفيه تأكيد للوعد باظهار اوليائه واعلاء كلمته (وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح) تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم متضمنة للوعد الكريم باهلاك من يعاديه من الكفرة وتعيين لكيفية نصره تعالى له الموعود بقوله تعالى ولينصرن الله من ينصره وبيان لرجوع عاقبة الامور اليه تعالى وصيغة المضارع فى الشرط مع تحقق التكذيب لما ان المقصود تسليته عليه السلام عما يترتب على التكذيب من الحزن المتوقع اى وان تحزن على تكذيبهم اياك فاعلم انك لست باوحدى فى ذلك فقد كذبت قبل تكذيب قومك اياك قوم نوح (وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط واصحاب مدين) اى رسلهم من ذكر ومن لم يذكر وانما حذف لكمال ظهور المراد ولان المراد نفس الفعل اى فعلت التكذيب قوم نوح الى آخره

ايمان القوم ادخل هذه الكلمة من عند نفسه ثم رجع عنها وهذان القولان لا يرغب فيهما مسلم البتة لان الاول يقتضي انه عليه السلام ما كان يميز بين الملك المعصوم والشيطان الخبيث والثاني يقتضي انه كان خائنا في الوحي وكل واحد منهما خروج عن الدين (اما الوجه الثاني) وهو ان هذه الكلمة ليست باطلة فههنا ايضا طرق (الاول) ان يقال الغرانيق هم الملائكة وقد كان ذلك قرآنا منزلا في وصف الملائكة فلما توهم المشركون انه يريد آلهتهم نسخ الله تلاوته (الثاني) ان يقال المراد منه الاستفهام على سبيل الانكار فكأنه قال أشفاعتهن ترتجى (الثالث) أن يقال انه ذكر الاثبات وأراد النفي كقوله تعالى يبين الله لكم أن تضلوا اى لاتضلوا كما قد يذكر النفي ويريد الاثبات كقوله تعالى قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم أن لاتشركوا به شيئا والمعنى أن تشركوا وهذان الوجهان الاخيران يعترض عليهما بانه لو جاز ذلك بناء على هذا التأويل فلم لا يجوز أن يظهروا كلمة الكفر في جملة القرآن او في الصلاة بناء على هذا التأويل ولكن الاصل في الدين أن لا يجوز عليهم شيء من ذلك لان الله تعالى قد نصبهم حجة واصطفاهم للرسالة فلا يجوز عليهم مايطعن في ذلك او ينفر ومثل ذلك في التنفير أعظم من الامور التي حثه الله تعالى على تركها كنحو الفظاظة والكتابة وقول الشعر فهذه الوجوه المذكورة في قوله تلك الغرانيق العلا قد ظهر على القطع كذبها فهذا كله اذا فسرنا التمني بالتلاوة واما اذا فسرناها بالخاطر وتمني القلب فالمعنى ان النبي صلى الله عليه وسلم متى تمنى بعض ماتمناه من الامور وسوس الشيطان اليه بالباطل ويدعوه الى مالاينبغي ثم ان الله تعالى ينسخ ذلك ويبطله ويهديه الى ترك الالتفات الى وسوسته ثم اختلفوا في كيفية تلك الوسوسة على وجوه (احدها) انه تمنى مايتقرب به الى المشركين من ذكر آلهتهم بالثناء قالوا انه عليه السلام كان يحب أن يتألفهم وكان يردد ذلك في نفسه فعند مالحقه النعاس زاد تلك الزيادة من حيث كانت في نفسه وهذا ايضا خروج عن الدين وبيانه ماتقدم (وثانيها) ماقال مجاهد من انه عليه السلام كان يتمنى انزال الوحي عليه على سرعة دون تأخير فنسخ الله ذلك بأن عرفه بان انزال ذلك بحسب المصالح في الحوادث والنوازل وغيرها (وثالثها) يحتمل انه عليه السلام عند نزول الوحي كان يتفكر في تأويله ان كان مجملا فيلقي الشيطان في جملته مالم يرده فيبين تعالى انه ينسخ ذلك بالابطال ويحكم ماأراده الله تعالى بادلته وآياته (ورابعها) معنى الآية اذا تمنى اذا أراد فعلا مقربا الى الله تعالى ألقى الشيطان في فكره مايخالفه فيرجع الى الله تعالى في ذلك وهو كقوله تعالى ان الذين اتقوا اذا مسهم طيف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون وكقوله واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ومن الناس من قال لا يجوز حمل الامنية على تمني القلب لانه لو كان كذلك لم يكن مايخطر ببال رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنة للكفار وذلك يبطله قوله تعالى ليجعل مايلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية

(وكذب موسى) غير النظم الكريم بذكر المفعول وبناء الفعل له لالان قومه بنو اسرائيل وهم لم يكذبوه وانما كذبه القبط لان ذلك انما يقتضي عدم ذكرهم بعنوان كونهم قوم موسى لابعنوان آخر على ان بني اسرائيل ايضا قد كذبوه مرة بعد اخرى حسبما ينطق به قوله تعالى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ونحو ذلك من الآيات الكريمة بل للايذان بان تكذيبهم له كان في غاية الشناعة لكون آياته في كمال الوضوح وقوله تعالى (فامليت للكافرين) اى امهلتهم حتى انصرمت حبال آجالهم والفاء لترتيب امهال كل فريق من فرق المكذبين على تكذيب ذلك الفريق لالترتيب امهال الكل على تكذيب الكل ووضع الظاهر موضع الضمير العائد الى المكذبين لذمهم بالكفر والتصريح بمكذبي موسى عليه السلام حيث لم يذكروا فيما قبل صريحا (ثم اخذتهم) اى اخذت كل فريق من فرق المكذبين بعد انقضاء مدة املائه وامهاله (فكيف كان نكير) اى انكاري عليهم بالاهلاك اى فكان ذلك في غاية مايكون من الهول والفظاعة وقوله تعالى (فكأين من قرية) منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى (اهلكناها) اى فاهلكنا كثيرا من القرى باهلاك اهلها والجملة بدل من قوله تعالى فكيف كان نكير او مرفوع على الابتداء واهلكنا خبره اى فكثير من القرى اهلكناها وقرئ اهلكتها على وفق قوله تعالى فأمليت للكافرين

قلوبهم (والجواب) لا يبعد انه اذا قوى التمنى اشتغل الخاطر به فحصل السهو فى الافعال الظاهرة بسببه فيصير ذلك فتنة للكفار فهذا آخر القول فى هذه المسئلة (المسئلة الثالثة) يرجع حاصل البحث الى ان الغرض من هذه الآية بيان ان الرسل الذين أرسلهم الله تعالى وان عصمهم من الخطأ مع العلم فلم يعصمهم من جواز السهو ووسوسة الشيطان بل حالهم فى جواز ذلك كحال سائر البشر فالواجب أن لا يتبعوا الا فيما يفعلونه عن علم فذلك هو المحكم وقال ابو مسلم معنى الآية انه لم يرسل نبيا الا اذا تمنى كأنه قيل وما ارسلنا الى البشر ملكا وما أرسلنا اليهم نبيا الا منهم وما أرسلنا نبيا خلا عند تلاوته الوحى من وسوسة الشيطان وأن يلقى فى خاطره ما يضاد الوحى ويشغله عن حفظه فيثبت الله النبى على الوحى وعلى حفظه ويعلمه صواب ذلك وبطلان ما يكون من الشيطان قال وفيما تقدم من قوله قل يا أيها الناس انما أنا لكم نذير مبين تقوية لهذا التأويل فكأنه تعالى أمره أن يقول للكافرين انا نذير لكم لكنى من البشر لا من الملائكة ولم يرسل الله تعالى مثلى ملكا بل أرسل رجالا فقد يوسوس الشيطان اليهم فان قيل هذا انما يصح لو كان السهو لا يجوز على الملائكة قلنا اذا كانت الملائكة أعظم درجة من الانبياء لم يلزم من استيلائهم بالوسوسة على الانبياء استيلاؤهم بالوسوسة على الملائكة واعلم انه سبحانه لما شرح حال هذه الوسوسة أردف ذلك بجثين (الاول) كيفية ازالتها وذلك هو قوله تعالى فينسخ الله ما يلقى الشيطان فالمراد ازالته وازالة تأثيره فهو النسخ اللغوى لا النسخ الشرعى المستعمل فى الاحكام اما قوله ثم يحكم الله آياته فاذا حمل التمنى على القراءة فالمراد به آيات القرآن والا فيحمل على احكام الادلة التى لا يجوز فيها الغلط (البحث الثانى) انه تعالى بين أثر تلك الوسوسة ثم انه سبحانه شرح أثرها فى حق الكفار اولا ثم فى حق المؤمنين ثانيا اما فى حق الكفار فهو قوله ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة والمراد به تشديد التعبد لان عند ما يظهر من الرسول صلى الله عليه وسلم الاشتباه فى القرآن سهوا يلزمهم البحث عن ذلك ليميزوا السهو من العمد وليعلموا ان العمد صواب والسهو قد لا يكون صوابا اما قوله للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ففيه سؤالان (السؤال الاول) لم قال فتنة للذين فى قلوبهم مرض ولم خصهم بذلك (الجواب) لانهم مع كفرهم يحتاجون الى ذلك التدبر واما المؤمنون فقد تقدم علمهم بذلك فلا يحتاجون الى التدبر (السؤال الثانى) ما مرض القلب (الجواب) انه الشك والشبهة وهم المنافقون كما قال فى قلوبهم مرض واما القاسية قلوبهم فهم المشركون المصرون على جهلهم ظاهرا وباطنا * اما قوله تعالى وان الظالمين لفى شقاق بعيد يريد أن هؤلاء المنافقين والمشركين فأصله وانهم فوضع الظاهر موضع المضمر قضاء عليهم بالظلم والشقاق والمشاقة والمعاداة والمباعدة سواء واما فى حق المؤمنين فهو قوله وليعلم الذين اوتوا العلم أنه الحق من ربك وفى الكناية ثلاثة اوجه (احدها) انها عائدة الى نسخ ما ألقاه الشيطان عن الكلبى (وثانيها) انه الحق اى

(القرآن)

ثم اخذتهم فكيف كان نكير (وهى ظالمة) جملة حالية من مفعول اهلكنا وقوله تعالى (فهى خاوية) عطف على اهلكناها لا على وهى ظالمة لانها حال والاهلاك ليس فى حال خوائها فعلى الاول لا محل له من الاعراب كالمعطوف عليه وعلى الثانى فى محل الرفع لعطفه على الخبر والخواء اما بمعنى السقوط من خوى النجم اذا سقط فالمعنى فهى ساقطة حيطانها (على عروشها) اى سقوفها بان تعطل بنيانها فخرت سقوفها ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف واسناد السقوط على العروش اليها لتنزيل الحيطان منزلة كل البنيان لكونها عمدة فيه واما بمعنى الخلو من خوى المنزل اذا خلا من اهله فالمعنى فهى خالية مع بقاء عروشها وسلامتها فتكون على بمعنى مع ويجوز ان يكون على عروشها خبرا بعد خبر اى فهى خالية وهى على عروشها اى قائمة مشرفة على عروشها على معنى ان السقوف سقطت الى الارض وبقيت الحيطان قائمة فهى مشرفة على السقوف الساقطة واسناد الاشراف الى الكل مع كونه حال الحيطان لما مر آنفا (وبئر معطلة) عطف على قرية اى وكم بئر عامرة فى البوادى تركت لا يستقى منها لهلاك اهلها وقرئ بالتخفيف من اعطله بمعنى عطله (وقصر مشيد) مرفوع البنيان او مجصص اخليناه عن ساكنيه وهذا يؤيد كون معنى خاوية على عروشها خالية مع بقاء عروشها وقيل المراد بالبئر بئر بسفح جبل بحضرموت وبالقصر قصر مشرف على قلته كانا لقوم

القرآن عن مقاتل (وثالثها) ان تمكن الشيطان من ذلك الالقاء هو الحق اما على قولنا فلانه سبحانه وتعالى اى شئ فعل فقد تصرف فى ملكه وملكه فكان حقا واما على قول المعتزلة فلانه سبحانه حكيم فتكون كل افعاله صوابا فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم اى تخضع وتسكن لعلمهم بان المقضى كائن وكل ميسر لما خلق له وان الله لهادى الذين آمنوا الى ان يتأولوا ما يتشابه فى الدين بالتأويلات الصحيحة ويطلبوا ما اشكل منه من المجمل الذى تقتضيه الاصول المحكمة حتى لا تلحقهم حيرة ولا تعتريهم شبهة وقرئ لهاد الذين آمنوا بالتنوين ولما بين سبحانه حال الكافرين اولا ثم حال المؤمنين ثانيا عاد الى شرح حال الكافرين مرة أخرى فقال ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه اى من القرآن او من الرسول وذلك يدل على ان الاعصار الى قيام الساعة لا تخلو ممن هذا وصفه اما قوله تعالى حتى تأتيهم الساعة بغتة اى فجأة من دون ان يشعروا ثم جعل الساعة غاية لكفرهم وانهم يؤمنون عند اشراط الساعة على وجه الالجاء واختلف فى المراد باليوم العقيم وفيه قولان (احدهما) انه يوم بدر وانما وصف يوم الحرب بالعقيم لوجوه اربعة (احدها) ان اولاد النساء يقتلون فيه فيصرن كانهن عقم لم يلدن (وثانيها) ان المقاتلين يقال لهم ابناء الحرب فاذا قتلوا وصف يوم الحرب بالعقيم على سبيل المجاز (وثالثها) هو الذى لا خير فيه يقال ريح عقيم اذا لم تنشئ مطرا ولم تلقح شجرا (ورابعها) انه لا مثل له فى عظم امره وذلك لقتال الملائكة فيه (القول الثانى) انه يوم القيامة وانما وصف بالعقيم لوجوه (احدها) انهم لا يرون فيه خيرا (وثانيها) انه لا ليل فيه فيستمر كاستمرار المرأة على تعطل الولادة (وثالثها) ان كل ذات حمل تضع حملها فى ذلك اليوم فكيف يحصل الحمل فيه وهذا القول اولى لانه لا يجوز ان يقول الله تعالى ولا يزال الذين كفروا ويكون المراد يوم بدر لان من المعلوم انهم فى مرية بعد يوم بدر فان قيل لما ذكر الساعة فلو حملتم اليوم العقيم على يوم القيامة لزم التكرار قلنا ليس كذلك لان الساعة من مقدمات القيامة واليوم العقيم هو نفس ذلك اليوم وعلى ان الامر لو كان كما قاله لم يكن تكرارا لان فى الاول ذكر الساعة وفى الثانى ذكر عذاب ذلك اليوم ويحتمل ان يكون المراد بالساعة وقت موت كل احد وبعذاب يوم عقيم القيامة اما قوله الملك يومئذ لله فمن اقوى ما يدل على ان اليوم العقيم هو ذلك اليوم واراد بذلك انه لا مالك فى ذلك اليوم سواه فهو بخلاف ايام الدنيا التى ملك الله الامور غيره وبين انه الحاكم بينهم لا حاكم سواه وذلك زجر عن معصيته ثم بين كيف يحكم بينهم وانه يصير المؤمنين الى جنات النعيم والكافرين فى العذاب المهين وقد تقدم وصف الجنة والنار فان قيل التنوين فى يومئذ عن اى جملة ينوب قلنا تقديره الملك يوم يؤمنون او يوم تزول مريتهم لقوله تعالى ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة ❁ قوله تعالى (والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا او ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا وان الله لهو خير الرازقين ليدخلنهم مدخلا يرضونه

حنظلة بن صفوان من بقايا قوم صالح فلما قتلوه اهلكهم الله تعالى وعطلهما (افلم يسيروا فى الارض) حث لهم على ان يسافروا ليروا مصارع المهلكين فيعتبروا وهم وان كانوا قد سافروا فيها ولكنهم حيث لم يسافروا للاعتبار جعلوا غير مسافرين فحثوا على ذلك والفاء لعطف ما بعدها على مقدر يقتضيه المقام اى اغفلوا فلم يسيروا فيها (فتكون لهم) بسبب ما شاهدوه من مواد الاعتبار ومظان الاستبصار (قلوب يعقلون بها) ما يجب ان يعقل من التوحيد (او آذان يسمعون بها) ما يجب ان يسمع من الوحى او من اخبار الامم المهلكة عن يجاورهم من الناس فانهم اعرف منهم بحالهم (فانها لا تعمى الابصار) الضمير للقصة او مبهم يفسره الابصار وفى تعمى ضمير راجع اليه وقد اقيم الظاهر مقامه (ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) اى ليس الخلل فى مشاعرهم وانما هو فى عقولهم باتباع الهوى والانهماك فى الغفلة وذكر الصدور للتأكيد ونفى توهم التجوز وفضل التنبيه على ان العمى الحقيقى ليس المتعارف الذى يختص بالبصر قيل لما نزل قوله تعالى ومن كان فى هذه اعمى فهو فى الآخرة اعمى قال ابن ام مكتوم يا رسول الله انا فى الدنيا اعمى افاكون فى الآخرة اعمى فنزلت (ويستعجلونك بالعذاب) كانوا منكرين لمجئ العذاب المتوعد به اشد الانكار وانما كانوا يستعجلون به استهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم وتعجيزا له على زعمهم فحكى عنهم ذلك بطريق

وان الله لعليم حليم ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله ان الله لعفو غفور ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وان الله سميع بصير ذلك بأن الله هو الحق وان ما يدعون من دونه هو الباطل وان الله هو العلى الكبير) اعلم انه تعالى لما ذكر ان الملك له يوم القيامة وانه يحكم بينهم ويدخل المؤمنين الجنات اتبعه بذكر وعده الكريم للمهاجرين وافردهم بالذكر تفخيما لشأنهم فقال عز من قائل والذين هاجروا واختلفوا فيمن اريد بذلك (فقال بعضهم) من هاجر الى المدينة طالبا لنصرة الرسول صلى الله عليه وسلم وتقربا الى الله تعالى (وقال آخرون) بل المراد من جاهد فخرج مع الرسول صلى الله عليه وسلم او فى سراياه لنصرة الدين ولذلك ذكر القتل بعده ومنهم من حمله على الامرين واختلفوا من وجه آخر فقال قوم المراد قوم مخصوصون روى مجاهد انها نزلت فى طوائف خرجوا من مكة الى المدينة للهجرة فتبعهم المشركون فقاتلوهم وظاهر الكلام للعموم ثم انه سبحانه وتعالى وصفهم برزقهم ومسكنهم اما الرزق فقوله تعالى ليرزقنهم الله رزقا حسنا وان الله لهو خير الرازقين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لاشبهة فى ان الرزق الحسن هو نعيم الجنة وقال الاصم انه العلم والفهم كقول شعيب عليه السلام ورزقنى منه رزقا حسنا فهذا فى الدنيا وفى الآخرة الجنة وقال الكلبى رزقا حسنا حلالا وهو الغنيمة وهذان الوجهان ضعيفان لانه تعالى جعله جزاء على هجرتهم فى سبيل الله بعد القتل والموت وبعدهما لايكون الا نعيم الجنة (المسئلة الثانية) لابد من شرط اجتناب الكبائر فى كل وعد فى القرآن لان هذا المهاجر لو ارتكب كبيرة لكان حكمه فى المشيئة على قولنا ولخرج عن ان يكون اهلا للجنة قطعا على قول المعتزلة فان قيل فما فضله على سائر المؤمنين فى الوعد ان كان كما قلتم قلنا فضلهم يظهر لان ثوابهم اعظم وقد قال تعالى لايستوى منكم من انفق من قبل الفتح وقاتل فمعلوم ان من هاجر مع الرسول صلى الله عليه وسلم وفارق دياره واهله لتقويته ونصرة دينه مع شدة قوة الكفار وظهور صولتهم صار فعله كالسبب لقوة الدين وعلى هذا الوجه عظم محل الانصار حتى صار ذكرهم والثناء عليهم تاليا لذكر المهاجرين لما آووه ونصروه (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى معنى قوله وان الله لهو خير الرازقين مع العلم بأن كل الرزق من عنده على وجوه (احدها) التفاوت انما كان بسبب انه سبحانه مختص بأن يرزق ما لايقدر عليه غيره (وثانيها) ان يكون المراد انه الاصل فى الرزق وغيره انما يرزق بما تقدم من الرزق من جهة الله تعالى (وثالثها) ان غيره ينقل الرزق من يده الى يد غيره لا انه يفعل نفس الرزق (ورابعها) ان غيره اذا رزق فانما يرزق لانتفاعه به اما لاجل ان يخرج عن الواجب واما لاجل ان يستحق به حمدا وثناء واما لاجل دفع الرقة الجنسية فكان الواحد منا اذا رزق فقد طلب العوض اما الحق سبحانه فان كماله صفة ذاتية له فلا يستفيد من شئ كمالا زائدا فكان الرزق الصادر منه لمحض الاحسان (وخامسها) ان غيره انما يرزق لو حصل فى قلبه

(ارادة)

التخطئة والاستذكار فقوله تعالى (ولن يخلف الله وعده) اما جملة حالية جيء بها لبيان بطلان انكارهم لمجيئه فى ضمن استعجالهم به واظهار خطئهم فيه كأنه قيل كيف ينكرون مجئ العذاب الموعود والحال انه تعالى لايخلف وعده ابدا وقد سبق الوعد فلابد من مجيئه حتما او اعتراضية مبينة لما ذكر وقوله تعالى (وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) جملة مستأنفة ان كانت الاولى حالية ومعطوفة عليها ان كانت اعتراضية سيقت لبيان خطئهم فى الاستعجال المذكور ببيان كمال سعة ساحة حلمه تعالى ووقاره واظهار غاية ضيق عطنهم المستتبع لكون المدة القصيرة عنده تعالى مددا طوالا عندهم حسبما ينطق به قوله تعالى انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا ولذلك يرون مجيئه بعيدا ويتخذونه ذريعة الى انكاره ويجترؤن على الاستعجال به ولايدرون ان معيار تقدير الامور كلها وقوعا واخبارا ما عنده تعالى من المقدار وقراءة يعدون على صيغة الغيبة اى يعده المستعجلون اوفق لهذا المعنى وقد جعل الخطاب فى القراءة المشهورة لهم ايضا بطريق الالتفات لكن الظاهر انه للرسول عليه السلام ومن معه من المؤمنين وقيل المراد بوعده تعالى ما جعل لهلاك كل امة من موعد معين واجل مسمى كما فى قوله تعالى ويستعجلونك بالعذاب ولولا اجل مسمى لجاءهم العذاب فتكون الجملة الاولى حالية كانت او اعتراضية مبينة لبطلان الاستعجال به ببيان استحالة مجيئه قبل

ارادة ذلك الفعل وتلك الارادة من الله فالرازق فى الحقيقة هو الله تعالى (وسادسها) ان المرزوق يكون تحت منة الرازق ومنة الله تعالى اسهل تحملا من منة الغير فكان هو خير الرازقين (وسابعها) ان الغير اذا رزق فلولا ان الله تعالى اعطى ذلك الانسان انواع الحواس واعطاه السلامة والصحة والقدرة على الانتفاع بذلك الرزق لما امكنه الانتفاع به ورزق الغير لابد وان يكون مسبوقا برزق الله وملحوقا به حتى يحصل الانتفاع واما رزق الله تعالى فانه لاحاجة به الى رزق غيره فثبت انه سبحانه خير الرازقين (المسئلة الرابعة) قالت المعتزلة الآية تدل على امور ثلاثة (احدها) ان الله تعالى قادر (وثانيها) ان غير الله يصح منه ان يرزق ويملك ولولا كونه قادرا فاعلا لما صح ذلك (وثالثها) ان الرزق لايكون الاحلالا لان قوله خير الرازقين دلالة على كونهم ممدوحين (والجواب) لانزاع فى كون العبد قادرا فان عندنا القدرة مع الداعى مؤثرة فى الفعل بمعنى الاستلزام واما الثالث فبحث لفظى وقد سبق الكلام فيه (المسئلة الخامسة) لما قال تعالى ثم قتلوا اوماتوا فسوى بينهما فى الوعد ظن قوم ان حال المقتول فى الجهاد والميت على فراشه سواء وهذا ان اخذوه من الظاهر فلادلالة فيه لان الجمع بينهما فى الوعد لايدل على تفضيل ولاتسوية كما ان الجمع بين المؤمنين لايدل على ذلك وان اخذوه من دليل آخر فهو حق فانه روى انس ان النبى صلى الله عليه وسلم قال المقتول فى سبيل الله تعالى والمتوفى فى سبيل الله بغير قتل هما فى الخير والاجر شريكان ولفظ الشركة مشعر بالتسوية والا فلا يبقى لتخصيصهما بالذكر فائدة وروى ايضا ان طوائف من اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قالوا يارسول الله هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا ان متنا معك فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين وهذا يدل على التسوية لانهم لما طلبوا مقدار الاجر فلولا التسوية لم يكن الجواب مفيدا اما المدكن فقوله تعالى ليدخلنهم مدخلا يرضونه وان الله لعليم حليم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرىء مدخلا بضم الميم وهو من الادخال ومن قرأ بالفتح فالمراد الموضع (المسئلة الثانية) قيل فى المدخل الذى يرضونه انه خيمة من درة بيضاء لافصم فيها ولاوصم لها سبعون ألف مصراع وقال ابو القاسم القشيرى هو ان يدخلهم الجنة من غير مكروه تقدم وقال ابن عباس رضى الله عنهما انما قال يرضونه لانهم يرون فى الجنة مالاعين رأت واذن سمعت ولاخطر على قلب بشر فيرضونه ولايبغون عنها حولا ونظيره قوله تعالى وما كن ترضونها وقوله فى عيشة راضية وقوله ارجعى الى ربك راضية مرضية وقوله وما كن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله اكبر (المسئلة الثالثة) ان قيل مامعنى وان الله لعليم حليم وماتعلقه بما تقدم قلنا يحتمل انه عليم بما يستحقونه فيفعله بهم ويزيدهم ويحتمل أن يكون المراد انه عليم بما يرضونه فيعطيهم ذلك فى الجنة واما الحليم فالمراد انه بحلمه لايعجل بالعقوبة فيمن يقدم على المعصية بل يمهل ليقع منه التوبة فيستحق منه الجنة اما

وقته الموعود والجملة الاخيرة بيانا لبطلانه ببيان ابتنائه على استطالة ما هو قصير عنده تعالى على الوجه الذى مر بيانه فلا يكون فى النظم الكريم حينئذ تعرض لانكارهم الذى دسوه تحت الاستعجال بل يكون الجواب مبنيا على ظاهر مقالهم ويكتفى فى رد انكارهم ببيان عاقبة من قبلهم من امثالهم هذا وحمل المستعجل به على عذاب الآخرة وجعل اليوم عبارة عن يوم العذاب المستطال لشدته اوعن ايام الآخرة الطويلة حقيقة او المستطالة لشدة عذابها مما لايساعده سياق النظم الجليل ولاسياقه فان كلامنهما ناطق بأن المراد هو العذاب الدنيوى وان الزمان الممتد هو الذى مر عليهم قبل حلوله بطريق الاملاء والامهال لاالزمان المقارن له ألايرى الى قوله تعالى (وكأين من قرية) الخ فانه كما سلف من قوله تعالى فأمليت للكافرين ثم اخذتهم صريح فى ان المراد هو الاخذ العاجل الشديد بعد الاملاء المديد اى وكم من اهل قرية فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه فى الاعراب ورجع الضمائر والاحكام مبالغة فى التعميم والتهويل (امليت لها) كما امليت لهؤلاء حتى انكروا مجىء ماوعدوا من العذاب واستعجلوا به استهزاء برسلهم كما فعل هؤلاء (وهى ظالمة) جملة حالية مفيدة لكمال حلمه تعالى ومشعرة بطريق التعريض بظلم المستعجلين اى امليت لها والحال انها ظالمة مستوجبة لتعجيل العقوبة كدأب هؤلاء

قوله ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله ان الله لعفو غفور فيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله ذلك قدمضى الكلام فيه فى هذه الآية فى هذه السورة وقال الزجاج اى الامر ماقصصنا عليك من انجاز الوعد للمهاجرين الذين قتلوا او ماتوا (المسئلة الثانية) قوله ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه معناه قاتل من كان يقاتله ثم كان المقاتل مبغيا عليه بان اضطر الى الهجرة ومفارقة الوطن وابتدئ بالقتال قال مقاتل نزلت فى قوم من المشركين لقوا قوما من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم فقال بعضهم لبعض ان اصحاب محمد يكرهون القتال فى الشهر الحرام فاحملوا عليهم فناشدهم المسلمون ان يكفوا عن قتالهم لحرمة الشهر فابوا وقاتلوهم فذلك بغيهم عليهم وثبت المسلمون لهم فنصروا عليهم فوقع فى انفس المسلمين من القتال فى الشهر الحرام ماوقع فانزل الله تعالى هذه الآية وعفا عنهم وغفر لهم وههنا سؤالات (السؤال الاول) اى تعلق لهذه الآية بما قبلها (الجواب) كأنه سبحانه وتعالى قال مع اكرامى لهم فى الآخرة بهذا الوعد لاادع نصرتهم فى الدنيا على من بغى عليهم (السؤال الثانى) هل يرجع ذلك الى المهاجرين خاصة او اليهم والى المؤمنين (الجواب) الاقرب انه يعود الى الفريقين فانه تقدم ذكرهما وبين ذلك قوله تعالى لينصرنه الله وبعد القتل والموت لايمكن ذلك فى الدنيا (السؤال الثالث) ما المراد بالعقوبة المذكورة (الجواب) فيه وجهان (احدهما) المراد ما فعله مشركو مكة مع المهاجرين بمكة من طلب آثارهم ورد بعضهم الى غير ذلك فبين تعالى ان من عاقب هؤلاء الكفار بمثل مافعلوا فسينصره عليهم وهذه النصرة المذكورة تقوى تأويل من تأوله على مجاهدة الكفار لاعلى القصاص لان ظاهر النص لايليق الابذلك (والجواب الثانى) ان هذه الآية فى القصاص والجراحات وهى آية مدنية عن الضحاك (السؤال الرابع) لم سمى ابتداء فعلهم بالعقوبة (الجواب) اطلق اسم العقوبة على الاول للتعلق الذى بينه وبين الثانى كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها يخادعون الله وهو خادعهم (السؤال الخامس) اى تعلق لقوله وان الله لعفو غفور بما تقدم (الجواب) فيه وجوه (احدها) ان الله تعالى ندب المعاقب الى العفو عن الجانى بقوله فمن عفا واصلح فاجره على الله وان تعفوا اقرب للتقوى ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور فمالم يأت بهذا المندوب فهو نوع اساءة فكأنه سبحانه قال انى قدعفوت عن هذه الاساءة وغفرتها فانى أنا الذى أذنت لك فيه (وثانيها) انه سبحانه وان ضمن له النصر على الباغى لكنه عرض مع ذلك بما كان اولى به من العفو والمغفرة فلوح بذكر هاتين الصفتين (وثالثها) انه سبحانه دل بذكر العفو والمغفرة على انه قادر على العقوبة لانه لايوصف بالعفو الا القادر على ضده (السؤال السادس) اى تعلق لقوله ذلك بان الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل بما قبله (والجواب) من وجهين (احدهما) ذلك اى ذلك النصر بسبب انه قادر ومن آيات قدرته البالغة كونه خالقا

(الليل)

(ثم اخذتها) بالعذاب والنكال بعد طول الاملاء والامهال وقوله تعالى (والى المصير) اعتراض تذييلى مقرر لما قبله ومصرح بافاده ذلك بطريق التعريض من ان مآل امر المستعجلين ايضا ماذكر من الاخذ الوبيل اى الى حكمى مرجع الكل جميعا لا الى احد غيرى لا استقلالا ولا شركة فافعل بهم ما افعل بما يليق باعمالهم (قل يا أيها الناس انما انا لكم نذير مبين) انذركم انذارا بينا بما اوحى من انباء الامم المهلكة من غيران يكون لى دخل فى اتيان ماتوعدونه من العذاب حتى تستعجلونى به والاقتصار على الانذار مع بيان حال الفريقين بعده لما اشير اليه من ان مساق الحديث للمشركين وعقابهم وانما ذكر المؤمنون وثوابهم زيادة فى غيظهم (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة) لما اندر منهم من الذنوب (ورزق كريم) هى الجنة والكريم من كل نوع ما يجمع فضائله ويحوز كمالاته (والذين سعوا فى آياتنا معاجزين) اى سابقين او مسابقين فى زعمهم وتقديرهم طامعين ان كيدهم للاسلام يتم لهم واصله من عاجزه وعجزه فاعجزه اذا سابقه فسبقه لان كلا من المتسابقين يريد الحاق الآخر عن اللحاق به وقرئ معجزين اى مثبطين الناس عن

الليل والنهار ومتصرفا فيهما فوجب ان يكون قادرا عالما بما يجرى فيهما واذا كان كذلك كان قادرا على النصر مصيبا فيه (وثانيها) المراد انه سبحانه مع ذلك النصر ينعم فى الدنيا بما يفعله من تعاقب الليل والنهار وولوج احدهما فى الآخر (السؤال السابع) مامعنى ايلاج الليل فى النهار وايلاج النهار فى الليل (الجواب) فيه وجهان (احدهما) يحصل ظلمة هذا فى مكان ضياء ذلك بغيبوبة الشمس وضياء ذلك فى مكان ظلمة هذا بطلوعها كما يضئ البيت بالسراج ويظلم بفقده (وثانيهما) انه سبحانه يزيد فى احدهما ماينقص من الآخر من الساعات (السؤال الثامن) اى تعلق لقوله وان الله سميع بصير بما تقدم (الجواب) المراد انه كما يقدر على ما لا يقدر عليه غيره فكذلك يدرك المسموع والمبصر ولا يجوز المنع عليه ويكون ذلك كالتحذير من الاقدام على ما لا يجوز فى المسموع والمبصر (السؤال التاسع) مامعنى قوله ذلك بان الله هو الحق واى تعلق له بما تقدم (الجواب) فيه وجهان (احدهما) المراد ان ذلك الوصف الذى تقدم ذكره من القدرة على هذه الامور انما حصل لاجل ان الله هو الحق اى هو الموجود الواجب لذاته الذى يمتنع عليه التغير والزوال فلاجرم اتى بالوعد والوعيد (ثانيهما) ان ما يفعل من عبادته هو الحق وما يفعل من عبادة غيره فهو الباطل كما قال ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة (السؤال العاشر) اى تعلق لقوله وان الله هو العلى الكبير بما تقدم (الجواب) معنى العلى القاهر المقتدر الذى لا يغلب فنبه بذلك على انه القادر على الضر والنفع دون سائر من يعبد مرغبا بذلك فى عبادته زاجرا عن عبادة غيره فاما الكبير فهو العظيم فى قدرته وسلطانه وذلك ايضا يفيد كمال القدرة (المسئلة الثالثة) قوله لينصرنه الله اخبار عن الغيب فانه وجد مخبره كما اخبر فكان من المعجزات (المسئلة الرابعة) قال الشافعى رحمه الله من حرق حرقناه ومن غرق غرقناه وقال ابو حنيفة رحمه الله بل يقتل بالسيف واحتج الشافعى رحمه الله بهذه الآية فان الله تعالى جوز للمظلوم ان يعاقب بمثل ما عوقب به ووعده النصر عليه (المسئلة الخامسة) قرأ نافع وابن عامر تدعون بالتاء ههنا وفى لقمان وفى المؤمنين وفى العنكبوت وقرأ ابن كثير وابو عمرو وكلها بالياء على الخبر والعرب قد تنصرف من الخطاب الى الاخبار ومن الاخبار الى الخطاب ❊ قوله تعالى (الم تر ان الله انزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة ان الله لطيف خبير له ما فى السموات وما فى الارض وان الله لهو الغنى الحميد الم تر ان الله سخر لكم ما فى الارض والفلك تجرى فى البحر بامره ويمسك السماء ان تقع على الارض الا باذنه ان الله بالناس لرؤف رحيم وهو الذى احياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ان الانسان لكفور) اعلم انه تعالى لما دل على قدرته من قبل بما ذكره من ولوج الليل فى النهار ونبه به على نعمه اتبعه بانواع أخر من الدلائل على قدرته ونعمه وهى ستة (اولها) قوله تعالى الم تر ان الله انزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة ان الله لطيف خبير وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكروا

الايمان على انه حال مقدرة (اولئك) الموصوفون بما ذكر من السعى والمعاجزة (اصحاب الجحيم) اى ملازموا النار الموقدة وقيل هو اسم دركة من دركاتها (وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبى) الرسول من بعثه الله تعالى بشريعة جديدة يدعو الناس اليها والنبى يعمه ومن بعثه لتقرير شريعة سابقة كانبياء بنى اسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ولذلك شبه عليه السلام علماء امته بهم فالنبى اعم من الرسول ويدل عليه انه عليه الصلاة والسلام سئل عن الانبياء فقال مائة الف واربعة وعشرون الفا قيل فكم الرسل منهم فقال ثلثمائة وثلاثة عشر جما غفيرا وقيل الرسول من جمع الى المعجزة كتابا منزلا عليه والنبى غير الرسول من لا كتاب له وقيل الرسول من يأتيه الملك بالوحى والنبى يقال له ولمن يوحى اليه فى المنام (الا اذا تمنى) اى هيأ فى نفسه مايهواه (القى الشيطان فى امنيته) فى تشهيه مايوجب اشتغاله بالدنيا كما قال عليه السلام وانه ليغان على قلبى فاستغفر الله فى اليوم سبعين مرة (فينسخ الله مايلقى الشيطان) فيبطله ويذهب به بعصمته عن الركون اليه والارشاد الى مايزيحه (ثم يحكم الله آياته) اى يثبت آياته الداعية الى الاستغراق فى شؤون الحق وصيغة

فى قوله الم تر وجوها ثلاثة (احدها) ان المراد هو الرؤية الحقيقية قالوا لان الماء النازل من السماء يرى بالعين واخضرار النبات على الارض مرئى واذا امكن حمل الكلام على حقيقته فهو اولى (وثانيها) ان المراد الم تخبر على سبيل الاستفهام (وثالثها) المراد الم تعلم والقول الاول ضعيف لان الماء وان كان مرئيا الا ان كون الله منزلاله من السماء غير مرئى اذا ثبت هذا وجب حمله على العلم لان المقصود من تلك الرؤية هو العلم لان الرؤية اذا لم يقترن بها العلم كانت كأنها لم تحصل (المسئلة الثانية) قرئ مخضرة كبقلة ومسبعة اى ذات خضر وههنا سؤالات (السؤال الاول) لم قال فتصبح الارض ولم يقل فأصبحت (الجواب) لنكتة فيه وهى افادة بقاء اثر المطر زمانا بعد زمان كما تقول انعم على فلان عام كذا فاروح واغدو شاكرا له ولو قلت فرحت وغدوت لم يقع ذلك الموقع (السؤال الثانى) لم رفع ولم ينصب جوابا للاستفهام (الجواب) لو نصب لاعطى عكس ما هو الغرض لان معناه اثبات الاخضرار فينقلب بالنصب الى نفى الاخضرار مثاله ان تقول لصاحبك الم ترانى انعمت عليك فتشكر وان نصبته فأنت ناف لشكره شاك لتفريطه وان رفعته فأنت مثبت للشكر (السؤال الثالث) لم اورد تعالى ذلك دلالة على قدرته على الاعادة كما قال ابو مسلم (الجواب) يحتمل ذلك ويحتمل انه نبه به على عظيم قدرته وواسع نعمه (السؤال الرابع) ما تعلق قوله ان الله لطيف خبير بما تقدم (الجواب) من وجوه (احدها) اراد انه رحيم بعباده ولرحمته فعل ذلك حتى عظم انتفاعهم به لان الارض اذا اصبحت مخضرة والسماء اذا امطرت كان ذلك سببا لعيش الحيوانات على اختلافها اجمع ومعنى خبير انه عالم بمقادير مصالحهم فيفعل على قدر ذلك من دون زيادة ونقصان (وثانيها) قال ابن عباس لطيف بارزاق عباده خبير بما فى قلوبهم من القنوط (وثالثها) قال الكلبى لطيف فى افعاله خبير بأعمال خلقه (ورابعها) قال مقاتل لطيف باستخراج النبت خبير بكيفية خلقه (الدلالة الثانية) قوله تعالى له ما فى السموات وما فى الارض وان الله لهو الغنى الحميد والمعنى ان كل ذلك منقاد له غير ممتنع من التصرف فيه وهو غنى عن الاشياء كلها وعن حمد الحامدين ايضا لانه كامل لذاته والكامل لذاته غنى عن كل ما عداه فى كل الامور ولكنه لما خلق الحيوان فلا بد فى الحكمة من قطر ونبات فخلق هذه الاشياء رحمة للحيوانات وانعاما عليهم لا لحاجة به الى ذلك واذا كان كذلك كان انعامه خاليا عن غرض عائد اليه فكان مستحقا للحمد فكأنه قال انه لكونه غنيا لم يفعل ما فعله الا للاحسان ومن كان كذلك كان مستحقا للحمد فوجب ان يكون حميدا فلهذا قال وان الله لهو الغنى الحميد (الدلالة الثالثة) قوله الم تر ان الله سخر لكم ما فى الارض اى ذلل لكم ما فيها فلا اصلب من الحجر ولا أحد من الحديد ولا اكثر هيبة من النار وقد سخرها لكم وسخر الحيوانات ايضا حتى ينتفع بها من حيث الاكل والركوب والحمل عليها والانتفاع بالنظر اليها فلولا ان سخر الله تعالى الابل والبقر مع

المضارع فى الفعلين للدلالة على الاستمرار التجددى واظهار الجلالة فى موقع الاضمار لزيادة التقرير والايذان بان الالوهية من موجبات احكام آياته الباهرة (والله عليم) مبالغ فى العلم بكل ما من شأنه ان يعلم ومن جملته ما صدر عن العباد من قول وفعل عمدا او خطأ (حكيم) فى كل ما يفعل والاظهار ههنا ايضا لما ذكر مع ما فيه من تأكيد استقلال الاعتراض التذييلى قيل حدث نفسه بزوال المسكنة فنزلت وقيل تمنى لحرصه على ايمان قومه ان ينزل عليه ما يقربهم اليه واستمر به ذلك حتى كان فى ناديهم فنزلت عليه سورة النجم فأخذ يقرؤها فلما بلغ ومناة الثالثة الاخرى وسوس اليه الشيطان حتى سبق لسانه سهوا الى ان قال تلك الغرانيق العلا وان شفاعتهن لترتجى ففرح به المشركون حتى شايعوه بالسجود لما سجد فى آخرها بحيث لم يبق فى المسجد مؤمن ولا مشرك الا سجد ثم نبهه جبريل عليه السلام فاغتم به فعزاه الله عز وجل بهذه الآية وهو مردود عند المحققين وان صح فابتلاء يتميز به الثابت على الايمان عن المتزلزل فيه وقيل تمنى بمعنى قرأ كقوله

تمنى كتاب الله اول ليلة
تمنى داود الزبور على رسل

قوتهمـا حتى يذللهما الضعيف من النـاس ويتمكن منهما لما كان ذلك نعمـة (الدلالة الرابعة) قوله تعالى والفلك تجرى فى البحر بأمره والاقرب ان المراد وسخر لكم الفلك تجرى فى البحر وكيفية تسخيره الفلك هو من حيث سخر الماء والرياح لجريها فلولا صفتهما على ماهما عليه لما جرت بل كانت تغوص او تقف او تعطب فنبه تعالى على نعمه بذلك وبأن خلق ماتعمل منه السفن وبان بين كيف تعمل وانما قال بأمره لانه سبحانه لما كان هو المجرى لها بالرياح نسب ذلك الى امره توسعا لان ذلك يفيد تعظيمه باكثر مما يفيد لو اضافه الى فعله بناء على عادة الملوك فى مثل هذه اللفظة (الدلالة الخامسـة) قوله تعالى ويمسك السمـاء أن تقع على الارض الا باذنه ان الله بالناس لرؤف رحيم واعلم ان النعم المتقدمة لاتكمل الا بهذه لان السماء مسكن الملائكة فوجب ان يكون صلبـا ووجب ان يكون ثقيلا وماكان كذلك فلابدله من الهوى لولا مانع يمنع منه وهذه الحجة مبنية على ظاهر الاوهام وقوله تعالى ان تقع قال الكوفيون كى لاتقع وقال البصريون كراهية ان تقع وهذا بنـاء على مسئلة كلامية وهى ان الارادات والكراهات هل تتعلق بالعـدم فمن منع من ذلك صـار الى التأويل الاول والمعنى انه امسكها لكى لاتقع فتبطل النعم التى انعم بها اما قوله تعالى ان الله بالناس لرؤف رحيم فالمعنى ان المنعم بهذه النعم الجامعة لمنافع الدنيا والدين قد بلغ الغاية فى الاحسان والانعام فهو اذن رؤف رحيم (الدلالة السـادسة) قوله وهو الذى احياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ان الانسان لكفور والمعنى ان من سخرله هذه الامور وانعم عليه بها فهو الذى احياه فنبه بالاحياء الاول على انعام الدنيا علينا بكل ماتقدم ونبه بالاماتة والاحياء الثانى على نعم الدين علينا فانه سبحانه وتعالى خلق الدنيا بسائر احوالها للآخرة والالم يكن للنعم على هذا الوجه معنى يبين ذلك انه لولا امر الآخرة لم يكن للزراعات وتكلفها ولا لركوب الحيوان وذبحها الى غير ذلك معنى بل كان تعالى يخلقه ابتداء من غير تكلف الزرع والسقى وانما اجرى الله العادة بذلك ليعتبر به فى باب الدين ولما فصل تعالى هذه النعم قال ان الانسان لكفور وهذا كما قد يعدد المرء نعمه على ولده ثم يقول ان الولد لكفور لنعم الوالد زجراله عن الكفران وبعثاله على الشكر فلذلك اورد تعالى ذلك فى الكفار فبين انهم دفعوا هذه النعم وكفروا بها وجهلوا خالقها مع وضوح امرها ونظيره قوله تعالى وقليل من عبادى الشكور وقال ابن عباس رضى الله عنهما الانسان ههنا هو الكافر وقال ايضا هو الاسود بن عبد الاسد وابو جهل والعاص وابى ابن خلف والاولى تعميمه فى كل المنكرين ❁ قوله تعالى (لكل امة جعلنا منسكا هم ناسكوه فلا ينازعنك فى الامر وادع الى ربك انك لعلى هدى مستقيم وان جادلوك فقل الله اعلم بما تعملون الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون) اعلم انه تعالى لما قدم ذكر نعمه وبين انه رؤف رحيم بعباده وان كان منهم من يكفر ولا يشكر اتبعه بذكر نعمه بما كلف فقال لكل امة جعلنا منسكا هم ناسكوه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) انما حذف

وامنيته قرائته والقاء الشيطان فيها ان يتكلم بذلك رافعا صوته بحيث ظن السامعون انه من قراءة النبى عليه السلام وقد رد بأنه ايضا يخل بالوثوق بالقرآن ولايندفع بقوله تعالى فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته لانه ايضا يحتمله وفى الآية دلالة على جواز السهو من الانبياء عليهم السلام وتطرق الوسوسة اليهم (ليجعل مايلقى الشيطان) علة لما ينبئ عنه ماذكر من القاء الشيطان من تمكينه تعالى اياه من ذلك فى حق النبى عليه السلام خاصة كما يعرب عنه سياق النظم الكريم لما ان تمكينه تعالى اياه من الالقاء فى حق سائر الانبياء عليهم السلام لايمكن تعليله بما سيأتى وفيه دلالة على ان مايلقيه امر ظاهر يعرفه المحق والمبطل (فتنة للذين فى قلوبهم مرض) اى شك ونفاق كما فى قوله تعالى فى قلوبهم مرض الآية (والقاسية قلوبهم) اى المشركين (وان الظالمين) اى الفريقين المذكورين فوضع الظاهر موضع ضميرهم تسجيلا عليهم بالظلم مع ماوصفوا به من المرض والقساوة (لفى شقاق بعيد) اى عداوة شديدة ومخالفة تامة ووصف الشقاق بالبعد مع ان الموصوف به حقيقة هو معروضه للمبالغة والجملة اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ماقبله (وليعلم الذين اوتوا العلم انه) اى القرآن (الحق من ربك) اى هو الحق النازل من عنده تعالى وقيل ليعلموا ان تمكين الشيطان من الالقاء هو الحق المتضمن للحكمة البالغة والغاية الجميلة لانه مما جرت به عادته فى جنس الانس من لدن آدم عليه السلام فحينئذ لاحاجة الى تخصيص التمكين فيما سبق بالالقاء فى حقه عليه السلام لكن يأباه قوله تعالى (فيؤمنوا به) اى بالقرآن اى يثبتوا على الايمان به او يزدادوا ايمانا برد مايلقى الشيطان (فتخبت له قلوبهم) بالانقياد

الواو في قوله لكل امة لانه لاتعلق لهذا الكلام بماقبله فلاجرم حذف العاطف (المسئلة الثانية) في المنسك اقوال (احدها) قال ابن عباس عيدا يذبحون فيه (وثانيها) قربانا ولفظ المنسك مختص بالذبائح عن مجاهد (وثالثها) مألفا يألفونه اما مكانا معينا او زمانا معينا لاداء الطاعات (ورابعها) المنسك هو الشريعة والمنهاج وهو قول ابن عباس في رواية عطاء واختيار القفال وهو الاقرب لقوله تعالى لكل امة جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولان المنسك مأخوذ من النسك وهو العبادة واذا وقع الاسم على كل عبادة فلاوجه للتخصيص فان قيل هلا حملتموه على الذبح لان المنسك في العرف لايفهم منه الا الذبح وهلا حملتموه على موضع العبادة او على وقتها (الجواب) عن الاول لانسلم ان المنسك في العرف مخصوص بالذبح والدليل عليه ان سائر مايفعل في الحج يوصف بانه مناسك ولاجله قال عليه السلام خذوا عني مناسككم (وعن الثاني) ان قوله هم ناسكوه اليق بالعبادة منه بالوقت والمكان (المسئلة الثالثة) زعم قوم ان المراد من قوله هم ناسكوه من كان في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم متمسكا بشرع كاليهود والنصارى ولايمتنع ان يريد كل من تعبد من الامم سواء بقيت آثارهم اولم تبق لان قوله هم ناسكوه كالوصف للامم وان لم يعبدوا في الحال اما قوله تعالى فلاينازعنك في الامر فقرئ فلاينزعنك اى اثبت في دينك ثباتا لايطمعون ان يخدعوك ليزيلوك عنه واما قوله فلاينازعنك ففيه قولان (احدهما) وهو قول الزجاج انه نهى لهم عن منازعتهم كما تقول لايضاربنك فلان اى لاتضاربه (والثاني) ان المراد ان عليهم اتباعك وترك مخالفتك وقد استقر الامر الآن على شرعك وعلى انه ناسخ لكل ماعداه فكأنه تعالى نهى كل امة بقيت منها بقية ان تستمر على تلك العادة وألزمها ان تتحول الى اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فلذلك قال وادع الى ربك اى لاتخص بالدعاء امة دون امة فكلهم امتك فادعهم الى شريعتك فانك على هدى مستقيم والهدى يحتمل نفس الدين ويحتمل ادلة الدين وهو اولى كأنه قال ادعهم الى هذا الدين فانك من حيث الدلالة على طريقة واضحة ولهذا قال وان جادلوك والمعنى فان عدلوا عن النظر في هذه الادلة الى طريقة المراء والتمسك بالعادة فقد بينت واظهرت مايلزمك فقل الله اعلم بما تعملون لانه ليس بعد ايضاح الادلة الا هذا الجنس الذي يجرى مجرى الوعيد والتحذير من حكم يوم القيامة الذي يتردد بين جنة وثواب لمن قبل وبين نار وعقاب لمن رد وانكر فقال الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون فتعرفون حينئذ الحق من الباطل والله اعلم ❊ قوله تعالى (الم تعلم ان الله يعلم مافي السماء والارض ان ذلك في كتاب ان ذلك على الله يسير ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطانا ومالیس لهم به علم وماللظالمين من نصير واذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل افأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير) اعلم انه تعالى لما قال من قبل الله يحكم بينكم يوم القيامة اتبعه بما به يعلم انه سبحانه عالم بما يستحقه

والخشية والاذعان لما فيه من الاوامر والنواهي ورجع الضميرين لاسيما الثاني الى تمكين الشيطان من الالقاء بما لاوجه له (وان الله لهادي الذين آمنوا) اى في الامور الدينية خصوصا في المداحض والمشكلات التي من جملتها ماذكر (الى صراط مستقيم) هو النظر الصحيح الموصل الى الحق الصريح والجملة اعتراض مقرر لما قبله (ولايزال الذين كفروا في مرية) اى في شك وجدال (منه) اى من القرآن وقيل من الرسول صلى الله عليه وسلم والاول هو الاظهر بشهادة ماسبق من قوله تعالى ثم يحكم الله آياته وقوله تعالى انه الحق من ربك فيؤمنوا به وما لحق من قوله تعالى وكذبوا بآياتنا واما تجويز كون الضمير لما القى الشيطان في امنيته فمما لامساغ له لان ذلك ليس من هناتهم التي تستمر الى الامد المذكور بل انما هي مريتهم في شان القرآن ولاتعدى حمل من على السببية دون الابتدائية لما ان مريتهم المستمرة كما انها ليست مبتدأة من ذلك ليست ناشئة منه ضرورة انها مستمرة منهم من لدن نزول القرآن الكريم (حتى تأتيهم الساعة) اى القيامة نفسها كما يؤذن به قوله تعالى (بغتة) اى فجأة فانها الموصوفة بالاتيان كذلك لا اشراطها وقيل الموت (اويأتيهم عذاب يوم عقيم) اى يوم لايوم بعده كأن كل يوم يلد مابعده من الايام فما لايوم بعده يكون عقيما والمراد به الساعة ايضا كأنه قيل اويأتيهم عذابها فوضع ذلك موضع ضميرها لمزيد التهويل ولاسبيل الى حمل الساعة على اشراطها لما عرفته واما ماقيل من ان المراد يوم حرب يقتلون فيه كيوم بدر سمى به لان اولاد النساء يقتلون فيه فيصرن كأنهن عقم لم يلدن اولان المقاتلين ابناء الحرب فاذا قتلوا صارت عقيما اى ثكلى فوصف اليوم بوصفها اتساعا اولانه لاخيرلهم فيه

كل احدمنهم فيقع الحكم منه بينهم بالعدل لابالجور فقال لرسوله الم تعلم ان الله يعلم مافى السماء والارض وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قوله الم تعلم هو على لفظ الاستفهام لكن معناه تقوية قلب الرسول صلى الله عليه وسلم والوعدله وايعاد الكافرين بأن كل فعلهم محفوظ عندالله لايضل عنه ولاينسى (المسئلة الثانية) الخطاب مع الرسول صلى الله عليه وسلم والمراد سائر العباد ولان الرسالة لاتثبت الابعد العلم بكونه تعالى عالما بكل المعلومات اذلو لم يثبت ذلك لجاز ان يشتبه عليه الكاذب بالصادق فحينئذ لايكون اظهار المعجز دليلا على الصدق واذا كان كذلك استحال ان لايكون الرسول عالما بذلك فثبت ان المراد ان يكون خطابا مع الغير اماقوله ان ذلك فى كتاب ففيه قولان (احدهما) وهو قول ابى مسلم ان معنى الكتاب الحفظ والضبط والشد يقال كتبت المزادة اكتبها اذا خرزتها فحفظت بذلك مافيها ومعناه ومعنى الكتاب بين الناس حفظ مايتعاملون به فالمراد من قوله ان ذلك فى كتاب انه محفوظ عنده (والثانى) وهو قول الجمهور ان كل ما يحدثه الله فى السموات والارض فقد كتبه فى اللوح المحفوظ قالوا وهذا اولى لان القول الاول وان كان صحيحا نظرا الى الاشتقاق لكن الواجب حمل اللفظ على المتعارف ومعلوم ان الكتاب هو ماتكتب فيه الامور فكان حمله عليه اولى فان قيل فقد يوهم ذلك ان علمه مستفاد من الكتاب وايضا فأى فائدة فى ذلك الكتاب (والجواب) عن الاول ان كتبة تلك الاشياء فى ذلك الكتاب مع كونها مطابقة للموجودات من ادل الدلائل على انه سبحانه غنى فى علمه عن ذلك الكتاب (وعن الثانى) ان الملائكة ينظرون فيه ثم يرون الحوادث داخلة فى الوجود على وفقه فصار ذلك دليلا لهم زائدا على كونه سبحانه عالما بكل المعلومات اماقوله ان ذلك على الله يسير فمعناه ان كتبه جملة الحوادث مع انها من الغيب مما يتعذر على الخلق لكنها بحيث متى أرادها الله تعالى كانت فعبر عن ذلك بأنه يسير وان كان هذا الوصف لايستعمل الافينا من حيث تسهل وتصعب علينا الامور وتعالى الله عن ذلك ثم بين سبحانه مايقدم الكفار عليه مع عظيم نعمه ووضوح دلائله فقال ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطانا وماليس لهم به علم فبين ان عبادتهم لغير الله تعالى ليست مأخوذة عن دليل سمعى وهو المراد من قوله مالم ينزل به سلطانا ولا عن دليل عقلى وهو المراد من قوله وماليس لهم به علم واذا لم يكن كذلك فهو عن تقليد او جهل اوشبهة فوجب فى كل قول هذا شأنه ان يكون باطلا فمن هذا الوجه يدل على ان الكافر قد يكون كافرا وان لم يعلم كونه كافرا ويدل أيضا على فساد التقليد اماقوله وماللظالمين من نصير ففيه وجهان (أحدهما) أنهم ليس لهم احد ينصرهم من الله كما قد تتفق النصرة فى الدنيا (والثانى) مالهم فى كفرهم ناصر بالحجة فان الحجة ليست الاللمحق واحتجت المعتزلة بهذه الآية فى نفى الشفاعة والكلام عليه معلوم اماقوله تعالى واذا تتلى عليهم آياتنا بينات يعنى من تقدم ذكره وهذه الآيات هى القرآن ووصفها بأنها بينات لكونها متضمنة

ومنه الريح العقيم لما لم ينشئ مطرا ولم يلقح (٢٥٩) شجرا أولانه لامثل له لقتال الملائكة عليهم السلام فيه فما لايساعده سياق النظم الكريم اصلا كيف لا وان تخصيص الملك والتصرف الكلى فيه بالله عزوجل ثم بيان مايقع فيه من حكمه تعالى بين الفريقين بالثواب والعذاب الاخرويين يقضى بأن المراد به يوم القيامة قضاء بينا لاريب فيه (الملك) اى السلطان القاهر والاستيلاء التام والتصرف على الاطلاق (يومئذلله) وحده بلاشريك اصلا بحيث لايكون فيه لاحد تصرف من التصرفات فى امر من الامور لاحقيقة ولامجازا ولا صورة ولامعنى كما فى الدنيا فان للبعض فيها تصرفا صوريا فى الجملة وليس التنوين نائبا عما تدل عليه الغاية من زوال مريتهم كما قيل ولا عما يستلزمه ذلك من ايمانهم كما قيل لان القيد المعتبر مع اليوم حيث وسط بين طرفى الجملة يجب ان يكون مدارا لحكمها الذى هو كون الملك لله عزوجل ومايتفرع عليه من الاثابة والتعذيب ولاريب فى ان ايمانهم اوزوال مريتهم ليس مماله تعلق بما ذكر فضلا عن المدارية له فلاسبيل الى اعتبار شئ منهما مع اليوم قطعا وانما الذى يدور عليه ماذكر اتيان الساعة التى هى منتهى تصرفات الخلق ومبدأ ظهور احكام الملك الحق جل جلاله فاذن هو نائب عن نفس الجملة الواقعة غاية لمريتهم فالمعنى الملك يوم اذ تأتيهم الساعة او عذابها لله تعالى وقوله تعالى (يحكم بينهم) جملة مستأنفة وقعت جوابا عن سؤال نشأ من الاخبار بكون الملك يومئذلله كأنه قيل فماذا يصنع بهم حينئذ فقيل يحكم بين فريق المؤمنين به والممارين فيه بالمجازاة وقوله تعالى (فالذين آمنوا) الخ تفسير للحكم المذكور وتفصيل له اى فالذين آمنوا بالقرآن الكريم ولم يماروا فيه (وعملوا الصالحات) امتثالا بما امروا فى تضاعيفه (فى جنات

الدلائل العقلية وبيان الاحكام فبين انهم مع جهلهم اذا نبهوا على الادلة وعرضت عليهم المعجزة ظهر فى وجوههم المنكر والمراد دلالة الغيظ والغضب قال صاحب الكشاف المنكر الفظيع من التجهم والبسور والنشوز والانكار كالمكرم بمعنى الاكرام وقرئ تعرف على ما لم يسم فاعله والمفسرين فى المنكر عبارات (احداها) قال الكلبي تعرف فى وجوههم الكراهية للقرآن (وثانيها) قال ابن عباس رضى الله عنهما التجبر والترفع (وثالثها) قال مقاتل انكروا ان يكون من الله تعالى اما قوله تعالى يكادون يسطون فقال الخليل والفراء والزجاج السطو شدة البطش والوثوب والمعنى يهمون بالبطش والوثوب تعظيما لانكار ما خوطبوا به فحكى تعالى عظيم تمردهم على الانبياء والمؤمنين ثم امر رسوله بان يقابلهم بالوعيد فقال قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار قال صاحب الكشاف قوله من ذلكم اى من غيظكم على الناس وسطوكم عليهم او مما اصابكم من الكراهة والضجر بسبب ما تلى عليكم فقوله من ذلكم فيه وجهان (احدهما) المراد ان الذى ينالكم من النار التى تكادون تقتحمونها بسوء فعالكم اعظم مما ينالكم عند تلاوة هذه الآيات من الغضب ومن هذا الغم (والثانى) ان يكون المراد بشر من ذلكم ما تهمون به فيمن تحاجكم فان اكبر ما تمكنكم فيه الاهلاك ثم بعده مصيرهم الى الجنة وانتم تصيرون الى النار الدائمة التى لا فرج لكم عنها واما النار فقال صاحب الكشاف قرئ النار بالرفع على انه خبر مبتدأ محذوف كأن قائلا يقول ما شر من ذلك فقيل النار اى هو النار وبالنصب على الاختصاص وبالجر على البدل من شر ثم بين سبحانه انه وعدها الذين كفروا اذا ماتوا على كفرهم وهو بئس المصير قال صاحب الكشاف وعدها الله استئناف كلام ويحتمل ان تكون النار مبتدأ ووعدها خبرا ﴿ قوله تعالى (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره ان الله لقوى عزيز) اعلم انه سبحانه لما بين من قبل انهم يعبدون من دون الله ما لا حجة لهم فيه ولا علم ذكر فى هذه الآية ما يدل على ابطال قولهم اما قوله تعالى ضرب مثل ففيه سؤالات (السؤال الاول) الذى جاء به ليس بمثل فكيف سماه مثلا (والجواب) لما كان المثل فى الاكثر نكتة عجيبة غريبة جاز ان يسمى كل ما كان كذلك مثلا (السؤال الثانى) قوله ضرب يفيد فيما مضى والله تعالى هو المتكلم بهذا الكلام ابتداء (الجواب) اذا كان ما يورد من الوصف معلوما من قبل جاز ذلك فيه ويكون ذكره بمنزلة اعادة أمر قد تقدم اما قوله فاستمعوا له أى تدبروه حق تدبره لان نفس السماع لا ينفع وانما ينفع التدبر واعلم ان الذباب لما كان فى غاية الضعف احتج الله تعالى به على ابطال قولهم من وجهين (الاول) قوله ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له قرئ يدعون بالياء والتاء ويدعون مبنيا للمفعول ولن اصل فى نفى المستقبل الا انه ينفيه نفيا مؤكدا فكأنه سبحانه

النعيم) اى مستقرون فيها (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا) اى اصروا على ذلك واستمروا (فأولئك) اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة من الكفر والتكذيب وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الشر والفساد اى اولئك الموصوفون بما ذكر من الكفر والتكذيب وهو مبتدأ وقوله تعالى (لهم عذاب) جملة اسمية من مبتدأ وخبر مقدم عليه وقعت خبرا لاولئك ولهم خبر لاولئك وعذاب مرتفع على الفاعلية بالاستقرار فى الجار والمجرور لاعتماده على المبتدأ واولئك مع خبره على الوجهين خبر للموصول وتصديره بالفاء للدلالة على ان تعذيب الكفار بسبب اعمالهم السيئة كما ان تجريد خبر الموصول الاول عنها للايذان بان اثابة المؤمنين بطريق التفضل لا لايجاب الاعمال الصالحة اياها وقوله تعالى (مهين) صفة لعذاب مؤكدة لما افاده التنوين من الفخامة وفيه من المبالغة من وجوه شتى ما لا يخفى (والذين هاجروا فى سبيل الله) اى فى الجهاد حسبما يلوح به قوله تعالى (ثم قتلوا او ماتوا) اى فى تضاعيف المهاجرة ومحل الموصول الرفع على الابتداء وقوله تعالى (ليرزقنهم الله) جواب لقسم محذوف والجملة خبره ومن منع وقوع الجملة القسمية وجوابها خبرا للمبتدأ يضمر قولا هو الخبر والجملة محكية به وقوله تعالى (رزقا حسنا) اما مفعول ثان على انه من باب الرعى والذبح اى مرزوقا حسنا او مصدر مؤكد والمراد به ما لا ينقطع ابدا من نعيم الجنة والتسوية بينهما فى الوعد لاستوائهما فى القصد واصل العمل على ان مراتب الحسن متفاوتة فيجوز تفاوت حال المرزوقين حسب تفاوت الارزاق الحسنة وروى ان بعض اصحاب النبى عليه السلام قالوا يا نبى الله هؤلاء الذين قتلوا فى سبيل الله قد علمنا

قال ان هذه الاصنام وان اجتمعت لن تقدر على خلق ذبابة على ضعفها فكيف يليق بالعاقل جعلها معبودا فقوله ولو اجتمعوا له نصب على الحال كانه قال يستحيل ان يخلقوا الذباب حال اجتماعهم فكيف حال انفرادهم (والثانى) ان قوله وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه كانه سبحانه قال اترك امر الخلق والايجاد واتكلم فيما هو اسهل منه فان الذباب ان سلب منها شيئا فهى لا تقدر على استنقاذ ذلك الشئ من الذباب واعلم ان الدلالة الاولى صالحة لان يتمسك بها فى نفى كون المسيح والملائكة آلهة اما الثانية فلا فان قيل هذا الاستدلال اما ان يكون لنفى كون الاوثان خالقة عالمة حية مدبرة او لنفى كونها مستحقة للتعظيم (والاول) فاسد لان نفى كونها كذلك معلوم بالضرورة فاى فائدة فى اقامة الدلالة عليه (واما الثانى) فهذه الدلالة لا تفيده لانه لا يلزم من نفى كونها حية ان لا تكون معظمة فان جهات التعظيم مختلفة فالقوم كانوا يعتقدون فيها انها طلسمات موضوعة على صورة الكواكب او انها تماثيل الملائكة والانبياء المتقدمين وكانوا يعظمونها على ان تعظيمها يوجب تعظيم الملائكة واولئك الانبياء المتقدمين (والجواب) اما كونها طلسمات موضوعة على الكواكب بحيث يحصل منها الاضرار والانتفاع فهو يبطل بهذه الدلالة فانها لما لم تنفع نفسها فى هذا القدر وهو تخليص النفس عن الذبابة فلأن لا تنفع غيرها اولى واما انها تماثيل الملائكة والانبياء المتقدمين فقد تقرر فى العقل ان تعظيم غير الله تعالى ينبغى ان يكون اقل من تعظيم الله تعالى والقوم كانوا يعظمونها غاية التعظيم وحينئذ كان يلزم التسوية بينها وبين الخالق سبحانه فى التعظيم فمن ههنا صاروا مستوجبين للذم والملام اما قوله تعالى ضعف الطالب والمطلوب ففيه قولان (احدهما) المراد منه الصنم والذباب فالصنم كالطالب من حيث انه لو طلب ان يخلقه ويستنقذ منه ما استلبه لعجز عنه والذباب بمنزلة المطلوب (الثانى) ان الطالب من عبد الصنم والمطلوب نفس الصنم او عبادتها وهذا اقرب لان كون الصنم طالبا ليس حقيقة بل هو على سبيل التقدير اما ههنا فعلى سبيل التحقيق لكن المجاز فيه حاصل لان الوثن لا يصح ان يكون ضعيفا لان الضعف لا يجوز الا على من يصح ان يقوى وههنا وجه ثالث وهو ان يكون معنى قوله ضعف لا من حيث القوة ولكن لظهور قبح هذا المذهب كما يقال للمرء عند المناظرة ما اضعف هذا المذهب وما اضعف هذا الوجه اما قوله ما قدروا الله حق قدره اى ما عظموه حق تعظيمه حيث جعلوا هذه الاصنام على نهاية خساستها شريكة له فى المعبودية وهذه الكلمة مفسرة فى سورة الانعام وهو قوى لا يتعذر عليه فعل شئ وعزيز لا يقدر احد على مغالبته فاى حاجة الى القول بالشريك قال الكلبى فى هذه الآية ونظيرها فى سورة الانعام انها نزلت فى جماعة من اليهود وهم مالك بن الصيف وكعب بن الاشرف وكعب بن اسد وغيرهم لعنهم الله حيث قالوا انه سبحانه لما فرغ من خلق السموات والارض اعيا من خلقها فاستلقى واستراح ووضع احدى رجليه على الاخرى فنزلت هذه الآية تكذيبا

ما اعطاهم الله تعالى من الاجر ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فاللنا ما لهم فنزلت وقيل نزلت فى طوائف خرجوا من مكة الى المدينة للهجرة فتبعهم المشركون فقاتلوهم (وان الله لهو خير الرازقين) فانه يرزق بغير حساب مع ان ما يرزقه لا يقدر عليه احد غيره والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبله وقوله تعالى (ليدخلنهم مدخلا يرضونه) بدل من قوله تعالى ليرزقنهم الله او استئناف مقرر لمضمونه ومدخلا اما اسم مكان اريد به الجنة فهو مفعول ثان للادخال او مصدر ميمى اكدبه فعله قال ابن عباس رضى الله عنهما انما قيل يرضونه لانهم يرون فيها ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فيرضونه (وان الله لعليم) باحوالهم واحوال معاديهم (حليم) لا يعاجلهم بالعقوبة (ذلك) خبر مبتدأ محذوف اى الامر ذلك والجملة لتقرير ما قبله والتنبيه على ان ما بعده كلام مستأنف (ومن عاقب بمثل ما عوقب به) اى لم يزد فى الاقتصاص وانما سمى الابتداء بالعقاب الذى هو جزاء الجناية للمشاكلة او لكونه سببا له (ثم بغى عليه) بالمعاودة الى العقوبة (لينصرنه الله) على من بغى عليه لا محالة (ان الله لعفو غفور) اى مبالغ فى العفو والغفران فيعفو عن المنتصر ويغفر له ما صدر عنه من ترجيح الانتقام على العفو والصبر المندوب اليهما بقوله تعالى ولمن صبر وغفر ان ذلك اى ما ذكر من الصبر والمغفرة لمن عزم الامور فان فيه حثا بليغا على العفو والمغفرة فانه تعالى مع كمال قدرته لما كان يعفو ويغفر فغيره اولى بذلك وتنبيها على انه تعالى قادر على العقوبة اذ لا يوصف بالعفو الا القادر على ضده (ذلك) اشارة الى النصر وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبته ومحله الرفع على الابتداء خبره قوله تعالى (بان الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) اى بسبب

لهم ونزل قوله تعالى وما مسنا من لغوب واعلم ان منشأ هذه الشبهات هو القول بالتشبيه فيجب تنزيه ذات الله تعالى عن مشابهة سائر الذوات خلاف مايقوله المشبهة وتنزيه صفاته عن مشابهة سائر الصفات خلاف مايقوله الكرامية وتنزيه افعاله عن مشابهة سائر الافعال اعنى الغرض والداعى واستحقاق المدح والذم خلاف ماتقوله المعتزلة قال الامام ابو القاسم الانصارى رحمه الله فهو سبحانه جبار النعت عزيز الوصف فالاوهام لا تصوره والافكار لاتقدره والعقول لاتمثله والازمنة لاتدركه والجهات لاتحويه ولاتحده صمدى الذات سرمدى الصفات * قوله تعالى (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ان الله سميع بصير يعلم مابين ايديهم وما خلفهم والى الله ترجع الامور) اعلم انه سبحانه لما قدم مايتعلق بالالهيات ذكر ههنا مايتعلق بالنبوات قال مقاتل قال الوليد بن المغيرة أأنزل عليه الذكر من بيننا فانزل الله تعالى هذه الآية وههنا سؤالان (السؤال الاول) كلمة من للتبعيض فقوله الله يصطفى من الملائكة رسلا يقتضى ان تكون الرسل بعضهم لا كلهم وقوله جاعل الملائكة رسلا يقتضى كون كلهم رسلا فوقع التناقض (والجواب) جاز ان يكون المذكور ههنا من كان رسلا الى بنى آدم وهم اكابر الملائكة كجبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل والحفظة صلوات الله عليهم واما كل الملائكة فبعضهم رسل الى البعض فزال التناقض (السؤال الثانى) قال فى سورة الزمر لو أراد الله ان يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق مايشاء فدل على ان ولده يجب ان يكون مصطفى وهذه الآية دلت على ان بعض الملائكة وبعض الناس من المصطفين فيلزم بمجموع الآيتين اثبات الولد (والجواب) ان قوله لو اراد الله ان يتخذ ولدا لاصطفى يدل على ان كل ولد مصطفى ولا يدل على ان كل مصطفى ولد فلا يلزم من دلالة هذه الآية على وجود مصطفى كونه ولدا وفى هذه الآية وجه آخر وهو ان المراد تبكيت من عبد غير الله تعالى من الملائكة كأنه سبحانه ابطل فى الآية الاولى قول عبدة الاوثان وفى هذه الآية ابطل قول عبدة الملائكة فبين ان علو درجة الملائكة ليس لكونهم آلهة بل لان الله تعالى اصطفاهم لمكان عبادتهم فكأنه تعالى بين انهم ماقدروا الله حق قدره ان جعلوا الملائكة معبودين مع الله ثم بين سبحانه بقوله ان الله سميع بصير انه يسمع مايقولون ويرى مايفعلون ولذلك اتبعه بقوله يعلم مابين ايديهم وما خلفهم فقال بعضهم ماتقدم فى الدنيا وماتأخر وقال بعضهم مابين ايديهم امر الآخرة وما خلفهم امر الدنيا ثم اتبعه بقوله والى الله ترجع الامور فقوله يعلم مابين ايديهم اشارة الى العلم التام وقوله والى الله ترجع الامور اشارة الى القدرة التامة والتفرد بالالهية والحكم ومجموعها يتضمن نهاية الزجر عن الاقدام على المعصية * قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة ابيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء

انه تعالى من شأنه وسنته تغليب بعض مخلوقاته على بعض والمداولة بين الاشياء المتضادة وعبر عن ذلك بادخال احد الملوين فى الآخر بان يزيد فيه ماينقص عن الآخر او تحصيل احدهما فى مكان الآخر لكونه اظهر المواد واوضحها (وان الله سميع) بكل المسموعات التى من جملتها قول المعاقب (بصير) بجميع المبصرات ومن جملتها افعاله (ذلك) اى الاتصاف بما ذكر من كمال القدرة والعلم وما فيه من معنى البعد لما مر آنفا وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (بان الله هو الحق) الواجب لذاته الثابت فى نفسه وصفاته وافعاله وحده فان وجوب وجوده ووحدته يقتضيان كونه مبدأ لكل مايوجد من الموجودات عالما بكل المعلومات او الثابت الهيته فلا يصلح لها الا من كان عالما قادرا (وان مايدعون من دونه) الها وقرئ على البناء للمفعول على ان الواو وما فانه عبارة عن الآلهة وقرئ بالتاء على خطاب المشركين (هو الباطل) اى المعدوم فى حد ذاته او الباطل الوهيته (وان الله هو العلى) على جميع الاشياء (الكبير) عن ان يكون له شريك لاشئ اعلى منه شأنا واكبر سلطانا (ألم تر ان الله انزل من السماء ماء) استفهام تقرير كما يفصح عنه الرفع فى قوله تعالى (فتصبح الارض مخضرة) بالعطف على انزل وايثار صيغة الاستقبال للاشعار بتجدد اثر الانزال واستمراره او لاستحضار صورة الاخضرار (ان الله لطيف) يصل لطفه او علمه الى كل ماجل ودق (خبير) بما يليق من التدابير الحسنة ظاهرا وباطنا (له ما فى السموات وما فى الارض) خلقا وملكا وتصرفا (وان الله لهو الغنى) عن كل شئ (الحميد) المستوجب للحمد بصفاته وافعاله (ألم تر ان الله سخر لكم ما فى الارض) اى جعل مافيها من الاشياء مذللة لكم معدة لمنافعكم تتصرفون فيها كيف (على)

على الناس فأقيموا الصلاة و آتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير) اعلم انه سبحانه لما تكلم فى الالهيات ثم فى النبوات أتبعه بالكلام فى الشرائع وهو من اربعة اوجه (اولها) تعيين المأمور (وثانيها) أقسام المأمور به (وثالثها) ذكر ما يوجب قبول تلك الاوامر (ورابعها) تأكيد ذلك التكليف (اما النوع الاول) وهو تعيين المأمور فهو قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا وفيه قولان (احدهما) المراد منه كل المكلفين سواء كان مؤمنا او كافرا لان التكليف بهذه الاشياء عام فى كل المكلفين فلا معنى لتخصيص المؤمنين بذلك (والثانى) ان المراد بذلك المؤمنون فقط اما اولا فلأن اللفظ صريح فيه واما ثانيا فلأن قوله بعد ذلك هو اجتباكم وقوله هو سماكم المسلمين وقوله وتكونوا شهداء على الناس كل ذلك لا يليق الا بالمؤمنين اقصى ما فى الباب أن يقال كان ذلك واجبا على الكل فأى فائدة فى تخصيص المؤمنين لكنا نقول تخصيصهم بالذكر لا يدل على نفى ذلك عما عداهم بل قد دلت هذه الآية على كونهم على التخصيص مأمورين بهذه الاشياء ودلت سائر الآيات على كون الكل مأمورين بها ويمكن أن يقال فائدة التخصيص انه لما جاء الخطاب العام مرة بعد اخرى ثم انه ما قبله الا المؤمنون خصهم الله تعالى بهذا الخطاب ليكون ذلك كالتحريض لهم على المواظبة على قبوله وكالتشريف لهم فى ذلك الافراد والتخصيص (اما النوع الثانى) وهو المأمور به فقد ذكر الله أمورا اربعة (الاول) الصلاة وهو المراد من قوله اركعوا واسجدوا وذلك لان اشرف اركان الصلاة هو الركوع والسجود والصلاة هى المختصة بهذين الركنين فكان ذكرهما جاريا مجرى ذكر الصلاة وذكر ابن عباس رضى الله عنهما أن الناس فى اول اسلامهم كانوا يركعون ولا يسجدون حتى نزلت هذه الآية (الثانى) قوله واعبدوا ربكم وذكروا فيه وجوها (احدها) اعبدوه ولا تعبدوا غيره (وثانيها) واعبدوا ربكم فى سائر المأمورات والمنهيات (وثالثها) افعلوا الركوع والسجود وسائر الطاعات على وجه العبادة لانه لا يكفى ان يفعل فانه ما لم يقصد به عبادة الله تعالى لا ينفع فى باب الثواب فلذلك عطف هذه الجملة على الركوع والسجود (الثالث) قوله تعالى وافعلوا الخير قال ابن عباس رضى الله عنهما يريد به صلة الرحم ومكارم الاخلاق (والوجه عندى) فى هذا الترتيب ان الصلاة نوع من انواع العبادة والعبادة نوع من انواع فعل الخير لان فعل الخير ينقسم الى خدمة المعبود الذى هو عبارة عن التعظيم لامر الله والى الاحسان الذى هو عبارة عن الشفقة على خلق الله ويدخل فيه البر والمعروف والصدقة على الفقراء وحسن القول للناس فكأنه سبحانه قال كلفتكم بالصلاة بل كلفتكم بما هو اعم منها وهو العبادة بل كلفتكم بما هو اعم من العبادة وهو فعل الخيرات اما قوله تعالى لعلكم تفلحون فقيل معناه لتفلحوا والفلاح الظفر بنعيم الآخرة وقال الامام أبو القاسم الانصارى لعل كلمة للترجية فان الانسان قلما يخلو فى اداء فريضة من تقصير

ثلم فلا اصلب من الحجر ولا اشد من الحديد ولا اهيب من النار (٢٦٣) وهى مضرة لكم وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم لتعجيل المسرة والتشويق الى المؤخر (والفلك) عطف على ما او على اسم ان وقرئ بالرفع على الابتداء (تجرى فى البحر بأمره) حال من الفلك على الاول وخبر على الاخير (ويمسك السماء ان تقع على الارض) اى من ان تقع او كراهة ان تقع بأن خلقها على هيئة متداعية الى الاستمساك (الا باذنه) اى بمشيئته وذلك يوم القيامة وفيه رد لاستمساكها بذاتها فانها مساوية فى الجسمية لسائر الاجسام القابلة للميل الهابط فتقبله كقبول غيرها (ان الله بالناس لرؤف رحيم) حيث هيأ لهم اسباب معاشهم وفتح عليهم ابواب المنافع واوضح لهم مناهج الاستدلال بالآيات التكوينية والتنزيلية (وهو الذى احياكم) بعد ان كنتم جمادا عناصر ونطفا حسبما فصل فى مطلع السورة الكريمة (ثم يميتكم) عند مجئ آجالكم (ثم يحييكم) عند البعث (ان الانسان لكفور) اى لجحود للنعم مع ظهورها وهذا وصف للجنس بوصف بعض افراده (لكل أمة) كلام مستأنف جئ به لزجر معاصريه عليه السلام من اهل الاديان السماوية عن منازعته عليه السلام ببيان حال ما تمسكوا به من الشرائع واظهار خطئهم فى النظر اى لكل امة معينة من الامم الخالية والباقية (جعلنا) اى وضعنا وعينا (منسكا) اى شريعة خاصة لا لامة اخرى منهم على معنى عينا كل شريعة لامة معينة من الامم بحيث لا تتخطى امة منهم شريعتها المعينة لها الى شريعة اخرى لا استقلالا ولا اشتراكا وقوله تعالى (هم ناسكوه) صفة لمنسكا مؤكدة للقصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور على الفعل والضمير لكل امة باعتبار خصوصها اى تلك الامة المعينة ناسكوه

وليس هو على يقين من ان الذى أتى به هل هو مقبول عند الله تعالى و العواقب ايضا مستورة وكل ميسر لما خلق له (الرابع) قوله تعالى وجاهدوا فى الله حق جهاده قال صاحب الكشاف فى الله اى فى ذات الله ومن اجله يقال هو حق عالم وجد عالم اى عالم حقا وجدا ومنه حق جهاده وههنا سؤالات (السؤال الاول) ما وجه هذه الاضافة وكان القياس حق الجهاد فيه او حق جهادكم فيه كما قال وجاهدوا فى الله حق جهاده (والجواب) الاضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص فلما كان الجهاد مختصا بالله من حيث انه مفعول لوجهه ومن أجله صحت الاضافة اليه (السؤال الثانى) ما هذا الجهاد (الجواب) فيه وجوه (احدها) أن المراد قتال الكفار خاصة ومعنى حق جهاده أن لا تفعل الا عبادة لا رغبة فى الدنيا من حيث الاسم او الغنيمة (والثانى) أن تجاهدوا آخرا كما جاهدوا اولا فقد كان جهادهم فى الاول اقوى وكانوا فيه أثبت نحو صنعهم يوم بدر روى عن عمر رضى الله عنه انه قال لعبد الرحمن بن عوف أما علمت انا كنا نقرأ وجاهدوا فى الله حق جهاده فى آخر الزمان كما جاهدتموه فى اوله فقال عبد الرحمن ومتى ذلك يا أمير المؤمنين قال اذا كانت بنو امية الامراء وبنو المغيرة الوزراء واعلم انه يبعد أن تكون هذه الزيادة من القرآن والا لنقل كنقل نظائره ولعله ان صح ذلك عن الرسول فانما قاله كالتفسير للآية وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قرأ وجاهدوا فى الله حق جهاده كما جاهدتم اول مرة فقال عمر من الذى أمرنا بجهاده فقال قبيلتان من قريش مخزوم وعبد شمس فقال صدقت (والثالث) قال ابن عباس حق جهاده لا تخافوا فى الله لومة لائم (والرابع) قال الضحاك واعملوا لله حق عمله (والخامس) استفرغوا وسعكم فى احياء دين الله واقامة حقوقه بالحرب باليد واللسان وجميع ما يمكن وردوا انفسكم عن الهوى والميل (والوجه السادس) قال عبد الله بن المبارك حق جهاده مجاهدة النفس والهوى ولما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك قال رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر والاولى ان يحمل ذلك على كل التكاليف فكل ما امر به ونهى عنه فالمحافظة عليه جهاد (السؤال الثالث) هل يصح ما نقل عن مقاتل والكلبى ان هذه الآية منسوخة بقوله فاتقوا الله ما استطعتم كما ان قوله اتقوا الله حق تقاته منسوخ بذلك (الجواب) هذا بعيد لان التكليف مشروط بالقدرة لقوله تعالى لا يكلف الله نفسا الا وسعها فكيف يقول الله وجاهدوا فى الله على وجه لا تقدرون عليه وكيف وقد كان الجهاد فى الاول مضيقا حتى لا يصح ان يفر الواحد من عشرة ثم خففه الله بقوله الآن خفف الله عنكم أفيجوز مع ذلك ان يوجبه على وجه لا يطاق حتى يقال انه منسوخ (النوع الثالث) بيان ما يوجب قبول هذه الاوامر وهو ثلاثة (الاول) قوله هو اجتباكم ومعناه ان التكليف تشريف من الله تعالى للعبد فلما خصكم بهذا التشريف فقد خصكم باعظم التشريفات واختاركم لخدمته والاشتغال بطاعته فأى رتبة اعلى من هذا واى سعادة فوق هذا ويحتمل فى اجتباكم

والعاملون به لا امة اخرى فالامة التى كانت من مبعث موسى عليه السلام (٢٦٤) الى مبعث عيسى عليه السلام منسكهم التوراة هم ناسكوها والعاملون بها لا غيرهم والتى كانت من مبعث عيسى الى مبعث النبى عليهما السلام منسكهم الانجيل هم ناسكوه والعاملون به لا غيرهم واما الامة الموجودة عند مبعث النبى عليه السلام ومن بعدهم من الموجودين الى يوم القيامة فهم امة واحدة منسكهم القرآن ليس الا كما مر فى تفسير قوله تعالى لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا والفاء فى قوله تعالى (فلا ينازعنك فى الامر) لترتيب النهى او موجبه على ما قبلها فان تعيينه تعالى لكل امة من الامم التى من جملتهم هذه الامة شريعة مستقلة بحيث لا تتخطى امة منهم شريعتها المعينة لها موجب لطاعة هؤلاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم منازعتهم اياه فى امر الدين زعما منهم ان شريعتهم ما عين لآبائهم الاولين من التوراة والانجيل فانهما شريعتان لمن مضى من الامم قبل انتساخهما وهؤلاء امة مستقلة منسكهم القرآن المجيد فحسب والنهى اما على حقيقته او كناية عن نهيه عليه السلام عن الالتفات الى نزاعهم المبنى على زعمهم المذكور واما جعله عبارة عن نهيه عليه السلام عن منازعتهم فلا يساعده المقام وقرئ فلا ينزعنك على تهييجه عليه السلام والمبالغة فى تثبيته واياما كان فمحصل النزاع ما ذكرناه وتخصيصه بأمر النسائك وجعله عبارة عن قول الخزاعيين وغيرهم للمسلمين ما لكم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتله الله تعالى مما لا سبيل اليه اصلا كيف لا وانه يستدعى ان يكون اكل الميتة وسائر ما يدينونه من الاباطيل من جملة المناسك التى جعلها الله تعالى لبعض الامم ولا يرتاب فى بطلانه عاقل (وادع) اى وادعهم (خصكم)

خصكم بالهداية والمعونة والتيسير اما قوله تعالى وماجعل عليكم فى الدين من حرج فهو كالجواب عن سؤال يذكر وهو ان التكليف وان كان تشريفا واجبا كما ذكرتم لكنه شاق شديد على النفس فأجاب الله تعالى عنه بقوله وماجعل عليكم فى الدين من حرج روى ان ابا هريرة رضى الله عنه قال كيف قال الله تعالى وماجعل عليكم فى الدين من حرج مع انه منعنا عن الزنا والسرقة فقال ابن عباس رضى الله عنهما بلى ولكن الاصر الذى كان على بنى اسرائيل وضع عنكم وههنا سؤالات (السؤال الاول) ما الحرج فى اصل اللغة (الجواب) روى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال لبعض هذيل ماتعدون الحرج فيكم قال الضيق وعن عائشة رضى الله عنها انها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال الضيق (السؤال الثانى) ما المراد من الحرج فى الآية (الجواب) قيل هو الاتيان بالرخص فمن لم يستطع ان يصلى قائما فليصل جالسا ومن لم يستطع ذلك فليوم واباح للصائم الفطر فى السفر والقصر فيه وايضا فانه سبحانه لم يبتل عبده بشئ من الذنوب الا وجعل له مخرجا منها اما بالتوبة او بالكفارة وعن ابن عمر رضى الله عنهما انه من جاءته رخصة فرغب عنها كلف يوم القيامة ان يحمل ثقل تبين حتى يقضى بين الناس وعن النبى صلى الله عليه وسلم اذا اجتمع امران فاحبهما الى الله تعالى ايسرهما وعن كعب اعطى الله هذه الامة ثلاثا لم يعطهن الا للانبياء جعلهم شهداء على الناس وماجعل عليهم فى الدين من حرج وقال ادعونى استجب لكم (السؤال الثالث) استدلت المعتزلة بهذه الآية فى المنع من تكليف مالا يطاق فقالوا لما خلق الله الكفر والمعصية فى الكافر والعاصى ثم نهاه عنهما كان ذلك من اعظم الحرج وذلك منفى بصريح هذا النص (والجواب) لما أمره بترك الكفر وترك الكفر يقتضى انقلاب علمه جهلا فقد أمر الله المكلف بقلب علم الله جهلا وذلك من اعظم الحرج ولما استوى القدمان زال السؤال (الموجب الثانى) لقبول التكليف قوله ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى نصب الملة وجهان (احدهما) وهو قول الفراء انها منصوبة بمضمون ماتقدمها كأنه قيل وسع دينكم توسعة ملة أبيكم ابراهيم ثم حذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه (والثانى) ان يكون منصوبا على المدح والتعظيم اى اعنى بالدين ملة أبيكم ابراهيم واعلم ان المقصود من ذكره التنبيه على ان هذه التكاليف والشرائع هى شريعة ابراهيم عليه الصلاة والسلام والعرب كانوا محبين لابراهيم عليه السلام لانهم من اولاده فكان التنبيه على ذلك كالسبب لصيرورتهم منقادين لقبول هذا الدين وههنا سؤالات (السؤال الاول) لم قال ملة أبيكم ابراهيم ولم يدخل فى الخطاب المؤمنون الذين كانوا فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يكن من ولده (الجواب) من وجهين (احدهما) لما كان اكثرهم من ولده كالرسول ورهطه وجميع العرب جاز ذلك (وثانيهما) وهو قول الحسن ان الله تعالى جعل حرمة ابراهيم عليه السلام على المسلمين كحرمة الوالد على ولده ومنه قوله تعالى النبى اولى بالمؤمنين من انفسهم فجعل حرمته

اووادع الناس كافة على انهم داخلون فيهم دخولا (٢٦٥) اوليا (الى ربك) الى توحيده وعبادته حسبما بين لهم فى منسكهم وشريعتهم (انك لعلى هدى مستقيم) اى طريق موصل الى الحق سوى والمراد به اما الدين والشريعة اوادلتها (وان جادلوك) بعد ظهور الحق بما ذكر من التحقيق ولزوم الحجة عليهم (فقل) لهم على سبيل الوعيد (الله اعلم بما تعملون) من الاباطيل التى من جملتها المجادلة (الله يحكم بينكم) يفصل بين المؤمنين منكم والكافرين (يوم القيامة) بالثواب والعقاب كما فصل فى الدنيا بالحجج والآيات (فيما كنتم فيه تختلفون) من امر الدين (ألم تعلم) استئناف مقرر لمضمون ماقبله والاستفهام للتقرير اى قد علمت (ان الله يعلم ما فى السماء والارض) فلا يخفى عليه شئ من الاشياء التى من جملتها مايقوله الكفرة وما يعملونه (ان ذلك) اى مافى السماء والارض (فى كتاب) هو اللوح قد كتب فيه قبل حدوثه فلا يهمنك امرهم مع علمنا به وحفظنا له (ان ذلك) اى ماذكر من العلم والاحاطة به واثباته فى اللوح او الحكم بينكم (على الله يسير) فان علمه وقدرته مقتضى ذاته فلا يخفى عليه شئ ولا يعسر عليه مقدور (ويعبدون من دون الله) حكاية لبعض اباطيل المشركين واحوالهم الدالة على كمال سخافة عقولهم وركاكة آرائهم من بناء امر دينهم على غير مبنى من دليل سمعى اوعقلى واعراضهم عما القى عليهم من سلطان بين هو اساس الدين وقاعدته اشد اعراض اى يعبدون متجاوزين عبادة الله (مالم ينزل به) اى بجواز عبادته (سلطانا) اى حجة (وماليس لهم به) اى بجواز عبادته (علم) من ضرورة العقل اواستدلاله (وما للظالمين) اى الذين ارتكبوا (٣٤) (را) (س) مثل هذا الظلم العظيم الذى يقضى ببطلانه وكونه ظلما بديهة العقول (من نصير)

كرمة الوالد على الولد وحرمة نسائه كحرمة الوالدة على ماقال تعالى وازواجه امهاتهم (السؤال الثانى) هذا يقتضى ان تكون ملة محمد كملة ابراهيم عليهما السلام سواء فيكون الرسول ليس له شرع مخصوص ويؤكده قوله تعالى ان اتبع ملة ابراهيم (الجواب) هذا الكلام انما وقع مع عبدة الاوثان فكأنه تعالى قال عبادة الله وترك الاوثان هى ملة ابراهيم فأما تفاصيل الشرائع فلا تعلق لها بهذا الموضع (السؤال الثالث) مامعنى قوله تعالى هو سماكم المسلمين من قبل (الجواب) فيه قولان (احدهما) ان الكناية راجعة الى ابراهيم عليه السلام قال لكل نبي دعوة مستجابة وهو قول ابراهيم عليه الصلاة والسلام ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك فاستجاب الله تعالى له فجعلها امة محمد صلى الله عليه وسلم وروى انه عليه الصلاة والسلام اخبر بأن الله تعالى سيبعث محمدا يمتثل ملته وانه سيسمى امته بالمسلمين (والثانى) ان الكناية راجعة الى الله تعالى فى قوله هو اجتباكم فروى عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال ان الله سماكم المسلمين من قبل اى فى كل الكتب وفى هذا اى فى القرآن وهذا الوجه اقرب لانه تعالى قال ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فبين انه سماهم بذلك لهذا الغرض وهذا لايليق الا بالله ويدل عليه ايضا قراءة أبي بن كعب الله سماكم والمعنى انه سبحانه فى سائر الكتب المتقدمة على القرآن وفى القرآن ايضا بين فضلكم على الامم وسماكم بهذا الاسم الاكرم لاجل الشهادة المذكورة فلما خصكم الله بهذه الكرامة فاعبدوه ولا تردوا تكاليفه وهذا هو العلة الثالثة الموجبة لقبول التكليف واما الكلام فى انه كيف يكون الرسول شهيدا علينا وكيف تكون امته شهداء على الناس فقد تقدم فى سورة البقرة وبينا انه اخذ منه مايدل على ان الاجماع حجة (النوع الرابع) شرح مايجرى مجرى المؤكد لما مضى وهو قوله فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ويجب صرفها الى المفروضات لانها هى المعهودة واعتصموا بالله اى بدلائله العقلية والسمعية والطافه وعصمته قال ابن عباس سلوا الله العصمة من كل المحرمات وقال القفال اجعلوا الله عصمة لكم مما تحذرون هو مولاكم سيدكم والمتصرف فيكم فنعم المولى ونعم النصير فكأنه سبحانه قال انا مولاك بل انا ناصرك وحسبك واعلم ان المعتزلة احتجوا بهذه الآيات من وجوه (احدها) ان قوله لتكونوا شهداء على الناس يدل على انه سبحانه أراد الايمان من الكل لانه تعالى لايجعل الشهيد على عباده الا من كان عدلا مرضيا فاذا أراد ان تكونوا شهداء على الناس فقد أراد ان تكونوا جميعا صالحين عدولا وقد علمنا ان منهم فاسقا فدل ذلك على ان الله تعالى أراد من الفاسق كونه عدلا (وثانيها) قوله واعتصموا بالله وكيف يمكن الاعتصام به من ان الشر لايوجد الا منه (وثالثها) قوله فنعم المولى لانه لو كان كما يقوله اهل السنة من انه خلق اكثر عباده ليخلق فيهم الكفر والفساد ثم يعذبهم لما كان نعم المولى بل كان لايوجد من شرار الموالى احد الا وهو شر منه فكان يجب ان يوصف بأنه بئس المولى وذلك باطل فدل

يساعدهم بنصرة مذهبهم وتقرير رأيهم اوبدفع العذاب الذى يعتريهم بسبب ظلمهم (واذا تتلى عليهم آياتنا) عطف على يعبدون ومابينهما اعتراض وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار التجددى (بينات) اى حال كونها واضحات الدلالة على العقائد الحقة والاحكام الصادقة او على بطلان ماهم عليه من عبادة الاصنام او على كونها من عند الله عزوجل (تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر) اى الانكار كالمكرم بمعنى الاكرام او الفظيع من التجهم والبسور او الشر الذى يقصدونه بظهور مخايله من الاوضاع والهيئات وهو الانسب بقوله تعالى (يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا) اى يثبون ويبطشون بهم من فرط الغيظ والغضب لاباطيل اخذوها تقليدا وهل جهالة اعظم واظلم من ان يعبدوا مالا يوهم صحة عبادته شيء ما اصلا بل يقضى ببطلانها العقل والنقل ويظهروا لمن يدعوهم الى الحق المبين بالسلطان المبين مثل هذا المنكر الشنيع كلا ولهذا وضع الذين كفروا موضع الضمير (قل) ردا عليهم واقناطا عما يقصدونه من الاضرار بالمسلمين (أفأنبئكم) اى أخاطبكم فأخبركم (بشر من ذلكم) الذى فيكم من غيظكم على التالين وسطوتكم بهم او مما اصابكم من الضجر بسبب ماتلوه عليكم (النار) اى هو النار على انه جواب لسؤال مقدر كأنه قيل ماهو وقيل هو مبتدأ خبره قوله تعالى (وعدها الله الذين كفروا) وقرىء النار بالنصب على الاختصاص وبالجر بدلا من شر فتكون الجملة الفعلية استئنافا كالوجه الاول او حالا من النار باضمار قد (وبئس المصير) النار (ياأيها الناس ضرب مثل) اى بين لكم حال مستغربة او قصة بديعة رائعة حقيقة بأن تسمى مثلا وتسير فى الامصار والاعصار (على)

على انه سبحانه ماراد من جميعهم الا الصلاح فان قيل لم لايجوز ان يكون نعم المولى للمؤمنين خاصة كما انه نعم النصير لهم خاصة قلنا انه تعالى مولى المؤمنين والكافرين جميعا فيجب ان يقال انه نعم المولى للمؤمنين وبئس المولى للكافرين فان ارتكبوا ذلك فقد ردوا القرآن والاجماع وصرحوا بشتم الله تعالى (ورابعها) ان قوله سماكم المسلمين من قبل يدل على اثبات الاسماء الشرعية وانها من قبل الله تعالى لانها لو كانت لغة لما اضيفت الى الله تعالى على وجه الخصوص (والجواب) عن الاول وهو قوله كونه تعالى مريدا لكونه شاهدا يستلزم كونه مريدا لكونه عدلا فنقول ان كانت ارادة الشئ مستلزمة لارادة لوازمه فارادة الايمان من الكافر توجب ان تكون مستلزمة لارادة جهل الله تعالى فيلزم كونه تعالى مريدا لجهل نفسه وان لم يكن ذلك واجبا سقط الكلام واما قوله واعتصموا بالله فيقال هذا ايضا وارد عليكم فانه سبحانه خلق الشهوة فى قلب الفاسق واكدها وخلق المشتهى وقربه منه ورفع المانع ثم تسلط عليه الشياطين من الانس والجن وعلم انه لامحالة يقع فى الفجور والضلال وفى الشاهد كل من فعل ذلك فانه يكون بئس المولى فان صح قياس الغائب على الشاهد فهذا لازم عليكم وان بطل سقط كلامكم بالكلية تم تفسير سورة الحج ويتلوه تفسير سورة المؤمنون والحمد لله رب العالمين

(سورة المؤمنون مائة وثمان عشرة آية مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(قد افلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون الا على ازواجهم او ما ملكت ايمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فاولئك هم العادون والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) اعلم انه سبحانه حكم بحصول الفلاح لمن كان مستجمعا لصفات سبع وقبل الخوض فى شرح تلك الصفات لابد من بحثين (البحث الاول) ان قد نقيضة لما فقد تثبت المتوقع ولما تنفيه ولاشك ان المؤمنين كانوا متوقعين لمثل هذه البشارة وهى الاخبار بثبات الفلاح لهم فخوطبوا بما دل على ثبات ماتوقعوه (البحث الثانى) الفلاح الظفر بالمراد وقيل البقاء فى الخير وافلح دخل فى الفلاح كابشر دخل فى البشارة ويقال افلحه صيره الى الفلاح وعليه قراءة طلحة بن مصرف أفلح على البناء للمفعول وعنه افلحوا على لغة أكلونى البراغيث او على الابهام والتفسير (الصفة الاولى) قوله المؤمنون وقد تقدم القول فى الايمان فى سورة البقرة (الصفة الثانية) قوله الذين هم فى صلاتهم خاشعون واختلفوا فى الخشوع فمنهم من جعله من افعال القلوب كالخوف والرهبة ومنهم من جعله من افعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات ومنهم من جمع بين الامرين وهو الاولى

اوجعل لله مثل اى مثل فى استحقاق العبادة واريد بذلك (٢٦٧) ماحكى عنهم من عبادتهم للاصنام (فاستمعوا له) اى المثل نفسه استماع تدبر وتفكر او فاستمعوا لاجله ماأقول فقوله تعالى (ان الذين تدعون من دون الله) الخ بيان للمثل وتفسير له على الاول وتعليل لبطلان جعلهم الاصنام مثل الله سبحانه فى استحقاق العبادة على الثانى وقرئ بياء الغيبة مبنيا للفاعل ومبنيا للمفعول والراجع الى الموصول على الاولين محذوف (لن يخلقوا ذبابا) اى لن يقدروا على خلقه ابدا مع صغره وحقارته فان لن بما فيها من تأكيد النفى دالة على منافاة مابين المنفى والمنفى عنه (ولو اجتمعوا له) اى لخلقه وجواب لو محذوف لدلالة ماقبله عليه والجملة معطوفة على شرطية اخرى محذوفة ثقة بدلالة هذه عليها اى لولم يجتمعوا عليه لن يخلقوه ولو اجتمعوا له لن يخلقوه كما هو محققه مرارا وهما فى موضع الحال كأنه قيل لن يخلقوا ذبابا على كل حال (وان يسلبهم الذباب شيئا) بيان لعجزهم عن الامتناع عما يفعل بهم الذباب بعد بيان عجزهم عن خلقه اى ان يأخذ الذباب منهم شيئا (لايستنقذوه منه) مع غاية ضعفه ولقد جهلوا غاية التجهيل فى اشراكهم بالله القادر على جميع المقدورات المتفرد بايجاد كافة الموجودات تماثيل هى اعجز الاشياء وبين ذلك بانها لاتقدر على اقل الاحياء واذلها ولو اتفقوا عليه بل لاتقوى على مقاومة هذا الاقل الاذل وتعجز عن ذبه عن نفسها واستنقاذ مايختطفه منها قيل كانوا يطيبونها بالطيب والعسل ويغلقون عليها الابواب فيدخل الذباب من الكوى فيأكله (ضعف الطالب والمطلوب) اى عابد الصنم ومعبوده او الذباب الطالب لما يسلبه من الصنم من الطيب والصنم المطلوب منه ذلك او الصنم والذباب كأنه يطلبه ليستنقذ منه مايسلبه ولوحققت وجدت الصنم اضعف من الذباب بدرجات وعابده

فالخاشع فى صلاته لابد وان يحصل له مما يتعلق بالقلب من الافعال نهاية الخضوع والتذلل للمعبود ومن التروك ان لا يكون ملتفت الخاطر الى شئ سوى التعظيم ومما يتعلق بالجوارح ان يكون ساكنا مطرقا ناظرا الى موضع سجوده ومن التروك ان لا يلتفت يمينا ولا شمالا ولكن الخشوع الذى يرى على الانسان ليس الا ما يتعلق بالجوارح فان ما يتعلق بالقلب لا يرى قال الحسن وابن سيرين كان المسلمون يرفعون ابصارهم الى السماء فى صلاتهم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك فلما نزلت هذه الآية طأطأ وكان لا يجاوز بصره مصلاه فان قيل فهل تقولون ان ذلك واجب فى الصلاة قلنا انه عندنا واجب ويدل عليه امور (احدها) قوله تعالى افلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها والتدبر لا يتصور بدون الوقوف على المعنى وكذا قوله تعالى ورتل القرآن ترتيلا معناه قف على عجائبه ومعانيه (وثانيها) قوله تعالى واقم الصلاة لذكرى وظاهر الامر للوجوب والغفلة تضاد الذكر فمن غفل فى جميع صلاته كيف يكون مقيما للصلاة لذكره (وثالثها) قوله تعالى ولا تكن من الغافلين وظاهر النهى للتحريم (ورابعها) قوله حتى تعلموا ما تقولون تعليل لنهى السكران وهو مطرد فى الغافل المستغرق المهتم بالدنيا (وخامسها) قوله عليه السلام انما الخشوع لمن تمسكن وتواضع وكلمة انما للحصر وقوله عليه السلام من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله الا بعدا وصلاة الغافل لا تمنع من الفحشاء وقال عليه السلام كم من قائم حظه من قيامه التعب والنصب وما أراد به الا الغافل وقال ايضا ليس للعبد من صلاته الا ما عقل (وسادسها) قال الغزالى رحمه الله المصلى يناجى ربه كما ورد به الخبر والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة البتة وبيانه ان الانسان اذا ادى الزكاة حال الغفلة فقد حصل المقصود منها على بعض الوجوه وهو كسر الحرص واغناء الفقير وكذا الصوم قاهر للقوى كاسر لسطوة الهوى التى هى عدوة الله تعالى فلا يبعد ان يحصل منه مقصود مع الغفلة وكذا الحج افعال شاقة وفيه من المجاهدة ما يحصل به الابتلاء سواء كان القلب حاضرا او لم يكن اما الصلاة فليس فيها الا ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود اما الذكر فانه مناجاة مع الله تعالى فاما ان يكون المقصود منه كونه مناجاة او المقصود مجرد الحروف والاصوات ولا شك فى فساد هذا القسم فان تحريك اللسان بالهذيان ليس فيه غرض صحيح فثبت ان المقصود منه المناجاة وذلك لا يتحقق الا اذا كان اللسان معبرا عما فى القلب من التضرعات فأى سؤال فى قوله اهدنا الصراط المستقيم وكان القلب غافلا عنه بل اقول لو حلف انسان وقال والله لاشكرن فلانا وأثنى عليه واسأله حاجة ثم جرت الالفاظ الدالة على هذه المعانى على لسانه فى اليوم لم يبر فى يمينه ولو جرى على لسانه فى ظلمة الليل وذلك الانسان حاضر وهو لا يعرف حضوره ولا يراه لا يصير بارا فى يمينه ولا يكون كلامه خطابا معه ما لم يكن حاضرا بقلبه ولو جرت هذه الكلمات على لسانه وهو حاضر فى بياض النهار الا ان المتكلم غافل لكونه مستغرق الهم بفكر من الافكار ولم يكن له قصد

اجهل من كل جاهل واضل من كل ضال (ماقدروا الله حق قدره) اى ماعرفوه حق معرفته (٢٦٨) حيث اشركوا به وسموا باسمه ماهو ابعد الاشياء عنه مناسبة (ان الله لقوى) على خلق الممكنات بأسرها وافناء الموجودات عن آخرها (عزيز) غالب على جميع الاشيا وقد عرفت حال آلهتهم المقهورة لاذلها العجزة عن اقلها والجملة تعليل لما قبلها من نفى معرفتهم له تعالى (الله يصطفى من الملائكة رسلا) يتوسطون بينه تعالى وبين الانبياء عليهم السلام بالوحى (ومن الناس) وهم المختصون بالنفوس الزكية المؤيدون بالقوة القدسية المتعلقون بكلا العالمين الروحانى والجسمانى يتلقون من جانب ويلقون الى جانب ولا يعوقهم التعلق بمصالح الخلق عن التبتل الى جانب الحق فيدعونهم اليه تعالى بما انزل عليهم ويعلمونهم شرائعه واحكامه كأنه تعالى لما قرر وحدانيته فى الالوهية ونفى ان يشاركه فيها شئ من الاشياء بين ان له عبادا مصطفين للرسالة يتوسل باجابتهم والاقتداء بهم الى عبادته عز وجل وهو اعلى الدرجات واقصى الغايات لمن عداه من الموجودات تقريرا للنبوة وتزييفا لقولهم لو شاء الله لانزل ملائكة وقولهم ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى وقولهم الملائكة بنات الله وغير ذلك من الاباطيل (ان الله سميع بصير) عليم بجميع المسموعات والمبصرات فلا يخفى عليه شئ من الاقوال والافعال (يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم والى الله ترجع الامور) لا الى احد غيره لا اشتراكا ولا استقلالا (يا ايها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا) اى فى صلواتكم امرهم بهما لما انهم ما كانوا يفعلونهما اول الاسلام او صلوا عبر عن الصلاة بهما لانهما اعظم اركانها او اخضعوا لله تعالى وخروا له سجدا (واعبدوا ربكم) بسائر ما تعبدكم به (وافعلوا الخير) وتحروا ما هو خير واصلح فى كل ما تأتون وما تذرون كنوافل الطاعات (توجيه)

وصلة الارحام ومكارم الاخلاق (لعلكم تفلحون) اى افعلوا هذه كلها وانتم راجون بها الفلاح غير متيقنين له واثقين بأعمالكم والآية آية سجدة عند الشافعى رحمه الله لظاهر مافيها من الامر (٢٦٩) بالسجود ولقوله عليه الصلاة والسلام فضلت سورة الحج بسجدتين من لم يسجدهما فلا يقرأها (وجاهدوا فى الله) اى لله تعالى ولاجله اعداء دينه الظاهرة كاهل الزيغ والباطنة كالهوى والنفس وعنه عليه الصلاة والسلام انه رجع من غزوة تبوك فقال رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر (حق جهاده) اى جهادا فيه حقا خالصا لوجهه فعكس واضيف الحق الى الجهاد مبالغة كقولك هو حق عالم واضيف الجهاد الى الضمير اتساعا او لانه مختص به تعالى من حيث انه مفعول لوجهه ومن اجله (هو اجتباكم) اى هو اختاركم لدينه ولنصرته لا غيره وفيه تنبيه على مايقتضى الجهاد ويدعو اليه (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) اى ضيق بتكليف مايشق عليكم اقامته اشارة الى انه لا مانع لهم عنه ولا عذر لهم فى تركه او الى الرخصة فى اغفال بعض ما امرهم به حيث يشق عليهم لقوله عليه الصلاة والسلام اذا امرتكم بشئ فأتوا منه مااستطعتم وقيل ذلك بأن جعل لهم من كل ذنب مخرجا بأن رخص لهم فى المضايق وفتح لهم باب التوبة وشرع لهم الكفارات فى حقوقه والاروش والديات فى حقوق العباد (ملة ابيكم ابراهيم) نصب على المصدر بفعل دل عليه مضمون ماقبله بحذف المضاف اى وسع عليكم دينكم توسعة ملة ابيكم او على الاغراء او على الاختصاص وانما جعله اباهم لانه ابو رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو كالاب لامته من حيث انه سبب لحياتهم الابدية ووجودهم على الوجه المعتد به فى الآخرة اولان اكثر العرب كانوا من ذريته عليه الصلاة والسلام فغلبوا على غيرهم (هو سماكم المسلمين من قبل) فى الكتب المتقدمة (وفى هذا) اى فى

توجيه الخطاب عليه عند نطقه لم يبصر بارا فى عينه ولاشك ان المقصود من القراءة والاذكار الحمد والثناء والتضرع والدعاء والمخاطب هو الله تعالى فاذا كان القلب محجوبا بحجاب الغفلة وكان غافلا عن جلال الله وكبريائه ثم ان لسانه يتحرك بحكم العادة فما ابعد ذلك عن القبول واما الركوع والسجود فالمقصود منهما التعظيم ولو جاز ان يكون تعظيما لله تعالى مع انه غافل عنه لجاز ان يكون تعظيما للصنم الموضوع بين يديه وهو غافل عنه ولانه اذا لم يحصل التعظيم لم يبق الا مجرد حركة الظهر والرأس وليس فيهما من المشقة مايصير لاجله عمادا للدين وفاصلا بين الكفر والايمان ويقدم على الحج والزكاة والجهاد وسائر الطاعات الشاقة ويجب القتل بسببه على الخصوص وبالجملة فكل عاقل يقطع بأن مشاهدة الخواص العظيمة ليس اعمالها الظاهرة الا ان يضاف اليها مقصود هذه المناجاة فدلت هذه الاعتبارات على ان الصلاة لابد فيها من الحضور (وسابعها) ان الفقهاء اختلفوا فيما ينويه بالسلام عند الجماعة والانفراد هل ينوى الحضور او الغيبة والحضور معا فاذا احتيج الى التدبر فى معنى السلام الذى هو آخر الصلاة فلأن يحتاج الى التدبر فى معنى التكبير والتسبيح التى هى الاشياء المقصودة من الصلاة بالطريق الاول واحتج المخالف بان اشتراط الخضوع والخشوع على خلاف اجماع الفقهاء فلا يلتفت اليه (والجواب) من وجوه (احدها) ان الحضور عندنا ليس شرطا للاجزاء بل شرط للقبول والمراد من الاجزاء ان لايجب القضاء والمراد من القبول حكم الثواب والفقهاء انما يبحثون عن حكم الاجزاء لا عن حكم الثواب وغرضنا فى هذا المقام هذا ومثاله فى الشاهد من استعار منك ثوبا ثم رده على الوجه الاحسن فقد خرج عن العهدة واستحق المدح ومن رماه اليك على وجه الاستخفاف خرج عن العهدة ولكنه استحق الذم كذا من عظم الله تعالى حال ادائه العبادة صار مقيما للفرض مستحقا للثواب ومن استهان بها صار مقيما للفرض ظاهرا لكنه استحق الذم (وثانيها) انا نمنع هذا الاجماع اما المتكلمون فقد اتفقوا على انه لابد من الحضور والخشوع واحتجوا عليه بأن السجود لله تعالى طاعة وللصنم كفر وكل واحد منهما يماثل الآخر فى ذاته ولوازمه فلابد من امر لاجله صار السجود فى احدى الصورتين طاعة وفى الاخرى معصية قالوا وماذاك الا القصد والارادة والمراد من القصد ايقاع تلك الافعال لداعية الامتثال وهذه الداعية لايمكن حصولها الا عند الحضور فلهذا اتفقوا على انه لابد من الحضور اما الفقهاء فقد ذكر الفقيه ابو الليث رحمه الله فى تنبيه الغافلين ان تمام القراءة ان يقرأ بغير لحن وان يقرأ بالتفكر واما الغزالى رحمه الله فانه نقل عن ابى طالب المكى عن بشر الحافى انه قال من لم يخشع فسدت صلاته وعن الحسن رحمه الله كل صلاة لايحضر فيها القلب فهى الى العقوبة اسرع وعن معاذ بن جبل من عرف من على يمينه وشماله متعمدا وهو فى الصلاة فلا صلاة له وروى ايضا مسندا قال عليه السلام ان العبد ليصلى الصلاة لايكتب له سدسها ولا عشرها وانما يكتب للعبد من

صلاته ماعقل منها وقال عبد الواحد بن زيد اجمعت العلماء على انه ليس للعبد من صلاته الا ماعقل وادعى فيه الاجماع اذا ثبت هذا فنقول هب ان الفقهاء بأسرهم حكموا بالجواز أليس الاصوليون واهل الورع ضيقوا الامر فيها فهلا اخذت بالاحتياط فان بعض العلماء اختار الامامة فقيل له فى ذلك فقال أخاف ان تركت الفاتحة ان يعاتبنى الشافعى وان قرأتها مع الامام ان يعاتبنى ابو حنيفة فاخترت الامامة طلبا للخلاص عن هذا الاختلاف والله اعلم (الصفة الثالثة) قوله تعالى والذين هم عن اللغو معرضون وفى اللغو اقوال (احدها) انه يدخل فيه كل ماكان حراما اومكروها اوكان مباحا ولكن لايكون بالمرء اليه ضرورة وحاجة (وثانيها) انه عبارة عن كل ماكان حراما فقط وهذا التفسير أخص من الاول (وثالثها) انه عبارة عن المعصية فى القول والكلام خاصة وهذا اخص من الثانى (ورابعها) انه المباح الذى لاحاجة اليه واحتج هذا القائل بقوله تعالى لايؤاخذكم الله باللغو فى ايمانكم فكيف يحمل ذلك على المعاصى التى لابد فيها من المؤاخذة واحتج الاولون بأن اللغو انما سمى لغوا بما انه يلغى وكل مايقتضى الدين الغاءه كان اولى باسم اللغو فوجب ان يكون كل حرام لغوا ثم اللغو قد يكون كفرا لقوله لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه وقد يكون كذبا لقوله لاتسمع فيها لاغية وقوله لايسمعون فيها لغوا ولاتأثيما ثم انه سبحانه وتعالى مدحهم بأنهم يعرضون عن هذا اللغو والاعراض عنه هو بأن لايفعله ولايرضى به ولايخالط من يأتيه وعلى هذا الوجه قال تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما واعلم انه سبحانه وتعالى لما وصفهم بالخشوع فى الصلاة اتبعه الوصف بالاعراض عن اللغو ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الانفس اللذين هما قاعدتا بناء التكليف وهو اعلم (الصفة الرابعة) قوله تعالى والذين هم للزكاة فاعلون وفى الزكاة قولان (احدهما) قول ابى مسلم ان فعل الزكاة يقع على كل فعل محمود مرضى كقوله قد افلح من تزكى وقوله فلاتزكوا انفسكم ومن جملته مايخرج من حق المال وانما سمى بذلك لانها تطهر من الذنوب لقوله تعالى تطهرهم وتزكيهم بها (والثانى) وهو قول الاكثرين انه الحق الواجب فى الاموال خاصة وهذا هو الاقرب لان هذه اللفظة قد اختصت فى الشرع بهذا المعنى فان قيل انه لايقال فى الكلام الفصيح انه فعل الزكاة قلنا قال صاحب الكشاف الزكاة اسم مشترك بين عين ومعنى فالعين القدر الذى يخرجه المزكى من النصاب الى الفقير والمعنى فعل المزكى الذى هو التزكية وهو الذى اراده الله تعالى فجعل المزكين فاعلين له ولايسوغ فيه غيره لانه مامن مصدر الايعبر عن معناه بالفعل ويقال لمحدثه فاعل يقال للضارب فاعل الضرب وللقاتل فاعل القتل وللمزكى فاعل الزكاة وعلى هذا الكلام كله يجوز ان يراد بالزكاة العين ويقدر مضاف محذوف وهو الاداء فان قيل ان الله تعالى هناك لم يفصل بين الصلاة والزكاة فلم فصل ههنا بينهما بقوله والذين هم عن اللغو معرضون قلنا لان الاعراض عن اللغو من متممات الصلاة (الصفة الخامسة) قوله تعالى والذين هم

القرآن والضمير لله تعالى ويؤيده انه قرئ الله سماكم اولابراهيم (٢٧٠) وتسميتهم بالمسلمين فى القرآن وان لم تكن منه عليه الصلاة والسلام كانت بسبب تسميته من قبل فى قوله ومن ذريتنا أمة مسلمة للتوقيل وفى هذا تقديره وفى هذا بيان تسميته اياكم المسلمين (ليكون الرسول) يوم القيامة متعلق بسماكم (شهيدا عليكم) بأنه بلغكم فيدل على قبول شهادته لنفسه اعتمادا على عصمته او بطاعة من اطاع وعصيان من عصى (وتكونوا شهداء على الناس) بتبليغ الرسل اليهم (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) اى فتقربوا الى الله بأنواع الطاعات وتخصيصهما بالذكر لانافتهما وفضلهما (واعتصموا بالله) اى ثقوا به فى مجامع اموركم ولا تطلبوا الاعانة والنصرة الامنه (هو مولاكم) ناصركم ومتولى اموركم (فنعم المولى ونعم النصير) هو اذ لامثل له فى الولاية والنصرة بل لاولى ولا نصير فى الحقيقة سواه عز وجل عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الحج اعطى من الاجر كحجة حجها وعمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقى

(سورة المؤمنون مكية)
(وهى عند البصريين مائة وتسع عشرة آية وعند الكوفيين)
(مائة وثمانى عشرة)

• (بسم الله الرحمن الرحيم) •

(قد افلح المؤمنون) الفلاح الفوز بالمرام والنجاة من المكروه وقيل البقاء فى الخير والافلاح الدخول فى ذلك كالابشار الذى هو الدخول فى البشارة وقد يجىء متعديا بمعنى الادخال فيه وعليه قراءة من قرأ على البناء للمفعول وكلمة قد ههنا لافادة ثبوت ماكان متوقع الثبوت من قبل لامتوقع الاخبار به ضرورة ان المتوقع من حال المؤمنين ثبوت الفلاح لهم لاالاخبار بذلك فالمعنى قد فازوا بكل خير (الفروجهم)

لفروجهم حافظون الا على ازواجهم او ماملكت ايمانهم فانهم غير ملومين وفيه سؤالات (السؤال الاول) لم لم يقل الا عن ازواجهم (الجواب) قال الفراء معناه الا من ازواجهم وذكر صاحب الكشاف فيه ثلاثة اوجه (احدها) انه في موضع الحال اي الا والين على ازواجهم او قوامين عليهن من قولك كان فلان على فلانة ونظيره كان زياد على البصرة اي واليا عليها ومنه قولهم فلانة تحت فلان ومن ثم سميت المرأة فراشا والمعنى انهم لفروجهم حافظون في كافة الاحوال الا في حال تزوجهم او تسريهم (وثانيها) انه متعلق بمحذوف يدل عليه غير ملومين كأنه قيل يلامون الا على ازواجهم اي يلامون على كل مباشرة الا على ما اطلق لهم فانهم غير ملومين عليه وهو قول الزجاج (وثالثها) ان تجعله صلة لحافظين (السؤال الثاني) هلا قيل من ملكت (الجواب) لانه اجتمع في السرية وصفان (احدهما) الانوثة وهي مظنة نقصان العقل والآخر كونها بحيث تباع وتشترى كسائر السلع فلاجتماع هذين الوصفين فيها جعلت كأنها ليست من العقلاء (السؤال الثالث) هذه الآية تدل على تحريم المتعة على ما روي عن القاسم بن محمد (الجواب) نعم وتقريره انها ليست زوجة له فوجب ان لا تحل له وانما قلنا انها ليست زوجة له لانهما لا يتوارثان بالاجماع ولو كانت زوجة له لحصل التوارث لقوله تعالى ولكم نصف ما ترك ازواجكم واذا ثبت انها ليست زوجة له وجب ان لا تحل له لقوله تعالى الا على ازواجهم او ماملكت ايمانهم وهو اعلم (السؤال الرابع) أليس لا يحل له في الزوجة وملك اليمين الاستمتاع في احوال كحال الحيض وحال العدة وفي الامة حال تزويجها من الغير وحال عدتها وكذا الغلام داخل في ظاهر قوله تعالى او ماملكت ايمانهم (والجواب) من وجهين (احدهما) ان مذهب ابي حنيفة رحمه الله ان الاستثناء من النفي لا يكون اثباتا واحتج عليه بقوله عليه السلام لا صلاة الا بطهور ولا نكاح الا بولي فان ذلك لا يقتضي حصول الصلاة بمجرد حصول الطهور وحصول النكاح بمجرد حصول الولي وفائدة الاستثناء صرف الحكم لا صرف المحكوم به فقوله والذين هم لفروجهم حافظون الا على ازواجهم معناه انه يجب حفظ الفروج عن الكل الا في هاتين الصورتين فاني ما ذكرت حكمهما لا بالنفي ولا بالاثبات (الثاني) انا ان سلمنا ان الاستثناء من النفي اثبات فغايته انه عام دخله التخصيص بالدليل فيبقى فيما وراءه حجة اما قوله تعالى فأولئك هم العادون يعني الكاملون في العدوان المتناهون فيه (الصفة السادسة) قوله تعالى والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون قرأ نافع وابن كثير لامانتهم واعلم انه يسمى الشيء المؤتمن عليه والمعاهد عليه امانة وعهدا ومنه قوله تعالى ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها وقال وتخونوا اماناتكم وانما تؤدى العيون دون المعاني فكان المؤتمن عليه الامانة في نفسها والعهد ما عقده على نفسه فيما يقربه الى ربه ويقع ايضا على ما امر الله تعالى به كقوله الذين قالوا ان الله عهد الينا والراعي القائم على الشيء لحفظ واصلاح كراعي الغنم وراعي الرعية

ونجوا من كل ضير حسيا كان ذلك (٢٧١) متوقعا من حالهم فان ايمانهم وما تفرع عليه من اعمالهم الصالحة من دواعي الفلاح بموجب الوعد الكريم خلا انه ان اريد بالافلاح حقيقة الدخول في الفلاح الذي لا يتحقق الا في الآخرة فالاخبار به على صيغة الماضي للدلالة على تحققه لا محالة بتنزيله منزلة الثابت وان أريد كونهم بحال تستتبعه البتة فصيغة الماضي في محلها وقرئ أفلحوا على الابهام والتفسير او على اكلوني البراغيث وقرئ أفلح بضمة اكتفى بها عن الواو كما في قول من قال * ولو ان الاطبا كان حولي * والمراد بالمؤمنين اما المصدقون بما علم ضرورة انه من دين نبينا صلى الله عليه وسلم من التوحيد والنبوة والبعث والجزاء ونظائرها فقوله تعالى (الذين هم في صلوتهم خاشعون) وما عطف عليه صفات مخصصة لهم واما الآتون بفروعه ايضا كما ينبئ عنه اضافة الصلاة اليهم فهي صفات موضحة او مادحة لهم حسب اعتبار ما ذكر في حيز الصلة من المعاني مع الايمان اجمالا او تفصيلا كما مر في اوائل سورة البقرة والخشوع والخوف والتذلل اي خائفون من الله عز وجل متذللون له ملزمون ابصارهم مساجدهم روي انه عليه الصلاة والسلام كان اذا صلى رفع بصره الى السماء فلما نزلت رمى ببصره نحو مسجده وانه رأى مصليا يعبث بلحيته فقال لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه (والذين هم عن اللغو) اي عما لا يعنيهم من الاقوال والافعال (معرضون) اي في عامة اوقاتهم كما ينبئ عنه الاسم الدال على الاستمرار فيدخل في ذلك اعراضهم عنه حال اشتغالهم بالصلاة دخولا اوليا ومدار اعراضهم عنه ما فيه من الحالة الداعية الى الاعراض عنه لا مجرد الاشتغال بالجد في امور الدين كما قيل فان ذلك ربما يوهم ان لا يكون في اللغو نفسه ما يزجرهم عن تعاطيه

ويقال من راعى هذا الشئ اى متوليه واعلم ان الامانة تتناول كل ماتركه يكون داخلا في الخيانة وقد قال تعالى يا أيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول وتخونوا اماناتكم فمن ذلك العبادات التي المرء مؤتمن عليها وكل العبادات تدخل في ذلك لانها امان تخفى اصلا كالصوم وغسل الجنابة واسباغ الوضوء او تخفى كيفية اتيانه بها وقال عليه السلام اعظم الناس خيانة من لم يتم صلاته وعن ابن مسعود رضي الله عنه اول ماتفقدون من دينكم الامانة وآخر ماتفقدون الصلاة ومن جملة ذلك مايلتزمه بفعل او قول فيلزمه الوفاء به كالودائع والعقود ومايتصل بهما ومن ذلك الاقوال التي يحرم بها العبيد والنساء لانه مؤتمن في ذلك ومن ذلك ان يراعى امانته فلا يفسدها بغصب او غيره واما العهد فانه دخل فيه العقود والايمان والنذور فبين سبحانه ان مراعاة هذه الامور والقيام بها معتبر في حصول الفلاح (الصفة السابعة) قوله والذين هم على صلاتهم يحافظون وانما اعاد تعالى ذكرها لان الخشوع والمحافظة متغايران غير متلازمين فان الخشوع صفة للمصلي في حال الاداء لصلاته والمحافظة انما تصح حال مالم يؤدها بكمالها بل المراد بالمحافظة التعهد لشروطها من وقت وطهارة وغيرهما والقيام على اركانها واتمامها حتى يكون ذلك دأبه في كل وقت ثم لما ذكر الله تعالى مجموع هذه الامور قال اولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون وههنا سؤالات (السؤال الاول) لم سمى مايجدونه من الثواب والجنة بالميراث مع انه سبحانه حكم بأن الجنة حقهم في قوله ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة (الجواب) من وجوه (الاول) ماروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو أبين على مايقال فيه وهو انه لامكلف الا اعد الله له في النار مايستحقه ان عصى وفي الجنة مايستحقه أن اطاع وجعل لذلك علامة فاذا آمن منهم البعض ولم يؤمن البعض صار منزل من لم يؤمن كالمنقول الى المؤمنين وصار مصيرهم الى النار الذي لابد معه من حرمان الثواب لكونهم فسمى ذلك ميراثا لهذا الوجه وقد قال الفقهاء انه لافرق بين ماملكه الميت وبين مايقدر فيه الملك في انه يورث عنه كذلك قالوا في الدية التي تجب بالقتل انها تورث مع انه ماملكها على التحقيق وذلك يشهد بما ذكرنا فان قيل انه تعالى وصف كل الذي يستحقونه ارثا وعلى ماقلتم يدخل في الارث ماكان يستحقه غيرهم لو أطاع قلنا لايمتنع انه تعالى جعل ماهو منزلة لهذا المؤمن بعينه منزلة لذلك الكافر لو أطاع لانه عند ذلك كان يزيد في المنازل فاذا آمن هذا عدل بذلك اليه (وثانيها) ان انتقال الجنة اليهم بدون محاسبة ومعرفة بمقاديره يشبه انتقال المال الى الوارث (وثالثها) ان الجنة كانت مسكن ابينا آدم عليه السلام فاذا انتقلت الى اولاده صار ذلك شبيها بالميراث (السؤال الثاني) كيف حكم على الموصوفين بالصفات السبع بالفلاح مع انه تعالى ماتمم ذكر العبادات الواجبة كالصوم والحج والطهارة (والجواب) ان قوله والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون يأتي على جميع الواجبات من الافعال والتروك كما قدمنا والطهارات دخلت في جملة

وهو ابلغ من ان يقال لايلهون من وجوه جعل الجملة اسمية وبناء الحكم على الضمير والتعبير عنه بالاسم وتقديم الصلة عليه واقامة الاعراض مقام الترك ليدل على تباعدهم عنه رأسا مباشرة وتسببا وميلا وحضورا فان اصله ان يكون في عرض غير عرضه (والذين هم للزكوة فاعلون) وصفهم بذلك بعد وصفهم بالخشوع في الصلاة للدلالة على انهم بلغوا الغاية القاصية من القيام بالطاعات البدنية والمالية والتجنب من المحرمات وسائر ماتوجب المروءة اجتنابه وتوسيط حديث الاعراض بينهما لكمال ملابسته بالخشوع في الصلاة والزكاة مصدر لانه الامر الصادر عن الفاعل لا المحل الذي هو موقعه ومعنى الفعل قدم تحقيقه في تفسير قوله تعالى فان لم تفعلوا ولن تفعلوا ويجوز ان يراد بها العين على تقدير المضاف (والذين هم لفروجهم حافظون) ممسكون لها فالاستثناء في قوله تعالى (الا على ازواجهم) من نفي الارسال الذي ينبئ عنه الحفظ اى لايرسلونها على احد الا على ازواجهم وفيه ايذان بان قوتهم الشهوية داعية لهم الى مالايخفى وانهم حافظون لها من استيفاء مقتضاها وبذلك يتحقق كمال العفة ويجوز ان تكون على بمعنى من واليه ذهب الفراء كما في قوله تعالى اذا اكتالوا على الناس اى حافظون لها من كل احد الا من ازواجهم وقيل هي متعلقة بمحذوف وقع حالا من ضمير حافظون اى حافظون لها في جميع الاحوال الا حال كونهم والين او قوامين على ازواجهم وقيل بمحذوف يدل عليه غير ملومين كأنه قيل يلامون على كل مباشر الا على ما اطلق لهم فانهم غير ملومين وجعل الحفظ على القصر عليهن ليكون المعنى حافظون فروجهم على الازواج لايتعداهن ثم يقال غير حافظين الا عليهن تأكيدا على تأكيد تكلف على تكلف

المحافظة على الصلوات الخمس لكونها من شرائطها (السؤال الثالث) أفيدل قوله تعالى أولئك هم الوارثون على انه لا يدخلها غيرهم (الجواب) ان قوله هم الوارثون يفيد الحصر لكنه يجب ترك العمل به لانه ثبت ان الجنة يدخلها الاطفال والمجانين والولدان والحور العين ويدخلها الفساق من اهل القبلة بعد العفو لقوله تعالى ويغفر مادون ذلك لمن يشاء (السؤال الرابع) افكل الجنة هو الفردوس (الجواب) الفردوس هو الجنة بلسان الحبشة وقيل بلسان الروم وروى ابو موسى الاشعرى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الفردوس مقصورة الرحمن فيها الانهار والاشجار وروى ابو امامة عنه عليه السلام انه قال سلوا الله الفردوس فانها اعلى الجنان وان اهل الفردوس يسمعون اطيط العرش (السؤال الخامس) هل تدل الآية على ان هذه الصفات هى التى لها ولاجلها يكونون مؤمنين أم لا (الجواب) ادعى القاضى ان الامر كذلك بناء على مذهبه ان الايمان اسم شرعى موضوع لاداء كل الواجبات وعندنا ان الآية لاتدل على ذلك لان قوله قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون مثل قد أفلح الناس الازكياء العدول فان هذا لايدل على ان الزكاة والعدالة داخلان فى مسمى الناس فكذا ههنا (السؤال السادس) روى انه عليه الصلاة والسلام قال لما خلق الله تعالى جنة عدن قال لها تكلمى فقالت قد أفلح المؤمنون وقال كعب خلق الله آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس شجرة طوبى بيده ثم قال لها تكلمى فقالت قد أفلح المؤمنون وروى انه عليه السلام قال اذا أحسن العبد الوضوء وصلى الصلاة لوقتها وحافظ على ركوعها وسجودها ومواقيتها قالت حفظك الله كما حافظت على وشفعت لصاحبها واذا اضاعها قالت اضاعك الله كما ضيعتنى وتلف كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها (الجواب) اما كلام الجنة فالمراد به انها اعدت للمؤمنين فصار ذلك كالقول منها وهو كقوله تعالى قالتا أتينا طائعين واما انه تعالى خلق الجنة بيده فالمراد تولى خلقها لا انه وكله الى غيره واما ان الصلاة تثنى على من قام بحقها فهو فى الجواز ابعد من كلام الجنة لان الصلاة حركات وسكنات ولا يصح عليها ان تصور وتتكلم فالمراد منه ضرب المثل كما يقول القائل للمنعم ان احسانك الى ينطق بالشكر (السؤال السابع) هل تدل الآية على ان الفردوس مخلوقة (الجواب) قال القاضى دل قوله تعالى أكلها دائم على انها غير مخلوقة فوجب تأويل هذه الآية كانه تعالى قال اذا كان يوم القيامة يخلق الله الجنة ميراثا للمؤمنين او واذا خلقها تقول على مثال ماتأولنا عليه قوله تعالى ونادى اصحاب النار اصحاب الجنة وهذا ضعيف لانه ليس اضمار ماذكره فى هذه الآية أولى من ان يضمر فى قوله أكلها دائم ان أكلها دائم يوم القيامة واذا تعارض هذان الظاهران فنحن نتمسك فى ان الجنة مخلوقة بقوله تعالى أعدت للمتقين * قوله تعالى (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك

(وماملكت ايمانهم) اى سراريهم عبر عنهن بما اجراء لهن لمملوكيتهن مجرى غير العقلاء او لانوثتهن المنبئة عن القصور وقوله تعالى (فانهم غير ملومين) تعليل لما يفيده الاستثناء من عدم حفظ فروجهم منهن اى فانهم غير ملومين على عدم حفظها منهن (فمن ابتغى وراء ذلك) الذى ذكر من الحد المتسع وهو اربع من الحرائر وما شاء من الاماء (فاولئك هم العادون) الكاملون فى العدوان المتناهون فيه وليس فيه مايدل حتما على تحريم المتعة حسبما نقل عن القاسم بن محمد فانه قال انها ليست زوجة له فوجب ان لاتحل له اما انها ليست زوجة له فلانهما لايتوارثان بالاجماع ولوكانت زوجة له لحصل التوارث لقوله تعالى ولكم نصف ماترك ازواجكم فوجب ان لاتحل لقوله تعالى الاعلى ازواجهم لان لهم ان يقولوا انها زوجة له فى الجملة واما ان كل زوجة ترث فهم لايسلمونها واما ماقيل من انه ان اريد لو كانت زوجة حال الحياة لم يفقدوان اريد بعد الموت فالملازمة ممنوعة فليس له معنى محصل ثم لو عكس لكان له وجه (والذين هم لاماناتهم وعهدهم) لما يؤتمنون عليه ويعاهدون من جهة الحق والخلق (راعون) اى قائمون عليها حافظون لها على وجه الاصلاح وقرئ لامانتهم (والذين هم على صلواتهم) المفروضة عليهم (يحافظون) يواظبون عليها ويؤدونها فى اوقاتها ولفظ الفعل فيه لما فى الصلاة من التجدد والتكرر وهو السر فى جمعها وليس فيه تكرير لما ان الخشوع فى الصلاة غير المحافظة عليها وفصلهما للايذان بأن كلا منهما فضيلة مستقلة على حيالها ولوقرنا فى الذكر لربما توهم ان مجموع الخشوع والمحافظة فضيلة واحدة (اولئك) اشارة الى

الله احسن الخالقين ثم انكم بعد ذلك لميتون ثم انكم يوم القيامة تبعثون) اعلم انه سبحانه لما امر بالعبادات فى الآية المتقدمة والاشتغال بعبادة الله تعالى لا يصح الا بعد معرفة الاله الخالق لا جرم عقبها بذكر ما يدل على وجوده واتصافه بصفات الجلال والوحدانية فذكر من الدلائل انواعا (النوع الاول) الاستدلال بتقلب الانسان فى ادوار الخلقة واكوان الفطرة وهى تسعة (المرتبة الاولى) قوله سبحانه وتعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين والسلالة الخلاصة لانها تسل من بين الكدر فعالة وهو بناء يدل على القلة كالقلامة والقمامة واختلف اهل التفسير فى الانسان فقال ابن عباس وعكرمة وقتادة ومقاتل المراد منه آدم عليه السلام فآدم سل من الطين وخلقت ذريته من ماء مهين ثم جعلنا الكناية راجعة الى الانسان الذى هو ولد آدم والانسان شامل لآدم عليه السلام ولولده وقال آخرون الانسان ههنا ولد آدم والطين ههنا اسم آدم عليه السلام والسلالة هى الاجزاء الطينية المبثوثة فى اعضائه التى لما اجتمعت وحصلت فى اوعية المنى صارت منيا وهذا التفسير مطابق لقوله تعالى وبدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين (وفيه وجه آخر) وهو ان الانسان انما يتولد من النطفة وهى انما تتولد من فضل الهضم الرابع وذلك انما يتولد من الاغذية وهى اما حيوانية واما نباتية والحيوانية تنتهى الى النباتية والنبات انما يتولد من صفو الارض والماء فالانسان بالحقيقة يكون متولدا من سلالة من طين ثم ان تلك السلالة بعد ان تواردت على اطوار الخلقة واطوار الفطرة صارت منيا وهذا التأويل مطابق للفظ ولا يحتاج فيه الى التكلفات (المرتبة الثانية) قوله تعالى ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ومعنى جعل الانسان نطفة انه خلق جوهر الانسان اولا طينا ثم جعل جوهرة بعد ذلك نطفة فى اصلاب الآباء فقذفه الصلب بالجماع الى رحم المرأة فصار الرحم قرارا مكينا لهذه النطفة والمراد بالقرار موضع القرار وهو المستقر فسماه بالمصدر ثم وصف الرحم بالمكانة التى هى صفة المستقر فيها كقولك طريق سائر او لمكانتها فى نفسها لانها تمكنت من حيث هى واحرزت (المرتبة الثالثة) قوله تعالى ثم خلقنا النطفة علقة اى حولنا النطفة عن صفاتها الى صفات العلقة وهى الدم الجامد (المرتبة الرابعة) قوله تعالى فخلقنا العلقة مضغة اى جعلنا ذلك الدم الجامد مضغة اى قطعة لحم كأنها مقدار ما يمضغ كالغرفة وهى مقدار ما يغترف وسمى التحويل خلقا لانه سبحانه يفنى بعض اعراضها ويخلق اعراضا غيرها فسمى خلق الاعراض خلقا لها وكأنه سبحانه وتعالى يخلق فيها اجزاء زائدة (المرتبة الخامسة) قوله فخلقنا المضغة عظاما اى صيرناها كذلك وقرأ ابن عامر عظما والمراد منه الجمع كقوله والملك صفا صفا (المرتبة السادسة) قوله تعالى فكسونا العظام لحما وذلك لان اللحم يستر العظام فجعله كالكسوة لها (المرتبة السابعة) قوله تعالى ثم انشأناه خلقا آخر اى خلقا مباينا للخلق الاول مباينة ما ابعدها حيث جعله حيوانا وكان جمادا وناطقا وكان ابكم وسميعا وكان اصم وبصيرا

المؤمنين باعتبار اتصافهم بما ذكر من الصفات وايثارها على الاضمار للاشعار بامتيازهم بها من غيرهم ونزولهم منزلة المشار اليه حسا ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو طبقتهم وبعد درجتهم فى الفضل والشرف اى اولئك المنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة (هم الوارثون) اى الاحقاء بان يسموا وراثا دون من عداهم ممن ورث رغائب الاموال والذخائر وكرائمها (الذين يرثون الفردوس) بيان لما يرثونه وتقييد للوراثة بعد اطلاقها وتفسير لها بعد ابهامها تفخيما لشأنها ورفعا لمحلها وهى استعارة لاستحقاقهم الفردوس باعمالهم حسبما يقتضيه الوعد الكريم للمبالغة فيه وقيل انهم يرثون من الكفار منازلهم فيها حيث فوتوها على انفسهم لانه تعالى خلق لكل انسان منزلا فى الجنة ومنزلا فى النار (هم فيها) اى فى الفردوس والتأنيث لانه اسم الجنة او لطبقتها العليا وهو البستان الجامع لاصناف الثمر روى انه تعالى بنى جنة الفردوس لبنة من ذهب ولبنة من فضة وجعل خلالها المسك الاذفر وفى رواية ولبنة من مسك مذرى وغرس فيها من جيد الفاكهة وجيد الريحان (خالدون) لا يخرجون منها ابدا والجملة اما مستأنفة مقررة لما قبلها واما حال مقدرة من فاعل يرثون او مفعوله اذ فيها ذكر كل منهما ومعنى الكلام لا يموتون ولا يخرجون منها (ولقد خلقنا الانسان) شروع فى بيان مبدأ خلق الانسان وتقلبه فى اطوار الخلقة وادوار الفطرة بيانا اجماليا اثر بيان حال بعض افراده السعداء واللام جواب قسم والواو ابتدائية وقيل عاطفة على ما قبلها والمراد بالانسان الجنس اى والله لقد خلقنا جنس الانسان فى ضمن خلق آدم عليه السلام (وكان)

وكان اكمه واودع باطنه وظاهره بل كل عضو من اعضائه وكل جزء من اجزائه عجائب فطرة وغرائب حكمة لا يحيط بها وصف الواصفين ولا شرح الشارحين وروى العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال هو تصريف الله اياه بعد الولادة فى اطواره فى زمن الطفولية وما بعدها الى استواء الشباب وخلق الفهم والعقل وما بعده الى ان يموت ودليل هذا القول انه عقبه بقوله ثم انكم بعد ذلك لميتون وهذا المعنى مروى ايضا عن ابن عباس وابن عمر وانما قال انشأناه لانه جعل انشاء الروح فيه واتمام خلقه انشاءله قالوا فى الآية دلالة على بطلان قول النظام فى ان الانسان هو الروح لا البدن فانه سبحانه بين ان الانسان هو المركب من هذه الصفات وفيها دلالة ايضا على بطلان قول الفلاسفة الذين يقولون ان الانسان شئ لا ينقسم وانه ليس بجسم اما قوله فتبارك الله اى فتعالى الله فان البركة يرجع معناها الى الامتداد والزيادة وكل ما زاد على الشئ فقد علاه ويجوز ان يكون المعنى والبركات والخيرات كلها من الله تعالى وقيل اصله من البروك وهو الثبات فكأنه قال والبقاء والدوام والبركات كلها منه فهو المستحق للتعظيم والثناء وقوله احسن الخالقين اى احسن المقدرين تقديرا فترك ذكر المميز لدلالة الخالقين عليه وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قالت المعتزلة لولا ان غير الله تعالى قد يكون خالقا لفعله اذا قدره لما جاز القول بأنه احسن الخالقين كما لو لم يكن فى عباده من يحكم ويرحم لم يجز ان يقال فيه احكم الحاكمين وارحم الراحمين والخلق فى اللغة هو كل فعل وجد من فاعله مقدرا لا على سهو وغفلة والعباد قد يفعلون ذلك على هذا الوجه قال الكعبى هذه الآية وان دلت على ان العبد خالق الا ان اسم الخالق لا يطلق على العبد الا مع القيد كما انه يجوز ان يقال رب الدار ولا يجوز ان يقال رب بلا اضافة ولا يقول العبد لسيده هو ربى ولا يقال انما قال الله تعالى ذلك لانه سبحانه وصف عيسى عليه السلام بأنه يخلق من الطين كهيئة الطير لانا نجيب عنه من وجهين (احدهما) ان ظاهر الآية يقتضى انه سبحانه احسن الخالقين الذين هم جمع فحمله على عيسى خاصة لا يصح (الثانى) انه اذا صح وصف عيسى بانه يخلق صح وصف غيره من المصورين ايضا بأنه يخلق (واجاب اصحابنا) بان هذه الآية معارضة بقول الله تعالى الله خالق كل شئ فوجب حمل هذه الآية على انه احسن الخالقين فى اعتقادكم وظنكم كقوله تعالى وهو اهون عليه اى هو اهون عليه فى اعتقادكم وظنكم (والجواب الثانى) هو ان الخالق هو المقدر لان الخلق هو التقدير والآية تدل على انه سبحانه احسن المقدرين والتقدير يرجع معناه الى الظن والحسبان وذلك فى حق الله سبحانه محال فتكون الآية من المتشابهات (والجواب الثالث) ان الآية تقتضى كون العبد خالقا بمعنى كونه مقدرا لكن لم قلت بانه خالق بمعنى كونه موجدا (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة الآية تدل على ان كل ما خلقه حسن وحكمة وصواب والا لما جاز وصفه بانه احسن الخالقين واذا كان كذلك وجب ان لا يكون خالقا للكفر والمعصية فوجب ان يكون

خلقا اجماليا حسبما تحققته فى سورة الحج وغيرها ولما كونه مخلوقا من سلالات جعلت نطفا بعد دوار واطوار فبعيد (من سلالة) السلالة ما سل من الشئ واستخرج منه فان فعالة اسم لما يحصل من الفعل فتارة تكون مقصودا منه كالخلاصة واخرى غير مقصود منه كالقلامة والكناسة والسلالة من قبيل الاول فانها مقصودة بالسل ومن ابتدائية متعلقة بالخلق ومن فى قوله تعالى (من طين) بيانية متعلقة بمحذوف وقع صفة لسلالة اى خلقناه من سلالة كائنة من طين ويجوز ان تتعلق بسلالة على انها بمعنى مسلولة فهى ابتدائية كالاول وقيل المراد بالانسان آدم عليه السلام فانه الذى خلق من صفوة سلت من الطين وقد وقفت على التحقيق (ثم جعلناه) اى الجنس باعتبار افراده المغايرة لآدم عليه السلام او جعلنا نسله على حذف المضاف ان اريد بالانسان آدم عليه السلام (نطفة) بأن خلقناه منها او ثم جعلنا السلالة نطفة والتذكير بتأويل الجوهر او المسلول او الماء (فى قرار) اى مستقر وهو الرحم عبر عنها بالقرار الذى هو مصدر مبالغة وقوله تعالى (مكين) وصف لها بصفة ما استقر فيها مثل طريق سائر او بمكانتها فى نفسها فانها مكنت بحيث هى واحرزت (ثم خلقنا النطفة علقة) اى دما جامدا بأن احلنا النطفة البيضاء علقة حمراء (فخلقنا العلقة مضغة) اى قطعة لحم لا استبانة ولا تمايز فيها (فخلقنا المضغة) اى غالبها ومعظمها وكلها (عظاما) بأن صلبناها وجعلناها عمودا للبدن على هيآت واوضاع مخصوصة تقتضيها الحكمة (فكسونا العظام) المعهودة (لحما) من بقية المضغة او مما انبتنا عليها بقدرتنا مما يصل اليها اى كسونا كل عظم من تلك العظام ما يليق به من اللحم على مقدار لائق به وهيئة

العبد هو الموجد لهما (والجواب) من الناس من حمل الخلق على الاحكام والاتقان في التركيب والتأليف ثم لو حملناه على ماقالوه فعندنا انه يحسن من الله تعالى كل الاشياء لانه ليس فوقه امر ونهي حتى يكون ذلك مانعاله عن فعل شئ (المسئلة الثالثة) روى الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما ان عبدالله بن سعد بن ابي سرح كان يكتب هذه الآيات لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلما انتهى الى قوله تعالى خلقا آخر عجب من ذلك فقال فتبارك الله احسن الخالقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتب فهكذا نزلت فشك عبد الله وقال ان كان محمد صادقا فيما يقول فانه يوحى الى كما يوحى اليه وان كان كاذبا فلا خير في دينه فهرب الى مكة فقيل انه مات على الكفر وقيل انه اسلم يوم الفتح وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية قال عمر بن الخطاب فتبارك الله احسن الخالقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا نزلت ياعمر وكان عمر يقول وافقني ربي في اربع • في الصلاة خلف المقام • وفي ضرب الحجاب على النسوة • وقولي لهن لتنتهن او ليبدلنه الله خيرا منكن فنزل قوله تعالى عسى ربه ان طلقكن ان يبدله ازواجا خيرا منكن • والرابع قلت فتبارك الله احسن الخالقين فقال هكذا نزلت قال العارفون هذه الواقعة كانت سبب السعادة لعمر وسبب الشقاوة لعبدالله كما قال تعالى يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا (فان قيل) فعلى كل الروايات قد تكلم البشر ابتداء بمثل نظم القرآن وذلك يقدح في كونه معجزا كما ظنه عبدالله (والجواب) هذا غير مستبعد اذا كان قدره القدر الذي لايظهر فيه الاعجاز فسقطت شبهة عبدالله (المرتبة الثامنة) قوله ثم انكم بعد ذلك لميتون قرأ ابن ابي عبلة وابن محيصن لمائتون والفرق بين الميت والمائت ان الميت كالحي صفة ثابتة واما المائت فيدل على الحدوث تقول زيد ميت الآن ومائت غدا كقولك يموت ونحوهما ضيق وضائق في قوله وضائق به صدرك (المرتبة التاسعة) قوله ثم انكم يوم القيامة تبعثون فالله سبحانه جعل الاماتة التي هي اعدام الحياة والبعث الذي هو اعادة مايفنيه ويعدمه دليلين ايضا على اقتدار عظيم بعد الانشاء والاختراع وههنا سؤالات (السؤال الاول) ما الحكمة في الموت وهلا وصل نعيم الآخرة وثوابها بنعيم الدنيا فيكون ذلك في الانعام ابلغ (والجواب) هذا كالمفسدة في حق المكلفين لانه متى عجل للمرء الثواب فيما يتحمله من المشقة في الطاعات صار آتيانه بالطاعات لاجل تلك المنافع لا لاجل طاعة الله يبين ذلك انه لو قيل لمن يصلي ويصوم اذا فعلت ذلك ادخلناك الجنة في الحال فانه لايأتي بذلك الفعل الا لطلب الجنة فلاجرم اخره الله تعالى وبعده بالاماتة ثم الاعادة ليكون العبد عابدا لربه بطاعته لا لطلب الانتفاع (السؤال الثاني) هذه الآية تدل على نفي عذاب القبر لانه قال ثم انكم بعد ذلك لميتون ثم انكم يوم القيامة تبعثون ولم يذكر بين الامرين الاحياء في القبر والاماتة (والجواب) من وجهين (الاول) انه ليس في ذكر الحياتين نفي الثالثة (والثاني) ان الغرض من ذكر هذه الاجناس الثلاثة الانشاء والاماتة والاعادة

مناسبة له واختلاف العواطف للتنبيه على تفاوت الاستحالات وجمع العظام لاختلافها وقرئ على التوحيد فيهما اكتفاء بالجنس وبتوحيد الاول فقط وبتوحيد الثاني فحسب (ثم انشأناه خلقا آخر) هي صورة البدن او الروح او القوى بنفخه فيه او المجموع وثم لكمال التفاوت بين الخلقين واحتج به ابو حنيفة رحمه الله على ان من غصب بيضة فافرخت عنده لزمه ضمان البيضة لا الفرخ لانه خلق آخر (فتبارك الله) فتعالى شأنه في علمه الشامل وقدرته الباهرة والالتفات الى الاسم الجليل لتربية المهابة وادخال الروعة والاشعار بان ماذكر من الافاعيل العجيبة من احكام الالوهية وللايذان بان حق كل من سمع مافصل من آثار قدرته عز وجل او لاحظه ان يسارع الى التكلم به اجلالا واعظاما لشؤنه تعالى (احسن الخالقين) بدل من الجلالة وقيل نعت له بناء على ان الاضافة ليست لفظية وقيل خبر مبتدأ محذوف اي هو احسن الخالقين خلقا اي المقدرين تقديرا حذف المميز لدلالة الخالقين عليه كما حذف المأذون فيه في قوله تعالى اذن للذين يقاتلون لدلالة الصلة عليه اي احسن الخالقين خلقا فالحسن للخلق قيل نظيره قوله عليه الصلاة والسلام ان الله جميل يحب الجمال اي جميل فعله فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه فانقلب مرفوعا فاستكن روي ان عبدالله بن ابي سرح كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي فلما انتهى عليه الصلاة والسلام الى قوله خلقا آخر سارع عبدالله الى النطق به قبل املائه عليه الصلاة والسلام فقال اكتبه هكذا نزلت فشك عبدالله فقال ان كان محمد يوحى اليه فانا كذلك فلحق بمكة كافرا

(والذى)

والذى ترك ذكره فهو من جنس الاعادة (النوع الثانى) من الدلائل الاستدلال بخلقة السموات ❊ وهو قوله تعالى (ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين) فقوله سبع طرائق اى سبع سموات وانما قيل لها طرائق لتطارقها بمعنى كون بعضها فوق بعض يقال طارق الرجل نعليه اذا أطبق نعلا على نعل وطارق بين ثوبين اذا لبس ثوبا فوق ثوب هذا قول الخليل والزجاج والفراء قال الزجاج هو كقوله سبع سموات طباقا وقال على ابن عيسى سميت بذلك لانها طرائق للملائكة فى العروج والهبوط والطيران وقال آخرون لانها طرائق الكواكب فيها مسيرها والوجه فى انعامه علينا بذلك انه تعالى جعلها موضعا لارزاقنا بانزال الماء منها وجعلها مقرا للملائكة ولانها موضع الثواب ولانها مكان ارسال الانبياء ونزول الوحى اما قوله وما كنا عن الخلق غافلين ففيه وجوه (احدها) ما كنا غافلين بل كنا للخلق حافظين من ان تسقط عليهم الطرائق السبع فتهلكهم وهذا قول سفيان بن عيينة وهو كقوله تعالى ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا (وثانيها) انما خلقناها فوقهم لتنزل عليهم الارزاق والبركات منها عن الحسن (وثالثها) انا خلقنا هذه الاشياء فدل خلقنا لها على كمال قدرتنا ثم بين كمال العلم بقوله وما كنا عن الخلق غافلين يعنى عن اعمالهم واقوالهم وضمائرهم وذلك يفيد نهاية الزجر (ورابعها) وما كنا عن خلق السموات غافلين بل نحن لها حافظون لئلا تخرج عن التقدير الذى أردنا كونها عليه كقوله تعالى ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت واعلم ان هذه الآية دالة على كثير من المسائل (احداها) انها دالة على وجود الصانع فان انقلاب هذه الاجسام من صفة الى صفة اخرى تضاد الاولى مع امكان بقائها على تلك الصفة يدل على انه لابد من محول ومغير (وثانيتها) انها تدل على فساد القول بالطبيعة فان شيئا من تلك الصفات لو حصل بالطبيعة لوجب بقاؤها وعدم تغيرها ولو قلت انما تغيرت تلك الصفات لتغير تلك الطبيعة فتفرت تلك الطبيعة الى خالق وموجد (وثالثتها) تدل على ان المدبر قادر عالم لان الموجب والجاهل لا يصدر عنه هذه الافعال العجيبة (ورابعتها) تدل على انه عالم بكل المعلومات قادر على كل الممكنات (وخامستها) تدل على جواز الحشر والنشر نظرا الى صريح الآية ونظرا الى ان الفاعل لما كان قادرا على كل الممكنات وعالما بكل المعلومات وجب ان يكون قادرا على اعادة التركيب الى تلك الاجزاء كما كانت (وسادستها) ان معرفة الله تعالى يجب ان تكون استدلالية لاتقليدية والالكان ذكر هذه الدلائل عبثا (النوع الثالث) الاستدلال بنزول الامطار وكيفية تأثيراتها فى النبات ❊ قوله تعالى (وانزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الارض وانا على ذهاب به لقادرون فانشأنا لكم به جنات من نخيل واعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين) اعلم ان الماء فى نفسه نعمة وانه مع ذلك سبب لحصول النعم فلا جرم ذكره الله تعالى اولا ثم ذكر ما يحصل به من النعم ثانيا اما قوله تعالى وانزلنا من السماء

ثم اسلم يوم الفتح وقيل مات على كفره وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال لما نزلت هذه الآية قال عمر رضى الله عنه فتبارك الله احسن الخالقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا نزل ياعمر وكان رضى الله عنه يفتخر بذلك ويقول وافقنى ربى فى اربع الصلاة خلف المقام وضرب الحجاب على النسوة وقولى لهن اوليبدله الله خيرا منكن فنزل قوله تعالى عسى ربه ان طلقكن ان يبدله الآية والرابع فتبارك الله احسن الخالقين انظر كيف وقعت هذه الواقعة سببا لسعادة عمر رضى الله عنه وشقاوة ابن ابى سرح حسبما قال تعالى يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا لا يقال فقد تكلم البشر ابتداء بمثل نظم القرآن وذلك قادح فى اعجازه لما ان الخارج عن قدرة البشر ما كان مقدار اقصر السور على ان اعجاز هذه الآية الكريمة منوط بما قبلها كما تعرب عنه الفاء فانها اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله (ثم انكم بعد ذلك) اى بعد ما ذكر من الامور العجيبة حسبما ينبئ عنه ما فى اسم الاشارة من معنى البعد المشعر بعلو رتبة المشار اليه وبعد منزلته فى الفضل والكمال وكونه بذلك ممتازا منزلا منزلة الامور الحسية (لميتون) لصائرون الى الموت لامحالة كما تؤذن به صيغة النعت الدالة على الثبوت دون الحدوث الذى تفيده صيغة الفاعل وقد قرئ لمائتون (ثم انكم يوم القيامة) اى عند النفخة الثانية (تبعثون) من قبوركم للحساب والمجازاة بالثواب والعقاب (ولقد خلقنا فوقكم) بيان لخلق ما يحتاج اليه بقاؤهم اثر بيان خلقهم اى خلقنا فى جهة العلو من غير اعتبار فوقيتها لهم لان تلك النسبة انما تعرض لها بعد خلقهم (سبع طرائق) هى السموات السبع سميت بها لانها طورق بعضها فوق بعض مطارقة النعل فان كل

ماء بقدر فقد اختلفوا فى السماء فقال الاكثرون من المفسرين انه تعالى ينزل الماء فى الحقيقة من السماء وهو الظاهر من اللفظ ويؤكده قوله وفى السماء رزقكم وما توعدون وقال بعضهم المراد السحاب وسماه سماء لعلوه والمعنى ان الله تعالى اصعد الاجزاء المائية من قعر الارض الى البحار ومن البحار الى السماء حتى صارت عذبة صافية بسبب ذلك التصعيد ثم ان تلك الذرات تأتلف وتكون ثم ينزله الله تعالى على قدر الحاجة اليه ولولا ذلك لم ينتفع بتلك المياه لتفرقها فى قعر الارض ولا بماء البحار لملوحته ولانه لاحيلة فى اجراء مياه البحار على وجه الارض لان البحار هى الغاية فى العمق واعلم ان هذه الوجوه انما يتحملها من ينكر الفاعل المختار فاما من اقر به فلاحاجة به الى شئ منها اما قوله تعالى بقدر فمعناه بتقدير يسلمون معه من المضرة ويصلون الى المنفعة فى الزرع والغرس والشرب او بمقدار ما علمناه من حاجاتهم ومصالحهم اما قوله تعالى فأسكناه فى الارض قيل معناه جعلناه ثابتا فى الارض قال ابن عباس رضى الله عنهما انزل الله تعالى من الجنة خمسة انهار سيحون وجيحون ودجلة والفرات والنيل ثم يرفعها عند خروج يأجوج ومأجوج ويرفع ايضا القرآن اما قوله تعالى وانا على ذهاب به لقادرون اى كما قدرنا على انزاله فكذلك نقدر على رفعه وازالته قال صاحب الكشاف وقوله على ذهاب به من اوقع النكرات واخرها للفصل والمعنى على وجه من وجوه الذهاب به وطريق من طرقه وفيه ايذان بكمال اقتدار المذهب وانه لايتعسر عليه شئ وهو ابلغ فى الايعاد من قوله قل أرأيتم ان اصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ثم انه سبحانه لما نبه على عظيم نعمته بخلق الماء ذكر بعده النعم الحاصلة من الماء فقال فأنشأنا لكم به جنات من نخيل واعناب وانما ذكر تعالى النخيل والاعناب لكثرة منافعهما فانهما يقومان مقام الطعام ومقام الادام ومقام الفواكه رطبا ويابسا وقوله تعالى لكم فيها فواكه كثيرة اى فى الجنات فكما ان فيها النخيل والاعناب ففيها الفواكه الكثيرة وقوله تعالى ومنها تأكلون قال صاحب الكشاف يجوز ان يكون هذا من قولهم فلان يأكل من حرفة يحترفها ومن صنعة يعملها يعنون انها طعمته وجهته التى منها يحصل رزقه كأنه قال وهذه الجنات وجوه ارزاقكم ومعايشكم منها تعيشون اما قوله تعالى وشجرة تخرج من طور سيناء فهو عطف على جنات وقرئت مرفوعة على الابتداء اى ومما انشأنا لكم شجرة قال صاحب الكشاف طور سيناء وطور سينين لايخلو اما ان يضاف فيه الطور الى بقعة اسمها سيناء وسينون واما ان يكون اسم الجبل مركبا من مضاف ومضاف اليه كامرئ القيس وبعلبك فمن اضاف فمن كسر سين سيناء فقد منع الصرف للتعريف والعجمة او التأنيث لانها بقعة وفعلاء لايكون الفه للتأنيث كعلباء وحرباء ومن فتح لم يصرفه لان الفه للتأنيث كصحراء وقيل هو جبل فلسطين وقيل بين مصر وايلة ومنه نودى موسى عليه السلام وقرأ الاعمش سينا على القصر اما قوله تعالى تنبت بالدهن فهو فى موضع الحال اى تنبت وفيها الدهن كما يقال

مافوقه مثله فهو طريقه اولانها طرائق الملائكة او الكواكب فيها مسيرها (وما كنا عن الخلق) عن ذلك المخلوق الذى هو السموات اوعن جميع المخلوقات التى هى من جملتها اوعن الناس (غافلين) مهملين امرها بل نحفظها عن الزوال والاختلال وندبر امرها حتى تبلغ منتهى ما قدر لها من الكمال حسبما اقتضته الحكمة وتعلقت به المشيئة ويصل الى ما فى الارض منافعها كما ينبئ عنه قوله تعالى (وانزلنا من السماء ماء) هو المطر او الانهار النازلة من الجنة قيل هى خمسة انهار سيحون نهر الهند وجيحون نهر بلخ ودجلة والفرات نهرا العراق والنيل نهر مصر انزلها الله تعالى من عين واحدة من عيون الجنة فاستودعها الجبال واجراها فى الارض وجعل فيها منافع للناس فى فنون معايشهم ومن ابتدائية متعلقة بانزلنا وتقديمها على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر والعدول عن الاضمار لان الانزال لايعتبر فيه عنوان كونها طرائق بل مجرد كونها جهة العلو (بقدر) بتقدير لائق لاستجلاب منافعهم ودفع مضارهم او بمقدار ما علمنا من حاجاتهم ومصالحهم (فاسكناه فى الارض) اى جعلناه ثابتا قارا فيها (وانا على ذهاب به) اى ازالته بالافساد او التصعيد او التغوير بحيث يتعذر استنباطه (لقادرون) كما كنا قادرين على انزاله وفى تنكير ذهاب ايماء الى كثرة طرقه ومبالغة فى الايعاد به ولذلك جعل ابلغ من قوله تعالى قل ارأيتم ان اصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين (فانشأنا لكم به) اى بذلك الماء (جنات من نخيل واعناب لكم فيها) فى الجنات (فواكه كثيرة) تتفكهون بها (ومنها) من الجنات (تأكلون) تغذيا او ترزقون وتحصلون معايشكم من قولهم فلان يأكل من حرفته ويجوز

(ركب)

ركب الامير بجنده اى ومعه الجند وقرئ تنبت وفيه وجهان (احدهما) ان انبت بمعنى نبت قال زهير

رأيت ذوى الحاجات حول بيوتهم * قطينا لهم حتى اذا انبت البقل

(والثانى) ان مفعوله محذوف اى تنبت زيتونها وفيه الزيت قال المفسرون وانما أضافها الله تعالى الى هذا الجبل لان منها تشعبت فى البلاد وانتشرت ولان معظمها هناك اما قوله وصبغ للآكلين فعطف على الدهن اى ادام للآكلين والصبغ والصباغ مايصطبغ به اى يصبغ به الخبز وجملة القول انه سبحانه وتعالى نبه على احسانه بهذه الشجرة لانها تخرج هذه الثمرة التى يكثر بها الانتفاع وهى طرية ومدخرة وبان تعصر فيظهر الزيت منها ويعظم وجوه الانتفاع به (النوع الرابع) الاستدلال باحوال الحيوانات ※ قوله تعالى (وان لكم فى الانعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك تحملون) اعلم انه سبحانه وتعالى ذكر ان فيها عبرة مجملا ثم ازدفه بالتفصيل من اربعة اوجه (احدها) قوله نسقيكم مما فى بطونها والمراد منه جميع وجوه الانتفاع بألبانها ووجه الاعتبار فيه انها تجتمع فى الضروع وتخلص من بين الفرث والدم باذن الله تعالى فتستحيل الى طهارة والى لون وطعم موافق للشهوة وتصير غذاء فمن استدل بذلك على قدرة الله وحكمته كان ذلك معدودا فى النعم الدينية ومن انتفع به فهو فى نعمة الدنيا وايضا فهذه الالبان التى تخرج من بطونها الى ضروعها تجدها شرابا طيبا واذا ذبحتها لم تجد لها اثرا وذلك يدل على عظيم قدرة الله تعالى قال صاحب الكشاف وقرئ تسقيكم بتاء مفتوحة اى تسقيكم الانعام (وثانيها) قوله ولكم فيها منافع كثيرة وذلك بيعها والانتفاع باثمانها ومايجرى مجرى ذلك (وثالثها) قوله ومنها تأكلون يعنى كما تنتفعون بها وهى حية تنتفعون بها بعد الذبح ايضا بالاكل (ورابعها) قوله وعليها وعلى الفلك تحملون لان وجه الانتفاع بالابل فى الحمولات على البر بمنزلة الانتفاع بالفلك فى البحر ولذلك جمع بين الوجهين فى انعامه لكى يشكر على ذلك ويستدل به واعلم انه سبحانه وتعالى لما بين دلائل التوحيد اردفها بالقصص كما هو العادة فى سائر السور وهى ههنا * (القصة الاولى) قصة نوح عليه السلام ※ قوله تعالى (ولقد ارسلنا نوحا الى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره افلا تتقون فقال الملأ الذين كفروا من قومه ماهذا الا بشر مثلكم يريد ان يتفضل عليكم ولو شاء الله لانزل ملائكة ماسمعنا بهذا فى آبائنا الاولين ان هو الا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين) قال قوم ان نوحا كان اسمه يشكر ثم سمى نوحا لوجوه (احدها) لكثرة مناح على نفسه حين دعا على قومه بالهلاك فاهلكهم بالطوفان فندم على ذلك (وثانيها) لمراجعة ربه فى شأن ابنه (وثالثها) انه مر بكلب مجذوم فقال له اخسأ يا قبيح فعوتب على ذلك فقال الله له اعبتنى اذ خلقته ام عبت الكلب وهذه الوجوه متكلفة لما ثبت ان الاعلام لا تفيد صفة فى

ان يعود الضميران للنخيل والاعناب اى لكم فى ثمراتها انواع من الفواكه كالرطب والعنب والتمر والزبيب والعصير والدبس وغير ذلك وطعام تأكلونه (وشجرة) بالنصب عطف على جنات وقرئ بالرفع على انه مبتدأ خبره محذوف دل عليه ماقبله اى ومما انشئ لكم به شجرة وتخصيصها بالذكر من بين سائر الاشجار لاستقلالها بمنافع معروفة قيل هى اول شجرة نبتت بعد الطوفان وقوله تعالى (تخرج من طور سيناء) وهو جبل موسى عليه السلام بين مصر وايلة وقيل بفلسطين ويقال له طور سينين فاما ان يكون الطور اسم الجبل وسيناء اسم البقعة اضيف اليها او المركب منهما علم له كامرئ القيس ومنع صرفه على قراءة من كسر السين للتعريف والعجمة او التأنيث على تأويل البقعة لا للالف لانه فيعال كديماس من السناء بالمد وهو الرفعة او بالقصر وهو النور او ملحق بفعلال كعلباء من السين اذ لا فعلاء بألف التأنيث بخلاف سيناء فانه فيعال ككيسان او فعلاء كصحراء اذ لا فعلال فى كلامهم وقرئ بالكسر والقصر والجملة صفة لشجرة وتخصيصها بالخروج منه مع خروجها من سائر البقاع ايضا لتعظيمها ولانه المنشأ الاصلى لها وقوله تعالى (تنبت بالدهن) صفة اخرى لشجرة والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا منها اى تنبت ملتبسة به ويجوز كونها صلة معدية اى تنبته بمعنى تتضمنه وتحصله فان النبات حقيقة صفة للشجرة لا للدهن وقرئ تنبت من الافعال وهو اما من الانبات بمعنى النبات كما فى قول زهير

رأيت ذوى الحاجات حول بيوتهم * قطينا لهم حتى اذا انبت البقل

او على تقدير تنبت زيتونها ملتبسا بالدهن وقرئ على البناء للمفعول وهو كالاول وتثمر بالدهن وتخرج بالدهن وتنبت بالدهان (وصبغ للآكلين) معطوف على الدهن جار على اعرابه

المسمى اما قوله اعبدوا الله فالمعنى انه سبحانه ارسله بالدعاء الى عبادة الله تعالى وحده ولا يجوز ان يدعوهم الى ذلك الا وقد دعاهم الى معرفته اولا لان عبادة من لا يكون معلوما غير جائزة وانما يجوز ويجب بعد المعرفة اما قوله مالكم من اله غيره فالمراد ان عبادة غير الله لا تجوز اذ لا اله سواه ومن حق العبادة ان تحسن لمن انعم بالخلق والاحياء وما بعدهما فاذا لم يصح ذلك الا منه تعالى فكيف يعبد ما لا يضر ولا ينفع وقرئ غيره بالرفع على المحل وبالجر على اللفظ ثم انه لما لم ينفع فيهم هذا الدعاء واستمروا على عبادة غير الله تعالى حذرهم بقوله افلا تتقون لان ذلك زجر ووعيد باتقاء العقوبة لينصرفوا عما هم عليه ثم انه سبحانه حكى عنهم شبههم في انكار نبوة نوح عليه السلام (الشبهة الاولى) قولهم ما هذا الا بشر مثلكم وهذه الشبهة تحتمل وجهين (احدهما) ان يقال انه لما كان مساويا لسائر الناس في القوة والفهم والعلم والغنى والفقر والصحة والمرض امتنع كونه رسولا لله لان الرسول لا بد وان يكون عظيما عند الله تعالى وحبيبا له والحبيب لا بد وان يختص عن غير الحبيب بمزيد الدرجة والمعزة فلما فقدت هذه الاشياء علمنا انتفاء الرسالة (والثانى) ان يقال هذا الانسان مشارك لكم في جميع الامور ولكنه احب الرياسة والمتبوعية فلم يجد اليهما سبيلا الا بادعاء النبوة فصار ذلك شبهة لهم في القدح في نبوته فهذا الاحتمال متأكد بقوله تعالى خبرا عنهم يريد ان يتفضل عليكم اى يريد ان يطلب الفضل عليكم ويرأسكم كقوله تعالى وتكون لكما الكبرياء في الارض (الشبهة الثانية) قولهم ولو شاء الله لانزل ملائكة وشرحه ان الله تعالى لو شاء ارشاد البشر لوجب ان يسلك الطريق الذى يكون اشد افضاء الى المقصود ومعلوم ان بعثة الملائكة اشد افضاء الى هذا المقصود من بعثة البشر لان الملائكة لعلو شأنهم وشدة سطوتهم وكثرة علومهم فالخلق ينقادون اليهم ولا يشكون في رسالتهم فلما لم يفعل ذلك علمنا انه ما ارسل رسولا البتة (الشبهة الثالثة) قولهم ما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين وقوله بهذا اشارة الى نوح عليه السلام او الى ما كلمهم به من الحث على عبادة الله تعالى اى ما سمعنا بمثل هذا الكلام او بمثل هذا الذى يدعى وهو بشر انه رسول الله وشرح هذه الشبهة انهم كانوا اقواما لا يعولون في شئ من مذاهبهم الا على التقليد والرجوع الى قول الآباء فلما لم يجدوا في نبوة نوح عليه السلام هذه الطريقة حكموا بفسادها قال القاضى يحتمل ان يريدوا بذلك كونه رسولا مبعوثا لانه لا يمتنع فيما تقدم من زمان آبائهم انه كان زمان فترة ويحتمل ان يريدوا بذلك دعاءهم الى عبادة الله تعالى وحده لان آباءهم كانوا على عبادة الاوثان (الشبهة الرابعة) قولهم ان هو الا رجل به جنة والجنة الجنون او الجن فان جهال العوام يقولون في المجنون زال عقله بعمل الجن وهذه الشبهة من باب الترويج على العوام فانه عليه الصلاة والسلام كان يفعل افعالا على خلاف عاداتهم فاولئك الرؤساء كانوا يقولون للعوام انه مجنون ومن كان مجنونا فكيف يجوز ان يكون رسولا (الشبهة الخامسة) قولهم فتربصوا به حتى حين وهذا

عطف احد وصفي الشئ على الآخر اى ثبت بالشئ الجامع بين كونه دهنا يدهن به ويسرج منه وكونه اداما يصبغ فيه الخبز اى يغمس فيه للائتدام وقرئ وصباغ كدباغ في دبغ (وان لكم في الانعام لعبرة) بيان النعم الفائضة عليهم من جهة الحيوان اثر بيان النعم الواصلة اليهم من جهة الماء والنبات وقد بين انها مع كونها في نفسها نعمة ينتفعون بها على وجوه شتى عبرة لا بد من ان يعتبروا بها ويستدلوا باحوالها على عظيم قدرة الله عز وجل وسابغ رحمته ويشكروه ولا يكفروه وخص هذا بالحيوان لما ان محل العبرة فيه اظهر مما في النبات وقوله تعالى (نسقيكم مما في بطونها) تفصيل لما فيها من مواقع العبرة وما في بطونها عبارة اما عن الالبان فمن تبعيضية والمراد بالبطون الجوف او عن العلف الذى يكون منه اللبن فمن ابتدائية والبطون على حقيقتها وقرئ بفتح النون وبالتاء اى تسقيكم الانعام (ولكم فيها منافع كثيرة) غير ما ذكر من اصوافها واشعارها (ومنها تأكلون) فتنتفعون باعيانها كما تنتفعون بما يحصل منها (وعليها) اى على الانعام فان الحمل عليها لا يقتضى الحمل على جميع انواعها بل يتحقق بالحمل على البعض كالابل ونحوها وقيل المراد هى الابل خاصة لانها هى المحمول عليها عندهم والمناسب للفلك فانها سفائن البر قال ذو الرمة

* سفينة بر تحت خدى زمامها *

فالضمير فيه كما في قوله تعالى وبعولتهن احق بردهن (وعلى الفلك تحملون) اى في البر والبحر وفي الجمع بينها وبين الفلك في ايقاع الحمل عليهما مبالغة في تحملها الحمل وهو الداعى الى تأخير ذكر هذه المنفعة مع كونها من المنافع الخاصة منها عن ذكر منفعة الاكل المتعلقة بعينها (ولقد ارسلنا نوحا الى قومه) شروع في بيان اهمال الامم السابقة وتركهم النظر والاعتبار فيما عدد

(يحتمل)

يحتمل ان يكون متعلقا بما قبله اى انه مجنون فاصبروا الى زمان حتى يظهر عاقبة امره فان أفاق والا فاقتلوه و يحتمل ان يكون كلاما مستأنفا وهو ان يقولوا لقومهم اصبروا فانه ان كان نبيا حقا فالله ينصره و يقوى أمره فنحن حينئذ نتبعه وان كان كاذبا فالله يخذله ويبطل أمره فحينئذ نستريح منه فهذه مجموع الشبه التى حكاها الله تعالى عنهم واعلم انه سبحانه ماذكر الجواب عنها لركاكتها ووضوح فسادها وذلك لان كل عاقل يعلم ان الرسول لايصير رسولا لالانه من جنس الملك وانما يصير كذلك بان يتميز من غيره بالمعجزات فسواء كان من جنس الملك او من جنس البشر فعند ظهور المعجز عليه يجب ان يكون رسولا بل جعل الرسول من جملة البشر اولى لما مر بيانه فى السورة المتقدمة وهو ان الجنسية مظنة الالفة والمؤانسة واما قولهم يريد ان يتفضل عليكم فان أرادوا به ارادته لاظهار فضله حتى يلزمهم الانقياد لطاعته فهذا واجب على الرسول وان ارادوا به ان يرتفع عليهم على سبيل التجبر والتكبر والانقياد فالانبياء منزهون عن ذلك واما قولهم ماسمعنا بهذا فهو استدلال بعدم التقليد على عدم وجود الشئ وهو فى غاية السقوط لان وجود التقليد لايدل على وجود الشئ فعدمه من اين يدل على عدمه واما قولهم به جنة فقد كذبوا لانهم كانوا يعلمون بالضرورة كمال عقله واما قولهم فتربصوا به فضعيف لانه ان ظهرت الدلالة على نبوته وهى المعجزة وجب عليهم قبول قوله فى الحال ولايجوز توقيف ذلك الى ظهور دولته لان الدولة لا تدل على الحقية وان لم يظهر المعجز لم يجز قبول قوله سواء ظهرت الدولة او لم تظهر ولما كانت هذه الاجوبة فى نهاية الظهور لاجرم تركها الله سبحانه * قوله تعالى (قال رب انصرنى بما كذبون فأوحينا اليه ان اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فاذا جاء امرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين واهلك الا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون فاذا استويت انت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين وقل رب انزلنى منزلا مباركا وانت خير المنزلين ان فى ذلك لآيات وان كنا لمبتلين) اما قوله رب انصرنى بما كذبون ففيه وجوه (احدها) ان فى نصره اهلاكهم فكأنه قال اهلكهم بسبب تكذيبهم اياى (وثانيها) انصرنى بدل ما كذبونى كما تقول هذا بذاك اى بدل ذاك ومكانه والمعنى ابدلنى من غم تكذيبهم سلوة النصر عليهم (وثالثها) انصرنى بانجاز ما وعدتهم من العذاب وهو ما كذبوه فيه حين قال لهم انى اخاف عليكم عذاب يوم عظيم ولما اجاب الله دعاءه قال فأوحينا اليه ان اصنع الفلك بأعيننا اى بحفظنا وكلائتنا كأن معه من الله حافظا يكلؤه بعينه لئلا يتعرض له ولا يفسد عليه مفسد عمله ومنه قولهم عليه من الله عين كالئة وهذه الآية دالة على فساد قول المشبهة فى تمسكهم بقوله عليه السلام ان الله خلق آدم على صورته لان ثبوت الاعين يمنع من ذلك واختلفوا فى انه عليه السلام كيف صنع الفلك فقيل انه كان نجارا وكان عالما بكيفية اتخاذها وقيل ان جبريل عليه السلام علمه عمل السفينة ووصف له كيفية اتخاذها

من النعم الفائتة الحصر وعدم تذكرهم بتذكير رسلهم وما حاق بهم لذلك من فنون العذاب تحذير المخاطبين وتقديم قصة نوح عليه السلام على سائر القصص مما لايخفى وجهه وفى ايرادها اثر قوله تعالى وعلى الفلك تحملون من حسن الموقع مالايوصف والواو ابتدائية واللام جواب قسم محذوف وتصدير القصة به لاظهار كمال الاعتناء بمضمونها اى وبالله لقد ارسلنا نوحا الخ ونسبته الكريم وكيفية بعثه وكمية لبثه فيهم قد مر تفصيله فى سورة الاعراف وسورة هود (فقال) متعطفا عليهم ومستميلا لهم الى الحق (ياقوم اعبدوا الله) اى اعبدوه وحده كما يفصح عنه تعالى فى سورة هود ان لاتعبدوا الا الله وترك التقييد به للايذان بانها هى العبادة فقط واما العبادة بالاشراك فليست من العبادة فى شئ رأسا وقوله تعالى (مالكم من اله غيره) استئناف مسوق لتعليل العبادة المأمور بها او تعليل الامر بها وغيره بالرفع صفة لاله باعتبار محله الذى هو الرفع على انه فاعل او مبتدأ خبره لكم او محذوف ولكم للتخصيص والتبيين اى مالكم فى الوجود او فى العالم اله غيره تعالى وقرئ بالجر باعتبار لفظه (افلا تتقون) اى افلا تتقون انفسكم عذابه الذى يستوجبه ما انتم عليه من ترك عبادته تعالى كما يفصح عنه قوله تعالى انى اخاف عليكم عذاب يوم عظيم وقوله تعالى عذاب يوم اليم وقيل افلا تخافون ان ترفضوا عبادة الله الذى هو ربكم الخ وليس بذاك وقيل افلا تخافون ان يزيل عنكم نعمه الخ وفيه ما فيه والهمزة للانكار الواقع واستقباحه والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام اى اتعرفون (٣٦) (را) (س) ذلك اى مضمون قوله تعالى مالكم من اله غيره فلاتتقون عذابه

وهذا هو الاقرب لقوله باعيننا ووحينا اما قوله فاذا جاء امرنا فاعلم ان لفظ الامر كما هو حقيقة فى طلب الفعل بالقول على سبيل الاستعلاء فكذا هو حقيقة فى الشأن العظيم والدليل عليه انك اذا قلت هذا امر بقى الذهن يتردد بين المفهومين وذلك يدل على كونه حقيقة فيهما وتمام تقريره مذكور فى (كتاب المحصول فى الاصول) ومن الناس من قال انما سماه امرا على سبيل التعظيم والتفخيم مثل قوله ثم قال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها اما قوله وفار التنور فاختلفوا فى التنور فالاكثرون على انه هو التنور المعروف روى انه قيل لنوح اذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب انت ومن معك فى السفينة فلما نبع الماء من التنور أخبرته امرأته فركب وقيل كان تنور آدم وكان من حجارة فصار الى نوح واختلف فى مكانه فعن الشعبى فى مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلى باب كندة وكان نوح عليه السلام عمل السفينة فى وسط المسجد وقيل بالشام بموضع يقال له عين وردة وقيل بالهند (والقول الثانى) ان التنور وجه الارض عن ابن عباس رضى الله عنهما (والثالث) انه اشرف موضع فى الارض اى أعلاه عن قتادة (والرابع) وفار التنور اى طلع الفجر عن على عليه السلام وقيل ان فور التنور كان عند طلوع الفجر (والخامس) هو مثل قولهم حمى الوطيس (والسادس) انه الموضع المنخفض من السفينة الذى يسيل الماء اليه عن الحسن رحمه الله والقول الاول هو الصواب لان العدول عن الحقيقة الى المجاز من غير دليل لا يجوز واعلم ان الله تعالى جعل فوران التنور علامة لنوح عليه السلام حتى يركب عنده السفينة طلبا لنجاته ونجاة من آمن به من قومه اما قوله فاسلك فيها اى ادخل فيها يقال سلك فيه اى دخل فيه وسلك غيره واسلكه من كل زوجين اثنين اى من كل زوجين من الحيوان الذى يحضره فى الوقت اثنين الذكر والانثى لكى لا ينقطع نسل ذلك الحيوان وكل واحد منهما زوج لا كما تقوله العامة من ان الزوج هو الاثنان روى انه لم يحمل الا ما يلد ويبيض وقرئ من كل بالتنوين اى من كل امة زوجين واثنين تأكيد وزيادة بيان اما قوله واهلك الا من سبق عليه القول منهم اى وادخل اهلك ولفظ على انما يستعمل فى المضار قال تعالى لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت واعلم ان هذه الآية تدل على امرين (احدهما) انه سبحانه امره بادخال سائر من آمن به وان لم يكن من اهله وقيل المراد باهله من آمن دون من يتصل به نسبا او سببا وهذا ضعيف والا لما جاز استثناء قوله الا من سبق عليه القول (والثانى) انه قال ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا يعنى كنعان فانه سبحانه لما اخبر باهلاكهم وجب ان ينهاه عن ان يسأله فى بعضهم لانه ان اجابه اليه فقد صير خبره الصدق كذبا وان لم يجبه اليه كان ذلك تحقير الشان نوح عليه السلام فلذلك قال انهم مغرقون اى الغرق نازل بهم لا محالة اما قوله فاذا استويت انت ومن معك على الفلك قال ابن عباس رضى الله عنهما كان فى السفينة ثمانون انسانا نوح وامرأته سوى التى غرقت وثلاثة بنين سام وحام ويافث وثلاث نسوة لهم واثنان

بسبب لشرا ككم بدق العبادة ما لا يستحق الوجود لولا ايجاد الله تعالى اياه فضلا عن استحقاق العبادة فالمنكر عدم الاتقاء مع تحقق ما يوجبه او الا لاتحطون ذلك فلا تتقونه فالمنكر كلا الامرين فالمبالغة حينئذ فى الكمية وفى الاول فى الكيفية (فقال الملأ) الاشراف (الذين كفروا من قومه) وصف الملأ بما ذكر مع اشتراك الكل فيه للايذان بكمال عراقتهم فى الكفر وشدة شكيمتهم فيه اى قالوا لعوامهم (ما هذا الا بشر مثلكم) اى فى الجنس والوصف من غير فرق بينكم وبينه وصفوه عليه السلام بذلك مبالغة فى وضع رتبته العالية وحطها عن منصب النبوة (يريد ان يتفضل عليكم) اى يريد ان يطلب التفضل عليكم ويتقدمكم بادعاء الرسالة مع كونه مثلكم وصفوه بذلك اغضابا للمخاطبين عليه عليه السلام واغراء لهم على معاداته عليه السلام وقوله تعالى (ولو شاء الله لانزل ملائكة) بيان لعدم رسالة البشر على الاطلاق على زعمهم الفاسد بعد تحقيق بشريته عليه السلام اى لو شاء الله تعالى ارسال الرسول لارسل رسلا من الملائكة وانما قيل لانزل لان ارسال الملائكة لا يكون الا بطريق الانزال فمفعول المشيئة مطلق الارسال المفهوم من الجواب لا نفس مضمونه كما فى قوله تعالى ولو شاء لهداكم ونظائره (ما سمعنا بهذا) اى بمثل هذا الكلام الذى هو الامر بعبادة الله خاصة وترك عبادة ما سواه وقيل بمثل نوح عليه السلام فى دعوى النبوة (فى آبائنا الاولين) اى الماضين قبل بعثه عليه السلام قالوه اما لكونهم وآبائهم فى فترة متطاولة واما لفرط غلوهم فى التكذيب والعناد وانهماكهم فى الغى والفساد وايا ما كان فقولهم هذا ينبغى ان يكون هو الصادر عنهم

وسبعون انسانا فكل الخلائق نسل من كان في السفينة * اما قوله تعالى فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين ففيه مسائل (المسئلة الاولى) انما قال فقل ولم يقل فقولوا لان نوحا كان نبيالهم واماما لهم فكان قوله قولالهم مع ما فيه من الاشعار بفضل النبوة واظهار كبرياء الربوبية وان رتبة تلك المخاطبة لا يترقى اليها الا ملك او نبي (المسئلة الثانية) قال قتادة علمكم الله ان تقولوا عند ركوب السفينة بسم الله مجراها ومرساها وعند ركوب الدابة سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وعند النزول وقل رب انزلنى منزلا مباركا وانت خير المنزلين قال الانصارى وقال لنبينا وقل رب ادخلنى مدخل صدق واخرجنى مخرج صدق وقال فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان كأنه سبحانه امرهم ان لا يكونوا عن ذكره وعن الاستعاذة به في جميع احوالهم غافلين (المسئلة الثالثة) هذه مبالغة عظيمة في تقبيح صورتهم حيث اتبع النهى عن الدعاء لهم الامر بالحمد على اهلاكهم والنجاة منهم كقوله تعالى فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين وانما جعل سبحانه استواءهم على السفينة نجاة من الغرق لانه سبحانه كان عرفه انه بذلك ينجيه ومن تبعه فيصح ان يقول نجانا من حيث جعله آمنا بهذا الفعل ووصف قومه بانهم الظالمون لان الكفر منهم ظلم لانفسهم لقوله ان الشرك لظلم عظيم ثم انه سبحانه بعد ان أمره بالحمد على اهلاكهم امره بأن يدعو لنفسه فقال وقل رب انزلنى منزلا مباركا وقرئ منزلا بمعنى انزالا او موضع انزال كقوله ليدخلنهم مدخلا يرضونه واختلفوا في المنزل على قولين (احدهما) ان المراد هو نفس السفينة فمن ركبها خلصته مما جرى على قومه من الهلاك (والثانى) ان المراد ان ينزله الله بعد خروجه من السفينة من الارض منزلا مباركا والاول اقرب لانه امر بهذا الدعاء في حال استقراره في السفينة فيجب ان يكون المنزل ذلك دون غيره ثم بين سبحانه بقوله وانت خير المنزلين ان الانزال في الامكنة قد يقع من غير الله كما يقع من الله تعالى وان كان هو سبحانه خير من انزل لانه يحفظ من انزله في سائر احواله ويدفع عنه المكاره بحسب ما يقتضيه الحكم والحكمة ثم بين سبحانه ان فيما ذكر من قصة نوح وقومه لآيات ودلالات وعبرا في الدعاء الى الايمان والزجر عن الكفر فان اظهار تلك المياه العظيمة ثم الاذهاب بها لا يقدر عليه الا القادر على كل المقدورات وظهور تلك الواقعة على وفق قول نوح عليه السلام يدل على المعجز العظيم وافناء الكفار وبقاء الارض لاهل الدين والطاعة من اعظم انواع العبر اما قوله وان كنا لمبتلين فيمكن ان يكون المراد وان كنا لمبتلين فيما قبل ويحتمل ان يكون وان كنا لمبتلين فيما بعد وهذا هو الاقرب لانه كالحقيقة في الاستقبال واذا حمل على ذلك احتمل وجوها (احدها) ان يكون المراد المكلفين في المستقبل اى فيجب فيمن كلفناه ان يعتبر بهذا الذى ذكرناه (وثانيها) ان يكون المراد لمعاقبين لمن سلك في تكذيب الانبياء مثل طريقة قوم نوح (وثالثها) ان يكون المراد كما نعاقب من كذب بالغرق وغيره فقد نمتحن بالغرق من

في مبادى دعوته عليه السلام كما ينبئ عنه الفاء في قوله تعالى فقال الملأ الخ وقيل معناه ما سمعنا به عليه السلام انه نبي فالمراد بآبائهم الاولين الذين مضوا قبلهم في زمن نوح عليه السلام وقولهم المذكور هو الذى صدر عنهم في اواخر امره عليه السلام وهو المناسب لما بعده من حكاية دعائه عليه السلام وقولهم (ان هو) اى ما هو (الا رجل به جنة) اى جنون او جن يخبلونه ولذلك يقول ما يقول (فتربصوا به) اى احتملوه واصبروا عليه وانتظروا (حتى حين) لعله يفيق عما هو فيه محول حينئذ على ترامى احوالهم في المكابرة والعناد واضرابهم عما وصفوه عليه السلام به من البشرية وارادة التفضل الى وصفه عليه السلام بما ترى وهم يعرفون انه عليه السلام ارجح الناس عقلا واوزنهم قولا وعلى الاول على تناقض مقالاتهم الفاسدة قاتلهم الله انى يؤفكون (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية كلام الكفرة كأنه قيل فماذا قال عليه السلام بعدما سمع منهم هذه الاباطيل فقيل قال لما رآهم قد اصروا على الكفر والتكذيب وتمادوا في الغواية والضلال حتى يئس من ايمانهم بالكلية وقد اوحى الله اليه انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن (رب انصرنى) باهلاكهم بالمرة فانه حكاية اجمالية لقوله عليه السلام رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا الخ (بما كذبون) اى بسبب تكذيبهم اياى او بدل تكذيبهم (فاوحينا اليه) عند ذلك (ان اصنع الفلك) ان مفسرة لما في الوحى من معنى القول (باعيننا) متلبسا بحفظنا وكلاءتنا كأن معه عليه السلام منه عزوعلا حفاظا وحراسا يكلؤنه باعينهم من التعدى او من الزيغ في الصنعة (ووحينا) وامرنا وتعليمنا لكيفية صنعها والفاء في قوله تعالى (فاذا جاء امرنا) الترتيب

لم يكذب على وجه المصلحة لا على وجه التعذيب لكى لا يقدران كل الغرق يجرى على وجه واحد ۞ (القصة الثانية) قصة هود او صالح عليهما السلام قوله تعالى (ثم انشأنا من بعدهم قرنا آخرين فارسلنا فيهم رسولا منهم ان اعبدوا الله مالكم من اله غيره افلا تتقون وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة واترفناهم فى الحيوة الدنيا ماهذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن اطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون ايعدكم انكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما انكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيى ومانحن بمبعوثين ان هو الا رجل افترى على الله كذبا ومانحن له بمؤمنين قال رب انصرنى بما كذبون قال عما قليل ليصبحن نادمين فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين) اعلم ان هذه القصة هى قصة هود عليه السلام فى قول ابن عباس رضى الله عنهما واكثر المفسرين واحتجوا عليه بحكاية الله تعالى قول هود عليه السلام واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ومجئ قصة هود عقيب قصة نوح فى سورة الاعراف وسورة هود والشعراء (وقال بعضهم) المراد بهم صالح وثمود لان قومه الذين كذبوه هم الذين هلكوا بالصيحة اما كيفية الدعوى فكما مال تقدم فى قصة نوح عليه السلام وههنا سؤالات (السؤال الاول) حق ارسل ان يتعدى بالى كاخواته التى هى وجه وانفذ وبعث فما عدى فى القرآن بالى تارة وبفى اخرى كقوله تعالى كذلك ارسلناك فى امة ومارسلناك فى قرية فارسلنا فيهم رسولا اى فى عاد وفى موضع آخر والى عاد اخاهم هودا (الجواب) لم يعد بفى كما عدى بالى ولكن الامة او القرية جعلت موضعا للارسال وعلى هذا المعنى جاء بعث فى قوله ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا (السؤال الثانى) هل يصح ماقاله بعضهم ان قوله افلا تتقون غير موصول بالاول وانما قاله لهم بعد ان كذبوه وردوا عليه بعد اقامة الحجة عليهم فعند ذلك قال لهم مخوفا مماهم عليه افلا تتقون هذه الطريقة مخافة العذاب الذى انذرتكم به (الجواب) يجوز ان يكون موصولا بالكلام الاول بان رآهم معرضين عن عبادة الله مشتغلين بعبادة الاوثان فدعاهم الى عبادة الله وحذرهم من العقاب بسبب اقبالهم على عبادة الاوثان ثم اعلم ان الله تعالى حكى صفات اولئك القوم ثم حكى كلامهم اما الصفات فثلاثة هى شر الصفات (اولها) الكفر بالخالق سبحانه وهو المراد من قوله كفروا (وثانيها) الكفر بيوم القيمة وهو المراد من قوله وكذبوا بلقاء الآخرة (وثالثها) الانغماس فى حب الدنيا وشهواتها وهو المراد من قوله واترفناهم فى الحياة الدنيا اى نعمناهم فان قيل ذكر الله مقالة قوم هود فى جوابه فى سورة الاعراف وسورة هود بغير واو قال الملأ الذين كفروا من قومه انا لنراك فى سفاهة قالوا ما نراك الا بشرا مثلنا وههنا مع الواو فاى فرق بينهما قلنا الذى بغير واو على تقدير سؤال سائل قال فما قال قومه فقيل له كيت وكيت واما الذى مع الواو فعطف لما قالوه على ماقاله ومعناه انه اجتمع فى هذه الواقعة هذا

مضمون مابعدها على تمام صنع الفلك والمراد بالامر العذاب كما فى قوله تعالى لا عاصم اليوم من امر الله لا الامطار كوب كما قيل ومجيئه كمال القرابة والشدة ظهوره اى اذا جاء اثر تمام الفلك عذابنا وقوله تعالى (وفار التنور) عطف بيان لمجئ الامر روى انه قيل له عليه السلام اذا فار الماء من التنور اركب انت ومن معك وكان تنور آدم عليه السلام فصار الى نوح عليه السلام فلما نبع منه الماء اخبرته امرأته فركبوا واختلف فى مكانه فقيل كان فى مسجد الكوفة اى فى موضعه عن يمين الداخل من باب كندة اليوم وقيل كان فى عين وردة من الشام وقد مر تفصيله فى تفسير سورة هود عليه السلام (فاسلك فيها) اى ادخل فيها يقال سلك فيه اى دخل فيه وسلكه فيه ادخله فيه ومنه قوله تعالى ماسلككم فى سقر (من كل) اى من كل امة (زوجين) اى فردين مزدوجين كما يعرب عنه قوله تعالى (اثنين) فانه نص فى الفردين دون الجمعين او الفريقين وقرئ بالاضافة على ان المفعول اثنين اى من كل امتى زوجين وهما امة الذكر وامة الانثى كالجمال والنوق والحصن والرماك وهذا صريح فى ان الامر كان قبل صنعة الفلك وفى سورة هود حتى اذا جاء امرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين فالوجه ان يحمل اما على انه حكاية لامر آخر تنجيزى ورد عند فوران التنور الذى نيط به الامر التعليقى اعتناء بشأن المأمور به او على ان ذلك هو الامر السابق بعينه لكن لما كان الامر التعليقى قبل تحقق المعلق به فى حق ايجاب المأمور به بمنزلة العدم جعل كأنه انما حدث عند تحققه فحكى على صورة التنجيز وقد مر فى تفسير قوله تعالى واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم (واهلك) منصوب بفعل معطوف على (الكلام).

الكلام الحق وهذا الكلام الباطل * واما شبهات القوم فشيئان (اولهما) قولهم ما هذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون وقد مر شرح هذه الشبهة فى القصة الاولى وقوله مما تشربون اى من مشروبكم او حذف منه لدلالة ما قبله عليه وهو قوله ولئن اطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون فجعلوا اتباع الرسول خسرانا ولم يجعلوا عبادة الاصنام خسرانا اى لئن كنتم اعطيتموه الطاعة من غير ان يكون لكم بازائها منفعة فذلك هو الخسران (وثانيهما) انهم طعنوا فى صحة الحشر والنشر ثم طعنوا فى نبوته بسبب اتيانه بذلك اما الطعن فى صحة الحشر فهو قولهم أيعدكم انكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما انكم مخرجون معادون احياء للمجازاة ثم لم يقتصروا على هذا القدر حتى قرنوا به الاستبعاد العظيم وهو قولهم هيهات هيهات لما توعدون ثم اكدوا الشبهة بقولهم ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ولم يريدوا بقولهم نموت ونحيا الشخص الواحد بل أرادوا ان البعض يموت والبعض يحيا وانه لا اعادة ولا حشر فلذلك قالوا وما نحن بمبعوثين ولما فرغوا من الطعن فى صحة الحشر بنوا عليه الطعن فى نبوته فقالوا لما اتى بهذا الباطل فقد افترى على الله كذبا ثم لما قرروا الشبهة الطاعنة فى نبوته قالوا وما نحن له بمؤمنين لان القوم كالتبع لهم واعلم ان الله تعالى ما اجاب عن هاتين الشبهتين لظهور فسادهما (اما الشبهة الاولى) فقد تقدم بيان ضعفها (واما الثانية) فلأنهم استبعدوا الحشر ولا يستبعد الحشر لوجهين (الاول) انه سبحانه لما كان قادرا على كل الممكنات عالما بكل المعلومات وجب ان يكون قادرا على الحشر والنشر (والثانى) وهو انه لولا الاعادة لكان تسليط القوى على الضعيف فى الدنيا ظلما وهو غير لائق بالحكيم على ما قرره سبحانه فى قوله ان الساعة آتية اكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى وههنا مسائل (المسئلة الاولى) ثنى انكم للتوكيد وحسن ذلك الفصل ما بين الاول والثانى بالظرف ومخرجون خبر عن الاول وفى قراءة ابن مسعود وكنتم ترابا وعظاما مخرجون (المسئلة الثانية) قرئ هيهات بالفتح والكسر كلها بتنوين وبلا تنوين وبالسكون على لفظ الوقف (المسئلة الثالثة) هى فى قوله ان هى الا حياتنا الدنيا ضمير لا يعلم ما يعنى به الا بما يتلوه من بيانه واصله ان الحياة الا حياتنا الدنيا ثم وضع هى موضع الحياة لان الخبر يدل عليه ومنه * هى النفس ما حملتها تتحمل * والمعنى لا حياة الا هذه الحياة ولان ان النافية دخلت على هى التى فى معنى الحياة الدالة على الجنس فنفتها فوازنت لا التى نفت ما بعدها فى الجنس واعلم ان ذلك الرسول لما يئس من قبول الاكابر والاصاغر فزع الى ربه وقال رب انصرنى بما كذبون وقد تقدم تفسيره فأجابه الله تعالى فيما سأل وقال عما قليل ليصبحن نادمين والاقرب ان يكون المراد بان يظهر لهم علامات الهلاك فعند ذلك يحصل منهم الحسرة والندامة على ترك القبول ويكون الوقت وقت ايمان اليأس فلا ينفعون بالندامة وبين تعالى الهلاك الذى انزل عليهم بقوله فأخذتهم الصيحة بالحق (ذكروا

فاسلك لا بالعطف على زوجين او اثنين على القراءتين لادائه الى اختلال المعنى (٢٨٥) اى واسلك اهلك والمراد به امرأته وبنوه وتأخير الامر بادخالهم عما ذكر من ادخال الازواج فيها لكونه عريقا فيما امر به من الادخال فانه محتاج الى مزاولة الاعمال منه عليه السلام بل الى معاونة من اهله واتباعه واماهم فانما يدخلونها باختيارهم بعد ذلك ولان فى المؤخر ضرب تفصيل بذكر الاستثناء وغيره فتقديمه يؤدى الى الاخلال بتجاوب اطراف النظم الكريم (الا من سبق عليه القول منهم) بالقول باهلاك الكفرة وانما جئ بعلى لكون السابق ضارا كما جئ باللام فى قوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى لكونه نافعا (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا) بالدعاء لانجائهم (انهم مغرقون) تعليل للنهى او لما ينبئ عنه من عدم قبول الدعاء اى انهم مقضى عليهم بالاغراق لا محالة لظلمهم بالاشراك وسائر المعاصى ومن هذا شأنه لا يشفع له ولا يشفع فيه كيف لا وقد امر بالحمد على النجاة منهم باهلاكهم بقوله تعالى (فاذا استويت انت ومن معك) اى من اهلك واشياعك (على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين) على طريقة قوله تعالى فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين (وقل رب انزلنى) فى السفينة او منها (منزلا مباركا) اى انزالا او موضع انزال يستتبع خيرا كثيرا وقرئ منزلا اى موضع نزول (وانت خير المنزلين) امر عليه السلام بان يشفع دعاءه بما يطابقه من ثنائه عز وجل توسلا به الى الاجابة وافراده عليه السلام بالامر مع شركة الكل فى الاستواء والنجاة لاظهار فضله عليه السلام والاشعار بان فى دعائه وثنائه مندوحة عما عداه (ان فى ذلك) الذى ذكر مما فعل به عليه السلام وبقومه (لآيات)

فى الصيحة وجوها (احدها) ان جبريل عليه السلام صاح بهم وكانت الصيحة عظيمة فماتوا عندها (وثانيها) الصيحة هى الرجفة عن ابن عباس رضى الله عنهما (وثالثها) الصيحة هى نفس العذاب والموت كما يقال فيمن يموت دعى فاجاب عن الحسن (ورابعها) انه العذاب المصطلم قال الشاعر

صاح الزمان بآل برمك صيحة * خروا لشدتها على الاذقان

والاول اولى لانه هو الحقيقة واما قوله بالحق فمعناه انه دمرهم بالعدل من قولك فلان يقضى بالحق اذا كان عادلا فى قضاياه وقال المفضل بالحق اى بما لا يدفع كقوله وجاءت سكرة الموت بالحق اما قوله فجعلناهم غثاء فالغثاء حميل السيل مما بلى واسود من الورق والعيدان ومنه قوله تعالى فجعله غثاء احوى واما قوله تعالى فبعدا للقوم الظالمين ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قوله بعدا وسحقا ودمرا ونحوها مصادر موضوعة مواضع افعالها وهى من جملة المصادر التى قال سيبويه نصبت بافعال لا يستعمل اظهارها ومعنى بعدا بعدوا اى هلكوا يقال بعد بعدا وبعدا نحو رشد رشدا ورشدا والله اعلم (المسئلة الثانية) قوله بعدا بمنزلة اللعن الذى هو التبعيد من الخير والله تعالى ذكر ذلك على وجه الاستخفاف والاهانة لهم وقد نزل بهم العذاب دالا بذلك على ان الذى ينزل بهم فى الآخرة من البعد من النعيم والثواب اعظم مما حل بهم حالا ليكون ذلك عبرة لمن يجئ بعدهم * القصة الثالثة قوله تعالى (ثم انشأنا من بعدهم قرونا آخرين ماتسبق من امة اجلها وما يستأخرون ثم ارسلنا رسلنا تترى كلما جاء امة رسولها كذبوه فاتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم احاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون) اعلم انه سبحانه يقص القصص فى القرآن تارة على سبيل التفصيل كما تقدم واخرى على سبيل الاجمال كههنا وقيل المراد قصة لوط وشعيب وايوب ويوسف عليهم السلام فاما قوله ثم انشأنا من بعدهم قرونا آخرين فالمعنى انه ما اخلى الديار من مكلفين انشأهم وبلغهم حد التكليف حتى قاموا مقام من كان قبلهم فى عمارة الدنيا اما قوله ماتسبق من امة اجلها وما يستأخرون فيحتمل فى هذا الاجل ان يكون المراد آجال حياتها وتكليفها ويحتمل آجال موتها وهلاكها وان كان الاظهر فى الاجل اذا اطلق ان يراد به وقت الموت فبين ان كل امة لها آجال مكتوبة فى الحياة والموت لا يتقدم ولا يتأخر منها بذلك على انه عالم بالاشياء قبل كونها فلا توجد الا على وفق العلم ونظيره قوله تعالى ان اجل الله اذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون وههنا مسئلتان (المسئلة الاولى) قال اصحابنا هذه الآية تدل على ان المقتول ميت باجله اذ لو قتل قبل اجله لكان قد تقدم الاجل او تأخر وذلك ينافيه هذا النص (المسئلة الثانية) قال الكعبى المراد من قوله ماتسبق من امة اى لا يتقدمون الوقت المؤقت لعذابهم ان لم يؤمنوا ولا يتأخرون عنه ولا يستأصلهم الا اذا علم منهم انهم لا يزدادون الا عنادا وانهم لا يلدون مؤمنا وانه لا نفع فى بقائهم لغيرهم ولا ضرر على احد فى هلاكهم

جلية يستدل بها اولوا الابصار ويعتبر بها ذووا الاعتبار (وان كنا لمبتلين) ان مخففة من ان واللام فارقة بينها وبين النافية وضمير الشان محذوف اى وان الشان كنا مصيبين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد او مختبرين بهذه الآيات عبادنا لننظر من يعتبر ويتذكر كقوله تعالى ولقد تركناها آية فهل من مدكر (ثم انشأنا من بعدهم) اى من بعد اهلاكهم (قرنا آخرين) هم عاد حسبما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وعليه اكثر المفسرين وهو الاوفق لما هو المعهود فى سائر السور الكريمة من ايراد قصتهم اثر قصة قوم نوح وقيل هم ثمود (فارسلنا فيهم) جعلوا موضعا للارسال كما فى قوله تعالى كذلك ارسلناك فى امة ونحوه لا غاية له كما فى مثل قوله تعالى ولقد ارسلنا نوحا الى قومه للايذان من اول الامر بان من ارسل اليهم لم يأتهم من غير مكانهم بل انما نشأ فيما بين اظهرهم كما ينبئ عنه قوله تعالى (رسولا منهم) اى من جملتهم نسبا فانهما عليهما السلام كانا منهم وان فى قوله تعالى (ان اعبدوا الله) مفسرة لارسلنا لتضمنه معنى القول اى قلنا لهم على لسان الرسول اعبدوا الله تعالى وقوله تعالى (مالكم من اله غيره) تعليل للعبادة المأمور بها او للامر بها او لوجوب الامتثال به (افلا تتقون) اى عذابه الذى يستدعيه ما انتم عليه من الشرك والمعاصى والكلام فى العطف كالذى مر فى قصة نوح عليه السلام (وقال الملأ من قومه) حكاية لقولهم الباطل اثر حكاية القول الحق الذى نطق به حكاية رسالة الرسول بطريق العطف على ان المراد حكاية مطلق تكذيبهم له عليه السلام اجمالا لا حكاية ماجرى بينه عليه السلام وبينهم من المحاورة والمقاولة تفصيلا حتى يحكى بطريق الاستئناف المبنى على السؤال

(وهو)

وهو كقول نوح عليه السلام انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا اماقوله تعالى ثم ارسلنا رسلنا تترى فالمعنى انه كما أنشأنا بعضهم بعد بعض ارسل اليهم الرسل على هذا الحد قرأ ابن كثير تترى منونة والباقون بغير تنوين وهو اختيار اكثر اهل اللغة لانها فعلى من المواترة وهى المتابعة وفعلى لاينون كالدعوى والتقوى والتاء بدل من الواو فانه مأخوذ من الوتر وهو الفرد قال الواحدى تترى على القراءتين مصدرا واسم أقيم مقام الحال لان المعنى متواترة اماقوله تعالى كلما جاء امة رسولها كذبوه يعنى انهم سلكوا فى تكذيب أنبيائهم مسلك من تقدم ذكره ممن اهلكه الله بالغرق والصيحة فلذلك قال فاتبعنا بعضهم بعضا اى بالهلاك وجعلناهم احاديث يمكن أن يكون المراد جمع الحديث ومنه احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى انه سبحانه بلغ فى اهلاكهم مبلغا صاروا معه احاديث فلا يرى منهم عين ولا أثر ولم يبق منهم الا الحديث الذى يذكر ويعتبر به ويمكن ايضا أن يكون جمع احدوثة مثل الاضحوكة والاعجوبة وهى مايتحدث به الناس تلهيا وتعجبا ثم قال فبعدا لقوم لايؤمنون على وجه الدعاء والذم والتوبيخ ودل بذلك على انهم كما اهلكوا عاجلا فهلاكهم بالتعذيب آجلا على التأبيد مترقب وذلك وعيد شديد ۞ (القصة الرابعة) قصة موسى عليه السلام قوله تعالى (ثم ارسلنا موسى واخاه هرون بآياتنا وسلطان مبين الى فرعون وملائه فاستكبروا وكانوا قوما عالين فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون فكذبوهما فكانوا من المهلكين ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون) اختلفوا فى الآيات فقال ابن عباس رضى الله عنهما هى الآيات التسع وهى العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وانفلاق البحر والسنون ونقص من الثمرات وقال الحسن قوله بآياتنا اى بديننا واحتج بان المراد بالآيات لوكانت هى المعجزات والسلطان المبين ايضا هو المعجز فحينئذ يلزم عطف الشئ على نفسه والاقرب هو الاول لان لفظ الآيات اذا ذكر فى الرسل فالمراد منها المعجزات واما الذى احتجوا به (فالجواب) عنه من وجوه (احدها) ان المراد بالسلطان المبين يجوز أن يكون أشرف معجزاته وهو العصا لانه قد تعلقت بها معجزات شتى من انقلابها حية وتلقفها ماأفكته السحرة وانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر بضربها بها وكونها حارسا وشمعة وشجرة مثمرة ودلوا ورشاء فلاجل انفراد العصا بهذه الفضائل افردت بالذكر كقوله جبريل وميكال (وثانيها) يجوز أن يكون المراد بالآيات نفس تلك المعجزات وبالسلطان المبين كيفية دلالتها على الصدق وذلك لانها وان شاركت سائر آيات الانبياء فى كونها آيات فقد فارقتها فى قوة دلالتها على قوة موسى عليه السلام (وثالثها) أن يكون المراد بالسلطان المبين استيلاء موسى عليه السلام عليهم فى الاستدلال على وجود الصانع واثبات النبوة وانه ما كان يقيم لهم قدرا ولا وزنا واعلم ان الآية تدل على ان معجزات موسى عليه السلام كانت معجزات هرون عليه السلام

كأنفى عنه ماسيأتى من حكاية سائر الامم اى وقال الاشراف من قومه (الذين كفروا) فى محل الرفع على انه صفة للملأ وصفوا بذلك ذما لهم وتنبيها على غلوهم فى الكفر وتأخيره عن من قومه لعطف قوله تعالى (وكذبوا بلقاء الآخرة) وماعطف عليه على الصلة الاولى اى كذبوا بلقاء مافيها من الحساب والثواب والعقاب او بمعادهم الى الحياة الثانية بالبعث (وأترفناهم) ونعمناهم (فى الحياة الدنيا) بكثرة الاموال والاولاد اى قالوا لاعقابهم مضلين لهم (ماهذا الابشر مثلكم) اى فى الصفات والاحوال وايثار مثلكم على مثلنا للمبالغة فى تهوين امره عليه السلام وتوهينه (يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون) تقرير للمماثلة وماخبرية والعائد الى الثانى منصوب محذوف او مجرور قد حذف مع الجار لدلالة ماقبله عليه (ولئن اطعتم بشرا مثلكم) اى فيما ذكر من الاحوال والصفات اى ان امتثلتم باوامره (انكم اذا) اى على تقدير الاتباع (لخاسرون) عقولكم ومغبونون فى آرائكم حيث اذللتم انفسكم انظر كيف جعلوا اتباع الرسول الحق الذى يوصلهم الى سعادة الدارين خسرانا دون عبادة الاصنام التى لاخسران وراءها قاتلهم الله انى يؤفكون واذا واقع بين اسم ان وخبرها لتأكيد مضمون الشرط والجملة جواب لقسم محذوف قبل ان الشرطية المصدرة باللام الموطئة اى والله لئن اطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون (ايعدكم) استئناف مسوق لتقرير ماقبله من زجرهم عن اتباعه عليه السلام بانكار وقوع مايدعوهم الى الايمان به واستبعاده (انكم اذا متم) بكسر الميم من مات يمات وقرئ بضمها من مات يموت (وكنتم ترابا وعظاما نخرة) مجردة عن اللحوم والاعصاب اى كان بعض اجزائكم من اللحم وتكاثره ترابا وبعضها عظاما وتقديم التراب لعراقته فى الاستبعاد وانقلابه من الاجزاء البادية اوكان متقدموكم ترابا صرفا

ايضا وان النبوة كما انها كانت مشتركة بينهما فكذلك المعجزات ثم انه سبحانه حكى عن فرعون وقومه صفتهم ثم ذكر شبهتهم اما صفتهم فامران (احدهما) الاستكبار والانفة (والثانى) انهم كانوا قوما عالين اى رفيعى الحال فى امور الدنيا ويحتمل الاقتدار بالكثرة والقوة واما شبهتهم فهى قولهم انؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون وقال صاحب الكشاف لم يقل مثلينا كما قال انكم اذا مثلهم ولم يقل امثالهم وقال كنتم خير أمة ولم يقل اخيار امة كل ذلك لان الايجاز احب الى العرب من الاكثار والشبهة مبنية على امرين (احدهما) كونهما من البشر وقد تقدم الجواب عنه (والثانى) ان قوم موسى وهرون كانوا كالخدم والعبيد لهم قال ابوعبيدة العرب تسمى كل من دان الملك عابدا له ويحتمل ان يقال انه كان يدعى الالهية فادعى ان الناس عباده وان طاعتهم له عبادة على الحقيقة ثم بين سبحانه انه لما خطرت هذه الشبهة بالهم صرحوا بالتكذيب وهو المراد من قوله فكذبوهما ولما كان ذلك التكذيب كالعلة لكونهم من المهلكين لاجرم رتبه عليه بفاء التعقيب فقال وكانوا ممن حكم الله عليهم بالغرق فان حصول الغرق لم يكن حاصلا عقيب التكذيب انما الحاصل عقيب التكذيب حكم الله تعالى بكونهم كذلك فى الوقت اللائق به اما قوله تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون فقال القاضى معناه انه سبحانه خص موسى عليه السلام بالكتاب الذى هو التوراة لا لذلك التكذيب لكن لكى يهتدوا به فلما اصروا على الكفر مع البيان العظيم استحقوا ان يهلكوا واعترض صاحب الكشاف عليه فقال لايجوز ان يرجع الضمير فى لعلهم الى فرعون وملائه لان التوراة انما أوتيها بنواسرائيل بعد اغراق فرعون وملائه بدليل قوله تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما اهلكنا القرون الاولى بل المعنى الصحيح ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يعملون بشرائعها ومواعظها فذكر موسى والمراد آل موسى كما يقال هاشم وثقيف والمراد قومهما ❁ (القصة الخامسة) قصة عيسى وقصة مريم عليهما السلام قوله تعالى (وجعلنا ابن مريم وامه آية وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين) اعلم ان ابن مريم هو عيسى عليه السلام جعله الله تعالى آية بان خلقه من غير ذكر وانطقه فى المهد فى الصغر واجرى على يديه ابراء الاكمه والابرص واحياء الموتى واما مريم فقد جعلها الله تعالى آية لانها حملته من غير ذكر وقال الحسن تكلمت مريم فى صغرها كما تكلم عيسى عليه السلام وهو قولها هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب ولم تلقم ثديا قط قال القاضى ان ثبت ذلك فهو معجزة لزكريا عليه السلام لانها لم تكن نبية قلنا القاضى انما قال ذلك لان عنده الارهاص غير جائز وكرامات الاولياء غير جائزة وعندنا هما جائزان فلا حاجة الى ما قال والاقرب انه جعلهما آية بنفس الولادة لانه ولد من غير ذكر وولدته من دون ذكر فاشتركا جميعا فى هذا الامر العجيب الخارق للعادة والذى يدل على ان هذا التفسير اولى وجهان (احدهما) انه تعالى قال وجعلنا ابن

ومتأخروكم عظاما وقوله تعالى (انكم) تأكيد للاول لطول الفصل بينه وبين خبره الذى هو قوله تعالى (مخرجون) اى من القبور احياء كما كنتم وقيل انكم مخرجون مبتدأ واذا متم خبره على معنى اخراجكم اذا متم ثم اخبر بالجملة عن انكم وقيل رفع انكم مخرجون بفعل هو جزاء الشرط كأنه قيل اذا متم وقع اخراجكم ثم اوقعت الجملة الشرطية خبرا عن انكم والذى تقتضيه جزالة النظم الكريم هو الاول وقرئ ايعدكم اذا متم الخ (هيهات هيهات) تكرير لتأكيد البعد اى بعد الوقوع او الصحة (لما توعدون) وقيل اللام لبيان المستبعد ماهو كما فى هيت لك كأنهم لما صوتوا بكلمة الاستبعاد قيل لماذا هذا الاستبعاد فقيل لما توعدون وقيل هيهات بمعنى البعد وهو مبتدأ خبره لما توعدون وقرئ بالفتح منونا للتنكير وبالضم منونا على انه جمع هيهة وغير منون تشبيها بقبل وبالكسر على الوجهين وبالسكون على لفظ الوقف وابدال التاء هاء (ان هى الا حياتنا الدنيا) اصله ان الحياة الا حياتنا فأقيم الضمير مقام الاولى لدلالة الثانية عليها حذرا من التكرار واشعارا باغنائها عن التصريح كما فى هى النفس تحمل ما حملت وهى العرب تقول ما شاءت وحيث كان الضمير بمعنى الحياة الدالة على الجنس كانت ان النافية بمنزلة لا النافية للجنس وقوله تعالى (نموت ونحيى) جملة مفسرة لما ادعوه من ان الحياة هى الحياة الدنيا اى يموت بعضنا ويولد بعض الى انقراض العصر (وما نحن بمبعوثين) بعد الموت (ان هو) اى ما هو (الا رجل افترى على الله كذبا) فيما يدعيه من ارساله وفيما يعدنا من ان الله يبعثنا (وما نحن له بمؤمنين) بمصدقين فيما يقوله (قال) اى هود عليه السلام عند يأسه من ايمانهم بعد ما سلك فى دعوتهم كل مسلك متضرعا الى الله عزوجل (رب انصرنى) عليهم وانتقم لى منهم (بما كذبون) اى بسبب تكذيبهم اياى

مريم وامه آية لان نفس الاعجاز ظهر فيهما لا انه ظهر على يدهما وهذا اولى من أن يحمل على الآيات التي ظهرت على يده نحو احياء الموتى وذلك لان الولادة فيه وفيها آية فيهما وكذلك ان نطقا في المهد وما عدا ذلك من الآيات ظهر على يده لانه آية فيه (الثاني) انه تعالى قال آية ولم يقل آيتين وحمل هذا اللفظ على الامر الذي لا يتم الا بمجموعهما اولى وذلك هو أمر الولادة لا المعجزات التي كان عيسى عليه السلام مستقلا بها اما قوله تعالى وآويناهما الى ربوة ذات قرار اى جعلنا مأواهما الربوة والربوة والرباوة في راءيهما الحركات الثلاث هي الارض المرتفعة ثم قال قتادة وابو العالية هي ايلياء ارض بيت المقدس وقال ابو هريرة رضى الله عنه انها الرملة وقال الكلبي وابن زيد هي بمصر وقال الاكثرون انها دمشق وقال مقاتل والضحاك هي غوطة دمشق والقرار المستقر من ارض مستوية مبسوطة وعن قتادة ذات ثمار وماء يعني انه لاجل الثمار يستقر فيها ساكنوها والمعين الماء الظاهر الجاري على وجه الارض فنبه سبحانه على كمال نعمه عليهما بهذا اللفظ على اختصاره ثم في المعين قولان (احدهما) انه مفعول لانه لظهوره يدرك بالعين من عانه اذا ادركه بعينه وقال الفراء والزجاج ان شئت جعلته فعيلا من الماعون ويكون اصله من المعن والماعون فاعول منه قال ابو علي والمعين السهل الذي ينقاد ولا يتعاصى والماعون ما سهل على معطيه ثم قالوا وسبب الايواء انها فرت بابنها عيسى الى الربوة وبقيت بها اثنتي عشرة سنة وانما ذهب بهما ابن عمها يوسف ثم رجعت الى اهلها بعد أن مات ملكهم وههنا آخر القصص والله اعلم ۝ قوله تعالى (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا اني بما تعملون عليم

وان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاتقون فتقطعوا امرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون فذرهم في غمرتهم حتى حين أيحسبون انما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون) اعلم ان ظاهر قوله يا أيها الرسول خطاب مع كل الرسل وذلك غير ممكن لان الرسل انما ارسلوا متفرقين في ازمنة مختلفة فكيف يمكن توجيه هذا الخطاب اليهم فلهذا الاشكال اختلفوا في تأويله على وجوه (احدها) ان المعنى الاعلام بأن كل رسول فهو في زمانه نودي بهذا المعنى ووصي به ليعتقد السامع ان امرا نودي له جميع الرسل ووصوا به حقيق بأن يؤخذ به ويعمل عليه (وثانيها) ان المراد نبينا عليه الصلاة والسلام لانه ذكر ذلك بعد انقضاء اخبار الرسل وانما ذكر على صيغة الجمع كما يقال للواحد أيها القوم كفوا عني اذاكم ومثله الذين قال لهم الناس وهو نعيم بن مسعود كأنه سبحانه لما خاطب محمدا صلى الله عليه وسلم بذلك بين ان الرسل بأسرهم لو كانوا حاضرين مجتمعين لما خوطبوا الا بذلك ليعلم رسولنا ان هذا التثقيل ليس عليه فقط بل هو لازم على جميع الانبياء عليهم السلام (وثالثها) وهو قول محمد بن جرير ان المراد به عيسى عليه السلام لانه انما ذكر ذلك بعد ما ذكر مكانه الجامع للطعام والشراب ولانه روى ان عيسى عليه السلام كان يأكل من غزل امه والقول الاول اقرب لانه اوفق للفظ

واصرارهم عليه (قال) تعالى اجابة لدعائه وعدة بالقبول (٢٨٩) (عما قليل) اى عن زمان قليل وما مزيدة بين الجار والمجرور لتأكيد معنى القلة كما زيدت في قوله تعالى فبما رحمة من الله او نكرة موصوفة اى عن شئ قليل (ليصبحن نادمين) على ما فعلوه من التكذيب وذلك عند معاينتهم للعذاب (فأخذتهم الصيحة) لعلهم حين اصابتهم الريح العقيم اصيبوا في تضاعيفها بصيحة هائلة ايضا وقد روى ان شداد بن عاد حين اتم بناء ارم سار اليها باهله فلما دنا منها بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا وقيل الصيحة نفس العذاب والموت وقيل هي العذاب المصطلم قال قائلهم

صاح الزمان بآل برمك صيحة
خروا لشدتها على الاذقان

(بالحق) متعلق بالاخذ اى بالامر الثابت الذى لا دفاع له او بالعدل من الله تعالى او بالوعد الصدق (فجعلناهم غثاء) اى كغثاء السيل وهو حميله (فبعدا للقوم الظالمين) اخبار او دعاء وبعدا من المصادر التى لا يكاد يستعمل ناصبها والمعنى بعدوا بعدا اى هلكوا واللام لبيان من قيل له بعدا ووضع الظاهر موضع الضمير للتعليل (ثم انشأنا من بعدهم) اى بعد هلاكهم (قرونا آخرين) هم قوم صالح ولوط وشعيب عليهم السلام وغيرهم (ما تسبق من أمة اجلها) اى ما تتقدم أمة من الامم المهلكة الوقت الذى عين لهلاكهم اى ما تهلك أمة قبل مجئ اجلها (وما يستأخرون) ذلك الاجل بساعة وقوله تعالى (ثم ارسلنا رسلنا) عطف على انشأنا لكن لا على معنى ان ارسالهم متراخ عن انشاء القرون المذكورة جميعا بل على معنى ان ارسال كل رسول متأخر عن انشاء قرن مخصوص بذلك الرسول كأنه قيل ثم أنشأنا من بعدهم (٣٧)(را)(س) قرونا آخرين قد ارسلنا الى كل قرن منهم رسولا خاصا به والفصل بين المعطوفين

الآية ولانه روى عن ام عبدالله اخت شداد بن اوس انها بعثت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح من لبن فى شدة الحر عند فطاره وهو صائم فرده الرسول اليها وقال من أين لك هذا فقالت من شاة لى ثم رده وقال من أين هذه الشاة فقالت اشتريتها بمالى فأخذه ثم انها جاءته وقالت يارسول الله لم رددته فقال عليه السلام بذلك أمرت الرسل أن لا يأكلوا الا طيبا ولا يعملوا الا صالحا اما قوله تعالى من الطيبات ففيه وجهان (الاول) انه الحلال وقيل طيبات الرزق حلال وصاف وقوام فالحلال الذى لا يعصى الله فيه والصافى الذى لا ينسى الله فيه والقوام ما يمسك النفس ويحفظ العقل (والثانى) انه المستطاب المستلذ من المأكل والفواكه فبين تعالى انه وان ثقل عليهم بالنبوة وبما الزمهم القيام بحقها فقد أباح لهم أكل الطيبات كما أباح لغيرهم واعلم انه سبحانه كما قال للمرسلين ياأيها الرسل كلوا من الطيبات فقال للمؤمنين ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واعلم أن تقديم قوله كلوا من الطيبات على قوله واعملوا صالحا كالدلالة على ان العمل الصالح لابد وان يكون مسبوقا بأكل الحلال فاما قوله انى بما تعملون عليم فهو تحذير من مخالفة ما امرهم به واذا كان ذلك تحذيرا للرسل مع علو شأنهم فبأن يكون تحذيرا لغيرهم اولى اما قوله وان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاتقون فقد فسرناه فى سورة الانبياء وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) المعنى انه كما يجب اتفاقهم على أكل الحلال والاعمال الصالحة فكذلك هم متفقون على التوحيد وعلى الاتقاء من معصية الله تعالى فان قيل لما كانت شرائعهم مختلفة فكيف يكون دينهم واحدا قلنا المراد من الدين ما لا يختلفون فيه من معرفة ذات الله تعالى وصفاته واما الشرائع فان الاختلاف فيها لا يسمى اختلافا فى الدين فكما يقال فى الحائض والطاهر من النساء ان دينهن واحد وان افترق تكليفهما فكذا ههنا ويدل على ذلك قوله وانا ربكم فاتقون فكأنه نبه بذلك على ان دين الجميع واحد فيما يتصل بمعرفة الله تعالى واتقاء معاصيه فلا مدخل للشرائع وان اختلفت فى ذلك (المسئلة الثانية) قرئ وان بالكسر على الاستئناف وان بمعنى ولان وان مخففة من الثقيلة وامتكم مرفوعة معها اما قوله تعالى فتقطعوا امرهم بينهم زبرا فالمعنى فان امم الانبياء عليهم السلام تقطعوا امرهم بينهم وفى قوله فتقطعوا معنى المبالغة فى شدة اختلافهم والمراد بأمرهم ما يتصل بالدين اما قوله زبرا فقرئ زبرا جمع زبور اى كتبا مختلفة يعنى جعلوا دينهم اديانا وزبرا قطعا استعيرت من زبر الفضة والحديد وزبرا مخففة الباء كرسل فى رسل قال الكلبى ومقاتل والضحاك يعنى مشركى مكة والمجوس واليهود والنصارى اما قوله تعالى كل حزب بما لديهم فرحون فمعناه ان كل فريق منهم مغتبط بما اتخذه دينا لنفسه معجب به يرى المحق انه الرابح وان غيره المبطل الخاسر ولما ذكر الله تعالى تفرق هؤلاء فى دينهم اتبعه بالوعيد وقال فذرهم فى غمرتهم حتى حين الخطاب لنبينا صلى الله عليه وسلم يقول فدع هؤلاء الكفار فى جهلهم والغمرة الماء الذى يغمر القامة فكان

بالجملة المعترضة الناطقة بعدم تقدم الامم اجلها المضروب لهلاكهم للمسارعة (٢٩٠) الى بيان هلاكهم على وجه اجمالى (تترى)

اى متواترين واحدا بعد واحد من الوتر وهو الفرد والتاء بدل من الواو كما فى تولج ويتقوا والالف للتأنيث باعتبار ان الرسل جماعة وقرئ بالتنوين على انه مصدر بمعنى الفاعل وقع حالا وقوله تعالى (كلما جاء امة رسولها كذبوه) استئناف مبين لمجئ كل رسول لامته ولما صدر عنهم عند تبليغ الرسالة والمراد بالمجئ اما التبليغ واما حقيقة المجئ للايذان بانهم كذبوه فى اول الملاقاة واضافة الرسول الى الامة مع اضافة كلهم فيما سبق الى نون العظمة لتحقيق ان كل رسول جاء امته الخاصة به لان كلهم جاؤا كل الامم والاشعار بكمال شناعتهم وضلالهم حيث كذبت كل واحدة منهم رسولها المعين لها وقيل لان الارسال لائق بالمرسل والمجئ بالمرسل اليهم (فأتبعنا بعضهم بعضا) فى الهلاك حسبما تبع بعضهم بعضا فى مباشرة اسبابه التى هى الكفر والتكذيب وسائر المعاصى (وجعلناهم احاديث) لم يبق منهم الا حكايات يعتبر بها المعتبرون وهو اسم جمع للحديث او جمع احدوثة وهى ما يتحدث به تلهيا كاعاجيب جمع اعجوبة وهى ما يتعجب منه اى جعلناهم احاديث يتحدث بها تلهيا وتعجبا (فبعدا لقوم لا يؤمنون) اقتصر ههنا على وصفهم بعدم الايمان حسبما اقتصر على حكاية تكذيبهم اجمالا واما القرون الاولون فحيث نقل عنهم ما مر من الغلو وتجاوز الحد فى الكفر والعدوان وصفوا بالظلم (ثم ارسلنا موسى واخاه هرون بآياتنا) هى الآيات التسع من اليد والعصا والجراد والقمل

والضفادع والدم ونقص الثمرات والطاعون ولا مساغ لعد فلق البحر منها اذ المراد هى الآيات التى كذبوها واستكبروا عنها (وسلطان (مبين)

ماهم فيه من الجهل والحيرة صار غامرا ساترا لعقولهم وعن على عليه السلام فى غمراتهم حتى حين وذكروا فى الحين وجوها (احدها) الى حين الموت (وثانيها) الى حين المعاينة (وثالثها) الى حين العذاب والعادة فى ذلك ان يذكر فى الكلام والمراد به الحالة التى تقترن بها الحسرة والندامة وذلك يحصل اذا عرفهم الله بطلان ما كانوا عليه وعرفهم سوء منقلبهم ويحصل ايضا عند المحاسبة فى الآخرة ويحصل عند عذاب القبر والمسائلة فيجب ان يحمل على كل ذلك ولما كان القوم فى نعم عظيمة فى الدنيا جاز ان يظنوا ان تلك النعم كالثواب المعجل لهم على اديانهم فبين سبحانه ان الامر بخلاف ذلك فقال ايحسبون انما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات قرئ يمدهم ويسارع بالياء والفاعل هو الله سبحانه وفى المعنى وجهان (احدهما) ان هذا الامداد ليس الا استدراجا لهم فى المعاصى واستجرارا لهم فى زيادة الاثم وهم يحسبونه مسارعة فى الخيرات وبل للاستدراك لقوله ايحسبون يعنى بل هم اشباه البهائم لا فطنة لهم ولا شعور حتى يتفكروا فى ذلك اهو استدراج ام مسارعة فى الخير وهذه الآية كقوله ولا تعجبك اموالهم واولادهم روى عن يزيد بن ميسرة اوحى الله تعالى الى نبى من الانبياء أيفرح عبدى ان ابسط له الدنيا وهو ابعد له منى ويجزع ان اقبض عنه الدنيا وهو اقرب له منى ثم تلا ايحسبون انما نمدهم به من مال وبنين وعن الحسن لما اتى عمر بسوار كسرى فاخذه ووضعه فى يد سراقة فبلغ منكبه فقال عمر اللهم انى قد علمت ان نبيك عليه الصلاة والسلام كان يحب ان يصيب مالا لينفقه فى سبيلك فزويت ذلك عنه نظرا ثم ان ابا بكر كان يحب ذلك اللهم لا يكن ذلك مكرا منك بعمر ثم تلا أيحسبون انما نمدهم به من مال وبنين (الوجه الثانى) وهو انه سبحانه انما اعطاهم هذه النعم ليكونوا فارغى البال متمكنين من الاشتغال بكلف الحق فاذا اعرضوا عن الحق والحالة هذه كان لزوم الحجة عليهم اقوى فلذلك قال بل لا يشعرون

* قوله تعالى (ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لا يشركون والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة انهم الى ربهم راجعون اولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون) اعلم انه تعالى لما ذم من تقدم ذكره بقوله أيحسبون ان ما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات ثم قال بل لا يشعرون بين بعده صفات من يسارع فى الخيرات ويشعر بذلك وهى اربعة (الصفة الاولى) قوله ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون والاشفاق يتضمن الخشية مع زيادة رقة وضعف فمنهم من قال جمع بينهما لتأكيد ومنهم من حمل الخشية على العذاب والمعنى الذين هم من عذاب ربهم مشفقون وهو قول الكلبى ومقاتل ومنهم من حمل الاشفاق على اثره وهو الدوام فى الطاعة والمعنى الذين هم من خشية ربهم دائمون فى طاعته جادون فى طلب مرضاته والتحقيق ان من بلغ فى الخشية الى حد الاشفاق وهو كمال الخشية كان فى نهاية الخوف من سخط الله عاجلا ومن عقابه آجلا فكان فى نهاية الاحتراز عن المعاصى

مبين) اى حجة واضحة ملزمة للخصم وهى اما العصا وافرادها بالذكر مع اندراجها فى الآيات لما انها ام آياته عليه الصلاة والسلام واولاها وقد تعلقت بها معجزات شتى من انقلابها ثعبانا وتلقفها لما افكته السحرة حسبما فصل فى تفسير سورة طه واما التعرض لانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر بضربها وحراستها وصيرورتها شمعة وشجرة خضراء مثمرة ودلوا ورشاء وغير ذلك مما ظهر منها من قبل ومن بعد فى غير مشهد فرعون وقومه فغير ملائم لمقتضى المقام واما نفس الآيات كقوله الى طلاك القرم وابن الهمام الخ عبر عنها بذلك على طريقة العطف تنبيها على جمعها العنوانين جليلين وتنزيلا لتغايرهما منزلة التغاير الذاتى (الى فرعون وملائه) اى اشراف قومه خصوا بالذكر لان ارسال بنى اسرائيل منوط بآرائهم لا بآراء اعقابهم (فاستكبروا) عن الانقياد وتمردوا (وكانوا قوما عالين) متكبرين متمردين (فقالوا) عطف على استكبروا وما بينهما اعتراض مقرر للاستكبار اى كانوا قوما عادتهم الاستكبار والتمرد اى قالوا فيما بينهم بطريق المناصحة (أنؤمن لبشرين مثلنا) ثنى البشر لانه يطلق على الواحد كقوله تعالى بشرا سويا كما يطلق على الجمع كما فى قوله تعالى فاما ترين من البشر احدا ولم يثن المثل نظرا الى كونه فى حكم المصدر وهذه القصص كما ترى تدل على ان مدار شبه المنكرين للنبوة قياس حال الانبياء على احوالهم بناء على جهلهم بتفاصيل شؤون الحقيقة البشرية وتباين طبقات افرادها فى مراقى الكمال ومهاوى النقصان بحيث يكون بعضها فى اعلى عليين وهم المختصون بالنفوس الزكية المؤيدون بالقوة القدسية المتعلقون لصفاء جواهرهم بكلا العالمين الروحانى والجسمانى يتلقون من جانب ويلقون الى جانب ولا يعوقهم التعلق بمصالح الخلق عن التبتل

(الصفة الثانية) قوله والذين هم بآيات ربهم يؤمنون واعلم ان آيات الله تعالى هى المخلوقات الدالة على وجوده والايمان بها هو التصديق بها والتصديق بها ان كان بوجودها فذلك معلوم بالضرورة وصاحب هذا التصديق لايستحق المدح وان كان بكونها آيات ودلائل على وجود الصانع فذلك مما لايتوصل اليه الا بالنظر والكفر وصاحبه لابد وان يصير عارفا بوجود الصانع وصفاته واذا حصلت المعرفة بالقلب حصل الاقرار باللسان ظاهرا وذلك هو الايمان (الصفة الثالثة) قوله والذين هم بربهم لايشركون وليس المراد منه الايمان بالتوحيد ونفى الشريك لله تعالى لان ذلك داخل فى قوله والذين هم بآيات ربهم يؤمنون بل المراد منه نفى الشرك الخفى وهو ان يكون مخلصا فى العبادة لايقدم عليها الا لوجه الله تعالى وطلب رضوانه والله اعلم (الصفة الرابعة) قوله والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة معناه يعطون ما اعطوا فدخل فيه كل حق يلزم ايتاؤه سواء كان ذلك من حق الله تعالى كالزكاة والكفارة وغيرهما او من حقوق الآدميين كالودائع والديون واصناف الانصاف والعدل وبين ان ذلك انما ينفع اذا فعلوه وقلوبهم وجلة لان من يقدم على العبادة وهو وجل من تقصيره واخلاله بنقصان او غيره فانه يكون لاجل ذلك الوجل مجتهدا فى ان يوفيها حقها فى الاداء وسألت عائشة رضى الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أهو الذى يزنى ويشرب الخمر ويسرق وهو على ذلك يخاف الله تعالى فقال عليه الصلاة والسلام لا يا ابنة الصديق ولكن هو الرجل يصلى ويصوم ويتصدق وهو على ذلك يخاف الله تعالى واعلم ان ترتيب هذه الصفات فى نهاية الحسن لان الصفة الاولى دلت على حصول الخوف الشديد الموجب للاحتراز عما لاينبغى (والصفة الثانية) دلت على ترك الرياء فى الطاعات (والصفة الثالثة) دلت على ان المستجمع لتلك الصفات الثلاثة يأتى بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير وذلك هو نهاية مقامات الصديقين رزقنا الله سبحانه الوصول اليها فان قيل أفتقولون ان قوله وقلوبهم وجلة يرجع الى يؤتون او يرجع الى كل ماتقدم من الخصال قلنا بل الاولى ان يرجع الى الكل لان العطية ليست بذلك اولى من سائر الاعمال اذ المراد ان يؤدى ذلك على رجل من تقصيره فيكون مبالغا فى توفيته حقه فاما اذا قرئ والذين يأتون ما أتوا فالقول فيه اظهر اذ المراد بذلك اى شئ أتوه وفعلوه من تحرز عن معصية واقدام على ايمان وعمل فانهم يقدمون عليه مع الوجل ثم انه سبحانه بين علة ذلك الوجل وهى علمهم بانهم الى ربهم راجعون اى للمجازاة والمسائلة ونشر الصحف وتتبع الاعمال وان هناك لاتنفع الندامة فليس الا الحكم القاطع من جهة مالك الملك ثم انه سبحانه لما ذكر هذه الصفات للمؤمنين المخلصين قال بعده أولئك يسارعون فى الخيرات وفيه وجهان (أحدهما) ان المراد يرغبون فى الطاعات اشد الرغبة فيبادرونها لئلا تفوت عن وقتها ولكيلا تفوتهم دون الاخترام (والثانى) انهم يتعجلون فى الدنيا انواع النفع ووجوه

الى جناب الحق وبعضها فى اسفل سافلين كاولئك الجهلة الذين هم كالانعام بل هم اضل سبيلا (وقومهما) يعنون بنى اسرائيل (لنا عابدون) اى خادمون منقادون لنا كالعبيد وكأنهم قصدوا بذلك التعريض بشأنهما عليهما الصلاة والسلام وحط رتبتهما العلية عن منصب الرسالة من وجه آخر غير البشرية واللام فى لنا متعلقة بعابدون قدمت عليه رعاية للفواصل والجملة حال من فاعل نؤمن مؤكدة لانكار الايمان لهما بناء على زعمهم الفاسد المؤسس على قياس الرياسة الدينية على الرياسات الدنيوية الدائرة على التقدم فى نيل الحظوظ الدنيئة من المال والجاه كدأب قريش حيث قالوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وجهلهم بان مناط الاصطفاء للرسالة هو السبق فى حيازة ماذكر من النعوت العلية واحراز الملكات السنية جبلة واكتسابا (فكذبوهما) اى فتموا على تكذيبهما واصروا واستكبروا استكبارا (فكانوا من المهلكين) بالغرق فى بحر قلزم (ولقد آتينا) اى بعد اهلاكهم وانجاء بنى اسرائيل من ملكتهم (موسى الكتاب) اى التوراة وحيث كان ايتاؤه عليه الصلاة والسلام اياها لارشاد قومه الى الحق كما هو شان الكتب الالهية جعلوا كأنهم اوتوها فقيل (لعلهم يهتدون) اى الى طريق الحق بالعمل بما فيها من الشرائع والاحكام وقيل اريد آتينا قوم موسى فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه كما فى قوله تعالى على خوف من فرعون وملئهم اى من آل فرعون وملئهم ولا سبيل الى عود الضمير الى فرعون وقومه لظهور ان التوراة انما نزلت بعد اغراقهم لبنى اسرائيل واما الاستشهاد على ذلك بقوله

الاكرام كما قال فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة وآتيناه اجره فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين لانهم اذا سورع لهم بها فقد سارعوا فى نيلها وتعجلوها وهذا الوجه احسن طباقا للآية المتقدمة لان فيه اثبات مانفى عن الكفار للمؤمنين وقرئ يسرعون فى الخيرات أما قوله وهم لها سابقون فالمعنى فاعلون السبق لاجلها أو سابقون الناس لاجلها أو وهم لها سابقون اى ينالونها قبل الآخرة حيث عجلت لهم فى الدنيا ويجوز ان يكون خبرا بعد خبر والمعنى وهم لها كما يقال أنت لها وهى لك ثم قال سابقون اى وهم سابقون ۞ قوله تعالى (ولا نكلف نفسا الا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون بل قلوبهم فى غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجأرون لا تجأروا اليوم انكم منا لا تنصرون) اعلم انه سبحانه لما ذكر كيفية اعمال المؤمنين المخلصين ذكر حكمين من احكام اعمال العباد (فالاول) قوله ولا نكلف نفسا الا وسعها وفى الوسع قولان (احدهما) انه الطاقة عن المفضل (والثانى) انه دون الطاقة وهو قول المعتزلة ومقاتل والضحاك والكلبى واحتجوا عليه بان الوسع انما سمى وسعا لانه يتسع عليه فعله ولا يصعب ولا يضيق فبين ان اولئك المخلصين لم يكلفوا اكثر مما عملوا قال مقاتل من لم يستطع ان يصلى قائما فليصل جالسا ومن لم يستطع جالسا فليوم ايماء لانا لا نكلف نفسا الا وسعها واستدلت المعتزلة به فى نفى تكليف ما لا يطاق وقد تقدم القول فيه (الثانى) قوله ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون ونظيره قوله هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق وقوله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها واعلم انه تعالى شبه الكتاب بمن يصدر عنه البيان فان الكتاب لا ينطق لكنه يعرب بما فيه كما يعرب وينطق الناطق اذا كان محقا فان قيل هؤلاء الذين يعرض عليهم ذلك الكتاب اما ان يكونوا محيلين الكذب على الله تعالى او مجوزين ذلك عليه فان احالوه عليه فانهم يصدقونه فى كل ما يقول سواء وجد الكتاب اولم يوجد وان جوزوه عليه لم يثقوا بذلك الكتاب لتجويزهم انه سبحانه كتب فيه خلاف ما حصل فعلى التقديرين لا فائدة فى ذلك الكتاب قلنا يفعل الله ما يشاء وعلى انه لا يبعد ان يكون ذلك مصلحة للمكلفين من الملائكة واما قوله وهم لا يظلمون فنظيره قوله ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك احدا فقالت المعتزلة الظلم اما ان يكون بالزيادة فى العقاب او بالنقصان من الثواب او بان يعذب على ما لم يعمل او بان يكلفهم ما لا يطيقون فتكون الآية دالة على كون العبد موجدا لفعله والا لكان تعذيبه عليه ظلما ودالة على انه سبحانه لا يكلف ما لا يطاق (والجواب) انه لما كلف ابالهب ان يؤمن والايمان يقتضى تصديق الله تعالى فى كل ما خبر عنه ومما اخبر عنه ان ابالهب لا يؤمن فقد كلفه بان يؤمن بانه لا يؤمن فيلزمكم كل ما ذكرتموه واما قوله تعالى بل قلوبهم فى غمرة من هذا ففيه قولان (احدهما) انه راجع الى الكفار وهم الذين يليق بهم قوله بل قلوبهم فى غمرة من هذا ولا يليق ذلك بالمؤمنين اذ المراد فى غمرة من هذا الذى بيناه فى القرآن او من هذا الكتاب الذى ينطق

تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاولى فما السبيل اليه ضرورة ان ليس المراد بالقرون الاولى ما يتناول قوم فرعون بل من قبلهم من الامم المهلكة خاصة كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط كما سيأتى فى سورة القصص (وجعلنا ابن مريم وامه آية) واية آية دالة على عظم قدرتنا بولادته منها من غير مسيس بشر فالآية أمر واحد نسب اليهما او جعلنا ابن مريم آية بان تكلم فى المهد فظهرت منه معجزات جمة وامه آية بانها ولدته من غير مسيس فحذفت الاولى لدلالة الثانية عليها والتعبير عنهما بما ذكر من العنوانين وهما كونه عليه الصلاة والسلام ابنها وكونها امه عليه الصلاة والسلام للايذان من اول الامر بحيثية كونهما آية فان نسبته عليه الصلاة والسلام اليها مع ان النسب الى الآباء دالة على ان لا اب له اى جعلنا ابن مريم وحدها من غير ان يكون له اب وامه التى ولدته خاصة من غير مشاركة الاب آية وتقديمه عليه الصلاة والسلام لاصالته فيما ذكر من كونه آية كما ان تقديم امه فى قوله تعالى وجعلناها وابنها آية للعالمين لاصالتها فيما نسب اليها من الاحصان والنفخ (وآويناهما الى ربوة) اى ارض مرتفعة قيل هى ايلياء ارض بيت المقدس فانها مرتفعة وانها كبد الارض واقرب الارض الى السماء بثمانية عشر ميلا على ما يروى عن كعب وقيل دمشق وغوطتها وقيل فلسطين والرملة وقيل مصر فان قراها على الربا وقرئ بكسر الراء وضمها ورباوة بالكسر والضم (ذات قرار) مستقر من ارض منبسطة سهلة يستقر عليها ساكنوها وقيل ذات ثمار وزروع لاجلها يستقر فيها ساكنوها (ومعين) اى وماء معين ظاهر جار قيل من معن الماء اذا جرى واصله الابعاد فى المشى اومن الماعون وهو النفع لانه نفاع اومفعول من عانه اذا ادركه

بالحق او من هذا الذى هو وصف المشفقين ولهم اى لهؤلاء الكفار اعمال من دون ذلك اى أعمال سوى ذلك اى سوى جهلهم وكفرهم ثم قال بعضهم اراد اعمالهم فى الحال وقال بعضهم بل أراد المستقبل وهذا اقرب لان قوله هم لها عاملون الى الاستقبال أقرب وانما قال هم لها عاملون لانها مثبتة فى علم الله تعالى وفى حكم الله وفى اللوح المحفوظ فوجب أن يعملوها ليدخلوا بها النار لما سبق لهم من الله من الشقاوة (القول الثانى) وهو اختيار ابى مسلم ان هذه الآيات من صفات المشفقين كأنه سبحانه قال بعد وصفهم ولا نكلف نفسا الا وسعها ونهايته ما أتى به هؤلاء المشفقون ولدينا كتاب يحفظ اعمالهم ينطق بالحق وهم لا يظلمون بل نوفر عليهم ثواب كل اعمالهم بل قلوبهم فى غمرة من هذا هو ايضا وصف لهم بالحيرة كأنه قال وهم مع ذلك الوجل والخوف كالمتحيرين فى جعل اعمالهم مقبولة او مردودة ولهم اعمال من دون ذلك اى لهم ايضا من النوافل ووجوه البر سوى ما هم عليه اما اعمالا قد عملوها فى الماضى أو سيعملونها فى المستقبل ثم انه سبحانه رجع بقوله حتى اذا اخذنا مترفيهم بالعذاب الى وصف الكفار واعلم ان قول ابى مسلم أولى لانه اذا امكن رد الكلام الى ما يتصل به من ذكر المشفقين كان أولى من رده الى ما بعد منه خصوصا وقد يرغب المرء فى فعل الخير بان يذكر ان اعماله محفوظة كما قد يحذر بذلك من الشر وقد يوصف المرء لشدة فكره فى امر آخرته بان قلبه فى غمرة ويراد انه قد استولى عليه الفكر فى قبول عمله أو رده وفى انه هل أداه كما يجب او قصر فان قيل فما المراد بقوله من هذا وهو اشارة الى ماذا قلنا هو اشارة الى اشفاقهم ووجلهم مع انهما مستوليان على قلوبهم أما قوله تعالى حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب فقال صاحب الكشاف حتى هذه هى التى يبتدأ بعدها الكلام والكلام الجملة الشرطية واعلم انه لا شبهة ان الضمير فى مترفيهم راجع الى من تقدم ذكره من الكفار لان العذاب لا يليق الا بهم وفى هذا العذاب وجهان (احدهما) اراد بالعذاب ما نزل بهم يوم بدر (والثانى) انه عذاب الآخرة ثم بين سبحانه ان المتنعمين منهم اذا نزل بهم العذاب يجأرون اى يرتفع صوتهم بالاستغاثة والضجيج لشدة ما هم عليه ويقال لهم على وجه التبكيت لا تجأروا اليوم انكم منا لا تنصرون فلا يدفع عنكم ما يريد انزاله بكم دل بذلك سبحانه على انهم سينتهون يوم القيامة الى هذه الدرجة من الحسرة والندامة وهو كالباعث لهم فى الدنيا على ترك الكفر والاقدام على الايمان والطاعة فانهم الآن ينتفعون بذلك

※ قوله تعالى (قد كانت اياتى تتلى عليكم فكنتم على اعقابكم تنكصون مستكبرين به سامرا تهجرون افلم يدبروا القول ام جاءهم ما لم يأت آباءهم الاولين ام لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ام يقولون به جنة بل جاءهم بالحق واكثرهم للحق كارهون ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن بل اتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون ام تسألهم خرجا فخراج ربك خير وهو خير الرازقين) اعلم انه سبحانه لما بين فيما قبل انه لا ينصر اولئك الكفار اتبعه بعلة ذلك وهى انه متى تليت آيات الله عليهم اتوا

بالعين فانه لظهوره يدرك بالعيون وصف ماؤها بذلك للابدان بكونه جامع الفنون النافع من الشرب وسقى ما يسقى من الحيوان والنبات بغير كلفة والتنزه بمنظره المونق (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات) حكاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم على وجه الاجمال لما خوطب به كل رسول فى عصره جئ بها اثر حكاية ايواء عيسى عليه السلام وامه الى الربوة ايذانا لان ترتيب مبادى التنعم لم يكن من خصائصه عليه السلام بل اباحة الطيبات شرع قديم جرى عليه جميع الرسل عليهم السلام ووصوا به اى وقلنا لكل رسول كل من الطيبات واعمل صالحا فعبر عن تلك الاوامر المتعددة المتعلقة بالرسل بصيغة الجمع عند الحكاية اجمالا للايجاز وفيه من الدلالة على بطلان ما عليه الرهبانية من رفض الطيبات ما لا يخفى وقيل حكاية لما ذكر لعيسى عليه السلام وامه عند ايوائهما الى الربوة ليقتديا بالرسل فى تناول ما رزقا وقيل نداء وخطاب له والجمع للتعظيم وعن الحسن ومجاهد وقتادة والسدى والكلبى رحمهم الله تعالى انه خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحده على دأب العرب فى مخاطبة الواحد بلفظ الجمع وفيه ابانة لفضله وقيامه مقام الكل فى حيازة كمالاتهم والطيبات ما يستطاب ويستلذ من مباحات المأكل والفواكه حسبما ينبئ عنه سياق النظم الكريم فالامر للترفيه (واعملوا صالحا) اى عملا صالحا فانه المقصود منكم والنافع عند ربكم (انى بما تعملون) من الاعمال الظاهرة والباطنة (عليم) فاجازيكم عليه (وان هذه) استئناف داخل فيما خوطب به الرسل عليهم السلام على الوجه المذكور وسوق لبيان ان ملة الاسلام والتوحيد مما امر به كافة الرسل عليهم السلام والامم وانما اشير اليها بهذه للتنبيه على كمال ظهور امرها فى الصحة والسداد (بامور)

بأمور ثلاثة (احدها) انهم كانوا على اعقابهم ينكصون وهذا مثل يضرب فيمن تباعد عن الحق كل التباعد وهو قوله فكنتم على اعقابكم تنكصون اى تنفرون عن تلك الآيات وعمن يتلوها كما يذهب الناكص على عقبيه بالرجوع الى ورائه (وثانيها) قوله مستكبرين به والهاء فى به الى ماذا تعود فيه وجوه (اولهـا) الى البيت العتيق او الحرم كانوا يقولون لايظهر علينا احد لانا اهل الحرم والذى يسوغ هذا الاضمار شهرتهم بالاستكبار بالبيت وان لم يكن لهم مفخرة الا انهم ولاته والقائمون به (وثانيها) المراد مستكبرين بهذا التراجع والتباعد (وثالثها) ان تعلق الباء بسامرا اى يسمرون بذكر القرآن وبالطعن فيه وهـذا هو الامر الثـالث الذى يأتون به عند تلاوة القرآن عليهم وكانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون وكانت عامة سمرهم ذكر القرآن وتسميته سحرا وشعرا وسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويهجرون والسامر نحو الحاضر فى الاطلاق على الجمع وقرئ سمرا وسامرا يهجرون من اهجر فى منطقه اذا افحش والهجر بالفتح الهذيان والهجر بالضم الفحش او من هجر الذى هو مبالغة فى هجر اذا هذى ثم انه سبحانه لما وصف حالهم رد عليهم بأن بين ان اقدامهم على هذه الامور لابد وان يكون لاحد امور اربعة (احدها) ان لايتـأملوا فى دليل نبوته وهو المراد من قوله افلا يتدبرون القرآن فبين ان القول الذى هو القرآن كان معروفا لهم وقد مكنوا من التأمل فيه من حيث كان مباينا لكلام العرب فى الفصاحة ومبرأ عن التناقض فى طول عمره ومن حيث ينبه على ما يلزمهم من معرفة الصانع ومعرفة الوحدانيـة فلم لايتـدبرون فيه ليتركوا الباطل ويرجعوا الى الحق (وثانيها) ان يعتقدوا ان مجئ الرسل امر على خلاف العادة وهو المراد من قوله ام جاءهم مالم يأت آباءهم الاولين وذلك لانهم عرفوا بالتواتر ان الرسل كانت تتواتر على الامم وتظهر المعجزات عليها وكانت الامم بين مصدق ناج وبين مكذب هالك بعذاب الاستئصال أفما دعاهم ذلك الى تصديق الرسول (وثالثها) ان لايكونوا عالمين بديانته وحسن خصاله قبل ادعائه للنبوة وهو المراد من قوله ام لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون نبه سبحـانه بذلك على انهم عرفوا منه قبـل ادعائه الرسـالة كونه فى نهـاية الامانة والصدق وغاية الفرار من الكذب والاخلاق الذميمة فكيف كذبوه بعـد ان اتفقت كلمتهم على تسميته بالامين (ورابعهـا) ان يعتقدوا فيه الجنون فيقولوا انمـا حمله على ادعائه الرسالة جنونه وهو المراد من قوله ام يقولون به جنة وهذا ايضا ظاهر الفساد لانهم كانوا يعلمون بالضرورة انه اعقل الناس والمجنون كيف يمكنه ان يأتى بمثل ما أتى به من الدلائل القاطعة والشرائع الكاملة ولقد كان من المبغضين له عليه السلام من سمـاه بذلك وفيه وجهان (احدهما) انهم نسـبوه الى ذلك من حيث كان يطمع فى انقيادهم له وكان ذلك من ابعـد الامور عندهم فنسـبوه الى الجنون لذلك (والثانى) انهم قالوا ذلك ايهاما لعوامهم لكى لاينقادوا له فأوردوا ذلك مورد الاستحقار

واتظامها بسبب ذلك فى سلك الامور الشاهدة (امتكم) اى ملتكم وشريعتكم ايها الرسل (امة واحدة) اى ملة وشريعة متحدة فى اصول الشرائع التى لاتتبدل بتبدل الاعصار وقيل هذه اشارة الى الامم المؤمنة للرسل والمعنى ان هذه جماعتكم جماعة واحدة متفقة على الايمان والتوحيد فى العبادة (وانا ربكم) من غير ان يكون لى شريك فى الربوبية وضمير المخاطب فيه وفى قوله تعالى (فاتقون) اى فى شق العصا والمخالفة بالاخلال بمواجب ما ذكر من اختصاص الربوبية بى للرسل والامم جميعا على ان الامر فى حق الرسل للتهييج والالهاب وفى حق الامم للتحذير والايجاب والفاء لترتيب الامر او وجوب الامتثال به على ما قبله من اختصاص الربوبية به تعالى واتحاد الامة فان كلا منهما موجب للاتقاء حتما وقرئ وان هذه بفتح الهمزة على حذف اللام اى ولان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاتقون اى ان تتقوا فاتقون كما فى قوله تعالى واياى فارهبون وقيل على العطف على ما اى انى عليم بان امتكم امة الخ وقيل على حذف فعل عامل فيه اى واعلموا ان هذه امتكم الخ وقرئ وان هذه على انها مخففة من ان (فتقطعوا امرهم) حكاية لما ظهر من امم الرسل بعدهم من مخالفة الامر وشق العصا والضمير لما دل عليه الامة من اربابها اولها على التفسير الثانى والفاء لترتيب عصيانهم على الامر لزيادة تقبيح حالهم اى تقطعوا امر دينهم مع اتحاده وجعلوه قطعا متفرقة واديانا مختلفة (بينهم زبرا) اى قطعا جمع زبور بمعنى الفرقة ويؤيده قراءة زبرا بفتح الباء جمع زبرة وهو حال من امرهم او من واو تقطعوا او مفعول ثان لتقطعوا فانه متضمن لمعنى جعلوا وقيل كتبا فيكون مفعولا ثانيا

له ثم انه بعدان عدهذه الوجوه ونبه على فسادها قال بل جاءهم بالحق واكثرهم للحق كارهون من حيث تمسكوا بالتقليد ومن حيث علموا انهم لو أقروا بمحمد صلى الله عليه وسلم لزالت مناصبهم ولاختلت رياستهم فلذلك كرهوه فان قيل قوله واكثرهم فيه دليل على ان اقلهم لايكرهون الحق قلنا كان فيهم من يترك الايمان انفة من توبيخ قومه وان يقولوا ترك دين آبائه لا كراهة للحق كما يحكى عن ابى طالب ثم بين سبحانه ان الحق لايتبع الهوى بل الواجب على المكلف ان يطرح الهوى ويتبع الحق فبين سبحانه ان اتباع الهوى يؤدى الى الفساد العظيم فقال ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن وفى تفسيره وجوه (الاول) ان القوم كانوا يرون ان الحق فى اتخاذ آلهة مع الله تعالى لكن لو صح ذلك لوقع الفساد فى السموات والارض على ما قررناه فى دليل التمانع فى قوله لوكان فيهما آلهة الا الله لفسدتا (والثانى) ان اهواءهم فى عبادة الاوثان وتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وهما منشأ المفسدة والحق هو الاسلام فلو اتبع الاسلام قولهم لعلم الله حصول المفاسد عند بقاء هذا العالم وذلك يقتضى تخريب العالم وافناءه (الثالث) ان آراءهم كانت متناقضة فلو اتبع الحق اهواءهم لوقع التناقض ولاختل نظام العالم عن القفال اما قوله تعالى بل اتيناهم بذكرهم فقيل انه القرآن والادلة وقيل بل شرفهم وفخرهم بالرسول وكلا القولين متقارب لان فى مجىء الرسول بيان الادلة وفى مجىء الادلة بيان الرسول فأحدهما مقرون بالآخر وقيل الذكر هو الوعظ والتحذير وقيل هو الذى كانوا يتمنونه ويقولون لو ان عندنا ذكرا من الاولين لكنا عباد الله المخلصين وقرئ بذكراهم ثم بين سبحانه انه عليه الصلاة والسلام لايطمع فيهم حتى يكون ذلك سببا للنفرة فقال ام تسألهم خرجا فخراج ربك خير وقرئ خراجا قال ابو عمرو ابن العلاء الخرج ماتبرعت به والخراج مالزمك اداؤه والوجه ان الخرج أخص من الخراج كقولك خراج القرية وخرج الكردة زيادة اللفظ لزيادة المعنى ولذلك حسنت قراءة من قرأ خرجا فخراج ربك يعنى ام تسألهم على هدايتهم قليلا من عطاء الخلق فالكثير من عطاء الخالق خير فنبه سبحانه بذلك على ان هذه التهمة بعيدة عنه فلا يجوز ان ينفروا عن قبول قوله لاجلها فنبه سبحانه بهذه الآيات على انهم غير معذورين البتة وانهم محجوجون من جميع الوجوه قال الجبائى دل قوله تعالى وهو خير الرازقين على ان احدا من العباد لايقدر على مثل نعمه ورزقه ولا يساويه فى الافضال على عباده ودل ايضا على ان العباد قد يرزق بعضهم بعضا ولولا ذلك لما جاز ان يقول وهو خير الرازقين ۞ قوله تعالى

(وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم وان الذين لايؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون ولو رحمناهم وكشفنا مابهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون) اعلم انه سبحانه وتعالى لما زيف طريقة القوم اتبعه ببيان صحة ماجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فقال وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم لان مادل الدليل على صحته فهو فى باب الاستقامة ابلغ من

اوحالا من امرهم على تقدير المضاف اى مثل زبر وقرئ بتخفيف الباء كرسل (٢٩٦) فى رسل (كل حزب) من اولئك المتحزبين (بما لديهم) من الدين الذى اختاروه (فرحون) معجبون معتقدون انه الحق (فذرهم فى غمرتهم) شبه ما هم فيه من الجهالة بالماء الذى يغمر القامة لانهم مغمورون فيها لاعبون بها وقرئ غمراتهم والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والفاء لترتيب الامر بالترك على ما قبله من كونهم فرحين بما لديهم فان انهماكهم فيما هم فيه واصرارهم عليه من مخايل كونهم مطبوعا على قلوبهم اى اتركهم على حالهم (حتى حين) هو حين قتلهم او موتهم على الكفر او عذابهم فهو وعيد لهم بعذاب الدنيا والآخرة وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى له عن الاستعجال بعذابهم والجزع من تأخيره وفى التنكير والابهام مالا يخفى من التهويل (ايحسبون انما نمدهم به) اى نعطيهم اياه ونجعله مددا لهم فما موصولة وقوله تعالى (من مال وبنين) بيان لها وتقديم المال على البنين مع كونهم اعز منه قد مر وجهه فى سورة الكهف لاخير لان والعائد محذوف قوله تعالى (نسارع لهم فى الخيرات) على حذف الراجع الى الاسم اى ايحسبون ان الذى نمدهم به من المال والبنين نسارع به لهم فيما فيه خيرهم واكرامهم على ان الهمزة لانكار الواقع واستقباحه وقوله تعالى (بل لايشعرون) عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام اى كلا لانفعل ذلك بل هم لايشعرون بشئ اصلا كالبهائم لافطنة لهم ولا شعور ليتأملوا ويعرفوا ان ذلك الامداد استدراج لهم واستجرار لى زيادة الاثم وهم يحسبونه مسارعة لهم فى الخيرات وقرئ يمدهم على الغيبة وكذلك يسارع ويسرع ويحتمل ان يكون فيهما (الطريق)

الطريق المستقيم وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون اى لعادلون عن
هذا الطريق لان طريق الاستقامة واحدة وما يخالفه فكثير اما قوله تعالى ولو رحمناهم
وكشفنا ما بهم من ضر ففيه وجوه (احدها) المراد ضرر الجوع وسائر مضار الدنيا
(وثانيها) المراد ضرر القتل والسبى (وثالثها) انه ضرر الآخرة وعذابها فبين انهم قد
بلغوا فى التمرد والعناد المبلغ الذى لا مرجع فيه الى دار الدنيا وانهم لو ردوا لعادوا لما نهوا
عنه لشدة لجاجهم فيما هم عليه من الكفر اما قوله تعالى للجوا فى طغيانهم يعمهون فالمعنى
لتمادوا فى ضلالهم وهم متحيرون ☆ قوله تعالى (ولقد اخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم
وما يتضرعون حتى اذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد اذا هم فيه مبلسون وهو الذى
انشأ لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون وهو الذى ذرأكم فى الارض
واليه تحشرون وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون) اختلفوا
فى قوله ولقد أخذناهم بالعذاب على وجوه (احدها) انه لما اسلم ثمامة بن اثال الحنفى ولحق
باليمامة منع الميرة عن اهل مكة فأخذهم الله بالسنين حتى اكلوا الجلود والجيف فجاء
ابو سفيان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ألست تزعم انك بعثت رحمة للعالمين ثم
قتلت الآباء بالسيف والابناء بالجوع فادع الله يكشف عنا هذا القحط فدعا فكشف عنهم
فأنزل الله هذه الآية والمعنى اخذناهم بالجوع فما اطاعوا (وثانيها) هو الذى نالهم يوم بدر
من القتل والاسر يعنى ان ذلك مع شدته ما دعاهم الى الايمان عن الاصم (وثالثها) المراد
من عذب من الامم الخوالى فما استكانوا اى مشركو العرب لربهم عن الحسن (ورابعها)
ان شدة الدنيا اقرب الى المكلف من شدة الآخرة فاذا لم تؤثر فيهم شدة الدنيا فشدة الآخرة
كذلك وهذا يدل على انهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه اما قوله تعالى حتى اذا فتحنا عليهم
بابا ذا عذاب شديد ففيه وجهان (احدهما) حتى اذا فتحنا عليهم باب الجوع الذى هو اشد من
القتل والاسر (والثانى) اذا عذبوا بنار جهنم فحينئذ يبلسون كقوله ويوم تقوم الساعة
يبلس المجرمون لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون والابلاس اليأس من كل خير وقيل السكون
مع التحير وههنا سؤالات (السؤال الاول) ما وزن استكان (الجواب) استفعل من
الكون اى انتقل من كون الى كون كما قيل استحال اذا انتقل من حال الى حال ويجوز ان
يكون افتعل من السكون اشبعت فتحة عينه (السؤال الثانى) لم جاء استكانوا بلفظ
الماضى ويتضرعون بلفظ المستقبل (الجواب) لان المعنى امتحناهم فما وجدنا منهم
عقيب المحنة استكانة وما من عادة هؤلاء ان يتضرعوا حتى يفتح عليهم باب العذاب
الشديد وقرئ فتحنا (السؤال الثالث) العطف لا يحسن الا مع المجانسة فأى مناسبة بين
قوله وهو الذى انشأ لكم السمع والابصار وبين ما قبله (الجواب) كأنه سبحانه لما بين
مبالغة اولئك الكفار فى الاعراض عن سماع الادلة ورؤية العبر والتأمل فى الحقائق
قال للمؤمنين وهو الذى اعطاكم هذه الاشياء ووفقكم عليها تنبيها على ان من لم يستعمل

خبر الجملة وقرئ يمارع مبنيا (٢٩٧) للمفعول (ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون) استئناف مسوق لبيان من له المسارعة
فى الخيرات اثر اقناط الكفار عنها
وابطال حسبانهم الكاذب اى من
خوف عذابه حذرون (والذين
هم بآيات ربهم) المنصوبة والمنزلة
(يؤمنون) بتصديق مدلولها
(والذين هم بربهم لا يشركون)
شركا جليا ولا خفيا ولذلك اخر
عن الايمان بالآيات والتعرض
لعنوان الربوبية فى المواقع الثلاثة
للاشعار بعليته للاشفاق والايمان
وعدم الاشراك (والذين يؤتون
ما آتوا) اى يعطون ما اعطوه من
الصدقات وقرئ يأتون ما اتوا
اى يفعلون ما فعلوه من الطاعات
وايا ما كان فصيغة الماضى فى الصلة
الثانية للدلالة على التحقق كما ان
صيغة المضارع فى الاولى للدلالة
على الاستمرار (وقلوبهم وجلة)
حال من فاعل يؤتون او يأتون اى
يؤتون ما آتوه او يفعلون من
العبادات ما فعلوه والحال ان
قلوبهم خائفة اشد الخوف (انهم
الى ربهم راجعون) اى من ان
رجوعهم اليه عز وجل على ان
مناط الوجل ان لا يقبل منهم ذلك
وان لا يقع على الوجه اللائق
فيؤاخذوا به حينئذ لا مجرد
رجوعهم اليه تعالى وقيل لان
مرجعهم اليه تعالى والموصولات
الاربعة عبارة عن طائفة واحدة
متصفة بما ذكر فى حيز صلاتها من
الاوصاف الاربعة لا عن طوائف
كل واحدة منها متصفة بواحد
من الاوصاف المذكورة كأنه
قيل ان الذين هم من خشية
ربهم مشفقون وبآيات ربهم
يؤمنون الخ وانما كرر الموصول
ايذانا باستقلال كل واحدة من تلك
الصفات بفضيلة باهرة على حيالها
وتنزيلا لاستقلالها منزلة استقلال الموصوف بها (اولئك) (٣٨) (را) (س) اشارة اليهم باعتبار اتصافهم بها وما فيه من معنى البعد للاشعار ببعد

هذه الاعضاء فيما خلقت له فهو بمنزلة عادمها كما قال تعالى فما اغنى عنهم سمعهم ولا ابصارهم ولا افئدتهم من شئ اذ كانوا يجحدون بآيات الله تنبيها على ان حرمان اولئك الكفار ووجدان هؤلاء المؤمنين ليس الا من الله واعلم انه سبحانه بين عظيم نعمه من وجوه (احدها) باعطاء السمع والابصار والافئدة وخص هذه الثلاثة بالذكر لان الاستدلال موقوف عليها ثم بين انه يقل منهم الشاكرون قال ابو مسلم وليس المراد ان لهم شكرا وان قل لكنه كما يقال للكفور الجاحد للنعمة ما اقل شكر فلان (وثانيها) قوله وهو الذى ذرأكم فى الارض قيل فى التفسير خلقكم قال ابو مسلم ويحتمل بسطكم فيها ذرية بعضكم من بعض حتى كثرتم كقوله تعالى ذرية من حملنا مع نوح فنقول هو الذى جعلكم فى الارض متناسلين ويحشركم يوم القيامة الى دار لا حاكم فيها سواه فجعل حشرهم الى ذلك الموضع حشرا اليه لا بمعنى المكان (وثالثها) قوله وهو الذى يحيى ويميت اى نعمة الحياة وان كانت من اعظم النعم فهى منقطعة وانه سبحانه وان انعم بها فالمقصود منها الانتقال الى دار الثواب (ورابعها) قوله وله اختلاف الليل والنهار ووجه النعمة بذلك معلوم ثم انه سبحانه حذر من ترك النظر فى هذه الامور فقال أفلا تعقلون لان ذلك دلالة الزجر والتهديد وقرئ أفلا يعقلون ❊ قوله تعالى (بل قالوا مثل ما قال الاولون قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ان هذا الا اساطير الاولين) اعلم انه سبحانه لما اوضح القول فى دلائل التوحيد عقبه بذكر المعاد فقال بل قالوا مثل ما قال الاولون فى انكار البعث مع وضوح الدلائل ونبه بذلك على انهم انما انكروا ذلك تقليدا للاولين وذلك يدل على فساد القول بالتقليد ثم حكى الشبهة عنهم من وجهين (احدهما) قولهم أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون وهو مشهور (وثانيهما) قولهم لقد وعدنا نحن وآباؤنا من قبل كأنهم قالوا ان هذا الوعد كما وقع منه عليه الصلاة والسلام فقد وقع قديما من سائر الانبياء ثم لم يوجد مع طول العهد فظنوا ان الاعادة تكون فى دار الدنيا ثم قالوا لما كان كذلك فهو من أساطير الاولين والأساطير جمع اسطار والاسطار جمع سطر اى ما كتبه الاولون مما لا حقيقة له وجمع اسطورة اوفق ❊ قوله تعالى (قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون بل أتيناهم بالحق وانهم لكاذبون) اعلم انه يمكن ان يكون المقصود من هذه الآيات الرد على منكرى الاعادة وان يكون المقصود الرد على عبدة الاوثان وذلك لان القوم كانوا مقرين بالله تعالى فقالوا نعبد الاصنام لتقربنا الى الله زلفى ثم انه سبحانه احتج عليهم بامور ثلاثة (احدها) قل لمن الارض ومن فيها ووجه الاستدلال به على الاعادة انه تعالى لما كان خالقا للارض ولمن فيها

ربهم فى الفضل اى اولئك المنعوتون بما فصل من النعوت الجليلة خاصة دون غيرهم (يسارعون فى الخيرات) اى فى نيل الخيرات التى من جملتها الخيرات العاجلة الموعودة على الاعمال الصالحة كما قال قوله تعالى فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة وقوله تعالى وآتيناه اجره فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين فقد اثبت لهم ما نفى عن اضدادهم خلا انه غير الاسلوب حيث لم يقل اولئك نسارع لهم فى الخيرات بل اسند المسارعة اليهم ايماء الى كمال استحقاقهم لنيل الخيرات بمحاسن اعمالهم وايثار كلمة فى على كلمة الى للايذان بأنهم متقلبون فى فنون الخيرات لا انهم خارجون عنها متوجهون اليها بطريق المسارعة كما فى قوله تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة الآية (وهم لها سابقون) اى اياها سابقون واللام لتقوية العمل كما فى قوله تعالى هم لها عاملون اى ينالونها قبل الآخرة حيث عجلت لهم فى الدنيا وقيل المراد بالخيرات الطاعات والمعنى يرغبون فى الطاعات والعبادات اشد الرغبة وهم لاجلها فاعلون السبق او لاجلها سابقون الناس والاول هو الاولى (ولا نكلف نفسا الا وسعها) جملة مستأنفة سيقت للتحريض على ما وصف به السابقون من فعل الطاعات المؤدى الى نيل الخيرات ببيان سهولته وكونه غير خارج عن حد الوسع والطاقة اى عادتنا جارية على ان لا نكلف نفسا من النفوس الا ما فى وسعها على ان المراد استمرار النفى بمعونة المقام لا نفى الاستمرار كما مر مرارا والترخيص فيما هو قاصر عن درجة اعمال اولئك الصالحين ببيان انه تعالى لا يكلف عباده الا ما فى وسعهم فان لم يبلغوا فى فعل الطاعات مراتب السابقين فلا عليهم بعد ان يبذلوا طاقتهم ويستفرغوا (من)

من الاحياء وخالقا لحياتهم وقدرتهم وغيرها فوجب ان يكون قادرا على ان يعيدهم بعد ان افناهم ووجه الاستدلال به على نفى عبادة الاوثان من حيث ان عبادة من خلقكم وخلق الارض وكل مافيها من النعم هى الواجبة دون عبادة مالايضر ولا ينفع وقوله افلا تذكرون معناه الترغيب فى التدبر ليعلموا بطلان ماهم عليه (وثانيها) قوله من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ووجه الاستدلال على الامرين كما تقدم وانما قال أفلا تتقون تنبيها على ان اتقاء عذاب الله لايحصل الا بترك عبادة الاوثان والاعتراف بجواز الاعادة (وثالثها) قوله تعالى قل من بيده ملكوت كل شئ اعلم انه سبحانه لما ذكر الارض اولا والسماء ثانيا عمم الحكم ههنا فقال من بيده ملكوت كل شئ ويدخل فى الملكوت الملك والملك على سبيل المبالغة وقوله وهو يجير ولايجار عليه يقال اجرت فلانا على فلان اذا اغثته منه ومنعته يعنى وهو يغيث من يشاء ممن يشاء ولايغيث احد منه احدا اما قوله تعالى فانى تسحرون فالمعنى انى تخدعون عن توحيده وطاعته والخادع هو الشيطان والهوى ثم بين تعالى بقوله بل أتيناهم بالحق انه قد بالغ فى الحجاج عليهم بهذه الآيات وغيرها وهم مع ذلك كاذبون وذلك كالتوعد والتهديد وقرئ أتيتهم وأتيتهم بالضم والفتح وههنا سؤالات (السؤال الاول) قرئ قل لله فى الجواب الاول باللام لاغير وقرئ الله فى الاخيرين بغير اللام فى مصاحف اهل الحرمين والكوفة والشأم وباللام فى مصاحف اهل البصرة فما الفرق (الجواب) لافرق فى المعنى لان قولك من ربه ولمن هو فى معنى واحد (السؤال الثانى) كيف قال ان كنتم تعلمون ثم حكى عنهم سيقولون الله وفيه تناقض (الجواب) لا تناقض لان قوله ان كنتم تعلمون لاينفى علمهم بذلك وقد يقال مثل ذلك فى الحجاج على وجه التأكيد لعلمهم والبعث على اعترافهم بمايورد من ذلك ❊ قوله تعالى (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون قل رب اما ترينى ما يوعدون رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين وانا على ان نريك ما نعدهم لقادرون ادفع بالتى هى احسن السيئة نحن اعلم بما يصفون)

اعلم انه سبحانه ادعى امرين (احدهما) قوله ما اتخذ الله من ولد وهو كالتنبيه على ان ذلك من قول هؤلاء الكفار فان جمعا منهم كانوا يقولون الملائكة بنات الله (والثانى) قوله وما كان معه من اله وهو قولهم باتخاذ الاصنام آلهة ويحتمل ان يريد به ابطال قول النصارى والثنوية ثم انه سبحانه وتعالى ذكر الدليل المعتمد بقوله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض والمعنى لانفرد كل واحد من الآلهة بخلقه الذى خلقه واستبد به ولرأيتم ملك كل واحد منهم متميزا عن ملك الآخر ولغلب بعضهم على بعض كما ترون حال ملوك الدنيا ممالكهم متميزة وهم متغالبون وحيث لم تروا اثر التمايز فى الممالك والتغالب فاعلموا انه اله واحد بيده ملكوت كل شئ فان قيل اذا لايدخل الا على كلام

وسعهم قال مقاتل من لم يستطع القيام فليصل قاعدا ومن لم يستطع القعود فليوم ايماء وقوله تعالى (ولدينا كتاب) الخ تتمة لما قبله بيان احوال ما كلفوه من الاعمال واحكامها المترتبة عليها من الحساب والثواب والعقاب والمراد بالكتاب صحائف الاعمال التى يقرؤنها عند الحساب حسبما يعرب عنه قوله تعالى (ينطق بالحق) كقوله تعالى هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون اى عندنا كتاب قد اثبت فيه اعمال كل احد على ماهى عليه او اعمال السابقين والمقتصدين جميعا لا انه اثبت فيه اعمال الاولين واهمل اعمال الآخرين فقيه قطع معذرتهم ايضا وقوله بالحق متعلق ينطق اى يظهر الحق المطابق للواقع على ماهو عليه ذاتا ووصفا ويبينه للناظر كما يبينه النطق ويظهره للسامع فيظهر هنالك جلائل اعمالهم ودقائقها ويرتب عليها اجزيتها ان خيرا فخير وان شرا فشر وقوله تعالى (وهم لايظلمون) بيان لفضله تعالى وعدله فى الجزاء اثر بيان لطفه فى التكليف وكتب الاعمال اى لايظلمون فى الجزاء بنقص ثواب اوبزيادة عذاب بل يجزون بقدر اعمالهم التى كلفوها ونطقت بها صحائفها بالحق وقد جوز ان يكون تقريرا لما قبله من التكليف وكتب الاعمال اى لايظلمون بتكليف ماليس فى وسعهم ولابعدم كتب بعض اعمالهم التى من جملتها اعمال المقتصدين بناء على قصورها عن درجة اعمال السابقين بل يكتب كل منها على مقاديرها وطبقاتها والتعبير عما ذكر من الامور بالظلم مع ان شيئا منها ليس بظلم على ماتقرر من ان الاعمال الصالحة لاتوجب اصل الثواب فضلا عن ايجاب مرتبة معينة منه حتى تعد الاثابة بما دونها نقصا وكذلك الاعمال السيئة لاتوجب درجة معينة

هو جزاء وجواب فكيف وقع قوله لذهب جزاء وجوابا ولم يتقدمه شرط ولا سؤال سائل قلنا الشرط محذوف وتقديره ولو كان معه آلهة وانما حذف لدلالة قوله وما كان معه من اله عليه ثم انه سبحانه نزه نفسه عن قولهم بقوله سبحان الله عما يصفون من اثبات الولد والشريك اما قوله عالم الغيب والشهادة فقرئ بالجر صفة لله وبالرفع خبر مبتدأ محذوف والمعنى انه سبحانه هو المختص بعلم الغيب والشهادة فغيره وان علم الشهادة فلن يعلم معها الغيب والشهادة التى يعلمها لا يتكامل بها النفع الا مع العلم بالغيب وذلك كالوعيد لهم فلذلك قال فتعالى عما يشركون ثم امره سبحانه بالانقطاع اليه وان يدعوه بقوله رب اما تريني مايوعدون رب فلا تجعلني فى القوم الظالمين قال صاحب الكشاف ما والنون مؤكدتان اى ان كان ولا بد من ان تريني ما تعدهم من العذاب فى الدنيا او فى الآخرة فلا تجعلني قرينا لهم ولا تعذبني بعذابهم فان قيل كيف يجوز ان يجعل الله نبيه المعصوم مع الظالمين حتى يطلب ان لا يجعله معهم قلنا يجوز ان يسأل العبد ربه ماعلم انه يفعله وان يستعيذ به مما علم انه لا يفعله اظهارا للعبودية وتواضعا لربه وما احسن قول الحسن فى قول الصديق « وليتكم ولست بخيركم » مع انه كان يعلم انه خيرهم ولكن المؤمن يهضم نفسه وانما ذكر رب مرتين مرة قبل الشرط ومرة قبل الجزاء مبالغة فى التضرع اما قوله تعالى وانا على ان نريك ما نعدهم لقادرون ففيه قولان (احدهما) انهم كانوا ينكرون الوعد بالعذاب ويضحكون منه فقيل لهم ان الله قادر على انجاز ما وعد ويحتمل عذابا فى الدنيا مؤخرا عن ايامه عليه السلام فلذلك قال بعضهم هو فى اهل البغى وبعضهم فى الكفار الذين قوتلوا بعد الرسول صلى الله عليه وسلم (والثانى) ان المراد عذاب الآخرة اما قوله ادفع بالتى هى احسن السيئة نحن اعلم بما يصفون فالمراد منه ان الاولى به عليه السلام ان يعامل به الكفار فأمر باحتمال ما يكون منهم من التكذيب وضروب الاذى وان يدفعه بالكلام الجميل كالسلام وبيان الادلة على احسن الوجوه وبين له انه اعلم بحالهم منه عليه السلام وانه سبحانه لما لم يقطع نعمه عنهم فينبغى ان يكون هو عليه السلام مواظبا على هذه الطريقة قال صاحب الكشاف قوله ادفع بالتى هى احسن السيئة ابلغ من ان يقال بالحسنة السيئة لما فيه من التفضيل والمعنى الصفح عن اساءتهم ومقابلتها بما امكن من الاحسان حتى اذا اجتمع الصفح والاحسان وبذل الطاقة فيه كانت حسنة مضاعفة بازاء السيئة وقيل هذه الآية منسوخة بآية السيف وقيل محكمة لان المداراة محثوث عليها مالم تؤد الى نقصان دين او مروءة ۞ قوله تعالى

(وقل رب اعوذ بك من همزات الشياطين واعوذ بك رب ان يحضرون حتى اذا جاء احدهم الموت قال رب ارجعون لعلى اعمل صالحا فيما تركت كلا انها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون)

اعلم انه سبحانه لما ادب رسوله بقوله ادفع بالتى هى احسن السيئة اتبعه بما به يقوى على ذلك وهو الاستعاذة بالله من امرين (احدهما) من همزات

من العذاب حتى يعد التعذيب بما فوقها زيادة وكذا تكليف ما فى الوسع وكتب الاعمال ليس انما يجب عليه سبحانه حتى يعد تركهما خللا لكمال تنزيه ساحة السبحان عنهما بتصويرها بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى وتسميتها باسمه وقوله تعالى (بل قلوبهم فى غمرة من هذا) اضراب عما قبله والضمير للكفرة لا للكل كما قبله اى بل قلوب الكفرة فى غفلة غامرة لها من هذا الذى بين فى القرآن من ان لديه تعالى كتابا ينطق بالحق ويظهر لهم اعمالهم السيئة على رؤس الاشهاد فيجزون بها كما ينبئ عنه ما سيأتى من قوله تعالى قد كانت آياتى تتلى عليكم الخ وقيل مما عليه اولئك الموصوفون بالاعمال الصالحة (ولهم اعمال) سيئة كثيرة (من دون ذلك) الذى ذكر من كون قلوبهم فى غفلة عظيمة مما ذكر وهى فنون كفرهم ومعاصيهم التى من جملتها ما سيأتى من طعنهم فى القرآن حسبما ينبئ عنه قوله تعالى مستكبرين به سامرا تهجرون وقيل متخطية لما وصف به المؤمنون من الاعمال الصالحة المذكورة وفيه انه لا مزية فى وصف اعمالهم الخبيثة بالتخطى للاعمال الحسنة للمؤمنين وقيل متخطية عما هم عليه من الشرك ولا يخفى بعده لعدم جريان ذكره (هم لها عاملون) مستمرون عليها معتادون فعلها ضارون بها لا يكادون يبرحونها (حتى اذا اخذنا مترفيهم) اى متنعميهم وهم الذين امدهم الله تعالى بما ذكر من المال والبنين وحتى مع كونها غاية لاعمالهم المذكورة مبدأ لما بعدها من مضمون الشرطية اى لا يزالون يعملون اعمالهم الى حيث اذا اخذنا رؤساءهم (بالعذاب) قيل هو القتل والاسر يوم بدر وقيل هو الجوع الذى اصابهم حين دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله اللهم اشدد وطأتك على (الشياطين)

الشياطين والهمزات جمع الهمزة وهو الدفع والتحريك الشديد وهو كالهز والأز ومنه مهماز الرائض وهمزاته هو كيده بالوسوسة ويكون ذلك منه فى الرسول بوجهين (احدهما) بالوسوسة (والآخر) بان يبعث اعداءه على ايذائه وكذلك القول فى المؤمنين لان الشيطان يكيدهم بهذين الوجهين ومعلوم ان من ينقطع الى الله تعالى ويسأله ان يعيذه من الشيطان فانه يجب ان يكون متذكرا متيقظا فيما يأتى ويذر فيكون نفس هذا الانقطاع الى الله تعالى داعية الى التمسك بالطاعة وزاجرا عن المعصية قال الحسن كان عليه السلام يقول بعد استفتاح الصلاة لا اله الا الله ثلاثا الله اكبر ثلاثا اللهم انى اعوذ بك من همزات الشياطين همزه ونفثه ونفخه فقيل يارسول الله وما همزه قال الموتة التى تأخذ ابن آدم اى الجنون الذى يأخذ ابن آدم قيل فانفثه قال الشعر قيل فانفخه قال الكبر (وثانيها) قوله واعوذ بك رب ان يحضرون وفيه وجهان (احدهما) ان يحضرون عند قرءة القرآن لكى يكون متذكرا فيقل سهوه وقال آخرون بل استعاذ بالله من نفس حضورهم لانه الداعى الى وسوستهم كما يقول المرء اعوذ بالله من خصومتك بل اعوذ بالله من لقائك وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد اشتكى اليه رجل ارقا يجده فقال اذا أردت النوم فقل اعوذ بالله وبكلمات الله التامات من غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وان يحضرون اما قوله تعالى حتى اذا جاء احدهم الموت ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف حتى متعلق بيصفون اى لا يزالون على سوء الذكر الى هذا الوقت والآية فاصلة بينهما على وجه الاعتراض والتأكيد للاغضاء عنهم مستعينا بالله على الشيطان ان يستزله عن الحلم والله اعلم (المسئلة الثانية) اختلفوا فى قوله حتى اذا جاء احدهم الموت فالاكثرون على انه راجع الى الكفار وقال الضحاك كنت جالسا عند ابن عباس فقال من لم يزك ولم يحج سأل الرجعة عند الموت فقال واحد انما يسأل ذلك الكفار فقال ابن عباس رضى الله عنهما انا اقرأ عليك به قرآنا وانفقوا مما رزقناكم من قبل ان يأتى احدكم الموت فيقول رب لولا اخرتنى الى اجل قريب فاصدق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حضر الانسان الموت جمع كل شئ كان يمنعه من حقه بين يديه فعنده يقول رب ارجعون لعلى اعمل صالحا فيما تركت والاقرب هو الاول اذا عرف المؤمن منزلته فى الجنة فاذا شاهدها لا يتمنى اكثر منها ولولا ذلك لكان ادونهم ثوابا يغتم بفقد مايفقد من منزلة غيره واما ماذكره ابن عباس رضى الله عنهما من قوله وانفقوا مما رزقناكم من قبل ان يأتى احدكم الموت فهو اخبار عن حال الحياة فى الدنيا لا عن حال الثواب فلا يلزم على ماذكرنا (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى وقت مسئلة الرجعة فالاكثرون على انه يسأل فى حال المعاينة لانه عندها يضطر الى معرفة الله تعالى والى انه كان عاصيا ويصير ملجأ الى انه لا يفعل القبيح بان يعلمه الله تعالى انه لو رامه لمنع منه ومن هذا حاله يصير كالممنوع من القبائح بهذا الالجاء فعند ذلك يسأل الرجعة ويقول رب

عشر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف فقحطوا حتى اكلوا الكلاب والجيف والعظام المحرقة والاولاد والحق انه العذاب الاخروى اذ هو الذى يفاجئون عنده الجؤار فيجابون بالرد والاقناط عن النصر واما عذاب يوم بدر فلم يوجد لهم عنده جؤار حسبما ينبئ عنه قوله تعالى ولقد اخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون فان المراد بهذا العذاب ما جرى عليهم يوم بدر من القتل والاسر حتما واما عذاب الجوع فان ابا سفيان وان تضرع فيه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن لم يرد عليه بالاقناط حيث روى انه عليه الصلاة والسلام قد دعا بكشفه فكشف عنهم ذلك (اذا هم يجأرون) اى فاجؤا الصراخ بالاستغاثة من الله عز وجل كقوله تعالى فاليه تجأرون وهو جواب الشرط وتخصيص مترفيهم بما ذكر من الاخذ بالعذاب ومفاجأة الجؤار مع عمومه لغيرهم ايضا لغاية ظهور انعكاس حالهم وانتكاس امرهم وكون ذلك أشق عليهم ولانهم مع كونهم متنعمين محميين بحماية غيرهم من المنعة والحشم حين لقوا ما لقوا من الحالة الفظيعة فلان يلقاها من عداهم من الحماة والخدم اولى واقدم (لا تجأروا اليوم) على اضمار القول مسوقا لردهم وتبكيتهم واقناطهم مما علقوا به اطماعهم الفارغة من الاغاثة والاعانة من جهته تعالى وتخصيص اليوم بالذكر لتهويله والايذان بتفويتهم وقت الجؤار وقد يجوز كونه جواب الشرط وانت خبير بان المقصود الاصلى فى الجملة الشرطية هو الجواب فيؤدى ذلك الى ان يكون مفاجأتهم الى الجؤار غير مقصود اصلى وقوله تعالى (انكم منا لا تنصرون) تعليل للنهى عن الجؤار ببيان عدم افادته ونفعه اى لا يلحقكم من جهتنا نصرة تنجيكم مما دهمكم وقيل لا تغاثون

ارجعون لعلى اعمل صالحا فيما تركت وقال آخرون بل يقول ذلك عند معاينة النار فى الآخرة ولعل هذا القائل انما ترك ظاهر هذه الآية لما اخبر الله تعالى فى كتابه عن اهل النار فى الآخرة انهم يسألون الرجعة لكن ذلك مما لا يمتنع ان يكونوا سائلين الرجعة فى حال المعاينة والله تعالى يقول حتى اذا جاء احدهم الموت قال رب ارجعون فعلق قولهم هذا بحال حضور الموت وهو حال المعاينة فلا وجه لترك هذا الظاهر (المسئلة الرابعة) اختلفوا فى قوله سبحانه وتعالى ارجعون من المراد به فقال بعضهم الملائكة الذين يقبضون الارواح وهم جماعة فلذلك ذكره بلفظ الجمع وقال آخرون بل المراد هو الله تعالى لان قوله رب بمنزلة ان يقول يارب وانما ذكر بلفظ الجمع للتعظيم كما يخاطب العظيم بلفظه فيقول فعلنا وصنعنا وقال الشاعر * فان شئت حرمت النساء سواكم * ومن يقول بالاول يجعل ذكر الرب للقسم فكأنه عند المعاينة قال بحق الرب ارجعون وههنا سؤالات (السؤال الاول) كيف يسألون الرجعة وقد علموا صحة الدين بالضرورة من الدين ان لا رجعة (الجواب) انه وان كان كذلك فلا يمتنع ان يسألوه لان الاستعانة بهذا الجنس من المسئلة تحسن وان علم انه لا يقع فاما ارادته للرجعة فلا يمتنع ايضا على سبيل ما يفعله المتمنى (السؤال الثانى) ما معنى قوله لعلى اعمل صالحا أفيجوز ان يسأل الرجعة مع الشك (الجواب) ليس المراد بلعل الشك فانه فى هذا الوقت باذل للجهد فى العزم على الطاعة ان اعطى ما سأل بل هو مثل من قصر فى حق نفسه وعرف سوء عاقبة ذلك التقصير فيقول مكنونى من التدارك لعلى أتدارك فيقول هذه الكلمة مع كونه جازما بانه سيتدارك ويحتمل ايضا ان الامر المستقبل اذا لم يعرفوه اوردوا الكلام الموضوع للترجى والظن دون اليقين فقد قال تعالى ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه (السؤال الثالث) ما المراد بقوله فيما تركت (الجواب) قال بعضهم فيما خلفت من المال ليصير عند الرجعة مؤديا لحق الله تعالى منه والمعقول من قوله تركت التركة وقال آخرون بل المراد اعمل صالحا فيما قصرت فيدخل فيه العبادات البدنية والمالية والحقوق وهذا اقرب كأنهم تمنوا الرجعة ليصلحوا ما افسدوه ويطيعوا فى كل ما عصوا (السؤال الرابع) ما المراد بقوله كلا (الجواب) فيه قولان (احدها) انه كالجواب لهم فى المنع مما طلبوا كما يقال لطالب الامر المستبعد هيهات روى انه عليه السلام قال لعائشة رضى الله عنها اذا عاين المؤمن الملائكة قالوا نرجعك الى دار الدنيا فيقول الى دار الهموم والاحزان لا بل قدوما على الله واما الكافر فيقال له نرجعك فيقول ارجعون فيقال له الى اى شئ ترغب الى جمع المال او غرس الغراس او بناء البنيان او شق الانهار فيقول لعلى اعمل صالحا فيما تركت فيقول الجبار كلا (الثانى) يحتمل ان يكون على وجه الاخبار بانهم يقولون ذلك وان هذا الخبر حق فكأنه قال حقا انها كلمة هو قائلها والاقرب الاول اما قوله انها كلمة هو قائلها ففيه وجهان (الاول) انه لا يخليها ولا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة عليه (الثانى) انه قائلها

ولا تتمعون منا ولا يساعده سياق النظم الكريم لان جؤارهم ليس الى غيره تعالى حتى يرد عليهم بعدم منصوريتهم من قبله ولا سيما انه فان قوله تعالى (قد كانت آياتى تتلى عليكم) الخ صريح فى انه تعليل لما ذكرنا من عدم لحوق النصر من جهته تعالى بسبب كفرهم بالآيات ولو كان النصر المنفى متوهما من الغير لعلل بعجزه وذله او بعزة الله تعالى وقوته اى قد كانت آياتى تتلى عليكم فى الدنيا (فكنتم على اعقابكم تنكصون) اى تعرضون عن سماعها اشد الاعراض فضلا عن تصديقها والعمل بها والنكوص الرجوع قهقرى (مستكبرين به) اى بالبيت الحرام او بالحرم والافتخار قبل الذكر لاشتهار استكبارهم وافتخارهم بأنهم خدامه وقوامه او بكتابى الذى عبر عنه بآياتى على تضمين الاستكبار معنى التكذيب او لان استكبارهم على المسلمين قد حدث بسبب استماعه ويجوز ان تتعلق الباء بقوله تعالى (سامرا) اى تسمرون بذكر القرآن وبالطعن فيه حيث كانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون وكانت عامة سمرهم ذكر القرآن وتسميته سحرا وشعرا والسامر كالحاضر فى الاطلاق على الجمع وقيل هو مصدر جاء على لفظ الفاعل وقرئ سمرا وسمارا وان تتعلق بقوله تعالى (تهجرون) من الهجر بالفتح بمعنى الهذيان او الترك اى تهذون فى شان القرآن او تتركونه او من الهجر بالضم وهو الفحش ويؤيده قراءة تهجرون من اهجر فى منطقه اذا افحش فيه وقرئ تهجرون من هجر الذى هو مبالغة فى هجر اذا هذى (افلم يدبروا القول) الهمزة لانكار الواقع واستقباحه والفاء للعطف على مقدر يستدعيه الكلام اى افعلوا ما فعلوا من النكوص والاستكبار والهجر فلم يتدبروا القرآن ليعرفوا بما فيه من اعجاز

وحده ولايجاب اليهـا ولايسمع منه اماقوله تعالى ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون فالبرزخ هو الحاجز والمانع كقوله فى البحرين بينهما برزخ لايبغيان اى فهؤلاء صائرون الى حالة مانعة من التلاقى حاجزة من الاجتماع وذلك هو الموت وليس المعنى انهم يرجعون يوم البعث انما هو اقناط كلى لما علم انه لارجعة يوم البعث الا الى الآخرة ❁ قوله تعالى (فاذا نفخ فى الصور فلا انساب بينهم يومئذ ولايتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون) اعلم انه سبحانه لما قال ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون ذكر احوال ذلك اليوم فقال فاذا نفخ فى الصور وفيه ثلاثة اقوال (احدها) ان الصور آلة اذا نفخ فيها يظهر صوت عظيم جعله الله تعالى علامة لخراب الدنيا ولاعادة الاموات روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قرن ينفخ فيه (وثانيها) ان المراد من الصور مجموع الصور والمعنى فاذا نفخ فى الصور ارواحها وهو قول الحسن فكان يقرأ بفتح الواو والفتح والكسر عن ابى رزين وهو حجة لمن فسر الصور بجمع صورة (وثالثها) ان النفخ فى الصور استعارة والمراد منه البعث والحشر والاول اولى للخبر وفى قوله ثم نفخ فيه اخرى دلالة على انه ليس المراد نفخ الروح والاحياء لان ذلك لايتكرر اما قوله فلا انساب بينهم يومئذ ولايتساءلون فمن المعلوم انه سبحانه اذا اعادهم فالانساب ثابتة لان المعاد هو الولد والوالد فلايجوز ان يكون المراد نفى النسب فى الحقيقة بل المراد نفى حكمه وذلك من وجوه (احدها) ان من حق النسب ان يقع به التعاطف والتراحم كما يقال فى الدنيـا اسألك بالله والرحم ان تفعل كذا فنفى سبحانه ذلك من حيث ان كل احد من اهل النار يكون مشغولا بنفسه وذلك يمنعه من الالتفات الى النسب وهكذا الحال فى الدنيـا لان الرجل متى وقع فى الامر العظيم من الآلام ينسى ولده ووالده (وثانيها) ان من حق النسب ان يحصل به التفاخر فى الدنيا وان يسأل بعضهم عن كيفية نسب البعض وفى الآخرة لايتفرغون لذلك (وثالثها) ان يجعل ذلك استعارة عن الخوف الشديد فكل امرئ مشغول بنفسه عن بنيه واخيه وفصيلته التى تؤويه فكيف بسائر الامور قال ابن مسعود رضى الله عنه يؤخذ العبد والامة يوم القيامة على رؤس الاشهاد وينادى مناد ألا ان هذا فلان فمن له عليه حق فليأت الى حقه فتفرح المرأة حينئذ ان يثبت لها حق على امها او أختها او أبيها او اخيها او ابنها او زوجها فلا انساب بينهم يومئذ ولايتساءلون وعن قتادة لاشئ ابغض الى الانسان يوم القيامة من ان يرى من يعرفه مخافة ان يثبت له عليه شئ ثم تلا يوم يفر المرء من اخيه وامه وابيه وعن الشعبى قال قالت عائشة رضى الله عنها يارسول الله أما نتعارف يوم القيامة أسمع الله تعالى يقول فلا انساب بينهم يومئذ ولايتساءلون فقال عليه الصلاة والسلام ثلاث مواطن تذهل فيها كل نفس حين يرمى الى كل انسان كتابه وعند الموازين وعلى

النظر وصحة المدلول والاخبار عن الغيب انه الحق من ربهم فيؤمنوا به فتلاعنا فلو اق شانه من القبائح وام فى قوله تعالى ام جاءهم مالم يأت آباءهم الاولين) منقطعة وما فيها من معنى بل للاضراب والانتقال عن التوبيخ بما ذكر الى التوبيخ بآخر والهمزة لانكار الوقوع لالانكار الواقع اى بل أجاءهم من الكتاب مالم يأت آباءهم الاولين حتى استبدعوه واستبعدوه فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضلال يعنى ان مجئ الكتب من جهته تعالى الى الرسل عليهم السلام سنة قديمة له تعالى لاتكاد تنكر وان مجئ القرآن على طريقته فمن اين ينكرونه وقيل ام جاءهم من الامن من عذابه تعالى مالم يأت آباءهم الاولين كاسمعيل عليه السلام واعقابه من عدنان وقحطان ومضر وربيعة وقس والحرث ابن كعب واسد بن خزيمة وتميم ابن مرة وتبع وضبة بن أد فآمنوا به تعالى وبكتبه ورسله واطاعوه (ام لم يعرفوا رسولهم) اضراب وانتقال من التوبيخ بما ذكر الى التوبيخ بوجه آخر والهمزة لانكار الوقوع ايضا اى بل ألم يعرفوه عليه السلام بالامانة والصدق وحسن الاخلاق وكمال العلم مع عدم التعلم من احد وغير ذلك مما حازه من الكمالات اللائقة بالانبياء عليهم السلام (فهم له منكرون) اى جاحدون بنبوته فجحودهم لها مترتب على عدم معرفتهم بشأنه عليه السلام ومن ضرورة انتفائها انتفاء ما يترتب عليه اى فهم غير عارفين له عليه السلام فهو تأكيد لما قبله (ام يقولون به جنة) انتقال الى توبيخ آخر والهمزة لانكار الواقع كالاول اى بل يقولون به جنة اى جنون مع انه ارجح الناس عقلا واثقبهم ذهنا واتقنهم رأيا واوفرهم رزانة ولقد روعى فى هذه التوبيخات الاربعة التى اثنان منها متعلقان بالقرآن

جسر جهنم وطعن بعض الملحدة فقال قوله ولا يتساءلون وقوله ولا يسأل حميم حميما ناقض قوله واقبل بعضهم على بعض يتساءلون وقوله يتعارفون بينهم (الجواب) عنه من وجوه (احدها) ان يوم القيامة مقداره خمسون الف سنة ففيه ازمنة واحوال مختلفة فيتعارفون ويتساءلون فى بعضها ويتحيرون فى بعضها لشدة الفزع (وثانيها) انه اذا نفخ فى الصور نفخة واحدة شغلوا بأنفسهم عن التساؤل فاذا نفخ فيه اخرى اقبل بعضهم على بعض وقالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن (وثالثها) المراد لا يتساءلون بحقوق النسب (ورابعها) ان قوله لا يتساءلون صفة للكفار وذلك لشدة خوفهم واما قوله فاقبل بعضهم على بعض يتساءلون فهو صفة اهل الجنة اذا دخلوها واعلم انه سبحانه قد بين ان بعد النفخ فى الصور تكون المحاسبة وشرح احوال السعداء والاشقياء وقيل لما بين سبحانه انه ليس فى الآخرة الا ثقل الموازين وخفتها وجب ان يكون كل مكلف لا بد وان يكون من اهل الجنة واهل الفلاح او من اهل النار فبطل بذلك القول بان فيهم من لا يستحق الثواب والعقاب او من يتساوى له الثواب والعقاب ثم انه سبحانه شرح حال السعداء بقوله فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون وفى الموازين اقوال (احدها) انه استعارة من العدل (وثانيها) ان الموازين هى الاعمال الحسنة فمن أتى بما له قدر وخطر فهو الفائز الظافر ومن أتى بما لا وزن له كقوله تعالى والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا فهو خالد فى جهنم قال ابن عباس رضى الله عنهما الموازين جمع موزون وهى الموزونات من الاعمال اى الصالحات التى لها وزن وقدر عند الله تعالى من قوله فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا اى قدرا (وثالثها) انه ميزان له لسان وكفتان يوزن فيه الحسنات فى احسن صورة والسيآت فى اقبح صورة فمن ثقلت حسناته سيق الى الجنة ومن ثقلت سيآته فالى النار وتمام الكلام فى هذا الباب قد تقدم فى سورة الانبياء عليهم السلام واما الاشقياء فقد وصفهم الله تعالى بامور اربعة (احدها) انهم خسروا انفسهم قال ابن عباس رضى الله عنهما غبنوها بان صارت منازلهم للمؤمنين وقيل امتنع انتفاعهم بأنفسهم لكونهم فى العذاب (وثانيها) قوله فى جهنم خالدون ودلالته على خلود الكفار فى النار بينة قال صاحب الكشاف فى جهنم خالدون بدل من خسروا انفسهم او خبر بعد خبر لأولئك او خبر مبتدأ محذوف (وثالثها) قوله تلفح وجوههم النار قال ابن عباس رضى الله عنهما اى تضرب وتأكل لحومهم وجلودهم قال الزجاج اللفح والنفح واحد الا ان اللفح اشد تأثيرا (ورابعها) قوله وهم فيها كالحون والكلوح ان تتقلص الشفتان وتتباعدا عن الاسنان كما ترى الرؤس المشوية وعن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال تشويه النار فتتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخى شفته السفلى حتى تبلغ سرته وقرئ كلحون ثم انه سبحانه لما شرح عذابهم حكى ما يقال لهم عند ذلك تقريعا وتوبيخا وهو قوله تعالى ألم تكن آياتى تتلى عليكم ثم انكم كنتم تكذبون

والباقيان به عليه السلام الترقى من الادنى الى الاعلى حيث وتحريا اولا بعدم التدبر وذلك يتحقق مع كون القول غير متعرض له بوجه من الوجوه ثم ونحوا الثنى او تصف به القول لكان سببا لعدم تصديقهم لعدم ونحوا بما يتعلق بالرسول عليه الصلاة والسلام من عدم معرفتهم به عليه الصلاة والسلام وذلك يتحقق بعدم المعرفة بخير ولاشر ثم بما لو كان فيه عليه الصلاة والسلام ذلك لقدح فى رسالته عليه الصلاة والسلام (بل جاءهم بالحق) اضراب عما يدل عليه ما سبق اى ليس الامر كما زعموا فى حق القرآن والرسول عليه الصلاة والسلام بل جاءهم عليه الصلاة والسلام بالحق اى الصدق الثابت الذى لا محيد عنه اصلا ولا مدخل فيه للباطل بوجه من الوجوه (واكثرهم للحق) من حيث هو حق اى حق كان لا لهذا الحق فقط كما ينبئ عنه الاظهار فى موقع الاضمار (كارهون) لما فى جبلتهم من الزيغ والانحراف المناسب للباطل ولذلك كرهوا هذا الحق الابلج وزاغوا من الطريق الانهج وتخصيص اكثرهم بهذا الوصف لا يقتضى الا عدم كراهة الباقين لكل حق من الحقوق وذلك لا ينافى كراهتهم لهذا الحق المبين فتأمل وقيل تقييد الحكم بالاكثر لان منهم من ترك الايمان استنكافا من توبيخ قومه او لقلة فطنته وعدم تفكره لا لكراهته الحق وانت خبير بان التعرض لعدم كراهة بعضهم للحق مع اتفاق الكل على الكفر به مما لا يساعده المقام اصلا (ولو اتبع الحق اهواءهم) استئناف مسوق لبيان ان اهواءهم الزائغة التى ما كرهوا الحق الا لعدم موافقته اياها مقتضية للطامة اى لو كان ما كرهوه من الحق الذى من جملته ما جاء به عليه السلام موافقا لاهوائهم الباطلة (لفسدت السموات والارض ومن فيهن) وخرجت عن الصلاح والانتظام بالكلية لان مناط النظام ليس الا ذلك وفيه من تنويه شأن الحق والتنبيه على سمو مكانه

(بها)

بهامع وضوحها فلاجرم صرتم مستحقين لما انتم فيه من العذاب الاليم قالت المعتزلة الآية تدل على انهم انما وقعوا فى ذلك العذاب لسوء افعالهم ولو كان فعل العباد بخلق الله تعالى لما صح ذلك (والجواب) ان القادر على الطاعة والمعصية ان صدرت المعصية عنه لا لمرجح البتة كان صدورها عنه اتفاقيا لا اختياريا فوجب ان لا يستحق العقاب وان كان لمرجح فذلك المرجح ليس من فعله والا لزم التسلسل فحينئذ يكون صدور تلك الطاعة عنه اضطراريا لا اختياريا فوجب ان لا يستحق الثواب * قوله تعالى (قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا اخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون قال اخسؤا فيها ولا تكلمون انه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا حتى انسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون انى جزيتهم اليوم بما صبروا انهم هم الفائزون) اعلم انه سبحانه لما قال الم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ذكروا ما يجرى مجرى الجواب عنه وهو من وجهين (الاول) قولهم ربنا غلبت علينا شقوتنا وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف غلبت علينا ملكتنا من قولك غلبنى فلان على كذا اذا اخذه منك والشقاوة سوء العاقبة قرئ شقوتنا وشقاوتنا بفتح الشين وكسرها فيهما قال ابو مسلم الشقوة من الشقاء كجرية الماء والمصدر الجرى وقد يجئ لفظ فعلة والمراد به الهيئة والحال فيقول جلسة حسنة وركبة وقعدة وذلك من الهيئة وتقول عاش فلان عيشة طيبة ومات ميتة كريمة وهذا هو الحال والهيئة فعلى هذا المراد من الشقوة حال الشقاء (المسئلة الثانية) قال الجبائى المراد ان طلبنا اللذات المحرمة وحرصنا على العمل القبيح ساقنا الى هذه الشقاوة فاطلق اسم المسبب على السبب وليس هذا باعتذار منهم لعلمهم بان لا عذر لهم فيه ولكنه اعتراف بقيام حجة الله تعالى عليهم فى سوء صنيعهم قلنا انك حملت الشقاوة على طلب تلك اللذات المحرمة وطلب تلك اللذات حصل باختيارهم او لا باختيارهم فان حصل باختيارهم فذلك الاختيار محدث فان استغنى عن المؤثر فلم لا يجوز فى كل الحوادث ذلك فحينئذ ينسد عليك باب اثبات الصانع وان افتقر الى محدث فمحدثه اما العبد او الله تعالى فان كان هو العبد فذلك باطل لوجوه (احدها) ان قدرة العبد صالحة للفعل والترك فان توقف صدور تلك الارادة عنها الى مرجح آخر عاد الكلام فيه ولزم التسلسل وان لم يتوقف على المرجح فقد جوزت رجحان احد طرفى الممكن على الآخر لا لمرجح وذلك يسد باب اثبات الصانع (وثانيها) ان العبد لا يعلم كمية تلك الافعال ولا كيفيتها والجاهل بالشئ لا يكون محدثا له والا لبطلت دلالة الاحكام والاتقان على العلم (والثالث) ان احدا فى الدنيا لا يرضى بان يختار الجهل بل لا يقصد الا تحصيل العلم فالكافر ما قصد الا تحصيل العلم فان كان الموجد لفعله هو لوجب ان لا يحصل الا ما قصد ايقاعه لكنه لم يقصد الا العلم فكيف حصل الجهل فثبت ان الموجد للدواعى والبواعث هو الله تعالى ثم ان الداعية ان كانت سائقة الى الخير كانت

مالايخفى واما ما قيل لوائح الحق الذى جاء به عليه السلام اهواءهم وانقلب شركا لجاء الله تعالى بالقيامة ولا هلك العالم ولم يؤخر فقيه انه لا يلائم فرض مجيئه عليه السلام به وكذا ما قيل لو كان فى لوائح الهدى لا يناسب المقام واما ما قيل لوائح الحق اهواءهم لخرج عن الالهية فمما لا احتمال له اصلا (بل اتيناهم بذكرهم) انتقال من تشنيعهم بكراهة الحق الذى به يقوم العالم الى تشنيعهم بالاعراض عما جبل عليه كل نفس من الرغبة فيما فيه خيرها والمراد بالذكر القرآن الذى هو فخرهم وشرفهم حسبما ينطق به قوله تعالى وانه لذكر لك ولقومك اى بل اتيناهم بفخرهم وشرفهم الذى كان يجب عليهم ان يقبلوا عليه اكمل اقبال (فهم) بما فعلوه من النكوص (عن ذكرهم) اى فخرهم وشرفهم خاصة (معرضون) لا عن غير ذلك مما لا يوجب الاقبال عليه والاعتناء به وفى وضع الظاهر موضع الضمير مزيد تشنيع لهم وتقريع والفاء لترتيب ما بعدها من اعراضهم عن ذكرهم على ما قبلها من ايتاء ذكرهم لا لترتيب الاعراض على الايتاء مطلقا فان المستتبع لكون اعراضهم اعراضا عن ذكرهم هو ايتاء ذكرهم لا الايتاء مطلقا وفى اسناد الاتيان بالذكر الى نون العظمة بعد اسناده الى ضميره عليه الصلاة والسلام تنويه لشأن النبى عليه الصلاة والسلام وتنبيه على كونه بمثابة عظيمة منه عز وجل وفى ايراد القرآن الكريم عند نسبته اليه عليه السلام بعنوان الحقية وعند نسبته اليه تعالى بعنوان الذكر من النكتة السرية والحكمة العبقرية ما لا يخفى فان التصريح بحقيته المستلزمة لحقية من جاء به هو الذى يقتضيه مقام حكاية ما قاله المبطلون فى شأنه واما التشريف فانما يليق به تعالى لاسيما رسول الله صلى الله عليه وسلم احد المشرفين وقيل المراد

سعادة وان كانت سائقة الى الشر كانت شقاوة (الوجه الثانى) لهم فى الجواب قولهم وكنا قوما ضالين وهذا الضلال الذى جعلوه كالعلة فى اقدامهم على التكذيب ان كان هو نفس ذلك التكذيب لزم تعليل الشئ بنفسه ولما بطل ذلك لم يبق الا ان يكون ذلك الضلال عبارة عن شئ آخر ترتب عليه فعلهم وما ذاك الا الخلق الداعى الى الضلال ثم ان القوم لما اوردوا هذين العذرين قال لهم سبحانه اخسؤا فيها ولا تكلمون وهذا هو صريح قولنا فى ان المناظرة مع الله تعالى غير جائزة بل لا يسأل عما يفعل قال القاضى فى قوله ربنا غلبت علينا شقوتنا دلالة على انه لا عذر لهم الا الاعتراف فلو كان كفرهم من خلقه تعالى وبارادته وعلموا ذلك لكانوا بأن يذكروا ذلك اجدر والى العذر اقرب فنقول قد بينا ان الذى ذكروه ليس الا ذلك ولكنهم مقرون ان لا عذر لهم فلا جرم قال لهم اخسؤا فيها ولا تكلمون اما قوله تعالى ربنا اخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون فالمعنى اخرجنا من هذه الدار الى دار الدنيا فان عدنا الى الاعمال السيئة فانا ظالمون (فان قيل) كيف يجوز ان يطلبوا ذلك وقد علموا ان عقابهم دائم (قلنا) يجوز ان يلحقهم السهو عن ذلك فى احوال شدة العذاب فيسألون الرجعة ويحتمل ان يكون مع علمهم بذلك يسألون ذلك على وجه الغوث والاستروح اما قوله اخسؤا فيها فالمعنى ذلوا فيها وانزجروا كما يزجر الكلاب اذا زجرت يقال خسأ الكلب وخسأ بنفسه اما قوله ولا تكلمون فليس هذا نهيا لانه لا تكليف فى الآخرة بل المراد لا تكلمون فى رفع العذاب فانه لا يرفع ولا يخفف قيل هو آخر كلام يتكلمون به ثم لا كلام بعد ذلك الا الشهيق والزفير والعواء كعواء الكلاب لا يفهمون ولا يفهمون وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان لهم ست دعوات اذا دخلوا النار قالوا الف سنة ربنا ابصرنا وسمعنا فارجعنا فيجابون حق القول منى فينادون الف سنة ثانية ربنا امتنا اثنتين واحييتنا اثنتين فيجابون ذلك بأنه اذا دعى الله وحده كفرتم فينادون الفا ثالثة يا مالك ليقض علينا ربك فيجابون انكم ماكثون فينادون الفا اربعة ربنا اخرجنا فيجابون اولم تكونوا اقسمتم من قبل ما لكم من زوال فينادون الفا خامسة أخرجنا نعمل صالحا فيجابون اولم نعمركم فينادون الفا سادسة رب ارجعون فيجابون اخسؤا فيها ثم بين سبحانه وتعالى ان قرعهم بأمر يتصل بالمؤمنين وهو قوله انه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا فوصف تعالى احدما لاجله عذبوا وبعدوا من الخير وهو ما عاملوا به المؤمنين وفى حرف ابى انه كان فريق بالفتح بمعنى لانه وقرأ نافع واهل المدينة واهل الكوفة عن عاصم بضم السين فى جميع القرآن وقرأ الباقون بالكسر ههنا وفى ص قال الخليل وسيبويه هما لغتان كدرى ودرى وقال الكسائى والفراء الكسر بمعنى الاستهزاء بالقول والضم بمعنى السخرية قال مقاتل ان رؤساء قريش مثل ابى جهل وعتبة وابى بن خلف كانوا يستهزؤن بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويضحكون بالفقراء منهم مثل بلال وخباب وعمار وصهيب والمعنى اتخذتموهم هزوا حتى انسوكم بتشاغلكم بهم على

بالذكر ما كانوا يقولهم لو ان عندنا ذكرا من الاولين وقيل وعظهم وانى لهم الذكرى بذكراهم والتشنيع على الاولين اشد فان الاعراض عن وعظهم ليس ليس فى مثابة اعراضهم عن شرفهم او عن ذكرهم الذى يمنونه فى الشناعة والقباحة (أم تسألهم) انتقال من توبيخهم بما ذكر من قوله أم يقولون به جنة الى التوبيخ بوجه آخر كأنه قيل أم يزعمون انك تسألهم على اداء الرسالة (خرجا) اى جعلا فلاجل ذلك لا يؤمنون بك وقوله تعالى (فخراج ربك خير) اى رزقه فى الدنيا وثوابه فى الآخرة تعليل لنفى السؤال المستفاد من الانكار اى لا تسألهم ذلك فان ما رزقك الله تعالى فى الدنيا والعقبى خير لك من ذلك وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام من تعليل الحكم وتشريفه عليه الصلاة والسلام ما لا يخفى والخرج بازاء الدخل يقال لكل ما تخرجه الى غيرك والخراج غالب فى الضريبة على الارض وقيل الخرج ما تبرعت به والخراج ما لزمك وقيل الخرج اخص من الخراج ففى النظم الكريم اشعار بالكثرة واللزوم وقرئ خرجا فخرج وخراجا فخراج (وهو خير الرازقين) تقرير لخيرية خراجه تعالى (وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم) تشهد العقول السليمة باستقامته ليس فيه شائبة اعوجاج توجب اتهامهم لك بوجه من الوجوه ولقد الزمهم الله عز وعلا وازاح عللهم فى هذه الآيات حيث حصر اقسام ما يؤدى الى الانكار والاتهام وبين انتفاءها ما عدا كراهتهم الحق وقلة فطنتهم (وان الذين لا يؤمنون بالآخرة) وصفوا بذلك تشنيعا لهم بما هم عليه من الانهماك فى الدنيا وزعمهم ان لا حياة الا الحياة الدنيا واشعارا بعلة الحكم فان الايمان بالآخرة وخوف ما فيها من الدواهى من اقوى الدواعى الى طلب

تلك الصفة ذكرى واكد ذلك بقوله وكنتم منهم تضحكون ثم بين سبحانه مايقتضى فيهم الاسف والحسرة بأن وصف ماجازى به اولئك المؤمنين فقال انى جزيتهم اليوم بما صبروا انهم هم الفائزون قرأ حمزة والكسائى انهم بالكسر والباقون بالفتح فالكسر استئناف اى قد فازوا حيث صبروا فجوزوا بصبرهم احسن الجزاء والفتح على انه فى موضع المفعول الثانى من جزيت ويجوز ان يكون نصبا باضمار الخافض اى جزيتهم الجزاء الوافر لانهم هم الفائزون ❁ قوله تعالى (قال كم لبثتم فى الارض عدد سنين قالوا لبثنا يوما او بعض يوم فاسئل العادين قال ان لبثتم الا قليلا لو انكم كنتم تعلمون افحسبتم أنما خلقناكم عبثا وانكم الينا لاترجعون فتعالى الله الملك الحق لااله الاهو رب العرش الكريم) اعلم ان فى هذه الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف فى مصاحف اهل الكوفة قال وهو ضمير الله او المأمور بسؤال من الملائكة وقل فى مصاحف اهل الحرمين والبصرة والشام وهو ضمير الملك او بعض رؤساء اهل النار (المسئلة الثانية) الغرض من هذا السؤال التبكيت والتوبيخ فقد كانوا ينكرون اللبث فى الآخرة اصلا ولايعدون اللبث الا فى دار الدنيا ويظنون ان بعد الموت يدوم الفناء ولا اعادة فلما حصلوا فى النار وايقنوا انها دائمة وهم فيها مخلدون سألهم كم لبثتم فى الارض تنبيها لهم على ان ماظنوه دائما طويلا فهو يسير بالاضافة الى ما انكروه فحينئذ تحصل لهم الحسرة على ما كانوا يعتقدونه فى الدنيا من حيث ايقنوا خلافه فليس الغرض السؤال بل الغرض ماذكرنا فان قيل فكيف يصح فى جوابهم ان يقولوا لبثنا يوما او بعض يوم ولايقع من اهل النار الكذب قلنا لعلهم نسوا ذلك لكثرة ماهم فيه من الاهوال وقد اعترفوا بهذا النسيان حيث قالوا فاسأل العادين قال ابن عباس رضى الله عنهما انساهم ما كانوا فيه من العذاب بين النفختين وقيل مرادهم بقولهم لبثنا يوما او بعض يوم تصغير لبثهم وتحقيره بالاضافة الى ماوقعوا فيه وعرفوه من أليم العذاب والله اعلم (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى ان السؤال عن اى لبث وقع فقال بعضهم لبثهم احياؤهم فى الدنيا ويكون المراد انهم امهلوا حتى تمكنوا من العلم والعمل فأجابوا بأن قدر لبثهم كان يسيرا بناء على ان الله تعالى اعلمهم ان الدنيا متاع قليل وان الآخرة هى دار القرار وهذا القائل احتج على قوله بأنهم كانوا يزعمون ان لاحياة سواها فلما احياهم الله تعالى فى النار وعذبوا سئلوا عن ذلك توبيخا لانه الى التوبيخ اقرب وقال آخرون بل المراد اللبث فى حال الموت واحتجوا على قولهم بامرين (الاول) ان قوله فى الارض يفيد الكون فى القبر ومن كان حيا فالاقرب ان يقال انه على الارض وهذا ضعيف لقوله ولاتفسدوا فى الارض (الثانى) قوله تعالى ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة ثم بين سبحانه انهم كذبوا فى ذلك واخبر عن المؤمنين قولهم لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث (المسئلة الرابعة) احتج من انكر عذاب القبر بهذه الآية فقال قوله كم لبثتم فى الارض يتناول زمان كونهم احياء فوق الارض وزمان كونهم امواتا

الحق وسلوك سبيله (عن الصراط) اى من جنس الصراط (لناكبون) لعادلون فضلا عن الصراط المستقيم اوعن الصراط المستقيم الذى تدعوهم اليه والاول ادل على كمال ضلالهم وغاية غوايتهم لما انه ينبئ عن كون ماذهبوا اليه مما لايطلق عليه اسم الصراط ولو كان معوجا (ولو رحمناهم وكشفنا مابهم من ضر) اى قحط وجدب (للجوا) لتمادوا (فى طغيانهم) افراطهم فى الكفر والاستكبار وعداوة الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين (يعمهون) اى عامهين عن الهدى روى انه لما اسلم ثمامة بن اثال الحنفى ولحق باليمامة ومنع الميرة عن اهل مكة واخذهم الله تعالى بالسنين حتى اكلوا العلهز جاء ابو سفيان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له انشدك الله والرحم الست تزعم انك بعثت رحمة للعالمين قال بلى فقال قتلت الاباء بالسيف والابناء بالجوع فنزلت والمعنى لو كشفنا عنهم ما اصابهم من القحط والهزال برحمتنا اياهم ووجدوا الخصب لارتدوا الى ما كانوا عليه من الافراط فى الكفر والاستكبار ولذهب عنهم هذا التملق والابلاس وقد كان كذلك وقوله تعالى (ولقد اخذناهم بالعذاب) استئناف مسوق للاستشهاد على مضمون الشرطية والمراد بالعذاب ما نالهم يوم بدر من القتل والاسر وما اصابهم من فنون العذاب التى من جملتها القحط المذكور واللام جواب قسم محذوف اى والله لقد اخذناهم بالعذاب (فما استكانوا لربهم) بذلك اى لم يخضعوا ولم يتذللوا على انه اما استفعال من الكون لان الخاضع ينتقل من كون الى كون او افتعال من السكون فدأشبعت فتحته كانتزاح فى منتزح بل اقاموا على ما كانوا عليه من العتو والاستكبار وقوله تعالى (ومايتضرعون) اعتراض مقرر لمضمون ماقبله اى وليس من عادتهم التضرع

فى بطن الارض فلو كانوا معذبين فى القبر لعلموا ان مدة مكثهم فى الارض طويلة فما كانوا يقولون لبثنا يوما او بعض يوم (والجواب) من وجهين (احدهما) ان الجواب لابد وان يكون بحسب السؤال وانما سئلوا عن موت لاحياة بعده الا فى الآخرة وذلك لايكون الا بعد عذاب القبر (والثانى) يحتمل ان يكونوا سئلوا عن قدر اللبث الذى اجتمعوا فيه فلا يدخل فى ذلك تقدم موت بعضهم على البعض فيصح ان يكون جوابهم لبثنا يوما او بعض يوم عند انفسنا اما قوله فاسأل العادين ففيه وجوه (احدها) المراد بهم الحفظة وانهم كانوا يحصون الاعمال واوقات الحياة ويحسبون اوقات موتهم وتقدم من تقدم وتأخر من تأخر وهو معنى قول عكرمة فاسئل العادين اى الذين يحسبون (وثانيها) فاسئل الملائكة الذين يعدون ايام الدنيا وساعاتها (وثالثها) ان يكون المعنى سل من يعرف عدد ذلك فانا قد نسيناه (ورابعها) قرئ العادين بالتخفيف اى الظلمة فانهم يقولون مثل ماقلنا (وخامسها) قرئ العاديين اى القدماء المعمرين فانهم يستقصرونها فكيف بمن دونهم اما قوله ان لبثتم الا قليلا فالمعنى انهم قالوا لبثنا يوما او بعض يوم على معنى انا لبثنا فى الدنيا قليلا فكأنه قيل لهم صدقتم مالبثتم فيها الا قليلا الا انها انقضت ومضت فظهر ان الغرض من هذا السؤال تعريف قلة ايام الدنيا فى مقابلة ايام الآخرة فاما قوله تعالى لو انكم كنتم تعلمون فبين فى هذا الوجه انه أراد انه قليل لو علمتم البعث والحشر لكنكم لما انكرتم ذلك كنتم تعدونه طويلا ثم بين تعالى ماهو فى التوبيخ اعظم بقوله افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لاترجعون وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف عبثا حال اى عابثين كقوله لاعبين او مفعول به اى ماخلقناكم للعبث (المسئلة الثانية) انه سبحانه لما شرح صفات القيامة ختم الكلام فيها باقامة الدلالة على وجودها وهى انه لولا القيامة لما تميز المطيع من العاصى والصديق من الزنديق وحينئذ يكون خلق هذا العالم عبثا واما الرجوع الى الله تعالى فالمراد الى حيث لامالك ولا حاكم سواه لا انه رجوع من مكان الى مكان لاستحالة ذلك على الله تعالى ثم انه تعالى نزه نفسه عن العبث بقوله تعالى فتعالى الله الملك الحق والملك هو المالك للاشياء الذى لايبيد ولا يزول ملكه وقدرته واما الحق فهو الذى يحق له الملك لان كل شئ منه واليه وهو الثابت الذى لايزول ولا يزول ملكه وبين انه لا اله سواه وان ماعداه مصيره الى الفناء وماينفنى لايكون الها وبين انه تعالى رب العرش الكريم قال ابو مسلم والعرش ههنا السموات بما فيها من العرش الذى تطوف به الملائكة ويجوز ان يعنى به الملك العظيم وقال الاكثرون المراد هو العرش حقيقة وانما وصفه بالكريم لان الرحمة تنزل منه والخير والبركة ولنسبته الى اكرم الاكرمين كما يقال بيت كريم اذا كان ساكنوه كراما وقرئ الكريم بالرفع ونحوه ذو العرش المجيد ۞ قوله تعالى (ومن

يدع مع الله الها آخر لابرهان له به فانما حسابه عند ربه انه لايفلح الكافرون وقل رب اغفر وارحم وانت خير الراحمين) اعلم انه سبحانه لما بين انه هو الملك الحق لا اله الا هو اتبعه بأن

اليه تعالى (حتى اذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد) هو عذاب الآخرة (٣٠٨) كما ينبئ عنه التهويل بفتح الباب والوصف بالشدة وقرئ فتحنا بالتشديد (اذا هم فيه مبلسون) اى متحيرون آيسون من كل خير اى محناهم بكل محنة من القتل والاسر والجوع وغير ذلك فما رؤى منهم لين مقادة وتوجه الى الاسلام قط واما ما ظهره ابو سفيان فليس من الاستكانة له تعالى والتضرع اليه تعالى فى شئ وانما هو نوع خنوع الى ان يتم غرضه فحاله كما قيل اذا جاع ضغا واذا شبع طغا واكثرهم مستمرون على ذلك الى ان يروا عذاب الآخرة فحينئذ يبلسون وقيل المراد بالباب الجوع فانه اشد واعم من القتل والاسر والمعنى اخذناهم اولا بما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم واسرهم فما وجد منهم تضرع واستكانة حتى فتحنا عليهم باب الجوع الذى هو اطم واتم فابلسوا الساعة وخضعت رقابهم وجاءك اعتاهم واشدهم شكيمة فى العناد يستعطفك والوجه هو الاول (وهو الذى انشأ لكم السمع والابصار) لتشاهدوا بها الآيات التنزيلية والتكوينية (والافئدة) لتتفكروا بها فيما تشاهدونه وتعتبروا اعتبارا لائقا (قليلا ما تشكرون) اى شكرا قليلا غير معتد به تشكرون تلك النعم الجليلة لان العمدة فى الشكر صرف تلك القوى التى هى فى انفسها نعم باهرة الى ما خلقت هى له وانتم تخلون بذلك اخلالا عظيما (وهو الذى ذرأكم فى الارض) اى خلقكم وبثكم فيها بالتناسل (واليه تحشرون) اى تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم لا الى غيره فما لكم لاتؤمنون به ولا تشكرونه (وهو الذى يحيى ويميت) من غير ان يشاركه فى ذلك شئ من الاشياء (وله) خاصة (اختلاف الليل والنهار) اى هو المؤثر فى اختلافهما اى تعاقبهما او اختلافهما ازديادا او انتقاصا او لامره وقضائه

من ادعى الها آخر فقد ادعى باطلا من حيث لا برهان لهم فيه ونبه بذلك على ان كل ما لا برهان فيه لا يجوز اثباته وذلك يوجب صحة النظر وفساد التقليد ثم ذكر ان من قال بذلك فجزاؤه العقاب العظيم بقوله فانما حسابه عند ربه كأنه قال ان عقابه بلغ الى حيث لا يقدر احد على حسابه الا الله تعالى وقرئ انه لا يفلح بفتح الهمزة ومعناه حسابه عدم الفلاح جعل فاتحة السورة قد افلح المؤمنون وخاتمتها انه لا يفلح الكافرون فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة ثم امر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول رب اغفر وارحم ويثنى عليه بانه خير الراحمين وقد تقدم بيان انه سبحانه خير الراحمين فان قيل كيف تتصل هذه الخاتمة بما قبلها قلنا لانه سبحانه لما شرح احوال الكفار في جهلهم في الدنيا وعذابهم في الآخرة أمر بالانقطاع الى الله تعالى والالتجاء الى دلائل غفرانه ورحمته فانهما هما العاصمان عن كل الآفات والمخافات وروى ان اول سورة قد افلح وآخرها من كنوز العرش من عمل بثلاث آيات من اولها واتعظ باربع من آخرها فقد نجا وافلح والله اعلم بالصواب واليه المرجع والمآب والحمد لله وحده وصلاته على خير خلقه سيدنا محمد وآله واصحابه وازواجه وعترته واهل بيته

﴿ سورة النور مدنية كلها وهي ثنتان وقيل أربع وستون آية ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

(سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون) قرأ العامة سورة بالرفع وقرأ طلحة بن مصرف بالنصب اما الذين قرؤا بالرفع فالجمهور قالوا الابتداء بالنكرة لا يجوز والتقدير هذه سورة أنزلناها او نقول سورة أنزلناها مبتدأ موصوف والخبر محذوف اى فيما اوحينا اليك سورة أنزلناها وقال الاخفش لا يبعد الابتداء بالنكرة فسورة مبتدأ وأنزلناها خبره ومن نصب فعلى معنى الفعل يعني اتبعوا سورة او اتل سورة او انزلنا سورة واما معنى السورة ومعنى الانزال فقد تقدم فان قيل الانزال انما يكون من صعود الى نزول فهذا يدل انه تعالى في جهة قلنا (الجواب) من وجوه (احدها) ان جبريل عليه السلام كان يحفظها من اللوح المحفوظ ثم ينزلها عليه صلى الله عليه وسلم فلهذا جاز ان يقال انزلناها توسعا (وثانيها) ان الله تعالى انزلها من ام الكتاب الى السماء الدنيا دفعة واحدة ثم انزلها بعد ذلك نجوما على لسان جبريل عليه السلام (وثالثها) معنى انزلناها اى اعطيناها الرسول كما يقول العبد اذا كلم سيده رفعت اليه حاجتي كذلك يكون من السيد الى العبد الانزال قال الله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه اما قوله وفرضناها فالمشهور قراءة التخفيف وقرأ ابن كثير وابو عمرو بالتشديد اما قراءة التخفيف فالفرض هو القطع والتقدير قال الله تعالى فنصف ما فرضتم اى قدرتم ان الذى فرض عليك القرآن اى قدر ثم ان السورة لا يمكن فرضها لانها قد دخلت في الوجود وتحصيل الحاصل محال فوجب ان يكون المراد وفرضنا ما بين فيها وانما قال ذلك

اختلافهما (افلا تعقلون) اى الا تتفكرون فلا (٣٠٩) تعقلون او اتتفكرون فلا تعقلون بالنظر والتأمل ان الكل منا وان قدرتنا تعم جميع الممكنات التى من جملتها البعث وقرئ يعقلون على ان الالتفات الى الغيبة لحكاية سوء حال المخاطبين لغيرهم وقيل على ان الخطاب الاول لتغليب المؤمنين وليس بذاك (بل قالوا) عطف على مضمر يقتضيه المقام اى فلم يعقلوا بل قالوا (مثل ما قال الاولون) اى آباؤهم ومن دان بدينهم (قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) تفسير لما قبله من المبهم وتفصيل لما فيه من الاجمال وقد مر الكلام فيه (لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا) اى البعث (من قبل) متعلق بالفعل من حيث اسناده الى آبائهم لا اليهم اى ووعد آباؤنا من قبل او بمحذوف وقع حالا من آباؤنا اى كائنين من قبل (ان هذا) اى ما هذا (الا اساطير الاولين) اى اكاذيبهم التى سطروها جمع اسطورة كالاحدوثة والاعجوبة وقيل جمع اسطار جمع سطر (قل لمن الارض ومن فيها) من المخلوقات تغليبا للعقلاء على غيرهم (ان كنتم تعلمون) جوابه محذوف ثقة بدلالة الاستفهام عليه اى ان كنتم تعلمون شيئا ما فأخبروني به فان ذلك كاف في الجواب وفيه من المبالغة في وضوح الامر وفي تجهيلهم ما لا يخفى او ان كنتم تعلمون ذلك فأخبروني وفيه استهانة بهم وتقرير لجهلهم ولذلك اخبر بجوابهم قبل ان يجيبوا حيث قيل (سيقولون لله) لان بديهة العقل تضطرهم الى الاعتراف بانه تعالى خالقها (قل) اى عند اعترافهم بذلك تبكيتا لهم (افلا تذكرون) اى اتعلمون ذلك او اتقولون ذلك فلا تتذكرون ان من فطر الارض ومافيها ابتداء قادر على اعادتها ثانيا فان البدء ليس باهون من الاعادة بل الامر بالعكس في قياس العقول وقرئ تذكرون على الاصل (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم)

لانا كثر مافى هذه السورة من باب الاحكام والحدود فلذلك عقبها بهذا الكلام واما قراءة التشديد فقال الفراء التشديد للمبالغة و التكثير اما المبالغة فمن حيث انها حدود واحكام فلابد من المبالغة فى ايجابها ليحصل الانقياد لقبولها واما التكثير فلوجهين (احدهما) ان الله تعالى بين فيها احكاما مختلفة (والثانى) انه سبحانه وتعالى أوجبها على كل المكلفين الى آخر الدهر أما قوله وأنزلنا فيها آيات بينات ففيه وجوه (أحدها) انه سبحانه ذكر فى اول السورة أنواعا من الاحكام والحدود وفى آخرها دلائل التوحيد فقوله وفرضناها إشارة الى الاحكام التى بينها أولا ثم قوله وانزلنا فيها آيات بينات اشارة الى مابين من دلائل التوحيد والذى يؤكد هذا التأويل قوله لعلكم تذكرون فان الاحكام والشرائع ما كانت معلومة لهم ليؤمروا بتذكرها أما دلائل التوحيد فقد كانت كالمعلومة لهم لظهورها فأمروا بتذكرها (وثانيها) قال ابو مسلم يجوز ان تكون الآيات البينات ماذكر فيها من الحدود والشرائع كقوله رب اجعل لى آية قال آيتك ان لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا سأل ربه ان يفرض عليه عملا (وثالثها) قال القاضى ان السورة كما اشتملت على عمل الواجبات فقد اشتملت على كثير من المباحات بأن بينها الله تعالى ولما كان بيانه سبحانه لها مفصلا وصف الآيات بأنها بينات اما قوله تعالى لعلكم تذكرون فقرئ بتشديد الذال وتخفيفها ومعنى لعل قد تقدم فى سورة البقرة قال القاضى لعل بمعنى كى وهذا يدل على انه سبحانه أراد من جميعهم ان يتذكروا (والجواب) انه سبحانه لو أراد ذلك من الكل لما قوى دواعيهم الى جانب المعصية ولو لم توجد تلك التقوية لزم وقوع الفعل لا لمرجح ولو جاز ذلك لما جاز الاستدلال بالامكان والحدوث على وجود المرجح ويلزم نفى الصانع واذا كان كذلك وجب حمل لعل على سائر الوجوه المذكورة فى سورة البقرة واعلم انه سبحانه ذكر فى هذه السورة احكاما كثيرة (الحكم الاول) * قوله تعالى (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) اعلم ان قوله تعالى الزانية والزانى رفعهما على الابتداء والخبر محذوف عند الخليل وسيبويه على معنى فيما فرض الله عليكم الزانية والزانى اى فاجلدوهما ويجوز ان يكون الخبر فاجلدوا وانما دخلت الفاء لكون الالف واللام بمعنى الذى وتضمنه معنى الشرط تقديره التى زنت والذى زنى فاجلدوهما كما تقول من زنا فاجلدوه وقرئ بالنصب على اضمار فعل يفسره الظاهر وقرئ والزان بلا ياء واعلم ان الكلام فى هذه الآية على نوعين (احدهما) مايتعلق بالشرعيات (والثانى) مايتعلق بالعقليات ونحن نأتى على البابين بقدر الطاقة ان شاء الله تعالى (النوع الاول) الشرعيات واعلم ان الزنا حرام وهو من الكبائر ويدل عليه امور (احدها) ان الله تعالى قرنه بالشرك وقتل النفس فى قوله تعالى والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق اثاما وقال ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة

اعيد الرب تنويها لشأن العرش ورفعا لمحله عن ان يكون تبعا للسموات (٣١٠) وجودا وذكرا وللقدوم فى الامر بالسؤال الترقى من الادنى الى الاعلى (سيقولون لله) باللام نظرا الى معنى السؤال فان قولك من ربه ولمن هو فى معنى واحد وقرئ هو ومابعده بغير لام نظرا الى لفظ السؤال (قل) الجاما لهم وتوبيخا (فلا تتقون) اى تعلمون ذلك ولا تتقون انفسكم عقابه بعدم العمل بموجب العلم حيث تكفرون به وتنكرون البعث وتثبتون له شريكا فى الربوبية (قل من بيده ملكوت كل شئ) مما ذكر ومالم يذكر اى ملكه التام القاهر وقيل خزائنه (وهو يجير) اى يغيث غيره اذا شاء (ولا يجار عليه) اى ولا يغيث احد عليه اى لا يمنع احد منه بالنصر عليه (ان كنتم تعلمون) اى شيئا ما اوذلك فاجيبونى على ماسبق (سيقولون لله) اى لله ملكوت كل شئ وهو الذى يجير ولا يجار عليه (قل فانى تسحرون) اى فمن اين تخدعون وتصرفون عن الرشد مع علمكم به الى ما انتم عليه من الغى فان من لا يكون مسحورا مختل العقل لا يكون كذلك (بل اتيناهم بالحق) الذى لا محيد عنه من التوحيد والوعد بالبعث (وانهم لكاذبون) فيما قالوا من الشرك وانكار البعث (ما اتخذ الله من ولد) كما يقوله النصارى والقائلون ان الملائكة بنات الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا (وما كان معه من اله) يشاركه فى الالوهية كما يقوله عبدة الاوثان وغيرهم (اذا لذهب كل اله بما خلق) جواب لمحاجتهم وجزاء الشرط قد حذف لدلالة ما قبله عليه اى لو كان معه آلهة كما يزعمون لذهب كل واحد منهم بما خلقه واستبد به وامتاز ملكه عن ملك الآخرين ووقع بينهم التغالب والتحارب كما هو الجارى فيما بين الملوك (ولعلا بعضهم على بعض) فلم يكن بيده وحده ملكوت (وسبحان)

وساء سبيلا (وثانيها) انه تعالى اوجب المائة فيها بكمالها بخلاف حد القذف وشرب الخمر وشرع فيه الرجم ونهى المؤمنين عن الرأفة وامر بشهود الطائفة للتشهير واوجب كون تلك الطائفة من المؤمنين لان الفاسق من صلحاء قومه اخجل (وثالثها) ماروى حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يامعشر الناس اتقوا الزنا فان فيه ست خصال ثلاث فى الدنيا وثلاث فى الآخرة اما التى فى الدنيا فيذهب البهاء ويورث الفقر وينقص العمر واما التى فى الآخرة فسخط الله سبحانه وتعالى وسوء الحساب وعذاب النار وعن عبد الله قال قلت يارسول الله اى الذنب اعظم عند الله قال ان تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم اى قال وان تقتل ولدك خشية ان يأكل معك قلت ثم اى قال وان تزنى بحليلة جارك فانزل الله تعالى تصديقها والذين لايدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون واعلم انه يجب البحث فى هذه الآية عن امور (احدها) عن ماهية الزنا (وثانيها) عن احكام الزنا (وثالثها) عن الشرائط المعتبرة فى كون الزنا موجبا لتلك الاحكام (ورابعها) عن الطريق الذى به يعرف حصول الزنا (وخامسها) ان المخاطبين بقوله فاجلدوهم من هم (وسادسها) ان الرجم والجلد المأمور بهما فى الزنا كيف يكون حالهما (البحث الاول) عن ماهية الزنا قال بعض اصحابنا انه عبارة عن ايلاج فرج فى فرج مشتهى طبعا محرم قطعا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى ان اللواطة هل ينطلق عليها اسم الزنا ام لا فقال قائلون نعم واحتج عليه بالنص والمعنى (اما النص) فماروى ابو موسى الاشعرى رضى الله عنه انه عليه الصلاة والسلام قال اذا اتى الرجل الرجل فهما زانيان (واما المعنى) فهو ان اللواط مثل الزنا صورة ومعنى اما الصورة فلان الزنا عبارة عن ايلاج فرج فى فرج مشتهى طبعا محرم قطعا والدبر ايضا فرج لان القبل انما سمى فرجا لما فيه من الانفراج وهذا المعنى حاصل فى الدبر اكثر مافى الباب ان فى العرف لاتسمى اللواطة زنا ولكن هذا لايقدح فى اصل اللغة كما يقال هذا طبيب وليس بعالم مع ان الطب علم واما المعنى فلان الزنا قضاء الشهوة من محل مشتهى طبعا على جهة الحرام المحض وهذا موجود فى اللواط لان القبل والدبر يشتهيان لانهما يشتركان فى المعانى التى هى متعلق الشهوة من الحرارة واللين وضيق المدخل ولذلك فان من يقول بالطبائع لايفرق بين المحلين وانما المفرق هو الشرع فى التحريم والتحليل فهذا حجة من قال اللواط داخل تحت اسم الزنا واما الاكثرون من اصحابنا فقد سلموا ان اللواط غير داخل تحت اسم الزنا واحتجوا عليه بوجوه (احدها) العرف المشهور من ان هذا لواط وليس بزنا وبالعكس والاصل عدم التغيير (وثانيها) لو حلف لايزنى فلاط لايحنث (وثالثها) ان الصحابة اختلفوا فى حكم اللواط وكانوا عالمين باللغة فلو سمى اللواط زنا لاغناهم نص الكتاب فى حد الزنا عن الاختلاف والاجتهاد واما الحديث فهو محمول على الاثم بدليل قوله عليه الصلاة السلام اذا اتت المرأة المرأة فهما زانيتان وقال عليه الصلاة والسلام اليدان تزنيان والعينان

كل شئ وهو باطل لايقول به عاقل قط مع قيام البرهان على استناد جميع الممكنات الى واجب الوجود واحد بالذات (سبحان الله عما يصفون) اى يصفونه من ان يكون له انداد واولاد (عالم الغيب والشهادة) بالجر على انه بدل من الجلالة وقيل صفة لها وقرئ بالرفع على انه خبر مبتدأ محذوف واياما كان فهو دليل آخر على انتفاء الشريك بناء على توافقهم فى تفرده تعالى بذلك ولذلك رتب عليه بالفاء قوله تعالى (فتعالى عما يشركون) فان تفرده تعالى بذلك موجب لتعاليه عن ان يكون له شريك (قل رب اما ترينى) اى ان كان لابد من ان ترينى (مايوعدون) من العذاب الدنيوى المستأصل واما العذاب الاخروى فلا يناسب المقام (رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين) اى قرينا لهم فيما هم فيه من العذاب وفيه ايذان بكمال فظاعة ماوعدوه من العذاب وكونه بحيث يجب ان يستعيذ منه من لايكاد يمكن ان يحيق به ورد لانكارهم اياه واستعجالهم به على طريقة الاستهزاء به وقيل امر به عليه الصلاة والسلام هضما لنفسه وقيل لان شؤم الكفرة قد يحيق بمن وراءهم كقوله تعالى واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة وروى انه تعالى اخبر نبيه عليه الصلاة والسلام بان له فى امته نقمة ولم يطلعه على وقتها فامره بهذا الدعاء وتكرير النداء وتصدير كل من الشرط والجزاء به لابراز كمال الضراعة والابتهال (وانا على ان نريك مانعدهم) من العذاب (لقادرون) ولكنا نؤخره لعلمنا بان بعضهم او بعض اعقابهم سيؤمنون اولانا لا نعذبهم وانت فيهم وقيل قد اراه ذلك وهو ما اصابهم يوم بدر او فتح مكة ولا يخفى بعده فان المتبادر ان يكون ما يستحقونه من العذاب الموعود عذابا هائلا مستأصلا لايظهر على يديه عليه الصلاة والسلام للحكمة الداعية اليه (ادفع بالتى هى احسن السيئة) وهو الصفح عنها

زنيان واما القياس فبعيد لان الفرج وان كان سمى فرجا لما فيه من الانفراج فلا يجب ان يسمى كل ما فيه انفراج بالفرج والا لكان الفم والعين فرجا وايضا فهم سموا النجم نجما لظهوره ثم ما سموا كل ظاهر نجما وسموا الجنين جنينا لاستتاره وما سموا كل مستتر جنينا واعلم ان الشافعى رحمه الله فى فعل اللواط قولان اصحهما عليه حد الزنا ان كان محصنا يرجم وان لم يكن محصنا يجلد مائة ويغرب عاما (وثانيهما) يقتل الفاعل والمفعول به سواء كان محصنا او لم يكن محصنا لما روى ابن عباس رضى الله عنهما انه عليه الصلاة والسلام قال من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به ثم فى كيفية قتله اوجه (احدها) تحز رقبته كالمرتد (وثانيها) يرجم بالحجارة وهو قول مالك واحمد واسحق (وثالثها) يهدم عليه جدار روى ذلك عن ابى بكر الصديق رضى الله عنه (ورابعها) يرمى من شاهق جبل حتى يموت روى ذلك عن على عليه السلام وانما ذكروا هذه الوجوه لان الله تعالى عذب قوم لوط بكل ذلك فقال تعالى فجعلنا عاليها سافلها وامطرنا عليهم حجارة من سجيل وعند ابى حنيفة رحمه الله لا يحد اللوطى بل يعذر اما المفعول به فان كان عاقلا بالغا طائعا فان قلنا على الفاعل القتل فيقتل المفعول به على صفة قتل الفاعل للخبر وان قلنا على الفاعل حد الزنا فعلى المفعول به مائة جلدة وتغريب عام محصنا كان او غير محصن وقيل ان كانت امرأة محصنة فعليها الرجم وليس بصحيح لانها لا تصير محصنة بالتمكين فى الدبر فلا يلزمها حد المحصنات كما لو كان المفعول به ذكرا حجة الشافعى رحمه الله على وجوب الحد من وجوه (الاول) ان اللواط اما ان يساوى الزنا فى الماهية او يساويه فى لوازم هذه الماهية واذا كان كذلك وجب الحد (بيان الاول) قوله عليه الصلاة والسلام اذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان فالفظ دل على كون اللائط زانيا واللفظ الدال بالمطابقة على ماهية دال بالالتزام على حصول جميع لوازمها ودلالة المطابقة والالتزام مشتركان فى اصل الدلالة فاللفظ الدال على حصول الزنا دال على حصول جميع اللوازم ثم بعد هذا ان تحقق مسمى الزنا فى اللواط دخل تحت قوله الزانية والزانى فاجلدوا وان لم يتحقق مسمى الزنا وجب ان يتحقق لوازم مسمى الزنا لما ثبت ان اللفظ الدال على تحقق ماهية دال على تحقق جميع تلك اللوازم ترك العمل به فى حق الماهية فوجب ان يبقى معمولا به فى الدلالة على جميع تلك اللوازم لكن من لوازم الزنا وجوب الحد فوجب ان يتحقق ذلك فى اللواط اكثر ما فى الباب انه ترك العمل بذلك فى قوله عليه الصلاة والسلام اذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان لكن لا يلزم من ترك العمل هناك تركه ههنا (الثانى) ان اللائط يجب قتله فوجب ان يقتل رجما (بيان الاول) قوله عليه السلام من عمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل منهما والمفعول به (وبيان الثانى) انه لما وجب قتله وجب ان يكون زانيا والا لما جاز قتله لقوله عليه السلام لا يحل دم امرئ مسلم الا باحدى ثلاث وههنا لم يوجد كفر بعد ايمان ولا قتل نفس بغير حق فلو لم يوجد الزنا بعد الاحصان لوجب ان لا يقتل واذا ثبت انه وجد الزنا بعد

والاحسان فى مقابلتها لكن لا بحيث يؤدى الى الوهن فى الدين وقيل هى كلمة التوحيد (٣١٢) والسيئة الشرك وقيل هو الامر بالمعروف والسيئة المنكر وهو ابلغ من ادفع بالحسنة السيئة لما فيه من التنصيص على التفضيل وتقديم الجار والمجرور على المفعول فى الموضعين للاهتمام (نحن اعلم بما يصفون) اى بما يصفونك به او بوصفهم اياك على خلاف ما انت عليه وفيه وعيد لهم بالجزاء والعقوبة وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وارشاد له عليه السلام الى تفويض امره اليه تعالى (وقل رب اعوذ بك من همزات الشياطين) اى وساوسهم المغرية على خلاف ما امرت به من المحاسن التى من جملتها دفع السيئة بالحسنة واصل الهمز النخس ومنه مهماز الرائض شبه حثهم للناس على المعاصى بهمز الرائض الدواب على الاسراع او الوثب والجمع للمرات او لتنوع الوساوس او لتعدد المضاف اليه (واعوذ بك رب ان يحضرون) امر عليه السلام بان يعوذ به تعالى من من حضورهم بعد ما امر بالعوذ به من همزاتهم للمبالغة فى التحذير من ملابستهم واعادة الفعل مع تكرير النداء لاظهار كمال الاعتناء بالمأمور به وعرض نهاية الابتهال فى الاستدعاء اى اعوذ بك من ان يحضرونى ويحوموا حولى فى حال من الاحوال وتخصيص حال الصلاة وقراءة القرآن كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وحال حلول الاجل كما روى عن عكرمة رحمه الله لانها احرى الاحوال بالاستعاذة منها (حتى اذا جاء احدهم الموت) حتى هى التى يبتدأ بها الكلام ودخلت على الجملة الشرطية وهى مع ذلك غاية لما قبلها متعلقة بيصفون وما بينهما اعتراض مؤكد للاغضاء بالاستعانة به تعالى من

الاحصان وجب الرجم لهذا الحديث (الثالث) نقيس اللواط على الزنا والجامع ان الطبع داع اليه لما فيه من الالتذاذ وهو قبيح فيناسب الزاجر والحد يصلح زاجرا عند قالوا والفرق من وجهين (احدهما) انه وجد فى الزنا داعيات فكان وقوعه اكثر فسادا فكانت الحاجة الى الزاجر أتم (الثانى) ان الزنا يقتضى فساد الانساب (والجواب) الغاؤهما بوطء العجوز الشوهاء واحتج ابو حنيفة رحمه الله بوجوه (احدها) اللواط ليس بزنا على ما تقدم فوجب ان لا يقتل لقوله عليه الصلاة والسلام لا يحل دم امرئ مسلم الا لاحدى ثلاث (وثانيها) ان اللواط لا يساوى الزنا فى الحاجة الى شرع الزاجر ولا فى الجناية فلا يساويه فى الحد (بيان عدم المساواة فى الحاجة) ان اللواطة وان كانت يرغب فيها الفاعل لكن لا يرغب فيها المفعول طبعا بخلاف الزنا فان الداعى حاصل من الجانبين (واما عدم المساواة فى الجناية) فلان فى الزنا اضاعة النسب ولا كذلك اللواط اذا ثبت هذا فوجب ان لا يساويه فى العقوبة لان الدليل ينفى شرع الحد لكونه ضررا ترك العمل به فى الزنا فوجب ان يبقى فى اللواط على الاصل (وثالثها) ان الحد كالبدل عن المهر فلما لم يتعلق باللواط المهر فكذا الحد (والجواب) عن الاول ان اللواط وان لم يكن مساويا للزنا فى ماهيته لكنه يساويه فى الاحكام (وعن الثانى) ان اللواط وان كان لا يرغب فيه المفعول لكن ذلك بسبب اشتداد رغبة الفاعل لان الانسان حريص على ما منع (وعن الثالث) انه لا بد من الجامع والله اعلم (المسئلة الثانية) اجمعت الامة على حرمة اتيان البهائم وللشافعى رحمه الله فى عقوبته اقوال (احدها) يجب به حد الزنا فيرجم المحصن ويجلد غير المحصن ويغرب (والثانى) انه يقتل محصنا كان او غير محصن لما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوها معه فقيل لابن عباس ما شأن البهيمة فقال ما أراه قال ذلك الا انه كره ان يؤكل لحمها وقد عمل بها ذلك العمل (والقول الثالث) وهو الاصح وهو قول أبى حنيفة ومالك والثورى واحمد رحمهم الله ان عليه التعزير لان الحد شرع للزجر عما تميل النفس اليه وهذا الفعل لا تميل النفس اليه وضعفوا حديث ابن عباس رضى الله عنهما لضعف اسناده وان ثبت فهو معارض بما روى انه عليه السلام نهى من ذبح الحيوان الا لاكله (المسئلة الثالثة) السحق من النسوان واتيان الميتة والاستمناء باليد لا يشرع فيها الا التعزير (البحث الثانى) من احكام الزنا واعلم انه كان فى اول الاسلام عقوبة الزانى الحبس الى الممات فى حق الثيب والاذى بالكلام فى حق البكر قال الله تعالى واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن اربعة منكم فان شهدوا فامسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت او يجعل الله لهن سبيلا واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فان تابا واصلحا فاعرضوا عنهما ثم نسخ ذلك فجعل حد الزنا على الثيب الرجم وحد البكر الجلد والتغريب ولنذكر هاتين المسئلتين (المسئلة

الشياطين ان يزلوه عليه الصلاة والسلام عن الحلم ويغروه على الانتقام لكن لا بمعنى انه العامل فيه لفساد المعنى بل بمعنى انه معمول لمحذوف يدل عليه ذلك وتعلقها بكاذبون فى غاية البعد لفظا ومعنى اى يستمرون على الوصف المذكور حتى اذا جاء احدهم اى احد كان الموت الذى لا مرد له وظهرت له احوال الآخرة (قال) تحسرا على ما فرط فيه من الايمان والطاعة (رب ارجعون) اى ردنى الى الدنيا والواو لتعظيم المخاطب وقيل لتكرير قوله ارجعنى كما قيل فى قفا نبك ونظائره (لعلى اعمل صالحا فيما تركت) اى فى الايمان الذى تركته لم ينظمه فى سلك الرجاء كسائر الاعمال الصالحة بان يقول لعلى او من فاعمل الخ للاشعار بانه امر مقرر الوقوع غنى عن الاخبار بوقوعه قطعا فضلا عن كونه مرجو الوقوع اى لعلى اعمل فى الايمان الذى آتى به البتة عملا صالحا وقيل فيما تركته من المال او من الدنيا وعنه عليه الصلاة والسلام اذا عاين المؤمن الملائكة قالوا انرجعك الى الدنيا فيقول الى دار الهموم والاحزان بل قدوما الى الله تبارك وتعالى واما الكافر فيقول ارجعونى (كلا) ردع عن طلب الرجعة واستبعاد لهم (انها) اى قوله رب ارجعون الخ (كلمة هو قائلها) لا محالة لتسلط الحسرة عليه (ومن ورائهم) اى

الاولى) الخوارج انكروا الرجم واحتجوا فيه بوجوه (احدها) قوله فعليهن نصف ما على المحصنات فلو وجب الرجم على المحصن لوجب نصف الرجم على الرقيق لكن الرجم لا نصف له (وثانيها) ان الله سبحانه ذكر فى القرآن انواع المعاصى من الكفر والقتل والسرقة ولم يستقص فى احكامها كما استقصى فى بيان احكام الزنا الا ترى انه تعالى نهى عن الزنا بقوله ولا تقربوا الزنا ثم توعد عليه ثانيا بالنار كما فى كل المعاصى ثم ذكر الجلد ثالثا ثم خص الجلد بوجوب احضار المؤمنين رابعا ثم خصه بالنهى عن الرأفة عليه بقوله ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله خامسا ثم أوجب على من رمى مسلما بالزنا ثمانين جلدة سادسا ولم يجعل ذلك على من رماه بالقتل والكفر وهما اعظم منه ثم قال سابعا ولا تقبلوا لهم شهادة ابدا ثم ذكر ثامنا من رمى زوجته بما يوجب التلاعن واستحقاق غضب الله تعالى ثم ذكر تاسعا ان الزانية لا ينكحها الا زان او مشرك ثم ذكر عاشرا ان ثبوت الزنا مخصوص بالشهود الاربعة فمع المبالغة فى استقصاء احكام الزنا قليلا وكثيرا لا يجوز اهمال ما هو اجل احكامها واعظم آثارها ومعلوم ان الرجم لو كان مشروعا لكان اعظم الآثار فحيث لم يذكره الله فى كتابه دل على انه غير واجب (وثالثها) قوله تعالى الزانية والزانى فاجلدوا يقتضى وجوب الجلد على كل الزناة وايجاب الرجم على البعض بخبر الواحد يقتضى تخصيص عموم الكتاب بخبر الواحد وهو غير جائز لان الكتاب قاطع فى متنه وخبر الواحد غير قاطع فى متنه والمقطوع راجح على المظنون (واحتج الجمهور من المجتهدين على وجوب رجم المحصن) لما ثبت بالتواتر انه عليه الصلاة والسلام فعل ذلك قال ابو بكر الرازى روى الرجم ابو بكر وعمر وعلى وجابر بن عبد الله وابو سعيد الخدرى وابو هريرة وبريدة الاسلمى وزيد بن خالد فى آخرين من الصحابة وبعض هؤلاء الرواة روى خبر رجم ماعز وبعضهم خبر الخثعمية والغامدية وقال عمر رضى الله عنه لولا ان يقول الناس زاد عمر فى كتاب الله لاثبته فى المصحف (والجواب عما احتجوا به اولا) انه مخصوص بالجلد فان قيل فيلزم تخصيص القرآن بخبر الواحد قلنا بل بالخبر المتواتر لما بينا ان الرجم منقول بالتواتر وايضا فقد بينا فى اصول الفقه ان تخصيص القرآن بخبر الواحد جائز (والجواب عن الثانى) انه لا يستبعد تجدد الاحكام الشرعية بحسب تجدد المصالح فلعل المصلحة التى تقتضى وجوب الرجم حدثت بعد نزول تلك الآيات (والجواب عن الثالث) انه نقل عن على عليه السلام انه كان يجمع بين الجلد والرجم وهو اختيار احمد واسحق وداود واحتجوا عليه بوجوه (احدها) ان عموم هذه الآية يقتضى وجوب الجلد والخبر المتواتر يقتضى وجوب الرجم ولا منافاة فوجب الجمع (وثانيها) قوله عليه السلام البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة (وثالثها) روى ابو بكر الرازى فى احكام القرآن عن ابن جريج عن ابن الزبير عن جابر ان رجلا زنى بامرأة فامر به النبى صلى الله عليه وسلم فجلد ثم اخبر النبى صلى الله عليه

(وسلم)

امامهم والضمير لاحدهم والجمع باعتبار المعنى لانه فى حكم كلهم كما ان الافراد فى الضمائر الاول باعتبار اللفظ (برزخ) حائل بينهم وبين الرجعة (الى يوم يبعثون) يوم القيامة وهو اقناط كلى عن الرجعة الى الدنيا لما علم انه لا رجعة يوم البعث الى الدنيا وانما الرجعة يومئذ الى الحياة الاخروية (فاذا نفخ فى الصور) لقيام الساعة هى النفخة الثانية التى يقع عندها البعث والنشور وقيل المعنى فاذا نفخ فى الاجساد ارواحها على ان الصور جمع الصورة لا القرن ويؤيده القراءة بفتح الواو وبه مع كسر الصاد (فلا انساب بينهم) تنفعهم لزوال التراحم والتعاطف من فرط الحيرة واستيلاء الدهشة بحيث يفر المرء من اخيه وامه وابيه وصاحبته وبنيه او لا انساب يفتخرون بها (يومئذ) كما هى بينهم اليوم (ولا يتساءلون) اى اى لا يسأل بعضهم بعضا لاشتغال كل منهم بنفسه ولا يناقضه قوله تعالى فاقبل بعضهم على بعض يتساءلون لان هذا عند ابتداء النفخة الثانية وذلك بعد ذلك (فمن ثقلت موازينه) موزونات حسناته من العقائد والاعمال اى فمن كانت له عقائد صحيحة واعمال صالحة يكون لها وزن وقدر عند الله تعالى (فاولئك هم المفلحون) الفائزون بكل مطلوب الناجون من كل مهروب

وسلم انه كان محصنا فامر به فرجم (ورابعها) روى ان عليا عليه السلام جلد شراحة الهمدانية ثم رجمها وقال جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم واعلم ان اكثر المجتهدين متفقون على ان المحصن يرجم ولا يجلد واحتجوا عليه بامور (احدها) قصة العسيف فانه عليه السلام قال يا انيس اغد الى امرأة هذا فان اعترفت فارجمها ولم يذكر الجلد ولو وجب الجلد مع الرجم لذكره (وثانيها) ان قصة ماعز رويت من جهات مختلفة ولم يذكر فى شىء منها مع الرجم جلد ولو كان الجلد معتبرا مع الرجم لجلده النبي عليه السلام ولو جلده لنقل كما نقل الرجم اذ ليس احدهما بالنقل اولى من الآخر وكذا فى قصة الغامدية حين اقرت بالزنا فرجمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ان وضعت ولو جلدها لنقل ذلك (وثالثها) ما روى الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس رضى الله عنهم قال قال عمر رضى الله عنه قد خشيت ان يطول بالناس زمان حتى يقول قائل لا نجد الرجم فى كتاب الله تعالى فيضلوا بترك فريضة انزلها الله تعالى وقد قرأنا الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجمنا بعده فأخبر ان الذى فرضه الله تعالى هو الرجم ولو كان الجلد واجبا مع الرجم لذكره (اما الجواب) عن التمسك بالآية فهو انها مخصوصة فى حق المحصن وتخصيص عموم القرآن بالخبر المتواتر غير ممتنع واما قوله عليه السلام الثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة فلعل ذلك كان قبل قوله يا انيس اغد الى امرأة هذا فان اعترفت فارجمها واما انه عليه السلام جلد امرأة ثم رجمها فلعله عليه السلام ما علم احصانها فجلدها ثم لما علم احصانها رجمها وهو الجواب عن فعل على عليه السلام فهذا ما يمكن من التكلف فى هذه الاجوبة والله اعلم (المسئلة الثانية) قال الشافعى رحمه الله يجمع بين الجلد والتغريب فى حد البكر وقال ابو حنيفة رحمه الله يجلد واما التغريب فمفوض الى رأى الامام وقال مالك يجلد الرجل ويغرب وتجلد المرأة ولا تغرب حجة الشافعى رحمه الله حديث عبادة انه عليه السلام قال خذوا عنى خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة ويدل ايضا عليه ما روى ابو هريرة رضى الله عنه وزيد بن خالد ان رجلا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ان ابنى كان عسيفا على هذا وزنى بامرأته فافتديت منه بوليدة ومائة شاة ثم اخبرنى اهل العلم ان على ابنى جلد مائة وتغريب عام وان على امرأة هذا الرجم فاقض بيننا فقال عليه الصلاة والسلام والذى نفسى بيده لاقضين بينكما بكتاب الله اما الغنم والوليدة فرد عليك واما ابنك فان عليه جلد مائة وتغريب عام ثم قال لرجل من اسلم اغد يا انيس الى امرأة هذا فان اعترفت فارجمها واحتج ابو حنيفة رحمه الله على نفى التغريب بوجوه (احدها) ان ايجاب التغريب يقتضى نسخ الآية ونسخ القرآن بخبر الواحد لا يجوز وقرروا النسخ من ثلاثة اوجه (الاول) انه سبحانه رتب الجلد على فعل الزنا بالفاء وحرف الفاء

(ومن خفت موازينه) اى ومن لم يكن له من العقائد والاعمال ماله وزن وقدر عنده تعالى وهم الكفار لقوله تعالى فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا وقد مر تفصيل ما فى هذا المقام من الكلام فى تفسير سورة الاعراف (فأولئك الذين خسروا انفسهم) ضيعوها بتضييع زمان استكمالها وابطلوا استعدادها لنيل كمالها واسم الاشارة فى الموضعين عبارة عن الموصول وجمعه باعتبار معناه كما ان افراد الضميرين فى الصلتين باعتبار لفظه (فى جهنم خالدون) بدل من الصلة او خبر ثان لاولئك (تلفح وجوههم النار) تحرقها واللفح كالنفح الا انه اشد تأثيرا منه وتخصيص الوجوه بذلك لانها اشرف الاعضاء فبيان حالها ازجر عن المعاصى المؤدية الى النار وهو السر فى تقديمها على الفاعل (وهم فيها كالحون) من شدة الاحتراق والكلوح تقلص الشفتين عن الاسنان وقرئ كلحون (الم تكن آياتى تتلى عليكم) على اضمار القول اى يقال لهم تعنيفا وتوبيخا وتذكيرا لما به استحقوا ما ابتلوا به من العذاب الم تكن آياتى تتلى عليكم فى الدنيا (فكنتم بها تكذبون) حينئذ (قالوا ربنا غلبت علينا) اى ملكتنا (شقوتنا) التى اقترفناها بسوء اختيارنا كما ينبئ عنه اضافتها الى انفسهم وقرئ شقوتنا

للجزاء الان ائمة اللغة قالوا اليمين بغير الله ذكر شرط وجزاء وفسروا الشرط بالذى دخل عليه كلمة ان والجزاء بالذى دخل عليه حرف الفاء والجزاء اسم لما يقع به الكفاية مأخوذ من قولهم جازيناه اى كافأناه وقال عليه السلام تجزيك ولا تجزى احدا بعدك اى تكفيك ومنه قول القائل اجزأت الابل بالعشب عن الماء وانما تقع الكفاية بالجلد اذا لم يجب معه شئ آخر فايجاب شئ آخر يقتضى نسخ كونه كافيا (الثانى) ان المذكور فى الآية لما كان هو الجلد فقط كان ذلك هو كل الحد فلو جعلنا النفى معتبرا مع الجلد لكان الجلد بعض الحد لا كل الحد فيفضى الى نسخ كونه كل الحد (الثالث) ان بتقدير كون الجلد كل الحد فانه يتعلق بذلك رد الشهادة ولو جعلناه بعض الحد لزال ذلك الحكم فثبت ان ايجاب التغريب يقتضى نسخ الآية (وثانيها) قال ابوبكر الرازى ولو كان النفى مشروعا مع الجلد لوجب على النبى صلى الله عليه وسلم عند تلاوة الآية توقيف الصحابة عليه لئلا يعتقدوا عند سماع الآية ان الجلد هو كل الحد ولو كان كذلك لكان اشتهاره مثل اشتهار الآية فلما لم يكن خبر النفى بهذه المنزلة بل كان وروده من طريق الآحاد علم انه غير معتبر (وثالثها) ماروى ابوهريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال فى الامة اذا زنت فاجلدوها فان زنت فاجلدوها فان زنت فاجلدوها ثم بيعوها ولو بظفير وفى رواية اخرى فليجلدها الحد ولا تثريب عليه ووجه الاستدلال به انه لو كان النفى ثابتا لذكره مع الجلد (ورابعها) انه اما ان يشرع التغريب فى حق الامة او لا يشرع ولا جائز ان يكون مشروعا لانه يلزم منه الاضرار بالسيد من غير جناية صدرت منه وهو غير جائز ولانه قال صلى الله عليه وسلم بيعوها ولو بظفير ولو وجب نفيها لما جاز بيعها لان المكنة من تسليمها الى المشترى لا تبقى بالنفى ولا جائز ان لا يكون مشروعا لقوله تعالى فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب (وخامسها) ان التغريب لو كان مشروعا فى حق الرجل لكان اما ان يكون مشروعا فى حق المرأة او لا يكون والثانى باطل لان التساوى فى الجناية قد وجد فى حقهما وان كان مشروعا فى حق المرأة فاما ان يكون مشروعا فى حقها وحدها او مع ذى محرم والاول غير جائز للنص والمعقول اما النص فقوله عليه السلام لا يحل لامرأة ان تسافر من غير ذى محرم واما المعقول فهو ان الشهوة غالبة فى النساء والانزجار بالدين انما يكون فى الخواص من الناس فان الغالب لعدم الزنا من النساء بوجود الحفاظ من الرجال وحيائهن من الاقارب وبالتغريب تخرج المرأة من ايدى القرباء والحفاظ ثم يقل حياؤها لبعدها عن معارفها فينفتح عليها باب الزنا فربما كانت فقيرة فيشتد فقرها فى السفر فيصير مجموع ذلك سببا لفتح باب هذه الفاحشة العظيمة عليها ولا جائز ان يقال انا نغربها مع الزوج او المحرم لان عقوبة غير الجانى لا تجوز لقوله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى (وسادسها) ماروى عن عمر انه غرب ربيعة بن امية بن خلف فى الخمر الى خيبر فلحق بهرقل فقال عمر لا اغرب

(بعدها)

بالفتح وشقاوتنا ايضا بالفتح والكسر (وكنا) بسبب ذلك (قوما ضالين) عن الحق ولذلك فعلنا مافعلنا من التكذيب وهذا كما ترى اعتراف منهم بأن ما اصابهم قد اصابهم بسوء صنيعهم واما ما قيل من انه اعتذار منهم بغلبة ما كتب عليهم من الشقاوة الازلية فمع انه باطل فى نفسه لما انه لا يكتب عليهم من السعادة والشقاوة الا ما علم الله تعالى انهم يفعلونه باختيارهم ضرورة ان العلم تابع للمعلوم يرده قوله تعالى (ربنا اخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون) اى اخرجنا من النار وارجعنا الى الدنيا فان عدنا بعد ذلك الى ما كنا عليه من الكفر والمعاصى فانا متجاوزون الحد فى الظلم ولو كان اعتقادهم انهم مجبورون على ما صدر عنهم لما سألوا الرجعة الى الدنيا ولما وعدوا الايمان والطاعة بل قولهم فان عدنا صريح فى انهم حينئذ على الايمان والطاعة وانما الموعود على تقدير الرجعة الى الدنيا الثبات عليهما لا احداثهما (قال اخسؤا فيها) اى اسكتوا فى النار سكوت هوان وذلوا وانزجروا انزجار الكلاب اذا زجرت من خسأت الكلب اذا زجرته فخسأ اى انزجر (ولا تكلمون) اى باستدعاء الاخراج من النار والرجع الى الدنيا وقيل لا تكلمون فى رفع العذاب ورده التعليل الآتى

بعدها احدا ولم يستثن الزنا وروى عن على عليه السلام انه قال فى البكرين اذا زنيا يجلدان ولا ينفيان وان نفيهما من الفتنة وعن ابن عمر ان امة له زنت فجلدها ولم ينفها ولو كان النفى معتبرا فى حد الزنا لما خفى ذلك على اكابر الصحابة (وسابعها) ماروى ان شيخا وجد على بطن جارية يحنث بها فى خربة فأتى به الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال اجلدوه مائة فقيل انه اضعف من ذلك فقال خذوا عثكالا فيه مائة شمراخ فاضربوه بها وخلوا سبيله ولو كان النفى واجبا لنفاه فان قيل انما لم ينفه لانه كان ضعيفا عاجزا عن الحركة قلنا كان ينبغى ان يكترى له دابة من بيت المال ينفى عليها فان قيل كان عمى يضعف عن الركوب قلنا من قدر على الزنا كيف لا يقدر على الاستمساك (وثامنها) ان التغريب نظير القتل لقوله تعالى ان اقتلوا انفسكم او اخرجوا من دياركم فنزلهما منزلة واحدة فاذا لم يشرع القتل فى زنا البكر وجب ان لا يشرع ايضا نظيره وهو التغريب (والجواب) عن الاول انه ليس فى كلام الله تعالى الا ادخال حرف الفاء على الامر بالجلد فاما ان الذى دخل عليه هذا الحرف فانه يسمى جزاء فليس هذا من كلام الله ولا من كلام رسوله بل هو قول بعض الادباء فلا يكون حجة اما قوله ثانيا لو كان النفى مشروعا لما كان الجلد كل الحد فنقول لا نزاع فى انه زال امر مالان اثبات كل شئ لا اقل من ان يقتضى زوال عدمه الذى كان الا ان الزائل ههنا ليس حكما شرعيا بل الزائل محض البراءة الاصلية ومثل هذه الازالة لا يمتنع اثباتها بخبر الواحد وانما قلنا ان الزائل محض العدم الاصلى وذلك لان ايجاب الجلد مفهوم مشترك بين ايجاب الجلد مع ايجاب التغريب وبين ايجابه مع نفى التغريب والقدر المشترك بين القسمين لا اشعار له بواحد من القسمين فاذن ايجاب الجلد لا اشعار فيه البتة لا بايجاب التغريب ولا بعدم ايجابه الا ان نفى التغريب كان معلوما بالعقل نظرا الى البراءة الاصلية فاذا جاء خبر الواحد ودل على وجوب التغريب فما ازال البتة شيئا من مدلولات اللفظ الدال على وجوب الجلد بل ازال البراءة الاصلية فأما كون الجلد وحده مجزيا وكونه وحده كمال الحد وتعلق رد الشهادة عليه فكل ذلك تابع لنفى وجوب الزيادة فلما كان ذلك النفى معلوما بالعقل جاز قبول خبر الواحد فيه كما ان الفروض لو كانت خمسا لتوقف على ادائها الخروج عن عهدة التكليف وقبول الشهادة ولو زيد فيها شئ آخر لتوقف الخروج عن العهدة وقبول الشهادة على اداء تلك الزيادة مع انه يجوز اثباته بخبر الواحد والقياس فكذا ههنا اما لو قال الله تعالى الجلد كمال الحد وعلمنا انها وحدها متعلق رد الشهادة فلا يقبل ههنا فى اثبات الزيادة خبر الواحد لان نفى وجوب الزيادة ثبت بدليل شرعى متواتر (والجواب) عن الثانى انه لو صح ماذكره لوجب فى كل ما خصص آية عامة ان يبلغ فى الاشتهار مبلغ تلك الآية ومعلوم انه ليس كذلك (والجواب) عن الثالث ان قوله ثم يعوها لا يفيد التعقيب فلعلها تنفى ثم بعد النفى تباع (والجواب) عن الرابع انه معارض بما روى الترمذى فى جامعه انه عليه السلام جلد وغرب وان ابا بكر جلد وغرب

وقيل لا تكلمون راسا وهو آخر كلام يتكلمون به ثم لا كلام بعد ذلك الا الشهيق والزفير والعواء كعواء الكلاب لا يفهمون ولا يفهمون ورود الخطابات الآتية قطعا وقوله تعالى (انه) تعليل لما قبله من الزجر عن الدعاء اى ان الشان وقرئ بالفتح اى لان الشان (كان فريق من عبادى) وهم المؤمنون وقيل هم الصحابة وقيل اهل الصفة رضوان الله تعالى عليهم اجمعين (يقولون) فى الدنيا (ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا) اى اسكتوا عن الدعاء بقولكم ربنا الخ لانكم كنتم تستهزؤن بالداعين بقولهم ربنا آمنا الخ وتتشاغلون باستهزائهم (حتى انسوكم) اى الاستهزاء بهم (ذكرى) من فرط اشتغالكم باستهزائهم (وكنتم منهم تضحكون) وذلك غاية الاستهزاء وقوله تعالى (انى جزيتهم اليوم) استئناف لبيان حسن حالهم وانهم انتفعوا بما آذوهم (بما صبروا) بسبب صبرهم على اذيتكم وقوله تعالى (انهم هم الفائزون) ثانى مفعولى الجزاء اى جزيتهم فوزهم بمجامع مراداتهم مخصوصين به وقرئ بكسر الهمزة على انه تعليل للجزاء وبيان لكونه فى غاية ما يكون من الحسن (قال) اى الله عز وجل او الملك المأمور بذلك تذكيرا لما لبثوا فيما سألوا الرجوع اليه

(والجواب) عن الخامس ان الشافعي رحمه الله في تغريب العبد قولين (احدهما) لا يغرب لانه عليه السلام قال اذا زنت امة احدكم فليجلدها الحد ولم يأمر بالتغريب ولان التغريب للمعرة ولا معرة على العبد فيه لانه ينقل من بلد الى بلد ولان منافعه للسيد ففي نفيه اضرار بالسيد (والثاني) وهو الاصح انه يغرب لقوله تعالى فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ولا ينظر الى ضرر المولى كما يقتل العبد بسبب الردة ويجلد العبد في الزنا و القذف وان تضرر به المولى فعلى هذا كم يغرب فيه قولان (احدهما) يغرب نصف سنة لانه يقبل التنصيف كما يجلد نصف حد الاحرار (والثاني) يغرب سنة لان التغريب المقصود منه الايحاش وذلك معنى يرجع الى الطبع فيستوى فيه الحر والعبد كمدة الايلاء او العنة (والجواب) عن السادس ان المرأة لا تغرب وحدها بل مع محرم فان لم يتبرع المحرم بالخروج معها اعطى اجرته من بيت المال وان لم يكن لها محرم تغرب مع النساء الثقات كما يجب عليها الخروج الى الحج معهن قوله التغريب يفتح عليها باب الزنا قلنا لا نسلم فان اكثر الزنا بالالف والمؤانسة وفراغ القلب واكثر هذه الاشياء تبطل بالغربة فان الانسان يقع في الوحشة والتعب والنصب فلا يتفرغ للزنا (والجواب) عن السابع اي استبعاد في ان يكون الانسان الذي يعجز عن ركوب الدابة يقدر على الزنا (والجواب) عن الثامن انه ينقض بالتغريب اذا وقع على سبيل التعزير والله اعلم (المسئلة الثالثة) اتفقت الامة على ان قوله سبحانه وتعالى الزانية والزاني يفيد الحكم في كل الزناة لكنهم اختلفوا في كيفية تلك الدلالة فقال قائلون لفظ الزاني يفيد العموم والمختار انه ليس كذلك ويدل عليه امور (احدها) ان الرجل اذا قال لبست الثوب او شربت الماء لا يفيد العموم (وثانيها) انه لا يجوز تأكيده بما يؤكد به الجمع فلا يقال جاءني الرجل اجمعون (وثالثها) لا ينعت بنعوت الجمع فلا يقال جاءني الرجل الفقراء وتكلم الفقيه الفضلاء فاما قولهم اهلك الناس الدرهم البيض والدينار الصفر فمجاز بدليل انه لا يطرد وايضا فان كان الدينار الصفر حقيقة وجب ان يكون الدينار الاصفر مجازا كما ان الدنانير الصفر لما كانت حقيقة كان الدنانير الاصفر مجازا (ورابعها) ان الزاني جزئي من هذا الزاني فايجاب جلد هذا الزاني ايجاب جلد الزاني فلو كان ايجاب جلد الزاني ايجابا لجلد كل زان لزم ان يكون ايجاب جلد هذا الزاني ايجاب جلد كل زان ولما لم يكن كذلك بطل ما قالوه فان قيل لم لا يجوز ان يقال اللفظ المطلق انما يفيد العموم بشرط العراء عن لفظ التعيين او يقال اللفظ المطلق وان اقتضى العموم الا ان لفظ التعيين يقتضي الخصوص قلنا اما الاول فباطل لان العدم لا دخل له في التأثير اما الثاني فلانه يقتضي التعارض وهو خلاف الاصل (وخامسها) ان يقال الانسان هو الضحاك فلو كان المفهوم من قولنا الانسان هو كل الانسان لنزل ذلك منزلة ما يقال كل انسان هو الضحاك وذلك متناقض لانه يقتضي حصر الانسانية في كل واحد من الناس ومعنى الحصر هو ان يثبت فيه لا في غيره فيلزم ان يصدق على كل

(واحد)

من الدنيا بعد التنبيه على اضاعته بقوله اخسؤا فيها الخ وقرئ قل على الامر للملك (كم لبثتم في الارض) التي تدعون ان ترجعوا اليها (عدد سنين) تمييز لكم (قالوا لبثنا يوما او بعض يوم) استقصار المدة لبثهم فيها (فاسأل العادين) اي المتمكنين من العد فانا بما دهمنا من العذاب بمعزل من ذلك او الملائكة العادين لاعمار العباد واعمالهم وقرئ العادين بالتخفيف اي المتعدين فانهم ايضا يقولون ما نقول كأنهم الاتباع يسمون الرؤساء بذلك لظلمهم اياهم باضلالهم وقرئ العاديين اي القدماء المعمرين فانهم ايضا يستقصرون مدة لبثهم (قال) اي الله تعالى او الملك وقرئ قل كما سبق (ان لبثتم الا قليلا) تصديقا لهم في ذلك (لو انكم كنتم تعلمون) اي تعلمون شيئا او لو كنتم من اهل العلم والجواب محذوف ثقة بدلالة ما سبق عليه اي لعلمتم يومئذ قلة لبثكم فيها كما علمتم اليوم ولعملتم بموجبه ولم تخلدوا اليها (افحسبتم انما خلقناكم عبثا) اي الم تعلموا شيئا فحسبتم انما خلقناكم بغير حكمة بالغة حتى انكرتم البعث فعبثا حال من نون العظمة اي عابثين او مفعول له اي انما خلقناكم للعبث (وانكم الينا لا ترجعون) عطف على انما فان خلقكم بغير بعث من قبيل العبث وانما خلقناكم لنعيدكم ونجازيكم على اعمالكم وقرئ ترجعون بفتح

واحد من اشخاص الناس انه هو الضحاك لا غير واحتج المخالف بوجهين (الاول) انه يجوز الاستثناء منه لقوله تعالى ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل تحته (الثاني) ان الالف واللام للتعريف وليس ذلك لتعريف الماهية فان ذلك قد حصل بأصل الاسم ولا لتعريف واحد بعينه فانه ليس في اللفظ دلالة عليه ولا لتعريف بعض مراتب الخصوص فانه ليس بعض المراتب اولى من بعض فوجب حمله على تعريف الكل (والجواب عن الاول) ان ذلك الاستثناء مجاز بدليل انه لا يصح ان يقال رأيت الانسان الا المؤمنين (وعن الثاني) انه يشكل بدخول الالف واللام على صيغة الجمع فان جعلتها هناك للتأكيد فكذا ههنا ومن الناس من قال ان قوله تعالى الزانية والزاني وان كان لا يفيد العموم بحسب اللفظ لكنه يفيده بحسب القرينة وذلك من وجهين (الاول) ان ترتيب الحكم على الوصف المشتق يفيد كون ذلك الوصف علة لذلك الحكم لاسيما اذا كان الوصف مناسبا وههنا كذلك فيدل ذلك على ان الزنا علة لوجوب الجلد فيلزم ان يقال انما تحقق الزنا يتحقق وجوب الجلد ضرورة ان العلة لا تنفك عن المعلول (الثاني) ان المراد من قوله الزانية والزاني اما ان يكون كل الزناة او البعض فان كان الثاني صارت الآية مجملة وذلك يمنع من امكان العمل به لكن العمل به مأمور وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب فوجب حمله على العموم حتى يمكن العمل به والله اعلم (البحث الثالث) في الشرائط المعتبرة في كون الزنا موجبا للرجم تارة والجلد اخرى فنقول اجمعوا على ان كون الزنا موجبا لهذين الحكمين مشروط بالعقل وبالبلوغ فلا يجب الرجم والحد على الصبي والمجنون وهذان الشرطان ليسا من خواص هذين الحكمين بل هما معتبران في كل العقوبات اما كونهما موجبين للرجم فلا بد مع العقل والبلوغ من امور اخر (الشرط الاول) الحرية واجمعوا على ان الرقيق لا يجب عليه الرجم البتة (الشرط الثاني) التزوج بنكاح صحيح فلا يحصل الاحصان بالاصابة بملك اليمين ولا بوطء الشبهة ولا بالنكاح الفاسد (الشرط الثالث) الدخول ولا بد منه لقوله عليه السلام الثيب بالثيب وانما تصير ثيبا بالوطء وههنا مسئلتان (المسئلة الاولى) هل يشترط ان تكون الاصابة بالنكاح بعد البلوغ والحرية والعقل فيه وجهان (احدهما) لا يشترط حتى لو اصاب عبد امة بنكاح صحيح او في حال الجنون والصغر ثم كمل حاله فزنى يجب عليه الرجم لانه وطء يحصل به التحليل للزوج الاول فيحصل به الاحصان كالوطء في حال الكمال ولان عقد النكاح يجوز ان يكون قبل الكمال فكذلك الوطء (والثاني) وهو الاصح وهو ظاهر النص وقول ابي حنيفة رحمه الله يشترط ان تكون الاصابة بالنكاح بعد البلوغ والحرية والعقل لانه لما شرط اكمل الاصابات وهو ان يكون بنكاح صحيح شرط ان يكون تلك الاصابة في حال الكمال (المسئلة الثانية) هل يعتبر الكمال في الطرفين او يعتبر في كل واحد منهما كماله بنفسه دون صاحبه فيه قولان (احدهما) معتبر في الطرفين حتى لو وطئ الصبي بالغة حرة

الثناء من الرجوع (فتعالى الله) استعظام له تعالى ولشؤنه التى تصرف عليها عباده من البدء والاعادة والاثابة والعقاب بموجب الحكمة البالغة اى ارتفع بذاته وتنزه عن مماثلة المخلوقين في ذاته وصفاته واحواله وافعاله وعن خلو افعاله عن الحكم والمصالح والغايات الحميدة (الملك الحق) الذى يحق له الملك على الاطلاق ايجادا واعداما بدأ واعادة احياء واماتة عقابا واثابة وكل ما سواه مملوك له مقهور تحت ملكوته (لا اله الا هو) فان كل ما عداه عبيده (رب العرش الكريم) فكيف بما تحته ومحاط به من الموجودات كائنا ما كان ووصفه بالكرم اما لانه منه ينزل الوحي الذى منه القرآن الكريم او الخير والبركة والرحمة او لنسبته الى اكرم الاكرمين وقرئ الكريم بالرفع على انه صفة الرب كما في قوله تعالى ذو العرش المجيد (ومن يدع مع الله الها آخر) يعبده افرادا او اشراكا (لا برهان له به) صفة لازمة لالها كقوله تعالى يطير بجناحيه جئ بها للتأكيد وبناء الحكم عليه تنبيها على ان التدين بما لا دليل عليه باطل فكيف بما شهدت بديهة العقول بخلافه او اعتراض بين الشرط والجزاء كقولك من احسن الى زيد لا احق منه بالاحسان فالله مثيبه (فانما حسابه عند ربه) فهو مجازله على

عاقلة فانه لايحصنها وهوقول ابي حنيفة ومحمد (والثانى) يعتبر فى كل واحد منهما كماله بنفسه وهوقول ابي يوسف رحمه الله (حجة القول الاول) انه وطء لايفيد الاحصان لاحد الوطئين فلايفيد فى الآخر كوطء الامة (حجة القول الثانى) انه لايشترط كونهما على صفة الاحصان وقت النكاح وكذا عند الدخول (الشرط الرابع) الاسلام ليس شرطا فى كون الزنا موجبا للرجم عند الشافعى رحمه الله وابي يوسف وقال ابو حنيفة رحمه الله شرط احتج الشافعى بامور (احدها) قوله عليه السلام فاذا قبلوا الجزية فأنبؤهم ان لهم ماللمسلمين وعليهم ماعلى المسلمين ومن جملة ماعلى المسلم كونه بحيث يجب عليه الرجم عند الاقدام على الزنا فوجب ان يكون الذمى كذلك لتحصل التسوية (وثانيها) حديث مالك عن نافع عن ابن عمر انه عليه السلام رجم يهوديا ويهودية زنيا فاما ان يقال انه عليه السلام حكم بذلك بشريعته او بشريعة من قبله فان كان الاول فالاستدلال به بين وان كان الثانى فكذلك لانه صار شرعا له (وثالثها) ان زنا الكافر مثل زنا المسلم فيجب عليه مثل مايجب على المسلم وذلك لان الزنا محرم قبيح فيناسب الزجر وايجاب الرجم يصلح زاجرا له ولايبقى الا التفاوت بالكفر والايمان والكفر وان كان لايوجب تغليظ الجناية فلايوجب تخفيفها واحتج ابو حنيفة رحمه الله بوجوه (احدها) التمسك بعموم قوله الزانية والزانى وجب العمل به فى حق المسلم ولايجب فى الذمى لمعنى مفقود فى الذمى ووجه الفرق ان القتل بالاحجار عقوبة عظيمة فلا يجب الابجناية عظيمة والجناية تعظم بكفران النعم فى حق الجانى عقلا وشرعا اما العقل فلأن المعصية كفران النعمة وكلما كانت النعم اكثر واعظم كان كفرانها اعظم واقبح واما الشرع فلأن الله تعالى قال فى حق نساء النبي صلى الله عليه وسلم يانساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين فلما كانت نعم الله تعالى فى حقهن اكثر كان العذاب فى حقهن اكثر وقال فى حق الرسول لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا اذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات وانما عظمت معصيته لان النعمة فى حقه اعظم وهى نعمة النبوة ومن المعلوم ان نعم الله تعالى فى حق المسلم المحصن اكثر منها فى حق الذمى فكانت معصية المسلم اعظم فوجب ان تكون عقوبته اشد (وثانيها) ان الذمى لم يزن بعد الاحصان فلايجب عليه القتل (بيان الاول) قوله عليه السلام من اشرك بالله طرفة عين فليس بمحصن (بيان الثانى) ان المسلم الذى لايكون محصنا لايجب عليه القتل لقوله عليه السلام لايحل دم امرئ مسلم الاباحدى ثلاث واذا كان المسلم كذلك وجب ان يكون الذمى كذلك لقوله عليه السلام اذا قبلوا عقد الجزية فاعلمهم ان لهم ماللمسلمين وعليهم ماعلى المسلمين (وثالثها) اجمعنا على ان احصان القذف يعتبر فيه الاسلام فكذا احصان الرجم والجامع ماذكرنا من كمال النعمة (والجواب عن الاول) انه خص عنه الثيب المسلم فكذا الثيب الذمى وماذكروه من حديث زيادة النعمة على المؤمنين فنقول نعمة الاسلام حصلت بكسب العبد فيصير ذلك كالخدمة الزائدة وزيادة الخدمة ان لم تكن سببا

فقدر ما يستحقه (انه لايفلح الكافرون) اى ان الشان الخ وقرئ بالفتح على انه تعليل او خبر ومعناه حسابه عدم الفلاح والاصل حسابه انه لايفلح هو فوضع الكافرون موضع الضمير لان من يدع فى معنى الجمع وكذلك حسابه انه لايفلح فى معنى حسابهم انهم لايفلحون * بدئت السورة الكريمة بتقرير فلاح المؤمنين وختمت بنفى الفلاح عن الكافرين ثم امر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاستغفار والاسترحام فقيل (وقل رب اغفر وارحم وانت خير الراحمين) ايذانا بأنهما من اهم الامور الدينية حيث امر به من قد غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر فكيف بمن عداه * عن النبي عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة المؤمنين بشرته الملائكة بالروح والريحان وماتقربه عينه عند نزول ملك الموت وعنه عليه الصلاة والسلام انه قال لقد انزلت على عشر آيات من اقامهن دخل الجنة ثم قرأ قد افلح المؤمنون حتى ختم العشر وروى ان اولها وآخرها من كنوز الجنة من عمل بثلاث آيات من اولها واتعظ باربع من آخرها فقد نجا وافلح

للعذر فلا اقل من ان تكون سببا لزيادة العقوبة (وعن الثانى) لانسلم ان الذمى مشرك سلمناه
لكن الاحصان قد يراد به التزوج لقوله تعالى والذين يرمون المحصنات وفى التفسير فاذا
احصن يعنى فاذا تزوجن اذا ثبت هذا فنقول الذمى الثيب محصن بهذا التفسير فوجب
رجمه لقوله صلى الله عليه وسلم اوزنا بعد احصان رتب الحكم فى حق المسلم على هذا الوصف
فدل على كون الوصف علة والوصف قائم فى حق الذمى فوجب كونه مستلزما للحكم بالرجم
(وعن الثالث) ان حد القذف لدفع العار كرامة للمقذوف والكافر لايكون محلا للكرامة
وصيانة العرض بخلاف ماههنا والله اعلم اما مايتعلق بالجلد ففيه مسائل (المسئلة الاولى)
اتفقوا على ان الرقيق لايرجم واتفقوا على انه يجلد وثبت بنص الكتاب ان على الاماء نصف
ماعلى المحصنات من العذاب فلاجرم اتفقوا على ان الامة تجلد خمسين جلدة اما العبد فقد
اتفق الجمهور على انه يجلد ايضا خمسين الا اهل الظاهر فانهم قالوا عموم قوله الزانية والزانى
يقتضى وجوب المائة على العبد والامة الا انه ورد النص بالتنصيف فى حق الامة فلو قسنا
العبد عليها كان ذلك تخصيصا لعموم الكتاب بالقياس وانه غير جائز ومنهم من قال الامة
اذا تزوجت فعليها خمسون جلدة واذا لم تتزوج فعليها المائة لظاهر قوله تعالى فاجلدوا كل
واحد منهما مائة جلدة وذكروا ان قوله فاذا احصن اى تزوجن فعليهن نصف ماعلى
المحصنات من العذاب (المسئلة الثانية) قال الشافعى وابو حنيفة رحمهما الله الذمى يجلد
وقال مالك رحمه الله لايجلد لنا وجوه (احدها) عموم قوله الزانية والزانى (وثانيها)
قوله عليه السلام اذا زنت امة احدكم فليجلدها وقوله اقيموا الحدود على ماملكت
ايمانكم ولم يفرق بين الذمى والمسلم (وثالثها) انه عليه السلام رجم اليهوديين فذلك الرجم
ان كان من شرع محمد صلى الله عليه وسلم فقد حصل المقصود وان كان من شرعهم فلما فعله
الرسول صلى الله عليه وسلم صار ذلك من شرعه وحقيقة هذه المسئلة ترجع الى ان الكفار
مخاطبون بفروع الشرائع (البحث الرابع) فيما يدل على صدور الزنا منه اعلم ان ذلك
لايحصل الا من احد ثلاثة اوجه اما بأن يراه الامام بنفسه او بأن يقر أو بأن يشهد عليه
الشهود (اما الوجه الاول) وهو ما اذا رآه الامام قال الامام محيى السنة فى كتاب التهذيب
لاخلاف ان على القاضى ان يمتنع عن القضاء بعلم نفسه مثل ما اذا ادعى رجل على آخر
حقا واقام عليه بينة والقاضى يعلم انه قد أبرأه أو ادعى انه قتل أباه وقت كذا وقد رآه
القاضى حيا بعد ذلك أو ادعى نكاح امرأة وقد سمعه القاضى طلقها لايجوز ان يقضى به
وان اقام عليه شهودا وهل يجوز للقاضى ان يقضى بعلم نفسه مثل ان ادعى عليه الفا وقد
رآه القاضى اقرضه او سمع المدعى عليه اقر به فيه قولان أصحهما وبه قال ابو يوسف
ومحمد والمزنى رحمهم الله انه يجوز له ان يقضى بعلمه لانه لما جاز له ان يحكم بشهادة الشهود
وهو من قولهم على ظن فلأن يجوز بما رآه وسمعه وهو منه على علم اولى قال الشافعى رحمه
الله فى كتاب الرسالة اقضى بعلمى وهو اقوى من شاهدين او بشاهدين وشاهد وامرأتين

* (سورة النور مدنية وهى)
(اثنتان او اربع وستون آية) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(سورة) خبر مبتدأ محذوف اى
هذه سورة وانما اشير اليها مع عدم
سبق ذكرها لانها باعتبار كونها
فى شرف الذكر فى حكم الحاضر
المشاهد وقوله تعالى (انزلناها)
مع ماعطف عليه صفات لها
مؤكدة لما افادة التنكير من الفخامة
من حيث الذات بالفخامة من حيث
الصفات اما كونها مبتدأ محذوف
الخبر على ان يكون التقدير فيما
اوحينا اليك سورة انزلناها فيأباه
ان مقتضى المقام بيان شان هذه
السورة الكريمة لاان فى جملة
ما اوحى الى النبى عليه الصلاة
والسلام سورة شأنها كذا وكذا
وحملها على السورة الكريمة
بمعونة المقام يوهم ان غيرها
من السور الكريمة ليست على تلك
الصفات وقرئ بالنصب على
اضمار فعل يفسره انزلناها فلا محل
له حينئذ من الاعراب او على
تقدير اقرأ ونحوه أو دونك عند
من يسوغ حذف اداة الاغراء
فمحل انزلناها النصب على الوصفية
(وفرضناها) اى اوجبنا مافيها
من الاحكام ايجابا

وهو اقوى من شاهد ويمين او بشاهد ويمين وهو اقوى من النكول ورد اليمين (والقول الثانى) لايقضى بعلمه وهو قول ابن ابى ليلى لان انتفاء التهمة شرط فى القضاء ولم يوجد هذا فى المال (اما فى العقوبات) فينظر ان كان ذلك من حقوق العباد كالقصاص وحد القذف هل يحكم فيه بعلم نفسه يرتب على المال ان قلنا هناك لايقضى فههنا اولى والا فقولان والفرق ان مبنى حقوق الله تعالى على المساهلة والمسامحة ولا فرق على القولين ان يحصل العلم للقاضى فى بلد ولايته وزمان ولايته او فى غيره وقال ابو حنيفة رحمه الله ان حصل له العلم فى بلد ولايته اوزمان ولايته له ان يقضى بعلمه والا فلا فقول العلم لايختلف باختلاف هذه الاحوال فوجب ان لايختلف الحكم باختلافهما والله اعلم (الطريق الثانى الاقرار) قال الشافعى رحمه الله الاقرار بالزنا مرة واحدة يوجب الحد وقال ابو حنيفة رحمه الله بل لابد من الاقرار اربع مرات فى اربع مجالس وقال احمد لابد من الاقرار اربع مرات لكن لافرق بين ان يكون فى اربع مجالس او فى مجلس واحد حجة الشافعى رحمه الله امران (الاول) قصة العسيف فانه قال عليه السلام فان اعترفت فارجمها وذلك دليل على ان الاعتراف مرة واحدة كاف (الثانى) انه لما اقر بالزنا وجب الحد عليه لقوله عليه السلام اقض بالظاهر والاقرار مرة واحدة يوجب الظهور لاسيما ههنا وذلك لان الصارف عن الاقرار بالزنا قوى لانه سبب العار فى الحال والالم الشديد فى المآل والصارف عن الكذب ايضا قائم وعند اجتماع الصارفين يقوى الانصراف فثبت انه انما اقدم على هذا الاقرار لكونه صادقا واذا ظهر اندرج تحت الحديث وتحت الآية او نقيسه على الاقرار بالقتل والردة واحتج ابو حنيفة رحمه الله بوجوه (احدها) قصة ماعز والاستدلال بها من وجوه (الاول) انه عليه السلام اعرض عنه فى المرة الاولى ولو وجب عليه الحد لم يعرض عنه لان الاعراض عن اقامة حد الله تعالى بعد كمال الحجة لايجوز (الثانى) انه عليه السلام قال انك شهدت على نفسك اربع مرات ولو كان الواحد مثل الاربع فى ايجاب الحد كان هذا القول لغوا (والثالث) روى عن ابى بكر الصديق رضى الله عنه انه قال لماعز بعدما اقر ثلاث مرات لو اقررت الرابعة لرجمك رسول الله (والرابع) عن بريدة الاسلى قال كنا معشر اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم نقول لو لم يقر ماعز اربع مرات مارجمه رسول الله صلى الله عليه وسلم (وثانيها) انهم قاسوا الاقرار على الشهادة فكما انه لايقبل فى الزنا الا اربع شهادات فكذا فى الاقرار به والجامع السعى فى كتمان هذه الفاحشة (وثالثها) ان الزنا لايثبت الا باربع شهادات او باربع ايمان فى اللعان فجاز ايضا ان لايثبت الا بالاقرار اربع مرات وبه يفارق سائر الحقوق فانها تثبت بيمين واحد فجاز ايضا ان يثبت باقرار واحد (والجواب عن الاول) انه ليس فى الحديث الا انه عليه السلام حكم بالشهادات الاربع وذلك لاينافى جواز الحكم بالشهادة الواحدة (وعن الثانى) ان الفرق بينهما ان المقذوف

قطعيا وفيه من الايذان بغاية وكادة الفرضية مالايخفى وقرئ فرضناها بالتشديد لتأكيد الايجاب اولتعدد الفرائض او لكثرة المفروض عليهم من السلف والخلف (وانزلنا فيها) اى فى تضاعيف السورة (آيات بينات) ان اريد بها الآيات التى نيطت بها الاحكام المفروضة وهو الاظهر فكونها فى السورة ظاهر ومعنى كونها بينات وضوح دلالتها على احكامها لاعلى معانيها على الاطلاق فانها اسوة لسائر الآيات فى ذلك وتكرير انزلنا مع استلزام انزال السورة لانزالها لابراز كمال العناية بشأنها وان اريد جميع الآيات فالظرفية باعتبار اشتمال الكل على كل واحد من اجزائه وتكرير انزلنا مع ان جميع الآيات عين السورة وانزالها عين انزالها لاستقلالها بعنوان رائق داع الى تخصيص انزالها بالذكر لابانة خطرها ورفعا لمحلها كقوله تعالى ونجيناهم من عذاب غليظ بعد قوله تعالى نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا (لعلكم تذكرون) بحذف احدى التائين وقرئ بادغام الثانية فى الذال اى

او أقر بالزنا مرة لسقط الحد عن القاذف ولولا ان الزنا ثبت لما سقط كما لو شهد اثنان بالزنا لا يسقط الحد عن القاذف حيث لم يثبت الزنا والله اعلم (والطريق الثالث) الشهادة وقد اجمعوا على انه لابد من اربع شهادات ويدل عليه قوله تعالى فاستشهدوا عليهن اربعة منكم والكلام فيه سيأتى ان شاء الله تعالى فى قوله ثم لم يأتوا بأربعة شهداء (البحث الخامس) فى ان المخاطب بقوله تعالى فاجلدوا من هو اجمعت الامة على ان المخاطب بذلك هو الامام ثم احتجوا بهذا على وجوب نصب الامام قالوا لانه سبحانه امر باقامة الحد واجمعوا على انه لا يتولى اقامته الا الامام وما لا يتم الواجب المطلق الا به وكان مقدورا للمكلف فهو واجب فكان نصب الامام واجبا وقد مر بيان هذه الدلالة فى قوله والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما بقى ههنا ثلاث مسائل (المسئلة الاولى) قال الشافعى رحمه الله السيد يملك اقامة الحد على مملوكه وهو قول ابن مسعود وابن عمر وفاطمة وعائشة وعند ابى حنيفة وابى يوسف ومحمد وزفر رحمهم الله لا يملك وقال مالك يحده المولى فى الزنا وشرب الخمر والقذف ولا يقطعه فى السرقة وانما يقطعه الامام وهو قول الليث واحتج الشافعى رحمه الله بوجوه (احدها) قوله عليه السلام اقيموا الحدود على ما ملكت ايمانكم وعن ابى هريرة رضى الله عنه قال قال عليه السلام اذا زنت امة احدكم فليجلدها وفى رواية اخرى فليجلدها الحد قال ابوبكر الرازى لا دلالة فى هذه الاخبار لان قوله اقيموا الحدود على ما ملكت ايمانكم هو كقوله الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ومعلوم ان المراد منه رفعه الى الامام لاقامة الحد والمخاطبون باقامة الحد هم الائمة وسائر الناس مخاطبون برفع الامر اليهم حتى يقيموا عليهم الحدود فكذلك قوله اقيموا الحدود على ما ملكت ايمانكم على هذا المعنى واما قوله اذا زنت امة احدكم فليجلدها فانه ليس كل جلد حدا لان الجلد قد يكون على وجه التعزير فاذا عزر فقد وفينا بمقتضى الحديث (والجواب) ان قوله اقيموا الحدود امر باقامة الحد فحمل هذا اللفظ على رفع الواقعة الى الامام عدول عن الظاهر اقصى ما فى الباب انه ترك الظاهر فى قوله فاجلدوا لكن لا يلزم من ترك الظاهر هناك تركه هنا اما قوله فليجلدها المراد هو التعزير فباطل لان الجلد المذكور عقيب الزنا لا يفهم منه الا الحد (وثانيها) ان السلطان لما ملك اقامة الحد عليه فسيده به اولى لان تعلق السيد بالعبد اقوى من تعلق السلطان به لان الملك اقوى من عقد البيعة وولاية السادة على العبيد فوق ولاية السلطان على الرعية حتى اذا كان للامة سيد واب فان ولاية النكاح للسيد دون الاب ثم ان الاب مقدم على السلطان فى ولاية النكاح فيكون السيد مقدما على السلطان بدرجات فكان أولى ولان السيد يملك من التصرفات فى هذا المحل ما لا يملكه الامام فثبت ان المولى أولى (وثالثها) اجمعنا على ان السيد يملك التعزير فكذا الحد لان كل واحد نظير الآخر وان كان احدهما مقدرا والآخر غير مقدر واحتج ابوبكر الرازى على مذهب ابى حنيفة بوجوه

تتذكرونها فتعملون بموجبها عند وقوع الحوادث الداعية الى اجراء احكامها وفيه ايذان بأن حقها ان تكون على ذكر منهم بحيث متى مست الحاجة اليها استحضروها (الزانية والزانى) شروع فى تفصيل ما ذكر من الآيات البينات وبيان احكامها والزانية هى المرأة المطاوعة للزنا الممكنة منه كما تنبئ عنه الصيغة لا المزنية كرها وتقديمها على الزانى لانها الاصل فى الفعل لكون الداعية فيها اوفر ولولا تمكينها منه لم يقع ورفعهما على الابتداء والخبر قوله تعالى (فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط اذ اللام بمعنى الموصول والتقدير التى زنت والذى زنى كما فى قوله تعالى واللذان يأتيانها منكم فآذوهما وقيل الخبر محذوف اى فيما انزلنا او فيما فرضنا الزانية والزانى اى حكمهما وقوله تعالى فاجلدوا الخ بيان لذلك الحكم وكان هذا عاما فى حق المحصن وغيره وقد نسخ فى حق المحصن قطعا ويكفينا فى تعيين الناسخ القطع بأنه عليه الصلاة والسلام قد رجم ماعزا

(احدها) قال قوله تعالى الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة لاشك انه خطاب مع الائمة دون عامة الناس فالتقدير فاجلدوا ايها الائمة والحكام كل واحد منهما مائة جلدة ولم يفرق فى هذه الآية بين المحدودين من الاحرار والعبيد فوجب ان تكون الائمة هم المخاطبون باقامة الحدود على الاحرار والعبيد دون الموالى (وثانيها) انه لو جاز للمولى ان يسمع شهادة الشهود على عبده بالسرقة فيقطعه فلو رجعوا عن شهادتهم لوجب ان يتمكن من تضمين الشهود لان تضمين الشهود يتعلق بحكم الحاكم بالشهادة لانه لو لم يكن يحكم بشهادتهم لم يضمنوا شيئا فكان يصير حاكما لنفسه بايجاب الضمان عليهم وذلك باطل لانه ليس لاحد من الناس ان يحكم لنفسه فعلمنا ان المولى لا يملك استماع البينة على عبده بذلك ولا قطعه (وثالثها) ان المالك ربما لا يستوفى الحد بكماله لشفقته على ملكه واذا كان متهما وجب ان لا يفوض اليه (والجواب) عن الاول ان قوله فاجلدوا ليس بصريحه خطابا مع الامام لكن بواسطة انه لما انعقد الاجماع على ان غير الامام لا يتولاه حملنا ذلك الخطاب على الامام وههنا لم ينعقد الاجماع على ان غير الامام لا يتولاه لانه عين النزاع (والجواب) عن الثانى قال محيى السنة فى كتاب التهذيب هل يجوز للمولى قطع يد عبده بسبب السرقة او قطع الطريق فيه وجهان اصحهما انه يجوز نص عليه فى رواية البويطى لما روى عن ابن عمر انه قطع عبدا له سرق وكما يجلده فى الزنا وشرب الخمر (والثانى) لا بل القطع الى الامام بخلاف الجلد لان المولى يملك جنس الجلد وهو التعزير ولا يملك جنس القطع ثم قال وكل حد يقيمه المولى على عبده انما يقيمه اذا ثبت باعتراف العبد فان كانت عليه بينة فهل يسمع المولى الشهادة فيه وجهان (احدهما) يسمع لانه ملك الاقامة بالاعتراف فيملك بالبينة كالامام (والثانى) لا يسمع بل ذاك الى الحكام (والجواب) عن الثالث انه منقوض بالتعزير (المسئلة الثانية) اذا فقد الامام فليس لآحاد الناس اقامة هذه الحدود بل الاولى ان يعينوا واحدا من الصالحين ليقوم به (المسئلة الثالثة) الخارجى المتغلب هل له اقامة الحدود قال بعضهم له ذلك وقال آخرون ليس له ذلك لان اقامة الحد من جهة من لم يلزمنا ان نزيل ولايته ابعد من ان نفوض ذلك الى رجل من الصالحين (البحث السادس) فى كيفية اقامة الحد اما الجلد فاعلم ان المذكور فى الآية هو الجلد وهذا مشترك بين الجلد الشديد والجلد الخفيف والجلد على كل الاعضاء او على بعض الاعضاء فحينئذ لا يكون فى الآية اشعار بشئ من هذه القيود بل مقتضى الآية ان يكون الآتى بالجلد كيف كان خارجا عن العهدة لانه اتى بما امر به فوجب ان يخرج عن العهدة قال صاحب الكشاف وفى لفظ الجلد اشارة الى انه لا ينبغى ان يتجاوز الالم الى اللحم ولان الجلد ضرب الجلد يقال جلده كقولك ظهره وبطنه ورأسه الا انا لما عرفنا ان المقصود منه الزجر والزجر لا يحصل الا بالجلد الخفيف لا جرم تكلم العلماء فى صفة الجلد على سبيل القياس ثم ههنا مسائل (المسئلة الاولى) المحصن

وغيره فيكون من باب نسخ الكتاب بالسنة المشهورة وفى الايضاح الرجم حكم ثبت بالسنة المشهورة المتفق عليها فجازت الزيادة بها على الكتاب وروى عن على رضى الله عنه جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل نسخ باية منسوخة التلاوة هى الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم ويأباه ما روى عن على رضى الله عنه (ولا تأخذكم بهما رأفة) وقرئ بفتح الهمزة وبالمد ايضا على فعالة اى رحمة ورقة (فى دين الله) فى طاعته واقامة حده فتعطلوه او تسامحوا فيه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها (ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) من باب التهييج والالهاب فان الايمان بهما يقتضى الجد فى طاعته تعالى والاجتهاد فى اجراء احكامه وذكر اليوم الآخر لتذكير ما فيه من العقاب فى مقابلة المسامحة والتعطيل (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) اى لحضره زيادة فى التنكيل فان التفضيح قد ينكل اكثر مما ينكل التعذيب

يجلد مع ثيابه ولا يجرد ولكن ينبغي ان يكون بحيث يصل الالم اليه وينزع من ثيابه الحشو والفرو روى ان اباعبيدة بن الجراح أتى برجل في حد فذهب الرجل ينزع قميصه وقال ماينبغي لجسدي هذا المذنب ان يضرب وعليه قيص فقال ابو عبيدة لاتدعوه ينزع قيصه فضربه عليه اما المرأة فلاخلاف في انه لايجوز تجريدها بل يربط عليها ثيابها حتى لاتنكشف ويلي ذلك منها امرأة (المسئلة الثانية) لايمد ولا يربط بل يترك حتى يتقي بيديه ويضرب الرجل قائما والمرأة جالسة قال ابو يوسف رحمه الله ضرب ابن ابي ليلى المرأة القاذفة قائمة فخطأه ابو حنيفة (المسئلة الثالثة) يضرب بسوط وسط لاجديد يجرح ولا خلق لم يؤلم ويضرب ضربا بين ضربين لاشديد ولا واه روى ابو عثمان النهدي قال أتى عمر برجل في حد فجيء بسوط فيه شدة فقال اريد الين من هذا فأتى بسوط فيه لين فقال اريد اشد من هذا فأتى بسوط بين السوطين فرضي به (المسئلة الرابعة) تفرق السياط على اعضائه ولا يجمعها في موضع واحد واتفقوا على انه يتقي المهالك كالوجه والبطن والفرج ويضرب على الرأس عند الشافعي رحمه الله وقال ابو حنيفة رحمه الله لايضرب على الرأس وهو قول على حجة الشافعي رحمه الله قال ابو بكر اضرب على الرأس فان الشيطان فيه وعن عمر انه ضرب صبيغ بن عسيل على رأسه حين سأل عن الذاريات على وجه التعنت حجة ابي حنيفة رحمه الله اجمعنا على انه لايضرب على الوجه فكذا الرأس والجامع الحكم والمعنى اما الحكم فلأن الشين الذي يلحق الرأس بتأثير الضرب كالذي يلحق الوجه بدليل ان الموضحة وسائر الشجاج حكمها في الرأس والوجه واحد وفارقا سائر البدن لان الموضحة فيما سوى الرأس والوجه انما يجب فيها حكومة ولا يجب فيها ارش الموضحة الواقعة في الرأس والوجه فوجب استواء الرأس والوجه في وجوب صونهما عن الضرب واما المعنى فهو انما منع من ضرب الوجه لما كان فيه من الجناية على البصر وذلك موجود في الرأس لان ضرب الرأس يظلم منه البصر وربما حدث منه الماء في العين وربما حدث منه اختلاط العقل اجاب اصحابنا عنه بان الفرق بين الوجه والرأس ثابت لان الضربة اذا وقعت على الوجه فعظم الجبهة رقيق فربما انكسر بخلاف عظم القفا فانه في نهاية الصلابة وايضا فالعين في نهاية اللطافة فالضرب عليها يورث العمى وايضا فالضرب على الوجه يكسر الانف لانه من غضروف لطيف ويكسر الاسنان لانها عظام لطيفة ويقع على الخدين وهما لحمان قريبان من الدماغ والضربة عليهما في نهاية الخطر لسرعة وصول ذلك الاثر الى جرم الدماغ وكل ذلك لم يوجد في الضرب على الرأس (المسئلة الخامسة) لو فرق سياط الحد تفريقا لايحصل به التنكيل مثل ان يضرب كل يوم سوطا او سوطين لايحسب وان ضرب كل يوم عشرين أو أكثر يحسب والاولى ان لايفرق (المسئلة السادسة) ان وجب الحد على الحبلى لايقام حتى تضع روى عمران بن الحصين ان امرأة من جهينة اتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي حبلى من الزنا فقالت يانبي الله

والطائفة فرقة يمكن ان تكون حافة حول شيء من الطوف واقلها ثلاثة كما روى عن قتادة وعن ابن عباس رضي الله عنهما اربعة الى اربعين وعن الحسن عشرة والمراد جمع يحصل به التشهير والزجر (الزاني لاينكح الا زانية اومشركة والزانية لاينكحها الا زان اومشرك) حكم مؤسس على الغالب المعتاد جيء به لزجر المؤمنين عن نكاح الزاني بعد زجرهم عن الزنا بهن وقد رغب بعض من ضعفة المهاجرين في نكاح موسرات كانت بالمدينة من بغايا المشركين فاستأذنوا رسول الله صلى عليه وسلم في ذلك فنفروا عنه ببيان انه من افعال الزناة وخصائص المشركين كأنه قيل الزاني لا يرغب الا في نكاحهما الا احدهما فلا تحوموا حوله كي لاتنتظموا في سلكهما وتتسموا بسمتهما فايراد الجملة الاولى مع ان مناط التنفير هي الثانية اما للتعريض بقصرهم الرغبة عليهن حيث استأذنوا في نكاحهن اولتأكيد العلاقة بين الجانبين مبالغة في الزجر والتنفير وعدم التعرض في الجملة

اصبت حدافأقمه على فدعا نبى الله وليهافقال احسن اليها فأذا وضعت فأتنى بها ففعل فأمر بها نبى الله صلى الله عليه وسلم فشدت عليها ثيابها ثم امر بها فرجمت ثم صلى عليها ولان المقصود التأديب دون الاتلاف (المسئلة السابعة) ان وجب الجلد على المريض نظر فان كان به مرض يرجى زواله من صداع او ضعف او ولادة يؤخر حتى يبرأ كما لو اقيم عليه حد او قطع لا يقام عليه حد آخر حتى يبرأ من الاول وان كان به مرض لا يرجى زواله كالسل والزمانة فلا يؤخر ولا يضرب بالسياط فانه يموت وليس المقصود موته وذلك لا يختلف سواء كان زناه فى حال الصحة ثم مرض او فى حال المرض بل يضرب بعثكال عليه مائة شمراخ فيقوم ذلك مقام مائة جلدة كما قال تعالى فى قصة ايوب عليه السلام وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث وعند ابى حنيفة رحمه الله يضرب بالسياط دليلنا ماروى ان رجلا مقعدا اصاب امرأة فأمر النبى صلى الله عليه وسلم فأخذوا مائة شمراخ فضربوه بها ضربة واحدة ولان الصلاة اذا كانت تختلف باختلاف حاله فالحد اولى بذلك (المسئلة الثامنة) يقام الحد فى وقت اعتدال الهواء فان كان فى حال شدة حر او برد نظر ان كان الحد رجما يقام عليه كما يقام فى المرض لان المقصود قتله وقيل ان كان الرجم ثبت عليه باقراره يؤخر الى اعتدال الهواء وزوال المرض الذى يرجى زواله لانه ربما رجع عن اقراره فى خلال الرجم وقد اثر الرجم فى جسمه فتعين شدة الحر والبرد والمرض على اهلاكه بخلاف مالو ثبت بالبينة لانه لا يسقط وان كان الحد جلدا لم يجز اقامته فى شدة الحر والبرد كالا يقام فى المرض اما الرجم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الشافعى رحمه الله ومالك رحمه الله يجوز للامام ان يحضر رجمه وان لا يحضر وكذا الشهود لا يلزمهم الحضور وقال ابو حنيفة رحمه الله ان ثبت الزنا بالبينة وجب على الشهود ان يبدؤا بالرجم ثم الامام ثم الناس وان ثبت باقراره بدأ الامام ثم الناس حجة الشافعى رحمه الله ان النبى صلى الله عليه وسلم امر برجم ماعز والغامدية ولم يحضر رجمهما (المسئلة الثانية) ان ثبت الزنا باقراره فمتى رجع ترك وقع به بعض الحد او لم يقع وبه قال ابو حنيفة رحمه الله والثورى واحمد واسحق وقال الحسن وابن ابى ليلى وداود لا يقبل رجوعه وعن مالك رحمه الله روايتان حجة القول الاول ان ماعزا لما مسته الحجارة وهرب فقال عليه السلام هلا تركتموه (المسئلة الثالثة) يحفر للمرأة الى صدرها حتى لا تنكشف ويرمى اليها ولا يحفر للرجل لماروى ابو سعيد الخدرى ان ماعزا اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله انى اصبت فاحشة فأقم على الحد فرده النبى عليه السلام مرارا ثم سأل قومه فقالوا لا نعلم به بأسا فأمرنا ان نرجمه فانطلقنا به الى بقيع الغرقد فما اوثقناه ولا حفرنا له قال فرميناه بالعظام والمدر والخزف قال فاشتد واشتددنا خلفه حتى اتى عرض الحرة وانتصب لنا فرميناه بجلاميد الحرة حتى سكت وجه الاستدلال انه قال فما اوثقناه ولا حفرنا له ولانه هرب ولو كان فى حفرة لما امكنه ذلك (المسئلة الرابعة) اذا

الثانية للشركة للتنبيه على ان مناط الزجر والتنفير هو الزنا لا مجرد الاشراك وانما تعرض لها فى الاولى اشباعا فى التنفير عن الزانية بنظمها فى سلك المشركة (وحرم ذلك) اى نكاح الزوانى (على المؤمنين) لما ان فيه من التشبه بالفسقة والتعرض للتهمة والتسبب لسوء القالة والطعن فى النسب واختلال امر المعاش وغير ذلك من المفاسد مالا يكاد يليق باحد من الادانى والاراذل فضلا عن المؤمنين ولذلك عبر عن التنزيه بالتحريم مبالغة فى الزجر وقيل النفى بمعنى النهى وقد قرئ به والتحريم على حقيقته والحكم اما مخصوص بسبب النزول او منسوخ بقوله تعالى وانكحوا الايامى منكم فانه متناول للمسافحات ويؤيده ماروى انه صلى الله عليه وسلم سئل عن ذلك فقال اوله سفاح وآخره نكاح والحرام لا يحرم الحلال وماقيل من ان المراد بالنكاح هو الوطء بين البطلان (والذين يرمون المحصنات) بيان لحكم العفائف اذا نسبن الى الزنا بعد بيان حكم الزوانى ويعتبر فى الاحصان ههنا مع مدلوله الوضعى

مات فى الحد يغسل ويكفن ويصلى عليه ويدفن فى مقابر المسلمين فهذا مااردنا ذكره من بيان الاحكام الشرعية المتعلقة بهذه الآية (اما المباحث) العقلية فاعلم ان من الناس من قال لاشك ان البدن مركب من اجزاء كثيرة فاما ان يقوم بكل جزء حياة وعلم وقدرة على حدة او يقوم بكل الاجزاء حياة واحدة وعلم واحد وقدرة واحدة والثانى محال لاستحالة قيام العرض الواحد بالمحال الكثيرة فتعين الاول واذا كان كذلك كان كل جزء من اجزاء البدن حيا على حدة وعالما على حدة وقادرا على حدة واذا ثبت هذا فنقول الزانى هو الفرج لا الظهر فكيف يحسن من الحكيم ان يأمر بجلد الظهر ولانه ربما كان الانسان حال اقدامه على الزنا نحيفا نحيفا ثم يسمن بعد ذلك فكيف يجوز ايلام تلك الاجزاء الزائدة مع انها كانت بريئة عن فعل الزنا فان قال قائل هذا مدفوع من وجهين (الاول) وهو انه ليس كل واحد من اجزاء البدن فاعلا على حدة وحيا على حدة وذلك محال بل الحياة والعلم والقدرة تقوم بالجزء الواحد ثم توجب حكم الحيية والعالمية والقادرية لمجموع الاجزاء فيكون المجموع حيا واحدا عالما واحدا قادرا واحدا وعلى هذا التقدير يزول السؤال (الثانى) ان يقال الذى هو الفاعل والمحرك والمدرك شئ ليس بجسم ولا جسمانى وانما هو مدبر لهذا البدن وعلى هذا التقدير ايضا يزول السؤال (والجواب) اما الاول فضعيف وذلك لان العلم اذا قام بجزء واحد فاما ان يحصل بمجموع الاجزاء عالمية واحدة فيلزم قيام الصفة الواحدة بالمحال الكثيرة وهو محال او يقوم بكل جزء عالمية على حدة فيعود المحذور المذكور واما الثانى ففى نهاية البعد لانه اذا كان الفاعل للقبيح هو ذلك الباين فلم يضرب هذا الجسد واعلم ان المقصود من احكام الشرع رعاية المصالح ونحن نعلم ان شرع الحد يفيد الزجر فكان المقصود حاصلا والله اعلم اما قوله تعالى ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) الرأفة الرقة والرحمة وقراءة العامة بسكون الهمزة وقرئ رأفة بفتح الهمزة ورآفة على فعالة (المسئلة الثانية) يحتمل ان يكون المراد ان لا تأخذكم رأفة بان يعطل الحد او ينقص منه والمعنى لا تعطلوا حدود الله ولا تتركوا اقامتها للشفقة والرحمة وهذا قول مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير واختيار الفراء والزجاج ويحتمل ان لا تأخذكم رأفة بان يخفف الجلد وهو قول سعيد بن المسيب والحسن وقتادة ويحتمل كلا الامرين والاول أولى لان الذى تقدم ذكره الامر بنفس الجلد ولم يذكر صفته فما يعقبه يجب ان يكون راجعا اليه وكفى برسول الله اسوة فى ذلك حيث قال لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها وتنبيه بقوله فى دين الله على ان الدين اذا اوجب امرا لم يصح استعمال الرأفة فى خلافه اما قوله تعالى ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر فهو من باب التهييج والتهاب الغضب لله تعالى ولدينه قال الجبائى تقدير الآية ان كنتم مؤمنين فلا تتركوا اقامة الحدود وهذا يدل على ان الاشتغال باداء الواجبات من الايمان بخلاف ما تقوله المرجئة (والجواب) ان الرأفة

الذى هو العفة عن الزنا الحرية والبلوغ والاسلام وفى التعبير عن التفوه بما قالوا فى حقهن بالرمى المنبئ عن صلابة الآلة وايلام المرمى وبعده عن الرامى ايذان بشدة تأثيره فيهن وكونه رجما بالغيب والمراد به رميهن بالزنا لا غير وعدم التصريح للاكتفاء بايرادهن عقيب الزوانى ووصفهن بالاحصان الدال بالوضع على نزاهتهن عن الزنا خاصة فان ذلك بمنزلة التصريح بكون رميهن به لا محالة ولا حاجة فى ذلك الى الاستشهاد باعتبار الاربعة من الشهداء على ان فيه مؤنة بيان تأخر نزول الآية عن قوله تعالى فاستشهدوا عليهن اربعة ولا بعدم وجوب الحد بالرمى بغير الزنا على ان فيه شبهة المصادرة كما قيل والذين يرمون العفائف المنزهات عما رمين به من الزنا (ثم لم يأتوا باربعة شهداء) يشهدون عليهن بما رموهن به وفى كلمة ثم اشعار بجواز تأخير الاتيان بالشهود كما ان فى كلمة لم اشارة الى تحقق العجز عن الاتيان بهم وتقرره خلا ان اجتماع الشهود لا بد منه عند الاداء خلافا للشافعى رحمه الله تعالى فانه يجوز التراخى بين الشهادات كما بين الرمى والشهادة ويجوز ان يكون

لاتحصل الا اذا حكم الانسان بطبعه ان الاولى ان لاتقام تلك الحدود وحينئذ يكون منكر الدين فيخرج عن الايمان فى الحديث يؤتى بوال نقص من الحد سوطا فيقال له لم فعلت ذلك فيقول رحمة لعبادك فيقال له انت ارحم بهم منى فيؤمر به الى النار ويؤتى بمن زاد سوطا فيقال له لم فعلت ذلك فيقول لينتهوا عن معاصيك فيقول انت احكم به منى فيؤمر به الى النار اما قوله تعالى وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله تعالى وليشهد عذابهما طائفة امر وظاهره للوجوب لكن الفقهاء قالوا يستحب حضور الجمع والمقصود اعلان اقامة الحد لما فيه من مزيد الردع ولما فيه من رفع التهمة عمن يجلد وقيل أراد بالطائفة الشهود لانه يجب حضورهم ليعلم بقاؤهم على الشهادة (المسئلة الثانية) اختلفوا فى اقل الطائفة على اقوال (احدها) انه رجل واحد وهو قول النخعى ومجاهد واحتجا بقوله تعالى وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا (وثانيها) انه اثنان وهو قول عكرمة وعطاء واحتجا بقوله تعالى فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين وكل ثلاثة فرقة والخارج من الثلاثة واحد او اثنان والاحتياط يوجب الاخذ بالاكثر (وثالثها) انه ثلاثة وهو قول الزهرى وقتادة قالوا الطائفة هى الفرقة التى يمكن ان تكون حلقة كانها الجماعة الحافة حول الشئ وهذه الصورة اقل مالابد فى حصولها هو الثلاثة (ورابعها) انه اربعة بعدد شهود الزنا وهو قول ابن عباس والشافعى رضى الله عنهم (وخامسها) انه عشرة وهو قول الحسن البصرى لان العشرة هى العدد الكامل (المسئلة الثالثة) تسميته عذابا يدل على انه عقوبة ويجوز ان يسمى عذابا لانه يمنع المعاودة كما سمى نكالا لذلك ونبه تعالى بقوله من المؤمنين على ان الذين يشهدون يجب ان يكونوا بهذا الوصف لانهم اذا كانوا كذلك عظم موقع حضورهم فى الزجر وعظم موقع اخبارهم عما شاهدوا فيخاف المجلود من حضورهم الشهرة فيكون ذلك أقوى فى الانزجار والله اعلم ❁ (الحكم الثانى) قوله تعالى (الزانى لاينكح الا زانية او مشركة والزانية لاينكحها الا زان او مشرك وحرم ذلك على المؤمنين) قرئ لاينكح بالجزم على النهى وقرئ وحرم بفتح الحاء ثم ان فى الآية سؤالات (السؤال الاول) قوله الزانى لاينكح الا زانية او مشركة ظاهره خبر ثم انه ليس الامر كما يشعر به هذا الظاهر لانا نرى ان الزانى قد ينكح المؤمنة العفيفة والزانية قد ينكحها المؤمن العفيف (السؤال الثانى) انه قال وحرم ذلك على المؤمنين وليس كذلك فان المؤمن يحل له التزوج بالمرأة الزانية (والجواب) اعلم ان المفسرين لاجل هذين السؤالين ذكروا وجوها (احدها) وهو احسنها ماقاله القفال وهو ان اللفظ وان كان عاما لكن المراد منه الاعم الاغلب وذلك لان الفاسق الخبيث الذى من شأنه الزنا والفسق لايرغب فى نكاح الصوالح من النساء وانما يرغب فى فاسقة خبيثة مثله اوفى مشركة والفاسقة الخبيثة لايرغب فى نكاحها الصلحاء من الرجال وينفرون عنها وانما يرغب فيها من هو من جنسها من الفسقة والمشركين

احدهم زوج المقذوفة خلافا له ايضا وقرئ باربعة شهداء (فاجلدوهم ثمانين جلدة) لظهور كذبهم وافترائهم بعجزهم عن الاتيان بالشهداء لقوله تعالى فاذلم يأتوا بالشهداء فاولئك عند الله هم الكاذبون وانتصاب ثمانين كانتصاب المصادر ونصب جلدة على التمييز وتخصيص رميهن بهذا الحكم مع ان حكم رمى المحصنين ايضا كذلك لخصوص الواقعة وشيوع الرمى فيهن (ولاتقبلوا لهم شهادة) عطف على اجلدوا داخل فى حكمه تتمة له لمافيه من معنى الزجر لانه مؤلم للقلب كما ان الجلد مؤلم للبدن وقد اذى المقذوف بلسانه فعوقب باهدار منافعه جزاء وفاقا واللام فى لهم متعلقة بمحذوف هو حال من شهادة قدمت عليها لكونها نكرة ولو تأخرت عنها لكانت صفة لها وفائدتها تخصيص الرد بشهاداتهم الناشئة عن اهليتهم الثابتة لهم عند الرمى وهو السر فى قبول شهادة الكافر المحدود فى القذف بعد التوبة والاسلام لانها ليست ناشئة عن اهليته السابقة بل عن اهلية حدثت له بعد اسلامه فلايتناولها الرد فتدبر ودع عنك ما قيل من ان المسلمين لايعبؤن بسب الكفار فلا يلحق المقذوف بقذف الكافر من الشين

يهذا على الاعم الاغلب كما يقال لايفعل الخير الا الرجل التقى وقد يفعل بعض الخير من ليس
بتقى فكذا ههنا واما قوله وحرم ذلك على المؤمنين فالجواب من وجهين (احدهما)
ان نكاح المؤمن الممدوح عندالله الزانية ورغبته فيها وانخراطه بذلك فى سلك الفسقة
المتسمين بالزنا محرم عليه لما فيه من التشبه بالفساق وحضور مواضع التهمة والتسبب
لسوء المقالة فيه والغيبة ومجالسة الخاطئين كم فيها من التعرض لاقتراف الآثام فكيف
بمزاوجة الزوانى والفجار (الثانى) وهو ان صرف الرغبة بالكلية الى الزوانى وترك الرغبة
فى الصالحات محرم على المؤمنين لان قوله الزانى لاينكح الا زانية معناه ان الزانى لايرغب
الا فى الزانية فهذا الحصر محرم على المؤمنين ولايلزم من حرمة هذا الحصر حرمة التزوج
بالزانية فهذا هو المعتمد فى تفسير الآية (الوجه الثانى) ان الالف واللام فى قوله الزانى وفى
قوله وحرم ذلك على المؤمنين وان كان للعموم ظاهرا لكنه ههنا مخصوص بالاقوام الذين
نزلت هذه الآية فيهم قال مجاهد وعطاء ابن ابى رباح وقتادة قدم المهاجرون المدينة وفيهم
فقراء ليس لهم اموال ولا عشائر وبالمدينة نساء بغايا يكرين انفسهن وهن يومئذ اخصب
اهل المدينة ولكل واحدة منهن علامة على بابها كعلامة البيطار ليعرف انها زانية وكان
لايدخل عليها الا زان او مشرك فرغب فى كسبهن ناس من فقراء المسلمين وقالوا نتزوج بهن
الى ان يغنينا الله عنهن فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية فتقدير
الآية اولئك الزوانى لاينكحون الا الزانيات وتلك الزانيات لاينكحهن الا اولئك
الزوانى وحرم نكاحهن باعيانهن على المؤمنين (الوجه الثالث) فى الجواب ان قوله
الزانى لاينكح الا زانية وان كان خبرا فى الظاهر لكن المراد النهى والمعنى ان كل من كان
زانيا فلاينبغى ان ينكح الا زانية وحرم ذلك على المؤمنين وهكذا كان الحكم فى ابتداء
الاسلام وعلى هذا الوجه ذكروا قولين (احدهما) ان ذلك الحكم باق الى الآن حتى يحرم
على الزانى والزانية التزوج بالعفيفة والعفيف وبالعكس ويقال هذا مذهب ابى بكر وعمر
وعلى وابن مسعود وعائشة ثم فى هؤلاء من يسوى بين الابتداء والدوام فيقول كما لايحل
للمؤمن ان يتزوج بالزانية فكذلك لايحل له اذا زنت تحته ان يقيم عليها ومنهم من يفصل
لان فى جملة ما يمنع من التزويج مالايمنع من دوام النكاح كالاحرام والعدة (والقول
الثانى) ان هذا الحكم صار منسوخا واختلفوا فى ناسخه فعن الجبائى ان ناسخه هو
الاجماع وعن سعيد بن المسيب انه منسوخ بعموم قوله تعالى فانكحوا ماطاب لكم من
النساء وانكحوا الايامى قال المحققون هذان الوجهان ضعيفان (اما الاول) فلانه ثبت
فى اصول الفقه ان الاجماع لاينسخ ولاينسخ به وايضا فالاجماع الحاصل عقيب الخلاف
لايكون حجة والاجماع فى هذه المسئلة مسبوق بمخالفة ابى بكر وعمر وعلى فكيف يصح
واما قوله تعالى فانكحوا ماطاب لكم فهو لايصلح ان يكون ناسخا لانه لابد من ان يشترط فيه
ان لايكون هناك مانع من النكاح من سبب او نسب او غيرهما ولقائل ان يقول لايدخل

والشنار ما الحقه بقذف المسلم فان ذلك بدون ماهو من الاعتبار تعليل فى مقابلة النص ولايخفى حاله فالمعنى لاتقبلوا منهم شهادة من الشهادات حال كونها حاصلة لهم عند الرمى (ابدا) اى مدة حياتهم وان تابوا واصلحوا لما عرفت من انه تتمة الحد كأنه قيل فاجلدوهم وردوا شهادتهم اى فاجمعوا لهم الجلد والرد فيبقى كأصله (واولئك هم الفاسقون) كلام مستأنف مقرر لما قبله ومبين لسوء حالهم عندالله عزوجل وما فى اسم الاشارة من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الشر والفساد اى اولئك هم المحكوم عليهم بالفسق والخروج عن الطاعة والتجاوز عن الحدود الكاملون فيه كأنهم هم المستحقون لاطلاق اسم الفاسق عليهم لا غيرهم من الفسقة وقوله تعالى (الا الذين تابوا) استثناء من الفاسقين كما ينبئ عنه التعليل الآتى ومحل المستثنى النصب لانه عن موجب وقوله تعالى (من بعد ذلك) لتهويل المتوب عنه اى من بعد ما اقترفوا ذلك الذنب العظيم الهائل (واصلحوا) اى اصلحوا اعمالهم التى من جملتها ماافرط منهم بالتلافى والتدارك ومنه الاستسلام للحد والاستحلال من المقذوف (فان الله غفور

فيه تزويج الزانية من المؤمن كما لايدخل فيه تزويجها من الاخ وابن الاخ ونقول ان للزنا تأثيرا في الفرقة ماليس لغيره ألاترى انه اذاقذفها بالزنا يتبعها بالفرقة على بعض الوجوه ولايجب مثل ذلك في سائر مايوجب الحد ولان من حق الزنا ان يورث العار ويؤثر في الفراش ففارق غيره ثم احتج هؤلاء الذين يدعون هذا النسخ بأنه سئل ابن عباس رضى الله عنهما عن رجل زنا بامرأة فهل له ان يتزوجها فأجازه ابن عباس وشبهه بمن سرق ثمر شجرة ثم اشتراه وعن النبي صلى الله عليه وسلم انه سئل عن ذلك فقال اوله سفاح وآخره نكاح والحرام لايحرم الحلال (الوجه الرابع) ان يحمل النكاح على الوطء والمعنى ان الزانى لايطأ حين يزنى الا الزانية او مشركة وكذا الزانية وحرم ذلك على المؤمنين اى وحرم الزنا على المؤمنين وعلى هذا تأويل ابى مسلم قال الزجاج هذا التأويل فاسد من وجهين (الاول) انه ماورد النكاح في كتاب الله تعالى الابمعنى التزويج ولم يرد البتة بمعنى الوطء (الثانى) ان ذلك يخرج الكلام عن الفائدة لانالوقلنا المراد ان الزانى لايطأ الا الزانية فالاشكال عائد لانانرى ان الزانى قديطأ العفيفة حين يتزوج بها ولو قلنا المراد ان الزانى لايطأ الا الزانية حين يكون وطؤه زنا فهذا الكلام لافائدة فيه وهذا آخر الكلام في هذا المقام (السؤال الثالث) اى فرق بين قوله الزانى لاينكح الا زانية وبين قوله والزانية لاينكحها الا زان (الجواب) الكلام الاول يدل على ان الزانى لايرغب الا في نكاح الزانية وهذا لايمنع من ان يرغب في نكاح الزانية غير الزانى فلاجرم بين ذلك بالكلام الثانى (السؤال الرابع) لم قدمت الزانية على الزانى في الآية المتقدمة وههنا بالعكس (الجواب) سيقت تلك الآية لعقوبتهما على جنايتهما والمرأة هي المادة في الزنا واما الثانية فمسوقة لذكر النكاح والرجل اصل فيه لانه هو الراغب والطالب (الحكم الثالث) القذف ﴿ قوله تعالى (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولاتقبلوا لهم شهادة ابدا وأولئك هم الفاسقون الاالذين تابوا من بعد ذلك واصلحوا فان الله غفور رحيم) اعلم ان ظاهر الآية لايدل على الشئ الذى به رموا المحصنات وذكر الرامى لايدل على الزنا اذقديرميها بسرقة وشرب خمر وكفر بل لابد من قرينة دالة على التعيين وقد اجمع العلماء على ان المراد الرمى بالزنا وفي الآية اقوال تدل عليه (احدها) تقدم ذكر الزنا (وثانيها) انه تعالى ذكر المحصنات وهن العفائف فدل ذلك على ان المراد بالرمى رميهن بضد العفاف (وثالثها) قوله ثم لم يأتوا بأربعة شهداء يعنى على صحة مارموهن به ومعلوم ان هذا العدد من الشهود غير مشروط الا في الزنا (ورابعها) انعقاد الاجماع على انه لايجب الجلد بالرمى بغير الزنا فوجب ان يكون المراد هو الرمى بالزنا اذا عرفت هذا فالكلام في هذه الآية يتعلق بالرمى والرامى والمرمى (البحث الاول) في الرمى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الفاظ القذف تنقسم الى صريح وكناية وتعريض فالصريح ان يقول يازانية اوزنيت اوزنى قبلك اودبرك ولوقال زنى بدنك فيه وجهان (احدهما) انه كناية كقوله زنى

رحيم) تعليل لما يفيده الاستثناء من العفو عن المؤاخذة بموجب الفسق كأنه قيل فحينئذ لايؤاخذهم الله تعالى بما فرط منهم ولاينظمهم في سلك الفاسقين لانه تعالى مبالغ في المغفرة والرحمة هذا وقد علق الشافعى رحمه الله الاستثناء بالنهى فمحل المستثنى حينئذ الجر على البدلية من الضمير في لهم وحمل الابد عبارة عن مدة كونه قاذفا فتنتهى بالتوبة فتقبل شهادته بعدها (والذين يرمون ازواجهم) بيان لحكم الرامين لازواجهم خاصة بعد بيان حكم الرامين لغيرهن لكن لابأن يكون هذا مخصصا للمحصنات بالاجنبيات ليلزم بقاء الآية السابقة ظنية فلايثبت بها الحد فان من شرائط التخصيص ان لايكون المخصص متراخى النزول بل بكونه ناسخا لعمومها ضرورة تراخى نزولها كماسيأتى فتبقى الآية السابقة قطعية الدلالة فيبقى بعد النسخ مايبقى في موضعه ان دليل النسخ غير معلل (ولم يكن لهم شهداء) يشهدون بمارموهن به من الزنا وقرئ بتأنيث الفعل (الا انفسهم) بدل من شهداء اوصفة لها على ان الابمعنى غير جعلوا من جملة الشهداء ايذانا من اول الامر بعدم الغاء قولهم بالمرة ونظمه في سلك الشهادة في الجملة وبذلك

بدنه لان حقيقة الزنا من الفرج فلا يكون من سائر البدن الا المعونة (والثانى) وهو الاصح انه صريح لان الفعل انما يصدر من جملة البدن والفرج آلة فى الفعل اما الكنايات فمثل ان يقول يافاسقة يافاجرة ياخبيثة يامواجرة ياابنة الحرام اوامرأتى لاترد يد لامس وبالعكس فهذا لايكون قذفا الا ان يريده وكذلك لو قال لعربى يانبطى فهذا لايكون قذفا الا ان يريده فان اراد به القذف فهو قذف لام المقول له والا فلا فان قال عنيت به نبطى الدار واللسان وادعت ام المقول له انه اراد القذف فالقول قوله مع يمينه اما التعريض فليس بقذف وان اراده وذلك مثل قوله ياابن الحلال اما انا فمازنيت وليست امى زانية وهذا قول الشافعى وابى حنيفة وابى يوسف ومحمد وزفر وابن شبرمة والثورى والحسن ابن صالح رحمهم الله وقال مالك رحمه الله يجب الحد فيه وقال احمد واسحق هو قذف فى حال الغضب دون حال الرضا (لنا) ان التعريض بالقذف محتمل للقذف ولغيره فوجب ان لايجب الحد لان الاصل براءة الذمة فلا يرجع عنه بالشك وايضا فلقوله عليه السلام ادرؤا الحدود بالشبهات ولان الحدود شرعت على خلاف النص النافى للضرر والايذاء الحاصل بالتصريح فوق الحاصل بالتعريض واحتج المخالف بما روى الاوزاعى عن الزهرى عن سالم عن ابن عمر قال كان عمر يضرب الحد فى التعريض وروى ايضا ان رجلين استبا فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال احدهما للآخر والله ما انا بزان ولا امى بزانية فاستشار عمر الناس فى ذلك فقال قائل مدح اباه وامه وقال آخرون قد كان لابيه وامه مدح غير هذا فجلده عمر ثمانين جلدة (والجواب) ان فى مشاورة عمر الصحابة فى حكم التعريض دلالة على انه لم يكن عندهم فيه توقيف وانهم قالوا رأيا واجتهادا (المسئلة الثانية) فى تعدد القذف اعلم انه اما ان يقذف شخصا واحدا مرارا او يقذف جماعة فان قذف واحدا مرارا نظر ان كان اراد بالكل زنية واحدة بان قال زنيت بعمرو قاله مرارا لايجب الا حد واحد ولو انشأ الثانى بعد ما حد للاول عزر للثانى وان قذفها بزنيات مختلفة بان قال زنيت بزيد ثم قال زنيت بعمرو فهل يتعدد الحد فيه قولان (احدهما) يتعدد اعتبارا باللفظ ولانه من حقوق العباد فلا يقع فيه التداخل كالديون (والثانى) وهو الاصح يتداخل فلا يجب فيه الا حد واحد لانهما حد ان من جنس واحد لمستحق واحد فوجب ان يتداخل كحدود الزنا ولو قذف زوجته مرارا فالاصح انه يكتفى بلعان واحد سواء قلنا يتعدد الحد او لا يتعدد اما اذا قذف جماعة معدودين نظر ان قذف كل واحد بكلمة يجب عليه لكل واحد حد كامل وعند ابى حنيفة رحمه الله لايجب عليه الا حد واحد واحتج ابو بكر الرازى على قول ابى حنيفة بالقرآن والسنة والقياس اما القرآن فهو قوله تعالى والذين يرمون المحصنات والمعنى ان كل احد يرمى المحصنات وجب عليه الجلد وذلك يقتضى ان قاذف جماعة من المحصنات لايجلد اكثر من ثمانين فمن اوجب على قاذف جماعة المحصنات اكثر من حد واحد فقد خالف

ازداد حسن اضافة الشهادة اليهم فى قوله تعالى (فشهادة احدهم) اى شهادة كل واحد منهم وهو مبتدأ وقوله تعالى (اربع شهادات) خبره اى فشهادتهم المشروعة اربع شهادات (بالله) متعلق بشهادات لقربها وقيل بشهادة لتقدمها * وقرئ اربع شهادات بالنصب على المصدر والعامل فشهادة على انه اما خبر لمبتدأ محذوف اى فالواجب شهادة احدهم واما مبتدأ محذوف الخبر اى فشهادة احدهم واجبة (انه لمن الصادقين) اى فيما رماها به من الزنا واصله على انه الخ فحذف الجار وكسرت ان وعلق العامل عنها للتأكيد (والخامسة) اى الشهادة الخامسة للاربع المتقدمة اى الجامعة لها خمسا بانضمامها اليهن وافرادها عنهن مع كونها شهادة ايضا لاستقلالها بالفحوى ووكادتها فى افادة ما يقصد بالشهادة من تحقيق الخبر واظهار الصدق وهى مبتدأ خبره (ان لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين) فيما رماها به من الزنا فاذا لاعن الزوج حبست الزوجة حتى تعترف فترجم او تلاعن (ويدرأ عنها العذاب) اى العذاب الدنيوى وهو الحبس المغيا على احد الوجهين بالرجم

الآية واما السنة فما روى عكرمة عن ابن عباس ان هلال بن امية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء فقال النبي عليه السلام البينة او حد فى ظهرك فلم يوجب النبي صلى الله عليه وسلم على هلال الاحدا واحدا مع قذفه لامرأته ولشريك بن سحماء الى ان نزلت آية اللعان فاقيم اللعان فى الزوجات مقام الحد فى الاجنبيات واما القياس فهو ان سائر مايوجب الحد اذا وجد منه مرارا لم يجب الاحد واحد كمن زنى مرارا او شرب مرارا او سرق مرارا فكذا ههنا والمعنى الجامع دفع مزيد الضرر (والجواب) عن الاول ان قوله والذين صيغة جمع وقوله المحصنات صيغة جمع والجمع اذا قوبل بالجمع يقابل الفرد بالفرد فيصير المعنى كل من رمى محصنا واحدا وجب عليه الحد وعند ذلك يظهر وجه تمسك الشافعي رحمه الله بالآية ولان قوله والذين يرمون المحصنات فاجلدوهم يدل على ترتيب الجلد على رمي المحصنات وترتيب الحكم على الوصف لاسيما اذا كان مناسبا فانه مشعر بالعلية فدلت الآية على ان رمي المحصن من حيث انه هذا المسمى يوجب الجلد اذا ثبت هذا فنقول اذا قذف واحدا صار ذلك القذف موجبا للحد فاذا قذف الثاني وجب ان يكون القذف الثاني موجبا للحد ايضا ثم موجب القذف الثاني لايجوز ان يكون هو الحد الاول لان ذلك قد وجب بالقذف الاول وايجاب الواجب محال فوجب ان يحد بالقذف الثاني حدا ثانيا اقصى مافي الباب ان يورد على هذه الدلالة حدود الزنا لكنا نقول ترك العمل هناك بهذا الدليل لان حد الزنا اغلظ من حد القذف وعند ظهور الفارق يتعذر الجمع واما السنة فلادلالة فيها على هذه المسئلة لانه قذفهما بلفظ واحد ولنا فى هذه المسئلة تفصيل سيأتي ان شاء الله واما القياس ففاسد لان حد القذف حق الآدمي بدليل انه لايحد الا بمطالبة المقذوف وحقوق الآدمي لاتتداخل بخلاف حد الزنا فانه حق الله تعالى هذا كله اذا قذف جماعة كل واحد منهم بكلمة على حدة اما اذا قذفهم بكلمة واحدة فقال انتم زناة او زنيتم ففيه قولان (اصحهما) وهو قوله فى الجديد يجب لكل واحد حد كامل لانه من حقوق العباد فلا يتداخل ولانه ادخل على كل واحد منهم معرة فصار كما لو قذفهم بكلمات وفى القديم لايجب للكل الاحد واحد اعتبارا باللفظ فان اللفظ واحد والاول اصح لانه اوفق لمفهوم الآية فعلى هذا لو قال لرجل يا ابن الزانيين يكون قذفا لابويه بكلمة واحدة فعليه حدان (المسئلة الثالثة) فيما يبيح القذف القذف ينقسم الى محظور ومباح وواجب وجملة الكلام انه اذا لم يكن ثم ولد يريد نفيه فلا يجب وهل يباح ام لا ينظر ان رآها بعينه تزني او أقرت هي على نفسها ووقع فى قلبه صدقها او سمع ممن يثق بقوله او لم يسمع لكنه استفاض فيما بين الناس ان فلانا يزني بفلانة وقد رآه الزوج يخرج من بيتها او رآه معها فى بيت فانه يباح له القذف لتأكد التهمة ويجوز ان يمسكها ويستر عليها لما روى ان رجلا قال يارسول الله ان لى امرأة لاترد يد لامس قال طلقها قال انى احبها قال فامسكها اما اذا

الذي هو اشد العذاب (ان تشهد اربع شهادات بالله انه) اى الزوج (لمن الكاذبين) اى فيما رماني به من الزنا (والخامسة) بالنصب عطفا على اربع شهادات (ان غضب الله عليها ان كان) اى الزوج (من الصادقين) اى فيما رماني به من الزنا وقرئ والخامسة بالرفع على الابتداء وقرئ ان بالتخفيف فى الموضعين ورفع اللعنة والغضب وقرئ ان غضب الله وتخصيص الغضب بجانب المرأة للتغليظ عليها لما انها مادة الفجور ولان النساء كثيرا مايستعملن اللعن فربما يجترئن على التفوه به لسقوط وقعه من قلوبهن بخلاف غضبه تعالى روى ان آية القذف لما نزلت قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فقام عاصم بن عدي الانصاري رضي الله عنه فقال جعلني الله فداك ان وجد رجل مع امرأته رجلا فاخبر جلد ثمانين وردت شهادته وفسق وان ضربه بالسيف قتل وان سكت سكت على غيظ والى ان يجيء باربعة شهداء فقد قضى الرجل حاجته ومضى اللهم افتح وخرج فاستقبله هلال بن امية او عويمر فقال ماوراءك قال شر وجدت على امرأتي خولة وهي بنت

سمعه ممن لايوثق بقوله او استفاض من بين الناس ولكن الزوج لم يره معها او بالعكس لم يحل له قذفها لانه قد يذكره من لايكون ثقة فينتشر ويدخل بيتها خوفا من قاصد او امرقة او لطلب بجور فتاني المرأة قال الله تعالى ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم اما اذا كان ثم ولد يريد نفيه نظر فان تيقن انه ليس منه بان لم يكن وطئها الزوج او وطئها لكنها أتت به لاقل من ستة اشهر من وقت الوطء او لاكثر من اربع سنين يجب عليه نفيه باللعان لانه ممنوع من استلحاق نسب الغير كما هو ممنوع من نفي نسبه لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ايما امرأة دخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله في شيء ولم يدخلها الله جنته فلما حرم على المرأة ان تدخل على قوم من ليس منهم كان الرجل ايضا كذلك اما ان احتمل ان يكون منه بان أتت به لاكثر من ستة اشهر من وقت الوطء ولدون اربع سنين نظر ان لم يكن قد استبرأها بحيضة او استبرأها وأتت به لدون ستة اشهر من وقت الاستبراء لايحل له القذف والنفي وان اتهمها بالزنا قال النبي صلى الله عليه وسلم ايما رجل جحد ولده وهو ينظر اليه احتجب الله منه يوم القيامة وفضحه على رؤس الاولين والآخرين فان استبرأها وأتت به لاكثر من ستة اشهر من وقت الاستبراء يباح له القذف والنفي والاولى ان لايفعل لانها قد ترى الدم على الحبل وان أتت امرأته بولد لايشبهه بان كانا ابيضين فأتت به اسود نظر ان لم يكن يتهمها بالزنا فليس له نفيه لما روى ابو هريرة رضي الله عنه ان رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم ان امرأتي ولدت غلاما اسود فقال هل لك من ابل قال نعم قال ما الوانها قال حمر قال فهل فيها اورق قال نعم قال فكيف ذلك قال نزعه عرق قال فلعل هذا نزعه عرق وان كان يتهمها بزنا او يتهمها برجل فأتت بولد يشبهه هل يباح له نفيه فيه وجهان (احدهما) لا لان العرق ينزع (والثاني) له ذلك لان التهمة قد تأكدت بالشبهة (البحث الثاني) في الرامي وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اذا قذف الصبي او المجنون امرأته او اجنبيا فلا حد عليهما ولا لعان لا في الحال ولا بعد البلوغ لقوله عليه الصلاة والسلام رفع القلم عن ثلاث ولكن يعزران للتأديب ان كان لهما تمييز فلو لم تتفق اقامة التعزير على الصبي حتى بلغ قال القفال يسقط التعزير لانه كان لزجر عن اساءة الادب وقد حدث زاجر اقوى وهو البلوغ (المسئلة الثانية) الاخرس اذا كانت له اشارة مفهومة او كتابة معلومة وقذف بالاشارة او بالكتابة لزمه الحد وكذلك يصح لعانه بالاشارة والكتابة وعند ابي حنيفة رحمه الله لايصح قذف الاخرس ولا لعانه وقول الشافعي رحمه الله اقرب الى ظاهر الآية لان من كتب او اشار الى القذف فقد رمى المحصنة والحق العار بها فوجب اندراجه تحت الظاهر ولانا نقيس قذفه ولعانه على سائر الاحكام (المسئلة الثالثة) اختلفوا فيما اذا قذف العبد حرا فقال الشافعي وابو حنيفة ومالك وابو يوسف ومحمد وزفر وعثمان البتي عليه اربعون جلدة روى الثوري عن جعفر بن محمد عن ابيه ان عليا عليه السلام قال يجلد العبد في القذف اربعين

عاصم شريك بن سحماء فقال والله هذا سؤالي ما اسرع ما ابتليت به فرجعا فاخبرا رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلم خولة فانكرت فنزلت فلاعن بينهما والفرقة الواقعة باللعان في حكم التطليقة البائنة عند ابي حنيفة ومحمد رحمهما الله ولا يتأبد حكمها حتى اذا اكذب الرجل نفسه بعد ذلك فحد جاز له ان يتزوجها وعند ابي يوسف وزفر والحسن بن زياد والشافعي رحمهم الله هي فرقة بغير طلاق توجب تحريما مؤبدا ليس لهما اجتماع بعد ذلك ابدا (ولولا فضل الله عليكم ورحمته وان الله تواب حكيم) التفات الى خطاب الرامين والرميات بطريق التغليب لتوفية مقام الامتنان حقه وجواب لولا محذوف لتهويله والاشعار بضيق العبارة عن حصره كأنه قيل ولولا تفضله تعالى عليكم ورحمته وانه تعالى مبالغ في قبول التوبة حكيم في جميع افعاله واحكامه التي من جملتها ما شرع لكم من حكم اللعان لكان ما كان مما لايحيط به نطاق البيان ومن جملته انه تعالى لو لم يشرع لهم ذلك لوجب على الزوج حد القذف مع ان الظاهر صدقه لانه اعرف بحال زوجته وانه لايفترى عليها لاشتراكهما

وعن عبدالله بن عمر انه قال ادركت ابا بكر وعمر وعثمان ومن بعدهم من الخلفاء وكلهم يضربون المملوك فى القذف اربعين وقال الاوزاعى يجلد ثمانين وهو مروى عن ابن مسعود وروى انه جلد عمر بن عبدالعزيز العبد فى الفرية ثمانين ومدار المسئلة على حرف واحد وهو ان هذه الآية صريحة فى ايجاب الثمانين فمن رد هذا الحد الى اربعين فطريقه ان الله تعالى قال فاذا احصن فان أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب فنص على ان حد الامة فى الزنا نصف حد الحرة ثم قاسوا العبد على الامة فى تنصيف حد الزنا ثم قاسوا تنصيف حد قذف العبد على تنصيف حد الزنا فى حقه فرجع حاصل الامر الى تخصيص عموم الكتاب بهذا القياس (المسئلة الرابعة) اتفقوا على دخول الكافر تحت عموم قوله والذين يرمون المحصنات لان الاسم يتناوله ولا مانع فاليهودى اذا قذف المسلم يجلد ثمانين والله اعلم (البحث الثالث) فى المرمى وهى المحصنة قال ابو مسلم اسم الاحصان يقع على المتزوجة وعلى العفيفة وان لم تتزوج لقوله تعالى فى مريم والتى احصنت فرجها وهو مأخوذ من منع الفرج فاذا تزوجت منعته الامن زوجها وغير المتزوجة تمنعه كل احد ويتفرع عليه مسائل (المسئلة الاولى) ظاهر الآية يتناول جميع العفائف سواء كانت مسلمة او كافرة وسواء كانت حرة او رقيقة الا ان الفقهاء قالوا شرائط الاحصان خمسة الاسلام والعقل والبلوغ والحرية والعفة من الزنا وانما اعتبرنا الاسلام لقوله عليه السلام من اشرك بالله فليس بمحصن وانما اعتبرنا العقل والبلوغ لقوله عليه السلام رفع القلم عن ثلاث وانما اعتبرنا الحرية لان العبد ناقص الدرجة فلا يعظم عليه التعيير بالزنا وانما اعتبرنا العفة عن الزنا لان الحد مشروع لتكذيب القاذف فاذا كان المقذوف زانيا فالقاذف صادق فى القذف وكذلك اذا كان المقذوف وطئ امرأة بشبهة او بنكاح فاسد لان فيه شبهة الزنا كما فيه شبهة الحل فكما ان احدى الشبهتين اسقطت الحد عن الواطئ فكذا الاخرى تسقطه عن قاذفه ايضا ثم نقول من قذف كافرا او مجنونا او صبيا او مملوكا او من قد زنى امرأة فلا حد عليه بل يعزر للاذى حتى لو زنى فى عنفوان شبابه مرة ثم تاب وحسن حاله وشاخ فى الصلاح لا يحد قاذفه وكذلك لو زنى كافرا او رقيق ثم اسلم وعتق وصلح حاله فقذفه قاذف لا حد عليه بخلاف ما لو زنى فى حال صغره او جنونه ثم بلغ او أفاق فقذفه قاذف يحد لان فعل الصبى والمجنون لا يكون زنا ولو قذف محصنا فقبل ان يحد القاذف زنا المقذوف سقط الحد عن قاذفه لان صدور الزنا يورث ريبة فى حاله فيما مضى لان الله تعالى كريم لا يهتك ستر عبده فى اول ما يرتكب المعصية فبظهوره يعلم انه كان متصفا به من قبل روى ان رجلا زنى فى عهد عمر فقال والله ما زنيت الا هذه فقال عمر كذبت ان الله لا يفضح عبده فى اول مرة وقال المزنى وابو ثور الزنا الطارئ لا يسقط الحد عن القاذف (المسئلة الثانية) قال الحسن البصرى قوله والذين يرمون المحصنات يقع على الرجال والنساء وسائر العلماء انكروا ذلك لان لفظ

فى الفضاحة وبعد ما شرع لهم ذلك لو جعل شهاداته موجبة لحد الزنا عليها لفات النظر لها ولو جعل شهاداتها موجبة لحد القذف عليه لفات النظر له ولا ريب فى خروج الكل عن سنن الحكمة والفضل والرحمة فجعل شهادات كل منهما مع الجزم بكذب احدهما حتما دارئة لما توجه اليه من الغائلة الدنيوية وقد ابتلى الكاذب منهما فى تضاعيف شهاداته من العذاب بما هو اتم مما درأته عنه واطم وفى ذلك من احكام الحكم البالغة وآثار التفضل والرحمة ما لا يخفى اما على الصادق فظاهر واما على الكاذب فهو امهاله والستر عليه فى الدنيا ودرء الحد عنه وتعريضه للتوبة حسبما ينبئ عنه التعرض لعنوان توابيته سبحانه ما اعظم شأنه واوسع رحمته وادق حكمته (ان الذين جاؤا بالافك) اى بابلغ ما يكون من الكذب والافتراء وقيل هو البهتان لا تشعر به حتى يفجأك واصله الافك وهو القلب لانه مأفوك عن وجهه وسننه والمراد به ما افك به الصديقة ام المؤمنين رضى الله عنها وفى لفظ المجئ اشارة الى انهم اظهروه من عند انفسهم من غير ان يكون له اصل وذلك ان رسول الله صلى

المحصنات جمع لمؤنث فلا يتناول الرجال بل الاجماع دل على انه لافرق فى هذا الباب بين المحصنين والمحصنات (المسئلة الثالثة) رمى غير المحصنات لايوجب الحد بل يوجب التعزير الا ان يكون المقذوف معروفا بما قذف به فلا حد هناك ولا تعزير فهذا مجموع الكلام فى تفسير قوله سبحانه والذين يرمون المحصنات * اما قوله سبحانه ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ففيه مباحث (البحث الاول) اعلم ان الله تعالى حكم فى القاذف اذا لم يأت بأربعة شهداء بثلاثة احكام (احدها) جلد ثمانين (وثانيها) بطلان الشهادة (وثالثها) الحكم بفسقه الى ان يتوب واختلف اهل العلم فى كيفية ثبوت هذه الاحكام بعد اتفاقهم على وجوب الحد عليه بنفس القذف عند عجزه عن اقامة البينة على الزنا فقال قائلون قد بطلت شهادته ولزمه سمة الفسق قبل اقامة الحد عليه وهو قول الشافعى والليث بن سعد وقال ابو حنيفة ومالك وابو يوسف ومحمد وزفر شهادته مقبولة ما لم يحد قال ابو بكر الرازى وهذا مقتضى قولهم انه غير موسوم بسمة الفسق ما لم يقع به الحد لانه لو لزمته سمة الفسق لما جازت شهادته اذ كانت سمة الفسق مبطلة لشهادة من وسم بها ثم احتج ابو بكر على صحة قول ابى حنيفة رحمه الله بأمور (احدها) قوله سبحانه والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ظاهر الآية يقتضى ترتب وجوب الحد على مجموع القذف والعجز عن اقامة الشهادة فلو علقنا هذا الحكم على القذف وحده قدح ذلك فى كونه معلقا على الامرين وذلك بخلاف الآية وايضا فوجوب الجلد حكم مرتب على مجموع امرين فوجب ان لا يحصل بمجرد حصول احدهما كما لو قال لامرأته ان دخلت الدار وكلمت فلانا فانت طالق فاتت بأحد الامرين دون الآخر لم يوجد الجزاء فكذا ههنا (وثانيها) ان القاذف لا يحكم عليه بالكذب بمجرد قذفه واذا كان كذلك وجب ان لا ترد شهادته بمجرد القذف * بيان الاول من ثلاثة اوجه (الاول) ان مجرد قذفه لو اوجب كونه كاذبا لوجب ان لا تقبل بعد ذلك بينته على الزنا اذ قد وقع الحكم بكذبه والحكم بكذبه فى قذفه حكم ببطلان شهادة من شهد بصدقه فى كون المقذوف زانيا ولما اجمعوا على قبول بينته ثبت انه لم يحكم عليه بالكذب بمجرد قذفه (الثانى) ان قاذف امرأته بالزنا لا يحكم بكذبه بنفس قذفه والا لما جاز ايجاب اللعان بينه وبين امرأته ولما امر بأن يشهد بالله انه لصادق فيما رماها به من الزنا مع الحكم بكذبه ولما قال النبى صلى الله عليه وسلم بعد ما لاعن بين الزوجين الله يعلم ان احدكما كاذب فهل منكما تائب فاخبر ان احدهما بغير تعين هو الكاذب ولم يحكم بكذب القاذف وفى ذلك دليل على ان نفس القذف لا يوجب كونه كاذبا (الثالث) قوله تعالى لولا جاؤا عليه بأربعة شهداء فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون فلم يحكم بكذبهم بنفس القذف فقط فثبت بهذه الوجوه ان القاذف غير محكوم عليه بكونه كاذبا بمجرد القذف واذا كان كذلك وجب ان لا تبطل شهادته بمجرد القذف لانه كان عدلا ثقة والصادر عنه غير معارض ولما كان يجب ان يبقى على

الله عليه وسلم كان اذا اراد سفرا
اقرع بين نسائه فايتهن خرجت
قرعتها استصحبها قالت عائشة
رضى الله عنها فأقرع بيننا
فى غزوة غزاها قبل غزوة بنى
المصطلق فخرج سهمى فخرجت
معه عليه السلام بعد نزول آية
الحجاب فحملت فى هودج فسرنا
حتى اذا قفلنا ودنونا من المدينة
نزلنا منزلا ثم نودى بالرحيل
فقمت ومشيت حتى جاوزت
الجيش فلما قضيت شأنى اقبلت
الى رحلى فلمست صدرى فاذا
عقدى من جزع ظفار قد انقطع
فرجعت فالتمسته فحبسنى ابتغاؤه
واقبل الرهط الذين كانوا يرحلون
بى فاحتملوا هودجى فرحلوه
على بعيرى وهم يحسبون انى
فيه لخفتى فلم يستنكروا خفة
الهودج وذهبوا بالبعير ووجدت
عقدى بعدما استمرت الجيش
فجئت منازلهم وليس فيها داع
ولا مجيب فتيممت منزلى وظننت
انى سيفقدوننى ويعودون فى طلبى
فبينا انا جالسة فى منزلى غلبتنى
عينى فنمت وكان صفوان بن
المعطل السلمى من وراء الجيش
فلما رآنى عرفنى فاستيقظت
باسترجاعه فخمرت وجهى
بجلبابى ووالله ما تكلمنا بكلمة
ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه
وهوى حتى اناخ راحلته فوطئ
على يديها فقمت اليها فركبتها
وانطلق يقود بى الراحلة حتى
أتينا الجيش

عدالته فوجب ان يكون مقبول الشهادة (وثالثها) قوله عليه الصلاة والسلام المسلمون عدول بعضهم على بعض الا محدودا فى قذف اخبر النبى صلى الله عليه وسلم ببقاء عدالة القاذف مالم يحد (ورابعها) ماروى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قصة هلال بن امية لما قذف امرأته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله يجلد هلال وتبطل شهادته فى المسلمين فاخبران بطلان شهادته معلق بوقوع الجلد به وذلك يدل على ان مجرد القذف لايبطل الشهادة (وخامسها) ان الشافعى رحمه الله زعم ان شهود القذف اذا جاؤا متفرقين قبلت شهادتهم فان كان القذف قد ابطل شهادته فواجب ان لايقبلها بعد ذلك وان شهد معه ثلاثة لانه قد فسق بقذفه ووجب الحكم بكذبه وفى قبول شهادتهم اذا جاؤا متفرقين مايلزمه ان لاتبطل شهادتهم بنفس القذف واما وجه قول الشافعى رحمه الله فهو ان الله تعالى رتب على القذف مع عدم الاتيان بالشهداء الاربعة امورا ثلاثة معطوفا بعضها على بعض بحرف الواو وحرف الواو لايقتضى الترتيب فوجب ان لايكون بعضها مرتبا على البعض فوجب ان لايكون رد الشهادة مرتبا على اقامة الحد بل يجب ان يثبت رد الشهادة سواء اقيم الحد عليه اوما اقيم والله اعلم (البحث الثانى) فى كيفية الشهادة على الزنا قال الله تعالى واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن اربعة منكم وقال تعالى والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء وقال سعد بن عبادة يارسول الله أرأيت ان وجدت مع امرأتى رجلا امهله حتى آتى باربعة شهداء قال نعم * ثم ههنا مسائل (المسئلة الاولى) الاقرار بالزنا هل يثبت بشهادة رجلين فيه قولان (احدهما) لايثبت الا باربعة كفعل الزنا (والثانى) يثبت بخلاف فعل الزنا لان الفعل يغمض الاطلاع عليه فاحتيط فيه باشتراط الاربع والاقرار امر ظاهر فلا يغمض الاطلاع عليه (المسئلة الثانية) اذا شهدوا على فعل الزنا يجب ان يذكروا الزانى ومن زنى بها لانه قد يراه على جارية له فيظن انها اجنبية ويجب ان يشهدوا انا رأينا ذكره يدخل فى فرجها دخول الميل فى المكحلة فلو شهدوا مطلقا انه زنى لايثبت لانهم ربما يرون المفاخذة زنا بخلاف مالو قذف انسانا فقال زنيت يجب الحد ولا يستفسر ولو اقر على نفسه بالزنا هل يشترط ان يستفسر فيه وجهان (احدهما) نعم كالشهود (والثانى) لايجب كما فى القذف (المسئلة الثالثة) قال الشافعى رحمه الله لافرق بين ان يجئ الشهود متفرقين او مجتمعين وقال ابو حنيفة رحمه الله اذا شهدوا متفرقين لايثبت وعليهم حد القذف حجة الشافعى رحمه الله من وجوه (الاول) ان الاتيان باربعة شهداء قدر مشترك بين الاتيان بهم مجتمعين او متفرقين واللفظ الدال على مابه الاشتراك لااشعار له بمابه الامتياز فالآتى بهم متفرقين يكون عاملا بالنص فوجب ان يخرج عن العهدة (الثانى) كل حكم يثبت بشهادة الشهود اذا جاؤا مجتمعين يثبت اذا جاؤا متفرقين كسائر الاحكام بل هذا اولى لانهم اذا جاؤا متفرقين كان ابعد عن التهمة وعن ان يتلقن

موغرين فى نحر الظهيرة وهم نزول وافتقدنى الناس حين نزلوا وماج القوم فى ذكرى فبينا الناس كذلك اذ هجمت عليهم فخاض الناس فى حديثى فهلك من هلك وقوله تعالى (عصبة منكم) خبر ان اى جماعة وهى من العشرة الى الاربعين وكذا العصابة وهم عبدالله بن ابى وزيد بن رفاعة وحسان بن ثابت ومسطح بن اثاثة وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم وقوله تعالى (لاتحسبوه شرا لكم) استئناف خوطب به رسول الله صلى الله عليه وسلم وابو بكر وعائشة وصفوان رضى الله عنهم تسلية لهم من اول الامر والضمير للافك (بل هو خير لكم) لاكتسابكم به الثواب العظيم وظهور كرامتكم على الله عز وجل بانزال ثمانى عشرة آية فى نزاهة ساحتكم وتعظيم شأنكم وتشديد الوعيد فيمن تكلم فيكم والثناء على من ظن بكم خيرا (لكل امرئ منهم) اى من اولئك العصبة (ما اكتسب من الاثم) بقدر ماخاض فيه (والذى تولى كبره) اى معظمه وقرئ بضم الكاف وهى لغة فيه (منهم) من العصبة وهو ابن ابى فانه بدأ به وأذاعه بين الناس عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل هو وحسان ومسطح فانهما شايعاه بالتصريح به فافراد الموصول حينئذ باعتبار

(بعضهم)

بعضهم من بعض فلذلك قلنا واذا وقعت ريبة للقاضى فى شهادة الشهود فرقهم ليظهر على عورة ان كانت فى شهادتهم (الثالث) انه لا يشترط ان يشهدوا معا فى حالة واحدة بل اجتمعوا عند القاضى وكان يقدم واحد بعد آخر ويشهد فانه تقبل شهادتهم فكذا اذا اجتمعوا على بابه ثم كان يدخل واحد بعد واحد حجة ابى حنيفة رحمه الله من وجهين (الاول) ان الشاهد الواحد لما شهد فقد قذفه ولم يأت باربعة من الشهداء فوجب عليه الحد لقوله تعالى والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء اقصى ما فى الباب انهم عبروا عن ذلك القذف بلفظ الشهادة وذلك لاعبرة به لانه يؤدى الى اسقاط حد القذف رأسا لان كل قاذف لا يعجز لفظ الشهادة فيجعل ذلك وسيلة الى اسقاط الحد عن نفسه ويحصل مقصوده من القذف (الثانى) ماروى ان المغيرة بن شعبة شهد عليه بالزنا عند عمر بن الخطاب اربعة ابو بكرة ونافع ونفيع وقال زياد وكان رابعهم رأيت استا تنبو ونفسا يعلو ورجلاها على عاتقه كاذنى حمار ولا أدرى ماوراء ذلك فجلد عمر الثلاثة ولم يسأل هل معهم شاهد آخر فلو قبل بعد ذلك شهادة غيرهم لتوقف لان الحدود مما يتوقف فيها ويحتاط (المسئلة الرابعة) لو شهد على الزنا اقل من اربعة لا يثبت الزنا وهل يجب حد القذف على الشهود فيه قولان (احدهما) لا يجب لانهم جاؤا مجئ الشهود ولانا لو حددنا لانسد باب الشهادة على الزنا لان كل واحد لا يأمن ان لا يوافقه صاحبه فيلزمه الحد (والقول الثانى) وهو الاصح وبه قال ابو حنيفة رحمه الله يجب عليهم الحد والدليل عليه الوجهان اللذان ذكرناهما فى المسئلة الثالثة (المسئلة الخامسة) اذا قذف رجل رجلا فجاء باربعة فساق فشهدوا على المقذوف بالزنا قال ابو حنيفة رحمه الله يسقط الحد عن القاذف ولا يجب الحد على الشهود وقال الشافعى رحمه الله فى احد قوليه يحدون وجه قول ابى حنيفة قوله والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا باربعة شهداء وهذا قد أتى باربعة شهداء فلا يلزمه الحد ولان الفاسق من اهل الشهادة وقد وجدت شرائط شهادة الزنا من اجتماعهم عند القاضى الا انه لم تقبل شهادتهم لاجل التهمة فكما اعتبرنا التهمة فى نفى الحد عن المشهود عليه فكذلك وجب اعتبارها فى نفى الحد عنهم ووجه قول الشافعى رحمه الله انهم غير موصوفين بالشرائط المعتبرة فى قبول الشهادة فخرجوا عن ان يكونوا شاهدين فبقوا محض القاذفين وههنا آخر الكلام فى تفسير قوله تعالى ثم لم يأتوا بأربعة شهداء اما قوله تعالى فاجلدوهم ثمانين جلدة ففيه مسائل (المسئلة الاولى) المخاطب بقوله فاجلدوهم هو الامام على ما بيناه فى آية الزنا والمالك على مذهب الشافعى او رجل صالح ينصبه الناس عند فقد الامام (المسئلة الثانية) خص من عموم هذه الآية صور (احدها) الوالد يقذف ولده او احدا من نوافله فلا يجب عليه الحد كما لا يجب عليه القصاص بقتله (الثانية) القاذف اذا كان عبدا فالواجب جلد اربعين وكذا المكاتب وام الولد ومن بعضه حر وبعضه رقيق فحدهم حد العبيد (الثالثة) من قذف

الفوج او الفريق او نحو هما (لهم عذاب عظيم) اى فى الآخرة او فى الدنيا ايضا فانهم جلدوا وردت شهادتهم وصار ابن ابى مطرودا مشهودا عليه بالنفاق وحسان اعمى واشل اليدين ومسطح مكفوف البصر وفى التعبير عنه بالذى وتكرير الاسناد وتنكير العذاب ووصفه بالعظم من تهويل الخطب مالا يخفى (لولا اذ سمعتموه) تلوين للخطاب وصرف له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوجيه الى الخائضين بطريق الالتفات لتشديد ما فى لولا التحضيضية من التوبيخ ثم العدول عنه الى الغيبة فى قوله تعالى (ظن المؤمنون والمؤمنات بانفسهم خيرا) لتأكيد التوبيخ والتشنيع لكن لا بطريق الاعراض عنهم وحكاية جناياتهم لغيرهم على وجه المباثة بل بالتوسل بذلك الى وصفهم بما يوجب الاتيان بالمحضض عليه ويقتضيه اقتضاء تاما ويزجرهم عن ضده زجرا بليغا فان كون وصف الايمان ما يحملهم على احسان الظن ويكفهم عن اساءته بانفسهم اى بابناء جنسهم النازلين منزلة انفسهم كقوله تعالى ثم انتم هؤلاء تقتلون انفسكم وقوله تعالى ولا تلمزوا انفسكم مما لا ريب فيه فاخلالهم بموجب ذلك الوصف اقبح واشنع والتوبيخ عليه ادخل

رفيقة عفيفة او من زنت فى قديم الايام ثم تابت فهى بموجب اللغة محصنة ومع ذلك لايجب الحد بقذفها (المسئلة الثالثة) قالوا اشد الضرب فى الحدود ضرب الزنا ثم ضرب شرب الخمر ثم ضرب القاذف لان سبب عقوبته محتمل للصدق والكذب الا انه عوقب صيانة للاعراض وزجرا عن هتكها (المسئلة الرابعة) قال مالك والشافعى حد القذف يورث فاذا مات المقذوف قبل استيفاء الحد وقبل العفو ثبت لوارثه حد القذف وكذلك اذا كان الواجب بقذفه التعزير فانه يورث عنه وكذا لو انشأ القذف بعد موت المقذوف ثبت لوارثه طلب الحد وعند ابى حنيفة رحمه الله حد القذف لايورث ويسقط بالموت حجة الشافعى رحمه الله ان حد القذف هو حق الآدمى لانه يسقط بعفوه ولا يستوفى الا بطلبه ويحلف فيه المدعى عليه اذا انكروا ذا كان حق الآدمى وجب ان يورث لقوله عليه السلام ومن ترك حقا فلورثته حجة ابى حنيفة رحمه الله انه لوكان موروثا لكان للزوج او الزوجة فيه نصيب ولانه حق ليس فيه معنى المال والوثيقة فلايورث كالوكالة والمضاربة (والجواب) عن الاول ان الاصح عند الشافعية انه يرثه جميع الورثة كالمال وفيه وجه ثان انه يرثه كلهم الا الزوج والزوجة لان الزوجية ترتفع بالموت ولان المقصود من الحد دفع العار عن النسب وذلك لايلحق الزوج والزوجة (المسئلة الخامسة) اذا قذف انسان انسانا بين يدى الحاكم اوقذف امرأته برجل بعينه والرجل غائب فعلى الحاكم ان يبعث الى المقذوف ويخبره بان فلانا قذفك وثبت لك حد القذف عليه كما لو ثبت له مال على آخر وهو لايعلمه يلزمه اعلامه وعلى هذا المعنى بعث النبى صلى الله عليه وسلم انيسا ليخبرها بان فلانا قذفها بابنه ولم يبعثه ليتفحص عن زناها قال الشافعى رحمه الله وليس للامام اذا رمى رجل بزنا ان يبعث اليه فيسأله عن ذلك لان الله تعالى قال ولاتجسسوا وأراد به اذا لم يكن القاذف معينا مثل ان قال رجل بين يدى الحاكم الناس يقولون ان فلانا زنى فلايبعث الحاكم اليه فيسأله اما قوله تعالى ولاتقبلوا لهم شهادة ابدا فاختلف الفقهاء فيه فقال اكثر الصحابة والتابعين انه اذا تاب قبلت شهادته وهو قول الشافعى رحمه الله وقال ابو حنيفة واصحابه والثورى والحسن بن صالح رحمهم الله لاتقبل شهادة المحدود فى القذف اذا تاب وهذه المسئلة مبنية على ان قوله الا الذين تابوا هل عاد الى جميع الاحكام المذكورة او اختص بالجملة الاخيرة فعند ابى حنيفة رحمه الله الاستثناء المذكور عقيب الجمل الكثيرة مختص بالجملة الاخيرة وعند الشافعى رحمه الله يرجع الى الكل وهذه المسئلة قد لخصناها فى اصول الفقه ونذكرههنا مايليق بهذا الموضع ان شاء الله تعالى احتج الشافعى رحمه الله على ان شهادته مقبولة بوجوه (احدها) قوله عليه السلام التائب من الذنب كمن لاذنب له ومن لاذنب له مقبول الشهادة فالتائب يجب ان يكون ايضا مقبول الشهادة (وثانيها) ان الكافر يقذف فيتوب عن الكفر فتقبل شهادته بالاجماع فالقاذف المسلم اذا تاب عن القذف وجب ان تقبل شهادته لان القذف مع

مع مافيه من التوسل به الى التصريح بتوبيخ الخائضات ثم ان كان المراد بالايمان الايمان الحقيق فايجابه لما ذكر واضح والتوبيخ خاص بالمؤمنين وان كان مطلق الايمان الشامل لما يظهره المنافقون ايضا فايجابه له من حيث انهم كانوا يحترزون عن اظهار ماينافى مدعاهم فالتوبيخ حينئذ متوجه الى الكل وتوسيط الظرف بين لولا وفعلها لتخصيص التحضيض باول زمان سماعهم وقصر التوبيخ على تأخير الاتيان بالمحضض عليه عن ذلك الآن والتردد فيه ليفيدان عدم الاتيان به رأسا فى غاية مايكون من القباحة والشناعة اى كان الواجب ان يظن المؤمنون والمؤمنات اول ماسمعوه ممن اخترعه بالذات اوبالواسطة من غير تلعثم وتردد بمثلهم من آحاد المؤمنين خيرا (وقالوا) فى ذلك الآن (هذا افك مبين) اى ظاهر مكشوف كونه افكا فكيف بالصديقة ابنة الصديق ام المؤمنين حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم (لولا جاؤا عليه باربعة شهداء) اما من تمام القول المحضض عليه مسوق لحث السامعين على الزام المسمعين وتكذيبهم اثر تكذيب ماسمعوه منهم بقولهم هذا افك مبين وتوبيخهم على تركه اى هلا جاء الخائضون باربعة شهداء

الاسلام اهون حالا من القذف مع الكفر (فان قيل) المسلمون لا يألمون بسبب الكفار لانهم شهروا بعداوتهم والطعن فيهم بالباطل فلا يلحق المقذوف بقذف الكافر من الشين والشنآن ما يلحقه بقذف مسلم مثله فشدد على القاذف من المسلمين زجرا عن الحاق العار والشنآن وايضا فالتائب من الكفر لا يجب عليه الحد والتائب من القذف لا يسقط عنه الحد (قلنا) هذا الفرق ملغى بقوله عليه السلام ائتهم ان لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين (وثالثها) اجمعنا على ان التائب عن الكفر والقتل والزنا مقبول الشهادة فكذا التائب عن القذف لان هذه الكبيرة ليست اكبر من نفس الزنا (ورابعها) ان اباحنيفة رحمه الله يقبل شهادته اذا تاب قبل الحد مع ان الحد حق المقذوف فلا يزول بالتوبة فلأن تقبل شهادته اذا تاب بعد اقامة الحد وقد حسنت حالته وزال اسم الفسق عنه كان اولى (وخامسها) ان قوله الا الذين تابوا استثناء مذكور عقيب جمل فوجب عوده اليها بأسرها ويدل عليه امور (احدها) اجمعنا على انه لو قال عبده حر وامرأته طالق ان شاء الله فانه يرجع الاستثناء الى الجميع فكذا فيما نحن فيه (فان قيل) الفرق ان قوله ان شاء الله يدخل لرفع حكم الكلام حتى لا يثبت فيه شئ والاستثناء المذكور بحرف الاستثناء لا يجوز دخوله لرفع حكم الكلام رأسا ألا ترى انه يجوز ان يقول انت طالق ان شاء الله فلا يقع شئ ولو قال انت طالق الا طلاقا كان الطلاق واقعا والاستثناء باطلا لاستحالة دخوله لرفع حكم الكلام بالكلية فثبت انه لا يلزم من رجوع قوله ان شاء الله الى جميع ما تقدم صحة رجوع الاستثناء بحرفه الى جميع ما تقدم (قلنا) هذا فرق في غير محل الجمع لان ان شاء الله جاز دخوله لرفع حكم الكلام بالكلية فلا جرم جاز رجوعه الى جميع الجمل المذكورة والا جاز دخوله لرفع بعض الكلام فوجب جواز رجوعه الى جميع الجمل على هذا الوجه حتى يقتضى ان يخرج من كل واحد من الجمل المذكورة بعضه (وثانيها) ان الواو للجمع المطلق فقوله فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة ابدا وأولئك هم الفاسقون صار الجمع كأنه ذكر معا لا تقدم للبعض على البعض فلما دخل عليه الاستثناء لم يكن رجوع الاستثناء الى بعضها اولى من رجوعه الى الباقى اذ لم يكن لبعضها على بعض تقدم في المعنى البتة فوجب رجوعه الى الكل ونظيره على قول ابى حنيفة رحمه الله قوله تعالى اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم فان فاء التعقيب ما دخلت على غسل الوجه بل على مجموع هذه الامور من حيث ان الواو لا تفيد الترتيب فكذا ههنا كلمة الا ما دخلت على واحد بعينه لان حرف الواو لا يفيد الترتيب بل دخلت على المجموع (فان قيل) الواو قد تكون للجمع على ما ذكرت وقد تكون للاستئناف وهى فى قوله واولئك هم الفاسقون لانها انما تكون للجمع فيما لا يختلف معناه ونظمه جملة واحدة فيصير الكل كالمذكور معا مثل آية الوضوء فان الكل امر وحد كأنه قال فاغسلوا هذه الاعضاء فان الكل قد تضمنه لفظ الامر واما آية القذف فان ابتداءها امر وآخرها خبر فلا يجوز ان

يشهدون على ما قالوا (فاذ لم يأتوا بهم وانما قيل (بالشهداء) لزيادة التقرير (فاولئك) اشارة الى الخائضين ومافيه من معنى البعد للايذان بعلوهم في الفساد وبعد منزلتهم في الشر اى اولئك المفسدون (عند الله) اى في حكمه وشرعه المؤسس على الدلائل الظاهرة المتقنة (هم الكاذبون) الكاملون في الكذب المشهود عليهم بذلك المستحقون لاطلاق الاسم عليهم دون غيرهم ولذلك رتب عليه الحد خاصة واما كلام مبتدأ مسوق من جهته تعالى للاحتجاج على كذبهم بكون ما قالوه قولا لا يساعده الدليل اصلا (ولولا فضل الله عليكم) خطاب للسامعين والمسمعين جميعا (ورحمته في الدنيا) من فنون النعم التى من جملتها الامهال للتوبة (والآخرة) من ضروب الآلاء التى من جملتها العفو والمغفرة بعد التوبة (لمسكم) عاجلا (فيما افضتم فيه) بسبب ما خضتم فيه من حديث الافك والابهام لتهويل امره والاستهجان بذكره يقال افاض في الحديث وخاض واندفع وهضب بمعنى (عذاب عظيم) يستحقر دونه التوبيخ والجلد (اذ تلقونه) بحذف احدى التاءين ظرف للمس اى لمسكم ذلك العذاب العظيم وقت تلقيكم اياه من المخترعين (بالسنتكم) والتلقى

بنظمهما جملة واحدة وكان الواو للاستئناف فيختص الاستثناء به (قلنا) لم لايجوز ان نجعل الجمل الثلاث بمجموعهن جزاء الشرط كأنه قيل ومن قذف المحصنات فاجلدوهم وردوا شهادتهم وفسقوهم اى فاجمعوا لهم الجلد والرد والفسق الا الذين تابوا عن القذف واصلحوا فان الله يغفر لهم فينقلبون غير مجلودين ولا مردودين ولا مفسقين (وثالثها) ان قوله اولئك هم الفاسقون عقيب قوله ولاتقبلوا لهم شهادة ابدا يدل على ان العلة فى عدم قبول تلك الشهادة كونه فاسقا لان ترتيب الحكم على الوصف مشعر بالعلية لاسيما اذا كان الوصف مناسبا وكونه فاسقا يناسب ان لايكون مقبول الشهادة اذا ثبت ان العلة لرد الشهادة ليست الا كونه فاسقا ودل الاستثناء على زوال الفسق فقد زالت العلة فوجب ان يزول الحكم لزوال العلة (ورابعها) ان مثل هذا الاستثناء موجود فى القرآن قال الله تعالى انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله الى قوله الا الذين تابوا ولا خلاف ان هذا الاستثناء راجع الى ماتقدم من اول الآية وان التوبة حاصلة لهؤلاء جميعا وكذلك قوله لاتقربوا الصلاة وانتم سكارى الى قوله فلم تجدوا ماء فتيمموا وصار التيمم لمن وجب عليه الاغتسال كأنه مشروع لمن وجب عليه الوضوء وهذا الوجه ذكره ابو عبيد فى اثبات مذهب الشافعى رحمه الله واحتج اصحاب ابى حنيفة على ان حكم الاستثناء مختص بالجملة الاخيرة بوجوه (احدها) ان الاستثناء من الاستثناء يختص بالجملة الاخيرة فكذا فى جميع الصور طردا للباب (وثانيها) ان المقتضى لعموم الجمل المتقدمة قائم والمعارض وهو الاستثناء يكفى فى تصحيحه تعليقه بجملة واحدة لان بهذا القدر يخرج الاستثناء عن ان يكون لغوا فوجب تعليقه بالجملة الواحدة فقط (وثالثها) ان الاستثناء لو رجع الى كل الجمل المتقدمة لوجب انه اذا تاب ان لايجلد وهذا باطل بالاجماع فوجب ان يختص الاستثناء بالجملة الاخيرة (والجواب عن الاول) ان الاستثناء من النفى اثبات ومن الاثبات نفى فالاستثناء عقيب الاستثناء لو رجع الى الاستثناء الاول والى المستثنى فبقدر ما نفى من احدهما اثبت فى الآخر فينجبر الناقص بالزائد ويصير الاستثناء الثانى عديم الفائدة فلهذا السبب قلنا فى الاستثناء من الاستثناء انه يختص بالجملة الاخيرة (والجواب عن الثانى) انا بينا ان واو العطف لاتقتضى الترتيب فلم يكن بعض الجمل متأخرا فى التقدير عن البعض فلم يكن تعليقه بالبعض اولى من تعليقه بالباقى فوجب تعليقه بالكل (والجواب عن الثالث) انه ترك العمل به فى حق البعض فلم يترك العمل به فى حق الباقى واحتج اصحاب ابى حنيفة رحمه الله فى المسئلة بوجوه من الاخبار (احدها) ماروى ابن عباس رضى الله عنهما فى قصة هلال بن امية حين قذف امرأته بشريك بن سحماء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلد هلال وتبطل شهادته فى المسلمين فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان وقوع الجلد به يبطل شهادته من غير شرط التوبة فى قبولها (وثانيها) ان قوله عليه السلام المسلمون عدول بعضهم على بعض الا محدود فى قذف ولم يشترط فيه وجود التوبة منه

(وثالثها)

والتلقف والتلقن معان متقاربة خلا ان فى الاول معنى الاستقبال وفى الثانى معنى الخطف والاخذ بسرعة وفى الثالث معنى الحذق والمهارة وقرئ تلقونه على الاصل وتلقونه من لقيه وتلقونه بكسر حرف المضارعة وتلقونه من القاء بعضهم على بعض وتلقونه وتألقونه من الولق والالق وهو الكذب وتثقفونه من ثقفته اذا طلبته فوجدته وتقفونه اى تتبعونه (وتقولون بافواهكم ماليس لكم به علم) اى تقولون قولا مختصا بالافواه من غير ان يكون له مصداق ومنشأ فى القلوب لانه ليس بتعبير عن علم به فى قلوبكم كقوله تعالى يقولون بافواههم ماليس فى قلوبهم (وتحسبونه هينا) سهلا لاتبعة له اوليس له كثير عقوبة (وهو عند الله) والحال انه عنده عز وجل (عظيم) لايقادر قدره فى الوزر واستجرار العذاب (ولولا اذ سمعتموه) من المخترعين او المشايعين لهم (قلتم) تكذيبا لهم وتهويلا لما ارتكبوه (ما يكون لنا) ما يمكننا (ان نتكلم بهذا) ومايصدر عنا ذلك

(وثالثها) ماروى عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لاتجوز شهادة محدود فى الاسلام قالت الشافعية هذا معارض بوجوه (احدها) قوله عليه السلام اذا علمت مثل الشمس فاشهد والامر للوجوب فاذا علم المحدود وجبت عليه الشهادة ولولم تكن مقبولة لما وجبت لانها تكون عبثا (وثانيها) قوله عليه السلام نحن نحكم بالظاهر وههنا قد حصل الظهور لان دينه وعقله وعفته الحاصلة بالتوبة تفيد ظن كونه صادقا (وثالثها) ماروى عن عمر بن الخطاب انه ضرب الذين شهدوا على المغيرة ابن شعبة وهم ابو بكرة ونافع ونفيع ثم قال لهم من اكذب نفسه قبلت شهادته ومن لايفعل لم اجز شهادته فاكذب نافع ونفيع انفسهما وتابا وكان يقبل شهادتهما واما ابو بكرة فكان لايقبل شهادته ومانكر عليه احد من الصحابة فيه فهذا تمام الكلام فى هذه المسئلة اما قوله تعالى واولئك هم الفاسقون فاعلم انه يدل على امرين (الاول) ان القذف من جملة الكبائر لان اسم الفسق لايقع الا على صاحب الكبيرة (الثانى) انه اسم لمن يستحق العقاب لانه لوكان مشتقا من فعله لكانت التوبة لاتمنع من دوامه كما لاتمنع من وصفه بانه ضارب وبانه رام الى غير ذلك واما قوله تعالى الا الذين تابوا فاعلم انهم اختلفوا فى ان التوبة عن القذف كيف تكون قال الشافعى رحمه الله التوبة منه اكذابه نفسه واختلف اصحابه فى معناه فقال الاصطخرى يقول كذبت فيما قلت فلا اعود لمثله وقال ابو اسحق لايقول كذبت لانه ربما يكون صادقا فيكون قوله كذبت كذبا والكذب معصية والاتيان بالمعصية لايكون توبة عن معصية اخرى بل يقول القذف باطل ندمت على ماقلت ورجعت عنه ولا اعود اليه اما قوله تعالى واصلحوا فقال اصحابنا انه بعد التوبة لابد من مضى مدة عليه فى حسن الحال حتى تقبل شهادته وتعود ولايته ثم قدروا تلك المدة بسنة حتى تمر عليه الفصول الاربع التى تتغير فيها الاحوال والطباع كما يضرب للعنين اجل سنة وقد علق الشرع احكاما بالسنة من الزكاة والجزية وغيرهما واما قوله تعالى فان الله غفور رحيم فالمعنى انه لكونه غفورا رحيما يقبل التوبة وهذا يدل على ان قبول التوبة غير واجب عقلا اذ لوكان واجبا لما كان فى قبوله غفورا رحيما لانه اذا كان واجبا فهو انما يقبله خوفا وقهرا لعلمه بانه لولم يقبله لصار سفيها ولخرج عن حد الالهية اما اذا لم يكن واجبا فقبله فهناك تحقق الرحمة والاحسان وبالله التوفيق

(الحكم الرابع) حكم اللعان ✽ قوله تعالى (والذين يرمون ازواجهم ولم يكن لهم شهداء الا انفسهم فشهادة احدهم اربع شهادات بالله انه لمن الصادقين والخامسة ان لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين ويدرأ عنها العذاب ان تشهد اربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين والخامسة ان غضب الله عليها ان كان من الصادقين ولولا فضل الله عليكم ورحمته وان الله تواب حكيم) اعلم انه سبحانه لما ذكر احكام قذف الاجنبيات عقبه باحكام قذف الزوجات ثم هذه الآية مشتملة على ابحاث (البحث الاول) فى سبب نزوله

بوجه من الوجوه وحاصله نفى وجوه التكلم به لانفى وجوده على وجه الصحة والاستقامة والانبغاء وهذا اشارة الى ماسمعوه وتوسيط الظرف بين لولا وقلتم لما مر من تخصيص التحضيض باول وقت السماع وقصر التوبيخ واللوم على تأخير القول المذكور عن ذلك الآن ليفيد انه المحتمل للوقوع المفتقر الى التحضيض على تركه واما ترك القول نفسه رأسا فمما لايتوهم وقوعه حتى يحضض على فعله ويلام على تركه وعلى هذا ينبغى ان يحمل ماقيل ان المعنى انه كان الواجب عليهم ان يتفادوا اول ماسمعوا بالافك عن التكلم به فلما كان ذكر الوقت اهم وجب التقديم واما ماقيل من ان ظروف الاشياء منزلة منزلة انفسها لوقوعها فيها وانها لاتنفك عنها فلذلك يتسع فيها مالايتسع فى غيرها فهى ضابطة ربما تستعمل فيما اذا وضع الظرف موضع المظروف بان جعل مفعولا صريحا للفعل مذكورا كما فى قوله تعالى واذكروا اذ جعلكم خلفاء او مقدرا كعامة الظروف المنصوبة باضمار اذكر واما ههنا فلا حاجة اليها اصلا لما تحققت ان مناط التقديم توجيه التحضيض اليه وذلك يتحقق فى جميع متعلقات الفعل كما فى قوله تعالى فلولا ان كنتم

وذكروا فيه وجوها (احدها) قال ابن عباس رحمهما الله لما نزل قوله تعالى والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء قال عاصم بن عدي الانصاري ان دخل منا رجل بيته فوجد رجلا على بطن امرأته فان جاء باربعة رجال يشهدون بذلك فقد قضى الرجل حاجته وخرج وان قتله قتل به وان قال وجدت فلانا مع تلك المرأة ضرب وان سكت سكت على غيظ اللهم افتح وكان لعاصم هذا ابن عم يقال له عويمر وله امرأة يقال لها خولة بنت قيس فأتى عويمر عاصما فقال رأيت شريك بن سحماء على بطن امرأتي خولة فاسترجع عاصم واتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ما اسرع ما ابتليت بهذا في اهل بيتي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وماذاك فقال اخبرني عويمر ابن عمي بأنه رأى شريك بن سحماء على بطن امرأته خولة وكان عويمر وخولة وشريك كلهم بنو عم عاصم فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم جميعا وقال لعويمر اتق الله في زوجتك وابنة عمك ولا تقذفها فقال يارسول الله اقسم بالله انى رأيت شريكا على بطنها وانى ماقربتها منذ اربعة اشهر وانها حبلى من غيري فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم اتقى الله ولاتخبري الا بما صنعت فقالت يارسول الله ان عويمرا رجل غيور وانه رأى شريكا يطيل النظر الي ويتحدث فحملته الغيرة على ماقال فأنزل الله تعالى هذه الآية فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تودى الصلاة جامعة فصلى العصر ثم قال لعويمر قم وقل اشهد بالله ان خولة زانية وانى لمن الصادقين ثم قال في الثانية قل اشهد بالله انى رأيت شريكا على بطنها وانى لمن الصادقين ثم قال في الثالثة قل اشهد بالله انها حبلى من غيري وانى لمن الصادقين ثم قال في الرابعة قل اشهد بالله انها زانية وانى ماقربتها منذ اربعة اشهر وانى لمن الصادقين ثم قال في الخامسة قل لعنة الله على عويمر يعني نفسه ان كان من الكاذبين فيما قال ثم قال اقعد وقال لخولة قومي فقامت وقالت اشهد بالله ما انا بزانية وان زوجي عويمرا لمن الكاذبين وقالت في الثانية اشهد بالله ما رأى شريكا على بطني وانه لمن الكاذبين وقالت في الثالثة اشهد بالله انى حبلى منه وانه لمن الكاذبين وقالت في الرابعة اشهد بالله انه ما رآني على فاحشة قط وانه لمن الكاذبين وقالت في الخامسة غضب الله على خولة ان كان عويمر من الصادقين في قوله ففرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما (وثانيها) قال ابن عباس رضى الله عنهما في رواية الكلبي ان عاصما ذات يوم رجع الى اهله فوجد شريك بن سحماء على بطن امرأته فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتمام الحديث كما تقدم (وثالثها) ماروى عكرمة عن ابن عباس لما نزل والذين يرمون المحصنات قال سعد بن عبادة وهو سيد الانصار لو وجدت رجلا على بطنها فانى ان جئت باربعة من الشهداء يكون قد قضى حاجته وذهب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يامعشر الانصار أما تسمعون مايقول سيدكم فقالوا يارسول الله لاتلمه فانه رجل غيور فقال سعد يارسول الله والله انى لاعرف انها من الله وانها حق ولكنى عجبت منه فقال عليه السلام

غير معذبين ترجمونها (سبحانك) تعجب ممن تفوه به واصله ان يذكر عند معاينة العجيب من صنائعه تعالى تنزيها له سبحانه عن ان يصعب عليه امثاله ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه او تنزيه له تعالى عن ان تكون حرمة نبيه فاجرة فان فجورها تنفير عنه ومخل بمقصود الزواج فيكون تقريرا لما قبله وتمهيدا لقوله تعالى (هذا بهتان عظيم) لعظمة المبهوت عليه واستحالة صدقه فان حقارة الذنوب وعظمها باعتبار متعلقاتها (يعظكم الله) اى ينصحكم (ان تعودوا لمثله) اى كراهة ان تعودوا او يزجركم من ان تعودوا اوفى ان تعودوا من قولك وعظته في كذا فتركه (ابدا) اى مدة حياتكم (ان كنتم مؤمنين) فان الايمان وازع عنه لامحالة وفيه تهييج وتقريع (ويبين الله لكم الآيات) الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب دلالة واضحة لتتعظوا وتتأدبوا بها اى ينزلها كذلك اى مبينة ظاهرة الدلالة على معانيها لا انه يبينها بعد ان لم تكن كذلك وهذا كما في قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل اى خلقهما صغيرا وكبيرا ومنه قولك ضيق فم الركية ووسع اسفلها واظهار الاسم الجليل في موقع الاضمار

فان الله يأبى الاذلك قال فلم يلبثوا الايسيرا حتى جاء ابن عم له يقال له هلال بن امية وهو احد الثلاثة الذين تاب الله عليهم فقال يارسول الله انى وجدت مع امرأتى رجلا رأيت بعينى وسمعت باذنى فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ماجاء به فقال هلال والله يارسول الله انى لأرى الكراهة فى وجهك مما اخبرتك به والله يعلم انى لصادق وماقلت الاحقا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اما البينة واما اقامة الحد عليك فاجتمعت الانصار فقالوا ابتلينا بما قال سعد فبيناهم كذلك اذ نزل عليه الوحى وكان اذا نزل عليه الوحى اربد وجهه وعلا جسده حمرة فلما سرى عنه قال عليه السلام ابشر ياهلال فقد جعل الله لك فرجا قال قد كنت ارجو ذلك من الله تعالى فقرأ عليهم هذه الآيات فقال عليه السلام ادعوها فدعيت فكذبت هلالا فقال عليه السلام الله يعلم ان احدكما كاذب فهل منكما تائب وامر بالملاعنة فشهد هلال اربع شهادات بالله انه لمن الصادقين فقال عليه السلام له عند الخامسة اتق الله ياهلال فان عذاب الدنيا اهون من عذاب الآخرة فقال والله لايعذبنى الله عليها كما لم يجلدنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد الخامسة ثم قال رسول الله اشهدين فشهدت اربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين فلما اخذت فى الخامسة قال لها اتقى الله فان الخامسة هى الموجبة فتفكرت ساعة وهمت بالاعتراف ثم قالت والله لاافضح قومى وشهدت الخامسة ان غضب الله عليها ان كان من الصادقين ففرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما ثم قال انظروها ان جاءت به اثيبج اصهب احمش الساقين فهو لهلال وان جاءت به خدلج الساقين اورق جعدا فهو لصاحبه فجاءت به اورق خدلج الساقين فقال عليه السلام لولا الايمان لكان لى ولها شان قال عكرمة لقد رأيته بعد ذلك امير مصر من الامصار ولايدرى من ابوه (البحث الثانى) مايتعلق بالقراءة قرئ ولم تكن بالتاء لان الشهداء جماعة اولانهم فى معنى الانفس ووجه من قرأ اربع ان ينصب لانه فى حكم المصدر والعامل فيه المصدر الذى هو فشهادة احدهم وهى مبتدأ محذوف الخبر تقديره فواجب شهادة احدهم اربع شهادات وقرئ ان لعنة الله وان غضب الله على تخفيف ان ورفع مابعدها وقرئ ان غضب الله على فعل الغضب وقرئ بنصب الخامستين على معنى ويشهد الخامسة (البحث الثالث) مايتعلق بالاحكام والنظر فيه يتعلق باطراف (الطرف الاول) فى موجب اللعان وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه اذا رمى الرجل امرأته بالزنا يجب عليه الحد ان كانت محصنة والتعزير ان لم تكن محصنة كما فى رمى الاجنبية لايختلف موجبهما غير انهما يختلفان فى الخلاص فى قذف الاجنبى لايسقط الحد عن القاذف الاباقرار المقذوف اوبينة تقوم على زناها وفى قذف الزوجة يسقط عنه الحد بأحد هذين الامرين اوباللعان وانما اعتبر الشرع اللعان فى هذه الصورة دون الاجنبيات لوجهين (الاول) انه لامعرة عليه فى زنا الاجنبية والاولى له ستره اما اذا زنى بزوجته فيلحقه العار والنسب الفاسد فلايمكنه الصبر عليه وتوقيفه على البينة كالمتعذر

لتفخيم شان البيان (والله عليم) باحوال جميع مخلوقاته جلائلها ودقائقها (حكيم) فى جميع تدابيره وافعاله فأنى يمكن صدق ماقيل فى حق حرمة من اصطفاه لرسالاته وبعثه الى كافة الخلق ليرشدهم الى الحق ويزكيهم ويطهرهم تطهيرا واظهار الاسم الجليل ههنا لتأكيد استقلال الاعتراض التذييلى والاشعار بعلة الالوهية للعلم والحكمة (ان الذين يحبون) اى يريدون ويقصدون (ان تشيع الفاحشة) اى تنتشر الخصلة المفرطة فى القبح وهى الفرية والرمى بالزنا اونفس الزنا فالمراد بشيوعها شيوع خبرها اى يحبون شيوعها ويتصدون مع ذلك لاشاعتها وانما لم يصرح به اكتفاء بذكر المحبة فانها مستتبعة له لامحالة (فى الذين آمنوا) متعلق بتشيع اى تشيع فيما بين الناس وذكر المؤمنين لانهم العمدة فيهم اوبمضمر هو حال من الفاحشة فالموصول عبارة عن المؤمنين خاصة اى يحبون ان تشيع الفاحشة كائنة فى حق المؤمنين وفى شأنهم (لهم) بسبب ماذكر (عذاب اليم فى الدنيا) من الحد وغيره مما يتفق من البلايا الدنيوية ولقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدالله بن ابى وحسانا ومسطحا حد القذف وضرب صفوان حسانا ضربة بالسيف

فلاجرم خص الشرع هذه الصورة باللعان (الثانى) ان الغالب فى المتعارف من احوال الرجل مع امرأته انه لايقصدها بالقذف الا عن حقيقة فاذا رماها فنفس الرمى يشهد بكونه صادقا الا ان شهادة الحال ليست بكاملة فضم اليها مايقويها من الايمان كشهادة المرأة لما ضعفت قويت بزيادة العدد والشاهد الواحد يتقوى باليمين على قول كثير من الفقهاء (المسئلة الثانية) قال ابو بكر الرازى كان حد قاذف الاجنبيات والزوجات الجلد والدليل عليه قول النبى صلى الله عليه وسلم لهلال بن امية حين قذف امرأته بشريك ابن سحماء ائتنى بأربعة يشهدون لك والا فحد فى ظهرك فثبت بهذا ان حد قاذف الزوجات كان كحد قاذف الاجنبيات الا انه نسخ عن الازواج الجلد باللعان وروى نحو ذلك فى الرجل الذى قال ارأيتم لو ان رجلا وجد مع امرأته رجلا فان تكلم جلدتموه وان قتل قتلتموه وان سكت سكت على غيظ فدلت هذه الاخبار على ان حد قاذف الزوجة كان الجلد وان الله نسخه باللعان (المسئلة الثالثة) قال الشافعى رحمه الله اذا قذف الزوج زوجته فالواجب هو الحد ولكن المخلص منه باللعان كما ان الواجب بقذف الاجنبية الحد والمخلص منه بالشهود فاذا نكل الزوج عن اللعان يلزمه الحد للقذف فاذا لاعن ونكلت عن اللعان يلزمها حد الزنا وقال ابو حنيفة رحمه الله اذا نكل الزوج عن اللعان حبس حتى يلاعن وكذا المرأة اذا نكلت حبست حتى تلاعن حجة الشافعى وجوه (احدها) ان الله تعالى قال فى اول السورة والذين يرمون المحصنات يعنى غير الزوجات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ثم عطف عليه حكم الازواج فقال والذين يرمون ازواجهم ولم يكن لهم شهداء الا انفسهم فشهادة احدهم الآية فكما ان مقتضى قذف الاجنبيات الاتيان بالشهود او الجلد فكذا موجب قذف الزوجات الاتيان باللعان او الحد (وثانيها) قوله تعالى ويدرأ عنها العذاب ان تشهد اربع شهادات بالله والالف واللام الداخلان على العذاب لايفيدان العموم لانه لم يجب عليها جميع انواع العذاب فوجب صرفهما الى المعهود السابق والمعهود السابق هو الحد لانه تعالى ذكر فى اول السورة وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين والمراد منه الحد واذا ثبت ان المراد من العذاب فى قوله ويدرأ عنها العذاب هو الحد ثبت انها لو لم تلاعن لحدت وانها باللعان دفعت الحد فان قيل المراد من العذاب هو الحبس قلنا قد بينا ان الالف واللام للمعهود المذكور واقرب المذكورات فى هذه السورة العذاب بمعنى الحد وايضا فلو حملناه على الحد لاتصير الآية مجملة اما لو حملناه على الحبس تصير الآية مجملة لان مقدار الحبس غير معلوم (وثالثها) قال الشافعى رحمه الله ومما يدل على بطلان الحبس فى حق المرأة انها تقول ان كان الرجل صادقا فحدونى وان كان كاذبا فخلونى فمالى والحبس وليس حبسى فى كتاب الله ولا سنة رسوله ولا الاجماع ولا القياس (ورابعها) ان الزوج قذفها ولم يأت بالمخرج من شهادة غيره او شهادة نفسه فوجب عليه الحد لقوله تعالى والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا

وكف بصره (والآخرة) من عذاب النار وغير ذلك مما لايعلمه الا الله عز وجل (والله يعلم) جميع الامور التى من جملتها مافى الضمائر من المحبة المذكورة (وانتم لاتعلمون) ما يعلمه تعالى بل انما تعلمون ماظهر لكم من الاقوال والافعال المحسوسة فابنوا اموركم على ما تعلمونه وعاقبوا فى الدنيا على ما تشاهدونه من الاحوال الظاهرة والله سبحانه هو المتولى للسرائر فيعاقب فى الآخرة على ما تكنه الصدور هذا اذا جعل العذاب الاليم فى الدنيا عبارة عن حد القذف او متضمنا له كما اطبق عليه الجمهور اما اذا ابقى على اطلاقه يراد بالمحبة نفسها من غير ان يقارنها التصدى للاشاعة وهو الانسب بسياق النظم الكريم فيكون ترتيب العذاب عليها تنبيها على ان عذاب من باشر الاشاعة وتولاها اشد واعظم ويكون الاعتراض التذييلى أعنى قوله تعالى والله يعلم وانتم لاتعلمون تقريرا لثبوت العذاب الاليم لهم وتعليلا له (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) تكرير للمنة بترك المعاجلة بالعقاب للتنبيه على كمال عظم الجريرة (وان الله رؤف رحيم) عطف على فضل الله واظهار الاسم الجليل لتربية المهابة والاشعار باستتباع صفة الالوهية للرأفة والرحمة وتغيير سبكه وتصديره

بأربعة شهداء فاجلدوهم واذا ثبت ذلك فى حق الرجل ثبت فى حق المرأة لانه لا قائل بالفرق (وخامسها) قوله عليه السلام لخولة فالرجم اهون عليك من غضب الله وهو نص فى الباب حجة ابى حنيفة رحمه الله اما فى حق المرأة فلانها ما فعلت سوى انها تركت اللعان وهذا الترك ليس بينة على الزنا ولا اقرارا منها به فوجب ان لا يجوز رجمها لقوله عليه السلام لا يحل دم امرئ مسلم الحديث واذا لم يجب الرجم اذا كانت محصنة لم يجب الجلد فى غير المحصن لانه لا قائل بالفرق وايضا فالنكول ليس بصريح فى الاقرار فلم يجز اثبات الحد به كاللفظ المحتمل للزنا ولغيره (المسئلة الرابعة) قال الجمهور اذا قال لها يا زانية وجب اللعان وقال مالك رحمه الله لا يلاعن الا ان يقول رأيتك تزنى او ينفى حملا لها او ولدا منها حجة الجمهور ان عموم قوله والذين يرمون المحصنات يتناول الكل ولانه لا تفاوت فى قذف الاجنبية بين الكل فكذا فى حق قذف الزوجة (الطرف الثانى) الملاعن قال الشافعى رحمه الله من صح يمينه صح لعانه فيجرى اللعان بين الرقيقين والذميين والمحدودين وكذا اذا كان احدهما رقيقا او كان الزوج مسلما والمرأة ذمية وقال ابو حنيفة رحمه الله لا يصح فى صورتين (احداهما) ان تكون الزوجة ممن لا يجب على قاذفها الحد اذا كان اجنبيا نحو ان تكون الزوجة مملوكة او ذمية (وثانيهما) ان يكون احدهما من غير اهل الشهادة بأن يكون محدودا فى قذف او عبدا او كافرا ثم زعم ان الفاسق والاعمى مع انهما ليسا من اهل الشهادة يصح لعانهما وجه قول الشافعى رحمه الله ان ظاهر قوله تعالى والذين يرمون ازواجهم يتناول الكل ولا معنى للتخصيص والقياس ايضا ظاهر من وجهين (الاول) ان المقصود دفع العار عن النفس ودفع ولد الزنا عن النفس وكما يحتاج غير المحدود اليه فكذا المحدود محتاج اليه (والثانى) اجمعنا على انه يصح لعان الفاسق والاعمى وان لم يكونا من اهل الشهادة فكذا القول فى غيرهما والجامع هو الحاجة الى دفع عار الزنا ووجه قول ابى حنيفة رحمه الله النص والمعنى (اما النص) فما روى عبد الله عمرو بن العاص انه عليه السلام قال اربع من النساء ليس بينهن وبين ازواجهن ملاعنة اليهودية والنصرانية تحت المسلم والحرة تحت المملوك والمملوكة تحت الحر (اما المعنى) فنقول اما فى الصورة الاولى فلانه كان الواجب على قاذف الزوجة والاجنبية الحد بقوله والذين يرمون المحصنات ثم نسخ ذلك عن الازواج واقيم اللعان مقامه فلما كان اللعان مع الازواج قائما مقام الحد فى الاجنبيات لم يجب اللعان على من لا يجب عليه الحد لو قذفها اجنبى واما فى الصورة الثانية فالوجه فيه ان اللعان شهادة فوجب ان لا يصح الا من اهل الشهادة وانما قلنا ان اللعان شهادة لوجهين (الاول) قوله تعالى ولم يكن لهم شهداء الا انفسهم فشهادة احدهم اربع شهادات بالله فسمى الله تعالى لعانهما شهادة كما قال واستشهدوا شهيدين من رجالكم وقال فاستشهدوا عليهن اربعة منكم (الثانى) انه عليه السلام حين لاعن بين

بحرف التحقيق لان المراد بيان اتصافه تعالى فى ذاته بالرأفة التى هى كمال الرحمة والرحيمية التى هى المبالغة فيها على الدوام والاستمرار لا بيان حدوث تعلق رأفته ورحمته بهم كانه المراد بالمعطوف عليه وجواب او لا بالمحذوف لدلالة ما قبله عليه (يا ايها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان) اى لا تسلكوا مسالكه فى كل ما تأتون وما تذرون من الافاعيل التى من جملتها اشاعة الفاحشة وحبها وقرئ خطوات بسكون الطاء وبفتحها ايضا (ومن يتبع خطوات الشيطان) وضع الظاهر ان موضع ضميرهما حيث لم يقل ومن يتبعها او ومن يتبع خطواته لزيادة التقرير والمبالغة فى التنفير والتحذير (فانه يأمر بالفحشاء والمنكر) علة للجزاء وضعت موضعه كانه قيل فقد ارتكب الفحشاء والمنكر لان دأبه المستمر ان يأمر بهما فمن اتبع خطواته فقد امتثل بامره قطعا والفحشاء ما افرط قبحه كالفاحشة والمنكر ما ينكره الشرع وضمير انه للشيطان وقيل للشأن على رأى من لا يوجب عود الضمير من الجملة الجزائية الى اسم الشرط او على ان الاصل يأمره وقيل هو عائد الى من اى فان ذلك المتبع يأمر الناس بهما لان

الزوجين امرهما باللعان بلفظ الشهادة ولم يقتصر على لفظ اليمين اذا ثبت ان اللعان شهادة وجب ان لا تقبل من المحدود فى القذف لقوله تعالى ولا تقبلوا لهم شهادة ابدا واذا ثبت ذلك فى المحدود ثبت فى العبد والكافر اما للاجماع على انهما ليسا من اهل الشهادة او لانه لا قائل بالفرق (اجاب الشافعى رحمه الله) بان اللعان ليس شهادة فى الحقيقة بل هو يمين لانه لا يجوز ان يشهد الانسان لنفسه ولانه لو كان شهادة لكانت المرأة تأتى بثمان شهادات لانها على النصف من الرجل ولانه يصح من الاعمى والفاسق ولا يجوز شهادتهما فان قيل الفاسق والفاسقة قد يتوبان قلنا وكذلك العبد قد يعتق فيجوز شهادته ثم اكد الشافعى رحمه الله ذلك بان العبد اذا عتق تقبل شهادته فى الحال والفاسق اذا تاب لا تقبل شهادته فى الحال ثم ألزم اباحنيفة رحمه الله بان شهادة اهل الذمة مقبولة بعضهم على بعض فينبغى ان يجوز اللعان بين الذمى والذمية وهذا كله كلام الشافعى رحمه الله ثم قال بعد ذلك وتختلف الحدود بمن وقعت له ومعناه ان الزوج ان لم يلاعن تنصف حد القذف عليه لرقه وان لاعن ولم تلاعن اختلف حدها باحصانها وعدم احصانها او حريتها ورقها (الطرف الثالث) الاحكام المرتبة على اللعان قال الشافعى رحمه الله يتعلق باللعان خمسة احكام درء الحد ونفى الولد والفرقة والتحريم المؤبد ووجوب الحد عليها وكلها تثبت بمجرد لعانه ولا يفتقر فيه الى لعانها ولا الى حكم الحاكم فان حكم الحاكم به كان تنفيذا منه لا ايقاعا للفرقة فلنتكلم فى هذه المسائل (المسئلة الاولى) اختلف المجتهدون فى وقوع الفرقة باللعان على اربعة اقوال (احدها) قال عثمان البتى لا أرى ملاعنة الزوج امرأته تقتضى شيئا يوجب ان يطلقها (وثانيها) قال ابو حنيفة وابو يوسف ومحمد لا تقع الفرقة بفراغهما من اللعان حتى يفرق الحاكم بينهما (وثالثها) قال مالك والليث وزفر رحمهم الله اذا فرغا من اللعان وقعت الفرقة وان لم يفرق الحاكم (ورابعها) قال الشافعى رحمه الله اذا أكمل الزوج الشهادة والالتعان فقد زال فراش امرأته ولا تحل له ابدا التعنت او لم تلتعن حجة عثمان البتى وجوه (احدها) ان اللعان ليس بصريح ولا كناية عن الفرقة فوجب ان لا يفيد الفرقة كسائر الاقوال التى لا اشعار لها بالفرقة لان أكثر ما فيه ان يكون الزوج صادقا فى قوله وهو لا يوجب تحريما ألا ترى انه لو قامت البينة عليها لم يوجب ذلك تحريما فاذا كان كاذبا والمرأة صادقة ثبت انه لا دلالة فيه على التحريم (وثانيها) لو تلاعنا فيما بينهما لم يوجب الفرقة فكذا لو تلاعنا عند الحاكم (وثالثها) ان اللعان قائم مقام الشهود فى قذف الاجنبيات فكما انه لا فائدة فى احضار الشهود هناك الا اسقاط الحد فكذا اللعان لا تأثير له الا اسقاط الحد (ورابعها) اذا كذب الزوج نفسه فى قذفه اياها ثم حد لم يوجب ذلك فرقة فكذا اذا لاعن لان اللعان قائم مقام درء الحد قال واما تفريق النبى صلى الله عليه وسلم بين المتلاعنين فكان ذلك فى قصة العجلانى وكان قد طلقها ثلاثا بعد اللعان فلذلك فرق بينهما واما قول ابى حنيفة

شان الشيطان هو الاضلال فمن اتبعه يترقى من رتبة الضلال والفساد الى رتبة الاضلال والافساد (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) بما من جملته هاتيك البيانات والتوفيق للتوبة الماحصة للذنوب وشرع الحدود المكفرة لها (مازكا) اى ماطهر من دنسها وقرئ مازكى بالتشديد اى ماطهر الله تعالى ومن فى قوله تعالى (منكم) بيانية وفى قوله تعالى (من احد) زائدة واحد فى حيز الرفع على الفاعلية على القراءة الاولى وفى محل النصب على المفعولية على القراءة الثانية (ابدا) لا الى نهاية (ولكن الله يزكى) يطهر (من يشاء) من عباده بافاضة آثار فضله ورحمته عليه وحمله على التوبة ثم قبولها منه كما فعل بكم (والله سميع) مبالغ فى سمع الاقوال التى من جملتها ما اظهروه من التوبة (عليم) بجميع المعلومات التى من جملتها نياتهم وفيه حث لهم على الاخلاص فى التوبة واظهار الاسم الجليل للايذان باستدعاء الالوهية للسمع والعلم مع ما فيه من تأكيد استقلال الاعتراض التذييلى (ولا يأتل) اى لا يحلف افتعال من الالية وقيل لا يقصر من الالو والاول هو الاظهر لنزوله فى شان الصديق رضى الله

(وهو)

وهو ان الحاكم يفرق بينهما فلابد من بيان امرين (احدهما) انه يجب على الحاكم ان يفرق بينهما ودليله ماروى سهل بن سعد فى قصة العجلانى مضت السنة فى المتلاعنين ان يفرق بينهما ثم لايجتمعان ابدا (والثانى) ان الفرقة لاتحصل الابحكم الحاكم واحتجوا عليه بوجوه (احدها) روى فى قصة عويمر انهما لما فرغا قال عويمر كذبت عليها يارسول الله ان امسكتها هى طالق ثلاثا فطلقها ثلاثا قبل ان يأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم والاستدلال بهذا الخبر من وجوه (احدها) انه لو وقعت الفرقة باللعان لبطل قوله كذبت عليها ان أمسكتها لان امساكها غير ممكن (وثانيها) ماروى فى هذا الخبر انه طلقها ثلاث تطليقات فانفذه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتنفيذ الطلاق انما يمكن لو لم تقع الفرقة بنفس اللعان (وثالثها) ماقال سهل بن سعد فى هذا الخبر مضت السنة فى المتلاعنين ان يفرق بينهما ولايجتمعان ابدا ولوكانت الفرقة واقعة باللعان استحال التفريق بعدها (وثانيها) قال ابو بكر الرازى قول الشافعى رحمه الله خلاف الآية لانه لو وقعت الفرقة بلعان الزوج للاعنت المرأة وهى اجنبية وذلك خلاف الآية لان الله تعالى انما اوجب اللعان بين الزوجين (وثالثها) ان اللعان شهادة لايثبت حكمه الاعند الحاكم فوجب ان لايوجب الفرقة الابحكم الحاكم كمالايثبت المشهود به الابحكم الحاكم (ورابعها) اللعان تستحق به المرأة نفسها كما يستحق المدعى بالبينة فلما لم يجز ان يستحق المدعى مدعاه الابحكم الحاكم وجب مثله فى استحقاق المرأة نفسها (وخامسها) ان اللعان لااشعار فيه بالتحريم لان اكثر مافيه انها زنت ولو قامت البينة على زناها او هى اقرت بذلك فذلك لايوجب التحريم فكذا اللعان واذا لم يوجد فيها دلالة على التحريم وجب ان لاتقع الفرقة به فلابد من احداث التفريق امامن قبل الزوج اومن قبل الحاكم اماقول مالك وزفر فحجته انهما لو تراضيا على البقاء على النكاح لم يخليا بل يفرق بينهما فدل على ان اللعان قد اوجب الفرقة اماقول الشافعى رحمه الله فله دليلان (الاول) قوله تعالى ويدرأ عنها العذاب ان تشهد الآية فدل هذا على انه لاتأثير للعان المرأة الافى دفع العذاب عن نفسها وان كل مايجب باللعان من الاحكام فقد وقع بلعان الزوج (الثانى) ان لعان الزوج وحده مستقل بنفى الولد فوجب ان يكون الاعتبار بقوله فى الالحاق لابقولها ألاترى انها فى لعانها تلحق الولد به ونحن ننفيه عنه فيعتبر نفى الزوج لا الحاق المرأة ولهذا اذا اكذب الزوج نفسه ألحق به الولد ومادام يبقى مصرا على اللعان فالولد منفى عنه اذا ثبت ان لعانه مستقل بنفى الولد وجب ان يكون مستقلا بوقوع الفرقة لان الفرقة لو لم تقع لم ينتف الولد لقوله عليه السلام الولد للفراش فمادام بقى الفراش التحق به فلما انتفى الولد عنه بمجرد لعانه وجب انه بزول الفراش عند مجرد لعانه واما الاخبار التى استدل بها ابو حنيفة رحمه الله فالمراد بها ان النبى عليه السلام اخبر عن وقوع الفرقة وحكم بها وذلك لاينافى ان يكون المؤثر فى الفرقة شيئا آخر واما الاقيسة التى ذكرها

عنه حين حلف ان لاينفق على مسطح بعد وكان ينفق عليه لكونه ابن خالته وكان من فقراء المهاجرين ويعضده قراءة من قرأ ولايتأل (اولو الفضل منكم) فى الدين وكفى به دليلا على فضل الصديق رضى الله تعالى عنه (والسعة) فى المال (ان يؤتوا) اى على ان لايؤتوا وقرئ بتاء الخطاب على الالتفات (اولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله) صفات لموصوف واحد جئ بها بطريق العطف تنبيها على ان كلا منها علة مستقلة لاستحقاقه الايتاء وقيل لموصوفات اقيمت هى مقامها وحذف المفعول الثانى لغاية ظهوره اى على ان لايؤتوهم شيئا (وليعفوا) ما فرط منهم (وليصفحوا) بالاغضاء عنه وقد قرئ الامران بتاء الخطاب على وفق قوله تعالى (الاتحبون ان يغفر الله لكم) اى بمقابلة عفوكم وصفحكم واحسانكم الى من اساء اليكم (والله غفور رحيم) مبالغ فى المغفرة والرحمة مع كمال قدرته على المؤاخذة وكثرة ذنوب العباد الداعية اليها وفيه ترغيب عظيم فى العفو ووعد كريم بمقابلته كأنه قيل الاتحبون ان يغفر الله لكم فهذا من موجباته روى انه عليه الصلاة والسلام

فدارها ان اللعان شهادة وليس الامر كذلك بل هو يمين على مابينا واما قوله اللعان لااشعار فيه بوقوع الحرمة قلنا ينبه على نفى الولد مقبولة ونفى الولد يتضمن نفى حلية النكاح والله اعلم (المسئلة الثانية) قال مالك والشافعى وابو يوسف والثورى واسحق والحسن المتلاعنان لايجتمعان ابدا وهو قول على وعمر وابن مسعود وقال ابو حنيفة ومحمد اذا أكذب نفسه وحد زال تحريم العقد وحلت له بنكاح جديد حجة الشافعى رحمه الله امور (احدها) قوله عليه السلام للملاعن بعد اللعان لاسبيل لك عليها ولم يقل حتى تكذب نفسك ولو كان الاكذاب غاية لهذه الحرمة لردها رسول الله صلى الله عليه وسلم الى هذه الغاية كما قال فى المطلقة بالثلاث فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره (وثانيها) ماروى عن على وعمر وابن مسعود انهم قالوا لايجتمع المتلاعنان ابدا وهذا قد روى أيضا مرفوعا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم (وثالثها) ماروى الزهرى عن سهل بن سعد فى قصة العجلانى مضت السنة انهما اذا تلاعنا فرق بينهما ثم لايجتمعان ابدا حجة ابى حنيفة رحمه الله قوله تعالى واحل لكم ماوراء ذلكم وقوله فانكحوا ماطاب لكم (المسئلة الثالثة) اتفق اهل العلم على ان الولد قد ينفى عن الزوج باللعان وحكى عن بعض من شذ انه للزوج ولا ينتفى نسبه باللعان واحتج بقوله عليه السلام الولد للفراش وهذا ضعيف لان الاخبار الدالة على ان النسب ينتفى باللعان كالمتواترة فلا يعارضها هذا الواحد (المسئلة الرابعة) قال الشافعى رحمه الله لو اتى احدهما ببعض كلمات اللعان لايتعلق به الحكم وقال ابو حنيفة رحمه الله اكثر كلمات اللعان تعمل عمل الكل اذا حكم به الحاكم والظاهر مع الشافعى لانه يدل على انها لاتدرأ العذاب عن نفسها الا بتمام ماذكره الله تعالى ومن قال بخلاف ذلك فانما يقوله بدليل منفصل (الطرف الرابع) فى كيفية اللعان والآية دالة عليها صريحا فالرجل يشهد اربع شهادات بالله بأن يقول اشهد بالله انى لمن الصادقين فيما رميتها به من الزنا ثم يقول من بعد وعليه لعنة الله ان كان من الكاذبين ويتعلق بلعان الزوج تلك الاحكام الخمسة على قول الشافعى رحمه الله ثم المرأة اذا أرادت اسقاط حد الزنا عن نفسها عليها ان تلاعن ولا يتعلق بلعانها الا هذا الحكم الواحد ثم ههنا فروع (الفرع الاول) اجمعوا على ان اللعان كالشهادة فلا يثبت الا عند الحاكم (الثانى) قال الشافعى رحمه الله يقام الرجل حتى يشهد والمرأة قاعدة وتقام المرأة حتى تشهد والرجل قاعد ويأمر الامام من يضع يده على فيه عند الانتهاء الى اللعنة والغضب ويقول له انى اخاف ان لم تك صادقا ان تبوء بلعنة الله (الثالث) اللعان بمكة بين المقام والركن وبالمدينة عند المنبر وببيت المقدس فى مسجده وفى غيرها فى المواضع المعظمة ولعان المشرك كغيره فى الكيفية واما الزمان فيوم الجمعة بعد العصر ولابد من حضور جماعة من الاعيان اقلهم اربعة (الطرف الخامس) فى سائر الفوائد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج اصحابنا بهذه الآية على

قرأها على ابى بكر رضى الله عنه فقال بلى احب ان يغفر الله لى فرجع الى مسطح نفقته وقال والله لاانزعها ابدا (ان الذين يرمون المحصنات) اى العفائف عما رمين به من الفاحشة (الغافلات) عنها على الاطلاق بحيث لم يخطر ببالهن شئ منها ولا من مقدماتها اصلا ففيها من الدلالة على كمال النزاهة ماليس فى المحصنات اى السليمات الصدور النقيات القلوب عن كل سوء (المؤمنات) اى المتصفات بالايمان بكل مايجب ان يؤمن به من الواجبات والمحظورات وغيرها ايمانا حقيقيا تفصيليا كما ينبئ عنه تأخير المؤمنات عما قبلها مع اصالة وصف الايمان فانه للايذان بان المراد بها المعنى الوصفى المعرب عما ذكر لا المعنى الاسمى المصحح لاطلاق الاسم فى الجملة كما هو المتبادر على تقدير التقديم والمراد بها عائشة الصديقة رضى الله عنها والجمع باعتبار ان رميها رمى لسائر امهات المؤمنين لاشتراك الكل فى العصمة والنزاهة والانتساب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما فى قوله تعالى كذبت قوم نوح المرسلين وقيل امهات المؤمنين فيدخل فيهن الصديقة دخولا اوليا واما ماقيل من ان المراد

بطلان قول الخوارج فى ان الزنا والقذف كفر من وجهين (الاول) ان الرامى ان صدق فهى زانية وان كذب فهو قاذف فلابد على قولهم من وقوع الكفر من احدهما وذلك يكون ردة فيجب على هذا ان تقع الفرقة ولا لعان اصلا وان تكون فرقة الردة حتى لاتتعلق بذلك توارث البتة (الثانى) ان الكفر اذا ثبت عليها بلعانه فالواجب ان تقتل لاأن تجلد او ترجم لان عقوبة المرتد مباينة للحد فى الزنا (المسئلة الثانية) الآية دالة على بطلان قول من يقول ان وقوع الزنا يفسد النكاح وذلك لانه يجب اذا رماها بالزنا ان يكون قوله هذا كانه معترف بفساد النكاح حتى يكون سبيله سبيل من يقر بأنها اخته من الرضاع او بانها كافرة ولو كان كذلك لوجب ان تقع الفرقة بنفس الرمى من اللعان وقد ثبت بالاجماع فساد ذلك (المسئلة الثالثة) قالت المعتزلة دلت الآية على ان القاذف مستحق للعن الله تعالى اذا كان كاذبا وانه قد فسق وكذلك الزانى والزانية يستحقان غضب الله تعالى وعقابه والا لم يحسن منهما ان يلعنا انفسهما كما لايجوز ان يدعو احد به ان يلعن الاطفال والمجانين واذا صح ذلك فقد استحق العقاب والعقاب يكون دائما كالثواب ولا يجتمعان فثوابهما ايضا محبط فلا يجوز اذا لم يتوبا ان يدخلا الجنة لان الامة مجمعة على ان من دخل الجنة من المكلفين فهو مثاب على طاعاته وذلك يدل على خلود الفساق فى النار قال اصحابنا لانسلم ان كونه مغضوبا عليه بفسقه ينافى كونه مرضيا عنه لجهة ايمانه ثم لو سلمناه فلم نسلم ان الجنة لايدخلها الا مستحق الثواب والاجماع ممنوع (المسئلة الرابعة) انما خصت الملاعنة بأن تخمس بغضب الله تغليظا عليها لانها هى اصل الفجور ومنبعه بخلابتها واطماعها ولذلك كانت مقدمة فى آية الجلد واعلم انه سبحانه لما بين حكم الرامى للمحصنات والازواج على ماذكرنا وكان فى ذلك من الرحمة والنعمة مالاخفاء فيه لانه تعالى جعل باللعان للمرء سبيلا الى مراده ولها سبيلا الى دفع العذاب عن نفسها ولهما السبيل الى التوبة والانابة فلاجل هذا بين تعالى بقوله ولولا فضل الله عليكم ورحمته عظم نعمه فيما بينه من هذه الاحكام وفيما امهل وابقى ومكن من التوبة ولاشبهة فى ان فى الكلام حذفا اذ لابد من جواب الا ان تركه يدل على انه أمر عظيم لايكتنه ورب مسكوت عنه أبلغ من منطوق به (الحكم الخامس) قصة الافك

۞ قوله تعالى (ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم لاتحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم) الكلام فى هذه الآية من وجهين (احدهما) تفسيره (والثانى) سبب نزوله اما التفسير فاعلم ان الله تعالى ذكر فى هذه الآية ثلاثة اشياء (اولها) انه حكى الواقعة وهو قوله ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم والافك أبلغ مايكون من الكذب والافتراء وقيل هو البهتان وهو الامر الذى لاتشعر به حتى يفجأك واصله الافك وهو القلب لانه قول مأفوك عن وجهه واجمع المسلمون على ان المراد ماأفك به على عائشة وانما وصف الله تعالى ذلك

هى الصديقة والجمع باعتبار استتباعها للمتصفات بالصفات المذكورة من نساء الامة فيأباه ان العقوبات المترتبة على رمى هؤلاء عقوبات مختصة بالكفار والمنافقين ولاريب فى ان رمى غير امهات المؤمنين ليس بكفر فيجب ان يكون المراد اياهن على احد الوجهين فانهن قد خصصن من بين سائر المؤمنات فجعل رميهن كفرا ابرازا لكرامتهن على الله عز وجل وحماية لحمى الرسالة من ان يحوم حوله احد بسوء حتى ان ابن عباس رضى الله عنهما جعله اغلظ من سائر افراد الكفر حين سئل عن هذه الآيات فقال من اذنب ذنبا ثم تاب منه قبلت توبته الا من خاض فى امر عائشة رضى الله عنها وهل هو منه رضى الله عنه الا تهويل امر الافك والتنبيه على انه كفر غليظ (لعنوا) بما قالوه فى حقهن (فى الدنيا والآخرة) حيث يلعنهم اللاعنون من المؤمنين والملائكة ابدا (ولهم) مع ماذكر من اللعن الابدى (عذاب عظيم) هائل لايقادر قدره لغاية عظم ما اقترفوه من الجناية وقوله تعالى (يوم تشهد عليهم) الخ اما متصل بما قبله مسوق لتقرير العذاب المذكور بتعيين وقت حلوله وتهويله ببيان ظهور جناياتهم

الكذب بكونه افكا لان المعروف من حال عائشة خلاف ذلك لوجوه (احدها) ان كونها زوجة للرسول صلى الله عليه وسلم المعصوم يمنع من ذلك لان الانبياء مبعوثون الى الكفار ليدعوهم و يستعطفوهم فوجب ان لايكون معهم ماينفرهم عنهم وكون الانسان بحيث تكون زوجته مسافحة من اعظم المنفرات (فان قيل) كيف جاز ان تكون امرأة النبي كافرة كامرأة نوح ولوط ولم يجز ان تكون فاجرة وايضا فلو لم يجز ذلك لكان الرسول اعرف الناس بامتناعه ولو عرف ذلك لما ضاق قلبه ولما سأل عائشة عن كيفية الواقعة قلنا (الجواب عن الاول) ان الكفر ليس من المنفرات أما كونها فاجرة فمن المنفرات (والجواب عن الثانى) انه عليه السلام كثيرا ما كان يضيق قلبه من اقوال الكفار مع علمه بفساد تلك الاقوال قال تعالى ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون فكان هذا من هذا الباب (وثانيها) ان المعروف من حال عائشة قبل تلك الواقعة انما هو الصون والبعد عن مقدمات الفجور ومن كان كذلك كان اللائق احسان الظن به (وثالثها) ان القاذفين كانوا من المنافقين واتباعهم وقد عرف ان كلام العدو المفترى ضرب من الهذيان فلمجموع هذه القرائن كان ذلك القول معلوم الفساد قبل نزول الوحى اما العصبة فقيل انها الجماعة من العشرة الى الاربعين وكذلك العصابة واعصوصبوا اجتمعوا وهم عبدالله بن ابى ابن سلول رأس النفاق وزيد بن رفاعة وحسان بن ثابت ومسطح ابن اثاثة وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم اما قوله تعالى منكم فالمعنى ان الذى أتوا بالكذب فى أمر عائشة جماعة منكم أيها المؤمنون لان عبد الله كان من جملة من حكم له بالايمان ظاهرا (ورابعها) انه سبحانه شرح حال المقذوفة ومن تعلق بها بقوله لاتحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم والصحيح ان هذا الخطاب ليس مع القاذفين بل مع من قذفوه وآذوه فان قيل هذا مشكل لوجهين (احدهما) انه لم يتقدم ذكرهم (والثانى) ان المقذوفين هما عائشة وصفوان فكيف تحمل عليهما صيغة الجمع فى قوله لاتحسبوه شرا لكم (والجواب عن الاول) انه تقدم ذكرهم فى قوله منكم (وعن الثانى) ان المراد من لفظ الجمع كل من تأذى بذلك الكذب واغتم ومعلوم انه صلى الله عليه وسلم تأذى بذلك وكذلك ابو بكر ومن يتصل به (فان قيل) فمن اى جهة يصير خيرا لهم مع انه مضرة فى العاجل قلنا لوجوه (احدها) انهم صبروا على ذلك الغم طلبا لمرضاة الله تعالى فاستوجبوا به الثواب وهذه طريقة المؤمنين عند وقوع الظلم بهم (وثانيها) انه لولا اظهارهم للافك كان يجوز ان تبقى التهمة كامنة فى صدور البعض وعند الاظهار انكشف كذب القوم على مر الدهر (وثالثها) انه صار خيرا لهم لما فيه من شرفهم وبيان فضلهم من حيث نزلت ثمان عشرة آية كل واحدة منها مستقلة ببراءة عائشة وشهد الله تعالى بكذب القاذفين ونسبهم الى الافك واوجب عليهم اللعن والذم هذا غاية الشرف والفضل (ورابعها) صيرورتها بحال تعلق الكفر والايمان بقدحها ومدحها فان الله تعالى لما نص على

الموجبة له مع سائر جناياتهم المستتبعة لعقوباتها على كيفية هائلة وهيئة خارقة للعادات فيوم ظرف لما فى الجار والمجرور المتقدم من معنى الاستقرار لا للعذاب وان اعتبرنا عن وصفه لاخلاله بجزالة المعنى واما منقطع عنه مسوق لتهويل اليوم بتهويل مايحويه على انه ظرف لفعل مؤخر قد ضرب عنه الذكر صفحا للايذان بقصور العبارة عن تفصيل مايقع فيه من الطامة التامة والداهية العامة كأنه قيل يوم تشهد عليهم (السنتهم وايديهم وارجلهم بما كانوا يعملون) يكون من الاحوال والاهوال مالايحيط به حيطة المقال على ان الموصول المذكور عبارة عن جميع اعمالهم السيئة وجناياتهم القبيحة لاعن جناياتهم المعهودة فقط ومعنى شهادة الجوارح المذكورة بها انه تعالى ينطقها بقدرته فتخبر كل جارحة منها بما صدر عنها من أفاعيل صاحبها لا ان كلا منها يخبر بجناياتهم المعهودة فحسب والموصول المحذوف عبارة عنها وعن فنون العقوبات المترتبة عليها كافة لاعن احداهما خاصة فتنبه من ضروب التهويل بالاجمال والتفصيل مالامزيد عليه وجعل الموصول المذكور عبارة عن خصوص جناياتهم المعهودة وحمل

كون تلك الواقعة افكا وبالغ فى شرحه فكل من يشك فيه كان كافرا قطعا وهذه درجة عالية ومن الناس من قال قوله تعالى لاتحسبوه شرا لكم خطاب مع القاذفين وجعله الله تعالى خيرا لهم من وجوه (احدها) انه صار مانزل من القرآن مانعا لهم من الاستمرار عليه فصار مقطعة لهم عن ادامة هذا الافك (وثانيها) صار خيرا لهم من حيث كان هذا الذكر عقوبة معجلة كالكفار (وثالثها) صار خيرا لهم من حيث تاب بعضهم عنده واعلم ان هذا القول ضعيف لانه تعالى خاطبهم بالكاف ولما وصف اهل الافك جعل الخطاب بالهاء بقوله تعالى لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم ومعلوم ان نفس ما اكتسبوه لايكون عقوبة فالمراد لهم جزاء ما اكتسبوه من العقاب فى الآخرة والمذمة فى الدنيا والمعنى ان قدر العقاب يكون مثل قدر الخوض اما قوله والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ كبره بالضم والكسر وهو عظمه (المسئلة الثانية) قال الضحاك الذى تولى كبره حسان ومسطح فجلدهما صلى الله عليه وسلم حين انزل الله عذرها وجلد معهما امرأة من قريش وروى ان عائشة رضى الله عنها ذكرت حسانا وقالت ارجو له الجنة فقيل اليس هو الذى تولى كبره فقالت اذا سمعت شعره فى مدح الرسول رجوت له الجنة وقال عليه الصلاة والسلام ان الله يؤيد حسانا بروح القدس فى شعره وفى رواية اخرى واى عذاب اشد من العمى ولعل الله جعل ذلك العذاب العظيم ذهاب بصره والاقرب فى الرواية ان المراد به عبدالله بن ابى ابن سلول فانه كان منافقا يطلب مايكون قدحا فى الرسول عليه السلام وغيره كان تابعا له فيما كان يأتى وكان فيهم من لايتهم بالنفاق (المسئلة الثالثة) المراد من اضافة الكبر اليه انه كان مبتدأ بذلك القول فلاجرم حصل له من العقاب مثل ماحصل لكل من قال ذلك لقوله عليه الصلاة والسلام من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة وقيل سبب تلك الاضافة شدة الرغبة فى اشاعة تلك الفاحشة وهو قول ابى مسلم (المسئلة الرابعة) قال الجبائى قوله تعالى لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم اى عقاب ما اكتسب ولو كانوا لايستحقون على ذلك عقابا لما جاز ان يقول تعالى ذلك وفيه دلالة على ان من لم يتب منهم صار الى العذاب الدائم فى الآخرة لان مع استحقاق العذاب لايجوز استحقاق الثواب (والجواب) ان الكلام فى المحابطة قدمر غير مرة فلاوجه للاعادة والله اعلم (اما سبب النزول) فقد روى الزهرى عن سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وعلقمة بن ابى وقاص وعبيدالله بن عبدالله بن عقبة بن مسعود كلهم رووا عن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد سفرا اقرع بين نسائه فأيتهن خرج اسمها خرج بها معه قالت فاقرع بيننا فى غزوة غزاها قبل غزوة بنى المصطلق فخرج فيها اسمى فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك بعد نزول آية الحجاب فحملت فى هودج فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرب من المدينة نزل منزلا ثم اذن بالرحيل فقمت حين اذنوا بالرحيل

شهادة الجوارح على اخبار الكل بها فقط تحجيرا للواسع وتهوين لامر الوازع والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على استمرارهم عليها فى الدنيا وتقديم عليهم على الفاعل للمسارعة الى بيان كون الشهادة ضارة لهم مع مافيه من التشويق الى المؤخر كما مر مرارا وقوله تعالى (يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق) اى يوم اذ تشهد جوارحهم باعمالهم القبيحة يعطيهم الله تعالى جزاءهم الثابت الذى يحق ان يثبت لهم لامحالة وافيا كاملا كلام مبتدأ مسوق لبيان ترتيب حكم الشهادة عليها متضمن لبيان ذلك المبهم المحذوف على وجه الاجمال ويجوز ان يكون يوم تشهد ظرفا ليوفيهم ويومئذ بدلا منه وقيل هو منصوب على انه مفعول لفعل مضمر اى اذكر يوم تشهد وقرئ يوم يشهد بالتذكير للفصل (ويعلمون) عند معاينتهم الاهوال والخطوب حسبما نطق به القرآن الكريم (ان الله هو الحق) الثابت الذى يحق ان يثبت لامحالة فى ذاته وصفاته وافعاله التى من جملتها كلماته التامات المنبئة عن الشؤون التى يشاهدونها منطبقة عليها (المبين) المظهر للاشياء كما هى فى انفسها او الظاهر انه هو الحق وتفسيره بظهور الوهيته تعالى وعدم مشاركة الغير له فيها وعدم قدرة

ومشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شانى واقبلت الى رحلى فلمست صدرى فاذا عقد لى من جزع اظفار قد انقطع فرجعت والتمست عقدى وحبسنى طلبه واقبل الرهط الذين كانوا يرحلونى فحملوا هودجى وهم يحسبون انى فيه لخفتى فانى كنت جارية حديثة السن وظنوا انى فى الهودج وذهبوا بالبعير فلما رجعت لم اجد فى المكان احدا فجلست وقلت لعلهم يعودون فى طلبى فنمت وقد كان صفوان بن المعطل يمكث فى العسكر يتبع امتعة الناس فيحمله الى المنزل الآخر لئلا يذهب منهم شئ فلما رآنى عرفنى وقال ماخلفك عن الناس فاخبرته الخبر فنزل وتنحى حتى ركبت ثم قاد البعير وافتقدنى الناس حين نزلوا وماج الناس فى ذكرى فبينا الناس كذلك اذ هجمت عليهم فتكلم الناس وخاضوا فى حديثى وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ولحقنى وجع ولم أر منه عليه السلام ماعهدته من اللطف الذى كنت اعرف منه حين اشتكى انما يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يقول كيف تيكم فذاك الذى يريبنى ولا اشعر بعد بما جرى حتى نقهت فخرجت فى بعض الليالى مع ام مسطح لمهم لنا ثم اقبلت انا وام مسطح قبل بيتى حين فرغنا من شأننا فعثرت ام مسطح فى مرطها فقالت تعس مسطح فانكرت ذلك وقلت اتسبين رجلا شهد بدرا فقالت وما بلغك الخبر فقلت وما هو فقال اشهد انك من المؤمنات الغافلات ثم اخبرتنى بقول اهل الافك فازددت مرضا على مرضى فرجعت ابكى ثم دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال كيف تيكم فقلت ائذن لى ان اتى ابوى فأذن لى فجئت ابوى وقلت لامى يا أمه ماذا تحدث الناس قالت يابنية هونى عليك فوالله قلما كانت امرأة وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر الا كثرن عليها ثم قالت ام تكونى علمت ماقيل حتى الآن فاقبلت ابكى فبكيت تلك الليلة ثم اصبحت ابكى فدخل على ابى وانا ابكى فقال لامى مايبكيها قالت لم تكن علمت ماقيل فيها حتى الآن فاقبل يبكى ثم قال سكتى يابنية ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن ابى طالب عليه السلام واسامة ابن زيد واستشارهما فى فراق اهله فقال اسامة يارسول الله هم اهلك ولا نعلم الاخيرا واما على فقال لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وان تسأل الجارية تصدقك فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة وسألها عن امرى قالت بريرة يارسول الله والذى بعثك بالحق ان رأيت عليها امرا قط اكثر من انها جارية حديثة السن تنام عن عجين اهلها حتى تأتى الداجن فتأكله فقالت فقام النبى صلى الله عليه وسلم خطيبا على المنبر فقال يامعشر المسلمين من يعذرنى من رجل قد بلغنى اذاه فى اهلى يعنى عبدالله بن ابى فوالله ماعلمت على اهلى الاخيرا ولقد ذكروا رجلا ماعلمت عليه الاخيرا وما كان يدخل على اهلى الا معى فقام سعد بن معاذ فقال اعذرك يارسول الله منه ان كان من الاوس ضربت عنقه وان كان من اخواننا من الخزرج فامرتنا فعلناه فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن اخذته الحمية فقال لسعد بن معاذ كذبت والله لاتقدر على قتله فقام

ماسواء على الثواب والعقاب ليس له كثير مناسبة للمقام كان تفسير الحق بذى الحق البين اى العادل الظاهر عدله كذلك ولو تتبعت مافى القرءان المجيد من آيات الوعيد الواردة فى حق كل كفار مريد وجبار عنيد لاتجد شيئا منها فوق هاتيك القوارع المشحونة بفنون التهديد والتشديد وماذاك الا لاظهار منزلة النبى صلى الله عليه وسلم فى علو الشان والنباهة وابراز رتبة الصديقة رضى الله عنها فى العفة والنزاهة وقوله تعالى (الخبيثات) الخ كلام مستأنف مسوق على قاعدة سنة الالهية الجارية فيما بين الخلق على موجب ان لله تعالى ملكا يسوق الاهل الى الاهل اى الخبيثات من النساء (للخبيثين) من الرجال اى مختصات بهم لايكدن يتجاوزنهم الى غيرهم على ان اللام للاختصاص (والخبيثون) ايضا (للخبيثات) لان المجانسة من دواعى الانضمام (والطيبات) منهن (للطيبين) منهم (والطيبون) ايضا (للطيبات) منهن بحيث لايكادون يجاوزونهن الى من عداهن وحيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اطيب الاطيبين وخيرة الاولين والآخرين تبين كون الصديقة رضى الله عنها

اسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ وقال كذبت لعمر الله لنقتلنه وانك لمنافق تجادل
عن المنافقين فثار الحيان الاوس والخزرج حتى هموا ان يقتتلوا ورسول الله صلى الله
عليه وسلم على المنبر فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا قالت ومكثت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع
وابواى يظنان ان البكاء فالق كبدى فبيناهما جالسان عندى وانا ابكى اذ دخل علينا
رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم جلس قالت ولم يجلس عندى منذ قيل فى ما قيل ولقد
لبث شهرا لا يوحى الله اليه فى شأنى شيئا ثم قال اما بعد يا عائشة فانه بلغنى عنك كذا وكذا
فان كنت بريئة فسيبرئك الله تعالى وان كنت الممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى اليه
فان العبد اذا تاب تاب الله عليه قالت فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته فاض
دمعى ثم قلت لابى اجب عنى رسول الله فقال والله ما ادرى ما اقول فقلت لامى اجيبى عنى
رسول الله فقالت والله لا ادرى ما اقول فقلت وانا جارية حديثة السن ما اقرأ من القرآن
كثيرا انى والله لقد عرفت انكم قد سمعتم بهذا حتى استقر فى نفوسكم وصدقتم به فان قلت
لكم انى بريئة لا تصدقونى وان اعترفت لكم بأمر والله يعلم انى بريئة لتصدقونى والله
لا اجد لى ولكم مثلا الا كما قال العبد الصالح ابو يوسف ولم اذكر اسمه فصبر جميل والله
المستعان على ما تصفون قالت ثم تحولت واضطجعت على فراشى وانا والله اعلم ان الله
تعالى يبرئنى ولكن والله ما كنت اظن ان ينزل فى شأنى وحيا يتلى فشأنى كان احقر
فى نفسى من ان يتكلم الله فى بأمر يتلى ولكن كنت ارجو ان يرى رسول الله فى النوم
رؤيا يبرئنى الله بها قالت فوالله ما قام رسول الله من مجلسه ولا خرج من اهل البيت احد
حتى انزل الله الوحى على نبيه فأخذه ما كان يأخذه عند نزول الوحى حتى انه ليتحدر عنه
مثل الجمان من العرق فى اليوم الشاتى من ثقل الوحى فسجى بثوب ووضعت وسادة تحت
رأسه فوالله ما فزعت ولا باليت لعلمى ببرائتى واما ابواى فوالله ما سرى عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم حتى ظننت ان نفسى ابوى ستخرجان فرقا من ان يأتى الله بتحقيق ما قال
الناس فلما سرى عنه وهو يضحك فكان اول كلمة تكلم بها ان قال ابشرى يا عائشة اما
والله لقد برأك الله فقلت بحمد الله لا بحمدك ولا بحمد اصحابك فقالت امى قومى اليه
فقلت والله لا اقوم اليه ولا احمد احدا الا الله الذى انزل برائتى فأنزل الله تعالى ان الذين
جاؤا بالافك عصبة منكم العشر آيات فقال ابو بكر والله لا انفق على مسطح بعد هذا وكان
ينفق عليه لقرابته منه وفقره فأنزل الله تعالى ولا يأتل اولو الفضل منكم الى قوله
ألا تحبون ان يغفر الله لكم فقال ابو بكر بلى والله انى لأحب ان يغفر الله لى فرجع النفقة
على مسطح قالت فلما نزل عذرى قام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فذكر ذلك
وتلا القرآن فلما نزل ضرب عبد الله بن ابى ومسطحا وحمنة وحسان الحد • واعلم انه
سبحانه وتعالى لما ذكر القصة وذكر حال المقذوفين والقاذفين عقبها بما يليق بها من
الآداب والزواجر وهى انواع (الاول) قوله تعالى (لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون

من الطيب الطيبات بالضرورة
والشح بطلان ما قيل فى حقها من
الخرافات حسبما نطق به قوله تعالى
(اولئك مبرؤن مما يقولون) على
ان الاشارة الى اهل البيت
المنتظمين للصديقة انتظاما اوليا
وقيل الى رسول الله صلى الله عليه
وسلم والصديقة وصفوان وما فى
اسم الاشارة من معنى البعد للايذان
بعلو رتبة المشار اليهم وبعد منزلتهم
فى الفضل اى اولئك الموصوفون
بعلو الشان مبرؤن مما تقوله اهل
الافك فى حقهم من الاكاذيب
الباطلة وقيل الخبيثات من القول
للخبيثين من الرجال والنساء اى
مختصة ولائقة بهم لا ينبغى ان تقال
فى حق غيرهم وكذا الخبيثون من
الفريقين احقاء بأن يقال فى حقهم
خبائث القول والطيبات من الكلم
للطيبين من الفريقين مختصة
وحقيقة بهم وهم احقاء بان يقال
فى شأنهم طيبات الكلم اولئك
الطيبون مبرؤن مما يقول الخبيثون
فى حقهم فمآله تنزيه الصديقة
ايضا وقيل خبيثات القول مختصة
بالخبيثين من فريقى الرجال والنساء
لا تصدر عن غيرهم والخبيثون من
الفريقين مختصون بخبائث
القول متعرضون لها والطيبات
من الكلام للطيبين من الفريقين
اى مختصة بهم لا تصدر عن غيرهم

والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا افك مبين) وهذا من جملة الآداب التى كان يلزمهم الاتيان بها ولولا معناه هلا وذلك كثير فى اللغة اذا كان يليه الفعل كقوله لولا اخرتنى وقوله فلولا كانت قرية آمنت فاما اذا وليه الاسم فليس كذلك كقوله لولا انتم لكنا مؤمنين وقوله ولولا فضل الله عليكم ورحمته والمراد كان الواجب على المؤمنين اذ سمعوا قول القاذف ان يكذبوه ويشتغلوا باحسان الظن ولا يسرعوا الى التهمة فيمن عرفوا فيه الطهارة وههنا سؤالات (السؤال الاول) هلا قيل لولا اذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيرا وقلتم فلم عدل من الخطاب الى الغيبة وعن المضمر الى الظاهر (الجواب) ليبالغ فى التوبيخ بطريقة الالتفات وفى التصريح بلفظ الايمان دلالة على ان الاشتراك فيه يقتضى ان لا يظن بالمسلمين الا خيرا لان دينه يحكم بكون المعصية منشأ للضرر وعقله يهديه الى وجوب الاحتراز عن الضرر وهذا يوجب حصول الظن باحترازه عن المعصية فاذا وجد هذا المقتضى للاحتراز ولم يوجد فى مقابلته راجح يساويه فى القوة وجب احسان الظن وحرم الاقدام على الطعن (السؤال الثانى) ما المراد من قوله بأنفسهم الجواب فيه وجهان (الاول) المراد ان يظن بعضهم ببعض خيرا ونظيره قوله ولا تلمزوا انفسكم وقوله فاقتلوا انفسكم وقوله اذا دخلتم بيوتا فسلموا على انفسكم ومعناه اى بامثالكم من المؤمنين الذين هم كأنفسكم روى ان ابا ايوب الانصارى رضى الله عنه قال لام ايوب أما ترين ما يقال فقالت لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرم رسول الله سوأ قال لا قالت ولو كنت بدل عائشة ما خنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعائشة خير منى وصفوان خير منك وقال ابن زيد ذلك معاتبة للمؤمنين اذ المؤمن لا يفجر بامه ولا الام بابنها وعائشة رضى الله عنها هى ام المؤمنين (والثانى) انه جعل المؤمنين كالنفس الواحدة فيما يجرى عليها من الامور فاذا جرى على احدهم مكروه فكأنه جرى على جميعهم عن النعمان بن بشير قال عليه السلام مثل المسلمين فى تواصلهم وتراحمهم كمثل الجسد اذا وجع بعضه بالسهر والحمى وجع كله وعن ابى بردة قال عليه السلام المؤمنون للمؤمنين كالبنيان يشد بعضه بعضا (السؤال الثالث) مامعنى قوله هذا افك مبين وهل يحل لمن يسمع ما لا يعرفه ان يقول ذلك (الجواب) من وجهين (الاول) كذلك يجب ان يقول لكنه يخبر بذلك عن قول القاذف الذى لا يستند الى الامارة ولا عن حقيقة الشئ الذى لا يعلمه (الثانى) ان ذلك واجب فى امر عائشة لان كونها زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم المعصوم عن جميع المنفرات كالدليل القاطع فى كون ذلك كذبا قال ابو بكر الرازى هذا يدل على ان الواجب فيمن كان ظاهره العدالة ان يظن به خيرا ويوجب ان يكون عقود المسلمين وتصرفاتهم محمولة على الصحة والجواز ولذلك قال اصحابنا فيمن وجد رجلا مع امرأة اجنبية فاعترفا بالتزوج انه لا يجوز تكذيبهما بل يجب تصديقهما وزعم مالك انه يحدهما ان لم يقيما بينة على النكاح ومن ذلك ايضا ما قال اصحابنا رضى الله عنهم فيمن باع درهما ودينارا بدرهمين ودينارين انه يخالف بينهما

(لانا)

والطيبون من الفريقين مختصون بطيبات الكلام لا يصدر عنهم غيرها اولئك الطيبون مبرؤن مما يقوله الخبيثون من الخبائث اى لا يصدر عنهم مثل ذلك فالآية تنزيه القائلين سبحانك هذا بهتان عظيم (لهم مغفرة) عظيمة لما لا يخلو عنه البشر من الذنوب (ورزق كريم) هو الجنة (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم) اثر ما فصل الزواجر عن الزنا وعن رمى العفائف عنه شرع فى تفصيل الزواجر عما عسى يؤدى الى احدهما من مخالطة الرجال بالنساء ودخولهم عليهن فى اوقات الخلوات وتعليم الآداب الجميلة والافاعيل المرضية المستتبعة لسعادة الدارين ووصف البيوت بمغايرة بيوتهم خارج مخرج العادة التى هى سكنى كل احد فى ملكه والا فالآجر والمعير ايضا منهيان من الدخول بغير اذن وقرئ بيوتا غير بيوتكم بكسر الباء لاجل الياء (حتى تستأنسوا) اى تستأذنوا من علم الاذن من اصحابها من الاستئناس بمعنى الاستعلام من آنس الشئ اذا ابصره فان المستأنس مستعلم الحال مستكشف انه هل يؤذن له او من الاستئناس الذى هو خلاف الاستيحاش لما ان المستأذن مستوحش خائف ان لا يؤذن له

لانا قد امرنا بحسن الظن بالمؤمنين فوجب حمله على ما يجوز وهو المخالفة بينهما وكذلك اذا باع سيفا محلى فيه مائة درهم بمائتى درهم ان نجعل المائة بالمائة والفضل بالسيف وهو يدل ايضا على قول ابى حنيفة رحمه الله فى ان المسلمين عدول ما لم يظهر منهم ريبة لانا مأمورون بحسن الظن وذلك يوجب قبول الشهادة ما لم يظهر منه ريبة توجب التوقف عنها او ردها قال تعالى ان الظن لا يغنى من الحق شيئا (النوع الثانى) * قوله تعالى (لولا جاؤا عليه بأربعة شهداء فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون) وهذا من باب الزواجر والمعنى هلا أتوا على ما ذكروه بأربعة شهداء يشهدون على معاينتهم فيما رموها به فاذ لم يأتوا بالشهداء اى فحين لم يقيموا بينة على ما قالوا فأولئك عند الله اى فى حكمه هم الكاذبون فان قيل أليس اذا لم يأتوا بالشهداء فانه يجوز كونهم صادقين كما يجوز كونهم كاذبين فلم جزم بكونهم كاذبين والجواب من وجهين (الاول) ان المراد بذلك الذين رموا عائشة خاصة وهم كانوا عند الله كاذبين (الثانى) المراد فأولئك عند الله فى حكم الكاذبين فان الكاذب يجب زجره عن الكذب والقاذف ان لم يأت بالشهود فانه يجب زجره فلما كان شانه شان الكاذب فى الزجر لا جرم اطلق عليه لفظ الكاذب مجازا * (النوع الثالث) قوله تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما افضتم فيه عذاب عظيم) وهذا من باب الزواجر ايضا ولولا ههنا لامتناع الشئ لوجود غيره ويقال افاض فى الحديث واندفع وخاض وفى المعنى وجهان (الاول) ولولا انى قضيت ان اتفضل عليكم فى الدنيا بضروب النعم التى من جملتها الامهال للتوبة وان اترحم عليكم فى الآخرة بالعفو والمغفرة لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم فيه من حديث الافك (والثانى) ولولا فضل الله عليكم ورحمته لمسكم فيما افضتم فيه عذاب عظيم فى الدنيا والآخرة معا فيكون فيه تقديم وتأخير والخطاب للقذفة وهو قول مقاتل وهذا الفضل هو حكم الله تعالى من تأخيره العذاب وحكمه بقبول التوبة لمن تاب * (النوع الرابع) قوله (اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم) وهذا ايضا من الزواجر قال صاحب الكشاف اذ ظرف لمسكم او لأفضتم ومعنى تلقونه يأخذه بعضكم من بعض يقال تلقى القول وتلقنه وتلقفه ومنه قوله تعالى فتلقى آدم من ربه كلمات وقرئ على الاصل تتلقونه واذ تلقونه بادغام الذال فى التاء وتلقونه من لقيه بمعنى لقفه وتلقونه من القائه بعضهم على بعض وتلقونه وتألقونه من الولق والالق وهو الكذب وتلقونه محكية عن عائشة وعن سفيان سمعت امى تقرأ اذ تثقفونه وكان ابوها يقرأ بحرف عبد الله بن مسعود واعلم ان الله تعالى وصفهم بارتكاب ثلاثة آثام وعلق مس العذاب العظيم بها (احدها) تلقى الافك بألسنتهم وذلك ان الرجل كان يلقى الرجل فيقول له ما وراءك فيحدثه بحديث الافك حتى شاع واشتهر فلم يبق بيت ولا ناد الا طار فيه فكأنهم سعوا فى اشاعة الفاحشة وذلك من العظائم (وثانيها) انهم كانوا

فاذا أذن له استأنس (وتسلموا على اهلها) عند الاستئذان روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ان التسليم ان يقول السلام عليكم أأدخل ثلاث مرات فان أذن له دخل والا رجع (ذلكم) اى الاستئذان مع التسليم (خير لكم) من ان تدخلوا بغتة او على تحية الجاهلية حيث كان الرجل منهم اذا أراد ان يدخل بيتا غير بيته يقول حييتم صباحا حييتم مساء فيدخل فربما اصاب الرجل مع امرأته فى لحاف وروى ان رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم استأذن على امى قال له نعم قال ليس لها خادم غيرى أأستأذن عليها كلما دخلت قال عليه الصلاة والسلام أتحب ان تراها عريانة قال لا قال عليه الصلاة والسلام فاستأذن (لعلكم تذكرون) متعلق بمضمر اى امرتم به او قيل لكم هذا كى تتذكروا وتتعظوا وتعملوا بموجبه (فان لم تجدوا فيها احدا) اى ممن يملك الاذن على ان من لا يملكه من النساء والولدان وجدانه كفقدانه او احدا اصلا على ان مدلول النص الكريم عبارة هو النهى عن دخول البيوت الخالية لما فيه من الاطلاع على ما يعتاد الناس اخفاءه مع ان التصرف فى ملك الغير محظور مطلقا

يتكلمون بمالاعلم لهم به وذلك يدل على انه لايجوز الاخبار الامع العلم فاما الذى لايعلم صدقه فالاخبار عنه كالاخبار عماعلم كذبه فى الحرمة ونظيره قوله ولاتقف ماليس لك به علم فان قيل مامعنى قوله بأفواهكم والقول لايكون الابالفم قلنا معناه ان الشئ المعلوم يكون علمه فى القلب فيترجم عنه باللسان وهذا الافك ليس الاقولا يجرى على ألسنتكم من غير ان يحصل فى القلب علم به كقوله يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم (وثالثها) انهم كانوا يستصغرون ذلك وهو عظيم من العظائم ويدل على امور ثلاثة (الاول) يدل على ان القذف من الكبائر لقوله وهو عندالله عظيم (الثانى) نبه بقوله وتحسبونه هينا على ان عظم المعصية لايختلف بظن فاعلها وحسبانه بل ربما كان ذلك مؤكدا لعظمها من حيث جعل كونها عظيما (الثالث) الواجب على المكلف فى كل محرم ان يستعظم الاقدام عليه اذلايأمن انه من الكبائر وقيل لاصغيرة مع الاصرار ولا كبيرة مع الاستغفار * (النوع الخامس) قوله تعالى (ولولا اذسمعتموه قلتم مايكون لنا ان نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم) وهذا من باب الآداب اى هلا اذسمعتموه قلتم مايكون لنا ان نتكلم بهذا وانما وجب عليهم الامتناع منه لوجوه (احدها) ان المقتضى لكونهم تاركين لهذا الفعل قائم وهو العقل والدين ولم يوجد مايعارضه فوجب ان يكون ظن كونهم تاركين للمعصية اقوى من ظن كونهم فاعلين لها فلوانه اخبرعن صدور المعصية لكان قد رجح المرجوح على الراجح وهو غيرجائز (وثانيها) وهو انه يتضمن ايذاء الرسول وذلك سبب للعن لقوله تعالى ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة (وثالثها) انه سبب لايذاء عائشة وايذاء ابويها ومن يتصل بهم من غيرسبب عرف اقدامهم عليه ولا جناية عرف صدورها عنهم وذلك حرام (ورابعها) انه اقدام على مايجوز ان يكون سببا للضرر مع الاستغناء عنه والعقل يقتضى التباعد عنه لان القاذف بتقدير كونه صادقا لايستحق الثواب على صدقه بل يستحق العقاب لانه اشاع الفاحشة وبتقدير كونه كاذبا فانه يستحق العقاب العظيم ومثل ذلك ممايقتضى صريح العقل الاحتراز عنه (وخامسها) انه تضييع للوقت بمالافائدة فيه وقال عليه الصلاة والسلام من حسن اسلام المرء تركه مالايعنيه (وسادسها) ان فى اظهار محاسن الناس وستر مقابحهم تخلقا باخلاق الله تعالى وقال عليه السلام تخلقوا باخلاق الله فهذه الوجوه توجب على العاقل انه اذا سمع القذف ان يسكت عنه وان يجتهد فى الاحتراز عن الوقوع فيه فان قيل كيف جاز الفصل بين لولا وبين قلتم بالظرف قلنا الفائدة فيه انه كان الواجب عليهم ان يحترزوا اول ماسمعوا بالافك عن التكلم به * اما قوله سبحانك هذا بهتان عظيم ففيه سؤالان (الاول) كيف يليق سبحانك بهذا الموضع (الجواب) من وجوه (الاول) المراد منه التعجب من عظم الامر وانما استعمل فى معنى التعجب لانه يسبح الله عند رؤية العجيب من صانعه ثم كثر حتى استعمل فى كل متعجب منه (الثانى) المراد تنزيه الله تعالى عن ان تكون زوجة

(بقيه)

واماحرمة دخول مافيه النساء والوالدان فثابتة بدلالة النص لان الدخول حيث حرم مع ماذكر من العلة فلأن يحرم عند انضمام ماهواقوى منه اليه اعنى الاطلاع على العورات اولى (فلاتدخلوها) واصبروا (حتى يؤذن لكم) اى من جهة من يملك الاذن عنداتيانه ومن فسره بقوله حتى يأتى من يأذن لكم او حتى تجدوا من يأذن لكم فقد ابرز القطعى فى معرض الاحتمال ولما كان جعل النهى مغيى بالاذن ممايوهم الرخصة فى الانتظار على الابواب مطلقا بل فى تكرير الاستئذان ولوبعد الرد دفع ذلك بقوله تعالى (وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا) اى ان امرتم من جهة اهل البيت بالرجوع سواء كان الامر ممن يملك الاذن اولا فارجعوا ولاتلحوا بتكرير الاستئذان كما فى الوجه الاول ولاتلجوا بالاصرار على الانتظار الى ان يأتى الاذن كما فى الثانى فان ذلك ممايجلب الكراهة فى قلوب الناس ويقدح فى المروءة اى قدح (هو) اى الرجوع (ازكى لكم) اى اطهر مما لايخلو عنه اللج والعناد والوقوف على الابواب من دنس الدناءة والرذالة (والله بما تعملون عليم) فيعلم ماتأتون وما

نبيه فاجرة (الثالث) انه منزه عن ان يرضى بظلم هؤلاء الفرقة المفترين (الرابع) انه منزه عن ان لا يعاقب هؤلاء القذفة الظلمة (السؤال الثانى) لم اوجب عليهم ان يقولوا هذا بهتان عظيم مع انهم ما كانوا عالمين بكونه كذبا قطعا والجواب من وجهين (الاول) انهم كانوا متمكنين من العلم بكونه بهتانا لان زوجة الرسول لا يجوز ان تكون فاجرة (الثانى) انهم لما جزموا به مع انهم ما كانوا ظانين له بالقلب كان اخبارهم عن ذلك الجزم كذبا ونظيره قوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون * (النوع السادس) قوله تعالى (يعظكم الله ان تعودوا لمثله ابدا ان كنتم مؤمنين ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم) وهذا من باب الزواجر والمعنى يعظكم الله بهذه المواعظ التى بها تعرفون عظم هذا الذنب وان فيه الحد والنكال فى الدنيا والعذاب فى الآخرة لكى لا تعودوا الى مثل هذا الفعل ابدا وابدهم ما داموا احياء مكلفين وقد دخل تحت ذلك من قال ومن سمع فلم ينكر لان حالهما سواء فى ان فعلا ما لا يجوز وان كان من اقدم عليه اعظم ذنبا فبين ان الغرض بما عرفهم من هذه الطريقة ان لا يعودوا الى مثل ما تقدم منهم وههنا مسائل (المسئلة الاولى) استدلت المعتزلة بقوله ان كنتم مؤمنين على ان ترك القذف من الايمان وعلى ان فعل القذف لا يبقى معه الايمان لان المعلق على الشرط عدم عند عدم الشرط (والجواب) هذا معارض بقوله ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم اى منكم ايها المؤمنون فدل ذلك على ان القذف لا يوجب الخروج عن الايمان واذا ثبت التعارض حملنا هذه الآية على التهييج فى الاتعاظ والانزجار (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة دلت هذه الآية على انه تعالى اراد من جميع من وعظه مجانبة مثل ذلك فى المستقبل وان كان فيهم من لا يطيع فمن هذا الوجه تدل على انه تعالى يريد من كلهم الطاعة وان عصوا لان قوله يعظكم الله ان تعودوا معناه لكى لا تعودوا لمثله وذلك دلالة الارادة (والجواب) عنه قد تقدم مرارا (المسئلة الثالثة) هل يجوز ان يسمى الله تعالى واعظا لقوله يعظكم الله ان تعودوا الاظهر انه لا يجوز كما لا يجوز ان يسمى معلما لقوله الرحمن علم القرآن اما قوله تعالى ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم فالمراد من الآيات ما به يعرف المرء ما ينبغى ان يتمسك به ثم بين انه لكونه عليما حكيما يؤثر بما يجب ان يبينه ويجب ان يطاع لاجل ذلك لان من لا يكون عالما لا يجب قبول تكليفه لانه قد يأمر بما لا ينبغى ولان المكلف اذا اطاعه فقد لا يعلم انه اطاعه وحينئذ لا يبقى للطاعة فائدة واما من كان عالما لكنه لا يكون حكيما فقد يأمره بما لا ينبغى فاذا اطاعه المكلف فقد يعذب المطيع وقد يثيب العاصى وحينئذ لا يبقى للطاعة فائدة واما اذا كان عليما حكيما فانه لا يأمر الا بما ينبغى ولا يهمل جزاء المستحقين فلهذا ذكرهاتين الصفتين وخصهما بالذكر وههنا سؤالات (الاول) الحكيم هو الذى لا يأتى بما لا ينبغى وانما يكون كذلك لو كان عالما بقبح القبيح وعالما بكونه غنيا عنه فيكون العليم داخلا فى الحكيم فكان ذكر الحكيم مغنيا عنه هذا على قول المعتزلة واما على

تدرون مما كلفتموه فيجازيكم عليه (ليس عليكم جناح ان تدخلوا) اى بغير استئذان (بيوتا غير مسكونة) اى غير موضوعة لسكنى طائفة مخصوصة فقط بل ليتمتع بها من يضطر اليها كائنا من كان من غير ان يتخذها سكنى كالربط والخانات والحوانيت والحمامات ونحوها فانها معدة لمصالح الناس كافة كما ينبئ عنه قوله تعالى (فيها متاع لكم) فانه صفة للبيوت او استئناف جار مجرى التعليل لعدم الجناح اى فيها حق تمتع لكم كالاستكنان من الحر والبرد وايواء الامتعة والرحال والشراء والبيع والاغتسال وغير ذلك مما يليق بحال البيوت وداخليها فلا بأس بدخولها بغير استئذان من داخليها من قبل ولا ممن يتولى امرها ويقوم بتدبيرها من قوام الرباطات والخانات واصحاب الحوانيت ومتصرفى الحمامات ونحوهم ويروى ان ابا بكر رضى الله عنه قال يا رسول الله ان الله تعالى قد انزل عليك آية فى الاستئذان وانا نختلف فى تجاراتنا فننزل هذه الخانات افلا ندخلها الا باذن فنزلت وقيل هى الخربات يتبرز فيها والمتاع التبرز والظاهر انها من جملة ما ينتظمه البيوت لا انها المرادة

قول اهل السنة والجماعة الحكمة هي العلم فقط فذكر العليم الحكيم يكون تكرارا محضا (الجواب) يحمل ذلك على التأكيد (السؤال الثاني) قالت المعتزلة دلت الآية على انه انما يجب قبول بيان الله تعالى لمجرد كونه عالما حكيما والحكيم هو الذى لا يفعل القبائح فدل الآية على انه لو كان خالقا للقبائح لما جاز الاعتماد على وعده ووعيده (والجواب) الحكيم عندنا هو العليم وانما يجوز الاعتماد على قوله لكونه عالما بكل المعلومات فان الجاهل لا اعتماد على قوله البتة (السؤال الثالث) قالت المعتزلة قوله يبين الله لكم اى لاجلكم وهذا يدل على ان افعاله معللة بالاغراض ولان قوله لكم لا يجوز حمله على ظاهره لانه ليس الغرض نفس ذواتهم بل الغرض حصول انتفاعهم وطاعتهم وايمانهم فدل هذا على انه تعالى يريد الايمان من الكل (والجواب) المراد انه سبحانه فعل بهم مالو فعله غيره لكان ذلك غرضا * (النوع السابع) قوله تعالى (ان الذين يحبون ان تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب اليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وانتم لا تعلمون) اعلم انه سبحانه لما بين ما على اهل الافك وما على من سمع منهم وما ينبغي ان يتمسكوا به من آداب الدين اتبعه بقوله ان الذين يحبون ان تشيع الفاحشة ليعلم ان من احب ذلك فقد شارك في هذا الذم كما شارك فيه من فعله ومن لم ينكره وليعلم ان اهل الافك كما عليهم العقوبة فيما اظهروه فكذلك يستحقون العقاب بما اسروه من محبة اشاعة الفاحشة في المؤمنين وذلك يدل على وجوب سلامة القلب للمؤمنين كوجوب كف الجوارح والقول عما يضربهم وههنا مسائل (المسئلة الاولى) معنى الاشاعة الانتشار يقال في هذا العقار سهم شائع اذا كان في الجميع ولم يكن منفصلا وشاع الحديث اذا ظهر في العامة (المسئلة الثانية) لاشك ان ظاهر قوله ان الذين يحبون يفيد العموم وانه يتناول كل من كان بهذه الصفة ولاشك ان هذه الآية نزلت في قذف عائشة الا ان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فوجب اجراؤها على ظاهرها في العموم ومما يدل على انه لا يجوز تخصيصها بقذفة عائشة قوله تعالى في الذين آمنوا فانه صيغة جمع ولو اراد عائشة وحدها لم يجز ذلك والذين خصصوه بقذفة عائشة منهم من حمله على عبد الله بن ابي لانه هو الذى سعى في اشاعة الفاحشة قالوا معنى الآية ان الذين يحبون والمراد عبد الله ان تشيع الفاحشة اى الزنا في الذين آمنوا اى في عائشة وصفوان (المسئلة الثالثة) روى عن الرسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال انى لاعرف قوما يضربون صدورهم ضربا يسمعه اهل النار وهم الهمازون اللمازون الذين يلتمسون عورات المسلمين ويهتكون ستورهم ويشيعون فيهم من الفواحش ما ليس فيهم وعنه عليه الصلاة والسلام لا يستر عبد مؤمن عورة عبد مؤمن الا ستره الله يوم القيامة ومن اقال مسلما صفقته اقال الله عثرته يوم القيامة ومن ستر عورته ستر الله عورته يوم القيامة وعنه عليه الصلاة والسلام المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه وعن عبد الله بن عمر عنه عليه الصلاة والسلام قال من سره ان

(يزحزح)

فقط وقوله تعالى) والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) وعيد لمن يدخل مدخلا من هذه المداخل لفساد او اطلاع على عورات (قل للمؤمنين) شروع في بيان احكام كلية شاملة للمؤمنين كافة يندرج فيها حكم المستأذنين عند دخولهم البيوت اندراجا اوليا وتلوين الخطاب وتوجيهه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفويض ما في حيزه من الاوامر والنواهي الى رأيه عليه الصلاة والسلام لانها تكاليف متعلقة بامور جزئية كثيرة الوقوع حقيقة بان يكون الآمر بها والمتصدى لتدبيرها حافظا ومهيمنا عليهم ومفعول الامر آخر قد حذف تعويلا على دلالة جوابه اى قل لهم غضوا (يغضوا من ابصارهم) عما يحرم ويقتصروا به على ما يحل (ويحفظوا فروجهم) الا على ازواجهم او ما ملكت ايمانهم وتقييد الغض بمن التبعيضية دون الحفظ لما في امر النظر من السعة وقيل المراد بالحفظ ههنا خاصة هو الستر (ذلك) اى ما ذكر من الغض والحفظ (ازكى لهم) اى اطهر لهم من دنس الريبة (ان الله خبير بما يصنعون) لا يخفى عليه شئ مما يصدر عنهم من الافاعيل التى من جملتها اجالة النظر واستعمال سائر

يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ويحب ان يؤتى الى الناس ما يحب ان يؤتى اليه وعن أنس قال قال عليه الصلاة والسلام لا يؤمن العبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير (المسئلة الرابعة) اختلفوا فى عذاب الدنيا فقال بعضهم اقامة الحد عليهم وقال بعضهم هو الحد واللعن والعداوة من الله والمؤمنين ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن ابى وحسانا ومسطحا وقعد صفوان لحسان فضربه ضربة بالسيف فكف بصره وقال الحسن عنى به المنافقين لانهم قصدوا ان يغموا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أراد غم رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر وعذابهم فى الدنيا هو ما كانوا يتعبون فيه وينفقون لمقاتلة اوليائهم مع اعدائهم وقال ابو مسلم الذين يحبون هم المنافقون يحبون ذلك فأوعدهم الله تعالى العذاب فى الدنيا على يد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمجاهدة لقوله جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم والاقرب ان المراد بهذا العذاب ما استحقوه بافكهم وهو الحد واللعن والذم فأما عذاب الآخرة فلا شك انه فى القبر عذابه وفى القيامة عذاب النار اما قوله والله يعلم وانتم لا تعلمون فهو حسن الموقع بهذا الموضع لان محبة القلب كامنة ونحن لا نعلمها الا بالامارات اما الله سبحانه فهو لا يخفى عليه شئ فصار هذا الذكر نهاية فى الزجر لان من احب اشاعة الفاحشة وان بالغ فى اخفاء تلك المحبة فهو يعلم ان الله تعالى يعلم ذلك منه وان علمه سبحانه بذلك الذى اخفاه كعلمه بالذى اظهره ويعلم قدر الجزاء عليه (المسئلة الخامسة) الآية تدل على ان العزم على الذنب العظيم عظيم وان ارادة الفسق فسق لانه تعالى علق الوعيد بمحبة اشاعة الفاحشة (المسئلة السادسة) قال الجبائى دلت الآية على ان كل قاذف لم يتب من قذفه فلا ثواب له من حيث استحق هذا العذاب الدائم وذلك يمنع من استحقاق ضده الذى هو الثواب فمن هذا الوجه تدل على ما نقول له فى الوعيد واعلم ان حاصله يرجع الى مسئلة المحابطة وقد تقدم الكلام عليه (المسئلة السابعة) قالت المعتزلة ان الله تعالى بالغ فى ذم من احب اشاعة الفاحشة فلو كان تعالى هو الخالق لافعال العباد لما كان مشيع الفاحشة الا هو فكان يجب ان لا يستحق الذم على اشاعة الفاحشة الا هو لانه هو الذى فعل تلك الاشاعة وغيره لم يفعل شيئا منها والكلام عليه ايضا قد تقدم (المسئلة الثامنة) قال ابو حنيفة رحمه الله الصابة بالفجور لا تستنطق لان استنطاقها اشاعة الفاحشة وذلك ممنوع منه ❁ (النوع الثامن) قوله تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته وان الله رؤف رحيم) وفيه وجوه (احدها) ان جوابه محذوف وكأنه قال لهلكتم او لعذبكم الله واستأصلكم لكنه رؤف رحيم قال ابن عباس الخطاب لحسان ومسطح وحمنة ويجوز ان يكون الخطاب عاما (والثانى) جوابه فى قوله ما زكى منكم من احد ابدا (والثالث) جوابه لكانت الفاحشة تشيع فتعظم المضرة وهو قول ابى مسلم والاقرب ان جوابه محذوف لان قوله من بعد ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد

الحواس وتحريك الجوارح وما يقصدون بذلك فليكونوا على حذر منه فى كل ما يأتون وما يذرون (وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن) فلا ينظرن الى ما لا يحل لهن النظر اليه (ويحفظن فروجهن) بالتستر او التصون عن الزنا وتقديم الغض لان النظر بريد الزنا ورائد الفساد (ولا يبدين زينتهن) كالحلى وغيرها مما يتزين به وفيه من المبالغة فى النهى عن ابداء مواضعها ما لا يخفى (الا ما ظهر منها) عند مزاولة الامور التى لا بد منها عادة كالخاتم والكحل والخضاب ونحوها فان فى سترها حرجا بينا وقيل المراد بالزينة مواضعها على حذف المضاف او ما يعم المحاسن الخلقية والتزيينية والمستثنى هو الوجه والكفان لانها ليست بعورة (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) ارشادا الى كيفية اخفاء بعض مواضع الزينة بعد النهى عن ابدائها وقد كانت النساء على عادة الجاهلية يسدلن خمرهن من خلفهن فتبدو نحورهن وقلائدهن من جيوبهن لوسعها فأمرن بارسال خمرهن الى جيوبهن سترا لما يبدو منها وقد ضمن الضرب معنى الالقاء فعدى بعلى وقرئ بكسر الجيم كما تقدم (ولا يبدين زينتهن)

كالمنفصل من الاول فلايجب ان يكون جوابا للاول خصوصا وقد وقع بين الكلامين كلام آخر والمراد انه لولا انعامه بان بق وامهل ومكن من التلافى لهلكوا لكنه رأفته لايدع ماهو للعبد اصلح وان جنى على نفسه ❊ (النوع التاسع) قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من احد ابدا ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم) قرئ خطوات بضم الطاء وسكونها والخطوات جمع خطوة وهو من خطا الرجل يخطو خطوا فاذا أردت الواحدة قلت خطوة مفتوحة الاول والجمع بفتح اوله وبضم والمراد بذلك السيرة والطريقة والمعنى لاتتبعوا آثار الشيطان ولاتسلكوا مسالكه فى الاصغاء الى الافك والتلقى له واشاعته الفاحشة فى الذين آمنوا والله تعالى وان خص بذلك المؤمنين فهو نهى لكل المكلفين وهو قوله ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر ومعلوم ان كل المكلفين ممنوعون من ذلك وانما قلنا انه تعالى خص المؤمنين بذلك لانه توعدهم على اتباع خطواته بقوله ومن يتبع خطوات الشيطان وظاهر ذلك انهم لم يتبعوه ولو كان المراد به الكفار لكانوا قد اتبعوه فكأنه سبحانه لما بين ماعلى اهل الافك من الوعيد ادب المؤمنين ايضا بأن خصهم بالذكر ليتشددوا فى ترك المعصية لئلا يكون حالهم كحال اهل الافك والفحشاء والفاحشة ما افرط قبحه والمنكر ماتنكره النفوس فتنفر عنه ولاترتضيه اما قوله ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من احد ابدا فقرأ يعقوب وابن محيصن مازكى بالتشديد واعلم ان الزكى من بلغ فى طاعة الله مبلغ الرضا ومنه يقال زكى الزرع فاذا بلغ المؤمن من الصلاح فى الدين الى مايرضاه الله تعالى سمى زكيا ولايقال زكى الا اذا وجد زكيا كما لايقال لمن ترك الهدى هداه الله تعالى مطلقا بل يقال هداه الله فلم يهتد واحتج اصحابنا فى مسئلة المخلوق بقوله ولكن الله يزكى من يشاء فقالوا التزكية كالتسويد والتحمير فكما ان التسويد تحصيل السواد فكذا التزكية تحصيل الزكاء فى المحل قالت المعتزلة ههنا تأويلان (احدهما) حمل التزكية على فعل الالطاف (والثانى) حملها على الحكم بكون العبد زكيا قال اصحابنا الوجهان على خلاف الظاهر ثم نقيم الدلالة العقلية على بطلانهما ايضا (اما الوجه الاول) فيدل على فساده وجوه (احدها) ان فعل اللطف هل يرجح الداعى اولا يرجحه فان لم يرجحه البتة لم يكن به تعلق فلايكون لطفا وان رجحه فنقول المرجح لابد وان يكون منتهيا الى حد الوجوب فانه مع ذلك القدر من الترجيح اما ان يمتنع وقوع الفعل عنده او يمكن او يجب فان امتنع كان مانعا لا داعيا وان امكن ان يكون وان لايكون فكل ماامكن لايلزم من فرض وقوعه محال فليفرض تارة واقعا واخرى غير واقع فامتياز وقت الوقوع عن وقت اللاوقوع اما ان يتوقف على انضمام قيد اليه او لايتوقف فان توقف كان المرجح هو المجموع الحاصل بعد انضمام هذا القيد فلايكون

كرر النهى لاستثناء بعض مواد الرخصة عنه باعتبار الناظر بعد مااستثنى عنه بعض مواد الضرورة باعتبار المنظور (الا لبعولتهن) فانهم المقصودون بالزينة ولهم ان ينظروا الى جميع بدنهن حتى الموضع المعهود (او آبائهن او آباء بعولتهن او ابنائهن او ابناء بعولتهن او اخوانهن او بنى اخوانهن او بنى اخواتهن) لكثرة المخالطة الضرورية بينهم وبينهن وقلة توقع الفتنة من قبلهم لما فى طباع الفريقين من النفرة عن مماسة القرائب ولهم ان ينظروا منهن مايبدو عند المهنة والخدمة وعدم ذكر الاعمام والاخوال لما ان الاحوط ان يتسترن عنهم حذرا من ان يصفوهن لابنائهم (او نسائهن) المختصات بهن بالصحبة والخدمة من حرائر المؤمنات فان الكوافر لايتحرجن عن وصفهن للرجال (او ماملكت ايمانهن) اى من الاماء فان عبد المرأة بمنزلة الاجنبى منها وقيل من الاماء والعبيد لما روى انه عليه الصلاة والسلام اتى فاطمة رضى الله عنها بعبد وهبه لها وعليها ثوب اذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها واذا غطت رجليها لم يبلغ رأسها فقال عليه الصلاة والسلام انه ليس عليك بأس انما هو ابوك وغلامك (او التابعين غير

الحاصل اولامرجحا ان لم يتوقف كان اختصاص احد الوقتين بالوقوع والآخر باللاوقوع ترجيحا للممكن من غير مرجح وهو محال واما ان كان اللطف مرجحا موجبا كان فاعل اللطف فاعلا للملطوف فيه فكان تعالى فاعلا لفعل العبد (الثانى) انه تعالى قال ولكن الله يزكى من يشاء علق التزكية على المشيئة وفعل اللطف واجب والواجب لايتعلق بالمشيئة (الثالث) انه علق التزكية على الفضل والرحمة وخلق الالطاف واجب فلايكون معلقا بالفضل والرحمة (واما الوجه الثانى) وهو الحكم بكونه زكيا فذلك واجب لانه لولم يحكم به لكان كذبا والكذب على الله تعالى محال فكيف يجوز تعليقه بالمشيئة فثبت ان قوله ولكن الله يزكى من يشاء نص فى الباب اما قوله تعالى والله سميع عليم فالمراد انه يسمع اقوالكم فى القذف واقوالكم فى اثبات البراءة عليم بما فى قلوبكم من محبة اشاعة الفاحشة او من كراهيتها واذا كان كذلك وجب الاحتراز عن معصيته ۞ قوله تعالى (ولا يأتل اولوا الفضل منكم والسعة ان يؤتوا اولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا الاتحبون ان يغفر الله لكم والله غفور رحيم) اعلم انه تعالى كما ادب اهل الافك ومن سمع كلامهم كما قدمناذكره فكذلك ادب ابابكر لما حلف ان لاينفق على مسطح ابدا قال المفسرون نزلت الآية فى ابى بكر حيث حلف ان لاينفق على مسطح وهو ابن خالة ابى بكر وقد كان يتيما فى حجره وكان ينفق عليه وعلى قرابته فلما نزلت الآية قال لهم ابو بكر قوموا فلستم منى ولست منكم ولايدخلن على احد منكم فقال مسطح انشدك الله والاسلام وانشدك القرابة والرحم ان لاتحوجنا الى احد فما كان لنا فى اول الامر من ذنب فقال لمسطح ان لم تتكلم فقد ضحكت فقال قد كان ذلك تعجبا من قول حسان فلم يقبل عذره وقال انطلقوا ايها القوم فان الله لم يجعل لكم عذرا ولا فرجا فخرجوا لايدرون اين يذهبون واين يتوجهون من الارض فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره بأن الله تعالى قد انزل على كتابا ينهاك فيه ان تخرجهم فكبر ابو بكر وسر وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية عليه فلما وصل الى قوله الاتحبون ان يغفر الله لكم قال بلى يارب انى احب ان يغفر لى وقد تجاوزت عما كان فذهب ابو بكر الى بيته وارسل الى مسطح واصحابه وقال قبلت ما انزل الله على الرأس والعين وانما فعلت بكم ما فعلت اذ سخط الله عليكم اما اذ عفا عنكم فرحبا بكم وجعل له مثلى ما كان له قبل ذلك اليوم وههنا مسائل (المسئلة الاولى) ذكروا فى قوله ولا يأتل وجهين (الاول) وهو المشهور انه من ائتلى اذا حلف افتعل من الالية والمعنى لايحلف قال ابو مسلم هذا ضعيف لوجهين (احدهما) ان ظاهر الآية على هذا التأويل يقتضى المنع من الحلف على الاعطاء وهم ارادوا المنع من الحلف على ترك الاعطاء فهذا المتأول قد اقام النفى مكان الايجاب وجعل المنهى عنه مأمورا به (وثانيهما) انه قلما يوجد فى الكلام افتعلت مكان افعلت وانما يوجد مكان فعلت وهنا آليت من الالية افعلت فلا يقال افتعلت كما لايقال من الزمت التزمت ومن اعطيت

اولى الاربة من الرجال) اى اولى الحاجة الى النساء وهم الشيوخ الهم والممسوحون وفى المجبوب والخصى خلاف وقيل هم البله الذين يتبعون الناس لفضل طعامهم ولايعرفون شيئا من امور النساء وقرئ غير بالنصب على الحالية (او الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) لعدم تمييزهم من الظهور بمعنى الاطلاع او لعدم بلوغهم حد الشهوة من الظهور بمعنى الغلبة والطفل جنس وضع موضع الجمع اكتفاء بدلالة الوصف (ولا يضربن بارجلهن ليعلم ما يخفين) اى ما يخفينه من الرؤية (من زينتهن) اى ولايضربن بارجلهن الارض ليتقعقع خلخالهن فيعلم انهن ذوات خلخال فان ذلك مما يورث الرجال ميلا اليهن ويوهم ان لهن ميلا اليهم وفى النهى عن ابداء صوت الحلى بعد النهى عن ابداء عينها من المبالغة فى الزجر عن ابداء مواضعها ما لايخفى (وتوبوا الى الله جميعا) تلوين الخطاب وصرف له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الكل بطريق التغليب لابراز كمال العناية بما فى حيزه من امر التوبة وانها من معظمات المهمات الحقيقة بان يكون سبحانه وتعالى هو الآمر بها لما انه لايكاد يخلو احد من المكلفين

اعتطيت ثم قال فى يأتل ان اصله يأتلى ذهبت اليـاء للجزم لانه نهى وهو من قولك ما آلوت فلانا نصحا ولم آل فى امرى جهدا اى ماقصرت ولا يأل ولا يأتل واحد فالمراد لاتقصروا فى ان تحسنوا اليهم ويوجد كثيرا افتعلت مكان فعلت تقول كسبت واكتسبت وصنعت واصطنعت ورضيت وارتضيت فهذا التأويل هو الصحيح دون الاول ويروى هذا التأويل ايضا عن ابى عبيدة اجاب الزجاج عن السؤال الاول بان لاتحذف فى اليمين كثيرا قال الله تعالى ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم ان تبروا يعنى ان لاتبروا وقال امرؤ القيس

فقلت يمين الله ابرح قاعدا * ولو قطعوا رأسى اليك واوصالى

اى لاابرح واجابوا عن السؤال الثانى ان جميع المفسرين الذين كانوا قبل ابى مسلم فسروا اللفظة باليمين وقول كل واحـد منهم حجة فى اللغة فكيف الكل ويعضده قراءة الحسن ولا يتال (المسئلة الثانية) اجمع المفسرون على ان المراد من قوله اولوا الفضـل ابوبكر وهذه الآية تدل على انه رضي الله عنه كان افضل الناس بعد الرسول صلى الله عليه وسلم لان الفضل المذكور فى هذه الآية اما فى الدنيا واما فى الدين والاول باطل لانه تعالى ذكره فى معرض المدح له والمدح من الله تعالى بالدنيا غير جائز ولانه لو كان كذلك لكان قوله والسعة تكريرا فتعين ان يكون المراد منه الفضل فى الدين فلو كان غيره مساويا له فى الدرجات فى الدين لم يكن هو صاحب الفضل لان المساوى لايكون فاضلا فلما اثبت الله تعالى له الفضل مطلقا غير مقيد بشخص دون شخص وجب ان يكون افضل الخلق ترك العمل به فى حق الرسول صلى الله عليه وسلم فيبقى معمولا به فى حق الغير (فان قيل) نمنع اجماع المفسرين على اختصاص هذه الآية بابى بكر (قلنا) كل من طالع كتب التفسير والاحاديث علم ان اختصاص هذه الآية بابى بكر بالغ الى حد التواتر فلو جاز منعه لجاز منع كل متواتر وايضا فهذه الآية دالة على ان المراد منها افضل الناس واجمعت الامة على ان الافضل اما ابوبكر او على فاذا بينا انه ليس المراد عليا تعينت الآية لابى بكر وانما قلنا انه ليس المراد منه عليا لوجهين (الاول) ان ماقبل هذه الآية ومابعـدها يتعلق بابنة ابى بكر فيكون حديث على فى البين سمجا (الثانى) انه تعالى وصفه بانه من اولى السعة وان عليا لم يكن من اولى السعة فى الدنيا فى ذلك الوقت فثبت ان المراد منه ابوبكر قطعا واعلم ان الله تعالى وصف ابابكر فى هذه الآية بصفات عجيبة دالة على علو شانه فى الدين (احدها) انه سبحانه كنى عنه بلفظ الجمع والواحد اذا كنى عنه بلفظ الجمع دل على علو شأنه كقوله تعالى انا نحن نزلنا الذكر انا اعطيناك الكوثر فانظر ان الشخص الذى كناه الله سبحانه مع جلاله بصيغة الجمع كيف يكون علو شانه (وثانيها) وصفه بانه صاحب الفضل على الاطلاق من غير تقييد لذلك بشخص دون شخص والفضل يدخل فيه الافضال وذلك يدل على انه رضى الله عنه كما كان فاضلا على الاطلاق كان مفضلا على الاطلاق (وثالثها) ان الافضال افادة ماينبغى لا للعوض فمن يهب السكين لمن يقتل نفسه لايسمى مفضلا لانه اعطى مالاينبغى ومن اعطى ليستفيد منه عوضا اما ماليا او مدحا وثناء فهو مستفيض والله تعـالى قد وصفه

عن نوع تفريط فى اقامة مواجب التكاليف كما ينبغى وناهيك بقوله عليه السلام شيبتنى سورة هود لما فيها من قوله عز وجل فاستقم كما امرت لاسيما اذا كان المأمور به الكف عن الشهوات وقيل توبوا عما كنتم تفعلونه فى الجاهلية فانه وان جب بالاسلام لكن يجب الندم عليه والعزم على تركه كلما خطر بباله وفى تكرير الخطاب بقوله تعالى (ايها المؤمنون) تأكيد للايجاب وايذان بان وصف الايمان موجب للامتثال حتما وقرئ ايه المؤمنون (لعلكم تفلحون) تفوزون بذلك بسعادة الدارين (وانكحوا الايامى منكم) بعد مازجر تعالى عن السفاح ومباديه القريبة والبعيدة امر بالنكاح فانه مع كونه مقصودا بالذات من حيث كونه مناطا لبقاء النوع خير مزجرة عن ذلك وايامى مقلوب ايايم جمع ايم وهو من لازوج له من الرجال والنساء بكرا كان او ثيبا كما يفصح عنه قول من قال

فان تنكحى انكح وان تتايمى * وان كنت افتى منكم أتايم

اى زوجوا من لازوج له من الاحرار والحرائر (والصالحين من عبادكم وامائكم) على ان الخطاب للاولياء والسادات واعتبار الصلاح فى الارقاء لان من

بذلك فقال وسيجنبها الاتقى الذى يؤتى ماله يتزكى وما لاحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى وقال فى حق على انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا انا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا فعلى اعطى للخوف من العقاب وابو بكر ما اعطى الا لوجه ربه الاعلى فدرجة ابى بكر اعلى فكانت عطيته فى الافضال اتم واكمل (ورابعها) انه قال اولو الفضل منكم فكلمة من للتمييز فكأنه سبحانه ميزه عن كل المؤمنين بصفة كونه اولى الفضل والصفة التى بها يقع الامتياز يستحيل حصولها فى الغير والا لما كانت مميزة له بعينه فدل ذلك على ان هذه الصفة حاصلة فيه لا فى غيره البتة (وخامسها) امكن حمل الفضل على طاعة الله تعالى وخدمته وقوله والسعة على الاحسان الى المسلمين فكأنه كان مستجمعا للتعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله وهما من اعلى مراتب الصديقين وكل من كان كذلك كان الله معه لقوله ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ولأجل اتصافه بهاتين الصفتين قال له لا تحزن ان الله معنا (وسادسها) انما يكون الانسان موصوفا بالسعة لو كان جوادا بذولا ولقد قال عليه الصلاة والسلام خير الناس من ينفع الناس فدل على انه خير الناس من هذه الجهة ولقد كان رضى الله عنه جوادا بذولا فى كل شئ ومن جوده انه لما اسلم بكرة اليوم جاء بعثمان بن عفان وطلحة والزبير وسعد بن ابى وقاص وعثمان بن مظعون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ان اسلموا على يده وكان جوده فى التعليم والارشاد الى الدين والبذل بالدنيا كما هو مشهور فحق له ان يوصف بانه من اهل السعة وايضا فهب ان الناس اختلفوا فى انه هل كان اسلامه قبل اسلام على او بعده ولكن اتفقوا على ان عليا حين اسلم لم يشتغل بدعوة الناس الى دين محمد صلى الله عليه وسلم وان أبا بكر اشتغل بالدعوة فكان ابو بكر اول الناس اشتغالا بالدعوة الى دين محمد ولا شك ان أجل المراتب فى الدين هذه المرتبة فوجب ان يكون أفضل الناس بعد الرسول صلى الله عليه وسلم هو ابو بكر من هذه الجهة ولانه عليه السلام قال من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة فوجب أن يكون لأبى بكر مثل أجر كل من يدعو الى الله فيدل على الافضلية من هذه الجهة ايضا (وسابعها) ان الظلم من ذوى القربى أشد قال الشاعر

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة * على المرء من وقع الحسام المهند

وايضا فالانسان اذا احسن الى غيره فاذا قابله ذلك الغير بالاساءة كان ذلك أشد عليه مما اذا صدرت الاساءة من الاجنبى والجهتان كانتا مجتمعتين فى حق مسطح ثم انه آذى ابا بكر بهذا النوع من الايذاء الذى هو اعظم انواع الايذاء فانظر أين مبلغ ذلك الضرر فى قلب ابى بكر ثم انه سبحانه امره بأن لا يقطع عنه بره وان يرجع معه الى ما كان عليه من الاحسان وذلك من اعظم انواع المجاهدات ولا شك ان هذا اصعب من مقاتلة الكفار لان هذا مجاهدة مع النفس وذلك مجاهدة مع الكافر ومجاهدة النفس اشق ولهذا قال عليه الصلاة والسلام رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر (وثامنها) ان الله تعالى

لا صلاح له منهم بمعزل من ان يكون خليقا بان يعتنى مولاه بشأنه ويشفق عليه ويتكلف فى نظم مصالحه بما لا بد منه شرعا وعادة من بذل المال والمنافع بل حقه ان لا يستبقيه عنده واما عدم اعتبار الصلاح فى الاحرار والحرائر فلان الغالب فيهم الصلاح على انهم مستبدون فى التصرفات المتعلقة بأنفسهم واموالهم فاذا عزموا النكاح فلا بد من مساعدة الاولياء لهم اذ ليس عليهم فى ذلك غرامة حتى يعتبر فى مقابلتها غنيمة عائدة اليهم عاجلة او آجلة وقيل المراد هو الصلاح للنكاح والقيام بحقوقه (ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) ازاحة لما عسى يكون وازعا من النكاح من فقر احد الجانبين اى لا يمنعن فقر الخاطب او المخطوبة من المناكحة فان فى فضل الله عز وجل غنية عن المال فانه غاد ورائح يرزق من يشاء من حيث لا يحتسب او وعد منه سبحانه بالاغناء لقوله عليه الصلاة والسلام اطلبوا الغنى فى هذه الآية لكنه مشروط بالمشيئة كما فى قوله تعالى وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء (والله واسع) غنى ذو سعة لا يرزؤه اغناء الخلائق اذ لا نفاد لنعمته ولا غاية لقدرته ومع ذلك

لما أمر ابابكر بذلك لقبه بأولى الفضل واولى السعة كأنه سبحانه يقول له انت افضل من ان تقابل اساءته بشئ وانت اوسع قلبا من ان تقيم للدنيا وزنا فلا يليق بفضلك وسعة قلبك ان تقطع برك عنه بسبب ماصدر منه من الاساءة ومعلوم ان مثل هذا الخطاب يدل على نهاية الفضل والعلو فى الدين (وتاسعها) ان الالف واللام يفيدان العموم فالالف واللام فى الفضل والسعة يدلان على ان كل الفضل وكل السعة لابى بكر كما يقال فلان هو العالم يعنى قد بلغ فى الفضل الى ان صار كأنه كل العالم وماعداه كالعدم وهذا ايضا منقبة عظيمة (وعاشرها) قوله وليعفوا وليصفحوا وفيه وجوه (منها) ان العفو قرينة التقوى وكل من كان اقوى فى العفو كان اقوى فى التقوى ومن كان كذلك كان افضل لقوله تعالى ان اكرمكم عند الله اتقاكم (ومنها) ان العفو والتقوى متلازمان فلهذا السبب اجتمعا فيه اما التقوى فلقوله تعالى وسيجنبها الاتقى واما العفو فلقوله تعالى وليعفوا وليصفحوا (وحادى عشرها) انه سبحانه قال لمحمد صلى الله عليه وسلم فاعف عنهم واصفح وقال فى حق ابى بكر وليعفوا وليصفحوا فمن هذا الوجه يدل على ان ابابكر كان ثانى اثنين لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى جميع الاخلاق حتى فى العفو والصفح (وثانى عشرها) قوله ألا تحبون ان يغفر الله لكم فانه سبحانه ذكره بكناية الجمع على سبيل التعظيم وايضا فانه سبحانه علق غفرانه له على اقدامه على العفو والصفح فلما حصل الشرط منه وجب ترتيب الجزاء عليه ثم قوله يغفر الله لكم بصيغة المستقبل وانه غير مقيد بشئ دون شئ فدلت الآية على انه سبحانه قد غفر له فى مستقبل عمره على الاطلاق فكان من هذا الوجه ثانى اثنين للرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ودليلا على صحة امامته رضى الله عنه فان امامته لو كانت على خلاف الحق لما كان مغفورا له على الاطلاق ودليلا على صحة ما ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم فى خبر بشارة العشرة بان ابابكر فى الجنة (وثالث عشرها) انه سبحانه وتعالى لما قال ألا تحبون ان يغفر الله لكم وصف نفسه بكونه غفورا رحيما والغفور مبالغة فى الغفران فعظم ابابكر حيث خاطبه بلفظ الجمع الدال على التعظيم وعظم نفسه سبحانه حيث وصفه بمبالغة الغفران والعظيم اذا عظم نفسه ثم عظم مخاطبه فالعظمة الصادرة منه لاجله لابد وان تكون فى غاية العظمة ولهذا قلنا بانه سبحانه لما قال انا اعطيناك الكوثر وجب ان تكون العطية عظيمة فدلت الآية على ان ابابكر ثانى اثنين للرسول صلى الله عليه وسلم فى هذه المنقبة ايضا (ورابع عشرها) انه سبحانه لما وصفه بانه اولو الفضل والسعة على سبيل المدح وجب ان يقال انه كان خاليا عن المعصية لان الممدوح الى هذا الحد لا يجوز ان يكون من اهل النار ولو كان عاصيا لكان كذلك لقوله تعالى ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها واذا ثبت انه كان خاليا عن المعاصى فقوله يغفر الله لكم لا يجوز ان يكون المراد غفران معصية لان المعصية التى لاتكون لا يمكن غفرانها واذا ثبت انه لا يمكن حمل الآية على ذلك وجب

(حملها)

(عليم) يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة (وليستعفف) ارشاد للعاجزين عن مبادى النكاح واسبابها الى ماهو اولى لهم واحرى بهم بعد بيان جواز مناكحة الفقراء اى ليجتهد فى العفة وقمع الشهوة (الذين لايجدون نكاحا) اى اسباب نكاح اولا يتمكنون مما ينكح به من المال (حتى يغنيهم الله من فضله) عدة كريمة بالتفضل عليهم بالغنى ولطف لهم فى استعفافهم وتقوية لقلوبهم وايذان بان فضله تعالى اولى بالاعفاء وادنى من الصلحاء (والذين يبتغون الكتاب) بعد ما امر بانكاح صالحى المماليك الاحقاء بالانكاح امر بكتابة من يستحقها منهم والكتاب مصدر كاتب كالمكاتبة اى الذين يطلبون المكاتبة (مما ملكت ايمانكم) عبدا كان اوامة وهى ان يقول المولى لمملوكه كاتبتك على كذا درهما تؤديه الى وتعتق ويقول المملوك قبلته اونحو ذلك فان اداه اليه عتق قالوا معناه كتبت لك على نفسى ان تعتق منى اذا وفيت بالمال وكتبت لى على نفسك ان تفى بذلك اوكتبت عليك الوفاء بالمال وكتبت على العتق عنده والتحقيق ان المكاتبة

جلها على وجه آخر فكأنه سبحانه قال والله اعلم ألا تحبون ان يغفر الله لكم لاجل تعظيمكم هؤلاء القذفة العصاة فيرجع حاصل الآية الى انه سبحانه قال يا ابا بكر ان قبلت هؤلاء العصاة فانا ايضا اقبلهم وان رددتهم فانا ايضا أردهم فكأنه سبحانه اعطاه مرتبة الشفاعة فى الدنيا فهذا ما حضرنا فى هذه الآية والله اعلم (فان قيل) هذه الآية تقدح فى فضيلة ابى بكر من وجه آخر وذلك لانه نهاه عن هذا الحلف فدل على صدور المعصية منه (قلنا الجواب) عنه من وجوه (احدها) ان النهى لا يدل على وقوعه قال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم ولا تطع الكافرين والمنافقين ولم يدل ذلك على انه عليه الصلاة والسلام اطاعهم بل دلت الاخبار القاهرة على صدور هذا الحلف منه ولكن على هذا التقدير لا تكون الآية دالة على قولكم (وثانيها) هب انه صدر عنه ذلك الحلف فلم قلتم انه كان معصية وذلك لان الامتناع من التفضل قد يحسن خصوصا فيمن يسيء الى من احسن اليه او فى حق من يتخذه ذريعة الى الافعال المحرمة لا يقال فلو لم تكن معصية لما جاز ان ينهى الله عنه بقوله ولا يأتل اولو الفضل لانا نقول هذا النهى ليس نهى زجر وتحريم بل هو نهى عن ترك الاولى كأنه سبحانه قال لابى بكر اللائق بفضلك وسعة همتك ان لا تقطع هذا فكان هذا ارشادا الى الاولى لا منعا عن المحرم (المسئلة الثالثة) اجمعوا على ان المراد من قوله اولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله مسطح لانه كان قريبا لابى بكر وكان من المساكين وكان من المهاجرين واختلفوا فى الذنب الذى وقع منه فقال بعضهم قذف كما فعله عبد الله بن ابى فانه عليه الصلاة والسلام حده وانه تاب عن ذلك وقال ابن عباس رضى الله عنهما كان تاركا للمنكر ومظهرا للرضا واى الامرين كان فهو ذنب (المسئلة الرابعة) احتج اصحابنا بهذه الآية على بطلان المحابطة وقالوا انه سبحانه وصفه بكونه من المهاجرين فى سبيل الله بعد ان اتى بالقذف وهذه صفة مدح فدل على ان ثواب كونه مهاجرا لم يحبط باقدامه على القذف (المسئلة الخامسة) اجمعوا على ان مسطحا كان من البدريين وثبت بالرواية الصحيحة انه عليه الصلاة والسلام قال لعل الله نظر الى اهل بدر فقال افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم فكيف صدرت الكبيرة منه بعد ان كان بدريا (والجواب) انه لا يجوز ان يكون المراد منه افعلوا ما شئتم من المعاصى فيأمرها او يبيحها الا انا نعلم بالضرورة ان التكليف كان باقيا عليهم فلو حملناه على ذلك لاقتضى زوال التكليف عنهم ولانه لو كان كذلك لما جاز ان يحد مسطح على ما فعل ويلعن فوجب حمله على احد امرين (الاول) انه تعالى اطلع على اهل بدر وقد علم توبتهم وانابتهم فقال افعلوا ما شئتم من النوافل من قليل او كثير فقد غفرت لكم واعطيتكم الدرجات العالية فى الجنة (الثانى) يحتمل ان يكون المراد انهم يوافون بالطاعة فكأنه قال قد غفرت لكم لعلمى بانكم تموتون على التوبة والانابة فذكر حالهم فى الوقت واراد العاقبة (المسئلة السادسة) العفو والصفح عن المسيء حسن مندوب اليه وربما وجب ذلك ولم يدل عليه

اسم للعقد الحاصل من مجموع كلاميهما كسائر العقود الشرعية المنعقدة بالايجاب والقبول ولاريب فى ان ذلك لا يصدر حقيقة الا من المتعاقدين وليس وظيفة كل منهما فى الحقيقة الا الاتيان باحد شطريه معربا عما يتم من قبله ويصدر عنه من الفعل الخاص به من غير تعرض لما يتم من قبل صاحبه ويصدر عنه من فعله الخاص به الا ان كلا من ذينك الفعلين لما كان بحيث لا يمكن تحققه فى نفسه الا منوطا بتحقق الآخر ضرورة ان التزام العتق بمقابلة البدل من جهة المولى لا يتصور تحققه وتحصيله الا بالتزام البدل من طرف العبد كما ان عقد البيع الذى هو تمليك المبيع بالثمن من جهة البائع لا يمكن تحققه الا بتملكه به من جانب المشترى لم يكن بد من تضمين احدهما الآخر وقت الانشاء فكما ان قول البائع بعت انشاء لعقد البيع على معنى انه ايقاع لما يتم من قبله اصالة ولما يتم من قبل المشترى ضمنا ايقاعا متوقفا على رأيه توقفا شبيها بتوقف عقد الفضولى كذلك قول المولى كاتبتك على كذا انشاء لعقد الكتابة اى ايقاع لما يتم من قبله من التزام العتق بمقابلة البدل اصالة ولما يتم من قبل العبد من التزام البدل ضمنا ايقاعا متوقفا

الاهذه الآية لكفى ألاترى الى قوله تعالى ألاتحبون ان يغفر الله لكم فعلق الغفران بالعفو والصفح وعنه عليه الصلاة والسلام من لم يقبل عذر المتنصل كاذبا كان او صادقا فلا يرد على حوضى يوم القيامة وعنه عليه الصلاة والسلام افضل اخلاق المسلين العفو وعنه ايضا ينادى مناد يوم القيامة الا من كان له على الله اجر فليقم فلا يقوم الا اهل العفو ثم تلا فمن عفا واصلح فأجره على الله وعنه عليه الصلاة والسلام ايضا لايكون العبد ذا فضل حتى يصل من قطعه ويعفو عمن ظلمه ويعطى من حرمه (المسئلة السابعة) فى هذه الآية دلالة على ان اليمين على الامتناع من الخير غير جائز وانما يجوز اذا جعلت داعية للخير لاصارفة عنه (المسئلة الثامنة) مذهب جمهور الفقهاء ان من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها انه ينبغى له ان يأتى الذى هو خير ثم يكفر عن يمينه وقال بعضهم انه يأتى بالذى هو خير وذلك كفارته واحتج ذلك القائل بالآية وبالخبر اما الآية فهى ان الله تعالى أمر أبابكر بالحنث ولم يوجب عليه كفارة واما الخبر فاروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير وذلك كفارته واما دليل قول الجمهور فامور (احدها) قوله تعالى ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته وقوله ذلك كفارة ايمانكم اذا حلفتم وذلك عام فى الحانث فى الخير وغيره (وثانيها) قوله تعالى فى شان ايوب حين حلف على امرأته ان يضربها وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولاتحنث وقد علمنا ان الحنث كان خيرا من تركه وامره الله بضرب لايبلغ منها ولو كان الحنث فيها كفارتها لما امر بضربها بل كان يحنث بلا كفارة (وثالثها) قوله عليه الصلاة والسلام من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه (اما الجواب) عما ذكره اولا فهو انه تعالى لم يذكر امر الكفارة فى قصة ابى بكر لانفيا ولا اثباتا لان حكمه كان معلوما فى سائر الآيات (والجواب) عما ذكره ثانيا فى قوله فليأت الذى هو خير وذلك كفارته فمعناه تكفير الذنب لا الكفارة المذكورة فى الكتاب وذلك لانه منهى عن نقض الايمان فأمره ههنا بالحنث والتوبة واخبر ان ذلك يكفر ذنبه الذى ارتكبه بالحلف (المسئلة التاسعة) روى القاسم بن محمد عن عائشة رضى الله عنها انها قالت فضلت ازواج النبى صلى الله عليه وسلم بعشر خصال تزوجنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكرا دون غيرى وابواى مهاجران وجاء جبريل عليه السلام بصورتى فى حريرة وامره ان يتزوج بى وكنت اغتسل معه فى اناء واحد وجبريل عليه السلام ينزل عليه بالوحى وانا معه فى لحاف واحد وتزوجنى فى شوال وبنى بى فى ذلك الشهر وقبض بين سحرى ونحرى وانزل الله تعالى عذرى من السماء ودفن فى بيتى وكل ذلك لم يساونى غيرى فيه وقال بعضهم برأ الله اربعة بأربعة برأ يوسف عليه السلام بلسان الشاهد وشهد شاهد من اهلها وبرأ موسى عليه السلام من قول اليهود بالحجر الذى ذهب بثوبه وبرأ مريم بانطاق ولدها وبرأ عائشة بهذه الآيات العظام فى كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر وروى انه لما قربت وفاة عائشة جاء ابن عباس يستأذن عليها

(فقالت)

على قبوله فاذا قبل تم العقد ومحل الموصول الرفع على الابتداء خبره (فكاتبوهم) والفاء لتضمنه معنى الشرط او النصب على انه مفعول لمضمر يفسره هذا والامر فيه للندب لان الكتابة عقد يتضمن الارفاق فلا تجب كغيرها ويجوز حالا ومؤجلا ومنجما وغير منجم وعند الشافعى رحمه الله لايجوز الامؤجلا منجما وقد فصل فى موضعه (ان علمتم فيهم خيرا) اى امانة ورشدا وقدرة على اداء البدل بتحصيله من وجه حلال وصلاحا لايؤذى الناس بعد العتق واطلاق العنان (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) امر للموالى ببذل شئ من اموالهم وفى حكمه حط شئ من مال الكتابة ويكفى فى ذلك اقل ما يتمول وعن على رضى الله عنه حط الربع وعن ابن عباس رضى الله عنهما الثلث وهو للندب عندنا وعند الشافعى للوجوب ويرده قوله عليه الصلاة والسلام المكاتب عبد ما بقى عليه درهم اذ لووجب الحط لسقط عنه الباقى حتما وايضا لووجب الحط لكان وجوبه معلقا بالعقد فيكون العقد موجبا ومسقطا معا وايضا فهو عقد معاوضة فلايجبر على الحطيطة كالبيع وقيل معنى آتوهم اقرضوهم وقيل هو امر لهم بان ينفقوا عليهم بعد ان يؤدوا ويعتقوا واضافة المال اليه تعالى ووصفه بايتائه

فقالت يجيء الآن فيثني على فخبره ابن الزبير فقال ما ارجع حتى تأذن لى فأذنت له فدخل
فقالت عائشة اعوذ بالله من النار فقال ابن عباس يا ام المؤمنين مالك و النار قد أعاذك الله
منها وانزل براءتك تقرأ فى المساجد وطيبك فقال الطيبات للطيبين و الطيبون للطيبات
كنت احب نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه ولم يحب صلى الله عليه وسلم الا طيبا
وانزل بسببك التيمم فقال فتيمموا صعيدا طيبا وروى ان عائشة وزينب تفاخرتا فقالت
زينب أنا التى انزل ربى تزويجى وقالت عائشة أنا التى برأنى ربى حين حملنى ابن المعطل على
الراحلة فقالت لها زينب ما قلت حين ركبتيها قالت قلت حسبى الله ونعم الوكيل فقالت
قلت كلمة المؤمنين ❊ قوله تعالى (ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى
الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم يوم تشهد عليهم ألسنتهم وايديهم وارجلهم بما كانوا
يعملون يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون ان الله هو الحق المبين) وفيه مسئلتان (المسئلة
الاولى) اختلفوا فى قوله ان الذين يرمون المحصنات الغافلات هل المراد منه كل من كان
بهذه الصفة او المراد منه الخصوص اما الاصوليون فقالوا الصيغة عامة ولا مانع من
اجرائها على ظاهرها فوجب حمله على العموم فيدخل فيه قذفة عائشة وقذفة غيرها ومن
الناس من خالف فيه وذكر وجوها (احدها) ان المراد قذفة عائشة قالت عائشة رميت وانا
غافلة وانما بلغنى بعد ذلك فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم عندى اذ أوحى الله اليه فقال
أبشرى وقرأ ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات (وثانيها) ان المراد جملة
أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ولنهن اشرفهن خصصن بأن من قذفهن فهذا الوعيد
لاحق به واحتج هؤلاء بأمور (الاول) ان قاذف سائر المحصنات تقبل توبته لقوله تعالى
فى اول السورة والذين يرمون المحصنات الى قوله واولئك هم الفاسقون الا الذين تابوا
واما القاذف فى هذه الآية فانه لاتقبل توبته لانه سبحانه قال لعنوا فى الدنيا والآخرة
ولم يذكر الاستثناء وايضا فهذه صفة المنافقين فى قوله ملعونين اينما ثقفوا (الثانى) ان
قاذف سائر المحصنات لايكفر والقاذف فى هذه الآية يكفر لقوله تعالى يوم تشهد عليهم
ألسنتهم وايديهم وارجلهم وذلك صفة الكفار والمنافقين كقوله ويوم يحشر اعداء الله
الى النار الآيات الثلاث (الثالث) انه قال ولهم عذاب عظيم والعذاب العظيم يكون
عذاب الكفر فدل على ان عقاب هذا القاذف عقاب الكفر وعقاب قذفة سائر المحصنات
لايكون عقاب الكفر (الرابع) روى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه كان بالبصرة
يوم عرفة وكان يسئل عن تفسير القرآن فسئل عن تفسير هذه الآية فقال من اذنب ذنبا ثم تاب
قبلت توبته الا من خاض فى أمر عائشة أجاب الاصوليون عنه بأن الوعيد المذكور فى
هذه الآية لابد وان يكون مشروطا بعدم التوبة لان الذنب سواء كان كفرا أو فسقا فاذا
حصلت التوبة عنه صار مغفورا فزال السؤال ومن الناس من ذكر فيه قولا آخر وهو
أن هذه الآية نزلت فى مشركى مكة حين كان بينهم وبين رسول الله عهد فكانت المرأة اذا

اياهم للحث على الامتثال بالامر بتحقيق المأمور به كما فى قوله تعالى وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فان ملاحظة وصول المال اليهم من جهته تعالى مع كونه هو المالك الحقيقى له من اقوى الدواعى الى صرفه الى الجهة المأمور بها وقيل هو امر باعطاء سهمهم من الصدقات فالامر للوجوب حتما والاضافة والوصف لتعيين المأخذ وقيل هو امر ندب لعامة المسلمين باعانة المكاتبين بالتصدق عليهم ويحل ذلك للمولى وان كان غنيا لتبدل العنوان حسبما ينطق به قوله عليه الصلاة والسلام فى حديث بريرة هو لها صدقة ولنا هدية (ولاتكرهوا فتياتكم) اى اماءكم فان كلا من الفتى والفتاة كناية مشهورة عن العبد والامة وعلى ذلك مبنى قوله عليه الصلاة والسلام ليقل احدكم فتاى وفتاتى ولايقل عبدى وامتى ولهذه العبارة فى هذا المقام باعتبار مفهومها الاصلى حسن موقع ومزيد مناسبة لقوله تعالى (على البغاء) وهو الزنا من حيث صدوره عن النساء لانهن اللاتى يتوقع منهن ذلك غالبا دون من عداهن من العجائز والصغائر وقوله تعالى (ان اردن تحصنا) ليس لتخصيص النهى بصورة ارادتهن التعفف عن الزنا واخراج ماعداها من حكمه كما اذا كان الاكراه بسبب كراهتهن الزنا

خرجت الى المدينة مهاجرة فقذفها المشركون من اهل مكة و قالوا انما خرجت لتفجر فنزلت فيهم والقول الاول هو الصحيح (المسئلة الثانية) ان الله تعالى ذكر فيمن يرمى المحصنات الغافلات المؤمنات ثلاثة اشياء (احدها) كونهم ملعونين فى الدنيا و الآخرة وهو وعيد شديد واحتج الجبائى بأن التقييد باللعن عام فى جميع القذفة ومن كان ملعونا فى الدنيا فهو ملعون فى الآخرة والملعون فى الآخرة لايكون من اهل الجنة وهو بناء على المحابطة وقد تقدم القول فيه (وثانيها) قوله يوم تشهد عليهم ألسنتهم وايديهم وارجلهم بما كانوا يعملون ونظيره قوله وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا وعندنا البنية ليست شرط الحياة فيجوز ان يخلق الله تعالى فى الجوهر الفرد علما وقدرة وكلاما وعند المعتزلة لايجوز ذلك فلاجرم ذكروا فى تأويل هذه الآية وجهين (الاول) انه سبحانه يخلق فى هذه الجوارح هذا الكلام وعندهم المتكلم فاعل الكلام فتكون تلك الشهادة من الله تعالى فى الحقيقة الا انه سبحانه اضافها الى الجوارح توسعا (الثانى) انه سبحانه يبنى هذه الجوارح على خلاف ماهى عليه ويلجئها ان تشهد على الانسان وتخبر عنه باعماله قال القاضى وهذا اقرب الى الظاهر لان ذلك يفيد انها تفعل الشهادة (وثالثها) قوله تعالى يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ولاشبهة فى ان نفس دينهم ليس هو المراد لان دينهم هو عملهم بل المراد جزاء عملهم والدين بمعنى الجزاء مستعمل كقولهم كما تدين تدان وقيل الدين هو الحساب كقوله ذلك الدين القيم اى الحساب الصحيح ومعنى قوله الحق اى ان الذى نوفيهم من الجزاء هو القدر المستحق لانه الحق وما زاد عليه هو الباطل وقرئ الحق بالنصب صفة للدين و هو الجزاء وبالرفع صفة لله واما قوله ويعلمون ان الله هو الحق المبين فمن الناس من قال انه سبحانه انما سمى بالحق لان عبادته هى الحق دون عبادة غيره او لانه الحق فيما يأمر به دون غيره ومعنى المبين يؤيد ماقلنا لان المحق فيما يخاطب به هو المبين من حيث يبين الصحيح بكلامه دون غيره ومنهم من قال الحق من أسماء الله تعالى ومعناه الموجود لان نقيضه الباطل وهو المعدوم ومعنى المبين المظهر ومعناه ان بقدرته ظهر وجود الممكنات فمعنى كونه حقا انه الموجود لذاته ومعنى كونه مبينا انه المعطى وجود غيره ۞ قوله تعالى (الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات اولئك مبرؤن مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم) اعلم ان الخبيثات يقع على الكلمات التى هى القذف الواقع من اهل الافك ويقع ايضا على الكلام الذى هو كالذم و اللعن ويكون المراد من ذلك لانفس الكلمة التى هى من قبل الله تعالى بل المراد مضمون الكلمة ويقع ايضا على الزوانى من النساء وفى هذه الآية كل هذه الوجوه محتملة فان حملناها على القذف الواقع من اهل الافك كان المعنى الخبيثات من قول اهل الافك للخبيثين من الرجال وبالعكس والطيبات من قول منكرى الافك للطيبين من الرجال وبالعكس وان حملناها على الكلام الذى هو كالذم واللعن فالمعنى ان الذم واللعن معدان للخبيثين من الرجال والخبيثون منهم معرضون للعن والذم وكذا القول فى الطيبات وأولئك اشارة الى الطيبين وانهم مبرؤن مما يقول الخبيثون من خبيثات الكلمات وان

لخصوص الزانى او لخصوص الزمان او لخصوص المكان اولغير ذلك من الامور المصححة للاكراه فى الجملة بل للمحافظة على عادتهم المستمرة حيث كانوا يكرهونهن على البغاء وهن يردن التعفف عنه مع وفور شهوتهن الآمرة بالفجور وقصورهن فى معرفة الامور الداعية الى المحاسن الزاجرة عن تعاطى القبائح فان عبدالله بن ابى كانت له ست جوار يكرههن على الزنا وضرب عليهن ضرائب فشكت اثنتان منهن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وفيه من زيادة تقبيح حالهم وتشنيعهم على ما كانوا عليه من القبائح مالايخفى فان من له ادنى مروأة لايكاد يرضى بفجور من يحويه حرمه من امائه فضلا عن امرهن به او اكراههن عليه لاسيما عند ارادتهن التعفف فتأمل ودع عنك ماقيل من ان ذلك لان الاكراه لايتأتى الامع ارادة التحصن وماقيل من انه جعل شرطا للنهى لايلزم من عدمه جواز الاكراه لجواز ان يكون ارتفاع النهى لامتناع المنهى عنه فانهما بمعزل من التحقيق وايثار كلمة ان على اذا مع تحقق الارادة فى مورد النص حتما للايذان بوجوب الانتهاء عن الاكراه عند كون ارادة التحصن

حملناه على الزوانى فالمعنى الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال وبالعكس على معنى قوله تعالى الزانى لاينكح الا زانية والطيبات من النساء للطيبين من الرجال والمعنى ان مثل ذلك الرمى الواقع من المنافقين لايليق الا بالخبيثات والخبيثين لا بالطيبات والطيبين كالرسول صلى الله عليه وسلم وازواجه فان قيل فعلى هذا الوجه يلزم ان لايتزوج الرجل العفيف بالزانية (والجواب) ماتقدم فى قوله الزانى لاينكح الا زانية وقوله اولئك مبرؤن يعنى الطيبات والطيبين مما يقوله اصحاب الافك سوى قول من حمله على الكلمات فكأنه قال الطيبون مبرؤن مما يقوله الخبيثون ومتى حمل اولئك على هذا الوجه كان لفظه كمعناه فى انه جمع ومتى حملته على عائشة وصفوان وهما اثنان فكيف يعبر عنهما بلفظ الجمع فجوابه من وجهين (الاول) ان ذلك الرمى قد تعلق بالنبى صلى الله عليه وسلم وبعائشة وصفوان فبرأ الله تعالى كل واحد منهم من التهمة اللائقة به (الثانى) ان المراد به كل ازواج النبى صلى الله عليه وسلم فكأنه تعالى برأهن من هذا الافك لكى لايقدح فيهن احد كما اقدموا على عائشة ونزه الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك عن امثال هذا الامر وهذا ابين كأنه تعالى بين ان الطيبات من النساء للطيبين من الرجال ولا احد اطيب ولا اطهر من الرسول فأزواجه اذن لايجوز ان يكن الا طيبات ثم بين تعالى ان لهم مغفرة يعنى براءة من الله ورسوله ورزق كريم فى الآخرة ويحتمل ان يكون ذلك خبرا مقطوعا به فيعلم بذلك ان ازواج الرسول عليه الصلاة والسلام هن معه فى الجنة وقد وردت الاخبار بذلك ويحتمل ان يكون المراد بشرط اجتناب الكبائر والتوبة والاول اولى لانا انما نحتاج الى الشرط اذا لم يمكن حمل الآية عليه اما اذا امكن فلا وجه لطلب الشرط وهذا يدل على ان عائشة رضى الله عنها تصير الى الجنة بخلاف مذهب الرافضة الذين يكفرونها بسبب حرب يوم الجمل فانهم يردون بذلك نص القرآن فان قيل القطع بأنها من اهل الجنة اغراء لها بالقبيح قلنا اليس ان الرسول صلى الله عليه وسلم قد اعلمه الله تعالى بانه من اهل الجنة ولم يكن ذلك اغراء له بالقبيح وكذا العشرة المبشرة بالجنة فكذا ههنا والله اعلم تمت قصة اهل الافك (الحكم السادس) فى الاستئذان * قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على اهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فان لم تجدوا فيها احدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو ازكى لكم والله بما تعملون عليم ليس عليكم جناح ان تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ماتبدون وماتكتمون) اعلم انه تعالى عدل عما يتصل بالرمى والقذف وما يتعلق بهما من الحكم الى مايليق به لان اهل الافك انما وجدوا السبيل الى بهتانهم من حيث اتفقت الخلوة فصارت كأنها طريق التهمة فأوجب الله تعالى ان لايدخل المرء بيت غيره الا بعد الاستئذان والسلام لان فى الدخول لا على هذا الوجه وقوع التهمة وفى ذلك من المضرة مالا خفاء به فقال يا أيها الذين آمنوا الخ وفى الآية

فى حيز التردد والشك فكيف اذا كانت محققة الوقوع كما هو الواقع وتعليله بان الارادة المذكورة منهن فى حيز الشاذ النادر مع خلوه عن الجدوى بالكلية يأباه اعتبار تحققها اباه ظاهرا وقوله تعالى (لتبتغوا عرض الحيوة الدنيا) قيد للاكراه لكن لا باعتبار انه مدار للنهى عنه بل باعتبار انه المعتاد فيما بينهم كما قبله جئ به تشنيعا لهم فيما هم عليه من احتمال الوزر الكبير لاجل النزر الحقير اى لاتفعلوا ما انتم عليه من اكراههن على البغاء لطلب المتاع السريع الزوال الوشيك الاضمحلال فالمراد بالابتغاء الطلب المقارن لنيل المطلوب واستيفائه بالفعل اذ هو الصالح لكونه غاية للاكراه مترتبا عليه لا المطلق المتناول للطلب السابق الباعث عليه (ومن يكرههن) الخ جملة مستأنفة سيقت لتقرير النهى وتأكيد وجوب العمل به ببيان خلاص المكرهات عن عقوبة المكره عليه عبارة ورجوع غائلة الاكراه الى المكرههين اشارة اى ومن يكرههن على ماذكر من البغاء (فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم) اى لهن كما وقع فى مصحف ابن مسعود وعليه قراءة ابن عباس رضى الله تعالى عنهم وكما ينبئ عنه

سؤالات (السؤال الاول) الاستئناس عبارة عن الانس الحاصل من جهة المجالسة قال تعالى ولا مستأنسين لحديث وانما يحصل ذلك بعد الدخول والسلام فكان الاولى تقديم السلام على الاستئناس فلم جاء على العكس من ذلك (والجواب) عن هذا من وجوه (احدها) ما يروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير انما هو حتى تستأذنوا فأخطأ الكاتب وفي قراءة ابي حتى تستأذنوا لكم والتسليم خير لكم من تحية الجاهلية والدمور وهو الدخول بغير اذن واشتقاقه من الدمار وهو الهلاك كأن صاحبه دامر لعظم ما ارتكب وفي الحديث من سبقت عينه استئذانه فقد دمر واعلم ان هذا القول من ابن عباس فيه نظر لانه يقتضي الطعن في القرآن الذي نقل بالتواتر ويقتضي صحة القرآن الذي لم ينقل بالتواتر وفتح هذين البابين يطرق الشك الى كل القرآن وانه باطل (وثانيها) ما روى عن الحسن البصري انه قال ان في الكلام تقديما وتأخيرا والمعنى حتى تسلموا على اهلها وتستأنسوا وذلك لان السلام مقدم على الاستئناس وفي قراءة عبد الله حتى تسلموا على اهلها وتستأذنوا وهذا ايضا ضعيف لانه خلاف الظاهر (وثالثها) ان تجرى الكلام على ظاهره ثم في تفسير الاستئناس وجوه (الاول) حتى تستأذنوا بالاذن وذلك لانهم اذا استأذنوا وسلموا انس اهل البيت ولو دخلوا بغير اذن لاستوحشوا وشق عليهم (الثاني) تفسير الاستئناس بالاستعلام والاستكشاف استفعال من آنس الشيء اذا ابصره ظاهرا مكشوفا والمعنى حتى تستعلموا وتستكشفوا الحال هل يراد دخولكم ومنه قولهم استأنس هل ترى احد واستأنست فلم أر احدا اي تعرفت واستعلمت (فان قيل) واذا حمل على الانس ينبغي ان يتقدمه السلام كما روى انه عليه الصلاة والسلام كان يقول السلام عليكم أأدخل (قلنا) المستأذن ربما لا يعلم ان احدا في المنزل فلا معنى لسلامه والحالة هذه والاقرب ان يستعلم بالاستئذان هل هناك من يأذن فاذا اذن ودخل صار مواجها له فيسلم عليه (والثالث) ان يكون اشتقاق الاستئناس من الانس وهو ان يتعرف هل ثم انسان ولا شك ان هذا مقدم على السلام (والرابع) لو سلمنا ان الاستئناس انما يقع بعد السلام ولكن الواو لا توجب الترتيب فتقديم الاستئناس على السلام في اللفظ لا يوجب تقديمه عليه في العمل (السؤال الثاني) ما الحكمة في ايجاب تقديم الاستئذان (الجواب) تلك الحكمة هي التي نبه الله تعالى عليها في قوله ليس عليكم جناح ان تدخلوا بيوتا غير مسكونة فدل بذلك على ان الذي لاجله حرم الدخول الا على هذا الشرط هو كون البيوت مسكونة اذ لا يأمن من يهجم عليها بغير استئذان ان يهجم على ما لا يحل له ان ينظر اليه من عورة او على ما لا يحب القوم ان يعرفه غيرهم من الاحوال وهذا من باب العلل المنبه عليها بالنص ولانه تصرف في ملك الغير فلابد وان يكون برضاه والا اشبه الغصب (السؤال الثالث) كيف يكون الاستئذان (الجواب) استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أألج فقال عليه الصلاة والسلام لامرأة يقال لها روضة قومي الى هذا فعليه

قوله تعالى من بعد اكراههن اي كونهن مكرهات على ان الاكراه مصدر من المبني للمفعول فان توسيطه بين اسم ان وخبرها للايذان بأن ذلك هو السبب للمغفرة والرحمة وكان الحسن البصري رحمه الله اذا قرأ هذه الآية يقول لهن والله لهن والتوفيق تخصيصهما بهن وتعيين مدارهما مع سبق ذكر المكرهين ايضا في الشرطية دلالة بينة على كونهم محرومين منهما بالكلية كأنه قيل لا للمكره ولظهور هذا التقدير اكتفى به عن العائد الى اسم الشرط فتجويز تعلقهما بهم بشرط التوبة استقلالا او معهن اخلال بجزالة النظم الجليل وتهوين لامر النهي في مقام التهويل وحاجتهن الى المغفرة المنبئة عن سابقة الاثم اما باعتبار انهن وان كن مكرهات لا يخلون في تضاعيف الزنا عن شائبة مطاوعة ما بحكم الجبلة البشرية واما باعتبار ان الاكراه قد يكون قاصرا عن حد الالجاء المزيل للاختيار بالمرة واما لغاية تهويل امر الزنا وحث المكرهات على التثبت في التجافي عنه والتشديد في تحذير المكرهين ببيان انهن حيث كن عرضة للعقوبة لولا ان تداركهن المغفرة والرحمة مع قيام العذر في حقهن فما حال من يكرههن في استحقاق العذاب (ولقد انزلنا اليكم آيات

(فانه)

فانه لايحسن ان يستأذن قولى له يقول السلام عليكم أ أدخل فسمعها الرجل فقالها فقال ادخل فدخل وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اشياء وكان يجيب فقال هل فى العلم ما لاتعلمه فقال عليه الصلاة والسلام لقد آتانى الله خيرا كثيرا وان من العلم مالايعلمه الاالله وتلا ان الله عنده علم الساعة الى آخره وكان اهل الجاهلية يقول الرجل منهم اذا دخل بيتا غير بيته حييتم صباحا وحييتم مساء ثم يدخل فربما اصاب الرجل مع امرأته فى لحاف واحد فصد الله تعالى عن ذلك وعلم الاحسن والاجمل وعن مجاهد حتى تستأنسوا هو التنحنح وقال عكرمة هو التسبيح والتكبير ونحوه (السؤال الرابع) كم عدد الاستئذان (الجواب) روى ابوهريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستئذان ثلاث بالاولى يستنصتون وبالثانية يستصلحون وبالثالثة يأذنون اويردون وعن جندب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا استأذن احدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع وعن ابى سعيد الخدرى قال كنت جالسا فى مجلس من مجالس الانصار فجاء ابوموسى فزعا فقلنا له ما افزعك فقال امرنى عمر ان آتيه فأتيته فاستأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى فرجعت فقال ما منعك ان تأتينى فقلت قدجئت فاستأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى وقد قال عليه الصلاة والسلام اذا استأذن احدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع فقال لتأتينى على هذا بالبينة اولاعاقبنك فقال ابى لايقوم معك الا اصغر القوم قال فقام ابوسعيد فشهد له وفى بعض الاخبار ان عمر قال لابى موسى انى لم اتهمك ولكنى خشيت ان يتقول الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن قتادة الاستئذان ثلاثة الاول يسمع الحى والثانى ليتأهبوا والثالث ان شاؤا اذنوا وان شاؤا ردوا واعلم ان هذا من محاسن الآداب لان فى اول مرة ربما منعهم بعض الاشغال من الاذن وفى المرة الثانية ربما كان هناك مايمنع اويقتضى المنع اويقتضى التساوى فاذا لم يجب فى الثالثة يستدل بعدم الاذن على مانع ثابت وربما اوجب ذلك كراهة قربه من الباب فلذلك يسن له الرجوع ولذلك يقول يجب فى الاستئذان ثلاثا ان لايكون متصلا بل يكون بين كل واحدة والاخرى وقتا فاما قرع الباب بعنف والصياح بصاحب الدار فذلك حرام لانه يتضمن الايذاء والايحاش وكفى بقصة بنى اسد زاجرة وما نزل فيهامن قوله تعالى ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لايعقلون (السؤال الخامس) كيف يقف على الباب (الجواب) روى ان اباسعيد استأذن على الرسول صلى الله عليه وسلم وهو مستقبل الباب فقال عليه الصلاة والسلام لاتستأذن وانت مستقبل الباب وروى انه عليه الصلاة والسلام كان اذا اتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الايمن اوالايسر فيقول السلام عليكم وذلك لان الدور لم يكن عليها حينئذ ستور (السؤال السادس) ان كلمة حتى للغاية والحكم بعد الغاية يكون بخلاف ماقبلها فقوله لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا يقتضى جواز الدخول بعد الاستئذان وان لم يكن من

مبينات) كلام مستأنف جئ به فى تضاعيف ماورد من الآيات السابقة واللاحقة لبيان جلالة شؤنها المستوجبة للاقبال الكلى على العمل بمضمونها وصدر بالقسم الذى تعرب عنه اللام لابراز كمال العناية بشأنه اى وبالله لقد انزلنا اليكم فى هذه السورة الكريمة آيات مبينات لكل ما بكم حاجة اليه من الحدود وسائر الاحكام والآداب وغيرذلك مما هو من مبادى بيانها على ان اسناد التبيين اليها مجازى اوآيات واضحات تصدقها الكتب القديمة والعقول السليمة على ان مبينات من بين بمعنى تبين ومنه المثل قد بين الصبح لذى عينين وقرئ على صيغة المفعول اى التى بينت واوضحت فى هذه السورة من معانى الاحكام والحدود وقد جوز ان يكون الاصل مبينا فيها الاحكام فاتسع فى الظرف باجرائه مجرى المفعول (ومثلا من الذين خلوا من قبلكم) عطف على آيات اى وانزلنا مثلا كائنا من قبيل امثال الذين مضوا من قبلكم من القصص العجيبة والامثال المضروبة لهم فى الكتب السابقة والكلمات الجارية على السنة الانبياء عليهم السلام فينتظم قصة عائشة رضى الله عنها الحاكية لقصة يوسف عليه السلام وقصة مريم رضى الله عنها وسائر الامثال

صاحب البيت اذنا فا قولكم فيه (الجواب) من وجوه (احدها) ان الله تعالى جعل الغاية الاستئناس لا الاستئذان والاستئناس لا يحصل الا اذا حصل الاذن بعد الاستئذان (وثانيها) انا لما علمنا بالنص ان الحكمة فى الاستئذان ان لا يدخل الانسان على غيره بغير اذنه فان ذلك مما يسوءه وعلمنا ان هذا المقصود لا يحصل الا بعد حصول الاذن علمنا ان الاستئذان مالم يتصل به الاذن وجب ان لا يكون كافيا (وثالثها) ان قوله تعالى فان لم تجدوا فيها احدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم فحظر الدخول الا بالاذن فدل على ان الاذن مشروط باباحة الدخول فى الآية الاولى فان قيل اذا ثبت انه لا بد من الاذن فهل يقوم مقامه غيره ام لا قلنا روى ابو هريرة رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال رسول الرجل الى الرجل اذنه وعن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى عليه الصلاة والسلام قال اذا دعى احدكم فجاء مع الرسول فان ذلك له اذن وهذا الخبر يدل على معنيين (احدهما) ان الاذن محذوف من قوله حتى تستأنسوا وهو المراد منه (والثانى) ان الدعاء اذن اذا جاء مع الرسول وانه لا يحتاج الى استئذان ثان وقال بعضهم ان من قد جرت العادة له باباحة الدخول فهو غير محتاج الى الاستئذان (السؤال السابع) ما حكم من اطلع على دار غيره بغير اذنه (الجواب) قال الشافعى رحمه الله لو فقئت عينه فهى هدر وتمسك بما روى سهل بن سعد قال اطلع رجل فى حجرة من حجر النبى صلى الله عليه وسلم ومعه مدرى يحك بها رأسه فقال لو علمت انك تنظر الى لطعنت بها فى عينك انما الاستئذان قبل النظر وروى ابو هريرة رضى الله عنه انه عليه الصلاة والسلام قال من اطلع فى دار قوم بغير اذنهم ففقؤا عينه فقد هدرت عينه قال ابو بكر الرازى هذا الخبر يرد لوروده على خلاف قياس الاصول فانه لا خلاف انه لو دخل داره بغير اذنه ففقأ عينه كان ضامنا وكان عليه القصاص ان كان عامدا والارش ان كان مخطئا ومعلوم ان الداخل قد اطلع وزاد على الاطلاع فظاهر الحديث مخالف لما حصل عليه الاتفاق فان صح فمعناه من اطلع فى دار قوم ونظر الى حرمهم ونسائهم فمونع فلم يمتنع فذهبت عينه فى حال الممانعة فهى هدر فاما اذا لم يكن الا النظر ولم يقع فيه ممانعة ولا نهى ثم جاء انسان ففقأ عينه فهذا جان يلزمه حكم جنايته لظاهر قوله تعالى العين بالعين الى قوله والجروح قصاص واعلم ان التمسك بقوله تعالى والعين بالعين فى هذه المسئلة ضعيف لانا اجمعنا على ان هذا النص مشروط بما اذا لم تكن العين مستحقة فانها لو كانت مستحقة لم يلزم القصاص فلم قلت ان من اطلع فى دار انسان لم تكن عينه مستحقة وهذا اول المسئلة اما قوله انه لو دخل لم يجز فقء عينه فكذا اذا نظر قلنا الفرق بين الامرين ظاهر لانه اذا دخل علم القوم دخوله عليهم فاحترزوا عنه وتستروا فاما اذا نظر فقد لا يكونون عالمين بذلك فيطلع منهم على ما يجوز الاطلاع عليه فلا يبعد فى حكم الشرع ان يبالغ ههنا فى الزجر حسما لباب هذه المفسدة وبالجملة فرد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذا القدر من الكلام غير جائز (السؤال الثامن)

الواردة فى السورة الكريمة استظهارا واشعارا وتخصيص الآيات المبينات بالسوابق وحمل المثل على القصة العجيبة فقط يأباه تعقيب الكلام بما سيأتى من التمثيلات (وموعظة) تتعظون به وتنزجرون عما لا ينبغى من المحرمات والمكروهات وسائر ما يخل بمحاسن الآداب فهى عبارة عما سبق من الآيات والمثل لظهور كونها من المواعظ بالمعنى المذكور ومدار العطف هو التغاير العنوانى المنزل منزلة التغاير الذاتى وقد خصت الآيات بما بين الحدود والاحكام والموعظة بما وعظ به من قوله تعالى ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله وقوله تعالى لولا اذ سمعتموه وغير ذلك من الآيات الواردة فى شأن الآداب وتماثيل (للمتقين) مع شمول الموعظة للكل حسب شمول الانزال لقوله تعالى انزلنا الكم حثا للمخاطبين على الاغتنام بالانتظام فى سلك المتقين ببيان انهم المغتنمون لآثارها المقتبسون من انوارها فحسب وقيل المراد بالآيات المبينات والمثل والموعظة جميع ما فى القرآن المجيد من الآيات والامثال والمواعظ

فقوله تعالى (الله نور السموات والارض) الخ حينئذ استئناف مسوق لتقرير ما فيها من البيان مع الاشعار بكونه

لما بينتم انه لابد من الاذن فهل يكفي الاذن كيف كان اولا بد من اذن مخصوص (الجواب) ظاهر الآية يقتضي قبول الاذن مطلقا سواء كان الآذن صبيا او امرأة او عبدا او ذميا فانه لايعتبر في هذا الاذن صفات الشهادة وكذلك قبول اخبار هؤلاء في الهدايا ونحوها (السؤال التاسع) هل يعتبر الاستئذان على المحارم (الجواب) نعم عن عطاء بن يسار ان رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال استأذن على اختي فقال النبي عليه الصلاة والسلام نعم اتحب ان تراها عريانة وسأل رجل حذيفة استأذن على اختي فقال ان لم تستأذن عليها رأيت مايسوءك وقال عطاء سألت ابن عباس رضي الله عنهما استأذن على اختي ومن انفق عليها قال نعم ان الله تعالى يقول واذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ولم يفرق بين من كان اجنبيا او ذا رحم محرم واعلم ان ترك الاستئذان على المحارم وان كان غير جائز الا انه ايسر لجواز النظر الى شعرها وصدرها وساقها ونحوها من الاعضاء والتحقيق فيه ان المنع من الهجوم على الغير ان كان لاجل ان ذلك الغير ربما كان منكشف الاعضاء فهذا دخل فيه الكل الا الزوجات وملك اليمين وان كان لاجل انه ربما كان مشتغلا بامر يكره اطلاع الغير عليه وجب ان يعم في الكل حتى لايكون له ان يدخل على الزوجة والامة الا باذن (السؤال العاشر) اذا عرض امر في دار من حريق او هجوم سارق او ظهور منكر فهل يجب الاستئذان (الجواب) كل ذلك مستثنى بالدليل فهذا جملة الكلام في الاستئذان واما السلام فهو من سنة المسلمين التي امروا بها وأمان للقوم وهو تحية اهل الجنة ومجلبة للودة ونافٍ للحقد والضغينة عن ابي هريرة رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام ونفخ فيه الروح عطس فقال الحمد لله فحمد الله باذن الله فقال له ربه يرحمك ربك يا آدم اذهب الى هؤلاء الملائكة وهم ملأ منهم جلوس فقل السلام عليكم فلما فعل ذلك رجع الى ربه فقال هذه تحيتك وتحية ذريتك وعن علي بن ابي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حق المسلم على المسلم ست يسلم عليه اذا لقيه ويجيبه اذا دعاه وينصح له بالغيب ويشمته اذا عطس ويعوده اذا مرض ويشهد جنازته اذا مات وعن ابن عمر قال قال رسول الله عليه الصلاة والسلام ان سركم ان يسل الغل من صدوركم فافشوا السلام بينكم اما قوله تعالى ذلكم خير لكم فالمعنى فيه ظاهر اذ المراد ان فعل ذلك خير لكم واولى لكم من الهجوم بغير اذن لعلكم تذكرون اي لكي تذكروا هذا التأديب فتتمسكوا به ثم قال فان لم تجدوا فيها اي في البيوت احدا فلا تدخلوها لان العلة في الصورتين واحدة وهي جواز ان يكون هناك احوال مكتومة يكره اطلاع الداخل عليها ثم قال وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا وذلك لانه كما يكون الدخول قد يكرهه صاحب الدار فكذا الوقوف على الباب قد يكرهه فلا جرم كان الاولى والازكى له ان يرجع ازالة للايحاش والايذاء ولما ذكر الله تعالى حكم الدور المسكونة ذكر بعده حكم

في غاية الكمال على الوجه الذي ستعرفه واما على الاول فالتحقيق ان بيانه تعالى ليس مقصورا على ماورد في السورة الكريمة بل هو شامل لكل مايحق بيانه من الاحكام والشرائع ومباديها وغاياتها المترتبة عليها في الدنيا والآخرة وغير ذلك مما له مدخل في البيان وانه واقع منه تعالى على اتم الوجوه واكملها حيث عبر عنه بالتنوير الذي هو اقوى مراتب البيان واجلاها وعبر عن المنور بنفس النور تنبيها على قوة التنوير وشدة التأثير وايذانا بانه تعالى ظاهر بذاته وكل ماسواه ظاهر باظهاره كما ان النور نير بذاته وماعداه مستنير به واضيف النور الى السموات والارض للدلالة على كمال شيوع البيان المستعار له وغاية شموله لكل مايليق به من الامور التي لها مدخل في ارشاد الناس بوساطة بيان شمول المستعار منه لجميع مايقبله ويستحقه من الاجرام العلوية والسفلية فانهما قطران للعالم الجسماني الذي لامظهر للنور الحسي سواه او على شمول البيان لاحوالهما واحوال مافيهما من الموجودات اذ مامن موجود الا وقد بين من احواله مايستحق البيان اما تفصيلا او اجمالا كيف لا ولا ريب في بيان كونه دليلا على

الدور التي هي غير مسكونة فقال ليس عليكم جناح ان تدخلوا بيوتا غير مسكونة وذلك لان المانع من الدخول الا باذن زائل عنها واختلف المفسرون في المراد من قوله بيوتا غير مسكونة على اقوال (احدها) وهو قول محمد بن الحنفية انها الخانات والرباطات وحوانيت البياعين والمتاع المنفعة كالاستكنان من الحر والبرد وايواء الرحال والسلع والشراء والبيع يروى ان ابابكر قال يارسول الله ان الله قد انزل عليك آية في الاستئذان وانا نختلف في تجارتنا فننزل هذه الخانات افلا ندخلها الا باذن فنزلت هذه الآية (وثانيها) انها الخربات يتبرز فيها والمتاع التبرز (وثالثها) الاسواق (ورابعها) انها الحمامات والاولى ان يقال انه لايمتنع دخول الجميع تحت الآية فيحمل على الكل والعلة في ذلك انها اذا كانت كذلك فهي مأذون بدخولها من جهة العرف فكذلك نقول انها لوكانت غير مسكونة ولكنها كانت مغصوبة فانه لايجوز لداخل ان يدخل فيها لكن الظاهر من حال الخانات انها موضوعة لدخول الداخل واما قوله والله يعلم ماتبدون وماتكتمون فهو وعيد للذين يدخلون الخربات والدور الخالية من اهل الريبة (الحكم السابع) حكم النظر

﴿ قوله تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك ازكى لهم ان الله خبير بما يصنعون وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن ويحفظن فروجهن ولايبدين زينتهن الا ماظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولايبدين زينتهن الا لبعولتهن او آبائهن او آباء بعولتهن او ابنائهن او ابناء بعولتهن او اخوانهن او بني اخوانهن او بني اخواتهن او نسائهن او ما ملكت ايمانهن او التابعين غير اولي الاربة من الرجال او الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولايضربن بارجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعا ايها المؤمنون لعلكم تفلحون) اعلم انه تعالى قال قل للمؤمنين وانما خصهم بذلك لان غيرهم لايلزمه غض البصر عما لايحل له وحفظ الفرج عما لايحل له لان هذه الاحكام كالفرع للاسلام والمؤمنون مأمورون بها ابتداء والكفار مأمورون قبلها بما تصير هذه الاحكام تابعة له وان كان حالهم كحال المؤمنين في استحقاق العقاب على تركها لكن المؤمن يتمكن من هذه الطاعة من دون مقدمة والكافر لايتمكن الا بتقديم مقدمة من قبله وذلك لايمنع من لزوم التكاليف له واعلم انه سبحانه امر الرجال بغض البصر وحفظ الفرج وامر النساء بمثل ماامر به الرجال وزاد فيهن ان لايبدين زينتهن الا لاقوام مخصوصين اما قوله تعالى يغضوا من ابصارهم ففيه مسائل (المسألة الاولى) قال الاكثرون من ههنا للتبعيض والمراد غض البصر عما يحرم والاقتصار به على مايحل وجوز الاخفش ان تكون مزيدة ونظيره قوله فما لكم من اله غيره ومامنكم من احد عنه حاجزين وأباه سيبويه فان قيل كيف دخلت في غض البصر دون حفظ الفرج قلنا دلالة على ان امر النظر اوسع ألا ترى ان المحارم لابأس بالنظر الى شعورهن وصدورهن وكذا الجواري المستعرضات واما امر الفرج فضيق وكفاك فرقا

(ان)

وجود الصانع وصفاته وشاهدا بصحة البعث اوعلى تعلق البيان باهلهما كما قال ابن عباس رضي الله عنهما هادي اهل السموات والارض فهم بنوره يهتدون وبهداه من حيرة الضلالة ينجون هذا واما حمل التنوير على اخراجه تعالى للماهيات من العدم الى الوجود اذ هو الاصل في الاظهار كما ان الاعدام هو الاصل في الاخفاء او على تزيين السموات بالنيرين وسائر الكواكب ومايفيض عنها من الانوار او بالملائكة عليهم السلام وتزيين الارض بالانبياء عليهم السلام والعلماء والمؤمنين او بالنبات والاشجار او على تدبيره تعالى لامورهما وامور مافيهما فمما لايلائم المقام ولايساعده حسن النظام (مثل نوره) اى نوره الفائض منه تعالى على الاشياء المستنيرة به وهو القرآن المبين كما يعرب عنه ماقبله من وصف آياته بالانزال والتبيين وقد صرح بكونه نورا ايضا في قوله تعالى وانزلنا اليكم نورا مبينا وبه قال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن وزيد بن اسلم رحمهم الله تعالى وجعله عبارة عن الحق وان شاع استعارته له كاستعارة الظلمة للباطل يأباه مقام بيان شان الآيات ووصفها بما ذكر من التبيين مع

ان ابيح النظر الا ما استثنى منه وحظر الجماع الا ما استثنى منه ومنهم من قال يغضوا من ابصارهم اى ينقصوا من نظرهم فالبصر اذا لم يكن من عمله فهو مغضوض ممنوع عنه وعلى هذا من ليست بزائدة ولا هى للتبعيض بل هى من صلة الغض يقال غضضت من فلان اذا نقصت من قدره (المسئلة الثانية) اعلم ان العورات على اربعة اقسام عورة الرجل مع الرجل وعورة المرأة مع المرأة وعورة المرأة مع الرجل وعورة الرجل مع المرأة فاما الرجل مع الرجل فيجوز له ان ينظر الى جميع بدنه الا عورته وعورته ما بين السرة والركبة والسرة والركبة ليستا بعورة وعند ابى حنيفة رحمه الله الركبة عورة وقال مالك الفخذ ليست بعورة والدليل على انها عورة ما روى عن حذيفة ان النبى صلى الله عليه وسلم مر به فى المسجد وهو كاشف عن فخذه فقال عليه السلام غط فخذك فانها من العورة وقال لعلى رضى الله عنه لا تبرز فخذك ولا تنظر الى فخذ حى ولا ميت فان كان فى نظره الى وجهه اوسائر بدنه شهوة اوخوف فتنة بان كان امرد لا يحل النظر اليه ولا يجوز للرجل مضاجعة الرجل وان كان كل واحد منهما فى جانب من الفراش لما روى ابو سعيد الخدرى انه عليه الصلاة والسلام قال لا يفضى الرجل الى الرجل فى ثوب واحد ولا تفضى المرأة الى المرأة فى ثوب واحد وتكره المعانقة وتقبيل الوجه الا لولده شفقة وتستحب المصافحة لما روى انس قال قال رجل يا رسول الله الرجل منا يلقى اخاه او صديقه أينحنى له قال لا قال أيلتزمه ويقبله قال لا قال أفيأخذ بيده ويصافحه قال نعم اما عورة المرأة مع المرأة فكعورة الرجل مع الرجل فلها النظر الى جميع بدنها الا ما بين السرة والركبة وعند خوف الفتنة لا يجوز ولا يجوز المضاجعة والمرأة الذمية هل يجوز لها النظر الى بدن المسلمة قيل يجوز كالمسلمة مع المسلمة والاصح انه لا يجوز لانها اجنبية فى الدين والله تعالى يقول اوفسائهن وليست الذمية من نسائنا اما عورة المرأة مع الرجل فالمرأة اما ان تكون اجنبية اوذات رحم محرم اومستمتعة فان كانت اجنبية فاما ان تكون حرة او امة فان كانت حرة فجميع بدنها عورة ولا يجوز له ان ينظر الى شئ منها الا الوجه والكفين لانها تحتاج الى ابراز الوجه للبيع والشراء والى اخراج الكف للاخذ والعطاء ونعنى بالكف ظهرها وبطنها الى الكوعين وقيل ظهر الكف عورة واعلم انا ذكرنا انه لا يجوز النظر الى شئ من بدنها ويجوز النظر الى وجهها وكفها وفى كل واحد من القولين استثناء اما قوله يجوز النظر الى وجهها وكفها فاعلم انه على ثلاثة اقسام لانه اما ان لا يكون فيه غرض ولا فيه فتنة واما ان يكون فيه فتنة ولا غرض فيه واما ان يكون فيه فتنة وغرض (اما القسم الاول) فاعلم انه لا يجوز ان يتعمد النظر الى وجه الاجنبية لغير غرض وان وقع بصره عليها بغتة يغض بصره لقوله تعالى قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم وقيل يجوز مرة واحدة اذا لم يكن محل فتنة وبه قال ابو حنيفة رحمه الله ولا يجوز ان يكرر النظر اليها لقوله تعالى ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤلا ولقوله عليه السلام يا على

عدم سبق ذكر الحق ولان المعتبر فى مفهوم النور هو الظهور والاظهار كما هو شأن القرآن الكريم واما الحق فالمعتبر فى مفهومه من حيث هو حق هو الظهور لا الاظهار والمراد بالمثل الصفة العجيبة اى صفة نوره العجيبة (كمشكاة) اى كصفة كوة غير نافذة فى الجدار فى الانارة والتنوير (فيها مصباح) سراج ضخم ثاقب وقيل المشكاة الانبوبة فى وسط القنديل والمصباح الفتيلة المشتعلة (المصباح فى زجاجة) اى قنديل من الزجاج الصافى الازهر وقرئ بفتح الزاى وكسرها فى الموضعين (الزجاجة كأنها كوكب درى) متلألئ وقاد شبيه بالدر فى صفائه وزهرته ودرارى الكواكب عظامها المشهورة وقرئ درئ بدال مكسورة وراء مشددة وياء ممدودة بعدها همزة على انه فعيل من الدرء وهو الدفع اى مبالغ فى دفع الظلام بضوئه اوفى دفع بعض اجزائه لبعض عند البريق واللمعان وقرئ بضم الدال والباقى على حاله وفى اعادة المصباح والزجاجة معرفين اثر سبقهما منكرين والاخبار عنهما بما بعدهما مع انتظام الكلام بأن يقال كمشكاة فيها مصباح فى زجاجة كأنها كوكب درى من تفخيم شأنهما ورفع مكانهما بالتفسير اثر الابهام والتفصيل

لاتتبع النظرة النظرة فان لك الاولى وليست لك الآخرة وعن جابر قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجأة فأمرني ان اصرف بصري ولان الغالب ان الاحتراز من الاولى لايمكن فوقع عفوا قصد اولم يقصد (اما القسم الثانى) وهو ان يكون فيه غرض ولا فتنة فيه فذلك امور (احدها) بان يريد نكاح امرأة فينظر الى وجهها وكفيها روى ابو هريرة رضى الله عنه ان رجلا أراد ان يتزوج امرأة من الانصار فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم انظر اليها فان فى اعين الانصار شيئا وقال عليه الصلاة والسلام اذا خطب احدكم المرأة فلا جناح عليه ان ينظر اليها اذا كان انما ينظر اليها للخطبة وقال المغيرة بن شعبة خطبت امرأة فقال عليه السلام نظرت اليها فقلت لا قال فانظر فانه احرى ان يدوم بينكما فكل ذلك يدل على جواز النظر الى وجهها وكفيها للشهوة اذا أراد ان يتزوجها ويدل عليه ايضا قوله تعالى لايحل لك النساء من بعد ولا ان تبدل بهن من ازواج ولو اعجبك حسنهن ولا يعجبه حسنهن الا بعد رؤية وجوههن (وثانيها) اذا اراد شراء جارية فله ان ينظر الى ماليس بعورة منها (وثالثها) انه عند المبايعة ينظر الى وجهها متأملا حتى يعرفها عند الحاجة اليه (ورابعها) ينظر اليها عند تحمل الشهادة ولا ينظر الى غير الوجه لان المعرفة تحصل به (اما القسم الثالث) وهو ان ينظر اليها للشهوة فذلك محظور قال عليه الصلاة والسلام العينان تزنيان وعن جابر قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفجأة فأمرني ان اصرف بصري وقيل مكتوب فى التوراة النظرة تزرع فى القلب الشهوة ورب شهوة اورثت حزنا طويلا (اما الكلام الثانى) وهو انه لايجوز للاجنبى النظر الى بدن الاجنبية فقد استثنوا منه صورا (احداها) يجوز للطبيب الامين ان ينظر اليها للمعالجة كما يجوز للختان ان ينظر الى فرج المختون لانه موضع ضرورة (وثانيتها) يجوز ان يتعمد النظر الى فرج الزانيين لتحمل الشهادة على الزنا وكذلك ينظر الى فرجها لتحمل شهادة الولادة والى ثدى المرضعة لتحمل الشهادة على الرضاع وقال ابو سعيد الاصطخرى لايجوز للرجل ان يقصد النظر فى هذه المواضع لان الزنا مندوب الى ستره وفى الولادة والرضاع تقبل شهادة النساء فلا حاجة الى نظر الرجال للشهادة (وثالثتها) لو وقعت فى غرق او حرق فله ان ينظر الى بدنها ليخلصها اما اذا كانت الاجنبية امة فقال بعضهم عورتها مابين السرة والركبة وقال آخرون عورتها مالايبين للمهنة فخرج منه ان رأسها وساعديها وساقيها ونحرها وصدرها ليس بعورة وفى ظهرها وبطنها ومافوق ساعديها الخلاف المذكور ولا يجوز لمسها ولا لها لمسه بحال لا لحجامة ولا اكتحال ولا غيره لان اللمس اقوى من النظر بدليل ان الانزال باللمس يفطر الصائم وبالنظر لايفطره وقال ابو حنيفة رحمه الله يجوز ان يمس من الامة مايحل النظر اليه اما ان كانت المرأة ذات محرم له بنسب او رضاع او صهرية فعورتها معه مابين السرة والركبة كعورة الرجل وقال آخرون بل عورتها مالايبدو عند المهنة وهو قول ابى حنيفة رحمه الله فأما

بعد الاجمال وبيانات مابعدهما لهما بطريق الاخبار المنبي عن القصد الاصلى دون الوصف المبنى على الاشارة الى الثبوت فى الجملة مالايخفى ومحل الجملة الاولى الرفع على انها صفة لمصباح ومحل الثانية الجر على انها صفة لزجاجة واللام مغنية عن الرابط كانه قيل فيها مصباح هو فى زجاجة هى كأنها كوكب درى (يوقد من شجرة) اى يبتدأ ايقاد المصباح من شجرة (مباركة) اى كثيرة المنافع بان رويت ذبالته بزيتها وقيل انما وصفت بالبركة لانها تنبت فى الارض التى بارك الله تعالى فيها للعالمين (زيتونة) بدل من شجرة وفى ابهامها ووصفها بالبركة ثم الابدال منها تفخيم لشأنها وقرئ توقد بالتاء على ان الضمير القائم مقام الفاعل للزجاجة دون المصباح وقرئ توقد على صيغة الماضى من التفعل اى ابتدأ ثقوب المصباح منها وقرئ توقد بحذف احدى التاءين من تتوقد على اسناده الى الزجاجة (لاشرقية ولاغربية) تقع الشمس عليها حينا دون حين بل بحيث تقع عليها طول النهار كالتى على قلة او صحراء واسعة فتقع الشمس عليها حالتى الطلوع والغروب وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما وسعيد

سائر التفصيل فسنأتي ان شاء الله تعالى فى تفسير الآية اما اذا كانت المرأة مستمتعة كالزوجة والامة التى يحل له الاستمتاع بها فيجوز له ان ينظر الى جميع بدنها حتى الى فرجها غير انه يكره ان ينظر الى الفرج وكذا الى فرج نفسه لانه يروى انه يورث الطمس وقيل لايجوز النظر الى فرجها ولافرق بين ان تكون الامة قنة او مدبرة او ام ولد او مرهونة فان كانت مجوسية او مرتدة او وثنية او مشتركة بينه وبين غيره او متزوجة او مكاتبة فهى كالاجنبية روى عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا زوج احدكم جاريته عبده او اجيره فلا ينظر الى مادون السرة وفوق الركبة واما عورة الرجل مع المرأة فنظر ان كان اجنبيا منها فعورته معها مابين السرة والركبة وقيل جميع بدنه الا الوجه والكفين كهى معه والاول اصح بخلاف المرأة فى حق الرجل لان بدن المرأة فى ذاته عورة بدليل انه لاتصح صلاتها مكشوفة البدن وبدن الرجل بخلافه ولايجوز لها قصد النظر عند خوف الفتنة ولا تكرير النظر الى وجهه لما روى عن ام سلمة انها كانت عند النبي صلى الله عليه وسلم وميمونة اذ أقبل ابن ام مكتوم فدخل عليها فقال عليه الصلاة والسلام احتجبا منه فقلت يارسول الله أليس هو اعمى لايبصرنا فقال عليه الصلاة والسلام افعمياوان انتما ألستما تبصرانه وان كان محرما لها فعورته معها مابين السرة والركبة وان كان زوجها او سيدها الذى يحل له وطؤها فلها ان تنظر الى جميع بدنه غير انه يكره النظر الى الفرج كهو معها ولايجوز للرجل ان يجلس عاريا فى بيت خال وله مايستر عورته لانه روى انه عليه الصلاة والسلام سئل عنه فقال الله احق ان يستحيي منه وروى انه عليه الصلاة والسلام قال اياكم والتعرى فان معكم من لايفارقكم الا عند الغائط وحين يفضى الرجل الى اهله والله اعلم (المسئلة الثالثة) سئل الشبلى عن قوله يغضوا من ابصارهم فقال ابصار الرؤس عن المحرمات وابصار القلوب عما سوى الله تعالى واما قوله تعالى ويحفظوا فروجهم فالمراد به عما لايحل وعن ابى العالية انه قال كل مافى القرآن من قوله يحفظوا فروجهم ويحفظن فروجهن من الزنا الا التى فى النور يحفظوا فروجهم ويحفظن فروجهن ان لاينظر اليها احد وهذا ضعيف لانه تخصيص من غير دلالة والذى يقتضيه الظاهر ان يكون المعنى حفظها عن سائر ماحرم الله عليه من الزنا والمس والنظر وعلى انه ان كان المراد حظر النظر فالمس والوطء ايضا مرادان بالآية اذ هما اغلظ من النظر فلو نص الله تعالى على النظر لكان فى مفهوم الخطاب مايوجب حظر الوطء والمس كما ان قوله تعالى ولاتقل لهما اف اقتضى حظر مافوق ذلك من السب والضرب اما قوله تعالى ذلك ازكى لهم اى تمسكهم بذلك ازكى لهم واطهر لانه من باب مايزكون به ويستحقون الثناء والمدح ويمكن ان يقال انه تعالى خص فى الخطاب المؤمنين لما اراده من تزكيتهم بذلك ولايليق ذلك بالكافر أما قوله تعالى وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن ويحفظن فروجهن فالقول فيه على ماتقدم فان قيل فلم قدم غض الابصار على حفظ الفروج قلنا لان

ابن جبير وقتادة وقال الفراء والزجاج لاشرقية وحدها ولا غربية وحدها لكنها شرقية وغربية اى تصيبها الشمس عند طلوعها وعند غروبها فتكون شرقية وغربية تأخذ حظها من الامرين فيكون زيتها اضوأ وقيل لانابتة فى شرق المعمورة ولافى غربها بل فى وسطها وهو الشام فان زيتها اجود مايكون وقيل لافى مضحى تشرق الشمس عليها دائما فتحرقها ولافى مقناة تغيب عنها دائما فتتركها نيا وفى الحديث لاخير فى شجرة ولافى نبات فى مقناة ولاخير فيهما فى مضحى (يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار) اى هو فى الصفاء والانارة بحيث يكاد يضيء بنفسه من غير مساس نار اصلا وكلمة لو فى امثال هذه المواقع ليست لبيان انتفاء شيء فى الزمان الماضى لانتفاء غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قد حذف ثقة بدلالة ما قبلها عليه ملاحظة قصدية الا عند القصد الى بيان الاعراب على القواعد الصناعية بل هى لبيان تحقق ما يفيده الكلام السابق من الحكم الموجب او المنفى على كل حال مفروض من الاحوال المقارنة له اجمالا بادخالها على ابعدها منه اما لوجود المانع كما فى قوله تعالى اينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة واما لعدم الشرط كما فى هذه الآية الكريمة

النظر بريد الزنا ورائد الفجور والبلوى فيه اشد واكثر ولا يكاد يقدر على الاحتراس منه اما قوله تعالى ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها فمن الاحكام التى تختص بها النساء فى الاغلب وانما قلنا فى الاغلب لانه محرم على الرجل ان يبدى زينته حليا ولباسا الى غير ذلك للنساء الاجنبيات لما فيه من الفتنة وههنا مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى المراد زينتهن واعلم ان الزينة اسم يقع على محاسن الخلق التى خلقها الله تعالى وعلى سائر ما يتزين به الانسان من فضل لباس او حلى وغير ذلك وانكر بعضهم وقوع اسم الزينة على الخلقة لانه لا يكاد يقال فى الخلقة انها من زينتها وانما يقال ذلك فيما تكتسبه من كحل وخضاب وغيره والاقرب ان الخلقة داخلة فى الزينة ويدل عليه وجهان (الاول) ان الكثير من النساء ينفردن بخلقتهن عن سائر ما يعد زينة فاذا حملناه على الخلقة وفينا العموم حقه ولا يمنع دخول ما عدا الخلقة فيه ايضا (الثانى) ان قوله وليضربن بخمرهن على جيوبهن يدل على ان المراد بالزينة ما يعم الخلقة وغيرها فكأنه تعالى منعهن من اظهار محاسن خلقتهن بأن اوجب سترها بالخمار واما الذين قالوا الزينة عبارة عما سوى الخلقة فقد حصروه فى امور ثلاثة (احدها) الاصباغ كالكحل والخضاب بالوسمة فى حاجبيها والغمرة فى خديها والحناء فى كفيها وقدميها (وثانيها) الحلى كالخاتم والسوار والخلخال والدملج والقلادة والاكليل والوشاح والقرط (وثالثها) الثياب قال الله تعالى خذوا زينتكم عند كل مسجد وأراد الثياب (المسئلة الثانية) اختلفوا فى المراد من قوله الا ما ظهر منها اما الذين حملوا الزينة على الخلقة فقال القفال معنى الآية الا ما يظهره الانسان فى العادة الجارية وذلك فى النساء الوجه والكفان وفى الرجل الاطراف من الوجه واليدين والرجلين فأمروا بستر ما لا تؤدى الضرورة الى كشفه ورخص لهم فى كشف ما اعتيد كشفه وأدت الضرورة الى اظهاره اذ كانت شرائع الاسلام حنيفية سهلة سمحة ولما كان ظهور الوجه والكفين كالضرورى لا جرم اتفقوا على انهما ليسا بعورة اما القدم فليس ظهوره بضرورى فلا جرم اختلفوا فى انه هل هو من العورة ام لا فيه وجهان الاصح انه عورة كظهر القدم وفى صوتها وجهان اصحهما انه ليس بعورة لان نساء النبى صلى الله عليه وسلم كن يروين الاخبار للرجال واما الذين حملوا الزينة على ما عدا الخلقة قالوا انه سبحانه انما ذكر الزينة لانه لا خلاف انه يحل النظر اليها حال ما لم تكن متصلة باعضاء المرأة فلما حرم الله سبحانه النظر اليها حال اتصالها ببدن المرأة كان ذلك مبالغة فى حرمة النظر الى اعضاء المرأة وعلى هذا القول يحل النظر الى زينة وجهها من الوسمة والغمرة وزينة بدنها من الخضاب والخواتيم وكذا الثياب والسبب فى تجويز النظر اليها ان تسترها فيه حرج لان المرأة لا بد لها من مناولة الاشياء بيديها والحاجة الى كشف وجهها فى الشهادة والمحاكمة والنكاح (المسئلة الثالثة) اتفقوا على تخصيص قوله ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها بالحرائر دون الاماء والمعنى فيه ظاهر وهو ان الامة مال فلا بد من الاحتياط

ليظهر بثبوته وانتفائه معه ثبوته او انتفاؤه مع ما عداه من الاحوال بطريق الاولوية لما ان الشئ متى تحقق مع ما ينافيه من وجود المانع او عدم الشرط فلأن يتحقق بدون ذلك اولى ولذلك لا يذكر معه شئ آخر من سائر الاحوال ويكتفى عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلة لها المتناولة لجميع الاحوال المغايرة لها عند تعددها وهذا معنى قولهم انها لاستقصاء الاحوال على سبيل الاجمال وهذا امر مطرد فى الخبر الموجب والمنفى فانك اذا قلت فلان جواد يعطى ولو كان فقيرا او بخيل لا يعطى ولو كان غنيا تريد بيان تحقق الاعطاء فى الاول وعدم تحققه فى الثانى فى جميع الاحوال المفروضة والتقدير يعطى لو لم يكن فقيرا ولو كان فقيرا ولا يعطى لو لم يكن غنيا ولو كان غنيا فالجملة مع ما عطفت هى عليه فى حيز النصب على الحالية من المستكن فى الفعل الموجب او المنفى اى يعطى او لا يعطى كائنا على جميع الاحوال وتقدير الآية الكريمة يكاد زيتها يضئ لو مسته نار ولو لم تمسسه نار اى يضئ كائنا على كل حال من وجود الشرط وعدمه وقد حذفت الجملة الاولى حسبما هو المطرد فى الباب لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة (نور) خبر مبتدأ محذوف وقوله تعالى (على نور) متعلق

فى بيعها وشرائها وذلك لايمكن الابالنظر اليها على الاستقصاء بخلاف الحرة اما قوله تعالى وليضربن بخمرهن على جيوبهن فالخمر واحده خمار وهى المقانع قال المفسرون ان نساء الجاهلية كن يشددن خمرهن من خلفهن وان جيوبهن كانت من قدام فكان ينكشف نحورهن وقلائدهن فامرن أن يضربن مقانعهن على الجيوب ليتغطى بذلك اعناقهن ونحورهن ومايحيط به من شعر وزينة من الحلى فى الاذن والنحر وموضع العقدة منها وفى لفظ الضرب مبالغة فى الالقاء والباء للالصاق وعن عائشة رضى الله عنها مارأيت خيرا من نساء الانصار لما نزلت هذه الآية قامت كل واحدة منهن الى مرطها فصدعت منه صدعة فاختمرت فاصبحن على رؤسهن الغربان وقرئ جيوبهن بكسر الجيم لاجل الياء وكذلك بيوتا غير بيوتكم فاما قوله تعالى ولايبدين زينتهن فاعلم انه سبحانه لما تكلم فى مطلق الزينة تكلم بعد ذلك فى الزينة الخفية التى نهاهن عن ابدائها للاجانب وبين ان هذه الزينة الخفية يجب اخفاؤها عن الكل ثم استثنى اثنتى عشرة صورة (احدها) ازواجهن (وثانيها) آباؤهن وان علون من جهة الذكران والاناث كآباء الآباء وآباء الامهات (وثالثها) آباء ازواجهن (ورابعها وخامسها) أبناؤهن وأبناء بعولتهن ويدخل فيه أولاد الاولاد وان سفلوا من الذكران والاناث كبنى البنين وبنى البنات (وسادسها) اخوانهن سواء كانوا من الاب او من الام او منهما (وسابعها) بنو اخوانهن (وثامنها) بنو اخواتهن وهؤلاء كلهم محارم وههنا سؤالات (السؤال الاول) أفيحل لذوى المحرم فى المملوكة والكافرة مالايحل له فى المؤمنة (الجواب) اذا ملك المرأة وهى من محارمه فله ان ينظر منها الى بطنها وظهرها لاعلى وجه الشهوة بل لامر يرجع الى مزية الملك على اختلاف بين الناس فى ذلك (السؤال الثانى) كيف القول فى العم والخال (الجواب) القول الظاهر انهما كسائر المحارم فى جواز النظر وهو قول الحسن البصرى قال لان الآية لم يذكر فيها الرضاع وهو كالنسب وقال فى سورة الاحزاب لاجناح عليهن فى آبائهن الآية ولم يذكر فيها البعولة ولا ابناءهم وقد ذكروا ههنا وقد يذكر البعض لينبه على الجملة قال الشعبى انما لم يذكرهما الله لئلا يصفهما العم عند ابنه والخال كذلك ومعناه ان سائر القرابات تشارك الاب والابن فى المحرمية الا العم والخال وابناءهما فاذا رآها الاب فربما وصفها لابنه وليس بمحرم فيقرب تصوره لها بالوصف من نظره اليها وهذا أيضا من الدلالات البليغة على وجوب الاحتياط عليهن فى التستر (السؤال الثالث) ما السبب فى اباحة نظر هؤلاء الى زينة المرأة (الجواب) لانهم مخصوصون بالحاجة الى مداخلتهن ومخالطتهن ولقلة توقع الفتنة بجهاتهن ولما فى الطباع من النفرة عن مجالسة الغرائب وتحتاج المرأة الى صحبتهم فى الاسفار للنزول والركوب (وتاسعها) قوله تعالى او نسائهن وفيه قولان (احدهما) المراد والنساء اللاتى هن على دينهن وهذا قول اكثر السلف قال ابن عباس رضى الله عنهما ليس للمسلمة ان تتجرد بين نساء اهل الذمة ولاتبدى للكافرة الا ماتبدى

بمحذوف هو صفة له مؤكدة لما افاده التنكير من الفخامة والجملة فذلكة للتمثيل وتصريح بماحصل منه وتمهيد لمايعقبه اى ذلك النور الذى عبر به عن القرآن ومثلت صفته العجيبة الشان بمافصل من صفة المشكاة نور عظيم كائن على نور كذلك لاعلى انه عبارة عن نور واحد معين اوغير معين فوق نور آخر مثله ولا عن مجموع نورين اثنين فقط بل عن نور متضاعف من غير تحديد لتضاعفه بحد معين وتحديد مراتب تضاعف مامثل به من نور المشكاة بماذكر لكونه اقصى مراتب تضاعفه عادة فان المصباح اذا كان فى مكان متضايق كالمشكاة كان اضوأ له واجمع لنوره بسبب انضمام الشعاع المنعكس منه الى اصل الشعاع بخلاف المكان المتسع فان الضوء ينبث فيه وينتشر والقنديل اعون شئ على زيادة الانارة وكذلك الزيت وصفاؤه وليس وراء هذه المراتب مما يزيد نورها اشراقا ويمده باضاءة مرتبة اخرى عادة هذا وجعل النور عبارة عن النور المشبه به مما لايليق بشان التنزيل الجليل (يهدى الله لنوره) اى يهدى هداية خاصة موصلة الى المطلوب حتما لذلك النور المتضاعف العظيم الشان واظهاره فى مقام الاضمار لزيادة تقريره وتأكيد فخامته الذاتية بفخامته الاضافية الناشئة

للاجانب الا أن تكون امة لها لقوله تعالى او ماملكت ايمانهن وكتب عمر الى ابى عبيدة أن يمنع نساء اهل الكتاب من دخول الحمام مع المؤمنات (وثانيهما) المراد بنسائهن جميع النساء وهذا هو المذهب وقول السلف محمول على الاستحباب والاولى (وعاشرها) قوله تعالى او ماملكت ايمانهن وظاهر الكلام يشمل العبيد والاماء واختلفوا فنهم من اجرى الآية على ظاهرها وزعم انه لا بأس عليهن فى أن يظهرن لعبيدهن من زينتهن مايظهرن لذوى محارمهن وهو مروى عن عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما واحتجوا بهذه الآية وهو ظاهر وبما روى أنس انه عليه الصلاة والسلام أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها وعليها ثوب اذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها واذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مابها قال انه ليس عليك بأس انما هو أبوك وغلامك وعن مجاهد كان امهات المؤمنين لا يحتجبن عن مكاتبهن مابقى عليه درهم وعن عائشة رضى الله عنها انها قالت لذكوان انك اذا وضعتنى فى القبر وخرجت فأنت حر وروى ان عائشة رضى الله عنها كانت تمتشط والعبد ينظر اليها وقال ابن مسعود ومجاهد والحسن وابن سيرين وسعيد بن المسيب رضى الله عنهم ان العبد لا ينظر الى شعر مولاته وهو قول ابى حنيفة رحمه الله واحتجوا عليه بأمور (احدها) قوله عليه الصلاة والسلام لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر سفرا فوق ثلاث الا مع ذى محرم والعبد ليس بذى محرم منها فلا يجوز ان يسافر بها واذا لم يجز له السفر بها لم يجز له النظر الى شعرها كالحر الاجنبى (وثانيها) ان ملكها للعبد لا يحلل مايحرم عليه قبل الملك اذ ملك النساء للرجال ليس كملك الرجال للنساء فانهم لم يختلفوا فى انها لا تستبيح بملك العبد منه شيئا من التمتع كما يملكه الرجل من الامة (وثالثها) ان العبد وان لم يجز له ان يتزوج بمولاته الا ان ذلك التحريم عارض كمن عنده اربع نسوة فانه لا يجوز له التزوج بغيرهن فلما لم تكن هذه الحرمة مؤبدة كان العبد بمنزلة سائر الاجانب اذا ثبت هذا ظهر ان المراد من قوله او ماملكت ايمانهن الاماء فان قيل الاماء دخلن فى قوله نسائهن فأى فائدة فى الاعادة قلنا الظاهر انه عنى بنسائهن وماملكت ايمانهن من فى صحبتهن من الحرائر والاماء وبيانه انه سبحانه ذكر اولا احوال الرجال بقوله ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن الى آخر ماذكر فجاز ان يظن ظان ان الرجال مخصوصون بذلك اذ كانوا ذوى المحارم او غير ذات المحارم ثم عطف على ذلك الاماء بقوله او ماملكت ايمانهن لئلا يظن ان الاباحة مقصورة على الحرائر من النساء اذ كان ظاهر قوله او نسائهن يقتضى الحرائر دون الاماء كقوله شهيدين من رجالكم على الاحرار لاضافتهم الينا كذلك قوله او نسائهن على الحرائر ثم عطف عليهن الاماء فأباح لهن مثل ماأباح فى الحرائر (وحادى عشرها) قوله تعالى او التابعين غير اولى الاربة من الرجال وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قيل هم الذين يتبعونكم لينالوا من فضل طعامكم ولا حاجة بهم الى النساء لانهم بله لا يعرفون من امرهن شيئا او شيوخ صلحاء اذا كانوا بمعهن غضوا

(ابصارهم)

من اضافته الى ضميره عز وجل (من يشاء) هدايته من عباده بان يوفقهم لفهم مافيه من دلائل حقيته وكونه من عند الله تعالى من الاعجاز والاخبار عن الغيب وغير ذلك من موجبات الايمان به وفيه ايذان بان مناط هذه الهداية وملاكها ليس الامشيئته تعالى وان تظاهر الاسباب بدونها بمعزل من الافضاء الى المطالب (ويضرب الله الامثال للناس) فى تضاعيف الهداية حسبما يقتضى حالهم فان له دخلا عظيما فى باب الارشاد لانه ابراز للمعقول فى هيئة المحسوس وتصوير لاوابد المعانى بصورة المأنوس ولذلك مثل نوره المعبر به عن القرآن المبين بنور المشكاة واظهار الاسم الجليل فى مقام الاضمار للايذان باختلاف حال ما اسند اليه تعالى من الهداية الخاصة وضرب الامثال الذى هو من قبيل الهداية العامة كما يفصح عنه تعليق الاول بمن يشاء والثانية بالناس كافة (والله بكل شئ عليم) معقولا كان او محسوسا ظاهرا كان او باطنا ومن قضيته ان تتعلق مشيئته بهداية من يليق بها ويستحقها من الناس دون من عداهم لمخالفته الحكمة التى عليها مبنى التكوين والتشريع وان تكون هدايته العامة على فنون مختلفة وطرائق شتى حسبما تقتضيه

ابصارهم ومعلوم ان الخصى والعنين ومن شا كلهما قد لا يكون له اربة فى نفس الجماع ويكون له اربة قوية فيما عداه من التمتع وذلك يمنع من ان يكون هو المراد فيجب ان يحمل المراد على من المعلوم منه انه لا اربة له فى سائر وجوه التمتع اما لفقد الشهوة واما لفقد المعرفة واما للفقر والمسكنة فعلى هذه الوجوه الثلاثة اختلف العلماء فقال بعضهم هم الفقراء الذين بهم الفاقة وقال بعضهم المعتوه والابله والصبي وقال بعضهم الشيخ وسائر من لا شهوة له ولا يمتنع دخول الكل فى ذلك وروى هشام بن عروة عن زينب بنت ام سلمة عن ام سلمة ان النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها وعندها مخنث فاقبل على اخى ام سلمة فقال ياعبد الله ان فتح الله لكم غدا الطائف دللتك على بنت غيلان فانها تقبل بأربع وتدبر بثمان فقال عليه الصلاة والسلام لا يدخلن عليكم هذا فأباح النبي عليه الصلاة والسلام دخول المخنث عليهن حتى ظن انه من غير اولى الاربة فلما علم انه يعرف احوال النساء واوصافهن علم انه من اولى الاربة فحجبه وفى الخصى والمجبوب ثلاثة اوجه (احدها) استباحة الزينة الباطنة معهما (والثانى) تحريمها عليهما (والثالثة) تحريمها على الخصى دون المجبوب (المسئلة الثانية) الاربة الفعلة من الارب كالمشية والجلسة من المشى والجلوس والارب الحاجة والولوع بالشئ والشهوة له والاربة الحاجة فى النساء والاربة العقل ومنه الاريب (المسئلة الثالثة) فى غير قراءتان قرأة ابن عامر وابو بكر عن عاصم وابو جعفر غير بالنصب على الاستثناء والحال يعنى والتابعين عاجزين عنهن والقراءة الثانية بالخفض على الوصفية (وثانى عشرها) قوله تعالى او الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الطفل اسم للواحد لكنه وضع ههنا موضع الجمع لانه يفيد الجنس ويبين مابعده انه يراد به الجمع ونظيره قوله تعالى ثم نخرجكم طفلا (المسئلة الثانية) الظهور على الشئ على وجهين (الاول) العلم به كقوله تعالى انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم اى ان يشعروا بكم (والثانى) الغلبة له والصولة عليه كقوله فأصبحوا ظاهرين فعلى الوجه الاول يكون المعنى او الطفل الذين لم يتصوروا عورات النساء ولم يدروا ما هى من الصغر وهو قول ابن قتيبة وعلى الثانى الذين لم يبلغوا ان يطيقوا اتيان النساء وهو قول الفراء والزجاج (المسئلة الثالثة) ان الصغير الذى لم يتنبه لصغره على عورات النساء فلا عورة للنساء معه وان تنبه لصغره ولمراهقته لزم ان تستر عنه المرأة ما بين سرتها وركبتها وفى لزوم ستر ما سواه وجهان (احدهما) لا يلزم لان القلم غير جار عليه (والثانى) يلزم كالرجل لانه يشتهى والمرأة قد تشتهيه وهو معنى قوله او الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء واسم الطفل شامل له الى ان يحتلم واما الشيخ ان بقيت له شهوة فهو كالشاب وان لم يبق له شهوة ففيه وجهان (احدهما) ان الزينة الباطنة معه مباحة والعورة معه ما بين السرة والركبة (والثانى) ان جميع البدن معه عورة الا الزينة الظاهرة وههنا آخر الصور التى استثناها الله تعالى قال الحسن هؤلاء وان اشتركوا

احوالهم والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبله واظهار الاسم الجليل لتأكيد استقلال الجملة والاشعار بعلة الحكم وبما ذكر من اختلاف حال المحكوم به ذاتا وتمامًا (فى بيوت اذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه) لما ذكر شأن القرآن الكريم فى بيانه للشرائع والاحكام ومباديها وغاياتها المترتبة عليها من الثواب والعقاب وغير ذلك من احوال الآخرة واهوالها واشير الى كونه فى غاية ما يكون من التوضيح والاظهار حيث مثل بما فصل من نور المشكاة واشير الى ان ذلك النور مع كونه فى اقصى مراتب الظهور انما يهتدى بهداه من تعلقت مشيئة الله تعالى بهدايته دون من عداه عقب ذلك بذكر الفريقين وتصوير بعض اعمالهم المعربة عن كيفية حالهم فى الاهتداء وعدمه والمراد بالبيوت المساجد كلها كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وقيل هى المساجد التى بناها نبى من انبياء الله تعالى الكعبة التى بناها ابراهيم واسمعيل عليهما السلام وبيت المقدس الذى بناه داود وسليمان عليهما السلام ومسجد المدينة ومسجد قبا اللذان بناهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وتنكيرها للتفخيم والمراد بالاذن فى رفعها الامر ببنائها رفيعة لا كسائر البيوت وقيل هو الامر برفع

فى جواز رؤية الزينة الباطنة فهم على اقسام ثلاثة فأولهم الزوج وله حرمة ليست لغيره يحل له كل شئ منها والحرمة الثانية للابن والاب والاخ والجد وابى الزوج وكل ذى محرم والرضاع كالنسب يحل لهم ان ينظروا الى الشعر والصدر والساقين والذراع واشباه ذلك والحرمة الثالثة هى للتابعين غير اولى الاربة من الرجال وكذا مملوك المرأة فلا بأس ان تقوم المرأة الشابة بين يدى هؤلاء فى درع وخمار صفيق بغير ملحفة ولا يحل لهؤلاء ان يروا منها شعرا ولا بشرا والستر فى هذا كله افضل ولا يحل للشابة ان تقوم بين يدى الغريب حتى تلبس الجلباب فهذا ضبط هؤلاء المراتب اما قوله تعالى ولا يضربن بارجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن فقال ابن عباس وقتادة كانت المرأة تمر بالناس وتضرب برجلها ليسمع قعقعة خلخالها ومعلوم ان الرجل الذى يغلب عليه شهوة النساء اذا سمع صوت الخلخال يصير ذلك داعية له زائدة فى مشاهدتهن وقد علل تعالى ذلك بأن قال ليعلم ما يخفين من زينتهن فنبه به على ان الذى لاجله نهى عنه ان يعلم زينتهن من الحلى وغيره وفى الآية فوائد (الفائدة الاولى) لما نهى عن استماع الصوت الدال على وجود الزينة فلأن يدل على المنع من اظهار الزينة اولى (الثانية) ان المرأة منهية عن رفع صوتها بالكلام بحيث يسمع ذلك الاجانب اذ كان صوتها اقرب الى الفتنة من صوت خلخالها ولذلك كرهوا اذان النساء لانه يحتاج فيه الى رفع الصوت والمرأة منهية عن ذلك (الثالثة) تدل الآية على حظر النظر الى وجهها بشهوة اذ كان ذلك أقرب الى الفتنة اما قوله سبحانه وتعالى وتوبوا الى الله جميعا ايها المؤمنون لعلكم تفلحون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فى التوبة وجهان (احدهما) ان تكاليف الله تعالى فى كل باب لا يقدر العبد الضعيف على مراعاتها وان ضبط نفسه واجتهد ولا ينفك من تقصير يقع منه فلذلك وصى المؤمنين جميعا بالتوبة والاستغفار وتأميل الفلاح اذا تابوا واستغفروا (والثانى) قال ابن عباس رضى الله عنهما توبوا مما كنتم تفعلونه فى الجاهلية لعلكم تسعدون فى الدنيا والآخرة فان قيل قد صحت التوبة بالاسلام والاسلام يجب ما قبله فما معنى هذه التوبة قلنا قال بعض العلماء ان من اذنب ذنبا ثم تاب عنه لزمه كلما ذكره ان يجدد عنه التوبة لانه يلزمه ان يستمر على ندمه الى ان يلقى ربه (المسئلة الثانية) قرئ ايه المؤمنين بضم الهاء ووجهه انها كانت مفتوحة لوقوعها قبل الالف فلما سقطت الالف لالتقاء الساكنين اتبعت حركتها حركة ما قبلها والله اعلم (المسئلة الثالثة) تفسير لعل قد تقدم فى سورة البقرة فى قوله اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون والله اعلم (الحكم الثامن) ما يتعلق بالنكاح ☼ قوله تعالى

(وانكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم) اعلم انه تعالى لما امر من قبل بغض الابصار وحفظ الفروج بين من بعد ان الذى امر به انما هو فيما لا يحل فبين تعالى بعد ذلك طريق الحل فقال وانكحوا الايامى منكم وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف الايامى واليتامى

(اصلهما)

مقدارها بعبادة الله تعالى فيها فيكون عطف الذكر عليه من قبيل العطف التفسيرى وايا ما كان ففى التعبير عنه بالاذن تلويح بأن اللائق بحال المأمور ان يكون متوجها الى المأمور به قبل ورود الامر به ناويا تحقيقه كأنه مستأذن فى ذلك فيقع الامر به موقع الاذن فيه والمراد بذكر اسمه تعالى ما يعم اذكاره تعالى وكلمة فى متعلقة بقوله (يسبح له) وقوله تعالى (فيها) تكرير لها لتأكيد والتذكير لما بينهما من الفاصلة وللايذان بأن التقديم للاهتمام لا لقصر التسبيح على الوقوع فى البيوت فقط واصل التسبيح التنزيه والتقديس يستعمل باللام وبدونها ايضا كما فى قوله تعالى سبح اسم ربك الاعلى قالوا اريد به الصلوات المفروضة كما ينبئ عنه تعيين الاوقات بقوله تعالى (بالغدو والآصال) اى بالغدوات والعشايا على ان الغدو اما جمع غداة كقنى فى جمع قناة كما قيل او مصدر اطلق على الوقت حسبما يشعر به اقترانه بالآصال وهو جمع اصيل وهو العشى وهو شامل لاوقات ما عدا صلاة الفجر المؤداة بالغداة ويجوز ان يراد به نفس التنزيه على انه عبارة عما يقع منه فى اثناء الصلوات واوقاتها لزيادة شرفه وانافته على سائر افراده او عما يقع فى جميع الاوقات

اصلهما ايايم ويتايم فقلبا وقال النضر بن شميل الايم فى كلام العرب كل ذكر لا انثى معه وكل انثى لا ذكر معها وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية الضحاك تقول زوجوا اياماكم بعضكم من بعض وقال الشاعر

فان تنكحى انكح وان تتأيمى • وان كنت افتى منكموا تأيم

(المسئلة الثانية) قوله تعالى وانكحوا الايامى امر وظاهر الامر للوجوب على مابيناه مرارا فيدل على ان الولى يجب عليه تزويج موليته واذا ثبت هذا وجب ان لا يجوز النكاح الا بولى امالان كل من اوجب ذلك على الولى حكم بانه لا يصح من المولية واما لان المولية لو فعلت ذلك لفوتت على الولى التمكن من اداء هذا الواجب وانه غير جائز واما لتطابق هذه الآية مع الحديث وهو قوله عليه الصلاة والسلام اذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه الا تفعلوه تكن فتنة فى الارض وفساد كبير قال ابو بكر الرازى هذه الآية وان اقتضت بظاهرها الايجاب الا انه اجمع السلف على انه لم يرد به الايجاب ويدل عليه امور (احدها) انه لو كان ذلك واجبا لورد النقل بفعله من النبى صلى الله عليه وسلم ومن السلف مستفيضا شائعا لعموم الحاجة اليه فلما وجدنا عصر النبى صلى الله عليه وسلم وسائر الاعصار بعده قد كان فى الناس ايامى من الرجال والنساء فلم ينكروا عدم تزويجهن ثبت انه ما اريد به الايجاب (وثانيها) اجمعنا على ان الايم الثيب لو أبت التزوج لم يكن للولى اجبارها عليه (وثالثها) اتفاق الكل على انه لا يجبر على تزويج عبده وأمته وهو معطوف على الايامى فدل على انه غير واجب فى الجميع بل ندب فى الجميع (ورابعها) ان اسم الايامى ينتظم فيه الرجال والنساء وهو فى الرجال ما اريد به الاولياء دون غيرهم كذلك فى النساء (والجواب) ان جميع ما ذكرته تخصيصات تطرقت الى الآية والعام بعد التخصيص يبقى حجة فوجب ان يبقى حجة فيما اذا التمست المرأة الايم من الولى التزويج وجب وحينئذ ينتظم وجه الكلام (المسئلة الثالثة) قال الشافعى رحمه الله الآية تقتضى جواز تزويج البكر البالغة بدون رضاها لان الآية والحديث يدلان على امر الولى بتزويجها ولولا قيام الدلالة على انه لا يزوج الثيب الكبيرة بغير رضاها لكان جائزا له تزويجها ايضا بغير رضاها لعموم الآية قال ابو بكر الرازى قوله تعالى وانكحوا الايامى لا يختص بالنساء دون الرجال على ما بينا فلما كان الاسم شاملا للرجال والنساء وقد اضمر فى الرجال تزويجهم باذنهم فوجب استعمال ذلك الضمير فى النساء وايضا فقد امر النبى صلى الله عليه وسلم باستئمار البكر بقوله البكر تستأمر فى نفسها واذنها صماتها وذلك امر وان كان فى صورة الخبر فثبت انه لا يجوز تزويجها الا باذنها (والجواب) اما الاول فهو تخصيص النص وهو لا يقدح فى كونه حجة والفرق ان الايم من الرجال يتولى امر نفسه فلا يجب على الولى تعهد امره بخلاف المرأة فان احتياجها الى من يصلح امرها فى التزويج اظهر وايضا فلفظ الايامى وان تناول الرجال والنساء فاذا اطلق لم يتناول الا النساء وانما يتناول الرجال اذا قيد

وافراد طرفى النهار بالذكر لان ما قبلهما مقام كلها لكونهما العمدة فيها بكونهما مشهودين وكونهما اشهر مايقع فيه المباشرة للاعمال والاشتغال بالاشغال وقرئ والايصال وهو الدخول فى الاصيل وقوله تعالى (رجال) فاعل يسبح وتأخيره عن الظروف لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر ولان فى وصفه نوع طول فيخل تقديمه بحسن الانتظام وقرئ يسبح على البناء للمفعول باسناده الى احد الظروف ورجال مرفوع بما ينبئ عنه حكاية الفعل من غير تسمية الفاعل على طريقة قوله

ليبك يزيد ضارع لخصومة

كأنه قيل من يسبح له فقيل يسبح له رجال وقرئ تسبح بتأنيث الفعل مبنيا للفاعل لان جمع التكسير قد يعامل معاملة المؤنث ومبنيا للمفعول على ان يسند الى اوقات الغدو والآصال بزيادة الباء وتجعل الاوقات مسبحة مع كونها مسبحا فيها او يسند الى ضمير التسبيحة اى تسبح له التسبيحة على المجاز المسوغ لاسناده الى الوقتين كما خرجوا قراءة ابى جعفر ليجزى قوما اى ليجزى الجزاء قوما بل هذا اولى من ذلك اذ ليس هنا مفعول صريح

(لاتلهيهم تجارة) صفة لرجال مؤكدة لما افاده التنكير من الفخامة مفيدة لكمال تبتلهم

(واما الثانى) فى تخصيص الآية بخبر الواحد كلام مشهور (المسئلة الرابعة) قال ابو حنيفة رحمه الله العم والاخ يليان تزويج البنت الصغيرة ووجه الاستدلال بالآية كما تقدم (المسئلة الخامسة) قال الشافعى رحمه الله الناس فى النكاح قسمان منهم من تتوق نفسه فى النكاح فيستحب له ان ينكح ان وجد أهبة النكاح سواء كان مقبلا على العبادة اولم يكن كذلك ولكن لايجب ان ينكح وان لم يجد اهبة النكاح يكسر شهوته بالصوم لما روى عبد الله بن مسعود رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه اغض للبصر واحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فان الصوم له وجاء اما الذى لاتتوق نفسه الى النكاح فان كان ذلك لعلة به من كبر او مرض او عجز يكره له ان ينكح لانه يلتزم مالا يمكنه القيام بحقه وكذلك اذا كان لايقدر على النفقة وان لم يكن به عجز وكان قادرا على القيام بحقه لم يكره له النكاح لكن الافضل ان يتخلى لعبادة الله تعالى وقال ابو حنيفة رحمه الله النكاح افضل من التخلى للعبادة وحجة الشافعى رحمه الله وجوه (احدها) قوله تعالى وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين مدح يحيى عليه السلام بكونه حصورا والحصور الذى لايأتى النساء مع القدرة عليهن ولايقال هو الذى لايأتى النساء مع العجز عنهن لان مدح الانسان بما يكون عيبا غير جائز واذا ثبت انه مدح فى حق يحيى وجب ان يكون مشروعا فى حقنا لقوله تعالى اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ولايجوز حمل الهدى على الاصول لان التقليد فيها غير جائز فوجب حمله على الفروع (وثانيها) قوله عليه الصلاة والسلام استقيموا ولن تحصوا واعلموا ان افضل اعمالكم الصلاة وتمسك ايضا بما روى عنه عليه الصلاة والسلام انه قال افضل اعمال امتى قراءة القرآن (وثالثها) ان النكاح مباح لقوله عليه الصلاة والسلام احب المباحات الى الله تعالى النكاح ويحمل الاحب على الاصلح فى الدنيا لئلا يقع التناقض بين كونه احب وبين كونه مباحا والمباح ما استوى طرفاه فى الثواب والعقاب والمندوب ما ترجح وجوده على عدمه فتكون العبادة افضل (ورابعها) ان النكاح ليس بعبادة بدليل انه يصح من الكافر والعبادة لاتصح منه فوجب ان تكون العبادة افضل منه لقوله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون والاشتغال بالمقصود اولى (وخامسها) ان الله تعالى سوى بين التسرى والنكاح ثم التسرى مرجوح بالنسبة الى العبادة ومساوى المرجوح مرجوح فالنكاح مرجوح وانما قلنا انه سوى بين التسرى والنكاح لقوله تعالى فان خفتم ان لاتعدلوا فواحدة او ما ملكت ايمانكم وذكر كلمة او للتخيير بين الشيئين والتخيير بين الشيئين امارة التساوى كقول الطبيب للمريض كل الرمان او التفاح واذا ثبت الاستواء فالتسرى مرجوح ومساوى المرجوح مرجوح فالنكاح يجب ان يكون مرجوحا (وسادسها) ان النافلة اشق فتكون اكثر ثوابا بيان انها اشق ان ميل الطباع الى النكاح اكثر ولولا ترغيب الشرع لما رغب احد فى النوافل واذا ثبت انها اشق وجب ان تكون اكثر ثوابا لقوله عليه الصلاة والسلام افضل العبادات احمزها وقوله صلى الله عليه وسلم لعائشة اجرك على

الى الله تعالى واستغراقهم فيما يحكى عنهم من التسبيح من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم كائنا ما كان وتخصيص التجارة بالذكر لكونها اقوى الصوارف عندهم واشهرها اى لايشغلهم نوع من انواع التجارة (ولا بيع) اى ولا فرد من افراد البياعات وان كان فى غاية الربح وافراده بالذكر مع اندراجه تحت التجارة للايذان بانافته على سائر انواعها لان ربحه متيقن ناجز وربح ما عداه متوقع فى ثانى الحال عند البيع فلا يلزم من نفى الهاء ما عداه نفى الهائه ولذلك كررت كلمة لا لتذكير النفى وتأكيده وقد نقل عن الواقدى ان المراد بالتجارة هو الشراء لانه اصلها ومبدؤها وقيل هو الجلب لانه الغالب فيها ومنه يقال تجر فى كذا اى جلبه (عن ذكر الله) بالتسبيح والتحميد (واقام الصلاة) اى اقامتها لمواقيتها من غير تأخير وقد اسقطت التاء

قدر نصبك (وسابعها) لوكان النكاح مساويا للنوافل فى الثواب مع ان النوافل اشق منه لما كانت النوافل مشروعة لانه اذا حصل طريقان الى تحصيل المقصود وكانا فى الافضاء الى المقصود سيين وكان احدهما شاقا والآخر سهلا فان العقلاء يستقبحون تحصيل ذلك المقصود بالطريق الشاق مع المكنة من الطريق السهل ولما كانت النوافل مشروعة علمنا انها افضل (وثامنها) لوكان الاشتغال بالنكاح أولى من النافلة لكان الاشتغال بالحراثة والزراعة أولى من النافلة بالقياس على النكاح والجامع كون كل واحد منهما سببا لبقاء هذا العالم ومحصلا لنظامه (وتاسعها) اجمعنا على انه يقدم واجب العبادة على واجب النكاح فيقدم مندوبها على مندوبه لاتحاد السبب (وعاشرها) ان النكاح اشتغال بتحصيل اللذات الحسية الداعية الى الدنيا والنافلة قطع العلائق الجسمانية واقبال على الله تعالى فأين احدهما من الآخر ولذلك قال عليه الصلاة والسلام حبب الى من دنيا كم ثلاث الطيب والنساء وجعلت قرة عينى فى الصلاة فرجح الصلاة على النكاح * حجة ابى حنيفة رحمه الله من وجوه (الاول) ان النكاح يتضمن صون النفس عن الزنا فيكون ذلك دفعا للضرر عن النفس والنافلة جلب النفع ودفع الضرر أولى من جلب النفع (الثانى) ان النكاح يتضمن العدل والعدل افضل من العبادة لقوله عليه الصلاة والسلام لعدل ساعة خير من عبادة ستين سنة (الثالث) النكاح سنة مؤكدة لقوله عليه الصلاة والسلام من رغب عن سنتى فليس منى وقال فى الصلاة وانها خير موضوع فمن شاء فليستكثر ومن شاء فليستقلل فوجب ان يكون النكاح افضل (المسئلة السادسة) قوله تعالى وانكحوا الايامى وان كانت تتناول جميع الايامى بحسب الظاهر لكنهم اجمعوا على انه لابد فيها من شروط وقد تقدم شرحها فى قوله واحل لكم ماوراء ذلكم اما قوله تعالى منكم فقد حمله كثير من المفسرين على ان المراد هم الاحرار ليتفصل الحر من العبد وقال بعضهم بل المراد بذلك من يكون تحت ولاية المأمور من الولد والقريب ومنهم من قال الاضافة تفيد الحرية والاسلام اما قوله تعالى والصالحين من عبادكم وامائكم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ظاهره انه ايضا امر للسادة بتزويج هذين الفريقين اذا كانوا صالحين وانه لافرق بين هذا الامر وبين الامر بتزويج الايامى فى باب الوجوب لكنهم اتفقوا على انه اباحة او ترغيب فاما ان يكون واجبا فلا وفرقوا بينه وبين تزويج الايامى بأن فى تزويج العبد التزام مؤنة وتعطيل خدمة وذلك ليس بواجب على السيد وفى تزويج الامة استفادة مهر وسقوط نفقة وليس ذلك بلازم على المولى (المسئلة الثانية) انما خص الصالحين بالذكر لوجوه (الاول) ليحصن دينهم ويحفظ عليهم صلاحهم (الثانى) لان الصالحين من الارقاء هم الذين مواليهم يشفقون عليهم ينزلونهم منزلة الاولاد فى المودة فكانوا مظنة للتوصية بشأنهم والاهتمام بهم وتقبل بهم الوصية فيهم واما المفسدون منهم فحالهم عند مواليهم على عكس ذلك (الثالث) ان يكون المراد الصلاح لامر النكاح حتى

المعوضة عن العين الساقطة بالاعلال وعوض عنها الاضافة كما فى قوله واخلفوك عد الامر الذى وعدوا * اى عدة الامر (وايتاء الزكاة) اى المال الذى فرض اخراجه للمستحقين وايراده ههنا وان لم يكن مما يفعل فى البيوت لكونه قرينة لاتفارق اقامة الصلاة فى عامة المواضع مع مافيه من التنبيه على ان محاسن اعمالهم غير منحصرة فيما يقع فى المساجد وكذلك قوله تعالى (يخافون) الخ فانه صفة ثانية لرجال او حال من مفعول لاتلهيهم واياما كان فليس خوفهم مقصورا على كونهم فى المساجد وقوله تعالى (يوما) مفعول ليخافون لاظرف له وقوله تعالى (تتقلب فيه القلوب والابصار) صفة ليوما اى تضطرب وتتغير فى انفسها من الهول والفزع وتشخص كما فى قوله تعالى واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر او تتغير احوالهم وتتقلب فتتفقه القلوب بعد ان كانت مطبوعا عليها وتبصر الابصار بعد ان كانت عميا او تتقلب القلوب بين توقع النجاة وخوف الهلاك والابصار من اى ناحية يؤخذ بهم ويؤتى كتابهم (ليجزيهم الله) متعلق بمحذوف يدل عليه ماحكى من اعمالهم المرضية اى يفعلون مايفعلون من المداومة على التسبيح والذكر وايتاء الزكاة

يقوم العبد بمايلزم لها وتقوم الامة بمايلزم الزوج (الرابع) ان يكون المراد الصلاح في نفس النكاح بأن لاتكون صغيرة فلا تحتاج الى النكاح (المسئلة الثالثة) ظاهر الآية يدل على ان العبد لايتزوج بنفسه وانما يجوز ان يتولى المولى تزويجه لكن ثبت بالدليل انه اذا أمره بأن يتزوج جاز ان يتولى تزويج نفسه فيكون توليه باذنه بمنزلة ان يتولى ذلك نفس السيد فأما الاماء فلاشبهة في ان المولى يتولى تزويجهن خصوصا على قول من لايجوز النكاح الاولى اماقوله تعالى ان يكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) الاصح ان هذا ليس وعدا من الله تعالى باغناء من يتزوج بل المعنى لاتنظروا الى فقر من يخطب اليكم او فقر من تريدون تزويجها ففي فضل الله مايغنيهم والمال غاد ورائح وليس في الفقر مايمنع من الرغبة في النكاح فهذا معنى صحيح وليس فيه ان الكلام قصد به وعد الغنى حتى لايجوز ان يقع فيه خلف وروى عن قدماء الصحابة مايدل على انهم رأوا ذلك وعدا عن ابي بكر قال اطيعوا الله فيما امركم به من النكاح ينجز لكم ماوعدكم من الغنى وعن عمر وابن عباس مثله قال ابن عباس التمسوا الرزق بالنكاح وشكا رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم الحاجة فقال عليك بالباءة وقال طلحة بن مطرف تزوجوا فانه اوسع لكم في رزقكم واوسع لكم في اخلاقكم ويزيد الله في مروءتكم (فان قيل) فنحن نرى من كان غنيا فيتزوج فيصير فقيرا (قلنا) الجواب عنه من وجوه (احدها) ان هذا الوعد مشروط بالمشيئة كما في قوله تعالى وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله عليم حكيم والمطلق محمول على المقيد (وثانيها) ان اللفظ وان كان عاما الا انه يكون خاصا في بعض المذكورين دون البعض وهو في الايامى الاحرار الذين يملكون فيستغنون بمايملكون (وثالثها) ان يكون المراد الغنى بالعفاف فيكون المعنى وقوع الغنى بملك البضع والاستغناء به عن الوقوع في الزنا (المسئلة الثانية) من الناس من استدل بهذه الآية على ان العبد والامة يملكان لان ذلك راجع الى كل من تقدم فتقتضي الآية بان ان العبد قد يكون فقيرا وقد يكون غنيا فان دل ذلك على الملك ثبت انهما يملكان ولكن المفسرون تأولوه على الاحرار خاصة فكأنهم قالوا هو راجع الى الايامى اما اذا فسرنا الغنى بالعفاف فالاستدلال به على ذلك ساقط اماقوله والله واسع عليم فالمعنى انه سبحانه في الافضال لاينتهي الى حد تنقطع قدرته على الافضال دونه لانه قادر على المقدورات التي لانهاية لها وهو مع ذلك عليم بمقادير مايصلحهم من الافضال والرزق

❊ قوله تعالى (وليستعفف الذين لايجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله) اعلم انه سبحانه لما ذكر تزويج الحرائر والاماء ذكر حال من يعجز عن ذلك فقال وليستعفف اى وليجتهد في العفة كأن المستعفف طالب من نفسه العفاف وحاملها عليه واماقوله تعالى لايجدون نكاحا فالمعنى لايتمكنون من الوصول اليه يقال لايجد المرء الشئ اذا لم يتمكن منه قال الله تعالى فمن لم يجد فصيام شهرين والمراد به بالاجماع من لم يتمكن ويقال في احدنا هو غير

(واجد)

والخوف من غير صارف لهم عن ذلك ليجزيهم الله تعالى (احسن ماعملوا) اى احسن جزاء اعمالهم حسبا وعدلهم بمقابلة حسنة واحدة عشر امثالها الى سبعمائة ضعف (ويزيدهم من فضله) اى يتفضل عليهم باشياء لم توعدلهم بخصوصياتها او بمقاديرها ولم تخطر ببالهم كيفياتها ولا كمياتها بل انما وعدت بطريق الاجمال في مثل قوله تعالى للذين احسنوا الحسنى وزيادة وقوله عليه الصلاة والسلام حكاية عنه عز وجل اعددت لعبادي الصالحين مالاعين رأت ولااذن سمعت ولاخطر على قلب بشر وغير ذلك من المواعيد الكريمة التي من جملتها قوله تعالى (والله يرزق من يشاء بغير حساب) فانه تذييل مقرر للزيادة ووعد كريم بأنه تعالى يعطيهم غير اجزية اعمالهم من الخيرات مالايفي به الحساب واما عدم سبق الوعد بالزيادة ولو اجمالا وعدم خطورها ببالهم ولو بوجه مافيأباه نظمها في سلك الغاية والموصول عبارة عمن ذكرت صفاتهم الجميلة كأنه قيل والله يرزقهم بغير حساب ووضعه موضع ضميرهم للتنبيه بما في حيز الصلة على ان مناط الرزق المذكور محض مشيئته تعالى لااعمالهم المحكية كما انها المناط لما سبق من الهداية لنوره تعالى لاللظاهر

واجد لماء وان كان موجودا اذالم يمكنه ان يشتريه ويجوز ان يراد بالنكاح ماينكح به من المال فبين سبحانه وتعالى ان من لايتمكن من ذلك فليطلب التعفف ولينتظر ان يغنيه الله من فضله ثم يصل الى بغيته من النكاح فان قيل أفليس ملك اليمين يقوم مقام نفس النكاح قلنا لكن من لم يجد المهر والنفقة فبأن لايجد ثمن الجارية اولى والله أعلم

(الحكم التاسع) فى الكتابة ۞ قوله تعالى (والذين يبتغون الكتاب مماملكت ايمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) اعلم انه تعالى لمابعث السيد على تزويج الصالحين من العبيد والاماء مع الرق رغبهم فى ان يكاتبوهم اذاطلبوا ذلك ليصيروا احرارا فيتصرفوا فى انفسهم كالاحرار فقال والذين يبتغون الكتاب وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قوله والذين يبتغون مرفوع على الابتداء اومنصوب بفعل مضمر يفسره فكاتبوهم كقولك زيدا فاضربه ودخلت الفاء لتضمن معنى الشرط (المسئلة الثانية) الكتاب والكتابة كالعتاب والعتابة وفى اشتقاق لفظ الكتابة وجوه (احدها) ان اصل الكلمة من الكتب وهو الضم والجمع ومنه الكتيبة سميت بذلك لانها تضم النجوم بعضها الى بعض وتضم ماله الى ماله (وثانيها) يحتمل ان يكون اللفظ مأخوذا من الكتاب ومعناه كتبت لك على نفسى ان تعتق منى اذاوفيت بالمال وكتبت لى على نفسك ان تفى لى بذلك اوكتبت لى كتابا عليك بالوفاء بالمال وكتبت على العتق وهذاماذكره الازهرى (وثالثها) انماسمى بذلك لمايقع فيه من التأجيل بالمال المعقود عليه لانه لايجوز ان يقع على مال هو فى يد العبد حين يكاتب لان ذلك مال لسيده اكتسبه فى حال ماكانت يدالسيد غير مقبوضة عن كسبه فلايجوز لهذا المعنى ان يقع هذا العقد حالا ولكنه يقع مؤجلا ليكون متمكنا من الاكتساب وغيره حين ماانقبضت يد السيد عنه ثم من آداب الشريعة ان يكتب على من عليه المال المؤجل كتاب فسمى لهذا المعنى هذا العقد كتابا لما يقع فيه من الاجل قال تعالى لكل اجل كتاب (المسئلة الثالثة) قال محيى السنة الكتابة ان يقول لمملوكه كاتبتك على كذا ويسمى مالا معلوما يؤديه فى نجمين او اكثر ويبين عدد النجوم ومايؤدى فى كل نجم ويقول اذا أديت ذلك المال فأنت حر اوينوى ذلك بقلبه ويقول العبد قبلت وفى هذا الضبط ابحاث (البحث الاول) قال الشافعى رحمه الله ان لم يقل بلسانه اولم ينو بقلبه اذا أديت ذلك المال فأنت حر لم يعتق وقال ابو حنيفة ومالك وابو يوسف ومحمد وزفر رحمهم الله لاحاجة الى ذلك حجة ابى حنيفة رحمه الله ان قوله تعالى فكاتبوهم خال من هذا الشرط فوجب ان تصح الكتابة بدون هذا الشرط واذا صحت الكتابة وجب ان يعتق بالاداء للاجماع حجة الشافعى رحمه الله ان الكتابة ليست عقد معاوضة محضة لان مافى يد العبد فهو ملك السيد والانسان لايمكنه بيع ملكه بملكه بل قوله كاتبتك كناية فى العتق فلابد فيه من لفظ العتق اونيته (البحث الثانى) لاتجوز الكتابة الحالة عند الشافعى وتجوز عند ابى حنيفة وحجة قول الشافعى رحمه الله ان العبد

الاسباب وللايذان بانهم ممن شاء الله تعالى ان يرزقهم كما انهم ممن شاء الله تعالى ان يهديهم لنوره حسبما يعرب عنه ما فصل من اعمالهم الحسنة فان جميع ماذكر من الذكر والتسبيح واقام الصلاة وايتاء الزكاة وخوف اليوم الآخر واهواله ورجاء الثواب مقتبس من القرآن العظيم الذى هو المعنى بالنور وبه يتم بيان احوال من اهتدى بهداه على اوضح وجه واجلاه هذا وقد قيل قوله تعالى فى بيوت الخ من تمة التمثيل وكلة فى متعلقة بمحذوف هى صفة لمشكاة اى كائنة فى بيوت وقيل المصباح وقيل لزجاجة وقيل متعلقة بيوقد والكل مما لايليق بشان التنزيل الجليل كيف لا وان مابعد قوله تعالى ولو لم تمسسه نار على ماهو الحق او مابعد قوله تعالى نور على نور على ماقيل الى قوله تعالى بكل شئ عليم كلام متعلق بالممثل قطعا فتوسيطه بين اجزاء التمثيل مع كونه من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه بالاجنبى يؤدى الى كون ذكر حال المتلمعين بالتمثيل المهدين بنور القرآن الكريم بطريق الاستتباع والاستطراد مع كون بيان حال اضدادهم مقصودا بالذات ومثل هذا مما لا يعهد به فى كلام الناس فضلا ان يحمل عليه الكلام المعجز

لايتصورله مال يؤديه فى الحال واذاعقد حالا توجهت المطالبة عليه فى الحال فاذا عجز عن الاداء لم يحصل مقصود العقد كالواسلم فى شئ لايوجد عند المحل لايصح بخلاف ما لواسلم الى معسر فانه يجوز لانه حين العقد يتصور ان يكون له مال فى الباطن فالعجز لايتحقق عن ادائه وجه قول ابى حنيفة رحمه الله ان قوله تعالى فكاتبوهم مطلق يتناول الكتابة الحالة والمؤجلة وايضا لما كان مال الكتابة بدلا عن الرقبة كان بمنزلة اثمان السلع المبيعة فيجوز عاجلا وآجلا وايضا اجمعوا على جواز العتق معلقا على مال حال فوجب ان تكون الكتابة مثله لانه بدل عن العتق فى الحالين الا ان فى احدهما العتق معلق على شرط الاداء وفى الآخر معجل فوجب ان لايختلف حكمهما (البحث الثالث) قال الشافعى رحمه الله لايجوز الكتابة على اقل من نجمين يروى ذلك عن على وعثمان وابن عمر روى ان عثمان رضى الله عنه غضب على عبده فقال لاضيقن الامر عليك ولا كاتبنك على نجمين ولو جاز على اقل من ذلك لكاتبه على الاقل لان التضييق فيه اشد وانما شرطنا التنجيم لانه عقد ارفاق ومن شرط الارفاق التنجيم ليتيسر عليهم الاداء وقال ابو حنيفة رحمه الله تجوز الكتابة على نجم واحد لان ظاهر قوله فكاتبوهم ليس فيه تقييد (المسئلة الرابعة) تجوز كتابة المملوك عبدا كان او امة ويشترط عند الشافعى رحمه الله ان يكون عاقلا بالغا فاذا كان صبيا او مجنونا لاتصح كتابته لان الله تعالى قال والذين يبتغون الكتاب ولايتصور الابتغاء من الصبى والمجنون وعند ابى حنيفة رحمه الله تجوز كتابة الصبى ويقبل عنه المولى (المسئلة الخامسة) يشترط ان يكون المولى مكلفا مطلقا فان كان صبيا او مجنونا او محجورا عليه بالسفه لاتصح كتابته كما لايصح بيعه ولان قوله فكاتبوهم خطاب فلا يتناول غير العاقل وعند ابى حنيفة رحمه الله تصح كتابة الصبى باذن الولى (المسئلة السادسة) اختلف العلماء فى ان قولهم فكاتبوهم امر ايجاب او امر استحباب فقال قائلون هو امر ايجاب فيجب على الرجل ان يكاتب مملوكه اذا سأله ذلك بقيمته او اكثر اذا علم فيه خيرا ولو كان بدون قيمته لم يلزمه وهذا قول عمرو بن دينار وعطاء واليه ذهب داود بن على ومحمد ابن جرير واحتجوا عليه بالآية والاثر (اما الآية) فظاهر قوله تعالى فكاتبوهم لانه امر وهو للايجاب ويدل عليه ايضا سبب نزول الآية فانها نزلت فى غلام لحويطب بن عبد العزى يقال له صبيح سأل مولاه ان يكاتبه فأبى عليه فنزلت الآية فكاتبه على مائة دينار ووهب له منها عشرين دينارا (واما الاثر) فما روى ان عمر امر انسا ان يكاتب سيرين ابا محمد ابن سيرين فأبى فرفع عليه الدرة وضربه وقال فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا وحلف عليه ليكاتبنه ولو لم يكن ذلك واجبا لكان ضربه بالدرة ظلما وما انكر على عمر احد من الصحابة فجرى ذلك مجرى الاجماع وقال اكثر الفقهاء انه امر استحباب وهو ظاهر قول ابن عباس والحسن والشعبى واليه ذهب مالك وابو حنيفة والشافعى والثورى واحتجوا عليه بقوله عليه الصلاة والسلام لايحل مال امرئ مسلم الا بطيب من نفسه وانه لافرق ان يطلب

(والذين كفروا) عطف على ماينساق اليه ماقبله كأنه قيل الذين آمنوا اعمالهم حالا وما لا كما وصف والذين كفروا (اعمالهم) اى اعمالهم التى هى من ابواب البر كصلة الارحام وفك العناة وسقاية الحاج وعمارة البيت واغاثة الملهوفين وقرى الاضياف ونحو ذلك مما لو قارنه الايمان لاستتبع الثواب كما فى قوله تعالى مثل الذين كفروا بربهم اعمالهم كرماد الآية (كسراب) وهو مايرى فى الفلوات من لمعان الشمس عليها وقت الظهيرة فيظن انه ماء يسرب اى يجرى (بقيعة) متعلق بمحذوف هو صفة لسراب اى كائن فى قاع وهى الارض المنبسطة المستوية وقيل هى جمع قاع كجيرة جمع جار وقرئ بقيعات بتاء ممدودة كديمات اما على انها جمع قيعة او على ان الاصل قيعة قد اشبعت فتحة العين فتولد منها الف (يحسبه الظمآن ماء) صفة اخرى لسراب وتخصيص الحسبان بالظمآن مع شموله لكل من يراه كائنا من كان من العطشان والريان لتكميل التشبيه بتحقيق شركة طرفيه فى وجه الشبه الذى هو المطلع المطمع والمقطع المؤيس (حتى اذا جاءه) اى اذا جاء العطشان ماحسبه ماء وقيل موضعه (لم يجده)

الكتابة او يطلب بعد ممن يعتقه فى الكفارة فكما لا يجب ذلك فكذا الكتابة وهذه طريقة المعاوضات اجمع وههنا سؤالان (السؤال الاول) كيف يصح ان يبيع ماله بماله قلنا اذا ورد الشرع به فيجب ان يجوز كما اذا علق عتقه على مال يكتسبه فيؤديه او يؤدى عنه صار سببا للعتق (السؤال الثانى) هل يستفيد العبد بعقد الكتابة ما لا يملكه لولا الكتابة قلنا نعم لانه لو دفع اليه الزكاة ولم يكاتب لم يحل له ان يأخذها واذا صار مكاتبا حل له واذا دفع الى مولاه حل له سواء أدى فعتق او عجز فعاد الى الرق ويستفيد ايضا ان الكتابة تبعثه على الجد والاجتهاد فى الكسب فلولاها لم يكن ليفعل ذلك ويستفيد المولى الثواب لانه اذا باعه فلا ثواب واذا كاتبه ففيه ثواب ويستفيد ايضا الولاء لانه لو عتق من قبل غيره لم يكن له ولاء واذا عتق بالكتابة فالولاء له فورد الشرع بجواز الكتابة لما ذكرناه من الفوائد اما قوله تعالى ان علمتم فيهم خيرا فذكروا فى الخير وجوها (احدها) ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ان علمتم لهم حرفة فلا تدعوهم كلا على الناس (وثانيها) قال عطاء الخير المال وتلا كتب عليكم اذا حضر احدكم الموت ان ترك خيرا اى ترك مالا قال وبلغنى ذلك عن ابن عباس (وثالثها) عن ابن سيرين قال اذا صلى وقال النخعى وفاء وصدقا وقال الحسن صلاحا فى الدين (ورابعها) قال الشافعى رحمه الله المراد بالخير الامانة والقوة على الكسب لان مقصود الكتابة قلما يحصل الا بهما فانه ينبغى ان يكون كسوبا يحصل المال ويكون امينا يصرفه فى نجومه ولا يضيعه فاذا فقد الشرطان او احدهما لا يستحب ان يكاتبه والاقرب انه لا يجوز حمله على المال لوجهين (الاول) ان المفهوم من كلام الناس اذا قالوا فلان فيه خير انما يريدون به الصلاح فى الدين ولو اراد المال لقال ان علمتم لهم خيرا لانه انما يقال لفلان مال ولا يقال فيه مال (الثانى) ان العبد لا مال له بل المال لسيده فالاولى ان يحمل على ما يعود على كتابته بالتمام وهو الذى ذكره الشافعى رحمه الله وهو ان يتمكن من الكسب ويوثق به بحفظ ذلك لان كل ذلك مما يعود على كتابته بالتمام ودخل فيه تفسير النبى صلى الله عليه وسلم الخير لانه عليه الصلاة والسلام فسره بالكسب وهو داخل فى تفسير الشافعى رحمه الله اما قوله تعالى وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اختلفوا فى المخاطب بقوله وآتوهم على وجوه (احدها) انه هو المولى يحط عنه جزأ من مال الكتابة او يدفع اليه جزأ مما اخذ منه وهؤلاء اختلفوا فى قدره فمنهم من جعل الخيار له وقال يجب ان يحط قدرا يقع به الاستغناء وذلك يختلف بكثرة المال وقلته ومنهم من قال يحط ربع المال روى عطاء بن السائب عن ابى عبد الرحمن انه كاتب غلاما له فترك له ربع مكاتبته وقال ان عليا كان يأمرنا بذلك ويقول هو قول الله تعالى وآتوهم من مال الله الذى آتاكم فان لم يفعل فالسبع لما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما انه كاتب عبدا له بخمس وثلاثين الفا ووضع عنه خمسة آلاف ويروى ان عمر كاتب عبد الله فجاء بنجمه فقال له اذهب فاستعن به على اداء مال الكتابة فقال المكاتب لو تركته الى آخر

اى ما حسبه ماء وعلق به رجاءه (شيئا) اصلا لا محققا ولا متوهما كما كان يراه من قبل فضلا عن وجدانه ماء وبه تم بيان احوال الكفرة بطريق التمثيل وقوله تعالى (ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب) بيان لبقية احوالهم العارضة لهم بعد ذلك بطريق التكملة لئلا يتوهم ان قصارى امرهم هو الخيبة والقنوط فقط كما هو شأن الظمآن ويظهر انه يعتريه بعد ذلك من سوء الحال ما لا قدر عنده للخيبة اصلا فليست الجملة معطوفة على لم يجده شيئا بل على ما يفهم منه بطريق التمثيل من عدم وجدان الكفرة من اعمالهم المذكورة عينا ولا اثرا كما فى قوله تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا كيف لا وان الحكم بأن اعمال الكفرة كسراب يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا حكم بانها بحيث يحسبونها فى الدنيا نافعة لهم فى الآخرة حتى اذا جاؤها لم يجدوها شيئا كأنه قيل حتى اذا جاء الكفرة يوم القيامة اعمالهم التى كانوا فى الدنيا يحسبونها نافعة لهم فى الآخرة لم يجدوها شيئا ووجدوا الله اى حكمه وقضاءه عند المجئ وقيل عند العمل فوفاهم اى اعطاهم وافيا كاملا

نجم فقال انى اخاف ان لا ادرك ذلك ثم قرأ هذه الآية وكان ابن عمر يؤخره الى آخر النجوم مخافة ان يعجز (وثانيها) المراد وآتوهم سهمهم الذى جعله الله لهم من الصدقات فى قوله وفى الرقاب وعلى هذا فالخطاب لغير السادة وهو قول الحسن والنخعى ورواية عطاء عن ابن عباس واجمعوا على انه لا يجوز للسيد ان يدفع صدقته المفروضة الى مكاتب نفسه (وثالثها) ان هذا امر من الله تعالى للسادة والناس ان يعينوا المكاتب على كتابته بما يمكنهم وهذا قول الكلبى وعكرمة والمقاتلين والنخعى وقال عليه الصلاة والسلام من أعان مكاتبا على فك رقبته أظله الله تعالى فى ظل عرشه وروى ان رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم علمنى عملا يدخلنى الجنة قال لئن كنت اقصرت الخطبة لقد اعظمت المسئلة اعتق النسمة وفك الرقبة فقال أليسا واحدا فقال لا عتق النسمة ان تنفرد بعتقها وفك الرقبة ان تعين فى ثمنها قالوا ويؤكد هذا القول وجوه (احدها) انه امر باعطائه من مال الله تعالى وما اطلق عليه هذه الاضافة فهو ما كان سبيله الصدقة وصرفه فى وجوه القرب (وثانيها) ان قوله من مال الله الذى آتاكم هو الذى قد صح ملكه للمالك وأمر باخراج بعضه ومال الكتابة ليس بدين صحيح لانه على عبده والمولى لا يثبت له على عبده دين صحيح (وثالثها) ان ما آتاه الله فهو الذى يحصل فى يده ويمكنه التصرف فيه وما سقط عقيب العقد لم يحصل له عليه يد وملك فلا يستحق الصفة بانه من مال الله الذى آتاه فان قيل ههنا وجهان يقدحان فى صحة هذا التأويل (احدهما) انه كيف يحل لمولاه اذا كان غنيا ان يأخذ من مال الصدقة (والثانى) ان قوله وآتوهم معطوف على قوله فكاتبوهم فيجب ان يكون المخاطب فى الموضعين واحدا وعلى هذا التأويل يكون المخاطب فى الآية الاولى السادات وفى الثانية سائر المسلمين (قلنا اما الاول) فجوابه ان تلك الصدقة تحل لمولاه وكذلك اذا لم تف الصدقة بجميع النجوم وعجز عن اداء الباقى كان للمولى ما اخذه لانه لم يأخذه بسبب الصدقة ولكن بسبب عقد الكتابة كمن اشترى الصدقة من الفقير او ورثها منه يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام فى حديث بريرة هو لها صدقة ولنا هدية (والجواب عن الثانى) انه قد يصح الخطاب لقوم ثم يعطف عليه بمثل لفظه خطابا لغيرهم كقوله تعالى واذا طلقتم النساء فالخطاب للازواج ثم خاطب الاولياء بقوله فلا تعضلوهن وقوله مبرؤن مما يقولون والقائلون غير المبرئين فكذا ههنا قال للسادة فكاتبوهم وقال لغيرهم وآتوهم او قال لهم ولغيرهم (المسئلة الثانية) قال الشافعى رحمه الله يجب على المولى ايتاء المكاتب وهو ان يحط عنه جزأ من مال الكتابة او يدفع اليه جزأ مما اخذ منه وقال مالك وابو حنيفة واصحابه انه مندوب اليه لكنه غير واجب حجة الشافعى رحمه الله ظاهر قوله وآتوهم من مال الله الذى آتاكم والامر للوجوب فقيل عليه ان قوله فكاتبوهم وقوله آتوهم امران وردا فى صورة واحدة فلم جعلت الاول ندبا والثانى ايجابا وايضا فقد ثبت ان قوله وآتاهم ليس خطابا مع الموالى بل مع عامة المسلمين حجة ابى حنيفة رحمه الله من حيث

(السنة)

حسابهم اى حساب أعمالهم المذكورة وجزاءها فان اعتقادهم لنفعها بغير ايمان وعملهم بموجبه كفر على كفر موجب للعقاب قطعا وافراد الضميرين الراجعين الى الذين كفروا اما لارادة الجنس كالظمآن الواقع فى التمثيل واما للحمل على كل واحد منهم وكذا افراد ما يرجع الى أعمالهم هذا وقد قيل نزلت فى عتبة بن ربيعة بن أمية كان قد تعبد فى الجاهلية ولبس المسوح والتمس الدين فلما جاء الاسلام كفر (او كظلمات) عطف على كسراب وكلمة او للتنويع اثر ما مثلت أعمالهم التى كانوا يعتمدون عليها اقوى اعتماد ويفتخرون بها فى كل واد وناد بما ذكر من حال السراب مع زيادة حساب وعقاب مثلت أعمالهم القبيحة التى ليس فيها شائبة خيرية يغتر بها المغترون بظلمات كائنة (فى بحر لجى) اى عميق كثير الماء منسوب الى اللج وهو معظم ماء البحر وقيل الى اللجة وهى ايضا معظمه (يغشاه) صفة أخرى للبحر اى يستره ويغطيه بالكلية (موج) وقوله تعالى (من فوقه موج) جملة من مبتدأ وخبر محلها الرفع على انها صفة لموج او الصفة هى الجار والمجرور وموج الثانى فاعل له لاعتماده على الموصوف والكلام فيه كما مر فى قوله تعالى نور على نور

السنة والقياس اما السنة فاروى عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده انه عليه الصلاة والسلام قال ايما عبد كاتب على مائة اوقية فاداها الا عشر اواق فهو عبد فلو كان الحط واجبا لسقط عنه بقدره وعن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت جاءتنى بريرة فقالت ياعائشة انى قد كاتبت اهلى على تسع اواق فى كل عام اوقية فاعينينى ولم تكن قضت من كتابتها شيئا فقالت عائشة رضى الله عنها ارجعى الى اهلك فان احبوا ان اعطيهم ذلك جميعا ويكون ولاؤك لى فعلت فأبوا فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال لا يمنعك ذلك منها ابتاعى واعتقى فانما الولاء لمن اعتق وجه الاستدلال انها ما قضيت من كتابتها شيئا وأرادت عائشة ان تؤدى عنها كتابتها بالكلية وذكرته رسول الله صلى الله عليه وسلم فترك رسول الله النكر عليها ولم يقل انها تستحق ان يحط عنها بعض كتابتها فثبت قولنا واما القياس فمن وجهين (الاول) لو كان الايتاء واجبا لكان وجوبه متعلقا بالعقد فيكون العقد موجباله ومسقطاله وذلك محال لتنافى الاسقاط والايجاب (الثانى) لو كان الحط واجبا لما احتاج الى ان يضع عنه بل كان يسقط القدر المستحق كمن له على انسان دين ثم حصل لذلك الآخر على الاول مثله فانه يصير قصاصا ولو كان كذلك لكان قدر الايتاء اما ان يكون معلوما او مجهولا فان كان معلوما وجب ان تكون الكتابة بألفين فيعتق اذا أدى ثلاثة آلاف والكتابة اربعة آلاف وذلك باطل لان اداء جميعها مشروط فلا تعتق بأداء بعضها ولانه عليه السلام قال المكاتب عبد ما بقى عليه درهم وان كان مجهولا صارت الكتابة مجهولة لان الباقى بعد الحط مجهول فيصير بمنزلة من كاتب عبده على الف درهم الا شيئا وذلك غير جائز والله اعلم (الحكم العاشر) الاكراه على الزنا ۞ قوله تعالى (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم) اعلم انه تعالى لما بين ما يلزم من تزويج العبيد والاماء وكتابتهم اتبع ذلك بالمنع من اكراه الاماء على الفجور وههنا مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى سبب نزولها على وجوه (الاول) كان لعبد الله بن ابى المنافق ست جوار معاذة ومسيكة واميمة وعمرة وأروى وقتيلة يكرههن على البغاء وضرب عليهن ضرائب فشكت ثنتان منهن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية (وثانيها) ان عبد الله بن ابى اسر رجلا فراود الاسير جارية عبد الله وكانت الجارية مسلمة فامتنعت الجارية لاسلامها واكرهها ابن ابى على ذلك رجاء ان تحمل من الاسير فيطلب فداء ولده فنزلت (وثالثها) روى ابو صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال جاء عبد الله بن ابى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه جارية من اجمل النساء تسمى معاذة فقال يارسول الله هذه لايتام فلان أفلا نأمرها بالزنا فيصيبون من منافعها فقال عليه الصلاة والسلام لا فأعاد الكلام فنزلت الآية قال جابر بن عبد الله جاءت جارية لبعض الناس فقالت ان سيدى يكرهنى على البغاء فنزلت الآية (المسئلة الثانية) الاكراه انما يحصل متى حصل التخويف بما يقتضى تلف النفس فاما

اى يغشاه امواج مترا كمة متراكبة بعضها على بعض وقوله تعالى (من فوقه سحاب) صفة للموج الثانى على احد الوجهين المذكورين اى من فوق ذلك الموج سحاب ظلمانى ستر اضواء النجوم وفيه ايماء الى غاية تراكم الامواج وتضاعفها حتى كأنها بلغت السحاب (ظلمات) خبر مبتدأ محذوف اى هى ظلمات (بعضها فوق بعض) اى متكاثفة متراكمة وهذا بيان لكمال شدة الظلمات كما ان قوله تعالى نور على نور بيان لغاية قوة النور خلا ان ذلك متعلق بالمشبه وهذا بالمشبه به كما يعرب عنه ما بعده وقرئ بالجر على الابدال من الاولى وقرئ باضافة السحاب اليها (اذا اخرج) اى من ابتلى بها واضماره من غير ذكره لدلالة المعنى عليه دلالة واضحة (يده) وجعلها بمرأى منه قريبة من عينه لينظر اليها (لم يكد يراها) وهى اقرب شئ منه فضلا عن ان يراها (ومن لم يجعل الله له نورا) الخ اعتراض تذييلى جئ به لتقرير ما افاده التمثيل من كون اعمال الكفرة كما فصل وتحقيق ان ذلك لعدم هدايته تعالى اياهم لنوره وايراد الموصول للاشارة بما فى حيز الصلة الى علة الحكم وانهم ممن لم يشأ الله تعالى هدايتهم اى ومن

باليسير من الخوف فلا تصير مكرهة فحال الاكراه على الزنا كحال الاكراه على كلمة الكفر والنص وان كان مختصا بالاماء الا ان حال الحرائر كذلك (المسئلة الثالثة) العرب تقول للمملوك فتى وللمملوكة فتاة قال تعالى فلما جاوزا قال لفتاه وقال تراود فتاها وقال مما ملكت ايمانكم من فتياتكم المؤمنات وفى الحديث ليقل احدكم فتاى وفتاتى ولا يقل عبدى وامتى (المسئلة الرابعة) البغاء الزنا يقال بغت تبغى بغاء فهى بغى (المسئلة الخامسة) الذى نقول به ان المعلق بكلمة ان على الشئ عدم عند عدم ذلك الشئ والدليل عليه اتفاق اهل اللغة على ان كلمة ان للشرط واتفاقهم على ان الشرط ما ينتفى الحكم عند انتفائه ومجموع هاتين المقدمتين النقليتين يوجب الحكم بان المعلق بكلمة ان على الشئ عدم عند عدم ذلك الشئ واحتج المخالف بهذه الآية فقال انه سبحانه علق المنع من الاكراه على البغاء على ارادة التحصن بكلمة ان فلو كان الامر كما ذكرتموه لزم ان لا ينتفى المنع من الاكراه على الزنا اذا لم توجد ارادة التحصن وذلك باطل فانه سواء وجدت ارادة التحصن او لم توجد فان المنع من الاكراه على الزنا حاصل (والجواب) لا نزاع ان ظاهر الآية يقتضى جواز الاكراه على الزنا عند عدم ارادة التحصن ولكنه فسد ذلك لامتناعه فى نفسه لانه متى لم توجد ارادة التحصن فى حقها لم تكن كارهة للزنا وحال كونها غير كارهة للزنا يمتنع اكراهها على الزنا فامتنع ذلك لامتناعه فى نفسه وذاته ومن الناس من ذكر فيه جوابا آخر وهو ان غالب الحال ان الاكراه لا يحصل الا عند ارادة التحصن والكلام الوارد على سبيل الغالب لا يكون له مفهوم الخطاب كما ان الخلع يجوز فى غير حالة الشقاق ولكن لما كان الغالب وقوع الخلع فى حالة الشقاق لا جرم لم يكن لقوله تعالى فان خفتم ان لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به مفهوم ومن هذا القبيل قوله واذا ضربتم فى الارض فليس عليكم جناح ان تقصروا من الصلاة ان خفتم ان يفتنكم الذين كفروا والقصر لا يختص بحال الخوف ولكنه سبحانه اجراه على سبيل الغالب فكذا ههنا (والجواب الثالث) معناه اذا أردن تحصنا لان القصة التى وردت الآية فيها كانت كذلك على ما روينا ان جارية عبد الله بن ابى اسلمت وامتنعت عليه طلبا للعفاف فاكرهها فنزلت الآية موافقة لذلك نظيره قوله تعالى وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا اى واذا كنتم فى ريب (المسئلة السادسة) انه تعالى لما منع من اكراههن على الزنا فقيه ما يدل على ان لهم اكراههن على النكاح فليس لها ان تمتنع على السيد اذا زوجها بل له ان يكرهها على ذلك وهذه الدلالة دلالة دليل الخطاب اما قوله تعالى ان أردن تحصنا اى تعففا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا يعنى كسبهن واولادهن اما قوله تعالى ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم فاعلم انه ليس فى الآية انه تعالى غفور رحيم للمكره او للمكرهة لا جرم ذكروا فيه وجهين (احدهما) فان الله غفور رحيم بهن لان الاكراه ازال الاثم والعقوبة لان الاكراه عذر للمكرهة وهذا المكره فلا عذر له فيما فعل (الثانى) المراد فان الله غفور رحيم بالمكره بشرط التوبة وهذا

يشأ الله ان يهديه لنوره الذى هو القرآن هداية خاصة مستتبعة للاهتداء حتما لم يوفقه للايمان به (فما له من نور) اى ما له هداية ما من احد اصلا وقوله تعالى (ألم تر) الخ استئناف خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام للايذان بانه تعالى قد افاض عليه عليه الصلاة والسلام اعلى مراتب النور واجلاها وبين له من اسرار الملك والملكوت ادقها واخفاها والهمزة للتقرير اى قد علمت علما يقينيا شبيها بالمشاهدة فى القوة والرصانة بالوحى الصريح والاستدلال الصحيح (ان الله يسبح له) اى ينزهه تعالى على الدوام فى ذاته وصفاته وافعاله عن كل ما لا يليق بشأنه الجليل من نقص او خلل (من فى السموات والارض) اى ما فيهما اما بطريق الاستقرار فيهما من العقلاء وغيرهم كائنا ما كان او بطريق الجزئية منهما تنزيها معنويا تفهمه العقول السليمة فان كل موجود من الموجودات الممكنة مركبا كان او بسيطا فهو من حيث ماهيته ووجوده واحواله يدل على وجود صانع واجب الوجود متصف بصفات الكمال مقدس عن كل ما لا يليق بشأن من شؤنه الجليلة وتدنيه على كمال قوة تلك الدلالة وغاية

ضعيف لان على التفسير الاول لاحاجة الى هذا الاضمار وعلى التفسير الثانى يحتاج اليه

﴿ قوله تعالى (ولقد انزلنا اليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين) اعلم انه سبحانه لما ذكر فى هذه السورة هذه الاحكام وصف القرآن بصفات ثلاثة (احدها) قوله ولقد انزلنا اليكم آيات مبينات اى مفصلات وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى وحفص عن عاصم مبينات بكسر الياء على معنى انها تبين للناس كما قال بلسان عربى مبين او تكون من بين بمعنى تبين ومنه المثل قد بين الصبح لذى عينين (وثانيها) قوله ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وفيه وجهان (احدهما) انه تعالى يريد بالمثل ماذكر فى التوراة والانجيل من اقامة الحدود فانزل فى القرآن مثله وهو قول الضحاك (والثانى) قوله ومثلا اى شبها من حالهم بحالكم فى تكذيب الرسل يعنى بينا لكم ما احللنا بهم من العقاب لتمردهم على الله تعالى فجعلنا ذلك مثلا لكم لتعلموا انكم اذا شاركتموهم فى المعصية كنتم مثلهم فى استحقاق العقاب وهو قول مقاتل (وثالثها) قوله وموعظة للمتقين والمراد به الوعيد والتحذير من فعل المعاصى ولا شبهة فى انه موعظة للكل لكنه تعالى خص المتقين بالذكر للعلة التى ذكرناها فى قوله هدى للمتقين وههنا آخر الكلام فى الاحكام القول فى الالهيات اعلم انه تعالى ذكر مثلين (احدهما) فى بيان ان دلائل الايمان فى غاية الظهور (الثانى) فى بيان ان اديان الكفرة فى نهاية الظلمة والخفاء اما المثل الاول فهو ﴿ قوله سبحانه وتعالى (الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شئ عليم) اعلم ان الكلام فى هذه الآية مرتب على فصول

• (الفصل الاول) • فى اطلاق اسم النور على الله تعالى اعلم ان لفظ النور موضوع فى اللغة لهذه الكيفية الفائضة من الشمس والقمر والنار على الارض والجدران وغيرهما وهذه الكيفية يستحيل ان تكون الها لوجوه (احدها) ان هذه الكيفية ان كانت عبارة عن الجسم كان الدليل الدال على حدوث الجسم دالا على حدوثها وان كانت عرضا فتى ثبت حدوث الجسم لزم حدوث جميع الاعراض القائمة به ولكن هذه المقدمة انما تثبت بعد اقامة الدلالة على ان الحلول على الله تعالى محال (وثانيها) ان الضوء قلنا النور جسم او امر حال فى الجسم فهو منقسم لانه ان كان جسما فلا شك فى انه منقسم وان كان حالا فيه فالحال فى المنقسم منقسم وعلى التقديرين فالنور منقسم وكل منقسم فانه يفتقر فى تحققه الى تحقق اجزائه وكل واحد من اجزائه غيره وكل مفتقر فهو فى تحققه مفتقر الى غيره والمفتقر الى الغير ممكن لذاته محدث بغيره فالنور محدث فلا يكون الها (وثالثها) ان هذا النور المحسوس لو كان هو الله لوجب ان لا يزول هذا النور لامتناع الزوال على الله تعالى (ورابعها) ان هذا النور المحسوس يقع بطلوع الشمس والكواكب وذلك على

وضوحها حيث عبر عنها بما يخص العقلاء من التسبيح الذى هو اقوى مراتب التنزيه واظهرها تنزيلا للسان الحال منزلة لسان المقال واكد ذلك بايثار كلمة من على ما كأن كل شئ عاعز وهان وكل فرد من افراد الاعراض والاعيان عاقل ناطق ومخبر صادق بعلو شأنه تعالى وعزة سلطانه وتخصيص التنزيه بالذكر مع دلالة مافيهما على اتصافه تعالى بنعوت الكمال ايضا لما ان مساق الكلام لتقبيح حال الكفرة فى اخلالهم بالتنزيه بجعلهم الجمادات شركاء له فى الالوهية ونسبتهم اياه الى اتخاذ الولد تعالى عن ذلك علوا كبيرا وحمل التسبيح على ما يليق بكل نوع من انواع المخلوقات بان يراد به معنى مجازى شامل لتسبيح العقلاء وغيرهم حسبما هو المتبادر من قوله تعالى كل قد علم صلاته وتسبيحه يرده ان بعضا من العقلاء وهم الكفرة من الثقلين لايسبحونه بذلك المعنى قطعا وانما تسبيحهم ماذكر من الدلالة التى يشاركهم فيها غير العقلاء ايضا وفيه مزيد تخطئة لهم وتعيير ببيان انهم يسبحونه تعالى باعتبار اخس جهاتهم التى هى الجمادية والجسمية والحيوانية ولا يسبحونه باعتبار اشرفها التى هى الانسانية (والطير) بالرفع

الله محال (وخامسها) ان هذه الانوار لوكانت ازلية لكانت اما ان تكون متحركة اوساكنة لاجائز ان تكون متحركة لان الحركة معناها الانتقال من مكان الى مكان فالحركة مسبوقة بالحصول في المكان الاول والازلي يمتنع ان يكون مسبوقا بالغير فالحركة الازلية محال ولاجائز ان تكون ساكنة لان السكون لوكان ازليا لكان يمتنع الزوال لكن السكون جائز الزوال لانا نرى الانوار تنتقل من مكان الى مكان فدل ذلك على حدوث الانوار (وسادسها) ان النور اما ان يكون جسما او كيفية قائمة بالجسم والاول محال لانا قد نعقل الجسم جسما مع الذهول عن كونه نيرا ولان الجسم قد يستنير بعد ان كان مظلما فثبت الثاني لكن الكيفية القائمة بالجسم محتاجة الى الجسم والمحتاج الى الغير لا يكون الها وبمجموع هذه الدلائل يبطل قول المانوية الذين يعتقدون ان الاله سبحانه هو النور الاعظم واما المجسمة المعترفون بصحة القرآن فيحتج على فساد قولهم بوجهين (الاول) قوله ليس كمثله شيء ولوكان نورا لبطل ذلك لان الانوار كلها متماثلة (الثاني) ان قوله تعالى مثل نوره صريح في انه ليس ذاته نفس النور بل النور مضاف اليه وكذا قوله يهدي الله لنوره من يشاء فان قيل قوله الله نور السموات يقتضي ظاهره انه في ذاته نور وقوله مثل نوره يقتضي ان لا يكون هو في ذاته نورا وبينهما تناقض قلنا نظيره هذه الآية قولك زيد كرم وجود ثم تقول ينعش الناس بكرمه وجوده وعلى هذا الطريق لا تناقض (الثالث) قوله سبحانه وتعالى وجعل الظلمات والنور وذلك صريح في ان ماهية النور مجعولة لله تعالى فيستحيل ان يكون الاله نورا فثبت انه لابد من التأويل والعلماء ذكروا فيه وجوها (احدها) ان النور سبب للظهور والهداية لما شاركت النور في هذا المعنى صح اطلاق اسم النور على الهداية وهو كقوله تعالى الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور وقوله أفمن كان ميتا فاحييناه وجعلناله نورا وقال ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا فقوله الله نور السموات والارض اي ذو نور السموات والارض والنور هو الهداية ولا تحصل الا لاهل السموات والحاصل ان المراد انه هادي اهل السموات والارض وهو قول ابن عباس والاكثرين رضي الله عنهم (وثانيها) المراد انه مدبر السموات والارض بحكمة بالغة وحجة نيرة فوصف نفسه بذلك كما يوصف الرئيس العالم بانه نور البلد فانه اذا كان مدبرهم تدبيرا حسنا فهو لهم كالنور الذي يهتدى به الى مسالك الطرق قال جرير وانت لنا نور وغيث وعصمة وهذا اختيار الاصم والزجاج (وثالثها) المراد ناظم السموات والارض على الترتيب الاحسن فانه قد يعبر بالنور على النظام يقال ما ارى لهذا الامر نورا (ورابعها) معناه منور السموات والارض ثم ذكروا في هذا القول ثلاثة اوجه (احدها) انه منور السماء بالملائكة والارض بالانبياء (والثاني) منورها بالشمس والقمر والكواكب (والثالث) انه زين السماء بالشمس والقمر والكواكب وزين الارض بالانبياء والعلماء وهو مروي عن ابي ابن كعب

(والحسن)

عطفا على من وتخصيصها بالذكر مع اندراجها في جملة ما في الارض لعدم استقرار قرارها فيها واستقلالها بصنع بارع وانشاء رائع قصد بيان تسبيحها من تلك الجهة لوضوح انبائها عن كمال قدرة صانعها ولطف تدبير مبدعها حسبما يعرب عنه التقييد بقوله تعالى (صافات) اي تسبحه تعالى حال كونها صافات اجنحتها فان اعطاءه تعالى للاجرام الثقيلة ما تتمكن به من الوقوف في الجو والحركة كيف تشاء من الاجنحة والاذناب الخفيفة وارشادها الى كيفية استعمالها بالقبض والبسط حجة نيرة واضحة المكنون وآية بينة لقوم يعقلون دالة على كمال قدرة الصانع المجيد وغاية حكمة المبدئ المعيد وقوله تعالى (كل قد علم صلاته وتسبيحه) بيان لكمال عراقة كل واحد مما ذكر في التنزيه ورسوخ قدمه فيه بتمثيل حاله بحال من يعلم ما يصدر عنه من الافاعيل فيفعلها عن قصد ونية لا عن اتفاق بلا روية وقد ادمج في تضاعيفه الاشارة الى ان لكل واحد من الاشياء المذكورة مع ما ذكر من التنزيه حاجة ذاتية اليه تعالى واستفاضة منه لما يهمه بلسان استعداده وتحقيقه ان كل واحد من الموجودات الممكنة في حد ذاته بمعزل من استحقاق الوجود لكنه

والحسن وابي العالية والاقرب هو القول الاول لان قوله في آخر الآية يهدي الله لنوره من يشاء يدل على ان المراد بالنور الهداية الى العلم والعمل واعلم ان الشيخ الغزالي رحمه الله صنف في تفسير هذه الآية الكتاب المسمى بمشكاة الانوار وزعم ان الله نور في الحقيقة بل ليس النور الا هو وأنا انقل محصل ماذكره مع زوائد كثيرة تقوي كلامه ثم ننظر في صحته وفساده على سبيل الانصاف فقال اسم النور انما وضع للكيفية الفائضة من الشمس والقمر والنار على ظواهر هذه الاجسام الكثيفة فيقال استنارت الارض ووقع نور الشمس على الثوب ونور السراج على الحائط ومعلوم ان هذه الكيفية انما اختصت بالفضيلة والشرف لان المرئيات تصير بسببها ظاهرة متجلية ثم من المعلوم انه كما يتوقف ادراك هذه المرئيات على كونها مستنيرة فكذا يتوقف على وجود العين الباصرة اذ المرئيات بعد استنارتها لاتكون ظاهرة في حق العميان فقد ساوى الروح الباصرة النور الظاهر في كونه ركنا لابد منه للظهور ثم يرجح عليه في ان الروح الباصرة هي المدركة وبها الادراك واما النور الخارج فليس بمدرك ولا به الادراك بل عنده الادراك فكان وصف الاظهار بالنور الباصر احق منه بالنور المبصر فلاجرم اطلقوا اسم النور على نور العين المبصرة فقالوا في الخفاش ان نور عينه ضعيف وفي الاعمش انه ضعف نور بصره وفي الاعمى انه فقد نور البصر اذا ثبت هذا فنقول ان للانسان بصرا وبصيرة فالبصر هو العين الظاهرة المدركة للاضواء والالوان والبصيرة هي القوة العاقلة وكل واحد من الادراكين يقتضي ظهور المدرك فكل واحد من الادراكين نور الا انهم عددوا لنور العين عيوبا لم يحصل شيء منها في نور العقل والغزالي رحمه الله ذكر منها سبعة ونحن جعلناها عشرين (الاول) ان القوة الباصرة لاتدرك نفسها ولاتدرك ادراكها ولا تدرك آلتها اما انها لاتدرك نفسها ولاتدرك ادراكها فلأن القوة الباصرة وادراك القوة الباصرة ليسا من الامور المبصرة بالعين الباصرة واما آلتها فهي العين والقوة الباصرة بالعين لاتدرك العين واما القوة العاقلة فانها تدرك نفسها وتدرك ادراكها وتدرك آلتها في الادراك وهي القلب والدماغ فثبت ان نور العقل اكمل من نور البصر (الثاني) ان القوة الباصرة لاتدرك الكليات والقوة العاقلة تدركها ومدرك الكليات وهو القلب اشرف من مدرك الجزئيات اما ان القوة الباصرة لاتدرك الكليات فلان القوة الباصرة لو ادركت كل مافي الوجود فهي ماادركت الكل لان الكل عبارة عن كل ما يمكن دخوله في الوجود في الماضي والحاضر والمستقبل واما ان القوة العاقلة تدرك الكليات فلأنا نعرف ان الاشخاص الانسانية مشتركة في الانسانية ومتمايزة بخصوصياتها ومابه المشاركة غير مابه الممايزة فالانسانية من حيث هي انسانية امر مغاير لهذه المشخصات فقد عقلنا الماهية الكلية واما ان ادراك الكليات اشرف فلأن ادراك الكليات ممتنع التغير وادراك الجزئيات واجب التغير ولان ادراك الكلي

مستعد لأن يفيض عليه منه تعالى مايليق بشأنه من الوجود ومايتبعه من الكمالات ابتداء وبقاء فهو مستفيض منه تعالى على الاستمرار فيفيض عليه في كل آن من فيوض الفنون المتعلقة بذاته وصفاته مالايحيط به نطاق البيان بحيث لو انقطع مابينه وبين العناية الربانية من العلاقة لانعدم بالمرة وقد عبر عن تلك الاستفاضة المعنوية بالصلاة التي هي الدعاء والابتهال لتكميل التمثيل وافادة المزايا المذكورة فيما مر على التفصيل وتقديمها على التسبيح في الذكر لتقدمها عليه في الرتبة هذا ويجوز ان يكون العلم على حقيقته ويراد به مطلق الادراك وبما نبئ عنه التنوين في كل انواع الطير وافرادها والصلاة والتسبيح ما الهمه الله تعالى كل واحد منها من الدعاء والتسبيح المخصوصين به لكن لاعلى ان يكون الطير معطوفا على كلمة من مرفوعا برافعها فانه يؤدي الى ان يراد بالتسبيح معنى مجازي شامل للتسبيح المقالي والحالي من العقلاء وغيرهم وقد عرفت مافيه بل بفعل مضمر اريد به التسبيح المخصوص بالطير معطوف على المذكور كما مر في قوله تعالى وكثير من الناس اي وتسبح الطير تسبيحا خاصا بها حال كونها صافات اجنحتها وقوله تعالى كل قد علم صلاته

يتضمن ادراك الجزئيات الواقعة تحته لان ماثبت للماهية ثبت لجميع افرادها ولا ينعكس فثبت ان الادراك العقلى اشرف (الثالث) الادراك الحسى غير منتج والادراك العقلى منتج فوجب ان يكون العقل اشرف اما كون الادراك الحسى غير منتج فلأن من احس بشئ لا يكون ذلك الاحساس سببا لحصول احساس آخر له بل لو استعمل له الحس مرة اخرى لأحس به مرة اخرى ولكن ذلك لا يكون انتاج الاحساس لاحساس آخر واما ان الادراك العقلى منتج فلأنا اذا عقلنا امورا ثم ركبناها فى عقولنا توصلنا بتركيبها الى اكتساب علوم أخر وهكذا كل تعقل حاصل فانه يمكن التوصل به الى تحصيل تعقل آخر الى ما لا نهاية له فثبت ان الادراك العقلى اشرف (الرابع) الادراك الحسى لا يتسع للامور الكثيرة والادراك العقلى يتسع لها فوجب ان يكون الادراك العقلى اشرف اما ان الادراك الحسى لا يتسع لها فلأن البصر اذا توالى عليه الوان كثيرة عجز عن تمييزها فادرك لونا كأنه حاصل من اختلاط تلك الالوان وان السمع اذا توالت عليه كلمات كثيرة التبست عليه تلك الكلمات ولم يحصل التمييز واما ان الادراك العقلى متسع لها فلأن كل من كان تحصيله للعلوم اكثر كانت قدرته على كسب الجديد اسهل وبالعكس وذلك يوجب الحكم بان الادراك العقلى اشرف (الخامس) القوة الحسية اذا ادركت المحسوسات القوية ففى ذلك الوقت تعجز عن ادراك الضعيفة فان من سمع الصوت الشديد فى تلك الحالة لا يمكنه ان يسمع الصوت الضعيف والقوة العقلية لا يشغلها معقول عن معقول (السادس) القوى الحسية تضعف بعد الاربعين وتضعف عند كثرة الافكار التى هى موجبة لاستيلاء النفس على البدن الذى هو موجب لخراب البدن والقوى العقلية تقوى بعد الاربعين وتقوى عند كثرة الافكار الموجبة لخراب البدن فدل ذلك على استغناء القوة العقلية عن هذه الآلات واحتياج القوى الحسية اليها (السابع) القوة الباصرة لا تدرك المرئى مع القرب القريب ولا مع البعد البعيد والقوة العقلية لا يختلف حالها بحسب القرب والبعد فانها ترتقى الى ما فوق العرش وتنزل الى ما تحت الثرى فى اقل من لحظة واحدة بل تدرك ذات الله وصفاته مع كونه منزها عن القرب والبعد والجهة فكانت القوة العقلية اشرف (الثامن) القوة الحسية لا تدرك من الاشياء الا ظواهرها فاذا ادركت الانسان فهى فى الحقيقة ما ادركت الانسان لانها ما ادركت الا السطح الظاهر من جسمه والا اللون القائم بذلك السطح وبالاتفاق فليس الانسان عبارة عن مجرد السطح واللون فالقوة الباصرة عاجزة عن النفوذ فى الباطن اما القوة العاقلة فان باطن الاشياء وظاهرها بالنسبة اليها على السواء فانها تدرك البواطن والظواهر وتغوص فيها وفى اجزائها فكانت القوة العاقلة نورا بالنسبة الى الباطن والظاهر اما القوة الباصرة فهى بالنسبة الى الظاهر نور وبالنسبة الى الباطن ظلمة فكانت القوة العاقلة اشرف من القوة الباصرة (التاسع) ان مدرك القوة العاقلة هو الله تعالى وجميع افعاله ومدرك

وتسبيحه اى دعاءه وتسبيحه اللذين الهمهما الله عز وجل اياه لبيان كمال رسوخه فيهما وان صدورهما عنه ليس بطريق الاتفاق بلا روية بل عن علم وايقان من غير اخلال بشئ منهما حسبما الهمه الله تعالى فان الهامه تعالى لكل نوع من انواع المخلوقات علوما دقيقة لا يكاد يهتدى اليه جهابذة العقلاء مما لا سبيل الى انكاره اصلا كيف لا وان القنفذ مع كونه ابعد الاشياء من الادراك قالوا انه يحس بالشمال والجنوب قبل هبوبها فيغير المدخل الى جحره حتى روى انه كان بقسطنطينية قبل الفتح الاسلامى رجل قد اثرى بسبب انه كان ينذر الناس بالرياح قبل هبوبها وينتفعون بانذاره بتدارك امور سفائنهم وغيرها وكان السبب فى ذلك انه كان يقتنى فى داره قنفذا يستدل باحواله على ما ذكر وتخصيص تسبيح الطير بهذا المعنى بالذكر لما ان اصواتها اظهر وجودا واقرب حملا على التسبيح وقوله تعالى (والله عليم بما يفعلون) اى ما يفعلونه اعتراض مقرر لمضمون ما قبله وما على الوجه الاول عبارة عما ذكر من الدلالة الشاملة لجميع الموجودات من العقلاء وغيرهم والتعبير عنها بالفعل مسندا الى ضمير العقلاء لما مر غير مرة وعلى الثانى

القوة الباصرة هو الالوان والاشكال فوجب ان تكون نسبة شرف القوة العاقلة الى شرف القوة الباصرة كنسبة شرف ذات الله تعالى الى شرف الالوان والاشكال (العاشر) القوة العاقلة تدرك جميع الموجودات والمعدومات والماهيات التى هى معروضات الموجودات والمعدومات ولذلك فان اول حكمه أن الوجود والعدم لايجتمعان ولا يرتفعان وذلك مسبوق لامحالة بتصور مسمى الوجود ومسمى العدم فكأنه بهذين التصورين قد أحاط بجميع الامور من بعض الوجوه وأما القوة الباصرة فانها لاتدرك الا الاضواء والالوان وهما من اخس عوارض الاجسام والاجسام أخس من الجواهر الروحانية فكان متعلق القوة الباصرة أخس الموجودات واما متعلق القوة العاقلة فهو جميع الموجودات والمعدومات فكانت القوة العاقلة أشرف (الحادى عشر) القوة العاقلة تقوى على توحيد الكثير وتكثير الواحد والقوة الباصرة لاتقوى على ذلك اما ان القوة العاقلة تقوى على توحيد الكثير فذلك لانها تضم الجنس الى الفصل فيحدث منهما طبيعة نوعية واحدة واما انها تقوى على تكثير الواحد فلأنها تأخذ الانسان وهى ماهية واحدة فتقسمها الى مفهوماتها والى عوارضها اللازمة وعوارضها المفارقة ثم تقسم مقوماته الى الجنس وجنس الجنس والفصل وفصل الفصل وجنس الفصل وفصل الجنس والى سائر الاجزاء المقومة التى لاتعد من الاجناس ولا من الفصول ثم لاتزال تأتى بهذا التقسيم فى كل واحد من هذه الاقسام حتى تنتهى من تلك المركبات الى البسائط الحقيقية ثم تعتبر فى العوارض اللازمة ان تلك العوارض مفردة او مركبة ولازمة بوسائط او بوسط او بغير وسط فالقوة العاقلة كأنها نفذت فى اعماق الماهيات وتغلغلت فيها وميزت كل واحد من اجزائها عن صاحبه وانزلت كل واحد منها فى المكان اللائق به فأما القوة الباصرة فلاتطلع على احوال الماهيات بل لاترى الأمرا واحدا ولاتدرى ماهو وكيف هو فظهر ان القوة العاقلة اشرف (الثانى عشر) القوة العاقلة تقوى على ادراكات غير متناهية والقوة الحاسة لاتقوى على ذلك بيان الاول من وجوه (الاول) ان القوة العاقلة يمكنها ان تتوسل بالمعارف الحاضرة الى استنتاج المجهولات ثم انها تجعل تلك النتائج مقدمات فى نتائج اخرى لاالى نهاية وقد عرفت ان القوة الحاسة لاتقوى على الاستنتاج اصلا (الثانى) ان القوة العاقلة تقوى على تعقل مراتب الاعداد ولانهاية لها (الثالث) ان القوة العاقلة يمكنها ان تعقل نفسها وان تعقل انها عقلت وكذا الى غير النهاية (الرابع) النسب والاضافات غير متناهية وهى معقولة لامحسوسة فظهر ان القوة العاقلة اشرف (الثالث عشر) الانسان بقوته العاقلة يشارك الله تعالى فى ادراك الحقائق وبقوته الحاسة يشارك البهائم والنسبة معتبرة فكانت القوة العاقلة اشرف (الرابع عشر) القوة العاقلة غنية فى ادراكها العقلى عن وجود المعقول فى الخارج والقوة الحاسة محتاجة فى ادراكها الحسى الى

اما عبارة عنها وعن التسبيح الخاص بالطير معا او عن تسبيح الطير فقط فالفعل على حقيقته واسناده الى ضمير العقلاء لما مر والاعتراض حينئذ مقرر لتسبيح الطير فقط وعلى الاولين لتسبيح الكل هذا وقد قيل ان الضمير فى قوله تعالى قد علم لله عز وجل وفى صلاته وتسبيحه للكل اى قد علم الله تعالى صلاة كل واحد مما فى السموات والارض وتسبيحه فالاعتراض حينئذ مقرر لمضمونه على الوجهين لكن لا على ان تكون ما عبارة عما تعلق به علمه تعالى من صلاته وتسبيحه بل عن جميع احواله العارضة له وافعاله الصادرة عنه وهما داخلان فيها دخولا اوليا (ولله ملك السموات والارض) لا لغيره لانه الخالق لهما ولما فيهما من الذوات والصفات وهو المتصرف فى جميعها ايجادا واعداما بدأ واعادة وقوله تعالى (والى الله) اى اليه تعالى خاصة لا الى غيره (المصير) اى رجوع الكل بالفناء والبعث بيان لاختصاص الملك به تعالى فى المعاد اثر بيان اختصاصه به تعالى فى المبدأ واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لتربية المهابة والاشعار بعلة الحكم (ألم تر ان الله يزجى سحابا) الازجاء سوق الشئ برفق وسهولة غلب فى سوق شئ يسير او غير معتد به ومنه

وجود المحسوس فى الخارج والغنى اشرف من المحتاج (الخامس عشر) هذه الموجودات الخارجية ممكنة لذواتها وانها محتاجة الى الفاعل والفاعل لايمكنه الايجاد على سبيل الاتقان الابعد تقدم العلم فأذن وجود هذه الاشياء فى الخارج تابع للادراك العقلى واما الاحساس بها فلا شك انه تابع لوجودها فى الخارج فأذن القوة الحساسة تبع لتبع القوة العاقلة (السادس عشر) القوة العاقلة غير محتاجة فى العقل الى الآلات بدليل أن الانسان لواختلت حواسه الخمس فانه يعقل أن الواحد نصف الاثنين وأن الاشياء المساوية لشئ واحد متساوية واما القوة الحساسة فانها محتاجة الى آلات كثيرة والغنى أفضل من المحتاج (السابع عشر) الادراك البصرى لايحصل الا للشئ الذى فى الجهات ثم انه غير متصرف فى كل الجهات بل لايتناول الا المقابل او ماهو فى حكم المقابل واحترزنا بقولنا فى حكم المقابل عن أمور اربعة (الاول) العرض فانه ليس بمقابل لانه ليس فى المكان ولكنه فى حكم المقابل لاجل كونه قائما بالجسم الذى هو مقابل (الثانى) رؤية الوجه فى المرآة فان الشعاع يخرج من العين الى المرآة ثم يرتد منها الى الوجه فيصير الوجه مرئيا وهو من هذا الاعتبار كالمقابل لنفسه (الثالث) رؤية الانسان قفاه اذا جعل احدى المرآتين محاذية لوجهه والاخرى لقفاه (والرابع) رؤية مالايقابل بسبب انعطاف الشعاع فى الرطوبات كما هو مشروح فى كتب المناظر واما القوة العاقلة فانها مبرأة عن الجهات فانها تعقل الجهة والجهة ليست فى الجهة ولذلك تعقل ان الشئ اما ان يكون فى الجهة واما أن لايكون فى الجهة وهذا الترديد لايصح الا بعد تعقل معنى قولنا ليس فى الجهة (الثامن عشر) القوة الباصرة تعجز عند الحجاب واما القوة العاقلة فانها لايحجبها شئ اصلا فكانت أشرف (التاسع عشر) القوة العاقلة كالامير والحاسة كالخادم والامير أشرف من الخادم وتقرير الامارة والخدمة مشهور (العشرون) القوة الباصرة قد تغلط كثيرا فانها قد تدرك المتحرك ساكنا وبالعكس كالجالس فى السفينة فانه قد يدرك السفينة المتحركة ساكنة والشط الساكن متحركا ولولا العقل لما تميز خطأ البصر عن صوابه والعقل حاكم والحس محكوم فثبت بما ذكرنا ان الادراك العقلى أشرف من الادراك البصرى وكل واحد من الادراكين يقتضى الظهور الذى هو اشرف خواص النور فكان الادراك العقلى اولى بكونه نورا من الادراك البصرى واذا ثبت هذا فنقول هذه الانوار العقلية قسمان (احدهما) واجب الحصول عند سلامة الاحوال وهى التعقلات الفطرية (والثانى) مايكون مكتسبا وهى التعقلات النظرية اما الفطرية فليست هى من لوازم جوهر الانسان لانه حال الطفولية لم يكن عالما البتة فهذه الانوار الفطرية انما حصلت بعد ان لم تكن فلابد لها من سبب واما النظريات فمعلوم أن الفطرة الانسانية قد يعتريها الزيغ فى الاكثر واذا كان كذلك فلابد من هاد مرشد ولا مرشد فوق كلام الله تعالى وفوق ارشاد الانبياء فتكون منزلة آيات القرآن عند عين العقل بمنزلة نور الشمس

البضاعة المزجاة ففيه ايماء الى ان السحاب بالنسبة الى قدرته تعالى مما لايعتدبه (ثم يؤلف بينه) اى بين اجزائه بضم بعضها الى بعض وقرئ يولف بغير همزة (ثم يجعله ركاما) اى متراكما بعضه فوق بعض (فترى الودق) اى المطر اثر تراكمه وتكاثفه وقوله تعالى (يخرج من خلاله) اى من فتوقه حال من الودق لان الرؤية بصرية وفى تعقيب الجعل المذكور برؤيته خارجا لابخروجه من المبالغة فى سرعة الخروج على طريقة قوله تعالى فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفلق ومن الاعتناء بتقرير الرؤية مالايخفى والخلال جمع خلل كجبال وجبل وقيل مفرد كحجاب وحجاز ويؤيده انه قرئ من خلله (وينزل من السماء) من الغمام فان كل ماعلاك سماء (من جبال) اى من قطع عظام تشبه الجبال فى العظم كائنة (فيها) وقوله تعالى (من برد) مفعول ينزل على ان من تبعيضية والاوليان لابتداء الغاية على ان الثانية بدل اشتمال من الاولى باعادة الجار اى ينزل مبتدئا من السماء من جبال فيها بعض برد وقيل المفعول محذوف ومن بردبيان للجبال اى ينزل مبتدئا من السماء من جبال فيها من جنس البرد بردا والاول اظهر لخلوه عن ارتكاب الحذف

(عند)

عندالعين الباصرة اذبه يتم الابصار فبالحرى ان يسمى القرآن نورا كما يسمى نور الشمس نورا فنور القرآن يشبه نور الشمس ونور العقل يشبه نور العين وبهذا يظهر معنى قوله فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى انزلنا وقوله قدجاءكم برهان من ربكم وانزلنا اليكم نورا مبينا واذاثبت ان بيان الرسول اقوى من نور الشمس وجب ان يكون نفسه القدسية اعظم فى النورانية من الشمس وكما ان الشمس فى عالم الاجسام تفيد النور لغيره ولا تستفيده من غيره فكذا نفس النبي صلى الله عليه وسلم تفيد الانوار العقلية لسائر الانفس البشرية ولاتستفيد الانوار العقلية من شىء من الانفس البشرية فلذلك وصف الله تعالى الشمس بانها سراج حيث قال وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ووصف محمدا صلى الله عليه وسلم بانه سراج منير اذا عرفت هذا فنقول ثبت بالشواهد العقلية والنقلية ان الانوار الحاصلة فى ارواح الانبياء مقتبسة من الانوار الحاصلة فى ارواح الملائكة قال تعالى ينزل الملائكة بالروح من امره على من يشاء من عباده وقال نزل به الروح الامين على قلبك وقال قل نزله روح القدس من ربك بالحق وقال تعالى ان هو الا وحى يوحى علمه شديد القوى والوحى لايكون الا بواسطة الملائكة فاذا جعلنا ارواح الانبياء اعظم استنارة من الشمس فأرواح الملائكة التى هى كالمعادن لانوار عقول الانبياء لابد وان تكون اعظم من انوار ارواح الانبياء لان السبب لابد وان يكون اقوى من المسبب ثم نقول ثبت ايضا بالشواهد العقلية والنقلية ان الارواح السماوية مختلفة فبعضها مستفيدة وبعضها مفيدة قال تعالى فى وصف جبريل عليه السلام مطاع ثم امين واذا كان هو مطاع الملائكة فالمطيعون لابد وان يكونوا تحت امره وقال ومامنا الا له مقام معلوم واذا ثبت هذا فالمفيد اولى بان يكون نورا من المستفيد للعلة المذكورة ولمراتب الانوار فى عالم الارواح مثال وهو ان ضوء الشمس اذا وصل الى القمر ثم دخل فى كوة بيت ووقع على مرآة منصوبة على حائط ثم انعكس منها الى حائط آخر نصب عليه مرآة اخرى ثم انعكس منها الى طشت مملوء من الماء موضوع على الارض ثم انعكس منه الى سقف البيت فالنور الاعظم فى الشمس التى هى المعدن (وثانيا) فى القمر (وثالثا) ماوصل الى المرآة الاولى (ورابعا) ماوصل الى المرآة الثانية (وخامسا) ماوصل الى الماء (وسادسا) ماوصل الى السقف وكل ماكان اقرب الى المنبع الاول فانه اقوى مما هو ابعد منه فكذا الانوار السماوية لما كانت مرتبة لاجرم كان نور المفيد اشد اشراقا من نور المستفيد ثم تلك الانوار لاتزال تكون مترقية حتى تنتهى الى النور الاعظم والروح الذى هو اعظم الارواح منزلة عندالله الذى هو المراد من قوله سبحانه يوم يقوم الروح والملائكة صفا ثم نقول لاشك ان هذه الانوار الحسية ان كانت سفلية كانت كانوار النيران اوعلوية كانت كانوار الشمس والقمر والكواكب وكذا الانوار العقلية سفلية كانت كالارواح السفلية التى للانبياء والاولياء اوعلوية كالارواح العلوية التى هى الملائكة فانها

والتصريح ببعضية المنزل وقيل المفعول من جبال على ان من تبعيضية ومن برد بيان للجبال اى ينزل من السماء بعض جبال كائنة فيها من برد اى مشبهة بالجبال فى الكثرة وأياما كان فتقديم الجار والمجرور على المفعول لما مر غيرمرة من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر وقيل المراد بالسماء المظلة وفيها جبال من برد كما ان فى الارض جبالا من حجر وليس فى العقل ماينفيه من قاطع والمشهور ان الابخرة اذا تصاعدت ولم تحللها حرارة فبلغت الطبقة الباردة من الهواء وقوى البرد اجتمع هناك وصار سحابا وان لم يشتد البرد تقاطر مطرا وان اشتد فان وصل الى الاجزاء البخارية قبل اجتماعها نزل ثلجا والا نزل بردا وقد يبرد الهواء بردا مفرطا فينقبض وينعقد سحابا وينزل منه المطر أو الثلج وكل ذلك مستند الى ارادة الله تعالى ومشيئته المبنية على الحكم والمصالح (فيصيب به) اى بما ينزله من البرد (من يشاء) ان يصيبه به فيناله مايناله من ضرر فى نفسه وماله (ويصرفه عن من يشاء) ان يصرفه عنه فينجو من غائلته (يكاد سنا برقه) اى ضوء برق السحاب الموصوف بما مر من الازجاء والتأليف وغيرهما واضافة البرق

باسرها ممكنة لذواتها والممكن لذاته يستحق العدم من ذاته والوجود من غيره والعدم هو
الظلمة الحاصلة والوجود هو النور فكل ما سوى الله مظلم لذاته مستنير بانارة الله تعالى
وكذا جميع معارفها بعد وجودها حاصل من وجود الله تعالى فالحق سبحانه هو الذى
اظهرها بالوجود بعد ان كانت فى ظلمات العدم وأفاض عليها انوار المعارف بعد ان
كانت فى ظلمات الجهالة فلا ظهور لشئ من الاشياء الا باظهاره وخاصة النور اعطاء
الاظهار والتجلى والانكشاف وعند هذا يظهر ان النور المطلق هو الله سبحانه وان
اطلاق النور على غيره مجاز اذ كل ما سوى الله فانه من حيث هو هو ظلمة محضة لانه من
حيث انه هو عدم محض بل الانوار اذا نظرنا اليها من حيث هى هى فهى ظلمات لانها من
حيث هى هى ممكنات والممكن من حيث هو هو معدوم والمعدوم مظلم فالنور اذا نظر اليه
من حيث هو هو ظلمة فاما اذا التفت اليها من حيث ان الحق سبحانه افاض عليها نور
الوجود فبهذا الاعتبار صارت انوارا فثبت انه سبحانه هو النور وان كل ما سواه فليس
بنور الا على سبيل المجاز ثم انه رحمه الله تكلم بعد هذا فى امرين (الاول) انه سبحانه
لم اضاف النور الى السموات والارض واجاب فقال قد عرفت ان السموات والارض
مشحونة بالانوار العقلية والانوار الحسية اما الحسية فما يشاهد فى السموات من الكواكب
والشمس والقمر وما يشاهد فى الارض من الاشعة المنبسطة على سطوح الاجسام حتى ظهرت
به الالوان المختلفة ولولاها لم يكن للالوان ظهور بل وجود واما الانوار العقلية فالعالم الاعلى
مشحون بها وهى جواهر الملائكة والعالم الاسفل مشحون بها وهى القوى النباتية
والحيوانية والانسانية وبالنور الانسانى السفلى ظهر نظام عالم السفل كما بالنور الملكى ظهر
نظام عالم العلو وهو المعنى بقوله تعالى ليستخلفنهم فى الارض وقال ويجعلكم خلفاء
الارض فاذا عرفت هذا عرفت ان العالم باسره مشحون بالانوار الظاهرة البصرية والباطنة
العقلية ثم عرفت ان السفلية فائضة بعضها من بعض فيضان النور من السراج فان
السراج هو الروح النبوى ثم ان الانوار النبوية القدسية مقتبسة من الارواح العلوية
اقتباس السراج من النور وان العلويات مقتبسة بعضها من بعض وان بينها ترتيبا فى
المقامات ثم ترتقى جملتها الى نور الانوار ومعدنها ومنبعها الاول وان ذلك هو الله وحده
لا شريك له فاذن الكل نوره فلهذا قال الله نور السموات والارض (السؤال الثانى) فاذا
كان الله هو النور فلم احتيج فى اثباته الى البرهان اجاب فقال ان معنى كونه نور السموات
والارض معروف بالنسبة الى النور الظاهر البصرى فاذا رأيت خضرة الربيع فى ضياء
النهار فلست تشك فى انك ترى الالوان فربما ظننت انك لا ترى مع الالوان غيرها فانك
تقول لست ارى مع الخضرة غير الخضرة الا انك عند غروب الشمس تدرك تفرقة ضرورية
بين اللون حال وقوع الضوء عليه وحال عدم وقوعه عليه فلا جرم تعرف ان النور معنى غير
اللون يدرك مع الالوان الا انه كان لشدة اتحاده به لا يدرك ولشدة ظهوره يختفى وقد يكون

اليه قبل الاخبار بوجوده فيه
للايذان بظهور امره واستغنائه
عن التصريح به وقرئ بالمد بمعنى
الرفعة والعلو وبادغام الدال فى
السين وبرق بفتح الراء على انه جمع
برقة وهى مقدار من البرق كالغرفة
وبضمها للاتباع لضمة البا (يذهب
بالابصار) اى يخطفها من فرط
الاضاءة وسرعة ورودها وفى
اطلاق الابصار مزيد تهويل
لامره وبيان لشدة تأثيره فيها
كأنه يكاد يذهب بها ولو عند
الاغماض وهذا من اقوى
الدلائل على كمال القدرة من حيث
انه توليد للضد من الضد وقرئ
يذهب من الاذهاب على زيادة البا
(يقلب الله الليل والنهار) بالمعاقبة
بينهما او بنقص احدهما وزيادة
الآخر او بتغيير احوالهما بالحر
والبرد وغيرهما مما يقع فيهما
من الامور التى من جملتها ما ذكر
من ازجاء السحاب وما ترتب عليه
(ان فى ذلك) اشارة الى ما فصل
آنفا وما فيه من معنى البعد مع قرب
المشار اليه للايذان بعلو رتبته وبعد
منزلته (لعبرة) اى لدلالة واضحة
على وجود الصانع القديم ووحدته
وكمال قدرته واحاطة علمه بجميع
الاشياء ونفاذ مشيئته وتنزهه عما
لا يليق بشأنه العلى (لاولى الابصار)
لكل من له بصر (والله خلق كل
دابة) اى كل حيوان يدب على
الارض

الظهور سبب الخفاء اذا عرفت هذا فاعلم انه كما ظهر كل شئ للبصر بالنور الظاهر فقد ظهر كل شئ للبصيرة الباطنة بالله ونوره حاصل مع كل شئ لا يفارقه ولكن بقى ههنا تفاوت وهو ان النور الظاهر يتصور ان يغيب بغروب الشمس ويحجب فحينئذ يظهر انه غير اللون واما النور الالهى الذى به يظهر كل شئ لا يتصور غيبته بل يستحيل تغيره فيبقى مع الاشياء دائما فانقطع طريق الاستدلال بالتفرقة ولو تصورت غيبته لانهدمت السموات والارض ولادرك عنده من التفرقة ما يحصل العلم الضرورى به ولكن لما تساوت الاشياء كلها على نمط واحد فى الشهادة على وجود خالقها وان كل شئ يسبح بحمده لا بعض الاشياء وفى جميع الاوقات لا فى بعض الاوقات ارتفعت التفرقة وخفى الطريق اذ الطريق الظاهر معرفة الاشياء بالاضداد فالاضد له ولا تغيرله بتشابه احواله فلا يبعد ان يخفى ويكون خفاؤه لشدة ظهوره وجلائه فسبحان من اختفى عن الخلق لشدة ظهوره واحتجب عنهم باشراق نوره واعلم ان هذا الكلام الذى رويناه عن الشيخ الغزالى رحمه الله كلام مستطاب ولكن يرجع حاصله بعد التحقيق الى ان معنى كونه سبحانه نورا انه خالق للعالم وانه خالق للقوى الدراكة وهو المعنى من قولنا معنى كونه نور السموات والارض انه هادى اهل السموات والارض فلا تفاوت بين ما قاله وبين الذى نقلناه عن المفسرين فى المعنى والله اعلم

(الفصل الثانى) فى تفسير قوله عليه الصلاة والسلام ان لله سبعين حجابا من نور وظلمة لو كشفها لاحرقت سبحات وجهه كل ما أدرك بصره وفى بعض الروايات سبعمائة وفى بعضها سبعون الفا أقول لما ثبت ان الله سبحانه وتعالى متجل فى ذاته لذاته كان الحجاب بالاضافة الى المحجوب لا محالة والمحجوب لابد وان يكون محجوبا اما بحجاب مركب من نور وظلمة واما بحجاب مركب من نور فقط او بحجاب مركب من ظلمة فقط أما المحجوبون بالظلمة المحضة فهم الذين بلغوا فى الاشتغال بالعلائق البدنية الى حيث لم يلتفت خاطرهم الى انه هل يمكن الاستدلال بوجود هذه المحسوسات على وجود واجب الوجود ام لا وذلك لانك قد عرفت ان ما سوى الله تعالى من حيث هو هو مظلم وانما كان مستنيرا من حيث استفاد النور من حضرة الله تعالى فمن اشتغل بالجسمانيات من حيث هى هى وصار ذلك الاشتغال حائلا له عن الالتفات الى جانب النور كان حجابه محض الظلمة ولما كانت انواع الاشتغال بالعلائق البدنية خارجة عن الحد والحصر فكذا انواع الحجب الظلمانية خارجة عن الحد والحصر (القسم الثانى) المحجوبون بالحجب الممزوجة من النور والظلمة اعلم ان من نظر الى هذه المحسوسات فاما أن يعتقد فيها انها غنية عن المؤثر او يعتقد فيها انها محتاجة فان اعتقد انها غنية فهذا حجاب ممزوج من نور وظلمة (اما النور) فلانه تصور ماهية الاستغناء عن الغير وذلك من صفات جلال الله تعالى وهو من صفات النور (واما الظلمة) فلانه اعتقد حصول ذلك الوصف فى هذه الاجسام مع ان ذلك الوصف لا يليق بهذا

وقرئ خالق كل دابة بالاضافة (من ماء) هو جزء مادته اوماء مخصوص هو النطفة فيكون تنزيلا للغالب منزلة الكل لان من الحيوانات ما يتولد لا عن نطفة وقيل من ماء متعلق بدابة وليست صلة لخلق (فمنهم من يمشى على بطنه) كالحية وتسمية حركتها مشيا مع كونها زحفا بطريق الاستعارة او المشاكلة (ومنهم من يمشى على رجلين) كالانس والطير (ومنهم من يمشى على اربع) كالنعم والوحش وعدم التعرض لما يمشى على اكثر من اربع كالعناكب ونحوها من الحشرات لعدم الاعتداد بها وتذكير الضمير فى منهم لتغليب العقلاء والتعبير عن الاصناف بكلمة من ليوافق التفصيل الاجمال والترتيب لتقديم ما هو اعرف فى القدرة (يخلق الله ما يشاء) مما ذكر ومما لم يذكر بسيطا كان او مركبا على ما يشاء من الصور والاعضاء والهيآت والحركات والطبائع والقوى والافاعيل مع اتحاد العنصر واظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لتفخيم شان الخلق المذكور والايذان بأنه من احكام الالوهية (ان الله على كل شئ قدير) فيفعل ما يشاء كما يشاء واظهار الجلالة لما ذكر مع تأكيد استقلال الاستئناف

الوصف وهذا ظلمة فثبت ان هذا حجاب ممزوج من نور و ظلمة ثم اصناف هذا القسم كثيرة فان من الناس من يعتقد ان الممكن غنى عن المؤثر ومنهم من يسلم ذلك لكنه يقول المؤثر فيها طبائعها وحركاتها واجتماعها وافتراقها اونسبتها الى حركات الافلاك اوالى محركاتها وكل هؤلاء من هذا القسم (القسم الثالث) الحجب النورية المحضة واعلم انه لاسبيل الى معرفة الحق سبحانه الابواسطة تلك الصفات السلبية والاضافية ولانهاية لهذه الصفات ولمراتبها فالعبد لايزال يكون مترقيا فيها فان وصل الى درجة وبقى فيها كان استغراقه فى مشاهدة تلك الدرجة حجابا له عن الترقى الى مافوقها ولما كان لانهاية لهذه الدرجات كان العبد ابدا فى السير والانتقال واما حقيقته المخصوصة فهى محجبة عن الكل فقد اشرنا الى كيفية مراتب الحجب وانت تعرف انه عليه الصلاة والسلام انما حصرها فى سبعين الفا تقريبا لاتحديدا فانها لانهاية لها فى الحقيقة

(الفصل الثالث فى شرح كيفية التمثيل) اعلم انه لابد فى التشبيه من امرين المشبه والمشبه به • واختلف الناس ههنا فى ان المشبه اى شئ هو وذكروا وجوها (أحدها) وهو قول جمهور المتكلمين ونصره القاضى ان المراد الهدى التى هى الآيات البينات والمعنى ان هداية الله تعالى قد بلغت فى الظهور والجلاء الى اقصى الغايات وصارت فى ذلك بمنزلة المشكاة التى تكون فيها زجاجة صافية وفى الزجاجة مصباح يتقد بزيت بلغ النهاية فى الصفاء فان قيل لم شبهه بذلك وقد علمنا ان ضوء الشمس ابلغ من ذلك بكثير قلنا انه سبحانه اراد ان يصف الضوء الكامل الذى يلوح وسط الظلمة لان الغالب على أوهام الخلق وخيالاتهم انما هو الشبهات التى هى كالظلمات وهداية الله تعالى فيما بينها كالضوء الكامل الذى يظهر فيما بين الظلمات وهذا المقصود لايحصل من ضوء الشمس لان ضوءها اذا ظهر امتلأ العالم من النور الخالص واذا غاب امتلأ العالم من الظلمة الخالصة فلاجرم كان ذلك المثل ههنا اليق واوفق واعلم ان الامور التى اعتبرها الله تعالى فى هذا المثال مما توجب كمال الضوء (فاولها) المصباح لان المصباح اذا لم يكن فى المشكاة تفرقت اشعته اما اذا وضع فى المشكاة اجتمعت اشعته فكانت اكثر انارة والذى يحقق ذلك ان المصباح اذا كان فى بيت صغير فانه يظهر من ضوئه اكثر مما يظهر فى البيت الكبير (وثانيها) ان المصباح اذا كان فى زجاجة صافية فان الاشعة المنفصلة عن المصباح تنعكس من بعض جوانب الزجاجة الى البعض لما فى الزجاجة من الصفاء والشفافية وبسبب ذلك يزداد الضوء والنور والذى يحقق ذلك ان شعاع الشمس اذا وقع على الزجاجة الصافية تضاعف الضوء الظاهر حتى انه يظهر فيما يقابله مثل ذلك الضوء فان انعكست تلك الاشعة من كل واحد من جوانب الزجاجة الى الجانب الآخر كثرت الانوار والاضواء وبلغت النهاية الممكنة (وثالثها) ان ضوء المصباح يختلف بحسب اختلاف ماينقد به فاذا كان ذلك الدهن صافيا خالصا كانت حالته بخلاف حالته اذا كان كدرا وليس فى

التعليق (لقد انزلنا آيات مبينات) اى لكل ماىليق بيانه من الاحكام الدينية والاسرار التكوينية (والله يهدى من يشاء) ان يهديه بتوفيقه للنظر الصحيح فيها وارشاده الى التأمل فى مطاويها (الى صراط مستقيم) موصل الى حقيقة الحق والفوز بالجنة (ويقولون آمنا بالله وبالرسول) شروع فى بيان احوال بعض من لم يشاء الله هدايته الى الصراط المستقيم قال الحسن نزلت فى المنافقين الذين كانوا يظهرون الايمان ويسرون الكفر وقيل نزلت فى بشر المنافق خاصم يهوديا فدعاه الى كعب بن الاشرف واليهودى يدعوه الى النبى عليه الصلاة والسلام وقيل فى المغيرة بن وائل خاصم عليا رضى الله عنه فى ارض وماء فابى ان يحاكم الى الرسول عليه الصلاة والسلام واياما كان فصيغة الجمع للايذان بأن للقائل طائفة يساعدونه ويتابعونه فى تلك المقالة كما يقال بنو فلان قتلوا فلانا والقاتل واحد منهم (واطعنا) اى اطعناهما فى الامر والنهى (ثم يتولى) عن قبول حكمه (فريق منهم من بعد ذلك) اى من بعد ماصدر عنهم ماصدر من ادعاء الايمان بالله وبالرسول والطاعة لهما على التفصيل وما فى ذلك من معنى

الادهان التى توقد مايظهر فيه من الصفاء مثل الذى يظهر فى الزيت فربما يبلغ فى الصفاء والرقة مبلغ الماء مع زيادة بياض فيه وشعاع يتردد فى اجزائه (ورابعها) ان هذا الزيت يختلف بحسب اختلاف شجره فاذا كانت لاشرقية ولاغربية بمعنى انها كانت بارزة للشمس فى كل حالاتها يكون زيتونها اشد نضجا فكان زيته اكثر صفاء واقرب الى ان يميز صفوه من كدره لان زيادة الشمس تؤثر فى ذلك فاذا اجتمعت هذه الامور الاربعة وتعاونت صار ذلك الضوء خالصا كاملا فيصلح ان يجعل مثلا لهداية الله تعالى (وثانيها) ان المراد من النور فى قوله تعالى مثل نوره القرآن ويدل عليه قوله تعالى قد جاءكم من الله نور وهو قول الحسن وسفيان بن عيينة وزيد بن اسلم (وثالثها) ان المراد هو الرسول لانه المرشد ولانه تعالى قال فى وصفه وسراجا منيرا وهو قول عطاء وهذان القولان داخلان فى القول الاول لان من جملة انواع الهداية انزال الكتب وبعثة الرسل قال تعالى فى صفة الكتب وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان وقال فى صفة الرسل رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل (ورابعها) ان المراد منه ما فى قلب المؤمنين من معرفة الله تعالى ومعرفة الشرائع ويدل عليه ان الله تعالى وصف الايمان بانه نور والكفر بانه ظلمة فقال افمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه وقال تعالى لتخرج الناس من الظلمات الى النور وحاصله انه حمل الهدى على الاهتداء والمقصود من التمثيل ان ايمان المؤمن قد بلغ فى الصفاء عن الشبهات والامتياز عن ظلمات الضلالات مبلغ السراج المذكور وهو قول ابى بن كعب وابن عباس قال ابى مثل نور المؤمن وهكذا كان يقرأ وقيل انه كان يقرأ مثل نور من آمن به وقال ابن عباس مثل نوره فى قلب المؤمن (وخامسها) ما ذكره الشيخ الغزالى رحمه الله وهو انا بينا ان القوى المدركة انوار ومراتب القوى المدركة الانسانية خمسة (احدها) القوة الحساسة وهى التى تتلقى ما توردة الحواس الخمس وكانها اصل الروح الحيوانى واوله اذ به يصير الحيوان حيوانا وهو موجود للصبى الرضيع (وثانيها القوة الخيالية) وهى التى تستثبت ما اورده الحواس وتحفظه مخزونا عندها لتعرضه على القوة العقلية التى فوقها عند الحاجة اليه (وثالثها القوة العقلية) المدركة للحقائق الكلية (ورابعها القوة الفكرية) وهى التى تأخذ المعارف العقلية فتؤلفها تأليفا فتستنتج من تأليفها علما بمجهول (وخامسها القوة القدسية) التى تختص بها الانبياء عليهم الصلاة والسلام وبعض الاولياء وتتجلى فيها لوائح الغيب واسرار الملكوت واليه الاشارة بقوله تعالى وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا واذا عرفت هذه القوى فهى بجملتها انوار اذ بها تظهر اصناف الموجودات وان هذه المراتب الخمسة يمكن تشبيهها بالامور الخمسة التى ذكرها الله تعالى وهى المشكاة والزجاجة والمصباح والشجرة والزيت (اما الروح

البعد للايذان بكونه امرا معتدا به واجب المراعاة (وما اولئك) اشارة الى القائلين لا الى الفريق المتولى منهم فقط لعدم اقتضاء نفى الايمان عنهم نفيه عن الاولين بخلاف العكس فان نفيه عن القائلين مقتض لنفيه عنهم على ابلغ وجه وآكده وما فيه من معنى البعد للاشعار ببعد منزلتهم فى الكفر والفساد اى وما اولئك الذين يدعون الايمان والطاعة ثم يتولى بعضهم الذين يشاركونهم فى العقد والعمل (بالمؤمنين) اى المؤمنين حقيقة كما يعرب عنه اللام اى ليسوا بالمؤمنين المعهودين بالاخلاص فى الايمان والثبات عليه (واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم) اى الرسول (بينهم) لانه المباشر حقيقة للحكم وان كان ذلك حكم الله حقيقة وذكر الله تعالى لتفخيمه عليه السلام والايذان بجلالة محله عنده تعالى (اذا فريق منهم معرضون) اى فاجأ فريق منهم الاعراض عن المحاكمة اليه عليه السلام لكون الحق عليهم وعلمهم بانه عليه السلام يحكم بالحق عليهم وهو شرح للتولى ومبالغة فيه (وان يكن لهم الحق) لا عليهم (يأتوا اليه مذعنين) منقادين لجزمهم بانه عليه السلام يحكم لهم والى صلة ليأتوا فان الاتيان

قال ابن عباس وابوموسى الاشعرى المشكاة القائم الذى فى وسط القنديل الذى يدخل فيه الفتيلة وهو قول مجاهد والقرظى (الثانى) قال الزجاج هى ههنا قصبة القنديل من الزجاجة التى توضع فيها الفتيلة (الثالث) قال الضحاك انها الحلقة التى يعلق بها القنديل والاول هو الاصح (المسئلة الثانية) زعموا ان المشكاة هى الكوة بلغة الحبشة قال الزجاج المشكاة من كلام العرب ومثلها المسكاة وهى الدقيق الصغير (المسئلة الثالثة) قال بعضهم هذه الآية من المقلوب والتقدير مثل نوره كمصباح فى مشكاة لان المشبه به هو الذى يكون معدنا للنور ومنبعا له وذلك هو المصباح لا المشكاة (المسئلة الرابعة) المصباح السراج واصله من الضوء ومنه الصبح (المسئلة الخامسة) قرئ زجاجة الزجاجة بالضم والفتح والكسر (اما درى) فقرئ بضم الدال وكسرها وفتحها (اما الضم) ففيه ثلاثة اوجه (الاول) ضم الدال وتشديد الراء والياء من غير همز وهو القراءة المعروفة ومعناه انه يشبه الدر لصفائه ولمعانه وقال عليه الصلاة والسلام انكم لترون اهل الدرجات العلى كما ترون الكوكب الدرى فى افق السماء (الثانى) انه كذلك الا انه بالمد والهمزة وهو قراءة حمزة وعاصم فى رواية ابى بكر وصار بعض اهل العربية الى انه لحن قال سيبويه وهذا اضعف اللغات وهو مأخوذ من الضوء والتلألؤ وليس بمنسوب الى الدر قال ابو على وجه هذه القراءة انه فعيل من الدرء بمعنى الدفع وانه صفة وانه فى الصفة مثل المرئ فى الاسم (الثالث) ضم الدال وتخفيف الراء والياء من غير مد ولا همز (اما الكسر) ففيه وجهان (الاول) درئ بكسر الدال وتشديد الراء والمد والهمز وهى قراءة أبى عمرو والكسائى قال الفراء هو فعيل من الدرء وهو الدفع كالسكير والفسيق فكأن ضوأه يدفع بعضه بعضا من لمعانه (الثانى) بكسر الدال وتشديد الراء من غير همز ولا مد وهى قراءة ابن خليد وعتبة بن حماد عن نافع (اما الفتح) ففيه وجوه اربعة (الاول) بفتح الدال وتشديد الراء والمد والهمز عن الاعمش (الثانى) بفتح الدال وتشديد الراء من غير مد ولا همز عن الحسن ومجاهد وقتادة (الثالث) بفتح الدال وتخفيف الراء مهموزا من غير مد ولا ياء عن عاصم (الرابع) كذلك الا انه غير مهموز وياء خفيفة بدل الهمزة * اما قوله تعالى توقد القراءة المعروفة تَوَقَّدَ بالفتحات الاربعة مع تشديد القاف بوزن تفعّل وعن الحسن ومجاهد وقتادة كذلك الا انه بضم الدال وذكر صاحب الكشاف يَوَقَّدُ بفتح الياء المنقوطة من تحت بنقطتين والواو والقاف وتشديدها ورفع الدال قال وحذف التاء لاجتماع حرفين زائدين وهو غريب وعن سعيد بن جبير بياء مضمومة واسكان الواو وفتح القاف مخففة ورفع الدال وعن نافع وحفص كذلك الا انه بالتاء وعن عاصم بياء مضمومة وفتح الواو وتشديد القاف وفتحها وعن أبى عمرو كذلك الا انه بالتاء وعن طلحة توقد بتاء مضمومة وواو ساكنة وكسر القاف وتخفيفها (المسئلة السادسة) قوله كأنها كوكب درى اى ضخم مضئ ودرارى النجوم عظامها واتفقوا على ان المراد به كوكب من الكواكب

دلالة على الحدوث واوفر اشتمالا على نسب خاصة بعيدة من الوقوع فى الخارج وفى ذهن السامع ولا ريب فى ان ذلك ههنا فى ان مع ما فى حيزها اتم واكمل فاذا هو احق بالخبرية واما ما تفيده الاضافة من النسبة المطلقة الاجمالية بحيث كانت قليلة الجدوى سهلة الحصول خارجا وذهنا كان حقها ان تلاحظ ملاحظة مجملة وتجعل عنوانا للموضوع فالمعنى انما كان مطلق القول الصادر عن المؤمنين (اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم) اى الرسول عليه الصلاة والسلام (بينهم) اى وبين خصومهم سواء كانوا منهم او من غيرهم (ان يقولوا سمعنا واطعنا) اى خصوصية هذا القول المحكى عنهم لا قولا آخر اصلا واما قراءة النصب فمعناها انما كان قول المؤمنين اى انما كان قولا لهم عند الدعوة خصوصية قولهم المحكى عنهم فقيه من جعل اخص النسبتين وابعدهما وقوعا وحضورا فى الاذهان واحقهما بالبيان مفروغا عنها عنوانا للموضوع وابراز ما هو بخلافها فى معرض القصد الاصلى ما لا يخفى وقرئ ليحكم على بناء الفعل للمفعول مسندا الى مصدره مجاوبا لقوله تعالى اذا دعوا اى ليفعل الحكم كما فى

(المضيئة)

المضيئة كالزهرة والمشترى والثوابت التى فى العظم الاول (المسئلة السابعة) قوله من شجرة مباركة اى من زيت شجرة مباركة اى كثيرة البركة والنفع وقيل هى اول شجرة نبتت بعد الطوفان وقد بارك فيها سبعون نبيا منهم الخليل وقيل المراد زيتون الشام لانها هى الارض المباركة فلهذا جعل الله هذه شجرة مباركة (المسئلة الثامنة) اختلفوا فى معنى وصف الشجرة بانها لاشرقية ولاغربية على وجوه (احدها) قال الحسن انها شجرة الزيت من الجنة اذلو كانت من شجر الدنيا لكانت اما شرقية او غربية وهذا ضعيف لانه تعالى انما ضرب المثل بما شاهدوه وهم ماشاهدوا شجر الجنة (وثانيها) ان المراد شجرة الزيتون فى الشام لان الشام وسط الدنيا فلا يوصف شجرها بانها شرقية او غربية وهذا ايضا ضعيف لان من قال الارض كرة لم يثبت المشرق والمغرب موضعين معينين بل لكل بلد مشرق ومغرب على حدة ولان المثل مضروب لكل من يعرف الزيت وقد يوجد فى غير الشام كوجوده فيها (وثالثها) انها شجرة تلتف بها الاشجار فلا تصيبها الشمس فى شرق ولا غرب ومنهم من قال هى شجرة يلتف بها ورقها التفافا شديدا فلا تصل الشمس اليها سواء كانت الشمس شرقية او غربية وليس فى الشجر مايورق غصنه من اوله الى آخره مثل الزيتون والرمان وهذا ايضا ضعيف لان الغرض صفاء الزيت وذلك لايحصل الابكمال نضج الزيتون وذلك انما يحصل فى العادة بوصول اثر الشمس اليه لابعدم وصوله (ورابعها) قال ابن عباس المراد الشجرة التى تبرز على جبل عال او صحراء واسعة فتطلع الشمس عليها حالتى الطلوع والغروب وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة واختيار الفراء والزجاج قالا ومعناه لاشرقية وحدها ولاغربية وحدها ولكنها شرقية وغربية وهو كما يقال فلان لامسافر ولامقيم اذا كان يسافر ويقيم وهذا القول هو المختار لان الشجرة متى كانت كذلك كان زيتها فى نهاية الصفاء وحينئذ يكون مقصودا لتمثيل اكمل واتم (وخامسها) المشكاة صدر محمد صلى الله عليه وسلم والزجاجة قلبه والمصباح مافى قلبه صلى الله عليه وسلم من الدين توقد من شجرة مباركة يعنى واتبعوا ملة ابيكم ابراهيم صلوات الله عليه فالشجرة هى ابراهيم عليه السلام ثم وصف ابراهيم فقال لاشرقية ولاغربية اى لم يكن يصلى قبل المشرق ولاقبل المغرب كاليهود والنصارى بل كان عليه الصلاة والسلام يصلى الى الكعبة (المسئلة التاسعة) وصف الله تعالى زيتها بانه يكاد يضئ ولو لم تمسسه نار لان الزيت اذا كان خالصا صافيا ثم رؤى من بعيد يرى كأن له شعاعا فاذا مسه النار ازداد ضوأ على ضوء كذلك يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل ان يأتيه العلم فاذا جاءه العلم ازداد نورا على نور وهدى على هدى قال يحيى بن سلام قلب المؤمن يعرف الحق قبل ان يبين له لموافقته له وهو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله وقال كعب الاحبار المراد من الزيت نور محمد صلى الله عليه وسلم اى يكاد نوره يبين للناس قبل ان يتكلم وقال الضحاك يكاد محمد صلى الله عليه وسلم يتكلم بالحكمة قبل الوحى وقال عبدالله بن رواحة

قوله تعالى لقد تقطع بينكم اى وقع التقطع بينكم (واولئك) اشارة الى المؤمنين باعتبار صدور القول المذكور عنهم ومافيه من معنى البعد للاشعار بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم فى الفضل اى اولئك المنعوتون بما ذكر من النعت الجميل (هم المفلحون) اى هم الفائزون بكل مطلب الناجون من كل محذور (ومن يطع الله ورسوله) استئناف جئ به لتقرير مضمون ماقبله من حسن حال المؤمنين وترغيب من عداهم فى الانتظام فى سلكهم اى ومن يطعهما كائنا من كان فيما امرابه من الاحكام الشرعية اللازمة والمتعدية وقيل فى الفرائض والسنن والاول هو الانسب بالمقام (ويخش الله ويتقه) باسكان القاف المبنى على تشبيهه بكتف وقرئ بكسر القاف والهاء وباسكان الهاء اى ويخش الله على مامضى من ذنوبه ويتقه فيما يستقبل (فأولئك) الموصوفون بما ذكر من الطاعة والخشية والاتقاء (هم الفائزون) بالنعيم المقيم لامن عداهم (واقسموا بالله) حكاية لبعض آخر من اكاذيبهم مؤكد بالايمان الفاجرة وقوله تعالى (جهد ايمانهم) نصب على المصدر مؤكد لفعله الذى هو فى حيز النصب على انه حال من فاعل اقسموا اى اقسموا به تعالى

لولم تكن فيه آيات مبينة • كانت بديهته تنبيك بالخبر

(المسئلة العاشرة) قوله تعالى نور على نور المراد ترادف هذه الانوار واجتماعها قال ابى ابن كعب المؤمن بين اربع خلال ان اعطى شكر وان ابتلى صبر وان قال صدق وان حكم عدل فهو فى سائر الناس كالرجل الحى الذى يمشى بين الاموات يتقلب فى خمس من النور كلامه نور وعمله نور ومدخله نور ومخرجه نور ومصيره الى النور يوم القيامة قال الربيع سألت ابا العالية عن مدخله ومخرجه فقال سره وعلانيته (المسئلة الحادية عشرة) قال الجبائى دلت الآية على ان كل من جهل فمن قبله أتى والا فالادلة واضحة ولو نظروا فيها لعرفوا قال اصحابنا هذه الآية صريح مذهبنا فانه سبحانه بعد ان بين ان هذه الدلائل بلغت فى الظهور والوضوح الى هذا الحد الذى لا يمكن الزيادة عليه قال يهدى الله لنوره من يشاء يعنى وضوح هذه الدلائل لا يكفى ولا ينفع مالم يخلق الله الايمان ولا يمكن ان يكون المراد من قوله يهدى الله ايضاح الادلة والبيانات لانا لو حملنا النور على ايضاح الادلة لم يجز حمل الهدى عليه ايضا والا لخرج الكلام عن الفائدة فلم يبق الا حمل الهدى ههنا على خلق العلم اجاب ابو مسلم بن بحر عنه من وجهين (الاول) ان قوله يهدى الله لنوره من يشاء محمول على زيادات الهدى الذى هو كالضد للخذلان الحاصل للضال (الثانى) انه سبحانه يهدى لنوره الذى هو طريق الجنة من يشاء وشبهه بقوله يسعى نورهم بين ايديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات وزيف القاضى عبد الجبار هذين الجوابين (اما الاول) فلان الكلام المتقدم هو فى ذكر الآيات المنزلة فاذا حملناه على الهدى دخل الكل فيه واذا حملناه على الزيادة لم يدخل فيه الا البعض واذا حمل على طريق الجنة لا يكون داخلا فيه اصلا الا من حيث اللفظ لا من حيث المعنى ولما زيف هذين الجوابين قال الاولى ان يقال انه تعالى هدى بذلك البعض دون البعض وهم الذين بلغهم حد التكليف واعلم ان هذا الجواب اضعف من الجوابين الاولين قوله يهدى الله لنوره من يشاء يفهم منه ان هذه الآيات مع وضوحها لا تكفى وهذا لا يتناول الصبى والمجنون فسقط ماقالوه (المسئلة الثانية عشرة) قوله تعالى ويضرب الله الامثال للناس والمراد للمكلفين من الناس وهو النبى ومن بعث اليه فانه سبحانه ذكر ذلك فى معرض النعمة العظيمة واستدلت المعتزلة به فقالوا انما يكون ذلك نعمة عظيمة لو امكنهم الانتفاع به ولو كان الكل بخلق الله تعالى لما تمكنوا من الانتفاع به وجوابه ماتقدم ثم بين انه سبحانه بكل شئ عليم وذلك كالوعيد لمن لا يعتبر ولا يتفكر فى امثاله ولا ينظر فى ادلته فيعرف وضوحها وبعدها عن الشبهات ❁ قوله تعالى (فى بيوت اذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلوة وايتاء الزكوة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار ليجزيهم الله احسن ماعملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب) اعلم ان فى الآية مسائل (المسئلة

(الاولى)

يجهدون ايمانهم جهدا ومعنى جهد اليمين بلوغ غايتها بطريق الاستعارة من قولهم جهد نفسه اذا بلغ اقصى وسعها وطاقتها اى جاهدين بالغين اقصى مراتب اليمين فى الشدة والوكادة وقيل هو مصدر مؤكد لاقسموا اى اقسموا اقسام اجتهاد فى اليمين قال مقاتل من حلف بالله فقد اجتهد فى اليمين (لئن امرتهم) اى بالخروج الى الغزو لا عن ديارهم واموالهم كما قيل لانه حكاية لما كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم اينما كنت نكن معك لئن خرجت خرجنا وان اقمت اقمنا وان امرتنا بالجهاد جاهدنا وقوله تعالى (ليخرجن) جواب لاقسموا بطريق حكاية فعلهم لا حكاية قولهم وحيث كانت مقالتهم هذه كاذبة ويمينهم فاجرة امر عليه السلام بردها حيث قيل (قل) اى ردا عليهم وزجرا لهم عن التفوه بها واظهارا لعدم القبول لكونهم كاذبين فيها (لا تقسموا) اى على ماينبئ عنه كلامكم من الطاعة وقوله تعالى (طاعة معروفة) خبر مبتدأ محذوف والجملة تعليل للنهى اى لا تقسموا على ماتدعون من الطاعة لان طاعتكم طاعة نفاقية واقعة باللسان فقط من غير مواطأة من القلب وانما عبر عنها بمعروفة للايذان بأن كونها كذلك مشهور معروف لكل احد وقرى

الاولى) قوله تعالى فى بيوت أذن الله يقتضى محذوفا يكون فيها وذكروا فيه وجوها (احدها) ان التقدير كمشكاة فيها مصباح فى بيوت أذن الله وهو اختيار كثير من المحققين اعترض ابو مسلم بن بحر الاصفهانى عليه من وجهين (الاول) ان المقصود من ذكر المصباح المثل وكون المصباح فى بيوت أذن الله لا يزيد فى هذا المقصود لان ذلك لا يزيد المصباح انارة واضاءة (الثانى) ان ما تقدم ذكره فيه وجوه تقتضى كونه واحدا كقوله كمشكاة وقوله فيها مصباح وقوله فى زجاجة وقوله كأنها كوكب درى ولفظ البيوت جمع ولا يصح كون هذا الواحد فى كل البيوت (والجواب) عن الاول ان المصباح الموضوع فى الزجاجة الصافية اذا كان فى المساجد كان اعظم واضخم فكان اضوأ فكان التمثيل به اتم واكمل (وعن الثانى) انه لما كان القصد بالمثل هو الذى له هذا الوصف فيدخل تحته كل مشكاة فيها مصباح فى زجاجة توقد من الزيت وتكون الفائدة فى ذلك ان ضوأها يظهر فى هذه البيوت بالليالى عند الحاجة الى عبادة الله تعالى ولو ان رجلا قال الذى يصلح لخدمتى رجل يرجع الى علم وكفاية وقناعة يلزم بيته لكان وان ذكره بلفظ الواحد فالمراد النوع فكذا ما ذكره الله سبحانه فى هذه الآية (وثانيها) التقدير توقد من شجرة مباركة فى بيوت أذن الله ان ترفع (وثالثها) وهو قول ابى مسلم انه راجع الى قوله ومثلا من الذين خلوا من قبلكم اى ومثلا من الذين خلوا من قبلكم فى بيوت أذن الله ان ترفع ويكون المراد بالذين خلوا الانبياء والمؤمنين والبيوت المساجد وقد اقتص الله اخبار الانبياء عليهم الصلاة والسلام وذكر اماكنهم فسماها محاريب بقوله اذ تسوروا المحراب ودخل عليها زكريا المحراب فيقول ولقد انزلنا اليكم آيات مبينات وانزلنا اقاصيص من بعث قبلكم من الانبياء والمؤمنين فى بيوت اذن الله ان ترفع (ورابعها) قول الجبائى انه كلام مستأنف لا تعلق له بما تقدم والتقدير صلوا فى بيوت اذن الله ان ترفع (وخامسها) وهو قول الفراء والزجاج انه لا حذف فى الآية بل فيه تقديم وتأخير كأنه قال يسبح فى بيوت اذن الله ان ترفع رجال صفتهم كيت وكيت واما قول ابى مسلم فقد اعترض عليه القاضى من وجهين (الاول) ان قوله ومثلا من الذين خلوا من قبلكم المراد منه من خلا من المكذبين للرسل لتعلقه بما تقدم من الاكراه على الزنا ابتغاء للدنيا فلا يليق ذلك بوصف هذه البيوت لانها بيوت أذن الله ان يذكر فيها اسمه (الثانى) ان هذه الآية صارت منقطعة عن تلك الآية بما تخلل بينهما من قوله تعالى الله نور السموات والارض واما قول الجبائى فقيل الاضمار لا يجوز المصير اليه الا عند الضرورة وعلى التأويل الذى ذكره الفراء والزجاج لا حاجة اليه فلا يجوز المصير اليه فان قيل على قول الزجاج يتوجه عليه اشكال ايضا لان على قوله يصير المعنى فى بيوت أذن الله يسبح له فيها فيكون قوله فيها تكرارا من غير فائدة فلم قلتم ان تحمل مثل هذه الزيادة اولى من تحمل ذلك النقصان قلنا الزيادة لاجل التأكيد كثيرة فكان المصير اليها

بالنصب والمعنى تطيعون طاعة معروفة هذا وحملها على الطاعة الحقيقية بتقدير ما يناسبها من من مبتدأ او خبر او فعل مثل الذى يطلب منكم طاعة معروفة حقيقية لا نفاقية او طاعة معروفة امثل او ليكن طاعة معروفة واطيعوا طاعة معروفة مما لا يساعده المقام (ان الله خبير بما تعملون) من الاعمال الظاهرة والباطنة التى من جملتها ما تظهرونه من الاكاذيب المؤكدة بالايمان الفاجرة وما تضمرونه فى قلوبكم من الكفر والنفاق والعزيمة على مخادعة المؤمنين وغيرها من فنون الشر والفساد والجملة تعليل للحكم بان طاعتهم طاعة نفاقية مشعر بان مدار شهرة امرها فيما بين المؤمنين اخباره تعالى بذلك ووعيد لهم بانه تعالى يجازيهم بجميع اعمالهم السيئة التى منها نفاقهم (قل اطيعوا الله واطيعوا الرسول) كرر الامر بالقول لابراز كمال العناية به والاشعار باختلافهما من حيث ان القول فى الاول نهى بطريق الرد والتقريع كما فى قوله تعالى اخسؤا فيها ولا تكلمون وفى الثانى امر بطريق التكليف والتشريع واطلاق الطاعة المأمور بها عن وصف الصحة والاخلاص ونحوهما بعد وصف طاعتهم بما ذكر للتنبيه على انها

اولى (المسئلة الثانية) اكثر المفسرين قالوا المراد من قوله في بيوت المساجد وعن عكرمة
في بيوت قال هي البيوت كلها والاول اولى لوجهين (الاول) ان في البيوت مالا يمكن
ان يوصف بان الله تعالى أذن ان ترفع (الثاني) انه تعالى وصفها بالذكر والتسبيح والصلاة
وذلك لا يليق الا بالمساجد ثم القائلين بان المراد هو المساجد قولان (احدهما) ان المراد
اربع مساجد الكعبة بناها ابراهيم واسمعيل عليهما الصلاة والسلام وبيت المقدس
بناه داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام ومسجد المدينة بناه النبي صلى الله عليه
وسلم ومسجد قباء الذي اسس على التقوى بناه نبي الله صلى الله عليه وسلم وعن الحسن هو
بيت المقدس يسرج فيه عشرة آلاف قنديل (والثاني) ان المراد هو جميع المساجد
والاول ضعيف لانه تخصيص بلا دليل فالاولى حمل اللفظ على جميع المساجد قال ابن
عباس رضي الله عنهما المساجد بيوت الله في الارض وهي تضيء لاهل السماء كما
تضيء النجوم لاهل الارض (المسئلة الثالثة) اختلفوا في المراد من قوله ان ترفع على
اقوال (احدها) المراد من رفعها بناؤها لقوله بناها رفع سمكها فسواها وقوله واذ يرفع
ابراهيم القواعد من البيت وعن ابن عباس رضي الله عنهما هي المساجد امر الله ان
تبنى (وثانيها) ترفع اي تعظم وتطهر عن الانجاس وعن اللغو من الاقوال عن الزجاج
(وثالثها) المراد مجموع الامرين (والقول الثاني) اولى لان قوله في بيوت أذن الله ان
ترفع ظاهره انها كانت بيوتا قبل الرفع فأذن الله ان ترفع (المسئلة الرابعة) اختلفوا
في المراد من قوله ويذكر فيها اسمه فالقول الاول انه عام في كل ذكر (والثاني) ان يتلى فيها
كتابه عن ابن عباس (والثالث) لا يتكلم فيها بما لا ينبغي والاول اولى لعموم اللفظ
(المسئلة الخامسة) قرأ ابن عامر وابو بكر عن عاصم يسبح بفتح الباء والباقون بكسرها
فعلى القراءة الاولى يكون القول ممتدا الى آخر الظروف الثلاثة اعني له فيها بالغدو
والآصال ثم قال الزجاج رجال مرفوع لانه لما قال يسبح له فيها فكأنه قيل من يسبح
فقيل يسبح رجال (المسئلة السادسة) اختلفوا في هذا التسبيح فالاكثرون حملوه على
نفس الصلاة ثم اختلفوا فمنهم من حمله على كل الصلوات الخمس ومنهم من حمله على صلاتي
الصبح والعصر فقال كانتا واجبتين في ابتداء الحال ثم زيد فيهما ومنهم من حمله على
التسبيح الذي هو تنزيه الله تعالى عما لا يليق به في ذاته وفعله واحتج عليه بأن الصلاة
والزكاة قد عطفهما على ذلك من حيث قال عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة وهذا
الوجه اظهر (المسئلة السابعة) الآصال جمع اصل والاصل جمع اصيل وهو العشى
والغدو وحد الغدو لانه في الاصل مصدر لا يجمع والاصيل اسم جمع قال صاحب الكشاف
بالغدو اي بأوقات الغداة اي بالغدوات وقرئ والايصال وهو الدخول في الاصيل يقال
آصل كاعتم واظهر قال ابن عباس رحمهما الله ان صلاة الضحى لفي كتاب الله تعالى
مذكورة وتلا هذه الآية وروى ابو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال مامن احد

(يغدو)

ليست من الطاعة في شيء اصلا
وقوله تعالى (فان تولوا) خطاب
للمأمورين بالطاعة من جهته
تعالى وارد لتأكيد الامر بها
والمبالغة في ايجاب الامتثال به
والحمل عليه بالترهيب والترغيب
لما ان تغيير الكلام المسوق لمعنى
من المعاني وصرفه عن سننه
المسلوك ينبئ عن اهتمام جديد
بشأنه من المتكلم ويستجلب مزيد
رغبة فيه من السامع كما اشير اليه
في تفسير قوله تعالى ولو جئنا بمثله
مددا لاسيما اذا كان ذلك بتغيير
الخطاب بالواسطة الى الخطاب
بالذات فان في خطابه تعالى اياهم
بالذات بعد امره تعالى اياهم
بوساطته عليه السلام وتصديه
لبيان حكم الامتثال بالامر
والتولي عنه اجمالا وتفصيلا من
افادة ما ذكر من التأكيد والمبالغة
ما لا غاية وراءه وتوهم انه داخل
تحت القول المأمور بحكايته من
جهته تعالى وانه ابلغ في التبكيت
تعكيس للامر والفاء لترتيب
ما بعدها على تبليغه عليه السلام
للمأمور به اليهم وعدم التصريح
به للايذان بغاية ظهور مسارعته
عليه السلام الى تبليغ ما امر به
وعدم الحاجة الى الذكر اي ان
تتولوا عن الطاعة اثر ما امرتم بها
(فانما عليه) اي فاعلموا انما عليه
عليه السلام (ما حمل) اي امر به من

يغدو ويروح الى المسجد يؤثره على ما سواه الا وله عند الله نزل يعد له فى الجنة وفى رواية سهل بن سعد مرفوعا من غدا الى المسجد وراح ليعلم خيرا او ليتعلمه كان كمثل المجاهد فى سبيل الله يرجع غانما (المسئلة الثامنة) اختلفوا فى قوله تعالى لا تلهيهم تجارة فقال بعضهم نفى كونهم تجارا وباعة اصلا وقال بعضهم بل اثبتهم تجارا وباعة وبين انهم مع ذلك لا يشغلهم عنها شاغل من ضروب منافع التجارات وهذا قول الاكثرين قال الحسن أما والله ان كانوا ليتجرون ولكن اذا جاءت فرائض الله لم يلههم عنها شئ فقاموا بالصلاة والزكاة وعن سالم نظر الى قوم من اهل السوق تركوا بياعاتهم وذهبوا الى الصلاة فقال هم الذين قال تعالى لا تلهيهم تجارة وعن ابن مسعود مثله واعلم ان هذا القول اولى من الاول لانه لا يقال ان فلانا لا تلهيه التجارة عن كيت وكيت الا وهو تاجر وان احتمل الوجه الاول وههنا سؤالات (السؤال الاول) لما قال لا تلهيهم تجارة دخل فيه البيع فلم اعاد ذكر البيع قلنا (الجواب) عنه من وجوه (الاول) ان التجارة جنس يدخل تحته انواع الشراء والبيع الا انه سبحانه خص البيع بالذكر لانه فى الالهاء ادخل لان الربح الحاصل فى البيع يقين ناجز والربح الحاصل فى الشراء شك ومستقبل (الثانى) ان البيع يقتضى تبديل العرض بالنقد والشراء بالعكس والرغبة فى تحصيل النقد اكثر من العكس (الثالث) قال الفراء التجارة لاهل الجلب يقال اتجر فلان فى كذا اذا جلبه من غير بلده والبيع ما باعه على يديه (السؤال الثانى) لم خص الرجال بالذكر (والجواب) لان النساء لسن من اهل التجارات والجماعات (المسئلة التاسعة) اختلفوا فى المراد بذكر الله تعالى فقال قوم المراد الثناء على الله تعالى والدعوات وقال آخرون المراد الصلوات فان قيل فما معنى قوله واقام الصلاة قلنا عنه جوابان (احدهما) قال ابن عباس رضى الله عنهما المراد باقام الصلاة اقامتها لمواقيتها (والثانى) يجوز ان يكون قوله واقام الصلاة تفسيرا لذكر الله فهم يذكرون الله قبل الصلاة وفى الصلاة (المسئلة العاشرة) قد ذكرنا فى اول تفسير سورة البقرة فى قوله ويقيمون الصلاة ان اقام الصلاة هو القيام بحقها على شروطها والوجه فى حذف الهاء ما قاله الزجاج يقال اقمت الصلاة اقامة وكان الاصل اقواما ولكن قلبت الواو الفا فاجتمع الفان فحذفت احداهما لالتقاء الساكنين فبقى اقمت الصلاة اقاما فادخلت الهاء عوضا من المحذوف وقامت الاضافة ههنا فى التعويض مقام الهاء المحذوفة قال وهذا اجماع من النحويين (المسئلة الحادية عشرة) اختلفوا فى الصلاة فمنهم من قال هى الفرائض ومنهم من ادخل فيه النفل على ما حكيناه فى صلاة الضحى عن ابن عباس والاول اقرب لانه الى التعريف اقرب وكذلك القول فى الزكاة ان المراد المفروض لانه المعروف فى الشرع المسمى بذلك وقال ابن عباس رضى الله عنهما المراد من الزكاة طاعة الله تعالى والاخلاص وكذا فى قوله وكان يأمر اهله بالصلاة والزكاة وقوله ما زكا منكم من احد وقوله تطهرهم وتزكيهم بها وهذا ضعيف لما تقدم

التبليغ وقد شاهد تموه عند قوله اطيعوا الله واطيعوا الرسول (وعليكم ما حملتم) اى ما امرتم به من الطاعة ولعل التعبير عنه بالتحميل للاشعار بثقله وكونه مؤنة باقية فى عهدتهم بعد كأنه قيل وحيث توليتم عن ذلك فقد بقيتم تحت ذلك الحمل الثقيل وقوله تعالى ما حمل محمول على المشاكلة (وان تطيعوه) اى فيما امركم به من الطاعة (تهتدوا) الى الحق الذى هو المقصد الاصلى الموصل الى كل خير والمنجى من كل شر وتأخيره عن بيان حكم التولى لما فى تقديم الترهيب من تأكيد الترغيب وتقريبه مما هو من بابه من الوعد الكريم وقوله تعالى (وما على الرسول الا البلاغ المبين) اعتراض مقرر لما قبله من ان غائلة التولى وفائدة الاطاعة مقصورتان عليهم واللام اما للجنس المنتظم له عليه السلام انتظاما اوليا او للعهد اى ما على جنس الرسول كائنا من كان او ما عليه عليه السلام الا التبليغ الموضح لكل ما يحتاج الى الايضاح او الواضح على ان المبين من ابان بمعنى بان وقد علمتم انه قد فعله بما لا مزيد عليه وانما بقى ما حملتم وقوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم) استئناف مقرر لما فى قوله تعالى وان تطيعوه تهتدوا من الوعد الكريم ومعرب

ولانه تعالى علق الزكاة بالايتاء وهذا لايحمل الا على مايعطى من حقوق المال (المسئلة الثانية عشرة) انه سبحانه بين ان هؤلاء الرجال وان تعبدوا بذكر الله والطاعات فانهم مع ذلك موصوفون بالوجل والخوف فقال يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار وذلك الخوف انما كان لعلمهم بأنهم ماعبدوا الله حق عبادته واختلفوا فى المراد بتقلب القلوب والابصار على اقوال فالقول الاول ان القلوب تضطرب من الهول والفزع وتشخص الابصار لقوله واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر (الثانى) انها تتغير احوالها فتفقه القلوب بعدان كانت مطبوعا عليها لاتفقه وتبصر الابصار بعدان كانت لاتبصر فكأنهم انقلبوا من الشك الى الظن ومن الظن الى اليقين ومن اليقين الى المعاينة لقوله وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون وقوله لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك (الثالث) القلوب تتقلب فى ذلك اليوم طمعا فى النجاة وحذرا من الهلاك والابصار تتقلب من اى ناحية يؤمر بهم أمن ناحية اليمين ام من ناحية الشمال ومن اى ناحية يعطون كتابهم أمن قبل الايمان ام من الشمائل والمعتزلة لايرضون بهذا التأويل فانهم قالوا ان اهل الثواب لاخوف عليهم البتة فى ذلك اليوم واهل العقاب لايرجون العفو لكننا بينا فساد هذا المذهب غير مرة (الرابع) ان القلوب تزول عن اماكنها فتبلغ الحناجر والابصار تصير زرقا قال الضحاك يحشر الكافر وبصره حديد وتزرق عيناه ثم يعمى وينقلب القلب من الخوف حيث لايجد مخلصا حتى يقع فى الحنجرة فهو قوله اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين (الخامس) قال الجبائى المراد بتقلب القلوب والابصار تغير هيآتها بسبب ماينالها من العذاب فتكون مرة بهيئة ما انضج بالنار ومرة بهيئة مااحترق قال ويجوز ان يريد به تقلبها على جمر جهنم وهو معنى قوله تعالى ونقلب افئدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به اول مرة (المسئلة الثالثة عشرة) قوله ليجزيهم الله احسن ماعملوا اى يفعلون هذه القربات ليجزيهم الله ويثيبهم على احسن ماعملوا وفيه وجوه (الاول) المراد بالاحسن الحسنات اجمع وهى الطاعات فرضها ونفلها قال مقاتل انما ذكر الاحسن تنبيها على انه لا يجازيهم على مساوى اعمالهم بل يغفرها لهم (الثانى) انه سبحانه يجزيهم جزاء احسن ماعملوا على الواحد عشرا الى سبعمائة (الثالث) قال القاضى المراد بذلك ان تكون الطاعات منهم مكفرة لمعاصيهم وانما يجزيهم الله تعالى بأحسن الاعمال وهذا مستقيم على مذهبه فى الاحباط والموازنة اما قوله تعالى ويزيدهم من فضله فالمعنى انه تعالى يجزيهم بأحسن الاعمال ولايقتصر على قدر استحقاقهم بل يزيدهم من فضله على ماذكره تعالى فى سائر الآيات من التضعيف فان قيل فهذا يدل على ان لفعل الطاعة اثرا فى استحقاق الثواب لانه تعالى ميز الجزاء عن الفضل وانتم لا تقولون بذلك فان عندكم العبد لايستحق على ربه شيئا قلنا نحن نثبت الاستحقاق لكن بالوعد فذلك القدر هو المستحق والزائد عليه هو الفضل ثم قال والله يرزق من يشاء بغير حساب نبه به

عنه بطريق التصريح ومبين لتفاصيل ما ابهم فيه من فنون السعادات الدينية والدنيوية التى هى من آثار الاهتداء ومتضمن لما هو المراد بالطاعة التى نيط بها الاهتداء والمراد بالذين آمنوا كل من اتصف بالايمان بعد الكفر على الاطلاق من اى طائفة كان وفى اى وقت كان لامن آمن من طائفة المنافقين فقط ولامن آمن بعد نزول الآية الكريمة فحسب ضرورة عموم الوعد الكريم للكل كافة فالخطاب فى منكم لعامة الكفرة لا المنافقين خاصة ومن تبعيضية (وعملوا الصالحات) عطف على آمنوا داخل معه فى حيز الصلة وبه يتم تفسير الطاعة التى امر بها ورتب عليها ماانتظم فى سلك الوعد الكريم كما اشير اليه وتوسيط الظرف بين المعطوفين لاظهار اصالة الايمان وعراقته فى استتباع الآثار والاحكام وللايذان بكونه اول مايطلب منهم واهم مايجب عليهم واما تأخيره عنهما فى قوله تعالى تعالى وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة واجرا عظيما فلان من هناك بيانية والضمير للذين معه عليه السلام من خلص المؤمنين ولاريب فى انهم جامعون بين الايمان والاعمال الصالحة مثابرون عليها فلابد من ورود بيانهم بعد ذكر نعوتهم الجليلة

على كمال قدرته وكمال جوده ونفاذ مشيئته وسعة احسانه فكان سبحانه لما وصفهم بالجد والاجتهاد فى الطاعة ومع ذلك يكونون فى نهاية الخوف فالحق سبحانه يعطيهم الثواب العظيم على طاعاتهم ويزيدهم الفضل الذى لاحد له فى مقابلة خوفهم ﴿ قوله تعالى (والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب او كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا اخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور) اعلم انه سبحانه لما بين حال المؤمن وانه فى الدنيا يكون فى النور وبسببه يكون متمسكا بالعمل الصالح ثم بين انه فى الآخرة يكون فائزا بالنعيم المقيم والثواب العظيم اتبع ذلك بأن بين ان الكافر يكون فى الآخرة فى اشد الخسران وفى الدنيا فى اعظم انواع الظلمات وضرب لكل واحد منهما مثلا اما المثل الدال على خيبته فى الآخرة فهو قوله والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة قال الازهرى السراب ما يتراءى للعين وقت الضحى الاكبر فى الفلوات شبيه الماء الجارى وليس بماء ولكن الذى ينظر اليه من بعيد يظنه ماء جاريا يقال سرب الماء يسرب سروبا اذا جرى فهو سارب اما الآل فهو ما يتراءى للعين فى اول النهار فيرى الناظر الصغير كبيرا وظاهر كلام الخليل ان الآل والسراب واحد واما القيعة فقال الفراء هو جمع قاع مثل جار وجيرة والقاع المنبسط المستوى من الارض وقال صاحب الكشاف القيعة بمعنى القاع وقال الزجاج الظمآن قد يخفف همزه وهو الشديد العطش ثم وجه التشبيه ان الذى يأتى به الكافر ان كان من افعال البر فهو لا يستحق عليه ثوابا مع انه يعتقد ان له ثوابا عليه وان كان من افعال الاثم فهو يستحق عليه عقابا مع انه يعتقد انه يستحق عليه ثوابا فكيف كان فهو يعتقد ان له ثوابا عند الله تعالى فاذا وافى عرصات القيامة ولم يجد الثواب بل وجد العقاب العظيم عظمت حسرته وتناهى غمه فيشبه حاله حال الظمآن الذى تشتد حاجته الى الماء فاذا شاهد السراب تعلق قلبه به ويرجو به النجاة ويقوى طمعه فاذا جاءه وأيس مما كان يرجوه فيعظم ذلك عليه وهذا المثال فى غاية الحسن قال مجاهد السراب عمل الكافر واتيانه اياه موته ومفارقة الدنيا فان قيل قوله حتى اذا جاءه يدل على كونه شيئا وقوله لم يجده شيئا مناقض له قلنا الجواب عنه من وجوه ثلاثة (الاول) المراد معناه انه لم يجده شيئا نافعا كما يقال فلان ما عمل شيئا وان كان قد اجتهد (الثانى) حتى اذا جاءه اى جاء موضع السراب لم يجد السراب شيئا فاكتفى بذكر السراب عن ذكر موضعه (الثالث) الكناية للسراب لان السراب يرى من بعيد بسبب الكثافة كأنه ضباب وهباء واذا قرب منه رق وانتثر وصار كالهواء اما قوله ووجد الله عنده فوفاه حسابه اى وجد عقاب الله الذى توعد به الكافر عند ذلك فتغير ما كان فيه من ظن النفع العظيم الى تيقن الضرر العظيم او وجد زبانية الله عنده يأخذونه فيقبلون به الى جهنم فيسقونه الحميم والغساق

بكمالها هذا ومن جعل الخطاب للنبى عليه الصلاة والسلام وللامة عموما على ان من تبعيضية اوله عليه السلام ولمن معه من المؤمنين خصوصا على انها بيانية فقد نأى عما يقتضيه سباق النظم الكريم وسياقه بمنازل وابعد عما يليق بشانه عليه السلام بمراحل (ليستخلفنهم فى الارض) جواب القسم اما بالاضمار او بتنزيل وعده تعالى منزلة القسم لتحقق انجازه لامحالة اى ليجعلنهم خلفاء متصرفين فيها تصرف الملوك فى مما لكهم او خلفا من الذين لم يكونوا على حالهم من الايمان والاعمال الصالحة (كما استخلف الذين من قبلهم) هم بنو اسرائيل استخلفهم الله عز وجل فى مصر والشام بعد اهلاك فرعون والجبابرة اوهم ومن قبلهم من الامم المؤمنة التى اشير اليهم فى قوله تعالى الم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لايعلمهم الا الله جاءتهم رسلهم بالبينات الى قوله تعالى فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الارض من بعدهم ومحل الكاف النصب على انه مصدر تشبيهى مؤكد للفعل بعد تأكيده بالقسم وما مصدرية اى ليستخلفنهم استخلافا كائنا كاستخلافه تعالى الذين من قبلهم وقرئ كما استخلف على البناء

وهم الذين قال الله تعالى فيهم عاملة ناصبة ويحسبون انهم يحسنون صنعا وقدمنا الى ما عملوا من عمل وقيل نزلت فى عتبة بن ربيعة بن امية كان قد تعبد ولبس المسوح والتمس الدين فى الجاهلية ثم كفر فى الاسلام اما قوله والله سريع الحساب فذلك لانه سبحانه عالم بجميع المعلومات فلا يشق عليه الحساب وقال بعض المتكلمين معناه لا يشغله محاسبة واحد عن آخر كنحن ولو كان يتكلم بآلة كما يقوله المشبهة لما صح ذلك (واما المثل الثانى) فهو قوله او كظلمات فى بحر لجى وفى لفظة او ههنا وجوه (احدها) اعلم ان الله تعالى بين ان اعمال الكفار ان كانت حسنة فمثلها السراب وان كانت قبيحة فهى الظلمات (وثانيها) تقدير الكلام ان اعمالهم اما كسراب بقيعة وذلك فى الآخرة واما كظلمات فى بحر وذلك فى الدنيا (وثالثها) الآية الاولى فى ذكر اعمالهم وانهم لا يحصلون منها على شئ والآية الثانية فى ذكر عقائدهم فانها تشبه الظلمات كما قال يخرجهم من الظلمات الى النور اى من الكفر الى الايمان يدل عليه قوله تعالى ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور واما البحر اللجى فهو ذو اللجة التى هى معظم الماء الغمر البعيد القعر وفى اللجى لغتان كسر اللام وضمها واما تقرير المثل فهو ان البحر اللجى يكون قعره مظلما جدا بسبب غمورة الماء فاذا ترادفت عليه الامواج ازدادت الظلمة فاذا كان فوق الامواج سحاب بلغت الظلمة النهاية القصوى فالواقع فى قعر هذا البحر اللجى يكون فى نهاية شدة الظلمة ولما كانت العادة فى اليد انها من اقرب ما يراها ومن ابعد ما يظن انه لا يراها فقال تعالى لم يكد يراها وبين سبحانه بهذا بلوغ تلك الظلمة الى اقصى النهايات ثم شبه به الكافر فى اعتقاده وهو ضد المؤمن فى قوله تعالى نور على نور وفى قوله يسعى نورهم بين ايديهم وبايمانهم ولهذا قال ابى بن كعب الكافر يتقلب فى خمس من الظلم كلامه وعمله ومدخله ومخرجه ومصيره الى النار وفى كيفية هذا التشبيه وجوه اخر (احدها) ان الله تعالى ذكر ثلاثة انواع من الظلمات ظلمة البحر وظلمة الامواج وظلمة السحاب وكذا الكافر له ظلمات ثلاث ظلمة الاعتقاد وظلمة القول وظلمة العمل عن الحسن (وثانيها) شبهوا قلبه وبصره وسمعه بهذه الظلمات الثلاث عن ابن عباس (وثالثها) ان الكافر لا يدرى ولا يدرى انه لا يدرى ويعتقد انه يدرى فهذه المراتب الثلاث تشبه تلك الظلمات (ورابعها) ان هذه الظلمات متراكمة فكذا الكافر لشدة اصراره على كفره قد تراكمت عليه الضلالات حتى ان اظهر الدلائل اذا ذكرت عنده لا يفهمها (وخامسها) قلب مظلم فى صدر مظلم فى جسد مظلم اما قوله ظلمات بعضها فوق بعض فروى عن ابن كثير انه قرأ سحاب وقرأ ظلمات بالجر على البدل من قوله او كظلمات وعنه ايضا انه قرأ سحاب ظلمات كما يقال سحاب رحمة وسحاب عذاب على الاضافة وقراءة الباقين سحاب ظلمات كلاهما بالرفع والتنوين وتمام الكلام عند قوله سحاب ثم ابتدأ ظلمات اى ما تقدم ذكره ظلمات بعضها فوق بعض اما قوله لم يكد يراها ففيه قولان (احدهما) ان كاد نفيه اثبات واثباته نفى فقوله وما كادوا يفعلون نفى فى

لمفعول فليس العامل فى الكاف حينئذ الفعل المذكور بل ما يدل هو عليه من فعل مبنى هو للمفعول جار منه مجرى المطاوع فان استخلافه تعالى اياهم مستلزم لكونهم مستخلفين لا محالة كانه قيل ليستخلفنهم فى الارض فيستخلفن فيها استخلافا اى مستخلفية كائنة كمستخلفية من قبلهم وقد مر تحقيقه فى قوله تعالى كما سئل موسى من قبل ومن هذا القبيل قوله تعالى وانبتها نباتا حسنا على احد الوجهين اى فنبتت نباتا حسنا وعليه قول من قال

«وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع»
«من المال الا مسحت او مجلف»

اى فلم يبق الا مسحت الخ (وليمكنن لهم دينهم) عطف على ليستخلفنهم منتظم معه فى سلك الجواب وتأخيره عنه مع كونه اجل الرغائب الموعودة واعظمها لما ان النفوس الى الحظوظ العاجلة اميل فتصديرا لمواعيد بها فى الاستمالة ادخل والمعنى ليجعلن دينهم ثابتا مقررا بحيث يستمرون على العمل باحكامه ويرجعون اليه فى كل ما يأتون وما يذرون والتعبير عن ذلك بالتمكين الذى هو جعل الشئ مكانا لآخر يقال مكن له فى الارض اى جعلها مقراله ومنه قوله تعالى انا مكنا له فى الارض ونظائره وكلمة فى للايذان بان

(الفقة)

اللفظ ولكنه اثبات فى المعنى لانهم فعلوا ذلك وقوله عليه الصلاة والسلام كاد الفقر ان يكون كفرا اثبات فى اللفظ لكنه نفى فى المعنى لانه لم يكفر فكذا ههنا قوله لم يكد يراها معناه انه رآها (والثانى) ان كاد معناه المقاربة فقوله لم يكد يراها معناه لم يقارب الوقوع ومعلوم ان الذى لم يقارب الوقوع لم يقع ايضا وهذا القول هو المختار والاول ضعيف لوجهين (الاول) ان ما يكون اقل من هذه الظلمات فانه لا يرى فيه شئ فكيف مع هذه الظلمات (الثانى) ان المقصود من هذا التمثيل المبالغة فى جهالة الكفار وذلك انما يحصل اذا لم توجد الرؤية البتة مع هذه الظلمات اما قوله ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور فقال اصحابنا انه سبحانه لما وصف هداية المؤمن بانها فى نهاية الجلاء والظهور عقبها بان قال يهدى الله لنوره من يشاء ولما وصف ضلالة الكافر بانها فى نهاية الظلمة عقبها بقوله ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور والمقصود من ذلك ان يعرف الانسان ان ظهور الدلائل لا يفيد الايمان وظلمة الطريق لا تمنع منه فان الكل مربوط بخلق الله تعالى وهدايته وتكوينه وقال القاضى المراد بقوله ومن لم يجعل الله له نورا اى فى الدنيا بالالطاف فما له من نور اى لا يهتدى فيتحير ويحتمل ومن لم يجعل الله له نورا اى مخلصا فى الآخرة وفوزا بالثواب فما له من نور والكلام عليه تزييفا وتقريرا معلوم ۞ قوله تعالى (الم تر ان الله يسبح له من فى السموات والارض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون ولله ملك السموات والارض والى الله المصير) اعلم انه سبحانه لما وصف انوار قلوب المؤمنين وظلمات قلوب الجاهلين اتبع ذلك بدلائل التوحيد (فالنوع الاول) ما ذكره فى هذه الآية ولا شبهة فى ان المراد الم تعلم لان التسبيح لا تتناوله الرؤية بالبصر ويتناوله العلم بالقلب وهذا الكلام وان كان ظاهره استفهاما فالمراد التقرير والبيان فنبه تعالى على ما يلزم من تعظيمه بان من فى السموات يسبح له وكذلك من فى الارض واعلم انه اما ان يكون المراد من التسبيح دلالة هذه الاشياء على كونه تعالى منزها عن النقائص موصوفا بنعوت الجلال واما ان يكون المراد منه انها تنطق بالتسبيح وتتكلم به واما ان يكون المراد منه فى حق البعض الدلالة على التنزيه وفى حق الباقين النطق باللسان والقسم الاول اقرب لان القسم الثانى متعذر لان فى الارض من لا يكون مكلفا لا يسبح بهذا المعنى والمكلفون منهم من لا يسبح ايضا بهذا المعنى كالكفار اما القسم الثالث وهو ان يقال من فى السموات وهم الملائكة يسبحون باللسان واما الذين فى الارض فمنهم من يسبح باللسان ومنهم من يسبح على سبيل الدلالة فهذا يقتضى استعمال اللفظ الواحد فى الحقيقة والمجاز معا وهو غير جائز فلم يبق الا القسم الاول وذلك لان هذه الاشياء مشتركة فى ان اجسامها وصفاتها دالة على تنزيه الله سبحانه وتعالى وعلى قدرته والهيته وتوحيده وعدله فسمى ذلك تسبيحا على وجه التوسع فان قيل فالتسبيح بهذا المعنى حاصل لجميع المخلوقات فما وجه تخصيصه ههنا بالعقلاء قلنا لان خلقة العقلاء اشد دلالة على وجود

ما جعل مقر اله قطعة منها الا كلها للدلالة على كمال ثبات الدين ورصانة احكامه وسلامته من التغيير والتبديل لابتنائه على تشبيهه بالارض فى الثبات والقرار مع ما فيه من مراعاة المناسبة بينه وبين الاستخلاف فى الارض وتقديم صلة التمكين على مفعوله الصريح للمسارعة الى بيان كون الموعود من منافعهم تشويقا لهم اليه وترغيبا لهم فى قبوله عند وروده ولان فى توسيطها بينه وبين وصفه اعنى قوله تعالى (الذى ارتضى لهم) وفى تأخيرها عنه من الاخلال بجزالة النظم الكريم ما لا يخفى وفى اضافة الدين اليهم وهو دين الاسلام ثم وصفه بارتضائه لهم تأليف لقلوبهم ومزيد ترغيب فيه وفضل تثبيت عليه (وليبدلنهم) بالتشديد وقرئ بالتخفيف من الابدال (من بعد خوفهم) اى من الاعداء (امنا) حيث كان اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة عشر سنين بل اكثر خائفين ثم هاجروا الى المدينة وكانوا يصبحون فى السلاح ويمسون كذلك حتى قال رجل منهم ما يأتى علينا يوم نأمن فيه فقال عليه الصلاة والسلام لا تغبرون الا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبيا ليس معه حديدة فانزل الله عز وجل

الصانع سبحانه لان العجائب والغرائب فى خلقهم اكثر وهى العقل والنطق والفهم اماقوله تعالى والطير صافات فلقائل ان يقول ماوجه اتصال هذا بماقبله (والجواب) انه سبحانه لما ذكر ان اهل السموات واهل الارض يسبحون ذكر ان الذين استقروا فى الهواء الذى هو بين السماء والارض وهو الطير يسبحون وذلك لان اعطاء الجرم الثقيل القوة التى بها يقوى على الوقوف فى جو السماء صافة باسطة اجنحتها بمافيها من القبض والبسط من اعظم الدلائل على قدرة الصانع المدبر سبحانه وجعل طيرانها سجودا منها له سبحانه وذلك يؤكد ماذكرناه من ان المراد من التسبيح دلالة هذه الاحوال على التنزيه لا النطق اللسانى اما قوله كل قد علم صلاته وتسبيحه ففيه ثلاثة اوجه (الاول) المراد كل قد علم الله صلاته وتسبيحه قالوا يدل عليه قوله سبحانه والله عليم بما يفعلون وهو اختيار جمهور المتكلمين (والثانى) ان يعود الضمير فى الصلاة والتسبيح على لفظ كل اى انهم يعلمون مايجب عليهم من الصلاة والتسبيح (والثالث) ان تكون الهاء راجعة على ذكر الله يعنى قد علم كل مسبح وكل مصل صلاة الله التى كلفه اياها وعلى هذين التقديرين فقوله والله عليم استئناف وروى عن ابى ثابت قال كنت جالسا عند محمد بن جعفر الباقر رضى الله عنه فقال لى أتدرى ماتقول هذه العصافير عند طلوع الشمس وبعد طلوعها قال لا قال فانهن يقدسن ربهن ويسألنه قوت يومهن واستبعد المتكلمون ذلك فقالوا الطير لو كانت عارفة بالله تعالى لكانت كالعقلاء الذين يفهمون كلامنا واشارتنا لكنها ليست كذلك فانا نعلم بالضرورة انها اشد نقصانا من الصبى الذى لايعرف هذه الامور فبأن يمتنع ذلك فيها اولى واذا ثبت انها لاتعرف الله تعالى استحال كونها مسبحة له بالنطق فثبت انها لاتسبح الله الا بلسان الحال على ماتقدم تقريره قال بعض العلماء انا نشاهد ان الله تعالى ألهم الطيور وسائر الحشرات اعمالا لطيفة يعجز عنها اكثر العقلاء واذا كان كذلك فلم لايجوز ان يلهمها معرفته ودعاءه وتسبيحه وبيان انه الهمها الاعمال اللطيفة من وجوه (احدها) احتيالها فى كيفية الاصطياد فتأمل فى العنكبوت كيف يأتى بالحيل اللطيفة فى اصطياد الذباب ويقال ان الدب يستلقى فى ممر الثور فاذا رام نطحه شبث ذراعيه بقرنيه ولايزال ينهش مابين ذراعيه حتى يثخنه وانه يرمى بالحجارة ويأخذ العصا ويضرب الانسان حتى يتوهم انه مات فيتركه وربما عاود يتشممه ويتجسس نفسه ويصعد الشجر اخف صعود ويهشم الجوز بين كفيه تعريضا بالواحدة وصدمة بالاخرى ثم ينفخ فيه فيذر قشره ويستف لبه ويحكى عن الفار فى سرقته امور عجيبة (وثانيها) امر النحل ومالها من الرياسة وبناء البيوت المسدسة التى لايتمكن من بنائها افاضل المهندسين (وثالثها) انتقال الكراكى من طرف من اطراف العالم الى الطرف الآخر طلبا لما يوافقها من الاهوية ويقال ان من خواص الخيل ان كل واحد منها يعرف صوت الفرس الذى قابله وقتاما والكلاب تتصايح بالعبة المعروفة لها والفهد اذا سقى اوشرب من

هذه الاية وانجز وعده واظهرهم على جزيرة العرب وفتح لهم بلاد الشرق والغرب وصاروا الى حال يخافهم كل من عاداهم وفيه من الدلالة على صحة النبوة للاخبار بالغيب على ماهو عليه قبل وقوعه مالايخفى وقيل المراد الخوف من العذاب والامن منه فى الآخرة (يعبدوننى) حال من الموصول الاول مفيدة لتقييد الوعد بالثبات على التوحيد او استئناف ببيان المقتضى للاستخلاف وما انتظم معه فى سلك الوعد (لايشركون بى شيئا) حال من الواو اى يعبدوننى غير مشركين بى فى العبادة شيئا (ومن كفر) اى اتصف بالكفر بأن ثبت واستمر عليه ولم يتأثر بما مر من الترهيب والترغيب فان الاصرار عليه بعد مشاهدة دلائل التوحيد كفر مستأنف زائد على الاصل وقيل كفر بعد الايمان وقيل كفر هذه النعمة العظيمة والاول هو الانسب بالمقام (بعد ذلك) اى بعد ذلك الوعد الكريم بما فصل من المطالب العالية المستوجبة لغاية الاهتمام بتحصيلها والسعى الجميل فى حيازتها (فأولئك) البعداء عن الحق التائهون فى تيه الغواية والضلال (هم الفاسقون) الكاملون

الدواء المعروف بخانق الفهد عمد الى زبل الانسان فأكله والتماسيح تفتح افواهها الطائر يقع عليها كالعقق وينظف مابين اسنانها وعلى رأس ذلك الطير كالشوك فاذا هم التمساح بالتقام ذلك الطير تأذى من ذلك الشوك فيفتح فاه فيخرج الطائر والسلحفاة تتناول بعد أكل الحية صعترا جبليا ثم تعود وقد عوفيت من ذلك وحكى بعض الثقات المجربين للصيد انه شاهد الحبارى تقاتل الافعى وتنهزم عنه الى بقلة تتناول منها ثم تعود ولا تزال ذلك دأبه فكان ذلك الشيخ قاعدا فى كن غائر فعل القنصة وكانت البقلة قريبة من مكمنه فلما اشتغل الحبارى بالافعى قلع البقلة فعادت الحبارى الى منبتها ففقدته واخذت تدور حول منبتها دورانا متتابعا حتى خرميتا فعلم الشيخ انه كان يتعالج بأ كلها من اللسعة وتلك البقلة كانت هى الجرجير البرى واما ابن عرس فيستظهر فى قتال الحية بأكل السذاب فان النكهة السذابية مما تنفر منها الافعى والكلاب اذا دودت بطونها أكلت سنبل القمح واذا جرحت اللقالق بعضها بعضا داوت جراحها بالصعتر الجبلى (ورابعها) القنافذ قد تحس بالشمال والجنوب قبل الهبوب فتغير المدخل الى جحرها وكان بالقسطنطينية رجل قد اثرى بسبب انه كان ينذر بالرياح قبل هبوبها وينتفع الناس بانذاره وكان السبب فيه قنفذا فى داره يفعل الصنيع المذكور فيستدل به والخطاف صانع جيد فى اتخاذ العش من الطين وقطع الخشب فان اعوزه الطين ابتل وتمرغ فى التراب ليحمل جناحاه قدرا من الطين واذا أفرخ بالغ فى تعهد الفراخ ويأخذ ذرقها بمنقاره ويرميها عن العش ثم يعلمها القاء الذرق نحو طرف العش واذا دنا الصائد من مكان فراخ القبجة ظهرت له القبجة وقربت منه مطمعة له ليتبعها ثم تذهب الى جانب آخر سوى جانب فراخها وناقر الخشب قلما يقع على الارض بل على الشجر ينقر الموضع الذى يعلم ان فيه دودا والغرانيق تصعد فى الجو جدا عند الطيران فان حجب بعضها عن بعض ضباب او سحاب احدثت عن اجنحتها حفيفا مسموعا يلزم به بعضها بعضا فاذا نامت على جبل فانها تضع رؤسها تحت اجنحتها الا القائد فانه ينام مكشوف الرأس فيسرع انتباهه واذا سمع حرسا صاح وحال النمل فى الذهاب الى مواضعها على خط مستقيم يحفظ بعضها بعضا امر عجيب واعلم ان الاستقصاء فى هذا الباب مذكور فى كتاب طبائع الحيوان والمقصود ان الاكياس من العقلاء يعجزون عن امثال هذه الحيل فاذا جاز ذلك فلم لا يجوز ان يقال انها ملهمة من عند الله تعالى بمعرفته والثناء عليه وان كانت غير عارفة بسائر الامور التى يعرفها الناس ولله در شهاب الاسلام السمعانى حيث قال جل جناب الجلال * عن ان يوزن بميزان الاعتزال * اما قوله سبحانه ولله ملك السموات والارض والى الله المصير فهو مع وجازته فيه دلالة على تمام علم المبدأ والمعاد فقوله ولله ملك السموات والارض تنبيه على ان الكل منه لان كل ماسواه ممكن ومحدث والممكن والمحدث لا يوجدان الا عند الانتهاء الى القديم الواجب فدخل فى هذه

فى الفسق والخروج عن حدود الكفر والطغيان (واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام ويستدعيه النظام فان خطابه تعالى للمؤمنين بالطاعة على طريق الترهيب من التولى بقوله تعالى فان تولوا الخ وترغيبه تعالى اياهم فى الطاعة بقوله تعالى وان تطيعوه تهتدوا الخ ووعده تعالى اياهم على الايمان والعمل الصالح بما فصل من الاستخلاف ومايتلوه من الرغائب الموعودة ووعيده على الكفر مما يوجب الامر بالايمان والعمل الصالح والنهى عن الكفر فكأنه قيل فآمنوا واعملوا صالحا واقيموا اوفلا تكفروا واقيموا وعطفه على اطيعوا الله مما لا يليق بجزالة النظم الكريم (واطيعوا الرسول) امرهم الله سبحانه وتعالى بالذات بما امرهم به بواسطة الرسول عليه الصلاة والسلام من طاعته التى هى طاعته تعالى فى الحقيقة تأكيدا للامر السابق وتقريرا لمضمونه على ان المراد بالمطاع فيه جميع الاحكام الشرعية المنتظمة للآداب المرضية ايضا اى واطيعوه فى كل ما يأمركم به وينهاكم عنه او تكميلا لما قبله من الامرين الخاصين المتعلقين بالصلاة والزكاة على ان المراد بما ذكر ماعداهما من الشرائع

القضية جميع الاجرام والاعراض وافعال العباد واقوالهم وخواطرهم واما قوله والى الله المصير فهو عبارة تامة فى معرفة المعاد وهو انه لابد من مصير الكل اليه سبحانه وله وجه آخر وهو أن الوجود يبدأ من الاشرف فالاشرف نازلا الى الاخس فالاخس ثم يأخذ من الاخس فالاخس مترقيا الى الاشرف فالاشرف فانه يكون جسما ثم يصير موصوفا بالنباتية ثم الحيوانية ثم الانسانية ثم الملكية ثم ينتهى الى واجب الوجود لذاته فالاعتبار الاول هو قوله ولله ملك السموات والارض والثانى هو قوله والى الله المصير * قوله تعالى (ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار يقلب الله الليل والنهار ان فى ذلك لعبرة لاولى الابصار) اعلم ان هذا هو النوع الثانى من الدلائل وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قوله ألم تر بعين عقلك والمراد التنبيه والازجاء السوق قليلا قليلا ومنه البضاعة المزجاة التى يزجيها كل احد وازجاء السير فى الابل الرفق بها حتى تسير شيئا فشيئا ثم يؤلف بينه قال الفراء بين لا يصلح الا مضافا الى اسمين فما زاد وانما قال بينه لان السحاب واحد فى اللفظ ومعناه الجمع والواحد سحابة قال الله تعالى وينشئ السحاب الثقال والتأليف ضم شئ الى شئ اى يجمع بين قطع السحاب فيجعلها سحابا واحدا ثم يجعله ركاما اى مجتمعا والركم جعل شيئا فوق شئ حتى يجعله مركوما والودق المطر قاله ابن عباس وعن مجاهد القطر وعن ابى مسلم الاصفهانى الماء من خلاله من شقوقه ومخارقه جمع خلل كجبال فى جمع جبل وقرئ من خلله (المسئلة الثانية) اعلم ان قوله يزجى سحابا يحتمل انه سبحانه ينشئه شيئا بعد شئ ويحتمل ان يغيره من سائر الاجسام لا فى حالة واحدة فعلى الوجه الاول يكون نفس السحاب محدثة ثم انه سبحانه يؤلف بين اجزائه وعلى الثانى يكون المحدث من قبل الله تعالى تلك الصفات التى باعتبارها صارت تلك الاجسام سحابا وفى قوله ثم يؤلف بينه دلالة على وجودها متقدما متفرقا اذ التأليف لا يصح الا بين موجودين ثم انه سبحانه يجعله ركاما وذلك بتركب بعضها على البعض وهذا مما لا بد منه لان السحاب انما يحمل الكثير من الماء اذا كان بهذه الصفة وكل ذلك من عجائب خلقه ودلالة ملكه واقتداره قال اهل الطبائع ان تكون السحاب والمطر والثلج والبرد والطل والصقيع فى اكثر الامر يكون من تكاثف البخار وفى الاقل من تكاثف الهواء (اما الاول) فالبخار الصاعد ان كان قليلا وكان فى الهواء من الحرارة ما يحلل ذلك البخار فحينئذ يحلل وينقلب هواء واما ان كان البخار كثيرا ولم يكن فى الهواء من الحرارة ما يحلل ذلك البخار فتلك الابخرة المتصاعدة اما ان تبلغ فى صعودها الى الطبقة الباردة من الهواء او لا تبلغ فان بلغت فاما ان يكون البرد هناك قويا او لا يكون فان لم يكن البرد هناك قويا تكاثف ذلك البخار بذلك القدر من البرد واجتمع وتقاطر فالبخار المجتمع هو السحاب والمتقاطر هو المطر والديمة والوابل انما يكون من

اى واطيعوه فى سائر ما يأمركم به الخ وقوله تعالى (لعلكم ترحمون) متعلق على الاول بالامر الاخير المشتمل على جميع الأوامر وعلى الثانى بالاوامر الثلاثة اى افعلوا ما ذكر من الاقامة والايتاء والاطاعة راجين ان ترحموا (لا تحسبن الذين كفروا) لما بين حال من اطاعه عليه الصلاة والسلام واشير الى فوزه بالرحمة المطلقة المستتبعة لسعادة الدارين عقب ذلك ببيان حال من عصاه عليه الصلاة والسلام ومآل امره فى الدنيا والآخرة بعد بيان تناهيه فى الفسق تكميلا لامر الترغيب والترهيب والخطاب اما لكل احد ممن يصلح له كائنا من كان واما للرسول عليه الصلاة والسلام على منهاج قوله تعالى فلا تكونن من المشركين ونظائره للايذان بأن الحسبان المذكور من القبح والمحذورية بحيث ينهى عنه من يمتنع صدوره عنه فكيف بمن يمكن ذلك منه ومحل الموصول النصب على انه مفعول اول للحسبان وقوله تعالى (معجزين) ثانيهما وقوله تعالى (فى الارض) ظرف لمعجزين لكن لا لافادة كون الاعجاز المنفى فيها لا فى غيرها فان ذلك مما لا يحتاج الى البيان بل لافادة شمول عدم الاعجاز لجميع اجزائها اى لا تحسبنهم معجزين الله عز وجل عن

امثال هذه الغيوم واما ان كان البرد شديدا فلا يخلو اما ان يصل البرد الى الاجزاء البخارية قبل اجتماعها وانحلالها حبات كبارا او بعد صيرورتها كذلك فان كان على الوجه الاول نزل ثلجا وان كان على الوجه الثانى نزل بردا واما اذا لم تبلغ الابخرة الى الطبقة الباردة فهى اما ان تكون كثيرة او تكون قليلة فان كانت كثيرة فهى قد تنعقد سحابا ماطرا وقد لا تنعقد اما الاول فذاك لأحد اسباب خمسة (احدها) اذا منع هبوب الرياح عن تصاعد تلك الابخرة (وثانيها) ان تكون الرياح ضاغطة اياها الى الاجتماع بسبب وقوف جبال قدام الريح (وثالثها) ان تكون هناك رياح متقابلة متصادمة فتمنع صعود الابخرة حينئذ (ورابعها) ان يعرض للجزء المتقدم وقوف لثقله وبطء حركته ثم يلتصق به سائر الاجزاء الكثيرة المدد (وخامسها) لشدة برد الهواء القريب من الارض وقد نشاهد البخار يصعد فى بعض الجبال صعودا يسيرا حتى كأنه مكبة موضوعة على وهدة ويكون الناظر اليها فوق تلك الغمامة والذين يكونون تحت الغمامة يمطرون والذين يكونون فوقها يكونون فى الشمس واما اذا كانت الابخرة القليلة الارتفاع قليلة لطيفة فاذا ضربها برد الليل كثفها وعقدها ماء محسوسا فنزل نزولا متفرقا لا يحس به الا عند اجتماع شئ يعتد به فان لم يجمد كان طلا وان جمد كان صقيعا ونسبة الصقيع الى الطل نسبة الثلج الى المطر واما تكون السحاب من انقباض الهواء فذلك عندما يبرد الهواء وينقبض وحينئذ يحصل منه الاقسام المذكورة (والجواب) انا لما دللنا على حدوث الاجسام وتوصلنا بذلك الى كونه قادرا مختارا يمكنه ايجاد الاجسام لم يمكننا القطع بما ذكرتموه لاحتمال انه سبحانه خلق اجزاء السحاب دفعة لا بالطريق الذى ذكرتموه وايضا فهب ان الامر كما ذكرتم ولكن الاجسام بالاتفاق ممكنة فى ذواتها فلا بد لها من مؤثر ثم انها متماثلة فاختصاص كل واحد منها بصفته المعينة من الصعود والهبوط واللطافة والكثافة والحرارة والبرودة لا بد له من مخصص فاذا كان هو سبحانه خالقا لتلك الطبائع وتلك الطبائع مؤثرة فى هذه الاحوال وخالق السبب خالق المسبب فكان سبحانه هو الذى يزجى سحابا لانه هو الذى خلق تلك الطبائع المحركة لتلك الابخرة من باطن الارض الى جو الهواء ثم ان تلك الابخرة اذا ترادفت فى صعودها والتصق بعضها بالبعض فهو سبحانه هو الذى جعلها ركاما فثبت على جميع التقديرات ان وجه الاستدلال بهذه الاشياء على القدرة والحكمة ظاهر بين اما قوله سبحانه ويزل من السماء من جبال فيها من برد ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فى هذه الآية قولان (احدهما) ان فى السماء جبالا من برد خلقها الله تعالى كذلك ثم ينزل منها ما شاء وهذا القول عليه اكثر المفسرين قال مجاهد والكلبي جبال من برد فى السماء (والقول الثانى) ان السماء هو الغيم المرتفع على رؤس الناس سمى بذلك لسموه وارتفاعه وانه تعالى انزل من هذا الغيم الذى هو سماء البرد وأراد بقوله من جبال السحاب العظام لانها اذ عظمت اشبهت الجبال كما يقال فلان يملك

ادراككم واهلاككم فى قطر من اقطار الارض بما رحبت وان هربوا منها كل مهرب وقرئ لا يحسبن بياء الغيبة على ان الفاعل كل احد والمعنى كما ذكر اى لا يحسبن احد الكافرين معجزين له سبحانه فى الارض او هو الموصول والمفعول الاول محذوف لكونه عبارة عن انفسهم كأنه قيل ألا يحسبن الكافرون انفسهم معجزين فى الارض واما جعل معجزين مفعولا اول وفى الارض مفعولا ثانيا فبمعزل من المطابقة لمقتضى المقام ضرورة ان مصب الفائدة هو المفعول الثانى ولا فائدة فى بيان كون المعجزين فى الارض وقد مر فى قوله تعالى انى جاعل فى الارض خليفة وقوله تعالى (ومأواهم النار) معطوف على جملة النهى بتأويلها بجملة خبرية لان المقصود بالنهى عن الحسبان تحقيق نفى الحسبان كأنه قيل ليس الذين كفروا معجزين ومأواهم الخ او على جملة مقدرة وقعت تعليلا للنهى كأنه قيل لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الارض فانهم مدركون ومأواهم الخ وقيل الجملة المقدرة بل هم مقهورون فتدبر (ولبئس المصير) جواب لقسم مقدر والمخصوص بالذم محذوف اى وبالله لبئس المصير هى اى النار والجملة اعتراض تذييلى مقرر

جبالا من مال و وصفت بذلك توسعا وذهبوا الى ان البرد ماء جامد خلقه الله تعالى في السحاب ثم انزله الى الارض وقال بعضهم انما سمى الله ذلك الغيم جبالا لانه سبحانه خلقها من البرد وكل جسم شديد متحجر فهو من الجبال ومنه قوله تعالى واتقوا الذى خلقكم والجبلة الاولين ومنه فلان مجبول على كذا قال المفسرون والاول اولى لان السماء اسم لهذا الجسم المخصوص فجعله اسما للسحاب بطريقة الاشتقاق مجاز وكما يصح ان يجعل الله الماء في السحاب ثم ينزل بردا فقد يصح ان يكون في السماء جبال من برد واذا صح في القدرة كلا الامرين فلا وجه لترك الظاهر (المسئلة الثانية) قال ابو على الفارسى قوله تعالى من السماء من جبال فيها من برد فمن الاولى لابتداء الغاية لان ابتداء الانزال من السماء والثانية للتبعيض لان ما ينزله الله بعض تلك الجبال التى في السماء والثالثة للتبيين لان جنس تلك الجبال جنس البرد ثم قال ومفعول الانزال محذوف والتقدير وينزل من السماء من جبال فيها من برد الا انه حذف لدلالة عليه اما قوله فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء فالظاهر انه راجع الى البرد ومعلوم من حاله انه قد يضر ما يقع عليه من حيوان ونبات فبين سبحانه انه يصيب به من يشاء على وفق المصلحة ويصرفه أى يصرف ضرره عمن يشاء بان لا يسقط عليه ومن الناس من حمل البرد على الحجر وجعل نزوله جاريا مجرى عذاب الاستئصال وذلك بعيد اما قوله تعالى يكاد سنا برقه يذهب بالابصار ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ يكاد سنا برقه على الادغام وقرئ برقه جمع برقة وهى المقدار من البرق وبرقه بضمتين للاتباع كما قيل في جمع فعلة فعلات كظلمات وسناء برقه على المد والمقصور بمعنى الضوء والممدود بمعنى العلو والارتفاع من قولك سنى للمرتفع و يذهب بالابصار على زيادة الباء كقوله ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة عن ابى جعفر المدنى (المسئلة الثانية) وجه الاستدلال بقوله يكاد سنا برقه يذهب بالابصار ان البرق الذى يكون صفته ذلك لابد وان يكون نارا عظيمة خالصة والنار ضد الماء والبرد فظهوره من البرد يقتضى ظهور الضد من الضد وذلك لا يمكن الا بقدرة قادر حكيم (المسئلة الثالثة) اختلف النحويون في انك اذا قلت ذهبت بزيد الى الدار فهل يجب ان تكون ذاهبا معه الى الدار فالمنكرون احتجوا بهذه الآية اما قوله يقلب الله الليل والنهار فقيل فيه وجوه منها تعاقبهما ومجئ احدهما بعد الآخر وهو كقوله وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة ومنها ولوج احدهما في الآخر واخذ احدهما من الآخر ومنها تغير احوالهما في البرد والحر وغيرهما ولا يمتنع في مثل ذلك ان يريد تعالى معانى الكل لانه في الانعام والاعتبار أولى وأقوى أما قوله تعالى ان في ذلك لعبرة لاولى الابصار فالمعنى ان فيما تقدم ذكره دلالة لمن يرجع الى بصيرة فمن هذا الوجه يدل على ان الواجب على المرء ان يتدبر ويتفكر في هذه الامور ويدل ايضا على فساد التقليد ۞ قوله تعالى (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على اربع يخلق الله ما يشاء ان

لما قبله وفى ايراد النار بعنوان كونها مأوى ومصيرالهم اثرنفى فوتهم بالهرب فى الارض كل مهرب من الجزالة ما لا غاية وراءه فلله در شأن التنزيل (يا أيها الذين آمنوا) رجوع الى بيان تتمة الاحكام السابقة بعد تمهيد ما يوجب الامتثال بالاوامر والنواهى الواردة فيها وفى الاحكام اللاحقة من التمثيلات والترغيب والترهيب والوعد والوعيد والخطاب اما للرجال خاصة والنساء داخلات فى الحكم بدلالة النص او للفريقين جميعا بطريق التغليب روى ان غلاما لاسماء بنت ابى مرثد دخل عليها فى وقت كرهته فنزلت وقيل ارسل رسول الله صلى الله عليه وسلم مدلج بن عمرو الانصارى وكان غلاما وقت الظهيرة ليدعو عمر رضى الله عنه فدخل عليه وهو نائم قد انكشف عنه ثوبه فقال عمر رضى الله عنه لوددت ان الله تعالى نهى آباءنا وابناءنا وخدمنا ان لا يدخلوا علينا هذه الساعات الا باذن ثم انطلق معه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجده وقد انزلت عليه هذه الآية (ليستأذنكم الذين ملكت ايمانكم) من العبيد والجوارى (والذين لم يبلغوا الحلم) اى الصبيان القاصرون عن درجة البلوغ المعهود والتعبير عنه بالحلم

الله على كل شيء قدير لقد انزلنا آيات مبينات والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم) اعلم ان هذا هو النوع الثالث من الدلائل على الوحدانية وذلك لانه لما استدل اولا باحوال السماء والارض وثانيا بالآثار العلوية استدل ثالثا باحوال الحيوانات واعلم ان على هذه الآية سؤالات (السؤال الاول) لم قال الله تعالى والله خلق كل دابة من ماء مع ان كثيرا من الحيوانات غير مخلوقة من الماء اما الملائكة فهم اعظم الحيوانات عددا وهم مخلوقون من النور واما الجن فهم مخلوقون من النار وخلق الله آدم من التراب لقوله خلقه من تراب وخلق عيسى من الريح لقوله فنفخنا فيه من روحنا وايضا نرى ان كثيرا من الحيوانات متولد لاعن النطفة (الجواب) من وجوه (احدها) وهو الاحسن ما قاله القفال وهو ان قوله من ماء صلة كل دابة وليس هو من صلة خلق والمعنى ان كل دابة متولدة من الماء فهى مخلوقة لله تعالى (وثانيها) ان اصل جميع المخلوقات الماء على ما يروى اول ما خلق الله تعالى جوهرة فنظر اليها بعين الهيبة فصارت ماء ثم من ذلك الماء خلق النار والهواء والنور ولما كان المقصود من هذه الآية بيان اصل الخلقة وكان الاصل الاول هو الماء لاجرم ذكره على هذا الوجه (وثالثها) ان المراد من الدابة التى تدب على وجه الارض ومسكنهم هناك فيخرج عنه الملائكة والجن ولما كان الغالب جدا من هذه الحيوانات كونهم مخلوقين من الماء اما لانها متولدة من النطفة واما لانها لا تعيش الا بالماء لاجرم اطلق لفظ الكل تنزيلا للغالب منزلة الكل (السؤال الثانى) لم نكر الماء فى قوله من ماء وجاء معرفا فى قوله وجعلنا من الماء كل شيء حي (الجواب) انما جاء ههنا منكرا لان المعنى انه خلق كل دابة من نوع من الماء يختص بتلك الدابة وانما جاء معرفا فى قوله وجعلنا من الماء كل شيء حي لان المقصود هناك كونهم مخلوقين من هذا الجنس وههنا بيان ان ذلك الجنس ينقسم الى انواع كثيرة (السؤال الثالث) قوله فمنهم ضمير العقلاء وكذلك قوله من فلم استعمله فى غير العقلاء (الجواب) انه تعالى ذكر ما لا يعقل مع من يعقل وهم الملائكة والانس والجن فغلب اللفظ اللائق بمن يعقل لان جعل الشريف اصلا والخسيس تبعا اولى من العكس ويقال فى الكلام من المقبلان لرجل وبعير (السؤال الرابع) لم سمى الزحف على البطن مشيا وبين صحة هذا السؤال ان الصبى قد يوصف بانه يحبو ولا يقال انه يمشى وان زحف على حد ما تزحف الحية (الجواب) هذا على سبيل الاستعارة كما قالوا فى الامر المستمر قد مشى هذا الامر ويقال فلان لا يتمشى له امر او على طريق المشاكلة لذلك الزاحف مع الماشين (السؤال الخامس) انه لم يستوف القسمة لانا نجد ما يمشى على اكثر من اربع مثل العناكب والعقارب والرتيلات بل مثل الحيوان الذى له اربعة واربعون رجلا الذى يسمى دخال الاذن (الجواب) القسم الذى ذكرتم كالنادر فكان ملحقا بالعدم ولان الفلاسفة يقرون بان ماله قوائم كثيرة فاعتماده اذا مشى على اربع جهاته لا غير فكأنه يمشى على

لكونه اظهر دلالة (منكم) اى من الاحرار (ثلاث مرات) اى ثلاثة اوقات فى اليوم والليلة والتعبير عنها بالمرات للايذان بان مدار وجوب الاستئذان مقارنة تلك الاوقات لمرور المستأذنين بالمخاطبين لا انفسها (من قبل صلاة الفجر) لظهور انه وقت القيام من المضاجع وطرح ثياب النوم ولبس ثياب اليقظة ومحله النصب على انه بدل من ثلاث مرات او الرفع على انه خبر لمبتدأ محذوف اى احدها من قبل الخ (وحين تضعون ثيابكم) اى ثيابكم التى تلبسونها فى النهار وتخلعونها لاجل القيلولة وقوله تعالى (من الظهيرة) وهى شدة الحر عند انتصاف النهار بيان الحين والتصريح بمدار الامر اعنى وضع الثياب فى هذا الحين دون الاول والآخر لما ان التجرد عن الثياب فيه لاجل القيلولة لقلة زمانها كما ينبئ عنها ايراد الحين مضافا الى فعل حادث منقض ووقوعها فى النهار الذى هو مئنة لكثرة الورود والصدور ومظنة لظهور الاحوال وبروز الامور ليس من التحقق والاطراد بمنزلة ما فى الوقتين المذكورين فان تحقق التجرد واطراده فيهما امر معروف لا يحتاج الى التصريح به (ومن بعد صلاة العشاء) ضرورة انه وقت التجرد

اربع ولان قوله تعالى يخلق الله مايشاء كالتنبيه على سائر الاقسام (السؤال السادس) لم جاءت الاجناس الثلاثة على الترتيب (الجواب) قد قدم ماهو أعجب وهو الماشى بغير آلة مشى من أرجل أو قوائم ثم الماشى على رجلين ثم الماشى على اربع واعلم ان قوله يخلق الله مايشاء تنبيه على ان الحيوانات كما اختلفت بحسب كيفية المشى فكذاهى مختلفة بحسب امور أخر فلنذكر ههنا بعض تلك التقسيمات (التقسيم الاول) الحيوانات قد تشترك فى اعضاء وقد تتباين بأعضاء اما الشركة فمثل اشتراك الانسان والفرس فى ان لهما لحما وعصبا وعظما واما التباين فاما ان يكون فى نفس العضو او فى صفته اما التباين فى نفس العضو فعلى وجهين (احدهما) ان لا يكون العضو حاصلا للآخر وان كانت اجزاؤه حاصلة للثانى كالفرس والانسان فان الفرس له ذنب والانسان ليس له ذنب ولكن اجزاء الذنب ليست الا العظم والعصب واللحم والجلد والشعر وكل ذلك حاصل للانسان (والثانى) ان لا يكون ذلك العضو حاصلا للثانى لا بذاته ولا باجزائه مثل ان للسلحفاة صدفا يحيط به وليس للانسان ذلك وكذا للسمك فلوس وللقنفذ شوك وليس شئ منها للانسان واما التباين فى صفة العضو فاما ان يكون من باب الكمية او الكيفية او الوضع او الفعل او الانفعال (اما الذى فى الكم) فاما ان يتعلق بالمقدار مثل ان عين البوم كبيرة وعين العقاب صغيرة (او بالعدد) مثل ان ارجل ضرب من العناكب ستة وارجل ضرب آخر ثمانية او عشرة (والذى فى الكيف) فكاختلافها فى الالوان والاشكال والصلابة واللين (والذى فى الوضع) فمثل اختلاف وضع ثدى الفيل فانه يكون قريبا من الصدر وثدى الفرس فانه عند السرة (واما الذى فى الفعل) فمثل كون اذن الفيل صالحا للذب مع كونه آلة للسمع وليس كذلك فى الانسان وكون انفه آلة للقبض دون انف غيره (واما الذى فى الانفعال) فمثل كون عين الخفاش سريعة التحير فى الضوء وعين الخطاف بخلاف ذلك (التقسيم الثانى) الحيوان اما ان يكون مائيا بمعنى ان مسكنه الاصلى هو الماء او ارضيا او يكون مائيا ثم يصير ارضيا (اما الحيوانات المائية) فتفاريحه الهامن وجوه (الاول) انه اما ان يكون مكانه وغذاؤه وتنفسه مائيا فله بدل التنفس فى الهواء التنشق المائى فهو يقبل الماء الى باطنه ثم يرده ولا يعيش اذا فارقه والسمك كله كذلك ومنه ما مكانه وغذاؤه مائى ولكنه يتنفس من الهواء مثل السلحفاة المائية ومنه ما مكانه وغذاؤه مائى وليس يتنفس ولا يستنشق مثل اصناف من الصدف لا تظهر للهواء ولا تستدخل الماء الى باطنها (الوجه الثانى) الحيوانات المائية بعضها مأواها مياه الانهار الجارية وبعضها مياه البطائح مثل الضفادع وبعضها مأواها مياه البحر (الوجه الثالث) منها لجية ومنها شطية ومنها طينية ومنها صخرية (الوجه الرابع) الحيوان المتنقل فى الماء منه ما يعتمد فى غوصه على رأسه وفى السباحة على اجنحته كالسمك ومنه ما يعتمد فى السباحة على رجليه كالضفدع

(ومنه)

عن اللباس والانصاف بالحجاب وليس المراد بالقبلية والبعدية المذكورتين مطلقهما المتحقق فى الوقت الممتد المتخلل بين الصلاتين كما فى قوله تعالى وان كنت من قبله لمن الغافلين وقوله تعالى من بعد ان نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى بل ما يعرض منهما لطرفى ذلك الوقت الممتد المتصلين بالصلاتين المذكورتين اتصالا عاديا وقوله تعالى (ثلاث عورات) خبر مبتدأ محذوف وقوله تعالى (لكم) متعلق بمحذوف هو صفة لثلاث عورات اى كائنة لكم والجملة استئناف مسوق لبيان علة وجوب الاستئذان اى هن ثلاثة اوقات يختل فيها التستر عادة والعورة فى الاصل هو الخلل غلب فى الخلل الواقع فيما يهم حفظه ويعتنى بستره اطلقت على الاوقات المشتملة عليها مبالغة كأنها نفس العورة وقرئ ثلاث عورات بالنصب بدلا من ثلاث مرات (ليس عليكم ولا عليهم) اى على المماليك والصبيان (جناح) اى اثم فى الدخول بغير استئذان لعدم ما يوجبه من مخالفة الامر والاطلاع على العورات (بعدهن) اى بعد كل واحدة من تلك العورات الثلاث وهى الاوقات المتخللة بين كل اثنين منهن وايرادها بعنوان البعدية

ومنه مايمشي في قعر الماء كالسرطان ومنه مايزحف مثل ضرب من السمك لاجناح له وكالدود اما الحيوانات البرية فتغير أحوالها ايضا من وجهين (الاول) ان منها مايتنفس من طريق واحد كالفم والخيشوم ومنها مالا يتنفس كذلك بل على نحو آخر من مسامه مثل الزنبور والنحل (الثاني) ان الحيوانات الارضية منها ماله مأوى معلوم ومنها مامأواه كيف اتفق الا ان يلد فيقيم للحضانة واللواتي لها مأوى فبعضها مأواه شق وبعضها حفر وبعضها مأواه قلة رابية وبعضها مأواه وجه الارض (الثالث) الحيوان البرى كل طائر منه ذو جناح فانه يمشي برجليه ومن جملة ذلك مامشيه صعب عليه كالخطاف الكبير الاسود والخفاش واما الذى جناحه جلد او غشاء فقد يكون عديم الرجل كضرب من الحيات الحبشية يطير (الرابع) الطير يختلف فبعضها يتعايش معا كالكراكى وبعضها يؤثر التفرد كالعقاب وجميع الجوارح التى تتنازع على الطعم لاحتياجها الى الاحتيال لتصيد ومنا فستها فيه ومنها مايتعايش زوجا ويكون معا كالقطا ومنه مايجتمع تارة وينفرد اخرى والحيوانات المنفردة قد تكون مدنية وقد تكون برية صرفة وقد تكون بستانية والانسان من بين الحيوان هو الذى لايمكنه ان يعيش وحده فان اسباب حياته ومعيشته تلتئم بالمشاركة المدنية والنحل والنمل وبعض الغرانيق يشارك الانسان فى ذلك لكن النحل والكراكى تطيع رئيسا واحدا والنمل له اجتماع ولا رئيس (الخامس) الطير منه آكل لحم ومنه لاقط حب ومنه آكل عشب وقد يكون لبعض الطير طعم معين كالنحل فان غذاءه زهر والعنكبوت فان غذاءه الذباب وقد يكون بعضه متفق الطعم اما القسم الثالث وهو الحيوان الذى يكون تارة مائيا واخرى بريا فيقال انه حيوان يكون فى البحر ويعيش فيه ثم انه يبرز الى البر ويبيض فيه (التقسيم الثالث) الحيوان منه ماهو انسى بالطبع كالانسان ومنه ماهو انسى بالمولد كالهرة والفرس ومنه ماهو انسى بالقسر كالفهد ومنه مالا يأنس كالنمر والمستأنس بالقسر منه مايسرع استئناسه ويبقى مستأنسا كالفيل ومنه مايبطئ كالاسد ويشبه أن يكون من كل نوع صنف انسى وصنف وحشى حتى من الناس (التقسيم الرابع) من الحيوان ماهو مصوت ومنه مالاصوت له وكل مصوت فانه يصير عند الاغتلام وحركة شهوة الجماع أشد تصويتا الا الانسان وايضا لبعض الحيوان شبق يشتد كل وقت كالديك ومنه عفيف له وقت معين (التقسيم الخامس) بحسب الاخلاق بعض الحيوانات هادى الطبع قليل الغضب مثل البقرة وبعضه شديد الجهل حاد الغضب كالخنزير البرى وبعضها حليم خدوع كالبعير وبعضها ردئ الحركات مغتال كالحية وبعضها جرئ قوى شهم كبير النفس كريم الطبع كالاسد ومنها قوى مغتال وحشى كالذئب وبعضها محتال مكار ردئ الحركات كالثعلب وبعضها غضوب شديد الغضب سفيه الا أنه ملق متودد كالكلب وبعضها شديد الكيس مستأنس كالفيل والقرد وبعضها حسود متباه بجماله كالطاوس

مع ان كل وقت من تلك الاوقات قبل عورة من العورات كما انها بعد اخرى منهن لتوفية حق التكليف والترخيص الذى هو عبارة عن رفعه اذ الرخصة انما تتصور فى فعل يقع بعد زمان وقوع الفعل المكلف والجملة على القراءتين مستأنفة مسوقة لتقرير ماقبلها بالطرد والعكس وقد يجوز على القراءة الاولى كونها فى محل الرفع على انها صفة اخرى لثلاث عورات واما على القراءة الثانية فهى مستأنفة لاغير اذ لو جعلت صفة لثلاث عورات وهى بدل من ثلاث مرات لكان التقدير ليستأذنكم هؤلاء فى ثلاث عورات لا اثم فى ترك الاستئذان بعدهن وحيث كان انتفاء الاثم حينئذ مما لا يعلمه السامع الا بهذا الكلام لم يتسن ابرازه فى معرض الصفة بخلاف قراءة الرفع فان انتفاء الاثم حينئذ معلوم من صدر الكلام وقوله تعالى (طوافون عليكم) استئناف لبيان العذر المرخص فى ترك الاستئذان وهى المخالطة الضرورية وكثرة المداخلة وفيه دليل على تعليل الاحكام وكذا فى الفرق بين الاوقات الثلاثة وبين غيرها بكونها عورات (بعضكم على بعض) اى بعضكم طائف على بعض طوافا كثيرا او بعضكم يطوف على بعض (كذلك) اشارة

وبعضها شديد التحفظ كالجمل والحمار (التقسيم السادس) من الحيوان ماتناسله بان تلد اناثه حيوانا وبعضها ماتناسله بان تلد اناثه دودا كالنحل والعنكبوت فانها تلد دودا ثم ان اعضاءه تستكمل بعد وبعضها تناسله بأن تبيض اناثه بيضا واعلم ان العقول قاصرة عن الاحاطة باحوال اصغر الحيوانات على سبيل الكمال ووجه الاستدلال بها على الصانع ظاهر لانه لوكان الامر بتركيب الطبائع الاربع فذلك بالنسبة الى الكل على السوية فاختصاص كل واحد من هذه الحيوانات باعضائها وقواها ومقادير ابدانها واعمارها واخلاقها لابد وان يكون بتدبير مدبر قاهر حكيم سبحانه وتعالى عما يقول الجاحدون واحسن كلام فى هذا الموضع قوله سبحانه يخلق الله مايشاء ان الله على كل شئ قدير لانه هو القادر على الكل والعالم بالكل فهو المطلع على احوال هذه الحيوانات فأى عقل يقف عليها واى خاطر يصل الى ذرة من اسرارها بل هو الذى يخلق مايشاء كما يشاء ولا يمنعه منه مانع ولا دافع واما قوله لقد انزلنا آيات مبينات فالاولى حمله على كل الادلة والعبر ولما كان القرآن كالمشتمل على كل ذلك صح ان يكون هو المراد اما قوله والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم فاستدلال اصحابنا به كما تقدم (والجواب) اجاب القاضى عنه بأن المراد يهدى من بلغه حد التكليف دون غيره اويكون المراد من اطاعه واستحق الثواب فيهديه الى الجنة على ماتقدم فى نظائره وجوابنا عن هذا الجواب ايضا كما تقدم فى نظائره والله اعلم * قوله تعالى

(ويقولون آمنا بالله وبالرسول واطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما اولئك بالمؤمنين واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين أفى قلوبهم مرض ام ارتابوا ام يخافون ان يحيف الله عليهم ورسوله بل اولئك هم الظالمون) اعلم انه سبحانه لما ذكر دلائل التوحيد اتبعه بذم قوم اعترفوا بالدين بألسنتهم ولكنهم لم يقبلوه بقلوبهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال مقاتل نزلت هذه الآية فى بشر المنافق وكان قد خاصم يهوديا فى ارض وكان اليهودى يجره الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحكم بينهما وجعل المنافق يجره الى كعب بن الاشرف ويقول ان محمدا يحيف علينا وقد مضت قصتهما فى سورة النساء وقال الضحاك نزلت فى المغيرة بن وائل كان بينه وبين على بن ابى طالب ارض فتقاسما فوقع الى على منها مالا يصيبه الماء الا بمشقة فقال المغيرة بعنى ارضك فباعها اياه وتقابضا فقيل للمغيرة اخذت سبخة لا ينالها الماء فقال لعلى اقبض ارضك فانما اشتريتها ان رضيتها ولم ارضها فلا ينالها الماء فقال على بل اشتريتها ورضيتها وقبضتها وعرفت حالها لا اقبلها منك ودعاه ان يخاصمه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال المغيرة أما محمد فلست آتيه ولا احاكم اليه فانه يبغضنى وأنا أخاف أن يحيف على فنزلت هذه الآية وقال الحسن نزلت هذه الآية فى المنافقين الذين كانوا يظهرون الايمان ويسرون الكفر (المسئلة

الى مصدر الفعل الذى بعده وما فيه من معنى البعد لمامر مرارا من تفخيم شأن المشار اليه والايذان ببعد منزلته وكونه من الوضوح بمنزلة المشار اليه حسا اى مثل ذلك التبيين (يبين الله لكم الآيات) الدالة على الاحكام اى ينزلها بينة واضحة الدلالات عليها لا انه تعالى يبينها بعد ان لم تكن كذلك والكاف مقحمة وقد مر تفصيله فى قوله تعالى وكذلك جعلناكم امة وسطا ولكم متعلق بيبين وتقديمه على المفعول الصريح لمامر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر وقيل يبين علل الاحكام وليس بواضح مع انه مؤد الى تخصيص الآيات بما ذكر ههنا (والله عليم) مبالغ فى العلم بجميع المعلومات فيعلم احوالكم (حكيم) فى جميع افعاله فيشرع لكم ما فيه صلاح امركم معاشا ومعادا (واذا بلغ الاطفال منكم الحلم) لما بين فيما مر آنفا حكم الاطفال فى انه لا جناح عليهم فى ترك الاستئذان فيما عدا الاوقات الثلاثة عقب ببيان حالهم بعد البلوغ دفعا لما عسى يتوهم انهم وان كانوا اجانب ليسوا كسائر الاجانب بسبب اعتيادهم الدخول اى اذا بلغ الاطفال الاحرار الاجانب

الثانية) قوله ويقولون آمنا الى قوله وما أولئك بالمؤمنين يدل على ان الايمان لايكون بالقول اذ لوكان به لما صح ان ينفى كونهم مؤمنين وقد فعلوا ماهو ايمان فى الحقيقة فان قيل انه تعالى حكى عن كلهم انهم يقولون آمنا ثم حكى عن فريق منهم التولى فكيف يصح ان يقول فى جميعهم وما أولئك بالمؤمنين مع ان الذى تولى منهم هو البعض قلنا ان قوله وما اولئك بالمؤمنين راجع الى الذين تولوا الا الى الجملة الاولى وايضا فلو رجع الى الاول يصح ويكون معنى قوله ثم يتولى فريق منهم اى يرجع هذا الفريق الى الباقين منهم فيظهر بعضهم لبعض الرجوع عما اظهروه ثم بين سبحانه انهم اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون وهذا ترك للرضا بحكم الرسول ونبه بقوله تعالى وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين على انهم انما يعرضون متى عرفوا الحق لغيرهم او شكوا فاما اذا عرفوه لأنفسهم عدلوا عن الاعراض بل سارعوا الى الحكم واذعنوا ببذل الرضا وفى ذلك دلالة على انه ليس بهم اتباع الحق وانما يريدون النفع المعجل وذلك ايضا نفاق اما قوله تعالى أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون ان يحيف الله عليهم ورسوله ففيه سؤالات (السؤال الاول) كلمة أم للاستفهام وهو غير جائز على الله تعالى (والجواب) اللفظ استفهام ومعناه الخبر كما قال جرير * ألستم خير من ركب المطايا * (السؤال الثانى) انهم لو خافوا ان يحيف الله عليهم فقد ارتابوا فى الدين واذا ارتابوا ففى قلوبهم مرض فالكل واحد فأى فائدة فى التعديد (الجواب) قوله أفى قلوبهم مرض اشارة الى النفاق وقوله ام ارتابوا اشارة الى انه حدث هذا الشك والريب بعد تقرير الاسلام فى القلب وقوله ام يخافون ان يحيف الله عليهم اشارة الى انهم بلغوا فى حب الدنيا الى حيث يتركون الدين بسببه (السؤال الثالث) هب ان هذه الثلاثة متغايرة ولكنها متلازمة فكيف ادخل عليها كلمة أم (الجواب) الاقرب انه تعالى ذمهم على كل واحد من هذه الاوصاف فكان فى قلوبهم مرض وهو النفاق وكان فيها شك وارتياب وكانوا يخافون الحيف من الرسول عليه الصلاة والسلام وكل واحد من ذلك كفر ونفاق ثم بين تعالى بقوله بل اولئك هم الظالمون بطلان ماهم عليه لان الظلم يتناول كل معصية كما قال تعالى ان الشرك لظلم عظيم اذ المرء لايخلو من ان يكون ظالما لنفسه او ظالما لغيره ويمكن ان يقال ايضا لما ذكر تعالى فى الاقسام كونهم خائفين من الحيف ابطل ذلك بقوله بل اولئك هم الظالمون اى لايخافون ان يحيف الرسول عليه الصلاة والسلام عليهم لمعرفتهم بأمانته وصيانته وانما هم ظالمون يريدون ان يظلموا من له الحق عليهم وهم له جحود وذلك شئ لايستطيعونه فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يأبون المحاكمة اليه * قوله تعالى (انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا سمعنا وأطعنا واولئك هم المفلحون ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون واقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لاتقسموا طاعة معروفة

(فليستأذنوا) اذا أرادوا الدخول عليكم وقوله تعالى (كما استأذن الذين من قبلهم) فى حيز النصب على انه نعت لمصدر مؤكد للفعل السابق والموصول عبارة عمن قيل لهم لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا الآية وصفهم بكونهم قبل هؤلاء باعتبار ذكرهم قبل ذكرهم لاباعتبار بلوغهم قبل بلوغهم كما قيل لما ان المقصود بالتشبيه بيان كيفية استئذان هؤلاء وزيادة ايضاحه ولايتسنى ذلك الا بتشبيهه باستئذان المعهودين عند السامع ولاريب فى ان بلوغهم قبل بلوغ هؤلاء مما لايخطر ببال احد وان كان الامر كذلك فى الواقع وانما المعهود المعروف ذكرهم قبل ذكرهم اى فليستأذنوا استئذانا كائنا مثل استئذان المذكورين قبلهم بأن يستأذنوا فى جميع الاوقات ويرجعوا ان قيل لهم ارجعوا حسبما فصل فيما سلف (كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم) الكلام فيه كالذى سبق والتكرير

ان الله خبير بما تعملون قل اطيعوا الله واطيعوا الرسول فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وان تطيعوه تهتدوا وما على الرسول الا البلاغ المبين) اعلم انه تعالى لما حكى قول المنافقين وما قالوه وما فعلوه اتبعه بذكر ما كان يجب ان يفعلوه وما يجب ان يسلكه المؤمنون فقال تعالى انما كان قول المؤمنين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ الحسن قول المؤمنين بالرفع والنصب اقوى لان اولى الاسمين بكونه اسما لكان أوغلهما فى التعريف وان يقولوا أوغل لانه لاسبيل عليه للتنكير بخلاف قول المؤمنين (المسئلة الثانية) قوله انما كان قول المؤمنين معناه كذلك يجب ان يكون قولهم وطريقتهم. اذا دعوا الى حكم كتاب الله ورسوله ان يقولوا سمعنا واطعنا فيكون اتيانهم اليه وانقيادهم له سمعا وطاعة ومعنى سمعنا اجبنا على تأويل قول المسلين سمع الله لمن حمده اى قبل واجاب ثم قال ومن يطع الله ورسوله اى فيما ساءه وسره ويخش الله فيما صدر عنه من الذنوب فى الماضى ويتقه فيما بقى من عمره فأولئك هم المفلحون وهذه الآية على ايجازها حاوية لكل ماينبغى للمؤمنين ان يفعلوه اما قوله واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن امرتهم ليخرجن فقال مقاتل من حلف بالله فقد اجهد فى اليمين ثم قال لما بين الله تعالى كراهية المنافقين لحكم رسول الله فقالوا والله لئن امرتنا ان نخرج من ديارنا واموالنا ونسائنا لخرجنا وان امرتنا بالجهاد جاهدنا ثم انه تعالى امر رسوله ان ينهاهم عن هذا القسم بقوله قل لاتقسموا ولو كان قسمهم كما يجب لم يجز النهى عنه لان من حلف على القيام بالبر والواجب لايجوز ان ينهى عنه واذا ثبت ذلك ثبت ان قسمهم كان لنفاقهم وان باطنهم خلاف ظاهرهم ومن نوى الغدر لا الوفاء فقسمه لايكون الا قبيحا اما قوله طاعة معروفة فهو اما خبر مبتدأ محذوف اى المطلوب منكم طاعة معروفة لا ايمان كاذبة اومبتدأ خبره محذوف اى طاعة معروفة أمثل من قسمكم بما لاتصدقون فيه وقيل معناه دعوا القسم ولاتغتروا به وعليكم طاعة معروفة فتمسكوا بها وقرأ اليزيدى طاعة معروفة بالنصب على معنى اطيعوا طاعة ان الله خبير بما تعملون اى بصير لايخفى عليه شئ من سرائركم وانه فاضحكم لامحالة ومجازيكم على نفاقكم اما قوله قل اطيعوا الله واطيعوا الرسول فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم فاعلم انه تعالى صرف الكلام عن الغيبة الى الخطاب على طريقة الالتفات وهو ابلغ فى تبكيتهم فان تولوا يعنى ان تتولوا عن طاعة الله وطاعة رسوله فانما على الرسول ما حمل من تبليغ الرسالة وعليكم ما حملتم من الطاعة وان تطيعوه تهتدوا اى تصيبوا الحق وان عصيتموه فما على الرسول الا البلاغ المبين والبلاغ بمعنى التبليغ والمبين الواضح والموضح لما بكم اليه الحاجة وعن نافع انه قرأ فانما عليه ما حمل بفتح الحاء والتخفيف اى فعليه اثم ما حمل من المعصية ❁ قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم

للتأكيد والمبالغة فى الامر بالاستئذان واضافة الآيات الى ضمير الجلالة لتشريفها (والقواعد من النساء) اى العجائز اللاتى قعدن عن الحيض والحمل (اللاتى لايرجون نكاحا) اى لايطمعن فيه لكبرهن (فليس عليهن جناح ان يضعن ثيابهن) اى الثياب الظاهرة كالجلباب ونحوه والفاء فيه لان اللام فى القواعد بمعنى اللاتى او للوصف بها (غير متبرجات بزينة) غير مظهرات مما امر باخفائه فى قوله تعالى ولايبدين زينتهن واصل التبرج التكلف فى اظهار مايخفى من قولهم سفينة بارجة لاغطاء عليها والبرج سعة العين بحيث يرى بياضها محيطا بسوادها كله الا انه خص بكشف المرأة زينتها ومحاسنها للرجال (وان يستعففن) بترك الوضع (خير لهن) من الوضع لبعده من التهمة (والله سميع) مبالغ فى سمع جميع مايسمع فيسمع مايجرى بينهن وبين الرجال من المقاولة (عليم) فيعلم مقاصدهن وفيه

(وليبدلنهم)

وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا يعبدوننى لايشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) اعلم ان تقدير النظم بلغ ايها الرسول واطيعوه أيها المؤمنون فقد وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات اى الذين جمعوا بين الايمان والعمل الصالح ان يستخلفهم فى الارض فيجعلهم الخلفاء والغالبين والمالكين كما استخلف عليها من قبلهم فى زمن داود وسليمان عليهما السلام وغيرهما وانما يمكن لهم دينهم وتمكينه ذلك هو ان يؤيدهم بالنصرة والاعزاز ويبدلهم من بعد خوفهم من العدو امنا بأن ينصرهم عليهم فيقتلوهم ويأمنوا بذلك شرهم فيعبدوننى آمنين لايشركون بى شيئا ولايخافون فمن كفر اى من بعد هذا الوعد وارتد فأولئك هم الفاسقون واعلم ان هذه الآية مشتملة على بيان اكثر المسائل الاصولية الدينية فلنشر الى معاقدها (المسئلة الاولى) قوله تعالى وعد الله الذين آمنوا منكم يدل على انه سبحانه متكلم لان الوعد نوع من انواع الكلام والموصوف بالنوع موصوف بالجنس ولانه سبحانه ملك مطاع والملك المطاع لابد وان يكون بحيث يمكنه وعد اوليائه ووعيد اعدائه فثبت انه سبحانه متكلم (المسئلة الثانية) الآية تدل على انه سبحانه يعلم الاشياء قبل وقوعها خلافا لهشام بن الحكم فانه قال لايعلمها قبل وقوعها ووجه الاستدلال به انه سبحانه اخبر عن وقوع شئ فى المستقبل اخبارا على التفصيل وقد وقع المخبر مطابقا للخبر ومثل هذا الخبر لايصح الامع العلم (المسئلة الثالثة) الآية تدل على انه سبحانه حى قادر على جميع الممكنات لانه قال ليستخلفنهم فى الارض وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا وقد فعل كل ذلك وصدور هذه الاشياء لايصح الا من القادر على كل المقدورات (المسئلة الرابعة) الآية تدل على انه سبحانه هو المستحق للعبادة لانه قال يعبدوننى وقالت المعتزلة الآية تدل على ان فعل الله تعالى معلل بالغرض لان المعنى لكى يعبدونى وقالوا ايضا الآية دالة على انه سبحانه يريد العبادة من الكل لان من فعل فعلا لغرض فلابد وان يكون مريدا لذلك الغرض (المسئلة الخامسة) دلت الآية على انه تعالى منزه عن الشريك لقوله لايشركون بى شيئا وذلك يدل على نفى الاله الثانى وعلى انه لايجوز عبادة غير الله تعالى سواء كان كوكبا كما تقوله الصابئة او صنما كما تقوله عبدة الاوثان (المسئلة السادسة) دلت الآية على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لانه اخبر عن الغيب فى قوله ليستخلفنهم فى الارض وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا وقد وجد هذا المخبر موافقا للخبر ومثل هذا الخبر معجز والمعجز دليل الصدق فدل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم (المسئلة السابعة) دلت الآية على ان العمل الصالح خارج عن مسمى الايمان خلافا للمعتزلة لانه عطف العمل الصالح على الايمان والمعطوف خارج عن المعطوف عليه (المسئلة الثامنة) دلت الآية على امامة الائمة الاربعة وذلك لانه تعالى وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الحاضرين فى زمان محمد صلى الله عليه وسلم

من الترهيب مالايخفى (ليس على الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج) كانت هؤلاء الطوائف يتحرجون من مؤاكلة الاصحاء حذارا من استقذارهم اياهم وخوفا من تأذيهم بافعالهم واوضاعهم فان الاعمى ربما سبقت يده الى ماسبقت اليه عين اكيله وهو لايشعر به والاعرج يتفسح فى مجلسه فيأخذ اكثر من موضعه فيضيق على جليسه والمريض لايخلو عن حالة تؤذى قرينه وقيل كانوا يدخلون على الرجل لطلب العلم فاذا لم يكن عنده مايطعمهم ذهب بهم الى بيوت آبائهم وامهاتهم او الى بعض من سماهم الله عز وجل فى الآية الكريمة فكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون ذهب بنا الى بيت غيره ولعل اهله كارهون لذلك وكذا كانوا يتحرجون من الاكل من اموال الذين كانوا اذا خرجوا الى الغزو وخلفوا هؤلاء الضعفاء فى بيوتهم ودفعوا اليهم مفاتيحها واذنوا لهم ان يأكلوا مما فيها مخافة ان لايكون

وهو المراد بقوله ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وان يمكن لهم دينهم المرضى وان يبدلهم بعد الخوف امنا ومعلوم ان المراد بهذا الوعد بعد الرسول هؤلاء لان استخلاف غيره لايكون الابعده ومعلوم انه لانبى بعده لانه خاتم الانبياء فاذن المراد بهذا الاستخلاف طريقة الامامة ومعلوم ان بعد الرسول الاستخلاف الذى هذا وصفه انما كان فى ايام ابى بكر وعمر وعثمان لان فى ايامهم كانت الفتوح العظيمة وحصل التمكين وظهور الدين والامن ولم يحصل ذلك فى ايام على رضى الله عنه لانه لم يتفرغ لجهاد الكفار لاشتغاله بمحاربة من خالفه من اهل الصلاة فثبت بهذا دلالة الآية على صحة خلافة هؤلاء فان قيل الآية متروكة الظاهر لانها تقتضى حصول الخلافة لكل من آمن وعمل صالحا ولم يكن الامر كذلك نزلنا عنه لكن لم لايجوز ان يكون المراد من قوله ليستخلفنهم هو انه تعالى يسكنهم فى الارض ويمكنهم من التصرف لان المراد منه خلافة الله تعالى ومايدل عليه قوله كما استخلف الذين من قبلهم واستخلاف من كان قبلهم لم يكن بطريق الامامة فوجب ان يكون الامر فى حقهم ايضا كذلك نزلنا عنه لكن ههنا مايدل على انه لايجوز حمله على خلافة رسول الله لان من مذهبكم انه عليه الصلاة والسلام لم يستخلف احدا وروى عن على عليه السلام انه قال اتركم كما تركم رسول الله نزلنا عنه لكن لم لايجوز ان يكون المراد منه عليا عليه السلام والواحد قد يعبر عنه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم كقوله تعالى انا انزلناه فى ليلة القدر وقال فى حق على عليه السلام والذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون نزلنا عنه ولكن نحمله على الائمة الاثنى عشر (والجواب) عن الاول ان كلمة من للتبعيض فقوله منكم يدل على ان المراد بهذا الخطاب بعضهم (وعن الثانى) ان الاستخلاف بالمعنى الذى ذكرتموه حاصل لجميع الخلق والمذكور ههنا فى معرض البشارة لابد وان يكون مغايرا له واما قوله تعالى كما استخلف الذين من قبلهم فالذين كانوا قبلهم قد كانوا خلفاء تارة بسبب النبوة وتارة بسبب الامامة والخلافة حاصلة فى الصورتين (وعن الثالث) انه وان كان من مذهبنا انه عليه الصلاة والسلام لم يستخلف احدا بالتعيين ولكنه قد استخلف بذكر الوصف والامر بالاختيار فلا يمتنع فى هؤلاء الائمة الاربعة انه تعالى يستخلفهم وان الرسول استخلفهم وعلى هذا الوجه قالوا فى ابى بكر ياخليفة رسول الله فالذى قيل انه عليه السلام لم يستخلف اريد به على وجه التعيين واذا قيل استخلف فالمراد على طريقة الوصف والامر (وعن الرابع) ان حمل لفظ الجمع على الواحد مجاز وهو خلاف الاصل (وعن الخامس) انه باطل لوجهين (احدهما) قوله تعالى منكم يدل على ان هذا الخطاب كان مع الحاضرين وهؤلاء الائمة ماكانوا حاضرين (الثانى) انه تعالى وعدهم القوة والشوكة والنفاذ فى العالم ولم يوجد ذلك فيهم فثبت بهذا صحة امامة الائمة الاربعة وبطل قول الرافضة الطاعنين على ابى بكر وعمر وعثمان وعلى بطلان قول الخوارج الطاعنين على عثمان وعلى ولنرجع الى التفسير اما قوله ليستخلفنهم

اذنهم عن طيب نفس منهم وكان غير هؤلاء ايضا يتحرجون من الاكل فى بيوت غيرهم فقيل لهم ليس على الطوائف المعدودة (ولا على انفسكم) اى عليكم وعلى من عيالكم فى الاحوال من المؤمنين حرج (ان تأكلوا) اى تأكلوا انتم وهم معكم وتعميم الخطاب للطوائف المذكورة ايضا يأباه ماقبله ومابعده فان الخطاب فيهما لغير اولئك الطوائف حتما (من بيوتكم) اى البيوت التى فيها ازواجكم وعيالكم فيدخل فيها بيوت الاولاد لان بيتم كبيته لقوله عليه الصلاة والسلام انت ومالك لابيك وقوله عليه الصلاة والسلام ان اطيب مال الرجل من كسبه وان ولده من كسبه (او بيوت آبائكم او بيوت امهاتكم) وقرئ بكسر الهمزة والميم وبكسر الاولى وفتح الثانية (او بيوت اخوانكم او بيوت اخواتكم او بيوت اعمامكم او بيوت عماتكم او بيوت اخوالكم او بيوت خالاتكم اوما ملكتم مفاتحه) من البيوت التى تملكون

فلقائل ان يقول اين القسم المتلقى باللام والنون فى ليستخلفنهم قلنا هو محذوف تقديره وعدهم والله ليستخلفنهم اونزل وعدالله فى تحققه منزلة القسم فتلقى بما يتلقى به القسم كأنه قال اقسم الله ليستخلفنهم اماقوله كما استخلف الذين من قبلهم يعنى كما استخلف هرون ويوشع وداود وسليمان وتقدير النظم ليستخلفنهم استخلافا كاستخلاف من قبلهم من هؤلاء الانبياء عليهم السلام وقرئ كما استخلف بضم التاء وكسر اللام وقرئ بالفتح اماقوله تعالى وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم فالمعنى انه يثبت لهم دينهم الذى ارتضى لهم وهو الاسلام وقرأ ابن كثير وعاصم ويعقوب وليبدلنهم من الابدال بالتخفيف والباقون بالتشديد وقد ذكرنا الفرق بينهما فى قوله تعالى بدلناهم جلودا غيرها اماقوله يعبدوننى لايشركون بى شيئا ففيه دلالة على ان الذين عناهم لايتغيرون عن عبادة الله تعالى الى الشرك وقال الزجاج يجوز ان يكون فى موضع الحال على معنى وعدالله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات فى حال عبادتهم واخلاصهم لله ليفعلن بهم كيت وكيت ويجوز ان يكون استئنافا على طريق الثناء عليهم اماقوله ومن كفر بعد ذلك اى جحد حق هذه النعم فأولئك هم الفاسقون اى العاصون ۞ قوله تعالى (واقيموا الصلوة وآتوا الزكوة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون لاتحسبن الذين كفروا معجزين فى الارض ومأواهم النار ولبئس المصير) اماتفسير اقامة الصلاة وايتاء الزكاة ولفظة لعل ولفظة الرحمة فالكل قدتقدم مرارا واما قوله لاتحسبن الذين كفروا معجزين فى الارض فالمعنى لاتحسبن يامحمد الذين كفروا سابقين فائتين حتى يعجزوننى عن ادراكهم وقرئ لايحسبن بالياء المعجمة من تحتها وفيه اوجه (احدها) ان يكون معجزين فى الارض هما المفعولان والمعنى لايحسبن الذين كفروا احدا يعجز الله فى الارض حتى يطمعوا هم فى مثل ذلك (وثانيها) ان يكون فيه ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم لتقدم ذكره فى قوله واطيعوا الرسول والمعنى لايحسبن الذين كفروا معجزين (وثالثها) ان يكون الاصل ولايحسبنهم الذين كفروا معجزين ثم حذف الضمير الذى هو المفعول الاول واماقوله ومأواهم النار ولبئس المصير فقال صاحب النظم لايحتمل ان يكون متصلا بقوله لاتحسبن لان ذلك نفى وهذا ايجاب فهو اذن معطوف بالواو على مضمر قبله تقديره لاتحسبن الذين كفروا معجزين فى الارض بل هم مقهورون ومأواهم النار ۞ قوله تعالى (ياايها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت ايمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولاعليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم واذابلغ الاطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم والقواعد من النساء اللاتى لايرجون نكاحا فليس عليهن جناح ان يضعن ثيابهن غير

التصرف فيها باذن اربابها على الوجه الذى سرياه وقيل هى بيوت المماليك والمفاتح جمع مفتح وجمع المفتاح مفاتيح وقرئ مفتاحه (او صديقكم) اى او بيوت صديقكم وان لم يكن بينكم وبينهم قرابة نسبية فانهم ارضى بالتبسط واسر به من كثير من الاقرباء روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان الصديق اكبر من الوالدين ان الجهنميين لما استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والامهات بل قالوا فمالنا من شافعين ولاصديق حميم والصديق يقع على الواحد والجمع كالخليط والقطين واضرابهما وهذا فيما اذا علم رضا صاحب البيت بصريح الاذن او بقرينة دالة عليه ولذلك خصص هؤلاء بالذكر لاعتيادهم التبسط فيما بينهم وقوله تعالى (ليس عليكم جناح ان تأكلوا جميعا او اشتاتا) كلام مستأنف مسوق لبيان حكم آخر من جنس مابين قبله حيث كان فريق من المؤمنين كبنى ليث بن عمر ومن كنانة يتحرجون ان يأكلوا

متبرجات بزينة وان يستعففن خير لهن والله سميع عليم) اعلم ان فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال القاضى قوله تعالى يا ايها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت ايمانكم وان كان ظاهره الرجال فالمراد به الرجال والنساء لان التذكير يغلب على التأنيث فاذا لم يميز فيدخل تحت قوله يا ايها الذين آمنوا ليستأذنكم الكل وبين ذلك قوله تعالى الذين ملكت ايمانكم لان ذلك يقال فى الرجال والنساء والاولى عندى ان الحكم ثابت فى النساء بقياس جلى وذلك لان النساء فى باب حفظ العورة اشد حالا من الرجال فهذا الحكم لما ثبت فى الرجال فثبوته فى النساء بطريق الاولى كما انا اثبت حرمة الضرب بالقياس الجلى على حرمة التأفيف (المسئلة الثانية) ظاهر قوله الذين ملكت ايمانكم يدخل فيه البالغون والصغار وحكى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان المراد الصغار واحتجوا بأن الكبير من المماليك ليس له ان ينظر من المالك الا الى ما يجوز للحر ان ينظر اليه قال ابن المسيب لا يغرنكم قوله وما ملكت ايمانكم لا ينبغى للمرأة ان ينظر عبدها الى قرطها وشعرها وشئ من محاسنها وقال آخرون بل البالغ من المماليك له ان ينظر الى شعر مالكته وما شاكله وظاهر الآية يدل على اختصاص عبيد المؤمنين والاطفال من الاحرار باباحة ما حظره الله تعالى من قبل على جماعة المؤمنين بقوله لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم فانه أباح لهم الا فى الاوقات الثلاثة وجوز دخولهم مع من يبلغ بغير اذن ودخول الموالى عليهم بقوله تعالى ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم اى يطوف بعضكم على بعض فيما عدا الاوقات الثلاثة وا كذلك بأن اوجب على من بلغ الحلم الجرى على سنة من قبلهم من البالغين فى الاستئذان فى سائر الاوقات والحقهم بمن دخل تحت قوله لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على اهلها (المسئلة الثالثة) قوله ليستأذنكم الذين ملكت ايمانكم ان اريد به العبيد والاماء اذا كانوا بالغين فغير ممتنع ان يكون امرا لهم فى الحقيقة وان اريد الذين لم يبلغوا الحلم لم يجز ان يكون امرا لهم ويجب ان يكون امرا لنا بأن نأمرهم بذلك ونبعثهم عليه كما امرنا بأمر الصبى وقد عقل الصلاة ان يفعلها لا على وجه التكليف لهم لكنه تكليف لنا لما فيه من المصلحة لنا ولهم بعد البلوغ ولا يبعد ان يكون لفظ الامر وان كان فى الظاهر متوجها عليهم الا انه يكون فى الحقيقة متوجها على المولى كقولك للرجل ليخفك اهلك ولذلك فظاهر الامر لهم وحقيقة الامر له بفعل ما يخافون عنده (المسئلة الرابعة) قال ابن عباس رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث غلاما من الانصار الى عمر ليدعوه فوجده نائما فى البيت فدفع الباب وسلم فلم يستيقظ عمر فعاد ورد الباب وقام من خلفه وحركه فلم يستيقظ فقال الغلام اللهم ايقظه لى ودفع الباب ثم ناداه فاستيقظ وجلس ودخل الغلام فانكشف من عمر شئ وعرف عمر ان الغلام رأى ذلك منه فقال وددت ان الله نهى ابناءنا ونساءنا وخدمنا ان يدخلوا علينا فى هذه الساعات الا باذن ثم انطلق معه الى الرسول صلى

طعامهم منفردين وكان الرجل منهم لا يأكل ويمكث يومه حتى يجد ضيفا يأكل معه فان لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيئا وربما قعد الرجل والطعام بين يديه لا يتناوله من الصباح الى الرواح وربما كانت معه الابل الحفل فلا يشرب من البانها حتى يجد من يشاربه فاذا امسى ولم يجد احدا اكل وقيل كان الغنى منهم يدخل على الفقير من ذوى قرابته وصداقته فيدعوه الى طعامه فيقول انى اتحرج ان آكل معك وانا غنى وانت فقير وقيل كان قوم من الانصار لا يأكلون اذا نزل بهم ضيف الا مع ضيفهم فرخص لهم فى ان يأكلوا كيف شاؤا وقيل كانوا اذا اجتمعوا ليأكلوا طعاما عزلوا للاعمى واشباهه طعاما على حدة فبين الله تعالى ان ذلك ليس بواجب وقوله تعالى جميعا حال من فاعل تأكلوا واشتاتا عطف عليه داخل فى حكمه وهو جمع شت على انه صفة كالحق يقال امر شت اى متفرق او على انه فى الاصل مصدر

الله عليه وسلم فوجده قد نزل عليه يا ايها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت ايمانكم فحمد الله تعالى عمر عند ذلك فقال عليه السلام وماذاك يا عمر فأخبره بما فعل الغلام فتعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم من صنعه وتعرف اسمه ومدحه وقال ان الله يحب الحليم الحيى العفيف المتعفف ويبغض البذى الجرئ السائل الملحف فهذه الآية احدى الآيات المنزلة بسبب عمر وقال بعضهم نزلت فى اسماء بنت ابى مرثد قالت انا لندخل على الرجل والمرأة ولعلهما يكونان فى لحاف واحد وقيل دخل عليها غلام لها كبير فى وقت كرهت دخوله فيه فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ان خدمنا وغلماننا يدخلون علينا فى حال نكرهها فنزلت الآية (المسئلة الخامسة) قال ابن عمر ومجاهد قوله ليستأذنكم عنى به الذكور دون الاناث لان قوله الذين ملكت ايمانكم صيغة الذكور لا صيغة الاناث وعن ابن عباس رضى الله عنهما هى فى الرجال والنساء يستأذنون على كل حال بالليل والنهار والصحيح انه يجب اثبات هذا الحكم فى النساء لان الانسان كما يكره اطلاع الذكور على احواله فقد يكره ايضا اطلاع النساء عليها ولكن الحكم يثبت فى النساء بالقياس لا بظاهر اللفظ على ما قدمناه (المسئلة السادسة) من العلماء من قال الامر فى قوله ليستأذنكم على الندب والاستحباب ومنهم من قال انه على الايجاب وهذا أولى لما ثبت ان ظاهر الامر للوجوب * اما قوله تعالى والذين لم يبلغوا الحلم منكم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن عمر الحلم بالسكون (المسئلة الثانية) اتفق الفقهاء على ان الاحتلام بلوغ واختلفوا اذا بلغ خمس عشرة سنة ولم يحتلم فقال ابو حنيفة رحمه الله لا يكون الغلام بالغا حتى يبلغ ثمانى عشرة سنة ويستكملها وفى الجارية سبع عشرة سنة وقال الشافعى وابو يوسف ومحمد رحمهم الله فى الغلام والجارية خمس عشرة سنة قال ابو بكر الرازى قوله تعالى والذين لم يبلغوا الحلم منكم يدل على بطلان قول من جعل حد البلوغ خمس عشرة سنة اذا لم يحتلم لان الله تعالى لم يفرق بين من بلغها وبين من قصر عنها بعد ان لا يكون قد بلغ الحلم وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم من جهات كثيرة رفع القلم عن ثلاث عن النائم حتى يستيقظ وعن المجنون حتى يفيق وعن الصبى حتى يحتلم ولم يفرق بين من بلغ خمس عشرة سنة وبين من لم يبلغها فان قيل فهذا الكلام يبطل التقدير ايضا بثمانى عشرة سنة اجاب بانا قد علمنا بان العادة فى البلوغ خمس عشرة سنة وكل ما كان مبنيا على طريق العادات فقد تجوز الزيادة فيه والنقصان عنه وقد وجدنا من بلغ فى ثنتى عشرة سنة وقد بينا ان الزيادة على المعتاد جائزة كالنقصان عنه فجعل ابو حنيفة رحمه الله الزيادة كالنقصان وهى ثلاث سنين وقد حكى عن ابى حنيفة رحمه الله تسع عشرة سنة للغلام وهو محمول على استكمال ثمانى عشرة سنة والدخول فى التاسعة عشرة حجة الشافعى رحمه الله ما روى ابن عمر انه عرض على النبى صلى الله عليه وسلم يوم احد وله اربع عشرة سنة فلم يجزه وعرض عليه يوم الخندق وله خمس عشرة سنة فأجازه اعترض ابو بكر الرازى عليه فقال هذا الخبر مضطرب

وصف به مبالغة اى ليس عليكم جناح ان تأكلوا مجتمعين او متفرقين (فاذا دخلتم) شروع فى بيان الآداب التى تجب رعايتها عند مباشرة ما رخص فيه اثر بيان الرخصة فيه (بيوتا) اى من البيوت المذكورة (فسلموا على انفسكم) اى على اهلها الذين بمنزلة انفسكم لما بينكم وبينهم من القرابة الدينية والنسبية الموجبة لذلك (تحية من عند الله) اى ثابتة بأمره مشروعة من لدنه ويجوز ان يكون صلة للتحية فانها طلب الحياة التى هى من عنده تعالى وانتصابها على المصدرية لانها بمعنى التسليم (مباركة) مستتبعة لزيادة الخير والثواب ودوامهما (طيبة) تطيب بها نفس المستمع وعن أنس رضى الله عنه انه عليه الصلاة والسلام قال متى لقيت احدا من امتى فسلم عليه يطل عمرك واذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك وصل صلاة الضحى فانها صلاة الابرار الاوابين (كذلك يبين الله لكم الآيات) تكرير لتأكيد

لان أحدا كان فى سنة ثلاث والخندق فى سنة خمس فكيف يكون بينهما سنة ثم مع ذلك فان الاجازة فى القتال لاتعلق لها بالبلوغ لانه قد يرد البالغ لضعفه ويؤذن غير البالغ لقوته ولطاقته حمل السلاح ويدل على ذلك انه عليه الصلاة والسلام ماسأله عن الاحتلام والسن (البحث الثانى) اختلفوا فى الانبات هل يكون بلوغا فأبو حنيفة واصحابه ماجعلوه بلوغا والشافعى رحمه الله جعله بلوغا قال ابوبكر الرازى رحمه الله ظاهر قوله والذين لم يبلغوا الحلم منكم ينفى ان يكون الانبات بلوغا اذا لم يحتلم كما ينفى كون خمس عشرة سنة بلوغا وكذلك قوله عليه السلام وعن الصبى حتى يحتلم حجة الشافعى رحمه الله تعالى ماروى عطية القرظى ان النبى صلى الله عليه وسلم امر بقتل من انبت من قريظة واستحياء من لم ينبت قال فنظروا الى فلم اكن قد انبت فاستبقانى قال ابوبكر الرازى هذا الحديث لايجوز اثبات الشرع به ومثله لوجوه (احدها) ان عطية هذا مجهول لايعرف الا من هذا الخبر لاسيما مع اعتراضه على الآية والخبر فى نفى البلوغ الا بالاحتلام (وثانيها) انه مختلف الالفاظ فى بعضها انه امر بقتل من جرت عليه الموسى وفى بعضها من اخضر عذاره ومعلوم انه لايبلغ هذه الحال الا وقد تقدم بلوغه ولايكون قد جرت عليه الموسى الا وهو رجل كبير فجعل الانبات وجرى الموسى عليه كناية عن بلوغ القدر الذى ذكرنا من السن وهى ثمانى عشرة سنة فاكثر (وثالثها) ان الانبات يدل على القوة البدنية فالامر بالقتل لذلك لا للبلوغ قال الشافعى رحمه الله هذه الاحتمالات مردودة بماروى ان عثمان بن عفان رضى الله عنه سئل عن غلام فقال هل اخضر عذاره وهذا يدل على ان ذلك كان كالامر المتفق عليه فيما بين الصحابة (البحث الثالث) يروى عن قوم من السلف انهم اعتبروا فى البلوغ ان يبلغ الانسان فى طوله خمسة اشبار روى عن على عليه السلام انه قال اذا بلغ الغلام خمسة اشبار فقد وقعت عليه الحدود ويقتص له ويقتص منه وعن ابن سيرين عن أنس قال أتى ابوبكر بغلام قد سرق فأمر به فشبر فنقص انملة فخلى عنه وهذا المذهب أخذ به الفرزدق فى قوله

ما زال مذ عقدت يداه ازاره ＊ وسما فادرك خمسة الاشبار

واكثر الفقهاء لايقولون بهذا المذهب لان الانسان قد يكون دون البلوغ ويكون طويلا وفوق البلوغ ويكون قصيرا فلاعبرة به (المسئلة الثالثة) قال ابوبكر الرازى دلت هذه الآية على ان من لم يبلغ وقد عقل يؤمر بفعل الشرائع وينهى عن ارتكاب القبائح فان الله امرهم بالاستئذان فى هذه الاوقات وقال عليه السلام مروهم بالصلاة وهم ابناء سبع واضربوهم عليها وهم ابناء عشر وعن ابن عمر رضى الله عنه قال تعلم الصبى الصلاة اذا عرف يمينه من شماله وعن زين العابدين انه كان يأمر الصبيان ان يصلوا الظهر والعصر جميعا والمغرب والعشاء جميعا فقيل له يصلون لصلاة لغير وقتها فقال هذا خير من ان يتناهوا عنها وعن ابن مسعود رضى الله عنه اذا بلغ الصبى عشر سنين كتبت له الحسنات ولاتكتب عليه السيآت حتى يحتلم ثم قال ابوبكر الرازى انما يؤمر بذلك على

الاحكام المختصة به وتخصيصها (لعلكم تعقلون) اى ماقى تضاعيفها من الشرائع والاحكام وتعملون بموجبها وتحوزون بذلك سعادة الدارين وفى تعليل هذا التبيين بهذه الغاية القصوى بعد تذييل الاولين بما يوجبهما من الجزالة مالا يخفى (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله) استئناف جئ به فى اواخر الاحكام السابقة تقريرا لها وتأكيدا لوجوب مراعاتها

وجه التعليم وليعتاده ويمرن عليه فيكون اسهل عليه بعد البلوغ واقل نفورا منه وكذلك يجنب شرب الخمر ولحم الخنزير وينهى عن سائر المحظورات لانه لو لم يمنع منه فى الصغر لصعب عليه الامتناع بعد الكبر وقال الله تعالى قوا انفسكم واهليكم نارا قيل فى التفسير أدبوهم وعلموهم (المسئلة الرابعة) قال الاخفش يقال فى الحلم حلم الرجل بفتح اللام يحلم حلما بضم اللام ومن الحلم حلم بضم اللام يحلم حلما بكسر اللام اما قوله تعالى ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله ثلاث مرات يعنى ثلاث اوقات لانه تعالى فسرهن بالاوقات وانما قيل ثلاث مرات للاوقات لانه أراد مرة فى كل وقت من هذه الاوقات لانه يكفيهم ان يستأذنوا فى كل واحد من هذه الاوقات مرة واحدة ثم بين الاوقات فقال من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء يعنى الغالب فى هذه الاوقات الثلاثة ان يكون الانسان متجردا عن الثياب مكشوف العورة (المسئلة الثانية) قوله ثلاث عورات قرأ اهل الكوفة ثلاث بالنصب على البدل من قوله ثلاث مرات وكأنه قال فى اوقات ثلاث عورات لكم فلما حذف المضاف اعرب المضاف اليه باعرابه وقراءة الباقين بالرفع اى هى ثلاث عورات فارتفع لانه خبر مبتدأ محذوف قال القفال فكان المعنى ثلاث انكشافات والمراد وقت الانكشاف (المسئلة الثالثة) العورة الخلل ومنه اعور الفارس واعور المكان والاعور المختل العين فسمى الله تعالى كل واحدة من تلك الاحوال عورة لان الناس يختل حفظهم وتسترهم فيها (المسئلة الرابعة) الآية دالة على ان الواجب اعتبار العلل فى الاحكام اذا امكن لانه تعالى نبه على العلة فى هذه الاوقات الثلاثة من وجهين (احدهما) بقوله تعالى ثلاث عورات لكم (والثانى) بالتنبيه على الفرق بين هذه الاوقات الثلاثة و بين ماعداها بانه ليس ذلك الا لعلة التكشف فى هذه الاوقات الثلاثة وانه لايؤمن وقوع التكشف فيها وليس كذلك ماعدا هذه الاوقات (المسئلة الخامسة) من الناس من قال ان قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على اهلها فهذا يدل على ان الاستئذان واجب فى كل حال وصار ذلك منسوخا بهذه الآية فى غير هذه الاحوال الثلاثة ومن الناس من قال الآية الاولى اريد بها المكلف لانه خطاب لمن آمن وما ذكره الله تعالى فى هذه الآية فهو فيمن ليس بمكلف فقيل فيه ان فى بعض الاحوال لايدخل الا باذن وفى بعضها بغير اذن فلا وجه لحمل ذلك على النسخ لان ماتناولته الآية الاولى من المخاطبين لم تتناوله الآية الثانية اصلا فان قيل بتقدير ان يكون قوله تعالى الذين ملكت ايمانكم يدخل فيه من قد بلغ فالنسخ لازم قلنا لايجب ذلك ايضا لان قوله يا أيها الذين آمنوا ان لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم لايدخل الا من يملك البيوت لحق هذه الاضافة واذا صح ذلك لم يدخل تحته العبيد والاماء فلايجب النسخ ايضا على هذا القول فاما ان حمل

وتكميلا لها ببيان بعض آخر من جنسها وانما ذكر الايمان بالله ورسوله فى حيز الصلة للموصول الواقع خبرا للمبتدأ مع تضمنه له قطعا تقريرا لما قبله وتمهيدا لما بعده وايذانا بانه حقيق بأن يجعل قرينا للايمان بهما منتظما فى سلكه فقوله تعالى (واذا كانوا معه على امر جامع) الخ معطوف على آمنوا داخل معه فى حيز الصلة اى انما الكاملون فى الايمان الذين آمنوا بالله ورسوله عن صميم قلوبهم واطاعوهما فى جميع الاحكام التى من جملتها مافصل من قبل من الاحكام المتعلقة بعامة احوالهم المطردة فى الوقوع واحوالهم الواقعة بحسب الاتفاق كما اذا كانوا معه عليه الصلاة والسلام على امر مهم يجب اجتماعهم فى شأنه كالجمعة والاعياد والحروب وغيرها من الامور الداعية الى اجتماع اولى الآراء والتجارب ووصف الامر بالجمع للمبالغة وقرئ امر جميع (لم يذهبوا) اى

الكلام على صغار المماليك فالقول فيه ابين (المسئلة السادسة) قال ابو حنيفة رحمه الله لم يصر احد من العلماء الى ان الامر بالاستئذان منسوخ وروى عطاء عن ابن عباس انه قال ثلاث آيات من كتاب الله تركهن الناس ولا أرى أحدا يعمل بهن قال عطاء حفظت اثنين ونسيت واحدة وقرأ هذه الآية وقوله يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وذكر سعيد بن جبير ان الآية الثالثة قوله واذا حضر القسمة اولو القربى الآية اما قوله تعالى ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض ففيه سؤالات (السؤال الاول) أتقولون فى قوله ليس عليكم ولا عليهم جناح انه يقتضى الاباحة على كل حال (الجواب) قد بينا ان ذلك هو فى الصغار خاصة فباح لهم الدخول للخدمة بغير الاذن فى غير الاوقات الثلاثة ومباح لنا تمكينهم من ذلك والدخول عليهم ايضا (السؤال الثانى) فهل يقتضى ذلك اباحة كشف العورة لهم (الجواب) لا وانما أباح الله تعالى ذلك من حيث كانت العادة ان لا تنكشف العورة فى غير تلك الاوقات فمتى كشفت المرأة عورتها مع ظن دخول الخدم اليها فذلك يحرم عليها فان كان الخادم ممن يتناوله التكليف فيحرم عليه الدخول ايضا اذا ظن ان هناك كشف عورة فان قيل اليس من الناس من جوز للبالغ من المماليك ان ينظر الى شعر مولاته قلنا من جوز ذلك اخرج الشعر من ان يكون عورة لحق الملك كما يخرج من ان يكون عورة لحق الرحم اذ العورة تنقسم ففيه ما يكون عورة على كل حال وفيه ما يختلف حاله بالاضافة فيكون عورة مع الاجنبى غير عورة مع غيره على ما تقدم ذكره (السؤال الثالث) أتقولون هذه الاباحة مقصورة على الخدم دون غيرهم (الجواب) نعم وفى قوله ليس عليكم ولا عليكم جناح بعدهن دلالة على ان هذا الحكم يختص بالصغار دون البالغين على ما تقدم ذكره وقد نص تعالى على ذلك من بعد فقال واذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم والمراد من تجدد منه البلوغ يجب ان يكون بمنزلة من تقدم بلوغه فى وجوب الاستئذان فهذا معنى قوله كما استأذن الذين من قبلهم وقد يجوز ان يظن ظان ان من خدم فى حال الصغر فاذا بلغ يجوز له ان يستأذن ويفارق حاله حال من لم يخدم ولم يملك فبين تعالى انه كما حظر على البالغين الدخول الا بالاستئذان فكذلك على هؤلاء اذا بلغوا وان تقدمت لهم خدمة او ثبت فيهم ملك لهن (السؤال الرابع) الامر بالاستئذان هل هو مختص بالمملوك ومن لم يبلغ الحلم او يتناول الكل من ذوى الرحم والاجنبى وايضا لو كان المملوك من ذوى الرحم هل يجب عليه الاستئذان (الجواب) اما الصورة الاولى فثم اما لعموم قوله تعالى لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا أو بالقياس على المملوك ومن لم يبلغ الحلم بطريق الاولى واما الصورة الثانية فيجب عليه الاستئذان لعموم الآية (السؤال الخامس) ما محل ليس عليكم (الجواب) اذا رفعت ثلاث عورات كان ذلك فى محل الرفع على الوصف والمعنى هن ثلاث عورات مخصوصة

من الجمع مع كون ذلك الامر مما لا يوجب حضورهم لا محالة كما عند اقامة الجمعة ولقاء العدو بل يسوغ التخلف عنه (حتى يستأذنوه) عليه الصلاة والسلام فى الذهاب لا على ان نفس الاستئذان غاية لعدم الذهاب بل الغاية هى الاذن المنوط برأيه عليه الصلاة والسلام والاقتصار على ذكره لانه الذى يتم من قبلهم وهو المعتبر فى كمال الايمان لا الاذن ولا الذهاب المترتب عليه واعتباره فى ذلك لما انه كالمصداق لصحته والمميز للمخلص فيه عن المنافق فان ديدنه التسلل للفرار ولتعظيم ما فى الذهاب بغير اذنه عليه الصلاة والسلام من الجناية وللتنبيه على ذلك عقب بقوله تعالى (ان الذين يستأذنونك اولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله) فقضى بأن المستأذنين هم المؤمنون بالله ورسوله كما حكم فى الاول بان الكاملين فى الايمان هم الجامعون بين الايمان بهما وبين الاستئذان وفى اولئك من تفخيم شأن

بالاستئذان واذانصبت لم يكن له محل وكان كلاما مقررا للامر بالاستئذان فى تلك الاحوال خاصة (السؤال السادس) مامعنى قوله طوافون عليكم (الجواب) قال الفراء والزجاج انه كلام مستأنف كقولك فى الكلام انما هم خدمكم وطوافون عليكم والطوافون الذين يكثرون الدخول والخروج والتردد واصله من الطواف والمعنى يطوف بعضكم على بعض بغير اذن (السؤال السابع) بم ارتفع بعضكم (الجواب) بالابتداء وخبره على بعض على معنى طائف على بعض وانما حذف لان طوافون يدل عليه اماقوله والقواعد من النساء اللاتى لايرجون نكاحافيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ابن السكيت امرأة قاعد اذاقعدت عن الحيض والجمع قواعد واذا أردت القعود قلت قاعدة وقال المفسرون القواعد هن اللواتى قعدن عن الحيض والولد من الكبر ولامطمع لهن فى الازواج والاولى ان لا يعتبر قعودهن عن الحيض لان ذلك ينقطع والرغبة فيهن باقية فالمراد قعودهن عن حال الزوج وذلك لايكون الااذابلغن فى السن بحيث لايرغب فيهن الرجال (المسئلة الثانية) قوله تعالى فى النساء لايرجون كقوله الان يعفون (المسئلة الثالثة) لاشبهة انه تعالى لم يأذن فى ان يضعن ثيابهن اجمع لمافيه من كشف كل عورة فلذلك قال المفسرون المراد بالثياب ههنا الجلباب والبرد والقناع الذى فوق الخمار وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قرأ ان يضعن جلابيبهن وعن السدى عن شيوخه ان يضعن خمرهن عن رؤسهن وعن بعضهم انه قرأ ان يضعن من ثيابهن وانما خصهن الله تعالى بذلك لان التهمة مرتفعة عنهن وقدبلغن هذا المبلغ فلوغلب على ظنهن خلاف ذلك لم يحل لهن وضع الثياب ولذلك قال وان يستعففن خيرلهن وانما جعل ذلك افضل من حيث هوابعد من المظنة وذلك يقتضى ان عندالمظنة يلزمهن ان لايضعن ذلك كمايلزم مثله فى الشابة (المسئلة الرابعة) حقيقة التبرج تكلف اظهارمايجب اخفاؤه من قولهم سفينة بارج لاغطاء عليها والتبرج سعة العين التى يرى بياضها محيطابسوادها كله لايغيب منه شئ الا انه اختص بان تنكشف المرأة للرجال بابداء زينتها واظهار محاسنها * قوله تعالى (ليس على الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج ولاعلى انفسكم ان تأكلوا من بيوتكم اوبيوت آبائكم اوبيوت امهاتكم اوبيوت اخوانكم اوبيوت اخواتكم اوبيوت اعمامكم اوبيوت عماتكم اوبيوت اخوالكم اوبيوت خالاتكم اوماملكتم مفاتحه اوصديقكم ليس عليكم جناح ان تأكلوا جميعا اواشتاتا فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على انفسكم تحية من عندالله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون) اعلم ان فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى المراد من رفع الحرج عن الاعمى والاعرج والمريض فقال ابن زيد المراد انه لاحرج عليهم ولااثم فى ترك الجهاد وقال الحسن

المستأذنين مالا يخفى (فاذا استأذنوك) بيان لماهو وظيفته عليه الصلاة والسلام فى هذا الباب اثر بيان ماهو وظيفة المؤمنين وان الاذن عند الاستئذان ليس بامر محتوم بل هو مفوض الى رأيه عليه الصلاة والسلام والفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها اى بعد ماتحقق ان الكاملين فى الايمان هم المستأذنون فاذا استأذنوك (لبعض شأنهم) اى لبعض امرهم المهم وخطبهم الملم (فأذن لمن شئت منهم) لماعلمت فى ذلك من حكمة ومصلحة (واستغفر لهم الله) فان الاستئذان وان كان لعذر قوى لايخلو عن شائبة تقديم امر الدنيا على امر الآخرة (ان الله غفور) مبالغ فى مغفرة فرطات العباد (رحيم) مبالغ فى افاضة آثار الرحمة عليهم والجملة تعليل للمغفرة الموعودة فى ضمن الامر بالاستغفار لهم (لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم) استئناف مقرر لمضمون ماقبله والالتفات لابراز مزيد الاعتناء

نزلت الآية فى ابن ام مكتوم وضع الله الجهاد عنه وكان اعمى وهذا القول ضعيف لانه تعالى عطف عليه قوله ان تأكلوا فنبه بذلك على انه انما رفع الحرج فى ذلك وقال الأكثرون المراد منه ان القوم كانوا يحظرون الاكل مع هؤلاء الثلاثة وفى هذه المنازل فالله تعالى رفع ذلك الحظر وأزاله واختلفوا فى انهم لاى سبب اعتقدوا ذلك الحظر اما فى حق الاعمى والاعرج والمريض فذكروا فيه وجوها (احدها) انهم كانوا لايأكلون مع الاعمى لانه لايبصر الطعام الجيد فلا يأخذه ولا مع الاعرج لانه لايتمكن من الجلوس فالى ان يأكل لقمة يأكل غيره لقمتين وكذا المريض لانه لايتأتى له ان يأكل كما يأكل الصحيح قال الفراء فعلى هذا التأويل تكون على بمعنى فى يعنى ليس عليكم فى مواكلة هؤلاء حرج (وثانيها) ان العميان والعرجان والمرضى تركوا مواكلة الاصحاء اما الاعمى فقال انى لاارى شيئا فربما آخذ الاجود واترك الاردأ واما الاعرج والمريض فخافا ان يفسد الطعام على الاصحاء لامور تعترى المرضى ولاجل ان الاصحاء يتكرهون منهم ولاجل ان المريض ربما حمله الشره على ان يعلق نظره وقلبه بلقمة الغير وذلك مما يكرهه ذلك الغير فلهذه الاسباب احترزوا عن مواكلة الاصحاء فالله تعالى اطلق لهم فى ذلك (وثالثها) روى الزهرى عن سعيد بن المسيب وعبيد الله بن عبد الله فى هذه الآية ان المسلمين كانوا اذا غزوا خلفوا زمناهم وكانوا يسلمون اليهم مفاتيح ابوابهم ويقولون لهم قد احللنا لكم ان تأكلوا مما فى بيوتنا فكانوا يتحرجون من ذلك وقالوا لاندخلها وهم غائبون فنزلت هذه الآية رخصة لهم وهذا قول عائشة رضى الله عنها فعلى هذا معنى الآية نفى الحرج عن الزمنى فى اكلهم من بيت من يدفع اليهم المفتاح اذا خرج الى الغزو (ورابعها) نقل من ابن عباس ومقاتل بن حيان نزلت هذه الآية فى الحرث بن عمرو وذلك انه خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غازيا وخلف مالك بن زيد على اهله فلما رجع وجده مجهودا فسأله عن حاله فقال تحرجت ان آكل من طعامك بغير اذنك واما فى حق سائر الناس فذكروا وجهين (الاول) كان المؤمنون يذهبون بالضعفاء وذوى العاهات الى بيوت ازواجهم واولادهم وقراباتهم واصدقائهم فيطعمونهم منها فلما نزل قوله تعالى لاتأكلوا اموالكم بينكم بالباطل الا ان تكون تجارة اى بيع فعند ذلك امتنع الناس ان يأكل بعضهم من طعام بعض فنزلت هذه الآية (الثانى) قال قتادة كانت الانصار فى انفسها قزازة وكانت لاتأكل من هذه البيوت اذا استغنوا قال السدى كان الرجل يدخل بيت ابيه او بيت اخيه او اخته فتحفه المرأة بشئ من الطعام فيتحرج لانه ليس ثم رب البيت فأنزل الله تعالى هذه الرخصة (المسئلة الثانية) قال الزجاج الحرج فى اللغة الضيق ومعناه فى الدين الاثم (المسئلة الثالثة) انه سبحانه اباح الاكل للناس من هذه المواضع وظاهر الآية يدل على ان اباحة الاكل لاتتوقف على الاستئذان واختلف العلماء فيه فنقل عن قتادة ان الاكل مباح ولكن لايحمل وجمهور العلماء انكروا ذلك

بشأنه اى لاتجعلوا دعوته عليه الصلاة والسلام اياكم فى الاعتقاد والعمل بها (كدعاء بعضكم بعضا) اى لاتقيسوا دعاءه عليه الصلاة والسلام اياكم على دعاء بعضكم بعضا فى حال من الاحوال وامر من الامور التى من جملتها المساهلة فيه والرجوع عن مجلسه عليه الصلاة والسلام بغير استئذان فان ذلك من المحرمات وقيل لاتجعلوا دعاءه عليه الصلاة والسلام ربه كدعاء صغيركم كبيركم يجيبه مرة ويرده اخرى فان دعاءه مستجاب لامرد له عند الله عز وجل وتقرير الجملة حينئذ لما قبلها اما من حيث ان استجابته تعالى لدعائه عليه الصلاة والسلام مما يوجب امتثالهم بأوامره عليه الصلاة والسلام ومتابعتهم له فى الورود والصدور اكمل ايجاب واما من حيث انها موجبة للاحتراز عن التعرض لسخطه عليه الصلاة والسلام المؤدى الى ما يوجب هلاككم من دعائه عليه الصلاة

ثم اختلفوا على وجوه (الاول) كان ذلك فى صدر الاسلام ثم نسخ ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام لايحل مال امرئ مسلم الاعن طيب نفس منه ومما يدل على هذا النسخ قوله لاتدخلوا بيوت النبى الاان يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه وكان فى ازواج النبى صلى الله عليه وسلم من لهن الآباء والاخوة والاخوات فعم بالنهى عن دخول بيوتهن الا بعد الاذن فى الدخول وفى الاكل فان قيل انما اذن تعالى فى هذا لان المسلمين لم يكونوا يمنعون قراباتهم هؤلاء من ان يأكلوا من بيوتهم حضروا أو غابوا فجاز ان يرخص فى ذلك قلنا لوكان الامر كذلك لم يكن لتخصيص هؤلاء الاقارب بالذكر معنى لان غيرهم كهم فى ذلك (الثانى) قال ابو مسلم الاصفهانى المراد من هؤلاء الاقارب اذا لم يكونوا مؤمنين وذلك لانه تعالى نهى من قبل عن مخالطتهم بقوله لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ثم انه سبحانه اباح فى هذه الآية ماحظره هناك قال ويدل عليه ان فى هذه السورة امر بالتسليم على اهل البيوت فقال حتى تستأنسوا وتسلموا على اهلها وفى بيوت هؤلاء المذكورين لم يأمر بذلك بل امر ان يسلموا على انفسهم والحاصل ان المقصود من هذه الآية اثبات الاباحة فى الجملة لا اثبات الاباحة فى جميع الاوقات (الثالث) انه لما علم بالعادة ان هؤلاء القوم تطيب انفسهم بأكل من يدخل عليهم والعادة كالاذن فى ذلك فيجوز ان يقال خصهم الله بالذكر لان هذه العادة فى الاغلب توجد فيهم ولذلك ضم اليهم الصديق ولما علمنا ان هذه الاباحة انما حصلت فى هذه الصورة لاجل حصول الرضا فيها فلا حاجة الى القول بالنسخ (المسئلة الرابعة) ان الله تعالى ذكر احد عشر موضعا فى هذه الآية (اولها) قوله ولا على انفسكم ان تأكلوا من بيوتكم وفيه سؤال وهو ان يقال اى فائدة فى اباحة أكل الانسان طعامه فى بيته وجوابه المراد فى بيوت ازواجكم وعيالكم اضافه اليهم لان بيت المرأة كبيت الزوج وهذا قول الفراء وقال ابن قتيبة أراد بيوت اولادهم فنسب بيوت الاولاد الى الآباء لان الولد كسب والده وماله كماله قال عليه السلام أطيب مايأكل الرجل من كسبه وان ولده من كسبه والدليل على هذا انه سبحانه وتعالى عدد الاقارب ولم يذكر الاولاد لانه اذا كان سبب الرخصة هو القرابة كان الذى هو أقرب منهم اولى (وثانيها) بيوت الآباء (وثالثها) بيوت الامهات (ورابعها) بيوت الاخوان (وخامسها) بيوت الاخوات (وسادسها) بيوت الاعمام (وسابعها) بيوت العمات (وثامنها) بيوت الاخوال (وتاسعها) بيوت الخالات (وعاشرها) قوله تعالى او ماملكتم مفاتحه وقرئ مفتاحه وفيه وجوه (الاول) قال ابن عباس رضى الله عنهما وكيل الرجل وقيمه فى ضيعته وماشيته لابأس عليه أن يأكل من ثمر ضيعته ويشرب من لبن ماشيته وملك المفاتح كونها فى يده وفى حفظه (الثانى) قال الضحاك يريد الزمنى الذين كانوا يحرسون للغزاة (الثالث) المراد بيوت المماليك لان مال العبد لمولاه قال الفضل المفاتح واحدها مفتح بفتح الميم وواحد المفاتيح مفتح بالكسر

والسلام عليهم واما ماقيل من ان المعنى لاتجعلوا نداءه عليه الصلاة والسلام كنداء بعضكم بعضا باسمه ورفع الصوت والنداء من وراء الحجرات ولكن بلقبه المعظم مثل يارسول الله يانبى الله مع غاية التوقير والتفخيم والتواضع وخفض الصوت فلايناسب المقام فان قوله تعالى (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم) الخ وعيد لمخالفى امره عليه الصلاة والسلام فيما ذكر من قبل فتوسيط ما ذكر بينهما مما لاوجه له والتسلل الخروج من البين على التدريج والخفية وقد للتحقيق كما ان رب تجئ للتكثير حسبما بين فى مطلع سورة الحجر اى يعلم الله الذين يخرجون من الجماعة قليلا قليلا على خفية (لواذا) اى ملاوذة بأن يستتر بعضهم ببعض حتى يخرج او بأن يلوذ بمن يخرج بالاذن ارادة انه من اتباعه وقرئ بفتح اللام وانتصابه على الحالية من ضمير يتسللون اى ملاوذين او على انه مصدر مؤكد

(الحادى عشر) قوله أو صديقكم والمعنى اوبيوت اصدقائكم والصديق يكون واحدا وجمعا وكذلك الخليط والقطين والعدو ويحكى عن الحسن انه دخل داره واذا حلقة من اصدقائه وقد اخرجوا سلالا من تحت سريره فيها الخبيص واطايب الاطعمة وهم مكبون عليها يأكلون فتهللت اسارير وجهه سرورا وضحك وقال هكذا وجدناهم يريد كبراء الصحابة وعن ابن عباس رضى الله عنهما الصديق اكثر من الوالدين لان اهل جهنم لما استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والامهات بل بالاصدقاء فقالوا مالنا من شافعين ولا صديق حميم وحكى ان اخا الربيع بن خيثم فى الله دخل منزله فى حال غيبته فانبسط الى جاريته حتى قدمت اليه ما اكل فلما عاد اخبرته بذلك فلسروره بذلك قال ان صدقت فانت حرة (المسئلة الخامسة) احتج ابو حنيفة رحمه الله بهذه الآية على ان من سرق من ذى رحم محرم انه لا يقطع لاباحة الله تعالى لهم بهذه الآية الاكل من بيوتهم ودخولها بغير اذنهم فلا يكون ماله محرزا منهم فان قيل فيلزم ان لا يقطع اذا سرق من مال صديقه قلنا من اراد سرقة ماله لا يكون صديقا له اما قوله تعالى ليس عليكم جناح ان تأكلوا جميعا او اشتاتا فقال اكثر المفسرين نزلت الآية فى بنى ليث بن عمرو وهم حى من كنانة كان الرجل منهم لا يأكل وحده يمكث يومه فان لم يجد من يواكله لم يأكل شيئا وربما كانت معه الابل الحفل فلا يشرب من البانها حتى يجد من يشاربه فاعلم الله تعالى ان الرجل اذا اكل وحده لا حرج عليه هذا قول ابن عباس رضى الله عنهما وقال عكرمة وابو صالح رحمهما الله كانت الانصار اذا نزل بواحد منهم ضيف لم يأكل الا وضيفه معه فرخص الله لهم ان يأكلوا كيف شاؤا مجتمعين ومتفرقين وقال الكلبى كانوا اذا اجتمعوا ليأكلوا طعاما عزلوا للاعمى طعاما على حدة وكذلك للزمن والمريض فبين الله لهم ان ذلك غير واجب وقال آخرون كانوا يأكلون فرادى خوفا من ان يحصل عند الجمعية ما ينفر او يؤذى فبين الله تعالى انه غير واجب وقوله جميعا نصب على الحال واشتاتا جمع شت وشتى جمع شتيت وشتان تثنية شت قاله المفضل وقيل الشت مصدر بمعنى التفرق ثم يوصف به ويجمع اما قوله تعالى فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على انفسكم فالمعنى انه تعالى جعل انفس المسلمين كالنفس الواحدة على مثال قوله تعالى ولا تقتلوا انفسكم قال ابن عباس فان لم يكن احد فعلى نفسه ليقل السلام علينا من قبل ربنا واذا دخل المسجد فليقل السلام على رسول الله وعلينا من ربنا قال قتادة وحدثنا ان الملائكة ترد عليه قال القفال وان كان فى البيت اهل الذمة فليقل السلام على من اتبع الهدى وقوله تحية نصب على المصدر كأنه قال فحيوا تحية من عند الله اى امركم الله به قال ابن عباس رضى الله عنهما من قال السلام عليكم معناه اسم الله عليكم وقوله مباركة طيبة قال الضحاك معنى البركة فيه تضعيف الثواب وقال الزجاج اعلم الله سبحانه ان السلام مبارك ثابت لما فيه من الاجر والثواب وانه اذا اطاع الله فيه اكثر خيره واجزل اجره كذلك

لفعل مضمر هو الحال فى الحقيقة اى يلوذون لواذا والفاء فى قوله تعالى (فليحذر الذين يخالفون عن امره) لترتيب الحذر والامر به على ما قبلها من علمه تعالى باحوالهم فانه مما يوجب الحذر البتة اى يخالفون امره بترك مقتضاه ويذهبون سمتا خلاف سمته وعن لما تضمنه معنى الاعراض او حمله على معنى يصدون عن امره دون المؤمنين من خالفه عن الامر اذا صد عنه دونه وحذف المفعول لما ان المقصود بيان المخالف والمخالف عنه والضمير لله تعالى لانه الآمر حقيقة او للرسول عليه الصلاة والسلام لانه المقصود بالذكر (ان تصيبهم فتنة) اى محنة فى الدنيا (او يصيبهم عذاب اليم) اى فى الآخرة وكلمة او لمنع الخلو دون الجمع واعادة الفعل صريحا للاعتناء بالتهديد والتحذير واستدل به على ان الامر للايجاب فان ترتيب العذابين على مخالفته كما يعرب عنه التحذير عن اصابتهما

يبين الله لكم الآيات اى يفصل الله شرائعه لكم لعلكم تعقلون تفهموا عن الله امره ونهيه وروى حميد عن انس قال خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى فى شئ فعلته لم فعلته ولا قال لى فى شئ تركته لم تركته وكنت واقفا على رأس النبى صلى الله عليه وسلم اصب الماء على يديه فرفع رأسه الى وقال الا اعلمك ثلاث خصال تنتفع بها قلت بأبى وامى انت يارسول الله بلى فقال من لقيت من امتى فسلم عليهم يطل عمرك واذا دخلت بيتا فسلم عليهم يكثر خير بيتك وصل صلاة الضحى فانها صلاة الاوابين * قوله تعالى (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على امر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ان الذين يستأذنونك اولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله ان الله غفور رحيم لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن امره ان تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب اليم ألا ان لله مافى السموات والارض قد يعلم ما انتم عليه ويوم يرجعون اليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شئ عليم) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرئ على امر جميع ثم ذكروا فى قوله على امر جامع وجوها (احدها) ان الامر الجامع هو الامر الموجب للاجتماع عليه فوصف الامر بالجمع على سبيل المجاز وذلك نحو مقاتلة عدو او تشاور فى خطب مهم او الامر الذى يعم ضرره و نفعه وفى قوله اذا كانوا معه على امر جامع اشارة الى انه خطب جليل لابد لرسول الله صلى الله عليه وسلم من ارباب التجارب والآراء ليستعين بتجاربهم فمفارقة احدهم فى هذه الحالة مما يشق على قلبه (وثانيها) عن الضحاك فى امر جامع الجمعة والاعياد وكل شئ تكون فيه الخطبة (وثالثها) عن مجاهد فى الحرب وغيره (المسئلة الثانية) اختلفوا فى سبب نزولها قال الكلبى كان صلى الله عليه وسلم يعرض فى خطبته بالمنافقين ويعيبهم فينظر المنافقون يمينا وشمالا فاذا لم يرهم احد انسلوا وخرجوا ولم يصلوا وان ابصرهم احد ثبتوا وصلوا خوفا فنزلت هذه الآية فكان بعد نزول هذه الآية لايخرج المؤمن لحاجته حتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان المنافقون يخرجون بغير اذن (المسئلة الثالثة) قال الجبائى هذا يدل على ان استئذانهم الرسول من ايمانهم ولولا ذلك لجاز ان يكونوا كاملى الايمان وان تركوا الاستئذان وذلك يدل على ان كل فرض لله تعالى واجتناب محرم من الايمان (والجواب) هذا بناء على ان كلمة انما للحصر وايضا فالمنافقون انما تركوا الاستئذان استخفافا ولانزاع فى انه كفر اما قوله تعالى ان الذين يستأذنونك الى قوله ان الله غفور رحيم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ان الذين يستأذنونك المعنى تعظيما لك ورعاية للادب اولئك هم الذين يؤمنون بالله ورسوله اى يعملون بموجب الايمان ومقتضاه قال الضحاك ومقاتل المراد عمر بن الخطاب رضى الله

يوجب وجوب الامتثال به حتما (ألا ان لله مافى السموات والارض) من الموجودات بأسرها خلقا وملكا وتصرفا ايجادا واعداما بدأ واعادة (قد يعلم ما انتم عليه) ايها المكلفون من الاحوال والاوضاع التى من جملتها الموافقة والمخالفة والاخلاص والنفاق (ويوم يرجعون اليه) عطف على ما انتم عليه اى يعلم يوم يرجع المنافقون المخالفون للامر اليه تعالى للجزاء والعقاب وتعليق علمه تعالى بيوم رجوعهم لابرجعهم لزيادة تحقيق علمه تعالى بذلك وغاية تقريره لما ان العلم بوقت وقوع الشئ مستلزم للعلم بوقوعه على ابلغ وجه وآكده وفيه اشعار بأن علمه تعالى لنفس رجوعهم من الظهور بحيث لايحتاج الى البيان قطعا ويجوز ان يكون الخطاب ايضا خاصا بالمنافقين على طريقة الالتفات وقرئ يرجعون مبنيا للفاعل (فينبئهم بما عملوا) من الاعمال السيئة التى من جملتها

عنه وذلك لانه استأذن في غزوة تبوك في الرجوع الى اهله فاذن له وقال له انطلق فوالله مالنت بمنافق يريد أن يسمع المنافقين ذلك الكلام فلما سمعوا ذلك قالوا ما بال محمد اذا استأذنه اصحابه اذن لهم واذا استأذناه لم يأذن لنا فوالله ماتراه يعدل وقال ابن عباس رضى الله عنهما ان عمر استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العمرة فأذن له ثم قال ياابا حفص لاتنسنا من صالح دعائك وفى قوله واستغفر لهم الله وجهان (احدهما) ان يستغفر لهم تنبيها على ان الاولى ان لايقع الاستئذان منهم وان اذن لان الاستغفار يدل على الذنب وربما ذكر عند بعض الرخص (الثانى) يحتمل انه تعالى امره بان يستغفر لهم مقابلة على تمسكهم بآداب الله تعالى فى الاستئذان (المسئلة الثانية) قال قتادة نسخت هذه الآية قوله تعالى لم أذنت لهم (المسئلة الثالثة) الآية تدل على انه سبحانه فوض الى رسوله بعض امر الدين ليجتهد فيه برأيه اما قوله تعالى لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ففيه وجوه (احدها) وهو اختيار المبرد والقفال لاتجعلوا امره اياكم ودعاءه لكم كما يكون من بعضكم لبعض اذا كان امره فرضا لازما والذى يدل على هذا قوله عقيب هذا فليحذر الذين يخالفون عن امره (وثانيها) لاتنادوه كما ينادى بعضكم بعضا يامحمد ياابا القاسم ولكن قولوا يارسول الله يانبى الله عن سعيد بن جبير (وثالثها) لاترفعوا اصواتكم فى دعائه وهو المراد من قوله ان الذين يغضون اصواتهم عند رسول الله عن ابن عباس (ورابعها) احذروا دعاء الرسول عليكم اذا اسخطتموه فان دعاءه موجب ليس كدعاء غيره والوجه الاول اقرب الى نظم الآية اما قوله تعالى قديعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فالمعنى يتسللون قليلا قليلا ونظير تسلل تدرج وتدخل واللواذ الملاوذة وهى ان يلوذ هذا بذاك وذاك بهذا يعنى يتسللون عن الجماعة على سبيل الخفية واستتار بعضهم ببعض ولواذا حال اى ملاوذين وقيل كان بعضهم يلوذ بالرجل اذا استأذن فيؤذن له فينطلق الذى لم يؤذن له معه وقرئ لواذا بالفتح ثم اختلفوا على وجوه (احدها) قال مقاتل كان المنافقون تثقل عليهم خطبة النبى صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة فيلوذون ببعض اصحابه ويخرجون من غير استئذان (وثانيها) قال مجاهد يتسللون من الصف فى القتال (وثالثها) قال ابن قتيبة هذا كان فى حفر الخندق (ورابعها) يتسللون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن كتابه وعن ذكره وقوله قديعلم الله معناه التهديد بالمجازاة اما قوله فليحذر الذين يخالفون عن امره ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الاخفش عن صلة والمعنى يخالفون امره وقال غيره معناه يعرضون عن امره ويميلون عن سنته فدخلت عن لتضمين المخالفة معنى الاعراض (المسئلة الثانية) كما تقدم ذكر الرسول فقد تقدم ذكر الله تعالى لكن القصد هو الرسول فاليه ترجع الكناية وقال ابى بكر الرازى الاظهر انها لله تعالى لانه يليه وحكم الكناية رجوعها الى مايليها دون ماتقدمها (المسئلة الثالثة) الآية تدل على ان ظاهر الامر للوجوب ووجه الاستدلال به ان نقول تارك

مخالفة الامر فيترتب عليه مايليق به من التوبيخ والجزاء وقد وجه التعبير عن الجزاء بالتنبئة فى قوله تعالى انما بغيكم على انفسكم الآية (والله بكل شئ عليم) لايعزب عنه مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة النور اعطى من الاجر عشر حسنات بعدد كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقى والله سبحانه وتعالى اعلم

(المأمور)

المأمور به مخالف لذلك الامر ومخالف الامر مستحق للعقاب فتارك المأمور به مستحق للعقاب ولا معنى للوجوب الا ذلك انما قلنا ان تارك المأمور به مخالف لذلك الامر لان موافقة الامر عبارة عن الاتيان بمقتضاه والمخالفة ضد الموافقة فكانت مخالفة الامر عبارة عن الاخلال بمقتضاه فثبت ان تارك المأمور به مخالف وانما قلنا ان مخالف الامر مستحق للعقاب لقوله تعالى فليحذر الذين يخالفون عن امره أن تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب أليم فأمر مخالف هذا الامر بالحذر عن العقاب والامر بالحذر عن العقاب انما يكون بعد قيام المقتضى لنزول العقاب فثبت ان مخالف امر الله تعالى أو أمر رسوله قد وجد في حقه ما يقتضي نزول العذاب فان قيل لا نسلم ان تارك المأمور به مخالف للامر قوله موافقة الامر عبارة عن الاتيان بمقتضاه ومخالفته عبارة عن الاخلال بمقتضاه قلنا لا نسلم ان موافقة الامر عبارة عن الاتيان بمقتضاه فما الدليل عليه ثم انا نفسر موافقة الامر بتفسيرين (احدهما) ان موافقة الامر عبارة عن الاتيان بما يقتضيه الامر على الوجه الذي يقتضيه الامر فان الامر لو اقتضاه على سبيل الندب وانت تأتي به على سبيل الوجوب كان ذلك مخالفة للامر (الثاني) ان موافقة الامر عبارة عن الاعتراف بكون ذلك الامر حقا واجب القبول فمخالفته تكون عبارة عن انكار كونه حقا واجب القبول سلمنا ان ما ذكرته يدل على ان مخالفة الامر عبارة عن ترك مقتضاه لكنه معارض بوجوه أخر وهو انه لو كان ترك المأمور به مخالفة للامر لكان ترك المندوب لا محالة مخالفة لامر الله تعالى وذلك باطل والا لاستحق العقاب على ما تقدم في المقدمة الثانية سلمنا ان تارك المأمور به مخالف للامر فلم قلت ان مخالف الامر مستحق للعقاب لقوله تعالى فليحذر الذين يخالفون عن امره قلنا لا نسلم ان هذه الآية دالة على امر من يكون مخالفا للامر بالحذر بل هي دالة على الامر بالحذر عن مخالفة الامر فلم لا يجوز ان يكون كذلك سلمنا ذلك لكنها دالة على ان المخالف عن الامر يلزمه الحذر فلم قلت ان مخالف الامر لا يلزمه الحذر (فان قلت) لفظة عن صلة زائدة فنقول الاصل في الكلام لا سيما في كلام الله تعالى ان لا يكون زائدا سلمنا دلالة الآية على ان مخالف امر الله تعالى مأمور بالحذر عن العذاب فلم قلت انه يجب عليه الحذر عن العذاب اقصى ما في الباب انه ورد الامر به لكن لم قلت ان الامر للوجوب وهذا اول المسئلة (فان قلت) هب انه لا يدل على وجوب الحذر لكن لا بد وان يدل على حسن الحذر وحسن الحذر انما يكون بعد قيام المقتضى لنزول العذاب (قلت) لا نسلم ان حسن الحذر مشروط بقيام المقتضى لنزول العذاب بل الحذر يحسن عند احتمال نزول العذاب ولهذا يحسن الاحتياط وعندنا مجرد الاحتمال قائم لان هذه المسئلة احتمالية لا قطعية سلمنا دلالة الآية على وجود ما يقتضي نزول العقاب لكن لا في كل امر بل في امر واحد لان قوله عن امره لا يفيد الا امرا واحدا وعندنا ان امرا واحدا يفيد الوجوب فلم قلت ان كل امر كذلك سلمنا ان كل

قوله فان قيل لا نسلم الخ كذا بالاصل وهي عبارة مختلة حقها لا نسلم ان تارك المأمور به مخالف للامر ولان موافقة الامر عبارة عن الاتيان بمقتضاه ومخالفته عبارة عن الاخلال بذلك لانا نفسر موافقة الامر بتفسيرين احدهما الخ فتكون المخالفة كذلك اه

(سورة الفرقان مكية وهي سبع وسبعون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(تبارك الذي نزل الفرقان) البركة النماء والزيادة حسية كانت او معنوية وكثرة الخير ودوامه ايضا ونسبتها الى الله عز وجل على المعنى الاول وهو الاليق بالمقام باعتبار تعاليه عما سواه في ذاته وصفاته وافعاله التي من جملتها تنزيل القرآن الكريم المعجز الناطق بعلو شأنه تعالى وسمو صفاته وابتناء افعاله على اساس الحكم والمصالح وخلوها عن شائبة الخلل بالكلية وصيغة التفاعل للمبالغة فيما ذكر فان ما لا يتصور نسبته اليه سبحانه حقيقة من الصيغ كالتكبر ونحوه لا تنسب اليه تعالى الا باعتبار غاياتها وعلى المعنى الثاني باعتبار كثرة ما يفيض منه على مخلوقاته لا سيما على الانسان من فنون الخيرات التي من جملتها تنزيل القرآن المنطوي على جميع الخيرات الدينية والدنيوية والصيغة حينئذ يجوز ان تكون لافادة نماء تلك الخيرات وتزايدها شيئا فشيئا وآنا فآنا بحسب حدوثها او حدوث متعلقاتها ولاستقلالها بالدلالة على غاية الكمال وتحققها بالفعل والاشعار بالتعجب المناسب للانشاء والانباء عن نهاية التعظيم لم يجز استعمالها في حق غيره تعالى ولا استعمال

امر كذلك لكن الضمير فى قوله عن امره يحتمل عوده الى الله تعالى وعوده الى الرسول والآية لاتدل الا على ان الامر للوجوب فى حق احدهما فلم قلتم انه فى حق الآخر كذلك (الجواب) قوله لم قلتم ان موافقة الامر عبارة عن الاتيان بمقتضاه قلنا الدليل عليه ان العبد اذا امتثل امر السيد حسن ان يقال ان هذا العبد موافق لسيده ويجرى على وفق امره ولو لم يمتثل امره يقال انه ما وافقه بل خالفه وحسن هذا الاطلاق معلوم بالضرورة من اهل اللغة فثبت ان موافقة الامر عبارة عن الاتيان بمقتضاه قوله الموافقة عبارة عن الاتيان بما يقتضيه الامر على الوجه الذى يقتضيه الامر قلنا ما سلم ان موافقة الامر لاتحصل الا عند الاتيان بمقتضى الامر فنقول لاشك ان مقتضى الامر هو الفعل لان قوله افعل لايدل الا على اقتضاء الفعل واذا لم يوجد الفعل لم يوجد مقتضى الامر فلا توجد الموافقة فوجب حصول المخالفة لانه ليس بين الموافقة والمخالفة واسطة (قوله الموافقة عبارة عن اعتقاد كون ذلك الامر حقا واجب القبول قلنا) هذا لايكون موافقة للامر بل يكون موافقة للدليل الدال على ان ذلك الامر حق فان موافقة الشئ عبارة عن الاتيان بما يقتضى تقرير مقتضاه فاذا دل الدليل على حقية الشئ كان الاعتراف بحقيته يقتضى تقرير مقتضى ذلك الدليل اما الامر فلما اقتضى دخول الفعل فى الوجود كانت موافقته عبارة عما يقرر ذلك الدخول وادخاله فى الوجود يقتضى تقرير دخوله فى الوجود فكانت موافقة الامر عبارة عن فعل مقتضاه (قوله لو كان كذلك لكان تارك المندوب مخالفا فوجب ان يستحق العقاب قلنا) هذا الالزام انما يصح ان لو كان المندوب مأمورا به وهو ممنوع (قوله لم لايجوز ان يكون قوله فليحذر امرا بالحذر عن المخالف لا امرا للمخالف بالحذر قلنا) لو كان كذلك لصار التقدير فليحذر المتسللون لواذا عن الذين يخالفون امره وحينئذ يبقى قوله ان تصيبهم فتنة او تصيبهم عذاب أليم ضائعا لان الحذر ليس فعلا يتعدى الى مفعولين (قوله كلمة عن ليست بزائدة قلنا) ذكرنا اختلاف الناس فيها فى المسئلة الاولى (قوله لم قلتم ان قوله فليحذر يدل على وجوب الحذر عن العقاب) قلنا لاندعى وجوب الحذر ولكن لا أقل من جواز الحذر وذلك مشروط بوجود ما يقتضى وقوع العقاب قوله لم قلت ان الآية تدل على ان كل مخالف للامر يستحق العقاب قلنا) لانه تعالى رتب نزول العقاب على المخالفة فوجب ان يكون معللا به فيلزم عمومه لعموم العلة (قوله هب ان امر الله او أمر رسوله للوجوب فلم قلتم ان الامر كذلك قلنا) لانه لاقائل بالفرق والله اعلم (المسئلة الرابعة) من الناس من قال لفظ الامر مشترك بين الامر القولى وبين الشان والطريق كما يقال امر فلان مستقيم واذا ثبت ذلك كان قوله تعالى عن امره يتناول قول الرسول وفعله وطريقته وذلك يقتضى ان كل ما فعله عليه الصلاة والسلام يكون واجبا علينا وهذه المسئلة مبنية على ان الكناية فى قوله عن امره راجعة الى النبى صلى الله عليه وسلم اما لو كانت راجعة الى الله تعالى فالبحث

غيرها من الصيغ فى حقه تعالى والفرقان مصدر فرق بين الشيئين اى فصل بينهما سمى به القرآن لغاية فرقه بين الحق والباطل باحكامه او بين المحق والمبطل باعجازه او لكونه مفصولا بعضه من بعض فى نفسه او فى انزاله (على عبده) محمد صلى الله عليه وسلم وايراده عليه الصلاة والسلام بذلك العنوان لتشريفه والايذان بكونه عليه الصلاة والسلام فى اقصى مراتب العبودية والتنبيه على ان الرسول لايكون الا عبدا للمرسل ردا على النصارى (ليكون) غاية للتنزيل اى نزله عليه ليكون هو عليه الصلاة والسلام او الفرقان (للعالمين) من الثقلين (نذيرا) اى منذرا او انذارا مبالغة او ليكون تنزيله انذارا وعدم التعرض للتبشير لانسياق الكلام على احوال الكفرة وتقديم اللام على عاملها لمراعاة الفواصل وايراد تنزيل الفرقان فى معرض الصلة التى حقها ان تكون معلومة الثبوت للموصول عند السامع مع انكار الكفرة له لاجرائه مجرى المعلوم المسلم تنبيها على كمال قوة دلائله وكونه بحيث لايكاد يجهله احد كقوله تعالى لاريب فيه (الذى له ملك السموات والارض) اى له خاصة دون غيره لااستقلالا ولا اشتراكا السلطان القاهر والاستيلاء الباهر عليهما المستلزمان للقدرة التامة والتصرف الكلى فيهما وفيما فيهما ايجادا واعداما واحياء واماتة وامرا

ساقط بالكلية وتمام تقرير ذلك ذكرناه فى اصول الفقه والله اعلم اما قوله تعالى ان تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب اليم فالمراد ان مخالفة الامر توجب احد هذين الامرين والمراد بالفتنة العقوبة فى الدنيا وبالعذاب الاليم عذاب الآخرة وانما ردد الله تعالى حال ذلك المخالف بين هذين الامرين لان ذلك المخالف قد يموت من دون عقاب الدنيا وقد يعرض له ذلك فى الدنيا فلهذا السبب اورده تعالى على سبيل الترديد ثم قال الحسن الفتنة هى ظهور نفاقهم وقال ابن عباس رضى الله عنهما القتل وقيل الزلازل والاهوال وعن جعفر بن محمد يسلط عليهم سلطان جائر اما قوله تعالى ألا ان لله ما فى السموات والارض فذلك كالدلالة على قدرته تعالى عليهما وعلى ما بينهما وما فيهما واقتداره على المكلف فيما يعامل به من المجازاة بثواب او بعقاب وعلمه بما يخفيه ويعلنه وكل ذلك كالزجر عن مخالفة امره اما قوله تعالى قد يعلم ما انتم عليه فانما دخل قد لتوكيد علمه بما هم عليه من المخالفة فى الدين والنفاق ويرجع توكيد العلم الى توكيد الوعيد وذلك لان قد اذا دخلت على المضارع كانت بمعنى ربما فوافقت ربما فى خروجها الى معنى التكثير كما فى قول الشاعر

فان يمس مهجور الفناء فربما * أقام به بعد الوفود وفود

والخطاب والغيبة فى قوله تعالى قد يعلم ما انتم عليه ويوم يرجعون اليه يجوز ان يكونا جميعا للمنافقين على طريق الالتفات ويجوز ان يكون ما انتم عليه عاما ويرجعون للمنافقين وقد تقدم فى غير موضع ان الرجوع اليه هو الرجوع الى حيث لا حكم الا له فلا وجه لاعادته والله اعلم وصلى الله على سيدنا محمد النبى الامى وعلى اله وصحبه وسلم

﴿ سورة الفرقان سبع وسبعون آية مكية ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

◎ قوله تعالى (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا الذى له ملك السموات والارض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شئ فقدره تقديرا)

• اعلم ان الله سبحانه وتعالى تكلم فى هذه السورة فى التوحيد والنبوة واحوال القيامة ثم ختمها بذكر صفات العباد المخلصين الموقنين ولما كان اثبات الصانع واثبات صفات جلاله يجب ان يكون مقدما على الكل لا جرم افتتح الله هذه السورة بذلك فقال تبارك الذى نزل الفرقان على عبده وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الزجاج تبارك تفاعل من البركة والبركة كثرة الخير وزيادته وفيه معنيان (احدهما) تزايد خيره وتكاثر وهو المراد من قوله وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها (والثانى) تزايد عن كل شئ وتعالى عنه فى ذاته وصفاته وافعاله وهو المراد من قوله ليس كمثله شئ واما تعاليه عن كل شئ فى ذاته فيحتمل ان يكون المعنى جل بوجوب وجوده وقدمه عن جواز الفناء والتغير عليه وان يكون المعنى جل بفردانيته ووحدانيته عن مشابهة شئ من الممكنات واما تعاليه عن كل شئ فى صفاته فيحتمل ان يكون المعنى جل ان يكون علمه ضروريا او كسبيا او تصورا

ونيا حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح ومحله الرفع على انه خبر لمبتدأ محذوف والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها او على النعت للموصول الاول او بيان له او بدل منه وما بينهما ليس بأجنبى لانه من تمام صلته ومعلومية مضمونه للكفرة مما لاريب فيه لقوله تعالى قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله ونظائره او مدح له تعالى بالرفع او بالنصب (ولم يتخذ ولدا) كما يزعم الذين يقولون فى حق المسيح والملائكة مايقولون فسبحان الله عما يصفون وهو معطوف على ما قبله من الجملة الظرفية ونظمه فى سلك الصلة للايذان بأن مضمونه من الوضوح والظهور بحيث لا يكاد يجهله جاهل لا سيما بعد تقريره بما قبله (ولم يكن له شريك فى الملك) اى ملك السموات والارض وهو ايضا عطف على الصلة وافراده بالذكر مع ان ماذكر من اختصاص ملكهما به تعالى مستلزم له قطعا للتصريح ببطلان زعم الثنوية القائلين بتعدد الآلهة والرد فى نحورهم وتوسيطه بين اتخاذ الولد بينهما للتنبيه على استقلاله واصالته والاحتراز عن توهم كونه تتمة للاول (وخلق كل شئ) اى احدث كل موجود من الموجودات احداثا جاريا على سنن التقدير حسبما اقتضته ارادته المبنية على الحكم البالغة بان خلق

او تصديقا وفى قدرته ان يحتاج الى مادة ومدة ومثال وجلب غرض ومنال واما فى افعاله فجل ان يكون الوجود والبقاء وصلاح حال الوجود الامن قبله وقال آخرون اصل الكلمة تدل على البقاء وهو مأخوذ من بروك البعير ومن بروك الطير على الماء وسميت البركة بركة لثبوت الماء فيها والمعنى انه سبحانه وتعالى باق فى ذاته أزلا وأبدا ممتنع التغير وباق فى صفاته ممتنع التبدل ولما كان سبحانه وتعالى هو الخالق لوجوه المنافع والمصالح والمبقى لها وجب وصفه سبحانه بأنه تبارك وتعالى (المسئلة الثانية) قال اهل اللغة كلمة الذى موضوعة للاشارة الى الشئ عند محاولة تعريفه بقضية معلومة وعند هذا يتوجه الاشكال وهو ان القوم ما كانوا عالمين بأنه سبحانه هو الذى نزل الفرقان فكيف حسن ههنا لفظ الذى وجوابه انه لما قامت الدلالة على كون القرآن معجزا ظهر بحسب الدليل كونه من عند الله فلقوة الدليل وظهوره أجراه سبحانه وتعالى مجرى المعلوم (المسئلة الثالثة) لانزاع ان الفرقان هو القرآن وصف بذلك من حيث انه سبحانه فرق بين الحق والباطل فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وبين الحلال والحرام او لانه فرق فى النزول كما قال وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث وهذا التأويل اقرب لانه قال نزل الفرقان ولفظة نزل تدل على التفريق واما لفظة انزل فتدل على الجمع ولذلك قال فى سورة آل عمران نزل عليك الكتاب بالحق وانزل التوراة والانجيل (واعلم) انه سبحانه وتعالى لما قال اولا تبارك ومعناه كثرة الخير والبركة ثم ذكر عقبه امر القرآن دل ذلك على ان القرآن منشأ الخيرات وأعم البركات لكن القرآن ليس الامنبعا للعلوم والمعارف والحكم فدل هذا على ان العلم اشرف المخلوقات واعظم الاشياء خيرا وبركة (المسئلة الرابعة) لانزاع ان المراد من العبد ههنا محمد صلى الله عليه وسلم عن ابن الزبير على عباده وهم رسول الله وأمته كما قال لقد انزلنا اليكم قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وقوله ليكون للعالمين نذيرا فالمراد ليكون هذا العبد نذيرا للعالمين وقول من قال انه راجع الى الفرقان فأضاف الانذار اليه كما اضاف الهداية اليه فى قوله ان هذا القرآن يهدى فبعيد وذلك لان المنذر والنذير من صفات الفاعل للتخويف واذا وصف به القرآن فهو مجاز وحمل الكلام على الحقيقة اذا امكن هو الواجب * ثم قالوا هذه الآية تدل على احكام (الاول) ان العالم كل ماسوى الله تعالى ويتناول جميع المكلفين من الجن والانس والملائكة لكنا اجمعنا انه عليه السلام لم يكن رسولا الى الملائكة فوجب ان يكون رسولا الى الجن والانس جميعا ويبطل بهذا قول من قال انه كان رسولا الى البعض دون البعض (الثانى) ان لفظ العالمين يتناول جميع المخلوقات فدلت الآية على انه رسول للخلق الى يوم القيامة فوجب ان يكون خاتم الانبياء والرسل (الثالث) قالت المعتزلة دلت الآية على انه سبحانه أراد الايمان وفعل الطاعات من الكل لانه انما بعثه الى الكل ليكون نذيرا للكل وأراد من الكل الاشتغال بالحسن والاعراض عن القبيح

(وعارضهم)

كلا منها من مواد مخصوصة على صور معينة ورتب فيه قوى وخواص مختلفة الآثار والاحكام (فقدره) اى هيأه لما اراد به من الخصائص والافعال اللائقة به (تقديرا) بديعا لايقادر قدره ولايبلغ كنهه كتهيئة الانسان للفهم والادراك والنظر والتدبر فى امور المعاش والمعاد واستنباط الصنائع المتنوعة ومزاولة الاعمال المختلفة وهكذا احوال سائر الانواع وقيل اريد بالخلق مطلق الايجاد والاحداث مجازا من غير ملاحظة معنى التقدير وان لم يخل عنه فى نفس الامر فالمعنى اوجد كل شئ فقدره فى ذلك الايجاد تقديرا واما ماقيل من انه سمى احداثه تعالى خلقا لانه تعالى لايحدث شيئا الا على وجه التقدير من غير تفاوت ففيه ان ارتكاب المجاز بحمل الخلق على مطلق الاحداث لتجريده عن معنى التقدير فاعتباره فيه بوجه من الوجوه مخل بالمرام قطعا وقيل المراد بالتقدير الثانى هو التقدير للبقاء الى الاجل المسمى وايا ما كان فالجملة جارية مجرى التعليل لما قبلها من الجمل المنتظمة معها فى سلك الصلة فان خلقه تعالى لجميع الاشياء على ذلك النمط البديع كما يقتضى استقلاله تعالى باتصافه بصفات الالوهية يقتضى انتظام كل ماسواه كائنا ما كان تحت ملكوته القاهرة بحيث لايشذ عنها شئ من ذلك قطعا

وعارضهم اصحابنا بقوله تعالى ولقد ذرأنا لجهنم الآية (الرابع) لقائل ان يقال ان قوله تبارك كما دل على كثرة الخير والبركة لابد وان يكون المذكور عقيبه مايكون سببا لكثرة الخير والمنافع والانذار يوجب الغم والخوف فكيف يليق هذا لهذا الموضع (جوابه) ان هذا الانذار يجرى مجرى تأديب الولد وكانه كما كانت المبالغة فى تأديب الولد اكثر كان الاحسان اليه اكثر لما ان ذلك يؤدى فى المستقبل الى المنافع العظيمة فكذا ههنا كما كان الانذار كثيرا كان رجوع الخلق الى الله اكثر فكانت السعادة الاخروية أتم واكثر وهذا كالتنبيه على انه لا التفات الى المنافع العاجلة وذلك لانه سبحانه لما وصف نفسه بانه الذى يعطى الخيرات الكثيرة لم يذكر الامنافع الدين ولم يذكر البتة شيئا من منافع الدنيا ● ثم انه سبحانه وصف ذاته باربع انواع من صفات الكبرياء (اولها) قوله الذى له ملك السموات والارض وهذا كالتنبيه على الدلالة على وجوده سبحانه لانه لاطريق الى اثباته الا بواسطة احتياج افعاله اليه فكان تقديم هذه الصفة على سائر الصفات كالامر الواجب وقوله له مافى السموات والارض اشارة الى احتياج هذه المخلوقات اليه سبحانه بزمان حدوثها وزمان بقائها فى ماهيتها وفى وجودها وانه سبحانه هو المتصرف فيها كيف يشاء (وثانيها) قوله ولم يتخذ ولدا فبين سبحانه انه هو المعبود ابدا ولايصح ان يكون غيره معبودا ووارثا لملك عنه فتكون هذه الصفة كالمؤكدة لقوله تبارك ولقوله الذى له ملك السموات والارض وهذا كالرد على النصارى (وثالثها) قوله ولم يكن له شريك فى الملك والمراد انه هو المنفرد بالالهية واذا عرف العبد ذلك انقطع خوفه ورجاؤه عن الكل ولايبقى مشغول القلب الا برحمته واحسانه وفيه الرد على الثنوية والقائلين بعبادة النجوم والقائلين بعبادة الاوثان (ورابعها) قوله وخلق كل شئ فقدره تقديرا وفيه سؤالات (الاول) هل فى قوله وخلق كل شئ دلالة على انه سبحانه خالق لاعمال العباد (الجواب) نعم من وجهين (الاول) ان قوله وخلق كل شئ يتناول جميع الاشياء فيتناول افعال العباد (والثانى) وهو انه تعالى بعد ان نفى الشريك ذكر ذلك والتقدير انه سبحانه لما نفى الشريك كأن قائلا قال ههنا اقوام يعترفون بنفى الشركاء والانداد ومع ذلك يقولون انهم يخلقون افعال انفسهم فذكر الله تعالى هذه الآية لتكون معينة فى الرد عليهم قال القاضى الآية لاتدل عليه لوجوه (احدها) انه سبحانه صرح بكون العبد خالقا فى قوله واذ تخلق من الطين كهيئة الطير وقال فتبارك الله احسن الخالقين (وثانيها) انه سبحانه تمدح بذلك فلايجوز ان يريد به خلق الفساد (وثالثها) انه سبحانه تمدح بانه قدره تقديرا ولايجوز ان يريد به الا الحسن والحكمة دون غيره فثبت بهذه الوجوه انه لابد من التأويل لو دلت الآية بظاهرها عليه فكيف ولادلالة فيها البتة لان الخلق عبارة عن التقدير فهو لايتناول الا مايظهر فيه التقدير وذلك انما يظهر فى الاجسام لافى الاعراض ● والجواب اما قوله واذ تخلق وقوله

وما كان كذلك كيف يتوهم كونه ولدا له سبحانه اوشريكا فى ملكه (واتخذوا من دونه آلهة) بعد مابين حقيقة الحق فى مطلع السورة الكريمة بذكر تنزيله تعالى للفرقان العظيم على رسوله صلى الله عليه وسلم ووصفه تعالى بصفات الكمال وتنزيهه عما لايليق بشأنه الجليل عقب ذلك بحكاية اباطيل المشركين فى حق المنزل سبحانه والمنزل والمنزل عليه على الترتيب واظهار بطلانها والاخبار من غير جريان ذكرهم للثقة بدلالة ماقبله من نفى الشريك عليهم اى اتخذوا لانفسهم متجاوزين الله تعالى الذى ذكر بعض شؤنه الجليلة من اختصاص ملك السموات والارض به تعالى وانتفاء الولد والشريك عنه وخلق جميع الاشياء وتقديرها ابدع تقدير آلهة (لايخلقون شيئا) اى لايقدرون على خلق شئ من الاشياء اصلا (وهم يخلقون) كسائر المخلوقات وقيل لايقدرون على ان يختلقوا شيئا وهم يختلقون حيث يختلقهم عبدتهم بالنحت والتصوير وقوله تعالى (ولايملكون لانفسهم ضرا ولانفعا) لبيان مايدل عليه ماقبله من مراتب عجزهم وضعفهم فان بعض المخلوقين العاجزين عن الخلق ربما يملك دفع الضر وجلب النفع فى الجملة كالحيوان وهؤلاء لايقدرون على التصرف فى ضر ماليدفعوه عن انفسهم ولا فى نفع ما حتى يجلبوه اليهم فكيف يملكون شيئا منهما لغيرهم وتقديم ذكر الضر لان دفعه مع كونه اهم فى نفسه اول مراتب النفع واقدمها والتنصيص على قوله تعالى (ولايملكون موتا ولاحياة ولانشورا)

احسن الخالقين فهما معارضان بقوله الله خالق كل شئ وبقوله هل من خالق غير الله واما قوله لايجوز التمدح بخلق الفساد قلنا لم لايجوز ان يقع التمدح به نظرا الى تقادير القدرة والى ان صفة الايجاد من العدم والاعدام من الوجود ليست الا له واما قوله الخلق لايتناول الا الاجسام فنقول لو كان كذلك لكان قوله خلق كل شئ خطأ لانه يقتضى اضافة الخلق الى جميع الاشياء مع انه لايصح فى العقل اضافته اليها (السؤال الثانى) فى الخلق معنى التقدير فقوله وخلق كل شئ فقدره تقديرا معناه وقدر كل شئ فقدره تقديرا (الجواب) المعنى احدث كل شئ احداثا يراعى فيه التقدير والتسوية فقدره تقديرا وهيأه لما يصلح له مثاله انه خلق الانسان على هذا الشكل المقدر المستوى الذى تراه فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به فى باب الدين والدنيا وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجبلة المستوية المقدرة بامثلة الحكمة والتدبير فقدره لامر ما ومصلحة ما مطابقا لما قدر غير متخلف عنه (السؤال الثالث) هل فى قوله فقدره تقديرا دلالة على مذهبكم (الجواب) نعم وذلك من وجوه (احدها) ان التقدير فى حقنا يرجع الى الظن والحسبان اما فى حقه سبحانه فلا معنى له الا العلم به والاخبار عنه وذلك متفق عليه بيننا وبين المعتزلة فاذا علم فى الشئ الفلانى انه لايقع فلو وقع ذلك الشئ لزم انقلاب علمه جهلا وانقلاب خبره الصدق كذبا وذلك محال والمفضى الى المحال محال فاذن وقوع ذلك الشئ محال والمحال غير مراد فذلك الشئ غير مراد وانه مأمور به فثبت ان الامر والارادة لايتلازمان وظهر ان السعيد من سعد فى بطن امه والشقى من شقى فى بطن امه (وثانيها) انه عند حصول القدرة والداعية الخالصة ان وجب الفعل كان فعل العبد يوجب فعل الله تعالى وحينئذ يبطل قول المعتزلة وان لم يجب فان استغنى عن المرجح فقد وقع الممكن لا عن مرجح وتجويزه يسد باب اثبات الصانع وان لم يستغن عن المرجح فالكلام يعود فى ذلك المرجح ولاينقطع الا عند الانتهاء الى واجب الوجود (وثالثها) ان فعل العبد لو وقع بقدرته لما وقع الا الشئ الذى اراد تكوينه وايجاده لكن الانسان لايريد الا العلم والحق فلا يحصل له الا الجهل والباطل فلو كان الامر بقدرته لما كان كذلك (فان قيل) انما كان لانه اعتقد شبهة اوجبت له ذلك الجهل (قلنا) ان اعتقد تلك الشبهة لشبهة اخرى لزم التسلسل وهو محال فلابد من الانتهاء الى جهل اول ووقع فى قلب الانسان لابسبب جهل سابق بل الانسان احدثه ابتداء من غير موجب وذلك محال لان الانسان قط لايرضى لنفسه بالجهل ولايحاول تحصيل الجهل لنفسه بل لايحاول الا العلم فوجب ان لايحصل له الا ماقصده واراده وحيث لم يكن كذلك علمنا ان الكل بقضاء سار وقدر نافذ وهو المراد من قوله وخلق كل شئ فقدره تقديرا ❊ قوله تعالى (واتخذوا من دونه آلهة لايخلقون شيئا وهم يخلقون ولايملكون لانفسهم ضرا ولانفعا ولايملكون موتا ولاحياة ولانشورا) اعلم انه سبحانه وتعالى لما وصف نفسه بصفات

اى لايقدرون على التصرف فى شئ منها بالاماتة والاحياء واحياء الموتى وبعثهم بعد بيان عجزهم عما هو اهون من هذه الامور من دفع الضر وجلب النفع للتصريح بعجزهم عن كل واحد مما ذكر على التفصيل والتنبيه على ان الاله يجب ان يكون قادرا على جميع ذلك وفيه ايذان بغاية جهلهم وسخافة عقولهم كأنهم غير عارفين بانتفاء ماتفى عن آلهتهم من الامور المذكورة مفتقرون الى التصريح بذلك (وقال الذين كفروا ان هذا الا افك) شروع فى حكاية اباطيلهم المتعلقة بالمنزل والمنزل عليه معا وابطالها والموصول اما عبارة عن غلاتهم فى الكفر والطغيان وهم النضر ابن الحرث وعبدالله بن امية ونوفل بن خويلد ومن ضامهم وروى عن الكلبى ومقاتل ان القائل هو النضر بن الحرث والجمع لمشايعة الباقين له فى ذلك واما عن كلهم ووضع الموصول موضع ضميرهم للنعى عليهم بما فى حيز الصلة والايذان بان ماتفوهوا به كفر عظيم وفى كلمة هذا حط لرتبة المشار اليه اى ماهذا الا كذب مصروف عن وجهه (افتراه) يريدون انه اختلقه رسول الله صلى الله عليه وسلم (واعانه عليه) اى على اختلاقه (قوم آخرون) يعنون اليهود بان يلقوا اليه اخبار الامم الدارجة وهو يعبر عنها بعبارته وقيل هما جبر ويسار كانا يصنعان السيف بمكة ويقرآن التوراة والانجيل وقيل هو عابس وقد مر تفصيله فى سورة النحل (فقد جاؤا ظلما) منصوب بجاؤا فان جاء واتى يستعملان فى معنى فعل

الجلال والعزة والعلو اردف ذلك بتزييف مذهب عبدة الاوثان وبين نقصانها من وجوه (احدها) انها ليست خالقة للاشياء والاله يجب ان يكون قادرا على الخلق والايجاد (وثانيها) انها مخلوقة والمخلوق محتاج والاله يجب ان يكون غنيا (وثالثها) انها لا تملك لانفسها ضرا ولا نفعا ومن كان كذلك فهو لا يملك لغيره ايضا نفعا ومن كان كذلك فلا فائدة في عبادته (ورابعها) انها لا تملك موتا ولا حياة ولا نشورا اى لا تقدر على الاحياء والاماتة في زمان التكليف وثانيا في زمان المجازاة ومن كان كذلك كيف يسمى الها وكيف يحسن عبادته مع ان حق من يحق له العبادة ان ينعم بهذه النعم المخصوصة وههنا سؤالات (الاول) قوله واتخذوا من دونه آلهة هل يختص بعبدة الاوثان او يدخل فيه النصارى وعبدة الكواكب وعبدة الملائكة (والجواب) قال القاضى يبعد ان يدخل فيه النصارى لانهم لم يتخذوا من دون الله آلهة على الجمع فالاقرب ان المراد به عباد الاصنام ويجوز ان يدخل فيه من عبد الملائكة لان لمعبودهم كثرة ولقائل ان يقول قوله واتخذوا صيغة جمع وقوله آلهة جمع والجمع اذا قوبل بالجمع يقابل المفرد بالمفرد فلم يكن كون معبود النصارى واحدا مانعا من دخوله تحت هذا اللفظ (السؤال الثانى) احتج بعض اصحابنا بقوله واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون على ان فعل العبد مخلوق لله تعالى فقال ان الله تعالى عاب هؤلاء الكفار من حيث عبدوا ما لا يخلق شيئا وذلك يدل على ان من خلق يستحق ان يعبد فلو كان العبد خالقا لكان معبودا الها اجاب الكعبى عنه بانا لا نطلق اسم الخالق الا على الله تعالى وقال بعض اصحابنا فى الخلق انه الاحداث لا بعلاج وفكر وتعب ولا يكون ذلك الا الله تعالى ثم قال وقد قال تعالى ألهم ارجل يمشون بها فى وصف الاصنام أفيدل ذلك على ان كل من له رجل يستحق ان يعبد فاذا قالوا لا قيل فكذلك ما ذكرتم وقد قال تعالى فتبارك الله احسن الخالقين هذا كله كلام الكعبى (والجواب) قوله لا يطلق اسم الخالق على العبد قلنا بل يجب ذلك لان الخلق فى اللغة هو التقدير والتقدير يرجع الى الظن والحسبان فوجب ان يكون اسم الخالق حقيقة فى العبد مجازا فى الله تعالى فكيف يمكنكم منع اطلاق لفظ الخالق على العبد اما قوله تعالى ألهم ارجل يمشون بها فالعيب انما وقع عليهم بالعجز فلا جرم ان كل من تحقق العجز فى حقه من بعض الوجوه لم يحسن عبادته واما قوله تعالى فتبارك الله احسن الخالقين فقد تقدم الكلام عليه واعلم ان هذه الآية لا يقوى استدلال اصحابنا بها لاحتمال ان العيب لا يحصل الا بمجموع امرين احدهما انهم ليسوا بخالقين والثانى انهم مخلوقون والعبد وان كان خالقا الا انه مخلوق فلزم ان لا يكون الها معبودا (السؤال الثالث) هل تدل هذه الآية على البعث الجواب نعم لانه تعالى ذكر النشور ومعناه ان المعبود يجب ان يكون قادرا على ايصال الثواب الى المطيعين والعقاب الى العصاة فمن لا يكون كذلك وجب ان لا يصلح للالهية ۞ قوله تعالى (وقال الذين كفروا ان هذا

فيعد يان تعديته او بنزع الخافض اى ولاواله الزجاج والتنوين للتفخيم اى جاؤ بما ظلما هائلا عظيما لا يقادر قدره حيث جعلوا الحق البحت الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه افكا مفترى من قبل البشر وهو من جهة نظمه الرائق وطرزه الفائق بحيث لو اجتمعت الانس والجن على مباراته لعجزوا عن الاتيان بمثل آية من آياته ومن جهة اشتماله على الحكم الخفية والاحكام المستتبعة للسعادات الدينية والدنيوية والامور الغيبية بحيث لا تناله عقول البشر ولا تفى بفهمه القوى والقدر (وزورا) اى كذبا كبيرا لا يبلغ غايته حيث نسبوا اليه عليه الصلاة والسلام ما هو برىء منه والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها لكن لا على انهما امران متغايران حقيقة يقع احدهما عقيب الآخر او يحصل بسببه بل على ان الثانى هو عين الاول حقيقة وانما الترتيب بحسب التغاير الاعتبارى وقد تحقيق ذلك المعنى فان ما جاؤه من الظلم والزور هو عين ما حكى عنهم لكنه لما كان مغايرا له فى المفهوم والظهر منه بطلانا رتب عليه الفاء ترتيب اللازم على الملزوم تهويلا لامره (وقالوا اساطير الاولين) بعد ما جعلوا الحق الذى لا محيد عنه افكا مختلقا باعانة البشر بنوا على زعمهم الفاسد كيفية الاعانة والاساطير جمع اسطار او اسطورة كاحدوثة وهى ما سطره المتقدمون من الخرافات (اكتتبها) اى كتبها لنفسه على الاسناد المجازى او استكتبها وقرئ على البناء للمفعول

الافك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤا ظلما وزورا وقالوا اساطير الاولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا قل انزله الذى يعلم السر فى السموات والارض انه كان غفورا رحيما وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق لولا انزل اليه ملك فيكون معه نذيرا او يلقى اليه كنز او تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا)

اعلم انه سبحانه تكلم اولا فى التوحيد وثانيا فى الرد على عبدة الاوثان وثالثا فى هذه الآية تكلم فى مسئلة النبوة وحكى سبحانه شبههم فى انكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (الشبهة الاولى) قولهم ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ونظيره قوله تعالى انما يعلمه بشر واعلم انه يحتمل ان يريدوا به انه كذب فى نفسه ويحتمل ان يريدوا به انه كذب فى اضافته الى الله تعالى ثم ههنا بحثان (الاول) قال ابو مسلم الافتراء افتعال من فريت وقد يقال فى تقدير الاديم فريت الاديم فاذا اريد قطع الافساد قيل افريت وافتريت وخلقت واختلقت ويقال فيمن شتم امرأ بما ليس فيه افترى عليه (الثانى) قال الكلبى ومقاتل نزلت فى النضر بن الحرث فهو الذى قال هذا القول واعانه عليه قوم آخرون يعنى عداس مولى حويطب بن عبد العزى ويسار غلام عامر بن الحضرمى وجبر مولى عامر وهؤلاء الثلاثة كانوا من اهل الكتاب وكانوا يقرؤن التوراة ويحدثون أحاديث منها فلما اسلموا وكان النبى صلى الله عليه وسلم يتعهدهم فمن اجل ذلك قال النضر ما قال واعلم ان الله تعالى اجاب عن هذه الشبهة بقوله فقد جاؤا ظلما وزورا وفيه ابحاث (الاول) ان هذا القدر انما يكفى جوابا عن الشبهة المذكورة لانه قد علم كل عاقل انه عليه السلام تحداهم بالقرآن وهم النهاية فى الفصاحة وقد بلغوا فى الحرص على ابطال امره كل غاية حتى اخرجهم ذلك الى ما وصفوه به فى هذه الآيات فلو امكنهم ان يعارضوه لفعلوا ولكان ذلك أقرب الى ان يبلغوا مرادهم فيه مما اوردوه فى هذه الآية وغيرها ولو استعان محمد عليه السلام فى ذلك بغيره لامكنهم ايضا ان يستعينوا بغيرهم لان محمدا صلى الله عليه وسلم كاولئك المنكرين فى معرفة اللغة وفى المكنة من الاستعانة فلما لم يفعلوا ذلك والحالة هذه علم ان القرآن قد بلغ النهاية فى الفصاحة وانتهى الى حد الاعجاز ولما تقدمت هذه الدلالة مرات وكرات فى القرآن وظهر بسببها سقوط هذا السؤال ظهر ان اعادة هذا السؤال بعد تقدم هذه الادلة الواضحة لا يكون الا للتمادى فى الجهل والعناد فلذلك اكتفى الله فى الجواب بقوله فقد جاؤا ظلما وزورا (البحث الثانى) قال الكسائى قوله تعالى فقد جاؤا ظلما وزورا اى أتوا ظلما وكذبا وهو كقوله لقد جئتم شيئا ادا فانتصب بوقوع المجئ عليه وقال الزجاج انتصب بنزع الخافض اى جاؤا بالظلم والزور (البحث الثالث) ان الله تعالى وصف كلامهم بانه ظلم وبانه زور اما انه ظلم فلانهم نسبوا هذا الفعل القبيح الى من كان مبرأ عنه فقد وضعوا الشئ فى غير موضعه وذلك هو الظلم

(واما)

لانه عليه الصلاة والسلام امى واصلها اكتتبها له كاتب فحذف اللام وافضى الفعل الى الضمير فصار اكتتبها اياه كاتب ثم حذف الفاعل لعدم تعلق الغرض العلمى بخصوصه وبنى الفعل للضمير المنفصل فاستترفيه (فهى تملى عليه) اى تلقى عليه تلك الاساطير بعد ما كتبها ليحفظها من افواه من يمليها عليه من ذلك المكتتب لكونه اميا لا يقدر على ان يتلقاها منه بالقراءة او تملى على الكاتب على ان معنى اكتتبها اراد اكتتابها او استكتابها ورجع الضمير المجرور اليه عليه الصلاة والسلام لاسناد الكتابة فى ضمن الاكتتاب اليه عليه الصلاة والسلام (بكرة واصيلا) اى دائما او خفية قبل انتشار الناس وحين يأوون الى مساكنهم انظر الى هذه الرتبة من الجراءة العظيمة فاتلهم الله انى يؤفكون (قل) لهم ردا عليهم وتحقيقا للحق (انزله الذى يعلم السر فى السموات والارض) وصفه تعالى باحاطة علمه بجميع المعلومات الجلية والخفية للايذان بانطوا ما انزله على اسرار مطوية عن عقول البشر مع ما فيه من التعريض بمجازاتهم بجناياتهم المحكية التى هى من جملة معلوماته تعالى اى ليس ذلك مما يفترى ويفتعل باعانة قوم وكتابة آخرين من الاحاديث الملفقة واساطير الاولين بل هو امر سماوى انزله الله الذى لا يعزب عن علمه شئ من الاشياء واودع فيه فنون الحكم والاسرار على وجه بديع لا يحوم حوله الافهام حيث اعجزكم

واما الزور فلانهم كذبوا فيه وقال ابو مسلم الظلم تكذيبهم الرسول والرد عليه والزور كذبهم عليه (الشبهة الثانية لهم) قوله تعالى وقالوا اساطير الاولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا وفيه ابحاث (البحث الاول) الاساطير ما سطره المتقدمون كاحاديث رستم واسفنديار جمع اسطار أو اسطورة كاحدوثة اكتتبها انتسخها محمد من اهل الكتاب يعنى عامرا ويسارا وجبرا ومعنى اكتتب ههنا امران يكتب له كما يقال احتجم وافتصد اذا أمر بذلك فهى تملى عليه اى تقرأ عليه والمعنى انها كتبت له وهو امى فهى تلقى عليه من كتابه ليحفظها لان صورة الالقاء على الحافظ كصورة الالقاء على الكاتب اما قوله بكرة وأصيلا قال الضحاك ما يملى عليه بكرة يقرؤه عليكم عشية وما يملى عليه عشية يقرؤه عليكم بكرة (البحث الثانى) قال الحسن قوله فهو تملى عليه بكرة وأصيلا كلام الله ذكره جوابا عن قولهم كأنه تعالى قال ان هذه الآيات تملى عليه بالوحى حالا بعد حال فكيف ينسب الى انه اساطير الاولين واما جمهور المفسرين فقد اتفقوا على ان ذلك من كلام القوم وأرادوا به ان اهل الكتاب املوا عليه فى هذه الاوقات هذه الاشياء ولاشك ان هذا القول اقرب لوجوه (احدها) شدة تعلق هذا الكلام بما قبله فكأنهم قالوا اكتتب اساطير الاولين فهى تملى عليه (وثانيها) ان هذا هو المراد بقولهم واعانه عليه قوم آخرون (وثالثها) انه تعالى اجاب بعد ذلك عن كلامهم بقوله انزله الذى يعلم السر قال صاحب الكشاف وقول الحسن انما يستقيم ان لو فتحت الهمزة للاستفهام الذى فى معنى الانكار وحق الحسن ان يقف على الاولين وأجاب الله عن هذه الشبهة بقوله قل انزله الذى يعلم السر فى السموات والارض انه كان غفورا رحيما وفيه ابحاث (البحث الاول) فى بيان ان هذا كيف يصلح ان يكون جوابا عن تلك الشبهة وتقريره ما قدمنا انه عليه السلام تحداهم بالمعارضة وظهر عجزهم عنها ولو كان عليه السلام أتى بالقرآن بان استعان بأحد لكان من الواجب عليهم ايضا أن يستعينوا بأحد فيأتوا بمثل هذا القرآن فلما عجزوا عنه ثبت أنه وحى الله وكلامه فلهذا قال قل انزله الذى يعلم السر وذلك لان القادر على تركيب الفاظ القرآن لابد وان يكون عالما بكل المعلومات ظاهرها وخافيها من وجوه (احدها) ان مثل هذه الفصاحة لا يتأتى الا من العالم بكل المعلومات (وثانيها) ان القرآن مشتمل على الاخبار عن الغيوب وذلك لا يتأتى الا من العالم بكل المعلومات (وثالثها) ان القرآن مبرأ عن النقص وذلك لا يتأتى الا من العالم على ما قال تعالى ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا (ورابعها) اشتماله على الاحكام التى هى مقتضية لمصالح العالم ونظام العباد وذلك لا يكون الا من العالم بكل المعلومات (وخامسها) اشتماله على انواع العلوم وذلك لا يتأتى الا من العالم بكل المعلومات فلما دل القرآن من هذه الوجوه على انه ليس الا كلام العالم بكل المعلومات لاجرم اكتفى فى جواب شبههم بقوله قل انزله الذى يعلم السر (البحث الثانى) اختلفوا فى المراد بالسر فمنهم من قال المعنى

ناطقة بفصاحته وبلاغته واخبر كم بغيبات مستقبلة وامور مكنونة لا يهتدى اليها ولا يوقف عليها الا بتوفيق العليم الخبير وقد جعلتموه الكا مفترى من قبيل الاساطير واستوجبتم بذلك ان يصب عليكم سوط العذاب صبا فقوله تعالى (انه كان غفورا رحيما) تعليل لما هو المشاهد من تأخير العقوبة اى انه تعالى ازلا وابدا مستمر على المغفرة والرحمة المستتبعين للتأخير فلذلك لا يعجل بعقوبتكم على ما تقولون فى حقه مع كمال استيجابه اياها وغاية قدرته تعالى عليها (وقالوا مال هذا الرسول) شروع فى حكاية جناياتهم المتعلقة بخصوصية المنزل عليه وما استفهامية بمعنى انكار الوقوع ونفيه مرفوعة على الابتداء خبرها ما بعدها من الجار والمجرور وفى هذا التعبير تهكم بشأنه عليه الصلاة والسلام وتسميته عليه الصلاة والسلام رسولا بطريق الاستهزاء به عليه الصلاة والسلام كما قال فرعون ان رسولكم الذى ارسل اليكم وقوله تعالى (يأكل الطعام) حال من الرسول والعامل فيها ما عمل فى الجار من معنى الاستقرار اى اى شئ واى سبب حصل لهذا الذى يدعى الرسالة حال كونه يأكل الطعام كما نأكل (ويمشى فى الاسواق) لابتغاء الارزاق كما نفعله على توجيه الانكار والنفى الى السبب فقط مع تحقق المسبب الذى هو مضمون الجملة الحالية كما

ان العالم بكل سر فى السموات والارض هو الذى يمكنه انزال مثل هذا الكتاب وقال ابو مسلم المعنى انه انزله من يعلم السر فلو كذب عليه لانتقم منه لقوله تعالى ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين وقال آخرون المعنى انه يعلم كل سر خفى فى السموات والارض ومن جملته ماتسرونه انتم من الكيد لرسوله مع علمكم بأن مايقوله حق ضرورة وكذلك باطن امر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبراءته مما تتهمونه به وهو سبحانه يجازيكم ويجازيه على ماعلم منكم وعلمه (البحث الثالث) انما ذكر الغفور الرحيم فى هذا الموضع لوجهين (الاول) قال ابو مسلم المعنى انه انما انزله لاجل الانذار فوجب ان يكون غفورا رحيما غير مستعجل فى العقوبة (الثانى) انه تنبيه على انهم استوجبوا بمكايدتهم هذه ان يصب عليهم العذاب صبا ولكن صرف ذلك عنهم كونه غفورا رحيما يمهل ولا يعجل (الشبهة الثالثة) وهى فى نهاية الركاكة ذكروا له صفات ست فزعموا انها تخل بالرسالة (احداها) قولهم مال هذا الرسول يأكل الطعام (وثانيها) قولهم ويمشى فى الاسواق يعنى انه لما كان كذلك فمن اين له الفضل علينا وهو مثلنا فى هذه الامور (وثالثها) قولهم لولا انزل اليه ملك فيكون معه نذيرا يصدقه او يشهد له ويرد على من خالفه (ورابعتها) قولهم او يلقى اليه كنز أى من السماء فينفقه فلا يحتاج الى التردد لطلب المعاش (وخامستها) قولهم او تكون له جنة يأكل منها قرأ حمزة والكسائى نأكل منها بالنون وقرأ الباقون بالياء والمعنى ان لم يكن لك كنز فلا اقل من ان تكون كواحد من الدهاقين فيكون لك بستان تأكل منه (وسادستها) قولهم ان تتبعون الا رجلا مسحورا وقد تقدمت هذه القصة فى آخر سورة بنى اسرائيل فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة من وجوه (احدها) قوله انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا وفيه ابحاث (الاول) ان هذا كيف يصلح ان يكون جوابا عن تلك الشبهة وبيانه ان الذى يتميز الرسول به عن غيره هو المعجزة وهذه الاشياء التى ذكروها لايقدح شئ منها فى المعجزة فلا يكون شئ منها قادحا فى النبوة فكأنه تعالى قال انظر كيف اشتغل القوم بضرب هذه الامثال التى لافائدة فيها لاجل انهم لما ضلوا وأرادوا القدح فى نبوتك لم يجدوا الى القدح فيه سبيلا البتة اذ الطعن عليه انما يكون بما يقدح فى المعجزات التى ادعاها لابهذا الجنس من القول وفيه وجه آخر وهو انهم لما ضلوا لم يبق فيهم استطاعة قبول الحق وهذا انما يصح على مذهبنا وتقريره بالعقل ظاهر وذلك لان الانسان اما ان يكون مستوى الداعى الى الحق والباطل واما ان يكون داعيه الى احدهما ارجح من داعيته الى الثانى فان كان الاول فحال الاستواء يمتنع الرجحان فيمتنع الفعل وان كان الثانى فحال رجحان احد الطرفين يكون حصول الطرف الآخر ممتنعا فثبت ان حال رجحان الضلالة فى قلبه استحال منه قبول الحق وما كان محالا لم يكن عليه قدرة فثبت انهم لما ضلوا ما كانوا مستطيعين ❊ قوله تعالى

(تبارك الذى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الانهار ويجعل

فى قوله تعالى مالهم لايؤمنون وقوله مالكم لاترجون لله وقارا فكما ان كلا من عدم الايمان وعدم الرجاء امر محقق قد انكر واستبعد تحققه لانتفاء سببه بل لوجود سبب نقيضه كذلك كل من الاكل والمشى امر محقق قد استبعد تحققه لانتفاء سببه بل لوجود سبب عدمه خلا ان استبعاد المسبب وانكار السبب ونفيه فى عدم الايمان وعدم الرجاء بطريق التحقيق وفى الاكل والمشى بطريق التهكم والاستهزاء فانهم لايستبعدونهما ولاينكرون سببهما حقيقة بل هم معترفون بوجودهما وتحقق سببهما وانما الذى يستبعدونه الرسالة المنافية لهما على زعمهم يعنون انه ان صح مايدعيه فماباله لم يخالف حاله حالنا وهل هو الا لعمههم وركاكة عقولهم وقصور انظارهم على المحسوسات فان تميز الرسل عمن عداهم ليس بأمور جسمانية وانما هو بأمور نفسانية كما اشير اليه بقوله تعالى قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد (لولا انزل اليه ملك) اى على صورته وهيئته (فيكون معه نذيرا) تنزل منهم من اقتراح ان يكون ملكا مستغنيا عن الاكل والشرب الى اقتراح ان يكون معه ملك يصدقه ويكون ردأ له فى الانذار وهو يعبر عنه ويفسر مايقوله للعامة وقوله تعالى (او يلقى اليه كنز) تنزل من تلك المرتبة

لك قصورا بل كذبوا بالساعة واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا اذا رأتهم من مكان بعيد
سمعوا لها تغيظا وزفيرا واذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا لاتدعوا
اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا) اعلم ان هذا هو الجواب الثانى عن تلك الشبهة فقوله تبارك الذى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك اى من الذى ذكروه من نعم الدنيا كالكنز والجنة وفسر ذلك الخير بقوله جنات تجرى من تحتها الانهار ويجعل لك قصورا نبه بذلك سبحانه على انه قادر على ان يعطى الرسول كل ماذكروه ولكنه تعالى يدبر عباده بحسب المصالح او على وفق المشيئة ولا اعتراض لأحد عليه فى شئ من افعاله فيفتح على واحد ابواب المعارف والعلوم ويسد عليه ابواب الدنيا وفى حق الآخر بالعكس وماذاك الا انه فعال لما يريد وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قال ابن عباس خيرا من ذلك مما عيروك بفقده الجنة لانهم عيروك بفقد الجنة الواحدة وهو سبحانه قادر على ان يعطيك جنات كثيرة وقال فى رواية عكرمة خيرا من ذلك اى من المشى فى الاسواق وابتغاء المعاش (المسئلة الثانية) قوله ان شاء معناه انه سبحانه قادر على ذلك لا انه تعالى شاك لان الشك لايجوز على الله تعالى وقال قوم ان ههنا بمعنى اذا اى قد جعلنا لك فى الآخرة جنات وبنينا لك قصورا وانما ادخل ان تنبيها للعباد على انه لاينال ذلك الا برحمته وانه معلق على محض مشيئته وانه ليس لاحد من العباد على الله حق لا فى الدنيا ولا فى الآخرة (المسئلة الثالثة) القصور جماعة قصر وهو المسكن الرفيع ويحتمل أن يكون لكل جنة قصر فيكون مسكنا ومنتزها ويجوز ان يكون القصور مجموعه والجنات مجموعه وقال مجاهد ان شاء جعل لك جنات فى الآخرة وقصورا فى الدنيا (المسئلة الرابعة) اختلف القراء فى قوله ويجعل فرفع ابن كثير وابن عامر وعاصم اللام وجزمه الآخرون فمن جزم فلأن المعنى ان شاء يجعل لك جنات ويجعل لك قصورا ومن رفع فعلى الاستئناف والمعنى سيجعل لك قصورا هذا قول الزجاج قال الواحدى وبين القراءتين فرق فى المعنى فمن جزم فالمعنى ان شاء يجعل لك قصورا فى الدنيا ولايحسن الوقوف على الانهار ومن رفع حسن له الوقوف على الانهار واستأنف ويجعل اى ويجعل لك قصورا فى الآخرة وفى مصحف ابى وابن مسعود تبارك الذى ان شاء يجعل (المسئلة الخامسة) عن طاوس عن ابن عباس قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وجبريل عليه السلام عنده قال جبريل عليه السلام هذا ملك قد نزل من السماء استأذن ربه فى زيارتك فلم يلبث الا قليلا حتى جاء الملك وسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ان الله يخيرك بين ان يعطيك مفاتيح كل شئ لم يعطها احدا قبلك ولايعطيه احدا بعدك من غير ان ينقصك مما ادخر لك شيئا فقال عليه السلام بل يجمعها جميعا لى فى الآخرة فنزل قوله تبارك الذى ان شاء الآية وعن ابن عباس قال عليه السلام عرض على جبريل ببطحاء مكة ذهبا فقلت بل شبعة وثلاث جوعات وذلك اكثر لذكرى ومسئلتى لربى وفى رواية صفوان بن سليم عن عبدالوهاب

الى اقتراح ان يلقى اليه من السماء كنز يستظهر به ولايحتاج الى طلب المعاش ويكون دليلا على صدقه وقوله تعالى (او تكون له جنة يأكل منها) تنزل من ذلك الى اقتراح ماهو ايسر منه واقرب من الوقوع وقرئ نأكل بنون الحكاية وفيه مزيد مكابرة وفرط تحكم (وقال الظالمون) هم القائلون الاولون وانما وضع المظهر موضع ضميرهم تسجيلا عليهم بالظلم وتجاوز الحد فيما قالوه لكونه اضلالا خارجا عن حد الضلال مع مافيه من نسبته عليه الصلاة والسلام الى المسحورية اى قالوا للمؤمنين (ان تتبعون) اى ماتتبعون (الا رجلا مسحورا) قد سحر فغلب على عقله وقيل ذا سحر وهى الرئة اى بشرا لاملكا على ان الوصف لزيادة التقرير والاول هو الانسب بحالهم (انظر كيف ضربوا لك الامثال) استعظام للاباطيل التى اجترؤا على التفوه بها وتعجيب منها اى انظر كيف قالوا فى حقك تلك الاقاويل العجيبة الخارجة عن العقول الجارية لغرابتها مجرى الامثال واخترعوا لك تلك الصفات والاحوال الشاذة البعيدة من الوقوع (فضلوا) اى عن طريق المحاجة حيث لم يأتوا بشئ يمكن صدوره عن ادنى عقل وتميز فبقوا متحيرين (فلا يستطيعون سبيلا) الى القدح فى نبوتك بأن يجدوا قولا يستقرون عليه وان

قال عليه السلام اشبع يوما واجوع ثلاثا فاحمدك اذا شبعت واتضرع اليك اذا جعت وعن الضحاك لما عير المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفاقة حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك فنزل جبريل عليه السلام معزياله وقال ان الله يقرؤك السلام ويقول وما ارسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام الآية قال فبينما جبريل عليه السلام والنبي صلى الله عليه وسلم يتحدثان اذ فتح باب من ابواب السماء لم يكن فتح قبل ذلك ثم قال أبشر يا محمد هذا رضوان خازن الجنة قد اتاك بالرضا من ربك فسلم عليه وقال ان ربك يخيرك بين أن تكون نبيا ملكا وبين ان تكون نبيا عبدا ومعه سفط من نور يتلألأ ثم قال هذه مفاتيح خزائن الدنيا فاقبضها من غير ان ينقصك الله مما اعدلك في الآخرة جناح بعوضة فنظر النبي صلى الله عليه وسلم الى جبريل كالمستشير فأومأ بيده ان تواضع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل نبيا عبدا قال فكان عليه السلام بعد ذلك لم يأكل متكئا حتى فارق الدنيا اما قوله تعالى بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا فهذا جواب ثالث عن ثالث الشبهة كأنه سبحانه قال ليس ماتعلقوا به شبهة علية في نفس المسئلة بل الذي حملهم على تكذيبك تكذيبهم بالساعة استثقالا للاستعداد لها ويحتمل ان يكون المعنى انهم يكذبون بالساعة فلا يرجون ثوابا ولا عقابا ولا يتحملون كلفة النظر والفكر فلهذا لا ينتفعون بما يورد عليهم من الدلائل ثم قال واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا وفيه مسائل (الاولى) قال ابو مسلم واعتدنا اى جعلناها عتيدا ومعدة لهم والسعير النار الشديدة الاستعار وعن الحسن انه اسم من اسماء جهنم (المسئلة الثانية) احتج اصحابنا على ان الجنة مخلوقة بقوله تعالى اعدت للمتقين وعلى ان النار التي هي دار العقاب مخلوقة بهذه الآية وهي قوله واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا وقوله اعتدنا اخبار عن فعل وقع في الماضي فدلت الآية على ان دار العقاب مخلوقة قال الجبائي يحتمل واعتدنا النار في الدنيا وبها نعذب الكفار والفساق في قبورهم ويحتمل نار الآخرة ويكون معنى واعتدنا اى سنعتدها لهم كقوله ونادى اصحاب الجنة اصحاب النار واعلم ان هذا السؤال في نهاية السقوط لان المراد من السعير اما نار الدنيا واما نار الآخرة فان كان الاول فاما ان يكون المراد انه تعالى يعذبهم في الدنيا بنار الدنيا او يعذبهم في الآخرة بنار الدنيا والاول باطل لانه تعالى ماعذبهم بالنار في الدنيا والثاني ايضا باطل لانه لم يقل احد من الامة انه تعالى يعذب الكفرة في الآخرة بنيران الدنيا فثبت ان المراد نار الآخرة وثبت انها معدة وحمل الآية على ان الله سيجعلها معدة ترك للظاهر من غير دليل وعلى ان الحسن قال السعير اسم من اسماء جهنم فقوله واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا صريح في انه تعالى اعدجهنم (المسئلة الثالثة) احتج اصحابنا بهذه الآية على ان السعيد من سعد في بطن امه فقالوا ان الذين اعدالله تعالى لهم السعير واخبر عن ذلك وحكم به ان صاروا مؤمنين من اهل الثواب انقلب حكم الله بكونهم من اهل السعير كذبا وانقلب بذلك علمه

كان باطلا في نفسه او فضلوا عن الحق ضلالا مبينا فلا يجدون طريقا موصلا اليه فان من اعتاد استعمال امثال هذه الاباطيل لايكاد يهتدى الى استعمال المقدمات الحقة (تبارك الذى) اى تكاثر وتزايد خير الذى (ان شاء جعل لك) في الدنيا عاجلا شيئا (خيرا) لك (من ذلك) الذى اقترحوه من ان يكون لك جنة تأكل منها بأن يجعل لك مثل ماوعدك في الآخرة وقوله تعالى (جنات تجرى من تحتها الانهار) بدل من خيرا وتحقيق لخيريته مما قالوا لان ذلك كان مطلقا عن قيد التعدد وجريان الانهار (ويجعل لك قصورا) عطف على محل الجزاء الذى هو جعل وقرئ بالرفع عطفا على نفسه لان الشرط اذا كان ماضيا جاز في جزائه الرفع والجزم كما في قول القائل

وان أتاه خليل يوم مسئلة ... يقول لاغائب مالي ولاحرم

ويجوز ان يكون استئنافا بوعد مايكون له في الآخرة وقرئ بالنصب على انه جواب بالواو وتعليق ذلك بمشيئته تعالى للايذان بأن عدم جعلها بمشيئته المبنية على الحكم والمصالح وعدم التعرض لجواب الاقتراحين الاولين للتنبيه على خروجهما عن دائرة العقل واستغنائهما عن الجواب لظهور بطلانهما ومنافاتهما للحكمة التشريعية وانما الذى له وجه في الجملة هو

جهلا وهذا الانقلاب محال والمؤدى الى المحال محال فصيرورة اولئك مؤمنين من اهل الثواب محال فثبت ان السعيد لا ينقلب شقيا والشقى لا ينقلب سعيدا ثم انه سبحانه وتعالى وصف السعير بصفات (احداها) قوله اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) السعير مذكر ولكن جاء ههنا مؤنثا لانه تعالى قال رأتهم وقال سمعوا لها وانما جاء مؤنثا على معنى النار (المسئلة الثانية) مذهب اصحابنا ان البنية ليست شرطا فى الحياة فالنار على ماهى عليه يجوز ان يخلق الله الحياة والعقل والنطق فيها وعند المعتزلة ذلك غير جائز وهؤلاء المعتزلة ليس لهم فى هذا الباب حجة الا استقراء العادات ولو صدق ذلك لوجب التكذيب بانخراق العادات فى حق الرسل فهؤلاء قولهم متناقض بل انكار العادات لا يليق الا بأصول الفلاسفة فعلى هذا قال اصحابنا قول الله تعالى فى صفة النار اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا يجب اجراؤه على الظاهر لانه لا امتناع فى ان تكون النار حية رائية مغتاظة على الكفار اما المعتزلة فقد احتاجوا الى التأويل وذكروا فيه وجوها احدها قالوا معنى رأتهم ظهرت لهم من قولهم دورهم تتراءى وتتناظر وقال عليه السلام ان المؤمن والكافر لا تتراءى ناراهما اى لا تتقابلان لما يجب على المؤمن من مجانبة الكافر والمشرك ويقال دور فلان متناظرة اى متقابلة (وثانيها) ان النار لشدة اضطرامها وغليانها صارت ترى الكفار وتطلبهم وتغيظ عليهم (وثالثها) قال الجبائى ان الله تعالى ذكر النار واراد الخزنة الموكلة بتعذيب اهل النار لان الرؤية تصح منهم ولا تصح من النار فهو كقوله واسأل القرية اراد اهلها (المسئلة الثالثة) لقائل ان يقول التغيظ عبارة عن شدة الغضب وذلك لا يكون مسموعا فكيف قال الله تعالى سمعوا لها تغيظا وزفيرا والجواب عنه من وجوه (احدها) ان التغيظ وان لم يسمع فانه قد يسمع ما يدل عليه من الصوت وهو كقوله رأيت غضب الامير على فلان اذا رأى ما يدل عليه وكذلك يقال فى المحبة فكذا ههنا والمعنى سمعوا لها صوتا يشبه صوت المتغيظ وهو قول الزجاج (وثانيها) المعنى علموا لها تغيظا وسمعوا لها زفيرا وهذا قول قطرب وهو كقول الشاعر متقلدا سيفا ورمحا (وثالثها) المراد تغيظ الخزنة (المسئلة الرابعة) قال عبيد بن عمير ان جهنم لتزفر زفرة لا يبقى احد الا ترعد فرائصه حتى ان ابراهيم عليه السلام يجثو على ركبتيه ويقول نفسى نفسى (الصفة الثانية لسعير) قوله تعالى واذا القوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا واعلم ان الله سبحانه لما وصف حال الكفار حين ما يكونون بالبعد من جهنم وصف حالهم عند ما يلقون فيها نعوذ بالله منه بما لا شئ ابلغ منه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى ضيقا قراءتان التشديد والتخفيف وهو قراءة ابن كثير (المسئلة الثانية) نقل فى تفسير الضيق امور قال قتادة ذكر لنا عبد الله بن عمر قال ان جهنم لتضيق على الكافر كضيق الزج على الرمح وسئل النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال والذى نفسى بيده انهم يستكرهون فى النار كما يستكره الوتد فى الحائط قال الكلبى

الاقتراح الاخير فانه غير مناف للحكمة بالكلية فان بعض الانبياء عليهم الصلاة والسلام قد اوتوا فى الدنيا مع النبوة ملكا عظيما (بل كذبوا بالساعة) اضراب عن توبيخهم بحكاية جناياتهم السابقة وانتقال منه الى توبيخهم بحكاية جنايتهم الاخرى للتخلص الى بيان ما لهم فى الآخرة بسببها من فنون العذاب بقوله تعالى (واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا) الخ اى اعتدنا لهم نارا عظيمة شديدة الاشتعال شأنها كيت وكيت بسبب تكذيبهم بها على ما يشعر به وضع الموصول موضع ضميرهم او لكل من كذب بها كائنا من كان وهم داخلون فى زمرتهم دخولا اوليا ووضع الساعة موضع ضميرها للمبالغة فى التشنيع ومدار اعتاد السعير لهم وان لم يكن مجرد تكذيبهم بالساعة بل مع تكذيبهم بسائر ما جاء به الشريعة الشريفة لكن الساعة لما كانت هى العلة القريبة لدخولهم السعير اشير الى سببية تكذيبها لدخولها وقيل هو عطف على وقالوا ما لهذا الخ على معنى بل اتوا باعجب من ذلك حيث كذبوا بالساعة وانكروها والحال انا قد اعتدنا لكل من كذب بها سعيرا فان جراءتهم على التكذيب بها وعدم خوفهم مما اعد لمن كذب بها من انواع العذاب اعجب من القول السابق وقيل هو متصل بما

الاسفلون يرفعهم اللهيب والاعلون يخفضهم الداخلون فيزدحمون فى تلك الابواب الضيقة قال صاحب الكشاف الكرب مع الضيق كما ان الروح مع السعة ولذلك وصف الله الجنة بأن عرضها السموات والارض وجاء فى الاحاديث ان لكل مؤمن من القصور والجنان كذا وكذا ولقد جمع الله على اهل النار انواع البلاء حيث ضم الى العذاب الشديد الضيق (المسئلة الثالثة) قالوا فى تفسير قوله تعالى مقرنين فى الاصفاد ان اهل النار مع ماهم فيه من العذاب الشديد والضيق الشديد يكونون مقرنين فى السلاسل قرنت ايديهم الى اعناقهم وقيل يقرن مع كل كافر شيطانه فى سلسلة وفى ارجلهم الاصفاد ثم انه سبحانه حكى عن اهل النار انهم حين مايشاهدون هذا النوع من العقاب الشديد دعوا ثبورا والثبور الهلاك ودعاؤهم ان يقولوا واثبوراه اى يقولوا ياثبور هذا حينك وزمانك وروى أنس مرفوعا اول من يكسى حلة من النار ابليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه ذريته وهو يقول ياثبوراه وينادون ياثبورهم حتى يردوا النار اما قوله لاتدعوا اليوم ثبورا واحدا اى يقال لهم ذلك وهم احقاء بأن يقال لهم ذلك وان لم يكن ثم قول ومعنى وادعوا ثبورا كثيرا انكم وقعتم فيما ليس ثبوركم منه واحدا انما هو ثبور كثير اما لان العذاب انواع والوان لكل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته اولانهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها اولان ذلك العذاب دائم خالص عن الشوب فلهم فى كل وقت من الاوقات التى لانهاية لها ثبور اولانهم ربما يجدون بسبب ذلك القول نوعا من الخفة فان المعذب اذا صاح وبكى وجد بسببه نوعا من الخفة فيزجرون عن ذلك ويخبرون بأن هذا الثبور سيزداد كل يوم ليزداد حزنهم وغمهم نعوذ بالله منه قال الكلبى نزل هذا كله فى حق ابى جهل والكفار الذين ذكروا تلك الشبهات * قوله تعالى (قل أذلك خير ام جنة الخلد التى وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا لهم فيها مايشاؤن خالدين كان على ربك وعدا مسؤلا) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما وصف حال العقاب المعد للمكذبين بالساعة اتبعه بما يؤكد الحسرة والندامة فقال لرسوله قل أذلك خير ام جنة الخلد ان يلتمسوها بالتصديق والطاعة فان قيل كيف يقال العذاب خير ام جنة الخلد وهل يجوز ان يقول العاقل السكر احلى ام الصبر قلنا هذا يحسن فى معرض التقريع كما اذا اعطى السيد عبده مالا فتمرد وأبى واستكبر فيضربه ضربا وجيعا ويقول على سبيل التوبيخ هذا اطيب ام ذاك (المسئلة الثانية) احتج اصحابنا بقوله وعد المتقون على ان الثواب غير واجب على الله تعالى لان من قال السلطان وعد فلانا ان يعطيه كذا فانه يحمل ذلك على التفضل فاما لو كان ذلك الاعطاء واجبا لايقال انه وعده به اما المعتزلة فقد احتجوا به ايضا على مذهبهم قالوا لانه سبحانه اثبت ذلك الوعد للموصوفين بصفة التقوى وترتيب الحكم على الوصف مشعر بالعلية فكذا يدل هذا على ان ذلك الوعد انما حصل معللا بصفة التقوى والتفضيل غير

(مخص)

قبله من الجواب المبنى على التحقيق المبنى عن الوعد بالجنات فى الآخرة مسوق لبيان ان ذلك لايجدى نفعا ولا يعلى بطائل على طريقة قول من قال

عوجوا النعم فحيوا دمنة الدار
ماذا تحيون من نؤى واحجار

والمعنى انهم لايؤمنون بالساعة فكيف يقتنعون بهذا الجواب وكيف يصدقون بتعجيل مثل ماوعدك فى الآخرة وقيل المعنى بل كذبوا بها فقصرت انظارهم على الحظوظ الدنيوية وظنوا ان الكرامة ليست الا بالمال وجعلوا فقرك ذريعة الى تكذيبك وقوله تعالى (اذا رأتهم) الخ صفة للسعير اى اذا كانت منهم بمرأى الناظر فى البعد كقوله عليه الصلاة والسلام لاتتراءى ناراهما اى لاتتقاربان بحيث تكون احداهما بمرأى من الاخرى على المجاز كأن بعضها يرى البعض ونسبة الرؤية اليها لا اليهم للايذان بأن التغيظ والزفير منها لهيجان غضبها عليهم عند رؤيتها اياهم حقيقة او تخييلا ومن قوله تعالى (من مكان بعيد) اشعار بأن بعد مابينها وبينهم من المسافة حين رأتهم خارج عن حدود البعد المعتاد فى المسافات المعهودة وفيه مزيد تهويل لامرها قال الكلبى والسدى من مسيرة عام وقيل من مسيرة مائة سنة (سمعوا لها تغيظا وزفيرا) اى صوت تغيظ على تشبيه صوت غليانها بصوت

مختص بالمتقين فوجب ان يكون المختص بهم واجبا (المسئلة الثالثة) قال ابو مسلم جنة الخلد هى التى لا ينقطع نعيمها والخلد والخلود سواء كالشكر والشكور قال الله تعالى لا نريد منكم جزاء ولا شكورا فان قيل الجنة اسم لدار الثواب وهى مخلدة فأى فائدة فى قوله جنة الخلد قلنا الاضافة قد تكون للتمييز وقد تكون لبيان صفة الكمال كما يقال الله الخالق البارئ وما هنا من هذا الباب * اما قوله كانت لهم جزاء ومصيرا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) المعتزلة احتجوا بهذه الآية على اثبات الاستحقاق من وجهين (الاول) ان اسم الجزاء لا يتناول الا المستحق فأما الوعد بمحض التفضيل فانه لا يسمى جزاء (والثانى) لو كان المراد من الجزاء الامر الذى يصيرون اليه بمجرد الوعد فحينئذ لا يبقى بين قوله جزاء وبين قوله مصيرا تفاوت فيصير ذلك تكرارا من غير فائدة قال اصحابنا رحمهم الله لا نزاع فى كونه جزاء انما النزاع فى ان كونه جزاء ثبت بالوعد او بالاستحقاق وليس فى الآية ما يدل على التعيين (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة الآية تدل على ان الله تعالى لا يعفو عن صاحب الكبيرة من وجهين (الاول) ان صاحب الكبيرة يستحق العقاب فوجب ان لا يكون مستحقا للثواب لان الثواب هو النفع الدائم الخالص عن شوب الضرر والعقاب هو الضرر الدائم الخالص عن شوب النفع والجمع بينهما محال وما كان ممتنع الوجود امتنع ان يحصل استحقاقه فاذن متى ثبت استحقاق العقاب وجب ان يزول استحقاق الثواب فنقول لو عفا الله عن صاحب الكبيرة لكان اما ان يخرجه من النار ولا يدخله الجنة وذلك باطل بالاجماع لانهم اجمعوا على ان المكلفين يوم القيامة اما ان يكونوا من اهل الجنة او من اهل النار لانه تعالى قال فريق فى الجنة وفريق فى السعير واما ان يخرجه من النار ويدخله الجنة وذلك باطل لان الجنة حق المتقين لقوله تعالى كانت لهم جزاء ومصيرا فجعل الجنة لهم ومختصة بهم وبين انها انما كانت لهم لكونها جزاء لهم على اعمالهم فكانت حقا لهم واعطاء حق الانسان لغيره لا يجوز ولما بطلت الاقسام ثبت ان العفو غير جائز (اجاب) اصحابنا لم لا يجوز ان يقال المتقون يرضون بادخال الله اهل العفو فى الجنة فحينئذ لا يمتنع دخولهم فيها (الوجه الثانى) قالوا المتقى فى عرف الشرع مختص بمن اتقى الكفر والكبائر وانا وان اختلفنا فى ان صاحب الكبيرة هل يسمى مؤمنا ام لا لكنا اتفقنا على انه لا يسمى متقيا ثم قال فى وصف الجنة انها كانت لهم جزاء ومصيرا وهذا للحصر والمعنى انها مصير للمتقين لا لغيرهم واذا كان كذلك وجب ان لا يدخلها صاحب الكبيرة قلنا اقصى ما فى الباب ان هذا عموم صريح فى الوعيد فنخصصه بآيات الوعد (المسئلة الثالثة) لقائل ان يقول ان الجنة ستصير للمتقين جزاء ومصيرا لكنها بعد ما صارت كذلك فلم قال الله تعالى كانت لهم جزاء ومصيرا جوابه من وجهين (الاول) ان ما وعد الله فهو فى تحققه كأنه قد كان (والثانى) انه كان مكتوبا فى اللوح قبل ان يخلقهم الله تعالى بأزمنة متطاولة ان الجنة جزاؤهم ومصيرهم * اما قوله تعالى لهم فيها ما يشاؤن

المغتاظ وزفيره وهو صوت يسمع من جوفه هذا وان الحياة لما لم تكن مشروطة عندنا بالبنية امكن ان يخلق الله تعالى فيهما حياة فترى وتتغيظ وتزفر وقيل ان ذلك لزبانيتها فنسب اليها على حذف المضاف (واذا القوا منها مكانا) نصب على الظرفية ومنها حال منه لانه فى الاصل صفة له (ضيقا) صفة لمكانا مفيدة لزيادة شدة فان الكرب مع الضيق كما ان الروح مع السعة وهو السر فى وصف الجنة بأن عرضها السموات والارض وعن ابن عباس وابن عمر رضى الله تعالى عنهم تضيق جهنم عليهم كما يضيق الزج على الرمح وسئل النبى عليه الصلاة والسلام عن ذلك فقال والذى نفسى بيده انهم ليستكرهون فى النار كما يستكره الوتد فى الحائط قال الكلبى الاسفلون يرفعهم اللهب والاعلون يحطهم الداخلون فيزدحمون فيها وقرئ ضيقا بسكون الياء (مقرنين) حال من مفعول القوا اى اذا القوا منها مكانا ضيقا حال كونهم مقرنين قد قرنت ايديهم الى اعناقهم بالجوامع وقيل مقرنين مع الشياطين فى السلاسل كل كافر مع شيطان وفى ارجلهم الاصفاد (دعوا هنالك) اى فى ذلك المكان الهائل والحالة الفظيعة (ثبورا) اى يتمنون هلاكا وينادونه يا ثبوراه تعال فهذا حينك واوانك (لا تدعوا اليوم

خالدين فهو نظير قوله ولكم فيها ماتشتهى الانفس وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لقائل ان يقول اهل الدرجات النازلة اذا شاهدوا الدرجات العالية لابدوان يريدوها فاذا سألوها ربهم فان اعطاهم اياها لم يبق بين الناقص والكامل تفاوت فى الدرجة وان لم يعطها قدح ذلك فى قوله لهم فيها مايشاؤن وايضا فالاب اذا كان ولده فى درجات النيران واشد العذاب اذا اشتهى ان يخلصه الله تعالى من ذلك العذاب فلابد وان يسأل ربه ان يخلصه منه فان فعل الله تعالى ذلك قدح فى ان عذاب الكافر مخلد وان لم يفعل قدح ذلك فى قوله ولكم فيها ماتشتهى انفسكم وفى قوله لهم فيها مايشاؤن وجوابه ان الله تعالى يزيل ذلك الخاطر عن قلوب اهل الجنة بل يكون اشتغال كل واحد منهم بما فيه من اللذات شاغلا عن الالتفات الى حال غيره (المسئلة الثانية) شرط نعيم الجنة ان يكون دائما اذلو انقطع لكان مشوبا بضرب من الغم ولذلك قال المتنبى

اشد الغم عندى فى سرور * تيقن عنه صاحبه انتقالا

ولذلك اعتبر الخلود فيه فقال لهم فيها مايشاؤن خالدين (المسئلة الثالثة) قوله تعالى لهم فيها مايشاؤن كالتنبيه على ان حصول المرادات بأسرها لايكون الا فى الجنة فاما فى غيرها فلا يحصل ذلك بل لابد فى الدنيا من ان تكون راحاتها مشوبة بالجراحات ولذلك قال عليه السلام من طلب مالم يخلق اتعب نفسه ولم يرزق فقيل وما هو يارسول الله فقال سرور يوم * اما قوله كان على ربك وعدا مسؤلا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) كلمة على للوجوب قال عليه السلام من نذر وسمى فعليه الوفاء بما سمى فقوله كان على ربك يفيد ان ذلك واجب على الله تعالى والواجب هو الذى لو لم يفعل لاستحق تاركه بفعله الذم اوانه الذى يكون عدمه ممتنعا فان كان الوجوب على التفسير الاول كان تركه محالا لان تركه لما استلزم استحقاق الذم واستحقاق الله تعالى الذم محال ومستلزم المحال محال كان ذلك الترك محالا والمحال غير مقدور فلم يكن الله تعالى قادرا على ان لايفعل فيلزم ان يكون ملجأ الى الفعل وان كان الوجوب على التفسير الثانى وهو ان يقال الواجب مايكون عدمه ممتنعا يكون القول بالالجاء لازما فلم يكن الله قادرا فان قيل انه ثبت بحكم الوعد فنقول لو لم يفعل لانقلب خبره الصدق كذبا وعلمه جهلا وذلك محال والمؤدى الى المحال محال فالترك محال فيلزم ان يكون ملجأ الى الفعل والملجأ الى الفعل لايكون قادرا ولايكون مستحقا للثناء والمدح هذا تمام السؤال (وجوابه) ان فعل الشئ متقدم على الاخبار عن فعله وعن العلم بفعله فيكون ذلك الفعل فعلا لاعلى سبيل الالجاء فكان قادرا ومستحقا للثناء والمدح (المسئلة الثانية) قوله وعدا يدل على ان الجنة حصلت بحكم الوعد لابحكم الاستحقاق وقد تقدم تقريره (المسئلة الثالثة) قوله مسؤلا ذكروا فيه وجوها (احدها) ان المكلفين سألوه بقولهم ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك (وثانيها) ان المكلفين سألوه بلسان الحال لانهم لما تحملوا المشقة الشديدة فى طاعته كان ذلك قائما مقام

ثبورا واحدا) على تقدير قول اما منصوب على انه حال من فاعل دعوا اى دعوه مقولا لهم ذلك حقيقة بان يخاطبهم الملائكة به لتنبيههم على خلود عذابهم وانهم لايجابون الى مايدعونه ولاينالون ماتمنونه من الهلاك المنجى او تمثيلا وتصويرا لحالهم بحال من يقال له ذلك من غير ان يكون هناك قول ولاخطاب اى دعوه حال كونهم احقاء بان يقال لهم ذلك واما مستأنف وقع جوابا عن سؤال ينسحب عليه الكلام كأنه قيل فماذا يكون عند دعائهم المذكور فقيل يقال لهم ذلك اقناطا مما علقوا به اطماعهم من الهلاك وتنبيها على ان عذابهم الملجئ لهم الى استدعاء الهلاك بالمرة ابدى لاخلاص لهم منه اى لاتقتصروا على دعاء ثبور واحد (وادعوا ثبورا كثيرا) اى بحسب كثرة الدعاء المتعلق به لابحسب كثرته فى نفسه فان مايدعونه ثبور واحد فى حد ذاته لكنه كلما تعلق به دعاء من تلك الادعية الكثيرة صار كأنه ثبور مغاير لما تعلق به دعاء آخر منها وتحقيقه لاتدعوه دعاء واحدا وادعوه ادعية كثيرة فان ماانتم فيه من العذاب لغاية شدته وطول مدته مستوجب لتكرير الدعاء فى كل آن وهذا ادل على فظاعة العذاب وهوله من جعل تعدد الدعاء وتجدده لتعدد العذاب بتعدد انواعه والوانه او لتعدده

السؤال قال المتنبي

وفي النفس حاجات وفيك فطانة ٭ سكوتي كلام عندها وخطاب

(وثالثها) الملائكة سألوا الله تعالى ذلك بقولهم ربنا وادخلهم جنات عدن (ورابعها) وعدا مسؤلا اى واجبا يقال لاعطينك الفا وعدا مسؤلا اى واجبا وان لم تسأل قاله الفراء وسائر الوجوه اقرب من هذا لان سائر الوجوه اقرب الى الحقيقة وما قاله الفراء مجاز (وخامسها) مسؤلا اى من حقه ان يكون مسؤلا لانه حق واجب اما بحكم الاستحقاق على قول المعتزلة او بحكم الوعد على قول اهل السنة ٭ قوله تعالى (ويوم نحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم اضللتم عبادى هؤلاء ام هم ضلوا السبيل قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا ان نتخذ من دونك من اولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا فقد كذبوكم بما تقولون فما يستطيعون صرفا ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا وما ارسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الاسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا) اعلم ان قوله تعالى ويوم نحشرهم راجع الى قوله واتخذوا من دونه آلهة ثم ههنا مسائل (المسئلة الاولى) نحشرهم فنقول كلاهما بالنون والياء وقرئ نحشرهم بكسر الشين (المسئلة الثانية) ظاهر قوله وما يعبدون انها الاصنام وظاهر قوله فيقول أأنتم اضللتم عبادى انه من عبد من الاحياء كالملائكة والمسيح وغيرهما لان الاضلال وخلافه منهم يصح فلاجل هذا اختلفوا فمن الناس من حمله على الاوثان فان قيل لهم الوثن جماد فكيف خاطبه الله تعالى وكيف قدر على الجواب فعند ذلك ذكروا وجهين (احدهما) ان الله تعالى يخلق فيهم الحياة فعند ذلك يخاطبهم فيردون الجواب (وثانيهما) ان يكون ذلك الكلام لا بالقول اللسانى بل على سبيل لسان الحال كما ذكر بعضهم فى تسبيح الموات وكلام الايدى والارجل وكما قيل سل الارض من شق انهارك وغرس اشجارك فان لم تجبك جوابا اجابتك اعتبارا واما الاكثرون فزعموا ان المراد هو الملائكة وعيسى وعزير عليهم السلام قالوا ويتأكد هذا القول بقوله تعالى ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون واذا قيل لهم لفظة ما لا تستعمل فى العقلاء أجابوا عنه من وجهين (الاول) لا نسلم ان كلمة ما لا تليق بمن يعقل بدليل انهم قالوا من لما لا يعقل (والثانى) اريد به الوصف كأنه قيل ومعبودهم وقوله تعالى والسماء وما بناها ولا انتم عابدون ما اعبد لا يستقيم الا على احد هذين الوجهين وكيف كان فالسؤال ساقط (المسئلة الثالثة) حاصل الكلام ان الله تعالى يحشر المعبودين ثم يقول لهم أأنتم اوقعتم عبادى فى الضلال عن طريق الحق ام هم ضلوا عنه بانفسهم قالت المعتزلة وفيه كسر بين لقول من يقول ان الله يضل عباده فى الحقيقة لانه لو كان الامر كذلك لكان الجواب الصحيح ان يقولوا الهنا (ههنا قسم ثالث) غيرهما هو الحق وهو انك انت اضللتهم فلما لم يقولوا ذلك بل نسبوا اضلالهم الى انفسهم علمنا ان الله تعالى لا يضل احدا

بتجدد الجلود كما لا يخفى واما ما قيل من ان المعنى انكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحدا انما هو ثبور كثير اما لان العذاب انواع والوان كل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته او لانهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها فلا غاية لهلاكهم فلا يلائم المقام كيف لا وهم انما يدعون هلاكا ينهى عذابهم وينجيهم منه فلا بد ان يكون الجواب اقناطا لهم من ذلك ببيان استحالته ودوام ما يوجب استدعاءه من العذاب الشديد وتقييد النهى والامر باليوم لمزيد التهويل والتفظيع والتنبيه على انه ليس كسائر الايام المعهودة (قل) تقريعا لهم وتهكما بهم وتحسيرا على ما فاتهم (أذلك) اشارة الى ما ذكر من السعير باعتبار اتصافها بما فصل من الاحوال الهائلة وما فيه من معنى البعد للاشعار بكونها فى الغاية القاصية من الهول والفظاعة اى قل لهم أذلك الذى ذكر من السعير التى اعتدت لمن كذب بالساعة وشأنها كيت وكيت وشأن اهلها ذيت وذيت (خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون) اى وعدها المتقون واضافة الجنة الى الخلد للمدح وقيل للتمييز عن جنات الدنيا والمراد بالمتقين المتصفون بمطلق التقوى لا بالمرتبة الثانية والثالثة منها فقط (كانت) تلك الجنة (لهم) فى علم الله تعالى او فى اللوح المحفوظ

من عباده (فان قيل) لانسلم ان المعبود ما تعرضوا لهذا القسم بل ذكروه فانهم قالوا ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وهذا تصريح بان ضلالهم انما حصل لاجل ما فعل الله بهم وهو انه سبحانه وتعالى متعهم وآباءهم بنعيم الدنيا قلنا لو كان الامر كذلك لكان يلزمهم ان يصير الله محجوجا في يد اولئك المعبودين ومعلوم انه ليس الغرض ذلك بل الغرض ان يصير الكافر محجوجا مفحما ملزما هذا تمام تقرير المعتزلة في الآية (اجاب اصحابنا) بان القدرة على الضلال ان لم تصلح للاهتداء فالاضلال من الله تعالى وان صلحت له لم يترجح مصدريتها للاضلال على مصدريتها للاهتداء الا لمرجح من الله تعالى وعند ذلك يعود السؤال واما ظاهر هذه الآية فهو وان كان لهم لكنه معارض بسائر الظواهر المطابقة لقولنا (المسئلة الرابعة) ظاهر الآية يدل على ان هذا السؤال من الله تعالى وان احتمل ان يكون ذلك من الملائكة بأمر الله تعالى * بقي على الآية سؤالات (الاول) ما فائدة انتم وهم وهلا قيل أأضللتم عبادي هؤلاء ام ضلوا السبيل (الجواب) ليس السؤال عن الفعل ووجوده لانه لولا وجوده لما توجد هذا العتاب وانما هو عن فاعله فلابد من ذكره وايلائه حرف الاستفهام حتى يعلم انه المسؤل عنه (السؤال الثاني) انه سبحانه كان عالما في الازل بحال المسؤل عنه فما فائدة هذا السؤال (الجواب) هذا استفهام على سبيل التقريع للمشركين كما قال لعيسى أأنت قلت للناس اتخذوني وامي الهين من دون الله ولان اولئك المعبودين لما برؤا انفسهم واحالوا ذلك الضلال عليهم صار تبرؤ المعبودين عنهم اشد في حسرتهم وحيرتهم (السؤال الثالث) قال تعالى ام هم ضلوا السبيل والقياس ان يقال ضل عن السبيل (الجواب) الاصل ذلك الا ان الانسان اذا كان متناهيا في التفريط وقلة الاحتياط يقال ضل السبيل اما قوله تعالى سبحانك فاعلم انه سبحانه حكى جوابهم وفي قوله سبحانك وجوه (احدها) انه تعجب منهم فقد تعجبوا مما قيل لهم لانهم ملائكة وانبياء معصومون فما ابعدهم عن الاضلال الذي هو مختص بابليس وحزبه (وثانيها) انهم نطقوا بسبحانك ليدلوا على انهم المسبحون المقدسون المؤمنون بذلك فكيف يليق بحالهم ان يضلوا عباده (وثالثها) قصدوا به تنزيهه عن الانداد سواء كان وثنا او نبيا او ملكا (ورابعها) قصدوا تنزيهه ان يكون مقصوده من هذا السؤال استفادة علم او ايذاء من كان بريئا عن الجرم بل انه انما سألهم تقريعا للكفار وتوبيخا لهم اما قوله ما كان ينبغي لنا ان نتخذ من دونك من اولياء ففيه مسائل (المسئلة الاولى) القراءة المعروفة ان نتخذ بفتح النون وكسر الخاء وعن ابي جعفر وابن عامر برفع النون وفتح الخاء على ما لم يسم فاعله قال الزجاج اخطأ من قرأ ان نتخذ بضم النون لان من انما تدخل في هذا الباب في الاسماء اذا كانت مفعولا اولا ولا تدخل على مفعول الحال تقول ما اتخذت من احد وليا ولا يجوز ما اتخذت احدا من ولي قال صاحب الكشاف اتخذ يتعدى الى مفعول واحد كقولك اتخذ وليا والى مفعولين كقولك اتخذ فلانا وليا قال الله تعالى واتخذ الله ابراهيم

(خليلا)

اولان ما وعده الله تعالى فهو كائن لامحالة فحكى تحققه ووقوعه (جزاء) على اعمالهم حسبما من الوعد الكريم (ومصيرا) ينقلبون اليه (لهم فيها ما يشاؤن) اي ما يشاؤنه من فنون الملاذ والمشتهيات وانواع النعم كما في قوله تعالى ولكم فيها ما تشتهي انفسكم ولعل كل فريق منهم يقتنع بما اتيح له من درجات النعيم ولا تمتد اعناق هممهم الى ما فوق ذلك من المراتب العالية فلا يلزم الحرمان ولا تساوي مراتب اهل الجنان (خالدين) حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور لاعتماده على المبتدأ وقيل من فاعل يشاؤن (كان) اي ما يشاؤنه وقيل الوعد المدلول عليه بقوله تعالى وعد المتقون (على ربك وعدا مسؤلا) اي موعودا حقيقا بأن يسأل ويطلب لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون او مسؤلا يسأله الناس في دعائهم بقولهم ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك او الملائكة بقولهم ربنا وادخلهم جنات عدن التي وعدتهم وما في على من معنى الوجوب لامتناع الخلف في وعده تعالى ولا يلزم منه الالجاء الى الانجاز فان تعلق الارادة بالموعود متقدم على الوعد الموجب للانجاز وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام من تشريفه والاشعار بأنه عليه

خليلا والقراءة الاولى من المتعدى الى واحد وهو من اولياء والاصل ان نتخذ اولياء فزيدت من لتأكيد معنى النفى والثانية من المتعدى الى مفعولين فالاول مابنى له الفعل والثانى من اولياء من للتبعيض اى لانتخذ بعضا اولياء وتنكير اولياء من حيث انهم اولياء مخصوصون وهم الجن والاصنام (المسئلة الثانية) ذكروا فى تفسير هذه الآية وجوها (اولها) وهو الاصح الاقوى ان المعنى اذا كنا لانرى ان نتخذ من دونك اولياء فكيف ندعو غيرنا الى ذلك (وثانيها) ماكان ينبغى لنا ان نكون امثال الشياطين فى توليهم الكفار كما يوليهم الكفار قال تعالى فقاتلوا اولياء الشيطان يريد الكفرة وقال والذين كفروا اولياؤهم الطاغوت عن ابى مسلم (وثالثها) ماكان لنا ان نتخذ من دون رضاك من اولياء اى لما علمنا انك لاترضى بهذا مافعلناه والحاصل انه حذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه (ورابعها) قالت الملائكة انهم عبيدك فلاينبغى لعبيدك ان يتخذوا من دونك وليا ولاحبيبا فضلا عن ان يتخذ عبد عبدا آخر الها لنفسه (وخامسها) ان على قراءة ابى جعفر الاشكال زائل فان قيل هذه القراءة غير جائزة لانه لامدخل لهم فى ان يتخذهم غيرهم اولياء قلنا المراد انا لانصلح لذلك فكيف ندعوهم الى عبادتنا (وسادسها) ان هذا قول الاصنام وانها قالت لايصح منا ان نكون من العابدين فكيف يمكننا ادعاؤنا انا من المعبودين (المسئلة الثالثة) الآية تدل على انه لاتجوز الولاية والعداوة الا باذن الله فكل ولاية مبنية على ميل النفس ونصيب الطبع فذاك على خلاف الشرع * اما قوله تعالى ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) معنى الآية انك يا الهنا اكثرت عليهم وعلى آبائهم من النعم وهى توجب الشكر والايمان لاالاعراض والكفران والمقصود من ذلك بيان انهم ضلوا من عند انفسهم لاباضلالنا فانه لولا عنادهم الظاهر والامر الاقع ظهور هذه الحجة لايمكن الاعراض عن طاعة الله تعالى وقال آخرون ان هذا الكلام كالرمز فيما صرح به موسى عليه السلام فى قوله ان هى الا فتنتك وذلك لان المجيب قال الهى انت الذى اعطيته جميع مطالبه من الدنيا حتى صار كالغريق فى بحر الشهوات واستغراقه فيها صار صادا له عن التوجه الى طاعتك والاشتغال بخدمتك فان هى الا فتنتك (المسئلة الثانية) الذكر ذكر الله والايمان به والقرآن والشرائع اوما فيه حسن ذكرهم فى الدنيا والآخرة (المسئلة الثالثة) قال ابو عبيدة يقال رجل بور ورجلان بور ورجال بور وكذلك الانثى ومعناه هالك وقد يقال رجل بائر وقوم بور وهو مثل هائر وهور والبوار الهلاك وقد احتج اصحابنا بهذه الآية فى مسئلة القضاء والقدر ولاشك ان المراد منه وكانوا من الذين حكم عليهم فى الآخرة بالعذاب والهلاك فالذى حكم الله عليه بعذاب الآخرة وعلم ذلك واثبته فى اللوح المحفوظ واطلع الملائكة عليه لو صار مؤمنا لصار الخبر الصدق كذبا ولصار العلم جهلا ولصارت الكتابة المثبتة فى اللوح المحفوظ باطلة ولصار اعتقاد الملائكة جهلا وكل ذلك

الصلاة والسلام هو الفاتح او ذى اثير بغنائم الوعد الكريم مالايخفى (ويوم يحشرهم) نصب على انه مفعول لمضمر مقدم معطوف على قوله تعالى قل أذلك الخ اى واذكر لهم بعد التقريع والتحسير يوم يحشرهم الله عز وجل وتعليق التذكير باليوم مع ان المقصود تذكير ماوقع فيه من الحوادث الهائلة قد مر وجهه غير مرة اوعلى انه ظرف لمضمر مؤخر قد حذف للتنبيه على كمال هوله وفظاعة مافيه والايذان بقصور العبارة عن بيانه اى يوم يحشرهم يكون من الاحوال والاهوال مالايفى ببيانه المقال وقرئ بنون العظمة بطريق الالتفات من الغيبة الى التكلم وبكسر الشين ايضا (ومايعبدون من دون الله) اريد به مايعم العقلاء وغيرهم اما لان كلمة ماموضوعة للكل كما ينبئ عنه انك اذا رأيت شبحا من بعيد تقول ماهو اولانه اريد به الوصف لاالذات كأنه قيل ومعبوديهم اولتغليب الاصنام على غيرها تنبيها على انهم مثلها فى السقوط عن رتبة المعبودية او اعتبار الغلبة عبدتها او اريد به الملائكة والمسيح وعزير بقرينة السؤال والجواب او الاصنام ينطقها الله تعالى او تكلم بلسان الحال كما قيل فى شهادة الايدى والارجل (فيقول) اى الله عز وجل للمعبودين اثر حشر الكل تقريعا للعبدة وتبكيتا لهم وقرئ بالنون كما عطف عليه وقرئ هذا بالياء

محال ومستلزم المحال محال فصدور الايمان منه محال فدل على ان السعيد لايمكنه ان ينقلب شقيا والشقى لايمكنه ان ينقلب سعيدا ومن وجه آخر وهو انهم ذكروا ان الله تعالى آتاهم اسباب الضلال وهو اعطاء المرادات فى الدنيا واستغراق النفس فيها ودلت الآية على ان ذلك السبب بلغ مبلغا يوجب البوار فان ذكر البوار عقيب ذلك السبب يدل على ان البوار انما حصل لاجل ذلك السبب فرجع حاصل الكلام الى انه تعالى فعل بالكافر ماصار معه بحيث لايمكنه ترك الكفر وحينئذ ظهر ان السعيد لاينقلب شقيا وان الشقى لاينقلب سعيدا * اما قوله تعالى فقد كذبوكم بما تقولون فاعلم انه قرئ يقولون بالياء والتاء فعنى من قرأ بالتاء فقد كذبوكم بقولكم انهم آلهة اى كذبوكم فى قولكم انهم آلهة ومن قرأ بالياء المنقوطة من تحت فالمعنى انهم كذبوكم بقولكم سبحانك ومثاله قولك كتبت بالقلم * اما قوله فما يستطيعون صرفا ولا نصرا فاعلم انه قرئ يستطيعون بالياء والتاء ايضا يعنى فما تستطيعون انتم يا ايها الكفار صرف العذاب عنكم وقيل الصرف التوبة وقيل الحيلة من قولهم انه ليتصرف اى يحتال او فما يستطيع آلهتكم ان يصرفوا عنكم العذاب وان يحتالوا لكم * اما قوله تعالى ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرئ يذقه بالياء وفيه ضمير الله تعالى او ضمير الظلم (المسئلة الثانية) ان المعتزلة تمسكوا بهذه الآية فى القطع بوعيد اهل الكبائر فقالوا ثبت ان من للعموم فى معرض الشرط وثبت ان الكافر ظالم لقوله ان الشرك لظلم عظيم والفاسق ظالم لقوله ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون فثبت بهذه الآية ان الفاسق لايعفى عنه بل يعذب لامحالة والجواب انا لانسلم ان كلمة من فى معرض الشرط للعموم والكلام فيه مذكور فى اصول الفقه سلمنا انه للعموم ولكن قطعا ام ظاهرا ودعوى القطع ممنوعة فانا نرى فى العرف العام المشهور استعمال صيغ العموم مع ان المراد هو الاكثر اولان المراد اقوام معينون والدليل عليه قوله تعالى ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم ام لم تنذرهم لايؤمنون ثم ان كثيرا من الذين كفروا قد آمنوا فلا دافع له الا ان يقال قوله الذين كفروا وان كان يفيد العموم لكن المراد منه الغالب او المراد منه اقوام مخصوصون وعلى التقديرين ثبت ان استعمال الفاظ العموم فى الاغلب عرف ظاهر واذا كان كذلك كانت دلالة هذه الصيغ على العموم دلالة ظاهرة لاقاطعة وذلك لاينفى تجويز العفو سلمنا دلالته قطعا ولكننا اجمعنا على ان قوله ومن يظلم منكم مشروط بأن لايوجد مايزيله وعند هذا نقول هذا مسلم لكن لم قلت بأن لم يوجد مايزيله فان العفو عندنا احد الامور التى تزيله وذلك هو احد الثلاثة اول المسئلة سلمنا دلالته على ماقال ولكنه معارض بآيات الوعد كقوله ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا فان قيل آيات الوعيد اولى لان السارق يقطع على سبيل التنكيل ومن لم يكن مستحقا للعقاب لايجوز قطع يده على سبيل التنكيل فاذا ثبت انه مستحق للعقاب ثبت ان استحقاق

(الثواب)

والاول بالنون على طريق الالتفات الى الغيبة (أأنتم اضللتم عبادى هؤلاء) بان دعوتموهم الى عبادتكم كما فى قوله تعالى أأنت قلت للناس اتخذونى وامى الهين من دون الله (ام هم ضلوا السبيل) اى عن السبيل بأنفسهم لاخلالهم بالنظر الصحيح واعراضهم عن المرشد فحذف الجار واوصل الفعل الى المفعول كقوله تعالى وهو يهدى السبيل والاصل الى السبيل او للسبيل وتقديم الضميرين على الفعلين لان المقصود بالسؤال هو المتصدى للفعل لانفسه (قالوا) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية السؤال كأنه قيل فماذا قالوا فى الجواب فقيل قالوا (سبحانك) تعجبا مما قيل لهم لانهم اما ملائكة معصومون او جمادات لاقدرة لها على شئ او اشعارا بأنهم الموسومون بتسبيحه تعالى وتوحيده فكيف يتأتى منهم اضلال عباده او تنزيهه له تعالى من الانداد (ماكان ينبغى لنا) اى ماصح وما استقام لنا (ان نتخذ من دونك) اى متجاوزين اياك (من اولياء) نعبدهم لما بنا من الحالة المنافية له فانى يتصور ان نحمل غيرنا على ان يتخذوا وليا غيرك فضلا ان يتخذنا اولياء او ان نتخذ من دونك اولياء اى اتباعا فان الولى كما يطلق على المتبوع يطلق على التابع كالمولى يطلق على الاعلى والاسفل ومنه اولياء الشياطين اى اتباعه وقرئ على

الثواب احبط لما بينا ان الجمع بين الاستحقاقين محال قلنا لانسلم ان السارق يقطع على سبيل التنكيل ألاترى انه لوتاب فانه يقطع لاعلى سبيل التنكيل بل على سبيل المحنة نزلنا عن هذه المقامات ولكن قوله تعالى ومن يظلم منكم انه خطاب مع قوم مخصوصين معينين فهب انه لايعفو عنهم فلم قلت انه لايعفو عن غيرهم اما قوله تعالى وما ارسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الاسواق فيه مسائل (المسئلة الاولى) هذا جواب عن قولهم مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق بين الله تعالى ان هذه عادة مستمرة من الله فى كل رسله فلا وجه لهذا الطعن (المسئلة الثانية) حق الكلام ان يقال الا انهم بفتح الالف لانه متوسط والمكسورة لاتليق الابالابتداء فلاجل هذا ذكروا (وجوها) احدها قال الزجاج الجملة بعد الاصفة لموصوف محذوف والمعنى وما ارسلنا قبلك أحدا من المرسلين الا آكلين وماشين وانما حذف لان فى قوله من المرسلين دليلا عليه ونظيره قوله تعالى وما منا الاله مقام معلوم على معنى وما منا احد (وثانيها) قال الفراء انها صلة لاسم متروك اكتفى بقوله من المرسلين عنه والمعنى الامن انهم كقوله وما منا الاله مقام معلوم اى من له مقام معلوم وكذلك قوله وان منكم الا واردها اى الامن يردها فعلى قول الزجاج الموصوف محذوف وعلى قول الفراء الموصول هو المحذوف ولايجوز حذف الموصول وتبقية الصلة عند البصريين (وثالثها) قال ابن الانبارى تكسر ان بعد الاستثناء باضمار واو على تقدير الا وانهم (ورابعها) قال بعضهم المعنى الاقيل انهم (المسئلة الثالثة) قرئ يمشون على البناء للمفعول اى يمشيهم حوائجهم او الناس ولو قرئ يمشون لكان اوجه لولا الرواية اما قوله تعالى وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فيه اقوال (احدها) ان هذا فى رؤساء المشركين وفقراء الصحابة فاذا رأى الشريف الوضيع قد اسلم قبله انف ان يسلم فأقام على كفره لئلا يكون للوضيع السابقة والفضل عليه ودليله قوله تعالى لوكان خيرا ماسبقونا اليه وهذا قول الكلبى والفراء والزجاج (وثانيها) ان هذا عام فى جميع الناس روى ابو الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ويل للعالم من الجاهل وويل للسلطان من الرعية وويل للرعية من السلطان وويل للمالك من المملوك وويل للشديد من الضعيف وللضعيف من الشديد بعضهم لبعض فتنة وقرأ هذه الآية (وثالثها) ان هذا فى اصحاب البلاء والعافية هذا يقول لم لم اجعل مثله فى الخلق والخلق وفى العقل وفى العلم وفى الرزق وفى الاجل وهذا قول ابن عباس والحسن (ورابعها) هذا احتجاج عليهم فى تخصيص محمد بالرسالة مع مساواته اياهم فى البشرية وصفاتها فابتلى المرسلين بالمرسل اليهم وانواع اذاهم على ماقال ولتسمعن من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين اشركوا أذى كثيرا والمرسل اليهم يتأذون ايضا من المرسل بسبب الحسد وصيرورته مكلفا بالخدمة وبذل النفس والمال بعد ان كان رئيسا مخدوما والاولى حمل الآية على الكل لان بين

البناء للمفعول من المتعدى الى مفعولين كما فى قوله تعالى واتخذ الله ابراهيم خليلا ومفعوله الثانى من اولياء على ان من للتبعيض اى أن نتخذ بعض اولياء وهى على الاول مزيدة وتنكير اولياء من حيث انهم اولياء مخصوصون وهم الجن والاصنام (ولكن متعتهم وآباءهم) استدراك مسوق لبيان انهم هم الضالون بعد بيان تنزههم عن اضلالهم وتدنعى عليهم سوء صنيعهم حيث جعلوا اسباب الهداية اسبابا للضلالة اى ماأضللناهم ولكنك متعتهم وآباءهم بأنواع النعم ليعرفوا حقها ويشكروها فاستغرقوا فى الشهوات وانهمكوا فيها (حتى نسوا الذكر) اى غفلوا عن ذكرك او عن التذكر فى آلائك والتدبر فى آياتك فجعلوا اسباب الهداية بسوء اختيارهم ذريعة الى الغواية (وكانوا) اى فى قضائك المبنى على علمك الازلى المتعلق بما سيصدر عنهم فيما لايزال باختيارهم من الاعمال السيئة (قوما بورا) اى هالكين على ان بورا مصدر وصف به الفاعل مبالغة ولذلك يستوى فيه الواحد والجمع او جمع بائر كعوذ فى جمع عائذ والجملة اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ماقبله وقوله تعالى (فقد كذبوكم) حكاية لاحتجاجه تعالى على العبدة بطريق تلوين الخطاب وصرفه عن المعبودين عند تمام

الجميع قدرا مشتركا (المسئلة الثانية) قال اصحابنا الآية تدل على القضاء والقدر لانه تعالى قال وجعلنا بعضكم لبعض فتنة قال الجبائى هذا الجعل هو بمعنى التعريف كما يقال فيمن سرق ان فلانا لص جعله لصا وهذا التأويل ضعيف لانه تعالى اضاف الجعل الى وصف كونه فتنة لا الى الحكم بكونه كذلك بل العقل يدل على ان المراد غير ماذكره وذلك لان فاعل السبب فاعل المسبب فمن خلقه الله تعالى على مزاج الصفراء والحرارة وخلق الغضب فيه ثم خلق فيه الادراك الذى يطلعه على الشئ المغضب فمن فعل هذا المجموع كان هو الفاعل للغضب لامحالة وكذا القول فى الحسد وسائر الاخلاق والافعال وعند هذا يظهر انه سبحانه هو الذى جعل البعض فتنة للبعض سلمنا ان المراد ماقاله الجبائى ان المراد من الجعل هو الحكم ولكن المجعول ان انقلب لزم من انقلابه انقلاب حكم الله تعالى من الصدق الى الكذب وذلك محال فانقلاب ذلك الجعل محال فانقلاب المجعول ايضا محال وعند ذلك يظهر القول بالقضاء والقدر (المسئلة الثالثة) الوجه فى تعلق هذه الآية بما قبلها ان القوم لما طعنوا فى الرسول صلى الله عليه وسلم بانه يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق وبانه فقير كانت هذه الكلمات جارية مجرى الخرافات فانه لما قامت الدلالة على النبوة لم يكن لشئ من هذه الاشياء اثر فى القدح فيها فكان النبى صلى الله عليه وسلم يتأذى منهم من حيث انهم كانوا يشتمونه ومن حيث انهم كانوا يذكرون الكلام المعوج الفاسد وما كانوا يفهمون الجواب الجيد فلاجرم صبره الله تعالى على كل تلك الاذية وبين انه جعل الخلق بعضهم فتنة لبعض * اما قوله تعالى أتصبرون وكان ربك بصيرا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قالت المعتزلة لو كان المراد من قوله وجعلنا بعضكم لبعض فتنة الجبر لما ذكر عقيبه أتصبرون لان امر العاجز غير جائز (المسئلة الثانية) المعنى أتصبرون على البلاء فقد علمتم ماوعد الله الصابرين وكان ربك بصيرا اى هو العالم بمن يصبر ومن لا يصبر فيجازى كلا منهم بما يستحقه من ثواب وعقاب (المسئلة الثالثة) قوله أتصبرون استفهام والمراد منه التقرير وموقعه بعد ذكر الفتنة موقع ايكم بعد الابتلاء فى قوله ليبلوكم ايكم احسن عملا * قوله تعالى (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا انزل علينا الملائكة او نرى ربنا لقد استكبروا فى انفسهم وعتوا عتوا كبيرا يوم يرون الملائكة لابشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا اصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا واحسن مقيلا) اعلم ان قوله تعالى وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا انزل علينا الملائكة او نرى ربنا هو الشبهة الرابعة لمنكرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وحاصلها لم لم ينزل الله الملائكة حتى يشهدوا ان محمدا محق فى دعواه او نرى ربنا حتى يخبرنا بانه ارسله الينا وتقرير هذه الشبهة ان من اراد تحصيل شئ وكان له الى تحصيله طريقان (احدهما) يفضى اليه قطعا (والآخر) قد يفضى وقد لا يفضى فالحكيم يجب عليه فى حكمته ان يختار فى تحصيل ذلك المقصود الطريق الاقوى والاحسن

(ولا)

جوابهم وتوجيهه الى العبدة مبالغة فى تقريعهم وتبكيتهم على تقدير قول مرتب على الجواب اى فقال الله تعالى عند ذلك فقد كذبوكم المعبودون ايها الكفرة (بما تقولون) اى فى قولكم انهم آلهة وقيل فى قولكم هؤلاء اضلونا والباء ان تكذيبهم فى هذا القول لا تعلق له بما بعده من عدم استطاعتهم للصرف والنصر اصلا وانما الذى يستتبعه تكذيبهم فى زعمهم انهم آلهتهم وناصروهم وايا ما كان فالباء بمعنى فى او هى صلة للتكذيب على ان الجار والمجرور بدل اشتمال من الضمير المنصوب وقرئ بالياء اى كذبوكم بقولهم سبحانك الآية (فما تستطيعون) اى ماتملكون (صرفا) اى دفعا للعذاب عنكم بوجه من الوجوه كما يعرب عنه التنكير اى لا بالذات ولا بالواسطة وقيل حيلة من قولهم انه ليتصرف فى اموره اى يحتال فيها وقيل توبة (ولا نصرا) اى فردا من افراد النصر لا من جهة انفسكم ولا من جهة غيركم والفاء لترتيب عدم الاستطاعة على ما قبلها من التكذيب لكن لا على معنى انه لولاه لوجدت الاستطاعة حقيقة بل فى زعمهم حيث كانوا يزعمون انهم يدفعون عنهم العذاب وينصرونهم وفيه ضرب تهكم بهم وقرئ يستطيعون على صيغة الغيبة اى ما يستطيع آلهتكم

ولاشك ان انزال الملائكة ليشهدوا بصدق محمد صلى الله عليه وسلم اكثر افضاء الى المقصود فلو أراد الله تعالى تصديق محمد صلى الله عليه وسلم لفعل ذلك وحيث لم يفعل ذلك علمنا انه ما أراد تصديقه هذا حاصل الشبهة ثم ههنا مسائل (المسئلة الاولى) قال الفراء قوله تعالى وقال الذين لا يرجون لقاءنا معناه لا يخافون لقاءنا ووضع الرجاء في موضع الخوف لغة تهامية اذا كان معه جحد ومنه قوله تعالى مالكم لا ترجون لله وقارا اى لا تخافون لله عظمة وقال القاضي لا وجه لذلك لان الكلام متى امكن حمله على الحقيقة لم يجز حمله على المجاز ومعلوم ان من حال عباد الاصنام انهم كما لا يخافون العقاب لتكذيبهم بالمعاد فكذلك لا يرجون لقاءنا ووعدنا على الطاعة من الجنة والثواب ومعلوم ان من لا يرجو ذلك لا يخاف العقاب ايضا فالخوف تابع لهذا الرجاء (المسئلة الثانية) المجسمة تمسكوا بقوله تعالى لقاءنا انه جسم وقالوا اللقاء هو الوصول يقال هذا الجسم لقي ذلك اى وصل اليه واتصل به وقال تعالى فالتقى الماء على امر قد قدر فدلت الآية على انه سبحانه جسم والجواب على طريقين (الاول) طريق بعض اصحابنا قال المراد من اللقاء هو الرؤية وذلك لان الرائي يصل برؤيته الى حقيقة المرئي فسمي اللقاء احد انواع الرؤية والنوع الآخر الاتصال والمماسة فدلت الآية من هذا الوجه على جواز الرؤية (الطريق الثاني) وهو كلام المعتزلة قال القاضي تفسير اللقاء برؤية البصر جهل باللغة فيقال في الدعاء لقاك الله الخير وقد يقول القائل لم الق الامير وان رآه من بعد او حجب عنه ويقال في الضرير لقي الامير اذا اذن له ولم يحجب وقد يلقاه في الليلة الظلماء ولا يراه بل المراد من اللقاء ههنا هو المصير الى حكمه حيث لا حكم لغيره في يوم لا تملك نفس لنفس شيئا لا انه رؤية البصر واعلم ان هذا الكلام ضعيف لانا لا نفسر اللقاء برؤية البصر بل نفسره بمعنى مشترك بين رؤية البصر وبين الاتصال والمماسة وهو الوصول الى الشيء وقد بينا ان الرائي يصل برؤيته الى المرئي واللفظ الموضوع لمعنى مشترك بين معان كثيرة ينطلق على كل واحد من تلك المعاني فيصح قوله لقاك الخير ويصح قول الاعمى لقيت الامير ويصح قول البصير لقيته بمعنى رأيته وما لقيته بمعنى ما وصلت اليه واذا ثبت هذا فنقول قوله وقال الذين لا يرجون لقاءنا مذكور في معرض الذم لهم فوجب ان يكون رجاء اللقاء حاصلا ومسمى اللقاء مشترك بين الوصول المكاني وبين الوصول بالرؤية وقد تعذر الاول فتعين الثاني وقوله المراد من اللقاء الوصول الى حكمه صرف للفظ عن ظاهره بغير دليل فثبت دلالة الآية على صحة الرؤية بل على وجوبها بل على ان انكارها ليس الا من دين الكفار (المسئلة الثالثة) قوله لولا انزل معناه هلا انزل قال الكلبي ومقاتل نزلت هذه الآية في ابي جهل والوليد واصحابهما الذين كانوا منكرين للنبوة والبعث * اما قوله تعالى لقد استكبروا في انفسهم وعتوا عتوا كبيرا فاعلم ان هذا هو الجواب عن تلك الشبهة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) في تقرير كونه جوابا وذلك من وجوه (احدها) ان القرآن لما

ان يصرفوا عنكم العذاب او يحتالوا لكم ولا ان ينصروكم وترتب ما بعد الفاء على ما قبلها كما مر بيانه (ومن يظلم منكم) أيها المكلفون كدأب هؤلاء حيث ركبوا متن المكابرة والعناد واستمروا على ما هم عليه من الفساد وتجاوزوا في اللجاج كل حد معتاد (نذقه) في الآخرة (عذابا كبيرا) لا يقادر قدره وهو عذاب النار وقرئ يذقه على ان الضمير لله سبحانه وتعالى وقيل لمصدر الفعل الواقع شرطا وتعميم الظلم لا يستلزم اشتراك الفاسق للكافر في اذاقة العذاب الكبير فان الشرط في اقتضاء الجزاء مقيد بعدم المزاحم وفاقا وهو التوبة والاحباط بالطاعة اجماعا وبالعفو عندنا (وما ارسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون في الاسواق) جواب عن قولهم ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق والجملة الواقعة بعد الا صفة لموصوف قد حذف ثقة بدلالة الجار والمجرور عليه واقيمت هي مقامه كما في قوله تعالى وما منا الا له مقام معلوم والمعنى ما ارسلنا احدا قبلك من المرسلين الا آكلين وماشين وقيل هي حال والتقدير الا وانهم ليأكلون الخ وقرئ يمشون على البناء للمفعول اى يمشيهم حوائجهم او الناس (وجعلنا بعضكم) تلوين الخطاب بتعميمه لسائر الرسل عليهم الصلاة والسلام بطريق التغليب والمراد بهذا البعض كفار الامم فان اختصاصهم بالرسل وتبعيتهم لهم مصحح لان يعدوا بعضا منهم وبما

ظهر كونه معجزا فقد ثبتت دلالة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فبعد ذلك يكون اقتراح امثال هذه الآيات لا يكون الا محض الاستكبار والتعنت (وثانيها) ان نزول الملائكة لو حصل لكان ايضا من جملة المعجزات ولا يدل على الصدق لخصوص كونه بنزول الملك بل لعموم كونه معجزا فيكون قبول ذلك المعجز ورد ذلك المعجز الآخر ترجيحا لاحد المثلين على الآخر من غير مزيد فائدة ومرجح وهو محض الاستكبار والتعنت (وثالثها) انهم بتقدير ان يروا الرب ويسألوه عن صدق محمد صلى الله عليه وسلم وهو سبحانه يقول نعم هو رسولي فذلك لا يزيد في التصديق على اظهار المعجز على يد محمد صلى الله عليه وسلم لانا بينا ان المعجز يقوم مقام التصديق بالقول اذ لا فرق ومدعي النبوة بين ان يقول اللهم ان كنت صادقا فأحي هذا الميت فيحييه الله تعالى والعادة لم تجر بمثله وبين ان يقول له صدقت واذا كان التصديق الحاصل بالقول او الحاصل بالمعجز سيين في كونه تصديقا للمدعي كان تعيين احدهما محض الاستكبار والتعنت (ورابعها) وهو انا نعتقد ان الله سبحانه وتعالى يفعل بحسب المصالح على ما يقوله المعتزلة او نقول ان الله تعالى يفعل بحسب المشيئة على ما يقوله اصحابنا فان كان الاول لم يجز لهم ان يعينوا المعجز اذ ربما كان اظهار ذلك المعجز مشتملا على مفسدة لا يعرفها الا الله تعالى وكان التعيين استكبارا وعتوا من حيث انه لا لمانه مصلحة قطع بكونه مصلحة فمن قال ذلك فقد اعتقد في نفسه انه عالم بكل المعلومات وذلك استكبار عظيم وان كان الثاني وهو قول اصحابنا فليس للعبد ان يقترح على ربه فانه سبحانه فعال لما يريد فكان الاقتراح استكبارا وعتوا وخروجا عن حد العبودية الى مقام المنازعة والمعارضة (وخامسها) وهو ان المقصود من بعثة الانبياء الاحسان الى الخلق فالملك الكبير اذا احسن الى بعض الضعفاء رحمة عليه فاخذ ذلك الضعيف الى اللجاج والنزاع ويقول لا اريد هذا بل اريد ذلك حسن ان يقال ان هذا المكدي قد استكبر في نفسه وعتا عتوا شديدا من حيث لا يعرف قدر نفسه ومنتهى درجته فكذا ههنا (وسادسها) يمكن ان يكون المراد ان الله تعالى قال لو علمت انهم ماذكروا هذا السؤال لاجل الاستكبار والعتو الشديد لاعطيتهم مقترحهم ولكني علمت انهم ذكروا هذا الاقتراح لاجل الاستكبار والتعنت فلو اعطيتهم مقترحهم لما انتفعوا به فلاجرم لا اعطيهم ذلك وهذا التأويل يعرف من اللفظ (وسابعها) لعلهم سمعوا من اهل الكتاب ان الله تعالى لا يرى في الدنيا وانه تعالى لا ينزل الملائكة في الدنيا على عوام الخلق ثم انهم علقوا ايمانهم على ذلك على سبيل التعنت او على سبيل الاستهزاء (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة الآية دلت على ان الله تعالى لا يجوز رؤيته لان رؤيته لو كانت جائزة لما كان سؤالها عتوا واستكبارا قالوا وقوله لقد استكبروا في انفسهم وعتوا عتوا كبيرا ليس الا لاجل سؤال الرؤية حتى لو انهم اقتصروا على نزول الملائكة لما خوطبوا بذلك والدليل عليه ان الله تعالى ذكر امر الرؤية في آية أخرى على حدة وذكر الاستعظام وهو

(قوله)

في قوله تعالى (لبعض) ارسالهم لكن لا على معنى جعلنا مجموع البعض الاول (فتنة) اى ابتلاء ومحنة لمجموع البعض الثاني ولا على معنى جعلنا كل فرد من افراد البعض الاول فتنة لكل فرد من افراد البعض الثاني ولا على معنى جعلنا بعضا منهما من الاولين فتنة لبعض منهم من الآخرين ضرورة ان مجموع الرسل من حيث هو مجموع غير مفتون بمجموع الامم ولا كل فرد منهم بكل فرد من الامم ولا بعض منهم من الاولين ببعض منهم من الآخرين بل على معنى جعلنا كل بعض معين من الامم فتنة لبعض معين من الرسل كأنه قيل وجعلنا كل امة مخصوصة من الامم الكافرة فتنة لرسولها المعين المبعوث اليها وانما لم يصرح بذلك تعويلا على شهادة الحال هذا ولما تعميم الخطاب لجميع المكلفين وابقاء البعضين على العموم والابهام على معنى وجعلنا بعضكم أيها الناس فتنة لبعض آخر منكم فيأباه قوله تعالى (أتصبرون) فانه غاية للجعل المذكور ومن البين ان ليس ابتلاء كل احد من آحاد الناس مغيا بالصبر بل بما يناسب حاله على ان الاقتصار على ذكره من غير تعرض لما دل له مما يدل على ان اللائق بحال المفتونين والمتوقع صدوره عنهم هو الصبر لا غير فلا بد ان يكون المراد بهم الرسل فيحصل به تسليته عليه الصلاة والسلام والمعنى جرت سنتنا بموجب حكمتنا على ابتلاء المرسلين بامهم

قوله لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وذكر نزول الملائكة على حدة في آية اخرى فلم يذكر الاستعظام وهو قولهم لولا انزل علينا الملائكة وهل نرى الملائكة فثبت بهذا ان الاستكبار والعتو في هذه الآية انما حصل لاجل سؤال الرؤية واعلم ان الكلام على ذلك قد تقدم في سورة البقرة والذي نزيده ههنا انا بينا ان قوله وقال الذين لايرجون لقاءنا يدل على الرؤية واما الاستكبار والعتو فلا يمكن ان يدل ذلك على ان الرؤية مستحيلة لان من طلب شيئا محالا لا يقال انه عتا واستكبر ألا ترى انهم لما قالوا اجعل لنا الها كما لهم آلهة لم يثبت لهم بطلب هذا المحال عتوا واستكبارا بل قال انكم قوم تجهلون بل العتو والاستكبار لا يثبت الا اذا طلب الانسان مالا يليق به ممن فوقه او كان لا شأنه ولكنه يطلبه على سبيل التعنت وبالجملة فقد ذكرنا وجوها كثيرة في تحقيق معنى الاستكبار والعتو سواء كانت الرؤية ممتنعة او ممكنة ومما يدل عليه ان موسى لما سأل الرؤية ما وصفه الله تعالى بالاستكبار والعتو لانه عليه السلام طلب الرؤية شوقا وهؤلاء طلبوها امتحانا وتعنتا لاجرم وصفهم بذلك فثبت فساد ما قاله المعتزلة (المسئلة الثالثة) انما قال في انفسهم لانهم اضمروا الاستكبار في قلوبهم واعتقدوه كما قال ان في صدورهم الا كبر ماهم ببالغيه وعتوا عتوا كبيرا اى تجاوزوا الحد في الظلم يقال عتا فلان وقد وصف العتو بالكبر فبالغ في افراطه يعني انهم لم يجترئوا على هذا القول العظيم الا لانهم بلغوا نهاية الاستكبار واقصى العتو اما قوله تعالى يوم يرون الملائكة لابشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا فهو جواب لقولهم لولا انزل علينا الملائكة فبين تعالى ان الذي سألوه سيوجد ولكنهم يلقون منه مايكرهون وههنا مسائل (المسئلة الاولى) ذكروا في انتصاب يوم وجهين (الاول) ان العامل مادل عليه لابشرى اى يوم يرون الملائكة يمنعون البشرى ويومئذ للتكرير (الثاني) ان التقدير اذكر يوم يرون الملائكة (المسئلة الثانية) اختلفوا في ذلك اليوم فقال ابن عباس يريد عند الموت وقال الباقون يريد يوم القيامة (المسئلة الثالثة) انما قال للكافر لابشرى لان الكافر وان كان ضالا مضلا الا انه يعتقد في نفسه انه كان هاديا مهتديا فكان يطمع في ذلك الثواب العظيم ولانهم ربما عملوا مارجوا فيه النفع كنصرة المظلوم وعطية الفقير وصلة الرحم ولكنه ابطلها بكفره فبين سبحانه انهم في اول الامر يشافهون بما يدل على نهاية اليأس والخيبة وذلك هو النهاية في الايلام وهو المراد من قوله وبدالهم من الله مالم يكونوا يحتسبون (المسئلة الرابعة) حق الكلام ان يقال يوم يرون الملائكة لابشرى لهم لكنه قال لابشرى للمجرمين وفيه وجهان (احدهما) انه ظاهر في موضع ضمير (والثاني) انه عام فقد تناولهم بعمومه قالت المعتزلة تدل الآية على القطع بوعيد الفساق وعدم العفو لان قوله لابشرى للمجرمين نكرة في سياق النفي فيعم جميع انواع البشرى في جميع الاوقات بدليل ان من أراد تكذيب هذه القضية قال بل له بشرى في الوقت الفلاني فلما كان ثبوت

وعناصبتهم لهم العداوة وايذائهم لهم واقاويلهم الخارجة عن حدود الانصاف لتعلم صبرهم وقوله تعالى (وكان ربك بصيرا) وعد كريم للرسول عليه الصلاة والسلام بالاجر الجزيل لصبره الجميل مع مزيد تشريف له عليه الصلاة والسلام بالالتفات الى اسم الرب مضافا الى ضميره صلى الله عليه وسلم (وقال الذين لايرجون لقاءنا) شروع في حكاية بعض آخر من اقاويلهم الباطلة وبيان بطلانها اثر ابطال أباطيلهم السابقة والجملة معطوفة على قوله تعالى وقالوا مالهذا الرسول الخ ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما في حيز الصلة على ان مايحكى عنهم من الشناعة بحيث لايصدر عمن يعتقد المصير الى الله عز وجل واللقاء الشيء عبارة عن مصادفته من غير ان يمنع مانع من ادراكه بوجه من الوجوه والمراد بلقائه تعالى اما الرجوع اليه تعالى بالبعث والحشر اولقاء حسابه تعالى كما في قوله تعالى انى ظننت انى ملاق حسابيه وبعدم رجائهم اياه عدم توقعهم له اصلا لانكارهم البعث والحساب بالكلية لاعدم املهم حسن اللقاء ولاعدم خوفهم سوء اللقاء لان عدمهما غير مستلزم لما هم عليه من العتو والاستكبار وانكار البعث والحساب رأسا اى وقال الذين لايتوقعون الرجوع الينا او حسابنا المؤدي الى سوء العذاب

البشرى فى وقت من الاوقات بذكر لتكذيب هذه القضية علنا ان قوله تعالى لابشرى يقتضى نفى جميع انواع البشرى فى كل الاوقات ثم انه سبحانه اكد هذا النفى بقوله حجرا محجورا والعفو من الله من اعظم البشرى والخلاص من النار بعد دخولها من اعظم البشرى وشفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم من اعظم البشرى فوجب ان لا يثبت ذلك لأحد من المجرمين والكلام على التمسك بصيغ العموم قد تقدم غير مرة قال المفسرون المراد بالمجرمين ههنا الكفار بدليل قوله انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة (المسئلة الخامسة) فى تفسير قوله حجرا محجورا ذكر سيبويه فى باب المصادر غير المتصرفة المنصوبة بافعال متروك اظهارها نحو معاذالله وقعدك وعمرك وهذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدو او هجوم نازلة ونحو ذلك يضعونها موضع الاستعاذة قال سيبويه يقول الرجل للرجل يفعل كذا وكذا فيقول حجرا وهى من حجره اذا منعه لان المستعيذ طالب من الله ان يمنع المكروه فلا يلحقه فكان المعنى اسأل الله ان يمنع ذلك منعا ويحجره حجرا ومجيئه على فعل او فعل فى قراءة الحسن تصرف فيه لاختصاصه بموضع واحد فان قيل لما ثبت انه من باب المصادر فامعنى وصفه بكونه محجورا قلنا جاءت هذه الصفة لتأكيد معنى الحجر كما قالوا ذيل ذايل فالذيل الهوان وموت مائت وحرام محرم (المسئلة السادسة) اختلفوا فى ان الذين يقولون حجرا محجورا من هم على ثلاثة اقوال (القول الاول) انهم هم الكفار وذلك لانهم كانوا يطلبون نزول الملائكة ويقترحونه ثم اذا رأوهم عند الموت ويوم القيامة كرهوا لقاءهم وفزعوا منهم لانهم لايلقونهم الا بما يكرهون فقالوا عند رؤيتهم ما كانوا يقولونه عند لقاء العدو ونزول الشدة (القول الثانى) ان القائلين هم الملائكة ومعناه حراما محرما عليكم الغفران والجنة والبشرى أى جعل الله ذلك حراما عليكم ثم اختلفوا على هذا القول فقال بعضهم ان الكفار اذا خرجوا من قبورهم قالت الحفظة لهم حجرا محجورا وقال الكلبى الملائكة على ابواب الجنة يبشرون المؤمنين بالجنة ويقولون للمشركين حجرا محجورا وقال عطية اذا كان يوم القيامة يلقى الملائكة المؤمنين بالبشرى فاذا رأى الكفار ذلك قالوا لهم بشرونا فيقولون حجرا محجورا (القول الثالث) وهو قول القفال والواحدى وروى عن الحسن ان الكفار يوم القيامة اذا شاهدوا ما يخافونه فيتعوذون منه ويقولون حجرا محجورا فتقول الملائكة لايعاذ من شر هذا اليوم اما قوله تعالى وقدمنا فقد استدلت المجسمة بقوله وقدمنا لان القدوم لايصح الا على الاجسام وجوابه انه لما قامت الدلالة على امتناع القدوم عليه لان القدوم حركة والموصوف بالحركة محدث ولذلك استدل الخليل عليه السلام بافول الكواكب على حدوثها وثبت ان الله عز وجل لايجوز ان يكون محدثا فوجب تأويل لفظ القدوم وهو من وجوه احدها وقدمنا الى ما عملوا من عمل اى وقصدنا الى اعمالهم فان القادم الى الشئ قاصد له فالقصد هو المؤثر فى القدوم اليه واطلق المسبب

الذى تستوجبه مقالتهم (لولا انزل علينا الملائكة) اى هلا انزلوا علينا ليخبرونا بصدق محمد عليه الصلاة والسلام وقيل هلا نزلوا علينا بطريق الرسالة وهو الانسب لقولهم (او نرى ربنا) من حيث ان كلا القولين ناشئ عن غاية غلوهم فى المكابرة والعتو حسبما يعرب عنه قوله تعالى (لقد استكبروا فى انفسهم) اى فى شأنها حتى اجترؤا على التفوه بمثل هذه العظيمة الشنعاء (وعتوا) اى تجاوزوا الحد فى الظلم والطغيان (عتوا كبيرا) بالغا اقصى غاياته حيث املوا نيل مرتبة المفاوضة الالهية من غير توسط الرسول والملك كما قالوا لولا يكلمنا الله ولم يكتفوا بما عاينوا من المعجزات القاهرة التى تخر لها صم الجبال فذهبوا فى الاقتراح كل مذهب حتى منتهم انفسهم الخبيثة امانى لاتكاد ترنو اليها احداق الامم ولا تمتد اليها اعناق الهمم ولاينالها الا اولو العزائم الماضية من الانبياء عليهم الصلاة والسلام واللام جواب قسم محذوف اى والله لقد استكبروا الآية وفيه من الدلالة على غاية قبح ما هم عليه والاشعار بالتعجب من استكبارهم وعتوهم مالايخفى (يوم يرون الملائكة) استئناف مسوق لبيان مايلقونه عند مشاهدتهم لما اقترحوه من نزول الملائكة عليهم السلام بعد استعظامه وبيان كونه فى غاية مايكون من الشناعه وانما قيل

على السبب مجازا وثانيها المراد قدوم الملائكة الى موضع الحساب فى الآخرة ولما كانوا بأمره يقدمون جاز ان يقول وقدمنا على سبيل التوسع ، نظيره قوله تعالى فلما آسفونا انتقمنا منهم وثالثها ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها فلما أباد الله اعمالهم وافسدها بالكلية صارت شبيهة بالمواضع التى يقدمها الملك فلاجرم قال وقدمنا اماقوله الى ماعملوا من عمل يعنى الاعمال التى اعتقدوها برا وظنوا انها تقربهم الى الله تعالى والمعنى الى ماعملوا من اى عمل كان اماقوله فجعلناه هباء منثورا فالمراد ابطلناه وجعلناه بحيث لايمكن الانتفاع به كالهباء المنثور الذى لايمكن القبض عليه ونظيره قوله تعالى كسراب بقيعة كرماد اشتدت به الريح كعصف مأكول قال ابو عبيدة والزجاج الهباء مثل الغبار يدخل من الكوة مع ضوء الشمس وقال مقاتل انه الغبار الذى يستطير من حوافر الدواب اماقوله اصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا واحسن مقيلا فاعلم انه سبحانه لمابين حال الكفار فى الخسار الكلى والخيبة التامة شرح وصف اهل الجنة تنبيها على ان الحظ كل الحظ فى طاعة الله تعالى * وههنا سؤالات (الاول) كيف يكون اصحاب الجنة خيرا مستقرا من اهل النار ولاخير فى النار ولايقال فى العسل هو احلى من الخل (والجواب) من وجوه (الاول) ماتقدم فى قوله أذلك خير أم جنة الخلد (والثانى) يجوز ان يريد انهم فى غاية الخير لان مستقره خير من النار كقول الشاعر

ان الذى سمك السماء بنى لنا * بيتا دعائمه أعز وأطول

(الثالث) التفاضل الذى ذكر بين المنزلتين انما يرجع الى الموضع والموضع من حيث انه موضع لاشر فيه (الرابع) هذا التفاضل واقع على هذا التقدير اى لوكان لهم مستقر فيه خير لكان مستقر اهل الجنة خيرا منه (السؤال الثانى) الآية دلت على ان مستقرهم غير مقيلهم فكيف ذلك والجواب من وجوه (الاول) ان المستقر مكان الاستقرار والمقيل زمان القيلولة فهذا اشارة الى انهم من المكان فى احسن مكان ومن الزمان فى اطيب زمان (الثانى) ان مستقر اهل الجنة غير مقيلهم فانهم يقيلون فى الفردوس ثم يعودون الى مستقرهم (الثالث) ان بعد الفراغ من المحاسبة والذهاب الى الجنة يكون الوقت وقت القيلولة قال ابن مسعود لاينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل اهل الجنة فى الجنة واهل النار فى النار وقرأ ابن مسعود ثم ان مقيلهم لالى الجحيم وقال سعيد بن جبير ان الله تعالى اذا أخذ فى فصل القضاء قضى بينهم بقدر مابين صلاة الغداة الى انتصاف النهار فيقيل اهل الجنة فى الجنة واهل النار فى النار وقال مقاتل يخفف الحساب على اهل الجنة حتى يكون بمقدار نصف يوم من ايام الدنيا ثم يقيلون من يومهم ذلك فى الجنة (السؤال الثالث) كيف يصح القيلولة فى الجنة والنار وعندكم ان اهل الجنة فى الآخرة لاينامون واهل النار ابدا فى عذاب يعرفونه واهل الجنة فى نعيم يعرفونه والجواب قال الله تعالى ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا وليس فى الجنة بكرة وعشى لقوله تعالى لايرون فيها شمسا ولازمهريرا ولانه اذا لم يكن

يوم يرون دون ان يقال يوم ينزل الملائكة ايذانا من اول الامر بأن رؤيتهم لهم ليست على طريق الاجابة الى مااقترحوه بل على وجه آخر غير معهود ويوم منصوب على الظرفية بمايدل عليه قوله تعالى (لابشرى يومئذ للمجرمين) فانه فى معنى لايبشر يومئذ المجرمون والعدول الى نفى الجنس للمبالغة فى نفى البشرى ومايقال من انه بمعنى يمنعون البشرى اويعدمونها تهوين للخطب فى مقام التهويل فان منع البشرى وفقدانها مشعران بأن هناك بشرى يمنعونها اويفقدونها واين هذا من نفيها بالكلية وحيث كان نفيها كناية عن اثبات ضدها كما ان نفى المحبة فى مثل قوله تعالى والله لايحب الكافرين كناية عن البغض والمقت دل على ثبوت التدرى لهم على ابلغ وجه وآكده وقيل منصوب بفعل مقدر يؤكده بشرى على ان لاغيرنافية للجنس وقيل منصوب على المفعولية بمضمر مقدم عليه اى اذكر يوم رؤيتهم الملائكة ويومئذ على كل حال تكرير للتأكيد والتهويل مع مافيه من الايذان بأن تقديم الظرف للاهتمام لاللقصر فى البشرى على ذلك الوقت فقط فان ذلك مخل بتفظيع حالهم وللمجرمين تبيين على انه مظهر وضع موضع الضمير تسجيلا عليهم بالاجرام مع ماهم عليه من الكفر وحمله على العموم بحيث يتناول فساق

هناك شمس لم يكن هناك نصف النهار ولا وقت القيلولة بل المراد منه بيان ان ذلك الموضع اطيب المواضع واحسنها كما ان موضع القيلولة يكون اطيب المواضع والله اعلم * قوله تعالى (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ياويلتى ليتنى لم اتخذ فلانا خليلا لقد اضلني عن الذكر بعد اذ جاءنى وكان الشيطان للانسان خذولا) اعلم ان هذا الكلام مبنى على ما استدعوه من انزال الملائكة فبين سبحانه انه يحصل ذلك فى يوم له صفات (الصفة الاولى) ان فى ذلك اليوم تشقق السماء بالغمام وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله اذا السماء انفطرت يدل على التشقق وقوله هل ينظرون الا ان يأتيهم الله فى ظلل من الغمام يدل على الغمام فقوله تشقق السماء بالغمام جامع لمعنى الآيتين ونظيره قوله تعالى وفتحت السماء فكانت ابوابا وقوله فهى يومئذ واهية (المسئلة الثانية) قرأ ابو عمرو واهل الكوفة بتخفيف الشين ههنا وفى سورة ق والباقون بالتشديد قال ابو عبيدة الاختيار التخفيف كما يخفف تساءلون ومن شدد فمعناه تتشقق (المسئلة الثالثة) قال الفراء المراد من قوله بالغمام اى عن الغمام لان السماء لا تتشقق بالغمام بل عن الغمام وقال القاضى لا يمتنع ان يجعل تعالى الغمام بحيث تتشقق السماء باعتماده عليه وهو كقوله السماء منفطر به (المسئلة الرابعة) لابد من ان يكون لهذا التشقق تعلق بنزول الملائكة فقيل الملائكة فى ايام الانبياء عليهم السلام كانوا ينزلون من مواضع مخصوصة والسماء على اتصالها ثم فى ذلك اليوم تتشقق السماء فاذا انشقت خرج من ان يكون حائلا بين الملائكة وبين الارض فنزلت الملائكة الى الارض (المسئلة الخامسة) قوله ونزل الملائكة صيغة عموم فيتناول الكل ولان السماء مقر الملائكة فاذا تشقق وجب ان ينزلوا الى الارض ثم قال مقاتل تشقق سماء الدنيا فينزل اهلها وهم اكثر من سكان الدنيا كذلك تتشقق سماء سماء ثم ينزل الكروبيون وحملة العرش ثم ينزل الرب تعالى وروى الضحاك عن ابن عباس قال تتشقق كل سماء وينزل سكانها فيحيطون بالعالم ويصيرون سبع صفوف حول العالم واعلم ان نزول الرب بالذات باطل قطعا لان النزول حركة والموصوف بالحركة محدث والاله لا يكون محدثا واما نزول الملائكة الى الارض فعليه سؤال وذلك لانه ثبت ان الارض بالقياس الى سماء الدنيا كحلقة فى فلاة فكيف بالقياس الى الكرسى والعرش فلائكة هذه المواضع بأسرها كيف تتسع لهم الارض جميعا فلعل الله تعالى يزيد فى طول الارض وعرضها ويبلغها مبلغا يتسع لكل هؤلاء ومن المفسرين من قال الملائكة يكونون فى الغمام منه والله تعالى يسكن الغمام فوق اهل القيامة ويكون ذلك الغمام مقر الملائكة قال الحسن والغمام سترة بين السماء والارض تعرج الملائكة فيه بنسخ اعمال بنى آدم والمحاسبة تكون فى الارض (المسئلة السادسة) اما نزول الملائكة فظاهر ومعنى تنزيلا توكيد

المؤمنين ثم الالتجاء فى اخراجهم عن الحرمان الكلى الى ان نفى البشرى حينئذ لا يستلزم نفيه فى جميع الاوقات فيجوز ان يبشروا بالعفو والشفاعة فى وقت آخر بمعزل عن الحق بعيد (ويقولون) عطف على ما ذكر من الفعل المنفى المنبئ عن كمال فظاعة ما يحيق بهم من الشر وغاية هول مطلعه ببيان انهم يقولون عند مشاهدتهم له (حجرا محجورا) وهى كلمة يتكلمون بها عند لقاء عدو موتور وهجوم نازلة هائلة يضعونها موضع الاستعاذة حيث يطلبون من الله تعالى ان يمنع المكروه فلا يلحقهم فكان المعنى نسأل الله تعالى ان يمنع ذلك منعا ويحجره حجرا وكسر الحاء تصرف فيه لاختصاصه بموضع واحد كما فى قعدك وعمرك وقد قرئ حجرا بالضم والمعنى انهم يطلبون نزول الملائكة عليهم السلام ويقترحونه وهم اذا رأوهم كرهوا لقاءهم اشد كراهة وفزعوا منهم فزعا شديدا وقالوا ما كانوا يقولونه عند نزول خطب شنيع وحلول بأس شديد فظيع ومحجورا صفة لحجرا واردة للتأكيد كما قالوا ذيل ذائل وليل اليل وقيل يقولها الملائكة فالمعنى للكفرة بمعنى حراما محرما عليكم الغفران او الجنة او البشرى اى جعل الله تعالى ذلك حراما عليكم وليس بواضح (وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) بيان لحال ما كانوا يعملونه فى الدنيا من صلة

للنزول ودلالة على اسراعهم فيه (المسئلة السابعة) الالف واللام فى الغمام ليس للعموم
فهو للمعهود والمراد ماذكروه فى قوله هل ينظرون الا ان يأتيهم الله فى ظلل من الغمام
والملائكة (المسئلة الثامنة) قرئ ونزل الملائكة وننزل الملائكة ونزل الملائكة ونزلت
الملائكة ونزل الملائكة على حذف النون الذى هو فاء الفعل من تنزل قراءة اهل مكة
(الصفة الثانية لذلك اليوم) قوله الملك يومئذ الحق للرحمن قال الزجاج الحق صفة للملك
وتقديره الملك الحق يومئذ للرحمن ويجوز الحق بالنصب على تقدير اعنى ولم يقرأ به ومعنى
وصفه بكونه حقا انه لا يزول ولا يتغير فان قيل مثل هذا الملك لم يكن قط الا للرحمن فما الفائدة
فى قوله يومئذ قلنا لان فى ذلك اليوم لا مالك سواه لا فى الصورة ولا فى المعنى فتخضع له الملوك
وتعنو له الوجوه وتذل له الجبابرة بخلاف سائر الايام واعلم ان هذه الآية دالة على فساد
قول المعتزلة فى انه يجب على الله الثواب والعوض وذلك لانه لو وجب لاستحق الذم بتركه
فكان خائفا من ان لا يفعل فلم يكن ملكا مطلقا وايضا فقوله الملك يومئذ للرحمن يفيد انه
ليس لغيره ملك وذلك لا يتم على قول المعتزلة لان كل من استحق عليه شيأ فانه يكون مالكا له
ولا يكون هو سبحانه مالكا لذلك المستحق ولانه سبحانه اذا استحق على احد شيأ امكنه ان
يعفو عنه اما غيره اذا استحق عليه شيأ فانه لا يصح ابراؤه عنه فكانت العبودية ههنا أتم
ولان من كفر بالله الى آخر عمره ثم فى آخر عمره عرف الله لحظة ومات فهو سبحانه لو اعطاه
الف الف سنة انواع الثواب وأراد بعد ذلك ان لا يعطيه لحظة واحدة صار سفيها وهذا
نهاية العبودية والذل فكيف يليق بمن هذا حاله ان يقال له الملك يومئذ الحق للرحمن
وايضا فكل من فعل فعلا لو لم يفعله لكان مستوجبا للذم وكان بذلك الفعل مكتسبا
للكمال وبتركه مكتسبا للنقصان فلم يكن ملكا بل فقيرا مستحقا فثبت ان قوله سبحانه الملك
يومئذ الحق للرحمن غير لائق باصول المعتزلة (الصفة الثالثة) قوله وكان يوما على الكافرين
عسيرا فالمعنى ظاهر لانه تعالى عالم بالاحوال قادر على كل ما يريده واما غيره فالكل
فى ربقة العجز ولجام القهر فكان فى نهاية العسر على الكافر (الصفة الرابعة) قوله
ويوم يعض الظالم على يديه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الالف واللام فى الظالم فيه قولان
احدهما انه للعموم والثانى انه للمعهود والقائلون بالمعهود على قولين (الاول) قال ابن
عباس المراد عقبة بن ابى معيط بن امية بن عبد شمس كان لا يقدم من سفر الا صنع طعاما
يدعو اليه جيرته من اهل مكة ويكثر مجالسة الرسول ويعجبه حديثه فصنع طعاما ودعا
الرسول فقال صلى الله عليه وسلم ما آكل من طعامك حتى تأتى بالشهادتين ففعل فأكل
رسول الله صلى الله عليه وسلم من طعامه فبلغ ابية بن خلف فقال صبوت يا عقبة وكان
خليله فقال انما ذكرت ذلك ليأكل من طعامى فقال لا ارضى ابدا حتى تأتيه فتبزق فى
وجهه وتطأ على عنقه ففعل فقال عليه السلام لا القاك خارجا من مكة الا علوت رأسك
بالسيف فنزل ويوم يعض الظالم على يديه ندامة يعنى عقبة يقول ياليتنى لم اتخذ ابية خليلا

رحم وثالثة ملهوف وقرى ضيف
ومن على اسير وغير ذلك من مكارمهم
ومحاسنهم التى لو كانوا عملوها مع
الايمان لنالوا ثوابها بجعل حالهم
وحال اعمالهم المذكورة بحال
قوم خالفوا سلطانهم واستعصوا
عليه فقدم الى اشيائهم وقصد
ماتحت ايديهم فأتى عليها
بالافساد والتحريق ومزقها كل
ممزق بحيث لم يدع لها عينا ولا اثرا
اى عمدنا اليها وابطلناها اى
اظهرنا ابطالها بالكلية من غير ان
يكون هناك قدوم ولا شئ يقصد
تشبيهه به والهباء شبه غبار يرى
فى شعاع الشمس يطلع من الكوة
من الهبوة وهى الغبار ومنثورا
صفته شبه به اعمالهم المحبطة فى
الحقارة وعدم الجدوى ثم بالمنثور
منه فى الانتشار بحيث لا يمكن نظمه
او مفعول ثالث من حيث انه
كالخبر بعد الخبر كما فى قوله تعالى
كونوا قردة خاسئين (اصحاب
الجنة) هم المؤمنون المشار اليهم
فى قوله تعالى قل أذلك خير ام جنة
الخلد التى وعد المتقون الخ (يومئذ)
اى يوم اذ يكون ماذكر من عدم
التبشير وقولهم حجرا محجورا
وجعل اعمالهم هباء منثورا (خير
مستقرا) المستقر المكان الذى
يستقر فيه فى اكثر الاوقات
للتجالس والتحادث (واحسن
مقيلا) المقيل المكان الذى يؤوى
اليه للاسترواح الى الازواج
والتمتع بمغازلتهن سمى بذلك لان
التمتع به يكون وقت القيلولة غالبا
وقيل

لقد اضلني عن الذكر اى صرفنى عن الذكر وهو القرآن والايمان بعداذجاءنى مع محمد عليه السلام فأسر عقبة يوم بدر فقتل صبرا ولم يقتل يومئذ من الاسارى غيره وغير النضر ابن الحرث (الثانى) قالت الرافضة هذا الظالم هو رجل بعينه وان المسلمين غيروا اسمه وكتموه وجعلوا فلانا بدلا من اسمه وذكروا فاضلين من اصحاب رسول الله واعلم ان اجراء اللفظ على العموم ليس لنفس اللفظ لانا بينا فى اصول الفقه ان الالف واللام اذا دخل على الاسم المفرد لايفيد العموم بل انما يفيده لقرينة من حيث ان ترتيب الحكم على الوصف مشعر بعلية الوصف فدل ذلك على ان المؤثر فى العض على اليدين كونه ظالما وحينئذ يعم الحكم لعموم علته وهذا القول اولى من التخصيص بصورة واحدة لان هذا الذى ذكرناه يقتضى العموم ونزوله فى واقعة أخرى خاصة لاينافى ان يكون المراد هو العموم حتى يدخل فيه تلك الصورة وغيرها ولان المقصود من الآية زجر الكل عن الظلم وذلك لايحصل الا بالعموم واما قول الرافضة فذلك لايتم الا بالطعن فى القرآن واثبات انه غير وبدل ولانزاع فى انه كفر (المسئلة الثانية) استدلت المعتزلة بقوله ويوم يعض الظالم على يديه قالوا الظالم يتناول الكافر والفاسق فدل على ان الله تعالى لايعفو عن صاحب الكبيرة والكلام عليه تقدم (المسئلة الثالثة) قوله يعض الظالم على يديه قال الضحاك يأكل يديه الى المرفق ثم تنبت فلايزال كذلك كلما اكلها نبتت وقال اهل التحقيق هذه اللفظة مشعرة بالتحسر والغم يقال عض انامله وعض على يديه (المسئلة الرابعة) كما بينا ان الظالم غير مخصوص بشخص واحد بل يعم جميع الظلمة فكذا المراد بقوله فلانا ليس شخصا واحدا بل كل من اطيع فى معصية الله واستشهد القفال بقوله وكان الكافر على ربه ظهيرا ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا يعنى به جماعة الكفار (المسئلة الخامسة) قرئ ياويلتى بالياء وهو الاصل لان الرجل ينادى ويلته وهى هلكته يقول لها تعالى فهذا أوانك وانما قلبت الياء الفا كما فى صحارى وعذارى (المسئلة السادسة) قوله عن الذكر اى عن ذكر الله او القرآن وموعظة الرسول ويجوز ان يريد نطقه بشهادة الحق وعزيمته على الاسلام والشيطان اشارة الى خليله سماه شيطانا لانه اضله كما يضل الشيطان ثم خذله ولم ينفعه فى العاقبة اوأراد ابليس فانه هو الذى حمله على ان صار خليلا لذلك المضل ومخالفة الرسول ثم خذله اوأراد الجنس وكل من تشيطن من الجن والانس ويحتمل ان يكون وكان الشيطان حكاية كلام الظالم وان يكون كلام الله

* قوله تعالى (وقال الرسول يارب ان قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا) اعلم ان الكفار لما اكثروا من الاعتراضات الفاسدة ووجوه التعنت ضاق صدر الرسول صلى الله عليه وسلم وشكاهم الى الله تعالى وقال يارب ان قومى اتخذوا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اكثر المفسرين انه قول واقع من الرسول صلى الله عليه وسلم وقال ابو مسلم بل المراد ان الرسول عليه

(السلام)

لانه يفرغ من الحساب فى منتصف ذلك اليوم فيقيل اهل الجنة فى الجنة واهل النار فى النار وفى وصفه بزيادة الحسن مع حصول الخيرية بعطفه على المستقر رمز الى انه مزين بفنون الزين والزخارف والتفضيل المعتبر فيهما اما لارادة الزيادة على الاطلاق اى هم فى اقصى مايكون من خيرية المستقر وحسن المقيل واما بالاضافة الى ماللكفرة المتنعمين فى الدنيا او الى مالهم فى الآخرة بطريق التهكم بهم كما مر فى قوله تعالى قل أذلك خير الآية هذا وقد يجوز ان يراد باحدهما المصدر او الزمان اشارة الى ان مكانهم وزمانهم اطيب مايتخيل من الامكنة والازمنة (ويوم تشقق السماء) اى تتفتح واصله تتشقق فحذفت احدى التاءين كما فى تلظى وقرئ بادغام التاء فى الشين (بالغمام) بسبب طلوع الغمام منها وهو الغمام الذى ذكر فى قوله تعالى هل ينظرون الا ان يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة قيل هو غمام ابيض رقيق مثل الضبابة ولم يكن الا لبنى اسرائيل (ونزل الملائكة تنزيلا) اى تنزيلا عجيبا غير معهود قيل تشقق سماء سماء وينزل الملائكة خلال ذلك الغمام بصحائف اعمال العباد وقرئ ونزلت الملائكة وانزل وتنزل على صيغة المتكلم من الانزال والتنزيل ونزل الملائكة وانزل الملائكة ونزل

السلام بقوله فى الآخرة وهو كقوله فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا والاول اولى لانه موافق للفظ ولان ماذكره الله تعالى من قوله وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ولا يليق الا اذا كان وقع ذلك القول منه (المسئلة الثانية) ذكروا فى المهجور قولين (الاول) انه من الهجران اى تركوا الايمان به ولم يقبلوه واعرضوا عن استماعه (الثانى) انه من اهجر اى مهجورا فيه ثم حذف الجار ويؤكده قوله تعالى مستكبرين به سامرا تهجرون ثم هجرهم فيه انهم كانوا يقولون انه سحر وشعر وكذب وهجر اى هذيان وروى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من تعلم القرآن وعلق مصحفا لم يتعهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقا به يقول يارب العالمين عبدك هذا اتخذنى مهجورا اقض بيني وبينه ثم انه تعالى قال مسليا رسوله عليه الصلاة والسلام ومعزياله وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين بين بذلك ان له أسوة بسائر الرسل فليصبر على مايلقاه من قومه كما صبروا ثم فيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج اصحابنا بهذه الآية على انه تعالى خالق الخير والشر لان قوله تعالى جعلنا لكل نبي عدوا يدل على ان تلك العداوة من جعل الله ولاشك ان تلك العداوة كفر قال الجبائى المراد من الجعل التبيين فانه تعالى لما بين انهم اعداؤه جاز ان يقول جعلناهم اعداء كما اذا بين الرجل ان فلانا لص يقال جعله لصا كما يقال فى الحاكم عدل فلانا وفسق فلانا وجرحه قال الكعبى انه تعالى لما امر الانبياء بعداوة الكفار وعداوتهم للكفار تقتضى عداوة الكفار لهم فلهذا جاز ان يقول وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين لانه سبحانه هو الذى حمله ودعاه الى ما استعقب تلك العداوة وقال ابو مسلم يحتمل فى العدو انه البعيد لا القريب اذ المعاداة المباعدة كما ان النصرة القرب والمظاهرة وقد باعد الله تعالى بين المؤمنين والكافرين والجواب عن الاول ان التبيين لايسمونه البتة جعلا لان من بين لغيره وجود الصانع وقدمه لايقال انه جعل الصانع وجعل قدمه والجواب عن الثانى ان الذى امره الله تعالى به هل له تأثير فى وقوع العداوة فى قلوبهم اوليس له تأثير فان كان الاول فقد تم الكلام لان عداوتهم للرسول صلى الله عليه وسلم كفر فاذا أمر الله الرسول بماله اثر فى تلك العداوة فقد أمره بماله اثر فى وقوع الكفر وان لم يكن فيه تأثير البتة كان منقطعا عنه بالكلية فيمتنع اسناده اليه وهذا هو الجواب عن قول ابي مسلم (المسئلة الثانية) لقائل ان يقول ان قول محمد عليه السلام يارب ان قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا فى المعنى كقول نوح عليه السلام رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى الا فرارا وكان المقصود من هذا انزال العذاب فكذا ههنا فكيف يليق هذا بمن وصفه الله بالرحمة فى قوله وما ارسلناك الا رحمة للعالمين جوابه ان نوحا عليه السلام لما ذكر ذلك دعا عليهم واما محمد عليه الصلاة والسلام فلما ذكر هذا مادعا عليهم بل انتظر فلما قال تعالى وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين كان ذلك

الملائكة على حذف النون الذى هو فاء الفعل من تنزل (الملك يومئذ الحق للرحمن) اى السلطنة القاهرة والاستيلاء الكلى العام الثابت صورة ومعنى ظاهرا وباطنا بحيث لازوال له اصلا ثابت للرحمن يومئذ فالملك مبتدأ والحق صفته وللرحمن خبره ويومئذ ظرف لثبوت الخبر للمبتدأ وفائدة التقييد ان ثبوت الملك المذكور له تعالى خاصة يومئذ واما فيما عداه من ايام الدنيا فيكون لغيره ايضا تصرف صورى فى الجملة وقيل الملك مبتدأ والحق خبره وللرحمن متعلق بالحق او بمحذوف على التبيين او بمحذوف هو صفة للحق ويومئذ معمول للملك وقيل الخبر يومئذ والحق نعت للملك وللرحمن على ماذكر وايا ما كان فالجملة بمعناها عاملة فى الظرف اى ينفرد الله تعالى بالملك يوم تشقق وقيل الظرف منصوب بماذكر فالجملة حينئذ استئناف مسوق لبيان احواله واهواله وايراده تعالى بعنوان الرحمانية للايذان بان اتصافه تعالى بغاية الرحمة لايهون الخطب على الكفرة لعدم استحقاقهم للرحمة كما فى قوله تعالى يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم والمعنى ان الملك الحقيق يومئذ للرحمن (وكان) ذلك اليوم مع كون الملك فيه لله تعالى المبالغ فى الرحمة لعباده (يوما على الكافرين عسيرا) شديدا لهم وتقديم الجار والمجرور لمراعاة

كالامر له بالصبر على ذلك وترك الدعاء عليهم فظهر الفرق (المسئلة الثالثة) قوله جعلنا صيغة العظماء والعظيم اذا ذكر نفسه فى كل معرض من التعظيم وذكر انه يعطى فلابد وان تكون تلك العطية عظيمة كقوله ولقد آتيناك سبعا من المثانى وقوله انا أعطيناك الكوثر فكيف يليق بهذه الصيغة ان تكون تلك العطية هى العداوة التى هى منشأ الضرر فى الدين والدنيا وجوابه ان خلق العداوة سبب لازدياد المشقة التى هى موجبة لمزيد الثواب والله أعلم (المسئلة الرابعة) يجوز ان يكون العدو واحدا وجمعا كقوله فانهم عدو لى وجاء فى التفسير ان عدو الرسول صلى الله عليه وسلم ابو جهل اما قوله وكفى بربك هاديا ونصيرا فقال الزجاج الباء زائدة يعنى كفى ربك هاديا ونصيرا منصوبان على الحال والمعنى هاديا الى مصالح الدين والدنيا ونصيرا على الاعداء ونظيره يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ۞ قوله تعالى (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق واحسن تفسيرا الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم أولئك شر مكانا واضل سبيلا) اعلم ان هذا هو الشبهة الخامسة لمنكرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وان اهل مكة قالوا تزعم انك رسول من عند الله أفلا تأتينا بالقرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة جملة على موسى والانجيل على عيسى والزبور على داود وعن ابن جريج بين اوله وآخره ثنتان او ثلاث وعشرون سنة وأجاب الله بقوله كذلك لنثبت به فؤادك وبيان هذا الجواب من وجوه (احدها) انه عليه السلام لم يكن من اهل القراءة والكتابة فلو نزل عليه ذلك جملة واحدة كان لا يضبطه ولجاز عليه الغلط والسهو وانما نزلت التوراة جملة لانها مكتوبة يقرؤها موسى (وثانيها) ان من كان الكتاب عنده فربما اعتمد على الكتاب وتساهل فى الحفظ فالله تعالى ما اعطاه الكتاب دفعة واحدة بل كان ينزل عليه وظيفة ليكون حفظه له اكمل فيكون ابعد له عن المساهلة وقلة التحصيل (وثالثها) انه تعالى لو انزل الكتاب جملة واحدة على الخلق لنزلت الشرائع بأسرها دفعة واحدة على الخلق فكان يثقل عليهم ذلك أما لما نزل مفرقا منجما لا جرم نزلت التكاليف قليلا قليلا فكان تحملها اسهل (ورابعها) انه اذا شاهد جبريل حالا بعد حال يقوى قلبه بمشاهدته فكان اقوى على اداء ما حمل وعلى الصبر على عوارض النبوة على احتماله اذية قومه وعلى الجهاد (وخامسها) انه لما تم شرط الاعجاز فيه مع كونه منجما ثبت كونه معجزا فانه لو كان ذلك مقدور البشر لوجب ان يأتوا بمثله منجما مفرقا (وسادسها) كان القرآن ينزل بحسب اسئلتهم والوقائع الواقعة لهم فكانوا يزدادون بصيرة لان بسبب ذلك كان ينضم الى الفصاحة الاخبار عن الغيوب (وسابعها) ان القرآن لما نزل منجما مفرقا وهو عليه السلام كان يتحداهم من اول الامر فكأنه تحداهم بكل واحد من نجوم القرآن فلما عجزوا عنه كان عجزهم عن معارضة الكل اولى فبهذا الطريق ثبت فى فؤاده ان القوم عاجزون عن المعارضة لا محالة (وثامنها) ان

الفواصل واما المؤمنين فيكون يسيرا بفضل الله تعالى وقد جاء فى الحديث انه يهون يوم القيامة على المؤمن حتى يكون اخف عليه من صلاة مكتوبة صلاها فى الدنيا والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبله (ويوم يعض الظالم على يديه) عض اليدين والانامل واكل البنان وحرق الاسنان ونحوها كنايات عن الغيظ والحسرة لانها من روادفهما والمراد بالظالم اما عقبة ابن ابى معيط على ما قيل من انه كان يكثر مجالسة النبى صلى الله عليه وسلم فدعاه عليه الصلاة والسلام يوما الى ضيافته فابى عليه الصلاة والسلام ان يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ففعل وكان ابى بن خلف صديقه فعاتبه فقال صبأت فقال لا ولكن ابى ان يأكل من طعامى وهو فى بيتى فاستحييت منه فشهدت له فقال انى لا ارضى منك الا ان تأتيه فتطأ قفاه وتبزق فى وجهه فأتاه فوجده ساجدا فى دار الندوة ففعل ذلك فقال عليه الصلاة والسلام لا القاك خارجا من مكة الا علوت رأسك بالسيف فاسر يوم بدر فامر عليا رضى الله عنه فقتله وقيل قتله عاصم بن ثابت الانصارى وطعن عليه الصلاة والسلام ابيا يوم احد فى المبارزة فرجع الى مكة ومات واما جنس الظالم وهو داخل فيه دخولا اوليا وقوله تعالى (يقول) الخ حال من فاعل يعض وقوله تعالى (ياليتنى) الخ محكى به ويا اما لمجرد التنبيه من غير قصد الى تعيين المنبه او المنادى محذوف اى يا هؤلاء ليتنى (اتخذت مع الرسول سبيلا) اى طريقا واحدا منجيا من هذه الورطات وهو

السفارة بين الله تعالى وبين أنبيائه وتبليغ كلامه الى الخلق منصب عظيم فيحتمل ان يقال انه تعالى لو انزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم دفعة واحدة لبطل ذلك المنصب على جبريل عليه السلام فلما انزله مفرقا منجما بقى ذلك المنصب العالى عليه فلاجل ذلك جعله الله سبحانه وتعالى مفرقا منجما اما قوله كذلك ففيه وجهان (الاول) انه من تمام كلام المشركين اى جملة واحدة كذلك اى كالتوراة والانجيل وعلى هذا لا يحتاج الى اضمار فى الآية وهو ان يقول انزلناه مفرقا لنثبت به فؤادك (الثانى) انه كلام الله تعالى ذكره جوابا لهم اى كذلك انزلناه مفرقا (فان قيل) ذلك فى كذلك يجب ان يكون اشارة الى شئ تقدمه والذى تقدم هو انزاله جملة فكيف فسر به كذلك انزلناه مفرقا (قلنا) لان قولهم لولا نزل عليه جملة واحدة معناه لم نزل مفرقا فذلك اشارة اليه اما قوله تعالى ورتلناه ترتيلا فمعنى الترتيل فى الكلام ان يأتى بعضه على اثر بعض على تؤدة وتمهل واصل الترتيل فى الاسنان وهو تفلجها يقال ثغر رتل ومرتل وهو ضد المتراص ثم انه سبحانه وتعالى لما بين فساد قولهم بالجواب الواضح قال ولا يأتونك بمثل من الجنس الذى تقدم ذكره من الشبهات الا جئناك بالحق الذى يدفع قولهم كما قال تعالى بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق وبين ان الذى يأتى به أحسن تفسيرا لاجل ما فيه من المزية فى البيان والظهور ولما كان التفسير هو الكشف عما يدل عليه الكلام وضع موضع معناه فقالوا تفسير هذا الكلام كيت وكيت كما قيل معناه كذا وكذا * اما قوله تعالى الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) عن ابى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس على ثلاثة اصناف صنف على الدواب وصنف على الاقدام وصنف على الوجوه وعنه عليه السلام ان الذى امشاهم على ارجلهم قادر على ان يمشيهم على وجوههم (المسئلة الثانية) الاقرب انه صفة للقوم الذين اوردوا هذه الاسئلة على سبيل التعنت وان كان غيرهم من اهل النار يدخل معهم (المسئلة الثالثة) حمله بعضهم على انهم يمشون فى الآخرة مقلوبين وجوههم الى القرار وارجلهم الى فوق روى ذلك عن الرسول صلى الله عليه وسلم وقال آخرون المراد انهم يحشرون ويسحبون على وجوههم وهذا ايضا مروى عن الرسول عليه الصلاة والسلام وهو اولى وقال الصوفية الذين تعلقت قلوبهم بما سوى الله فاذا ماتوا بقى ذلك التعلق فعبر عن تلك الحالة بانهم يحشرون على وجوههم الى جهنم ثم بين تعالى انهم شر مكانا من اهل الجنة واضل سبيلا وطريقا والمقصود منه الزجر عن طريقهم والسؤال عليه كما ذكرناه على قوله اصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وقد تقدم الجواب عنه واعلم انه تعالى بعد ان تكلم فى التوحيد ونفى الانداد واثبات النبوة والجواب عن شبهات المنكرين لها وفى احوال القيامة شرع فى ذكر القصص على السنة المعلومة (القصة الاولى) * قوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هرون وزيرا فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا

طريق الحق ولم تتشعب بى طرق الضلالة او حصلت فى صحبته عليه الصلاة والسلام طريقا ولم اكن سالا لا طريق لى قط (يا ويلتا) بقلب ياء المتكلم الفا كما فى صحارى ومدارى وقرئ على الاصل يا ويلتى اى هلكتى تعالى واحضرى فهذا اوانك (ليتنى لم اتخذ فلانا خليلا) يريد من اضله فى الدنيا فان فلانا كناية عن الاعلام كما ان الهن كناية عن الاجناس وقيل فلان كناية عن علم ذكور من يعقل وفلانة عن علم اناثهم وفل كناية عن نكرة من يعقل من الذكور وفلة عمن يعقل من الاناث والفلان والفلانة من غير العاقل ويختص فل بالنداء الا فى ضرورة كما فى قوله
* فى لجة امسك فلانا عن فل *
وقوله * خذا حذا تالى عن فل وفلان وليس فل مرخما من فلان خلافا للفراء واختلفوا فى لام فل وفلان فقيل واو وقيل ياء هذا فان اريد بالظالم عقبة فالقرين كناية عن ابى وان اريد به الجنس فهو كناية عن علم كل من يضله كائنا من كان من شياطين الانس والجن وهذا التمنى منه وان كان مسوقا لابراز الندم والحسرة لكنه متضمن لنوع تعلل واعتذار بتوريك جنايته الى الغير وقوله تعالى (لقد اضلنى عن الذكر) تعليل لتمنيه المذكور وتوضيح لتعلله وتصديره باللام القسمية للمبالغة فى بيان خطائه واظهار ندمه وحسرته اى والله لقد اضلنى عن ذكر الله تعالى او عن القرآن او عن موعظة الرسول عليه الصلاة والسلام او كلمة الشهادة (بعد اذ جاءنى) وتمكنت منه

فدمرناهم تدميرا) اعلم انه تعالى لما قال وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا اتبعه بذكر جماعة من الانبياء وعرفه بما نزل بمن كذب من اممهم فقال ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه اخاه هرون وزيرا والمعنى لست يا محمد بأول من ارسلناه فكذب وآتيناه الآيات فرد فقد آتينا موسى التوراة وقوينا عضده بأخيه هرون ومع ذلك فقد رد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) كونه وزيرا لا يمنع من كونه شريكا له فى النبوة فلا وجه لقول من قال فى قوله فقلنا اذهبا انه خطاب لموسى عليه السلام وحده بل يجرى مجرى قوله اذهب الى فرعون انه طغى فان قيل ان كونه وزيرا كالمنافى لكونه شريكا بل يجب ان يقال انه لما صار شريكا خرج عن كونه وزيرا قلنا لا منافاة بين الصفتين لانه لا يمتنع ان يشركه فى النبوة ويكون وزيرا وظهيرا ومعينا له (المسئلة الثانية) قال الزجاج الوزير فى اللغة الذى يرجع اليه ويتحصن برأيه والوزر ما يعتصم به ومنه كلا لا وزر أى لا منجى ولا ملجأ قال القاضى ولذلك لا يوصف تعالى بان له وزيرا ولا يقال فيه ايضا بانه وزير لان الالتجاء اليه فى المشاورة والرأى على هذا الحد لا يصح (المسئلة الثالثة) دمرناهم اهلكناهم اهلاكا (فان قيل) الفاء للتعقيب والاهلاك لم يحصل عقيب ذهاب موسى وهرون اليهم بل بعد مدة مديدة (قلنا) التعقيب محمول ههنا على الحكم لا على الوقوع وقيل انه تعالى أراد اختصار القصة فذكر حاشيتيها اولها وآخرها لانهما المقصود من القصة بطولها اعنى الزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم (المسئلة الرابعة) قوله تعالى اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا ان حملنا تكذيب الآيات على تكذيب آيات الالهية فلا اشكال وان حملناه على تكذيب آيات النبوة فاللفظ وان كان للماضى الا ان المراد هو المستقبل (القصة الثانية) قصة نوح عليه السلام * قوله تعالى (وقوم نوح لما كذبوا الرسل اغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا اليما) اعلم انه تعالى انما قال كذبوا الرسل اما لانهم كانوا من البراهمة المنكرين لكل الرسل اولانه كان تكذيبهم لواحد منهم تكذيبا للجميع لان تكذيب الواحد منهم لا يمكن الا بالقدح فى المعجز وذلك يقتضى تكذيب الكل اولان المراد بالرسل وان كان نوحا عليه السلام وحده ولكنه كما يقال فلان يركب الافراس اما قوله اغرقناهم فقال الكلبى امطر الله عليهم السماء اربعين يوما واخرج ماء الارض ايضا فى تلك الاربعين فصارت الارض بحرا واحدا وجعلناهم اى وجعلنا اغراقهم اوقصتهم آية واعتدنا للظالمين اى لكل من سلك سبيلهم فى تكذيب الرسل عذابا اليما ويحتمل ان يكون المراد قوم نوح (القصة الثالثة) * قوله تعالى (وعادا وثمود واصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا وكلا ضربنا له الامثال وكلا تبرنا تتبيرا) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) عطف عادا على هم فى وجعلناهم او على الظالمين لان المعنى ووعدنا الظالمين (المسئلة الثانية) قرئ وثمود على تأويل القبيلة واما على المنصرف فعلى تأويل الحى اولانه اسم للاب الاكبر (المسئلة الثالثة) قال ابو عبيدة

وقوله تعالى (وكان الشيطان للانسان خذولا) اى مبالغا فى الخذلان حيث يواليه حتى يؤديه الى الهلاك ثم يتركه ولا ينفعه اعتراض مقرر لمضمون ما قبله اما من جهته تعالى اومن تمام كلام الظالم على انه سمى خليله شيطانا بعد وصفه بالاضلال الذى هو اخص الاوصاف الشيطانية او على انه اراد بالشيطان ابليس لانه الذى حمله على مخالة المضلين ومخالفة الرسول الهادى عليه الصلاة والسلام بوسوسته واغوائه لكن وصفه بالخذلان يشعر بأنه كان يعده فى الدنيا ويمنيه بأنه ينفعه فى الآخرة وهو او فق بحال ابليس (وقال الرسول) عطف على قوله تعالى وقال الذين لا يرجون لقاءنا وما بينهما اعتراض مسوق لاستعظام ما قالوه وبيان ما يحيق بهم فى الآخرة من الاهوال والخطوب وايراده عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة لتحقيق الحق والرد على نحورهم حيث كان ما حكى عنه قدحا فى رسالته عليه الصلاة والسلام اى قالوا كيت وكيت وقال الرسول اثر ما شاهد منهم غاية العتو ونهاية الطغيان بطريق البث الى ربه عز وجل (يارب ان قومى) يعنى الذين حكى عنهم ما حكى من الشنائع (اتخذوا هذا القرآن) الذى من جملته هذه الآيات الناطقة بما يحيق بهم فى الآخرة من فنون العقاب كما ينبئ عنه كلمة الاشارة (مهجورا) اى متروكا بالكلية ولم يؤمنوا به ولم يرفعوا اليه رأسا ولم يتأثروا بوعيده وفيه تلويح بأن من حق المؤمن ان يكون كثير التعاهد

الرس هو البئر غير المطوية قال ابو مسلم في البلاد موضع يقال له الرس فجائز ان يكون ذلك الوادي سكنا لهم والرس عند العرب الدفن ويسمى به الحفر يقال رس الميت اذا دفن وغيب في الحفرة وفي التفسير انه البئر واي شيء كان فقد اخبر الله تعالى عن اهل الرس بالهلاك انتهى (المسئلة الرابعة) ذكر المفسرون في اصحاب الرس وجوها (احدها) كانوا قوما من عبدة الاصنام اصحاب آبار ومواش فبعث الله تعالى اليهم شعيبا عليه السلام فدعاهم الى الاسلام فتمادوا في طغيانهم وفي ايذائه فبيناهم حول الرس خسف الله بهم وبدارهم (وثانيها) الرس قرية بفلج اليمامة قتلوا نبيهم فهلكوا وهم بقية ثمود (وثالثها) هم اصحاب النبي لحنظلة بن صفوان كانوا مبتلين بالعنقاء وهي اعظم مايكون من الطير سميت بذلك لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له فتخ وهي تنقض على صبيانهم فتخطفهم ان اعوزها الصيد فدعا عليها حنظلة فأصابتها الصاعقة ثم انهم قتلوا حنظلة فأهلكوا (ورابعها) هم اصحاب الاخدود والرس هو الاخدود (وخامسها) الرس انطاكية قتلوا فيها حبيب النجار وقيل كذبوه ورسوه في بئر اي دسوه فيها (وسادسها) عن علي عليه السلام انهم كانوا قوما يعبدون شجرة الصنوبر وانما سموا بأصحاب الرس لانهم رسوا نبيهم في الارض (وسابعها) اصحاب الرس قوم كانت لهم قرى على شاطئ نهر يقال له الرس من بلاد المشرق فبعث الله تعالى اليهم نبيا من ولد يهودا بن يعقوب فكذبوه فلبث فيهم زمنا فشكى الى الله تعالى منهم فحفروا بئرا ورسوه فيها وقالوا نرجوان يرضى عنا الهنا وكانوا عامة يومهم يسمعون انين نبيهم يقول الهي وسيدي ترى ضيق مكاني وشدة كربي وضعف قلبي وقلة حيلتي فعجل قبض روحي حتى مات فارسل الله تعالى ريحا عاصفة شديدة الحمرة فصارت الارض من تحتهم حجر كبريت متوقد واظلتهم سحابة سوداء فذابت ابدانهم كما يذوب الرصاص (وثامنها) روى ابن جرير عن الرسول صلى الله عليه وسلم ان الله بعث نبيا الى اهل قرية فلم يؤمن به من اهلها احد الا عبد اسود ثم عدوا على الرسول فحفروا له بئرا فالقوه فيها ثم اطبقوا عليه حجرا ضخما وكان ذلك العبد يحتطب فيشتري له طعاما وشرابا ويرفع الصخرة ويدليه اليه فكان ذلك ماشاء الله فاحتطب يوما فلما اراد ان يحملها وجد نوما فاضطجع فضرب الله على اذنه سبع سنين نائما ثم انتبه وتمطى وتحول لشقه الآخر فنام سبع سنين اخرى ثم هب فحمل حزمته فظن انه نام ساعة من نهار فجاء الى القرية فباع حزمته واشترى طعاما وشرابا وذهب الى الحفرة فلم يجد احدا وكان قومه قد استخرجوه وآمنوا به وصدقوه وكان ذلك النبي يسألهم عن الاسود فيقولون لاندري حاله حتى قبض الله النبي وقبض ذلك الاسود فقال عليه السلام ان ذلك الاسود لاول من يدخل الجنة (واعلم) ان القول ماقاله ابو مسلم وهو ان شيئا من هذه الروايات غير معلوم بالقرآن ولا بخبر قوي الاسناد ولكنهم كيف كانوا فقد اخبر الله تعالى عنهم انهم اهلكوا بسبب كفرهم (المسئلة الخامسة) قال النخعي القرن اربعون سنة وقال علي عليه السلام

للقرآن كيلا يندرج تحت ظاهر النظم الكريم فانه روي عنه عليه الصلاة والسلام انه قال من تعلم القرآن وعلق مصحفا لم يتعاهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقا به يقول يارب العالمين عبدك هذا اتخذني مهجورا اقض بيني وبينه وقيل هو من هجر اذا هذى اي جعلوه مهجورا فيه اما على زعمهم الباطل واما بأن هجروا فيه اذا سمعوه كما يحكى عنهم من قولهم لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه وقد جوز ان يكون المهجور بمعنى الهجر كالمجلود والمعقول فالمعنى اتخذوه هجرا وهذيانا وفيه من التحذير والتخويف مالايخفى فان الانبياء عليهم الصلاة والسلام اذا شكوا الى الله تعالى قومهم عجل لهم العذاب ولم ينظروا وقوله تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين) تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحمل له على الاقتداء بمن قبله من الانبياء عليهم الصلاة والسلام اي كما جعلنا لك اعداء من المشركين يقولون مايقولون ويفعلون مايفعلون من الاباطيل جعلنا لكل نبي من الانبياء الذين هم اصحاب الشريعة والدعوة اليها عدوا من مجرمي قومهم فاصبر كما صبروا وقوله تعالى (وكفى بربك هاديا ونصيرا) وعد كريم له عليه الصلاة والسلام بالهداية الى كافة مطالبه والنصر على اعدائه اي كفاك مالك امرك ومبلغك الى الكمال هاديا لك الى مايوصلك الى غاية الغايات التي من جملتها تبليغ الكتاب اجله واجراء احكامه في اكنافه الى يوم القيامة ونصيرا لك على

بل سبعون سنة وقيل مائة وعشرون (المسئلة السادسة) قوله بين ذلك اى بين ذلك المذكور وقد يذكر الذاكر اشياء مختلفة ثم يشير اليها بذلك ويحسب الحاسب اعدادا متكاثرة ثم يقول فذلك كيت وكيت على معنى فذلك المحسوب او المعدود اما قوله وكلا ضربنا له الامثال فالمراد بينا لهم وأزحنا عللهم فلما كذبوا تبرناهم تتبيرا ويحتمل وكلا ضربنا له الامثال بان اجبناهم عما اوردوه من الشبه فى تكذيب الرسل كما اورده قومك يا محمد فلما لم ينجع فيهم تبرناهم تتبيرا فحذر تعالى بذلك قوم محمد صلى الله عليه وسلم فى الاستمرار على تكذيبه لئلا ينزل بهم مثل الذى نزل بالقوم عاجلا وآجلا (المسئلة السابعة) كلا الاول منصوب بما دل عليه ضربنا له الامثال وهو انذرنا او حذرنا والثانى بتبرنا لانه فارغ له (المسئلة الثامنة) التتبير التفتيت والتكسير ومنه التبر وهو كسارة الذهب والفضة والزجاج (القصة الرابعة) * قوله تعالى (ولقد اتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا) واعلم انه تعالى أراد بالقرية سدوم من قرى قوم لوط عليه السلام وكانت خمسا أهلك الله تعالى اربعا بأهلها وبقيت واحدة ومطر السوء الحجارة يعنى ان قريشا مروا مرارا كثيرة فى متاجرهم الى الشأم على تلك القرية التى اهلكت بالحجارة من السماء أفلم يكونوا فى مرورهم ينظرون الى آثار عذاب الله تعالى ونكاله بل كانوا قوما كفرة لا يرجون نشورا وذكروا فى تفسير يرجون وجوها (أحدها) وهو الذى قاله القاضى وهو الاقوى انه محمول على حقيقة الرجاء لان الانسان لا يتحمل متاعب التكاليف ومشاق النظر والاستدلال الا رجاء ثواب الآخرة فاذا لم يؤمن بالآخرة لم يرج ثوابها فلا يتحمل تلك المشاق والمتاعب (وثانيها) معناه لا يتوقعون نشورا فوضع الرجاء موضع التوقع لانه انما يتوقع العاقبة من يؤمن (وثالثها) معناه لا يخافون على اللغة التهامية وهو ضعيف والاول هو الحق * قوله تعالى (واذا رأوك ان يتخذونك الا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا ان صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من اضل سبيلا أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ام تحسب ان اكثرهم يسمعون او يعقلون ان هم الا كالانعام بل هم اضل سبيلا) اعلم انه سبحانه لما بين مبالغة المشركين فى انكار نبوته وفى ايراد الشبهات فى ذلك بين بعد ذلك انهم اذا رأوا الرسول اتخذوه هزوا فلم يقتصروا على ترك الايمان به بل زادوا عليه بالاستهزاء والاستحقار ويقول بعضهم لبعض أهذا الذى بعث الله رسولا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف ان الاولى نافية والثانية مخففة من الثقيلة واللام هى الفارقة بينهما (المسئلة الثانية) جواب اذا هو ما اضمر من القول يعنى واذا رأوك مستهزئين قالوا أبعث الله هذا رسولا وقوله ان يتخذونك جملة اعترضت بين اذا وجوابها (المسئلة الثالثة) اتخذوه هزوا فى معنى استهزؤا به والاصل اتخذوه موضع هزء او مهزوا به (المسئلة الرابعة) اعلم ان الله

(تعالى)

جميع من يعاديك (وقال الذين كفروا) حكاية لاقتراحهم الخاص بالقرآن الكريم بعد حكاية اقتراحهم فى حقه عليه الصلاة والسلام والقائلون هم القائلون اولا وايرادهم بعنوان الكفر لذمهم به والاشعار بعلة الحكم (لولا نزل عليه القرآن) التنزيل ههنا مجرد عن معنى التدريج كما فى قوله تعالى يسألك اهل الكتاب ان تنزل عليهم كتابا من السماء ويجوز ان يراد به الدلالة على كثرة المنزل فى نفسه اى هلا انزل كله (جملة واحدة) كالكتب الثلاثة وبطلان هذه الكلمة الحمقاء مما لا يكاد يخفى على احد فان الكتب المتقدمة لم يكن شاهد صحتها ودليل كونها من عند الله تعالى اعجازها واما القرآن الكريم فبينة صحته وآية كونه من عند الله تعالى نظمه المعجز الباقى على مر الدهور المتحقق فى كل جزء من اجزائه المقدرة بمقدار اقصر السور حسبما وقع به التحدى ولا ريب فى ان مايدور عليه فلك الاعجاز هو المطابقة لما تقتضيه الاحوال ومن ضرورة تغيرها وتجددها تغير ما يطابقها حتما على ان فيه فوائد جمة قد اشير الى بعض منها بقوله تعالى (كذلك لنثبت به فؤادك) فانه استئناف وارد من جهته تعالى لرد مقالتهم الباطلة وبيان الحكمة فى التنزيل التدريجى ومحل الكاف النصب على انها صفة لمصدر مؤكد لمضمر معلل بما بعده وذلك اشارة الى مايفهم من كلامهم اى مثل ذلك التنزيل المفرق الذى قدحوا فيه واقترحوا خلافه نزلناه لا تنزيلا

تعالى اخبر عن المشركين انهم متى رأوا الرسول اتوا بنوعين من الافعال (احدهما) انهم يستهزؤن به وفسر ذلك الاستهزاء بقوله أهذا الذى بعث الله رسولا وذلك جهل عظيم لان الاستهزاء اما ان يقع بصورته او بصفته (اما الاول) فباطل لانه عليه الصلاة والسلام كان احسن منهم صورة وخلقة وبتقدير انه لم يكن كذلك لكنه عليه السلام ما كان يدعى التميز عنهم بالصورة بل بالحجة (واما الثانى) فباطل لانه عليه السلام ادعى التميز عنهم فى ظهور المعجز عليه دونهم وانهم ماقدروا على القدح فى حجته ودلالته ففى الحقيقة هم الذين يستحقون ان يهزأ بهم ثم انهم لوقاحتهم قلبوا القضية واستهزؤا بالرسول عليه السلام وذلك يدل على انه ليس للمبطل فى كل الاوقات الا السفاهة والوقاحة (وثانيهما) انهم كانوا يقولون فيه ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا ان صبرنا عليها وذلك يدل على امور (الاول) انهم سموا ذلك اضلالا وذلك يدل على انهم كانوا مبالغين فى تعظيم آلهتهم وفى استعظام صنيعه صلى الله عليه وسلم فى صرفهم عنه وذلك يدل على انهم كانوا يعتقدون ان هذا هو الحق فمن هذا الوجه يبطل قول اصحاب المعارف فى انه لا يكفر الا من يعرف الدلائل لانهم جهلوه ثم نسبهم الله تعالى الى الكفر والضلال وقولهم لولا ان صبرنا عليها يدل ايضا على ذلك (الثانى) يدل هذا القول منهم على جد الرسول عليه السلام واجتهاده فى صرفهم عن عبادة الاوثان ولولا ذلك لما قالوا ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا ان صبرنا عليها وهكذا كان عليه السلام فانه فى اول الامر بالغ فى ايراد الدلائل والجواب عن الشبهات وتحمل ما كانوا يفعلونه من انواع السفاهة وسوء الادب (الثالث) ان هذا يدل على اعتراف القوم بانهم لم يعترضوا البتة على دلائل الرسول صلى الله عليه وسلم وما عارضوها الا بمحض الجحود والتقليد لان قولهم لولا ان صبرنا عليها اشارة الى الجحود والتقليد ولو ذكروا اعتراضا على دلائل الرسول عليه السلام لكان ذكر ذلك اولى من ذكر مجرد الجحود والاصرار الذى هو دأب الجهال وذلك يدل على ان القوم كانوا مقهورين تحت حجته عليه السلام وانه ما كان فى ايديهم الا مجرد الوقاحة (الرابع) الآية تدل على ان القوم صاروا فى ظهور حجته عليه السلام عليهم كالمجانين لانهم استهزؤا به اولا ثم وصفوه بانه كاد يضلنا عن آلهتنا لولا انا قابلناه بالجحود والاصرار فهذا الكلام الاخير يدل على ان القوم سلموا له قوة الحجة وكمال العقل والكلام الاول وهو السخرية والاستهزاء لا يليق الا بالجاهل العاجز فالقوم لما جمعوا بين هذين الكلامين دل ذلك على انهم كانوا كالمتحيرين فى امره فتارة بالوقاحة يستهزؤن منه وتارة يصفونه بما لا يليق الا بالعالم الكامل ثم انه سبحانه لما حكى عنهم هذا الكلام زيف طريقتهم فى ذلك من ثلاثة اوجه (اولها) قوله وسوف يعلمون حين يرون العذاب من اضل سبيلا لانهم لما وصفوه بالاضلال فى قولهم ان كاد ليضلنا بين تعالى انه سيظهر لهم من المضل ومن الضال عند مشاهدة العذاب الذى لا مخلص لهم منه فهو وعيد شديد لهم على التعامى والاعراض عن الاستدلال والنظر

مقاربة لتقوى بذلك التنزيل الفرق فؤادك فان فيه تيسيرا لحفظ النظم وفهم المعانى وضبط الاحكام والوقوف على تفاصيل ما روعى فيها من الحكم والمصالح المبنية على المناسبة على انها منوطة بأسبابها الداعية الى شرعها ابتداء او تبديلا بالنسخ من احوال المكلفين وكذلك عامة ما ورد فى القرآن المجيد من الاخبار وغيرها متعلقة بأمور حادثة من الاقاويل والافاعيل ومن قضية تجددها تجدد ما يتعلق بها كالاقتراحات الواقعة من الكفرة الداعية الى حكايتها وابطالها وبيان ما يؤول اليه حالهم فى الآخرة على انهم فى هذا الاقتراح كالباحث عن حتفه بظلفه حيث امروا بالاتيان بمثل نوبة من نوب التنزيل فظهر عجزهم عن المعارضة وضاقت عليهم الارض بما رحبت فكيف لو تحدوا بكله وقوله تعالى (ورتلناه ترتيلا) عطف على ذلك المضمر وتنكير ترتيلا للتفخيم اى كذلك نزلناه ورتلناه ترتيلا بديعا لا يقادر قدره ومعنى ترتيله تفريقه آية بعد آية قاله النخعى والحسن وقتادة وقال ابن عباس رضى الله عنهما بيناه بيانا فيه ترتيل وتثبيت وقال السدى فصلناه تفصيلا وقال مجاهد جعلناه بعضه فى اثر بعض وقيل هو الامر بترتيل قراءته بقوله تعالى ورتل القرآن ترتيلا وقيل قرأناه عليك بلسان جبريل عليه السلام شيئا فشيئا فى عشرين او فى ثلاث وعشرين وفى ثلاث وعشرين سنة على تؤدة وتمهل (ولا يأتونك بمثل) من الامثال التى من جملتها ما حكى من اقتراحاتهم القبيحة الخارجة عن دائرة العقول الجارية لذلك مجرى الامثال اى لا يأتونك بكلام

(وثانيها) قوله تعالى أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا والمعنى انه سبحانه بين ان بلوغ هؤلاء فى جهالتهم واعراضهم عن الدلائل انما كان لاستيلاء التقليد عليهم وانهم اتخذوا اهواءهم آلهة فكل مادعاهم الهوى اليه انقادوا له سواء منع الدليل منه اولم يمنع ثم ههنا ابحاث (الاول) قوله أرأيت كلمة تصلح للاعلام والسؤال وههنا هى تعجيب من جهل من هذا وصفه ونعته (الثانى) قوله اتخذ الهه هواه معناه اتخذ الهه مايهواه اوالها يهواه وقيل هو مقلوب ومعناه اتخذ هواه الهه وهذا ضعيف لان قوله اتخذ الهه هواه يفيد الحصر اى لم يتخذ لنفسه الها الاهواه وهذا المعنى لايحصل عند القلب قال ابن عباس الهوى اله يعبد وقال سعيد بن جبير كان الرجل من المشركين يعبد الصنم فاذا رأى احسن منه رماه واتخذ الآخر وعبده (الثالث) قوله أفأنت تكون عليه وكيلا اى حافظا تحفظه من اتباع هواه اى لست كذلك (الرابع) نظير هذه الآية قوله تعالى لست عليهم بمسيطر وقوله وماانت عليهم بجبار وقوله لا اكراه فى الدين قال الكلبى نسختها آية القتال (وثالثها) قوله تعالى ام تحسب ان اكثرهم يسمعون او يعقلون ام ههنا منقطعة معناه بل تحسب وذلك يدل على ان هذه المذمة اشد من التى تقدمتها حتى حقت بالاضراب عنها اليها وهى كونهم مسلوبى الاسماع والعقول لانهم لشدة عنادهم لايصغون الى الكلام واذا سمعوه لايتفكرون فيه فكأنه ليس لهم عقل ولا سمع البتة فعند ذلك شبههم بالانعام فى عدم انتفاعهم بالكلام وعدم اقدامهم على التدبر والتفكر واقبالهم على اللذات الحاضرة الحسية واعراضهم عن طلب السعادات الباقية العقلية وههنا سؤالات (السؤال الاول) لم قال ام يحسب ان اكثرهم فحكم بذلك على الاكثر دون الكل والجواب لانه كان فيهم من يعرف الله تعالى ويعقل الحق الا انه ترك الاسلام لمجرد حب الرياسة لا للجهل (السؤال الثانى) لم جعلوا اضل من الانعام الجواب من وجوه (احدها) ان الانعام تنقاد لأربابها وللذى يعلفها ويتعهدها وتميز بين من يحسن اليها وبين من يسىء اليها وتطلب ماينفعها وتجتنب مايضرها وهؤلاء لاينقادون لربهم ولايميزون بين احسانه اليهم وبين اساءة الشيطان اليهم الذى هو عدو لهم ولايطلبون الثواب الذى هو اعظم المنافع ولايحترزون من العقاب الذى هو اعظم المضار (وثانيها) ان قلوب الانعام كما انها تكون خالية عن العلم فهى خالية عن الجهل الذى هو اعتقاد المعتقد على خلاف ماهو عليه مع التصميم واما هؤلاء فقلوبهم كما خلت عن العلم فقد اتصفت بالجهل فانهم لايعلمون ولايعلمون انهم لايعلمون بل هم مصرون على انهم يعلمون (وثالثها) ان عدم علم الانعام لايضر بأحد اما جهل هؤلاء فانه منشأ للضرر العظيم لانهم يصدون الناس عن سبيل الله ويبغونها عوجا (ورابعها) ان الانعام لاتعرف شيئا ولكنهم عاجزون عن الطلب واما هؤلاء الجهال فانهم ليسوا عاجزين عن الطلب والمحروم عن طلب المراتب العالية اذا عجز عنه لايكون فى استحقاق الذم كالقادر عليه التارك له

تعجيبه هو مثل فى البطلان يريدون به القدح فى حقه وحق القرآن (الاجئناك) فى مقابلته (بالحق) اى بالجواب الحق الثابت الذى ينحى عليه بالابطال ويحسم مادة القيل والقال كما مر من الاجوبة الحقة القالعة لعروق اسئلتهم الشنيعة الدامغة لها بالكلية وقوله تعالى (واحسن تفسيرا) عطف على الحق اى جئناك باحسن تفسيرا او على محل بالحق اى آتيناك الحق واحسن تفسيرا اى بيانا وتفصيلا على معنى انه فى غاية مايكون من الحسن فى حد ذاته لا ان ماياتون به له حسن فى الجملة وهذا احسن منه كما مر والاستثناء مفرغ محله النصب على الحالية اى لاياتونك بمثل الاحال ايتائنا اياك الحق الذى لامحيد عنه وفيه من الدلالة على المسارعة الى ابطال ماتوايه وتثبيت فؤاده عليه الصلاة والسلام مالايخفى وهذا بعبارته ناطق ببطلان جميع الاسئلة وبصحة جميع الاجوبة وباشارته منبئ عن بطلان السؤال الاخير وصحة جوابه اذ لولا ان تنزيل القرآن على التدريج لما امكن ابطال تلك الاقتراحات الشنيعة ولما حصل تثبيت فؤاده عليه الصلاة والسلام من تلك الحيثية هذا وقد جوز ان يكون المثل عبارة عن الصفة الغريبة التى كانوا يقترحون كونه عليه الصلاة والسلام عليها من مقارنة الملك والاستغناء عن الاكل والشرب وحيازة الكنز والجنة ونزول القرآن عليه جملة واحدة على معنى لايأتونك بحال عجيبة يقترحون اتصافك بها قائلين هلا كان على هذه الحالة الا اعطيناك نحن

لسوء اختياره (وخامسها) ان البهائم لا تستحق عقابا على عدم العلم اما هؤلاء فانهم يستحقون عليه أعظم العقاب (وسادسها) ان البهائم تسبح الله تعالى على مذهب بعض الناس على ماقال وان من شئ الا يسبح بحمده وقال ألم تر ان الله يسجد له من فى السموات الى قوله والدواب وقال والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه واذا كان كذلك فضلال الكفار اشد وأعظم من ضلال هذه الانعام (السؤال الثالث) انه سبحانه لما نفى عنهم السمع والعقل فكيف ذمهم على الاعراض عن الدين وكيف بعث الرسول اليهم فان من شرط التكليف العقل (الجواب) ليس المراد انهم لايعقلون بل انهم لاينتفعون بذلك العقل فهو كقول الرجل لغيره اذا لم يفهم انما أنت اعمى وأصم * قوله تعالى (الم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا وهو الذى ارسل الرياح نشرا بين يدى رحمته وانزلنا من السماء ماء طهورا لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا انعاما وأناسى كثيرا) اعلم انه تعالى لما بين جهل المعرضين عن دلائل الله تعالى وفساد طريقهم فى ذلك ذكر بعده أنواعا من الدلائل الدالة على وجود الصانع (النوع الاول) الاستدلال بحال الظل فى زيادته ونقصانه وتغيره من حال الى حال وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله الم تر فيه وجهان (احدهما) انه من رؤية العين (والثانى) انه من رؤية القلب بمعنى العلم فان حملناه على رؤية العين فالمعنى الم تر الى الظل كيف مده ربك وان كان تخريج لفظه على عادة العرب افصح وان حملناه على العلم وهو اختيار الزجاج فالمعنى الم تعلم وهذا اولى وذلك ان الظل اذا جعلناه من المبصرات فتأثير قدرة الله تعالى فى تمديده غير مرئى بالاتفاق ولكنه معلوم من حيث ان كل متغير جائز وكل جائز فله مؤثر فحمل هذا اللفظ على رؤية القلب اولى من هذا الوجه (المسئلة الثانية) المخاطب بهذا الخطاب وان كان هو الرسول عليه السلام بحسب ظاهر اللفظ ولكن الخطاب عام فى المعنى لان المقصود من الآية بيان نعم الله تعالى بالظل وجميع المكلفين مشتركون فى انه يجب تنبههم لهذه النعمة وتمكنهم من الاستدلال بها على وجود الصانع (المسئلة الثالثة) الناس اكثروا فى تأويل هذه الآية والكلام الملخص يرجع الى وجهين (الاول) ان الظل هو الامر المتوسط بين الضوء الخالص وبين الظلمة الخالصة وهو مابين ظهور الفجر الى طلوع الشمس وكذا الكيفيات الحاصلة داخل السقف وافنية الجدران وهذه الحالة اطيب الاحوال لان الظلمة الخالصة يكرهها الطبع وينفر عنها الحس واما الضوء الخالص وهو الكيفية الفائضة من الشمس فهى لقوتها تبهر الحس البصرى وتفيد السخونة القوية وهى مؤذية فاذن اطيب الاحوال هو الظل ولذلك وصف الجنة به فقال وظل ممدود واذا ثبت هذا فنقول انه سبحانه بين انه من النعم العظيمة والمنافع الجليلة ثم ان الناظر الى الجسم الملون وقت الظل كأنه لايشاهد شيئا سوى الجسم وسوى اللون

من الاحوال الممكنة ما يحق لك فى حكمتنا ومشيئتنا ان نعطاه وما هو احسن تكشيفا لما بعثت عليه ودلالة على صحته وهو الذى انت عليه فى الذات والصفات ويأباه الاستثناء المذكور فان المتبادر منه ان يكون ما اعطاه الله تعالى من الحق مترتبا على ما اتوا به من الاباطيل دامغا لها ولاريب فى ان ما آتاه الله تعالى من الملكات السنية اللائقة بالرسالة قد آتاه من اول الامر لا بمقابلة ما حكى عنهم من الاقتراحات لاجل دمغها وابطالها (الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم) اى يحشرون كائنين على وجوههم يسحبون عليها ويجرون الى جهنم وقيل مقلوبين وجوههم على قفاهم وارجلهم الى فوق روى عنه عليه الصلاة والسلام يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة اثلاث ثلث على الدواب وثلث على وجوههم وثلث على اقدامهم ينسلون نسلا واما ما قيل متعلقة قلوبهم بالسفليات متوجهة وجوههم اليها فبعيد لان هول ذلك اليوم ليس بحيث يبقى لهم عنده تعلق بالسفليات او توجه اليها فى الجملة ومحل الموصول اما النصب او الرفع على الذم والرفع على الابتداء وقوله تعالى (اولئك) بدل منه او بيان له وقوله تعالى (شر مكانا واضل سبيلا) خبره او اسم الاشارة مبتدأ ثان وشر خبره والجملة خبر للموصول ووصف السبيل بالضلال من باب الاسناد المجازى للمبالغة والمفضل عليه الرسول عليه الصلاة والسلام على منهاج قوله تعالى قل هل انبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه كأنه قيل ان حاملهم على هذه الاقتراحات تحقير مكانه عليه

وتقول الظل ليس امرا ثالثا ولا يعرف ولا يعرف به الا انه اذا طلعت الشمس ووقع ضوءها على الجسم زال ذلك الظل فلولا الشمس ووقوع ضوئها على الاجرام لما عرف ان للظل وجودا وماهية لان الاشياء انما تعرف باضدادها فلولا الشمس لما عرف الظل ولولا الظلمة لما عرف النور فكأنه سبحانه وتعالى لما اطلع الشمس على الارض وزال الظل فحينئذ ظهر للعقول ان الظل كيفية زائدة على الجسم واللون فلهذا قال سبحانه ثم جعلنا الشمس عليه دليلا اى خلقنا الظل اولا بما فيه من المنافع واللذات ثم انا هدينا العقول الى معرفة وجوده بان اطلعنا الشمس فكانت الشمس دليلا على وجود هذه النعمة ثم قبضناه اى ازلنا الظل لا دفعة بل يسيرا يسيرا فان كلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصان الظل في جانب المغرب ولما كانت الحركات المكانية لا توجد دفعة بل يسيرا يسيرا فكذا زوال الاظلال لا يكون دفعة بل يسيرا يسيرا ولان قبض الظل لو حصل دفعة لاختلت المصالح ولكن قبضها يسيرا يسيرا يفيد معه انواع مصالح العالم والمراد بالقبض الازالة والاعدام هذا احد التأويلين (التأويل الثاني) وهو انه سبحانه وتعالى لما خلق الارض والسماء وخلق الكواكب والشمس والقمر وقع الظل على الارض ثم انه سبحانه خلق الشمس دليلا عليه وذلك لان بحسب حركات الاضواء تتحرك الاظلال فانهما متعاقبان متلازمان لا واسطة بينهما فبمقدار ما يزداد احدهما ينقص الآخر وكما ان المهتدى يهتدى بالهادى والدليل ويلازمه فكذا الاظلال كأنها مهتدية وملازمة للاضواء فلهذا جعل الشمس دليلا عليها واما قوله ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا فاما ان يكون المراد منه انتهاء الاظلال يسيرا يسيرا الى غاية نقصاناتها فسمى ازالة الاظلال قبضا لها او يكون المراد من قبضها يسيرا قبضها عند قيام الساعة وذلك بقبض اسبابها وهى الاجرام التى تلقى الاظلال وقوله يسيرا هو كقوله ذلك حشر علينا يسير فهذا هو التأويل الملخص (المسئلة الرابعة) وجه الاستدلال به على وجود الصانع المحسن ان حصول الظل امر نافع للاحياء والعقلاء واما حصول الضوء الخالص او الظلمة الخالصة فهو ليس من باب المنافع فحصول ذلك الظل اما ان يكون من الواجبات او من الجائزات والاول باطل والا لما تطرق التغير اليه لان الواجب لا يتغير فوجب ان يكون من الجائزات فلا بد له في وجوده بعد العدم وعدمه بعد الوجود من صانع قادر مدبر محسن يقدره بالوجه النافع وما ذاك الا من يقدر على تحريك الاجرام العلوية وتدبير الاجسام الفلكية وترتيبها على الوصف الاحسن والترتيب الاكمل وما هو الا الله سبحانه وتعالى (فان قيل) الظل عبارة عن عدم الضوء وعما شأنه ان يضيء فكيف استدل بالامر العدمى على ذاته وكيف عدم من النم (قلنا) الظل ليس عدما محضا بل هو اضواء مخلوطة بظلم والتحقيق ان الظل عبارة عن الضوء الثانى وهو امر وجودى وفى تحقيقه وبسطه كلام دقيق يرجع فيه الى كتبنا العقلية (النوع الثانى) قوله تعالى وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل

(النهار)

الصلاة والسلام بتضليل سبيله ولا يعلمون حالهم ليعلموا انهم شر مكانا واضل سبيلا وقيل هو متصل بقوله تعالى اصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا واحسن مقيلا (ولقد آتينا موسى الكتاب) جملة مستأنفة سيقت لتأكيد ما مر من التسلية والوعد بالهداية والنصر فى قوله تعالى وكفى بربك هاديا ونصيرا بحكاية ما جرى بين من ذكر من الانبياء عليهم الصلاة والسلام وبين قومهم حكاية اجمالية كافية فيما هو المقصود واللام جواب لقسم محذوف اى وبالله لقد آتينا موسى التوراة اى انزلناها عليه بالآخرة (وجعلنا معه) الظرف متعلق بجعلنا وقوله تعالى (اخاه) مفعول اول له وقوله تعالى (هرون) بدل من اخاه او عطف بيان له على عكس ما وقع فى سورة طه وقوله تعالى (وزيرا) مفعول ثان له وقد مر تحقيق معنى الوزير اى جعلناه فى اول الامر وزيرا له (فقلنا) لهما حينئذ (اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا) هم فرعون وقومه والآيات هى المعجزات التسع المفصلات الظاهرة على يدى موسى عليه السلام ولم يوصف القوم لهما عند ارسالهما اليهم بهذا الوصف ضرورة تأخر تكذيب الآيات عن اظهارها المتأخر عن ذهابهما المتأخر عن الامر به بل انما وصفوا بذلك عند الحكاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بيانا لعلة استحقاقهم لما يحكى بعده من التدمير اى فذهبا اليهم فأرياهم آياتنا كلها فكذبوها تكذيبا مستمرا (فدمرناهم) اثر ذلك التكذيب المستمر (تدميرا) عجيبا هائلا لا يقادر قدره ولا يدرك كنهه فاقتصر على حاشيتى القصة اكتفاء بما هو المقصود وحل

النهار نشورا اعلم انه تعالى شبه الليل من حيث انه يستر الكل ويغطي باللباس الساتر للبدن ونبه على مالنا فيه من النفع بقوله والنوم سباتا والسبات هو الراحة وجعل النوم سباتا لانه سبب للراحة قال ابو مسلم السبات الراحة ومنه يوم السبت لما جرت به العادة من الاستراحة فيه ويقال للعليل اذا استراح من تعب العلة مسبوت وقال صاحب الكشاف السبات الموت والمسبوت الميت لانه مقطوع الحياة قال هذا كقوله وهو الذى يتوفاكم بالليل وانما قلنا ان تفسيره بالموت اولى من تفسيره بالراحة لان النشور فى مقابلته يأباه قال ابو مسلم وجعل النهار نشورا هو بمعنى الانتشار والحركة كما سمى تعالى نوم الانسان وفاة فقال الله يتوفى الانفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها كذلك وفق بين القيام من النوم والقيام من الموت فى التسمية بالنشور وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق فيها اظهار لنعمه على خلقه لان الاحتجاب بستر الليل كم فيه لكثير من الناس من فوائد دينية ودنيوية والنوم واليقظة شبههما بالموت والحياة وعن لقمان انه قال لابنه كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتحشر (النوع الثالث) قوله وهو الذى ارسل الرياح نشرا بين يدى رحمته وقد تقدم تفسيره فى سورة الاعراف ثم فيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ الريح والرياح قال الزجاج وفى نشرا خمسة اوجه بفتح النون وبضمها وبضم النون والشين وبالباء الموحدة مع الف المؤنث وبشرا بالتنوين قال ابو مسلم من قرأ بشرا أراد جمع بشير مثل قوله تعالى ومن آياته ان يرسل الرياح مبشرات واما بالنون فهو فى معنى قوله والناشرات نشرا وهى الرياح والرحمة الغيث والماء والمطر (المسئلة الثانية) قوله وانزلنا من السماء ماء طهورا نص فى انه تعالى ينزل الماء من السماء لا من السحاب وقول من يقول السحاب سماء ضعيف لان ذلك بحسب الاشتقاق واما بحسب وضع اللغة فالسماء اسم لهذا السقف المعلوم فصرفه عنه ترك للظاهر (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى ان الطهور ماهو قال كثير من العلماء الطهور مايتطهر به كالفطور مايفطر به والسحور مايتسحر به وهو مروى ايضا عن ثعلب وانكر صاحب الكشاف ذلك وقال ليس فعول من التفعيل فى شئ والطهور على وجهين فى العربية صفة واسم غير صفة فالصفة قولك ماء طهور كقولك طاهر والاسم قولك طهور لما يتطهر به كالوضوء والوقود لما يتوضأ به ويوقد به النارحجة القول الاول قوله عليه السلام التراب طهور المسلم ولو لم يجد الماء عشر حجج ولو كان معنى الطهور الطاهر لكان معناه التراب طاهر للمسلم وحينئذ لا ينتظم الكلام وكذا قوله عليه السلام طهور اناء احدكم اذا ولغ الكلب فيه ان يغسله سبعا ولو كان الطهور الطاهر لكان معناه طاهر اناء احدكم وحينئذ لا ينتظم الكلام ولانه تعالى قال وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به فبين ان المقصود من الماء انما هو التطهر به فوجب ان يكون المراد من كونه طهورا انه هو المطهر به لانه تعالى ذكره فى معرض الانعام فوجب حمله على الوصف الاكمل ولاشك ان المطهر اكمل من الطاهر (المسئلة الرابعة)

قوله تعالى فدمرناهم على معنى فحكمنا بتدميرهم مع كونه تعقيبا ظاهرا بما لا وجه له اذ لا فائدة يعتد بها فى حكاية الحكم بتدميرهم والقصر والتعرض فى مطلع القصة لايتاء الكتاب مع انه كان بعد مهلك القوم ولم يكن له مدخل فى هلاكهم كسائر الآيات للايذان من اول الامر ببلوغه عليه الصلاة والسلام غاية الكمال ونيله نهاية الآمال التى هى انجاء بنى اسرائيل من ملكة فرعون وارشادهم الى طريق الحق بما فى التوراة من الاحكام اذ به يحصل تأكيد الوعد بالهداية على الوجه الذى مر بيانه وقرئ فدمرتهم وفدمراهم وفدمرانهم على التأكيد بالنون الثقيلة (وقوم نوح) منصوب بمضمر يدل عليه قوله تعالى فدمرناهم اى ودمرنا قوم نوح وقيل عطف على مفعول فدمرناهم وليس من ضرورة ترتب تدميرهم على ماقبله ترتب تدمير هؤلاء عليه لاسيما وقد بين سببه بقوله تعالى (لما كذبوا الرسل) اى نوحا ومن قبله من الرسل او نوحا وحده لان تكذيبه تكذيب للكل لاتفاقهم على التوحيد والاسلام وقيل هو منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى (اغرقناهم) وانما يتمشى ذلك على تقدير كون كلمة لما ظرف زمان واما على تقدير كونها حرف وجود لوجود فلا لانه حينئذ جواب لها وجواب لما لا يفسر ماقبله مع انه مخل بعطف المنصوبات الآتية على قوم نوح لما ان اهلاكهم ليس بالاغراق فالوجه ماتقدم وقوله تعالى اغرقناهم استئناف مبين لكيفية تدميرهم (وجعلناهم) اى جعلنا اغراقهم او قصتهم (للناس آية) اى آية عظيمة تعتبر بها كل من شاهدها

اعلم ان الله تعالى ذكر من منافع الماء امرين (احدهما) ما يتعلق بالنبات (والثانى) ما يتعلق بالحيوان اما امر النبات فقوله لنحيي به بلدة ميتا وفيه سؤالات (السؤال الاول) لم قال لنحيي به بلدة ميتا ولم يقل ميتة (الجواب) لان البلدة فى معنى البلد فى قوله فسقناه الى بلد ميت (السؤال الثانى) ما المراد من حياة البلد وموتها (الجواب) الناس يسمون مالا عمارة فيه من الارض مواتا وسقيها المقتضى لعمارتها احياءها (السؤال الثالث) ان جماعة الطبائعيين وكذا الكعبي من المعتزلة قالوا ان بطبع الارض والماء وتأثير الشمس فيهما يحصل النبات وتمسكوا بقوله تعالى لنحيي به بلدة ميتا فان الباء فى به تقتضى ان للماء تأثيرا فى ذلك (الجواب) الظاهر وان دل عليه لكن المتكلمون تركوه لقيام الدلالة على فساد الطبع واما امر الحيوان فقوله سبحانه ونسقيه مما خلقنا انعاما واناسى كثيرا وفيه سؤالات (السؤال الاول) لم خص الانسان والانعام ههنا بالذكر دون الطير والوحش مع انتفاع الكل بالماء (الجواب) لان الطير والوحش تبعد فى طلب الماء فلا يعوزها الشرب بخلاف الانعام لانها قنية الاناسى وعامة منافعهم متعلقة بها فكان الانعام عليهم بسقى انعامهم كالانعام عليهم بسقيهم (السؤال الثانى) مامعنى تنكير الانعام والاناسى ووصفهما بالكثرة (الجواب) معناه ان اكثر الناس يجتمعون فى البلاد القريبة من الاودية والانهار ومنابع المياه فهم فى غنية فى شرب الماء عن المطر وكثير منهم نازلون فى البوادى فلا يجدون المياه للشرب الا عند نزول المطر وذلك قوله لنحيي به بلدة ميتا يريد بعض بلاد هؤلاء المتباعدين عن مظان الماء ويحتمل فى كثير ان يرجع الى قوله ونسقيه لان الحى يحتاج الى الماء حالا بعد حال وهو مخالف للنبات الذى يكفيه من الماء قدر معين حتى لو زيد عليه بعد ذلك لكان الى الضرر اقرب والحيوان يحتاج اليه حالا بعد حال مادام حيا (السؤال الثالث) لم قدم احياء الارض وسقى الانعام على سقى الاناسى (الجواب) لان حياة الاناسى بحياة ارضهم وحياة انعامهم فقدم ماهو سبب حياتهم ومعيشتهم على سقيهم لانهم اذا ظفروا بما يكون سقيا لارضهم ومواشيهم فقد ظفروا ايضا بسقياهم وايضا فقوله تعالى ولقد صرفناه بينهم يعنى صرف المطر كل سنة الى جانب آخر واذا كان كذلك فلا يسقى الكل منه بل يسقى كل سنة اناسى كثيرا منه (السؤال الرابع) ما الاناسى الجواب قال الفراء والزجاج الانسى والاناسى كالكرسى والكراسى ولم يقل كثيرين لانه قد جاء فعيل مفردا ويراد به الكثرة كقوله وقرونا بين ذلك كثيرا وحسن اولئك رفيقا واعلم ان الفقهاء قد استنبطوا احكام المياه من قوله تعالى وانزلنا من السماء ماء طهورا ونحن نشير الى معاقد تلك المسائل فنقول ههنا نظران (احدهما) ان الماء مطهر (والثانى) ان غير الماء هل هو مطهر ام لا (النظر الاول) ان نقول الماء اما ان لا يتغير او يتغير القسم الاول وهو الذى لا يتغير فهو طاهر فى ذاته مطهر لغيره الا الماء المستعمل فانه عند الشافعى طاهر وليس بمطهر وقال مالك والثورى يجوز الوضوء به وقال ابو حنيفة فى رواية ابى يوسف

(انه)

او صحبه وهى مفعول ثان لجعلنا وللناس ظرف لغو او متعلق بمحذوف وقع حالا من آية اذ لو تأخر عنها لكان صفة لها (واعتدنا للظالمين) اى لهم والاظهار فى موقع الاضمار للايذان بتجاوزهم الحد فى الكفر والتكذيب (عذابا اليما) هو عذاب الآخرة الا فائدة فى الاخبار باعداد العذاب الذى قد اخبر بوقوعه من قبل او لجميع الظالمين الباقين الذين لم يعتبروا بما جرى عليهم من العذاب فيدخل فى زمرتهم قريش دخولا اوليا ويحتمل العذاب الدنيوى والاخروى (وعادا) عطف على قوم نوح وقيل على المفعول الاول لجعلناهم وقيل على محل الظالمين اذ هو فى معنى وعدنا الظالمين وكلاهما بعيد (وثمود) الكلام فيه وفيما بعده كما فيما قبله وقرئ وثمودا على تأويل الحى او على انه اسم الاب الاقصى (واصحاب الرس) هم قوم يعبدون الاصنام فبعث الله تعالى اليهم شعيبا عليه السلام فكذبوه فبيناهم حول الرس وهى البئر التى لم تطو بعد اذ انهارت فخسف بهم وبديارهم وقيل الرس قرية بفلج اليمامة كان فيها بقايا ثمود فبعث اليهم نبى فقتلوه فهلكوا وقيل هو الاخدود وقيل بئر بانطاكية قتلوا فيها حبيبا النجار وقيل هم اصحاب حنظلة بن صفوان النبى عليه السلام ابتلاهم الله تعالى بطير عظيم كان فيها من كل لون وسموها عنقاء لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذى يقال له فتخ او دمخ فتنقض على صبيانهم فتخطفهم ان اعوزها الصيد ولذلك سميت مغربا فدعا حنظلة عليه السلام فاصابتها الصاعقة ثم انهم قتلوه عليه السلام فاهلكوا

انه نجس فههنا مسائل (المسئلة الاولى) فى بيان انه ليس بمطهر ودليلنا قوله عليه السلام لايغتسل احدكم فى الماء الدائم وهو جنب ولو بقى الماء كما كان طاهرا مطهرا لما كان للمنع منه معنى ومن وجه القياس ان الصحابة كانوا يتوضؤن فى الاسفار وما كانوا يجمعون تلك المياه مع علمهم باحتياجهم بعد ذلك الى الماء ولو كان ذلك الماء مطهرا لحملوه ليوم الحاجة واحتج مالك بالآية والخبر والقياس اما الآية فمن وجهين (الاول) قوله تعالى وانزلنا من السماء ماء طهورا وقوله ينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به فدلت الآية على حصول وصف المطهرية للماء والاصل فى الثابت بقاؤه فوجب الحكم ببقاء هذه الصفة للماء بعد صيرورته مستعملا وايضا قوله طهورا يقتضى جواز التطهير به مرة بعد اخرى (والثانى) انه امر بالغسل مطلقا فى قوله فاغسلوا واستعمال كل المائعات غسل لانه لامعنى للغسل الا امرار الماء على العضو قال الشاعر

• فيا حسنها اذ يغسل الدمع كحلها • فمن اغتسل بالماء المستعمل فقد أتى بالغسل فوجب ان يكون مجزئاله لانه آتى بما امر به فوجب ان يخرج عن العهدة (واما السنة) فما روى انه عليه السلام توضأ فمسح رأسه بفضل ما فى يده وعنه عليه السلام انه توضأ فأخذ من بلل لحيته فمسح به رأسه وعن ابن عباس انه عليه السلام اغتسل فرأى لمعة فى جسده لم يصبها الماء فأخذ شعرة عليها بلل فأمرها على تلك اللمعة (واما القياس) فانه ماء طاهر لقى جسدا طاهرا فأشبه ما اذا لقى حجارة اوحديدا وكذا الماء المستعمل فى الكرة الرابعة والمستعمل فى التبرد والتنظف ولانه لاخلاف انه اذا وضع الماء على اعلى وجهه وسقط به فرض ذلك الموضع ثم نزل ذلك الماء بعينه الى بقية الوجه فانه يجزيه مع ان ذلك الماء صار مستعملا فى اعلى الوجه (المسئلة الثانية) الدليل على ان الماء المستعمل طاهر قوله تعالى وانزلنا من السماء ماء طهورا ومن السنة انه عليه السلام اخذ من بلل لحيته ومسح به رأسه وقال خلق الماء طهورا لاينجسه شئ الا ماغير طعمه او ريحه اولونه وقال الشافعى انه عليه السلام توضأ ولاشك انه اصابه ماتساقط منه ولم ينقل انه غير ثوبه ولانه غسله ولا احد من المسلمين فعل ذلك فثبت انهم اجمعوا على انه ليس بنجس ولانه ماء طاهر لقى جسما طاهرا فأشبه ما اذا لقى حجارة (المسئلة الثالثة) الماء المستعمل اما ان يكون مستعملا فى اعضاء الوضوء اوفى غسل الثياب اما المستعمل فى اعضاء الوضوء فاما ان يكون مستعملا فيما كان فرضا وعبادة اوفيما كان فرضا ولايكون عبادة اوفيما كان عبادة ولايكون فرضا اوفيما لايكون فرضا ولاعبادة (اما القسم الاول) وهو المستعمل فى كان فرضا وعبادة فهو غير مطهر باتفاق اصحاب الشافعى (واما القسم الثانى) فهو كالماء الذى استعمله الذمية التى تحت الزوج المسلم اى فى غسل حيضها ليحل للزوج غشيانها (واما القسم الثالث) فهو كالماء المستعمل فى الكرة الثانية والثالثة والماء المستعمل فى تجديد الوضوء والماء المستعمل

وقبيل قوم كذبوا رسولهم فرسوه اى دسوه فى بئر (وقرونا) اى اهل قرون قيل القرن اربعون سنة وقيل سبعون وقيل مائة وقيل مائة وعشرون (بين ذلك) اى بين ذلك المذكور من الطوائف والامم وقد يذكر الذاكر اشياء مختلفة ثم يشير اليها بذلك ويحسب الحاسب اعدادا متكاثرة ثم يقول فذلك كيت وكيت على ذلك المذكور وذلك المحسوب (كثيرا) لايعلم مقدارها الا العليم الخبير ولعل الاكتفاء فى شؤن تلك القرون بهذا البيان الاجمالى لما ان كل قرن منها لم يكن فى الشهرة وغرابة القصة بمثابة الامم المذكورة (وكلا) منصوب بمضمر يدل عليه مابعده فان ضرب المثل فى معنى التذكير والتحذير والمحذوف الذى عوض عنه التنوين عبارة اما عن الامم التى لم يذكر اسباب هلاكهم واما عن الكل فان ماحكى عن قوم نوح وقوم فرعون تكذيبهم للآيات والرسل لاعدم التأثر من الامثال المضروبة اى ذكرنا وانذرنا كل واحد من المذكورين (ضربنا له الامثال) اى بينا له القصص العجيبة الزاجرة عماهم عليه من الكفر والمعاصى بواسطة الرسل (وكلا) اى كل واحد منهم لابعضهم دون بعض (تبرنا تتبيرا) عجيبا هائلا لما انهم لم يتأثروا بذلك ولم يرفعوا له راسا وتمادوا على ماهم عليه من الكفر والعدوان واصل التتبير التفتيت قال الزجاج كل شئ كسرته وفتته فقد تبرته ومنه التبر لفتات الذهب والفضة (ولقد اتوا) جملة مستأنفة مسوقة لبيان مشاهدتهم لآثار هلاك بعض الامم المتبرة وعدم اتعاظهم بها وتصديرها بالقسم لمزيد تقرير مضمونها اى وبالله لقد اتى قريش

في الاغسال المسنونة فلاصحاب الشافعي في هذين القسمين وجهان (واما القسم الرابع) فهو كالماء المستعمل في الكرة الرابعة وفي التبرد والتنظف فذلك باتفاق اصحاب الشافعي غير مستعمل وهو طاهر مطهر اما الماء المستعمل في غسل الثياب فاذا غسل ثوبا من نجاسة وطهر بغسلة واحدة يستحب ان يغسله ثلاثا فالمنفصل في الكرة الثانية والثالثة مطهر على الاصح (القسم الثاني) الماء الذي يتغير فنقول الماء اذا تغير فاما ان يتغير بنفسه او بغيره اما الاول فكالمتغير بطول المكث فيجوز الوضوء به لانه عليه السلام كان يتوضأ من بئر قضاعة وكان ماؤها كأنه نقاعة الحناء واما المتغير بسبب غيره فذلك الغير اما ان لايكون متصلا به او يكون متصلا به اما الذي لايكون متصلا به فهو كما لو وقع بقرب الماء جيفة فصار الماء منتنا بسببها فهو ايضا مطهر واما اذا تغير بسبب شئ متصل به فذلك المتصل اما ان يكون طاهرا او نجسا (القسم الاول) اذا كان طاهرا فهو اما ان لايخالطه او يخالطه فان لم يخالطه فهو كالماء المتغير بسبب وقوع الدهن والطيب والعود والعنبر والكافور الصلب فيه وهذا ايضا مطهر كما لو كان بقرب الماء جيفة ولان الطهورية ثبتت بقوله وانزلنا من السماء ماء طهورا والاصل في الثابت بقاؤه واما المتغير بسبب شئ يخالطه فذلك المخالط اما ان لايمكن صون الماء عنه او يمكن اما الذي لايمكن فكالمتغير بالتراب والحمأة والاوراق التي تقع فيه والطحلب الذي يتولد فيه وهذا ايضا مطهر لان الطهورية ثبتت بالآية والاحتراز عن ذلك عسير فيكون مرفوعا لقوله ماجعل عليكم في الدين من حرج وكذا لو جرى الماء في طريقه على معدن زرنيخ او نورة او كحل او وقع شئ منها فيه او نبع من معادنها اما اذا تغير الماء بسبب مخالطة مايستغني الماء عن جنسه نظر ان كان التغير قليلا بحيث لايضاف الماء اليه بأن وقع فيه زعفران فاصفر قليلا او دقيق فابيض قليلا جاز الوضوء به على الصحيح من المذهب لانه لم يسلبه اطلاق اسم الماء واما ان كان التغير كثيرا فان استحدث اسما جديدا كالمرقة لم يجز الوضوء به بالاتفاق وان لم يستحدث اسما جديدا فعند الشافعي لايجوز الوضوء به وعند ابي حنيفة يجوز (حجة الشافعي) من وجوه احدها انه عليه السلام توضأ ثم قال هذا وضوء لايقبل الله الصلاة الا به فذلك الوضوء ان كان واقعا بالماء المتغير وجب ان لايجوز الا به وبالاتفاق ليس الامر كذلك فثبت انه كان بماء غير متغير وهو المطلوب (وثانيها) انه اذا اختلط ماء الورد بالماء ثم توضأ الانسان به فيحتمل ان بعض الاعضاء قد انغسل بماء الورد دون الماء واذا كان كذلك فقد وقع الشك في حصول الوضوء وكان تيقن الحدث قائما والشك لايعارض اليقين فوجب ان يبقى على الحدث بخلاف ما اذا كان قليلا لايظهر اثره فانه صار كالمعدوم اما اذا ظهر اثره علمنا انه باق فيتوجه ماذكرناه (وثالثها) ان الوضوء تعبد لايعقل معناه فانه لو توضأ بماء الورد لايصح وضوءه ولو توضأ بالماء الكدر المتعفن صح وضوءه ومالا يعقل معناه وجب الاقتصار فيه على مورد النص وترك القياس (حجة ابي حنيفة) وجوه

(احدها)

في متاجرهم الى الشام (على القرية التي امطرت) اي اهلكت بالحجارة وهي قرى قوم لوط وكانت خمس قرى مانجت منها الا واحدة كان اهلها لايعملون العمل الخبيث واما البواقي فاهلكها الله تعالى بالحجارة وهي المرادة بقوله تعالى (مطر السوء) وانتصابه اما على انه مصدر مؤكد بحذف الزوائد كما قيل في انبته الله تعالى نباتا حسنا اي امطار السوء او على انه مفعول ثان اذ المعنى اعطيت او اوليت مطر السوء (افلم يكونوا يرونها) توبيخ لهم على تركهم التذكر عند مشاهدة مايوجبه والهمزة لانكار نفي استمرار رؤيتهم لها وتقرير استمرارها حسب استمرار مايوجبها من اتيانهم عليها لا لانكار استمرار نفي رؤيتهم وتقرير رؤيتهم لها في الجملة والفاء لعطف مدخولها على مقدر يقتضيه المقام اي الم يكونوا ينظرون اليها فلم يكونوا يرونها او اكانوا ينظرون اليها فلم يكونوا يرونها في مرار مرورهم ليتعظوا بما كانوا يشاهدونه من آثار العذاب فالمنكر في الاول النظر وعدم الرؤية معا وفي الثاني عدم الرؤية مع تحقق النظر الموجب لها وقوله تعالى (بل كانوا لايرجون نشورا) اضراب عما قبله من عدم رؤيتهم لآثار ماجرى على اهل القرى من العقوبة وبيان لكون عدم اتعاظهم بسبب انكارهم لكون ذلك عقوبة لمعاصيهم لا لعدم رؤيتهم لآثارها خلا انه اكتفى عن التصريح بانكارهم لذلك بذكر مايستلزمه من انكارهم للجزاء الاخروي الذي هو الغاية من خلق العالم وقد كني عن ذلك بعدم رجاء النشور اي عدم توقعه كأنه قيل بل كانوا

احدها قوله تعالى وانزلنا من السماء ماء طهورا دلت الآية على كون الماء مطهرا والاصل فى الثابت بقاؤه فوجب بقاء هذه الصفة بعد التغير بالمخالطة (وثانيها) قوله تعالى فاغسلوا امر بمطلق الغسل وقد اتى به فوجب ان يخرج عن العهدة وقد بينا تقرير هذا الوجه فيما تقدم (وثالثها) قوله تعالى فلم تجدوا ماء فتيمموا علق جواز التيمم بعدم وجدان الماء وواجد هذا الماء المتغير واجد للماء لان الماء المتغير ماء مع صفة التغير والموصوف موجود حال وجود الصفة فوجب ان لا يجوز له التيمم (ورابعها) قوله عليه السلام فى البحر هو الطهور ماؤه ظاهره يقتضى جواز الطهارة به وان خالطه غيره لان النبى صلى الله عليه وسلم اطلق ذلك (وخامسها) انه عليه السلام اباح الوضوء بسؤر الهرة وسؤر الحائض وان خالطه شئ من لعابهما (وسادسها) لا خلاف فى جواز الوضوء بماء المدر والسيول مع تغير لونه بمخالطة الطين وما يكون فى الصحارى من الحشيش والنبات ومن اجل مخالطة ذلك له يرى تارة متغيرا الى السواد واخرى الى الحمرة والصفرة فصار ذلك اصلا فى جميع ما خالط الماء اذا لم يغلب عليه فيسلبه اسم الماء (القسم الثانى) اذا كان المخالط للماء شيئا نجسا فمن الناس من زعم ان الماء لا ينجس ما لم يتغير بالنجاسة سواء كان قليلا او كثيرا وهو قول الحسن البصرى والنخعى ومالك وداود واليه مال الشيخ الغزالى فى كتاب الاحياء وقال ابو بكر الرازى مذهب اصحابنا ان كل ما تيقنا فيه جزأ من النجاسة او غلب على الظن ذلك لم يجز استعماله ولا يختلف على هذا الحد ماء البحر وماء البئر والغدير والراكد والجارى لان ماء البحر لو وقعت فيه نجاسة لم يجز استعمال الماء الذى فيه النجاسة وكذلك الماء الجارى واما اعتبار اصحابنا للغدير الذى اذا حرك احد طرفيه لم يتحرك الطرف الآخر فانما هو كلام فى جهة تغليب الظن فى بلوغ النجاسة الواقعة فى احد طرفيه الى الطرف الآخر وليس هو كلامنا فى ان بعض المياه الذى فيه النجاسة قد يجوز استعمالها وبعضها لا يجوز استعماله هذا كله كلام ابى بكر (واقول) من الناس من فرق بين القليل والكثير فعن عبد الله بن عمر اذا كان الماء اربعين قلة لم ينجسه شئ وعن ابن عباس رضى الله عنهما الحوض لا يغتسل فيه جنب الا ان يكون فيه اربعون غربا وهو قول محمد بن كعب القرظى وقال مسروق وابن سيرين اذا كان الماء كثيرا لا ينجسه شئ وقال سعيد بن جبير الماء الراكد لا ينجسه شئ اذا كان قدر ثلاث قلال (وقال الشافعى) اذا كان الماء قلتين بقلال هجر لم ينجسه الا ما غير طعمه او ريحه او لونه وان كان اقل ينجس لظهور النجاسة فيه واعلم انه يمكن التمسك لنصرة قول مالك بوجوه احدها قوله تعالى وانزلنا من السماء ماء طهورا ترك العمل به فى الماء الذى تغير لونه او طعمه او ريحه لظهور النجاسة فيه فيبقى فيما عداه على الاصل (وثانيها) قوله عليه السلام خلق الله الماء طهورا لا ينجسه شئ الا ما غير طعمه او لونه او ريحه وهو نص فى الباب (وثالثها) قوله تعالى فاغسلوا وجوهكم والمتوضئ بهذا الماء قد غسل

ينكرون النشور المستتبع للجزاء الاخروى ولا يرون لنفس من النفوس نشورا اصلا مع تحققه حتما وشموله للناس عموما واطراده وقوعا فكيف يعترفون بالجزاء الدنيوى فى حق طائفة خاصة مع عدم الاطراد والملازمة بينه وبين المعاصى حتى يتذكروا ويتعظوا بما شاهدوه من آثار الهلاك وانما يحملونه على الاتفاق واما انتقال من التوبيخ بما ذكر من ترك التذكر الى التوبيخ بما هو اعظم منه من عدم توقع النشور (واذا رأوك ان يتخذونك الا هزوا) اى ما يتخذونك الا مهزوا به على معنى قصر معاملتهم معه عليه الصلاة والسلام على اتخاذهم اياه عليه الصلاة والسلام هزوا لا على معنى قصر اتخاذهم على كونه هزوا كما هو المتبادر من ظاهر العبارة كانه قيل ما يفعلون بك الا اتخاذك هزوا وقد مر تحقيقه فى قوله تعالى ان اتبع الا ما يوحى الى من سورة الانعام وقوله تعالى (اهذا الذى بعث الله رسولا) محكى بعد قول مضمر هو حال من فاعل يتخذونك اى يستهزؤن بك قائلين اهذا الذى الخ والاشارة للاستحقار وابراز بعث الله رسولا فى معرض التسليم بجعله صلة للموصول الذى هو صفته عليه الصلاة والسلام مع كونهم فى غاية النكير لبعثه عليه الصلاة والسلام بطريق التهكم والاستهزاء والا لقالوا ابعث الله هذا رسولا او اهذا الذى يزعم انه بعثه الله رسولا (ان كاد) ان مخففة من ان وضمير الشان محذوف اى انه كاد (ليضلنا عن آلهتنا) اى ليصرفنا عن عبادتها صرفا كليا بحيث يبعدنا عنها لا عن عبادتها فقط والعدول الى الاضلال لغاية

وجهه فيكون آتيا بما امر به فيخرج عن العهدة (ورابعها) ان من شأن كل مختلطين كان احدهما غالبا على الآخر ان يتكيف المغلوب بكيفية الغالب فالقطرة من الخل لو وقعت فى الماء الكثير بطلت صفة الخلية عنها واتصفت بصفة الماء وكون احدهما غالبا على الآخر انما يعرف بغلبة الخواص والآثار المحسوسة وهى الطعم او اللون او الريح فلا جرم مهما ظهر طعم النجاسة او لونها او ريحها كانت النجاسة غالبة على الماء وكان الماء مستهلكا فيها فلا جرم يغلب حكم النجاسة فاذا لم يظهر شئ من ذلك كان الغالب هو الماء وكانت النجاسة مستهلكة فيه فيغلب حكم الطهارة (وخامسها) ماروى عن عمر توضأ من جرة نصرانية مع ان نجاسة أوانى النصارى معلومة بظن قريب من العلم وذلك يدل على ان عمر لم يعول الا على عدم التغير (وسادسها) ان تقدير الماء بمقدار معلوم لوكان معتبرا كالقلتين عند الشافعى وعشر فى عشر عند ابى حنيفة رضى الله عنه لكان اولى المواضع بالطهارة مكة والمدينة لانه لا تكثر المياه هناك لا الجارية ولا الراكدة الكثيرة ومن اول عصر الرسول صلى الله عليه وسلم الى آخر عصر الصحابة لم ينقل انهم خاضوا فى تقدير المياه بالمقادير المعينة ولا انهم سألوا عن كيفية حفظ المياه عن النجاسات وكانت أوانى مياههم يتعاطاها الصبيان والاماء الذين لا يحترزون عن النجاسات (وسابعها) اصغاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الاناء للهرة وعدم منعهم الهرة من شرب الماء من أوانيهم بعد ان كانوا يرون انها تأكل الفأرة ولم يكن فى بلادهم حياض تلغ السنانير فيها وكانت لا تنزل الى الآبار (وثامنها) ان الشافعى نص على ان غسالة النجاسات طاهرة اذا لم تتغير ونجسة اذا تغيرت واى فرق بين ان يلاقى الماء النجاسة بالورود عليها او بورودها عليه واى معنى لقول القائل ان قوة الورود تدفع النجاسة مع ان قوة الورود لم تمنع المخالطة (وتاسعها) انهم كانوا يستنجون على اطراف المياه الجارية القليلة ولا خلاف ان مذهب الشافعى اذا وقع بول فى ماء جار ولم يتغير انه يجوز الوضوء به وان كان قليلا واى فرق بين الجارى والراكد وليت شعرى الحوالة على عدم التغير اولى او على قوة الماء بسبب الجريان (وعاشرها) اذا وقع بول فى قلتين ثم فرقتا فكل كوز يؤخذ منه فهو طاهر على قول الشافعى ومعلوم ان البول منتشر فيه وهو قليل فأى فرق بينه اذا وقع ذلك القليل فى ذلك القدر من الماء ابتداء وبينه اذا وصل اليه عند اتصال غيره به (وحادى عشرها) ان الحمامات لم تزل فى الاعصار الخالية يتوضأ فيها المتقشفون ويغمسون الايدى والأوانى فى ذلك القليل من الماء من تلك الحياض مع علمهم بأن الايدى الطاهرة والنجسة كانت تتوارد عليها ولو كان التقدير بالقلتين معتبرا لاشتهر ذلك ولبلغ ذلك الى حد التواتر لان الامر الذى تشتد حاجة الجمهور اليه يجب بلوغ نقله الى حد التواتر ولما لم يكن كذلك علمنا انه غير معتبر (وثانى عشرها) انا لو حكمنا بنجاسة الماء فلا يمكننا ان نحكم بنجاسة الماء ان كان فى غاية الكثرة مثل ماء الاودية العظيمة والغدران الكبار فان

(ذلك)

ضلالهم بادعاء ان عبادتها طريق سوى (لولا ان صبرنا عليها) ثبتنا عليها واستمسكنا بعبادتها ولولا فى امثال هذا الكلام تجرى مجرى التقييد للحكم المطلق من حيث المعنى كما اشير اليه فى قوله تعالى ولقد همت به الخ وهذا اعتراف منهم بأنه عليه الصلاة والسلام قد بلغ من الاجتهاد فى الدعوة الى الحق واظهار المعجزات واقامة الحجج والبينات الى حيث شارفوا ان يتركوا دينهم لولا فرط لجاجهم وغاية عنادهم يروى انه من قول ابى جهل (وسوف يعلمون) جواب من جهته تعالى لآخر كلامهم ورد لما ينبئ عنه من نسبته عليه الصلاة والسلام الى الضلال فى ضمن الاضلال اى سوف يعلمون البتة وان تراخى (حين يرون العذاب) الذى يستوجبه كفرهم وعنادهم (من اضل سبيلا) وفيه ما لا يخفى من الوعيد والتنبيه على انه تعالى لا يهملهم وان امهلهم (ارأيت من اتخذ الهه هواه) تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم من شناعة حالهم بعد حكاية قبائحهم من الاقوال والافعال وبيان ما لهم من المصير والمآل وتنبيه على ان ذلك من الغرابة بحيث يجب ان يرى ويتعجب منه والهه مفعول ثان لاتخذ قدم على الاول للاعتناء به لانه الذى يدور عليه امر التعجيب ومن توهم انهما على الترتيب بناء على تساويهما فى التعريف فقد زل منه ان المفعول الثانى فى هذا الباب هو المتلبس بالحالة الحادثة اى ارأيت من جعل هواه الها لنفسه من غير ان

ذلك بالاجماع باطل فلابد من التقدير بمقدار معين وقد نقلنا عن الناس تقديرات مختلفة
فليس بعضها اولى من بعض فوجب التعارض و التساقط اما تقدير ابى حنيفة بعشر
فى عشر فمعلوم انه مجرد تحكم و اما تقدير الشافعى بالقلتين بناء على قوله عليه السلام اذا
بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا فضعيف ايضا لان الشافعى لما روى هذا الخبر قال اخبرنى
رجل فيكون الراوى مجهولا ويكون الحديث مرسلا وهو عنده ليس بحجة وايضا زعم
كثير من المحدثين انه موقوف على ابن عمر رضى الله عنه سلمنا صحة الرواية لكنه احالة
مجهول على مجهول لان القلة غير معلومة فانها تصلح للكوز والجرة ولكل ما نقل باليد
وهو ايضا اسم لهامة الرجل ولقلة الجبل سلمنا كون القلة معلومة لكن فى متن الخبر
اضطراب فانه روى اذا بلغ الماء قلتين وروى اذا بلغ قلة وروى اربعين قلة وروى اذا
بلغ قلتين او ثلاثا وروى اذا بلغ كوزين سلمنا صحة المتن ولكنه متروك الظاهر لان قوله
لم يحمل خبثا لا يمكن اجراؤه على ظاهره فان الخبث اذا ورد عليه فقد حمله سلمنا امكان
اجرائه على ظاهره لكن الخبث على قسمين خبث شرعى وخبث حقيقى و الاسم اذا دار
بين المسمى اللغوى والمسمى الشرعى كان حمله على المسمى اللغوى اولى لان الاسم حقيقة
فى المسمى اللغوى مجاز فى المسمى الشرعى دفعا للاشتراك و النقل واذا كان كذلك وجب
حمله عليه والمسمى اللغوى للخبث المستقذر بالطبع قال عليه السلام ما استخبثته العرب
فهو حرام اذا ثبت هذا فنقول معنى قوله لم يحمل خبثا اى لا يصير مستقذرا طبعا ونحن
نقول بموجبه لكن لم قلت انه لا ينجس شرعا سلمنا ان المراد من الخبث النجاسة الشرعية
لكن قوله لم يحمل خبثا اى يضعف عن حمله ومعنى الضعف تأثره به فيكون هذا دليلا على
صيرورته نجسا لا على بقائه طاهرا (لا يقال) الجواب عن هذه الاسئلة ان يقال ان الشافعى
وان لم يذكر اسم الراوى فى بعض المواضع فقد ذكره فى سائر المواضع فخرج عن كونه
مرسلا ولان سائر المحدثين قد عينوا اسم الراوى قوله انه موقوف على ابن عمر قلنا لا نسلم
فان يحيى بن معين قال انه جيد الاسناد فقيل له ان ابن علية وقفه على ابن عمر فقال ان كان
ابن علية وقفه فحماد بن سلمة رفعه وقوله القلة مجهولة قلنا لا نسلم لان ابن جريج قال فى
روايته بقلال هجر ثم قال وقد شاهدت قلال هجر فكانت القلة تسع قربتين او قربتين
وشيئا قوله فى متنه اضطراب قلنا لا نسلم لانا وانتم توافقنا على ان سائر المقادير غير معتبرة
فبقى ما ذكرناه معتبرا قوله انه متروك الظاهر قلنا اذا حملناه على الخبث الشرعى اندفع
ذلك وذلك اولى لان حمل كلام الشرع على الفائدة الشرعية اولى من حمله على المعنى
العقلى لا سيما وفى حمله على المعنى العقلى يلزم التعطيل قوله المراد انه يضعف عن حمله قلنا
صح فى بعض الروايات انه قال اذا كان الماء قلتين لم ينجس ولانه عليه السلام جعل
القلتين شرطا لهذا الحكم والمعلق على الشرط عدم عند عدم الشرط وعلى ما ذكروه
لا يبقى للقلتين فائدة (لانا نقول) لا شك ان هذا الخبر بتقدير الصحة يقتضى تخصيص عموم

بلاحظه وبنى عليه امره معرضا
عن استماع الحجة الباهرة والبرهان
النير بالكلية على معنى انظر اليه
وتعجب منه وقوله تعالى (أفانت
تكون عليه وكيلا) انكار واستبعاد
لكونه عليه الصلاة و السلام
حفيظا عليه يزجره عما هو عليه
من الضلال ويرشده الى الحق
طوعا اوكرها والفاء لترتيب
الانكار على ما قبله من الحالة
الموجبة له كأنه قيل ابعد
ماشاهدت غلوه فى طاعة الهوى
وعتوه عن اتباع الهدى تقسره
على الايمان شاء اوابى وقوله
تعالى (ام تحسب ان اكثرهم
يسمعون او يعقلون) اضراب
وانتقال عن الانكار المذكور
الى انكار حسبانه عليه الصلاة
والسلام لهم ممن يسمع اويعقل
حسبما ينبئ عنه جده عليه الصلاة
والسلام فى الدعوة واهتمامه
بالارشاد والتذكير لكن لا على انه
لايقع كالاول بل على انه لاينبغى
ان يقع اى بل اتحسب ان اكثرهم
يسمعون ماتتلو عليهم من الآيات
حق السماع اويعقلون مافى
تضاعيفها من المواعظ الزاجرة
عن القبائح الداعية الى المحاسن
فتعتنى بشأنهم وتطمع فى ايمانهم
وضمير اكثرهم لمن وجمعه باعتبار
معناها كما ان الافراد فى الضمائر
الاول باعتبار لفظها وضمير
الفعلين للاكثر لا لما اضيف هو
اليه وقوله تعالى (ان هم الا
كالانعام) الخ جملة مستأنفة
مسوقة لتقرير النكير وتأكيده
وحسم مادة الحسبان بالمرة اى ماهم
فى عدم الانتفاع بما يقرع آذانهم
من قوارع الآيات

قوله تعالى وانزلنا من السماء ماء طهورا وعموم قوله ولكن يريد ليطهركم وعموم قوله فاغسلوا وجوهكم وعموم قوله صلى الله عليه وسلم خلق الماء طهورا لاينجسه شئ وهذا المخصص لابد وان يكون بعيدا عن الاحتمال والاشتباه وقلال هجر مجهولة وقول ابن جريج القلة تسع قربتين اوقربتين وشيئا ليس بحجة لان القلة كما انها مجهولة فكذا القربة مجهولة فانها قد تكون كبيرة وقد تكون صغيرة ولان الروايات ايضا مختلفة فتارة قال اذا بلغ الماء قلتين وتارة اربعين قلة وتارة كرين فاذا تدافعت وتعارضت لم يجز تخصيص عموم الكتاب والسنة الظاهرة البعيدة عن الاحتمال بمثل هذا الخبر هذا تمام الكلام فى نصرة قول مالك واحتج من حكم بنجاسة الماء الذى تقع النجاسة فيه بوجوه (اولها) قوله تعالى ويحرم عليهم الخبائث والنجاسات من الخبائث وقال تعالى انما حرم عليكم الميتة والدم وقال فى الخمر رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ومر عليه السلام بقبرين فقال انهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير ان احدهما كان لايستبرئ من البول والآخر كان يمشى بالنميمة فحرم الله هذه الاشياء تحريما مطلقا ولم يفرق بين حال انفرادها واختلاطها بالماء فوجب تحريم استعمال كل ماتيقن فيه جزء من النجاسة اكثر ما فى الباب ان الدلائل الدالة على كون الماء مطهرا يقتضى جواز الطهارة به ولكن تلك الدلائل مبيحة والدلائل التى ذكرناها حاظرة والمبيح والحاظر اذا اجتمعا فالغلبة للحاظر ألاترى ان الجارية بين رجلين لوكان لاحدهما منها مائة جزء وللآخر جزء واحد ان جهة الحظر فيها اولى من جهة الاباحة وانه غير جائز لواحد منهما وطؤها فكذا ههنا (وثانيها) قوله عليه السلام لايبولن احدكم فى الماء الدائم ثم يغتسل فيه من الجنابة ذكر على الاطلاق من غير فرق بين القليل والكثير (وثالثها) قوله عليه السلام اذا استيقظ احدكم من منامه فليغسل يده ثلاثا قبل ان يدخلها الاناء فانه لايدرى اين باتت يده فأمر بغسل اليد احتياطا من نجاسة قد اصابته من موضع الاستنجاء ومعلوم ان مثلها اذا ادخلت الماء لم تغيره ولولا انها تفسده ماكان للامر بالاحتياط منها معنى (ورابعها) قوله عليه السلام اذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا يدل بمفهومه على انه اذا لم يبلغ قلتين وجب ان يحمل الخبث اجاب مالك عن الوجه الاول فقال لانزاع فى انه يحرم استعمال النجاسة ولكن الجزء القليل من النجاسة المائعة اذا وقع فى الماء لم يظهر فيه لونه ولاطعمه ولارائحته فلم قلتم ان تلك النجاسة بقيت ولم لايجوز ان يقال انها انقلبت عن صفتها وتقريره ماقدمناه واما قوله عليه السلام لايبولن احدكم فى الماء الدائم فلم قلتم ان هذا النهى ليس الا لما ذكرتموه بل لعل النهى انما كان لانه ربما شربه انسان وذلك مما ينفر طبعه عنه وليس الكلام فى نفرة الطبع واما قوله اذا استيقظ احدكم من منامه فليغسل يده ثلاثا فقد اجمعنا على ان هذا الامر استحباب فالمرتب عليه كيف يكون امر ايجاب ثم بتقدير ان يكون امر ايجاب فلم قلتم انه لم يوجه ذلك الايجاب الا لما ذكرتموه واما قوله

(عليه)

واتقاء التدمير فيما يشاهدونه من الدلائل والمعجزات الا كالبهائم التى هى مثل فى الغفلة وعلم فى الضلالة (بل هم اضل) منها (سبيلا) لانها تنقاد لصاحبها الذى يعلفها ويتعهدها وتعرف من يحسن اليها ممن يسئ اليها وتطلب ماينفعها وتجتنب مايضرها وتهتدى لمراعيها ومشاربها وتأوى الى معاطنها وهؤلاء لاينقادون لربهم وخالقهم ورازقهم ولايعرفون احسانه اليهم من اساءة الشيطان الذى هو اعدى عدوهم ولايطلبون الثواب الذى هو اعظم المنافع ولايتقون العقاب الذى هو اشد المضار والمهالك ولايهتدون للحق الذى هو المشرع الهنى والمورد العذب الروى ولانها ان لم تعتقد حقا مستتبعا لاكتساب الخير لم تعتقد باطلا مستوجبا لاقتراف الشر بخلاف هؤلاء حيث مهدوا قواعد الباطل وفرعوا عليها احكام الشرور ولان احكام جهالتها وضلالتها مقصورة على انفسها لاتتعدى الى احد وجهالة هؤلاء مؤدية الى ثوران الفتنة والفساد وصد الناس عن سنن السداد وهيجان الهرج والمرج فيما بين العباد ولانها غير معطلة لقوة من القوى المودعة بل صارفة لها الى ماخلقت هى له فلاتقصير من قبلها فى طلب الكمال واما هؤلاء فهم معطلون لقواهم العقلية مضيعون للفطرة الاصلية التى فطر الناس عليها مستحقون بذلك اعظم العقاب واشد

عليه السلام اذا بلغ الماء قلتين فقد سبق الكلام عليه ثم بعد النزول عن كل ماقلناه فهو تمسك بالمفهوم والنصوص التى ذكرناها منطوقة والمنطوق راجح على المفهوم والله اعلم (النظر الثانى) فى ان غير الماء هل هو طهور أم لا فقال الاصم والاوزاعى يجوز الوضوء بجميع المائعات وقال ابو حنيفة يجوز الوضوء بنبيذ التمر فى السفر وقال ايضا تجوز ازالة النجاسة بجميع المائعات التى تزيل اعيان النجاسات وقال الشافعى رضى الله عنه الطهورية مختصة بالماء على الاطلاق ودليله فى صورة الحدث قوله تعالى فان لم تجدوا ماء فتيمموا اوجب التيمم عند عدم الماء ولو جاز الوضوء بالخل او نبيذ التمر لما وجب التيمم عند عدم الماء واما فى صورة الخبث فلأن الخل لو أفاد طهارة الخبث لكان طهورا لانه لامعنى للطهور الا المطهر ولو كان طهورا لوجب ان يجوز به طهارة الحدث لقوله عليه السلام لايقبل الله صلاة احدكم حتى يضع الطهور مواضعه وكلمة حتى لانتهاء الغاية فوجب انتهاء عدم القبول عند استعمال الطهور وانتهاء عدم القبول يكون بحصول القبول فلو كان الخل طهورا لحصل باستعماله قبول الصلاة وحيث لم يحصل علمنا ان الطهورية فى الخبث ايضا مختصة بالماء ❊ قوله تعالى (ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس الا كفورا ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انهم اختلفوا فى ان الهاء فى قوله ولقد صرفناه الى اى شئ يرجع وذكروا فيه ثلاثة اوجه (احدها) وهو الذى عليه الجمهور انه يرجع الى المطر ثم من هؤلاء من قال معنى صرفناه انا اجريناه فى الانهار حتى انتفعوا بالشرب وبالزراعات وانواع المعاش به وقال آخرون معناه انه سبحانه ينزله فى مكان دون مكان وفى عام دون عام ثم فى العام الثانى يقع بخلاف ماوقع فى العام الاول قال ابن عباس ماعام باكثر مطرا من عام ولكن الله يصرفه فى الارض ثم قرأ هذه الآية وروى ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال مامن عام بأمطر من عام ولكن اذا عمل قوم بالمعاصى حول الله ذلك الى غيرهم فاذا عصوا جميعا صرف الله ذلك الى الفيافى (وثانيها) وهو قول ابى مسلم ان قوله صرفناه راجع الى المطر والرياح والسحاب والاظلال وسائر ماذكر الله تعالى من الادلة (وثالثها) ولقد صرفناه اى هذا القول بين الناس فى القرآن وسائر الكتب والصحف التى انزلت على الرسل وهو ذكر انشاء السحاب وانزال القطر ليتفكروا ويستدلوا به على الصانع والوجه الاول اقرب لانه اقرب المذكورات الى الضمير (المسئلة الثانية) قال الجبائى قوله تعالى ليذكروا يدل على انه تعالى مريد من الكل ان يتذكروا ويشكروا ولو أراد منهم ان يكفروا ويعرضوا لما صح ذلك وذلك يبطل قول من قال ان الله تعالى مريد للكفر ممن يكفر قال ودل قوله فأبى اكثر الناس الا كفورا على قدرتهم على فعل هذا التذكر اذ لو لم يقدروا لما جاز ان يقال ابوا ان يفعلوه كما لايقال فى الزمن ابى ان يسعى وقال الكعبى قوله ولقد صرفناه بينهم ليذكروا حجة

النكال (ألم تر الى ربك) بيان لبعض دلائل التوحيد اثر بيان جهالة المعرضين عنها وضلالتهم والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والهمزة للتقرير والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام لتشريفه عليه الصلاة والسلام وللايذان بأن مايعقبه من آثار ربوبيته ورحمته تعالى اى ألم تنظر الى بديع صنعه تعالى (كيف مد الظل) اى كيف انشأ ظل اى مظل كان من جبل او بناء او شجر عند ابتداء طلوع الشمس ممتدا لا انه تعالى مده بعد ان لم يكن كذلك كما بعد نصف النهار الى غروبها فان ذلك مع خلوه عن التصريح بكون تنبيه بانشائه تعالى واحداثه يأباه سياق النظم الكريم واما ماقيل من ان المراد بالظل مابين طلوع الفجر وطلوع الشمس وانه اطيب الاوقات فان الظلمة الخالصة تنفر عنها الطباع وشعاع الشمس يسخن الجو ويبهر البصر ولذلك وصف بها الجنة فى قوله تعالى وظل ممدود فغير سديد اذ لاريب فى أن المراد تنبيه الناس على عظيم قدرة الله عز وجل وبالغ حكمته فيما يشاهدونه فلابد ان يراد بالظل مايتعارفونه من حالة مخصوصة يشاهدونها فى موضع يحول بينه وبين الشمس جسم كثيف مخالفة لما فى جوانبه من مواقع ضح الشمس وماذكر وان كان فى الحقيقة ظلا للافق الشرقى لكنهم لايعدونه ظلا ولا يصفونه باوصافه المعهودة ولعل توجيه الرؤية اليه سبحانه وتعالى مع ان المراد تقرير رؤيته عليه الصلاة والسلام لكيفية مد الظل للتنبيه على ان نظره عليه الصلاة والسلام غير مقصور على مايطالعه من الآثار

على من زعم ان القرآن وبال على الكافرين وأنه لم يرد بانزاله ان يؤمنوا الان قوله ليذكروا عام فى الكل وقوله أبى اكثر الناس يقتضى ان يكون هذا الاكثر داخلا فى ذلك العام لانه لا يجوز ان يقال انزلناه على قريش ليؤمنوا فأبى اكثر بنى تميم الا كفورا واعلم ان الكلام عليه قد تقدم مرارا (المسئلة الثالثة) قوله فأبى اكثر الناس الا كفورا المراد كفران النعمة وجحودها من حيث لا يتفكرون فيها ولا يستدلون بها على وجود الصانع وقدرته واحسانه وقيل المراد من الكفور هو الكفر وذلك الكفر انما حصل لانهم يقولون مطرنا بنوء كذا لان من جحد كون النعم صادرة من المنعم واضاف مثل هذه النعمة الى الافلاك والكواكب فقد كفر واعلم ان التحقيق ان من جعل الافلاك والكواكب مستقلة باقتضاء هذه الاشياء فلا شك فى كفره وأما من قال الصانع تعالى جبلها على خواص وصفات تقتضى هذه الحوادث فلعله لا يبلغ خطؤه الى حد الكفر (المسئلة الرابعة) قالوا الآية دلت على ان خلاف معلوم الله مقدور له لان كلمة لو دلت على انه تعالى ما شاء أن يبعث فى كل قرية نذيرا ثم انه تعالى أخبر عن كونه قادرا على ذلك فدل ذلك على ان خلاف معلوم الله مقدور له * أما قوله تعالى ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا فالاقوى ان المراد من ذلك تعظيم النبى صلى الله عليه وسلم وذلك لوجوه (احدها) كأنه تعالى بين له انه مع القدرة على بعثة رسول ونذير فى كل قرية خصه بالرسالة وفضله بها على الكل ولذلك اتبعه بقوله فلا تطع الكافرين اى لا توافقهم (وثانيها) المراد ولو شئنا لخففنا عنك اعباء الرسالة الى كل العالمين ولبعثنا فى كل قرية نذيرا ولكنا قصرنا الامر عليك واجللناك وفضلناك على سائر الرسل فقابل هذا الاجلال بالتشدد فى الدين (وثالثها) ان الآية تقتضى مزج اللطف بالعنف لانها تدل على القدرة على ان يبعث فى كل قرية نذيرا مثل محمد وانه لا حاجة بالحضرة الالهية الى محمد البتة وقوله ولو يدل على انه سبحانه لا يفعل ذلك فبالنظر الى الاول يحصل التأديب وبالنظر الى الثانى يحصل الاعزاز اما قوله تعالى فلا تطع الكافرين فالمراد نهيه عن طاعتهم ودلت هذه الآية على ان النهى عن الشئ لا يقتضى كون المنهى عنه مشتغلا به واما قوله تعالى وجاهدهم به جهادا كبيرا فقال بعضهم المراد بذل الجهد فى الاداء والدعاء وقال بعضهم المراد القتال وقال آخرون كلاهما والاقرب الاول لان السورة مكية والامر بالقتال ورد بعد الهجرة بزمان وانما قال جهادا كبيرا لانه لو بعث فى كل قرية نذيرا لوجب على كل نذير مجاهدة قريته فاجتمعت على رسول الله تلك المجاهدات وكثر جهاده من اجل ذلك وعظم فقال له وجاهد بسبب كونك نذير كافة القرى جهادا كبيرا جامعا لكل مجاهدة

* قوله تعالى (وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح اجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا) اعلم ان هذا هو النوع الرابع من دلائل التوحيد وقوله مرج البحرين اى خلاهما وارسلهما يقال مرجت الدابة اذا خليتها ترعى واصل المرج

والصانع بل مطمح انظاره معرفة شؤون الصانع المجيد وقوله تعالى (ولو شاء لجعله ساكنا) جملة اعترضت بين المعطوفين للتنبيه من اول الامر على انه لا مدخل فيما ذكر من المد للاسباب العادية وانما المؤثر فيه المشيئة والقدرة ومفعول المشيئة محذوف على القاعدة المستمرة من وقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء اى ولو شاء سكونه لجعله ساكنا اى ثابتا على حاله من الطول والامتداد وانما عبر عن ذلك بالسكون لما ان مقابله الذى هو تغير حاله حسب تغير الاوضاع بين المظل وبين الشمس يرى رأى العين حركة وانتقالا وحاصله انه لا يعتريه اختلاف حال بأن لا تنسخه الشمس واما التعليل بأن يجعل الشمس مقيمة على وضع واحد فمدار العقول عما سيق له النظم الكريم ونطق به صريحا من بيان كمال قدرته القاهرة وحكمته الباهرة بنسبة جميع الامور الحادثة اليه تعالى بالذات واسقاط الاسباب العادية عن رتبة السببية والتأثير بالكلية وقصرها على مجرد الدلالة على وجود المسببات لا بذكر قدرته تعالى على بعض الخوارق كاقامة الشمس فى مقام واحد على انها اعظم من ابقاء الظل على حاله فى الدلالة على ما ذكر من كمال القدرة والحكمة لكونه من فروعها ومستتبعاتها فهى اولى واحق بالايراد فى معرض البيان وقوله تعالى (ثم جعلنا الشمس عليه دليلا) عطف على مد داخل فى حكمه اى جعلناها علامة يستدل باحوالها المتغيرة على احواله من غير ان يكون بينهما سببية وتأثير قطعا

الارسال والخلط ومنه قوله تعالى فهم فى امر مريج معنى الماءين الكبيرين الواسعين بحرين قال ابن عباس مرج البحرين اى ارسلهما فى مجاريهما كما ترسل الخيل فى المرج وهما يلتقيان وقوله هذا عذب فرات والمقصود من الفرات البليغ فى العذوبة حتى يصير الى الحلاوة والاجاج نقيضه وانه سبحانه بقدرته يفصل بينهما ويمنعهما التمازج وجعل من عظيم اقتداره برزخا حائلا من قدرته وههنا سؤالات (السؤال الاول) مامعنى قوله وحجرا محجورا (الجواب) هى الكلمة التى يقولها المتعوذ وقد فسرناها وهى ههنا واقعة على سبيل المجاز كأن كل واحد من البحرين يتعوذ من صاحبه ويقول له حجرا محجورا كما قال لايبغيان اى لايبغى احدهما على صاحبه بالممازجة فانتفاء البغى كالتعوذ وههنا جعل كل واحد منهما فى صورة الباغى على صاحبه فهو يتعوذ منه وهى من احسن الاستعارات (السؤال الثانى) لاوجود للبحر العذب فكيف ذكره الله تعالى ههنا (لايقال) هذا مدفوع من وجهين (الاول) ان المراد منه الاودية العظام كالنيل وجيحون (الثانى) لعله جعل فى البحار موضعا يكون احد جانبيه عذبا والآخر ملحا (لانا نقول) اما الاول فضعيف لان هذه الاودية ليس فيها ماء ملح والبحار ليس فيها ماء عذب فلم يحصل البتة موضع التعجب واما الثانى فضعيف لان موضع الاستدلال لابد وان يكون معلوما فاما بمحض التجويز فلا يحسن الاستدلال لانا نقول المراد من البحر العذب هذه الاودية ومن الاجاج البحار الكبار وجعل بينهما برزخا اى حائلا من الارض ووجه الاستدلال ههنا بين لان العذوبة والملوحة ان كانت بسبب طبيعة الارض او الماء فلابد من الاستواء وان لم يكن كذلك فلابد من قادر حكيم يخص كل واحد من الاجسام بصفة خاصة معينة ❊ قوله تعالى (وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا) واعلم ان هذا هو النوع الخامس من دلائل التوحيد وفيه بحثان (الاول) ذكروا فى هذا الماء قولين (احدهما) انه الماء الذى خلق منه اصول الحيوان وهو الذى عناه بقوله والله خلق كل دابة من ماء (والثانى) ان المراد النطفة لقوله خلق من ماء دافق من ماء مهين (البحث الثانى) المعنى انه تعالى قسم البشر قسمين ذوى نسب أى ذكورا ينسب اليهم فيقال فلان بن فلان وفلانة بنت فلان وذوات صهر أى اناثا يصاهر بهن ونحوه قوله تعالى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى وكان ربك قديرا حيث خلق من النطفة الواحدة نوعين من البشر الذكر والانثى ❊ قوله تعالى (ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا وما ارسلناك الا مبشرا ونذيرا قل ما أسألكم عليه من اجر الا من شاء ان يتخذ الى ربه سبيلا وتوكل على الحى الذى لايموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا) واعلم انه تعالى لما شرح دلائل التوحيد عاد الى تهجين سيرتهم فى عبادة الاوثان وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قيل المراد بالكافر ابوجهل لان الآية نزلت فيه والاولى حمله على العموم لان خصوص السبب لايقدح فى عموم

حسبما نطق به الشرطية المعترضة والالتفات الى نون العظمة لما فى الجعل المذكور العارى عن التأثير مع ما يشاهد بين الشمس والظل من الدوران المطرد المنبئ عن السببية من مزيد دلالة على عظم القدرة ودقة الحكمة وهو السر فى ايراد كلمة التراخى وقوله تعالى (ثم قبضناه) عطف على مد داخل فى حكمه وثم للتراخى الزمانى لما ان فى بيان كون القبض والمد مرتبين دائرين على قطب مصالح المخلوقات مزيد دلالة على الحكمة الربانية ويجوز ان تكون للتراخى الرتبى اى ازلناه بعد ما انشأناه ممتدا ومحوناه بمحض قدرتنا ومشيئتنا عند ايقاع شعاع الشمس موقعه من غير ان يكون له تأثير فى ذلك اصلا وانما عبر عنه بالقبض المنبئ عن جمع المنبسط وطيه لما انه قد عبر عن احداثه بالمد الذى هو البسط طولا وقوله تعالى (الينا) للتنصيص على كون مرجعه اليه تعالى كما ان حدوثه منه عز وجل (قبضا يسيرا) اى على مهل قليلا قليلا حسب ارتفاع دليله على وتيرة معينة مطردة مستتبعة لمصالح المخلوقات ومرافقها وقيل ان الله تعالى حين بنى السماء كالقبة المضروبة ودحا الارض تحتها القت القبة ظلها على الارض لعدم النير وذلك مده تعالى اياه ولو شاء لجعله ساكنا مستقرا على تلك الحالة ثم خلق الشمس وجعلها على ذلك الظل اى سلطها عليه ونصبها دليلا متبوعا له كما يتبع الدليل فى الطريق فهو يزيد بها وينقص ويمتد ويتقلص ثم نسخه بها فقبضه قبضا سهلا يسيرا غير عسير او قبضا سهلا عند قيام الساعة بقبض اسبابه وهى الاجرام التى تلقى الظل فيكون قد ذكر اعدامه باعدام اسبابه

اللفظ ولانه اوفق بظاهر قوله ويعبدون من دون الله (المسئلة الثانية) ذكروا فى الظهير وجوها (احدها) ان الظهير بمعنى المظاهر كالعوين بمعنى المعاون وفعيل بمعنى مفاعل غير غريب والمعنى ان الكافر يظاهر الشيطان على ربه بالعداوة فان قيل كيف يصح فى الكافر ان يكون معاونا للشيطان على ربه بالعداوة قلنا انه تعالى ذكر نفسه واراد رسوله كقوله ان الذين يؤذون الله (وثانيها) يجوز ان يريد بالظهير الجماعة كقوله والملائكة بعد ذلك ظهير كما جاء الصديق والخليط وعلى هذا التفسير يكون المراد بالكافر الجنس وان بعضهم مظاهر لبعض على اطفاء نور الله تعالى قال تعالى واخوانهم يمدونهم فى الغى (وثالثها) قال ابو مسلم الاصفهانى الظهير من قولهم ظهر فلان بحاجتى اذا نبذها وراء ظهره وهو من قوله تعالى واتخذتموه وراءكم ظهريا ويقال فيمن يستهين بالشئ نبذه وراء ظهره وقياس العربية ان يقال مظهور اى مستخف به متروك وراء الظهر فقيل فيه ظهير فى معنى مظهور ومعناه هين على الله ان يكفر الكافر وهو تعالى مستهين بكفره اما قوله تعالى وما ارسلناك الا مبشرا ونذيرا فتعلق ذلك بما تقدم هو ان الكفار يطلبون العون على الله تعالى وعلى رسوله والله تعالى بعث رسوله لنفعهم لانه بعثه ليبشرهم على الطاعة وينذرهم على المعصية فيستحقوا الثواب ويحترزوا عن العقاب فلاجهل اعظم من جهل من استفرغ جهده فى ايذاء شخص استفرغ جهده فى اصلاح مهماته دينا ودنيا ولا يسألهم على ذلك البتة اجرا اما قوله الا من شاء فذكروا فيه وجوها متقاربة (احدها) لا يسألهم على الاداء والدعاء اجرا الا ان يشاؤا ان يتقربوا بالانفاق فى الجهاد وغيره فيتخذوا به سبيلا الى رحمة ربهم ونيل ثوابه (وثانيها) قال القاضى معناه لا اسألكم عليه اجرا لنفسى واسألكم ان تطلبوا الاجر لانفسكم باتخاذ السبيل الى ربكم (وثالثها) قال صاحب الكشاف مثال قوله الا من شاء والمراد الا فعل من شاء واستثناؤه عن الاجر قول ذى شفقة عليك قد سعى لك فى تحصيل مال ما اطلب منك ثوابا على ما سعيت الا ان تحفظ هذا المال ولا تضيعه فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب ولكن صوره هو بصورة الثواب وسماه باسمه فافاد فائدتين (احداهما) قلع شبهة الطمع فى الثواب من اصله كأنه يقول لك ان كان حفظك لمالك ثوابا فانى اطلب الثواب (والثانية) اظهار الشفقة البالغة وان حفظك لمالك يجرى مجرى الثواب العظيم الذى توصله الى ومعنى اتخاذهم الى الله سبيلا تقربهم اليه وطلبهم عنده الزلفى بالايمان والطاعة وقيل المراد التقرب بالصدقة والنفقة فى سبيل الله اما قوله وتوكل على الحى الذى لا يموت فالمعنى انه سبحانه لما بين ان الكفار متظاهرون على ايذائه فأمره بان لا يطلب منهم اجرا البتة أمره بأن يتوكل عليه فى دفع جميع المضار وفى جلب جميع المنافع وانما قال على الحى الذى لا يموت لان من توكل على الحى الذى يموت فاذا مات المتوكل عليه صار المتوكل ضائعا اما هو سبحانه وتعالى فانه حى لا يموت فلا يضيع المتوكل

كما ذكر انشاؤه بانشائها ووصفه
باليسر على طريقة قوله تعالى ذلك
حشر علينا يسير وصيغة الماضى
للدلالة على تحقق الوقوع (وهو
الذى جعل لكم الليل لباسا) بيان
لبعض بدائع آثار قدرته تعالى
وحكمته وروائع احكام رحمته
ونعمته الفائضة على الخلق
وتلوين الخطاب لتوفية مقام
الامتنان حقه واللام متعلقة
بجعل وتقديمها على مفعوليه
للاعتناء ببيان كون مايعقبه من
منافعهم وفى تعقيب بيان احوال
الظل ببيان احكام الليل الذى
هو ظل الارض من لطف المسلك
مالامزيد عليه اى هو الذى جعل
لكم الليل كاللباس يستركم
بظلامه كما يستركم اللباس
(والنوم سباتا) اى وجعل النوم
الذى يقع فى الليل غالبا انقطاعا عن
الافاعيل المختصة بحال اليقظة
عبر عنه بالسبات الذى هو الموت
لما بينهما من المشابهة التامة
فى انقطاع احكام الحياة وعليه
قوله تعالى وهو الذى يتوفاكم
بالليل وقوله تعالى الله يتوفى
الانفس حين موتها والتى لم تمت
فى منامها (وجعل النهار نشورا)
اى زمان بعث من ذلك السبات
كبعث الموتى على حذف المضاف
واقامة المضاف اليه مقامه او نفس
البعث على طريق المبالغة وفيه
اشارة الى ان النوم واليقظة
انموذج للموت والنشور وعن
لقمان عليه السلام يابنى كما تنام فتوقظ
كذلك تموت وتنشر (وهو الذى
ارسل الرياح) وقرئ بالتوحيد
على ان المراد هو الجنس (نشرا)
تخفيف نشر جمع نشور اى مبشرين
وقرئ بشرى وقرئ نشرا بالنون
جمع نشور اى ناشرات السحاب
وقرئ بالتخفيف وبفتح النون ايضا

عليه البتة اماقوله ومسبح بحمده فمنهم من حمله على نفس التسبيح بالقول ومنهم من حمله على الصلاة ومنهم من حمله على التنزيه لله تعالى عما لايليق به فى توحيده وعدله وهذا هو الظاهر ثم قال وكفى به بذنوب عباده خبيرا وهذه كلمة يراد بها المبالغة يقال كفى بالعلم جمالا وكفى بالادب مالا وهو بمعنى حسبك اى لاتحتاج معه الى غيره لانه خبير بأحوالهم قادر على مكافاتهم وذلك وعيد شديد كأنه قال ان اقدمتم على مخالفة امره كفاكم علمه فى مجازاتكم بما تستحقون من العقوبة ۞ قوله تعالى (الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة ايام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن انسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا) اعلم انه سبحانه لما أمر الرسول بأن يتوكل عليه وصف نفسه بأمور (اولها) بانه حى لايموت وهو قوله وتوكل على الحى الذى لايموت (وثانيها) انه عالم بجميع المعلومات وهو قوله وكفى به بذنوب عباده خبيرا (وثالثها) انه قادر على كل الممكنات وهو المراد من قوله الذى خلق السموات والارض فقوله الذى خلق متصل بقوله الحى الذى لايموت لانه سبحانه لما كان هو الخالق للسموات والارضين ولكل مابينهما ثبت انه هو القادر على جميع وجوه المنافع ودفع المضار وان النعم كلها من جهته فحينئذ لايجوز التوكل الا عليه • وفى الآية سؤالات (السؤال الاول) الايام عبارة عن حركات الشمس فى السموات فقبل السموات لاايام فكيف قال الله خلقها فى ستة ايام (الجواب) يعنى فى مدة مقدارها هذه المدة لايقال الشئ الذى يتقدر بمقدار محدود ويقبل الزيادة والنقصان والتجزئة لايكون عدما محضا بل لابد وان يكون موجودا فيلزم من وجوده وجود مدة قبل وجود العالم وذلك يقتضى قدم الزمان (لانا نقول) هذا معارض بنفس الزمان لان المدة المتوهمة المحتملة لعشرة ايام لاتحتمل خمسة ايام والمدة المتوهمة التى تحتمل خمسة ايام لاتحتمل عشرة ايام فيلزم ان يكون للمدة مدة اخرى فالم يلزم هذا لم يلزم ماقلتموه وعلى هذا تقول لعل الله سبحانه خلق المدة اولا ثم خلق السموات والارض فيها بمقدار ستة ايام ومن الناس من قال فى ستة من ايام الآخرة وكل يوم ألف سنة وهو بعيد لان التعريف لابد وان يكون بأمر معلوم لابأمر مجهول (السؤال الثانى) لم قدر الخلق والايجاد بهذا التقدير (الجواب) اما على قولنا فالمشيئة والقدرة كافية فى التخصيص قالت المعتزلة بل لابد من داعى حكمة وهو ان تخصيص خلق العالم بهذا المقدار اصلح للمكلفين وهذا بعيد لوجهين (احدهما) ان حصول تلك الحكمة اما ان يكون واجبا لذاته او جائزا فان كان واجبا وجب ان لايتغير فيكون حاصلا فى كل الازمنة فلا يصلح ان يكون سببا لتخصيص زمان معين وان كان جائزا افتقر حصول تلك الحكمة فى ذلك الوقت الى مخصص آخر ويلزم التسلسل (والثانى) ان التفاوت بين كل واحد مما لايصل اليه خاطر المكلف وعقله فحصول ذلك التفاوت لما لم يكن مشعورا به كيف يقدح فى حصول المصالح واعلم انه يجب على المكلف سواء كان على قولنا او على

على انه مصدر وصف به مبالغة وقوله تعالى (بين يدى رحمته) استعارة بديعة اى قدام المطر والالتفات الى نون العظمة فى قوله تعالى (وانزلنا من السماء ماء طهورا) لابراز كمال العناية بالانزال لانه نتيجة ماذكر من ارسال الرياح اى انزلنا بعظمتنا بما رتبنا من ارسال الرياح من جهة الفوق ماء بليغا فى الطهارة وماقيل انه مايكون طاهرا فى نفسه ومطهرا لغيره فهو شرح لبلاغته فى الطهارة كما ينبئ عنه قوله تعالى وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به فان الطهور فى العربية اما صفة كما تقول ماء طهور اواسم كما فى قوله عليه الصلاة والسلام التراب طهور المؤمن وقد جاء بمعنى الطهارة كما فى قولك تطهرت طهورا حسنا كقولك وضوأ حسنا ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لاصلاة الابطهور ووصف الماء به اشعار بتمام النعمة فيه وتتميم للنعمة فيما بعده فان الماء الطهور اهنأ وانفع مما خالطه ما يزيل طهوريته وتنبيه على ان ظواهرهم لما كانت مماينبغى ان يطهروها فبواطنهم احق بذلك واولى (لنحيى به) اى بما انزلنا من الماء الطهور (بلدة ميتا) بانبات النبات وتذكير لان البلدة بمعنى البلد ولانه غير جار على الفعل كسائر ابنية المبالغة فأجرى مجرى الجامد والمراد به القطعة من الارض عامرة كانت اوغامرة (ونسقيه) اى ذلك الماء الطهور عند جريانه فى الاودية واجتماعه فى الحياض والمنافع والآبار (مما خلقنا انعاما واناسى كثيرا) اى اهل البوادى الذين يعيشون بالحيا ولذلك نكر الانعام والاناسى وتخصيصهم بالذكر لان اهل القرى والامصار يقيمون

قول المعتزلة ان يقطع الطمع عن امثال هذه الاسئلة فانه بحر لا ساحل له من ذلك تقدير الملائكة الذين هم اصحاب النار بتسعة عشر وحملة العرش بالثمانية وشهور السنة باثنى عشر والسموات بالسبع وكذا الارض وكذا القول فى عدد الصلوات ومقادير النصب فى الزكوات وكذا مقادير الحدود والكفارات فالاقرار بأن كل ماقاله الله تعالى حق هو الدين وترك البحث عن هذه الاشياء هو الواجب وقد نص عليه تعالى فى قوله وماجعلنا اصحاب النار الاملائكة وماجعلنا عدتهم الافتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايمانا ولا يرتاب الذين اوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا اراد الله بهذا مثلا ثم قال ومايعلم جنود ربك الاهو وهذا هو الجواب ايضا فى انه لم لم يخلقها فى لحظة وهو قادر على ذلك وعن سعيد بن جبير انه خلقها فى ستة ايام وهو يقدر على ان يخلقها فى لحظة تعليما لخلقه الرفق والتثبت قيل ثم خلقها يوم الجمعة فجعلها الله تعالى عيدا للمسلمين (السؤال الثالث) مامعنى قوله ثم استوى على العرش ولا يجوز حمله على الاستيلاء والقدرة لان الاستيلاء والقدرة فى اوصاف الله لم تزل ولا يصح دخول ثم فيه (الجواب) الاستقرار غير جائز لانه يقتضى التغير الذى هو دليل الحدوث ويقتضى التركيب والبعضية وكل ذلك على الله محال بل المراد ثم خلق العرش ورفعه وهو مستول كقوله تعالى ولنبلونكم حتى نعلم فان المراد حتى يجاهد المجاهدون ونحن بهم عالمون (فان قيل) فعلى هذا التفسير يلزم ان يكون خلق العرش بعد خلق السموات وليس كذلك لقوله تعالى وكان عرشه على الماء (قلنا) كلمة ثم مادخلت على خلق العرش بل على رفعه على السموات (السؤال الرابع) كيف اعراب قوله الرحمن فاسأل به خبيرا (الجواب) الذى خلق مبتدأ والرحمن خبره او هو صفة للحى او الرحمن خبر مبتدأ محذوف ولهذا اجاز الزجاج وغيره ان يكون الوقف على قوله على العرش ثم يبتدئ بالرحمن اى هو الرحمن الذى لا ينبغى السجود والتعظيم الا له ويجوز ان يكون الرحمن مبتدأ وخبره قوله فاسأل به خبيرا (السؤال الخامس) مامعنى قوله فاسأل به خبيرا (الجواب) ذكروا فيه وجوها (احدها) قال الكلبى معناه فاسأل خبيرا به وقوله به يعود الى ماذكرنا من خلق السماء والارض والاستواء على العرش والباء من صلة الخبير وذلك هو الله عز وجل لانه لادليل فى العقل على كيفية خلق الله السموات والارض فلا يعلمها احد الا الله تعالى وعن ابن عباس ان ذلك الخبير هو جبريل عليه السلام وانما قدم لرؤس الآى وحسن النظم (وثانيها) قال الزجاج قوله به معناه عنه والمعنى فاسأل عنه خبيرا وهو قول الاخفش ونظيره قوله سأل سائل بعذاب واقع وقال علقمة بن عبدة

فان تسألونى بالنساء فاننى * بصير بأدواء النساء طبيب

(وثالثها) قال ابن جرير الباء فى قوله به صلة والمعنى فسله خبيرا وخبيرا نصب على الحال

بشرب الانهار والشرايع فيهم وعالهم من الانعام غنية عن سقيا السماء وسائر الحيوانات تبعد فى طلب الماء فلا يعوزها الشرب غالبا مع ان مساق الآيات الكريمة كما هو للدلالة على عظم القدرة فهو لتعداد انواع النعمة والانعام حيث كانت قنية الانسان وعامة منافعهم ومعايشهم منوطة بها قدم سقيها على سقيهم كما قدم عليها احياء الارض فانه سبب لحياتها وتعيشها وقرئ نسقيه واسقى وسقى لغتان وقيل اسقاه جعل له سقيا واناسى جمع انسى او انسان كظرابى فى ظربان على ان اصله اناسين فقلبت نونه ياء وقرئ اناسى بالتخفيف بحذف ياء افاعيل كانعام فى اناعيم (ولقد صرفناه) اى وبالله لقد كررنا هذا القول الذى هو ذكر انشاء السحاب وانزال القطر لما مر من الغايات الجليلة فى القرآن وغيره من الكتب السماوية (بينهم) اى بين الناس من المتقدمين والمتأخرين (ليذكروا) ليتفكروا ويعرفوا بذلك كمال قدرته تعالى وواسع رحمته فى ذلك ويقوموا بشكر نعمته حق قيام وقيل الضمير للمطر وتصريفه بينهم انزاله فى بعض البلاد دون غيرها او فى بعض الاوقات دون بعض او جعله تارة وابلا واخرى طلا وحينا ديمة ووقتا رهمة والاول هو الاظهر (فأبى اكثر الناس) ممن سلف وخلف (الا كفورا) اى لم يفعل الا كفران النعمة وقلة الاكتراث لها او الا جحودها بان يقولوا امطرنا بنوء كذا ولا يذكروا

(ورابعها) ان قوله به يجرى مجرى القسم كقوله واتقوا الله الذى تساءلون به اما قوله واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن فهو خبر عن قوم قالوا هذا القول ويحتمل انهم جهلوا الله تعالى ويحتمل انهم وان عرفوه لكنهم جحدوه ويحتمل انهم وان اعترفوا به لكنهم جهلوا ان هذا الاسم من اسماء الله تعالى وكثير من المفسرين على هذا القول الاخير قالوا الرحمن اسم من اسماء الله مذكور فى الكتب المتقدمة والعرب ما عرفوه قال مقاتل ان أبا جهل قال ان الذى يقول محمد شعر فقال عليه السلام الشعر غير هذا ان هذا الا كلام الرحمن فقال ابو جهل بخ بخ لعمرى والله انه لكلام الرحمن الذى باليمامة هو يعلمك فقال عليه السلام الرحمن الذى هو اله السماء ومن عنده يأتينى الوحى فقال يا آل غالب من يعذرنى من محمد يزعم ان الله واحد وهو يقول الله يعلمنى والرحمن ألستم تعلمون انهما الهان ثم قال ربكم الله الذى خلق هذه الاشياء اما الرحمن فهو مسيلمة قال القاضى والاقرب ان المراد انكارهم لله لا للاسم لان هذه اللفظة عربية وهم كانوا يعلمون انها تفيد المبالغة فى الانعام ثم ان قلنا بأنهم كانوا منكرين لله كان قولهم وما الرحمن سؤال طالب عن الحقيقة وهو يجرى مجرى قول فرعون وما رب العالمين وان قلنا بأنهم كانوا مقرين بالله لكنهم جهلوا كونه تعالى مسمى بهذا الاسم كان قولهم وما الرحمن سؤالا عن الاسم اما قوله أنسجد لما تأمرنا فالمعنى للذى تأمرنا بسجوده على قوله امرتك بالخير او لامر لنا وقرئ يأمرنا بالياء كأن بعضهم قال لبعض أنسجد لما يأمرنا محمد او يأمرنا المسمى بالرحمن ولا نعرف ما هو وزادهم امره نفورا ومن حقه ان يكون باعثا على الفعل والقبول قال الضحاك فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وابو بكر وعمر وعثمان وعلى وعثمان بن مظعون وعمرو بن عنبسة ولما رآهم المشركون يسجدون تباعدوا فى ناحية المسجد مستهزئين فهذا هو المراد من قوله وزادهم نفورا اى فزادهم سجودهم نفورا

﴿ قوله تعالى (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد ان يذكر او أراد شكورا) اعلم انه سبحانه لما حكى عن الكفار مزيد النفرة عن السجود ذكر ما لو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود والعبادة للرحمن فقال تبارك الذى جعل فى السماء بروجا اما تبارك فقد تقدم القول فيه واما البروج فهى منازل السيارات وهى مشهورة سميت بالبروج التى هى القصور العالية لانها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانها واشتقاق البرج من التبرج لظهوره وفيه قول آخر عن ابن عباس رضى الله عنهما ان البروج هى الكواكب العظام والاول اولى لقوله تعالى وجعل فيها اى فى البروج فان قيل لم لا يجوز ان يكون قوله فيها راجعا الى السماء دون البروج قلنا لان البروج اقرب فعود الضمير اليها اولى والسراج الشمس لقوله تعالى وجعل الشمس سراجا وقرئ سرجا وهى الشمس والكواكب الكبار فيها وقرأ الحسن والاعمش وقمرا منيرا وهى جمع ليلة قمراء كأنه قيل وذا قمر منيرا لان الليالى

صنع الله تعالى ورحمته ومن لا يرى الامطار الا من الانواء فهو كافر بخلاف من يرى ان الكل بخلق الله تعالى والانواء امارات لجعله تعالى (ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا) نبيا ينذر اهلها فيخف عليك اعباء النبوة لكن لم نشأ ذلك لم نشعه بل قصرنا الامر عليك حسبما ينطق به قوله تعالى ليكون للعالمين نذيرا اجلالا لك وتعظيما وتفضيلا لك على سائر الرسل (فلا تطع الكافرين) اى قابل ذلك بالثبات والاجتهاد فى الدعوة واظهار الحق والتشدد معهم كأنه نهى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن المداراة معهم والتلطف فى الدعوة لما انه عليه الصلاة والسلام كان يود ان يدخلوا فى الاسلام ويجتهد فى ذلك بتأليف قلوبهم اشد الاجتهاد (وجاهدهم به) القرآن بتلاوة ما فى تضاعيفه من القوارع والزواجر والمواعظ وتذكير احوال الامم المكذبة (جهادا كبيرا) فان دعوة كل العالمين على الوجه المذكور جهاد كبير لا يقادر قدره كما وكيفا وقيل الضمير المجرور لترك الطاعة المفهوم من النهى عن الطاعة والتشخيص بأن مجرد ترك الطاعة يتحقق بلا دعوة اصلا وليس فيه شائبة الجهاد فضلا عن الجهاد الكبير اللهم الا ان يجعل الباء للملابسة ليكون المعنى وجاهدهم بما ذكر من احكام القرآن الكريم ملابسا بترك طاعتهم كأنه قيل فجاهدهم بالشدة والعنف لا بالملايمة والمداراة كما فى قوله تعالى يا ايها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ

تكون قراء بالقمر فأضافه اليها ولايبعد ان يكون القمر بمعنى القمر كالرشد والرشد والعرب والعرب * واما الخلفة ففيها قولان (الاول) انها عبارة عن كون الشيئين بحيث احدهما يخلف الآخر ويأتى خلفه يقال فلان خلفة واختلاف اذا اختلف كثيرا الى متبرزه والمعنى جعلهما ذوى خلفة اى ذوى عقبة يعقب هذا ذاك وذاك هذا قال ابن عباس رضى الله عنهما جعل كل واحد منهما يخلف صاحبه فيما يحتاج ان يعمل فيه فن فرط فى عمل فى احدهما قضاه فى الآخر قال أنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب وقد فاتته قراءة القرآن بالليل يا ابن الخطاب لقد انزل الله فيك آية وتلا وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد ان يذكر مافاتك من النوافل بالليل فاقضه فى نهارك وما فاتك من النهار فاقضه فى ليلك (القول الثانى) وهو قول مجاهد وقتادة والكسائى يقال لكل شيئين اختلفا هما خلفان فقوله خلفة اى مختلفين وهذا أسود وهذا ابيض وهذا طويل وهذا قصير والقول الاول اقرب اما قوله تعالى ان يذكر فقراءة العامة بالتشديد وقراءة حمزة بالتخفيف وعن ابى بن كعب يتذكر والمعنى لينظر الناظر فى اختلافهما فيعلم انه لابد فى انتقالهما من حال الى حال من ناقل ومغير وقوله ان يذكر راجع الى كل ماتقدم من النعم بين تعالى ان الذين قالوا وما الرحمن لو تفكروا فى هذه النعم وتذكروها لاستدلوا بذلك على عظيم قدرته ولشكر الشاكر على النعمة فيهما من السكون بالليل والتصرف بالنهار كما قال تعالى ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله اوليكونا وقتين للمتذكرين والشاكرين من فاته فى احدهما ورد من العبادة قام به فى الآخر والشكور مصدر شكر يشكر شكورا

* قوله تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما انها ساءت مستقرا ومقاما والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) اعلم ان قوله وعباد الرحمن مبتدأ خبره فى آخر السورة كأنه قيل وعباد الرحمن الذين هذه صفاتهم اولئك يجزون الغرفة ويجوز ان يكون خبره الذين يمشون واعلم انه سبحانه خص اسم العبودية بالمشتغلين بالعبودية فدل ذلك على ان هذه الصفة من اشرف صفات المخلوقات وقرئ وعباد الرحمن واعلم انه سبحانه وصفهم بتسعة انواع من الصفات (الصفة الاولى) قوله الذين يمشون على الارض هونا وهذا وصف سيرتهم بالنهار وقرئ يمشون هونا حال اوصفة للمشى بمعنى هينين او بمعنى مشيا هينا الا ان فى وضع المصدر موضع الصفة مبالغة والهون الرفق واللين ومنه الحديث احبب حبيبك هونا ما وقوله المؤمنون هينون لينون والمعنى انهم يمشون فى لين وسكينة ووقار وتواضع ولايضربون أقدامهم اشرا وبطرا ولايتبخترون لاجل الخيلاء كما قال ولاتمش فى الارض مرحا وعن زيد بن اسلم التمست تفسير هونا فلم اجد فرأيت فى النوم

عليهم وقد جعل الضمير لما دل عليه قوله تعالى ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا من كونه عليه الصلاة والسلام نذير كافة القرى لانه لو بعث فى كل قرية نذيرا لوجب على كل نذير مجاهدة قريته فاجتمعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك المجاهدات كلها فكبر من اجل ذلك جهاده وعظم فقيل له عليه الصلاة والسلام وجاهدهم بسبب كونك نذير كافة القرى جهادا كبيرا جامعا لكل مجاهدة وانت خبير بأن بيان سبب كبر المجاهدة بحسب الكمية ليس فيه مزيد فائدة فاتدبر بنفسه وانما اللائق بالمقام بيان سبب كبرها وعظمها فى الكيفية (وهو الذى مرج البحرين) اى خلاهما متجاورين متلاصقين بحيث لايتمازجان من مرج دابته اذا خلاها (هذا عذب فرات) قامع للعطش لغاية عذوبته (وهذا ملح أجاج) بليغ الملوحة وقرئ ملح على فعل ولعل اصله مالح كبرد فى بارد (وجعل بينهما برزخا) حاجزا غير مرئى من قدرته كما فى قوله تعالى بغير عمد ترونها (وحجرا محجورا) وتنافرا مفرطا كأن كلا منهما يتعوذ من الآخر بتلك المقالة وقيل حدا محدودا وذلك كدجلة تدخل البحر وتشقه وتجرى فى خلاله فراسخ لايتغير طعمها وقيل المراد بالبحر العذب النهر العظيم وبالملح البحر الكبير وبالبرزخ ما بينهما من الارض فيكون اثر القدرة فى الفصل واختلاف الصفة

(فقيل)

فقيل لى هم الذين لايريدون الفساد فى الارض وعن ابن زيد لايتكبرون ولايتجبرون ولايريدون علوا فى الارض (الصفة الثانية) قوله تعالى واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما معناه لانجاهلكم ولاخير بيننا ولاشر اى نسلم منكم تسليما فاقيم السلام مقام التسليم ثم يحتمل ان يكون مرادهم طلب السلامة والسكوت ويحتمل ان يكون المراد التنبيه على سوء طريقتهم لكى يمتنعوا ويحتمل ان يكون مرادهم العدول عن طريق المعاملة ويحتمل ان يكون المراد اظهار الحلم فى مقابلة الجهل قال الاصم قالوا سلاما اى سلام توديع لاتحية كقول ابراهيم لابيه سلام عليك ثم قال الكلبى وابو العالية نسختها آية القتال ولاحاجة الى ذلك لان الاغضاء عن السفهاء وترك المقابلة مستحسن فى العقل والشرع وسبب لسلامة العرض والورع (الصفة الثالثة) قوله والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما (واعلم) انه تعالى لما ذكر سيرتهم فى النهار من وجهين (احدهما) ترك الايذاء وهو المراد من قوله يمشون على الارض هونا (والآخر) تحمل التأذى وهو المراد من قوله واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما فكأنه شرح سيرتهم مع الخلق فى النهار فبين فى هذه الآية سيرتهم فى الليالى عند الاشتغال بخدمة الخالق وهو كقوله تتجافى جنوبهم عن المضاجع ثم قال الزجاج كل من ادركه الليل قيل بات وان لم ينم كما يقال بات فلان قلقا ومعنى يبيتون لربهم ان يكونوا فى لياليهم مصلين ثم اختلفوا فقال بعضهم من قرأ شيئا من القرآن فى صلاة وان قل فقد بات ساجدا وقائما وقيل ركعتين بعد المغرب واربعا بعد العشاء الاخيرة والاول انه وصف لهم باحياء الليل او اكثره يقال فلان يظل صائما ويبيت قائما قال الحسن يبيتون لله على اقدامهم ويفرشون له وجوههم تجرى دموعهم على خدودهم خوفا من ربهم (الصفة الرابعة) قوله والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما قال ابن عباس رضى الله عنهما يقولون فى سجودهم وقيامهم هذا القول وقال الحسن خشعوا بالنهار وتعبوا بالليل فرقا من عذاب جهنم وقوله غراما اى هلاكا وخسرانا ملحا لازما ومنه الغريم لالحاحه والزامه ويقال فلان مغرم بالنساء اذا كان مولعا بهن وسأل نافع بن الازرق ابن عباس عن الغرام فقال هو الموجع وعن محمد بن كعب فى غراما انه سأل الكفار ثمن نعمه فما ادوها اليه فاغرمهم فادخلهم النار واعلم انه تعالى وصفهم باحياء الليل ساجدين وقائمين ثم عقبه بذكر دعوتهم هذه ايذانا بانهم مع اجتهادهم خائفون مبتهلون الى الله فى صرف العذاب عنهم كقوله والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة اما قوله تعالى انها ساءت مستقرا ومقاما فقوله ساءت فى حكم بئست وفيها ضمير مبهم تفسيره مستقرا والمخصوص بالذم محذوف معناه ساءت مستقرا ومقاما هى ومستقرا حال او تمييز (فان قيل) دلت الآية على انهم سألوا الله تعالى ان يصرف عنهم عذاب جهنم لعلتين (احداهما) ان عذابها كان غراما (وثانيهما) انها ساءت مستقرا ومقاما فما الفرق بين الوجهين وايضا فما الفرق بين المستقر والمقام (قلنا) المتكلمون

مع ان مقتضى طبيعة كل عنصر التضام والتلاصق والتشابه فى الكيفية (وهو الذى خلق من الماء بشرا) هو الماء الذى خمر به طينة آدم عليه السلام او جعله جزأ من مادة البشر ليجتمع ويسلس ويستعد لقبول الاشكال والهيئات بسهولة او هو النطفة (فجعله نسبا وصهرا) اى قسمه قسمين ذوى نسب اى ذكورا ينسب اليهم وذوات صهر اى اناثا يصاهر بهن كقوله تعالى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى (وكان ربك قديرا) مبالغا فى القدرة حيث قدر على ان يخلق من مادة واحدة بشرا ذا اعضاء مختلفة وطباع متباعدة وجعله قسمين متقابلين وربما يخلق من نطفة واحدة توأمين ذكرا وانثى (ويعبدون من دون الله) الذى شأنه ما ذكر (ما لاينفعهم ولا يضرهم) اى ما ليس من شأنه النفع والضر اصلا وهو الاصنام او كل ما يعبد من دونه تعالى اذ ما من مخلوق يستقل بالنفع والضر (وكان الكافر على ربه) الذى ذكرت آثار ربوبيته (ظهيرا) يظاهر الشيطان بالعداوة والشرك والمراد بالكافر الجنس او ابو جهل وقيل هينا مهينا لااعتداد به عنده تعالى من قولهم ظهرت به اذا نبذته خلف ظهرك فيكون كقوله تعالى ولا يكلمهم الله ولاينظر اليهم (وما ارسلناك الا مبشرا) للمؤمنين (ونذيرا) للكافرين (قل) لهم (ما اسألكم عليه) اى على تبليغ الرسالة الذى ينبئ عنه الارسال (من اجر) من جهتكم (الامن

ذكروا ان عقاب الكافر يجب ان يكون مضرة خالصة عن شوائب النفع دائمة فقوله ان عذابها كان غراما اشارة الى كونه مضرة خالصة عن شوائب النفع وقوله انها ساءت مستقرا ومقاما اشارة الى كونها دائمة ولا شك فى المغايرة اما الفرق بين المستقر والمقام فيحتمل ان يكون المستقر للعصاة من اهل الايمان فانهم يستقرون فى النار ولا يقيمون فيها واما الاقامة فللكفار واعلم ان قوله انها ساءت مستقرا ومقاما يمكن ان يكون من كلام الله تعالى ويمكن ان يكون حكاية لقولهم (الصفة الخامسة) قوله والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما قرئ يقتروا بكسر التاء وضمها ويقتروا بضم الياء وتخفيف القاف وكسر التاء وايضا بضم الياء وفتح القاف وكسر التاء وتشديدها وكلها لغات والقتر والاقتار والتقتير التضييق الذى هو نقيض الاسراف والاسراف مجاوزة الحد فى النفقة وذكر المفسرون فى الاسراف والتقتير وجوها (احدها) وهو الاقوى انه تعالى وصفهم بالقصد الذى هو بين الغلو والتقصير وبمثله امر رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط وعن وهيب بن الورد قال لعالم ما البناء الذى لا سرف فيه قال ما سترك عن الشمس واكنك من المطر فقال له فما الطعام الذى لا سرف فيه قال ما سد الجوعة فقال له فى اللباس قال ما ستر عورتك ووقاك من البرد وروى ان رجلا صنع طعاما فى املاك فأرسل الى الرسول عليه السلام فقال حق فاجيبوا ثم صنع الثانية فأرسل اليه فقال خلق فمن شاء فليجب والا فليقعد ثم صنع الثالثة فارسل اليه فقال رياء ولا خير فيه (وثانيها) وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك ان الاسراف الانفاق فى معصية الله تعالى والاقتار منع حق الله تعالى قال مجاهد لو انفق رجل مثل ابى قبيس ذهبا فى طاعة الله تعالى لم يكن سرفا ولو انفق صاعا فى معصية الله تعالى كان سرفا وقال الحسن لم ينفقوا فى معاصى الله ولم يمسكوا عما ينبغى وذلك قد يكون فى الامساك عن حق الله وهو اقبح التقتير وقد يكون عما لا يجب ولكن يكون مندوبا مثل الرجل الغنى الكثير المال اذا منع الفقراء من اقاربه (وثالثها) المراد بالسرف مجاوزة الحد فى التنعم والتوسع فى الدنيا وان كان من حلال فان ذلك مكروه لانه يؤدى الى الخيلاء والاقتار هو التضييق فالاكل فوق الشبع بحيث يمنع النفس عن العبادة سرف وان اكل بقدر الحاجة فذلك اقتار وهذه الصفة صفة اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة ولا يلبسون ثوبا للجمال والزينة ولكن كانوا يأكلون ما يسد جوعهم ويعينهم على عبادة ربهم ويلبسون ما يستر عوراتهم ويصونهم من الحر والبرد وههنا مسئلتان (المسئلة الاولى) القوام قال ثعلب القوام بالفتح العدل والاستقامة وبالكسر ما يدوم عليه الامر ويستقر قال صاحب الكشاف القوام العدل بين الشيئين لاستقامة الطرفين واعتدالهما ونظير القوام من الاستقامة السواء من الاستواء وقرئ قواما

(بالكسر)

شاء ان يتخذ الى ربه سبيلا) اى الافعل من يريد ان يتقرب اليه تعالى ويطلب الزلفى عنده بالايمان والطاعة حسبما ادعوهم اليهما فصور ذلك بصورة الاجر من حيث انه مقصود الاتيان به واستثنى منه قلعا كليا لشائبة الطمع واظهارا لغاية الشفقة عليهم حيث جعل ذلك مع كون نفعه عائدا اليهم عائدا اليه عليه الصلاة والسلام وقيل الاستثناء منقطع اى لكن من شاء ان يتخذ الى ربه سبيلا فليفعل (وتوكل على الحى الذى لا يموت) فى الاستكفاء عن شرورهم والاغناء عن اجورهم فانه الحقيق بأن يتوكل عليه دون الاحياء الذين من شأنهم الموت فانهم اذا ماتوا ضاع من توكل عليهم (وسبح بحمده) ونزهه عن صفات النقصان مثنيا عليه بنعوت الكمال طالبا لمزيد الانعام بالشكر على سوابغه (وكفى به بذنوب عباده) ما ظهر منها وما بطن (خبيرا) اى مطلعا عليها بحيث لا يخفى عليه شئ منها فيجزيهم جزاء وافيا (الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة ايام ثم استوى على العرش) قد سلف تفسيره ومحل الموصول الجر على انه صفة اخرى للحى وصف بالصفة الفعلية بعد وصفه بالابدية التى هى من الصفات الذاتية والاشارة الى اتصافه بالعلم الشامل لتقرير وجوب التوكل عليه تعالى وتأكيده فان انشاء هذه الاجرام العظام على هذا النمط الفائق والنسق الرائق بتدبير متين وترتيب رصين فى اوقات معينة مع كمال قدرته على ابداعها دفعة لحكم

بالكسر وهو مايقام به الشئ يقال انت قوامنا يعنى مايقام به الحاجة لايفضل عنها ولاينقص (المسئلة الثانية) المنصوبان اعنى بين ذلك قواما جائز ان يكونا خبرين معا وان يجعل بين ذلك لغوا وقواما مستقرا وان يكون الظرف خبرا وقواما حالا مؤكدة قال الفراء وان شئت جعلت بين ذلك اسم كان كما تقول كان دون هذا كافيا تريد اقل من ذلك فيكون معنى بين ذلك اى كان الوسط من ذلك قواما اى عدلا وهذا التأويل ضعيف لان القوام هو الوسط فيصير التأويل وكان الوسط وسطا وهذا لغو ۞ (الصفة السادسة) قوله تعالى (والذين لايدعون مع الله الها آخر ولايقتلون النفس التى حرم الله الابالحق ولايزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا الامن تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا) اعلم انه سبحانه وتعالى ذكر ان من صفة عباد الرحمن الاحتراز عن الشرك والقتل والزنا ثم ذكر بعد ذلك حكم من يفعل هذه الاشياء من العقاب ثم استثنى من جملتهم التائب وههنا سؤالات (السؤال الاول) انه تعالى قبل ذكر هذه الصفة نزه عباد الرحمن عن الامور الخفيفة فكيف يليق بعد ذلك ان يطهرهم عن الامور العظيمة مثل الشرك والقتل والزنا أليس انه لو كان الترتيب بالعكس منه كان اولى (الجواب) ان الموصوف بتلك الصفات السالفة قد يكون متمسكا بالشرك تدينا ومقدما على قتل الموؤدة تدينا وعلى الزنا تدينا فبين تعالى ان المرء لايصير بتلك الخصال وحدها من عباد الرحمن حتى يضاف الى ذلك كونه مجانبا لهذه الكبائر (واجاب الحسن رحمه الله من وجه آخر) فقال المقصود من ذلك التنبيه على الفرق بين سيرة المسلمين وسيرة الكفار كأنه قال وعباد الرحمن هم الذين لايدعون مع الله الها آخر وانتم تدعون ولايقتلون النفس التى حرم الله الابالحق وانتم تقتلون الموؤدة ولايزنون وانتم تزنون (السؤال الثانى) مامعنى قوله ولايقتلون النفس التى حرم الله الابالحق ومعلوم انه من يحل قتله لايدخل فى النفس المحرمة فكيف يصح هذا الاستثناء (الجواب) المقتضى لحرمة القتل قائم ابدا وجواز القتل انما ثبت بالمعارض فقوله حرم الله اشارة الى المقتضى وقوله الابالحق اشارة الى المعارض (السؤال الثالث) بأى سبب يحل القتل (الجواب) بالردة وبالزنا بعد الاحصان وبالقتل قودا على ما فى الحديث وقيل وبالمحاربة وبالبينة وان لم يكن لما شهدت به حقيقة (السؤال الرابع) منهم من فسر قوله ولايقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق بالردة فهل يصح ذلك (الجواب) لفظ القتل عام فيتناول الكل وعن ابن مسعود قلت يارسول الله اى الذنب اعظم قال ان تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم اى قال ان تقتل ولدك خشية ان يأكل معك قلت ثم اى قال ان تزنى بحليلة جارك فأنزل الله تصديقه (السؤال الخامس) ما الاثام الجواب فيه وجوه (احدها) ان الاثام جزاء الاثم بوزن الوبال والنكال (وثانيها) وهو قول ابى مسلم ان الاثام والاثم واحد والمراد ههنا جزاء الاثام

جلية وغايات جمة لاتقف على تفاصيلها العقول احق من يتوكل عليه واولى من يفوض الامر اليه (الرحمن) مرفوع على المدح اى هو الرحمن وهو فى الحقيقة وصف آخر للحى كما قرئ بالجر مفيد لزيادة تأكيد ماذكر من وجوب التوكل عليه تعالى وان لم يتبعه فى الاعراب لما تقرر من ان المنصوب والمرفوع مدحا وان خرجا عن التبعية لما قبلهما صورة حيث لم يتبعاه فى الاعراب وبذلك سميا قطعا لكنهما تابعان له حقيقة الاترى كيف التزموا حذف الفعل والمبتدأ فى النصب والرفع روما لتصوير كل منهما بصورة متعلق من متعلقات ماقبله وتنبيها على شدة الاتصال بينهما وقد مر تمام التحقيق فى تفسير قوله عز وجل الذين يؤمنون بالغيب الآية وقيل الموصول مبتدأ والرحمن خبره وقيل الرحمن بدل من المستكن فى استوى (فاسأل به) اى بتفاصيل ماذكر اجمالا من الخلق والاستواء لابنفسهما فقط اذ بعد بيانهما لايبقى الى السؤال حاجة ولا فى تعديته بالباء فائدة فانها مبنية على تضمينه معنى الاعتناء المستدعى لكون المسؤل امرا خطيرا مهتما بشأنه غير حاصل للسائل وظاهر ان نفس الخلق والاستواء بعد الذكر ليس كذلك وما قيل من ان التقدير ان شككت فيه فاسأل به خبيرا على ان الخطاب له عليه الصلاة والسلام والمراد غيره بمعزل من السداد بل التقدير ان شئت تحقيق ماذكر او تفصيل ماذكر فاسأل معتنيا به (خبيرا) عظيم الشان محيطا بظواهر الامور

فأطلق اسم الشئ على جزائه (وثالثها) قال الحسن الاثام اسم من اسماء جهنم وقال مجاهد أثاما واد فى جهنم وقرأ ابن مسعود أثاما اى شديدا يقال ذوأثام ليوم العصيب اما قوله يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) يضاعف بدل من يلق لانهما فى معنى واحد وقرئ يضعف ونضعف له العذاب بالنون ونصب العذاب وقرئ بالرفع على الاستئناف او على الحال وكذلك يخلد ويخلد على البناء للفعول مخففا ومثقلا من الاخلاد والتخليد وقرئ وتخلد بالتاء على الالتفات (المسئلة الثانية) سبب تضعيف العذاب ان المشرك اذا ارتكب المعاصى مع الشرك عذب على الشرك وعلى المعاصى جميعا فتضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه وهذا يدل على ان الكفار مخاطبون بفروع الشرائع (المسئلة الثالثة) قال القاضى بين الله تعالى ان المضاعفة والزيادة يكون حالهما فى الدوام كحال الاصل فقوله ويخلد فيه اى ويخلد فى ذلك التضعيف ثم ان ذلك التضعيف انما حصل بسبب العقاب على المعاصى فوجب ان يكون عقاب هذه المعاصى فى حق الكافر دائما واذا كان كذلك وجب ان يكون فى حق المؤمن كذلك لان حاله فيما يستحق به لا يتغير سواء فعل مع غيره او منفردا (الجواب) لم لا يجوز ان يكون للاتيان بالشئ مع غيره اثر فى مزيد القبح ألا ترى ان الشيئين قد يكون كل واحد منهما فى نفسه حسنا وان كان الجمع بينهما قبيحا وقد يكون كل واحد منهما قبيحا ويكون الجمع بينهما اقبح فكذا ههنا (المسئلة الرابعة) قوله ويخلد فيه مهانا اشارة الى ما ثبت ان العقاب هو المضرة الخالصة المقرونة بالاذلال والاهانة كما ان الثواب هو المنفعة الخالصة المقرونة بالتعظيم اما قوله تعالى الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ففيه مسائل (المسئلة الاولى) دلت الآية على ان التوبة مقبولة والاستثناء لا يدل على ذلك لانه اثبت انه يضاعف له العذاب ضعفين فيكفى لصحة هذا الاستثناء ان لا يضاعف للتائب العذاب ضعفين وانما الدال عليه قوله فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات (المسئلة الثانية) نقل عن ابن عباس انه قال توبة القاتل غير مقبولة وزعم ان هذه الآية منسوخة بقوله تعالى ومن يقتل مؤمنا متعمدا وقالوا نزلت الغليظة بعد اللينة بمدة يسيرة وعن الضحاك ومقاتل بثمان سنين وقد تقدم الكلام فى ذلك فى سورة النساء (المسئلة الثالثة) فان قيل العمل الصالح يدخل فيه التوبة والايمان فكان ذكرهما قبل ذكر العمل الصالح حشوا قلنا افردهما بالذكر لعلو شأنهما ولما كان لا بد معهما من سائر الاعمال لا جرم ذكر عقيبهما العمل الصالح (المسئلة الرابعة) اختلفوا فى المراد بقوله فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات على وجوه (احدها) قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة ان التبديل انما يكون فى الدنيا فيبدل الله تعالى قبائح اعمالهم فى الشرك بمحاسن الاعمال فى الاسلام فيبدلهم بالشرك ايمانا وبقتل المؤمنين قتل المشركين وبالزنا عفة واحصانا فكأنه تعالى

(يبشرهم)

ويوالتهما وهو الله سبحانه يطلعك على جلية الامر وقيل فاسأل به من وجده فى الكتب المتقدمة ليصدقك فيه فلا استجابة حينئذ الى ماذكرناه وقيل الضمير للرحمن والمعنى ان انكروا اطلاقه على الله تعالى فاسأل عنه من يخبرك من اهل الكتاب ليعرفوا مجئ مايرادفه فى كتبهم وعلى هذا يجوز ان يكون الرحمن مبتدأ ومابعده خبرا وقرئ فسل (واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن) قالوه لانهم ما كانوا يطلقونه على الله تعالى اولانهم ظنوا ان المراد به غيره تعالى ولذلك قالوا (أنسجد لما تأمرنا) اى للذى تأمرنا بسجوده اولامرك ايانا من غير ان نعرف ان المسجود ماذا وقيل لانه كان معربا لم يسمعوه وقرئ يأمر بالياء الغيبة على انه قول بعضهم لبعض (وزادهم) اى الامر بسجود الرحمن (نفورا) عن الايمان (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا) هى البروج الاثنا عشر سميت به وهى القصور العالية لانها للكواكب السيارة كالمنازل الرفيعة لسكانها واشتقاقه من البرج لظهوره (وجعل فيها سراجا) هى الشمس لقوله تعالى وجعل الشمس سراجا وقرئ سرجا وهى الشمس والكواكب الكبار (وقمرا منيرا) مضيئا بالليل وقرئ قمرا اى ذاقمر وهى جمع قمراء ولما ان الليالى بالقمر تكون قمراء اضيف اليها ثم حذف واجرى حكمه على المضاف اليه القائم مقامه كما فى قول حسان رضى الله عنه * بردى يصفق بالرحيق السلسل

يبشرهم بأنه يوفقهم لهذه الاعمال الصالحة فيستوجبوا بها الثواب (وثانيها) قال الزجاج السيئة بعينها لاتصير حسنة ولكن التأويل ان السيئة تمحى بالتوبة وتكتب الحسنة مع التوبة والكافر يحبط الله عمله ويثبت عليه السيآت (وثالثها) قال قوم ان الله تعالى يمحو السيئة عن العبد ويثبت له بدلها الحسنة بحكم هذه الآية وهذا قول سعيد بن المسيب ومكحول ويحتجون بما روى ابو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ليتمنين اقوام انهم اكثروا من السيآت قيل من هم يارسول الله قال الذين يبدل الله سيآتهم حسنات وعلى هذا القول التبديل فى الآخرة (ورابعها) قال القفال والقاضى انه تعالى يبدل العقاب بالثواب فذكرهما وأرادما يستحق بهما واذا حمل على ذلك كانت الاضافة الى الله حقيقية لان الاثابة لاتكون الا من الله تعالى اما قوله تعالى ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا ففيه سؤالان (السؤال الاول) مافائدة هذا التكرير (الجواب) من وجهين (الاول) ان هذا ليس بتكرير لان الاول لما كان فى تلك الخصال بين تعالى ان جميع الذنوب بمنزلتها فى صحة التوبة منها (الثانى) ان التوبة الاولى رجوع عن الشرك والمعاصى والتوبة الثانية رجوع الى الله تعالى للجزاء والمكافاة كقوله تعالى عليه توكلت واليه متاب اى مرجعى (السؤال الثانى) هل تكون التوبة الا الى الله تعالى فما فائدة قوله فانه يتوب الى الله متابا (الجواب) من وجوه (الاول) ما تقدم من ان التوبة الاولى الرجوع عن المعصية والثانية الرجوع الى حكم الله تعالى وثوابه (الثانى) معناه ان من تاب الى الله فقد أتى بتوبة مرضية لله مكفرة للذنوب محصلة للثواب العظيم (الثالث) قوله ومن تاب يرجع الى الماضى فانه سبحانه ذكر ان من اتى بهذه التوبة فى الماضى على سبيل الاخلاص فقد وعده بأنه سيوفقه للتوبة فى المستقبل وهذا من اعظم البشارات* (الصفة السابعة) قوله تعالى (والذين لايشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الزور يحتمل اقامة الشهادة الباطلة ويكون المعنى انهم لا يشهدون شهادة الزور فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه ويحتمل حضور مواضع الكذب كقوله تعالى فاعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ويحتمل حضور كل موضع يجرى فيه مالاينبغى ويدخل فيه اعياد المشركين ومجامع الفساق لان من خالط اهل الشر ونظر الى افعالهم وحضر مجامعهم فقد شاركهم فى تلك المعصية لان الحضور والنظر دليل الرضا به بل هو سبب لوجوده والزيادة فيه لان الذى حملهم على فعله استحسان النظارة ورغبتهم فى النظر اليه وقال ابن عباس رضى الله عنهما المراد مجالس الزور التى يقولون فيها الزور على الله تعالى وعلى رسوله وقال محمد بن الحنفية الزور الغناء واعلم ان كل هذه الوجوه محتملة ولكن استعماله فى الكذب اكثر (المسئلة الثانية) الاصح ان اللغو كل مايجب ان يلغى ويترك ومنهم من فسر اللغو بكل ماليس بطاعة وهو ضعيف لان المباحات لاتعد لغوا فقوله واذا مروا باللغو

اى مايردى ويحتمل ان يكون بمعنى القمر كالرشد والرشد والعرب والعرب (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة) اى ذوى خلفة يخلف كل منهما الآخر بأن يقوم مقامه فيما ينبغى ان يعمل فيه اوبأن يعتقبا كقوله تعالى واختلاف الليل والنهار وهى اسم للحالة من خلف كالركبة والجلسة من ركب وجلس (لمن اراد ان يذكر) اى يتذكر آلاء الله عز وجل ويتفكر فى بدائع صنعه فيعلم انه لابد لها من صانع حكيم واجب الذات رحيم للعباد (او اراد شكورا) اى ان يشكر الله تعالى على ما فيهما من النعم او ليكونا وقتين للذاكرين من فاته ورده فى احدهما تداركه فى الآخر وقرئ ان يذكر من ذكر بمعنى تذكر (وعباد الرحمن) كلام مستأنف مسوق لبيان اوصاف خلص عباد الرحمن واحوالهم الدنيوية والاخروية بعد بيان حال النافرين عن عبادته والسجود له والاضافة للتشريف وهو مبتدأ خبره مابعده من الموصول وماعطف عليه وقيل هو مافى آخر السورة الكريمة من الجملة المصدرة باسم الاشارة وقرئ عباد الرحمن اى عباده المقبولون (الذين يمشون على الارض هونا) اى بسكينة وتواضع وهونا مصدر وصف به ونصبه اما على انه حال من فاعل يمشون او على انه نعت لمصدره اى يمشون هينين لينى الجانب من غير فظاظة اومشيا هينا وقوله تعالى (واذا خاطبهم الجاهلون) اى السفهاء كما فى قول من قال

اى بأهل اللغو (المسئلة الثالثة) لاشبهة فى ان قوله مروا كراما معناه انهم يكرمون انفسهم عن مثل حال اللغو واكرامهم لها لايكون الابالاعراض وبالانكار وبترك المعاونة والمساعدة ويدخل فيه الشرك واللغو فى القرآن وشتم الرسول والخوض فيما لاينبغى واصل الكلمة من قولهم ناقة كريمة اذا كانت تعرض عند الحلب تكرما كأنها لاتبالى بما يحلب منها الغزارة فاستعير ذلك للصفح عن الذنب وقال الليث يقال تكرم فلان عما يشينه اذا تنزه واكرم نفسه عنها ونظير هذه الآية قوله واذا سمعوا اللغو اعرضوا عنه وقالوا لنا اعمالنا ولكم اعمالكم سلام عليكم لانبتغى الجاهلين وعن الحسن لم تسفههم المعاصى وقيل اذا سمعوا من الكفار الشتم والاذى اعرضوا وقيل اذا ذكر النكاح كنوا عنه

* (الصفة الثامنة) قوله تعالى (والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا) قال صاحب الكشاف قوله لم يخروا عليها صما وعميانا ليس بنفى للخرور وانما هو اثبات له ونفى للصمم والعمى كما يقال لايلقانى زيد مسلما هو نفى للسلام لا للقاء والمعنى انهم اذا ذكروا بها اكبوا عليها حرصا على استماعها واقبلوا على المذكر بها وهم فى اكبابهم عليها سامعون بآذان واعية مبصرون بعيون راعية لا كالذين يذكرون بها فتراهم مكبين عليها مقبلين على من يذكر بها مظهرين الحرص الشديد على استماعها وهم كالصم والعميان حيث لايفهمونها ولا يبصرون ما فيها كالمنافقين

* (الصفة التاسعة) قوله تعالى (والذين يقولون ربنا هب لنا من ازواجنا وذرياتنا قرة اعين واجعلنا للمتقين اماما) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم ذرياتنا بالالف على الجمع وحذفها الباقون على التوحيد والذرية تكون واحدا وجمعا (المسئلة الثانية) انه لاشبهة ان المراد ان يكون قرة اعين لهم فى الدين لا فى الامور الدنيوية من المال والجمال ثم ذكروا فيه وجهين (احدهما) انهم سألوا ازواجا وذرية فى الدنيا يشاركونهم فأحبوا ان يكونوا معهم فى التمسك بطاعة الله تعالى فيقوى طمعهم فى ان يحصلوا معهم فى الجنة فيتكامل سرورهم فى الدنيا بهذا الطمع وفى الآخرة عند حصول الثواب (والثانى) انهم سألوا ان يلحق الله ازواجهم وذريتهم بهم فى الجنة ليتم سرورهم بهم (المسئلة الثالثة) فان قيل من فى قوله من ازواجنا ماهى قلنا يحتمل ان تكون بيانية كأنه قيل هب لنا قرة اعين ثم بينت القرة وفسرت بقوله من ازواجنا وهو من قولهم رأيت منك اسدا اى انت اسد وان تكون ابتدائية على معنى هب لنا من جهتهم ما تقر به عيوننا من طاعة وصلاح فان قيل لم قال قرة اعين فنكر وقلل قلنا اما التنكير فلأجل تنكير القرة لان المضاف لاسبيل الى تنكيره الا بتنكير المضاف اليه كأنه قال هب لنا منهم سرورا وفرحا وانما قال اعين دون عيون لانه اراد اعين المتقين وهى قليلة بالاضافة الى عيون غيرهم قال تعالى وقليل من عبادى الشكور (المسئلة الرابعة) قال الزجاج اقر الله عينك اى صادف فؤادك ما يحبه وقال المفضل فى قرة العين ثلاثة اقوال (احدها) برد دمعتها وهى التى تكون مع

(الضحك)

---

* الالايجهلن احد علينا * فنجهل فوق جهل الجاهلينا * (قالوا سلاما) بيان لحالهم فى المعاملة مع غيرهم اثر بيان حالهم فى انفسهم اى اذا خاطبوهم بالسوء قالوا تسليما منكم ومتاركة لاخير بيننا وبينكم ولا شر وقيل سدادا من القول يسلمون به من الاذية والاثم وليس فيه تعرض لمعاملتهم مع الكفرة حتى يقال نسختها آية القتال كما نقل عن ابى العالية وقوله تعالى (والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما) بيان لحالهم فى معاملتهم مع ربهم اى يكونون ساجدين لربهم وقائمين اى يحيون الليل كلا اوبعضا بالصلاة وقيل من قرأ شيئا من القرآن فى صلاة وان قل فقد بات ساجدا وقائما وقيل هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء وتقديم السجود على القيام لرعاية الفواصل (والذين يقولون) اى فى اعقاب صلواتهم اوفى عامة اوقاتهم (ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما) اى شرا دائما وهلاكا لازما وفيه مزيد مدح لهم ببيان انهم مع حسن معاملتهم مع الخلق واجتهادهم فى عبادة الحق يخافون العذاب ويبتهلون الى الله تعالى فى صرفه عنهم غير محتفلين باعمالهم كقوله تعالى والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة انهم الى ربهم راجعون (انها ساءت مستقرا ومقاما) تعليل لاستدعائهم المذكور بسوء حالها فى نفسها اثر تعليله بسوء حال عذابها وقد جوز ان يكون تعليلا للاول وليس بذاك وساءت فى حكم بئست وفيها ضمير مبهم يفسره مستقرا

الضحك والسرور ودمعة الحزن حارة (والثانى) نومها لانه يكون مع ذهاب الحزن والوجع (والثالث) حصول الرضا (المسئلة الخامسة) قوله واجعلنا للمتقين اماما الاقرب انهم سألوا الله تعالى ان يبلغهم فى الطاعة المبلغ الذى يشار اليهم ويقتدى بهم قال بعضهم فى الآية مايدل على ان الرياسة فى الدين يجب ان تطلب ويرغب فيها قال الخليل عليه الصلاة والسلام واجعل لى لسان صدق فى الآخرين وقيل نزلت هذه الآيات فى العشرة المبشرين بالجنة (المسئلة السادسة) احتج اصحابنا بهذه الآية على ان فعل العبد مخلوق لله تعالى قالوا لان الامامة فى الدين لاتكون الا بالعلم والعمل فدل على ان العلم والعمل انما يكون بجعل الله تعالى وخلقه وقال القاضى المراد من السؤال الالطاف التى اذا كثرت صاروا مختارين لهذه الاشياء فيصيرون ائمة والجواب ان تلك الالطاف مفعولة لامحالة فيكون سؤالها عبثا (المسئلة السابعة) قال الفراء قال اماما ولم يقل ائمة كما قال للاثنين انا رسول رب العالمين ويجوز ان يكون المعنى اجعل كل واحد منا اماما كما قال يخرجكم طفلا وقال الاخفش الامام جمع واحده آم كصائم وصيام وقال القفال وعندى ان الامام اذا ذهب به مذهب الاسم وحد كأنه قيل اجعلنا حجة للمتقين ومثله البينة يقال هؤلاء بينة فلان واعلم انه سبحانه وتعالى لما عدد صفات المتقين المخلصين بين بعد ذلك انواع احسانه اليهم وهى مجموعة فى امرين المنافع والتعظيم ۞ (اما المنافع) فهى قوله (اولئك يجزون الغرفة بما صبروا) والمراد اولئك يجزون الغرفات والدليل عليه قوله وهم فى الغرفات آمنون وقال لهم غرف من فوقها غرف والغرفة فى اللغة العلية وكل بناء عال فهو غرفة والمراد به الدرجات العالية وقال المفسرون الغرفة اسم الجنة فالمعنى يجزون الجنة وهى جنات كثيرة وقرأ بعضهم اولئك يجزون فى الغرفة وقوله بما صبروا فيه بحثان (البحث الاول) احتج بالآية من ذهب الى ان الجنة بالاستحقاق فقال الباء فى قوله بما صبروا تدل على ذلك ولو كان حصولها بالوعد لما صدق ذلك (البحث الثانى) ذكر الصبر ولم يذكر المصبور عنه ليعم كل نوع فيدخل فيه صبرهم على مشاق التفكر والاستدلال فى معرفة الله تعالى وعلى مشاق الطاعات وعلى مشاق ترك الشهوات وعلى مشاق اذى المشركين وعلى مشاق الجهاد والفقر ورياضة النفس فلا وجه لقول من يقول المراد الصبر على الفقر خاصة لان هذه الصفات اذا حصلت مع الغنى استحق من يختص بها الجنة كما يستحقه بالفقر (وثانيهما التعظيم) وهو قوله تعالى ۞ (ويلقون فيها تحية وسلاما) قرئ يلقون كقوله ولقاهم نضرة وسرورا ويلقون كقوله يلق اثاما والتحية الدعاء بالتعمير والسلام الدعاء بالسلامة فيرجع حاصل التحية الى كون نعيم الجنة باقيا غير منقطع ويرجع السلام الى كون ذلك النعيم خالصا عن شوائب الضرر ثم هذه التحية والسلام يمكن ان يكون من الله تعالى لقوله سلام قولا من رب رحيم ويمكن ان يكون من الملائكة لقوله والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ويمكن ان يكون من بعضهم على بعض ۞ اما قوله تعالى (خالدين فيها حسنت

والمخصوص بالذم محذوف معناه ساءت مستقرا ومقاما هى وهذا الضمير هو الذى ربط الجملة باسم ان وجعلها خبرا لها قيل ويجوز ان يكون ساءت بمعنى احزنت وفيها ضمير اسم ان ومستقرا حال او تمييز وهو بعيد خال عما فى الاول من المبالغة فى بيان سوء حالها وكذا جعل التعليلين من جهته تعالى (والذين اذا انفقوا لم يسرفوا) لم يجاوزوا حد الكرم (ولم يقتروا) ولم يضيقوا تضييق الشحيح وقيل الاسراف هو الانفاق فى المعاصى والقتر منع الواجب والقرب وقرئ بكسر التاء مع فتح الياء وبكسرها مخففة ومشددة مع ضم الياء (وكان بين ذلك) اى بين ماذكر من الاسراف والقتر (قواما) وسطا وعدلا سمى به لاستقامة الطرفين كما سمى به سواء لاستوائهما وقرئ بالكسر وهو مايقام به الحاجة لايفضل عنها ولاينقص وهو خبر ثان او حال مؤكدة او هو الخبر وبين ذلك لغو وقد جوز ان يكون اسم كان على انه مبنى لاضافته الى غير متمكن ولايخفى ضعفه فانه بمعنى القوام فيكون كالاخبار بشئ عن نفسه (والذين لايدعون مع الله الها آخر) شروع فى بيان اجتنابهم عن المعاصى بعد بيان اتيانهم بالطاعات وذكر نفى الاسراف والقتر لتحقيق معنى الاقتصاد والتصريح بوصفهم بنفى الاشراك مع ظهور ايمانهم لاظهار كمال الاعتناء بالتوحيد والاخلاص وتهويل امر القتل والزنا بنظمهما فى سلكه والتعريض بما كان عليه الكفرة من قريش وغيرهم اى لايعبدون معه

مستقرا ومقاما) فالمراد انه سبحانه لما وعد بالمنافع اولا وبالتعظيم ثانيا بين ان من صفتهما الدوام وهو المراد من قوله خالدين فيها ومن صفتهما الخلوص ايضا وهو المراد من قوله حسنت مستقرا ومقاما وهذا فى مقابلة قوله ساءت مستقرا ومقاما اى ما اسوأ ذلك وما احسن هذا ❊ اما قوله تعالى (قل ما يعبؤ بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما) فاعلم انه سبحانه لما شرح صفات المتقين وشرح حال ثوابهم امر رسوله ان يقول قل ما يعبؤ بكم ربى لولا دعاؤكم فدل بذلك على انه تعالى غنى عن عباداتهم وانه تعالى انما كلفهم لينتفعوا بطاعاتهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الخليل ما أعبأ بفلان اى ما اصنع به كأنه يستقله ويستحقره وقال ابو عبيدة ما اعبأ به اى وجوده وعدمه عندى سواء قال الزجاج معناه اى لا وزن لكم عند ربكم والعبء فى اللغة الثقل وقال ابو عمرو بن العلاء ما بالى بكم ربى (المسئلة الثانية) فى ما قولان (احدهما) انها متضمنة لمعنى الاستفهام وهى فى محل النصب وهى عبارة عن المصدر كأنه قيل واى عبء يعبأ بكم لولا دعاؤكم (والثانى) ان تكون ما نافية (المسئلة الثالثة) ذكروا فى قوله لولا دعاؤكم وجهين (احدهما) لولا دعاؤه اياكم الى الدين والطاعة والدعاء على هذا مصدر مضاف الى المفعول (وثانيهما) ان الدعاء مضاف الى الفاعل وعلى هذا التقدير ذكروا فيه وجوها (احدها) لولا دعاؤكم لولا ايمانكم (وثانيها) لولا عبادتكم (وثالثها) لولا دعاؤكم اياه فى الشدائد كقوله فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله (ورابعها) دعاؤكم يعنى لولا شكركم له على احسانه لقوله ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم (وخامسها) ما خلقتكم وبى اليكم حاجة الا ان تسألونى فأعطيكم وتستغفرونى فاغفر لكم اما قوله فقد كذبتم فالمعنى انى اذا اعلمتكم ان حكمى انى لا اعتد بعبادى الا لعبادتهم فقد خالفتم بتكذيبكم حكمى فسوف يلزمكم اثر تكذيبكم وهو عقاب الآخرة ونظيره ان يقول الملك لمن استعصى عليه ان من عادتى ان احسن الى من يطيعنى وقد عصيت فسوف ترى ما حل بك بسبب عصيانك فان قيل الى من يتوجه هذا الخطاب قلنا الى الناس على الاطلاق ومنهم عابدون ومكذبون عاصون فخوطبوا بما وجد فى جنسهم من العبادة والتكذيب وقرئ فقد كذب الكافرون فسوف يكون العذاب لزاما وقرئ لزاما بالفتح بمعنى اللزوم كالثبات والثبوت والوجه ان ترك اسم كان غير منطوق به بعد ما علم انه مما توعد به لاجل الابهام ويتناول ما لا يحيط به الوصف ثم قيل هذا العذاب فى الآخرة وقيل كان يوم بدر وهو قول مجاهد رحمه الله والله أعلم ❊ تم تفسير هذه السورة والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبى الامى وآله وصحبه اجمعين

❊(سورة الشعراء مكية الا اربع آيات فانها مدنية وهى والشعراء يتبعهم الغاوون الى آخرها وهى مائتان اوست اوسبع وعشرون آية)❊

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(طسم تلك آيات الكتاب المبين لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ان نشأ ننزل عليهم من

تعالى الها آخر (ولا يقتلون النفس التى حرم الله) اى حرمها بمعنى حرم قتلها فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه مبالغة فى التحريم (الا بالحق) اى لا يقتلونها بسبب من الاسباب الا بسبب الحق المزيل لحرمتها وعصمتها او لا يقتلون قتلا ما الا قتلا ملتبسا بالحق او لا يقتلونها فى حال من الاحوال الا حال كونهم ملتبسين بالحق (ولا يزنون) اى الذين لا يفعلون شيئا من هذه العظائم القبيحة التى جمعهن الكفرة حيث كانوا مع اشراكهم به سبحانه مداومين على قتل النفوس المحرمة التى من جملتها الموؤدة مكبين على الزنا لا يرعوون عنه اصلا (ومن يفعل ذلك) اى ما ذكر كما هو دأب الكفرة المذكورين (يلق) فى الآخرة وقرئ يلقى وقرئ يلق بالتشديد مجزوما (اثاما) وهو جزاء الاثم كالوبال والنكال وزنا ومعنى وقيل هو الاثم اى يلق جزاء الاثم والتنوين على التقديرين للتفخيم وقرئ اياما اى شدائد يقال يوم ذو ايام لليوم الصعب (يضاعف له العذاب يوم القيامة) بدل من يلق لاتحادهما فى المعنى كقوله

متى تأتنا تلمم بنا فى ديارنا
تجد حطبا جزلا ونارا تأججا

وقرئ بالرفع على الاستئناف او على الحالية وكذا ما عطف عليه وقرئ يضعف ونضعف له العذاب بالنون ونصب العذاب (ويخلد فيه) اى فى ذلك العذاب المضاعف (مهانا) ذليلا مستحقرا جامعا للعذاب الجسمانى والروحانى وقرئ يخلد ويخلد مبنيا للمفعول من الاخلاد والتخليد وقرئ تخلد بالتاء على الالتفات المنبئ عن شدة الغضب

السماء آية فظلت اعناقهم لها خاضعين) الطاء اشارة الى طرب قلوب العارفين والسين سرور المحبين والميم مناجاة المريدين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ قتادة باخع نفسك على الاضافة وقرئ فظلت اعناقهم لها خاضعة (المسئلة الثانية) البخع ان يبلغ بالذبح النخاع وهو الخرم النافذ فى ثقب الفقرات وذلك أقصى حد الذابح ولعل للاشفاق (المسئلة الثالثة) قوله طسم تلك آيات الكتاب المبين معناه آيات هذه السورة تلك آيات الكتاب المبين وتمام تقريره مامر فى قوله تعالى ذلك الكتاب ولا شبهة فى ان المراد بالكتاب هو القرآن والمبين وان كان فى الحقيقة هو المتكلم فقد يضاف الى الكلام من حيث يتبين به عند النظر فيه فان قيل القوم لما كانوا كفارا فكيف تكون آيات القرآن مبينة لهم مايلزمهم وانما يتبين بذلك الاحكام قلنا الفاظ القرآن من حيث تعذر عليهم ان يأتوا بمثله يمكن ان يستدل به على فاعل مخالف لهم كما يستدل بسائر مالا يقدر العباد على مثله فهو دليل التوحيد من هذا الوجه ودليل النبوة من حيث الاعجاز ويعلم به بعد ذلك انه اذا كان من عند الله تعالى فهو دلالة الاحكام أجمع واذا ثبت هذا صارت آيات القرآن كافية فى كل الاصول والفروع اجمع ولما ذكر الله تعالى انه بين الامور قال بعده لعلك باخع نفسك الا يكونوا مؤمنين منبها بذلك على ان الكتاب وان بلغ فى البيان كل غاية فغير مدخل لهم فى الايمان لما انه سبق حكم الله بخلافه فلا تبالغ فى الحزن والاسف على ذلك لانك ان بالغت فيه كنت بمنزلة من يقتل نفسه ثم لا ينتفع بذلك اصلا فصبره وعزاه وعرفه ان غمه وحزنه لا نفع فيه كما ان وجود الكتاب على بيانه ووضوحه لا نفع لهم فيه ثم بين تعالى انه قادر على ان ينزل آية يذلون عندها ويخضعون فان قيل كيف صح مجئ خاضعين خبرا عن الاعناق قلنا اصل الكلام فظلوا لها خاضعين فذكرت الاعناق لبيان موضع الخضوع ثم ترك الكلام على اصله ولما وصفت بالخضوع الذى هو للعقلاء قيل خاضعين كقوله لى ساجدين وقيل اعناق الناس رؤساؤهم ومقدموهم شبهوا بالاعناق كما يقال هم الرؤس والصدور وقيل هم جماعات الناس يقال جاءنا عنق من الناس لفوج منهم (المسئلة الرابعة) نظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة الكهف فلعلك باخع نفسك وقوله فلا تذهب نفسك عليهم حسرات * قوله تعالى (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين فقد كذبوا فسيأتيهم انباء ما كانوا به يستهزؤن اولم يروا الى الارض كم انبتنا فيها من كل زوج كريم ان فى ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين من تمام قوله ان نشأ ننزل عليهم فنبه تعالى على انه مع قدرته على ان يجعلهم مؤمنين بالالجاء رحيم بهم من حيث يأتيهم حالا بعد حال بالقرآن وهو الذكر ويكرره عليهم وهم مع ذلك على حد واحد فى الاعراض والتكذيب والاستهزاء ثم عند ذلك زجر وتوعد لان المرء اذا استمر على كفره فليس ينفع فيه الا الزجر الشديد فلذلك قال فقد كذبوا اى

ومضاعفة العذاب لانضمام المعاصى الى الكفر كما ينبئ عنه قوله تعالى (الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا) وذكر الموصوف مع جريان الصالح والصالحات مجرى الاسم للاعتناء به والتنصيص على مغايرته للاعمال السابقة (فاولئك) اشارة الى الموصول والجمع باعتبار معناه كما ان الافراد فى الافعال الثلاثة باعتبار لفظه اى اولئك الموصوفون بالتوبة والايمان والعمل الصالح (يبدل الله سيآتهم حسنات) بان يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة ويثبت مكانها لواحق طاعتهم او يبدل ملكة المعصية ودواعيها فى النفس ملكة الطاعة بان يزيل الاولى ويأتى بالثانية وقيل بان يوفقه لاضداد ما سلف منه اوبان يثبت له بدل كل عقاب ثوابا وقيل يبدلهم بالشرك ايمانا وبقتل المسلمين قتل المشركين وبالزنا عفة واحصانا (وكان الله غفورا رحيما) اعتراض تذييلى مقرر لما قبله من المحو والاثبات (ومن تاب) اى عن المعاصى بتركها بالكلية والندم عليها (وعمل صالحا) يتلافى به مافرط منه اوخرج عن المعاصى ودخل فى الطاعات (فانه) بما فعل (يتوب الى الله) اى يرجع اليه تعالى (متابا) اى متابا عظيم الشأن مرضيا عنده تعالى ماحيا للعقاب محصلا للثواب او يتوب متابا الى الله تعالى الذى يحب التوابين ويحسن اليهم اوفانه يرجع اليه تعالى اوالى ثوابه مرجعا حسنا وهذا تعميم بعد تخصيص (والذين لا يشهدون الزور) لا يقيمون

بلغوا النهاية فى رد آيات الله تعالى فسيأتيهم انباء ما كانوا به يستهزؤن وذلك اما عند نزول العذاب عليهم فى الدنيا او عند المعاينة او فى الآخرة فهو كقوله تعالى ولتعلمن نبأه بعد حين وقد جرت العادة فيمن يسيء ان يقال له ستري حالك من بعد على وجه الوعيد ثم انه تعالى بين انه مع انزاله القرآن حالا بعد حال قد اظهر ادلة تحدث حالا بعد حال فقال اولم يروا الى الارض كم انبتنا فيها من كل زوج كريم والزوج هو الصنف والكريم صفة لكل ما يرضى ويحمد فى بابه يقال وجه كريم اذا كان مرضيا فى حسنه وجماله وكتاب كريم اذا كان مرضيا فى فوائده ومعانيه والنبات الكريم هو المرضى فيما يتعلق به من المنافع وفى وصف الزوج بالكريم وجهان (احدهما) ان النبات على نوعين نافع وضار فذكر سبحانه كثرة ما انبت فى الارض من جميع اصناف النبات النافع وترك ذكر الضار (والثانى) انه يعم جميع النبات نافعه وضاره ووصفهما جميعا بالكرم ونبه على انه ما انبت شيئا الا وفيه فائدة وان غفل عنها الغافلون اما قوله ان فى ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين فهو كقوله هدى للمتقين والمعنى ان فى ذلك دلالة لمن يتفكر ويتدبر وما كان اكثرهم مؤمنين اى مع كل ذلك يستمر اكثرهم على كفرهم فاما قوله وان ربك لهو العزيز الرحيم فانما قدم ذكر العزيز على ذكر الرحيم لانه لو لم يقدمه لكان ربما قيل انه رحمهم لعجزه عن عقوبتهم فازال هذا الوهم بذكر العزيز وهو الغالب القاهر ومع ذلك فانه رحيم بعباده فان الرحمة اذا كانت عن القدرة الكاملة كانت اعظم وقعا والمراد انهم مع كفرهم وقدرة الله على ان يعجل عقابهم لا يترك رحمتهم بما تقدم ذكره من خلق كل زوج كريم من النبات ثم من اعطاء الصحة والعقل والهداية (المسئلة الثانية) انه تعالى وصف الكفار بالاعراض اولا وبالتكذيب ثانيا وبالاستهزاء ثالثا وهذه درجات من اخذ يترقى فى الشقاوة فانه يعرض اولا ثم يصرح بالتكذيب ثانيا ثم يبلغ فى التكذيب والانكار الى حيث يستهزئ به ثالثا (المسئلة الثالثة) فان قلت ما معنى الجمع بين كم وكل ولم لم يقل كم انبتنا فيها من زوج كريم قلت قد دل كل على الاحاطة بازواج النبات على سبيل التفصيل وكم على ان هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة فهذا معنى الجمع ونبه على كمال قدرته فان قلت فحين ذكر الازواج ودل عليها بكلمتى الكثرة والاحاطة وكانت بحيث لا يحصيها الا عالم الغيب فكيف قال ان فى ذلك لآية وهلا قال لآيات قلت فيه وجهان (احدهما) ان يكون ذلك مشارا به الى مصدر انبتنا فكأنه قال ان فى ذلك الانبات لآية اى آية (والثانى) ان يراد ان فى كل واحد من تلك الازواج لآية (المسئلة الرابعة) احتجت المعتزلة على خلق القرآن بقوله تعالى وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث فقالوا الذكر هو القرآن لقوله تعالى وهذا ذكر مبارك وبين فى هذه الآية ان الذكر محدث فيلزم من هاتين الآيتين ان القرآن محدث وهكذا الاستدلال بقوله تعالى الله نزل احسن الحديث كتابا وبقوله فباى حديث بعده يؤمنون واذا ثبت انه محدث فله خالق فيكون مخلوقا لا محالة

(الجواب)

الشهادة الكاذبة اولا يحضرون محاضر الكذب فان مشاهدة الباطل مشاركة فيه (واذا مروا) على طريق الاتفاق (باللغو) اى ما يجب ان يلغى ويطرح مما لا خير فيه (مروا كراما) معرضين عنه مكرمين انفسهم عن الوقوف عليه والخوض فيه ومن ذلك الاغضاء عن الفواحش والصفح عن الذنوب والكناية عما يستهجن التصريح به (والذين اذا ذكروا بآيات ربهم) المنطوية على المواعظ والاحكام (لم يخروا عليها صما وعميانا) اى اكبوا عليها سامعين بآذان واعية مجتلين لها بعيون راعية وانما عبر عن ذلك بنفى الضد تعريضا بما يفعله الكفرة والمنافقون وقيل الضمير للمعاصى المدلول عليها باللغو (والذين يقولون ربنا هب لنا من ازواجنا وذرياتنا قرة أعين) بتوفيقهم للطاعة وحيازة الفضائل فان المؤمن اذا ساعده اهله فى طاعة الله عز وجل وشاركوه فيها يسر بهم قلبه وتقر بهم عينه لما يشاهده من مشايعتهم له فى مناهج الدين وتوقع لحوقهم به فى الجنة حسبما وعد بقوله تعالى الحقنا بهم ذريتهم ومن ابتدائية او بيانية وقرئ وذريتنا وتنكير الاعين لارادة تنكير القرة تعظيما وتقليلها لان المراد اعين المتقين ولا ريب فى قلتها نظرا الى غيرها (واجعلنا للمتقين اماما) اى اجعلنا بحيث يقتدون بنا فى اقامة مراسم الدين بافاضة العلم والتوفيق للعمل وتوحيده للدلالة على الجنس وعدم الالتباس كقوله تعالى ثم يخرجكم طفلا او لان المراد واجعل كل واحد منا

(الجواب) ان كل ذلك يرجع الى هذه الالفاظ ونحن نسلم حدوثها انما ندعى قدم أمر آخر وراء هذه الحروف وليس فى الآية دلالة على ذلك * قوله تعالى (واذ نادى ربك موسى ان ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون) اختلف اهل السنة فى النداء الذى سمعه موسى عليه السلام من الله تعالى هل هو كلامه القديم او هو ضرب من الاصوات (فقال ابو الحسن الاشعرى) المسموع هو الكلام القديم وكما ان ذاته تعالى لا تشبه سائر الاشياء مع ان الدليل دل على انها معلومة ومرئية فكذا كلامه منزه عن مشابهة الحروف والاصوات مع انه مسموع وقال ابو منصور الماتريدى الذى سمعه موسى عليه السلام كان نداء من جنس الحروف والاصوات وذلك لان الدليل لما دل على أنا رأينا الجوهر والعرض ولابد من علة مشتركة بينهما لصحة الرؤية ولا علة الا الوجود حكمنا بان كل موجود يصح ان يرى ولم يثبت عندنا انا نسمع الاصوات والاجسام حتى نحكم بانه لابد من مشترك بين الجسم والصوت فلم يلزم صحة كون كل موجود مسموعا فظهر الفرق (اما المعتزلة) فقد اتفقوا على ان ذلك المسموع ما كان الا حروفا واصواتا فعند هذا قالوا ان ذلك النداء وقع على وجه علم به موسى عليه السلام انه من قبل الله تعالى فصار معجزا علم به ان الله مخاطب له فلم يحتج مع ذلك الى واسطة وكفى فى الوقت ان يحمله الرسالة التى هى ان ائت القوم الظالمين لان فى بدء البعثة يجب ان يأمره بالدعاء الى التوحيد ثم بعده يأمره بالاحكام ولا يجوز ان يأمره تعالى بذلك الا وقد عرفه انه سيظهر عليه المعجزات اذا طولب بذلك اما قوله تعالى ان ائت القوم الظالمين فالمعنى انه تعالى سجل عليهم بالظلم وقد استحقوا هذا الاسم من وجهين من وجه ظلمهم انفسهم بكفرهم ومن وجه ظلمهم لبنى اسرائيل اما قوله قوم فرعون فقد عطف قوم فرعون على القوم الظالمين عطف بيان كأن القوم الظالمين وقوم فرعون لفظان يدلان على معنى واحد واما قوله ألا يتقون فقرئ ألا يتقون بكسر النون بمعنى ألا يتقوننى فحذفت النون لاجتماع النونين والياء للاكتفاء بالكسر وقوله ألا يتقون كلام مستأنف اتبعه تعالى ارساله اليهم للانذار والتسجيل عليهم بالظلم تعجيبا لموسى عليه السلام من حالهم فى الظلم والعسف ومن امنهم العواقب وقلة خوفهم ويحتمل ان يكون ألا يتقون حالا من الضمير فى الظالمين اى يظلمون غير متقين الله وعقابه فادخلت همزة الانكار على الحال ووجه ثالث وهو ان يكون المعنى الا يا ناس اتقون كقوله الا يا اسجدوا واما من قرأ ألا تتقون على الخطاب فعلى طريقة الالتفات اليهم وصرف وجوههم بالانكار والغضب عليهم كما يرى من يشكو ممن ركب جناية والجانى حاضر فاذا اندفع فى الشكاية وحمى غضبه قطع مباثة صاحبه واقبل على الجانى يوبخه ويعنفه به ويقال له ألا تتق الله ألا تستحيى من الناس (فان قلت) فما الفائدة فى هذا الالتفات والخطاب مع موسى عليه السلام فى وقت المناجاة والملتفت اليهم غائبون لا يشعرون (قلت) اجراء ذلك فى تكليم المرسل اليهم فى معنى اجرائه بحضرتهم والقائه الى مسامعهم

اماما اولانهم كنفس واحدة لاتحاد طريقتهم واتفاق كلمتهم كذا قالوا وانت خبير بأن مدار الكل صدور هذا الدعاء اما عن الكل بطريق المعية وانه محال لاستحالة اجتماعهم فى عصر واحد فانى بأجتماعهم فى مجلس واحد واتفاقهم على كلمة واحدة واما عن كل واحد منهم بطريق تشريك غيره فى استدعاء الامامة وانه ليس بثابت جزما بل الظاهر صدوره عنهم بطريق الانفراد وان عبارة كل واحد منهم عند الدعاء واجعلنى للمتقين اماما خلا انه حكيت عبارات الكل بصيغة المتكلم مع الغير للقصد الى الايجاز على طريقة قوله تعالى يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا وابقى اماما على حاله وقيل الامام جمع آم بمعنى قاصد كصيام جمع صائم ومعناه قاصدين لهم مقتدين بهم واعادة الموصول فى المواقع السبعة مع كفاية ذكر الصلات بطريق العطف على صلة الموصول الاول للايذان بأن كل واحد مما ذكر فى حيز صلة الموصولات المذكورة وصف جليل على حياله له شان خطير حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل ولا يجعل شئ من ذلك تتمة لغيره وتوسيط العاطف بين الموصولات لتنزيل الاختلاف العنوانى منزلة الاختلاف الذاتى كما فى قوله

الى الملك القرم وابن الهمام
وليث الكتائب فى المزدحم

(اولئك) اشارة الى المتصفين بما فصل فى حيز صلة الموصولات الثمانية من حيث اتصافهم به وفيه دلالة على انهم متميزون بذلك

لانه مبلغهم ومنبه اليهم وله فيه لطف وحث على زيادة التقوى وكم من آية نزلت فى شان الكافرين وفيها اوفر نصيب للمؤمنين تدبرا لها واعتبارا بمواردها ۞ قوله تعالى (قال

رب انى اخاف ان يكذبون ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فارسل الى هرون ولهم على ذنب فاخاف ان يقتلون) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان الله تعالى لما امر موسى عليه السلام بالذهاب الى فرعون طلب موسى عليه السلام ان يبعث معه هرون اليهم ثم ذكر الامور الداعية له الى ذلك السؤال وحاصلها انه لو لم يكن هرون لاختلت المصلحة المطلوبة من بعثة موسى عليه السلام وذلك من وجهين (الاول) ان فرعون ربما كذبه والتكذيب سبب لضيق القلب وضيق القلب سبب لتعسر الكلام على من يكون فى لسانه حبسة لان عند ضيق القلب تنقبض الروح والحرارة الغريزية الى باطن القلب واذا انقبضا الى الداخل وخلا منهما الخارج ازدادت الحبسة فى اللسان فالتأذى من التكذيب سبب لضيق القلب وضيق القلب سبب للحبسة فلهذا السبب بدأ بخوف التكذيب ثم ثنى بضيق الصدر ثم ثلث بعدم انطلاق اللسان واما هرون فهو افصح لسانا منى وليس فى حقه هذا المعنى فكان ارساله لائقا (الثانى) ان لهم عندى ذنبا فاخاف ان يبادروا الى قتلى وحينئذ لا يحصل المقصود من البعثة واما هرون فليس كذلك فيحصل المقصود من البعثة (المسئلة الثانية) قرئ يضيق وينطلق بالرفع لانهما معطوفان على خبر ان وبالنصب لعطفهما على صلة ان والمعنى أخاف أن يكذبون وأخاف ان يضيق صدرى واخاف ان لا ينطلق لسانى والفرق ان الرفع يفيد ثلاث علل فى طلب ارسال هرون والنصب يفيد علة واحدة وهى الخوف من هذه الامور الثلاثة (فان قلت) الخوف غم يحصل لتوقع مكروه سيقع وعدم انطلاق اللسان كان حاصلا فكيف جاز تعليق الخوف به (قلت) قد بينا ان التكذيب الذى سيقع يوجب ضيق القلب وضيق القلب يوجب زيادة الاحتباس فتلك الزيادة ما كانت حاصلة فى الحال بل كانت متوقعة فجاز تعليق الخوف عليها اما قوله تعالى فارسل الى هرون فليس فى الظاهر ذكر من الذى يرسل اليه وفى الخبر ان الله تعالى ارسل موسى عليه السلام اليه قال السدى ان موسى عليه السلام سار باهله الى مصر والتقى بهرون وهو لا يعرفه فقال انا موسى فتعارفا وامره ان ينطلق معه الى فرعون لاداء الرسالة فصاحت امهما لخوفها عليهما فذهبا اليه ويحتمل ان يكون المراد ارسل اليه جبريل لان رسول الله الى الانبياء جبريل عليه السلام فلما كان هو متعينا لهذا الامر حذف ذكره لكونه معلوما وايضا ليس فى الظاهر انه يرسل لماذا لكن فحوى الكلام يدل على انه طلبه للمعونة فيما سأل كما يقال اذا نابتك نائبة فارسل الى فلان اى ليعينك فيها وليس فى الظاهر انه التمس كون هرون نبيا معه لكن قوله فقولا انا رسول رب العالمين يدل عليه واما قوله ولهم على ذنب فاراد بالذنب قتله القبطى وقد ذكر الله تعالى هذه القصة مشروحة فى سورة القصص واعلم انه ليس فى التماس

اكل تميز متظلمون بسببه فى تلك الامور المشاهدة وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الفضل وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (يجزون الغرفة) والجملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب مبينة لما لهم فى الآخرة من السعادة الابدية اثر بيان ما لهم فى الدنيا من الاعمال السنية والغرفة الدرجة العالية من المنازل وكل بناء مرتفع عال اى يثابون اعلى منازل الجنة وهى اسم جنس اريد به الجمع كقوله تعالى وهم فى الغرفات آمنون وقيل هى اسم من اسماء الجنة (بما صبروا) اى بصبرهم على المشاق من مضض الطاعات ورفض الشهوات وتحمل المجاهدات (ويلقون فيها) من جهة الملائكة (تحية وسلاما) اى يحييهم الملائكة ويدعون لهم بطول الحياة والسلامة من الآفات او يعطون التبقية والتخليد مع السلامة من كل آفة وقيل يحيى بعضهم بعضا ويسلم عليه وقرئ يلقون من لقى (خالدين فيها) لا يموتون ولا يخرجون (حسنت مستقرا ومقاما) الكلام فيه كالذى مر فى مقابله (قل) امر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يبين للناس ان الفائزين بتلك النعماء الجليلة التى يتنافس فيها المتنافسون انما نالوها بما عدد من محاسنهم ولولاها لم يعتد بهم اصلا اى قل لهم كافة مشافها لهم بما صدر عن جنسهم من خير وشر (ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم) اى اى عبء يعبأ بكم واى اعتداد يعتد بكم لولا عبادتكم له تعالى حسبما مر تفصيله فان ما خلق له الانسان

موسى عليه السلام ان يضم اليه هرون مايدل على انه استعفى من الذهاب الى فرعون بل مقصوده فيما سأل ان يقع ذلك الذهاب على اقوى الوجوه فى الوصول الى المراد واختلفوا فقال بعضهم انه وان كان نبيا فهو غير عالم بانه يبقى حتى يؤدى الرسالة لانه انما امر بذلك بشرط التمكين وهذا قول الكعبي وغيره من البغداديين لانهم يجوزون دخول الشرط فى تكليف الله تعالى العبد والذى ذهب اليه الاكثرون ان ذلك لايجوز لانه تعالى اذا أمر فهو عالم بما يتمكن منه المأمور وباوقات تمكنه فاذا علم انه غير متمكن منه فانه لايأمره به واذا صح ذلك فالاقرب فى الانبياء انهم يعلمون اذا حملهم الله تعالى الرسالة انه تعالى يمكنهم من ادائها وانهم سيبقون الى ذلك الوقت ومثل ذلك لايكون اغراء فى الانبياء وان جاز أن يكون اغراء فى غيرهم (المسئلة الثالثة) لقائل ان يقول قول موسى عليه السلام ولهم على ذنب هل يدل على صدور الذنب منه جوابه لا والمراد لهم على ذنب فى زعمهم * قوله

تعالى (قال كلا فاذهبا بآياتنا انا معكم مستمعون فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين ان ارسل معنا بنى اسرائيل) اعلم ان موسى عليه السلام طلب امرين الاول ان يدفع عنه شرهم والثانى ان يرسل معه هرون فأجابه الله تعالى الى الاول بقوله كلا ومعناه ارتدع ياموسى عما تظن واجابه الى الثانى بقوله فاذهبا اى اذهب انت والذى طلبته وهو هرون فان قيل علام عطف قوله فاذهبا قلنا على الفعل الذى يدل عليه كلا كأنه قال ارتدع ياموسى عما تظن فاذهب انت وهرون واما قوله انا معكم مستمعون فمن مجاز الكلام يريد انا لكما ولعدوكما كالناصر الظهير لكما عليه اذا حضر واستمع مايجرى بينكما فاظهركما عليه وأغلبكما وأكسر شوكته عنكما وانما جعلنا الاستماع مجازا لان الاستماع عبارة عن الاصغاء وذلك على الله تعالى محال واما قوله انا رسول رب العالمين ففيه سؤال وهو انه هلا ثنى الرسول كما ثنى فى قوله انا رسولا ربك جوابه من وجوه (احدها) ان الرسول اسم للماهية من غير بيان ان تلك الماهية واحدة او كثيرة والالف واللام لايفيدان الا الوحدة لا الاستغراق بدليل انك تقول الانسان هو الضحاك ولا تقول كل انسان هو الضحاك ولا ايضا هذا الانسان هو الضحاك واذا ثبت ان لفظ الرسول لايفيد الا الماهية وثبت ان الماهية محمولة على الواحد وعلى الاثنين ثبت صحة قوله انا رسول رب العالمين (وثانيها) ان الرسول قد يكون بمعنى الرسالة قال الشاعر

لقد كذب الواشون مافهت عندهم * بسر ولا ارسلتهم برسول

فيكون المعنى انا ذو رسالة رب العالمين (وثالثها) انهما لاتفاقهما على شريعة واحدة واتحادهما بسبب الاخوة كأنهما رسول واحد (ورابعها) المراد كل واحد منا رسول (وخامسها) ماقاله بعضهم انه انما قال ذلك لا بلفظ التثنية لكونه هو الرسول خاصة وقوله انا فكما فى قوله تعالى انا انزلناه وهو ضعيف واما قوله ان ارسل معنا بنى اسرائيل فالمراد من هذا الارسال التخلية والاطلاق كقولك ارسل البازى يريد خلهم يذهبوا معنا * قوله

معرفته تعالى وطاعته والا فهو وسائر البهائم سواء وقال الزجاج معناه اى وزن يكون لكم عنده وقيل معناه مايصنع بكم ربى لولا دعاؤه اياكم الى الاسلام وقيل مايصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة ويجوز ان تكون ما نافية وقوله تعالى (فقد كذبتم) بيان لحال الكفرة من المخاطبين كما ان ماقبله بيان لحال المؤمنين منهم اى فقد كذبتم بما اخبرتكم به وخالفتموه ايها الكفرة ولم تعملوا عمل اولئك المذكورين وقيل فقد قصرتم فى العبادة من قولهم كذب القتال اذا لم يبالغ فيه وقرئ فقد كذب الكافرون اى الكافرون منكم لعموم الخطاب للفريقين وفائدته الايذان بان مناط فوز احدهما وخسران الآخر مع الاتحاد الجنسى المصحح للاشتراك فى الفوز ليس الا اختلافهما فى الاعمال (فسوف يكون لزاما) اى يكون جزاء التكذيب او اثره لازما يحيق بكم لامحالة حتى يكبكم فى النار كما تعرب عنه الفاء الدالة على لزوم مابعدها لما قبلها وانما اضمر من غير ذكر للايذان بغاية ظهوره وتهويل امره وللتنبيه على انه مما لايكتنهه البيان وقيل يكون العذاب لزاما وعن مجاهد رحمه الله هو القتل يوم بدر وانه لوزم بين القتلى وقرئ لزاما بالفتح بمعنى اللزوم كالثبات والثبوت * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الفرقان لقى الله تعالى وهو مؤمن بان الساعة آتية لاريب فيها وادخل الجنة بغير نصب

*(سورة الشعراء مكية الاقوله)
(والشعراء الى آخرها وهى)
(مائتان وست اوسبع)

تعالى (قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلت وانت من الكافرين) اعلم ان فى الكلام حذفا وهو انهما أتياه وقالا ما امر الله به فعند ذلك قال فرعون ما قال يروى انهما انطلقا الى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة حتى قال البواب ان ههنا انسانا يزعم انه رسول رب العالمين فقال ائذن له لعلنا نضحك منه فأديا اليه الرسالة فعرف موسى عليه السلام فعدد عليه نعمه اولا ثم اساءة موسى اليه ثانيا اما النعم فهى قوله الم نربك فينا وليدا والوليد الصبى لقرب عهده من الولادة ولبثت فينا من عمرك وعن ابى عمرو بسكون الميم سنين قيل لبث عندهم ثلاثين سنة وقيل وكز القبطى وهو ابن اثنى عشرة سنة وفر منهم والله اعلم بصحيح ذلك وعن الشعبى فعلتك بالكسر وهى قتله القبطى لانه قتله بالوكز وهو ضرب من القتل واما الفعلة فلانها وكزة واحدة عدد عليه نعمه من تربيته وتبليغه مبلغ الرجال ووبخه بما جرى على يده من قتل خبازه وعظم ذلك بقوله وفعلت فعلتك التى فعلت واما قوله وانت من الكافرين ففيه وجوه (احدها) يجوز ان يكون حالا اى قتلته وانت بذلك من الكافرين بنعمتى (وثانيها) وانت اذ ذاك ممن تكفرهم الساعة وقد افترى عليه او جهل امره لانه كان يعاشرهم بالتقية فان الكفر غير جائز على الانبياء قبل النبوة (وثالثها) وانت من الكافرين معناه وانت ممن عادته كفران النعم ومن كان هذا حاله لم يستبعد منه قتل خواص ولى نعمته (ورابعها) وانت من الكافرين بفرعون والهيته او من الذين يكفرون فى دينهم فقد كانت لهم آلهة يعبدونها يشهد بذلك قوله تعالى ويذرك وآلهتك * قوله تعالى (قال فعلتها اذا وانا من الضالين ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين وتلك نعمة تمنها على ان عبدت بنى اسرائيل) اعلم ان فرعون لما ذكر التربية وذكر القتل وقد كانت تربيته له معلومة ظاهرة لا جرم ان موسى عليه السلام ما انكرها ولم يشتغل بالجواب عنها لانه تقرر فى العقول ان الرسول الى الغير اذا كان معه معجز وحجة لم يتغير حاله بان يكون المرسل اليه انعم عليه او لم يفعل ذلك فصار قول فرعون لما قاله غير مؤثر البتة ومثل هذا الكلام الاعراض عنه اولى ولكن اجاب عن القتل بما لا شىء ابلغ منه فى الجواب وهو قوله فعلتها اذا وانا من الضالين والمراد بذلك الذاهلين عن معرفة ما يؤول اليه من القتل لانه فعل الوكزة على وجه التأديب ومثل ذلك ربما حسن وان ادى الى القتل فبين له انه فعله على وجه لا يجوز معه ان يؤاخذ به او يعد منه كافرا او كافرا للنعمة فاما قوله ففررت منكم لما خفتكم فالمراد انى فعلت ذلك الفعل وانا ذاهل عن كونه مهلكا وكان منى فى حكم السهو فلم استحق التخويف الذى يوجب الفرار ومع ذلك ففررت منكم عند قولكم ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فبين بذلك انه لا نعمة له عليه فى باب تلك الفعلة بل بان يكون مسيئا فيه اقرب من حيث خوفه تخويفا اوجب الفرار ثم بين نعمة الله تعالى عليه بعد الفرار فكأنه قال اسأتم واحسن الله الى بان وهب لى حكما وجعلنى من المرسلين واختلفوا فى

(وعشرون آية) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(طسم) بتفخيم الالف وبامالتها واظهار النون وبادغامها فى الميم وهو اما مسرود على نمط التعديد بطريق التحدى على احد الوجهين المذكورين فى فاتحة سورة البقرة فلا محل له من الاعراب واما اسم للسورة كما عليه اطباق الاكثر فمحله الرفع على انه خبر لمبتدأ محذوف وهو اظهر من الرفع على الابتداء وقد مر وجهه فى مطلع سورة يونس عليه السلام او النصب بتقدير فعل لائق بالمقام نحو اذكر او اقرأ وتلك فى قوله تعالى (تلك آيات الكتاب المبين) اشارة الى السورة سواء كان طسم مسرودا على نمط التعديد او اسما للسورة حسبما مر تحقيقه هناك وما فى اسم الاشارة من معنى البعد للتنبيه على بعد منزلة المشار اليه فى الفخامة ومحله الرفع على انه مبتدأ خبره ما بعده وعلى تقدير كون طسم مبتدأ فهو مبتدأ ثان او بدل من الاول والمراد بالكتاب القرآن وبالمبين الظاهر اعجازه على انه من ابان بمعنى بان او المبين للاحكام الشرعية وما يتعلق بها او الفاصل بين الحق والباطل والمعنى هى آيات مخصوصة منه مترجمة باسم مستقل والمراد ببيان كونها بعضا منه وصفها بما اشتهر به الكل من النعوت الفاضلة (لعلك باخع نفسك) اى قاتل واصل البخع ان يبلغ بالذبح البخاع وهو عرق مستبطن الفقار وذلك اقصى حد الذبح وقرئ باخع نفسك على الاضافة ولعل للاشفاق اى اشفق على نفسك

الحكم والاقرب انه غير النبوة لان المعطوف غير المعطوف عليه والنبوة مفهومة من قوله وجعلني من المرسلين فالمراد بالحكم العلم ويدخل في العلم العقل والرأي والعلم بالدين الذي هو التوحيد وهذا اقرب لانه لا يجوز ان يبعثه تعالى الا مع كماله في العقل والرأي والعلم بالتوحيد وقوله فوهب لي ربي حكما كالتنصيص على ان ذلك الحكم من خلق الله تعالى وقالت المعتزلة المراد منه الالطاف وهو ضعيف جدا لان الالطاف مفعولة في حق الكل من غير بخس ولا تقصير فالتخصيص لابد فيه من فائدة فاما قوله وتلك نعمة تمنها علي ان عبدت بني اسرائيل فهو جواب قوله ألم نربك فينا وليدا ويقال عبدت الرجل واعبدته اذا اتخذته عبدا فان قيل كيف يكون ذلك جوابه ولا تعلق بين الامرين قلنا بيان التعلق من وجوه (احدها) انه انما وقع في يده وفي تربيته لانه قصد تعبيد بني اسرائيل وذبح ابنائهم فكأنه عليه السلام قال له كنت مستغنيا عن تربيتك لو لم يكن منك ذلك الظلم المتقدم علينا وعلى اسلافنا (وثانيها) ان هذا الانعام المتأخر صار معارضا بذلك الظلم العظيم على اسلافنا واذا تعارضا تساقطا (وثالثها) ما قاله الحسن انك استعبدتهم واخذت اموالهم ومنها انفقت علي فلا نعمة لك بالتربية (ورابعها) المراد ان الذي تولى تربيتي هم الذين قد استعبدتهم فلا نعمة لك علي لان التربية كانت من قبل امي وسائر من هو من قومي ليس لك الا انك ما قتلتني ومثل هذا لا يعد انعاما (وخامسها) انك كنت تدعي ان بني اسرائيل عبيدك ولا منة للمولى على العبد في ان يطعمه ويعطيه ما يحتاج اليه واعلم ان في الآية دلالة على ان كفر الكافر لا يبطل نعمته على من يحسن اليه ولا يبطل منته لان موسى عليه السلام انما أبطل ذلك بوجه آخر على ما بيناه واختلف العلماء فقال بعضهم اذا كان كافرا لا يستحق الشكر على نعمه على الناس انما يستحق الاهانة بكفره فلو استحق الشكر بانعامه والشكر لا يوجد الا مع التعظيم فيلزم كونه مستحقا للاهانة والتعظيم معا واستحقاق الجمع بين الضدين محال وقال آخرون لا يبطل الشكر بالكفر وانما يبطل بالكفر الثواب والمدح الذي يستحقه على الايمان والآية تدل على هذا القول الثاني (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف انما جمع الضمير في منكم وخفتكم مع افراده في تمنها وعبدت لان الخوف والفرار لم يكونا منه وحده ولكن منه ومن ملائه المؤتمرين بقتله بدليل قوله ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك واما الامتنان فمنه وحده وكذلك التعبيد فان قلت تلك اشارة الى ماذا وان عبدت ما محلها من الاعراب قلت تلك اشارة الى خصلة شنعاء مبهمة لا يدري ما هي الا بتفسيرها وهي ان عبدت فان ان عبدت عطف بيان ونظيره قوله تعالى وقضينا اليه ذلك الامر ان دابر هؤلاء مقطوع مصبحين والمعنى تعبيدك بني اسرائيل نعمة تمنها علي وقال الزجاج ويجوز ان يكون ان في موضع نصب والمعنى انما صارت نعمة علي لان عبدت بني اسرائيل اي لو لم تفعل ذلك لكفلني اهلي ۞ قوله تعالى

(قال فرعون وما رب العالمين قال رب السموات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين قال

ان تقتلها حسرة على ما فاتك من اسلام قومك (ان لا يكونوا مؤمنين) اي لعدم ايمانهم بذلك الكتاب المبين او خيفة ان لا يؤمنوا به وقوله تعالى (ان نشأ) الخ استئناف مسوق لتعليل ما يفهم من الكلام من النهي عن التحسر المذكور ببيان ان ايمانهم ليس مما تعلقت به مشيئة الله تعالى حتما فلا وجه للطمع فيه والتألم من فواته ومفعول المشيئة محذوف لكونه مضمون الجزاء اعني قوله تعالى (ننزل عليهم من السماء آية) اي ملجئة لهم الى الايمان قاسرة عليه وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر (فظلت اعناقهم لها خاضعين) اي منقادين واصله فظلوا لها خاضعين واقحمت الاعناق لزيادة التقرير ببيان موضع الخضوع وترك الخبر على حاله وقيل لما وصفت الاعناق بصفات العقلاء اجريت مجراهم في الصيغة ايضا كما في قوله تعالى رأيتهم لي ساجدين وقيل اريد بها الرؤساء والجماعات من قولهم جاءنا عنق من الناس اي فوج منهم وقرئ خاضعة وقوله تعالى فظلت عطف على ننزل باعتبار محله وقوله تعالى (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين) بيان لشدة شكيمتهم وعدم ارعوائهم عما كانوا عليه من الكفر والتكذيب بغير ما ذكر من الآيات الملجئة لصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحرص على اسلامهم وقطع رجائه عنه ومن الاولى مزيدة لتأكيد العموم والثانية لابتداء الغاية مجازا

لمن حوله ألا تستمعون قال ربكم ورب آبائكم الاولين قال ان رسولكم الذى ارسل اليكم لمجنون قال رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون قال لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين قال أولو جئتك بشئ مبين قال فأت به ان كنت من الصادقين)

اعلم ان فرعون لم يقل لموسى وما رب العالمين الا وقد دعاه موسى الى طاعة رب العالمين يبين ذلك ما تقدم من قوله فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين فلابد عند دخولهما عليه انهما قالا ذلك فعند ذلك قال فرعون وما رب العالمين ثم ههنا بحثان (الاول) ان فرعون يحتمل ان يقال انه كان عارفا بالله ولكنه قال ما قال طلبا للملك والرياسة وقد ذكر الله تعالى فى كتابه ما يدل على انه كان عارفا بالله وهو قوله قال لقد علمت ما انزل هؤلاء الارب السموات والارض فاذا قرئ بفتح التاء من علمت فالمراد ان فرعون علم ذلك وذلك يدل على انه كان عارفا بالله لكنه كان يستأكل قومه بما يظهره من الهيبة والقراءة الاخرى برفع التاء من علمت فهى تقتضى ان موسى عليه السلام هو الذى عرف ذلك وايضا فان فرعون ان لم يكن عاقلا لم يجز من الله تعالى بعثة الرسول اليه وان كان عاقلا فهو يعلم بالضرورة انه ما كان موجودا ولا حيا ولا عاقلا ثم صار كذلك وبالضرورة يعلم ان كل ما كان كذلك فلابد له من مؤثر فلابد وان يتولد له من هذين العلمين علم ثالث بافتقاره فى تركيبه وفى حياته وعقله الى مؤثر موجود ويحتمل ان يقال انه كان على مذهب الدهرية من ان الافلاك واجبة الوجود فى ذواتها ومتحركة لذواتها وان حركاتها أسباب لحصول الحوادث فى هذا العالم او يقال انه كان من الفلاسفة القائلين بالعلة الموجبة لا بالفاعل المختار ثم اعتقد انه بمنزلة الاله لاهل اقليمه من حيث استعبدهم وملك ذماتهم وزمام امرهم ويحتمل ان يقال انه كان على مذهب الحلولية القائلين بأن ذات الاله يتدرع بجسد انسان معين حتى يكون الاله سبحانه لذلك الجسد بمنزلة روح كل انسان بالنسبة الى جسده وبهذه التقديرات كان يسمى نفسه الها (البحث الثانى) وهو انه قال لموسى عليه السلام وما رب العالمين واعلم ان السؤال بما طلب لتعريف حقيقة الشئ وتعريف حقيقة الشئ اما ان يكون بنفس تلك الحقيقة او بشئ من اجزائها او بأمر خارج عنها او بما يتركب من الداخل والخارج اما تعريفها بنفسها فمحال لان المعرف معلوم قبل المعرف فلو عرف الشئ بنفسه لزم ان يكون معلوما قبل ان يكون معلوما وهو محال واما تعريفها بالامور الداخلة فيها فههنا فى حق واجب الوجود محال لان التعريف بالامور الداخلة لا يمكن الا اذا كان المعرف مركبا وواجب الوجود يستحيل ان يكون مركبا لان كل مركب فهو محتاج الى كل واحد من أجزائه وكل واحد من أجزائه فهو غيره فكل مركب محتاج الى غيره وكل ما احتاج الى غيره فهو ممكن لذاته وكل مركب فهو ممكن فالليس بممكن يستحيل ان يكون مركبا فواجب الوجود ليس بمركب واذا لم يكن مركبا استحال تعريفه بأجزائه ولما بطل هذان القسمان ثبت انه لا يمكن تعريف ماهية واجب الوجود الا بلوازمه

(وآثاره)

متعلقة بيأتيهم او بمحذوف هو صفة لذكر وايا ما كان ففيه دلالة على فضله وشرفه وشناعة ما فعلوا به والتعرض لعنوان الرحمة لتغليظ شناعتهم وتهويل جناياتهم فان الاعراض عما يأتيهم من جنابه عز وجل على الاطلاق شنيع قبيح وعما يأتيهم بموجب رحمته تعالى لمحض منفعتهم اشنع واقبح اى ما يأتيهم من موعظة من المواعظ القرآنية او من طائفة نازلة من القرآن تذكرهم اكمل تذكير وتنبيههم عن الغفلة اتم تنبيه كأنها نفس الذكر من جهته تعالى بمقتضى رحمته الواسعة مجدد تنزيله حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة الا جددوا اعراضا عنه على وجه التكذيب والاستهزاء واصرارا على ما كانوا عليه من الكفر والضلال والاستثناء مفرغ من اعم الاحوال محله النصب على الحالية من مفعول يأتيهم باضمار قد او بدونه على الخلاف المشهور اى ما يأتيهم من ذكر فى حال من الاحوال الا حال كونهم معرضين عنه (فقد كذبوا) اى كذبوا بالذكر الذى يأتيهم تكذيبا صريحا مقارنا للاستهزاء به ولم يكتفوا بالاعراض عنه حيث جعلوه تارة سحرا واخرى اساطير واخرى شعرا والفاء فى قوله تعالى (فسيأتيهم) لترتيب ما بعدها على ما قبلها والسين لتأكيد مضمون الجملة وتقريره اى فسيأتيهم البتة من غير تخلف اصلا (أنباء ما كانوا به يستهزؤن) عدل عما يقتضيه سائر ما سلف من الاعراض والتكذيب للايذان بانهما كانا مقارنين للاستهزاء كما اشير اليه حسبما وقع فى قوله تعالى وما يأتيهم

وآثاره ثم ان اللوازم قد تكون خفية وقد تكون جلية ولا يجوز تعريف الماهية باللوازم الخفية بل لابد من تعريفها باللوازم الجلية واظهر آثار ذات واجب الوجود هو هذا العالم المحسوس وهو السموات والارض وما بينهما فقد ثبت انه لاجواب البتة لقول فرعون وما رب العالمين الا ماقاله موسى عليه السلام وهو انه رب السموات والارض وما بينهما فاما قوله ان كنتم موقنين فمعناه ان كنتم موقنين باسناد هذه المحسوسات الى موجود واجب الوجود فاعرفوا انه لايمكن تعريفه الا بما ذكرته لانكم لما سلمتم انتهاء هذه المحسوسات الى الواجب لذاته وثبت ان الواجب لذاته فرد مطلق وثبت ان الفرد المطلق لايمكن تعريفه الا بآثاره وثبت ان تلك الآثار لابد وان تكون اظهر آثاره وابعدها عن الخفاء وما ذاك الا السموات والارض وما بينهما فان ايقنتم بذلك لزمكم ان تقطعوا بأنه لاجواب عن ذلك السؤال الا هذا الجواب ولما ذكر موسى عليه السلام هذا الجواب الحق قال فرعون لمن حوله الا تستمعون وانما ذكر ذلك على سبيل التعجب من جواب موسى يعني انا اطلب منه الماهية وخصوصية الحقيقة وهو يجيبنى بالفاعلية والمؤثرية وتمام الاشكال ان تعريف الماهية بلوازمها لايفيد الوقوف على نفس تلك الماهية وذلك لانا اذا قلنا فى الشئ انه الذى يلزمه اللازم الفلانى فهذا المذكور اما ان يكون معرفا لمجرد كونه امرا مايلزمه ذلك اللازم او لخصوصية تلك الماهية التى عرضت لها هذه الملزومية والاول محال لان كونه امرا يلزمه ذلك اللازم جعلناه كاشفا فلو كان المكشوف هو هذا القدر لزم كون الشئ معرفا لنفسه وهو محال والثانى محال لان العلم بأنه امر مايلزمه اللازم الفلانى لايفيد العلم بخصوصية تلك الماهية الملزومة لانه لايمتنع فى العقل اشتراك الماهيات المختلفة فى لوازم متساوية فثبت ان التعريف بالوصف الخارجى لايفيد معرفة نفس الحقيقة فلم يكن كونه ربا للسموات والارض وما بينهما جوابا عن قوله وما رب العالمين فأجاب موسى عليه السلام بأن قال ربكم ورب آبائكم الاولين وكأنه عدل عن التعريف بخالقية السماء والارض الى التعريف بكونه تعالى خالقا لنا ولآبائنا وذلك لانه لايمتنع ان يعتقد احد ان السموات والارضين واجبة لذواتها فهى غنية عن الخالق والمؤثر ولكن لايمكن ان يعتقد العاقل فى نفسه وابيه واجداده كونهم واجبين لذواتهم لما ان المشاهدة دلت على انهم وجدوا بعد العدم ثم عدموا بعد الوجود وما كان كذلك استحال ان يكون واجبا لذاته وما لم يكن واجبا لذاته استحال وجوده الا لمؤثر فكان التعريف بهذا الاثر اظهر فلهذا عدل موسى عليه السلام من الكلام الاول اليه فقال فرعون ان رسولكم الذى ارسل اليكم لمجنون يعنى المقصود من سؤال ماطلب الماهية وخصوصية الحقيقة والتعريف بهذه الآثار الخارجية لايفيد البتة تلك الخصوصية فهذا الذى يدعى الرسالة مجنون لايفهم السؤال فضلا عن ان يجيب عنه فقال موسى عليه السلام رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون فعدل الى طريق ثالث

من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم انباء ما كانوا به يستهزؤن وانباؤه ما سيحيق بهم من العقوبات العاجلة والآجلة عبر عنها بذلك اما لكونها مما انبأ بها القرآن الكريم واما لانهم بمشاهدتها يقفون على حقيقة حال القرآن كما يقفون على الاحوال الخافية عنهم باستماع الانباء وفيه تهويل له لان النبأ لايطلق الا على خبر خطير له وقع عظيم اى فسيأتيهم لامحالة مصداق ما كانوا يستهزؤن به قبل من غير ان يتدبروا فى احواله ويقفوا عليها (اولم يروا) الهمزة للانكار التوبيخى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام اى افعلوا مافعلوا من الاعراض عن الآيات والتكذيب والاستهزاء بها ولم ينظروا (الى الارض) اى الى عجائبها الزاجرة عما فعلوا الداعية الى الاقبال على ما اعرضوا عنه والى الايمان به وقوله تعالى (كم انبتنا فيها من كل زوج كريم) استئناف مبين لما فى الارض من الآيات الزاجرة عن الكفر الداعية الى الايمان وكم خبرية منصوبة بما بعدها على المفعولية والجمع بينها وبين كل لافادة الاحاطة والكثرة معا ومن كل زوج اى صنف مميز والكريم من كل شئ مرضيه ومحموده اى كثيرا من كل صنف مرضى كثير المنافع انبتنا فيها وتخصيص النبات بالذكر دون ماعداه من الاصناف لاختصاصه بالدلالة على القدرة والنعمة معا ويحتمل ان يراد به جميع اصناف النبات نافعها وضارها ويكون وصف الكل بالكرم للتنبيه على انه

أوضح من الثانى وذلك لانه اراد بالمشرق طلوع الشمس وظهور النهار واراد بالمغرب غروب الشمس وزوال النهار والامر ظاهر فى ان هذا التدبير المستمر على الوجه العجيب لايتم الا بتدبير مدبر وهذا بعينه طريقة ابراهيم عليه السلام مع نمروذ فانه استدل اولا بالاحياء والاماتة وهو الذى ذكره موسى عليه السلام ههنا بقوله ربكم ورب آبائكم الاولين فأجابه نمروذ بقوله انا احيي واميت فقال ان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر وهو الذى ذكره موسى عليه السلام ههنا بقوله رب المشرق والمغرب واما قوله ان كنتم تعقلون فكأنه عليه السلام قال ان كنت من العقلاء عرفت انه لاجواب عن سؤالك الا ماذكرت لانك طلبت منى تعريف حقيقته بنفس حقيقته وقد ثبت انه لايمكن تعريف حقيقته بنفس حقيقته ولا باجزاء حقيقته فلم يبق الا ان اعرف حقيقته بآثار حقيقته وانا عرفت حقيقته بآثار حقيقته فقد ثبت ان كل من كان عاقلا يقطع بأنه لاجواب عن هذا السؤال الا ماذكرته واعلم انا قد بينا فى سورة الانعام فى تفسير قوله تعالى وهو القاهر فوق عباده ان حقيقة الاله سبحانه من حيث هى هى غير معقولة للبشر واذا كان كذلك استحال من موسى عليه السلام ان يذكر ما تعرف به تلك الحقيقة الا ان عدم العلم بتلك الخصوصية لايقدح فى صحة الرسالة فكان حاصل كلام موسى عليه السلام ان ادعاء رسالة رب العالمين تتوقف صحته على اثبات ان للعالمين ربا والها ولا تتوقف على العلم بخصوصية الرب تعالى وماهيته المعينة فكان موسى عليه السلام يقيم الدلالة على اثبات القدر المحتاج اليه فى صحة دعوى الرسالة وفرعون يطالبه ببيان الماهية وموسى عليه السلام كان يعرض عن سؤاله لعلمه بانه لاتعلق لذلك السؤال نفيا ولا اثباتا فى هذا المطلوب فهذا تمام القول فى هذا البحث والله اعلم ثم ان موسى عليه السلام لما خشن فى آخر الكلام بقوله ان كنتم تعقلون فعند ذلك قال فرعون لئن اتخذت الها غيرى لاجعلنك من المسجونين فانه لما عجز عن الحجاج عدل الى التخويف فعند ذلك ذكر موسى عليه السلام كلاما مجملا ليعلق قلبه به فيعدل عن وعيده فقال اولو جئتك بشئ مبين اى هل تستجيز ان تسجننى مع اقتدارى على ان آتيك بأمر بين فى باب الدلالة على وجود الله تعالى وعلى انى رسوله فعند ذلك قال فأت به ان كنت من الصادقين وههنا فروع (الفرع الاول) الآية تدل على انه تعالى ليس بجسم لانه لو كان جسما وله صورة لكان جواب موسى عليه السلام بذكر حقيقته ولكان كلام فرعون لازما له لعدوله عن الجواب الحق (الثانى) الواجب على من يدعو غيره الى الله تعالى ان لايجيب عن السفاهة لان موسى عليه السلام لما قال له فرعون انه مجنون لم يعدل عن ذكر الدلالة وكذلك لما توعده ان يسجنه (الثالث) انه يجوز للمسؤل ان يعدل فى جوابه من مثال الى مثال لايضاح الكلام ولا يدل ذلك على الانقطاع (الرابع) ان قيل كيف قطع الكلام بما لاتعلق له بالاول وهو قوله أولو جئتك بشئ مبين والمعجز لايدل على الله تعالى كدلالة سائر ماتقدم

(قلنا)

تعالى ماانبت شيئا الا وفيه فائدة كما نطق به قوله تعالى هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا فان الحكيم لايكاد يفعل فعلا الا وفيه حكمة بالغة وان غفل عنها الغافلون ولم يتوصل الى معرفة كنهها العاقلون (ان فى ذلك) اشارة الى مصدر انبتنا او الى كل واحد من تلك الازواج وايا ما كان فما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلته فى الفضل (لآية) اى آية عظيمة دالة على كمال قدرة منبتها وغاية وفور علمه وحكمته ونهاية سعة رحمته موجبة للايمان وازعة عن الكفر (وما كان اكثرهم) اى اكثر قومه عليه الصلاة والسلام (مؤمنين) قيل اى فى علم الله تعالى وقضائه حيث علم ازلا انهم سيصرفون فيما لايزال اختيارهم الذى عليه يدور امر التكليف الى جانب الشر ولا يتدبرون فى هذه الآيات العظام وقال سيبويه كان صلة والمعنى وما اكثرهم مؤمنين وهو الانسب بمقام بيان عتوهم وغلوهم فى المكابرة والعناد مع تعاضد موجبات الايمان من جهته تعالى واما نسبة كفرهم الى علمه تعالى وقضائه فربما يتوهم منها كونهم معذورين فيه بحسب الظاهر لان ما اشير اليه من التحقيق مما خفى على مهرة العلماء المتقنين كأنه قيل ان فى ذلك لآية باهرة موجبة للايمان وما اكثرهم مؤمنين مع ذلك لغاية تماديهم فى الكفر والضلالة وانهماكهم فى الغى والجهالة ونسبة عدم الايمان الى اكثرهم لان منهم من سيؤمن (وان ربك لهو العزيز)

فلنا بل يدل ما اراد ان يظهره من انقلاب العصا حية على الله تعالى وعلى توحيده وعلى انه صادق فى الرسالة فالذى ختم به كلامه اقوى من كل ما تقدم واجمع (الخامس) فان قيل كيف قال رب السموات والارض ومابينهما على التثنية والمرجوع اليه مجموع جوابه اريد مابين الجهتين (فان قيل) ذكر السموات والارض ومابينهما قد استوعب الخلائق كلهم فامعنى ذكرهم وذكر آبائهم بعد ذلك وذكر المشرق والمغرب (جوابه) قد عمم اولا ثم خصص من العام للبيان انفسهم وآباءهم لان اقرب الاشياء من العاقل نفسه ومن ولد منه وماشاهد من انتقاله من وقت ميلاده الى وقت وفاته من حالة الى حالة اخرى ثم خصص المشرق والمغرب لان طلوع الشمس من احد الخافقين وغروبها على تقدير مستقيم فى فصول السنة من اظهر الدلائل (السادس) فان قيل لم قال لاجعلنك من المسجونين ولم يقل لاسجننك مع انه اخصر (جوابه) لانه لو قال لاسجننك لايفيد الا صيرورته مسجونا اما قوله لاجعلنك من المسجونين فمعناه انى اجعلك واحدا ممن عرفت حالهم فى سجونى وكان من عادته ان يأخذ من يريد ان يسجنه فيطرحه فى بئر عميقة فردا لايبصر فيها ولا يسمع فكان ذلك اشد من القتل (السابع) الواو فى قوله اولو جئتك واو الحال دخلت عليها همزة الاستفهام معناه اتفعل بى ذلك ولو جئتك بشئ مبين اى جائيا بالمعجزة ﴿ قوله تعالى (فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين قال للملاء حوله ان هذا الساحر عليم يريد ان يخرجكم من ارضكم بسحره فماذا تأمرون قالوا ارجئه واخاه وابعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ الاعمش بكل ساحر عليم (المسئلة الثانية) اعلم ان قوله اولو جئتك بشئ مبين يدل على ان الله تعالى قبل ان القى العصا عرفه بأنه يصير ثعبانا ولولا ذلك لما قال ماقال فلما القى عصاه ظهر ما وعده الله به فصار ثعبانا مبينا والمراد انه تبين للناظرين انه ثعبان بحركاته وبسائر العلامات روى انه لما انقلبت حية ارتفعت فى السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة الى فرعون وجعلت تقول ياموسى مرنى بما شئت ويقول فرعون ياموسى اسألك بالذى ارسلك الا اخذتها فعادت عصا (فان قيل) كيف قال ههنا ثعبان مبين وفى آية اخرى فاذا هى حية تسعى وفى آية ثالثة كأنها جان والجان مائل الى الصغر والثعبان مائل الى الكبر (جوابه) اما الحية فهى اسم الجنس ثم انها لكبرها صارت ثعبانا وشبهها بالجان لخفتها وسرعتها فصح الكلامان ويحتمل انه شبهها بالشيطان لقوله تعالى والجان خلقناه من قبل من نار السموم ويحتمل انها كانت اولا صغيرة كالجان ثم عظمت فصارت ثعبانا ثم ان موسى عليه السلام لما أتى بهذه الآية قال له فرعون هل غيرها قال نعم فأراه يده ثم ادخلها جيبه ثم اخرجها فاذا هى بيضاء يضئ الوادى من شدة بياضها من غير برص لها شعاع كشعاع الشمس فعند هذا اراد فرعون تعمية هذه الحجة على قومه فذكر فيها امورا ثلاثة (احدها) قوله ان هذا الساحر عليم وذلك لان الزمان كان

الغالب على كل ما يريده من الامور التى من جملتها الانتقام من هؤلاء (الرحيم) المبالغ فى الرحمة ولذلك يمهلهم ولا يؤاخذهم بغتة بما اجترؤا عليه من العظائم الموجبة لفنون العقوبات وفى التعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام من تشريفه والعدة الخفية بالانتقام من الكفرة مالا يخفى (واذ نادى ربك موسى) كلام مستأنف مسوق لتقرير ماقبله من اعراضهم عن كل ما يأتيهم من الآيات التنزيلية وتكذيبهم بها اثر بيان اعراضهم عما يشاهدونه من الآيات التكوينية واذ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام اى واذكر لأولئك المعرضين المكذبين وقت ندائه تعالى اياه عليه الصلاة والسلام وذكرهم بما جرى على قوم فرعون بسبب تكذيبهم اياه زجرا لهم عما هم عليه من التكذيب وتحذيرا من ان يحيق بهم مثل ما حاق بأضرابهم المكذبين الظالمين حتى تتضح لك انهم لايؤمنون بما يأتيهم من الآيات لكن لاتقياس حال هؤلاء بحال اولئك فتطيل بمشاهدة اصرارهم على ماهم عليه بعد سماع الوحى الناطق بقصتهم وعدم اتعاظهم بذلك كما يلوح به تكرير قوله تعالى ان فى ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين عقيب كل قصة وتوجيه الامر بالذكر الى الوقت مع ان المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مر سره مرارا (ان ائت) بمعنى اى ائت على ان ان مفسرة او بأن ائت على انها مصدرية

زمان السحرة وكان عند كثير منهم ان الساحر قد يجوز ان ينتهى بسحره الى هذا الحد فلهذا روج عليهم هذا القول (وثانيها) قوله يريد ان يخرجكم من ارضكم بسحره وهذا يجرى مجرى التنفير عنه لئلا يقبلوا قوله والمعنى يريد ان يخرجكم من ارضكم بما يلقيه بينكم من العداوات فيفرق جمعكم ومعلوم ان مفارقة الوطن اصعب الامور فنفرهم عنه بذلك وهذا نهاية ما يفعله المبطل فى التنفير عن المحق (وثالثها) قوله لهم فماذا تأمرون اى فما رأيكم فيه وما الذى اعمله يظهر من نفسه انى متبع لرأيكم ومنقاد لقولكم ومثل هذا الكلام يوجب جذب القلوب وانصرافها عن العدو فعند هذه الكلمات اتفقوا على جواب واحد وهو قوله ارجه قرئ ارجئه وارجه بالهمز والتخفيف وهما لغتان يقال ارجأته وارجيته اذا أخرته والمعنى اخره ومناظرته لوقت اجتماع السحرة وقيل احبسه وذلك محتمل لانك اذا حبست الرجل عن حاجته فقد اخرته روى ان فرعون اراد قتله ولم يكن يصل اليه فقالوا له لا تفعل فانك ان قتلته ادخلت على الناس فى امره شبهة ولكن أرجئه واخاه الى ان تحشر السحرة ليقاوموه فلا يثبت له عليك حجة ثم اشاروا عليه بانفاذ حاشرين يجمعون السحرة ظنا منهم بانهم اذا كثروا غلبوه وكشفوا حاله وعارضوا قوله ان هذا الساحر عليم بقولهم بكل سحار عليم فجاؤا بكلمة الاحاطة وبصيغة المبالغة ليطيبوا قلبه وليسكنوا بعض قلقه قال صاحب الكشاف فان قلت قوله تعالى قال للملأ حوله ما العامل فى حوله قلت هو منصوب نصبين نصب فى اللفظ ونصب فى المحل والعامل فى النصب اللفظى ما يقدر فى الظرف والعامل فى النصب المحلى هو النصب على الحال * قوله تعالى (فجمع السحرة لميقات يوم معلوم وقيل للناس هل انتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لاجرا ان كنا نحن الغالبين قال نعم وانكم اذا لمن المقربين) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اليوم المعلوم يوم الزينة وميقاته وقت الضحى لانه الوقت الذى وقته لهم موسى عليه السلام من يوم الزينة فى قوله موعدكم يوم الزينة وان يحشر الناس ضحى والميقات ما وقت به اى حدد من مكان وزمان ومنه مواقيت الاحرام (المسئلة الثانية) اعلم ان القوم لما اشاروا بتأخير امره وبان يجمع له السحرة ليظهر عند حضورهم فساد قول موسى عليه السلام رضى فرعون بما قالوه وعمى عما شاهده وحب الشئ يعمى ويصم فجمع السحرة ثم اراد ان تقع تلك المناظرة يوم عيد لهم ليكون ذلك بمحضر الخلق العظيم وكان موسى عليه السلام يطلب ذلك لتظهر حجته عليهم عند الخلق العظيم وكان هذا ايضا من لطف الله تعالى فى ظهور امر موسى عليه السلام اما قوله تعالى وقيل للناس هل انتم مجتمعون فالمراد انهم بعثوا على الحضور ليشاهدوا ما يكون من الجانبين واما قوله تعالى لعلنا نتبع السحرة فالمراد انا نرجو ان يكون الغلبة لهم فنتبعهم فلما جاء السحرة ابتدؤا بطلب الجزاء وهو اما المال واما الجاه فبذل لهم ذلك واكده بقوله وانكم اذا لمن المقربين لان نهاية مطلوبهم منه

حذف منها الجار (القوم الظالمين) اى بالكفر والمعاصى واستعباد بنى اسرائيل وذبح ابنائهم وليس هذا مطلع ما ورد فى حيز النداء وانما هو ما فصل فى سورة طه من قوله تعالى انى أنا ربك الى قوله لنريك من آياتنا الكبرى واراد ما جرى فى قصة واحدة من المقالات بعبارات شتى واساليب مختلفة قدمر تحقيقه فى اوائل سورة الاعراف عند قوله تعالى قال الملأ (قوم فرعون) بدل من الاول او عطف بيان له جئ به للايذان بانهم علم فى الظلم كأن معنى القوم الظالمين وترجمته قوم فرعون والاقتصار على ذكر قومه للايذان بشهرة ان نفسه اول داخل فى الحكم (ألا يتقون) استئناف جئ به اثر ارساله عليه الصلاة والسلام اليهم للانذار تعجيبا من غلوهم فى الظلم وافراطهم فى العدوان وقرئ بتاء الخطاب على طريقة الالتفات المنبئ عن زيادة الغضب عليهم كأن ذكر ظلمهم ادى الى مشافهتهم بذلك وهم وان كانوا حينئذ غيبا لكنهم قد اجروا مجرى الحاضرين فى كلام المرسل اليهم من حيث انه مبلغه اليهم واسماعه مبتدأ اسماعهم مع ما فيه من مزيد الحث على التقوى لمن تدبر وتأمل وقرئ بكسر النون اكتفاء به عن ياء المتكلم وقد يجوز ان يكون بمعنى الا يا ناس اتقون نحو ان لا يسجدوا (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية ما مضى كأنه قيل فماذا قال موسى عليه السلام فقيل قال متضرعا الى الله عز وجل (رب انى اخاف ان يكذبون) من اول الامر

البذل ورفع المنزلة فبذل كلا الامرين ﴿ قوله تعالى (قال لهم موسى القوا ما انتم ملقون فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون فألقى موسى عصاه فاذا هى تلقف ما يأفكون فألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون) اعلم انهم لما اجتمعوا كان لابد من ان يبدأ موسى او يبدؤا ثم انهم تواضعوا له فقدموه على انفسهم وقالوا اما ان تلقى واما ان نكون اول من القى فلما تواضعوا له تواضع هو ايضا لهم فقدمهم على نفسه وقال القوا ما انتم ملقون (فان قيل) كيف جاز لموسى عليه السلام ان يأمر السحرة بالقاء الحبال والعصى وذلك سحر وتلبيس وكفر والامر بمثله لايجوز (الجواب) لاشبهة فى ان ذلك ليس بأمر لان مراد موسى عليه السلام منهم كان ان يؤمنوا به ولا يقدموا على ما يجرى مجرى المغالبة واذا ثبت هذا وجب تأويل صيغة الامر وفيه وجوه احدها ذلك الامر كان مشروطا والتقدير القوا ما انتم ملقون ان كنتم محقين كما فى قوله فأتوا بسورة من مثله ان كنتم صادقين (وثانيها) لما تعين ذلك طريقا الى كشف الشبهة صار جائزا (وثالثها) ان هذا ليس بأمر بل هو تهديد اى ان فعلتم ذلك أتينا بما نبطله كقول القائل لئن رميتنى لافعلن ولاصنعن ثم يفوق له السهم فيقول له ارم فيكون ذلك منه تهديدا (ورابعها) ماذكرنا انهم لما تواضعوا له وقدموه على انفسهم فهو قدمهم على نفسه على رجاء ان يصير ذلك التواضع سببا لقبول الحق ولقد حصل ببركة ذلك التواضع ذلك المطلوب وهذا تنبيه على ان اللائق بالمسلم فى كل الاحوال التواضع لان مثل موسى عليه السلام لما لم يترك التواضع مع اولئك السحرة فبأن يفعل الواحد منا اولى اما قوله تعالى فألقوا حبالهم وعصيهم فروى عن ابن عباس انهم لما القوا حبالهم وعصيهم وقد كانت الحبال مطلية بالزئبق والعصى مجوفة مملوءة من الزئبق فلما حميت اشتدت حركتها فصارت كأنها حيات تدب من كل جانب من الارض فهاب موسى عليه السلام ذلك فقيل له الق ما فى يمينك فالقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ثم فتحت فاها فابتلعت كل ما رموه من حبالهم وعصيهم حتى اكلت الكل ثم اخذ موسى عصاه فاذا هى كما كانت فلما رأت السحرة ذلك قالت لفرعون كنا نسحر الناس فاذا غلبناهم بقيت الحبال والعصى وكذلك ان غلبونا ولكن هذا حق فسجدوا وآمنوا برب العالمين ﴿ واعلم ان فى الآثار اختلافا فمنهم من كثر الحبال والعصى ومنهم من توسط والله أعلم بعدد ذلك والذى يدل القرآن عليه انها كثيرة من حيث حشروا من كل بلد ولان الامر بلغ عند فرعون وقومه فى العظم مبلغا بعد ان يدخر عنه ما يمكن من جمع السحرة واما قوله وقالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون فالمراد انهم اظهروا ما يجرى مجرى القطع على انهم يغلبون وكل ذلك لما ظهر كان اقوى لامر موسى عليه السلام اما قوله فألقى موسى عصاه فاذا هى تلقف ما يأفكون فالمراد من قوله ما يأفكون ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم وكيدهم فيخيلون فى حبالهم وعصيهم انها حيات تسعى وسمى تلك الاشياء افكا مبالغة اما قوله فالقى السحرة

(ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى) معطوفان على اخاف (فارسل) اى جبريل عليه السلام (الى هرون) ليكون معى واتعاضد به فى تبليغ الرسالة رتب عليه الصلاة والسلام استدعاءه ذلك على الامور الثلاثة خوف التكذيب وضيق الصدر وازدياد ما كان فيه عليه الصلاة والسلام من حبسة اللسان بانقباض الروح الى باطن القلب عند ضيقه بحيث لا ينطلق لانها اذا اجتمعت مست الحاجة الى معين يقوى قلبه وينوب منابه اذا اعترته حبسة حتى لا تختل دعوته ولا تنقطع حجته وليس هذا من التعلل والتوقف فى تلقى الامر فى شئ وانما هو استدعاء لما يعينه على الامتثال به وتمهيد عذر فيه وقرئ ويضيق ولا ينطلق بالنصب عطفا على يكذبون فيكونان من جملة ما يخاف منه (ولهم على ذنب) اى تبعة ذنب فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه او سمى باسمه والمراد به قتل القبطى وتسميته ذنبا بحسب زعمهم كما ينبئ عنه قوله لهم وهذا اشارة الى قصة مبسوطة فى غير موضع (فاخاف) اى ان أتيتهم وحدى (ان يقتلون) بمقابلته قبل اداء الرسالة كما ينبغى وليس هذا ايضا تعللا وانما هو استدفاع للبلية المتوقعة قبل وقوعها وقوله تعالى (قال كلا فاذهبا بآياتنا) حكاية لاجابته تعالى الى الطلبتين الدفع المفهوم من الردع عن الخوف وضم اخيه المفهوم من توجيه الخطاب اليهما بطريق التغليب فانه معطوف على مضمر ينبئ عنه الردع كأنه قيل ارتدع يا موسى عما تظن

ساجدين فالمراد خروا سجدا لانهم كانوا فى الطبقة العالية من علم السحر فلاجرم كانوا عالمين بمنتهى السحر فلما رأوا ذلك وشاهدوه خارجا عن حد السحر علموا انه ليس بسحر وما كان ذلك الا ببركة تحقيقهم فى علم السحر ثم انهم عند ذلك لم يتمالكوا ان رموا بأنفسهم الى الارض ساجدين كأنهم اخذوا فطرحوا طرحا فان قيل فاعل الالقاء ماهو لو صرح به جوابه هو الله تعالى بما حصل فى قلوبهم من الدواعى الجازمة الخالية عن المعارضات ولكن الاولى ان لاتقدر فاعلا لان الفى بمعنى خر وسقط اما قوله رب موسى وهرون فهو عطف بيان لرب العالمين لان فرعون كان يدعى الربوبية فأرادوا عزله ومعنى اضافته اليهما فى ذلك المقام انه الذى دعا موسى وهرون عليهما السلام اليه ❁ قوله تعالى (قال آمنتم له قبل ان آذن لكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون لأقطعن ايديكم وارجلكم من خلاف ولأصلبنكم اجمعين قالوا لاضير انا الى ربنا منقلبون انا نطمع ان يغفر لنا ربنا خطايانا ان كنا اول المؤمنين) اعلم انهم لما آمنوا بأجمعهم لم يأمن فرعون ان يقول الناس ان هؤلاء السحرة على كثرتهم وتظاهرهم لم يؤمنوا الاعن معرفة بصحة امر موسى عليه السلام فيسلكون مثل طريقهم فلبس على القوم وبالغ فى التنفير عن موسى عليه السلام من وجوه (اولها) قوله آمنتم له قبل ان آذن لكم وهذا فيه ايهام ان مسارعتكم الى الايمان به دالة على انكم كنتم مائلين اليه وذلك يطرق التهمة اليهم فلعلهم قصروا فى السحر حياله (وثانيها) قوله انه لكبيركم الذى علمكم السحر وهذا تصريح بما رمز به اولا وغرضه منه انهم فعلوا ذلك عن مواطأة بينهم وبين موسى عليه السلام وقصروا فى السحر ليظهر امر موسى عليه السلام والا ففى قوة السحرة ان يفعلوا مثل ما فعل موسى عليه السلام وهذه شبهة قوية فى تنفير من يقبل قوله (وثالثها) قوله فلسوف تعلمون وهو وعيد مطلق وتهديد شديد (ورابعها) قوله لأقطعن ايديكم وارجلكم من خلاف ولأصلبنكم اجمعين وهذا هو الوعيد المفصل وقطع اليد والرجل من خلاف هو قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى والصلب معلوم وليس فى الاهلاك اقوى من ذلك وليس فى الآية انه فعل ذلك اولم يفعل ثم انهم اجابوا عن هذه الكلمات من وجهين (الاول) قولهم لاضير انا الى ربنا منقلبون الضر والضير واحد وليس المراد ان ذلك ان وقع لم يضر وانما عنوا بالاضافة الى ماعرفوه من دار الجزاء (واعلم) ان قولهم انا الى ربنا منقلبون فيه نكتة شريفة وهى انهم قد بلغوا فى حب الله تعالى انهم ماأرادوا شيئا سوى الوصول الى حضرته وانهم ماآمنوا رغبة فى ثواب اور هبة من عقاب وانما مقصودهم محض الوصول الى مرضاته والاستغراق فى انوار معرفته وهذا اعلى درجات الصديقين (الجواب الثانى) قولهم انا نطمع ان يغفر لنا ربنا خطايانا فهو اشارة منهم الى الكفر والسحر وغيرهما والطمع فى هذا الموضع يحتمل اليقين كقول ابراهيم والذى اطمع ان يغفر لى خطيئتى يوم الدين ويحتمل الظن لان المرء لايعلم ماسيجيء من بعد اما قوله أن كنا

فاذهب انت ومن استدعيته وفى قوله بآياتنا رمز الى انها تدفع مايخافه وقوله تعالى (انا معكم مستمعون) تعليل للردع عن الخوف ومزيد تسلية لهما بضمان كمال الحفظ والنصرة كقوله تعالى اننى معكما اسمع وارى وحيث كان الموعود بمحضر من فرعون اعتبر ههنا المعية وقيل اجريا مجرى الجماعة وياباه مالبعده من ضمير التثنية اى سامعون مايجرى بينكما وبينه فنظهر كما عليه مثل حاله تعالى بحال ذى شوكة قد حضر مجادلة قوم يستمع مايجرى بينهم ليمد اولياءه ويظهرهم على اعدائهم مبالغة فى الوعد بالاعانة او استعير الاستماع الذى هو بمعنى الاصغاء للسمع الذى هو العلم بالحروف والاصوات وهو خبر ثان او خبر وحده ومعكم ظرف لغو والفاء فى قوله تعالى (فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين) لترتيب مابعدها على ماقبلها من الوعد الكريم وليس هذا مجرد تأكيد للامر بالذهاب لان معناه الوصول الى المأتى لامجرد التوجه اليه كالذهاب وافراد الرسول اما باعتبار رسالة كل منهما او لاتحاد مطلبهما او لانه مصدر وصف به وان فى قوله تعالى (ان ارسل معنا بنى اسرائيل) مفسرة لتضمن الارسال المفهوم من الرسول معنى القول ومعنى ارسالهم تخليتهم وشأنهم ليذهبوا معهما الى الشام (قال) اى فرعون لموسى عليه السلام بعد ما أتياه وقالاله ماامرا به يروى انهما انطلقا الى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة حتى قال البواب ان ههنا انسانا يزعم انه رسول

اول المؤمنين فالمراد لان كنا اول المؤمنين من الجماعة الذين حضروا ذلك الموقف
اويكون المراد من السحرة خاصة اومن رعية فرعون اومن اهل زمانهم وقرئ ان كنا
بالكسر وهو من الشرط الذي يجيء به المدل وتنظيره قول القائل لمن يؤخر جعله ان كنت
عملت لك فوفني حقي ۞ قوله تعالى (واوحينا الى موسى ان اسر بعبادي انكم متبعون
فأرسل فرعون في المدائن حاشرين ان هؤلاء لشرذمة قليلون وانهم لنا لغائظون
وانا لجميع حاذرون فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك واورثناها
بني اسرائيل فأتبعوهم مشرقين فلما تراءى الجمعان قال اصحاب موسى انا لمدركون قال
كلا ان معي ربي سيهدين) قرئ اسر بقطع الهمزة ووصلها وسر لما ظهر امر موسى
عليه السلام بما شاهدوه من الآية أمره الله تعالى بأن يخرج بني اسرائيل لما كان في المعلوم
من تدبير الله تعالى في موسى وتخليصه من القوم وتمليكه بلادهم واموالهم ولم يأمن
وقد جرت تلك الغلبة القاهرة ان يقع من فرعون ببني اسرائيل ما يؤدي الى الاستئصال
فلذلك أمره الله تعالى ان يسري ببني اسرائيل وهم الذين آمنوا وكانوا من قوم موسى
ولا شبهة ان في الكلام حذفا وهو انه اسرى بهم كما أمره الله تعالى ثم ان قوم موسى عليه
السلام قالوا لقوم فرعون ان لنا في هذه الليلة عيدا ثم استعاروا منهم حليهم وحللهم بهذا
السبب ثم خرجوا بتلك الاموال في الليل الى جانب البحر فلما سمع ذلك فرعون ارسل
في المدائن حاشرين ثم انه قوى نفسه ونفس اصحابه بان وصف قوم موسى بوصفين من
اوصاف الذم ووصف قوم نفسه بصفة المدح اما وصف قوم موسى عليه السلام بالذم
(فالصفة الاولى) قوله ان هؤلاء لشرذمة قليلون والشرذمة الطائفة القليلة ومنه
قولهم ثوب شراذم للذي بلي وتقطع قطعا ذكرهم بالاسم الدال على القلة ثم جعلهم
قليلا بالوصف ثم جمع القليل فجعل كل حزب منهم قليلا واختار جمع السلامة الذي هو
للقلة ويجوز ان يريد بالقلة الذلة لا قلة العدد والمعنى انهم لقلتهم لا يبالى بهم ولا يتوقع غلبتهم
وعلوهم ثم اختلف المفسرون في عدد تلك الشرذمة فقال ابن عباس رضي الله عنهما كانوا
ستمائة الف مقاتل لا شاب فيهم دون عشرين سنة ولا شيخ يوفي على الستين سوى الحشم
وفرعون يقللهم لكثرة من معه وهذا الوصف قد يستعمل في الكثير عند الاضافة الى
ما هو اكثر منه فروي ان فرعون خرج على فرس ادهم حصان وفي عسكره على لون فرسه
ثلثمائة الف (الصفة الثانية) قوله وانهم لنا لغائظون يعني يفعلون افعالا تغيظنا وتضيق
صدورنا واختلفوا في تلك الافعال على وجوه (احدها) ما تقدم من امر الحلي وغيره
(وثانيها) خروج بني اسرائيل عن عبودية فرعون واستقلالهم بانفسهم (وثالثها)
مخالفتهم لهم في الدين وخروجهم عليهم (ورابعها) ليس الا انهم لم يتخذوا فرعون الها
اما الذي وصف فرعون به قومه فهو قوله وانا لجميع حذرون وفيه ثلاث قراآت حذرون

رب العالمين فقال ائذن له لعلنا
نضحك فأدى اليه الرسالة فعرف
موسى عليه السلام فقال عند
ذلك (ألم نربك فينا) في حجرنا
ومنازلنا (وليدا) اى طفلا
عبر عنه بذلك لقرب عهده
بالولادة (ولبثت فينا من عمرك
سنين) قيل لبث فيهم ثلاثين سنة
ثم خرج الى مدين واقام بها عشر
سنين ثم عاد اليهم يدعوهم الى الله
عز وجل ثلاثين سنة ثم بقي بعد
الغرق خمسين سنة وقيل وكز
القبطي وهو ابن اثني عشرة سنة
وفر منهم على اثر ذلك والله اعلم
(وفعلت فعلتك التي فعلت) يعني
قتل القبطي بعدما عدد عليه
نعمته من تربيته وتبليغه مبلغ
الرجال ونجه بما جرى عليه من
قتل خبازه وعظم ذلك وفظعه
وقرئ فعلتك بكسر الفاء لانها
كانت نوعا من القتل (وانت من
الكافرين) اى بنعمتي حيث
عمدت الى قتل رجل من خواصي
اوانت حينئذ ممن تكفرهم الآن
وقد افترى عليه عليه الصلاة
والسلام اوجهل امره عليه
الصلاة والسلام حيث كان
يعايشهم بالتقية والا فأين هو
عليه الصلاة والسلام من
مشاركتهم في الدين فالجملة حينئذ
حال من احدى التائين ويجوز
ان يكون حكما مبتدأ عليه بأنه
من الكافرين بالهيئة او ممن
يكفرون في دينهم حيث كانت لهم
آلهة يعبدونها او من الكافرين
بالنعم المعتادين لغمطها ومن
اعتاد ذلك لا يكون مثل هذه
الجناية بدعا منه (قال)
مجيبا له مصدقا له في القتل
ومكذبا فيما نسبه اليه من الكفر
(فعلتها اذا وانا من الضالين)
اى من الجاهلين وقد

وحاذرون وحادرون بالدال غير المعجمة * واعلم ان الصفة اذا كانت جارية على الفعل وهى اسم الفاعل واسم المفعول كالضارب والمضروب أفادت الحدوث واذا لم تكن كذلك وهى المشبهة افادت الثبوت فمن قرأ حذرون ذهب الى انا قوم من عادتنا الحذر واستعمال الحزم ومن قرأ حاذرون فكأنه ذهب الى معنى انا قوم ما عهدنا ان نحذر الاعصرنا هذا واما من قرأ حادرون بالدال غير المعجمة فكأنه ذهب الى نفى الحذر اصلا لان الحادر هو المشمر فأراد انا قوم اقوياء اشداء اوأراد انا مدججون فى السلاح والغرض من هذه المعاذير ان لا يتوهم اهل المدائن انه منكسر من قوم موسى اوخائف منهم اما قوله تعالى فأخرجناهم فالمراد انا جعلنا فى قلوبهم داعية الخروج فاستوجبت الداعية الفعل فكان الفعل مضافا الى الله تعالى لامحالة واما قوله تعالى من جنات وعيون وكنوز فقال مجاهد سماها كنوزا لانهم لم ينفقوا منها فى طاعة الله تعالى والمقام الكريم يريد المنازل الحسنة والمجالس البهية والمعنى انا اخرجناهم من بساتينهم التى فيها عيون الماء وكنوز الذهب والفضة والمواضع التى كانوا يتنعمون فيها لنسلمها الى بنى اسرائيل اما قوله كذلك فيحتمل ثلاثة اوجه النصب على اخرجناهم مثل ذلك الاخراج الذى وصفناه والجر على انه وصف لمقام كريم اى مقام كريم مثل ذلك المقام الذى كان لهم والرفع على انه خبر لمبتدأ محذوف اى الامر كذلك اما قوله تعالى فأتبعوهم اى فلحقوهم وقرئ فأتبعوهم مشرقين داخلين فى وقت الشروق من شرقت الشمس شروقا اذا طلعت اما قوله تعالى فلما تراءى الجمعان اى رأى بعضهم بعضا قال اصحاب موسى انا لمدركون اى لملحقون وقالوا ياموسى اوذينا من قبل ان تأتينا ومن بعد ماجئتنا كانوا يذبحون ابناءنا من قبل ان تأتينا ومن بعد ماجئتنا يدركونا اى فى هذه الساعة فيقتلونا وقرئ فلما تراءت الفئتان انا لمدركون بتشديد الدال وكسر الراء من ادرك الشئ اذا تتابع ففنى ومنه قوله تعالى بل ادارك علمهم فى الآخرة قال الحسن جهلوا علم الآخرة والمعنى انا لمتتابعون فى الهلاك على ايديهم حتى لايبقى منا احد فعند ذلك قال لهم كلا وذلك كالمنع مما توهموه ثم قوى نفوسهم بامرين احدهما ان معى ربى وهذا دلالة النصرة والتكفل بالمعونة (والثانى) قوله سيهدين والهدى هو طريق النجاة والخلاص واذا دله على طريق نجاته وهلاك اعدائه فقد بلغ النهاية فى النصرة * قوله تعالى (واوحينا الى موسى ان اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وازلفنا ثم الآخرين وانجينا موسى ومن معه اجمعين ثم اغرقنا الآخرين ان فى ذلك لآية وماكان اكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) اعلم انه تعالى لما حكى عن موسى عليه السلام قوله ان معى ربى سيهدين بين تعالى بعده كيف هداه ونجاه واهلك اعداءه بذلك التدبير الجامع لنعم الدين والدنيا فقال واوحينا الى موسى ان اضرب بعصاك البحر فانفلق ولاشبهة فى ان المراد فضرب فانفلق لانه

قرئ كذلك لا من الكافرين كما زعمت فتراء اى من الفاعلين فعل الجهلة والسفهاء اومن المخطئين لانه لم يتعمد قتله بل اراد تأديبه اوالذاهلين عما يؤدى اليه الوكز اوالناسين كقوله تعالى ان تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى (ففررت منكم) الى ربى (لما خفتكم) ان تصيبونى بمضرة وتؤاخذونى بما لا استحقه بجنايتى من العقاب (فوهب لى ربى حكما) اى حكمة اونبوة (وجعلنى من المرسلين) ردا ولا بذلك ما وبخه به قدحا فى نبوته ثم كر على ماعدده عليه من النعمة ولم يصرح برده حيث كان صدقا غير قادح فى دعواه بل نبه على ان ذلك كان فى الحقيقة نقمة فقال (وتلك نعمة تمنها على ان عبدت بنى اسرائيل) اى تلك التربية نعمة تمن بها على ظاهرا وهى فى الحقيقة تعبيدك بنى اسرائيل وقصدك اياهم بذبح ابنائهم فانه السبب فى وقوعى عندك وحصولى فى تربيتك وقيل انه مقدر بهمزة الانكار اى او تلك نعمة تمنها على وهى ان عبدت بنى اسرائيل ومحل ان عبدت الرفع على انه خبر مبتدأ محذوف اوبدل من نعمة اوالجر باضمار الباء اوالنصب بحذفها وقيل تلك اشارة الى خصلة شنعاء مبهمة وان عبدت عطف بيان لها والمعنى تعبيدك بنى اسرائيل نعمة تمنها على وتوحيد الخطاب فى تمنها وجمعه فيما قبله لان المنة منه خاصة والخوف والفرار منه ومن ملئه (قال فرعون) لما سمع منه عليه الصلاة والسلام تلك المقالة المتينة وشاهد تصلبه فى امره وعدم تأثره بما قدمه من

كالمعلوم من الكلام اذلايجوز ان ينفلق من غير ضرب ومع ذلك يأمره بالضرب لانه كالعبث ولانه تعالى جعله من معجزاته التي ظهرت بالعصا ولان انفلاقه بضربه به اعظم في النعمة عليه وأقوى لعلمهم ان ذلك انما حصل لمكان موسى عليه السلام واختلفوا في البحر روى عن ابن عباس رضي الله عنهما ان موسى عليه السلام لما انتهى الى البحر مع بني اسرائيل امرهم ان يخوضوا البحر فامتنعوا الا يوشع بن نون فانه ضرب دابته وخاض في البحر حتى عبر ثم رجع اليهم فأبوا أن يخوضوا فقال موسى للبحر انفرق لي فقال ما امرت بذلك ولا يعبر على العصاة فقال موسى يارب قد أبى البحر ان ينفرق فقيل له اضرب بعصاك البحر فضرب به فانفرق فكان كل فرق كالطود العظيم اى كالجبل العظيم وصار فيه اثنا عشر طريقا لكل سبط منهم طريق فقال كل سبط قتل اصحابنا فعند ذلك دعا موسى عليه السلام ربه فجعلها مناظر كهيئة الطبقات حتى نظر بعضهم الى بعض على ارض يابسة وعن عطاء بن السائب ان جبريل عليه السلام كان بين بني اسرائيل وبين آل فرعون وكان يقول لبني اسرائيل ليلحق آخركم بأولكم ويستقبل القبط فيقول رويدكم ليلحق آخركم وروى ان موسى عليه السلام قال عند ذلك يامن كان قبل كل شيء والمكون لكل شيء والكائن بعد كل شيء فأما قوله فكان كل فرق كالطود العظيم فالفرق الجزء المنفرق منه وقرئ كل فلق والمعنى واحد والطود الجبل المتطاول اى المرتفع في السماء وهو معجز من وجوه (احدها) ان تفرق ذلك الماء معجز (وثانيها) ان اجتماع ذلك الماء فوق كل طرف منه حتى صار كالجبل من المعجزات ايضا لانه كان لايمتنع في الماء الذي ازيل بذلك التفريق ان يبدده الله تعالى حتى يصير كأنه لم يكن فلما جمع على الطرفين صار مؤكدا لهذا الاعجاز (وثالثها) انه ان ثبت ماروى في الخبر انه تعالى ارسل على فرعون وقومه من الرياح والظلمة ماحيرهم فاحتبسوا القدر الذي يتكامل معه عبور بني اسرائيل فهو معجز ثالث (ورابعها) ان جعل الله في تلك الجدران المائية كوى ينظر منها بعضهم الى بعض فهو معجز رابع (وخامسها) ان ابقى الله تعالى تلك المسالك حتى قرب منها آل فرعون وطمعوا ان يتخلصوا من البحر كما تخلص قوم موسى عليه السلام فهو معجز خامس ❊ اما قوله تعالى وازلفنا ثم الآخرين ففيه بحثان (البحث الاول) قال ابن عباس وابن جريج وقتادة والسدي وازلفنا اى وقربنا ثم اى حيث انفلق البحر للآخرين قوم فرعون ثم فيه ثلاثة اوجه (احدها) قربناهم من بني اسرائيل (وثانيها) قربنا بعضهم من بعض وجمعناهم حتى لاينجو منهم احد (وثالثها) قدمناهم الى البحر ومن الناس من قال وازلفنا اى حبسنا فرعون وقومه عند طلبهم موسى عليه السلام بأن اظلنا عليهم الدنيا بسحابة وقفت عليهم فوقفوا حيارى وقرئ وازلقنا بالقاف اى ازلقنا اقدامهم والمعنى اذهبنا عزهم ويحتمل ان يجعل الله طريقهم في البحر على خلاف ماجعله لبني اسرائيل يبسا

الابراق والارعاد شرع في الاعتراض على دعواه عليه الصلاة والسلام فبدأ بالاستفسار عن المرسل فقال (وما رب العالمين) حكاية لما وقع في عبارته عليه الصلاة والسلام اى اى شيء رب العالمين الذي ادعيت انك رسوله منكرا لأن يكون للعالمين رب سواه حسبما يعرب عنه قوله انا ربكم الاعلى وقوله ماعلمت لكم من اله غيري وينطق به وعيده عند تمام اجوبته عليه الصلاة والسلام (قال) موسى عليه السلام مجيباله (رب السموات والارض ومابينهما) بتعيين ما اراد بالعالمين وتفصيله لزيادة التحقيق والتقرير وحسم مادة تزوير اللعين وتشكيكه بحمل العالمين على ماتحت مملكته (ان كنتم موقنين) اى ان كنتم موقنين بالاشياء محققين لها علمتم ذلك او ان كنتم موقنين بشيء من الاشياء فهذا اولى بالايقان لظهوره وانارة دليله (قال) اى فرعون عند سماع جوابه عليه الصلاة والسلام خوفا من تأثيره في قلوب قومه واذعانهم له (لمن حوله) من اشراف قومه قال ابن عباس رضي الله عنهما كانوا خمسمائة عليهم الاساور وكانت للملوك خاصة (الا تستمعون) مرائيا لهم ان ماسمعوه من جوابه عليه الصلاة والسلام مع كونه مما لايليق بأن يعتد به امر حقيق بأن يتعجب منه كأنه قال الا تستمعون مايقوله فاستمعوه وتعجبوا منه حيث يدعي خلاف امر محقق لااشتباه فيه يريد به ربوبية نفسه (قال) عليه الصلاة

وازلفهم (البحث الثانى) انه تعالى اضاف ذلك الازلاف الى نفسه مع ان اجتماعهم هنالك فى طلب موسى كفر (اجاب) الجبائى عنه من وجهين (الاول) ان قوم فرعون تبعوا بنى اسرائيل و بنو اسرائيل انما فعلوا ذلك بأمر الله تعالى فلما كان مسيرهم بتدبيره وهؤلاء تبعوا ذلك أضافه الى نفسه توسعا وهذا كما يتعب أحدنا فى طلب غلام له فيجوز ان يقول اتعبنى الغلام لما حدث ذلك عند فعله (الثانى) قيل وازلفنا ثم الآخرين اى ازلفناهم الى الموت لاجل انهم فى ذلك الوقت قربوا من اجلهم وانشد

وكل يوم مضى اوليلة سلفت * فيها النفوس الى الآجال تزدلف

واجاب الكعبى عنه من وجهين (الاول) انه تعالى لما حلم عنهم وترك البحر لهم يبسا وطمعوا فى عبوره جازت الاضافة كالرجل يسفه عليه صاحبه مرارا فيحلم عنه فاذا تمادى فى غيه وأراه قدرته عليه قال له انا أحوجتك الى هذا وصيرتك اليه بحلمى لا يريد بذلك انه أراد مافعل (الثانى) يحتمل انه أزلفهم اى جمعهم ليغرقهم عند ذلك ولكى لا يصلوا الى موسى وقومه (والجواب عن الاول) ان الذى فعله بنو اسرائيل هل له اثر فى استجلاب داعية قوم فرعون الى الذهاب خلفهم اوليس له اثر فيه فان كان الاول فقد حصل المقصود لان لفعل الله تعالى اثرا فى حصول الداعية المستلزمة لذلك الازلاف وان لم يكن له فيه اثر البتة فقد زال التعلق فوجب ان لا تحسن الاضافة واما اذا تعب احدنا فى طلب غلام له فانما يجوز ان يقول اتعبنى ذلك الغلام لما ان فعل ذلك الغلام صار كالمؤثر فى حصول ذلك التعب لانه متى فعل ذلك الفعل فالظاهر انه يصير معلوما للسيد ومتى علمه صار علمه داعيا له الى ذلك التعب ومؤثرا فيه فصحت الاضافة وبالجملة فعندنا القادر لا يمكنه الفعل الا بالداعى فالداعى مؤثر فى صيرورة القادر مؤثرا فى ذلك الفعل فلا جرم حسنت الاضافة (والجواب عن الثانى) وهو انه ازلفهم ليغرقهم فهو انه تعالى ما ازلفهم بل هم بأنفسهم ازدلفوا ثم حصل الغرق بعده فكيف يجوز اضافة هذا الازلاف الى الله تعالى اما على قولنا فانه جائز لانه تعالى هو الذى خلق الداعية المستعقبة لذلك الازدلاف (والجواب عن الثالث) وهو ان حلمه تعالى عنهم حملهم على ذلك فنقول ذلك الحلم هل له اثر فى استجلاب هذه الداعية ام لا وباقى التقرير كما تقدم (والجواب عن الرابع) هو بعينه الجواب عن الثانى والله اعلم * اما قوله تعالى وانجينا موسى ومن معه اجمعين ثم اغرقنا الآخرين فالمعنى انه تعالى جعل البحر يبسا فى حق موسى وقومه حتى خرجوا منه واغرق فرعون وقومه لانه لما تكامل دخولهم البحر انطبق الماء عليهم فغرقوا فى ذلك الماء * اما قوله تعالى ان فى ذلك لآية فالمعنى ان الذى حدث فى البحر آية عجيبة من الآيات العظام الدالة على قدرته لان احدا من البشر لا يقدر عليه وعلى حكمته من حيث وقع ما كان مصلحة فى الدين والدنيا وعلى صدق موسى عليه السلام من حيث كان معجزة له وعلى اعتبار المعتبرين به ابدا فيصير تحذيرا من الاقدام على مخالفة امر الله تعالى

(وامر)

والسلام تصريحا بما كان متدرجا تحت جوابيه السابقين (ربكم ورب آبائكم الاولين) وحطاله من ادعاء الربوبية الى مرتبة المربوبية (قال) اى فرعون لما واجهه موسى عليه السلام بما ذكر غاظه ذلك وخاف من تأثر قومه منه فأراهم ان ماقاله عليه الصلاة والسلام مما لا يصدر عن العقلاء صدا لهم عن قبوله فقال مؤكدا لمقالته الشنعاء بحرفى التأكيد (ان رسولكم الذى ارسل اليكم لمجنون) ليفتنهم بذلك ويصرفهم عن قبول الحق وسماه رسولا بطريق الاستهزاء واضافه الى مخاطبيه ترفعا من ان يكون مرسلا الى نفسه (قال) عليه الصلاة والسلام (رب المشرق والمغرب ومابينهما) قاله عليه الصلاة والسلام تكميلا لجوابه الاول وتفسيرا له وتنبيها على جهلهم وعدم فهمهم لمعنى مقالته فان بيان ربوبيته تعالى للسموات والارض ومابينهما وان كان متضمنا لبيان ربوبيته تعالى للخافقين ومابينهما لكن لما لم يكن فيه تصريح باستناد حركات السموات وما فيها وتغيرات احوالها واوضاعها وكون الارض تارة مظلمة واخرى منورة الى الله تعالى ارشدهم الى طريق معرفة ربوبيته تعالى لما ذكر فان ذكر المشرق والمغرب منبئ عن شروق الشمس وغروبها المنوطين بحركات السموات ومافيها على نمط بديع يترتب عليه هذه الاوضاع الرصينة وكل ذلك امور حادثة مفتقرة الى محدث

وامر رسوله ويكون فيه اعتبار لمحمد صلى الله عليه وسلم فانه قال عقيب ذلك وما كان اكثرهم مؤمنين وفى ذلك تسلية له فقد كان يغتم بتكذيب قومه مع ظهور المعجزات عليه فنبهه الله تعالى بهذا الذكر على ان له اسوة بموسى وغيره فان الذى ظهر على موسى من هذه المعجزات العظام التى تبهر العقول لم يمنع من ان اكثرهم كذبوه وكفروا به مع مشاهدتهم لما شاهدوه فى البحر وغيره فكذلك انت يا محمد لا تعجب من تكذيب اكثرهم لك واصبر على ايذائهم فلعلهم ان يصلحوا ويكون فى هذا الصبر تأكيد الحجة عليهم واما قوله وان ربك لهو العزيز الرحيم فتعلقه بما قبله ان القوم مع مشاهدة هذه الآية الباهرة كفروا ثم انه تعالى كان عزيزا قادرا على ان يهلكهم ثم انه تعالى ما اهلكهم بل افاض عليهم انواع رحمته فدل ذلك على كمال رحمته وسعة جوده وفضله ❁ (القصة الثانية) قصة ابراهيم عليه السلام قوله تعالى (واتل عليهم نبأ ابراهيم اذ قال لأبيه وقومه ماتعبدون قالوا نعبد اصناما فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم اذ تدعون او ينفعونكم او يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون انتم وآباؤكم الاقدمون فانهم عدو لى الا رب العالمين) اعلم انه تعالى ذكر فى اول السورة شدة حزن محمد صلى الله عليه وسلم بسبب كفر قومه ثم انه ذكر قصة موسى عليه السلام ليعرف محمد ان مثل تلك المحنة حاصلة لموسى ثم ذكر عقبها قصة ابراهيم عليه السلام ليعرف محمد ايضا ان حزن ابراهيم عليه السلام بهذا السبب كان اشد من حزنه لان من عظيم المحنة على ابراهيم عليه السلام ان يرى اباه وقومه فى النار وهو لا يتمكن من انقاذهم الا بقدر الدعاء والتنبيه فقال لهم ماتعبدون وكان ابراهيم عليه السلام يعلم انهم عبدة اصنام ولكنه سألهم ليريهم ان مايعبدونه ليس من استحقاق العبادة فى شئ كما تقول لتاجر الرقيق ما مالك وانت تعلم ان ماله الرقيق ثم تقول الرقيق جمال وليس بمال فأجابوا ابراهيم عليه السلام بقولهم نعبد اصناما فنظل لها عاكفين والعكوف الاقامة على الشئ وانما قالوا نظل لانهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل واعلم انه كان يكفيهم فى الجواب ان يقولوا نعبد اصناما ولكنهم ضموا اليه زيادة على الجواب وهى قولهم فنظل لها عاكفين وانما ذكروا هذه الزيادة اظهارا لما فى نفوسهم من الابتهاج والافتخار بعبادة الاصنام فقال ابراهيم عليه السلام منبها على فساد مذهبهم هل يسمعونكم اذ تدعون او ينفعونكم او يضرون قال صاحب الكشاف لابد فى يسمعونكم من تقدير حذف المضاف معناه هل يسمعون دعاءكم وقرأ قتادة هل يسمعونكم أى هل يسمعونكم الجواب عن دعائكم وهل يقدرون على ذلك وتقرير هذه الحجة التى ذكرها ابراهيم عليه السلام ان الغالب من حال من يعبد غيره ان يلتجئ اليه فى المسئلة ليعرف مراده اذا سمع دعاءه ثم يستجيب له فى بذل منفعة او دفع مضرة فقال لهم فاذا كان من تعبدونه لا يسمع دعائكم حتى يعرف مقصودكم ولو عرف ذلك لما صح ان

قادر عليم حكيم كذوات السموات والارض التى ربما توهم جهلة المتوهمين باستمرارها استغنائها عن الموجد المتصرف (ان كنتم تعقلون) اى ان كنتم تعقلون شيئا من الاشياء او ان كنتم من اهل العقل علمتم ان الامر كما قلته وفيه ايذان بغاية وضوح الامر بحيث لا يشتبه على من له عقل فى الجملة وتلويح بأنهم بمعزل من دائرة العقل وانهم المتصفون بما رموه عليه الصلاة والسلام به من الجنون (قال) لما سمع اللعين منه عليه الصلاة والسلام تلك المقالات المبنية على اساس الحكم البالغة وشاهد شدة حزمه وقوة عزمه على تمشية امره وانه ممن لا يجارى فى حلبة المحاورة ضرب صفحا عن المقاولة بالانصاف ونأى بجانبه الى عدوة الجور والاعتساف فقال مظهرا لما كان يضمره عند السؤال والجواب (لئن اتخذت الها غيرى لاجعلنك من المسجونين) لم يقتنع منه عليه الصلاة والسلام بترك دعوى الرسالة وعدم التعرض له حتى كلفه عليه الصلاة والسلام ان يتخذه الها لغاية عتوه وغلوه فيما فيه من دعوى الالوهية وهذا صريح فى ان تحيره وتحييره من الجواب الاول ونسبته عليه الصلاة والسلام الى الجنون فى الجواب الثانى كان لنسبته عليه الصلاة والسلام الربوبية الى غيره واما ما قيل من ان سؤاله كان عن حقيقة المرسل وتحيره من جوابه كان لعدم مطابقته له لكونه بذكر احواله فلا يساعده النظم

بـذل النفع اويدفع الضرر فكيف تستجيزون ان تعبـد واماهذا وصفه فعندهذه الحجة القاهرة لم يجدابوه وقومه مايدفعون به هذه الحجة فعدلوا الى ان قالوا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون وهذا من اقوى الدلائل على فساد التقليد ووجوب التمسك بالاستدلال اذلو قلبنا الامر فدحنا التقليد وذممنا الاستدلال لكان ذلك مدحا لطريقة الكفار التى ذمها الله تعالى وذما لطريقة ابراهيم عليه السلام التى مدحها الله تعالى فأجابهم ابراهيم عليه السلام بقوله أفرأيتم ماكنتم تعبدون انتم وآباؤكم الاقدمون أرادبه ان الباطل لايتغير بأن يكون قديما اوحديثا ولابأن يكون فى فاعليه كثرة اوقلة * اماقوله فانهم عدولى الارب العـالمين ففيه اسئلة (السؤال الاول) كيف يكون الصنم عدوا مع انه جماد جوابه من وجوه (احدها) انه تعالى قال فى سورة مريم فى صورة الاوثان كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا قيل فى تفسيره ان الله يحيى ماعبدوه من الاصنام حتى يقع منهم التوبيخ لهم والبراءة منهم فعلى هذا الوجه ان الاوثان ستصير اعداء لهؤلاء الكفار فى الآخرة فاطلق ابراهيم عليه السـلام لفظ العداوة عليهم على هذا التأويل (وثانيها) ان الكفار لماعبدوها وعظموها ورجوها فى طلب المنافع ودفع المضار نزلت منزلة الاحياء العقلاء فى اعتقاد الكفار ثم انها صارت اسبابا لانقطاع الانسـان عن السعادة ووصوله الى الشقاوة فلما نزلت هذه الاصنام منزلة الاحياء وجرت مجرى الدافع للنفعة والجالب للضرة لاجرم جرت مجرى الاعداء فلاجرم اطلق ابراهيم عليـه السلام عليها لفظ العدو (وثالثها) المراد من قوله فانهم عدولى عداوة من يعبدها فان قيل فلم لم يقل ان من يعبد الاصنام عدولى ليكون الكلام حقيقة جوابه لان الذى تقدم ذكره ماعبدوه دون العابدين (السؤال الثانى) لم قال فانهم عدولى ولم يقل فانها عدو لكم جوابه انه عليه السلام صور المسئلة فى نفسه على معنى انى فكرت فى امرى فرأيت عبادتى لها عبادة للعدو فاجتنبتها وأراهم انها نصيحة نصح بها نفسه فاذا تفكروا قالوا مانصحنا ابراهيم الابمانصح به نفسه فيكون ذلك ادعى للقبول (السؤال الثالث) لم لم يقل فانهم اعدائى جوابه العدو والصديق يجيئان فى معنى الواحد والجماعة قال

وقوم على ذوى مرة * أراهم عدوا وكانوا صديقا

ومنه قوله تعالى وهم لكم عدو وتحقيق القول فيه ماتقدم فى قوله انا رسول رب العالمين (السـؤال الرابع) ماهذا الاستثناء (جوابه) انه استثناء منقطع كأنه قال لكن رب العالمين * قوله تعـالى (الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى ويسقين واذا مرضت فهو يشفين والذى يميتنى ثم يحيين والذى اطمع ان يغفر لى خطيئتى يوم الدين) اعلم انه تعالى لماحكى عنه انه استثنى رب العالمين حكى عنه أيضاماوصفه به ممايستحق العبادة لاجله ثم حكى عنه ماسأله عنه اما الاوصاف فأربعة (اولها) قوله الذى خلقنى فهو يهدين واعلم انه سبحانه أثنى على نفسه بهذين الامرين فى قوله الذى خلق فسوى

(والذى)

الكريم ولاحال فرعون ولا مقاله واللام فى المجونين للعهد اى لاجعلنك ممن عرفت احوالهم فى سجونى حيث كان يطرحهم فى هوة عميقة حتى يموتوا ولذلك لم يقل لاسجننك (قال اولو جئتك بشئ مبين) اى اتفعل فى ذلك ولوجئتك بشئ مبين اى موضح لصدق دعواى يريد به المعجزة فانها جامعة بين الدلالة على وجود الصانع وحكمته وبين الدلالة على صدق دعوى من ظهرت على يده والتعبير عنها بالشئ للتهويل قالوا الواو فى اولوجئتك للحال دخلت عليها همزة الاستفهام اى جائيا بشئ مبين وقدسلف منا مرارا انها للعطف وان كلمة لو ليست لانتفاء الشئ فى الزمان الماضى لانتفاء غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قدحذف تعويلا على دلالة ماقبلها عليه ملاحظة قصدية الا عند القصد الى بيان الاعراب على القواعد الصناعية بل هى لبيان تحقق مايفيده الكلام السابق من الحكم الموجب او المنفى على كل حال مفروض من الاحوال المقارنة له على الاجمال بادخالها على ابعدها منه واشدها منافاة له ليظهر بثبوته او انتفائه معه ثبوته او انتفاؤه مع ماعداه من الاحوال بطريق الاولوية لان الشئ متى تحقق مع المنافى القوى فلأن يتحقق مع غيره اولى ولذلك لايذكر معه شئ من سائر الاحوال ويكتفى عنه بذكر العاطف للجملة على نظيرتها المقابلة لها الشاملة لجميع الاحوال المغايرة

والذى قدر فهدى واعلم ان الخلق والهداية بهما يحصل جميع المنافع لكل من يصح الانتفاع عليه فلنتكلم فى الانسان فنقول انه مخلوق فهم من قالب هو من عالم الخلق والجسمانيات ومن قلب هو من عالم الامر والروحانيات وتركيب البدن الذى هو من عالم الخلق مقدم على اعطاء القلب الذى هو من عالم الامر على ما اخبر عنه سبحانه فى قوله فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فالتسوية اشارة الى تعديل المزاج وتركيب الامشاج ونفخ الروح اشارة الى اللطيفة الربانية النورانية التى هى من عالم الامر وايضا قال ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ولما تمم مراتب تغيرات الاجسام قال ثم أنشأناه خلقا آخر وذلك اشارة الى الروح الذى هو من عالم الملائكة ولاشك ان الهداية انما تحصل من الروح فقد ظهر بهذه الآيات ان الخلق مقدم على الهداية اما تحقيقه بحسب المباحث الحقيقية فهو ان بدن الانسان انما يتولد عند امتزاج المنى بدم الطمث وهما انما يتولدان من الاغذية المتولدة من تركب العناصر الاربعة وتفاعلها فاذا امتزاج المنى بالدم فلايزال مافيها من الحار والبارد والرطب واليابس متفاعلا ومافى كل واحد منها من القوى كاسرا سورة كيفية الآخر فحينئذ يحصل من تفاعلهما كيفية متوسطة تستحر بالقياس الى البارد وتستبرد بالقياس الى الحار وكذا القول فى الرطب واليابس وحينئذ يحصل الاستعداد لقبول قوى مدبرة لذلك المركب فبعضها قوى نباتية وهى التى تجذب الغذاء ثم تمسكه ثم تهضمه ثم تدفع الفضلة المؤذية ثم تقيم تلك الاجزاء بدل ماتحلل منها ثم تزيد فى جوهر الاعضاء طولا وعرضا ثم يفضل عن تلك المواد فضلة يمكن ان يتولد عنها مثل ذلك ومنها قوى حيوانية بعضها مدركة كالحواس الخمس والخيال والحفظ والذكر وبعضها فاعلة اما آمرة كالشهوة والغضب اومأمورة كالقوى المركوزة فى العضلات ومنها قوى انسانية وهى امامدركة اوعاملة والقوى المدركة هى القوى القوية على ادراك حقائق الاشياء الروحانية والجسمانية والعلوية والسفلية ثم انك اذا فتشت عن كل واحدة من مركبات هذا العالم الجسمانى ومفرداتها وجدت لها أشياء تلائمها وتكمل حالها واشياء تنافرها وتفسد حالها ووجدت فيها قوى جذابة للملائم دفاعة للمنافى فقد ظهر ان صلاح الحال فى هذه الاشياء لايتم الابالخلق والهداية اما الخلق فتصييره موجودا بعد ان كان معدوما واما الهداية فتلك القوى الجذابة للمنافع والدفاعة للمضار * فثبت ان قوله خلقنى فهو يهدين كلمة جامعة حاوية لجميع المنافع فى الدنيا والدين ثم ههنا دقيقة وهو انه قال خلقنى فذكره بلفظ الماضى وقال يهدين ذكره بلفظ المستقبل والسبب فى ذلك ان خلق الذات لايتجدد فى الدنيا بل لما وقع بقى الى الامد المعلوم اما هدايته تعالى فهى مما يتكرر كل حين وأوان سواء كان ذلك هداية فى المنافع الدنيوية وذلك بأن تحكم الحواس بتمييز النافع عن الضار او فى المنافع الدينية وذلك بأن يحكم العقل بتمييز الحق عن الباطل والخير عن الشر فبين بذلك انه

لها عند تعددها ليظهر ماذكر من تحقق الحكم على جميع الاحوال فانك اذا قلت فلان جواد يعطى ولو كان فقيرا تريد بيان تحقق الاعطاء منه على كل حال من احوال المفروضة فتعلق الحكم بابعدها منه ليظهر بتحققه معه تحققه مع ماعداه من الاحوال التى لامنافاة بينها وبين الحكم بطريق الاولوية المصححة للاكتفاء بذكر العاطف عن تفصيلها كأنك قلت فلان جواد يعطى لو لم يكن فقيرا ولو كان فقيرا اى يعطى حال كونه غنيا وحال كونه فقيرا فالحال فى الحقيقة كلتا الجملتين المتعاطفتين لاالمذكورة على ان الواو للحال وتصدير المجىء بما ذكر من كلمة لو دون ان ليس لبيان استبعاده فى نفسه بل بالنسبة الى فرعون والمعنى افتفعل بى ذلك حال عدم مجيئى بشئ مبين وحال مجيئى به (قال فأت به ان كنت من الصادقين) اى فأت بما يدل عليه كلامك من انك تأتى بشئ مبين موضح لصدق دعواك او فى دعوى الرسالة وجواب الشرط محذوف لدلالة ماقبله عليه (فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين) اى ظاهر ثعبانيته لا انه شئ يشبهه واشتقاق الثعبان من ثعبت الماء فانثعب اى فجرته فانفجر وقد مر بيان كيفية الحال فى سورة الاعراف وسورة طه (ونزع يده) من جيبه (فاذا هى بيضاء للناظرين) قيل لما رأى فرعون الآية الاولى وقال هل لك غيرها فأخرج يده فقال ماهذه قال فرعون يدك فما فيها فادخلها فى ابطه ثم نزعها ولها شعاع يكاد يغشى الابصار

سبحانه هو الذى خلقه بسائر ماتكامل به خلقه فى الماضى دفعة واحدة وانه يهديه الى مصالح الدين والدنيا بضروب الهدايات فى كل لحظة ولمحة (وثانيها) قوله والذى هو يطعمنى ويسقين وقد دخل فيه كل مايتصل بمنافع الرزق وذلك لانه سبحانه اذا خلق له الطعام وملكه فلو لم يكن معه مايتمكن به من أكله والاغتذاء به نحو الشهوة والقوة والتمييز لم تكمل هذه النعمة وذكر الطعام والشراب ونبه بذكرهما على ماعداهما (وثالثها) قوله واذا مرضت فهو يشفين وفيه سؤال وهو انه لم قال مرضت دون امرضنى وجوابه من وجوه (الاول) ان كثيرا من اسباب المرض يحدث بتفريط من الانسان فى مطاعمه ومشاربه وغير ذلك ومن ثم قالت الحكماء لو قيل لاكثر الموتى ماسبب آجالكم لقالوا التخم (الثانى) ان المرض انما يحدث باستيلاء بعض الاخلاط على بعض وذلك الاستيلاء انما يحصل بسبب مابينها من التنافر الطبيعى اما الصحة فهى انما تحصل عند بقاء الاخلاط على اعتدالها وبقاؤها على اعتدالها انما يكون بسبب قاهر يقهرها على الاجتماع وعودها الى الصحة انما يكون ايضا بسبب قاهر يقهرها على العود الى الاجتماع والاعتدال بعد ان كانت بطباعها مشتاقة الى التفرق والنزاع فلهذا السبب اضاف الشفاء اليه سبحانه وتعالى وما اضاف المرض اليه (وثالثها) وهو ان الشفاء محبوب وهو من اصول النعم والمرض مكروه وليس من النعم وكان مقصود ابراهيم عليه السلام تعديد النعم ولما لم يكن المرض من النعم لاجرم لم يضفه اليه تعالى فان نقضته بالاماتة فجوابه ان الموت ليس بضرر لان شرط كونه ضررا وقوع الاحساس به وحال حصول الموت لايقع الاحساس به انما الضرر فى مقدماته وذلك هو عين المرض وايضا فلانك قد عرفت ان الارواح اذا كملت فى العلوم والاخلاق كان بقاؤها فى هذه الاجساد عين الضرر وخلاصها عنها عين السعادة بخلاف المرض (ورابعها) قوله والذى يميتنى ثم يحيين والمراد منه الاماتة فى الدنيا والتخلص عن آفاتها وعقوباتها والمراد من الاحياء المجازاة (وخامسها) قوله والذى اطمع ان يغفر لى خطيئتى يوم الدين فهو اشارة الى ماهو مطلوب كل عاقل من الخلاص عن العذاب والفوز بالثواب واعلم ان ابراهيم عليه السلام جمع فى هذه الالفاظ جميع نعم الله تعالى من اول الخلق الى آخر الابد فى الدار الآخرة ثم ههنا أسئلة (السؤال الاول) لم قال والذى اطمع والطمع عبارة عن الظن والرجاء وانه عليه السلام كان قاطعا بذلك (جوابه) ان هذا الكلام لايستقيم الا على مذهبنا حيث قلنا انه لايجب على الله لأحد شئ وانه يحسن منه كل شئ ولا اعتراض لأحد عليه فى فعله واجاب الجبائى عنه من وجهين (الاول) ان قوله والذى اطمع ان يغفر لى خطيئتى أراد به سائر المؤمنين لانهم الذين يطمعون ولا يقطعون به (الثانى) المراد من الطمع اليقين وهو مروى عن الحسن واجاب صاحب الكشاف بانه انما ذكره على هذا الوجه تعليما منه لامته كيفية الدعاء (واعلم) ان هذه الوجوه ضعيفة

(اما)

ويسد الافق (قال للملأ حوله) اى مستقرين حوله فهو ظرف وقع موقع الحال (ان هذا الساحر عليم) فائق فى فن السحر (يريد ان يخرجكم) قسرا (من ارضكم بسحره فماذا تأمرون) بهره سلطان المعجزة وحيره حتى حطه عن ذروة ادعاء الربوبية الى حضيض الخضوع لعبيده فى زعمه والامتثال بأمرهم او الى مقام مؤامرتهم ومشاورتهم بعد ما كان مستقلا فى الرأى والتدبير واظهر استشعار الخوف من استيلائه على ملكه ونسبة الاخراج والارض اليهم لتنفيرهم عن موسى عليه السلام (قالوا ارجه واخاه) اخر امرهما وقيل احبسهما (وابعث فى المدائن حاشرين) اى شرطا يحشرون السحرة (يأتوك) اى الحاشرون (بكل سحار عليم) فائق فى فن السحر وقرئ بكل ساحر (فجمع السحرة لميقات يوم معلوم) هو ماعينه موسى عليه السلام بقوله موعدكم يوم الزينة وان يحشر الناس ضحى (وقيل للناس هل انتم مجتمعون) قيل لهم ذلك استبطاء لهم فى الاجتماع وحثا لهم على المبادرة اليه (لعلنا نتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين) اى نتبعهم فى دينهم ان كانوا هم الغالبين لاموسى عليه السلام وليس مرادهم بذلك ان يتبعوا دينهم حقيقة وانما هو ان لا يتبعوا موسى عليه السلام لكنهم ساقوا كلامهم مساق الكناية حملا لهم على الاهتمام والجد فى المغالبة (فلما جاء السحرة قالوا لفرعون ائن لنا لاجرا) اى اجرا عظيما (ان كنا نحن

(اما الاول) فلأنّ الله تعالى حكى عنه الثناء اولا والدعاء ثانيا ومن اول المدح الى آخر الدعاء كلام ابراهيم عليه السلام بجعل الشئ الواحد وهو قوله والذى اطمع ان يغفر لى خطيئتى يوم الدين كلام غيره مما يبطل نظم الكلام ويفسده (واما الثانى) وهو ان الطمع هو اليقين فهذا على خلاف اللغة (واما الثالث) وهو ان الغرض منه تعليم الامة فباطل ايضا لان حاصله يرجع الى انه كذب على نفسه لغرض تعليم الامة وهو باطل قطعا (السؤال الثانى) لم اسند الى نفسه الخطيئة مع ان الانبياء منزهون عن الخطايا قطعا وفى جوابه ثلاثة وجوه (احدها) انه محمول على كذب ابراهيم عليه السلام فى قوله فعله كبيرهم وقوله انى سقيم وقوله لسارة انها اختى وهو ضعيف لان نسبة الكذب اليه غير جائز (وثانيها) انه ذكره على سبيل التواضع وهضم النفس وهذا ضعيف لانه ان كان صادقا فى هذا التواضع فقد لزم الاشكال وان كان كاذبا فحينئذ يرجع حاصل الجواب الى الحاق المعصية به لاجل تنزيهه عن المعصية (وثالثها) وهو الجواب الصحيح ان يحمل ذلك على ترك الاولى وقد يسمى ذلك خطأ فان من ملك جوهرة وامكنه ان يبيعها بالف الف دينار فان باعها بدينار قيل انه اخطأ وترك الاولى على الانبياء جائز (السؤال الثالث) لم علق مغفرة الخطيئة بيوم الدين وانما تغفر فى الدنيا (جوابه) لان اثرها يظهر يوم الدين وهو الآن خفى لا يعلم (السؤال الرابع) ما فائدة لى فى قوله يغفر لى خطيئتى (جوابه) من وجوه (احدها) ان الاب اذا عفا عن ولده والسيد عن عبده والزوج عن زوجته فذلك فى اكثر الامر انما يكون طلبا للثواب وهربا عن العقاب او طلبا لحسن الثناء والمحمدة او دفعا للالم الحاصل من الرقة الجنسية واذا كان كذلك لم يكن المقصود من ذلك العفو رعاية جانب المعفو عنه بل رعاية جانب نفسه اما لتحصيل ما ينبغى او لدفع ما لا ينبغى اما الاله سبحانه فانه كامل لذاته فيستحيل ان تحدث له صفات كمال لم تكن او يزول عنه نقصان كان واذا كان كذلك لم يكن عفوه الا رعاية لجانب المعفو عنه فقوله والذى اطمع ان يغفر لى يعنى هو الذى اذا غفر كان غفرانه لى ولاجلى لا لاجل امر عائد اليه البتة (وثانيها) كأنه قال خلقتنى لا لى فانك حين خلقتنى ما كنت موجودا واذا لم اكن موجودا استحال تحصيل شئ لاجلى ثم مع هذا فانت خلقتنى اما لو عفوت كان ذلك العفو لاجلى فلما خلقتنى اولا مع انى ما كنت محتاجا الى ذلك الخلق فلأنْ تغفر لى وتعفو عنى حال ما اكون فى اشد الحاجة الى العفو والمغفرة كان اولى (وثالثها) ان ابراهيم عليه السلام كان لشدة استغراقه فى بحر المعرفة شديد الفرار عن الالتفات الى الوسائط ولذلك لما قال له جبريل عليه السلام ألك حاجة قال أما اليك فلا فههنا قال اطمع ان يغفر لى خطيئتى يوم الدين اى لمجرد عبوديتى لك واحتياجى اليك تغفر لى خطيئتى لا ان تغفرها لى بواسطة شفاعة شافع ❊ قوله تعالى (رب هب لى حكما والحقنى بالصالحين واجعل لى لسان صدق فى الآخرين واجعلنى من ورثة جنة النعيم واغفر لابى انه كان من الضالين ولا تخزنى يوم

الغالبين) لاموسى عليه السلام (قال نعم) لكم ذلك (وانكم مع ذلك (اذا لمن المقربين) عندى قيل قال لهم تكونون اول من يدخل على وآخر من يخرج عنى وقرئ نعم بكسر العين وهما لغتان (قال لهم موسى) اى بعد ما قال له السحرة اما ان تلقى واما ان نكون اول من القى (القوا ما انتم ملقون) ولم يرد به الامر بالسحر والتمويه بل الاذن فى تقديم ما هم فاعلوه البتة توسلا به الى اظهار الحق وابطال الباطل (فالقوا حبالهم وعصيهم وقالوا) اى وقد قالوا عند الالقاء (بعزة فرعون انا لنحن الغالبون) قالوا ذلك لفرط اعتقادهم فى انفسهم واتيانهم باقصى ما يمكن ان يؤتى به من السحر (فالقى موسى عصاه فاذا هى تلقف) اى تبتلع بسرعة وقرئ تلقف بحذف احدى التاءين من تتلقف (ما يأفكون) اى ما يقلبونه من وجهه وصورته بتمويههم وتزويرهم فيخيلون حبالهم وعصيهم انها حيات تسعى او افكهم تسمية للمأفوك به مبالغة (فالقى السحرة ساجدين) اى اثر ما شاهدوا ذلك من غير تلعثم وتردد غير متمالكين كأن ملقيا القاهم لعلمهم بأن مثل ذلك خارج عن حدود السحر وانه امر الهى قد ظهر على يده عليه الصلاة والسلام لتصديقه وفيه دليل على ان قصارى ما ينتهى اليه همم السحرة هو التمويه والتزوير وتخييل شئ لا حقيقة له (قالوا آمنا برب العالمين) بدل اشتمال من القى او حال باضمار قد وقوله تعالى (رب موسى

يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم) اعلم ان الله تعالى حكى عن ابراهيم عليه السلام ثناءه على الله تعالى ذكر بعد ذلك دعاءه ومسئلته وذلك تنبيه على ان تقديم الثناء على الدعاء من المهمات وتحقيق الكلام فيه ان هذه الارواح البشرية من جنس الملائكة فكلما كان اشتغالها بمعرفة الله تعالى ومحبته والانجذاب الى عالم الروحانيات اشد كانت مشاكلتها للملائكة اتم فكانت اقوى على التصرف فى اجسام هذا العالم وكلما كان اشتغالها بلذات هذا العالم واستغراقها فى ظلمات هذه الجسمانيات اشد كانت مشاكلتها للبهائم اشد فكانت اكثر عجزا وضعفا واقل تأثيرا فى هذا العالم فمن أراد ان يشتغل بالدعاء يجب ان يقدم عليه ثناء الله تعالى وذكر عظمته وكبريائه حتى انه بسبب ذلك الذكر يصير مستغرقا فى معرفة الله ومحبته ويصير قريب المشاكلة من الملائكة فتحصل له بسبب تلك المشاكلة قوة الهية سماوية فيصير مبدأ لحدوث ذلك الشئ الذى هو المطلوب بالدعاء فهذا هو الكشف عن ماهية الدعاء وظهر ان تقديم الثناء على الدعاء من الواجبات وظهر به تحقيق قوله عليه السلام حكاية عن الله تعالى من شغله ذكرى عن مسئلتى اعطيته افضل ما اعطى السائلين فان قال قائل لم لم يقتصر ابراهيم عليه السلام على الثناء لاسيما ويروى عنه ايضا انه قال حسبى من سؤالى علمه بحالى (فالجواب) انه عليه السلام انما ذكر ذلك حين كان مشتغلا بدعوة الخلق الى الحق ألا ترى انه قال فانهم عدو لى الا رب العالمين ثم ذكر الثناء ثم ذكر الدعاء لان الشارع لابد له من تعليم الشرع فاما حين ما خلا بنفسه ولم يكن غرضه تعليم الشرع كان يقتصر على قوله حسبى من سؤالى علمه بحالى (البحث الثانى) فى الامور التى طلبها فى الدعاء وهى مطاليب (المطلوب الاول) قوله رب هب لى حكما والحقنى بالصالحين ولقد اجابه الله تعالى حيث قال وانه فى الآخرة لمن الصالحين وفيه مطالب (احدها) انه لا يجوز تفسير الحكم بالنبوة لان النبوة كانت حاصلة فلو طلب النبوة لكانت النبوة المطلوبة اما عين النبوة الحاصلة او غيرها والاول محال لان تحصيل الحاصل محال والثانى محال لانه يمتنع ان يكون الشخص الواحد نبيا مرتين بل المراد من الحكم ما هو كمال القوة النظرية وذلك بادراك الحق ومن قوله والحقنى بالصالحين كمال القوة العملية وذلك بان يكون عاملا بالخير فان كمال الانسان ان يعرف الحق لذاته والخير لاجل العمل به وانما قدم قوله رب هب لى حكما على قوله والحقنى بالصالحين لما ان القوة النظرية مقدمة على القوة العملية بالشرف وبالذات وايضا فانه يمكنه ان يعلم الحق وان لم يعمل بالخير وعكسه غير ممكن ولان العلم صفة الروح والعمل صفة البدن ولما كان الروح اشرف من البدن كان العلم افضل من العمل وانما فسرنا بمعرفة الاشياء بالحكم وذلك لان الانسان لا يعرف حقائق الاشياء الا اذا استحضر فى ذهنه صور الماهيات ثم نسب بعضها الى بعض بالنفى او بالاثبات وتلك النسبة هى الحكم ثم ان كانت النسب الذهنية مطابقة للنسب

(الخارجية)

وهرون) بدل من رب العالمين للتوضيح ودفع توهم ارادة فرعون حيث كان قومه الجهلة يسمونه بذلك والاشعار بأن الموجب لايمانهم به تعالى ما اجراه على ايديهما من المعجزة القاهرة (قال) اى فرعون للسحرة (آمنتم له قبل ان آذن لكم) اى بغير ان آذن لكم كما فى قوله تعالى لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربى لان الاذن منه ممكن او متوقع (انه لكبيركم الذى علمكم السحر) فتواطأتم على ما فعلتم او علمكم شيئا دون شئ فلذلك غلبكم اراد بذلك التلبيس على قومه كى لا يعتقدوا انهم آمنوا عن بصيرة وظهور حق وقرئ أآمنتم بهمزتين (فلسوف تعلمون) اى وبال ما فعلتم وقوله (لاقطعن ايديكم وارجلكم من خلاف ولاصلبنكم اجمعين) بيان له اوعدهم به (قالوا) اى السحرة (لا ضير) لا ضرر فيه علينا وقوله تعالى (انا الى ربنا منقلبون) تعليل لعدم الضير اى لا ضير فى ذلك بل لنا فيه نفع عظيم لما يحصل لنا فى الصبر عليه لوجه الله تعالى من تكفير الخطايا والثواب العظيم او لا ضير علينا فيما تتوعدنا به من القتل انه لابد لنا من الانقلاب الى ربنا بسبب من اسباب الموت والقتل اهونها وارجاها وقوله تعالى (انا نطمع ان يغفر لنا ربنا خطايانا ان كنا) اى لان كنا (اول المؤمنين) اى من اتباع فرعون او من اهل المشهد تعليل ثان لنفى الضير اى ما ضير علينا فى ذلك انا نطمع ان يغفر لنا ربنا خطايانا لكوننا اول المؤمنين

الخارجية كانت النسب الذهنية ممتنعة التغير فكانت مستحكمة قوية فمثل هذا الادراك يسمى حكمة وحكما وهو المراد من قوله عليه السلام أرنا الاشياء كما هى واما الصلاح فهو كون القوة العاقلة متوسطة بين رذيلتى الافراط والتفريط وذلك لان الافراط فى احد الجانبين تفريط فى الجانب الآخر وبالعكس فالصلاح لايحصل الا بالاعتدال ولما كان الاعتدال الحقيقى شيئا واحدا لايقبل القسمة البتة والافكار البشرية فى هذا العالم قاصرة عن ادراك امثال هذه الاشياء لاجرم لاينفك البشر عن الخروج عن ذلك الحد وان قيل الا ان خروج المقربين عنه يكون فى القلة بحيث لايحس به وخروج العصاة عنه يكون متفاحشا جدا فقد ظهر من هذا تحقيق ماقيل حسنات الابرار سيئات المقربين وظهر احتياج ابراهيم عليه السلام الى ان يقول والحقنى بالصالحين (المطلب الثانى) لما ثبت ان المراد من الحكم العلم ثبت انه عليه السلام طلب من الله ان يعطيه العلم بالله تعالى وبصفاته وهذا يدل على ان معرفة الله تعالى لاتحصل فى قلب العبد الابخلق الله تعالى وقوله والحقنى بالصالحين يدل على ان كون العبد صالحا ليس الابخلق الله تعالى وحمل هذه الاشياء على الالطاف بعيد لان عند الخصم كل ما فى قدرة الله تعالى من الالطاف فقد فعله فلو صرفنا الدعاء اليه لكان ذلك طلبا لتحصيل الحاصل وهو فاسد (المطلب الثالث) ان الحكم المطلوب فى الدعاء اما ان يكون هو العلم بالله او بغيره والثانى باطل لان الانسان حال كونه مستحضرا للعلم بالشئ لايمكنه ان يكون مستحضرا للعلم بشئ آخر فلو كان المطلوب بهذا الدعاء العلم بغير الله تعالى والعلم بغير الله تعالى شاغل عن الاستغراق فى العلم بالله كان هذا السؤال طلبا لما يشغله عن الاستغراق فى العلم بالله تعالى وذلك غير جائز لانه لا كمال فوق ذلك الاستغراق فاذن المطلوب بهذا الدعاء هو العلم بالله ثم ان ذلك العلم اما ان يكون هو العلم بالله تعالى الذى هو شرط صحة الايمان او غيره والاول باطل لانه لما وجب ان يكون حاصلا لكل المؤمنين فكيف لايكون حاصلا عند ابراهيم عليه السلام واذا كان حاصلا عنده امتنع طلب تحصيله فثبت ان المطلوب بهذا الدعاء درجات فى معرفة الله تعالى ازيد من العلم بوجوده وبانه ليس بمتحيز ولا حال فى المتحيز وبانه عالم قادر حى وماذاك الا الوقوف على صفات الجلال او الوقوف على حقيقة الذات او ظهور نور تلك المعرفة فى القلب ثم هناك احوال لايعبر عنها المقال ولايشرحها الخيال ومن أراد ان يصل اليها فليكن من الواصلين الى العين دون السامعين للاثر (المطلوب الثانى) قوله واجعل لى لسان صدق فى الآخرين وفيه ثلاث تأويلات (التأويل الاول) انه عليه السلام ابتدأ بطلب ماهو الكمال الذاتى للانسان فى الدنيا والآخرة وهو طلب الحكم الذى هو العلم ثم طلب بعده كمالات الدنيا وبعد ذلك طلب كمالات الآخرة فاما كمالات الدنيا فبعضها داخلية وبعضها خارجية اما الداخلية فهى الخلق الظاهر والخلق الباطن

وقرئ ان كنا على الشرط لهضم النفس وعدم الثقة بالخاتمة او على طريقة قول المدل بأمره كقول العامل لمستأجر أخر اجرتى ان كنت عملت لك فوفنى حقى (واوحينا الى موسى ان اسر بعبادى) وذلك بعد سنين اقام بين اظهرهم يدعوهم الى الحق ويظهر لهم الآيات فلم يزيدوا الاعتوا وعنادا حسبما فصل فى سورة الاعراف بقوله تعالى ولقد اخذنا آل فرعون بالسنين الآيات وقرئ بكسر النون ووصل الالف من سرى وقرئ ان سر من السير (انكم متبعون) تعليل للامر بالاسراء اى يتبعكم فرعون وجنوده مصبحين فأسر بهم حتى لايدركوكم قبل الوصول الى البحر فيدخلوا مداخلكم فأطبقه عليهم فأغرقهم (فأرسل فرعون) حين اخبر بمسيرهم (فى المدائن حاشرين) جامعين للعساكر ليتبعوهم (ان هؤلاء) يريد بنى اسرائيل (لشرذمة قليلون) استقلهم وهم ستمائة الف وسبعون الفا بالنسبة الى جنوده اذ روى انه ارسل فى اثرهم الف الف وخمسمائة الف ملك مسور مع كل ملك الف وخرج فرعون فى جمع عظيم وكانت مقدمته سبعمائة الف رجل على حصان وعلى رأسه بيضة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما خرج فرعون فى الف الف حصان سوى الاناث (وانهم لنا لغائظون) اى فاعلون مايغيظنا (وانا لجميع حاذرون) يريد انهم لقلتهم لايبالى بهم ولايتوقع غلبتهم وعلوهم ولكنهم يفعلون افعالا تغيظنا وتضيق صدورنا ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم فى الامور فاذا خرج علينا خارج سارعنا الى اطفاء نائرة فساده وهذه معاذير

والخلق الظاهر اشد جسمانية والخلق الباطن اشد روحانية فترك ابراهيم عليه السلام الامر الجسمانى وهو الخلق الظاهر وطلب الامر الروحانى وهو الخلق الباطن وهو المراد بقوله وألحقنى بالصالحين واما الخارجية فهى المال والجاه والمال اشد جسمانية والجاه اشد روحانية فترك ابراهيم عليه السلام الامر الجسمانى وهو المال وطلب الامر الروحانى وهو الجاه والذكر الجميل الباقى على وجه الدهر وهو المراد بقوله واجعل لى لسان صدق فى الآخرين قال ابن عباس رضى الله عنهما وقد اعطاه الله ذلك بقوله وتركنا عليه فى الآخرين فان قيل واى غرض له فى ان يثنى عليه ويمدح جوابه من وجهين (الاول) وهو على لسان الحكمة ان الارواح البشرية قد بينا انها مؤثرة فى الجملة الا ان بعضها قد يكون ضعيفا يعجز عن التأثير فاذا اجتمعت طائفة منها فربما قوى مجموعها على ماعجزت الآحاد عنه وهذا المعنى مشاهد فى المؤثرات الجسمانية اذا ثبت هذا فالانسان الواحد اذا كان بحيث يثنى عليه الجمع العظيم ويمدحونه ويعظمونه فربما صار انصراف هممهم عند الاجتماع اليه سببا لحصول زيادة كمال له (الثانى) وهو على لسان الكمال ان من صار ممدوحا فيما بين الناس بسبب ماعنده من الفضائل فانه يصير ذلك المدح وتلك الشهرة داعيا لغيره الى اكتساب مثل تلك الفضائل (التأويل الثانى) انه سأل ربه ان يجعل من ذريته فى آخر الزمان من يكون داعيا الى الله تعالى وذلك هو محمد صلى الله عليه وسلم فالمراد من قوله واجعل لى لسان صدق فى الآخرين بعثة محمد صلى الله عليه وسلم (التأويل الثالث) قال بعضهم المراد اتفاق اهل الاديان على حبه ثم ان الله تعالى اعطاه ذلك لانك لاترى اهل دين الا ويتوالون ابراهيم عليه السلام وقدح بعضهم فيه بانه لاتقوى الرغبة فى مدح الكافر وجوابه انه ليس المقصود مدح الكافر من حيث هو كافر بل المقصود ان يكون ممدوح كل انسان ومحبوب كل قلب (المطلوب الثالث) قوله واجعلنى من ورثة جنة النعيم اعلم انه لما طلب سعادة الدنيا طلب بعدها سعادة الآخرة وهى جنة النعيم وشبهها بما يورث لانه الذى يغتنم فى الدنيا فشبه غنيمة الآخرة بغنيمة الدنيا (المطلوب الرابع) قوله واغفر لأبى انه كان من الضالين واعلم انه لما فرغ من طلب السعادات الدنيوية والاخروية لنفسه طلبها لاشد الناس التصاقا به وهو ابوه فقال واغفر لأبى ثم فيه وجوه (الاول) ان المغفرة مشروطة بالاسلام وطلب المشروط متضمن لطلب الشرط فقوله واغفر لأبى يرجع حاصله الى انه دعاء لأبيه بالاسلام (الثانى) ان اباه وعده الاسلام كما قال تعالى وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الاعن موعدة وعدها اياه فدعاله لهذا الشرط ولا يمتنع الدعاء للكافر على هذا الشرط فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه وهذا ضعيف لان الدعاء بهذا الشرط جائز للكافر فلو كان دعاؤه مشروطا لما منعه الله عنه (الثالث) ان اباه قال له انه على دينه باطنا وعلى دين نمروذ ظاهرا تقية وخوفا فدعاله لاعتقاده ان الامر كذلك فلما تبين له خلاف ذلك تبرأ منه ولذلك قال فى دعائه انه كان من الضالين فلولا اعتقاده فيه

(انه)

اعتذروا بها الى اهل المدائن لئلا يظن به ما يكسر من قهره وسلطانه وقرئ حذرون فالاول دال على التجدد والثانى على الثبات وقيل الحاذر المؤدى فى السلاح وقرئ حادرون بالدال المهملة اى اقوياء واشداء وقيل مدججون فى السلاح قد كسبهم ذلك حدارة فى اجسامهم (فأخرجناهم) بأن خلقنا فيهم داعية الخروج بهذا السبب فحملتهم عليه (من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم) كانت لهم جملة ذلك (كذلك) اما مصدر تشبيهى لاخرجنا اى مثل ذلك الاخراج العجيب اخرجناهم او صفة لمقام كريم اى من مقام كريم كائن كذلك او خبر لمبتدأ محذوف اى الامر كذلك (واورثناها بنى اسرائيل) اى ملكناها اياهم على طريقة تمليك مال المورث للوارث كأنهم ملكوها من حين خروج اربابها منها قبل ان يقبضوها ويتسلموها (فأتبعوهم) اى فلحقوهم وقرئ فاتبعوهم (مشرقين) داخلين فى وقت شروق الشمس اى طلوعها (فلما تراءى الجمعان) تقاربا بحيث رأى كل واحد منهما الآخر وقرئ تراءت الفئتان (قال اصحاب موسى انا لمدركون) جاؤا بالجملة الاسمية مؤكدة بحرفى التأكيد للدلالة على تحقق الادراك واللحاق وتنجزهما وقرئ لمدركون بتشديد الدال من ادرك الشئ اذا تتابع ففنى اى لمتتابعون فى الهلاك على ايديهم (قال كلا) ردعهم عن ذلك فانهم لايدركونكم (ان معى ربى) بالنصرة والهداية (سيهدين) البتة الى طريق النجاة منهم بالكلية روى ان يوشع عليه السلام قال يا كليم الله اين امرت فقد غشينا فرعون والبحر امامنا

انه فى الحال ليس بضال لما قال ذلك (المطلوب الخامس) قوله ولا تخزنى يوم يبعثون قال صاحب الكشاف الاخزاء من الخزى وهو الهوان او من الخزاية وهى الحياء وههنا ابحاث (احدها) ان قوله ولا تخزنى يدل على انه لا يجب على الله تعالى شئ على ما بيناه فى قوله والذى اطمع ان يغفر لى خطيئتى يوم الدين (وثانيها) ان لقائل ان يقول لما قال اولا واجعلنى من ورثة جنة النعيم ومتى حصلت الجنة امتنع حصول الخزى فكيف قال بعده ولا تخزنى يوم يبعثون وايضا فقد قال تعالى ان الخزى اليوم والسوء على الكافرين فما كان نصيب الكفار فقط فكيف يخافه المعصوم (جوابه) كما ان حسنات الابرار سيئات المقربين فكذا درجات الابرار دركات المقربين وخزى كل واحد بما يليق به (وثالثها) قال صاحب الكشاف فى يبعثون ضميرا لعباد لانه معلوم او ضمير الضالين اما قوله الا من اتى الله بقلب سليم فاعلم انه تعالى اكرمه بهذا الوصف حيث قال وان من شيعته لابراهيم اذ جاء ربه بقلب سليم * ثم فى هذا الاستثناء وجوه (احدها) انه اذا قيل لك هل لزيد مال وبنون فتقول ماله وبنوه سلامة قلبه تريد نفى المال والبنين عنه واثبات سلامة القلب له بدلا عن ذلك فكذا فى هذه الآية (وثانيها) ان نحمل الكلام على المعنى ونجعل المال والبنين فى معنى الغنى كأنه قيل يوم لا ينفع غنى الاغنى من اتى الله بقلب سليم لان غنى الرجل فى دينه بسلامة قلبه كما ان غناه فى دنياه بماله وبنيه (وثالثها) ان نجعل من مفعولا لينفع اى ولا ينفع مال ولا بنون الا رجلا سلم قلبه مع ماله حيث انفقه فى طاعة الله تعالى ومع بنيه حيث ارشدهم الى الدين ويجوز على هذا الا من اتى الله بقلب سليم من فتنة المال والبنين اما السليم ففيه ثلاثة اوجه (الاول) وهو الاصح ان المراد منه سلامة القلب عن الجهل والاخلاق الرذيلة وذلك لانه كما ان صحة البدن وسلامته عبارة عن حصول ما ينبغى من المزاج والتركيب والاتصال ومرضه عبارة عن زوال احد تلك الامور فكذلك سلامة القلب عبارة عن حصول ما ينبغى له وهو العلم والخلق الفاضل ومرضه عبارة عن زوال احدهما فقوله الا من اتى الله بقلب سليم اى يكون خاليا عن العقائد الفاسدة والميل الى شهوات الدنيا ولذاتها فان قيل فظاهر هذه الآية يقتضى ان من سلم قلبه كان ناجيا وانه لا حاجة فيه الى سلامة اللسان واليد (جوابه) ان القلب مؤثر واللسان والجوارح تبع فلو كان القلب سليما لكانا سليمين لا محالة وحيث لم يسلما ثبت عدم سلامة القلب (التأويل الثانى) ان السليم هو اللديغ من خشية الله تعالى (التأويل الثالث) ان السليم هو الذى سلم واسلم وسالم واستسلم والله اعلم * قوله تعالى (وازلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين وقيل لهم اين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم او ينتصرون فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود ابليس اجمعون قالوا وهم فيها يختصمون تالله ان كنا لفى ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين وما اضلنا الا المجرمون فما لنا من شافعين ولا صديق حميم فلو ان لنا كرة فنكون من المؤمنين ان فى ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم)

قال عليه السلام ههنا فخاض يوشع عليه السلام الماء وضرب موسى عليه السلام بعصاه البحر فكان ما كان وروى ان مؤمنا من آل فرعون كان بين يدى موسى عليه السلام فقال اين امرت فهذا البحر امامك وقد غشيك آل فرعون قال عليه السلام امرت بالبحر ولعلى اومر بما اصنع فأمر بما امر به وذلك قوله تعالى (فأوحينا الى موسى ان اضرب بعصاك البحر) القلزم او النيل (فانفلق) الفاء فصيحة اى فضرب فانفلق فصار اثنى عشر فرقا بعدد الاسباط بينهن مسالك (فكان كل فرق) حاصل بالانفلاق (كالطود العظيم) كالجبل المنيف الثابت فى مقره فدخلوا فى شعابها كل سبط فى شعب منها (وازلفنا) اى قربنا (ثم الآخرين) اى فرعون وقومه حتى دخلوا على اثرهم مداخلهم (وانجينا موسى ومن معه اجمعين) بحفظ البحر على تلك الهيئة الى ان عبروا الى البر (ثم اغرقنا الآخرين) باطباقه عليهم (ان فى ذلك) اى فى جميع ما فصل مما صدر عن موسى عليه السلام وظهر على يديه من المعجزات القاهرة ومما فعل فرعون وقومه من الاقوال والافعال وما فعل بهم من العذاب والنكال وما فى اسم الاشارة من معنى البعد لتهويل امر المشار اليه وتفظيعه كتنكير الآية فى قوله تعالى (لآية) اى آية آية او آية عظيمة لا تكاد توصف موجبة لان يعتبر بها المعتبرون ويقيسوا شأن النبى عليه الصلاة والسلام بشأن موسى عليه السلام وحال انفسهم بحال اولئك المهلكين ويجتنبوا تعاطى ما كانوا يتعاطونه من الكفر والمعاصى ومخالفة الرسول ويؤمنوا بالله تعالى ويطيعوا

اعلم ان ابراهيم عليه السلام ذكر فى وصف هذا اليوم امورا (احدها) قوله وازلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين والمعنى ان الجنة قد تكون قريبة من موقف السعداء ينظرون اليها ويفرحون بأنهم المحشورون اليها والنار تكون بارزة مكشوفة للاشقياء بمرأى منهم يتحسرون على انهم المسوقون اليها قال الله تعالى فى صفة اهل الثواب وازلفت الجنة للمتقين غير بعيد وقال فى صفة اهل العقاب فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وانما يفعل الله تعالى ذلك ليكون سرورا معجلا للمؤمنين وغما عظيما للكافرين (ثانيها) قوله وقيل لهم اينما كنتم الى قوله وجنود ابليس اجمعون والمعنى اين آلهتكم هل ينفعونكم بنصرتهم لكم او هل ينفعون انفسهم بانتصارهم لانهم وآلهتهم وقود النار وهو قوله فكبكبوا فيها هم والغاوون اى الآلهة وعبدتهم الذين برزت لهم الجحيم والكبكبة تكرير الكب جعل التكرير فى اللفظ دليلا على التكرير فى المعنى كأنه اذا ألقى فى جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر فى قعرها وجنود ابليس متبعوه من عصاة الانس والجن (ثالثها) قوله قالوا وهم فيها يختصمون تالله ان كنا لفى ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين ، واعلم ان ظاهر ذلك ان من عبد خاصم المعبود وخاطبه بهذا الكلام فليس يخلو حال الاصنام من وجهين اما ان يخلقها الله تعالى فى الآخرة جمادا يعذب بها اهل النار فحينئذ لايصح ان تخاطب ويجب حمل قولهم اذ نسويكم برب العالمين على انه ليس بخطاب لهم او يقال انه تعالى يحييها فى النار وذلك ايضا غير جائز لانه لاذنب لها بأن عبدها غيرها فالاقرب انهم ذكروا ذلك لما رأوا صورها على وجه الاعتراف بالخطأ العظيم وعلى وجه الندامة لا على سبيل المخاطبة والذى يحمل على انه خطاب فى الحقيقة قولهم وما اضلنا الا المجرمون وارادوا بذلك من دعاهم الى عبادة الاصنام من الجن والانس وهو كقولهم ربنا انا اطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا فاما قولهم فما لنا من شافعين كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبيين ولا صديق كما نرى لهم اصدقاء لانه لايتصادق فى الآخرة الا المؤمنون واما اهل النار فبينهم التعادى والتباغض قال تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين او فما لنا من شافعين ولا صديق حميم من الذين كنا نعدهم شفعاء واصدقاء لانهم كانوا يعتقدون فى اصنامهم انهم شفعاؤهم عند الله تعالى وكان لهم اصدقاء من شياطين الانس او ارادوا انهم ان وقعوا فى مهلكة علموا ان الشفعاء والاصدقاء لاينفعونهم ولا يدفعون عنهم فقصدوا بنفيهم نفى ما تعلق بهم من النفع لان مالا ينفع فحكمه حكم المعدوم والحميم من الاحتمام وهو الاهتمام وهو الذى يهمه ما يهمك او من الحامة بمعنى الخاصة وهو الصديق الخالص وانما جمع الشفعاء ووحد الصديق لكثرة الشفعاء فى العادة وقلة الصديق فان الرجل الممتحن بارهاق ظالم قد ينهض جماعة وافرة من اهل بلده لشفاعته رحمة له وان لم يسبق له بأكثرهم معرفة واما الصديق وهو الصادق فى وداده فاعز من بيض الانوق ويجوز ان يريد بالصديق الجمع ثم حكى تعالى عنهم قولهم فلو ان لنا كرة فنكون

رسوله كيلا يحل بهم مثل ما حل باولئك او ان فيما فصل من القصة من حيث حكايته عليه الصلاة والسلام اياها على ما هى عليه من غير ان يسمعها من احد لآية عظيمة دالة على ان ذلك بطريق الوحى الصادق موجبة للايمان بالله تعالى وحده وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام (وما كان اكثرهم) اى اكثر هؤلاء الذين سمعوا قصتهم منه عليه الصلاة والسلام (مؤمنين) لابأن يقيسوا شأنه بشأن موسى عليهما السلام وحال انفسهم بحال اولئك المكذبين المهلكين ولا بأن يتدبروا فى حكايته عليه الصلاة والسلام لقصتهم من غير ان يسمعها من احد مع كون كل من الطريقين مما يؤدى الى الايمان قطعا ومعنى ما كان اكثرهم مؤمنين وما اكثرهم مؤمنين على ان كان زائدة كما هو رأى سيبويه فيكون كقوله تعالى وما اكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين وهو اخبار منه تعالى بما سيكون من المشركين بعدما سمعوا الآيات الناطقة بالقصة تقريرا لما مر من قوله تعالى وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين فقد كذبوا الخ وايذان الجملة الاسمية للدلالة على استقرارهم على عدم الايمان واستمرارهم عليه ويجوز ان يجعل كان بمعنى صار كما فعل ذلك فى قوله تعالى وكان من الكافرين فالمعنى وما صار اكثرهم مؤمنين مع ما سمعوا من الآية العظيمة الموجبة له بما ذكر من الطريقين فيكون الاخبار بعدم الصيرورة قبل الحدوث للدلالة على كمال تحققه وتقرره كقوله تعالى اتى امر الله الآية (وان ربك لهو العزيز) الغالب على كل ما يريده

من المؤمنين وانهم تمنوا الرجعة الى الدنيا ولو فى مثل هذا الموضع فى معنى التمنى كأنه قيل
فليت لنا كرة وذلك لما بين معنى لو وليت من التلاقى فى التقدير ويجوز ان تكون على اصلها
ويحذف الجواب وهو لفعلنا كيت وكيت (قال) الجبائى ان قولهم فنكون من المؤمنين
ليس بخبر عن ايمانهم لكنه خبر عن عزمهم لانه لو كان خبرا عن ايمانهم لوجب ان يكون
صدقا لان الكذب لا يقع من اهل الآخرة وقد اخبر الله تعالى بخلاف ذلك فى قوله
ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وقد تقدم فى سورة الانعام بيان فساد هذا الكلام ثم بين
سبحانه ان فيما ذكره من قصة ابراهيم عليه السلام لآية لمن يريد ان يستدل بذلك ثم قال
تعالى وما كان اكثرهم مؤمنين والاكثرون من المفسرين حملوه على قوم ابراهيم ثم بين
تعالى ان مع كل هذه الدلائل فأكثر قومه لم يؤمنوا به فيكون هذا تسلية لرسول صلى الله
عليه وسلم فيما يجده من تكذيب قومه فاما قوله وان ربك لهو العزيز الرحيم فمعناه انه قادر
على تعجيل الانتقام لكنه رحيم بالامهال لكى يؤمنوا * (القصة الثالثة) قصة نوح عليه
السلام قوله تعالى (كذبت قوم نوح المرسلين اذ قال لهم اخوهم نوح ألا تتقون انى لكم
رسول امين فاتقوا الله وأطيعون وما اسألكم عليه من اجر ان اجرى الا على رب
العالمين فاتقوا الله وأطيعون قالوا أنؤمن لك واتبعك الارذلون قال وما علمى بما كانوا
يعملون ان حسابهم الا على ربى لو تشعرون وما أنا بطارد المؤمنين ان أنا الا نذير مبين قالوا
لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين قال رب ان قومى كذبون فافتح بينى وبينهم فتحا
ونجنى ومن معى من المؤمنين فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون ثم اغرقنا بعد الباقين
ان فى ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) اعلم انه تعالى
لما قص على محمد صلى الله عليه وسلم خبر موسى وابراهيم تسلية له فيما يلقاه من قومه قص
عليه ايضا نبأ نوح عليه السلام فقد كان نبؤه اعظم من نبأ غيره لانه كان يدعوهم الف سنة
الا خمسين عاما ومع ذلك كذبه قومه فقال كذبت قوم نوح وانما قال كذبت لان القوم
مؤنث وتصغيرها قويمة وانما حكى عنهم انهم كذبوا المرسلين لوجهين (احدهما) انهم
وان كذبوا نوحا لكن تكذيبه فى المعنى يتضمن تكذيب غيره لان طريقة معرفة الرسل لا تختلف
من حيث المعنى حكى عنهم انهم كذبوا المرسلين (وثانيهما) ان قوم نوح كذبوا بجميع رسل
الله تعالى اما لانهم كانوا من الزنادقة او من البراهمة واما قوله اخوهم فلانه كان منهم من
قول العرب يا اخا بنى تميم يريدون يا واحدا منهم ثم انه سبحانه حكى عن نوح عليه السلام انه
اولا خوفهم وثانيا انه وصف نفسه اما التخويف فهو قوله ألا تتقون واعلم ان القوم انما
قبلوا تلك الاديان للتقليد والمقلد اذا خوف خاف وما لم يحصل الخوف فى قلبه لا يشتغل
بالاستدلال فلهذا السبب قدم على جميع كلماته قوله ألا تتقون * واما وصفه نفسه فذلك
بامرين (احدهما) قوله انى لكم رسول امين وذلك لانه كان فيهم مشهورا بالامانة كمحمد
صلى الله عليه وسلم فى قريش فكأنه قال كنت امينا من قبل فكيف تتهمونى اليوم

من الامور التى من جملتها الانتقام
من المكذبين (الرحيم) المبالغ فى
الرحمة ولذلك يمهلهم ولا يعجل
عقوبتهم بعدم ايمانهم بعد مشاهدة
هذه الآية العظيمة بطريق
الوحى مع كمال استحقاقهم لذلك هذا
هو الذى يقتضيه جزالة النظم
الكريم من مطلع السورة الكريمة
الى آخر القصص السبع بل
الى آخر السورة الكريمة اقتضاء
بينا لا ريب فيه واما ما قيل من ان
ضمير اكثرهم لاهل عصر فرعون
من القبط وغيرهم وان المعنى وما
كان اكثر اهل مصر مؤمنين حيث
لم يؤمن منهم الا آسية وحزقيل
ومريم ابنة ياموشا التى دلت على
تابوت يوسف عليه السلام وبنو
اسرائيل بعد ما نجوا سألوا بقرة
يعبدونها واتخذوا العجل وقالوا
لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة
فبمعزل من التحقيق كيف لا وما ساق
كل قصة من القصص الواردة
فى السورة الكريمة سوى قصة
ابراهيم عليه السلام انما هو
لبيان حال طائفة معينة قد عتوا
عن امر ربهم وعصوا رسله عليهم
الصلاة والسلام كما يفصح عنه
تصدير القصص بتكذيبهم
المرسلين بعد ما شاهدوا بايديهم
من الآيات العظام ما يوجب عليهم
الايمان ويزجرهم عن الكفر
والعصيان واصروا على ما هم عليه
من التكذيب فعاقبهم الله تعالى
لذلك بالعقوبة الدنيوية وقطع
دابرهم بالكلية فكيف يمكن ان
يخبر عنهم بعدم ايمان اكثرهم
لا سيما بعد الاخبار باهلاكهم
وعد المؤمنين من جملتهم اولا
واخراجهم منها آخرا مع عدم
مشاركتهم لهم فى شئ مما حكى
عنهم من الجنايات اصلا مما يوجب
تنزيه التنزيل عن امثاله فتدبر
(واتل عليهم) عطف على المضمر
المقدر

(وثانيهما) قوله وما اسئلكم عليه من اجر اى على ما انا فيه من ادعاء الرسالة لئلا يظن به انه
دعاهم لرغبة (فان قيل) ولماذا كرر الامر بالتقوى (جوابه) لانه فى الاول اراد الا تتقون
مخالفتى وانا رسول الله وفى الثانى الا تتقون مخالفتى ولست آخذا منكم اجرا فهو فى
المعنى مختلف ولا تكرار فيه وقد يقول الرجل لغيره الا تتقى الله فى عقوقى وقد ربيتك صغيرا
الا تتقى الله فى عقوقى وقد علمتك كبيرا وانما قدم الامر بتقوى الله تعالى على الامر بطاعته
لان تقوى الله علة لطاعته فقدم العلة على المعلول ثم ان نوحا عليه السلام لما قال لهم ذلك
اجابوه بقولهم أنؤمن لك واتبعك الارذلون (قال صاحب الكشاف) وقرئ واتباعك
الارذلون جمع تابع كشاهد واشهاد او جمع تبع كبطل وابطال والواو للحال وحقها
ان يضمر بعدها قد فى واتبعك وقد جمع ارذال على الصحة وعلى التكسير فى قولهم الذين هم
اراذلنا والرذالة الخسة وانما استرذلوهم لاتضاع نسبهم وقلة نصيبهم من الدنيا وقيل كانوا من
اهل الصناعات الخسيسة كالحياكة والحجامة واعلم ان هذه الشبهة فى نهاية الركاكة لان نوحا
عليه السلام بعث الى الخلق كافة فلا يختلف الحال فى ذلك بسبب الفقر والغنى وشرف
المكاسب ودناءتها فأجابهم نوح عليه السلام بالجواب الحق وهو قوله وما علمى بما كانوا
يعملون وهذا الكلام يدل على انهم نسبوهم مع ذلك الى انهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة
وانما آمنوا بالهوى والطمع كما حكى الله تعالى عنهم فى قوله الذين هم اراذلنا بادى الرأى
ثم قال ان حسابهم الا على ربى معناه لا نعتبر الا الظاهر من امرهم دون ما يخفى ولما قال
ان حسابهم الا على ربى وكانوا لا يصدقون بذلك اردفه بقوله لو تشعرون ثم قال وما انا بطارد
المؤمنين وذلك كالدلالة على ان القوم سألوه ابعادهم لكى يتبعوه او ليكونوا اقرب الى ذلك
فبين ان الذى يمنعه عن طردهم انهم آمنوا به ثم بين ان غرضه عاجل من الرسالة يمنع من
ذلك بقوله ان انا الا نذير مبين والمراد انى اخوف من كذبنى ولم يقبل منى فمن قبل فهو
القريب ومن رد فهو البعيد ثم ان نوحا عليه السلام لما تمم هذا الجواب لم يكن منهم الا
التهديد فقالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين والمعنى انهم خوفوه بأن يقتل
بالحجارة فعند ذلك حصل اليأس لنوح عليه السلام من فلاحهم وقال رب ان قومى
كذبون فافتح بينى وبينهم فتحا وليس الغرض منه اخبار الله تعالى بالتكذيب لعلمه انه عالم
الغيب والشهادة اعلم ولكنه اراد انى لا ادعوك عليهم لما آذونى وانما ادعوك لاجلك ولاجل
دينك ولانهم كذبونى فى وحيك ورسالتك فافتح بينى وبينهم اى فاحكم بينى وبينهم والفتاحة
الحكومة والفتاح الحاكم لانه يفتح المستغلق والمراد من هذا الحكم انزال العقوبة
عليهم لانه قال عقبه ونجنى ولولا ان المراد انزال العقوبة لما كان لذكر النجاة بعده معنى
وقد تقدم القول فى قصته مشروحا فى سورة الاعراف وسورة هود * ثم قال تعالى فأنجيناه
ومن معه فى الفلك المشحون (قال صاحب الكشاف) الفلك السفينة وجمعه فلك قال
تعالى وترى الفلك فيه مواخر فالواحد بوزن قفل والجمع بوزن اسد والمشحون المملوء

(يقال)

عاملا لاذ نادى الخ اى واتل على
المشركين (نبأ ابراهيم) اى خبره
العظيم الشأن حسبما وحى اليك
لتقف على ما ذكر من عدم ايمانهم بما
يأتيهم من الآيات باحد الطريقين
(اذ قال) منصوب اما على الظرفية
لنبأ اى نبأه وقت قوله (لابيه
وقومه) او على المفعولية لاتل
على انه بدل من نبأ اى وتل
عليهم وقت قوله لهم (ماتعبدون)
على ان المتلو ما قاله لهم فى ذلك
الوقت سألهم عليه الصلاة
والسلام عن ذلك ليبنى على
جوابهم ان ما يعبدونه بمعزل
من استحقاق العبادة بالكلية (قالوا
نعبد اصناما فنظل لها عاكفين)
لم يقتصروا على الجواب الكافى
بأن يقولوا اصناما كما فى قوله
تعالى ويسألونك ماذا ينفقون قل
العفو وقوله تعالى ماذا انزل ربكم
قالوا الحق ونظائرهما بل اطنبوا
فيه باظهار الفعل وعطف دوام
عكوفهم على صنامهم قصدا الى
ابراز ما فى نفوسهم الخبيثة من
الابتهاج والافتخار بذلك والمراد
بالظلول الدوام وقيل كانوا
يعبدونها بالنهار دون الليل
وصلة العكوف كلمة على وايراد
اللام لافادة معنى زائد كأنهم
قالوا فنظل لاجلها مقبلين على
عبادتها او مستديرين حولها وهذا
ايضا من جملة اطنابهم (قال)
استئناف مبنى على سؤال نشأ
من تفصيل جوابهم (هل
يسمعونكم) اى هل يسمعون
دعاءكم على حذف المضاف او
يسمعونكم تدعون كقولك سمعت
زيدا يقول كيت وكيت فحذف
لدلالة قوله تعالى (اذ تدعون)
عليه وقرئ هل يسمعونكم من
الاسماع اى هل يسمعونكم شيئا
من الاشياء او الجواب عن دعائكم
وهل يقدرون على ذلك

يقال شحنها عليهم خيلا ورجلا فدل ذلك على ان الذين نجوا معه كان فيهم كثرة وان الفلك امتلأ بهم وبما صحبهم وبين تعالى انه بعد ان انجاهم اغرق الباقين وان اغراقه لهم كان كالمتأخر عن نجاتهم ۞ (القصة الرابعة) قصة هود عليه السلام قوله تعالى (كذبت عاد المرسلين اذ قال لهم اخوهم هود ألا تتقون انى لكم رسول امين فاتقوا الله واطيعون وما أسألكم عليه من اجر ان اجرى الا على رب العالمين أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون واذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله واطيعون واتقوا الذى امدكم بما تعلمون امدكم بانعام وبنين وجنات وعيون انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم قالوا سواء علينا او عظت ام لم تكن من الواعظين ان هذا الا خلق الاولين وما نحن بمعذبين فكذبوه فاهلكناهم ان فى ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) اعلم ان فاتحة هذه القصة وفاتحة قصة نوح عليه السلام واحدة فلا فائدة فى اعادة التفسير ثم انه تعالى ذكر الامور التى تكلم فيها هود عليه السلام معهم وهى ثلاثة (فأولها) قوله أتبنون بكل ريع آية تعبثون قرئ بكل ريع بالكسر والفتح وهو المكان المرتفع ومنه قوله كم ريع ارضك وهو ارتفاعها والآية العلم ثم فيه وجوه (احدها) عن ابن عباس انهم كانوا يبنون بكل ريع علما يعبثون فيه بمن يمر فى الطريق الى هود عليه السلام (والثانى) انهم كانوا يبنون فى الاماكن المرتفعة ليعرف بذلك غناهم تفاخرا فنهوا عنه ونسبوا الى العبث (والثالث) انهم كانوا ممن يهتدون بالنجوم فى اسفارهم فاتخذوا فى طريقهم اعلاما طوالا فكان ذلك عبثا لانهم كانوا مستغنين عنها بالنجوم (والرابع) بنوا بكل ريع بروج الحمام (وثانيها) قوله وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون المصانع مآخذ الماء وقيل القصور المشيدة والحصون لعلكم تخلدون ترجون الخلد فى الدنيا او يشبه حالكم حال من يخلد وفى مصحف ابى كأنكم وقرئ تخلدون بضم التاء مخففا ومشددا واعلم ان الاول انما صار مذموما لدلالته اما على السرف او على الخيلاء والثانى انما صار مذموما لدلالته على الامل الطويل والغفلة عن ان الدنيا دار ممر لا دار مقر (وثالثها) قوله واذا بطشتم بطشتم جبارين بين انهم مع ذلك السرف والحرص فان معاملتهم مع غيرهم معاملة الجبارين وقد بينا فى غير هذا الموضع ان هذا الوصف فى العباد ذم وان كان فى وصف الله تعالى مدحا فكان من يقدم على الغير لا على طريق الحق ولكن على طريق الاستعلاء يوصف بأن بطشه بطش جبار وحاصل الامر فى هذه الامور الثلاثة ان اتخاذ الابنية العالية يدل على حب العلو واتخاذ المصانع يدل على حب البقاء والجبارية تدل على حب التفرد بالعلو فيرجع الحاصل الى انهم احبوا العلو وبقاء العلو والتفرد بالعلو وهذه صفات الالهية وهى ممتنعة الحصول للعبد فدل ذلك على ان حب الدنيا قد استولى عليهم بحيث استغرقوا فيه وخرجوا عن حد العبودية وحاموا حول ادعاء الربوبية وكل ذلك ينبه على ان حب الدنيا رأس كل خطيئة وعنوان

وصيغة المضارع مع اذ على حكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها كأنه قيل لهم استحضروا الاحوال الماضية التى كنتم تدعونها فيها واجيبوا هل سمعوا او سمعوا قط (او ينفعونكم) بسبب عبادتكم لها (او يضرون) اى يضرونكم بترككم لعبادتها اذ لابد للعبادة لا سيما عند كونها على ما وصفتم من المبالغة فيها من جلب نفع او دفع ضر (قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) اعترفوا بأنها بمعزل مما ذكر من السمع والمنفعة والمضرة بالمرة واضطروا الى اظهار ان لا سند لهم سوى التقليد اى ما علمنا او ما رأينا منهم ما ذكر من الامور بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون اى مثل عبادتنا يعبدون فاقتدينا بهم (قال افرأيتم ما كنتم تعبدون) اى انظرتم فابصرتم او تأملتم فعلمتم ما كنتم تعبدونه (انتم وآباؤكم الاقدمون) حق الابصار وحق العلم وقوله (فانهم عدو لى) بيان لحال ما يعبدونه بعد التنبيه على عدم علمهم بذلك اى فاعلموا انهم اعداء لعابديهم الذين يحبونهم كحب الله تعالى لما انهم يتضررون من جهتهم فوق ما يتضرر الرجل من جهة عدوه او لان من يغريهم على عبادتهم وحملهم عليها هو الشيطان الذى هو اعدى عدو الانسان لكنه عليه الصلاة والسلام صور الامر فى نفسه تعريضا بهم فانه انفع فى النصيحة من التصريح واشعارا بأنها النصيحة بدأ بها نفسه ليكون ادعى الى القبول والعدو والصديق يجيئان فى معنى الواحد والجمع ومنه قوله تعالى وهم لكم عدو شبها بالمصادر الموازنة كالقبول والولوع والحنين والصهيل

كل كفر ومعصية ثم الذ كرهود عليه السلام هذه الاشياء قال فاتقوا الله وأطيعون زيادة فى دعائهم الى الآخرة وزجرالهم عن حب الدنيا والاشتغال بالسرف والحرص والتجبر ثم وصل بهذا الوعظ مايؤكد القبول وهو التنبيه على نعم الله تعالى عليهم بالاجمال اولا ثم التفصيل ثانيا فايقظهم عن سنة غفلتهم عنها حيث قال امدكم بما تعلمون ثم فصلها من بعد بقوله امدكم بانعام وبنين وجنات وعيون انى اخاف عليكم عذاب يوم عظيم فبلغ فى دعائهم بالوعظ والترغيب والتخويف والبيان النهاية فكان جوابهم سواء علينا او عظت ام لم تكن من الواعظين اظهروا قلة اكتراثهم بكلامه واستخفافهم بما اورده فان قيل لو قال اوعظت ام لم تعظ كان اخصر والمعنى واحد (جوابه) ليس المعنى بواحد لان المراد سواء علينا افعلت هذا الفعل الذى هو الوعظ ام لم تكن اصلا من اهله ومباشرته فهو ابلغ فى قلة اعتدادهم بوعظه من قولك ام لم تعظ ثم احتجوا على قلة اكتراثهم بكلامه بقولهم ان هذا الا خلق الاولين فمن قرأ خلق الاولين بالفتح فمعناه ان ماجئت به اختلاق الاولين وتخرصهم كما قالوا اساطير الاولين او ماخلقنا هذا الا خلق القرون الخالية نحيا كما حيوا ونموت كما ماتوا ولا بعث ولا حساب ومن قرأ خلق بضمتين وبواحدة فمعناه ماهذا الذى نحن عليه من الدين الا خلق الاولين وعادتهم كانوا به يدينون ونحن بهم مقتدون او ماهذا الذى نحن عليه من الحياة والموت الا عادة لم يزل عليها الناس فى قديم الدهر او ماهذا الذى جئت به من الكذب الا عادة الاولين كانوا يلفقون مثله ويسطرونه ثم قالوا ومانحن بمعذبين اظهروا بذلك تقوية نفوسهم فيما تمسكوا به من انكار المعاد فعند هذا بين الله تعالى انه اهلكهم وقد سبق شرح كيفية الهلاك فى سائر السور والله اعلم ❁ (القصة الخامسة) قصة صالح عليه السلام قوله تعالى (كذبت ثمود المرسلين اذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون انى لكم رسول أمين فاتقوا الله واطيعون وما أسألكم عليه من اجر ان اجرى الا على رب العالمين أتتركون فيما ههنا آمنين فى جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا امر المسرفين الذين يفسدون فى الارض ولا يصلحون قالوا انما انت من المسحرين ماانت الا بشر مثلنا فأت بآية ان كنت من الصادقين قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم فعقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب ان فى ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) اعلم ان صالحا عليه السلام خاطب قومه بامور (احدها) قوله اتتركون فيما ههنا آمنين اى أتظنون انكم تتركون فى دياركم آمنين وتطمعون فى ذلك وان لادار للمجازاة وقوله فيما ههنا آمنين فى الذى استقر فى هذا المكان من النعيم ثم فسره بقوله فى جنات وعيون وهذا ايضا اجمال ثم تفصيل فان قيل لم قال ونخل بعد قوله فى جنات والجنة تتناول النخل جوابه من وجهين (الاول) انه خص النخل بافراده بعد دخوله فى جملة سائر الشجر تنبيها على فضله

(الارب العالمين) استثناء منقطع اى لكن رب العالمين ليس كذلك بل هو ولى فى الدنيا والآخرة لايزال يتفضل على بمنافعهما حسبما يعرب عنه ماوصفه تعالى به من احكام الولاية وقيل متصل وهو قول الزجاج على ان الضمير لكل معبود وكان من آبائهم من عبدالله تعالى وقوله تعالى (الذى خلقنى) صفة لرب العالمين وجعله مبتدأ ومابعده خبرا غيرحقيق بجزالة التنزيل وانما وصفه تعالى بذلك وبما عطفه عليه مع اندراج الكل تحت ربوبيته تعالى للعالمين تصريحا بالنعم الخاصة به عليه الصلاة والسلام وتفصيلا لها لكونها ادخل فى اقتضاء تخصيص العبادة به تعالى وقصر الالتجاء فى جلب المنافع الدينية والدنيوية ودفع المضار العاجلة والآجلة عليه تعالى (فهو يهدين) اى هو يهدينى وحده الى كل مايهمنى ويصلحنى من امور الدين والدنيا هداية متصلة بحين الخلق ونفخ الروح متجددة على الاستمرار كما ينبئ عنه الفاء وصيغة المضارع فانه تعالى يهدى كل ماخلقه لما خلق له من امور المعاش والمعاد هداية متدرجة من مبدأ ايجاده الى منتهى اجله يتمكن بها من جلب منافعه ودفع مضاره اما طبعا واما اختيارا مبدؤها بالنسبة الى الانسان هداية الجنين لامتصاص دم الطمث ومنتهاها الهداية الى طريق الجنة والتنعم بنعيمها المقيم (والذى هو يطعمنى ويسقين) عطف على الصفة الاولى وتكرير الموصول فى المواقع الثلاثة مع كفاية عطف

على سائر الاشجار (والثانى) ان يراد بالجنات غيرها من الشجر لان اللفظ يصلح لذلك ثم يعطف عليها النخل والطلع هو الذى يطلع من النخلة كنصل السيف فى جوفه شماريخ والهضيم اللطيف ايضا من قولهم كشح هضيم وقيل الهضيم اللين النضيج كأنه قال ونخل قد ارطب ثمره (وثانيها) قوله تعالى وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين قرأ الحسن وتنحتون بفتح الحاء وقرئ فرهين وفارهين والفراهة الكيس والنشاط فقوله تعالى فارهين حال من الناحتين (واعلم) ان ظاهر هذه الآيات يدل على ان الغالب على قوم هود هو اللذات الحالية وهى طلب المأكول والمشروب والمساكن الطيبة الحصينة (وثالثها) قوله تعالى ولا تطيعوا امر المسرفين وهذا اشارة الى انه يجب الاكتفاء من الدنيا بقدر الكفاف ولا يجوز التوسع فى طلبها والاستكثار من لذاتها وشهواتها فان قيل مافائدة قوله ولا يصلحون جوابه فائدته بيان ان فسادهم فساد خالص ليس معه شئ من الصلاح كما يكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح ثم ان القوم اجابوه من وجهين (احدهما) قولهم انما انت من المسحرين وفيه وجوه (احدها) المسحر هو الذى سحر كثيرا حتى غلب على عقله (وثانيها) من المسحرين اى من له سحر وكل دابة تأكل فهى مسحرة والسحر أعلى البطن وعن الفراء المسحر من له جوف أراد انك تأكل الطعام وتشرب الشراب (وثالثها) عن المؤرج المسحر هو المخلوق بلغة بجيلة (ثانيهما) قولهم ما انت الا بشر مثلنا فأت بآية ان كنت من الصادقين وهذا يحتمل امرين الاول انك بشر مثلنا فكيف تكون نبيا وهذا بمنزلة ما كانوا يذكرون فى الانبياء انهم لو كانوا صادقين لكانوا من جنس الملائكة (الثانى) ان يكون مرادهم انك بشر مثلنا فلابدلنا فى اثبات نبوتك من الدليل فقال صالح عليه السلام هذه ناقة لها شرب وقرئ بالضم روى انهم قالوا نريد ناقة عشراء تخرج من هذه الصخرة فتلد سقبا فقعد صالح يتفكر فقال له جبريل عليه السلام صل ركعتين وسل ربك الناقة ففعل فخرجت الناقة وبركت بين ايديهم وحصل لها سقب مثلها فى العظم وصاهم صالح عليه السلام بأمرين الاول قوله لها شرب ولكم شرب يوم معلوم قال قتادة اذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله وشربهم فى اليوم الذى لاتشرب هى (والثانى) قوله ولا تمسوها بسوء اى بضرب او عقر او غيرهما فيأخذكم عذاب يوم عظيم عظم اليوم لحلول العذاب فيه ووصف اليوم به ابلغ من وصف العذاب لان الوقت اذا عظم بسببه كان موقعه من العظم اشد ثم ان الله تعالى حكى عنهم انهم عقروها روى ان مصدعا ألجأها الى مضيق فرماها بسهم فسقطت ثم ضربها قدار فان قيل لم اخذهم العذاب وقد ندموا جوابه من وجهين (الاول) انه لم يكن ندمهم ندم التائبين لكن ندم الخائفين من العذاب العاجل (الثانى) ان الندم وان كان ندم التائبين ولكن كان ذلك فى غير وقت التوبة بل عند معاينة العذاب وقال تعالى وليست التوبة للذين يعملون السيآت الآية واللام فى

ماوقع فى حيز الصلة من الجمل الست على صلة الموصول الاول للايذان بأن كل واحدة من تلك الصلات نعت جليل له تعالى مستقل فى استيجاب الحكم حقيق بأن تجرى عليه تعالى بحيالها ولا تجعل من روادف غيرها (واذا مرضت فهو يشفين) عطف على يطعمنى ويسقين نظمهما فى سلك الصلة لموصول واحد لما ان الصحة والمرض من متفرعات الاكل والشرب غالبا ونسبة المرض الى نفسه والشفاء الى الله تعالى مع انهما منه تعالى لمراعات حسن الادب كما قال الخضر عليه السلام فاردت ان اعيبها وقال فاراد ربك ان يبلغا اشدهما واما الاماتة فحيث كانت من معظم خصائصه تعالى كالاحياء بدأ واعادة وقد نيطت امور الآخرة جميعها وما بعدها من البعث نظمهما فى سمط واحد فى قوله تعالى (والذى يميتنى ثم يحيين) على ان الموت لكونه ذريعة الى نيله عليه الصلاة والسلام الحياة الابدية بمعزل من ان يكون غير مطبوع عنده عليه الصلاة والسلام (والذى اطمع ان يغفر لى خطيئتى يوم الدين) ذكره عليه الصلاة والسلام هضما لنفسه وتعليما للامة ليجتنبوا المعاصى ويكونوا على حذر وطلب مغفرة لما يفرط منهم وتلافيا لما عسى يندر منه عليه الصلاة والسلام من الصغائر وتنبيها لابيه وقومه على ان يتأملوا فى امرهم فيقفوا على انهم من سوء الحال فى درجة لايقادر قدرها فان حاله عليه الصلاة والسلام مع كونه فى طاعة

العذاب اشارة الى عذاب يوم عظيم * (القصة السادسة) قصة لوط عليه السلام * قوله تعالى (كذب قوم لوط المرسلين اذ قال لهم اخوهم لوط الا تتقون انى لكم رسول امين فاتقوا الله واطيعون وما اسئلكم عليه من اجر ان اجرى الا على رب العالمين أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من ازواجكم بل انتم قوم عادون قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين قال انى لعملكم من القالين رب نجنى واهلى مما يعملون فنجيناه واهله اجمعين الا عجوزا فى الغابرين ثم دمرنا الآخرين وامطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ان فى ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) اما قوله تعالى أتأتون الذكران من العالمين فيحتمل عوده الى الآتى اى انتم من جملة العالمين صرتم مخصوصين بهذه الصفة وهى اتيان الذكران ويحتمل عوده الى المأتى اى انتم اخترتم الذكران من العالمين لا الاناث منهم واما قوله تعالى من ازواجكم فيصلح ان يكون تبيينا لما خلق وان يكون للتبعيض ويراد بما خلق العضو المباح منهن وكأنهم كانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم والعادى هو المعتدى فى ظلمه ومعناه أترتكبون هذه المعصية على عظمها بل انتم قوم عادون فى جميع المعاصى فهذا من جملة ذاك او بل انتم قوم احقاء بأن توصفوا بالعدوان حيث ارتكبتم مثل هذه الفاحشة فقالوا له عليه السلام لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين اى لتكونن من جملة من اخرجناه من بلدنا ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على اسوأ الاحوال فقال لهم لوط عليه السلام انى لعملكم من القالين القلى البغض الشديد كأنه بغض يقلى الفؤاد والكبد وقوله من القالين ابلغ من ان يقول انى لعملكم قال كما يقال فلان من العلماء فهو ابلغ من قولك فلان عالم ويجوز ان يراد من الكاملين فى قلاكم ثم قال تعالى فنجيناه واهله والمراد فنجيناه واهله من عقوبة عملهم الا عجوزا فى الغابرين فان قيل فى الغابرين صفة لها كأنه قيل الا عجوزا غابرة ولم يكن الغبور صفتها وقت تنجيتهم جوابه معناه الا عجوزا مقدرا غبورها قيل انها هلكت مع من خرج من القرية بما امطر عليهم من الحجارة قال القاضى عبد الجبار فى تفسيره فى قوله تعالى وتذرون ما خلق لكم ربكم من ازواجكم دلالة على بطلان الجبر من جهات (احدها) انه لا يقال تذرون الا مع القدرة على خلافه ولذلك لا يقال للمرء لم تذر الصعود الى السماء كما يقال له لم تذر الدخول والخروج (وثانيها) انه قال ما خلق لكم ولو كان خلق الفعل لله تعالى لكان الذى خلق لهم ما خلقه فيهم واوجبه لا ما لم يفعلوه (وثالثها) قوله تعالى بل انتم قوم عادون فان كان تعالى خلق فيهم ما كانوا يعملون فكيف ينسبون الى انهم تعدوا وهل يقال للاسود انك متعد فى لونك فنقول حاصل هذه الوجوه يرجع الى ان العبد لو لم يكن موجدا لافعال نفسه لما توجه المدح والذم والامر والنهى عليه ولهذه الآية فى هذا المعنى خاصية ازيد مما ورد من الامر والنهى والمدح والذم فى قصة موسى عليه السلام وابراهيم ونوح وسائر القصص فكيف خص هذه القصة بهذه الوجوه دون سائر القصص ولما ثبت

(بطلان)

الله تعالى وعبادته فى الغاية القاصية حيث كانت بتلك المثابة فما ظنك بحال اولئك المغمورين فى الكفر وفنون المعاصى والخطايا وحمل الخطيئة على كلماته الثلاث انى سقيم بل فعله كبيرهم وقوله لسارة هى اختى مما لا سبيل اليه لانها مع كونها معاريض لا من قبيل الخطايا المفتقرة الى الاستغفار انما صدرت عنه عليه الصلاة والسلام بعد هذه المقاولة الجارية بينه وبين قومه اما الثالثة فظاهرة لوقوعها بعد مهاجرته عليه الصلاة والسلام الى الشام واما الاوليان فلانهما وقعتا مكتنفتين بكسر الاصنام ومن البين ان جريان هذه المقالات فيما بينهم كان فى مبادى الامر وتعليق مغفرة الخطيئة بيوم الدين مع انها انما تغفر فى الدنيا لان اثرها يومئذ يتبين ولان فى ذلك تهويلا له واشارة الى وقوع الجزاء فيه ان لم تغفر (رب هب لى حكما) بعد ما ذكر عليه الصلاة والسلام لهم فنون الالطاف الفائضة عليه من الله عز وجل من مبدأ خلقه الى يوم بعثه حمله ذلك على مناجاته تعالى ودعائه لربط العتيد وجلب المزيد والحكم الحكمة التى هى الكمال فى العلم والعمل بحيث يتمكن به من خلافة الحق ورياسة الخلق (والحقنى بالصالحين) ووفقنى من العلوم والاعمال والملكات لما يرشحنى للانتظام فى زمرة الكاملين الراسخين فى الصلاح المنزهين عن كبائر الذنوب وصغائرها او اجمع بينى وبينهم فى الجنة ولقد اجابه تعالى حيث قال وانه فى

بطلان هذه الوجوه نبى ذلك الوجه المشهور فنحن نجيب عنها بالجوابين المشهورين (الاول) ان الله تعالى لما علم وقوع هذه الاشياء فعدمها محال لان عدمها يستلزم انقلاب العلم جهلا وهو محال والمفضى الى المحال محال واذا كان عدمها محالا كان التكليف بالترك تكليفا بالمحال (الثانى) ان القادر لما كان قادرا على الضدين امتنع ان يترجح احد المقدورين على الآخر الالمرجح وهو الداعى او الارادة وذلك المرجح محدث فله مؤثر وذلك المؤثر ان كان هو العبد لزم التسلسل وهو محال وان كان هو الله تعالى فذلك هو الجبر على قولك فثبت بهذين البرهانين القاطعين سقوط ماقاله والله اعلم • (القصة السابعة) قصة شعيب عليه السلام ۞ قوله تعالى (كذب اصحاب الايكة المرسلين اذ قال لهم شعيب الا تتقون انى لكم رسول امين فاتقوا الله واطيعون وما أسألكم عليه من اجر ان اجرى الا على رب العالمين أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس اشياءهم ولا تعثوا فى الارض مفسدين واتقوا الذى خلقكم والجبلة الاولين قالوا انما انت من المسحرين وما انت الا بشر مثلنا وان نظنك لمن الكاذبين فأسقط علينا كسفا من السماء ان كنت من الصادقين قال ربى اعلم بما تعملون فكذبوه فاخذهم عذاب يوم الظلة انه كان عذاب يوم عظيم ان فى ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) قرئ اصحاب الايكة بالهمزة وبتخفيفها وبالجر على الاضافة وهو الوجه ومن قرأ بالنصب وزعم ان أيكة بوزن ليلة اسم بلد يعرف فتوهم قاد اليه خط المصحف حيث وجدت مكتوبة فى هذه السورة وفى سورة ص بغير الف لكن قد كتبت فى سائر القرآن على الاصل والقصة واحدة على ان ايكة اسم لا يعرف روى ان اصحاب الايكة كانوا اصحاب شجر ملتف وتلك الشجر هى التى حملها المقل فان قيل هلا قال اخوهم شعيب كما فى سائر المواضع جوابه ان شعيبا لم يكن من اصحاب الايكة وفى الحديث ان شعيبا اخا مدين ارسل اليهم والى اصحاب الايكة ثم ان شعيبا عليه السلام امرهم باشياء (احدها) قوله أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وذلك لان الكيل على ثلاثة اضرب واف وطفيف وزائد فامر بالواجب الذى هو الايفاء بقوله أوفوا الكيل ونهى عن المحرم الذى هو التطفيف بقوله ولا تكونوا من المخسرين ولم يذكر الزائد لانه بحيث ان فعله فقد احسن وان لم يفعله فلا اثم عليه ثم انه لما امر بالايفاء بين انه كيف يفعل فقال وزنوا بالقسطاس المستقيم قرئ بالقسطاس مضموما ومكسورا وهو الميزان وقيل القرسطون (وثانيها) قوله تعالى ولا تبخسوا الناس اشياءهم يقال بخسه حقه اذا نقصه اياه وهذا عام فى كل حق يثبت لاحد ان لا يهضم وفى كل ملك ان لا يغصب عليه مالكه ولا يتصرف فيه الا باذنه تصرفا شرعيا (وثالثها) قوله تعالى ولا تعثوا فى الارض مفسدين يقال عثا فى الارض وعثى وعاث وذلك نحو قطع الطريق والغارة واهلاك الزرع وكانوا يفعلون ذلك مع توليتهم انواع الفساد فنهوا عن ذلك (ورابعها) قوله تعالى واتقوا الذى

الآخرة لمن الصالحين (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) اى جاها وحسن صيت فى الدنيا بحيث يبقى اثره الى يوم الدين ولذلك لاترى امة من الامم الا وهى محبة له ومثنية عليه او صادقا من ذريتى يجدد اصل دينى ويدعو الناس الى ما كنت ادعوهم اليه من التوحيد وهو النبى صلى الله عليه وسلم ولذلك قال عليه الصلاة والسلام انا دعوة ابى ابراهيم (واجعلنى) فى الآخرة (من ورثة جنة النعيم) وقد مر معنى الوراثة فى سورة مريم (واغفر لابى) بالهداية والتوفيق للايمان كما يلوح به تعليله بقوله (انه كان من الضالين) اى طريق الحق وقد مر تحقيق المقام فى تفسير سورة التوبة وسورة مريم بالا مزيد عليه (ولا تخزنى) بمعاتبتى على ما فرطت او بنقص رتبتى عن بعض الوارث او بتعذيبى لخفاء العاقبة وجواز التعذيب عقلا كل ذلك مبنى على هضم النفس منه عليه الصلاة والسلام او بتعذيب والدى او ببعثه فى عداد الضالين بعدم توفيقه للايمان وهو من الخزى بمعنى الهوان او من الخزاية بمعنى الحياء (يوم يبعثون) اى الناس كافة والاضمار قبل الذكر لما فى عموم البعث من الشهرة الفاشية المغنية عنه وتخصيصه بالضالين مما يخل بتهويل اليوم (يوم لا ينفع مال ولا بنون) بدل من يوم يبعثون جئ به تأكيدا للتهويل وتمهيدا لما يعقبه من الاستثناء وهو من اعم المفاعيل اى لا ينفع مال وان كان مصروفا فى الدنيا الى وجوه البر والخيرات ولا بنون وان كانوا

خلقكم والجبلة الاولين وقرئ الجبلة بوزن الابلة والجبلة بوزن الخلقة ومعناهن واحد اى ذوى الجبلة والمراد انه المتفضل بخلقهم وخلق من تقدمهم ممن لولا خلقهم لما كانوا مخلوقين فلم يكن للقوم جواب الاما ذكروه لكان أولى بهم وهو من وجهين (الاول) قولهم انما انت من المسحرين وما انت الا بشر مثلنا فان قيل هل اختلف المعنى بادخال الواو ههنا وتركها فى قصة ثمود جوابه اذا دخلت الواو فقد قصد معنيان كلاهما مناف للرسالة عندهم السحر والبشرية واذا تركت الواو فلم يقصدوا الا معنى واحدا وهو كونه مسحرا ثم قرره بكونه بشرا مثلهم (الثانى) قولهم وان نظنك لمن الكاذبين ومعناه ظاهر ثم ان شعيبا عليه السلام كان يتوعدهم بالعذاب ان استمروا على التكذيب فقالوا فأسقط علينا كسفا من السماء قرئ كسفا بالسكون والحركة وكلاهما جمع كسفة وهى القطعة والسماء السحاب او الظلة وهم انما طلبوا ذلك لاستبعادهم وقوعه فظنوا انه اذا لم يقع ظهر كذبه فعنده قال شعيب عليه السلام ربى اعلم بما تعملون فلم يدع عليهم بل فوض الامر فيه الى الله تعالى فلما استمروا على التكذيب انزل الله عليهم العذاب على نحو ما اقترحوا من عذاب الظلة ان ارادوا بالسماء السحاب وان ارادوا الظلة فقد خالف بهم عن مقترحهم يروى انه حبس عنهم الريح سبعا وسلط عليهم الرمل فأخذ بانفاسهم لا ينفعهم ظل ولا ماء فاضطروا الى ان خرجوا الى البرية فاظلتهم سحابة وجدوا لها بردا ونسيما فاجتمعوا تحتها فامطرت عليهم نارا فاحترقوا وروى ان شعيبا بعث الى امتين اصحاب مدين واصحاب الايكة فاهلكت مدين بصيحة جبريل عليه السلام واصحاب الايكة بعذاب يوم الظلة وههنا آخر الكلام فى هذه القصص السبع التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم فيما ناله من الغم الشديد بقى ههنا سؤالان (السؤال الاول) لم لا يجوز ان يقال ان العذاب النازل بعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ما كان ذلك بسبب كفرهم وعنادهم بل كان ذلك بسبب قرانات الكواكب واتصالاتها على ما اتفق عليه اهل النجوم واذا قام هذا الاحتمال لم يحصل الاعتبار بهذه القصص لان الاعتبار انما يحصل ان لو علمنا ان نزول هذا العذاب كان بسبب كفرهم وعنادهم (الثانى) ان الله تعالى قد ينزل العذاب محنة للمكلفين وابتلاء لهم على ما قال ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ولانه تعالى قد ابتلى المؤمنين بالبلاء العظيم فى مواضع كثيرة واذا كان كذلك لم يدل نزول البلاء بهم على كونهم مبطلين والجواب ان الله تعالى انزل هذه القصص على محمد صلى الله عليه وسلم تسلية له وازالة الحزن عن قلبه فلما اخبر الله تعالى محمدا انه هو الذى انزل العذاب عليهم وانه انما انزله عليهم جزاء على كفرهم علم محمد صلى الله عليه وسلم ان الامر كذلك فحينئذ يحصل به التسلى والفرح له عليه السلام واحتج بعض الناس على القدح فى علم الاحكام بان قال المؤثر فى هذه الاشياء اما الكواكب او البروج او كون الكوكب فى البرج المعين والاول باطل والا لحصلت هذه الآثار اين حصل الكوكب والثانى ايضا

مطاعا مستأهلين للشفاعة احدا (الا من اتى الله بقلب سليم) اى عن مرض الكفر والنفاق ضرورة اشتراط نفع كل منهما بالايمان وفيه تأييد لكون استغفاره عليه الصلاة والسلام لابيه طلبا لهدايته الى الايمان لاستحالة طلب مغفرته بعد موته كافرا مع علمه عليه الصلاة والسلام بعدم نفعه لانه من باب الشفاعة وقيل هو استثناء من فاعل ينفع بتقدير المضاف اى الامال من اوبنون من اتى الله الآية وقيل المضاف المحذوف ليس من جنس المستثنى منه حقيقة بل بضرب من الاعتبار كما فى قوله * تحية بينهم ضرب وجيع * اى الاحال من اتى الله بقلب سليم على انها عبارة عن سلامة القلب كأنه قيل الاسلامة قلب من اتى الله الآية وقيل المضاف المحذوف ما دل عليه المال والبنون من الغنى وهو المستثنى منه كأنه قيل يوم لا ينفع غنى الاغنى من اتى الله الآية لان غنى المرء فى دينه بسلامة قلبه وقيل الاستثناء منقطع والمعنى لكن سلامة قلبه تنفعه (وازلفت الجنة للمتقين) عطف على لا ينفع وصيغة الماضى فيه وفيما بعده من الجمل المنتظمة معه فى سلك العطف للدلالة على تحقق الوقوع وتقرره كما ان صيغة المضارع فى المعطوف عليه للدلالة على استمرار انتفاء النفع ودوامه حسبما يقتضيه مقام التهويل والتفظيع اى قربت الجنة للمتقين عن الكفر والمعاصى بحيث يشاهدونها من الموقف ويقفون على ما فيها من فنون

باطل والازم دوام الاثر بدوام البرج والثالث ايضا باطل لان الفلك على قولهم بسيط لا مركب فيكون طبع كل برج مساويا لطبع البرج الآخر فى تمام الماهية فيكون حال الكوكب وهو فى برج كحاله وهو فى برج آخر فيلزم ان يدوم ذلك الاثر بدوام الكوكب وللقوم ان يقولوا لم لا يجوز ان يكون صدور الاثر عن الكوكب المعين موقوفا على كونه مسامتا مسامتة مخصوصة لكوكب آخر فاذا فقدت تلك المسامتة فقد شرط التأثير فلا يحصل التأثير ولهم ان يقولوا هذه الدلالة انما تدل على انها ليست مؤثرة بحسب ذواتها وطبائعها ولكنها لا تدل على انها ليست مؤثرة بحسب جرى العادة فاذا اجرى الله تعالى عادته بحصول تأثيرات مخصوصة عقيب اتصالات الكواكب وقراناتها وادوارها لم يلزم من حصول هذه الآثار القطع بأن الله تعالى انما خلقها لاجل زجر الكفار بل لعله تعالى خلقها تكريرا لتلك العادات والله اعلم * القول فيما ذكره الله تعالى من احوال محمد عليه الصلاة والسلام * قوله تعالى (وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين وانه لفى زبر الاولين) اعلم انه تعالى لما ختم ما اقتصه من خبر الانبياء ذكر بعد ذلك ما يدل على نبوته وهو من وجهين (الاول) قوله وانه لتنزيل رب العالمين وذلك لانه لفصاحته معجز فيكون ذلك من رب العالمين اولانه اخبار عن القصص الماضية من غير تعليم البتة فلا يكون ذلك الا بوحى من الله تعالى وقوله بعده وانه لفى زبر الاولين كأنه مؤكد لهذا الاحتمال وذلك لانه عليه السلام لما ذكر هذه القصص السبع على ما هى موجودة فى زبر الاولين من غير تفاوت اصلا مع انه لم يشتغل بالتعلم والاستعداد دل ذلك على انه ليس الا من عند الله تعالى فهذا هو المقصود من الآية فأما قوله تعالى وانه لتنزيل رب العالمين فالمراد بالتنزيل المنزل ثم قد كان يجوز فى القرآن وهذه القصص ان يكون تنزيلا من الله تعالى الى محمد صلى الله عليه وسلم بلا واسطة فقال نزل به الروح الامين والباء فى قوله نزل به الروح ونزل به الروح على القراءتين للتعدية ومعنى نزل به الروح جعل الله الروح نازلا به على قلبك اى فهمك اياه واثبته فى قلبك اثبات ما لا ينسى كقوله تعالى سنقرئك فلا تنسى والروح الامين جبريل عليه السلام وسماه روحا من حيث خلق من الروح وقيل لانه نجاة الخلق فى باب الدين فهو كالروح الذى تثبت معه الحياة وقيل لانه روح كله لا كالناس الذين فى ابدانهم روح وسماه امينا لانه مؤتمن على ما يؤديه الى الانبياء عليهم السلام والى غيرهم واما قوله على قلبك ففيه قولان (الاول) انه انما قال على قلبك وان كان انما انزله عليه ليؤكد به ان ذلك المنزل محفوظ للرسول متمكن فى قلبه لا يجوز عليه التغير فيوثق بالانذار الواقع منه الذى بين الله تعالى انه هو المقصود ولذلك قال لتكون من المنذرين (الثانى) ان القلب هو المخاطب فى الحقيقة لانه موضع التمييز والاختيار واما سائر الاعضاء فمسخرة له والدليل عليه القرآن والحديث والمعقول (اما القرآن) فآيات احداها قوله تعالى فى سورة البقرة فانه نزله على قلبك

المجالس فيتبجحون بانهم المحشورون اليها (وبرزت الجحيم للغاوين) الضالين عن طريق الحق الذى هو الايمان والتقوى اى جعلت بارزة لهم بحيث يرونها مع ما فيها من انواع الاحوال الهائلة ويوقنون بانهم مواقعوها ولا يجدون عنها مصرفا (وقيل لهم اينما كنتم) فى الدنيا (تعبدون من دون الله) اى اين آلهتكم الذين كنتم تزعمون فى الدنيا انهم شفعاؤكم فى هذا الموقف (هل ينصرونكم) بدفع العذاب عنكم (او ينتصرون) بدفعه عن انفسهم وهذا سؤال تقريع وتبكيت ولا يتوقع له جواب ولذلك قيل (فكبكبوا فيها) اى القوا فى الجحيم على وجوههم مرة بعد اخرى الى ان يستقروا فى قعرها (هم) اى آلهتهم (والغاوون) الذين كانوا يعبدونهم وفى تأخير ذكرهم عن ذكر آلهتهم رمز الى انهم يؤخرون عنها فى الكبكبة ليشاهدوا سوء حالها فيزدادوا غما الى غمهم (وجنود ابليس) اى شياطينه الذين كانوا يغوونهم ويوسوسون اليهم ويسولون لهم ما هم عليه من عبادة الاصنام وسائر فنون الكفر والمعاصى ليجتمعوا فى العذاب حسبما كانوا مجتمعين فيما يوجبه وقيل متبعوه من عصاة الثقلين والاول هو الوجه (اجمعون) تأكيد للضمير وما عطف عليه وقوله تعالى (قالوا) الخ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية حالهم كأنه قيل ماذا قالوا حين فعل بهم ما فعل فقيل قال العبدة (وهم فيها يختصمون) اى قالوا معترفين بخطئهم فى انهماكهم فى الضلالة

وقال ههنا نزل به الروح الأمين على قلبك وقال تعالى ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب (وثانيها) انه ذكر ان استحقاق الجزاء ليس الا على ما فى القلب من المساعى فقال لا يؤاخذكم الله باللغو فى ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم وقال تعالى لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم والتقوى فى القلب لانه تعالى قال اولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى وقال تعالى وحصل ما فى الصدور (وثالثها) قوله حكاية عن اهل النار لو كنا نسمع او نعقل ما كنا فى اصحاب السعير ومعلوم ان العقل فى القلب والسمع منفذ اليه وقال تعالى ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤلا ومعلوم ان السمع والبصر لا يستفاد منهما الا ما يؤديانه الى القلب فكان السؤال عنهما فى الحقيقة سؤالا عن القلب وقال تعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ولم تخف الأعين الا بما تضمر القلوب عند التحديق بها (ورابعها) قوله وجعل لكم السمع والابصار والأفئدة قليلا ما تشكرون فخص هذه الثلاثة بالزام الحجة منها واستدعاء الشكر عليها وقد قلنا لا طائل فى السمع والابصار الا بما يؤديان الى القلب ليكون القلب هو القاضى فيه والمتحكم عليه وقال تعالى ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وابصارا وافئدة فما اغنى عنهم سمعهم ولا ابصارهم ولا افئدتهم من شئ فجعل هذه الثلاثة تمام ما الزمهم من حجته والمقصود من ذلك هو الفؤاد القاضى فيما يؤدى اليه السمع والبصر (وخامسها) قوله تعالى ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم فجعل العذاب لازما على هذه الثلاثة وقال تعالى لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها وجه الدلالة انه قصد الى نفى العلم عنهم رأسا فلو ثبت العلم فى غير القلب كثباته فى القلب لم يتم الغرض فهذه الآيات وامثالها ناطقة بأجمعها ان القلب هو المقصود بالزام الحجة وقد بينا ان ما قرن بذكره من ذكر السمع والبصر فذلك لانهما آلتان للقلب فى تأدية صور المحسوسات والمسموعات (واما الحديث) فما روى النعمان بن بشير قال سمعته عليه السلام يقول ألا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب (واما المعقول) فوجوه (احدها) ان القلب اذا غشى عليه فلو قطع سائر الاعضاء لم يحصل الشعور به واذا أفاق القلب فانه يشعر بجميع ما ينزل بالاعضاء من الآفات فدل ذلك على ان سائر الاعضاء تبع للقلب ولذلك فان القلب اذا فرح او حزن فانه يتغير حال الاعضاء عند ذلك وكذا القول فى سائر الاعراض النفسانية (وثانيها) ان القلب منبع المشاق الباعثة على الافعال الصادرة من سائر الاعضاء واذا كانت المشاق مبادى الافعال ومنبعها هو القلب كان الآمر المطلق هو القلب (وثالثها) ان معدن العقل هو القلب واذا كان كذلك كان الآمر المطلق هو القلب (اما المقدمة الاولى) ففيها النزاع فان طائفة من القدماء ذهبوا الى ان معدن العقل هو الدماغ والذى يدل على قولنا وجوه (الاول) قوله تعالى أو لم يسيروا فى الارض فتكون

متحسرين معيرين لانفسهم والحال انهم فى الجحيم بصدد الاختصام مع من معهم من المذكورين مخاطبين لمعبوديهم على ان الله تعالى يجعل الاصنام صالحة للاختصام بان يعطيها القدرة على الفهم والنطق (تالله ان كنا لفى ضلال مبين) ان مخففة من الثقيلة قد حذف اسمها الذى هو ضمير الشأن واللام فارقة بينها وبين النافية اى ان الشأن كنا فى ضلال واضح لا خفاء فيه ووصفهم له بالوضوح للاشباع فى اظهار ندمهم وتحسرهم وبيان عظم خطئهم فى رأيهم مع وضوح الحق كاينبئ عنه تصدير قسمهم بحرف التاء المشعرة بالتعجب وقوله تعالى (اذ نسويكم برب العالمين) ظرف لكونهم فى ضلال مبين وقيل لما دل عليه الكلام اى ضللنا وقيل للضلال المذكور وان كان فيه ضعف صناعى من حيث ان المصدر الموصوف لا يعمل بعد الوصف وقيل ظرف لمبين وصيغة المضارع لاستحضار الصورة الماضية اى تالله لقد كنا فى غاية الضلال الفاحش وقت تسويتنا اياكم ايها الاصنام فى استحقاق العبادة برب العالمين الذى انتم ادنى مخلوقاته واذلهم واعجزهم وقولهم (وما اضلنا الا المجرمون) بيان لسبب ضلالهم بعد ما اعترافهم بصدوره عنهم لكن لا على معنى قصر الاضلال على المجرمين دون من عداهم بل على معنى قصر ضلالهم على كونه بسبب ضلالهم من غير ان يستقلوا فى تحققه او يكون بسبب اضلال الغير كأنه قيل وما صدر عنا ذلك الضلال الفاحش الا بسبب اضلالهم والمراد بالمجرمين الذين اضلوهم رؤساؤهم وكبراؤهم كما فى قوله تعالى ربنا انا اطعنا

لهم قلوب يعقلون بها وقوله لهم قلوب لا يفقهون بها وقوله ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب اى عقل اطلق عليه اسم القلب لما انه معدنه (الثانى) انه تعالى اضاف اضداد العلم الى القلب وقال فى قلوبهم مرض ختم الله على قلوبهم وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم يحذر المنافقون ان تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم كلا بل ران على قلوبهم أفلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور فدلت هذه الآيات على ان موضع الجهل والغفلة هو القلب فوجب ان يكون موضع العقل والفهم ايضا هو القلب (الثالث) وهو انا اذا جربنا انفسنا وجدنا علومنا حاصلة فى ناحية القلب ولذلك فان الواحد منا اذا امعن فى الفكر واكثر منه احس من قلبه ضيقا وضجرا حتى كأنه يتألم بذلك وكل ذلك يدل على ان موضع العقل هو القلب واذا ثبت ذلك وجب ان يكون المكلف هو القلب لان التكليف مشروط بالعقل والفهم (الرابع) وهو ان القلب اول الاعضاء تكونا وآخرها موتا وقد ثبت ذلك بالتشريح ولانه متمكن فى الصدر الذى هو اوسط الجسد ومن شأن الملوك المحتاجين الى الخدم ان يكونوا فى وسط المملكة لتكتنفهم الحواشى من الجوانب فيكونوا ابعد من الآفات واحتج من قال العقل فى الدماغ بامور (احدها) ان الحواس التى هى الآلات للادراك نافذة الى الدماغ دون القلب (وثانيها) ان الاعصاب التى هى الآلات فى الحركات الاختيارية نافذة من الدماغ دون القلب (وثالثها) ان الآفة اذا حلت فى الدماغ اختل العقل (ورابعها) ان فى العرف كل من اريد وصفه بقلة العقل قيل انه خفيف الدماغ خفيف الرأس (وخامسها) ان العقل اشرف فيكون مكانه اشرف والاعلى هو الاشرف وذلك هو الدماغ لا القلب فوجب ان يكون محل العقل هو الدماغ (والجواب عن الاول) لم لا يجوز ان يقال الحواس تؤدى آثارها الى الدماغ ثم ان الدماغ يؤدى تلك الآثار الى القلب فالدماغ آلة قريبة للقلب والحواس آلات بعيدة فالحس يخدم الدماغ ثم الدماغ يخدم القلب وتحقيقه انا ندرك من انفسنا انا اذا عقلنا ان الامر الفلانى يجب فعله او يجب تركه فان الاعضاء تتحرك عند ذلك ونحن نجد التعقلات من جانب القلب لا من جانب الدماغ (وعن الثانى) انه لا يبعد ان يتأدى الاثر من القلب الى الدماغ ثم الدماغ يحرك الاعضاء بواسطة الاعصاب النابتة منه (وعن الثالث) لا يبعد ان يكون سلامة الدماغ شرطا لوصول تأثير القلب الى سائر الاعضاء (وعن الرابع) ان ذلك العرف انما كان لان القلب انما يعتدل مزاجه بما يستمده من الدماغ من برودته فاذا لحق الدماغ خروج عن الاعتدال خرج القلب عن الاعتدال ايضا اما لازدياد حرارته عن القدر الواجب او لنقصان حرارته عن ذلك القدر فحينئذ يختل العقل (وعن الخامس) انه لو صح ما قالوه لوجب ان يكون موضع العقل هو القحف ولما بطل ذلك ثبت فساد قولهم والله اعلم (فرع) اعلم ان المعانى التى بينا كونها مختصة بالقلوب قد تضاف

سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا وعن السدى رحمه الله الاولون الذين اقتدوا بهم واياما كان ففيه اوفر نصيب من التعريض للذين قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون وعن ابن جريج ابليس وابن آدم القاتل لانه اول من سن القتل وانواع المعاصى (فما لنا من شافعين) كما للمؤمنين من الملائكة والانبياء عليهم الصلاة والسلام (ولا صديق حميم) كما نرى لهم اصدقاء او فما لنا من شافعين ولا صديق حميم من الذين كنا نعدهم شفعاء واصدقاء على ان عدمهما كناية عن عداوتهما كما ان عدم المحبة فى مثل قوله تعالى والله لا يحب الفساد كناية عن البغض حسبما ينبئ عنه قوله تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين او وقعنا فى مهلكة لا يخلصنا منها شافع ولا صديق على ان المراد بعدمهما عدم اثرهما وجمع الشافع لكثرة الشفعاء عادة كما ان افراد الصديق لقلته اولصحة اطلاقه على الجمع كالعدو تشبيها لهما بالمصادر كالحنين والقبول وكلمة لو فى قوله تعالى (فلو ان لنا كرة) للتمنى كانت لنا ان بين معنييهما تلاقيا فى معنى الفرض والتقدير كأنه قيل ليت لنا كرة اى رجعة الى الدنيا وقيل هى على اصلها من الشرط وجوابه محذوف كأنه قيل فلو ان لنا كرة لفعلنا من الخيرات كيت وكيت ويأباه قوله تعالى (فنكون من المؤمنين) الحتم كونه جوابا للتمنى مفيدا لترتب ايمانهم على وقوع الكرة البتة بلا تخلف كما هو مقتضى حالهم وعطفه على كرة على طريقة * للبس عباءة

الى الصدر تارة والى الفؤاد اخرى اما الصدر فقوله تعالى وحصل ما فى الصدور وقوله وليبتلى الله ما فى صدوركم وقوله تعالى انه عليم بذات الصدور وان تخفوا ما فى صدوركم او تبدوه واما الفؤاد فقوله ونقلب أفئدتهم وابصارهم ومن الناس من فرق بين القلب والفؤاد فقال القلب هو العلقة السوداء فى جوف الفؤاد دون ما يكتنفها من اللحم والشحم ومجموع ذلك هو الفؤاد ومنهم من قال القلب والفؤاد لفظان مترادفان وكيف كان فيجب ان يعلم ان من جملة العضو المسمى قلبا وفؤادا موضعا هو الموضع فى الحقيقة للعقل والاختيار وان معظم جرم هذا العضو مسخر لذلك الموضع كما ان سائر الاعضاء مسخرة للقلب فان العضو قد تزيد اجزاؤه من غير ازدياد المعانى المنسوبة اليه اعنى العقل والفرح والحزن وقد ينقص من غير نقصان فى تلك المعانى فيشبه ان يكون اسم القلب اسما للاجزاء التى تحل فيها هذه المعانى بالحقيقة واسم الفؤاد يكون اسما لمجموع العضو فهذا هو الكلام فى هذا الباب والله الموفق للصواب واما قوله تعالى لتكون من المنذرين فيدخل تحت الانذار الدعاء الى كل واجب من علم وعمل والمنع من كل قبيح لان فى الوجهين جميعا يدخل الخوف من العقاب واما قوله تعالى بلسان عربى مبين فالباء اما ان تتعلق بالمنذرين فيكون المعنى لتكون من الذين انذروا بهذا اللسان وهم خمسة هود وصالح وشعيب واسمعيل ومحمد عليهم السلام واما ان تتعلق بنزل فيكون المعنى نزله باللسان العربى لينذر به لانه لو نزله باللسان الاعجمى لقالوا له ما نصنع بما لا نفهمه فيتعذر الانذار به وفى هذا الوجه ان تنزيله بالعربية التى هى لسانك ولسان قومك تنزيل له على قلبك لانك تفهمه ويفهمه قومك ولو كان اعجميا لكان نازلا على سمعك دون قلبك لانك تسمع اجراس حروف لا تفهم معانيها واما قوله تعالى وانه لفى زبر الاولين فيحتمل هذه الاخبار خاصة ويحتمل ان يكون المراد صفة القرآن ويحتمل صفة محمد صلى الله عليه وسلم ويحتمل ان يكون المراد وجوه التخويف لان ذكر هذه الاشياء باسرها قد تقدم ﴿ قوله تعالى

(اولم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بنى اسرائيل ولو نزلناه على بعض الاعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الاليم فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون فيقولوا هل نحن منظرون) اعلم ان قوله تعالى اولم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بنى اسرائيل المراد منه ذكر الحجة الثانية على نبوته عليه السلام وصدقه وتقريره ان جماعة من علماء بنى اسرائيل اسلموا ونصوا على مواضع فى التوراة والانجيل ذكر فيها الرسول عليه الصلاة والسلام بصفته ونعته وقد كان مشركو قريش يذهبون الى اليهود ويتعرفون منهم هذا الخبر وهذا يدل دلالة ظاهرة على نبوته لان تطابق الكتب الالهية على نعته ووصفه يدل قطعا على نبوته واعلم انه قرئ يكن بالتذكير وآية بالنصب على انها خبره وان يعلمه هو الاسم وقرئ تكن بالتأنيث وجعلت آية اسما وان يعلمه خبرا وليست كالاولى لوقوع النكرة اسما والمعرفة خبرا ويجوز مع نصب الآية تأنيث يكن كقوله ثم لم تكن

وتقر عينى * كما يستدعيه كون لو على اصلها بما يفيد تحقق مضمون الجواب على تقدير تحقق كرتهم وايمانهم معا من غير دلالة على استلزام الكرة للايمان اصلا مع انه مقصود حتما (ان فى ذلك) اى فيما ذكر من نبأ ابراهيم عليه السلام المشتمل على بيان بطلان ما كان عليه اهل مكة من عبادة الاصنام وتفصيل ما يؤل اليه امر عبدتها يوم القيامة من اعترافهم بخطئهم الفاحش وندمهم وتحسرهم على ما فاتهم من الايمان وتمنيهم الرجعة الى الدنيا ليكونوا من المؤمنين عند مشاهدتهم لما ازلفت لهم جنات النعيم وبرزت لانفسهم الجحيم وغشيهم ما غشيهم من الوان العذاب وانواع العقاب (لآية) اى آية عظيمة لا يقادر قدرها موجبة على عبدة الاصنام كافة لا سيما على اهل مكة الذين يدعون انهم على ملة ابراهيم عليه السلام ان يجتنبوا كل الاجتناب ما كانوا عليه من عبادتها خوفا ان يحيق بهم مثل ما حاق بأولئك من العذاب بحكم الاشتراك فيما يوجبه وان فى ذكر نبأه وتلاوته عليهم على ما هو عليه من غير ان تسمعه من احد لآية عظيمة دالة على ان ما تتلوه عليهم وحى صادق نازل من جهة الله تعالى موجبة للايمان به قطعا (وما كان اكثرهم مؤمنين) اى اكثر هؤلاء الذين تتلو عليهم النبأ مؤمنين بل هم مصرون على ما كانوا عليه من الكفر والضلال واما ان ضمير اكثرهم لقوم ابراهيم عليه السلام كما توهموا فمما لا سبيل اليه اصلا لظهور انهم ما ازدادوا بما سمعوا منه عليه الصلاة والسلام الا طغيانا وكفرا حتى

(فتنتهم)

فتتهم الآن قالوا واما قوله ولو نزلناه على بعض الاعجمين فاعلم انه تعالى لما بين بالدليلين المذكورين نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصدق لهجته بين بعد ذلك ان هؤلاء الكفار لاتنفعهم الدلائل ولا البراهين فقال ولو نزلناه على بعض الاعجمين يعنى انا انزلنا هذا القرآن على رجل عربى بلسان عربى مبين فسمعوه وفهموه وعرفوا فصاحته وانه معجز لايعارض بكلام مثله وانضم الى ذلك بشارة كتب الله السالفة به فلم يؤمنوا به وجحدوه وسموه شعرا تارة وسحرا أخرى فلو نزلناه على بعض الاعجمين الذى لايحسن العربية لكفروا به ايضا ولتمحلوا لجحودهم عذرا ثم قال كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين اى مثل هذا السلك سلكناه فى قلوبهم وهكذا مكناه وقررناه فيها وكيفما فعل بهم فلا سبيل الى ان يتغيروا عما هم عليه من الجحود والانكار وهذا ايضا مما يفيد تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم لانه اذا عرف رسول الله اصرارهم على الكفر وانه قد جرى القضاء الازلى بذلك حصل اليأس وفى المثل اليأس احدى الراحتين (المسئلة الرابعة) قوله كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين يدل على ان الكل بقضاء الله وخلقه قال صاحب الكشاف اراد به انه صار ذلك التكذيب متمكنا فى قلوبهم اشد التمكن فصار ذلك كالشئ الجبلى والجواب انه اما ان يكون قد فعل الله فيهم مايقتضى رجحان التكذيب على التصديق او مافعل ذلك فيهم فان كان الاول فقد دللنا فى سورة الانعام على ان الترجيح لايتحقق مالم ينته الى حد الوجوب وحينئذ يحصل المقصود فان لم يفعل فيهم مايقتضى الترجيح البتة امتنع قوله كذلك سلكناه كما ان طيران الطائر لما لم يكن له تعلق بكفرهم امتنع اسناد الكفر الى ذلك الطيران (المسئلة الخامسة) قال صاحب الكشاف (فان قلت) ما موقع لايؤمنون به من قوله سلكناه فى قلوب المجرمين (قلت) موقعه منه موقع الموضح والمبين لانه مسوق لبيانه مؤكد للجحود فى قلوبهم فاتبع مايقرر هذا المعنى من انهم لايزالون على التكذيب به حتى يعاينوا الوعيد * قوله تعالى (فيقولوا هل نحن منظرون افبعذابنا يستعجلون افرأيت ان متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما اغنى عنهم ما كانوا يمتعون وما اهلكنا من قرية الا لها منذرون ذكرى وما كنا ظالمين) اعلم انه تعالى لما بين انهم لايؤمنون به حتى يروا العذاب الاليم وانه يأتيهم العذاب بغتة اتبعه بما يكون منهم عند ذلك على وجه الحسرة فقال فيقولوا هل نحن منظرون كما يستغيث المرء عند تعذر الخلاص لانهم يعلمون فى الآخرة ان لا ملجأ لكنهم يذكرون ذلك استرواحا اما قوله تعالى افبعذابنا يستعجلون فالمراد انه تعالى بين انهم كانوا فى الدنيا يستعجلون العذاب مع ان حالهم عند نزول العذاب طلب النظرة ليعرف تفاوت الطريقين فيعتبر به ثم بين تعالى ان استعجال العذاب على وجه التكذيب انما يقع منهم ليتمتعوا فى الدنيا الآن ذلك جهل وذلك لان مدة التمتع فى الدنيا متناهية قليلة ومدة العذاب الذى يحصل بعد ذلك غير متناهية وليس فى العقل ترجيح لذات متناهية قليلة على آلام غير متناهية وعن ميمون بن

اجترؤا على تلك العظيمة التى فعلوها به عليه الصلاة والسلام فكيف يعبر عنهم بعدم ايمان اكثرهم واعا آمن له لوط فنجاهما الله عز وجل الى الشام وقدمت بقية الكلام فى آخر قصة موسى عليه السلام (وان ربك لهو العزيز الرحيم) اى هو القادر على تعجيل العقوبة لقومك ولكنه يمهلهم بحكم رحمته الواسعة ليؤمن بعض منهم او من ذرياتهم (كذبت قوم نوح المرسلين) وقيل القوم مؤنث ولذلك يصغر على قويمة وقيل القوم بمعنى الامة وتكذيبهم للمرسلين اما باعتبار اجماع الكل على التوحيد واصول الشرائع التى لاتختلف باختلاف الازمنة والاعصار واما لان المراد بالجمع الواحد كما يقال فلان يركب الدواب ويلبس البرود وماله الا دابة وبردة واذ فى قوله تعالى (اذ قال لهم) ظرف للتكذيب على انه عبارة عن زمان مديد وقع فيه ماوقع من الجانبين الى تمام الامر كما ان تكذيبهم عبارة عما صدر عنهم من حين ابتداء دعوته عليه الصلاة والسلام الى انتهائها (اخوهم) اى نسيبهم (نوح الاتتقون) الله حيث تعبدون غيره (انى لكم رسول) من جهته تعالى (امين) مشهور بالامانة فيما بينكم (فاتقوا الله واطيعون) فيما آمركم به من التوحيد والطاعة لله تعالى (وما اسألكم عليه) اى على ما انا متصد له من الدعاء والنصح (من اجر) اصلا (ان اجرى) فيما اتولاه (الا على رب العالمين) والفاء فى قوله تعالى (فاتقوا الله واطيعون) لترتيب

مهران انه لقي الحسن في الطواف فقال له عظني فلم يزد على تلاوة هذه الآية فقال ميمون لقد وعظت فابلغت وقرئ يمتعون بالتخفيف ثم بين انه لم يهلك قرية الا وهناك نذير يقيم عليهم الحجة اما قوله تعالى ذكرى فقال صاحب الكشاف ذكرى منصوبة بمعنى تذكرة امالان انذر وذكر متقاربان فكأنه قيل مذكرون تذكرة واما لانها حال من الضمير في منذرون اي ينذرونهم ذوي تذكرة واما لانها مفعول له على معنى انهم ينذرون لاجل الموعظة والتذكرة او مرفوعة على انها خبر مبتدأ محذوف بمعنى هذه ذكرى والجملة اعتراضية او صفة بمعنى منذرون ذوو ذكرى وجعلوا ذكرى لامعانهم في التذكرة واطنابهم فيها (ووجه آخر) وهو ان يكون ذكرى متعلقة باهلكنا مفعولا له والمعنى وما اهلكنا من اهل قرية ظالمين الا بعد ما الزمناهم الحجة بارسال المنذرين اليهم ليكون اهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم فلا يعصوا مثل عصيانهم وما كنا ظالمين فنهلك قوما غير ظالمين وهذا الوجه عليه المعول فان قلت كيف عزلت الواو عن الجملة بعد الا ولم تعزل عنها في قوله وما اهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم قلت الاصل عزل الواو لان الجملة صفة لقرية واذا زيدت فلتأكيد وصل الصفة بالموصول * قوله تعالى (وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون انهم عن السمع لمعزولون فلا تدع مع الله الها آخر فتكون من المعذبين) اعلم انه تعالى لما احتج على صدق محمد صلى الله عليه وسلم بكون القرآن تنزيل رب العالمين وانما يعرف ذلك لوقوعه من الفصاحة في النهاية القصوى ولانه مشتمل على قصص المتقدمين من غير تفاوت مع انه عليه السلام لم يشتغل بالتعلم والاستفادة فكان الكفار يقولون لم لايجوز ان يكون هذا من القاء الجن والشياطين كسائر ما ينزل على الكهنة فاجاب الله تعالى عنه بان ذلك لا يتسهل للشياطين لانهم مرجومون بالشهب معزولون عن استماع كلام اهل السماء (ولقائل) ان يقول العلم بكون الشياطين ممنوعين عن ذلك لايحصل الا بواسطة خبر النبي الصادق فاذا اثبتنا كون محمد صلى الله عليه وسلم صادقا بفصاحة القرآن واخباره عن الغيب ولا يمكن اثبات كون الفصاحة والاخبار عن الغيب معجزا الا اذا ثبت كون الشياطين ممنوعين عن ذلك لزم الدور وهو باطل (وجوابه) لانسلم ان العلم بكون الشياطين ممنوعين عن ذلك لا يستفاد الا من قول النبي وذلك لانا نعلم بالضرورة ان الاهتمام بشان الصديق اقوى من الاهتمام بشان العدو ونعلم بالضرورة ان محمدا صلى الله عليه وسلم كان يلعن الشياطين ويأمر الناس بلعنهم فلو كان هذا الغيب انما حصل من القاء الشياطين لكان الكفار اولى بأن يحصل لهم مثل هذا العلم فكان يجب ان يكون اقتدار الكفار على مثله اولى فلما لم يكن كذلك علمنا ان الشياطين ممنوعون عن ذلك وانهم معزولون عن تعرف الغيوب ثم انه تعالى لما ذكر هذا الجواب ابتدأ بخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم فقال فلا تدع مع الله الها آخر وذلك في الحقيقة خطاب لغيره لان من شان الحكيم اذا اراد ان يؤكد خطاب الغير ان يوجهه الى الرؤساء في الظاهر وان كان المقصود بذلك هم الاتباع ولانه تعالى اراد ان يتبعه ما يليق بذلك فلهذه العلة

ما بعدها على ما قبلها من تنزهه عليه الصلاة والسلام عن الطمع كان تطيرتها السابقة لترتيب ما بعدها على امانته والتكرير للتأكيد والتنبيه على ان كلا منهما مستقل في ايجاب التقوى والطاعة فكيف اذا اجتمعا وقرئ ان اجري بسكون الياء (قالوا أنؤمن لك واتبعك الارذلون) اي الاقلون جاها ومالا جمع الارذل على الصحة فانه بالغلبة صار جاريا مجرى الاسم كالاكبر والاكابر وقيل جمع ارذل جمع رذل كأكالب واكلب وكلب وقرئ واتباعك وهو جمع تابع كشاهد واشهاد او جمع تبع كبطل وابطال يعنون انه لا عبرة باتباعهم لك اذ ليس لهم رزانة عقل ولا اصابة رأي وقد كان ذلك منهم في بادئ الرأي كما ذكر في موضع آخر وهذا من كمال سخافة عقولهم وقصرهم انظارهم على حطام الدنيا وكون الاشرف عندهم من هو اكثر منها حظا والارذل من حرمها وجهلهم بأنها لاتزن عند الله تعالى جناح بعوضة وان النعيم هو نعيم الآخرة والاشرف من فاز به والارذل من حرمه (قال وما علمي بما كانوا يعملون) جواب عما اشير اليه من قولهم انهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة اي وما وظيفتي الا اعتبار الظواهر وبناء الاحكام عليها دون التفتيش عن بواطنهم والشق عن قلوبهم (ان حسابهم) اي ما محاسبة اعمالهم والتنقير عن كيفياتها البارزة والكامنة (الا على ربي) فانه

افرده بالمخاطبة * قوله تعالى (وانذر عشيرتك الاقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فان عصوك فقل انى برئ مما تعملون وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقوم و تقلبك فى الساجدين انه هو السميع العليم) اعلم انه سبحانه لما بالغ فى تسلية رسوله اولا ثم اقام الحجة على نبوته ثانيا ثم اورد سؤال المنكرين وأجاب عنه ثالثا امره بعد ذلك بما يتعلق بباب التبليغ والرسالة وههنا امور ثلاثة (الاول) قوله وانذر عشيرتك الاقربين وذلك لانه تعالى بدأ بالرسول فتوعده ان دعا مع الله الها آخر ثم أمره بدعوة الاقرب فالاقرب وذلك لانه اذا تشدد على نفسه اولا ثم بالاقرب فالاقرب ثانيا لم يكن لأحد فيه طعن البتة وكان قوله انفع وكلامه انجع وروى انه لما نزلت هذه الآية صعد الصفا فنادى الاقرب فالاقرب وقال يابنى عبد المطلب يابنى هاشم يابنى عبد مناف ياعباس عم محمد ياصفية عمة محمد انى لا املك لكم من الله شيئا سلونى من المال ماشئتم وروى انه جمع بنى عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلا على رجل شاة وقعب من لبن وكان الرجل منهم يأكل الجذعة ويشرب العس فأكلوا وشربوا ثم قال يابنى عبد المطلب لو اخبرتكم ان بسفح هذا الجبل خيلا أكنتم مصدقى قالوا نعم فقال انى نذير لكم بين يدى عذاب شديد (الثانى) قوله واخفض جناحك واعلم ان الطائر اذا أراد ان ينحط للوقوع كسر جناحه وخفضه واذا أراد ان ينهض للطيران رفع جناحه فجعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلا فى التواضع ولين الجانب (فان قيل) المتبعون للرسول هم المؤمنون وبالعكس فلم قال لمن اتبعك من المؤمنين (جوابه) لانسلم ان المتبعين للرسول هم المؤمنون فان كثيرا منهم كانوا يتبعونه للقرابة والنسب لا للدين فاما قوله فان عصوك فقل انى برئ مما تعملون فمعناه ظاهر قال الجبائى هذا يدل على انه عليه السلام كان بريئا من معاصيهم وذلك يوجب ان الله تعالى ايضا برئ من عملهم كالرسول والا كان مخالفا لله كما لو رضى عمن سخط الله عليه لكان كذلك واذا كان تعالى بريئا من عملهم فكيف يكون فاعلا له ومريدا له الجواب انه تعالى برئ من المعاصى بمعنى انه ما أمر بها بل نهى عنها فاما بمعنى انه لا يريدها فلا نسلم والدليل عليه انه علم وقوعها وعلم ان ماهو معلوم الوقوع فهو واجب الوقوع والا لانقلب علمه جهلا وهو محال والمفضى الى المحال محال وعلم ان ما هو واجب الوقوع فانه لا يراد عدم وقوعه فثبت ماقلناه (الثالث) قوله وتوكل والتوكل عبارة عن تفويض الرجل امره الى من يملك امره ويقدر على نفعه وضره وقوله على العزيز الرحيم اى على الذى يقهر اعداءك بعزته وينصرك عليهم برحمته ثم اتبع كونه رحيما على رسوله ماهو كالسبب لتلك الرحمة وهو قيامه وتقلبه فى الساجدين وفيه وجوه (أحدها) المراد ما كان يفعله فى جوف الليل من قيامه للتهجد وتقلبه فى تصفح احوال المجتهدين ليطلع على اسرارهم كما يحكى انه حين نسخ فرض قيام الليل طاف تلك الليلة ببيوت اصحابه لينظر مايصنعون لحرصه على مايوجد منهم من الطاعات فوجدها كبيوت الزنابير لما يسمع من دندنتهم

المطلع على السرائر والضمائر (لو تشعرون) اى بشئ من الاشياء اولو كنتم من اهل الشعور لعلمتم ذلك ولكنكم لستم كذلك فتقولون ما تقولون (وما انا بطارد المؤمنين) جواب عما اوهمه كلامهم من استدعاء طردهم وتعليق ايمانهم بذلك حيث جعلوا اتباعهم مانعا عنه وقوله (ان انا الا نذير مبين) كالعلة له اى ما انا الا رسول مبعوث لانذار المكلفين وزجرهم عن الكفر والمعاصى سواء كانوا من الاعزاء او الاذلاء فكيف يتسنى لى طرد الفقراء لاستتباع الاغنياء اوما على الا انذاركم بالبرهان الواضح وقد فعلته وما على استرضاء بعضكم بطرد الآخرين (قالوا لئن لم تنته يانوح) عما تقول (لتكونن من المرجومين) من المشتومين او المرميين بالحجارة قالوه قاتلهم الله تعالى فى أواخر الامر ومعنى قوله تعالى (قال رب ان قومى كذبون) تموا على تكذيبى واصروا على ذلك بعد مادعوتهم هذه الازمنة المتطاولة ولم يزدهم دعائى الا فرارا كما يعرب عنه دعاؤه بقوله (فافتح بينى وبينهم فتحا) اى احكم بيننا بما يستحقه كل واحد منا وهذه حكاية اجمالية لدعائه المفصل فى سورة نوح عليه السلام (ونجنى ومن معى من المؤمنين) اى من قصدهم اومن شؤم اعمالهم (فأنجيناه ومن معه) حسب دعائه (فى الفلك المشحون) اى المملوء بهم وبما لابد لهم منه (ثم اغرقنا بعد) اى بعد انجائهم (الباقين) اى من قومه (ان فى ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين وان ربك لهو

بذكر الله تعالى والمراد بالساجدين المصلين (وثانيها) المعنى يراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة وتقلبه فى الساجدين تصرفه فيما بينهم بقيامه وركوعه وسجوده وقعوده اذا كان اماما لهم (وثالثها) انه لا يخفى عليه حالك كلما قمت وتقلبت مع الساجدين فى كفاية امور الدين (ورابعها) المراد تقلب بصره فيمن يصلى خلفه من قوله صلى الله عليه وسلم اتموا الركوع والسجود فوالله انى لأراكم من خلفى ثم قال انه هو السميع اى لما تقوله العليم اى بما تنويه وتعمله وهذا يدل على ان كونه سميعا امر مغاير لعلمه بالمسموعات والا لكان لفظ العليم مفيدا فائدته واعلم انه قرئ ويقلبك واعلم ان الرافضة ذهبوا الى ان آباء النبى صلى الله عليه وسلم كانوا مؤمنين وتمسكوا فى ذلك بهذه الآية وبالخبر اما هذه الآية فقالوا قوله تعالى وتقلبك فى الساجدين يحتمل الوجوه التى ذكرتم ويحتمل ان يكون المراد ان الله تعالى نقل روحه من ساجد الى ساجد كما نقوله نحن واذا احتمل كل هذه الوجوه وجب حمل الآية على الكل ضرورة انه لا منافاة ولا رجحان واما الخبر فقوله عليه السلام لم أزل انقل من اصلاب الطاهرين الى ارحام الطاهرات وكل من كان كافرا فهو نجس لقوله تعالى انما المشركون نجس قالوا فان تمسكتم على فساد هذا المذهب بقوله تعالى واذ قال ابراهيم لأبيه آزر قلنا الجواب عنه ان لفظ الاب قد يطلق على العم كما قال ابناء يعقوب له نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق فسموا اسمعيل ابا له مع انه كان عما له وقال عليه السلام ردوا على ابى يعنى العباس ويحتمل ايضا ان يكون متخذا لاصنام اب امه فان هذا قد يقال له الاب قال تعالى ومن ذريته داود وسليمان الى قوله وعيسى فجعل عيسى من ذرية ابراهيم مع ان ابراهيم كان جده من قبل الام واعلم انا نتمسك بقوله تعالى لأبيه آزر وما ذكروه صرف للفظ عن ظاهره واما حمل قوله وتقلبك فى الساجدين على جميع الوجوه فغير جائز لما بينا ان حمل المشترك على كل معانيه غير جائز واما الحديث فهو خبر واحد فلا يعارض القرآن * قوله تعالى (هل انبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل افاك اثيم يلقون السمع واكثرهم كاذبون) اعلم ان الله تعالى اعاد الشبهة المتقدمة واجاب عنها من وجهين (الاول) قوله تنزل على كل افاك اثيم وذلك هو الذى قررناه فيما تقدم ان الكفار يدعون الى طاعة الشيطان ومحمدا عليه السلام كان يدعو الى لعن الشيطان والبراءة عنه (والثانى) قوله يلقون السمع واكثرهم كاذبون والمراد انهم كانوا يقيسون حال النبى صلى الله عليه وسلم على حال سائر الكهنة فكأنه قيل لهم ان كان الامر على ماذكرتم فكما ان الغالب على سائر الكهنة الكذب فيجب ان يكون حال الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك ايضا فلما لم يظهر فى اخبار الرسول صلى الله عليه وسلم عن المغيبات الا الصدق علمنا ان حاله بخلاف حال الكهنة ثم ان المفسرين ذكروا فى الآية وجوها (احدها) انهم الشياطين روى انهم كانوا قبل ان حجبوا بالرجم يسمعون الى الملا الاعلى فيختطفون بعض ما يتكلمون به مما اطلعوا عليه من الغيوب ثم يوحون

العزيز الرحيم) الكلام فيه كالذى مر خلا ان حمل اكثرهم على اكثر قوم نوح ابعد من السداد وابعد (كذبت عاد المرسلين) انث عاد باعتبار القبيلة وهو اسم أبيهم الاقصى (اذ قال لهم اخوهم هود الا تتقون) الكلام فى ان المراد بتكذيبهم وبما وقع فيه من الزمان ماذا كما مر فى صدر قصة نوح عليه السلام اى الا تتقون الله تعالى فتفعلون ما تفعلون (انى لكم رسول امين فاتقوا الله واطيعون وما اسألكم عليه من اجر ان اجرى الا على رب العالمين) الكلام فيه كالذى مر وتصدير القصص به للتنبيه على ان مبنى البعثة هو الدعاء الى معرفة الحق والطاعة فيما يقرب المدعو الى الثواب ويبعده من العقاب وان الانبياء عليهم الصلاة والسلام مجمعون على ذلك وان اختلفوا فى بعض فروع الشرائع المختلفة باختلاف الازمنة والاعصار وانهم متنزهون عن المطامع الدنية والاغراض الدنيوية بالكلية (اتبنون بكل ريع) اى مكان مرتفع ومنه ريع الارض لارتفاعها (آية) علما للمارة (تعبثون) اى ببنائها اذ كانوا يهتدون بالنجوم فى اسفارهم فلا يحتاجون اليها او بروج الحمام او بنيانا يجتمعون اليه ليعبثوا بمن مر عليهم قصورا عالية يفتخرون بها (وتتخذون مصانع) اى مآخذ الماء وقيل قصورا مشيدة وحصونا (لعلكم تخلدون) اى راجين ان تخلدوا فى الدنيا اى عاملين عمل من يرجو ذلك فلذلك تحكمون

به الى أوليائهم واكثرهم كاذبون فيما يوحى به اليهم لانهم يسمعونهم مالم يسمعوا (وثانيها) يلقون الى أوليائهم السمع اى المسموع من الملائكة (وثالثها) الافاكون يلقون السمع الى الشياطين فيلقون وحيهم اليهم (ورابعها) يلقون المسموع من الشياطين الى الناس واكثر الافاكين كاذبون يفترون على الشياطين مالم يوحوا اليهم فان قلت يلقون مامحله قلت يجوز ان يكون فى محل النصب على الحال اى تنزل ملقين السمع وفى محل الجر صفة لكل افاك لانه فى معنى الجمع وان لايكون له محل بان يستأنف كأن قائلا قال لم تنزل على الافاكين فقيل يفعلون كيت وكيت فان قلت كيف قال واكثرهم كاذبون بعد ماقضى عليهم ان كل واحد منهم افاك قلت الافاكون هم الذين يكثرون الكذب لانهم الذين لاينطقون الا بالكذب فأراد ان هؤلاء الافاكين قل من يصدق منهم فيما يحكى عن الجن واكثرهم يفترى عليهم ❊ قوله تعالى (والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر انهم فى كل واد يهيمون وانهم يقولون مالايفعلون الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ماظلموا وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون) اعلم ان الكفار لما قالوا لم لايجوز ان يقال ان الشياطين تنزل بالقرآن على محمد كما انهم ينزلون بالكهانة على الكهنة وبالشعر على الشعراء ثم انه سبحانه فرق بين محمد صلى الله عليه وسلم وبين الكهنة فذكر ههنا مايدل على الفرق بينه عليه السلام وبين الشعراء وذلك هو ان الشعراء يتبعهم الغاوون اى الضالون ثم بين تلك الغواية بأمرين (الاول) انهم فى كل واد يهيمون والمراد منه الطرق المختلفة كقولك انا فى واد وانت فى واد وذلك لانهم قد يمدحون الشئ بعد ان ذموه وبالعكس وقد يعظمونه بعد ان استحقروه وبالعكس وذلك يدل على انهم لايطلبون بشعرهم الحق ولا الصدق بخلاف امر محمد صلى الله عليه وسلم فانه من اول امره الى آخره بقى على طريق واحد وهو الدعوة الى الله تعالى والترغيب فى الآخرة والاعراض عن الدنيا (الثانى) انهم يقولون مالايفعلون وذلك أيضا من علامات الغواة فانهم يرغبون فى الجود ويرغبون عنه وينفرون عن البخل ويصرون عليه ويقدحون فى الناس بأدنى شئ صدر عن واحد من اسلافهم ثم انهم لايرتكبون الا الفواحش وذلك يدل على الغواية والضلالة واما محمد صلى الله عليه وسلم فانه بدأ بنفسه حيث قال الله تعالى له فلا تدع مع الله الها آخر فتكون من المعذبين ثم بالاقرب فالاقرب حيث قال الله تعالى له وانذر عشيرتك الاقربين وكل ذلك على خلاف طريقة الشعراء فقد ظهر بهذا الذى بيناه ان حال محمد صلى الله عليه وسلم ما كان يشبه حال الشعراء ثم ان الله تعالى لما وصف الشعراء بهذه الاوصاف الذميمة بيانا لهذا الفرق استثنى عنهم الموصوفين بأمور اربعة (احدها) الايمان وهو قوله الا الذين آمنوا (وثانيها) العمل الصالح وهو قوله وعملوا الصالحات (وثالثها) ان يكون شعرهم فى التوحيد والنبوة ودعوة الخلق الى الحق وهو قوله وذكروا الله كثيرا (ورابعها) ان لايذكروا هجو احد

فيانها (واذا بطشتم) بسوط او سيف (بطشتم جبارين) متسلطين غاشمين بلا رأفة ولا قصد تأديب ولا نظر فى العاقبة (فاتقوا الله) واتركوا هذه الافعال (واطيعون) فيما ادعوكم اليه فانه انفع لكم (واتقوا الذى امدكم بما تعلمون) من انواع النعماء واصناف الآلاء اجملها اولا ثم فصلها بقوله (امدكم بأنعام وبنين) باعادة الفعل لزيادة التقرير فان التفصيل بعد الاجمال والتفسير اثر الابهام ادخل فى ذلك (وجنات وعيون انى أخاف عليكم) ان لم تقوموا بشكر هذه النعم (عذاب يوم عظيم) فى الدنيا والآخرة فان كفران النعمة مستتبع للعذاب كما ان شكرها مستلزم لزيادتها قال تعالى لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد (قالوا سواء علينا اوعظت ام لم تكن من الواعظين) فانا لن نرعوى عما نحن عليه وتغيير الشق الثانى عن مقابله للمبالغة فى بيان قلة اعتدادهم بوعظه كأنهم قالوا ام لم تكن من اهل الوعظ ومباشريه اصلا (ان هذا) ماهذا الذى جئتنا به (الا خلق الاولين) اى عادتهم كانوا يلفقون مثله ويسطرونه اوماهذا الذى نحن عليه من الدين الا خلق الاولين وعادتهم ونحن بهم مقتدون اوما هذا الذى نحن عليه من الموت والحياة الا عادة قديمة لم يزل الناس عليها وقرئ خلق الاولين بفتح الخاء اى اختلاق الاولين كما قالوا اساطير الاولين اوماخلقنا هذا الا خلقهم نحيا كما حيوا ونموت كما ماتوا ولا بعث ولا حساب (وما نحن بمعذبين) على ما نحن عليه من الاعمال

الاعلى سبيل الانتصار ممن يهجوهم وهو قوله وانتصروا من بعد ماظلموا قال الله تعالى لايحب الله الجهر بالسوء من القول الامن ظلم ثم ان الشرط فيه ترك الاعتداء لقوله تعالى فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم وقيل المراد بهذا الاستثناء عبدالله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك وكعب بن زهير لانهم كانوا يهجون قريشا وعن كعب بن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له اهجهم فوالذى نفسى بيده لهو اشد عليهم من رشق النبل وكان يقول لحسان بن ثابت قل وروح القدس معك فاما قوله تعالى وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون فالذى عندى فيه والله اعلم انه تعالى لما ذكر فى هذه السورة مايزيل الحزن عن قلب رسوله صلى الله عليه وسلم من الدلائل العقلية ومن اخبار الانبياء المتقدمين ثم ذكر الدلائل على نبوته عليه السلام ثم ذكر سؤال المشركين فى تسميتهم محمدا صلى الله عليه وسلم تارة بالكاهن وتارة بالشاعر ثم انه تعالى بين الفرق بينه وبين الكاهن اولا ثم بين الفرق بينه وبين الشاعر ثانيا ختم السورة بهذا التهديد العظيم يعنى ان الذين ظلموا انفسهم واعرضوا عن تدبر هذه الآيات والتأمل فى هذه البينات فانهم سيعلمون بعد ذلك اى منقلب ينقلبون وقال الجمهور المراد منه الزجر عن الطريقة التى وصف الله بها هؤلاء الشعراء والاول اقرب الى نظام السورة من اولها الى آخرها والله اعلم والحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد النبى الامى وآله وصحبه اجمعين وعلى ازواجه امهات المؤمنين وعلى التابعين لهم باحسان الى يوم الدين

﴿ سورة النمل تسعون وثلاث اواربع اوخمس آيات مكية ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

(طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين هدى وبشرى للمؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون) اعلم ان قوله تلك اشارة الى آيات السورة والكتاب المبين هو اللوح المحفوظ وابانته انه قدخط فيه كل ماهو كائن فالملائكة الناظرون فيه يبينون الكائنات وانما نكر الكتاب المبين ليصير مبهما بالتنكير فيكون افخم له كقوله فى مقعد صدق عند مليك مقتدر وقرأ ابن ابى عبلة وكتاب مبين بالرفع على تقدير وآيات كتاب مبين لحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه فان قلت ماالفرق بين هذا وبين قوله الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين قلت لافرق لان واو العطف لاتقتضى الترتيب اما قوله هدى وبشرى للمؤمنين فهو فى محل النصب او الرفع فالنصب على الحال اى هادية ومبشرة والعامل فيها مافى تلك من معنى الاشارة والرفع على ثلاثة اوجه على معنى هى هدى وبشرى وعلى البدل من الآيات وعلى ان يكون خبرا بعد خبر اى جمعت آياتها آيات الكتاب وانها هدى وبشرى واختلفوا فى وجه تخصيص الهدى بالمؤمنين على وجهين (الاول) المراد ان يهديهم الى الجنة وبشرى لهم كقوله تعالى فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما فلهذا اختص به المؤمنون (الثانى) المراد

(بالهدى)

(فكذبوه) اى اصروا على ذلك (فاهلكناهم) بسببه بريح صرصر (ان فى ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم كذبت ثمود المرسلين اذ قال لهم اخوهم صالح ألا تتقون) الله تعالى (انى لكم رسول امين فاتقوا الله وأطيعون وما أسالكم عليه من اجر ان اجرى الا على رب العالمين أتتركون فيما ههنا آمنين) انكار ونفى لان يتركوا فيما هم فيه من النعمة اوتذكير للنعمة فى تخليته تعالى اياهم واسباب تنعمهم آمنين وقوله تعالى (فى جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم) تفسير لما قبله من المبهم والهضيم اللطيف اللين للطف الثمر اولان النخل انثى وطلع الاناث ألطف وهو مايطلع منها كنصل السيف فى جوفه شماريخ القنو اومتدل متكسر من كثرة الحمل وافراد النخل لفضله على سائر اشجار الجنات اولان المراد بها غيرها من الاشجار (وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين) بطرين او حاذقين من الفراهة وهى النشاط فان الحاذق يعمل بنشاط وطيب قلب وقرئ فرهين وهو ابلغ (فاتقوا الله واطيعون ولا تطيعوا امر المسرفين) استعير الطاعة التى هى انقياد الآمر لامتثال الامر وارتسامه ونسب حكم الآمر الى امره مجازا (الذين يفسدون فى الارض) وصف موضح لاسرافهم ولذلك عطف (ولا يصلحون) على يفسدون لبيان خلوص افسادهم عن مخالطة الاصلاح (قالوا انما انت من المسحرين) اى الذين سحروا حتى غلب على عقولهم اومن ذوى السحر اى الرئة

بالهدى الدلالة ثم ذكروا فى تخصيصه بالمؤمنين وجوها (احدها) انه انما خصه بالمؤمنين لانه ذكر مع الهدى البشرى والبشرى انما تكون للمؤمنين (وثانيها) ان وجه الاختصاص انهم تمسكوا به فخصهم بالذكر كقوله انما انت منذر من يخشاها (وثالثها) المراد من كونها هدى للمؤمنين انها زائدة فى هداهم قال تعالى ويزيد الله الذين اهتدوا هدى اما قوله الذين يقيمون الصلاة فالاقرب انها الصلوات الخمس لان التعريف بالالف واللام يقتضى ذلك واقامة الصلاة ان يؤتى بها بشرائطها وكذا القول فى الزكاة فانها هى الواجبة واتاتها وضعها فى حقها اما قوله وهم بالآخرة هم يوقنون ففيه سؤال وهو ان المؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة لابد وان يكونوا متيقنين بالآخرة فما الوجه فى ذكره مرة اخرى جوابه من وجهين (الاول) ان يكون من جملة صلة الموصول ثم فيه وجهان (الاول) ان كمال الانسان فى ان يعرف الحق لذاته والخير لاجل العمل به واما معرفة الحق فاقسام كثيرة لكن الذى يستفاد منه طريق النجاة معرفة المبدأ ومعرفة المعاد واما الخير الذى يعمل به فاقسام كثيرة واشرفها قسمان الطاعة بالنفس والطاعة بالمال فقوله للمؤمنين اشارة الى معرفة المبدأ وقوله يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة اشارة الى الطاعة بالنفس والمال وقوله وهم بالآخرة هم يوقنون اشارة الى علم المعاد فكأنه سبحانه وتعالى جعل معرفة المبدأ طرفا اولا ومعرفة المعاد طرفا اخيرا وجعل الطاعة بالنفس والمال متوسطا بينهما (الثانى) ان المؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة منهم من هو جازم بالحشر والنشر ومنهم من يكون شاكا فيه الا انه يأتى بهذه الطاعات للاحتياط فيقول ان كنت مصيبا فيها فقد فزت بالسعادة وان كنت مخطئا فيها لم يفتنى الا خيرات قليلة فى هذه المدة اليسيرة فمن يأتى بالصلاة والزكاة على هذا الوجه لم يكن فى الحقيقة مهتديا بالقرآن اما من كان جازما بالآخرة كان مهتديا به فلهذا السبب ذكر هذا القيد (الثانى) ان يجعل قوله وهم بالآخرة هم يوقنون جملة اعتراضية كأنه قيل وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من اقامة الصلاة وايتاء الزكاة هم الموقنون بالآخرة وهذا هو الاقرب ويدل عليه انه عقد جملة ابتدائية وكرر فيها المبتدأ الذى هو هم حتى صار معناها وما يوقن بالآخرة حق الايقان الا هؤلاء الجامعون بين الايمان والعمل الصالح لان خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق ۞ قوله تعالى (ان الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم اعمالهم فهم يعمهون أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم فى الآخرة هم الاخسرون) اعلم انه تعالى لما بين ما للمؤمنين من البشرى اتبعه بما على الكفار من سوء العذاب فقال ان الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم اعمالهم واختلف الناس فى انه كيف اسند تزيين اعمالهم الى ذاته مع انه اسنده الى الشيطان فى قوله وزين لهم الشيطان اعمالهم فاما اصحابنا فقد اجروا الآية على ظاهرها وذلك لان الانسان لا يفعل البتة الا اذا دعاه الداعى الى الفعل والمعقول من الداعى هو

اى من الانس فيكون قوله تعالى (ما انت الا بشر مثلنا) تاكيدا له (فأت بآية ان كنت من الصادقين) اى فى دعواك (قال هذه ناقة) اى بعدما اخرجها الله تعالى من الصخرة بدعائه عليه الصلاة والسلام حسبما فصل فى سورة الاعراف وسورة هود (لها شرب) اى نصيب من الماء كالسقى والقيت للحظ من السقى والقوت وقرئ بالضم (ولكم شرب يوم معلوم) فاقتنعوا بشربكم ولا تزاحموا على شربها (ولا تمسوها بسوء) كضرب وعقر (فيأخذكم عذاب يوم عظيم) وصف اليوم بالعظم لعظم ما يحل فيه وهو ابلغ من تعظيم العذاب (فعقروها) اسند العقر الى كلهم لما ان عاقرها عقرها برأيهم ولذلك عمهم العذاب (فأصبحوا نادمين) خوفا من حلول العذاب لا توبة او عند معاينتهم لباديه ولذلك لم ينفعهم الندم وان كان بطريق التوبة (فأخذهم العذاب) اى العذاب الموعود (ان فى ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) قيل فى نفى الايمان عن اكثرهم فى هذا المعرض ايماء الى انه لو آمن اكثرهم او شطرهم لما اخذوا بالعذاب وان قريشا انما عصموا من مثله ببركة من آمن منهم وانت خبير بأن قريشا هم المشهورون بعدم ايمان اكثرهم (كذبت قوم لوط المرسلين اذ قال لهم اخوهم لوط الا تتقون انى لكم رسول امين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من اجر ان اجرى الا على رب العالمين أتأتون الذكران من العالمين) اى أتأتون من بين من عداكم من العالمين الذكران لا يشارككم فيه غيركم او أتأتون

العلم و الاعتقاد و الظن بكون الفعل مشتملا على منفعة و هذا الداعى لابد وان يكون من فعل الله تعالى لوجهين (الاول) انه لو كان من فعل العبد لافتقر فيه الى داع آخر ويلزم التسلسل وهو محال (الثانى) وهو ان العلم اما ان يكون ضروريا او كسبيا فان كان ضروريا فلابد فيه من تصورين و التصور يمتنع ان يكون مكتسبا لان المكتسب ان كان شاعرا به فهو متصور له و تحصيل الحاصل محال وان لم يكن شاعرا به كان غافلا عنه و الغافل عن الشئ يمتنع ان يكون طالبا له (فان قلت) هو مشعور به من وجه دون وجه (قلت) فالمشعور به غير ما هو غير مشعور به فيعود التقسيم المتقدم فى كل واحد من هذين الوجهين واذا ثبت ان التصور غير مكتسب البتة والعلم الضرورى هو الذى يكون حضور كل واحد من تصوريه كافيا فى حصول التصديق فالتصورات غير كسبية وهى مستلزمة للتصديقات فاذن متى حصلت التصورات حصل التصديق لا محالة ومتى لم تحصل لم يحصل التصديق البتة فحصول هذه التصديقات البديهية ليس بالكسب ثم ان تلك التصديقات البديهية ان كانت مستلزمة للتصديقات النظرية لم تكن التصديقات النظرية كسبية لان لازم الضرورى ضرورى وان لم تكن مستلزمة لها لم تكن تلك الاشياء التى فرضناها علوما نظرية كذلك بل هى اعتقادات تقليدية لانه لا معنى لاعتقاد المقلد الا اعتقاد تحصيلى يفعله ابتداء من غير ان يكون له موجب فثبت بهذا ان العلوم باسرها ضرورية وثبت ان مبادى الافعال هى العلوم فافعال العباد بأسرها ضرورية والانسان مضطر فى صورة مختار فثبت ان الله تعالى هو الذى زين لكل عامل عمله و المراد من التزيين هو انه يخلق فى قلبه العلم بما فيه من المنافع واللذات ولا يخلق فى قلبه العلم بما فيه من المضار والآفات فقد ثبت بهذه الدلائل القاطعة العقلية وجوب اجراء هذه الآية على ظاهرها اما المعتزلة فانهم ذكروا فى تأويلها وجوها (احدها) ان المراد بزينا لهم امر الدين وما يلزمهم ان يتمسكوا به وزيناه بأن بينا حسنه وما لهم فيه من الثواب لان التزيين من الله تعالى للعمل ليس الا وصفه بانه حسن وواجب وحميد العاقبة وهو المراد من قوله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم ومعنى فهم يعمهون يدل على ذلك لان المراد فهم يعدلون وينحرفون عما زينا من اعمالهم (وثانيها) انه تعالى لما متعهم بطول العمر وسعة الرزق جعلوا انعام الله تعالى بذلك عليهم ذريعة الى اتباع شهواتهم وعدم الانقياد لما يلزمهم من التكاليف فكأنه تعالى زين بذلك اعمالهم واليه اشارة الملائكة عليهم السلام فى قولهم ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر (وثالثها) ان امهاله الشيطان وتخليته حتى يزين لهم ملابسة ظاهرة للتزيين فاسند اليه (والجواب عن الاول) ان قوله تعالى اعمالهم صيغة عموم توجب ان يكون الله تعالى قد زين لهم كل اعمالهم حسنا كان العمل او قبيحا ومعنى التزيين قد قدمناه (وعن الثانى) ان الله تعالى لما متعهم بطول العمر وسعة الرزق فهل لهذه الامور اثر فى ترجيح فاعلية المعصية على تركها او ليس لها فيه اثر

(فان)

الذكران من اولاد آدم مع كثرتهم وغلبة النساء فيهم مع كونهن اليق بالاستمتاع فالمراد بالعالمين على الاول كل ما ينكح من الحيوان وعلى الثانى الناس (وتذرون ما خلق لكم ربكم) لاجل استمتاعكم وكلمة من فى قوله تعالى (من ازواجكم) للبيان ان اريد بما جنس الاناث وهو الظاهر وللتبعيض ان اريد بها العضو المباح منهن تعريضا بأنهم كانوا يفعلون ذلك بنسائهم ايضا (بل انتم قوم عادون) متعدون متجاوزون الحد فى جميع المعاصى وهذا من جملتها وقيل متجاوزون عن حد الشهوة وحيث زادوا على سائر الناس بل الحيوانات (قالوا لئن لم تنته يا لوط) اى عن تقبيح امرنا ونهينا عنه او عن دعوى النبوة التى من جملة احكامها التعرض لنا (لتكونن من المخرجين) اى من المنفيين من قريتنا وكأنهم كانوا يخرجون من اخرجوه من بينهم على عنف وسوء حال (قال انى لعملكم من القالين) اى من المبغضين غاية البغض كأنه يقلى الفؤاد والكبد لشدته وهو ابلغ من ان يقال انى لعملكم قال لدلالته على انه عليه الصلاة والسلام من زمرة الراسخين فى بغضه المشهورين فى قلاه ولعله عليه الصلاة والسلام اراد اظهار الكراهة فى مساكنتهم والرغبة فى الخلاص من سوء جوارهم ولذلك اعرض عن محاورتهم وتوجه الى الله تعالى قائلا (رب نجنى واهلى مما يعملون) اى من شؤم عملهم وغائلته (فنجيناه واهله اجمعين) اى اهل بيته ومن تبعه فى الدين باخراجهم من بينهم عند مشارفة حلول العذاب بهم (الا عجوزا) هى امرأة لوط استثنيت

فان كان الاول فقد دللنا على ان الترجيح متى حصل فلابد وان ينتهى الى حد الاستلزام وحينئذ يحصل الغرض وان لم يكن فيدار صارت هذه الاشياء بالنسبة الى اعمالهم كصرير الباب ونعيق الغراب وذلك يمنع من اسناد فعلهم اليها وهذا بعينه هو الجواب عن التأويل الثالث الذى ذكروه والله أعلم اماقوله تعالى فهم يعمهون فالعمه التحير والتردد كما يكون حال الضال عن الطريق اماقوله تعالى اولئك الذين لهم سوء العذاب فيه وجهان (الاول) انه القتل والاسر يوم بدر (والثانى) مطلق العذاب سواء كان فى الدنيا اوفى الآخرة والمراد بالسوء شدته وعظمه واماقوله تعالى هم الأخسرون ففيه وجهان (الاول) انه لاخسران اعظم من ان يخسر المرء نفسه بأن يسلب عنه الصحة والسلامة فى الدنيا ويسلم فى الآخرة الى العذاب العظيم (الثانى) المراد انهم خسروا منازلهم فى الجنة لو أطاعوا فانه لامكلف الا وعين له منزل فى الجنة لو أطاع فاذا عصى عدل به الى غيره فيكون قد خسر ذلك المنزل ۞ قوله تعالى (وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم اذ قال موسى لأهله انى آنست نارا سآتيكم منها بخبر او آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون فلما جاءها نودى ان بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين ياموسى انه أنا الله العزيز الحكيم) اماقوله وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم فمعناه لتؤتاه وتلقاه من عند اى حكيم واى عليم وهذا معنى مجيئهما نكرتين وهذه الآية بساط وتمهيد لما يريد ان يسوق بعدها من الاقاصيص واذ منصوب بمضمر وهو اذكر كأنه قال على اثر ذلك خذ من آثار حكمته وعلمه قصة موسى ويجوز ان ينتصب بعليم (فان قيل) الحكمة اما ان تكون نفس العلم واما ان يكون العلم داخلا فيها فلما ذكر الحكمة لم ذكر العلم (جوابه) الحكمة هى العلم بالامور العملية فقط والعلم اعم منه لان العلم قد يكون عمليا وقد يكون نظريا والعلوم النظرية اشرف من العلوم العملية فذكر الحكمة المشتملة على العلوم العملية ثم ذكر العليم وهو البالغ فى كمال العلم وكمال العلم يحصل من جهات ثلاثة وحدته وعموم تعلقه بكل المعلومات وبقاؤه مصونا عن كل التغيرات وماحصلت هذه الكمالات الثلاثة الا فى علمه سبحانه وتعالى واعلم ان الله تعالى ذكر فى هذه السورة انواعا من القصص (القصة الاولى) قصة موسى عليه الصلاة والسلام اماقوله اذ قال موسى لأهله فيدل على انه لم يكن مع موسى عليه السلام غير امرأته ابنة شعيب عليه السلام وقد كنى الله تعالى عنها بالاهل فتبع ذلك ورود الخطاب على لفظ الجمع وهو قوله امكثوا اماقوله انى آنست نارا فالمعنى انهما كانا يسيران ليلا وقد اشتبه الطريق عليهما والوقت وقت برد وفى مثل هذا الحال تقوى النفس بمشاهدة نار من بعد لما يرجى فيها من زوال الحيرة فى امر الطريق ومن الانتفاع بالنار للاصطلاء فلذلك بشرها فقال انى آنست نارا وقد اختلفوا فقال بعضهم المراد ابصرت ورأيت وقال آخرون بل المراد صادفت ووجدت فآنست به والاول اقرب لانهم لا يفرقون بين

من اهله فلا يضره كونها كافرة لان لها شركة فى الاهلية بحق الزواج (فى الغابرين) اى مقدرا كونها من الباقين فى العذاب لانها كانت مائلة الى القوم راضية بفعلهم وقد اصابها الحجر فى الطريق فأهلكها كما فى سورة الحجر وسورة هود وقيل كانت فيمن بقى فى القرية ولم تخرج مع لوط عليه السلام (ثم دمرنا الآخرين) اهلكناهم اشد اهلاك وافظعه (وامطرنا عليهم مطرا) اى مطرا غير معهود قيل امطر الله تعالى على شذاذ القوم حجارة فأهلكتهم (فساء مطر المنذرين) اللام فيه للجنس وبه يتسنى وقوع المضاف اليه فاعل ساء والمخصوص بالذم محذوف وهو مطرهم (ان فى ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم كذب اصحاب الايكة المرسلين) الايكة الغيضة التى تنبت ناعم الشجر وهى غيضة بقرب مدين يسكنها طائفة وكانوا ممن بعث اليهم شعيب عليه السلام وكان اجنبيا منهم ولذلك قيل (اذ قال لهم شعيب ألا تتقون) ولم يقل اخوهم وقيل الايكة الشجرة الملتف وكان شجرهم الدوم وهو المقل وقرئ بحذف الهمزة والقاء حركتها على اللام وقرئت كذلك مفتوحة على انها ليكة وهى اسم بلدهم وانما كتبت ههنا وفى ص بغير الف اتباعا للفظ اللافظ (انى لكم رسول امين فاتقوا الله واطيعون وما اسألكم عليه من اجر ان اجرى الا على رب العالمين اوفوا الكيل) اى اتموه (ولا تكونوا من المخسرين) اى حقوق الناس بالتطفيف (وزنوا) اى الموزونات (بالقسطاس المستقيم) بالميزان السوى وهو ان كان عربيا فان كان من القسط ففعلاس

قول القائل آنست بصرى ورأيت بصرى اماقوله سآتيكم منها بخبر فالخبر مايخبر به عن حال الطريق لانه كان قد ضل ثم فى الكلام حذف وهو انه لما ابصر النار توجه اليها وقال سآتيكم منها بخبر يعرف به الطريق اما قوله اوآتيكم بشهاب قبس فالشهاب الشعلة والقبس النار المقبوسة واضاف الشهاب الى القبس لانه يكون قبسا وغير قبس ومن قرأ بالتنوين جعل القبس بدلا اوصفة لما فيه من معنى القبس ثم ههنا اسئلة (السؤال الاول) سآتيكم منها بخبر ولعلى آتيكم منها بخبر كالمتدافعين لان احدهما ترج والآخرة تيقن (نقول جوابه) قد يقول الراجى اذا قوى رجاؤه سأفعل كذا وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة (السؤال الثانى) كيف جاء بسين التسويف (جوابه) عدة منه لاهله انه يأتيهم به وان ابطأ اوكانت المسافة بعيدة (السؤال الثالث) لماذا دخل او بين الامرين وهلا جمع بينهما لحاجته اليهما معا (جوابه) بنى الرجاء على انه ان لم يظفر بهذين المقصودين ظفر بأحدهما اما هداية الطريق واما اقتباس النار ثقة بعادة الله تعالى لانه لايكاد يجمع بين حرمانين على عبده واما قوله تعالى لعلكم تصطلون فالمعنى لكى تصطلوا وذلك يدل على حاجتهم الى الاصطلاء وحينئذ لايكون كذلك الا فى حال برد * اما قوله تعالى نودى ان بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين ففيه ابحاث (البحث الاول) ان ان هى المفسرة لان النداء فيه معنى القول والمعنى قيل له بورك (البحث الثانى) اختلفوا فيمن فى النار على وجوه (احدها) ان بورك بمعنى تبارك والنار بمعنى النور والمعنى تبارك من فى النور وذلك هو الله سبحانه ومن حولها يعنى الملائكة وهو مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما وان كنا نقطع بأن هذه الرواية موضوعة مختلقة (وثانيها) من فى النار هو نور الله ومن حولها الملائكة وهو مروى عن قتادة والزجاج (وثالثها) ان الله تعالى ناداه بكلام سمعه من الشجرة فى البقعة المباركة فكانت الشجرة محلا للكلام والله هو المكلم له بأن فعله فيه دون الشجرة ثم ان الشجرة كانت فى النار ومن حولها ملائكة فلذلك قال تعالى بورك من فى النار ومن حولها وهو قول الجبائى (ورابعها) من فى النار هو موسى عليه السلام لقربه منها ومن حولها يعنى الملائكة وهذا اقرب لان القريب من الشئ قد يقال انه فيه (وخامسها) قول صاحب الكشاف بورك من فى النار اى من فى مكان النار ومن حول مكانها ومكانها هى البقعة التى حصلت فيها وهى البقعة المباركة المذكورة فى قوله تعالى من شاطئ الوادى الايمن فى البقعة المباركة ويدل عليه قراءة ابى تباركت الارض ومن حولها وعنه ايضا بوركت النار (البحث الثالث) السبب الذى لاجله بوركت البقعة وبورك من فيها وحواليها حدوث هذا الامر العظيم فيها وهو تكليم الله موسى عليه السلام وجعله رسولا واظهار المعجزات عليه ولهذا جعل الله ارض الشام موسومة بالبركات فى قوله ونجيناه ولوطا الى الارض التى باركنا فيها للعالمين وحقت ان تكون كذلك فهى مبعث الانبياء صلوات الله عليهم ومهبط

بكسر العين والافضلال وقرئ بضم القاف (ولا تبخسوا الناس اشياءهم) اى لاتنقصوا شيئا من حقوقهم اى حق كان وهذا تعميم بعد تخصيص بعض المواد بالذكر لغاية انهماكهم فيها (ولا تعثوا فى الارض مفسدين) بالقتل والغارة وقطع الطريق (واتقوا الذى خلقكم والجبلة الاولين) اى وذوى الجبلة الاولين وهم من تقدمهم من الخلائق وقرئ بضم الجيم والباء وبكسر الجيم وسكون الباء كالخلقة (قالوا انما انت من المسحرين وما انت الابشر مثلنا) ادخال الواو بين الجملتين للدلالة على ان كلا من التسحير والبشرية مناف للرسالة مبالغة فى التكذيب (وان نظنك لمن الكاذبين) اى فيما تدعيه من النبوة (فاسقط علينا كسفا من السماء) اى قطعا وقرئ بسكون السين وهو ايضا جمع كسفة وقيل الكسف والكسفة كالريع والريعة وهى القطعة والمراد بالسماء اما السحاب او المظلة ولعله جواب لما اشعر به الامر بالتقوى من التهديد (ان كنت من الصادقين) فى دعواك ولم يكن طلبهم ذلك الا لتصميمهم على الجحود والتكذيب والا لما اخطروه ببالهم فضلا ان يطلبوه (قال ربى اعلم بما تعملون) من الكفر والمعاصى وبما تستحقون بسببه من العذاب فسينزله عليكم فى وقته المقدر له لامحالة (فكذبوه) اى فتموا على تكذيبه واصروا عليه (فأخذهم عذاب يوم الظلة) حسبما اقترحوا اما ان ارادوا بالسماء السحاب فظاهر واما ان ارادوا المظلة فلان نزول العذاب من جهتها وفى اضافة العذاب الى يوم الظلة دون نفسها ايذان بان لهم يومئذ عذابا آخر غير عذاب الظلة

الوحي وكفاتهم احياء وأمواتا (البحث الرابع) انه سبحانه جعل هذا القول مقدمة لمناجاة موسى عليه السلام فقوله بورك من فى النار ومن حولها يدل على انه قدقضى امر عظيم تنتشر البركة منه فى ارض الشام كلها وقوله وسبحان الله رب العالمين فيه فائدتان (احداهما) انه سبحانه نزه نفسه عما لايليق به فى ذاته وحكمته ليكون ذلك مقدمة فى صحة رسالة موسى عليه السلام (الثانية) ان يكون ذلك ايذانا بان ذلك الامر مريده ومكونه رب العالمين تنبيها على ان الكائن من جلائل الامور وعظائم الوقائع اما قوله انه أنا الله العزيز الحكيم فقال صاحب الكشاف الهاء فى انه يجوز ان يكون ضمير الشان وانا الله مبتدأ وخبر والعزيز الحكيم صفتان للخبر وان يكون راجعا الى مادل عليه ماقبله يعنى ان مكلمك انا والله بيان لانا والعزيز الحكيم صفتان للتعيين وهذا تمهيد لما أراد ان يظهره على يده من المعجزة يريد انا القوى القادر على مايبعد من الاوهام كقلب العصا حية الفاعل مافعله بحكمة وتدبير (فان قيل) هذا النداء يجوز ان يكون من عند غير الله تعالى فكيف علم موسى عليه السلام انه من الله (جوابه) لاهل السنة فيه طريقان (الاول) انه سمع الكلام المنزه عن مشابهة الحروف والاصوات فعلم بالضرورة انه صفة الله تعالى (الثانى) قول ائمة ماوراء النهر وهو انه عليه السلام سمع الصوت من الشجرة فنقول انما عرف ان ذلك من الله تعالى لامور (احدها) ان النداء اذا حصل فى النار او الشجرة علم انه من قبل الله تعالى لان احدا منا لايقدر عليه وهو ضعيف لاحتمال ان يقال الشيطان دخل فى النار والشجرة ثم نادى (وثانيها) يجوز فى نفس النداء ان يكون قدبلغ فى العظم مبلغا لايكون الامعجزا وهو ايضا ضعيف لانا لانعرف مقادير قوى الملائكة والشياطين فلاقدر الاويجوز صدوره منهم (وثالثها) انه قد اقترن به معجز دل على ذلك فقيل ان النار كانت مشتعلة فى شجرة خضراء لم تحترق فصار ذلك كالمعجز وهذا هو الاصح والله اعلم * قوله تعالى (وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ياموسى لاتخف انى لايخاف لدى المرسلون الامن ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فانى غفور رحيم وادخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات الى فرعون وقومه انهم كانوا قوما فاسقين فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) اعلم ان اكثر مافى هذه الآيات قدمر شرحه ولنذكر ماهو من خواص هذا الموضع يقال علام عطف قوله والق عصاك جوابه على بورك لان المعنى نودى ان بورك من فى النار وان الق عصاك كلاهما تفسير لنودى اما قوله كأنها جان فالجان الحية الصغيرة سميت جانا لانها تستتر عن الناس وقرأ الحسن جأن على لغة من يهرب من التقاء الساكنين فيقول شأبة ودأبة اما قوله ولم يعقب فمعناه لم يرجع يقال عقب المقاتل اذا مر بعد الفرار وانما خاف لظنه ان ذلك لامر اريد به ويدل عليه انى لايخاف لدى المرسلون وقال بعضهم المراد انى اذا

وذلك بان سلط الله عليهم الحر سبعة ايام ولياليها فأخذ بانفاسهم لاينفعهم ظل ولاماء ولاسرب فاضطروا الى ان خرجوا الى البرية فأظلتهم سحابة وجدوا لها بردا ونسيما فاجتمعوا تحتها فامطرت عليهم نارا فاحترقوا جميعا وروى ان شعيبا عليه السلام بعث الى امتين اصحاب مدين واصحاب الايكة فاهلكت مدين بالصيحة والرجفة واصحاب الايكة بعذاب يوم الظلة (انه كان عذاب يوم عظيم) اى فى الشدة والهول وفظاعة ماوقع فيه من الطامة والداهية التامة (ان فى ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) هذا آخر القصص السبع التى اوحيت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لصرفه عليه الصلاة والسلام عن الحرص على اسلام قومه وقطع رجائه عنه ودفع تحسره على فواته تحقيقا لمضمون مامر فى مطلع السورة الكريمة من قوله تعالى ومايأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الاكانوا عنه معرضين فقد كذبوا بالحق الآية فان كل واحدة من هذه القصص ذكر مستقل متجدد النزول قداتاهم من جهته تعالى بموجب رحمته الواسعة وما كان اكثرهم مؤمنين بعدما سمعوها على التفصيل قصة بعد قصة لابان يتدبروا فيها ويعتبروا بما فى كل واحدة منها من الدواعى الى الايمان والزواجر عن الكفر والطغيان ولابان يتأملوا فى شان الآيات الكريمة الناطقة بتلك القصص على ماهى عليه مع علمهم بانه عليه الصلاة والسلام لم يسمع شيئا منها من احد اصلا واستمروا على ما كانوا عليه من الكفر والضلال كأن لم يسمعوا شيئا يزجرهم عن ذلك قطعا كما حقق فى خاتمة قصة موسى

أمرتهم باظهار معجز فينبغى ان لايخافوا فيما يتعلق باظهار ذلك والا فالمرسل قد يخاف لامحالة اما قوله تعالى الامن ظلم معناه لكن من ظلم وهو محمول على مايصدر من الانبياء من ترك الافضل او الصغيرة ويحتمل ان يكون المقصود منه التعريض بما وجد من موسى وهو من التعريضات اللطيفة قال الحسن رحمه الله كان والله موسى ممن ظلم بقتل القبطى ثم بدل فانه عليه السلام قال رب انى ظلمت نفسى فاغفرلى وقرئ ألا من ظلم بحرف التنبيه اما قوله تعالى ثم بدل حسنا بعد سوء فالمراد حسن التوبة وسوء الذنب وعن ابى بكر فى رواية عاصم حسنا اما قوله فى تسع آيات فهو كلام مستأنف وحرف الجر فيه يتعلق بمحذوف والمعنى اذهب فى تسع آيات الى فرعون ولقائل ان يقول كانت الآيات احدى عشرة ثنتان منها اليد والعصا والتسع الفلق والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمسة والجدب فى بواديهم والنقصان فى مزارعهم اما قوله فلما جاءتهم آياتنا مبصرة فقد جعل الابصار لها وهو فى الحقيقة لمتأمليها وذلك بسبب نظرهم وتفكرهم فيها او جعلت كأنها لظهورها تبصر فتهتدى وقرأ على بن الحسين وقتادة مبصرة وهو نحو مجبنة ومبخلة اى مكانا يكثر فيه التبصر اما قوله واستيقنتها انفسهم قالوا وفيها واو الحال وقد بعدها مضمرة وفائدة ذكر الانفس انهم جحدوها بألسنتهم واستيقنوها فى قلوبهم وضمائرهم والاستيقان ابلغ من الايقان اما قوله ظلما وعلوا فأى ظلم افحش من ظلم من استيقن انها آيات بينة من عند الله تعالى ثم كابر بتسميتها سحرا بينا واما العلو فهو التكبر والترفع عن الايمان بما جاء به موسى كقوله فاستكبروا وكانوا قوما عالين وقرئ علياو عليا بالضم والكسر كما قرئ عتيا والله أعلم (القصة الثانية) قصة داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام ۞ قوله تعالى (ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين وورث سليمان داود وقال يأيها الناس علمنا منطق الطير واوتينا من كل شئ ان هذا لهو الفضل المبين وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون حتى اذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب اوزعنى ان اشكر نعمتك التى انعمت على وعلى والدى وان اعمل صالحا ترضاه وادخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) اما قوله تعالى علما فالمراد طائفة من العلم او علما سنيا عزيزا فان قيل أليس هذا موضع الفاء دون الواو كقولك اعطيته فشكر جوابه ان الشكر باللسان انما يحسن موقعه اذا كان مسبوقا بعمل القلب وهو العزم على فعل الطاعة وترك المعصية وبعمل الجوارح وهو الاشتغال بالطاعات ولما كان الشكر باللسان يجب كونه مسبوقا بهما فلا جرم صار كأنه قال ولقد آتيناهما علما فعملا به قلبا وقالبا وقالا باللسان الحمد لله الذى فعل كذا وكذا واما قوله تعالى الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده

عليه السلام (وانه) اى ماذكر من الآيات الكريمة الناطقة بالقصص الحكية او القرآن الذى هى من جملته (لتنزيل رب العالمين) اى منزل من جهته تعالى سمى به مبالغة ووصفه تعالى بربوبية العالمين للايذان بان تنزيله من احكام تربيته تعالى ورأفته للكل كقوله تعالى وما ارسلناك الارحمة للعالمين (نزل به) اى انزله (الروح الامين) اى جبريل عليه السلام فانه امين وحيه تعالى وموصله الى انبيائه عليهم الصلاة والسلام وقرئ بتشديد الزاى ونصب الروح والامين اى جعل الله تعالى الروح الامين نازلا به (على قلبك) اى روحك وان اريد به العضو فتخصيصه به لان المعانى الروحانية تنزل اولا على الروح ثم تنتقل منه الى القلب لما بينهما من التعلق ثم تصعد الى الدماغ فينتقش بها لوح المتخيلة (لتكون من المنذرين) متعلق بنزل به اى انزله لتنذرهم بما فى تضاعيفه من العقوبات الهائلة وايثار ماعليه النظم الكريم للدلالة على انتظامه عليه الصلاة والسلام فى سلك اولئك المنذرين المشهورين فى حقية الرسالة وتقرر وقوع العذاب المنذر (بلسان عربى مبين) واضح المعنى ظاهر المدلول لئلا يبقى لهم عذر ما وهو ايضا متعلق بنزل به وتأخيره للاعتناء بامر الانذار وللايماء الى ان مدار كونه من جملة المنذرين المذكورين عليهم السلام مجرد انزاله عليه عليه الصلاة والسلام لا انزاله باللسان العربى وجعله متعلقا بالمنذرين كما جوزه الجمهور يؤدى الى ان غاية الانزال كونه عليه الصلاة والسلام من جملة المنذرين باللغة العربية فقط

المؤمنين ففيه ابحاث (احدها) ان الكثير المفضل عليه هو من لم يؤت علما او من لم يؤت مثل علمهما وفيه انهما فضلا على كثير وفضل عليهما كثير (وثانيها) فى الآية دليل على علو مرتبة العلم لانهما أوتيا من الملك مالم يؤت غيرهما فلم يكن شكرهما على الملك كشكرهما على العلم (وثالثها) انهم لم يفضلوا انفسهم على الكل وذلك يدل على حسن التواضع (ورابعها) ان الظاهر يقتضى ان تلك الفضيلة ليست الا ذلك العلم ثم العلم بالله وبصفاته اشرف من غيره فوجب ان يكون هذا الشكر ليس الا على هذا العلم ثم ان هذا العلم حاصل لجميع المؤمنين فيستحيل ان يكون ذلك سببا لفضيلتهم على المؤمنين فاذن الفضيلة هو ان يصير العلم بالله وبصفاته جليا بحيث يصير المرء مستغرقا فيه بحيث لا يخطر بباله شئ من الشبهات ولا يغفل القلب عنه فى حين من الاحيان ولا ساعة من الساعات اما قوله تعالى وورث سليمان داود فقد اختلفوا فيه فقال الحسن المال لان النبوة عطية مبتدأة ولا تورث وقال غيره بل النبوة وقال آخرون بل الملك والسياسة ولو تأمل الحسن لعلم ان المال اذا ورثه الولد فهو ايضا عطية مبتدأة من الله تعالى ولذلك يرث الولد اذا كان مؤمنا ولا يرث اذا كان كافرا او قاتلا لكن الله تعالى جعل سبب الارث فيمن يرث الموت على شرائط وليس كذلك النبوة لان الموت لا يكون سببا لنبوة الولد فمن هذا الوجه يفترقان وذلك لا يمنع من ان يوصف بانه ورث النبوة لما قام به عند موته كما يرث الولد المال اذا قام به عند موته ومما يبين ماقلناه انه تعالى لو فصل فقال وورث سليمان داود ماله لم يكن لقوله وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير معنى واذا قلنا وورث مقامه من النبوة والملك حسن ذلك لان تعليم منطق الطير يكون داخلا فى جملة ما ورثه وكذلك قوله تعالى وأوتينا من كل شئ لان وارث الملك يجمع ذلك ووارث المال لا يجمعه وقوله ان هذا لهو الفضل المبين لا يليق ايضا الا بما ذكرنا دون المال الذى قد يحصل للكامل والناقص وماذكره الله تعالى من جنود سليمان بعده لا يليق الا بماذكرناه فبطل بماذكرنا قول من زعم انه لم يرث الا المال فاما اذا قيل ورث المال والملك معا فهذا لا يبطل بالوجوه التى ذكرناها بل بظاهر قوله عليه السلام نحن معاشر الانبياء لا نورث فاما قوله يا أيها الناس فالمقصود منه تشهير نعمة الله تعالى والتنويه بها ودعاء الناس الى التصديق بذكر المعجزة التى هى علم منطق الطير قال صاحب الكشاف المنطق كل مايصوت به من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد وقد ترجم يعقوب كتابه باصلاح المنطق وما اصلح فيه الا مفردات الكلم وقالت العرب نطقت الحمامة فالذى علم سليمان عليه السلام من منطق الطير هو ما يفهم بعضه من بعض من مقاصده واغراضه واما قوله تعالى وأوتينا من كل شئ فالمراد كثرة ما أوتى وذلك لان الكل والبعض الكثير يشتركان فى صفة الكثرة والمشاركة سبب لجواز الاستعارة فلا جرم يطلق لفظ الكل على الكثير ومثله قوله وأوتيت من كل شئ اما قوله ان هذا لهو الفضل المبين فهو تقرير لقوله الحمد لله الذى فضلنا والمقصود منه الشكر

من هود وصالح وشعيب عليهم السلام ولا يخفى فساده كيف لا والطامة الكبرى فى باب الانذار ما انذره نوح وموسى عليهما السلام واشد الزواجر تأثيرا فى قلوب المشركين ما انذره ابراهيم عليه السلام لانتمائهم اليه وادعائهم انهم على ملته عليه الصلاة والسلام (وانه لفى زبر الاولين) اى وان ذكره او معناه لفى الكتب المتقدمة فان احكامه التى لا تحتمل النسخ والتبديل بحسب تبدل الاعصار من التوحيد وسائر ما يتعلق بالذات والصفات مسطورة فيها وكذا ما فى تضاعيفه من المواعظ والقصص وقيل الضمير لرسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بواضح (أولم يكن لهم آية) الهمزة للانكار والنفى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل اغفلوا عن ذلك ولم يكن لهم آية دالة على انه تنزيل من رب العالمين وانه فى زبر الاولين على ان لهم متعلق بالكون قدم على اسمه وخبره للاهتمام به او بمحذوف هو حال من آية قدمت عليها لكونها نكرة وآية خبر للكون قدم على اسمه الذى هو قوله تعالى (ان يعلمه علماء بنى اسرائيل) لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر اى ان يعرفوه بنعوته المذكورة فى كتبهم ويعرفوا من انزل عليه وقرئ تكن بالتأنيث وجعلت آية اسما وان يعلمه خبرا وفيه ضعف حيث وقع النكرة اسما والمعرفة خبرا وقد قيل فى تكن ضمير القصة وآية ان يعلمه جملة واقعة موقع الخبر ويجوز ان يكون لهم آية هى جملة الشان وان

والمحمدة كما قال عليه السلام أنا سيد ولد آدم ولا فخر (فان قيل) كيف قال علمنا وأوتينا وهو من كلام المتكبرين (جوابه) من وجهين (الاول) ان يريد نفسه واباه (والثاني) ان هذه النون يقال لها نون الواحد المطاع وكان ملكا مطاعا وقد يتعلق بتعظيم الملك مصالح فيصير ذلك التعظيم واجبا واما قوله وحشر لسليمان جنوده من الجن و الانس و الطير فالحشر هو الاحضار والجمع من الاماكن المختلفة والمعنى انه جعل الله تعالى كل هذه الاصناف جنوده ولا يكون كذلك الابأن يتصرف على مراده ولا يكون كذلك الامع العقل الذي يصح معه التكليف اويكون بمنزلة المراهق الذي قد قارب حد التكليف فلذلك قلنا ان الله تعالى جعل الطير في ايامه مماله عقل وليس كذلك حال الطيور في ايامنا وان كان فيها ماقد الهمه الله تعالى الدقائق التي خصت بالحاجة اليها اوخصها الله بها لمنافع العباد كالنحل وغيره واما قوله تعالى فهم يوزعون معناه يحبسون وهذا لايكون الا اذا كان في كل قبيل منها وازع ويكون له تسلط على من يرده ويكفه ويصرفه فالظاهر يشهد بهذا القدر والذي جاء في الخبر من انهم كانوا يمنعون من يتقدم ليكون مسيره مع جنوده على ترتيب فغير ممتنع * اما قوله تعالى حتى اذا أتوا على وادي النمل فقيل هو واد بالشام كثير النمل ويقال لم عدى اتوا بعلى فجوابه من وجهين (الاول) ان اتيانهم كان من فوق فأتى بحرف الاستعلاء (والثاني) ان يراد قطع الوادي وبلوغ آخره من قولهم أتى على الشيء اذا بلغ آخره كأنهم أرادوا ان ينزلوا عند منقطع الوادي وقرئ نملة يأيها النمل بضم الميم وبضم النون والميم وكان الاصل النمل بوزن الرجل والنمل الذي عليه الاستعمال تخفيف عنه اما قوله تعالى قالت نملة فالمعنى انها تكلمت بذلك وهذا غير مستبعد فان الله تعالى قادر على ان يخلق فيها العقل والنطق وعن قتادة انه دخل الكوفة فالتف عليه الناس فقال سلوا عماشئتم وكان ابو حنيفة رحمه الله حاضرا وهو غلام حدث فقال سلوه عن نملة سليمان أكانت ذكرا أم انثى فسألوه فأفحم فقال ابو حنيفة رضي الله عنه كانت أنثى فقيل له من اين عرفت فقال من كتاب الله تعالى وهو قوله قالت نملة ولو كان ذكرا لقال قال نملة وذلك لان النملة مثل الحمامة والشاة في وقوعها على الذكر والانثى فيميز بينهما بعلامة نحو قولهم حمامة ذكر وحمامة انثى وهو وهي * اما قوله تعالى ادخلوا مساكنكم فاعلم ان النملة لما قاربت حد العقل لاجرم ذكرت بما يذكر به العقلاء فلذلك قال تعالى ادخلوا مساكنكم (فان قلت) لايحطمنكم ماهو (قلت) يحتمل ان يكون جوابا للامر وان يكون نهيا بدلا من الامر والمعنى لاتكونوا حيث انتم فيحطمنكم على طريقة لأرينك ههنا * وفي هذه الآية تنبيه على امور (احدها) ان من يسير في الطريق لايلزمه التحرز وانما يلزم من في الطريق التحرز (وثانيها) ان النملة قالت وهم لايشعرون كأنها عرفت ان النبي معصوم فلا يقع منه قتل هذه الحيوانات الا على سبيل السهو وهذا تنبيه عظيم على وجوب الجزم بعصمة الانبياء عليهم السلام (وثالثها) مارأيت

يجعله بدلا من آية ويجوز مع نصب آية تأنيث تكن كما في قوله تعالى ثم لم تكن فتنتهم الاان قالوا وقرئ تعلمه بالتاء (ولو نزلناه) كما هو بنظمه الرائق المعجز (على بعض الاعجمين) الذين لايقدرون على التكلم بالعربية وهو جمع اعجمي على التخفيف ولذلك جمع جمع السلامة وقرئ الاعجميين وفي لفظ البعض اشارة الى كون ذلك واحدا من عرض تلك الطائفة كائنا من كان (فقرأه عليهم) قراءة صحيحة خارقة للعادات (ما كانوا به مؤمنين) مع انضمام اعجاز القراءة الى اعجاز المقروء لفرط عنادهم وشدة شكيمتهم في المكابرة وقيل المعنى ولو نزلناه على بعض الاعجمين بلغة العجم فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين لعدم فهمهم واستنكافهم من اتباع العجم وليس بذاك فانه بمعزل من المناسبة لمقام بيان تماديهم في المكابرة والعناد (كذلك سلكناه) اى مثل ذلك السلك البديع المذكور سلكناه اى ادخلنا القرآن (في قلوب المجرمين) ففهموا معانيه وعرفوا فصاحته وانه خارج عن القوى البشرية من حيث النظم المعجز ومن حيث الاخبار عن الغيب وقد انضم اليه اتفاق علماء اهل الكتب المنزلة قبله على تضمنها للبشارة بانزاله وبعثة من انزل عليه باوصافه فقوله تعالى (لايؤمنون به) جملة مستأنفة مسوقة لبيان انهم لايتأثرون بامثال تلك الامور الداعية الى الايمان به بل يستمرون على ماهم عليه (حتى يروا العذاب الاليم) الملجئ الى الايمان به حين لا ينفعهم الايمان (فيأتيهم بغتة) اى فجأة في الدنيا والآخرة (وهم لايشعرون)

فى بعض الكتب ان تلك النملة انما أمرت غيرها بالدخول لانها خافت على قومها انها اذا رأت سليمان فى جلالته فربما وقعت فى كفران نعمة الله تعالى وهذا هو المراد بقوله لايحطمنكم سليمان فأمرتها بالدخول فى مساكنها لئلا ترى تلك النعم فلا تقع فى كفران نعمة الله تعالى وهذا تنبيه على ان مجالسة ارباب الدنيا محذورة (ورابعها) قرئ مسكنكم ولايحطمنكم بتخفيف النون وقرئ لايحطمنكم بفتح الطاء وكسرها واصلها يحتطمنكم * اما قوله تعالى فتبسم ضاحكا من قولها يعنى تبسم شارعا فى الضحك بمعنى انه قد تجاوز حد التبسم الى الضحك وانما ضحك لامرين (احدهما) اعجابه بما دل من قولها على ظهور رحمته ورحمة جنوده وعلى شهرة حاله وحالهم فى باب التقوى وذلك قولها وهم لايشعرون (والثانى) سروره بما آتاه الله بما لم يؤت احدا من سماعه لكلام النملة واحاطته بمعناه اما قوله تعالى اوزعنى فقال صاحب الكشاف حقيقة اوزعنى اجعلنى أزع شكر نعمتك عندى واكفه عن ان ينقلب عنى حتى اكون شاكرا لك ابدا وهذا يدل على مذهبنا فان عند المعتزلة كل ما امكن فعله من الالطاف فقد صارت مفعولة وطلب تحصيل الحاصل عبث واما قوله تعالى وعلى والدى فذلك لانه عد نعم الله تعالى على والديه نعمة عليه ومعنى قوله وان اعمل صالحا ترضاه طلب الاعانة فى الشكر وفى العمل الصالح ثم قال وادخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين فما طلب فى الدنيا الاعانة على الخيرات طلب ان يجعل فى الآخرة من الصالحين وقوله برحمتك يدل على ان دخول الجنة برحمته وفضله لا باستحقاق من جانب العبد (واعلم) ان سليمان عليه السلام طلب مايكون وسيلة الى ثواب الآخرة ثم طلب ثواب الآخرة ثانيا اما وسيلة الثواب فهى امران (احدهما) شكر النعمة السالفة (والثانى) الاشتغال بسائر انواع الخدمة اما الاشتغال بشكر النعمة السالفة فهى قوله تعالى رب أوزعنى ان اشكر نعمتك التى انعمت على ولما كان الانعام على الآباء انعاما على الابناء لان انتساب الابن الى أب شريف نعمة من الله تعالى على الابن لاجرم اشتغل بشكر نعم الله على الآباء بقوله وعلى والدى واما الاشتغال بسائر انواع الخدمة فقوله وأن اعمل صالحا ترضاه واما طلب ثواب الآخرة فقوله وادخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين (فان قيل) درجات الانبياء اعظم من درجات الاولياء والصالحين فما السبب فى ان الانبياء يطلبون جعلهم من الصالحين فقال يوسف توفنى مسلما والحقنى بالصالحين وقال سليمان ادخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين (جوابه) الصالح الكامل هو الذى لايعصى الله تعالى ولايهم بمعصية وهذه درجة عالية والله اعلم * قوله تعالى (وتفقد الطير فقال مالى لاأرى الهدهد أم كان من الغائبين لأعذبنه عذابا شديدا او لأذبحنه او ليأتينى بسلطان مبين فمكث غير بعيد فقال احطت بما لم تحط به وجئتك من سبإ بنبإ يقين انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل فهم

بآياته (فيقولوا هل نحن منظرون) تحسرا على مافات من الايمان وتمنيا للامهال لتلافى مافرطوه وقيل معنى كذلك سلكناه مثل تلك الحالة وتلك الصفة من الكفر به والتكذيب له وضعناه فى قلوبهم وقوله تعالى لايؤمنون به فى موقع الايضاح والتلخيص له او فى موقع الحال اى سلكناه فيها غير مؤمن به والاول هو الانسب بمقام بيان غاية عنادهم ومكابرتهم مع تعاضد ادلة الايمان وتآخذ مبادى الهداية والارشاد وانقطاع اعذارهم بالكلية وقيل ضمير سلكناه للكفر المدلول عليه بما قبله من قوله تعالى ماكانوا به مؤمنين ونقل عن ابن عباس رضى الله عنهما والحسن ومجاهد رحمهما الله تعالى ادخلنا الشرك والتكذيب فى قلوب المجرمين (أفبعذابنا يستعجلون) بقولهم أمطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم وقولهم فأتنا بما تعدنا ونحوهما وحالهم عند نزول العذاب كما وصف من طلب الانظار فالفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام اى أيكون حالهم كما ذكر من الاستنظار عند نزول العذاب الاليم فيستعجلون بعذابنا وبينهما من التنافى مالايخفى على احد او أيغفلون عن ذلك مع تحققه وتقرره فيستعجلون الخ وانما قدم الجار والمجرور للايذان بأن مصب الانكار والتوبيخ كون المستعجل به عذابه تعالى مع مافيه من رعاية الفواصل (أفرأيت) لما كانت الرؤيا من اقوى اسباب

لايهتدون) اعلم ان سليمان عليه السلام لما تفقد الطير اوهم ذلك انه انما تفقده لامر يختص به ذلك الطير واختلفوا فيما لاجله تفقده على وجوه (احدها) قول وهب انه اخل بالنوبة التى كان ينوبها فلذلك تفقده (وثانيها) انه تفقده لان مقاييس الماء كانت اليه وكان يعرف الفصل بين قريبه وبعيده فلحاجة سليمان الى ذلك طلبه وتفقده (وثالثها) انه كان يظله من الشمس فلما فقد ذلك تفقده اما قوله فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين فأم هى المنقطعة نظر الى مكان الهدهد فلم يبصره فقال مالى لااراه على معنى انه لايراه وهو حاضر لساتر ستره او غير ذلك ثم لاح له انه غائب فأضرب عن ذلك واخذ يقول أهو غائب كأنه يسأل عن صحة مالاح له ومثله قولهم انها لابل ام شاء اما قوله لأعذبنه عذابا شديدا او لأذبحنه اوليأتينى بسلطان مبين فهذا لايجوز ان يقوله الافيمن هو مكلف أو فيمن قارب العقل فيصلح لان يؤدب ثم اختلفوا فى قوله لاعذبنه فقال ابن عباس انه نتف الريش والالقاء فى الشمس وقيل ان يطلى بالقطران ويشمس وقيل ان يلقى للنمل فتأكله وقيل ايداعه القفص وقيل التفريق بينه وبين الفه وقيل لألزمنه صحبة الاضداد وعن بعضهم اضيق السجون معاشرة الاضداد وقيل لألزمنه خدمة اقرانه اما قوله فمكث فقد قرئ بفتح الكاف وضمها غير بعيد غير زمان بعيد كقولك عن قريب ووصف مكثه بقصر المدة للدلالة على اسراعه خوفا من سليمان وليعلم كيف كان الطير مسخرا له اما قوله احطت بما لم تحط به ففيه تنبيه لسليمان على ان فى ادنى خلق الله تعالى من احاط علما بما لم يحط به فيكون ذلك لطفا له فى ترك الاعجاب والاحاطة بالشئ علما ان يعلم من جميع جهاته اما قوله وجئتك من سبأ بنبأ يقين فاعلم ان سبأ قرئ بالصرف ومنعه وقد روى بسكون الباء وعن ابن كثير فى رواية سبا بالالف كقولهم ذهبوا ايدى سبا وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان فمن جعله اسما للقبيلة لم يصرف ومن جعله اسما للحى او للاب الاكبر صرف ثم سميت مدينة مأرب بسبا وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة ايام والنبأ الخبر الذى له شأن وقوله من سبأ بنبأ من محاسن الكلام الذى يتعلق باللفظ وشرط حسنه صحة المعنى ولقد جاء ههنا زائدا على الصحة فحسن لفظا ومعنى ألاترى انه لو وضع مكان بنبأ بخبر لكان المعنى صحيحا ولكن لفظ النبأ أولى لمافيه من الزيادة التى يطابقها وصف الحال اما قوله انى وجدت امرأة تملكهم فالمرأة بلقيس بنت شراحيل وكان ابوها ملك ارض اليمن وكانت هى وقومها مجوسا يعبدون الشمس والضمير فى تملكهم راجع الى سبأ فان اريد به القوم فالامر ظاهر وان اريدت المدينة فمعناه تملك اهلها واما قوله واوتيت من كل شئ (ففيه سؤال) وهو انه كيف قال واوتيت من كل شئ مع قول سليمان واوتينا من كل شئ فكان الهدهد سوى بينهما (جوابه) ان قول سليمان عليه السلام يرجع الى ما اوتى من النبوة والحكمة ثم الى الملك واسباب الدنيا واما قول الهدهد فلم يكن الا الى مايتعلق بالدنيا واما قوله ولها عرش عظيم ففيه سؤال وهو انه كيف استعظم الهدهد عرشها مع ما كان يرى من ملك سليمان

(وايضا)

الاخبار بالشئ واشهرها شاع استعمال أرأيت فى معنى اخبرنى والخطاب لكل من يصلح له كائنا من كان والفاء لترتيب الاستخبار على قولهم هل نحن منظرون وما بينهما اعتراض للتوبيخ والتبكيت وهى متقدمة فى المعنى على الهمزة وتأخيرها عنها صورة لاقتضاء الهمزة الصدارة كما هو رأى الجمهور اى فاخبرنى (ان متعناهم سنين) متطاولة بطول الاعمار وطيب المعايش (ثم جاءهم ما كانوا يوعدون) من العذاب (مااغنى عنهم) اى شئ اواى اغناء اغنى عنهم (ما كانوا يمتعون) اى كونهم ممتعين ذلك التمتيع المديد على ان ما مصدرية او ما كانوا يمتعون به من متاع الحياة الدنيا على انها موصولة حذف عائدها وايا ما كان فالاستفهام للانكار والنفى وقيل ما نافية اى لم يغن عنهم تمتعهم المتطاول فى دفع العذاب وتخفيفه والاول هو الاولى لكونه اوفق لصورة الاستخبار وأدل على انتفاء الاغناء على ابلغ وجه وآكده كأن كل من من شأنه الخطاب قد كلف ان يخبر بأن تمتيعهم ماذا أفادهم واى شئ اغنى عنهم فلم يقدر احد على ان يخبر بشئ من ذلك اصلا وقرئ يمتعون من الامتاع

وايضا فكيف سوى بين عرش بلقيس وعرش الله تعالى فى الوصف بالعظيم (الجواب) عن الاول يجوز أن يستصغر حالها الى حال سليمان فاستعظم لها ذلك العرش ويجوز أن لايكون لسليمان مع جلالته مثله كما قد يتفق لبعض الامراء شئ لايكون مثله عند السلطان وعن الثانى ان وصف عرشها بالعظم تعظيم له بالاضافة الى عروش ابناء جنسها من الملوك ووصف عرش الله بالعظم تعظيم له بالنسبة الى سائر ماخلق من السموات والارض * واعلم ان ههنا بحثين (البحث الاول) ان الملحدة طعنت فى هذه القصة من وجوه (احدها) ان هذه الآيات اشتملت على ان النملة والهدهد تكلما بكلام لايصدر ذلك الكلام الا من العقلاء وذلك يجر الى السفسطة فانا لو جوزنا ذلك لما امنا فى النملة التى نشاهدها فى زماننا هذا ان تكون اعلم بالهندسة من اوقليدس وبالنحو من سيبويه وكذا القول فى القملة والصئبان ويجوز ان يكون فيهم الانبياء والتكاليف والمعجزات ومعلوم ان من جوز ذلك كان الى الجنون اقرب (وثانيها) ان سليمان عليه السلام كان بالشام فكيف طار الهدهد فى تلك اللحظة اللطيفة من الشام الى اليمن ثم رجع اليه (وثالثها) كيف خفى على سليمان عليه السلام حال مثل تلك المملكة العظيمة مع مايقال ان الجن والانس كانوا فى طاعة سليمان وانه عليه السلام كان ملك الدنيا بالكلية وكان تحت راية بلقيس على مايقال اثنا عشر الف ملك تحت راية كل واحد منهم مائة الف ومع انه يقال انه لم يكن بين سليمان وبين بلدة بلقيس حال طيران الهدهد الا مسيرة ثلاثة ايام (ورابعها) من اين حصل للهدهد معرفة الله تعالى ووجوب السجود له وانكار سجودهم للشمس واضافته الى الشيطان وتزيينه (والجواب عن الاول) ان ذلك الاحتمال قائم فى اول العقل وانما يدفع ذلك بالاجماع (وعن البواقى) ان الايمان بافتقار العالم الى القادر المختار يزيل هذه الشكوك (البحث الثانى) قالت المعتزلة قوله يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان اعمالهم يدل على ان فعل العبد من جهته لانه تعالى اضاف ذلك الى الشيطان بعد اضافته اليهم ولانه اورده مورد الذم ولانه بين انهم لايهتدون والجواب من وجوه (احدها) ان هذا قول الهدهد فلا يكون حجة (وثانيها) انه متروك الظاهر فانه قال فصدهم عن السبيل وعندهم الشيطان ماصد الكافر عن السبيل اذ لو كان مصدودا عنه لسقط عنه التكليف فلم يبق ههنا الا التمسك بفصل المدح والذم والجواب قد تقدم عنه مرارا فلا فائدة فى الاعادة والله اعلم * قوله تعالى (الا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والارض ويعلم ماتخفون وماتعلنون الله لا اله الا هو رب العرش العظيم قال سننظر أصدقت ام كنت من الكاذبين اذهب بكتابى هذا فألقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان فى قوله تعالى ألا يسجدوا قراآت (احداها) قراءة من قرأ بالتخفيف ألا للتنبيه ويا حرف النداء ومناداه محذوف كما حذفه من قال * ألا يا اسلمى يادارمى على البلى * (وثانيها) بالتشديد أراد

(وما اهلكنا من قرية) من القرى المهلكة (الا لها منذرون) قد انذروا اهلها الزاما للحجة (ذكرى) اى تذكرة ومحلها النصب على العلة او المصدر لانها فى معنى الانذار كأنه قيل مذكرون ذكرى او على انه مصدر مؤكد لفعل هو صفة لمنذرون اى الا لها منذرون يذكرونهم ذكرى او الرفع على انها صفة منذرون بأضمار ذووا او بجعلهم ذكرى لامعانهم فى التذكرة او خبر مبتدأ محذوف والجملة اعتراضية وضمير لها للقرى المدلول عليها بمفردها لوقوعه فى حيز النفى على معنى ان الكل منذرين عم من ان يكون لكل قرية منها منذر واحد او اكثر (وما كنا ظالمين) فنهلك غير الظالمين وقبل الانذار والتعبير عن ذلك بنفى الظالمية مع ان اهلاكهم قبل الانذار ليس بظلم اصلا على ماتقرر من قاعدة اهل السنة لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة مايستحيل صدوره عنه تعالى من الظلم وقد مر فى سورة آل عمران عند قوله تعالى وان الله ليس بظلام للعبيد (وما تنزلت به الشياطين) رد لما زعمه الكفرة فى حق القرآن الكريم من انه من قبيل مايلقيه الشيطان على الكهنة بعد تحقيق الحق ببيان انه نزل به الروح الامين (وما ينبغى لهم) اى ومايصح وما يستقيم لهم ذلك (ومايستطيعون) ذلك اصلا (انهم عن السمع) لكلام الملائكة (لمعزولون) لانتفاء المشاركة بينهم وبين الملائكة فى صفاء الذوات

فصدهم عن السبيل لئلا يسجدوا فحذف الجار مع ان ويجوز ان تكون لا مزيدة ويكون المعنى فهم لا يهتدون الى ان يسجدوا (وثالثها) وهى حرف عبد الله وقراءة الاعمش هلا بقلب الهمزة هاء وعن عبد الله هلا تسجدون بمعنى الا تسجدون على الخطاب (ورابعها) قراءة ابى ألا يسجدون لله الذى يخرج الخبء فى السموات والارض ويعلم سركم وما تعلنون (المسئلة الثانية) قال اهل التحقيق قوله ألا يسجدوا يجب ان يكون بمعنى الامر لانه لو كان بمعنى المنع من السجدة لم يكن لوصفه تعالى بما يوجب ان يكون المسجود له وهو كونه قادرا على اخراج الخبء عالما بالاسرار معنى (المسئلة الثالثة) الآية دلت على وصف الله تعالى بالقدرة والعلم اما القدرة فقوله يخرج الخبء فى السموات والارض وسمى المخبوء بالمصدر وهو يتناول جميع انواع الارزاق والاموال واخراجه من السماء بالغيث ومن الارض بالنبات واما العلم فقوله ويعلم ما تخفون وما تعلنون واعلم ان المقصود من هذا الكلام الرد على من يعبد الشمس وتحرير الدلالة هكذا الاله يجب ان يكون قادرا على اخراج الخبء وعالما بالخفيات والشمس ليست كذلك فهى لا تكون الها واذا لم تكن الها لم يجز السجود لها اما انه سبحانه وتعالى يجب ان يكون قادرا عالما على الوجه المذكور فلانه واجب لذاته فلا تختص قادريته وعالميته ببعض المقدورات والمعلومات دون البعض واما ان الشمس ليست كذلك فلانها جسم متناه وكل ما كان متناهيا فى الذات كان متناهيا فى الصفات واذا كان كذلك فحينئذ لا يعلم كونها قادرة على اخراج الخبء عالمة بالخفيات فاذا لم يعلم من حالها ذلك لم يعلم من حالها كونها قادرة على جلب المنافع ودفع المضار فرجع حاصل الدلالة الى ما ذكره ابراهيم عليه السلام فى قوله لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا وفى قوله لله الذى يخرج الخبء فى السموات والارض وجه آخر وهو ان هذا اشارة الى ما استدل به ابراهيم عليه السلام فى قوله ربى الذى يحيى ويميت وفى قوله ان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب وذلك لانه سبحانه وتعالى هو الذى يخرج الشمس من المشرق بعد افولها فى المغرب فهذا هو اخراج الخبء فى السموات وهو المراد من قول ابراهيم عليه السلام لا احب الآفلين ومن قوله فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ومن قول موسى عليه السلام رب المشرق والمغرب وحاصله يرجع الى ان افول الشمس وطلوعها يدلان على كونها تحت تدبير مدبر قاهر فكانت العبادة لقاهرها والمتصرف فيها اولى واما اخراج الخبء من الارض فهو يتناول اخراج النطفة من الصلب والترائب وتكوين الجنين منه (فان قيل) ان ابراهيم وموسى عليهما السلام قدما دلائل الانفس على دلائل الآفاق فان ابراهيم قال ربى الذى يحيى ويميت ثم قال فان الله يأتى بالشمس من المشرق وموسى عليه السلام قال ربكم ورب آبائكم الاولين ثم قال رب المشرق والمغرب فلم كان الامر ههنا بالعكس فقدم خبء السموات على خبء

(الارض)

والاستعداد لقبول فيضان انوار الحق والانتقاش بصور العلوم الربانية والمعارف النورانية كيف لا ونفوسهم خبيثة ظلمانية شريرة بالذات غير مستعدة الا لقبول ما لا خير فيه اصلا من فنون الشرور فمن اين لهم ان يحوموا حول القرآن الكريم المنطوى على الحقائق الرائقة الغيبية التى لا يمكن تلقيها الا من الملائكة عليهم الصلاة والسلام (فلا تدع مع الله الها آخر فتكون من المعذبين) خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام مع ظهور استحالة صدور المنهى عنه عنه عليه الصلاة والسلام تهييجا وحثا على ازدياد الاخلاص ولطفا لسائر المكلفين ببيان ان الاشراك من القبح والسوء بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره عنه فكيف بمن عداه (وانذر) العذاب الذى يستتبعه الشرك والمعاصى (عشيرتك الاقربين) الاقرب منهم فالاقرب فان الاهتمام بشأنهم اهم وروى انه لما نزلت صعد الصفا وناداهم فخذا فخذا حتى اجتمعوا اليه فقال لو اخبرتكم ان بسفح هذا الجبل خيلا اكنتم مصدقى قالوا نعم قال فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد وروى انه قال يا بنى عبد المطلب يا بنى هاشم يا بنى عبد مناف افتدوا انفسكم من النار فانى لا اغنى عنكم شيئا ثم قال يا عائشة بنت ابى بكر ويا حفصة بنت عمر ويا فاطمة بنت محمد ويا صفية عمة محمد اشترين انفسكن من النار فانى لا اغنى عنكن شيئا (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين)

الارض (جوابه) ان ابراهيم وموسى عليهما السلام ناظرا مع من ادعى الهية البشر فلا جرم ابتدآ بابطال الهية البشر ثم انتقلا الى ابطال الهية السموات وههنا المناظرة مع من ادعى الهية الشمس لقوله وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله فلاجرم ابتدأ بذكر السماويات ثم بالارضيات اما قوله الله لا اله الا هو رب العرش العظيم فالمراد منه انه سبحانه لما بين افتقار السموات والارض وما بينهما الى المدبر ذكر بعد ذلك ان ما هو اعظم الاجسام فهي مخلوقة ومربوبة وذلك يدل على انه سبحانه هو المنتهى فى القدرة والربوبية الى ما لا مزيد عليه والله اعلم (المسئلة الرابعة) قيل من أحسنت الى العظيم كلام الهدهد وقيل كلام رب العزة (المسئلة الخامسة) الحق ان سجدة التلاوة واجبة فى القراءتين جميعا وهو قول الشافعى وابى حنيفة رحمة الله عليهما لانهم اجمعوا على ان سجدات القرآن اربع عشرة سجدة وهذا واحد منها ولان مواضع السجدة اما امر بها او مدح لمن اتى بها او ذم لمن تركها واحدى القراءتين أمر بالسجود والاخرى ذم للتارك فثبت ان الذى ذكره الزجاج من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد غير ملتفت اليه (المسئلة السادسة) يقال هل يفرق الواقف بين القراءتين جوابه نعم اذا خفف وقف على فهم لا يهتدون ثم ابتدأ بألا يا اسجدوا وان شاء وقف على الا يا ثم ابتدأ اسجدوا واذا شدد لم يقف الا على العرش العظيم اما قوله سننظر فمن النظر الذى هو التأمل وأراد صدقت ام كذبت الا ان ام كنت من الكاذبين ابلغ لانه اذا كان معروفا بالكذب كان متهما بالكذب فيما اخبر به فلم يوثق به وانما قال فألقه اليهم على لفظ الجمع لانه قال وجدتها وقومها يسجدون للشمس فقال فألقه اليهم الى الذين هذا دينهم اما قوله ثم تول عنهم اى تنح عنهم الى مكان قريب تتوارى فيه ليكون ما يقولونه بمسمع منك ويرجعون من قوله تعالى يرجع بعضهم الى بعض القول ويقال دخل عليها من كوة والقى اليها الكتاب وتوارى فى الكوة * قوله تعالى (قالت يا أيها الملأ انى القى الى كتاب كريم انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم الا تعلوا على وأتونى مسلمين قالت يا أيها الملأ افتونى فى امرى ما كنت قاطعة امرا حتى تشهدون قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والامر اليك فانظرى ماذا تأمرين) اعلم ان قوله قالت يا أيها الملأ انى القى الى كتاب كريم بمعنى ان يقال ان الهدهد القى اليها الكتاب فهو محذوف كأنه ثابت روى انها كانت اذا رقدت غلقت الابواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها فدخل من كوة وطرح الكتاب على نحرها وهى مستلقية وقيل نقرها فانتبهت فزعة * اما قوله كتاب كريم ففيه ثلاثة اوجه (احدها) حسن مضمونه وما فيه (وثانيها) وصفه بالكريم لانه من عند ملك كريم (وثالثها) ان الكتاب كان مختوما وقال عليه السلام كرم الكتاب ختمه وكان عليه السلام يكتب الى العجم فقيل له انهم لا يقبلون الا كتابا عليه خاتم فاتخذ لنفسه خاتما اما قوله انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم ففيه ابحاث (البحث

اى لين جانبك لهم مستعار من حال الطائر فانه اذا اراد ان ينحط خفض جناحه ومن للتبيين لان من اتبع اعم ممن اتبع لدين او غيره او للتبعيض على ان المراد بالمؤمنين المشارفون للايمان او المصدقون باللسان فحسب (فان عصوك) ولم يتبعوك (فقل انى برئ مما تعملون) اى مما تعملونه او من اعمالكم (وتوكل على العزيز الرحيم) الذى يقدر على قهر اعدائه ونصر اوليائه يكفك شر من يعصيك منهم ومن غيرهم وقرئ فتوكل على انه بدل من جواب الشرط (الذى يراك حين تقوم) اى الى التهجد وتقلبك فى الساجدين او ترددك فى تصفح احوال المتهجدين كما روى انه لما نسخ فرض قيام الليل طاف عليه الصلاة والسلام تلك الليلة بيوت اصحابه لينظر ما يصنعون حرصا على كثرة طاعاتهم فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع منها من دندنتهم بذكر الله تعالى والتلاوة او تصرفك فيما بين المصلين بالقيام والركوع والسجود والقعود اذا اممتهم وانما وصف الله تعالى ذاته بعلمه بحاله عليه الصلاة والسلام التى بها يستأهل ولايته بعد ان عبر عنه بما ينبئ عن قهر اعدائه ونصر اوليائه ومن وصفى العزيز الرحيم تحقيقا للتوكل وتوطينا لقلبه عليه (انه هو السميع) ٢٢٠ لما تقوله (العليم) بما تنويه وتعمله (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين) اى تتنزل تحدى احدى التاءين وهو استئناف مسوق لبيان استحالة تنزل الشياطين على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد بيان امتناع تنزلهم بالقرآن ودخول

الاول) انه استئناف وتبيين لما القى اليها كأنها لما قالت انى القى الى كتاب كريم قيل لها
ممن هو وما هو فقالت انه من سليمان وانه كيت وكيت وقرأ عبدالله وانه من سليمان وانه
بسم الله عطفا على انى وقرئ انه من سليمان وانه بالفتح وفيه وجهان (احدهما) انه بدل من
كتاب كأنه قيل القى الى انه من سليمان (وثانيهما) ان يريد انه من سليمان ولانه بسم الله
كأنها عللت كرمه بكونه من سليمان وتصديره ببسم الله وقرأ ابى ان من سليمان وان بسم الله
على ان المفسرة وان فى ان لاتعلوا مفسرة ايضا ومعنى لاتعلوا لاتتكبروا كما تفعل الملوك
وقرأ ابن عباس بالغين معجمة من الغلو وهى مجاوزة الحد (البحث الثانى) يقال لم قدم
سليمان اسمه على قوله بسم الله الرحمن الرحيم (جوابه) حاشاه من ذلك بل ابتدأ هو
ببسم الله الرحمن الرحيم وانما ذكرت بلقيس ان هذا الكتاب من سليمان ثم حكت مافى
الكتاب والله تعالى حكى ذلك فالتقديم واقع فى الحكاية (البحث الثالث) ان الانبياء
عليهم السلام لايطيلون بل يقتصرون على المقصود وهذا الكتاب مشتمل على تمام
المقصود وذلك لان المطلوب من الخلق اما العلم او العمل والعلم مقدم على العمل فقوله
بسم الله الرحمن الرحيم مشتمل على اثبات الصانع سبحانه وتعالى واثبات كونه عالما قادرا
حيا مريدا حكيما رحيما واما قوله ألاتعلوا على فهو نهى عن الانقياد لطاعة النفس
والهوى والتكبر واما قوله وأتونى مسلمين فالمراد من المسلم اما المنقاد او المؤمن فثبت ان
هذا الكتاب على وجازته يحوى كل مالابد منه فى الدين والدنيا (فان قيل) النهى عن
الاستعلاء والامر بالانقياد قبل اقامة الدلالة على كونه رسولا حقا يدل على الاكتفاء
بالتقليد (جوابه) معاذ الله ان يكون هناك تقليد وذلك لان رسول سليمان الى بلقيس كان
الهدهد ورسالة الهدهد معجز والمعجز يدل على وجود الصانع وعلى صفاته ويدل على
صدق المدعى فلما كانت تلك الرسالة دلالة تامة على التوحيد والنبوة لاجرم لم يذكر
فى الكتاب دليلا آخر اما قوله يا أيها الملأ افتونى فى امرى فالفتوى هى الجواب فى الحادثة
اشتقت على طريق الاستعارة من الفتى فى السن اى اجيبونى فى الامر الفتى وقصدت
بالانقطاع اليهم واستطلاع رأيهم تطييب قلوبهم ما كنت قاطعة امرا اى لاابت امرا
الا بمحضركم • أما قوله قالوا نحن أولوا قوة فالمراد قوة الاجسام وقوة الآلات والمراد
بالبأس النجدة والثبات فى الحرب وحاصل الجواب ان القوم ذكروا امرين احدهما
اظهار القوة الذاتية والعرضية ليظهر انها ان ارادتهم للدفع والحرب وجدتهم بحيث
تريد والآخر قولهم والامر اليك فانظرى ماذا تأمرين وفى ذلك اظهار الطاعة لها ان
ارادت السلم ولا يمكن ذكر جواب احسن من هذا والله اعلم ۞ قوله تعالى (قالت ان

الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهلها اذلة وكذلك يفعلون وانى مرسلة
اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون فلما جاء سليمان قال أتمدوننى بمال فما آتانى الله خير
مما آتاكم بل انتم بهديتكم تفرحون ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها

(ولنخرجنهم)

حرف الجر على من الاستفهامية
لانها ليست موضوعة للاستفهام
بل الاصل امن فحذف حرف
الاستفهام واستمر الاستعمال
على حذفه كما حذف من هل
والاصل اهل وقوله تعالى
(تنزل على كل افاك اثيم) قصر
لتنزلهم على كل من اتصف بالافك
الكثير والاثم الكبير من الكهنة
والمتنبئة وتخصيص له بهم بحيث
لايتخطاهم الى غيرهم وحيث
كانت ساحة رسول الله صلى الله
عليه وسلم منزهة عن ان يحوم
حولها شائبة شئ من تلك
الاوصاف اتضح استحالة تنزلهم
عليه عليه الصلاة والسلام
(يلقون) اى الافاكون (السمع)
الى الشياطين فيتلقون منهم
اوهاما وامارات لنقصان علمهم
فيضمون اليها بحسب تخيلاتهم
الباطلة خرافات لايطابق
اكثرها الواقع وذلك قوله
تعالى (واكثرهم كاذبون) اى
فيما قالوه من الاقاويل وقد
ورد فى الحديث الكلمة يخطفها
الجنى فيقرها فى اذن وليه فيزيد
فيها اكثر من مائة كذبة او يلقون
السمع اى المسموع من الشياطين
الى الناس واكثرهم كاذبون
يفترون على الشياطين مالم يوحوا
اليهم والاظهر ان الاكثرية
باعتبار اقوالهم على معنى ان
هؤلاء قلما يصدقون فيما يحكون
من الجنى واما فى اكثره فهم
كاذبون وما آلوا اكثر اقوالهم
كاذبة لاباعتبار ذواتهم حتى
يلزم من نسبة الكذب الى
اكثرهم كون اقلهم صادقين
على الاطلاق وليس معنى الافاك من
لاينطق الا بالافك حتى يمتنع منه
الصدق بل من يكثر الافك فلاينافيه
ان يصدق نادرا فى بعض الاحايين

وليخرجنهم منها اذلة وهم صاغرون) اعلم انها لما عرضت الواقعة على أكابر قومها وقالوا ماتقدم اظهرت رأيها وهو ان الملوك اذا دخلوا قرية بالقهر افسدوها اى خربوها واذلوا أعزتها فذكرت لهم عاقبة الحرب واما قوله وكذلك يفعلون فقد اختلفوا أهو من كلامها او من كلام الله تعالى كالتصويب لها والاقرب انه من كلامها وانها ذكرته تأكيدا لما وصفته من حال الملوك فاما الكلام فى صفة الهدية فالناس اكثروا فيها لكن لاذكر لها فى الكتاب وقولها فناظرة بم يرجع المرسلون فيه دلالة على انها لم تثق بالقبول وجوزت الرد وأرادت بذلك ان ينكشف لها غرض سليمان ولما وصلت الهدايا الى سليمان عليه السلام ذكرا مرين (الاول) قوله أتمدونن بمال فأظهر بهذا الكلام قلة الاكتراث بذلك المال اما قوله بل انتم بهديتكم تفرحون ففيه ثلاثة اوجه (احدها) ان الهدية اسم للمهدى كما ان العطية اسم للمعطى فتضاف الى المهدى والى المهدى له والمضاف اليه ههنا هو المهدى اليه والمعنى ان الله تعالى آتانى الدين الذى هو السعادة القصوى وآتانى من الدنيا مالا مزيد عليه فكيف يستمال مثلى بمثل هذه الهدية بل انتم تفرحون بما يهدى اليكم لكن حالى خلاف حالكم (وثانيها) بل انتم بهديتكم هذه التى اهديتموها تفرحون من حيث انكم قدرتم على اهداء مثلها (وثالثها) كأنه قال بل انتم من حقكم ان تأخذوا هديتكم وتفرحوا بها (الثانى) قوله ارجع اليهم فقيل ارجع خطاب للرسول وقيل للهدهد محملا كتابا آخر اما قوله تعالى لاقبل اى لاطاقة وحقيقة القبل المقاومة والمقابلة اى لايقدرون ان يقابلوهم وقرأ ابن مسعود لاقبل لهم بهم والضمير فى منها لسبأ والذل ان يذهب عنهم ما كان عندهم من العز والملك والصغار ان يقعوا فى اسر واستعباد ولا يقتصر بهم على ان يرجعوا سوقة بعد ان كانوا ملوكا * قوله تعالى (قال يا أيها الملأ ايكم يأتينى بعرشها قبل ان يأتونى مسلمين قال عفريت من الجن انا آتيك به قبل ان تقوم من مقامك وانى عليه لقوى امين قال الذى عنده علم من الكتاب انا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر ام اكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربى غنى كريم) اعلم ان قوله تعالى قال يا أيها الملأ ايكم يأتينى بعرشها دلالة على انها عزمت على اللحوق بسليمان ودلالة على ان امر ذلك العرش كان مشهورا فاحب ان يحصل عنده قبل حضورها واختلفوا فى غرض سليمان عليه السلام من احضار ذلك العرش على وجوه (احدها) ان المراد ان يكون ذلك دلالة لبلقيس على قدرة الله تعالى وعلى نبوة سليمان عليه السلام حتى تنضم هذه الدلالة الى سائر الدلائل التى سلفت (وثانيها) أراد ان يؤتى بذلك العرش فيغير وينكر ثم يعرض عليها حتى انها هل تعرفه او تنكره والمقصود اختبار عقلها وقوله تعالى قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى كالدلالة على ذلك (وثالثها) قال قتادة أراد ان يأخذه قبل اسلامها لعلمه انها اذا اسلمت لم يحل له اخذ مالها

وقيل الضمير للشياطين اى يلقون السمع اى المسموع من الملا الاعلى قبل ان يرجموا من بعض المغيبات الى اوليائهم واكثرهم كاذبون فيما يوحون به اليهم اذ لايسمعونهم على نحو ما تكلمت به الملائكة لشرارتهم او لقصور فهمهم او ضبطهم او افهامهم ولا سبيل الى حمل القاء السمع على تسمعهم وانصاتهم الى الملا الاعلى قبل الرجم كما جوزه الجمهور لما ان يلقون كما عرفت جوابه اما حال من ضمير تنزل مفيدة لمقارنة التنزل للالقاء او استئناف مبين للغرض من التنزل مبنى على السؤال عنه ولاريب فى ان القاء السمع الى الملا الاعلى بمعزل من احتمال ان يقارن التنزل او يكون غرضا منه لتقدمه عليه قطعا وانما المحتمل لهما الالقاء بالمعنى الاول فالمعنى على تقدير كونه حالا تنزل الشياطين على كل افاك ملقين اليهم ما سمعوه من الملا الاعلى وعلى تقدير كونه جوابا عن سؤال من قال لم تنزل عليهم وماذا يفعلون بهم يلقون اليهم ما سمعوه وحمله على استئناف الاخبار كما فعله بعضهم غير سديد لان ذكر حالهم السابقة على تنزلهم المذكور قبله غير خليق بجزالة التنزيل واما على تقدير كون ضمير يلقون للافاكين فهو صفة لكل افاك لانه فى معنى الجمع سواء اريد بالقاء السمع الاصغاء الى الشياطين او القاء المسموع الى الناس ويجوز ان يكون استئناف اخبار بحالهم على كلا التقديرين لما ان كلا من تلقيهم من الشياطين والقائهم الى الناس يكون بعد التنزيل وان يكون استئنافا مبنيا على السؤال على التقدير الاول فقط كأنه قيل مايفعلون

(ورابعها) ان العرش سرير المملكة فأراد ان يعرف مقدار مملكتها قبل وصولها اليه اما قوله قال عفريت من الجن فالعفريت من الرجال الخبيث المنكر الذى يعفر اقرانه ومن الشياطين الخبيث المارد اما قوله قبل ان تقوم من مقامك فالمعنى من مجلسك ولابد فيه من عادة معلومة حتى يصح ان يؤقت فقيل المراد مجلس الحكم بين الناس وقيل الوقت الذى يخطب فيه الناس وقيل الى انتصاف النهار واما قوله لقوى اى على حمله امين آتى به كما هو لا اختزل منه شيئا * اما قوله قال الذى عنده علم من الكتاب ففيه بحثان (الاول) اختلفوا فى ذلك الشخص على قولين قيل كان من الملائكة وقيل كان من الانس فمن قال بالاول اختلفوا قيل هو جبريل عليه السلام وقيل هو ملك ايد الله تعالى به سليمان عليه السلام ومن قال بالثانى اختلفوا على وجوه (احدها) قول ابن مسعود انه الخضر عليه السلام (وثانيها) وهو المشهور من قول ابن عباس انه آصف بن برخيا وزير سليمان وكان صديقا يعلم الاسم الاعظم اذا دعا به اجيب (وثالثها) قول قتادة رجل من الانس كان يعلم اسم الله الاعظم (ورابعها) قول ابن زيد كان رجلا صالحا فى جزيرة فى البحر خرج ذلك اليوم ينظر الى سليمان (وخامسها) بل هو سليمان نفسه والمخاطب هو العفريت الذى كلمه وأراد سليمان عليه السلام اظهار معجزة فتحداهم اولا ثم بين للعفريت انه يتأتى له من سرعة الاتيان بالعرش مالا يتهيأ للعفريت وهذا القول اقرب لوجوه (احدها) ان لفظة الذى موضوعة فى اللغة للاشارة الى شخص معين عند محاولة تعريفه بقصة معلومة والشخص المعروف بأنه عنده علم الكتاب هو سليمان عليه السلام فوجب انصرافه اليه اقصى مافى الباب ان يقال كان آصف كذلك ايضا لكنا نقول ان سليمان عليه السلام كان اعرف بالكتاب منه لانه هو النبى فكان صرف هذا اللفظ الى سليمان عليه السلام اولى (الثانى) ان احضار العرش فى تلك الساعة اللطيفة درجة عالية فلو حصلت لآصف دون سليمان لاقتضى ذلك تفضيل آصف على سليمان عليه السلام وانه غير جائز (الثالث) ان سليمان عليه السلام لو افتقر فى ذلك الى آصف لاقتضى ذلك قصور حال سليمان فى اعين الخلق (الرابع) ان سليمان قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر ام اكفر وظاهره يقتضى ان يكون ذلك المعجز قد اظهره الله تعالى بدعاء سليمان (البحث الثانى) اختلفوا فى الكتاب فقيل اللوح المحفوظ والذى عنده علم منه جبريل عليه السلام وقيل كتاب سليمان او كتاب بعض الانبياء ومعلوم فى الجملة ان ذلك مدح وان لهذا الوصف تأثيرا فى نقل ذلك العرش فلذلك قالوا انه الاسم الاعظم وان عنده وقعت الاجابة من الله تعالى فى اسرع الاوقات * اما قوله تعالى انا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك ففيه بحثان (الاول) آتيك فى الموضعين يجوز ان يكون فعلا واسم فاعل (الثانى) اختلفوا فى قوله قبل ان يرتد اليك طرفك على وجهين (الاول) انه أراد المبالغة فى السرعة كما تقول لصاحبك افعل ذلك فى لحظة وهذا قول مجاهد (الثانى) ان يجريه على

عند تنزل الشياطين عليهم فقيل يلقون اليهم اسماعهم ليحفظوا مايوحون به اليهم وقوله تعالى واكثرهم كاذبون على التقدير الاول استئناف فقط وعلى الثانى يحتمل الحالية من ضمير يلقون اى يلقون ما سمعوه من الشياطين الى الناس والحال انهم فى اكثر اقوالهم كاذبون فتدبر (والشعراء يتبعهم الغاوون) استئناف مسوق لابطال ماقالوا فى حق القرآن العظيم من انه من قبيل الشعر والرسول الله صلى الله عليه وسلم من الشعراء ببيان حال الشعراء المنافية لحاله عليه الصلاة والسلام بعد ابطال ماقالوا انه من قبيل مايلقى الشياطين على الكهنة من الاباطيل بما مر من بيان احوالهم المضادة لاحواله عليه الصلاة والسلام والمعنى ان الشعراء يتبعهم اى يجاريهم ويسلك مسلكهم ويكون من جملتهم الغاوون الضالون عن السنن الحائرون فيما يأتون وما يذرون لا يستمرون على وتيرة واحدة فى الافعال والاقوال والاحوال لاغيرهم من اهل الرشد المهتدين الى طريق الحق الثابتين عليه وقوله تعالى (الم تر انهم فى كل واد يهيمون) استشهاد على ان الشعراء انما يتبعهم الغاوون وتقرير له والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية للقصد الى ان حالهم من الجلاء والظهور بحيث لاتختص رؤية راء دون راء اى الم تر ان الشعراء فى كل واد من اودية القيل والقال وفى كل شعب من شعاب الوهم والخيال وفى كل مسلك من مسالك الغى والضلال يهيمون على وجوههم لايهتدون الى سبيل معين من السبل بل يتحيرون فى تيه الغواية والسفاهة

ظاهره والطرف تحريك الاجفان عند النظر فاذا فتحت الجفن فقد يتوهم ان نور العين امتد الى المرئى واذا غمضت الجفن فقد يتوهم ان ذلك النور ارتد الى العين فهذا هو المراد من ارتداد الطرف (وههنا سؤال) وهو انه كيف يجوز والمسافة بعيدة ان ينقل العرش فى هذا القدر من الزمان وهذا يقتضى اما القول بالطفرة او حصول الجسم الواحد دفعة واحدة فى مكانين (جوابه) ان المهندسين قالوا كرة الشمس مثل كرة الارض مائة واربعة وستين مرة ثم ان زمان طلوعها زمان قصير فاذا قسمنا زمان طلوع تمام القرص على زمان القدر الذى بين الشام واليمن كانت الحصة كثيرة فلما ثبت عقلا امكان وجود هذه الحركة السريعة وثبت انه تعالى قادر على كل الممكنات زال السؤال ثم انه عليه السلام لما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر ام اكفر والكلام فى تفسير الابتلاء قدمر غير مرة * ثم انه عليه السلام بين ان نفع الشكر عائد الى الشاكر لا الى الله تعالى اما انه عائد الى الشاكر فلوجوه (احدها) انه يخرج عن عهدة ما وجب عليه من الشكر (وثانيها) انه يستمد به المزيد على ما قال لئن شكرتم لأزيدنكم (وثالثها) ان المشتغل بالشكر مشتغل بالمنعم والمعرض عن الشكر مشتغل باللذات الحسية وفرق ما بينهما كفرق ما بين المنعم والنعمة فى الشرف ثم قال ومن كفر فان ربى غنى كريم غنى عن شكره لا يضره كفره كريم لا يقطع عنه نعمه بسبب اعراضه عن الشكر * قوله تعالى (قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى ام تكون من الذين لا يهتدون فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو واوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين وصدها ما كانت تعبد من دون الله انها كانت من قوم كافرين) اعلم ان قوله نكروا معناه اجعلوا العرش منكرا مغيرا عن شكله كما يتنكر الرجل للناس لئلا يعرفوه وذلك لانه لو ترك على ما كان لعرفته لا محالة وكان لا تدل معرفتها به على ثبات عقلها واذا غير دلت معرفتها او توقفها فيه على فضل عقل ولا يمتنع صحة ما قيل ان سليمان عليه السلام القى اليه ان فيها نقصان عقل لكى لا يتزوجها او لا تحظى عنده على وجه الحسد فأراد بما ذكرنا اختبار عقلها اما قوله ننظر فقرئ بالجزم على الجواب وبالرفع على الاستئناف واختلفوا فى أتهتدى على وجهين (احدهما) أتعرف انه عرشها ام لا كما قدمنا (الثانى) أتعرف به نبوة سليمان ام لا ولذلك قال ام تكون من الذين لا يهتدون وذلك كالذم ولا يليق الا بطريقة الدلالة فكأنه عليه السلام احب ان تنظر فتعرف به نبوته من حيث صار منتقلا من المكان البعيد الى هناك وذلك يدل على قدرة الله تعالى وعلى صدق سليمان عليه السلام ويعرف بذلك ايضا فضل عقلها لاغراض كانت له فعند ذلك سألها اما قوله أهكذا عرشك فاعلم ان هكذا ثلاث كلمات حرف التنبيه وكاف التشبيه واسم الاشارة ولم يقل أهذا عرشك ولكن امثل هذا عرشك لئلا يكون تلقينا فقالت كأنه هو ولم تقل هو هو ولا ليس به وذلك من كمال عقلها حيث توقفت فى محل التوقف اما قوله واوتينا العلم من قبلها ففيه

ويتيهون فى تيه الغرور والوقاحة ديدنهم تمزيق الاعراض المحمية والقدح فى الانساب الطاهرة السنية والنسيب بالحرم والغزل والابتهار والتردد بين طرفى الافراط والتفريط فى المدح والهجاء (وانهم يقولون ما لا يفعلون) من الافاعيل غير مبالين بما يستتبعه من اللوائم فكيف يتوهم ان يتبعهم فى مسلكهم ذلك ويلحق بهم وينتظم فى سلكهم من تنزهت ساحته عن ان يحوم حولها شائبة الاتصاف بشئ من الامور المذكورة واتصف بمحاسن الصفات الجليلة وتخلق بمكارم الاخلاق الجميلة وحاز جميع الكمالات القدسية وفاز بجملة الملكات الانسية مستقرا على المنهاج القويم مستمرا على الصراط المستقيم ناطقا بكل امر رشيد داعيا الى صراط العزيز الحميد مؤيدا بمعجزات قاهرة وآيات ظاهرة مشحونة بفنون الحكم الباهرة وصنوف المعارف الزاهرة مستقلة بنظم رائق اعجز كل منطيق ماهر وبكت كل مفلق ساحر هذا والدليل فى تنزيهه عليه الصلاة والسلام عن ان يكون من الشعراء ان اتباع الشعراء الغاوون واتباع محمد صلى الله عليه وسلم ليسوا كذلك ولاريب فى ان تعليل عدم كونه عليه الصلاة والسلام منهم بكون اتباعه عليه الصلاة والسلام غير غاوين مما لا يليق بشأنه العالى وقيل الغاوون الراوون وقيل الشياطين وقيل هم شعراء قريش عبد الله بن الزبعرى وهبيرة بن ابى وهب المخزومى ومسافع بن عبد مناف وابو عزة الجمحى ومن ثقيف امية بن ابى الصلت قالوا نحن نقول مثل قول محمد صلى الله عليه وسلم وقرئ والشعراء بالنصب على اضمار فعل

سؤالان وهو ان هذا الكلام كلام من وايضا فعلى اى شئ عطف هذا الكلام وعنه جوابان (الاول) انه كلام سليمان وقومه وذلك لان بلقيس لما سئلت عن عرشها ثم انها اجابت بقولها كأنه هو فالظاهر ان سليمان وقومه قالوا انها قد اصابت فى جوابها وهى عاقلة لبيبة وقد رزقت الاسلام ثم عطفوا على ذلك قولهم واوتينا نحن العلم بالله وبقدرته قبل علمها ويكون غرضهم من ذلك شكر الله تعالى فى ان خصهم بمزية التقدم فى الاسلام (الثانى) انه من كلام بلقيس موصولا بقولها كأنه هو والمعنى واوتينا العلم بالله وبصحة نبوة سليمان قبل هذه المعجزة اوقبل هذه الحالة ثم ان قوله وصدها ما كانت تعبد من دون الله الى آخر الآية يكون من كلام رب العزة * اما قوله تعالى وصدها ما كانت تعبد من دون الله ففيه وجهان (الاول) المراد وصدها عبادتها لغير الله عن الايمان (الثانى) وصدها الله اوسليمان عما كانت تعبد بتقدير حذف الجار وايصال الفعل وقرئ انها بالفتح على انه بدل من فاعل صد او بمعنى لانها واحتجت المعتزلة بهذه الآية فقالوا لوكان تعالى خلق الكفر فيها لم يكن الصاد لها كفرها المتقدم ولا كونها من جملة الكفار بل كان يكون الصاد لها عن الايمان تجدد خلق الله الكفر فيها والجواب اما على التأويل الثانى فلا شك فى سقوط الاستدلال واما على الاول فجوابنا ان كونها من جملة الكفار صار سببا لحصول الداعية المستلزمة للكفر وحينئذ يبقى ظاهر الآية موافقا لقولنا والله اعلم * قوله تعالى (قيل لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال انه صرح ممرد من قوارير قالت رب انى ظلمت نفسى واسلمت مع سليمان لله رب العالمين) اعلم انه تعالى لما حكى اقامتها على الكفر مع كل ما تقدم من الدلائل ذكر ان سليمان عليه السلام اظهر من الامر ما صار داعيا لها الى الاسلام وهو قوله قيل لها ادخلى الصرح والصرح القصر كقوله ياهامان ابن لى صرحا وقيل صحن الدار وقرأ ابن كثير عن سأقيها بالهمز ووجهه انه سمع سؤقا فأجرى عليه الواحد والممرد المملس روى ان سليمان عليه السلام امر قبل قدومها فبنى له على طريقها قصر من زجاج ابيض كالماء بياضا ثم ارسل الماء تحته وألقى فيه السمك وغيره ووضع سريره فى صدره فجلس عليه وعكف عليه الانس والجن والطير وانما فعل ذلك ليزيدها استعظاما لامره وتحقيقا لنبوته وزعموا ان الجن كرهوا ان يتزوجها فتفضى اليه باسرارهم لانها كانت بنت جنية وقيل خافوا ان يولد له منها ولد فيجتمع له فطنة الجن والانس فيخرجون من ملك سليمان الى ملك هو اشد فقالوا ان فى عقلها نقصانا وانها شعراء الساقين ورجلها كحافر حمار فاختبر سليمان عقلها بتنكير العرش واتخذ الصرح ليتعرف ساقها ومعلوم من حال الزجاج الصافى انه يكون كالماء فلما ابصرت ذلك ظنته ماء راكدا فكشفت عن ساقيها لتخوضه فاذا هى احسن الناس ساقا وقدما وهذا على طريقة من يقول تزوجها وقال آخرون كان المقصود من الصرح تهويل المجلس وتعظيمه وحصل كشف الساق على سبيل التبع فلما قيل لها هو

يفسره الظاهر وقرئ يتبعهم على التخفيف ويتبعهم بسكون العين تشبيها لبه بعضد الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا) استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله عز وجل ويكون اكثر اشعارهم فى التوحيد والثناء على الله تعالى والحث على طاعته والحكمة والموعظة والزهد فى الدنيا والترغيب من الركون اليها والزجر عن الاغترار بزخارفها والافتتان بملاذها الفانية ولو وقع منهم فى بعض الاوقات هجو وقع ذلك منهم بطريق الانتصار ممن هجاهم وقيل المراد بالمستثنين عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك وكعب بن زهير بن ابى سلمى والذين كانوا ينافحون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكافحون هجاة قريش وعن كعب بن مالك رضى الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له اهجهم فو الذى نفسى بيده لهو اشد عليهم من النبل وكان يقول لحسان قل وروح القدس معك (وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون) تهديد شديد ووعيد اكيد لما فى سيعلم من تهويل متعلقه وفى الذين ظلموا من الاطلاق والتعميم وفى اى منقلب ينقلبون من الابهام والتهويل وقد تلاه ابو بكر لعمر رضى الله عنهما حين عهد اليه وقرئ اى منفلت ينفلتون من الانفلات بمعنى النجاة والمعنى ان الظالمين يطمعون ان ينفلتوا من عذاب الله تعالى وسيعلمون ان ليس لهم وجه من وجوه الانفلات * عن النبى عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة الشعراء

صرح ممرد من قوارير استترت وعجبت من ذلك واستدلت به على التوحيد والنبوة فقالت رب انى ظلمت نفسى فيما تقدم بالثبات على الكفر ثم قالت واسلمت مع سليمان لله رب العالمين وقيل حسبت ان سليمان عليه السلام يغرقها فى اللجة فقالت ظلمت نفسى بسوء ظنى بسليمان واختلفوا فى انه هل تزوجها ام لا وانه تزوجها فى هذه الحال اوقبل ان كشفت عن ساقيها والاظهر فى كلام الناس انه تزوجها وليس لذلك ذكر فى الكتاب ولا فى خبر مقطوع بصحته ويروى عن ابن عباس انها لما اسلمت قال لها اختارى من قومك من ازوجك منه فقالت مثلى لا ينكح الرجال مع سلطانى فقال النكاح من الاسلام فقالت ان كان كذلك فزوجنى ذا تبع ملك همدان فزوجها اياه ثم ردهما الى اليمن ولم يزل بها ملكا والله اعلم * (القصة الثالثة) قصة صالح عليه السلام قوله تعالى (ولقد ارسلنا الى ثمود اخاهم صالحا ان اعبدوا الله فاذا هم فريقان يختصمون قال ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل انتم قوم تفتنون وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الارض ولا يصلحون قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه واهله ثم لنقولن لوليه ماشهدنا مهلك اهله وانا لصادقون ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم انا دمرناهم وقومهم اجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ان فى ذلك لآية لقوم يعلمون وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) قرئ ان اعبدوا الله بالضم على اتباع النون الباء اما قوله فاذا هم فريقان ففيه قولان (احدهما) المراد فريق مؤمن وفريق كافر (الثانى) المراد قوم صالح قبل ان يؤمن منهم احد اما قوله يختصمون فالمعنى ان الذين آمنوا انما آمنوا لانهم نظروا فى حجته فعرفوا صحتها واذا كان كذلك فلابد وان يكون خصما لمن لم يقبلها واذا كان هذا الاختصام فى باب الدين دل ذلك على ان الجدال فى باب الدين حق وفيه ابطال التقليد اما قوله ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ففيه بحثان (الاول) فى تفسير استعجال السيئة قبل الحسنة وجهان (احدهما) ان الذين كذبوا صالحا عليه السلام لما لم ينفعهم الحجاج توعدهم صالح عليه السلام بالعذاب فقالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين على وجه الاستهزاء فعنده قال صالح لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة والمراد ان الله تعالى قد مكنهم من التوصل الى رحمة الله تعالى وثوابه فلماذا تعدلون عنه الى استعجال عذابه (وثانيهما) انهم كانوا يقولون لجهلهم ان العقوبة التى يعدها صالح ان وقعت على زعمه تبنا حينئذ واستغفرنا فحينئذ يقبل الله توبتنا ويدفع العذاب عنا فخاطبهم صالح على حسب اعتقادهم وقال هلا تستغفرون الله قبل نزول العذاب فان استعجال الخير اولى من استعجال الشر (البحث الثانى) ان المراد بالسيئة العقاب وبالحسنة الثواب فاما وصف العذاب بانه سيئة فهو مجاز وسبب هذا التجوز اما لان العقاب من لوازمه اولانه

كان له من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح وكذب به وهود وصالح وشعيب وابراهيم وبعدد من كذب بعيسى وصدق بمحمد عليه الصلاة والسلام

(سورة النمل مكية وهى ثلاث او اربع وتسعون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(طس) بالتفخيم وقرئ بالامالة والكلام فيه كالذى مر فى نظائره من الفواتح الشريفة ومحله على تقدير كونه اسما للسورة وهو الاظهر الرفع على انه خبر لمبتدأ محذوف اى هذا طس اى مسمى به والاشارة اليه قبل ذكره قد مر وجهها فى فاتحة سورة يونس وغيرها ورفعه بالابتداء على ان ما بعده خبره ضعيف لما ذكر هناك (تلك) اشارة الى نفس السورة لانها التى نوهت بذكرها لا الى آياتها لعدم ذكرها صريحا ولان اضافتها اليها تأبى اضافتها الى القرآن كما سيأتى ومافى اسم الاشارة من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان ببعد منزلته فى الفضل والشرف ومحله الرفع على الابتداء خبره (آيات القرآن) والجملة مستأنفة مقررة لما افاده التسمية من نباهة شأن المسمى والقرآن عبارة عن الكل او عن الجميع المنزل عند نزول السورة حسبما ذكر فى فاتحة الكتاب اى تلك السورة آيات القرآن المعروف بعلو الشأن اى بعض منه مترجم مستقل باسم خاص (وكتاب) اى كتاب عظيم الشأن (مبين) مظهر لما فى تضاعيفه من الحكم والاحكام واحوال الآخرة التى من جملتها الثواب والعقاب

يشبهه فى كونه مكروها واما وصف الرحمة بانها حسنة فمنهم من قال انه حقيقة ومنهم من قال انه مجاز والاول اقرب ثم ان صالحا عليه السلام لما قرر هذا الكلام الحق اجابوه بكلام فاسد وهو قولهم اطيرنابك اى تشاءمنا بك لان الذى يصيبنا من شدة وقحط فهو بشؤمك وبشؤم من معك قال صاحب الكشاف كان الرجل يخرج مسافرا فيمر بطائر فيزجره فان مر سانحا تيمن وان مر بارحا تشاءم فلما نسبوا الخير والشر الى الطائر استعير لما كان للخير والشر وهو قدر الله وقسمته فأجاب صالح عليه السلام بقوله طائركم عند الله اى السبب الذى منه يجىء خيركم وشركم عند الله وهو قضاؤه وقدره ان شاء رزقكم وان شاء حرمكم وقيل بل المراد ان جزاء الطيرة منكم عند الله وهو العقاب والاقرب الوجه الاول لان القوم اشاروا الى الامر الحاصل فيجب فى جوابه ان يكون فيه لا فى غيره ثم بين ان هذا جهل منهم بقوله بل انتم قوم تفتنون فيحتمل ان غيرهم دعاهم الى هذا القول ويحتمل ان يكون المراد ان الشيطان يفتنكم بوسوسته ثم انه سبحانه قال وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الارض والاقرب ان يكون المراد تسعة جمع اذ الظاهر من الرهط الجماعة لا الواحد ثم يحتمل انهم كانوا قبائل ويحتمل انهم دخلوا تحت العدد لاختلاف صفتهم واحوالهم لا لاختلاف النسب فبين تعالى انهم يفسدون فى الارض ولا يمزجون ذلك الفساد بشئ من الصلاح فلهذا قال يفسدون فى الارض ولا يصلحون ثم بين تعالى ان من جملة ذلك ماهموا به من أمر صالح عليه السلام اما قوله تقاسموا بالله فيحتمل ان يكون امرا او خبرا فى محل الحال باضمار قد اى قالوا متقاسمين والبيات مباغتة العدو ليلا اما قوله ثم لنقولن لوليه ماشهدنا مهلك اهله يعنى لو اتهمنا قومه حلفنا لهم انا لم نحضر وقرئ مهلك بفتح الميم واللام وكسرها من هلك ومهلك بضم الميم من اهلك ويحتمل المصدر والمكان والزمان ثم انه سبحانه قال ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لايشعرون وقد اختلفوا فى مكر الله تعالى على وجوه (احدها) ان مكر الله اهلاكهم من حيث لايشعرون شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة روى انه كان لصالح عليه السلام مسجد فى الحجر فى شعب يصلى فيه فقالوا زعم صالح انه يفرغ منا الى ثلاث فنحن نفرغ منه ومن اهله قبل الثلاث فخرجوا الى الشعب وقالوا اذا جاء يصلى قتلناه ثم رجعنا الى أهله فقتلناهم فبعث الله تعالى صخرة فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب فهلكوا وهلك الباقون بالصيحة (وثانيها) جاؤا بالليل شاهرين سيوفهم وقد أرسل الله تعالى الملائكة ملء دار صالح فدمغوهم بالحجارة يرون الاحجار ولايرون راميا (وثالثها) ان الله تعالى اخبر صالحا بمكرهم فتحرز عنهم فذلك مكر الله تعالى فى حقهم اما قوله انا دمرناهم استئناف ومن قرأ بالفتح رفعه بدلا من العاقبة او خبر مبتدأ محذوف تقديره هى تدميرهم او نصبه على معنى لانا او على انه خبر كان اى كان عاقبة مكرهم الدمار اما قوله خاوية فهو حال عمل فيها مادل عليه تلك وقرأ عيسى بن عمر خاوية بالرفع على خبر المبتدأ

(المحذوف)

اولسبيل الرشد والغى اوفارق بين الحق والباطل والحلال والحرام اوظاهر الاعجاز على انه من ابان بمعنى بان ولقد فخم شأنه الجليل بما جمع فيه من وصف القرآنية المنبئة عن كونه بديعا فى بابه ممتازا عن غيره بالنظم المعجز كما يعرب عنه قوله تعالى قرآنا عربيا غير ذى عوج ووصف الكتابية المعربة عن اشتماله على صفات كمال الكتب الالهية فكأنه كلها وقدم الوصف الاول ههنا نظرا الى تقدم حال القرآنية على حال الكتابية وعكس فى سورة الحجر نظرا الى ماذكر هناك من الوجه وماقيل من ان الكتاب هو اللوح المحفوظ واباته انه خط فيه ماهو كائن فهو يبينه للناظرين فيه لايساعده اضافة الآيات اليه اذ لاعهد باشتماله على الآيات ولاوصفه بالهداية والبشارة اذهما باعتبار ابانته فلابد من اعتبارها بالنسبة الى الناس الذين من جملتهم المؤمنون لا الى الناظرين فيه وقرئ وكتاب بالرفع على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه اى وآيات كتاب مبين (هدى وبشرى للمؤمنين) فى حيز النصب على الحالية من الآيات على انهما مصدران اقيما مقام الفاعل للمبالغة كأنهما نفس الهدى والبشارة والعامل معنى الاشارة اى هادية ومبشرة اوالرفع على انهما بدلان من الآيات اوخبران آخران لتلك اولمبتدأ محذوف ومعنى هدايتها لهم وهم مهتدون انها تزيدهم هدى قال تعالى فاما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون

المحذوف والله اعلم * (القصة الرابعة) قصة لوط عليه السلام قوله تعالى (ولوطا اذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون فما كان جواب قومه الا أن قالوا اخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون فأنجيناه واهله الا امرأته قدرناها من الغابرين وامطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين) قال صاحب الكشاف واذكر لوطا او وارسلنا لوطا بدلالة ولقد ارسلنا عليه واذ بدل على الاول ظرف على الثاني اما قوله أتأتون الفاحشة فهو على وجه التنكير وان كان بلفظ الاستفهام وربما كان التوبيخ بمثل هذا اللفظ ابلغ اما قوله وأنتم تبصرون ففيه وجوه (احدها) انهم كانوا لايتحاشون من اظهار ذلك على وجه الخلاعة ولايتكاتمون وذلك احدما لاجله عظم ذلك الفعل منهم فذكر في توبيخه لهم ماله عظم ذلك الفعل (وثانيها) ان المراد بصر القلب اى تعلمون انها فاحشة لم تسبقوا اليها وان الله تعالى لم يخلق الذكر للذكر فهي مضادة لله في حكمته (وثالثها) تبصرون آثار العصاة قبلكم وما نزل بهم فان قلت فسرت تبصرون بالعلم وبعده بل أنتم قوم تجهلون فكيف يكونون علماء وجهلاء قلت أراد تفعلون فعل الجاهلين بأنها فاحشة مع علمكم بذلك او تجهلون العاقبة او أراد بالجهل السفاهة والمجانة التي كانوا عليها ثم انه تعالى بين جهلهم بان حكى عنهم انهم اجابوا عن هذا الكلام بما لايصلح ان يكون جوابا له فقال فما كان جواب قومه الا أن قالوا اخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون فجعلوا الذي لاجله يخرجون انهم يتطهرون من هذا الصنيع الفاحش وهذا بان يوجب تعظيمهم وتعظيمهم اولى لكن في المفسرين من قال انما قالوا ذلك على وجه الهزؤ ثم بين تعالى انه نجاه واهله الا امرأته واهلك الباقين وقد تقدم كل ذلك مشروحا والله اعلم وههنا آخر القصص في هذه السورة والله اعلم * القول في خطاب الله عز وجل مع محمد صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير اما يشركون) في هذه الآية قولان (الاول) انه متعلق بما قبله من القصص والمعنى الحمد لله على اهلاكهم وسلام على عباده الذين اصطفى بأن ارسلهم ونجاهم (الثاني) انه مبتدأ فانه تعالى لما ذكر احوال الانبياء عليهم السلام وكان محمد صلى الله عليه وسلم كالمخالف لمن قبله في امر العذاب لان عذاب الاستئصال مرتفع عن قومه امره تعالى بأن يشكر ربه على ما خصه بهذه النعم وبان يسلم على الانبياء عليهم السلام الذين صبروا على مشاق الرسالة فاما قوله آلله خير اما يشركون فهو تبكيت المشركين وتهكم بحالهم وذلك انهم آثروا عبادة الاصنام على عبادة الله تعالى ولا يؤثر عاقل شيئا على شيء الا لزيادة خير ومنفعة فقيل لهم هذا الكلام تنبيها على نهاية ضلالهم وجهلهم وقرئ يشركون بالياء والتاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان اذا قرأها قال بل الله خير وابقى وأجل واكرم ثم اعلم انه سبحانه وتعالى تكلم بعد ذلك في عدة فصول (الفصل الاول) في الرد على عبدة

واما معنى تبشيرها اياهم فظاهر لانها تبشرهم برحمة من الله ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم وقوله تعالى (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة) صفة مادحة لهم وتخصيصهما بالذكر لانهما قرينتا الايمان وقطرا العبادات البدنية والمالية مستتبعان لسائر الاعمال الصالحة وقوله تعالى (وهم بالآخرة هم يوقنون) جملة اعتراضية كأنه قيل وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقنون بالآخرة حق الايقان لامن عداهم لان تحمل مشاق العبادات لخوف العقاب ورجاء الثواب اوهو من تتمة الصلة والواو حالية او عاطفة له على الصلة الاولى وتغيير نظمه للدلالة على قوة يقينهم وثباته وانهم اوحديون فيه (ان الذين لايؤمنون بالآخرة) بيان لاحوال الكفرة بعد بيان احوال المؤمنين اى لايؤمنون بها وبما فيها من الثواب على الاعمال الصالحة والعقاب على السيئات حسبما ينطق به القرآن (زينا لهم اعمالهم) القبيحة حيث جعلناها مشتهاة للطبع محبوبة للنفس كما ينبئ عنه قوله عليه الصلاة والسلام حفت النار بالشهوات او الاعمال الحسنة ببيان حسنها في انفسها حالا واستتباعها الفنون المنافع مآلا واضافتها اليهم باعتبار امرهم بها وايجابها عليهم (فهم يعمهون) يتحيرون ويترددون على التجدد والاستمرار في الاشتغال بها والانهماك فيها من غير ملاحظة لما يتبعها من نفع وضر او في الضلال والاعراض عنها والفاء على الاول لترتيب المسبب على

الاوثان ومدار هذا الفصل على بيان انه سبحانه وتعالى هو الخالق لاصول النعم وفروعها فكيف تحسن عبادة مالامنفعة منه البتة ثم انه سبحانه وتعالى ذكر انواعها ۞ (النوع الاول) مايتعلق بالسموات قوله تعالى (أمن خلق السموات والارض وانزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم ان تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف الفرق بين أم وأم فى اما يشركون وأمن خلق ان الاولى متصلة لان المعنى أيهما خير وهذه منقطعة بمعنى بل والحديقة البستان عليه سور من الاحداق وهو الاحاطة وقيل ذات لان المعنى جماعة حدائق ذات بهجة كما يقال النساء ذهبت والبهجة الحسن لان الناظر يبتهج به أإله مع الله أغيره يقرن به ويجعل شريكا له وقرئ أإلها مع الله بمعنى تدعون او تشركون (المسئلة الثانية) انه تعالى بين انه الذى اختص بأن خلق السموات والارض وجعل السماء مكانا للماء والارض للنبات وذكر اعظم النعم وهى الحدائق ذات البهجة ونبه تعالى على ان هذا الانبات فى الحدائق لايقدر عليه الا الله تعالى لان احدنا لو قدر عليه لما احتاج الى غرس ومصابرة على ظهور الثمرة واذا كان تعالى هو المختص بهذا الانعام وجب ان يخص بالعبادة ثم قال بل هم قوم يعدلون وقد اختلفوا فيه فقيل يعدلون عن هذا الحق الظاهر وقيل يعدلون بالله سواه ونظير هذه الآية اول سورة الانعام (المسئلة الثالثة) يقال ماحكمة الالتفات فى قوله فأنبتنا جوابه انه لاشبهة لعاقل فى ان خالق السموات والارض ومنزل الماء من السماء ليس الا الله تعالى وربما عرضت الشبهة فى ان منبت الشجرة هو الانسان فان الانسان يقول انا الذى القى البذر فى الارض الحرة واسقيها الماء واسعى فى تشميسها وفاعل السبب فاعل المسبب فاذن انا المنبت للشجرة فلما كان هذا الاحتمال قائما لاجرم أزال هذا الاحتمال فرجع من لفظ الغيبة الى قوله فأنبتنا وقال ماكان لكم ان تنبتوا شجرها لان الانسان قد يأتى بالبذر والسقى والكرب والتشميس ثم لايأتى على وفق مراده والذى يقع على وفق مراده فانه يكون جاهلا بطبعه ومقداره وكيفيته فكيف يكون فاعلا لها فلهذه النكتة حسن الالتفات ههنا ۞ (النوع الثانى) مايتعلق بالارض قوله (أمن جعل الارض قرارا وجعل خلالها انهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل اكثرهم لايعلمون) قال صاحب الكشاف أمن جعل ومابعده بدل من أمن خلق فكان حكمها حكمه واعلم انه تعالى ذكر من منافع الارض امورا اربعة (المنفعة الاولى) كونها قرارا وذلك لوجوه (الاول) انه دحاها وسواها للاستقرار (الثانى) انه تعالى جعلها متوسطة فى الصلابة والرخاوة فليست فى الصلابة كالحجر الذى يتألم الانسان بالاضطجاع عليه وليست فى الرخاوة كالماء الذى يغوص فيه (الثالث) انه تعالى جعلها كثيفة غبراء ليستقر عليها النور ولو كانت لطيفة لما استقر النور عليها ولو لم يستقر النور عليه لصارت من شدة بردها بحيث تموت

السبب وعلى الثانى لترتيب ضد المسبب على السبب كما فى قولك وعظته فلم يتعظ وفيه ايذان بكمال عتوهم ومكابرتهم وتعكيسهم فى الامور (اولئك) اشارة الى المذكورين وهو مبتدأ خبره الموصول بعده اى اولئك الموصوفون بالكفر والعمه (الذين لهم سوء العذاب) اى فى الدنيا كالقتل والاسر يوم بدر (وهم فى الآخرة هم الاخسرون) اى اشد الناس خسرانا لفوات الثواب واستحقاق العقاب (وانك لتلقى القرآن) كلام مستأنف قد سيق بعد بيان بعض شؤون القرآن الكريم تمهيدا لما يعقبه من الاقاصيص وتصديره بحرفى التأكيد لابراز كمال العناية بمضمونه اى لتؤتاه بطريق التلقية والتلقين (من لدن حكيم عليم) اى اى حكيم واى عليم وفى تفخيمهما تفخيم لشأن القرآن وتنصيص على علو طبقته عليه الصلاة والسلام فى معرفته والاحاطة بما فيه من الجلائل والدقائق فان من تلقى العلوم والحكم من مثل ذلك الحكيم العليم يكون علما فى رصانة العلم والحكمة والجمع بينهما مع دخول العلم فى الحكمة لعموم العلم ودلالة الحكمة على اتقان الفعل وللاشعار بأن مافى القرآن من العلوم منها ماهو حكمة كالعقائد والشرائع ومنها ماليس كذلك كالقصص والاخبار الغيبية وقوله تعالى (اذ قال موسى لاهله) منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم وامر بتلاوة بعض من القرآن الذى يلقاه عليه

الحيوانات (الرابع) انه سبحانه جعل الشمس بسبب ميل مدارها عن مدار منطقة الكل بحيث تبعد تارة وتقرب اخرى من سمت الرأس ولولا ذلك لما اختلفت الفصول ولما حصلت المنافع (الخامس) انه سبحانه وتعالى جعلها ساكنة فانها لو كانت متحركة لكانت اما متحركة على الاستقامة او على الاستدارة وعلى التقديرين لا يحصل الانتفاع بالسكنى على الارض (السادس) انه سبحانه جعلها كفاتا للاحياء والاموات وانه يطرح عليها كل قبيح ويخرج منها كل مليح (المنفعة الثانية للارض) قوله وجعل خلالها انهارا فاعلم ان اقسام المياه المنبعثة عن الارض اربعة (الاول) مياه العيون السيالة وهى تنبعث من ابخرة كثيرة المادة قوية الاندفاع تفجر الارض بقوة ثم لا يزال يستتبع جزء منها جزأ (الثانى) ماء العيون الراكدة وهى تحدث من ابخرة بلغت من قوتها أن اندفعت الى وجه الارض ولم تبلغ من قوتها وكثرة مادتها ان يطرد تاليها سابقها (الثالث) مياه القنى والانهار وهى متولدة عن ابخرة ناقصة القوة عن ان تشق الارض فاذا أزيل عن وجهها ثقل التراب صادفت حينئذ تلك الابخرة منفذا تندفع اليه بأدنى حركة (الرابع) مياه الآبار وهى نبعية كمياه الانهار الا انه لم يجعل له ميل الى موضع يسيل اليه ونسبة القنى الى الآبار نسبة العيون السيالة الى العيون الراكدة فقد ظهر انه لولا صلابة الارض لما اجتمعت تلك الابخرة فى باطنها ولولا اجتماعها فى باطنها لما حدثت هذه العيون فى ظاهرها (المنفعة الثالثة للارض) قوله وجعل لها رواسى والمراد منها الجبال فنقول اكثر العيون والسحب والمعدنيات انما تكون فى الجبال او فيما يقرب منها اما العيون فلأن الارض اذا كانت رخوة نشفت الابخرة عنها فلا يجتمع منها قدر يعتد به فاذن هذه الابخرة لا تجتمع الا فى الارض الصلبة والجبال اصلب الارض فلا جرم كانت اقواها على حبس هذا البخار حتى يجتمع ما يصلح ان يكون مادة للعيون ويشبه ان يكون مستقر الجبل مملوأ ماء ويكون الجبل فى حقنه الابخرة مثل الانبيق الصلب المعد للتقطير لا يدع شيئا من البخار يتحلل ونفس الارض التى تحته كالقرعة والعيون كالاذناب والبخار كالقوابل ولذلك فان اكثر العيون انما تتفجر من الجبال واقلها فى البرارى وذلك الاقل لا يكون الا اذا كانت الارض صلبة وأما أن اكثر السحب تكون فى الجبال فلوجوه ثلاثة (احدها) ان فى باطن الجبال من النداوات ما لا يكون فى باطن الارضين الرخوة (وثانيها) ان الجبال بسبب ارتفاعها أبرد فلا جرم يبقى على ظاهرها من الانداء ومن الثلوج ما لا يبقى على ظهر سائر الارضين (وثالثها) ان الابخرة الصاعدة تكون محبوسة بالجبال فلا تتفرق ولا تتحلل واذا ثبت ذلك ظهر ان اسباب كثرة السحب فى الجبال اكثر لان المادة فيها ظاهرا وباطنا اكثر والاحتقان اشد والسبب المحلل وهو الحر اقل فلذلك كانت السحب فى الجبال اكثر واما المعدنيات المحتاجة الى ابخرة يكون اختلاطها بالارضية اكثر والى بقاء مدة طويلة يتم النضج فيها فلا شئ لها فى هذا

الصلاة والسلام من لدنه عز وجل تقريرا لما قبله وتحقيقا له اى اذ كر لهم وقت قوله عليه الصلاة والسلام لاهله فى وادى طوى وقد غشيتهم ظلمة الليل وقدح فاصلد زنده فبدا له من جانب الطور نار (انى آنست نارا سآتيكم منها بخبر) اى عن حال الطريق وقد كانوا ضلوه والسين للدلالة على نوع بعد فى المسافة وتأكيد الوعد والجمع ان صح انه لم يكن معه عليه الصلاة والسلام الا امرأته لما كنى عنها بالاهل او للتعظيم مبالغة فى التسلية (او آتيكم بشهاب قبس) بتنوينهما على ان الثانى بدل من الاول او صفة له لانه بمعنى مقبوس اى بشعلة نار مقبوسة اى مأخوذة من اصلها وقرئ بالاضافة وعلى التقديرين فالمراد تعيين المقصود الذى هو القبس الجامع لمنفعتى الضياء والاصطلاء لان من النار ما ليس بقبس كالجمر وكلتا العدتين منه عليه الصلاة والسلام بطريق الظن كما يفصح عن ذلك ما فى سورة طه من صيغة الترجى والترديد للايذان بأنه ان لم يظفر بهما لم يعدم احدهما بناء على ظاهر الامر وثقة بسنة الله تعالى فانه تعالى لا يكاد يجمع على عبده حرمانين (لعلكم تصطلون) رجاء ان تستدفئوا بها والصلاء النار العظيمة (فلما جاءها نودى) من جانب الطور (ان بورك) معناه اى بورك على ان ان مفسرة لما فى النداء من معنى القول او بأن بورك على انها مصدرية حذف عنها الجار جريا على القاعدة المستمرة وقيل مخففة من الثقيلة ولا ضير فى فقدان التعويض بلا اوقد او السين او سوف لان

المعنى كالجبال (المنفعة الرابعة للارض) قوله وجعل بين البحرين حاجزا فالمقصود منه ان لا يفسد العذب بالاختلاط وايضا فلينتفع بذلك الحاجز وايضا المؤمن فى قلبه بحران بحر الايمان والحكمة وبحر الطغيان والشهوة وهو بتوفيقه جعل بينهما حاجزا لكى لا يفسد احدهما بالآخر وقال بعض الحكماء فى قوله مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان قال عند عدم البغى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان فعند عدم البغى فى القلب يخرج الدين والايمان بالشكر فان قيل ولم جعل البحر ملحا قلنا لولا ملوحته لأجن وانتشر فساد أجونته فى الارض واحدث الوباء العام واعلم ان اختصاص البحر بجانب من الارض دون جانب امر غير واجب بل الحق ان البحر ينتقل فى مدد لا تضبطها التواريخ المنقولة من قرن الى قرن لان استمداد البحر فى الاكثر من الانهار تستمد فى الاكثر من العيون واما مياه السماء فان حدوثها فى فصل بعينه دون فصل ثم لا العيون ولا مياه السماء يجب ان يتشابه احوالها فى بقاع واحدة باعيانها تشابها مستمرا فان كثيرا من العيون يغور وكثير ما تقحط السماء فلابد حينئذ من نضوب الاودية والانهار فيعرض بسبب ذلك نضوب البحار واذا حدثت العيون من جانب آخر حدثت الانهار هناك فحصلت البحار من ذلك الجانب ثم انه سبحانه لما بين انه هو المختص بالقدرة على خلق الارض التى فيها هذه المنافع الجليلة وجب ان يكون هو المختص بالالهية ونبه بقوله تعالى بل اكثرهم لا يعقلون على عظيم جهلهم بالذهاب عن هذا التفكر ۞ (النوع الثالث) ما يتعلق باحتياج الخلق اليه سبحانه وهو قوله تعالى (امن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الارض أاله مع الله قليلا ما يذكرون) اعلم انه سبحانه نبه فى هذه الآية على امرين (احدهما) قوله أمن يجيب المضطر اذا دعاه قال صاحب الكشاف الضرورة الحالة المحوجة الى الالتجاء والاضطرار افتعال منها يقال اضطره الى كذا والفاعل والمفعول مضطر واعلم ان المضطر هو الذى أحوجه مرض او فقر او نازلة من نوازل الدهر الى التضرع الى الله تعالى وعن السدى الذى لا حول له ولا قوة وقيل المذنب اذا استغفر ۞ فان قيل قد عم المضطرين بقوله أمن يجيب المضطر اذا دعاه وكم من مضطر يدعو فلا يجاب ۞ جوابه قد بينا فى اصول الفقه ان المفرد المعرف لا يفيد العموم وانما يفيد الماهية فقط والحكم المثبت للماهية يكفى فى صدقه ثبوته فى فرد واحد من افراد الماهية وايضا فانه تعالى وعد بالاستجابة ولم يذكر انه يستجيب فى الحال وتمام القول فى شرائط الدعاء والاجابة مذكور فى قوله تعالى وقال ربكم ادعونى استجب لكم فاما قوله تعالى ويكشف السوء فهو كالتفسير للاستجابة فانه لا يقدر احد على كشف ما دفع اليه من فقر الى غنى ومرض الى صحة وضيق الى سعة الا القادر الذى لا يعجز والقاهر الذى لا ينازع (وثانيهما) قوله ويجعلكم خلفاء الارض فالمراد توارثهم سكناها والتصرف فيها قرنا بعد قرن وأراد بالخلافة الملك والتسلط وقرئ يذكرون بالياء مع

الدعاء يخالف غيره فى كثير من الاحكام (من فى النار ومن حولها) اى من فى مكان فى النار وهى البقعة المباركة المذكورة فى قوله سبحانه نودى من شاطئ الوادى الايمن فى البقعة المباركة ومن حول مكانها وقرئ تباركت الارض ومن حولها والظاهر عمومه لكل من فى ذلك الوادى وحواليه من ارض الشام الموسومة بالبركات لكونها مبعث الانبياء عليهم الصلاة والسلام وكفاتهم احياء وامواتا ولا سيما تلك البقعة التى كلم الله تعالى فيها موسى وقيل المراد موسى والملائكة الحاضرون وتصدير الخطاب بذلك بشارة بأنه قد قضى له امر عظيم دينى تنتشر بركاته فى اقطار الشام وهو تكليمه تعالى اياه عليه الصلاة والسلام واستنباؤه له واظهار المعجزات على يده عليه الصلاة والسلام (وسبحان الله رب العالمين) تعجيب لموسى عليه الصلاة والسلام من ذلك وايذان بأن ذلك مريده ومكونه رب العالمين تنبيها على ان الكائن من جلائل الامور وعظائم الشؤن ومن احكام تربيته تعالى للعالمين (يا موسى انه انا الله) استئناف مسوق لبيان آثار البركة المذكورة والضمير للشأن وانا الله جملة مفسرة له او انا راجع الى المتكلم وانا خبره والله بيان له وقوله تعالى العزيز الحكيم صفتان لله تعالى ممهدتان لما اريد اظهاره على يده من المعجزات اى انا القوى القادر على ما لا تناله الاوهام من الامور العظام التى من جملتها امر العصا واليد الفاعل كل ما افعله

الادغام وبالتاء مع الادغام وبالحذف وما مزيدة اى يذكرون تذكرا قليلا والمعنى نفى التذكر والقلة تستعمل فى معنى النفى * (النوع الرابع) مايتعلق ايضا باحتياج الخلق ولكنه حاجة خاصة فى وقت خاص قوله تعالى (امن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح نشرا بين يدى رحمته أاله مع الله تعالى الله عما يشركون) اعلم انه تعالى نبه فى هذه الآية على امرين (الاول) قوله امن يهديكم والمراد يهديكم بالنجوم فى السماء والعلامات فى الارض اذا جن الليل عليكم مسافرين فى البر والبحر (الثانى) قوله ومن يرسل الرياح فانه سبحانه هو الذى يحرك الرياح فتثير السحاب ثم تسوقه الى حيث يشاء فان قيل لانسلم انه تعالى هو الذى يحرك الرياح فان الفلاسفة قالت الرياح انما تولد عن الدخان وليس الدخان كله هو الجسم الاسود المرتفع مما احترق بالنار بل كل جسم ارضى يرتفع بتصعيد الحرارة سواء كانت الحرارة حرارة النار او حرارة الشمس فهو دخان قالوا وتولد الرياح من الادخنة على وجهين (احدهما) أكثرى والآخر اقلى اما الاكثرى فهو انه اذا صعدت ادخنة كثيرة الى فوق فعند وصولها الى الطبقة الباردة اما ان ينكسر حرها ببرد ذلك الهواء او لا ينكسر فان انكسر فلا محالة يثقل وينزل فيحصل من نزولها تموج الهواء فتحدث الريح وان لم ينكسر حرها ببرد ذلك الهواء فلابد وان يتصاعد الى ان يصل الى كرة النار المتحركة بحركة الفلك وحينئذ لا يمكن من الصعود بسبب حركة النار فترجع تلك الادخنة وتصير ريحا الايقال لو كان اندفاع هذه الادخنة بسبب حركة الهواء العالى لما كانت حركتها الى اسفل بل الى جهة حركة الهواء العالى لانا نقول الجواب من وجهين (احدهما) انه ربما اوجبت هيئة صعود تلك الادخنة وهيئة لحوق المادة بها ان يتحرك الى خلاف جهة المتحرك المانع كالسهم يصيب جسما متحركا فيعطفه تارة الى جهته ان كان الحابس كما يقدر على صرف المتحرك عن متوجهه يقدر ايضا على صرفه الى جهة حركة نفسه وتارة الى خلاف تلك الجهة اذا كان الفارق يقدر على الحبس ولا يقدر على الصرف (الثانى) انه ربما كان صعود بعض الادخنة من تحت مانعا للادخنة النازلة من فوق الى ان يتسفل ذلك فلأجل هذا السبب يتحرك الى سائر الجوانب واعلم ان لأهل الاسلام ههنا مقامين (الاول) ان يقيم الدلالة على فساد هذه العلة وبيانه من وجهين (الاول) ان الاجزاء الدخانية ارضية فهى اثقل من الاجزاء البخارية المائية ثم ان البخار لما يرد ينزل على الخط المستقيم مطرا فالدخان لما برد فلماذا لم ينزل على الخط المستقيم بل ذهب يمنة ويسرة (الثانى) ان حركة تلك الاجزاء الى اسفل طبيعية وحركتها يمنة ويسرة عرضية والطبيعية اقوى من العرضية واذا لم يكن اقوى فلا اقل من المساواة ثم ان الريح عند حركتها يمنة ويسرة ربما تقوى على قلع الاشجار ورمى الجدار بل الجبال فتلك الاجزاء الدخانية عند ماتحركت حركتها الطبيعية التى لها وهى الحركة الى السفل وجب ان تهدم السقف

بحكمته البالغة وتدبيره رصين (وألق) عطف على بورك منتظم معه فى سلك تفسير النداء اى نودى ان بورك وان ألق (عصاك) حسبما نطق به قوله تعالى وان ألق عصاك بتكرير حرف التفسير كما تقول كتبت اليه ان حج وان اعتمر وان شئت ان حج واعتمر والفاء فى قوله تعالى (فلما رآها تهتز) فصيحة تفصح عن جملة قد حذفت ثقة بظهورها ودلالة على سرعة وقوع مضمونها كما فى قوله تعالى فلما رأينه اكبرنه بعد قوله تعالى اخرج عليهن كأنه قيل فالقاها فانقلبت حية تسعى فأبصرها فلما ابصرها متحركة بسرعة واضطراب وقوله تعالى (كأنها جان) اى حية خفيفة سريعة الحركة جملة حالية اما من مفعول رأى مثل تهتز كما اشير اليه او من ضمير تهتز على طريقة التداخل وقرئ جأن على لغة من جد فى الهرب من التقاء الساكنين (ولى مدبرا) من الخوف (ولم يعقب) اى لم يرجع على عقبه من عقب المقاتل اذا كر بعد الفر وانما اعتراه الرعب لظنه ان ذلك لامر اريد به كما ينبئ عنه قوله تعالى (يا موسى لا تخف) اى من غيرى ثقة بى او مطلقا لقوله تعالى (انى لا يخاف لدى المرسلون) فانه يدل على نفى الخوف عنهم مطلقا لكن لا فى جميع الاوقات بل حين يوحى اليهم كوقت الخطاب فانهم حينئذ مستغرقون فى مطالعة شؤن الله عزوجل لا يخطر ببالهم خوف من احد اصلا واما فى سائر الاحيان فهم اخوف الناس منه سبحانه اولا يكون لهم عندى سوء عاقبة ليخافوا منه (الا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فانى غفور رحيم) استثناء منقطع استدرك

ولكنا نرى الغبار الكثير ينزل من الهواء ويسقط على السقف ولا يحس بنزوله فضلا من ان يهدمه فثبت فساد ماذكروه (المقام الثانى) هب ان الامر كما ذكروه ولكن الاسباب الفاعلية والقابلية لها مخلوقة لله سبحانه وتعالى فانه لولا الشمس وتأثيرها فى تصعيد الابخرة والادخنة ولولا طبقات الهواء والا لما حدثت هذه الامور ومعلوم ان من وضع اسبابا فأدته الى منافع عجيبة وحكم بالغة فذلك الواضع هو الذى فعل تلك المنافع فعلى جميع الاحوال لابد من شهادة هذه الامور على مدبر حكيم واجب لذاته قطعا لسلسلة الحاجات * (النوع الخامس) ما يتعلق بالحشر والنشر قوله تعالى (امن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والارض أاله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين) اعلم انه تعالى لما عدد نعم الدنيا اتبع ذلك نعم الآخرة بقوله امن يبدأ الخلق ثم يعيده لان نعم الآخرة بالثواب لاتتم الا بالاعادة بعد الابتداء والابلاغ الى حد التكليف فقد تضمن الكلام كل هذه النعم ومعلوم انها لاتتم الا بالارزاق فلذلك قال ومن يرزقكم من السماء والارض ثم قال أاله مع الله منكرا لما هم عليه ثم بين بقوله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين أن لا برهان لكم فاذن هم مبطلون وهذا يدل على انه لابد فى الدعوى من البرهان وعلى فساد التقليد * فان قيل كيف قيل لهم ام من يبدأ الخلق ثم يعيده وهم منكرون للاعادة * جوابه كانوا معترفين بالابتداء ودلالة الابتداء على الاعادة دلالة ظاهرة قوية فلما كان الكلام مقرونا بالدلالة الظاهرة صاروا كأنهم لم يبق لهم عذر فى الانكار وههنا آخر الدلائل المذكورة على كمال قدرة الله تعالى * قوله تعالى (قل لايعلم من فى السموات والارض الغيب الا الله ومايشعرون ايان يبعثون بل ادرك علمهم فى الآخرة بل هم فى شك منها بل هم منها عمون) اعلم انه تعالى لما بين انه المختص بالقدرة فكذلك بين انه المختص بعلم الغيب واذا ثبت ذلك ثبت انه هو الاله المعبود لان الاله هو الذى يصح منه مجازاة من يستحق الثواب على وجه لايلتبس بأهل العقاب * فان قيل الاستثناء حكمه اخراج مالولاه لوجب او لصح دخوله تحت المستثنى منه ودلت الآية ههنا على استثناء الله سبحانه وتعالى عن من فى السموات والارض فوجب كونه ممن فى السموات والارض وذلك يوجب كونه تعالى فى المكان * والجواب هذه الآية متروكة الظاهر لان من قال انه تعالى فى المكان زعم انه فوق السموات ومن قال انه ليس فى مكان فقد نزهه عن كل الامكنة فثبت بالاجماع انه تعالى ليس فى السموات والارض فاذن وجب تأويله فنقول انه تعالى ممن فى السموات والارض كما يقول المتكلمون الله تعالى فى كل مكان على معنى ان علمه فى الاماكن كلها * لايقال ان كونه فى السموات والارض مجاز وكونهم فيهن حقيقة وارادة المتكلم بعبارة واحدة حقيقة ومجازا غير جائزة لانا نقول كونهم فى السموات والارض كما انه حاصل حقيقة وهو حصول ذواتهم فى تلك الاحياز فكذلك حاصل مجازا وهو كونهم عالمين بتلك الامكنة فاذا حملنا هذه الغيبة

بهما حتى تختلج فى الخلد من نفى الخوف عن كلهم مع ان منهم من فرطت منه صغيرة مما يجوز صدوره عن الانبياء عليهم الصلاة والسلام فانهم وان صدر عنهم شئ من ذلك فقد فعلوا عقيبه مايبطله ويستحقون به من الله تعالى مغفرة ورحمة وقد قصد به التعريض بما وقع من موسى عليه الصلاة والسلام من وكزه القبطى والاستغفار وتسميتها ظلما لقوله عليه الصلاة والسلام رب انى ظلمت نفسى فاغفرلى فغفرله (وادخل يدك فى جيبك) لانه كان مدرعة صوف لا كم لها وقيل الجيب القميص لانه جاب اى يقطع (تخرج بيضاء من غير سوء) اى آفة كبرص ونحوه (فى تسع آيات) فى جملتها او معها على ان التسع هى الفلق والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمسة والجدب فى بواديهم والنقصان فى مزارعهم ولمن عد العصا واليد من التسع ان يعد الاخيرين واحدا ولا يعد الفلق منها لانه لم يبعث به الى فرعون اواذهب فى تسع آيات على انه استئناف بالارسال فيتعلق به (الى فرعون وقومه) وعلى الاولين يتعلق بنحو مبعوثا او مرسلا (انهم كانوا قوما فاسقين) تعليل للارسال اى خارجين عن الحدود فى الكفر والعدوان (فلما جاءتهم آياتنا) وظهرت على يد موسى

على المعنى المجازى وهو الكون فيها بمعنى العلم دخل الرب سبحانه وتعالى والعبيد فيه فصح الاستثناء اما قوله وما يشعرون فهو صفة لاهل السموات والارض نفى ان يكون لهم علم الغيب وذكر فى جملة الغيب متى البعث بقوله أيان يبعثون فأيان بمعنى متى وهى كلمة مركبة من اى والآن وهو الوقت وقرئ ايان بكسر الهمزة اما قوله تعالى بل أدرك علمهم فى الآخرة فاعلم ان كلام صاحب الكشاف فيه مرتب على ثلاثة ابحاث (البحث الاول) فيه اثنتا عشرة قراءة بل ادرك بل ادرك بل اادرك بل تدارك بل أأدرك بهمزتين بل آادرك بألف بينهما بل آدرك بالتخفيف والنقل بل ادرك بفتح اللام وتشديد الدال واصله بل أدرك على الاستفهام بلى ادرك بلى أأدرك امتدارك ام ادرك (البحث الثانى) اادرك اصله تدارك فأدغمت التاء فى الدال وادرك افتعل (البحث الثالث) معنى أدرك علمهم انتهى وتكامل وادرك تتابع واستحكم ثم فيه وجوه (احدها) ان اسباب استحكام العلم وتكامله بأن القيامة كائنة لاريب فيها قد حصلت لهم ومكنوا من معرفتها وهم شاكون جاهلون وذلك قوله تعالى بل هم فى شك منها بل هم منها عمون يريد المشركين ممن فى السموات والارض لانهم لما كانوا من جملتهم نسب فعلهم الى الجميع كما يقال بنو فلان فعلوا كذا وانما فعله ناس منهم * فان قيل الآية سيقت لاختصاص الله تعالى بعلم الغيب وان العباد لاعلم لهم بشئ منه وان وقت بعثهم ونشورهم من جملة الغيب وهم لايشعرون به فكيف ناسب هذا المعنى وصف المشركين بانكارهم البعث مع استحكام اسباب العلم والتمكن من المعرفة * والجواب كأنه سبحانه قال كيف يعلمون الغيب مع انهم شكوا فى ثبوت الآخرة التى دلت الدلائل الظاهرة القاهرة عليها فمن غفل عن هذا الشئ الظاهر كيف يعلم الغيب الذى هو اخفى الاشياء (الوجه الثانى) ان وصفهم باستحكام العلم تهكم بهم كما تقول لأجهل الناس ما اعلمك على سبيل الهزء وذلك حيث شكوا فى اثبات ما الطريق اليه واضح ظاهر (الوجه الثالث) ان يكون أدرك بمعنى انتهى وفنى من قولك ادركت الثمرة لان تلك غايتها التى عندها تعدم وقد فسره الحسن باضمحل علمهم وتدارك من تدارك بنو فلان اذا تتابعوا فى الهلاك اما وجه قراءة من قرأ بل أأدر على الاستفهام فهو انه استفهام على وجه الانكار لادراك علمهم وكذا من قرأ ام ادرك وام تدارك لانها ام هى التى بمعنى بل والهمزة واما من قرأ بلى أدرك فانه لما جاء بلى بعد قوله وما يشعرون كان معناه بلى يشعرون ثم فسر الشعور بقوله أدرك علمهم فى الآخرة على سبيل التهكم الذى معناه المبالغة فى نفى العلم فكأنه قال شعورهم بوقت الآخرة انهم لايعلمون كونها فيرجع الى نفى الشعور على ابلغ مايكون واما من قرأ بلى أأدرك على الاستفهام فمعناه بلى يشعرون متى يبعثون ثم انكر علمهم بكونها واذا انكر علمهم بكونها لم يحصل لهم شعور بوقت كونها * فان قلت هذه الاضرابات الثلاث ما معناها قلت ماهى الا بيان درجاتهم وصفهم اولا بأنهم لايشعرون وقت البعث ثم بانهم لايعلمون

(مبصرة) بينة اسم فاعل اطلق على المفعول اشعارا بانها لفرط وضوحها وانارتها كأنها تبصر نفسها او كانت مما يبصر او ذات تبصر من حيث انها تهدى والعمى لاتهتدى فضلا عن الهداية او مبصرة كل من ينظر اليها ويتأمل فيها وقرئ مبصرة اى مكانا يكثر فيه التبصر (قالوا هذا سحر مبين) واضح سحريته (وجحدوا بها) اى كذبوا بها (واستيقنتها انفسهم) الواو للحال اى وقد استيقنتها اى علمتها انفسهم علما يقينيا (ظلما) اى للآيات كقوله تعالى بما كانوا بآياتنا يظلمون ولقد ظلموا بها اى ظلم حيث حطوها عن رتبتها العالية وسموها سحرا وقيل ظلما لانفسهم وليس بذاك (وعلوا) اى استكبارا عن الايمان بها كقوله تعالى والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها وانتصابهما اما على العلة من جحدوا بها او على الحالية من فاعله اى جحدوا بها ظالمين لها مستكبرين عنها (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) من الاغراق على الوجه الهائل الذى هو عبرة للعالمين وانما لم يذكر تنبيها على انه عرضة لكل ناظر مشهور فيما بين كل باد وحاضر (ولقد آتينا داود وسليمان علما) كلام مستأنف مسوق لتقرير ما سبق من انه عليه الصلاة والسلام يلقى القرآن من لدن حكيم عليم فان قصتهما عليهما الصلاة والسلام من جملة القرآن الكريم لقيه عليه الصلاة والسلام من لدنه تعالى كقصة موسى عليه السلام وتصديره بالقسم لاظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمونه اى آتينا كل واحد منهما طائفة من العلم لائقة به من علم الشرائع والاحكام وغير ذلك مما يختص بكل منهما كصنعة

ان القيامة كائنة ثم بأنهم يخبطون فى شك ومرية ثم بما هو اسوأ حالا وهو العمى وفيه نكتة وهى انه تعالى جعل الآخرة مبدأ عماهم فلذلك عداه بمن دون عن لان الكفر بالعاقبة والجزاء هو الذى جعلهم كالبهائم * قوله تعالى (وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ان هذا الا اساطير الاولين قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ولا تحزن عليهم ولا تكن فى ضيق مما يمكرون ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين قل عسى ان يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون وان ربك لذو فضل على الناس ولكن اكثرهم لا يشكرون وان ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون وما من غائبة فى السماء والارض الا فى كتاب مبين)

اعلم انه سبحانه لما تكلم فى حال المبدأ تكلم بعده فى حال المعاد وذلك لان الشك فى المعاد لا ينشأ الا من الشك فى كمال القدرة او فى كمال العلم فاذا ثبت كونه تعالى قادرا على كل الممكنات وعالما بكل المعلومات ثبت انه تعالى يمكنه تمييز اجزاء بدن كل واحد من المكلفين عن اجزاء بدن غيره وثبت انه قادر على ان يعيد التركيب والحياة اليها واذا ثبت امكان ذلك ثبت صحة القول بالحشر فلما بين الله تعالى هذين الاصلين فيما قبل هذه الآية لا جرم لم يحكه فى هذه الآية حكى عنهم انهم تعجبوا من اخراجهم احياء وقد صاروا ترابا وطعنوا فيه من وجهين (الاول) قولهم لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا اى هذا كلام كما قيل لنا فقد قيل لمن قبلنا ولم يظهر له اثر فهو اذن من اساطير الاولين يريدون ما لا يصح من الاخبار * فان قيل ذكر ههنا لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا وفى آية اخرى لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا فما الفرق قلنا التقديم دليل على ان المقدم هو المقصود الاصلى وان الكلام سيق لاجله ثم انه سبحانه لما كان قد بين الدلالة على هذين الاصلين ومن الظاهر ان كل من أحاط بهما فقد عرف صحة الحشر والنشر ثبت انهم اعرضوا عنها ولم يتأملوها وكان سبب ذلك الاعراض حب الدنيا وحب الرياسة والجاه وعدم الانقياد للغير لا جرم اقتصر على بيان ان الدنيا فانية زائلة فقال قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين وفيه سؤالان (السؤال الاول) لم لم يقل كيف كانت عاقبة المجرمين (جوابه) لان تأنيثها غير حقيقى ولان المعنى كيف كان آخر امرهم (السؤال الثانى) لم لم يقل عاقبة الكافرين جوابه الغرض ان يحصل التخويف لكل العصاة ثم انه تعالى صبر رسوله على ما ناله من هؤلاء الكفار فقال ولا تحزن عليهم ولا تكن فى ضيق مما يمكرون فجمع بين ازالة الغم عنه بكفرهم وبين ازالة الخوف من جانبهم وصار ذلك كالتكفل بنصرته عليهم وقوله ولا تكن فى ضيق اى فى حرج قلب يقال ضاق الشئ ضيقا وضيقا بالفتح والكسر والضيق تخفيف الضيق ويجوز ان يراد فى امر ضيق من مكرهم (الوجه الثانى) للكفار قولهم متى هذا الوعد وقوله ان كنتم صادقين دل على انهم ذكروا ذلك على سبيل السخرية

(فأجاب)

لبوس ومنطق الطير او غيرهما عزيزا (وقالا) اى قال كل واحد منهما شكرا لما اوتيه من العلم (الحمد لله الذى فضلنا) بما آتانا من العلم (على كثير من عباده المؤمنين) على ان عبارة كل منهما فضلنى الا انه عبر عنهما عند الحكاية بصيغة المتكلم مع الغير ايجازا فان حكاية الاقوال المتعددة سواء كانت صادرة عن المتكلم او عن غيره بعبارة جامعة للكل مما ليس بعزيز ومن الاول قوله تعالى يا ايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا وقد مر فى سورة قد افلح المؤمنون وبهذا ظهر حسن موقع العطف بالواو اذ المتبادر من العطف بالفاء ترتب حمد كل منهما على ايتاء ما اوتى كل منهما لا على ايتاء ما اوتى نفسه فقط وقيل فى العطف بالواو اشعار بأن ما قالاه بعض ما أحدث فيهما ايتاء العلم شئ من مواجبه فأضمر ذلك ثم عطف عليه التحميد كأنه قيل ولقد آتيناهما علما فعملا به وعلماه وعرفا حق النعمة فيه وقالا الحمد لله الآية فتأمل والكثير المفضل عليه من لم يؤت مثل علمهما وقيل من لم يؤت علما ويأباه تبيين الكثير بالمؤمنين فان خلوهم من العلم بالمرة مما لا يمكن وفى تخصيصهما الاكثر بالذكر رمز الى ان البعض مفضلون عليهما وفيه اوضح دليل على فضل العلم وشرف اهله حيث شكرا على العلم وجعلاه اساس الفضل ولم يعتبرا دونه ما اوتيا من الملك الذى لم يؤته غيرهما وتحريض للعلماء على ان يحمدوا الله تعالى على ما آتاهم من فضله

فأجاب الله تعالى بقوله عسى ان يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون وهو عذاب يوم بدر فزيدت اللام لتأكيد كالباء فى ولا تلقوا بأيديكم او ضمن معنى فعل يتعدى باللام نحو دنا لكم وازف لكم ومعناه تبعكم ولحقكم وقرأ الاعرج ردف لكم بوزن ذهب وهما لغتان والكسر افصح وههنا بحثان (البحث الاول) ان عسى ولعل فى وعد الملوك ووعيدهم يدلان على صدق الامر وانما يعنون بذلك اظهار وقارهم وانهم لا يعجلون بالانتقام لوثوقهم بأن عدوهم لا يفوتهم فعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده (الثانى) انه قد ثبت بالدلائل العقلية ان عذاب الحجاب اشد من عذاب النار ولذلك قال كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم انهم لصالوا الجحيم فقدم الحجاب على الجحيم ثم انهم كانوا محجوبين فى الحال فكان سبب العذاب بكماله حاصلا الا ان الاشتغال بالدنيا ولذاتها كالعائق عن ادراك ذلك الالم كما ان العضو الخدر اذا مسته النار فان سبب الالم حاصل فى الحال لكنه لا يحصل الشعور بذلك الالم لقيام العائق فاذا زال العائق عظم البلاء فكذا ههنا اذا زال البدن عظم عذاب الحجاب فقوله سبحانه عسى ان يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون يعنى المقتضى له والمؤثر فيه حاصل وتمامه انما يحصل بعد الموت ثم انه سبحانه بين السبب فى ترك تعجيل العذاب فقال وان ربك لذو فضل على الناس والفضل الافضال ومعناه انه متفضل عليهم بتأخير العقوبة واكثرهم لا يعرفون هذه النعمة ولا يشكرونها وهذه الآية تبطل قول من قال انه لا نعمة لله على الكفار ثم بين سبحانه انه مطلع على ما فى قلوبهم فقال وان ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون وههنا بحث عقلى وهو انه قدم ما تكنه صدورهم على ما يعلنون من العلم والسبب ان ما تكنه صدورهم هو الدواعى والقصود وهى اسباب لما يعلنون وهى افعال الجوارح والعلم بالعلة علة للعلم بالمعلول فهذا هو السبب فى ذلك التقديم قرئ تكن يقال كننت الشئ واكننته اذا سترته واخفيته يعنى انه تعالى يعلم ما يخفون وما يعلنون من عداوة الرسول ومكايدهم اما قوله وما من غائبة فقال صاحب الكشاف سمى الشئ الذى يغيب ويخفى غائبة وخافية فكانت التاء فيهما بمنزلتها فى العاقبة والعافية والنطيحة والذبيحة والرمية فى انها اسماء غير صفات ويجوز ان يكونا صفتين وتاؤهما للمبالغة كالراوية فى قولهم ويل للشاعر من راوية السوء كأنه تعالى قال وما من شئ شديد الغيبوبة والخفاء الا وقد علمه الله تعالى واحاط به واثبته فى اللوح المحفوظ والمبين الظاهر البين لمن ينظر فيه من الملائكة ✽ قوله تعالى (ان هذا القرآن يقص على بنى اسرائيل اكثر الذى هم فيه يختلفون وانه لهدى ورحمة للمؤمنين ان ربك يقضى بينهم بحكمه وهو العزيز العليم فتوكل على الله انك على الحق المبين انك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين وما انت بهادى العمى عن ضلالتهم ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) اعلم انه سبحانه لما تمم الكلام فى اثبات المبدأ

ويتواضعوا ويعتقدوا انهم وان فضلوا على كثير فقد فضل عليهم كثير وفوق كل ذى علم عليم ولنعم ما قال امير المؤمنين عمر رضى الله عنه كل الناس افقه من عمر (وورث سليمان داود) اى النبوة والعلم او الملك بأن قام مقامه فى ذلك دون سائر بنيه وكانوا تسعة عشر (وقال) تشهيرا لنعمة الله تعالى وتنويها بها ودعاء للناس الى التصديق بذكر المعجزات الباهرة التى اوتيها (يا أيها الناس علمنا منطق الطير واوتينا من كل شئ) المنطق فى المتعارف كل لفظ يعبر به عما فى الضمير مفردا كان او مركبا وقد يطلق على كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد يقال نطقت الحمامة وكل صنف من اصناف الطير يتفاهم اصواته والذى علمه سليمان عليه السلام من منطق الطير هو ما يفهم بعضه من بعض من معانيه واغراضه ويحكى انه مر على بلبل فى شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه فقال لاصحابه اتدرون ما يقول قالوا الله ونبيه اعلم قال يقول اذا اكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء وصاحت فاختة فأخبر انها تقول ليت الخلق لم يخلقوا وصاح طاوس فقال يقول كما تدين تدان وصاح هدهد فقال يقول استغفروا الله يا مذنبين وصاح طيطوى فقال يقول كل حى ميت وكل جديد بال وصاح خطاف فقال يقول قدموا خيرا تجدوه وصاح قمرى فأخبر انه يقول سبحان ربى الاعلى وصاحت رخمة فقال تقول سبحان ربى الاعلى ملء سمائه وارضه وقال الحداة

والمعاد ذكر بعد ذلك ما يتعلق بالنبوة ولما كانت العمدة الكبرى في اثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم هو القرآن لاجرم بين الله تعالى اولا كونه معجزة من وجوه (احدها) ان الاقاصيص المذكورة في القرآن موافقة لما كانت مذكورة في التوراة والانجيل مع العلم بانه عليه الصلاة والسلام كان اميا وانه لم يخالط احدا من العلماء ولم يشتغل قط بالاستفادة والتعلم فاذن لا يكون ذلك الا من قبل الله تعالى واختلفوا فقال بعضهم أراد به ما اختلفوا فيه وتباينوا وقال آخرون أراد به ما حرفه بعضهم وقال بعضهم بل أراد به اخبار الانبياء والاول اقرب (وثانيها) قوله وانه لهدى ورحمة للمؤمنين وذلك لان بعض الناس قال انا لما تأملنا القرآن فوجدنا فيه من الدلائل العقلية على التوحيد والحشر والنبوة وشرح صفات الله تعالى وبيان نعوت جلاله مالم نجده في شئ من الكتب ووجدنا ما فيه من الشرائع مطابقة للعقول موافقة لها ووجدناه مبرأ عن التناقض والتهافت فكان هدى ورحمة من هذه الجهات ووجدنا القوى البشرية قاصرة عن جمع كتاب على هذا الوجه فعلمنا انه ليس الا من عند الله تعالى فكان القرآن معجزا من هذه الجهة (وثالثها) انه هدى ورحمة للمؤمنين لبلوغه في الفصاحة الى حيث عجزوا عن معارضته وذلك معجز ثم انه تعالى لما بين كونه معجزا دالا على الرسالة ذكر بعده امرين (الاول) قوله ان ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم والمراد ان القرآن وان كان يقص على بني اسرائيل اكثر الذي هم فيه يختلفون لكن لا تكن انت في قيدهم فان ربك هو الذي يقضي بينهم اي بين المصيب والمخطئ منهم وذلك كالزجر للكفار فلذلك قال وهو العزيز اي القادر الذي لا يمنع العليم بما يحكم فلا يكون الا الحق فان قيل القضاء والحكم شئ واحد فقوله يقضي بحكمه كقوله يقضي بقضائه ويحكم بحكمه * والجواب معنى قوله بحكمه اي بما يحكم به وهو عدله لانه لا يقضي الا بالعدل او أراد بحكمه ويدل عليه قراءة من قرأ بحكمه جمع حكمة (الثاني) انه تعالى امره بعد ظهور حجة رسالته بان يتوكل على الله ولا يلتفت الى اعداء الله ويشرع في تمشية مهمات الرسالة بقلب قوي فقال فتوكل على الله ثم علل ذلك بامرين (احدهما) قوله انك على الحق المبين وفيه بيان ان المحق حقيق بنصرة الله تعالى وانه لا يخذل (وثانيهما) قوله انك لا تسمع الموتى وانما حسن جعله سببا للامر بالتوكل وذلك لان الانسان مادام يطمع في أحد ان يأخذ منه شيئا فانه لا يقوى قلبه على اظهار مخالفته فاذا قطع طمعه عنه قوى قلبه على اظهار مخالفته فالله سبحانه وتعالى قطع محمدا صلى الله عليه وسلم عنهم بأن بين له انهم كالموتى وكالصم وكالعمي فلا يفهمون ولا يسمعون ولا يبصرون ولا يلتفتون الى شئ من الدلائل وهذا سبب لقوة قلبه عليه الصلاة والسلام على اظهار الدين كما ينبغي فان قيل ما معنى قوله اذا ولوا مدبرين جوابه هو تأكيد لحال الاصم لانه اذا تباعد عن الداعي بأن تولى عنه مدبرا كان ابعد عن ادراك صوته اما قوله تعالى ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا

تقول كل شئ هالك الا الله والقطاة تقول من سكت سلم والببغاء تقول ويل لمن الدنيا همه والديك يقول اذكروا الله يا غافلين والنسر يقول يا ابن آدم عش ما شئت آخرك الموت والعقاب تقول في البعد عن الناس أنس والضفدع يقول سبحان ربي القدوس وأراد عليه الصلاة والسلام بقوله علمنا وأوتينا بالنون التي يقال لها نون الواحد المطاع بيان حاله وصفته من كونه ملكا مطاعا لكن لا تجبرا وتكبرا بل تمهيدا لما اراد منهم من حسن الطاعة والانقياد له في أوامره ونواهيه حيث كان على عزيمة المسير وبقوله من كل شئ كثرة ما اوتيه كما يقال فلان يقصده كل احد ويعلم كل شئ ويراد به كثرة قصاده وغزارة علمه ومثل قوله تعالى واوتيت من كل شئ وقال ابن عباس رضي الله عنهما كل ما يهمه من امر الدنيا والآخرة وقال مقاتل يعني النبوة والملك وتسخير الجن والانس والشياطين والريح (ان هذا) اشارة الى ما ذكر من التعليم والايتاء (لهو الفضل) والاحسان من الله تعالى (المبين) الواضح الذي لا يخفى على احد او ان هذا الفضل الذي اوتيته لهو الفضل المبين على انه عليه الصلاة والسلام قاله على سبيل الشكر والمحمدة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انا سيد ولد آدم ولا فخر اي اقول هذا القول شكرا لا فخرا ولعله عليه الصلاة والسلام رتب على كلامه ذلك دعوة الناس الى الغزو فان اخبارهم بايتاء كل شئ من الاشياء التي

(فالمعنى)

فالمعنى مايجدى اسماعك الا الذين علم الله انهم يؤمنون بآياته اى يصدقون بهـا فهم
مسلمون اى مخلصون من قوله بلى من اسلم وجهه لله يعنى جعله سالما لله تعالى خالصا له
والله اعلم ۞ قوله تعالى (واذا وقع القول عليهم اخرجنا لهم دابة من الارض تكلمهم
ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ويوم نحشر من كل امة فوجا ممن يكذب بآياتنـا
فهم يوزعون حتى اذا جاؤا قال أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما اماذا كنتم تعملون
ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون الم يروا انا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار
مبصرا ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) اعلم ان الله تعالى بين بالدلائل القاهرة كمال
القدرة وكمال العلم ثم فرع عليهما القول بامكان الحشر ثم بين الوجه فى كون القرآن
معجزا ثم فرع عليه نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ثم تكلم الآن فى مقدمات قيام القيامة
وانما اخر تعالى الكلام فى هذا الباب من اثبات النبوة لما ان هذه الاشياء لا يمكن معرفتها
الا بقول النبى الصادق وهذا هو النهاية فى جودة الترتيب واعلم انه تعالى ذكر تارة
مايكون كالعلامة لقيام القيامة وتارة الامور التى تقع عند قيام القيامة فذكر اولا من
علامات القيامة دابة الارض والناس تكلموا فيها من وجوه (احدها) فى مقدار
جسمها وفى الحديث ان طولها ستون ذراعا وروى ايضا ان رأسها تبلغ السحاب وعن
ابى هريرة مابين قرنيها فرسخ للراكب (وثانيها) فى كيفية خلقتها فروى لها اربع قوائم
وزغب وريش وجناحان وعن ابن جريج فى وصفها رأس ثور وعين خنزير واذن فيل
وقرن أيل وصدر اسد ولون نمر وخاصرة بقر وذنب كبش وخف بعير (وثالثها) فى كيفية
خروجها من على عليه السلام انها تخرج ثلاثة ايام والناس ينظرون فلا يخرج الا ثلثها
وعن الحسن لا يتم خروجها الا بعد ثلاثة ايام (ورابعها) فى موضع خروجها سئل النبى
صلى الله عليه وسلم من اين تخرج الدابة فقال من اعظم المساجد حرمة على الله تعالى
المسجد الحرام وقيل تخرج من الصفا فتكلمهم بالعربية (وخامسها) فى عدد خروجها
فروى انهـا تخرج ثلاث مرات تخرج بأقصى اليمن ثم تكمن ثم تخرج بالبادية ثم تكمن
دهرا طويلا فبين الناس فى اعظم المساجد حرمة واكرمها على الله فما يهولهم الا خروجها
من بين الركن حذاء دار بنى مخزوم عن يمين الخارج من المسجد فقوم يهربون وقوم
يقفون (واعلم) انه لادلالة فى الكتاب على شئ من هذه الامور فان صح الخبر فيه عن
الرسول صلى الله عليه وسلم قبل والا لم يلتفت اليه اما قوله تعالى واذا وقع القول عليهم
فالمراد من القول متعلقه وهو ما وعدوا به من قيام الساعة ووقوعه حصوله والمراد
مشارفة الساعة وظهور اشراطها اما دابة الارض فقد عرفتها واما قوله تكلمهم فقرئ
تكلمهم من الكلم وهو الجرح روى ان الدابة تخرج من الصفا ومعها عصى موسى
عليه السلام وخاتم سليمان فتضرب المؤمن بين عينيه بعصى موسى عليه السلام فتنكت

من جملتها آلات الحرب واسباب
الغزو وما ينبئ عن ذلك لمعنى قوله
تعالى (وحشر لسليمان جنوده)
جمعه عساكره (من الجن والانس
والطير) بمباشرة مخاطبيه فانهم كانوا
رؤساء مملكته وعظماء دولته
من الثقلين وغيرهم بتعميم الناس
للكل تغليبا وتقديم الجن على
الانس فى البيان للمسارعة الى
الايذان بكمال قوة ملكه وعزة
سلطانه من اول الامر لما ان
الجن طائفة عاتية وقبيلة طاغية
ماردة بعيدة من الحشر والتسخير
(فهم يوزعون) اى يحبس أوائلهم
على أواخرهم اى يوقف سلاف
العسكر حتى يلحقهم التوالى
فيكونوا مجتمعين لا يتخلف منهم
احد وذلك للكثرة العظيمة
ويجوز ان يكون ذلك لترتيب
الصفوف كما هو المعتاد فى العساكر
وفيه اشعار بكمال مسارعتهم الى
السير وتخصيص حبس أوائلهم
بالذكر دون سوق اواخرهم مع
ان التلاحق يحصل بذلك ايضا
لما ان أواخرهم غير قادرين على
ما يقدر عليه أوائلهم من السير
السريع وهذا اذا لم يكن سيرهم
بتسيير الريح فى الجو روى ان
معسكره عليه الصلاة والسلام
كان مائة فرسخ فى مائة خمسة
وعشرون للجن وخمسة وعشرون
للانس وخمسة وعشرون للطير
وخمسة وعشرون للوحش وكان له
عليه الصلاة والسلام الف بيت
من قوارير على الخشب فيها
ثلثمائة منكوحة وسبعمائة سرية
وقد نسجت له الجن بساطا من
ذهب وابريسم فرسخا فى فرسخ
وكان يوضع منبره فى وسطه وهو
من ذهب فيقعد عليه وحوله
ستمائة الف كرسى من ذهب وفضة
فيقعد الانبياء عليهم الصلاة

نكتة بيضاء فتفشو تلك النكتة فى وجهه حتى يضئ لها وجهه وتنكت الكافر فى انفه فتفشو النكتة حتى يسود لها وجهه واعلم انه يجوز ان يكون تكلمهم من الكلم ايضا على معنى التكثير يقال فلان مكلم اى مجرح وقرأ ابى تنبئهم وقرأ ابن مسعود تكلمهم بأن الناس والقراءة بان مكسورة حكاية لقول الدابة ذلك او هى حكاية لقول الله تعالى بين به انه اخرج الدابة لهذه العلة • فان قيل اذا كانت حكاية لقول الدابة فكيف يقول بآياتنا • جوابه ان قولها حكاية لقول الله تعالى او على معنى بآيات ربنا او لاختصاصها بالله تعالى اضافت آيات الله الى نفسها كما يقول بعض خاصة الملك خيلنا وبلادنا وانما هى خيل مولاه وبلاده ومن قرأ بالفتح فعلى حذف الجار اى تكلمهم بان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون • واما قوله ويوم نحشر من كل امة فوجا ممن يكذب بآياتنا فاعلم ان هذا من الامور الواقعة بعد قيام القيامة فالفرق بين من الاولى والثانية ان الاولى للتبعيض والثانية للتبيين كقوله من الاوثان اما قوله فهم يوزعون معناه يحبس اولهم على آخرهم حتى يجتمعوا فيكبكبوا فى النار وهذه عبارة عن كثرة العدد وتباعد اطرافه كما وصفت جنود سليمان بذلك وقوله حتى اذا جاؤا قال اكذبتم بآياتى فهذا وان احتمل معجزات الرسل كما قاله بعضهم فالمراد كل الآيات فيدخل فيه سائر الكفار الذين كذبوا بآيات الله اجمع او بشئ منها اما قوله ولم تحيطوا بها علما فالواو للحال كأنه قال اكذبتم بها بادى الرأى من غير فكر ولا نظر يؤدى الى احاطة العلم بكنهها اما قوله اماذا كنتم تعملون فالمراد لما لم تشتغلوا بذلك العمل المهم فاى شئ كنتم تعملون بعد ذلك كأنه قال كل عمل سواه فكأنه ليس بعمل ثم قال ووقع القول عليهم يريد ان العذاب الموعود يغشاهم بسبب تكذيبهم بآيات الله فيشغلهم عن النطق والاعتذار كقوله هذا يوم لا ينطقون ثم انه سبحانه بعد ان خوفهم باحوال القيامة ذكر كلاما يصلح ان يكون دليلا على التوحيد وعلى الحشر وعلى النبوة مبالغة فى الارشاد الى الايمان والمنع من الكفر فقال ألم يروا انا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا اما وجه دلالته على التوحيد فلما ظهر فى العقول ان التقليب من النور الى الظلمة ومن الظلمة الى النور لا يحصل الا بقدرة قاهرة عالية واما وجه دلالته على الحشر فلانه لما ثبت قدرته تعالى فى هذه الصورة على القلب من النور الى الظلمة وبالعكس فأى امتناع فى ثبوت قدرته على القلب من الحياة الى الموت مرة ومن الموت الى الحياة اخرى واما وجه دلالته على النبوة فلانه تعالى يقلب الليل والنهار لمنافع المكلفين وفى بعثة الانبياء والرسل الى الخلق منافع عظيمة فما المانع من بعثهم الى الخلق لاجل تحصيل تلك المنافع فقد ثبت ان هذه الكلمة الواحدة كافية فى اقامة الدلالة على تصحيح الاصول الثلاثة التى منها منشأ كفرهم واستحقاقهم العذاب ثم فى الآية سؤالان (السؤال الاول) ما السبب فى ان جعل الابصار للنهار وهو لاهله (جوابه) تنبيها على كمال هذه الصفة فيه (السؤال الثانى) لما قال جعل لكم الليل

(لتسكنوا)

والسلام على كراسى الذهب والعلماء على كراسى الفضة وحولهم الناس وحول الناس الجن والشياطين وتظله الطير باجنحتها حتى لا تقع عليه الشمس وترفع ريح الصبا البساط فتسير به مسيرة شهر وروى انه كان يأمر الريح العاصف تحمله ويأمر الرخاء تسيره فاوحى الله تعالى اليه وهو يسير بين السماء والارض انى قد زدت فى ملكك لا يتكلم احد بشئ الا القته الريح فى سمعك فيحكى انه مر بحراث فقال لقد اوتى آل داود ملكا عظيما فالقته الريح فى اذنه فنزل ومشى الى الحراث وقال انما مشيت اليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه ثم قال لتسبيحة واحدة يقبلها الله تعالى خير مما اوتى آل داود (حتى اذا أتوا على وادى النمل) حتى هى التى يبتدأ بها الكلام ومع ذلك هى غاية لما قبلها كما التى فى قوله تعالى حتى اذا جاء امرنا وفار التنور قلنا احمل الآية وهى هنها غاية لما ينبئ عنه قوله تعالى فهم يوزعون من السير كأنه قيل فساروا حتى اذا أتوا الخ ووادى النمل واد بالشام كثير النمل على ما قاله مقاتل رضى الله عنه وبالطائف على ما قاله كعب رضى الله عنه وقيل هو واد تسكنه الجن والنمل مراكبهم وتعدية الفعل اليه بكلمة على اما لان اتيانهم كان من فوق واما لان المراد بالاتيان عليه قطعه من قولهم اتى على الشئ اذا انفذه وبلغ آخره ولعلهم ارادوا ان ينزلوا عند منتهى الوادى اذ حينئذ يخافهم ما فى الارض لا عند سيرهم فى الهواء وقوله تعالى (قالت نملة) جواب اذا كأنها لما رأتهم متوجهين الى الوادى فرت منهم فصاحت

لتسكنوا فيه فلم لم يقل والنهار لتبصروا فيه (جوابه) لان السكون فى الليل هو المقصود من الليل واما الابصار فى النهار فليس هو المقصود بل هو وسيلة الى جلب المنافع الدينية والدنيوية واما قوله ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون خص المؤمنين بالذكر وان كانت ادلة للكل من حيث اختصوا بالقبول والانتفاع على ماتقدم فى نظائره * قوله تعالى

(ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله وكل أتوه داخرين) اعلم ان هذا هو العلامة الثانية لقيام القيامة اما قوله ويوم ينفخ فى الصور ففيه وجوه (احدها) انه شئ شبيه بالقرن وان اسرافيل عليه السلام ينفخ فيه باذن الله تعالى فاذا سمع الناس ذلك الصوت وهو فى الشدة بحيث لا تحتمله طبائعهم يفزعون عنده ويصعقون ويموتون وهو كقوله تعالى فاذا نقر فى الناقور وهذا قول الاكثرين (وثانيها) يجوز ان يكون تمثيلا لدعاء الموتى فان خروجهم من قبورهم كخروج الجيش عند سماع صوت الآلة (وثالثها) ان الصور جمع الصورة وجعلوا النفخ فيها نفخ الروح والاول أقرب لدلالة الظاهر عليه ولا مانع يمنع منه اما قوله ففزع من فى السموات ومن فى الارض فاعلم انه انما قال ففزع ولم يقل فيفزع للاشعار بتحقيق الفزع وثبوته وانه كائن لامحالة لان الفعل الماضى يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعا به والمراد فزعهم عند النفخة الاولى اما قوله تعالى الا من شاء الله فالمراد الا من ثبت الله قلبه من الملائكة قالوا هم جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت وقيل الشهداء وعن الضحاك الحور وخزنة النار وحملة العرش وعن جابر موسى منهم لانه صعق مرة ومثله قوله تعالى ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله وليس فيه خبر مقطوع والكتاب انما يدل على الجملة اما قوله وكل أتوه داخرين فقرئ أتوه وأتاه ودخرين وداخرين فالجمع على المعنى والتوحيد على اللفظ والداخر والدخر الصاغر وقيل معنى الاتيان حضورهم الموقف بعد النفخة الثانية ويجوز ان يراد رجوعهم الى امر الله وانقيادهم له * قوله تعالى

(وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى اتقن كل شئ انه خبير بما تفعلون) اعلم ان هذا هو العلامة الثالثة لقيام القيامة وهى تسيير الجبال والوجه فى حسبانهم انها جامدة فلأن الاجسام الكبار اذا تحركت حركة سريعة على نهج واحد فى السمت والكيفية ظن الناظر اليها انها واقفة مع انها تمر مرا حثيثا اما قوله صنع الله فهو من المصادر المؤكدة كقوله وعد الله وصبغة الله الا ان مؤكده محذوف وهو الناصب ليوم ينفخ والمعنى انه لما قدم ذكر هذه الامور التى لا يقدر عليها سواه جعل هذا الصنع من جملة الاشياء التى اتقنها وأتى بها على الحكمة والصواب قال القاضى عبد الجبار فيه دلالة على ان القبائح ليست من خلقه والا وجب وصفها بانها متقنة ولكن الاجماع مانع منه والجواب ان الاتقان لا يحصل الا فى المركبات فيمتنع وصف الاعراض بها والله اعلم * قوله تعالى (من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون

صيحة تنبهت بها لما حضرتها من النمل لمرادها فتبعها فى الفرار فشبه ذلك بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم فاجروا مجراهم حيث جعلت هى قائلة وماعداها من النمل مقولا لهم حيث قيل (ياأيها النمل ادخلوا مساكنكم) مع انه لايمتنع ان يخلق الله تعالى فيها النطق وفيما عداها العقل والفهم وقرئ نملة ياأيها النمل بضم الميم وهو الاصل كالرجل وتسكين الميم تخفيف منه كالسبع فى السبع وقرئ بضم النون والميم قيل كانت نملة عرجاء تمشى وهى تتكاوس فنادت بما قالت فسمع سليمان عليه السلام كلامها من ثلاثة اميال وقيل كان اسمها طاخية وقرئ مسكنكم وقوله تعالى (لايحطمنكم سليمان وجنوده) نهى فى الحقيقة للنمل عن التأخر فى دخول مساكنهم وان كان بحسب الظاهر نهيا له عليه الصلاة والسلام ولجنوده عن الحطم كقولهم لاأرينك ههنا فهو استئناف او بدل من الامر كقول من قال * فقلت له ارحل لاتقيمن عندنا * لاجواب له فان النون لاتدخله فى السعة وقرئ لايحطمنكم بالنون الخفيفة وقرئ لايحطمنكم بفتح الحاء وكسرها واصله لايحتطمنكم وقوله تعالى (وهم لايشعرون) حال من فاعل يحطمنكم مفيدة لتقييد الحطم بحال عدم شعورهم بمكانهم حتى لو شعروا بذلك لم يحطموا وأرادت بذلك الايذان بانها عارفة بشؤن سليمان وسائر الانبياء عليهم الصلاة والسلام من عصمتهم عن الظلم والايذاء وقيل هو استئناف اى فهم سليمان ما قالته والقوم لايشعرون بذلك (فتبسم ضاحكا من قولها) تعجبا من

ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار هل تجزون الا ما كنتم تعملون) اعلم انه
تعالى لما تكلم فى علامات القيامة شرح بعد ذلك احوال المكلفين بعد قيام القيامة
والمكلف اما ان يكون مطيعا او عاصيا اما المطيع فهو الذى جاء بالحسنة وله امران
(احدهما) ان له ماهو خير منها وذلك هو الثواب * فان قيل الحسنة التى جاء العبد بها
يدخل فيها معرفة الله تعالى والاخلاص فى الطاعات والثواب انما هو الاكل والشرب
فكيف يجوز ان يقال الاكل والشرب خير من معرفة الله جوابه من وجوه (احدها)
ان ثواب المعرفة النظرية الحاصلة فى الدنيا هى المعرفة الضرورية الحاصلة فى الآخرة
ولذة النظر الى وجهه الكريم سبحانه وتعالى وقد دلت الدلائل على ان اشرف السعادات
هى هذه اللذة ولو لم تحمل الآية على ذلك لزم ان يكون الاكل والشرب خيرا من معرفة
الله تعالى وانه باطل (وثانيها) ان الثواب خير من العمل من حيث ان الثواب دائم
والعمل منقض ولان العمل فعل العبد والثواب فعل الله تعالى (وثالثها) فله خير منها
اى له خير حاصل من جهتها وهو الجنة (السؤال الثانى) الحسنة لفظة مفردة معرفة وقد
ثبت انها لا تفيد العموم بل يكفى فى تحققها حصول فرد واذا كان كذلك فلنحملها على
اكمل الحسنات شأنا واعلاها درجة وهو الايمان فلهذا قال ابن عباس من افراد
الحسنة كلمة الشهادة وهذا يوجب القطع بان لا يعاقب اهل الايمان * جوابه ذلك الخير
هو ان لا يكون عقابه مخلدا (الامر الثانى) للمطيع هو انهم آمنون من كل فزع لا كما قال
بعضهم ان اهوال القيامة تعم المؤمن والكافر فان قيل أليس انه تعالى قال فى اول الآية
ففزع من فى السموات ومن فى الارض فكيف نفى الفزع ههنا (جوابه) ان الفزع الاول
هو ما لا يخلو منه احد عند الاحساس لشدة تقع وهول يفجأ من رعب وهيبة وان كان
المحسن يأمن وصول ذلك الضرر اليه كما قيل يدخل الرجل بصدر هياب وقلب وجاب وان
كانت ساعة اعزاز وتكرمة واما الثانى فالخوف من العذاب * اما قراءة من قرأ
من فزع بالتنوين فهى تحتمل معنيين من فزع واحد وهو خوف العقاب واما ما يلحق
الانسان من الهيبة والرعب عند مشاهدة الاهوال فلا ينفك منه احد وفى الاخبار
ما يدل عليه ومن فزع شديد مفرط الشدة لا يكتنهه الوصف وهو خوف النار وأمن
يعدى بالجار وبنفسه كقوله تعالى أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله فهذا شرح حال
المطيعين اما شرح حال العصاة فهو قوله ومن جاء بالسيئة قيل السيئة الاشراك وقوله
فكبت وجوههم فى النار فاعلم انه يعبر عن الجملة بالوجه والرأس والرقبة فكأنه قيل
فكبوا فى النار كقوله فكبكبوا ويجوز ان يكون ذكر الوجوه ايذانا بانهم يلقون
على وجوههم فيها مكبوبين اما قوله هل تجزون الا ما كنتم تعملون فيجوز فيه الالتفات
وحكاية ما يقال لهم عند الكب باضمار القول * قوله تعالى (انما امرت ان اعبد رب هذه

البلدة الذى حرمها وله كل شئ وامرت ان اكون من المسلمين وان اتلو القرآن فمن

حذرها واهتدائهما الى تدبير
مصالحها ومصالح بنى نوعها
وسرورا بشهرة حاله وحال
جنوده فى باب التقوى والشفقة
فيما بين اصناف المخلوقات التى هى
ابعدها من ادراك امثال هذه
الامور وابتهاجا بما خصه الله تعالى
به من ادراك همسها وفهم مرادها
روى انها احست بصوت الجنود
ولا تعلم انهم فى الهواء فأمر سليمان
عليه السلام الريح فوقفت لئلا
يذعرن حتى دخلن مساكنهن
(وقال رب اوزعنى ان اشكر نعمتك)
اى اجعلنى ازع شكر نعمتك عندى
واكفه وارتبطه بحيث لا ينفلت
عنى حتى لا انفك عن شكرك اصلا
وقرئ بفتح ياء اوزعنى (التى انعمت
على وعلى والدى) ادرج فيه
ذكرهما تكثيرا للنعمة فان الانعام
عليهما انعام عليه مستوجب للشكر
(وان اعمل صالحا ترضاه) اتماما
للشكر واستدامة للنعمة (وادخلنى
برحمتك فى عبادك الصالحين) فى
جملتهم الجنة التى هى دار الصالحين
(وتفقد الطير) اى تعرف احوال
الطير فلم ير الهدهد فيما بينها (فقال
مالى لا أرى الهدهد ام كان من
الغائبين) كأنه قال اولا مالى
لا أراه لساتر ستره او لسبب آخر
ثم بدا له انه غائب فأضرب عنه
فأخذ يقول أهو غائب (لأعذبنه
عذابا شديدا) قيل كان تعذيبه
للطير بنتف ريشه وتشميسه وقيل
بجعله مع ضده فى قفص وقيل
بالتفريق بينه وبين الفه (او
لأذبحنه) ليعتبر به ابناء جنسه
(او ليأتينى بسلطان مبين) بحجة
تبين عذره والحلف فى الحقيقة
على احد الاولين على تقدير
عدم الثالث وقرئ ليأتيننى
بنونين اولاهما مفتوحة مشددة

اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل انما انا من المنذرين وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون) اعلم انه سبحانه وتعالى لما بين المبدأ والمعاد والنبوة ومقدمات القيامة وصفة اهل القيامة من الثواب والعقاب وذلك كمال ما يتعلق ببيان اصول الدين ختم الكلام بهذه الخاتمة اللطيفة فقال قل يا محمد انى امرت بأشياء (الاول) انى امرت ان اخص الله وحده بالعبادة ولا اتخذ له شريكا وان الله تعالى لما قدم دلائل التوحيد فكأنه امر محمدا بان يقول لهم هذه الدلائل التى ذكرتها لكم ان لم تفد لكم القول بالتوحيد فقد افادت لى ذلك فسواء قبلتم هذه الدعوة او اعرضتم عنها فانى مصر عليها غير مرتاب فيها ثم انه وصف الله تعالى بأمرين (احدهما) انه رب هذه البلدة والمراد مكة وانما اختصها من بين سائر البلاد باضافة اسمه اليها لانها احب بلاده اليه واكرمها عليه واشار اليها اشارة تعظيم لها دالا على انها موطن نبيه ومهبط وحيه اما قوله الذى حرمها فقرئ التى حرمها وانما وصفها بالتحريم لوجوه (احدها) انه حرم فيها اشياء على من يحج (وثانيها) ان اللاجئ اليها آمن (وثالثها) لا ينتهك حرمتها الا ظالم ولا يعضد شجرها ولا ينفر صيدها وانما ذكر ذلك لان العرب كانوا معترفين بكون مكة محرمة وعلموا ان تلك الفضيلة ليست من الاصنام بل من الله تعالى فكأنه قال لما علمت وعلمتم انه سبحانه هو المتولى لهذه النعم وجب على ان اخصه بالعبادة (وثانيهما) وصف الله تعالى بقوله وله كل شئ وهذا اشارة الى ما تقدم من الدلائل المذكورة فى هذه السورة على التوحيد من كونه تعالى خالقا لجميع النعم فاجمل ههنا تلك المفصلات وهذا كمن اراد صفة بعض الملوك بالقوة فيعد تلك التفاصيل ثم بعد التطويل يقول ان كل العالم له وكل الناس فى طاعته (الثانى) أمر بان يكون من المسلمين (الثالث) امر بان يتلو القرآن عليهم لتدقام بكل ذلك صلوات الله عليه اتم قيام فمن اهتدى فى هذه المسائل الثلاث المتقدمة وهى التوحيد والحشر والنبوة فانما يهتدى لنفسه اى منفعة اهتدائه راجعة اليه ومن ضل فلا على وما انا الا رسول منذر ثم انه سبحانه ختم هذه الخاتمة فى نهاية الحسن وهى قوله وقل الحمد لله على ما اعطانى من نعمة العلم والحكمة والنبوة او على ما وفقنى من القيام بأداء الرسالة وبالانذار سيريكم آياته القاهرة فتعرفونها لكن حين لا ينفعكم الايمان وما ربك بغافل عما تعملون لانه من وراء جزاء العاملين ۞ والله اعلم ۞ تم تفسير السورة والحمد لله رب العالمين ۞ وصلاته على سيدنا محمد النبى الامى وعلى آله وصحبه اجمعين وعلى ازواجه الطاهرات امهات المؤمنين ۞ والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين

(سورة القصص مكية كلها الا قوله الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون الى قوله)
(لا نبتغى الجاهلين وقيل الا آية وهى ان الذى فرض عليك القرآن الآية وهى سبع او ثمان)
(وثمانون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قيل انه عليه الصلاة والسلام لما اتم بناء بيت المقدس تجهز للحج بحشره فوافى الحرم واقام به ما شاء وكان يقرب كل يوم طول مقامه خمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف بقرة وعشرين الف شاة ثم عزم على السير الى اليمن فخرج من مكة صباحا يؤم سهيلا فوافى صنعاء وقت الزوال وذلك مسيرة شهر فرأى ارضا حسناء أعجبته خضرتها فنزل ليتغدى ويصلى فلم يجد الماء وكان الهدهد قناقنه وكان يرى الماء من تحت الارض كما يرى الماء فى الزجاجة فيجئ الشياطين فيسلخونها كما يسلخ الاهاب ويستخرجون الماء فتفقده لذلك وقد كان حين نزل سليمان عليه السلام حلق الهدهد فرأى هدهدا واقعا فانحط اليه فوصف له ملك سليمان عليه السلام وما سخر له من كل شئ وذكر له صاحبه ملك بلقيس وان تحت يدها اثنى عشر الف قائد تحت يد كل قائد مائة الف وذهب معه لينظر فما رجع الا بعد العصر وذلك قوله تعالى (فمكث غير بعيد) اى زمانا غير مديد وقرئ بضم الكاف وذكر انه وقعت نفحة من الشمس على رأس سليمان عليه السلام فنظر فاذا موضع الهدهد خال فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عنه فلم يجد عنده علمه ثم قال لسيد الطير وهو العقاب على به فارتفعت فنظرت فاذا هو مقبل فقصدته فناشدها الله وقال بحق الله الذى قواك واقدرك على الا رحمتنى فتركته وقالت ثكلتك امك ان نبى الله قد حلف ليعذبنك قال وما استثنى قالت بلى قال او ليأتينى بعذر مبين فلما قرب من سليمان عليه السلام ارخى ذنبه وجناحيه يجرها على الارض تواضعا له فلما

(طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ان فرعون علا فى الارض وجعل اهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين ونريد ان نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الارض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) اعلم ان قوله تعالى طسم كسائر الفواتح وقد تقدم القول فيها وتلك اشارة الى آيات السورة والكتاب المبين هو اما اللوح واما الكتاب الذى وعد الله انزاله على محمد صلى الله عليه وسلم فبين ان آيات هذه السورة هى آيات ذلك الكتاب ووصفه بأنه مبين لانه يبين فيه الحلال والحرام او لانه يبين بفصاحته انه من كلام الله دون كلام العباد او لانه يبين صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم او لانه يبين خبر الاولين والآخرين او لانه يبين كيفية التخلص عن شبهات اهل الضلال اما قوله تعالى نتلو عليك اى على لسان جبريل عليه السلام لانه كان يتلو على محمد حتى يحفظه وقوله من نبأ موسى وفرعون فهو مفعول نتلو عليك اى نتلو عليك بعض خبرهما بالحق محقين كقوله تنبت بالدهن وقوله لقوم يؤمنون فيه وجهان (احدهما) انه تعالى قد أراد بذلك من لا يؤمن ايضا لكنه خص المؤمنين بالذكر لانهم قبلوا وانتفعوا فهو كقوله هدى للمتقين (والثانى) يحتمل انه تعالى علم ان الصلاح فى تلاوته هو ايمانهم وتكون ارادته لمن لا يؤمن كالتبع قوله تعالى ان فرعون علا فى الارض قرئ فرعون بضم الفاء وكسرها والكسر احسن وهو كالقسطاس والقسطاس علا استكبر وتجبر وتعظم وبغى والمراد به قوة الملك والعلو فى الارض يعنى ارض مملكته ثم فصل الله تعالى بعض ذلك بقوله وجعل اهلها شيعا اى فرقا يشيعونه على ما يريد ويطيعونه لا يملك احد منهم مخالفته او يشيع بعضهم بعضا فى استخدامه او اصنافا فى استخدامه او فرقا مختلفة قد اغرى بينهم العداوة ليكونوا له اطوع او المراد ما فسره بقوله يستضعف طائفة منهم اى يستخدمهم ويذبح ابناءهم ويستحيي نساءهم فهذا هو المراد بالشيع • قوله يستضعف طائفة منهم تلك الطائفة بنو اسرائيل وفى سبب ذبح الابناء وجوه (احدها) ان كاهنا قال له يولد مولود فى بنى اسرائيل فى ليلة كذا يذهب ملكك على يده فولد تلك الليلة اثنا عشر غلاما فقتلهم وعند اكثر المفسرين بقى هذا العذاب فى بنى اسرائيل سنين كثيرة قال وهب قتل القبط فى طلب موسى عليه السلام تسعين الفا من بنى اسرائيل قال بعضهم فى هذا دليل على حمق فرعون فانه ان صدق الكاهن لم يدفع القتل الكائن وان كذب فلا وجه القتل وهذا السؤال قد يذكر فى تزييف علم الاحكام من علم النجوم ونظيره ما يقوله نفاة التكليف ان كان زيد فى علم الله وفى قضائه من السعداء فلا حاجة الى الطاعة وان كان من الاشقياء فلا فائدة فى الطاعة وايضا فهذا السؤال لو صح لبطل علم التعبير ومنفعته وايضا فجواب المنجم ان

ونامته اخذ عليه السلام برأسه فمده اليه فقال يا نبى الله اذكر وقوفك بين يدى الله تعالى فارتعد سليمان عليه السلام وعفا عنه ثم سأله (فقال احطت بما لم تحط به) اى علما ومعرفة وحفظته من جميع جهاته وقرئ احطت بادغام الطاء فى التاء باطباق وبغير اطباق ولا اخفاء فى انه لم يرد به ادعى الاحاطة به ما هو من حقائق العلوم ودقائق المعارف التى تكون معرفتها والاحاطة بها من وظائف ارباب العلم والحكمة لتوقفها على علم رصين وفضل مبين حتى يكون اثباته لنفسه بين يدى نبى الله سليمان عليه السلام تعديا عن طوره وتجاوزا عن دائرة قدره ونطاقه عليه الصلاة والسلام جناية على جناية فيحتاج الى الاعتذار عنه بأن ذلك كان منه بطريق الالهام فكافحه عليه الصلاة والسلام بذلك مع ما اوتى عليه الصلاة والسلام من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة والاحاطة بالمعلومات الكثيرة ابتلاء له عليه الصلاة والسلام فى علمه وتنبيها على ان فى ادنى خلقه تعالى واضعفهم من احاط علما بما لم يحط به لتتحاقر اليه نفسه ويتصاغر اليه علمه ويكون لطفا له فى ترك الاعجاب الذى هو فتنة العلماء بل اراد به ما هو من الامور المحسوسة التى لا تعد الاحاطة بها فضيلة ولا الغفلة عنها نقيصة لعدم توقف ادراكها الا على مجرد احساس يستوى فيه العقلاء وغيرهم وقد علم انه عليه الصلاة والسلام لم يشاهده ولم يسمع خبره من غيره قطعا فعبر عنه بما ذكر لترويج كلامه عنده عليه الصلاة والسلام وترغيبه فى الاصغاء الى اعتذاره واستمالة قلبه نحو قبوله فان النفس للاعتذار المبنى عن امر بديع اقبل والى تلقى

النجوم دلت على انه يولد ولدلو لم يقتل لصار كذا وكذا وعلى هذا التقدير لا يكون السعى فى قتله عبثا واعلم ان هذا الوجه ضعيف لان اسناد مثل هذا الخبر الى الكاهن اعتراف بأنه قد يخبر عن الغيب على سبيل التفصيل ولو جوزناه لبطلت دلالة الاخبار عن الغيب على صدق الرسل وهو باجماع المسلمين باطل (وثانيها) وهو قول السدى ان فرعون رأى فى منامه ان نارا أقبلت من بيت المقدس واشتملت على مصر فأحرقت القبط دون بنى اسرائيل فسأل عن رؤياه فقالوا يخرج من هذا البلد الذى جاء بنو اسرائيل منه رجل يكون على يده هلاك مصر فأمر بقتل الذكور (وثالثها) ان الانبياء الذين كانوا قبل موسى عليه السلام بشروا بمجيئه وفرعون كان قد سمع ذلك فلهذا كان يذبح ابناء بنى اسرائيل وهذا الوجه هو الاولى بالقبول قال صاحب الكشاف يستضعف حال من الضمير فى وجعل او صفة لشيعا او كلام مستأنف ويذبح بدل من يستضعف وقوله انه كان من المفسدين يدل على ان ذلك القتل ما حصل منه الا الفساد وانه لا اثر له فى دفع قضاء الله تعالى اما قوله ونريد ان نمن فهو جملة معطوفة على قوله ان فرعون علا فى الارض لانها نظيرة تلك فى وقوعها تفسيرا لنبأ موسى عليه السلام وفرعون واقتصاصا له واللفظ فى قوله ونريد للاستقبال ولكن اريد به حكاية حال ماضية ويجوز ان يكون حالا من يستضعف اى يستضعفهم فرعون ونحن نريد ان نمن عليهم (فان قيل) كيف يجتمع استضعافهم وارادة الله تعالى المن عليهم واذا أراد الله شيئا كان ولم يتوقف الى وقت آخر (قلنا) لما كانت منة الله عليهم بتخليصهم من فرعون قريبة الوقوع جعلت ارادة وقوعها كأنها مقارنة لاستضعافهم اما قوله ونجعلهم أئمة اى متقدمين فى الدنيا والدين وعن مجاهد دعاة الى الخير وعن قتادة ولاة كقوله وجعلكم ملوكا ونجعلهم الوارثين يعنى لملك فرعون وارضه وما فى يده اما قوله ونمكن لهم فى الارض فاعلم انه يقال مكن له اذا جعل له مكانا يقعد عليه او يرقد فوطأه ومهده ونظيره أرض له ومعنى التمكين لهم فى الارض وهى أرض مصر والشام ان ينفذ امرهم ويطلق ايديهم وقوله ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون قرئ ويرى فرعون وهامان وجنودهما اى يرون منهم ما كانوا خائفين منه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود بنى اسرائيل * قوله تعالى (وأوحينا الى ام موسى ان ارضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين وقالت امرأت فرعون قرت عين لى ولك لا تقتلوه عسى ان ينفعنا او نتخذه ولدا وهم لا يشعرون) اعلم انه تعالى لما قال ونريد ان نمن على الذين ابتدأ بذكر أوائل نعمه فى هذا الباب بقوله وأوحينا الى ام موسى والكلام فى هذا الوحى ذكرناه فى سورة طه فى قوله ولقد مننا عليه مرة أخرى اذ أوحينا الى امك ما يوحى وقوله ان ارضعيه

ما لا تعلمه امثل ثم ابدى بقوله (وجئتك من سبأ بنبأ يقين) حيث فسر ابهامه نوع تفسير واراه عليه الصلاة والسلام انه كان بصدد الاقامة خدمة مهمة له حيث عبر عما جاء به بالنبأ الذى هو الخبر الخطير والشأن الكبير ووصفه بما وصفه والا فما صدر عنه عليه الصلاة والسلام مع ما حكى عنه ما حكى من الحمد والشكر واستدعاء الايزاع حتى يليق بالحكمة الالهية تنبيهه عليه الصلاة والسلام على تركه وسبأ منصرف على انه اسم لحى سموا باسم ابيهم الاكبر وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان قالوا اسمه عبد شمس لقب به لكونه اول من سبى وقرئ بفتح الهمزة غير منصرف على انه اسم للقبيلة ثم سميت مدينة مأرب بسبأ وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث وعلى هذه القراءة يجوز ان يراد به القبيلة والمدينة واما على القراءة الاولى فالمراد هو الحى لا غير وعدم وقوف سليمان عليه السلام على نبئهم قبل انباء الهدهد ليس بأمر بديع لابدله من حكمة داعية اليه البتة وان استحال خلو افعاله تعالى من الحكم والمصالح لما ان المسافة بين محطه عليه الصلاة والسلام وبين مأرب وان كانت قصيرة لكن مدة ما بين نزوله عليه الصلاة والسلام هناك وبين مجئ الهدهد بالخبر ايضا قصيرة ثم اختصاص الهدهد بذلك مع كون الجن اقوى منه مبنى على حكم بالغة يستأثر بها علام الغيوب وقوله تعالى (انى وجدت امرأة تملكهم) استئناف لبيان ما جاء به من النبأ وتفصيل له اثر الاجمال وهى بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن ريان وكان ابوها ملك

كالدلالة على انها أرضعته وليس فى القرآن حد ذلك فاذا خفت عليه ان يفطن به جيرانك ويسمعون صوته عند البكاء فألقيه فى اليم قال ابن جريج ان بعد اربعة اشهر صاح فألق فى اليم والمراد باليم ههنا النيل ولاتخافى ولاتحزنى والخوف غم يحصل بسبب مكروه يتوقع حصوله فى المستقبل والحزن غم يلحقه بسبب مكروه حصل فى الماضى فكأنه قيل ولا تخافى من هلاكه ولاتحزنى بسبب فراقه فانا رادوه اليك لتكونى انت المرضعة له وجاعلوه من المرسلين الى اهل مصر والشام وقصة الالقاء فى اليم قد تقدمت فى سورة طه وقال ابن عباس ان أم موسى عليه السلام لما تقارب ولادها كانت قابلة من القوابل التى وكلهن فرعون بالحبالى مصافية لام موسى عليه السلام فلما احست بالطلق ارسلت اليها وقالت لها قد نزل بى ما نزل ولينفعنى اليوم حبك اياى فجلست القابلة فلما وقع موسى عليه السلام الى الارض هالها نور بين عينيه فارتعش كل مفصل منها ودخل حب موسى عليه السلام قلبها فقالت ياهذه ماجئتك الا لقتل مولودك ولكنى وجدت لابنك هذا حبا شديدا فاحتفظى بابنك فانى أراه عدونا فلما خرجت القابلة من عندها ابصرها بعض العيون فجاء الى بابها ليدخل على ام موسى فقالت أخته يا أماه هذا الحرس فلفته ووضعته فى تنور مسجور فطاش عقلها فلم تعقل ماتصنع فدخلوا فاذا التنور مسجور ورأوا أم موسى لم يتغير لها لون ولم يظهر لها لبن فقالوا لم دخلت القابلة عليك قالت انها حبيبة لى دخلت للزيارة فخرجوا من عندها ورجع اليها عقلها فقالت لأخت موسى اين الصبى قالت لاأدرى فسمعت بكاء فى التنور فانطلقت اليه وقد جعل الله النار عليه بردا وسلاما فأخذته ثم ان أم موسى عليه السلام لما رأت فرعون جد فى طلب الولدان خافت على ابنها فقذف الله فى قلبها ان تتخذ له تابوتا ثم تقذف التابوت فى النيل فذهبت الى نجار من اهل مصر فاشترت منه تابوتا فقال لها ماتصنعين به فقالت ابن لى أخبئه عليه كيد فرعون اخبؤه فيه وما عرفت انه يفشى ذلك الخبر فلما انصرفت ذهب النجار ليخبر به الذباحين فلما جاءهم أمسك الله لسانه وجعل يشير بيده فضربوه وطردوه فلما عاد الى موضعه رد الله عليه نطقه فذهب مرة أخرى ليخبرهم به فضربوه وطردوه فلما عاد الى موضعه رد الله نطقه فذهب مرة أخرى ليخبرهم به فضربوه وطردوه فأخذ الله بصره ولسانه فجعل لله تعالى انه ان رد عليه بصره ولسانه فانه لايدلهم عليه فعلم الله تعالى منه الصدق فرد عليه بصره ولسانه وانطلقت ام موسى وألقته فى النيل وكان لفرعون بنت لم يكن له ولد غيرها وكان لها كل يوم ثلاث حاجات ترفعها الى ابيها وكان بها برص شديد وكان فرعون قد شاور الاطباء والسحرة فى امرها فقالوا ايها الملك لاتبرأ هذه الا من قبل البحر يوجد منه شبه الانسان فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها فتبرأ من ذلك وذلك فى يوم كذا فى شهر كذا حين تشرق الشمس فلما كان ذلك اليوم غدا فرعون الى مجلس كان له على شفير النيل ومعه آسية بنت مزاحم واقبلت بنت فرعون فى جواريها حتى جلست على الشاطئ اذا قبل

(النيل)

ارض اليمن كلها ورثت الملك من اربعين ابا ولم يكن له ولد غيرها فغلبت بعده على الملك ودانت لها الامة وكانت هى وقومها مجوسا يعبدون الشمس والنار وجدت على رأيت لما اشير اليه من الايذان بكونه عند غيبه بصدد خدمته عليه الصلاة والسلام بابراز نفسه فى معرض من يتفقد احوالها ويتعرفها كأنها طلبته وضالته ليعرضها على سليمان عليه السلام وضمير تملكهم لسبأ على انه اسم الحى او لاهلها المدلول عليهم بذكر مدينتهم على القاسم لها (واوتيت من كل شئ) اى من الاشياء التى تحتاج اليها الملوك (ولها عرش عظيم) قيل كان ثلاثين ذراعا فى ثلاثين عرضا وسمكا وقيل ثمانين فى ثمانين من ذهب وفضة مكللا بالجواهر كانت قوائمه من ياقوت احمر واخضر ودر وزمرد وعليه سبعة ابيات على كل بيت باب مغلق واستعظام الهدهد لعرشها مع ما كان يشاهده من ملك سليمان عليه السلام اما بالنسبة الى حالها او الى عروش امثالها من الملوك وقد جوز ان لايكون لسليمان عليه السلام مثله وايا ما كان فوصفه بذلك بين يديه عليه الصلاة والسلام لما مر من ترغيبه عليه الصلاة والسلام فى الاصغاء الى حديثه وتوجيه عزيمته عليه الصلاة والسلام نحو تسخيرها ولذلك عقبه بما يوجب غزوها من كفرها وكفر قومها حيث قال (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله) اى يعبدونها متجاوزين عبادة الله تعالى (وزين لهم الشيطان اعمالهم) التى هى عبادة الشمس ونظائرها من

النيل بتابوت تضربه الامواج وتعلق بشجرة فقال فرعون ائتونى به فابتدروه بالسفن من كل جانب حتى وضعوه بين يديه فعالجوا فتح الباب فلم يقدروا عليه وعالجوا كسره فلم يقدروا عليه فنظرت آسية فرأت نورا فى جوف التابوت لم يره غيرها فعالجته وفتحته فاذا هى بصبى صغير فى المهد واذا نور بين عينيه فألقى الله محبته فى قلوب القوم وعمدت ابنة فرعون الى ريقه فلطخت به برصها فبرئت وضمته الى صدرها فقالت الغواة من قوم فرعون انا نظن ان هذا هو الذى نحذر منه رمى فى البحر فرقا منك فهم فرعون بقتله فاستوهبته امرأة فرعون وتبنته فترك قتله اما قوله فالتقطه آل فرعون فالالتقاط اصابة الشئ من غير طلب والمراد بآل فرعون جواريه اما قوله ليكون لهم عدوا وحزنا فالمشهور ان هذه اللام يراد بها العاقبة قالوا والا لنقض قوله وقالت امرأت فرعون قرت عين لى ولك ولنقض قوله والقيت عليك محبة منى ونظير هذه اللام قوله تعالى ولقد ذرأنا لجهنم وقول الشاعر * لدوا للموت وابنوا للخراب * واعلم ان التحقيق ما ذكره صاحب الكشاف وهو ان هذه اللام هى لام التعليل على سبيل المجاز وذلك لان مقصود الشئ وغرضه يؤل اليه امره فاستعملوا هذه اللام فيما يؤل اليه الشئ على سبيل التشبيه كاطلاق لفظ الاسد على الشجاع والبليد على الحمار قرأ حمزة والكسائى حزنا بضم الحاء وسكون الزاى والباقون بالفتح وهما لغتان مثل السقم والسقم اما قوله كانوا خاطئين ففيه وجهان (احدهما) قال الحسن معنى كانوا خاطئين ليس من الخطيئة بل المعنى وهم لا يشعرون انه الذى يذهب بملكهم واما جمهور المفسرين فقالوا معناه كانوا خاطئين فيما كانوا عليه من الكفر والظلم فعاقبهم الله تعالى بأن ربى عدوهم ومن هو سبب هلاكهم على ايديهم وقرئ خاطين تخفيف خاطئين اى خاطين الصواب الى الخطأ وبين تعالى انها التقطته ليكون قرة عين لها وله جميعا قال ابن اسحق ان الله تعالى القى محبته فى قلبها لانه كان فى وجهه ملاحة كل من رآه احبه ولانها حين فتحت التابوت رأت النور ولانها لما فتحت التابوت رأته يمتص اصبعه ولان ابنة فرعون لما لطخت برصها بريقه زال برصها ويقال ما كان لها ولد فأحبته قال ابن عباس لما قالت قرة عين لى ولك فقال فرعون ان يكون لك واما انا فلا حاجة لى فيه فقال عليه السلام والذى يحلف به لو أقر فرعون ان يكون قرة عين له كما اقرت لهداه الله تعالى كما هداها قال صاحب الكشاف قرة عين خبر مبتدأ محذوف ولا يقوى ان يجعل مبتدأ ولا تقتلوه خبرا ولو نصب لكان اقوى وقراءة ابن مسعود دليل على انه خبر قرأ لا تقتلوه قرة عين لى ولك وذلك لتقديم لا تقتلوه ثم قالت المرأة عسى ان ينفعنا فنصيب منه خيرا او نتخذه ولدا لانه اهل للتبنى اما قوله وهم لا يشعرون فأكثر المفسرين على انه ابتداء كلام من الله تعالى اى لا يشعرون ان هلاكهم بسببه وعلى يده وهذا قول مجاهد وقتادة والضحاك ومقاتل وقال ابن عباس يريد لا يشعرون الى ماذا يصير امر موسى عليه السلام وقال آخرون

اصناف الكفر والمعاصى (فصدهم) بسبب ذلك (عن السبيل) اى سبيل الحق والصواب فان تزيين اعمالهم لا يتصور بدون تقويم طرق كفرهم وضلالهم ومن ضرورته نسبة طريق الحق الى العوج (فهم) بسبب ذلك (لا يهتدون) اليه وقوله تعالى (الا يسجدوا لله) مفعول له اما للصد او للتزيين على حذف اللام منه اى فصدهم لان لا يسجدوا لله تعالى او زين لهم اعمالهم لان لا يسجدوا او بدل على حاله من اعمالهم وما بينهما اعتراض اى زين لهم ان لا يسجدوا وقيل هو فى موقع المفعول ليهتدون باسقاط الخافض ولا مزيدة كما فى قوله تعالى لئلا يعلم اهل الكتاب والمعنى فهم لا يهتدون الى ان يسجدوا لله تعالى وقرئ الا يا اسجدوا على التنبيه والنداء والمنادى محذوف اى الا يا قوم اسجدوا كما فى قوله

الا يا اسلمى يا دارمى على البلى

وعلى هذا يحتمل ان يكون استئنافا من جهة الله عز وجل او من سليمان عليه السلام ويوقف على لا يهتدون ويكون امرا بالسجود وعلى الوجوه المتقدمة ذما على تركه واياما كان فالسجود واجب وقرئ هلا وهلا بقلب الهمزتين هاء وقرئ هلا تسجدون بمعنى الا تسجدون على الخطاب (الذى يخرج الخبء فى السموات والارض) اى يظهر ما هو مخبوء ومخفى فيهما كائنا ما كان وتخصيص هذا الوصف بالذكر بصدد بيان تفرده تعالى باستحقاق السجود له من بين سائر اوصافه الموجبة لذلك لما انه ارسخ فى معرفته والاحاطة بأحكامه بمشاهدة آثاره التى من جملتها

هذا من تمام كلام المرأة اى لايشعر بنو اسرائيل واهل مصر انا التقطناه وهذا قول الكلبي ❁ قوله تعالى (واصبح فؤاد ام موسى فارغا ان كادت لتبدى به لولا ان ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين وقالت لاخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لايشعرون) ذكروا فى قوله فؤاد ام موسى فارغا وجوها (احدها) قال الحسن فارغا من كل هم الا من هم موسى عليه السلام (وثانيها) قال ابو مسلم فراغ الفؤاد هو الخوف والاشفاق كقوله وافئدتهم هواء (وثالثها) قال صاحب الكشاف فارغا صفرا من العقل والمعنى انها حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والخوف (ورابعها) قال الحسن ومحمد بن اسحق فارغا من الوحى الذى اوحينا اليها ان القيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك فجاءها الشيطان فقال لها كرهت ان يقتل فرعون ولدك فيكون لك اجر فتوليت اهلاكه ولما اتاها خبر موسى عليه السلام انه وقع فى يد فرعون فانساها عظم البلاء ما كان من عهد الله اليها (وخامسها) قال ابو عبيدة فارغا من الحزن لعلمها بانه لايقتل اعتمادا على تكفل الله بمصلحته قال ابن قتيبة وهذا من العجائب كيف يكون فؤادها فارغا من الحزن والله تعالى يقول لولا ان ربطنا على قلبها وهل يربط الا على قلب الجازع المحزون ويمكن ان يجاب عنه بانه لايمتنع انها لشدة ثقتها بوعد الله لم تخف عند اظهار اسمه وايقنت انها وان اظهرت فانه يسلم لاجل ذلك الوعد الا انه كان فى المعلوم ان الاظهار يضر فربط الله على قلبها ويحتمل قوله ان كادت لتبدى به لولا ان ربطنا على قلبها بالوحى فامنت وزال عن قلبها الحزن فعلى هذا الوجه يصح ان يتأول على ان قلبها سلم من الحزن على موسى اصلا (وفيه وجه ثالث) وهو انها لما سمعت ان امرأة فرعون عطفت عليه وتبنته ان كادت لتبدى به بانه ولدها لانها لم تملك نفسها فرحا بما سمعت لولا ان سكنا ما بها من شدة الفرح والابتهاج لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله تعالى لا بتبنى امرأة فرعون اللعين وبعطفها وقرئ فرغا اى خاليا من قولهم اعوذ بالله من صفر الاناء وفرغ الفناء وفرغا من قولهم دماؤهم بينهم فرغ اى هدر يعنى بطل قلبها من شدة ماورد عليها اما قوله ان كادت لتبدى به فاعلم ان على قول من فسر الفراغ بالفراغ من الحزن فذكرنا تفسير قوله ان كادت لتبدى واما على قول من فسر الفراغ بحصول الخوف فذكروا وجوها (احدها) قال ابن عباس كادت تخبر بان الذى وجدتموه ابنى وقال فى رواية عكرمة كادت تقول وا ابناه من شدة وجدها به وذلك حين رأت الموج يرفع ويضع وقال الكلبي ذلك حين سمعت الناس يقولون انه ابن فرعون وقال السدى لما اخذ ابنها كادت تقول هو ابنى فعصمها الله تعالى ثم قال لولا ان ربطنا على قلبها بالهام الصبر كما يربط على الشئ المنفلت ليستقر ويطمئن لتكون من المؤمنين من المصدقين بوعد الله وهو قوله انا رادوه اليك اما قوله وقالت لاخته قصيه اى اتبعى اثره وانظرى الى اين وقع والى من صار وكانت اخته لابيه وامه واسمها مريم فبصرت به قال ابن عباس رضى الله

(عنهما)

ما اودعه الله تعالى فى نفسه من القدرة على معرفة المياه تحت الارض واشار بعطف قوله (ويعلم ماتخفون وماتعلنون) على يخرج الى انه تعالى يخرج ما فى العالم الانسانى من الخفايا كما يخرج ما فى العالم الكبير من الخبايا لما ان المراد يظهر ما تخفونه من الاحوال فيجازيكم بها وذكر ما تعلنون لتوسيع دائرة العلم او للتنبيه على تساويهما بالنسبة الى العلم الالهى وقرئ ما يخفون وما يعلنون على صيغة الغيبة بلا التفات واخراج الخبء يعم اشراق الكواكب واظهارها من آفاقها بعد استتارها وراءها وانزال الامطار وانبات النبات بل الانشاء الذى هو اخراج ما فى الشئ بالقوة الى الفعل والابداع الذى هو اخراج ما فى الامكان والعدم الى الوجود وغير ذلك من غيوبه عز وجل وقرئ الخب بتخفيف الهمزة بالحذف وقرئ الخبا بتخفيفها بالقلب وقرئ الا تسجدون لله الذى يخرج الخبء من السماء والارض ويعلم سركم وماتعلنون (الله لا اله الا هو رب العرش العظيم) الذى هو اول الاجرام واعظمها وقرئ العظيم بالرفع على انه صفة الرب واعلم ان ما حكى من الهدهد من قوله الذى يخرج الخبء الى هنا ليس داخلا تحت قوله احطت بما لم تحط به وانما هو من العلوم والمعارف التى اقتبسها من سليمان عليه السلام اورده بيانا لما هو عليه واظهارا لتصلبه فى الدين وكل ذلك لتوجيه قلبه عليه الصلاة والسلام نحو قبول

عنهما ابصرته قال المبرد ابصرته وبصرت به بمعنى واحد وقوله عن جنب اى عن بعد وقرئ عن جانب وعن جنب والجنب الجانب اى نظرت نظرة مزورة متجانبة وهم لايشعرون بحالها وغرضها ۞ قوله تعالى (وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على اهل بيت يكفلونه وهم له ناصحون فرددناه الى امه كى تقر عينها ولاتحزن ولتعلم ان وعد الله حق ولكن اكثرهم لايعلمون) اعلم ان قوله وحرمنا عليه المراضع من قبل يقتضى تحريمها من قبله فاذا لم يصح بالتعبد والنهى لتعذر التمييز فلابد من فعل سواه وذلك الفعل يحتمل انه تعالى مع حاجته الى اللبن احدث فيه نفار الطبع عن لبن سائر النساء فلذلك لم يرضع اواحدث فى لبنهن من الطعم ماينفر عنه طبعه اووضع فى لبن امه لذة فلما تعودها لاجرم كان يكره لبن غيرها وعن الضحاك كانت امه قد ارضعته ثلاثة اشهر حتى عرف ريحها والمراضع جمع مرضع وهى المرأة التى ترضع اوجمع مرضع وهو موضع الرضاع اى الثدى اوالرضاع وقوله من قبل اى من قبل ان رددناه الى امه ومن قبل مجئ اخت موسى عليه السلام ومن قبل ولادته فى حكمنا وقضائنا فعند ذلك قالت اخته هل أدلكم على اهل بيت يكفلونه لكم اى يضمنون رضاعه والقيام بمصالحه وهم له ناصحون لايمنعونه ماينفعه فى تربيته واغذائه ولايخونونكم فيه والنصح اخلاص العمل من شائبة الفساد وقال السدى انها لما قالت وهم له ناصحون دل ظاهر ذلك على ان اهل البيت يعرفونه فقال لها هامان قد عرفت هذا الغلام فدلينا على اهله فقالت ما اعرفه ولكنى انما قلت هم للملك ناصحون ليزول شغل قلبه وكل ماروى فى هذا الباب يدل على فرعون كان بمنزلة آسية فى شدة محبته لموسى عليه السلام الاعلى ماقال من زعم انها كانت مختصة بذلك فقط ثم قال تعالى فرددناه الى امه بهذا الضرب من اللطف كى تقر عينها ولاتحزن ولتعلم ان وعد الله حق اى فيما كان وعدها من انه يرده اليها ولقد كانت عالمة بذلك ولكن ليس الخبر كالعيان فتحققت بوجود الموعود ولكن اكثرهم لايعلمون فيه وجوه اربعة (احدها) ولكن اكثر الناس فى ذلك العهد وبعده لايعلمون لاعراضهم عن النظر فى آيات الله (وثانيها) قال الضحاك ومقاتل يعنى اهل مصر لايعلمون ان الله وعدها برده اليها (وثالثها) هذا كالتعريض بما فرط منها حين سمعت بخبر موسى عليه السلام فجزعت واصبح فؤادها فارغا (ورابعها) ان يكون المعنى انا انما رددناه اليها لتعلم ان وعد الله حق والمقصود الاصلى من ذلك الرد هذا الغرض الدينى ولكن الاكثر لايعلمون ان هذا هو الغرض الاصلى وان ماسواه من قرة العين وذهاب الحزن تبع قال الضحاك لما قبل ثديها قال هامان انك لامه قالت لا قال فمابالك قبل ثديك من بين النسوة قالت ايها الملك انى امرأة طيبة الريح حلوة اللبن ماشم ريحى صبى الا اقبل على ثديى قالوا صدقت فلم يبق احد من آل فرعون الا اهدى اليها واتحفها بالذهب والجواهر ۞ قوله

كلامه وصرف عنان عزيمته عليه السلام الى غزوها وتسخير ولايتها (قال) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية كلام الهدهد كأنه قيل فماذا فعل سليمان عليه السلام عند ذلك فقيل قال (سننظر) اى فيما ذكرته من النظر بمعنى التأمل والسين للتأكيد اى سنتعرف بالتجربة البتة (أصدقت ام كنت من الكاذبين) كان مقتضى الظاهر أم كذبت وايثار ما عليه النظم الكريم للايذان بأن كذبه فى هذه المادة يستلزم انتظامه فى سلك الموسومين بالكذب الراسخين فيه فان مساق هذه الاقاويل المنمقة على ترتيب انيق يستميل قلوب السامعين نحو قبولها من غير ان يكون لها مصداق اصلا لاسيما بين يدى نبى عظيم الشأن لايكاد يصدر الاعمن له قدم راسخ فى الكذب والافك وقوله تعالى (اذهب بكتابى هذا فالقه اليهم) استئناف مبين لكيفية النظر الذى وعده عليه الصلاة والسلام وقد قاله عليه الصلاة والسلام بعد ما كتب كتابه فى ذلك المجلس او بعده وتخصيصه عليه الصلاة والسلام اياه بالرسالة دون سائر ماتحت ملكه من امناء الجن الاقوياء على التصرف والتعرف لما عاين فيه من مخايل العلم والحكمة وصحة الفراسة ولئلا يبقى له عذر اصلا (ثم تول عنهم) اى تنح الى مكان قريب تتوارى فيه (فانظر) اى تأمل وتعرف (ماذا يرجعون) اى ماذا يرجع بعضهم الى بعض من القول وجمع الضمائر لما ان مضمون الكتاب الكريم دعوة الكل الى

تعالى (ولما بلغ اشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين ودخل المدينة على حين غفلة من اهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين قال رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له انه هو الغفور الرحيم قال رب بما انعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين) اعلم ان فى قوله بلغ اشده واستوى قولين (احدهما) انهما بمعنى واحد وهو استكمال القوة واعتدال المزاج والبنية (والثانى) وهو الاصح انهما معنيان متغايران ثم اختلفوا على وجوه (احدها) وهو الاقرب ان الاشد عبارة عن كمال القوة الجسمانية البدنية والاستواء عبارة عن كمال القوة العقلية (وثانيها) الاشد عبارة عن كمال القوة والاستواء عبارة عن كمال البنية والخلقة (وثالثها) الاشد عبارة عن البلوغ والاستواء عبارة عن كمال الخلقة (ورابعها) قال ابن عباس الاشد ما بين الثمانية عشر سنة الى الثلاثين ثم من الثلاثين سنة الى الاربعين يبقى سواء من غير زيادة ولا نقصان ومن الاربعين يأخذ فى النقصان وهذا الذى قاله ابن عباس رضى الله عنهما حق لان الانسان يكون فى اول العمر فى النمو والتزايد ثم يبقى من غير زيادة ولا نقصان ثم يأخذ فى الانتقاص فنهاية مدة الازدياد من اول العمر الى العشرين ومن العشرين الى الثلاثين يكون التزايد قليلا والقوة قوية جدا ثم من الثلاثين الى الاربعين يقف فلا يزداد ولا ينتقص ومن الاربعين الى الستين يأخذ فى الانتقاص الخفى ومن الستين الى آخر العمر يأخذ فى الانتقاص البين الظاهر ويروى انه لم يبعث نبى الا على رأس اربعين سنة والحكمة فيه ظاهرة لان الانسان يكون الى رأس الاربعين قواه الجسمانية من الشهوة والغضب والحس قوية مستكملة فيكون الانسان منجذبا اليها فاذا انتهى الى الاربعين اخذت القوى الجسمانية فى الانتقاص والقوة العقلية فى الازدياد فهناك يكون الرجل اكمل ما يكون فلهذا السر اختار الله تعالى هذا السن للوحى (المسئلة الثانية) اختلفوا فى واحد الاشد قال الفراء الاشد واحدها شد فى القياس ولم يسمع لها بواحد وقال ابو الهيثم واحدة الاشد شدة كما ان واحدة الانعم نعمة والشدة القوة والجلادة اما قوله تعالى آتيناه حكما وعلما ففيه وجهان (الاول) انها النبوة وما يقترن بها من العلوم والاخلاق وعلى هذا التقدير ليس فى الآية دليل على ان هذه النبوة كانت قبل قتل القبطى او بعده لان الواو فى قوله ودخل المدينة لا تفيد الترتيب (الثانى) آتيناه الحكمة والعلم قال تعالى واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة وهذا القول اولى لوجوه (احدها) ان النبوة اعلى الدرجات البشرية فلابد وان تكون مسبوقة بالكمال فى العلم والسيرة المرضية التى هى اخلاق الكبراء والحكماء (وثانيها) ان قوله وكذلك نجزى المحسنين يدل على انه انما اعطاه الحكم والعلم مجازاة على احسانه والنبوة لا تكون جزاء على العمل (وثالثها) ان المراد بالحكم والعلم لو كان هو

الاسلام (قالت) اى بعدما ذهب الهدهد بالكتاب فألقاه اليهم وتنحى عنهم حسبما امربه وانما طوى ذكره ايذانا بكمال مسارعته الى اقامة ما امر به من الخدمة واشعارا باستغنائه عن التصريح به لغاية ظهوره روى انه عليه الصلاة والسلام كتب كتابه وطبعه بالمسك وختمه بخاتمه ودفعه الى الهدهد فوجدها الهدهد راقدة فى قصرها بمأرب وكانت اذا رقدت غلقت الابواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها فدخل من كوة وطرح الكتاب على نحرها وهى مستلقية وقيل نقرها فانتبهت فزعة وقيل اتاها والقادة والجنود حواليها فرفرف ساعة والناس ينظرون حتى رفعت رأسها فألقى الكتاب فى حجرها وكانت قارئة كاتبة عربية من نسل تبع الحميرى فلما رأت الخاتم ارتعدت وخشعت فعند ذلك قالت لاشراف قومها (يا أيها الملأ انى ألقى الى كتاب كريم) وصفته بالكرم لكرم مضمونه او لكونه من عند ملك كريم او لكونه مختوما اولغرابة شأنه ووصوله اليها على منهاج غير معتاد (انه من سليمان) استئناف وقع جوابا لسؤال مقدر كأنه قيل ممن هو وماذا مضمونه فقالت انه من سليمان (وانه) اى مضمونه او المكتوب فيه (بسم الله الرحمن الرحيم) وفيه اشارة الى سبب وصفها اياه بالكرم وقرئ انه وانه بالفتح على حذف اللام كأنها علت كرمه بكونه من سليمان وبكونه مصدرا باسم الله تعالى وقيل على انه بدل من كتاب

النبوة لوجب حصول النبوة لكل من كان من المحسنين لقوله وكذلك نجزى المحسنين لان قوله وكذلك اشارة الى ماتقدم ذكره من الحكم والعلم ثم بين انعامه عليه قبل قتل القبطى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى المدينة فالجمهور على انها هى المدينة التى كان يسكنها فرعون وهى قرية على رأس فرسخين من مصر وقال الضحاك هى عين شمس (المسئلة الثانية) اختلفوا فى معنى قوله على حين غفلة من اهلها على اقوال (فالقول الاول) ان موسى عليه السلام لما بلغ اشده واستوى وآتاه الله الحكم والعلم فى دينه ودين آبائه علم ان فرعون وقومه على الباطل فتكلم بالحق وعاب دينهم واشتهر ذلك منه حتى آل الامر الى ان اخافوه وخافهم وكان له من بنى اسرائيل شيعة يقتدون به ويجتمعون منه وبلغ فى الخوف بحيث ما كان يدخل مدينة فرعون الا خائفا فدخلها يوما على حين غفلة من اهلها ثم الاكثرون على انه عليه السلام دخلها نصف النهار وقت ماهم قائلون وعن ابن عباس يريد بين المغرب والعشاء والاول أولى لانه تعالى اضاف الغفلة الى اهلها واذا دخل المرء مستترا لاجل خوف لاتضاف الغفلة الى القوم (القول الثانى) قال السدى ان موسى عليه السلام حين كبر كان يركب مراكب فرعون ويلبس مثل مايلبس ويدعى موسى ابن فرعون فركب يوما فى اثره فادركه المقيل فى موضع فدخلها نصف النهار وقد خلت الطرق فهو قوله على حين غفلة (القول الثالث) قال ابن زيد ليس المراد من قوله على حين غفلة من اهلها حصول الغفلة فى تلك الساعة بل المراد الغفلة من ذكر موسى وامره فان موسى حين كان صغيرا ضرب رأس فرعون بالعصا ونتف لحيته فأراد فرعون قتله فجئ بجمر فأخذه وطرحه فى فيه فمنه عقدة لسانه فقال فرعون لاأقتله ولكن اخرجوه عن الدار والبلد فأخرج ولم يدخل عليهم حتى كبر والقوم نسوا ذكره وذلك قوله على حين غفلة ولا مطمع فى ترجيح بعض هذه الروايات على بعض لانه ليس فى القرآن مايدل على شئ منها اه (المسئلة الثالثة) قال تعالى فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه قال الزجاج قال هذا وهذا وهما غائبان على وجه الحكاية اى وجد فيها رجلين يقتتلان اذا نظر الناظر اليهما قال هذا من شيعته وهذا من عدوه ثم اختلفوا فقال مقاتل الرجلان كانا كافرين الا ان احدهما من بنى اسرائيل والآخر من القبط واحتج عليه بأن موسى عليه السلام قال له فى اليوم الثانى انك لغوى مبين والمشهور ان الذى من شيعته كان مسلما لانه لايقال فيمن يخالف الرجل فى دينه وطريقه انه من شيعته وقيل ان القبطى الذى سخر الاسرائيلى كان طباخ فرعون استسخره لحمل الحطب الى مطبخه وقيل الرجلان المقتتلان احدهما السامرى وهو الذى من شيعته والآخر طباخ فرعون والله اعلم بكيفية الحال فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه اى سأله ان يخلصه منه واستنصره عليه فوكزه موسى عليه السلام الوكز الدفع باطراف الاصابع وقيل بجميع الكف وقرأ ابن مسعود فلكزه موسى وقال بعضهم الوكز فى

وقرئ ان من سليمان وان بسم الله الرحمن الرحيم على ان ان المفسرة (ان لاتعلوا على) ان مفسرة ولا ناهية اى لاتتكبروا كما يفعل جبابرة الملوك وقيل مصدرية ناصبة للفعل ولا نافية محلها الرفع على انها بدل من كتاب اوخبر لمبتدأ مضمر يليق بالمقام اى مضمونه ان لاتعلوا والنصب باسقاط الخافض اى بأن لاتعلوا على وقرئ ان لاتغلوا بالغين المعجمة اى لاتجاوزوا حدكم (وأتونى مسلمين) اى مؤمنين وقيل منقادين والاول هو الاليق بشأن النبى عليه الصلاة والسلام على ان الايمان مستتبع للانقياد حتما روى ان نسخة الكتاب من عبد الله سليمان ابن داود الى بلقيس ملكة سبأ السلام على من اتبع الهدى اما بعد فلا تعلوا على وأتونى مسلمين وليس الامر فيه بالاسلام قبل اقامة الحجة على رسالته حتى يتوهم كونه استدعاء للتقليد فان القاء الكتاب اليها على تلك الحالة معجزة باهرة دالة على رسالة مرسلها دلالة بينة (قالت) كررت حكاية قولها للايذان بغاية اعتنائها بما فى حيزه من قولها (ياأيها الملأ افتونى فى امرى) اى اجيبونى فى امرى الذى حزبنى وذكرت لكم خلاصته وعبرت عن الجواب بالفتوى التى هى الجواب فى الحوادث المشكلة غالبا تهويلا للامر ورفعا لمحلهم بالاشعار بأنهم قادرون على حل المشكلات المهمة وقوله (ما كنت قاطعة امرا) اى من الامور المتعلقة بالملك (حتى تشهدون) اى الا بمحضركم وبموجب آرائكم استعطاف لهم واستمالة لقلوبهم

الصدر والكز في الظهر وكان عليه السلام شديد البطش وقال بعض المفسرين فوكزه بعصاه قال المفضل هذا غلط لانه لا يقال وكزه بالعصا فقضى عليه اى أماته وقتله (المسئلة الرابعة) احتج بهذه الآية من طعن فى عصمة الانبياء عليهم السلام من وجوه (احدها) ان ذلك القبطى اما ان يقال انه كان مستحق القتل او لم يكن كذلك فان كان الاول فلم قال هذا من عمل الشيطان ولم قال رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له ولم قال فى سورة اخرى فعلتها اذا وأنا من الضالين وان كان الثانى وهو ان ذلك القبطى لم يكن مستحق القتل كان قتله معصية وذنبا (وثانيها) ان قوله وهذا من عدوه يدل على انه كان كافرا حربيا فكان دمه مباحا فلم استغفر عنه والاستغفار عن الفعل المباح غير جائز لانه يوهم فى المباح كونه حراما (وثالثها) ان الوكز لا يقصد به القتل ظاهرا فكان ذلك القتل قتل خطأ فلم استغفر منه (والجواب عن الاول) لم لا يجوز ان يقال انه كان لكفره مباح الدم اما قوله هذا من عمل الشيطان ففيه وجوه (احدها) لعل الله تعالى وان أباح قتل الكافر الا انه قال الاولى تأخير قتلهم الى زمان آخر فلما قتل فقد ترك ذلك المندوب فقوله هذا من عمل الشيطان معناه اقدامى على ترك المندوب من عمل الشيطان (وثانيها) ان قوله هذا اشارة الى عمل المقتول لا الى عمل نفسه فقوله هذا من عمل الشيطان اى عمل هذا المقتول من عمل الشيطان المراد منه بيان كونه مخالفا لله تعالى مستحقا للقتل (وثالثها) ان يكون قوله هذا اشارة الى المقتول يعنى انه من جند الشيطان وحزبه يقال فلان من عمل الشيطان اى من احزابه اما قوله رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى فعلى نهج قول آدم عليه السلام ربنا ظلمنا أنفسنا والمراد احد وجهين اما على سبيل الانقطاع الى الله تعالى والاعتراف بالتقصير عن القيام بحقوقه وان لم يكن هناك ذنب قط او من حيث حرم نفسه الثواب بترك المندوب اما قوله فاغفر لى اى فاغفر لى ترك هذا المندوب (وفيه وجه آخر) وهو ان يكون المراد رب انى ظلمت نفسى حيث قتلت هذا الملعون فان فرعون لو عرف ذلك لقتلنى به فاغفر لى اى فاستره على ولا توصل خبره الى فرعون فغفر له اى ستره عن الوصول الى فرعون ويدل على هذا التأويل انه عقبه قال قال رب بما انعمت على فلن اكون ظهيرا للمجرمين ولو كانت اعانة المؤمن ههنا سببا للمعصية لما قال ذلك واما قوله فعلتها اذا وأنا من الضالين فلم يقل انى صرت بذلك ضالا ولكن فرعون لما ادعى انه كان كافرا فى حال القتل نفى عن نفسه كونه كافرا فى ذلك الوقت واعترف بانه كان ضالا اى متحيرا لا يدرى ما يجب عليه ان يفعله وما يدبر به فى ذلك (اما قوله ان كان كافرا حربيا فلم استغفر من قتله) قلنا كون الكافر مباح الدم امر يختلف باختلاف الشرائع فلعل قتلهم كان حراما فى ذلك الوقت او ان كان مباحا لكن الاولى تركه على ما قررناه (قوله ذلك القتل كان قتل خطأ) قلنا لا نسلم فلعل الرجل كان ضعيفا وموسى عليه السلام كان فى نهاية الشدة فوكزه كان قاتلا قطعا ثم ان سلمنا ذلك ولكن لعله عليه السلام كان يمكنه ان يخلص الاسرائيلى من يده بدون ذلك الوكز الذى كان

لئلا يخالفوها فى الرأى والتدبير (قالوا) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية قولها كأنه قيل فماذا قالوا فى جوابها فقيل قالوا (نحن اولو قوة) فى الاجساد والآلات والعدد (واولو بأس شديد) اى نجدة وشجاعة مفرطة وبلاء فى الحرب (والامر اليك) اى هو موكول اليك (فانظرى ماذا تأمرين) ونحن مطيعون لك فمرينا بأمرك نمتثل به ونتبع رأيك او ارادوا نحن من ابناء الحرب لا من ابناء الرأى والمشورة واليك الرأى والتدبير فانظرى ماذا ترين نكن فى الخدمة فلما أحست منهم الميل الى الحراب والعدول عن سنن الصواب شرعت فى تزييف مقالتهم المبنية على الغفلة عن شأن سليمان عليه السلام وذلك قوله تعالى (قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية) من القرى على منهاج المقاتلة والحراب (افسدوها) بتخريب عماراتها واتلاف ما فيها من الاموال (وجعلوا اعزة اهلها اذلة) بالقتل والاسر والاجلاء وغير ذلك من فنون الاهانة والاذلال (وكذلك يفعلون) تأكيد لما وصفت من حالهم بطريق الاعتراض التذييلى وتقرير له بأن ذلك عادتهم المستمرة وقيل تصديق لها من جهة الله تعالى على طريقة قوله تعالى ولو جئنا بمثله مددا اثر قوله تعالى لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربى (وانى مرسلة اليهم بهدية) تقرير لرأيها بعد ما زيفت آراءهم واتت بالجملة الاسمية الدالة على الثبات المصدرة بحرف التحقيق للايذان بأنها مزمعة على رأيها لا يلويها عنه صارف

الاولى تركه فلهذا اقدم على الاستغفار على انا وان سلمنا دلالة هذه الآية على صدور المعصية لكننا بينا انه لادليل البتة على انه كان رسولا فى ذلك الوقت فيكون ذلك صادرا منه قبل النبوة وذلك لانزاع فيه (المسئلة الخامسة) قالت المعتزلة الآية دلت على بطلان قول من نسب المعاصى الى الله تعالى لانه عليه السلام قال هذا من عمل الشيطان فنسب المعصية الى الشيطان فلو كانت بخلق الله تعالى لكانت من الله لامن الشيطان وهو كقول يوسف عليه السلام من بعد ان نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى وقول صاحب موسى عليه السلام وما أنسانيه الا الشيطان وقوله تعالى لايفتننكم الشيطان كما اخرج أبويكم من الجنة اما قوله تعالى رب بما انعمت على فلن اكون ظهيرا للمجرمين ففيه وجوه (احدها) ان ظاهره يدل على انه قال انك لما انعمت على بهذا الانعام فانى لا اكون معاونا لأحد من المجرمين بل اكون معاونا للمسلمين وهذا يدل على ان ما اقدم عليه من اعانة الاسرائيلى على القبطى كان طاعة لامعصية اذ لو كانت معصية لنزل الكلام منزلة ما اذا قيل انك لما انعمت على بقبول توبتى من تلك المعصية فانى اكون مواظبا على مثل تلك المعصية (وثانيها) قال القفال كأنه اقسم بما انعم الله عليه ان لايظاهر مجرما والباء للقسم اى بنعمتك على (وثالثها) قال الكسائى والفراء انه خبر ومعناه الدعاء كأنه قال فلا تجعلنى ظهيرا قال الفراء وفى حرف عبد الله فلا تجعلنى ظهيرا واعلم ان فى الآية دلالة على انه لايجوز معاونة الظلمة والفسقة وقال ابن عباس لم يستثن ولم يقل فلن اكون ظهيرا ان شاء الله فابتلى به فى اليوم الثانى وهذا ضعيف لانه فى اليوم الثانى ترك الاعانة وانما خاف منه ذلك العدو فقال ان تريد الا ان تكون جبارا فى الارض لانه وقع منه * قوله تعالى (فأصبح فى المدينة خائفا يترقب فاذا الذى استنصره بالامس يستصرخه قال له موسى انك لغوى مبين فلما ان أراد ان يبطش بالذى هو عدو لهما قال ياموسى أتريد ان تقتلنى كما قتلت نفسا بالامس ان تريد الا ان تكون جبارا فى الارض وماتريد ان تكون من المصلحين وجاء رجل من اقصى المدينة يسعى قال ياموسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج انى لك من الناصحين فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين) اعلم ان عند موت ذلك الرجل من الوكز اصبح موسى عليه السلام من غد ذلك اليوم خائفا من ان يظهر انه هو القاتل فيطلب به وخرج على استتار فاذا الذى استنصره وهو الاسرائيلى بالامس يستصرخه يطلب نصرته بصياح وصراخ قال له موسى انك لغوى مبين قال اهل اللغة الغوى يجوز ان يكون فعيلا بمعنى مفعل اى انك لمغو لقومى فانى وقعت بالامس فيما وقعت فيه بسببك ويجوز ان يكون بمعنى الغاوى واحتج به من قدح فى عصمة الانبياء عليهم السلام فقال كيف يجوز لموسى عليه السلام ان يقول لرجل من شيعته يستصرخه انك لغوى مبين والجواب من وجهين (الاول) ان قوم موسى عليه السلام كانوا غلاظا جفاة ألا ترى الى قولهم بعد مشاهدة الآيات اجعل لنا الها كما لهم آلهة فالمراد بالغوى المبين

ولايثنيها عاطف اى وانى مرسلة اليهم رسلا بهدية عظيمة (فناظرة بم يرجع المرسلون) حتى اعمل بما يقتضيه الحال روى انها بعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجوارى وحليهن الاساور والاطواق والقرطة راكبى خيل مغشاة بالديباج محلاة اللجم والسروج بالذهب المرصع بالجواهر وخمسمائة جارية على رماك فى زى الغلمان والف لبنة من ذهب وفضة وتاجا مكللا بالدر والياقوت المرتفع والمسك والعنبر وحقا فيه درة عذراء وجزعة معوجة الثقب وبعثت رجلا من اشراف قومها المنذر بن عمرو وآخر ذا رأى وعقل وقالت ان كان نبيا ميز بين الغلمان والجوارى وثقب الدرة ثقبا مستويا وسلك فى الخرزة خيطا ثم قالت للمنذر ان نظر اليك نظر غضبان فهو ملك فلا يهولنك وان رأيته بشا لطيفا فهو نبى فأقبل الهدهد فأخبر سليمان عليه السلام بذلك فأمر الجن فضربوا لبن الذهب والفضة وفرشوه فى ميدان بين يديه طوله سبعة فراسخ وجعلوا حول الميدان حائطا شرفاته من الذهب والفضة وامر بأحسن الدواب فى البر والبحر فربطوها عن يمين الميدان ويساره على اللبن وامر بأولاد الجن وهم خلق كثير فأقيموا على اليمين واليسار ثم قعد على سريره والكراسى من جانبيه واصطفت الشياطين صفوفا فراسخ والانس صفوفا فراسخ والوحش والسباع والطيور والهوام كذلك فلما دنا القوم ونظروا وبهتوا ورأوا الدواب تروث على اللبن فتقاصرت اليهم نفوسهم ورموا

ذلك (الثانى) انه عليه السلام انما سماه غويا لان من تكثر منه المخاصمة على وجه يتعذر عليه دفع خصمه عما يرومه من ضرره يكون خلاف طريقة الرشد واختلفوا فى قوله تعالى قال ياموسى أتريد ان تقتلنى كما قتلت أهو من كلام الاسرائيلى او القبطى فقال بعضهم لما خاطب موسى الاسرائيلى بأنه غوى ورآه على غضب ظن لما هم بالبطش انه يريده فقال هذا القول وزعموا انه لم يعرف قتله بالامس لرجل الا هو وصار ذلك سببا لظهور القتل ومزيد الخوف وقال آخرون بل هو قول القبطى وقد كان عرف القصة من الاسرائيلى والظاهر هذا الوجه لانه تعالى قال فلما ان أراد ان يبطش بالذى هو عدو لهما قال ياموسى فهذا القول اذن منه لا من غيره وايضا فقوله تعالى ان تريد الا ان تكون جبارا فى الارض لايليق الا بأن يكون قولا للكافر واعلم ان الجبار الذى يفعل ما يريد من الضرب والقتل بظلم لاينظر فى العواقب ولا يدفع بالتى هى احسن وقيل المتعظم الذى لا يتواضع لامر أحد ولما وقعت هذه الواقعة انتشر الحديث فى المدينة وانتهى الى فرعون وهموا بقتله اما قوله تعالى وجاء رجل من اقصى المدينة يسعى قال صاحب الكشاف يسعى يجوز ارتفاعه وصفا لرجل وانتصابه حالا عنه لانه قد تخصص بقوله من اقصى المدينة والائتمار التشاور يقال الرجلان يأتمران لان كل واحد منهما يأمر صاحبه بشئ اويشير عليه بأمر والمعنى يتشاورون بسببك واكثر المفسرين على ان هذا الرجل مؤمن آل فرعون فعلى وجه الاشفاق اسرع اليه ليخوفه بأن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك اما قوله فخرج منها خائفا يترقب اى خائفا على نفسه من آل فرعون ينتظر هل يلحقه طلب فيؤخذ ثم التجأ الى الله تعالى لعلمه بأنه لا ملجأ سواه فقال رب نجنى من القوم الظالمين وهذا يدل على ان قتله لذلك القبطى لم يكن ذنبا والا لكان هو الظالم لهم وما كانوا ظالمين له بسبب طلبهم اياه ليقتلوه قصاصا ۞ قوله تعالى (ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى ان يهدينى سواء السبيل ولما ورد ماء مدين وجد عليه امة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ماخطبكما قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى الى الظل فقال رب انى لما انزلت الى من خير فقير فجاءته احداهما تمشى على استحياء قالت ان ابى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لاتخف نجوت من القوم الظالمين قالت احداهما ياابت استأجره ان خير من استأجرت القوى الامين قال انى اريد ان انكحك احدى ابنتى هاتين على ان تأجرنى ثمانى حجج فان اتممت عشرا فمن عندك وما اريد ان اشق عليك ستجدنى ان شاء الله من الصالحين قال ذلك بينى وبينك ايما الاجلين قضيت فلا عدوان على والله على مانقول وكيل) اعلم ان الناس اختلفوا فى قوله ولما توجه تلقاء مدين فقال بعضهم انه خرج وماقصد مدين ولكنه سلم نفسه الى الله تعالى وأخذ يمشى من غير معرفة فأوصله الله تعالى الى مدين وهذا قول ابن عباس وقال آخرون

بخاتمهم ولما وقفوا بين يديه نظر اليهم بوجه طلق وقال ماوراءكم وقال ابن الحق واخبره جبريل عليهما السلام بما فيه فقال لهم ان فيه كذا وكذا ثم امر بالارضة فأخذت شعرة ونفذت فى الدرة فجعل رزقها فى الشجرة واخذت دودة بيضاء الخيط بفيها ونفذت فى الجزعة فجعل رزقها فى الفواكه ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله فى الاخرى ثم تضرب به وجهها والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه ثم رد الهدية وذلك قوله تعالى (فلما جاء سليمان) اى الرسول (قال) اى مخاطبا للرسول والمرسل تغليبا للحاضر على الغائب وقيل للرسول ومن معه ويؤيده انه قرئ فلما جاؤا والاول اولى لما فيه من تشديد الانكار والتوبيخ وتعميمها لبلقيس وقومها ويؤيده الافراد فى قوله تعالى ارجع اليهم (اتمدوننى بمال) وهو انكار لامدادهم اياه عليه الصلاة والسلام بالمال مع علو شأنه وسعة سلطانه وتوبيخ لهم بذلك وتنكير مال للتحقير وقوله تعالى (فما آتانى الله) اى مما آتانيه من النبوة والملك الذى لاغاية وراءه (خير مما آتاكم) اى من المال الذى من جملته ما جئتم به فلا حاجة لى الى هديتكم ولا وقع لها عندى تعليل للانكار ولعله عليه الصلاة والسلام انما قال لهم هذه المقالة الى آخرها بعد ماجرى بينه وبينهم ما حكى من قصة الحق وغيرها كما اشير اليه لا انه عليه الصلاة والسلام خاطبهم بها اول ماجاؤه كما يفهم من ظاهر قوله تعالى فلما

لماخرج قصد مدين لانه وقع فى نفسه ان بينهم و بينه قرابة لانهم من ولد مدين بن ابراهيم عليه السلام وهو كان من بنى اسرائيل لكن لم يكن له علم بالطريق بل اعتمد على فضل الله تعالى ومن الناس من قال بل جاءه جبريل عليه السلام وعلمه الطريق وذكر ابن جرير عن السدى لما اخذ موسى عليه السلام فى المسير جاءه ملك على فرس فسجد له موسى من الفرح فقال لاتفعل واتبعنى فاتبعه نحو مدين واحتج من قال انه خرج وماقصد مدين بأمرين (احدهما) قوله ولما توجه تلقاء مدين ولو كان قاصدا للذهاب الى مدين لقال ولما توجه الى مدين فلما لم يقل ذلك بل قال توجه تلقاء مدين علمنا انه لم يتوجه الا الى ذلك الجانب من غير ان يعلم ان ذلك الجانب الى اين ينتهى (والثانى) قوله عسى ربى ان يهدينى سواء السبيل وهذا كلام شاك لا عالم والاقرب ان يقال انه قصد الذهاب الى مدين وما كان عالما بالطريق ثم انه كان يسأل الناس عن كيفية الطريق لانه يبعد من موسى عليه السلام فى عقله وذكائه ان لا يسأل ثم قال ابن اسحق خرج من مصر الى مدين بغير زاد ولا ظهر وبينهما مسيرة ثمانية ايام ولم يكن له طعام الا ورق الشجر اما قوله عسى ربى ان يهدينى سواء السبيل فهو نظير قول جده ابراهيم عليه السلام انى ذاهب الى ربى سيهدين وموسى عليه السلام قلما يذكر كلاما فى الاستدلال والجواب والدعاء والتضرع الا ماذكره ابراهيم عليه السلام وهكذا الخلف الصدق للسلف الصالح صلوات الله عليهم وعلى جميع الطيبين الطاهرين قوله تعالى ولما ورد ماء مدين وهو الماء الذى يسقون منه وكان بئرا فيما روى ووروده مجيئه والوصول اليه وجد عليه اى فوق شفيره ومستقاه امة جماعة كثيرة العدد من الناس من اناس مختلفين ووجد من دونهم فى مكان اسفل من مكانهم امرأتين تذودان والذود الدفع والطرد فقوله تذودان اى تحبسان ثم فيه اقوال (الاول) تحبسان اغنامهما واختلفوا فى علة ذلك الحبس على وجوه (احدها) قال الزجاج لان على الماء من كان اقوى منهما فلا تتمكنان من السقى (وثانيها) كانتا تكرهان المزاحمة على الماء (وثالثها) لئلا تختلط اغنامهما باغنامهم (ورابعها) لئلا تختلطا بالرجال (القول الثانى) كانتا تذودان عن وجوههما نظر الناظر لبراهما (القول الثالث) تذودان الناس عن غنمهما (القول الرابع) قال الفراء تحبسانها عن ان تتفرق وتتسرب قال ماخطبكما اى ماشأنكما وحقيقته مامخطوبكما اى مطلوبكما من الذياد فسمى المخطوب خطبا كما يسمى المشؤن شأنا فى قولك ماشأنك فقالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء وابونا شيخ كبير وذلك يدل على ضعفهما عن السقى من وجوه (احدها) ان العادة فى السقى للرجال والنساء يضعفن عن ذلك (وثانيها) ماظهر من ذودهما الماشية على طريق التأخير (وثالثها) قولهما حتى يصدر الرعاء (ورابعها) انتظارهما لما يبقى من القوم من الماء (وخامسها) قولهما وأبونا شيخ كبير ودلالة ذلك على انه لو كان قويا حضر ولو حضر لما تأخر السقى فعند ذلك سقى لهما قبل صدر الرعاء وعادتا الى أبيهما قبل الوقت المعتاد

جاءالح وقرئ أتمدونى بالادغام وبنون واحدة وبنونين وحذف اليا وقوله تعالى (بل انتم بهديتكم تفرحون) اضراب عماذكر من انكار الامداد بالمال الى التوبيخ بفرحهم بهديتهم التى اهدوها اليه عليه الصلاة والسلام فرح افتخار وامتنان واعتداد بها كما ينبئ عنه ماذكر من حديث الحق والجزعة وتغيير زى الغلمان والجوارى وغير ذلك وفائدة الاضراب التنبيه على ان امداده عليه الصلاة والسلام بالمال منكر قبيح وعد ذلك مع انه لاقدرله عنده عليه الصلاة والسلام مما يتنافس فيه المتنافسون اقبح والتوبيخ به ادخل وقيل المضاف اليه المهدى اليه والمعنى بل انتم بما يهدى اليكم تفرحون حبا لزيادة المال لما انكم لاتعلمون الا ظاهرا من الحياة الدنيا (ارجع) فرد الضمير ههنا بعد جمع الضمائر الخمسة فيما سبق لاختصاص الرجوع بالرسول وعموم الامداد ونحوه للكل اى ارجع ايها الرسول (اليهم) اى الى بلقيس وقومها (فلنأتينهم) اى فوالله لنأتينهم (بجنود لاقبل لهم بها) اى لاطاقة لهم بمقاومتها ولاقدرة لهم على مقابلتها وقرئ بهم (ولنخرجنهم) عطف على جواب القسم (منها) من سبأ (اذلة) اى حال كونهم اذلة بعد ماكانوا فيه من العز والتمكين وفى جمع القلة تأكيد لذلتهم وقوله تعالى (وهم صاغرون) اى اسارى مهانون حال اخرى مفيدة لكون اخراجهم بطريق الاسر لابطريق الاجلاء وعدم وقوع جواب

قرأ ابو عمرو وابن عامر وعاصم بفتح الياء وضم الدال وقرأ الباقون بضم الياء وكسر الدال فالمعنى في القراءة الاولى حتى ينصرفوا عن الماء و يرجعوا عن سقيهم وصدر ضد ورد ومن قرأ بضم الياء فالمعنى في القراءة حتى يصدر القوم مواشيهم اما قوله فسقى لهما اى سقى غنمهما لاجلهما وفي كيفية السقى اقوال (احدها) انه عليه السلام سأل القوم ان يسمحوا فسمحوا (وثانيها) قال قوم عمد الى بئر على رأسه صخرة لا يقلها الا عشرة وقيل اربعون وقيل مائة فنحاها بنفسه واستقى الماء من ذلك البئر (وثالثها) ان القوم لما زاحمهم موسى عليه السلام تعمدوا القاء ذلك الحجر على رأس البئر فهو عليه السلام رمى ذلك الحجر وسقى لهما وليس بيان ذلك في القرآن والله اعلم بالصحيح منه لكن المرأة وصفت موسى عليه السلام بالقوة فدل ذلك على انها شاهدت منه ما يدل على فضل قوته وقال تعالى ثم تولى الى الظل وفيه دلالة على انه سقى لهما في شمس وحر وفيه دلالة ايضا على كمال قوة موسى عليه السلام قال الكلبي اتى موسى اهل الماء فسألهم دلوا من ماء فقالوا له ان شئت ائت الدلو فاستق لهما قال نعم وكان يجتمع على الدلو اربعون رجلا حتى يخرجوه من البئر فأخذ موسى عليه السلام الدلو فاستقى به وحده وصب في الحوض ودعا بالبركة ثم قرب غنمهما فشربت حتى رويت ثم سرحهما مع غنمهما فان قيل كيف ساغ لنبي الله الذي هو شعيب ان يرضى لابنتيه بسقي الماشية قلنا ليس في القرآن ما يدل على ان اباهما كان شعيبا والناس مختلفون فيه فقال ابن عباس رضي الله عنهما ان اباهما هو يثرون ابن اخي شعيب وشعيب مات بعد ما عمى وهو اختيار ابي عبيد (وقال) الحسن انه رجل مسلم قبل الدين عن شعيب على انا وان سلمنا انه كان شعيبا عليه السلام لكن لا مفسدة فيه لان الدين لا يأباه واما المروءة فالناس فيها مختلفون واحوال اهل البادية غير احوال اهل الحضر لا سيما اذا كانت الحالة حالة الضرورة واما قوله قال رب اني لما انزلت الي من خير فقير فالمعنى اني لاى شيء انزلت الي من خير قليل او كثير غث او سمين لفقير وانما عدى فقيرا باللام لانه ضمن معنى سائل وطالب (واعلم) ان هذا الكلام يدل على الحاجة اما الى الطعام او الى غيره الا ان المفسرين حملوه على الطعام قال ابن عباس يريد طعاما يأكله وقال الضحاك مكث سبعة ايام لم يذق فيها طعاما الا بقل الارض وروى ان موسى عليه السلام لما قال ذلك رفع صوته ليسمع المرأتين ذلك فان قيل انه عليه السلام لما بقي معه من القوة ما قدر بها على حمل ذلك الدلو العظيم فكيف يليق بهمته العالية ان يطلب الطعام أليس انه عليه السلام قال لا تحل الصدقة لغني ولا لذي قوة سوى قلنا اما رفع الصوت بذلك لاسماع المرأتين وطلب الطعام فذلك لا يليق بموسى عليه السلام البتة فلا تقبل تلك الرواية ولكن لعله عليه السلام قال ذلك في نفسه مع ربه تعالى وفي الآية وجه آخر كأنه قال رب اني بسبب ما انزلت الي من خير الدين صرت فقيرا في الدنيا لانه كان عند فرعون في ملك وثروة فقال ذلك رضا بهذا البدل وفرحا به وشكرا له وهذا التأويل اليق

(بحال)

القسم لانه كان معلقا بشرط فقد حذف عند الحكاية ثقة بدلالة الحال عليه كأنه قيل ارجع اليهم فليأتوا مسلمين والا فلنأتينهم الخ (قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها) قاله عليه الصلاة والسلام لما دنا مجيء بلقيس اليه عليه الصلاة والسلام يروى انه لما رجعت رسلها اليها بما حكى من خبر سليمان عليه السلام قالت قد علمت والله ما هذا بملك ولا لنا به من طاقة وبعثت الى سليمان عليه السلام اني قادمة اليك بملوك قومي حتى انظر ما امرك وما تدعو اليه من دينك ثم آذنت بالرحيل الى سليمان عليه السلام فشخصت اليه في اثني عشر الف قيل تحت كل قيل الوف ويروى انها امرت فجعل عرشها في آخر سبعة ابيات بعضها في بعض في آخر قصر من قصور سبعة لها وغلقت الابواب ووكلت به حرسا يحفظونه ولعله اوحى الى سليمان عليه السلام باستيثاقها من عرشها فأراد ان يريها بعض ما خصه الله عز سلطانه به من اجراء العجائب على يده مع اطلاعها على عظيم قدرته تعالى وصحة نبوته عليه الصلاة والسلام ويختبر عقلها بأن ينكر عرشها فينظر أتعرفه ام لا وتقييد الاتيان بقوله تعالى (قبل ان يأتوني مسلمين) لما ان ذلك ابدع واغرب وابعد من الوقوع عادة وادل على عظم قدرة الله تعالى وصحة نبوته عليه الصلاة والسلام وليكون اختبارها واطلاعها على بدائع المعجزات في اول مجيئها وقيل لانها اذا اتت مسلمة لم يحل له اخذ مالها بغير رضاها (قال عفريت) اى مارد خبيث (من الجن) بيان له

بحال موسى عليه السلام اما قوله تعالى فجاءته احداهما تمشي على استحياء فقوله على
استحياء في موضع الحال اى مستحية قال عمر بن الخطاب قد استترت بكم قميصها وقيل
ماشية على بعد مائلة عن الرجال (وقال) عبد العزيز بن ابي حازم على اجلال ومنهم من
يقف على قوله تمشي ثم يبتدئ فيقول على استحياء قالت ان ابي يدعوك يعني انها على
الاستحياء قالت هذا القول لان الكريم اذا دعا غيره الى الضيافة يستحيي لاسيما المرأة
وفي ذلك دلالة على ان شعيبا لم يكن له معين سواهما وروى انهما لما رجعتا الى ابيهما
قبل الناس قال لهما ما اعجلكما قالتا وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا فقال لاحداهما
اذهبي فادعيه لي اما الاختلاف في ان ذلك الشيخ كان شعيبا عليه السلام او غيره
فقد تقدم والاكثرون على انه شعيب وقال محمد بن اسحق في البنتين اسم الكبرى صفورا
والصغرى لبا وقال غيره صفرا وصفيرا وقال الضحاك صافورا والتي جاءت الى موسى
عليه السلام هي الكبرى على قول الاكثرين وقال الكلبي هي الصغرى وليس في القرآن
دلالة على شئ من هذه التفاصيل اما قوله قالت ان ابي يدعوك ليجزيك اجر ما سقيت لنا
ففيه اشكالات (احدها) كيف ساغ لموسى عليه السلام ان يعمل بقول امرأة وان يمشي
معها وهي اجنبية فان ذلك يورث التهمة العظيمة وقال عليه السلام اتقوا مواضع التهم
(وثانيها) انه سقى اغنامهما تقربا الى الله تعالى فكيف يليق به اخذ الاجرة عليه فان ذلك
غير جائز في المروءة ولا في الشريعة (وثالثها) انه عرف فقرهن وفقر ابيهن وعجزهم وانه
عليه السلام كان في نهاية القوة بحيث كان يمكنه الكسب الكثير باقل سعي فكيف يليق
بمروءته طلب الاجرة على ذلك القدر من السقي من الشيخ الفقير والمرأة الفقيرة (ورابعها)
كيف يليق بشعيب النبي عليه السلام ان يبعث ابنته الشابة الى رجل شاب قبل العلم
بكون ذلك الرجل عفيفا او فاسقا (والجواب عن الاول) ان نقول اما العمل بقول
امرأة فكما نعمل بقول الواحد حرا كان او عبدا ذكرا كان او انثى في الاخبار وما
كانت الا مخبرة عن ابيها واما المشي مع المرأة فلا بأس به مع الاحتياط والتورع
(والجواب عن الثاني) ان المرأة وان قالت ذلك فلعل موسى عليه السلام ما ذهب اليهم طلبا
للاجرة بل للتبرك برؤية ذلك الشيخ وروى انها لما قالت ليجزيك كره ذلك ولما قدم اليه
الطعام امتنع وقال انا اهل بيت لانبيع ديننا بدنيانا ولا نأخذ على المعروف ثمنا حتى قال
شعيب عليه السلام هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا وايضا فليس بمنكر ان الجوع قد بلغ الى
حيث ما كان يطيق تحمله فقبل ذلك على سبيل الاضطرار وهذا هو الجواب عن الثالث
فان الضرورات تبيح المحظورات (والجواب عن الرابع) لعله عليه السلام كان قد علم بالوحي
طهارتها وبراءتها فكان يعتمد عليها اما قوله فلما جاءه قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه
فقام يمشي والجارية امامه فهبت الريح فكشفت عنها فقال موسى عليه السلام اني من
عنصر ابراهيم عليه السلام فكوني من خلفي حتى لا ترفع الريح ثيابك فأرى ما لا يحل لي

اذ يقال للرجل الخبيث المنكر
المعفر لاقرانه وكان اسمه ذكوان
او صخرا (انا آتيك به) اى
بعرشها (قبل ان تقوم من
مقامك) اى من مجلسك
للحكومة وكان يجلس الى نصف
النهار وآتيك اما صيغة المضارع
او الفاعل وهو الانسب لمقام
ادعاء الاتيان به لامحالة واوفق
لما عطف عليه من الجملة الاسمية
اى انا آت به في تلك المدة البتة
(وانى عليه) اى على الاتيان به
(لقوى) لايثقل على حمله (امين)
لا اختزل منه شيئا ولا ابدله (قال
الذى عنده علم من الكتاب) فصل
عما قبله للايذان بما بين القائلين
ومقاليهما وكيفيتي قدرتهما
على الاتيان به من كمال التباين
او لاسقاط الاول عن درجة
الاعتبار قيل هو آصف بن برخيا
وزير سليمان عليه السلام وقيل
رجل كان عنده اسم الله الاعظم
الذى اذا سئل به اجاب وقيل
الخضر او جبريل او ملك ايده الله
عز وجل به عليه السلام وقيل
هو سليمان نفسه عليه السلام وفيه
بعد لايخفى والمراد بالكتاب الجنس
المنتظم لجميع الكتب المنزلة
او اللوح وتنكير علم للتفخيم
والرمز الى انه علم غير معهود ومن
ابتدائية (انا آتيك به قبل ان
يرتد اليك طرفك) الطرف تحريك
الاجفان وفتحها للنظر الى شئ
وارتداده انضمامها ولكونه
امرا طبيعيا غير منوط بالقصد اوثر
الارتداد على الرد ولما لم يكن بين
هذا الوعد وانجازه مدة ما كما
في وعد العفريت استغنى عن
التأكيد وطوى عند الحكاية
ذكر الاتيان به للايذان بأنه امر
متحقق غني عن الاخبار به وهي
بالفاء الفصيحة لادخلة على جملة

فلما دخل على شعيب فاذا الطعام موضوع فقال شعيب تناول يافتى فقال موسى عليه السلام اعوذ بالله قال شعيب ولم قال لانا من اهل بيت لانبيع ديننا بملء الارض ذهبا فقال شعيب ولكن عادتى وعادة آبائى اطعام الضيف فجلس موسى عليه السلام فأكل وانما كره أكل الطعام خشية ان يكون ذلك اجرة له على عمله ولم يكره ذلك مع الخضر حين قال لو شئت لاتخذت عليه اجرا والفرق ان اخذ الاجرة على الصدقة لايجوز اما الاستئجار ابتداء فغير مكروه واما قوله وقص عليه القصص فالقصص مصدر كالعلل سمى به المقصوص قال الضحاك لما دخل عليه قال له من انت ياعبد الله فقال انا موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب وذكر له جميع امره من لدن ولادته وامر القوابل والمراضع والقذف فى اليم وقتل القبطى وانهم يطلبونه ليقتلوه فقال شعيب لاتخف نجوت من القوم الظالمين اى لاسلطان له بأرضنا فلسنا فى مملكته وليس فى الآية دلالة على انه قال ذلك عن الوحى او على ماتقتضيه العادة (فان قيل) المفسرون قالوا ان فرعون يوم ركب خلف موسى عليه السلام ركب فى ألف ألف وستمائة ألف فالملك الذى هذا شأنه كيف يعقل ان لايكون فى ملكه قرية على بعد ثمانية ايام من دار مملكته (قلنا) هذا وان كان نادرا الا انه ليس بمحال اما قوله تعالى قالت احداهما ياأبت استأجره ان خير من استأجرت القوى الامين ففيه مسائل (المسئلة الاولى) وصفته بالقوة لما شاهدت من كيفية السقى وبالامانة لما حكينا من غض بصره حال ذودهما الماشية وحال سقيه لهما وحال مشيه بين يديها الى ابيها (المسئلة الثانية) انما جعل خير من استأجرت اسما والقوى الامين خبرا مع ان العكس اولى لان العناية هى سبب التقديم (المسئلة الثالثة) القوة والامانة لايكفيان فى حصول المقصود مالم ينضم اليهما الفطنة والكياسة فلم اهمل امر الكياسة ويمكن ان يقال انها داخلة فى الامانة عن ابن مسعود رضى الله عنه افرس الناس ثلاثة بنت شعيب وصاحب يوسف وابو بكر فى عمر اما قوله تعالى قال انى أريد ان انكحك احدى ابنتى هاتين فلاشبهة فى ان هذا اللفظ وان كان على الترديد لكنه عند التزويج عين ولا شبهة فى ان العقد وقع على اقل الاجلين فكانت الزيادة كالتبرع والفقهاء ربما استدلوا به على ان العمل قد يكون مهرا كالمال وعلى ان الحاق الزيادة بالثمن والمثمن جائز ولكنه شرع من قبلنا فلا يلزمنا ويدل على انه قد كان جائزا فى تلك الشريعة ان يشرط للولى منفعة وعلى انه كان جائزا فى تلك الشريعة نكاح المرأة بغير بدل تستحقه المرأة وعلى ان عقد النكاح لاتفسده الشروط التى لايوجبها العقد ثم قال على ان تأجرنى ثمانى حجج تأجرنى من أجرته اذا كنت له أجيرا وثمانى حجج ظرفه او من أجرته كذا اذا أثبته اياه ومنه أجركم الله ورحمكم وثمانى حجج مفعول به ومعناه رعية ثمانى حجج ثم قال وما اريد ان اشق عليك وفيه وجهان (الاول) لا اريد ان اشق عليك بالزام أتم الاجلين فان قيل ماحقيقة قولهم شققت عليه وشق عليه الامر قلنا حقيقته ان الامر اذا تعاظمك فكأنه

معطوفة على جملة مقدرة دالة على تحققه فقط كما فى قوله عز وجل فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق وتظائره بل داخلة على الشرطية حيث قيل (فلما رآه مستقرا عنده) اى رأى العرش حاضرا لديه كما فى قوله عز وجل فلما رأينه اكبرنه للدلالة على كمال ظهوره مما ذكر من تحققه واستغنائه عن الاخبار به ببيان ظهور مايترتب عليه من رؤية سليمان عليه السلام اياه واستغنائه ايضا عن التصريح به اذ التقدير فأتاه به فرآه فلما رآه الخ فحذف ماحذف لما ذكر وللايذان بكمال سرعة الاتيان به كأنه لم يقع بين الوعد به وبين رؤيته عليه الصلاة والسلام ايانى ماأصلا وفى تقييد رؤيته باستقراره عنده عليه الصلاة والسلام تأكيد لهذا المعنى لايهامه انه لم يتوسط بينهما ابتداء الاتيان ايضا كأنه لم يزل موجودا عنده مع مافيه من الدلالة على دوام قراره عنده منتظما فى سلك ملكه (قال) اى سليمان عليه السلام تلقيا للنعمة بالشكر جريا على سنن ابناء جنسه من انبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام وخلص عباده (هذا) اى حضور العرش بين يديه فى هذه المدة القصيرة او التمكن من احضاره بالواسطة او بالذات كما قيل (من فضل ربى) اى تفضله على من غير استحقاق له من قبلى (ليبلونى أأشكر) بأن اراه محض فضله تعالى من غير حول من جهتى ولا قوة واقوم بحقه (أم اكفر) بأن اجد لنفسى مدخلا فى البين او اقصر فى اقامة مواجبه كما هو شأن سائر النعم الفائضة على العباد (ومن شكر فانما يشكر لنفسه)

شق عليك فنك باثنين تقول تارة اطيقه وتارة لا اطيقه (الثانى) لا اريد ان اشق عليك فى الرعى ولكنى اساهلك فيها واسامحك بقدر الامكان ولا اكلفك الاحتياط الشديد فى كيفية الرعى وهكذا كان الانبياء عليهم السلام آخذين بالاسمح فى معاملات الناس ومنه الحديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم شريكى فكان خير شريك لا يدارى ولا يشارى ولا يمارى ثم قال ستجدنى ان شاء الله من الصالحين وفيه وجهان (الاول) يريد بالصلاح حسن المعاملة ولين الجانب (والثانى) يريد الصلاح على العموم ويدخل تحته حسن المعاملة وانما قال ان شاء الله للاتكال على توفيقه ومعونته * فان قيل فالعقد كيف ينعقد مع هذا الشرط فانك لو قلت امرأتى طالق ان شاء الله لا تطلق * قلنا هذا مما يختلف بالشرائع اما قوله تعالى قال ذلك بينى وبينك فاعلم ان ذلك مبتدأ وبينى وبينك خبره وهو اشارة الى ما عاهده عليه شعيب عليه السلام يريد ذلك الذى قلته وعاهدتنى عليه قائم بيننا جميعا لا يخرج كلانا عنه لا أنا عما شرطت على ولا انت عما شرطت على نفسك ثم قال ايما الاجلين قضيت من الاجلين اطولهما الذى هو العشر او أقصرهما الذى هو الثمان فلا عدوان على اى لا يعتدى على فى طلب الزيادة اراد بذلك تقرير امر الخيار يعنى ان شاء هذا وان شاء هذا ويكون اختيار الاجل الزائد موكولا الى رأيه من غير ان يكون لاحد عليه اجبار ثم قال والله على ما نقول وكيل والوكيل هو الذى وكل اليه الامر ولما استعمل الوكيل فى معنى الشاهد عدى بعلى لهذا السبب * قوله تعالى (فلما قضى موسى الاجل وسار باهله آنس من جانب الطور نارا قال لاهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر او جذوة من النار لعلكم تصطلون فلما أتاها نودى من شاطئ الواد الايمن فى البقعة المباركة من الشجرة ان ياموسى انى أنا الله رب العالمين وان الق عصاك فلما رآها تهتز كانها جان ولى مدبرا ولم يعقب ياموسى اقبل ولا تخف انك من الآمنين اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم اليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملائه انهم كانوا قوما فاسقين) اعلم انه روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال تزوج صغراهما وقضى اوفاهما اى قضى اوفى الاجلين وقال مجاهد قضى الاجل عشر سنين ومكث بعد ذلك عنده عشر سنين وقوله فلما قضى موسى الاجل وسار باهله آنس يدل على ان ذلك الايناس حصل عقيب مجموع الامرين ولا يدل على انه حصل عقيب احدهما وهو قضاء الاجل فبطل ما قاله القاضى من ان ذلك يدل على انه لم يزد عليه وقوله وسار باهله ليس فيه دلالة على انه خرج منفردا معها وقوله امكثوا فيه دلالة على الجمع اما قوله انى آنست نارا فقد مر تفسيره فى سورة طه وسورة النمل اما قوله لعلى آتيكم منها بخبر او جذوة من النار لعلكم تصطلون ففيه ابحاث (الاول) قال صاحب الكشاف الجذوة باللغات الثلاث وقد قرئ بهن جميعا وهو العود الغليظ كانت فى رأسه نار أو لم تكن قال الزجاج الجذوة القطعة الغليظة من الحطب (الثانى) قد حكينا فى سورة طه انه اظلم عليه الليل فى

لانه يرتبط به قيدها ويستجلب مزيدها ويحط به عن ذمته عبء الواجب ويتخلص عن وصمة الكفران (ومن كفر) اى لم يشكر (فان ربى غنى) عن شكره (كريم) بترك تعجيل العقوبة والانعام مع عدم الشكر ايضا (قال) اى سليمان عليه السلام كررت الحكاية مع كون المحكى سابقا ولا حقا من كلامه عليه الصلاة والسلام تنبيها على ما بين السابق واللاحق من المخالفة لما ان الاول من باب الشكر لله تعالى والثانى امر لخدمه (نكروا لها عرشها) اى غيروا هيئته بوجه من الوجوه (ننظر) بالجزم على انه جواب الامر وقرئ بالرفع على الاستئناف (اتهتدى) الى معرفته او الى الجواب اللائق بالمقام وقيل الى الايمان بالله تعالى ورسوله عند رؤيتها تقدم عرشها من مسافة طويلة فى مدة قليلة وقد خلفته مغلقة عليه الابواب موكلة عليه الحراس والحجاب ويأباه تعليق النظر المتعلق بالاهتداء بالتنكير فان ذلك مما لا دخل فيه للتنكير (ام تكون) اى بالنسبة الى علمنا (من الذين لا يهتدون) اى الى ما ذكر من معرفة عرشها او الجواب الصواب فان كونها فى نفس الامر منهم وان كان امرا مستمرا لكن كونها منهم عند سليمان عليه السلام وقومه امر حادث يظهر بالاختبار (فلما جاءت) شروع فى حكاية التجربة التى قصدها سليمان عليه السلام اى فلما جاءت بلقيس سليمان عليه السلام وقد كان العرش بين يديه (قيل) اى من جهة

الصحراء وهبت ريح شديدة فرقت ماشيته وضل واصابهم مطر فوجدوا بردا شديدا فعنده ابصر نارا بعيدة فسار اليها يطلب من يدله على الطريق وهو قوله آتيكم منها بخبر او آتيكم من هذه النار بجذوة من الحطب لعلكم تصطلون وفى قوله لعلى آتيكم منها بخبر دلالة على انه ضل وفى قوله لعلكم تصطلون دلالة على البرد اما قوله فلما أتاها نودى من شاطئ الواد الايمن فى البقعة المباركة من الشجرة ان ياموسى انى انا الله رب العالمين فاعلم ان شاطئ الوادى جانبه وجاء النداء عن يمين موسى من شاطئ الوادى من قبل الشجرة وقوله من الشجرة بدل من قوله من شاطئ الوادى بدل الاشتمال لان الشجرة كانت نابتة على الشاطئ كقوله لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم وانما وصف البقعة بكونها مباركة لانه حصل فيها ابتداء الرسالة وتكليم الله تعالى اياه وههنا مسائل (المسئلة الاولى) احتجت المعتزلة على قولهم ان الله تعالى متكلم بكلام يخلقه فى جسم بقوله من الشجرة فان هذا صريح فى أن موسى عليه السلام سمع النداء من الشجرة والمتكلم بذلك النداء هو الله سبحانه وهو تعالى منزه عن ان يكون فى جسم فثبت انه تعالى انما يتكلم بخلق الكلام فى جسم (اجاب) القائلون بقدم الكلام فقالوا لنا مذهبان (الاول) قول ابى منصور الماتريدى وائمة ماوراء النهر وهو ان الكلام القديم القائم بذات الله تعالى غير مسموع انما المسموع هو الصوت والحروف وذلك كان مخلوقا فى الشجرة ومسموعا منها وعلى هذا التقدير زال السؤال (الثانى) قول ابى الحسن الاشعرى وهو ان الكلام الذى ليس بحرف ولا صوت يمكن ان يكون مسموعا كما ان الذات التى ليست بجسم ولا عرض يمكن ان تكون مرئية فعلى هذا القول لا يبعد انه سمع الحرف والصوت من الشجرة وسمع الكلام القديم من الله تعالى لا من الشجرة فلا منافاة بين الامرين واحتج اهل السنة بأن محل قوله انى انا الله رب العالمين لو كان هو الشجرة لكان قد قالت الشجرة انى انا الله والمعتزلة اجابوا بأن هذا انما يلزم لو كان المتكلم بالكلام هو محل الكلام لا فاعله وهذا هو اصل المسئلة اجاب اهل السنة بأن الذراع المسموم قال لا تأكل منى فانى مسموم ففاعل ذلك الكلام هو الله تعالى فان كان المتكلم بالكلام هو فاعل ذلك الكلام لزم ان يكون الله قد قال لا تأكل منى فانى مسموم وهذا باطل وان كان المتكلم هو محل الكلام لزم ان تكون الشجرة قد قالت انى انا الله وكل ذلك باطل (المسئلة الثانية) يحتمل ان يقال انه تعالى خلق فيه علما ضروريا بأن ذلك الكلام كلام الله والمعتزلة لا يرضون بذلك قالوا لانه لو علم بالضرورة ان ذلك الكلام كلام الله لوجب ان يعلم بالضرورة وجود الله تعالى لانه يستحيل ان تكون الصفة معلومة بالضرورة والذات معلومة بالنظر ولو علم موسى انه الله تعالى بالضرورة لزال التكليف ويحتمل ان يقال انه تعالى لما اسمعه الكلام الذى ليس بحرف ولا صوت عرف ان مثل ذلك الكلام لا يمكن ان يكون كلام الخلق ويحتمل ان يقال ان ظهور الكلام من الشجرة كظهور التسبيح من الحصى فى انه يعلم ان مثل ذلك

(لا يكون)

سليمان عليه السلام بالذات او بالواسطة (اهكذا عرشك) لم يقل اهذا عرشك لئلا يكون تلقينا لها فيفوت ماهو المقصود من الامر بالتنكير من ابراز العرش فى معرض الاشكال والاشتباه حتى يتبين حالها وقد ذكرت عنده عليه الصلاة والسلام بسخافة العقل (قالت كأنه هو) فأبانت عن كمال رجاحة عقلها حيث لم تقل هو هو مع علمها بحقيقة الحال تلويحا بما اعتراه بالتنكير من نوع مغايرة فى الصفات مع اتحاد الذات ومراعاة لحسن الادب فى محاورته عليه الصلاة والسلام (واوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين) من تتمة كلامها كأنها ظنت انه عليه الصلاة والسلام اراد بذلك اختبار عقلها واظهار معجزة لها فقالت اوتينا العلم بكمال قدرة الله تعالى وصحة نبوتك من قبل هذه المعجزة التى شاهدناها بما سمعناه من المخبرين من الآيات الدالة على ذلك وكنا مسلمين من ذلك الوقت وفيه من الدلالة على كمال رزانة رأيها ورصانة فكرها مالا يخفى وقوله تعالى (وصدها ما كانت تعبد من دون الله) بيان من جهته تعالى لما كان يمنعها من اظهار ماادعته من الاسلام الى الآن اى صدها عن ذلك عبادتها القديمة للشمس وقوله تعالى (انها كانت من قوم كافرين) تعليل لسببية عبادتها المذكورة للصد اى انها كانت من قوم راسخين فى الكفر ولذلك لم تكن قادرة على اظهار اسلامها وهى بين ظهرانيهم الى ان دخلت تحت ملكة سليمان عليه السلام وقرئ انها بالفتح على البدلية من

لايكون الامن الله تعالى ويحتمل ان يكون المعجز هو انه رأى النار فى الشجرة الرطبة فعلم انه لايقدر على الجمع بين النار وبين خضرة الشجرة الا الله تعالى ويحتمل ان يصح ماروى ان ابليس لما قال له كيف عرفت انه نداء الله تعالى قال لأنى سمعته بجميع اجزائى فلما وجد حس السمع من جميع الاجزاء علم ان ذلك مما لايقدر عليه احد سوى الله تعالى وهذا انما يصح على مذهبنا حيث قلنا البنية ليست شرطا (المسئلة الثالثة) قال فى سورة النمل نودى ان بورك من فى النار ومن حولها وقال ههنا نودى انى أنا الله رب العالمين وقال فى طه نودى انى أنا ربك ولا منافاة بين هذه الاشياء فهو تعالى ذكر الكل الا انه حكى فى كل سورة بعض ما اشتمل عليه ذلك النداء (المسئلة الرابعة) قال الحسن ان موسى عليه السلام نودى نداء الوحى لانداء الكلام والدليل عليه قوله تعالى فاستمع لما يوحى قال الجمهور ان الله تعالى كلمه من غير واسطة والدليل عليه قوله تعالى وكلم الله موسى تكليما وسائر الآيات واما الذى تمسك به الحسن فضعيف لان قوله تعالى فاستمع لما يوحى لم يكن بالوحى لانه لو كان ذلك ايضا بالوحى لانتهى آخر الامر الى كلام يسمعه المكلف لابالوحى والالزم التسلسل بل المراد من قوله فاستمع لما يوحى وصيته بأن يتشدد فى الامور التى تصل اليه فى مستقبل الزمان بالوحى اما قوله تعالى وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ياموسى أقبل ولا تخف انك من الآمنين فقد تقدم تفسير كل ذلك وقوله تعالى كأنها جان صريح فى انه تعالى شبهها بالجان ولم يقل انه فى نفسه جان فلا يكون هذا مناقضا لكونه ثعبانا بل شبهها بالجان من حيث الاهتزاز والحركة لامن حيث المقدار وقد تقدم الكلام فى خوفه ومعنى لم يعقب لم يرجع يقال عقب المقاتل اذا كر بعد الفر وقال وهب انها لم تدع شجرة ولا صخرة الا ابتلعتها حتى سمع موسى عليه السلام صرير اسنانها وسمع قعقعة الصخر فى جوفها فحينئذ ولى واختلفوا فى العصا على وجوه (احدها) قالوا ان شعيبا كانت عنده عصى الانبياء عليهم السلام فقال لموسى بالليل اذا دخلت ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصى فأخذ عصا هبط بها آدم عليه السلام من الجنة ولم تزل الانبياء تتوارثها حتى وقعت الى شعيب عليه السلام فقال أرنى العصا فلمسها وكان مكفوفا فضن بها فقال خذ غيرها فما وقع فى يده الاهى سبع مرات فعلم ان له شأنا (وروى) ايضا ان شعيبا عليه السلام أمر ابنته ان تأتى بعصا لاجل موسى عليه السلام فدخلت البيت واخذت العصا وأتته بها فلما رآها الشيخ قال ائتيه بغيرها فألقتها وأرادت ان تأخذ غيرها فلم يقع فى يدها غيرها فلما رأى الشيخ ذلك رضى به ثم ندم بعد ذلك وخرج يطلب موسى عليه السلام فلما لقيه قال اعطنى العصا قال موسى هى عصاى فأبى ان يعطيه اياها فاختصما ثم توافقا على ان يجعلا بينهما اول رجل يلقاهما فأتاهما ملك يمشى فقضى بينهما فقال ضعوها على الارض فمن حملها فهى له فعالجها الشيخ فلم يطق وأخذها موسى عليه السلام بسهولة فتركها الشيخ له ورعى له عشر سنين (وثانيها) روى ابن صالح عن ابن عباس قال

فاعل صد او على التعليل بحذف اللام هذا واما ماقيل من ان قوله تعالى واوتينا العلم الى قوله تعالى من قوم كافرين من كلام سليمان عليه السلام وملائه كأنهم لما سمعوا قولها كأنه هو تفطنوا الاسلامها فقالوا استحسانا لشأنها اصابت فى الجواب وعلمت قدرة الله تعالى وصحة النبوة بما سمعت من المنذر من الآيات المتقدمة وبما عاينت من هذه الآية الباهرة من امر عرشها ورزقت الاسلام فعطفوا على ذلك قولهم واوتينا العلم الخ اى واوتينا نحن العلم بالله تعالى وبقدرته وبصحة ماجاء من عنده قبل علمها ولم نزل على دين الاسلام شكرا لله تعالى على فضلهم عليها وسبقهم الى العلم بالله تعالى والاسلام قبلها وصدها عن التقدم الى الاسلام عبادة الشمس ونشؤها بين ظهرانى الكفرة فما لايخفى ما فيه من البعد والتعسف (قيل لها ادخلى الصرح) الصرح القصر وقيل صحن الدار روى ان سليمان عليه السلام امر قبل قدومها فبنى له على طريقها قصر من زجاج ابيض واجرى من تحته الماء والقى فيه من دواب البحر السمك وغيره ووضع سريره فجلس عليه وعكف عليه الطير والجن والانس وانما فعل ذلك ليزيدها استعظاما لامره وتحققا لنبوته وثباتا على الدين وزعموا ان الجن كرهوا ان يتزوجها فتفضى اليه بأسرارهم لانها كانت بنت جنية وقيل خافوا ان يولد منها ولد يجتمع له فطنة الجن والانس فيخرجون من ملك سليمان عليه السلام الى هلك

كان فى دار يبرون ابن اخى شعيب بيت لايدخله الا يبرون وابنته التى زوجها من موسى عليه السلام وانها كانت تكنسه وتنظفه وكان فى ذلك البيت ثلاثة عشر عصا وكان ليبرون احد عشر ولدا من الذكور فكلما ادرك منهم ولد أمره بدخول البيت واخراج عصا من تلك العصى فرجع موسى ذات يوم الى منزله فلم يجد اهله واحتاج الى عصا لرعيه فدخل ذلك البيت واخذ عصا من تلك العصى وخرج بها فلما علمت المرأة ذلك انطلقت الى أبيها واخبرته بذلك فسر بذلك يبرون وقال لها ان زوجك هذا لنبى وان له مع هذه العصا لشأنا (وثالثها) فى بعض الاخبار ان موسى عليه السلام لما عقد العقد مع شعيب واصبح من الغد وأراد الرعى قال له شعيب عليه السلام اذهب بهذه الاغنام فاذا بلغت مفرق الطريق فخذ على يسارك ولاتأخذ على يمينك وان كان الكلأ بها اكثر فان بها تنينا عظيما فأخشى عليك وعلى الاغنام منه فذهب موسى بالاغنام فلما بلغ مفرق الطريق اخذت الاغنام ذات اليمين فاجتهد موسى على ان يردها فلم يقدر فسار على اثرها فرأى عشبا كثيرا ثم ان موسى عليه السلام نام والاغنام ترعى واذا بالتنين قد جاء فقامت عصا موسى عليه السلام فقاتلته حتى قتلته وعادت الى جنب موسى وهى دامية فلما استيقظ موسى عليه السلام رأى العصا دامية والتنين مقتولا فارتاح لذلك وعلم ان لله تعالى فى تلك العصا قدرة وآية وعاد الى شعيب عليه السلام وكان ضريرا فمس الاغنام فاذا هى احسن حالا مما كانت فسأله عن ذلك فأخبره موسى عليه السلام بالقصة ففرح بذلك وعلم ان لموسى عليه السلام ولعصاه شأنا فأراد ان يجازى موسى عليه السلام على حسن رعيه اكراما وصلة لابنته فقال انى وهبت لك من السخال التى تضعها اغنامى فى هذه السنة كل ابلق وبلقاء فأوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام ان اضرب بعصاك الماء الذى تسقى الغنم منه ففعل ثم سقى الاغنام منه فما اخطأت واحدة منها الا وضعت حملها مابين ابلق وبلقاء فعلم شعيب ان ذلك رزق ساقه الله تعالى الى موسى عليه السلام وامرأته فوفى له شرطه (ورابعها) قال بعضهم تلك العصا هى عصا آدم عليه السلام وان جبريل عليه السلام اخذ تلك العصا بعد موت آدم عليه السلام فكانت معه حتى لقى بها موسى عليه السلام ليلا (وخامسها) قال الحسن ما كانت الا عصا من الشجر اعترضها اعتراضا اى اخذها من عرض الشجر يقال اعترض اذا لم يتخير وعن الكلبى الشجرة التى منها نودى شجرة العوسج ومنها كانت عصاه ولا مطمع فى ترجيح بعض هذه الوجوه على بعض لانه ليس فى القرآن مايدل عليها والاخبار متعارضة والله اعلم بها اما قوله تعالى اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فاعلم ان الله تعالى قد عبر عن هذا المعنى بثلاث عبارات (احدها) هذه (وثانيها) قوله تعالى فى طه واضمم يدك الى جناحك تخرج بيضاء (وثالثها) قوله تعالى فى النمل وأدخل يدك فى جيبك قال العزيزى فى غريب القرآن اسلك يدك فى جيبك ادخلها فيه اما قوله تعالى واضمم اليك جناحك من الرهب فأحسن الناس كلاما فيه

(صاحب)

هو اشد واقطع فقالوا ان فى عقلها شيأ وهى شعراء الساقين ورجلها كحافر الحمار فاختبر عقلها بتنكير العرش واتخذ الصرح ليتعرف ساقها ورجلها (فلما رأته) وهو حاضر بين يديها كما يعرب عنه الامر بدخولها واحاطت بتفاصيل احواله خبرا (حسبته لجة وكشفت عن ساقيها) وتشمرت لئلا تبتل اذيالها فاذا هى احسن الناس ساقا وقدما خلا انها شعراء قيل هى السبب فى اتخاذ النورة امر بها الشياطين فاتخذوها واستنكحها عليه الصلاة والسلام وامر الجن فبنوا لها سيلحين وغمدان وكان يزورها فى الشهر مرة ويقيم عندها ثلاثة ايام وقيل بل زوجها ذا تبع ملك همدان وسلطه على اليمن وامر زوبعة امير جن اليمن ان يطيعه فبنى له المصانع وقرئ سأقيها حملا للمفرد على الجمع فى سؤق واوسؤق (قال) عليه الصلاة والسلام حين رأى ما اعتراها من الدهشة والرعب (انه) اى ما توهمته ماء (صرح ممرد) اى مملس (من قوارير) من الزجاج (قالت) حين عاينت تلك المعجزة ايضا (رب انى ظلمت نفسى) بما كنت عليه الى الآن من عبادة الشمس وقيل بظنى بسليمان حيث ظننت انه يريد اغراقها فى اللجة وهو بعيد (واسلمت مع سليمان) تابعة له مقتدية به وما فى قوله تعالى (لله رب العالمين) من الالتفات الى الاسم الجليل ووصفه بربوبية العالمين لاظهار معرفتها بألوهيته تعالى وتفرده باستحقاق العبادة وربوبيته لجميع الموجودات التى من

صاحب الكشاف قال فيه معنيان (احدهما) ان موسى عليه السلام لما قلب الله له العصا حية فزع واضطرب فاتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشئ فقيل له ان اتقاءك بيدك فيه غضاضة عند الاعداء فاذا القيتها فكما تنقلب حية فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها ثم اخرجها بيضاء ليحصل الامر ان اجتناب ما هو غضاضة عليك واظهار معجزة اخرى والمراد بالجناح اليد لان يدى الانسان بمنزلة جناحى الطائر واذا ادخل يده اليمنى تحت عضده اليسرى فقد ضم جناحه اليه (الثانى) ان يراد بضم جناحه اليه تجلده وضبطه نفسه وتشدده عند انقلاب العصا حية حتى لا يضطرب ولا يرهب استعارة من فعل الطائر لانه اذا خاف نشر جناحيه وارخاهما والا فجناحاه مضمومان اليه مشمران ومعنى قوله من الرهب من اجل الرهب اى اذا اصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم اليك جناحك وقوله اسلك يدك فى جيبك على احد التفسيرين واحد ولكن خولف بين العبارتين وانما كرر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين وذلك ان الغرض فى احدهما خروج اليد بيضاء وفى الثانى اخفاء الرهب فان قيل قد جعل الجناح وهو اليد فى احد الموضعين مضموما وفى الآخر مضموما اليه وذلك قوله واضمم اليك جناحك وقوله واضمم يدك الى جناحك فما التوفيق بينهما قلنا المراد بالجناح المضموم هو اليد اليمنى وبالمضموم اليه اليد اليسرى وكل واحدة من يمنى اليدين ويسراهما جناح هذا كله كلام صاحب الكشاف وهو فى نهاية الحسن اما قوله تعالى فذانك قرئ مخففا ومشددا فالمخفف مثنى ذا والمشدد مثنى ذان قوله برهانان من ربك حجتان نيرتان على صدقه فى النبوة وصحة ما دعاهم اليه من التوحيد وظاهر الكلام يقتضى انه تعالى امره بذلك قبل لقاء فرعون حتى عرف ما الذى يظهره عنده من المعجزات لانه تعالى حكى بعد ذلك عن موسى عليه السلام انه قال انى قتلت منهم نفسا فأخاف ان يقتلون قال القاضى واذا كان كذلك فيجب ان يكون فى حال ظهور البرهانين هناك من دعاه الى رسالته من اهله اوغيرهم اذ المعجزات انما تظهر على الرسل فى حال الارسال لا قبله وانما تظهر لكى يستدل بها غيرهم على الرسالة وهذا ضعيف لانه ثبت انه لا بد فى اظهار المعجزة من حكمة ولا حكمة اعظم من ان يستدل بها الغير على صدق المدعى واما كونه لا حكمة ههنا فلا نسلم فلعل هناك انواعا من الحكم والمقاصد سوى ذلك لا سيما وهذه الآيات متطابقة على انه لم يكن هناك مع موسى عليه السلام احد * قوله تعالى (قال رب انى قتلت منهم نفسا فأخاف ان يقتلون وأخى هرون هو افصح منى لسانا فأرسله معى ردأ يصدقنى انى اخاف ان يكذبون قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا انتما ومن اتبعكما الغالبون فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا الا سحر مفترى وما سمعنا بهذا فى آبائنا الاولين وقال موسى ربى اعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار انه لا يفلح الظالمون) اعلم انه تعالى لما قال فذانك برهانان من ربك الى فرعون

جلالتهما كانت تعبده قبل ذلك من الشمس (ولقد ارسلنا) عطف على قوله تعالى ولقد آتينا داود وسليمان علما مسوق لما سيق هو له من تقرير انه عليه الصلاة والسلام يلقى القرآن من لدن حكيم عليم فان هذه القصة ايضا من جملة القرآن الكريم الذى لقيه عليه الصلاة والسلام واللام جواب قسم محذوف اى وبالله لقد ارسلنا (الى ثمود اخاهم صالحا) وان فى قوله تعالى (ان اعبدوا الله) مفسرة لما فى الارسال من معنى القول او مصدرية حذف عنها الباء وقرئ بضم النون اتباعا لها للباء (فاذا هم فريقان يختصمون) ففاجؤا التفرق والاختصام فآمن فريق وكفر فريق والواو لمجموع الفريقين (قال) عليه الصلاة والسلام للفريق الكافر منهم بعدما شاهد منهم ما شاهد من نهاية العتو والعناد حتى بلغوا من المكابرة الى ان قالوا له عليه الصلاة والسلام يا صالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين (يا قوم لم تستعجلون بالسيئة) اى بالعقوبة السيئة (قبل الحسنة) اى التوبة فتؤخرونها الى حين نزولها حيث كانوا من جهلهم وغوايتهم يقولون ان وقع ايعاده تبنا حينئذ والا فنحن على ما كنا عليه (لولا تستغفرون الله) هلا تستغفرونه تعالى قبل نزولها (لعلكم ترحمون) بقبولها اذ لا امكان للقبول عند النزول (قالوا اطيرنا) اصله تطيرنا والتطير التشاؤم عبر عنه بذلك لما انهم كانوا اذا خرجوا مسافرين فيمرون بطائر يزجرونه فان مر سانحا تيمنوا وان مر بارحا تشاءموا

ومالمه تضمن ذلك ان يذهب موسى بهذين البرهانين الى فرعون وقومه فعند ذلك طلب من الله تعالى مايقوى قلبه ويزيل خوفه فقال رب انى قتلت منهم نفسا فأخاف ان يقتلون وأخى هرون هو افصح منى لسانا لانه كان فى لسانه حبسة اما فى اصل الخلقة واما لاجل انه وضع الجمرة فى فيه عندما نتف لحية فرعون اما قوله فأرسله معى ردأ يصدقنى ففيه ابحاث (البحث الاول) الرده اسم مايستعان به فعل بمعنى مفعول به كما ان الدفء اسم لما يدفأ به يقال ردأت الحائط اردؤه اذا دعمته بخشب اوغيره لئلا يسقط (البحث الثانى) قرأ نافع ردا بغير همز والباقون بالهمز وقرأ عاصم وحمزة يصدقنى برفع القاف وروى ذلك ايضا عن ابى عمرو والباقون بجزم القاف وهو المشهور عن ابى عمرو فمن رفع فالتقدير ردأ مصدقا لى ومن جزم كان على معنى الجزاء يعنى ان ارسلته صدقنى ونظيره قوله فهب لى من لدنك وليا يرثنى بجزم الثاء من يرثنى وروى السدى عن بعض شيوخه ردأ كيما يصدقنى (البحث الثالث) الجمهور على ان التصديق لهرون وقال مقاتل المعنى كى يصدقنى فرعون والمعنى ارسل معى أخى حتى يعاضدنى على اظهار الحجة والبيان فعند اجتماع البرهانين ربما حصل المقصود من تصديق فرعون (البحث الرابع) ليس الغرض بتصديق هرون ان يقول له صدقت او يقول للناس صدق موسى وانما هو ان يلخص بلسانه الفصيح وجوه الدلائل ويجيب عن الشبهات ويجادل به الكفار فهذا هو التصديق المفيد ألا ترى الى قوله وأخى هرون هو افصح منى لسانا فأرسله معى وفائدة الفصاحة انما تظهر فيما ذكرناه لا فى مجرد قوله صدقت (البحث الخامس) قال الجبائى انما سأل موسى عليه السلام ان يرسل هرون بأمر الله تعالى والا كان لايدرى هل يصلح هرون للبعثة ام لا فلم يكن ليسأل مالا يأمن ان يجاب اولا يكون حكمة ويحتمل ايضا ان يقال انه سأله لا مطلقا بل مشروطا على معنى ان اقتضت الحكمة ذلك كما يقوله الداعى فى دعائه (البحث السادس) قال السدى ان نبيين وآيتين اقوى من نبى واحد وآية واحدة * قال القاضى والذى قاله من جهة العادة اقوى فأما من حيث الدلالة فلا فرق بين معجزة ومعجزتين ونبى ونبيين لان المبعوث اليه ان نظر فى ايهما كان علم وان لم ينظر فالحالة واحدة هذا اذا كانت طريقة الدلالة فى المعجزتين واحدة فأما اذا اختلفت وامكن فى احداهما ازالة الشبهة مالا يمكن فى الاخرى فغير ممتنع أن يختلفا ويصلح عند ذلك ان يقال انهما بمجموعهما اقوى من احداهما على ماقاله السدى لكن ذلك لايتأتى فى موسى وهرون عليهما السلام لان معجزتهما كانت واحدة لامتغايرة اما قوله سنشد عضدك بأخيك فاعلم ان العضد قوام اليد وبشدتها تشتد يقال فى دعاء الخير شد الله عضدك وفى ضده فت الله فى عضدك ومعنى سنشد عضدك بأخيك سنقويك به فاما ان يكون ذلك لان اليد تشتد لشدة العضد والجملة تقوى بشدة اليد على مزاولة الامور واما لان الرجل شبه باليد فى اشتدادها باشتداد العضد فجعل كأنه يد مشتدة بعضد شديدة اما قوله ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما

(فالمقصود)

فلما نسبوا الخير والشر الى الطائر استعير لما كان سببا لهما من قدرة الله تعالى وقسمته او من عمل العبد اى تشاءمنا (بك وبمن معك) فى دينك حيث تتابعت علينا الشدائد وقد كانوا قحطوا اولم نزل فى اختلاف و افتراق مذ اخترعتم دينكم (قال طائركم) اى سببكم الذى منه ينالكم ما ينالكم من الشر (عند الله) وهو قدره او عملكم المكتوب عنده وقوله تعالى (بل انتم قوم تفتنون) اى تختبرون بتعاقب السراء والضراء او تعذبون او يفتنكم الشيطان بوسوسته اليكم الطيرة اضراب من بيان طائرهم الذى هو مبدأ ما يحيق بهم الى ذكر ما هو الداعى اليه (وكان فى المدينة) وهى الحجر (تسعة رهط) اى اشخاص وبهذا الاعتبار وقع تمييز التسعة لا باعتبار لفظه والفرق بينه وبين النفر انه من الثلاثة او من السبعة الى العشرة والنفر من الثلاثة الى التسعة واسماؤهم حسبما نقل عن وهب الهذيل بن عبد رب وغنم ابن غنم ورئاب بن مهرج ومصدع ابن مهرج وعمير بن كردبة وعاصم ابن مخرمة وسبيط بن صدقة وشمعان ابن صفى وقدار بن سالف وهم الذين سعوا فى عقر الناقة وكانوا اعتاة قوم صالح وكانوا من ابناء اشرافهم (يفسدون فى الارض) لا فى المدينة فقط افسادا بحتا لا يخالطه شئ ما من الاصلاح كما ينطق به قوله تعالى (ولا يصلحون) اى لا يفعلون شيئا من الاصلاح او لا يصلحون شيئا من الاشياء (قالوا) استئناف ببيان بعض ما فعلوا من الفساد

فالمقصود ان الله تعالى آمنه مما كان يحذر فان قيل بين تعالى ان السلطان هو بالآيات فكيف لايصلون اليهما لاجل الآيات أوليس فرعون قد وصل الى صلب السحرة وان كانت هذه الآيات ظاهرة قلنا ان الآية التي هي قلب العصا حية كما انها معجزة فهي ايضا تمنع من وصول ضرر فرعون الى موسى وهرون عليهما السلام لانهم اذا علموا انه متى القاها صارت حية عظيمة وان أراد ارسالها عليهم اهلكتهم زجرهم ذلك عن الاقدام عليهما فصارت مانعة من الوصول اليهما بالقتل وغيره وصارت آية ومعجزة فجمعت بين الامرين فأما صلب السحرة ففيه خلاف فمنهم من قال ما صلبوا وليس في القرآن مايدل عليه وان سلمنا ذلك ولكنه تعالى قال فلا يصلون اليكما فالمنصوص انهم لايقدرون على ايصال الضرر اليهما وايصال الضرر الى غيرهما لايقدح فيه ثم قال انتما ومن اتبعكما الغالبون والمراد اما الغلبة بالحجة والبرهان في الحال او الغلبة في الدولة والمملكة في ثاني الحال والاول أقرب الى اللفظ اما قوله فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات فقد بينا في سورة طه انه كيف اطلق لفظ الآيات وهو جمع على العصا واليد اما قوله قالوا ماهذا الا سحر مفترى فقد اختلفوا في مفترى فقال بعضهم المراد انه اذا كان سحرا وفاعله يوهم خلافه فهو المفترى وقال الجبائي المراد انه منسوب الى الله تعالى وهو من قبله فكأنهم قالوا هو كذب من هذا الوجه ثم ضموا اليه مايدل على جهلهم وهو قولهم وما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين اي ماحدثنا بكونه فيهم ولايخلو من ان يكونوا كاذبين في ذلك وقد سمعوا مثله او يريدوا انهم لم يسمعوا بمثله في فظاعته او ماكان الكهان يخبرون بظهور موسى عليه السلام ومجيئه بما جاء به واعلم ان هذه الشبهة ساقطة لان حاصلها يرجع الى التقليد ولان حال الاولين لايخلو من وجهين اما ان لايورد عليهم بمثل هذه الحجة فحينئذ الفرق ظاهر او أورد عليهم فدفعوه فحينئذ لايجوز جعل جهلهم وخطئهم حجة فعند ذلك قال موسى عليه السلام وقد عرف منهم العناد ربي اعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار فان من اظهر الحجة ولم يجد من الخصم اعتراضا عليها وانما وجد منه العناد صح ان يقول ربي اعلم بمن معه الهدى والحجة منا جميعا ومن هو على الباطل ويضم اليه طريقة الوعيد والتخويف وهو قوله ومن تكون له عاقبة الدار من ثواب على تمسكه بالحق او من عقاب وعاقبة الدار هي العاقبة المحمودة والدليل عليه قوله تعالى أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن وقوله وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار والمراد بالدار الدنيا وعاقبتها وعقباها أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقي الملائكة بالبشرى عند الموت فان قيل العاقبة المحمودة والمذمومة كلتاهما يصح ان تسمى عاقبة الدار لان الدنيا قد تكون خاتمتها بخير في حق البعض وبشر في حق البعض الآخر فلم اختصت خاتمتها بالخير بهذه التسمية دون خاتمتها بالشر قلنا انه قد وضع الله سبحانه الدنيا مجازا الى الآخرة وامر عباده ان لايعملوا فيها الا الخير ليبلغوا خاتمة الخير وعاقبة الصدق فمن عمل فيها خلاف ماوضعها الله له فقد حرف

اي قال بعضهم لبعض في اثناء المشاورة في امر صالح عليه الصلاة والسلام وكان ذلك غب ما انذرهم بالعذاب وقوله تمتعوا في داركم ثلاثة ايام الخ (تقاسموا بالله) امامر مقول لقالوا او ماض وقع بدلا منه او حالا من فاعله باضمار قد وقوله تعالى (لنبيتنه واهله) اي لنباغتن صالحا واهله ليلا ونقتلهم وقرئ بالتاء على خطاب بعضهم لبعض وقرئ بياء الغيبة وضم التاء على ان تقاسموا فعل ماض (ثم لنقولن لوليه) اي لولي صالح وقرئ بالتاء والياء كما قبله (ماشهدنا مهلك اهله) اي ماحضرنا هلاكهم او وقت هلاكهم او مكان هلاكهم فضلا ان تولى اهلاكهم وقرئ مهلك بفتح اللام فيكون مصدرا (وانا لصادقون) من تمام القول او حال اي نقول ماذكر والحال انا لصادقون في ذلك لان الشاهد للشيء غير المباشر له عرفا ولانا ماشاهدنا مهلكهم وحده بل مهلكهم جميعا كقولك ما رأيت ثمة رجلا بل رجلين (ومكروا مكرا) بهذه المواضعة (ومكرنا مكرا) اي اهلكناهم اهلاكا غير معهود (وهم لايشعرون) او جازيناهم مكرهم من حيث لايحتسبون (فانظر كيف كان عاقبة مكرهم) شروع في بيان ماترتب على ماباشروه من المكر وكيف معلقة لفعل النظر ومحل الجملة النصب بنزع الخافض اي فتفكر في انه كيف كان عاقبة مكرهم وقوله تعالى (انا دمرناهم) الخ ابدل من عاقبة مكرهم على انه فاعل كان وهي تامة وكيف حال اي فانظر كيف

فاذن عاقبتها الاصلية هى عاقبة الخير واما عاقبة السوء فلا اعتداد بها لانها من نتائج تحريف الفجار ثم انه عليه السلام أكد ذلك بقوله انه لايفلح الظالمون والمراد انهم لايظفرون بالفوز والنجاة والمنافع بل يحصلون على ضد ذلك وهذا نهاية فى زجرهم عن العناد الذى ظهر منهم * قوله تعالى (وقال فرعون يأيها الملأ ماعلمت لكم من اله غيرى فاوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى اطلع الى اله موسى وانى لأظنه من الكاذبين واستكبر هو وجنوده فى الارض بغير الحق وظنوا انهم الينا لايرجعون فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين وجعلناهم أئمة يدعون الى النار ويوم القيامة لاينصرون واتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد مااهلكنا القرون الاولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون) اعلم ان فرعون كانت عادته متى ظهرت حجة موسى ان يتعلق فى دفع تلك الحجة بشبهة يروجها على اغمار قومه وذكر ههنا شبهتين (الاولى) قوله ماعلمت لكم من اله غيرى وهذا فى الحقيقة يشتمل على كلامين (احدهما) نفى اله غيره (والثانى) اثبات الهية نفسه فاما الاول فقد كان اعتماده على ان مالادليل عليه لم يجز اثباته امااته لادليل عليه فلأن هذه الكواكب والافلاك كافية فى اختلاف احوال هذا العالم السفلى فلاحاجة الى اثبات صانع واما ان مالادليل عليه لم يجز اثباته فالأمر فيه ظاهر واعلم ان المقدمة الاولى كاذبة فانا لانسلم انه لادليل على وجود الصانع وذلك لانا اذا عرفنا بالدليل حدوث الاجسام عرفنا حدوث الافلاك والكواكب وعرفنا بالضرورة ان المحدث لابدله من محدث فحينئذ نعرف بالدليل ان هذا العالم له صانع والعجب ان جماعة اعتمدوا فى نفى كثير من الاشياء على ان قالوا لادليل عليه فوجب نفيه قالوا وانما قلنا انه لادليل عليه لانا بحثنا وسبرنا فلم نجد عليه دليلا فرجع حاصل كلامهم بعد التحقيق الى ان كل مالايعرف عليه دليل وجب نفيه وان فرعون لم يقطع بالنفى بل قال لادليل عليه فلا اثبته بل اظنه كاذبا فى دعواه ففرعون على نهاية جهله احسن حالا من هذا المستدل امالثانى وهو اثباته الهية نفسه فاعلم انه ليس المراد منه انه كان يدعى كونه خالقا للسموات والارض والبحار والجبال وخالقا لذوات الناس وصفاتهم فان العلم بامتناع ذلك من اوائل العقول فالشك فيه يقتضى زوال العقل بل الاله هو المعبود فالرجل كان ينفى الصانع ويقول لاتكليف على الناس الا ان يطيعوا ملكهم وينقادوا لأمره فهذا هو المراد من ادعائه الالهية لاماظنه الجمهور من ادعائه كونه خالقا للسماء والارض لاسيما وقد دللنا فى سورة طه فى تفسير قوله فمن ربكما ياموسى على انه كان عارفا بالله تعالى وانه كان يقول ذلك ترويجا على الاغمار من الناس (الشبهة الثانية) قوله فاوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى اطلع الى اله موسى وانى لأظنه من الكاذبين وههنا ابحاث (الاول) تعلقت المشبهة بهذه الآية فى ان الله تعالى فى السماء

حصل اى على اى وجه حدث تدميرنا اياهم واما خبر لمبتدأ محذوف والجملة مبينة لما فى عاقبة مكرهم من الابهام اى هى تدميرنا اياهم (وقومهم) الذين لم يكونوا معهم فى مباشرة التبييت (اجمعين) بحيث لم يشذ منهم شاذ واما تعليل لماينبئ عنه الامر بالنظر فى كيفية عاقبة مكرهم من غاية الهول والفظاعة بحذف الجار اى لانا دمرناهم الخ وقيل كان تامة وعاقبة مكرهم خبرها كيف كان فالاوجه حينئذ ان يكون قوله تعالى انا دمرناهم الخ تعليلا لما ذكر وقرئ انا دمرناهم الخ بالكسر على الاستئناف روى انه كان لصالح عليه السلام مسجد فى الحجر فى شعب يصلى فيه فقالوا زعم صالح انه يفرغ منا الى ثلاث فنحن نفرغ منه ومن اهله قبل الثلاث فخرجوا الى الشعب وقالوا اذا جاء يصلى قتلناه ثم رجعنا الى اهله فقتلناهم فبعث الله تعالى صخرة من الهضب حيالهم فبادروا فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب فلم يدر قومهم اين هم ولم يدروا مافعل بقومهم وعذب الله تعالى كلا منهم فى مكانه ونجى صالحا ومن معه وقيل جاؤا بالليل شاهرى سيوفهم وقد ارسل الله تعالى الملائكة ملء دار صالح فدمغوهم بالحجارة يرون الحجارة ولايرون راميا (فتلك بيوتهم) جملة مقررة لما قبلها وقوله تعالى (خاوية) اى خالية او ساقطة متهدمة (بما ظلموا) اى بسبب ظلمهم المذكور حال من بيوتهم

قالوا لولا ان موسى عليه السلام دعاه الى ذلك لما قال فرعون هذا القول والجواب ان موسى عليه السلام دل فرعون بقوله رب السموات والارض ولم يقل هو الذى فى السماء دون الارض فأوهم فرعون انه يقول ان الهه فى السماء وذلك ايضا من خبث فرعون ومكره ودهائه (الثانى) اختلفوا فى ان فرعون هل بنى هذا الصرح فقال قوم انه بناه قالوا انه امر ببناء الصرح جمع هامان العمال حتى اجتمع خمسون الف بناء سوى الاتباع والاجراء وامر بطبخ الآجر والجص ونجر الخشب وضرب المسامير فشيدوه حتى بلغ مالم يبلغه بنيان احد من الخلق فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام عند غروب الشمس فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع قطعة وقعت على عسكر فرعون فقتلت الف الف رجل وقطعة وقعت فى البحر وقطعة فى المغرب ولم يبق احد من عماله الا وقد هلك ويروى فى هذه القصة ان فرعون ارتقى فوقه ورمى بنشابة نحو السماء فاراد الله ان يفتنهم فردت اليهم وهى ملطوخة بالدم فقال قد قتلت اله موسى فعند ذلك بعث الله تعالى جبريل عليه السلام لهدمه ومن الناس من قال انه لم يبن ذلك الصرح لانه يبعد من العقلاء ان يظنوا انهم بصعود الصرح يقربون من السماء مع علمهم بأن من على أعلى الجبال الشاهقة يرى السماء كما كان يراها حين كان على قرار الارض ومن شك فى ذلك خرج عن حد العقل وهكذا القول فيما يقال من رمى السهم الى السماء ورجوعه متلطخا بالدم فان كل من كان كامل العقل يعلم انه لا يمكنه ايصال السهم الى السماء وان من حاول ذلك كان من المجانين فلا يليق بالعقل والدين حمل القصة التى حكاها الله تعالى فى القرآن على محمل يعرف فساده بضرورة العقل فيصير ذلك مشرعا قويا لمن احب الطعن فى القرآن فالاقرب انه كان اوهم البناء ولم يبن اوكان هذا من تتمة قوله ما علمت لكم من آله غيرى يعنى لا سبيل الى اثباته بالدليل فان حركات الكواكب كافية فى تغيير هذا العالم ولا سبيل اثباته بالحس فان الاحساس به لا يمكن الا بعد صعود السماء وذلك مما لا سبيل اليه ثم قال عند ذلك لهامان ابن لى صرحا ابلغ به اسباب السموات وانما قال ذلك على سبيل التهكم فبمجموع هذه الاشياء قرر انه لا دليل على الصانع ثم انه رتب النتيجة عليه فقال وانى لاظنه من الكاذبين فهذا التأويل اولى مما عداه (الثالث) انما قال اوقد لى يا هامان على الطين ولم يقل اطبخ لى الآجر واتخذه لانه اول من عمل الآجر فهو يعلمه الصنعة ولان هذه العبارة اليق بفصاحة القرآن واشبه بكلام الجبابرة وامر هامان وهو وزيره بالايقاد على الطين منادى باسمه بيا فى وسط الكلام دليل التعظيم والتجبر والطلوع والاطلاع الصعود يقال طلع الجبل واطلع بمعنى واحد اما قوله واستكبر هو وجنوده فى الارض بغير الحق فاعلم ان الاستكبار بالحق انما هو لله تعالى وهو المتكبر فى الحقيقة اى المبالغ فى كبرياء الشان قال عليه السلام فيما حكى عن ربه الكبرياء ردائى والعظمة ازارى فمن نازعنى واحدا منهما القيته فى النار وكل مستكبر سواه فاستكباره

والعامل معنى الاشارة وقرئ خاوية بالرفع على انه خبر لمبتدأ محذوف (ان فى ذلك) اى فيما ذكر من التدمير العجيب بظلمهم (لآية) لعبرة عظيمة (لقوم يعلمون) اى ما من شأنه ان يعلم من الاشياء اولقوم يتصفون بالعلم (وانجينا الذين آمنوا) صالحا ومن معه من المؤمنين (وكانوا يتقون) اى الكفر والمعاصى اتقاء مستمرا فلذلك خصوا بالنجاة (ولوطا) منصوب بمضمر معطوف على ارسلنا فى صدر قصة صالح داخل معه فى حيز القسم اى وارسلنا لوطا وقوله تعالى (اذ قال لقومه) ظرف للارسال على ان المراد به امر ممتد وقع فيه الارسال وما جرى بينه وبين قومه من الاقوال والاحوال وقيل انتصاب لوطا باضمار اذكر واذ بدل منه وقيل بالعطف على الذين آمنوا اى وانجينا لوطا وهو بعيد (أتأتون الفاحشة) اى الفعلة المتناهية فى القبح والسماجة وقوله تعالى (وانتم تبصرون) جملة حالية من فاعل تأتون مفيدة لتأكيد الانكار وتشديد التوبيخ فان تعاطى القبيح من العالم بقبحه اقبح واشنع وتبصرون من بصر القلب اى تعلمونها والحال انكم تعلمون علما يقينيا بكونها كذلك وقيل يبصرها بعضكم من بعض لما كانوا يعلنون بها (أئنكم لتأتون الرجال شهوة) تثنية للانكار وتكرير للتوبيخ وبيان لما يأتونه من الفاحشة بطريق التصريح وتحلية الجملة بحرف التأكيد للايذان بان مضمونها مما لا يصدق وقوعه احد لكمال بعده من العقول وايراد المفعول بعنوان الرجولية

بغير الحق (المسئلة الثانية) قال الجبائي الآية تدل على انه تعالى ما اعطاه الملك والا لكان ذلك بحق وهكذا كل متغلب لا كما ادعى ملوك بني امية عند تغلبهم ان ملكهم من الله تعالى فان الله تعالى قد بين في كل غاصب لحكم الله انه اخذ ذلك بغير حق واعلم ان هذا ضعيف لان وصول ذلك الملك اليه اما ان يكون منه او من الله تعالى او لا منه ولا من الله تعالى فان كان منه فلم لم يقدر عليه غيره فربما كان العاجز أقوى واعقل بكثير من المتولي للامر وان كان من الله تعالى فقد صح الغرض وان كان من سائر الناس فلم اجتمعت دواعي الناس على نصرة احدهما وخذلان الآخر واعلم ان هذا اظهر ان يرتاب فيه العاقل اما قوله تعالى وظنوا أنهم الينا لا يرجعون فهذا يدل على انهم كانوا عارفين بالله تعالى الا انهم كانوا ينكرون البعث فلاجل ذلك تمردوا وطغوا اما قوله تعالى فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فهو من الكلام المفخم الذي دل به على عظم شأنه وكبرياء سلطانه شبههم استحقارا لهم واستقلالا لعددهم وان كانوا الكبير الكثير والجم الغفير بحصيات اخذهن آخذ في كفه فطرحهن في البحر ونحو ذلك قوله والقينا فيها رواسي شامخات وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى وليس الغرض منه الا تصوير ان كل مقدور وان عظم فهو حقير بالقياس الى قدرته اما قوله تعالى وجعلناهم أئمة يدعون الى النار فقد تمسك به الاصحاب في كونه تعالى خالقا للخير والشر قال الجبائي المراد بقوله وجعلناهم اي بينا ذلك من حالهم وسميناهم به ومنه قوله وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا وتقول اهل اللغة في تفسير فسقه وبخله جعله فاسقا وبخيلا لانه خلقهم ائمة لانهم حال خلقه لهم كانوا اطفالا (وقال الكعبي) انما قال وجعلناهم ائمة من حيث خلى بينهم وبين ما فعلوه ولم يعاجل بالعقوبة من حيث كفروا ولم يمنعهم بالقسر وذلك كقوله زادتهم رجسا لما زادوا عندها ونظير ذلك ان الرجل يسئل ما يثقل عليه وان امكنه فاذا بخل به قيل للسائل جعلت فلانا بخيلا اي قد بخلته وقال ابو مسلم معنى الامامة التقدم فلما عجل الله تعالى لهم العذاب صاروا متقدمين لمن وراءهم من الكافرين واعلم ان الكلام فيه قد تقدم في سورة مريم في قوله انا ارسلنا الشياطين على الكافرين ومعنى دعوتهم الى النار دعوتهم الى موجباتها من الكفر والمعاصي فان احدا لا يدعو الى النار البتة وانما جعلهم الله تعالى ائمة في هذا الباب لانهم بلغوا في هذا الباب اقصى النهايات ومن كان كذلك استحق ان يكون اماما يقتدى به في ذلك الباب ثم بين تعالى ان ذلك العقاب سينزل بهم على وجه لا يمكن التخلص منه وهو معنى قوله تعالى ويوم القيامة لا ينصرون او يكون معناه ويوم القيامة لا ينصرون كما ينصر الائمة الدعاة الى الجنة اما قوله تعالى واتبعوا في هذه الدنيا لعنة معناه لعنة الله والملائكة لهم وامره تعالى بذلك فيها للمؤمنين وبين انهم يوم القيامة من المقبوحين اي المبعدين الملعونين والقبح هو الابعاد قال الليث يقال قبحه الله اي نحاه عن

(كل)

لتوبيخ التقبيح وتحقيق المباينة بينها وبين الشهوة التي علل بها الاتيان (من دون النساء) متجاوزين النساء اللاتي من محال الشهوة (بل انتم قوم تجهلون) تفعلون فعل الجاهلين بقبحه او تجهلون العاقبة او الجهل بمعنى السفاهة والمجون اي بل انتم قوم سفهاء ماجنون والتاء فيه مع كونه صفة لقوم لكونهم في حيز الخطاب (فما كان جواب قومه الا ان قالوا اخرجوا آل لوط من قريتكم انهم اناس يتطهرون) يتنزهون عن افعالنا او عن الاقذار ويعدون فعلنا قذرا وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما انه استهزاء وقد مر في سورة الاعراف ان هذا الجواب هو الذي صدر عنهم في المرة الاخيرة من مرات مواعظ لوط عليه السلام بالامر والنهي لانه لم يصدر عنهم كلام آخر غيره (فأنجيناه واهله الا امرأته قدرناها) اي قدرنا انها (من الغابرين) اي الباقين في العذاب (وامطرنا عليهم مطرا) غير معهود (فساء مطر المنذرين) قد مر بيان كيفية ما جرى عليهم من العذاب غير مرة (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى) اثر ما قص الله تعالى على رسوله عليه الصلاة والسلام قصص الانبياء المذكورين عليهم الصلاة والسلام واخبارهم الناطقة بكمال قدرته تعالى وعظم شأنه وبما خصهم به من الآيات القاهرة والمعجزات الباهرة الدالة على جلالة اقدارهم وصحة اخبارهم وبين على السنتهم حقية الاسلام والتوحيد وبطلان

كل خير وقال ابن عباس رضى الله عنهما من المشوهين بسواد الوجه وزرقة العين وعلى الجملة فالاولون حملوا القبح على القبح الروحانى وهو الطرد والابعاد من رحمة الله تعالى والباقون حملوه على القبح فى الصور وقيل فيه انه تعالى يقبح صورهم ويقبح عليهم عملهم ويجمع بين الفضيحتين ثم بين تعالى ان الذى يجب التمسك به ماجاء به موسى عليه السلام فقال ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما اهلكنا القرون الاولى والكتاب هو التوراة ووصفه تعالى بأنه بصائر للناس من حيث يستبصر به فى باب الدين وهدى من حيث يستدل به ومن حيث ان المتمسك به يفوز بطلبته من الثواب ووصفه بانه رحمة لانه من نعم الله تعالى على من تعبد به وروى ابو سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ما اهلك الله تعالى قرنا من القرون بعذاب من السماء ولا من الارض منذ انزل التوراة غير اهل القرية التى مسخها قردة اما قوله تعالى لعلهم يتذكرون فالمراد لكى يتذكروا قال القاضى وذلك يدل على ارادة التذكر من كل مكلف سواء اختار ذلك اولم يختره ففيه ابطال مذهب المجبرة الذين يقولون ما اراد التذكر الا ممن يتذكر فاما من لا يتذكر فقد كره ذلك منه ونص القرآن دافع لهذا القول (قلنا) اليس انكم حملتم قوله تعالى ولقد ذرأنا لجهنم على العاقبة فلم لا يجوز حمله ههنا على العاقبة فان عاقبة الكل حصول هذا التذكر له وذلك فى الآخرة ۞ قوله تعالى (وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا الى موسى الامر وما كنت من الشاهدين ولكنا انشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا فى اهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما اتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ولولا ان تصيبهم مصيبة بما قدمت ايديهم فيقولوا ربنا لولا ارسلت الينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين) اعلم ان فى الآية سؤالات (السؤال الاول) الجانب موصوف والغربى صفة فكيف اضاف الموصوف الى الصفة (الجواب) هذه مسئلة خلافية بين النحويين فعند البصريين لا يجوز اضافة الموصوف الى الصفة الا بشرط خاص سنذكره وعند الكوفيين يجوز ذلك مطلقا (حجة البصريين) ان اضافة الموصوف الى الصفة تقتضى اضافة الشئ الى نفسه وهذا غير جائز فذاك ايضا غير جائز بيان الملازمة انك اذا قلت جاءنى زيد الظريف فلفظ الظريف يدل على شئ معين فى نفسه مجهول بحسب هذا اللفظ حصلت له الظرافة فاذا نصصت على زيد عرفنا ان ذلك الشئ الذى حصلت له الظرافة هو زيد اذا ثبت هذا فلو اضفت زيدا الى الظريف كنت قد اضفت زيدا الى زيد واضافة الشئ الى نفسه غير جائزة فاضافة الموصوف الى صفته وجب ان لا تجوز الا انه جاء على خلاف هذه القاعدة الفاظ وهى قوله تعالى فى هذه الآية وما كنت بجانب الغربى وقوله وذلك دين القيمة وقوله حق اليقين ولدار الآخرة ويقال صلاة الاولى ومسجد الجامع وبقلة الحمقاء فقالوا التأويل فيه جانب المكان الغربى ودين الملة القيمة وحق الشئ اليقين ودار الساعة الآخرة وصلاة الساعة الاولى ومسجد

الكفر والاشراك وان من اقتدى بهم فقد اهتدى ومن اعرض عنهم فقد تردى فى مهاوى الردى وشرح صدره عليه الصلاة والسلام بما فى تضاعيف تلك القصص من فنون المعارف الربانية ونور قلبه بأنوار الملكات السبحانية الفائضة من عالم القدس وقرر بذلك فحوى ما نطق به قوله عز وجل وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم امره عليه الصلاة والسلام بأن يحمده تعالى على ما أفاض عليه من تلك النعم التى لا مطمع وراءها لطامع ولا مطمح من دونها لطامح ويسلم على كافة الانبياء الذين من جملتهم الذين قصت عليه اخبارهم التى هى من جملة المعارف التى اوحيت اليه عليه الصلاة والسلام اداء لحق تقدمهم واجتهادهم فى الدين وقيل هو امر للوط عليه السلام بأن يحمده تعالى على اهلاك كفرة قومه ويسلم على من اصطفاه بالعصمة عن الفواحش والنجاة عن الهلاك ولا يخفى بعده (آلله خير أم ما يشركون) اى آلله الذى ذكرت شؤنه العظيمة خير أم ما يشركونه به تعالى من الاصنام ومرجع الترديد الى التعريض بتبكيت الكفرة من جهته تعالى وتسفيه آرائهم الركيكة والتهكم بهم اذ من البين ان ليس فيما اشركوه به تعالى شائبة خير ما حتى يمكن ان يوازن بينه وبين من لا خير الا خيره ولا اله غيره وقرئ تشركون بالتاء الفوقانية بطريق تلوين الخطاب وتوجيهه الى الكفرة وهو الاليق بما بعده من سياق النظم الكريم المبنى على خطابهم وجعله من جملة القول المأمور به يأباه

المكان الجامع و بقلة الحبة الحمقاء ثم قالوا فى هذه المواضع المضاف اليه ليس هو النعت بل المنعوت الا انه حذف المنعوت واقيم النعت مقامه فههنا ينظر ان كان ذلك النعت كالمتعين لذلك المنعوت حسن ذلك والا فلا الاترى انه ليس لك أن تقول عندى جيد على معنى عندى درهم جيد ويجوز مررت بالفقيه على معنى مررت بالرجل الفقيه لان الفقيه يعلم انه لايكون الا من الناس والجيد قديكون درهما وقديكون غيره واذا كان كذلك حسن قوله جانب الغربى لان الشئ الموصوف بالغربى الذى يضاف اليه الجانب لايكون الامكانا اوما يشبهه فلاجرم حسنت هذه الاضافة وكذا القول فى البواقى والله اعلم (السؤال الثانى) مامعنى قوله تعالى اذقضينا الى موسى الامر (الجواب) الجانب الغربى هو المكان الواقع فى شق الغرب وهو المكان الذى وقع فيه ميقات موسى عليه السلام من الطور وكتب الله له فى الالواح والامر المقضى الى موسى عليه السلام الوحى الذى اوحى اليه والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم يقول وما كنت حاضر المكان الذى اوحينا فيه الى موسى عليه السلام ولا كنت من جملة الشاهدين للوحى اليه او على الوحى اليه وذلك لان الشاهد لابد وان يكون حاضرا وهم نقباؤه الذين اختارهم للميقات (السؤال الثالث) لما قال وما كنت بجانب الغربى ثبت انه لم يكن شاهدا لان الشاهد لابد ان يكون حاضرا فما الفائدة فى اعادة قوله وما كنت من الشاهدين (الجواب) قال ابن عباس رضى الله عنهما التقدير لم تحضر ذلك الموضع ولو حضرت فما شاهدت تلك الوقائع فانه يجوز ان يكون هناك ولا يشهد ولايرى (السؤال الرابع) كيف يتصل قوله ولكنا انشأنا قرونا بهذا الكلام ومن اى وجه يكون استدراكا له (الجواب) معنى الآية ولكنا انشأنا بعد عهد موسى عليه السلام الى عهدك قرونا كثيرة فتطاول عليهم العمر وهو القرن الذى انت فيه فاندرست العلوم فوجب ارسالك اليهم فارسلناك وعرفناك احوال الانبياء واحوال موسى فالحاصل كأنه قال وما كنت شاهدا لموسى وماجرى عليه ولكنا اوحيناه اليك فذكر سبب الوحى الذى هو اطالة الفترة ودل به على المسبب فاذن هذا الاستدراك شبيه الاستدراكين بعده واعلم ان هذا تنبيه على المعجز كأنه قال ان فى اخبارك عن هذه الاشياء من غير حضور ولا مشاهدة ولاتعلم من اهله دلالة ظاهرة على نبوتك كما قال اولم تأتهم بينة مافى الصحف الاولى اما قوله تعالى وما كنت ثاويا فى اهل مدين فالمعنى ما كنت مقيما فيه واما قوله تتلو عليهم آياتنا ففيه وجهان (الاول) قال مقاتل يقول لم تشهد اهل مدين فتقرأ على اهل مكة خبرهم ولكنا كنا مرسلين اى ارسلناك الى اهل مكة وانزلنا عليك هذه الاخبار ولولا ذلك لما علمتها (الثانى) قال الضحاك يقول انك يامحمد لم تكن الرسول الى اهل مدين تتلو عليهم الكتاب وانما كان غيرك ولكنا كنا مرسلين فى كل زمان رسولا فأرسلنا الى اهل مدين شعيبا وارسلناك الى العرب لتكون خاتم الانبياء اما قوله وما كنت بجانب الطور اذنادينا يريد مناداة موسى ليلة المناجاة وتكليمه ولكن

قوله تعالى فأنبتنا الخ فانه صريح فى ان
التبكيت من قبله عز وجل بالذات
وحمله على انه حكاية منه عليه
الصلاة والسلام لما امر به بعبارته
كما فى قوله تعالى قل ياعبادى الذين
سرفوا على انفسهم تعسف ظاهر
من غير داع اليه وأم فى قوله تعالى
(أم من خلق السموات والارض)
منقطعة وما فيها من كلمة بل على
القراءة الاولى للاضراب والانتقال
من التبكيت تعريضا الى التصريح
مخاطبا على وجه اظهر منه لمزيد
تأكيد والتشديد واما على القراءة
لثانية فلتثنية التبكيت وتكرير
لالزام كنظائرها الآتية والهمزة
تقرير هم اى حملهم على الاقرار
لحق على وجه الاضطرار فانه
لايتمالك احد ممن له ادنى تمييز
ولايقدر على ان لايعترف بخيرية
من خلق جميع المخلوقات وافاض
على كل منها مايليق به من منافعه
من اخس تلك المخلوقات وادناها
ل بأن لاخيرية فيه بوجه من
وجوه قطعا ومن مبتدأ خبره
محذوف مع ام المعادلة للهمزة
مويلا على ماسبق فى الاستفهام
لاول خلا ان التشريكون ههنا
تاء الخطاب على القراءتين معا
هكذا فى المواضع الاربعة
لآتية والمعنى بل امن خلق
طرى العالم الجسمانى ومبدأى
منافع مابينهما (وانزل لكم)
لتفات الى خطاب الكفرة على
قراءة الاولى لتشديد التبكيت
والالزام اى انزل لاجلكم
ومنفعتكم (من السماء ماء) اى
نوعا منه هو المطر (فأنبتنا به
حدائق) اى بساتين محدقة ومحاطة
بالحوائط (ذات بهجة) اى ذات
حسن ورونق يبتهج به

(رحمة)

رحمة من ربك اى علمناك رحمة وقرأ عيسى بن عمر بالرفع اى هى رحمة وذكر المفسرون فى قوله اذ نادينا وجوها اخر (احدها) اذ نادينا اى قلنا لموسى ورحمتى وسعت كل شئ الى قوله أولئك هم المفلحون (وثانيها) قال ابن عباس اذ نادينا امتك فى اصلاب آبائهم يا امة محمد اجبتكم قبل ان تدعونى واعطيتكم قبل ان تسألونى وغفرت لكم قبل ان تستغفرونى قال وانما قال الله تعالى ذلك حين اختار موسى عليه السلام سبعين رجلا لميقات ربه (وثالثها) قال وهب لما ذكر الله لموسى فضل امة محمد صلى الله عليه وسلم قال رب ارنيهم قال انك لن تدركهم وان شئت اسمعتك اصواتهم قال بلى يارب فقال سبحانه يا امة محمد فأجابوه من اصلاب آبائهم فاسمعه الله تعالى اصواتهم ثم قال اجبتكم قبل ان تدعونى الحديث كما ذكره ابن عباس (ورابعها) روى سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله وما كنت بجانب الطور اذ نادينا قال كتب الله كتابا قبل ان يخلق الخلق بألفى عام ثم وضعه على العرش ثم نادى يا امة محمد ان رحمتى سبقت غضبى اعطيتكم قبل ان تسألونى وغفرت لكم قبل ان تستغفرونى من لقينى منكم يشهد ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله ادخلته الجنة اما قوله لتنذر قوما ماأتاهم من نذير من قبلك فالانذار هو التخويف بالعقاب على المعصية (واعلم) انه تعالى لما بين قصة موسى عليه السلام قال لرسوله وما كنت بجانب الغربى وما كنت ثاويا فى اهل مدين وما كنت بجانب الطور فجمع تعالى بين كل ذلك لان هذه الثلاثة هى الاحوال العظيمة التى اتفقت لموسى عليه السلام اذ المراد بقوله اذ قضينا الى موسى الامر انزال التوراة حتى تكامل دينه واستقر شرعه والمراد بقوله وما كنت ثاويا أول امره والمراد اذ ناديناه وسط امره وهو ليلة المناجاة ولما بين تعالى انه عليه السلام لم يكن فى هذه الاحوال حاضرا بين تعالى انه بعثه وعرفه هذه الاحوال رحمة للعالمين ثم فسر تلك الرحمة بأن قال لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك واختلفوا فيه فقال بعضهم لم يبعث اليهم نذير منهم (وقال بعضهم) حجة الانبياء كانت قائمة عليهم ولكنه مابعث اليهم من يجدد تلك الحجة عليهم وقال بعضهم لا يبعد وقوع الفترة فى التكاليف فبعثه الله تعالى تقريرا للتكاليف وازالة لتلك الفترة اما قوله ولولا ان تصيبهم مصيبة الآية فقال صاحب الكشاف لولا الاولى امتناعية وجوابها محذوف والثانية تحضيضية والفاء فى قوله فيقولوا العطف وفى قوله فنتبع جواب لولا لكونها فى حكم الامر من قبل ان الامر باعث على الفعل والباعث والمحضض من واد واحد والمعنى ولولا انهم قائلون اذا عوقبوا بما قدموا من الشرك والمعاصى هلا ارسلت الينا رسولا محتجين علينا بذلك لما ارسلنا اليهم يعنى انما ارسلنا الرسول ازالة لهذا العذر وهو كقوله لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ان تقولوا ماجاءنا من بشير ولا نذير لولا ارسلت الينا رسولا فنتبع آياتك واعلم انه تعالى لم يقل ولولا ان يقولوا هذا العذر لما ارسلنا بل قال ولولا ان تصيبهم مصيبة فيقولوا هذا العذر لما ارسلنا وانما قال ذلك لنكتة وهى انهم لو لم

النظار (ما كان لكم) اى ماصح وما امكن لكم (ان تنبتوا شجرها) فضلا عن ثمرها وسائر صفاتها البديعة حيرام ماتشركون وقرئ امن بالتخفيف على انه بدل من الله وتقديم صلة الانزال على مفعوله لما مر مرارا من التشويق الى المؤخر والالتفات الى التكلم فى قوله تعالى فانبتنا لتأكيد اختصاص الفعل بذاته تعالى والايذان بأن انبات تلك الحدائق المختلفة الاصناف والاوصاف والالوان والطعوم والروائح والاشكال مع ما لها من الحسن البارع والبهاء الرائع بماء واحد مما لا يكاد يقدر عليه الا هو وحده حسبما ينبئ عنه تقييدها بقوله تعالى ما كان لكم الخ سواء كانت صفة لها او حالا وتوحيد وصفها الاول اعنى ذات بهجة لما ان المعنى جماعة حدائق ذات بهجة على نهج قولهم النساء ذهبت وكذا الحال فى ضمير شجرها (أاله مع الله) اى أاله آخر كائن مع الله الذى ذكر بعض افعاله التى لا يكاد يقدر عليها غيره حتى يتوهم جعله شريكا له تعالى فى العبادة وهذا تبكيت لهم بنفى الالوهية عما يشركونه به تعالى فى ضمن النفى الكلى على الطريقة البرهانية بعد تبكيتهم بنفى الخيرية عنه بما ذكر من الترديد فان احدا ممن له تمييز فى الجملة كما لا يقدر على انكار انتفاء الخيرية عنه بالمرة لا يكاد يقدر على انكار انتفاء الالوهية عنه رأسا لاسيما بعد ملاحظة انتفاء احكامها عما سواه تعالى وهكذا الحال فى المواقع الاربعة الآتية وقيل المراد نفى ان يكون معه تعالى اله آخر فيما ذكر من الخلق وما

يعاقبوا مثلا وقد عرفوا بطلان دينهم لما قالوا ذلك بل انما يقولون اذا نالهم العقاب فيدل ذلك على انهم لم يذكروا هذا العذر تأسفا على كفرهم بل لانهم ما اطاقوا العذاب وفيه تنبيه على استحكام كفرهم ورسوخه فيهم كقوله ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) احتج الجبائى على وجوب فعل اللطف قال لولم يجب ذلك لم يكن لهم ان يقولوا هلا ارسلت الينا رسولا فنتبع آياتك اذ من الجائز ان لا يبعث اليهم وان كانوا لا يختارون الايمان الا عنده على قول من خالف فى وجوب اللطف كما ان من الجائز اذا كان فى المعلوم لو خلقه لم يمكن الا ان يفعل ذلك (المسئلة الثانية) احتج الكعبى به على ان الله تعالى يقبل حجة العباد وليس الامر كما يقوله اهل السنة من انه تعالى لا يقبل الحجة وظهر بهذا انه ليس المراد من قوله لا يسأل عما يفعل ما يظنه اهل السنة واذا ثبت انه يقبل الحجة وجب ان لا يكون فعل العبد بخلق الله تعالى والا لكان للكافر اعظم حجة على الله تعالى (المسئلة الثالثة) قال القاضى فيه ابطال القول بالجبر من جهات (احداها) ان اتباعهم وايمانهم موقوف على ان يخلق الله ذلك فيهم سواء ارسل الرسول اليهم ام لا (وثانيها) انه اذا خلق القدرة على ذلك فيهم وجب سواء ارسل الرسول ام لا (وثالثها) اذا اراد ذلك وجب ارسل الرسول اليهم ام لا فاى فائدة فى قولهم هذا لو كانت افعالهم خلقا لله تعالى فيقال للقاضى هب انك نازعت فى الخلق والارادة ولكنك وافقت فى العلم فاذا علم الكفر منهم فهل يجب ام لا فان لم يجب امكن ان لا يوجد الكفر مع حصول العلم بالكفر وذلك جمع بين الضدين وان وجب لزمك ما اوردته علينا واعلم ان الكلام وان كان قويا حسنا الا انه اذا توجه عليه النقض الذى لا محيص عنه فكيف يرضى العاقل بان يعول عليه ۞ قوله تعالى (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا اوتى مثل ما اوتى موسى اولم يكفروا بما اوتى موسى من قبل قالوا ساحران تظاهرا وقالوا انا بكل كافرون قل فأتوا بكتاب من عند الله هو اهدى منهما اتبعه ان كنتم صادقين فان لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون اهواءهم ومن اضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدى القوم الظالمين ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين اولئك يؤتون اجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون واذا سمعوا اللغو اعرضوا عنه وقالوا لنا اعمالنا ولكم اعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين) اعلم انه تعالى لما حكى عنهم انهم عند الخوف قالوا هلا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك بين ايضا انه بعد الارسال الى اهل مكة قالوا لولا اوتى مثل ما اوتى موسى فهؤلاء قبل البعثة يتعلقون بشبهة وبعد البعثة يتعلقون باخرى فظهر انه لا مقصود لهم سوى الزيغ والعناد اما قوله فلما جاءهم الحق من عندنا اى جاءهم الرسول المصدق بالكتاب المعجز مع سائر المعجزات قالوا لولا

(أوتى)

عطف عليه لكن على ان التبكيت يخص ذلك النفى فقط كيف لا وهم لا ينكرونه حتما يتعلق به قوله تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله بل باشراكهم به تعالى فى العبادة ما يعترفون بعدم مشاركته له تعالى فيما ذكر من لوازم الالوهية كأنه قيل أاله آخر مع الله فى خواص الالوهية حتى يجعل شريكا له تعالى فى العبادة وقيل المعنى اغيره يقرن به ويجعل له شريكا له فى العبادة مع تفرده تعالى بالخلق والتكوين فالانكار للتوبيخ والتبكيت مع تحقق المنكر دون النفى كما فى الوجهين السابقين والاول هو الاظهر الموافق لقوله تعالى وما كان معه من اله والاوفق بحق المقام لافادته نفى وجود اله آخر معه تعالى رأسا لا نفى معيته فى الخلق وفروعه فقط وقرئ أاله بتوسيط مدة بين الهمزتين وباخراج الثانية بين بين وقرئ أالها بإضمار فعل يناسب المقام مثل أتدعون او أتشركون (بل هم قوم يعدلون) اضراب وانتقال من تبكيتهم بطريق الخطاب الى بيان سوء حالهم وحكايته لغيرهم اى بل هم قوم عادتهم العدول عن طريق الحق بالكلية والانحراف عن الاستقامة فى كل امر من الامور فلذلك يفعلون ما يفعلون من العدول عن الحق الواضح الذى هو التوحيد والعكوف على الباطل البين الذى هو الاشراك وقيل يعدلون به تعالى غيره وهو بعيد خال عن الافادة (ام من جعل الارض قرارا) الخ بدل من ام من خلق السموات الخ وكذا ما بعده من الجمل الثلاث

اوتى مثل ما اوتى موسى من الكتاب المنزل جملة واحدة ومن سائر المعجزات كقلب العصا حية واليد البيضاء وفلق البحر وتظليل الغمام وانفجار الحجر بالماء والمن والسلوى ومن ان الله كلمه وكتب له فى الالواح وغيرها من الآيات فجاؤا بالاقتراحات المبنية على التعنت والعناد كما قالوا لولا انزل عليه كنز او جاء معه ملك وما اشبه ذلك (واعلم) ان الذى اقترحوه غير لازم لانه لا يجب فى معجزات الانبياء عليهم السلام أن تكون واحدة ولا فيما ينزل اليهم من الكتب ان يكون على وجه واحد اذ الصلاح قد يكون فى انزاله مجموعا كالتوراة ومفرقا كالقرآن ثم انه تعالى اجاب عن هذه الشبهة بقوله اولم يكفروا بما اوتى موسى من قبل واختلفوا فى ان الضمير فى قوله اولم يكفروا الى من يعود وذكروا وجوها (احدها) ان اليهود امروا قريشا ان يسألوا محمدا ان يؤتى مثل ما اوتى موسى عليه السلام فقال تعالى اولم يكفروا بما أوتى موسى يعنى اولم تكفروا يا هؤلاء اليهود الذين استخرجوا هذا السؤال بموسى عليه السلام مع تلك الآيات الباهرة (وثانيها) ان الذين اوردوا هذا الاقتراح كفار مكة والذين كفروا بموسى هم الذين كانوا فى زمان موسى عليه السلام الا انه تعالى جعلهم كالشئ الواحد لانهم فى الكفر والتعنت كالشئ الواحد (وثالثها) قال الكلبى ان مشركى مكة بعثوا رهطا الى يهود المدينة ليسألهم عن محمد وشانه فقالوا انا نجده فى التوراة بنعته وصفته فلما رجع الرهط اليهم واخبروهم بقول اليهود قالوا انه كان ساحرا كما ان محمدا ساحر فقال تعالى فى حقهم اولم يكفروا بما اوتى موسى (ورابعها) قال الحسن قد كان للعرب اصل فى ايام موسى عليه السلام فمعناه على هذا اولم يكفر آباؤهم بان قالوا فى موسى وهرون ساحران (وخامسها) قال قتادة اولم يكفر اليهود فى عصر محمد بما اوتى موسى من قبل من البشارة بعيسى ومحمد عليهما السلام فقالوا ساحران (وسادسها) وهو الاظهر عندى ان كفار قريش ومكة كانوا منكرين لجميع النبوات ثم انهم لما طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم معجزات موسى عليه السلام قال الله تعالى اولم يكفروا بما اوتى موسى من قبل بل بما اوتى جميع الانبياء من قبل فعلمنا انه لا غرض لكم من هذا الاقتراح الا التعنت ثم انه تعالى حكى كيفية كفرهم بما اوتى موسى من وجهين (الاول) قولهم ساحران تظاهرا قرأ ابن كثير وابو عمرو واهل المدينة ساحران بالالف وقرأ اهل الكوفة بغير الف وذكروا فى تفسير الساحرين وجوها (احدها) المراد هرون وموسى عليهما السلام تظاهرا اى تعاونا وقرئ اظاهرا على الادغام وسحران بمعنى ذوى سحر وجعلوهما سحرين مبالغة فى وصفهما بالسحر وكثير من المفسرين فسروا قوله سحران بان المراد هو القرآن والتوراة واختار ابو عبيدة القراءة بالالف لان المظاهرة بالناس وافعالهم اشبه منها بالكتب وجوابه انا بينا ان قوله سحران يمكن حمله على الرجلين وبتقدير ان يكون المراد الكتابين لكن لما كان كل واحد من الكتابين يقوى الآخر لم يبعد ان يقال على سبيل المجاز تعاونا كما تقول تظاهرت الاخبار وهذه التأويلات انما تصح اذا حملنا قوله

وحكم الكل واحد والاظهر ان كل واحد منها اضراب وانتقال من التبكيت بما قبلها الى التبكيت بوجه آخر ادخل فى الالزام بجهة من الجهات اى جعلها بحيث يستقر عليها الانسان والدواب بابداء بعضها من الماء ودحوها وتسويتها حسبما تدور عليه منافعهم (وجعل خلالها) اوساطها (انهارا) جارية ينتفعون بها (وجعل لها رواسى) اى جبالا ثوابت تمنعها ان تميد باهلها ويتكون فيها المعادن وينبع فى حضيضها الينابيع ويتعلق بها من المصالح ما لا يحصى (وجعل بين البحرين) اى العذب والمالح او خليجى فارس والروم (حاجزا) برزخا مانعا من الممازجة وقد مر فى سورة الفرقان والجعل فى المواقع الثلاثة الاخيرة ابداعى وتأخير مفعوله عن الظرف لما مر مرارا من التشويق (أاله مع الله) فى الوجود او فى ابداع هذه البدائع على ما مر (بل اكثرهم لا يعلمون) اى شيئا من الاشياء ولذلك لا يفهمون بطلان ما هم عليه من الشرك مع كمال ظهوره (أم من يجيب المضطر اذا دعاه) وهو الذى احوجته شدة من الشدائد والجأته الى اللجأ والضراعة الى الله عز وجل اسم مفعول من الاضطرار الذى هو افتعال من الضرورة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هو المجهود وعن السدى رحمه الله تعالى من لا حول له ولا قوة وقيل المذنب اذا استغفر واللام للجنس لا للاستغراق حتى يلزم اجابة كل مضطر (ويكشف السوء) وهو الذى يعترى الانسان مما يسوءه (ويجعلكم خلفاء الارض) اى خلفاء فيها بأن

اولم يكفروا بما اوتى موسى اما على كفار مكة او على الكفار الذين كانوا فى زمان موسى عليه السلام ولاشك ان ذلك اليق بمساق الآية (الثانى) قولهم انا بكل كافرون اى بما انزل على محمد وموسى وسائر الانبياء عليهم السلام ومعلوم ان هذا الكلام لايليق الا بالمشركين لا باليهود وذلك مبالغة فى انهم مع كثرة آيات موسى عليه السلام كذبوه فالذى يمنع من مثله فى محمد صلى الله عليه وسلم وان ظهرت حجته ولما اجاب الله تعالى عن شبههم ذكر الحجة الدالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم فقال قل فأتوا بكتاب من عند الله هو اهدى منهما اتبعه وهذا تنبيه على عجزهم عن الاتيان بمثله قال الزجاج اتبعه بالجزم على الشرط ومن قرأ اتبعه بالرفع فالتقدير انا اتبعه ثم قال فان لم يستجيبوا لك قال ابن عباس يريد فان لم يؤمنوا بما جئت به من الحجج وقال مقاتل فان لم يمكنهم ان يأتوا بكتاب افضل منهما وهذا اشبه بالآية فان قيل الاستجابة تقتضى دعاء فأين الدعاء ههنا قلنا قوله فأتوا بكتاب أمر والامر دعاء الى الفعل ثم قال فاعلم انما يتبعون اهواءهم يعنى قد صار وا ملزمين ولم يبق لهم شئ الا اتباع الهوى ثم زيف طريقتهم بقوله ومن اضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله وهذا من اعظم الدلائل على فساد التقليد وانه لابد من الحجة والاستدلال ان الله لايهدى القوم الظالمين وهو عام يتناول الكافر لقوله ان الشرك لظلم عظيم واحتج الاصحاب به فى ان هداية الله تعالى خاصة بالمؤمنين (وقالت المعتزلة) الالطاف منها مايحسن فعلها مطلقا ومنها مالايحسن الا بعد الايمان والدليل عليه قوله والذين اهتدوا زادهم هدى فقوله ان الله لايهدى القوم الظالمين محمول على القسم الثانى ولايجوز حمله على القسم الاول لانه تعالى لما بين فى الآية المتقدمة ان عدم بعثة الرسول جار مجرى العذر لهم فبان يكون عدم الهداية عذرا لهم اولى ولما بين تعالى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الدلالة قال ولقد وصلنا لهم القول وتوصيل القول هو اتيان بيان بعد بيان وهو من وصل البعض بالبعض وهذا القول الموصل يحتمل ان يكون المراد منه انا انزلنا القرآن منجما مفرقا يتصل بعضه ببعض ليكون ذلك اقرب الى التذكير والتنبيه فانهم كل يوم يطلعون على حكمة اخرى وفائدة زائدة فيكونون عند ذلك اقرب الى التذكر وعلى هذا التقدير يكون هذا جوابا عن قولهم هلا اوتى محمد كتابه دفعة واحدة كما اوتى موسى كتابه كذلك ويحتمل ان يكون المراد وصلنا اخبار الانبياء بعضها ببعض واخبار الكفار فى كيفية هلاكهم تكثيرا لمواضع الاتعاظ والانزجار ويحتمل ان يكون المراد بينا الدلالة على كون هذا القرآن معجزا مرة بعد اخرى لعلهم يتذكرون ثم انه تعالى لما اقام الدلالة على النبوة أكد ذلك بأن قال الذين آتيناهم الكتاب من قبله اى من قبل القرآن اسلموا بمحمد فمن لايعرف الكتب اولى بذلك واختلفوا فى المراد بقوله الذين آتيناهم الكتاب وذكروا فيه وجوها (احدها) قال قتادة انها نزلت فى اناس من اهل الكتاب كانوا على شريعة حقة يتمسكون بها فلما بعث الله تعالى محمدا آمنوا به من جملتهم سلمان وعبد

ورثكم سكناها والتصرف فيها ممن قبلكم من الامم وقيل المراد بالخلافة الملك والسلطان الدمع الله الذى يفيض على كافة الانام هذه النعم الجسام (قليلا ماتذكرون) اى تذكرا قليلا اوزمانا قليلا تتذكرون وما مزيدة لتأكيد معنى القلة التى اريد بها العدم اوما يجرى مجراه فى الحقارة وعدم الجدوى وفى تذييل الكلام بنفى التذكر عنهم ايذان بأن مضمونه مركوز فى ذهن كل ذكى وغبى وانه من الوضوح بحيث لايتوقف الا على التوجه اليه وتذكره وقرئ ويتذكرون على الاصل ويذكرون تذكرون بالتاء وبالياء مع الادغام (أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر) اى فى ظلمات الليالى فيهما على ان الاضافة للملابسة او فى مشتبهات الطرق يقال طريقة ظلماء وعمياء للتى لامنار بها (ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته) وهى المطر ولئن صح ان السبب الاكثرى فى تكون الريح معاودة الادخنة الصاعدة من الطبقة الباردة لانكسار حرها وتموجها الهواء فلاريب فى ان الاسباب الفاعلية والقابلية لذلك كله من خلق الله عز وجل والفاعل للسبب فاعل للسبب قطعا (أإله مع الله) انى لان يكون معه اله آخر وقوله تعالى (عما يشركون) تقرير وتحقيق له واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار للاشعار بعلة الحكم اى تعالى وتنزه بذاته المتفردة بالالوهية المستتبعة لجميع صفات الكمال ونعوت الجمال والجلال المقتضية لكون كل المخلوقات مقهورا تحت قدرته عما يشركون اى عن وجود ما يشركونه به تعالى لا مطلقا

الله بن سلام (ثانيها) قال مقاتل نزلت فى اربعين رجلا من اهل الانجيل وهم اصحاب السفينة جاؤا من الحبشة مع جعفر (وثالثها) قال رفاعة بن قرظة نزلت فى عشرة انا احدهم وقد عرفت ان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فكل من حصل فى حقه تلك الصفة كان داخلا فى الآية ثم حكى عنهم ما يدل على تأكيد ايمانهم وهو قولهم آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين فقوله انه الحق من ربنا يدل على التعليل يعنى ان كونه حقا من عند الله يوجب الايمان به وقوله انا كنا من قبله مسلمين بيان لقوله آمنا به لانه يحتمل ان يكون ايمانا قريب العهد وبعيده فاخبروا ان ايمانهم به متقادم وذلك لما وجدوه فى كتب الانبياء عليهم السلام المتقدمين من البشارة بمقدمه ثم انه تعالى لما مدحهم بهذا المدح العظيم قال اولئك يؤتون اجرهم مرتين بما صبروا وذكروا فيه وجوها (احدها) انهم يؤتون اجرهم مرتين بايمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل بعثته وبعد بعثته وهذا هو الاقرب لانه تعالى لما بين انهم آمنوا به بعد البعثة وبين ايضا انهم كانوا مؤمنين به قبل البعثة ثم اثبت الاجر مرتين وجب ان ينصرف الى ذلك (وثانيها) يؤتون الاجر مرتين مرة بايمانهم بالانبياء الذين كانوا قبل محمد صلى الله عليه وسلم ومرة أخرى بايمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم (وثالثها) قال مقاتل هؤلاء لما آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم شتمهم المشركون فصفحوا عنهم فلهم اجران اجر على الصفح واجر على الايمان يروى انهم لما اسلموا لعنهم ابو جهل فسكتوا عنه قال السدى اليهود عابوا عبد الله بن سلام وشتموه وهو يقول سلام عليكم ثم قال ويدرؤن بالحسنة السيئة والمعنى بالطاعة المعصية المتقدمة ويحتمل ان يكون المراد دفعوا بالعفو والصفح الأذى ويحتمل ان يكون المراد من الحسنة امتناعهم من المعاصى لان نفس الامتناع حسنة ويدفع به ما لولاه لكان سيئة ويحتمل التوبة والانابة والاستقرار عليها ثم قال ومما رزقناهم ينفقون واعلم انه تعالى مدحهم اولا بالايمان ثم بالطاعات البدنية فى قوله ويدرؤن بالحسنة السيئة ثم بالطاعات المالية فى قوله ومما رزقناهم ينفقون (قال) القاضى دل هذا المدح على ان الحرام لا يكون رزقا (جوابه) ان كلمة من للتبعيض فدل على انهم استحقوا المدح بانفاق بعض ما كان رزقا وعلى هذا التقدير يسقط استدلاله ثم لما بين كيفية اشتغالهم بالطاعات والافعال الحسنة بين كيفية اعراضهم عن الجهال فقال واذا سمعوا اللغو اعرضوا عنه واللغو ما حقه ان يلغى ويترك من العبث وغيره وكانوا يسمعون ذلك فلا يخوضون فيه بل يعرضون عنه اعراضا جميلا فلذلك قال تعالى وقالوا لنا اعمالنا ولكم اعمالكم سلام عليكم وما احسن ما قال الحسن رحمه الله فى ان هذه الكلمة تحية بين المؤمنين وعلامة الاحتمال من الجاهلين ونظير هذه الآية قوله تعالى وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ثم اكد تعالى ذلك بقوله حاكيا عنهم لا نبتغى الجاهلين والمراد لا نجازيهم بالباطل على باطلهم قال قوم نسخ ذلك

فان وجوده مما لا مرد له بل عن وجوده بعنوان كونه الها وشريكا له تعالى او عن اشراكهم (امن يبدأ الخلق ثم يعيده) اى بل امن يبدأ الخلق ثم يعيده بعد الموت بالبعث (ومن يرزقكم من السماء والارض) اى بأسباب سماوية وارضية قدرتيها على ترتيب بديع تقتضيه الحكمة التى عليها امر التكوين خير ام ما تشركونه به فى العبادة من جماد لا يتوهم قدرته على شئ ما اصلا (أاله) آخر موجود (مع الله) حتى يجعل شريكا له فى العبادة وقوله تعالى (قل هاتوا برهانكم) امر له عليه الصلاة والسلام بتبكيتهم اثر تبكيت اى هاتوا برهانا عقليا او نقليا يدل على ان معه تعالى الها لا على ان غيره تعالى يقدر على شئ مما ذكر من افعاله تعالى كما قيل فانهم لا يدعونه صريحا ولا يلتزمون كونه من لوازم الالوهية وان كان منافى الحقيقة فما لبتهم بالبرهان عليه لا على صريح دعواهم مما لا وجه له وفى اضافة البرهان الى ضميرهم تهكم بهم لما فيها من ايهام ان لهم برهانا وانى لهم ذلك (ان كنتم صادقين) اى فى تلك الدعوى (قل لا يعلم من فى السموات والارض الغيب الا الله) بعد ما حقق تفرده تعالى بالالوهية ببيان اختصاصه بالقدرة الكاملة التامة والرحمة الشاملة العامة عقبه بذكر ما هو من لوازمه وهو اختصاصه بعلم الغيب تكميلا لما قبله وتمهيدا لما بعده من امر البعث والاستثناء منقطع ورفع المستثنى على اللغة التميمية للدلالة على استحالة علم الغيب من اهل

بالامر بالقتال وهو بعيد لان ترك المسافهة مندوب وان كان القتال واجبا ﴿ قوله تعالى (انك لاتهدى من احببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو اعلم بالمهتدين وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من ارضنا اولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شئ رزقا من لدنا ولكن اكثرهم لايعلمون) اعلم ان فى قوله تعالى انك لاتهدى من احببت ولكن الله يهدى من يشاء مسائل (المسئلة الاولى) هذه الآية لادلالة فى ظاهرها على كفر ابى طالب ثم قال الزجاج اجمع المسلمون على انها نزلت فى ابى طالب وذلك ان اباطالب قال عند موته يامعشر بنى عبدمناف اطيعوا محمدا وصدقوه تفلحوا وترشدوا فقال عليه السلام ياعم تأمرهم بالنصح لانفسهم وتدعها لنفسك قال فاتريد ياابن أخى قال اريد منك كلمة واحدة فانك فى آخر يوم من ايام الدنيا ان تقول لا اله الا الله اشهد لك بها عند الله تعالى قال ياابن اخى قد علمت انك صادق ولكنى اكره ان يقال خرع عند الموت ولولا ان يكون عليك وعلى بنى ابيك غضاضة ومسبة بعدى لقلتها ولاقررت بها عينك عند الفراق لما ارى من شدة وجدك ونصحك ولكنى سوف اموت على ملة الاشياخ عبد المطلب وهاشم وعبدمناف (المسئلة الثانية) انه تعالى قال فى هذه الآية انك لاتهدى من احببت وقال فى آية أخرى وانك لتهدى الى صراط مستقيم ولاتنافى بينهما فان الذى اثبته واضافه اليه الدعوة والبيان والذى نفى عنه هداية التوفيق وشرح الصدر وهو نور يقذف فى القلب فيحيى به القلب كما قال سبحانه أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا الآية (المسئلة الثالثة) احتج الاصحاب بهذه الآية فى مسئلة الهدى والضلال فقالوا قوله انك لاتهدى من احببت ولكن الله يهدى من يشاء يقتضى ان تكون الهداية فى الموضعين بمعنى واحد لانه لوكان المراد من الهداية فى قوله انك لاتهدى شيئا وفى قوله ولكن الله يهدى من يشاء شيئا آخر لاختل النظم ثم اما ان يكون المراد من الهداية بيان الدلالة او الدعوة الى الجنة او تعريف طريق الجنة او خلق المعرفة فى القلوب على سبيل الالجاء او خلق المعرفة فى القلوب لاعلى سبيل الالجاء لاجائز ان يكون المراد بيان الادلة لانه عليه السلام هدى الكل بهذا المعنى فهى غير الهداية التى نفى الله عمومها وكذا القول فى الهداية بمعنى الدعوة الى الجنة واما الهداية بمعنى تعريف طريق الجنة فهى ايضا غير مرادة من الآية لانه تعالى علق هذه الهداية على المشيئة وتعريف طريق الجنة غير معلق على المشيئة لانه واجب على الله تعالى والواجب لايكون معلقا على المشيئة فمن وجب عليه اداء عشرة دنانير لايجوز ان يقول انى اعطى عشرة دنانير ان شئت واما الهداية بمعنى الالجاء والقسر فغير جائز لان ذلك عندهم قبيح من الله تعالى فى حق المكلف وفعل القبيح مستلزم للجهل او الحاجة وهما محالان ومستلزم المحال محال فذلك محال من الله تعالى والمحال لايجوز تعليقه على المشيئة ولما بطلت الاقسام لم يبق الا ان المراد انه تعالى يخص البعض بخلق الهداية والمعرفة ويمنع البعض منها ولايسأل عما يفعل ومتى اوردت الكلام على

السموات والارض بتعليقه بكونه سبحانه وتعالى منهم كما قيل ان كان الله تعالى ممن فيهما فقيهم من يعلم الغيب او متصل على ان المراد بمن فى السموات والارض من تعلق علمه بهما واطلع عليهما اطلاع الحاضر فيهما فان ذلك معنى مجازى عام له تعالى ولاولى العلم من خلقه ومن موصولة او موصوفة (ومايشعرون ايان يبعثون) اى متى ينشرون من القبور مع كونه مما لابدلهم منه ومن اهم الامور عندهم وايان مركبة من اى وآن وقرئ بكسر الهمزة والضمير للكفرة وان كان عدم الشعور بما ذكر عاما لئلا يلزم التفكيك بينه وبين ماسيأتى من الضمائر الخاصة بهم قطعا وقيل الكل لمن واسناد خواص الكفرة الى الجميع من قبيل قولهم بنو فلان فعلوا كذا والفاعل بعض منهم (بل ادارك علمهم فى الآخرة) لمانفى عنهم علم الغيب واكد ذلك بنفى شعورهم بوقت ماهو مصيرهم لامحالة بولغ فى تأكيده وتقريره بان اضرب عنه وبين انهم فى جهل افحش من جهلهم بوقت بعثهم حيث لايعلمون احوال الآخرة مطلقا مع تعاضد اسباب معرفتها على ان معنى ادارك علمهم فى الآخرة تدارك وتتابع علمهم فى شأن الآخرة التى ماذكر من البعث حال من احوالها حتى انقطع ولم يبق لهم علم بشئ مما سيكون فيها قطعا لكن لاعلى معنى انه كان لهم علم بذلك على الحقيقة ثم انتفى شيأ فشيأ بل على طريقة المجاز بتنزيل اسباب العلم ومباديه من الدلائل العقلية

هذا الوجه سقط كل ما اورده القاضي عذرا عن ذلك اما قوله وهو أعلم بالمهتدين فالمعنى انه المختص بعلم الغيب فيعلم من يهتدي بعد ومن لا يهتدي ثم انه سبحانه بعد ان ذكر شبههم واجاب عنها بالاجوبة الواضحة وبين ان وضوح الدلائل لا يكفي ما لم ينضم اليه هداية الله تعالى حكى عنهم شبهة اخرى متعلقة باحوال الدنيا وهي قولهم ان نتبع الهدى معك نتخطف من ارضنا قال المبرد الخطف الانتزاع بسرعة روى ان الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم انا لنعلم ان الذي تقوله حق ولكن يمنعنا من ذلك تخطفنا من أرضنا اي يجتمعون على محاربتنا ويخرجوننا من ارضنا فاجاب الله سبحانه وتعالى عنها من وجوه (الاول) قوله أولم نمكن لهم حرما آمنا اي أعطيناكم مسكنا لا خوف لكم فيه اما لان العرب كانوا يحترمون الحرم وما كانوا يتعرضون البتة لسكانه فانه يروى ان العرب خارج الحرم كانوا مشتغلين بالنهب والغارة وما كانوا يتعرضون البتة لسكان الحرم او لقوله تعالى ومن دخله كان آمنا اما قوله تعالى يجبى اليه ثمرات كل شيء فهو تعالى كما بين كون ذلك الموضع خاليا عن المخاوف والآفات بين كثرة النعم فيه ومعنى يجبى يجمع من قولهم جبيت الماء في الحوض اذا جمعته قرأ اهل المدينة تجبى بالتاء واهل الكوفة وابو عمرو بالياء وذلك ان تأنيث الثمرات تأنيث جمع وليس بتأنيث حقيقي فيجوز تأنيثه على اللفظ وتذكيره على المعنى ومعنى الكلية الكثرة كقوله وأوتيت من كل شيء وحاصل الجواب انه تعالى لما جعل الحرم آمنا واكثر فيه الرزق حال كونهم معرضين عن عبادة الله تعالى مقبلين على عبادة الاوثان فلو آمنوا لكان بقاء هذه الحالة اولى قال القاضي ولو ان الرسول قال لهم ان الذي ذكرتم من التخطف لو كان حقا لم يكن عذرا لكم في ان لا تؤمنوا وقد ظهرت الحجة لانقطعوا او قال لهم ان تخطفهم لكم بالقتل وغيره وقد آمنتم كالشهادة لكم فهو نفع عائد عليكم لانقطعوا ايضا ولو قال لهم ما قدر مضرة التخطف في جنب العقاب الدائم الذي اخوفكم منه ان بقيتم على كفركم لانقطعوا لكنه تعالى احتج بما هو اقوى من حيث بين كذبهم في انهم يتخطفون من حيث عرفوا من حال البقعة بالعادة ان ذلك لا يجري ان آمنوا ومثل ذلك اذا امكن بيانه للخصم فهو اولى من سائر ما ذكرنا فلذلك قدمه الله تعالى والآية دالة على صحة الحجاج الذي يتوصل به الى ازالة شبهة المبطلين بقي ههنا بحثان (الاول) قال صاحب الكشاف في انتصاب رزقا ان جعلته مصدرا جاز ان ينتصب بمعنى ما قبله لان معنى يجبى اليه ثمرات كل شيء ويرزق ثمرات كل شيء واحد وان يكون مفعولا له وان جعلته بمعنى مرزوق كان حالا من الثمرات لتخصيصها بالاضافة كما ينتصب عن النكرة المخصصة بالصفة (الثاني) احتج الاصحاب بقوله رزقا من لدنا في ان فعل العبد خلق الله تعالى وبيانه ان تلك الارزاق انما كانت تصل اليهم لان الناس كانوا يحملونها اليهم فلو لم يكن فعل العبد خلقا لله تعالى لما صحت تلك الاضافة فان قيل سبب تلك الاضافة انه تعالى هو الذي القى تلك الدواعي في قلوب من ذهب بتلك

والسحية منزلة نفسه واجراء تساقطها عن درجة اعتبارهم كما لا يحضرها بمجرى تابعها الى الانقطاع ثم اضرب وانتقل عن بيان عدم علمهم بها الى بيان ما هو اسوأ منه وهو حيرتهم في ذلك حيث قيل (بل هم في شك منها) اي في شك مريب من نفس الآخرة وتحققها كمن تحير في امر لا يجد عليه دليلا فضلا عن الامور التي ستقع فيها ثم اضرب عن ذلك الى بيان ان ما هم فيه اشد وافظع من الشك حيث قيل (بل هم منها عمون) بحيث لا يكادون يدركون دلائلها لاختلال بصائرهم بالكلية وقرئ بل ادرك علمهم بمعنى انتهى وفني وقد فسره الحسن البصري باضمحل علمهم وقيل كلتا الصيغتين على معناهما الظاهر اي تكامل واستحكم اوتم اسباب علمهم بان القيامة كائنة لا محالة من الآيات القاطعة والحجج الساطعة وتمكنوا من المعرفة فضل تمكن وهم جاهلون في ذلك وقوله تعالى بل هم في شك منها اضراب وانتقال من وصفهم بمطلق الجهل الى وصفهم بالشك وقوله تعالى بل هم منها عمون اضراب من وصفهم بالشك الى وصفهم بما هو اشد منه وافظع من العمى وانت خبير بان تنزيل اسباب العلم منزلة العلم سنن مسلوك لكن دلالة النظم الكريم على جهلهم حينئذ ليست بواضحة وقيل المراد بوصفهم باستحكام العلم وتكامله التهكم بهم فيكون وصفا لهم بالجهل مبالغة والاضرابات على ما ذكر واصل ادارك تدارك وبه قرأ أبي

الارزاق اليهم قلنا تلك الدواعى ان اقتضت الرجحان فقد بينا فى غير موضع انه متى حصل الرجحان فقد حصل الوجوب وحينئذ يحصل المقصود وان لم يحصل الرجحان انقطعت الاضافة بالكلية واعلم انه تعالى انما بين ان تلك الارزاق ما وصلت اليهم الا من الله تعالى لاجل انهم متى علموا ذلك صاروا بحيث لا يخافون احدا سوى الله تعالى ولا يرجون احدا غير الله تعالى فيبقى نظرهم منقطعا عن الخلق متعلقا بالخالق وذلك يوجب كمال الايمان والاعراض بالكلية عن غير الله تعالى والاقبال بالكلية على طاعة الله تعالى ۞ قوله تعالى (وكم اهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى امها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى الا واهلها ظالمون) اعلم ان هذا هو الجواب الثانى عن تلك الشبهة وذلك لانه تعالى لما بين لاهل مكة ما خصوا به من النعم اتبعه بما انزله الله تعالى بالامم الماضية الذين كانوا فى نعم الدنيا فلما كذبوا الرسل أزال الله عنهم تلك النعم والمقصود ان الكفار لما قالوا انا لا نؤمن خوفا من زوال نعمة الدنيا فالله تعالى بين لهم ان الاصرار على عدم قبول الايمان هو الذى يزيل هذه النعم لا الاقدام على الايمان قال صاحب الكشاف البطر سوء احتمال الغنى وهو ان لا يحفظ حق الله تعالى فيه وانتصبت معيشتها اما بحذف الجار وايصال الفعل كقوله واختار موسى قومه او بتقدير حذف الزمان المضاف واصله بطرت ايام معيشتها واما تضمين بطرت معنى كفرت فاما قوله فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا ففى هذا الاستثناء وجوه (احدها) قال ابن عباس رضى الله عنهما لم يسكنها الا المسافر ومار الطريق يوما او ساعة (وثانيها) يحتمل ان شؤم معاصى المهلكين بقى اثره فى ديارهم فكل من سكنها من اعقابهم لم يبق فيها الا قليلا وكنا نحن الوارثين بها بعد هلاك اهلها واذا لم يبق للشئ مالك معين قيل انه ميراث الله لانه الباقى بعد فناء خلقه ثم انه سبحانه لما ذكر انه اهلك تلك القرى بسبب بطر اهلها فكأن سائلا اورد السؤال من وجهين (الاول) لماذا ما اهلك الله الكفار قبل محمد صلى الله عليه وسلم مع انهم كانوا مستغرقين فى الكفر والعناد (الثانى) لماذا ما اهلكهم بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم مع تمادى القوم فى الكفر بالله تعالى والتكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم (فأجاب عن السؤال الاول) بقوله وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى امها رسولا يتلو عليهم آياتنا وحاصل الجواب انه تعالى قدم بيان ان عدم البعثة يجرى مجرى العذر للقوم فوجب ان لا يجوز اهلاكهم الا بعد البعثة ثم ذكر المفسرون وجهين (احدهما) وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى امها رسولا اى فى القرية التى هى امها واصلها وقصبتها التى هى اعمالها وتوابعها رسولا لالزام الحجة وقطع المعذرة (الثانى) وما كان ربك مهلك القرى التى فى الارض حتى يبعث فى ام القرى يعنى مكة رسولا وهو محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء ومعنى يتلو عليهم آياتنا يؤدى ويبلغ (واجاب عن السؤال الثانى)

(بقوله)

فأبدلت التاء دالا وسكنت فتعذر الابتداء فاجتلبت همزة الوصل فصار ادارك وقرئ بل ادرك واصله افتعل وبل أادرك بهمزتين وبل آادرك بألف بينهما وبل ادرك بالتخفيف والنقل وبل ادرك بفتح اللام وتشديد الدال واصله بل ادرك على الاستفهام وبلى ادرك وبلى أادرك وام تدارك وام ادرك فهذه ثنتا عشرة قراءة فما فيه استفهام صريح او مضمن من ذلك فهو انكار ونفى وما فيه بلى فاثبات لشعورهم وتفسيره بالادراك على وجه التهكم الذى هو ابلغ وجوه النفى والانكار وما بعده اضراب عن التفسير مبالغة فى النفى ودلالة على ان شعورهم بها انهم شاكون فيها بل انهم منها عمون اورد وانكار لشعورهم (وقال الذين كفروا) بيان لجهلهم بالآخرة وعمههم منها بحكاية انكارهم للبعث ووضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بما فى حيز صلته والاشعار بعلة حكمهم الباطل فى قولهم (أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون) اى المخرج من القبور اذا كنا ترابا كما ينبئ عنه مخرجون ولا مساغ لأن يكون هو العامل فى اذا لاجتماع موانع لو تفرد واحد منها لكفى فى المنع وتقييد الاخراج بوقت كونهم ترابا ليس لتخصيص الانكار بالاخراج حينئذ فقط فانهم منكرون للاحياء بعد الموت مطلقا وان كان البدن على حاله بل لتقوية الانكار بتوجيهه الى الاخراج فى حالة منافية له وقوله تعالى وآباؤنا عطف على اسم كان وقام الفصل

بقوله وما كنا مهلكي القرى الا واهلها ظالمون انفسهم بالشرك واهل مكة ليسوا كذلك فان بعضهم قد آمن و بعضهم علم الله منهم انهم سيؤمنون وبعض آخرون علم الله انهم وان لم يؤمنوا لكنه يخرج من نسلهم من يكون مؤمنا * قوله تعالى (وما أوتيتم من شئ فمتاع الحياة الدنيا و زينتها و ماعند الله خير و ابقى أفلا تعقلون افمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين) اعلم ان هذا هو الجواب الثالث من تلك الشبهة لان حاصل شبهتهم ان قالوا تركنا الدين لئلا تفوتنا الدنيا فبين تعالى ان ذلك خطأ عظيم لان ماعند الله خير و ابقى اما انه خير فلوجهين (احدهما) ان المنافع هناك اعظم (وثانيهما) انها خالصة عن الشوائب ومنافع الدنيا مشوبة بالمضار بل المضار فيها اكثر واما انها أبقى فلأنها دائمة غير منقطعة ومنافع الدنيا منقطعة ومتى قوبل المتناهي بغير المتناهي كان عدما فكيف ونصيب كل احد بالقياس الى منافع الدنيا كلها كالذرة بالقياس الى البحر فظهر من هذا ان منافع الدنيا لانسبة لها الى منافع الآخرة البتة فكان من الجهل العظيم ترك منافع الآخرة لاستبقاء منافع الدنيا ولما نبه سبحانه على ذلك قال أفلا تعقلون يعنى ان من لايرجح منافع الآخرة على منافع الدنيا كأنه يكون خارجا عن حد العقل ورحم الله الشافعي حيث قال من اوصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف ذلك الثلث الى المشتغلين بطاعة الله تعالى لان اعقل الناس من اعطى القليل واخذ الكثير وماهم الا المشتغلون بالطاعة فكأنه رحمه الله انما اخذه من هذه الآية ثم انه تعالى أكد هذا الترجيح من وجه آخر وهو انا لو قدرنا ان نعم الله كانت تنتهى الى الانقطاع والفناء وما كانت تتصل بالعذاب الدائم لكان صريح العقل يقتضى ترجيح نعم الآخرة على نعم الدنيا فكيف اذا اتصلت نعم الدنيا بعقاب الآخرة فأى عقل يرتاب فى ان نعم الآخرة راجحة عليها وهذا هو المراد بقوله أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه فهو لايكون كمن اعطاه الله قدرا قليلا من متاع الدنيا ثم يكون فى الآخرة من المحضرين للعذاب والمقصود انهم لما قالوا تركنا الدين للدنيا فقال الله لهم لو لم يحصل عقيب دنياكم مضرة العقاب لكان العقل يقتضى ترجيح منافع الآخرة على منافع الدنيا فكيف وهذه الدنيا تحصل بعدها العقاب الدائم واورد هذا الكلام على لفظ الاستفهام ليكون أبلغ فى الاعتراف بالترجيح وتخصيص لفظ المحضرين بالذين احضروا للعذاب أمر عرف من القرآن قال تعالى لكنت من المحضرين فانهم لمحضرون وفى لفظه اشعار به لان الاحضار مشعر بالتكليف والالزام وذلك لايليق بمجالس اللذة انما يليق بمجالس الضرر والمكاره * قوله تعالى (ويوم يناديهم فيقول اين شركائى الذين كنتم تزعمون قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين اغوينا اغويناهم كما غوينا تبرأنا اليك ما كانوا ايانا يعبدون وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو انهم كانوا يهتدون و يوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين فعميت عليهم الانباء يومئذ

مع الخبر مقاما لفصل بالتأكيد وتكرير الهمزة فى اثنا المبالغة والتشديد فى الانكار وتحلية الجملة بان واللام لتأكيد الانكار لالانكار التأكيد كما يوهمه ظاهر النظم فان تقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة كما فى قوله تعالى افلا تعقلون ونظائره على رأى الجمهور فان المعنى عندهم تعقيب الانكار لا انكار التعقيب كما هو المشهور وقرئ اذا كنا بهمزة واحدة مكسورة وقرئ انا لمخرجون على الخبر (لقد وعدنا هذا) اى الاخراج (نحن وآباؤنا من قبل) اى من قبل وعد محمد عليه الصلاة والسلام وتقديم الموعود على نحن لانه المقصود بالذكر وحيث اخر قصد به المبعوث والجملة استئناف مسوق لتقرير الانكار وتصديرها بالقسم لمزيد التأكيد وقوله تعالى (ان هذا الا اساطير الاولين) تقرير اثر تقرير (قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين) بسبب تكذيبهم للرسل عليهم الصلاة والسلام فيما دعوهم اليه من الايمان بالله عز وجل وحده وباليوم الآخر الذى تنكرونه فان فى مشاهدة عاقبتهم مافيه كفاية لاولى الابصار وفى التعبير عن المكذبين بالمجرمين لطف بالمؤمنين فى ترك الجرائم (ولا تحزن عليهم) لاصرارهم على الكفر والتكذيب (ولا تكن فى ضيق) فى حرج صدر (مما يمكرون) من مكرهم فان الله تعالى يعصمك من الناس وقرئ بكسر الضاد وهو ايضا مصدر ويجوز ان يكون المفتوح مخففا من ضيق وقد قرئ كذلك اى

لاتكن فى امر ضيق (ويقولون متى هذا الوعد) اى العذاب العاجل الموعود (ان كنتم صادقين) فى اخباركم باتيانه والجمع

فهم لايتساءلون) اعلم انه سبحانه وتعالى ذكر فى هذه الآية انه يسأل الكفار يوم القيامة عن ثلاثة أشياء (احدها) قوله ويوم يناديهم فيقول اين شركائى الذين كنتم تزعمون لما ثبت ان الكفار يوم القيامة قد عرفوا بطلان ما كانوا عليه وعرفوا صحة التوحيد والنبوة بالضرورة فيقول لهم اين ما كنتم تعبدونه وتجعلونه شريكا فى العبادة وتزعمون انه يشفع اين هو لينصركم و يخلصكم من هذا الذى نزل بكم ثم بين تعالى مايقوله من حق عليه القول و المراد من القول هو قوله لأملأن جهنم من الجنة و الناس اجمعين و معنى حق عليه القول اى حق عليه مقتضاه واختلفوا فى ان الذين حق عليهم هذا القول منهم من قال بعضهم الرؤساء الدعاة الى الضلال وقال بعضهم الشياطين قوله ربنا هؤلاء الذين اغوينا هؤلاء مبتدأ والذين اغوينا صفته والرجع الى الموصوف محذوف وأغويناهم الخبر و الكاف صفة مصدر محذوف تقديره اغويناهم فغووا غيا مثل ماغوينا والمراد كما ان غينا باختيارنا فكذا غيهم باختيارهم يعنى انا اغوانا لهم ما الجأهم الى الغواية بل كانوا مختارين بالاقدام على تلك العقائد والاعمال وهذا معنى ماحكاه الله عن الشيطان انه قال ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا انفسكم وقال تعالى لابليس ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين فقوله الا من اتبعك يدل على ان ذلك الاتباع لهم من قبل انفسهم لا من قبل الجاء الشيطان الى ذلك ثم قال تبرأنا اليك منهم ومن عقائدهم واعمالهم ما كانوا ايانا يعبدون انما كانوا يعبدون اهواءهم والحاصل انهم يتبرؤن منهم كما قال تعالى اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا وايضا فلا يمتنع فى قوله تعالى اين شركائى ان يريد به هؤلاء الرؤساء والشياطين فانهم لما اطاعوهم فقد صيروهم لمكان الطاعة بمنزلة الشريك لله تعالى واذا حمل الكلام على هذا الوجه كان جوابهم ان يقولوا الهنا هؤلاء ما عبدونا انما عبدوا أهواءهم الفاسدة (وثانيها) قوله تعالى وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم والاقرب ان هذا على سبيل التقريع لأنهم يعلمون انه لافائدة فى دعائهم لهم فالمراد انهم لو دعوهم لم يوجد منهم اجابة فى النصرة وان العذاب ثابت فيهم وكل ذلك على وجه التوبيخ وفى ذكره ردع وزجر فى دار الدنيا ماقوله تعالى لو انهم كانوا يهتدون فكثير من المفسرين زعموا ان جواب لو محذوف و ذكروا فيه وجوها (احدها) قال الضحاك ومقاتل يعنى المتبوع والتابع يرون العذاب ولو أنهم كانوا يهتدون فى الدنيا ماابصروه فى الآخرة (وثانيها) لو انهم كانوا مهتدين فى الدنيا لعلموا ان العذاب حق (وثالثها) ودوا حين رأوا العذاب لو كانوا فى الدنيا يهتدون (ورابعها) لو كانوا يهتدون لوجه من وجوه الحيل لدفعوا به العذاب (وخامسها) قد آن لهم ان يهتدوا لو انهم كانوا يهتدون اذا رأوا العذاب ويؤكد ذلك قوله تعالى لايؤمنون به حتى يروا العذاب الاليم وعندى ان الجواب غير محذوف وفى تقريره وجوه (احدها) ان الله تعالى اذا

(خاطبهم)

باعتبار شركة المؤمنين فى الاخبار بذلك (قل عسى ان يكون ردف لكم) اى تبعكم ولحقكم واللام مزيدة للتأكيد كالباء فى قوله تعالى ولاتلقوا بأيديكم الى التهلكة او الفعل مضمن معنى فعل يعدى باللام وقرئ بفتح الدال وهى لغة فيه (بعض الذى تستعجلون) وهو عذاب يوم بدر وعسى ولعل وسوف فى مواعيد الملوك بمنزلة الجزم بها وانما يطلقونها اظهارا للوقار واشعارا بأن الرمز من امثالهم كالتصريح ممن عداهم وعلى ذلك يجرى وعد الله تعالى ووعيده وايثار ماعليه النظم الكريم على ان يقال عسى ان يردفكم الخ لكونه ادل على تحقق الوعد (وان ربك لذو فضل على الناس) اى لذو افضال وانعام على كافة الناس ومن جملة انعاماته تأخير عقوبة هؤلاء على مايرتكبونه من المعاصى التى من جملتها استعجال العذاب (ولكن اكثرهم لايشكرون) لايعرفون حق النعمة فيه فلايشكرونه بل يستعجلون بجهلهم وقوعه كدأب هؤلاء (وان ربك ليعلم ماتكن صدورهم) اى ماتخفيه وقرئ بفتح التاء من كننت الشئ اذا سترته (ومايعلنون) من الافعال والاقوال التى من جملتها ماحكى عنهم من استعجال العذاب وفيه ايذان بان لهم قبائح غير مايظهرونه وانه تعالى يجازيهم على الكل وتقديم السر على العلن قد مر سره فى سورة البقرة عند قوله تعالى اولايعلمون ان الله يعلم مايسرون ومايعلنون

(وما من غائبة في السماء والارض) اى من خافية فيهما (٦٢٣) وهما من الصفات الغالبة والتاء للمبالغة كما في الراوية او اسمان لما
يغيب ويخفى والتاء للنقل الى الاسمية (الا في كتاب مبين) اى بين او مبين لما فيه لمن يطالعه وهو اللوح المحفوظ وقيل هو القضاء العدل بطريق الاستعارة (ان هذا القرآن يقص على بني اسرائيل اكثر الذي هم فيه يختلفون) من جملته ما اختلفوا في شأن المسيح وتحزبوا فيه احزابا وركبوا متن العتو والغلو في الافراط والتفريط والتشبيه والتنزيه ووقع بينهم التناكر في اشياء حتى بلغ المشاقة الى حيث لعن بعضهم بعضا وقد نزل القرآن الكريم ببيان كنه الامر لو كانوا في حيز الانصاف (وانه لهدى ورحمة للمؤمنين) على الاطلاق فيدخل فيهم من آمن من بني اسرائيل دخولا اوليا (ان ربك يقضى بينهم) اى بين بني اسرائيل (بحكمه) بما يحكم به وهو الحق او بحكمته ويؤيده انه قرئ بحكمه (وهو العزيز) فلا يرد حكمه وقضاؤه (العليم) بجميع الاشياء التي من جملتها ما يقضى به والفاء في قوله تعالى (فتوكل على الله) لترتيب الامر على ما ذكر من شؤنه عز وجل فانها موجبة للتوكل عليه وداعية الى الامر به اى فتوكل على الله الذي هذا شأنه فانه موجب على كل احد ان يتوكل عليه ويفوض جميع اموره اليه وقوله تعالى (انك على الحق المبين) تعليل صريح للتوكل عليه تعالى بكونه عليه الصلاة والسلام على الحق المبين والفاصل بينه وبين الباطل او بين المحق والمبطل فان كونه عليه الصلاة والسلام كذلك مما يوجب الوثوق بحفظه تعالى

خاطبهم بقوله ادعوا شركاءكم فههنا يشتد الخوف عليهم ويلحقهم شيء كالسدر والدوار ويصيرون بحيث لا يبصرون شيئا فقال تعالى ورأوا العذاب لو انهم كانوا يهتدون شيئا اما لما صاروا من شدة الخوف بحيث لا يبصرون شيئا لاجرم ما رأوا العذاب (وثانيها) انه تعالى لما ذكر عن الشركاء وهي الاصنام انهم لا يجيبون الذين دعوهم قال في حقهم ورأوا العذاب لو انهم كانوا يهتدون اى هذه الاصنام كانوا يشاهدون العذاب لو كانوا من الاحياء المهتدين ولكنها ليست كذلك فلاجرم ما رأت العذاب فان قيل قوله ورأوا العذاب ضمير لا يليق الا بالعقلاء فكيف يصح عوده الى الاصنام قلنا هذا كقوله فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وانما ورد ذلك على حسب اعتقاد القوم فكذا ههنا (وثالثها) ان يكون المراد من الرؤية رؤية القلب اى والكفار علموا حقية هذا العذاب في الدنيا لو كانوا يهتدون وهذه الوجوه عندي خير من الوجوه المبنية على ان جواب لو محذوف فان ذلك يقتضي تفكيك النظم من الآية (الامر الثالث) من الامور التي يسأل الله الكفار عنها قوله ويوم يناديهم فيقول ماذا اجبتم المرسلين فعميت عليهم الانباء اى فصارت الانباء كالعمى عليهم جميعا لا تهتدي اليهم فهم لا يتساءلون لا يسأل بعضهم بعضا كما يتساءل الناس في المشكلات لانهم يتساوون جميعا في عمى الانباء عليهم والعجز عن الجواب وقرئ فعميت واذا كانت الانبياء لهول ذلك يتعتعون في الجواب عن مثل هذا السؤال ويفوضون الامر الى علم الله تعالى وذلك قوله تعالى يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا اجبتم قالوا لا علم لنا انك انت علام الغيوب فما ظنك بهؤلاء الضلال (قال) القاضي هذه الآية تدل على بطلان القول بالجبر لان فعلهم لو كان خلقا من الله تعالى ويجب وقوعه بالقدرة والارادة لما عميت عليهم الانباء ولقالوا انما اتينا في تكذيب الرسل من جهة خلقك فينا تكذيبهم والقدرة الموجبة لذلك فكانت حجتهم على الله تعالى ظاهرة وكذلك القول فيما تقدم لان الشيطان كان له ان يقول انما غويت بخلقك في الغواية وانما قبل من دعوته لمثل ذلك فتكون الحجة لهم في ذلك قوية والعذر ظاهرا (الجواب) ان القاضي لا يترك آية من الآيات المشتملة على المدح والذم والثواب والعقاب والوعيد الا ويعيد استدلاله بها وكما ان وجه استدلاله في الكل هذا الحرف فكذا وجه جوابنا حرف واحد وهو ان علم الله تعالى بعدم الايمان مع وقوع الايمان متنافيان لذاتيهما فمع العلم بعدم الايمان اذا امر بادخال الايمان في الوجود فقد امر بالجمع بين الضدين والذي اعتمد القاضي عليه في دفع هذا الحرف في كتبه الكلامية قوله خطأ قول من يقول انه يمكن وخطأ قول من يقول انه لا يمكن بل الواجب السكوت ولو اورد الكافر هذا السؤال على ربه لما كان لربه عنده جواب الا السكوت فتكون حجة الكافر قوية وعذره ظاهرا فثبت ان الاشكال مشترك والله اعلم * قوله تعالى (فاما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى ان يكون من المفلحين وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى

عما يشركون وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون وهو الله لا اله الا هو له الحمد في الاولى والآخرة وله الحكم واليه ترجعون) اعلم انه تعالى لما بين حال المعذبين من الكفار وما يجرى عليهم من التوبيخ اتبعه بذكر من يتوب منهم في الدنيا ترغيبا في التوبة وزجرا عن الثبات على الكفر فقال فاما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى ان يكون من المفلحين وفي عسى وجوه (احدها) انه من الكرام تحقيق والله اكرم الاكرمين (وثانيها) ان يراد ترجى التائب وطمعه كأنه قال فليطمع في الفلاح (وثالثها) عسى ان يكونوا كذلك ان داموا على التوبة والايمان لجواز ان لا يدوموا واعلم ان القوم كانوا يذكرون شبهة اخرى ويقولون لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم يعنون الوليد بن المغيرة او أبا مسعود الثقفي فأجاب الله تعالى عنه بقوله وربك يخلق ما يشاء ويختار والمراد انه المالك المطلق وهو منزه عن النفع والضر فله ان يخص من شاء بما شاء لا اعتراض عليه البتة وعلى طريقة المعتزلة لما ثبت انه حكيم مطلق علم انه كل ما فعله كان حكمة وصوابا فليس لأحد ان يعترض عليه وقوله ما كان لهم الخيرة والخيرة اسم من الاختيار قام مقام المصدر والخيرة أيضا اسم المختار يقال محمد خيرة الله في خلقه اذا عرفت هذا فنقول في الآية وجهان (الاول) وهو الاحسن ان يكون تمام الوقف على قوله ويختار ويكون ما نفيا والمعنى وربك يخلق ما يشاء ويختار ليس لهم الخيرة اذ ليس لهم ان يختاروا على الله ان يفعل (والثاني) ان يكون ما بمعنى الذى فيكون الوقف عند قوله وربك يخلق ما يشاء ثم يقول ويختار ما كان لهم الخيرة (قال) ابو القاسم الانصارى وهذا متعلق المعتزلة في ايجاب الصلاح والاصلح عليه واى صلاح في تكليف من علم انه لا يؤمن ولو لم يكلفه لا يستحق الجنة والنعيم من فضل الله فان قيل لما كلفه استوجب على الله ما هو الافضل لان المستحق افضل من المتفضل به قلنا اذا علم قطعا انه لا يحصل ذلك الافضل فتوريطه في العقاب الأبدى لا يكون رعاية للمصلحة ثم قولهم المستحق خير من المتفضل به جهل لان ذلك التفاوت انما يحصل في حق من يستنكف من تفضله اما الذى ما حصل الذات والصفات الا بخلقه وبفضله واحسانه فكيف يستنكف من تفضله ثم قال سبحان الله وتعالى عما يشركون والمقصود ان يعلم ان الخلق والاختيار والاعزاز والاذلال مفوض اليه ليس لأحد فيه شركة ومنازعة ثم أكد ذلك بأنه يعلم ما تكن صدورهم من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يعلنون من مطاعنهم فيه وقولهم هلا اختير غيره في النبوة ولما بين علمه بما هم عليه من الغل والحسد والسفاهة قال وهو الله لا اله الا هو وفيه تنبيه على كونه قادرا على كل الممكنات عالما بكل المعلومات منزها عن النقائص والآفات يجازى المحسنين على طاعتهم ويعاقب العصاة على عصيانهم وفيه نهاية الزجر والردع للعصاة ونهاية تقوية القلب للمطيعين ويحتمل ايضا انه لما بين فساد طريق المشركين من قوله ويوم يناديهم فيقول اين شركائى ختم الكلام في ذلك باظهار هذا التوحيد وبيان ان

ونصرته وتأييده لا محالة وقوله تعالى (انك لا تسمع الموتى) الخ تعليل (٦٢٤) آخر للتوكل الذى هو عبارة عن التبتل الى الله تعالى وتفويض الامر اليه والاعراض عن التشبث بما سواه وقد علل اولا بما يوجبه من جهته تعالى اعنى قضاءه بالحق وعزته وعلمه تعالى وثانيا بما يوجبه من جهته عليه الصلاة والسلام على احد الوجهين اعنى كونه عليه الصلاة والسلام على الحق ومن جهته تعالى على الوجه الآخر اعنى اعانته تعالى وتأييده للمحق ثم علل ثالثا بما يوجبه لكن لا بالذات بل بواسطة ايجابه للاعراض عن التشبث بما سواه تعالى فان كونهم كالموتى والصم والعمى موجب لقطع الطمع عن مشايعتهم ومعاضدتهم رأسا وداع الى تخصيص الاعتضاد به تعالى وهو المعنى بالتوكل عليه تعالى وانما شبهوا بالموتى لعدم تأثرهم بما يتلى عليهم من القوارع واطلاق الاسماع عن المفعول لبيان عدم سماعهم لشىء من المسموعات ولعل المراد تشبيه قلوبهم بالموتى فيما ذكر من عدم الشعور فان القلب مشعر من المشاعر اشير الى بطلانه بالمرة ثم بين بطلان مشعرى الاذن والعين كما في قوله تعالى لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها والا فبعد تشبيه انفسهم بالموتى لا يظهر لتشبيههم بالصم والعمى مزيد مزية (ولا تسمع الصم الدعاء) اى الدعوة الى امر من الامور وتقييد النفى بقوله تعالى (اذا ولوا مدبرين) لتكميل التشبيه وتأكيد النفى فانهم مع صممهم عن الدعاء الى الحق معرضون عن الداعى مولون على ادبارهم ولا ريب في ان الاصم لا يسمع الدعاء مع كون الداعى بمقابلة صماخه قريبا منه فكيف اذا كان خلفه بعيدا منه

الحمد

الحمد و الثناء لايليق الا به اماقوله له الحمد فى الاولى و الآخرة فهو ظاهر على قولنا لان
الثواب غير واجب عليه بل هو سبحانه يعطيه فضلا و احسانا فله الحمد فى الاولى و الآخرة
ويؤكد ذلك قول اهل الجنة الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن الحمد لله الذى صدقنا وعده
وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين اما المعتزلة فعندهم الثواب مستحق فلا يستحق الحمد
بفعله من اهل الجنة و اما اهل النار فانعم عليهم حتى يستحق الحمد منهم قال القاضى انه
يستحق الحمد و الشكر من اهل النار ايضا بما فعله بهم فى الدنيا من التمكين و التيسير و الالطاف
وسائر النعم لانهم باساءتهم لايخرج ماأنعم الله عليهم من ان يوجب الشكر وهذا فيه نظر لان
اهل الآخرة مضطرون الى معرفة الحق فاذا علموا بالضرورة ان التوبة عن القبائح يجب
على الله قبولها و علموا بالضرورة ان الاشتغال بالشكر الواجب عليهم يوجب على الله
الثواب وهم قادرون على ذلك وعالمون بأن ذلك مما يخلصهم عن العذاب ويدخلهم
فى استحقاق الثواب افترى ان الانسان مع العلم بذلك و القدرة عليه يترك هذه التوبة
كلا بل لابد ان يتوبوا و ان يشتغلوا بالشكر ومتى فعلوا ذلك فقد بطل العقاب اماقوله
وله الحكم فهو امافى الدنيا أو فى الآخرة فامافى الدنيا فحكم كل أحد سواه انما نفذ بحكمه
فلولا حكمه لمانفذ على العبد حكم سيده وعلى الزوجة حكم زوجها ولا على الابن حكم
ابيه ولا على الرعية حكم سلطانهم ولا على الامة حكم الرسول فهو الحاكم فى الحقيقة
واما فى الآخرة فلاشك انه هو الحاكم لانه الذى يتولى الحكم بين العباد فى الآخرة
فينتصف للمظلومين من الظالمين اما قوله واليه ترجعون فالمعنى والى محل حكمه وقضائه
ترجعون فان كلمة الى لانتهاء الغاية وهو تعالى منزه عن المكان والجهة * قوله تعالى
(قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء
افلا تسمعون قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله
يأتيكم بليل تسكنون فيه افلا تبصرون ومن رحمته جعل لكم الليل لتسكنوا فيه
ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) اعلم انه تعالى لمابين من قبل استحقاقه للحمد على
وجه الاجمال بقوله وهو الله لا اله الا هو له الحمد فى الاولى و الآخرة وله الحكم واليه
ترجعون فصل عقيب ذلك بعض مايجب ان يحمد عليه مما لايقدر عليه فقال لرسوله
قل ارأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة فنبه على ان الوجه فى كون
الليل و النهار نعمتان يتعاقبان على الزمان لان المرء فى الدنيا لافى حال التكليف مدفوع
الى ان يتعب لتحصيل مايحتاج اليه ولا يتم له ذلك لولا ضوء النهار ولاجله يحصل الاجتماع
فيمكن المعاملات ومعلوم ان ذلك لايتم لولا الراحة والسكون بالليل فلابد منهما و الحالة
هذه فاما فى الجنة فلانصب ولاتعب فلاحاجة بهم الى الليل فلذلك يدوم لهم الضياء
واللذات فبين تعالى انه لاقادر على ذلك الا الله تعالى وانما قال افلا تسمعون افلا تبصرون
لان الغرض من ذلك الانتفاع بما يسمعون و يبصرون من جهة التدبر فلما لم ينتفعوا

وقرئ ولاتسمع الصم الدعاء (وما
انت بهادى العمى عن ضلالتهم)
هداية موصلة الى المطلوب كما فى
قوله تعالى انك لاتهدى من احببت
فان الاهتداء منوط بالبصر وعن
متعلقة بالهداية باعتبار تضمنه معنى
الصرف وقيل بالعمى يقال عمى
عن كذا وفيه بعد وايراد الجملة
الاسمية للمبالغة فى نفى الهداية
وقرئ وماانت تهدى العمى
(ان تسمع) اى ماتسمع سماعا
يجدى السامع نفعا (الامن يؤمن
بآياتنا) اى من من شأنهم الايمان
بها وايراد الاسماع فى النفى
والاثبات دون الهداية مع قربها
بان يقال ان تهدى الامن يؤمن
الخ لما ان طريق الهداية هو
اسماع الآيات التنزيلية (فهم
مسلمون) تعليل لايمانهم بها كأنه
قيل فانهم منقادون للحق وقيل
مخلصون لله تعالى من قوله تعالى
بلى من اسلم وجهه لله (واذا وقع
القول عليهم) بيان لما اشير اليه
بقوله تعالى بعض الذى تستعجلون
من بقية ماتستعجلونه من الساعة
ومباديها والمراد بالقول ما نطق
من الآيات الكريمة بمجئ الساعة
ومافيها من فنون الاهوال التى
كانوا يستعجلونها وبوقوعه
قيامها وحصولها عبر عن ذلك به
للايذان بشدة وقعها وتأثيرها
واسناده الى القول لما ان المراد
بيان وقوعها من حيث انها
مصداق للقول الناطق بمجيئها وقد
اريد بالوقوع دنوه واقترابه كما
فى قوله تعالى اتى امر الله اى اذا دنا
وقوع مدلول القول المذكور
الذى لايكادون يسمعونه
ومصداقه (اخرجنا لهم دابة
من الارض) وهى الجساسة وفى
التعبير عنها باسم الجنس وتأكيد

نزلوا منزلة من لايسمع ولايبصر قال الكلبي قوله افلاتسمعون معناه افلاتطيعون من يفعل ذلك وقوله افلاتبصرون معناه افلاتبصرون ماانتم عليه من الخطأ والضلال قال صاحب الكشاف السرمد الدائم المتصل من السرد وهو المتابعة ومنه قولهم فى الاشهر الحرم ثلاثة سرد وواحد فرد (فان قيل) هلا قال بنهار تتصرفون فيه كما قيل بليل تسكنون فيه (قلنا) ذكر الضياء وهو ضوء الشمس لان المنافع التى تتعلق به متكاثرة ليس التصرف فى المعاش وحده والظلام ليس بتلك المنزلة وانما قرن بالضياء افلاتسمعون لان السمع يدرك مالايدركه البصر من درك منافعه ووصف فوائده وقرن بالليل افلاتبصرون لان غيرك يدرك من منفعة الظلام ماتبصره انت من السكون ونحوه ومن رحمته زواج بين الليل والنهار لاغراض ثلاثة لتسكنوا فى احدهما وهو الليل ولتبتغوا من فضله فى الآخر وهو النهار ولاداء الشكر على المنفعتين معا واعلم انه وان كان السكون فى النهار ممكنا وابتغاء فضل الله بالليل ممكنا الا ان الاليق بكل واحد منهما ماذكره الله تعالى به فلهذا خصه به ❊ قوله تعالى (ويوم يناديهم فيقول اين شركائى الذين كنتم تزعمون ونزعنا من كل امة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا ان الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون) اعلم انه سبحانه لما هجن طريقة المشركين اولا ثم ذكر التوحيد ودلائله ثانيا عاد الى تهجين طريقتهم مرة اخرى وشرح حالهم فى الآخرة فقال ويوم يناديهم اى فى القيامة فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون والمعنى أين الذين ادعيتم الهيتهم لتخلصكم او أين قولكم تقربنا الى الله زلفى وقد علموا ان لااله الا الله فيكون ذلك زائدا فى غمهم اذا خوطبوا بهذا القول اما قوله تعالى ونزعنا من كل امة شهيدا فالمراد ميزنا واحدا ليشهد عليهم ثم قال بعضهم هم الانبياء يشهدون بأنهم بلغوا القوم الدلائل وبلغوا فى ايضاحها كل غاية ليعلم ان التقصير منهم فيكون ذلك زائدا فى غمهم وقال آخرون بل هم الشهداء الذين يشهدون على الناس فى كل زمان ويدخل فى جملتهم الانبياء وهذا اقرب لانه تعالى عم كل امة وكل جماعة بأن ينزع منهم الشهيد فيدخل فيه الاحوال التى لم يوجد فيها النبي وهى ازمنة الفترات والازمنة التى حصلت بعد محمد صلى الله عليه وسلم فعلموا حينئذ ان الحق لله ولرسله وضل عنهم غاب عنهم غيبة الشئ الضائع ما كانوا يفترون من الباطل والكذب ❊ قوله تعالى (ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة اولى القوة اذ قال له قومه لاتفرح ان الله لايحب الفرحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا واحسن كما احسن الله اليك ولاتبغ الفساد فى الارض ان الله لايحب المفسدين قال انما اوتيته على علم عندى اولم يعلم ان الله قد اهلك من قبله من القرون من هو اشد منه قوة واكثر جمعا ولايسأل عن ذنوبهم المجرمون) اعلم ان نص القرآن يدل على ان قارون كان من قوم

ابهامه بالتنوين التفخيمى من الدلالة على غرابة شأنها وخروج اوصافها عن طور البيان مالايخفى وقد ورد فى الحديث ان طولها ستون ذراعا لا يدركها طالب ولايفوتها هارب وروى ان لها اربع قوائم ولها زغب وريش وجناحان وعن ابن جريج فى وصفها رأس ثور وعين خنزير واذن فيل وقرن ايل وعنق نعامة وصدر أسد ولون نمر وخاصرة هرة وذنب كبش وخف بعير وما بين المفصلين اثنا عشر ذراعا بذراع آدم عليه السلام وقال وهب وجهها وجه الرجل وباقى خلقها خلق الطير وروى عن على رضى الله عنه انه قال ليس بدابة لها ذنب ولكن لها لحية كأنه يشير الى انه رجل والمشهور انها دابة وروى لاتخرج الا رأسها ورأسها يبلغ عنان السماء او يبلغ السحاب وعن ابى هريرة رضى الله تعالى عنه فيها كل لون ما بين قرنيها فرسخ للراكب وعن الحسن رضى الله عنه لايتم خروجها الا بعد ثلاثة ايام وعن على رضى الله عنه انها تخرج ثلاثة ايام والناس ينظرون فلاتخرج كل يوم الاثلثها وعن النبى عليه الصلاة والسلام انه سئل من اين تخرج الدابة فقال من اعظم المساجد حرمة على الله تعالى يعنى المسجد الحرام وروى انها تخرج ثلاث خرجات تخرج باقصى اليمن ثم تكمن ثم تخرج بالبادية ثم تكمن دهرا طويلا فبينا الناس فى اعظم المساجد حرمة على الله تعالى واكرمها فمايهولهم الا خروجها من بين الركن حذاء دار بنى مخزوم عن يمين الخارج من المسجد فقوم يهربون وقوم

موسى عليه السلام وظاهر ذلك يدل على انه كان ممن قد آمن به ولا يبعد ايضا حمله على القرابة قال الكلبي انه كان ابن عم موسى عليه السلام لانه كان قارون بن يصهر بن قاهث ابن لاوى وموسى بن عمران بن قاهث بن لاوى وقال محمد بن اسحق انه كان عم موسى عليه السلام لان موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث وقارون بن يصهر بن قاهث وعن ابن عباس انه كان ابن خالته ثم قيل انه كان يسمى المنور لحسن صورته وكان اقرأ بنى اسرائيل للتوراة الا انه نافق كما نافق السامرى * اما قوله فبغى عليهم ففيه وجوه (احدها) انه بغى بسبب ماله وبغيه انه استخف بالفقراء ولم يرع لهم حق الايمان ولا عظمهم مع كثرة امواله (الثانى) انه من الظلم قيل ملكه فرعون على بنى اسرائيل فظلمهم (الثالث) قال القفال بغى عليهم اى طلب الفضل عليهم وان يكونوا تحت يده (الرابع) قال الضحاك طغى عليهم واستطال عليهم فلم يوافقهم فى أمر (الخامس) قال ابن عباس تجبر وتكبر عليهم وسخط عليهم (السادس) قال شهر بن حوشب بغيه عليهم انه زاد عليهم فى الثياب شبرا وهذا يعود الى التكبر (السابع) قال الكلبى بغيه عليهم انه حسد هرون على الحبورة يروى ان موسى عليه السلام لما قطع البحر واغرق الله تعالى فرعون جعل الحبورة لهرون فحصلت له النبوة والحبورة وكان صاحب القربان والمذبح وكان لموسى الرسالة فوجد قارون من ذلك فى نفسه فقال ياموسى لك الرسالة ولهرون الحبورة ولست فى شئ ولا اصبر انا على هذا فقال موسى عليه السلام والله ما صنعت ذلك لهرون ولكن الله جعله له فقال والله لا أصدقك ابدا حتى تأتينى بآية اعرف بها ان الله جعل ذلك لهرون قال فأمر موسى عليه السلام رؤساء بنى اسرائيل ان يجئ كل رجل منهم بعصاه فجاؤا بها فألقاها موسى عليه السلام فى قبة له وكان ذلك بأمر الله تعالى فدعا ربه ان يريهم بيان ذلك فباتوا يحرسون عصيهم فأصبحت عصا هرون تهتز لها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز فقال موسى ياقارون أماترى ما صنع الله لهرون فقال والله ماهذا بأعجب مما تصنع من السحر فاعتزل قارون ومعه ناس كثير وولى هرون الحبورة والمذبح والقربان فكان بنو اسرائيل يأتون بهداياهم الى هرون فيضعها فى المذبح وتنزل النار من السماء فتأكلها واعتزل قارون باتباعه وكان كثير المال والتبع من بنى اسرائيل فما كان يأتى موسى عليه السلام ولا يجالسه وروى ابو امامة الباهلى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال كان قارون من السبعين المختارة الذين سمعوا كلام الله تعالى * اما قوله تعالى وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة اولى القوة ففيه ابحاث (الاول) قال الكعبى ألستم تقولون ان الله لا يعطى الحرام فكيف اضاف الله مال قارون الى نفسه بقوله وآتيناه واجاب بأنه لا حجة فى انه كان حراما ويجوز ان من تقدمه من الملوك جمعوا وكنزوا فظفر قارون بذلك وكان هذا الظفر طريق التملك او وصل اليه بالارث من جهات ثم بالتكسب من جهة المضاربات وغيرها وكان الكل محتملا (البحث الثانى) المفاتح جمع مفتح بكسر الميم وهو

يخفون تطارة وقيل تخرج من الصفا وروى بينا عيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون اذ تضطرب الارض تحتهم تحرك القنديل وينشق الصفا مما يلى المسعى فتخرج الدابة من الصفا ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام فتضرب المؤمن فى مسجده بالعصا فتنكت نكتة بيضاء فتفشو حتى يضئ لها وجهه وتكتب بين عينيه مؤمن وتنكت الكافر بالخاتم فى انفه فتفشو النكتة حتى يسود لها وجهه وتكتب بين عينيه كافر ثم تقول لهم انت يافلان من اهل الجنة وانت يافلان من اهل النار وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قرع الصفا بعصاه وهو محرم وقال ان الدابة لتسمع قرع عصاى هذه وروى ابو هريرة عن النبى عليه الصلاة والسلام انه قال بئس الشعب شعب اجياد مرتين او ثلاثا قيل ولم ذاك يارسول الله قال تخرج منه الدابة فتصرخ ثلاث صرخات يسمعها من بين الخافقين فتتكلم بالعربية بلسان ذلق وذلك قوله تعالى (تكلمهم ان الناس كانوا باياتنا لايوقنون) اى تكلمهم بانهم كانوا لايوقنون بآيات الله تعالى الناطقة بمجئ الساعة ومباديها او بجميع آياته التى من جملتها تلك الآيات وقيل بآياته التى من جملتها خروجها بين يدى الساعة والاول هو الحق كما ستحيط به علما وقرئ بأن الناس الآية واضافة الآيات الى نون العظمة لانها حكاية منه تعالى لمعنى قولها لالعين عبارتها وقيل لانها حكاية منها لقول الله عز وجل وقيل لاختصاصها به تعالى واثرتها عنده كما يقول بعض خواص الملك

مايفتح وقيل هى الخزائن وقياس واحدها مفتح بفتح الميم ويقال نابه الحمل اذا أثقله حتى اماله والعصبة الجماعة الكثيرة والعصابة مثلها فالعشرة عصبة بدليل قوله تعالى فى اخوة يوسف عليه السلام ونحن عصبة وكانوا عشرة لان يوسف واخاه لم يكونا معهم * اذا عرفت معنى الالفاظ فنقول ههنا قولان (احدهما) ان المراد بالمفاتح المفاتيح وهى التى يفتح بها الباب قالوا كانت مفاتيحه من جلود الابل وكل مفتاح مثل اصبع وكان لكل خزانة مفتاح وكان اذا ركب قارون حملت المفاتيح على ستين بغلا ومن الناس من طعن فى هذا القول من وجهين (الاول) ان مال الرجل الواحد لايبلغ هذا المبلغ ولو انا قدرنا بلدة مملوأة من الذهب والجواهر لكفاها اعداد قليلة من المفاتيح فأى حاجة الى تكثير هذه المفاتيح (الثانى) ان الكنوز هى الاموال المدخرة فى الارض فلا يجوز ان يكون لها مفاتيح (والجواب عن الاول) ان المال اذا كان من جنس العروض لامن جنس النقد جاز ان يبلغ فى الكثرة الى هذا الحد ايضا فهذا الذى يقال ان تلك المفاتيح بلغت ستين حملا ليس مذكورا فى القرآن فلا تقبل هذه الرواية وتفسير القرآن ان تلك المفاتيح كانت كثيرة وكان كل واحد منها معينا لشئ آخر فكان يثقل على العصبة ضبطها ومعرفتها بسبب كثرتها وعلى هذا الوجه يزول الاستبعاد (وعن الثانى) ان ظاهر الكنز وان كان من جهة العرف ماقالوا فقد يقع على المال المجموع فى المواضع التى عليها اغلاق (القول الثانى) وهو اختيار ابن عباس والحسن ان تحمل المفاتح على نفس المال وهذا ابين وعن الشبهة ابعد قال ابن عباس كانت خزائنه يحملها اربعون رجلا اقوياء وكانت خزائنه اربعمائة الف فيحمل كل رجل عشرة آلاف (القول الثالث) وهو اختيار أبى مسلم ان المراد من المفاتح العلم والاحاطة كقوله وعنده مفاتح الغيب والمراد آتيناه من الكنوز ما ان حفظها والاطلاع عليها ليثقل على العصبة أولى القوة والهداية اى هذه الكنوز لكثرتها واختلاف اصنافها تتعب حفظتها والقائمين عليها ان يحفظوها ثم انه تعالى بين انه كان فى قومه من وعظه بأمور (احدها) قوله لاتفرح ان الله لايحب الفرحين والمراد ان لايلحقه من البطر والتمسك بالدنيا مايلهيه عن امر الآخرة اصلا وقال بعضهم انه لايفرح بالدنيا الامن رضى بها واطمأن اليها فاما من يعلم انه سيفارق الدنيا عن قريب لم يفرح بها وما احسن ماقال المتنبى

اشد الغم عندى فى سرور * تيقن عنه صاحبه انتقالا

واحسن واوجز منه ماقال تعالى لكيلا تأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم قال ابن عباس كان فرحه ذلك شركا لانه ماكان يخاف معه عقوبة الله تعالى (وثانيها) قوله وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة والظاهر انه كان مقرا بالآخرة والمراد ان يصرف المال الى مايؤديه الى الجنة ويسلك طريقة التواضع (وثالثها) قوله ولاتنس نصيبك من الدنيا وفيه وجوه (احدها) لعله كان مستغرق الهم فى طلب الدنيا فلاجل ذلك ماكان يتفرغ

خيلنا وبلادنا وانما الخيل والبلاد لمولاه وقيل هناك مضاف محذوف اى بآيات ربنا ووصفهم بعدم الايقان بهامع انهم كانوا لجاحدين بها للايذان بأنه كان من حقهم ان يوقنوا بها ويقطعوا بصحتها وقد اتصفوا بنقيضه وقرئ ان الناس بالكسر على اضمار القول او اجراء الكلام مجراه والكلام فى الاضافة كالذى سبق وقيل هو استئناف مسوق من جهته تعالى لتعليل اخراجها او تكليمها ويرده الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل فانه صريح فى كونه حكاية لعدم ايقانهم السابق فى الدنيا والمراد بالناس اما الكفرة على الاطلاق او مشركو مكة وقد روى عن وهب انها تخبر كل من تراه ان اهل مكة كانوا بمحمد والقرآن لايوقنون وقرئ تكلمهم من الكلم الذى هو الجرح والمراد به ماتقل من الوسم بالعصا والخاتم وقد يجوز كون القراءة المشهورة ايضا منه لمعنى التكثير ولايخفى بعده (ويوم نحشر من كل امة فوجا) بيان اجمالى لحال المكذبين عند قيام الساعة بعد بيان بعض مباديها ويوم منصوب بمضمر خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام والمراد بهذا الحشر هو الحشر للعذاب بعد الحشر الكلى الشامل لكافة الخلق وتوجيه الامر بالذكر الى الوقت مع ان المقصود تذكير ماوقع فيه من الحوادث قد مر بيان سره مرارا اى واذكر لهم وقت حشرنا اى جمعنا من كل امة من امم الانبياء عليهم الصلاة والسلام او من اهل كل قرن من القرون جماعة كثيرة فمن تبعيضية لان كل امة منقسمة الى مصدق ومكذب وقوله تعالى (ممن يكذب بآياتنا) بيان للفوج اى فوجا مكذبين بها (فهم يوزعون) اى يحبس اولهم على آخرهم

للتنعم والالتذاذ فنهاه الواعظ عن ذلك (وثانيها) لما امره الواعظ بصرف المال الى الآخرة بين له بهذا الكلام انه لا بأس بالتمتع بالوجوه المباحة (وثالثها) المراد منه الانفاق فى طاعة الله فان ذلك هو نصيب المرء من الدنيا دون الذى يأكل ويشرب قال عليه السلام فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الموت فو الذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا دار الا الجنة والنار (ورابعها) قوله واحسن كما احسن الله اليك لما أمره بالاحسان بالمال امره بالاحسان مطلقا ويدخل فيه الاعانة بالمال والجاه وطلاقة الوجه وحسن اللقاء وحسن الذكر وانما قال كما احسن الله اليك تنبيها على قوله ولئن شكرتم لأزيدنكم (وخامسها) قوله ولا تبغ الفساد فى الارض والمراد ما كان عليه من الظلم والبغى وقيل ان هذا القائل هو موسى عليه السلام وقال آخرون بل مؤمنو قومه وكيف كان فقد جمع فى هذا الوعظ ما لو قبل لم يكن عليه مزيد لكنه ابى ان يقبل بل زاد عليه بكفر النعمة فقال انما أوتيته على علم عندى وفيه وجوه (احدها) قال قتادة ومقاتل والكلبي كان قارون اقرأ بنى اسرائيل للتوراة فقال انما اوتيته لفضل علمى واستحقاقى لذلك (وثانيها) قال سعيد بن المسيب والضحاك كان موسى عليه السلام انزل عليه علم الكيمياء من السماء فعلم قارون ثلث العلم ويوشع ثلثه وكالب ثلثه فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما الى علمه فكان يأخذ الرصاص فيجعله فضة والنحاس فيجعله ذهبا (وثالثها) أراد به علمه بوجوه المكاسب والتجارات (ورابعها) ان يكون قوله انما اوتيته على علم عندى اى الله اعطانى ذلك مع كونه عالما بى وبأحوالى فلو لم يكن ذلك مصلحة لما فعل وقوله عندى اى عندى ان الامر كذلك كما يقول المفتى عندى ان الامر كذلك اى مذهبى واعتقادى ذلك ثم اجاب الله تعالى عن كلامه بقوله أولم يعلم ان الله قد اهلك من قبله من القرون من هو اشد منه قوة واكثر جمعا وفيه وجهان (الاول) يجوز ان يكون هذا اثباتا لعلمه بأن الله تعالى قد اهلك قبله من القرون من هو اقوى منه واغنى لانه قد قرأه فى التوراة واخبر به موسى عليه السلام وسمعه من حفاظ التواريخ كأنه قيل له أولم يعلم فى جملة ما عنده من العلم هذا حتى لا يغتر بكثرة ماله وقوته (الثانى) يجوز ان يكون نفيا لعلمه بذلك كأنه لما قال اوتيته على علم عندى فتصلف بالعلم وتعظم به قيل أعنده مثل ذلك العلم الذى ادعاه ورأى نفسه به مستوجبة لكل نعمة ولم يعلم هذا العلم النافع حتى يقى به نفسه مصارع الهالكين اما قوله واكثر جمعا فالمعنى اكثر جمعا للمال أو أكثر جماعة وعددا وحاصل الجواب ان اغتراره بماله وقوته وجمعه من الخطأ العظيم وانه تعالى اذا أراد اهلاكه لم ينفعه ذلك ولا ما يزيد عليه اضعافا فاما قوله ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون فالمراد ان الله تعالى اذا عاقب المجرمين فلا حاجة به الى ان يسألهم عن كيفية ذنوبهم وكميتها لانه تعالى عالم بكل المعلومات فلا حاجة به الى السؤال (فان قيل) كيف الجمع بينه وبين قوله

حتى يتلاحقوا ويجتمعوا فى موقف التوبيخ والمناقشة وفيه من الدلالة على كثرة عددهم وتباعد اطرافهم ما لا يخفى وعن ابن عباس رضى الله عنهما ابو جهل والوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة يساقون بين يدى اهل مكة وهكذا يحشر قادة سائر الامم بين ايديهم الى النار (حتى اذا جاؤا) الى موقف السؤال والجواب والمناقشة والحساب (قال) اى الله عز وجل موبخا لهم على التكذيب والالتفات لتربية المهابة (أكذبتم بآياتى) الناطقة بلقاء يومكم هذا وقوله تعالى (ولم تحيطوا بها علما) جملة حالية مفيدة لزيادة شناعة التكذيب وغاية قبحه ومؤكدة للانكار والتوبيخ اى أكذبتم بها بادى الرأى غير ناظرين فيها نظرا يؤدى الى العلم بكنهها وانها حقيقة بالتصديق حتما وهذا نص فى ان المراد بالآيات فيما سلف فى الموضعين هى الآيات القرآنية لانها هى المنطوية على دلائل الصحة وشواهد الصدق التى لم يحيطوا بها علما مع وجوب ان يتأملوا ويتدبروا فيها لا نفس الساعة وما فيها وقيل هو معطوف على كذبتم اى اجمعتم بين التكذيب وعدم التدبر فيها (امّاذا كنتم تعملون) اى أم اى شئ كنتم تعملون بها او ام اى شئ كنتم تعملون غير ذلك يعنى انه لم يكن لهم عمل غير ذلك كأنهم لم يخلقوا الا للكفر والمعاصى مع انهم ما خلقوا الا للايمان والطاعة يخاطبون بذلك تبكيتا ثم يكبون فى النار وذلك قوله تعالى (ووقع القول عليهم) اى حل بهم العذاب الذى

فوربك لنسألنهم اجمعين (قلنا) يحمل ذلك على وقتين على ماقررناه وذكر ابومسلم وجها آخر فقال السؤال قديكون للمحاسبة وقديكون للتقرير والتبكيت وقديكون للاستعتاب وأليق الوجوه بهذه الآية الاستعتاب لقوله تعالى ثم لايؤذن للذين كفروا ولاهم يستعتبون هذا يوم لاينطقون ولايؤذن لهم فيعتذرون ❁ قوله تعالى (فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحيوة الدنيا ياليت لنا مثل ماأوتى قارون انه لذو حظ عظيم وقال الذين اوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولايلقاها الاالصابرون فخسفنا به وبداره الارض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين) اما قوله فخرج على قومه فى زينته فيدل على انه خرج باظهر زينة واكملها وليس فى القرآن الاهذا القدر الاان الناس ذكروا وجوها مختلفة فى كيفية تلك الزينة قال مقاتل خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب ومعه اربعة آلاف فارس على الخيول وعليها الثياب الارجوانية ومعه ثلثمائة جارية بيض عليهن الحلى والثياب الحمر على البغال الشهب وقال بعضهم بل خرج فى تسعين ألفا هكذا وقال آخرون بل على ثلثمائة والاولى ترك هذه التقريرات لانها متعارضة ثم ان الناس لما رأوه على تلك الزينة قال من كان منهم يرغب فى الدنيا ياليت لنا مثل ماأوتى قارون من هذه الامور والاموال والراغبون يحتمل ان يكونوا من الكفار وان يكونوا من المسلمين الذين يحبون الدنيا واما العلماء واهل الدين فقالوا للذين تمنوا هذا ويلكم ثواب الله خير من هذه النعم لان الثواب منافع عظيمة وخالصة عن شوائب المضار ودائمة وهذه النعم العاجلة على الضد من هذه الصفات الثلاثة قال صاحب الكشاف ويلك اصله الدعاء بالهلاك ثم استعمل فى الزجر والردع والبعث على ترك مالايرتضى اما قوله ولايلقاها الاالصابرون فقال المفسرون لايوفق لها والضمير فى يلقاها الى ماذا يعود فيه وجهان (احدهما) الى مادل عليه قوله آمن وعمل صالحا يعنى هذه الاعمال لايؤتاها الاالصابرون (والثانى) قال الزجاج يعنى ولايلقى هذه الكلمة وهى قولهم ثواب الله خير الا الصابرون على أداء الطاعات والاحتراز عن المحرمات وعلى الرضا بقضاء الله فى كل ماقسم من المنافع والمضار واما قوله فخسفنا به وبداره الارض فيه وجهان (احدهما) انه لما اشر وبطر وعتا خسف الله به وبداره الارض جزاء على عتوه وبطره والفاء تدل على ذلك لان الفاء تشعر بالعلية (وثانيهما) قيل ان قارون كان يؤذى نبى الله موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه للقرابة التى بينهما حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف دينار على دينار وعن كل ألف درهم على درهم فحسبه فاستكثره فشحت نفسه فجمع بنى اسرائيل وقال ان موسى يريد ان يأخذ اموالكم فقالوا أنت سيدنا وكبيرنا فمرنا بما شئت قال نبرطل فلانة البغى حتى تنسبه الى نفسها فيرفضه بنواسرائيل فجعل لها طستا من ذهب مملوأذهبا فلما كان يوم عيد قام موسى فقال يابنى اسرائيل من سرق قطعناه ومن زنى وهو غير محصن جلدناه وان احصن

هو مدلول القول الناطق بحلوله ونزوله (بما ظلموا) بسبب ظلمهم هو تكذيبهم بآيات الله (فهم لاينطقون) لانقطاعهم عن الجواب بالكلية وابتلائهم بشغل شاغل من العذاب الاليم (ألم يروا انا جعلنا الليل ليسكنوا فيه) الرؤية قلبية لابصرية لان نفس الليل والنهار وان كانا من المبصرات لكن جعلهما كما ذكر من قبيل المعقولات اى ألم يعلموا انا جعلنا الليل بما فيه من الاظلام ليستريحوا فيه بالنوم والقرار (والنهار مبصرا) اى ليبصروا بما فيه من الاضاءة طرق التقلب فى امور المعاش فبولغ فيه حيث جعل الابصار الذى هو حال الناس حالاله ووصفا من اوصافه التى جعل عليها بحيث لاينفك عنها ولم يسلك فى الليل هذا المسلك لما ان تأثير ظلام الليل فى السكون ليس بمثابة تأثير ضوء النهار فى الابصار (ان فى ذلك) اى فى جعلهما كما وصفا وما فى اسم الاشارة من معنى البعد للاشعار ببعد درجته فى الفضل (لآيات) اى عظيمة كثيرة (لقوم يؤمنون) دالة على صحة البعث وصدق الآيات الناطقة به دلالة واضحة كيف لاوان من تأمل فى تعاقب الليل والنهار واختلافهما على وجوه بديعة مبنية على حكم رائقة تحار فى فهمها العقول ولا يحيط بها الا الله عزوجل وشاهد فى الآفاق تبدل ظلمة الليل المحاكية للموت بضياء النهار المضاهى للحياة وعاين فى نفسه تبدل النوم الذى هو أخو الموت بالانتباه الذى هو مثل الحياة قضى بأن الساعة آتية لاريب فيها

رجناه فقال قارون وان كنت أنت قال وان كنت أنا قال فان بنى اسرائيل يقولون انك فجرت بفلانة فأحضرت فناشدها موسى بالله الذى فلق البحر وانزل التوراة ان تصدق فتداركها الله تعالى فقالت كذبوا بل جعل لى قارون جعلا على ان اقذفك بنفسى فخر موسى ساجدا يبكى وقال يارب ان كنت رسولك فاغضب لى فأوحى الله عز وجل اليه ان مر الارض بماشئت فانها مطيعة لك فقال يابنى اسرائيل ان الله بعثنى الى قارون كما بعثنى الى فرعون فمن كان معه فليلزم مكانه ومن كان معى فليعتزل فاعتزلوا جميعا غير رجلين ثم قال ياارض خذيهم فأخذتهم الى الركب ثم قال خذيهم فأخذتهم الى الاوساط ثم قال خذيهم فأخذتهم الى الاعناق وقارون واصحابه يتضرعون الى موسى عليه السلام ويناشدونه بالله والرحم وموسى لايلتفت اليهم لشدة غضبه ثم قال خذيهم فانطبقت الارض عليهم فاوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام مااقطك استغاثوا بك مرارا فلم ترحمهم اما وعزتى لودعونى مرة واحدة لوجدونى قريبا مجيبا فاصبحت بنواسرائيل يتناجون بينهم انمادعا موسى على قارون ليستبد بداره وكنوزه فدعا الله حتى خسف بداره وامواله ثم ان قارون يخسف به كل يوم مائة قامة قال القاضى اذا هلك بالخسف فسواء نزل عن ظاهر الارض الى الارضين السابعة اودون ذلك فانه لايمتنع ماروى على وجه المبالغة فى الزجر (واما قولهم انه تعالى قال لو استغاث بى لاغثته) فان صح حمل على استغاثة مقرونة بالتوبة فاما وهو ثابت على ماهو عليه مع انه تعالى هو الذى حكم بذلك الخسف لان موسى عليه السلام مافعله الاعن أمره فبعيد (وقولهم انه يتجلجل فى الارض أبدا) فبعيد لانه لابد له من نهاية وكذا القول فيما ذكر من عدد القامات والذى عندى فى امثال هذه الحكايات انها قليلة الفائدة لانها من باب اخبار الآحاد فلا تفيد اليقين وليست المسئلة مسئلة عملية حتى يكتفى فيها بالظن ثم انها فى اكثر الامر متعارضة مضطربة فالاولى طرحها والاكتفاء بمادل عليه نص القرآن وتفويض سائر التفاصيل الى عالم الغيب اما قوله تعالى وما كان من المنتصرين فالمراد من المنتقمين من موسى او من الممتنعين من عذاب الله تعالى يقال نصره من عدوه فانتصر اى منعه منه فامتنع ۞ قوله تعالى (واصبح الذين تمنوا مكانه بالامس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا ان من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لايفلح الكافرون تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا فى الارض ولافسادا والعاقبة للمتقين) اعلم ان القوم الذين شاهدوا قارون فى زينته لما شاهدوا مانزل به من الخسف صار ذلك زاجرا لهم عن حب الدنيا ومخالفة موسى عليه السلام وداعيا الى الرضا بقضاء الله تعالى وقسمه والى اظهار الطاعة والانقياد لانبياء الله ورسله اما قوله ويكأن الله فاعلم ان وى كلمة مفصولة عن كأن وهى كلمة مستعملة عند التنبه للخطأ واظهار التندم فلما قالوا ياليت لنا مثل مااوتى قارون ثم شاهدوا الخسف تنبهوا لخطائهم فقالوا وى ثم قالوا كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده بحسب

وان الله يبعث من فى القبور قضاء متقنا وجزم بأنه تعالى قد جعل هذا انموذجا له ودليلا يستدل به على تحققه وان الآيات الناطقة به وبكون حال الليل والنهار برهانا عليه وسائر الآيات كلها حق نازل من عند الله تعالى (ويوم ينفخ فى الصور) اما معطوف على يوم نحشر منصوب بناصبه او بمضمر معطوف عليه والصور هو القرن الذى ينفخ فيه اسرافيل عليه السلام عن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما فرغ الله تعالى من خلق السموات والارض خلق الصور فأعطاه اسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص بصره الى العرش متى يؤمر قال قلت يارسول الله ما الصور قال القرن قال قلت كيف هو قال عظيم والذى نفسى بيده ان عظم دائرة فيه كعرض السماء والارض فيؤمر بالنفخ فينفخ نفخة لايبقى عندها فى الحيوة احد غير من شاء الله تعالى وذلك قوله تعالى ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله ثم يؤمر بأخرى فينفخ نفخة لايبقى معها ميت الابعث وقام وذلك قوله تعالى ثم نفخ فيه اخرى فاذاهم قيام ينظرون والذى يستدعيه سياق النظم الكريم وسباقه ان المراد بالنفخ ههنا هى النفخة الثانية وبالفزع فى قوله تعالى (ففزع من فى السموات ومن فى الارض) ما يعترى الكل عند البعث والنشور بمشاهدة الامور الهائلة الخارقة للعادات فى الانفس والآفاق من الرعب والتهيب الضرورى بين

مشيئته وحكمته لا لكرامته عليه ويضيق على من يشاء لهوان من يضيق عليه بل لحكمته وقضائه ابتلاء وفتنة (قال سيبويه) سألت الخليل عن هذا الحرف فقال ان وى مفصولة من كان وان القوم تنبهوا وقالوا متندمين على ماسلف منهم وى وذكر الفرء وجهين (احدهما) ان المعنى ويلك فحذف اللام وانما جاز هذا الحذف لكثرتها فى الكلام وجعل ان مفتوحة بفعل مضمر كأنه قال ويلك اعلم ان الله وهذا قول قطرب حكاه عن يونس (الثانى) وى منفصلة من كان وهو للتعجب يقول الرجل لغيره وى أما ترى مابين يديك فقال الله وى ثم استأنف كأن الله يبسط فالله تعالى انما ذكرها تعجيبا لخلقه قال الواحدى وهذا وجه مستقيم غيران العرب لم تكتبها منفصلة ولو كان على ماقالوه لكتبوها منفصلة (وأجاب الاولون) بأن خط المصحف لايقاس عليه ثم قالوا لولا ان من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لايفلح الكافرون وهذا تأكيد لماقبله اما قوله تلك الدار الآخرة فتعظيم لها وتفخيم لشأنها يعنى تلك التى سمعت بذكرها وبلغك وصفها ولم يعلق الوعد بترك العلو والفساد ولكن بترك ارادتهما وميل القلب اليهما وعن على عليه السلام ان الرجل ليعجبه ان يكون شراك نعله اجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها قال صاحب الكشاف ومن الطماع من يجعل العلو لفرعون لقوله ان فرعون علا فى الارض والفساد لقارون لقوله ولاتبغ الفساد فى الارض ويقول من لم يكن مثل فرعون وقارون فله تلك الدار الآخرة ولايتدبر قوله والعاقبة للمتقين كما تدبره على بن ابى طالب عليه السلام * قوله تعالى (من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات الا ما كانوا يعملون ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد قل ربى اعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين وما كنت ترجو ان يلقى اليك الكتاب الارحمة من ربك فلا تكونن ظهيرا للكافرين ولايصدنك عن آيات الله بعد اذ انزلت اليك وادع الى ربك ولاتكونن من المشركين ولاتدع مع الله الها آخر لا اله الاهو كل شئ هالك الاوجهه له الحكم واليه ترجعون) اعلم انه تعالى لما بين ان الدار الآخرة ليست لمن يريد علوا فى الارض ولافسادا بل هى للمتقين بين بعد ذلك مايحصل لهم فقال من جاء بالحسنة فله خير منها وفيه وجوه (احدها) المعنى من جاء بالحسنة حصل له من تلك الكلمة خير (وثانيها) حصل له شئ هو افضل من تلك الحسنة ومعناه انهم يزادون على ثوابهم وقدمر تفسيره فى اخر النمل واما قوله ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيآت الا ماكانوا يعملون فظاهره ان لايزادوا على مايستحقون واذا صح ذلك فى السيآت دل على ان المراد فى الحسنات بما هو خير منها ماذكرناه من مزيد الفضل على الثواب قال صاحب الكشاف تقدير الآية ومن جاء بالسيئة فلا يجزون الا ماكانوا يعملون لكنه كرر ذلك لان فى اسناد عمل السيئة اليهم مكررا فضل تهجين لحالهم وزيادة

(تبغيض)

الجليلين وايراد صيغة الماضى مع كون المعطوف عليه اعنى ينفخ مضارعا للدلالة على تحقق وقوعه اثر النفخ ولعل تأخير بيان الاحوال الواقعة عند ابتداء النفخة عن بيان مايقع بعدها من حشر المكذبين من كل امة لتثنية التهويل بتكرير التذكير ايذانا بان كل واحد منهما طامة كبرى وداهية دهياء حقيقة بالتذكير على حيالها ولوروعى الترتيب الوقوعى لربما توهم ان الكل داهية واحدة قد امر بذكرها كما فى قصة البقرة (الامن شاء الله) اى ان لايفزع قيل هم جبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل عليهم السلام وقيل الحور والخزنة وحملة العرش (وكل) اى كل واحد من المبعوثين عند النفخة (اتوه) حضروا الموقف بين يدى رب العزة جل جلاله للسؤال والجواب والمناقشة والحساب وقرئ أتاه باعتبار لفظ الكل كما ان القراءة الاولى باعتبار معناه وقرئ آتوه اى حاضروه (داخرين) اى صاغرين وقرئ دخرين وقوله تعالى (وترى الجبال) عطف على ينفخ داخل فى حكم التذكير وقوله عز وجل (تحسبها جامدة) اى ثابتة فى اماكنها اما بدل منه او حال من ضمير ترى او من مفعوله وقوله تعالى (وهى تمر مر السحاب) حال من ضمير الجبال فى تحسبها او فى جامدة اى تراها رأى العين ساكنة والحال انها تمر مر السحاب التى تسيرها الرياح سيرا حثيثا وذلك ان الاجرام العظام اذا تحركت نحو سمت لاتكاد تتبين حركتها وعليه قول من قال

يبغض السيئة الى قلوب السامعين وهذا من فضله العظيم انه لايجزى بالسيئة الامثلها ويجزى بالحسنة عشر امثالها وههنا سؤالان (السؤال الاول) قال تعالى ان احسنتم احسنتم لانفسكم وان اسأتم فلها كرر ذلك الاحسان واكتفى بذكر الاساءة بمرة واحدة وفى هذه الآية كرر ذكر الاساءة مرتين واكتفى فى ذكر الاحسان بمرة واحدة فما السبب (الجواب) لان هذا المقام مقام الترغيب فى الدار الآخرة فكانت المبالغة فى الزجر عن المعصية لائقة بهذا الباب لان المبالغة فى الزجر عن المعصية مبالغة فى الدعوة الى الآخرة واما الآية الاخرى فهى شرح حالهم فكانت المبالغة فى ذكر محاسنهم اولى (السؤال الثانى) كيف قال لايجزى السيئة الا مثلها مع ان المتكلم بكلمة الكفر اذا مات فى الحال عذب ابد الآباد (الجواب) لانه كان على عزم انه لو عاش ابدا لقال ذلك فعومل بمقتضى عزمه (قال الجبائى) وهذا يدل على بطلان مذهب من يجوز على الله تعالى ان يعذب الاطفال عذابا دائما بغير جرم (قلنا) لايجوز ان يفعله وليس فى الآية مايدل عليه ثم انه سبحانه لما شرح لرسوله امر القيامة واستقصى فى ذلك شرح له مايتصل بأحواله فقال ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد قال ابو على الذى فرض عليك احكامه وفرائضه لرادك بعد الموت الى معاد وتنكير المعاد لتعظيمه كأنه قال الى معاد واى معاد اى ليس لغيرك من البشر مثله وقيل المراد به مكة ووجهه ان يراد برده اليها يوم الفتح ووجه تنكيره انها كانت فى ذلك اليوم معادا له شأن عظيم لاستيلاء رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها وقهره لاهلها واظهار عز الاسلام واذلال حزب الكفر والسورة مكية فكان الله تعالى وعده وهو بمكة فى اذى وغلبة من اهلها انه يهاجر منها ويعيده اليها ظاهرا ظافرا وقال مقاتل انه عليه السلام خرج من الغار وسار فى غير الطريق مخافة الطلب فلما أمن رجع الى الطريق ونزل بالجحفة بين مكة والمدينة وعرف الطريق الى مكة واشتاق اليها وذكر مولده ومولد أبيه فنزل جبريل عليه السلام وقال تشتاق الى بلدك ومولدك فقال عليه السلام نعم فقال جبريل عليه السلام فان الله تعالى يقول ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد يعنى الى مكة ظاهرا عليهم وهذا اقرب لان ظاهر المعاد انه كان فيه وفارقه وحصل العود وذلك لايليق الا بمكة وان كان سائر الوجوه محتملا لكن ذلك اقرب قال اهل التحقيق وهذا احد مايدل على نبوته لانه اخبر عن الغيب ووقع كما اخبر فيكون معجزا ثم قال قل ربى اعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين ووجه تعلقه بما قبله ان الله تعالى لما وعد رسوله الرد الى معاد قال قل للمشركين ربى أعلم من جاء بالهدى يعنى نفسه ومايستحقه من الثواب فى المعاد والاعزاز بالاعادة الى مكة ومن هو فى ضلال مبين يعنيهم ومايستحقون من العقاب فى معادهم ثم قال لرسوله وما كنت ترجوا ان يلقى اليك الكتاب الارحمة من ربك فى كلمة الا وجهان (احدهما) انها للاستثناء ثم قال صاحب الكشاف هذا كلام محمول على

بارض مثل الطود تحسب انهم وقوف لحاج والركاب تهملج وقد ادمج فى هذا التشبيه تشبيه حال الجبال بحال السحاب فى تخلخل الاجزاء وانتفاشها كما فى قوله تعالى وتكون الجبال كالعهن المنفوش وهذا ايضا مما يقع بعد النفخة الثانية عند حشر الخلق يبدل الله عز وجل الارض غير الارض ويغير هيآتها ويسير الجبال عن مقارها على ماذكر من الهيئة الهائلة ليشاهدها اهل المحشر وهى وان اندكت وتصدعت عند النفخة الاولى لكن تسييرها وتسوية الارض انما يكونان بعد النفخة الثانية كما نطق به قوله تعالى ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا لاترى فيها عوجا ولا أمتا يومئذ يتبعون الداعى وقوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار فان اتباع الداعى الذى هو اسرافيل عليه السلام وبروز الخلق لله تعالى لايكون الا بعد النفخة الثانية وقد قالوا فى تفسير قوله تعالى ويوم نسير الجبال وترى الارض بارزة وحشرناهم ان صيغة الماضى فى المعطوف مع كون المعطوف عليه مستقبلا للدلالة على تقدم الحشر على التسيير والرؤية كأنه قيل وحشرناهم قبل ذلك هذا وقد قيل ان المراد هى النفخة الاولى والفزع هو الذى يستتبع الموت لغاية شدة الهول كما فى قوله تعالى فصعق من فى السموات ومن فى الارض الآية فيختص اثرها بمن كان حيا عند وقوعها دون من مات قبل ذلك من الامم ويجوز ان يراد بالاتيان داخرين

المعنى كأنه قيل وما القى اليك الكتاب الا رحمة من ربك ويمكن ايضا اجراؤه على ظاهره اى وما كنت ترجو الا ان يرحمك الله برحمة فينعم عليك بذلك اى ما كنت ترجو الا على هذا (والوجه الثانى) ان الا بمعنى لكن للاستدراك اى ولكن رحمة من ربك القى اليك ونظيره قوله وما كنت بجانب الطور اذ ناديناه ولكن رحمة من ربك خصصك به ثم انه كلفه بامور (احدها) كلفه بأن لا يكون مظاهرا للكفار فقال فلا تكونن ظهيرا للكافرين (وثانيها) ان قال ولا يصدنك عن آيات الله بعد اذ انزلت اليك الميل الى المشركين قال الضحاك وذلك حين دعوه الى دين آبائه ليزوجوه ويقاسموه شطرا من مالهم اى لا تلتفت الى هؤلاء ولا تركن الى قولهم فيصدوك عن اتباع آيات الله (وثالثها) قوله وادع الى ربك اى الى دين ربك واراد التشدد فى دعاء الكفار والمشركين فلذلك قال ولا تكونن من المشركين لان من رضى بطريقتهم او مال اليهم كان منهم (ورابعها) قوله ولا تدع مع الله الها آخر وهذا وان كان واجبا على الكل الا انه تعالى خاطبه به خصوصا لاجل التعظيم (فان قيل) الرسول كان معلوما منه ان لا يفعل شيئا من ذلك البتة فافائدة هذا النهى (قلنا) لعل الخطاب معه ولكن المراد غيره ويجوز ان يكون المعنى لا تعتمد على غير الله ولا تتخذ غيره وكيلا فى امورك فان من وثق بغير الله تعالى فكأنه لم يكمل طريقه فى التوحيد ثم بين انه لا اله الا هو اى لا نافع ولا ضار ولا معطى ولا مانع الا هو كقوله تعالى رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا فلا يجوز اتخاذ اله سواه ثم قال تعالى كل شئ هالك الا وجهه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى قوله كل شئ هالك فمن الناس من فسر الهلاك بالعدم والمعنى ان الله تعالى يعدم كل شئ سواه ومنهم من فسر الهلاك باخراجه عن كونه منتفعا به اما بالاماتة او بتفريق الاجزاء وان كانت اجزاؤه باقية فانه يقال هلك الثوب وهلك المتاع ولا يريدون به فناء اجزائه بل خروجه عن كونه منتفعا به ومنهم من قال معنى كونه هالكا كونه قابلا للهلاك فى ذاته فان كل ما عداه ممكن الوجود لذاته وكل ما كان ممكن الوجود كان قابلا للعدم فكان قابلا للهلاك فاطلق عليه اسم الهلاك نظرا الى هذا الوجه واعلم ان المتكلمين لما ارادوا اقامة الدلالة على ان كل شئ سوى الله تعالى يقبل العدم والهلاك قالوا ثبت ان العالم محدث وكل ما كان محدثا فان حقيقته قابلة للعدم والوجود وكل ما كان كذلك وجب ان يبقى على هذه الحالة ابدا لان الامكان من لوازم الماهية ولازم الماهية لا يزول قط الا انا لما نظرنا فى هذه الدلالة ما وجدناها وافية بهذا الغرض لانهم انما اقاموا الدلالة على حدوث الاجسام والاعراض فلو قدروا على اقامة الدلالة على ان ما سوى الله تعالى اما متحيز او قائم بالمتحيز لتم غرضهم الا ان الخصم يثبت موجودات لا متحيزة ولا قائمة بالمتحيز فالدليل الذى يبين حدوث المتحيز والقائم بالمتحيز لا يبين حدوث كل ما سوى الله تعالى الا بعد قيام الدلالة على نفى ذلك القسم الثالث ولهم فى نفى هذا القسم الثالث طريقان (احدهما)

(قولهم)

رجوعهم الى امره تعالى وانقيادهم له ولا ريب فى ان ذلك مما ينبغى ان ينزه ساحة التنزيل عن امثاله وابعد من هذا ما قيل ان المراد بهذه النفخة نفخة الفزع التى تكون قبل نفخة الصعق وهى التى اريدت بقوله تعالى ما ينظر هؤلاء الا صيحة واحدة ما لها من فواق فيسير الله تعالى عندها الجبال فتمر مر السحاب فتكون سرابا وترج الارض باهلها رجا فتكون كالسفينة الموثقة فى البحر او كالقنديل المعلق ترججه الارواح فانه مما لا ارتباط له بالمقام قطعا والحق الذى لا محيد عنه ما قدمناه ومما هو نص فى الباب ما سيأتى من قوله تعالى وهم من فزع يومئذ آمنون (صنع الله) مصدر مؤكد لمضمون ما قبله اى صنع الله ذلك صنعا على انه عبارة عما ذكر من النفخ فى الصور وما ترتب عليه جميعا قصد به التنبيه على عظم شان تلك الافاعيل وتهويل امرها والايذان بانها ليست بطريق اخلال نظام العالم وافساد احوال الكائنات بالكلية من غير ان يدعو اليها داعية او يكون لها عاقبة بل هى من قبيل بدائع صنع الله تعالى المبنية على اساس الحكمة المستتبعة للغايات الجميلة التى لاجلها رتبت مقدمات الخلق ومبادى الابداع على الوجه المتين والنهج الرصين كما يعرب عنه قوله تعالى (الذى اتقن كل شئ) اى احكم خلقه وسواه على ما تقتضيه الحكمة وقوله تعالى (انه خبير بما تفعلون) تعليل لكون ما ذكر صنعا محكما له تعالى ببيان ان علمه تعالى بظواهر

قولهم لادليل عليه فوجب نفيه وهذه طريقة ركيكة بينا سقوطها فى الكتب الكلامية (والثانى) قولهم لو وجد موجود هكذا لكان مشاركا لله تعالى فى نفى المكان والزمان والامكان ولو كان كذلك لصار مثلا لله تعالى وهو ضعيف لاحتمال ان يقال انهما وان اشتركا فى هذا السلب الا انه يتميز كل واحد منهما عن الآخر بماهية وحقيقة واذا كان كذلك ظهر ان دليلهم العقلى لايفى باثبات ان كل شئ هالك الا وجهه والذى يعتمد عليه فى هذا الباب ان نقول ثبت ان صانع العالم واجب الوجود لذاته فيستحيل وجود موجود آخر واجب لذاته والا لاشتركا فى الوجوب وامتاز كل واحد منهما عن الآخر بخصوصيته ومابه المشاركة غير مابه الممايزة فيكون كل واحد منهما مركبا عمابه المشاركة وعمابه الممايزة وكل مركب ممكن مفتقر الى جزئه ثم ان الجزأين ان كانا واجبين كانا مشتركين فى الوجوب ومتمايزين باعتبار آخر فيلزم تركب كل واحد منهما أيضا ويلزم التسلسل وهو محال وان لم يكونا واجبين فالمركب عنهما المفتقر اليهما أولى ان لايكون واجبا فثبت ان واجب الوجود واحد وان كل ماعداه فهو ممكن وكل ممكن فلابد له من مرجح وافتقاره الى المرجح اما حال عدمه او حال وجوده فان كان الاول ثبت انه محدث وان كان الثانى فافتقار الموجود الى المؤثر اما حال حدوثه او حال بقائه والثانى باطل لانه يلزم ايجاد الموجود وهو محال فثبت ان الافتقار لايحصل الا حال الحدوث وثبت ان كل ماسوى الله تعالى محدث سواء كان متحيزا او قائما بالمتحيز او لامتحيزا ولا قائما بالمتحيز فان نقضت هذه الدلالة بذات الله وصفاته فاعلم ان هناك فرقا قويا واذا ثبت حدوث كل ماسواه وثبت ان كل ماكان محدثا كان قابلا للعدم ثبت بهذا البرهان الباهر ان كل شئ هالك الا وجهه بمعنى كونه قابلا للهلاك والعدم ثم ان الذين فسروا الآية بذلك قالوا هذا أولى وذلك لانه سبحانه حكم بكونها هالكة فى الحال وعلى ماقلناه فهى هالكة فى الحال وعلى ماقلتموه انها ستهلك لا انها هالكة فى الحال فكان قولنا أولى وايضا فالممكن اذا وجد من حيث هو لم يكن مستحقا لا للوجود ولا للعدم من ذاته فهذه الاستحقاقية مستحقة له من ذاته واما الوجود فوارد عليه من الخارج فالوجود له كالثوب المستعار له وهو من حيث هو هو كالانسان الفقير الذى استعار ثوبا من رجل غنى فان الفقير لايخرج بسبب ذلك عن كونه فقيرا كذا الممكنات عارية عن الوجود من حيث هى هى وانما الوجود ثوب حصل لها بالعارية فصح انها ابدا هالكة من حيث هى هى اما الذين حملوه على انها ستعدم فقد احتجوا بان قالوا الهلاك فى اللغة له معنيان (احدهما) خروج الشئ عن ان يكون منتفعا به (والثانى) الفناء والعدم لاجائز حمل اللفظ على الاول لان هلاكها بمعنى خروجها عن حد الانتفاع محال لانها وان تفرقت اجزاؤها فانها منتفع بها لان النفع المطلوب كونها بحيث يمكن ان يستدل بها على وجود الصانع القديم وهذه المنفعة باقية سواء بقيت متفرقة او مجتمعة وسواء بقيت موجودة او صارت معدومة واذا تعذر حمل الهلاك

افعال المكلفين وبواطنها مما يدعو الى اظهارها وبيان كيفياتها على ماهى عليه من الحسن والسوء وترتيب اجزيتها عليها بعد بعثهم وحشرهم وجعل السموات والارض والجبال على وفق مانطق به التنزيل ليحققوا بمشاهدة ذلك ان وعد الله حق لاريب فيه وقرئ خبير بما يفعلون وقوله تعالى (من جاء بالحسنة فله خير منها) بيان لما اشير اليه باحاطة علمه تعالى بأعمالهم من ترتيب اجزيتها عليها اى من جاء منكم اومن اولئك الذين أتوه تعالى بالحسنة فله من الجزاء ماهو خير منها اما باعتبار انه اضعافها واما باعتبار دوامه وانقضائها وقيل فله خير حاصل من جهتها وهو الجنة وعن ابن عباس رضى الله عنهما الحسنة كلمة الشهادة (وهم) اى الذين جاؤا بالحسنات (من فزع) اى عظيم هائل لايقادر قدره وهو الفزع الحاصل من مشاهدة العذاب بعد تمام المحاسبة وظهور الحسنات والسيآت وهو الذى فى قوله تعالى لا يحزنهم الفزع الاكبر وعن الحسن رحمه الله تعالى حين يؤمر بالعبد الى النار وقال ابن جريج حين يذبح الموت وينادى المنادى يا اهل الجنة خلود فلاموت ويا اهل النار خلود فلاموت (يومئذ) اى يوم اذ ينفخ فى الصور (آمنون) لايعتريهم ذلك الفزع الهائل ولايلحقهم ضرره اصلا واما الفزع الذى يعترى كل من فى السموات ومن فى الارض غير من استثناه الله تعالى فانما هو التهيب والرعب الحاصل فى ابتداء النفخة من معاينة فنون الدواهى والاهوال ولايكاد

على هذا الوجه وجب حمله على الفناء أجاب من حمل الهلاك على التفرق قال هلاك الشئ خروجه عن المنفعة التي يكون الشئ مطلوبا لاجلها فاذا مات الانسان قيل هلك لان الصفة المطلوبة منه حياته وعقله واذا تمزق الثوب قيل هلك لان المقصود منه صلاحيته للبس فاذا تفرقت اجزاء العالم خرجت السموات والكواكب والجبال والبحار عن صفاتها التي لاجلها كانت منتفعا بها انتفاعا خاصا فلاجرم صح اطلاق اسم الهالك عليها فاما صحة الاستدلال بها على الصانع سبحانه فهذه المنفعة ليست منفعة خاصة بالشمس من حيث هي شمس والقمر من حيث هو قمر فلم يلزم من بقائها ان لا يطلق عليها اسم الهالك ثم احتجوا على بقاء اجزاء العالم بقوله يوم تبدل الارض غير الارض وهذا صريح بان تلك الاجزاء باقية الا انها صارت متصفة بصفة أخرى فهذا ما في هذا الموضع (المسئلة الثانية) احتج اهل التوحيد بهذه الآية على ان الله تعالى شئ قالوا لانه استثنى من قوله كل شئ استثناء يخرج ما لولاه لوجب او لصح دخوله تحت اللفظ فوجب كونه شيئا يؤكده ما ذكرناه في سورة الانعام وهو قوله قل اى شئ اكبر شهادة قل الله واحتجاجهم على انه ليس بشئ بقوله ليس كمثله شئ والكاف معناه المثل فتقدير الآية ليس مثل مثله شئ ومثل الله هو الله فوجب ان لا يكون الله شيئا (جوابه) ان الكاف صلة زائدة (المسئلة الثالثة) استدلت المجسمة بهذه الآية على ان الله تعالى جسم من وجهين (الاول) قالوا الآية صريحة في اثبات الوجه وذلك يقتضي الجسمية (والثاني) قوله واليه ترجعون وكلمة الى لانتهاء الغاية وذلك لا يعقل الا في الاجسام (والجواب) لو صح هذا الكلام يلزم ان يفنى جميع اعضائه وان لا يبقى منه الا الوجه وقد التزم ذلك بعض المشبهة من الرافضة وهو بيان بن سمعان وذلك لا يقول به عاقل ثم من الناس من قال الوجه هو الوجود والحقيقة يقال وجه هذا الامر كذا اى حقيقته ومنهم من قال الوجه صلة والمراد كل شئ هالك الا هو واما كلمة الى فالمعنى والى موضع حكمه وقضائه ترجعون (المسئلة الرابعة) استدلت المعتزلة به على ان الجنة والنار غير مخلوقتين قالوا لان الآية تقتضي فناء الكل فلو كانتا مخلوقتين لفنيتا وهذا يناقض قوله تعالى في صفة الجنة أكلها دائم (والجواب) هذا معارض بقوله تعالى في صفة الجنة اعدت للمتقين وفي صفة النار وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين ثم اما ان يحمل قوله كل شئ هالك على الاكثر كقوله واوتيت من كل شئ او يحمل قوله أكلها دائم على ان زمان فنائهما لما كان قليلا بالنسبة الى زمان بقائهما لاجرم اطلق لفظ الدوام عليه (المسئلة الخامسة) قوله كل شئ هالك يدل على ان الذات ذات بالفعل لانه حكم بالهلاك على الشئ فدل على ان الشئ في كونه شيئا قابل للهلاك فوجب ان لا يكون المعدوم شيئا والله اعلم والحمد لله رب العالمين

(سورة)

يخلو منه احد عكم الجبلة وان كان آمنا من لحوق الضرر والامن يستعمل بالجار وبدونه كما في قوله تعالى أفأمنوا مكر الله وقرئ من فزع يومئذ بالاضافة مع كسر الميم وفتحها ايضا والمراد هو الفزع المذكور في القراءة الاولى لا جميع الافزاع الحاصلة يومئذ ومدار الاضافة كونه اعظم الافزاع واكبرها كأن ماعداه ليس بفزع بالنسبة اليه (ومن جاء بالسيئة) قيل هو الشرك (فكبت وجوههم في النار) اى كبوا فيها على وجوههم منكوسين او كبت فيها انفسهم على طريقة ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة (هل تجزون الا ما كنتم تعملون) على الالتفات للتشديد او على اضمار القول اى مقولا لهم ذلك (انما امرت ان اعبد رب هذه البلدة الذى حرمها) امر عليه الصلاة والسلام ان يقول لهم ذلك بعد ما بين لهم احوال المبدأ والمعاد وشرح احوال القيامة تنبيها لهم على انه قد أتم امر الدعوة بالامزيد عليه ولم يبق له عليه الصلاة والسلام بعد ذلك شأن سوى الاشتغال بعبادة الله عز وجل والاستغراق في مراقبته غير مبال بهم ضلوا ام رشدوا صلحوا او فسدوا ليحملهم ذلك على ان يهتموا بأمور انفسهم ولا يتوهموا من شدة عنايته عليه الصلاة والسلام بأمر دعوتهم انه عليه الصلاة والسلام يظهر لهم ما يلجئهم الى الايمان لا محالة ويشتغلوا بتدارك احوالهم ويتوجهوا نحو التدبر فيما شاهدوه من الآيات الباهرة والبلدة هي مكة المعظمة وتخصيصها بالاضافة لتفخيم شأنها واجلال

(سورة العنكبوت مكية وقيل مدنية وقيل نزلت من اولها الى رأس عشر بمكة وباقيها)
(بالمدينة او نزل الى آخر العشر بالمدينة وباقيها بمكة بالعكس وهى سبعون)
(او تسع وستون آية)

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(الم أحسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) فى تفسير الآية وفيما يتعلق بالتفسير مسائل (المسئلة الاولى) فى تعلق اول هذه السورة بما قبلها وفيه وجوه (الاول) لما قال الله تعالى قبل هذه السورة ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد وكان المراد منه ان يرده الى مكة ظاهرا غالبا على الكفار ظافرا طالبا للثأر وكان فيه احتمال مشاق القتال صعب على البعض ذلك فقال الله تعالى الم أحسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا ولا يؤمروا بالجهاد (الوجه الثانى) هو انه تعالى لما قال فى أواخر السورة المتقدمة وادع الى ربك وكان فى الدعاء اليه الطعان والحراب والضراب لان النبى عليه السلام واصحابه كانوا مأمورين بالجهاد ان لم يؤمن الكفار بمجرد الدعاء فشق على البعض ذلك فقال أحسب الناس ان يتركوا (الوجه الثالث) هو انه تعالى لما قال فى آخر السورة المتقدمة كل شئ هالك الا وجهه ذكر بعده ما يبطل قول المنكرين للحشر فقال له الحكم واليه ترجعون يعنى ليس كل شئ هالكا من غير رجوع بل كل هالك وله رجوع الى الله اذا تبين هذا فاعلم ان منكرى الحشر يقولون لا فائدة فى التكاليف فانها مشاق فى الحال ولا فائدة لها فى المآل اذ لا مآل ولا مرجع بعد الهلاك والزوال فلا فائدة فيها فلما بين الله انهم اليه يرجعون بين ان الامر ليس على ما حسبوه بل حسن التكليف ليثيب الشكور ويعذب الكفور فقال أحسب الناس ان يتركوا غير مكلفين من غير عمل يرجعون به الى ربهم (المسئلة الثانية) فى حكمة افتتاح هذه السورة بحروف من التهجى ولنقدم عليه كلاما كليا فى افتتاح السور بالحروف فنقول الحكيم اذا خاطب من يكون محل الغفلة او من يكون مشغول البال بشغل من الاشغال يقدم على الكلام المقصود شيئا غيره ليلتفت المخاطب بسببه اليه ويقبل بقلبه عليه ثم يشرع فى المقصود اذا ثبت هذا فنقول ذلك المقدم على المقصود قد يكون كلاما له معنى مفهوم كقول القائل اسمع واجعل بالك الى وكن لى وقد يكون شيئا هو فى معنى الكلام المفهوم كقول القائل ازيد ويازيد والايازيد وقد يكون ذلك المقدم على المقصود صوتا غير مفهوم كمن يصفر خلف انسان ليلتفت اليه وقد يكون ذلك الصوت بغير الفم كما يصفق الانسان بيده ليقبل السامع عليه ثم ان موقع الغفلة كلما كان أتم والكلام المقصود كان أهم كان المقدم على المقصود اكثر ولهذا ينادى القريب بالهمزة فيقال ازيد والبعيد بيا فيقال يازيد والغافل ينبه اولا فيقال الايازيد اذا ثبت هذا فنقول ان النبى صلى الله عليه وسلم وان كان يقظان الجنان لكنه انسان يشغله شأن عن شأن فكان يحسن من الحكيم ان يقدم

مكانها والتعرض لتحريمه تعالى إياها تشريف لها بعد تشريف وتعظيم اثر تعظيم مع ما فيه من الاشعار بعلة الامر وموجب الامتثال به كما فى قوله تعالى فليعبدوا رب هذا البيت الذى اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ومن الرمز الى غاية شناعة ما فعلوا فيها الا يرى انهم مع كونها محرمة من ان تنتهك حرمتها باختلاء خلاها وعضد شجرها وتنفير صيدها وارادة الالحاد فيها بوجه من الوجوه قد استمروا فيها على تعاطى افجر افراد الفجور واشنع آحاد الالحاد حيث تركوا عبادة ربها ونصبوا فيها الاوثان وعكفوا على عبادتها قاتلهم الله انى يؤفكون وقرئ حرمها بالتخفيف وقوله تعالى (وله كل شئ) اى خلقا وملكا وتصرفا من غير ان يشاركه شئ فى شئ من ذلك تحقيق للحق وتنبيه على ان افراد مكة بالاضافة لما ذكر من التفخيم والتشريف مع عموم الربوبية لجميع الموجودات (وامرت ان اكون من المسلمين) اى أثبت على ما كنت عليه من كونى من جملة الثابتين على ملة الاسلام والتوحيد اى الذين اسلموا وجوههم لله خالصة من قوله تعالى ومن احسن دينا ممن اسلم وجهه لله (وان أتلو القرآن) اى أواظب على تلاوته لتنكشف لى حقائقه الرائعة المخزونة فى تضاعيفه شيئا فشيئا او على تلاوته على الناس بطريق تكرير الدعوة وتثنية الارشاد فيكون ذلك تنبيها على كفايته فى الهداية والارشاد من غير حاجة الى اظهار معجزة اخرى فمعنى قوله تعالى (فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه) حينئذ فمن اهتدى بالايمان به

على الكلام المقصود حروفا هى كالمنبهات ثم ان تلك الحروف اذا لم تكن بحيث يفهم معناها تكون أتم فى افادة المقصود الذى هو التنبيه من تقديم الحروف التى لها معنى لان تقديم الحروف اذا كان لاقبال السامع على المتكلم لسماع ما بعد ذلك فاذا كان ذلك المقدم كلاما منظوما وقولا مفهوما فاذا سمعه السامع ربما يظن انه كل المقصود ولا كلام له بعد ذلك فيقطع الالتفات عنه اما اذا سمع منه صوتا بلا معنى يقبل عليه ولا يقطع نظره عنه ما لم يسمع غيره لجزمه بأن ما سمعه ليس هو المقصود فان تقديم الحروف التى لا معنى لها فى الوضع على الكلام المقصود فيه حكمة بالغة (فان قال قائل) فما الحكمة فى اختصاص بعض السور بهذه الحروف (فنقول) عقل البشر عن ادراك الاشياء الجزئية على تفاصيلها عاجز والله اعلم بجميع الاشياء لكن نذكر ما يوفقنا الله له فنقول كل سورة فى اوائلها حروف التهجى فان فى اوائلها ذكر الكتاب او التنزيل او القرآن كقوله تعالى الم ذلك الكتاب الم الله لا اله الا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب المص كتاب انزل اليك يس والقرآن ص والقرآن ق والقرآن الم تنزيل الكتاب حم تنزيل الكتاب الا ثلاث سور كهيعص الم أحسب الناس الم غلبت الروم والحكمة فى افتتاح السور التى فيها القرآن او التنزيل او الكتاب بالحروف هى ان القرآن عظيم والانزال له ثقل والكتاب له عبء كما قال تعالى انا سنلقى عليك قولا ثقيلا وكل سورة فى اولها ذكر القرآن والكتاب والتنزيل قدم عليها منبه يوجب ثبات المخاطب لاستماعه لا يقال كل سورة قرآن واستماعه استماع القرآن سواء كان فيها ذكر القرآن لفظا او لم يكن فكان الواجب ان يكون فى أوائل كل سورة منبه وايضا فقد وردت سور فيها ذكر الانزال والكتاب ولم يذكر قبلها الحروف كقوله تعالى الحمد لله الذى انزل على عبده الكتاب وقوله سورة انزلناها وقوله تبارك الذى نزل الفرقان وقوله انا انزلناه فى ليلة القدر لانا نقول جوابا عن الاول لا ريب فى ان كل سورة من القرآن لكن السورة التى فيها ذكر القرآن والكتاب مع انها من القرآن تنبه على كل القرآن فان قوله تعالى طه ما انزلنا عليك القرآن مع انها بعض القرآن فيها ذكر جميع القرآن فيصير مثاله مثال كتاب يرد من ملك على مملوكه فيه شغل ما وكتاب آخر يرد منه عليه فيه انا كتبنا اليك كتبنا فيها أوامرنا فامتثلها لا شك ان عبء الكتاب الآخر اكثر من ثقل الاول وعن الثانى ان قوله الحمد لله وتبارك الذى تسبيحات مقصودة وتسبيح الله لا يغفل عنه العبد فلا يحتاج الى منبه بخلاف الأوامر والنواهى واما ذكر الكتاب فيها فلبيان وصف عظمة من له التسبيح وسورة انزلناها قد بينا انها بعض من القرآن فيها ذكر انزالها وفى السورة التى ذكرناها ذكر جميع القرآن فهو اعظم فى النفس والثقل واما قوله تعالى انا انزلناه فنقول هذا ليس واردا على مشغول القلب بشئ غيره بدليل انه ذكر الكناية فيها وهى ترجع الى مذكور سابق او معلوم وقوله انا انزلناه الهاء راجع الى معلوم عند النبى صلى الله عليه وسلم

(فكان)

والعمل بما فيه من الشرائع والاحكام وعلى الاول فمن اهتدى باتباعه اياى فيما ذكر من العبادة والاسلام وتلاوة القرآن فانما منافع اهتدائه عائدة اليه لا الى (ومن ضل) بالكفر به والاعراض عن العمل بما فيه او بمخالفتى فيما ذكر (فقل) فى حقه (انما انا من المنذرين) وقد خرجت عن عهدة الانذار فليس على من وبال ضلاله شئ وانما هو عليه فقط (وقل الحمد لله) اى على ما افاض على من نعمائه التى اجلها نعمة النبوة المستتبعة لفنون النعم الدينية والدنيوية ووفقنى لتحمل اعبائها وتبليغ احكامها الى كافة الورى بالآيات البينة والبراهين النيرة وقوله تعالى (سيريكم آياته) من جملة الكلام المأمور به اى سيريكم البتة فى الدنيا آياته الباهرة التى نطق بها القرآن كخروج الدابة وسائر الاشراط وقد عد منها وقعة بدر ويأباه قوله تعالى (فتعرفونها) اى فتعرفون انها آيات الله تعالى حين لا تنفعكم المعرفة لانهم لا يعترفون بكون وقعة بدر كذلك وقيل سيريكم فى الآخرة وقوله تعالى (وما ربك بغافل عما تعملون) كلام مسوق من جهته تعالى بطريق التذييل مقررا لما قبله متضمن للوعد والوعيد كما ينبئ عنه اضافة الرب الى ضمير النبى عليه الصلاة والسلام وتخصيص الخطاب اولا به عليه الصلاة والسلام وتعميمه ثانيا للكفرة تغليبا اى وما ربك بغافل عما تعمل انت من الحسنات وما تعملون انتم ايها الكفرة من السيآت فيجازى كلا منكم بعمله لا محالة وقرئ عما يعملون على الغيبة فهو وعيد محض

فكان منتبها له فلم يفهم واعلم ان التنبيه قد حصل فى القرآن بغير الحروف التى لايفهم معناها كما فى قوله تعالى ياأيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شئ عظيم وقوله ياأيها النبى اتق الله وياأيها النبى لم تحرم لانها اشياء هائلة عظيمة فان تقوى الله حق تقاته امر عظيم فقدم عليها النداء الذى يكون للبعيد الغافل عنها تنبيها واما هذه السورة افتتحت بالحروف وليس فيها الابتداء بالكتاب والقرآن وذلك لان القرآن ثقله وعبؤه بما فيه من التكاليف والمعانى وهذه السورة فيها ذكر جميع التكاليف حيث قال أحسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا يعنى لايتركون بمجرد ذلك بل يؤمرون بأنواع من التكاليف فوجد المعنى الذى فى السور التى فيها ذكر القرآن المشتمل على الاوامر والنواهى (فان قيل) مثل هذا الكلام وفى معناه ورد فى سورة التوبة وهو قوله تعالى ام حسبتم ان تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يقدم عليه حروف التهجى (فنقول الجواب عنه) فى غاية الظهور وهو ان هذا ابتداء كلام ولهذا وقع الاستفهام بالهمزة فقال احسب وذلك وسط كلام بدليل وقوع الاستفهام بأم والتنبيه يكون فى اول الكلام لافى اثنائه واما الم غلبت الروم فسيجئ فى موضعه ان شاء الله تعالى هذا تمام الكلام فى الحروف (المسئلة الثالثة) فى اعراب الم وقد ذكر تمام ذلك فى سورة البقرة مع الوجوه المنقولة فى تفسيره ونزيد ههنا على ما ذكرناه ان الحروف لااعراب لها لانها جارية مجرى الاصوات المنبهة (المسئلة الرابعة) فى سبب نزول هذه الآيات وفيه اقوال (الاول) انها نزلت فى عمار بن ياسر وعياش بن ابى ربيعة والوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وكانوا يعذبون بمكة (الثانى) انها نزلت فى اقوام بمكة هاجروا وتبعهم الكفار فاستشهد بعضهم ونجا الباقون (الثالث) انها نزلت فى مهجع بن عبد الله قتل يوم بدر (المسئلة الخامسة) فى التفسير قوله احسب الناس ان يتركوا يعنى اظنوا انهم يتركون بمجرد قولهم آمنا وهم لايفتنون لايبتلون بالفرائض البدنية والمالية واختلف أئمة النحو فى قوله ان يقولوا فقال بعضهم ان يتركوا بأن يقولوا وقال بعضهم ان يتركوا يقولون آمنا ومقتضى ظاهر هذا انهم يمنعون من قولهم آمنا كما يفهم من قول القائل تظن انك تترك ان تضرب زيدا اى تمنع من ذلك وهذا بعيد فان الله لايمنع احدا من ان يقول آمنت ولكن مراد هذا المفسر هو انهم لايتركون يقولون آمنا من غير ابتلاء فيمنعون من هذا المجموع بايجاب الفرائض عليهم (المسئلة السادسة) فى الفوائد المعنوية وهى ان المقصود الاقصى من الخلق العبادة والمقصد الاعلى فى العبادة حصول محبة الله كما ورد فى الخبر لايزال العبد يتقرب الى بالعبادة حتى احبه وكل من كان قلبه اشد امتلاء من محبة الله فهو اعظم درجة عند الله لكن للقلب ترجمان وهو اللسان وللسان مصدقات وهى الاعضاء ولهذه المصدقات مزكيات فاذا قال الانسان آمنت باللسان فقد ادعى محبة الله فى الجنان فلا بدله من شهود فاذا استعمل الاركان فى الاتيان بما عليه بنيان

والمعنى وماربك بغافل عن اعمالهم فيعذبهم البتة فلا يحسبوا ان تأخير عذابهم لغفلته تعالى عن اعمالهم الموجبة له والله تعالى اعلم عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة طس كان له من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق بسليمان وهود وصالح وابراهيم وشعيب عليهم الصلاة والسلام ومن كذب بهم ويخرج من قبره وهو ينادى لا اله الا الله

* (سورة القصص مكية وقيل)
(الا قوله الذين آتيناهم)
(الكتاب الى قوله الجاهلين)
(وهى ثمان وثمانون آية) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(طسم تلك آيات الكتاب المبين) قد مر مايتعلق به من الكلام بالاجمال والتفصيل فى اشباهه (نتلو عليك) اى نقرأ بواسطة جبريل عليه السلام ويجوز ان يكون التلاوة مجازا من التنزيل (من نبأ موسى وفرعون) مفعول نتلو اى بعض نبئهما (بالحق) متعلق محذوف هو حال من فاعل نتلو اومن مفعوله اوصفة لمصدره اى نتلو عليك بعض نبئهما ملتبسين اوملتبسا بالحق او تلاوة ملتبسة بالحق (لقوم يؤمنون) متعلق بنتلو وتخصيصهم بذلك مع عموم الدعوة والبيان للكل لانهم المنتفعون به (ان فرعون علا فى الارض) استئناف جار مجرى التفسير للمجمل الموعود وتصديره بحرف التأكيد للاعتناء بتحقيق مضمون مابعده اى انه تجبر وطغا فى ارض مصر وجاوز الحدود المعهودة فى الظلم والعدوان (وجعل اهلها شيعا) اى فرقا يشيعونه فى كل مايريده

الايمان حصل له على دعواه شهود مصدقات فاذا بذل فى سبيل الله نفسه وماله وزكى بتركه ماسواه اعماله زكى شهوده الذين صدقوه فيما قاله فيحرر فى جرائد المحبين اسمه ويقرر فى اقسام المقربين قسمه واليه الاشارة بقوله احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا يعنى اظنوا ان تقبل منهم دعواهم بلا شهود وشهودهم بلا مزكين بل لابد من ذلك جميعه ليكونوا من المحبين * (فائدة ثانية) * وهى ان ادنى درجات العبد ان يكون مسلما فان مادونه دركات الكفر فالاسلام اول درجة تحصل للعبد فاذا حصل له هذه المرتبة كتب اسمه واثبت قسمه لكن المستخدمين عند الملوك على اقسام منهم من يكون ناهضا فى شغله ماضيا فى فعله فينقل من خدمة الى خدمة اعلى منها مرتبة ومنهم من يكون كسلانا متخلفا فينقل من خدمة الى خدمة ادنى منها ومنهم من يترك على شغله من غير تغيير ومنهم من يقطع رسمه ويمحى عن الجرائد اسمه فكذلك عباد الله قد يكون المسلم عابدا مقبلا على العبادة مقبولا للسعادة فينقل من مرتبة المؤمنين الى درجة الموقنين وهى درجة المقربين ومنهم من يكون قليل الطاعة مشتغلا بالخلاعة فينقل الى مرتبة دونه وهى مرتبة العصاة ومنزلة القساة وقد يستصغر العيوب ويستكثر الذنوب فيخرج من العباد محروما ويلحق بأهل العناد مرجوما ومنهم من يبقى فى اول درجة الجنة وهم البله فقال الله بشارة للمطيع الناهض أحسب الناس ان يتركوا يعنى اظنوا انهم يتركون فى اول المقامات لا بل ينقلون الى أعلى الدرجات كما قال تعالى والذين اوتوا العلم درجات فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة * وقال بضده للكسلان أحسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا يعنى اذا قال آمنت ويتخلف بالعصيان يترك ويرضى منه لا بل ينقل الى مقام الشقى وهو مقام العاصى او الكافر * ثم قال تعالى (ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) ذكر الله ما يوجب تسليتهم فقال كذلك فعل الله بمن قبلكم ولم يتركهم بمجرد قولهم آمنا بل فرض عليهم الطاعات واوجب عليهم العبادات وفى قوله فليعلمن الله الذين صدقوا وجوه (الاول) قول مقاتل فليرين الله (الثانى) فليظهرن الله (الثالث) فليميزن الله فالحاصل على هذا هو ان المفسرين ظنوا ان حمل الآية على ظاهرها يوجب تجدد علم الله والله عالم بالصادق والكاذب قبل الامتحان فكيف يمكن ان يقال يعلمه عند الامتحان فنقول الآية محمولة على ظاهرها وذلك ان علم الله صفة يظهر فيها كل ما هو واقع كما هو واقع فقبل التكليف كان الله يعلم ان زيدا مثلا سيطيع وعمرا سيعصى ثم وقت التكليف والاتيان يعلم انه مطيع والآخر عاص وبعد الاتيان يعلم أنه اطاع والآخر عصى ولا يتغير علمه فى شىء من الاحوال وانما المتغير المعلوم ونبين هذا بمثال من المحسوسات ولله المثل الاعلى وهو ان المرآة الصافية الصقيلة اذا علقت من موضع وقوبل بوجهها جهة ولم تحرك ثم عبر عليها زيد لابسا ثوبا أبيض ظهر فيها زيد فى ثوب أبيض واذا عبر عليها عمرو فى لباس اصفر يظهر فيها

من الشر والفساد ويشيع بعضهم بعضا فى طاعته او اصنافا فى استخدامه يستعمل كل صنف فى عمل ويسخره فيه من بناء وحرث وحفر وغير ذلك من الاعمال الشاقة ومن لم يستعمله ضرب عليه الجزية اوفرقا مختلفة قد اغرى بينهم العداوة والبغضاء لئلا تتفق كلمتهم (يستضعف طائفة منهم) وهم بنو اسرائيل والجملة اما حال من فاعل جعل اوصفة لشيعا او استئناف وقوله تعالى (يذبح ابناءهم ويستحيي نساءهم) بدل منها وكان ذلك لما ان كاهنا قال له يولد فى بنى اسرائيل مولود يذهب ملكك على يده وما ذاك الا لغاية حمقه اذ لو صدق فما فائدة القتل وان كذب فما وجهه (انه كان من المفسدين) اى الراسخين فى الافساد ولذلك اجترأ على مثل تلك العظيمة من قتل المعصومين من اولاد الانبياء عليهم الصلاة والسلام (ونريد ان نمن) اى نتفضل (على الذين استضعفوا فى الارض) على الوجه المذكور بانجائهم من بأسه وصيغة المضارع فى نريد حكاية حال ماضية وهو معطوف على ان فرعون علا الخ لتناسبهما فى الوقوع فى حيز التفسير للنبأ او حال من يستضعف بتقدير المبتدأ اى يستضعفهم فرعون ونحن نريد ان نمن عليهم وليس من ضرورة مقارنة الارادة للاستضعاف مقارنة المراد له لما ان تعلق الارادة لكن تعلق الاستقبال على ان منة الله تعالى عليهم بالخلاص لما كانت فى شرف الوقوع جاز اجراؤها مجرى الواقع المقارن له ووضع الموصول موضع الضمير لابانة قدر النعمة فى المنة بذكر

كذلك فهل يقع فى ذهن احد ان المرآة فى كونها حديدا تغيرت او يقع له انها فى تدويرها تبدلت او يذهب فهمه الى انها فى صقالتها اختلفت او يخطر باله انها عن مكانها انتقلت لايقع لاحد شئ من هذه الاشياء و يقطع بان التغير الخارجات فهم علم الله من هذا المثال بل اعلى من هذا المثال فان المرآة ممكنة التغير و علم الله غير ممكن عليه ذلك فقوله فليعلمن الله الذين صدقوا يعنى يقع ممن يعلم الله ان يطيع الطاعة فيعلم انه مطيع بذلك العلم وليعلمن الكاذبين يعنى من قال انا مؤمن وكان صادقا عند فرض العبادات يظهر منه ذلك ويعلم ومن قال ذلك وكان منافقا كذلك يبين وفى قوله الذين صدقوا بصيغة الفعل وقوله الكاذبين باسم الفاعل فائدة مع ان الاختلاف فى اللفظ ادل على الفصاحة وهى ان اسم الفاعل يدل فى كثير من المواضع على ثبوت المصدر فى الفاعل ورسوخه فيه والفعل الماضى لايدل عليه كما يقال فلان شرب الخمر وفلان شارب الخمر وفلان نفذ امره وفلان نافذ الامر فانه لايفهم من صيغة الفعل التكرار والرسوخ ومن اسم الفاعل يفهم ذلك اذا ثبت هذا فنقول وقت نزول الآية كانت الحكاية عن قوم قريبي العهد بالاسلام فى اوائل ايجاب التكاليف وعن قوم مستديمين للكفر مستمرين عليه فقال فى حق المؤمنين الذين صدقوا بصيغة الفعل اى وجد منهم الصدق وقال فى حق الكافر الكاذبين بالصيغة المنبئة عن الثبات والدوام ولهذا قال يوم ينفع الصادقين صدقهم بلفظ اسم الفاعل وذلك لان فى اليوم المذكور الصدق قد رسخ فى قلب المؤمن وهو اليوم الآخر ولا كذلك فى اوائل الاسلام ❁ ثم قال تعالى (ام حسب الذين يعملون السيآت ان يسبقونا ساء ما يحكمون) لما بين حسن التكليف بقوله احسب الناس ان يتركوا بين أن من كلف بشئ ولم يأت به يعذب وان لم يعذب فى الحال فيعذب فى الاستقبال ولايفوت الله شئ فى الحال ولا فى المآل وهذا ابطال مذهب من يقول التكاليف ارشادات والايعاد عليه ترغيب وترهيب ولا يوجد من الله تعذيب ولو كان يعذب ماكان عاجزا عن العذاب عاجلا فلم كان يؤخر العقاب فقال تعالى ام حسب الذين يعملون السيآت ان يسبقونا يعنى ليس كما قالوا بل يعذب من يعذب ويثيب من يثيب بحكم الوعد والايعاد والله لايخلف الميعاد واما الامهال فلا يفضى الى الاهمال والتعجيل فى جزاء الاعمال شغل من يخاف الفوت لولا الاستعجال ثم قال تعالى ساء ما يحكمون يعنى حكمهم بانهم يعصون ويخالفون امر الله ولا يعاقبون حكم سيئ فان الحكم الحسن لايكون الا حكم العقل او حكم الشرع والعقل لايحكم على الله بذلك فان الله له ان يفعل ما يريد والشرع حكمه بخلاف ما قالوه فحكمهم حكم فى غاية السوء والرداءة ❁ ثم قال تعالى (من كان يرجو لقاء الله فان اجل الله لآت وهو السميع العليم) لما بين بقوله أحسب الناس ان العبد لايترك فى الدنيا سدى وبين فى قوله ام حسب الذين يعملون السيئات ان من ترك ما كلف به يعذب كذا بين ان من يعترف بالآخرة ويعمل لها لايضيع عمله ولايخيب امله

حالتهم السابقة المباينة لها (ونجعلهم أئمة) يقتدى بهم فى امور الدين بعد ان كانوا اتباعا مسخرين لآخرين (ونجعلهم الوارثين) لجميع ما كان منتظما فى سلك ملك فرعون وقومه وراثة معهودة فيما بينهم [illegible] عنه تعريف الوارثين وتأخير ذكر وراثتهم له عن ذكر جعلهم أئمة مع تقدمها عليه زمانا لانحطاط رتبتها عن الامامة ولئلا ينفصل عنه ما بعده مع كونه من روادفه اعنى قوله تعالى (ونمكن لهم فى الارض) الخ اى نسلطهم على مصر والشام يتصرفون فيهما كيفما يشاؤن واصل التمكين ان تجعل للشئ مكانا يتمكن فيه (ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم) اى من اولئك المستضعفين (ما كانوا يحذرون) ويجتهدون فى دفعه من ذهاب ملكهم وهلكهم على يد مولود منهم وقرئ يرى بالياء ورفع ما بعده على الفاعلية (واوحينا الى ام موسى) بالهام او رؤيا (ان ارضعيه) ما امكنك اخفاؤه (فاذا خفت عليه) بان يحس به الجيران عند بكائه وينموا عليه (فالقيه فى اليم) فى البحر وهو النيل (ولا تخافى) عليه ضيعة بالغرق ولا شدة (ولا تحزنى انا رادوه اليك) عن قريب بحيث تأمنين عليه (وجاعلوه من المرسلين) والجملة تعليل للنهى عن الخوف والحزن وايثار الجملة الاسمية وتصديرها بحرف التحقيق للاعتناء بتحقيق مضمونها اى انا فاعلون لرده وجعله من المرسلين لامحالة روى ان بعض القوابل الموكلات من قبل فرعون بحبالى بنى اسرائيل كانت مصافية لام موسى عليه السلام فقالت لها لينفعنى حبك اليوم فعالجتها فلما

وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) انا ذكرنا فى مواضع ان الاصول الثلاثة وهى الاول وهو الله تعالى ووحدانيته والاصل الآخر وهو اليوم الآخر والاصل المتوسط وهو النبى المرسل من الاول الموصل الى الآخر لايكاد ينفصل فى الذكر الالهى بعضها عن بعض فقوله أحسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا فيه اشارة الى الاصل الاول يعنى أظنوا انه يكفى الاصل الاول وقوله وهم لايفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم يعنى بارسال الرسل وايضاح السبل فيه اشارة الى الاصل الثانى وقوله ام حسب الذين يعملون السيئات مع قوله من كان يرجو لقاء الله فيه اشارة الى الاصل الثالث وهو الآخر (المسئلة الثانية) ذكر بعض المفسرين فى تفسير لقاء الله انه الرؤية وهو ضعيف فان اللقاء والملاقاة بمعنى وهو فى اللغة بمعنى الوصول حتى ان جادين اذا تواصلا فقد لاقى احدهما الآخر (المسئلة الثالثة) قال بعض المفسرين المراد من الرجاء الخوف والمعنى من قوله من كان يرجو لقاء الله من كان يخاف الله وهو ايضا ضعيف فان المشهور فى الرجاء هو توقع الخير لاغير ولانا اجمعنا على ان الرجاء ورد بهذا المعنى يقال ارجو فضل الله ولا يفهم منه اخاف فضل الله واذا كان واردا لهذا لايكون لغيره دفعا للاشتراك (المسئلة الرابعة) يمكن ان يكون المراد بأجل الله الموت ويمكن ان يكون هو الحياة الثانية بالحشر فان كان هو الموت فهذا ينبئ عن بقاء النفوس بعد الموت كما ورد فى الاخبار وذلك لان القائل اذا قال من كان يرجو الخير فان السلطان واصل يفهم منه ان متصلا بوصول السلطان يكون هو الخير حتى انه لو وصل هو وتأخر الخير يصح ان يقال للقائل أما قلت ماقلت ووصل السلطان ولم يظهر الخير فلو لم يحصل اللقاء عند الموت لما حسن ذلك كما ذكرنا فى المثال واذا تبين هذا فلولا البقاء لما حصل اللقاء (المسئلة الخامسة) قوله من كان يرجو شرط وجزاؤه فان اجل الله لآت والمعلق بالشرط عدم عند عدم الشرط فمن لايرجو لقاء الله لايكون أجل الله آتياله وهذا باطل فالجواب عنه (نقول) المراد من ذكر اتيان الاجل وعد المطيع بما بعده من الثواب يعنى من كان يرجو لقاء الله فان أجل الله لآت يثاب الله يثاب على طاعته عنده ولاشك ان من لايرجوه لايكون أجل الله آتيا على وجه يثاب هو (المسئلة السادسة) قال وهو السميع العليم ولم يذكر صفة غيرهما كالعزيز الحكيم وغيرهما وذلك لانه سبق القول فى قوله أحسب الناس ان يتركوا ان يقولوا وسبق الفعل بقوله وهم لايفتنون وبقوله فليعلمن الله الذين صدقوا وبقوله ام حسب الذين يعملون السيئات ولاشك ان القول يدرك بالسمع والعمل منه مالايدرك بالبصر ومنه مايدرك به كالقصود والعلم يشملهما فقال وهو السميع يسمع ماقالوه وهو العليم يعلم من صدق فيما قال ممن كذب وايضا عليم يعلم مايعمل فيثيب ويعاقب (وههنا لطيفة) وهى ان العبد له ثلاثة امور هى اصناف حسناته (احدها) عمل قلبه وهو التصديق وهو لايرى ولايسمع وانما يعلم (وعمل لسانه) وهو يسمع (وعمل اعضائه)

(وجوارحه)

وقع الى الارض هاالها نور بين عينيه وارتعش كل مفصل منها ودخل حبه فى قلبها ثم قالت ماجئتك الا لاقبل مولودك واخبر فرعون ولكنى وجدت لابنك فى قلبى محبة ماوجدت مثلها لاحد فاحفظيه فلما خرجت جاء عيون فرعون فلفته فى خرقة فألقته فى تنور مسجور لم تعلم ماتصنع لما طاش من عقلها فطلبوا فلم يلقوا شيئا فخرجوا وهى لاتدرى مكانه فسمعت بكاء من التنور فانطلقت اليه وقد جعل الله تعالى النار عليه بردا وسلاما فلما الح فرعون فى طلب الولدان اوحى الله تعالى اليها ما اوحى وقد روى انها ارضعته ثلاثة اشهر فى تابوت من بردى مطلى بالقار من داخله والقاء فى قوله تعالى (فالتقطه آل فرعون) فصيحة مفصحة عن عطفه على جملة مترتبة على ما قبلها من الامر بالالقاء قد حذفت تعويلا على دلالة الحال وايذانا بكمال سرعة الامتثال اى فالقته فى اليم بعد ما جعلته فى التابوت حسبما امرت به فالتقطه آل فرعون اى اخذوه واخذ اعتناء به وصيانة له عن الضياع قال ابن عباس رضى الله عنهما وغيره كان لفرعون يومئذ بنت لم يكن له ولد غيرها وكانت من اكرم الناس اليه وكان بها برص شديد عجزت الاطباء عن علاجه فقالوا لاتبرأ الا من قبل البحر يؤخذ منه شبه الانس يوم كذا وساعة كذا من شهر كذا حين تشرق الشمس فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها فتبرأ فلما كان ذلك اليوم غدا فرعون فى مجلس له على شفير النيل ومعه امرأته آسية بنت مزاحم

وجوارحه وهو يرى فاذا أتى بهذه الاشياء يجعل الله له موعد مالا اذن سمعت ولم يره مالاعين رأت ولعمل قلبه مالا خطر على قلب احد كما وصف فى الخبر فى وصف الجنة ﴿ ثم قال تعالى (ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ان الله لغنى عن العالمين) لما بين ان التكليف حسن واقع وان عليه وعدا وايعادا ليس لهما دافع بين ان طلب الله ذلك من المكلف ليس لنفع يعود اليه فانه غنى مطلقا ليس شئ غيره يتوقف كماله عليه ومثل هذا كثير فى القرآن كقوله تعالى من عمل صالحا فلنفسه وقوله تعالى ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) الآية السابقة مع هذه الآية يوجبان اكثار العبد من العمل الصالح واتقانه اما وذلك لان من يفعل فعلا لاجل ملك ويعلم ان الملك يراه ويبصره يحسن العمل ويتقنه واذا علم ان نفعه له وهو مقدر بقدر عمله يكثر منه فاذا قال الله انه سميع عليم فالعبد يتقن عمله ويخلصه له واذا قال بأن جهاده لنفسه يكثر منه (المسئلة الثانية) لقائل ان يقول هذا يدل على ان الجزاء على العمل لان الله تعالى لما قال من جاهد فانما يجاهد لنفسه فهم منه ان من جاهد ربح بجهاده مالولاه لما ربح فنقول هو كذلك ولكن بحكم الوعد لا بالاستحقاق وبيانه هو ان الله تعالى لما بين ان المكلف اذا جاهد يثيبه فاذا أتى به هو يكون جهادا نافعا له ولانزاع فيه وانما النزاع فى ان الله يجب عليه ان يثيب على العمل لولا الوعد ولا يجوز ان يحسن الى احد الا بالعمل ولا دلالة للآية عليه (المسئلة الثالثة) قوله فانما يقتضى الحصر فينبغى ان يكون جهاد المرء لنفسه فحسب ولا ينتفع به غيره وليس كذلك فان من جاهد ينتفع به ومن يريد هو نفعه حتى ان الوالد والولد ببركة المجاهد وجهاده ينتفعان فنقول ذلك نفع له فان انتفاع الولد انتفاع للاب والحصر ههنا معناه ان جهاده لا يصل الى الله منه نفع ويدل عليه قوله تعالى ان الله لغنى عن العالمين وفيه مسائل (الاولى) تدل الآية على ان رعاية الاصلح لا يجب على الله لانه بالاصلح لا يستفيد فائدة والا لكان مستكملا بتلك الفائدة وهى غيره وهى من العالم فيكون مستكملا بغيره فيكون محتاجا اليه وهو غنى عن العالمين وأيضا افعاله غير معللة ابدا (المسئلة الثانية) تدل الآية على انه تعالى ليس فى مكان وليس على العرش على الخصوص فانه من العالم والله غنى عنه والمستغنى عن المكان لا يمكن دخوله فى مكان لان الداخل فى المكان يشار اليه بأنه ههنا او هناك على سبيل الاستقلال وما يشار اليه بأنه ههنا او هناك يستحيل ان لا يوجد لا ههنا ولا هناك والا لجوز العقل ادراك جسم لا فى مكان وانه محال (المسئلة الثالثة) لو قال قائل ليست قادريته بقدرة ولا عالميته بعلم والا لكان هو فى قادريته محتاجا الى قدرة هى غيره وكل ما هو غيره فهو من العالم فيكون محتاجا وهو غنى نقول لم قلتم ان قدرته من العالم وهذا لان العالم كل موجود سوى الله بصفاته أى كل موجود هو خارج عن مفهوم الاله الحى القادر المريد العالم السميع البصير المتكلم والقدرة ليست خارجة عن مفهوم القادر والعلم ليس خارجا عن مفهوم العالم (المسئلة

ابن عبيد بن الريان بن الوليد الذى كان فرعون مصر فى زمن يوسف الصديق عليه السلام وقيل كانت من بنى اسرائيل من سبط موسى عليه الصلاة والسلام وقيل كانت عمته حكاه السهيلى واقبلت بنت فرعون فى جواريها حتى جلست على شاطئ النيل فاذا بتابوت فى النيل تضربه الامواج تعلق بشجرة فقال فرعون ائتونى به فابتدروا بالسفن فأحضروه بين يديه فعالجوا فتحه فلم يقدروا عليه وقصدوا كسره فاعياهم فنظرت آسية فرأت نورا فى جوف التابوت لم يره غيرها فعالجته ففتحته فاذا هى بصبى صغير فى مهده واذا نور بين عينيه وهو يمص ابهامه لبنا فألقى الله تعالى محبته فى قلوب القوم وعمدت ابنة فرعون الى ريقه فلطخت به برصها فبرأت من ساعته وقيل لما نظرت الى وجهه برأت فقالت الغواة من قوم فرعون انا نظن ان هذا هو الذى تحذر منه رمى فى البحر فرقا منك فاقتله فهم فرعون بقتله فاستوهبته آسية فتركه كما سيأتى واللام فى قوله تعالى (ليكون لهم عدوا وحزنا) لام العاقبة ابرز مدخولها فى معرض العلة لالتقاطهم تشبيها له فى الترتب عليه بالغرض الحامل عليه وقرئ حزنا وهما لغتان كالسقم والسقم جعل عليه الصلاة والسلام نفس الحزن ايذانا بقوة سببيته لحزنهم (ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) اى فى كل ما يأتون وما يذرون فلا غرو فى ان قتلوا لاجله ألوفا ثم اخذوه يربونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون روى انه ذبح فى طلبه عليه الصلاة والسلام تسعون الف وليد وكانوا

(الرابعة) الآية فيها بشارة وفيها انذار اما الانذار فلأن الله اذا كان غنيا عن العالمين فلو اهلك عباده بعذابه فلا شئ عليه لغناه عنهم وهذا يوجب الخوف العظيم واما البشارة فلأنه اذا كان غنيا فلو اعطى جميع ماخلقه لعبد من عباده لا شئ عليه لاستغنائه عنه وهذا يوجب الرجاء التام * ثم قال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيآتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون) لما بين اجمالا ان من يعمل صالحا فلنفسه بين مفصلا بعض التفصيل ان جزاء المطيع الصالح عمله فقال والذين آمنوا وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) انها تدل على ان الاعمال مغايرة للايمان لان العطف يوجب التغاير (المسئلة الثانية) انها تدل على ان الاعمال داخلة فيما هو المقصود من الايمان لان تكفير السيئات والجزاء بالاحسن معلق عليها وهي ثمرة الايمان ومثال هذا شجرة مثمرة لاشك في ان عروقها وأغصانها منها والماء الذي يجري عليها والتراب الذي حوالها غير داخل فيها لكن الثمرة لاتحصل الا بذلك الماء والتراب الخارج فكذلك العمل الصالح مع الايمان وايضا الشجرة لو احتفت بها الحشائش المفسدة والاشواك المضرة ينقص ثمرة الشجرة وان غلبتها عدمت الثمرة بالكلية وفسدت فكذلك الذنوب تفعل بالايمان (المسئلة الثالثة) الايمان هو التصديق كما قال وما أنت بمؤمن لنا اي بمصدق واختص في استعمال الشرع بالتصديق بجميع ما قال الله وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل التفصيل ان علم مفصلا انه قول الله او قول الرسول او على سبيل الاجمال فيما لم يعلم والعمل الصالح عندنا كل ما امر الله به صار صالحا بأمره ولو نهى عنه لما كان صالحا فليس الصلاح والفساد من لوازم الفعل في نفسه وقالت المعتزلة ذلك من صفات الفعل ويترتب عليه الامر والنهي فالصدق عمل صالح في نفسه ويأمر الله به لذلك فعندنا الصلاح والفساد والحسن والقبح يترتب على الامر والنهي وعندهم الامر والنهي يترتب على الحسن والقبح والمسئلة بطولها في الاصول (المسئلة الرابعة) العمل الصالح باق لان الصالح في مقابلة الفاسد والفاسد هو الهالك التالف يقال فسدت الزروع اذا هلكت او خرجت عن درجة الانتفاع ويقال هي بعد صالحة اي باقية على ماينبغي اذا علم هذا فنقول العمل الصالح لايبقى بنفسه لانه عرض ولايبقى بالعامل أيضا لانه هالك كما قال تعالى كل شئ هالك فبقاؤه لابد من ان يكون بشئ باق لكن الباقي هو وجه الله لقوله كل شئ هالك الا وجهه فينبغي ان يكون العمل لوجه الله حتى يبقى فيكون صالحا وما لايكون لوجهه لايبقى لا بنفسه ولا بالعامل ولا بالمعمول له فلا يكون صالحا فالعمل الصالح هو الذي اتى به المكلف مخلصا لله (المسئلة الخامسة) هذا يقتضي ان تكون النية شرطا في الصالحات من الاعمال وهي قصد الايقاع لله ويندرج فيها النية في الصوم خلافا لزفر وفي الوضوء خلافا لأبي حنيفة رحمه الله (المسئلة السادسة) العمل الصالح مرفوع لقوله تعالى والعمل الصالح يرفعه لكنه لايرتفع الا بالكلم الطيب فانه يصعد

مذنبين فعاقبهم الله تعالى بأن ربى عدوهم على ايديهم فالجملة اعتراضية لتأكيد خطئهم اوليان الموجب لما ابتلوا به وقرئ خاطين على انه تخفيف خاطئين اوعلى انه بمعنى متعدين الصواب الى الخطأ (وقالت امرأة فرعون) اي لفرعون حين اخرجته من التابوت (قرة عين لي ولك) اي هو قرة عين لنا لانهما لما رأياه احباه اولما ذكر من برء ابنته من البرص وفي الحديث انه قال لك لا لي ولو قال لي كما هو لك لهداه الله تعالى كما هداها (لاتقتلوه) خاطبته بلفظ الجمع تعظيما ليساعدها فيما تريده (عسى ان ينفعنا) فان فيه مخايل اليمن ودلائل النجابة وذلك لما رأت فيه من العلامات المذكورة (او نتخذه ولدا) اي نتبناه فانه خليق بذلك (وهم لايشعرون) حال من آل فرعون والتقدير فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وقالت امرأته كيت وكيت وهم لايشعرون بأنهم على خطأ عظيم فيما صنعوا من الالتقاط ورجاء النفع منه والتبني وقوله ان فرعون الآية اعتراض وقع بين المعطوفين لتأكيد خطئهم وقيل حال من احد ضميري نتخذه على ان الضمير للناس اي وهم لايعلمون انه لغيرنا وقد تبنيناه (واصبح فؤاد ام موسى فارغا) صفرا من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه في يد فرعون كقوله تعالى وافئدتهم هواء اي خلاء لاعقول فيها ويعضده انه قرئ فزعا من قولهم دماؤهم بينهم فرغ اي هدر وقيل فارغا من الهم والحزن لغاية وثوقها بوعد الله تعالى او لسماعها ان فرعون

بنفسه كما قال تعالى اليه يصعد الكلم الطيب وهو يرفع العمل فالعمل من غير المؤمن لايقبل ولهذا قدم الايمان على العمل (وفيها لطيفة) وهى ان اعمال المكلف ثلاثة عمل قلبه وهو فكره واعتقاده وتصديقه وعمل لسانه وهو ذكره وشهادته وعمل جوارحه وهو طاعته وعبادته فالعبادة البدنية لاترتفع بنفسها وانما ترتفع بغيرها والقول الصادق يرتفع بنفسه كما بين فى الآية وعمل القلب وهو الفكر ينزل اليه كما قال النبى صلى الله عليه وسلم ان الله ينزل الى السماء الدنيا ويقول هل من تائب والتائب النادم بقلبه وكذلك قوله عليه السلام يقول الله عز وجل انا عند المنكسرة قلوبهم يعنى بالفكرة فى عجزه وقدرتى وحقارته وعظمتى ومن حيث العقل من تفكر فى آلاء الله وجد الله وحضر فى ذهنه فعلم ان لعمل القلب يأتى الله وعمل اللسان يذهب الى الله وعمل الاعضاء يوصل الى الله وهذا تنبيه على فضل عمل القلب (المسئلة السابعة) ذكر الله من اعمال العبد نوعين الايمان والعمل الصالح وذكر فى مقابلتهما من افعال الله امرين تكفير السيآت والجزاء بالاحسن حيث قال لنكفرن عنهم سيآتهم ولنجزينهم احسن فتكفير السيآت فى مقابلة الايمان والجزاء بالاحسن فى مقابلة العمل الصالح وهذا يقتضى امورا (الاول) المؤمن لايخلد فى النار لان بايمانه تكفر سيآته فلا يخلد فى العذاب (الثانى) الجزاء الاحسن المذكور ههنا غير الجنة وذلك لان المؤمن بايمانه يدخل الجنة اذ تكفر سيآته ومن كفرت سيآته ادخل الجنة فالجزاء الاحسن يكون غير الجنة وهو مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر ولايبعد ان يكون هو الرؤية (الامر الثالث) هو ان الايمان يستر قبح الذنوب فى الدنيا فيستر الله عيوبه فى الاخرى والعمل الصالح يحسن حال الصالح فى الدنيا فيجزيه الله الجزاء الاحسن فى العقبى فالايمان اذن لايبطله العصيان بل هو يغلب المعاصى ويسترها ويحمل صاحبها على الندم والله أعلم (المسئلة الثامنة) قوله لنكفرن عنهم سيآتهم يستدعى وجود السيآت حتى تكفر والذين آمنوا وعملوا الصالحات بأسرها من اين يكون لهم سيئة فنقول الجواب عنه من وجهين (احدهما) ان وعد الجميع بأشياء لايستدعى وعد كل واحد بكل واحد من تلك الاشياء مثاله اذا قال الملك لاهل بلد اذا اطعتمونى اكرم آباءكم واحترم أبناءكم وانعم عليكم واحسن اليكم لايقتضى هذا انه يكرم آباء من توفى ابوه او يحترم ابن من لم يولد له ولد بل مفهومه انه يكرم أب من له أب ويحترم ابن من له ابن فكذلك يكفر سيئة من له سيئة (الجواب الثانى) مامن مكلف الاوله سيئة اما غير الانبياء فظاهر واما الانبياء فلأن ترك الافضل منهم كالسيئة من غيرهم ولهذا قال تعالى عفا الله عنك لم أذنت لهم (المسئلة التاسعة) قوله ولنجزينهم احسن يحتمل وجهين (احدهما) لنجزينهم بأحسن اعمالهم (وثانيهما) لنجزينهم احسن من اعمالهم وعلى الوجه الاول معناه نقدر اعمالهم احسن ماتكون ونجزيهم عليها لانه يختار منها احسنها ويجزى عليه ويترك الباقى وعلى الوجه

عطف عليه وتبناه وقرئ مؤسى بالهمز اجراء للضمة فى جارة الواو مجرى ضمتها فهمزت كما فى وجوه (ان كادت لتبدى به) اى انها كادت لتظهر بموسى اى بامره وقصته من فرط الحيرة والدهشة او الفرح بتبنيه (لولا ان ربطنا على قلبها) بالصبر والثبات (لتكون من المؤمنين) اى المصدقين بوعد الله تعالى او من الواثقين بحفظه لابتبنى فرعون وتعطفه وهو علة الربط وجواب لولا محذوف لدلالة ماقبله عليه (وقالت لاخته) مريم والتعبير عنها باخوته عليه الصلاة والسلام دون ان يقال لبنتها للتصريح بمدار المحبة الموجبة للامتثال بالامر (قصيه) اى اتبعى اثره وتتبعى خبره (فبصرت به) اى ابصرته (عن جنب) عن بعد وقرئ بسكون النون وعن جانب والكل بمعنى (وهم لايشعرون) انها تقصه وتتعرف حاله او انها اخته (وحرمنا عليه المراضع) اى منعناه ان يرتضع من المرضعات والمراضع جمع مرضع وهى المرأة التى ترضع او مرضع وهو الرضاع او موضعه اعنى الثدى (من قبل) اى من قبل قصها أثره (فقالت) عند رؤيتها لعدم قبوله الثدى واعتناء فرعون بامره وطلبهم من يقبل ثديها (هل ادلكم على اهل بيت يكفلونه لكم) اى لاجلكم (وهم له ناصحون) لايقصرون فى ارضاعه وتربيته روى ان هامان لما سمعه منها قال انها لتعرفه واهله فخذوها حتى تخبر بحاله فقالت انما اردت وهم للملك ناصحون فامرها فرعون بان تأتى بمن يكفله فاتت بامه وموسى على يد فرعون يبكى وهو يعلله

الثانى معناه قريب من معنى قوله تعالى من جاء بالحسنة فله عشر امثالها وقوله فله خير منها (المسئلة العاشرة) ذكر حال المسئ مجملا بقوله ام حسب الذين يعملون السيئات ان يسبقونا اشارة الى التعذيب مجملا وذكر حال المحسن مجملا بقوله ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ومفصلا بهذه الآية ليكون ذلك اشارة الى ان رحمته اتم من غضبه وفضله اعم من عدله * ثم قال تعالى (ووصينا الانسان بوالديه حسنا وان جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) ما وجه تعلق الآية بما قبلها نقول لما بين الله حسن التكاليف ووقوعها وبين ثواب من حقق التكاليف اصولها وفروعها تحريضا للمكلف على الطاعة ذكر المانع ومنعه من ان يختار اتباعه فقال الانسان ان انقاد لأحد ينبغي ان ينقاد لأبويه ومع هذا لو امراه بالمعصية لا يجوز اتباعهما فضلا عن غيرهما لا يمنعن احدكم شئ من طاعة الله ولا يتبعن احد من يأمر بمعصية الله (المسئلة الثانية) فى القراءة قرئ حسنا واحسانا وحسنا اظهر ههنا ومن قرأ احسانا فمن قوله تعالى وبالوالدين احسانا والتفسير على القراءة المشهورة هو ان الله تعالى وصى الانسان بأن يفعل مع والديه حسن التأنى بالفعل والقول ونكر حسنا ليدل على الكمال كما يقال ان لزيد مالا (المسئلة الثالثة) فى قوله ووصينا الانسان بوالديه حسنا دليل على ان متابعتهم فى الكفر لا تجوز وذلك لان الاحسان بالوالدين وجب بأمر الله تعالى فلو ترك العبد عبادة الله تعالى بقول الوالدين لترك طاعة الله تعالى فلا ينقاد لما وصاه به فلا يحسن الى الوالدين فاتباع العبد ابويه لاجل الاحسان اليهما يفضى الى ترك الاحسان اليهما وما يفضى وجوده الى عدمه باطل فالاتباع باطل واما اذا امتنع من الشرك بقى على الطاعة والاحسان اليهما من الطاعة فيأتى به فترك هذا الاحسان صورة يفضى الى الاحسان حقيقة (المسئلة الرابعة) الاحسان بالوالدين مأمور به لانهما سبب وجود الولد بالولادة وسبب بقائه بالتربية المعتادة فهما سبب مجازا والله تعالى سبب له فى الحقيقة بالارادة وسبب بقائه بالاعادة للسعادة فهو اولى بأن يحسن العبد حاله معه ثم قال تعالى وان جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما فقوله ما ليس لك به علم يعنى التقليد فى الايمان ليس بجيد فضلا عن التقليد فى الكفر فاذا امتنع الانسان من التقليد فيه ولا يطيع بغير العلم لا يطيعهما اصلا لان العلم بصحة قولهما محال الحصول فاذا لم يشرك تقليدا ويستحيل الشرك مع العلم فالشرك لا يحصل منه قط ثم قال تعالى الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون يعنى عاقبتكم ومآلكم الى وان كان اليوم مخالطتكم ومجالستكم مع الآباء والاولاد والاقارب والعشائر ولا شك ان من يعلم ان مجالسته مع واحد حالية منقطعة وحضوره بين يدى غيره دائم غير منقطع لا يترك مراضى من تدوم معه صحبته لرضا من يتركه فى زمان آخر ثم قوله تعالى فأنبئكم فيه لطيفة وهى ان الله تعالى يقول لا تظنوا انى غائب

(عنكم)

فدفعه اليها فلما وجد ريحها استأنس والتقم ثديها فقال من انت منه فقد ابى كل ثدى الا ثديك فقالت انى امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا اوتى بصبى الا قبلنى فدفعه فى يدها واجرى عليها فرجعت به الى بيتها من يومها وذلك قوله تعالى (فرددناه الى امه كى تقر عينها) بوصول ولدها اليها (ولا تحزن) بفراقه (ولتعلم ان وعد الله) اى جميع ما وعده من رده وجعله من المرسلين (حق) لا خلف فيه بمشاهدة بعضه وقياس بعضه عليه (ولكن اكثرهم لا يعلمون) ان الامر كذلك فيرتابون فيه او ان الغرض الاصلى من الرد علمها بذلك وما سواه تبع وفيه تعريض بما فرط منها حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون (ولما بلغ اشده) اى المبلغ الذى لا يزيد عليه نشوه وذلك من ثلاثين الى اربعين سنة فان العقل يكمل حينئذ وروى انه لم يبعث نبى الا على رأس الاربعين (واستوى) اى اعتدل قده او عقله (آتيناه حكما) اى نبوة (وعلما) بالدين او علم الحكماء والعلماء وسمتهم قبل استنبائه فلا يقول ولا يفعل ما يستجهل فيه وهو اوفق لنظم القصة لانه تعالى استنبأه بعد الهجرة فى المراجعة (وكذلك) ومثل ذلك الذى فعلنا بموسى وامه (نجزى المحسنين) على احسانهم (ودخل المدينة) اى مصر من قصر فرعون وقيل منف او حابين او عين شمس من نواحيها (على حين غفلة من اهلها) فى وقت لا يعتاد دخولها او لا يتوقعونه فيه قيل كان وقت القيلولة وقيل بين العشاءين (فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته) اى ممن

عنكم وآباؤكم حاضرون فتوافقون الحاضرين فى الحال اعتمادا على فيتى وعدم على
مخالفتكم اياى فانى حاضر معكم اعلم ماتعملون ولا انسى فأنبئكم بجميعه ۞ ثم قال
تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين) وفى الآية مسائل
(المسئلة الاولى) ماالفائدة فى اعادة الذين آمنوا وعملوا الصالحات مرة أخرى نقول الله
تعالى ذكر من المكلفين قسمين مهتديا وضالا بقوله فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن
الكاذبين وذكر حال الضال مجملا وحال المهتدى مفصلا بقوله والذين آمنوا وعملوا
الصالحات لنكفرن عنهم سيآتهم ولما تم ذلك ذكر قسمين آخرين هاديا ومضلا فقوله
ووصينا الانسان بوالديه حسنا يقتضى ان يهتدى بهما وقوله وان جاهداك لتشرك بى
اضلالهما وقوله الى مرجعكم فأنبئكم بطريق الاجمال تهديد المضل وقوله والذين
آمنوا على سبيل التفصيل وعد الهادى فذكر الذين آمنوا وعملوا الصالحات مرة لبيان
حال المهتدى ومرة أخرى لبيان حال الهادى والذى يدل عليه هوانه قال اولا لنكفرن
عنهم سيئاتهم وقال ثانيا لندخلنهم فى الصالحين والصالحون هم الهداة لانه مرتبة الانبياء
ولهذا قال كثير من الانبياء الحقنى بالصالحين (المسئلة الثانية) قد ذكرنا ان الصالح باق
والصالحون باقون وبقاؤهم ليس بأنفسهم بل بأعمالهم الباقية فأعمالهم باقية والمعمول
له هو وجه الله باق والعاملون باقون ببقاء اعمالهم وهذا على خلاف الامور الدنيوية
فان فى الدنيا بقاء الفعل بالفاعل وفى الآخرة بقاء الفاعل بالفعل (المسئلة الثالثة) قيل
فى معنى قوله لندخلنهم فى الصالحين لندخلنهم فى مقام الصالحين او فى دار الصالحين
والاولى ان يقال لاحاجة الى الاضمار بل يدخلهم فى الصالحين اى يجعلهم منهم ويدخلهم
فى عدادهم كما يقال الفقيه داخل فى العلماء (المسئلة الرابعة) قال الحكماء عالم العناصر
عالم الكون والفساد ومافيه يتطرق اليه الفساد فان الماء يخرج عن كونه ماء ويفسد
ويتكون منه هواء وعالم السموات لاكون فيه ولافساد بل يوجد من عدم ولا ينعدم
ولايصير الملك ترابا بخلاف الانسان فانه يصير ترابا أو شيئا آخر وعلى هذا فالعالم العلوى
ليس بفاسد فهو صالح فقوله تعالى لندخلنهم فى الصالحين اى فى المجردين الذين لافساد
لهم ۞ ثم قال تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا اوذى فى الله جعل فتنة الناس
كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا كنا معكم اوليس الله بأعلم بما فى صدور
العالمين وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين) نقول اقسام المكلفين ثلاثة مؤمن
ظاهر بحسن اعتقاده * وكافر مجاهر بكفره وعناده * ومذبذب بينهما يظهر الايمان بلسانه
ويضمر الكفر فى فؤاده والله تعالى لما بين القسمين الاولين بقوله تعالى فليعلمن الله الذين
صدقوا وليعلمن الكاذبين وبين احوالهما بقوله ام حسب الذين يعملون السيئات الى
قوله والذين آمنوا وعملوا الصالحات بين القسم الثالث وقال ومن الناس من يقول
آمنا بالله وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ومن الناس من يقول آمنا ولم يقل آمنت

شايعه على دينه وهم بنو اسرائيل
(وهذا من عدوه) اى مخالفيه
دينا وهم القبط والاشارة على
الحكاية (فاستغاثه الذى من
شيعته) اى سأله ان يغيثه بالاعانة
كما ينبئ عنه تعديته بعلى وقرئ
استعانه (على الذى من عدوه فوكزه
موسى) اى ضرب القبطى بجمع
كفه وقرئ فلكزه اى فضرب به
صدره (فقضى عليه) فقتله واصله
انهى حياته من قوله تعالى وقضينا
اليه ذلك الامر (قال هذا من عمل
الشيطان) لانه لم يكن مأمورا
بقتل الكفار اولانه كان مأمونا
فيابينهم فلم يكن له اغتيالهم ولا
يقدح ذلك فى عصمته لكونه خطأ
وانما عده من عمل الشيطان وسماه
ظلما واستغفر منه جريا على سنن
المقربين فى استعظام مافرط منهم
ولو كان من محقرات الصغائر (انه
عدو مضل مبين) ظاهر العداوة
والاضلال (قال) توسيطه بين
كلاميه عليه الصلاة والسلام لابانة
مابينهما من المخالفة من حيث انه
مناجاة ودعاء بخلاف الاول (رب
انى ظلمت نفسى) اى بقتله (فاغفر لى)
ذنبى (فغفر له) ذلك (انه هو
الغفور الرحيم) اى المبالغ فى مغفرة
ذنوب عباده ورحمتهم (قال رب
بما انعمت على) اماقسم محذوف
الجواب اى اقسم بانعامك على
بالمغفرة لأتوبن (فلن اكون) بعد
هذا ابدا (ظهيرا للمجرمين) واما
استعطاف

مع انه وحد الافعال التى بعده كقوله تعالى فاذا اوذى فى الله وقوله جعل فتنة الناس وذلك لان المنافق كان يشبه نفسه بالمؤمن ويقول ايمانى كايمانك فقال آمنا يعنى انا والمؤمن حقا آمنا اشعارا بان ايمانه كايمانه وهذا كما ان الجبان الضعيف اذا خرج مع الابطال فى القتال وهزموا خصومهم يقول الجبان خرجنا وقاتلناهم وهزمناهم فيصح من السامع لكلامه ان يقول وماذا كنت انت فيهم حتى تقول خرجنا وقاتلنا وهذا الرد يدل على انه يفهم من كلامه ان خروجه وقتاله كخروجهم وقتالهم لانه لايصح الانكار عليه فى دعوى نفس الخروج والقتال وكذا قول القائل انا والملك القيناه فلانا واستقبلناه ينكر لان المفهوم منه المساواة فهم لما أرادوا اظهار كون ايمانهم كايمان المحقين كان الواحد يقول آمنا اى أنا والمحق (المسئلة الثانية) قوله فاذا اوذى فى الله هو فى معنى قوله وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى فيكون المراد بتلك الآية الصابرون على اذية الكافرين والمراد ههنا الذين لم يصبروا عليها فقال هناك أوذوا فى سبيلى وقال ههنا أوذى فى الله ولم يقل فى سبيل الله (والطيفة فيه) ان الله أراد بيان شرف المؤمن الصابر وخسة المنافق الكافر فقال هناك اوذى المؤمن فى سبيل الله ليترك سبيله ولم يتركه وأوذى المنافق الكافر فترك الله بنفسه وكان يمكنه ان يظهر موافقتهم ان بلغ الايذاء الى حد الاكراه ويكون قلبه مطمئنا بالايمان فلايترك الله ومع هذا لم يفعله بل ترك الله بالكلية والمؤمن أوذى ولم يترك سبيل الله بل اظهر كلمتى الشهادة وصبر على الطاعة والعبادة (المسئلة الثالثة) قوله جعل فتنة الناس كعذاب الله قال الزمخشرى جعل فتنة الناس صارفة عن الايمان كما ان عذاب الله صارف عن الكفر وقيل جزعوا من عذاب الناس كما جزعوا من عذاب الله وبالجملة معناه انهم جعلوا فتنة الناس مع ضعفها وانقطاعها كعذاب الله الاليم الدائم حتى ترددوا فى الامر وقالوا ان آمنا نتعرض للتأذى من الناس وان تركنا الايمان نتعرض لما توعدنا به محمد عليه الصلاة والسلام واختاروا الاحتراز عن التأذى العاجل ولا يكون التردد الا عند التساوى ومن ابن الى ابن تعذيب الناس لايكون شديدا ولا يكون مديدا لان العذاب ان كان شديدا كعذاب النار وغيره يموت الانسان فى الحال فلا يدوم التعذيب وان كان مديدا كالحبس والحصر لايكون شديدا وعذاب الله شديد وزمانه مديد وايضا عذاب الناس له دافع وعذاب الله ماله من دافع وايضا عذاب الناس عليه ثواب عظيم وعذاب الله بعده عذاب اليم والمشقة اذا كانت مستعقبة للراحة العظيمة تطيب ولا تعد عذابا كما تقطع السلعة المؤذية ولا تعد عذابا (المسئلة الرابعة) قال فتنة الناس ولم يقل عذاب الناس لان فعل العبد ابتلاء وامتحان من الله وفتنة تسليط بعض الناس على من اظهر كلمة الايمان ليؤذيه فتبين منزلته كما جعل التكاليف ابتلاء وامتحانا وهذا اشارة الى ان الصبر على البلية الصادرة ابتلاء وامتحانا من الانسان كالصبر على العبادات (المسئلة الخامسة) لو قال قائل هذا يقتضى منع

اى يحق انعامك على اعصمنى فلن اكون معينا لمن تؤدى معونته الى الجرم وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انه عليه الصلاة والسلام لم يستثن فابتلى به مرة اخرى وهذا يؤيد الاول وقيل معناه بما انعمت على من القوة اعين اولياءك فلن استعملها فى مظاهرة اعدائك (فاصبح فى المدينة خائفا يترقب) يترصد الاستقادة او الاجناد (فاذا الذى استنصره بالامس يستصرخه) اى يستغيثه برفع الصوت من الصراخ (قال له موسى انك لغوى مبين) اى بين الغواية تسببت لقتل رجل وتقاتل آخر (فلما ان أراد) موسى (ان يبطش بالذى هو عدو لهما) اى لموسى والاسرائيلى اذ لم يكن على دينهما ولان القبط كانوا اعداء لبنى اسرائيل على الاطلاق وقرئ يبطش بضم الطاء (قال) اى الاسرائيلى ظانا انه عليه الصلاة والسلام يبطش به حسبما يوهمه تسميته اياه غويا (يا موسى أتريد ان تقتلنى كما قتلت نفسا بالامس) قالوا لما سمع القبطى قول الاسرائيلى علم ان موسى هو الذى قتل ذلك الفرعونى فانطلق الى فرعون فاخبره بذلك وأمر فرعون بقتل موسى عليه السلام وقيل قاله القبطى (ان تريد) اى ماتريد

المؤمن من اظهار كلمة الكفر بالاكراه لان من اظهر كلمة الكفر بالاكراه احترازا عن التعذيب العاجل يكون قد جعل فتنة الناس كعذاب الله فنقول ليس كذلك لان من اكره على الكفر وقلبه مطمئن بالايمان لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله لان عذاب الله يوجب ترك مايعذب عليه ظاهرا وباطنا وهذا المؤمن المكره لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله بحيث يترك مايعذب عليه ظاهرا وباطنا بل في باطنه الايمان ثم قال تعالى ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا كنا معكم يعني دأب المنافق انه ان رأى اليد للكافر اظهر ما اضمر واظهر المعية وادعى التبعية وفيه فوائد نذكرها في مسائل (المسئلة الاولى) قال ولئن جاء نصر من ربك ولم يقل من الله مع ان ماتقدم كان كله بذكر الله كقوله أوذى في الله وقوله كعذاب الله وذلك لان الرب اسم مدلوله الخاص به الشفقة والرحمة والله اسم مدلوله الهيبة والعظمة فعند النصر ذكر اللفظ الدال على الرحمة والعاطفة وعند العذاب ذكر اللفظ الدال على العظمة (المسئلة الثانية) لم يقل ولئن جاءكم او جاءك بل قال ولئن جاء نصر من ربك والنصر لو جاءهم ما كانوا يقولون انا كنا معكم وهذا يقتضي ان يكونوا قائلين انا معكم اذا جاء نصر سواء جاءهم او جاء المؤمنين فنقول هذا الكلام يقتضي ان يكونوا قائلين انا معكم اذا جاء النصر لكن النصر لايجيء الا للمؤمن كما قال تعالى وكان حقا علينا نصر المؤمنين ولان غلبة الكافر على المسلم ليس بنصر لان النصر مايكون عاقبته سليمة بدليل ان احد الجيشين ان انهزم في الحال ثم كر المنهزم كرة اخرى وهزموا الغالبين لايطلق اسم المنصور الا على من كان له العاقبة فكذلك المسلم وان كسر في الحال فالعاقبة للمتقين فالنصر لهم في الحقيقة (المسئلة الثالثة) في ليقولن قراءتان (احداهما) الفتح حملا على قوله من يقول آمنا يعني من يقول آمنا اذا أوذي يترك ذلك القول واذا جاء النصر يقول انا كنا معكم (وثانيتهما) الضم على الجمع اسنادا للقول الى الجميع الذين دل عليهم المفهوم فان المنافقين كانوا جماعة ثم بين الله تعالى انهم أرادوا التلبيس ولايصح ذلك لهم لان التلبيس انما يكون عند مايخالف القول القلب فالسامع يبني الامر على قوله ولايدري مافي قلبه فيلتبس الامر عليه واما الله تعالى فهو عليم بذات الصدور وهو اعلم بما في صدر الانسان من الانسان فلا يلتبس عليه الامر وهذا اشارة الى ان الاعتبار بما في القلب فالمنافق الذي يظهر الايمان ويضمر الكفر كافر والمؤمن المكره الذي يظهر الكفر ويضمر الايمان مؤمن والله اعلم بما في صدور العالمين ولما بين انه أعلم بما في قلوب العالمين بين انه يعلم المؤمن الحق وان لم يتكلم والمنافق وان تكلم فقال وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين وقد سبق تفسيره لكن فيه مسئلة واحدة وهي ان الله قال هناك فليعلمن الذين صدقوا وقال ههنا وليعلمن الله الذين آمنوا فنقول لما كان الذكر هناك للمؤمن والكافر في قوله كاذب فانه يقول الله اكثر من واحد والمؤمن في قوله صادق فانه كان يقول الله واحد ولم يكن هناك ذكر من يضمر خلاف مايظهر فكان الحاصل هناك قسمين صادق وكاذب

(الآن تكون جبارا في الارض) وهو الذى (٦٤٩) يفعل كل مايريده من الضرب والقتل ولاينظر في العواقب وقيل المتعظم الذى لايتواضع لامر الله تعالى (وماتريد ان تكون من المصلحين) بين الناس بالقول والفعل (وجاء رجل من اقصى المدينة) اى كائن من آخرها او جاء من آخرها (يسعى) اى يسرع صفة لرجل او حال منه على ان الجار والمجرور صفة له لامتعلق بجاء فان تخصصه يلحقه بالمعارف قيل هو مؤمن آل فرعون واسمه حزقيل وقيل شمعون وقيل شمعان (قال ياموسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك) اى يتشاورون بسببك فان كلا من المتشاورين يأمر الآخرين ويأتمر (فاخرج) اى من المدينة (انى لك من الناصحين) اللام للبيان لان معمول الصلة لايتقدمها (فخرج منها) اى من المدينة (خائفا يترقب) لحوق الطالبين (قال رب نجني من القوم الظالمين) خلصني منهم واحفظني من لحوقهم (ولما توجه تلقاء مدين) اى نحو مدين وهي قرية شعيب عليه السلام سميت باسم مدين بن ابراهيم ولم تكن تحت سلطان فرعون وكان بينها وبين مصر مسيرة ثمانية ايام (قال عسى ربي ان يهديني سواء السبيل) توكلا على الله تعالى وثقة بحسن توفيقه وكان لايعرف الطرق فعن له ثلاث طرائق فاخذ في الوسطى وجاء الطلاب فشرعوا في الاخريين وقيل خرج حافيا لايعيش الا بورق الشجر فما وصل حتى سقط خف قدميه وقيل جاء ملك على فرس وبيده عنزة فانطلق به الى مدين (ولما ورد ماء مدين) اى وصل اليه وهو بئر كانوا يسقون منها (وجد عليه) اى فوق شفيرها (أمة) جماعة كثيفة (من الناس يسقون) اى مواشيهم (ووجد من دونهم) اى في موضع اسفل منهم (امرأتين تذودان) اى تمنعان مامعهما من الاغنام عن التقدم الى البئر (٨٢) (را) (س) كيلا تختلط باغنامهم مع عدم الفائدة في التقدم (قال) عليه

وكان ههنا المنافق صادقا فى قوله فانه كان يقول الله واحد فاعتبر امر القلب فى المنافق فقال وليعلمن المنافقين واعتبر امر القلب فى المؤمن وهو التصديق فقال وليعلمن الله الذين آمنوا * ثم قال تعالى (وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وماهم بحاملين من خطاياهم من شئ انهم لكاذبون) لما بين الله تعالى الفرق الثلاثة واحوالهم وذكر ان الكافر يدعو من يقول آمنت الى الكفر بالفتنة وبين ان عذاب الله فوقها وكان الكافر يقول للمؤمن تصبر فى الذل وعلى الايذاء لاى شئ ولم لا تدفع عن نفسك الذل والعذاب بموافقتنا فكان جواب المؤمن ان يقول خوفا من عذاب الله على خطيئة مذهبكم فقالوا لاخطيئة فيه وان كان فيه خطيئة فعلينا وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) ولنحمل صيغة امر والمأمور غير الآمر فكيف يصح امر النفس من الشخص فنقول الصيغة امر والمعنى شرط وجزاء اى ان اتبعتمونا حملنا خطاياكم قال صاحب الكشاف هو فى معنى قول من يريد اجتماع امرين فى الوجود فيقول ليكن منك العطاء وليكن منى الدعاء فقوله ولنحمل اى ليكن منا الحمل وليس هو فى الحقيقة امر طلب وايجاب (المسئلة الثانية) قال وماهم بحاملين من خطاياهم وقال بعد هذا وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم فهناك نفى الحمل وههنا اثبت الحمل فكيف الجمع بينهما فنقول قول القائل فلان حمل عن فلان يفيد ان حمل فلان خف واذا لم يخف حمله فلا يكون قد حمل منه شيئا فكذلك ههنا ماهم بحاملين من خطاياهم يعنى لا يرفعون عنهم خطيئة وهم يحملون أوزارا بسبب اضلالهم ويحملون أوزارا بسبب ضلالتهم كما قال النبى عليه السلام من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير ان ينقص من وزره شئ (المسئلة الثالثة) الصيغة امر والامر لا يدخله التصديق والتكذيب فكيف يفهم قوله انهم لكاذبون نقول قد تبين ان معناه شرط وجزاء فكأنهم قالوا ان تتبعونا نحمل خطاياكم وهم كذبوا فى هذا فانهم لا يحملون شيئا * ثم قال تعالى (وليحملن اثقالهم واثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيمة عما كانوا يفترون) فى الذى كانوا يفترونه يحتمل ثلاثة اوجه (احدها) كان قولهم ولنحمل خطاياكم صادرا لاعتقادهم ان لا خطيئة فى الكفر ثم يوم القيامة يظهر لهم خلاف ذلك فيسألون عن ذلك الافتراء (وثانيها) ان قولهم ولنحمل خطاياكم كان عن اعتقاد ان لا حشر فاذا جاء يوم القيامة ظهر لهم خلاف ذلك فيسئلون ويقال لهم أما قلتم أن لا حشر (وثالثها) انهم لما قالوا ان تتبعونا نحمل يوم القيامة خطاياكم يقال لهم فاحملوا خطاياهم فلا يحملون فيسئلون ويقال لهم لم افتريتم * ثم قال تعالى (ولقد ارسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما) وجه تعلق الآية بما قبلها هو ان الله تعالى لما بين التكليف وذكر اقسام المكلفين ووعد المؤمن الصادق بالثواب العظيم وأوعد الكافر والمنافق بالعذاب الاليم وكان قد ذكر ان هذا التكليف ليس مختصا بالنبى وأصحابه وامته حتى صعب عليهم ذلك بل

السلام لهما حين رآهما على ماهما عليه من التأخر والذود (ماخطبكما) ماشأنكما فيما انتما عليه من التأخر والذود ولم لا تباشر ان السقى كدأب هؤلاء (قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء) اى عادتنا ان لا نسقى حتى يصرف الرعاة مواشيهم بعد ريها عن الماء عجزا عن مساجلتهم وحذرا عن مخالطة الرجال لا انا لا نسقى اليوم الى تلك الغاية وحذف مفعول السقى والذود والاصدار لما ان الغرض هو بيان تلك الافعال انفسها اذهى التى دعت موسى عليه السلام الى ماصنع فى حقهما من المعروف فانه عليه الصلاة والسلام انما رحمهما لكونهما على الذياد عجزا وعفة لكونهم على السقى غير مبالين بهما وما رحمهما لكون مذودهما غنما ومسقيهم ابلا مثلا وقرئ لا نسقى من الاسقاء ويصدر من الصدور والرعاء بضم الراء وهو اسم جمع كالرخال واما الرعاء فجمع قياسى كصيام وقيام وقوله تعالى (وابونا شيخ كبير) ابلاغ منهما للعذر اليه عليه السلام فى توليهما للسقى بأنفسهما كأنهما قالتا انا امرأتان ضعيفتان مستورتان لا نقدر على مساجلة الرجال ومزاحمتهم ومالنا رجل يقوم بذلك وابونا شيخ كبير السن قد اضعفه الكبر فلا بد لنا من تأخير السقى الى ان يقضى الناس اوطارهم من الماء (فسقى لهما) رحمة عليهما والكلام فى حذف مفعوله كما مر آنفا وروى ان الرعاة كانوا يضعون على رأس البئر حجرا لا يقله الا سبعة رجال وقيل عشرة وقيل اربعون وقيل مائة فاقله وحده مع ما كان به من الوصب والجراحة والجوع ولعله عليه الصلاة والسلام زاحمهم فى السقى لهما فوضعوا الحجر على البئر لتعجيزه عليه الصلاة والسلام عن ذلك فان الظاهر انه عليه والسلام غب ماشاهد حالهما سارع الى السقى لهما وقد روى انه دفعهم عن الماء الى ان سقى لهما وقيل كانت هناك بئر أخرى عليها الصخرة المذكورة وروى انه عليه

(قبله)

قبله كان كذلك كما قال تعالى ولقد فتنا الذين من قبلهم ذكر من جملة من كان قبله جماعة منهم نوح النبي عليه السلام وقومه ومنهم ابراهيم عليه السلام وغيرهما ثم قال تعالى فلبث فيهم الف سنة الا خمسين عاما وفي الآية مسائل (الاولى) ما الفائدة في ذكر مدة لبثه نقول كان النبي عليه السلام يضيق صدره بسبب عدم دخول الكفار في الاسلام واصرارهم على الكفر فقال ان نوحا لبث الف سنة تقريبا في الدعاء ولم يؤمن من قومه الا قليل وصبر وما ضجر فأنت اولى بالصبر لقلة مدة لبثك وكثرة عدد امتك وايضا كان الكفار يغترون بتأخير العذاب عنهم اكثر ومع ذلك ما نجوا فبهذا المقدار من التأخير لا ينبغي ان يغتروا فان العذاب يلحقهم (المسئلة الثانية) قال بعض العلماء الاستثناء في العدد تكلم بالباقي فاذا قال القائل لفلان على عشرة الا ثلاثة فكأنه قال على سبعة اذا علم هذا فقوله الف سنة الا خمسين عاما كقوله تسعمائة وخمسين سنة فالفائدة في العدول عن هذه العبارة الى غيرها فنقول قال الزمخشري فيه فائدتان (احداهما) ان الاستثناء يدل على التحقيق وتركه قد يظن به التقريب فان من قال عاش فلان الف سنة يمكن ان يتوهم ان يقول الف سنة تقريبا لا تحقيقا فاذا قال الا شهرا او الا سنة يزول ذلك التوهم ويفهم منه التحقيق (الثانية) هي ان ذكر لبث نوح عليه السلام في قومه كان لبيان انه صبر كثيرا فالنبي عليه السلام اولى بالصبر مع قصر مدة دعائه واذا كان كذلك فذكر العدد الذي في اعلى مراتب الاعداد التي لها اسم مفرد موضوع فان مراتب الاعداد هي الآحاد الى العشرة والعشرات الى المائة والمآت الى الالف ثم بعد ذلك يكون التكثير بالتكرير فيقال عشرة آلاف ومائة الف والف الف (المسئلة الثالثة) قال بعض الاطباء العمر الانساني لا يزيد على مائة وعشرين سنة والآية تدل على خلاف قولهم والعقل يوافقها فان البقاء على التركيب الذي في الانسان ممكن لذاته والا لما بقي ودوام تأثير المؤثر فيه ممكن لان المؤثر فيه ان كان واجب الوجود فظاهر الدوام وان كان غيره فله مؤثر وينتهي الى الواجب وهو دائم فتأثيره يجوز ان يكون دائما فاذا البقاء ممكن في ذاته فان لم يكن فلعارض لكن العارض ممكن العدم والا لما بقي هذا المقدار لوجوب وجود العارض المانع فظهر ان كلامهم على خلاف العقل والنقل (ثم نقول) لا نزاع بيننا وبينهم لانهم يقولون العمر الطبيعي لا يكون اكثر من مائة وعشرين سنة ونحن نقول هذا العمر ليس طبيعيا بل هو عطاء الهي واما العمر الطبيعي فلا يدوم عندنا ولا لحظة فضلا عن مائة او اكثر * قوله تعالى (فأخذهم الطوفان وهم ظالمون) فيه اشارة الى لطيفة وهي ان الله لا يعذب على مجرد وجود الظلم والا لعذب من ظلم وتاب فان الظلم وجد منه وانما يعذب على الاصرار على الظلم فقوله وهم ظالمون يعني اهلكهم وهم على ظلمهم ولو كانوا تركوه لما اهلكهم * قوله تعالى (فأنجيناه واصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين) في الراجع اليه الهاء في قوله جعلناها وجهان (احدهما) انها راجعة الى السفينة المذكورة وعلى هذا ففي كونها آية وجوه (احدها) انها اتخذت قبل

الصلاة والسلام سألهم دلوا من ماء فاعطوه دلوهم وقالوا استق بها وكان لا ينزعها الا اربعون فاستقى بها وصبها في الحوض ودعا بالبركة وروى غنمهما واصدرهما (ثم تولى الى الظل) الذي كان هناك (فقال رب انى لما انزلت الى) اي اي شيء انزلته الى (من خير) جل او قل وحمله الاكثرون على الطعام بمعونة المقام (فقير) اي محتاج ولتضمنه معنى السؤال والطلب عدى باللام الدعامة لتقوية العمل وقيل المعنى لما انزلت الى من خير عظيم هو خير الدارين صرت فقيرا في الدنيا لانه كان في سعة من العيش عند فرعون قاله عليه الصلاة والسلام اظهارا للتبجح والشكر على ذلك (فجاءته احداهما) قيل هي كبراهما واسمها صفوراء او صفراء وقيل صغراهما واسمها صفيراء اي جاءته عقيب ما رجعتا الى ابيهما روى انهما لما رجعتا الى ابيهما قبل الناس واغنامهما حفل بطان قال لهما ما اعجلكما قالتا وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا فقال لاحداهما اذهبي فادعيه لي وقوله تعالى (تمشي) حال من فاعل جاءت وقوله تعالى (على استحياء) متعلق بمحذوف هو حال من ضمير تمشي اي جاءته تمشي كائنة على استحياء ومعناه انها كانت على استحياء حالتي المشي والمجيء معا لا عند المجيء فقط وتنكير استحياء للتفخيم قيل جاءته متخفرة اي شديدة الحياء وقيل قد استترت بكم درعها (قالت) استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية مجيئها اياه عليه الصلاة والسلام كأنه قيل فماذا قالت له عليه الصلاة والسلام فقالت (ان ابي يدعوك ليجزيك اجر ما سقيت لنا) اي جزاء سقيك لنا اسندت الدعوة الى ابيها وعللتها بالجزاء لئلا يوهم كلامها ريبة وفيه من الدلالة على كمال العقل والحياء والعفة ما لا يخفى روى انه عليه الصلاة والسلام اجابها فانطلقا وهي امامه فالزقت الريح ثوبها بجسدها فوصفته فقال لها امشي خلفي وانعتي لي الطريق ففعلت حتى اتيا دار شعيب عليهما

ظهور الماء ولولا اعلام الله نوحا وانبؤه اياه به لما اشتغل بها فلا تحصل لهم النجاة (وثانيها) ان نوحا امر بأخذ قوم معه ورفع قدر من القوت والبحر العظيم لا يتوقع احد نضوبه ثم ان الماء غيض قبل نفاد الزاد ولولا ذلك لما حصل النجاة فهو بفضل الله لا بمجرد السفينة (وثالثها) ان الله تعالى كتب سلامة السفينة عن الرياح المرجفة والحيوانات المؤذية ولولا ذلك لما حصلت النجاة (والثانى) انها راجعة الى الواقعة او الى النجاة اى جعلنا الواقعة او النجاة آية للعالمين * ثم قال تعالى (وابراهيم اذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون) لما فرغ من الاشارة الى حكاية نوح ذكر حكاية ابراهيم وفى ابراهيم وجهان من القراءة (احدهما النصب) وهو المشهور (الثانى) الرفع على معنى ومن المرسلين ابراهيم والاول فيه وجهان (احدهما) انه منصوب بفعل غير مذكور وهو معنى اذكر ابراهيم (والثانى) انه منصوب بمذكور وهو قوله ولقد ارسلنا فيكون كأنه قال وارسلنا ابراهيم وعلى هذا فى الآية مسائل (الاولى) قوله اذ قال لقومه ظرف ارسلنا اى ارسلنا ابراهيم اذ قال لقومه لكن قوله لقومه اعبدوا الله دعوة والارسال يكون قبل الدعوة فكيف يفهم قوله وارسلنا ابراهيم حين قال لقومه مع انه يكون مرسلا قبله نقول الجواب عنه من وجهين (احدهما) ان الارسال امر ممتد فهو حال قوله لقومه اعبدوا الله كان مرسلا وهذا كما يقول القائل وقفنا للامير اذ خرج من الدار وقد يكون الوقوف قبل الخروج لكن لما كان الوقوف ممتدا الى ذلك الوقت صح ذلك (الوجه الثانى) هو ان ابراهيم بمجرد هداية الله اياه كان يعلم فساد قول المشركين وكان يهديهم الى الرشاد قبل الارسال ولما كان هو مشتغلا بالدعاء الى الاسلام ارسله الله تعالى وقوله اعبدوا الله واتقوه اشارة الى التوحيد لان التوحيد اثبات الاله ونفى غيره فقوله اعبدوا الله اشارة الى الاثبات وقوله واتقوه اشارة الى نفى الغير لان من يشرك مع الملك غيره فى ملكه يكون قد اتى بأعظم الجرائم ويمكن ان يقال اعبدوا الله اشارة الى الاتيان بالواجبات وقوله واتقوه اشارة الى الامتناع عن المحرمات ويدخل فى الاول الاعتراف بالله وفى الثانى الامتناع من الشرك ثم قوله تعالى ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون يعنى عبادة الله وتقواه خير والامر كذلك لان خلاف عبادة الله تعالى تعطيل وخلاف تقواه تشريك وكلاهما شر عقلا واعتبارا (اما عقلا) فلأن الممكن لا بد له من مؤثر لا يكون ممكنا قطعا للتسلسل وهو واجب الوجود فلا تعطيل اذ لنا اله واما التشريك فبطلانه عقلا وكون خلافه خيرا هو ان شريك الواجب ان لم يكن واجبا فكيف يكون شريكا وان كان واجبا لزم وجود واجبين فيشتركان فى الوجوب ويتباينان فى الالهية ومابه الاشتراك غير مابه الامتياز فيلزم التركيب فيهما فلا يكونان واجبين لكونهما مركبين فيلزم التعطيل (واما اعتبارا) فلأن الشرف لمن يكون ملكا او قريب ملك لكن الانسان لا يكون ملكا للسموات والارضين فأعلى درجاته ان يكون قريب الملك لكن القربة بالعبادة كما قال تعالى واسجد واقترب

السلام (فلما جاءه وقص عليه القصص) اى ماجرى عليه من الخبر المقصوص فانه مصدر سمى به المفعول كالعلل (قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين) الذين يلوح من ظاهر النظم الكريم ان موسى عليه الصلاة والسلام انما اجاب المستدعية من غير تلعثم ليتبرك برؤية شعيب عليه السلام ويستظهر برأيه لا ليأخذ بمعروفه اجرا حسبما صرحت به الآية الى ماروى ان شعيبا لما قدم اليه طعاما قال انا اهل بيت لا نبيع ديننا بطلاع الارض ذهبا ولا نأخذ على المعروف ثمنا ولم يتناول حتى قال شعيب عليه السلام هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا فتناول بعد ذلك على سبيل التقبل المعروف مبتدأ كيف لا وقد قص عليه قصصه وعرفه انه من بيت النبوة من اولاد يعقوب عليه السلام ومثله حقيق بأن يضيف ويكرم لاسيما فى دار نبى من انبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام وقيل ليس بمستنكر منه عليه الصلاة والسلام ان يقبل الاجر لاضطرار الفقر والفاقة وقد روى عن عطاء بن السائب انه عليه الصلاة والسلام رفع صوته بدعائه ليسمعهما ولذلك قيل له ليجزيك الخ ولعله عليه السلام انما فعله ليكون ذريعة الى استدعائه لا الى استيفاء الاجر (وقالت احداهما) وهى التى استدعته الى ابيها وهى التى زوجها من موسى عليهما السلام (يا أبت استأجره) اى لرعى الغنم والقيام بأمرها (ان خير من استأجرت القوى الامين) تعليل جار مجرى الدليل على انه حقيق بالاستئجار وللمبالغة فى ذلك جعل خيرا اسما لان وذكر الفعل على صيغة الماضى للدلالة على انه امين مجرب روى ان شعيبا عليه السلام قال لها وما أعلمك بقوته وامانته فذكرت ماشاهدت منه عليه السلام من اقلال الحجر ونزع الدلو وانه صوب رأسه حتى بلغته رسالته وامرها بالمشى خلفه (قال انى اريد ان انكحك احدى ابنتى هاتين على ان تأجرنى) اى تكون اجيرا لى او تثيبنى من اجرت كذا اذا (وقال)

وقال لن يتقرب المتقربون الى بمثل اداء ماافترضت عليهم وقال لايزال العبد يتقرب بالعبادة الى فالمعطل لاملك ولاقريب ملك لعدم اعتقاده ملك فلامرتبة له اصلا واما التشريك فلأن من يكون سيده لانظير له يكون اعلى رتبة ممن يكون سيده له شركاء خسيسة فاذن من يقول ان ربى لايماثله شئ اعلى مرتبة ممن يقول سيدى صنم منحوت عاجز مثله فثبت ان عبادة الله وتقواه خير وهو خير لكم اى خير للناس ان كانوا يعلمون ماذكرناه من الدلائل والاعتبارات ※ ثم قال تعالى (انما تعبدون من دون الله اوثانا وتخلقون افكا) ذكر بطلان مذهبهم بأبلغ الوجوه وذلك لان المعبود انما يعبد لأحد امور اما لكونه مستحقا للعبادة بذاته كالعبد يخدم سيده الذى اشتراه سواء اطعمه من الجوع اومنعه من الهجوع واما لكونه نافعا فى الحال كمن يخدم غيره لخير يوصله اليه كالمستخدم باجرة واما لكونه نافعا فى المستقبل كمن يخدم غيره متوقعا منه امرا فى المستقبل واما لكونه خائفا منه فقال ابراهيم انما تعبدون من دون الله اوثانا اشارة الى انها لاتستحق العبادة لذاتها لكونها اوثانا لاشرف لها ※ قوله تعالى (ان الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له اليه ترجعون) اشارة الى عدم المنفعة فى الحال وفى المآل وهذا لان النفع امافى الوجود واما فى البقاء لكن ليس منهم نفع فى الوجود لان وجودهم منكم حيث تخلقونها وتنحتونها ولانفع فى البقاء لان ذلك بالرزق وليس منهم ذلك ثم بين ان ذلك كله حاصل من الله فقال فابتغوا عند الله الرزق فقوله الله اشارة الى استحقاق عبوديته لذاته وقوله الرزق اشارة الى حصول النفع منه عاجلا وآجلا وفى الآية مسائل (الاولى) قال لايملكون لكم رزقا نكرة وقال فابتغوا عند الله الرزق معرفا فما الفائدة فنقول قال الزمخشرى قال لايملكون لكم رزقا نكرة فى معرض النفى اى لارزق عندهم اصلا وقال معرفة عند الاثبات عند الله اى كل الرزق عنده فاطلبوه منه (وفيه وجه آخر) وهو ان الرزق من الله معروف بقوله ومامن دابة فى الارض الاعلى الله رزقها والرزق من الاوثان غيرمعلوم فقال لايملكون لكم رزقا لعدم حصول العلم به وقال فابتغوا عند الله الرزق الموعود به ثم قال فاعبدوه اى اعبدوه لكونه مستحقا للعبادة لذاته واشكروا اى لكونه سابق النعم بالخلق وواصلها بالرزق واليه ترجعون اى اعبدوه لكونه مرجعا منه يتوقع الخير لاغير ※ ثم قال تعالى (وان تكذبوا فقد كذب امم من قبلكم وماعلى الرسول الاالبلاغ المبين) لما فرغ من بيان التوحيد اتى بعده بالتهديد فقال وان تكذبوا وفى المخاطب فى هذه الآية وجهان (احدهما) انه قوم ابراهيم والآية حكاية عن قوم ابراهيم كأن ابراهيم قال لقومه ان تكذبوا فقد كذب امم من قبلكم وانااتيت بماعلى من التبليغ فان الرسول ليس عليه الاالبلاغ والبيان (والثانى) انه خطاب مع قوم محمد عليه السلام ووجهه ان الحكايات اكثرها انماتكون لمقاصد لكنها تدى لطيب الحكاية ولهذا كثيرا مايقول الحاكى

اتخذه اياه فقوله تعالى (ثمانى حجج) على الاول ظرف وعلى الثانى مفعول به على تقدير مضاف اى رعية ثمانى حجج ونقل عن المبرد انه قال اجرت دارى ومملوكى غير ممدود وآجرت ممدودا والاول اكثر فعلى هذا يكون المفعول الثانى محذوفا والمعنى على ان تأجرنى نفسك وقوله تعالى ثمانى حجج ظرف كالوجه الاول (فان اتممت عشرا) فى الخدمة والعمل (فمن عندك) اى فهو من عندك بطريق التفضل لامن عندى بطريق الالزام عليك وهذا من شعيب عرض لرأيه على موسى عليهما السلام واستدعاء منه للعقد لاانشاء وتحقيق له بالفعل (وما اريد ان اشق عليك) بالزام اتمام العشر او المناقشة فى مراعاة الاوقات واستيفاء الاعمال واشتقاق المشقة من الشق فان مايصعب عليك يشق عليك اعتقادك فى اطاقته ويوزع رأيك فى مزاولته (ستجدنى ان شاء الله من الصالحين) فى حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بالعهد ومراده عليه الصلاة والسلام بالاستثناء التبرك به وتفويض أمره الى توفيقه تعالى لاتعليق صلاحه بمشيئته تعالى (قال ذلك بينى وبينك) مبتدأ وخبر اى ذلك الذى قلته وعاهدتنى فيه وشارطتنى عليه قائم وثابت بيننا جميعا لايخرج عنه واحد منا لاانا عما شرطت على ولاانت عما شرطت على نفسك وقوله تعالى (ايما الاجلين) اى اكثرهما او اقصرهما (قضيت) اى وفيتك بأداء الخدمة فيه (فلا عدوان على) تصريح بالمراد وتقرير لامر الخيرة اى لاعدوان على بطلب الزيادة على ماقضيته من الاجلين وتعميم انتفاء العدوان لكلا الاجلين بصدد المشارطة مع عدم تحقق العدوان فى اكثرهما رأسا للقصد الى التسوية بينهما فى الانتفاء اى كما لااطالب بالزيادة على العشر لااطالب بالزيادة على الثمان اوايما الاجلين قضيت فلااثم على يعنى كما لا اثم على فى قضاء الاكثر لااثم على فى قضاء الاقصر فقط وقرئ

لای شیٔ حکیت هذه الحکایة فالنبی علیه السلام کان مقصوده تذکیر قومه بحال من مضی حتی یمتنعوا من التکذیب ویرتدعوا خوفا من التعذیب فقال فی اثناء حکایتهم یاقوم ان تکذبوا فقد کذب قبلکم اقوام واهلکوا فان کذبتم اخاف علیکم ماجاء علی غیرکم وعلی الوجه الاول فی الآیة مسائل (المسئلة الاولی) ان قوله فقد کذب امم کیف یفهم مع ان ابراهیم لم یسبقه الاقوم نوح وهم امة واحدة والجواب عنه من وجهین (احدهما) ان قبل نوح کان اقوام کقوم ادریس وقوم شیث وآدم (والثانی) ان نوحا عاش الفا واکثر وکان القرن یموت ویجیٔ اولاده والآباء یوصون الابناء بالامتناع عن الاتباع فکفی بقوم نوح امما (المسئلة الثانیة) ما البلاغ وما المبین فنقول البلاغ هو ذکر المسائل والابانة هی اقامة البرهان علیه (المسئلة الثالثة) الآیة تدل علی ان تأخیر البیان عن وقت الحاجة لایجوز لان الرسول اذا بلغ شیئا ولم یبینه فانه لم یأت بالبلاغ المبین فلایکون آتیا بما علیه ۞ ثم قال تعالی (اولم یروا کیف یبدؤ الله الخلق ثم یعیده ان ذلک علی الله یسیر) لما بین الاصل الاول وهو التوحید وأشار الی الاصل الثانی وهو الرسالة بقوله وما علی الرسول الا البلاغ المبین شرع فی بیان الاصل الثالث وهو الحشر وقد ذکرنا مرارا ان الاصول الثلاثة لایکاد ینفصل بعضها عن بعض فی الذکر الالهی فاینما یذکر الله تعالی منها اثنین یذکر الثالث وفی الآیة مسائل (المسئلة الاولی) الانسان متی رأی بدء الخلق حتی یقال أولم یروا کیف یبدأ الله فنقول المراد العلم الواضح الذی کالرؤیة والعاقل یعلم ان البدء من الله لان الخلق الاول لایکون من مخلوق والالما کان الخلق الاول خلقا اول فهو من الله هذا ان قلنا ان المراد اثبات نفس الخلق وان قلنا ان المراد بالبدء خلق الآدمی اولا وبالاعادة خلقه ثانیا فنقول العاقل لایخفی علیه ان خالق نفسه لیس الاقادر حکیم یصور الاولاد فی الارحام ویخلقه من نطفة فی نهایة الاتقان والاحکام فذلک الذی خلق أولا معلوم ظاهر فاطلق علی ذلک العلم لفظ الرؤیة وقال اولم یروا أی الم یعلموا ظاهرا واضحا کیف یبدیٔ الله الخلق یخلقه من تراب یجمعه فکذلک یجمع اجزاءه من التراب بنفخ فیه روحه بل هو أسهل بالنسبة الیکم فان من نحت حجارات ووضع شیئا بجنب شیٔ فلو قدام ماقاله یقول وضعه شیئا بجنب شیٔ فی هذه النوبة اسهل علی لان الحجارات منحوتة ومعلوم ان آیة واحدة منها تصلح لان تکون بجنب الاخری وعلی هذا المخرج خرج کلام الله فی قوله وهو أهون والیه الاشارة بقوله ان ذلک علی الله یسیر (المسئلة الثانیة) قال أولم یروا کیف یبدیٔ الله الخلق علق الرؤیة بالکیفیة لا بالخلق وما قال أولم یروا ان الله خلق او بدأ الخلق والکیفیة غیر معلومة فنقول هذا القدر من الکیفیة معلوم وهو انه خلقه ولم یک شیئا مذکورا وانه خلقه من نطفة هی من غذاء هو من ماء وتراب وهذا القدر کاف فی حصول العلم بامکان الاعادة فان الاعادة مثله (المسئلة الثالثة) لم قال ثم یعیده ان ذلک علی الله یسیر فابرز اسمه مرة أخری ولم یقل ان ذلک علیه یسیر کما قال ثم یعیده من غیر ابراز نقول مع اقامة البرهان علی انه یسیر اکده

ای الاجلین ماقضیت فما مزیدة لتأکید القضاء کما انها فی القراءة الاولی مزیدة لتأکید ابهام ای وشیاعها وقرئ ایما بسکون الیاء کقوله من قال تنظرت نصرا والسماکین ایهما علی من الغیث استهلت مواطره (والله علی مانقول) من الشروط الجاریة بیننا (وکیل) شاهد وحفیظ فلا سبیل لاحد منا الی الخروج عنه اصلا ولیس ماحکی عنهما علیهما الصلاة والسلام تمام ماجری بینهما من الکلام فی انشاء عقد النکاح وعقد الاجارة وایقاعهما بل هو بیان لما عزما علیه واتفقا علی ایقاعه حسبما یتوقف علیه مساق القصة اجمالا من غیر تعرض لبیان مواجب العقدین فی تلک الشریعة تفصیلا روی انهما لما اتما العقد قال شعیب لموسی علیهما السلام ادخل ذلک البیت فخذ عصا من تلک العصی وکانت عنده عصی الانبیاء علیهم الصلاة والسلام فأخذ عصا هبط بها آدم علیه الصلاة والسلام من الجنة ولم یزل الانبیاء یتوارثونها حتی وقعت الی شعیب علیه السلام فمسها وکان مکفوفا فضن بها فقال خذ غیرها فما وقع فی یده الاهی سبع مرات فعلم ان له شأنا واخذها جبریل علیه السلام بعد موت آدم علیه السلام فکانت معه حتی لقی بها موسی علیه السلام لیلا وقیل اودعها شعیبا ملک فی صورة رجل فأمر بنته ان تأتیه بعصا فأتته بها فردها سبع مرات فلم یقع فی یدها غیرها فدفعها الیه ثم ندم لانها ودیعة فتبعه فاختصما فیها ورضیا ان یحکم بینهما اول طالع فأتاهما الملک فقال القیاها فمن رفعها فهی له فعالجها الشیخ فلم یطقها ورفعها موسی علیه السلام وعن الحسن رضی الله تعالی عنه ماکانت الاعصا من الشجر اعترضها اعتراضا وعن الکلبی رحمه الله الشجرة التی منها الودی شجرة العوسج ومنها کانت عصاه ولما صح

باظهار اسمه فانه يوجب المعرفة ايضا بكون ذلك يسيرا فان الانسان اذا سمع لفظ الله وفهم معناه انه الحى القادر بقدرة كاملة لا يعجزه شئ العالم بعلم محيط بذرات كل جسم نافذ الارادة لا راد لما أراده يقطع بجواز الاعادة * ثم قال تعالى (قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ان الله على كل شئ قدير) الآية المتقدمة كانت اشارة الى العلم الحدسى وهو الحاصل من غير طلب فقال أولم يروا على سبيل الاستفهام بمعنى استبعاد عدمه وقال فى هذه الآية ان لم يحصل لكم هذا العلم فتفكروا فى اقطار الارض لتعلموا بالعلم الفكرى هذا لان الانسان له مراتب فى الادراك بعضهم يدرك شيئا من غير تعليم واقامة برهان له وبعضهم لا يفهم الا بابانة وبعضهم لا يفهمه اصلا فقال ان كنتم لستم من القبيل الاول فسيروا فى الارض اى سيروا فكركم فى الارض وأجيلوا ذهنكم فى الحوادث الخارجة عن انفسكم لتعلموا بدء الخلق وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال فى الآية الاولى بلفظ الرؤية وفى هذه بلفظ النظر ما الحكمة فيه نقول العلم الحدسى أتم من العلم الفكرى كما تبين والرؤية أتم من النظر لان النظر يفضى الى الرؤية يقال نظرت فرأيت والمفضى الى الشئ دون ذلك الشئ فقال فى الاول أما حصلت لكم الرؤية فانظروا فى الارض لتحصل لكم الرؤية (المسئلة الثانية) ذكر هذه الآية بصيغة الامر وفى الآية الاولى بصيغة الاستفهام لان العلم الحدسى ان حصل فالامر به تحصيل الحاصل وان لم تحصل فلا يحصل الا بالطلب لان بالطلب يصير الحاصل فكريا فيكون الامر به تكليف ما لا يطاق واما العلم الفكرى فهو مقدور فورد الامر به (المسئلة الثالثة) ابرز اسم الله فى الآية الاولى عند البدء حيث قال كيف يبدئ الله واضمره عند الاعادة وفى هذه الآية اضمره عند البدء وابرزه عند الاعادة حيث قال ثم الله ينشئ لان فى الآية الاولى لم يسبق ذكر الله بفعل حتى يسند اليه البدء فقال كيف يبدئ الله ثم قال ثم يعيده كما يقول القائل ضرب زيد عمرا ثم ضرب بكرا ولا يحتاج الى اظهار اسم زيد اكتفاء بالاول وفى الآية الثانية كان ذكر البدء مسندا الى الله فاكتفى به ولم يبرزه كقول القائل أما علمت كيف خرج زيد اسمع منى كيف خرج ولا يظهر اسم زيد واما اظهاره عند الانشاء ثانيا حيث قال ثم الله ينشئ مع انه كان يكفى ان يقول ثم ينشئ النشأة الآخرة فلحكمة بالغة وهى ما ذكرنا ان مع اقامة البرهان على امكان الاعادة اظهر اسما من يفهم المسمى به بصفات كماله ونعوت جلاله يقطع بجواز الاعادة فقال الله مظهرا مبرزا ليقع فى ذهن الانسان من اسمه كمال قدرته وشمول علمه ونفوذ ارادته ويعترف بوقوع بدئه وجواز اعادته (فان قيل) فلم لم يقل ثم الله يعيده لعين ما ذكرت من الحكمة والفائدة نقول لوجهين (احدهما) ان الله كان مظهرا مبرزا بقرب منه وهو فى قوله كيف يبدئ الله الخلق ولم يكن بينهما الا لفظ الخلق واما ههنا فلم يكن مذكورا عند البدء فاظهره (وثانيهما) ان الدليل ههنا تم على جواز الاعادة لان الدلائل منحصرة فى الآفاق وفى الانفس كما قال تعالى سنريهم آياتنا فى

قال شعيب صلوات الله وسلامه عليهما اذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك فان الكلأ وان كان بها اكثر الا ان فيها تنينا اخشاه عليك وعلى الغنم فأخذت الغنم ذات اليمين فلم يقدر على كفها ومشى على أثرها فاذا عشب وريف لم ير مثله فنام فاذا بالتنين قد أقبل فحاربته العصا حتى قتلته وعادت الى جنب موسى عليه السلام دامية فلما ابصرها دامية والتنين مقتولا ارتاح لذلك ولما رجع الى شعيب عليهما السلام مس الغنم فوجدها ملأى البطون غزيرة اللبن فأخبره موسى عليه السلام بالشأن ففرح وعلم ان لموسى والعصا شأنا وقال له انى وهبت لك من نتاج غنمى هذا العام كل ادرع ودرعاء فأوحى اليه فى المنام ان اضرب بعصاك مستقى الغنم ففعل ثم سقى فما اخطأت واحدة الا وضعت أدرع ودرعاء فوفى له بشرطه والفاء فى قوله تعالى (فلما قضى موسى الاجل) فصيحة اى فعقدا العقدين وباشر موسى ما التزمه فلما أتم الاجل (وسار بأهله) نحو مصر باذن من شعيب عليهما السلام روى انه عليه الصلاة والسلام قضى ابعد الاجلين ومكث عنده بعد ذلك عشر سنين ثم عزم على العود الى مصر فاستأذنه فى ذلك فأذن له فخرج بأهله (آنس من جانب الطور) اى ابصر من الجهة التى تلى الطور (نارا قال لاهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر) اى بخبر الطريق وقد كانوا اضلوه (او جذوة) اى عود غليظ سواء كانت فى رأسه نار او لا قال قائلهم بأنت حواطب ليلى يلتمسن لها جزل الجذى غير خوار ولا دعر * وقال والقى على قبس من النار جذوة * شديدا عليها حرها والتهابها * ولذلك بين بقوله تعالى (من النار) وقرئ بكسر الجيم وبضمها وكلها لغات (لعلكم تصطلون) اى تستدفئون

الآفاق وفى انفسهم وفى الآية الاولى اشار الى الدليل النفسى الحاصل لهذا الانسان من نفسه وفى الآية الثانية اشار الى الدليل الحاصل من الآفاق بقوله قل سيروا فى الارض وعندهما تم الدليلان فأكده باظهار اسمه واما الدليل الاول فأكده بالدليل الثانى فلم يقل ثم الله يعيده (المسئلة الرابعة) فى الآية الاولى ذكر بلفظ المستقبل فقال اولم يروا كيف يبدئ وههنا قال بلفظ الماضى فقال فانظروا كيف بدأ ولم يقل كيف يبدأ فنقول الدليل الاول هو الدليل النفسى الموجب للعلم الحدسى وهو فى كل حال يوجب العلم بدء الخلق فقال ان كان ليس لكم علم بان الله فى كل حال يبدأ خلقا فانظروا الى الاشياء المخلوقة ليحصل لكم علم بأن الله بدأ خلقا ويحصل المطلوب من هذا القدرة فانه بشئ كما بدأ ذلك (المسئلة الخامسة) قال فى هذه الآية ان الله على كل شئ قدير وقال فى الآية الاولى ان ذلك على الله يسير وفيه فائدتان (احداهما) ان الدليل الاول هو الدليل النفسى وهو وان كان موجبه العلم الحدسى التام ولكن عند انضمام دليل الآفاق اليه يحصل العلم العام لانه بالنظر فى نفسه علم نفسه وحاجته الى الله ووجوده منه وبالنظر الى الآفاق علم حاجة غيره اليه ووجوده منه فتم علمه بأن كل شئ من الله فقال عند تمام ذكر الدليلين ان الله على كل شئ قدير وقال عند الدليل الواحد ان ذلك وهو اعادته على الله يسير (الثانية) هى انا بينا ان العلم الاول أتم وان كان الثانى أعم وكون الامر يسيرا على الفاعل أتم من كونه مقدورا له بدليل ان القائل يقول فى حق من يحمل مائة من انه قادر عليه ولا يقول انه سهل عليه فاذا سئل عن حمله عشرة امنان يقول ان ذلك عليه سهل يسير فنقول قال الله تعالى ان لم يحصل لكم العلم التام بأن هذه الامور عند الله سهل يسير فسيروا فى الارض لتعلموا انه مقدور ونفس كونه مقدورا كاف فى امكان الاعادة * ثم قال تعالى (يعذب من يشاء ويرحم من يشاء واليه تقلبون وما انتم بمعجزين فى الارض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) لما ذكر النشأة الآخرة ذكر ما يكون فيه وهو تعذيب اهل التكذيب عدلا وحكمة واثابة اهل الانابة فضلا ورحمة وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قدم التعذيب فى الذكر على الرحمة مع ان رحمته سابقة كما قال عليه السلام حاكيا عنه سبقت رحمتى غضبى فنقول ذلك لوجهين (احدهما) ان السابق ذكر الكفار فذكر العذاب لسبق ذكر مستحقيه بحكم الايعاد وعقبه بالرحمة وكما ذكر بعد اثبات الاصل الاول وهو التوحيد التهديد بقوله وان تكذبوا فقد كذب امم واهلكوا بالتكذيب كذلك ذكر بعد اثبات الاصل الآخر التهديد بذكر التعذيب وذكر الرحمة وقع تبعا لئلا يكون العذاب مذكورا وحده وهذا يحقق قوله سبقت رحمتى غضبى وذلك لان الله حيث كان المقصود ذكر العذاب لم يمحضه فى الذكر بل ذكر الرحمة معه (المسئلة الثانية) اذا كان ذكر هذا لتخويف العاصى وتفريح المؤمن فلو قال يعذب الكافر ويرحم المؤمن لكان ادخل فى تحصيل المقصود وقوله يعذب من يشاء لا يزجر الكافر لجواز ان يقول لعلى

(لا اكون)

(فلما أتاها) اى النار التى آنسها (نودى من شاطئ الوادى الايمن) اى اتاه النداء (٦٥٦) من الشاطئ الايمن بالنسبة الى موسى عليه السلام (فى البقعة المباركة) متصل بالشاطئ او صلة لنودى (من الشجرة) بدل اشتمال من شاطئ لانها كانت نابتة على الشاطئ (ان ياموسى انى انا الله رب العالمين) وهذا وان خالف لفظا لما فى طه والنمل لكنه موافق له فى المعنى المراد (وان ألق عصاك) عطف على ان ياموسى وكلاهما مفسر لنودى والفاء فى قوله تعالى (فلما رآها تهتز) فصيحة مفصحة عن جمل قد حذفت تعويلا على دلالة الحال عليها واشعارا بغاية سرعة تحقق مدلولاتها اى فالقاها فصارت ثعبانا فاهتزت فلما رآها تهتز (كأنها جان) اى فى سرعة الحركة مع غاية عظم جثتها (ولى مدبرا) اى منهزما من الخوف (ولم يعقب) اى لم يرجع (ياموسى) اى فقيل ياموسى (اقبل ولا تخف انك من الآمنين) من المخاوف فانه لا يخاف لدى المرسلون (اسلك يدك فى جيبك) اى ادخلها فيه (تخرج بيضاء من غير سوء) اى عيب (واضمم اليك جناحك) اى يديك المبسوطتين لتتقى بهما الحية كالخائف الفزع بادخال اليمنى تحت العضد الايسر واليسرى تحت الايمن او بادخالهما فى الجيب فيكون تكريرا لغرض آخر هو ان يكون ذلك فى وجه العدو اظهار جراءة ومبدأ لظهور معجزة ويجوز ان يراد بالضم التجلد والثبات عند انقلاب العصا ثعبانا استعارة من حال الطائر فانه اذا خاف نشر جناحيه واذا أمن واطمأن ضمهما اليه (من الرهب) اى من أجل الرهب اى اذا عراك الخوف فافعل ذلك تجلدا وضبطا لنفسك وقرئ بضم الراء وسكون الهاء وبفتحهما والكل لغات (فذانك) اشارة الى العصا واليد وقرئ بتشديد النون فالمخفف مثنى ذاك والمشدد مثنى ذلك

لأكون ممن يشاء الله عذابه فنقول هذا ابلغ فى التخويف وذلك لان الله اثبت بهذا نفاذ مشيئته اذا أراد تعذيب شخص فلا يمنعه منه مانع ثم كان من المعلوم للعباد بحكم الوعد والايعاد انه شاء تعذيب اهل العناد فلزم منه الخوف التام بخلاف ما لو قال يعذب العاصى فانه لايدل على كمال مشيئته لانه لايفيد انه لو شاء عذاب المؤمن لعذبه فاذا لم يفد هذا فيقول الكافر اذا لم يحصل مراده فى تلك الصورة يمكن ان يحصل فى صورة اخرى ولنضرب له مثلا فنقول اذا قيل ان الملك يقدر على ضرب كل من فى بلاده وقال من خالفنى اضربه يحصل الخوف التام لمن يخالفه واذا قيل انه قادر على ضرب المخالفين ولا يقدر على ضرب المطيعين فاذا قال من خالفنى اضربه يقع فى وهم المخالف انه لا يقدر على ضرب فلان المطيع فلا يقدر على ايضا لكونى مثله وفى هذا فائدة اخرى وهو الخوف العام والرجاء العام لان الامن الكلى من الله يوجب الجراءة فيفضى الى صيرورة المطيع عاصيا (المسئلة الثالثة) قال ثم اليه تقلبون مع ان هذه المسئلة قد سبق اثباتها وتقريرها فلم أعادها فنقول لما ذكر الله التعذيب والرحمة وهما قد يكونان عاجلين فقال تعالى فان تأخر عنكم ذلك فلا تظنوا انه فات فان اليه ايابكم وعليه حسابكم وعنده يدخر ثوابكم وعقابكم ولهذا قال بعدها وما انتم بمعجزين يعنى لاتفوتون الله بل الانقلاب اليه ولا يمكن الانفلات منه وفى تفسير هذه الآية لطائف (احداها) هى اعجاز المعذب عن التعذيب اما بالهرب منه او بالثبات له والمقاومة معه للدفع وذكر الله القسمين فقال وما انتم بمعجزين فى الارض ولا فى السماء يعنى بالهرب لو صعدتم الى محل السماك فى السماء او هبطتم الى موضع السموك فى الماء لاتخرجون من قبضة قدرة الله فلا مطمع فى الاعجاز بالهرب واما بالثبات فكذلك لان الاعجاز اما ان يكون بالاستناد الى ركن شديد يشفع ولا يمكن للمعذب مخالفته فيفوته المعذب ويعجز عنه او بالانتصار بقوم يقوم معه بالدفع وكلاهما محال فانكم مالكم من دون الله ولى يشفع ولا نصير يدفع فلا اعجاز لا بالهروب ولا بالثبات (الثانية) قال ما انتم بمعجزين ولم يقل لاتعجزون بصيغة الفعل وذلك لان نفى الفعل لايدل على نفى الصلاحية فان من قال ان فلانا لايخيط لايدل على مايدل عليه قوله انه ليس بخياط (الثالثة) قدم الارض على السماء والولى على النصير لان هربهم الممكن فى الارض فان كان يقع منهم هرب يكون فى الارض ثم ان فرضنا لهم قدرة غير ذلك فيكون لهم صعود فى السماء واما الدفع فان العاقل ما امكنه الدفع بأجمل الطريق فلا يرتقى الى غيره والشفاعة اجمل ولان ما من احد فى الشاهد الا ويكون له شفيع يتكلم فى حقه عند ملك ولا يكون كل احد له ناصر يعادى الملك لاجله ۞ ثم قال تعالى (والذين كفروا بآيات الله ولقائه اولئك يئسوا من رحمتى واولئك لهم عذاب اليم) لما بين الاصلين التوحيد والاعادة وقررهما بالبرهان وهدد من خالفه على سبيل التفصيل فقال والذين كفروا بآيات الله ولقائه اشارة الى الكفار

(وهاتان) حجتان نيرتان وبرهان فلان (٦٥٧) لقولهم ابره الرجل اذا جاء بالبرهان من قولهم بره الرجل اذا ابيض ويقال للمرأة البيضاء رهاء وبرهرهة ونظيره تسمية الحجة سلطانا من السليط وهو الزيت لانارتها وقيل هو فعلال لقولهم برهن ومن فى قوله تعالى (من ربك) متعلقة بمحذوف هو صفة لبرهانان اى كائنان منه تعالى (الى فرعون وملائه) واصلان ومنتهيان اليهم (انهم كانوا قوما فاسقين) خارجين عن حدود الظلم والعدوان فكانوا احقاء بأن نرسلك اليهم بهاتين المعجزتين الباهرتين (قال رب انى قتلت منهم نفسا فأخاف ان يقتلون) بمقابلتها (واخى هرون هو افصح منى لسانا فأرسله معى ردأ) اى معينا وهو فى الاصل اسم مايعان به كالدف وقرئ ردا بالتخفيف (يصدقنى) بتلخيص الحق وتقرير الحجة بتوضيحها وتزييف الشبهة (انى اخاف ان يكذبون) ولسانى لايطاوعنى عند المحاجة وقيل المراد تصديق القوم لتقريره وتوضيحه لكنه اسند اليه اسناد الفعل الى السبب وقرئ يصدقنى بالجزم على انه جواب الامر (قال سنشد عضدك بأخيك) اى سنقويك به فان قوة الشخص بشدة اليد على مزاولة الامور ولذلك يعبر عنه باليد وشدتها بشدة العضد (ونجعل لكما سلطانا) اى تسلطا وغلبة وقيل حجة وليس بذاك (فلا يصلون اليكما) باستيلاء او محاجة (بآياتنا) متعلق بمحذوف قد صرح به فى مواضع اخر اى اذهبا بآياتنا او نجعل اى نسلطكما بآياتنا او بمعنى لايصلون اى تمتنعون منهم بها وقيل هو قسم وجوابه لايصلون وقيل هو بيان للغالبون فى قوله تعالى (انتما ومن اتبعكما الغالبون) بمعنى الدعاء لمايليه او صلة له على ان اللام للتعريف لا بمعنى الذى (فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات) اى واضحات الدلالة على صحة رسالة موسى عليه السلام (٨٣)(را)(س) منه تعالى والمراد بها العصا واليد اذ هما اللتان اظهرهما

بالله فان الله فى كل شئ آية دالة على وحدانيته فاذا اشرك كفر بآيات الله واشارة الى المنكر للحشر فان من انكره كفر بلقاء الله فقال اولئك يئسوا من رحمتى لما اشركوا اخرجوا انفسهم عن محل الرحمة لان من يكون له جهة واحدة تدفع حاجته لا غيره يرحم واذا كان له جهات متعددة لا يبقى محلا للرحمة فاذا جعلوا لهم آلهة لم يعترفوا بالحاجة الى طريق متعين فيأسوا من رحمة الله ولما انكروا الحشر وقالوا لا عذاب فناسب تعذيبهم تحقيقا للامر عليهم وهذا كان الملك اذا قال اعذب من يخالفنى فأنكره بعيد عنه وقال هو لا يصل الى فاذا احضره بين يديه يحسن منه ان يعذبه ويقول هل قدرت وهل عذبت ام لا فاذن تبين ان عدم الرحمة يناسب الاشراك والعذاب الاليم يناسب انكار الحشر ثم ان فى الآية فوائد (احداها) قوله اولئك يئسوا حتى يكون منبئا عن حصر الناس فيهم وقال ايضا واولئك لهم عذاب اليم لذلك ولو قال اولئك الذين كفروا بآيات الله ولقائه يئسوا من رحمتى ولهم عذاب اليم ما كان يحصل هذه الفائدة فان قال قائل لو اكتفى بقوله اولئك مرة واحدة كان يكفى فى افادة ما ذكرتم قلنا لا وذلك لانه لو قال اولئك يئسوا ولهم عذاب كان يذهب وهم احد الى ان هذا المجموع منحصر فيهم فلا يوجد المجموع الا فيهم ولكن واحد منهما وحده يمكن ان يوجد فى غيرهم فاذا قال اولئك يئسوا واولئك لهم عذاب أفاد ان كل واحد لا يوجد الا فيهم (الثانية) عند ذكر الرحمة اضافها الى نفسه فقال رحمتى وعند العذاب لم يضفه لسبق رحمته واعلاما لعباده بعمومها لهم ولزومها له (الثالثة) اضاف اليأس اليهم بقوله اولئك يئسوا لحرمها عليهم ولو طمعوا لأباحها لهم فلو قال قائل ما ذكرت من مقابلة الامرين وهما اليأس والعذاب بأمرين وهما الكفر بالآيات والكفر باللقاء يقتضى ان لا يكون العذاب الاليم لمن كفر بالله واعترف بالحشر او لا يكون اليأس لمن كفر بالحشر وآمن بالله فنقول معنى الآية انهم يئسوا ولهم عذاب اليم زائد بسبب كفرهم بالحشر ولا شك ان التعذيب بسبب الكفر بالحشر لا يكون الا للكافر بالحشر واما الآخر فالكافر بالحشر لا يكون مؤمنا بالله لان الايمان به لا يصح الا اذا صدقه فيما قاله والحشر من جملة ذلك * ثم قال تعالى (فما كان جواب قومه الا ان قالوا اقتلوه او حرقوه فأنجاه الله من النار ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) لما اتى ابراهيم عليه السلام ببيان الاصول الثلاثة واقام البرهان عليه بقى الامر من جانبهم اما الاجابة او الاتيان بما يصلح ان يكون جوابه فلم يأتوا الا بقولهم اقتلوه او حرقوه وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) كيف سمى قولهم اقتلوه جوابا مع انه ليس بجواب فنقول الجواب عنه من وجهين (احدهما) انه خرج منهم مخرج كلام المتكبر كما يقول الملك لرسول خصمه جوابكم السيف مع ان السيف ليس بجواب وانما معناه لا اقابله بالجواب وانما اقابله بالسيف فكذلك قالوا لا تجيبوا عن براهينه واقتلوه او حرقوه (الثانى) هو ان الله أراد بيان ضلالتهم وهو انهم ذكروا فى معرض الجواب هذا مع انه ليس بجواب فتبين انهم

موسى عليه السلام انذاك والتعبير عنهما بصيغة الجمع قد مر مرة فى سورة (٦٠٨) طه (قالوا ما هذا الا سحر مفترى) اى سحر مختلق لم يفعل قبل هذا مثله او سحر تعمله ثم تفتريه على الله تعالى او سحر موصوف بالافتراء كسائر اصناف السحر (وما سمعنا بهذا) اى السحر او ادعاء النبوة (فى آبائنا الاولين) اى واقعا فى ايامهم (وقال موسى ربى اعلم بمن جاء بالهدى من عنده) يريد به نفسه وقرئ قال بغير واو لانه جواب عن مقالهم ووجه العطف ان المراد حكاية القولين ليوازن السامع بينهما فيميز صحيحهما من الفاسد (ومن تكون له عاقبة الدار) اى العاقبة المحمودة فى الدار وهى الدنيا وعاقبتها الاصلية هى الجنة لانها خلقت مجازا الى الآخرة ومزرعة لها والمقصود بالذات منها الثواب واما العقاب فمن نتائج اعمال العصاة وسيآت الغواة وقرئ يكون بالياء التحتانية (انه لا يفلح الظالمون) اى لا يفوزون بمطلوب ولا ينجون عن محذور (وقال فرعون يا ايها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى) قاله اللعين بعد ما جمع السحرة وتصدى للمعارضة فكان من امرهم ما كان (فأوقد لى يا هامان على الطين) اى اصنع آجرا (فاجعل لى) منه (صرحا) اى قصرا رفيعا (لعلى اطلع الى اله موسى) كأنه توهم انه لو كان لكان جسما فى السماء يمكن الرقى اليه ثم قال (وانى لأظنه من الكاذبين) او أراد ان يبنى له رصدا يترصد منه اوضاع الكواكب فيرى هل فيها ما يدل على بعثة رسول وتبدل دولته وقيل المراد نفى العلم بالمعلوم كما فى قوله تعالى قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الارض فان معناه بما ليس فيهن وهذا من خواص العلوم الفعلية فانها لازمة لتحقق معلوماتها فيلزم من انتفائها انتفاء معلوماتها ولا كذلك العلوم الانفعالية قيل اول من اتخذ الآجر فرعون ولذلك امر باتخاذه

لم يكن لهم جواب اصلا وذلك لان من لايجيب غيره ويسكت لايعلم انه لايقدر على الجواب لجواز ان يكون سكوته لعدم الالتفات اما اذا اجاب بجواب فاسد علم انه قصد الجواب وماقدر عليه (المسئلة الثانية) القائلون الذين قالوا اقتلوه هم قومه والمأمورون بقولهم اقتلوه ايضا هم فيكون الآمر نفس المأمور فنقول الجواب عنه من وجهين (احدهما) ان كل واحد منهم قال لمن عداه اقتلوه فحصل الامر من كل واحد وصار المأمور كل واحد ولا اتحاد لان كل واحد أمر غيره (وثانيهما) هو ان الجواب لايكون الا من الاكابر والرؤساء فاذا قال اعيان بلد كلاما يقال اتفق اهل البلدة على هذا ولا يلتفت الى عدم قول العبيد والارذال فكان جواب قومه وهم الرؤساء ان قالوا لا تباعهم واعوانهم اقتلوه لان الجواب لايباشره الا الاكابر والقتل لايباشره الا الاتباع (المسئلة الثالثة) او يذكر بين امرين الثانى منهما ينفك عن الاول كما يقال زوج او فرد ويقال هذا انسان او حيوان يعنى ان لم يكن انسانا فهو حيوان ولا يصح ان يقال هذا حيوان او انسان اذ يفهم منه انه يقول هو حيوان فان لم يكن حيوانا فهو انسان وهو محال لكن التحريق مشتمل على القتل فقوله اقتلوه او حرقوه كقول القائل حيوان او انسان الجواب عنه من وجهين (احدهما) ان الاستعمال على خلاف ماذكر شائع ويكون او مستعملا فى موضع بل كما يقول القائل اعطيته دينارا او دينارين وكما يقول القائل اعطه دينارا بل دينارين قال الله تعالى قم الليل الا قليلا نصفه او انقص منه قليلا او زد عليه فكذلك ههنا اقتلوه او زيدوا على القتل وحرقوه (الجواب الثانى) هو انا نسلم ماذكرتم والامر ههنا كذلك لان التحريق فعل مفض الى القتل وقد يتخلف عنه القتل فان من القى غيره فى النار حتى احترق جلده بأسره واخرج منها حيا يصح ان يقال احترق فلان واحرقه فلان وما مات فكذلك ههنا قالوا اقتلوه او لا تعجلوا قتله وعذبوه بالنار وان ترك مقالته فخلوا سبيله وان اصر فخلوا فى النار مقيله ثم قال تعالى فأنجاه الله من النار اختلف العقلاء فى كيفية الانجاء بعضهم قال برد النار وهو الاصح الموافق لقوله تعالى يا نار كونى بردا وبعضهم قال خلق فى ابراهيم كيفية استبرد معها النار وقال بعضهم ترك ابراهيم على ما هو عليه والنار على ما كانت عليه ومنع اذى النار عنه والكل ممكن والله قادر عليه وانكر بعض الاطباء الكل اما سلب الحرارة عن النار قالوا الحرارة فى النار ذاتية كالزوجية فى الاربعة لايمكن ان تفارقها واما خلق كيفية تستبرد النار فلأن المزاج الانسانى له طرفا تفريط وافراط فلو خرج عنهما لايبقى انسانا او لايعيش مثلا المزاج ان كان البارد فيه عشرة اجزاء يكون انسانا فان صار احد عشر لايكون انسانا وان صارت الاجزاء الباردة خمسة يبقى انسانا فاذا صارت اربعة لايبقى انسانا لكن البرودة التى يستبرد معها النار مزاج المعتدل فلو حصل فى الانسان لمات او لكان ذلك فان النفس تابعة للمزاج واما الثالث فمحال ان تكون القطنة فى النار والنار كما هى والقطنة كما هى ولا تحترق فنقول الآية

على وجه يتضمن تعليم الصنعة مع مافيه من تعظم ولذلك نادى هامان باسمه بيا فى وسط الكلام (واستكبر هو وجنوده فى الارض) ارض مصر (بغير الحق) بغير استحقاق (وظنوا انهم الينا لايرجعون) بالبعث للجزاء وقرئ بفتح الياء وكسر الجيم من رجع رجوعا والاول من رجع رجعا وهو الانسب بالمقام (فأخذناه وجنوده) عقيب مابلغوا من الكفر والعتو اقصى الغايات (فنبذناهم فى اليم) قد مر تفسيره وفيه من تفخيم شأن الاخذ وتهويله واستحقار المأخوذين المنبوذين ما لا يخفى كأنه تعالى اخذهم مع كثرتهم فى كف وطرحهم فى البحر ونظيره قوله تعالى وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) وبينها للناس ليعتبروا بها (وجعلناهم) اى صيرناهم فى عهدهم (أئمة يدعون) الناس (الى النار) الى مايؤدى اليها من الكفر والمعاصى اى قدوة يقتدى بهم اهل الضلال لما صرفوا اختيارهم الى تحصيل تلك الحالة وقيل سميناهم أئمة دعاة الى النار كما فى قوله تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا فالانسب حينئذ ان يكون الجعل بعدهم فيما بين الامم وتكون الدعوة الى نفس النار وقيل معنى الجعل منع الالطاف الصارفة عن ذلك (ويوم القيامة لاينصرون) بدفع العذاب عنهم بوجه من الوجوه (وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة) طردا وابعادا من الرحمة ولعنا من اللاعنين حيث لايزال يلعنهم الملائكة عليهم الصلاة والسلام والمؤمنون خلفا عن سلف (ويوم القيامة هم من المقبوحين) من المطرودين المبعدين وقيل من الموسومين بعلامة منكرة كزرقة العيون وسواد الوجه قال ابن عباس رضى الله عنهما يقال قبحه الله وقبحه اذا جعله قبيحا وقال ابو عبيدة من المقبوحين من المهلكين ويوم القيامة اما متعلق بالمقبوحين على ان اللام

ردعليهم والعقل موافق للنقل (اما الاول) فلوجهين (احدهما) ان الحرارة فى النار تقبل الاشتداد والضعف فان النار فى الفحم اذانفخ فيه يشتد حتى يذيب الحديد وان لم ينفخ لايشتد لكن الضعف هوعدم بعض من الحرارة كانت فى النار فاذاامكن عدم البعض جازعدم بعض آخر من ذلك عليها الى ان ينتهى الى حد لايؤذى الانسان ولا كذلك الزوجية فانها لاتشتد ولاتضعف (والثانى) وهوان فى اصول الطب ذكران النار لها كيفية حارة كما ان الماء له كيفية باردة لكن رأينا ان الماء تزول عنه البرودة وهوماء فكذلك النار تزول عنها الحرارة وتبقى نارا وهونور غيرمحرق (واما الثانى) فأيضاممكن وقولهم مدفوع من وجهين (احدهما) منع اصلهم من كون النفس تابعة للمزاج بل الله قادرعلى ان يخلق النفس الانسانية فى المزاج الذى مثل مزاج الجمد (وثانيهما) ان نقول على اصلكم لايلزم المحال لان الكيفية التى ذكرناها تكون فى ظاهر الجلد كالاجزاء الرشية عليه ولايتأدى الى القلب والاعضاء الرئيسة ألاترى ان الانسان اذامس الجمد زمانا ثم مس بجمرة نار لايؤثر النار فى احراق يده مثل مايؤثر فى احراق يدمن اخرج يده من جيبه ولهذا تحترق يده قبل يدهذا فاذاجاز وجود كيفية فى ظاهر جلد الانسان تمنع تأثير النار فيه بالاحراق زمانا فيجوز ان تتجدد تلك الكيفية لحظة فلحظة حتى لاتحترق (واما الثالث) فمجرد استبعاد بان عدم الاعتياد ونحن نسلم ان ذلك غير معتاد لانه معجز والمعجز ينبغى ان يكون خارقا للعادة ثم قال تعالى ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون يعنى فى انجائه من النار لآيات وهنامسائل (المسئلة الاولى) قال فى انجاء نوح واصحاب السفينة جعلناها آية وقال ههنا لآيات بالجمع لان الانجاء بالسفينة شئ تسع له العقول فلم يكن فيه من الآية الابسبب اعلام الله اياه بالاتخاذ وقت الحاجة فانه لولاه لما اتخذه لعدم حصول علمه بما فى الغيب وبسبب ان الله صان السفينة عن المهلكات كارياح العاصفة واما الانجاء من النار فعجيب فقال فيه آيات (المسئلة الثانية) قال هناك آية للعالمين وقال ههنا لقوم يؤمنون خص الآيات بالمؤمنين لان السفينة بقيت اعواما حتى مر عليها الناس ورأوها فحصل العلم بها لكل احد واما تبريد النار لم يبق فلم يظهر لمن بعده الا بطريق الايمان به والتصديق (وفيه لطيفة) وهى ان الله لما برد النار على ابراهيم بسبب اهتدائه فى نفسه وهدايته لابناء جنسه وقد قال الله للمؤمنين بأن لهم اسوة حسنة فى ابراهيم فحصل للمؤمنين بشارة بأن الله يبرد عليهم النار يوم القيامة فقال ان فى ذلك التبريد لآيات لقوم يؤمنون (المسئلة الثالثة) قال هناك جعلناها وقال ههنا جعلناه لان السفينة ماصارت آية فى نفسها ولولا خلق الله الطوفان لبقى فعل نوح سفها فالله تعالى جعل السفينة بعد وجودها آية واما تبريد النار فهو فى نفسه آية اذا وجدت لايحتاج الى امر آخر كخلق الطوفان حتى يصير آية ❊ ثم قال تعالى (وقال انما اتخذتم من دون الله اوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم

للتعريف لابمعنى الذى او محذوف بضمرمذلك كأنه قيل وقبحوا يوم القيامة نحو لعملكم من القالين (ولقد آتينا موسى الكتاب) اى التوراة (من بعد ما اهلكنا القرون الاولى) هم اقوام نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام والتعريض لبيان كون ايتائها بعد اهلاكهم للاشعار بمساس الحاجة الداعية اليه تمهيدا لمايعقبه من بيان الحاجة الداعية الى انزال القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فان اهلاك القرون الاولى من موجبات اندراس معالم الشرائع وانطماس آثارها واحكامها المؤدبين الى اختلال نظام العالم وفساد احوال الامم المستدعيين للتشريع الجديد بتقرير الاصول الباقية على مر الدهور وترتيب الفروع المتبدلة بتبدل العصور وتذكير احوال الامم الخالية الموجبة للاعتبار كأنه قيل ولقد آتينا موسى التوراة على حين حاجة الى ايتائها (بصائر للناس) اى انوارا لقلوبهم تبصر بها الحقائق وتميز بين الحق والباطل حيث كانت عميا عن الفهم والادراك بالكلية فان البصيرة نور القلب الذى به يستبصر كما ان البصر نور العين الذى به تبصر (وهدى) اى هداية الى الشرائع والاحكام التى هى سبل الله تعالى (ورحمة) حيث ينال من عمل به رحمة الله تعالى وانتصاب الكل على الحالية من الكتاب على انه نفس البصائر والهدى والرحمة اوعلى حذف المضاف اى ذا بصائر الخ وقيل على العلة اى آتيناه الكتاب للبصائر والهدى والرحمة (لعلهم يتذكرون) ليكونوا على حال يرجى منه التذكر وقدمر تحقيق القول فى ذلك عند قوله تعالى لعلكم تتقون من سورة البقرة وقوله تعالى (وما كنت بجانب الغربى) شروع فى بيان ان انزال القرآن الكريم ايضا واقع فى زمان شدة مساس الحاجة اليه واقتضاء الحكمة له البتة وقد صدر بتحقيق كونه وحيا صادقا من عند الله (التالى)

النار ومالكم من ناصرين) لما خرج ابراهيم من النار عاد الى عذل الكفار وبيان فساد ماهم عليه وقال اذا بينت لكم فساد مذهبكم وما كان لكم جواب ولا ترجعون عنه فليس هذا الا تقليدا فان بين بعضكم وبعض مودة فلا يريد احدكم ان يفارق صاحبه في السيرة والطريقة او بينكم وبين آبائكم مودة فورثتموهم واخذتم مقالتهم ولزمتم ضلالتهم وجهالتهم فقوله انما اتخذتم مودة بينكم يعني ليس بدليل اصلا (وفيه وجه آخر) وهو تحقيق دقيق وهو ان يقال قوله انما اتخذتم مودة بينكم اي مودة بين الاوثان وبين عبدتها وتلك المودة هي ان الانسان مشتمل على جسم وعقل وللجسم لذات جسمانية ولعقله لذات عقلية ثم ان من غلبت فيه الجسمية لا يلتفت الى اللذات العقلية ومن غلبت عليه العقلية لا يلتفت الى اللذات الجسمانية كالمجنون اذا احتاج الى قضاء حاجة من اكل او شرب او اراقة ماء وهو بين قوم من الاكابر في مجمع يحصل ما فيه لذة جسمه من الاكل واراقة الماء وغيرهما ولا يلتفت الى اللذة العقلية من حسن السيرة وحمد الاوصاف ومكرمة الاخلاق والعاقل يحمل الالم الجسماني ويحصل اللذة العقلية حتى لو غلبت قوته الدافعة على قوته الماسكة وخرج منه ريح او قطرة ماء يكاد يموت من الخجالة والالم العقلي اذا ثبت هذا فهم كانوا قليلي العقل غلبت الجسمية عليهم فلم يتسع عقلهم لمعبود لا يكون فوقهم ولا تحتهم ولا يمينهم ولا يسارهم ولا قدامهم ولا وراءهم ولا يكون جسما من الاجسام ولا شيئا يدخل في الاوهام ورأوا الاجسام المناسبة للغالب فيهم مزينة بجواهر فودوها فاتخاذهم الاوثان كان مودة بينهم وبين الاوثان ثم قال تعالى ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض يعني يوم يزول عمى القلوب وتتبين الامور للبيب والعقول يكفر بعضكم ببعض ويعلم فساد ما كان عليه فيقول العابد ما هذا معبودي ويقول المعبود ما هؤلاء عبدتي ويلعن بعضكم بعضا ويقول هذا لذاك انت اوقعتني في العذاب حيث عبدتني ويقول ذاك لهذا انت اوقعتني فيه حيث اضللتني بعبادتك ويريد كل واحد ان يبعد صاحبه باللعن ولا يتباعدون بل هم مجتمعون في النار كما كانوا مجتمعين في هذه الدار كما قال تعالى ومأواكم النار ثم قال تعالى ومالكم من ناصرين يعني ليس تلك النار مثل ناركم التي انجى الله منها ابراهيم ونصره فأنتم في النار ولا ناصر لكم وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قال قبل هذا ومالكم من دون الله من ولي ولا نصير على لفظ الواحد وقال ههنا على لفظ الجمع ومالكم من ناصرين والحكمة فيه انهم لما ارادوا احراق ابراهيم عليه السلام قالوا نحن ننصر آلهتنا كما حكى الله تعالى عنهم حرقوه وانصروا آلهتكم فقال انتم ادعيتم ان لهؤلاء ناصرين فمالكم ولهم اي للاوثان وعبدتها من ناصرين واما هناك ماسبق منهم دعوى الناصرين فنفى الجنس بقوله ولا نصير (المسئلة الثانية) قال هناك مالكم من دون الله من ولي ولا نصير وما ذكر الولي ههنا فنقول قد بينا ان المراد بالولي الشفيع يعني ليس لكم شافع ولا نصير دافع وههنا لما كان الخطاب دخل فيه الاوثان اي مالكم

عز وجل ببيان ان الوقوف على ما فصل من الاحوال لا يتسنى الا بالمشاهدة او التعلم ممن شاهدها وحيث انتفى كلاهما تبين انه بوحي من علام الغيوب لا محالة على طريقة قوله تعالى وما كنت لديهم اذ يلقون اقلامهم ايهم يكفل مريم الآية اي وما كنت بجانب الجبل الغربي او المكان الغربي الذي وقع فيه الميقات على حذف الموصوف واقامة الصفة مقامه او الجانب الغربي على اضافة الموصوف الى الصفة كمسجد الجامع (اذ قضينا الى موسى الامر) اي عهدنا اليه واحكمنا امر نبوته بالوحي وايتاء التوراة (وما كنت من الشاهدين) اي من جملة الشاهدين للوحي وهم السبعون المختارون للميقات حتى تشاهد ما جرى من امر موسى في ميقاته وكتبة التوراة له في الالواح فتخبره للناس (ولكنا انشأنا قرونا) اي ولكنا خلقنا بين زمانك وزمان موسى قرونا كثيرة (فتطاول عليهم العمر) وتمادى الامد فتغيرت الشرائع والاحكام وعميت عليهم الانباء لا سيما على آخرهم فاقتضى الحال التشريع الجديد فاوحينا اليك فحذف المستدرك اكتفاء بذكر ما يوجبه ويدل عليه قوله تعالى (وما كنت ثاويا في اهل مدين) اي لاحتمال كون معرفته عليه الصلاة والسلام للقصة بالسماع ممن شاهدها اي وما كنت مقيما في اهل مدين من شعيب والمؤمنين به وقوله تعالى (تتلو عليهم) اي تقرأ على اهل مدين بطريق التعلم منهم (آياتنا) الناطقة بالقصة اما حال من المستكن في ثاويا او خبر ثان لكنت (ولكنا كنا مرسلين) اياك وموحين اليك تلك الآيات ونظائرها (وما كنت بجانب الطور اذ نادينا) اي وقت ندائنا موسى اني انا الله رب العالمين واستنبائنا اياه وارساله الى فرعون (ولكن رحمة من ربك) اي ولكن ارسلناك بالقرآن الناطق بما ذكر وبغيره لرحمة عظيمة كائنة منك للناس وقيل علمناك وقيل عرفناك ذلك وليس بذاك كما ستعرفه

كلكم لم يقل شفيع لانهم كانوا معترفين ان كلهم ليس لهم شافع لانهم كانوا يدعون ان آلهتهم شفعاء كما قال تعالى عنهم هؤلاء شفعاؤنا والشفيع لا يكون له شفيع فنفى عنهم الشفيع لعدم الحاجة الى نفيه لاعترافهم به واما هنالك فكان الكلام معهم وهم كانوا يدعون ان لانفسهم شفعاء فنفى (المسئلة الثالثة) قال هناك مالكم من دون الله فذكر على معنى الاستثناء فيفهم ان لهم ناصرا ووليا هو الله وليس لهم غيره ولى وناصر وقال ههنا مالكم من ناصرين من غير استثناء فنقول كان ذلك واردا على انهم فى الدنيا فقال لهم فى الدنيا ان لا تظنوا انكم تعجزون الله فما لكم احد ينصركم بل الله تعالى ينصركم ان تبتم فهو ناصر معد لكم متى اردتم استنصرتموه بالتوبة وهذا يوم القيامة كما قال تعالى ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض وعدم الناصر عام لان التوبة فى ذلك اليوم لا تقبل فسواء تابوا او لم يتوبوا لا ينصرهم الله ولا ناصر لهم غيره فلا ناصر لهم مطلقا ثم قال تعالى (فآمن له لوط) يعنى لما رأى لوط معجزته آمن (وقال) ابراهيم (انى مهاجر الى ربى) اى الى حيث امرنى بالتوجه اليه (انه هو العزيز الحكيم) عزيز يمنع اعدائى من ايذائى بعزته وحكيم لا يأمرنى الا بما يوافق لكمال حكمته وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله آمن له لوط اى بعد ما رأى منه المعجز القاهر ودرجة لوط كانت عالية وبقاؤه الى هذا الوقت مما لا ينقص من الدرجة ألا ترى ان ابا بكر لما قبل دين محمد صلى الله عليه وسلم وكان نير القلب قبله قبل الكل من غير سماع تكلم الحصى ولا رؤية انشقاق القمر فنقول ان لوطا لما رأى معجزته آمن برسالته واما بالوحدانية فآمن حيث سمع حسن مقالته واليه اشار بقوله فآمن له لوط وما قال فآمن لوط (المسئلة الثانية) ما تعلق قوله وقال انى مهاجر الى ربى بما تقدم فنقول لما بالغ ابراهيم فى الارشاد ولم يهتد قومه وحصل اليأس الكلى حيث رأى القوم الآية الكبرى ولم يؤمنوا وجبت المهاجرة لان الهادى اذا هدى قومه ولم ينتفعوا فبقاؤه فيهم مفسدة لانه ان دام على الارشاد كان اشتغالا بما لا ينتفع به مع علمه فيصير كمن يقول للحجر صدق وهو عبث او يسكت والسكوت دليل الرضا فيقال بأنه صار منا ورضى بأفعالنا واذا لم يبق للاقامة وجه وجبت المهاجرة (المسئلة الثالثة) قال مهاجر الى ربى ولم يقل مهاجر الى حيث امرنى ربى مع ان المهاجرة الى الرب توهم الجهة فنقول قوله مهاجر الى حيث امرنى ربى ليس فى الاخلاص كقوله الى ربى لان الملك اذا صدر منه امر برواح الاجناد الى الموضع الفلانى ثم ان واحدا منهم سافر اليه لغرض فى نفسه يصيبه فقد هاجر الى حيث امره الملك ولكن لا مخلصا لوجهه فقال مهاجر الى ربى يعنى توجهى الى الجهة المأمور بالهجرة اليها ليس طلبا للجهة انما هو طلب لله * ثم قال تعالى (ووهبنا له اسحق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه اجره فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين) قد ذكرنا فى تفسير قوله تعالى لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم ان اثر رحمة الله فى امرين فى الامان من سوء

والالتفات الى اسم الرب للاشعار بعلة الرحمة وتشريفه عليه الصلاة والسلام (٦٦٢) بالاضافة وقد اكتفى عن ذكر المستدرك ههنا بذكر ما يوجبه من جهته تعالى كما اكتفى عنه فى الاول بذكر ما يوجبه من جهة الناس وصرح بهما فيما بعدهما تنصيصا على ما هو المقصود واشعارا بأنه المراد فيهما ايضا ولله در شأن التنزيل وقوله تعالى (لتنذر قوما) متعلق بالفعل المعلل بالرحمة فهو ما ذكرنا من رسالته عليه الصلاة والسلام بالقرآن حتما لما انه المعلل بالانذار لا تعليم ما ذكر وقرئ رحمة بالرفع على انه خبر مبتدأ محذوف وقوله تعالى (ما أتاهم من نذير من قبلك) صفة لقوما اى لم يأتهم نذير لوقوعهم فى فترة بينك وبين عيسى وهى خمسمائة وخمسون سنة او بينك وبين اسمعيل بناء على ان دعوة موسى وعيسى عليهما السلام كانت مختصة ببنى اسرائيل (لعلهم يتذكرون) اى يتعظون بانذارك وتغيير الترتيب الوقوعى بين قضاء الامر والثواء فى اهل مدين والنداء للتنبيه على ان كلا من ذلك برهان مستقل على ان حكايته عليه الصلاة والسلام للقصة بطريق الوحى الالهى ولو ذكر اولا نفى ثوائه عليه الصلاة والسلام فى اهل مدين ثم نفى حضوره عليه الصلاة والسلام عند النداء ثم نفى حضوره عند قضاء الامر كما هو الموافق للترتيب الوقوعى لربما توهم ان الكل دليل واحد على ما ذكر كما مر فى قصة البقرة (ولولا ان تصيبهم مصيبة) اى عقوبة (بما قدمت ايديهم) اى بما اقترفوا من الكفر والمعاصى (فيقولوا) عطف على تصيبهم داخل فى حيز لولا الامتناعية على ان مدار انتفاء ما يجاب به هو امتناعه لا امتناع المعطوف عليه وانما ذكر فى حيزها للايذان بأنه السبب الملجئ لهم الى قولهم (ربنا لولا ارسلت الينا رسولا) اى هلا ارسلت الينا رسولا مؤيدا من عندك بالآيات (فنتبع آياتك) الظاهرة على يده وهو جواب لولا الثانية (ونكون من المؤمنين) بها وجواب لولا الاولى محذوف ثقة بدلالة الحال (العذاب)

العذاب والاثنان بحسن الثواب وهو واصل الى المؤمن فى الدار الآخرة قطعا بحكم وعد الله نفى العذاب عنه لنفيه الشرك واثبات الثواب لاثباته الواحد ولكن هذا ليس بواجب الحصول فى الدنيا فان كثيرا مايكون الكافر فى رغد والمؤمن جائع فى يومه متفكر فى امر غده لكنهما مطلوبان فى الدنيا اما دفع العذاب العاجل فلأنه ورد فى دعاء النبى صلى الله عليه وسلم قوله وقنا عذاب الفقر والنار فعذاب الفقر اشارة الى دفع العذاب العاجل واما الثواب العاجل ففى قوله ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة اذا علم هذا فنقول ان ابراهيم عليه السلام لما أتى ببيان التوحيد اولا دفع الله عنه عذاب الدنيا وهو عذاب النار ولما أتى به مرة بعد مرة مع اصرار القوم على التكذيب واضرارهم به بالتعذيب اعطاه الجزاء الآخر وهو الثواب العاجل وعدده عليه بقوله ووهبنا له اسحق ويعقوب (وفى الآية لطيفة) وهى ان الله بدل جميع احوال ابراهيم فى الدنيا بأضدادها لما أراد القوم تعذيبه بالنار وكان وحيدا فريدا فبدل وحدته بالكثرة حتى ملأ الدنيا من ذريته ولما كان اولا قومه وأقاربه القريبة ضالين مضلين من جملتهم آزر بدل الله أقاربه بأقارب مهتدين هادين وهم ذريته الذين جعل فيهم النبوة والكتاب وكان اولا لاجاه له ولامال وهما غاية اللذة الدنيوية آتاه الله أجره من المال والجاه فكثر ماله حتى كان له من المواشى ما علم الله عدده حتى قيل انه كان له اثناعشر ألف كلب حارس بالاطواق ذهب واما الجاه فصار بحيث يقرن الصلاة عليه بالصلاة على سائر الانبياء الى يوم القيامة فصار معروفا بشيخ المرسلين بعد ان كان خاملا حتى قال قائلهم سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم وهذا الكلام لايقال الافى مجهول بين الناس ثم ان الله تعالى قال وانه فى الآخرة لمن الصالحين يعنى ليس له هذا فى الدنيا فحسب كما يكون لمن قدم له ثواب حسناته او أملى له استدراجا ليكثر من سيئاته بل هذا له عجالة وله فى الآخرة ثواب الدلالة والرسالة وهو كونه من الصالحين فان كون العبد صالحا أعلى مراتبه لما بينا ان الصالح هو الباقى على ماينبغى يقال الطعام بعد صالح اى هو باق على ماينبغى ومن بقى على ماينبغى لايكون فى عذاب ويكون له كل مايريد من حسن ثواب وفى الآية مسئلتان (احداهما) ان اسمعيل كان من اولاده الصالحين وكان قد أسلم لامر الله بالذبح وانقاد لحكم الله فلم يذكر فيقال هو مذكور فى قوله وجعلنا فى ذريته النبوة ولكن لم يصرح باسمه لانه كان غرضه تبيين فضله عليه بهبة الاولاد والاحفاد فذكر من الاولاد واحدا وهو الاكبر ومن الاحفاد واحدا وهو الاظهر كما يقول القائل ان السلطان فى خدمته الملوك والامراء الملك الفلانى والامير الفلانى ولايعدد لان ذكر ذلك الواحد لبيان الجنس لالخصوصيته ولو ذكر غيره لفهم منه التعديد واستيعاب الكل بالذكر فيظن ان الباقين ليس معه غير المذكورين (المسئلة الثانية) ان الله تعالى جعل فى ذريته النبوة اجابة لدعائه والوالد يستحب منه ان يسوى

عليه والمعنى لولا قولهم هذا عند اصابة عقوبة جناياتهم التى قدموها وما ارسلناك لكن لما كان قولهم ذلك محققا لامحيد عنه ارسلناك قطعا لما لاينمهم بالكلية (فلما جاءهم) اى اهل مكة (الحق من عندنا) وهو القرآن المنزل عليه عليه الصلاة والسلام (قالوا) تعنتا واقتراحا (لولا أوتى) يعنون به عليه الصلاة والسلام (مثل ما أوتى موسى) من الكتاب المنزل جملة ومن اليد والعصا وغيرها من الآيات كما ان معجزاته عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى (أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل) رد عليهم واظهار لكون ماقالوه تعنتا محضا لاطلبا لما يرشدهم الى الحق اى ألم يكفروا من قبل هذا القول بما أوتى موسى من الكتاب كما كفروا بهذا الحق وقوله تعالى (قالوا) استئناف مسوق لتقرير كفرهم المستفاد من الانكار السابق وبيان كيفيته وقوله تعالى (سحران) خبر لمبتدأ محذوف اى هما يعنون ما أوتى محمد وما أوتى موسى عليهما السلام سحران (تظاهرا) اى تعاونا بتصديق كل واحد منهما الآخر وذلك انهم بعثوا رهطا منهم الى رؤساء اليهود فى عيد لهم فسألوهم عن شأنه عليه الصلاة والسلام فقالوا انا نجده فى التوراة بنعته وصفته فلما رجع الرهط واخبروهم بما قالت اليهود قالوا ذلك وقوله تعالى (وقالوا انا بكل) اى بكل واحد من الكتابين (كافرون) تصريح بكفرهم بهما وتأكيد لكفرهم المفهوم من تسميتهما سحرا وذلك لغاية عتوهم وتماديهم فى الكفر والطغيان وقرئ ساحران تظاهر يعنون موسى ومحمدا صلى الله عليهما وسلم هذا هو الذى تستدعيه جزالة النظم الجليل فتأمل ودع عنك ماقيل وقيل الآن الى قوله تعالى (قل فأتوا بكتاب من عند الله هو اهدى منهما) مما أوتيناه من التوراة والقرآن وسميتموهما

معرض فانه فصل. فيما ذكر وقوله تعالى (اتبعه) جواب للامر اى ان تأتوا به اتبعه ومثل هذا الشرط مما يأتى به من يدل بوضوح حجته

بين ولديه فكيف صارت النبوة فى اولاد اسحق اكثر من النبوة فى اولاد اسمعيل فنقول الله تعالى قسم الزمان من وقت ابراهيم الى القيامة قسمين والناس جمعين فالقسم الاول من الزمان بعث الله فيه انبياء فيهم فضائل جمة وجاؤا تترى واحدا بعد واحد ومجتمعين فى عصر واحد كلهم من ورثة اسحق عليه السلام ثم فى القسم الثانى من الزمان أخرج من ذرية ولده الآخر وهو اسمعيل واحدا جمع فيه ما كان فيهم وارسله الى كافة الخلق وهو محمد صلى الله عليه وسلم وجعله خاتم النبيين وقد دام الخلق على دين اولاد اسحق اكثر من اربعة آلاف سنة فلا يبعد ان يبقى الخلق على دين ذرية اسمعيل مثل ذلك المقدار ۞ ثم قال تعالى (ولوطا اذ قال لقومه انكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من احد من العالمين ائنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر فما كان جواب قومه الا ان قالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين قال رب انصرنى على القوم المفسدين) الاعراب فى لوط والتفسير كما ذكرنا فى قوله وابراهيم اذ قال لقومه وههنا مسائل (الاولى) قال ابراهيم لقومه اعبدوا الله وقال عن لوط ههنا انه قال لقومه لتأتون الفاحشة فنقول لما ذكر الله لوطا عند ذكر ابراهيم وكان لوط فى زمان ابراهيم لم يذكر عن لوط انه امر قومه بالتوحيد مع ان الرسول لابد من ان يقول ذلك فنقول حكاية لوط وغيرها ههنا ذكرها الله على سبيل الاختصار فاقتصر على ما اختص به لوط وهو المنع من الفاحشة ولم يذكر عنه الامر بالتوحيد وان كان قاله فى موضع آخر حيث قال اعبدوا الله ما لكم من اله غيره لان ذلك كان قد أتى به ابراهيم وسبقه فصار كالمختص به ولوط يبلغ ذلك عن ابراهيم واما المنع من عمل قوم لوط كان مختصا بلوط فان ابراهيم لم يظهر ذلك ولم يمنعهم منه فذكر كل واحد بما اختص به وسبق به غيره (المسئلة الثانية) لم سمى ذلك الفعل فاحشة فنقول الفاحشة هو القبيح الظاهر قبحه ثم ان الشهوة والغضب صفتا قبح لولا مصلحة ما كان يخلقهما الله فى الانسان فصلحة الشهوة الفرجية هى بقاء النوع بتوليد الشخص وهذه المصلحة لاتحصل الا بوجود الولد وبقائه بعد الاب فانه لو وجد ومات قبل الاب كان يفنى النوع بفناء القرن الاول لكن الزنا قضاء شهوة ولا يفضى الى بقاء النوع لانا بينا ان البقاء بالوجود وبقاء الولد بعد الاب لكن الزنا وان كان يفضى الى وجود الولد ولكن لا يفضى الى بقائه لان المياه اذا اشتبهت لا يعرف الوالد ولده فلا يقوم بتربيته والانفاق عليه فيضيع ويهلك فلا يحصل مصلحة البقاء فاذا الزنا شهوة قبيحة خالية عن المصلحة التى لاجلها خلقت فهو قبيح ظاهر قبحه حيث لاتستره المصلحة فهو فاحشة واذا كان الزنا فاحشة مع انه يفضى الى وجود الولد ولكن لا يفضى الى بقائه فاللواطة التى لاتفضى الى وجوده اولى بأن تكون فاحشة (المسئلة الثالثة) الآية دالة على وجوب الحد فى اللواطة لانها مع الزنا اشتركت فى كونهما فاحشة حيث قال الله تعالى ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة واشتراكهما فى الفاحشة يناسب الزجر

وشدة محبته لان الاتيان بما هو اهدى من الكتابين امر بين الاستحالة فتوسع دائرة الكلام للتبكيت والافحام (ان كنتم صادقين) اى فى انهما سحران مختلقان وفى ايراد كلمة ان مع امتناع صدقهم نوع تهكم بهم (فان لم يستجيبوا لك) اى فان لم يفعلوا ما كلفتهم من الاتيان بكتاب اهدى منهما كقوله تعالى فان لم تفعلوا وانما عبر عنه بالاستجابة ايذانا بأنه عليه الصلاة والسلام على كمال أمن من امره كأن امره عليه الصلاة والسلام لهم بالاتيان بما ذكر دعاء لهم الى امر يريدوقوعه والاستجابة تتعدى الى الدعاء بنفسه والى الداعى باللام فيحذف الدعاء عند ذكر الداعى غالبا ولا يكاد يقال استجاب الله دعاءه (فاعلم انما يتبعون اهواءهم) الزائغة من غير ان يكون لهم متمسك اصلا اذ لو كان لهم ذلك لأتوا به (ومن اضل ممن اتبع هواه) استفهام انكارى للنفى اى لا اضل ممن اتبع هواه (بغير هدى من الله) اى هو اضل من كل ضال وان كان ظاهرا لسبك لنفى الاضل لا لنفى المساوى كما مر فى نظائره مرارا وتقييد اتباع الهوى بعدم الهدى من الله تعالى لزيادة التقريع والاشباع فى التشنيع والتضليل والافقار تعالى بهدايته تعالى بينة الاستحالة (ان الله لا يهدى القوم الظالمين) الذين ظلموا انفسهم بالانهماك فى اتباع الهوى والاعراض عن الآيات الهادية الى الحق المبين (ولقد وصلنا لهم القول) وقرئ بالتخفيف اى انزلنا القرآن عليهم متواصلا بعضه اثر بعض حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة او متتابعا وعدا ووعيدا وقصصا وعبرا ومواعظ ونصائح (لعلهم يتذكرون) فيؤمنون بما فيه (الذين آتيناهم الكتاب من قبله)

عندها شرع زاجرا هناك بشرع زاجرا ههنا وهذا وان كان قياسا الا ان جامعه مستفاد من الآية (ووجه آخر) وهو ان الله جعل عذاب من أتى بها امطار الحجارة حيث امطر عليهم حجارة عاجلا فوجب ان يعذب من أتى به بامطار الحجارة به عاجلا وهو الرجم قوله ماسبقكم بها من احد يحتمل وجهين (احدهما) ان قبلهم لم يأت احد بهذا القبيح وهذا ظاهر (والثانى) ان قبلهم ربما أتى به واحد فى الندرة لكنهم بالغوا فيه فقال لهم ماسبقكم بها من احد كما يقال ان فلانا سبق البخلاء فى البخل وسبق اللئام فى اللؤم اذا زاد عليهم ثم قال تعالى أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل بيانا لما ذكرنا يعنى تقضون الشهوة بالرجال مع قطع السبيل المعتاد مع النساء المشتمل على المصلحة التى هى بقاء النوع حتى يظهر انه قبيح لم يستر قبحه مصلحة وحينئذ يصير هذا كقوله تعالى أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء يعنى اتيان النساء شهوة قبيحة مستترة بالمصلحة فلكم دافع لحاجتكم لا فاحشة فيه وتتركونه وتأتون الرجال شهوة مع الفاحشة وقوله وتأتون فى ناديكم المنكر يعنى ما كفاكم قبح فعلكم حتى تضمون اليه قبح الاشهار وقوله فما كان جواب قومه فى التفسير كقوله فى قصة ابراهيم وما كان جواب قومه وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال قوم ابراهيم اقتلوه او حرقوه وقال قوم لوط ائتنا بعذاب الله وما هددوه مع ان ابراهيم كان اعظم من لوط فان لوطا كان من قومه فنقول ان ابراهيم كان يقدح فى دينهم ويشتم آلهتهم بتعديد صفات نقصهم بقوله لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى والقدح فى الدين صعب فجعلوا جزاءه القتل والتحريق ولوط كان ينكر عليهم فعلهم وينسبهم الى ارتكاب المحرم وهم ما كانوا يقولون ان هذا واجب من الدين فلم يصعب عليهم مثل ماصعب على قوم ابراهيم قول ابراهيم فقالوا انك تقول ان هذا حرام والله يعذب عليه ونحن نقول لا يعذب فان كنت صادقا فأتنا بالعذاب (فان قيل) ان الله تعالى قال فى موضع آخر فما كان جواب قومه الا أن قالوا اخرجوا آل لوط من قريتكم وقال ههنا فما كان جواب قومه الا أن قالوا ائتنا فكيف الجمع (فنقول) لوط كان ثابتا على الارشاد مكررا عليهم التغيير والنهى والوعيد فقالوا اولا ائتنا ثم لما كثر منه ذلك ولم يسكت عنهم قالوا اخرجوا ثم ان لوطا لما يئس منهم طلب النصرة من الله وذكرهم بما لا يحب الله فقال انصرنى على القوم المفسدين فان الله لا يحب المفسدين حتى ينجز النصر واعلم ان نبيا من الانبياء ما طلب هلاك قوم الا اذا علم ان عدمهم خير من وجودهم كما قال نوح انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا يعنى المصلحة اما فيهم حالا او بسببهم مآلا ولا مصلحة فيهم فانهم يضلون فى الحال وفى المآل فانهم يوصون الاولاد من صغرهم بالامتناع من الاتباع فكذلك لوط لما رأى انهم يفسدون فى الحال واشتغلوا بما لا يرجى معه منهم ولد صالح يعبد الله بطلت المصلحة حالا ومآلا فعدمهم صار خيرا فطلب العذاب ✿ ثم قال تعالى (ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا انا مهلكو اهل هذه القرية ان اهلها كانوا ظالمين قال

ای من قبل ايتاء القرآن (هم به يؤمنون) وهم مؤمنوا (٦٦٥) اهل الكتاب وقيل اربعون من اهل الانجيل اثنان وثلاثون جاؤا مع جعفر من الحبشة وثمانية من الشام (واذا يتلى) اى القرآن (عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا) اى الحق الذى كنا نعرف حقيته وهو استئناف لبيان ما اوجب ايمانهم وقوله تعالى (انا كنا من قبله) اى من قبل نزوله (مسلمين) بيان لكون ايمانهم به امرا متقادم العهد لما شاهدوا ذكره فى الكتب المتقدمة وانهم على دين الاسلام قبل نزول القرآن (أولئك) الموصوفون بما ذكر من النعوت (يؤتون اجرهم مرتين) مرة على ايمانهم بكتابهم ومرة على ايمانهم بالقرآن (بما صبروا) بصبرهم وثباتهم على الايمانين او على الايمان بالقرآن قبل النزول وبعده او على اذى من هاجرهم من اهل دينهم ومن المشركين (ويدرؤن بالحسنة السيئة) اى يدفعون بالطاعة المعصية لقوله عليه الصلاة والسلام وأتبع السيئة الحسنة تمحها (ومما رزقناهم ينفقون) فى سبيل الخير (واذا سمعوا اللغو) من اللاغين (أعرضوا عنه) عن اللغو تكرما كقوله تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما (وقالوا) لهم (لنا اعمالنا ولكم اعمالكم سلام عليكم) اطريق المتاركة والتوديع (لا نبتغى الجاهلين) لا نطلب صحبتهم ولا نريد مخالطتهم (انك لا تهدى) هداية موصلة الى البغية لا محالة (من احببت) من الناس ولا تقدر على ان تدخله فى الاسلام وان بذلت فيه غاية المجهود وجاوزت فى السعى كل حد معهود (ولكن الله يهدى من يشاء) ان يهديه فيدخله فى الاسلام (وهو اعلم بالمهتدين) بالمستعدين لذلك والجمهور على انها نزلت فى ابى طالب فانه لما احتضر جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له ياعم قل لا اله الا الله كلمة احاج بها لك عند الله قال له (٨٤) (ر) (س) يا ابن اخى قد علمت انك لصادق ولكنى اكره ان يقال

ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه واهله الا امرأته كانت من الغابرين) لما دعا لوط على قومه بقوله رب انصرني استجاب الله دعاءه وامر ملائكته باهلاكهم وارسلهم مبشرين و منذرين فجاؤا ابراهيم وبشروه بذرية طيبة وقالوا انا مهلكو اهل هذه القرية يعني اهل سدوم وفي الآية لطيفتان (احداهما) ان الله جعلهم مبشرين ومنذرين لكن البشارة أثر الرحمة والانذار بالاهلاك أثر الغضب ورحمته سبقت غضبه فقدم البشارة على الانذار وقال جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى ثم قال انا مهلكو (الثانية) حين ذكروا البشرى ما عللوا وقالوا انا نبشرك لانك رسول اولانك مؤمن اولانك عادل وحين ذكروا الاهلاك عللوا وقالوا ان اهلها كانوا ظالمين لان ذا الفضل لا يكون فضله بعوض والعادل لا يكون عذابه الا على جرم وفيه مسئلتان (احداهما) لو قال قائل اى تعلق لهذه البشرى بهذا الانذار نقول لما أراد الله اهلاك قوم وكان فيه اخلاء الارض عن العباد قدم على ذلك اعلام ابراهيم بأنه تعالى يملأ الارض من العباد الصالحين حتى لا يتأسف على اهلاك قوم من أبناء جنسه (والثانية) قال في قوم نوح فأخذهم الطوفان وقد قلت ان ذلك اشارة الى انهم كانوا على ظلمهم حين أخذهم ولم يقل فأخذهم وكانوا ظالمين وههنا قال ان اهلها كانوا ظالمين ولم يقل وانهم ظالمون فنقول لا فرق في الموضعين في كونهم مهلكين وهم مصرون على الظلم لكن هناك الاخبار من الله وعن الماضي حيث قال فأخذهم وكانوا ظالمين فقال أخذهم وهم عند الوقوع في العذاب ظالمون وههنا الاخبار من الملائكة وعن المستقبل حيث قالوا انا مهلكو فالملائكة ذكروا ما يحتاجون اليه في ابانة حسن الامر من الله بالاهلاك فقالوا انا مهلكوهم لان الله أمرنا وحال ما أمرنا به كانوا ظالمين فحسن امر الله عند كل احد واما نحن فلا نخبر بما لا حاجة لنا اليه فان الكلام عن الملك بغير اذنه سوء أدب فنحن ما احتجنا الا الى هذا القدر وهو انهم كانوا ظالمين حيث أمرنا الله باهلاكهم بيانا لحسن الامر واما انهم ظالمون في وقتنا هذا او يبقون كذلك فلا حاجة لنا اليه ثم ان ابراهيم لما سمع قولهم قال لهم ان فيها لوطا اشفاقا عليه ليعلم حاله اولان الملائكة لما قالوا انا مهلكو وكان ابراهيم يعلم ان الله لا يهلك قوما وفيهم رسوله فقال تعجبا ان فيهم لوطا فكيف يهلكون فقالت الملائكة نحن اعلم بمن فيها يعني نعلم ان فيهم لوطا فننجيه واهله ونهلك الباقين (وههنا لطيفة) وهي ان الجماعة كانوا اهل الخير أعني ابراهيم والملائكة وكل واحد كان يزيد على صاحبه في كونه خيرا اما ابراهيم فلما سمع قول الملائكة انا مهلكو أظهر الاشفاق على لوط ونسي نفسه وما بشروه ولم يظهر بها فرحا وقال ان فيها لوطا ثم ان الملائكة لما رأوا ذلك منه زادوا عليه وقالوا انك ذكرت لوطا وحده ونحن ننجيه وننجي معه اهله ثم استثنوا من الاهل امرأته وقالوا الا امرأته كانت من الغابرين اى من المهلكين وفي استعمال الغابر في المهلك وجهان وذلك لان الغابر

خروج عند الموت ولولا ان يكون عليك وعلى بني ابيك غضاضة بعدي لقلتها ولا قررت بها عينك عند الفراق لما ارى من شدة وجدك ونصيحتك ولكني سوف اموت على ملة الاشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف (وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من ارضنا) نزلت في الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف حيث اتى النبي عليه الصلاة والسلام فقال نحن نعلم انك على الحق ولكنا نخاف ان اتبعناك وخالفنا العرب وانما نحن اكلة رأس ان يتخطفونا من ارضنا فرد عليهم بقوله تعالى (أولم نمكن لهم حرما آمنا) اى ألم نعصمهم ولم نجعل مكانهم حرما ذا أمن لحرمة البيت الحرام الذي تتناحر العرب حوله وهم آمنون (يجبى اليه) وقرئ تجبى اى يجمع ويحمل اليه (ثمرات كل شئ) من كل اوب والجملة صفة اخرى لحرما دافعة لما عسى يتوهم من تضررهم بانقطاع الميرة (رزقا من لدنا) فاذا كان حالهم ما ذكروهم عبدة اصنام فكيف يخافون التخطف اذا ضموا الى حرمة البيت حرمة التوحيد (ولكن اكثرهم لا يعلمون) اى جهلة لا يتفطنون له ولا يتفكرون ليعلموا ذلك وقيل هو متعلق بقوله تعالى من لدنا اى قليل منهم يتدبرون فيعلمون ان ذلك رزق من عند الله تعالى اذ لو علموا لما خافوا غيره وانتصاب رزقا على انه مصدر مؤكد لمعنى يجبى او حال من ثمرات على انه بمعنى مرزوق لتخصصها بالاضافة ثم بين ان الامر بالعكس وانهم احقاء بأن يخافوا بأس الله تعالى بقوله (وكم اهلكنا من قرية بطرت معيشتها) اى وكثير من اهل قرية كانت حالهم كحال هؤلاء في الامن وخفض العيش والدعة حتى أشروا فدمرنا عليهم وخربنا ديارهم (فتلك مساكنهم) خاوية بما ظلموا (لم تسكن من بعدهم) من بعد تدميرهم (الا قليلا) اى الا زمانا قليلا اذ لا يسكنها الا المارة يوما او بعض يوم اولم يبق من يسكنها الا قليلا من شؤم معاصيهم (وكنا نحن الوارثين)

لفظ مشترك فى الماضى وفى الباقى يقال فيما غبر من الزمان اى فيما مضى ويقال الفعل ماض وغابر اى باق وعلى الوجه الاول نقول ان ذكر الظالمين سبق فى قولهم انا مهلكو اهل هذه القرية ان اهلها كانوا ظالمين ثم جرى ذكر لوط بتذكير ابراهيم وجواب الملائكة فقالت الملائكة انها من الغابرين اى الماضى ذكرهم لا من الذين نجى منهم اونقول المهلك يفنى ويمضى زمانه والناجى هو الباقى فقالوا انها من الغابرين اى من الرائحين الماضين لا من الباقين المستمرين واما على الوجه الثانى فنقول لما قضى الله على القوم بالاهلاك كان الكل فى الهلاك الا من نجى منه فقالوا انا ننجى لوطا واهله واما امرأته فهى من الباقين فى الهلاك * ثم قال تعالى (ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيئ بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن انا منجوك واهلك الا امرأتك كانت من الغابرين انا منزلون على اهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون) ثم انهم جاؤا من عند ابراهيم الى لوط على صورة البشر فظنهم بشرا فخاف عليهم من قومه لانهم كانوا على احسن صورة خلق الله والقوم كما عرف حالهم فسئ بهم اى جاءه ما ساءه وخاف ثم عجز عن تدبيرهم فحزن وضاق بهم ذرعا كناية عن العجز فى تدبيرهم قال الزمخشرى يقال طال ذرعه وذراعه للقادر وضاق للعاجز وذلك لان من طال ذراعه يصل الى ما لا يصل اليه قصير الذراع والاستعمال يحتمل وجها معقولا غير ذلك وهو ان الخوف والحزن يوجبان انقباض الروح ويتبعه اشتمال القلب عليه فينقبض هو ايضا والقلب هو المعتبر من الانسان فكأن الانسان انقبض واجتمع وما يكون كذلك يقل ذرعه ومساحته فيضيق ويقال فى الحزين ضاق ذرعه والغضب والفرح يوجبان انبساط الروح فينبسط مكانه وهو القلب ويتسع فيقال اتسع ذرعه ثم ان الملائكة لما رأوا خوفه فى اول الامر وحزنه بسبب تدبيرهم فى ثانى الامر قالوا لا تخف علينا ولا تحزن بسبب التفكر فى امرنا ثم ذكروا ما يوجب زوال خوفه وحزنه فان مجرد قول القائل لا تخف لا يوجب زوال الخوف فقالوا معرضين بحالهم انا منجوك واهلك وانا منزلون عليهم العذاب حتى يتبين له انهم ملائكة فيطول ذرعه ويزول روعه وفى الآية مسائل (احداها) انه تعالى قال من قبل ولما جاءت رسلنا ابراهيم وقال ههنا ولما أن جاءت رسلنا فما الحكمة فيه (فنقول حكمة بالغة) وهى ان الواقع فى وقت المجئ هناك قول الملائكة انا مهلكو وهو لم يكن متصلا بمجيئهم لانهم بشروا اولا ثم قالوا انا مهلكو وايضا فالتأنى واللبث بعد المجئ ثم الاخبار بالاهلاك حسن فان من جاء ومعه خبر هائل يحسن منه ان لا يفاجئ به والواقع ههنا هو خوف لوط عليهم والمؤمن حين ما يشعر بمضرة تصل بريئا من الجناية ينبغى ان يحزن ويخاف عليه من غير تأخير اذا علم هذا فقوله ههنا ولما ان جاءت رسلنا يفيد الاتصال يعنى خاف حين المجئ (فان قلت) هذا باطل بما ان هذه الحكاية جاءت فى سورة هود وقال ولما جاءت رسلنا لوطا من غير ان

منهم اذ لم يخلفهم احد يتصرف تصرفهم فى ديارهم وسائر ذات ايديهم وانتصاب معيشتها بنزع الخافض او بجعلها ظرفا بنفسها كقولك زيد ظنى مقيم او باضمار زمان مضاف اليه وبجعله مفعولا لبطرت بتضمين معنى كفرت (وما كان ربك مهلك القرى) بيان للعناية الربانية اثر بيان اهلاك القرى المذكورة اى وما صح وما استقام بل استحال فى سنته المبنية على الحكم البالغة او ما كان فى حكمه الماضى وقضائه السابق ان يهلك القرى قبل الانذار بل كانت عادته ان لا يهلكها (حتى يبعث فى امها) اى فى اصلها وقصبتها التى هى اعمالها وتوابعها لكون اهلها افطن وانبل (رسولا يتلو عليهم آياتنا) الناطقة بالحق ويدعوهم اليه بالترغيب والترهيب وذلك لالزام الحجة وقطع المعذرة بأن يقولوا لولا ارسلت الينا رسولا فنتبع آياتك والالتفات الى نون العظمة لتربية المهابة وادخال الروعة وقوله تعالى (وما كنا مهلكى القرى) عطف على ما كان ربك وقوله تعالى (الا واهلها ظالمون) استثناء مفرغ من اعم الاحوال اى وما كنا مهلكين لاهل القرى بعد ما بعثنا فى امها رسولا يدعوهم الى الحق ويرشدهم اليه فى حال من الاحوال الا حال كونهم ظالمين بتكذيب رسولنا والكفر بآياتنا فالبعث غاية لعدم صحة الاهلاك بموجب السنة الالهية لا لعدمه وقوعه حتى يلزم تحقق الاهلاك عقيب البعث وقد مر تحقيقه فى سورة بنى اسرائيل (وما أوتيتم من شئ) من امور الدنيا (فمتاع الحياة الدنيا وزينتها) اى فهو شئ شأنه ان يتمتع ويتزين به اياما قلائل (وما عند الله) وهو الثواب (خير) فى نفسه من ذلك لانه لذة خالصة عن شوائب الالم وبهجة كاملة عارية عن سمة الهم (وأبقى) لانه ابدى (افلا تعقلون) ألا تتفكرون فلا تعقلون هذا الامر الواضح فتستبدلون الذى هو ادنى بالذى هو خير وقرئ بالياء على الالتفات المبنى على اقتضاء سوء صنيعهم

فنقول هناك جاءت حكاية ابراهيم بصيغة اخرى حيث قال هناك ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى فقوله هنالك ولقد جاءت لايدل على ان قولهم انا أرسلنا كان فى وقت المجئ وقوله ولما جاءت رسلنا لوطا سئ بهم دل على ان حزنه كان وقت المجئ اذا علم هذا فنقول هناك قد حصل ما ذكرنا من المقصود بقوله فى حكاية ابراهيم ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى ثم جرى امور من الكلام وتقديم الطعام ثم قالوا لاتخف ولاتحزن انا ارسلنا الى قوم لوط فحصل تأخير الانذار وبقوله فى حكاية لوط ولما جاءت رسلنا حصل بيان تعجيل الحزن واما هنا لما قال فى قصة ابراهيم ولما جاءت قال فى حكاية لوط ولما ان جاءت لما ذكرنا من الفائدة (المسئلة الثانية) قال هنا انا منجوك واهلك وقال لابراهيم لننجينه بصيغة الفعل فهل فيه فائدة (قلنا) ما من حرف ولاحركة فى القرآن الا وفيه فائدة ثم ان العقول البشرية تدرك بعضها ولاتصل الى اكثرها وما أوتى البشر من العلم الاقليلا والذى يظهر لعقلى الضعيف ان هناك لما قال لهم ابراهيم ان فيها لوطا وعدوه بالتنجية ووعد الكريم حتم وههنا لما قالوا للوط وكان ذلك بعد سبق الوعد مرة اخرى قالوا انا منجوك اى ذلك واقع منا كقوله تعالى انك ميت لضرورة وقوعه (المسئلة الثالثة) قولهم لاتخف ولاتحزن لايناسبه انا منجوك لان خوفه ما كان على نفسه نقول بينهما مناسبة فى غاية الحسن وهى ان لوطا لما خاف عليهم وحزن لاجلهم قالوا له لاتخف علينا ولاتحزن لاجلنا فانا ملائكة ثم قالوا له يالوط خفت علينا وحزنت لاجلنا ففى مقابلة خوفك وقت الخوف نزيل خوفك وننجيك وفى مقابلة حزنك نزيل حزنك ولانتركك تفجع فى اهلك فقالوا انا منجوك واهلك (المسئلة الرابعة) القوم عذبوا بسبب ما صدر منهم من الفاحشة وامرأته لم يصدر منها تلك فكيف كانت من الغابرين معهم فنقول الدال على الشر له نصيب كفاعل الشر كما ان الدال على الخير كفاعله وهى كانت تدل القوم على ضيوف لوط حتى كانوا يقصدونهم فبالدلالة صارت واحدة منهم ثم انهم بعد بشارة لوط بالتنجية ذكروا انهم منزلون على اهل هذه القرية العذاب فقالوا انا منزلون على اهل هذه القرية رجزا من السماء واختلفوا فى ذلك فقال بعضهم حجارة وقيل نار وقيل خسف وعلى هذا فلا يكون عينه من السماء وانما يكون الامر بالخسف من السماء او القضاء به من السماء ثم اعلم ان كلام الملائكة مع لوط جرى على نمط كلامهم مع ابراهيم قدموا البشارة على الانذار حيث قالوا انا منجوك ثم قالوا انا منزلون على اهل هذه القرية ولم يعللوا التنجية فما قالوا انا منجوك لانك نبى او عابد وعللوا الاهلاك بقولهم بما كانوا يفسقون وقالوا بما كانوا كما قالوا هناك ان اهلها كانوا ظالمين ثم قال تعالى ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون اى من القرية فان القرية معلومة وفيها الماء الاسود وهى بين القدس والكرك وفيها مسائل (احداها) جعل الله الآية فى نوح وابراهيم بالنجاة حيث قال فأنجيناه واصحاب السفينة وجعلناها آية وقال فأنجاه الله من النار ان فى ذلك لآيات

الاعراض عن مخاطبتهم (أفمن وعدناه وعدا حسنا) اى (٦٦٨) وعدا بالجنة فان حسن الوعد بحسن الموعود (فهو لاقيه) اى مدركه لامحالة لاستحالة الخلف فى وعده تعالى ولذلك جئ بالجملة الاسمية المفيدة لتحققه البتة وعطفت بالفاء المنبئة عن معنى السببية (كمن متعناه متاع الحياة الدنيا) الذى هو مشوب بالآلام منغص بالاكدار مستتبع التحسر على الانقطاع ومعنى الفاء الاولى ترتيب انكار التشابه بين اهل الدنيا واهل الآخرة على ماقبلها من ظهور التفاوت بين متاع الحياة الدنيا وبين ما عند الله تعالى اى ابعد هذا التفاوت الظاهر يسوى بين الفريقين وقوله تعالى (ثم هو يوم القيامة من المحضرين) عطف على متعناه داخل معه فى حيز الصلة مؤكد لانكار التشابه ومقرر له كأنه قيل كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم نحضره او احضرناه يوم القيامة النار او العذاب وايثار الجملة الاسمية للدلالة على التحقق حتما وفى جعله من جملة المحضرين من التهويل ما لا يخفى وثم للتراخى فى الزمان او فى الرتبة وقرئ ثم هو بسكون الهاء تشبيها للمنفصل بالمتصل (ويوم يناديهم) منصوب بالعطف على يوم القيامة لاختلافهما عنوانا وان اتحدا ذاتا او باضمار اذكر (فيقول) تفسير للنداء (اين شركائى الذين كنتم تزعمون) اى الذين كنتم تزعمونهم شركائى فحذف المفعولان معا ثقة بدلالة الكلام عليهما (قال) استئناف مبنى على حكاية السؤال كأنه قيل فاذا صدر عنهم [illegible] فقيل قال (الذين حق عليهم القول) وهم شركاؤهم من الشياطين او رؤساؤهم الذين اتخذوهم اربابا من دون الله تعالى بأن أطاعوهم فى كل ما امروهم به ونهوا عنه ومعنى حق عليهم القول انه ثبت مقتضاه وتحقق مؤداه وهو قوله تعالى لأملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين وغيره من آيات الوعيد وتخصيصهم بهذا الحكم مع شموله (وجعل)

وجعل ههنا الهلاك آية فهل عندك فيه شيء نقول نعم اما ابراهيم فلأن الآية كانت فى النجاة لان فى ذلك الوقت لم يكن اهلاك واما فى نوح فلأن الانجاء من الطوفان الذى علا الجبال بأسرها أمر عجيب الهى ومابه النجاة وهو السفينة كان باقيا والغرق لم يبق لمن بعده أثره فجعل الباقى آية واما ههنا فنجاة لوط لم يكن بأمر يبقى اثره للحس والهلاك اثره محسوس فى البلاد فجعل الآية الامر الباقى وهو ههنا البلاد وهناك السفينة (وههنا لطيفة) وهى ان الله تعالى آية قدرته موجودة فى الانجاء والاهلاك فذكر من كل باب آية وقدم آيات الانجاء لانها أثر الرحمة وأخر آيات الاهلاك لانها اثر الغضب ورحمته سابقة (المسئلة الثانية) قال فى السفينة وجعلناها آية ولم يقل بينة وقال ههنا آية بينة نقول لان الانجاء بالسفينة امر يسعه كل عقل وقد يقع فى وهم جاهل ان الانجاء بالسفينة لا يفتقر الى امر آخر واما الآية ههنا الخسف وجعل ديار معمورة عاليها سافلها وهو ليس بمعتاد وانما ذلك بارادة قادر يخصصه بمكان دون مكان وفى زمان دون زمان فهى بينة لا يمكن لجاهل ان يقول هذا أمر يكون كذلك وكان له ان يقول فى السفينة النجاة بها أمر يكون كذلك الى ان يقال له فمن اين علم انه يحتاج اليها ولو دام الماء حتى ينفد زادهم كيف كان يحصل لهم النجاة ولو سلط الله عليهم الريح العاصفة كيف يكون احوالهم (المسئلة الثالثة) قال هناك للعالمين وقال ههنا لقوم يعقلون قلنا لان السفينة موجود فى جميع اقطار العالم فعند كل قوم مثال لسفينة نوح يتذكرون بها حاله واذا ركبوها يطلبون من الله النجاة ولا يثق احد بمجرد السفينة بل يكون دائما مرتجف القلب متضرعا الى الله تعالى طلب النجاة وما أثر الهلاك فى بلاد لوط ففى موضع مخصوص لا يطلع عليه الامن يمر بها ويصل اليها ويكون له عقل يعلم ان ذلك من الله المريد بسبب اختصاصه بمكان دون مكان ووجوده فى زمان بعد زمان * ثم قال تعالى (والى مدين اخاهم شعيبا فقال ياقوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا فى الارض مفسدين فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين) لما أتم الحكاية الثانية على وجه الاختصار لفائدة الاعتبار شرع فى الثالثة وقال والى مدين اخاهم واختلف المفسرون فى مدين فقال بعضهم انه اسم رجل فى الاصل وحصل له ذرية فاشتهر فى القبيلة كتميم وقيس وغيرهما وقال بعضهم اسم ماء نسب القوم اليه واشتهر فى القوم والاول كأنه اصح وذلك لان الله اضاف الماء الى مدين حيث قال ولما ورد ماء مدين ولو كان اسما للماء لكانت الاضافة غير صحيحة او غير حقيقة والاصل فى الاضافة التغاير حقيقة وقوله اخاهم قيل لان شعيبا كان منهم نسبا وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال الله تعالى فى نوح ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقدم نوحا فى الذكر وعرف القوم بالاضافة اليه وكذلك فى ابراهيم ولوط وههنا ذكر القوم اولا واضاف اليهم اخاهم شعيبا فنقول الاصل فى جميع المواضع ان يذكر القوم ثم يذكر رسولهم لان المرسل لا يبعث رسولا الى غير معين وانما

الاتباع ايضا لاصالتهم فى الكفر واستحقاق العذاب حسبما يشعر به قوله تعالى لاملأن جهنم منك وممن تبعك منهم اجمعين ومسارعتهم الى الجواب مع كون السؤال للعبدة اما لتفطنهم ان السؤال عنهم لاستحضارهم وتوبيخهم بالاضلال وجزمهم بان العبدة سيقولون هؤلاء اضلونا واما لان العبدة قد قالوا اعتذارا وهؤلاء انما قالوا ما قالوا ردا لقولهم الا انه لم يحك قول العبدة ايجازا لظهوره (ربنا هؤلاء الذين اغوينا) اى هم الذين اغويناهم فحذف الراجع الى الموصول ومرادهم بالاشارة بيان انهم يقولون ما يقولون بمحضر منهم وانهم غير قادرين على انكاره ورده وقوله تعالى (اغويناهم كما غوينا) هو الجواب حقيقة وماقبله تمهيد له اى ما اكرهناهم على الغى وانما اغويناهم بطريق الوسوسة والتسويل لا بالقسر والالجاء فغووا باختيارهم غيا مثل غينا باختيارنا ويجوز ان يكون الذين صفة لاسم الاشارة واغويناهم الخبر (تبرأنا اليك) منهم ومما اختاروه من الكفر والمعاصى هوى منهم وهو تقرير لما قبله ولذلك لم يعطف عليه وكذا قوله تعالى (ما كانوا ايانا يعبدون) اى ما كانوا يعبدوننا وانما كانوا يعبدون اهواءهم وقيل ما مصدرية متصلة بقوله تعالى تبرأنا اى تبرأنا من عبادتهم ايانا (وقيل ادعوا شركاءكم) اى تهكما بهم وتبكيتا لهم (فدعوهم) لفرط الحيرة (فلم يستجيبوا لهم) ضرورة عدم قدرتهم على الاستجابة والنصرة (ورأوا العذاب) قد غشيهم (لو انهم كانوا يهتدون) لوجه من وجوه الحيل يدفعون به العذاب او الى الحق لما لقوا ما لقوا وقيل لو للتمنى اى تمنوا لو انهم كانوا مهتدين (ويوم يناديهم فيقول ماذا اجبتم المرسلين) عطف على ماقبله سئلوا اولا عن اشراكهم وثانيا عن جوابهم للرسل الذين نهوهم عن ذلك (فعميت عليهم الانباء يومئذ) اى صارت كالعمى

يحصل قوم أو شخص يحتاجون الى انباء من المرسل فيرسل اليهم من يختاره غير ان قوم نوح وابراهيم ولوط لم يكن لهم اسم خاص ولا نسبة مخصوصة يعرفون بها فعرفوا بالنبي فقيل قوم نوح وقوم لوط واما قوم شعيب وهود وصالح فكان لهم نسب معلوم اشتهروا به عند الناس فجرى الكلام على اصله وقال الله والى مدين أخاهم شعيبا وقال والى عاد اخاهم هودا (المسئلة الثانية) لم يذكر عن لوط انه أمر قومه بالعبادة والتوحيد وذكر عن شعيب ذلك قلنا قد ذكرنا ان لوطا كان له قوم وهو كان من قوم ابراهيم وفى زمانه وابراهيم سبقه بذلك واجتهد فيه حتى اشتهر الامر بالتوحيد عند الخلق من ابراهيم فلم يذكره عن لوط وانما ذكر منه ما اختص به من المنع عن الفاحشة وغيرها وان كان هو ايضا يأمر بالتوحيد اذ ما من رسول الا ويكون اكثر كلامه فى التوحيد واما شعيب فكان بعد انقراض القوم فكان هو اصلا ايضا فى التوحيد فبدأ به وقال اعبدوا الله (المسئلة الثالثة) الايمان لايتم الا بالتوحيد والامر بالعبادة لايفيده لان من يعبد الله ويعبد غيره فهو مشرك فكيف اقتصر على قوله اعبدوا الله فنقول هذا الامر يفيد التوحيد وذلك لان من يرى غيره يخدم زيدا وعمرو هناك وهو اكبر او هو سيد زيد فاذا قال له اخدم عمرا يفهم منه انه يأمره بصرف الخدمة اليه وكذا اذا كان لواحد دينار واحد وهو يريد ان يعطيه زيدا فاذا قيل له اعطه عمرا يفهم منه لاتعطه زيدا فنقول هم كانوا مشتغلين بعبادة غير الله والله مالك ذلك الغير فقال لهم شعيب اعبدوا الله ففهموا منه ترك عبادة غيره او نقول لكل واحد نفس واحدة ويريد وضعها فى عبادة غير الله فقال لهم شعيب ضعوها فى موضعها وهو عبادة الله ففهم منه التوحيد ثم قال وارجوا اليوم الآخر قال الزمخشرى معناه افعلوا ما ترجون به العاقبة اذ قد يقول القائل لغيره كن عاقلا ويكون معناه افعل فعل من يكون عاقلا * وقوله وارجوا اليوم الآخر فيه مسائل (المسئلة الاولى) هذا يدل على صحة مذهبنا فان عندنا من عبد الله طول عمره يثيبه الله تفضلا ولايجب عليه ذلك لان العابد قد وصل اليه من النعم ما لو زاد على ما أتى به لما خرج عن عهدة الشكر ومن شكر المنعم على نعم سبقت لايلزم المنعم ان يزيده وان زاده يكون احسانا منه اليه وانعاما عليه فنقول قوله وارجوا اليوم الآخر بعد قوله اعبدوا الله يدل على التفضل لا على الوجوب فان التفضل يرجى والواجب من العادل يقطع به (المسئلة الثانية) قال وارجوا اليوم الآخر ولم يقل وخافوه مع ان ذلك اليوم مخوف عند الكل وغير مرجو عند كثير من الناس لفسقه وفجوره ومحبة الدنيا ولا يرجوه الا القليل من عباده فنقول لما ذكر التوحيد بطريق الاثبات وقال اعبدوا ولم يذكره بطريق النفى وما قال ولا تعبدوا غيره قال بلفظ الرجاء لان عبادة الله يرجى منها الخير فى الدارين (وفيه وجه آخر) وهو ان الله حكى فى حكاية ابراهيم انه قال انكم اتخذتم الاوثان مودة بينكم فى الحياة الدنيا واما فى الآخرة فتكفرون بها . قال ههنا لاتكونوا كالذين سبق

عنهم لاتهتدى اليهم واصله قصوا عن الانباء وقد عكس للمبالغة والتنبيه على ان مايحضر الذهن يفيض عليه ويصل اليه من خارج فاذا اخطأ لم يكن له حيلة الى استحضاره وتعدية الفعل بعلى لتضمنه معنى الخفاء والاشتباه والمراد بالانباء اما ما طلب منهم مما اجابوا به الرسل او جميع الانباء وهى داخلة فيه دخولا اوليا واذا كانت الرسل عليهم الصلاة والسلام يفوضون العلم فى ذلك المقام الهائل الى علام الغيوب مع نزاهتهم عن غائلة المسئول فما ظنك باولئك الضلال من الامم (فهم لايتساءلون) لايسأل بعضهم بعضا عن الجواب لفرط الدهشة او العلم بان الكل سواء فى الجهل (فاما من تاب) من الشرك (وآمن وعمل صالحا) اى جمع بين الايمان والعمل الصالح (فعسى ان يكون من المفلحين) اى الفائزين بالمطلوب عنده تعالى الناجين عن المهروب وعسى للتحقيق على عادة الكرام او للترجى من قبل التائب بمعنى فليتوقع الافلاح (وربك يخلق مايشاء) ان يخلقه (ويختار) مايشاء اختياره من غير ايجاب عليه ولامنع له اصلا (ما كان لهم الخيرة) اى التخير كالطيرة بمعنى التطير والمراد نفى الاختيار المؤثر عنهم وذلك مما لاريب فيه وقيل المراد انه ليس لاحد من خلقه ان يختار عليه ولذلك خلا عن العاطف ويؤيده ماروى انه نزل فى قول الوليد بن المغيرة لولا انزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم والمعنى لايبعث الله تعالى الرسل باختيار المرسل اليهم وقيل معناه ويختار الذى كان لهم فيه الخير والصلاح (سبحان الله) اى تنزه بذاته تنزها خاصا به من ان ينازعه احد او يزاحم اختياره اختيار (تعالى عما يشركون) عن اشراكهم او عن مشاركة ما يشركونه به (وربك يعلم ماتكن صدورهم) كعداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحقده (ومايعلنون) كالطعن فيه (وهو الله) اى المستحق للعبادة (لا اله الا هو) لا احد يستحقها الا هو (ذكرهم)

ذكرهم لم يرجوا اليوم الآخر فقصروا على مودة الحياة الدنيا وارجوا اليوم الآخر واعملوا له ثم قال ولا تعثوا فى الارض مفسدين يمكن ان يقال نصب مفسدين على المصدر كما يقال قم قائما اى قياما ويكون قوله ولا تعثوا فى الارض مفسدين كقول القائل اجلس قعودا لان العيث والفساد بمعنى وجمع الاوامر والنواهى فى قوله اعبدوا الله وقوله ولا تعثوا ثم ان قومه كذبوه بعد ما بلغ وبين فحكى الله عنهم ذلك بقوله فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين * وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) ما حكى عن شعيب امر ونهى والامر لا يصدق ولا يكذب فان من قال لغيره قم لا يصح ان يقول له كذبت فنقول كان شعيب يقول الله واحد فاعبدوه والحشر كائن فارجوه والفساد محرم فلا تقربوه وهذه الاشياء فيها اخبارات فكذبوه فيما اخبرهم به (المسئلة الثانية) قال ههنا وفى الاعراف فأخذتهم الرجفة وقال فى هود فأخذتهم الصيحة والحكاية واحدة نقول لا تعارض بينهما فان الصيحة كانت سببا للرجفة اما لرجفة الارض اذ قيل ان جبريل صاح فتزلزلت الارض من صيحته واما لرجفة الافئدة فان قلوبهم ارتجفت منها والاضافة الى السبب لا تنافى الاضافة الى سبب السبب اذ يصح ان يقال روى فقوى وان يقال شرب فقوى فى صورة واحدة (المسئلة الثالثة) حيث قال فأخذتهم الصيحة قال فى ديارهم وحيث قال فأخذتهم الرجفة قال فى دارهم فنقول المراد من الدار هو الديار والاضافة الى الجمع يجوز ان تكون بلفظ الجمع وان تكون بلفظ الواحد اذا أمن الالتباس وانما اختلف اللفظ للطيفة وهى ان الرجفة هائلة فى نفسها فلم يحتج الى مهول واما الصيحة فغير هائلة فى نفسها لكن تلك الصيحة لما كانت عظيمة حتى احدثت الزلزلة فى الارض ذكر الديار بلفظ الجمع حتى تعلم هيبتها والرجفة بمعنى الزلزلة عظيمة عند كل احد فلم يحتج الى معظم لامرها وقيل ان الصيحة كانت أعم حيث عمت الارض والجو والزلزلة لم تكن الا فى الارض فذكر الديار هناك غير ان هذا ضعيف لان الدار والديار موضع الجثوم لا موضع الصيحة والرجفة فهم ما اصبحوا جاثمين الا فى ديارهم * ثم قال تعالى (وعادا وثمود) اى واهلكنا عادا وثمود لان قوله تعالى فأخذتهم الرجفة دل على الاهلاك (وقد تبين لكم من مساكنهم) الامر وما تعتبرون منه ثم بين سبب ما جرى عليهم فقال تعالى (وزين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل) فقوله وزين لهم الشيطان اعمالهم يعنى عبادتهم لغير الله وصدهم عن السبيل يعنى عبادة الله (وكانوا مستبصرين) يعنى بواسطة الرسل يعنى فلم يكن لهم فى ذلك عذر فان الرسل اوضحوا السبل * ثم قال تعالى (وقارون وفرعون وهامان) عطفا عليهم اى واهلكنا قارون وفرعون وهامان * ثم قال تعالى (ولقد جاءهم موسى بالبينات) كما قال فى عاد وثمود وكانوا مستبصرين اى بالرسل * ثم قال تعالى (فاستكبروا) اى عن عبادة الله وقوله (فى الارض) اشارة الى ما يوضح قلة عقلهم فى استكبارهم وذلك لان من فى الارض اضعف اقسام المكلفين ومن

فى الدنيا بقولهم الحمد لله الذى اذهب عنا الحزن الحمد لله الذى صدقنا وعده ابتهاجا بفضله والتذاذا بحمده (وله الحكم) اى القضاء النافذ فى كل شئ من غير مشاركة فيه لغيره (واليه ترجعون) بالبعث لا الى غيره (قل) تقرير لما ذكر (أرأيتم) اى اخبرونى (ان جعل الله عليكم الليل سرمدا) دائما من السرد وهو المتابعة والاطراد والميم مزيدة كما فى دلامص من الدلاص يقال درع دلاص اى ملساء لينة (الى يوم القيامة) باسكان الشمس تحت الارض او تحريكها حول الافق الغائر (من اله غير الله) صفة لاله (يأتيكم بضياء) صفة اخرى له عليها يدور امر التبكيت والالزام كما فى قوله تعالى قل من يرزقكم من السماء والارض وقوله تعالى فمن يأتيكم بماء معين ونظائرهما خلا انه قصد بيان انتفاء الموصوف بانتفاء الصفة ولم يقل هل اله الخ لايراد التبكيت والالزام على زعمهم وقرئ بضئاء بهمزتين (أفلا تسمعون) هذا الكلام الحق سماع تدبر واستبصار حتى تذعنوا له وتعملوا بموجبه (قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة) باسكانها فى وسط السماء او تحريكها على مدار فوق الافق (من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه) استراحة من متاعب الاشغال ولعل تجريد الضياء عن ذكر منافعه لكونه مقصودا بذاته ظاهرا لا لاستتباعه لما نيط به من المنافع (أفلا تبصرون) هذه المنفعة الظاهرة التى لا تخفى على من له بصر (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه) اى فى الليل (ولتبتغوا من فضله) فى النهار بأنواع المكاسب (ولعلكم تشكرون) ولكى تشكروا نعمته تعالى فعل ما فعل اولكى تعرفوا نعمته تعالى وتشكروه عليها (ويوم يناديهم) منصوب باذكر (فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون) تقريع اثر

فى السماء أقواهم ثم ان من فى السماء لايستكبر على الله وعن عبادته فكيف من فى الارض ✱ ثم قال تعالى (وما كانوا سابقين) اى ما كانوا يفوتون الله لانا بينا فى قوله تعالى وما انتم بمعجزين فى الارض ان المراد ان اقطار الارض فى قبضة قدرة الله ✱ ثم قال تعالى (فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من ارسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الارض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) ذكر الله اربعة أشياء العذاب بالحاصب وقيل انه كان بحجارة محماة يقع على واحد منهم وينفذ من الجانب الآخر وفيه اشارة الى النار والعذاب بالصيحة وهو هواء متموج فان الصوت قيل سببه تموج الهواء ووصوله الى الغشاء الذى على منفذ الاذن وهو الصماخ فيقرعه فيحس والعذاب بالخسف وهو الغمر فى التراب والعذاب بالاغراق وهو بالماء فحصل العذاب بالعناصر الاربعة والانسان مركب منها وبها قوامه وبسببها بقاؤه ودوامه فاذا أراد الله هلاك الانسان جعل ما منه وجوده سببا لعدمه وما به بقاؤه سببا لفنائه ✱ ثم قال تعالى وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون يعنى لم يظلمهم بالهلاك وانما هم ظلموا أنفسهم بالاشراك (وفيه وجه آخر) ألطف وهو أن الله ما كان يظلمهم اى ما كان يضعهم فى غير موضعهم فان موضعهم الكرامة كما قال تعالى ولقد كرمنا بنى آدم لكنهم ظلموا انفسهم حيث وضعوا مع شرفهم فى عبادة الوثن مع خسته ✱ ثم قال تعالى (مثل الذين اتخذوا من دون الله اولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا) لما بين الله تعالى انه اهلك من اشرك عاجلا وعذب من كذب آجلا ولم ينفعه فى الدارين معبوده ولم يدفع ذلك عنه ركوعه وسجوده مثل اتخاذه ذلك معبودا باتخاذ العنكبوت بيتا لايجير آويا ولا يريح ثاويا وفى الآية لطائف نذكرها فى مسائل (المسئلة الاولى) ما الحكمة فى اختيار هذا المثل من بين سائر الامثال فنقول فيه وجوه (الاول) ان البيت ينبغى ان يكون له امور حائط حائل وسقف مظل وباب يغلق وامور ينتفع بها ويرتفق وان لم يكن كذلك فلابد من احد امرين اما حائط حائل يمنع من البرد واما سقف مظل يدفع عنه الحر فان لم يحصل منهما شئ فهو كالبيداء ليس ببيت لكن بيت العنكبوت لايجنها ولايكنها وكذلك المعبود ينبغى ان يكون منه الخلق والرزق وجر المنافع وبه دفع المضار فان لم تجتمع هذه الامور فلا اقل من دفع ضر او جر نفع فان من لا يكون كذلك فهو والمعدوم بالنسبة اليه سواء فاذا كما لم يحصل للعنكبوت باتخاذ ذلك البيت من معانى البيت شئ كذلك الكافر لم يحصل له باتخاذ الاوثان اولياء من معانى الاولياء شئ (الثانى) هو ان اقل درجات البيت ان يكون للظل فان البيت من الحجر يفيد الاستظلال ويدفع ايضا الهواء والماء والنار والتراب والبيت من الخشب يفيد الاستظلال ويدفع الحر والبرد ولا يدفع الهواء القوى ولا الماء ولا النار والخباء الذى هو بيت من الشعر او الخيمة التى هى من ثوب ان كان لايدفع شيئا يظل ويدفع حر الشمس لكن بيت العنكبوت لايظل فان

تقريع للاشعار بانه لاشئ اجلب لغضب الله عزوجل (٦٧٢) من الاشراك كالاشئ ادخل فى مرضاته من توحيده سبحانه وقوله تعالى (ونزعنا) عطف على يناديهم وصيغة الماضى للدلالة على التحقق اوحال من فاعله باضمار قد والالتفات الى نون العظمة لابراز كمال الاعتناء بشأن النزع وتهويله اى اخرجنا (من كل امة) من الامم (شهيدا) نبيا يشهد عليهم بما كانوا عليه كقوله تعالى فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد (فقلنا) لكل أمة من تلك الامم (هاتوا برهانكم) على صحة ما كنتم تدينون به (فعلموا) يومئذ (ان الحق لله) فى الالهية لايشاركه فيها احد (وضل عنهم) اى غاب عنهم غيبة الضائع (ما كانوا يفترون) فى الدنيا من الباطل (ان قارون كان من قوم موسى) كان ابن عمه يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب عليه السلام وموسى عليه السلام ابن عمران بن قاهث وقيل كان موسى عليه السلام ابن أخيه وكان يسمى المنور لحسن صورته وقيل كان أقرأ بنى اسرائيل للتوراة ولكنه نافق كما نافق السامرى وقال اذا كانت النبوة لموسى والمذبح والقربان لهرون فمالى وروى انه لما جاوز بهم موسى عليه السلام البحر وصارت الرسالة والحبورة والقربان لهرون وجد قارون فى نفسه وحسدهما فقال لموسى الامر لكما ولست على شئ الى متى اصبر قال موسى عليه السلام هذا صنع الله تعالى قال لااصدقك حتى تأتى بآية فأمر رؤساء بنى اسرائيل ان يجئ كل واحد بعصاه فحزمها والقاها فى القبة التى كان الوحى ينزل اليه فيها فكانوا يحرسون عصيهم بالليل فأصبحوا فاذا بعصا هرون تهتز ولها ورق اخضر فقال قارون ماهو بأعجب مما تصنع من السحر وذلك قوله تعالى

الشمس بشعاعها تنفذ فيه فكذلك المعبود اعلى درجاته ان يكون نافذالامر فى الغير فان لم يكن كذلك فيكون نافذالامر فى العابد فان لم يكن فلا اقل من ان لاينفذ امر العابد فيه لكن معبودهم تحت تسخير هم ان أرادوا أجلوه وان احبوا اذلوه (الثالث) ادنى مراتب البيت انه ان لم يكن سبب ثبات وارتفاق لايصير سبب شتات وافتراق لكن بيت العنكبوت يصير سبب انزعاج العنكبوت فان العنكبوت لودام فى زاوية مدة لايقصد ولايخرج منها فاذا نسج على نفسه واتخذ بيتا يتبعه صاحب الملك بتنظيف البيت منه والمسح بالمسوح الخشنة المؤذية لجسم العنكبوت فكذلك العابد بسبب العبادة ينبغى ان يستحق الثواب فان لم يستحقه فلا اقل من ان لايستحق بسببها العذاب والكافر يستحق بسبب العبادة العذاب (المسئلة الثانية) مثل الله اتخاذهم الاوثان اولياء باتخاذ العنكبوت نسجه بيتا ولم يمثله بنسجه وذلك لوجهين (احدهما) ان نسجه فيه فائدة له لولاه لماحصل وهو اصطيادها الذباب به من غير ان يفوته ماهو اعظم منه واتخاذهم الاوثان وان كان يفيدهم ماهو أقل من الذباب من متاع الدنيا لكن يفوتهم ماهو اعظم منها وهو الدار الآخرة التى هى خير وابقى فليس اتخاذهم كنسج العنكبوت (الوجه الثانى) هو ان نسجه مفيد لكن اتخاذها ذلك بيتا امر باطل فكذلك هم لو اتخذوا الاوثان دلائل على وجود الله وصفات كماله وبراهين على نعوت اكرامه واوصاف جلاله لكان حكمة لكنهم اتخذوها اولياء كجعل العنكبوت النسج بيتا وكلاهما باطل (المسئلة الثالثة) كما ان هذا المثل صحيح فى الاول فهو صحيح فى الآخر فان بيت العنكبوت اذا هبت ريح لايرى منه عين ولا اثر بل يصير هباء منثورا فكذلك اعمالهم للاوثان كما قال تعالى وقدمنا الى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا (المسئلة الرابعة) قال مثل الذين اتخذوا من دون الله اولياء ولم يقل آلهة اشارة الى ابطال الشرك الخفى ايضا فان من عبد الله رياء لغيره فقد اتخذ ولياغيره فمثله مثل العنكبوت يتخذ نسجه بيتا ۞ ثم انه تعالى قال (وان اوهن البيوت لبيت العنكبوت لوكانوا يعلمون) اشارة الى مابينا ان كل بيت ففيه اما فائدة الاستظلال او غير ذلك وبيته يضعف عن افادة ذلك لانه يخرب بأدنى شئ ولايبقى منه عين ولا اثر فكذلك عملهم لوكانوا يعلمون ۞ ثم قال تعالى (ان الله يعلم مايدعون من دونه من شئ وهو العزيز الحكيم) قال الزمخشرى هذا زيادة توكيد على التمثيل حيث انهم لايدعون من دونه من شئ بمعنى مايدعون ليس بشئ وهو عزيز حكيم فكيف يجوز للعاقل ان يترك القادر الحكيم ويشتغل بعبادة ماليس بشئ اصلا وهذا فهم منه انه جعل ماناقية وهو صحيح والعلم يتعلق بالجملة كما يقول القائل انى أعلم ان الله واحد حق يعنى أعلم هذه الجملة وان كنا نجعل ماخبرية فيكون معناه مايدعون من شئ فالله يعلمه وهو العزيز الحكيم قادر على اعدامه واهلاكهم لكنه حكيم يمهلهم ليكون الهلاك عن بينة والحياة عن بينة ومن ههنا يكون الخطاب مع امة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى هذا لو قال قائل

(فبغى عليهم) فطلب الفضل عليهم وان يكونوا تحت امره اوظلمهم قيل وذلك حين ملكه فرعون على بنى اسرائيل وقيل حسدهم وذلك ماذكرمنه فى حق موسى وهرون عليهما السلام (٦٧٣) (وآتيناه من الكنوز) اى الاموال المدخرة (ماان مفاتحه) اى مفاتح صناديقه وهو جمع مفتح بالكسر وهو مايفتح به وقيل خزائنه وقياس واحدها المفتح بالفتح (لتنوء بالعصبة اولى القوة) خبر ان والجملة صلة ماهو ثانى مفعولى آتى وناء به الحمل اذا اثقله حتى اماله والعصبة والعصابة الجماعة الكثيرة وقرئ ليتوء بالياء على اعطاء المضاف حكم المضاف اليه كما فى قوله تعالى ان رحمة الله قريب من المحسنين (اذ قال له قومه) منصوب بتنوء وقيل ببغى ورد بأن البغى ليس مقيدا بذلك الوقت وقيل بآتيناه ورد بأن الايتاء ايضا غير مقيد به وقيل بمضمر فقيل هو اذكر وقيل هو اظهر الفرح ويجوز ان يكون منصوبا بمابعده من قوله تعالى قال انما اوتيته وتكون الجملة مقررة لبغيه (لاتفرح) اى لاتبطر والفرح فى الدنيا مذموم مطلقا لانه نتيجة حبها والرضا بها والذهول عن ذهابها فان العلم بأن مافيها من اللذة مفارقة لامحالة يوجب الترح حتما ولذلك قال تعالى ولاتفرحوا بما آتاكم وعلل النهى ههنا بكونه مانعا من محبته عز وعلا فقيل (ان الله لايحب الفرحين) اى بزخارف الدنيا (وابتغ) وقرئ واتبع (فيما آتاك الله) من الغنى (الدار الآخرة) اى ثواب الله تعالى فيها بصرفه الى مايكون وسيلة اليه (ولاتنس) اى لاتترك ترك المنسى (نصيبك من الدنيا) وهو ان تحصل بها آخرتك وتأخذ منها مايكفيك (واحسن) اى الى عباد الله تعالى (كما احسن الله اليك) فيما انعم به عليك وقيل احسن بالشكر والطاعة كما احسن الله اليك بالانعام (ولاتبغ الفساد فى الارض) نهى عما كان عليه من الظلم والبغى (ان الله لايحب (٨٥) (را) (س) المفسدين) لسوء افعالهم (قال) مجيبا لناصحيه (انما اوتيته على علم عندى) كأنه يريد به الرد على قولهم كما احسن الله اليك لانبائه عن انه تعالى انعم عليه بتلك الاموال والذخائر من غير سبب

ماوجه تعلق هذه الآية بالتمثيل السابق فنقول لما قال ان مثلهم كمثل العنكبوت فكان للكافر ان يقول انا لا اعبد هذه الاوثان التى اتخذها وهى تحت تسخيرى وانما هى صورة كوكب انا تحت تسخيره ومنه نفعى وضرى وخيرى وشرى ووجودى ودوامى فله سجودى واعظامى فقال الله تعالى ان الله يعلم ان كل ما يعبدون من دون الله هو مثل بيت العنكبوت لان الكوكب والملك وكل ما عدا الله لا ينفع ولا يضر الا باذن الله فعبادتكم للغائب كعبادتكم للحاضر ولا معبود الا الله ولا اله سواه * ثم قال تعالى (وتلك الامثال نضربها للناس) قال الكافرون كيف يضرب خالق الارض والسموات الامثال بالهوام والحشرات كالبعوض والذباب والعنكبوت فيقال الامثال تضرب للناس ان لم تكونوا كالانعام يحصل لكم منه ادراك ما يوجب نفرتكم مما انتم فيه وذلك لان التشبيه يؤثر فى النفس تأثيرا مثل تأثير الدليل فاذا قال الحكيم لمن يغتاب انك بالغيبة كأنك تأكل لحم ميت لانك وقعت فى هذا الرجل وهو غائب لا يفهم ما تقول ولا يسمع حتى يجيب كمن يقع فى ميت يأكل منه وهو لا يعلم ما يفعله ولا يقدر على دفعه ان كان يعلمه فينفر طبعه منه كما ينفر اذا قال له انه يوجب العقاب ويورث العتاب * ثم قال تعالى (وما يعقلها الا العالمون) يعنى حقيقتها وكون الامر كذلك لا يعلمه الا من حصل له العلم ببطلان ما سوى الله وفساد عبادة ما عداه وفيه معنى حكمى وهو ان العلم الحدسى يعلمه العاقل والعلم الفكرى الدقيق يعقله العالم وذلك لان العاقل اذا عرض عليه امر ظاهر ادركه كما هو بكنهه لكون المدرك ظاهرا وكون المدرك عاقلا ولا يحتاج الى كونه عالما باشياء قبله واما الدقيق فيحتاج الى علم سابق فلا بد من عالم ثم انه قد يكون دقيقا فى غاية الدقة فيدركه ولا يدركه بتمامه ويعقله اذا كان عالما اذا علم هذا فقوله وما يعقلها الا العالمون يعنى هو ضرب للناس امثالا وحقيقتها وما فيها من الفوائد بأسرها فلا يدركها الا العلماء * ثم انه تعالى لما امر الخلق بالايمان * واظهر الحق بالبرهان * ولم يأت الكفار بما امرهم به وقص عليهم قصصا فيها عبر * وانذرهم على كفرهم باهلاك من غبر * وبين ضعف دليلهم بالتمثيل * ولم يهتدوا بذلك الى سواء السبيل * وحصل يأس الناس عنهم سلى المؤمنين * بقوله (خلق الله السموات والارض بالحق ان فى ذلك لآية للمؤمنين) يعنى ان لم يؤمنوا هم لا يورث كفرهم شكا فى صحة دينكم * ولا يؤثر شكهم فى قوة يقينكم * فان خلق الله السموات والارض بالحق للمؤمنين بيان ظاهر * وبرهان باهر * وان لم يؤمن به على وجه الارض كافر * وفى الآية مسئلة يتبين بها تفسير الآية وهى ان الله تعالى كيف خص الآية فى خلق السموات والارض بالمؤمنين مع ان فى خلقهما آية لكل عاقل كما قال الله تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله وقال الله تعالى ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار الى ان قال لآيات لقوم يعقلون فنقول خلق السموات والارض آية لكل عاقل وخلقهما بالحق آية للمؤمنين فحسب وبيانه من حيث النقل والعقل اما النقل فقوله

وانه خلاق من قبله اى فضلت به على الناس واستوجبت به التفوق عليهم بالمال والجاه وعلى علم فى موقع الحال وهو علم التوراة وكان اعلمهم بها وقيل علم الكيمياء وقيل علم التجارة والدهقنة وسائر المكاسب وقيل (٦٧٤) علم فتح الكنوز والدفائن وعندى صفة له او متعلق بأوتيته كقولك جاز هذا عندى اى فى ظنى ورأيى (اولم يعلم ان الله قد اهلك من قبله من القرون من هو اشد منه قوة واكثر جمعا) توبيخ له من جهة الله تعالى على اغتراره بقوته وكثرة ماله مع علمه بذلك قراءة فى التوراة وتلقيا من موسى عليه السلام وسماعا من حفاظ التواريخ وتعجب منه فالمعنى ألم يقرأ التوراة ولم يعلم ما فعل الله تعالى بأضرابه من اهل القرون السابقة حتى لا يغتر بما اغتر به اورد لادعائه العلم وتعظمه به نفى هذا العلم منه فالمعنى اعلم ما ادعاه ولم يعلم هذا حتى يقى به نفسه مصارع الهالكين (ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) سؤال استعلام بل يعذبون بها بغتة كأن قارون لما هدد بذكر اهلاك من قبله ممن كان اقوى منه واغنى اكد ذلك بأن بين ان ذلك لم يكن مما يخص اولئك المهلكين بل الله تعالى مطلع على ذنوب كافة المجرمين يعاقبهم عليها لا محالة (فخرج على قومه) عطف على قال وما بينهما اعتراض وقوله تعالى (فى زينته) اما متعلق بخرج او بمحذوف هو حال من فاعله اى فخرج عليهم كائنا فى زينته قيل خرج على بغلة شهباء عليه الارجوان وعليها سرج من ذهب ومعه اربعة آلاف على زيه وقيل عليهم وعلى خيولهم الديباج الاحمر وعن يمينه ثلثمائة غلام وعن يساره ثلثمائة جارية بيض عليهن الحلى والديباج وقيل فى تسعين الفا عليهم المعصفرات وهو اول يوم رؤى فيه المعصفر (قال الذين يريدون الحيوة الدنيا من المؤمنين جريا على سنن الجبلة البشرية من الرغبة فى السعة واليسار (ياليت لنا مثل ما اوتى قارون) وعن قتادة انهم تمنوه ليتقربوا به الى الله تعالى وينفقوه فى سبل الخير وقيل كان المتمنون قوما كفارا (انه لذو حظ عظيم) تعليل لتمنيهم وتأكيد له (وقال الذين اوتوا العلم) اى باحوال الدنيا والآخرة كما (تعالى)

تعالى ماخلقهما الا بالحق ولكن اكثرهم لايعلمون اخرج اكثر الناس عن العلم بكون خلقهما بالحق مع انه اثبت علم الكل بانه خلقهما حيث قال ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله واما العقل فهو ان العاقل اول ماينظر الى خلق السموات والارض ويعلم ان لهما خالقا وهو الله ثم من يهديه الله لايقطع النظر عنهما عند مجرد ذلك بل يقول انه خلقهما متقنا محكما وهو المراد بقوله بالحق لان مالايكون على وجه الاحكام يفسد ويبطل فيكون باطلا واذا علم انه خلقهما متقنا يقول انه قادر كامل حيث خلق وعالم علمه شامل حيث اتقن فيقول لايعزب عن علمه اجزاء الموجودات فى الارض ولا فى السموات ولايعجز عن جمعها كما جمع اجزاء الكائنات والمبدئيات فيجوز بعث من فى القبور وبعثة الرسول ويعلم وحدانية الله لانه لو كان اكثر من واحد لفسدتا ولبطلتا وهما بالحق موجودان فيحصل له الايمان بتمامه * من خلق ماخلقه على احسن نظامه * ثم ان الله تعالى لما سلى المؤمنين بهذه الآية سلى رسوله ﷺ بقوله تعالى (اتل ما اوحى اليك من الكتاب واقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) يعنى ان كنت تأسف على كفرهم فاتل ما اوحى اليك لتعلم ان نوحا ولوطا وغيرهما كانوا على ماانت عليه بلغوا الرسالة وبالغوا فى اقامة الدلالة ولم ينقذوا قومهم من الضلالة والجهالة ولهذا قال اتل وما قال عليهم لان التلاوة ما كانت بعد اليأس منهم الا لتسلية قلب محمد عليه الصلاة والسلام وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) ان الرسول اذا كان معه كتاب وقرأ كتابه مرة ولم يسمع لم يبق له فائدة فى قراءته لنفسه فنقول الكتاب المنزل مع النبى المرسل ليس كذلك فان الكتب المسيرة مع الرسل على قسمين قسم يكون فيه سلام وكلام * مع واحد يحصل بقراءته مرة تمام المرام * وقسم يكون فيه قانون كلى تحتاج اليه الرعية فى جميع الاوقات كما اذا كتب الملك كتابا فيه انا رفعنا عنكم البدعة الفلانية ووضعنا فيكم السنة الفلانية وبعثنا اليكم هذا الكتاب فيه جميع ذلك فليكن ذلك كنوال ينسج عليه وال بعد وال * فمثل هذا الكتاب يقرأ ولايترك بل يعلق من مكان عال * وكثيرا ما تكتب نسخته على لوح ويثبت فوق المحاريب ويكون نصب الاعين فكذلك كتاب الله مع رسوله محمد قانون كلى فيه شفاء العالمين فوجب تلاوته مرة بعد مرة ليبلغ الى حد التواتر وينقله قرن الى قرن ويأخذه قوم من قوم ويثبت فى الصدور على مرور الدهور (الوجه الثانى) هو ان الكتب على ثلاثة اقسام كتاب لايتكرر قراءته الا للغير كالقصص فان من قرأ حكاية مرة لايقرؤها مرة اخرى الا لغيره ثم اذا سمعه ذلك الغير لايقرؤها الا لآخر لم يسمعه ولو قرأه عليه لسئم وملّ وكتاب لايتكرر عليه الا للنفس كالنحو والفقه وغيرهما وكتاب يتلى مرة بعد مرة للنفس وللغير كالمواعظ الحسنة فانها تكرر للغير وكلما سمعنا يلتذ بها ويرق لها قلبه ويستعيدها وكلما تدخل السمع يخرج الوسواس مع الدمع وتكرر ايضا لنفس المتكلم فان كثيرا ما يلتذ المتكلم بكلمة طيبة وكلما يعيدها يكون اطيب والذ وانبت فى القلب وانفذ حتى يكاد يبكى من رقته دما ولو اورثه البكا عمى

ينبغى وانما لم يوصفوا بارادة ثواب الآخرة تنبيها على ان العلم باحوال النشأتين يقتضى الاعراض عن الاولى والاقبال على الثانية حتما وان تمنى المتمنين ليس الا لعدم علمهم بهما (٦٧٥) كما ينبغى (ويلكم) دعاء بالهلاك شاع استعماله فى الزجر عما لا يرتضى (ثواب الله) فى الآخرة (خير) مما تمنونه (لمن آمن وعمل صالحا) فلا يليق بكم ان تمنوه غير مكتفين بثوابه تعالى (ولا يلقاها) اى هذه الكلمة التى تكلم بها العلماء والثواب فانه بمعنى المثوبة والجنة او الايمان والعمل الصالح فانهما فى معنى السيرة والطريقة (الا الصابرون) اى على الطاعات وعن الشهوات (فخسفنا به وبداره الارض) روى انه كان يؤذى موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه لقرابته حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل الف على واحد فحسبه فاستكثره فعمد الى ان يفضح موسى عليه السلام بين بنى اسرائيل فجعل لبغى من بغايا بنى اسرائيل الف دينار وقيل طشتا من ذهب مملوءة ذهبا فلما كان يوم عيد قام موسى عليه السلام خطيبا فقال من سرق قطعناه ومن زنى غير محصن جلدناه ومن زنى محصنا رجمناه فقال قارون ولو كنت قال ولو كنت قال ان بنى اسرائيل يزعمون انك فجرت بفلانة فاحضرت فناشدها عليه السلام ان تصدق فقالت جعل لى قارون جعلا على ان ارميك بنفسى فخر موسى ساجدا لربه يبكى ويقول يارب ان كنت رسولك فاغضب لى فاوحى اليه ان مر الارض بما شئت فانها مطيعة لك فقال يابنى اسرائيل ان الله بعثنى الى قارون كما بعثنى الى فرعون فمن كان معه فليلزم مكانه ومن كان معى فليعتزل عنه فاعتزلوا جميعا غير رجلين ثم قال يا ارض خذيهم فاخذتهم الى الركب ثم قال خذيهم فأخذتهم الى الاوساط ثم قال خذيهم فاخذتهم الى الاعناق وهم يناشدونه عليه الصلاة والسلام بالله تعالى وبالرحم وهو لايلتفت اليهم لشدة غيظه ثم قال خذيهم فانطبقت عليهم فاصبحت بنو اسرائيل يتناجون بينهم انما دعا عليه موسى عليه الصلاة والسلام ليستبد بداره وكنوزه فدعا الله تعالى حتى خسف بداره وامواله (فما

كان له من فئة) جماعة مشفقة (ينصرونه من دون الله) بدفع العذاب عنه (وما كان من المنتصرين) اى الممتنعين منه بوجه من الوجوه يقال نصره من عدوه فانتصر اى منعه فامتنع (واصبح الذين تمنوا مكانه) منزلته (٦٧٦) (بالامس) منذ زمان قريب (يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) اى يفعل كل واحد من البسط والقدر بمحض مشيئته لا لكرامة توجب البسط ولا لهوان يقتضى القبض وويكأن عند البصريين مركب من وى للتعجب وكأن للتشبيه والمعنى ما اشبه الامر ان الله يبسط الخ وعند الكوفيين من ويك بمعنى ويلك وان وتقديره ويك اعلم ان الله وانما يستعمل عند التنبيه على الخطأ والتندم والمعنى انهم قد تنبهوا على خطئهم فى تمنيهم وتندموا على ذلك (لولا ان من الله علينا) بعدم اعطائه ايانا ما تمنيناه واعطائنا مثل ما اعطاه اياه وقرئ لولا من الله علينا (لخسف بنا) كما خسف به وقرئ لخسف بنا على البناء للفعول وبنا هو القائم مقام الفاعل وقرئ لانخسف بنا كقولك انقطع به وقرئ لتخسف بنا (ويكأنه لا يفلح الكافرون) لنعمة الله تعالى او المكذبون برسله وبما وعدوا من ثواب الآخرة (تلك الدار الآخرة) اشارة تعظيم وتفخيم كأنه قيل تلك التى سمعت خبرها وبلغك وصفها (نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض) اى غلبة وتسلطا (ولا فسادا) اى ظلما وعدوانا على العباد كدأب فرعون وقارون وفى تعليق الموعد بترك ارادتهما لا بترك انفسهما مزيد تحذير منهما وعن على رضى الله عنه ان الرجل ليعجبه ان يكون شراك نعله اجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها (والعاقبة) الحميدة (للمتقين) اى الذين يتقون ما لا يرضاه الله تعالى من الافعال والاقوال (من جاء بالحسنة فله) بمقابلتها (خير منها) ذاتا ووصفا وقدرا (ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات) وضع فيه الموصول والظاهر موضع الضمير لتهجين حالهم بتكرير اسناد السيئة اليهم (الا ما كانوا يعملون) الا مثل ما كانوا يعملون فحذف المثل واقيم مقامه

اذا علم هذا فالقرآن من القبيل الثالث مع ان فيه القصص والفقه والنحو فكان فى تلاوته فى كل زمان فائدة (المسئلة الثانية) لم خصص بالامر هذين الشيئين تلاوة الكتاب واقامة الصلاة فنقول لوجهين (احدهما) ان الله لما اراد تسلية قلب محمد عليه السلام قال له الرسول واسطة بين طرفين من الله الى الخلق فاذا لم يتصل به الطرف الواحد ولم يقبلوه فالطرف الآخر متصل ألا ترى ان الرسول اذا لم تقبل رسالته توجه نحو مرسله فاذا تلوت كتابك ولم يقبلوك فوجه وجهك الى واقم الصلاة لوجهى (الوجه الثانى) هو ان العبادات المختصة بالعبد ثلاثة قلبية وهى الاعتقاد الحق ولسانية وهى الذكر الحسن وبدنية خارجية وهى العمل الصالح لكن الاعتقاد لا يتكرر فان من اعتقد شيئا لا يمكنه ان يعتقده مرة اخرى بل ذلك يدوم مستمرا والنبى عليه السلام كان ذلك حاصلا له عن عيان اكمل مما يحصل عن بيان فلم يؤمر به لعدم امكان تكراره لكن الذكر ممكن التكرار والعبادة البدنية كذلك فأمره بهما فقال اتل الكتاب وأقم الصلاة (المسئلة الثالثة) كيف تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر نقول قال بعض المفسرين المراد من الصلاة القرآن وهو ينهى اى فيه النهى عنهما وهو بعيد لان ارادة القرآن من الصلاة فى هذا الموضع الذى قال قبله اتل ما اوحى اليك بعيد من الفهم وقال بعضهم اراد به نفس الصلاة وهى تنهى عنهما ما دام العبد فى الصلاة لانه لا يمكنه الاشتغال بشئ منهما فنقول هذا كذلك لكن ليس المراد هذا والا لا يكون مدحا كاملا للصلاة لان غيرها من الاشتغال كثيرا ما يكون كذلك كالنوم فى وقته وغيره فنقول المراد ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر مطلقا وعلى هذا قال بعض المفسرين الصلاة هى التى تكون مع الحضور لله هى تنهى حتى نقل عنه صلى الله عليه وسلم من لم تنهه صلاته عن المعاصى لم يزدد بها الا بعدا ونحن نقول الصلاة الصحيحة شرعا تنهى عن الامرين مطلقا وهى التى اتى بها المكلف لله حتى لو قصد بها الرياء لا تصح صلاته شرعا يجب عليه الاعادة وهذا ظاهر فان من نوى بوضوئه الصلاة والتبرد قيل لا يصح فكيف من نوى بصلاته الله وغيره اذا ثبت هذا فنقول الصلاة تنهى من وجوه (الاول) هو ان من كان يخدم ملكا عظيم الشأن كثير الاحسان ويكون عنده بمنزلة ويرى عبدا من عباده قد طرده طردا لا يتصور قبوله وفاته الخير بحيث لا يرجى حصوله يستحيل من ذلك المقرب عرفا ان يترك خدمة الملك ويدخل فى طاعة ذلك المطرود فكذلك العبد اذا صلى لله صار عبدا له وحصل له منزلة المصلى يناجى ربه فيستحيل منه ان يترك عبادة الله ويدخل تحت طاعة الشيطان المطرود لكن مرتكب الفحشاء والمنكر تحت طاعة الشيطان فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر (الثانى) هو ان من يباشر القاذورات كالزبال والكناس يكون له لباس نظيف اذا لبسه لا يباشر معه القاذورات وكلما كان ثوبه ارفع يكون امتناعه وهو لابسه عن القاذورات اكثر فاذا لبس واحد منهم ثوب ديباج مذهب يستحيل منه مباشرة تلك الاشياء عرفا فكذلك العبد اذا صلى لبس لباس التقوى لانه واقف بين يدى

الله واضع يمينه على شماله على هيئة من يقف بمرأى ملك ذى هيبة ولباس التقوى خير لباس يكون نسبته الى القلب أعلى من نسبة الديباج المذهب الى الجسم فاذن من لبس هذا اللباس يستحيل منه مباشرة قاذورات الفحشاء والمنكر ثم ان الصلوات متكررة واحدة بعد واحدة فيدوم هذا اللبس فيدوم الامتناع (الثالث) من يكون امير نفسه يجلس حيث يريد فاذا دخل فى خدمة ملك وأعطاه منصباله مقام خاص لا يجلس صاحب ذلك المنصب الا فى ذلك الموضع فلو أراد ان يجلس فى صف النعال لا يترك فكذلك العبد اذا صلى دخل فى طاعة الله ولم يبق بحكم نفسه وصار له مقام معين اذ صار من اصحاب اليمين فلو أراد أن يقف فى غير موضعه وهو موقف اصحاب الشمال لا يترك لكن مرتكب الفحشاء والمنكر من اصحاب الشمال وهذا الوجه اشارة الى عصمة الله يعنى من صلى عصمه الله عن الفحشاء والمنكر (الرابع) وهو موافق لما وردت به الاخبار وهو ان من يكون بعيدا عن الملك كالسوقى والبادى والمتعيش لا يبالى بما فعل من الافعال يأكل فى دكان الهراس والرواس ويجلس مع احباش الناس فاذا صارت له قربة يسيرة من الملك كما اذا صار واحدا من الجندارية والقواد والسواس عند الملك لا تمنعه تلك القربة من تعاطى ما كان يفعله فاذا ازدادت قربته وارتفعت منزلته حتى صار أميرا حينئذ تمنعه هذه المنزلة عن الاكل فى ذلك المكان والجلوس مع أولئك الخلان كذلك العبد اذا صلى وسجد صار له قربة ما لقوله تعالى واسجد واقترب فاذا كان ذلك القدر من القربة يمنعه من المعاصى والمناهى فبتكرر الصلاة والسجود تزداد مكانته حتى يرى على نفسه من آثار الكرامة ما يستقذر معه من نفسه الصغائر فضلا عن الكبائر وفى الآية وجه آخر نقول يؤكده المنقول وهو ان المراد من قوله ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر هو انها تنهى عن التعطيل والاشراك والتعطيل هو انكار وجود الله والاشراك اثبات الوهية لغير الله فنقول التعطيل عقيدة فحشاء لان الفاحش هو القبيح الظاهر القبح لكن وجود الله اظهر من الشمس وما من شئ الا وفيه آية على الله ظاهرة وانكار الظاهر ظاهر الانكار فالقول بأن لا اله قبيح والاشراك منكر وذلك لان الله تعالى لما اطلق اسم المنكر على من نسب نفسه الى غير الوالد مع جواز ان يكون له ولد حيث قال ان امهاتهم الا اللائى ولدنهم وانهم ليقولون منكرا من القول فالمشرك الذى يقول الملائكة بنات الله وينسب الى من لم يلد ولا يجوز ان يكون له ولد ولدا كيف لا يكون قوله منكرا فالصلاة تنهى عن هذه الفحشاء وهذا المنكر وذلك لان العبد اول ما يشرع فى الصلاة يقول الله اكبر فبقوله الله ينفى التعطيل وبقوله اكبر ينفى التشريك لان الشريك لا يكون اكبر من الشريك الآخر فيما فيه الاشتراك فاذا قال بسم الله نفى التعطيل واذا قال الرحمن الرحيم نفى الاشراك لان الرحمن من يعطى الوجود بالخلق بالرحمة والرحيم من يعطى البقاء بالرزق بالرحمة فاذا قال الحمد لله رب العالمين اثبت بقوله الحمد لله خلاف التعطيل وبقوله رب العالمين خلاف

ما كانوا يعملون مبالغة فى المماثلة (ان الذى فرض عليك القرآن) اوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل به (لرادك الى معاد) اى معاد معاد تمتد اليه اعناق الهمم وترنو اليه احداق الامم وهو المقام المحمود الذى وعدك ان يبعثك فيه وقيل هو مكة المعظمة على انه تعالى قد وعده وهو بمكة فى اذية وشدة من اهلها انه يهاجر به منها ثم يعيده اليها بعز ظاهر وسلطان قاهر وقيل نزلت عليه حين بلغ الجحفة فى مهاجره وقد اشتاق الى مولده ومولد آبائه وحرم ابراهيم عليه السلام فنزل جبريل عليه السلام فقال له أتشتاق الى مكة قال نعم فأوحاها اليه (قل ربى اعلم من جاء بالهدى) وما يستحقه من الثواب والنصر ومن منتصب بفعل يدل عليه اعلم اى يعلم وقيل بأعلم على انه بمعنى عالم (ومن هو فى ضلال مبين) وما يستحقه من العذاب والاذلال يعنى بذلك نفسه والمشركين وهو تقرير للوعيد السابق وكذا قوله تعالى (وما كنت ترجوا ان يلقى اليك الكتاب) اى سيردك الى معادك كما القى اليك الكتاب وما كنت ترجوه (الا رحمة من ربك) ولكن القى اليك رحمة منه ويجوز ان يكون استثناء محمولا على المعنى كأنه قيل وما القى اليك الكتاب الا رحمة اى لاجل الترحم (فلا تكونن ظهيرا للكافرين) بمداراتهم والتحمل عنهم والاجابة الى طلبتهم (ولا يصدنك) اى الكافرون (عن آيات الله) اى عن قراءتها والعمل بها (بعد اذ انزلت اليك) وفرضت عليك وقرئ يصدنك من اصد المنقول من صد اللازم (وادع) الناس (الى ربك) الى عبادته وتوحيده (ولا تكونن من المشركين) بمساعدتهم فى الامور (ولا تدع مع الله الها آخر) هذا وما قبله للتهييج والالهاب وقطع اطماع المشركين من مساعدته عليه الصلاة والسلام لهم واظهار ان المنهى عنه فى القبح والشرية بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره عنه اصلا

الاشراك فاذا قال اياك نعبد بتقديم اياك نفى التعطيل والاشراك وكذا بقوله واياك نستعين فاذا قال اهدنا الصراط نفى التعطيل لان طالب الصراط له مقصد والمعطل لامقصد له وبقوله المستقيم نفى الاشراك لان المستقيم هو الاقرب والمشرك يعبد الاصنام حتى يعبد صورة صورها اله العالمين ويظنون انهم يشفعون لهم وعبادة الله من غير واسطة أقرب وعلى هذا الى آخر الصلاة يقول فيها اشهد ان لا اله الا الله فينفى الاشراك والتعطيل (وههنا لطيفة) وهى ان الصلاة اولها لفظة الله وآخرها لفظة الله فى قوله اشهد ان لا اله الا الله ليعلم المصلى انه من اول الصلاة الى آخرها مع الله فان قال قائل فقد بقى من الصلاة قوله واشهد ان محمدا رسول الله والصلاة على الرسول والتسليم فنقول هذه الاشياء فى آخرها دخلت لمعنى خارج من ذات الصلاة وذلك لان الصلاة ذكر الله لا غير لكن العبد اذا وصل بالصلاة الى الله وحصل مع الله لا يقع فى قلبه انه استقل واستبد واستغنى عن الرسول كمن تقرب من السلطان فيغتر بذلك ولا يلتفت الى النواب والحجاب فقال أنت فى هذه المنزلة الرفيعة بهداية محمد صلى الله عليه وسلم وغير مستغن عنه فقل مع ذكرى محمد رسول الله ثم اذا علمت ان هذا كله ببركة هدايته فاذكر احسانه بالصلاة عليه ثم اذا رجعت من معراجك وانتهيت الى اخوانك فسلم عليهم وبلغهم سلامى كما هو ترتيب المسافرين واعلم ان هيئة الصلاة هيئة فيها هيبة فان اولها وقوف بين يدى الله كوقوف المملوك بين يدى السلطان ثم ان آخرها جثو بين يدى الله كما يجثو بين يدى السلطان من أكرمه بالاجلاس كأن العبد لما وقف واثنى على الله اكرمه الله وأجلسه جثيا (وفى هذا الجثو لطيفة) وهى ان من جثا فى الدنيا بين يدى ربه هذا الجثو لا يكون له جثو فى الآخرة ولا يكون من الذين قال الله فى حقهم ونذر الظالمين فيها جثيا ❊ ثم قال تعالى (ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون) لما ذكر امرين وهما تلاوة الكتاب واقامة الصلاة بين ما يوجب ان يكون الاتيان بهما على ابلغ وجوه التعظيم فقال ولذكر الله اكبر وانتم اذا ذكرتم آباءكم بما فيهم من الصفات الحسنة تبتشون بذلك وتذكرونهم بملء افواهكم وقلوبكم لكن ذكر الله اكبر فينبغى ان يكون على ابلغ وجوه التعظيم واما الصلاة فكذلك لان الله يعلم ما تصنعون وهذا أحسن صنعكم فينبغى ان يكون على وجه التعظيم وفى قوله ولذكر الله اكبر مع حذف بيان ما هو اكبر منه لطيفة وهى ان الله لم يقل اكبر من ذكر فلان لان ما نسب الى غيره بالكبر فله اليه نسبة اذ لا يقال الجبل اكبر من خردلة وانما يقال هذا الجبل اكبر من ذلك الجبل فاسقط المنسوب كأنه قال ولذكر الله له الكبر لا لغيره وهذا كما يقال فى الصلاة الله أكبر اى له الكبر لا لغيره ❊ ثم قال تعالى (ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتى هى احسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى انزل الينا وانزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون وكذلك انزلنا اليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا الا الكافرون) لما بين الله طريقة ارشاد المشركين ونفع من انتفع

(لا اله الا هو) وحده (كل شئ هالك الا وجهه) الا اياه فان ما عداه كائنا ما كان ممكن فى حد ذاته عرضة للهلاك والعدم (له الحكم) اى القضاء النافذ فى الخلق (واليه ترجعون) عند البعث للجزاء بالحق والعدل ❊ عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ طسم القصص كان له من الاجر بعدد من صدق موسى وكذب ولم يبق ملك فى السموات والارض الا شهد له يوم القيامة انه كان صادقا

❊ (سورة العنكبوت مكية)
(وهى تسع وستون آية) ❊

❊ (بسم الله الرحمن الرحيم) ❊

(الم) الكلام فيه كالذى مر مرارا فى نظائره من الفواتح الكريمة خلا ان ما بعده لا يحتمل ان يتعلق به تعلقا اعرابيا (احسب الناس) الحسبان ونظائره لا يتعلق بمعانى المفردات بل بمضامين الجمل المفيدة لثبوت شئ لشئ او انتفائه عن شئ بحيث يتحصل منها مفعولاه اما بالفعل كما فى عامة المواقع واما بنوع تصرف فيها كما فى الجمل المصدرة بان والواقعة صلة للموصول الاسمى او الحرفى فان كلا منها صالحة لان يسبك منها مفعولاه لان قوله تعالى احسب الناس (ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) فى قوة ان يقال احسبوا انفسهم متروكين بلا فتنة بمجرد ان يقولوا آمنا او ان يقال احسبوا تركهم غير مفتونين بقولهم آمنا حاصلا متحققا والمعنى انكار الحسبان المذكور واستبعاده وتحقيق انه تعالى يمتحنهم بمشاق التكاليف كالمهاجرة والمجاهدة ورفض ما تشتهيه النفس ووظائف الطاعات وفنون المصائب فى الانفس والاموال ليتميز المخلص من المنافق والراسخ فى الدين من المتزلزل فيه ويجازيهم بحسب مراتب اعمالهم فان مجرد الايمان وان كان عن خلوص لا يقتضى غير الخلاص من الخلود فى النار روى انها نزلت فى ناس من الصحابة (وحصل)

وحصل اليأس ممن امتنع بين طريقة ارشاد اهل الكتاب فقال ولاتجادلوا اهل الكتاب الابالتى هى احسن قال بعض المفسرين المراد منه لاتجادلوهم بالسيف وان لم يؤمنوا الاالذين ظلموا وحاربوا اى اذا ظلموا ازادوا على كفرهم (وفيه معنى الطف منه) وهوان المشرك جاء بالمنكر على مابيناه فكان اللائق ان يجادل بالاخشن ويبالغ فى تهجين مذهبه وتوهين شبهه ولهذا قال تعالى فى حقهم صم بكم عمى وقال لهم اعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها الى غير ذلك واما اهل الكتاب فجاؤا بكل حسن الا الاعتراف بالنبى عليه السلام فوحدوا وآمنوا بانزال الكتب وارسال الرسل والحشر فلمقابلة احسانهم يجادلون او لا بالاحسن ولاتستخف آراؤهم ولا ينسب الى الضلال آباؤهم بخلاف المشرك ثم على هذا فقوله الا الذين ظلموا تبين له حسن آخر وهو ان يكون المراد الا الذين اشركوا منهم باثبات الولد لله والقول بثالث ثلاثة فانهم ضاهوهم فى القول المنكر فهم الظالمون لان الشرك ظلم عظيم فيجادلون بالاخشن من تهجين مقالتهم وتبيين جهالتهم ثم انه تعالى بين ذلك الاحسن فقدم محاسنهم بقوله وقولوا آمنا بالذى انزل الينا وانزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون فيلزمنا اتباع ماقاله لكنه بين رسالتى فى كتبكم فهو دليل مضى ثم بعد ذلك ذكر دليلا قياسيا فقال وكذلك انزلنا اليك الكتاب يعنى كما انزلنا على من تقدمك انزلنا عليك وهذا قياس ثم قال فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به لوجود النص ومن هؤلاء كذلك واختلف المفسرون فقال بعضهم المراد بالذين آتيناهم الكتاب من آمن بنبينا من اهل الكتاب كعبدالله بن سلام وغيره وبقوله ومن هؤلاء اى من اهل مكة وقال بعضهم المراد بالذين آتيناهم الكتاب هم الذين سبقوا محمدا صلى الله عليه وسلم زمانا من اهل الكتاب ومن هؤلاء الذين هم فى زمان محمد صلى الله عليه وسلم من اهل الكتاب وهذا اقرب فان قوله هؤلاء صرفه الى اهل الكتاب اولى لان الكلام فيهم ولا ذكر للمشركين ههنا اذكان هذا الكلام بعد الفراغ من ذكرهم والاعراض عنهم لاصرارهم على الكفر (وههنا وجه آخر) اولى واقرب الى العقل والنقل واقرب الى الاحسن من الجدال المأموربه وهو ان نقول المراد بالذين آتيناهم الكتاب هم الانبياء وبقوله ومن هؤلاء اى من اهل الكتاب وهو اقرب لان الذين آتاهم الكتاب فى الحقيقة هم الانبياء فان الله ما آتى الكتاب الا للانبياء كما قال تعالى اولئك الذين آتيناهم الكتاب وقال وآتينا داود زبورا وقال وآتانى الكتاب واذا حملنا الكلام على هذا لايدخله التخصيص لان كل الانبياء آمنوا بكل الانبياء واذا قلنا بما قالوا به يكون المراد من الذين آتيناهم الكتاب عبدالله بن سلام واثنين او ثلاثة معه او عددا قليلا ويكون المراد بقوله ومن هؤلاء غير المذكورين وعلى ماذكرنا يكون مخرج الكلام كانه قسم القوم قسمين احدهما المشركون وتكلم فيهم وفرغ منهم والثانى اهل الكتاب وهو بعد فى بيان امرهم والوقت وقت جريان ذكرهم فاذا قال هؤلاء يكون منصرفا الى اهل الكتاب الذين هو وصفهم واذا قال اولئك يكون

رضوان الله تعالى عليهم اجمعين جزعوا من اذية المشركين وقيل فى عمار قد عذب فى الله وقيل فى مهجع مولى عمر ابن الخطاب رضى الله عنهما رماه عامر بن الحضرمى بسهم يوم بدر فقتله فجزع عليه ابواه وامرأته وهو اول من استشهد يومئذ من المسلمين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد الشهداء مهجع وهو اول من يدعى الى باب الجنة من هذه الامة (ولقد فتنا الذين من قبلهم) متصل بقوله تعالى احسب اوبقوله تعالى لايفتنون والمعنى ان ذلك سنة قديمة مبنية على الحكم البالغة جارية فيما بين الامم كلها فلا ينبغى ان يتوقع خلافها والمعنى ان الامم الماضية قد اصابهم من ضروب الفتن والمحن ماهو اشد مما اصاب هؤلاء فصبروا كما يعرب عنه قوله تعالى وكاين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما اصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا الآيات وعن النبى عليه الصلاة والسلام قد كان من قبلكم يؤخذ فيوضع المنشار على رأسه فيفرق فرقتين مايصرفه ذلك عن دينه ويمشط بامشاط الحديد مادون عظمه من لحم وعصب مايصرفه ذلك عن دينه (فليعلمن الله الذين صدقوا) اى فى قولهم آمنا (وليعلمن الكاذبين) فى ذلك والفاء لترتيب مابعدها على ماينفصح عنه ماقبلها من وقوع الامتحان واللام جواب القسم والالتفات الى الاسم الجليل لادخال الروعة وتربية المهابة وتكرير الجواب لزيادة التأكيد والتقرير اى فوالله ليتعلقن علمه بالامتحان تعلقا حاليا يتميز به الذين

منصرفا الى المشركين الذين سبق ذكرهم وتحقق امرهم وعلى هذا التفسير يكون الجدال على احسن الوجوه وذلك لان الخلاف في الانبياء والائمة قريب من الخلاف في فضيلة الرؤساء والملوك فاذا اختلف حزبان في فضيلة ملكين او رئيسين وادى الاختلاف الى الاقتتال يكون اقوى كلام يصلح بينهم ان يقال لهم هذان الملكان متوافقان متصادقان فلا معنى لنزاعكم فكذلك ههنا قال النبي صلى الله عليه وسلم نحن آمنا بالانبياء وهم آمنوا بي فلا معنى لتعصبكم لهم وكذلك أكابركم وعلماؤكم آمنوا ثم قال تعالى وما يجحد بآياتنا الا الكافرون تنفيرا لهم عما هم عليه يعني انكم آمنتم بكل شئ وامتزتم عن المشركين بكل فضيلة الا هذه المسئلة الواحدة وبانكارها تلتحقون بهم وتبطلون مزاياكم فان الجاحد بآية يكون كافرا * ثم قال تعالى (وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك) هذه درجة اخرى بعد ما تقدم على الترتيب وذلك لان المجادل اذا ذكر مسئلة مختلفا فيها كقول القائل الزكاة تجب في مال الصغير فاذا قيل له لم فيقول كما تجب النفقة في ماله ولا يذكر اولا الجامع بينهما فان فهم الطالب بمجرد التشبيه ويدرك من نفسه الجامع فذاك وان لم يدرك او لم يقنع يبدى الجامع فيقول كلاهما مال فضل عن الحاجة فيجب فكذلك ههنا ذكر اولا التمثيل بقوله وكذلك انزلنا اليك ثم ذكر الجامع وهو المعجزة فقال ما علم كون تلك الكتب منزلة الا بالمعجزة وهذا القرآن ممن لم يكتب ولم يقرأ عين المعجزة فيعرف كونه منزلا * وقوله تعالى (اذا لارتاب المبطلون) فيه معنى لطيف وهو ان النبي اذا كان قارئا كاتبا ما كان يوجب كون هذا الكلام كلامه فان جميع كتبة الارض وقرائها لا يقدرون عليه لكن على ذلك التقدير يكون للمبطل وجه ارتياب وعلى ما هو عليه لا وجه لارتيابه فهو ادخل في الابطال وهذا كقوله تعالى وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله اى من مثل محمد عليه السلام وكقوله الم ذلك الكتاب لا ريب فيه * ثم قال تعالى (بل هو آيات بينات في صدور الذين اوتوا العلم) قوله في صدور الذين اوتوا العلم اشارة الى انه ليس من مخترعات الآدميين لان من يكون له كلام مخترع يقول هذا من قلبي وخاطري واذا حفظه من غيره يقول انه في قلبي وصدري فاذا قال في صدور الذين اوتوا العلم لا يكون من صدر احد منهم والجاهل يستحيل منه ذلك فلا ظهور له من الصدور ويلتحقون عند هذه الامة بالمشركين فظهوره من الله * ثم قال تعالى (وما يجحد بآياتنا الا الظالمون) قال ههنا الظالمون ومن قبل قال الكافرون مع ان الكافر ظالم ولا تنافي بين الكلامين وفيه فائدة وهي انهم قبل بيان المعجزة قيل لهم ان لكم المزايا فلا تبطلوها بانكار محمد فتكونوا كافرين فلفظ الكافر هناك كان بليغا يمنعهم من ذلك لاستنكافهم عن الكفر ثم بعد بيان المعجزة قال لهم ان جحدتم هذه الآية يلزمكم انكار ارسال الرسل فتلتحقون في اول الامر بالمشركين حكما وتلتحقون عند هذه الآية بالمشركين حقيقة فتكونوا ظالمين اى مشركين كما بينا ان الشرك ظلم عظيم فهذا اللفظ ههنا ابلغ وذلك اللفظ هناك ابلغ * ثم قال تعالى

(وقالوا)

صدقوا في الايمان الذى اظهروه والذين هم كاذبون فيه مستمرون على الكذب ويترتب عليه اجزيتهم من الثواب والعقاب ولذلك قيل المعنى ليجزين وليعاقبن وقرئ وليعلمن من الاعلام اى وليعرفنهم الناس او ليسمنهم بسمة يعرفون بها يوم القيامة كبياض الوجوه وسوادها (أم حسب الذين يعملون السيئات ان يسبقونا) ان يفوتونا فلا نقدر على مجازاتهم بمساوى اعمالهم وهو ساد مسد مفعولى حسب لاشتماله على مسند ومسند اليه وأم منقطعة وما فيها من معنى بل للاضراب والانتقال عن التوبيخ بانكار حسبانهم متروكين غير مفتونين الى التوبيخ بانكار ما هو أبطل من الحسبان الاول وهو حسبانهم ان لا يجازوا بسيئاتهم وهم وان لم يحسبوا أنهم يفوتونه تعالى ولم يحدثوا نفوسهم بذلك لكنهم حيث أصروا على المعاصي ولم يتفكروا في العاقبة نزلوا منزلة من يطمع في ذلك كما في قوله تعالى يحسب ان ماله اخلده (ساء ما يحكمون) اى بئس الذى يحكمونه حكمهم ذلك او بئس حكما يحكمونه حكمهم ذلك (من كان يرجو لقاء الله) اى يتوقع ملاقاة جزائه ثوابا او عقابا او ملاقاة حكمه يوم القيامة وقيل

يرجو لقاء الله عز وجل فى الجنة وقيل يرجو ثوابه وقيل يخاف عقابه وقيل لقاؤه تعالى عبارة عن الوصول الى العاقبة من تلقى ملك الموت والبعث والحساب والجزاء على تمثيل (٦٩١) تلك الحال بحال عبد قدم على سيده بعد عهد طويل وقد علم مولاه بجميع ما كان

(وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه قل انما الآيات عند الله وانما انا نذير مبين) لما فرغ من ذكر دليل من جانب النبي عليه السلام ذكر شبهتهم وهي بذكر الفرق بين المقيس عليه والمقيس فقالوا انك تقول انه انزل اليك كتاب كما انزل الى موسى وعيسى وليس كذلك لان موسى أوتى تسع آيات علم بها كون الكتاب من عند الله وانت ما أوتيت شيئا منها ثم ان الله تعالى ارشد نبيه الى أجوبة هذه الشبهة منها قوله انما الآيات عند الله ووجهه ان النبي صلى الله عليه وسلم ادعى الرسالة وليس من شرط الرسالة الآية والمعجزة لان الرسول يرسل أولا ويدعو الى الله ثم ان توقف الخلق فى قبوله او طلبوا منه دليلا فالله ان رحمهم بين رسالته وان لم يرحمهم لايبين فقال انا الساعة رسول واما الآية فالله ان أراد ينزلها وان لم يرد لاينزلها وهذا لان ماهو من ضرورات الشئ اذا خلق الله الشئ لابد من ان يخلقها كالمكان من ضرورات الانسان فلا يخلق الله انسانا الا ويكون قد خلق مكانا او يخلقه معه لكن الرسالة والمعجزة ليستا كذلك فالله اذا خلق رسولا وجعله رسولا ليس من ضروراته ان تعلم له معجزة ولهذا علم وجود رسل كشيث وادريس وشعيب ولم تعلم لهم معجزة فان قيل علم رسالتهم بقول من ثبتت رسالته بلا معجزة فنبينا كذلك لاحاجة له الى معجزة لان رسالته علمت بقول موسى وعيسى فتبين بطلان قولهم لم لم ينزل عليه آية وهذا لانهم طلبوا سبق الآية وليست شرطا حتى تسبقها بلى ان كان لهم سؤال فطريقه ان يقولوا ياأيها المدعى نحن لانكذبك ولانصدقك لكنا نريد ان يبين الله لنا آية تخلصنا من تصديق المتنبى وتكذيب النبي ونعلم بها كونك نبيا ونؤمن بك فبعد ذلك ما كان يبعد من رحمة الله ان ينزل آية ثم قوله وانما انا نذير مبين معناه ان الآية عند الله ينزلها او لاينزلها لاتعلق لى ما انا الا نذير وليس لى عليه حكم بشئ ثم انه بعد بيان فساد شبهتهم من وجه بين فسادها من وجه آخر وقال هب ان انزال الآية شرط لكنه وجد وهو فى نفس الكتاب فقال تعالى (اولم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) يعنى ان كان انزال الآية شرطا فلا يشترط الا انزال آية وقد انزل وهو القرآن فانه معجزة ظاهرة باقية وقوله أولم يكفهم عبارة تنبئ عن كون القرآن آية فوق الكفاية وذلك لان القائل اذا قال أما يكفى للمسئ ان لايضرب حتى يتوقع الاكرام ينبئ عن ان ترك الضرب فى حقه كثير فكذلك قوله أولم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب وهذا لان القرآن معجزة أتم من كل معجزة تقدمتها لوجوه (احدها) ان تلك المعجزات وجدت وما دامت فان قلب العصا ثعبانا واحياء الميت لم يبق لنا منه اثر فلو لم يكن واحد يؤمن بكتب الله ويكذب بوجود هذه الاشياء لايمكن اثباتها معه بدون الكتاب واما القرآن فهو باق لو انكره واحد فنقول له فأت بآية من مثله (الثانى) هو ان قلب العصا ثعبانا كان فى مكان واحد ولم يره من لم يكن فى ذلك المكان واما القرآن فقد وصل الى المشرق والمغرب وسمعه كل احد (وههنا لطيفة) وهي ان آيات النبي عليه السلام كانت أشياء لاتختص بمكان دون مكان لان من جملتها انشقاق القمر وهو يعم الارض لان

يأتى ويذر فاما أن يلقاه ببشر وكرامة لما رضى من افعاله او بضده لما سخطه (فان اجل الله) الاجل عبارة عن غاية زمان ممتد عينت لامر من الامور وقد يطلق على كل ذلك الزمان والاول هو الاشهر فى الاستعمال اى فان الوقت الذى عينه تعالى لذلك (لآت) لامحالة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه لان اجزاء الزمان على التقضى والتصرم دائما فلابد من اتيان ذلك الجزء ايضا البتة واتيان وقته موجب لاتيان اللقاء حتما والجواب محذوف اى فليختر من الاعمال مايؤدى الى حسن الثواب وليحذر مايسوءه الى سوء العذاب كما فى قوله تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا وفيه من الوعد والوعيد مالايخفى وقيل فليبادر ما يحقق امله ويصدق رجاءه اوما يوجب القربة والزلفى (وهو السميع) لاقوال العباد (العليم) بأحوالهم من الاعمال الظاهرة والعقائد (ومن جاهد) فى طاعة الله عز وجل (فانما يجاهد لنفسه) لعود منفعتها اليها (ان الله لغنى عن العالمين) فلاحاجة له الى طاعتهم وانما امرهم بها تعريضا لهم للثواب بموجب رحمته (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم) الكفر بالايمان والمعاصى بمايتبعها من الطاعات (ولنجزينهم احسن الذى كانوا يعملون) اى احسن جزاء اعمالهم لاجزاء احسن اعمالهم فقط (ووصينا الانسان بوالديه حسنا) اى بايتاء والديه وايلائهما فعلا ذا حسن اوما هو فى حد ذاته حسن لفرط حسنه كقوله تعالى وقولوا للناس (٨٦) (ر) (س) حسنا ووصى يجرى مجرى امر معنى وتصرفا غير

الخسوف اذا وقع عم وذلك لان نبوته كانت عامة لاتختص بقطر دون قطر وغاضت بحيرة ساوة فى قطر وسقط ايوان كسرى فى قطر وانهدمت الكنيسة بالروم فى قطر آخر اعلاما بأنه يكون امر عام (الثالث) هو ان غير هذه المعجزة الكافر المعاند يقول انه سحر عمل بدواء والقرآن لايمكن هذا القول فيه * ثم انه تعالى قال (ان فى ذلك لرحمة) اشارة الى انا جعلناه معجزة رحمة على العباد ليعلموا بها الصادق وهذا لانا بينا ان اظهار المعجزة على يد الصادق رحمة من الله وكان له ان لايظهر فيبقى الخلق فى ورطة تكذيب الصادق او تصديق الكاذب لان النبى لايتميز عن المتنبى لولا المعجزة لكن الله له ذلك يفعل مايشاء ويحكم مايريد وقوله تعالى (وذكرى) اشارة الى انه معجزة باقية يتذكر بها كل من يكون مابقى الزمان ثم قال تعالى (لقوم يؤمنون) يعنى هذه الرحمة مختصة بالمؤمنين لان المعجزة كانت غضبا على الكافرين لانها قطعت اعذارهم وغلظت انكارهم * ثم قال تعالى (قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا) لما ظهرت رسالته وبهرت دلالته ولم يؤمن به المعاندون من اهل الكتاب قال كما يقول الصادق اذا كذب وأتى بكل مايدل على صدقه ولم يصدق الله يعلم صدقى وتكذيبك أيها المعاند وهو على ماأقول شهيد يحكم بينى وبينكم كل ذلك انذار وتهديد يفيده تقريرا وتأكيدا ثم بين كونه كافيا بكونه عالما بجميع الاشياء * فقال تعالى (يعلم مافى السموات والارض) وههنا مسئلة وهى ان الله تعالى قال فى آخر الرعد ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب فأخر شهادة اهل الكتاب وفى هذه السورة قدمها حيث قال فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به اى من اهل الكتاب فنقول الكلام هناك مع المشركين فاستدل عليهم بشهادة غيرهم ثم ان شهادة الله أقوى فى الزامهم من شهادة غير الله وههنا الكلام مع اهل الكتاب وشهادة المرء على نفسه هو اقراره وهو أقوى الحجج عليه فقدم ماهو الزم عليهم * ثم انه تعالى لما بين الطريقين فى ارشاد الفريقين المشركين واهل الكتاب عاد الى الكلام الشامل لهما والانذار العام فقال تعالى (والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون) اى الذين آمنوا بما سوى الله لان ماسوى الله باطل لانه هالك بقوله كل شئ هالك الا وجهه وكل ماهلك فقد بطل فكل هالك باطل وكل ماسوى الله باطل فمن آمن بما سوى الله فقد آمن بالباطل وفيه مسائل (الاولى) قوله أولئك هم الخاسرون يقتضى الحصر اى من أتى بالايمان بالباطل والكفر بالله فهو خاسر فمن يأتى بأحدهما دون الآخر ينبغى ان لايكون خاسرا فنقول يستحيل ان يكون الآتى بأحدهما لايكون آتيا بالآخر اما الآتى بالايمان بما سوى الله فلانه اشرك بالله فجعل غير الله مثله فجعل الله مثل غيره لكن غيره عاجز جاهل ممكن باطل فيكون الله كذلك فيكون انكار الله وكفرا به واما من كفر به وأنكره فيكون قائلا بان العالم ليس له اله موجد فوجود العالم من نفسه فيكون قائلا بأن العالم واجب الوجود اله

انه يستعمل فيما كان فى المأمور به نفع عائد الى المأمور اوغيره وقيل هو بمعنى قال فالمعنى وقلنا احسن بوالديك حسنا وقيل انتصاب حسنا بمضمر على تقدير قول مفسر للتوصية اى وقلنا اولهما او افعل بهما حسنا وهو اوفق لما بعده وعليه يحسن الوقف على بوالديه وقرئ حسنا واحسانا (وان جاهداك لتشرك بى ماليس لك به علم) اى بالهيته عبر عن نفيها بنفى العلم بها للايذان بأن مالا يعلم صحته لايجوز اتباعه وان لم يعلم بطلانه فكيف بما علم بطلانه (فلا تطعهما) فى ذلك فانه لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق ولابد من اضمار القول ان لم يضمر فيما قبل وفى تعليق النهى على طاعتهما مجاهدتهما فى التكليف اشعار بأن موجب النهى فيما دونها من التكليف ثابت بطريق الاولوية (الى مرجعكم) اى مرجع من آمن منكم ومن اشرك ومن بر بوالديه ومن عق (فأنبئكم بما كنتم تعملون) بأن اجازى كلا منكم بعمله ان خيرا فخير وان شرا فشر والآية نزلت فى سعد بن ابى وقاص رضى الله تعالى عنه عند اسلامه حيث حلفت امه حمنة بنت ابى سفيان بن امية ان لاتنتقل من الضح الى الظل ولا تطعم ولا تشرب حتى يرتد فلبثت ثلاثة ايام كذلك وكذا التى فى سورة لقمان وسورة الاحقاف وقيل نزلت فى عياش ابن ابى ربيعة المخزومى وذلك انه هاجر مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه حتى نزلا المدينة فخرج ابوجهل والحرث اخواه لامه اسماء فنزلا بعياش وقالا له ان من دين محمد صلى الله عليه وسلم صلة الارحام وبر الوالدين وقد تركت امك لاتطعم ولاتشرب ولاتأوى بيتا حتى تراك فاخرج معنا وفتلا منه فى الذروة والغارب واستشار عمر رضى الله عنه فقال هما يخدعانك ولك على ان اقسم مالى بينى وبينك فمازالا به حتى اطاعهما وعصى عمر رضى الله عنه فقال له عمر رضى الله عنه اما اذا عصيتنى فخذ ناقتى فليس فى الدنيا

فيكون قائلا بأن غير الله الله فيكون اثباتا لغير الله و ايمانا به (المسئلة الثانية) اذا كان الايمان بما سوى الله كفرا به فيكون كل من آمن بالباطل فقد كفر بالله فهل لهذا العطف فائدة غير التأكيد الذى هو فى قول القائل قم ولا تقعد واقرب منى ولا تبعد نقول نعم فيه فائدة غيرها وهوانه ذكر الثانى لبيان قبح الاول كقول القائل اتقول بالباطل وتترك الحق لبيان ان القول بالباطل قبيح (المسئلة الثالثة) هل يتناول هذا اهل الكتاب اى هل هم آمنوا بالباطل وكفروا بالله نقول نعم لانهم لما صح عندهم ان معجزة النبى من عند الله وقطعوا بها وعاندوا وقالوا انها من عند غير الله يكون كمن رأى شخصا يرمى حجارة فقال ان رامى الحجارة زيد يقطع بأنه قائل بأن هذا الشخص زيد حتى لو سئل عن عين ذلك الشخص وقيل له من هذا الرجل يقول زيد فكذلك هم لما قطعوا بان مظهر المعجزة هو الله وقالوا بأن محمدا مظهر هذا يلزمهم ان يقولوا محمد هو الله تعالى فيكون ايمانا بالباطل واذا قالوا بان من اظهر المعجزة ليس بالضبع انهم قطعوا بخصوص مظهر المعجزة يكونوا قائلين بان ذلك الخصوص الذى هو الله ليس بالله فيكون كفرا به وهذا لا يرد علينا فمن يقول فعل العبد مخلوق الله تعالى او مخلوق العبد فانه ايضا ينسب فعل الله الى الغير كما ان المعجزة فعل الله وهم نسبوها الى غيره لان هذا القائل جهل النسبة كمن يرى حجارة رميت ولم ير عين راميها فيظن ان راميها زيد فيقول زيد هو رامى هذه الحجارة ثم اذا رأى راميها بعينه ويكون غير زيد لا يقطع بان يقول هو زيد واما اذا رأى عينه ورميه الحجارة وقال رامى الحجارة زيد يقطع بانه يقول هذا الرجل زيد فظهر الفرق من حيث انهم كانوا معاندين عالمين بان الله مظهر تلك المعجزة ويقولون بانها من عند غير الله ثم قوله هم الخاسرون كذلك بأتم وجوه الخسران وهذا لان من يخسر رأس المال ولا تركبه ديون يطالب بها دون من يخسر رأس المال وتركبه تلك الديون فهم لما عبدوا غير الله افنوا العمر ولم يحصل لهم فى مقابلته شئ ما اصلا من المنافع واجتمع عليهم ديون ترك الواجبات يطالبون بها حيث لا طاقة لهم بها ❁ ثم قال تعالى (ويستعجلونك بالعذاب ولولا اجل مسمى لجاءهم العذاب) لما انذرهم الله بالخسران وهو اتم وجوه الانذار لان من خسر لا يحصل له فى مقابلة قدر الخسران شئ من المنافع والا لما كان الخسران ذلك القدر بل دونه مثاله اذا خسر واحد من العشرة درهما لا ينبغى ان يكون حصل له فى مقابلة الدرهم ما يساوى نصف درهم والا لا يكون الخسران درهما بل نصف درهم فاذن هم لما خسروا اعمارهم لا تحصل لهم منفعة تخفيف عذاب والا يكون ذلك القدر من العمر له منفعة فيكون للخاسر عذاب أليم فقوله وأولئك هم الخاسرون تهديد عظيم فقالوا ان كان علينا عذاب فأتنا به اظهارا لقطعهم بعدم العذاب ثم انه أجاب بان العذاب لا يأتيكم بسؤالكم ولا يعجل باستعجالكم لانه أجله الله لحكمة ورحمة فلكونه حكيما لا يكون متغيرا منقلبا ولكونه رحيما لا يكون غضوبا منزعجا ولولا ذلك الاجل المسمى الذى اقتضته حكمته وارتضته رحمته لما كان له رحمة

بعير يلحقها فان رابك منها ريب فارجع فلما انتهوا الى البيداء قال ابو جهل ان ناقتى قد كلت فاحملنى معك فنزل ليوطئ لنفسه وله فأخذاه فشداه وثاقا وجلده كل واحد مائة جلدة وذهبا به الى امه فقالت لا تزال فى عذاب حتى ترجع عن دين محمد (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين) اى فى زمرة الراسخين فى الصلاح والكمال فى الصلاح منتهى درجات المؤمنين وغاية مأمول انبياء الله المرسلين قال الله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام وادخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين وقال فى حق ابراهيم عليه السلام وانه فى الآخرة لمن الصالحين او فى مدخل الصالحين وهو الجنة (ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا اوذى فى الله) اى فى شأنه تعالى بأن عذبهم الكفرة على الايمان (جعل فتنة الناس) اى ما يصيبه من اذيتهم (كعذاب الله) فى الشدة والهول فيرتد عن الدين مع انه لا قدر لها عند نقمة من عذابه تعالى اصلا (ولئن جاء نصر من ربك) اى فتح وغنيمة (ليقولن) بضم اللام نظرا الى معنى من كان الافراد فيما سبق بالنظر الى لفظها وقرئ بالفتح (انا كنا معكم) اى متابعين لكم فى الدين فاشركونا فى المغنم وهم ناس من ضعفة المسلمين كانوا اذا مسهم اذى من الكفار وافقوهم وكانوا يكتمونه من المسلمين فرد عليهم ذلك بقوله تعالى (أوليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين) اى باعلم منهم بما فى صدورهم من الاخلاص والنفاق حتى يفعلوا ما يفعلون من الارتداد والاخفاء عن المسلمين وادعاء كونهم منهم لنيل الغنيمة وهذا هو الاوفق للسابق واللاحق من قوله تعالى (وليعلمن الله الذين آمنوا) اى بالاخلاص (وليعلمن المنافقين) سواء كان كفرهم بأذية الكفرة اولا اى ليجزينهم بما لهم من الايمان والنفاق (وقال الذين كفروا للذين آمنوا) بيان لحملهم للمؤمنين على الكفر بالاستمالة بعد بيان

وحكمة فيكون غضوبا منقلبا فيتأثر باستعجالكم ويتغير من سؤالكم فيعجل وليس كذلك فلا يأتيكم بالعذاب وانتم تسألونه ولا يدفع منكم العذاب حين تستعيذون به منه كما قال تعالى كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم اعيدوا فيها ﴿ ثم قال تعالى (وليأتينهم بغتة) اختلف المفسرون فيه فقال بعضهم ليأتينهم العذاب بغتة لان العذاب أقرب المذكورين ولان سؤالهم كان العذاب فقال انه ليأتينهم وقال بعضهم ليأتينهم بغتة اى الاجل لان الآتى بغتة هو الاجل واما العذاب بعد الاجل يكون معاينة وقد ذكرنا ان فى كون العذاب أو الاجل آتيا بغتة حكمة وهى انه لو كان وقته معلوما لكان كل احد يتكل على بعده وعلمه بوقته فيفسق ويفجر معتمدا على التوبة قبل الموت ﴿ وقوله تعالى (وهم لا يشعرون) يحتمل وجهين (احدهما) تأكيد معنى قوله بغتة كما يقول القائل أتيته على غفلة منه بحيث لم يدر فقوله بحيث لم يدر أكد معنى الغفلة (والثانى) هو كلام يفيد فائدة مستقلة وهى ان العذاب يأتيهم بغتة وهم لا يشعرون هذا الامر ويظنون ان العذاب لا يأتيهم أصلا ﴿ ثم قال تعالى (يستعجلونك بالعذاب وان جهنم لمحيطة بالكافرين) ذكر هذا التعجب وهذا لان من توعد بامر فيه ضرر يسير كلطمة او لكمة فيرى من نفسه الجلد ويقول باسم الله هات واما من توعد باغراق أو احراق ويقطع بأن المتوعد قادر لا يخلف الميعاد لا يخطر ببال العاقل ان يقول له هات ماتوعدنى به فقال ههنا يستعجلونك بالعذاب والعذاب بنار جهنم المحيطة بهم فقوله ويستعجلونك اولا اخبار عنهم وثانيا تعجب منهم ﴿ ثم ذكر كيفية احاطة جهنم ﴿ فقال تعالى (يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت ارجلهم) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) لم خص الجانبين بالذكر ولم يذكر اليمين والشمال وخلف وقدام فنقول لان المقصود ذكر ما تتميز به نار جهنم عن نار الدنيا ونار الدنيا تحيط بالجوانب الاربع فان من دخلها تكون الشعلة خلفه وقدامه ويمينه ويساره واما النار من فوق فلا تنزل وانما تصعد من أسفل فى العادة العاجلة وتحت الاقدام لا تبق الشعلة بل تنطفئ الشعلة التى تحت القدم ونار جهنم تنزل من فوق ولا تنطفئ بالدوس موضع القدم (المسئلة الثانية) قال من فوقهم ومن تحت أرجلهم ولم يقل من فوق رؤسهم ولا قال من فوقهم ومن تحتهم بل ذكر المضاف اليه عند ذكر تحت ولم يذكره عند ذكر فوق فنقول لان نزول النار من فوق سواء كان من سمت الرؤس وسواء كان من موضع آخر عجيب فلهذا لم يخصه بالرأس واما بقاء النار تحت القدم فحسب عجيب والا فمن جوانب القدم فى الدنيا يكون شعل وهى تحت فذكر العجيب وهو ما تحت الارجل حيث لم ينطفئ بالدوس وما فوق على الاطلاق ﴿ ثم قال تعالى (ونقول ذوقوا ما كنتم تعملون) لما بين عذاب اجسامهم بين عذاب أرواحهم وهو ان يقال لهم على سبيل التنكيل والاهانة ذوقوا عذاب ما كنتم تعملون وجعل ذلك عين ما كانوا يعملون للمبالغة بطريق اطلاق اسم المسبب على السبب فان عملهم كان سببا لجعل الله اياه سببا لعذابهم وهذا كثير النظير فى الاستعمال ﴿ ثم قال تعالى (ياعبادى

جناتهم لهم عليه بالاذية والوعيد ووصفهم بالكفر ههنا (٦٨٤) دون ماسبق لما ان مساق الكلام لبيان جناتهم وفيما سبق لبيان جناية من اضلوه واللام للتبليغ اى قالوا مخاطبين لهم (اتبعوا سبيلنا) اى اسلكوا طريقتنا التى نسلكها فى الدين عبر عن ذلك بالاتباع الذى هو المشى خلف ماش آخر تنزيلا للمسلك منزلة السالك فيه او اتبعونا فى طريقتنا (ولنحمل خطاياكم) اى ان كان ذلك خطيئة يؤاخذ عليها بالبعث كما تقولون وانما امروا انفسهم بالحمل عاطفين له على امرهم بالاتباع للمبالغة فى تعليق الحمل بالاتباع والوعد بتخفيف الاوزار عنهم ان كان ثمة وزر فرد عليهم بقوله تعالى (وماهم بحاملين من خطاياهم من شئ) وقرئ من خطيئتهم اى وماهم بحاملين شيئا من خطاياهم التى التزموا ان يحملوا كلها على ان من الاولى للتبيين والثانية مزيدة للاستغراق والجملة اعتراض او حال (انهم لكاذبون) حيث اخبروا فى ضمن وعدهم بالحمل بانهم قادرون على انجاز ما وعدوا فان الكذب كما يتطرق الى الكلام باعتبار منطوقه يتطرق اليه باعتبار ما يلزم مدلوله كما مر فى قوله تعالى انبؤنى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين (وليحملن اثقالهم) بيان لما يستتبعه قولهم ذلك فى الآخرة من المضرة لانفسهم بعد بيان عدم منفعته لمخاطبيهم اصلا والتعبير عن الخطايا بالاثقال للايذان بغاية ثقلها وكونها فادحة واللام جواب قسم مضمر اى وبالله ليحملن اثقال أنفسهم كاملة (واثقالا) اخر (مع اثقالهم) لما تسببوا بالاضلال والحمل على الكفر والمعاصى من غير ان ينتقص من اثقال من اضلوه شئ ما اصلا (وليسئلن يوم القيامة) سؤال تقريع وتبكيت (عما كانوا يفترون) اى يختلقونه فى الدنيا من الاكاذيب والاباطيل التى من جملتها كذبهم هذا (ولقد ارسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم الف سنة الا خمسين عاما) شروع (الذين)

فى بيان افتتان الانبياء عليهم الصلاة والسلام باذية اممهم اثر بيان افتتان المؤمنين باذية الكفار تأكيد الانكار على الذين يحسبون ان يتركوا بمجرد الايمان بلا ابتلاء وحثالهم على الصبر (٦٨٥) فان الانبياء عليهم الصلاة والسلام حيث ابتلوا بما اصابهم من جهة اممهم من فنون المكاره وصبروا عليها فلان يصبر هؤلاء اولى واحرى قالوا كان عمر نوح عليه السلام الفا وخمسين عاما بعث على رأس اربعين سنة ودعا قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان ستين سنة وعن وهب انه عاش الفا واربعمائة سنة ولعل ما عليه النظم الكريم للدلالة على كمال العدد فان تسعمائه وخمسين قد يطلق على ما يقرب منه ولما فى ذكر الالف من تخييل طول المدة فان المقصود من القصة تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتثبيته على ما كان عليه من مكابدة ما يناله من الكفرة واظهار ركاكة رأى الذين يحسبون انهم يتركون بلا ابتلاء واختلاف المميز لما فى التكرير من نوع بشاعة (فاخذهم الطوفان) اى عقيب تمام المدة المذكورة والطوفان يطلق على كل ما يطوف بالشئ على كثرة وشدة من السيل والريح والظلام وقد غلب على طوفان الماء (وهم ظالمون) اى والحال انهم مستمرون على الظلم لم يتأثروا بما سمعوا من نوح عليه السلام من الآيات ولم يرعووا عما هم عليه من الكفر والمعاصى هذه المدة المتمادية (فانجيناه) اى نوحا عليه السلام (واصحاب السفينة) اى ومن ركب فيها معه من اولاده واتباعه وكانوا ثمانين وقيل ثمانية وسبعين وقيل عشرة وقيل ثمانية نصفهم ذكور ونصفهم اناث (وجعلناها) اى السفينة او الحادثة والقصة (آية للعالمين) يتعظون بها (وابراهيم) نصب بالعطف على نوحا وقيل باضمار اذكر وقرئ بالرفع على تقدير ومن المرسلين ابراهيم (اذ قال لقومه) على الاول ظرف للارسال اى ارسلناه حين تكامل عقله وقدر على النظر والاستدلال وترقى من رتبة الكمال الى

الذين آمنوا) وجه التعلق هو ان الله تعالى لما ذكر حال المشركين على حدة وحال اهل الكتاب على حدة وجمعهما فى الانذار وجعلهما من اهل النار اشتد عنادهم وزاد فسادهم وسعوا فى ايذاء المؤمنين ومنعوهم من العبادة فقال تعالى مخاطبا للمؤمنين يا عبادى الذين آمنوا ۞ (ان ارضى واسعة فاياى فاعبدون) ان تعذرت العبادة عليكم فى بعضها فهاجروا ولا تتركوا عبادتى بحال وبهذا علم ان الجلوس فى دار الحرب حرام والخروج منها واجب حتى لو حلف بالطلاق انه لا يخرج لزمه الخروج ورضا حتى يقع الطلاق ثم فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله يا عبادى لم يرد الا المخاطبة مع المؤمنين مع ان الكافر داخل فى قوله يا عبادى نقول ليس داخلا فيه لوجوه (احدها) ان من قال فى حقه عبادى ليس للشيطان عليهم سلطان بدليل قوله تعالى ان عبادى ليس لك عليهم سلطان والكافر تحت سلطنة الشيطان فلا يكون داخلا فى قوله يا عبادى (الثانى) هو ان الخطاب بعبادى اشرف منازل المكلف وذلك لان الله تعالى لما خلق آدم آتاه اسما عظيما وهو اسم الخلافة كما قال تعالى انى جاعل فى الارض خليفة والخليفة اعظم الناس مقدارا واتم ذوى البأس اقتدارا ثم ان ابليس لم يرهب من هذا الاسم ولم ينهزم بل اقدم عليه بسببه وعاداه وغلبه كما قال تعالى فأزلهما الشيطان ثم ان من اولاده الصالحين من سمى بعبادى فانخنس منهم الشيطان وتضاءل كما قال تعالى ان عبادى ليس لك عليهم سلطان وقال هو بلسانه لأغوينهم اجمعين الا عبادك فعلم ان المكلف اذا كان عبد الله يكون اعلى درجة مما اذا كان خليفة لوجه الارض ولعل آدم كداود الذى قال الله تعالى فى حقه انا جعلناك خليفة فى الارض لم يتخلص من يد الشيطان الا وقت ما قال الله تعالى فى حقه عبدى وعندما ناداه بقوله ربنا ظلمنا انفسنا واجتباه بهذا النداء كما قال تعالى فى حق داود واذكر عبدنا داود ذا الايد اذا علم هذا فالكافر لا يصلح للخلافة فكيف يصلح لما هو اعظم من الخلافة فلا يدخل فى قوله يا عبادى الا المؤمن (الثالث) هو ان هذا الخطاب حصل للمؤمن بسعيه بتوفيق الله وذلك لان الله تعالى قال ادعونى استجب لكم فالمؤمن دعا ربه بقوله ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان ان آمنوا بربكم فآمنا فأجابه الله تعالى بقوله يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله فالاضافة بين الله وبين العبد بقول العبد الهى وقول الله عبدى تأكدت بدعاء العبد لكن الكافر لم يدع فلم يجب فلا يتناول يا عبادى غير المؤمنين (المسئلة الثانية) اذا كان عبادى لا يتناول الا المؤمنين فما الفائدة فى قوله الذين آمنوا مع ان الوصف انما يذكر لتمييز الموصوف كما يقال يا ايها المكلفون المؤمنون ويا ايها الرجال العقلاء تمييزا عن الكافرين والجهال فنقول الوصف يذكر لا للتمييز بل لمجرد بيان ان فيه الوصف كما يقال الانبياء المكرمون والملائكة المطهرون مع ان كل نبى مكرم وكل ملك مطهر وانما يقال لبيان ان فيهم الاكرام والطهارة ومثل هذا قولنا الله العظيم وزيد الطويل فههنا ذكر

درجة التكميل حيث تصدى لارشاد الخلق الى طريق الحق وعلى الثانى بدل اشتمال من ابراهيم (اعبدوا الله) اى وحده (واتقوه) ان تشركوا به شيئا (ذلكم) اى ماذكر من العبادة والتقوى (٦٨٦) (خير لكم) اى مما انتم عليه ومعنى التفضيل مع انه لاخيرية فيه قطعا باعتبار زعمهم الباطل (ان كنتم تعلمون) اى الخير والشر وتميزون احدهما من الآخر اوان كنتم تعلمون شيئا من الاشياء بوجه من الوجوه فان ذلك كاف فى الحكم بخيرية ماذكر من العبادة والتقوى (انما تعبدون من دون الله اوثانا) بيان لبطلان دينهم وشريته فى نفسه بعد بيان شريته بالنسبة الى الدين الحق اى انما تعبدون من دونه تعالى اوثانا هى فى نفسها تماثيل مصنوعة لكم ليس فيها وصف غير ذلك (وتخلقون افكا) اى وتكذبون كذبا حيث تسمونها آلهة وتدعون انها شفعاؤكم عند الله اوتعملونها وتنحتونها للافك وقرئ تخلقون بالتشديد للتكثير فى الخلق بمعنى الكذب والافتراء وتخلقون بحذف احدى التائين من تخلق بمعنى تكذب وتخرص وقرئ افكا على انه مصدر كالكذب واللعب اونعت بمعنى خلقا ذا افك (ان الذين تعبدون من دون الله) بيان لشرية مايعبدونه من حيث انه لايكاد يجديهم نفعا (لا يملكون لكم رزقا) اى لايقدرون على ان يرزقوكم شيئا من الرزق (فابتغوا عند الله الرزق) كله فانه هو الرزاق ذو القوة المتين (واعبدوه) وحده (واشكروا له) على نعمائه متوسلين الى مطالبكم بعبادته مقيدين بالشكر للعتيد ومستجلبين للمزيد (اليه ترجعون) اى بالموت ثم بالبعث لاالى غيره فافعلوا ماامرتكم به وقرئ ترجعون من رجع رجوعا (وان تكذبوا) اى تكذبونى فيما اخبرتكم به من انكم اليه ترجعون بالبعث (فقد كذب امم من قبلكم) تعليل للجواب اى فلا تضرونني بتكذيبكم فان من قبلكم من الامم

لبيان انهم مؤمنون (المسئلة الثالثة) اذقال ياعبادى فهم يكونون عابدين فما الفائدة فى الامر بالعبادة بقوله فاعبدون فنقول فيه فائدتان (احداهما) المداومة اى يامن عبدتمونى فى الماضى اعبدونى فى المستقبل (الثانية) الاخلاص اى يامن تعبدنى اخلص العمل لى ولاتعبد غيرى (المسئلة الرابعة) الفاء فى قوله فاياى تدل على انه جواب لشرط فماذلك فنقول قوله ان ارضى واسعة اشارة الى عدم المانع من عبادته فكأنه قال اذا كان لامانع من عبادتى فاعبدونى واما الفاء فى قوله تعالى فاعبدون فهو لترتيب المقتضى على المقتضى كما يقال هذا عالم فاكرموه فكذلك ههنا لما اعلم نفسه بقوله فاياى وهو لنفسه يستحق العبادة قال فاعبدون (المسئلة الخامسة) قال العبد مثل هذا فى قوله اياك نعبد وقال عقيبه واياك نستعين والله تعالى وافقه فى قوله فاياى فاعبدون ولم يذكر الاعانة نقول بل هى مذكورة فى قوله ياعبادى لان المذكور بعبادى لما كان الشيطان مسدود السبيل عليه مسدود القبيل عنه كان فى غاية الاعانة (المسئلة السادسة) لم قدم الله الاعانة واخر العبد الاستعانة قلنا لان العبد فعله لغرض وكل فعل لغرض فان الغرض سابق على الفعل فى الادراك وذلك لان من يبنى بيتا للسكنى يدخل فى ذهنه اولا فائدة السكنى فيحمله على البناء لكن الغرض فى الوجود لايكون الا بعد فعل الواسطة فنقول الاستعانة من العبد لغرض العبادة فهى سابقة فى ادراكه واما الله تعالى فليس فعله لغرض فراعى ترتيب الوجود فان الاعانة قبل العبادة ❁ ثم قال تعالى (كل نفس ذائقة الموت ثم الينا ترجعون) لما امر الله تعالى المؤمنين بالمهاجرة صعب عليهم ترك الاوطان ومفارقة الاخوان فقال لهم ان ماتكرهون لابد من وقوعه فان كل نفس ذائقة الموت والموت مفرق الاحباب فالاولى ان يكون ذلك فى سبيل الله فيجازيكم عليه فان الى الله مرجعكم (وفيه وجه أرق وأدق) وهو ان الله تعالى قال كل نفس اذا كانت غير متعلقة بغيرها فهى للموت ثم الى الله ترجع فلا تموت كما قال تعالى لايذوقون فيها الموت اذا ثبت هذا فمن يريد ان لايذوق الموت لايبقى مع نفسه فان النفس ذائقته بل يتعلق بغيره وذلك الغير ان كان غير الله فهو ذائق الموت ومورد الهلاك بقوله كل نفس ذائقة الموت وكل شئ هالك الا وجهه فاذا التعلق بالله يريح من الموت فقال تعالى فاياى فاعبدون اى تعلقوا بى ولاتتبعوا النفس فانها ذائقة الموت ثم الينا ترجعون اى اذا تعلقتم بى فموتكم رجوع الى وليس بموت كما قال تعالى ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا بل احياء وقال عليه السلام المؤمنون لايموتون بل ينقلون من دار الى دار فعلى هذا الوجه ايضا يتبين وجه التعلق ❁ ثم قال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها نعم اجر العاملين) بين مايكون للمؤمنين وقت الرجوع اليه كما بين من قبل مايكون للكافرين بقوله وان جهنم لمحيطة بالكافرين فبين ان للمؤمنين الجنان فى مقابلة ما ان للكافرين النيران وبين ان فيها غرفا تجرى من تحتها الانهار فى مقابلة مابين

(ان)

ان تحت الكافرين النار بين ان ذلك اجر عملهم بقوله تعالى نعم اجر العاملين فى مقابلة مابين ان ما تقدم جزاء عمل الكفار بقوله تعالى ذوقوا ما كنتم تعملون ثم فى الآيتين اختلافات فيها لطائف (منها) انه تعالى ذكر فى العذاب ان فوقهم عذابا اى نارا ولم يذكر ههنا فوقهم شيئا وانما ذكر ما فوق من غير اضافة وهو الغرف وذلك لان المذكور فى الموضعين العقاب والثواب الجسمانيان لكن الكافر فى الدرك الاسفل من النار فيكون فوقه طبقات من النار فاما المؤمنون فيكونون فى اعلى عليين فلم يذكر فوقهم شيئا اشارة الى علو مرتبتهم وارتفاع منزلتهم واما قوله تعالى لهم غرف من فوقها غرف لا ينافى لان الغرف فوق الغرف لا فوقهم والنار فوق النار وهى فوقهم (ومنها) ان هناك ذكر من تحت ارجلهم النار وههنا ذكر من تحت غرفهم الماء وذلك لان النار لا تؤلم اذا كانت تحت مطلقا مالم تكن فى مسامتة الاقدام ومتصلة بها اما اذا كان الشعلة مائلة عن سمت القدم وان كانت تحتها او تكون مسامتة ولكن تكون غير ملاصقة بل تكون اسفل فى وهدة لا تؤلم واما الماء اذا كان تحت الغرفة فى اى وجه كان وعلى اى بعد كان يكون ملتذا به فقال فى النار من تحت ارجلهم ليحصل الالم بها وقال ههنا من تحت الغرف لحصول اللذة به كيف كان (ومنها) ان هناك قال ذوقوا لايلام قلوبهم بلفظ الامر وقال ههنا نعم اجر العاملين لتفريح قلوبهم لا بصيغة الامر وذلك لان لفظ الامر يدل على انقطاع التعلق بعده فان من قال لاجيره خذ اجرتك يفهم منه ان بذلك ينقطع تعلقه عنه واما اذا قال ما اتم اجرتك عندى او نعم مالك من الاجر يفهم منه ان ذلك عنده ولم يقل ههنا خذوا اجرتكم ايها العاملون وقال هناك ذوقوا ما كنتم تعملون (فان قال قائل) ذوقوا اذا كان يفهم منه الانقطاع فعذاب الكافر ينقطع (قلنا) ليس كذلك لان الله اذا قال ذوقوا دل على انه اعطاهم جزاءهم وانقطع ما بينه وبينهم لكن يبقى عليهم ذلك دائما ولا ينقص ولا يزداد واما المؤمن اذا اعطاه شيئا فلا يتركه مع ما اعطاه بل يزيده كل يوم فى النعم واليه الاشارة بقوله للذين احسنوا الحسنى وزيادة اى الذى يصل الى الكافر يدوم من غير زيادة والذى يصل الى المؤمن يزداد على الدوام واما الخلود وان لم يذكره فى حق الكافر لكن ذلك معلوم بغيره من النصوص * ثم قال تعالى (الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) ذكر امرين الصبر والتوكل لان الزمان ماض وحاضر ومستقبل لكن الماضى لا تدارك له ولا يؤمر العبد فيه بشئ بقى الحاضر واللائق به الصبر والمستقبل واللائق به التوكل فيصبر على ما يصيبه من الاذى فى الحال ويتوكل فيما يحتاج اليه فى الاستقبال واعلم ان الصبر والتوكل صفتان لا يحصلان الا مع العلم بالله والعلم بما سوى الله فمن علم ما سواه علم انه زائل فيهون عليه الصبر اذ الصبر على الزائل هين واذا علم الله علم انه باق يأتيه بأرزاق فان فاته شئ فانه يتوكل على حى باق وذكر الصبر والتوكل ههنا مناسب فان قوله يا عبادى كان لبيان انه لا مانع من العبادة ومن يؤذى فى بقعة فليخرج منها فحصل الناس على

قد كذبوا من قبلى من الرسل وهم شيث (٦٨٧) وادريس ونوح عليهم السلام فلم يضرهم تكذيبهم شيئا وانما ضر انفسهم حيث تسبب لما حل بهم من العذاب فكذا تكذيبهم (وما على الرسول الا البلاغ المبين) اى التبليغ الذى لا يبقى معه شك وما عليه ان يصدقه قومه البتة وقد خرجت عن عهدة التبليغ بالامر به عليه فلا يضرنى تكذيبكم بعد ذلك اصلا (اولم يروا كيف يبدئ الله الخلق) كلام مستأنف مسوق من جهته تعالى للانكار على تكذيبهم بالبعث مع وضوح دليله وسنوح سبيله والهمزة لانكار عدم رؤيتهم الموجب لتقريرها والواو للعطف على مقدر اى الم ينظروا ولم يعلموا علما جاريا مجرى الرؤية فى الجلاء والظهور كيفية خلق الله تعالى الخلق ابتداء من مادة ومن غير مادة اى قد علموا ذلك وقرئ بصيغة الخطاب لتشديد الانكار وتأكيده وقرئ يبدأ وقوله تعالى (ثم يعيده) عطف على اولم يروا لا على يبدئ لعدم وقوع الرؤية عليه فهو اخبار بانه تعالى يعيد الخلق قياسا على الابتداء وقد جوز العطف على يبدأ بتأويل الاعادة بانشائه تعالى كل سنة مثل ما انشأه فى السنة السابقة من النبات والثمار وغيرهما فان ذلك مما يستدل به على صحة البعث ووقوعه من غير ريب (ان ذلك) اى ما ذكر من الاعادة (على الله يسير) اذ لا يفتقر فعله الى شئ اصلا (قل سيروا فى الارض) امر لابراهيم عليه السلام ان يقول لهم ذلك اى سيروا فيها (فانظروا كيف بدأ الخلق) اى كيف خلقهم ابتداء على اطوار مختلفة وطبائع متغايرة واخلاق شتى فان ترتيب النظر على السير فى الارض مؤذن بتتبع احوال اصناف الخلق القاطنين فى اقطارها (ثم الله ينشئ النشأة الآخرة) بعد النشأة الاولى التى

فمنهم قادر على الخروج وهو متوكل على ربه يترك الاوطان ويفارق الاخوان وعاجز وهو صابر على تحمل الاذى ومواظب على عبادة الله تعالى ۞ ثم قال تعالى (وكأين من دابة لاتحمل رزقها الله يرزقها واياكم وهو السميع العليم) لما ذكر الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ذكر مايعين على التوكل وهو بيان حال الدواب التى لا تدخر شيئا لغد ويأتيها كل يوم برزق رغد ۞ وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) فى كأين لغات اربع غير هذه كائن على وزن داع وكأين على وزن ريع وكى على رع ولم يقرأ الا كأين وكائن قراءة ابن كثير (المسئلة الثانية) كأين كلمة مركبة من كاف التشبيه واى التى تستعمل استعمال من وما ركبتا وجعل المركب بمعنى كم ولم تكتب الا بالنون ليفصل بين المركب وغير المركب لان كأى يستعمل غير مركب كما يقول القائل رأيت رجلا لا كأى رجل يكون فقد حذف المضاف اليه ويقال رأيت رجلا لا كأى رجل وحينئذ لايكون كأى مركبا فاذا كان كأى ههنا مركبا كتبت بالنون للتمييز كما تكتب معدبكرب وبعلبك موصولا للفرق وكما تكتب ثمه بالهاء تمييزا بينها وبين ثمت (المسئلة الثالثة) كأين بمعنى كم لم تستعمل مع من الانادرا وكم يستعمل كثيرا من غير من يقال كم رجلا وكم من رجل وذلك لما بينا من الفرق بين كأين بمعنى كم وكأى التى ليست مركبة وذلك لان كأى اذا لم تكن مركبة لايجوز ادخال من بعدها اذلا يقال رأيت رجلا لا كأى من رجل والمركبة بمعنى كم يجوز ذلك فيها فالتزم للفرق و قوله تعالى لاتحمل رزقها قيل لاتحمل لضعفها وقيل هى كالنمل والبرغوث والدود وغيرها وقيل لاتدخر وقوله الله يرزقها واياكم بطريق القياس اى لاشك فى ان رزقها ليس الا بالله فكذلك يرزقكم فتوكلوا (فان قال قائل) من قال بأن الله يرزق الدواب بل النبات فى الصحراء مسيب والحيوان يسعى اليه ويرعى (فنقول) الدليل عليه من ثلاثة اوجه نظرا الى الرزق والى المرتزق والى مجموع الرزق والمرتزق (اما بالنظر الى الرزق) فلأن الله تعالى لو لم يخلق النبات لم يكن للحيوان رزق (واما بالنظر الى المرتزق) فلأن الاغتذاء ليس بمجرد الابتلاع بل لابد من تشبهه بالاعضاء حتى يصير الحشيش عظما ولحما وشحما وماذاك الابحكمة الله تعالى حيث خلق فيه جاذبة وماسكة وهاضمة ودافعة وغيرها من القوى وبمحض قدرة الله وارادته فهو الذى يرزقها (واما بالنظر الى المرتزق والرزق) فلأن الله لو لم يهد الحيوان الى الغذاء ليعرفه من الشم ماكان يحصل له اغتذاء ألا ترى ان من الحيوان مالا يعرف نوعا من انواع الغذاء حتى يوضع فى فمه بالشدة ليذوق فيأكله بعد ذلك فان كثيرا ما يكون البعير لايعرف الخمير ولا الشعير حتى يلقم مرتين او ثلاثة فيعرفه فيأكله بعد ذلك (فان قال قائل) كيف يصح قياس الانسان على الحيوان فيما يوجب التوكل والحيوان رزقه لايتعرض اليه اذا اكل منه اليوم شيئا وترك بقية يجدها غدا مامد اليه احد يدا والانسان ان لم يأخذ اليوم لايبقى له غدا شئ ۞ وايضا حاجات الانسان كثيرة فانه يحتاج الى اجناس اللباس وانواع الاطعمة ولا كذلك الحيوان ۞ وايضا قوت الحيوان مهيا وقوت الانسان يحتاج الى كلف كالزرع والحصاد والطحن والخبز فلو لم يجمعه قبل

شاهدتموها والتعبير عن الاعادة التى هى محل النزاع بالنشأة الاخرة المشعرة بكون البدء نشأة اولى للتنبيه على انهما شأن واحد من شؤن الله تعالى حقيقة واسما من حيث ان كلا منهما اختراع واخراج من العدم الى الوجود ولافرق بينهما الا بالاولية والآخرية وقرئ النشاءة بالمد وهما لغتان كالرأفة والرآفة ومحلها النصب على انها مصدر مؤكد لينشئ بحذف الزوائد والاصل الانشاءة او بحذف العامل اى ينشئ فينشؤن النشأة الاخرة كما فى قوله تعالى وانبتها نباتا حسنا والجملة معطوفة على جملة سيروا فى الارض داخلة معها فى حيز القول واظهار الاسم الجليل وايقاعه مبتدأ مع اضماره فى بدأ لابراز مزيد الاعتناء ببيان تحقق الاعادة بالاشارة الى علة الحكم وتكرير الاسناد وقوله تعالى (ان الله على كل شئ قدير) تعليل لما قبله بطريق التحقيق فان من علم قدرته تعالى على جميع الاشياء التى من جملتها الاعادة لايتصور ان يتردد فى قدرته عليها ولا فى وقوعها بعدما اخبر به (يعذب) اى بعد النشأة الآخرة (من يشاء) ان يعذبه وهم المنكرون لها حتما (ويرحم من يشاء) ان يرحمه وهم المصدقون بها والجملة تكملة لما قبلها وتقديم التعذيب لما ان الترهيب انسب بالمقام من الترغيب (واليه تقلبون) عند ذلك لا الى غيره فيفعل بكم مايشاء من التعذيب والرحمة (وما انتم بمعجزين) له تعالى عن اجراء حكمه وقضائه عليكم (فى الارض ولا فى السماء) اى بالتوارى فى الارض او الهبوط فى مهاويها ولا بالتحصن فى السماء التى هى افسح منها لو استطعتم الرقى فيها كما فى قوله تعالى ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السموات

الحاجة ماكان يجده وقت الحاجة فنقول نحن لانقول ان الجمع يقدح فى التوكل بل قد يكون الزراع الحاصد متوكلا والراكع الساجد غير متوكل لان من يزرع يكون اعتماده على الله واعتقاده فى الله انه ان كان يريد يرزق من غير زرع وان كان يريد لايرزق من ذلك الزرع فيعمل وقلبه مع الله هو متوكل حق التوكل ومن يصلى وقلبه مع مافى يد زيد وعمر وهو غير متوكل (واما قوله حاجات الانسان كثيرة) فنقول مكاسبه كثيرة ايضا فانه يكتسب بيده كالخياط والنساج وبرجله كالساعى وغيره وبعينه كالناطور وبلسانه كالحادى والمنادى وبفهمه كالمهندس والتاجر وبعلمه كالطبيب والفقيه وبقوة جسمه كالعتال والحمال والحيوان لامكاسب له فالرغيف الذى يحتاج اليه الانسان غدا او بعد غد يبعد ان لا يرزقه الله مع هذه المكاسب فهو اولى بالتوكل وايضا الله تعالى خلق الانسان بحيث يأتيه الرزق واسبابه فان الله ملك الانسان عمائر الدنيا وجعلها بحيث تدخل فى ملكه شاء ام ابى حتى ان نتاج الانعام وثمار الاشجار تدخل فى الملك وان لم يرده مالك النعم والشجر واذا مات قرن ينتقل ذلك الى قرن آخر قهرا شاؤا ام أبوا وليس كذلك حال الحيوان اصلا فان الحيوان ان لم يأت الرزق لايأتيه رزقه فاذن الانسان لو توكل كان اقرب الى العقل من توكل الحيوان ثم قال وهو السميع العليم سميع اذا طلبتم الرزق يسمع ويجيب عليم ان سكتم لايخفى عليه حاجتكم ومقدار حاجتكم * ثم قال تعالى

(ولئن سألتهم من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون) نقول لما بين الله الامر للمشرك مخاطبا معه ولم ينتفع به وأعرض عنه وخاطب المؤمن بقوله ياعبادى الذين آمنوا وأتم الكلام معه ذكر معه مايكون ارشادا للمشرك بحيث يسمعه وهذا طريق فى غاية الحسن فان السيد اذا كان له عبدان او الوالد اذا كان له ولدان واحدهما رشيد والآخر مفسد ينصح اولا المفسد فان لم يسمع يقول معرضا عنه ملتفتا الى الرشيد ان هذا لايستحق الخطاب فاسمع أنت ولاتكن مثل هذا المفسد فيتضمن هذا الكلام نصيحة المصلح وزجر المفسد فان قوله هذا لايستحق الخطاب يوجب نكاية فى قلبه ثم اذا ذكر مع المصلح فى اثناء الكلام والمفسد يسمعه ان هذا اخاك العجب منه انه يعلم قبح فعله ويعرف الفساد من الصلاح وسبيل الرشاد والفلاح ويشتغل بضده يكون هذا الكلام ايضا داعيا له الى سبيل الرشاد مانعا له من ذلك الفساد فكذلك الله تعالى قال مع المؤمن العجب منهم انهم ان سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله ثم لايؤمنون وفى الآية لطائف (احداها) ذكر فى السموات والارض الخلق وفى الشمس والقمر التسخير وذلك لان مجرد خلق الشمس والقمر ليس حكمة فان الشمس لو كانت مخلوقة بحيث تكون فى موضع واحد لاتتحرك ماحصل الليل والنهار ولا الصيف ولا الشتاء فاذا الحكمة فى تحريكهما وتسخيرهما (الثانية) فى لفظ التسخير وذلك لان التحريك يدل على مجرد الحركة وليس مجرد الحركة كافية

والارض فانفذوا او القلاع الذاهبة فيها وقيل فى السماء صفة لمحذوف معطوف على انتم اى ولا من فى السماء (ومالكم من دون الله من ولى ولانصير) يحرسكم عما يصيبكم من بلاء يظهر من الارض او ينزل من السماء ويدفعه عنكم (والذين كفروا بآيات الله) اى بدلائله التكوينية والتنزيلية الدالة على ذاته وصفاته وافعاله فيدخل فيها النشأة الاولى الدالة على تحقق البعث والآيات الناطقة به دخولا اوليا وتخصيصها بدلائل وحدانيته تعالى لايناسب المقام (ولقائه) الذى تنطق به تلك الآيات (اولئك) الموصوفون بما ذكر من الكفر بآياته تعالى ولقائه (يئسوا من رحمتى) اى ييأسون منها يوم القيامة وصيغة الماضى للدلالة على تحققه او يئسوا منها فى الدنيا لانكارهم البعث والجزاء (واولئك لهم عذاب اليم) وفى تكرير اسم الاشارة وتكرير الاسناد وتنكير العذاب ووصفه بالاليم من الدلالة على كمال فظاعة حالهم مالايخفى اى اولئك الموصوفون بالكفر بآيات الله تعالى ولقائه وباليأس من رحمته الممتازون بذلك عن سائر الكفرة لهم بسبب تلك الاوصاف القبيحة عذاب لايقادر قدره فى الشدة والايلام (فما كان جواب قومه) بالنصب على انه خبر كان واسمها قوله تعالى (الا ان قالوا اقتلوه او حرقوه) وقرئ بالرفع على العكس وقدمر مافيه فى نظائره وليس المراد انه لم يصدر عنهم بصدد الجواب عن حجج ابراهيم عليه السلام الا هذه المقالة الشنيعة كما هو المتبادر من ظاهر النظم الكريم بل ان ذلك هو الذى استقر عليه جوابهم بعد اللتيا والتى فى المرة الاخيرة والا فقد صدر عنهم من الخرافات والاباطيل مالايحصى (فأنجاه الله من النار) الفاء فصيحة اى فالقوه فى النار فأنجاه الله تعالى منها بأن جعلها عليه عليه الصلاة والسلام بردا وسلاما (٨٧) (دا) (س) حسبابين فى موضع آخر وقدمر فى سورة الانبياء بيان كيفية

لانهـا لوكانت تتحرك مثل حركتنا لما كانت تقطع الفلك بألوف من السنين فالحكمة فى تسخيرهما تحركهما فى قدر مايتنفس الانسان آلافا من الفراسخ ثم لم يجعل لهما حركة واحدة بل حركات (احداها) حركتها من المشرق الى المغرب فى كل يوم وليلة مرة (والاخرى) حركتها من المغرب الى المشرق والدليل عليها ان الهلال يرى فى جانب الغرب على بعد مخصوص من الشمس ثم يبعد منه الى جانب الشرق حتى يرى القمر فى نصف الشهر فى مقابلة الشمس والشمس على افق المغرب والقمر على افق المشرق وحركة أخرى حركة الاوج وحركة المائل والتدوير فى القمر ولولا الحركة التى من المغرب الى المشرق لما حصلت الفصول ثم اعلم ان اصحاب الهيئة قالوا الشمس فى الفلك مركوزة والفلك يديرها بدورانه وانكره المفسرون الظاهريون ونحن نقول لابعد فى ذلك ان لم يقولوا بالطبيعة فان الله تعالى فاعل مختار ان أراد ان يحركهما فى الفلك والفلك ساكن يجوز وان أراد ان يحركهما بحركة الفلك وهما ساكنان يجوز ولم يرد فيه نص قاطع او ظاهر وسنذكر تمام البحث فى قوله تعالى وكل فى فلك يسبحون (الثالثة) ذكر امرين احدهما خلق السموات والارض والآخر تسخير الشمس والقمر لان الايجاد قد يكون للذوات وقد يكون للصفات فخلق السموات والارض اشارة الى ايجاد الذوات وتسخير الشمس والقمر اشارة الى ايجاد الصفات وهى الحركة وغيرها فكأنه ذكر من القبيلين مثالين ثم قال تعالى فأنى يؤفكون يعنى هم يعتقدون هذا فكيف يصرفون عن عبادة الله مع ان من علت عظمته وجبت خدمته ولا عظمة فوق عظمة خالق السموات والارض ولا حقارة فوق حقارة الجماد لان الجماد دون الحيوان والحيوان دون الانسان والانسان دون سكان السموات فكيف يتركون عبادة اعظم الموجودات ويشتغلون بعبادات اخس الموجوات ✲ ثم قال تعالى (الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده) لما بين الخلق ذكر الرزق لان كمال الخلق ببقائه وبقاء الانسان بالرزق فقال المعبود اما ان يعبد لاستحقاقه العبادة وهذه الاصنام ليست كذلك والله مستحقها واما لكونه على الشأن والله الذى خلق السموات على الشان جلى البرهان فله العبادة واما لكونه ولى الاحسان والله يرزق الخلق له الطول والاحسان والفضل والامتنان فله العبادة من هذا الوجه ايضا وقوله لمن يشاء اشارة الى كمال الاحسان وذلك لان الملك اذا أمر الخازن باعطاء شخص شيئا فاذا أعطاه يكون له منه ما يسيرة حقيرة لان الآخذ يقول هذا ليس بارادته وانما هو بأمر الملك واما ان كان مختارا بأن قال له الملك ان شئت فأعطه وان شئت فلا تعطه فان اعطاه يكون له منة جليلة لاقليلة فقال الله تعالى الرزق منه وبمشيئته فهو احسان تام يستوجب شكرا تاما ✲ وقوله تعالى (ويقدر له) اى يضيق له ان أراد ✲ ثم قال تعالى (ان الله بكل شئ عليم) اى يعلم مقادير الحاجات ومقادير الارزاق وفى اثبات العلم ههنا لطائف (احداها) ان الرازق الذى هو كامل المشيئة اذا رأى عبده محتاجا وعلم جوعه لايؤخر عنه الرزق

القائه عليه الصلاة والسلام فيها وانجائه تعالى اياه تفصيلا قيل لم ينتفع يومئذ بالنار فى موضع اصلا (ان فى ذلك) اى فى انجائه منها (لآيات) بينة عجيبة هى حفظه تعالى اياه من حرها واخمادها فى زمان يسير وانشاء روض فى مكانها (لقوم يؤمنون) واما من عداهم فهم عن اجتلائها غافلون ومن الفوز بمغانم آثارها محرومون (وقال) ابراهيم عليه السلام مخاطبا لهم (انما اتخذتم من دون الله اوثانا مودة بينكم فى الحيوة الدنيا) اى لتتوادوا بينكم وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها وائتلافكم وثانى مفعولى اتخذتم محذوف اى اوثانا آلهة ويجوز ان يكون مودة هو المفعول بتقدير المضاف او بتأويلها بالمودودة او بجعلها نفس المودة مبالغة اى اتخذتم اوثانا سبب المودة بينكم او مودودة او نفس المودة وقرئ مودة منونة منصوبة ناصبة الظرف وقرئت بالرفع والاضافة على انها خبر مبتدأ محذوف اى هى مودودة او نفس المودة او سبب مودة بينكم والجملة صفة اوثانا او خبر ان على ان ما مصدرية او موصولة قد حذف عائدها وهو المفعول الاول وقرئت مرفوعة منونة ومضافة بفتح بينكم كما قرئ لقد تقطع بينكم على احد الوجهين وقرئ انما مودة بينكم والمعنى ان اتخاذكم اياها مودة بينكم ليس الا فى الحياة وقد اجريتم احكامه حيث فعلتم بى مافعلتم لاجل مودتكم لها انتصارا منى كما ينبئ عنه قوله تعالى وانصروا آلهتكم (ثم يوم القيامة) تنقلب الامور ويتبدل التواد تباغضا والتلاطف تلاعنا حيث (يكفر بعضكم) وهم العبدة (ببعض) وهم الاوثان (ويلعن بعضكم بعضا) اى يلعن كل فريق منكم ومن الاوثان حيث ينطقها الله تعالى الفريق الآخر (ومأواكم النار) اى هى منزلكم الذى تأوون اليه ولا ترجعون منه ابدا (ومالكم من ناصرين) يخلصونكم منها كما خلصنى ربى من النار التى

(ولا)

ولايؤخر الرازق الرزق الالنقصان فى نفوذ مشيئته كالملك اذا أراد الاطعام والطعام لايكون بعد قد استوى اولعدم علمه بجوع العبيد (الثانية) وهى ان الله بأثبات العلم استوعب ذكر الصفات التى هى صفات الاله ومن انكرها كفر وهى اربعة الحياة والقدرة والارادة والعلم واما السمع والبصر والكلام القائم به من ينكرها يكون مبتدعا لاكافرا وقد استوفى الاربع لان قوله خلق السموات والارض اشارة الى كمال القدرة وقوله يبسط الرزق لمن يشاء اشارة الى نفوذ مشيئته وارادته وقوله ان الله بكل شئ عليم اشارة الى شمول علمه والقادر المريد العالم لايتصور الاحيا ثم انه تعالى لما قال الله يبسط الرزق ذكر اعترافهم بذلك ۞ فقال تعالى (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الارض من بعد موتها ليقولن الله) يعنى هذا سبب الرزق وموجد السبب موجد المسبب فالرزق من الله ۞ ثم قال تعالى (قل الحمد لله) وهو يحتمل وجوها (احدها) ان يكون كلاما معترضا فى اثناء كلام كأنه قال فأحيا به الارض من بعد موتها (بل أكثرهم لايعقلون) فذكر فى اثناء هذا الكلام الحمد لذكر النعمة كما قال القائل

ان الثمانين و بلغتها * قد احوجت سمعى الى ترجمان

(الثانى) ان يكون المراد منه كلاما متصلا وهو انهم يعرفون بأن ذلك من الله ويعترفون ولايعملون بما يعلمون وانت تعلم وتعمل فكذلك المؤمنون بك فقل الحمد لله واكثرهم لايعقلون ان الحمد كله لله فيحمدون غير الله على نعمة هى من الله (الثالث) ان يكون المراد انهم يقولون انه من الله ويقولون بالهية غير الله فيظهر تناقض كلامهم وتهافت مذهبهم فقل الحمد لله على ظهور تناقضهم واكثرهم لايعقلون هذا التناقض او فساد هذا التناقض ۞ ثم قال تعالى (وماهذه الحيوة الدنيا الالهو ولعب وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون) لما بين انهم يعترفون بكون الله هو الخالق وكونه هو الرزاق وهم يتركون عبادته ولايتركونها الالزينة الحياة الدنيا بين ان مايميلون اليه ليس بشئ بقوله وماهذه الحياة الدنيا الالهو وفى الآية مسائل (الاولى) ما الفرق بين اللهو واللعب حتى يصح عطف احدهما على الآخر فنقول الفرق من وجهين (احدهما) ان كل شغل يفرض فان المكلف اذا اقبل عليه لزمه الاعراض عن غيره ومن لايشغله شأن عن شأن هو الله تعالى فالذى يقبل على الباطل للذة يسيرة زائلة فيه يلزمه الاعراض عن الحق فالاقبال على الباطل لعب والاعراض عن الحق لهو فالدنيا لعب اى اقبال على الباطل ولهو اى اعراض عن الحق (الثانى) هو ان المشتغل بشئ يرجح ذلك الشئ على غيره لامحالة حتى يشتغل به فاما ان يكون ذلك الترجيح على وجه التقديم بأن يقول اقدم هذا وذلك الآخر آتى به بعده او يكون على وجه الاستغراق فيه والاعراض عن غيره بالكلية فالاول لعب والثانى لهو والدليل عليه هو ان الشطرنج والحمام وغيرهما مما يقرب منهما لاتسمى آلات الملاهى فى العرف والعود وغيره من الاوتار تسمى آلات الملاهى لانها

المتوفى فيها وجمع الناصر لوقوعه فى مقابلة الجمع اى مالاحد منكم من ناصر اصلا (فآمن له لوط) اى صدقه فى جميع مقالاته لافى نبوته ومادعا اليه من التوحيد فقط فانه كان منزها (٦٩١) عن الكفر وماقيل انه آمن له حين رأى النار لم تحرقه ينبغى ان يحمل على ماذكرنا لو على ان يراد بالايمان الرتبة العالية منه وهى التى لايرتقى اليها الاهمم الافراد الكمل ولوط هو ابن اخيه عليهما السلام (وقال انى مهاجر) اى من قومى (الى ربى) الى حيث امرنى ربى (انه هو العزيز) الغالب على امره فيمنعنى من اعدائى (الحكيم) الذى لايفعل فعلا الاوفيه حكمة ومصلحة فلا يأمرنى الابما فيه صلاحى روى انه هاجر من كوثى سواد الكوفة مع لوط وسارة ابنة عمه الى حران ثم منها الى الشام فنزل فلسطين ونزل لوط سدوم (ووهبنا له اسحق ويعقوب) ولدا ونافلة حين ايس من عجوز عاقر (وجعلنا فى ذريته النبوة) فكثر منهم الانبياء (والكتاب) اى جنس الكتاب المتناول للكتب الاربعة (وآتيناه اجره) بمقابلة هجرته الينا (فى الدنيا) باعطاء الولد والذرية الطيبة واستمرار النبوة فيهم وانتماء اهل الملل اليه والثناء والصلاة عليه الى آخر الدهر (وانه فى الآخرة لمن الصالحين) اى الكاملين فى الصلاح (ولوطا) منصوب اما بالعطف على نوحا او على ابراهيم والكلام فى قوله تعالى (اذ قال لقومه) كالذى مر فى قصة ابراهيم عليه السلام (انكم لتأتون الفاحشة) اى الفعلة المتناهية فى القبح وقرئ أئنكم (ماسبقكم بها من احد من العالمين) استئناف مقرر لكمال قبحها فان اجماع جميع افراد العالمين على التحامى عنها ليس الالكونها مما تشمئز منه الطباع وتنفر منه النفوس (أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل) وتتعرضون للسابلة اى بالفاحشة حيث روى انهم كانوا كثيرا مايفعلونها بالغرباء وقيل تقطعون سبيل النسل بالاعراض عن

الحرث واتيان ماليس بحرث وقيل تقطعون السبيل بالقتل واخذ المال (وتأتون فى ناديكم) اى تفعلون فى مجلسكم الجامع لاصحابكم (المنكر) كالجماع والضراط وحل الازار وغيرهما مما لاخير فيه من الافاعيل (٦٩٢) المنكرة وعن ابن عباس رضى الله عنهما هو الحذف بالحصى والرمى بالبنادق والفرقعة ومضغ العلك والسواك بين الناس وحل الازار والسباب والفحش فى المزاح وقيل السخرية بمن مر بهم وقيل المجاهرة فى ناديهم بذلك العمل (فما كان جواب قومه الا ان قالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين) اى فما كان جوابا من جهتهم شئ من الاشياء الا هذه الكلمة الشنيعة اى لم يصدر عنهم فى هذه المرة من مرات مواعظ لوط عليه السلام وقد كان اوعدهم فيها بالعذاب واما ما فى سورة الاعراف من قوله تعالى وما كان جواب قومه الا ان قالوا اخرجوهم من قريتكم الآية وما فى سورة النمل من قوله تعالى فما كان جواب قومه الا ان قالوا اخرجوا آل لوط من قريتكم الآية فهو الذى صدر عنهم بعد هذه المرة وهى المرة الاخيرة من مرات المقاولات الجارية بينهم وبينه عليه الصلاة والسلام وقد مر تحقيقه فى سورة الاعراف (قال رب انصرنى) بانزال العذاب الموعود (على القوم المفسدين) بابتداع الفاحشة وسنها فيمن بعدهم والاصرار عليها واستعجال العذاب بطريق الاستهزاء وانما وصفهم بذلك مبالغة فى استنزال العذاب عليهم (ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى) اى بالبشارة بالولد والنافلة (قالوا) اى لابراهيم عليه السلام فى تضاعيف الكلام حسبما فصل فى سورة هود وسورة الحجر (انا مهلكو أهل هذه القرية) اى قرية سدوم والاضافة لفظية لان المعنى على الاستقبال (ان اهلها كانوا ظالمين) تعليل للاهلاك باصرارهم على الظلم وتماديهم فى فنون الفساد وانواع المعاصى (الى)

تلهى الانسان عن غيرها لما فيها من اللذة الحالية فالدنيا للبعض لعب يشتغل به و يقول بعد هذا الشغل أشتغل بالعبادة و الآخرة وللبعض لهو يشتغل به و ينسى الآخرة بالكلية (المسئلة الثانية) قال الله تعالى فى سورة الانعام وما الحياة الدنيا ولم يقل وما هذه الحياة وقال ههنا وما هذه فنقول لان المذكور من قبل ههنا امر الدنيا حيث قال تعالى فأحيى به الارض من بعد موتها فقال هذه والمذكور قبلها هناك الآخرة حيث قال ياحسرتنا على مافرطنا فيها وهم يحملون اوزارهم على ظهورهم فلم تكن الدنيا فى ذلك الوقت فى خاطرهم فقال وما الحياة الدنيا (المسئلة الثالثة) قال هناك الا لعب ولهو وقال ههنا الالهو ولعب فنقول لما كان المذكور هناك من قبل الآخرة واظهارهم الحسرة ففى ذلك الوقت يبعد الاستغراق فى الدنيا بل نفس الاشتغال بها فأخر الابعد وأما ههنا لما كان المذكور من قبل الدنيا وهى خداعة تدعو النفوس الى الاقبال عليها والاستغراق فيها اللهم الا لمانع يمنعه من الاستغراق فيشتغل بها من غير استغراق فيها أو لعاصم يعصمه فلا يشتغل بها أصلا فكان ههنا الاستغراق اقرب من عدمه فقدم اللهو (المسئلة الرابعة) قال هناك وللدار الآخرة خير وقال ههنا وان الدار الآخرة لهى الحيوان فنقول لما كان الحال هناك حال اظهار الحسرة ما كان المكلف يحتاج الى رادع قوى فقال الآخرة خير ولما كان ههنا الحال حال الاشتغال بالدنيا احتاج الى رادع قوى فقال لاحياة الاحياة الآخرة وهذا كما ان العاقل اذا عرض عليه شيئان فقال فى احدهما هذا خير من ذلك يكون هذا ترجيحا فحسب ولو قال هذا جيد وهذا الآخر ليس بشئ يكون ترجيحا مع المبالغة فكذلك ههنا بالغ لكون المكلف متوغلا فيها (المسئلة الخامسة) قال هناك خير للذين يتقون ولم يقل ههنا الالهى الحيوان لان الآخرة خير للمتقى فحسب اى المتقى عن الشرك واما الكافر فالدنيا جنته فهى خير له من الآخرة واما كون الآخرة باقية فيها الحياة الدائمة فلا يختص بقوم دون قوم (المسئلة السادسة) كيف اطلق الحيوان على الدار الآخرة مع ان الحيوان نام مدرك فنقول الحيوان مصدر حى كالحياة لكن فيها مبالغة ليست فى الحياة والمراد بالدار الآخرة هى الحياة الثانية فكأنه قال الحياة الثانية هى الحياة المعتبرة او نقول لما كانت الآخرة فيها الزيادة والنمو كما قال تعالى للذين احسنوا الحسنى وزيادة وكانت هى محل الادراك التام الحق كما قال تعالى يوم تبلى السرائر اطلق عليها الاسم المستعمل فى النامى المدرك (المسئلة السابعة) قال فى سورة الانعام أفلا تعقلون وقال ههنا لو كانوا يعلمون وذلك لان المثبت هناك كون الآخرة خيرا وانه ظاهر لا يتوقف الا على العقل والمثبت ههنا ان لاحياة الاحياة الآخرة وهذا دقيق لا يعرف الا بعلم نافع ﴿ ثم قال تعالى (فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذاهم يشركون) اشارة الى ان المانع من التوحيد هو الحياة الدنيا وبيان ذلك هو انهم اذا انقطع رجاؤهم عن الدنيا رجعوا

الى الفطرة الشاهدة بالتوحيد ووحدوا واخلصوا فاذا أنجاهم وارجاهم عادوا الى ما كانوا عليه من حب الدنيا واشركوا * ثم قال تعالى (ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون) وفيه وجهان (احدهما) ان اللام لام كى اى يشركون ليكون اشراكهم كفرا بنعمة الانجاء وليتمتعوا بسبب الشرك فسوف يعلمون وبال عملهم حين زوال املهم (والثانى) ان تكون اللام لام الامر ويكون المعنى ليكفروا على التهديد كما قال تعالى اعملوا ماشئتم وكما قال اعملوا على مكانتكم انى عامل فسوف تعلمون فساد ماتعملون * ثم قال تعالى (أولم يروا انا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمت الله يكفرون) التفسير ظاهر وانما الدقيق وجه تعلق الآية بما قبلها فنقول الانسان فى البحر يكون على اخوف مايكون وفى بيته يكون على آمن مايكون لاسيما اذا كان بيته فى بلد حصين فلما ذكر الله المشركين حالهم عند الخوف الشديد ورأوا انفسهم فى تلك الحالة راجعة الى الله تعالى ذكرهم حالهم عند الامن العظيم وهى كونهم فى مكة فانها مدينتهم وبلدهم وفيها سكناهم ومولدهم وهى حصين بحصن الله حيث كل من حولها يمتنع من قتال من حصل فيها والحصول فيها يدفع الشرور عن النفوس ويكفيها يعنى انكم فى أخوف ما كنتم دعوتم الله وفى آمن ماحصلتم عليه كفرتم بالله وهذا متناقض لان دعاءكم فى ذلك الوقت على سبيل الاخلاص ما كان الالقطعكم بأن النعمة من الله لاغير فهذه النعمة العظيمة التى حصلت وقد اعترفتم بأنها لاتكون الا من الله كيف تكفرون بها والاصنام التى قطعتم فى حال الخوف ان لا امن منها كيف آمنتم بها فى حال الامن * ثم قال تعالى (ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا او كذب بالحق لما جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين) لما بين الله الامور على الوجه المذكور ولم يؤمن به احد بين انهم اظلم من يكون لان الظلم على مابين وضع الشئ فى غير موضعه فاذا وضع واحد شيئا فى موضع ليس هو موضعه يكون ظالما فاذا وضعه فى موضع لايمكن ان يكون ذلك موضعه يكون اظلم لان عدم الامكان اقوى من عدم الحصول لان كل مالا يمكن لايحصل وليس كل مالايحصل لايمكن فالله تعالى لايمكن ان يكون له شريك وجعلوا له شريكا فلو كان ذلك فى حق ملك مستقل فى الملك لكان ظلما يستحق من الملك العقاب الاليم فكيف اذا جعل الشريك لمن لايمكن ان يكون له شريك وايضا من كذب صادقا يجوز عليه الكذب يكون ظلما فمن يكذب صادقا لايجوز عليه الكذب كيف يكون حاله فاذا ليس اظلم ممن يكذب على الله بالشرك ويكذب الله فى تصديق نبيه والنبى فى رسالة ربه والقرآن المنزل من الله الى الرسول والعجب من المشركين انهم قبلوا المتخذ من خشب منحوت بالآلهية ولم يقبلوا ذا حسب منعوت مبعوث بالرسالة (والآية تحتمل وجها آخر) وهو ان الله تعالى لما بين التوحيد والرسالة والحشر وقرره ووعظ وزجر قال لنبيه ليقول للناس ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا اى انى جئت بالرسالة وقلت انها من الله

(قال ان فيها لوطا) فكيف تهلكونها (قالوا نحن اعلم بمن فيها لننجينه واهله) ارادوا انهم غير غافلين عن مكان لوط عليه السلام فيها بل عن لم يتعرض له ابراهيم عليه السلام من اتباعه (٦٩٣) المؤمنين وانهم معتنون بشأنهم اتم اعتناء حسبما ينبئ عنه تصدير الوعد بالتنجية بالقسم اى والله لننجينه واهله (الا امرأته كانت من الغابرين) اى الباقين فى العذاب او القرية (ولما ان جاءت رسلنا) المذكورون بعد مفارقتهم لابراهيم عليه السلام (لوطا سيئ بهم) اعتراه المساءة بسببهم مخافة ان يتعرض له قومه بسوء وكلمة ان صلة لتأكيد مابين الفعلين من الاتصال (وضاق بهم ذرعا) اى ضاق بشأنهم وتدبير امرهم ذرعه اى طاقته كقولهم ضاقت يده وبازائه رحب ذرعه بكذا اذا كان مطيقا به قادرا عليه وذلك ان طويل الذراع ينال مالاينال قصير الذراع (وقالوا) لما شاهدوا فيه مخايل التضجر من جهتهم وعاينوا انه قد عجز عن مدافعة قومه بعد اللتيا والتى حتى آلت به الحال الى ان قال لو ان لى بكم قوة او آوى الى ركن شديد (لاتخف) اى من قومك علينا (ولا تحزن) اى على شئ وقيل باهلاكنا اياهم (انا منجوك واهلك) مما يصيبهم من العذاب (الا امرأتك كانت من الغابرين) وقرئ لننجينك ومنجوك من الانجاء واياما كان فمحل الكاف الجر على المختار ونصب اهلك باضمار فعل او بالعطف على محلها باعتبار الاصل (انا منزلون على اهل هذه القرية رجزا من السماء) استئناف سوق لبيان ماأشير اليه بوعد التنجية من نزول العذاب عليهم والرجز العذاب الذى يقلق المعذب اى يزعجه من قولهم ارتجز اذا ارتجس واضطرب وقرئ منزلون بالتشديد (بما كانوا يفسقون) بسبب فسقهم المستمر (ولقد تركنا منها) اى من القرية (آية بينة) هى قصتها العجيبة وآثار ديارها الخربة وقيل الحجارة الممطورة فانها كانت باقية بعدها وقيل الماء الاسود على وجه الارض

(لقوم يعقلون) يستعملون عقـولهم فى الاستبصار والاعتبار وهو متعلق اما بتركنا او بينة (والى مدين اخاهم شعيبا) متعلق بمضمر معطوف على ارسلنا فى قصة نوح عليه السلام اى وارسلنا الى مدين (٦٩٤) شعيبا (فقال ياقوم اعبدوا الله) وحده (وارجوا اليـوم الآخر) اى توقعوه وماسيقع فيه من فنون الاهوال وافعلوا لـيوم من الاعمـال ماتأمنون غائلته وقيل وارجوا ثوابه بطريق اقامة المسبب مقام السبب وقيل الرجاء بمعنى الخوف (ولاتعثوا فى الارض مفسدين فكذبوه فأخذتهم الرجفة) اى الزلزلة الشديدة وفى سورة هود واخـذت الذين ظلموا الصيحة اى صيحة جبريل عليه السلام فانها الموجبة للرجفة بسبب تموجها للهواء ومايجاورها من الارض (فاصبحوا فى دارهم) اى بلدهم او منازلهم والافراد لامن اللبس (جاثمين) باركين على الركب ميتين (وعادا وثمود) منصوبان باضمار فعل ينبئ عنه ماقبله اى اهلكنا وقرئ ثمودا بتأويل الحى (وقد تبين لكم من مسـاكنهم) اى وقد ظهر لكم اهلاكنا اياهم من جهة مسـاكنهم بالنظر اليها عنـد اجتيـازكم بها ذهابا الى الشام وايابا منه (وزين لهم الشيطان اعمالهم) من فنون الكفر والمعاصى (فصدهم عن السبيل) السوى الموصل الى الحق (وكـانوا مستبصرين) متمكنين من النظر والاستدلال ولكنهم لم يفعلوا ذلك او متبينين ان العـذاب لاحق بهم باخبار الرسل عليهم الصلاة والسلام لهم ولكنهم لجوا حتى لقوا مالقوا (وقارون وفرعون وهامان) معطوف على عاد قيل تقديم قارون لشرف نسبه (ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الارض وماكانوا سابقين) مفلتين فائتين من قولهم سبق طالبه اذا فاته ولم يدركه ولقد ادركهم امر الله عز وجل اى ادركهم فتداركوا نحو الدمار والهلاك (فكلا) تفسير لما ينبئ عنه عدم سبقهم بطريق الابهام (وتركوا)

وهذا كلام الله وأنتم كذبتمونى فالحال دائر بين امرين اما أنا مفتر متقى ان كان هذا من عند غير الله او انتم مكذبون بالحق ان كان من عنده لكنى معترف بالعذاب الدائم عارف به فلااقدم على الافتراء لان جهنم مثوى للكافرين والمتقى كافر وانتم كذبتمونى فجهنم مثوا كم اذهى مثوى للكافرين وهذا حينئذ يكون كقوله تعالى وأنا اواياكم لعلى هدى او فى ضلال مبين * ثم قال تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين) لما فرغ من التقرير والتقريع ولم يؤمن الكفار سلى قلوب المؤمنين بقوله والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا اى من جاهد بالطاعة هداه سبل الجنة وان الله لمع المحسنين اشارة الى ماقال للذين احسنوا الحسنى وزيادة فقوله لنهدينهم اشارة الى الحسنى وقوله وان الله لمع المحسنين اشارة الى المعية والقربة التى تكون للمحسنين زيادة على حسناته (وفيه وجه آخر حكمى) وهو ان يكون المعنى والذين جاهدوا فينا اى الذين نظروا فى دلائلنا لنهدينهم سبلنا اى لنحصل فيهم العلم بنا ولنبين هذا فضل بيان فنقول اصحابنا المتكلمون قالوا ان النظر كالشرط للعلم الاستدلالى والله يخلق فى الناظر علما عقيب نظره ووافقهم الفلاسفة على ذلك فى المعنى وقالوا النظر معد للنفس لقبول الصورة المعقولة واذا استعدت النفس حصل لها العلم من فيض واهب الصور الجسمانية والعقلية وعلى هذا يكون الترتيب حسنا ايضا وذلك لان الله تعالى لما ذكر الدلائل ولم تفدهم العلم والايمان قال انهم لم ينظروا فلم يهتدوا وانما هو هدى للمتقين الذين يتقون التعصب والعناد فينظرون فيهديهم وقوله وان الله لمع المحسنين اشارة الى درجة اعلى من الاستدلال كأنه تعالى قال من الناس من يكون بعيدا لا يتقرب وهم الكفار ومنهم من يتقرب بالنظر والسلوك فيهديهم ويقربهم ومنهم من يكون الله معه ويكون قريبا منه يعلم الاشياء منه ولايعلمه من الاشياء ومن يكون مع الشئ كيف يطلبه فقوله ومن اظلم اشارة الى الاول وقوله والذين جاهدوا فينا اشارة الى الثانى وقوله وان الله لمع المحسنين اشارة الى الثالث والله اعلم باسرار كتابه والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيدنا محمد النبى وآله وصحبه اجمعين

(سورة الروم ستون آية مكية)

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(الم غلبت الروم فى ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين) وجه تعلق اول هذه السـورة بما قبلها يتبين منه سبب النزول فنقول لما قال الله تعالى فى السورة المتقدمة ولاتجادلوا اهل الكتاب الا بالتى هى احسن وكان يجادل المشركين بنسبتهم الى عدم العقل كما فى قوله صم بكم عمى فهم لايعقلون وكان اهل الكتاب يوافقون النبى فى الاله كما قال والهنا والهكم واحد وكانوا يؤمنون بكثير مما يقوله بل كثير منهم كانوا مؤمنين به كما قال والذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به اى أبغض المشركون اهل الكتاب

وتركوا مراجعتهم وكانوا من قبل يراجعونهم فى الامور فلما وقعت الكرة عليهم حين قاتلهم الفرس المجوس فرح المشركون بذلك فانزل الله تعالى هذه الآيات لبيان ان الغلبة لاتدل على الحق بل الله تعالى قد يريد مزيد ثواب فى المحب فيبتليه ويسلط عليه الاعادى وقد يختار تعجيل العذاب الادنى دون العذاب الاكبر قبل يوم الميعاد للمعادى وفى الآية مسائل (الاولى) ما الحكمة فى افتتاح هذه السورة بحروف التهجى فنقول قد سبق منا ان كل سورة افتتحت بحروف التهجى فان فى اوائلها ذكر الكتاب او التنزيل او القرآن كما فى قوله تعالى الم ذلك الكتاب المص كتاب طه ما انزلنا عليك القرآن الم تنزيل الكتاب حم تنزيل من الرحمن الرحيم يس والقرآن ص والقرآن الا هذه السورة وسورتين اخريين ذكرناهما فى العنكبوت وقد ذكرنا ما الحكمة فيهما فى موضعهما فنقول ما يتعلق بهذه السور وهو ان السورة التى فى أوائلها التنزيل والكتاب والقرآن فى اوائلها ذكر ما هو معجزة فقدمت عليها الحروف على ما تقدم بيانه فى العنكبوت وهذه ذكر فى اولها ما هو معجزة وهو الاخبار عن الغيب فقدمت الحروف التى لا يعلم معناها ليتنبه السامع فيقبل بقلبه على الاستماع ثم ترد عليه المعجزة وتقرع الاسماع (المسئلة الثانية) قوله تعالى فى ادنى الارض اى ارض العرب لان الالف واللام للتعريف والمعهود عندهم ارضهم ۞ وقوله تعالى (وهم من بعد غلبهم) أية فائدة فى ذكره مع ان قوله سيغلبون بعد قوله غلبت الروم لا يكون الا من بعد الغلبة فنقول الفائدة فيه اظهار القدرة وبيان ان ذلك بأمر الله لان من غلب بعد غلبه لا يكون الا ضعيفا فلو كان غلبتهم لشوكتهم لكان الواجب ان يغلبوا قبل غلبهم فاذا غلبوا بعدما غلبوا دل على ان ذلك بأمر الله فذكر من بعد غلبهم ليتفكروا فى ضعفهم ويتذكروا انه ليس بزحفهم وانما ذلك بأمر الله تعالى وقوله فى ادنى الارض لبيان شدة ضعفهم اى انتهى ضعفهم الى ان وصل عدوهم الى طريق الحجاز وكسروهم وهم فى بلادهم ثم غلبوا حتى وصلوا الى المدائن وبنوا هنالك الرومية لبيان ان هذه الغلبة العظيمة بعد ذلك الضعف العظيم باذن الله (المسئلة الثالثة) قال تعالى فى بضع سنين قيل هى ما بين الثلاثة والعشرة ابهم الوقت مع ان المعجزة فى تعيين الوقت اتم فنقول السنة والشهر واليوم والساعة كلها معلومة عند الله تعالى وبينها لنبيه وما اذن له فى اظهارها لان الكفار كانوا معاندين والامور التى تقع فى البلاد النائية تكون معلومة الوقوع بحيث لا يمكن انكارها لكن وقتها يمكن الاختلاف فيه فالمعاند كان يتمكن من ان يرجف بوقوع الواقعة قبل الوقوع ليحصل الخلف فى كلامه ولما وردت الآية ذكر ابو بكر رضى الله عنه ان الروم ستغلب وانكره ابى بن خلف وغيره وناحبوا ابا بكر اى خاطروه على عشرة قلائص الى ثلاث سنين فقال عليه السلام لأبى بكر البضع ما بين الثلاثة والعشرة فزايده فى الابل وماده فى الاجل فجعلا القلائص مائة والاجل سبعا وهذا يدل على علم النبى عليه السلام بوقت الغلبة ۞ ثم

اى فكل واحد من المذكورين (اخذنا بذنبه) اى عاقبناه بجنايته لا ببعضه دون بعض كما يشعر به تقديم المفعول (فمنهم من ارسلنا عليه حاصبا) تفصيل للاخذ اى ريحا عاصفا فيها حصباء وقيل ملكا رماهم بها وهم قوم لوط (ومنهم من اخذته الصيحة) كمدين وثمود (ومنهم من خسفنا به الارض) كقارون (ومنهم من اغرقنا) كقوم نوح وفرعون وقومه (وما كان الله ليظلمهم) بما فعل بهم فان ذلك محال من جهته تعالى (ولكن كانوا انفسهم يظلمون) بالاستمرار على مباشرة ما يوجب ذلك من انواع الكفر والمعاصى (مثل الذين اتخذوا من دون الله اولياء) اى فيما اتخذوه معتمدا ومتكلا (كمثل العنكبوت اتخذت بيتا) فيما نسجته فى الوهن والخور بل ذلك اوهن من هذا لان له حقيقة وانتفاعا فى الجملة او مثلهم بالاضافة الى الموحد كمثله بالاضافة الى رجل بنى بيتا من حجر وجص والعنكبوت يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث والغالب فى الاستعمال التأنيث وتاؤه كتاء طاغوت ويجمع على عناكب وعنكبوتات واما العكاب والعكب والاعكب فاسماء الجموع (وان اوهن البيوت لبيت العنكبوت) حيث لا يرى شئ يدانيه فى الوهن والوهى (لو كانوا يعلمون) اى شيئا من الاشياء لجزموا ان هذا مثلهم او ان دينهم اوهى من ذلك ويجوز ان يجعل بيت العنكبوت عبارة عن دينهم تحقيقا للتمثيل فالمعنى وان اوهن ما يعتمد به فى الدين دينهم (ان الله يعلم ما يدعون من دونه من شئ) على اضمار القول اى قل للكفرة ان الله الخ وما استفهامية منصوبة بيدعون معلقة ليعلم ومن للتبيين او نافية ومن مزيدة وشئ مفعول

قال تعالى (لله الامر من قبل ومن بعد) اى من قبل الغلبة ومن بعدها او من قبل هذه المدة ومن بعدها يعنى ان أراد غلبهم غلبهم قبل بضع سنين وان أراد غلبهم غلبهم بعدها وما قدرهذه المدة لعجز وانما هى ارادة نافذة وبنيا على الضم لسا قطعا عن الاضافة لان غير الضمة من الفتحة والكسرة يشتبه بمايدخل عليهما وهو النصب والجر اما النصب ففى قولك جئت قبله اوبعده واما الجرففى قولك من قبله ومن بعده فبنيا على الضم لعدم دخول مثلهما عليه فى الاعراب وهوالرفع ۞ (ويومئذ يفرح المؤمنون) قيل يفرحون بغلبة الروم على الفرس كافرح المشركون بغلبة الفرس على الروم والاصح انهم يفرحون بغلبتهم المشركين وذلك لان غلبة الروم كانت يوم غلبة المسلين المشركين ببدر ولو كان المراد ماذكروه لماصح لان فى ذلك اليوم بعينه لم يصل اليهم خبر الكسر فلايكون فرحهم يومئذ بل الفرح يحصل بعده ۞ ثم قال تعالى (بنصر الله ينصر من يشاء) قدم المصدر على الفعل حيث قال بنصر الله ينصر وقدم الفعل على المصدر فى قوله وايدك بنصره وذلك لان المقصود ههنا بيان ان النصرة بيدالله ان أراد نصر وان لم يرد لاينصر وليس المقصود النصرة ووقوعها والمقصود هناك اظهار النعمة عليه بأنه نصره فالمقصود هناك الفعل ووقوعه فقدم هناك الفعل ثم بين ان ذلك الفعل مصدره عندالله والمقصود ههنا كون المصدر عندالله ان أراد فعل فقدم المصدر ۞ ثم قال تعالى (وهوالعزيز الرحيم) ذكر من اسمائه هذين الاسمين لانه ان لم ينصر المحب بل سلط العدو عليه فذلك لعزته وعدم افتقاره وان نصر المحب فذلك لرحمته عليه او نقول ان نصرالله المحب فلعزته واستغنائه عن العدو ورحمته على المحب وان لم ينصر المحب فلعزته واستغنائه عن المحب ورحمته فى الآخرة واصلة اليه ۞ ثم قال تعالى (وعدالله لايخلف الله وعده) يعنى سيغلبون وعدهم الله وعدا ووعدالله لاخلف فيه ۞ قوله تعالى (ولكن اكثرالناس لايعلمون) اى لايعلمون وعده وانه لاخلف فى وعده ۞ ثم قال تعالى (يعلمون ظاهرامن الحيوة الدنيا) يعنى علمهم منحصر فى الدنيا وايضا لايعلمون الدنيا كما هى وانما يعلمون ظاهرها وهى ملاذها وملاعبها ولايعلمون باطنها وهى مضارها ومتاعبها ويعلمون وجودها الظاهر ولايعلمون فناءها (وهم عن الآخرة هم غافلون) والمعنى هم عن الآخرة غافلون وذكرت هم الثانية لتفيد ان الغفلة منهم والافاسباب التذكر حاصلة وهذا كما يقول القائل لغيره غفلت عن امرى فاذا قال هو شغلنى فلان فيقول ماشغلك ولكن انت اشتغلت ۞ ثم قال تعالى (أولم يتفكروا فى انفسهم) لماصدر من الكفار الانكار بالله عند انكار وعد الله وعدم الخلف فيه كما قال تعالى ولكن اكثر الناس لايعلمون والانكار بالحشر كما قال تعالى وهم عن الآخرة هم غافلون بين ان الغفلة وعدم العلم منهم بتقديرالله والافاسباب التذكر حاصلة وهوانفسهم لوتفكروا فيها لعلموا وحدانية الله وصدقوا بالحشر اما الوحدانية فلان الله خلقهم على احسن تقويم وانذكر من حسن خلقهم جزأ من ألف

يدعون اومصدرية وشئ عبارة عن المصدر اوموصولة مفعول ليعلم ومفعول يدعون عائده المحذوف وقرئ تدعون بالتاء والكلام على الاولين تجهيل لهم وتأكيد للمثل وعلى الاخيرين وعيد لهم (وهوالعزيزالحكيم) تعليل على المعنيين فان اشراك مالايعدشيئا بمن هذا شأنه من فرط الغباوة وان الجماد بالنسبة الى القادر القاهر على كل شئ البالغ فى العلم واتقان الفعل الغاية القاصية كالمعدوم البحت وان من هذه صفاته قادر على مجازاتهم (وتلك الامثال) اى هذا المثل وامثاله (نضربها للناس) تقريبا لمابعد من افهامهم (وما يعقلها) على ماهى عليه من الحسن واستتباع الفوائد (الاالعالمون) الراسخون فى العلم المتدبرون فى الاشياء على ماينبغى وعنه عليه الصلاة والسلام انه تلا هذه فقال العالم من عقل عن الله تعالى وعمل بطاعته واجتنب سخطه (خلق الله السموات والارض بالحق) اى محقا مراعيا للحكم والمصالح على انه حال من فاعل خلق اوملتبسة بالحق الذى لامحيد عنه مستتبعة للمنافع الدينية والدنيوية على انه حال من مفعوله فانها مع اشتمالها على جميع مايتعلق به معاشهم شواهد دالة على شؤنه تعالى المتعلقة بذاته وصفاته كما يفصح عنه قوله تعالى (ان فى ذلك لآية للمؤمنين) دالة لهم على ماذكر من شؤنه سبحانه وتخصيص المؤمنين بالذكر مع عموم الهداية والارشاد فى خلقهما للكل لانهم المنتفعون بذلك (اتل مااوحى اليك من الكتاب) تقربا الى الله تعالى بقراءته وتذكرا لما فى تضاعيفه من المعانى وتذكيرا للناس وحملا لهم على العمل بمافيه من الاحكام ومحاسن الآداب

ألف جزء وهو ان الله تعالى خلق للانسان معدة فيها ينهضم غذاؤه لتقوى به اعضاؤه ولها منفذان (احدهما) لدخول الطعام فيه (والآخر) لخروج الطعام منه فاذا دخل الطعام فيها انطبق المنفذ الآخر بعضه على بعض بحيث لايخرج منه ذرة ولا بار شح وتمسكه الماسكة الى ان ينضج نضجا صالحا ثم يخرج من المنفذ الآخر وخلق تحت المعدة عروقا دقاقا صلابا كالمصفاة التى يصفى بها الشيء فينزل منها الصافى الى الكبد وينصب الثفل الى معى مخلوق تحت المعدة مستقيم متوجها الى الخروج ومايدخل فى الكبد من العروق المذكورة يسمى الماساريقا بالعبرية والعبرية عربية مفسودة فى الاكثر يقال لموسى ميشا وللاله ايل الى غير ذلك فالماساريقا معناها ماساريق اشتمل عليه الكبد وانضجه نضجا آخر ويكون مع الغذاء المتوجه من المعدة الى الكبد فضل ماء مشروب ليرقق وينذرق فى العروق الدقاق المذكورة وفى الكبد يستغنى عن ذلك الماء فيتميز عنه ذلك الماء وينصب من جانب حدبة الكبد الى الكلية ومعه دم يسير تغتذى به الكلية وغيرها ويخرج الدم الخالص من الكبد فى عرق كبير ثم يتشعب ذلك النهر الى جداول والجداول الى سواق والسواقى الى رواضع ويصل فيها الى جميع البدن فهذه حكمة واحدة فى خلق الانسان وهذه كفاية فى معرفة كون الله فاعلا مختارا قادرا كاملا عالما شاملا علمه ومن يكون كذلك يكون واحدا والالكان عاجزا عند ارادة شريكه ضد ما أراده واما دلالة الانسان على الحشر فذلك لانه اذا تفكر فى نفسه يرى قواه صائرة الى الزوال واجزاءه مائلة الى الانحلال فله فناء ضرورى فلو لم يكن له حياة أخرى لكان خلقه على هذا الوجه للفناء عبثا واليه اشار بقوله أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وهذا ظاهر لان من يفعل شيئا للعبث فلو بالغ فى احكامه واتقانه يضحك منه فاذا خلقه للبقاء ولا بقاء دون اللقاء فالآخرة لابد منها ثم انه تعالى ذكر بعد دليل الانفس دليل الآفاق * فقال تعالى (ما خلق الله السموات والارض ومابينهما الا بالحق وأجل مسمى) فقوله الا بالحق اشارة الى وجه دلالتها على الوحدانية وقد بينا ذلك فى قوله خلق الله السموات والارض بالحق ان فى ذلك لآية للمؤمنين ونعيده فان التكرير فى الذهن يفيد التقرير لذى الذهن فنقول اذا كان بالحق لايكون فيها بطلان فلا يكون فيها فساد لان كل فاسد باطل واذا لم يكن فيها فساد لايكون آلهة والالكان فيها فساد كما قال تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وقوله وأجل مسمى يذكر بالاصل الآخر الذى انكروه * ثم قال تعالى (وان كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون) يعنى لايعلمون انه لابد بعد هذه الحياة من لقاء وبقاء اما فى اسعاد او شقاء وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قدم ههنا دلائل الانفس على دلائل الآفاق وفى قوله تعالى سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم قدم دلائل الآفاق وذلك لان المفيد اذا أفاد فائدة يذكرها على وجه جيد يختاره فان فهمه السامع المستفيد فذلك والا يذكرها على وجه أبين منه وينزل درجة فدرجة واما المستفيد فانه يفهم اولا

ومكارم الاخلاق (واقم الصلاة) اى داوم على اقامتها وحيث كانت الصلاة منطبقة للصلوات المكتوبة المؤداة بالجماعة وكان امره عليه الصلاة والسلام باقامتها متضمنا لامر الامة بها علل (٦٩٧) بقوله تعالى (ان الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر) كأنه قيل وصل بهم ان الصلاة تنهاهم عن الفحشاء والمنكر ومعنى نهيها عنهما انها سبب للانتهاء عنهما لانها مناجاة لله تعالى فلابد ان تكون مع اقبال تام على طاعته واعراض كلى عن معاصيه قال ابن مسعود وابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصى الله تعالى فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ولم تنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله تعالى الا بعدا وقال الحسن وقتادة من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فصلاته وبال عليه وروى انس رضى الله عنه ان فتى من الانصار كان يصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لايدع شيئا من الفواحش الاركبه فوصف له عليه الصلاة والسلام حاله فقال ان صلاته ستنهاه فلم يلبث ان تاب وحسن حاله (ولذكر الله اكبر) اى وللصلاة اكبر من سائر الطاعات وانما عبر عنها به كما فى قوله تعالى فاسعوا الى ذكر الله للايذان بأن مافيها من ذكر الله تعالى هو العمدة فى كونها مفضلة على الحسنات ناهية عن السيآت وقيل ولذكر الله تعالى عند الفحشاء والمنكر وذكر نهيه عنهما ووعيده عليهما اكبر فى الزجر عنهما وقيل ولذكر الله اياكم برحمته اكبر من ذكركم اياه بطاعته (والله يعلم ماتصنعون) منه ومن سائر الطاعات فيجازيكم بها احسن المجازاة (ولا تجادلوا اهل الكتاب) من اليهود والنصارى (الا بالتى هى احسن) اى بالخصلة التى هى احسن كمقابلة الخشونة باللين والغضب بالكظم والمشاغبة بالنصح والسورة بالاناة على وجه لايدل على الضعف ولا يؤدى (٨٨) (را) (س) الى اعطاء الدنية وقيل منسوخ بآية السيف (الا الذين

ظلموا منهم) بالافراط فى الاعتداء والعناد اوباثبات الولد وقولهم يدالله مغلولة ونحو ذلك فانه يجب حينئذ المدافعة بما يليق بحالهم (وقولوا آمنا بالذى انزل الينا) من القرآن (وانزل اليكم)اى وبالذى (٦٩٨) أنزل اليكم من التوراة والانجيل وقد مر تحقيق كيفية الايمان بهما فى خاتمة سورة البقرة وعن النبى عليه الصلاة والسلام لاتصدقوا اهل الكتاب ولاتكذبوهم وقولوا آمنا بالله وبكتبه ورسله فان قالوا باطلالم تصدقوهم وان قالوا حقالم تكذبوهم (والهنا والهكم واحد) لاشريك له فى الالوهية (ونحن له مسلمون) مطيعون خاصة وفيه تعريض بحال الفريقين حيث اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابامن دون الله (وكذلك) تجريد للخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك اشارة الى مصدر الفعل الذى بعده ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو المشار اليه فى الفضل اى مثل ذلك الانزال البديع الموافق لانزال سائر الكتب (انزلنا اليك الكتاب) اى القرآن الذى من جملته هذه الآية الناطقة بما ذكر من المجادلة بالحسنى (فالذين آتيناهم الكتاب) من الطائفتين (يؤمنون به) اريد بهم عبدالله بن سلام واضرابه من اهل الكتابين خاصة كان من عداهم لم يؤتوا الكتاب حيث لم يعملوا بما فيه اومن تقدم عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم حيث كانوا مصدقين بنزوله حسبما شاهدوا فى كتابيهما وتخصيصهم بايتاء الكتاب للايذان بأن من بعدهم من معاصرى رسول الله صلى الله عليه وسلم قدنزع عنهم الكتاب بالنسخ فلم يؤتوه والفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها فان ايمانهم به مترتب على انزاله على الوجه المذكور (ومن هؤلاء) اى ومن العرب اواهل مكة على الاول اوممن فى عصره عليه الصلاة والسلام على الثانى (من يؤمن به) اى بالقرآن (بالمصون) (وما يجحد بآياتنا) عبر عن الكتاب بالآيات للتنبيه على ظهور دلالتها على معانيها وعلى كونها من عندالله تعالى واضيفت الى نون

الاثنين ثم يرتقى الى فهم ذلك الاخفى الذى لم يكن فهمه فيفهمه بعدفهم الاثنين المذكور آخرا فالمذكور من المفيد آخرا مفهوم عندالسامع اولا اذا علم هذا فنقول ههنا الفعل كان منسوبا الى السامع حيث قال أولم يتفكروا فى انفسهم يعنى فيما فهموه أولا ولم يرتقوا الى مافهموه ثانيا واما فى قوله سنريهم الامر منسوب الى المفيد المسمع فذكر اولا الآفاق فان لم يفهموه فالانفس لان دلائل الانفس لاذهول للانسان عنها هذا الترتيب مراعى فى قوله تعالى الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم اى يعلمون الله بدلائل الانفس فى سائر الاحوال ويتفكرون فى خلق السموات والارض بدلائل الآفاق (المسئلة الثانية) وجه دلالة الخلق بالحق على الوحدانية ظاهر واما وجه دلالته على الحشر فكيف هو فنقول وقوع تخريب السموات وعدمها لايعلم بالعقل الاامكانه واما وقوعه فلايعلم الابالسمع لان الله قادر على ابقاء الحادث أبدا كما انه يبقى الجنة والنار بعد احداثهما أبدا والخلق دليل امكان العدم لان المخلوق لم يجب له القدم فجاز عليه العدم فاذا أخبر الصادق عن امر له امكان وجب على العاقل التصديق والاذعان ولان العالم لما كان خلقه بالحق فينبغى ان يكون بعدهذه الحياة حياة أخرى باقية لان هذه الحياة ليست الالعبا ولهوا كما بين بقوله تعالى وماهذه الحياة الدنيا الالهو ولعب وخلق السموات والارض لهو واللعب عبث والعبث ليس بحق وخلق السموات والارض بالحق فلابد من حياة بعد هذه (المسئلة الثالثة) قال ههنا كثيرا من الناس وقال من قبل ولكن اكثر الناس وذلك لان من قبل لم يذكر دليلا على الاصلين وههنا قدذكر الدلائل الواضحة والبراهين اللائحة ولاشك فى ان الايمان بعدالدليل اكثر من الايمان قبل الدليل فبعد الدلائل لابد من ان يؤمن من ذلك الاكثر جمع فلايبقى الاكثر كما هو فقال بعد اقامة الدليل وان كثيرا وقبله ولكن أكثرهم ثم بعدالدليل الذى لايمكن الذهول عنه والدليل الذى لايقع الذهول عنه وان أمكن هو السموات والارض لان من البعيد ان يذهل الانسان عن السماء التى فوقه والارض التى تحته ذكرمايقع الذهول عنه وهو امر امثالهم وحكاية اشكالهم ☼ فقال تعالى (أولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشدمنهم قوة وأثاروا الارض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون) وقال فى الدليلين المتقدمين أولم يروا ولم يقل أولم يسيروا اذلاحاجة هناك الى السير بحضور النفس والسماء والارض وقال ههنا أولم يسيروا فينظروا ذكرهم بحال امثالهم ووبال اشكالهم ثم ذكر انهم أولى بالهلاك لان من تقدم من عاد وثمود كانوا أشد منهم قوة ولم يعصمهم قواهم وكانوا أكثر مالا وعمارة ولم يمنع عنهم الهلاك أموالهم وحصونهم واعلم ان اعتماد الانسان على ثلاثة اشياء قوة جسمية فيه أو فى أعوانه اذبها المباشرة وقوة مالية اذبها التأهب للمباشرة وقوة ظهرية يستند اليها عندالضعف والفتور وهى

العظمة لمزيد تفخيمها وغاية تشنيع من يجحد بها (الا الكافرون) المتوغلون فى الكفر المصممون عليه فان ذلك يصدهم عن التأمل فيها يؤديهم الى معرفة حقيتها وقيل هم كعب بن الاشرف (٦٩٩) واصحابه (وما كنت تتلو من قبله) اى ما كنت قبل انزالنا اليك الكتاب تقدر على ان تتلو شيئا (من كتاب ولا تخطه) ولا تقدر على ان تخطه (بيمينك) حسبما هو المعتاد او ما كانت عادتك ان تتلوه ولا ان تخطه (اذا لارتاب المبطلون) اى لو كنت ممن يقدر على التلاوة والخط او ممن يعتادهما لارتابوا وقالوا لعله التقطه من كتب الاوائل وحيث لم تكن كذلك لم يبق فى شأنك منشأ ريب اصلا وتسميتهم مبطلين فى ارتيابهم على التقدير المفروض لكونهم مبطلين فى اباءهم للاحتمال المذكور مع ظهور نزاهته عليه الصلاة والسلام عن ذلك (بل هو) اى القرآن (آيات بينات) واضحات ثابتة راسخة (فى صدور الذين اوتوا العلم) من غير ان يلتقط من كتاب يحفظونه بحيث لا يقدر احد على تحريفه (وما يجحد بآياتنا) مع كونها كما ذكر (الا الظالمون) المتجاوزون للحدود فى الشر والمكابرة والفساد (وقالوا لولا انزل عليه آيات من ربه) مثل ناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى عليهم السلام وقرئ آية (قل انما الآيات عند الله) ينزلها حسبما يشاء من غير دخل لاحد فى ذلك قطعا (وانما انا نذير مبين) ليس من شأنى الا الانذار بما اوتيت من الآيات (اولم يكفهم) كلام مستأنف وارد من جهته تعالى ردا على اقتراحهم وبيانا لبطلانه والهمزة للانكار والنفى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام اى أقصر ولم يكفهم آية مغنية من سائر الآيات (انا انزلنا عليك الكتاب) الناطق بالحق المصدق لما بين يديه من الكتب السماوية وانت بمعزل عن مدارستها وممارستها (يتلى عليهم) فى كل زمان ومكان فلا يزال معهم آية ثابتة لا تزول ولا تضمحل كما تزول كل آية بعد كونها وتكون فى مكان

بالحصون والعمارة فقال تعالى كانوا اشد منهم قوة فى الجسم واكثر منهم مالا لانهم اثاروا الارض اى حرثوها ومنه بقرة تثير الارض وقيل منه سمى ثورا وانتم لا حراثة لكم فمالهم كانت اكثر وعمارتهم كانت اكثر لان ابنيتهم كانت رفيعة وحصونهم منيعة وعمارة اهل مكة كانت يسيرة ثم هؤلاء جاءتهم رسلهم بالبينات وامروهم ونهوهم فلما كذبوا اهلكوا فكيف انتم وقوله فما كان الله ليظلمهم يعنى لم يظلمهم بالتكليف فان التكليف شريف لا يؤهله الا محل شريف ولكن هم ظلموا انفسهم بوضعها فى موضع خسيس وهو عبادة الاصنام واتباع ابليس فكان الله بالتكليف وضعهم فيما خلقوا له وهو الربح لانه تعالى قال خلقتكم لتربحوا على لا لاربح عليكم والوضع فى موضع كان الخلق له ليس بظلم واما هم فوضعوا انفسهم فى مواضع الخسران ولم يكونوا خلقوا الا للربح فهم كانوا ظالمين وهذا الكلام منا وان كان فى الظاهر يشبه كلام المعتزلة لكن العاقل يعلم كيف يقوله اهل السنة وهو ان هذا الوضع كان بمشيئة الله وارادته لكنه كان منهم ومضافا اليهم ۞ ثم قال تعالى (ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن) كما قال للذين احسنوا الحسنى وقوله تعالى ان كذبوا قيل معناه بأن كذبوا اى كان عاقبتهم ذلك بسبب انهم كذبوا وقيل معناه أساؤا وكذبوا فكذبوا يكون تفسير الاساؤا وفى هذه الآية لطائف (احدها) قال فى حق الذين احسنوا للذين احسنوا الحسنى وقال فى حق من أساء ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأى اشارة الى ان الجنة لهم من ابتداء الامر فان الحسنى اسم الجنة والسوأى اسم النار فاذا كانت الجنة لهم من الابتداء ومن له شئ فما يزداد وعوقبه فهو له لان ملك الاصل يوجب ملك الثمرة فالجنة من حيث خلقت تربو وتنمو للمحسنين واما الذين أساؤا فالسوأى وهى جهنم فى العاقبة مصيرهم اليها (الثانية) ذكر الزيادة فى حق المحسن ولم يذكر الزيادة فى حق المسئ لان جزاء سيئة سيئة مثلها (الثالثة) لم يذكر فى المحسن ان له الحسنى بأنه صدق وذكر فى المسئ ان له السوأى بأنه كذب لان الحسنى للمحسنين فضل والمتفضل لو لم يكن تفضله لسبب يكون ابلغ واما السوأى للمسئ عدل والعادل اذا لم يكن تعذيبه لسبب لا يكون عدلا فذكر السبب فى التعذيب وهو الاصرار على التكذيب ولم يذكر السبب فى الثواب ۞ ثم قال تعالى (الله يبدؤ الخلق ثم يعيده ثم اليه ترجعون) لما ذكر ان عاقبتهم الى الجحيم وكان فى ذلك اشارة الى الاعادة والحشر لم يتركه دعوى بلا بينة فقال يبدؤ الخلق يعنى من خلق بالقدرة والارادة لا يعجز عن الرجعة والاعادة فاليه ترجعون ثم بين ما يكون وقت الرجوع اليه ۞ فقال تعالى (ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين) فى ذلك اليوم يتبين افلاسهم ويتحقق ابلاسهم والابلاس يأس مع حيرة يعنى يوم تقوم الساعة يكون للمجرم يأس متحير لا يأس هو احدى الراحتين وهذا لان الطمع اذا انقطع باليأس فاذا كان المرجو امرا غير ضرورى يستريح الطامع من

دون مكان اويتلى على اليهود بتحقيق ما فى ايديهم من نعتك ونعت دينك (ان فى ذلك) الكتاب العظيم الشان الباقى على مر الدهور (لرحمة) اى نعمة عظيمة (وذكرى) اى تذكرة (لقوم يؤمنون) (٧٠٠) اى لقوم همهم الايمان لا التعنت كأولئك المقترحين وقيل ان ناسا من المؤمنين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتف فيها بعض مايقوله اليهود فقال كفى بها ضلالة قوم ان يرغبوا عما جاءبه نبيهم الى ماجاءبه غير نبيهم فنزلت (قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا) بما صدر عنى وعنكم (يعلم ما فى السموات والارض) اى من الامور التى من جملتها شأنى وشأنكم فهو تقرير لما قبله من كفايته تعالى شهيدا (والذين آمنوا بالباطل) وهو ما يعبد من دون الله تعالى (وكفروا بالله) مع تعاضد موجبات الايمان به (اولئك هم الخاسرون) المغبونون فى صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالايمان بأن ضيعوا الفطرة الاصلية والادلة السمعية الموجبة للايمان والآية من قبيل المجادلة بالتى هى احسن حيث لم يصرح بنسبة الايمان بالباطل والكفر بالله والخسران اليهم بل ذكر على منهاج الابهام كما فى قوله تعالى وانا اواياكم لعلى هدى اوفى ضلال مبين (ويستعجلونك بالعذاب) على طريقة الاستهزاء بقولهم متى هذا الوعد وقولهم امطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب ونحو ذلك (ولولا اجل مسمى) قد ضربه الله تعالى لعذابهم وبينه فى اللوح (لجاءهم العذاب) المعين لهم حسبما استعجلوا به قيل المراد بالاجل يوم القيامة لما روى انه تعالى وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لايعذب قومه بعذاب الاستئصال وان يؤخر عذابهم الى يوم القيامة وقيل يوم بدر وقيل وقت فنائهم بآجالهم وفيه بعد ظاهر لما انهم ماكانوا يوعدون بفنائهم الطبيعى ولا كانوا يستعجلون به (وليأتينهم) جملة مستأنفة مبينة لما اشير اليه فى الجملة السابقة من مجيئ العذاب عند محل الاجل اى وبالله ليأتينهم العذاب الذى عين لهم عند (يصدر)

الانتظار وان كان ضروريا لابقاء له بدونه يتفطر فؤاده اشد انفطار ومثل هذا البأس هو الابلاس وانبين حال المجرم وابلاسه بمثال وهو ان نقول مثله مثل من يكون فى بستان وحواليه الملاعب والملاهى • ولديه ما يفتخر به ويباهى • فيخبره صادق بمجيئ عدو لايرده راد • ولايصده صاد • اذاجاءه لايبلعه ريقا • ولايترك له الى الخلاص طريقا • فيتحتم عليه الاشتغال بسلوك طريق الخلاص فيقول له طفل او مجنون ان هذه الشجرة التى انت تحتها لها من الخواص دفع الاعادى عمن يكون تحتها فيقبل ذلك الغافل على استيفاء ملاذه معتمدا على الشجرة بقول ذلك الصبى فيجيئه العدو ويحيط به فأول مايريه من الاهوال قلع تلك الشجرة فيبقى متحيرا آيسا • مفتقرا بائسا • فكذلك المجرم فى دار الدنيا اقبل على استيفاء اللذات واخبره النبى الصادق بان الله يجزيه • ويأتيه عذاب يخزيه • فقال له الشيطان والنفس الامارة بالسوء ان هذه الاخشاب التى هى الاوثان دافعة عنك كل باس • وشافعة لك عند خمود الحواس • فاشتغل بما هو فيه واستمر على غيه حتى اذا جاءته الطامة الكبرى فأول ما اريه القاء الاصنام فى النار فلا يجد الى الخلاص من طريق • ويحيق عليه عذاب الحريق • فييأس حينئذ اى اياس • ويبلس اشد ابلاس • واليه الاشارة بقوله تعالى ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين يعنى يكفرون بهم ذلك اليوم ۞ ثم قال تعالى (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون) ثم بين امرا آخر يكون فى ذلك اليوم وهو الافتراق كما قال تعالى فى آية اخرى وامتازوا اليوم ايها المجرمون فكأن هذه الحالة مترتبة على الابلاس فكأنه اولا يبلس ثم يميز ويجعل فريق فى الجنة وفريق فى السعير وأعاد قوله ويوم تقوم الساعة لان قيام الساعة امر هائل فكرره تأكيدا للتخويف ومنه اعتاد الخطباء تكرير يوم القيامة فى الخطب لتذكير أهواله ۞ ثم بين كيفية التفرق فقال تعالى (فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون) اى فى جنة يسرون بكل مسرة (واما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك فى العذاب محضرون) يعنى لاغيبة لهم عنه ولا فتور له عنهم كما قال تعالى كلما أرادوا ان يخرجوا منها اعيدوا فيها وقال لايفتر عنهم العذاب وفى الآيتين مسائل فيها لطائف (المسئلة الاولى) بدأ بذكر حال الذين آمنوا مع ان الموضع موضع ذكر المجرمين وذلك لان المؤمن يوصل اليه الثواب قبل ان يوصل الى الكافر العقاب حتى يرى ويتحقق ان المؤمن وصل الى الثواب فيكون انكى ولو ادخل الكافر النار اولا لكان يظن ان الكل فى العذاب مشتركون فقدم ذلك زيادة فى ايلامهم (المسئلة الثانية) ذكر فى المؤمن العمل الصالح ولم يذكر فى الكافر العمل السيئ لان العمل الصالح معتبر مع الايمان فان الايمان المجرد مفيد للنجاة دون رفع الدرجات ولا يبلغ المؤمن الدرجة العالية الا بايمانه وعمله الصالح واما الكافر فهو فى الدركات بمجرد كفره فلو قال والذين كفروا وعملوا السيآت فى العذاب محضرون لكان العذاب لمن

يصدر منه المجموع فان قيل من يؤمن ويعمل السيآت غير مذكور في القسمين فنقول له منزلة بين المنزلتين لا على مايقوله المعتزلة بل هو في الاول في العذاب ولكن ليس من المحضرين دوام الحضور وفي الآخرة هو في الرياض ولكنه ليس من المحبورين غاية الحبور كل ذلك بحكم الوعد (المسئلة الثالثة) قال في الاول في روضة على التنكير وقال في الآخر في العذاب على التعريف لتعظيم الروضة بالتنكير كما يقال لفلان مال وجاه اى كثير وعظيم (المسئلة الرابعة) قال في الاول يحبرون بصيغة الفعل ولم يقل محبورون وقال في الآخر محضرون بصيغة الاسم ولم يقل يحضرون لان الفعل ينبئ عن التجدد والاسم لايدل عليه فقوله يحبرون يعنى بأنهم كل ساعة امر يسرون به واما الكفار فهم اذا دخلوا العذاب يبقون فيه محضرين * ثم قال تعالى (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والارض وعشيا وحين تظهرون يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الارض بعد موتها وكذلك تخرجون) لما بين الله تعالى عظمته في الابتداء بقوله ماخلق الله السموات والارض ومابينهما الا بالحق وعظمته في الانتهاء وهو حين تقوم الساعة ويفترق الناس فريقين ويحكم على البعض بأن هؤلاء للجنة ولا ابالى وهؤلاء الى النار ولا ابالى امر بتنزيهه عن كل سوء وبحمده على كل حال فقال فسبحان الله اى سبحوا الله تسبيحا وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) في معنى سبحان الله ، ولفظه اما لفظه فسبحان اسم للمصدر الذى هو التسبيح سمى التسبيح بسبحان وجعل علما له واما المعنى فقال بعض المفسرين المراد منه الصلاة اى صلوا وذكروا انه اشار الى الصلوات الخمس وقال بعضهم اراد به التنزيه اى نزهوه عن صفات النقص وصفوه بصفات الكمال وهذا اقوى والمصير اليه اولى لانه يتضمن الاول وذلك لان التنزيه المأمور به يتناول التنزيه بالقلب وهو الاعتقاد الجازم وباللسان مع ذلك وهو الذكر الحسن وبالاركان معهما جميعا وهو العمل الصالح والاول هو الاصل والثانى ثمرة الاول والثالث ثمرة الثانى وذلك لان الانسان اذا اعتقد شيئا ظهر من قلبه على لسانه واذا قال ظهر صدقه في مقاله من احواله وافعاله واللسان ترجمان الجنان والاركان برهان اللسان لكن الصلاة افضل اعمال الاركان وهى مشتملة على الذكر باللسان والقصد بالجنان وهو تنزيه في التحقيق فاذا قال نزهونى وهذا نوع من انواع التنزيه والامر المطلق لايختص بنوع دون نوع فيجب حمله على كل ماهو تنزيه فيكون ايضا هذا امرا بالصلاة ثم ان قولنا يناسب ماتقدم وذلك لان الله تعالى لما بين ان المقام الاعلى والجزاء الاوفى لمن آمن وعمل الصالحات حيث قال فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون قال اذا علمتم ان ذلك المقام لمن آمن وعمل الصالحات والايمان تنزيه بالجنان وتوحيد باللسان والعمل الصالح استعمال الاركان والكل تنزيهات وتحميدات فسبحان الله اى فأتوا بذلك الذى هو الموصل الى الحبور في

حلول الاجل (بغتة) اى فجأة (وهم لايشعرون) اى (٧٠١) باتيانه ولعل المراد باتيانه كذلك انه لايأتيهم بطريق التعجيل عند استعجالهم والاجابة الى مسؤلهم فان ذلك اتيان برأيهم وشعورهم لانه يأتيهم وهم غارون آمنون لا يخطرونه بالبال كدأب بعض العقوبات النازلة على بعض الامم بياتا وهم نائمون او ضحى وهم يلعبون لما ان اتيان عذاب الآخرة وعذاب يوم بدر ليس من هذا القبيل (يستعجلونك بالعذاب وان جهنم لمحيطة بالكافرين) استئناف مسوق لغاية تجهيلهم وركاكة رأيهم وفيه دلالة على ان ما استعجلوه عذاب الآخرة اى يستعجلونك بالعذاب والحال ان محل العذاب الذى لاعذاب فوقه محيط بهم كأنه قيل يستعجلونك بالعذاب وان العذاب لمحيط بهم اى سيحيط بهم وانما جئ بالجملة الاسمية دلالة على تحقق الاحاطة واستمرارها وتنزيلا لحال السبب منزلة حال المسبب فان الكفر والمعاصى الموجبة لدخول جهنم محيطة بهم وقيل ان الكفر والمعاصى هى النار في الحقيقة لكنها ظهرت في هذه النشأة بهذه الصورة وقد مر تفصيله في سورة الاعراف عند قوله تعالى والوزن يومئذ الحق ولام الكافرين اما للعهد ووضع الظاهر موضع المضمر للاشعار بعلة الحكم او للجنس وهم داخلون فيه دخولا اوليا (يوم يغشاهم العذاب) ظرف لمضمر قد طوى ذكره ايذانا بغاية كثرته وفظاعته كأنه قيل يوم يغشاهم العذاب الذى اشير اليه باحاطة جهنم بهم يكون من الاحوال والاهوال مالا يفي به المقال وقيل ظرف للاحاطة (من فوقهم ومن تحت ارجلهم) اى من جميع جهاتهم (ويقول) اى الله عز وجل ويعضده القراءة بنون العظمة اوبعض ملائكته بأمره (ذوقوا ما كنتم تعملون) اى جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا على الاستمرار

الرياض والحضور على الحياض (المسئلة الثانية) خص بعض الاوقات بالامر بالتسبيح وذلك لان افضل الاعمال ادومها لكن افضل الملائكة ملازمون للتسبيح على الدوام كما قال تعالى يسبحون الليل والنهار لايفترون والانسان مادام فى الدنيا لايمكنه ان يصرف جميع اوقاته الى التسبيح لكونه محتاجا الى اكل وشرب وتحصيل مأكول ومشروب وملبوس ومركوب فأشار الله تعالى الى اوقات اذا اتى العبد بتسبيح الله فيها يكون كأنه لم يفتر وهى الاول والآخر والوسط اول النهار وآخره ووسطه فأمر بالتسبيح فى اول الليل ووسطه ولم يأمر بالتسبيح فى آخر الليل لان النوم فيه غالب والله من على عباده بالاستراحة بالنوم كما قال ومن آياته منامكم بالليل فاذا صلى فى اول النهار تسبيحتين وهما ركعتان حسب له صرف ساعتين الى التسبيح ثم اذا صلى اربع ركعات وقت الظهر حسب له صرف اربع ساعات اخر فصارت ست ساعات واذا صلى اربعا فى اواخر النهار وهو العصر حسب له اربع اخرى فصارت عشر ساعات فاذا صلى المغرب والعشاء سبع ركعات اخر حصل له صرف سبع عشرة ساعة الى التسبيح وبقى من الليل والنهار سبع ساعات وهى مابين نصف الليل وثلثه لان ثلثه ثمان ساعات ونصفه ست ساعات ومابينهما السبع وهذا القدر لونام الانسان فيه لكان كثيرا واليه اشار تعالى بقوله قم الليل الا قليلا نصفه او انقص منه قليلا او زد عليه وزيادة القليل على النصف هى ساعة فيصير سبع ساعات مصروفة الى النوم والنائم مرفوع عنه القلم فيقول الله عبدى صرف جميع اوقات تكليفه فى تسبيحى فلم يبق لكم ايها الملائكة عليهم المزية التى ادعيتم بقولكم نحن نسبح بحمدك ونقدس لك على سبيل الانحصار بل هم مثلكم فقامهم مثل مقامكم فى اعلى عليين واعلم ان فى وضع الصلاة فى اوقاتها وعدد ركعاتها واختلاف هيئاتها حكمة بالغة اما فى عدد الركعات فاتقدم من كون الانسان يقظان فى سبع عشرة ساعة فرض عليه سبع عشرة ركعة واما على مذهب ابى حنيفة حيث قال بوجوب الوتر ثلاث ركعات وهو اقرب للتقوى فنقول هو مأخوذ من ان الانسان ينبغى ان يقلل نومه فلا ينام الاثلث الليل مأخوذا من قوله تعالى ان ربك يعلم انك تقوم ادنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه ويفهم من هذا ان قيام ثلثى الليل مستحسن مستحب مؤكد باستحباب ولهذا قال عقيبه علم ان لن تحصوه فتاب عليكم ذكر بلفظ التوبة واذا كان كذلك يكون الانسان يقظان فى عشرين ساعة فأمر بعشرين ركعة واما النبى عليه السلام فلما كان من شأنه ان لاينام اصلا كما قال تنام عيناى ولاينام قلبى جعل له كل الليل كالنهار فزيد له التهجد فأمر به والى هذا اشار تعالى فى قوله ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا اى كل الليل لك للتسبيح فصار هو فى اربع وعشرين ساعة مسبحا فصار من الذين لايفترون طرفة عين واما فى اوقاته فما تقدم ايضا ان الاول والآخر والوسط هو المعتبر فشرع التسبيح فى اول النهار وآخره واما الليل فاعتبر اوله

من السيآت التى من جملتها الاستعجال بالعذاب (ياعبادى الذين آمنوا) خطاب تشريف لبعض المؤمنين الذين لايتمكنون من اقامة امور الدين كما ينبغى لممانعة من جهة الكفرة وارشاد لهم الى الطريق الاسلم (ان ارضى واسعة فاياى فاعبدون) اى اذا لم يتسهل لكم العبادة فى بلد ولم يتيسر لكم اظهار دينكم فهاجروا الى حيث يتمشى لكم ذلك وعنه عليه الصلاة والسلام من فر بدينه من ارض الى ارض ولو كان شبرا استوجب الجنة وكان رفيق ابراهيم ومحمد عليهما السلام والفاء جواب شرط محذوف اذ المعنى ان ارضى واسعة ان لم تخلصوا العبادة لى فى ارض فاخلصوها فى غيرها ثم حذف الشرط وعوض عنه تقديم المفعول مع افادة تقديمه معنى الاختصاص والاخلاص (كل نفس ذائقة الموت ثم الينا ترجعون) جملة مستأنفة جئ بها حثا على المسارعة فى الامتثال بالامر اى كل نفس من النفوس واجدة مرارة الموت وكربه فراجعة الى حكمنا وجزائنا بحسب عمالها فمن كانت هذه عاقبته فليس له بد من التزود والاستعداد لها وقرئ يرجعون (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم) لننزلنهم (من الجنة غرفا) اى علالى وهو مفعول ثان للتبوئة وقرئ لنثوينهم من الثواء بمعنى الاقامة فانتصاب غرفا حينئذ اما باجراء مجرى لننزلنهم او بنزع الخافض او بتشبيه الظرف المؤقت بالمبهم كما فى قوله تعالى لاقعدن لهم صراطك المستقيم (تجرى من تحتها الانهار) صفة لغرفة (خالدين فيها) اى فى الغرف او فى الجنة (نعم اجر العاملين) اى الاعمال الصالحة والمخصوص بالمدح محذوف ثقة بدلالة ماقبله عليه وقرئ فنعم (الذين صبروا) اما صفة للعاملين او نصب على المدح اى صبروا على اذية المشركين وشدائد المهاجرة وغير ذلك من المحن والمشاق (وعلى ربهم يتوكلون) (ووسطه)

ووسطه كما اعتبر اول النهار ووسطه وذلك لان الظهر وقته نصف النهار والعشاء وقته نصف الليل لانا بينا ان الليل المعتبر هو المقدار الذى يكون الانسان فيه يقظان وهو مقدار خمس ساعات فجعل وقته فى نصف هذا القدر وهو الثلاثة من الليل واما ابو حنيفة لما رأى وجوب الوتر كان زمان النوم عنده اربع ساعات وزمان اليقظة بالليل ثمان ساعات وأخر وقت العشاء الآخرة الى الرابعة والخامسة ليكون فى وسط الليل المعتبر كما ان الظهر فى وسط النهار واما النبى صلى الله عليه وسلم لما كان ليله نهارا ونومه انتباها قال لولا ان أشق على امتى لأمرتهم بالسواك وتأخير العشاء الى نصف الليل ليكون الاربع فى نصف الليل كما ان الاربع فى نصف النهار واما التفصيل فالذى يتبين لى ان النهار اثنتا عشرة ساعة زمانية والصلاة المؤداة فيها عشر ركعات فيبقى على المكلف ركعتان يؤديهما فى اول الليل ويؤدى ركعة من صلاة الليل ليكون ابتداء الليل بالتسبيح كما كان ابتداء النهار بالتسبيح ولما كان المؤدى من تسبيح النهار فى اوله ركعتين كان المؤدى من تسبيح الليل فى اوله ركعة لان سبح النهار طويل مثل ضعف سبح الليل لان المؤدى فى النهار عشرة والمؤدى فى الليل من تسبيح الليل خمس (المسئلة الثالثة) فى فضيلة السبحلة والحمدلة فى المساء والصباح ولنذكرها من حيث النقل والعقل اما النقل فأخبرنى الشيخ الورع الحافظ الاستاذ عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان بحلب مسندا عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لبعض اصحابه أتعجز عن ان تأتى وقت النوم بألف حسنة فتوقف فقال النبى عليه السلام قل سبحان الله والحمد لله والله اكبر مائة مرة يكتب لك بها الف حسنة وسمعته يقول رحمه الله مسندا من قال خلف كل صلاة مكتوبة عشر مرات سبحان الله وعشر مرات الحمد لله وعشر مرات الله اكبر ادخل الجنة واما العقل فهو ان الله تعالى له صفات لازمة لا من فعله وصفات ثابتة له من فعله (اما الاولى) فهى صفات كمال وجلال خلافها نقص فاذا أدرك المكلف الله بأنه لا يجوز ان يخفى عليه شئ لكونه عالما بكل شئ فقد نزهه عن الجهل ووصفه بضده واذا عرفه بأنه لا يعجز عن شئ لكونه قادرا على كل شئ فقد نزهه عن العجز واذا علم انه لا يجرى فى ملكه الا ما يشاء لكونه مريدا للكل كان قد وصفه ونزهه واذا ظهر له انه لا يجوز عليه الفناء لكونه واجب البقاء فقد نزهه واذا بان له انه لا يسبقه العدم لاتصافه بالقدم فقد نزهه واذا لاح له انه لا يجوز ان يكون عرضا او جسما او فى مكان لكونه واجبا بريئا عن جهات الامكان فقد نزهه لكن صفاته السلبية والاضافية لا يعدها عاد ولو اشتغل بها واحد لأفنى فيها عمره ولا يدرك كنهها فاذا قال قائل مستحضرا بقلبه سبحان الله متنبها لما يقوله من كونه منزها له عن كل نقص فاتيانه بالتسبيح على هذا الوجه من الاجمال يقوم مقام اتيانه به على سبيل التفصيل لكن لاريب فى ان من اتى بالتسبيح عن كل واحد على حدة عما لا يجوز على الله يكون قد اتى بما لا تفى به الاعمار فيقول هذا العبد أتى بتسبيحى طول عمره ومدة بقائه فأجازيه بأن أطهره

اى ولم يتوكلوا فيما يأتون ويذرون الا على الله تعالى (وكأين من دابة لا تحمل رزقها) روى ان النبى عليه الصلاة والسلام لما امر المؤمنين الذين بمكة بالمهاجرة الى المدينة قالوا كيف نقدم بلدة ليس لنا فيها معيشة فنزلت اى وكم من دابة لا تطيق حمل رزقها لضعفها او لا تدخره وانما تصبح ولا معيشة عندها (الله يرزقها واياكم) ثم انها مع ضعفها وتوكلها واياكم مع قوتكم واجتهادكم سواء فى انه لا يرزقها واياكم الا الله تعالى لان رزق الكل باسباب هو المسبب لها وحده فلا تخافوا الفقر بالمهاجرة (وهو السميع) البالغ فى السمع فيسمع قولكم هذا (العليم) البالغ فى العلم فيعلم ضمائركم (ولئن سألتهم) اى اهل مكة (من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله) اذ لا سبيل لهم الى انكاره ولا الى التردد فيه (فانى يؤفكون) انكار واستبعاد من جهته تعالى لتركهم العمل بموجبه اى فكيف يصرفون عن الاقرار بتفرده تعالى فى الالهية مع اقرارهم بتفرده تعالى فيما ذكر من الخلق والتسخير (الله يبسط الرزق لمن يشاء) ان يبسطه له (من عباده ويقدر له) اى يقدر لمن يشاء ان يقدره له منهم كائنا من كان على ان الضمير مبهم حسب ابهام مرجعه او يقدر لمن يبسطه له على التعاقب (ان الله بكل شئ عليم) فيعلم من يليق ببسط الرزق فيبسطه له ومن يليق بقدره له فيقدره له او فيعلم ان كلا من البسط والقدر فى اى وقت يوافق الحكمة والمصلحة فيفعل كلا منهما فى وقته (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فاحيى به الارض من بعد موتها ليقولن الله) معترفين بانه الموجد للممكنات باسرها اصولها وفروعها ثم انهم يشركون به بعض مخلوقاته الذى لا يكاد يتوهم منه القدرة على شئ

عن كل ذنب وأزينه بخلع الكرامة وأنزله بدار المقامة مدة لا انتهاء لها وكان العبد ينزه الله في اول النهار وآخره ووسطه فان الله تعالى يطهره في اوله وهو دنياه وفي آخره وهو عقباه * وفي وسطه وهو حالة كونه في قبره الذي يحويه الى أوان حشره وهو مغناه * واما الثانية وهو صفات الفعل فالانسان اذا نظر الى خلق الله السموات يعلم انها نعمة وكرامة فيقول الحمد لله فاذا رأى الشمس فيها بازغة فيعلم انها نعمة وكرامة فيقول الحمد لله وكذلك القمر وكل كوكب والارض وكل نبات وكل حيوان يقول الحمد لله لكن الانسان لو حمد الله على كل شئ على حدة لايفي عمره به فاذا استحضر في ذهنه النعم التي لاتعد كما قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها ويقول الحمد لله على ذلك فهذا الحمد على وجه الاجمال يقوم منه مقام الحمد على سبيل التفصيل ويقول عبدي استغرق عمره في حمدي وأنا وعدت الشاكر بالزيادة فله على حسنة التسبيح الحسنى وله على حمده الزيادة ثم ان الانسان اذا استغرق في صفات الله فقد يدعوه عقله الى التفكر في الله تعالى بعد التفكر في آلاء الله فكل مايقع في عقله من حقيقته فينبغي ان يقول الله اكبر مما ادركه لان المدركات وجهات الادراكات لانهاية لها فان أراد ان يقول على سبيل التفصيل الله اكبر من هذا الذي ادركته من هذا الوجه واكبر مما ادركته من ذلك الوجه واكبر مما ادركته من وجه آخر يفني عمره ولايفي بادراك جميع الوجوه التي يظن الظان انه مدرك الله بذلك الوجه فاذا قال مع نفسه الله اكبر اي من كل ما أتصوره بقوة عقلي وطاقة ادراكي يكون متوغلا في العرفان واليه الاشارة بقوله العجز عن درك الادراك ادراك فقول القائل المستيقظ سبحان الله والحمد لله والله اكبر مفيد لهذه الفوائد لكن شرطه ان يكون كلاما معتبرا وهو الذي يكون من صميم القلب لا الذي يكون من طرف اللسان (المسئلة الرابعة) قوله وعشيا عطف على حين اي سبحوه حين تمسون وحين تصبحون وعشيا وقوله وله الحمد في السموات والارض كلام معترض بين المعطوف والمعطوف عليه (وفيه لطيفة) وهو ان الله تعالى لما أمر العباد بالتسبيح كأنه بين لهم ان تسبيحهم الله لنفعهم لا لنفع يعود على الله فعليهم ان يحمدوا الله اذا سبحوه وهذا كما في قوله تعالى يمنون عليك ان اسلموا قل لاتمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان (المسئلة الخامسة) قدم الامساء على الاصباح ههنا واخره في قوله وسبحوه بكرة واصيلا وذلك لان ههنا اول الكلام ذكر الحشر والاعادة من قوله الله يبدأ الخلق ثم يعيده الى قوله فأولئك في العذاب محضرون وآخر هذه الآية ايضا ذكر الحشر والاعادة بقوله وكذلك تخرجون والامساء آخر فذكر الآخر ليذكر الآخرة (المسئلة السادسة) في تعلق اخراج الحي من الميت والميت من الحي بما تقدم عليه هو ان عند الاصباح يخرج الانسان من شبه الموت وهو النوم الى شبه الوجود وهو اليقظة وعند العشاء يخرج الانسان من اليقظة الى النوم واختلف المفسرون في قوله يخرج الحي من الميت فقال اكثرهم يخرج الدجاجة من البيضة

(والبيضة)

ما اصلا (قل الحمد لله) على ان جعل الحق بحيث لايجترئ المبطلون على جحوده وان اظهر حجتك عليهم وقيل على ان عصمك من امثال هذه الضلالات ولايخفى بعده (بل اكثرهم لايعقلون) اى شيئا من الاشياء فلذلك لايعملون بمقتضى قولهم هذا فيشركون به سبحانه اخس مخلوقاته وقيل لايعقلون ما تريد بتحميدك عند مقالهم ذلك (وما هذه الحيوة الدنيا) اشارة تحقير وازدراء للدنيا وكيف لا وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء (الا لهو ولعب) اى الا كما يلهى ويلعب به الصبيان يجتمعون عليه ويبتهجون به ساعة ثم يتفرقون عنه (وان الدار الآخرة لهي الحيوان) اى لهي دار الحياة الحقيقية لامتناع طريان الموت والفناء عليها وهي في ذاتها حياة للمبالغة والحيوان مصدر حي سمي به ذو الحياة واصله حييان فقلبت الياء الثانية واوا لما في بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب اللازم للحيوان ولذلك اختير على الحياة في هذا المقام المقتضي للمبالغة (لو كانوا يعلمون) اى لما آثروا عليها الدنيا التي اصلها عدم الحياة ثم مايحدث فيها من الحياة عارضة سريعة الزوال وشكية الاضمحلال (فاذا ركبوا في الفلك) متصل بما دل عليه شرح حالهم والركوب هو الاستعلاء على الشئ المتحرك وهو متعد بنفسه كما في قوله تعالى والخيل والبغال والحمير لتركبوها واستعماله ههنا وفي امثاله بكلمة في للايذان بان المركوب في نفسه من قبيل الامكنة وحركته قسرية غير ارادية كما مر في سورة هود والمعنى انهم

والبيضة من الدجاجة وكذلك الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان وقال بعضهم المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ويمكن ان يقال المراد يخرج الحى من الميت اى اليقظان من النائم والنائم من اليقظان وهذا يكون قد ذكره للتمثيل اى احياء الميت عنده واماتة الحى كتنبيه النائم وتنويم المنتبه ثم قال تعالى ويحيى الارض بعد موتها وكذلك تخرجون (وفى هذا معنى لطيف) وهو ان الانسان بالموت تبطل حيوانيته واما نفسه الناطقة فتفارقه وتبقى بعده كما قال تعالى ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا لكن الحيوان نام متحرك حساس لكن النائم لايتحرك ولايحس والارض الميتة لايكون فيها نماء ثم ان النائم بالانتباه يتحرك ويحس والارض الميتة بعد موتها تنمو بنباتها فكما ان تحريك ذلك الساكن وانماء هذا الواقف سهل على الله تعالى كذلك احياء الميت سهل عليه والى هذا اشار بقوله وكذلك تخرجون ۞ ثم قال تعالى (ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشر تنتشرون) لما أمر الله تعالى بالتسبيح من الاسواء وذكر ان الحمد له على خلق جميع الاشياء وبين قدرته على الاماتة والاحياء بقوله فسبحان الله الى قوله وكذلك تخرجون ذكر ماهو حجة ظاهرة وآية باهرة على ذلك ومن جملتها خلق الانسان من تراب وتقريره هو ان التراب ابعد الاشياء عن درجة الاحياء وذلك من حيث كيفيته فانه بارد يابس والحياة بالحرارة والرطوبة ومن حيث لونه فانه كدر والروح نير ومن حيث فعله فانه ثقيل والارواح التى بها الحياة خفيفة ومن حيث السكون فانه بعيد عن الحركة والحيوان يتحرك يمنة ويسرة والى خلف والى قدام والى فوق والى اسفل وفى الجملة فالتراب ابعد من قبول الحياة عن سائر الاجسام لان العناصر أبعد من المركبات لان المركب بالتركيب اقرب درجة من الحيوان والعناصر ابعدها التراب لان الماء فيه الصفاء والرطوبة والحركة وكلها على طبع الارواح والنار اقرب لانها كالحرارة الغريزية منضجة جامعة مفرقة ثم المركبات واول مراتبها المعدن فانه ممتزج وله مراتب اعلاها الذهب وهو قريب من ادنى مراتب النبات وهى مرتبة النبات التى ينبت فى الارض ولايبرز ولايرتفع ثم النبات واعلى مراتبها وهى مرتبة الاشجار التى تقبل التعظيم ويكون لثمرها حب يؤخذ منه مثل تلك الشجرة كالبيضة من الدجاجة والدجاجة من البيضة قريبة من ادنى مراتب الحيوانات وهى مرتبة الحشرات التى ليس لها دم سائل ولاهى الى المنافع الجليلة وسائل كالنباتات ثم الحيوان واعلى مراتبها قريبة من مرتبة الانسان فان الانعام ولاسيما الفرس تشبه العقال والجمال والساعى ثم الانسان واعلى مراتب الانسان قريبة من مرتبة الملائكة المسبحين لله الحامدين له فالله الذى خلق من ابعد الاشياء عن مرتبة الاحياء حيا هو فى اعلى المراتب لايكون الا منزها عن العجز والجهل ويكون له الحمد على انعام الحياة ويكون له كمال القدرة ونفوذ الارادة فيجوز منه الابداء والاعادة وفى الآية لطيفتان (احداهما) قوله اذا وهى للمفاجأة يقال خرجت فاذا أسد بالباب وهو اشارة

على ماوصفوا من الاشراك فاذا ركبوا (٧٠٥) فى البحر ولقوا شدة (دعوا الله مخلصين له الدين) اى كائنين على صورة المخلصين لدينهم من المؤمنين حيث لايدعون غير الله تعالى لعلمهم بأنه لايكشف الشدائد عنهم الا هو (فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون) اى فاجؤا المعاودة الى الشرك (ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا) اى يفاجؤن الاشراك ليكونوا كافرين بما آتيناهم من نعمة الانجاء التى حقها ان يشكروها (فسوف يعلمون) اى عاقبة ذلك وغائلته حين يرون العذاب (اولم يروا) اى الم ينظروا ولم يشاهدوا (انا جعلنا) اى بلدهم (حرما آمنا) مصونا من النهب والتعدى سالما اهله من كل سوء (ويتخطف الناس من حولهم) اى والحال انهم يختلسون من حولهم قتلا وسبيا اذ كانت العرب حوله فى تغاور وتناهب (أفبالباطل يؤمنون) اى أبعد ظهور الحق الذى لاريب فيه بالباطل خاصة يؤمنون دون الحق (وبنعمة الله يكفرون) وهى المستوجبة للشكر حيث يشركون به غيره وتقديم الصلة فى الموضعين لاظهار كمال شناعة مافعلوا (ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا) بان زعم ان له شريكا اى هو اظلم من كل ظالم وان كان سبك النظم دالا على نفى الاظلم من غير تعرض لنفى المساوى وقد مر مرارا (او كذب بالحق لما جاءه) اى بالرسول او بالقرآن وفى لما تسفيه لهم بانهم لم يتوقفوا ولم يتأملوا حين جاءهم بل سارعوا الى التكذيب آثر ذى اثير (أليس فى جهنم مثوى للكافرين) تقرير لثوائهم فيها كقول من قال

• ألستم خير من ركب المطايا •

اى الا يستوجبون الثواء فيها وقد فعلوا مافعلوا من الافتراء على الله تعالى والتكذيب بالحق الصريح او انكار واستبعاد لاجترائهم على ماذكر من الافتراء والتكذيب مع علمهم بحال الكفرة اى (٨٩)(را)(س) الم يعلموا ان فى جهنم مثوى للكافرين حتى اجترؤا هذه الجراءة

الى ان الله تعالى خلقه من تراب بكن فكان لانه صار معدنا ثم نباتا ثم حيوانا ثم انسانا وهذا اشارة الى مسئلة حكمية وهى ان الله تعالى يخلق أولا انسانا فيفهم انه يحيى حيوانا ونابيا وغير ذلك لانه خلق أولا حيوانا ثم يجعله انسانا فخلق الانواع هو المراد الاول ثم تكون الانواع فيها الاجناس بتلك الارادة الاولى فالله تعالى جعل المرتبة الاخيرة فى الشئ البعيد عنها غاية من غير انتقال من مرتبة الى مرتبة من المراتب التى ذكرناها (اللطيفة الثانية) قوله بشر اشارة الى القوة المدركة لان البشر بشر لابحركته فان غيره من الحيوانات أيضا كذلك وقوله تنتشرون الى القوة المحركة وكلاهما من التراب عجيب اما الادراك فلكثافته وجموده واما الحركة فلثقله وخموده وقوله تنتشرون اشارة الى ان العجيبة غير مختص بخلق الانسان من التراب بل خلق الحيوان المنتشر من التراب الساكن عجيب فضلا عن خلق البشر وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) وهى ان الله خلق آدم من تراب وخلقنا منه فكيف قال خلقكم من تراب نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ماقيل ان المراد من قوله خلقكم انه خلق أصلكم (والثانى) ان نقول ان كل بشر مخلوق من التراب اما آدم فظاهر واما نحن فلانا خلقنا من نطفة والنطفة من صالح الغذاء الذى هو بالقوة بعض من الاعضاء والغذاء اما من لحوم الحيوانات وألبانها واسمانها واما من النبات والحيوان ايضا له غذاء هو النبات لكن النبات من التراب فان الحبة من الحنطة والنواة من الثمرة لاتصير شجرة الا بالتراب وينضم اليها اجزاء مائية ليصير ذلك النبات بحيث يغذو (المسئلة الثانية) قال تعالى فى موضع آخر وخلق من الماء بشرا وقال من ماء مهين وههنا قال من تراب فكيف الجمع قلنا اما على الجواب الاول فالسؤال زائل فان المراد منه آدم واما على الثانى فنقول ههنا قال ماهو اصل اول وفى ذلك الموضع قال ماهو اصل ثان لان ذلك التراب الذى صار غذاء يصير مائعا وهو المنى ثم ينعقد ويتكون يخلق الله منه انسانا او نقول الانسان له أصلان ظاهران الماء والتراب فان التراب لاينبت الا بالماء ففى النبات الذى هو اصل غذاء الانسان تراب وماء فان جعل التراب اصلا والماء لجمع اجزائه المتفتتة فالامر كذلك وان جعل الاصل هو الماء والتراب لتثبيت اجزائه الرطبة من السيلان فالامر كذلك فان قال قائل الله تعالى يعلم كل شئ فهو يعلم ان الاصل ماذا هو منهما وانما الامر عندنا مشتبه يجوز هذا وذاك فان كان الاصل هو التراب فكيف قال من الماء بشرا وان كان الماء فكيف قال خلقكم من تراب وان كانا هما اصلين فلم لم يقل خلقكم منهما (فنقول فيه لطيفة) وهى ان كون التراب اصلا والماء اصلا ليس لذاتيهما وانما هو بجعل الله تعالى فان الله نظرا الى قدرته كان له ان يخلق اول مايخلق الانسان ثم يفنيه ويحصل منه التراب ثم يذوبه ويحصل منه الماء لكن الحكمة اقتضت ان يكون الناقص وسيلة الى الكامل لا الكامل يكون وسيلة الى الناقص فخلق التراب والماء اولا وجعلهما اصلين لمن هو اكمل منهما بل

(والذين جاهدوا فينا) اى فى شأننا ولوجهنا خالصا اطلق المجاهدة ليعم (٧٠٦) جهاد الاعادى الظاهرة والباطنة (لنهدينهم سبلنا) سبل السير الينا والوصول الى جنابنا او لنزيدنهم هداية الى سبل الخير وتوفيقا لسلوكها كقوله تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى وفى الحديث من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم (وان الله لمع المحسنين) معية النصر والمعونة * وعنه عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة العنكبوت كان له من الاجر عشر حسنات بعدد كل المؤمنين والمنافقين

* (سورة الروم مكية الا قوله) (فسبحان الله الآية وهى ستون) (او تسع وخمسون آية) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(الم) الكلام فيه كالذى مر فى امثاله من الفواتح الكريمة (غلبت الروم فى ادنى الارض) اى ادنى ارض العرب منهم اذ هى الارض المعهودة عندهم وهى اطراف الشام او فى ادنى ارضهم من العرب على ان اللام عوض عن المضاف اليه قال مجاهد هى ارض الجزيرة وهى ادنى ارض الروم الى فارس وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما الاردن وفلسطين وقرئ اداني الارض (وهم) اى الروم (من بعد غلبهم) اى من بعد مغلوبيتهم وقرئ بسكون اللام وهى لغة كالجلب والجلب (سيغلبون) اى سيغلبون فارس (فى بضع سنين) روى ان فارس غزوا الروم فوافوهم باذرعات وبصرى وقيل بالجزيرة كاسر فغلبوا عليهم وبلغ الخبر مكة ففرح المشركون وشمتوا بالمسلمين وقالوا انتم والنصارى اهل كتاب ونحن وفارس اميون وقد ظهر اخواننا على اخوانكم فلنظهرن عليكم فقال ابو بكر رضى الله عنه لايقرر الله اعينكم فوالله ليظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين فقال له ابى بن خلف اللعين كذبت اجعل بيننا اجلا اناحبك عليه فناحبه على عشر قلائص من كل منهما وجعلا الاجل ثلاث (للذى)

لذى هو اكمل من كل كائن وهو الانسان فان كان كونهما اصلين ليس امرا ذاتيا لهما بل بجعل جاعل فتارة جعل الاصل التراب وتارة الماء ليعلم انه بارادته واختياره فان شاء جعل هذا اصلا وان شاء جعل ذلك اصلا وان شاء جعلهما اصلين (المسئلة الثالثة) قال الحكماء ان الانسان مركب من العناصر الاربعة وهى التراب والماء والهواء والنار وقالوا التراب فيه لثباته والماء لاستمساكه فان التراب يتفتت بسرعة والهواء لاستقلاله كالزق المنفوخ يقوم بالهواء ولولاه لما كان فيه استقلال ولا انتصاب والنار للنضج والالتئام بين هذه الاشياء فهل هذا صحيح ام لا فان كان صحيحا فكيف اعتبر الامرين فحسب ولم يقل فى موضع آخر انه خلقكم من نار ولا من ريح فنقول اما قولهم فلا مفسدة فيه من حيث الشرع فلا ننازعهم فيه الا اذا قالوا بأنه بالطبيعة كذلك واما ان قالوا بأن الله بحكمته خلق الانسان من هذه الاشياء فلا ننازعهم فيه واما الآيات فنقول ما ذكرتم لا يخالف هذا لان الهواء جعلتموه للاستقلال والنار للنضج فهما يكونان بعد امتزاج الماء بالتراب فالاصل الموجود اولا هما لا غير فلذلك خصهما ولان المحسوس من العناصر فى الغالب هو التراب والماء ولا سيما كونهما فى الانسان ظاهر لكل احد فخص الظاهر المحسوس بالذكر * ثم قال تعالى (ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) لما بين الله خلق الانسان بين انه لما خلق الانسان ولم يكن من الاشياء التى تبقى وتدوم سنين متطاولة ابقى نوعه بالاشخاص وجعله بحيث يتوالد فاذا مات الاب يقوم الابن مقامه لئلا يوجب فقد الواحد ثلمة فى العمارة لا تنسد وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله خلق لكم دليل على ان النساء خلقن كخلق الدواب والنبات وغير ذلك من المنافع كما قال تعالى خلق لكم ما فى الارض وهذا يقتضى ان لا تكون مخلوقة للعبادة والتكليف فنقول خلق النساء من النعم علينا وخلقهن لنا وتكليفهن لاتمام النعمة علينا لا لتوجيه التكليف نحوهن مثل توجيهه الينا وذلك من حيث النقل والحكم والمعنى اما النقل فهذا وغيره واما الحكم فلأن المرأة لم تكلف بتكاليف كثيرة كما كلف الرجل بها واما المعنى فلأن المرأة ضعيفة الخلق سخيفة فشابهت الصبى لكن الصبى لم يكلف فكان يناسب ان لا تؤهل المرأة للتكليف لكن النعمة علينا ما كانت تتم الا بتكليفهن لتخاف كل واحدة منهن العذاب فتنقاد للزوج وتمتنع عن المحرم ولولا ذلك لظهر الفساد (المسئلة الثانية) قوله من انفسكم قال بعضهم المراد منه ان حواء خلقت من جسم آدم والصحيح ان المراد منه من جنسكم كما قال تعالى لقد جاءكم رسول من انفسكم ويدل عليه قوله تعالى لتسكنوا اليها يعنى ان الجنسين المختلفين لا يسكن احدهما الى الآخر اى لا تثبت نفسه معه ولا يميل قلبه اليه (المسئلة الثالثة) يقال سكن اليه للسكون القلبى ويقال سكن عنده للسكون الجسمانى لان كلمة عند جاءت لظرف المكان وذلك للاجسام والى للغاية وهى للقلوب

سنين فأخبر به ابوبكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال البضع ما بين الثلاث الى التسع فزايده فى الخطر وماده فى الاجل فجعلاها مائة قلوص الى تسع سنين ومات ابى من جرح رسول الله (٧٠٧) صلى الله عليه وسلم وظهرت الروم على فارس عند رأس سبع سنين وذلك يوم الحديبية وقيل كان النصر للفريقين يوم بدر فأخذ ابوبكر الخطر من ذرية ابى فجاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تصدق به وكان ذلك قبل تحريم القمار وهذه الآيات من البينات الباهرة الشاهدة بصحة النبوة وكون القرآن من عند الله عز وجل حيث اخبرت عن الغيب الذى لا يعلمه الا العليم الخبير وقرئ غلبت على البناء للفاعل وسيغلبون على البناء للمفعول والمعنى ان الروم غلبت على ريف الشام وسيغلبهم المسلمون وقد غزاهم المسلمون فى السنة التاسعة من نزولها ففتحوا بعض بلادهم واضافة الغلب حينئذ الى الفاعل (لله الامر من قبل ومن بعد) اى فى اول الوقتين وفى آخرهما حين غلبوا وحين يغلبون كأنه قيل من قبل كونهم غالبين وهو وقت كونهم مغلوبين ومن بعد كونهم مغلوبين وهو وقت كونهم غالبين والمعنى ان كلا من كونهم مغلوبين اولا وغالبين آخرا ليس الا بأمر الله تعالى وقضائه وتلك الايام نداولها بين الناس وقرئ من قبل ومن بعد بالجر من غير تقدير مضاف اليه واقتطاعه كأنه قيل قبلا وبعدا بمعنى اولا وآخرا (ويومئذ) اى يوم اذ يغلب الروم على فارس ويحل ما وعده الله تعالى من غلبتهم (يفرح المؤمنون بنصر الله) وتغليبه من له كتاب على من لا كتاب له وغيظ من شمت بهم من كفار مكة وكون ذلك من دلائل غلبة المؤمنين على الكفار وقيل نصر الله اظهار صدق المؤمنين فيما اخبروا به المشركين من غلبة الروم على فارس وقيل نصره تعالى انه ولى بعض الظالمين بعضا وفرق بين كلمهم حتى تناقصوا وتفانوا وفل كل منهما

(المسئلة الرابعة) قوله وجعل بينكم مودة ورحمة فيه اقوال قال بعضهم مودة بالمجامعة ورحمة بالولد تمسكا بقوله تعالى ذكر رحمة ربك عبده زكريا وقال بعضهم محبة حالة حاجة نفسه ورحمة حالة حاجة صاحبه اليه وهذا لان الانسان يحب مثلا ولده فاذا رأى عدوه فى شدة من جوع وألم قد يأخذ من ولده ويصلح به حال ذلك وماذلك لسبب المحبة وانما هو لسبب الرحمة ويمكن ان يقال ذكر من قبل امرين (احدهما) كون الزوج من جنسه (والثانى) ماتقضى اليه الجنسية وهو السكون اليه فالجنسية توجب السكون وذكرهنا امرين (احدهما) يفضى الى الآخر فالمودة تكون اولا ثم انها تفضى الى الرحمة ولهذا فان الزوجة قد تخرج عن محل الشهوة بكبر او مرض ويبقى قيام الزوج بها وبالعكس وقوله ان فى ذلك يحتمل ان يقال المراد ان فى خلق الازواج لآيات ويحتمل ان يقال فى جعل المودة بينهم آيات (اما الاول) فلابد له من فكر لان خلق الانسان من الوالدين يدل على كمال القدرة ونفوذ الارادة وشمول العلم لمن يتفكر ولو فى خروج الولد من بطن الام فان دون ذلك لو كان من غير الله لأفضى الى هلاك الام وهلاك الولد ايضا لان الولد لو سل من موضع ضيق بغير اعانة الله لمات (واما الثانى) فكذلك لان الانسان يجد بين القرينين من التراحم مالا يجده بين ذوى الارحام وليس ذلك بمجرد الشهوة فانها قد تنتفى وتبقى الرحمة فهو من الله ولو كان بينهما مجرد الشهوة والغضب كثير الوقوع وهو مبطل للشهوة والشهوة غير دائمة فى نفسها لكان كل ساعة بينهما فراق وطلاق فالرحمة التى بها يدفع الانسان المكاره عن حريم حرمه هى من عند الله ولا يعلم ذلك الا بفكر ﴿ ثم قال تعالى

(ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان فى ذلك لآيات للعالمين) لما بين دلائل الانفس ذكر دلائل الآفاق واظهرها خلق السموات والارض فان بعض الكفار يقول فى خلق البشر وغيره من المركبات انه بسبب مافى العناصر من الكيفيات ومافى السموات من الحركات ومافيها من الاتصالات فاذا قيل له فالسماء والارض لم تكن لامتزاج العناصر واتصالات الكواكب فلا يجد بدا من ان يقول ذلك بقدرة الله وارادته ثم لما اشار الى دلائل الانفس والآفاق ذكر ماهو من صفات الانفس بالاختلاف الذى بين الوان الانسان فان واحدا منهم مع كثرة عددهم وصغر حجم خدودهم وقدودهم لايشتبه بغيره والسموات مع كبرها وقلة عددها مشتبهات فى الصورة والثانى اختلاف كلامهم فان عربيين هما اخوان اذا تكلما بلغة واحدة يعرف احدهما من الآخر حتى ان من يكون محجوبا عنهما لايبصرهما يقول هذا صوت فلان وهذا صوت فلان الآخر وفيه حكمة بالغة وذلك لان الانسان يحتاج الى التمييز بين الاشخاص ليعرف صاحب الحق من غيره والعدو من الصديق ليحترز قبل وصول العدو اليه وليقبل على الصديق قبل ان يفوته الاقبال عليه وذلك قد يكون بالبصر فخلق اختلاف الصور وقد يكون بالسمع فخلق اختلاف الاصوات واما اللمس والشم والذوق

شوكة الآخر وفى ذلك قوة وعن ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه انه وافق ذلك يوم بدر وفيه من نصر الله العزيز للمؤمنين وفرحهم بذلك مالايخفى والاول هو الانسب لقوله تعالى (ينصر من يشاء) (٧٠٨) اى من يشاء ان ينصره من عباده على عدوه ويغلبه عليه فانه استئناف مقرر لمضمون قوله تعالى لله الامر من قبل ومن بعد (وهو العزيز) البالغ فى العزة والغلبة فلا يعجزه من يشاء ان ينصر عليه كائنا من كان (الرحيم) المبالغ فى الرحمة فينصر من يشاء ان ينصره اى فريق كان والمراد بالرحمة هى الدنيوية اما على القراءة المشهورة فظاهر لما ان كلا الفريقين لايستحق الرحمة الاخروية واما على القراءة الاخيرة فلان المسلمين وان كانوا مستحقين لها لكن المراد ههنا نصرهم الذى هو من آثار الرحمة الدنيوية وتقديم وصف العزة لتقدمه فى الاعتبار (وعد الله) مصدر مؤكد لنفسه لان ماقبله فى معنى الوعد كأنه قيل وعد الله وعدا (لايخلف الله وعده) اى وعد كان مما يتعلق بالدنيا والآخرة لاستحالة الكذب عليه سبحانه واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لتعليل الحكم وتفخيمه والجملة استئناف مقرر لمعنى المصدر وقد يجوز ان تكون حالا منه فيكون كالمصدر الموصوف كأنه قيل وعد الله وعدا غير مخلف (ولكن اكثر الناس لايعلمون) اى ماسبق من شؤنه تعالى (يعلمون ظاهرا من الحيوة الدنيا) وهو مايشاهدونه من زخارفها وملاذها وسائر احوالها الموافقة لشهواتهم الملائمة لاهوائهم المستدعية لانهماكهم فيها وعكوفهم عليها لاتمتعهم بزخارفها وتنعمهم بملاذها كما قيل فانهما ليسا مما علموه منها بل من افعالهم المترتبة على علومهم وتنكير ظاهرا للتحقير والتخسيس دون الوحدة كما توهم اى يعلمون ظاهرا حقيرا خسيسا من الدنيا (وهم عن الآخرة) التى هى الغاية القصوى والمطلب الاسنى (فلا) (هم غافلون) لايخطرونها بالبال ولايدركون من الدنيا مايؤدى

فلا يفيد فائدة فى معرفة العدو والصديق فلا يقع بها التمييز ومن الناس من قال المراد اختلاف اللغة كالعربية والفارسية والرومية وغيرها والاول اصح ثم قال تعالى لآيات للعالمين لما كان خلق السموات والارض لم يحتمل الاحتمالات البعيدة التى يقولها اصحاب الطبائع واختلاف الالوان كذلك واختلاف الاصوات كذلك قال للعالمين لعموم العلم بذلك ❊ ثم قال تعالى (ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) لما ذكر بعض العرضيات اللازمة وهو الاختلاف ذكر الاعراض المفارقة ومن جملتها النوم بالليل والحركة طلبا للرزق بالنهار فذكر من اللوازم أمرين ومن المفارقة أمرين وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله منامكم بالليل والنهار قيل أراد به النوم بالليل والنوم بالنهار وهى القيلولة ثم قال وابتغاؤكم اى فيهما فان كثيرا مايكتسب الانسان بالليل وقيل أراد منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار فلف البعض بالبعض ويدل عليه آيات أخر منها قوله تعالى وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا وقوله وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا ويكون التقدير هكذا ومن آياته منامكم وابتغاؤكم بالليل والنهار من فضله فأخر الابتغاء وقرنه فى اللفظ بالفعل اشارة الى ان العبد ينبغى ان لايرى الرزق من كسبه وبحذقه بل يرى كل ذلك من فضل ربه ولهذا قرن الابتغاء بالفضل فى كثير من المواضع منها قوله تعالى فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله وقوله ولتبتغوا من فضله (المسئلة الثانية) قدم المنام بالليل على الابتغاء بالنهار فى الذكر لان الاستراحة مطلوبة لذاتها والطلب لايكون الا لحاجة فلا يتعب الا محتاج فى الحال أو خائف من المآل (المسئلة الثالثة) قال آيات لقوم يسمعون وقال من قبل لقوم يتفكرون وقال للعالمين فنقول المنام بالليل والابتغاء من فضله يظن الجاهل او الغافل انهما مما يقتضيه طبع الحيوان فلا يظهر لكل أحد كونهما من نعم الله فلم يقل آيات للعالمين ولان الامرين الاولين وهو اختلاف الألسنة والألوان من اللوازم والمنام والابتغاء من الامور المفارقة فالنظر اليهما لايدوم لزوالهما فى بعض الاوقات ولا كذلك اختلاف الألسنة والألوان فانهما يدومان بدوام الانسان فجعلهما آيات عامة واما قوله لقوم يتفكرون فاعلم ان من الاشياء ما يعلم من غير تفكر ومنها مايكفى فيه مجرد الفكرة ومنها مالا يخرج بالفكر بل يحتاج الى موقف يوقف عليه ومرشد يرشد اليه فيفهمه اذا سمعه من ذلك المرشد ومنها مايحتاج الى بعض الناس فى تفهمه الى أمثلة حسية كالاشكال الهندسية لكن خلق الازواج لايقع لأحد انه بالطبع الا اذا كان جامد الفكر خامد الذكر فاذا تفكر علم كون ذلك الخلق آية واما المنام والابتغاء فقد يقع لكثير انهما من افعال العباد وقد يحتاج الى مرشد بغير فكرة فقال لقوم يسمعون ويجعلون بالهم الى كلام المرشد ❊ ثم قال تعالى (ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الارض بعد موتها ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) لما ذكر

الى معرفتها من احوالها ولا يتفكرون فيها كما سيأتى والجملة معطوفة على يعلمون وايرادها اسمية للدلالة على استمرار غفلتهم ودوامها وهم الثانية تكرير للاولى اومبتدأ وغافلون خبره والجملة خبر للاولى وهو على الوجهين مناد على تمكن غفلتهم عن الآخرة المحققة لمقتضى الجملة المتقدمة تقريرا لجهالتهم وتشبيها لهم بالبهائم المقصور ادراكاتها من الدنيا على ظواهرها الحسية دون احوالها التى هى مبادى العلم بأمور الآخرة واشعارا بأن العلم المذكور وعدم العلم أساسيان (اولم يتفكروا) انكار واستقباح لقصر نظرهم على ماذكر من ظاهر الحياة الدنيا مع الغفلة عن الآخرة والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام وقوله تعالى (فى انفسهم) ظرف التفكر وذكره مع ظهور استحالة كونه فى غيرها لتحقيق امره وتصوير حال المتفكرين وقوله تعالى (ماخلق الله السموات والارض ومابينهما) الخ متعلق اما بالعلم الذى يؤدى اليه التفكر ويدل عليه او بالقول الذى يترتب عليه كما فى قوله تعالى ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ماخلقت هذا باطلا اى أعلموا ظاهر الحياة الدنيا فقط او أقصروا النظر عليه ولم يحدثوا التفكر فى قلوبهم فيعلموا انه تعالى ماخلقهما ومابينهما من المخلوقات التى هم من جملتها ملتبسة بشئ من الاشياء (الا) ملتبسة (بالحق) او يقولوا هذا القول معترفين بمضمونه اثر ماعلموه والمراد بالحق هو الثابت الذى يحق ان يثبت لامحالة لابتنائه على الحكمة البالغة والغرض الصحيح الذى هو استشهاد المكلفين بذواتها وصفاتها واحوالها المتغيرة على وجود صانعها عز وجل ووحدته وعلمه وقدرته وحكمته واختصاصه بالعبودية وصحة اخباره التى من جملتها احياؤهم

العرضيات التى للانفس اللازمة والمفارقة ذكر العرضيات التى للآفاق وقال يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء وفى الآية مسائل (احداها) لما قدم دلائل الانفس ههنا قدم العرضيات التى للانفس وأخر العرضيات التى للآفاق كما أخر دلائل الآفاق بقوله ومن آياته خلق السموات والارض (المسئلة الثانية) قدم لوازم الانفس على العوارض المفارقة حيث ذكر اولا اختلاف الألسنة والألوان ثم المنام والابتغاء وقدم فى الآفاق العوارض المفارقة على اللوازم حيث قال يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل وذلك لان الانسان متغير الحال والعوارض له غير بعيدة واما اللوازم فيه فقريبة واما السموات والارض فقليلة التغير فالعوارض فيها اغرب من اللوازم فقدم ماهو أعجب لكونه ادخل فى كونه آية ونزيده بيانا فنقول الانسان يتغير حاله بالكبر والصغر والصحة والسقم وله صوت يعرف به لايتغير وله لون يميز عن غيره وهو يتغير فى الاحوال وذلك لايتغير وهو آية عجيبة والسماء والارض ثابتان لايتغيران ثم يرى فى بعض الاحوال امطار هاطلة وبروق هائلة والسماء كما كانت والارض كذلك فهو آية دالة على فاعل مختار يديم أمرا مع تغير المحل ويزيل أمرا مع ثبات المحل (المسئلة الثالثة) كما قدم السماء على الارض قدم ماهو من السماء وهو البرق والمطر على ماهو من الارض وهو الانبات والاحياء (المسئلة الرابعة) كما ان فى انزال المطر وانبات الشجر منافع كذلك فى تقدم البرق والرعد على المطر منفعة وذلك لان البرق اذا لاح فالذى لايكون تحت كن يخاف الابتلاء فيستعد له والذى له صهريج او مصنع يحتاج الى الماء اوزرع يسوى مجارى الماء وايضا العرب من اهل البوادى فلايعلمون البلاد المعشبة ان لم يكونوا قدرأوا البروق اللائحة من جانب دون جانب واعلم ان فوائد البرق وان لم تظهر للمقيمين بالبلاد فهى ظاهرة للبادين ولهذا جعل تقديم البرق على تنزيل الماء من السماء نعمة وآية وأما كونه آية فظاهر فان فى السحاب ليس الاماء وهواء وخروج النار منهما بحيث تحرق الجبال فى غاية البعد فلابد له من خالق هو الله قالت الفلاسفة السحاب فيه كثافة ولطافة بالنسبة الى الهواء والماء فالهواء الطف منه والماء أكثف فاذا هبت ريح قوية تخرق السحاب بعنف فيحدث صوت الرعد ويخرج منه النار كمماس جسم جسما بعنف وهذا كما ان النار تخرج من وقوع الحجر على الحديد (فان قال قائل) الحجر والحديد جسمان صلبان والسحاب والريح جسمان رطبان فيقولون لكن حركة يد الانسان ضعيفة وحركة الريح قوية تقلع الاشجار (فنقول لهم) البرق والرعد أمران حادثان لابد لهما من سبب وقد علم بالبرهان كون كل حادث من الله فهما من الله ثم انا نقول هب ان الامر كما تقولون فهبوب تلك الريح القوية من الامور الحادثة العجيبة لابد له من سبب وينتهى الى الواجب الوجود فهو آية للعاقل على قدرة الله كيفما فرضتم ذلك (المسئلة الخامسة) قال ههنا لقوم يعقلون لما كان حدوث الولد من الوالد امرا عاديا مطردا قليل الاختلاف كان يتطرق الى (الاوهام)

بعد الفناء بالحياة الابدية ومجازاتهم بحسب اعمالهم غب ماتبين المحسن من المسئ وامتازت درجات افراد كل من الفريقين حسب امتياز طبقات علومهم واعتقاداتهم المترتبة على انظارهم فى الصب فى المصنوعات من الآيات والدلائل والامارات والمخايل كما نطق به قوله تعالى وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة ايام وكان عرشه على الماء ليبلوكم ايكم احسن عملا فان العمل غير مختص بعمل الجوارح ولذلك فسره عليه الصلاة والسلام بقوله ايكم احسن عقلا واورع عن محارم الله واسرع فى طاعة الله وقد مر تحقيقه فى اوائل سورة هود عليه السلام وقوله تعالى (واجل مسمى) عطف على الحق اى وبأجل معين قدره الله تعالى لبقائها لابد لها من ان تنتهى اليه لامحالة وهو وقت قيام الساعة هذا وقد جوزان يكون قوله تعالى فى انفسهم صلة للتفكر على معنى اولم يتفكروا فى انفسهم التى هى اقرب المخلوقات اليهم وهم اعلم بشؤنها واخبر بأحوالها منهم بأحوال ماعداها فيتدبروا ماودعها الله تعالى ظاهرا وباطنا من غرائب الحكم الدالة على التدبير دون الاهمال وانه لابد لها من انتهاء الى وقت يجازيها فيه الحكيم الذى دبر امرها على الاحسان احسانا وعلى الاساءة مثلها حتى يعلموا عند ذلك ان سائر الخلائق كذلك امرها جار على الحكمة والتدبير وانه لابد لها من الانتهاء الى ذلك الوقت وانت خبير بان امر معادا لانسان ومجازاته بما عمل من الاساءة والاحسان هو المقصود بالذات والمحتاج الى الاثبات فجعله ذريعة الى اثبات معاد ما عداه مع كونه بمعزل من الجزاء تعكيس للامر فتدبر وقوله تعالى (وان كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون) تذييل

الاوهام العامية ان ذلك بالطبيعة لان المطرد اقرب الى الطبيعة من المختلف لكن البرق والمطر ليس امرا مطردا غير مختلف اذ يقع ببلدة دون بلدة وفى وقت دون وقت وتارة تكون قوية وتارة تكون ضعيفة فهو اظهر فى العقل دلالة على الفاعل المختار فقال هو آية لمن له عقل ان لم يتفكر تفكرا تاما * ثم قال تعالى (ومن آياته ان تقوم السماء والارض بأمره ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا انتم تخرجون) لما ذكر من العوارض التى للسماء والارض بعضها ذكر من لوازمها البعض وهى قيامها فان الارض لثقلها يتعجب الانسان من وقوفها وعدم نزولها وكون السماء يتعجب من علوها وثباتها من غير عمد وهذا من اللوازم فان الارض لاتخرج عن مكانها الذى هى فيه والسماء كذلك لاتخرج عن مكانها الذى هى فيه فان قيل انها تتحرك فى مكانها كالرحى ولكن اتفق العقلاء على انها فى مكانها لاتخرج عنه وهذه آية ظاهرة لان كونهما فى الموضع الذى هما فيه وعلى الموضع الذى هما عليه من الامور الممكنة وكونهما فى غير ذلك الموضع جائز فكان يمكن ان يخرجا منه فلما لم يخرجا كان ذلك ترجيحا للجائز على غيره وذلك لايكون الا بفاعل مختار والفلاسفة قالوا كون الارض فى المكان الذى هى فيه طبيعى لها لانها اثقل الاشياء والثقيل يطلب المركز والخفيف يطلب المحيط والسماء كونها فى مكانها ان كانت ذات مكان فلذاتها فقيامهما فيهما بطبعهما فنقول قد تقدم مرارا ان القول بالطبيعة باطل والذى نزيده ههنا انكم وافقتمونا بأن ماجاز على احد المثلين جاز على المثل الآخر لكن مقعر الفلك لايخالف محدبه فى الطبع فيجوز حصول مقعره فى موضع محدبه وذلك بالخروج والزوال فاذن الزوال عن المكان ممكن لاسيما على السماء الدنيا فانها محددة الجهات على مذهبكم ايضا والارض كانت تجوز عليها الحركة الدورية كما تقولون على السماء فعدمها وسكونها ليس الا بفاعل مختار وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) ذكر الله من كل باب امرين اما من الانفس فقوله خلق لكم استدل بخلق الزوجين ومن الآفاق السماء والارض فى قوله خلق السموات والارض ومن لوازم الانسان اختلاف الالسان واختلاف الالوان ومن عوارضه المنام والابتغا ومن عوارض الآفاق البروق والامطار ومن لوازمها قيام السماء وقيام الارض لان الواحد يكفى للاقرار بالحق والثانى يفيد الاستقرار بالحق ومن هذا اعتبر شهادة شاهدين فان قول احدهما يفيد الظن وقول الآخر يفيد تأكيده ولهذا قال ابراهيم عليه السلام بلى ولكن ليطمئن قلبى (المسئلة الثانية) قوله بأمره اى بقوله قوما او بارادته قيامهما وذلك لان الامر عند المعتزلة موافق للارادة وعندنا ليس كذلك ولكن النزاع فى الامر الذى للتكليف لافى الامر الذى للتكوين فانا لانازعهم فى ان قوله كن وكونوا ويانار كونى موافق للارادة (المسئلة الثالثة) قال ههنا ومن آياته ان تقوم وقال قبله ومن آياته يريكم ولم يقل ان يريكم وان قال بعض المفسرين ان ان مضمر هناك معناه من آياته ان يريكم ليصير

مقرر لما قبله ببيان ان اكثرهم غير مقتصرين على ماذكر من الغفلة (٧١١) عن احوال الآخرة والاعراض عن التفكر فيما يرشدهم الى معرفتها من خلق السموات والارض وما بينهما من المصنوعات بل هم منكرون جاحدون بلقاء حسابه تعالى وجزائه بالبعث (اولم يسيروا) توبيخ لهم بعدم اتعاظهم بمشاهدة احوال امثالهم الدالة على عاقبتهم ومآلهم والهمزة لتقرير المنفى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أقعدوا فى اماكنهم ولم يسيروا (فى الارض) وقوله تعالى (فينظروا) عطف على يسيروا داخل فى حكم التقرير والتوبيخ والمعنى انهم قد ساروا فى اقطار الارض وشاهدوا (كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) من الامم المهلكة كعاد وثمود وقوله تعالى (كانوا اشد منهم قوة) الخ بيان لمبدأ احوالهم ومآلها يعنى انهم كانوا اقدر منهم على التمتع بالحياة الدنيا حيث كانوا اشد منهم قوة (واثاروا الارض) اى قلبوها للزراعة والحرث وقيل لاستنباط المياه واستخراج المعادن وغير ذلك (وعمروها) اى عمرها اولئك بفنون العمارات من الزراعة والغرس والبناء وغيرها مما يعد عمارة لها (اكثر مما عمروها) اى عمارة اكثر كما وكيفا وزمانا من عمارة هؤلاء اياها كيف لا وهم اهل واد غير ذى زرع لاتبسط لهم فى غيره وفيه تهكم بهم حيث كانوا مغترين بالدنيا مفتخرين بمتاعها مع ضعف حالهم وضيق عطنهم اذ مدار امرها على التبسط فى البلاد والتسلط على العباد والتقلب فى اكناف الارض باصناف التصرفات وهم ضعفة ملجؤن الى واد لانفع فيه يخافون ان يتخطفهم الناس (وجاءتهم رسلهم بالبينات) بالمعجزات او الآيات الواضحات (فما كان الله ليظلمهم) اى فكذبوهم فاهلكهم فما كان الله ليهلكهم

كالمصدر بأن وذلك لان القيام لما كان غير متغير اخرج الفعل بأن عن الفعل المستقبل وجعله مصدرا لان المستقبل ينبيء عن التجدد وفي البرق لما كان ذلك من الامور التي تتجدد في زمان دون زمان ذكره بلفظ المستقبل ولم يذكر معه شيئا من الحروف المصدرية (المسئلة الرابعة) ذكر ستة دلائل وذكر في اربعة منها ان في ذلك لآيات ولم يذكر في الاول وهو قوله ومن آياته ان خلقكم من تراب ولا في الآخر وهو قوله ومن آياته ان تقوم السماء والارض اما في الاول فلأن قوله بعده ومن آياته ان خلق لكم ايضا دليل الانفس فخلق الانفس وخلق الازواج من باب واحد على ما بينا غير انه تعالى ذكر من كل باب امرين للتقرير بالتكرير فاذا قال ان في ذلك لآيات كان عائدا اليهما واما في قيام السماء والارض فنقول في الآيات السماوية ذكر انها آيات للعالمين ولقوم يعقلون لظهورها فلما كان في اول الامر ظاهرا ففي آخر الامر بعد سرد الدلائل يكون أظهر فلم يميز احدا عن احد في ذلك وذكر ما هو مدلوله وهو قدرته على الاعادة وقال ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا انتم تخرجون وفيها مسائل (المسئلة الاولى) ما وجه العطف بثم وبم تعلق ثم فنقول معناه والله اعلم انه تعالى اذا بين لكم كمال قدرته بهذه الآيات بعد ذلك يخبركم ويعلمكم انه اذا قال للعظام الرميمة اخرجوا من الاجداث تخرجون احياء (المسئلة الثانية) قول القائل دعا فلان فلانا من الجبل يحتمل ان يكون الدعاء من الجبل كما يقول القائل يا فلان اصعد الى الجبل فيقال دعاه من الجبل ويحتمل ان يكون المدعو يدعى من الجبل كما يقول القائل يا فلان انزل من الجبل فيقال دعاه من الجبل ولا يخفى على العاقل ان الدعاء لا يكون من الارض اذا كان الداعي هو الله فالمدعو يدعى من الارض يعني انتم تكونون في الارض فيدعوكم منها فتخرجون (المسئلة الثالثة) قوله تعالى اذا انتم قد بينا انه للمفاجأة يعني يكون ذلك بكن فيكون (المسئلة الرابعة) قال ههنا اذا انتم تخرجون وقال في خلق الانسان اولا ثم اذا انتم بشر تنتشرون فنقول هناك يكون خلق وتقدير وتدريج وتراخ حتى يصير التراب قابلا للحياة فينفخ فيه روحه فاذا هو بشر واما في الاعادة لا يكون تدريج وتراخ بل يكون نداء وخروج فلم يقل ههنا ثم ❁ ثم قال تعالى (وله من في السموات والارض كل له قانتون) لما ذكر الآيات وكان مدلولها القدرة على الحشر التي هي الاصل الآخر والوحدانية التي هي الاصل الاول اشار اليها بقوله وله من في السموات والارض يعني لا شريك له اصلا لان كل من في السموات وكل من في الارض ونفس السموات والارض له وملكه فكل له منقادون قانتون والشريك يكون منازعا مماثلا فلا شريك له اصلا ثم ذكر المدلول الآخر ❁ فقال تعالى (وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو اهون عليه) اي في نظركم الاعادة اهون من الابداء لان من يفعل فعلا اولا يصعب عليه ثم اذا فعل بعد ذلك مثله يكون اهون وقيل المراد هو هين عليه كما قيل في قول القائل الله اكبر اي كبير وقيل المراد هو اهون عليه اي الاعادة اهون على الخالق

من غير جرم يستدعيه من قبلهم والتعبير عن ذلك بالظلم مع ان اهلاكه تعالى اياهم (٧١٢) بلا جرم ليس من الظلم في شيء على ما تقرر من قاعدة اهل السنة لاظهار كمال نزاهته تعالى عن ذلك بابرازه في معرض ما يستحيل صدوره عنه تعالى وقد مر في سورة الانفال وسورة آل عمران (ولكن كانوا انفسهم يظلمون) بأن اجترؤا على اقتراف ما يوجبه من المعاصي العظيمة (ثم كان عاقبة الذين اساؤا) اي عملوا السيئات وضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالاساءة والاشعار بعلة الحكم (السوأى) اي العقوبة التي هي اسوأ العقوبات وافظعها التي هي العقوبة بالنار فانها تأنيث الاسوأ كالحسنى تأنيث الاحسن او مصدر كالبشرى وصف به العقوبة مبالغة كأنها نفس السوأى وهي مرفوعة على انها اسم كان وخبرها عاقبة وقرئ على العكس وهو ادخل في الجزالة وقوله تعالى (ان كذبوا بآيات الله) علة لما اشير اليه من تعذيبهم الدنيوي والاخروي اي لأن كذبوا او بأن كذبوا بآيات الله المنزلة على رسله عليهم الصلاة والسلام ومعجزاته الظاهرة على ايديهم وقوله تعالى (وكانوا بها يستهزؤن) عطف على كذبوا داخل معه في حكم العلية وايراد الاستهزاء بصيغة المضارع للدلالة على استمراره وتجدده هذا هو اللائق بجزالة النظم الجليل وتنزيل وقيل (الله يبدؤ الخلق) اي ينشئهم (ثم يعيده) بعد الموت بالبعث (ثم اليه ترجعون) الى موقف الحساب والجزاء والالتفات للمبالغة في الترهيب وقرئ بالياء (ويوم تقوم الساعة) التي هي وقت اعادة الخلق ورجعهم اليه (يبلس المجرمون) اي يسكتون متحيرين لا ينبسون يقال ناظرته فابلس اذا سكت وأيس من ان يحتج وقرئ

من الابداء لان فى البدء يكون علقة ثم مضغة ثم لحما ثم عظما ثم يخلق بشرا ثم يخرج طفلا يترعرع الى غير ذلك فيصعب عليه ذلك كله واما فى الاعادة فيخرج بشرا سويا بكن فيكون أهون عليه والوجه الاول أصح وعليه نتكلم فنقول هو أهون يحتمل ان يكون ذلك لان فى البدء خلق الاجزاء وتأليفها والاعادة تأليف ولاشك ان الامر الواحد أهون من أمرين ولا يلزم من هذا ان يكون غيره فيه صعوبة ولنبين هذا فنقول الهين هو مالا يتعب فيه الفاعل والاهون مالا يتعب فيه الفاعل بالطريق الاولى فاذا قال قائل ان الرجل القوى لايتعب من نقل شعيرة من موضع الى موضع وسلم السامع له ذلك فاذا قال فكونه لايتعب من نقل خردلة يكون أولى يكون ذلك كلاما معقولا مبقى على حقيقته * ثم قال تعالى (وله المثل الاعلى فى السموات والارض وهو العزيز الحكيم) اى قولنا هو أهون عليه يفهم منه امران (احدهما) هو مايكون فى الآخر تعب كما يقال ان نقل الخفيف أهون من نقل الثقيل (والآخر) هو ماذكرنا من الاولوية من غير لزوم تعب فى الآخر فقوله وله المثل الاعلى اشارة الى ان كونه اهون بالمعنى الثانى لايفهم منه الاول وههنا فائدة ذكرها صاحب الكشاف وهى ان الله تعالى قال فى موضع آخر هو على هين وقال ههنا وهو اهون عليه فقدم هناك كلمة على واخرها هنا وذلك لان المعنى الذى قال هناك انه هين هو خلق الولد من العجوز وانه صعب على غيره وليس بهين الا عليه فقال هو على هين يعنى لا على غيرى واما ههنا المعنى الذى ذكر انه اهون هو الاعادة والاعادة على كل مبدئ أهون فقال وهو اهون عليه لا على سبيل الحصر فالتقديم هناك كان للحصر وقوله تعالى وله المثل الاعلى فى السموات والارض على الوجه الاول هو قولنا اهون عليه بالنسبة الى هم معنى وعلى الوجه الذى ذكرناه له معنى (اما على الوجه الاول) فلما قال وله المثل الاعلى وكان ذلك مثلا مضروبا لمن فى الارض من الناس فيفيد ذلك ان له المثل الأعلى من امثلة الناس وهم اهل الارض ولا يفيد ان له المثل الاعلى من امثلة الملائكة فقال وله المثل الأعلى فى السموات والارض يعنى هذا مثل مضروب لكم وله المثل الأعلى من هذا المثل ومن كل مثل يضرب فى السموات (واما على الوجه الثانى) فمعناه ان له المثل الاعلى اى فعله وان شبه بفعلكم ومثله به لكن ذاته ليس كمثله شئ فله المثل الأعلى وهو منقول عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وقيل المثل الأعلى اى الصفة العليا وهى لا اله الا الله وقوله تعالى وهو العزيز الحكيم اى كامل القدرة على الممكنات شامل العلم بجميع الموجودات فيعلم الاجزاء فى الامكنة ويقدر على جمعها وتأليفها * ثم قال تعالى (ضرب لكم مثلا من انفسكم هل لكم مما ملكت ايمانكم من شركاء فيما رزقناكم فانتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم انفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) لما بين الاعادة والقدرة عليها بالمثل بعد الدليلين بين الوحدانية ايضا بالمثل بعد الدليل ومعناه ان من يكون له مملوك لايكون شريكا له فى ماله ولا يكون له حرمة مثل حرمة سيده فكيف يجوز ان يكون عباد

فتح اللام من ابلسه اذا الجمه واسكته (ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء) يجيرونهم من عذاب الله تعالى كما كانوا يزعمونه وصيغة الجمع لوقوعها فى مقابلة الجمع اى لم يكن لواحد منهم شفيع (٧١٣) اصلا (وكانوا بشركائهم كافرين) اى بالهيتهم وشركتهم لله سبحانه حيث وقفوا على كنه امرهم وصيغة الماضى للدلالة على تحققه وقيل كانوا فى الدنيا كافرين بسببهم وليس بذاك اذ ليس فى الاخبار به فائدة يعتد بها (ويوم تقوم الساعة) اعيد لتهويله وتفظيع مايقع فيه وقوله تعالى (يومئذ يتفرقون) تهويل له اثر تهويل وفيه رمز الى ان التفرق يقع فى بعض منه وضمير يتفرقون لجميع الخلق المدلول عليهم بما تقدم من بدئهم واعادتهم ورجعهم لا المجرمون خاصة وليس المراد بتفرقهم افتراق كل فرد منهم عن الآخر بل تفرقهم الى فريقى المؤمنين والكافرين كما فى قوله تعالى فريق فى الجنة وفريق فى السعير وذلك بعد تمام الحساب وقوله تعالى (فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون) تفصيل وبيان لاحوال ذينك الفريقين والروضة كل ارض ذات نبات وماء ورونق ونضارة وتنكيرها للتفخيم والمراد بها الجنة والحبور السرور يقال حبره اذا سره سرورا تهلل له وجهه وقيل الحبرة كل نعمة حسنة والتحبير التحسين واختلفت فيه الاقاويل لاحتماله وجوه جميع المسار فعن ابن عباس ومجاهد يكرمون وعن قتادة ينعمون وعن ابن كيسان يحلون وعن بكر ابن عياش التيجان على رؤسهم وعن وكيع السماع فى الجنة وعن النبى صلى الله عليه وسلم انه ذكر الجنة ومافيها من النعيم وفى آخر القوم اعرابى فقال يارسول الله هل فى الجنة من سماع قال عليه الصلاة والسلام يا اعرابى ان فى الجنة نهرا حافتاه الابكار من كل (٩٠) (ر١) (س) بيضاء خوصانية يتغنين بأصوات لم يسمع الخلائق بمثلها قط فذلك افضل نعيم الجنة

الله شركاء له وكيف يجوز ان يكون لهم عظمة مثل عظمة الله تعالى حتى يعبدوا وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) ينبغى ان يكون بين المثل والممثل به مشابهة ما ثم ان كان بينهما مخالفة فقد يكون مؤكدا لمعنى المثل وقد يكون موهنا له وههنا وجه المشابهة معلوم واما المخالفة فموجودة ايضا وهى مؤكدة وذلك من وجوه (احدها) قوله من انفسكم يعنى ضرب لكم مثلا من انفسكم مع حقارتها ونقصانها وعجزها وقاس نفسه عليكم مع عظمها وكمالها وقدرتها (وثانيها) قوله مما ملكت ايمانكم يعنى عبيدكم لكم عليهم ملك اليد وهو طار قابل للنقل والزوال اما النقل فبالبيع وغيره والزوال بالعتق ومملوك الله لا خروج له من ملك الله بوجه من الوجوه فاذا لم يجز ان يكون مملوك يمينكم شريكا لكم مع انه يجوز ان يصير مثلكم من جميع الوجوه بل هو فى الحال مثلكم فى الآدمية حتى انكم ليس لكم تصرف فى روحه وآدميته بقتل وقطع وليس لكم منعهم من العبادة وقضاء الحاجة فكيف يجوز ان يكون مملوك الله الذى هو مملوكه من جميع الوجوه شريكا له (وثالثها) قوله من شركاء فيما رزقناكم يعنى الذى لكم هو فى الحقيقة ليس لكم بل هو من الله ومن رزقه والذى من الله فهو فى الحقيقة له فاذا لم يجز ان يكون لكم شريك فى مالكم من حيث الاسم فكيف يجوز ان يكون له شريك فيماله من حيث الحقيقة وقوله فأنتم فيه سواء اى هل أنتم ومماليككم فى شئ مما تملكون سواء ليس كذلك فلا يكون لله شريك فى شئ مما يملكه لكن كل شئ فهو لله فاتدعون الهيته لا يملك شيئا اصلا ولا مثقال ذرة من خردل فلا يعبد لعظمته ولا لمنفعة تصل اليكم منه واما قولكم هؤلاء شفعاؤنا فليس كذلك لان المملوك هل له عندكم حرمة كحرمة الاحرار واذا لم يكن للمملوك مع مساواته اياكم فى الحقيقة والصفة عندكم حرمة فكيف يكون حال المماليك الذين لا مساواة بينهم وبين المالك بوجه من الوجوه والى هذا اشار بقوله تخافونهم كخيفتكم انفسكم (المسئلة الثانية) بهذا نفى جميع وجوه حسن العبادة عن الغير لان الاغيار اذا لم يصلحوا للشركة فليس لهم ملك ولا ملك فلا عظمة لهم حتى يعبدوا لعظمتهم ولا يرتجى منهم منفعة لعدم ملكهم حتى يعبدوا لنفع وليس لهم قوة وقدرة لانهم عبيد والعبد المملوك لا يقدر على شئ فلا تخافوهم كما تخافون انفسكم فكيف تخافونهم خوفا اكثر من خوفكم بعضا من بعض حتى تعبدوهم للخوف ثم قال تعالى كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون اى نبينها بالدلائل والبراهين القطعية والامثلة والحكايات الاقناعية لقوم يعقلون يعنى لا يخفى الامر بعد ذلك الا على من لا يكون له عقل ٭ ثم قال تعالى (بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدى من اضل الله ومالهم من ناصرين) اى لا يجوز ان يشرك بالمالك مملوكه ولكن الذين اشركوا اتبعوا اهواءهم من غير علم واتخذوا شركاء من غير دليل ثم بين ان ذلك بارادة الله بقوله فمن يهدى من أضل الله اى هؤلاء

(اضلهم)

قال الراوى فسألت ابا الدرداء رضى الله عنه بم يتغنين قال بالتسبيح وروى ان فى الجنة لاشجارا عليها اجراس من فضة فاذا اراد اهل الجنة السماع بعث الله تعالى ريحا من تحت العرش فتقع فى تلك الاشجار فتحرك تلك (٧١٤) الاجراس بأصوات لو سمعها اهل الدنيا لماتوا طربا (واما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا) التى من جملتها هذه الآيات الناطقة بما فصل (ولقاء الآخرة) صرح بذلك مع اندراجه فى تكذيب الآيات للاعتناء بأمره وقوله تعالى (فاولئك) اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة من الكفر والتكذيب بآياته تعالى وبلقاء الآخرة للايذان بكمال تميزهم بذلك عن غيرهم وانتظامهم فى سلك المشاهدات وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للاشعار ببعد منزلتهم فى الشر اى اولئك الموصوفون بما فصل من القبائح (فى العذاب محضرون) على الدوام لا يغيبون عنه ابدا (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والارض وعشيا وحين تظهرون) اثر ما بين حال فريقى المؤمنين العاملين للصالحات والكافرين المكذبين بالآيات ومآلهما من الثواب والعذاب امروا بما ينجى من الثانى ويفضى الى الاول من تنزيه الله عز وجل عن كل ما لا يليق بشأنه سبحانه ومن حمده تعالى على نعمه العظام وتقديم الاول على الثانى لما ان التخلية متقدمة على التحلية والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها اى اذا علمتم ذلك فسبحوا الله تعالى اى نزهوه عما ذكر سبحانه اى تسبيحه اللائق به فى هذه الاوقات واحمدوه فان الاخبار بثبوت الحمد له تعالى ووجوبه على المميزين من اهل السموات والارض فى معنى الامر به على ابلغ وجه وآكده وتوسيطه بين اوقات التسبيح للاعتناء بشأنه والاشعار بأن حقهما ان يجمع بينهما كما ينبئ عنه قوله تعالى ونحن نسبح بحمدك وقوله تعالى فسبح بحمد ربك وقوله صلى الله

أضلهم الله فلاهادى لهم فينبغى ان لايحزنك قولهم (وههنا لطيفة) وهى ان قوله فن يهدى من اضل الله مقولنا تقدم وذلك لانه لما قال لان الله لاشريك له بوجه ما ثم قال تعالى بل المشركون يشركون من غير علم يقال فيه انت أثبت لهم تصرفا على خلاف رضاه والسيد العزيز هو الذى لايقدر عبده على تصرف يخالف رضاه فقال ان ذلك ليس باستقلاله بل بارادة الله ومالهم من ناصرين لما تركوا الله تركهم الله ومن أخذوه لايغنى عنهم شيئا فلاناصر لهم ❁ ثم قال تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله) اى اذا تبين الامر وظهرت الوحدانية ولم يهتد المشرك فلا تلتفت انت اليهم وأقم وجهك للدين وقوله فأقم وجهك للدين اى أقبل بكلك على الدين عبر عن الذات بالوجه كما قال تعالى كل شئ هالك الا وجهه اى ذاته بصفاته وقوله حنيفا اى مائلا عن كل ماعداه اى أقبل على الدين ومل عن كل شئ اى لايكون فى قلبك شئ آخر فتعود اليه وهذا قريب من معنى قوله ولاتكونوا من المشركين ثم قال تعالى فطرت الله اى الزم فطرة الله وهى التوحيد فان الله فطر الناس عليه حيث أخذهم من ظهر آدم وسألهم ألست بربكم فقالوا بلى وقوله تعالى لاتبديل لخلق الله فيه وجوه قال بعض المفسرين هذه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم عن الحزن حيث لم يؤمن قومه فقال هم خلقوا للشقاوة ومن كتب شقيا لايسعد وقيل لاتبديل لخلق الله اى الوحدانية مترسخة فيهم لاتغير لها حتى ان سألتهم من خلق السموات والارض يقولون الله لكن الايمان الفطرى غير كاف ويحتمل ان يقال خلق الله الخلق لعبادته وهم كلهم عبيده لاتبديل لخلق الله اى ليس كونهم عبيدا مثل كون المملوك عبدا للانسان فانه ينتقل عنه الى غيره ويخرج عن ملكه بالعتق بل لاخروج للخلق عن العبادة والعبودية وهذا لبيان فساد قول من يقول العبادة لتحصيل الكمال والعبد يكمل بالعبادة فلايبقى عليه تكليف وقول المشركين ان الناقص لايصلح لعبادة الله وانما الانسان عبد الكواكب والكواكب عبيد الله وقول النصارى ان عيسى كان يحل الله فيه وصار الها فقال لاتبديل لخلق الله بل كلهم عبيد لاخروج لهم عن ذلك ❁ ثم قال تعالى (ذلك الدين القيم) الذى لاعوج فيه (ولكن اكثر الناس لايعلمون) ان ذلك هو الدين المستقيم ❁ ثم قال تعالى (منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولاتكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون) لما قال حنيفا اى مائلا عن غيره قال منيبين اليه اى مقبلين عليه والخطاب فى قوله فأقم وجهك مع النبى والمراد جميع المؤمنين وقوله واتقوه يعنى اذا أقبلتم عليه وتركتم الدنيا فلاتأمنوا فتتركوا عبادته بل خافوه وداوموا على العبادة وأقيموا الصلاة اى كونوا عابدين عند حصول القربة كما كنتم قبل ذلك ثم انه تعالى قال ولاتكونوا من المشركين قال المفسرون يعنى ولاتشركوا بعد الايمان اى ولاتقصدوا بذلك غير الله (وههنا وجه آخر) وهو ان الله بقوله منيبين أثبت التوحيد الذى هو مخرج عن الاشراك

عليه وسلم من قال حين يصبح وحين يمسى سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت خطاياه وان كانت مثل زبد البحر وقوله عليه الصلاة والسلام من قال حين يصبح وحين يمسى سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت احد يوم القيامة بافضل مما جاء به الا احد قال مثل ماقال اوزاد عليه وقوله عليه الصلاة والسلام كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وغير ذلك مما لايحصى من الآيات والاحاديث وتخصيصهما بتلك الاوقات للدلالة على ان مايحدث فيها من آيات قدرته واحكام رحمته ونعمته شواهد ناطقة بتنزهه تعالى واستحقاقه الحمد وموجبة لتسبيحه وتحميده حتما وقوله تعالى وعشيا عطف على حين تمسون وتقديمه على حين تظهرون لمراعاة الفواصل وتغيير الاسلوب لانه لايجيء منه الفعل بمعنى الدخول فى العشى كالمساء والصباح والظهيرة ولعل السر فى ذلك انه ليس من الاوقات التى تختلف فيها احوال الناس وتتغير تغير ظاهرا مصححا لوصفهم بالخروج عما قبلها والدخول فيها كالاوقات المذكورة فان كلا منها وقت تتغير فيه الاحوال تغيرا ظاهرا اما فى المساء والصباح فظاهر واما فى الظهيرة فلانها وقت يعتاد فيه التجرد عن الثياب للقيلولة كما مر فى سورة النور وقيل المراد بالتسبيح والحمد الصلاة لاشتمالها عليهما وقد روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان الآية جامعة للصلوات الخمس تمسون صلاة المغرب والعشاء وتصبحون صلاة الفجر وعشيا صلاة العصر وتظهرون صلاة الظهر ولذلك ذهب الحسن الى انها مدنية اذ كان يقول ان الواجب بمكة ركعتان فى اى وقت اتفقتا وانما فرضت الخمس بالمدينة والجمهور على انها فرضت بمكة وهو الحق لحديث المعراج وفى آخره هن خمس صلوات كل يوم وليلة ❊ عن النبى صلى الله عليه وسلم من سره ان يكال له بالقفيز الاوفى فليقل فسبحان الله حين تمسون وحين

تصبحون الآية وعنه عليه الصلاة والسلام من قال حين يصبح فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون الى قوله تعالى وكذلك تخرجون ادرك ما فاته فى يومه ومن قالها حين يمسى ادرك مافاته (٧١٦) فى ليلته وقرئ حينا تمسون وحينا تصبحون اى تمسون فيه وتصبحون فيه (يخرج الحى من الميت) كالانسان من النطفة والطير من البيضة (ويخرج الميت من الحى) النطفة والبيضة من الحيوان (ويحيى الارض) بالنبات (بعد موتها) يبسها (وكذلك) ومثل ذلك الاخراج (تخرجون) من قبوركم وقرئ تخرجون بفتح التاء وضم الراء وهذا نوع تفصيل لقوله تعالى الله يبدأ الخلق ثم يعيده (ومن آياته) الباهرة الدالة على انكم تبعثون دلالة اوضح مما سبق فان دلالة بدء خلقهم على اعادتهم اظهر من دلالة اخراج الحى من الميت واخراج الميت من الحى ومن دلالة احياء الارض بعد موتها عليها (ان خلقكم) اى فى ضمن خلق آدم عليه السلام لما مر مرارا من ان خلقه عليه الصلاة والسلام منطو على خلق ذرياته انطواء اجماليا (من تراب) لم يشم رائحة الحياة قط ولا مناسبة بينه وبين ما انتم عليه فى ذاتكم وصفاتكم (ثم اذا انتم بشر تنتشرون) اى فاجأتم بعد ذلك وقت كونكم بشرا تنتشرون فى الارض وهذا مجمل ما فصل فى قوله تعالى يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة الآية (ومن آياته) الدالة على ما ذكر من البعث وما بعده من الجزاء (ان خلق لكم) اى لاجلكم (من انفسكم ازواجا) فان خلق اصل ازواجكم حواء من ضلع آدم عليه السلام متضمن خلقهن من انفسكم على ماعرفته من التحقيق اومن جنسكم لامن جنس آخر وهو الاوفق لقوله تعالى (لتسكنوا اليها) اى لتألفوها وتميلوا اليها وتطمئنوا بها فان المجانسة من دواعى التضام والتعارف كما ان المخالفة من

الشاهر وبقوله ولاتكونوا من المشركين أراد اخراج العبد عن الشرك الخفى اى لاتقصدوا بعملكم الاوجه الله ولاتطلبوا به الارضا الله فان الدنيا والآخرة تحصل وان لم تطلبوها اذا حصل رضا الله وعلى هذا فقوله من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا يعنى لم يجتمعوا على الاسلام وذهب كل احد الى مذهب ويحتمل ان يقال وكانوا شيعا يعنى بعضهم عبد الله للدنيا وبعضهم للجنة وبعضهم للخلاص من النار وكل واحد بما فى نظره فرح واما المخلص فلا يفرح بما يكون لديه وانما يكون فرحه بان يحصل عند الله ويقف بين يديه وذلك لان كل ما لدينا نافد لقوله تعالى ما عندكم ينفد وما عند الله باق فلا مطلوب لكم فيما لديكم حتى تفرحوا به وانما المطلوب ما لدى الله وبه الفرح كما قال تعالى بل احياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله جعلهم فرحين بكونهم عند ربهم وبكون ما أوتوا من فضله الذى لانفاد له ولذلك قال تعالى قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا لابما عندهم فان كل ما عند العبد فهو نافد اما فى الدنيا فظاهر واما فى الآخرة فلأن ما وصل الى العبد من الالتذاذ بالمأكول والمشروب فهو يزول ولكن الله يجدد له مثله الى الأبد من فضله الذى لانفاد له فالذى لانفاد له هو فضله ❊ ثم قال تعالى (واذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين اليه ثم اذا أذاقهم منه رحمة اذا فريق منهم بربهم يشركون) لما بين التوحيد بالدليل وبالمثل بين ان لهم حالة يعرفونها وان كانوا ينكرونها فى وقت وهى حالة الشدة فان عند انقطاع رجائه عن الكل يرجع الى الله ويجد نفسه محتاجة الى شئ ليس كهذه الاشياء طالبة به النجاة ثم اذا أذاقهم منه رحمة اذا فريق منهم بربهم يشركون يعنى اذا خلصناه يشرك بربه ويقول تخلصت بسبب اتصال الكوكب الفلانى بفلان وبسبب الصنم الفلانى لابل ينبغى ان لايعتقد انه تخلص بسبب فلان اذا كان ظاهرا فانه شرك خفى مثاله رجل فى بحر أدركه الغرق فيرى الله لوحا يسوقه اليه الريح فيتعلق به وينجو فيقول تخلصت بلوح او رجل أقبل عليه سبع فيرسل الله اليه رجلا فيعينه فيقول خلصنى زيد فهذا اذا كان عن اعتقاد فهو شرك خفى وان كان بمعنى ان الله خلصنى على يد زيد فهو أخفى وفيه مسائل (الاولى) قوله تعالى أذاقهم (فيه لطيفة) وذلك لان الذوق يقال فى القليل فان فى العرف من أكل مأكولا كثيرا لايقول ذقت ويقال فى النفى ماذقت فى بيته طعاما نفيا للقليل ليلزم نفى الكثير بالاولى ثم ان تلك الرحمة لما كانت خالية منقطعة ولم تكن مستمرة فى الآخرة اذاقهم فى الآخرة عذاب قال أذاقهم ولهذا قال فى العذاب ذوقوا مس سقر ذوقوا ما كنتم تعملون ذق انك أنت العزيز الكريم لان عذاب الله الواصل الى العبد بالنسبة الى الرحمة الواصلة الى عبيد آخرين فى غاية القلة (المسئلة الثانية) قوله تعالى منه اى من الضر فى هذا التخصيص ما ذكرنا من الفائدة وهى ان الرحمة غير مطلقة لهم انما هى عن ذلك الضر وحده واما الضر المؤخر فلا يذوقون منه رحمة (المسئلة الثالثة) قال ههنا اذا فريق منهم وقال فى العنكبوت فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون ولم يقل

(فريق)

فريق وذلك لان المذكور هناك ضر معين وهو مايكون من هول البحر والمتخلص منه بالنسبة الى الخلق قليل والذى لايشرك به بعد الخلاص فرقة منهم فى غاية القلة فلم يجعل المشركين فريقا لقلة من خرج من المشركين واما المذكور ههنا الضر مطلقا فيتناول ضر البر والبحر والامراض والاهوال والمتخلص من انواع الضر خلق كثير بل جميع الناس يكونون قد وقعوا فى ضر ما وتخلصوا منه والذى لايبقى بعد الخلاص مشركا من جميع الانواع اذا جمع فهو خلق عظيم وهو جميع المسلمين فانهم تخلصوا من ضر ولم يبقوا مشركين واما المسلمون فلم يتخلصوا من ضر البحر باجمعهم فلما كان الناجى من الضر من المؤمنين جمعا كثيرا جعل الباقى فريقا ۞ ثم قال تعالى (ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون) قد تقدم تفسيره فى العنكبوت بقى بيان فائدة الخطاب ههنا فى قوله فتمتعوا وعدمه هناك فى قوله وليتمتعوا فسوف يعلمون فنقول لما كان الضر المذكور هناك ضرا واحدا جاز ان لايكون فى ذلك الموضع من المخلصين من ذلك الضر احد فلم يخاطب ولما كان المذكور ههنا مطلق الضر ولايخلو موضع من المخلصين عن الضر فالحاضر يصح خطابه بانه منهم فخاطب ۞ ثم قال تعالى (ام انزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون) لما سبق قوله تعالى بل اتبع الذين ظلموا اهواءهم اى المشركون يقولون مالا علم لهم به بل هم عالمون بخلافه فانهم وقت الضر يرجعون الى الله حقق ذلك بالاستفهام بمعنى الانكار اى ماانزلنا بما يقولون سلطانا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ام للاستفهام ولايقع الامتوسطا كما قال قائلهم

ايا ظبية الوعساء بين جلاجل • وبين النقا آانت ام ام سالم

فالاستفهام الذى قبله فنقول تقديره اذا ظهرت هذه الحجج على عنادهم فماذا نقول اهم يتبعون الاهواء من غير علم ام لهم دليل على مايقولون وليس الثانى فتعين الاول (المسئلة الثانية) قوله فهو يتكلم مجاز كما يقال ان كتابه لينطق بكذا (وفيه معنى لطيف) وهو ان المتكلم من غير دليل كأنه لاكلام له لان الكلام هو المسموع ومالايقبل فكأنه لم يسمع فكأن المتكلم لم يتكلم به ومالادليل عليه لايقبل فاذا جاز سلب الكلام عن المتكلم عند عدم الدليل وحسن جاز اثبات التكلم للدليل وحسن ۞ ثم قال تعالى (واذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها) لما بين حال المشرك الظاهر شركه بين حال المشرك الذى دونه وهو من تكون عبادته الله للدنيا فاذا آتاه رضى واذا منعه سخط وقنط ولاينبغى ان يكون العبد كذلك بل ينبغى ان يعبد الله فى الشدة والرخاء فمن الناس من يعبد الله فى الشدة كما قال تعالى واذا مس الناس ضر دعوا ربهم ومن الناس من يعبده اذا آتاه نعمة كما قال تعالى واذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها والاول كالذى يخدم مكرها مخافة العذاب والثانى كالذى يخدم اجيرا لتوقع الاجر وكلاهما لايكون من المثبتين فى ديوان المرتبين فى الجرائد الذين يأخذون رزقهم سواء كان هناك شغل اولم يكن فكذلك القسمان لايكونان من

اسباب التفرق والتنافر (وجعل بينكم) اى بين الازواج اما على تغليب الرجال على النساء فى الخطاب او على حذف ظرف معطوف على الظرف المذكور اى جعل بينكم وبينهن كما فى قوله تعالى لانفرق بين احد من رسله وقيل او بين افراد الجنس اى بين الرجال والنساء ويأباه قوله قوله تعالى (مودة ورحمة) فان المراد بهما ما كان منهما بعصمة الزواج قطعا اى جعل بينكم الزواج الذى شرعه لكم توادا وتراحما من غير ان يكون بينكم سابقة معرفة ولارابطة مصححة للتعاطف من قرابة اورحم قيل المودة والرحمة من قبل الله تعالى والفرك من الشيطان وعن الحسن رحمه الله المودة كناية عن الجماع والرحمة عن الولد كما قال تعالى ورحمة منا (ان فى ذلك) اى فيما ذكر من خلقهم من تراب وخلق ازواجهم من انفسهم والقاء المودة والرحمة بينهم ومافيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للاشعار ببعد منزلته (لآيات) عظيمة لايكتنه كنهها كثيرة لايقادر قدرها (لقوم يتفكرون) فى تضاعيف تلك الافاعيل المبنية المبنية على الحكم البالغة والجملة تذييل مقرر لمضمون ماقبله مع التنبيه على ان ماذكر ليس بآية فذة كما ينبئ عنه قوله تعالى ومن آياته بل هى مشتملة على آيات شتى (ومن آياته) الدالة على ماذكر من امر البعث ومايتلوه من الجزاء (خلق السموات والارض) اما من حيث ان القادر على خلقهما بما فيهما من المخلوقات بلامادة مستعدة لها اظهر قدرة على اعادة ما كان حيا قبل ذلك واما من حيث ان خلقهما ومافيهما ليس الا لمعاش البشر ومعاده كما يفصح عنه قوله تعالى هو الذى خلق لكم مافى الارض جميعا وقوله تعالى وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة ايام وكان عرشه على الماء ليبلوكم ايكم احسن عملا (واختلاف السنتكم) اى لغاتكم بان علم كل صنف لغته والهمه وضعها واقدره عليها اواجناس

المؤمنين الذين لهم رزق عند ربهم (وفيه مسئلة) وهى ان قوله تعالى فرحوا بها اشارة الى دنو همتهم وقصور نظرهم فان فرحهم يكون بما وصل اليهم لا بمن وصل منه اليهم فان قال قائل) الفرح بالرحمة مأمور به فى قوله تعالى قل بفضل الله وبرحمته فبذلك (فليفرحوا وههنا ذمهم على الفرح بالرحمة فكيف ذلك (فنقول) هناك قال فرحوا برحمة الله من حيث انها مضافة الى الله تعالى وههنا فرحوا بنفس الرحمة حتى لو كان المطر من غير الله لكان فرحهم به مثل فرحهم بما اذا كان من الله وهو كما ان الملك لو حط عند امير رغيفا على السماط اوأمر الغلمان بأن يحطوا عنده زبدية طعام يفرح ذلك الامير به ولو اعطى الملك فقيرا غير ملتفت اليه رغيفا او زبدية طعام ايضا يفرح لكن فرح الامير بكون ذلك من الملك وفرح الفقير بكون ذلك رغيفا وزبدية ثم قال تعالى وان تصبهم سيئة بما قدمت ايديهم لم يذكر عند النعمة سببا لها لتفضله بها وذكر عند العذاب سببا لان الاول يزيد فى الاحسان والثانى يحقق العدل * قوله اذا هم يقنطون اذا للمفاجأة اى لا يصبرون على ذلك قليلا لعل الله يفرج عنهم وانه يذكرهم به * ثم قال تعالى (أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) اى لم يعلموا ان الكل من الله فالمحقق ينبغى ان لا يكون نظره على ما يوجد بل الى من يوجد وهو الله فلا يكون له تبدل حال وانما يكون عنده الفرح الدائم ولكن ذلك مرتبة المؤمن الموحد المحقق ولذلك قال ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون * ثم قال تعالى (فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله واولئك هم المفلحون) وجه تعلق الآية بما قبلها هو ان الله تعالى لما بين ان العبادة لا ينبغى ان تكون مقصورة على حالة الشدة بقوله واذا مس الناس ضر دعوا ربهم ولا ان تكون مقصورة على حالة اخذ شئ من الدنيا كما هو عادة المذكور المتسلس يعبد الله اذا كان فى الخوانق والرباطات للرغيف والزبدية واذا خلا بنفسه لا يذكر الله بقوله واذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وبين انه ينبغى ان يكون فى حالة بسط الرزق وقدره عليه نظره على الله الخالق الرازق ليحصل الارشاد الى تعظيم الله والايمان فيهمان تعظيم لأمر الله وشفقة على خلق الله فقال بعد ذلك فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل (وفيه وجه آخر) هو ان الله تعالى لما بين ان الله يبسط الرزق ويقدر فلا ينبغى ان يتوقف الانسان فى الاحسان فان الله اذا بسط الرزق لا ينقص بالانفاق واذا قدر لا يزداد بالامساك وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى تخصيص الاقسام الثلاثة بالذكر دون غيرهم مع ان الله ذكر الاصناف الثمانية فى الصدقات فنقول اراد ههنا بيان من يجب الاحسان اليه على كل من له مال سواء كان زكويا ولم يكن وسواء كان بعد الحول او قبله لان المقصود ههنا الشفقة العامة وهؤلاء الثلاثة يجب الاحسان اليهم وان لم يكن للمحسن مال زائد اما القريب فتجب نفقته وان كان لم تجب عليه زكاة كعقار او مال لم يحل عليه الحول والمسكين كذلك فان من لا شئ له اذا بقى فى ورطة الحاجة حتى

نظركم واشكاله فانك لا تكاد تسمع منطقين متساويين فى الكيفية من كل وجه (والوانكم) ببياض الجلد وسواده وتوسطه فيما بينهما او تخطيطات الاعضاء وهيأتها والوانها وحلاها بحيث وقع (٧١٨) بها التمايز بين الاشخاص حتى ان التوأمين مع توافق موادهما واسبابهما والامور الملاقية لهما فى التخليق يختلفان فى شئ من ذلك لا محالة وان كانا فى غاية التشابه وانما نظم هذا فى سلك الآيات الآفاقية من خلق السموات والارض مع كونه من الآيات الانفسية المختصة بالانتظام فى سلك ما سبق من خلق انفسهم وازواجهم للايذان باستقلاله والاحتراز عن توهم كونه من تتمات خلقهم (ان فى ذلك) اى فيما ذكر من خلق السموات والارض واختلاف الالسنة والالوان (لآيات) عظيمة فى انفسها كثيرة فى عددها (للعالمين) اى المتصفين بالعلم كما فى قوله تعالى وما يعقلها الا العالمون وقرئ بفتح اللام وفيه دلالة على كمال وضوح الآيات وعدم خفائها على احد من الخلق كافة (ومن آياته منامكم بالليل والنهار) لاستراحة القوى النفسانية وتقوى القوى الطبيعية (وابتغاؤكم من فضله) فيهما فان كلا من المنام وابتغاء الفضل يقع فى الوقتين وان كان الاغلب وقوع الاول فى الاول والثانى فى الثانى او منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار كما هو المعتاد والموافق لسائر الآيات الواردة فى ذلك خلا انه فصل بين القرينين الاولين بالقرينين الاخيرين لانهما زمان والزمان مع ما وقع فيه كشئ واحد مع اعانة اللف على الاتحاد (ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) اى شأنهم ان يسمعوا الكلام سماع تفهم واستبصار حيث يتأملون فى تضاعيف هذا البيان ويستدلون بذلك على شؤونه تعالى (ومن آياته يريكم البرق) الفعل اما منزل منزلة المصدر كما فى قول من قال * الا ايهذا الزاجرى احضر الوغى * اى ان احضر او مؤول منزلة المصدر

بلغ الشدة يجب على من له مقدرة دفع حاجته وان لم يكن عليه زكاة وكذلك من انقطع
فى مفازة ومع آخر دابة يمكنه بها ايصاله الى مأمن يلزمه ذلك وان لم تكن عليه زكاة
والفقير داخل فى المسكين لان من اوصى للمساكين شيئا يصرف الى الفقراء ايضا
واذا نظرت الى الباقين من الاصناف رأيتهم لا يجب صرف المال اليهم الا على الذين
وجبت الزكاة عليهم واعتبر ذلك فى العامل والمكاتب والمؤلفة والمديون ثم اعلم ان على
مذهب ابى حنيفة رحمه الله حيث قال المسكين من له شئ ماذا نقول وان كان الامر كذلك
لكن لا نزاع فى ان اطلاق المسكين على من لا شئ له جائز فيكون الاطلاق ههنا بذلك الوجه
والفقير يدخل فى ذلك بالطريق الاولى (المسئلة الثانية) فى تقدم البعض على البعض
فنقول لما كان دفع حاجة القريب واجبا سواء كان فى شدة ومخمصة او لم يكن كان مقدما
على من لا يجب دفع حاجته من غير مال الزكاة الا اذا كان فى شدة ولما كان المسكين حاجته
ليست مختصة بموضع كان مقدما على من حاجته مختصة بموضع دون موضع (المسئلة
الثالثة) ذكر الاقارب فى جميع المواضع بهذا اللفظ وهو ذو القربى ولم يذكر المسكين بلفظ
ذا المسكنة وذلك لان القرابة لا تتجدد فهى شئ ثابت وذو كذا لا يقال الا فى الثابت فان
من صدر منه رأى صائب مرة او حصل له جاه يوما واحدا او وجد منه فضل فى وقت
لا يقال ذو رأى وذو جاه وذو فضل واذا دام ذلك له او وجد منه ذلك كثيرا يقال له ذو الرأى
وذو الفضل فقال ذا القربى اشارة الى ان هذا حق متأكد ثابت واما المسكنة فتطرأ
وتزول ولهذا المعنى قال مسكينا ذا متربة فان المسكين يدوم له كونه ذا متربة مادامت
مسكنته او يكون كذلك فى اكثر الامر (المسئلة الرابعة) قال فآت ذا القربى حقه ثم
عطف المسكين وابن السبيل ولم يقل فآت ذا القربى والمسكين وابن السبيل حقهم لان
العبارة الثانية لكون صدور الكلام اولا للتشريك والاولى لكون التشريك واردا
على الكلام كأنه يقول اعط ذا القربى حقه ثم يذكر المسكين وابن السبيل بالتبعية
ولهذا المعنى اذا قال الملك خل فلانا يدخل وفلانا ايضا يكون فى التعظيم فوق ما اذا قال
خل فلانا وفلانا يدخلان والى هذا اشار النبى عليه الصلاة والسلام بقوله بئس خطيب
القوم انت حيث قال الرجل من اطاع الله ورسوله فقد اهتدى ومن عصاهما فقد غوى
ولم يقل ومن عصى الله ورسوله (المسئلة الخامسة) قوله ذلك خير يمكن ان يكون معناه
ذلك خير من غيره ويمكن ان يقال ذلك خير فى نفسه وان لم يقس الى غيره لقوله تعالى
وافعلوا الخير فاستبقوا الخيرات والثانى اولى لعدم احتياجه الى اضمار ولكونه اكثر
فائدة لان الخير من الغير قد يكون نازل الدرجة عند نزول درجة ما يقاس اليه كما يقال
السكوت خير من الكذب وما هو خير فى نفسه فهو حسن ينفع وفعل صالح يرفع (المسئلة
السادسة) قوله تعالى للذين يريدون وجه الله اشارة الى ان الاعتبار بالقصد لا بنفس
الفعل فان من انفق جميع امواله رياء الناس لا ينال درجة من يتصدق برغيف لله وقوله

ويه فسر المثل المشهور تسمع بالمعيدى خير من ان تراه او هو على حاله صفة لمحذوف اى آية يريكم بها البرق كقول من قال
وما الدهر الا تارتان فمنهما * اموت واخرى ابتغى العيش اكدح * اى فمنهما تارة اموت فيها واخرى ابتغى فيها او ومن آياته شئ او سحاب يريكم البرق (خوفا) من الصاعقة او للمسافر (وطمعا) فى الغيث او للمقيم ونصبهما على العلة لفعل يستلزمه المذكور فان اراءتهم البرق مستلزمة لرؤيتهم اياه او للمذكور نفسه على تقدير مضاف نحو اراءة خوف وطمع او على تأويل الخوف والطمع بالاخافة والاطماع كقولك فعلته رغما للشيطان او على الحال نحو كلمته شفاها (وينزل من السماء ماء) وقرئ بالتخفيف (فيحيى به الارض) بالنبات (بعد موتها) يبسها (ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) فانها من الظهور بحيث يكفى فى ادراكها مجرد العقل عند استعماله فى استنباط اسبابها وكيفية تكونها (ومن آياته ان تقوم السماء والارض بامره) اى بارادته تعالى لقيامهما والتعبير عنها بالامر للدلالة على كمال القدرة والغنى عن المبادى والاسباب وليس المراد باقامتهما انشاؤهما لانه قد بين حاله بقوله تعالى ومن آياته خلق السموات والارض ولا اقامتهما بغير مقيم محسوس كما قيل فان ذلك من تمات انشائهما وان لم يصرح به تعويلا على ما ذكر فى غير موضع من قوله تعالى خلق السموات بغير عمد ترونها الآية بل قيامهما واستمرارهما على ما هما عليه الى اجلهما الذى نطق به قوله تعالى ثم الاية ما خلق الله السموات والارض وما بينهما الا بالحق واجل مسمى وحيث كانت
هذه الآية متأخرة عن سائر الآيات المعدودة متصلة بالبعث فى الوجود اخرت عنهن وجعلت متصلة به فى الذكر

وجه الله اى يكون عطاؤه لله لا غير فمن اعطى الجنة لم يرد به وجه الله وانما أراد مخلوق الله
(المسئلة السابعة) كيف قال وأولئك هم المفلحون مع ان للافلاح شرائط اخر وهى
المذكورة فى قوله تعالى قد افلح المؤمنون فنقول كل وصف مذكور هناك يفيد الافلاح فقوله
والذين هم للزكاة فاعلون وقوله والذين هم لامانأتهم وعهدهم راعون الى غير ذلك عطف
على المفلح اى هذا مفلح وذاك مفلح وذلك الآخر مفلح لا يقال لا يحصل الافلاح لمن يتصدق
ولا يصلى فنقول هذا كقول القائل العالم مكرم اى نظرا الى علمه ثم اذا احد فى الزنا على
سبيل النكال وقطعت يده فى السرقة لا يبطل ذلك القول حتى يقول القائل انما كان ذلك
لانه اتى بالفسق فكذلك ايتاء المال لوجه الله يفيد الافلاح اللهم الا اذا وجد مانع من
ارتكاب محظور او ترك واجب (المسئلة الثامنة) لم يذكر غيره من الافعال كالصلاة
وغيرها فنقول الصلاة مذكورة من قبل لان الخطاب ههنا بقوله فآت مع النبى صلى الله
عليه وسلم وغيره تبع وقد قال له من قبل فأقم وجهك للدين حنيفا وقال منيبين اليه واتقوه
وأقيموا الصلاة (المسئلة التاسعة) قوله تعالى واولئك هم المفلحون يفهم منه الحصر
وقد قال فى اول سورة البقرة وأولئك هم المفلحون اشارة الى من اقام الصلاة وآتى
الزكاة وآمن بما انزل على رسوله وبما انزل من قبله وبالآخرة فلو كان المفلح منحصرا
فى أولئك المذكورين فى سورة البقرة فهذا خارج عنهم فكيف يكون مفلحا فنقول هذا
هو ذاك لانا بينا ان قوله فأقم وجهك للدين متصل بهذا الكلام فاذا أتى بالصلاة وآتى
المال وأراد وجه الله فقد ثبت انه مؤمن يقيم الصلاة مؤت للزكاة معترف بالآخرة فصار
مثل المذكور فى البقرة ❁ ثم قال تعالى (وما آتيتم من ربا ليربو فى اموال الناس فلا يربو عند
الله) ذكر هذا تحريضا يعنى انكم اذا طلب منكم واحد باثنين ترغبون فيه وتؤتونه وذلك
لا يربو عند الله والزكاة تنمو عند الله كما اخبر النبى عليه الصلاة والسلام ان الصدقة تقع
فى يد الرحمن فتربو حتى تصير مثل الجبل فينبغى ان يكون اقدامكم على الزكاة اكثر ❁ وقوله
تعالى (وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فاولئك هم المضعفون) اى اولئك
ذوو الاضعاف كالموسر لذى اليسار وأقل ذلك عشرة اضعاف كل مثل لما آتى فى كونه
حسنة لا فى المقدار فلا يفهم ان من اعطى رغيفا يعطيه الله عشرة ارغفة بل معناه
ان ما يقتضيه فعله من الثواب على وجه الرحمة يضاعفه الله عشر مرات على وجه
التفضل فبالرغيف الواحد يكون له قصر فى الجنة فيه من كل شىء ثوابا نظرا الى الرحمة
وعشر قصور مثله نظرا الى الفضل مثاله فى الشاهد ملك عظيم قبل من عبده هدية قيمتها
درهم لو عوضه بعشر دراهم لا يكون كرما بل اذا جرت عادته بأنه يعطى على مثل ذلك
القباء اذا اعطى له عشرة آلاف فقد ضاعف له الثواب ❁ ثم قال تعالى (الله الذى خلقكم) اى
وجدكم (ثم رزقكم) اى ابقاكم فان العرض مخلوق وليس بمبق (ثم يميتكم ثم يحييكم
هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء) جمع فى هذه الآية بين اثبات الاصلين

ايضا فقيل (ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا انتم تخرجون) فانه كلام مسوق للاخبار بوقوع البعث ووجوده بعد انقضاء
اجل قيامهما مترتب على تعداد
آياته الدالة عليه غير منتظم فى
سلكها كأنه قيل ومن
آياته قيام السموات والارض
على هيآتهما بأمره تعالى الى
اجل مسمى قدره الله تعالى
لقيامهما ثم اذا دعاكم اى بعد
انقضاء الاجل من الارض
وانتم فى قبوركم دعوة واحدة
بأن قال ايها الموتى اخرجوا
فاجأتم الخروج منها وذلك قوله
تعالى يومئذ يتبعون الداعى
ومن الارض متعلق بدعاكم
اذ يكفى فى ذلك كون المدعو فيها
يقال دعوته من اسفل الوادى
فطلع الى لا بتخرجون لان ما بعد
اذا لا يعمل فيما قبلها (وله) خاصة
(من فى السموات والارض)
من الملائكة والثقلين خلقا
وملكا وتصرفا ليس لغيره شركة
فى ذلك بوجه من الوجوه (كل له
قانتون) اى منقادون لفعله
لا يمتنعون عليه فى شأن من شؤنه
تعالى (وهو الذى يبدأ الخلق ثم
يعيده) بعد موتهم وتكريره
لزيادة التقرير والتمهيد لما بعده
من قوله تعالى (وهو اهون عليه)
اى بالاضافة الى قدركم والقياس
على اصولكم والا فهما عليه
سواء وقيل اهون بمعنى هين
وتذكير الضمير مع رجوعه الى
الاعادة لما انها مؤولة بأن يعيد
وقيل هو راجع الى الخلق وليس
بذاك وانما ماقيل من ان الانشاء
بطريق التفضل الذى يتخير فيه
الفاعل بين الفعل والترك والاعادة
من قبيل الواجب الذى لا بد
منه حتما فكان اقرب الى
الحصول من الانشاء المتردد
بين الحصول وعدمه فبمعزل
من التحصيل اذ ليس المراد بأهونية الفعل اقربيته الى الوجود باعتبار كثرة الامور الداعية للفاعل الى ايجاده وقوة اقتضائها لتعلق قدرته به (الحشر)

بل اسهلية ذاتية وصدوره عنه بعد تعلق قدرته بوجوده وكونه واجبا بالغير ولاتفاوت فى ذلك بين ان يكون ذلك التعلق بطريق الايجاب اوبطريق الاختيار (وله المثل الاعلى) اى الوصف (٧٢١) الاعلى العجيب الشان من القدرة العامة والحكمة التامة وسائر صفات الكمال التى ليس لغيره مايدانيها فضلا عما يساويها ومن فسره بقول لااله الاالله أراد به الوصف بالوحدانية (فى السموات والارض) متعلق بمضمون الجملة المتقدمة على معنى انه تعالى قد وصف به وعرف فيهما على ألسنة الخلائق وألسنة الدلائل وقيل متعلق بالاعلى وقيل بمحذوف هو حال منه اومن المثل اومن ضميره فى الاعلى (وهو العزيز) القادر الذى لايعجز عن بدء ممكن واعادته (الحكيم) الذى يجرى الافعال على سنن الحكمة والمصلحة (ضرب لكم مثلا) يتبين به بطلان الشرك (من انفسكم) اى منتزعا من احوالها التى هى اقرب الامور اليكم واعرفها عندكم واظهرها دلالة على ماذكر من بطلان الشرك لكونها بطريق الاولوية وقوله تعالى (هل لكم) الخ تصوير للمثل اى هل لكم (مما ملكت ايمانكم) من العبيد والاماء (من شركاء فيما رزقناكم) من الاموال ومايجرى مجراها مما تتصرفون فيها فمن الاولى ابتدائية والثانية تبعيضية والثالثة مزيدة لتأكيد النفى المستفاد من الاستفهام وقوله تعالى (فأنتم فيه سواء) تحقيق لمعنى الشركة وبيان لكونهم وشركائهم متساوين فى التصرف فيما ذكر من غير مزية لهم عليها على ان هناك محذوفا معطوفا على انتم لانه عام للفريقين بطريق التغليب اى هل ترضون لانفسكم والحال ان عبيدكم امثالكم فى البشرية واحكامها ان يشاركوكم فيما رزقناكم وهو مستعار لكم فأنتم وهم فيه سواء يتصرفون فيه كتصرفكم من غير فرق بينكم وبينهم (تخافونهم) خبر آخر

الحشر والتوحيد اما الحشر فبقوله ثم يحييكم والدليل قدرته على الخلق ابتداء واما التوحيد فبقوله هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شئ ۞ ثم قال تعالى (سبحانه وتعالى عما يشركون) فقوله سبحانه اى سبحوه تسبيحا اى نزهوه ولاتصفوه بالاشراك وقوله وتعالى اى لايجوز عليه ذلك وهذا لان من لايتصف بشئ قد يجوز عليه فاذا قال سبحوه اى لاتصفوه بالاشراك واذا قال وتعالى فكأنه قال ولايجوز عليه ذلك ۞ ثم انه تعالى قال (ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت ايدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون) وجه تعلق هذه الآية بما قبلها هو ان الشرك سبب الفساد كما قال تعالى لوكان فيهما آلهة الا الله لفسدتا واذا كان الشرك سببه جعل الله اظهارهم الشرك مورثا لظهور الفساد ولو فعل بهم مايقتضيه قولهم لفسدت السموات والارض كما قال تعالى تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا والى هذا اشار بقوله تعالى ليذيقهم بعض الذى عملوا واختلف الاقوال فى قوله فى البر والبحر فقال بعض المفسرين المراد خوف الطوفان فى البر والبحر وقال بعضهم عدم انبات بعض الاراضى وملوحة مياه البحار وقال آخرون المراد من البحر المدن فان العرب تسمى المدائن بحورا لكون مبنى عمارتها على الماء ويمكن ان يقال ان ظهور الفساد فى البحر قلة مياه العيون فانها من البحار واعلم ان كل فساد يكون فهو بسبب الشرك لكن الشرك قد يكون فى العمل دون القول والاعتقاد فيسمى فسقا وعصيانا وذلك لان المعصية فعل لايكون لله بل يكون للنفس فالفاسق مشرك بالله بفعله غاية مافى الباب ان الشرك بالفعل لايوجب الخلود لان اصل المرء قلبه ولسانه فاذا لم يوجد منهما الا التوحيد يزول الشرك البدنى بسببهما وقوله تعالى ليذيقهم بعض الذى عملوا قد ذكرنا ان ذلك ليس تمام جزائهم وكل موجب افترائهم وقوله لعلهم يرجعون يعنى كما يفعله المتوقع رجوعهم مع ان الله يعلم ان من اضله لايرجع لكن الناس يظنون انه لو فعل بهم شئ من ذلك لكان يوجد منهم الرجوع كما ان السيد اذا علم من عبده انه لايرتدع بالكلام فيقول القائل لماذا لاتؤدبه بالكلام فاذا قال لاينفع ربما يقع فى وهمه انه لايبعد عن نفع فاذا زجره ولم يرتدع يظهر له صدق كلام السيد ويطمئن قلبه ۞ ثم قال تعالى (قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل) لما بين حالهم بظهور الفساد فى احوالهم بسبب فساد اقوالهم بين لهم هلاك امثالهم واشكالهم الذين كانت افعالهم كافعالهم فقال تعالى قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل اى قوم نوح وعاد وثمود وهذا ترتيب فى غاية الحسن وذلك لانه فى وقت الامتنان والاحسان قال الله الذى خلقكم ثم رزقكم اى آتاكم الوجود ثم البقاء ووقت الخذلان بالطغيان قال تعالى ظهر الفساد فى البر والبحر اى قلل رزقكم ثم قال تعالى سيروا فى الارض اى هو اعدمكم كما اعدم من قبلكم فكأنه قال اعطاكم الوجود والبقاء ويسلب منكم الوجود والبقاء اما سلب البقاء فباظهار الفساد

وهم فيه سواء شرع يتصرفون

لانتم اوحال من ضمير الفاعل فى سواء اى تهابون ان تستبدوا بالتصرف فيها بدون رأيهم (كخيفتكم انفسكم) اى خيفة كائنة مثل خيفتكم من الاحرار المساهمين لكم فيما ذكر والمعنى نفى مضمون (٧٢٢) مافصل من الجملة الاستفهامية اى لاترضون بأن يشاركم فيما هو معار لكم مماليكم وهوامثالكم فى البشرية غير مخلوقة لكم بل لله تعالى فكيف تشركون به سبحانه فى المعبودية التى هى من خصائصه الذاتية مخلوقه بل مصنوع مخلوقه حيث تصنعونه بأيديكم ثم تعبدونه (كذلك) اى مثل ذلك التفصيل الواضح (نفصل الآيات) اى نبينها ونوضحها لاتفصيلا ادنى منه فان التمثيل تصوير للمعانى المعقولة بصورة المحسوس وابرازلاوابدالمدركات على هيئة المأنوس فيكون فى غاية الايضاح والبيان (لقوم يعقلون) اى يستعملون عقولهم فى تدبر الامور وتخصيصهم بالذكر مع عموم تفصيل الآيات للكل لانهم المنتفعون بها (بل اتبع الذين ظلموا) اعراض عن مخاطبتهم ومحاولة ارشادهم الى الحق بضرب المثل وتفصيل الآيات واستعمال المقدمات الحقة المعقولة وبيان لاستحالة تبعيتهم للحق كأنه قيل لم يعقلوا شيئا من الآيات المفصلة بل اتبعوا (اهواءهم) الزائغة ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بأنهم فى ذلك الاتباع ظالمون واضعون للشئ فى غير موضعه اوظالمون لانفسهم بتعريضها للعذاب الخالد (بغير علم) اى جاهلين ببطلان ما أتوا مكبين عليه لايلويهم عنه صارف حسبما يصرف العالم اذا اتبع الباطل علمه ببطلانه (فمن يهدى من أضل الله) اى خلق فيه الضلال بصرف اختياره الى كسبه اى لايقدر على هدايته احد (ومالهم) اى لمن اضله الله تعالى والجمع باعتبار المعنى (من ناصرين) يخلصونهم من الضلال ويحفظونهم من (بأسه)

واماسلب الوجود فبالاهلاك وعندالاعطاء قدم الوجود على البقاء لان الوجود اولا ثم البقاء وعندالسلب قدم البقاء وهو الاستمرار ثم الوجود ۞ وقوله تعالى (كان اكثرهم مشركين) يحتمل وجوها ثلاثة (احدها) ان الهلاك فى الاكثر كان بسبب الشرك الظاهر وان كان بغيره ايضا كالاهلاك بالفسق والمخالفة كما كان على اصحاب السبت (الثانى) ان كل كافر اهلك لم يكن مشركا بل منهم من كان معطلا نافيا لكنهم قليلون واكثر الكفار مشركون (الثالث) ان العذاب العاجل لم يختص بالمشركين حين أتى كما قال تعالى واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة بل كان على الصغار والمجانين ولكن اكثرهم كانوا مشركين ۞ ثم قال تعالى (فأقم وجهك للدين القيم) لمانهى الكافر عما هو عليه امر المؤمن بما هو عليه وخاطب النبى عليه السلام ليعلم المؤمن فضيلة ماهو مكلف به فانه امر به اشرف الانبياء وللمؤمنين فى التكليف مقام الانبياء كما قال عليه الصلاة والسلام ان الله امر عباده المؤمنين بما أمر به عباده المرسلين وقد ذكرنا معناه ۞ وقوله تعالى (من قبل ان نأتى يوم لامرد له من الله) يحتمل وجهين (الاول) ان يكون قوله من الله متعلقا بقوله يأتى (والثانى) ان يكون المراد لامرد له من الله اى الله لايرده وغيره عاجز عن رده فلابد من وقوعه (يومئذ يصدعون) اى يتفرقون ۞ ثم اشار الى التفرق بقوله (من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلانفسهم يمهدون) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال تعالى من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا ولم يقل ومن آمن وذلك لان العمل الصالح به يكمل الايمان فذكره تحريضا للمكلف عليه واما الكفر اذاجاء فلازنة للعمل معه (ووجه آخر) وهو ان الكفر قسمان (احدهما) فعل وهو الاشراك والقول به (والثانى) ترك وهو عدم النظر والايمان فالعاقل البالغ اذا كان فى مدينة الرسول ولم يأت بالايمان فهو كافر سواء قال بالشرك اولم يقل لكن الايمان لابدله من العمل الصالح فان الاعتقاد الحق عمل القلب وقول لا اله الا الله عمل اللسان وشئ منه لابدمنه (المسئلة الثانية) قال فعليه فوحد الكناية وقال فلانفسهم بجمعها اشارة الى ان الرحمة أعم من الغضب فتشمله واهله وذريته اما الغضب فمسبوق بالرحمة لازم لمن أساء (المسئلة الثالثة) قال فعليه كفره ولم يبين وقال فى المؤمن فلانفسهم يمهدون عقيقا لكمال الرحمة فانه عندالخير بين وفصل بشارة وعند غيره اشار اليه اشارة ۞ ثم قال تعالى (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله) ذكر زيادة تفصيل لما يمهده المؤمن لنفسه الخير وعمله الصالح وهو الجزاء الذى يجازيه به الله والملك اذا كان كبيرا كريما ووعد عبدا من عباده بأنى اجازيك يصل اليه منه اكثر مما يتوقعه ثم أكده بقوله من فضله يعنى انا المجازى فكيف يكون الجزاء ثم انى لااجازيك من العدل وانما اجازيك من الفضل فيزداد الرجاء ۞ ثم قال تعالى (انه لايحب الكافرين) اوعدهم بوعيد ولم يفصله لما بينا وان كان عندالمحقق هذا الاجمال فيه كالتفصيل فان عدم المحبة من الله غاية العذاب وافهم ذلك ممن يكون له معشوق فانه اذا اخبر العاشق

بأنه وعدك بالدراهم والدنانير كيف تكون مسرته واذا قيل له انه قال انى احبك فلاما كيف يكون سروره (وفيه لطيفة) وهى ان الله عندما اسند الكفر والايمان الى العبد قدم الكافر فقال من كفر فعليه كفره وعند ما اسند الجزاء الى نفسه قدم المؤمن فقال ليجزى الذين آمنوا ثم قال تعالى انه لا يحب الكافرين لان قوله من كفر فى الحقيقة لمنع الكافر عن الكفر بالوعيد ونهيه عن فعله بالتهديد وقوله من عمل صالحا لتحريض المؤمن فالنهى كالابعاد والتحريض للتقريب والابعاد مقدم عند الحكيم الرحيم واما عند ما ذكر الجزاء بدأ بالاحسان اظهارا للكرم والرحمة (فان قال قائل) هذا انما يصح أن لو كان الذكر فى كل موضع كذلك وليس كذلك فان الله فى كثير من المواضع قدم ايمان المؤمنين على كفر الكافر وقدم التعذيب على الاثابة (فنقول) ان كان الله يوفقنا لبيان ذلك نبين ما اقتضى تقديمه ونحن نقول بأن كل كلمة وردت فى القرآن فهى لمعنى وكل ترتيب وجد فهو لحكمة وما ذكر على خلافه لا يكون فى درجة ما ورد به القرآن فلنبين من جملته مثالا وهو قوله تعالى يومئذ يتفرقون فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة قدم المؤمن على الكافر وههنا ذكر مثل ذلك المعنى فى قوله يومئذ يصدعون اى يتفرقون فقدم الكافر على المؤمن فنقول هناك ايضا قدم الكافر فى الذكر لانه قال من قبل ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون فذكر الكافر وابلاسه ثم قال تعالى ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون فكان ذكر المؤمن وحده لابد منه ليبين كيفية التفرق بمجموع قوله يبلس المجرمون وقوله فى حق المؤمن فى روضة يحبرون لكن الله تعالى اعاد ذكر المجرمين مرة اخرى للتفصيل فقال واما الذين كفروا * ثم قال تعالى (ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات) لما ذكر ان ظهور الفساد والهلاك بسبب الشرك ذكر ظهور الصلاح ولم يذكر انه بسبب العمل الصالح لما ذكرنا غير مرة ان الكريم لا يذكر لاحسانه عوضا ويذكر لاضراره سببا لئلا يتوهم به الظلم فقال يرسل الرياح مبشرات قيل بالمطر كما قال تعالى نشرا بين يدى رحمته اى قبل المطر ويمكن ان يقال مبشرات بصلاح الاهوية والاحوال فان الرياح لو لم تهب لظهر الوباء والفساد * ثم قال تعالى (وليذيقكم من رحمته) عطف على ما ذكرنا اى ليبشركم بصلاح الهواء وصحة الابدان وليذيقكم من رحمته بالمطر وقد ذكرنا ان الاذاقة تقال فى القليل ولما كان امر الدنيا قليلا وراحتها نزرا قال وليذيقكم واما فى الآخرة فيرزقهم ويوسع عليهم ويديم لهم * قوله تعالى (ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) لما اسند الفعل الى الفلك عقبه بقوله بأمره اى الفعل ظاهرا عليه ولكنه بأمر الله ولذلك لما قال ولتبتغوا مسندا الى العباد ذكر بعده من فضله اى لا استقلال لشئ بشئ وفى الآية مسائل (الاولى) فى الترتيب فنقول فى الرياح فوائد منها اصلاح الهواء ومنها اثارة السحاب ومنها جريان الفلك بها فقال مبشرات باصلاح الهواء فان اصلاح الهواء يوجد من نفس الهبوب ثم الامطار بعده

تبعاته واقاته على معنى ليس لواحد منهم ناصر واحد على ما هو قاعدة مقابلة الجمع بالجمع (فأقم وجهك للدين) تمثيل لاقباله على الدين واستقامته وثباته عليه واهتمامه بترتيب اسبابه فان من اهتم بشئ محسوس بالبصر عقد عليه طرفه وسدد اليه نظره وقوم له وجهه مقبلا به عليه اى فقوم وجهك له وعدله غير ملتفت يمينا وشمالا وقوله تعالى (حنيفا) حال من المأمور او من الدين (فطرت الله) الفطرة الخلقة وانتصابها على الاغراء اى الزموا او عليكم فطرة الله فان الخطاب للكل كما يفصح عنه قوله تعالى منيبين والافراد فى أقم لما ان الرسول عليه الصلاة والسلام امام الامة فأمره عليه السلام مستتبع لامرهم والمراد بلزومها الجريان على موجبها وعدم الاخلال به باتباع الهوى وتسويل الشياطين وقيل على المصدر اى فطر الله فطرة وقوله تعالى (التى فطر الناس عليها) صفة لفطرة الله مؤكدة لوجوب الامتثال بالامر فان خلق الله الناس على فطرته التى هى عبارة عن قبولهم للحق وتمكنهم من ادراكه او عن ملة الاسلام من موجبات لزومها والتمسك بها قطعا فانهم لو خلوا وما خلقوا عليه ادى بهم اليها وما اختاروا عليها دينا آخر ومن غوى منهم فباغواء شياطين الانس والجن ومنه قوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن رب العزة كل عبادى خلقت حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم وامروهم ان يشركوا بى غيرى وقوله عليه الصلاة والسلام كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون ابواهما اللذان يهودانه وينصرانه وقوله تعالى (لا تبديل لخلق الله) تعليل للامر بلزوم فطرته تعالى او لوجوب الامتثال به اى لا صحة ولا استقامة لتبديله بالاخلال بموجبه وعدم ترتيب مقتضاه عليه باتباع الهوى وقبول وسوسة الشيطان وقيل لا يقدر احد على ان يغيره فلابد حينئذ من حمل التبديل على تبديل نفس

ثم جريان الفلك فانه موقوف على اختيار من الآدمى باصلاح السفن والقائها على البحر ثم ابتغاء الفضل بركوبها (المسئلة الثانية) قال فى قوله تعالى ظهر الفساد ليذيقهم بعض الذى عملوا وقال ههنا وليذيقكم من رحمته فخاطب ههنا تشريفا ولان رحمته قريب من المحسنين فالمحسن قريب فيخاطب والمسيء بعيد فلم يخاطبهم وايضا قال هناك بعض الذى عملوا وقال ههنا من رحمته فاضاف ما اصابهم الى انفسهم واضاف ما اصاب المؤمن الى رحمته وفيه معنيان (احدهما) ما ذكرنا ان الكريم لا يذكر لاحسانه ورحمته عوضا وان وجد فلا يقول اعطيتك لانك فعلت كذا بل يقول هذا لك منى واما ما فعلت من الحسنة فجزاؤه بعد عندى (وثانيهما) ان ما يكون بسبب فعل العبد قليل فلو قال ارسلت الرياح بسبب فعلكم لا يكون بشارة عظيمة واما اذا قال من رحمته كان غاية البشارة (ومعنى ثالث) وهو انه لو قال بما فعلتم لكان ذلك موهما لنقصان ثوابهم فى الآخرة واما فى حق الكفار فاذا قال بما فعلتم ينبيء عن نقصان عقابهم وهو كذلك (المسئلة الثالثة) قال هناك لعلهم يرجعون وقال ههنا ولعلكم تشكرون فالواو اشارة الى ان توفيقهم للشكر من النعم فعطف على النعم (المسئلة الرابعة) انما اخر هذه الآية لان فى الآيات التى قد سبق ذكرها قلنا انه ذكر من كل باب آيتين فذكر من المنذرات يريكم البرق والحادث فى الجو فى اكثر الامر نار وريح فذكر الرياح ههنا تذكيرا وتقريرا للدلائل ولما كانت الريح فيها فائدة غير المطر وليس فى البرق فائدة ان لم يكن مطر ذكر هناك خوفا وطمعا اى قد يكون وقد لا يكون وذكر ههنا مبشرات لان تعديل الهواء او تصفيته بالريح امر لازم وحكمه به حكم جزم * ثم قال تعالى (ولقد ارسلنا من قبلك رسلا الى قومهم فجاؤهم بالبينات فانتقمنا من الذين اجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين) لما بين الاصلين براهين ذكر الاصل الثالث وهو النبوة فقال ولقد ارسلنا من قبلك رسلا اى ارسالهم دليل رسالتك فانهم لم يكن لهم شغل غير شغلك ولم يظهر عليهم غير ما ظهر عليك ومن كذبهم اصابهم البوار ومن آمن بهم كان لهم الانتصار (وله وجه آخر) يبين تعلق الآية بما قبلها وهو ان الله لما بين البراهين ولم ينتفع بها الكفار سلى قلب النبى صلى الله عليه وسلم وقال حال من تقدمك كان كذلك وجاؤا ايضا بالبينات وكان فى قومهم كافر ومؤمن كما فى قومك فانتقمنا من الكافرين ونصرنا المؤمنين وفى قوله تعالى وكان حقا وجهان (احدهما) فانتقمنا وكان الانتقام حقا واستأنف وقال علينا نصر المؤمنين وعلى هذا يكون هذا بشارة للمؤمنين الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم اى علينا نصركم ايها المؤمنون (والوجه الثانى) وكان حقا علينا اى نصر المؤمنين كان حقا علينا وعلى الاول لطيفة وعلى الآخر اخرى (اما على الاول) فهو انه لما قال فانتقمنا بين انه لم يكن ظلما وانما كان عدلا حقا وذلك لان الانتقام لم يكن الا بعد كون بقائهم غير مفيد الا زيادة الاثم وولادة الكافر الفاجر وكان عدمهم خيرا من وجودهم الخبيث وعلى الثانى تأكيد

الفطرة بازالتها رأسا ووضع فطرة اخرى مكانها غير مصححة لقبول الحق والتمكن من ادراكه ضرورة ان التبديل بالمعنى الاول مقدور بل واقع قطعا فالتعليل حينئذ من جهة ان سلامة الفطرة متحققة فى كل احد فلابد من لزومها وترتيب مقتضاها عليها وعدم الاخلال به بما ذكر من اتباع الهوى وخطوات الشيطان (ذلك) اشارة الى الدين المأمور باقامة الوجه له او الى لزوم فطرة الله المستفاد من الاغراء او الى الفطرة ان فسرت بالملة والتذكير بتأويل المذكور او باعتبار الخبر (الدين القيم) المستوى الذى لا عوج فيه (ولكن اكثر الناس لا يعلمون) ذلك فيصدون عنه صدودا (منيبين اليه) حال من الضمير فى الناصب المقدر لفطرة الله او فى أقم لعمومه للامة حسبما اشير اليه وما بينهما اعتراض اى راجعين اليه من اناب اذا رجع مرة بعد اخرى وقوله تعالى (واتقوه) اى من مخالفة امره عطف على المقدر المذكور وكذا قوله تعالى (واقيموا الصلوة ولا تكونوا من المشركين) المبدلين لفطرة الله تعالى تبديلا (من الذين فرقوا دينهم) بدل من المشركين باعادة الجار وتفريقهم لدينهم اختلافهم فيما يعبدونه على اختلاف اهوائهم وفائدة الابدال التحذير من الانتماء الى حزب من احزاب المشركين ببيان ان الكل على الضلال المبين وقرئ فارقوا اى تركوا دينهم الذى امروا به (وكانوا شيعا) اى فرقا تشايع كل منها امامها الذى اضلها (كل حزب بما لديهم) من الدين المعوج المؤسس على الرأى الزائغ والزعم الباطل (فرحون) مسرورون ظنا منهم انه حق وانى له ذلك فالجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبله من تفريق دينهم وكونهم شيعا وقد جوز ان يكون فرحون صفة لكل على ان الخبر هو الظرف المقدم اعنى من الذين فرقوا ولا يخفى بعده (واذا مس الناس ضر) اى شدة (دعوا ربهم

(البشارة)

البشارة لان كلمة على تفيد معنى اللزوم يقال على فلان كذا ينبئ عن اللزوم فاذا قال حقا اكد ذلك المعنى وقد ذكرنا ان النصر هو الغلبة التي لا تكون عاقبتها وخيمة فان احدى الطائفتين اذا انهزمت اولا ثم عادت آخرا لا يكون النصر الا للمنهزم وكذلك موسى وقومه لما انهزموا من فرعون ثم ادركه الغرق لم يكن انهزامهم الا نصرة فالكافر ان هزم المسلم في بعض الاوقات لا يكون ذلك نصرة اذ لا عاقبة له ❁ ثم قال تعالى (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فاذا أصاب به من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون وان كانوا من قبله ان ينزل عليهم من قبله لمبلسين فانظر الى آثار رحمت الله كيف يحيي الارض بعد موتها ان ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير) بين دلائل الرياح على التفصيل الاول في ارسالها قدرة وحكمة اما القدرة فظاهرة فان الهواء اللطيف الذي يشقه البق يصير بحيث يقلع الشجر وهو ليس بذاته كذلك فهو بفعل فاعل مختار واما الحكمة ففي نفس الهبوب فيما يفضي اليه من آثار السحب ثم ذكر انواع السحب فمنه ما يكون متصلا ومنه ما يكون منقطعا ثم المطر يخرج منه والماء في الهواء اعجب علامة للقدرة وما يفضي اليه من انبات الزرع وادرار الضرع حكمة بالغة ثم انه لا يعم بل يختص به قوم دون قوم وهو علامة المشيئة وقوله تعالى وان كانوا من قبل ان ينزل عليهم من قبله اختلف المفسرون فيه فقال بعضهم هو تأكيد كما في قوله تعالى فكان عاقبتهما انهما في النار خالدين فيها وقال بعضهم من قبل التنزيل من قبل المطر والاولى ان يقال من قبل ان ينزل عليهم من قبله اي من قبل ارسال الرياح وذلك لان بعد الارسال يعرف الخبير ان الريح فيها مطر او ليس فقبل المطر اذا هبت الريح لا يكون مبلسا فلما قال من قبل أن ينزل عليهم لم يقل انهم كانوا مبلسين لان من قبله قد يكون راجيا غالبا على ظنه المطر برؤية السحب وهبوب الرياح فقال من قبله اي من قبل ما ذكرنا من ارسال الريح وبسط السحاب ثم لما فصل قال فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيي الارض بعد موتها ان ذلك لمحيي الموتى لما ذكر الدلائل قال لمحيي باللام المؤكدة وباسم الفاعل فان الانسان اذا قال ان الملك يعطيك لا يفيد ما يفيد قوله انه معطيك لان الثاني يفيد انه أعطاك فكان وهو معط متصفا بالعطاء والاول يفيد انه سيتصف به ويتبين هذا بقوله انك ميت فانه آكد من قوله انك تموت وهو على كل شيء قدير تأكيد لما يفيد الاعتراف ❁ ثم قال تعالى (ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون فانك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين وما انت بهادي العمي عن ضلالتهم) لما بين انهم عند توقف الخير يكونون مبلسين آيسين وعند ظهوره يكونون مستبشرين بين ان تلك الحالة أيضا لا يدومون عليها بل لو أصاب زرعهم ريح مصفر لكفروا فهم منقلبون غير ثابتين لنظرهم الى الحال لا الى المآل وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال في الآية الاولى يرسل الرياح على طريقة الاخبار

منيبين اليه) راجعين اليه من دعاء غيره (ثم اذا أذاقهم منه رحمة) خلاصا من تلك الشدة (اذا فريق منهم بربهم) الذي كانوا دعوه منيبين اليه (يشركون) اي فاجأ فريق منهم الاشراك وتخصيص (٧٢٥) هذا الفعل ببعضهم لما ان بعضهم ليسوا كذلك كما في قوله تعالى فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد اي مقيم على الطريق القصد ومتوسط في الكفر لانزجاره في الجملة (ليكفروا بما آتيناهم) اللام فيه للعاقبة وقيل للامر التهديدي كقوله تعالى (فتمتعوا) غير انه التفت فيه للمبالغة وقرئ وليتمتعوا (فسوف تعلمون) عاقبة تمتعكم وقرئ بالياء على ان تمتعوا ماض والالتفات الى الغيبة في قوله تعالى (ام انزلنا عليهم) للايذان بالاعراض عنهم وتعديد جناياتهم لغيرهم بطريق المباثة (سلطانا) اي حجة واضحة وقيل ذا سلطان اي ملكا معه برهان (فهو يتكلم) تكلم دلالة كما في قوله تعالى هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق او تكلم نطق (بما كانوا به يشركون) باشراكهم به تعالى او بالامر الذي بسببه يشركون (واذا أذقنا الناس رحمة) اي نعمة من صحة وسعة (فرحوا بها) بطرا واشرا لا حمدا وشكرا (وان تصبهم سيئة) شدة (بما قدمت ايديهم) بشؤم معاصيهم (اذا هم يقنطون) فاجؤا القنوط من رحمته تعالى وقرئ بكسر النون (اولم يروا) اي الم ينظروا ولم يشاهدوا (ان الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) فما لهم لم يشكروا ولم يحتسبوا في السراء والضراء كالمؤمنين (ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) فيستدلون بها على كمال القدرة والحكمة (فآت ذا القربى حقه) من الصلة والصدقة وسائر المبرات (والمسكين وابن السبيل) ما يستحقانه والخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام او لمن بسط له كما تؤذن به الفاء (ذلك خير للذين يريدون وجه الله) ذاته وجهته ويقصدون بمعروفهم اياه تعالى خالصا او جهة التقرب اليه لا جهة اخرى (واولئك هم

من الارسال وقال ههنا ولئن ارسلنا لا على طريقة الاخبار عن الارسال لان الرياح من رحمته وهي متواترة والريح من عذابه وهو تعالى رؤف بالعباد يمسكها ولذلك ترى الرياح النافعة تهب في الليالي والايام في البراري والآكام وريح السموم لاتهب الا في بعض الازمنة وفي بعض الامكنة (المسئلة الثانية) سمى النافعة رياحا والضارة ريحا لوجوه (احدها) ان النافعة كثيرة الانواع كثيرة الافراد فجمعها فان كل يوم وليلة تهب نفحات من الرياح النافعة ولاتهب الريح الضارة في اعوام بل الضارة في الغالب لاتهب في الدهور (الثاني) هو ان النافعة لاتكون الارياحا فان مايهب مرة واحدة لايصلح الهواء ولا ينشيء السحاب ولايجري السفن واما الضارة بنفخة واحدة تقتل كريح السموم (الثالث) هو ان الريح المضرة اما ان تضر بكيفيتها او بكميتها اما الكيفية فهي اذا كانت حارة او متكيفة بكيفية سم وهذا لا يكون للريح في هبوبها وانما يكون بسبب ان الهواء الساكن في بقعة فيها حشائش رديئة او في موضع غائر وهو حار جدا او تكون متكونة في اول تكونها كذلك وكيفما كان فتكون واحدة لان ذلك الهواء الساكن اذا سخن ثم ورد عليه ريح تحركه وتخرجه من ذلك المكان فتهب على مواضع كاللهيب ثم ماتخرج بعد ذلك من ذلك المكان لايكون حارا ولامتكيفا لان المكث الطويل شرط التكيف ألاترى انك لو ادخلت اصبعك في نار واخرجتها بسرعة لاتتأثر والحديد اذا مكث فيها يذوب فاذا تحرك ذلك الساكن وتفرق لايوجد في ذلك الوقت غيره من جنسه واما المتولدة كذلك فنادرة وموضع ندرتها واحد واما الكمية فالرياح اذا اجتمعت وصارت واحدة صارت كالخلجان ومياه العيون اذا اجتمعت تصير نهرا عظيما لاتسده السدود ولايرده الجلمود ولاشك ان في ذلك تكون واحدة مجتمعة من كثير فلهذا قال في المضرة ريح وفي النافعة رياح ✽ ثم انه تعالى لما علم رسوله أنواع الادلة واصناف الامثلة ووعد واوعد ولم يزدهم دعاؤه الا فرارا واباؤه الا كفرا واصرارا قال له فانك لاتسمع الموتى ولاتسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) في الترتيب فنقول ارشاد الميت محال والمحال ابعد من الممكن ثم ارشاد الاصم صعب فانه لايسمع الكلام وانما يفهم مايفهمه بالاشارة لاغير والافهام بالاشارة صعب ثم ارشاد الاعمى ايضا صعب فانك اذا قلت له الطريق على يمينك يدور الى يمينه لكنه لايبقى عليه بل يحيد عن قريب وارشاد الاصم اصعب فلهذا تكون المعاشرة مع الاعمى أسهل من المعاشرة مع الاصم الذي لايسمع شيئا لان غاية الافهام بالكلام فان مالايفهم بالاشارة يفهم بالكلام وليس كل مايفهم بالكلام يفهم بالاشارة فان المعدوم والغائب لااشارة اليهما فقال اولا لاتسمع الموتى ثم قال ولاالاصم ولاتهدي الاعمى الذي دون الاصم (المسئلة الثانية) قال في الصم اذا ولوا مدبرين ليكون ادخل في الامتناع وذلك لان الاصم وان كان يفهم فانما يفهم بالاشارة فاذا ولى ولايكون نظره الى المشير

المضعفون) حيث حصلوا بما بسط لهم النعيم المقيم (وما آتيتم من ربا) زيادة خالية عن العوض عند المعاملة وقرىء أتيتم بالقصر اي غشيتموه او رهقتموه من اعطاء ربا (ليربو في اموال الناس) ليزيد (٧٢٦) ويزكو في اموالهم (فلا يربو عند الله) اي لايبارك فيه وقرىء لتربوا اي لتزيدوا اولتصيروا ذوي ربا (وما آتيتم من زكوة تريدون وجه الله) اي تبتغون به وجهه تعالى خالصا (فأولئك هم المضعفون) اي ذوو الاضعاف من الثواب ونظير المضعف المقوي والموسر لذي القوة واليسار او الذين ضعفوا ثوابهم واموالهم بالبركة وقرىء بفتح العين وفي تغيير النظم الكريم والالتفات من الجزالة مالايخفى (الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء) اثبت له تعالى لوازم الالوهية وخواصها ونفاها رأسا عما اتخذوه شركاء له تعالى من الاصنام وغيرها مؤكدا بالانكار على مادل عليه البرهان والعيان ووقع عليه الوفاق ثم استنتج منه تنزهه عن الشركاء بقوله تعالى (سبحانه وتعالى عما يشركون) وقد جوز ان يكون الموصول صفة والخبر هل من شركائكم والرابط قوله تعالى من ذلكم لانه بمعنى من افعاله ومن الاولى والثانية تفيدان شيوع الحكم في جنس الشركاء والافعال والثالثة مزيدة لتعميم المنفي وكل منها مستقلة بالتأكيد وقرىء تشركون بصيغة الخطاب (ظهر الفساد في البر والبحر) كالجدب والموتان وكثرة الحرق والغرق واخفاق الغاصة ومحق البركات وكثرة المضار او الضلالة والظلم وقيل المراد بالبحر قرى السواحل وقرىء البحور (بما كسبت ايدي الناس) بشؤم معاصيهم او بكسبهم اياها وقيل ظهر الفساد في البر بقتل قابيل اخاه هابيل وفي البحر بأن جلندى كان يأخذ كل سفينة غصبا (ليذيقهم بعض الذي عملوا) اي بعض جزائه فان تمامه في الآخرة (تابع)

فانه يسمع ولا يفهم (المسئلة الثالثة) قال فى الاصم لا تسمع الصم الدعاء ولم يقل فى الموتى ذلك لان الاصم قد يسمع الصوت الهائل كصوت الرعد القوى ولكن صوت الداعى لا يبلغ ذلك الحد فقال انك داع لست بمنجى الى الايمان والداعى لا يسمع الاصم الدعاء (المسئلة الرابعة) قال وما انت بهادى العمى اى ليس شغلك هداية العميان كما تقول القائل فلان ليس بشاعر وانما ينظم بيتا وبيتين اى ليس شغله ذلك فقوله انك لا تسمع الموتى نفى ذلك عنه وقوله وما انت بهادى العمى يعنى ليس شغلك ذلك وما ارسلت له ❁ ثم قال تعالى (ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) لما نفى اسماع الميت والاصم واثبت اسماع المؤمن بآياته لزم ان يكون المؤمن حيا سميعا وهو كذلك لان المؤمن ترد على قلبه امطار البراهين فتنبت فى قلبه العقائد الحقة ويسمع زواجر الوعظ فتظهر منه الافعال الحسنة وهذا يدل على خلاف مذهب المعتزلة فانهم قالوا الله يريد من الكل الايمان غير ان بعضهم يخالف ارادة الله وقوله ان تسمع الا من يؤمن دليل على انه يؤمن فيسمعه النبى صلى الله عليه وسلم ما يجب ان يفعل فهم مسلمون مطيعون كما قال تعالى عنهم قالوا سمعنا واطعنا ❁ ثم قال تعالى (الله الذى خلقكم من ضعف) لما اعاد من الدلائل التى مضت دليلا من دلائل الآفاق وهو قوله الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا وذكر احوال الريح من اوله الى آخره اعاد دليلا من دلائل الانفس وهو خلق الآدمى وذكر احواله فقال خلقكم من ضعف اى بناكم على الضعف كما قال تعالى خلق الانسان من عجل ومن ههنا كما تكون فى قول القائل فلان زين فلانا من فقره وجعله غنيا اى من حالة فقره ❁ ثم قال تعالى (ثم جعل من بعد ضعف قوة) فقوله من ضعف اشارة الى حالة كان فيها جنينا وطفلا مولودا ورضيعا ومفطوما فهذه احوال غاية الضعف وقوله ثم جعل من بعد ضعف قوة اشارة الى حالة بلوغه وانتقاله وشبابه واكتهاله ❁ وقوله تعالى (ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير) اشارة الى ما يكون بعد الكهولة من ظهور النقصان والشيبة هى تمام الضعف ثم بين بقوله يخلق ما يشاء ان هذا ليس طبعا بل هو بمشيئة الله تعالى كما قال تعالى فى دلائل الآفاق فيبسطه فى السماء كيف يشاء وقوله وهو العليم القدير لم قدم العلم على القدرة وقال من قبل وهو العزيز الحكيم فالعزة اشارة الى تمام القدرة والحكمة الى العلم فقدم القدرة هناك وقدم العلم على القدرة ههنا فنقول هناك المذكور الاعادة بقوله وهو اهون عليه وله المثل الاعلى فى السموات والارض وهو العزيز الحكيم لان الاعادة تكون بكن فيكون فالقدرة هناك اظهر وههنا المذكور الابداء وهو اطوار واحوال والعلم بكل حال حاصل فالعلم ههنا اظهر ثم ان قوله تعالى وهو العليم القدير تبشير وانذار لانه اذا كان عالما باعمال الخلق كان عالما باحوال المخلوقات فان عملوا خيرا علمه وان عملوا شرا علمه ثم اذا كان قادرا فاذا علم الخير اثاب واذا علم الشر عاقب ولما كان العلم بالاحوال قبل الاثابة

واللام للعلة او العاقبة وقرئ لنذيقهم بالنون (لعلهم يرجعون) عما كانوا عليه (قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل) ليشاهدوا آثارهم (٧٢٧) (كان اكثرهم مشركين) استئناف للدلالة على ان ما اصابهم لفشو الشرك فيما بينهم او كان الشرك فى اكثرهم وما دونه من المعاصى فى قليل منهم (فاقم وجهك للدين القيم) اى البليغ الاستقامة (من قبل ان يأتى يوم لا مرد له) لا يقدر احد على رده (من الله) متعلق بيأتى ويجوز لانه مصدر والمعنى لا يرده الله تعالى لتعلق ارادته القديمة بمجيئه (يومئذ يصدعون) اصله يتصدعون اى يتفرقون فريق فى الجنة وفريق فى السعير (من كفر فعليه كفره) اى وبال كفره وهو النار المؤبدة (ومن عمل صالحا فلانفسهم يمهدون) اى يسوون منزلا فى الجنة وتقديم الظرف فى الموضعين للدلالة على الاختصاص (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله) متعلق بيصدعون وقيل بيمهدون اى يتفرقون بتفريق الله تعالى فريقين ليجزى كلا منهما بحسب اعمالهم وحيث كان جزاء المؤمنين هو المقصود بالذات ابرز ذلك فى معرض الغاية وعبر عنه بالفضل لما ان الاثابة بطريق التفضل لا الوجوب واشير الى جزاء الفريق الآخر بقوله تعالى (انه لا يحب الكافرين) فان عدم محبته تعالى كناية عن بغضه الموجب لغضبه المستتبع للعقوبة لا محالة (ومن آياته ان يرسل الرياح) اى الشمال والصبا والجنوب فانها رياح الرحمة واما الدبور فريح العذاب ومنه قوله عليه الصلاة والسلام اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا وقرئ الريح على ارادة الجنس (مبشرات) بالمطر (وليذيقكم من رحمته) وهى المنافع التابعة لها وقيل الخصب التابع لنزول المطر المسبب عنها والروح الذى هو مع هبوبها واللام متعلقة بيرسل والجملة معطوفة على مبشرات على ان المعنى كانه قيل

والعقاب الذين هما بالقدرة قدم العلم واما فى الآخرة فالعلم بتلك الاحوال مع العقاب فقال وهو العليم الحكيم والى مثل هذا اشار فى قوله فتبارك الله احسن الخالقين عقيب خلق الانسان فنقول احسن اشارة الى العلم لان حسن الخلق بالعلم والخلق المفهوم من قوله الخالقين اشارة الى القدرة ثم لما بين ذكر الابداء والاعادة كالابداء ذكر بعد ذكر احوالها واوقاتها ۞ فقال تعالى (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة) قيل مالبثوا فى الدنيا غير ساعة وقيل مالبثوا فى القبور وقيل مالبثوا من وقت فناء الدنيا الى وقت النشور ۞ (كذلك كانوا يؤفكون) يصرفون من الحق الى الباطل ومن الصدق الى الكذب ۞ (وقال الذين اوتوا العلم والايمان) من الملائكة وغيرهم ۞ (لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث) ونحن نبين ماهو المعنى اللطيف فى هاتين الآيتين فنقول الموعود بوعد اذا ضرب له اجل يستكثر الاجل ويريد تعجيله والموعد بوعيد اذا ضرب له اجل يستقل المدة ويريد تأخيرها لكن المجرم اذا حشر علم ان مصيره الى النار فيستقل مدة اللبث ويختار تأخير الحشر والابقاء فى القبر والمؤمن اذا حشر علم ان مصيره الى الجنة فيستكثر المدة ولا يريد التأخير فيختلف الفريقان ويقول احدهما ان مدة لبثنا قليل واليه الاشارة بقوله يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة ويقول الآخر لبثنا مديدا واليه الاشارة بقوله تعالى وقال الذين اوتوا العلم والايمان لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث يعنى كان فى كتاب الله ضرب الاجل الى يوم البعث ونحن صبرنا الى يوم البعث ۞ (فهذا البعث ولكنكم كنتم لاتعلمون) يعنى طلبكم التأخير لانكم كنتم لاتعلمون البعث ولا تعترفون به فصار مصيركم الى النار فتطلبون التأخير ۞ ثم قال تعالى (فيومئذ لاتنفع الذين ظلموا معذرتهم وهم لايستعتبون) اى لايطلب منهم الاعتاب وهو ازالة العتب يعنى التوبة التى تزيل آثار الجريمة لاتطلب منهم لانها لاتقبل منهم ۞ ثم قال تعالى (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) اشارة الى ازالة الاعذار والاتيان بما فوق الكفاية من الانذار والى انه لم يبق من جانب الرسول تقصير فان طلبوا شيئا آخر فذلك عناد ومن هان عليه تكذيب دليل لايصعب عليه تكذيب الدلائل بل لايجوز للمستدل ان يشرع فى دليل آخر بعد ماذكر دليلا جيدا مستقيما ظاهر الاعتبار عليه وعانده الخصم لانه اما ان يعترف بورود سؤال الخصم عليه او لايعترف فان اعترف يكون انقطاعا وهو يقدح فى الدليل او المستدل اما بأن الدليل فاسد واما بان المستدل جاهل بوجه الدلالة والاستدلال وكلاهما لايجوز الاعتراف به من العالم فكيف من النبى عليه الصلاة والسلام وان لم يعترف يكون الشروع فى غيره موهما ان الخصم ليس معاندا فيكون اجتراؤه على العناد فى الثانى اكثر لانه يقول العناد افاد فى الاول حيث التزم ذكر دليل آخر فان قيل فالانبياء عليهم السلام ذكروا انواعا من الدلائل نقول سردوها سردا ثم قرروها فردا فردا كمن يقول الدليل عليه من وجوه الاول كذا والثانى كذا

ليبشركم بها وليذيقكم او بمحذوف يفهم من ذكر الارسال تقديره وليذيقكم وليكون كذا وكذا يرسلها لالامر آخر لاتعلق له بما فيكم (ولتجرى الفلك) بسوقها (بامره ولتبتغوا من فضله) بتجارة (٧٢٨) البحر (ولعلكم تشكرون) ولتشكروا نعمة الله فيما ذكر من الغايات الجليلة (ولقد ارسلنا من قبلك رسلا الى قومهم) كما ارسلناك الى قومك (فجاؤهم بالبينات) اى جاء كل رسول قومه بما يخصه من البينات كما جئت قومك ببيناتك والفاء فى قوله تعالى (فانتقمنا من الذين اجرموا) فصيحة اى فكذبوهم فانتقمنا منهم وانما وضع موضع ضميرهم الموصول للتنبيه على مكان المحذوف والاشعار بكونه علة للانتقام وفى قوله تعالى (وكان علينا نصر المؤمنين) مزيد تشريف وتكرمة للمؤمنين حيث جعلوا مستحقين على الله تعالى ان ينصرهم واشعار بأن الانتقام من الكفرة لاجلهم وقد يوقف على حقا على انه متعلق بالانتقام ولعل توسيط الآية الكريمة بطريق الاعتراض بين ما سبق وما لحق من احوال الرياح واحكامها لانذار الكفرة وتحذيرهم عن الاخلال بواجب الشكر المطلوب بقوله تعالى لعلكم تشكرون بمقابلة النعم المعدودة المنوطة بارسالها كيلا يحل بهم مثل ما حل باولئك الامم من الانتقام (الله الذى يرسل الرياح) استئناف مسوق لبيان ما اجمل فيما سبق من احوال الرياح (فتثير سحابا فيبسطه) متصلا تارة (فى السماء) فى جوها (كيف يشاء) سائرا وواقفا مطبقا وغير مطبق من جانب دون جانب الى غير ذلك (ويجعله كسفا) تارة اخرى اى قطعا وقرئ بسكون السين على انه مخفف جمع كسفة او مصدر وصف به (فترى الودق) المطر (يخرج من خلاله) فى التارتين (فاذا اصاب به من يشاء من عباده) اى بلادهم واراضيهم (والثالث)

والثالث كذا وفى مثل هذا الواجب عدم الالتفات الى عناد المعاند لانه يزيد بعناده حتى يضيع الوقت فلا يتمكن المستدل من الاتيان بجميع ماوعد من الدلائل فتحط درجته فاذن لكل مكان مقال * والى هذا وقعت الاشارة بقوله تعالى (ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا ان انتم الا مبطلون) وفى توحيد الخطاب بقوله ولئن جئتهم والجمع فى قوله ان انتم لطيفة وهى ان الله تعالى قال ولئن جئتهم بكل آية جاءت بها الرسل ويمكن ان يجاء بها يقولون انتم كلكم ايها المدعون للرسالة مبطلون * ثم بين تعالى ان ذلك بطبع الله على قلوبهم بقوله تعالى (كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) فان قيل من لا يعلم شيئا اية فائدة فى الاخبار عن الطبع على قلبه نقول المعنى هو ان من لا يعلم الآن فقد طبع الله على قلبه من قبل * ثم انه تعالى سلى قلب النبى صلى الله عليه وسلم بقوله (فاصبر ان وعد الله حق) اى ان صدقك يبين وقوله تعالى (ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) اشارة الى وجوب مداومة النبى عليه الصلاة والسلام على الدعاء الى الايمان فانه لو سكت لقال الكافر انه متقلب الرأى لاثبات له والله اعلم بالصواب * واليه المرجع والمآب * والحمد لله رب العالمين * وصلاته على سيد المرسلين * وآله وصحبه أجمعين

* (سورة لقمان عليه السلام مكية كلها الا آيتين نزلتا بالمدينة وهما ولو ان ما فى الارض من شجرة الآيتين او الا آية نزلت بالمدينة وهى الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة لان الصلاة والزكاة نزلتا بالمدينة وهى ثلاث وقيل اربع وثلاثون آية) *

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم تلك آيات الكتاب الحكيم) وجه ارتباط اول هذه السورة بآخر ماقبلها هو ان الله تعالى لما قال ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل اشارة الى كونه معجزة وقال ولئن جئتهم بآية اشارة الى انهم يكفرون بالآيات بين ذلك بقوله الم تلك آيات الكتاب الحكيم اى هذه آيات ولم يؤمنوا بها والى هذا اشار بعد هذا بقوله واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا * وقوله تعالى (هدى ورحمة للمحسنين الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة وهم بالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) فقوله هدى اى بيانا وفرقانا واما التفسير فكل تفسير قوله تعالى الم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى وكما قيل هناك ان المعنى بذلك هذا كذلك قيل بأن المراد بتلك هذه ويمكن ان يقال كما قلنا هناك ان تلك اشارة الى الغائب معناها آيات القرآن آيات الكتاب الحكيم وعند انزال هذه الآيات التى نزلت مع الم تلك آيات الكتاب الحكيم لم تكن جميع الآيات نزلت فقال تلك اشارة الى الكل اى آيات القرآن تلك آيات وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال فى سورة البقرة ذلك الكتاب ولم يقل الحكيم وههنا قال الحكيم فلما زاد ذكر وصف الكتاب زاد ذكر امر فى احواله فقال هدى ورحمة وقال هناك هدى للمتقين فقوله هدى فى مقابلة قوله الكتاب وقوله ورحمة فى مقابلة قوله الحكيم ووصف الكتاب بالحكيم على

(اذاهم يستبشرون) فاجؤا الاستبشار بمجئ الخصب (٧٢٩) (وان كانوا) ان مخففة من ان وضمير الشان الذى هو اسمها محذوف اى وان الشأن كانوا (من قبل ان ينزل عليهم) اى المطر (من قبله) تكرير للتأكيد والايذان بطول عهدهم بالمطر واستحكام يأسهم منه وقيل الضمير للمطر او السحاب او الارسال وقيل للكسف على القراءة بالسكون وليس بواضح واقرب من ذلك ان يكون الضمير للاستبشار ومن متعلقة بينزل لتفيد سرعة تقلب قلوبهم من اليأس الى الاستبشار بالاشارة الى غاية تقارب زمانيهما ببيان اتصال اليأس بالتنزيل المتصل بالاستبشار بشهادة اذا الفجائية (لمبلسين) خبر كانوا واللام فارقة اى آيسين (فانظر الى آثار رحمة الله) المترتبة على تنزيل المطر من النبات والاشجار وانواع الثمار والفاء للدلالة على سرعة ترتبها عليه وقرئ اثر بالتوحيد وقوله تعالى (كيف يحيي) اى الله تعالى (الارض بعد موتها) فى حيز النصب بنزع الخافض وكيف معلق لانظر اى فانظر الى احيائه البديع للارض بعد موتها وقيل على الحالية بالتأويل وايا ما كان فالمراد بالامر بالنظر التنبيه على عظم قدرته تعالى وسعة رحمته مع مافيه من التمهيد لما يعقبه من امر البعث وقرئ تحيي بالتأنيث على الاسناد الى ضمير الرحمة (ان ذلك) لعظيم الشأن الذى ذكر بعض شؤنه (لمحيي الموتى) لقادر على احيائهم فانه احداث لمثل ما كان فى مواد ابدانهم من القوى الحيوانية كما ان احياء الارض احداث لمثل ما كان فيها من القوى النباتية او لمحييهم البتة وقوله تعالى وهو على كل شئ قدير) تذييل مقرر لمضمون ماقبله اى (٩٢)(ر)(س) مبالغ فى القدرة على جميع الاشياء التى من جملتها احياؤهم لما ان نسبة قدرته الى الكل سواء

(ولئن ارسلنا ريحا فرأوه) اى الاثر المدلول عليه بالآثار او النبات المعبر عنه بالآثار فانه اسم جنس يعم القليل والكثير (مصفرا) بعد خضرته وقد جوز ان يكون الضمير للسحاب لانه اذا (٧٣٠) كان مصفرا لم يمطر ولا يخفى بعده واللام فى لئن موطئة للقسم

معنى ذى الحكمة كقوله تعالى فى عيشة راضية اى ذات رضا (المسئلة الثانية) قال هناك للمتقين وقال ههنا للمحسنين لانه لما ذكر انه هدى ولم يذكر شيئا آخر قال للمتقين اى يهتدى به من يتقى الشرك والعناد والتعصب وينظر فيه من غير عناد ولما زاد ههنا رحمة قال للمحسنين اى المتقين الشرك والعناد الآتين بكلمة الاحسان فالمحسن هو الآتى بالايمان والمتقى هو التارك للكفر كما قال تعالى ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ومن جانب الكفر كان متقيا وله الجنة ومن اتى بحقيقة الايمان كان محسنا وله الزيادة لقوله تعالى للذين احسنوا الحسنى وزيادة ولانه تعالى لما ذكر انه رحمة قال للمحسنين لان رحمة الله قريب من المحسنين (المسئلة الثالثة) قال هناك الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وقال ههنا الذين يقيمون الصلاة ولم يقل يؤمنون لما بينا ان المتقى هو التارك للكفر ويلزمه ان يكون مؤمنا والمحسن هو الآتى بحق الايمان ويلزمه ان لا يكون كافرا فلما كان المتقى دالا على المؤمن فى الالتزام صرح بالايمان هناك تبيينا ولما كان المحسن دالا على الايمان بالتنصيص لم يصرح بالايمان وقوله تعالى الذين يقيمون الصلاة قد ذكرنا ما فى الصلاة واقامتها مرارا وما فى الزكاة والقيام بها وذكرنا فى تفسير الانفال فى اوائلها ان الصلاة ترك التشبه بالسيد فانها عبادة صورة وحقيقة والله تعالى تجب له العبادة ولا يجوز عليه العبادة وترك التشبه لازم على العبد ايضا فى امور فلا يجلس عند جلوسه ولا يتكئ عند اتكائه والزكاة تشبه بالسيد فانها دفع حاجة الغير والله دافع الحاجات والتشبه لازم على العبد ايضا فى امور كان عبد العالم لا يتلبس بلباس الاجناد وعبد الجندى لا يتلبس بلباس الزهاد وبهما تتم العبودية * ثم قال تعالى (ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين) لما بين ان القرآن كتاب حكيم يشتمل على آيات حكمية بين من حال الكفار انهم يتركون ذلك ويشتغلون بغيره ثم ان فيه ما يبين سوء صنيعهم من وجوه (الاول) ان ترك الحكمة والاشتغال بحديث آخر قبيح (الثانى) هو ان الحديث اذا كان لهوا لا فائدة فيه كان اقبح (الثالث) هو ان اللهو قد يقصد به الاحماض كما ينقل عن ابن عباس انه قال احمضوا ونقل عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال روحوا القلوب ساعة فساعة رواه الديلمى عن أنس مرفوعا ويشهد له ما فى مسلم يا حنظلة ساعة وساعة والعوام يفهمون منه الامر بما يجوز من المطايبة والخواص يقولون هو امر بالنظر الى جانب الحق فان الترويح به لا غير فلما لم يكن قصدهم الا الاضلال لقوله ليضل عن سبيل الله كان فعله ادخل فى القبح ثم قوله تعالى بغير علم عائد الى الشراء اى يشترى بغير علم ويتخذها اى يتخذ السبيل هزوا أولئك لهم عذاب مهين قوله مهين اشارة الى امر يفهم منه الدوام وذلك لان الملك اذا امر بتعذيب عبد من عبيده فالجلاد ان علم انه ممن يعود الى خدمة الملك ولا يتركه الملك فى الحبس يكرمه ويخفف من تعذيبه وان علم انه لا يعود الى ما كان عليه وامره قد انقضى فانه لا يكرمه

دخلت على حرف الشرط والفاء فى فرأوه فصيحة واللام فى قوله تعالى (لظلوا) لام جواب القسم الساد مسد الجوابين اى والله لئن ارسلنا ريحا حارة او باردة فضربت زرعهم بالصفار فرأوه مصفرا ليظلن (من بعده يكفرون) من غير تلعثم وفيه من ذمهم بعد تعييرهم وسرعة تزلزلهم بين طرفى الافراط والتفريط ما لا يخفى حيث كان الواجب عليهم ان يتوكلوا على الله تعالى فى كل حال ويلجؤوا اليه بالاستغفار اذا احتبس عنهم القطر ولا ييأسوا من روح الله تعالى ويبادروا الى الشكر بالطاعة اذا اصابهم برحمته ولا يفرطوا فى الاستبشار وان يصبروا على بلائه اذا اعترى زرعهم آفة ولا يكفروا بنعمه فعكسوا الامر وأبوا ما يجديهم واتوا بما يرديهم (فانك لا تسمع الموتى) لما انهم مثلهم لانسداد مشاعرهم عن الحق (ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين) تقييد الحكم بما ذكر لبيان كمال سوء حال الكفرة والتنبيه على انهم جامعون لخصلتى السوء نبو اسماعهم عن الحق واعراضهم عن الاصغاء اليه ولو كان فيهم احداهما لكفاهم ذلك فكيف وقد جمعوهما فان الاصم المقبل الى المتكلم ربما يفطن من اوضاعه وحركاته لشئ من كلامه وان لم يسمعه اصلا واما اذا كان معرضا عنه فلا يكاد يفهم منه شيئا وقرئ بالياء المفتوحة ورفع الصم (وما انت بهادى العمى عن ضلالتهم) سموا عميا لما فقدهم المقصود الحقيقى من الابصار او لعمى قلوبهم وقرئ تهدى العمى (ان تسمع) اى ما تسمع (الا من يؤمن) (فقوله)

فقوله عذاب مهين اشارة الى هذا وبه يفرق بين عذاب المؤمن وعذاب الكافر فان عذاب المؤمن ليطهر فهو غير مهين ❊ ثم قوله تعالى (واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأنّ فى اذنيه وقرا) اى يشترى الحديث الباطل والحق الصراح يأتيه مجانا يعرض عنه واذا نظرت فيه فهمت حسن هذا الكلام من حيث ان المشترى يطلب المشترى مع انه يطلبه ببذل الثمن ومن يأتيه الشئ لا يطلبه ولا يبذل شيئا ثم ان الواجب ان يطلب العاقل الحكمة بأى شئ يجده ويشتريها وهم ما كانوا يطلبونها واذا جاءتهم مجانا ما كانوا يسمعونها ثم ان فيه ايضا مراتب (الاولى) التولية عن الحكمة وهو قبيح (الثانية) الاستكبار ومن يشترى حكاية رستم وبهرام ويحتاج اليها كيف يكون مستغنيا عن الحكمة حتى يستكبر عنها وانما يستكبر الشخص من الكلام اذا كان يقول انا اقول مثله فمن لا يقدر يصنع مثل تلك الحكايات الباطلة كيف يستكبر على الحكمة البالغة التى من عند الله (الثالثة) قوله تعالى كأن لم يسمعها شغل المتكبر الذى لا يلتفت الى الكلام ويجعل نفسه كأنها غافلة (الرابعة) قوله كأن فى اذنيه وقرا أدخل فى الاعراض ❊ ثم قال تعالى (فبشره بعذاب اليم) اى له عذاب مهين فبشره انت به وأوعده او يقال اذا كان حاله هذا فبشره بعذاب اليم ❊ قوله تعالى (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم خالدين فيها وعد الله حقا وهو العزيز الحكيم) لما بين حال من اذا تتلى عليه الآيات ولى بين حال من يقبل على تلك الآيات ويقبلها وكما ان ذلك له مراتب من التولية والاستكبار فهذا له مراتب من الاقبال والقبول والعمل به فان من سمع شيئا وقبله قد لا يعمل به فلا تكون درجته مثل من يسمع ويطيع ثم ان هذا له جنات النعيم ولذلك عذاب مهين وفيه لطائف (احداها) توحيد العذاب وجمع الجنات اشارة الى ان الرحمة واسعة اكثر من الغضب (الثانية) تنكير العذاب وتعريف الجنة بالاضافة الى المعرف اشارة الى ان الرحيم يبين النعمة ويعرفها ايصالا للراحة الى القلب ولا يبين النقمة وانما ينبه عليها تنبيها (الثالثة) قال عذاب ولم يصرح بأنهم فيه خالدون وانما اشار الى الخلود بقوله مهين وصرح فى الثواب بالخلود بقوله خالدين فيها (الرابعة) اكد ذلك بقوله وعد الله حقا ولم يذكره هناك (الخامسة) قال هناك لغيره فبشره بعذاب وقال ههنا بنفسه وعد الله ثم لم يقل ابشركم به لان البشارة لا تكون الا بأعظم ما يكون لكن الجنة دون ما يكون للصالحين بشارة من الله وانما تكون بشارتهم منه برحمته ورضوانه كما قال تعالى يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ولولا قوله منه لما عظمت البشارة ولو كانت منه مقرونة بأمر دون الجنة لكان ذلك فوق الجنة من غير اضافة فان قيل فقد بشر بنفس الجنة بقوله وابشروا بالجنة التى كنتم توعدون نقول البشارة هناك لم تكن بالجنة وحدها بل بها وبما ذكر بعدها الى قوله تعالى نزلا من غفور رحيم والنزل ما يهيأ عند النزول والاكرام العظيم بعده وهو العزيز الحكيم كامل

بآياتنا) فان ايمانهم يدعوهم الى التدبر فيها وتلقيها بالقبول او لا من يشرف الايمان بها ويقبل عليها اقبالا لائقا (فهم مسلمون) منقادون لما امرهم به من الحق (الله الذى خلقكم من ضعف) مبتدأ وخبر اى ابتدأكم ضعفاء وجعل الضعف اساس امركم كقوله تعالى وخلق الانسان ضعيفا اى خلقكم من اصل ضعيف هو النطفة (ثم جعل من بعد ضعف قوة) وذلك عند بلوغكم الحلم او تعلق الروح بابدانكم (ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة) اذا اخذ منكم السن وقرئ بضم الضاد فى الكل وهو اقوى لقول ابن عمر رضى الله عنهما قرأتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقرأنى من ضعف وهما لغتان كالفقر والفقر والتنكير مع التكرير لان المتقدم غير المتأخر (يخلق ما يشاء) من الاشياء التى من جملتها ما ذكر من الضعف والقوة والشيبة (وهو العليم القدير) المبالغ فى العلم والقدرة فان الترديد فيما ذكر من الخلقة من اوضح دلائل العلم والقدرة (ويوم تقوم الساعة) اى القيامة سميت بها لانها تقوم فى آخر ساعة من ساعات الدنيا او لانها تقع فيه بغتة وصارت علما لها كالنجم للثريا والكوكب للزهرة (يقسم المجرمون ما لبثوا) اى فى القبور او فى الدنيا والاول هو الاظهر لان لبثهم مغيى بيوم البعث كما سيأتى وليس لبثهم فى الدنيا كذلك وقيل فيما بين فناء الدنيا والبعث وانقطاع عذابهم وفى الحديث ما بين فناء الدنيا والبعث اربعون وهو محتمل للساعة والايام والاعوام وقيل لا يعلم اهى اربعون سنة او اربعون الف سنة (غير ساعة) استقلوا مدة لبثهم نسيانا او كذبا او تخمينا (كذلك كانوا يؤفكون) مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون فى الدنيا عن الحق والصدق (وقال الذين اوتوا العلم والايمان) فى الدنيا من الملائكة والانس

القدرة يعذب المعرض ويثيب المقبل كامل العلم يفعل الافعال كما ينبغى فلا يعذب من يؤمن ولا يثيب من يكفر ❁ ثم قال تعالى (خلق السموات بغير عمد ترونها) بين عزته وحكمته بقوله خلق السموات بغير عمد اختلف قول العلماء فى السموات فمنهم من قال انها مبسوطة كصفيحة مستوية وهو قول اكثر المفسرين ومنهم من قال انها مستديرة وهو قول جميع المهندسين والغزالى رحمه الله قال نحن نوافقهم فى ذلك فان لهم عليها دليلا من المحسوسات ومخالفة الحس لا تجوز وان كان فى الباب خبر نؤوله بما يحتمله فضلا من ان ليس فى القرآن والخبر ما يدل على ذلك صريحا بل فيه ما يدل على الاستدارة كما قال تعالى كل فى فلك يسبحون والفلك اسم لشئ مستدير بل الواجب ان يقال بأن السموات سواء كانت مستديرة او مصفحة فهى مخلوقة بقدرة الله لا موجودة بايجاب وطبع واذا علم هذا فنقول السماء فى مكان وهو فضاء والفضاء لا نهاية له وكون السماء فى بعضه دون بعض ليس الا بقدرة مختار واليه الاشارة بقوله بغير عمد اى ليس على شئ يمنعها الزوال من موضعها وهى لا تزول الا بقدرة الله تعالى وقال بعضهم المعنى ان السموات بأسرها ومجموعها لا مكان لها لان المكان ما يعتمد عليه ما فيه فيكون متمكنا والحيز ما يشار الى ما فيه بسببه يقال ههنا وهناك وعلى هذا قالوا ان من يقع من شاهق جبل فهو فى الهواء فى حيز اذ يقال له هو ههنا او هناك وليس فى مكان اذ لا يعتمد على شئ فاذا حصل على الارض حصل فى مكان اذا علم هذا فالسموات ليست فى مكان تعتمد عليه فلا عمد لها وقوله ترونها فيه وجهان (احدهما) انه راجع الى السموات اى ليست هى بعمد وانتم ترونها كذلك بغير عمد (والثانى) انه راجع الى العمد أى بغير عمد مرئية وان كان هناك عمد غير مرئية فهى قدرة الله وارادته ❁ ثم قال تعالى (والقى فى الارض رواسى ان تميد بكم وبث فيها من كل دابة وانزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم) أى جبالا راسية ثابتة ان تميد اى كراهية ان تميد وقيل المعنى ان لا تميد واعلم ان الارض ثباتها بسبب ثقلها والا كانت تزول عن موضعها بسبب المياه والرياح ولو خلقها مثل الرمل لما كانت تثبت للزراعة كما نرى الاراضى الرملة ينتقل الرمل الذى فيها من موضع الى موضع ثم قال تعالى وبث فيها من كل دابة أى سكون الارض فيه مصلحة حركة الدواب فاسكنا الارض وحركنا الدواب ولو كانت الارض متزلزلة وبعض الاراضى يناسب بعض الحيوانات لكانت الدابة التى لا تعيش فى موضع تقع فى ذلك الموضع فيكون فيه هلاك الدواب اما اذا كانت الارض ساكنة والحيوانات متحركة تتحرك فى المواضع التى تناسبها وترعى فيها وتعيش فيها ثم قال تعالى وانزلنا من السماء ماء هذه نعمة اخرى انعمها الله على عباده وتمامها بسكون الارض لان البذر اذا لم يثبت الى ان ينبت لم يكن يحصل الزرع ولو كانت اجزاء الارض متحركة كالرمل لما حصل الثبات ولما كل النبات والعدول من المغايبة الى النفس فيه فصاحة وحكمة اما الفصاحة فمذكورة فى باب

(لقد لبثتم فى كتاب الله) اى علمه او قضائه او ما كتبه وعينه او فى اللوح او القرآن وهو قوله تعالى ومن ورائهم برزخ (الى يوم البعث) ردوا بذلك ما قالوه وايدوه باليمين كأنهم من فرط حيرتهم لم يدروا ان ذلك هو البعث الموعود الذى كانوا ينكرونه وكانوا يسمعون انه يكون بعد فناء الخلق كافة ويقدرون لذلك زمانا مديدا وان لم يعتقدوا حقيقته فرد العالمون مقالتهم ونبهوهم على انهم لبثوا الى غاية بعيدة كانوا يسمعونها وينكرونها ويكذبونهم بالاخبار بوقوعها حيث قالوا (فهذا يوم البعث) الذى كنتم توعدون فى الدنيا (ولكنكم كنتم لا تعلمون) انه حق فتستعجلون به استهزاء والفاء جواب شرط محذوف كما فى قول من قال

« قالوا خراسان اقصى ما يراد بنا

« ثم القفول فقد جئنا خراسانا »

(فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم) اى عذرهم وقرئ تنفع بالتاء محافظة على ظاهر اللفظ وان توسط بينهما فاصل (ولا هم يستعتبون) لا يدعون الى ما يقتضى اعتابهم اى ازالة عتبهم من التوبة والطاعة كما دعوا اليه فى الدنيا من قولهم استعتبنى فلان فاعتبته اى استرضانى فارضيته (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) اى وبالله لقد بينا لهم كل حال ووصفنا لهم كل صفة كأنها فى غرابتها مثل وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن كصفة المبعوثين يوم القيامة وقصتهم وما يقولون وما يقال لهم ويفعل بهم من رد اعتذارهم (ولئن جئتهم بآية) من آيات القرآن الناطقة بامثال ذلك (ليقولن الذين كفروا) لفرط عتوهم وعنادهم وقساوة قلوبهم مخاطبين للنبى عليه الصلاة والسلام والمؤمنين (ان انتم الا مبطلون) اى مزورون (كذلك) مثل ذلك الطبع الفظيع (يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) لا يطلبون العلم ولا يتحرون الحق بل (الالتفات)

الالتفات من ان السامع اذا سمع كلاما طويلا من نمط واحد ثم ورد عليه نمط آخر يستطيبه الاترى انك اذا قلت قال زيد كذا وكذا وقال خالد كذا وكذا وقال عمرو كذا ثم ان بكرا قال قولا حسنا يستطاب لما قد تكرر القول مرارا واما الحكمة فمن وجهين (احدهما) ان خلق الارض ثقيلا والسماء فى غير مكان قد يقع لجاهل انه بالطبع وبث الدواب يقع لبعضهم انه باختيار الدابة لان لها اختيارا فنقول الاول طبيعى والآخر اختيارى للحيوان ولكن لايشك احد فى ان الماء فى الهواء من جهة فوق ليس طبعا فان الماء لايكون بطبعه فوق ولا اختيار اذ الماء لااختيار له فهو بارادة الله تعالى فقال وانزلنا من السماء (الثانى) هو ان انزال الماء نعمة ظاهرة متكررة فى كل زمان متكثرة فى كل مكان فأسنده الى نفسه صريحا ليتنبه الانسان لشكر نعمته فيزيد له من رحمته وقوله تعالى فأنبتنا فيها من كل زوج اى من كل جنس وكل جنس فتحته زوجان لان النبات اما ان يكون شجرا واما ان يكون غير شجر والذى هو الشجر اما ان يكون مثمرا واما ان يكون غير مثمر والمثمر كذلك ينقسم قسمين وقوله تعالى كريم اى ذى كرم لانه يأتى كثيرا من غير حساب او مكرم مثل بغيض لمبغض * ثم قال تعالى (هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه) يعنى الله خالق وغيره ليس بخالق فكيف تتركون عبادة الخالق وتشتغلون بعبادة المخلوق * ثم قال تعالى (بل الظالمون فى ضلال مبين) اى بين او مبين للعاقل انه ضلال وهذا لان ترك الطريق والحيد عنه ضلال ثم ان كان الحيد عنه اويمنة او يسرة فهو لايبعد عن الطريق المستقيم مثل مايكون المقصد الى وراء فانه يكون غاية الضلال فالمقصد هو الله تعالى فمن يطلبه ويلتفت الى غيره من الدنيا وغيرها فهو ضال لكن من وجهه الى الله قد يصل الى المقصود ولكن بعد تعب وطول مدة ومن يطلبه ولا يلتفت الى ماسواه يكون كالذى على الطريق المستقيم يصل عن قريب من غير تعب واما الذى تولى لايصل الى المقصود اصلا وان دام فى السفر والمراد بالظالمين المشركون الواضعون لعبادتهم فى غير موضعها والواضعون انفسهم فى عبادة غير الله * ثم قال تعالى (ولقد آتينا لقمان الحكمة ان اشكر لله) لما بين الله فساد اعتقادهم بسبب عنادهم باشراك من لايخلق شيئا بمن خلق كل شىء بقوله هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه وبين ان المشرك ظالم ضال ذكر مايدل على ان ضلالهم وظلمهم بمقتضى الحكمة وان لم يكن هناك نبوة وهذا اشارة الى معنى وهو ان اتباع النبى عليه السلام لازم فيما لايعقل معناه اظهارا للتعبد فكيف مالايختص بالنبوة بل يدرك بالعقل معناه وماجاء به النبى عليه السلام مدرك بالحكمة وذكر حكاية لقمان وانه ادركه بالحكمة وقوله ولقد آتينا لقمان الحكمة عبارة عن توفيق العمل بالعلم فكل من اوتى توفيق العلم بالعمل فقد اوتى الحكمة وان اردنا تحديدها بما يدخل فيه حكمة الله تعالى فنقول حصول العمل على وفق المعلوم والذى يدل على ماذكرنا ان من تعلم شيئا ولايعلم مصالحه ومفاسده لايسمى حكيما وانما

يصرون على خرافات اعتقدوها وترهات ابتدعوها فان الجهل المركب يمنع ادراك الحق ويوجب تكذيب الحق (فاصبر) على ماتشاهد منهم من الاقوال الباطلة والافعال السيئة (ان وعد الله حق) وقد وعدك بالنصرة واظهار الدين واعلاء كلمة الحق ولابد من انجازه والوفاء به لامحالة (ولايستخفنك) لايحملنك على الخفة والقلق (الذين لايوقنون) بماتلوا عليهم من الآيات البينة بتكذيبهم اياها وايذائهم لك بأباطيلهم التى من جملتها قولهم ان انتم الا مبطلون فانهم شاكون ضالون ولايستبدع منهم امثال ذلك وقرئ بالنون الخفيفة وقرئ ولايستحقنك من الاستحقاق اى لايفتننك فيملكوك ويكونوا احق بك من المؤمنين واياما كان فظاهر النظم الكريم وان كان نهيا للكفرة عن استخفافه عليه السلام واستحقاقه لكنه فى الحقيقة نهى له عليه السلام عن التأثر من استخفافهم والافتتان بفتنتهم على طريق الكناية كما فى قوله تعالى ولايجرمنكم شنآن قوم على ان لاتعدلوا * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الروم كان له من الاجر عشر حسنات بعدد كل ملك يسبح الله تعالى بين السماء والارض وادرك ماضيع فى يومه وليلته

(سورة لقمان مكية وقيل الا)
(الذين يقيمون الصلاة ويؤتون)
(الزكاة فانه وجوبهما بالمدينة)
(وهو ضعيف لانه ينافى)
(شرعيتهما بمكة وقيل الا ثلاثا)
(من قوله ولو ان مافى الارض)
(من شجرة اقلام)
(وهى اربع او ثلاث وثلاثون آية)

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(الم تلك آيات الكتاب) سلف بيانه فى نظائره (الحكيم) اى ذى الحكمة لاشتماله عليها او هو وصف له بنعته تعالى او اصله الحكيم متزله اوقائله بحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه فانقلب مرفوعا فاستكن فى الصفة المشبهة وقيل الحكيم فعيل

يكون مخوفا ألا ترى ان من يلقى نفسه من مكان عال ووقع على موضع فانخسف به وظهر له كنز وسلم لا يقال انه حكيم وان ظهر لفعله مصلحة وخلوعن مفسدة لعدم علمه به اولا ومن يعلم ان الالقاء فيه اهلاك النفس ويلقى نفسه من ذلك المكان وتكسر اعضاؤه لا يقال انه حكيم وان علم ما يكون فى فعله ثم الذى يدل على ما ذكرنا قوله تعالى ان اشكر لله فان ان فى مثل هذا تسمى المفسرة ففسر الله ايتاء الحكمة بقوله ان اشكر لله وهو كذلك لان من جملة ما يقال ان العمل موافق للعلم لان الانسان اذا علم أمرين احدهما أهم من الآخر فان اشتغل بالأهم كان عمله موافقا لعلمه وكان حكمة وان اهمل الأهم كان مخالفا للعلم ولم يكن من الحكمة فى شئ لكن شكر الله أهم الاشياء فالحكمة اول ما تقتضى ذلك ثم ان الله تعالى بين ان بالشكر لا ينتفع الا الشاكر بقوله تعالى (ومن يشكر فانما يشكر لنفسه) وبين ان بالكفران لا يتضرر غير الكافر بقوله تعالى (ومن كفر فان الله غنى حميد) اى الله غير محتاج الى شكر حتى يتضرر بكفران الكافر وهو فى نفسه محمود سواء شكره الناس اولم يشكروه وفى الآية مسائل ولطائف (الاولى) فسر الله ايتاء الحكمة بالامر بالشكر لكن الكافر والجاهل مأموران بالشكر فينبغى ان يكون قد أوتى الحكمة (والجواب) ان قوله تعالى ان اشكر لله امر تكوين معناه آتيناه الحكمة بان جعلناه من الشاكرين وفى الكافر الامر بالشكر أمر تكليف (المسئلة الثانية) قال فى الشكر ومن يشكر بصيغة المستقبل وفى الكفران ومن كفر فان الله غنى وان كان الشرط يجعل الماضى والمستقبل فى معنى واحد كقول القائل من دخل دارى فهو حر ومن يدخل دارى فهو حر فنقول فيه اشارة الى معنى وارشاد الى امر وهو ان الشكر ينبغى ان يتكرر فى كل وقت لتكرر النعمة فمن شكر ينبغى ان يكرر والكفر ينبغى ان ينقطع فمن كفر ينبغى ان يترك الكفران ولان الشكر من الشاكر لا يقع بكماله بل ابدا يكون منه شئ فى العدم يريد الشاكر ادخاله فى الوجود كما قال رب اوزعنى ان اشكر نعمتك وكما قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها فأشار اليه بصيغة المستقبل تنبيها على ان الشكر بكماله لم يوجد واما الكفران فكل جزء يقع منه تام فقال بصيغة الماضى (المسئلة الثالثة) قال تعالى هنا ومن يشكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر بتقديم الشكر على الكفران وقال فى سورة الروم ومن كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلانفسهم يمهدون فنقول هناك كان الذكر للترهيب لقوله تعالى من قبل فأقم وجهك للدين القيم من قبل ان يأتى يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون وههنا الذكر للترغيب لان وعظ الاب للابن يكون بطريق اللطف والوعد وقوله ومن عمل صالحا يحقق ما ذكرنا اولا لان المذكور فى سورة الروم لما كان بعد اليوم الذى لا مرد له تكون الاعمال قد سبقت فقال بلفظ الماضى ومن عمل وههنا لما كان المذكور فى الابتداء قال ومن يشكر بلفظ المستقبل وقوله ومن كفر فان الله غنى عن حمد الحامدين حميد فى ذاته من غير حمدهم وانما الحامد ترتفع

بمعنى مفعل كما قالوا اعقدت اللبن فهو عقيد اى معقد وهو قليل (٧٣٤) وقيل بمعنى فاعل (هدى ورحمة) بالنصب على الحالية من الآيات والعامل فيهما معنى الاشارة وقرئا بالرفع على انهما خبران آخران لاسم الاشارة اولمبتدأ محذوف (للمحسنين) اى العاملين للحسنات على ان يراد بها مشاهيرها المعهودة فى الدين فقوله تعالى (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون) بيان لما عملوها من الحسنات على طريقة قوله

* الالمعى الذى يظن بك الظن * كأن قد رأى وقد سمعا *

وان اريد بها جميع الحسنات فهو تخصيص لهذه الثلاث بالذكر من بين سائر شعبها لاظهار فضلها وانافتها على غيرها وتخصيص الوجه الاول بصورة كون الموصول صفة للمحسنين والوجه الاخير بصورة كونه مبتدأ عالاوجه له (اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون) الفائزون بكل مطلوب والناجون من كل مهروب لحيازتهم قطرى العلم والعمل وتقدم ما فيه من المقال فى مطلع سورة البقرة بما لا مزيد عليه (ومن الناس) محله الرفع على الابتداء باعتبار مضمونه اوبتقدير الموصوف ومن فى قوله تعالى (من يشترى لهو الحديث) موصولة اوموصوفة محلها الرفع على الخبرية والمعنى وبعض الناس اوبعض من الناس الذى يشترى اوفريق يشترى على ان مناط الافادة والمقصود بالاصالة هو اتصافهم بما فى حيز الصلة اوالصفة لا كونهم ذوات اولئك المذكورين كما فى قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر الآيات ولهو الحديث ما يلهى عما يعنى من المهمات كالاحاديث التى لا اصل لها والاساطير التى لا اعتداد بها والمضاحك وسائر ما لاخير فيه من فضول الكلام والاضافة بمعنى من التبيينية ان

(مرتبته)

مرتبته بكونه حامدا لله تعالى * ثم قال تعالى (واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم) عطف على معنى ما سبق وتقديره آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكرا فى نفسه وحين جعلناه واعظا لغيره وهذا لان علو مرتبة الانسان بأن يكون كاملا فى نفسه ومكملا لغيره فقوله ان اشكر اشارة الى الكمال وقوله واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه اشارة الى التكميل (وفى هذه لطيفة) وهى ان الله ذكر لقمان وشكر سعيه حيث ارشد ابنه ليعلم منه فضيلة النبى عليه السلام الذى ارشد الاجانب والاقارب فان ارشاد الولد امر معتاد واما تحمل المشقة فى تعليم الاباعد فلا ثم انه فى الوعظ بدأ بالاهم وهو المنع من الاشراك وقال ان الشرك لظلم عظيم اما انه ظلم فلانه وضع للنفس الشريف المكرم بقوله تعالى ولقد كرمنا بنى آدم فى عبادة الخسيس او لانه وضع العبادة فى غير موضعها وهى غير وجه الله وسبيله واما انه عظيم فلانه وضع فى موضع ليس موضعه ولا يجوز ان يكون موضعه وهذا لان من يأخذ مال زيد ويعطى عمرا يكون ظلما من حيث انه وضع مال زيد فى يد عمرو ولكن جاز ان يكون ذلك ملك عمرو او يصير ملكه ببيع سابق او تمليك لاحق واما الاشراك فوضع المعبودية فى غير الله تعالى ولا يجوز ان يكون غيره معبودا اصلا * ثم قال تعالى (ووصينا الانسان بوالديه حملته امه وهنا على وهن وفصاله فى عامين ان اشكر لى ولوالديك الى المصير) لما منعه من العبادة لغير الله والخدمة قريبة منها فى الصورة بين انها غير ممتنعة بل هى واجبة لغير الله فى بعض الصور مثل خدمة الابوين ثم بين السبب فقال حملته امه يعنى لله على العبد نعمة الايجاد ابتداء بالخلق ونعمة الابقاء بالرزق وجعل بفضله للام ما له صورة ذلك وان لم يكن لها حقيقة فان الحمل به يظهر الوجود وبالرضاع تحصل التربية والبقاء فقال حملته امه اى صارت بقدرة الله سبب وجوده وفصاله فى عامين اى صارت بقدرته ايضا سبب بقائه فاذا كان منها ما له صورة الوجود والبقاء وجب عليه ما له شبه العبادة من الخدمة فان الخدمة لها صورة العبادة (فان قال قائل) وصى الله بالوالدين وذكر السبب فى حق الام (فنقول) خص الام بالذكر وفى الاب ما وجد فى الام فان الاب حمله فى صلبه سنين ورباه بكسبه سنين فهو ابلغ وقوله ان اشكر لى ولوالديك لما كان الله تعالى بفضله جعل من الوالدين صورة ما من الله فان الوجود فى الحقيقة من الله وفى الصورة يظهر من الوالدين جعل الشكر بينهما فقال ان اشكر لى ولوالديك ثم بين الفرق وقال الى المصير يعنى نعمتهما مختصة بالدنيا ونعمتى فى الدنيا والآخرة فان الى المصير او تقول لما أمر بالشكر لنفسه وللوالدين قال الجزاء على وقت المصير الى * ثم قال تعالى (وان جاهداك على ان تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من اناب الى ثم الى مرجعكم فانبئكم بما كنتم تعملون) يعنى ان خدمتهما واجبة وطاعتهما لازمة ما لم يكن فيها ترك طاعة الله اما اذا افضى اليه فلا تطعهما وقد

اريد بالحديث المنكر ويعنى التبعيضية ان اريد به الاعم من ذلك وقيل نزلت الآية فى النضر بن الحرث اشترى كتب الاعاجم وكان يحدثها قريشا ويقول ان كان محمد عليه الصلاة والسلام يحدثكم بحديث عاد وثمود فانا احدثكم بحديث رستم واسفنديار والاكاسرة وقيل كان يشترى القيان ويحملهن على معاشرة من اراد الاسلام ومنعه عنه (ليضل عن سبيل الله) اى دينه الحق الموصل اليه تعالى او عن قراءة كتابه الهادى اليه تعالى وقرئ ليضل بفتح الياء اى ليثبت ويستمر على ضلاله او ليزداد فيه (بغير علم) اى بحال ما يشتريه او بالتجارة حيث استبدل الشر البحت بالخير المحض (ويتخذها) بالنصب عطفا على يضل والضمير للسبيل فانها مما يذكر ويؤنث وهو دين الاسلام او القرآن اى ويتخذها (هزوا) مهزوا به وقرئ ويتخذها بالرفع عطفا على يشترى وقوله تعالى (اولئك) اشارة الى من والجمع باعتبار معناها كان الافراد فى الفعلين باعتبار لفظها وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بذكر المشار اليه للايذان ببعد منزلتهم فى الشر اى اولئك الموصوفون بما ذكر من الاشتراء للاضلال (لهم عذاب مهين) لما تصفوا به من اهانتهم الحق بايثار الباطل عليه وترغيب الناس فيه (واذا تتلى عليه) اى على المشترى افراد الضمير فيه وفيما بعده كالضمائر الثلاثة الاول باعتبار لفظ من بعد ما جمع فيما بينهما باعتبار معناها (آياتنا) التى هى آيات الكتاب الحكيم هدى ورحمة للمحسنين (ولى) اعرض عنها غير معتد بها (مستكبرا) مبالغا فى التكبر (كأن لم يسمعها) حال من ضمير ولى او من ضمير مستكبرا والاصل كأنه فحذف ضمير الشأن وخففت المثقلة اى مشبها حاله حال من لم يسمعها وهو سامع وفيه رمز الى ان من سمعها لا يتصور منه التولية

ذكرنا تفسير الآية فى العنكبوت وقال ههنا واتبع سبيل من أناب الى يعنى صاحبهما بجسمك فان حقهما على جسمك واتبع سبيل النبى عليه السلام بعقلك فانه مربى عقلك كما ان الوالد مربى جسمك * ثم قال تعالى (يابنى انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة او فى السموات او فى الارض يأت بها الله ان الله لطيف خبير) لما قال فأنبئكم بما كنتم تعملون وقع لابنه ان ما يفعل فى خفية يخفى فقال يابنى انها اى الحسنة والسيئة ان كانت فى الصغر مثل حبة خردل وتكون مع ذلك الصغر فى موضع حريز كالصخرة لاتخفى على الله وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله فتكن بالفاء لافادة الاجتماع يعنى ان كانت صغيرة ومع صغرها تكون خفية فى موضع حريز كالصخرة لاتخفى على الله لان الفاء للاتصال بالتعقيب (المسئلة الثانية) لو قيل الصخرة لابد من ان تكون فى السموات او فى الارض فالفائدة فى ذكرها ولان القائل لو قال هذا رجل او امرأة او ابن عمرو لايصح هذا الكلام لكون ابن عمرو داخلا فى احد القسمين فكيف يفهم هذا فنقول الجواب عنه من اوجه (احدها) ما قاله بعض المفسرين وهو ان المراد بالصخرة صخرة عليها الثور وهى لا فى الارض ولا فى السماء (والثانى) ما قاله الزمخشرى وهو ان فيه اضمارا تقديره فتكن فى صخرة او فى موضع آخر فى السموات او فى الارض (والثالث) ان نقول تقديم الخاص وتأخير العام فى مثل هذا التقسيم جائز وتقديم العام وتأخير الخاص غير جائز (اما الثانى) فلا يتم ان من قال هذا فى دار زيد أو فى غيرها او فى دار عمرو لايصح لكون دار عمرو داخلة فى قوله او فى غيرها (اما الاول) فلأن قول القائل هذا فى دار زيد او فى دار عمرو او فى غيرها صحيح غير قبيح فكذلك ههنا قدم الاخص او نقول خفاء الشئ يكون بطرق منها ان يكون فى غاية الصغر ومنها ان يكون بعيدا ومنها ان يكون فى ظلمة ومنها ان يكون من وراء حجاب فان انتفت الامور بأسرها بأن يكون كبيرا قريبا فى ضوء من غير حجاب فلا يخفى فى العادة فأثبت الله الرؤية والعلم مع انتفاء الشرائط فقوله انها ان تك مثقال حبة اشارة الى الصغر وقوله فتكن فى صخرة اشارة الى الحجاب وقوله او فى السموات اشارة الى البعد فانها ابعد الابعاد وقوله او فى الارض اشارة الى الظلمات فان جوف الارض اظلم الاماكن وقوله يأت بها الله ابلغ من قول القائل يعلمها الله لان من يظهر له الشئ ولا يقدر على اظهاره لغيره يكون حاله فى العلم دون حال من يظهر له الشئ ويظهره لغيره فقوله يأت بها الله اى يظهرها الله للاشهاد وقوله ان الله لطيف اى نافذ القدرة خبير اى عالم ببواطن الامور * ثم قال تعالى (يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما اصابك ان ذلك من عزم الامور) لما منعه من الشرك وخوفه بعلم الله وقدرته امره بما يلزمه من التوحيد وهو الصلاة وهى العبادة لوجه الله مخلصا وبهذا يعلم ان الصلاة كانت فى سائر الملل غير ان هيئتها اختلفت ثم قال تعالى وأمر بالمعروف وانه عن المنكر اى اذا كملت انت فى نفسك بعبادة الله فكمل

والاستكبار لما فيها من الامور الموجبة للاقبال عليها والخضوع لها على طريقة قول من قال * كأن لم يجزع على ابن طريف * (كأن فى اذنيه وقرا) حال من ضمير لم يسمعها اى مشبها حاله حال من فى اذنيه ثقل مانع (٧٣٦) من السماع ويجوز ان يكونا استئنافين وقرئ فى اذنيه بسكون الذال (فبشره بعذاب اليم) اى فاعلمه بأن العذاب المفرط فى الايلام لاحق به لامحالة وذكر البشارة للتهكم (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات) بيان لحال المؤمنين بآياته تعالى اثر بيان حال الكافرين بها اى الذين آمنوا بآياته تعالى وعملوا بموجبها (لهم) بمقابلة ما ذكر من ايمانهم واعمالهم (جنات النعيم) اى نعيم جنات فعكس للمبالغة والجملة خبر ان والاحسن ان يجعل لهم هو الخبر لان وجنات النعيم مرتفعا به على الفاعلية وقوله تعالى (خالدين فيها) حال من الضمير فى لهم او من جنات النعيم لاشتماله على ضميرهما والعامل ما تعلق به اللام (وعد الله حقا) مصدران مؤكدان الاول لنفسه والثانى لغيره لان قوله تعالى لهم جنات النعيم فى معنى وعدهم الله جنات النعيم فأكد معنى الوعد بالوعد واما حقا فدل على معنى الثبات اكد به معنى الوعد ومؤكدهما جميعا لهم جنات النعيم (وهو العزيز) الذى لايغلبه شئ ليمنعه من انجاز وعده او تحقيق وعيده (الحكيم) الذى لايفعل الا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة (خلق السموات بغير عمد) الخ استئناف مسوق للاستشهاد بما فصل فيه على عزته تعالى التى هى كمال القدرة وحكمته التى هى كمال العلم وتمهيد قاعدة التوحيد وتقريره وابطال امر الاشراك وتبكيت اهله والعمد جمع عماد كأهب جمع اهاب وهو ما يعمد به اى يسند يقال عمدت الحائط اذا دعمته اى بغير دعائم على ان الجمع لتعدد السموات وقوله تعالى (ترونها) استئناف جئ به للاستشهاد على ما ذكر من خلقه تعالى لها غير معمودة بمشاهدتهم لها كذلك او صفة لعمد اى خلقها

غيرك فان شغل الانبياء وورثتهم من العلماء هو ان يكملوا فى انفسهم ويكملوا غيرهم (فان قال قائل) كيف قدم فى وصيته لابنه الامر بالمعروف على النهى عن المنكر وقيل قدم النهى عن المنكر على الامر بالمعروف فانه اول ماقال يابنى لاتشرك ثم قال يابنى أقم الصلاة (فنقول) هو كان يعلم من ابنه انه معترف بوجود الله فامره بهذا المعروف ونهاه عن المنكر الذى يترتب على هذا المعروف فان المشرك بالله لايكون نافيا لله فى الاعتقاد وان كان يلزمه نفيه بالدليل فكان كل معروف فى مقابلته منكر والمعروف فى معرفة الله اعتقاد وجوده والمنكر اعتقاد وجود غيره معه فلم يأمره بذلك المعروف لحصوله ونهاه عن المنكر لانه ورد فى التفسير ان ابنه كان مشركا فوعظه ولم يزل يعظه حتى اسلم واما ههنا فأمره امرا مطلقا والمعروف مقدم على المنكر ثم قال تعالى واصبر على ما أصابك يعنى ان من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يؤذى فأمره بالصبر عليه وقوله ان ذلك من عزم الامور اى من الامور الواجبة المعزومة اى المقطوعة ويكون المصدر بمعنى المفعول كما تقول اكلى فى النهار رغيف خبز اى مأكولى ❁ ثم قال تعالى (ولاتصعر خدك للناس ولاتمش فى الارض مرحا ان الله لايحب كل مختال فخور) لما امره بأن يكون كاملا فى نفسه مكملا لغيره وكان يخشى بعدهما من امرين (احدهما) التكبر على الغير بسبب كونه مكملا له (والثانى) التبختر فى النفس بسبب كونه كاملا فى نفسه فقال ولاتصعر خدك للناس تكبرا ولا تمش فى الارض مرحا تبخترا ان الله لايحب كل مختال يعنى من يكون به خيلاء وهو الذى يرى الناس عظمة نفسه وهو التكبر فخور يعنى من يكون مفتخرا بنفسه وهو الذى يرى عظمة لنفسه فى عينه (وفى الآية لطيفة) وهو ان الله تعالى قدم الكمال على التكميل حيث قال أقم الصلاة ثم قال وأمر بالمعروف وفى النهى قدم مايورثه التكميل على مايورثه الكمال حيث قال ولاتصعر خدك ثم قال ولاتمش فى الارض مرحا لان فى طرف الاثبات من لايكون كاملا لايمكن ان يصير مكملا فقدم الكمال وفى طرف النفى من يكون متكبرا على غيره يكون متبخترا لانه لايتكبر على الغير الا عند اعتقاده انه اكبر منه من وجه واما من يكون متبخترا فى نفسه فقد لايتكبر ويتوهم انه يتواضع للناس فقدم نفى التكبر ثم نفى التبختر لانه لو قدم نفى التبختر لزم منه نفى التكبر فلا يحتاج الى النهى عنه ومثاله انه لايجوز ان يقال لاتفطر ولاتأكل لان من لايفطر لايأكل ويجوز ان يقال لاتأكل ولاتفطر لان من لايأكل قد يفطر بغير الاكل وللقائل ان يقول ان مثل هذا الكلام يكون للتفسير فيقول لاتفطر ولاتأكل اى لاتفطر بأن تأكل ولايكون نهيين بل واحدا ❁ ثم قال تعالى (واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ان انكر الاصوات لصوت الحمير) لما قال ولاتمش فى الارض مرحا وعدم ذلك قد يكون بضده وهو الذى يخالف غاية الاختلاف وهو مشى المتماوت الذى يرى من نفسه الضعف تزهدا فقال واقصد فى مشيك اى كن وسطا بين الطرفين المذمومين وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) هل للامر بالغض من الصوت مناسبة

بغير عمد مرئية على ان التقييد للرمز الى انه تعالى (٧٢٧) عمدها بعمد لاترونها هى عمد القدرة (والقى فى الارض رواسى) بيان لصنعه البديع فى قرار الارض اثر بيان صنعه الحكيم فى قرار السموات اى القى فيها جبالا ثوابت وقد مر مافيه من الكلام فى سورة الرعد (ان تميد بكم) كراهة ان تميل بكم فان بساطة اجزائها تقتضى تبدل احيازها واوضاعها لامتناع اختصاص كل منها لذاته او لشئ من لوازمه بحيز معين ووضع مخصوص (وبث فيها من كل دابة) من كل نوع من انواعها (وانزلنا من السماء ماء) هو المطر (فانبتنا فيها) بسبب ذلك الماء (من كل زوج كريم) من كل صنف كثير المنافع والالتفات الى نون العظمة فى الفعلين لابراز مزيد الاعتناء بامرهما (هذا) اى ماذكر من السموات والارض وما تعلق بهما من الامور المعدودة (خلق الله) اى مخلوقه (فأرونى ماذا خلق الذين من دونه) مما اتخذتموهم شركاء له سبحانه فى العبادة حتى استحقوا به العبودية وماذا نصب بخلق اوما مرتفع بالابتداء وخبره ذا بصلته وأرونى متعلق به وقوله تعالى (بل الظالمون فى ضلال مبين) اضراب عن تبكيتهم بما ذكر الى التسجيل عليهم بالضلال البين المستدعى للاعراض عن مخاطبتهم بالمقدمات المعقولة الحقة لاستحالة ان يفهموا منها شيئا فيهتدوا به الى العلم ببطلان ماهم عليه او يتأثروا من الالزام والتبكيت فينزجروا عنه ووضع الظاهر موضع ضميرهم للدلالة على انهم بالشرك هم واضعون للشئ فى غير موضعه ومتعدون عن الحدود وظالمون لانفسهم بتعريضها للعذاب الخالد (ولقد آتينا لقمان الحكمة) كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان الشرك وهو لقمان بن باعوراء من اولاد آزر ابن ايوب عليه السلام

اوخالته وعاش حتى ادرك داود عليه السلام واخذ عنه العلم وكان يفتى قبل

مع الامر بالقصد فى المشى فنقول نعم سواء علمناها نحن او لم نعلمها فى كلام الله من الفوائد ما لا يحصره حد ولا يحصيه عد ولا يعلمه احد والذى يظهر وجوه (الاول) هو ان الانسان لما كان شريفا تكون مطالبه شريفة فيكون فواتها خطرا فاقدر الله الانسان على تحصيلها بالمشى فان عجز عن ادراك مقصوده ينادى مطلوبه فيقف له او يأتيه مشيا اليه فان عجز عن ابلاغ كلامه اليه يكتب اليه وبعض الحيوانات يشارك الانسان فى تحصيل المطلوب بالصوت كما ان الغنم تطلب السخلة والبقرة العجل والناقة الفصيل بالثغاء والخوار والرغاء ولكن لا تتعدى الى غيرها والانسان يميز البعض عن البعض فاذا كان المشى والصوت مفضيين الى مقصود واحد لما ارشده الى احدهما ارشده الى الآخر (الثانى) هو ان الانسان له ثلاثة اشياء عمل بالجوارح يشاركه فيه الحيوانات فانه حركة وسكون وقول باللسان ولا يشاركه فيه غيره وعزم بالقلب وهو لا اطلاع عليه الا لله وقد اشار اليه بقوله تعالى انها ان تك مثقال حبة من خردل اى اصلح ضميرك فان الله خبير بقى الامران فقال واقصد فى مشيك واغضض من صوتك اشارة الى التوسط فى الافعال والاقوال (الثالث) هو ان لقمان أراد ارشاد ابنه الى السداد فى الاوصاف الانسانية والاوصاف التى هى للملك الذى هو اعلى مرتبة منه والاوصاف التى للحيوان الذى هو ادنى مرتبة منه فقوله وأمر بالمعروف وانه عن المنكر اشارة الى المكارم المختصة بالانسان فان الملك لا يأمر ملكا آخر بشئ ولا ينهاه عن شئ وقوله ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الارض مرحا الذى هو اشارة الى عدم التكبر والتبختر اشارة الى المكارم التى هى صفة الملائكة فان عدم التكبر والتبختر صفتهم وقوله واقصد فى مشيك واغضض من صوتك اشارة الى المكارم التى هى صفة الحيوان ثم قال تعالى ان انكر الاصوات لصوت الحمير وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لم ذكر المانع من رفع الصوت ولم يذكر المانع من سرعة المشى نقول اما على قولنا ان المشى والصوت كلاهما موصلان الى شخص مطلوب ان ادركه بالمشى اليه فذاك والا فيوقفه بالنداء فنقول رفع الصوت يؤذى السامع ويقرع الصماخ بقوة وربما يخرق الغشاء الذى داخل الاذن واما السرعة فى المشى فلا تؤذى او ان كانت تؤذى فلا تؤذى غير من فى طريقه والصوت يبلغ من على اليمين واليسار ولان المشى يؤذى آلة المشى والصوت يؤذى آلة السمع وآلة السمع على باب القلب فان الكلام ينتقل من السمع الى القلب ولا كذلك المشى واما على قولنا الاشارة بالمشى والصوت الى الافعال والاقوال فلان القول قبيحه اقبح من قبيح الفعل وحسنه احسن لان اللسان ترجمان القلب والاعتبار يصحح الدعوى (المسئلة الثانية) كيف يفهم كونه انكر مع ان مس المنشار بالمبرد وحت النحاس بالحديد اشد تنفيرا نقول الجواب عنه من وجهين (احدهما) ان المراد ان انكر اصوات الحيوانات صوت الحمير فلا يرد ما ذكرتم وما ذكرتم فى اكثر الامر لمصلحة وعمارة فلا ينكر بخلاف صوت الحمير وهذا هو

مبعثه وقيل كان قاضيا فى بنى اسرائيل والجمهور على انه كان حكيما ولم يكن نبيا والحكمة فى عرف العلماء استكمال النفس الانسانية باقتباس العلوم النظرية واكتساب الملكة التامة على الافعال الفاضلة على قدر طاقتها ومن حكمته انه صحب داود عليه السلام شهورا وكان يسرد الدرع فلم يسأله عنها فلما اتمها لبسها وقال نعم لبوس الحرب انت فقال الصمت حكمة وقليل فاعله فقال له داود عليه السلام بحق ما سميت حكيما وان داود عليه السلام قال له يوما كيف اصبحت فقال اصبحت فى يدى غيرى فتفكر داود فيه فصعق صعقة وانه امره مولاه بان يذبح شاة ويأتى باطيب مضغتين منها فاتى باللسان والقلب ثم بعد ايام امره بان يأتى باخبث مضغتين منها فاتى بهما ايضا فسأله عن ذلك فقال هما اطيب شئ اذا طابا واخبث شئ اذا خبثا ومعنى (ان اشكر لله) اى اشكر له تعالى على ان ان مفسرة فان ايتاء الحكمة فى معنى القول وقوله تعالى (ومن يشكر) الخ استئناف مقرر لمضمون ما قبله موجب للامتثال بالامر اى ومن يشكر له تعالى (فانما يشكر لنفسه) لان منفعته التى هى ارتباط العتيد واستجلاب المزيد مقصورة عليها (ومن كفر فان الله غنى) عن كل شئ فلا يحتاج الى الشكر ليتضرر بكفر من كفر (حميد) حقيق بالحمد وان لم يحمده احد او محمود بالفعل ينطق بحمده جميع المخلوقات بلسان الحال وعدم التعرض لكونه تعالى مشكورا لما ان الحمد متضمن للشكر بل هو رأسه كما قال عليه الصلاة والسلام الحمد رأس الشكر لم يشكر الله عبد لم يحمده فاثباته له تعالى اثبات للشكر له قطعا (واذ قال لقمان لابنه) انعم وقيل اشكم وقيل ماثان (وهو يعظه يا بنى) تصغير اشفاق وقرئ يا بنى باسكان الياء وبكسرها (لا تشرك بالله) قيل كان ابنه كافرا فلم يزل به حتى اسلم ومن وقف على لا تشرك جعل بالله قسما (ان الشرك لظلم عظيم) تعليل للنهى او للانتهاء عن الشرك (الجواب)

(ووصينا الانسان بوالديه) الخ كلام مستأنف اعترض به على نهج الاستطراد فى اثناء وصية لقمان تأكيدا لما فيها من النهى عن الشرك وقوله تعالى (حملته أمه) الى قوله فى عامين اعتراض بين المفسر والمفسر (۷۳۹) وقوله تعالى (وهنا) حال من امه اى ذات وهن او مصدر مؤكد لفعل هو الحال

الجواب الثانى (المسئلة الثالثة) انكرهو افعل التفضيل فمن اى باب هو نقول يحتمل ان يكون من باب أطوع له من بنانه بمعنى اشد طاعة فان افعل لايجئ فى مفعل ولا فى مفعول ولا فى باب العيوب الا ماشذ كقولهم اطوع من كذا للتفضيل على المطيع واشغل من ذات النحيين للتفضيل على المشغول واحق من فلان من باب العيوب وعلى هذا فهو فى باب افعل كاشغل فى باب مفعول فيكون للتفضيل على المنكر او نقول هو من باب اشغل مأخوذا من نكر الشئ فهو منكر وهذا منكور منه (وعلى هذا فله معنى لطيف) وهو ان كل حيوان قد يفهم من صوته بانه يصيح من ثقل أو تعب كالبعير او غير ذلك والحمار لو مات تحت الحمل لايصيح ولو قتل لايصيح وفى بعض اوقات عدم الحاجة يصيح وينهق فصوته منكور ويمكن ان يقال هو من نكير كأجدر من جدير * ثم قال تعالى (الم تروا ان الله سخر لكم مافى السموات والارض واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) لما استدل بقوله تعالى خلق السموات بغير عمد على الوحدانية وبين بحكاية لقمان ان معرفة ذلك غير مختصة بالنبوة بل ذلك موافق الحكمة وماجاء به النبى عليه السلام من التوحيد والصلاة ومكارم الاخلاق كلها حكمة بالغة ولو كان تعبدا محضا للزم قبوله فضلا عن انه على وفق الحكمة استدل على الوحدانية بالنعمة لانا بينا مرارا ان الملك يخدم لعظمته وان لم ينعم ويخدم لنعمته ايضا فلما بين انه المعبود لعظمته بخلقه السموات بلا عمد والقائه فى الارض الرواسى وذكر بعض النعم بقوله وانزلنا من السماء ماء ذكر بعده عامة النعم فقال سخر لكم مافى السموات أى سخر لاجلكم مافى السموات فان الشمس والقمر والنجوم مسخرات بامر الله وفيها فوائد لعباده وسخر مافى الارض لاجل عباده وقوله واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وهى مافى الاعضاء من السلامة وباطنة وهى مافى القوى فان العضو ظاهر وفيه قوة باطنة ألا ترى ان العين والاذن شحم وغضروف ظاهر واللسان والانف لحم وعظم ظاهر وفى كل واحد معنى باطن من الابصار والسمع والذوق والشم وكذلك كل عضو وقد يبطل القوة ويبقى العضو قائما وهذا احسن مما قيل فان على هذا الوجه يكون الاستدلال بنعمة الآفاق وبنعمة الانفس فقوله مافى السموات ومافى الارض يكون اشارة الى النعم الآفاقية وقوله واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة يكون اشارة الى النعم الانفسية وفيهما أقوال كثيرة مذكورة فى جميع كتب التفاسير ولا يبعد ان يكون ماذكرناه مقولا منقولا وان لم يكن فلا يخرج من ان يكون سائغا معقولا * ثم قال تعالى (ومن الناس من يجادل فى الله) يعنى لما ثبتت الوحدانية بالخلق والانعام فمن الناس من يجادل فى الله ويثبت غيره اما الها او منعما (بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) هذه امور ثلاثة مرتبة العلم والهدى والكتاب والعلم أعلى من الهدى والهدى من الكتاب وبيانه هو ان العلم تدخل فيه الاشياء الواضحة اللائحة التى تعلم من غير هداية هاد ثم الهدى يدخل فيه الذى يكون

اى تهن وهنا وقوله تعالى (على وهن) صفة للمصدر اى كائنا على وهن اى تضعف ضعفا فوق ضعف فانها لاتزال يتضاعف ضعفها وقرئ وهنا على وهن بالتحريك يقال وهن يهن وهنا ووهن يوهن وهنا (وفصاله فى عامين) اى فطامه فى تمام عامين وهى مدة الرضاع عند الشافعى وعند ابى حنيفة رحمهما الله تعالى هى ثلاثون شهرا وقد بين وجهه فى موضعه وقرئ وفصله (ان اشكر لى ولوالديك) تفسير لوصينا وما بينهما اعتراض مؤكد للوصية فى حقها خاصة ولذلك قال عليه الصلاة والسلام لمن قال له من ابر أمك ثم أمك ثم أمك ثم قال بعد ذلك ثم اباك (الى المصير) تعليل لوجوب الامتثال اى الى الرجوع لا الى غيرى فأجازيك على ماصدر عنك من الشكر والكفر (وان جاهداك على ان تشرك بى ماليس لك به) اى بشركته له تعالى فى استحقاق العبادة (علم فلا تطعهما) فى ذلك (وصاحبهما فى الدنيا معروفا) اى صحابا معروفا يرتضيه الشرع وتقتضيه المروءة (واتبع سبيل من اناب الى) بالتوحيد والاخلاص فى الطاعة (ثم الى مرجعكم) اى مرجعك ومرجعهما ومرجع من أناب الى (فأنبئكم) عند رجوعكم (بما كنتم تعملون) بان اجازى كلا منكم بما صدر عنه من الخير والشر وقوله تعالى (يابنى) الخ شروع فى حكاية بقية وصايا لقمان اثر تقرير مافى مطلعها من النهى عن الشرك

وتأكيد بالاعتراض (انها ان تك مثقال حبة من خردل) اى ان الخصلة من الاساءة او الاحسان ان تك مثلا فى الصغر كحبة الخردل وقرئ برفع مثقال

على ان الضمير للقصة وكان تامة و التأنيث لاضافة المثقال الى الحبة كما فى قول من قال * كما شرقت صدر القناة من الدم * او لان المراد به الحسنة او السيئة (فتكن فى صخرة او فى السموات أو فى الارض) اى فتكن مع كونها فى اقصى غايات (٧٤٠) الصغر والقماءة فى أخفى مكان واحرزه كجوف الصخرة

فى كتاب والذى يكون من الهام ووحى فقال تعالى يجادل ذلك المجادل لامن علم واضح ولامن هدى أتاه من هاد ولامن كتاب وكأن الاول إشارة الى من اوتى من لدنه علما كما قال تعالى وعلمك مالم تكن تعلم (والثانى) اشارة الى مرتبة من هدى الى صراط مستقيم بواسطة كما قال تعالى علمه شديد القوى (والثالث) اشارة الى مرتبة من اهتدى بواسطتين ولهذا قال تعالى الم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين وقال فى هذه السورة هدى ورحمة للمحسنين وقال فى السجدة ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى اسرائيل فالكتاب هدى لقوم النبى عليه السلام والنبى هداه من الله تعالى من غير واسطة أو بواسطة الروح الامين فقال تعالى يجادل من يجادل لابعلم آتيناه من لدنا كشفا ولا بهدى ارسلناه اليه وحيا ولا بكتاب يتلى عليه وعظا (ثم فيه لطيفة اخرى) وهو انه تعالى قال فى الكتاب ولا كتاب منير لان المجادل منه من كان يجادل عن كتاب ولكن محرف مثل التوراة بعد التحريف فلو قال ولا كتاب لكان لقائل ان يقول لا يجادل من غير كتاب فان بعض مايقولون فهو فى كتابهم ولان المجوس والنصارى يقولون بالتثنية والتثليث عن كتابهم فقال ولا كتاب منير فان ذلك الكتاب مظلم ولما لم يحتمل فى المرتبة الاولى والثانية التحريف والتبديل لم يقل بغير علم ولا هدى منير او حق او غير ذلك * ثم قال تعالى (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) بين ان مجادلتهم مع كونها من غير علم فهى فى غاية القبح فان النبى عليه السلام يدعوهم الى كلام الله وهم يأخذون بكلام آبائهم وبين كلام الله تعالى وكلام العلماء بون عظيم فكيف مابين كلام الله وكلام الجهلاء ثم ان ههنا شيئا آخر وهو انهم قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا يعنى نترك القول النازل من الله ونتبع الفعل والقول ادل من الفعل لان الفعل يحتمل ان يكون جائزا ويحتمل ان يكون حراما وهم تعاطوه ويحتمل ان يكون واجبا فى اعتقادهم والقول بين الدلالة فلو سمعنا قول قائل افعل ورأينا فعله يدل على خلاف قوله لكان الواجب الاخذ بالقول فكيف والقول من الله والفعل من الجهال * ثم قال تعالى (أولو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير) استفهاما على سبيل التعجب فى الانكار يعنى الشيطان يدعوهم الى العذاب والله يدعو الى الثواب وهم مع هذا يتبعون الشيطان * ثم قال تعالى (ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الامور) لما بين حال المشرك والمجادل فى الله بين حال المسلم المستسلم لامر الله فقوله ومن يسلم وجهه الى الله اشارة الى الايمان وقوله وهو محسن اشارة الى العمل الصالح فتكون الآية فى معنى قوله تعالى من آمن وعمل صالحا وقوله فقد استمسك بالعروة الوثقى اى تمسك بحبل لا انقطاع له وترقى بسببه الى أعلى المقامات وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال ههنا ومن يسلم وجهه الى الله وقال فى سورة البقرة بلى من اسلم وجهه لله فعدى ههنا بالى وهناك باللام قال الزمخشرى معنى قوله اسلم لله اى جعل نفسه لله سالما اى خالصا

او حيث كانت فى العالم العلوى او السفلى (يأت بها الله) اى يحضرها ويحاسب عليها (ان الله لطيف) يصل علمه الى كل خفى (خبير) بكنهه وبعد ما امره بالتوحيد الذى هو اول مايجب على الانسان فى ضمن النهى عن الشرك ونبهه على كمال علم الله تعالى وقدرته امره بالصلاة التى هى اكمل العبادات تكميلا له من حيث العمل بعد تكميله من حيث الاعتقاد فقال مستميلا له (يابنى أقم الصلاة) تكميلا لنفسك (وأمر بالمعروف وانه عن المنكر) تكميلا لغيرك (واصبر على ما اصابك) من الشدائد والمحن لاسيما فيما امرت به (ان ذلك) اشارة الى كل ماذكر ومافيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه لما مر مرارا من الاشعار ببعد منزلته فى الفضل (من عزم الامور) اى مما عزمه الله تعالى وقطعه على عباده من الامور لمزيد مزيتها مصدر اطلق على المفعول وقد جوز ان يكون بمعنى الفاعل من قوله تعالى فاذا عزم الامر اى جد والجملة تعليل لوجوب الامتثال بما سبق من الامر والنهى وايذان بأن مابعدها ليس بمثابته (ولا تصعر خدك للناس) اى لاتمله ولا تولهم صفحة وجهك كما هو ديدن المتكبرين من الصعر وهو الصيد وهو داء يصيب البعير فيلوى منه عنقه وقرئ ولا تصاعر وقرئ ولا تصعر من الافعال والكل بمعنى مثل علاه وعالاه واعلاه (ولا تمش فى الارض مرحا) اى فرحا مصدر وقع موقع الحال او مصدر مؤكد لفعل هو الحال اى تمرح مرحا او لاجل (والوجه)

المرح والبطر (ان الله لايحب كل مختال فخور) تعليل للنهى اوموجبه وتأخير الفخور مع كونه بمقابلة المصعر خده عن المختال
وهو بمقابلة الماشى مرحا لرعاية الفواصل (واقصد (٧٤١) فى مشيك) بعد الاجتناب عن المرح فيه اى توسط بين الدبيب والاسراع
وعنه عليه الصلاة والسلام
سرعة المشى تذهب بهاء المؤمن
وقول عائشة فى عمر رضى الله عنهما
كان اذا مشى اسرع فالمراد به
مافوق دبيب المتماوت وقرئ
بقطع الهمزة من اقصد الرامى اذا
سدد سهمه نحو الرمية (واغضض
من صوتك) وانقص منه واقصر
(ان انكر الاصوات) اى اوحشها
(لصوت الحمير) تعليل للامر على
ابلغ وجه وآكده مبنى على تشبيه
الرافعين اصواتهم بالحمير وتمثيل
اصواتهم بالنهاق وافراط فى
التحذير عن رفع الصوت والتنفير
عنه وافراد الصوت مع اضافته
الى الجمع لما ان المراد ليس بيان
حال صوت كل واحد من آحاد
هذا الجنس حتى يجمع بل بيان
حال صوت هذا الجنس من بين
اصوات سائر الاجناس وقوله
تعالى (المتروا ان الله سخر لكم
مافى السموات ومافى الارض)
رجوع الى سنن ماسلف قبل قصة
لقمان من خطاب المشركين
وتوبيخ لهم على اصرارهم على
ماهم عليه مع مشاهدتهم لدلائل
التوحيد والمراد بالتسخير اما جعل
المسخر بحيث ينفع المسخر له اعم
من ان يكون منقادا له يتصرف
فيه كيف يشاء ويستعمله حسبما
يريد كعامة مافى الارض من
الاشياء المسخرة للانسان المستعملة
له من الجماد والحيوان اولا يكون
كذلك بل يكون سببا لحصول
مراده من غير ان يكون له دخل فى
استعماله كجميع مافى السموات
من الاشياء التى نيطت بها مصالح
العباد معاشا اومعادا واما جعله منقادا للامر مذللا على ان معنى لكم لاجلكم فان جميع ما فى السموات والارض من الكائنات مسخرة

والوجه بمعنى النفس والذات ومعنى قوله يسلم وجهه الى الله يسلم نفسه الى الله كما يسلم
واحد متاعا الى غيره ولم يزد على هذا ويمكن ان يزاد عليه ويقال من اسلم لله اعلى درجة
ممن يسلم الى الله لان الى للغاية واللام للاختصاص يقول القائل اسلمت وجهى اليك اى
توجهت نحوك وينبئ هذا عن عدم الوصول لان التوجه الى الشئ قبل الوصول وقوله
اسلمت وجهى لك يفيد الاختصاص ولاينبئ عن الغاية التى تدل على المسافة وقطعها
للوصول اذا علم هذا فنقول فى البقرة قالت اليهود والنصارى لن يدخل الجنة الامن كان
هودا او نصارى فقال الله ردا عليهم تلك امانيهم قل هاتوا برهانكم ثم بين فساد قولهم
بقوله تعالى بلى من اسلم وجهه لله اى انتم مع انكم تتركون الله للدنيا وتولون عنه للباطل
وتشترون بآياته ثمنا قليلا تدخلون ومن كان بكليته لله لايدخلها هذا كلام باطل فأورد
عليهم من اسلم لله ولاشك ان النقض بالصورة التى هى الزم اولى فأورد عليهم المخلص الذى
ليس له أمر الا الله وقال انتم تدخلون الجنة وهذا لايدخلها ثم بين كذبهم وقال بلى وبين
ان له فوق الجنة درجة وهى العندية بقوله فله اجره عند ربه واما ههنا أراد وعد المحسن
بالثواب والوصول الى الدرجة العالية فوعد من هو دونه ليدخل فيه من هو فوقه
بالطريق الاولى ويعم الوعد وهذا من الفوائد الجليلة * ثم قال تعالى (فقد استمسك بالعروة
الوثقى) اوثق العرى جانب الله لان كل ماعداه هالك منقطع وهو باق لاانقطاع له * ثم
قال تعالى (والى الله عاقبة الامور) يعنى استمسك بعروة توصله الى الله وكل شئ عاقبته
اليه فاذا حصل فى الحال مااليه عاقبته تكون عاقبته فى غاية الحسن وذلك لان من يعلم ان
عاقبة الامور الى واحد ثم يقدم اليه الهدايا قبل الوصول اليه يجد فائدة عند القدوم
عليه والى هذا وقعت الاشارة بقوله وماتقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله * ثم قال
تعالى (ومن كفر فلا يحزنك كفره الينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ان الله عليم بذات
الصدور نمتعهم قليلا ثم نضطرهم الى عذاب غليظ) لما بين حال المسلم رجع الى بيان حال
الكافر فقال ومن كفر فلا يحزنك اى لاتحزن اذا كفر كافر فان من يكذب وهو قاطع بأن
صدقه يتبين عن قريب لايحزن بل قد يوثب المكذب على الزيادة فى التكذيب اذا لم يكن من
الهداة ويكون المكذب من العداة ليخجله غاية التخجيل واما اذا كان لايرجو ظهور صدقه
يتألم من التكذيب فقال فلا يحزنك كفره فان المرجع الى فأنبئهم بما عملوا فيخجلون وقوله ان
الله عليم بذات الصدور اى لايخفى عليه سرهم وعلانيتهم فينبئهم بما اضمرته صدورهم وذات
الصدور هى المهلكات ثم ان الله تعالى فصل ماذكرنا وقال نمتعهم قليلا اى نبقيهم مدة قليلة
ثم بين لهم وبال تكذيبهم وكفرهم بقوله ثم نضطرهم اى نسلط عليهم اغلظ عذاب حتى يدخلوا
بانفسهم عذابا غليظا فيضطرون الى عذاب النار فرارا من الملائكة الغلاظ الشداد الذين
يعذبونهم بمقامع من نار (وفيه وجه آخر لطيف) وهو انهم لما كذبوا الرسل ثم تبين لهم الامر
وقع عليهم من الخجالة مايدخلون النار ولايختارون الوقوف بين يدى ربهم بمحضر الانبياء

وهو يتحقق بقوله تعالى فلا يحزنك كفره الينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ۞ ثم قال تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله قل الحمد لله بل اكثرهم لا يعلمون) الآية متعلقة بما قبلها من وجهين (احدهما) انه تعالى لما استدل بخلق السموات بغير عمد وبنعمه الظاهرة والباطنة بين انهم معترفون بذلك غير منكرين له وهذا يقتضي ان يكون الحمد كله لله لان خالق السموات والارض يحتاج اليه كل ما فى السموات والارض وكون الحمد كله لله يقتضي ان لا يعبد غيره لكنهم لا يعلمون هذا (والثاني) ان الله تعالى لما سلى قلب النبي صلى الله عليه وسلم بقوله فلا يحزنك كفره الينا مرجعهم فننبئهم اى لا تحزن على تكذيبهم فان صدقك وكذبهم يتبين عن قريب عند رجوعهم الينا قال وليس لا يتبين الا ذلك اليوم بل هو يتبين قبل يوم القيامة لانهم معترفون بان خلق السموات والارض من الله وهذا يصدقك فى دعوى الوحدانية ويبين كذبهم فى الاشراك فقل الحمد لله على ظهور صدقك وكذب مكذبيك بل اكثرهم لا يعلمون اى ليس لهم علم يمنعهم من تكذيبك مع اعترافهم بما يوجب تصديقك وعلى هذا يكون لا يعلمون استعمالا للفعل مع القطع عن المفعول بالكلية كما يقول القائل فلان يعطى ويمنع ولا يكون فى ضميره من يعطى بل يريد ان له عطاء ومنعا فكذلك ههنا قال لا يعلمون اى ليس لهم علم وعلى الاول يكون لا يعلمون له مفعول مفهوم وهو انهم لا يعلمون ان الحمد كله لله والثاني ابلغ لان قول القائل فلان لا علم له بكذا دون قوله فلان لا علم له وكذا قوله فلان لا ينفع زيدا ولا يضره دون قوله فلان لا يضر ولا ينفع ۞ ثم قال تعالى (لله ما فى السموات والارض ان الله هو الغنى الحميد) ذكر ما يلزم منه وهو انه يكون له ما فيهما والامر كذلك عقلا وشرعا (اما عقلا) فلأن ما فى السموات المخلوقة مخلوق واضافة خلقه الى من منه خلق السموات والارض لازم عقلا لانها ممكنة والممكن لا يقع ولا يوجد الا بواجب من غير واسطة كما هو مذهب اهل السنة او بواسطة كما يقوله غيرهم وكيفما فرض فكله من الله لان سبب السبب سبب (واما شرعا) فلأن من ملك ارضا وحصل منها شئ ما يكون ذلك لمالك الارض فكذلك كل ما فى السموات والارض حاصل فيهما ومنهما فهو لمالك السموات والارض واذا كان الامر كذلك تحقق ان الحمد كله لله ثم قوله تعالى ان الله هو الغنى الحميد فيه معان لطيفة (احدها) ان الكل لله وهو غير محتاج اليه غير منتفع به وفيها منافع فهى لكم خلقها فهو غنى لعدم حاجته حميد مشكور لدفعه حوائجكم بها (وثانيها) ان بعد ذكر الدلائل على ان الحمد كله لله ولا تصلح العبادة الا لله افترق المكلفون فريقين مؤمن وكافر والكافر لم يحمد الله والمؤمن حمده فقال انه غنى عن حمد الحامدين فلا يلحقه نقص بسبب كفر الكافرين وحميد فى نفسه فيتبين به اصابة المؤمنين وتكمل بحمده الحامدون (وثالثها) هو ان السموات وما فيها والارض وما فيها اذا كانت لله ومخلوقة له فالكل محتاجون فلا غنى الا الله فهو الغنى المطلق وكل محتاج فهو حامد لاحتياجه الى من يدفع حاجته فلا يكون

لله تعالى مستتبعة لمنافع الخلق وما يستعمله الانسان حسبما يشاء وان كان مسخرا له بحسب الظاهر فهو فى الحقيقة مسخر لله تعالى (واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) محسوسة ومعقولة معروفة لكم وغير معروفة وقد مر شرح النعمة وتفصيلها فى الفاتحة وقرئ اصبغ بالصاد وهو جار فى كل سين قارنت الغين او الخاء او القاف كما تقول فى سلخ صلخ وفى سقر صقر وفى سالغ صالغ وقرئ نعمة (ومن الناس من يجادل فى الله) فى توحيده وصفاته (بغير علم) مستفاد من دليل (ولا هدى) من جهة الرسول عليه الصلاة والسلام (ولا كتاب منير) انزله الله سبحانه بل بمجرد التقليد (واذا قيل لهم) اى لمن يجادل والجمع باعتبار المعنى (اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) يريدون به عبادة الاصنام (اولو كان الشيطان يدعوهم) اى آباءهم لا انفسهم كما قيل فان مدار انكار الاتباع واستبعاده كون المتبوعين تابعين للشيطان لا كون انفسهم كذلك اى أيتبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم فيما هم عليه من الشرك (الى عذاب السعير) فهم متوجهون اليه حسب دعوته والجملة فى حيز النصب على الحالية وقد مر تحقيقه فى قوله تعالى أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون من سورة البقرة بما لا مزيد عليه (ومن يسلم وجهه الى الله) بأن فوض اليه مجامع اموره واقبل عليه بكليته وحيث عدى باللام قصد معنى الاختصاص وقرئ بالتشديد (وهو محسن) اى فى اعماله آتيا بها جامعة بين الحسن الذاتى والوصفى وقد مر فى آخر سورة النحل (فقد استمسك بالعروة الوثقى) اى تعلق باوثق ما يتعلق به من الاسباب وهو تمثيل لحال المتوكل المشتغل بالطاعة بحال من أراد ان يترقى الى شاهق جبل فتمسك بأوثق عرى الحبل المتدلى منه (والى الله)

لاالى احد غيره (عاقبة الامور) فيجازيه احسن الجزاء (ومن كفر فلايحزنك كفره) فانه لايضرك فى الدنيا ولا فى الآخرة وقرئ فلايحزنك من احزن المنقول من حزن بكسر الزاى (٧٤٣) وليس بمستفيض (الينا مرجعهم) لاالى غيرنا (فننبئهم بما عملوا) فى الدنيا من الكفر والمعاصى بالعذاب والعقاب والجمع فى الضمائر الثلاثة باعتبار معنى من كما ان الافراد فى الاول باعتبار لفظها (ان الله عليم بذات الصدور) تعليل للتنبئة المعبر بها عن التعذيب (نمتعهم قليلا) تمتيعا او زمانا قليلا فان مايزول وان كان بعد أمد طويل بالنسبة الى مايدوم قليل (ثم نضطرهم الى عذاب غليظ) يثقل عليهم ثقل الاجرام الغلاظ او يضم الى الاحراق الضغط والتضييق (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله) لغاية وضوح الامر بحيث اضطروا الى الاعتراف به (قل الحمد لله) على ان جعل دلائل التوحيد بحيث لايكاد ينكرها المكابرون ايضا (بل اكثرهم لا يعلمون) شيئا من الاشياء فلذلك لايعملون بمقتضى اعترافهم وقيل لايعلمون ان ذلك يلزمهم (لله ما فى السموات والارض) فلايستحق العبادة فيهما غيره (ان الله هو الغنى) عن العالمين (الحميد) المستحق للحمد وان لم يحمده احد او المحمود بالفعل يحمده كل مخلوق بلسان الحال (ولو ان ما فى الارض من شجرة اقلام) اى لو ان الاشجار اقلام وتوحيد الشجرة لما ان المراد تفصيل الآحاد (والبحر يمده من بعده) اى من بعد نفاده (سبعة ابحر) اى والحال ان البحر المحيط بسعته يمده الابحر السبعة مدا لاينقطع ابدا وكتبت بتلك الاقلام وبذلك المداد كلمات الله (ما نفدت كلمات الله) ونفدت تلك الاقلام والمداد كما فى قوله تعالى لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربى وقرئ يمده من الامداد بالياء والتاء واسناد المد الى الابحر السبعة دون البحر المحيط مع كونه اعظم منها واطم لانها هى المجاورة للجبال ومنابع المياه الجارية

الحميد المطلق الا الغنى المطلق فهو الحميد وعلى هذا الحميد بمعنى المحمود والله اذا قيل له الحميد لايكون معناه الا الواصف اى وصف نفسه او عباده باوصاف حميدة والعبد اذا قيل له حامد يحتمل ذلك المعنى ويحتمل كونه عابدا شاكرا له ❁ ثم قال تعالى (ولو ان ما فى الارض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) لما قال تعالى لله ما فى السموات والارض وكان ذلك موهما لتناهى ملكه لانحصار ما فى السموات وما فى الارض فيهما وحكم العقل الصريح بتناهيهما بين ان فى قدرته وعلمه عجائب لانهاية لها فقال ولو ان ما فى الارض من شجرة اقلام ويكتب بها والابحر مداد لاتفنى عجائب صنع الله وعلى هذا فالكلمة مفسرة بالعجيبة ووجهها ان العجائب بقوله كن وكن كلمة واطلاق اسم السبب على المسبب جائز يقول الشجاع لمن يبارزه انا موتك ويقال للدواء فى حق المريض هذا شفاؤك ودليل صحة هذا هو ان الله تعالى سمى المسيح كلمة لانه كان امرا عجيبا وصنعا غريبا لوجوده من غير أب فان قال قائل الآية واردة فى اليهود حيث قالوا الله ذكر كل شئ فى التوراة ولم يبق شئ لم يذكره فقال الذى فى التوراة بالنسبة الى كلام الله تعالى ليس الا قطرة من بحار وانزل هذه الآية وقيل ايضا انها نزلت فى واحد قال للنبى عليه السلام انك تقول وما أوتيتم من العلم الا قليلا وتقول ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا فنزلت الآية دالة على انه خير كثير بالنسبة الى العباد وبالنسبة الى الله وعلومه قليل وقيل ايضا انها نزلت ردا على الكفار حيث قالوا ان ما يورده محمد سينفد فقال انه كلام الله وهو لاينفد وما ذكر من اسباب النزول ينافى ما ذكرتم من التفسير لانها تدل على ان المراد الكلام فنقول ما ذكرتم من اختلاف الاقوال فيه يدل على جواز ما ذكرنا لانه اذا صلح جوابا لهذه الاشياء التى ذكرتموها وهى متباينة علم انها عامة وما ذكرنا لاينافى هذا لان كلام الله عجيب معجز لايقدر احد على الاتيان بمثله واذا قلنا بأن عجائب الله لانهاية لها دخل فيها كلامه ❁ لايقال انك جعلت الكلام مخلوقا ❁ لانا نقول المخلوق هو الحرف والتركيب وهو عجيب واما الكلمات فهى من صفات الله تعالى واعلم ان الآية وان كانت نازلة على ترتيب غير الذى هو مكتوب ولكن الترتيب المكتوب عليه القرآن بأمر الله فانه بأمر الرسول كتب ذلك وامر الرسول من امر الله وذلك محقق متيقن من حسن الترتيب الذى فيه ثم ان الآية فيها لطائف (الاولى) قال ولو ان ما فى الارض من شجرة اقلام وحد الشجرة وجمع الاقلام ولم يقل ولو ان ما فى الارض من الاشجار اقلام ولا قال ولو ان ما فى الارض من شجرة قلم اشارة الى التكثير يعنى ولو ان بعدد كل شجرة اقلاما (الثانية) قوله والبحر يمده تعريف البحر باللام لاستغراق الجنس وكل بحر مداد ثم قوله يمده من بعده سبعة ابحر اشارة الى بحار غير موجودة يعنى لو مدت البحار الموجودة بسبعة ابحر اخر وقوله سبعة ليس لانحصارها فى سبعة وانما الاشارة الى المدد والكثرة ولو بألف بحر والسبعة خصصت بالذكر من بين الاعداد لانها عدد كثير يحصر المعدودات فى العادة

والذى يدل عليه وجوه (الاول) هو ان ماهو معلوم عند كل احد حاجته اليه هو الزمان والمكان لان المكان فيه الاجسام والزمان فيه الافعال لكن المكان منحصر فى سبعة اقاليم والزمان فى سبعة ايام ولان الكواكب السيارة سبعة وكان المنجمون ينسبون اليها امورا فصارت السبعة كالعدد الحاصر للكثرات الواقعة فى العادة فاستعملت فى كل كثير (الثانى) هو ان الآحاد الى العشرة وهى العقد الاول ومابعده يبتدأ من الآحاد مرة اخرى فيقال احد عشر واثنا عشر ثم المئات من العشرات والالوف من المئات اذا علم هذا فنقول اقل مايلتئم منه اكثر المعدودات هو الثلاثة لانه يحتاج الى طرفين مبدأ ومنتهى ووسط ولهذا يقال اقل ما يكون الاسم والفعل منه هو ثلاثة احرف فاذا كانت الثلاثة هو القسم الاول من العشرة التى هو العدد الاصلى تبقى السبعة القسم الاكثر فاذا اريد بيان الكثرة ذكرت السبعة ولهذا فان المعدودات فى العبادات من التسبيحات فى الانتقالات فى الصلوات ثلاثة والمرار فى الوضوء ثلاثة تيسير اللامر على المكلف اكتفاء بالقسم الاول اذا ثبت هذا فنقول قوله عليه السلام المؤمن يأكل فى معى والكافر يأكل فى سبعة امعاء اشارة الى قلة الاكل وكثرته من غير ارادة السبعة بخصوصها ويحتمل ان يقال ان لجهنم سبعة ابواب بهذا التفسير ثم على هذا فقولنا للجنة ثمانية ابواب اشارة الى زيادتها فان فيها الحسنى وزيادة فلها ابواب كثيرة وزائدة على كثرة غيرها والذى يدل على ماذكرنا فى السبعة ان العرب عند الثامن يزيدون واوا يقول الفراء انها واو الثمانية وليس ذلك الا للاستئناف لان العدد بالسبعة يتم فى العرف ثم بالثامن استئناف جديد (اللطيفة الثالثة) لم يقل فى الاقلام المدد لوجهين (احدهما) هو ان قوله ولو ان مافى الارض من شجرة اقلام بينا ان المراد منه هو ان يكون بعدد كل شجرة موجودة اقلام فتكون الاقلام اكثر من الاشجار الموجودة وقوله فى البحر والبحر يمده سبعة ابحر اشارة الى ان البحر لو كان اكثر من الموجود لاستوى القلم والبحر فى المعنى (والثانى) هو ان النقصان بالكتابة يلحق المداد اكثر فانه هو النافد والقلم الواحد يمكن ان يكتب به كتب كثيرة فذكر المدد فى البحر الذى هو كالمداد ٭ ثم قال تعالى (ان الله عزيز حكيم) لما ذكر ان ملكوته كثير اشار الى ما يحقق ذلك فقال انه عزيز حكيم اى كامل القدرة فيكون له مقدورات لانهاية لها والا لانتهت القدرة الى حيث لاتصلح للايجاد وهو حكيم كامل العلم ففى علمه مالانهاية له فتحقق ان البحر لو كان مدادا لما نفد مافى علمه وقدرته ٭ ثم قال تعالى (ماخلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة) لما بين كمال قدرته وعلمه ذكر ما يبطل استبعادهم للحشر وقال ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة ومن لاتنفد لكلماته يقول للموتى كونوا فيكونوا ٭ ثم قال تعالى (ان الله سميع بصير) سميع لما يقولون بصير بما يعملون فاذا كونه قادرا على البعث ومحيطا بالاقوال والافعال يوجب ذلك الاجتناب التام والاحتراز الكامل ٭ ثم قال تعالى (الم تر ان الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى

واليها تنصب الانهار العظام اولا ومنها ينصب الى البحر المحيط ثانيا وابنا رجع القرة فى الكلمات للايذان بأن ماذكر لايفى بالقليل منها فكيف بالكثير (ان الله عزيز) لايعجزه شئ (حكيم) لايخرج عن علمه وحكمته امر فلا تنفد كلماته المؤسسة عليهما (ماخلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة) اى الا كخلقها وبعثها فى سهولة التأتى اذ لايشغله شأن عن شأن لان مناط وجود كل تعلق ارادته الواجبة مع قدرته الذاتية حسبما يفصح عنه قوله تعالى انما امرنا لشئ اذا أردناه ان نقول له كن فيكون (ان الله سميع) يسمع كل مسموع (بصير) يبصر كل مبصر لايشغله علم بعضها عن علم بعض فكذلك الخلق والبعث (الم تر) قيل الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل عام لكل احد ممن يصلح للخطاب وهو الاوفق لما سبق وما لحق اى الم تعلم علما قويا جاريا مجرى الرؤية (ان الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) اى يدخل كل واحد منهما فى الآخر ويضيفه اليه فيتفاوت بذلك حاله زيادة ونقصانا (وسخر الشمس والقمر) عطف على يولج والاختلاف بينهما صيغة لما ان ايلاج احد الملوين فى الآخر متجدد فى كل حين واما تسخير النيرين فامر لاتعدد فيه ولاتجدد وانما التعدد والتجدد فى آثاره وقد اشير الى ذلك حيث قيل (كل يجرى) اى بحسب حركته الخاصة وحركته القسرية على المدارات اليومية المختلفة المتعددة حسب تعدد الايام جريا مستمرا (الى أجل مسمى) قدره الله تعالى لجريهما وهو يوم القيامة كما روى عن الحسن رحمه الله فانه لاينقطع جريهما الا حينئذ والجملة على تقدير عموم الخطاب اعتراض بين المعطوفين لبيان الواقع بطريق الاستطراد وعلى تقدير (الليل)

الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى الى أجل مسمى وان الله بما تعملون خبير) يحتمل ان يقال ان وجه الترتيب هو ان الله تعالى لما قال ألم تر ان الله سخر لكم مافى السموات وما فى الارض على وجه العموم ذكر منها بعض ما هو فيهما على وجه الخصوص بقوله يولج الليل فى النهار وقوله وسخر الشمس والقمر اشارة الى مافى السموات وقوله بعد هذا ألم تر ان الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله اشارة الى مافى الارض ويحتمل ان يقال ان وجهه هو ان الله تعالى لما ذكر البعث وكان من الناس من يقول وما يهلكنا الا الدهر والدهر هو بالليالى والايام قال الله تعالى هذه الليالى والايام التى تنسبون اليها الموت والحياة هى بقدرة الله تعالى فقال ألم تر ان الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ثم ان قائلا لو قال ان ذلك اختلاف مسير الشمس تارة تكون القوس التى هى فوق الارض اكثر من التى تحت الارض فيكون الليل اقصر والنهار اطول وتارة تكون بالعكس فيكون بالعكس وتارة يتساويان فيتساويان فقال تعالى وسخر الشمس والقمر يعنى ان كنتم لا تعترفون بأن هذه الاشياء كلها فى أوائلها من الله فلابد من الاعتراف بأنها بأسرها عائدة الى الله تعالى فالآجال ان كانت بالمدد والمدد بسير الكواكب فسير الكواكب ليس الا بالله وقدرته وفى الآية مسائل (الاولى) ايلاج الليل فى النهار يحتمل وجهين (احدهما) ان يقال المراد ايلاج الليل فى زمان النهار اى يجعل فى الزمان الذى كان فيه النهار الليل وذلك لان الليل اذا كان مثلا اثنتى عشرة ساعة ثم يطول يصير الليل موجودا فى زمان كان فيه النهار (وثانيهما) ان يقال المراد ايلاج زمان الليل فى النهار اى يجعل زمان الليل فى النهار وذلك لان الليل اذا كان كما ذكرنا اثنتى عشرة ساعة اذا قصر صار زمان الليل موجودا فى النهار ولا يمكن غير هذا لان ايلاج الليل فى النهار محال الوجود فما ذكرنا من الاضمار لابد منه لكن الاول اولى لان الليل والنهار افعال والافعال فى الازمنة لان الزمان ظرف فقولنا الليل فى زمان النهار اقرب من قولنا زمان الليل فى النهار لان الثانى يجعل الظرف مظروفا اذا ثبت هذا فنقول قوله تعالى يولج الليل فى النهار اى يوجده فى وقت كان فيه النهار والله تعالى قدم ايجاد الليل على ايجاد النهار فى كثير من المواضع كما فى قوله تعالى وجعلنا الليل والنهار آيتين وقوله وجعل الظلمات والنور وقوله وله اختلاف الليل والنهار ومن جنسه قوله خلق الموت والحيات ليبلوكم ايكم احسن عملا وهذا اشارة الى مسئلة حكمية وهى ان الظلمة قد يظن بها انها عدم النور والليل عدم النهار والحياة عدم الموت وليس كذلك اذ فى الأزل لم يكن نهار ولا نور ولا حياة لممكن ولا يمكن ان يقال كان فيه موت او ظلمة او ليل فهذه الامور كالاعمى والاصم فالعمى والصمم ليس مجرد عدم البصر وعدم السمع اذ الحجر والشجر لا بصر لهما ولا سمع ولا يقال لشئ منهما انه أصم او اعمى اذا علم هذا فنقول ما يتحقق فيه العمى والصمم لابد من ان يكون فيه اقتضاء خلافهما والا لما كان يقال له اعمى واصم وما يكون فيه من اقتضاء شئ ويترتب عليه مقتضاه لا تطلب

اختصاصه به عليه الصلاة والسلام يجوز ان يكون حالا من الشمس والقمر فان جريانهما الى يوم القيامة من جملة مافى حيز رؤيته عليه الصلاة والسلام هذا وقد جعل جريانهما (٧٤٥) عبارة عن حركتهما الخاصة بهما فى فلكهما والاجل المسمى عن منتهى دورتهما وجعل مدة الجريان للشمس سنة وللقمر شهرا فالجملة حينئذ بيان لحكم تسخيرهما وتنبيه على كيفية ايلاج احد الملوين فى الآخر وكون ذلك بحسب اختلاف جريان الشمس على مداراتها اليومية فكلما كان جريانها متوجها الى سمت الرأس تزداد القوس التى هى فوق الارض كبرا فيزداد النهار طولا بانضمام بعض اجزاء الليل اليه الى ان يبلغ المدار الذى هو اقرب المدارات الى سمت الرأس وذلك عند بلوغها الى رأس السرطان ثم ترجع متوجهة الى التباعد عن سمت الرأس فلا تزال القسى التى هى فوق الارض تزداد صغرا فيزداد النهار قصرا بانضمام بعض اجزائه الى الليل الى ان يبلغ المدار الذى هو ابعد المدارات اليومية عن سمت الرأس وذلك عند بلوغها برج الجدى وقوله تعالى (وان الله بما تعملون خبير) عطف على ان الله يولج الخ داخل معه فى حيز الرؤية على تقديرى خصوص الخطاب وعمومه فان من شاهد مثل ذلك الصنع الرائق والتدبير الفائق لايكاد يغفل عن كون صانعه عز وجل محيطا بجلائل اعماله ودقائقها (ذلك) اشارة الى ماتلى من الآيات الكريمة وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتها فى الفضل وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (بأن الله هو الحق) اى بسبب بيان انه تعالى هو الحق الهيته فقط ولاجله لكونها ناطقة بحقية التوحيد (وان ما يدعون من دونه الباطل) اى ولاجل بيان بطلان الهية ما يدعونه من دونه تعالى لكونها بذلك شاهدة بينة لاريب فيها وقرئ بالتاء شاهدة والتصريح (٩٤) (را) (س) بذلك مع ان الدلالة على اختصاص حقية الالهية به تعالى مستتبعة

للدلائل على بطلان الهية ماعداه لابرازكمال الاعتناء بامر التوحيد وللايذان بأن الدلالة على بطلان ماذكر ليست بطريق الاستتباع فقط بل بطريق الاستقلال ايضا (وان الله هو العلى الكبير) (٧٤٦) اى وبيان ان الله تعالى هو المترفع عن كل شئ المتسلط عليه فان مافى تضاعيف الآيات الكريمة مبين لاختصاص العلو والكبرياء به تعالى اى بيان هذا وقيل ذلك اى ماذكر من سعة العلم وشمول القدرة وعجائب الصنع واختصاص البارى تعالى به بسبب انه الثابت فى ذاته الواجب من جميع جهاته او الثابت الهيته وانت خبير بان حقيته تعالى وعلوه وكبرياءه وان كانت صالحة لمناطية ماذكر من الاحكام المعدودة لكن بطلان الهية الاصنام لادخل له فى المناطية قطعا فلامساغ لنظمه فى سلك الاسباب بل هو تعكيس للامر ضرورة ان الاحكام المذكورة هى المقتضية لبطلانها لا ان بطلانها يقتضيها (ألم تر ان الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله) باحسانه فى تهيئة اسبابه وهو استشهاد آخر على باهر قدرته وغاية حكمته وشمول انعامه والباء اما متعلقة بتجرى او بمقدر هو حال من فاعله اى ملتبسة بنعمته تعالى وقرئ الفلك بضم اللام وبنعمات الله وعين فعلات يجوز فيه الكسر والفتح والسكون (ليريكم من آياته) اى بعض دلائل وحدته وعلمه وقدرته وقوله تعالى (ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) تعليل لما قبله اى ان فيما ذكر لآيات عظيمة فى ذاتها كثيرة فى عددها لكل من يبالغ فى الصبر على المشاق فيتعب نفسه فى التفكر فى الانفس والآفاق ويبالغ فى الشكر على نعمائه وهما صفتا المؤمن فكأنه قيل لكل مؤمن (واذا غشيهم) اى علاهم واحاط بهم (موج كالظلل) كما يظل من جبل او سحاب او غيرهما وقرئ كالظلال جمع ظلة كقلة وقلال (دعوا الله مخلصين له الدين) لزوال ماينازع الفطرة من الهوى (قالوا)

النفس له سببا لان من يرى المتعيش فى السوق لايقول لم دخل السوق ومايثبت على خلاف المقتضى تطلب النفس له سببا كمن يرى ملكا فى السوق يقول لم دخل السوق فاذن سبب العمى والصمم يطلبه كل واحد فيقول لم صار فلان اعمى ولايقول لم صار فلان بصيرا واذا كان كذلك قدم الله تعالى ماتطلب النفس سببه وهو الليل الذى هو على وزان العمى والظلمة والموت لكون كل واحد طالبا سببه ثم ذكر بعده الامر الآخر (المسئلة الثانية) قال يولج بصيغة المستقبل وقال فى الشمس والقمر سخر بصيغة الماضى لان ايلاج الليل فى النهار امر يتجدد كل فصل بل كل يوم وتسخير الشمس والقمر امر مستمر كما قال تعالى حتى عاد كالعرجون القديم (المسئلة الثالثة) قدم الشمس على القمر مع تقدم الليل الذى فيه سلطان القمر على النهار الذى فيه سلطان الشمس لما بينا ان تقديم الليل كان لان الانفس تطلب سببه اكثر مما تطلب سبب النهار وههنا كذلك لان الشمس لما كانت اكبر واعظم كانت اعجب والنفس تطلب سبب الامر العجيب اكثر مما تطلب سبب الامر الذى لايكون عجيبا (المسئلة الرابعة) ما تعلق قوله تعالى وان الله بما تعملون خبير بما تقدم نقول لما كان الليل والنهار محل الافعال بين ان مايقع فى هذين الزمانين اللذين هما بتصرف الله لايخفى على الله (المسئلة الخامسة) قوله تعالى ألم تر يحتمل وجهين (احدهما) ان يكون الخطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم وعليه الاكثرون وكأنه ترك الخطاب مع غيره لان من هو غيره من الكفار لافائدة فى الخطاب معهم لاصرارهم ومن هو غيره من المؤمنين فهم مؤتمرون بأمر النبى عليه الصلاة والسلام ناظرون اليه (الوجه الثانى) ان يقال المراد منه الوعظ والواعظ يخاطب ولايعين احدا فيقول لجمع عظيم يامسكين الى الله مصيرك فن تصيرك ولماذا تقصيرك فقوله ألم تر يكون خطابا من ذلك القبيل اى ياايها الغافل ألم تر هذا الامر الواضح * ثم قال تعالى (ذلك بأن الله هو الحق وان مايدعون من دونه الباطل وان الله هو العلى الكبير) ولما ذكر تعالى اوصاف الكمال بقوله ان الله هو الغنى الحميد وقوله ان الله عزيز حكيم وقوله ان الله سميع بصير واشار الى الارادة والكمال بقوله مانفدت كلمات الله وبقوله يولج الليل فى النهار وعلى الجملة فقوله هو الغنى اشارة الى كل صفة سلبية فانه اذا كان غنيا لايكون عرضا محتاجا الى الجوهر فى القوام ولاجسما محتاجا الى الحيز فى الدوام ولاشيئا من الممكنات المحتاجة الى الموجد ذكر بعده جميع الاوصاف الثبوتية صريحا وتضمنا فان الحياة فى ضمن العلم والقدرة قال ذلك بأن الله هو الحق اى ذلك الاتصاف بأنه هو الحق والحق هو الثبوت والثابت الله وهو الثابت المطلق الذى لازوال له وهو الثبوت فان المذهب الصحيح ان وجوده غير حقيقته وكل ماعداه فله زوال نظرا اليه والله له الثبوت والوجود نظرا اليه فهو الحق وماعداه الباطل لان الباطل هو الزائل يقال بطل ظله اذا زال واذا كان له الثبوت من كل وجه يكون تاما لانقص فيه ثم اعلم ان الحكماء

والتقليد بما دهاهم من الدواهي والشدائد (فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد) اى مقيم على القصد السوى الذى هو التوحيد او متوسط فى الكفر لانزجاره فى الجملة (وما يجحد (٧٤٧) بآياتنا الا كل ختار) غدار فانه نقض للعهد الفطرى او رفض لما كان فى البحر

قالوا الله تام وفوق التمام وجعلوا الاشياء على اربعة اقسام ناقص ومكتف وتام وفوق التمام (فالناقص) ماليس له ما ينبغى ان يكون له كالصبى والمريض والاعمى (والمكتفى) وهو الذى اعطى ما يدفع به حاجته فى وقته كالانسان والحيوان الذى له من الآلات ما يدفع به حاجته فى وقتها لكنها فى التحلل والزوال (والتام) ما حصل له كل ما جاز له وان لم يحتج اليه كالملائكة المقربين لهم درجات لا تزداد ولا ينقص الله منها لهم شيئا كما قال جبريل عليه السلام لو دنوت انملة لاحترقت لقوله تعالى وما منا الا له مقام معلوم (وفوق التمام) هو الذى حصل له ما جاز له وحصل لما عداه ما جاز له او احتاج اليه لكن الله تعالى حاصل له كل ما يجوز له من صفات الكمال ونعوت الجلال فهو تام وحصل لغيره كل ما جاز له او احتاج اليه فهو فوق التمام اذا ثبت هذا فنقول قوله هو الحق اشارة الى التمام وقوله وان الله هو العلى الكبير اى فوق التمام وقوله وهو العلى اى فى صفاته وقوله الكبير اى فى ذاته وذلك ينافى ان يكون جسما فى مكان لانه يكون حينئذ جسدا مقدرا بمقدار فيمكن فرض ما هو اكبر منه فيكون صغيرا بالنسبة الى المفروض لكنه كبير مطلقا اكبر من كل ما يتصور * ثم قال تعالى (الم تر ان الفلك تجرى فى البحر بنعمت الله ليريكم من آياته) لما ذكر آية سماوية بقوله الم تر ان الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر واشار الى السبب والمسبب ذكر آية ارضية واشار الى السبب والمسبب فقوله الفلك تجرى اشارة الى المسبب وقوله بنعمة الله اشارة الى السبب اى الى الريح التى هى بأمر الله ليريكم من آياته يعنى يريكم باجرائها بنعمة من آياته اى بعض آياته * ثم قال تعالى (ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) صبار فى الشدة شكور فى الرخاء وذلك لان المؤمن متذكر عند الشدة والبلاء وعند النعم والآلاء فيصبر اذا اصابته نقمة ويشكر اذا أتته نعمة وورد فى كلام النبى صلى الله عليه وسلم الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر اشارة الى ان التكاليف افعال وتروك والتروك صبر عن المألوف كما قال عليه الصلاة والسلام الصوم صبر والافعال شكر على المعروف * ثم قال تعالى (واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا الا كل ختار كفور) لما ذكر الله ان فى ذلك لآيات ذكر ان الكل معترفون به غير ان البصير يدركه اولا ومن فى بصيرته ضعف لا يدركه اولا فاذا غشيه موج ووقع فى شدة اعترف بأن الكل من الله ودعاه مخلصا اى يترك كل من عداه وينسى جميع من سواه فاذا نجاه من تلك الشدة فقد يبقى على تلك الحالة وهو المراد بقوله فمنهم مقتصد وقد يعود الى الشرك وهو المراد بقوله وما يجحد بآياتنا الا كل ختار كفور وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله موج كالظلل وحد الموج وجمع الظلل وقيل فى معناه كالجبال وقيل كالسحاب اشارة الى عظم الموج ويمكن ان يقال الموج الواحد العظيم يرى فيه طلوع ونزول واذا نظرت فى الجرية الواحدة

والختر اشد الغدر واقبحه (كفور) مبالغ فى كفران نعم الله تعالى (يا ايها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده) اى لا يقضى عنه وقرئ لا يجزئ من اجزأ اذا اغنى والعائد الى الموصوف محذوف اى لا يجزى فيه (ولا مولود) عطف على والد او هو مبتدأ خبره (هو جاز عن والده شيئا) وتغيير النظم للدلالة على ان المولود اولى بأن لا يجزى وقطع طمع من توقع من المؤمنين ان ينفع اباه الكافر فى الآخرة (ان وعد الله) بالثواب والعقاب (حق) لا يمكن اخلافه اصلا (فلا تغرنكم الحيوة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) اى الشيطان المبالغ فى الغرور بأن يحملكم على المعاصى بتزيينها لكم ويرجيكم التوبة والمغفرة (ان الله عنده علم الساعة) علم وقت قيامها لما روى ان الحرث بن عمرو أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال متى الساعة وانى قد القيت حباتى فى الارض فمتى السماء تمطر وحمل امرأتى ذكر ام انثى وما اعمل غدا واين اموت فنزلت وعنه عليه الصلاة والسلام مفاتح الغيب خمس وتلا هذه الآية (وينزل الغيث) فى ابانه الذى قدره والى محله الذى عينه فى علمه وقرئ ينزل من الانزال (ويعلم ما فى الارحام) من ذكر او انثى تام او ناقص (وما تدرى نفس) من النفوس (ماذا تكسب غدا) من خير او شر وربما تعزم على شئ منهما فتفعل خلافه (وما تدرى نفس بأى ارض تموت) كما لا تدرى فى اى وقت تموت روى ان ملك الموت مر على سليمان عليهما السلام فجعل ينظر الى رجل من جلسائه يديم النظر اليه فقال الرجل من هذا قال ملك الموت فقال كأنه يريدنى فمر الريح ان تحملنى وتلقينى

من النهر العظيم تبين لك ذلك فيكون ذلك كالجبال المتلاصقة (المسئلة الثانية) قال في العنكبوت فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله ثم قال فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون وقال ههنا فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد فنقول لما ذكرههنا امرا عظيما وهو الموج الذي كالجبال بقي اثر ذلك في قلوبهم فخرج منهم مقتصد اي في الكفر وهو الذي انزجر بعض الانزجار او مقتصد في الاخلاص فبقي معه شيء منه ولم يبق على ما كان عليه من الاخلاص وهناك لم يذكر مع ركوب البحر معاينة مثل ذلك الامر فذكر اشراكهم حيث لم يبق عنده اثر (المسئلة الثالثة) قوله وما يجحد بآياتنا في مقابلة قوله تعالى ان في ذلك لآيات يعني يعترف بها الصبار الشكور ويجحدها الختار الكفور والصبار في موازنة الختار لفظا ومعنى والكفور في موازنة الشكور اما لفظا فظاهر واما معنى فلان الختار هو الغدار الكثير الغدر او الشديد الغدر والغدر لا يكون الا من قلة الصبر لان الصبور ان لم يعهد مع احد لا يعهد منه الاضرار فانه يصبر ويفوض الامر الى الله واما الغدار فيعهد ولا يصبر على العهد فينقضه واما ان الكفور في مقابلة الشكور معنى فظاهر * ثم قال تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا) لما ذكر الدلائل من اول السورة الى آخرها وعظ بالتقوى لانه تعالى لما كان واحدا اوجب التقوى البالغة فان من يعلم ان الامر بيد اثنين لا يخاف احدهما مثل ما يخاف لو كان الامر بيد احدهما لا غير ثم اكد الخوف بذكر اليوم الذي يحكم الله فيه بين العباد وذلك لان الملك اذا كان واحدا ويعهد منه انه لا يعلم شيئا ولا يستعرض عباده لا يخاف منه مثل ما يخاف اذا علم ان له يوم استعراض واستكشاف ثم اكده بقوله لا يجزي والد عن ولده وذلك لان المجرم اذا علم ان له عند الملك من يتكلم في حقه ويقضي ما يخرج عليه برفد من كسبه لا يخاف مثل ما يخاف اذا علم انه ليس له من يقضي عنه ما يخرج عليه ثم ذكر شخصين في غاية الشفقة والمحبة وهما الوالد والولد ليستدل بالادنى على الاعلى وذكر الولد والوالد جميعا فيه لطيفة وهي ان من الامور ما يبادر الاب الى التحمل عن الولد كدفع المال وتحمل الآلام والولد يبادر الى تحمله عن الوالد مثل ما يبادر الوالد الى تحمله عن الولد ومنها ما يبادر الولد الى تحمله عن الوالد ولا يبادر الوالد الى تحمله عن الولد كالاهانة فان من يريد احضار والد احد عند وال او قاض يهون على الابن ان يدفع الاهانة عن والده ويحضر هو بدله فاذا انتهى الامر الى الايلام يهون على الاب ان يدفع الايلام عن ابنه ويتحمله هو بنفسه فقوله لا يجزي والد عن ولده في دفع الآلام ولا مولود هو جاز عن والده شيئا في دفع الاهانة وفي قوله لا يجزي وقوله ولا مولود هو جاز لطيفة اخرى وهي انا ذكرنا ان الفعل يتأتى وان كان ممن لا ينبغي ولا يكون من شأنه لان الملك اذا كان يخيط شيئا يقال انه يخيط ولا يقال هو خياط وكذلك من يحيك شيئا ولا يكون ذلك صنعته يقال هو يحيك ولا يقال هو حائك اذا علمت هذا فنقول

بلاد الهند ففعل ثم قال الملك لسليمان عليهما السلام كان دوام نظري اليه تعجبا منه حيث كنت امرت بأن اقبض روحه بالهند وهو عندك ونسبة العلم الى الله تعالى والدراية الى العبد للايذان بأنه (٧٤٨) ان اعمل حيله وبذل في التعرف وسعه لم يعرف ما هو لاحق به من كسبه وعاقبته فكيف بغيره مما لم ينصب له دليل عليه وقرئ بأية ارض وشبه سيبويه تأنيثها بتأنيث كل في كلتهن (ان الله عليم) مبالغ في العلم فلا يعزب عن علمه شيء من الاشياء التي من جملتها ما ذكر (خبير) يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة لقمان كان له لقمان رفيقا يوم القيامة واعطى من الحسنات عشرا بعدد من عمل بالمعروف ونهى عن المنكر

* (سورة السجدة مكية وهي ثلاثون اية وقيل تسع وعشرون) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(الم) اما اسم للسورة فمحله الرفع على انه خبر لمبتدأ محذوف اي هذا مسمى بالم والاشارة اليها قبل جريان ذكرها قد عرفت سرها واما مسرود على نمط التعديد فلا محل له من الاعراب وقوله تعالى (تنزيل الكتاب) على الاول خبر بعد خبر على انه مصدر اطلق على المفعول مبالغة وعلى الثاني خبر لمبتدأ محذوف اي المؤلف من جنس ما ذكر تنزيل الكتاب وقيل خبر لالم اي المسمى به تنزيل الكتاب وقد مر سرا ان ما يجعل عنوانا للموضوع حقه ان يكون قبل ذلك معلوم الانتساب اليه واذ لا عهد بالتسمية قبل فحقها الاخبار بها وقوله تعالى (لاريب فيه) خبر ثالث على الوجه الاول وثان على الاخيرين وقيل خبر لتنزيل الكتاب فقوله تعالى (من رب العالمين) متعلق بمضمر هو حال من الضمير المجرور اي كائنا منه تعالى لا بتنزيل لان المصدر لا يعمل فيما بعد الخبر والاوجه حينئذ انه الخبر ولاريب فيه حال من الكتاب او اعتراض والضمير (لاريب)

الابن من شأنه ان يكون جازيا عن والده لماله عليه من الحقوق والوالد يجزى لما فيه من الشفقة وليس بواجب عليه ذلك فقال فى الوالد لا يجزى وقال فى الولد ولا مولود هو جاز ۞ ثم قال تعالى (ان وعد الله حق) وهو يحتمل وجهين (احدهما) ان يكون تحقيقا لليوم يعنى اخشوا يوما هذا شأنه وهو كائن لوعد الله به ووعده حق (والثانى) ان يكون تحقيقا لعدم الجزاء يعنى لا يجزى والد عن ولده لان الله وعد بأن لا تزر وازرة وزر أخرى ووعد الله حق فلا يجزى والاول احسن واظهر ۞ ثم قال تعالى (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) يعنى اذا كان الامر كذلك فلا تغتروا بالدنيا فانها زائلة لوقوع اليوم المذكور بالوعد الحق ۞ ثم قال تعالى (ولا يغرنكم بالله الغرور) يعنى الدنيا لا ينبغى ان تغركم بنفسها ولا ينبغى ان تغتروا وان حملكم على محبتها غار من نفس امارة او شيطان فكان الناس على اقسام منهم من تدعوه الدنيا الى نفسها فيميل اليها ومنهم من يوسوس فى صدره الشيطان ويزين فى عينه الدنيا ويؤمله ويقول انك تحصل بها الآخرة او تلتذ بها ثم تتوب فتجتمع لك الدنيا والآخرة فنهاهم عن الامرين وقال كونوا قسما ثالثا وهم الذين لا يلتفتون الى الدنيا ولا الى من يحسن الدنيا فى الاعين ۞ ثم قال تعالى (ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الارحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى ارض تموت ان الله عليم خبير) يقول بعض المفسرين ان الله تعالى نفى علم أمور خمسة بهذه الآية عن غيره وهو كذلك لكن المقصود ليس ذلك لان الله يعلم الجوهر الفرد الذى كان فى كثيب رمل فى زمان الطوفان ونقله الريح من المشرق الى المغرب كم مرة ويعلم انه اين هو ولا يعلمه غيره ولانه يعلم انه يوجد بعد هذه السنين ذرة فى برية لا يسلكها احد ولا يعلمه غيره فلا وجه لاختصاص هذه الاشياء بالذكر وانما الحق فيه ان نقول لما قال الله اخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده وذكر انه كائن بقوله ان وعد الله حق كان قائلا قال فمتى يكون هذا اليوم فأجيب بأن هذا العلم عالم يحصل لغير الله ولكن هو كائن ثم ذكر الدليلين اللذين ذكرناهما مرارا على البعث (احدهما) احياء الارض بعد موتها كما قال تعالى وان كانوا من قبل ان ينزل عليهم من قبله لمبلسين فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيى الارض بعد موتها ان ذلك لمحيى الموتى وقال تعالى ويحيى الارض بعد موتها وكذلك تخرجون وقال ههنا يا أيها السائل انك لا تعلم وقتها ولكنها كائنة والله قادر عليها كما هو قادر على احياء الارض حيث قال وهو الذى ينزل الغيث وقال يحيى الارض (وثانيهما) الخلق ابتداء كما قال وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وقال تعالى قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة الى غير ذلك فقال ههنا ويعلم ما فى الارحام اشارة الى ان الساعة وان كنت لا تعلمها لكنها كائنة والله قادر عليها وكما هو قادر على الخلق فى الارحام كذلك يقدر على الخلق من الرجام ثم قال لذلك الطالب علمه يا أيها السائل انك تسأل عن الساعة أيان مرساها فلك اشياء اهم منها لا تعلمها فانك

فى فيه راجع الى مضمون الجملة كأنه قيل لاريب فى ذلك اى فى كونه منزلا من رب العالمين ويؤيده قوله تعالى (ام يقولون افتراه) فان قولهم هذا انكار منهم لكونه (٧٤٩) من رب العالمين فلابد ان يكون مورده حكما مقصود الافادة لاقيدا للحكم بنفى الريب عنه وقد رد عليهم ذلك وابطل حيث عبر بأم المنقطعة انكارا له وتعجيبا منه لغاية ظهور بطلانه واستحالة كونه مفترى ثم اضرب عنه الى بيان حقية ما انكروه حيث قيل (بل هو الحق من ربك) باضافة اسم الرب الى ضميره عليه الصلاة والسلام بعد اضافته فيما سبق الى العالمين تشريفا له عليه الصلاة والسلام ثم ايد ذلك ببيان غايته حيث قيل (لتنذر قوما ما اتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون) فان بيان غاية الشئ وحكمته لاسيما عند كونها غاية جيدة مستتبعة لمنافع جليلة فى وقت شدة الحاجة اليها مما يقرر وجود الشئ ويؤكده لامحالة ولقد كانت قريش اضل الناس واحوجهم الى الهداية بارسال الرسول وتنزيل الكتاب حيث لم يبعث اليهم من رسول قبله عليه الصلاة والسلام اى ما أتاهم من نذير من قبل انذارك او من قبل زمانك والترجى معتبر من جهته عليه الصلاة والسلام اى لتنذرهم راجيا لاهتدائهم او لرجاء اهتدائهم واعلم ان ما ذكر من التأييد انما يتسنى على ما ذكر من كون تنزيل الكتاب مبتدأ واما على سائر الوجوه فلا تأييد اصلا لان قوله تعالى من رب العالمين خبر رابع على الوجه الاول وخبر ثالث على الوجهين الاخيرين ولما كان فكونه من رب العالمين حكم مقصود الافادة لاقيد لحكم آخر فتدبر (الله الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة ايام ثم استوى على العرش) مر بيانه فيما سلف (مالكم من دونه من ولى ولا شفيع) اى مالكم اذا جاوزتم رضاء تعالى احد ينصركم ويشفع لكم ويجيركم من بأسه اى مالكم سواه ولى ولا شفيع بل هو الذى يتولى

لاتعلم معاشك ومعادك ولاتعلم ماذا تكسب غدا مع انه فعلك وزمانك ولاتعلم اين تموت مع انه شغلك ومكانك فكيف تعلم قيام الساعة متى تكون فالله مااعلمك كسب غدك مع ان لك فيه فوائد تبنى عليها الامور من يومك ولا اعلمك اين تموت مع ان لك فيه اغراضا تهيئ امورك بسبب ذلك العلم واتمام بعملك لكى تكون فى كل وقت بسبب الرزق راجعا الى الله تعالى متوكلا على الله ولا اعلمك الارض التى تموت فيها كى لاتأمن الموت وانت فى غيرها فاذا لم يعلمك ماتحتاج اليه كيف يعلمك مالاحاجة لك اليه وهى الساعة وانما الحاجة الى العلم بأنها تكون وقد اعلمك الله على لسان انبيائه ثم قال تعالى ان الله عليم خبير لما خصص اولا علمه بالاشياء المذكورة بقوله ان الله عنده علم الساعة ذكر ان علمه غير مختص بها بل هو عليم مطلقا بكل شئ وليس علمه علما بظاهر الاشياء فحسب بل هو خبير علمه واصل الى بواطن الاشياء والله اعلم بالصواب

* (سورة السجدة وتسمى سورة المضاجع مكية عند اكثرهم
وهى تسع وعشرون آية وقيل ثلاثون آية) *
* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(الم تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين) لما ذكر الله تعالى فى السورة المتقدمة دليل الوحدانية وذكر الاصل الآخر وهو الحشر وختم السورة بهما بدأ ببيان الرسالة فى هذه السورة فقال الم تنزيل الكتاب لاريب فيه وقد علم ما فى قوله الم وفى قوله لاريب فيه من سورة البقرة وغيرها غير انه ههنا قال من رب العالمين وقال من قبل هدى ورحمة للمحسنين وقال فى البقرة هدى للمتقين وذلك لان من يرى كتابا عند غيره فأول ماتصير النفس طالبة تطلب ما فى الكتاب فيقول ماهذا الكتاب فاذا قيل هذا فقه او تفسير فيقول بعد ذلك تصنيف من هو ولايقول اولا هذا الكتاب تصنيف من ثم يقول فماذا هو اذا علم هذا فقال اولا هذا الكتاب هدى ورحمة ثم قال ههنا هو كتاب الله تعالى وذكره بلفظ رب العالمين لان كتاب من يكون رب العالمين يكون فيه عجائب العالمين فتدعو النفس الى مطالعته * ثم قال تعالى (أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ماأتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون) اتعترفون به أم تقولون هو مفترى ثم أجاب وبين ان الحق انه حق من ربه ثم بين فائدة التنزيل وهو الانذار وفيه مسائل (المسئلة الاولى) كيف قال لتنذر قوما ماأتاهم من نذير مع ان النذر سبقوه الجواب من وجهين (احدهما) معقول والآخر منقول اما المنقول فهو ان قريشا كانت امة امية لم يأتهم نذير قبل محمد صلى الله عليه وسلم وهو بعيد فانهم كانوا من اولاد ابراهيم وجميع انبياء بنى اسرائيل من اولاد اعمامهم وكيف كان الله يترك قوما من وقت آدم الى زمان محمد بلادين ولاشرع وان كنت تقول بأنهم ماجاءهم رسول بخصوصهم يعنى ذلك القرن فلم يكن ذلك مختصا بالعرب بل اهل الكتاب ايضا لم يكن ذلك القرن قد أتاهم رسول وانما

مصالحكم وينصركم فى مواطن النصر على ان الشفيع عبارة عن الناصر مجازا فاذ خذلكم لم يبق لكم ولى ولانصير (افلا تذكرون) اى الاتسمعون هذه المواعظ فلا تتذكرون بها اوتسمعونها فلا تتذكرون بها فالانكار على الاول متوجه الى عدم السماع وعدم التذكر معا وعلى الثانى على عدم التذكر مع تحقق مايوجبه من السماع (يدبر الامر من السماء الى الارض) قيل يدبر امر الدنيا بأسباب سماوية من الملائكة وغيرها نازلة آثارها واحكامها الى الارض (ثم يعرج اليه) اى يثبت فى علمه موجودا بالفعل (فى يوم كان مقداره الف سنة مما تعدون) اى فى برهة من الزمان متطاولة والمراد بيان طول امتداد مابين تدبير الحوادث وحدوثها من الزمان وقيل يدبر امر الحوادث اليومية باثباتها فى اللوح المحفوظ فينزل بها الملائكة ثم تعرج اليه فى زمان هو كالف سنة مما تعدون فان مابين السماء والارض مسيرة خمسمائة عام وقيل يقضى قضاء الف سنة فينزل به الملك ثم يعرج بعد الالف لالف آخر وقيل يدبر امر الدنيا جميعا الى قيام الساعة ثم يعرج اليه الامر كله عند قيامها وقيل يدبر المأمور به من الطاعات منزلا من السماء الى الارض بالوحى ثم لايعرج اليه خالصا الا فى مدة متطاولة لقلة المخلصين والاعمال الخلص وانت خبير بأن قلة الاعمال الخالصة لاتقتضى بطء عروجها الى السماء بل قلته وقرئ يعدون بالياء (ذلك) اشارة الى الله عز وجل باعتبار اتصافه بما ذكر من خلق السموات والارض والاستواء على العرش وانحصار الولاية والنصرة فيه وتدبير امر الكائنات على ماذكر من الوجه البديع وهو مبتدأ خبره مابعده اى ذلك العظيم الشأن (عالم الغيب والشهادة) فيدبر امرهما حسبما تقتضيه الحكمة (العزيز) الغالب على امره (الرحيم) على عباده وهما خبران آخران وفيه ايماء

أتى الرسل آباءهم وكذلك العرب اتى الرسل آباءهم كيف والذى عليه الاكثرون ان آباء محمد عليه الصلاة والسلام كانوا كفارا ولان النبى اوعدهم واوعد آباءهم بالعذاب وقال تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا واما المعقول وهو ان الله تعالى اجرى عادته على ان اهل عصر اذا ضلوا بالكلية ولم يبق فيهم من يهديهم يلطف بعباده ويرسل رسولا ثم انه اذا اراد طهرهم بازالة الشرك والكفر من قلوبهم وان اراد طهر وجه الارض باهلاكهم ثم اهل العصر ضلوا بعد الرسل حتى لم يبق على وجه الارض عالم هاد ينتفع بهدايته قوم وبقوا على ذلك سنين متطاولة فلم يأتهم رسول قبل محمد عليه الصلاة والسلام فقال لتنذر قوما ما أتاهم اى بعد الضلال الذى كان بعد الهداية لم يأتهم نذير (المسئلة الثانية) لو قال قائل التخصيص بالذكر يدل على نفى ما عداه فقوله لتنذر قوما ما أتاهم يوجب ان يكون انذاره مختصا بمن لم يأته نذير لكن اهل الكتاب قد اتاهم نذير فلا يكون الكتاب منزلا الى الرسول لينذر اهل الكتاب فلا يكون رسولا اليهم نقول هذا فاسد من وجوه (احدها) ان التخصيص لا يوجب نفى ما عداه (والثانى) انه وان قال به قائل لكنه وافق غيره فى ان التخصيص ان كان له سبب غير نفى ما عداه لا يوجب نفى ما عداه وههنا وجد ذلك لان انذارهم كان اولى الا ترى انه تعالى قال وانذر عشيرتك الاقربين ولم يفهم منه انه لا ينذر غيرهم او لم يؤمر بانذار غيرهم وانذار المشركين كان اولى لان انذارهم كان بالتوحيد والحشر واهل الكتاب لم ينذروا الا بسبب انكارهم الرسالة فكانوا اولى بالذكر فوقع التخصيص لاجل ذلك (الثالث) هو ان على ما ذكرنا لا يرد ما ذكره اصلا لان اهل الكتاب كانوا قد ضلوا ولم يأتهم نذير من قبل محمد بعد ضلالهم فلزم ان يكون مرسلا الى الكل على درجة سواء وبهذا يتبين حسن ما اخترناه وقوله لعلهم يهتدون يعنى تنذرهم راجيا انت اهتداءهم ۞ ثم قال تعالى (الله الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة ايام) لما ذكر الرسالة بين ما على الرسول من الدعاء الى التوحيد واقامة الدليل فقال الله الذى خلق السموات والارض الله مبتدأ وخبره الذى خلق يعنى الله هو الذى خلق السموات والارض ولم يخلقهما الا واحد فلا اله الا واحد وقد ذكرنا ان قوله تعالى فى ستة ايام اشارة الى ستة احوال فى نظر الناظرين وذلك لان السموات والارض وما بينهما ثلاثة اشياء ولكل واحد منها ذات وصفة فنظرا الى خلقه ذات السموات حالة ونظرا الى خلقه صفاتها اخرى ونظرا الى ذات الارض والى صفاتها كذلك ونظرا الى ذوات ما بينهما والى صفاتها كذلك فهى ستة اشياء فى ستة احوال وانما ذكر الايام لان الانسان اذا نظر الى الخلق رآه فعلا والفعل ظرفه الزمان والايام اشهر الازمنة والا فقبل السموات لم يكن ليل ولا نهار وهذا مثل ما يقول القائل لغيره ان يوما ولدت فيه كان يوما مباركا وقد يجوز ان يكون ذلك قد ولد ليلا ولا يخرج عن مراده لان المراد هو الزمان الذى هو ظرف ولادته ۞ ثم قال تعالى (ثم استوى على

الى انه تعالى متفضل فى جميع ما ذكر فاعل بالاحسان (الذى احسن كل شئ خلقه) خبر آخر او نصب على المدح اى حسن كل مخلوق خلقه اذ ما من مخلوق خلقه الا وهو مرتب على ما اقتضته الحكمة واوجبته (٧٥١) المصلحة فجميع المخلوقات حسنة وان تفاوتت الى حسن واحسن كما قال تعالى لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم وقيل علم كيف يخلقه من قوله قيمة المرء ما يحسن اى يحسن معرفته اى يعرفه معرفة حسنة بتحقيق وايقان وقرئ خلقه على انه بدل اشتمال من كل شئ والضمير للمبدل منه اى حسن خلق كل شئ وقيل بدل الكل على ان الضمير لله تعالى والخلق بمعنى المخلوق اى حسن كل مخلوقاته وقيل هو مفعول ثان لاحسن على تضمينه معنى اعطى اى اعطى كل شئ خلقه اللائق به بطريق الاحسان والتفضل وقيل هو مفعوله الاول وكل شئ مفعوله الثانى والخلق بمعنى المخلوق وضميره لله سبحانه على تضمين الاحسان معنى الالهام والتعريف والمعنى ألهم خلقه كل شئ مما يحتاجون اليه وقال ابو البقاء عرف مخلوقاته كل شئ يحتاجون اليه فيؤل الى معنى قوله تعالى الذى اعطى كل شئ خلقه ثم هدى (وبدأ خلق الانسان) من بين جميع المخلوقات (من طين) على وجه بديع تحار العقول فى فهمه حيث برأ آدم عليه السلام على فطرة عجيبة منطوية على فطرة سائر افراد الجنس انطواء اجماليا مستتبعا لخروج كل فرد منها من القوة الى الفعل بحسب استعداداتها المتفاوتة قربا وبعدا كما ينبئ عنه قوله تعالى (ثم جعل نسله) الخ اى ذريته سميت بذلك لانها تنسل وتنفصل منه (من سلالة من ماء مهين) هو المنى الممتهن (ثم سواه) اى عدله بتكميل اعضائه فى الرحم وتصويرها على ما ينبغى (ونفخ فيه من روحه) اضافه اليه تعالى تشريفا له وايذانا بانه خلق عجيب وصنع بديع وان له مناسبة الى حضرة الربوبية وان اقصى ما تنتهى اليه العقول

العرش) اعلم ان مذهب العلماء في هذه الآية وأمثالها على وجهين (احدهما) ترك التعرض الى بيان المراد (وثانيهما) التعرض اليه والاول اسلم والى الحكمة اقرب اما انه اسلم فذلك لان من قال انا لا اتعرض الى بيان هذا اولا اعرف المراد من هذا لايكون حاله الا حال من لايتكلم عند عدم وجوب الكلام اولا يعلم شيئا لم يجب عليه ان يعلمه وذلك لان الاصول ثلاثة التوحيد والقول بالحشر والاعتراف بالرسل لكن الحشر اجمعنا واتفقنا ان العلم به واجب والعلم بتفصيله انه متى يكون غير واجب ولهذا قال تعالى في آخر السورة المتقدمة ان الله عنده علم الساعة فكذلك الله يجب معرفة وجوده ووحدانيته واتصافه بصفات الجلال ونعوت الكمال على سبيل الاجمال وتعاليه عن وصمات الامكان وصفات النقصان ولايجب ان يعلم جميع صفاته كما هي وصفة الاستواء مما لايجب العلم بها فمن ترك التعرض اليه لم يترك واجبا واما من يتعرض اليه فقد يخطئ فيه فيعتقد خلاف ماهو عليه فالاول غاية مايلزمه انه لايعلم والثاني يكاد ان يقع في ان يكون جاهلا مركبا وعدم العلم والجهل المركب كالسكوت والكذب ولايشك احد في ان السكوت خير من الكذب واما انه اقرب الى الحكمة فذلك لان من يطالع كتابا صنفه انسان وكتب له شرحا والشارح دون المصنف فالظاهر انه لايأتي على جميع ماأتى عليه المصنف ولهذا كثيرا مانرى ان الانسان يورد الاشكالات على المصنف المتقدم ثم يجيء من ينصر كلامه ويقول لم يرد المصنف هذا وانما اراد كذا وكذا واذا كان حال الكتب الحادثة التي تكتب من علم قاصر كذلك فما ظنك بالكتاب العزيز الذي فيه كل حكمة يجوز ان يدعي جاهل اني علمت كل سر في هذا الكتاب وكيف ولو ادعى عالم اني علمت كل سر وكل فائدة يشتمل عليه الكتاب الفلاني يستقبح ذلك فكيف من يدعي انه علم كل مافي كتاب الله ثم ليس لقائل ان يقول بأن الله تعالى بين كل ما انزله لان تأخير البيان الى وقت الحاجة جائز ولعل في القرآن مالايحتاج اليه احد غير نبيه فبينه له لالغيره اذا ثبت هذا علم ان في القرآن مالايعلم وهذا اقرب الى ذلك الذي لايعلم للتشابه البالغ الذي فيه لكن هذا المذهب له شرط وهو ان ينفي بعض مايعلمه قطعا انه ليس بمراد وهذا لان قائلا اذا قال ان هذه الايام ايام قرء فلانة يعلم انه لا يريد ان هذه الايام أيام موت فلانة ولا يريد ان هذه الايام أيام سفر فلانة وانما المراد منحصر في الطهر او الحيض فكذلك ههنا يعلم ان المراد ليس مايوجب نقصا في ذاته لاستحالة ذلك والجلوس والاستقرار المكاني من ذلك الباب فيجب القطع بنفي ذلك التوقف فيما يجوز بعده (والمذهب الثاني) خطر ومن يذهب اليه فريقان (احدهما) من يقول المراد ظاهره وهو القيام والانتصاب او الاستقرار المكاني (وثانيهما) من يقول المراد الاستيلاء والاول جهل محض والثاني يجوز ان يكون جهلا والاول مع كونه جهلا هو بدعة وكاد يكون كفرا والثاني وان كان جهلا فليس بجهل يورث بدعة وهذا كما ان واحدا اذا اعتقد ان الله يرحم الكفار

البشرية من معرفته هذا القدر الذي يعبر عنه تارة بالاضافة اليه تعالى واخرى بالنسبة الى امره تعالى كما في قوله تعالى قل الروح من امر ربي (وجعل لكم السمع والابصار والافئدة) الجعل ابداعي واللام متعلقة به والتقديم على المفعول الصريح لما مر مرات من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر مع ما فيه من نوع طول يخل تقديمه بجزالة النظم الكريم اى خلق لمنفعتكم تلك المشاعر لتعرفوا انها مع كونها في انفسها نعما جليلة لايقادر قدرها وسائل الى التمتع بسائر النعم الدينية والدنيوية الفائضة عليكم وتشكروها بأن تصرفوا كلا منها الى ما خلق هو له فتدركوا بسمعكم الآيات التنزيلية الناطقة بالتوحيد والبعث وبأبصاركم الآيات التكوينية الشاهدة بهما وتستدلوا بأفئدتكم على حقيتهما وقوله تعالى (قليلا ماتشكرون) بيان لكفرهم بتلك النعم بطريق الاعتراض التذييلي على ان القلة بمعنى النفي كما ينبئ عنه مابعده اى شكرا قليلا وزمانا قليلا تشكرون وفي حكاية احوال الانسان من مبدأ فطرته الى نفخ الروح فيه بطريق الغيبة وحكاية احواله بعد ذلك بطريق الخطاب المنبئ عن استعداده للفهم وصلاحيته له من الجزالة مالا غاية وراءه (وقالوا) كلام مستأنف مسوق لبيان اباطيلهم بطريق الالتفات ايذانا بأن ماذكر من عدم شكرهم بتلك النعم موجب للاعراض عنهم وتعديد جناياتهم لغيرهم بطريق المباثة (أئذا ضللنا في الارض) اى صرنا ترابا مخلوطا بترابها بحيث لانتميز منه او غبنا فيها بالدفن وقرئ ضللنا بكسر اللام من باب علم وصللنا بالصاد المهملة من صل اللحم اذا أنتن وقيل من الصلة وهي الارض اى صرنا من جنس الصلة (ولا

ولايعاقب احدا منهم يكون جهلا و بدعةوكفرا واذا اعتقدانه يرحم زيدا الذى هو مستور الحال لايكون بدعة غاية مايكون انه اعتقاد غيرمطابق (وثماقيل فيه) ان المراد منه استوى على ملكه والعرش يعبربه عن الملك يقال الملك قعد على سرير المملكة بالبلدة الفلانية وان لم يدخلها وهذا مثل قوله تعالى وقالت اليهود يدالله مغلولة اشارة الى البخل مع انهم لم يقولوا بأن على يدالله غلا على طريق الحقيقة ولوكان مراد الله ذلك لكان كذبا جل كلام الله عنه ثم لهذا فضل تقرير وهو ان الملوك على درجات فمن يملك مدينة صغيرة او بلادا يسيرة ماجرت العادة بأن يجلس اول مايجلس على سرير ومن يكون سلطانا يملك البلاد الشاسعة والديار الواسعة وتكون الملوك فى خدمته يكون له سرير يجلس عليه وقدامه كرسى يجلس عليه وزيره فالعرش والكرسى فى العادة لايكون الاعند عظمة المملكة فلما كان ملك السموات والارض فى غاية العظمة عبر بما ينبئ فى العرف عن العظمة ومما ينبهك لهذا قوله تعالى انا خلقنا وانا زينا ونحن اقرب ونحن نزلنا أيظن او يشك مسلم فى ان المراد ظاهره من الشريك وهل يجد له محملا غير ان العظيم فى العرف لايكون واحدا وانما يكون معه غيره فكذلك الملك العظيم فى العرف لايكون الاذا سرير يستوى عليه فاستعمل ذلك مريدا للعظمة ومما يؤيد هذا ان المقهور المغلوب المهزوم يقال له ضاقت به الارض حتى لم يبق له مكان أيظن انهم يريدون به انه صار لامكان له وكيف يتصور الجسم بلامكان ولاسيما من يقول بأن الهه فى مكان كيف يخرج الانسان عن المكان فكما يقال المقهور الهارب لم يبق له مكان مع ان المكان واجب له يقال للقادر القاهر هو متمكن وله عرش وان كان التنزه عن المكان واجبا له وعلى هذا كلمة ثم معناها خلق السموات والارض ثم القصة انه استوى على الملك وهذا كما يقول القائل فلان اكرمنى وانعم على مرارا ويحكى عنه اشياء ثم يقول انه ماكان يعرفنى ولا كنت فعلت معه مايجازينى بهذا فنقول ثم للحكاية لاللمحكى (الوجه الآخر) قيل استوى جاء بمعنى استولى على العرش واستوى جاء بمعنى استولى نقلا واستعمالا (اما النقل) فكثير مذكور فى كتب اللغة منها ديوان الادب وغيره مما يعتبر النقل عنه (واما الاستعمال)فقول القائل

قد استوى بشر على العراق * من غير سيف ودم مهراق

وعلى هذا فكلمة ثم معناها ماذكرنا كأنه قال خلق السموات والارض ثم ههنا ماهو اعظم منه استوى على العرش فانه اعظم من الكرسى والكرسى وسع السموات والارض (الوجه الثالث) قيل ان المراد الاستقرار وهذا القول ظاهر ولايفيد انه فى مكان وذلك لان الانسان يقول استقر رأى فلان على الخروج ولايشك احد انه لايريد ان الرأى فى مكان وهو الخروج لما ان الرأى لايجوز فيه ان يقال انه متمكن او هو مما يدخل فى مكان اذا علم هذا فنقول فهم التمكن عند استعمال كلمة الاستقرار مشروط بجواز التمكن حتى اذا قال قائل استقر زيد على الفلك او على التخت يفهم

قيل القائل ابى بن خلف ولرضاهم بقوله اسند القول الى الكل والعامل فى اذا مايدل عليه قوله تعالى (أئنا لفى خلق جديد) وهو نبعث اونجدد خلقنا والهمزة لتذكير الانكار السابق وتأكيده وقرئ اناعلى الخبر واياما كان فالمعنى على تأكيد الانكار لاانكار التأكيد كماهو المتبادر من تقدم الهمزة على ان فانها مؤخرة عنها فى الاعتبار وانما تقديمها عليها لاقتضائها الصدارة (بل هم بلقاء ربهم كافرون) اضراب وانتقال من بيان كفرهم بالبعث الى بيان ماهو أبلغ واشنع منه وهو كفرهم بالوصول الى العاقبة ومايلقونه فيها من الاحوال والاهوال جميعا (قل) بيانا للحق وردا على زعمهم الباطل (يتوفاكم ملك الموت) لاكما تزعمون ان الموت من الاحوال الطبيعية العارضة للحيوان بموجب الجبلة اى يقبض ارواحكم بحيث لايدع فيكم شيئا او لايترك منكم احدا على اشد مايكون من الوجوه وافظعها من ضرب وجوهكم وادباركم (الذى وكل بكم) اى بقبض ارواحكم واحصاء آجالكم (ثم الى ربكم ترجعون) بالبعث للحساب والجزاء (ولو ترى اذ المجرمون) وهم القائلون أئذا ضللنا فى الارض الآية أو جنس المجرمين وهم من جملتهم (ناكسو رؤسهم عند ربهم) من الحياء والخزى عند ظهور قبائحهم التى اقترفوها فى الدنيا (ربنا) اى يقولون ربنا (أبصرنا وسمعنا) اى صرنا ممن يبصر ويسمع وحصل لنا الاستعداد لادراك الآيات المبصرة والآيات المسموعة وكنا من قبل عميا وصما لاندرك شيئا (فارجعنا) الى الدنيا (نعمل) عملا (صالحا) حسبما تقتضيه تلك الآيات وقوله تعالى (انا موقنون) ادعاء منهم لصحة الافئدة والاقتدار على فهم معانى الآيات والعمل بموجبها كما ان ماقبله ادعاء لصحة مشعرى البصر (٩٥) (را) (س) والسمع كأنهم قالوا وأيقنا وكنا من قبل لانعقل شيئا اصلا وانما

عند التمكن وكونه فى مكان واذا قال قائل استقر الملك على فلان لايفهم ان الملك فى فلان فقول القائل الله استقر على العرش لاينبغى ان يفهم كونه فى مكان مالم يعلم انه مما يجوز عليه ان يكون فى مكان اولا يجوز فاذن فهم كونه فى مكان من هذه اللفظة مشروط بجواز ان يكون فى مكان فجواز كونه فى مكان ان استفيد من هذه اللفظة يلزم تقدم الشئ على نفسه وهو محال ثم الذى يدل على انه لايجوز ان يكون على العرش بمعنى كون العرش مكاناله وجوه من القرآن (احدها) قوله تعالى وان الله لهو الغنى وهذا يقتضى ان يكون غنيا على الاطلاق وكل ماهو فى مكان فهو فى بقائه محتاج الى مكان لان بديهة العقل حاكمة بان الحيز ان لم يكن لايكون المتحيز باقيا فالمتحيز ينتفى عند انتفاء الحيز وكل ماينتفى عند انتفاء غيره فهو محتاج اليه فى استمراره فالقول باستقراره يوجب احتياجه فى استمراره وهو غنى بالنص (الثانى) قوله تعالى كل شئ هالك الاوجهه فالعرش يهلك وكذلك كل مكان فلايبقى وهو يبقى فاذن لايكون فى ذلك الوقت فى مكان فجاز عليه ان يكون فى مكان وما جازله من الصفات وجب له فيجب ان لايكون فى مكان (الثالث) قوله تعالى وهو معكم ووجه التمسك به هو ان على اذا استعمل فى المكان يفهم كونه عليه بالذات كقولنا فلان على السطح وكلمة مع اذا استعملت فى متمكنين يفهم منها اقترانهما بالذات كقولنا زيد مع عمرو اذا استعمل هذا فان كان الله فى مكان ونحن متمكنون فقوله ان الله معنا وقوله وهو معكم كان ينبغى ان يكون للاقتران وليس كذلك فان قيل كلمة مع تستعمل لكون ميله اليه وعلمه معه اونصرته يقال الملك الفلانى مع الملك الفلانى اى بالاعانة والنصر فنقول كلمة على تستعمل لكون حكمه على الغير يقول القائل لولا فلان على فلان لاشرف فى الهلاك ولاشرف على الهلاك وكذا يقال لولا فلان على املاك فلان او على ارضه ماحصل له شئ منها ولا أكل حاصلها بمعنى الاشراف والنظر فكيف لانقول فى استوى على العرش انه استوى عليه بحكمه كما تقول هو معنا بعلمه (الرابع) قوله تعالى لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار ولو كان فى مكان لاحاط به المكان وحينئذ فاما ان يرى واما ان لايرى لاسبيل الى الثانى بالاتفاق لان القول بأنه فى مكان ولايرى باطل بالاجماع وان كان يرى فيرى فى مكان أحاط به فتدركه الابصار واما اذا لم يكن فى مكان فسواء يرى اولايرى لايلزم ان تدركه الابصار اما اذا لم ير فظاهر واما اذا رؤى فلأن البصر لايحيط به فلايدركه وانما قلنا ان البصر لايحيط به لان كل ما أحاط به البصر فله مكان يكون فيه وقد فرضنا عدم المكان ولو تدبر الانسان القرآن لوجده مملوأ من عدم جواز كونه فى مكان كيف وهذا الذى يتمسك به هذا القائل يدل على انه ليس على العرش بمعنى كونه فى المكان وذلك لان كلمة ثم للتراخى فلو كان عليه بمعنى المكان لكان قد حصل عليه بعد مالم يكن عليه قبله اما ان يكون فى مكان اولايكون فان كان يلزم محالان (احدهما) كون المكان ازليا ثم ان هذا القائل يدعى مضادة الفلسفى فيصير فلسفيا يقول بقدم سماء من

جدلوا فى الجنة الامية المؤكدة لظهارا لثباتهم على الايقان وكمال رغبتهم فيه وكل ذلك للجد فى الاستدعاء طمعا فى الاجابة الى ماسألوه من الرجعة وانى لهم ذلك ويجوز ان يقدر لكل من الفعلين مفعول مناسب له مما يبصرونه ويسمعونه فانهم حينئذ يشاهدون الكفر والمعاصى على صور منكرة هائلة ويخبرهم الملائكة بأن مصيرهم الى النار لامحالة فالمعنى ابصر نا قبح اعمالنا وكنا نراها فى الدنيا حسنة وسمعنا ان مردنا الى النار وهو الانسب لمابعده من الوعد بالعمل الصالح هذا وقد قيل المعنى وسمعنا منك تصديق رسلك وأنت خبير بأن تصديقه تعالى لهم حينئذ يكون باظهار مدلول ما اخبروا به من الوعد والوعيد لا بالاخبار بأنهم صادقون حتى يسمعوه وقيل وسمعنا قول الرسل اى سمعناه سمع طاعة واذعان ولايقدر لترى مفعول اذ المعنى لو تكون منك رؤية فى ذلك الوقت او يقدر ما يجئ عنه صلة اذ والمضى فيها وفى لو باعتبار ان الثابت فى علم الله تعالى بمنزلة الواقع وجواب لو محذوف اى لرأيت أمرا فظيعا لايقادر قدره والخطاب لكل احد ممن يصلح له كائنا من كان اذ المراد بيان كمال سوء حالهم وبلوغها من الفظاعة الى حيث لايختص استغرابها واستفظاعها براء دون راء ممن اعتاد مشاهدة الامور البديعة والدواهى الفظيعة بل كل من يتأتى منه الرؤية يتعجب من هولها وفظاعتها هذا ومن علل عموم الخطاب بالقصد الى بيان ان حالهم قد بلغت من الظهور الى حيث يمتنع خفاؤها البتة فلايختص رؤية راء دون راء بل كل من يتأتى منه الرؤية فله مدخل فى هذا الخطاب فقد نأى عن تحقيق الحق لان المقصود بيان كمال فظاعة حالهم كما ينبئ عنه الجواب المحذوف لابيان كمال ظهورها فانه مسوق مساق السلاك فتدبر (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) مقدر بقول معطوف على ماقدر قبل (السموات)

السموات (والثانى) جواز الحركة والانتقال على الله تعالى وهو يقتضى الى حدوث الباري او يبطل دلائل حدوث الاجسام وان لم يكن مكان وما حصل فى مكان يحيل العقل وجوده بلا مكان ولو جاز لما امكن ان يقال بأن الجسم لو كان أزليا فاما ان يكون فى الازل ساكنا او متحركا لانهما فرعا الحصول فى مكان واذا كان كذلك فيلزمه القول بحدوث الله او عدم القول بحدوث العالم لانه ان سلم انه قبل المكان لا يكون فهو القول بحدوث الله تعالى وان لم يسلم فيجوز ان يكون الجسم فى الازل لم يكن فى مكان ثم حصل فى مكان فلا يتم دليله فى حدوث العالم فيلزمه ان لا يقول بحدوثه ثم ان هذا القائل فيقول انك تشبه الله بالمعدوم فانه ليس فى مكان ولا يعلم انه جعله معدوما حيث احوجه الى مكان وكل محتاج نظرا الى عدم ما يحتاج اليه معدوم ولو كتبنا ما فيها لطال الكلام

❁ ثم قال تعالى (مالكم من دونه من ولى ولا شفيع افلا تتذكرون) لما ذكر ان الله خالق السموات والارض قال بعضهم نحن معترفون بأن خالق السموات والارض واحد هو اله السموات وهذه الاصنام صور الكواكب منها نصرتنا وقوتنا وقال آخرون هذه صور الملائكة عند الله هم شفعاؤنا فقال الله تعالى لا اله غير الله ولا نصرة من غير الله ولا شفاعة الا بأذن الله فعبادتكم لهذه الاصنام باطلة ضائعة لا هم خالقوكم ولا ناصروكم ولا شفعاؤكم ثم قال تعالى أفلا تتذكرون ما علمتوه من انه خالق السموات والارض وخلق هذه الاجسام العظام لا يقدر عليه مثل هذه الاصنام حتى تنصركم والملك العظيم لا يكون عنده لهذه الاشياء الحقيرة احترام وعظمة حتى تكون لها شفاعة ❁ ثم قال تعالى (يدبر الامر من السماء الى الارض) لما بين الله تعالى الخلق بين الامر كما قال تعالى ألا له الخلق والامر والعظمة تتبين بهما فان من يملك مماليك كثيرين عظماء تكون له عظمة ثم اذا كان امره نافذا فيهم يزداد فى اعين الخلق وان لم يكن له نفاذ امر ينقص من عظمته ❁ وقوله تعالى (ثم يعرج اليه) معناه والله اعلم ان أمره ينزل من السماء على عباده وتعرج اليه اعمالهم الصالحة الصادرة على موافقة ذلك الامر فان العمل أثر الامر ❁ وقوله تعالى (فى يوم كان مقداره الف سنة مما تعدون) فيه وجوه (أحدها) ان نزول الامر وعروج العمل فى مسافة الف سنة مما تعدون وهو فى يوم فان بين السماء والارض مسيرة خمسمائة سنة فينزل فى مسيرة خمسمائة سنة ويعرج فى مسيرة خمسمائة سنة فهو مقدار الف سنة (ثانيها) هو ان ذلك اشارة الى امتداد نفاذ الامر وذلك لان من نفذ امره غاية النفاذ فى يوم او يومين وانقطع لا يكون مثل من ينفذ امره فى سنين متطاولة فقوله تعالى فى يوم كان مقداره الف سنة يعنى يدبر الامر فى زمان يوم منه الف سنة فكم يكون شهر منه وكم تكون سنة منه وكم يكون دهر منه وعلى هذا الوجه لا فرق بين هذا وبين قوله مقداره خمسين الف سنة لان تلك اذا كانت اشارة الى دوام نفاذ الامر فسواء يعبر بالالف او بالخمسين ألفا لا يتفاوت الا ان المبالغة تكون فى الخمسين اكثر وسنبين فائدتها فى موضعها ان شاء الله

قوله تعالى ربنا ابصرنا الخ اى ونقول لو شئنا اى لو تعلقت مشيئتنا تعلقا فعليا بان نعطى كل نفس من النفوس البرة والفاجرة ما تهتدى به الى الايمان والعمل الصالح لاعطيناها اياها فى الدنيا التى هى دار الكسب وما أخرناها الى دار الجزاء (ولكن حق القول منى) اى سبقت كلمتى حيث قلت لابليس عند قوله لأغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم اجمعين وهو المعنى بقوله تعالى (لأملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين) كما يلوح به تقديم الجنة على الناس فبموجب ذلك القول لم نشأ اعطاء الهدى على العموم بل منعناه من اتباع ابليس الذين انتم من جملتهم حيث صرفتم اختياركم الى الغى باغوائه ومشيئتنا لافعال العباد منوطة باختيارهم اياها فلما لم تختاروا الهدى واخترتم الضلالة لم نشأ اعطاءه لكم وانما اعطيناه الذين اختاروه من النفوس البرة وهم المعنيون بما سيأتى من قوله تعالى انما يؤمن بآياتنا الآية فيكون مناط عدم مشيئة اعطاء الهدى فى الحقيقة سوء اختيارهم لا تحقق القول وانما قيدنا المشيئة بما مر من التعلق الفعلى بافعال العباد عند حدوثها لان المشيئة الازلية من حيث تعلقها بما سيكون من افعالهم اجمالا متقدمة على تحقق كلمة العذاب فلا يكون عدمها منوطا بتحققها وانما مناطه علمه تعالى ازلا بصرف اختيارهم فيما سيأتى الى الغى وايثارهم له على الهدى فلو اريدت هى من تلك الحيثية لاستدرك بعدمها ونيط ذلك بما ذكر من المناط على منهاج قوله تعالى ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم فمن توهم ان المعنى ولو شئنا لاعطينا كل نفس ما عندنا من اللطف الذى لو كان منهم اختياره لاهتدوا ولكن لم نعطهم لما علمنا منهم اختيار الكفر وإيثاره فقد اشتبه عليه الشؤون والفاء فى قوله تعالى (فذوقوا) لترتيب الامر بالذوق على ما يعرب عنه ما قبله من نفى الرجع الى الدنيا أو على الوعيد المحكى والباء فى قوله

تعالى (بمانسيتم لقاء يومكم هذا) للايذان بأن تعذيبهم ليس لمجرد سبق الوعيد به فقط بل هو وسبق الوعيد ايضا بسبب موجب له من
قبلهم كأنه قيل لارجع لكم الى الدنيا اوحق وعيدى فذوقوا بسبب (٧٥٦) نسيانكم لقاء هذا اليوم الهائل وتركم التفكر فيه
والاستعداد له بالكلية (انا نسيناكم)
اى تركناكم فى العذاب ترك المنسى
بالمرة وقوله تعالى (وذوقوا
عذاب الخلد بما كنتم تعملون)
تكرير للتأكيد والتشديد
وتعيين المفعول المطوى للذوق
والاشعار بأن سببه ليس مجرد
ماذكر من النسيان بل له اسباب
أخر من فنون الكفر والمعاصى
التى كانوا مستمرين عليها فى الدنيا
وعدم نظم الكل فى سلك واحد
للتنبيه على استقلال كل منها فى
استيجاب العذاب وفى ابهام
المذوق اولا وبيانه ثانيا بتكرير
الامر وتوسيط الاستئناف المنبئ
عن كمال السخط بينهما من الدلالة
على غاية التشديد فى الانتقام
منهم مالا يخفى وقوله تعالى (انما
يؤمن بآياتنا) استئناف مسوق
لتقرير عدم استحقاقهم لايتاء
الهدى والاشعار بعدم ايمانهم
لو أوتوه بتعيين من يستحقه بطريق
القصر كأنه قيل انكم لاتؤمنون
بآياتنا ولاتعملون بموجبها
عملا صالحا ولو رجعناكم الى الدنيا
كما تدعون حسبما ينطق به قوله
تعالى ولو ردوا لعادوا لما نهوا
عنه وانما يؤمن بها (الذين اذا
ذكروا بها) اى وعظوا (خروا
سجدا) اثر ذى اثير من غير
تردد ولا تلعثم فضلا عن
التسويف الى معاينة ما نطقت به
من الوعد والوعيد اى سقطوا
على وجوههم (وسبحوا بحمد
ربهم) اى ونزهوه عند ذلك
عن كل ما لايليق به من الامور
التى من جملتها العجز عن البعث
ملتبسين بحمده تعالى على نعمائه
التى اجلها الهداية بايتاء الآيات
والتوفيق للاهتداء بها والتعرض
لعنوان الربوبية بطريق الالتفات
مع الاضافة الى ضميرهم للاشعار
بعلة التسبيح والتحميد وبأنهم يفعلونهما بملاحظة ربوبيته تعالى لهم (وهم لايستكبرون) اى والحال انهم خاضعون له تعالى (صحيح)

تعالى (وفى هذه لطيفة) وهو ان الله ذكر فى الآية المتقدمة عالم الاجسام والخلق وأشار الى عظمة الملك وذكر فى هذه الآية عالم الارواح والامر بقوله يدبر الامر والروح من عالم الامر كما قال تعالى ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وأشار الى دوامه بلفظ يوهم الزمان والمراد دوام البقاء كما يقال فى العرف طال زمان فلان والزمان لايطول وانما الواقع فى الزمان يمتد فيوجد فى ازمنة كثيرة فيطول ذلك فيأخذ أزمنة كثيرة فأشار هناك الى عظمة الملك بالمكان وأشار الى دوامه ههنا بالزمان فالمكان من خلقه وملكه والزمان بحكمه وامره (واعلم) ان ظاهر قوله يدبر الامر فى يوم يقتضى ان يكون امره فى يوم واليوم له ابتداء وانتهاء فيكون أمره فى زمان حادث فيكون حادثا وبعض من يقول بأن الله على العرش استوى يقول بأن امره قديم حتى الحروف وكلمة كن فكيف فهم من كلمة على كونه فى مكان ولم يفهم من كلمة فى كون امره فى زمان ثم بين ان هذا الملك العظيم النافذ الامر غير غافل فان الملك اذا كان آمرا ناهيا يطاع فى امره ونهيه ولكن يكون غافلا لايكون مهيبا عظيما كما يكون مع ذلك خبيرا يقظا لاتخفى عليه امور الممالك والمماليك * فقال تعالى (ذلك عالم الغيب والشهادة) ولما ذكر من قبل عالم الاشباح بقوله خلق السموات وعالم الارواح بقوله يدبر الامر من السماء الى الارض قال عالم الغيب يعلم ما فى الارواح والشهادة يعلم ما فى الاجسام او نقول قال عالم الغيب اشارة الى ما لم يكن بعد والشهادة اشارة الى ما وجد وكان وقدم العلم بالغيب لانه اقوى واشد انباء عن كمال العلم * ثم قال تعالى (العزيز الرحيم) لما بين انه عالم ذكر انه عزيز قادر على الانتقام من الكفرة رحيم واسع الرحمة على البررة * ثم قال تعالى (الذى احسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الانسان من طين) لما بين الدليل الدال على الوحدانية من الآفاق بقوله خلق السموات والارض وما بينهما وأتمه بتوابعه ومكملاته ذكر الدليل الدال عليها من الانفس بقوله الذى احسن كل شئ يعنى أحسن كل شئ مما ذكره وبين ان الذى بين السموات والارض خلقه وهو كذلك لانك اذا نظرت الى الاشياء رأيتها على ما ينبغى صلابة الارض للنبات والثبات وسلالة الهواء للاستنشاق وقبول الانشقاق لسهولة الاستطراق وسيلان الماء لنقدر عليه فى كل موضع وحركة النار الى فوق لانها لو كانت مثل الماء تتحرك يمنة ويسرة لاحترق العالم فخلقت طالبة لجهة فوق حيث لاشئ هناك يقبل الاحتراق وقوله وبدأ خلق الانسان من طين قيل المراد آدم عليه السلام فانه خلق من طين ويمكن ان يقال بأن الطين ماء وتراب مجتمعان والآدمى اصله منى والمنى اصله غذاء والاغذية اما حيوانية واما نباتية والحيوانية بالآخرة ترجع الى النباتية والنبات وجوده بالماء والتراب الذى هو طين * وقوله تعالى (ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) على التفسير الاول ظاهر لان آدم كان من طين ونسله من سلالة من ماء مهين هو النطفة وعلى التفسير الثانى هو ان اصله من الطين ثم يوجد من ذلك الاصل سلالة هى من ماء مهين فان قال قائل التفسير الثانى غير

صحيح لان قوله بدأ خلق الانسان ثم جعل نسله دليل على ان جعل النسل بعد خلق الانسان من طين فنقول لا بل التفسير الثانى أقرب الى الترتيب اللفظى فانه تعالى بدأ بذكر الامر من الابتداء فى خلق الانسان فقال بدأه من طين ثم جعله سلالة ثم سواه ونفخ فيه من روحه وعلى ماذكرتم يبعد ان يقال ﴿ ثم سواه ونفخ فيه من روحه ﴾ عائدا الى آدم ايضا لان كلمة ثم للتراخى فتكون التسوية بعد جعل النسل من سلالة وذلك بعد خلق آدم واعلم ان دلائل الآفاق أدل على كمال القدرة كما قال تعالى لخلق السموات والارض اكبر ودلائل الانفس ادل على نفاذ الارادة فان التغيرات فيها كثيرة واليه الاشارة بقوله ثم جعل نسله ثم سواه اى كان طينا فجعله منيا ثم جعله بشرا سويا وقوله تعالى ونفخ فيه من روحه اضافة الروح الى نفسه كاضافة البيت اليه للتشريف واعلم ان النصارى يفترون على الله الكذب ويقولون بان عيسى كان روح الله فهو ابن ولا يعلمون ان كل احد روحه روح الله بقوله ونفخ فيه من روحه اى الروح التى هى ملكه كما يقول القائل دارى وعبدى ولم يقل اعطاه من جسمه لان الشرف بالروح فاضاف الروح دون الجسم على مايترتب على نفخ الروح من السمع والبصر والعلم ﴿ فقال تعالى (وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ماتشكرون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال وجعل لكم مخاطبا ولم يخاطب من قبل وذلك لان الخطاب يكون مع الحى فلما قال ونفخ فيه من روحه خاطبه من بعده وقال جعل لكم (فان قيل) الخطاب واقع قبل ذلك كما فى قوله تعالى ومن آياته ان خلقكم من تراب (فنقول) هناك لم يذكر الامور المرتبة وانما اشار الى تمام الخلق وههنا ذكر الامور المرتبة وهى كون الانسان طينا ثم ماء مهينا ثم خلقا مستويا بانواع القوى مقوى فخاطب فى بعض المراتب دون البعض (المسئلة الثانية) الترتيب فى السمع والابصار والافئدة على مقتضى الحكمة وذلك لان الانسان يسمع اولا من الابوين او الناس امورا فيفهمها ثم يحصل له بسبب ذلك بصيرة فيبصر الامور ويجربها ثم يحصل له بسبب ذلك ادراك تام وذهن كامل فيستخرج الاشياء من قلبه ومثاله شخص يسمع من استاذ شيئا ثم يصير له اهلية مطالعة الكتب وفهم معانيها ثم يصير له اهلية التصنيف فيكتب من قلبه كتابا فكذلك الانسان يسمع ثم يطالع صحائف الموجودات ثم يعلم الامور الخفية (المسئلة الثالثة) ذكر فى السمع المصدر وفى البصر والفؤاد الاسم ولهذا جمع الابصار والافئدة ولم يجمع السمع لان المصدر لا يجمع وذلك لحكمة وهو ان السمع قوة واحدة ولها فعل واحد فان الانسان لا يضبط فى زمان واحد كلامين والاذن محله ولا اختيار لها فيه فان الصوت من اى جانب كان يصل اليه ولا قدرة لها على تخصيص القوة بادراك البعض واما الابصار فمحله العين ولها شبه اختيار فانها تتحرك الى جانب مرئى دون آخر وكذلك الفؤاد محل الادراك وله نوع اختيار يلتفت الى مايريد دون غيره واذا كان

لا يستكبرون عما فعلوا من الخرور والتسبيح والتحميد (تتجافى جنوبهم) اى تنبو وتتنحى (عن المضاجع) اى الفرش ومواضع المنام والجملة مستأنفة لبيان بقية محاسنهم وهم المتهجدون بالليل قال انس رضى الله عنه نزلت فينا معاشر الانصار كنا نصلى المغرب فلا نرجع الى رحلنا حتى نصلى العشاء مع النبى عليه الصلاة والسلام وعن انس ايضا رضى الله عنه انها نزلت فى اناس من اصحاب النبى عليه الصلاة والسلام كانوا يصلون من صلاة المغرب الى صلاة العشاء وهى صلاة الاوابين وهو قول ابى حازم ومحمد بن المنكدر وهو مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما وقال عطاء هم الذين لا ينامون حتى يصلوا العشاء الآخرة والفجر فى جماعة والمشهور ان المراد منه صلاة الليل وهو قول الحسن ومجاهد ومالك والاوزاعى وجماعة لقوله عليه الصلاة والسلام افضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم وافضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل وعن النبى عليه الصلاة والسلام فى تفسيرها قيام العبد من الليل وعنه عليه الصلاة والسلام اذا جمع الله الاولين والآخرين جاء مناد ينادى بصوت يسمع الخلائق كلهم سيعلم اهل الجمع اليوم من اولى بالكرم ثم يرجع فينادى ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل ثم يرجع فينادى ليقم الذين كانوا يحمدون الله فى السراء والضراء فيقومون وهم قليل فيسرحون جميعا الى الجنة ثم يحاسب سائر الناس وقوله تعالى (يدعون ربهم) حال من ضمير جنوبهم اى داعين له تعالى على الاستمرار (خوفا) من سخطه وعذابه وعدم قبول عبادته (وطمعا) فى رحمته (ومما رزقناهم) من المال (ينفقون) فى وجوه البر والحسنات (فلا تعلم نفس) من النفوس لا ملك مقرب ولا نبى مرسل فضلا عمن عداهم (ما أخفى لهم) اى لاولئك الذين عددت نعوتهم الجليلة (من قرة أعين) مما تقربه اعينهم

كذلك فلم يكن للمحل فى السمع تأثير والقوة مستبدة فذكر القوة فى الاذن وفى العين والفؤاد للمحل نوع اختيار فذكر المحل لان الفعل يسند الى المختار ألا ترى انك تقول سمع زيد ورأى عمرو ولا تقول سمع اذن زيد ولا رأى عين عمرو الا نادرا لما بينا ان المختار هو الاصل وغيره آلته فالسمع اصل دون محله لعدم الاختيار له والعين كالاصل وقوة الابصار آلتها والفؤاد كذلك وقوة الفهم آلته فذكر فى السمع المصدر الذى هو القوة وفى الابصار والافئدة الاسم الذى هو محل القوة ولان السمع له قوة واحدة ولها فعل واحد ولهذا لا يسمع الانسان فى زمان واحد كلامين على وجه يضبطهما ويدرك فى زمان واحد صورتين واكثر ويستبينهما (المسئلة الرابعة) لم قدم السمع ههنا والقلب فى قوله تعالى ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم فنقول ذلك يحقق ماذكرنا وذلك لان عند الاعطاء ذكر الادنى وارتقى الى الاعلى فقال اعطاكم السمع ثم اعطاكم ما هو اشرف منه وهو القلب وعند السلب قال ليس لهم قلب يدركون به ولا ما هو دونه وهو السمع الذى يسمعون به ممن له قلب يفهم الحقائق ويستخرجها وقد ذكرنا هناك ما هو والسبب فى تأخير الابصار مع انها فى الوسط فيماذكرنا من الترتيب وهو ان القلب والسمع سلب قوتهما بالطبع فجمع بينهما وسلب قوة البصر بجعل الغشاوة عليه فذكرها متأخرة * ثم قال تعالى (وقالوا أئذا ضللنا فى الارض) لما قال قليلا ما تشكرون بين عدم شكرهم باتيانهم بضده وهو الكفر وانكار قدرته على احياء الموتى وقد ذكرنا ان الله تعالى فى كلامه القديم كلما ذكر اصلين من الاصول الثلاثة لم يترك الاصل الثالث وههنا كذلك لما ذكر الرسالة بقوله تنزيل الكتاب الى قوله لتنذر قوما ما اتاهم من قبلك وذكر الوحدانية بقوله الله الذى خلق الى قوله وجعل لكم السمع والابصار ذكر الاصل الثالث وهو الحشر بقوله تعالى وقالوا أئذا ضللنا فى الارض وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الواو للعطف على ما سبق منهم فانهم قالوا محمد ليس برسول والله ليس بواحد وقالوا الحشر ليس بممكن (المسئلة الثانية) ان الله تعالى قال فى تكذيبهم الرسول فى الرسالة ام يقولون بلفظ المستقبل وقال فى تكذيبهم اياه فى الحشر وقالوا بلفظ الماضى وذلك لان تكذيبهم اياه فى رسالته لم يكن قبل وجوده وانما كان ذلك حالة وجوده فقال يقولون يعنى هم فيه واما انكارهم للحشر كان سابقا صادرا منهم ومن آبائهم فقال وقالوا (المسئلة الثالثة) انه تعالى صرح بذكر قولهم فى الرسالة حيث قال ام يقولون وفى الحشر حيث قال وقالوا أئذا ولم يصرح بذكر قولهم فى الوحدانية وذلك لانهم كانوا مصرين فى جميع الاحوال على انكار الحشر والرسول واما الوحدانية فكانوا يعترفون بها فى المعنى ألا ترى ان الله تعالى قال ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله فلم يقل قالوا ان الله ليس بواحد وان كانوا قالوه فى الظاهر (المسئلة الرابعة) لو قال قائل لما ذكر الرسالة ذكر من قبل دليلها وهو التنزيل الذى لاريب فيه ولما ذكر الوحدانية ذكر دليلها وهو خلق السموات والارض وخلق الانسان

وعنه عليه الصلاة والسلام يقول الله عز وجل اعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بله ما اطلعتم عليه اقرؤا ان شئتم فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة اعين وقرئ ما اخفى لهم وما نخفى لهم وما أخفيت لهم على صيغة المتكلم وما أخفى لهم على البناء للفاعل وهو الله سبحانه وقرئ قرات أعين لاختلاف انواعها والعلم بمعنى المعرفة وما موصولة او استفهامية علق عنها الفعل (جزاء بما كانوا يعملون) اى جزوا جزاء او اخفى لهم للجزاء بما كانوا يعملونه فى الدنيا من الاعمال الصالحة قيل هؤلاء القوم اخفوا اعمالهم فأخفى الله تعالى ثوابهم (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا) اى ابعد ظهور ما بينهما من التباين البين يتوهم كون المؤمن الذى حكيت اوصافه الفاضلة كالفاسق الذى ذكرت احواله (لا يستوون) التصريح به مع افادة الانكار لنفى المشابهة بالمرة على ابلغ وجه وآكده لبناء التفصيل الآتى عليه والجمع باعتبار معنى من كما ان الافراد فيما سبق باعتبار لفظها وقوله تعالى (اما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى) تفصيل لمراتب الفريقين فى الآخرة بعد ذكر احوالهما فى الدنيا واضيفت الجنة الى المأوى لانها المأوى الحقيقى وانما الدنيا منزل مرتحل عنه لا محالة وقيل المأوى جنة من الجنات وايا ما كان فلا يبعد ان يكون فيه رمز الى ماذكر من تجافيهم عن مضاجعهم التى هى مأواهم فى الدنيا (نزلا) اى ثوابا وهو فى الاصل ما يعد للنازل من الطعام والشراب وانتصابه على الحالية (بما كانوا يعملون) فى الدنيا من الاعمال الصالحة او باعمالهم (واما الذين فسقوا) اى خرجوا عن الطاعة (فمأواهم) اى ملجؤهم ومنزلهم (النار) مكان جنات المأوى للمؤمنين (كلما ارادوا ان يخرجوا منها اعيدوا فيها) استئناف لبيان كيفية كون النار مأواهم يروى

من طين ولما ذكر انكارهم الحشر لم يذكر الدليل نقول فى الجواب ذكر دليله أيضا وذلك لان خلق الانسان ابتداء دليل على قدرته على اعادته ولهذا استدل الله على امكان الحشر بالخلق الاول كما قال ثم يعيده وهو أهون عليه وقوله قل يحييها الذى انشأها اول مرة وكذلك خلق السموات كما قال تعالى أو ليس الذى خلق السموات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم بلى * وقوله تعالى (أئنا لفى خلق جديد) اى أئنا كائنون فى خلق جديد او واقعون فيه * (بل هم بلقاء ربهم كافرون) اضراب عن الاول يعنى ليس انكارهم لمجرد الخلق ثانيا بل يكفرون بجميع احوال الآخرة حتى لو صدقوا بالخلق الثانى لما اعترفوا بالعذاب والثواب او نقول معناه لم ينكروا البعث لنفسه بل لكفرهم فانهم انكروه فأنكروا المفضى اليه ثم بين مايكون لهم من الموت الى العذاب * فقال تعالى (قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم) يعنى لابد من الموت ثم من الحياة بعدمو اليه الاشارة بقوله تعالى * (ثم الى ربكم ترجعون) وقوله الذى وكل بكم اشارة الى انه لايغفل عنكم واذا جاء اجلكم لايؤخركم اذ لاشغل له الا هذا وقوله يتوفاكم ملك الموت ينبئ عن بقاء الارواح فان التوفى الاستيفاء والقبض هو الاخذ والاعدام المحض ليس بأخذ ثم ان الروح الزكى الطاهر يبقى عند الملائكة مثل الشخص بين اهله المناسبين له والخبيث الفاجر يبقى عندهم كأسير بين قوم لايعرفهم ولايعرف لسانهم والاول ينمو ويزيد ويزداد صفاؤه وقوته والآخر يذبل ويضعف ويزداد شقاؤه وكدورته والحكماء يقولون ان الارواح الطاهرة تتعلق بجسم سماوى خير من بدنها وتكمل به والارواح الفاجرة لاكمال لها بعد التعلق الثانى فان أرادوا ماذكرنا فقد وافقونا والا فيتغير النظر فى ذلك بحسب ارادتهم فقد يكون قولهم حقا وقد يكون غير حق فان قيل هم أنكروا الاحياء والله ذكر الموت وبينهما مباينة نقول فيه وجهان (احدهما) ان ذلك دليل الاحياء ودفع استبعاد ذلك فانهم قالوا ماعدم بالكلية كيف يكون الموجود عين ذلك فقال الملك يقبض الروح والاجزاء تتفرق فجمع الاجزاء لابعد فيه وامر الملك برد ماقبضه لاصعوبة فيه ايضا فقوله قل يتوفاكم ملك الموت اى الارواح معلومة فترد الى أجسادها * ثم قال تعالى (ولو ترى اذ المجرمون ناكسو رؤسهم عند ربهم ربنا ابصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا انا موقنون) لما ذكر انهم يرجعون الى ربهم بين مايكون عند الرجوع على سبيل الاجمال بقوله ولو ترى اذ المجرمون ناكسو رؤسهم يعنى لو ترى حالهم وتشاهد استخجالهم لترى عجبا وقوله تعالى ترى يحتمل ان يكون خطابا مع الرسول صلى الله عليه وسلم تشفيا لصدره فانهم كانوا يؤذونه بالتكذيب ويحتمل ان يكون عاما مع كل احد كما يقول القائل ان فلانا كريم ان خدمته ولو لحظة يحسن اليك طول عمرك ولايريد به خاصا وقوله عند ربهم لبيان شدة الخجالة لان الرب اذا أساء اليه المربوب ثم وقف بين يديه يكون فى غاية الخجالة ثم قال تعالى ربنا ابصرنا وسمعنا يعنى يقولون او قائلين ربنا أبصرنا وحذف يقولون

قعرها وهكذا يفعل بهم ابدا وكلمة فى الدلالة على انهم مستقرون فيها وانما الاعادة من بعض طبقاتها الى بعض (وقيل لهم) تشديدا عليهم وزيادة فى غيظهم (ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به) اى بعذاب النار (تكذبون) على الاستمرار فى الدنيا (ولنذيقنهم من العذاب الادنى) اى عذاب الدنيا وهو ماعذبوا به من السنة سبع سنين والقتل والاسر (دون العذاب الاكبر) الذى هو عذاب الآخرة (لعلهم) لعل الذين يشاهدونه منهم فى الحياة (يرجعون) يتوبون عن الكفر روى ان الوليد بن عقبة فاخر عليا رضى الله عنه يوم بدر فنزلت هذه الآيات (ومن اظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم اعرض عنها) بيان اجمالى لحال من قابل آيات الله تعالى بالاعراض بعد بيان حال من قابلها بالسجود والتسبيح والتحميد وكلمة ثم لاستبعاد الاعراض عنها عقلا مع غاية وضوحها وارشادها الى سعادة الدارين كما فى بيت الحماسة * ولايكشف الغماء الا ابن حرة * يرى غمرات الموت ثم يزورها * اى هو اظلم من كل ظالم وان كان سبك التركيب على نفى الاظلم من غير تعرض لنفى المساوى وقد مر مرارا (انا من المجرمين) اى من كل من اتصف بالاجرام وان هانت جريمته (منتقمون) فكيف بمن هو اظلم من كل ظالم واشد جرما من كل مجرم (ولقد آتينا موسى الكتاب) اى التوراة عبر عنها باسم الجنس لتحقيق المجانسة بينها وبين الفرقان والتنبيه على ان ايتاءه لرسول الله صلى الله عليه وسلم كايتائها لموسى عليه السلام (فلا تكن فى مرية من لقائه) من لقاء الكتاب الذى هو الفرقان كقوله وانك لتلقى القرآن
والمعنى انا آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب ولقيناه من الوحى مثل مالقيناك من الوحى فلا تكن فى شك من انك لقيت

اشارة الى غاية خجالتهم لان الخجل العظيم الخجلة لايتكلم وقوله ربنا ابصرنا وسمعنا اى ابصرنا الحشر وسمعنا قول الرسول فارجعنا الى الدنيا لنعمل صالحا وقولهم انا موقنون معناه انا فى الحال آمنا ولكن النافع الايمان والعمل الصالح ولكن العمل الصالح لايكون الا عند التكليف به وهو فى الدنيا فارجعنا للعمل وهذا باطل منهم فان الايمان لايقبل فى الآخرة كالعمل الصالح اونقول المراد منه انهم ينكرون الشرك كما قالوا وما كنا مشركين فقالوا ان هذا الذى جرى علينا ما جرى الابسبب ترك العمل الصالح واما الايمان فانا موقنون وما اشركنا ٭ ثم قال تعالى (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) جوابا عن قولهم ربنا ابصرنا وسمعنا فارجعنا وبيانه هو انه تعالى قال انى لو ارجعتكم الى الايمان لهديتكم فى الدنيا ولما لم اهدكم تبين انى ما اردت وما شئت ايمانكم فلا اردكم وقوله ولو شئنا لآتينا صريح فى ان مذهبنا صحيح حيث نقول ان الله ما اراد الايمان من الكافر وما شاء منه الا الكفر ٭ ثم قال تعالى (ولكن حق القول منى لاملأن جهنم) اى وقع القول وهو قوله تعالى لابليس لاملأن جهنم منك وممن تبعك هذا من حيث النقل وله وجه فى العقل وهو ان الله تعالى لم يفعل فعلا خاليا عن حكمة وهذا متفق عليه والخلاف فى انه هل قصد الفعل للحكمة اوفعل الفعل ولزمته الحكمة لابحيث تحمله تلك الحكمة على الفعل واذا علم ان فعله لايخلو عن الحكمة فقال الحكماء حكمة افعاله بأسرها لاتدرك على سبيل التفصيل لكن تدرك على سبيل الاجمال فكل ضرب يكون فى العالم الفساد فحكمته تخرج من تقسيم عقلى وهو ان الفعل اما ان يكون خيرا محضا او شرا محضا او خيرا مشوبا بشر وهذا القسم على ثلاثة اقسام قسم خيره غالب وقسم شره غالب وقسم خيره وشره مثلان اذا علم هذا فخلق الله عالما فيه الخير المحض وهو عالم الملائكة وهو العالم العلوى وخلق عالما فيه خير وشر وهو عالمنا وهو العالم السفلى ولم يخلق عالما فيه شر محض ثم ان العالم السفلى الذى هو عالمنا وان كان الخير والشر موجودين فيه لكنه من القسم الاول الذى خيره غالب فانك اذا قابلت المنافع بالمضار والنافع بالضار تجد المنافع اكثر واذا قابلت الشر بالخير تجد الخير اكثر وكيف لا والمؤمن يقابله الكافر ولكن المؤمن قد يمكن وجوده بحيث لايكون فيه شر اصلا من اول عمره الى آخره كالانبياء عليهم السلام والاولياء والكافر لايمكن وجوده بحيث لايكون فيه خير اصلا غاية ما فى الباب ان الكفر يحبط خيره ولا ينفعه انما يستحيل نظرا الى العادة ان يوجد كافر لايسقى العطشان شربة ماء ولا يطعم الجائع لقمة خبز ولا يذكر ربه فى عمره وكيف لا وهو فى زمن صباه كان مخلوقا على الفطرة المقتضية للخيرات اذا ثبت هذا فنقول قالوا لولا الشر فى هذا العالم لكانت مخلوقات الله تعالى منحصرة فى الخير المحض ولايكون قد خلق القسم الذى فيه الخير الغالب والشر القليل ثم ان ترك خلق هذا القسم ان كان لما فيه من الشر فترك الخير الكثير لاجل الشر القليل لايناسب الحكمة ألا ترى ان

مثله ونظيره. وقيل من لقاء موسى الكتاب او من لقائك موسى وغيره عليه الصلاة والسلام رأيت ليلة اسرى بى موسى رجلا آدم طوالا جعدا كأنه من رجال شنوءة (وجعلناه) اى الكتاب الذى آتيناه موسى (هدى لبنى اسرائيل) قيل لم يتعبد بما فى التوراة ولد اسمعيل (وجعلنا منهم ائمة يهدون) غيرهم بما فى تضاعيف الكتاب من الحكم والاحكام الى طريق الحق او يهدونهم الى ما فيه من دين الله وشرائعه (بأمرنا) اياهم بذلك او بتوفيقنا له (لما صبروا) هى لما التى فيها معنى الجزاء نحو احسنت اليك لما جئتنى والضمير للائمة تقديره لما صبروا جعلناهم ائمة او هى ظرف بمعنى الحين اى جعلناهم ائمة حين صبروا والمراد صبرهم على مشاق الطاعات ومقاساة الشدائد فى نصرة الدين او صبرهم عن الدنيا وقرئ لما صبروا اى لصبرهم (وكانوا بآياتنا) التى فى تضاعيف الكتاب (يوقنون) لامعانهم فيها النظر والمعنى كذلك لنجعلن الكتاب الذى آتيناكه هدى لامتك ولنجعلن منهم ائمة يهدون مثل تلك الهداية (ان ربك هو يفصل) اى يقضى (بينهم) قيل بين الانبياء واممهم وقيل بين المؤمنين والمشركين (يوم القيامة) فيميز بين الحق والمبطل (فيما كانوا فيه يختلفون) من امور الدين (اولم يهد لهم) الهمزة للانكار والواو للعطف على منوى يقتضيه المقام وفعل الهداية اما من قبيل فلان يعطى فى ان المراد ايقاع نفس الفعل بلا ملاحظة المفعول واما بمعنى التبيين والمفعول محذوف والفاعل ما دل عليه قوله تعالى (كم اهلكنا) اى اغفلوا ولم يفعل الهداية لهم او ولم يبين لهم مآل امرهم كثرة اهلاكنا (من قبلهم من القرون) مثل عاد وثمود وقوم لوط وقرئ نهد لهم بنون العظمة وقد يجوز ان يكون الفاعل على القراءة الاولى ايضا ضميره تعالى فيكون قوله تعالى كم اهلكنا الخ استئنافا مبينا لكيفية هدايته تعالى

التاجر اذا طلب منه درهم بدينار فلو امتنع وقال فى هذا شر وهو زوال الدرهم عن ملكى فيقال له لكن فى مقابلته خير كثير وهو حصول الدينار فى ملكك و كذلك الانسان لو ترك الحركة اليسيرة لما فيها من المشقة مع علمه بانه تحصل له راحة مستمرة ينسب الى مخالفة الحكمة فاذا نظر الى الحكمة كان وقوع الخير الكثير المشوب بالشر القليل من اللطف فخلق العالم الذى يقع فيه الشر والى هذا اشار بقوله انى جاعل فى الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك فقال الله تعالى فى جوابهم انى اعلم ما لا تعلمون اى اعلم ان هذا القسم يناسب الحكمة لان الخير فيه كثير ثم بين لهم خيره بالتعليم كما قال تعالى وعلم آدم الاسماء كلها يعنى أيها الملائكة خلق الشر المحض والشر الغالب والشر المساوى لا يناسب الحكمة واما الخير الكثير المشوب بالشر القليل مناسب فقوله تعالى أتجعل فيها من يفسد فيها اشارة الى الشر وأجابهم الله بما فيه من الخير بقوله وعلم آدم الاسماء فان قال قائل فالله تعالى قادر على تخليص هذا القسم من الشر بحيث لا يوجد فيه شر فيقال له ماقاله الله تعالى ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها يعنى لو شئنا لخلصنا الخير من الشر لكن حينئذ لا يكون الله تعالى خلق الخير الكثير المشوب بالشر القليل وهو قسم معقول فما كان يجوز تركه لشر القليل وهو لا يناسب الحكمة لان ترك الخير الكثير لشر القليل غير مناسب للحكمة وان كان لا كذلك فلا مانع من خلقه فخلقه لما فيه من الخير الكثير وهذا الكلام يعبر عنه من يقول برعاية المصالح ان الخير فى القضاء والشر فى القدر فالله قضى بالخير ووقع الشر فى القدر بفعله المنزه عن القبح والجهل * وقوله تعالى (من الجنة والناس) لانه تعالى قال ابليس لأملأن جهنم منك وممن تبعك وهذا اشارة الى ان النار لمن فى العالم السفلى والذين فى العالم العلوى يبرؤن عن دخول النار وهم الملائكة وهذا يقتضى ان لا يكون ابليس من الملائكة وهو الصحيح * وقوله (اجمعين) يحتمل وجهين (احدهما) ان يكون تأكيدا وهو الظاهر (والثانى) ان يكون حالا اى مجموعين فان قيل كيف جعل جميع الانس والجن مما يملأ بهم النار نقول هذا لبيان الجنس اى جهنم تملأ من الجن والانس لا غير أمنا للملائكة ولا يقتضى ذلك دخول الكل كما يقول القائل ملأت الكيس من الدراهم لا يلزم ان لا يبقى درهم خارج الكيس فان قيل فهذا يقتضى ان تكون جهنم ضيقة تمتلئ ببعض الخلق نقول هو كذلك وانما الواسع الجنة التى هى من الرحمة الواسعة والله اعلم

* ولما بين الله تعالى بقوله ولو شئنا لآتيناهم لا رجوع لهم قال لهم اذا علمتم انكم لا رجوع لكم (فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا انا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون) وفى تفسير الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله فذوقوا بما نسيتم لقاء يحتمل ان يكون منصوبا بذوقوا اى ذوقوا لقاء يومكم بما نسيتم وعلى هذا يحتمل ان يكون المنسى هو الميثاق الذى اخذ منهم بقوله ألست بربكم قالوا بلى او بما فى الفطرة من

(يمشون فى مساكنهم) اى يمرون فى متاجرهم على ديارهم (٢٦١) وبلادهم ويشاهدون آثار هلاكهم والجملة حال من ضمير لهم وقرئ يمشون للتكثير (ان فى ذلك) اى فيما ذكر من كثرة اهلاكنا للامم الخالية العاتية او فى مساكنهم (لآيات) عظيمة فى انفسها كثيرة فى عددها (افلا يسمعون) هذه الآيات سماع تدبر واتعاظ (اولم يروا انا نسوق الماء الى الارض الجرز) اى التى جرد نباتها اى قطع وازيل بالمرة وقيل هو اسم موضع باليمن (فنخرج به) من تلك الارض (زرعا تأكل منه) اى من ذلك الزرع (انعامهم) كالتبن والقصيل والورق وبعض الحبوب المخصوصة بها وقرئ يأكل بالياء (وانفسهم) كالحبوب التى يقتاتها الانسان والثمار (افلا يبصرون) اى الا ينظرون فلا يبصرون ذلك ليستدلوا به على كمال قدرته تعالى وفضله (ويقولون) كان المسلمون يقولون ان الله سيفتح لنا على المشركين او يفصل بيننا وبينهم وكان اهل مكة اذا سمعوه يقولون بطريق الاستعجال تكذيبا واستهزاء (متى هذا الفتح) اى النصر او الفصل بالحكومة (ان كنتم صادقين) فى ان الله تعالى ينصركم او يفصل بيننا وبينكم (قل) تبكيتا لهم وتحقيقا للحق (يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا ايمانهم ولاهم ينظرون) يوم الفتح يوم القيامة وهو يوم الفصل بين المؤمنين واعدائهم ويوم نصرهم عليهم وقيل هو يوم بدر وعن مجاهد والحسن يوم فتح مكة والعدول عن تطبيق الجواب على ظاهر سؤالهم للتنبيه على انه ليس مما ينبغى ان يسئل عنه لكونه امرا بينا غنيا عن الاخبار به وكذا ايمانهم واستنظارهم يومئذ وانما المحتاج الى البيان عدم نفع ذلك الايمان وعدم الانظار كأنه قيل لا تستعجلوا فكأنى بكم قد آمنتم فلم ينفعكم واستنظرتم فلم تنظروا وهذا على الوجه (٩٦) (ز١) (س) الاول ظاهر واما على الاخيرين فالموصول عبارة عن

الوحدانية فينسى بالاقبال على الدنيا والاشتغال بها ويحتمل ان يكون منصوبا بقوله نسيتم اى بما نسيتم لقاء هذا اليوم ذوقوا وعلى هذا لو قال قائل النسيان لا يكون الا فى المعلوم اولا اذا جهل آخرا نقول لما ظهرت براهينه فكأنه ظهر وعلم ولما تركوه بعد الظهور ذكر بلفظ النسيان اشارة الى كونهم منكرين لامر ظاهر كمن ينكر امرا كان قد علمه (المسئلة الثانية) قوله تعالى هذا يحتمل ثلاثة اوجه (احدها) ان يكون اشارة الى اليوم اى فذوقوا بما نسيتم لقاء هذا اليوم (وثانيها) ان يكون اشارة الى لقاء اليوم اى فذوقوا بما نسيتم هذا اللقاء (وثالثها) ان يكون اشارة الى العذاب اى فذوقوا هذا العذاب بما نسيتم لقاء يومكم ثم قال انا نسيناكم اى تركناكم بالكلية غير ملتفت اليكم كما يفعله الناسى قطعا لرجائكم ثم ذكر ما يلزم من تركه اياهم كما يترك الناسى وهو خلود العذاب لان من لا يخلصه الله فلا خلاص له فقال وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون

* ثم قال تعالى (انما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون) اشارة الى ان الايمان بالآيات كالحاصل وانما يشاء البعض فاذا ذكر بها خر ساجدا له يعنى انقادت اعضاؤه له وسبح بحمده يعنى ويحرك لسانه بتنزيهه عن الشرك وهم لا يستكبرون يعنى وكان قلبه خاشعا لا يتكبر ومن لا يستكبر عن عبادته فهو المؤمن حقا * ثم قال تعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون) يعنى بالليل قليلا ما يهجعون وقوله يدعون ربهم اى يصلون فان الدعاء والصلاة من باب واحد فى المعنى او يطلبونه وهذا لا ينافى الاول لان الطلب قد يكون بالصلاة والحمل على الاول اولى لانه قال بعده ومما رزقناهم ينفقون وفى اكثر المواضع التى ذكر فيها الزكاة ذكر الصلاة قبلها كقوله تعالى ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون وقوله خوفا وطمعا يحتمل ان يكون مفعولا له ويحتمل ان يكون حالا اى خائفين طامعين كقولك جاؤنى زورا اى زائرين وكان فى الآية الاولى اشارة الى المرتبة العالية وهى العبادة لوجه الله تعالى مع الذهول عن الخوف والطمع بدليل قوله تعالى اذا ذكروا بها خروا فانه يدل على ان عند مجرد الذكر يوجد منهم السجود وان لم يكن خوف وطمع وفى الآية الثانية اشارة الى المرتبتين الاخيرتين وهى العبادة خوفا كمن يخدم الملك الجبار مخافة سطوته او يخدم الملك الجواد طمعا فى بره ثم بين ما يكون لهم جزاء فعلهم * فقال تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) يعنى مما تقر العين عنده ولا تلتفت الى غيره يقال ان هذا لا يدخل فى عينى يعنى عينى تطلع الى غيره فاذا لم يبق تطلع للعين الى شئ آخر لم يبق للعين مسرح الى غيره فتقر جزاء بحكم الوعد (وهذا فيه لطيفة) وهى ان من العبد شيئا وهو العمل الصالح ومن الله أشياء سابقة من الخلق والرزق وغيرهما واشياء لاحقة من الثواب والاكرام فلله تعالى ان يقول جزاء الاحسان احسان وانا أحسنت اولا والعبد احسن فى مقابلته فالثواب تفضل ومنحة من غير عوض ولهذا ان

المقتولين يومئذ لا عن كافة الكفرة كما فى الوجه الاول كيف لا وقد نفع الايمان الطلقاء يوم الفتح وناسا آمنوا يوم بدر (فاعرض عنهم) ولا تبال بتكذيبهم (وانتظر) النصرة عليهم وهلاكهم (انهم منتظرون) قيل اى الغلبة عليكم كقوله تعالى فتربصوا انا معكم متربصون والاظهر ان يقال انهم منتظرون هلاكهم كما فى قوله تعالى هل ينظرون الا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام الآية ويقرب منه ما قيل وانتظر عذابنا انهم منتظرون فان استعجالهم المذكور وعكوفهم على ما هم عليه من الكفر والمعاصى فى حكم انتظارهم العذاب المترتب عليه لا محالة وقرئ على صيغة المفعول على معنى انهم احقاء بان ينتظر هلاكهم او فان الملائكة ينتظرونه * عن النبى عليه الصلاة والسلام من قرأ الم تنزيل وتبارك الذى بيده الملك اعطى من الاجر كأنما احيى ليلة القدر وعنه عليه الصلاة والسلام من قرأ الم تنزيل فى بيته لم يدخله الشيطان ثلاثة ايام

(سورة الاحزاب مدنية وهى)
(ثلاث وسبعون آية)

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(يا أيها النبى اتق الله) فى ندائه عليه الصلاة والسلام بعنوان النبوة تنويه بشأنه وتنبيه على سمو مكانه والمراد بالتقوى المأمور به الثبات عليه والازدياد منه فان له بابا واسعا وعرضا عريضا لا ينال مداه (ولا تطع الكافرين) اى المجاهرين بالكفر (والمنافقين) المضمرين له اى فيما يعود بوهن فى الدين واعطاء دنية فيما بين المسلمين روى ان اباسفيان ابن حرب وعكرمة بن ابى جهل وابا الاعور السلمى قدموا عليه عليه الصلاة والسلام فى الموادعة التى كانت بينه عليه الصلاة والسلام وبينهم وقام معهم عبد الله بن ابى ومعتب بن قشير والجد بن قيس فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ارفض ذكر آلهتنا وقل انها تشفع وتنفع وندعك وربك فشق (قول)

يقول جعلت الاول تفضلا لااطلب عليه جزاء فاذا اتى العبد بالعمل الصالح فليس عليه شئ لانى ابرأته مما عليه من النعم فكان هو آتيا بالحسنة ابتداء وجزاء الاحسان احسان فاجعل الثواب جزاء كلاهما جائز لكن غاية الكرم ان يجعل الاول هبة ويجعل الثانى مقابلا وعوضا لان العبد ضعيف لو قيل له بأن فعلك جزاء فلا تستحق جزاء وانما الله يتفضل يثق ولكن لايطمئن قلبه واذا قيل له الاول غير محسوب عليك والذى أتيت به انت به باد ولك عليه استحقاق ثواب يثق ويطمئن ثم اذا عرف ان هذا من فضل الله فالواجب من جانب العبد ان يقول فعلى جزاء نعم الله السابقة ولا استحق به جزاء فاذا اثابه الله تعالى يقول الذى أتيت به كان جزاء وهذا ابتداء احسان من الله تعالى يستحق حمد او شكرا فيأتى بحسنة فيقول الله انى احسنت اليه جزاء فعله الاول وما فعلت اولا لااطلب له جزاء فيجازيه ثالثا فيشكر العبد ثالثا فيجازيه رابعا وعلى هذا لاتنقطع المعاملة بين العبد والرب ومثله فى الشاهد اثنان تحابا فأهدى احدهما الى الآخر هدية ونسيها والمهدى اليه يتذكرها فأهدى الى المهدى عوضا فرآه المهدى الاول ابتداء لنسيانه ما اهداه اليه فجازاه بهدية فقال المحب الآخر ما اهديته كان جزاء لهديته السابقة وهذه هدية ماعوضتها فيعوض ويعوض عند المحب الآخر ويتسلسل الامر بينهما ولا ينقطع التهادى والتحاب بخلاف من ارسل الى واحد هدية وهو يتذكرها فاذا بعث اليه المهدى اليه عوضا يقول المهدى هذا عوض ما اهديت اليه فيسكت ويترك الاهداء فينقطع واعلم ان التكاليف يوم القيامة وان ارتفعت لكن الذكر والشكر والعبادة لاترتفع بل العبد يعبد ربه فى الجنة اكثر مما يعبده فى الدنيا وكيف لا وقد صار حاله مثل حال الملائكة الذين قال فى حقهم يسبحون الليل والنهار لايفترون غاية ما فى الباب ان العبادة ليست عليهم بتكليف بل هى بمقتضى الطبع ومن جملة الاسباب الموجبة لدوام نعيم الجنة هنا وكيف لا وخدمة الملوك لذة وشرف فلا تترك وان قرب العبد منه بل تزداد لذتها

* ثم قال تعالى (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لايستوون اما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون واما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا ان يخرجوا منها اعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون) لما بين حال المجرم والمؤمن قال للعاقل هل يستوى الفريقان ثم بين انهما لايستويان ثم بين عدم الاستواء على سبيل التفصيل فقال اما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى اشارة الى ماذكرنا ان الله احسن إبتداء لالعوض اولغرض فلما آمن العبد وعمل صالحا قبله منه كأنه ابتدأ فجازاه بان اعطاه الجنة ثم قال تعالى نزلا اشارة الى ان بعدها اشياء لان النزل مايعطى الملك النازل وقت نزوله قبل ان يجعل له راتبا او يكتب له خبزا وقوله بما كانوا يعملون يحقق ماذكرنا وقوله تعالى واما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا ان يخرجوا منها اشارة الى حال الكافر وقد ذكرنا مرارا ان

ذلك على النبى عليه الصلاة والسلام والمؤمنون وهموا (٧٦٣) بقتلهم فنزلت اى اتق الله فى نقض العهد ونبذ الموادعة ولاتساعد الكافرين من اهل مكة والمنافقين من اهل المدينة فيما طلبوا اليك (ان الله كان عليما حكيما) مبالغا فى العلم والحكمة فيعلم جميع الاشياء من المصالح والمفاسد فلا يأمرك الا بما فيه مصلحة ولاينهاك الا عما فيه مفسدة ولايحكم الا بما تقتضيه الحكمة البالغة والجملة تعليل للامر والنهى مؤكد لوجوب الامتثال بهما (واتبع) اى فى كل ماتأتى وتذر من امور الدين (مايوحى اليك من ربك) من الآيات التى من جملتها هذه الآية الآمرة بتقوى الله الناهية عن مساعدة الكفرة والمنافقين والتعرض لعنوان الربوبية لتأكيد وجوب الامتثال بالامر (ان الله كان بما تعملون خبيرا) قيل الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام والجمع للتعظيم وقيل له عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين وقيل للغائبين بطريق الالتفات ولايخفى بعده لم يجوز ان يكون للكل على ضرب من التغليب واياما كان فالجملة تعليل للامر وتأكيد لموجبه اما على الوجهين الاولين فبطريق الترغيب والترهيب كأنه قيل ان الله خبير بما تعملونه من الامتثال وتركه فيرتب على كل منهما جزاءه ثوابا وعقابا واما على الوجه الاخير فبطريق الترغيب فقط كأنه قيل ان الله خبير بما يعمله كلا الفريقين فيرشدك الى ما فيه صلاح حالك وانتظام امرك ويطلعك على مايعملونه من المكايد والمفاسد ويأمرك بما ينبغى لك ان تعمله فى دفعها وردها فلابد من اتباع الوحى والعمل بمقتضاه حتما (وتوكل على الله) اى فوض جميع امورك اليه (وكفى بالله وكيلا) حافظا موكولا اليه كل الامور (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) شروع فى القاء الوحى الذى امر عليه الصلاة والسلام باتباعه وهذا مثل ضربه الله تعالى تمهيدا لما يعقبه من قوله

العمل الصالح له مع الايمان اثر اما الكفر اذا جاء فلا التفات الى الاعمال فلم يقل واما الذين فسقوا وعملوا السيآت لان المراد من فسقوا كفروا ولوجعل العقاب في مقابلة الكفر والعمل لظن ان مجرد الكفر لاعقاب عليه وقوله في حق المؤمنين لهم بلام التمليك زيادة اكرام لان من قال لغيره اسكن هذه الدار يكون ذلك محمولا على العارية وله استرداده واذا قال هذه الدار لك يكون ذلك محمولا على نسبة الملكية اليه وليس له استرداده بحكم قوله وكذلك في قوله لهم جنات ألا ترى انه تعالى لما اسكن آدم الجنة وكان في علمه انه يخرجه منها قال اسكن انت وزوجك الجنة ولم يقل لكما الجنة وفي الآخرة لما لم يكن للمؤمنين خروج عنها قال لكم الجنة ولهم جنات وقوله كما أرادوا ان يخرجوا منها اعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا اشارة الى معنى حكمى وهو ان المؤلم اذا تمكن والالم اذا امتد لم يبق به شعور تام ولهذا قال الاطباء ان حرارة حمى الدق بالنسبة الى حرارة الحمى البلغمية نسبة النار الى الماء المسخن ثم ان المدقوق لايحس من الحرارة بما يحس به من به الحمى البلغمية لتمكن الدق وقرب العهد بظهور حرارة الحمى البلغمية وكذلك الانسان اذا وضع يده في ماء بارد يتألم من البرد فاذا صبر زمانا طويلا تتلج يده ويبطل عند ذلك الالم الشديد مع فساد مزاجه اذا علمت هذا فقوله كما ارادوا ان يخرجوا منها اعيدوا فيها اشارة الى ان الالم لايسكن عنهم بل يرد عليهم في كل حال امر مؤلم يجدد وقوله ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون يقرر ماذكرنا ومعناه انهم في الدنيا كانوا يكذبون بعذاب النار فلما ذاقوه كان اشد ايلاما لان من لا يتوقع شيئا فيصيبه يكون اشد تأثيرا ثم انهم في الآخرة كاهم في الدنيا يجزمون ان لاعذاب الا وقد وصل اليهم ولايتوقعون شيئا آخر من العذاب فيرد عليهم عذاب اشد من الاول وكانوا يكذبون به بقولهم لاعذاب فوق مانحن فيه فاذن معنى قوله تعالى ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون ليس مقتصرا على تكذيبهم الذى كان في الدنيا بل كما أرادوا ان يخرجوا منها اعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذابا كذبتم به من قبل اما في الدنيا بقولكم لاعذاب في الآخرة واما في الآخرة فبقولكم لاعذاب فوق مانحن فيه * ثم لما هددهم قال تعالى (ولنذيقنهم من العذاب الادنى دون العذاب الاكبر لعلهم يرجعون) يعنى قبل عذاب الآخرة نذيقهم عذاب الدنيا فان عذاب الدنيا لانسبة له الى عذاب الآخرة لان عذاب الدنيا لايكون شديدا ولايكون مديدا فان العذاب الشديد في الدنيا يهلك فيموت المعذب ويسترح منه فلا يمتد وان أراد المعذب ان يمتد عذاب المعذب لايعذبه بعذاب في غاية الشدة واما عذاب الآخرة فشديد ومديد وفي الآية مسئلتان (احداهما) قوله تعالى ولنذيقنهم من العذاب الادنى العذاب الادنى في مقابلته العذاب الاقصى والعذاب الاكبر في مقابلته العذاب الاصغر فالحكمة في مقابلة الادنى بالاكبر فنقول حصل في عذاب الدنيا امران (احدهما) انه قريب والآخر انه قليل صغير وحصل في عذاب الآخرة ايضا

تعالى (وماجعل ازواجكم اللائى تظاهرون منهن امهاتكم وماجعل ادعياءكم ابناءكم) وتنبيها على ان كون المظاهر منها والدعى ابناءى بمنزلة الام والابن في الآثار والاحكام المعهودة فيما بينهم في الاستحالة بمنزلة اجتماع قلبين في جوف واحد وقيل هورد لما كانت العرب تزعم من ان اللبيب الاريب له قلبان ولذلك قيل لابى معمر او لجميل بن اسيد الفهرى ذو القلبين اى ماجمع الله تعالى قلبين في رجل وذكر الجوف لزيادة التقرير كما في قوله تعالى ولكن تعمى القلوب التى في الصدور ولا زوجية ولا امومة في امرأة ولا دعوة وبنوة في شخص لكن لابمعنى نفى الجمع بين حقيقة الزوجية والامومة ونفى الجمع بين حقيقة الدعوة والبنوة كما في القلب ولا بمعنى نفى الجمع بين احكام الزوجية واحكام الامومة ونفى الجمع بين احكام الدعوة واحكام البنوة على الاطلاق بل بمعنى نفى الجمع بين حقيقة الزوجية واحكام الامومة ونفى الجمع بين حقيقة الدعوة واحكام البنوة لابطال ما كانوا عليه من اجراء احكام الامومة على المظاهر منها واجراء احكام البنوة على الدعى ومعنى الظهار ان يقول لزوجته انت على كظهر امى مأخوذ من الظهر باعتبار اللفظة التلبية من لبيك وتعديته بمن لتضمنه معنى التجنب لانه كان طلاقا في الجاهلية وهو في الاسلام يقتضى الطلاق او الحرمة الى اداء الكفارة كما عدى آلى بها وهو بمعنى حلف وذكر الظهار للكناية عن البطن الذى هو عموده فان ذكره قريب من ذكر الفرج او للتغليظ في التحريم فانهم كانوا يحرمون اتيان الزوجة وظهرها الى السماء وقرئ اللاى وقرئ اللاء وقرئ تظاهرون بحذف احدى التاءين من تتظاهر وتظاهرون بادغام التاء الثانية في الظاء وتظهرون من اظهر بمعنى تظهر وتظهرون من ظهر بمعنى ظاهر كعقد بمعنى عاقد (امران)

امران (احدهما) انه بعيد (والآخر) انه عظيم كثير لكن القرب فى عذاب الدنيا هو الذى يصلح للتخويف به فان العذاب العاجل وان كان قليلا قد يحترز منه بعض الناس اكثر مما يحترز من العذاب الشديد اذا كان آجلا وكذا الثواب العاجل قد يرغب فيه بعض الناس ويستبعد الثواب العظيم الآجل واما فى عذاب الآخرة فالذى يصلح للتخويف به هو العظيم والكبير لا البعيد لما بينا فقال فى عذاب الدنيا العذاب الادنى ليحترز العاقل عنه ولو قال لنذيقنهم من العذاب الاصغر ما كان يحترز عنه لصغره وعدم فهم كونه عاجلا وقال فى عذاب الآخرة الاكبر لذلك المعنى ولو قال دون العذاب الابعد الاقصى لما حصل التخويف به مثل ما يحصل بوصفه بالكبر وبالجملة فقد اختار الله تعالى فى العذابين الوصف الذى هو اصلح للتخويف من الوصفين الآخرين فيهما لحكمة بالغة (المسئلة الثانية) قوله تعالى لعلهم يرجعون لعل هذه للترجى والله تعالى محال ذلك عليه فما الحكمة فيه نقول فيه وجهان (احدهما) معناه لنذيقنهم اذاقة الراجين كقوله تعالى انا نسيناكم يعنى تركناكم كما يترك الناسى حيث لا يلتفت اليه اصلا فكذلك ههنا نذيقهم على الوجه الذى يفعل بالراجى من التدريج (وثانيهما) معناه نذيقهم العذاب اذاقة يقول القائل لعلهم يرجعون بسببه (ونزيد وجها آخر من عندنا) وهو ان كل فعل يتلوه امر مطلوب من ذلك الفعل يصح تعليل ذلك الفعل بذلك الامر كما يقال فلان اتجر ليربح ثم ان هذا التعليل ان كان فى موضع لا يحصل الجزم بحصول الامر من الفعل نظرا الى نفس الفعل وان حصل الجزم والعلم بناء على امر من خارج فانه يصح ان يقال يفعل كذا رجاء كذا كما يقال يتجر رجاء ان يربح وان حصل للتاجر جزم بالربح لا يقدح ذلك فى صحة قولنا يرجو لما ان الجزم غير حاصل نظرا الى التجارة وان كان الجزم حاصلا نظرا الى الفعل لا يصح ان يقال يرجو وان كان ذلك الجزم يحتمل خلافه كقول القائل فلان حز رقبة عدوه رجاء ان يموت لا يصح لحصول الجزم بالموت عقيب الحز نظرا اليه وان امكن ان لا يموت نظرا الى قدرة الله تعالى ويصح قولنا قوله تعالى فى حق ابراهيم والذى اطمع ان يغفر لى خطيئتى مع انه كان عالما بالمغفرة لكن لما لم يكن الجزم حاصلا من نفس الفعل اطلق عليه الطمع وكذلك قوله تعالى وارجو اليوم الآخر مع ان الجزم به لازم اذا علم ماذكرنا فنقول فى كل صورة قال الله تعالى لعلهم فان نظرنا الى الفعل لا يلزم الجزم فان من التعذيب لا يلزم الرجوع لزوما يقينا فصح قولنا يرجو وان كان علمه حاصلا بما يكون غاية مافى الباب ان الرجاء فى اكثر الامر استعمل فيما لا يكون الامر معلوما فاوهم ان لا يجوز الاطلاق فى حق الله تعالى وليس كذلك بل الترجى يجوز فى حق الله تعالى ولا يلزم منه عدم العلم وانما يلزم عدم الجزم بناء على ذلك الفعل وعلم الله ليس مستفادا من الفعل فيصح حقيقة الترجى فى حقه على ماذكرنا من المعنى * ثم قال تعالى (ومن اظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم اعرض عنها) يعنى لنذيقنهم ولا يرجعون فيكونون قد ذكروا بآيات الله من

وتظهرون من ظهر ظهورا وادعياء جمع دعى وهو الذى يدعى ولداءعلى الشذوذ لاختصاص أفعلاء بفعيل بمعنى فاعل كتقى واتقياء كأنه شبه به فى اللفظ فجمع جمعه كقتلاء واسراء (ذلكم) اشارة الى مافهم مما ذكر من الظهار والدعاء او الى الاخير الذى هو المقصود من مساق الكلام اى دعاؤكم بقولكم هذا ابنى (قولكم بأفواهكم) فقط من غير ان يكون له مصداق وحقيقة فى الاعيان فاذن هو بمعزل من استتباع احكام البنوة كما زعمتم (والله يقول الحق) المطابق للواقع (وهو يهدى السبيل) اى سبيل الحق لا غير فدعوا اقوالكم وخذوا بقوله عز وجل (ادعوهم لآبائهم) اى انسبوهم اليهم وخصوهم بهم وقوله تعالى (هو اقسط عند الله) تعليل له والضمير لمصدر ادعوا كما فى قوله تعالى اعدلوا هو اقرب للتقوى واقسط افعل تفضيل قصد به الزيادة مطلقا من القسط بمعنى العدل اى الدعاء لآبائهم بالغ فى العدل والصدق فى حكم الله تعالى وقضائه (فان لم تعلموا آباءهم) فتنسبوهم اليهم (فاخوانكم) فهم اخوانكم (فى الدين ومواليكم) واولياؤكم فيه اى فادعوهم بالاخوة الدينية والمولوية (وليس عليكم جناح) اى اثم (فيما اخطأتم) اى فيما فعلتموه من ذلك مخطئين بالسهو او النسيان او سبق اللسان (ولكن ما تعمدت قلوبكم) اى ولكن الجناح فيما تعمدت قلوبكم بعد النهى او ما تعمدت قلوبكم فيه الجناح (وكان الله غفورا رحيما) لعفوه عن المخطئ وحكم التبنى بقوله هو ابنى اذا كان عبد القائل العتق على كل حال ولا يثبت نسبه منه الا اذا كان مجهول النسب وكان بحيث يولد مثله لمثل المتبنى ولم يقر قبله بنسبه من غيره (النبى اولى بالمؤمنين من انفسهم) اى فى كل امر من امور الدين والدنيا كما يشهد به الاطلاق فيجب عليهم ان يكون عليه الصلاة والسلام احب اليهم

النعم اولا والنقم ثانيا ولم يؤمنوا فلا اظلم منهم احد لان من يكفر بالله ظالم فان الله لذوى البصائر ظاهر لايحتاج المستنير الباطن الى شاهد يشهد عليه بل هو شهيد على كل شئ كما قال تعالى أولم يكف بربك انه على كل شئ شهيد اى دليلك الله لا تحتاج بانير الباطن الى دليل على الله ولهذا قال بعض العارفين رأيت الله قبل كل شئ فمن لم يكفه الله فسائر الموجودات سواء كان فيها نفع اوضر كاف فى معرفة الله كما قال تعالى سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم فان لم يكفهم ذلك فيسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة فالاول الذى لايحتاج الى غير الله هو عدل والثانى الذى يحتاج الى دليل فهو متوسط والثالث الذى لم تكفه الآفاق ظالم والرابع الذى لم تقنعه النعم اظلم من ذلك الظالم وقد يكون اظلم منه آخر وهو الذى اذا اذيق العذاب لايرجع عن ضلالته فان الاكثر كان من صفتهم انهم اذا مسهم ضر دعوا ربهم منيبين اليه فهذا لما عذب ولم يرجع فلا اظلم منه اصلا فقال ومن اظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم اعرض عنها ❊ ثم قال تعالى (انا من المجرمين منتقمون) اى لما لم ينفعهم العذاب الادنى فانا منتقم منهم بالعذاب الاكبر ❊ ثم قال تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب) لما قرر الاصول الثلاثة على مابيناه عاد الى الاصل الذى بدأ به وهو الرسالة المذكورة فى قوله لتنذر قوما ما أتاهم من نذير وقال قل ما كنت بدعا من الرسل بل كان قبلك رسل مثلك واختار من بينهم موسى لقربه من النبى صلى الله عليه وسلم ووجود من كان على دينه الزاما لهم وانما لم يختر عيسى عليه السلام لمذكر والاستدلال لان اليهود ما كانوا يوافقون على نبوته واما النصارى فكانوا يعترفون بنبوة موسى عليه السلام فتمسك بالمجمع عليه ❊ وقوله تعالى (فلا تكن فى مرية من لقائه) قيل معناه فلا تكن فى شك من لقاء موسى فانك تراه وتلقاه وقيل بانه رآه ليلة المعراج وقيل معناه فلا تكن فى شك من لقاء الكتاب فانك تلقاه كما لقى موسى الكتاب ويحتمل ان تكون الآية واردة لا للتقرير بل لتسلية النبى عليه السلام فانه لما اتى بكل آية وذكر بها واعرض عنها قومه حزن عليهم فقيل له تذكر حال موسى ولا تحزن فانه لقى مالقيت وأوذى كما أوذيت وعلى هذا فاختيار موسى عليه السلام لحكمة وهى ان احدا من الانبياء لم يؤذه قومه الا الذين لم يؤمنوا به واما الذين آمنوا به فلم يخالفوه غير قوم موسى فان من لم يؤمن به آذاه مثل فرعون وغيره ومن آمن به من بنى اسرائيل ايضا آذاه بالمخالفة وطلب اشياء منه مثل طلب رؤية الله جهرة ومثل قولهم اذهب انت وربك فقاتلا ثم بين له ان هدايته غير خالية عن المنفعة كما انه لم تخل هداية موسى ❊ فقال تعالى (وجعلناه هدى لبنى اسرائيل وجعلنا منهم أئمة يهدون بامرنا) فحيث جعل الله كتاب موسى هدى وجعل منهم ائمة يهدون كذلك يجعل كتابك هدى ويجعل من امتك صحابة يهدون كما قال عليه السلام اصحابى كالنجوم بايهم اقتديتم اهتديتم ثم بين ان ذلك يحصل بالصبر ❊ فقال تعالى (لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) فكذلك اصبروا وآمنوا بأن وعد الله حق ❊ ثم قال تعالى (ان ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة

من انفسهم وحكمه النفذ عليهم من حكمها وحقه آثر لديهم من حقوقها وشفقتهم عليه اقدم من شفقتهم عليها روى انه عليه الصلاة والسلام اراد غزوة تبوك فأمر الناس بالخروج فقال ناس نستأذن آباءنا وامهاتنا فنزلت وقرئ وهو اب لهم اى فى الدين فان كل نبى اب لامته من حيث انه اصل فيما به الحياة الابدية ولذلك صار المؤمنون اخوة (وازواجه امهاتهم) اى منزلات منزلة الامهات فى التحريم واستحقاق التعظيم واما فيما عدا ذلك فهن كالاجنبيات ولذلك قالت عائشة رضى الله عنها لسنا امهات النساء (واولوا الارحام) اى ذووا القرابات (بعضهم اولى ببعض) فى التوارث وهو نسخ لما كان فى صدر الاسلام من التوارث بالهجرة والموالاة فى الدين (فى كتاب الله) فى اللوح اوفيما انزله وهو هذه الآية اوآية المواريث اوفيما فرض الله تعالى (من المؤمنين والمهاجرين) بيان لاولى الارحام اوصلة لاولى اى اولوا الارحام بحق القرابة اولى بالميراث من المؤمنين بحق الدين ومن المهاجرين بحق الهجرة (الا ان تفعلوا الى اوليائكم معروفا) استثناء من أعم ماتقدر لاولوية فيه من النفع والمراد بفعل المعروف التوصية اومنقطع (كان ذلك فى الكتاب مسطورا) اى كان ماذكر من الآيتين ثابتا فى اللوح او القرآن وقيل فى التوراة (واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم) اى اذكر وقت أخذنا من النبيين كافة عهودهم بتبليغ الرسالة والدعاء الى الدين الحق (ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم) وتخصيصهم بالذكر مع اندراجهم فى النبيين الدراجهم للايذان بمزيد مزيتهم وفضلهم وكونهم من مشاهير ارباب الشرائع واساطين اولى العزم من الرسل وتقديم نبينا عليهم عليهم الصلاة والسلام لابانة خطره الجليل (وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) اى عهدا عظيم الشأن (فيما)

فيه كانوا فيه يختلفون) هذا يصلح جوابا لسؤال وهو أنه لما قال تعالى وجعلنا منهم أئمة يهدون كان لقائل أن يقول كيف كانوا يهدون وهم اختلفوا وصاروا فرقا وسبيل الحق واحد فقال فيهم هداة والله يبين المبتدع من المتبع كما يبين المؤمن من الكافر يوم القيامة (وفيه وجه آخر) وهو ان الله تعالى بين انه يفصل بين المختلفين من امة واحدة كما يفصل بين المختلفين من الامم فينبغي أن لا يأمن من آمن وان لم يجتهد فان المبتدع معذب كالكافر غاية ما في الباب ان عذاب الكافر أشد وآلم وأمد وأدوم ※ ثم قال تعالى (أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون) قد ذكرنا ان قوله تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب تقرير رسالة محمد صلى الله عليه وسلم واعادة لبيان ما سبق في قوله لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك ولما أعاد ذكر الرسالة أعاد ذكر التوحيد فقال تعالى أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم ※ وقوله تعالى (يمشون في مساكنهم) زيادة بيان اي مساكن المهلكين دالة على حالهم وأنتم تمشون فيها وتبصرونها ※ وقوله تعالى (ان في ذلك لآيات أفلا يسمعون) اعتبر فيه السمع لانهم ما كان لهم قوة الادراك بأنفسهم والاستنباط بعقولهم فقال أفلا يسمعون يعني ليس لهم درجة المتعلم الذي يسمع الشيء ويفهمه ※ ثم قال تعالى (أولم يروا انا نسوق الماء الى الارض الجرز) لما بين الاهلاك وهو الاماتة بين الاحياء ليكون اشارة الى ان الضر والنفع بيد الله والجرز الارض اليابسة التي لا نبات فيها والجرز هو القطع وكأنها المقطوع عنها الماء والنبات ※ ثم قال تعالى (فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم) قدم الانعام على الانفس في الاكل لوجوه (احدها) ان الزرع أول ما ينبت يصلح للدواب ولا يصلح للانسان (الثاني) وهو ان الزرع غذاء الدواب وهو لا بد منه وأما غذاء الانسان فقد يحصل من الحيوان فكأن الحيوان يأكل الزرع ثم الانسان يأكل من الحيوان (الثالث) اشارة الى ان الاكل من ذوات الدواب والانسان يأكل بحيوانيته أو بما فيه من القوة العقلية فكماله بالعبادة ※ ثم قال تعالى (أفلا يبصرون) لان الامر يرى بخلاف حال الماضين فانها كانت مسموعة ※ ثم لما بين الرسالة والتوحيد بين الحشر بقوله تعالى (ويقولون متى هذا الفتح ان كنتم صادقين) الى آخر السورة فصار ترتيب آخر السورة كترتيب اولها حيث ذكر الرسالة في اولها بقوله لتنذر قوما وفي آخرها بقوله ولقد آتينا موسى الكتاب وذكر التوحيد بقوله الذي خلق السموات والارض وقوله الذي احسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين وفي آخر السورة ذكره بقوله أولم يهد لهم وقوله اولم يروا انا نسوق وذكر الحشر في اولها بقوله وقالوا أئذا ضللنا في الارض وفي آخرها بقوله ويقولون متى هذا الفتح ※ وقوله تعالى (قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا ايمانهم ولا هم ينظرون) اي لا يقبل ايمانهم في تلك الحالة لان الايمان المقبول هو الذي يكون في دار الدنيا ولا ينظرون اي لا يمهلون بالاعادة الى الدنيا ليؤمنوا فيقبل ايمانهم ثم لما بين المسائل واتقن الدلائل ولم ينفعهم ※ قال تعالى (فأعرض عنهم

او مؤكدا بأيمين وهذا هو الميثاق الاول بعينه وأخذه هو اخذه والعطف مبني على تنزيل التغاير العنواني منزلة التغاير الذاتي تفخيما لشأنه كما في قوله تعالى ونجيناهم من عذاب غليظ اثر قوله تعالى فلما جاء امرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا وقوله تعالى (ليسأل الصادقين عن صدقهم) متعلق بمضمر مستأنف مسوق لبيان ما هو داع الى ما ذكر من أخذ الميثاق وغاية له لا بأخذنا فان المقصود تذكير نفس الميثاق ثم بيان الغرض منه بيانا قصديا كما ينبئ عنه تغيير الاسلوب بالالتفات الى الغيبة اي فعل الله ذلك ليسأل يوم القيامة الانبياء ووضع الصادقين موضع ضميرهم للايذان من اول الامر بأنهم صادقون فيما سئلوا عنه وانما السؤال لحكمة تقتضيه اي ليسأل الانبياء الذين صدقوا عهودهم عما قالوه لقومهم او عن تصديقهم اياهم تبكيتا لهم كما في قوله تعالى يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا اجبتم او المصدقين لهم عن تصديقهم فان مصدق الصادق صادق وتصديقه صدق واما ما قيل من ان المعنى ليسأل المؤمنين الذين صدقوا عهدهم حين اشهدهم على انفسهم عن صدقهم عهدهم فيأباه مقام تذكير ميثاق النبيين وقوله تعالى (وأعد للكافرين عذابا اليما) عطف على ما ذكر من المضمر لا على اخذنا كما قيل والتوجيه بأن بعثة الرسل واخذ الميثاق منهم لاثابة المؤمنين او بأن المعنى ان الله تعالى اكد على الانبياء الدعوة الى دينه لاجل اثابة المؤمنين تعسف ظاهر مع انه مفض الى كون بيان اعداد العذاب الاليم للكافرين غير مقصود بالذات ثم يجوز عطفه على ما دل عليه قوله تعالى ليسأل الصادقين كأنه قيل فأثاب المؤمنين واعد للكافرين الآية (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم) ان جعل النعمة مصدرا فالجار متعلق بها والا فهو متعلق بمحذوف هو حال منها اي كائنة عليكم

اى لاتناظرهم بعدذلك وانما الطريق بعدهذا القتال* وقوله تعالى (وانتظر انهم منتظرون) يحتمل وجوها (احدها) وانتظر هلاكهم فانهم ينتظرون هلاكك وعلى هذا فرق بين الانتظارين لان انتظار النبي صلى الله عليه وسلم بامر الله تعالى بعد وعده وانتظارهم بتسويل انفسهم والتعويل على الشيطان (وثانيها) وانتظر النصر من الله فانهم ينتظرون النصر من آلهتهم وفرق بين الانتظارين (وثالثها) وانتظر عذابهم بنفسك فانهم ينتظرونه بلفظهم استهزاء كما قالوا فأتنا بما تعدنا وقالوا متى هذا الوعد ان كنتم صادقين الى غير ذلك والله اعلم بالصواب واليه المرجع والمآب والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيد المرسلين محمد النبي وآله وصحبه اجمعين وعلى ازواجه الطاهرات امهات المؤمنين

• (سورة الاحزاب سبعون وثلاث آيات وهي مدنية بالاجماع) •

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله تعالى (يا أيها النبي اتق الله) في تفسير الآية مسائل (المسئلة الاولى) في الفرق بين النداء والمنادى بقوله يارجل ويا أيها الرجل وقد قيل فيه ماقيل ونحن نقول قول القائل يارجل يدل على النداء وقوله يا أيها الرجل يدل على ذلك ايضا وينبئ عن خطر خطب المنادى له اوغفلة المنادى (اما الثاني) فمذكور (واما الاول) فلأن قوله يا اي جعل المنادى غير معلوم اولا فيكون كل سامع متطلعا الى المنادى فاذاخص واحدا كان في ذلك انباء الكل لتطلعهم اليه واذاقال يازيد اويارجل لايلتفت الى جانب المنادي الاالمذكور واذا علم هذا فنقول يا أيها لايجوز حمله على غفلة النبي لان قوله النبي ينافي الغفلة لان النبي عليه السلام خبير فلايكون غافلا فيجب حمله على خطر الخطب (المسئلة الثانية) الامر بالشئ لايكون الاعند عدم اشتغال المأمور بالمأمور به اذلايصلح ان يقال للجالس اجلس وللساكت اسكت والنبي عليه السلام كان متقيا فما الوجه فيه نقول فيه وجهان (احدهما) منقول وهوانه امر بالمداومة فانه يصح ان يقول القائل للجالس اجلس ههنا الى ان اجيئك ويقول القائل للساكت قد أصبت فاسكت تسلم اى دم على ما أنت عليه (والثاني) وهومعقول لطيف وهوان الملك يتقي منه عباده على ثلاثة اوجه بعضهم يخاف من عقابه وبعضهم يخاف من قطع ثوابه وثالث يخاف من احتجابه فالنبي لم يؤمر بالتقوى بالمعنى الاول ولا بالمعنى الثاني واما الثالث فالمخلص لايأمنه مادام في الدنيا وكيف والامور الدنيوية شاغلة والآدمى في الدنيا تارة مع الله واخرى مقبل على مالابد منه وان كان معه الله والى هذا اشار بقوله انما أنا بشر مثلكم يوحى الى يعني يرفع الحجاب عني وقت الوحي ثم اعود اليكم كأني منكم فالامر بالتقوى يوجب استدامة الحضور (الوجه الثاني) هوان النبي عليه الصلاة والسلام كل لحظة كان يزداد علمه ومرتبته حتى كان حاله فيمامضى بالنسبة الى ماهو فيه تركا للافضل فكان له في كل ساعة تقوى متجددة فقوله اتق الله على هذا امر بماليس فيه والى هذا اشار عليه الصلاة والسلام بقوله من

(اذجاءتكم جنود) ظرف لنفس النعمة اولثبوتها لهم وقيل منصوب باذكروا على انه بدل اشتمال من نعمة الله والمراد بالجنود الاحزاب وهم قريش وغطفان ويهود قريظة والنضير وكانوا زهاء اثني عشر الفا فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم باقبالهم ضرب الخندق على المدينة باشارة سلمان الفارسي ثم خرج في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب معسكره والخندق بينه وبين القوم وامر بالذرارى والنساء فرفعوا في الآطام واشتد الخوف وظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق في المنافقين حتى قال معتب بن قشير كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر ولا نقدر ان نذهب الى الغائط ومضى على الفريقين قريب من شهر لاحرب بينهم الا ان فوارس من قريش منهم عمرو بن عبدود وعكرمة بن ابي جهل وهبيرة بن ابي وهب ونوفل بن عبد الله وضرار بن الخطاب ومرداس اخو بني محارب قد تلبسوا خيولهم وتيمموا من الخندق مكانا مضيقا فضربوا خيولهم فاقتحموا فجالت بهم في السبخة بين الخندق وسلع فخرج على بن ابي طالب رضي الله عنه في نفر من المسلمين حتى اخذ عليهم الثغرة التي اقتحموا منها فاقبلت الفرسان نحوهم وكان عمرو معلما ليرى مكانه فقال له علي رضي الله عنه ياعمرو اني ادعوك الى الله ورسوله والاسلام قال لاحاجة لي اليه قال فاني ادعوك الى النزال قال يا ابن اخي والله لا احب ان اقتلك قال علي لكني والله احب ان اقتلك فحمى عمرو عند ذلك وكان غيورا مشهورا بالشجاعة واقتحم عن فرسه فعقره او ضرب وجهه ثم اقبل على علي فتناولا وتجاولا فضربه علي رضي الله عنه ضربة ذهبت فيها نفسه فلما قتله انهزمت خيله حتى اقتحمت من الخندق هاربة وقتل مع مع عمرو رجلان منبه ابن عثمان بن عبد الدار ونوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومي قتله ايضا علي رضي الله عنه وقيل لم يكن بينهم (استوى)

استوى يوماه فهو مغبون ولانه طلب من ربه بامر الله اياه به زيادة العلم حيث قال وقل رب زدنى علما وايضا الى هذا وقعت الاشارة بقوله عليه الصلاة والسلام انه ليغان على قلبى فاستغفر الله فى اليوم سبعين مرة يعنى يتجدد له مقام يقول الذى أتيت به من الشكر والعبادة لم يكن شيأ اذا علم هذا فالنبى صلى الله عليه وسلم بحكم انما انا بشر مثلكم كان قد وقع له خوف ما يسير من جهة ألسنة الكفار والمنافقين ومن ايديهم بدليل قوله تعالى وتخشى الناس والله احق ان تخشاه فأمره الله بتقوى أخرى فوق ما يتقيه بحيث تنسيه الخلق ولا يريد الا الحق وزاده الله به درجته فكان ذلك بشارة له اى يا أيها النبى انت ما بقيت فى الدرجة التى يقنع منك بتقوى مثل تقوى الآحاد وتقوى الاوتاد بل لا يقنع منك الا بتقوى تنسيك نفسك الا ترى ان الانسان اذا كان يخاف فوت مال ان هجم عليه غاشم يقصد قتله يذهل عن المال ويهرب ويتركه فكذلك النبى عليه الصلاة والسلام أمر بمثل هذه التقوى ومع هذه التقوى لا يبقى الخوف من احد غير الله وخرج هذا مخرج قول القائل لمن يخاف زيدا وعمرا اخف عمرا فان زيدا لا يقدر عليك اذا كان عمرو معك فلا يكون ذلك أمرا بالخوف من عمرو وانه يخافه وانما يكون ذلك نهيا عن الخوف من زيد فى ضمن الامر بزيادة الخوف من عمرو حتى ينسيه زيدا ۞ ثم قوله تعالى (ولا تطع الكافرين والمنافقين) يقرر قولنا اى اتق الله تقوى تمنعك من طاعتهم (المسئلة الثالثة) لم خص الكافرين والمنافقين بالذكر مع ان النبى صلى الله عليه وسلم ينبغى ان لا يطيع احدا غير الله نقول لوجهين (احدهما) ان ذكر الغير لا حاجة اليه لان غيرهما لا يطلب من النبى عليه الصلاة والسلام الاتباع ولا يتوقع ان يصير النبى عليه الصلاة والسلام مطيعا له بل يقصد اتباعه ولا يكون عنده الا مطاعا (والثانى) هو انه تعالى لما قال ولا تطع الكافرين والمنافقين منعه من طاعة الكل لان كل من طلب من النبى عليه الصلاة والسلام طاعته فهو كافر أو منافق لان من يأمر النبى عليه الصلاة والسلام بأمر أمر ايجاب معتقدا على انه لو لم يفعله يعاقبه بحق يكون كافرا ۞ ثم قال تعالى (ان الله كان عليما حكيما) اشارة الى ان التقوى ينبغى ان تكون عن صميم قلبك لا تخفى فى نفسك تقوى غير الله كما يفعله الذى يرى من نفسه الشجاعة حيث يخاف فى نفسه ويتجلد فان التقوى من الله وهو عليم وقوله حكيما اشارة الى دفع وهم متوهم وهو أن متوهما لو قال اذا قال الله شيئا وقال جميع الكافرين والمنافقين مع انهم اقارب النبى عليه الصلاة والسلام شيئا آخر ورأوا المصلحة فيه وذكروا وجها معقولا فاتباعهم لا يكون الا مصلحة فقال الله تعالى انه حكيم ولا تكون المصلحة الا فى قول الحكيم فاذا أمرك الله بشئ فاتبعه ولو منعك اهل العالم عنه ۞ وقوله تعالى (واتبع ما يوحى اليك من ربك) يقرر ما ذكرنا من انه حكيم فاتباعه هو الواجب ۞ ثم قال تعالى (ان الله كان بما تعملون خبيرا) لما قال انه عليم بما فى قلوب العابدين انه عالم خبير باعمالكم فسووا قلوبكم وأصلحوا أعمالكم ۞ ثم قال تعالى

الالقاء بالنبل والحجارة حتى انزل الله تعالى النصر وذلك قوله تعالى (فأرسلنا عليهم ريحا) عطف على جاءتكم مسوق لبيان النعمة اجمالا وسيأتى بقيتها فى آخر القصة (وجنودا (٧٦٩) لم تروها) وهم الملائكة عليهم السلام وكانوا الفا بعث الله عليهم صبا باردة فى ليلة شاتية فأخصرتهم وسفت التراب فى وجوههم وامر الملائكة فقلعت الاوتاد وقطعت الاطناب واطفأت النيران واكفأت القدور وماجت الخيل بعضها فى بعض وقذف فى قلوبهم الرعب وكبرت الملائكة فى جوانب عسكرهم فقال طلحة بن خويلد الاسدى اما محمد فقد بدأكم بالسحر فالنجاء النجاء فانهزموا من غير قتال (وكان الله بما تعملون) من حفر الخندق وترتيب مبادى الحرب وقيل من التجائكم اليه ورجائكم من فضله وقرئ بالياء اى بما يعمله الكفار اى من التحزب والمحاربة او من الكفر والمعاصى (بصيرا) ولذلك فعل ما فعل من نصركم عليهم والجملة اعتراض مقرر لما قبله (اذ جاؤكم) بدل من اذ جاءتكم (من فوقكم) من اعلى الوادى من جهة المشرق وهم بنو غطفان ومن تابعهم من اهل نجد وقائدهم عيينة بن حصن وعامر بن الطفيل فى هوازن وضامتهم اليهود من قريظة والنضير (ومن اسفل منكم) اى من اسفل الوادى من قبل المغرب وهم قريش ومن شايعهم من الاحابيش وبنى كنانة واهل تهامة وقائدهم ابو سفيان وكانوا عشرة آلاف (واذ زاغت الابصار) عطف على ما قبله داخل معه فى حكم التذكير اى حين مالت عن سننها وانحرفت عن مستوى نظرها حيرة وشخوصا وقيل عدلت عن كل شئ فلم تلتفت الا الى عدوها لشدة الروع (وبلغت القلوب الحناجر) لان الرئة تنتفخ من شدة الفزع فيرتفع القلب بارتفاعها الى رأس الحنجرة وهى منتهى الحلقوم وقيل هو مثل فى اضطراب القلوب

(وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) يعنى اتق الله وان توهمت من احد فتوكل على الله فانه كفى به دافعا ينفع ولا يضر معه شئ وان ضر لا ينفع معه شئ ❁ ثم قال تعالى (ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) قال بعض المفسرين الآية نزلت فى ابى معمر كان يقول لى قلبان اعلم وافهم باحدهما اكثر مما يفهم محمد فرد الله عليه بقوله ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ❁ وقال الزمخشرى قوله تعالى (وماجعل ازواجكم اللائى تظاهرون منهن امهاتكم) اى ماجعل لرجل قلبين كما لم يجعل لرجل امين ولا لابن ابوين وكلاهما ضعيف بل الحق ان يقال ان الله تعالى لما امر النبى عليه الصلاة والسلام بالاتقاء بقوله ياأيها النبى اتق الله فكان ذلك امرا له بتقوى لا يكون فوقها تقوى ومن يتق ويخاف شيأ خوفا شديدا لا يدخل فى قلبه شئ آخر الا ترى ان الخائف الشديد الخوف ينسى مهماته حالة الخوف فكأن الله تعالى قال ياأيها النبى اتق الله حق تقاته ومن حقها ان لا يكون فى قلبك تقوى غير الله فان المرء ليس له قلبان حتى يتق بأحدهما الله وبآخر غيره فان اتقى غيره فلا يكون ذلك الا بصرف القلب من جهة الله الى غيره وذلك لا يليق بالمتقى الذى يدعى انه يتق الله حق تقاته ثم ذكر للنبى عليه الصلاة والسلام انه لا ينبغى ان يتق احدا ولا مثل ما اتقيت فى حكاية زينب زوجة زيد حيث قال الله تعالى وتخشى الناس والله احق ان تخشاه يعنى مثل تلك التقوى لا ينبغى ان تدخل فى قلبك ثم لما ذكر النبى عليه الصلاة والسلام بتلك الحالة ذكر ما يدفع عنه السوء ❁ فقال تعالى (وماجعل ادعياءكم ابناءكم) اى وماجعل الله دعى المرء ابنه ثم قدم عليه ماهو دليل قوى على اندفاع القبح وهو قوله وماجعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن امهاتكم اى انكم اذا قلتم لازواجكم انت على كظهر أمى فلا تصير هى اما باجماع الكل اما فى الاسلام فلانه ظهار لا يحرم الوطء واما فى الجاهلية فلانه كان طلاقا حتى كان يجوز للزوج ان يتزوج بها من جديد فاذا كان قول القائل لزوجته أنت امى او كظهر أمى لا يوجب صيرورة الزوجة اما كذلك قول القائل لدعى انت ابنى لا يوجب كونه ابنا فلا تصير زوجته زوجة الابن فلم يكن ان يقول لاحد فى ذلك شيئا فلم يكن خوفك من الناس له وجه كيف ولو كان أمرا مخوفا ما كان يجوز ان تخاف غير الله أوليس لك قلبان وقلبك مشغول بتقوى الله فما كان ينبغى ان تخاف احدا ❁ ثم قال تعالى (ذلكم قولكم بأفواهكم) فيه لطيفة وهو ان الكلام المعتبر على قسمين (احدهما) كلام يكون عن شئ كان فيقال (والثانى) كلام يقال فيكون كما قيل والاول كلام الصادقين الذين يقولون مايكون والآخر كلام الصديقين الذين اذا قالوا شيئا جعله الله كما قالوه وكلاهما صادر عن قلب والكلام الذى يكون بالفم فحسب هو مثل نهيق الحمار او نباح الكلب لان الكلام المعتبر هو الذى يعتمد عليه والذى لا يكون عن قلب وروية لا اعتماد عليه والله تعالى لما كرم ابن آدم وفضله على سائر الحيوانات ينبغى ان يحترز من التخلق باخلاقها فقول القائل هذا ابنى

ووجيها وان لم تبلغ الحناجر حقيقة والخطاب فى قوله تعالى (وتظنون بالله الظنونا) لمن يظهر الايمان على الاطلاق اى تظنون بالله تعالى انواع الظنون المختلفة حيث ظن المخلصون الثبت القلوب ان الله تعالى (٧٧٠) ينجز وعده فى اعلاء دينه كما يعرب عنه ما يحكى عنهم من قولهم هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله الآية او يمتحنهم فخافوا الزلل وضعف الاحتمال والضعاف القلوب والمنافقون ما حكى عنهم مما لا خير فيه والجملة معطوفة على زاغت وصيغة المضارع لاستحضار الصورة والدلالة على الاستمرار وقرئ الظنون بغير الف وهو القياس وزيادتها لمراعاة الفواصل كما زادت فى القوافى (هنالك) ظرف زمان او ظرف مكان لما بعده اى فى ذلك الزمان الهائل او المكان الدحض (ابتلى المؤمنون) اى عوملوا معاملة من يختبر فظهر المخلص من المنافق والراسخ من المتزلزل (وزلزلوا زلزالا شديدا) من الهول والفزع وقرئ بفتح الزاى (واذ يقول المنافقون) عطف على اذ زاغت وصيغة المضارع لما مر من الدلالة على استمرار القول واستحضار صورته (والذين فى قلوبهم مرض) اى ضعف اعتقاد (ما وعدنا الله ورسوله) من اعلاء الدين والظفر (الا غرورا) اى وعد غرور وقيل قولا باطلا والقائل معتب بن قشير واضرابه راضون به قال يعدنا محمد فتح كنوز كسرى وقيصر واحدنا لا يقدر ان يتبرز فرقا ما هذا الا وعد غرور (واذ قالت طائفة منهم) هم اوس ابن قيظى واتباعه وقيل عبدالله ابن ابى واشياعه (يا اهل يثرب) هو اسم المدينة المطهرة وقيل اسم بقعة وقعت المدينة فى ناحية منها وقد نهى النبى عليه الصلاة والسلام ان تسمى بها كراهة لها وقال هى طيبة او طابة كأنهم ذكروها بذلك الاسم مخالفة له عليه الصلاة والسلام وندائهم اياهم بعنوان اهليتهم لها ترشيح لما بعده من الامر

(فلان)

فلان مع انه ليس ابنه ليس كلاما فان الكلام فى الفؤاد وهذا فى الفم لاغير والطيفة هى ان الله تعالى ههنا قال ذلكم قولكم بأفواهكم وقال فى قوله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يعنى نسبة الشخص الى غير الاب قول لاحقيقة له ولايخرج من قلب ولايدخل ايضا فى قلب فهو قول بالفم مثل اصوات البهائم ۞ ثم قال تعالى (والله يقول الحق) اشارة الى معنى لطيف وهو ان العاقل ينبغى ان يكون قوله اما عن عقل او عن شرع فاذا قال فلان ابن فلان ينبغى ان يكون عن حقيقة او يكون عن شرع بأن يكون ابنه شرعا وان لم يعلم الحقيقة كمن تزوج بامرأة فولدت لستة اشهر ولدا وكانت الزوجة من قبل زوجة شخص آخر يحتمل ان يكون الولد منه فانا نلحقه بالزوج الثانى لقيام الفراش ونقول انه ابنه وفى الدعى لم توجد الحقيقة ولا ورد الشرع به لانه لايقول الا الحق وهذا خلاف الحق لان أباه مشهور ظاهر و(وجد آخر فيه) وهو انهم قالوا هذه زوجة الابن فتحرم وقال الله تعالى هى لك حلال وقولهم لا اعتبار به فانه بأفواههم كأصوات البهائم وقول الله حق فيجب اتباعه وقوله وهو يهدى السبيل يؤكد قوله والله يقول الحق يعنى يجب اتباعه لكونه حقا ولكونه هاديا وقوله تعالى ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق (فيه لطيفة) وهو ان الكلام الذى بالفم فحسب يشبه صوت البهائم الذى يوجد لا عن قلب ثم ان الكلام الذى بالقلب قد يكون حقا وقد يكون باطلا لان من يقول شيئا عن اعتقاد قد يكون مطابقا فيكون حقا وقد لايكون فيكون باطلا فالقول الذى بالقلب وهو المعتبر من اقوالكم قد يكون حقا و قد يكون باطلا لانه يتبع الوجود وقول الله حق لانه يتبعه الوجود فانه يقول عما كان او يقول فيكون فاذن قول الله خير من اقوالكم التى عن قلوبكم فكيف تكون نسبته الى اقوالكم التى بأفواهكم فاذن لايجوز ان تأخذوا بقولكم الكاذب اللاغى وتتركوا قول الله الحق فمن يقول بأن تزوج النبى عليه الصلاة والسلام زينب لم يكن حسنا يكون قد ترك قول الله الحق وأخذ بقول خرج عن الفم ۞ ثم قال تعالى (وهو يهدى السبيل) اشارة الى ان اتباع ما انزل الله خير من الاخذ بقول الغير ۞ ثم بين الهداية وقال (ادعوهم لابائهم) ارشد وقال (هو اقسط عند الله) اى اعدل فانه وضع الشئ فى موضعه وهو يحتمل وجهين (احدهما) ان يكون ترك الاضافة للعموم اى اعدل كل كلام كقول القائل الله اكبر (و ثانيهما) ان يكون ماتقدم منويا كأنه قال ذلك اقسط من قولكم هو ابن فلان ۞ ثم تمم الارشاد وقال (فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم) يعنى قولوا لهم اخواننا واخو فلان فان كانوا محررين فقولوا مولى فلان ۞ ثم قال تعالى (وليس عليكم جناح فيما اخطأتم به) يعنى قول القائل لغيره يابنى بطريق الشفقة وقول القائل لغيره ياابى بطريق التعظيم فانه مثل الخطأ ألاترى ان اللغو فى اليمين مثل الخطأ وسبق اللسان فكذلك سبق اللسان فى قول القائل ابنى والسهو فى قوله ابنى من غير قصد

بالرجوع اليها (لامقام لكم) لاموضع اقامة لكم اى لااقامة لكم ههنا يريدون المعسكر وقرئ بفتح الميم اى لاقيام او لاموضع قيام لكم (فارجعوا) اى الى منازلكم بالمدينة مرادهم (٧٧١) الامر بالفرار لكنهم عبروا عنه بالرجوع ترويجا لمقالهم وايذانا بأنه ليس من قبيل الفرار المذموم وقيل لاقيام لكم فى دين محمد عليه الصلاة والسلام فارجعوا الى ما كنتم عليه من الشرك وفارجعوا عما بايعتموه عليه واسلموه الى اعدائه اولا مقام لكم فى يثرب فارجعوا كفارا ليتسنى لكم المقام بها والاول هو الانسب لمابعده فان قوله تعالى (ويستأذن فريق منهم النبى) معطوف على قالت وصيغة المضارع لما مر من استحضار الصورة وهم بنو حارثة وبنو سلمة استأذنوه عليه الصلاة والسلام فى الرجوع ممتثلين بأمرهم وقوله تعالى (يقولون) بدل من يستأذن او حال من فاعله او استئناف مبنى على السؤال عن كيفية الاستئذان (ان بيوتنا عورة) اى غير حصينة معرضة للعدو والسراق فأذن لنا حتى نحصنها ثم نرجع الى العسكر والعورة فى الاصل الخلل اطلقت على المختل مبالغة وقد يجوز ان تكون تخفيف عورة من عورت الدار اذا اختلت وقد قرئ بها والاول هو الانسب بمقام الاعتذار كما يفصح عنه تصدير مقالهم بحرف التحقيق (وماهى بعورة) والحال انها ليست كذلك (ان يريدون) مايريدون بالاستئذان (الافرارا) من القتال (ولو دخلت عليهم) اسند الدخول الى بيوتهم واوقع عليهم لما ان المراد فرض دخولها وهم فيها لافرض دخولها مطلقا كما هو المفهوم لو لم يذكر الجار والمجرور ولا فرض الدخول عليهم مطلقا كما هو المفهوم لو اسند الى الجار والمجرور (من اقطارها) اى من جميع جوانبها لامن بعضها دون بعض فالمعنى لوكانت بيوتهم مختلة بالكلية ودخلها كل من أراد من اهل الدعارة والفساد (ثم سئلوا)

الى اثبات النسب سواء * وقوله تعالى (ولكن ماتعمدت قلوبكم) مبتدأ خبره محذوف يدل عليه ماسبق وهو الجناح يعني ماتعمدت قلوبكم فيه جناح (وكان الله غفورا رحيما) يغفر الذنوب و يرحم المذنب وقد ذكرنا كلاما شافيا في المغفرة والرحمة في مواضع ونعيد بعضها ههنا فنقول المغفرة هو ان يستر القادر القبيح الصادر ممن تحت قدرته حتى ان العبد اذا ستر عيب سيده مخافة عقابه لايقال انه غفر له والرحمة هو ان يميل اليه بالاحسان لعجز المرحوم اليه لالعوض فان من مال الى انسان قادر كالسلطان لايقال رحمه وكذا من احسن الى غيره رجاء في خيره او عوضا عما صدر منه آنفا من الاحسان لايقال رحمه اذا علم هذا فالمغفرة اذا ذكرت قبل الرحمة يكون معناها انه ستر عيبه ثم رآه مفلسا عاجزا فرحمه واعطاه ما كفاه واذا ذكرت المغفرة بعد الرحمة وهو قليل يكون معناها انه مال اليه لعجزه فترك عقابه ولم يقتصر عليه بل ستر ذنوبه * ثم قال تعالى (النبي اولى بالمؤمنين من انفسهم) تقرير الصحة ماصدر منه عليه الصلاة والسلام من التزوج بزينب وكأن هذا جواب عن سؤال وهو ان قائلا لو قال هب ان الادعياء ليسوا بأبناء كما قلت لكن من سماه غيره ابنا اذا كان لدعيه شيء حسن لايليق بمروأته ان يأخذه منه ويطعن فيه عرفا فقال الله تعالى النبي اولى بالمؤمنين جوابا عن ذلك السؤال وتقريره هو ان دفع الحاجات على مراتب دفع حاجة الاجانب ثم دفع حاجة الاقارب الذين على حواشي النسب ثم دفع حاجة الاصول والفصول ثم دفع حاجة النفس والاول عرفا دون الثاني وكذلك شرعا فان العاقلة تحمل الدية عنهم ولا تحملها عن الاجانب والثاني دون الثالث أيضا وهو ظاهر بدليل النفقة والثالث دون الرابع فان النفس تقدم على الغير واليه اشار النبي عليه الصلاة والسلام بقوله ابدأ بنفسك ثم بمن تعول اذا علمت هذا فالانسان اذا كان معه مايغطي به احدى الرجلين او يدفع به حاجة عن احد شق بدنه فلو اخذ الغطاء من احدهما وغطى به الآخر لايكون لأحد ان يقول له لم فعلت فضلا من ان يقول بئسما مافعلت اللهم الا ان يكون احد العضوين اشرف من الآخر مثل ما اذا وقى الانسان عينه بيده ويدفع البرد عن رأسه الذي هو معدن حواسه ويترك رجله تبرد فانه الواجب عقلا فن عكس الامر يقال له لم فعلت واذا تبين هذا فالنبي صلى الله عليه وسلم اولى بالمؤمن من نفسه فلو دفع المؤمن حاجة نفسه دون حاجة نبيه يكون مثله مثل من يدهن شعره ويكشف رأسه في برد مفرط قاصدا به تربية شعره ولا يعلم انه يؤذي رأسه الذي لانبات لشعره الا منه فكذلك دفع حاجة النفس لفراغها الى عبادة الله تعالى ولا علم بكيفية العبادة الا من الرسول عليه الصلاة والسلام فلو دفع الانسان حاجته لا للعبادة فهو ليس دفعا للحاجة لان دفع الحاجة ماهو فوق تحصيل المصلحة وهذا ليس فيه مصلحة فضلا عن ان يكون حاجة واذا كان للعبادة فترك النبي الذي منه يتعلم كيفية العبادة في الحاجة ودفع حاجة النفس مثل تربية الشعر مع اهمال امر الرأس فتبين ان النبي صلى الله عليه

من جهة طائفة اخرى عند تلك النازلة والرجفة الهائلة (الفتنة) اى الردة والرجعة الى الكفر مكان ماسئلوا الآن من الايمان والطاعة (لآتوها) لأعطوها غير مبالين بما دهاهم (٧٧٢) من الداهية الدهياء والغارة الشعواء وقرئ لأتوها بالقصر اى لفعلوها وجاؤها (وماتلبثوا بها) بالفتنة اى ماالبثوها وما اخروها (الا يسيرا) ريثما يسع السؤال والجواب من الزمان فضلا عن التعلل باختلال البيوت مع سلامتها كما فعلوا الآن وقيل مالبثوا بالمدينة بعد الارتداد الا يسيرا والاول هو اللائق بالمقام هذا واما تخصيص فرض الدخول بتلك العساكر المتحزبة مع منافاته للعموم المستفاد من تجريد الدخول عن الفاعل فتبيه ضرب من فساد الوضع لما عرفت من ان مساق النظم الكريم لبيان انهم اذا دعوا الى الحق تعللوا بشيء يسير وان دعوا الى الباطل سارعوا اليه آثر ذي أثير من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم ففرض الدخول عليهم من جهة العساكر المذكورة واسناد سؤال الفتنة والدعوة الى الكفر الى طائفة اخرى مع ان العساكر هم المعروفون بعداوة الدين المباشرون لقتال المؤمنين المصرون على الاعراض عن الحق المجدون في الدعاء الى الكفر والضلال بمعزل من التقريب (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لايولون الادبار) فان بني حارثة عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم احد حين فشلوا ان لا يعودوا لمثله وقيل هم قوم غابوا عن وقعة بدر ورأوا ما اعطى الله اهل بدر من الكرامة والفضيلة فقالوا لئن اشهدنا الله قتالا لنقاتلن (وكان عهد الله مسؤلا) مطلوبا مقتضى حتى يوفي به وقيل مسؤلا عن الوفاء به ومجازى عليه (قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت او القتل) فانه لابد لكل شخص من حتف انف او قتل سيف في وقت معين سبق به القضاء وجرى عليه

(وسلم)

وسلم اذا أراد شيئا حرم على الامة التعرض اليه فى الحكمة الواضحة ۞ ثم قال تعالى (وازواجه امهاتهم) تقريرا آخر وذلك لان زوجة النبى صلى الله عليه وسلم ماجعلها الله تعالى فى حكم الام الا لقطع نظر الامة عما تعلق به غرض النبى عليه الصلاة والسلام فاذا تعلق خاطره بامرأة شاركت الزوجات فى التعلق فحرمت مثل ماحرمت ازواجه على غيره فلو قال قائل كيف قال وازواجه امهاتهم وقال من قبل وماجعل ازواجكم اللائى تظاهرون منهن امهاتكم اشارة الى ان غير من ولدت لاتصير اما بوجه ولذلك قال تعالى فى موضع آخر ان امهاتهم الا اللائى ولدنهم فنقول قوله تعالى فى الآية المتقدمة والله يقول الحق وهو يهدى السبيل جواب من هذا معناه ان الشرع مثل الحقيقة ولهذا يرجع العاقل عند تعذر اعتبار الحقيقة الى الشريعة كما ان امرأتين اذا ادعت كل واحدة ولدا بعينه ولم يكن لهما بينة وحلفت احداهما دون الاخرى حكم لها بالولد وان تبين ان التى حلفت دون البلوغ او بكر بينة لايحكم لها بالولد فعلم ان عند عدم الوصول الى الحقيقة يرجع الى الشرع لا بل فى بعض المواضع على الندور تغلب الشريعة الحقيقة فان الزانى لايجعل أبا الولد الزنا اذا ثبت هذا فالشارع له الحكم فقول القائل هذه أمى قول يفهم لاعن حقيقة ولايترتب عليه حقيقة واما قول الشارع حق والذى يؤيده هو ان الشارع به الحقائق حقائق فله ان يتصرف فيها ألا ترى ان الام ماصارت أما الا بخلق الله الولد فى رحمها ولو خلقه فى جوف غيرها لكانت الام غيرها فاذا كان هو الذى يجعل الام الحقيقية اما فله ان يسمى امرأة أما ويعطيها حكم الامومة والمعقول فى جعل ازواجه امهاتنا هو ان الله تعالى جعل زوجة الأب محرمة على الابن لان الزوجة محل الغيرة والتنازع فيها فان تزوج الابن بمن كانت تحت الاب يفضى ذلك الى قطع الرحم والعقوق لكن النبى عليه الصلاة والسلام اشرف واعلى درجة من الاب واولى بالارضاء فان الاب يربى فى الدنيا فحسب والنبى عليه الصلاة والسلام يربى فى الدنيا والآخرة فوجب ان تكون زوجاته مثل زوجات الآباء فان قال قائل فلم يقل ان النبى أبوكم ويحصل هذا المعنى اولم لم يقل ان ازواجه ازواج أبيكم فنقول لحكمة وهى ان النبى لما بينا انه اذا أراد زوجة واحد من الامة وجب عليه تركها ليتزوج بها النبى عليه الصلاة والسلام فلو قال انت ابوهم لحرم عليه زوجات المؤمنين على التأبيد ولانه لما جعله اولى بهم من انفسهم والنفس مقدم على الاب لقوله عليه الصلاة والسلام ابدا بنفسك ثم بمن تعول ولذلك فان المحتاج الى القوت لايجب عليه صرفه الى الاب ويجب عليه صرفه الى النبى عليه الصلاة والسلام ثم ان ازواجه لهم حكم زوجات الاب حتى لاتحرم اولادهن على المؤمنين ولا اخواتهن ولا امهاتهن وان كان الكل يحرمن فى الام الحقيقية والرضاعية ۞ ثم قال تعالى (واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين الا ان تفعلوا الى اوليائكم معروفا كان ذلك فى الكتاب

الفرار (واذن لاتمتعون الا قليلا) اى وان نفعكم الفرار مثلا فمتعتم بالتأخير لم يكن ذلك التمتيع الا تمتيعا قليلا او زمانا قليلا (قل من ذا الذى يعصمكم من الله ان أراد بكم سوأ أو أراد بكم رحمة) اى او يصيبكم بسوء (٧٧٣) ان أراد بكم رحمة فاختصر الكلام او حمل الثانى على الاول لما فى العصمة من معنى المنع (ولايجدون لهم من دون الله وليا) ينفعهم (ولانصيرا) يدفع عنهم الضرر (قد يعلم الله المعوقين منكم) اى المثبطين للناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم المنافقون (والقائلين لاخوانهم) من منافقى المدينة (هلم الينا) وهو صوت سمى به فعل متعد نحو احضر اوقرب ويستوى فيه الواحد والجماعة على لغة اهل الحجاز واما بنو تميم فيقولون هلم يارجل وهلموا يارجال اى قربوا انفسكم الينا وهذا يدل على انهم عند هذا القول خارجون من المعسكر متوجهون نحو المدينة (ولا يأتون البأس) اى الحراب والقتال (الا قليلا) اى اتيانا او زمانا او بأسا قليلا فانهم يعتذرون ويثبطون ماامكن لهم ويخرجون مع المؤمنين يوهمونهم انهم معهم ولا تراهم يبارزون ويقاتلون الا شيئا قليلا اذا اضطروا اليه كقوله تعالى ماقاتلوا الا قليلا وقيل انه من تتمة كلامهم ومعناه ولايأتى اصحاب محمد حرب الاحزاب ولايقاومونهم الا قليلا (اشحة عليكم) اى بخلاء عليكم بالمعاونة او النفقة فى سبيل الله او الظفر والغنيمة جمع شحيح ونصبه على الحالية من فاعل يأتون او من المعوقين او على الذم (فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور اعينهم) فى احداقهم (كالذى يغشى عليه من الموت) صفة لمصدر ينظرون او حال من فاعله او لمصدر تدور او حال من اعينهم اى ينظرون نظرا كائنا كنظر المغشى عليه من معالجة سكرات الموت حذرا وخورا ولواذا بك او ينظرون كائنين كالذى الخ او تدور اعينهم دورانا كائنا

كدوران عينه اوتدور اعينهم كائنة كعينه (فاذا ذهب الخوف) وحيزت الغنائم (سلقوكم) ضربوكم (بالسنة حداد) وقالوا وفروا قسمتنا فانا شاهدنا كم وقاتلنا معكم وبمكاننا غلبتم عدوكم وبنا نصرتم عليه والسلق البسط بقهر باليد (٧٧٤) اوباللسان وقرئ صلقوكم (اشحة على الخير) نصب على الحالية او الذم ويؤيده القراءة بالرفع (أولئك) الموصوفون بما ذكر من صفات السوء (لم يؤمنوا) بالاخلاص (فأحبط الله اعمالهم) اى اظهر بطلانها اذلم يثبت لهم اعمال فتبطل او ابطل تصنعهم ونفاقهم فلم يبق مستتبعا لمنفعة دنيوية اصلا (وكان ذلك) الاحباط (على الله يسيرا) هينا وتخصيص يسره بالذكر مع ان كل شئ عليه تعالى يسير لبيان ان اعمالهم حقيقة بأن يظهر حبوطها لكمال تعاضد الدواعى وعدم الصوارف بالكلية (يحسبون الاحزاب لم يذهبوا) اى هؤلاء لجبنهم يظنون ان الاحزاب لم ينهزموا ففروا الى داخل المدينة (وان يأت الاحزاب) كرة ثانية (يودوا لو انهم بادون فى الاعراب) تمنوا انهم خارجون الى البدو حاصلون بين الاعراب وقرئ بدى جمع باد كغاز وغزى (يسألون) كل قادم من جانب المدينة وقرئ يساءلون اى يتساءلون ومعناه يقول بعضهم لبعض ماذا سمعت ماذا بلغك او يتساءلون الاعراب كما يقال رأيت الهلال وتراءيناه فان صيغة التفاعل قد تجرد عن معنى كون ما اسندت اليه فاعلا من وجه ومفعولا من وجه ويكتفى بتعدد الفاعل كما فى المثال المذكور ونظائره (عن انبائكم) عما جرى عليكم (ولو كانوا فيكم) هذه الكرة ولم يرجعوا الى المدينة وكان قتال (ما قاتلوا الا قليلا) رياء وخوفا من التعيير (لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة) خصلة حسنة حقها ان يؤتسى بها كالثبات فى الحرب ومقاساة الشدائد وهو فى نفسه قدوة يحق التأسى به كقولك فى البيضة عشرون منا حديدا اى هى فى نفسها هذا القدر

مسطورا) اشارة الى الميراث وقوله الا ان تفعلوا الى اوليائكم معروفا اشارة الى الوصية يعنى ان اوصيتم فغير الوارثين اولى وان لم توصوا فالوارثون اولى بميراثكم وبما تركتم فان قيل فعلى هذا أى تعلق للميراث والوصية بما ذكرت نقول تعلق قوى خفى لايتبين الا لمن هداه الله بنوره وهو ان غير النبى عليه الصلاة والسلام فى حال حياته لايصير له مال الغير وبعد وفاته لايصير ماله لغير ورثته والنبى عليه الصلاة والسلام فى حال حياته كان يصير له مال الغير اذا أراده ولايصير ماله لورثته بعد وفاته كأن الله تعالى عوض النبى عليه الصلاة والسلام عن قطع ميراثه بقدرته على تملك مال الغير وعوض المؤمنين بان ما تركه يرجع اليهم حتى لايكون حرج على المؤمنين فى ان النبى صلى الله عليه وسلم اذا أراد شيئا يصير له ثم يموت ويبقى لورثته فيفوت عليهم ولا يرجع اليهم فقال تعالى واولو الارحام بعضهم اولى ببعض يعنى بينكم التوارث فيصير مال احدكم لغيره بالارث والنبى لاتوارث بينه وبين أقاربه فينبغى ان يكون له بدل هذا انه اولى فى حياته بما فى ايديكم (الثانى) هو ان الله تعالى ذكر دليلا على ان النبى عليه الصلاة والسلام اولى بالمؤمنين وهو ان اولى الارحام بعضهم اولى ببعض ثم اذا أراد احد برا مع صديق فيوصى له بشئ فيصير اولى من قريبه وكأنه بالوصية قطع الارث وقال هذا مالى لاينتقل عنى الا الى من اريده فكذلك الله تعالى جعل لصديقه من الدنيا ما أراده ثم ما يفضل منه يكون لغيره وقوله كان ذلك فى الكتاب مسطورا فيه وجهان (احدهما) فى القرآن وهو آية المواريث والوصية (والثانى) فى اللوح المحفوظ * ثم قال تعالى (واذ اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) وجه تعلق الآية بما قبلها هو ان الله تعالى لما امر النبى عليه الصلاة والسلام بالاتقاء بقوله تعالى ياأيها النبى اتق الله واكده بالحكاية التى خشى فيها الناس لكى لايخشى فيها احدا غيره وبين انه لم يرتكب امرا يوجب الخشية بقوله النبى اولى بالمؤمنين من انفسهم اكده بوجه آخر وقال واذ أخذنا من النبيين كأنه قال اتق الله ولاتخف احدا واذكر ان الله اخذ ميثاق النبيين فى انهم يبلغون رسالات الله ولايمنعهم من ذلك خوف ولاطمع وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المراد من الميثاق المأخوذ من النبيين ارسالهم وامرهم بالتبليغ (المسئلة الثانية) خص بالذكر اربعة من الانبياء وهم نوح وابراهيم وموسى وعيسى لان موسى وعيسى كان لهما فى زمان نبينا قوم وامة فذكرهما احتجاجا على قومهما وابراهيم كان العرب يقولون بفضله وكانوا يتبعونه فى الشعائر بعضها ونوحا لانه كان اصلا ثانيا للناس حيث وجد الخلق منه بعد الطوفان وعلى هذا لو قال قائل فآدم كان اولى بالذكر من نوح فنقول خلق آدم كان للعمارة ونبوته كانت مثل الارشاد للاولاد ولهذا لم يكن فى زمانه اهلاك قوم ولا تعذيب واما نوح فكان مخلوقا للنبوة وارسل للانذار ولهذا اهلك قومه واغرقوا (المسئلة الثالثة) فى كثير من المواضع يقول الله

(عيسى)

عيسى بن مريم والمسيح بن مريم اشارة الى أنه لا أب له اذ لو كان لوقع التعريف به وقوله وأخذنا منهم ميثاقا غليظا غلظ الميثاق هو سؤالهم عما فعلوا فى الارسال كما قال تعالى ولنسئلن المرسلين وهذا لان الملك اذا أرسل رسولا وامره بشئ وقبله فهو ميثاق فاذا أعلمه بأنه يسأل عن حاله فى أفعاله واقواله يكون ذلك تغليظا للميثاق عليه حتى لا يزيد ولا ينقص فى الرسالة وعلى هذا يمكن أن يقال بأن المراد من قوله تعالى وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا هو الاخبار بأنهم مسؤلون عنها كما قال النبى عليه الصلاة والسلام كلكم راع وكلكم مسؤل وكما ان الله تعالى جعل الرجال قوامين على النساء جعل الانبياء قائمين بأمور أممهم وارشادهم الى سبيل الرشاد ثم قال تعالى (ليسئل الصادقين عن صدقهم واعد للكافرين عذابا اليما) يعنى أرسل الرسل وعاقبة المكلفين اما حساب واما عذاب لان الصادق محاسب والكافر معذب وهذا كما قال على عليه السلام الدنيا حلالها حساب وحرامها عذاب وهذا مما يوجب الخوف العام فيتأكد قوله يأيها النبى اتق الله ثم قال تعالى (يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فارسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا اذ جاؤكم من فوقكم ومن اسفل منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا) تحقيقا لما سبق من الامر بتقوى الله بحيث لا يبقى معه خوف من أحد وذلك لان فى واقعة اجتماع الاحزاب واشتداد الامر على الاصحاب حيث اجتمع المشركون بأسرهم واليهود بأجمعهم ونزلوا على المدينة وعمل النبى عليه السلام الخندق كان الامر فى غاية الشدة والخوف بالغا الى الغاية والله دفع القوم عنهم من غير قتال وآمنهم من الخوف فينبغى ان لا يخاف العبد غير ربه فانه كاف امره ولا يأمن مكره فانه قادر على كل ممكن فكان قادرا على ان يقهر المسلمين بالكفار مع انهم كانوا ضعفاء كما قهر الكافرين بالمؤمنين مع قوتهم وشوكتهم وقوله فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها اشارة الى ما فعل الله بهم من ارسال ريح باردة عليهم فى ليلة شاتية وارسال الملائكة وقذف الرعب فى قلوبهم حتى كان البعض يلتزق بالبعض من خوف الخيل فى جوف الليل والحكاية مشهورة وقوله وكان الله بما تعملون بصيرا اشارة الى ان الله علم التجاءكم اليه ورجاءكم فضله فنصركم على الاعداء عند الاستعداء وهذا تقرير لوجوب الخوف وعدم جواز الخوف من غير الله فان قوله فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها اى الله يقضى حاجتكم وانتم لا ترون فان كان لا يظهر لكم وجه الأمن فلا تلتفتوا الى عدم ظهوره لكم لانكم لا ترون الاشياء فلا تخافون غير الله والله بصير بما تعملون فلا تقولوا بأنا نفعل شيئا وهو لا يبصره فانه بكل شئ بصير وقوله اذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم بيان لشدة الامر وغاية الخوف وقيل من فوقكم اى من جانب الشرق ومن اسفل منكم من جانب الغرب وهم اهل مكة وزاغت الابصار اى مالت عن سننها

من الحديد وقرئ بكسر الهمزة وهى لغة فيها (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) اى ثواب الله او لقاءه او ايام الله واليوم الآخر خصوصا وقيل هو مثل قولك ارجو زيدا وفضله (٧٧٥) فان اليوم الآخر من ايام الله تعالى ولمن كان صلة لحسنة او صفة لها وقيل بدل من لكم والاكثرون على ان ضمير المخاطب لا يبدل منه (وذكر الله) اى وقرن بالرجاء ذكر الله (كثيرا) اى ذكرا كثيرا او زمانا كثيرا فان المثابرة على ذكره تعالى تؤدى الى ملازمة الطاعة وبها تتحقق الائتساء برسول الله صلى الله عليه وسلم (ولما رأى المؤمنون الاحزاب) بيان لما صدر عن خلص المؤمنين عند اشتباه الشؤن واختلاط الظنون بعد حكاية ما صدر عن غيرهم اى لما شاهدوهم حسبما وصفوا لهم (قالوا هذا) مشيرين الى ما شاهدوه من حيث هو من غير ان يخطر ببالهم لفظ يدل عليه فضلا عن تذكيره وتأنيثه فانهما من احكام اللفظ كما فى قوله تعالى فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى وجعله اشارة الى الخطب او البلاء من نتائج النظر الجليل فتدبر ثم يجوز التذكير باعتبار الخبر الذى هو (ما وعدنا الله ورسوله) فان ذلك العنوان اول ما يخطر ببالهم عند المشاهدة ومرادهم بذلك ما وعدوه بقوله تعالى ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء الى قوله تعالى ألا ان نصر الله قريب وقوله عليه الصلاة والسلام سيشتد الامر باجتماع الاحزاب عليكم والعاقبة لكم عليهم وقوله عليه الصلاة والسلام ان الاحزاب سائرون اليكم بعد تسع ليال او عشر وقرئ بكسر الراء وفتح الهمزة (وصدق الله ورسوله) اى ظهر صدق خبر الله تعالى ورسوله او صدقا فى النصرة والثواب كما صدقا فى البلاء واظهار الاسم للتعظيم (وما زادهم) اى ما رأوه (الا ايمانا) بالله تعالى وبمواعيده (وتسليما) لأوامره ومقاديره (من المؤمنين) اى المؤمنين بالاخلاص مطلقا لا الذين حكيت محاسنهم

فلم تلتفت الى العدو لكثرته وبلغت القلوب الحناجر كناية عن غاية الشدة وذلك لان القلب عند الغضب يندفع وعند الخوف يجتمع فيتقلص فيلتصق بالحنجرة وقد يفضى الى ان يسد مجرى النفس فلا يقدر المرء يتنفس ويموت من الخوف ومثله قوله تعالى حتى اذا بلغت الحلقوم وقوله وتظنون بالله الظنونا الالف واللام يمكن ان يكونا بمعنى الاستغراق مبالغة يعنى تظنون كل ظن لان عند الامر العظيم كل احد يظن شيئا ويمكن ان يكون المراد ظنونهم المعهودة لان المعهود من المؤمن ظن الخير بالله كما قال عليه السلام ظنوا بالله خيرا ومن الكافر الظن السوء كما قال تعالى ذلك ظن الذين كفروا وقوله ان يتبعون الا الظن فان قال قائل المصدر لا يجمع فما الفائدة فى جمع الظنون فنقول لا شك فى انه منصوب على المصدر ولكن الاسم قد يجعل مصدرا كما يقال ضربته سياطا وأدبته مرارا فكأنه قال ظننتم ظنا بعد ظن اى ماثبتم على ظن فالفائدة هى ان الله تعالى لو قال تظنون ظنا جاز ان يكونوا مصيبين فاذا قال ظنونا تبين ان فيهم من كان ظنه كاذبا لان الظنون قد تكذب كلها وقد يكذب بعضها اذا كانت فى امر واحد مثاله اذا رأى جمع من بعيد جسما وظن بعضهم أنه زيد وآخرون انه عمرو وقوم ثالث انه بكر ثم ظهر لهم الحق فقد يكون الكل مخطئين والمرئى شجر او حجر وقد يكون احدهم مصيبا ولا يمكن ان يكونوا كلهم مصيبين فقوله الظنونا أفاد ان فيهم من أخطأ الظن ولو قال تظنون بالله ظنا ما كان يفيد هذا * ثم قال تعالى (هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا) اى عند ذلك امتحن الله المؤمنين فتميز الصادق عن المنافق والامتحان من الله ليس لاستبانة الامر له بل لحكمة أخرى وهى ان الله تعالى عالم بما هم عليه لكنه اراد اظهار الامر لغيره من الملائكة والانبياء كما ان السيد اذا علم من عبده المخالفة وعزم على معاقبته على مخالفته وعنده غيره من العبيد وغيرهم فيأمره بأمر عالما بأنه يخالفه فيبين الامر عند الغير فتقع المعاقبة على احسن الوجوه حيث لا يقع لأحد انها بظلم او من قلة حلم وقوله وزلزلوا اى ازعجوا وحركوا فمن ثبت منهم كان من الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم وبذكر الله تطمئن مرة أخرى وهم المؤمنون حقا * ثم قال تعالى (واذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا واذ قالت طائفة منهم ياأهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون ان بيوتنا عورة وما هى بعورة ان يريدون الا فرارا) فسر الظنون وبينها فظن المنافقون ان ما قال الله ورسوله كان زورا ووعدهما كان غرورا حيث قطعوا بأن الغلبة واقعة وقوله واذ قالت طائفة منهم ياأهل يثرب لا مقام لكم اى لا وجه لاقامتكم مع محمد كما يقال لا اقامة على الذل والهوان اى لا وجه لها ويثرب اسم للبقعة التى هى المدينة فارجعوا اى عن محمد واتفقوا مع الاحزاب تخرجوا من الاحزان ثم السامعون عزموا على الرجوع واستأذنوه وتعللوا بأن بيوتنا عورة اى فيها خلل لا يأمن صاحبها السارق على متاعه والعدو على

خاصة (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) من الثبات مع الرسول عليه الصلاة والسلام والمقاتلة لاعداء الدين وهم رجال من الصحابة رضى الله عنهم نذروا انهم اذا لقوا حربا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا وهم عثمان بن عفان و طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر وغيرهم رضوان الله تعالى عليهم اجمعين ومعنى صدقوا أتوا بالصدق من صدقنى اذا قال لك الصدق ومحل ما عاهدوا النصب اما بطرح الخافض عنه وايصال الفعل اليه كما فى قولهم صدقنى سن بكره اى فى سنه واما بجعل المعاهد عليه مصدوقا على المجاز كأنهم خاطبوه خطاب من قال لكرمائه * نحرتنى الاعداء ان لم تحرى * وقالوا له سنفى بك وحيث وفوا به فقد صدقوه ولو كانوا نكثوه لكذبوه ولكان مكذوبا (فمنهم من قضى نحبه) تفصيل لحال الصادقين وتقسيم لهم الى قسمين والنحب النذر وهو ان يلتزم الانسان شيئا من اعماله ويوجبه على نفسه وقضاؤه الفراغ منه والوفاء به ومحل الجار والمجرور الرفع على الابتداء على احد الوجهين المذكورين فى قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله الآية اى فبعضهم او فبعض منهم من خرج عن العهدة كحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر عم أنس بن مالك وغيرهم رضوان الله تعالى عليهم اجمعين فانهم قد قضوا نذورهم سواء كان النذر على حقيقته بأن يكون ما نذروه افعالهم الاختيارية التى هى المقاتلة المفاة بما ليس منها ولا يدخل تحت النذر وهو الموت شهيدا أو كان مستعارا لالتزامه على ما سيأتى (ومنهم) اى وبعضهم او وبعض منهم (من ينتظر) اى قضاء نحبه لكونه مؤقتا كعثمان وطلحة وغيرهما ممن استشهد بعد ذلك رضوان الله تعالى عليهم اجمعين فانهم مستمرون على نذورهم قد قضوا بعضها وهو الثبات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والقتال الى

اتباعه ثم بين الله كذبهم بقوله وماهى بعورة و بين قصدهم وماتكن صدورهم وهو الفرار وزوال القرار بسبب الخوف * ثم قال تعالى (ولودخلت عليهم من اقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وماتلبثوا بها الايسيرا) اشارة الى ان ذلك الفرار والرجوع ليس لحفظ البيوت لان من يفعل فعلا لغرض فاذا فاته الغرض لايفعله كمن يبذل المال لكى لايؤخذ منه بيته فاذا اخذ منه البيت لايبذله فقال الله تعالى هم قالوا بأن رجوعنا عنك لحفظ بيوتنا ولو دخلها الاحزاب وأخذوها منهم لرجعوا ايضا وليس رجوعهم عنك الابسبب كفرهم وحبهم الفتنة وقوله ولودخلت عليهم احتمل ان يكون المراد المدينة واحتمل ان يكون البيوت وقوله وماتلبثوا بها يحتمل ان يكون المراد الفتنة الايسيرا فانها تزول وتكون العاقبة للمتقين ويحتمل ان يكون المراد المدينة اوالبيوت اى ماتلبثوا بالمدينة الايسيرا فان المؤمنين يخرجونهم * ثم قال تعالى (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لايولون الادبار وكان عهد الله مسؤلا قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت او القتل) بيانا لفساد سريرتهم وقبح سيرتهم لنقضهم العهود فانهم قبل ذلك تخلفوا واظهروا عذرا وندما وذكروا ان القتال لايزل لهم قدمائم هددهم بقوله وكان عهد الله مسؤلا وقوله قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت او القتل اشارة الى ان الامور مقدرة لايمكن الفرار مما وقع عليه القرار وماقدره الله كائن فمن أمر بشئ اذا خالفه يبقى فى ورطة العقاب آجلا ولاينتفع بالمخالفة عاجلا * ثم قال تعالى (واذا لاتمتعون الاقليلا) كأنه يقول ولو فررتم منه فى يومكم مع انه غير ممكن لمادمتم بل لاتمتعون الاقليلا فالعاقل لايرغب فى شئ قليل مع انه يفوت عليه شيئا كثيرا فلا فرار لكم ولو كان لما متعتم بعد الفرار الاقليلا * ثم قال تعالى (قل من ذا الذى يعصمكم من الله ان أراد بكم سوأ او أراد بكم رحمة ولايجدون لهم من دون الله وليا ولانصيرا) بيانا لما تقدم من قوله لن ينفعكم الفرار وقوله ولايجدون لهم من دون الله تقرير لقوله من ذا الذى يعصمكم اى ليس لكم ولى يشفع لحبه اياكم ولانصير ينصركم ويدفع عنكم السوء اذا أتاكم * ثم قال تعالى (قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا ولايأتون البأس الاقليلا أشحة عليكم) اى الذين يثبطون المسلمين ويقولون تعالوا الينا ولاتقاتلوا مع محمد صلى الله عليه وسلم وفيهم وجهان (احدهما) انهم المنافقون الذين كانوا يقولون للانصار لاتقاتلوا وأسلموا محمدا الى قريش (وثانيهما) اليهود الذين كانوا يقولون لاهل المدينة تعالوا الينا وكونوا معنا وهلم بمعنى تعال اواحضر ولاتجمع فى لغة الحجاز وتجمع فى غيرها فيقال للجماعة هلموا وللنساء هلممن وقوله ولايأتون البأس الاقليلا يؤيد الوجه الاول وهو ان المراد منهم المنافقون وهو يحتمل وجهين (احدهما) لايأتون البأس بمعنى يتخلفون عنكم ولايخرجون معكم وحينئذ قوله تعالى اشحة عليكم اى بخلاء حيث لاينفقون فى سبيل الله شيئا (وثانيهما) لايأتون البأس بمعنى لايقاتلون معكم ويتعللون عن الاشتغال بالقتال وقت

حين نزول الآية الكريمة ومنتظرون لقضاء بعضها الباقى وهو القتال الى الموت شهيدا هذا ويجوز ان يكون النحب مستعارا لالتزام الموت شهيدا اما بتنزيل اسبابه التى هى افعال اختيارية للناذر منزلة التزام نفسه واما بتنزيل نفسه منزلة اسبابه وايراد الالتزام عليه وهو الانسب بمقام المدح وايا ما كان ففى وصفهم بالانتظار المنبى عن الرغبة فى المنتظر شهادة حقة بكمال اشتياقهم الى الشهادة واما ما قيل من ان النحب استعير للموت لانه كنذر لازم فى رقبة كل حيوان فمسخ للاستعارة وذهاب برونقها واخراج للنظم الكريم عن مقتضى المقام بالكلية (وما بدلوا) عطف على صدقوا وفاعله فاعله اى ما بدلوا عهدهم وماغيروه (تبديلا) اى تبديلا ما لا اصلا ولا وصفا بل ثبتوا عليه راغبين فيه مراعين لحقوقه على احسن ما يكون اما الذين قضوا فظاهر واما الباقون فيشهد به انتظارهم اصدق شهادة وتعميم عدم التبديل للفريق الاول مع ظهور حالهم للايذان بمساواة الفريق الثانى لهم فى الحكم ويجوز ان يكون ضمير بدلوا للمنتظرين خاصة بناء على ان المحتاج الى البيان حالهم وقد روى ان طلحة رضى الله عنه ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم احد حتى اصيبت يده فقال عليه الصلاة والسلام اوجب طلحة الجنة وفى رواية اوجب طلحة وعنه عليه الصلاة والسلام فى رواية جابر رضى الله عنه من سره ان ينظر الى شهيد يمشى على الارض فلينظر الى طلحة ابن عبيد الله وفى رواية عائشة رضى الله عنها من سره ان ينظر الى شهيد يمشى على الارض وقد قضى نحبه فلينظر الى طلحة وهذا يشير الى انه من الاولين حكما (ليجزى الله الصادقين بصدقهم) متعلق بمضمر مستأنف مسوق بطريق الفذلكة لبيان ما هو داع الى وقوع ما حكى من الاحوال والاقوال على التفصيل وغاية له كما فى قوله

الحضور معكم وقوله اشحة عليكم اى بأنفسهم وابدانهم ۞ ثم قال تعالى (فاذا جاء الخوف
رأيتهم ينظرون اليك تدور اعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فاذا ذهب الخوف سلقوكم
بألسنة حداد اشحة على الخير) اشارة الى غاية جبنهم ونهاية روعهم واعلم ان البخل
شبيه الجبن فلما ذكر البخل بين سببه وهو الجبن والذى يدل عليه هو ان الجبان يبخل بماله
ولا ينفقه فى سبيل الله لانه لا يتوقع الظفر فلا يرجو الغنيمة فيقول هذا انفاق لا بدل له
فيتوقف فيه واما الشجاع فيتيقن الظفر والاغتنام فيهون عليه اخراج المال فى القتال
طمعا فيما هو اضعاف ذلك واما بالنفس والبدن فكذلك فان الجبان يخاف قرنه ويتصور
القتل فيجبن ويترك الاقدام واما الشجاع فيحكم بالغلبة والنصر فيقدم وقوله تعالى
فاذا ذهب الخوف سلقوكم اى غلبوكم بألسنة وآذوكم بكلامهم يقولون نحن الذين
قاتلنا وبنا انتصرتم وكسرتم العدو وقهرتم ويطالبونكم بالقسم الاوفر من الغنيمة وكانوا
من قبل راضين من الغنيمة بالاياب وقوله اشحة على الخير قيل الخير المال ويمكن ان يقال
معناه انهم قليلو الخير فى الحالتين كثيروا الشر فى الوقتين فى الاول يبخلون وفى الآخر
كذلك ۞ ثم قال تعالى (أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله اعمالهم وكان ذلك على الله
يسيرا) يعنى لم يؤمنوا حقيقة وان اظهروا الايمان لفظا فأحبط الله اعمالهم التى كانوا
يأتون بها مع المسلمين وقوله وكان ذلك على الله يسيرا اشارة الى ما يكون فى نظر الناظر كما فى
قوله تعالى وهو أهون عليه وذلك لان الاحباط اعدام واهدار واعدام الاجسام اذا نظر
الناظر يقول الجسم اعدامه بتفريق اجزائه فان من احرق شيئا يبقى منه رماد وذلك لان
الرماد ان فرقته الريح يبقى منه ذرات وهذا مذهب بعض الناس والحق هو ان الله
يعدم الاجسام ويعيد ما يشاء منها واما العمل فهو فى العين معدوم ان كان يبقى
يبقى بحكمه وآثاره فاذا لم يكن له فائدة واعتبار فهو معدوم حقيقة وحكما فالعمل
اذا لم يعتبر فهو معدوم فى الحقيقة بخلاف الجسم ۞ ثم قال تعالى (يحسبون الاحزاب
لم يذهبوا وان يأت الاحزاب يودوا لو انهم بادون فى الاعراب يسئلون عن انبائكم
ولو كانوا فيكم ما قاتلوا الا قليلا لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة لمن كان
يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) اى من غاية الجبن عند ذهابهم كانوا
يخافونهم وعند مجيئهم كانوا يودون لو كانوا فى البوادى ولا يكونون بين المقاتلين مع انهم
عند حضورهم كأنهم غائبون حيث لا يقاتلون كما قال تعالى ولو كانوا فيكم ما قاتلوا الا
قليلا ۞ ثم قال تعالى (ولما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق
الله ورسوله وما زادهم الا ايمانا وتسليما) لما بين حال المنافقين ذكر حال المؤمنين وهو انهم
قالوا هذا ما وعدنا الله من الابتلاء ثم قالوا وصدق الله ورسوله فى مقابلة قولهم ما وعدنا
الله ورسوله الا غرورا وقولهم وصدق الله ورسوله ليس اشارة الى ما وقع فانهم كانوا
يعرفون صدق الله قبل الوقوع وانما هى اشارة الى بشارة وهو انهم قالوا هذا ما وعدنا الله

تعالى ليسأل الصادقين عن صدقهم كأنه قيل وقع جميع ما وقع ليجزى الله الصادقين بما صدر عنهم من الصدق والوفاء قولا وفعلا
(ويعذب المنافقين) بما صدر
عنهم من الاعمال والاقوال
المحكية (ان شاء) تعذيبهم
(او يتوب عليهم) ان تابوا وقيل
متعلق بما قبله من نفى التبديل
المنطوق واثباته المعرض به كأن
المنافقين قصدوا بالتبديل عاقبة
السوء كما قصد المخلصون بالثبات
والوفاء العاقبة الحسنى وقيل تعليل
لصدقوا وقيل لما فهم من قوله تعالى
وما زادهم الا ايمانا وتسليما وقيل
لما يستفاد من قوله تعالى ولما رأى
المؤمنون الاحزاب كأنه قيل
ابتلاهم الله تعالى برؤية ذلك الخطب
ليجزى الآية فتأمل وبالله
التوفيق (ان الله كان غفورا رحيما)
اى لمن تاب وهو اعتراض فيه
بعث الى التوبة وقوله تعالى
(ورد الله الذين كفروا)
رجوع الى حكاية بقية القصة
وتفصيل تتمة النعمة المشار اليها
اجمالا بقوله تعالى فأرسلنا عليهم
ريحا وجنودا لم تروها معطوف
اما على المضمر المقدر قبل قوله
تعالى ليجزى الله كأنه قيل اثر
حكاية الامور المذكورة وقع
ما وقع من الحوادث ورد الله الخ
واما على ارسلنا وقد وسط بينهما
بيان كون ما نزل بهم واقعة طامة
تحيرت بها العقول والافهام
وداهية تامة تحاكت منها الركب
وزلت الاقدام وتفصيل ما صدر
عن فريقى اهل الايمان واهل
الكفر والنفاق من الاحوال
والاقوال لاظهار عظم النعمة
وابانة خطرها الجليل ببيان
وصولها اليهم عند غاية احتياجهم
اليها اى فأرسلنا عليهم ريحا
وجنودا لم تروها ورددنا بذلك
الذين كفروا والالتفات الى
الاسم الجليل لتربية المهابة وادخال
الروعة وقوله تعالى (بغيظهم)
حال من الموصول اى ملتبسين به
وكذا قوله تعالى (لم ينالوا خيرا) بتداخل او تعاقب اى غير ظافرين بخير او الثانية بيان للاولى او استئناف (وكفى الله المؤمنين القتال) بما ذكر من ارسال الريح والجنود (وكان (وقد)

وقد وقع وصدق الله فى جميع ماوعد فيقع الكل مثل فتح مكة وفتح الروم وفارس وقوله
مازادهم الا ايمانا بوقوعه وتسليما عند وجوده ۞ ثم قال تعالى (من المؤمنين رجال صدقوا
ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ليجزى الله
الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين ان شاء او يتوب عليهم ان الله كان غفورا رحيما ورد
الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا) اشارة
الى وفائهم بعهدهم الذى عاهدوا الله انهم لايفارقون نبيه الا بالموت فمنهم من قضى نحبه
اى قاتل حتى قتل فوفى بنذره والنحب النذر ومنهم من هو بعد فى القتال ينتظر الشهادة
وفاء بالعهد وما بدلوا تبديلا بخلاف المنافقين فانهم قالوا لا نولى الادبار فبدلوا قولهم
وولوا الادبار هم وقوله ليجزى الله الصادقين بصدقهم اى بصدق ماوعدهم فى الدنيا
والآخرة كما صدقوا مواعيدهم ويعذب المنافقين الذين كذبوا واخلفوا وقوله ان شاء ذلك
فيمنعهم من الايمان او يتوب عليهم ان اراد وانما قال ذلك حيث لم يكن قد حصل يأس النبى عليه
السلام عن ايمانهم وآمن بعد ذلك ناس منهم وقوله وكان الله غفورا حيث ستر ذنوبهم
ورحيما حيث رحمهم ورزقهم الايمان فيكون هذا فيمن آمن بعده او نقول ويعذب
المنافقين مع انه كان غفورا رحيما لكثرة ذنبهم وقوة جرمهم ولو كان دون ذلك لغفر لهم
ثم بين بعض ماجازاهم الله به على صدقهم فقال ورد الله الذين كفروا بغيظهم اى مع
غيظهم لم يشفوا صدرا ولم يحققوا امرا وكفى الله المؤمنين القتال اى لم يحوجهم الى
قتال وكان الله قويا غير محتاج الى قتالهم عزيزا قادرا على استئصال الكفار واذلالهم
۞ ثم قال تعالى (وانزل الذين ظاهروهم من اهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم
الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا) اى عاونوهم من اهل الكتاب وهم بنو قريظة من
صياصيهم من قلاعهم وقذف فى قلوبهم الرعب حتى سلموا انفسهم للقتل واولادهم
ونساءهم للسبى فريقا تقتلون وهم الرجال وتأسرون فريقا وهم الصبيان والنسوان
(فان قيل) هل فى تقديم المفعول حيث قال فريقا تقتلون وتأخيره حيث قال وتأسرون
فريقا فائدة (قلت) قد اجبنا ان مامن شىء من القرآن الا وله فوائد منها مايظهر ومنها
مالايظهر والذى يظهر من هذا والله اعلم ان القائل يبدأ بالاهم فالاهم والاعرف فالاعرف
والاقرب فالاقرب والرجال كانوا مشهورين فكان القتل واردا عليهم والاسرى كانوا هم
النساء والصغار ولم يكونوا مشهورين والسبى والاسر اظهر من القتل لانه يبقى فيظهر
لكل احد انه اسير فقدم من المحلين ماهو اشهر على الفعل القائم به وماهو اشهر من الفعلين
قدمه على المحل الاخفى وان شئنا نقول بعبارة توافق المسائل النحوية فنقول قوله فريقا
تقتلون فعل ومفعول والاصل فى الجمل الفعلية تقديم الفعل على المفعول والفاعل اما
انها جملة فعلية فلأنها لو كانت اسمية لكان الواجب فى فريق الرفع وكان يقول فريق منهم
تقتلونهم فلما نصب كان ذلك بفعل مضمر يفسره الظاهر تقديره تقتلون فريقا تقتلون

الله قويا على احداث كل مايريد (عزيزا) غالبا على كل شىء (وانزل الذين ظاهروهم) اى عاونوا الاحزاب المردودة (من اهل
الكتاب) وهم بنو قريظة (من
صياصيهم) من حصونهم جمع
صيصية وهى مايتحصن به ولذلك
يقال لقرن الثور والظبى وشوكة
الديك (وقذف فى قلوبهم الرعب)
الخوف الشديد بحيث اسلموا
انفسهم للقتل واهليهم واولادهم
للاسر حسبما ينطق به قوله تعالى
(فريقا تقتلون وتأسرون فريقا)
من غير ان يكون من جهتهم حراك
فضلا عن المخالفة والاستعصاء روى
ان جبريل عليه السلام أتى
رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحة
الليلة التى انهزم فيها الاحزاب
ورجع المسلمون الى المدينة
ووضعوا السلاح فقال أتنزع
لأمتك والملائكة ماوضعوا
السلاح ان الله يأمرك ان تسير
الى بنى قريظة وانا عامد اليهم فأذن
فى الناس ان لايصلوا العصر الا
ببنى قريظة فحاصروهم احدى
وعشرين او خمسا وعشرين ليلة
حتى جهدهم الحصار فقال لهم
تنزلون على حكمى فأبوا فقال على
حكم سعد بن معاذ فرضوا به فحكم
سعد بقتل مقاتليهم وسبى ذراريهم
ونسائهم فكبر النبى عليه الصلاة
والسلام وقال لقد حكمت بحكم الله
من فوق سبعة ارقعة فقتل منهم
ستمائة مقاتل وقيل من ثمانمائة الى
تسعمائة واسر سبعمائة وقرئ
تأسرون بضم السين كما قرئ
الرعب بضم العين ولعل تأخير
المفعول فى الجملة الثانية مع ان
مساق الكلام لتفصيله وتقسيمه كما
فى قوله تعالى ففريقا كذبتم وفريقا
تقتلون وقوله تعالى فريقا كذبوا
وفريقا يقتلون لمراعاة الفواصل
(واورثكم ارضهم وديارهم) اى
حصونهم (واموالهم) نقودهم واثاثهم ومواشيهم روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل عقارهم المهاجرين دون الانصار
فقالت الانصار فى ذلك فقال عليه الصلاة والسلام انكم فى منازلكم فقال عمر رضى الله عنه أما تخمس كما خمست يوم

والحامل على مثل هذا الكلام شدة الاهتمام ببيان المفعول وههنا كذلك لانه تعالى لما ذكر حال الذين ظاهروهم وانه قذف فى قلوبهم الرعب فلو قال تقتلون الى ان يسمع السامع مفعول تقتلون يكون زمان وقد يمنعه مانع فيفوته فلا يعلم انهم هم المقتولون فاما اذا قال فريقا مع سبق فى قلوبهم الرعب الى سمعه يستمع الى اتمام الكلام واذا كان الاول فعلا ومفعولا قدم المفعول لفائدة عطف الجملة الثانية عليها على الاصل فقدم تقديم الفعل لزوال موجب التقديم اذا عرف حالهم ومايجىء بعده يكون مصروفا اليهم ولو قال بعد ذلك وفريقا تأسرون فمن سمع فريقا ربما يظن ان يقال فيهم يطلقون اولا يقدرون عليهم فكان تقديم الفعل ههنا اولى وكذلك الكلام فى قوله وانزل الذين ظاهروهم وقوله وقذف فان قذف الرعب قبل الانزال لان الرعب صار سبب الانزال ولكن لما كان الفرح فى انزالهم اكثر قدم الانزال على قذف الرعب والله اعلم ✽ ثم قال تعالى (واورثكم ارضهم وديارهم واموالهم وارضا لم تطؤها وكان الله على كل شئ قديرا) فيه ترتيب على ما كان فان المؤمنين اولا تملكوا ارضهم بالنزول فيها والاستيلاء عليها ثم تملكوا ديارهم بالدخول عليهم واخذ قلاعهم ثم اموالهم التى كانت فى بيوتهم وقوله وارضا لم تطؤها قيل المراد القلاع وقيل المراد الروم وارض فارس وقيل كل مايؤخذ الى يوم القيامة وكان الله على كل شئ قديرا هذا يؤكد قول من قال ان المراد من قولهم وارضا لم تطؤها هو ماسيؤخذ بعد بنى قريظة ووجهه هو ان الله تعالى لما ملكهم تلك البلاد ووعدهم بغيرها دفع استبعاد من لا يكون قوى الاتكال على الله تعالى وقال أليس الله ملككم هذه فهو على كل شئ قدير يملككم غيرها ✽ ثم قال تعالى (يا أيها النبى قل لازواجك ان كنتن تردن الحيوة الدنيا وزينتها فتعالين امتعكن واسرحكن سراحا جميلا وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله اعد للمحسنات منكن اجرا عظيما) وجه التعلق هو ان مكارم الاخلاق منحصرة فى شيئين التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله والى هذا اشار عليه الصلاة والسلام بقوله وماملكت ايمانكم ثم ان الله تعالى لما ارشد نبيه الى مايتعلق بجانب التعظيم لله بقوله يا أيها النبى اتق الله ذكر مايتعلق بجانب الشفقة وبدأ بالزوجات فانهن اولى الناس بالشفقة ولهذا قدمهن فى النفقة وفى الآية مسائل فقهية (منها) ان التخيير هل كان واجبا على النبى عليه السلام ام لا فنقول التخيير قولا كان واجبا من غير شك لانه ابلاغ الرسالة لان الله تعالى لما قال له قل لهم صار من الرسالة واما التخيير معنى فيبنى على ان الامر للوجوب ام لا والظاهر انه للوجوب (ومنها) ان واحدة منهن لو اختارت الفراق هل كان يصير اختيارها فراقا والظاهر انه لا يصير فراقا وانما تبين المختارة نفسها بابانة من جهة النبى صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى فتعالين امتعكن واسرحكن سراحا جميلا (ومنها) ان واحدة منهن ان اختارت نفسها وقلنا بانها لا تبين الا بابانة من جهة النبى عليه السلام فهل كان يجب على النبى عليه

بدر فقال عليه الصلاة والسلام لانما جعلت هذه لى طعمة دون الناس فقالوا رضينا بما صنع الله ورسوله (وارضا لم تطؤها) اى اورثكم فى علمه وتقديره ارضا لم تقبضوها بعد كفارس والروم وقيل كل ارض تفتح الى يوم القيامة وقيل خيبر (وكان الله على كل شئ قديرا) فقد شاهدتم بعض مقدوراته من ايراث الاراضى التى تسلمتموها فقيسوا عليها ماعداها (يا أيها النبى قل لازواجك ان كنتن تردن الحيوة الدنيا) اى السعة والتنعم فيها (وزينتها) وزخارفها (فتعالين) اى اقبلن بارادتكن واختياركن لاحدى الخصلتين كما يقال اقبل يخاصمنى وذهب يكلمنى وقام يهددنى (امتعكن) بالجزم جوابا للامر وكذا (واسرحكن) اى اعطكن المتعة واطلقكن (سراحا جميلا) طلاقا من غير ضرار وقرئ بالرفع على الاستئناف روى انهن سألنه عليه الصلاة والسلام ثياب الزينة وزيادة النفقة فنزلت فبدأ بعائشة فخيرها فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة ثم اختارت الباقيات اختيارها فشكر لهن الله ذلك فنزل لا يحل لك النساء من بعد واختلف فى ان هذا التخيير هل كان تفويض الطلاق اليهن حتى يقع الطلاق بنفس الاختيار اولا فذهب الحسن وقتادة واكثر اهل العلم الى انه لم يكن تفويض الطلاق وانما كان تخييرا لهن بين الارادتين على انهن ان اردن الدنيا فارقهن عليه الصلاة والسلام كما ينبئ عنه قوله تعالى فتعالين امتعكن واسرحكن وذهب آخرون الى انه كان تفويضا للطلاق اليهن حتى لو انهن اخترن انفسهن كان ذلك طلاقا وكذا اختلف فى حكم التخيير فقال ابن عمر وابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهم اذا خير رجل امرأته فاختارت زوجها لا يقع شئ اصلا ولو اختارت نفسها وقعت طلقة بائنة عندنا ورجعية عند الشافعى وهو قول عمر بن عبد العزيز وابن ابى ليلى وسفيان وروى

السلام الطلاق ام لا الظاهر نظرا الى منصب النبي عليه السلام انه كان يجب لان الخلف في الوعد من النبي غير جائز بخلاف واحد منا فانه لا يلزمه شرعا الوفاء بما يعد (ومنها) ان المختارة بعد البينونة هل كانت تحرم على غيره أم لا والظاهر انها لا تحرم والا لا يكون التخيير تمكينا لها من التمتع بزينة الدنيا (ومنها) ان من اختارت الله ورسوله كان يحرم على النبي عليه الصلاة والسلام طلاقها ام لا الظاهر الحرمة نظرا الى منصب الرسول عليه الصلاة والسلام على معنى ان النبي عليه السلام لا يباشره اصلا بمعنى انه لو أتى به لعوقب او عوتب وفيها لطائف لفظية (منها) تقديم اختيار الدنيا اشارة الى ان النبي عليه الصلاة والسلام غير ملتفت الى جانبهن غاية الالتفات وكيف وهو مشغول بعبادة ربه (ومنها) قوله عليه السلام اسرحكن سراحا جميلا اشارة الى ما ذكرنا فان السراح الجميل مع التأذي القوى لا يجتمع في العادة فعلم ان النبي عليه الصلاة والسلام ما كان يتأذى من اختيارهن فراقه بدليل ان التسريح الجميل منه (ومنها) قوله وان كنتن تردن الله اعلام لهن بأن في اختيار النبي عليه السلام اختيار الله ورسوله والدار الآخرة وهذه الثلاثة هي الدين وقوله اعد للمحسنات منكن اى لمن عمل صالحا منكن وقوله تردن الله ورسوله والدار الآخرة فيه معنى الايمان وقوله للمحسنات لبيان الاحسان حتى تكون الآية في المعنى كقوله تعالى ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن وقوله تعالى من آمن وعمل صالحا وقوله الذين آمنوا وعملوا الصالحات والاجر العظيم الكبير في الذات الحسن في الصفات الباقي في الاوقات وذلك لان العظيم في الاجسام لا يطلق الا على الزائد في الطول وفي العرض وفي العمق حتى لو كان زائدا في الطول يقال له طويل ولو كان زائدا في العرض يقال له عريض وكذلك العميق فاذا وجدت الامور الثلاثة قيل عظيم فيقال جبل عظيم اذا كان عاليا ممتدا في الجهات وان كان مرتفعا فحسب يقال جبل عال اذا عرفت هذا فأجر الدنيا في ذاته قليل وفي صفاته غير خال عن جهة قبح لما في مأكوله من الضرر والثقل وكذلك في مشروبه وغيره من اللذات وغير دائم واجر الآخرة كثير خال عن جهات القبح دائم فهو عظيم ❁ ثم قال تعالى (يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا) لما خيرهن النبي صلى الله عليه وسلم واخترن الله ورسوله أدبهن الله وهددهن للتوقي عما يسوء النبي عليه السلام وقبح بهن من الفاحشة التي هي أصعب على الزوج من كل ما تأتي به زوجته واوعدهن بتضعيف العذاب وفيه حكمتان (احداهما) ان زوجة الغير تعذب على الزنا بسبب ما في الزنا من المفاسد وزوجة النبي تعذب ان أتت به لذلك ولايذاء قلبه والازراء بمنصبه وعلى هذا بنات النبي عليه السلام كذلك ولان امرأة لو كانت تحت النبي صلى الله عليه وسلم وأتت بفاحشة تكون قد اختارت غير النبي عليه السلام ويكون ذلك الغير خيرا عندها من النبي واولى والنبي اولى من النفس التي هي اولى من الغير فقد نزلت منصب النبي مرتبتين فتعذب من العذاب

عن زيد بن ثابت انها ان اختارت زوجها يقع طلقة واحدة وان اختارت نفسها يقع ثلاث طلقات وهو قول الحسن ورواية عن مالك وروى عن علي رضي الله عنه انها ان اختارت زوجها فواحدة رجعية وان اختارت نفسها فواحدة بائنة وروى عنه ايضا انها ان اختارت زوجها لا يقع شئ اصلا وعليه اجماع فقهاء الامصار وقد روى عن عائشة رضي الله عنها خيرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخترناه ولم يعده طلاقا وتقديم التمتيع على التسريح من باب الكرم وفيه قطع لمعاذيرهن من اول الامر والمتعة في المطلقة التي لم يدخل بها ولم يفرض لها صداق عند العقد واجبة عندنا وفيما عداهن مستحبة وهي درع وخمار وملحفة بحسب السعة والاقتار الا ان يكون نصف مهرها أقل من ذلك فحينئذ يجب لها الاقل منهما ولا ينقص عن خمسة دراهم (وان كنتن تردن الله ورسوله) اى تردن رسوله وذكر الله عز وجل للايذان بجلالة محله عليه الصلاة والسلام عنده تعالى (والدار الآخرة) اى نعيمها الذي لا قدر عنده للدنيا وما فيها جميعا (فان الله أعد للمحسنات منكن) بمقابلة احسانهن (اجرا عظيما) لا يقادر قدره ولا يبلغ غايته ومن للتبيين لان كلهن محسنات وتجريد الشرطية الاولى عن الوعيد للمبالغة في تحقيق معنى التخيير والاحتراز عن شائبة الاكراه وهو السر فيما ذكر من تقديم التمتيع على التسريح وفي وصف السراح بالجميل (يا نساء النبي) تلوين للخطاب وتوجيه له اليهن لاظهار الاعتناء بنصحهن ونداؤهن ههنا وفيما بعده بالاضافة اليه عليه الصلاة والسلام لانها التي يدور عليها ما يرد عليهن من الاحكام (من يأت منكن بفاحشة) بكبيرة (مبينة) ظاهرة القبح من بين بمعنى تبين وقرئ بفتح الياء والمراد بها كل ما اقترن من الكبائر وقيل هي عصيانهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ونشوزهن وطلبهن منه ما يشق عليه

او مايضيق به ذرعه ويغتم لاجله وقرئ تأت بالفوقانية (يضاعف لها العذاب ضعفين) (٧٨٣) اى يعذبن ضعفى عذاب غيرهن اى مثليه
لان الذنب منهن اقبح فان زيادة
قبحه تابعة لزيادة فضل المذنب
والنعمة عليه ولذلك جعل حد
الحر ضعف حد الرقيق وعوتب
الانبياء عليهم الصلاة والسلام بما
لايعاتب به الامم وقرئ يضعف
على البناء للمفعول ويضاعف
ونضعف بنون العظمة على البناء
للفاعل ونصب العذاب (وكان
ذلك على الله يسيرا) لايمنعه عن
التضعيف كونهن نساء النبى عليه
الصلاة والسلام بل يدعوه اليه
لمراعات حقه (ومن يقنت منكن)
وقرئ بالتاء اى ومن يدم على
الطاعة (لله ورسوله وتعمل صالحا
نؤتها اجرها مرتين) مرة على
الطاعة والتقوى واخرى على
طلبهن رضا رسول الله صلى الله
عليه وسلم بالقناعة وحسن المعاشرة
وقرئ يعمل بالياء حملا على لفظ
من ويؤتها على ان فيه ضميراسم الله
تعالى (واعتدنا لها) فى الجنة زيادة
على اجرها المضاعف (رزقا كريما)
مرضيا (يانساء النبى لستن كأحد
من النساء) اصل احد وحد بمعنى
الواحد ثم وضع فى النفى مستويا
فيه المذكر والمؤنث والواحد
والكثير والمعنى لستن كجماعة
واحدة من جماعات النساء فى
الفضل والشرف (ان اتقيتن)
مخالفة حكم الله تعالى ورضا رسوله
او اتصفتن بالتقوى كما هو اللائق
بكن (فلا تخضعن بالقول) عند
مخاطبة الناس اى لاتجئن بقولكن
خاضعا لينا على سنن قول المريبات
والمومسات (فيطمع الذى فى
قلبه مرض) اى فجور وريبة
وقرئ بالجزم عطفا على محل
فعل النهى على انه نهى لمريض القلب
عن الطمع عقيب نهيهن عن الاطماع
بالقول الخاضع كأنه قيل فلا
تخضعن بالقول فلا يطمع مريض
القلب (وقلن قولا معروفا) بعيدا عن الريبة والاطماع بجد وخشونة من غير تخنيث او قولا حسنا مع كونه خشنا (وقرن فى
(تخنين)

ضعفين (ثانيتهما) ان هذا اشارة الى شرفهن لان الحرة عذابها ضعف عذاب الامة اظهارا
لشرفها ونسبة النبى الى غيره من الرجال نسبة السادات الى العبيد لكونه اولى بهم من
انفسهم فكذلك زوجاته وقرائبه اللاتى هن امهات المؤمنين وام الشخص امرأة حاكمة
عليه واجبة الطاعة وزوجته مأمورة محكوم له وتحت طاعته فصارت زوجة الغير بالنسبة
الى زوجة النبى عليه السلام كالامة بالنسبة الى الحرة واعلم ان قول القائل من يفعل
ذلك فى قوة قوله لئن اشركت ليحبطن عملك من حيث ان ذلك ممكن الوقوع فى اول النظر
ولا يقع فى بعض الصور جزما وفى بعض يقع جزما من مات فقد استراح وفى البعض يتردد
السامع فى الامرين فقوله تعالى من يأت منكن بفاحشة عندنا من القبيل الاول فان الانبياء
صان الله زوجاتهم عن الفاحشة وقوله تعالى وكان ذلك على الله يسيرا اى ليس كونكن
تحت النبى عليه السلام وكونكن شريفات جليلات مما يدفع العذاب عنكن وليس
أمر الله كأمر الخلق حيث يتعذر عليهم تعذيب الاعزة بسبب كثرة اوليائهم واعوانهم
اوشفعائهم واخوانهم * ثم قال تعالى (ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا)
بيانا لزيادة ثوابهن كما بين زيادة عقابهن (نؤتها اجرها مرتين) فى مقابلة قوله تعالى يضاعف
لها العذاب ضعفين مع لطيفة وهى ان عند ايتاء الاجر ذكر المؤتى وهو الله وعند
العذاب لم يصرح بالمعذب فقال يضاعف اشارة الى كمال الرحمة والكرم كما ان الكريم
الحيى عند النفع يظهر نفسه وفعله وعند الضر لايذكر نفسه * وقوله تعالى (واعتدنا لها رزقا
كريما) وصف رزق الآخرة بكونه كريما مع ان الكريم لايكون الا وصفا للرازق اشارة
الى معنى لطيف وهو ان الرزق فى الدنيا مقدر على ايدى الناس التاجر يسترزق من
السوقة والمعاملين والصناع من المستعملين والملوك من الرعية والرعية منهم فالرزق فى
الدنيا لايأتى بنفسه وانما هو مسخر للغير يمسكه ويرسله الى الاغيار واما فى الآخرة فلا
يكون له مرسل وممسك فى الظاهر فهو الذى يأتى بنفسه فلاجل هذا لايوصف فى الدنيا
بالكريم الا الرازق وفى الآخرة يوصف بالكريم نفس الرزق * ثم قال تعالى (يانساء النبى
لستن كأحد من النساء) لما ذكر ان عذابهن ضعف عذاب غيرهن وأجرهن مثلا
اجر غيرهن صرن كالحرائر بالنسبة الى الاماء فقال لستن كأحد ومعنى قول القائل ليس
فلان كآحاد الناس يعنى ليس فيه مجرد كونه انسانا بل وصف أخص موجود فيه وهو
كونه عالما او عاملا أو نسيبا أو حسيبا فان الوصف الاخص اذا وجد لايبقى التعريف
بالاعم فان من عرف رجلا ولم يعرف منه غير كونه رجلا يقول رأيت رجلا فان عرف علمه
يقول رأيت زيدا او عمرا فكذلك قوله تعالى لستن كأحد من النساء يعنى فيكن غير ذلك
أمر لايوجد فى غيركن وهو كونكن امهات جميع المؤمنين وزوجات خير المرسلين وكما
ان محمدا عليه السلام ليس كأحد من الرجال كما قال عليه السلام لست كأحدكم كذلك
قرائبه اللاتى يشرفن به وبين الزوجين نوع من الكفاءة * ثم قوله تعالى (ان اتقيتن فلا

تخضعن بالقول) يحتمل وجهين (احدهما) ان يكون متعلقا بما قبله على معنى لستن كأحد ان اتقيتن فان الاكرم عندالله هو الاتقى (وثانيهما) ان يكون متعلقا بما بعده على معنى ان اتقيتن فلا تخضعن والله تعالى لما منعهن من الفاحشة وهى الفعل القبيح منعهن من مقدماتها وهى المحادثة مع الرجال والانقياد فى الكلام للفاسق ۞ وقوله تعالى (فيطمع الذى فى قلبه مرض) اى فسق وقوله تعالى (وقلن قولا معروفا) اى ذكر الله وما تحتجن اليه من الكلام والله تعالى لما قال فلا تخضعن بالقول ذكر بعده وقلن اشارة الى ان ذلك ليس امرا بالايذاء والمنكر بل القول المعروف عند الحاجة هو المأمور به لاغيره ۞ ثم قال تعالى (وقرن فى بيوتكن) من القرار واسقاط احد حرفى التضعيف كما قال تعالى فظلتم تفكهون وقيل بأنه من الوقار كما يقال وعد يعد عدة وقوله (ولاتبرجن تبرج الجاهلية الاولى) قيل معناه لاتتكسرن ولاتتغنجن ويحتمل ان يكون المراد لا تظهرن زينتكن وقوله تعالى الجاهلية الاولى فيه وجهان (احدهما) ان المراد من كان فى زمن نوح والجاهلية الاخرى من كان بعده (وثانيهما) ان هذه ليست اولى تقتضى اخرى بل معناه تبرج الجاهلية القديمة كقول القائل اين الاكاسرة الجبابرة الاولى ۞ ثم قال تعالى (واقمن الصلوة وآتين الزكوة واطعن الله ورسوله) يعنى ليس التكليف فى النهى فقط حتى يحصل بقوله تعالى لاتخضعن ولاتبرجن بل فيه وفى الاوامر فأقمن الصلاة التى هى ترك التشبه بالجبار المتكبر وآتين الزكاة التى هى تشبه بالكريم الرحيم وأطعن الله اى ليس التكليف منحصرا فى المذكور بل كل ما امر الله به فأتين به وكل مانهى الله عنه فانتهين عنه ۞ ثم قال تعالى (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا) يعنى ليس المنتفع بتكليفكن هو الله ولا تنفعن الله فيما تأتين به وانما نفعه لكن وامره تعالى اياكن لمصلحتكن وقوله تعالى ليذهب عنكم الرجس ويطهركم (فيه لطيفة) وهى ان الرجس قد يزول عينا ولا يطهر المحل فقوله تعالى ليذهب عنكم الرجس اى يزيل عنكم الذنوب ويطهركم اى يلبسكم خلع الكرامة ثم ان الله تعالى ترك خطاب المؤنثات وخاطب بخطاب المذكرين بقوله ليذهب عنكم الرجس ليدخل فيه نساء اهل بيته ورجالهم واختلف الاقوال فى اهل البيت والاولى ان يقال هم اولاده وازواجه والحسن والحسين منهم وعلى منهم لانه كان من اهل بيته بسبب معاشرته بنت النبى عليه السلام وملازمته للنبى ۞ ثم قال تعالى (واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله) اى القرآن (والحكمة) اى كلمات النبى عليه السلام اشارة الى ما ذكرنا من ان التكاليف غير منحصرة فى الصلاة والزكاة وماذكر الله فى هذه الآية فقال واذكرن مايتلى ليعلمن الواجبات كلها فيأتين بها والمحرمات بأسرها فينتهين عنها (ان الله كان لطيفا خبيرا) اشارة الى انه خبير بالبواطن لطيف فعلمه يصل الى كل شئ ومنه اللطيف الذى يدخل فى المسام الضيقة ويخرج من المسالك المسدودة ۞ ثم قال تعالى (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين

بيوتكن) امر من قر يقر من باب علم واصله اقررن (٧٨٣) فحذفت الراء الاولى والقيت فتحتها على ماقبلها كما فى قولك ظلن اومن قاريقار اذا اجتمع وقرئ بكسر القاف من قريقر وقارا اذا ثبت واستقر واصله اوقرن ففعل به مافعل بعدن من وعد اومن قريقر حذفت احدى راءى اقررن ونقلت كسرتها الى القاف كما تقول ظلن (ولاتبرجن) اى لاتتبخترن فى مشيكن (تبرج الجاهلية الاولى) اى تبرجا مثل تبرج النساء فى الجاهلية القديمة وهى مابين آدم ونوح وقيل مابين ادريس ونوح عليهما السلام وقيل الزمان الذى ولد فيه ابراهيم عليه السلام كانت المرأة تلبس درعا من اللؤلؤ فتمشى وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال وقيل زمن داود وسليمان عليهما السلام والجاهلية الاخرى مابين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وقيل الجاهلية الاولى جاهلية الكفر والجاهلية الاخرى الفسوق فى الاسلام ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام لابى الدرداء ان فيك جاهلية قال جاهلية كفر او جاهلية اسلام قال بل جاهلية كفر (واقمن الصلاة وآتين الزكوة) امرهن بهما لانافتهما على غيرهما وكونهما اصل الطاعات البدنية والمالية (واطعن الله ورسوله) اى فى كل ماتأتين وما تذرن لاسيما فيما امرتن به ونهيتن عنه (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس) اى الذنب المدنس امر منكم وهو تعليل لامرهن ونهيهن على الاستئناف ولذلك عمم الحكم بتعميم الخطاب لغيرهن وصرح بالمقصود حيث قيل بطريق النداء او المدح (اهل البيت) مرادا بهم من حواهم بيت النبوة (ويطهركم) من اوضار الاوزار والمعاصى (تطهيرا) بليغا واستعارة الرجس للمعصية والترشيح بالتطهير لمزيد التنفير عنها وهذه كما ترى آية بينة وحجة نيرة على كون نساء النبى عليه الصلاة والسلام من اهل بيته قاضية ببطلان رأى الشيعة فى تخصيصهم اهلية البيت بفاطمة وعلى وابنيهما رضوان الله عليهم واما

والمؤمنات) لما امرهن ونهاهن بين ما يكون لهن وذكر لهن عشر مراتب (الاولى) الاسلام والانقياد لامر الله (والثانية) الايمان بما يرد به امر الله فان المكلف اولا يقول كل ما يقوله اقبله فهذا اسلام فاذا قال الله شيئا وقبله صدق مقالته وصحح اعتقاده فهو ايمان ثم اعتقاده يدعوه الى الفعل الحسن والعمل الصالح فيقنت ويعبد وهو المرتبة الثالثة المذكورة بقوله تعالى (والقانتين والقانتات) ثم اذا آمن وعمل صالحا كمل فيكمل غيره ويأمر بالمعروف وينصح اخاه فيصدق في كلامه عند النصيحة وهو المراد بقوله تعالى (والصادقين والصادقات) ثم ان من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يصيبه اذى فيصبر عليه كما قال تعالى (والصابرين والصابرات) ثم انه اذا كمل وكمل قد يفتخر بنفسه ويعجب بعبادته فمنعه منه بقوله (والخاشعين والخاشعات) او نقول لما ذكر هذه الحسنات اشار الى ما يمنع منها وهو اما حب الجاه او حب المال من الامور الخارجية او الشهوة من الامور الداخلة والغضب منهما يكون لانه يكون بسبب نقص جاه او فوت مال او منع من امر مشتهى فقوله والخاشعين والخاشعات اى المتواضعين الذين لا يميلهم الجاه عن العبادة ❊ ثم قال تعالى (والمتصدقين والمتصدقات) اى الباذلين الاموال الذين لا يكنزونها لشدة محبتهم اياها ❊ ثم قال تعالى (والصائمين والصائمات) اشارة الى الذين لا تمنعهم الشهوة البطنية من عبادة الله ❊ ثم قال تعالى (والحافظين فروجهم والحافظات) اى الذين لا تمنعهم الشهوة الفرجية ❊ ثم قال تعالى (والذاكرين الله كثيرا والذاكرات) يعني هم في جميع هذه الاحوال يذكرون الله ويكون اسلامهم وايمانهم وقنوتهم وصدقهم وصبرهم وخشوعهم وصدقتهم وصومهم بنية صادقة لله واعلم ان الله تعالى في اكثر المواضع حيث ذكر الذكر قرنه بالكثرة ههنا وفي قوله بعد هذا يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وقال من قبل لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا لان الاكثار من الافعال البدنية غير ممكن او عسر فان الانسان اكله وشربه وتحصيل مأكوله ومشروبه يمنعه من ان يشتغل دائما بالصلاة ولكن لا مانع له من ان يذكر الله تعالى وهو آكل ويذكره وهو شارب او ماش او بائع او شار والى هذا اشار بقوله تعالى الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ولان جميع الاعمال صحتها بذكر الله تعالى وهي النية ❊ ثم قال تعالى (أعد الله لهم مغفرة) تمحو ذنوبهم وقوله (واجرا عظيما) ذكرناه فيما تقدم ❊ ثم قال تعالى

(وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امرا ان تكون لهم الخيرة من امرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) قيل بان الآية نزلت في زينب حيث اراد النبي صلى الله عليه وسلم تزويجها من زيد بن حارثة فكرهت الا النبي عليه السلام وكذلك اخوها امتنع فنزلت الآية فرضيا به والوجه ان يقال ان الله تعالى لما امر نبيه بان يقول لزوجاته انهن مخيرات فهم منه ان النبي صلى الله عليه وسلم لا يريد ضرر الغير فمن كان ميله الى شيء يمكنه النبي عليه السلام من ذلك ويترك النبي عليه السلام حق نفسه لحظ غيره

ما تمسكوا به من ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ذات غدوة عليه مرط مرجل من شعر اسود فجلس فأتت فاطمة فادخلها فيه ثم جاء علي فأدخله فيه ثم جاء الحسن والحسين فأدخلهما فيه ثم قال انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت فانما يدل على كونهم من اهل البيت لا على ان من عداهم ليسوا كذلك ولو فرضت دلالته على ذلك لما اعتد بها لكونها في مقابلة النص (واذكرن ما يتلى في بيوتكن) اى اذكرن للناس بطريق العظة والتذكير ما يتلى في بيوتكن (من آيات الله والحكمة) من الكتاب الجامع بين كونه آيات الله البينة الدالة على صدق النبوة بنظمه المعجز وكونه حكمة منطوية على فنون العلوم والشرائع وهو تذكير بما انعم عليهن حيث جعلهن اهل بيت النبوة ومهبط الوحي وما شاهدن من برحاء الوحي مما يوجب قوة الايمان والحرص على الطاعة حثا على الانتهاء والائتمار فيما كلفنه والتعرض للتلاوة في البيوت دون النزول فيها مع انه الانسب لكونها مهبط الوحي لعمومها لجميع الآيات ووقوعها في كل البيوت وتكررها الموجب لتمكنهن من الذكر والتذكير بخلاف النزول وعدم تعيين التالي لتعم تلاوة جبريل وتلاوة النبي عليهما الصلاة والسلام وتلاوتهن وتلاوة غيرهن تعليما وتعلما (ان الله كان لطيفا خبيرا) يعلم ويدبر ما يصلح في الدين ولذلك فعل ما فعل من الامر والنهي او يعلم من يصلح للنبوة ومن يستأهل ان يكون من اهل بيته (ان المسلمين والمسلمات) اى الداخلين في السلم المنقادين لحكم الله تعالى من الذكور والاناث (والمؤمنين والمؤمنات) المصدقين بما يجب ان يصدق به من الفريقين (والقانتين والقانتات) المداومين على الطاعات القائمين بها (والصادقين والصادقات) في القول والعمل (والصابرين والصابرات) على الطاعات وعن المعاصي (والخاشعين والخاشعات) المتواضعين بقلوبهم وجوارحهم (والمتصدقين

والمتصدقات) بما وجب فى مالهم (والصائمين والصائمات) الصوم المفروض (والحافظين فروجهم والحافظات) عن الحرام
(والذاكرين الله كثيرا والذاكرات) بقلوبهم والسنتهم (٧٨٥) (أعد الله لهم) بسبب ما عملوا من الحسنات المذكورة (مغفرة) لما اقترفوا
من الصغائر لانهن مكفرات بما عملوا من الاعمال الصالحة (واجرا عظيما) على ما صدر عنهم من الطاعات والآية وعد لهن ولامثالهن على الطاعة والتدرع بهذه الخصال الحميدة روى ان ازواج النبى صلى الله عليه وسلم ورضى عنهن قلن يارسول الله ذكر الله الرجال فى القرآن بخير فما فينا خير نذكر به انا نخاف ان لا تقبل منا طاعة فنزلت وقيل السائلة ام سلمة وروى انه لما نزل فى نساء النبى عليه الصلاة والسلام ما نزل قال نساء المؤمنين فما نزل فينا شئ فنزلت وعطف الاناث على الذكور لاختلاف الجنسين وهو ضرورى واما عطف الزوجين على الزوجين فلتغاير الوصفين فلا يكون ضروريا ولذلك ترك فى قوله تعالى مسلمات مؤمنات وفائدته الدلالة على ان مدار اعداد ما اعد لهم جمعهم بين هذه النعوت الجميلة (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة) اى ما صح وما استقام لرجل ولا امرأة من المؤمنين والمؤمنات (اذا قضى الله ورسوله امرا) اى اذا قضى رسول الله وذكر الله تعالى لتعظيم امره عليه الصلاة والسلام او للاشعار بأن قضاءه عليه الصلاة والسلام قضاء الله عز وجل لانه نزل فى زينب بنت جحش بنت عمته اميمة بنت عبد المطلب خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد ابن حارثة فأبت هى واخوها عبد الله وقيل فى ام كلثوم بنت عقبة بن ابى معيط وهبت نفسها للنبى عليه الصلاة والسلام فزوجها من زيد فسخطت هى واخوها وقالا انما اردنا رسول الله فزوجنا عبده
(ان يكون لهم الخيرة من امرهم) ان يختاروا (٩٩)(ر١)(س) من امرهم ما شاؤا بل يجب عليهم ان يجعلوا رأيهم تبعا لرأيه عليه الصلاة والسلام

فقال فى هذه الآية لا ينبغى ان يظن ظان ان هوى نفسه متبعه وان زمام الاختيار بيد الانسان كما فى الزوجات بل ليس لمؤمن ولا مؤمنة ان يكون له اختيار عند حكم الله ورسوله فما امر الله هو المتبع وما أراد النبى هو الحق ومن خالفهما فى شئ فقد ضل ضلالا مبينا لان الله هو المقصد والنبى هو الهادى الموصل فمن ترك المقصد ولم يسمع قول الهادى فهو ضال قطعا ۞ ثم قال تعالى (واذ تقول للذى انعم الله عليه) وهو زيد انعم الله عليه بالاسلام (وانعمت عليه) بالتحرير والاعتاق (امسك عليك زوجك) هم زيد بطلاق زينب فقال له النبى امسك اى لا تطلقها (واتق الله) قيل فى الطلاق وقيل فى الشكوى من زينب فان زيدا قال فيها انها تتكبر على بسبب النسب وعدم الكفاءة (وتخفى فى نفسك ما الله مبديه) من انك تريد التزوج بزينب (وتخشى الناس) من ان يقولوا اخذ زوجة الغير او الابن (والله أحق ان تخشاه) ليس اشارة الى ان النبى خشى الناس ولم يخش الله بل المعنى الله أحق ان تخشاه وحده ولا تخش احدا معه وانت تخشاه وتخشى الناس ايضا فاجعل الخشية له وحده كما قال تعالى الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون احدا الا الله ۞ ثم قال تعالى (فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها) اى لما طلقها زيد وانقضت عدتها وذلك لان الزوجة ما دامت فى نكاح الزوج فهى تدفع حاجته وهو محتاج اليها فلم يقض منها الوطر بالكلية ولم يستغن وكذلك اذا كان فى العدة له بها تعلق لامكان شغل الرحم فلم يقض منها بعد وطره واما اذا طلق وانقضت عدتها استغنى عنها ولم يبق له معها تعلق فيقضى منها الوطر وهذا موافق لما فى الشرع لان التزوج بزوجة الغير او بمعتدته لا يجوز فلهذا قال تعالى فلما قضى وكذلك ۞ قوله تعالى (لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى ازواج ادعيائهم اذا قضوا منهن وطرا) اى اذا طلقوهن وانقضت عدتهن وفيه اشارة الى ان التزويج من النبى عليه السلام لم يكن لقضاء شهوة النبى عليه السلام بل لبيان الشريعة بفعله فان الشرع يستفاد من فعل النبى ۞ وقوله تعالى (وكان امر الله مفعولا) اى مقضيا ما قضاه كائن ثم بين ان تزوجه عليه السلام بها مع انه كان مبينا لشرع مشتمل على فائدة كان خاليا عن المفاسد ۞ فقال تعالى (ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة الله فى الذين خلوا من قبل) يعنى كان شرع من تقدمه كذلك كان يتزوج الانبياء بنسوة كثيرة ابكار ومطلقات الغير (وكان امر الله قدرا مقدورا) اى كل شئ بقضاء وقدر والقدر التقدير وبين المفعول والمقدور فرق يقول بين القضاء والقدر فالقضاء ما كان مقصودا فى الاصل والقدر ما يكون تابعا له مثاله من كان يقصد مدينة فنزل بطريق تلك المدينة بخان او قرية يصح منه فى العرف ان يقول فى جواب من يقول لم جئت الى هذه القرية انى ما جئت الى هذه القرية وانما قصدت المدينة الفلانية وهذه وقعت فى طريق وان كان قد جاءها ودخلها اذا عرفت هذا فان الخير كله بقضاء وما فى العالم من الضرر بقدر فالله تعالى خلق المكلف بحيث يشتهى ويغضب ليكون اجتهاده فى تغليب العقل والدين

واختيارهم تلوا لاختياره وجمع الضميرين لعموم مؤمن ومؤمنة لوقوعهما فى سياق النفى وقيل الضمير الثانى للرسول عليه الصلاة والسلام والجمع للتعظيم وقرئ تكون بالتاء (ومن يعص الله ورسوله) (٧٨٦) فى امر من الامور ويعمل فيه برأيه (فقد ضل) طريق الحق (ضلالا مبينا) اى بين الانحراف عن سنن الصواب (واذ تقول) اى واذكر وقت قولك (للذى انعم الله عليه) بتوفيقه للاسلام وتوفيقك لحسن تربيته ومراعاته (وانعمت عليه) بالعمل بما وفقك الله له من فنون الاحسان التى من جملتها تحريره وهو زيد بن حارثة وايراده بالعنوان المذكور لبيان منافاة حاله لما صدر عنه عليه الصلاة والسلام من اظهار خلاف ما فى ضميره اذ هو انما يقع عند الاستحياء او الاحتشام وكلاهما مما يتصور فى حق زيد (امسك عليك زوجك) اى زينب وذلك انه عليه الصلاة والسلام بصرها بعد ما انكحها اياه فوقعت فى نفسه حالة جبلية لا يكاد يسلم منها البشر فقال سبحان الله مقلب القلوب وسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد ففطن لذلك ووقع فى نفسه كراهة صحبتها فأتى النبى عليه الصلاة والسلام وقال لزيد ان افارق صاحبتى فقال مالك أرابك منها شئ قال لا والله ما رأيت منها الا خيرا ولكنها لشرفها تتعظم على فقال له امسك عليك زوجك (واتق الله) فى امرها فلا تطلقها اضرارا وتعللا بتكبرها (وتخفى فى نفسك ما الله مبديه) وهو نكاحها ان طلقها او ارادة طلاقها (وتخشى الناس) تعييرهم اياك به (والله أحق ان تخشاه) ان كان فيه ما يخشى والواو للحال وليست المعاتبة على الاخفاء وحده بل على الاخفاء مخافة قالة الناس واظهار ما ينافى فى اضماره فان الاولى فى امثال ذلك ان يصمت او يفوض الامر الى ربه (فلما قضى زيد منها وطرا) بحيث لم يبق له فيها حاجة وطلقها وانقضت عدتها وقيل قضاء الوطر كناية عن الطلاق مثل لا حاجة لى (بعده)

عليهما مثابا عليه بأبلغ وجه فافضى ذلك فى البعض الى ان زنى وقتل فالله لم يخلقهما فيه مقصودا منه القتل والزنا وان كان ذلك بقدر الله اذا علمت هذا ففى قوله تعالى اولا وكان امر الله مفعولا وقوله ثانيا وكان امر الله قدرا مقدورا لطيفة وهى انه تعالى لما قال زوجناكها قال وكان امر الله مفعولا اى تزويجنا زينب اياك كان مقصودا متبوعا مقضيا مراعى ولما قال سنة الله فى الذين خلوا اشارة الى قصة داود عليه السلام حيث افتتن بامرأة اوريا قال وكان امر الله قدرا مقدورا اى كان ذلك حكما تبعيا فلو قال قائل هذا قول المعتزلة بالتوليد والفلاسفة بوجوب كون الاشياء على وجوه مثل كون النار تحرق حيث قالوا الله تعالى أراد ان يخلق ما ينضج الاشياء وهو لا يكون الا محرقا بالطبع فخلق النار للنفع فوقع اتفاق اسباب اوجبت احتراق دار زيد او دار عمرو فنقول معاذ الله ان نقول بأن الله غير مختار فى افعاله او يقع شئ لا باختياره ولكن اهل السنة يقولون اجرى الله عادته بكذا اى وله ان يخلق النار بحيث عند حاجة انضاج اللحم تنضج وعند مساس ثوب العجوز لا تحرق ألا ترى انها لم تحرق ابراهيم عليه السلام مع قوتها وكثرتها لكن خالقها على غير ذلك الوجه بمحض ارادته او لحكمة خفية ولا يسأل عما يفعل فنقول ما كان فى مجرى عادته تعالى على وجه تدركه العقول البشرية نقول بقضاء وما يكون على وجه يقع لعقل قاصر ان يقول لم كان ولماذا لم يكن على خلافه نقول بقدر ＊ ثم بين الذين خلوا بقوله تعالى (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه) يعنى كانوا هم ايضا مثلك رسلا ثم ذكره من حالهم انهم جردوا الخشية ووحدوها بقوله تعالى (ولا يخشون احدا الا الله) فصار كقوله فبهداهم اقتده وقوله تعالى (وكفى بالله حسيبا) اى محاسبا فلا تخش غيره او محسوبا فلا تلتفت الى غيره ولا تجعله فى حسابك ＊ ثم قال تعالى (ما كان محمد أبا احد من رجالكم) لما بين الله ما فى تزوج النبى عليه السلام بزينب من الفوائد بين انه كان خاليا من وجوه المفاسد وذلك لان ما كان يتوهم من المفسدة كان منحصرا فى التزوج بزوجة الابن فانه غير جائز فقال الله تعالى ان زيدا لم يكن ابنا له لا بل احد من الرجال لم يكن ابن محمد فان قال قائل النبى كان أبا احد من الرجال لان الرجل اسم الذكر من اولاد آدم قال تعالى وان كانوا اخوة رجالا ونساء والصبى داخل فيه فنقول الجواب عنه من وجهين (احدهما) ان الرجل فى الاستعمال يدخل فى مفهومه الكبر والبلوغ ولم يكن للنبى عليه السلام ابن كبير يقال انه رجل (والثانى) هو انه تعالى قال من رجالكم ووقت الخطاب لم يكن له ولد ذكر ثم انه تعالى لما نفى كونه أبا عقبه بما يدل على ثبوت ما هو فى حكم الابوة من بعض الوجوه فقال تعالى (ولكن رسول الله) فان رسول الله كالاب للامة فى الشفقة من جانبه وفى التعظيم من طرفهم بل اقوى فان النبى اولى بالمؤمنين من انفسهم والاب ليس كذلك ثم بين ما يفيد زيادة الشفقة من جانبه والتعظيم من جهتهم بقوله تعالى (وخاتم النبيين) وذلك لان النبى الذى يكون بعده نبى ان ترك شيئا من النصيحة والبيان يستدركه من يأتى بعده واما من لا نبى

فيك (زوجناكها) وقرئ زوجتكها والمراد الامر بتزويجها منه عليه الصلاة والسلام وقيل جعلها زوجته بلا واسطة عقد
ويؤيده انها كانت تقول لسائر نساء (٧٨٧) النبي عليه الصلاة والسلام ان الله تعالى تولى نكاحى وانتن زوجكن اولياؤكن وقيل

بعده يكون اشفق على امته واهدى لهم واجدى اذ هو كوالد لولده الذى ليس له غيره من احد وقوله تعالى (وكان الله بكل شئ عليما) يعنى علمه بكل شئ دخل فيه ان لا نبى بعده فعلم ان من الحكمة اكمال شرع محمد صلى الله عليه وسلم بتزوجه بزوجة دعيه تكميلا للشرع وذلك من حيث ان قول النبى صلى الله عليه وسلم يفيد شرعا لكن اذا امتنع هو عنه يبقى فى بعض النفوس نفرة ألا ترى انه ذكر بقوله مافهم منه حل اكل الضب ثم لما لم يأكله بقى فى النفوس شئ ولما اكل لحم الجمل طاب اكله مع انه فى بعض الملل لا يؤكل وكذلك الارنب ❁ ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا) وجه تعلق الآية بما قبلها هو ان السورة اصلها ومبناها على تأديب النبى صلى الله عليه وسلم وقد ذكرنا ان الله تعالى بدأ بذكر ما ينبغى ان يكون عليه النبى عليه السلام مع الله وهو التقوى وذكر ما ينبغى ان يكون عليه النبى عليه السلام مع اهله واقاربه بقوله يا أيها النبى قل لأزواجك والله تعالى يأمر عباده المؤمنين بما يأمر به انبياءه المرسلين فارشد عباده كما ادب نبيه وبدأ بما يتعلق بجانبه من التعظيم فقال يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا كما قال لنبيه يا أيها النبى اتق الله (ثم ههنا لطيفة) وهى ان المؤمن قد ينسى ذكر الله فأمر بدوام الذكر اما النبى لكونه من المقربين لا ينسى ولكن قد يغتر المقرب من الملك بقربه منه فيقل خوفه فقال اتق الله فان المخلص على خطر عظيم وحسنة الاولياء سيئة الانبياء وقوله ذكرا كثيرا قد ذكرنا ان الله فى كثير من المواضع لما ذكر الذكر وصفه بالكثرة اذ لا مانع من الذكر على ما بينا وقوله تعالى (وسبحوه بكرة وأصيلا) اى اذا ذكرتموه فينبغى ان يكون ذكركم اياه على وجه التعظيم والتنزيه عن كل سوء وهو المراد بالتسبيح وقيل المراد منه الصلاة وقيل الصلاة تسبيحه بكرة وأصيلا اشارة الى المداومة وذلك لان مريد العموم قد يذكر الطرفين ويفهم منهما الوسط كقوله عليه السلام لو ان اولكم وآخركم ولم يذكر وسطكم فيفهم منه المبالغة فى العموم ❁ ثم قال تعالى (هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما) يعنى هو يصلى عليكم ويرحمكم وانتم لا تذكرونه فذكر صلاته تحريضا للمؤمنين على الذكر والتسبيح ليخرجكم من الظلمات الى النور يعنى يهديكم برحمته والصلاة من الله رحمة ومن الملائكة استغفار فقيل بان اللفظ المشترك يجوز استعماله فى معنييه معا وكذلك الجمع بين الحقيقة والمجاز فى لفظ جائز وينسب هذا القول الى الشافعى رضى الله عنه وهو غير بعيد فان اريد تقريبه بحيث يصير فى غاية القرب نقول الرحمة والاستغفار يشتركان فى العناية بحال المرحوم والمستغفر له والمراد هو القدر المشترك فتكون الدلالة تضمنية لكون العناية جزأ منهما وقوله تعالى وكان بالمؤمنين رحيما بشارة لجميع المؤمنين واشارة الى ان قوله يصلى عليكم غير مختص بالسامعين وقت الوحى ❁ ثم قال تعالى (تحيتهم يوم يلقونه سلام) لما بين الله عنايته فى الاولى بين عنايته فى الآخرة وذكر السلام لانه هو الدليل على الخيرات فان من لقى غيره وسلم عليه دل على

كان زيد السفير فى خطبتها وذلك ابتلاء عظيم وشاهد عدل بقوة ايمانه (لكيلا يكون على المؤمنين حرج) ضيق ومشقة (فى ازواج ادعيائهم) اى فى حق تزوجهن (اذا قضوا منهن وطرا) فان لهم فى رسول الله اسوة حسنة وفيه دلالة على ان حكمه عليه الصلاة والسلام وحكم الامة سواء الا ما خصه الدليل (وكان امر الله) اى ما يريد تكوينه من الامور او مأموره الحاصل بكن (مفعولا) مكونا لا محالة اعتراض تذييلى مقرر لما قبله (ما كان على النبى من حرج) اى ما صح وما استقام فى الحكمة ان يكون له ضيق (فيما فرض الله له) اى قسم له وقدر من قولهم فرض له فى الديوان كذا ومنه فروض العساكر لاعطياتهم (سنة الله) اسم موضوع موضع المصدر كقولهم تربا وجندلا مؤكد لما قبله من نفى الحرج اى سن الله ذلك سنة (فى الذين خلوا) مضوا (من قبل) من الانبياء عليهم الصلاة والسلام حيث وسع عليهم فى باب النكاح وغيره ولقد كانت لداود عليه السلام مائة امرأة وثلثمائة سرية ولسليمان عليه السلام ثلثمائة امرأة وسبعمائة سرية وقوله تعالى (وكان امر الله قدرا مقدورا) اى قضاء مقضيا وحكما مبتوتا اعتراض وسط بين الموصولين الجاريين مجرى الواحد للمسارعة الى تقرير نفى الحرج وتحقيقه (الذين يبلغون رسالات الله) صفة للذين خلوا او مدح لهم بالنصب او بالرفع وقرئ رسالة الله (ويخشونه) فى كل ما يأتون ويذرون لاسيما
فى امر تبليغ الرسالة حيث لا يخرمون منها حرفا ولا تأخذهم فى ذلك لومة لائم (ولا يخشون احدا الا الله) فى وصفهم بقصرهم

المصافات بينهما وان لم يسلم دل على المنافاة وقوله تعالى يوم يلقونه اى يوم القيامة وذلك لان الانسان فى دنياه غير مقبل بكليته على الله وكيف وهو حالة نومه غافل عنه وفى اكثر اوقاته مشغول بتحصيل رزقه واما فى الآخرة فلا شغل لاحد يلهيه عن ذكر الله فهو حقيقة اللقاء

* ثم قال تعالى (وأعد لهم اجرا كريما) لو قال قائل الاعداد انما يكون ممن لايقدر عند الحاجة الى الشئ عليه واما الله تعالى فلا حاجة ولا عجز فحيث يلقاه الله يؤتيه مايرضى به وزيادة فما معنى الاعداد من قبل فنقول الاعداد للاكرام لا للحاجة وهذا كما ان الملك اذا قيل له فلان واصل فاذا اراد اكرامه يهيئ له بيتا وانواعا من الاكرام ولا يقول بأنه اذا وصل نفتح باب الخزانة ونؤتيه مايرضيه فكذلك الله لكمال الاكرام أعد له اجرا كريما والكريم قدذكرناه فى الرزق اى اعدله اجرا يأتيه من غير طلبه بخلاف الدنيا فانه يطلب الرزق الف مرة ولا يأتيه الا بقدر وقوله تحيتهم يوم يلقونه سلام مناسب لحالهم لانهم لما ذكروا الله فى دنياهم حصل لهم معرفة ولما سبحوه تأكدت المعرفة حيث عرفوه كما ينبغى بصفات الجلال ونعوت الكمال والله يعلم حالهم فى الدنيا فاحسن اليهم بالرحمة كما قال تعالى هو الذى يصلى عليكم وقال وكان بالمؤمنين رحيما والمتعارفان اذا التقيا وكان احدهما شفيقا بالآخر والآخر معظما له غاية التعظيم لايتحقق بينهما الا السلام وانواع الاكرام

* ثم قال تعالى (يا أيها النبى انا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا) قدذكرنا ان السورة فيها تأديب للنبى عليه السلام من ربه فقوله فى ابتدائها يا أيها النبى اتق الله اشارة الى ماينبغى ان يكون عليه مع ربه وقوله يا أيها النبى قل لازواجك اشارة الى ماينبغى ان يكون عليه مع اهله وقوله يا أيها النبى انا ارسلناك اشارة الى ماينبغى ان يكون عليه مع عامة الخلق وقوله تعالى شاهدا يحتمل وجوها (احدها) انه شاهد على الخلق يوم القيامة كما قال تعالى ويكون الرسول عليكم شهيدا وعلى هذا فالنبى بعث شاهدا اى متحملا للشهادة ويكون فى الآخرة شهيدا اى مؤديا لما تحمله (ثانيها) انه شاهد ان لا اله الا الله (وعلى هذه الطيفة) وهو ان الله جعل النبى شاهدا على الوحدانية والشاهد لايكون مدعيا فالله تعالى لم يجعل النبى فى مسئلة الوحدانية مدعيا لها لان المدعى من يقول شيئا على خلاف الظاهر والوحدانية اظهر من الشمس والنبى عليه السلام كان ادعى النبوة فجعل الله نفسه شاهدا له فى مجازاة كونه شاهدا لله فقال تعالى والله يشهد انك لرسوله (وثالثها) انه شاهد فى الدنيا بأحوال الآخرة من الجنة والنار والميزان والصراط وشاهد فى الآخرة باحوال الدنيا بالطاعة والمعصية والصلاح والفساد وقوله ومبشرا ونذيرا وداعيا فيه ترتيب حسن وذلك من حيث ان النبى عليه السلام ارسل شاهدا بقول لا اله الا الله ويرغب فى ذلك بالبشارة فان لم يكف ذلك يرهب بالانذار ثم لايكتفى بقولهم لا اله الا الله بل يدعوهم الى سبيل الله كما قال تعالى ادع الى سبيل ربك وقوله وسراجا منيرا اى مبرهنا على مايقول مظهرا له باوضح الحجج

الخشية على الله تعالى تعريض بماصدر عنه عليه الصلاة والسلام من الاحتراز عن لائمة الخلق بعد التصريح فى قوله تعالى وتخشى الناس والله أحق ان تخشاه (وكفى بالله حسيبا) كافيا للمخاوف (٧٨٨) فينبغى ان لايخشى غيره او محاسبا على الصغيرة والكبيرة فيجب ان يكون حق الخشية منه تعالى (ما كان محمد أبا احد من رجالكم) اى على الحقيقة حتى يثبت بينه وبينه مايثبت بين الوالد وولده من حرمة المصاهرة وغيرها ولا ينتقض عمومه بكونه عليه الصلاة والسلام ابا للطاهر والقاسم وابراهيم لانهم لم يبلغوا الحلم ولو بلغوا لكانوا رجالا له عليه الصلاة والسلام لالهم (ولكن رسول الله) اى كان رسول الله وكل رسول أبو امته لكن لاحقيقة بل بمعنى انه شفيق ناصح لهم وسبب لحياتهم الابدية ومازيد الا واحد من رجالكم الذين لاولاد بينهم وبينه عليه الصلاة والسلام فحكمه حكمهم وليس للتبنى والادعاء حكم سوى التقريب والاختصاص (وخاتم النبيين) اى كان آخرهم الذى ختموا به وقرئ بكسر التاء اى كان خاتمهم ويؤيده قراءة ابن مسعود ولكن نبيا ختم النبيين واياما كان فلو كان له ابن بالغ لكان نبيا ولم يكن هو عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين كما روى انه قال فى ابراهيم حين توفى لو عاش لكان نبيا ولا يقدح فيه نزول عيسى بعده عليهما السلام لان معنى كونه خاتم النبيين انه لاينبأ احد بعده وعيسى ممن نبئ قبله وحين ينزل انما ينزل عاملا على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم مصليا الى قبلته كأنه بعض امته (وكان الله بكل شئ عليما) ومن جملته هذه الاحكام والحكم التى بينها لكم وكنتم منها فى شك مريب (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله) بما هو اهله من التهليل والتحميد والتمجيد والتقديس (ذكرا كثيرا) يعم الاوقات والاحوال (وسبحوه) ونزهوه عما لايليق به (بكرة واصيلا) اى اول النهار وآخره على ان تخصيصهما بالذكر ليس

(وهو)

وهو المراد بقوله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة وفيه لطائف (احداها) قوله تعالى وداعيا الى الله بأذنه حيث لم يقل وشاهدا بأذنه ومبشرا بأذنه وعند الدعاء قال وداعيا بأذنه وذلك لان من يقول عن ملك انه ملك الدنيا لا غيره لا يحتاج فيه الى اذن منه فانه وصفه بما فيه وكذلك اذا قال من يطيعه يسعد ومن يعصه يشقى يكون مبشرا ونذيرا ولا يحتاج الى اذن من الملك فى ذلك واما اذا قال تعالوا الى سماطه واحضروا على خوانه يحتاج فيه الى اذنه فقال تعالى وداعيا الى الله بأذنه (ووجه آخر) وهو ان النبي يقول انى ادعو الى الله والولى يدعو الى الله والاول لا اذن له فيه من احد والثانى مأذون من جهة النبي عليه السلام كما قال تعالى قل هذه سبيلى ادعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وقال عليه الصلاة والسلام رحم الله عبدا سمع مقالتى فأداها كما سمعها والنبي عليه السلام هو المأذون من الله فى الدعاء اليه من غير واسطة (اللطيفة الثانية) قال فى حق النبي عليه السلام سراجا ولم يقل انه شمس مع انه اشد اضاءة من السراج لفوائد (منها) ان الشمس نورها لا يؤخذ منه شئ والسراج يؤخذ منه انوار كثيرة فاذا انطفأ الاول يبقى الذى اخذ منه وكذلك ان غاب والنبي عليه السلام كان كذلك اذ كل صحابى اخذ منه نور الهداية كما قال عليه السلام اصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم وفى الخبر لطيفة وان كانت ليست من التفسير ولكن الكلام يجر الكلام وهى ان النبي عليه السلام لم يجعل اصحابه كالسرج وجعلهم كالنجوم لان النجم لا يؤخذ منه نور بل له فى نفسه نور اذا غرب هو لا يبقى نور مستفاد منه وكذلك الصحابى اذا مات فالتابعى يستنير بنور النبي عليه السلام ولا يأخذ منه الا قول النبي عليه السلام وفعله فأنوار المجتهدين كلهم من النبي عليه السلام ولو جعلهم كالسرج والنبي عليه السلام ايضا سراج كان للمجتهد ان يستنير بمن أراد منهم ويأخذ النور ممن اختار وليس كذلك فان مع نص النبي عليه السلام لا يعمل بقول الصحابى فيؤخذ من النبي النور ولا يؤخذ من الصحابى فلم يجعله سراجا وهذا يوجب ضعفا فى حديث سراج الامة والمحدثون ذكروه (وفى تفسير السراج وجه آخر) وهو ان المراد منه القرآن وتقديره انا ارسلناك وسراجا منيرا عطفا على محل الكاف اى وارسلنا سراجا منيرا وعلى قولنا انه عطف على مبشرا ونذيرا يكون معناه وذا سراج لان الحال لا يكون الا وصفا للفاعل او المفعول والسراج ليس وصفا لان النبي عليه السلام لم يكن سراجا حقيقة او يكون كقول القائل رأيته اسدا اى شجاعا فقوله سراجا اى هاديا مبينا كالسراج يرى الطريق ويبين الامر ❁ وقوله تعالى (وبشر المؤمنين) عطف على مفهوم تقديره انا ارسلناك شاهدا ومبشرا فاشهد وبشر ولم يذكر فاشهد للاستغناء عنه واما البشارة فانها ذكرت ابانة للكرم ولانها غير واجبة لولا الامر ❁ وقوله تعالى (بأن لهم من الله فضلا كبيرا) هو مثل قوله وأعد لهم اجرا عظيما فالعظيم والكبير متقاربان وكونه من الله كبير فكيف اذا كان مع ذلك كبارة اخرى ❁ وقوله تعالى (ولا تطع الكافرين والمنافقين)

لقصر التسابيح عليهما دون سائر الاوقات بل لابانة فضلهما على سائر الاوقات لكونهما مشهودين كافراد التسابيح من بين الاذكار مع اندراجه فيها لكونه العمدة فيها وقيل كلا الفعلين متوجه اليهما كقولك صم وصل يوم الجمعة وقيل المراد بالتسبيح الصلاة (هو الذى يصلى عليكم) الخ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله من الامرين فان صلاته تعالى مع عدم استحقاقهم لها وغناه عن العالمين مما يوجب عليهم المداومة على ما يستوجبه تعالى عليهم من ذكره تعالى وتسبيحه وقوله تعالى (وملائكته) عطف على المستكن فى يصلى لمكان الفصل المغنى عن التأكيد بالمنفصل لكن لا على ان يراد بالصلاة الرحمة اولا والاستغفار ثانيا فان استعمال اللفظ الواحد فى معنيين متغايرين مما لا مساغ له بل على ان يراد بهما معنى مجازى عام يكون كلا المعنيين فردا حقيقيا له وهو الاعتناء بما فيه خيرهم وصلاح امرهم فان كلا من الرحمة والاستغفار فرد حقيقى له او الترحم والانعطاف المعنوى المأخوذ من الصلاة المشتملة على الانعطاف الصورى الذى هو الركوع والسجود ولا ريب فى ان استغفار الملائكة ودعاءهم للمؤمنين ترحم عليهم واما ان ذلك سبب للرحمة لكونهم مجابى الدعوة كما قيل فاعتباره يتزع الى الجمع بين المعنيين المتغايرين فتدبر (ليخرجكم من الظلمات الى النور) متعلق بيصلى اى يعتنى بأموركم هو وملائكته ليخرجكم بذلك من ظلمات المعصية الى نور الطاعة وقوله تعالى (وكان بالمؤمنين رحيما) اعتراض مقرر لمضمون ما قبله اى كان بكافة المؤمنين الذين انتم من زمرتهم رحيما ولذلك يفعل بكم ما يفعل من الاعتناء باصلاحكم بالذات وبالواسطة ويهديكم الى الايمان والطاعة او كان بكم رحيما على ان المؤمنين مظهر وضع موضع المضمر مدحا لهم واشعارا بعلة الرحمة وقوله تعالى (تحيتهم يوم يلقونه سلام) بيان للاحكام الآجلة

اشارة الى الانذار يعني خالفهم وردعليهم وعلى هذا فقوله تعالى (ودع أذاهم) اى دعه الى الله فانه يعذبهم بأيديكم وبالنار وبين هذا قوله تعالى (وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) اى الله كاف عبده قال بعض المعتزلة لا يجوز تسمية الله بالوكيل لان الوكيل ادون من الموكل وقوله تعالى وكفى بالله وكيلا لاحجة عليه وشبهته واهية من حيث ان الوكيل قد يوكل الترفع وقد يوكل العجز والله وكيل عباده لعجزهم عن التصرف وقوله تعالى وكفى بالله وكيلا يتبين اذا نظرت فى الامور التى لاجلها لايكفى الوكيل الواحد منها ان لايكون قويا قادرا على العمل كالملك الكثير الاشغال يحتاج الى وكلاء لعجز الواحد عن القيام بجميع أشغاله ومنها ان لايكون عالما بما فيه التوكيل ومنها ان لايكون غنيا والله تعالى عالم قادر غير محتاج فيكفى وكيلا * ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل ان تمسوهن فمالكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا) وجه تعلق الآية بما قبلها هو ان الله تعالى فى هذه السورة ذكر مكارم الاخلاق وادب نبيه على ما ذكرناه لكن الله تعالى امر عباده المؤمنين بما امر به نبيه المرسل فكلما ذكر للنبي مكرمة وعلمه أدبا ذكر للمؤمنين ما يناسبه فكما بدأ الله فى تأديب النبي عليه الصلاة والسلام بذكر ما يتعلق بجانب الله بقوله يا أيها النبي اتق الله وثنى بما يتعلق بجانب من تحت يده من ازواجه بقوله بعد يا أيها النبي قل لازواجك وثلث بما يتعلق بجانب العامة بقوله يا أيها النبي انا ارسلناك شاهدا كذلك بدأ فى ارشاد المؤمنين بما يتعلق بجانب الله فقال يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ثم ثنى بما يتعلق بجانب من تحت ايديهم بقوله يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم كما ثلث فى تأديب النبي بجانب الامة ثلث فى حق المؤمنين بما يتعلق بجانب نبيهم فقال بعد هذا يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي وبقوله يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وفى الآية مسائل (احداها) اذا كان الامر على ماذكرت من ان هذا ارشاد الى ما يتعلق بجانب من هو من خواص المرء فلم خص المطلقات اللاتى طلقن قبل المسيس بالذكر فنقول هذا ارشاد الى اعلى درجات المكرمات ليعلم منها مادونها وبيانه هو ان المرأة اذا طلقت قبل المسيس لم يحصل بينهما تأكد العهد ولهذا قال الله تعالى فى حق الممسوسة وكيف تأخذونه وقد افضى بعضكم الى بعض واخذن منكم ميثاقا غليظا واذا أمر الله بالتمتع والاحسان مع من لامودة بينه وبينها فما ظنك بمن حصلت المودة بالنسبة اليها بالافضاء او حصل تأكدها بحصول الولد بينهما والقرآن فى الحجم صغير ولكن لو استنبطت معانيه لاتفى بها الاقلام ولا تكفى لها الاوراق وهذا مثل قوله تعالى فلا تقل لهما أف لو قال لاتضربهما او لا تشتمهما ظن انه حرام لمعنى مختص بالضرب او الشتم اما اذا قال لاتقل لهما أف علم منه معان كثيرة وكذلك ههنا لما امر بالاحسان مع من لامودة معها علم منه الاحسان مع الممسوسة ومن لم تطلق بعد ومن ولدت عنده منه وقوله اذا نكحتم المؤمنات التخصيص بالذكر ارشاد الى

لرحمة الله تعالى بهم بعد بيان آثارها العاجلة التى هى الاعتناء بأمرهم وهدايتهم الى الطاعة اى بما يحيون به على انه مصدر اضيف الى مفعوله يوم لقائه عند الموت او عند البعث من القبور او عند دخول الجنة تسليم عليهم من الله عز وجل تعظيما لهم او من الملائكة بشارة لهم بالجنة او تكرمة لهم كما فى قوله تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم او اخبار بالسلامة عن كل مكروه وآفة وقوله تعالى (وأعد لهم اجرا كريما) بيان لآثار رحمته الفائضة عليهم بعد دخول الجنة عقيب بيان آثار رحمته الواصلة اليهم قبل ذلك ولعل ايثار الجملة الفعلية على الاسمية المناسبة لما قبلها بأن يقال مثلا واجرهم اجر كريم او ولهم اجر كريم للمبالغة فى الترغيب والتشويق الى الموعود ببيان ان الاجر الذى هو المقصد الاقصى من بين سائر آثار الرحمة موجود بالفعل مهيأ لهم مع مافيه من مراعاة الفواصل (يا أيها النبي انا ارسلناك شاهدا) على من بعثت اليهم تراقب احوالهم وتشاهد اعمالهم وتحمل منهم الشهادة بما صدر عنهم من التصديق والتكذيب وسائر ماهم عليه من الهدى والضلال وتؤديها يوم القيامة اداء مقبولا فيما لهم وما عليهم وهو حال مقدرة (ومبشرا ونذيرا) تبشر المؤمنين بالجنة وتنذر الكافرين بالنار (وداعيا الى الله) اى الى الاقرار به وبوحدانيته وبسائر ما يجب الايمان به من صفاته وافعاله (باذنه) اى بتيسيره اطلق عليه مجازا لانه من اسبابه وقيد به الدعوة ايذانا بأنها امر صعب المنال وخطب فى غاية الاعضال لايتأتى الا بامداد من جانب قدسه كيف لا وهو صرف للوجوه عن القبل المعبودة وادخال للاعناق فى قلادة غير معهودة (وسراجا منيرا) يستضاء به

ان المؤمن ينبغى ان ينكح المؤمنة فانها اشد تحصينا لدينه وقوله تعالى ثم طلقتموهن يمكن التمسك به فى ان تعليق الطلاق بالنكاح لا يصح لان التطليق حينئذ لا يكون الا بعد النكاح والله تعالى ذكره بكلمة ثم وهى للتراخى وقوله فما لكم عليهن من عدة بين ان العدة حق الزوج فيها غالب وان كان لا يسقط باسقاطه لما فيه من حق الله تعالى وقوله تعتدونها اى تستوفون انتم عددها فمتعوهن قيل بانه مختص بالمفوضة التى لم يسم لها اذا طلقت قبل المسيس وجب لها المتعة وقيل بانه عام وعلى هذا فهو امر وجوب او امر ندب اختلف العلماء فيه فمنهم من قال للوجوب فيجب مع نصف المهر المتعة ايضا ومنهم من قال للاستحباب فيستحب ان يمتعها مع الصداق بشئ وقوله تعالى وسرحوهن سراحا جميلا الجمال فى التسريح ان لا يطالبها بما آتاها ۞ ثم قال تعالى (يا أيها النبى انا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت اجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبى ان أراد النبى ان يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت ايمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا رحيما) ذكر للنبى عليه السلام ما هو الاولى فان الزوجة التى اوتيت مهرها اطيب قلبا من التى لم تؤت والمملوكة التى سباها الرجل بنفسه اطهر من التى اشتراها الرجل لانها لا يدرى كيف حالها ومن هاجرت من أقارب النبى عليه السلام معه اشرف ممن لم تهاجر ومن الناس من قال بأن النبى عليه الصلاة والسلام كان يجب عليه اعطاء المهر اولا وذلك لان المرأة لها الامتناع الى ان تأخذ مهرها والنبى عليه السلام ما كان يستوفى ما لا يجب له والوطء قبل ايتاء الصداق غير مستحق وان كان حلالا لنا وكيف والنبى عليه السلام اذا طلب شيئا حرم الامتناع على المطلوب والظاهر ان الطالب فى المرة الاولى انما يكون هو الرجل لحياء المرأة فلو طلب النبى عليه السلام من المرأة التمكين قبل المهر لزم ان يجب وان لا يجب وهذا محال ولا كذلك احدنا وقال ويؤكد هذا قوله تعالى وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبى يعنى حينئذ لا يبقى لها صداق فتصير كالمستوفية مهرها وقوله تعالى ان أراد النبى ان يستنكحها اشارة الى ان هبتها نفسها لا يدمها من قبول وقوله تعالى خالصة لك من دون المؤمنين قال الشافعى رضى الله عنه معناه اباحة الوطء بالهبة وحصول التزوج بلفظها من خواصك وقال ابو حنيفة تلك المرأة صارت خالصة لك زوجة ومن امهات المؤمنين لا تحل لغيرك ابدا والترجيح يمكن ان يقال بأن على هذا فالتخصيص بالواهبة لا فائدة فيه فان ازواجه كلهن خالصات له وعلى ما ذكرنا يتبين للتخصيص فائدة وقوله تعالى قد علمنا ما فرضنا عليهم فى ازواجهم وما ملكت ايمانهم معناه ان ما ذكرنا فرضك وحكمك مع نسائك واما حكم امتك فعندنا علمه ونبينه لهم وانما ذكر هذا لئلا يحمل واحد من المؤمنين نفسه على ما كان للنبى عليه الصلاة والسلام فان له فى النكاح خصائص ليست

فى ظلمات الجهل والغواية ويهتدى بأنواره الى مناهج (٧٩٤) الرشد والهداية (وبشر المؤمنين) عطف على مقدر يقتضيه المقام ويستدعيه النظام كأنه قيل فراقب احوال الناس وبشر المؤمنين منهم (بأن لهم من الله فضلا كبيرا) اى على مؤمنى سائر الامم فى الرتبة والشرف اوزيادة على اجور اعمالهم بطريق التفضل والاحسان (ولا تطع الكافرين والمنافقين) نهى عن مداراتهم فى امر الدعوة واستعمال لين الجانب فى التبليغ والمسامحة فى الانذار كنى عن ذلك بالنهى عن طاعتهم مبالغة فى الزجر والتنفير عن المنهى عنه بنظمه فى سلكها وتصويره بصورتها ومن حمل النهى على التهييج والالهاب فقد ابعد عن التحقيق بمراحل (ودع أذاهم) اى لا تبال بأذيتهم لك بسبب تصلبك فى الدعوة والانذار (وتوكل على الله) فى كل ما تأتى وما تذر من الشؤن التى من جملتها هذا الشان فانه تعالى يكفيكم (وكفى بالله وكيلا) موكولا اليه الامور فى كل الاحوال واظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لتعليل الحكم وتأكيد استقلال الاعتراض التذييلى ولما وصف عليه الصلاة والسلام بنعوت خمسة قوبل كل منها بخطاب يناسبه خلا انه لم يذكر مقابل الشاهد صريحا وهو الامر بالمراقبة ثقة بظهور دلالة مقابل المبشر عليه وهو الامر بالتبشير حسبما ذكر آنفا وقوبل النذير بالنهى عن مداراة الكفار والمنافقين والمسامحة فى انذارهم كما حققته وقوبل الداعى الى الله باذنه بالامر بالتوكل عليه من انه عبارة عن الاستمداد منه تعالى والاستعانة به وقوبل السراج المنير بالاكتفاء به تعالى فان من ايده الله تعالى بالقوة القدسية ورشحه للنبوة وجعله برهانا نيرا يهدى الخلق من ظلمات

لغيره وكذلك في السراري وقوله تعالى لكيلا يكون عليك حرج ان تكون في فسحة من الامر فلا يبقى لك شغل قلب فينزل الروح الامين بالآيات على قلبك الفارغ وتبلغ رسالات ربك بجدك واجتهادك وقوله تعالى وكان الله غفورا رحيما يغفر الذنوب جميعا ويرحم العبيد * ثم قال تعالى (ترجى من تشاء منهن وتؤوى اليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك) لما بين انه احل له ما ذكر من الازواج بين انه أحل له وجوه المعاشرة بهن حتى يجتمع كيف يشاء ولا يجب عليه القسم وذلك لان النبي عليه السلام بالنسبة الى امته نسبة السيد المطاع والرجل وان لم يكن نبيا فالزوجة في ملك نكاحه والنكاح عليها رق فكيف زوجات النبي عليه السلام بالنسبة اليه فاذن هن كالمملوكات له ولا يجب القسم بين المملوكات والارجاء التأخير والايواء الضم ومن ابتغيت ممن عزلت يعني اذا طلبت من كنت تركتها فلا جناح عليك في شئ من ذلك ومن قال بأن القسم كان واجبا مع انه ضعيف بالنسبة الى المفهوم من الآية قال المراد ترجى من تشاء اى تؤخرهن اذا شئت اذ لا يجب القسم في الاول وللزوج ان لا ينام عند احد منهن وان ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك فابدأ بمن شئت وتمم الدور والاول اقوى * ثم قال تعالى (ذلك ادنى ان تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن) يعني اذا لم يجب عليك القسم وانت لا تترك القسم تقر أعينهن لتسويتك بينهن ولا يحزن بخلاف ما لو وجب عليك ذلك فلعله تكون عند احداهن تقول ما جاءني لهوى في قلبه انما جاءني لأمر الله وايجابه عليه ويرضين بما آتيتهن من الارجاء والايواء اذ ليس لهن عليك شئ حتى لا يرضين * ثم قال تعالى (والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليما حليما) اى ان اضمرن خلاف ما اظهرن فالله يعلم ضمائر القلوب فانه عليم فان لم يعاتبهن في الحال فلا يغترن فانه حليم لا يعجل * ثم قال تعالى (لا يحل لك النساء من بعد ولا ان تبدل بهن من ازواج ولو اعجبك حسنهن) لما لم يوجب الله على نبيه القسم وأمره بتخييرهن فاخترن الله ورسوله ذكر لهن ما جازاهن به من تحريم غيرهن على النبي عليه السلام ومنعه من طلاقهن بقوله ولا ان تبدل بهن وفيه مسائل (المسألة الاولى) قوله لا يحل لك النساء من بعد قال المفسرون من بعدهن والاولى ان يقال لا يحل لك النساء من بعد اختيارهن الله ورسوله ورضاهن بما يؤتيهن من الوصل والهجران والنقص والحرمان (المسألة الثانية) قوله ولا ان تبدل بهن يفيد حرمة طلاقهن اذ لو كان جائزا لجاز ان يطلق الكل وبعدهن اما ان يتزوج بغيرهن او لا يتزوج فان لم يتزوج يدخل في زمرة العزاب والنكاح فضيلة لا يتركها النبي وكيف وهو يقول النكاح سنتي وان تزوج بغيرهن يكون قد تبدل بهن وهو ممنوع من التبدل (المسألة الثالثة) من المفسرين من قال بأن الآية ليس فيها تحريم غيرهن ولا المنع من طلاقهن بل المعنى ان لا يحل لك النساء غير اللاتي ذكرنا لك من المؤمنات المهاجرات من بنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك واما غيرهن من الكتابيات فلا يحل لك التزوج بهن وقوله ولا ان

الى نور الرشاد حقيق بان يكتفى به عن كل ما سواه (يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل ان تمسوهن) اى تجامعوهن وقرئ تماسوهن بضم التاء (فما لكم عليهن من عدة) بأيام يتربصن فيها بانفسهن (٧٩٢) (تعتدونها) تستوفون عددها من عددت الدراهم فاعتدها وحقيقته عدها لنفسه وكذلك كلته فاكتاله والاسناد الى الرجال للدلالة على ان العدة حق الازواج كما اشعر به قوله تعالى فما لكم وقرئ تعتدونها على ابدال احدى الدالين بالتاء او على انه من الاعتداء بمعنى تعتدون فيها والخلوة الصحيحة في حكم المس وتخصيص المؤمنات مع عموم الحكم للكتابيات للتنبيه على ان المؤمن من شأنه ان يتخير لنطفته ولا ينكح الا مؤمنة وفائدة ثم ازاحة ما عسى يتوهم ان تراخي الطلاق ريثما تمكن الاصابة يؤثر في العدة كما يؤثر في النسب (فمتعوهن) اى ان لم يكن مفروضا لها في العقد فان الواجب للمفروض لها نصف المفروض دون المتعة فانها مستحبة عندنا في رواية وفي أخرى غير مستحبة (وسرحوهن) أخرجوهن من منازلكم اذ ليس لكم عليهن عدة (سراحا جميلا) من غير ضرار ولا منع حق ولا مساغ لتفسيره بالطلاق السني لانه انما يتسنى في المدخول بهن (يا أيها النبي انا احللنا لك ازواجك اللاتي آتيت اجورهن) اى مهورهن فانها اجور الابضاع وايتاؤها اما اعطاؤها معجلة او تسميتها في العقد وايا كان فتقييد الاحلال له عليه الصلاة والسلام به ليس لتوقف الحل عليه ضرورة انه يصح العقد بلا تسمية ويجب مهر المثل او المتعة على تقديري الدخول وعدمه بل لايثار الافضل والاولى له عليه الصلاة والسلام كتقييد احلال المملوكة بكونها مسبية في قوله تعالى (وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك) فان المشتراة لا يتحقق بدء امرها وما جرى عليها وكتقييد القرائب بكونهن مهاجرات معه في قوله تعالى (وبنات عمك وبنات عماتك (تبدل)

تبدل بهن منع من شغل الجاهلية فانهم كانوا يبادلون زوجة بزوجة فينزل احدهم عن زوجته ويأخذ زوجة صديقه ويعطيه زوجته وعلى التفسيرين وقع خلاف فى مسئلتين (احداهما) حرمة طلاق زوجاته (والثانية) حرمة تزوجه بالكتابيات فمن فسر على الاول حرم الطلاق ومن فسر على الثانى حرم التزوج بالكتابيات (المسئلة الرابعة) قوله ولو اعجبك حسنهن اى حسن النساء قال الزمخشرى قوله ولو اعجبك فى معنى الحال ولا يجوز ان يكون ذو الحال قوله من ازواج لغاية التنكير فيه ولكون ذى الحال لا يحسن ان يكون نكرة فاذن هو النبى عليه السلام يعنى لا تحل لك النساء ولاان تبدل بهن من ازواج وأنت معجب بحسنهن (المسئلة الخامسة) ظاهر هذا ناسخ لما كان قد ثبت له عليه السلام من انه اذا رأى واحدة فوقعت فى قلبه موقعا كانت تحرم على الزوج ويجب عليه طلاقها وهذه المسئلة حكمية وهى ان النبى عليه السلام وسائر الانبياء فى اول النبوة تشتد عليهم برحاء الوحى ثم يستأنسون به فينزل عليهم وهم يتحدثون مع اصحابهم لا يمنعهم من ذلك مانع ففى اولا الامر أحل الله من وقع فى قلبه تفريغا لقلبه وتوسيعا لصدره لئلا يكون مشغول القلب بغير الله ثم لما استأنس بالوحى وبمن على لسانه الوحى نسخ ذلك اما لقوته عليه السلام للجمع بين الامرين واما انه بدوام الانزال لم يبق له مألوف من امور الدنيا فلم يبق له التفات الى غير الله فلم يبق له حاجة الى احلال التزوج بمن وقع بصره عليها (المسئلة السادسة) اختلف العلماء فى ان تحريم النساء عليه هل نسخ ام لا فقال الشافعى نسخ وقد قالت عائشة مامات النبى الا وأحل له النساء وعلى هذا فالناسخ قوله يا أيها النبى انا احللنا لك ازواجك الى ان قال وبنات عمك وقال وامرأة مؤمنة على قول من يقول لا يجوز نسخ الكتاب بخبر الواحد اذ الناسخ غير متواتر ان كان خبرا ❁ ثم قال تعالى (الا ما ملكت يمينك) لم يحرم عليه المملوكات لان الايذاء لا يحصل بالمملوكة ولهذا لم يجز للرجل ان يجمع بين ضرتين فى بيت لحصول التسوية بينهما وامكان المخاصمة ويجوز ان يجمع الزوجة وجما من المملوكات لعدم التساوى بينهن ولهذا لا قسم لهن على أحد ❁ ثم قال تعالى (وكان الله على كل شئ رقيبا) اى حافظا عالما بكل شئ قادرا عليه لان الحفظ لا يحصل الا بهما ❁ ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى الا ان يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه) لما ذكر الله تعالى فى النداء الثالث يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا بيانا لحاله مع امته العامة قال للمؤمنين فى هذا النداء لا تدخلوا ارشادا لهم وبيانا لحالهم مع النبى عليه السلام من الاحترام ثم ان حال الامة مع النبى على وجهين (احدهما) فى حال الخلوة والواجب هناك عدم ازعاجه وبين ذلك بقوله لا تدخلوا بيوت النبى (وثانيهما) فى الملأ والواجب هناك اظهار التعظيم كما قال تعالى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما وقوله الى طعام غير ناظرين اناه اى لا تدخلوا بيوت النبى الى طعام

وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك) ويحتمل تقييد الحل بذلك فى حقه عليه الصلاة والسلام خاصة ويعضده قول أم هانئ بنت ابى طالب خطبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧٩٣) فاعتذرت اليه فعذرنى ثم انزل الله هذه الآية فلم احل له لانى لم اهاجر معه كنت من الطلقاء (وامرأة مؤمنة) بالنصب عطفا على مفعول احللنا اذ ليس معناه انشاء الاحلال الناجز بل اعلام مطلق الاحلال المنتظم لما سبق ولحق وقرئ بالرفع على انه مبتدأ خبره محذوف اى احللناها لك ايضا (ان وهبت نفسها للنبى) اى ملكته بضعها بأى عبارة كانت بلا مهر ان اتفق ذلك كما ينبئ عنه تنكيرها لكن لا مطلقا بل عند ارادته عليه الصلاة والسلام استنكاحها كما نطق به قوله عز وجل (ان أراد النبى ان يستنكحها) اى ان يتملك بضعها كذلك اى بلا مهر فان ذلك جار منه عليه الصلاة والسلام مجرى القبول وحيث لم يكن هذا نصا فى كون تمليكها بلفظ الهبة لم يصلح ان يكون مناطا للخلاف فى انعقاد النكاح بلفظ الهبة ايجابا اوسلبا واختلف فى اتفاق هذا العقد فعن ابن عباس رضى الله عنهما لم يكن عنده عليه الصلاة والسلام احد منهن بالهبة وقيل الموهوبات اربع ميمونة بنت الحرث وزينب بنت خزيمة الانصارية وأم شريك بنت جابر وخولة بنت حكيم وايراده عليه الصلاة والسلام فى الموضعين بعنوان النبوة بطريق الالتفات للتكرمة والايذان بانها المناط لثبوت الحكم فيختص به عليه الصلاة والسلام حسب اختصاصها به كما ينطق به قوله تعالى (خالصة لك) اى خلص لك احلالها خالصة اى خلوصا فان الفاعلة فى المصادر غير عزيز كالعافية والكاذبة او خلص لك احلال ما احللنا لك من المذكورات على القيود المذكورة خالصة

ومعنى قوله تعالى (من دون المؤمنين) (١٠٠) (را) (س) على الاول ان الاحلال المذكور فى المادة المعهودة غير متحقق فى حقهم وانما

الا ان يؤذن لكم * ثم قال تعالى (ولكن اذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ان ذلكم كان يؤذى النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق واذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم اطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم ان تؤذوا رسول الله ولا ان تنكحوا ازواجه من بعده ابدا ان ذلكم كان عند الله عظيما) لما بين من حال النبي انه داع الى الله بقوله وداعيا الى الله قال ههنا لا تدخلوا الا اذا دعيتم يعنى كما انكم مادخلتم الدين الا بدعائه فكذلك لا تدخلوا عليه الا بعد دعائه وقوله غير ناظرين منصوب على الحال والعامل فيه على ماقاله الزمخشرى لا تدخلوا قال وتقديره لا تدخلوا بيوت النبي الا مأذونين غير ناظرين وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله الا ان يؤذن لكم الى طعام اما ان يكون فيه تقديم وتأخير تقديره ولا تدخلوا الى طعام الا ان يؤذن لكم فلا يكون منعا من الدخول فى غير وقت الطعام بغير الاذن واما ان لا يكون فيه تقديم وتأخير فيكون معناه ولا تدخلوا الا ان يؤذن لكم الى طعام فيكون الاذن مشروطا بكونه الى طعام فان لم يؤذن لكم الى طعام فلا يجوز الدخول فلو اذن لواحد فى الدخول لاستماع كلام لالا كل طعام لا يجوز نقول المراد هو الثانى ليعم النهى عن الدخول واما قوله فلا يجوز الا بالاذن الذى الى طعام نقول قال الزمخشرى الخطاب مع قوم كانوا يجيئون حين الطعام ويدخلون من غير اذن فمنعوا من الدخول فى وقته بغير اذن والاولى ان يقال المراد هو الثانى لان التقديم والتأخير خلاف الاصل وقوله الى طعام من باب التخصيص بالذكر فلا يدل على نفى ماعداه لاسيما اذا علم ان غيره مثله فان من جاز دخول بيته باذنه الى طعامه جاز دخوله الى غير طعامه باذنه فان غير الطعام ممكن وجوده مع الطعام فان من الجائز ان يتكلم معه وقتما يدعوه الى طعام ويستقضيه فى حوائجه ويعلمه مما عنده من العلوم مع زيادة الاطعام فاذا رضى بالكل فرضاه بالبعض اقرب الى الفعل فيصير من باب ولا تقل لهما اف وقوله غير ناظرين يعنى انتم لا تنتظروا وقت الطعام فانه ربما لا يتهيأ (المسئلة الثانية) قوله تعالى ولكن اذا دعيتم فادخلوا فيه لطيفة وهى ان فى العادة اذا قيل لمن كان يعتاد دخول دار من غير اذن لا تدخلها الا باذن يتأذى وينقطع بحيث لا يدخلها اصلا ولا بالدعاء فقال لا تفعلوا مثل ما يفعله المستنكفون بل كونوا طائعين سامعين اذا قيل لكم لا تدخلوا لا تدخلوا واذا قيل لكم ادخلوا فادخلوا قوله تعالى واناه قيل وقته وقيل استواؤه وقوله الا ان يؤذن يفيد الجواز وقوله ولكن اذا دعيتم فادخلوا يفيد الوجوب فقوله ولكن اذا دعيتم ليس تأكيدا بل هو يفيد فائدة جديدة (المسئلة الثالثة) لا يشترط فى الاذن التصريح به بل اذا حصل العلم بالرضا جاز الدخول ولهذا قال الا ان يؤذن من غير بيان فاعل فالاذن ان كان الله او النبي او العقل المؤيد بالدليل جاز والنقل دال عليه حيث قال تعالى او صديقكم وحد الصداقة لما ذكرنا فلو جاء ابوبكر وعلم ان

المحقق هناك الاحلال بمهر المثل وعلى الثانى ان احلال الجميع على القيود المذكورة غير متحقق فى حقهم بل المتحقق فيه احلال البعض المعدود على الوجه المعهود وقرئ (٧٩٤) خالصة بالرفع على انه خبر مبتدأ محذوف اى ذلك خلوص لك وخصوص او هى اى تلك المرأة او الهبة خالصة لك لا تتجاوز المؤمنين حيث لا تحل لهم بغير مهر ولا تصح الهبة بل يجب مهر المثل وقوله تعالى (قد علمنا ما فرضنا عليهم) اى على المؤمنين (فى ازواجهم) اى فى حقهن اعتراض مقرر لما قبله من خلوص الاحلال المذكور لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم تجاوزه للمؤمنين ببيان انه قد فرض عليهم من شرائط العقد وحقوقه مالم يفرض عليه عليه الصلاة والسلام تكرمة له وتوسعة عليه اى قد علمنا ما ينبغى ان يفرض عليهم فى حق ازواجهم (وما ملكت ايمانهم) وعلى اى حد واى صفة يحق ان يفرض عليهم ففرضنا ما فرضنا على ذلك الوجه وخصصناك ببعض الخصائص (لكيلا يكون عليك حرج) اى ضيق واللام متعلقة بخالصة باعتبار ما فيها من معنى ثبوت الاحلال وحصوله له عليه الصلاة والسلام لا باعتبار اختصاصه به عليه الصلاة والسلام لان مدار انتفاء الحرج هو الاول لا الثانى الذى هو عبارة عن عدم ثبوته لغيره (وكان الله غفورا) لما يعسر التحرز عنه (رحيما) ولذلك وسع الامر فى مواقع الحرج (ترجى من تشاء منهن) اى تؤخرها وتترك مضاجعتها (وتؤوى اليك من تشاء) وتضم اليك من تشاء منهن وتضاجعها او تطلق من تشاء منهن وتمسك من تشاء وقرئ "ترجئ" بالهمزة والمعنى واحد (ومن ابتغيت) اى طلبت (ممن عزلت) طلقت بالرجعة (فلا جناح عليك) فى شئ مما ذكر وهذه قسمة جامعة لما هو الغرض لانه اما ان يطلق او يمسك فاذا امسك ضاجع او ترك وقسم او لم يقسم واذا طلق فاما ان يخلى المعزولة

(لامانع)

لامانع فى بيت عائشة من بيوت النبي عليه السلام من تكشف او حضور غير محرم عندها او علم خلو الدار من الاهل اوهى محتاجة الى اطفاء حريق فيها او غير ذلك جاز الدخول (المسئلة الرابعة) قوله تعالى فاذا طعمتم فانتشروا كان بعض الصحابة اطال المكث يوم وليمة النبي عليه السلام فى عرس زينب والنبي عليه السلام لم يقل له شيأ فوردت الآية جامعة لآداب (منها) المنع من اطالة المكث فى بيوت الناس وفى معنى البيت موضع مباح اختاره شخص لعبادته او اشتغاله بشغل فيأتيه احد ويطيل المكث عنده وقوله تعالى ولا مستأنسين لحديث قال الزمخشري هو عطف على غير ناظرين مجرور ويحتمل ان يكون منصوبا عطفا على المعنى فان معنى قوله تعالى لاتدخلوا بيوت النبي الا ان يؤذن لكم لاتدخلوها هاجمين فعطف عليه ولا مستأنسين ثم ان الله تعالى بين كون ذلك ادبا وكون النبي حليما بقوله ان ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لايستحيي من الحق اشارة الى ان ذلك حق وادب وقوله تعالى كان اشارة الى تحمل النبي عليه السلام ثم ذكر الله ادبا آخر وهو قوله تعالى واذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب لما منع الله الناس من دخول بيوت النبي عليه السلام وكان فى ذلك تعذر الوصول الى الماعون بين ان ذلك غير ممنوع منه فليسأل وليطلب من وراء حجاب وقوله تعالى ذلكم اطهر لقلوبكم وقلوبهن يعني العين روزنة القلب فاذا لم تر العين لايشتهي القلب اما ان رأت العين فقد يشتهي القلب وقد لايشتهي فالقلب عند عدم الرؤية اطهر وعدم الفتنة حينئذ اظهر ثم ان الله تعالى لما علم المؤمنين الادب أكده بما يحملهم على محافظته فقال تعالى وما كان لكم ان تؤذوا رسول الله وكل ما منعتم عنه مؤذ فامتنعوا عنه وقوله تعالى ولا ان تنكحوا ازواجه من بعده أبدا قيل سبب نزوله ان بعض الناس قيل هو طلحة ابن عبيد الله قال لئن عشت بعد محمد لانكحن عائشة وقد ذكرنا ان اللفظ العام لايغير معناه سبب النزول فان المراد ان ايذاء الرسول حرام والتعرض لنسائه فى حياته ايذاء فلا يجوز ثم قال لا بل ذلك غير جائز مطلقا ثم أكده بقوله تعالى ان ذلكم كان عند الله عظيما اى ايذاء الرسول * ثم قال تعالى (ان تبدوا شيأ او تخفوه فان الله كان بكل شئ عليما) يعني ان كنتم لاتؤذونه فى الحال وتعزمون على ايذائه او نكاح ازواجه بعده فالله عليم بذات الصدور * ثم ان الله تعالى لما انزل الحجاب استثنى المحارم بقوله (لاجناح عليهن فى آبائهن ولا أبنائهن ولا اخوانهن ولا أبناء اخوانهن ولا أبناء اخواتهن ولا نسائهن ولا ماملكت أيمانهن) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) فى الحجاب اوجب السؤال من وراء الحجاب على الرجال فلم لم يستثن الرجال عن الجناح ولم يقل لا جناح على آبائهن نقول قوله تعالى فاسألوهن من وراء حجاب امر بسدل الستر عليهن وذلك لايكون الا بكونهن مستورات محجوبات وكان الحجاب وجب عليهن ثم امر الرجال بتركهن كذلك ونهوا عن هتك

اويجتنبها وروى انه ارجى منهن سودة وجويرية وصفية وميمونة وأم حبيبة فكان يقسم لهن ماشاء وكانت ممن آوى اليه عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب وارجى خمسا وآوى اربعا وروى (٧٩٥) انه كان يسوى بينهن مع ماطلق له وخير الاسودة فانها وهبت ليلتها لعائشة رضي الله عنهن وقالت لاتطلقني حتى احشر فى زمرة نسائك (ذلك) اى ما ذكر من تفويض الامر الى مشيئتك (أدنى ان تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن) اى اقرب الى قرة عيونهن ورضاهن جميعا لانه حكم كلهن فيه سواء ثم ان سويت بينهن وجدن ذلك تفضلا منك وان رجحت بعضهن علمن انه بحكم الله فتطمئن به نفوسهن وقرئ تقر بضم التاء ونصب اعينهن وتقر على البناء المفعول وكلهن تأكيد لنون يرضين وقرئ بالنصب على انه تأكيد لهن (والله يعلم ما فى قلوبكم) من الضمائر والخواطر فاجتهدوا فى احسانها (وكان الله عليما) مبالغا فى العلم فيعلم كل ماتبدونه وتخفونه (حليما) لايعاجل بالعقوبة فلا تغتروا بتأخيرها فانه امهال لا اهمال (لايحل لك النساء) بالياء لان تأنيث الجمع غير حقيقي ولوجود الفصل وقرئ بالتاء (من بعد) اى من بعد التسع وهو فى حقه كالاربع فى حقنا وقال ابن عباس وقتادة من بعد هؤلاء التسع اللاتى خيرتهن فاخترنك وقيل من بعد اختيارهن الله ورسوله ورضاهن بما تؤتيهن من الوصل والهجران (ولا ان تبدل) اى تتبدل بحذف احدى التاءين (بهن) اى بهؤلاء التسع (من ازواج) بأن تطلق واحدة منهن وتنكح مكانها اخرى ومن مزيدة لتأكيد الاستغراق أراد الله تعالى لهن كرامة وجزاء على ما اخترن ورضين فقصر رسوله عليهن وهن التسع اللاتى توفى عليه الصلاة والسلام عنهن وهن عائشة بنت ابي بكر وحفصة بنت عمر وام حبيبة بنت ابي سفيان وسودة بنت زمعة وأم سلمة بنت ابي امية

استتارهن فاستثنين عند الآباء والابناء (وفيه لطيفة) وهى ان عند الحجاب أمر الله الرجل بالسؤال من وراء حجاب ويفهم منه كون المرأة محجوبة عن الرجل بالطريق الاولى وعند الاستثناء قال تعالى لا جناح عليهن عند رفع الحجاب عنهن فالرجال اولى بذلك (المسئلة الثانية) قدم الآباء لان اطلاعهم على بناتهم اكثر وكيف وهم قد رأوا جميع بدن البنات فى حال صغرهن ثم الابناء ثم الاخوة وذلك ظاهر انما الكلام فى بنى الاخوة حيث قدمهم الله تعالى على بنى الاخوات لان بنى الاخوات آباؤهم ليسوا بمحارم انما هم أزواج خالات ابنائهم وبنى الاخوة آباؤهم محارم ايضا ففى بنى الاخوات مفسدة ما وهى ان الابن ربما يحكى خالته عند أبيه وهو ليس بمحرم ولا كذلك بنو الاخوة (المسئلة الثالثة) لم يذكر الله من المحارم الاعمام والاخوال فلم يقل ولا اعمامهن ولا أخوالهن لوجهين (احدهما) ان ذلك علم من بنى الاخوة وبنى الاخوات لان من علم ان بنى الاخ للعمات محارم علم ان بنات الاخ للاعمام محارم وكذلك الحال فى امر الخال (ثانيهما) ان الاعمام ربما يذكرون بنات الاخ عند ابنائهم وهم غير محارم وكذلك الخال فى ابن الخال (المسئلة الرابعة) ولا نسائهن مضافة الى المؤمنات حتى لا يجوز التكشف للكافرات فى وجه (المسئلة الخامسة) ولا ما ملكت ايمانهن هذا بعد الكل فان المفسدة فى التكشف لهم ظاهرة ومن الائمة من قال المراد من كان دون البلوغ * ثم قوله تعالى (واتقين الله) عند المماليك دليل على ان التكشف لهم مشروط بشرط السلامة والعلم بعدم المحذور * وقوله تعالى (ان الله كان على كل شئ شهيدا) فى غاية الحسن فى هذا الموضع وذلك لان ما سبق اشارة الى جواز الخلوة بهم والتكشف لهم فقال ان الله شاهد عند اختلاء بعضكم ببعض فخلوتكم مثل ملئكم بشهادة الله تعالى فاتقوا * ثم قال تعالى (ان الله وملائكته يصلون على النبى) لما امر الله المؤمنين بالاستئذان وعدم النظر الى الوجوه نسائه احتراما كمل بيان حرمته وذلك لان حالته منحصرة فى اثنين حالة خلوته وذكر ما يدل على احترامه فى تلك الحالة بقوله لا تدخلوا بيوت النبى وحالة يكون فى ملأ والملأ اما الملأ الاعلى واما الملأ الادنى اما فى الملأ الاعلى فهو محترم فان الله وملائكته يصلون عليه واما فى الملأ الادنى فذلك واجب الاحترام * بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) الصلاة الدعاء يقال فى اللغة صلى عليه اى دعا له وهذا المعنى غير معقول فى حق الله تعالى فانه لا يدعو له لان الدعاء للغير طلب نفعه من ثالث فقال الشافعى رضى الله عنه استعمل اللفظ بمعان وقد تقدم فى تفسير قوله هو الذى يصلى عليكم وملائكته والذى نزيده ههنا هو ان الله تعالى قال هناك هو الذى يصلى عليكم وملائكته جعل الصلاة لله وعطف الملائكة على الله وههنا جمع نفسه وملائكته واسند الصلاة اليهم فقال يصلون وفيه تعظيم النبى عليه الصلاة والسلام وهذا لان افراد الواحد

وصفية بنت حي الخيبرية وميمونة بنت الحرث الهلالية وزينب بنت جحش الاسدية وجويرية بنت الحرث المصطلقية وقال عكرمة المعنى لا تحل لك النساء من بعد الاجناس الاربعة اللاتى احللنا هن لك (٧٩٦) بالصفة التى تقدم ذكرها من الاعرابيات والغرائب اومن الكتابيات اومن الاماء بالنكاح ويأيد قوله تعالى ولا ان تبدل بهن فان معنى احلال الاجناس المذكورة احلال نكاحهن فلا بد ان يكون معنى التبدل بهن احلال نكاح غيرهن بدل احلال نكاحهن وذلك انما يتصور بالنسخ الذى ليس من الوظائف البشرية (ولو اعجبك حسنهن) اى حسن الازواج المستبدلة وهو حال من فاعل تبدل لا من مفعوله وهو من ازواج لتوغله فى التنكير قيل تقديره مفروضا اعجابك بهن وقد مر تحقيقه فى قوله تعالى ولامة مؤمنة خير من مشركة ولو اعجبتكم وقيل هى اسماء بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر بن ابى طالب اى هى ممن اعجبه عليه الصلاة والسلام حسنهن واختلف فى ان الآية محكمة او منسوخة قيل بقوله تعالى ترجى من تشاء منهن وتؤوى اليك من تشاء وقيل بقوله تعالى انا احللنا لك وترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف وقيل بالسنة وعن عائشة رضى الله عنها ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى احل له النساء وقال انس رضى الله عنه مات عليه الصلاة والسلام على التحريم (الا ما ملكت يمينك) استثناء من النساء لانه يتناول الازواج والاماء وقيل منقطع (وكان الله على كل شئ رقيبا) حافظا مهيمنا فاحذروا مجاوزة حدوده وتخطى حلاله الى حرامه (يا ايها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى) شروع فى بيان ما يجب مراعاته على الناس من حقوق نساء النبى عليه الصلاة والسلام اثر بيان ما يجب مراعاته عليه عليه الصلاة والسلام من الحقوق المتعلقة بهن وقوله تعالى (بالذكر)

بالذكر وعطف الغير عليه يوجب تفضيلا للمذكور على المعطوف كما ان الملك اذا قال يدخل فلان وفلان ايضا يفهم منه تقديم لا يفهم لو قال فلان وفلان يدخلان اذا علمت هذا فقال فى حق النبى عليه السلام انهم يصلون اشارة الى انه فى الصلاة على النبى عليه السلام كالاصل وفى الصلاة على المؤمنين الله يرحمهم ثم ان الملائكة يوافقونه فهم فى الصلاة على النبى عليه السلام يصلون بالاضافة كأنها واجبة عليهم او مندوبة سواء صلى الله عليه او لم يصل وفى المؤمنين ليس كذلك (المسئلة الثانية) هذا دليل على مذهب الشافعى لان الامر للوجوب فتجب الصلاة على النبى عليه السلام ولا تجب فى غير التشهد فتجب فى التشهد (المسئلة الثالثة) سئل النبى عليه السلام كيف نصلى عليك يارسول الله فقال قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد (المسئلة الرابعة) اذا صلى الله وملائكته عليه فأى حاجة الى صلاتنا نقول الصلاة عليه ليس لحاجته اليها والا فلا حاجة الى صلاة الملائكة مع صلاة الله عليه وانما هو لاظهار تعظيمه كما ان الله تعالى اوجب علينا ذكر نفسه ولا حاجة له اليه وانما هو لاظهار تعظيمه منا شفقة علينا ليثيبنا عليه ولهذا قال عليه السلام من صلى على مرة صلى الله عليه عشرا (المسئلة الخامسة) لم يترك الله النبى عليه السلام تحت منة امته بالصلاة حتى عوضهم منه بأمره بالصلاة على الامة حيث قال وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم وقوله وسلموا تسليما امر فيجب ولم يجب فى غير الصلاة فيجب فيها وهو قولنا سلام عليك أيها النبى فى التشهد وهو حجة على من قال بعدم وجوبه وذكر المصدر للتأكيد ليكمل السلام عليه ولم يؤكد الصلاة بهذا التأكيد لانها كانت مؤكدة بقوله تعالى ان الله وملائكته يصلون على النبى * ثم قال تعالى (ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا) فصل الاشياء بتبيين بعض اضدادها فبين حال مؤذى النبى ليبين فضيلة المسلم عليه واللعن أشد المحذورات لان البعد من الله لا يرجى معه خير بخلاف التعذيب بالنار وغيره ألا ترى ان الملك اذا تغير على مملوك ان كان تأذيه غير قوى يزجره ولا يطرده ولو خير المجرم ان يضرب او يطرد عند ما يكون الملك فى غاية العظمة والكرم يختار الضرب على الطرد ولا سيما اذا لم يكن فى الدنيا ملك غير سيده وقوله فى الدنيا والآخرة اشارة الى بعد لا رجاء للقرب معه لان المبعد فى الدنيا يرجو القربة فى الآخرة فاذا ابعد فى الآخرة فقد خاب وخسر لان الله تعالى اذا ابعده وطرده فمن الذى يقربه يوم القيامة ثم انه تعالى لم يحصر جزاءه فى الابعاد بل اوعده بالعذاب بقوله واعد لهم عذابا مهينا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكر ايذاء الله وايذاء الرسول وذكر عقيبه امرين اللعن والتعذيب فاللعن جزاء ايذاء الله لان من آذى الملك يبعده عن بابه اذا كان لا يأمر بعذابه والتعذيب جزاء ايذاء الرسول

(الا ان يؤذن لكم) استثناء مفرغ من اعم الاحوال اى لا تدخلوها فى حال من الاحوال الا حال كونكم مأذونا لكم وقيل من اعم الاوقات اى لا تدخلوها فى وقت من الاوقات الا وقت (٧٩٧) ان يؤذن لكم ورد عليه بأن النحاة نصوا على ان الوقوع موقع الظرف مختص بالمصدر الصريح دون المؤول لا يقال آتيك ان يصيح الديك وانما يقال آتيك صياح الديك وقوله تعالى (الى طعام) متعلق بيؤذن بتضمين معنى الدعاء للاشعار بأنه لا ينبغى ان يدخلوا على الطعام بغير دعوة وان تحقق الاذن كما يشعر به قوله تعالى (غير ناظرين اناه) اى غير منتظرين وقته او ادراكه وهو حال من فاعل لا تدخلوا على ان الاستثناء واقع على الوقت والحال معا عند من يجوزه او من المجرور فى لكم وقرئ بالجر صفة لطعام فيكون جاريا على غير من هو له بلا ابراز الضمير ولا مساغ له عند البصريين وقرئ بالامالة لانه مصدر انى الطعام اى ادرك (ولكن اذا دعيتم فادخلوا) استدراك من النهى عن الدخول بغير اذن وفيه دلالة بينة على ان المراد بالاذن الى الطعام هو الدعوة اليه (فاذا طعمتم فانتشروا) فتفرقوا ولا تلبثوا لانه خطاب لقوم كانوا يتحينون طعام النبى عليه الصلاة والسلام فيدخلون ويقعدون منتظرين لادراكه مخصوصة بهم وبامثالهم والا لما جاز لاحد ان يدخل بيوته عليه الصلاة والسلام بأذن لغير الطعام ولا اللبث بعد الطعام لامر مهم (ولا مستأنسين لحديث) اى لحديث بعضكم بعضا او لحديث اهل البيت بالتسمع له عطف على ناظرين او مقدر بفعل اى ولا تدخلوا او ولا تمكثوا مستأنسين الخ (ان ذلكم) اى الاستئناس الذى كنتم تفعلونه من قبل (كان يؤذى النبى) لتضييق المنزل عليه وعلى اهله وايجابه للاشتغال بما لا يعنيه وصده عن الاشتغال بما يعنيه (فيستحيى منكم) اى من اخراجكم لقوله تعالى (والله لا يستحيى من الحق) فانه يستدعى

لان الملك اذا آذى بعض عبيده كبير يستوفى منه قصاصه لايقال فعلى هذا من يؤذى الله ولا يؤذى الرسول لايعذب لانا نقول انفكاك أحدهما على هذا الوجه من الآخر محال لان من آذى الله فقد آذى الرسول واما على الوجه الآخر وهو ان من يؤذى النبي عليه السلام ولا يؤذى الله كمن عصى من غير اشراك كفسق او فجر من غير ارتداد وكفر فقد آذى النبي عليه السلام غير ان الله تعالى صبور غفور رحيم فيجزيه بالعذاب ولا يلعنه بكونه بعده عن الباب (المسئلة الثانية) اكد العذاب بكونه مهينا لان من تأذى من عبده وأمر بحبسه وضربه فان امره بحبسه في موضع مميز او أمر بضربه رجلا كبيرا يدل على ان الامر هين وان أمر بضربه على ملأ وحبسه بين المفسدين ينبئ عن شدة الامر فمن آذى الله ورسوله من المخلدين في النار فيعذب عذابا مهينا وقوله أعد لهم للتأكيد لان السيد اذا عذب عبده حالة الغضب من غير اعداد يكون دون ما اذا اعد له قيدا وغلا فان الاول يمكن ان يقال هذا اثر الغضب فاذا سكت الغضب يزول ولا كذلك الثاني * ثم قال تعالى (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا واثما مبينا) لما كان الله تعالى مصليا على نبيه لم ينفك ايذاء الله عن ايذائه فان من آذى الله فقد آذى الرسول فبين الله للمؤمنين انكم ان أتيتم بما امرتكم وصليتم على النبي كما صليت عليه لاينفك ايذاؤكم عن ايذاء الرسول فيأثم من يؤذيكم لكون ايذائكم ايذاء الرسول كما ان ايذائي ايذاؤه وبالجملة لما حصلت الصلاة من الله والملائكة والرسول والمؤمنين صار لايكاد ينفك ايذاء احد منهم عن ايذاء الآخر كما يكون حال الاصدقاء الصادقين في الصداقة وقوله تعالى بغير ما اكتسبوا احتراز عن الامر بالمعروف من غير عنف زائد فان من جلد مائة على شرب الخمر اوحد اربعين على لعب النرد آذى بغير ما اكتسب أيضا ومن جلد على الزنا اوحد على الشرب لم يؤذ بغير ما اكتسب ويمكن ان يقال لم يؤذ اصلا لان ذلك اصلاح حال المضروب وقوله فقد احتملوا بهتانا البهتان هو الزور وهو لايكون الا في القول والايذاء قد يكون بغير القول فمن آذى مؤمنا بالضرب او أخذ ماله لايكون قد احتمل بهتانا فنقول المراد الذين يؤذون المؤمنين بالقول وهذا لان الله تعالى أراد اظهار شرف المؤمن فلما ذكر أن من آذى الله ورسوله لعن وايذاء الله بأن ينكر وجود الله بعد معرفة دلائل وجوده او يشرك به من لايبصر ولا يسمع او من لايقدر ولا يعلم او من هو محتاج في وجوده الى موجد وهو قول ذكر ايذاء المؤمن بالقول وعلى هذا خص الايذاء بالقول بالذكر لانه أعم وأتم وذلك لان الانسان لايقدر ان يؤذى الله بما يؤلمه من ضرب او اخذ مايحتاج اليه فيؤذيه بالقول ولان الفقير الغائب لايمكن ايذاؤه بالفعل ويمكن ايذاؤه بالقول بأن يقول فيه مايصل اليه فيتأذى (والوجه الثاني في الجواب) هو ان نقول قوله بعد ذلك واثما مبينا مستدرك فكأنه قال احتمل بهتانا ان كان بالقول واثما مبينا كيفما

ان يكون المستحيي منه امرا حقا متعلقا بهم لانفسهم وماذاك الا اخراجهم فينبغى ان لايترك حياء ولذلك لم يتركه تعالى وامركم بالخروج والتعبير عنه بعدم الاستحياء للمشاكلة وقرئ لايستحي بحذف الياء الاولى والقاء حركتها الى ما قبلها (واذا سألتموهن) الضمير لنساء النبي المدلول عليهن بذكر بيوته عليه الصلاة والسلام (متاعا) اى شيئا يتمتع به من الماعون وغيره (فاسألوهن) اى المتاع (من وراء حجاب) اى ستر روى ان عمر رضي الله عنه قال يارسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت امهات المؤمنين بالحجاب فنزلت وقيل انه عليه الصلاة والسلام كان يطعم ومعه بعض اصحابه فأصابت يد رجل منهم يد عائشة رضي الله عنها فكره النبي ذلك فنزلت (ذلكم) اى ماذكر من عدم الدخول بغير اذن وعدم الاستئناس للحديث عند الدخول وسؤال المتاع من وراء حجاب (أطهر لقلوبكم وقلوبهن) اى اكثر تطهيرا من الخواطر الشيطانية (وما كان لكم) اى وما صح وما استقام لكم (ان تؤذوا رسول الله) اى ان تفعلوا في حياته فعلا يكرهه ويتأذى به (ولا ان تنكحوا ازواجه من بعده أبدا) اى من بعد وفاته او فراقه (ان ذلكم) اشارة الى ماذكر من ايذائه عليه الصلاة والسلام ونكاح ازواجه من بعده وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلته في الشر والفساد (كان عند الله عظيما) اى امرا عظيما وخطبا هائلا لايقادر قدره وفيه من تعظيمه تعالى لشأن رسوله صلى الله عليه وسلم وايجاب حرمته حيا وميتا ما لا يخفى ولذلك بالغ تعالى في الوعيد حيث قال (ان تبدوا شيئا) مما لا خير فيه كنكاحهن على ألسنتكم (او تخفوه) في صدوركم (فان الله كان بكل شيء عليما) فيجازيكم بما صدر عنكم من المعاصي البادية والخافية لامحالة وفي هذا التعميم مع البرهان على المقصود مزيد تهويل وتشديد ومبالغة في الوعيد

(كان)

كان الايذاء كيفما كان فان الله خص الايذاء القولى بالذكر لما بينا انه اعم ولانه اتم لانه يصل الى القلب فان الكلام يخرج من القلب واللسان دليله ويدخل فى القلب والآذان سبيله ثم قال تعالى (يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن) لما ذكر ان من يؤذى المؤمنين يحتمل بهتانا وكان فيه منع المكلف عن ايذاء المؤمن امر المؤمن باجتناب المواضع التى فيها التهم الموجبة للتأذى لئلا يحصل الايذاء الممنوع منه ولما كان الايذاء القولى مختصا بالذكر اختص بالذكر ماهو سبب الايذاء القولى وهو النساء فان ذكرهن بالسوء يؤذى الرجال والنساء بخلاف ذكر الرجال فان من ذكر امرأة بالسوء تأذت وتأذى أقاربها اكثر من تأذيها ومن ذكر رجلا بالسوء تأذى ولا يتأذى نساؤه وكان فى الجاهلية تخرج الحرة والامة مكشوفات يتبعهن الزناة وتقع التهم فأمر الله الحرائر بالتجلبب * وقوله تعالى (ذلك ادنى ان يعرفن فلا يؤذين) قيل يعرفن انهن حرائر فلا يتبعن ويمكن ان يقال المراد يعرفن انهن لا يزنين لان من تستر وجهها مع انه ليس بعورة لا يطمع فيها انها تكشف عورتها فيعرفن انهن مستورات لا يمكن طلب الزنا منهن * وقوله تعالى (وكان الله غفورا رحيما) يغفر لكم ماقد سلف برحمته ويثيبكم على ماتأتون به راجيا عليكم * وقوله تعالى (لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا) لما ذكر حال المشرك الذى يؤذى الله ورسوله والمجاهر الذى يؤذى المؤمنين ذكر حال المسر الذى يظهر الحق ويضمر الباطل وهو المنافق ولما كان المذكور من قبل اقواما ثلاثة نظرا الى اعتبار امور ثلاثة وهم المؤذون الله والمؤذون الرسول والمؤذون المؤمنين ذكر من المسرين ثلاثة نظرا الى اعتبار امور ثلاثة (احدها) المنافق الذى يؤذى الله سرا (والثانى) الذى فى قلبه مرض الذى يؤذى المؤمن باتباع نسائه (والثالث) المرجف الذى يؤذى النبى عليه السلام بالارجاف بقوله غلب محمد وسيخرج من المدينة وسيؤخذ وهؤلاء وان كانوا قوما واحدا الا ان لهم ثلاث اعتبارات وهذا فى مقابلة قوله تعالى ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات حيث ذكر اصنافا عشرة وكلهم يوجد فى واحد فهم واحد بالشخص كثير بالاعتبار وقوله لنغرينك بهم اى لنسلطنك عليهم فتخرجهم من المدينة ثم لا يجاورونك وتخلو المدينة منهم بالموت او الاخراج ويحتمل ان يكون المراد لنغرينك بهم فاذا اغريناك لا يجاورونك * والاول كقول القائل يخرج فلان ويقرأ اشارة الى امرين والثانى كقوله يخرج فلان ويدخل السوق فى الاول يقرأ وان لم يخرج وفى الثانى لا يدخل الا اذا خرج (والاستثناء فيه لطيفة) وهى ان الله تعالى وعد النبى عليه السلام انه يخرج اعداءه من المدينة وينفيهم على يده اظهارا لشوكته ولو كان النفى بارادة الله من غير واسطة النبى لاخلى المدينة عنهم فى الطف آن كن فيكون ولكن لما اراد الله ان

(لاجناح عليهن فى آبائهن ولا ابنائهن ولا اخوانهن ولا ابناء اخوانهن ولا ابناء اخواتهن) استئناف لبيان من لايجب الاحتجاب عنهم روى انه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والابناء (٧٩٩) والاقارب يارسول الله أو نكلمهن ايضا من وراء الحجاب فنزلت وانما لم يذكر العم والخال لانهما بمنزلة الوالدين ولذلك سمى العم أبا فى قوله تعالى واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق او لانه اكتفى عن ذكرهما بذكر ابناء الاخوة وابناء الاخوات فان مناط عدم لزوم الاحتجاب بينهن وبين الفريقين عين مابينهن وبين العم والخال من العمومة والخؤلة لما انهن عمات لابناء الاخوة وخالات لابناء الاخوات وقيل لانه كره ترك الاحتجاب منهما مخافة ان يصفاهن لابنائهما (ولا نسائهن) اى نساء المؤمنات (ولا ماملكت ايمانهن) من العبيد والاماء وقيل من الاماء خاصة وقد مر فى سورة النور (واتقين الله) فى كل ماتأتين وماتذرن لاسيما فيما امرتن به ونهيتن عنه (ان الله كان على كل شئ شهيدا) لايخفى عليه خافية ولا تتفاوت فى علمه الاحوال (ان الله وملائكته) وقرئ وملائكته بالرفع عطفا على محل ان واسمها عند الكوفيين وحملا على حذف الخبر ثقة بدلالة مابعده عليه على رأى البصريين (يصلون على النبى) قيل الصلاة من الله تعالى الرحمة ومن الملائكة الاستغفار وقال ابن عباس رضى الله عنهما أراد ان الله يرحمه والملائكة يدعون له وعنه ايضا يصلون يبركون وقال ابو العالية صلاة الله تعالى عليه ثناؤه عليه عند الملائكة وصلاتهم دعاؤهم له فينبغى ان يراد بهما فى يصلون معنى مجازى عام يكون كل واحد من المعانى المذكورة فردا حقيقيا له اى يعتنون بما فيه خيره وصلاح امره ويهتمون باظهار شرفه وتعظيم شأنه وذلك من الله سبحانه بالرحمة ومن الملائكة بالدعاء والاستغفار (يأيها الذين آمنوا صلوا عليه) اعتنوا أنتم ايضا بذلك فانكم اولى به (وسلموا تسليما) قائلين اللهم صل على محمد وسلم او نحو ذلك

يكون على يد النبي لايقع ذلك الازمان وان لطف فقال ثم لايجاورونك فيها الاقليلا وهو ان يهيئوا ويتأهبوا للخروج ۞ ثم قال تعالى (ملعونين اينما ثقفوا اخذوا وقتلوا تقتيلا) اى فى ذلك القليل الذى يجاورونك فيه يكونون ملعونين مطرودين من باب الله وبابك واذا خرجوا لاينفكون عن المذلة ولايجدون ملجأ بل انما يكونون يطلبون ويؤخذون ويقتلون ۞ ثم قال تعالى (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) يعنى هذا ليس بدعا بكم بل هو سنة جارية وعادة مستمرة تفعل بالمكذبين ولن تجد لسنة الله تبديلا اى ليست هذه السنة مثل الحكم الذى يبدل وينسخ فان النسخ يكون فى الاحكام اما الافعال والاخبار فلاتنسخ ۞ ثم قال تعالى (يسئلك الناس عن الساعة قل انما علمها عند الله) لما بين حالهم فى الدنيا انهم يلعنون ويهانون ويقتلون أراد ان يبين حالهم فى الآخرة فذكرهم بالقيامة وذكر مايكون لهم فيها فقال يسئلك الناس عن الساعة اى عن وقت القيامة قل انما علمها عند الله لايتبين لكم فان الله أخفاها لحكمة هى امتناع المكلف عن الاجتراء وخوفهم منها فى كل وقت ۞ ثم قال تعالى (ومايدريك لعل الساعة تكون قريبا) اشارة الى التخويف وذلك لان قول القائل الله يعلم متى يكون الامر الفلانى ينبئ عن ابطاء الامر اذا ترى ان من يطالب مديونا بحقه فان استمهله شهرا اوشهرين ربما يصبر ذلك وان قال له اصبر الى ان يقدم فلان من سفره يقول الله يعلم متى يجئ فلان ويمكن ان يكون مجئ فلان قبل انقضاء تلك المدة فقال ههنا ومايدريك لعل الساعة تكون قريبا يعنى هى فى علم الله فلا تستبطؤها فربما تقع عن قريب والقريب فعيل يستوى فيه المذكر والمؤنث قال تعالى ان رحمة الله قريب من المحسنين ولهذا لم يقل لعل الساعة تكون قريبة ۞ ثم قال تعالى (ان الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا خالدين فيها ابدا) يعنى كما انهم ملعونون فى الدنيا عندكم فكذلك ملعونون عند الله وأعد لهم سعيرا كما قال تعالى لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا خالدين فيها ابدا مطيلين المكث فيها مستمرين لاأمد لخروجهم ۞ وقوله تعالى (لايجدون وليا ولانصيرا) لما ذكر خلودهم بين تحقيقه وذلك لان المعذب لايخلصه من العذاب الاصديق يشفع له او ناصر يدفع عنه ولاولى لهم يشفع ولانصير يدفع ۞ ثم قال تعالى (يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا وقالوا ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا) لما بين انه لاشفيع لهم يدفع عنهم العذاب بين ان بعض اعضائهم ايضا لايدفع العذاب عن البعض بخلاف عذاب الدنيا فان الانسان يدفع عن وجهه الضربة اتقاء بيده فان من يقصد رأسه ووجهه تجده يجعل يده جنة أو يطأطئ رأسه كى لايصيب وجهه وفى الآخرة تقلب وجوههم فى النار فاتنك بسائر اعضائهم التى تجعل جنة للوجه ووقاية له يقولون

وقيل المراد بالتسليم انقياد امره والآية دليل على وجوب الصلاة والسلام عليه مطلقا من غير تعرض لوجوب التكرار وعدمه وقيل يجب ذلك كلما جرى ذكره لقوله عليه الصلاة والسلام رغم (٨٠٠) انف رجل ذكرت عنده فلم يصل على وقوله عليه الصلاة والسلام من ذكرت عنده فلم يصل على فدخل النار فأبعده الله ويروى انه عليه الصلاة والسلام قال وكل الله تعالى بى ملكين فلا اذكر عند مسلم فيصلى على الاقال ذانك الملكان غفر الله لك وقال الله تعالى وملائكته جوابا لذينك الملكين آمين ولااذكر عند مسلم فلا يصلى على الاقال ذانك الملكان لاغفر الله لك وقال الله تعالى وملائكته جوابا لذينك الملكين آمين ومنهم من قال يجب فى كل مجلس مرة وان تكرر ذكره عليه الصلاة والسلام كما قيل فى آية السجدة وتشميت العاطس وكذلك فى كل دعاء فى اوله وآخره ومنهم من قال بالوجوب فى العمر مرة وكذا قال فى اظهار الشهادتين والذى يقتضيه الاحتياط ويستدعيه معرفة علو شأنه عليه الصلاة والسلام ان يصلى عليه كلما جرى ذكره الرفيع واما الصلاة عليه فى الصلاة بأن يقال اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد فليست بشرط فى جواز الصلاة عندنا وعن ابراهيم النخعى رحمه الله ان الصحابة كانوا يكتفون عن ذلك بما فى التشهد وهو السلام عليك ايها النبى واما الشافعى رحمه الله فقد جعلها شرطا واما الصلاة على غير الانبياء عليهم الصلاة والسلام فتجوز تبعا وتكره استقلالا لانه فى العرف شعار ذكر الرسل ولذلك كره ان يقال محمد عزوجل مع كونه عزيزا جليلا (ان الذين يؤذون الله ورسوله) اريد بالايذاء اما فعل مايكرهانه من الكفر والمعاصى مجاز الاستحالة حقيقة التأذى فى حقه تعالى وقيل فى ايذائه تعالى هو قول اليهود والنصارى والمشركين

يد الله مغلولة وثالث ثلاثة والمسيح ابن الله والملكة بنات الله والاصنام شركاؤه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وقيل قول الذين يلحدون في آياته وفي
ايذاء الرسول عليه الصلاة والسلام هو قولهم شاعر ساحر كاهن مجنون وقيل هو كسر رباعيته وشج وجهه الكريم يوم احد وقيل طعنهم في نكاح
صفية والحق هو العموم فيهما واما ايذاؤه عليه (٨٠١) الصلاة والسلام خاصة بطريق الحقيقة وذكر الله عز وجل لتعظيمه والايذان بجلالة مقداره
عنده تعالى وان ايذاءه عليه الصلاة والسلام ايذاء له سبحانه (لعنهم الله) طردهم وابعدهم من رحمته (في الدنيا والآخرة) بحيث لا يكادون ينالون فيهما شيئا منها (واعد لهم) مع ذلك (عذابا مهينا) يصيبهم في الآخرة خاصة (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات) يفعلون بهم ما يتأذون به من قول او فعل وتقييده بقوله تعالى (بغير ما اكتسبوا) اى بغير جناية يستحقون بها الاذية بعد اطلاقه فيما قبله للايذان بأن اذى الله ورسوله لا يكون الا غير حق واما اذى هؤلاء فمنه ومنه (فقد احتملوا بهتانا واثما مبينا) اى ظاهرا بينا قيل انها نزلت في منافقين كانوا يؤذون عليا رضي الله عنه ويسمعونه ما لا خير فيه وقيل في اهل الافك وقال الضحاك والكلبي في زناة يتبعون النساء اذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن وكانوا لا يتعرضون الا للاماء ولكن ربما كان يقع منهم التعرض للحرائر ايضا جهلا او تجاهلا لاتحاد الكل في الزي واللباس والظاهر عمومه لكل ما ذكر ولما سيأتي من اراجيف المرجفين (يا ايها النبي) بعد ما بين سوء حال المؤذين زجرا لهم عن الايذاء امر النبي عليه الصلاة والسلام بأن يأمر بعض المتأذين منهم بما يدفع ايذاءهم في الجملة من الستر والتميز عن مواقع الايذاء فقيل (قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن)
الجلباب ثوب اوسع من الخمار ودون (١٠٨)(را)(س) الرداء تلويه المرأة على رأسها وتبقى منه ما ترسله على صدرها وقيل هي الملحفة وكل ما يستتر به
اى يغطين بها وجوههن وابدانهن اذا برزن لداعية من الدواعي ومن للتبعيض لما مر من ان المعهود التلفع ببعضها وارخاء بعضها وعن السدي تغطي
احدى عينيها وجبهتها والشق الآخر الا العين (ذلك) اى ما ذكر من التغطي (ادنى) اقرب (ان يعرفن) ويميزن عن الاماء والقينات اللاتي

يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا فيتحسرون ويندمون حيث لا تنفعهم الندامة والحسرة لحصول علمهم بأن الخلاص ليس الا للمطيع ثم يقولون انا اطعنا سادتنا وكبراءنا يعني بدل طاعة الله تعالى أطعنا السادة وبدل طاعة الرسول اطعنا الكبراء وتركنا طاعة سيد السادات واكبر الاكابر فبدلنا الخير بالشر فلا جرم فاتنا خير الجنان وأوتينا شر النيران ثم انهم يطلبون بعض التشفي بتعذيب المضلين ويقولون ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كثيرا اى بسبب ضلالهم واضلالهم (وفي قوله تعالى ضعفين ولعنا كثيرا معنى لطيف) وهو ان الدعاء لا يكون الا عند عدم حصول الامر المدعو به والعذاب كان حاصلا لهم واللعن كذلك فطلبوا ما ليس بحاصل وهو زيادة العذاب بقولهم ضعفين وزيادة اللعن بقولهم لعنا كثيرا ۞ ثم قال تعالى (يا ايها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا) لما بين الله تعالى ان من يؤذي الله ورسوله يلعن ويعذب وكان ذلك اشارة الى ايذاء هو كفر ارشد المؤمنين الى الامتناع من ايذاء هو دونه وهو لا يورث كفرا وذلك مثل من لم يرض بقسمة النبي عليه السلام وبحكمه بالفيء لبعض وغير ذلك فقال يا ايها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى وحديث ايذاء موسى مختلف فيه قال بعضهم هو ايذاؤهم اياه بنسبته الى عيب في بدنه وقال بعضهم قارون قرر مع امرأة فاحشة حتى تقول عند بني اسرائيل ان موسى زنى بي فلما جمع قارون القوم والمرأة حاضرة القى الله في قلبها انها صدقت ولم تقل ما لقنت وبالجملة الايذاء المذكور في القرآن كاف وهو انهم قالوا له اذهب انت وربك فقاتلا وقولهم لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة وقولهم لن نصبر على طعام واحد الى غير ذلك فقال للمؤمنين لا تكونوا امثالهم اذا طلبكم الرسول الى القتال اى لا تقولوا اذهب انت وربك فقاتلا ولا تسألوا ما لم يؤذن لكم فيه واذا أمركم الرسول بشيء فأتوا منه ما استطعتم وقوله تعالى فبرأه الله مما قالوا على الاول ظاهر لانه ابرز جسمه لقومه فرأوه وعلموا فساد اعتقادهم ونطقت المرأة بالحق وامر الملائكة حتى عبروا بهرون عليهم فرأوه غير مجروح فعلموا براءة موسى عليه السلام عن قتله الذي رموه به وعلى ما ذكرنا فبرأه الله مما قالوا اى اخرجه عن عهدة ما طلبوا باعطائه البعض اياهم واظهاره عدم جواز البعض وبالجملة قطع الله حججهم ثم ضرب عليهم الذلة والمسكنة وغضب عليهم ۞ وقوله تعالى (وكان عند الله وجيها) اى ذا وجاهة ومعرفة والوجيه هو الرجل الذي يكون له وجه اى يكون معروفا بالخير وكل احد وان كان عند الله معروفا لكن

المعرفة المجردة لا تكفي في الوجاهة فان من عرف غيره لكونه خادماله وأجيرا عنده لايقال هو وجيه عند فلان وانما الوجيه من يكون له خصال جيدة تجعل من شأنه ان يعرف ولاينكر وكان كذلك ❁ ثم قال تعالى (ياايها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم اعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم) ارشدهم الى ماينبغي ان يصدر منهم من الافعال والاقوال اما الافعال فالخير واما الاقوال فالحق لان من أتى بالخير وترك الشر فقد اتق الله ومن قال الصدق قال قولا سديدا ثم وعدهم على الامرين بأمرين على الخيرات باصلاح الاعمال فان بتقوى الله يصلح العمل والعمل الصالح يرفع ويبقى فيبق فاعله خالدا في الجنة وعلى القول السديد بمغفرة الذنوب ❁ ثم قال تعالى (ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) فطاعة الله هي طاعة الرسول ولكن جمع بينهما لبيان شرف فعل المطيع فانه بفعله الواحد اتخذ عند الله عهدا وعند الرسول يدا وقوله فقد فاز فوزا عظيما جعله عظيما من وجهين (احدهما) انه من عذاب عظيم والنجاة من العذاب تعظم بعظم العذاب حتى ان من أراد ان يضرب غيره سوطا ثم نجا منه لايقال فاز فوزا عظيما لان العذاب الذي نجا منه لو وقع ماكان يتفاوت الامر تفاوتا كثيرا (والثاني) انه وصل الى ثواب كثير وهو الثواب الدائم الابدي ❁ ثم قال تعالى (انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين ان يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا) لما ارشد الله تعالى المؤمنين الى مكارم الاخلاق وادب النبي عليه السلام بأحسن الآداب بين ان التكليف الذي وجهه الله الى الانسان امر عظيم فقال انا عرضنا الامانة اي التكليف وهو الامر بخلاف ما في الطبيعة واعلم ان هذا النوع من التكليف ليس في السموات ولا في الارض لان الارض والجبل والسماء كلها على ماخلقت عليه الجبل لايطلب منه السير والارض لايطلب منها الصعود ولا من السماء الهبوط ولا في الملائكة لان الملائكة وان كانوا مأمورين منهيين عن اشياء لكن ذلك لهم كالاكل والشرب لنا فيسبحون الليل والنهار لايفترون كما يشتغل الانسان بأمر موافق لطبعه وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) في الامانة وجوه كثيرة منها من قال هو التكليف وسمي أمانة لان من قصر فيه فعليه الغرامة ومن وفره فله الكرامة ومنهم من قال هو قول لا اله الا الله وهو بعيد فان السموات والارض والجبال بألسنتها ناطقة بأن الله واحد لا اله الا هو ومنهم من قال الاعضاء فالعين امانة ينبغي ان يحفظها والاذن كذلك واليد كذلك والرجل والفرج واللسان ومنهم من قال معرفة الله بما فيها والله أعلم (المسئلة الثانية) في العرض وجوه

عن مواقع تعرضهم وايذائهم (فلا يؤذين) من جهة اهل الريبة بالتعرض لهن (وكان الله غفورا) لما سلف منهن من التفريط (رحيما) بعباده حيث يراعي من مصالحهم امثال هاتيك الجزئيات (لئن لم ينته المنافقون) عما هم عليه من النفاق واحكامه الموجبة للايذاء (والذين في قلوبهم مرض) عما هم عليه من التزلزل ومايستتبعه مما لاخير فيه (والمرجفون في المدينة) من الفريقين (٨٠٢) عما هم عليه من نشر اخبار السوء عن سرايا المسلمين وغير ذلك من الاراجيف الملفقة المستتبعة للاذية واصل الارجاف التحريك من الرجفة التي هي الزلزلة وصفت به الاخبار الكاذبة لكونها متزلزلة غير ثابتة (لنغرينك بهم) لنأمرنك بقتالهم واجلائهم اوبما يضطرهم الى الجلاء ولنحرضنك على ذلك (ثم لايجاورونك) عطف على جواب القسم وثم للدلالة على ان الجلاء ومفارقة جوار الرسول عليه الصلاة والسلام اعظم مايصيبهم (فيها) اي في المدينة (الاقليلا) زمانا اوجوارا قليلا ريثما يتبين حالهم من الانتهاء وعدمه (ملعونين) نصب على الشتم او الحال على ان الاستثناء وارد عليه ايضا على رأى من يجوزه كما في قوله تعالى غير ناظرين اناه ولاسبيل الى انتصابه عن قوله تعالى (اينما ثقفوا اخذوا وقتلوا تقتيلا) لان مابعد كلمة الشرط لايعمل فيما قبلها (سنة الله في الذين خلوا من قبل) اي سن الله ذلك في الامم الماضية وهي ان يقتل الذين نافقوا الانبياء عليهم الصلاة والسلام وسعوا في توهين امرهم بالارجاف ونحوه اينما ثقفوا (ولن تجد لسنة الله تبديلا) اصلا لابتنائها على اساس الحكمة التي عليها يدور فلك التشريع (يسألك الناس عن الساعة) اي عن وقت قيامها كان المشركون يسألونه عليه الصلاة والسلام عن ذلك استعجالا بطريق الاستهزاء واليهود امتحانا لما ان الله تعالى عمى وقتها في التوراة وسائر الكتب (قل انما علمها عند الله) لايطلع عليه ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا وقوله تعالى (ومايدريك) خطاب مستقل له عليه الصلاة والسلام غير داخل تحت الامر مسوق لبيان انها مع كونها غير معلومة للخلق مرجوة المجيء عن قريب اي اي شيء يعلمك بوقت قيامها اي لايعلمك به شيء اصلا (لعل الساعة تكون قريبا) اي شيئا قريبا او تكون الساعة في وقت قريب وانتصابه على الظرفية ويجوز ان يكون

التذكير باعتبار ان الساعة فى معنى اليوم او الوقت وفيه تهديد للمستعجلين وتبكيت للمتعنتين والاظهار فى حيز الاضمار للتهويل وزيادة التقرير وتأكيد استقلال الجملة كما اشير اليه (ان الله لعن الكافرين) على الاطلاق اى طردهم وابعدهم من رحمته العاجلة والآجلة (واعدلهم) مع ذلك (سعيرا) (٨٠٣) نارا شديدة الاتقاد سوى ما فى الآخرة (خالدين فيها ابدا لايجدون وليا) يحفظهم (ولانصيرا) يخلصهم منها (يوم تقلب وجوههم فى النار) ظرف لعدم الوجدان وقيل لخالدين وقيل لنصيرا وقيل مفعول لاذكر اى يوم تصرف وجوههم فيها من جهة الى جهة كلحم يشوى فى النار او يطبخ فى القدر فيدور به الغليان من جهة الى جهة او من حال الى حال او يطرحون فيها مقلوبين منكوسين وقرئ تقلب بحذف احدى التاءين من تتقلب ونقلب باسناد الفعل الى نون العظمة ونصب وجوههم وتقلب باسناده الى السعير وتخصيص الوجوه بالذكر لما انها اكرم الاعضاء ففيه مزيد تفظيع للامر وتهويل للخطب ويجوز ان تكون عبارة عن كل الجسد فقوله تعالى (يقولون) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية حالهم الفظيعة كأنه قيل فماذا يصنعون عند ذلك فقيل يقولون متحسرين على مافاتهم (ياليتنا اطعنا الله واطعنا الرسولا) فلا نبتلى بهذا العذاب او حال من ضمير وجوههم او من نفسها او هو العامل فى يوم (وقالوا) عطف على يقولون والعدول الى صيغة الماضى للاشعار بأن قولهم هذا ليس مستمرا كقولهم السابق بل هو ضرب اعتذار ارادوا به ضربا من التشفى بمضاعفة عذاب الذين القوهم فى تلك الورطة وان علموا عدم قبوله فى حق خلاصهم منها (ربنا انا اطعنا سادتنا وكبراءنا) يعنون قادتهم الذين لقنوهم الكفر وقرئ ساداتنا للدلالة على الكثرة والتعبير عنهم بعنوان السيادة والكبر لتقوية الاعتذار والافهم فى مقام التحقير والاهانة (فاضلونا السبيلا) بما زينوا لنا من الاباطيل والالف للاطلاق كما فى واطعنا الرسولا (ربنا آتهم ضعفين من العذاب) اى مثلى العذاب الذى آتيتنا لانهم ضلوا واضلوا (والعنهم لعنا كبيرا) اى شديدا عظيما وقرئ كثيرا وتصدير الدعاء بالنداء مكررا للمبالغة فى الجؤار واستدعاء الاجابة (يا أيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين آذوا موسى) قيل نزلت

منهم من قال المراد العرض ومنهم من قال الحشر ومنهم من قال المقابلة اى قابلنا الامانة على السموات فرجحت الامانة على اهل السموات والارض (المسئلة الثالثة) فى السموات والارض وجهان (احدهما) ان المراد هى بأعيانها (والثانى) المراد اهلوها ففيه اضمار تقديره انا عرضنا الامانة على اهل السموات والارض (المسئلة الرابعة) قوله فأبين ان يحملنها لم يكن اباؤهن كاباء ابليس فى قوله تعالى فأبى ان يكون مع الساجدين من وجهين (احدهما) ان هناك السجود كان فرضا وههنا الامانة كانت عرضا (وثانيهما) ان الاباء كان هناك استكبارا وههنا استصغارا استصغرن انفسهن بدليل قوله تعالى واشفقن منها (المسئلة الخامسة) ماسبب الاشفاق نقول الامانة لاتقبل لوجوه (احدها) ان يكون عزيزا صعب الحفظ كالأوانى من الجواهر التى تكون عزيزة سريعة الانكسار فان العاقل يمتنع عن قبولها ولو كانت من الذهب والفضة لقبلها ولو كانت من الزجاج لقبلها فى الاول لامانه من هلاكها وفى الثانى لكونها غير عزيزة الوجود والتكليف كذلك (والثانى) ان يكون الوقت زمان نهب وغارة فلايقبل العاقل فى ذلك الوقت الودائع والامر كان كذلك لان الشيطان وجنوده كانوا فى قصد المكلفين اذ العرض كان بعد خروج آدم من الجنة (والثالث) مراعاة الامانة والاتيان بما يجب كايداع الحيوانات التى تحتاج الى العلف والسقى وموضع مخصوص يكون برسمها فان العاقل يمتنع من قبولها بخلاف متاع يوضع فى صندوق أو فى زوية بيت والتكليف كذلك فانه يحتاج الى تربية وتنمية (المسئلة السادسة) كيف حملها الانسان ولم تحملها هذه الاشياء فيه جوابان (احدهما) بسبب جهله بمافيها وعلمهن ولهذا قال تعالى انه كان ظلوما جهولا (والثانى) ان الاشياء نظرت الى انفسهن فرأين ضعفهن فامتنعن والانسان نظر الى جانب المكلف وقال المودع عالم قادر لايعرض الامانة الاعلى اهلها واذا أودع لايتركها بل يحفظها بعينه وعونه فقبلها وقال اياك نعبد واياك نستعين (المسئلة السابعة) قوله تعالى انه كان ظلوما جهولا فيه وجوه (احدها) ان المراد منه آدم ظلم نفسه بالمخالفة ولم يعلم مايعاقب عليه من الاخراج من الجنة (ثانيها) المراد الانسان يظلم بالعصيان ويجهل ماعليه من العقاب (ثالثها) انه كان ظلوما جهولا اى كان من شأنه الظلم والجهل يقال فرس شموس ودابة جموح وماء طهور اى من شأنه ذلك فكذلك الانسان من شأنه الظلم والجهل فلما اودع الامانة بقى بعضهم على ما كان عليه وبعضهم ترك الظلم كما قال تعالى الذين امنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم وترك الجهل كما قال تعالى

فى شان زيد وزينب وماسمع فيه من قالة الناس (فبرأه الله مما قالوا) اى فاظهر براءته عليه الصلاة والسلام مما قالوا فى حقه اى من مضمونه ومؤداه الذى هو الامر المعيب وذلك ان قارون اغرى مومسة على قذفه عليه الصلاة والسلام بنفسها بان دفع اليها مالا عظيما فاظهر الله تعالى نزاهته عليه الصلاة والسلام عن ذلك بان اقرت (٨٠٤) المومسة بالمصانعة الجارية بينها وبين قارون وفعل بقارون ما فعل كما فصل فى سورة القصص وقيل اتهمه ناس بقتل هرون عند خروجه معه الى الطور فمات هناك فحملته الملائكة ومروا به حتى رأوه غير مقتول وقيل احياه الله تعالى فأخبرهم ببراءته وقيل قذفوه بعيب فى بدنه من برص او ادرة لفرط تستره حياء فاطلعهم الله تعالى على براءته بان فر الحجر بثوبه حين وضعه عليه عند اغتساله والقصة مشهورة (وكان عند الله وجيها) ذا قربة ووجاهة وقربى وكان عبد الله وجيها (يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله) اى فى كل ما تأتون وما تذرون لاسيما فى ارتكاب ما يكرهه فضلا عما يؤذى رسوله عليه الصلاة والسلام (وقولوا) فى كل شان من الشؤون (قولا سديدا) قاصدا الى الحق من سد يسد سدادا يقال سدد السهم نحو الرمية اذا لم يعدل به عن سمتها والمراد نهيهم عما خاضوا فيه من حديث زينب الجائر عن العدل والقصد (يصلح لكم اعمالكم) يوفقكم للاعمال الصالحة او يصلحها بالقبول والاثابة عليها (ويغفر لكم ذنوبكم) ويجعلها مكفرة باستقامتكم فى القول والعمل (ومن يطع الله ورسوله) فى الاوامر والنواهى التى من جملتها هذه التكليفات (فقد فاز) فى الدارين (فوزا عظيما) لايقادر قدره ولايبلغ غايته (انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فابين ان يحملنها واشفقن منها) لما بين عظم شان طاعة الله ورسوله ببيان مآل الخارجين عنها من العذاب الاليم ومآل المراعين لها من الفوز العظيم عقب ذلك ببيان عظم شان ما يوجبها من التكاليف الشرعية وصعوبة امرها بطريق التمثيل مع الايذان (قيل) بان ما صدر عنهم من الطاعة وتركها صدر عنهم بعد القبول والالتزام وعبر عنها بالامانة تنبيها على انها حقوق مرعية اودعها الله تعالى المكلفين وائتمنهم عليها واوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد وامرهم بمراعاتها

فى حق آدم عليه السلام وعلم آدم الاسماء كلها وقال فى حق المؤمنين عامة والراسخون فى العلم يقولون آمنا به وقال تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء (رابعها) انه كان ظلوما جهولا فى ظن الملائكة حيث قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها وبين علمه عندهم حيث قال تعالى أنبئونى بأسماء هؤلاء وقال بعضهم فى تفسير الآية ان المخلوق على قسمين مدرك وغير مدرك والمدرك منه من يدرك الكلى والجزئى مثل الآدمى ومنه من يدرك الجزئى كالبهائم تدرك الشعير الذى تأكله ولاتتفكر فى عواقب الامور ولاتنظر فى الدلائل والبراهين ومنه من يدرك الكلى ولايدرك الجزئى كالملك يدرك الكليات ولايدرك لذة الجماع والاكل قالوا والى هذا اشار الله تعالى بقوله ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء فاعترفوا بعدم علمهم بتلك الجزئيات والتكليف لم يكن الاعلى مدرك الامرين اذله لذات بأمور جزئية فمنع منها لتحصيل لذات حقيقية هى مثل لذة الملائكة بعبادة الله ومعرفته واماغيره فان كان مكلفا يكون مكلفا لابمعنى الامر بما فيه عليهم كلفة ومشقة بل بمعنى الخطاب فان المخاطب يسمى مكلفا لما ان المكلف مخاطب فسمى المخاطب مكلفا وفى الآية لطائف (اللطيفة الاولى) الامانة كان عرضها على آدم فقبلها فكان امينا عليها والقول قول الامين فهو فاز بقى اولاده أخذوا الامانة منه والآخذ من الامين ليس بمؤتمن ولهذا وارث المودع لايكون القول قوله ولم يكن له بد من تجديد عهد وائتمان فالمؤمن اتخذ عند الله عهدا فصار أمينا من الله فصار القول قوله فكان له ماكان لآدم من الفوز ولهذا قال تعالى ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات اى كما تاب على آدم فى قوله تعالى فتاب عليه والكافر صار آخذا للامانة من المؤتمن فبقى فى ضمانه ثم ان المؤمن اذا أصاب الامانة فى يده شئ بقضاء الله وقدره كان ذلك من غير تقصير منه والامين لايضمن مافات بغير تقصير والكافر اذا أصاب الامانة فى يده شئ ضمن وان كان بقضاء الله وقدره لانه يضمن مافات وان لم يكن بتقصير (اللطيفة الثانية) خص الاشياء الثلاثة بالذكر لانها اشد الامور واحملها للاثقال اما السموات فلقوله تعالى وخلقنا فوقكم سبعا شدادا والارض والجبال لاتخفى شدتها وصلابتها ثم ان هذه الاشياء لما كانت لها شدة وصلابة عرض الله تعالى الامانة عليها واكتفى بشدتهن وقوتهن فامتنعن لانهن وان كن اقوياء الا ان امانة الله تعالى فوق قوتهن وحملها الانسان مع ضعفه الذى قال الله تعالى فيه وخلق الانسان ضعيفا ولكن وعده بالاعانة على حفظ الامانة بقوله ومن يتوكل على الله فهو حسبه فان

والمحافظة عليها واداءها من غير اخلال بشئ من حقوقها وعبر عن اعتبارها بالنسبة الى استعداد ما ذكر من السموات وغيرها بالعرض عليهن لاظهار مزيد الاعتناء بها والرغبة فى قبولهن لها وعن عدم استعدادهن لقبولها بالاباء والاشفاق منها لتهويل امرها وتربية فخامتها وعن قبولها بالحمل لتحقيق معنى الصعوبة (٨٠٥) المعتبرة فيها بجعلها من قبيل الاجسام الثقيلة التى يستعمل فيها القوى الجسمانية التى اشدها واعظمها

قيل فالذى يعينه الله تعالى كيف يعذب فلم يعذب الكافر نقول قال الله تعالى انا اعين من يستعين بى ويتوكل على والكافر لم يرجع الى الله تعالى فتركه مع نفسه فبقى فى عهدة الامانة (اللطيفة الثالثة) قوله تعالى فأبين ان يحملنها وقوله تعالى وحملها الانسان اشارة الى ان فيه مشقة بخلاف ما لو قال فأبين ان يقبلنها وقبلها الانسان ومن قال لغيره افعل هذا الفعل فان لم يكن فى الفعل تعب يقابل بأجرة فاذا فعله لا يستحق اجرة فقال تعالى وحملها اشارة الى انه مما يستحق الاجر عليه اى على مجرد حمل الامانة واما على رعايتها حق الرعاية فيستحق الزيادة (فان قيل) فالكل حملوها غاية ما فى الباب ان الكافر لم يأت بشئ زائد على الحمل فينبغى ان يستحق الاجر على الحمل (فنقول) الفعل اذا كان على وفق الاذن من المالك الآمر يستحق الفاعل الاجرة ألا ترى انه لو قال احمل هذا الى الضيعة التى على الشمال فحمل ونقلها الى الضيعة التى على الجنوب لا يستحق الاجرة ويلزمه ردها الى الموضع الذى كان فيه كذلك الكافر حملها على غير وجه الاذن فغرم وزالت حسناته التى عملها بسببه ❊ ثم قال تعالى (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) اى حملها الانسان ليقع تعذيب المنافق والمشرك (فان قال قائل) لم قدم التعذيب على التوبة (نقول) لما سمى التكليف امانة والامانة من حكمها اللازم ان الخائن يضمن وليس من حكمها اللازم ان الامين الباذل جهده يستفيد أجرة فكان التعذيب على الخيانة كاللازم والاجر على الحفظ احسان والعدل قبل الاحسان وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) لم عطف المشرك على المنافق ولم يعد اسمه تعالى فلم يقل ويعذب الله المشركين وعند التوبة أعاد اسمه وقال ويتوب الله ولو قال ويتوب على المؤمنين كان المعنى حاصلا (نقول) أراد تفضيل المؤمن على المنافق فجعله كالكلام المستأنف ويجب هناك ذكر الفاعل فقال ويتوب الله ويحقق هذا قراءة من قرأ ويتوب الله بالرفع (المسئلة الثانية) ذكر الله فى الانسان وصفين الظلوم والجهول وذكر من اوصافه وصفين ❊ فقال تعالى (وكان الله غفورا رحيما) اى كان غفورا للظلوم رحيما على الجهول وذلك لان الله تعالى وعد عباده بانه يغفر الظلم جميعا الا الظلم العظيم الذى هو الشرك كما قال تعالى ان الشرك لظلم عظيم واما الوعد فقوله تعالى ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء واما الرحمة على الجهل فلأن الجهل محل الرحمة ولذلك

ما فيهن من القوة والشدة والمعنى ان تلك الامانة فى عظم الشان بحيث لو كلفت هاتيك الاجرام العظام التى هى مثل فى القوة والشدة مراعاتها وكانت ذات شعور وادراك لأبين قبولها واشفقن منها ولكن صرف الكلام عن سننه بتصوير المفروض بصورة المحقق روما لزيادة تحقيق المعنى المقصود بالتمثيل وتوضيحه (وحملها الانسان) اى عند عرضها عليه اما باعتبارها بالاضافة الى استعداده او بتكليفه اياها يوم الميثاق اى تكلفها والتزمها مع ما فيه من ضعف البنية ورخاوة القوة وهو اما عبارة عن قبوله لها بموجب استعداده الفطرى او عن اعترافه بقوله بلى وقوله تعالى (انه كان ظلوما جهولا) اعتراض وسط بين الحمل وغايته للايذان من اول الامر بعدم وفائه بما عهده وتحمله اى انه كان مفرطا فى الظلم مبالغا فى الجهل اى بحسب غالب افراده الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة او اعترافهم السابق دون من عداهم من الذين لم يبدلوا فطرة الله تبديلا والى الفريق الاول اشير بقوله عز وجل (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) اى حملها الانسان ليعذب الله بعض افراده الذين لم يراعوها ولم يقابلوها بالطاعة على ان اللام للعاقبة فان التعذيب وان لم يكن غرضا له من الحمل لكن لما ترتب عليه بالنسبة الى بعض افراده ترتب الاغراض على الافعال المعللة بها ابرز فى معرض الغرض اى كان عاقبة حمل الانسان لها ان يعذب الله تعالى هؤلاء من افراده لخيانتهم الامانة وخروجهم عن الطاعة بالكلية

والى الفريق الثانى اشير بقوله تعالى (ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) اى كان عاقبة حمله لها ان يتوب الله تعالى على هؤلاء من افراده اى يقبل توبتهم لعدم خلعهم ربقة الطاعة عن رقابهم بالمرة وتلافيهم لما فرط منهم من فرطات قلما يخلو عنها الانسان بحكم جبلته وتداركهم لها

بالتوبة والانابة والالتفات الى الاسم الجليل او لا لتهويل الخطب وتربية المهابة والاظهار فى موقع الاضمار ثانيا لابراز مزيد الاعتناء بامر المؤمنين توفية لكل من مقامى الوعيد والوعد حقه والله تعالى اعلم وحمل الامانة التى شأنها ان تكون من جهته تعالى عبارة عن الطاعة التى هى من افعال المكلفين التابعة للتكليف بمعزل من التقريب وحمل الكلام (٨٠٦) على تقرير الوعد الكريم الذى ينبئ عنه قوله تعالى ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما بجعل تعظيم شان الطاعة ذريعة الى ذلك بان من قام بحقوق مثل هذا الامر العظيم الشأن وراعاها فهو جدير بان يفوز بخير الدارين يأباه وصفه بالظلم والجهل اولا وتعليل الحمل بتعذيب فريق والتوبة على فريق ثانيا وقيل المراد بالامانة مطلق الانقياد الشامل للطبيعى والاختيارى وبعرضها استدعاؤها الذى يعم طلب الفعل من المختار وارادة صدوره من غيره وبحملها الخيانة فيها والامتناع عن ادائها فيكون الاباء امتناعا من الخيانة واتيانا بالمراد فالمعنى ان هذه الاجرام مع عظمها وقوتها ابين الخيانة لامانتها واتين بما امرن به كقوله تعالى أتينا طائعين وحملها الانسان حيث لم يأت بما امر به انه كان ظلوما جهولا وقيل انه تعالى لما خلق هذه الاجرام خلق فيها فهما وقال لها انى فرضت فريضة وخلقت جنة لمن اطاعنى فيها ونارا لمن عصانى فقلن نحن مسخرات لما خلقتنا لا نحتمل فريضة ولا نبغى ثوابا ولا عقابا ولما خلق آدم عليه السلام عرض عليه مثل ذلك فحمله وكان ظلوما لنفسه بتحمله مايشق عليه جهولا بوخامة عاقبته وقيل المراد بالامانة العقل او التكليف وبعرضها عليهن اعتبارها بالاضافة الى استعدادهن وباباءهن الاباء الطبيعى الذى هو عدم اللياقة والاستعداد لها وبحمل الانسان قابليته واستعداده لها وكونه ظلوما جهولا لما غلب عليه من القوة الغضبية والشهوية هذا قريب من التحقيق تأمل والله الموفق وقرئ ويتوب الله على الاستئناف (وكان الله غفورا رحيما) مبالغا فى المغفرة والرحمة حيث تاب عليهم وغفر لهم فرطاتهم واثاب بالفوز على طاعتهم * قال عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة الاحزاب وعلمها اهله وماملكت يمينه اعطى الامان من عذاب القبر والله اعلم

يعتذر المسئ بقوله ماعلمت (وههنا لطيفة) وهى ان الله تعالى اعلم عبده بأنه غفور رحيم وبصره بنفسه فرآه ظلوما جهولا ثم عرض عليه الامانة فقبلها مع ظلمه وجهله لعلمه فيما يجبرها من الغفران والرحمة والله أعلم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد النبى الامى وآله

* (تم الجزء السادس ويليه الجزء السابع اوله سورة سبأ) *